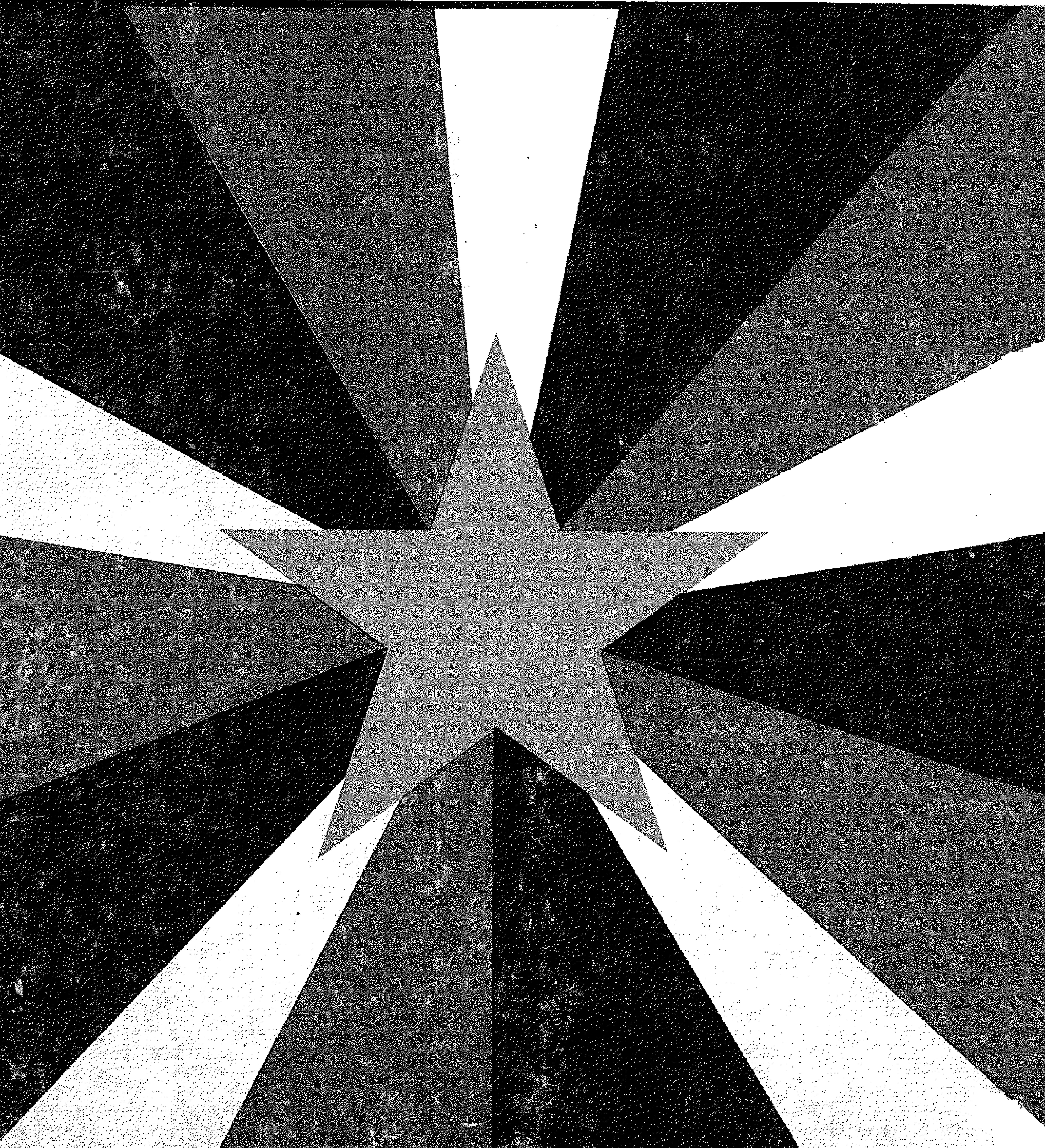
شؤون فلسطينية

٥٢
كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٥



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٥٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٥

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

سكرتير التحرير : ابراهيم العابد **مدير التوزيع** : غازي خورشيد .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .



ثمن العدد : ٣١/٢ ل.ل. في لبنان ، ٤ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلساً في الكويت والعراق ، ٤١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

رسالة الاخ ابو عمار ، القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية
في الذكرى الحادية عشرة لانطلاقة الثورة الفلسطينية

عام التصدي والتحفز

يا شعبنا الثائر المثابر
يا ثوارنا الاشاوس الابطال
يا مناضلينا الاحرار المكافحين

وسط دخان المعارك وغبارها في مختلف جبهات القتال الضاري ومن بين الخنادق والمتاريس التي واكبت عام التصعيد والتلاحم الثوريين فأصبحت صفة مميزة له، وفرضت نفسها وواقعها ونتائجها على جميع الخطى السياسية والتحركات الدولية في منطقتنا العربية وعلى ساحة قضيتنا الفلسطينية معلنة بكل الحزم والحسم الارادة الثورية الصلبة التي لا تلين ولا تميد ، والتي تتحدى بكل العنفوان الثوري المؤامرات والمتآمرين والعملاء والمأجورين دفاعا عن امتنا العربية المناضلة التي يتعرض وجودها الحضاري لابشع عملية اغتصاب وتشريد وتآمر امبريالي صهيوني استعماري . تقفون يا ثوارنا الابطال في هذا المعترك وللسنة الحادية عشرة على التوالي وقفة الصمود هذه بكل اعتزاز وثقة وفخر تسطرون بدمائكم الزكية وتضحياتكم النبيلة صفحات من التاريخ المضيء لشعبكم الاصيل وامتكم العربية الخالـــدة .

تسطرون صفحات تشكل مشاعل ساطعة على الدرب السرمدي الطويل لكـل الرسالات الحضارية والمقدسة والمتجمعة في السجل الحافل لهذه الامة العظيمة .

ومن هنا تأتي المعاني السامية لنضالكم البطولي يا اخوتي واحبتي لتصب في هـــذا المجرى الحضاري والانساني لرسالة بندقية الثوار في الثورة الفلسطينية والتي حملتم فيها يا ثوارنا الميامين الامانة بوعي وادراك ، برجولة وصلابة ، بقناعة واختيار ، بطوع وايمـــان .

ولتلتف حول هذه البندقية الثائرة افئدة جماهيرنا تحميها وترعاها ، تأخذ منها مثـــلا وشعارا وقدوة وتعطيها زخما واندفاعا وقوة . كل ذلك ضمن اهداف النضال لثورتكم العتيدة الخلاقة . والتي تثبت الايام بتعاقبها اصالة وصلابة هذه الاهداف ، وابداع وروعة الطاقات المتفجرة والتي اتسمت بها ثورتكـم ، واصبحت سمة من سماتهـــا الثورية المتجددة المتطورة نحو الكمال والرفعة والسؤدد .

يا رفاق المسيرة والدرب الطويل

يطل عامنا الثاني عشر لثورتنا المظفرة من خلال كل هذا ليتواكب مع المعاناة المستمرة والالم الدائم الذي يعاني منه شعبنا الصابر المثابر امام الطاغوت الصهيوني الفاشي والتآمر الامبريالي الاستعماري والطعنات الحاقدة العميلـــة .

وشعبنا الاصيل في حركته الثورية وفي مده العظيم يتحداها كلها مجتمعة ومتفرقة بالرغم من الفارق المادي الهائل والامكانات القليلة بالمقابل لامكانياتها الضخمة الكبيرة .

ولكنها المعجزة ... معجزة الثورة حيثما كانت واينما وجدت . ولكنه الاعجاز ... اعجاز الثوار حيث يحلون وانى يتحركون ، معجزة الصمود والثبات ، معجزة الايمان والحق ، معجزة الثائر الاصيل الذي يفجر الطاقات الكامنة ويبعث الامكانات الدفينة ، ويرسخ الابداع الثوري في ملاحم وانتصارات وبطولات ثم يصوغها وقائع وماديات وحقائق على طريق النصر لمسيرة شعبه البطل ليصنع من خلالها مستقبله ، وليسجل عبر صلابة النضال لشعبنا وقوة الكفاح لجماهيرنا الارادة الثورية بكل كبريائهـا وعظمتها التي لا تهادن ولا تساوم ، لا تسترخي ولا تستكين .

يا جماهير شعبنا
يا ثوارنا الابطال
يا رفاق المسيرة

هل انقشع غبار المعارك . وهل انزاح دخانها .. لا . لا زلنا في الاتون الملتهب لان قدرنا ان نعيش في قلب الاحداث بدخانها وغبارها ولهيبها . وفي ظل البندقية صاحبة الارادة والتصميم والعزم ، صانعة الثورة والثوار والنصر ، حامية الشعب وانتصاراته ومكتسباته التي ثبتها وسجلها على كل صعيد وفي كل جبهة .

ومن هنا تتعاظم المسؤوليات وتتكاثر التبعات وتصبح الامانة خطيرة وثقيلة ولا يتحملها الا الرجال **الرجال** . ولا يحملها الا الابطال **الابطال** . ولا يحميها الا الثوار **الثوار** .

لاننا نشكل اليوم في ثورتنا مركزا اساسيا ورئيسيا من **مراكز الحرية والتقدم** في عالمنا المعاصر ، **وركنا متينا من اركان النضال لحركة التحرر والتقدم** في العالم ، **وطرفا اصيلا في الخندق الامامي** لجبهة الصراع بين امتنا العربية المجيدة والعدو الامبريالي الصهيوني الاستعماري البغيض .

ومن هنا يا رفاق الدرب الشاق الطويل يأتي ايماننا الثابت الذي لا يتزعزع وتمسكنا القوي **بهذه البندقية صانعة الانتصارات وحامية الشعب وحاميها** .

فمزيدا من القبضة الفولاذية على هذه البنادق وبهذه السواعد الفتية الملتفة حولها .

ولنتذكر جميعا ان هذه المؤامرات التي تدور حولنا تبغي **انتزاع سلاحنا من ايدينا وتريد تحطيم وترويض البندقية** التي في قبضتنا .

يا رفاق المسيرة ويا اخوة الدرب
يا جماهير شعبنا الصابرة المثابرة

تتواكب كل هذه الانتصارات عبر الالام والمعاناة ووسط اتون المعارك الملتهبة وفي ظلال البنادق الثائرة ونحن نعبر بها الى عامنا الثاني عشر من عمر ثورتنا والتي سجلتها على اكثر من صعيد من اصعدة نضالنا وفي كل جبهة من جبهات كفاحنا ، انتصارات شعبية وعسكرية وسياسية كانت كلها من خلال هذا الزخم المتدفق الرائع الذي اعطته جماهيرنا البطلة وهذه التضحيات الجبارة التي منحتها جموعنا الثائرة في كل مكان فيه تجمعات من شعبنا داخل فلسطيننا المحتلة وخارجها ، والتي اتسعت دائرتها لتشمل

المناضل منا في اروقة الامم المتحدة ، الى الثائر فينا في داخل خندقه ، والى السجين الشامخ منا في ظلام زنزانته .

وكان تحرك جماهيرنا المنظم والقوي والاصيل يرسم انشودة رائعة بتراص صفوفنا، وتوزيع مهامنا ، وبتكامل نضالنا ، وتلاحم كفاحنا ــ رغم الشتات والغربة والتشرد ، رغم القهر والظلم والاحتلال ، رغم المؤامرات والمتآمرين والمأجورين ــ .

وجاءت هذه الانتصارات كلها في ظل هذه الظروف البالغة الصعوبة والتعقيد ، واثناء هذه المحن والمصاعب والالام ومن خلال نزيف الدماء الزكية وهذه التضحيات الجسام وعبر قوافل الشهداء الابرار .

جاءت واعداؤنا يخططون لاغتيال هذه الثورة والاجهاز عليها او تحجيمها واحتوائها . ولكن الملاحم كانت جبارة والصمود عظيما والتصدي متلاحقا دفاقا قويا ، صنعت جميعها اهزوجة الانتصارات التي حققتها يا شعبنا العظيم بجماهيرك الواعية القوية وثوارك الاشاوس المؤمنين .

صنعتها يا شعبنا من خلال هذا التلاحم العضوي بينك وبين الجماهير الحرة الابية من امتنا العربية وخاصة هذا الالتحام المصيري الرائع العظيم ، مع اخواننا واحبائنا وشركائنا جماهير الشعب البطل ، ومع هذه الجبهة العريضة من الاخوة والاصدقاء والحلفاء .

نصنع معهم جميعا هذا الاعجاز الثوري الرائع نتحدى المؤامرة ونقهرها ونقارع المتآمرين ونصرعهم . ثم لتتكسر هذه الغارات الصهيونية الفاشية الهمجية ضد قرانا اللبنانية ومخيماتنا الفلسطينية ، على صخرة الصمود والثبات والتضحية والفداء وبكبرياء وتحد رائعين .

فمزيدا من هذا التلاحم الثوري الاصيل
مزيدا من هذا التمازج الحي العظيم
مزيدا من هذا الترابط الانساني الرائع
مزيدا من الوحدة والاتحاد والالتحام
مزيدا من تراص الصفوف وتعاضدها .

يا جموع شعبنا العظيمة
يا ثوارنا ــ يا ابطالنا

في ظل القهر والاحتلال لفردوسنا الحبيب تقف جموع شعبنا شامخة مترفعة تعطي في كل يوم امثولة فريدة في الثبات وقدرة فذة في التحدي وتساميا رائعا في الكبرياء أمام همجية وفاشية الاحتلال الصهيوني العنصري البغيض ، امام ارهابه وبطشه وغروره وصلفه .

ولكن جماهيرنا المؤمنة القوية الصامدة تتحدى بكل الكبرياء الكامن في النفوس العربية وفي اعلى درجات مدها الثوري فتختلط بطولة براعمنا واشبالنا في مدارسهم مع خطى ثوارنا القوية في مكامنهم بجوار العطاء السامي المتجدد لنسائنا اللواتي يخرجن من خدورهن الى المجابهات العنيفة . في القدس ونابلس، في الخليل وغزة، في يافا والناصرة.

هذا الانصهار في موجه الجماهيري النضالي الثوري انما يرسم في ايقاعاته المتلاحمة

مع نضال جميع ثوارنا وكل جموع شعبنا في مختلف تجمعاتهم المنتشرة صورة الغد المشرق وخطوط النصر المبين لشعب يصنع معجزته من خلال مخزونه الشعبي المملوء بالرجال والنساء ، الابطال والاحرار والثوار والمناضلين ، في وحدة متكاملة متراصة فما اروعه من احتياطي بشري ديناميكي اصيـــل .

ونحن باصدقائنا الثوريين في العالم اجمع ، وبعيد انتصار الثورات ، في فيتنام وكمبوديا ولاوس وافريقيا واميركا اللاتينية ، تقع علينا مسؤوليات جسام وخطيرة . مسؤوليات تتعدى حدودنا الاقليمية الضيقة الى هذا العالم من الاصدقاء والحلفاء ، ومستندين بقوة الى جماهير امتنا العربية العظيمة ، لنمد معهم جسورا من الالتحام والصداقة والتضامن والمحبة لتنير لهذه الانسانية المعذبة طريقها الثوري للخلاص من الظلم والعبوديـــة والاضطهاد والاستغلال ، ولنبني مستقبلنا جميعا في ظل العدالة والمساواة والتقـــدم والحرية على طريق جلجلتنا وفي مسار معراجنا وفوق ارض كنعاننا .

يا جماهير شعبنا العظيم

بوركت يا شعبنا ، يا شعب العطاء والتضحيات
بوركت يا شعبنا ، يا شعب المجد والسؤدد
بوركت يا شعبنا ، يا شعب الشهداء والابطال
بوركت يا شعبنا ، يا شعب المعجزات والعطاء
بوركت يا شعبنا ، يا شعب الصبر والمثابرة

بوركت يا شعبنا وانت تخترق طريقك الوعر الشائك بارادة الثوار وعزم الاحرار .

بوركت يا شعبنا وانت تخط في كل يوم مسارا في الثورة والتاريخ قويا وثابتا ومضيئا ، جنبا الى جنب مع احرار امتنا العربية المناضلة ولنواجه جميعا قدرنا ولنواجه جميعا هذا العام من مسيرتنا الثورية بقوة وثقة واخلاص وتفان .

لنواجهه بكل ايماننا ويمثلنا السامية البناءة
لنواجهه بكل العطاء المتعاظم في افئدتنا
لنواجهه بكل الكوامن الخيرة والطاقات الثورية

لنواجه هذا العام بكل هذا . لنواجه عام التصدي والتحفز فوق ترابنا المحتل لنصون انجازاتنا ونجني ثمار انتصاراتنا في الطريق الطويل الشاق .

وانها لثورة حتى النصر

اخوكـــم

ابو عمار

١٩٧٦/١/١

قرار ادانة الصهيونية بالعنصرية :
ماذا يعني على الصعيد العملي ؟

الدكتور كلوفيس مقصود

كتب هذا المقال قبل يوم من غارة اسرائيل في ٢ كانون الاول (ديسمبر) على مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في البداوي ونهر البارد والنبطية حيث استشهد ما يزيد عن مئة رجل وامرأة وطفل فلسطيني ولبناني . وقد صرح وزير دفاع الكيان الصهيوني شيمون بيريز بان هذه الغارات هي « من قبيل الاحتياط » وليست « غارات ثارية » .

ان اسرائيل قامت بهذه الاعتداءات الوحشية والبربرية كجواب من عنصرها ومن صميم معدنها الصهيوني على قرار مجلس الامن في دعوة منظمة التحرير الفلسطينية للمشاركة في مناقشاتها يوم ١٢ كانون الاول (ديسمبر). فهي بهذه الغارة تثأر للطوق العالمي الذي يزيد احكاما حول شراستها المزمنة . فالصهيونية ككل فاشستية في التاريخ تدمن على الاجرام لان التمييز اذا ووجه بثورة المسحوقين لا يروي ظماه الا من خلال المزيد من النزعة التدميرية والتقتيلية .

من هنا ضرورة ترجمة قرار اعتبار الصهيونية وجها من اوجه العنصرية الى عقوبات رادعة على المستويين القومي والعالمي .

ك. م.

جاءت قرارات الجمعية العامة للامم المتحدة في دورتها الاخيرة والمتعلقة بالقضية الفلسطينية تشير الى اتساع وعمق التفهم والتأييد المتعاظمين لا لحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره واسترجاع وطنه وحقوقه المسلوبة فحسب بل لتثبيت اهلية وشرعية مؤسساته الثورية ونضالاته التحررية بقيادة وتوجيه منظمة التحرير الفلسطينية . الا ان القرارات المتعلقة بشرعية النضال الفلسطيني واهلية منظمة التحرير تعبر بدورها عن وجهة سير دبلوماسية الثورة الفلسطينية وعن نجاح استراتيجيتها العالمية كما ان هذا النجاح يجيء برغم ما شكلته سياسة الخطوة خطوة واتفاقية سيناء من مزالق لدبلوماسية الثورة وما انطوت عليه من احتمالات اضعاف لتوجه الثورة وقدرتها على ضمان حد ادنى من الاجماع العربي المطلوب . فالانتصارات الفلسطينية في الامم المتحدة تنبثق من ان القضية الفلسطينية هي جوهر واساس ومحور الصراع العربي الاسرائيلي . وهذه المركزية للقضية الفلسطينية تجعلها اداة تفجير للطاقات التصحيحية الكامنة في الوطن العربي ومن ثم اداة استقرار حقيقي في المنطقة اذا ما تحققت للفلسطينيين اهدافهم القومية والوطنية والقانونية المشروعة والعادلة المعترف بها دوليا .

الا ان قرار الامم المتحدة الذي يجعل الصهيونية وجها من اوجه العنصرية ومن ثـم يدين ادانة واضحة الممارسات العنصرية التي يقوم بها الكيان الصهيوني في فلسطين هو في الواقع منعطف تاريخي وهو بمثابة اعادة فتح القضية الفلسطينية من جذورها وعلى مصراعيها . ولعل هذا القرار ولاول مرة منذ قرار التقسيم يتحدى فكريا وعقائديـا وسياسيا شرعية قرار التقسيم ويفتح الابواب امام احتمالات ترشيح كيان الاغتصاب الصهيوني للانقراض التاريخي .

قد تسجل بعض الاوساط الدبلوماسية العربية ــ ضمنا ان لم يكن علنا ــ بعض المحاذير حول هذا القرار التاريخي لا انتقاصا منها من اهمية القرار بل كونه في حال تأمين فعاليته قد يؤدي الى ابطـال مفعـول القرارات والنشاطات الدبلوماسية التي تستهدف انجاز مهمات مرحلية او آنية تتعلق بازالة الاحتلال في الاراضي العربية ومـا نشأ من اوضاع اثر هزيمة حزيران ١٩٦٧ . كما ان هذه الاوساط تردد ان القرار المتعلق باعتبار الصهيونية وجها من اوجه العنصرية لا ينطوي على الصفة الاجرائية ولم يحظ بموافقة دول هامة في اوروبا بل اقترعت هذه الدول ضد القرار في حين ان قرارات الامم المتحدة ذات الصفة الاجرائية حازت على تأييد اوسع مما كان يجب ان يدفعنا نحو مزيد من التريث في السعي نحو انجاح هذا القرار . لقد اثبتت هذه المحاذير التي تقال همسا تحت ظلال الذرائعية الدبلوماسية ، ضآلة جدواها بعد ان برهنت الصلابة في الموقف السوري مثلا عندما بحث موضوع التجديد لقوات الطوارىء في الجولان عـن قدرة في انتزاع مكاسب اضخم من مجلس الامن من المكاسب الوهمية التي تنتهجها المناحـي الدبلوماسية القائلة بان **كل** الاوراق في ازمة الشرق الاوسط هي بيد الولايات المتحدة .

يتراءى لنا من هنا ان المحاذير التي يبديها البعض والتي لا بد ان تدخل في حساباتنا وفي بحوثنا للخيارات المتاحة امام التحرك العربي العام والتحـرك الفلسطيني بشكل خاص تصبح ــ اي هذه المحاذير ــ متضائلة القيمة الى درجة الانعدام امام الفـوائد الجمة التي تجنيها القضية الفلسطينية مـن جراء هـذا القرار . كمـا ان اعتبـار الصهيونية وجها من اوجه العنصرية يستوجب مكافحتها ، يضفي بعـدا دوليا عـلى مشروعية النضال العربي الفلسطيني من اجل استرجاع حقوقه الوطنية بل للتصدي العربي لاسس ومسببات وجود الكيان الصهيوني في جزء من وطننا العربي . يضاف الى ذلك أن القرار يزعزع موضوع **حق** اسرائيل في الوجود دون ان يؤثر فعلا بحق تواجد اليهود في فلسطين مما يضفي الشرعية الدولية والموافقة الدولية على ما تعتبره الثورة الفلسطينية البديل الانساني السليم لاسرائيل اي الدولة الديمقراطية العلمانية .

ان قرار جعل الصهيونية وجها من اوجه العنصرية يشكل الارضية الصلبة لمجابهة استراتيجية شاملة مع الكيان الصهيوني بحيث يجعل من المجابهة واجبا من الواجبات الدولية بموجب الفقه المتنامي حول هذا الموضوع بالاضافة الى جانب كونها الواجب القومي المفروض تعبئة قوانا لتحقيق اهدافـه .

بمعنى اخر فان ما كان بديهيا ومسلما به على الصعيد القومي اصبح حقيقة دولية يفرض مسؤوليات مشتركة بين العرب والمجتمع العالمي في مضمار مكافحة الصهيونية والتصدي لاعمالها وممارساتها ، ومنظماتها ولعقائديتها . يستتبع هذا القرار مباشرتنا في ان نضع تحت تصرف المجتمع الدولي لا مجرد تجاربنا الملموسة مع الكيان الصهيوني وما ترتب على عملية التعمير الصهيوني من تشريد لشعب وتدمير لكيان ولمعالم تراثية فقط ، بل ان نبادر الى حملة توعية مكثفة بغية تسهيل عملية نفاذ الفكر العـالمي الى حقيقة المخاطر التي تشكلها الصهيونية لعديد من القيم الانسانية والحضارية وللمبادىء

الديمقراطية بشتى اشكالها ومعطياتها السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية. ان التحدي الذي يواجهنا بهذا الصدد هو ان يلازم نضالنا القومي ضد الاغتصاب الصهيوني والاحتلال الاسرائيلي مهمات اعلامية تثقيفية لا تفند مزاعم وادعاءات الصهاينة فحسب ، ولا تكتفي بتسليط الاضواء على الممارسات التمييزية العنصرية والدينية التي تقوم بها اسرائيل في مختلف المجالات فقط ، بل ان نقوم بايضاح المنحى المبدئي الشامل العالمي لهذا النضال ، من حيث تصبح حركة التحرير الفلسطينية شأنها شأن كل الحركات التحريرية الاصيلة عملية تصحيح وتحرير لجميع اولئك اليهود الذين نجحت الصهيونية في احتوائهم داخل اطرها ، واليهود الذين تستهدفهم لجذبهم بشتى وسائل الاغراء والتضليل ، وحتى التهديد الى مؤسساتها وتنظيماتها . بكلام اخر فان هذا القرار التاريخي انسح المجال لقيام حوار بناء مع يهود العالم يستهدف تنمية روابطهم الوطنية في مختلف بلدانهم وترسيخها ، ويحول بالتالي دون انخراطهم في المؤسسات الصهيونية ، اما نتيجة سياسة التجهيل التي تتعمدها هذه المؤسسات او فقدان تصميمنا على تبيان الحقائق والوقائع لهم من قبلنا .

وبرغم ان مثل هكذا برنامج توعية يفرض علينا باديء ذي بدء توعية ذاتية بهذا المضمار ، فان احدى نتائج هذا القرار هو ان يدفعنا نحو استعجال مهمات كثيرا ما اهملناها او تجاهلنا اهميتها وقيمتها . يتضح لنا اذا ان هذا القرار يفرض علينا انماطا من السلوك العام في حياتنا القومية ندعي الالتزام بها لكننا لا نطبقها بالدرجة المطلوبة . ولقد سبق لنا في مجالات دولية متعددة ان قلنا ان ممارسة التمييز في بعض الاقطار العربية قائمة لكنها تشكل بالنسبة للعرب مشكلة شأنها شأن المشكلات العنصرية في الكثير من الدول المتعددة الاعراق والاديان في حين ان ممارسة التمييز العنصري والديني في اسرائيل شأنها شأن الكيانات العنصرية في افريقيا الجنوبية وروديسيا ، تشكل سياسة عامة ثابتة ، اي ان الممارسات التمييزية التي قد نجدها في بعض الاقطار العربية وفي الهند والولايات المتحدة مثلا تشكل مخالفات تستوجب الملاحقة والتنديد في حين ان الممارسات التمييزية في اسرائيل وفي العقيدة الصهيونية تشكل تعبيرا عن عقيدة الدولة ومبررا لوجود الكيان الصهيوني . اذا ادركنا نحن هذه الحقيقة تبين لنا الفرق في الجوهر بين القومية العربية كعملية تحرير وبالتالي عملية توسيع مشاركة الانسان العربي القيم الانسانية في حين ان الصهيونية هي في الواقع سلخ للانسان اليهودي عن مثل هذه المشاركة وجعل التقوقع بحد ذاته قيمة مطلقة لسلوكه السياسي وهدفا نهائيا بحد ذاته.

من هذا الموقع القومي العربي المتلاقي والمنسجم مع تنامي التراث الانساني نجد كيف اننا مع دول العالم الثالث نشكل طليعة المجابهة مع الصهيونية ، مثل ما نحن سباقون في التصدي لكل اوجه العنصرية في العالم . الا انه لا بد من التذكير ان عدم اقتراع معظم الدول الاوروبية الى جانب هذا القرار ، وبالعكس التصويت ضده، يعود الى عقدة الاثم التي لا تزال تستشعرها الدول الغربية من جراء الاضطهاد الشرس الذي مارسته النازية ضد الكثيرين من يهود اوروبا ، كما ان عقدة الاثم لا تنتج عن الاستذكار للمذابح النازية بل عن عدم المساهمة الغربية لاحباط الممارسات النازية في مستهل قيامها ومباشرة النازية باعمالها . الا ان عقدة الاثم التي يستشعرها الغرب الاوروبي — والولايات المتحدة بشكل اخر — كثيرا ما وظفتها اسرائيل والحركة الصهيونية من اجل القيام بعملية ابتزاز دائمة تفقد بواسطتها قدرة الغرب على تبيان الحقائق الموضوعية المتعلقة بالنزاع العربي — الاسرائيلي من جهة والاسس العنصرية المتزمتة للعقيدة الصهيونية من جهة اخرى . اكثر من ذلك فان اسرائيل ارادت تسخير عقدة الاثم هذه من اجل انتزاع موافقات غربية مسبقة على سياساتها العدوانية

والتوسعية القائمة والمنوي القيام بها . كما ان اسرائيل ارادت ان تحدد معادلة تقوم بينها وبين الحركة الصهيونية العالمية من جهة ، وبين الغرب الاوروبي ـــ الاميركي من جهة اخرى ، مقوماتها ان تعطي اسرائيل صك غفران لاوروبا عن ما قامت به من ممارسات ضد اليهود في الماضي ولا تعود تطرح السؤال لاوروبا عن ما فعلته ليهودها مقابل ان الغرب بشقيه الاوروبي والاميركي لا يعود يسأل اسرائيل عن ما قامت به وتقوم به وسوف تقوم به ضد العرب في فلسطين وخارج فلسطين حاضراً ومستقبلا . بهذه الطريقة تكون اسرائيل قد انتزعت من الغرب اعترافا بكونها مع الصهيونية العالمية الاطار الاوحد المستوعب ليهود العالم ولمصيرهم . اي ان المسعى الصهيوني الاسرائيلي يستهدف جعل اسرائيل بمنأى عن اية محاسبة دولية ناهيك عن اية معاقبة دولية ما دامت هي مصممة على الاستمرار في خرق كل المواثيق والقرارات المتعلقة بحقوق الشعب الفلسطيني في ارضه ووطنه . كما ان اسرائيل تستهدف من هذا المسعى حصر التعامل الدولي والعالمي مع يهود العالم من خلالها وبواسطتها حتى يتم لها وللحركة الصهيونية التطابق الكامل بين الصهيونية واليهودية. فاذا ما نشأ اي تحد يهودي للصهيونية او تميز لليهود عن الصهيونية تمكنت الحركة الصهيونية من اتهام هؤلاء اليهود « بكره الذات » او بافتقادهم ، من خلال عملية الارهاب الفكري والمعنوي الذي تقوم به اجهزة الصهيونية العالمية ، فرص التعبير وقدرة التحرك ، وان تحكم حولهم طوق العزلة وتشوه صورتهم في كل المحافل ، ليتأمن لاسرائيل والحركة الصهيونية السلطة المطلقة والاحتكار الكامل .

وعندما يتأمن مثل هذا التطابق بين الصهيونية واليهود ، عندئذ تتمكن اسرائيل من ان تنتحل لذاتها صفة التمثيل ، لا للاسرائيليين اليهود فحسب ، بل اهلية المحاورة حول مصير اليهود في كل العالم . ويستتبع هذا بالضرورة عندئذ قدرة اسرائيل على جعل يهود العالم في مختلف اوطانهم ادوات مطواعة لتنفيذ السياسات الاسرائيلية والاهداف الصهيونية داخل هذه الاوطان ، واذا امكن بموافقة هذه الاوطان . بمعنى اخر يصبح بامكان اسرائيل ، من خلال عملية الابتزاز والارهاب الفكري والسياسي والمعنوي الذي تقوم به مباشرة بواسطة اجهزتها الدبلوماسية والاعلامية ومن ثم بواسطة منظماتها الصهيونية المرتبطة عضويا معها ، ان تأخذ موافقة استثنائية على ان تكون علاقة المواطنين اليهود في مختلف اوطانهم علاقة اولية ، وفي احسن الاحتمالات متممة لعلاقتهم بأوطانهم الاصلية .

هذه الخطة الاسرائيلية ـــ الصهيونية من شأنها ان تخلق جوا يجعل اسرائيل فوق المحاسبة ، ويمكنها من ان تصور ان كل تشكيك بسياستها او مجرد التساؤل حول سلوكها او اي انتقاد لممارساتها او اي ادانة لعمليات التمييز التي تقوم بها ، يصبح بمفهومها ملازما للاسامية .

يتراءى لنا ان هذا المخطط كان من شأنه ان يستبق مثل هذا القرار ، فقامت اسرائيل والاجهزة المتعاملة معها بتصوير من يقترع الى جانبه وكأنه يساهم في اعادة الحياة والحيوية للاسامية العالمية . من هنا جاء التردد الاوروبي الغربي في مواكبة القرار ، وارادت معظم الدول الاوروبية الغربية التصويت ضد القرار خوفا من ان تتأثر سياساتها المتنامية في الموضوعية ازاء الصراع العربي ـــ الاسرائيلي سلبيا من جراء قرار قد يعطل ما تصورته الناحية الاجرائية لعلاقاتها المستجدة مع الدول العربية . كما ان هذه الدول الاوروبية تصورت انها باقتراعها ضد هذا القرار تتمكن من ان تشتري سكوت اسرائيل عن مواقفها ازاء القرارات الاخرى المتعلقة بالقضية الفلسطينية التي

اقرتها الامم المتحدة . الا ان هذا الموقف الاوروبي الغربي نشأ عن كون اوروبا الغربية شعرت انها مداهمة بمشروع هذا القرار ، وانه نتيجة لتراث عقدة الاثم الكامن في ذاتها، لم تستطع ان تفتح عقلها لاستيعاب مغزاه التاريخي والتصحيحي . كما ان اوروبا الغربية اجمالا لا تزال هي نفسها خارجة من ممارسات استعمارية وعنصرية في اسيا وافريقيا ، وان قطاعات منها لا تزال تستسيغ الممارسات الاستعمارية والعنصرية ، والتي تبدو تصرفات اسرائيل وعقيدتها وكأنها تصرفات تقوم بها بالنيابة عنها، وبالتالي تستوجب المهادنة ان لم يكن التأييد الدائم .

من هذه الزاوية نستطيع ان نجزم بان اقتراع معظم الدول الاوروبية الغربية ضد قرار الجمعية العمومية للامم المتحدة باعتبار الصهيونية وجها من اوجه العنصرية ليس تقفلا لباب الحوار مع الراي العام الاوروبي ، اذ انه علينا ان ننطلق من كون الاقتراع الاوروبي ضد هذا القرار هو نتيجة ارتهان لمعادلة جهنمية اسميناها بـ « الغفران المتبادل » وليس نتيجة قناعات عقلانية مدروسة .

اما فيما يتعلق بالولايات المتحدة فان هذيان مندوبها في الامم المتحدة وجعل ذاته وموقف بلاده ترديدا ببغائيا للموقف الصهيوني الاسرائيلي ، انما ينبع عن تصور الولايات المتحدة بانه ما دام بامكانها ان تمرر سياسة الخطوة خطوة ودبلوماسية « المكوك » فانه صار بامكانها تعجيز العرب عن القيام باية مبادرة مبدعة لصالح القضية الفلسطينية على المستويين الفكري والدبلوماسي . فالموقف الاميركي ، بالاضافة الى كونه يحتوي على الكثير من حيثيات الموقف الاوروبي الغربي فانه يشمل بعد الغضب الامبريالي الذي يجد في كل عرقلة لهيمنته تحديا مباشرا لسطوته وسلطانه .

من هنا يبدو جليا ان التصدي للموقف الاميركي يشمل في طياته التحاور مع مختلف قطاعات الرأي العام وقادة الرأي بنفس المعطيات تقريبا التي يقتضيها الحوار مع اوروبا الغربية في هذا المضمار . الا انه فيما يتعلق بالموقف الاميركي ، فان المحاورة يجب ان يلازمها تصد مباشر للاستراتيجية الدبلوماسية والاقتصادية في الشرق الاوسط، من حيث اننا لا نستبعد اية من العقوبات المتوفرة لدينا ، خاصة لان الولايات المتحدة هي الى جانب كونها قطاعات رأي عام نافذة ، الا انها دولة كبرى ذات مصالح كونية ، لا بد ان تعتبر بعض هذه المصالح مهددة لكي يتقبل الراي العام اهمية وضرورة الحوار بالشأن العربي . فالرأي العام الاميركي هو في معظمه غير مبال الى حد كبير لما يتعدى الشؤون الاقتصادية والداخلية ، ولا يستطيع ان يبدي اهتماما بالاوضاع الدولية الا بمقدار ما تؤثر على انماط حياته الاقتصادية والمصيرية . يضاف الى ذلك ان الرأي العام الاميركي اكثر ابتعادا عن معايشة الاوجه المأسوية التي عاشتها اوروبا في العصر النازي وبالتالي فهي اقل تأثرا بعقدة الاثم التي تستحوذ على الجيل الاوروبي المخضرم. كما ان التنظيم الصهيوني في الولايات المتحدة يقوم باعمال سياسية مباشرة ويمارس ضغوطا ذات اثر هام في الحياة السياسية الاميركية وتزيد نسبة تأثير التنظيم الصهيوني كلما اقتربت مواعيد الانتخابات للكونغرس وللرئاسة . وتتكل المنظمات الصهيونية في الولايات المتحدة على تفوقها التنظيمي والتعبوي ، وعلى دفعها الراي العام عن المشاركة في الاهتمام ، ناهيك عن رسم سياسة اميركية مستقلة للشرق الاوسط ، مما يؤدي بدوره الى ان تظهر الصهيونية في الولايات المتحدة وكأنها مستحوذة على تقرير السياسة الاميركية في الشرق الاوسط ، وعلى بلورة الراي ، مهما كان محدودا ، فيما يتعلق بالنزاع العربي الاسرائيلي وبالعقيدة الصهيونية نفسها . وهكذا بدا الموقف الاميركي اكثر تشنجا في عدائه للقرار التاريخي المتعلق بالصهيونية مما بدت عليه ردود الفعل

الاوروبية لانه اثار في اوروبا مخاضات فكرية صميمية ، وان كانت بمعظمها معادية للقرار فانها من حيث كونها مخاضا فكريا شكلت مدخلا لان تنفذ حواريا اليه ، في حين ان الولايات المتحدة لا بد ان تكون الاستراتيجية الاعلامية العربية فيها بشكل عام ، والحملة التوضيحية بشأن القرار بشكل خاص ، قائمة على اشراك قطاعات الرأي العام الاميركي في التفكير بالمعنى الاعمق لهذا القرار ، وبالمغزى التاريخي والمبدئي له، لان الموقف الاميركي في هذا الصدد كان في قمة السوء خاصة وانه لم يجابه اي تحد داخلي له . لذا فاية حملة عربية توضيحية اعلامية في الولايات المتحدة حول هذا الموضوع تكسب العرب مواقع مهيأة لتقليص حجم التحيز وتخفيف وتيرة التشنج . فالطرح العربي اذن يبدو منذ بدايته عملية دفع نحو الموضوعية ، من خلال الترحيب الحقيقي باشراك الرأي العام بموضوع فتح الملف الصهيوني .

ان اسرائيل ومعها الحركة الصهيونية العالمية ادركت منذ البداية اهمية هذا القرار ومدى تأثيره مستقبلا على وجودها العدواني وعلى امكانياتها في الابقاء على تغليف سياساتها وجذورها الفلسفية وتطلعاتها التوسعية بغطاء من الادعاءات الكاذبة، لتضع نفسها فوق المحاسبة وفي موقع عدم المسؤولية تجاه الغير . من اجل ذلك عبأت اسرائيل ــ والحركة الصهيونية ــ كل اجهزتها وامكاناتها وانصارها لافشال هذا القرار وتبهيته ، كما استنفرت الغرائز لدى محازبيها بشكل يستهدف استبعاد تحكيم العقل وابعاد اليهود انفسهم وانصار اسرائيل عن الفرص التي يتيحها هذا القرار ، من اجل وضع الصهيونية تحت مبضع تطبيق المعايير العقلانية والحضارية والديمقراطية والعضوية . لان اسرائيل ــ والحركة الصهيونية ــ ادركت انه اذا ما حصل مثل هذا التدقيق فان القرار يكون قد اسهم بشكل مباشر وفوري في زرع بذور عملية التصحيح اليهودية وبالتالي استعجل سلخ ولاءات العديد العديد من يهود العالم وتكون الخديعة التي لا تزال اسرائيل تريد استمرار وقوع معظم اليهود فيها سارية المفعول وقادرة على الفعالية .

من هنا قامت اسرائيل وانصارها في العالم ، وبتوجيه اسرائيلي ، بحملة تشهير مسعورة على القرار وعلى الاكثرية في الامم المتحدة وعلى منظمة الامم المتحدة . فبدلا من مناقشة القرار ومضامينه ، ارادت اسرائيل ولا تزال تسعى لاقفال باب المناقشة لتجعل موضوع النقاش هو الامم المتحدة ومستقبلها ، لا مضمون القرار والممارسات العنصرية والتمييزية التي تقوم عليها الصهيونية واسرائيل .

وكان ان قامت اسرائيل باستدعاء كافة القيادات الصهيونية في العالم من اجلوضع خطط في كيفية اتهام الامم المتحدة واكثرية الدول التي ايدت هذا القرار التاريخي من اجل ان لا توضع في موقع يفرض عليها دفع الاتهام ، لان اسرائيل تريد ممارسة العنصرية والتمييز وممارسة سلخ اليهود عن انتماءاتهم الانسانية وممارسة طمس حقوق الشعب الفلسطيني ووجوده دون ان تكون هذه الممارسات مرشحة للطعن بها فتستمر اسرائيل قادرة على وضع استثنائي ، تحمي سياساتها العدوانية والعنصرية قدرتها على التخويف والارهاب الفكري والدبلوماسي والمعنوي في بعض المحافل الاميركية والغربية ، لانها تعجز مثل كل الكيانات العنصرية عن اقناع حتى معظم انصارها بصوابية فلسفتها وسياساتها الصهيونية .

هذا القرار اقفل امام اسرائيل باب الدجل وفتح امام بصيرة العالم بدء النفاذ الى الحقيقة التي طالما غيبتها وعملت على كبتها . فهذا القرار انتصار للانسان قبل انيكون انتصارا لفلسطين وفلسطين لا تنتصر الا بانتصار الانسان .

ملاحظات سياسية حول قرار ادانة الصهيونية بالعنصرية

الدكتور صلاح الدين الدباغ

« الصهيونية هي اوقح عنصرية في النصف الثاني من القرن العشرين » .

غ . سافين ، معلق وكالة انباء نوفوستي السوفياتية

مساء يوم الاثنين الواقع في العاشر من شهر تشرين الثاني ١٩٧٥ اقرت الجمعية العامة للامم المتحدة بعد نقاش مشحون وعاصف ، وفي جلسة تاريخية تعتبر اهم جلسة في دورتها الثلاثين قرارا يقضي بان « الصهيونية هي شكل من العنصرية ومن التمييز العنصري » .

وبعد انتهاء التصويت وقف دانييل باتريك موينهان ، مندوب الولايات المتحدة الاميركية ليعبر بلغة ليست مألوفة ولا معهودة في الامم المتحدة عن سخط حكومته على هذا القرار وليكرس تطابق الموقفين الاسرائيلي والاميركي . قال موينهان : « ان الولايات المتحدة تنهض لتعلن امام الجمعية العامة وامام العالم انها لن تعترف ولن تلتزم ولن نرضخ لهذا العمل المشين ... ان شرا عظيما قد اطلق على العالم ... ان الاقتراح الذي اقرته الجمعية العامة بقرارها هو ان الصهيونية شكل من العنصرية والتمييز العنصري . انها لاكذوبة ، ولكنها اكذوبة اعلنتها الامم المتحدة على انها حقيقة، ولكن الحقيقة الصحيحة يجب ان يعاد اثباتها » (١).

وكانت الكلمة الاخيرة قبل ان ينفض الاجتماع هي كلمة الدكتور فايز صايغ مندوب دولة الكويت الذي ضمن رده على مندوب الولايات المتحدة ما يلي : « ان التعنيف الوقح والسباب الذي لجأ اليه وفد الولايات المتحدة منذ الثالث من تشرين الاول ، سواء داخل الامم المتحدة او خارجها (« الانحراف » ، « البذاءة » ، « عدم اللياقة » واليوم « الاكاذيب ») قد نمقت بيانات ممثلي الولايات المتحدة وتكررت فيها . وانني غير منزعج او قلق لذلك . فمنذ زمن بعيد جدا قال لي اساتذتي في اول درس ابتدائي في الفلسفة : « ينبغي ان لا تلجأ الى السباب الا عندما لا يكون لديك اساس للجدال » . ان السباب ليس بديلا عن المناقشة العقلانية ، انه اقرار بالافلاس الفكري » .

بدأ موضوع ادانة الصهيونية في اللجنة الاجتماعية والانسانية والثقافية (اللجنة الثالثة) التابعة للجمعية العامة، وذلك لدى بحث موضوع التمييز العنصري والاجراءات المقترحة كبرنامج عمل للعقد الذي اعلنته الجمعية العامة بقرارها ذي الرقم ٣٠٥٧ (٢٧)

كعقد لمحاربة العنصرية والتمييز العنصري ابتداء من ١٩٧٣/١٢/١٠ . ففي الثالث من تشرين الاول قدم للجنة اقتراح يقضي باعتبار الصهيونية شكلاً من اشكال العنصرية والتمييز العنصري . وبعد مناورات عديدة وضغوط مختلفة اقرت اللجنة مشروع هذا القرار باكثرية ٧٠ صوتا ضد ٢٩ صوتا وامتناع ١٦ دولة عن التصويت وغياب ٢٧ دولة . كما اقرت اللجنة اربعة مشاريع قرارات اخرى ، الاول يتعلق بالاجراءات الرامية الى تنفيذ برنامج عقد محاربة العنصرية والتمييز العنصري ، والثاني يتعلق باقامة مؤتمر عالمي لمحاربة العنصرية والتمييز العنصري في غانا عام ١٩٧٨ ، والثالث يناشد الدول الاعضاء التصديق على ميثاق محاربة جريمة الابارتهيد ومعاقبتها،والرابع يناشد الدول الاعضاء المصادقة على الميثاق الدولي لالغاء كافة اشكال التمييز العنصري.

وبعد ان اقرت اللجنة الثالثة مشاريع القرارات هذه تقدمت بها جميعا الى الجمعية العامة لاقرارها (٢) . وكان اهتمام الجمعية العامة متركزا على القرار المتعلق بالصهيونية الذي اتى ترتيبه ثالثا بين مشاريع هذه القرارات . فبذلت الولايات المتحدة ودول اوروبا الغربية جهودا كبيرة للحؤول دون اقرار هذا المشروع ، اذ تقدم مندوب بلجيكا باقتراح يرمي الى تأجيل التصويت على مشروع القرار الثالث الى جلسة اخرى وايده في ذلك مندوبا ليبريا والاورغواي وعارضه كل من مندوب الداهومي والعراق . ولدى طرح هذا الاقتراح على التصويت سقط باكثرية ٦٧ صوتا ضد ٥٥ وامتناع ١٥ . ولكن مندوب بلجيكا ، الذي عهدت اليه الولايات المتحدة ودول المجموعة الاوروبية ، بالتكلم باسمها لعرقلة قرار ادانة الصهيونية عاد فاقترح التصويت على مشروع هذا القرار قبل مشروعي القرارين الاول والثاني بحجة أنه سيضطر الى التصويت ضد هذين القرارين اذا اقر مشروع القرار الثالث ، أي انه سيقف ضد برنامج العمل المعد لمحاربة العنصرية والتمييز العنصري اذا ما اعتبرت الصهيونية شكلا من اشكال العنصرية والتمييز العنصري . فسقط اقتراحه ايضا باكثرية ٧٤ صوتا ضد ٤٦ وامتناع ٢٦ .

ولدى التصويت على مشروع القرار الثالث المتعلق بالصهيونية فاز القرار باكثرية ٧٢ صوتا ضد ٣٥ وامتناع ٣٢ دولة عن التصويت وغياب ٣ دول .

اما الدول التي صوتت الى جانب القرار فهي : البانيا ، الاتحاد السوفياتي ، الاردن ، افغانستان ، المانيا الديمقراطية ، اندونيسيا ، اوغندا ، اوكرانيا ، ايران ، باكستان ، البحرين ، البرازيل ، البرتغال ، بلغاريا ، بنغلادش ، بوروندي ، بولنده ، تركيا ، تشاد ، تشيكوسلوفاكيا ، تنزانيا ، تونس ، الجزائر ، جزر المالديف ، داهومي ، دولة الامارات العربية ، الرأس الاخضر ، راونده ، روسيا البيضاء ، ساوتومي برنسيب ، السعودية ، السنغال ، السودان ، سوريا ، سيري لانكا ، الصومال ، الصين ، العراق ، عمان ، غامبيا ، غراندا ، غوايانا ، غينيا ، غينيا الاستوائية ، غينيا بيساو ، قبرص ، قطر ، كمبوديا ، الكميرون ، الكنغو ، كوبا ، الكويت ، لبنان ، ليبيا ، مالطا ، مالي ، ماليزيا ، مدغشقر ، مصر ، المغرب ، المكسيك ، منغوليا ، موريتانيا ، موزامبيق ، النيجر ، نيجيريا ، الهند ، هنغاريا ، لاوس ، اليمن ، اليمن الديمقراطي ، يوغوسلافيا .

والدول التي صوتت ضد القرار هي : استراليا ، اسرائيل ، افريقيا الوسطى ، المانيا الغربية ، اورغواي ، ايرلندا ، ايسلندا ، ايطاليا ، باريادوس ، باهاما ، بريطانيا ، بلجيكا ، بنما ، جزر الفيجي ، الدنمارك ، الدومنيكان ، ساحل العاج ، السلفادور ، سوازيلاند ، السويد ، فرنسا ، فنلندا ، كندا ، كوستاريكا ،

لوكسمبرغ ، ليبيريا ، ملاوي ، النرويج ، النمسا ، نيكارغوا ، نيوزيلندا ، هايتي ، هندوراس ، هولنده ، الولايات المتحدة .

أما الدول التي امتنعت عن التصويت فهي : الارجنتين ، اكوادور ، باباوا ، باراغواي ، بهوتان ، بوليفيا ، بوتسوانا ، بورما ، بيرو ، تايلاند ، تريندداد وتوباغو ، تشيلي ، توغو ، جامايكا ، الحبشة ، زائير ، زامبيا ، سنغافورة ، سيراليون ، غابون ، غانا ، غواتيمالا ، الفلبين ، فنزويلا ، فولتا العليا ، كولومبيا ، كينيا ، ليسوتو ، موريتشس ، نيبال ، اليابان ، اليونان .

وتغيب عن الجلسة كل من رومانيا واسبانيا وجنوب افريقيا .



ان قرار اعتبار الصهيونية شكلا من اشكال العنصرية والتمييز العنصري يستدعي منا عدة ملاحظات سنبينها تباعا بما يلي :

اولا : ان هذا القرار هو قرار هام بل هو هام جدا . فهو يدين الحركة الصهيونية بصفات اجمعت الانسانية على نبذها ومحاربتها وقطع دابرها . وبما ان الكيان الاسرائيلي هو التجسيد المادي للحركة الصهيونية ، فان في هذا القرار نفيا للاساس الذي يرتكز عليه هذا الكيان . من هنا كان رد الفعل الاسرائيلي عنيفا وقاسيا . فغداة اقرار القرار اجتمع الكنيست الاسرائيلي ، واصدر قرارا — بمعارضة اعضاء حزب راكاح — بادانة قرار الجمعية العامة كما حث بالمقابل على زيادة هجرة اليهود الى اسرائيل . ودعت الحكومة الاسرائيلية والوكالة اليهودية الى عقد مؤتمر لحوالي مئة من القادة اليهود عقد في القدس في ٣ كانون اول (ديسمبر) واقر الخطوات اللازمة لمحاربة القرار (٣) . وكذلك تظاهر الطلاب خارج مبنى الامم المتحدة احتجاجا على القرار ، واعلن اساتذة المدارس عن « اسبوع الصهيونية » لاعطاء دروس خاصة في فلسفة الصهيونية وتاريخها . وطالبت غولدا مئير يهود العالم بوضع دبوس على ستراتهم كتب عليه « انا صهيوني » وذلك تحديا للقرار . واعادت بلدية القدس تسمية شارع الامم المتحدة باسم شارع الصهيونية .

واما في الخارج ، فقد حركت الصهيونية العالمية اتباعها في العالم لاتخاذ مواقف معادية من القرار وملأت الصحف بمقالات ورسائل تندد به . ومن ناحية وصف ناحوم غولدمان ، رئيس المؤتمر اليهودي العالمي القرار بانه من اكثر القرارات التي اتخذتها الامم المتحدة في السنوات الاخيرة لاخلقية ومضرة . ان تعريف الصهيونية بالعنصرية هو تشويه سخيف للوقائع البدائية وهو يوازي افكار حق الشعب اليهودي في وطنه ودولته الخاصة به (٤) .

ان رد الفعل الاسرائيلي العنيف هذا مفهوم وطبيعي . فالقرار ، كما اوضحنا ، ينفي شرعية الاساس السياسي للكيان الاسرائيلي . وهو ادانة للمجتمع الاسرائيلي باللانسانية وانعدام الحضارة واللاخلقية . وفضلا عن ذلك كله فهو يعطي الثورة الفلسطينية شرعية دولية اضافية لانه يدين نقيض هذه الثورة . فهو قرار بعدم شرعية الكيان الاسرائيلي لفساد اساسه السياسي وفي الوقت ذاته هو قرار بشرعية النضال الفلسطيني . وعلى هذا الاساس فهو الوجه الاخر المتمم للقرار الذي اقرته الامم المتحدة بشرعية النضال الفلسطيني . وهو يشكل حلقة اساسية في سلسلة هزائم

اسرائيل السياسية على الصعيد الدولي . وقبل هذا كله ، فان القرار يعكس صمود الثورة واستمرارها ، فثمة علاقة طردية بين انتصارات الثورة وصمودها على ارضها وبين انتصاراتها في المجال الدولي .

ثانيـــا : ان هـــذا القرار هو قرار صحيح ومحق

ان الاصوات الصهيونية التي ارتفعت ضد قرار ادانة الصهيونية يجب ان لا تحجب عنا اطلاقا صحة هذا القرار . فلئن كانت الامم المتحدة قد عرفت التمييز العنصري بأنــه « اي تمييز او حرمان او تقييد او افضلية على اساس العنصر او اللون او السلالــة او الأصل العرقي او القومي » (٥) ، فان الصهيونية تشكل اسوأ انواع العنصرية وابشع اشكال التمييز العنصري على الاطلاق . ان ما تهدف اليه الحركة الصهيونية هو انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وتحقيق هذا الهدف يتوقف على طرد الشعب الفلسطيني، بل انه يشترط ذلك كشرط مسبق . وبتعبير اخر ، فان الكيان الصهيوني على ارض فلسطين كان يستلزم لانشائه وكشرط مسبق ليس فقط هدر حقوق الشعب الفلسطيني ، بل وتصفية وجود هذا الشعب على ارضه ووطنه . فالحركة الصهيونية حركة عنصرية تؤمن بوحدانية العنصر وترمي الى تجميع اليهود في فلسطين وتصفية وجود كل ما هو غير يهودي فيهـــا .

وعلى هذا الاساس ، فلئن كان التمييز العنصري هو تفضيل عنصر على آخر او فئة على اخرى او شعب على اخر ، فان الصهيونية ترمي الى الغاء وتصفية وجود شعب واحلال شعب اخر محله . من هنا فان نعت الصهيونية بالعنصرية والتمييز العنصري يقصر في الواقع عن تبيان حقيقة الصهيونية ، فهي في الحقيقة لا تشكل شكلا من اشكال العنصرية والتمييز العنصري فحسب ، بل هي العنصرية في اسوأ اشكالها والتمييز العنصري في ابشع صوره . انها اخر مدى واخر حد في حدود العنصرية والتمييـــز العنصري . والتشابه شديد بين الصهيونية والنازية . فبينما آمنت هذه الاخيرة بان حل المشكلة اليهودية في المانيا يكمن في تصفية الوجود اليهودي ، آمنت الاولى بان حـــــل مشكلة عرب فلسطين تكون بتصفية وجودهم في بلادهم .

ان تصفية الشعب الفلسطيني كان هدفا للحركة الصهيونية منذ نشوئها . فلقد طالب هرتزل في يومياته باخراج السكان الاصليين خارج الحدود وبمصادرة عقاراتهم . وعندما سئل حاييم وايزمان عام ١٩١٩ عما يعنيه بالوطن القومي اليهودي اجاب : « فلسطين بالنهاية ستصبح نتيجة للهجرة اليهودية يهودية كما انجلترا هي انجليزية » (٦) .

وبالفعل استطاعت الحركة الصهيونية بالارهاب والقوة طرد القسم الاكبر مـــــن الشعب الفلسطيني من فلسطين حتى استطاعت انشاء دولة لليهود فيها .

وبينما ترفض السلطات الاسرائيلية عودة اي فلسطيني الى ارضه ، فهي تمنـــح بموجب قانون العودة الصادر عام ١٩٥٠ وقانون الجنسية الصادر عام ١٩٥٢ . كـــل يهودي اينما وجد في العالم الحق في اكتساب الجنسية الاسرائيلية لدى اقامته فـــي اسرائيـــل .

ان هذا ليس تمييزا عنصريا فحسب ، بل هو الغاء وجود وهوية شعب لايجاد هويــة لشعب اخر محله . انه ليس التمييز او المفاضلة بين شعب وشعب ، بل هو نفي للوجود الوطني لا بل الوجود المادي والجسدي لشعب من اجل ايجاد وجود وطني لشعب اخر.

ثالثا : ان هذا القرار يشير الى انحسار سطوة الولايات المتحدة والامبريالية بوجه عام عن الامــم المتحــدة

عندمــا جرى بحث موضوع ادانــة الصهيونيــة في اللجنــة الاجتماعيــة والانسانية والثقافية بذلت الولايات المتحدة جميع جهودها ، سواء في الامم المتحدة ، او خارجها للحيلولة دون نجاح القرار . وارتدت هذه الجهود طابع التهديدات العلنية السافرة والضغوط على مختلف الدول . فرئيس الولايات المتحدة اعلن عدم رضــاه عن مشروع القرار ، وتبعه مجلس الشيوخ بقرار اجماعي حث فيه الجمعية العامة على رفض هذا القرار ، وكذلك فعل مجلس الممثلين حيث قدم مشروع قرار بهذا الشأن وقعه ٤٣٦ ممثلا من مجموع ٤٣٧ .

وكان من جملة هذه التهديدات والضغوط المؤتمر الصحافي الذي عقده دونالد فريزر ، عضو وفد الولايات المتحدة الى الامم المتحدة ، في مقر هذه الاخيرة بتاريخ ١٩٧٥/١٠/٣٠ وهدد فيه بقطع الاموال الامريكية عن مؤسسات الامم المتحدة في حال اقرار الجمعيــة العامــة للقرار .

بيد ان هذه الضغوط لم تفلح بل ارتدت على اصحابها بضرر فادح اذ وقف منــدوب دولة جزر الموريتشس في الجمعية العامة ليفضح دور الولايات المتحدة في الضغــوط والمناورات التي مارستها على حكومة بلاده قائلا ما حرفيته : « يتذكر الوفود بانه لــدى تناول اللجنة الثالثة لمشروع القرار المتعلق بالصهيونية بتاريخ ١٧ تشرين الاول قــام وفدنا بتفسير موقفه من التصويت ، وبالواقع صوت الى جانب مشروع القرار وذلك على اساس التعليمات التي تلقاها من حكومة موريتشس . وفي هذا الصباح اتصل بي هاتفيا احد مندوبي وفد دولة ، قد يكون هو اكبر الوفود لدى الامم المتحدة — وانني لن اسمي ذلك الموفد حتى لا اتسبب في اي احراج او افشي سرا ثنائيا — ليعلمني بان سفير بلاده في عاصمة بلادي قد استلم تأكيدا واضحا من حكومتي بان وفدنا هنا في الامم المتحدة سيبدل موقفه ويصوت ضد مشروع القرار المتعلق بالصهيونية كما اوصت بذلك اللجنــة الثالثة .

« ... ويبدو لي ان الضغط والاكراه والتهديدات واللغة النابية والمواقف المتعالية والعنجهية التي لجأ اليها ممثلو بعض الدول المتقدمة الكبرى لم تعد منذ مدة ذات تأثير كبير على الدول الصغيرة المستقلة ذات السيادة والاعضاء في الامم المتحدة » .

بهذه التعابير الواضحة ، فضح مندوب دولة موريتشس ضغوط الولايات المتحــدة وبذلك يكون قد ثبت انهيار سطوة الامبريالية الامريكية على الدول المستقلة وانحسار هيمنتها على الامم المتحدة . وبالفعل ، فعلى الرغم من هذه التهديدات والمناورات والضغوط التي تلاحقت بين تاريخ ٧٥/١٠/١٧ ، وهو تاريخ اقرار اللجنة الثالثــة لمشروع القرار ، و ٧٥/١١/١٠ وهو تاريخ اقرار القرار في الجمعية العامة ، ارتفــع عدد الدول التي صوتت الى جانب القرار من ٧٠ دولة الى ٧٢ دولة .

ان هذا يثبت ان العالم في العقد الثامن من القرن الحالي هو غير العالم في العقــد السادس من القرن ذاته وان سطوة الامبريالية ، وسطوة الولايات المتحدة قد انحسرت وتقلصت امام مد حركات التحرر والاستقلال .

رابعا : ان هذا القرار يشير الى تطابق الموقف الامريكي مع الموقف الاسرائيلي

فضلا عن الضغوط والتهديدات العلنية والمستترة التي لجأت اليها الولايات المتحــدة

لمحاربة هذا القرار قبل صدوره ، فان ردود الفعل الامريكية على القرار كانت تساوي في عنفها وسرعتها لرد الفعل الاسرائيلي . فبعد المصادقة على هذا القرار ، وفي اليوم التالي على وجه التحديد ، اعلن رئيس الولايات المتحدة ان ليس للقرار « ما يبرره اطلاقا » . وبعد يومين من صدور القرار سارع وزير الخارجية الامريكية الى عقد مؤتمر صحافي في مدينة بتسبرغ ليصف القرار بأنه على « درجة عالية من اللامسؤولية » وكرر تهديده للدول التي صوتت الى جانب القرار قائلا « اننا نطلب من هذه الدول ان تتذكر بان استمرار هذا التصويت سيكون له اثر على علاقاتنا الثنائية والمتعددة الاطراف » (٧) . وكما انعقد الكنيست الاسرائيلي في اليوم التالي لصدور القرار ، انعقد مجلس الشيوخ الامريكي واصدر قرارا شجب فيه قرار الجمعية العامة ووصفه بأنه يشجع على اللاسامية كما طالب لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ ولجنة الشؤون الدولية في مجلس الممثلين باعادة تقييم مساهمة الولايات في الجمعية العامة للامم المتحدة .

وكذلك اجتمع مجلس الممثلين الامريكي في اليوم التالي لاصدار القرار وطالب ايضا باعادة تقييم مساهمة الولايات المتحدة في الجمعية العامة للامم المتحدة مما حمل رئيس وفد سيري لانكا لدى الامم المتحدة على القول : « لم اكن اعلم ان قرارات الامم المتحدة تحتاج الى موافقة الكونغرس الاميركي ! »

هذا الموقف الرسمي لاعلى السلطات الرسمية والمسؤولة في الولايات المتحدة يشير بكل وضوح وتأكيد الى تطابق الموقفين الرسميين لدى كل من اسرائيل والولايات المتحدة ويدفعنا مجددا الى التساؤل :

لئن كانت هذه هي مواقف الولايات المتحدة وحملة التحييد التي يقوم بها بعض المسؤولين العرب على اشدها وفي ذروتها ، فاي دليل على فشلها اكبر من هذا الدليل ؟

خامسا : ان هذا القرار بحاجة الى مزيد من التوضيح والتدعيم والاجراءات المساندة

ان هذا القرار يحتاج اولا الى مزيد من التوضيح والشرح لا سيما تجاه الدول التي وقفت ضده دون ان تكون معادية لنا بطبيعتها . فمن هذه الدول ، على سبيل المثال ، فنلنده وفرنسا وايطاليا والسويد وهي كانت قد امتنعت عن التصويت عن اقرار القرار المتعلق بحق الفلسطينيين في العودة الى بلادهم وتشكيل لجنة لوضع برنامج تنفيذي لتمكين الشعب الفلسطيني من تقرير مصيره وممارسة حقوقه الثابتة . وكذلك الامر بالنسبة الى الدول التي امتنعت عن التصويت عن هذا القرار كزائير وزامبيا ورومانيا التي تغيبت عن قصد عن الجلسة .

ان معالجة مواقف هذه الدول والدول التي وقفت ضدنا عامة ينبغي ان يتم على صعيدين اثنين : الاول هو الاتصال والحوار الدبلوماسي والاعلامي ، والثاني هو على صعيد مصالح تلك الدول في البلاد العربية . فعلى الصعيد الاول ، وعلى سبيل المثال ، يمكن الاستفادة من لجنة الحوار العربي الاوروبي وبالفعل اثير هذا الموضوع في اخر اجتماع لها في دولة الامارات العربية وينبغي تكثيف الجهود لشرح قضية الصهيونية في الاجتماعات القادمة ، لا سيما وان دول المجموعة الاوروبية وقفت موقفا موحدا ومنسقا ضد قرار ادانة الصهيونية وبذلت مجهودات واسعة لعرقلة اقراره . وعلى صعيد اخر ينبغي ان تشعر هذه الدول بان مواقفها المعادية لنا ستنعكس على مصالحها في البلاد العربية . وهذا امر هام لا سيما وان اسرائيل والحركة الصهيونية قد اخذت بممارسة هذه السياسة . ومثال ذلك التعميم الذي اصدرته الحركة الصهيونية في

نيويورك بتاريخ ٢٥/١١/٧٥ والـذي طلبت فيه الى اليهود الامتناع عن السفر الى المكسيك بقصد السياحة وذلك كعقاب للمكسيك على موقفها من قرار الجمعية العامة تجاه الحركة الصهيونية (٨) . وفي هذا المجال نذكر ان مجلس الامة الكويتي قد كرر رفضه مؤخرا المصادقة على اتفاقية عقدتها الحكومة الكويتية مع رومانيا وذلك بالنظر لموقف هذه الاخيرة من القرار ضد الصهيونية في الامم المتحـدة .

والى جانب الحاجة الى توضيح هذا القرار وتدعيمه لدى الدول ، فانه يحتاج الى مزيد من الايضاح لدى المؤسسات الشعبية التي نددت به لعجزها عن فهم حقيقة الصهيونية. ومن هذه المؤسسات الحزب الشيوعي الايطالي الذي نددت الصحيفة الناطقة باسمه « لونيتا » بقرار الامم المتحدة ورفضته لاسباب مبدئية . كذلك فعل سكرتير عام مجلس الكنائس العالمي في جنيف حين دعا الامم المتحدة الى اعادة النظر في قرار ادانة الصهيونية على اساس عدم قيام دليل على ان الصهيونية شكل من اشكال العنصرية . وكذلك اعترض على هذا القرار ببيان خطي عدد من المفكرين واصحاب الرأي الفرنسيين من بينهم فرنسوا ميتران ، بير مندس فرانس ، اندره مالرو ، جان بول سارتر ، سيمون دو بوفوار ورينه كاسان .

ان على منظمة التحرير ومؤسساتها المختلفة ان تبادر الى فتح حوار متصل ومكثف مع هذه المؤسسات والهيئات والشخصيات من اجل تبيان تطابق الصهيونية والعنصرية، ان على صعيد الفكر الصهيوني المجرد ، او على صعيد الممارسة العملية القائمة في اسرائيل . اننا لا زلنا بحاجة الى دراسات وابحاث لا سيما في اللغات الاجنبية لشرح كل ذلك . وفي الممارسات الاسرائيلية معين لا ينضب من اساليب العنصرية والتمييز العنصري فعلى سبيل المثال نشير الى قانوني العودة والجنسية والى وضع العرب في المناطق المحتلة عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧ وتعارضها التام مع ابسط القواعد المتعارف عليها لحقوق الانسان ، وكذلك الى التمييز في التعليم والى التمييز تجاه اليهود الشرقيين .

ان قرار ادانة الصهيونية بحاجة ثالثا الى مزيد من الدعم والاجراءات المساندة في الامم المتحدة . فالجمعية العامة قد قررت اعتبار العقد المبتدىء في ١٠/١٢/١٩٧٣ عقد محاربة العنصرية والتمييز العنصري ووصفت برنامج عمل لذلك من علاماته البارزة اقامة مؤتمر دولي لمحاربة العنصرية والتمييز العنصري في دولة غانا عام ١٩٧٨ . وعلينا الاستعداد منذ الان لهذا المؤتمر ، كما يقع على الدول العربية واجب تقديم المؤازرة المادية له . ومن الامور الجديرة بالبحث في هذا المجال الدعوة الى انشاء لجنة او وحدة خاصة في الامم المتحدة لدراسة الصهيونية كحركة عنصرية تعنى باعداد الدراسات والتقارير والنشرات الدورية عن عنصرية الصهيونية — فكرا وممارسة — وذلك على غرار وحدة الابارتهيد التي انشأتها الامم المتحدة . وهذا الامر ليس عسير التحقيق اذ ان الوفود العربية لدى الامم المتحدة قد نجحت في تشكيل لجنة خاصة للتحقيق في الممارسات الاسرائيلية التي تؤثر في حقوق الانسان في المناطق المحتلة (٩) .

ثم ان قرار ادانة الصهيونية بحاجة ، رابعا واخيرا ، الى مزيد من الدعم والاجراءات المساندة لدى اليهود نفسهم . فالقرار له وزن معنوي كبير وهام لدى اليهود غير الصهيونيين او المعادين للصهيونية . وقد قامت بعض المنظمات اليهودية غير الصهيونية بالاشارة له كما هلل له بعض الافراد اليهود الذين بعثـوا برسائل الى الصحف والمجلات مؤيدين ومباركين خطوة الامم المتحدة . ولعل اهم اجراء مساند ومدعم لهذا القرار في هذا المجال هو قيام الدول العربية بالاعلان عن استعدادها لاعادة توطين مواطنيها اليهود الذين غررت بهم الدعاية الصهيونية وحملتهم على مغادرة البلاد العربية

الى اسرائيل . ان مثل هذا الاعلان ، اذا ما عزز عمليا بفتح مجال العمل امام اليهود الراغبين في العودة وبانشاء مراكز في اوروبا لهجرة اليهود العرب من اسرائيل لاعادتهم الى بلادهم الاصلية ، سيشكل ضربة قاصمة للفكرة الصهيونية وشرخا هاما في المجتمع الاسرائيلي حيث يقدر عدد اليهود العرب بنحو ستين بالمئة من مجموع عدد اليهود في اسرائيل .

الحواشي

١ ـ ان اقوال المندوبين في جلسة الجمعية العامة منقولة من السجل الحرفي للجلسة كما هو وارد في وثيقة الامم المتحدة رقم A/PV 2400

٢ ـ اقرت الجمعية العامة ايضا وفي ذات الجلسة مشروع قرار اخر تقدمت به اللجنة الثالثة في تقرير منفصل يؤكد مجددا على شرعية نضال الشعوب من اجل الاستقلال والسيادة الاقليمية والتحرر من الاستعمار والسيطرة الاجنبية وذلك بجميع الوسائل المتاحة بما فيها الكفاح المسلح. ولقد اقر هذا القرار باكثرية ٩٩ صوتا وامتناع ١٨ دولة عن التصويت ولم يعارضه احد سوى اسرائيل .

٣ ـ جريدة **التايمز** اللندنية ، ١٩٧٥/١١/١٣ .

٤ ـ جريدة **لوموند** الفرنسية ع ١٩٧٥/١١/١٣ .

٥ ـ كما وردت في الميثاق الدولي لالغاء جميع اشكال التمييز العنصري ـ القرار رقم٢١٠٦ (٢٠)

٦ ـ Chaim Weizmann, *Trial and Error* (London, Hamish Hamilton, 1950), p. 305

٧ ـ جريدة **الهيرالد تريبون** (الدولية) ، ١٩٧٥/١١/١٣ .

٨ ـ تجدر الاشارة الى انه فضلا عن موقف المكسيك المؤيد للقرار ، كان الرئيس المكسيكي، ايتشفيريا ، قد عقد مؤتمرا صحفيا بعد صدور القرار في مكسيكو سيتي ادان فيه الصهيونية كحركة عنصرية . وقد رد رئيس رابطة الفنادق في المكسيك على بيان الحركة الصهيونية بقوله ان السياح اليهود يشكلون ٧٠٪ من عملاء المخابرات المركزية الاميركية في المكسيك .

٩ ـ انشئت هذه اللجنة بالقرار رقم ٢٤٤٣ (١٢) تاريخ ١٩/١٢/٦٨ وهي مؤلفة من ثلاث دول هي السنغال (التي حلت محل الصومال) وسيري لانكا ويوغوسلافيا وقد تدمت ستة تقارير حتى نهاية عام ١٩٧٥ ادانت فيها ممارسات اسرائيل في المناطق المحتلة .

حول النزعات العنصرية في العقيدة والممارسة الصهيونية

صبري جريس

اتخذت الجمعية العمومية للامم المتحدة يوم ١٩٧٥/١١/١٠ ، في دورة انعقادها الثلاثين ، بناء على توصية اللجنة الاجتماعية التابعة لها ، قرارا يقضي باعتبار الصهيونية شكلا من اشكال العنصرية والتمييز العنصري ، وذلك باكثرية ٧٢ صوتا ضد ٣٥ صوتا ، وامتناع ٣٢ دولة عن التصويت وغياب ٣ دول . واثار هذا القرار موجة استنكار شديدة لدى الدوائر الصهيونية والفئات المتعاطفة معها داخل اسرائيل وخارجها ، في اماكن مختلفة من العالم ، ثم حملة تشهير ضد الامم المتحدة عامة والدول التي صوتت لصالح القرار خاصة . كذلك قامت بعض الدول الكبرى ، وخاصةالولايات المتحدة الاميركية ، باصدار تصريحات تنم عن تهديد للدول التي تبنت هذا القرار او صوتت لصالحه ، بينما اعلنت اكثر من منظمة دولية او اقليمية استنكارها له باعتباره مجحفا بحق الصهيونية ، وينم عن انحياز لجانب العرب . وفي الوقت نفسه شنت مختلف الاجهزة الاسرائيلية والصهيونية الرسمية حملة مضادة على القرار ومؤيديه ، تخللتها نداءات تقليدية الى يهود العالم تدعوهم الى «دعم اسرائيل وتحقيق الصهيونية» .

ان ردة فعل الدوائر الاسرائيلية والصهيونية على قرار الجمعية العمومية ليست غريبة ، اذ ان هذا القرار عدا عن كونه ادانة عالمية لعقيدة يزعم اتباعها انهم « حركة تحرر قومي » يهودية ، ولهذا لا بد ان يثير سخطهم ، يمس في الوقت نفسه باحدى الاسس القانونية المهمة التيارتكزت عليها اسرائيل عندما اعلن عن قيامها كدولة،وذلك بوضعه علامة استفهام على قرار الجمعية العمومية الصادر في ١٩٤٧/١١/٢٩ والقاضي بتقسيم فلسطين الى قسمين ، واقامة دولة يهودية على قسم منهما . كذلك قد يعتبر هذا القرار بمثابة بداية اعادة نظر من قبل المجتمع الدولي في شرعية الانتداب الذي فرض على فلسطين مع نهاية الحرب العالمية الاولى ، وشرعية الاجراءات التي اتخذت بموجبه واسفرت في نهاية الامر عن صدور قرار تقسيم فلسطين لسنة ١٩٤٧ .

ان ما يثير الغرابة في هذه الحملة المضادة هو اشتراك عدد من الهيئات والمؤسسات المختلفة في العديد من دول اوروبا واميركا فيها ، وبعضها بحماس بالغ تكاد تظهر معها كأنها ملكية اكثر من الملك ، رغم انه ليس لهذه المواقف ما يدعمها ولا اساس موضوعيا لها . ان نظرة سريعة، مع قليل من الجهد، الى العقيدة الصهيونية وتاريخها وممارستها العملية في فلسطين وخارجها ، قبل قيام اسرائيل وبعدها ، تكفي لاظهار النزعات العنصرية في الصهيونية بشكل واضح ، يبدو معه ان مندوبي الدول التي صوتت الى جانب قرار ادانة الصهيونية باعتبارها شكلا من اشكال العنصرية لم يكونوا على خطأ في موقفهم هذا ، وبالتالي ليس هناك ما يبرر الحملة التي تشنها ضدهم الاجهزة الصهيونية او المتعاطفون معها او بعض الهيئات الدولية والشعبية التي تعتقد انها

بموقفها هذا تتصدى لما تسميه اللاسامية الجديدة . وسنحاول فيما يلي ان نعرض الملامح الرئيسية للنزعات العنصرية في العقيدة والممارسة الصهيونيتين ، منذ نشوئها وحتى اليوم ، وهي ملامح تبدو كافية للاثبات ان قرار ادانة الصهيونية ، الذي اتخذته الامم المتحدة ، كان قرارا عادلا له ما يبرره .

تحت تأثير الاستعمار

رغم ادعاء دعاة الصهيونية وبعض مؤرخيها ان حركتهم « عريقة » وتكاد تضاهي في قدمها قدم اليهودية نفسها ، وذلك من خلال الاشارة الى الحركات الدينية التي كانت تظهر بين اليهود من حين لاخر ، في هذا البلد او ذاك ، داعية اياهم للعودة الى فلسطين (« ارض — اسرائيل » حسب التعاليم الصهيونية) ، فلا بد من الاشارة اولا الى ان الحركة الصهيونية ، بعقيدتها ومفاهيمها الداعية الى اقامة دولة يهودية في فلسطين ، نشأت وتبلورت بين يهود روسيا واوروبا الشرقية خاصة ، وبعض يهود دول اوروبا الغربية ، خلال النصف الثاني من القرن الماضي ، دون ان تكون لها علاقة موضوعية واضحة مع المحاولات التي كانت تبذلها بعض الفئات اليهودية للعودة الى فلسطين والعيش بالقرب من الاماكن اليهودية المقدسة فيها ، من خلال نزعات دينية صرفة ، وكذلك دون ان تكون لها علاقة مع الدعوات التي كان يطلقها بعض الكتاب المغامرين من غير اليهود ، مقترحين اقامة دوله يهودية في الشرق . واذا اردنا تحديد تاريخ معين لبداية نشاط الحركة الصهيونية ، التي انجبت دولة اسرائيل ، ولا تزال تعمل حتى اليوم علنا بين اي فئة يهودية ، وفي اي دولة يسمح لها بالعمل فيها ، وسرا في البلدان التي لا تستطيع مزاولة نشاطها شرعيا فيها ، يمكننا ان نشير الى العام ١٨٦٢، عندما نشر — في العام نفسه — كتابان لمؤلفين يهوديين ، لا علاقة لاحدهما بالاخر ، يدعوان الى حل المسألة اليهودية ، التي تأزمت في اوروبا وقتها ، بواسطة اقامة دولة يهودية في فلسطين ونقل اليهود اليها . والكتابان هما « دريشات تسيون » (بحثا عن صهيون) لمؤلفه الحاخام تسفي هيرش كاليشر و « روما والقدس » لمؤلفه موشي هس .

بقيت آراء كاليشر وهس حبرا على ورق خلال العشرين سنة المقبلة ودون ان تبذل اية جهود جدية لاخراجها الى حيز الوجود ، عدا محاولتين محدودتين ، قامت باولاهما جمعية الاليانس اليهودية الفرنسية التي استطاعت ، سنة ١٨٧٠ ، اقامة مدرسة زراعية لليهود في وسط فلسطين بالقرب من يافا ، اطلق عليها اسم « مكفيه يسرائيل » وذلك بهدف مساعدة يهود فلسطين على الانتقال الى حياة العمل الزراعي المنتج، ونفذ الثانية اليهودي البريطاني الثري ، السير موشي مونطفيوري ، الذي استطاع اقامة عدد من المساكن ليهود القدس خارج اسوار المدينة المقدسة ، بهدف التخفيف من ضائقة سكنهم وكمقدمة لتحسين اوضاعهم عامة . ولكن هذا الوضع تغير مع مطلع الثمانينات من القرن الماضي ، عندما ادى اغتيال القيصر الروسي اسكندر الثاني عام ١٨٨١ من قبل جماعة من الثوريين الروس ، كان بينهم احدى اليهوديات، الى قيام حملة منظمة من المذابح والاعتداءات ضد اليهود في كافة انحاء روسيا ، وبولونيا ، التي كانت خاضعة وقتها للحكم الروسي (وكانت اغلبية اليهود في العالم تعيش وقتها في تلك البلدان) . وجاءت هذه المذابح والاعتداءات بمثابة تتويج للاجراءات والقيود اللاسامية التيفرضتها سلطات روسيا القيصرية على مواطنيها اليهود من جهة ولانهيار اسس حياتهم الاقتصادية ، بعد ان قطعت حملة تصنيع روسيا وسيرها على طريق النمو الرأسمالي شوطا لا بأس به من جهة اخرى ، مما أدى الى قيام حملة هجرة واسعة بين اليهود ،

بذلت السلطات الروسية كل ما في وسعها لتشجيعها . وتوجه معظم اولئك المهاجرين الى الولايات المتحدة (واستمرت الهجرة اليهودية من روسيا وبولونيا الى هذا البلد منذ ذلك الوقت وحتى الربع الاول من القرن الحالي ، واسفرت عن دخول نحو ٣ ملايين يهودي الى هذا البلد) والى اميركا الجنوبية ، أكثريتهم بقواهم الذاتية وقلتهم بمساعدة بعض المؤسسات اليهودية في اوروبا الغربية ، خاصة شركة الاستيطان اليهودية (J C A) ، التي اسسها البارون هيرش الفرنسي خصيصا لهذه الغاية . كذلك توجهت اعداد قليلة من اولئك المهاجرين ، لم تزد على بضعة الاف ، الى فلسطين .

ان بداية هجرة اليهود هذه من روسيا وبولونيا لم تتم ، بالطبع ، خلسة ، اذ كانت المسألة الرئيسية التي شغلت المجتمع اليهودي هناك خلال فترة غير قصيرة ، واثارت نقاشا واسعا وحادا بين اعداد من المثقفين اليهود الروس ، نخص بالذكر منهم بيرتس سمولينسكين وموشي ليف ليلينبلوم والدكتور يهودا ليف بينسكر (مؤلف كتيب «التحرير الذاتي » — ١٨٨٣) واليعزر بن يهودا . ويلاحظ عند الاطلاع على آراء اولئك المثقفين (وبعضهم نزعم حركة الهجرة الى فلسطين فيما بعد) من كتاباتهم المختلفة ان تفجر المسألة اليهودية في روسيا ، بالشكل الذي تم ، اوقعهم في حيرة وذهول ودفعهم الى التخلي تدريجيا عن مواقفهم السابقة الداعية الى العمل على ايجاد حل بواسطة تفاهم مع السلطات ، بعد الغاء اجراءاتها المناهضة لليهود ومنحهم حقوقهم المدنية ، اسوة بيهود اوروبا الغربية ، وتبني موقف اخر يدعو الى تأييد هجرة اليهود من روسيا وبولونيا . ومع الاقتناع بضرورة هجرة اليهود من بلدانهم تلك ، بدأ الحديث عن اقامة دولة يهودية في مكان ما ، وهو المكان الذي سرعان ما حددته الفئات المتدينة التي راحت تفرض زعامتها تدريجيا على هذه الدعوات واصحابها بأنه فلسطين ، دون غيرها . ويلاحظ ايضا من كتابات المثقفين والمفكرين اليهود الذين اشرنا لهم ، دون استثناء ، ومن كتابات غيرهم ان دعوتهم الى اقامة دولة يهودية في فلسطين تأثرت بشكل واضح للغاية بالمناخ السياسي الذي كان سائدا في اوروبا يومها ، وخاصة حصول عدد من الشعوب على الاستقلال والحكم الذاتي من جهة وازدياد نشاط الاستعمار وتعاظم نفوذه وسيطرته في اسيا وافريقيا من جهة اخرى . وبمقارنة اوضاع اليهود مع اوضاع الشعوب التي كانوا يعيشون بينها ، ومن خلال التفتيش عن حل للمشاكل التي تجابههم ، توصل اولئك المثقفون الذين تزعموا الدعاوة الصهيونية وقتها ، الى نتيجة مفادها ان اليهود لا يقلون شأنا عن باقي الشعوب الاوروبية ، وكما يحق لتلك الشعوب الحصول على استقلالها او استعمار مناطق معينة في اسيا وافريقيا ، يحق لليهود ايضا المطالبة « باستقلالهم » وترك البلدان التي يعيشون فيها واستعمار جزء خاص بهم — في فلسطين وجوارها بالطبع ، نظرا للعلاقات التي تربط اليهود بفلسطين عقب نشوء ديانتهم فيها — بل ان اليهود ، نظرا للمشاكل الخاصة التي تعترضهم والاضطهاد الذي يلاقونه هنا وهناك ، احق من غيرهم في ذلك .

وبهذا يكون التشبه بالاستعمار ومحاولة السير على خطاه اول عنصر في مركب الصهيونية .

آحاد هعام : المستوطنون « يحتقرون العرب ... ويضربونهم »

كانت حصيلة موجة الهجرة اليهودية من روسيا وبولونيا ورومانيا خلال الفترة الواقعة بين ١٨٨١ و ١٩٠٤ قدوم نحو ٢٥ الف مهاجر الى فلسطين ، ضمن حركة هجرة عرفت فيما بعد باسم الهجرة الاولى الصهيونية ، اتجه عدد منهم الى اقامة

مستوطنات زراعية لهم في اماكن مختلفة في فلسطين . ولكن لم يمر اكثر من عامين على بداية مشاريع الاستيطان هذه ، التي تعتبر بمثابة نقطة انطلاق للنشاط الصهيوني على ارض فلسطين ، حتى كانت الحركة التي دعمت اولئك المستوطنين وتأسست مع بداية موجة الهجرة اليهودية من روسيا — حركة هواة (او احبـاء) صهيون — تعلن عن افلاسها ، بحيث اضطر المستوطنون الى الاستنجاد بالبارون روتشيلد في باريس وطلب مساعدته ، فاستجاب لنداءات الاستغاثة التي وجهت له واعلن عن تبنيه لهم . وخلال الفترة التي عمل روتشيلد فيها في فلسطين ، أي منذ مطلع الثمانينات وحتى نهاية القرن الماضي ، استطاع شراء مساحات لا بأس بها من الاراضي الزراعية لصالح المستوطنين، تقدر ببضعة مئات الالاف من الدونمات ، معظمها من عائلات اقطاعية كبيرة — بعضها كان يسكن خارج فلسطين — وساهم في انشاء المستوطنات ، التي وصل عددها مع مطلع القرن الحالي الى نحو ٢٠ مستوطنة .

رغم المكاسب الاستيطانية التي حققها البارون روتشيلد وحركة هواة صهيـون في فلسطين ايام الهجرة الاولى ، يجمع مؤرخو الصهيونية علـى ان تلك التجربة انتهت بالفشل . ويرى اولئك المؤرخون ان اسبـاب ذلك الفشل تعود اساسا الى اعتمـاد المستوطنين على العمال العرب في ادارة شؤونهم — وبهذا تظهر الملامح الاولية للسياسة العنصرية الصهيونية — حيث اضطروا ، بسبب قلة خبرتهم في شؤون الزراعة وغربتهم عن البيئة التي انتقلوا اليها ، الى تشغيل العمال العرب لديهم « وتناسوا » ضائقـة اخوانهم خارج فلسطين ومهمتهم في « تحقيق الصهيونية » وتنفيذ الدور الطليعي الذي اوكل لهم لخلق اوضاع مناسبة في فلسطين لاستيعاب المزيد من المهاجرين اليها . ولكن الحقيقة تختلف عن هذا التقييم ، اذ ان ما حدث فعلا يتلخص في ان اولئك المستوطنين، الذين حصلوا على الارض والمعدات الزراعية مجانا ، وحصلوا كذلك على اعـانات مالية شهرية ثابتة من صندوق البارون روتشيلد او حركة هواة صهيـون ، لم يجدوا طريقة اسهل لتأمين عيشهم من استغلال العمال العرب ، الذين كانوا يعيشون اساسا على الاراضي التي سلمت لاولئك المستوطنين . ولم يمر وقت طويل حتى كـانت مئات العائلات العربية تعمل بأسرها لدى المستوطنين الجـدد ، بعـد ان انتقلت للسكن في المستوطنات او بجوارها ، بحيث يعمل رجال العائلة في حقول المستوطن ونساؤها في خدمة بيته . وعدا عن اوضاع الاستغلال هذه التي عاشها العمال العرب ، تعرضوا ايضا للاهانات وسوء المعاملة من قبل المستوطنين . ويصف آحاد هعام ، احد كبـار الفلاسفة الصهيونيين — اليهود ، الذي كان قد انتدب في حينه للتحقيق في اوضاع تلك المستوطنات ، هذه المعاملة بقوله ان المستوطنين « يتعاملون مع العرب بعداء وقسوة، يعتدون عليهم دون مبرر ويضربونهم باحتـقار دون سبب » . ويضيف آحاد هعـام محذرا : « ساد لدينا الاعتقاد خارج البلد بان العرب جميعهم متوحشون صحراويون ، شعب يشبه الحمير ، لا يرون ولا يفهمون ما يدور حولهم . ولكن هذا خطأ كبير ... ان العرب ، وخاصةسكان المدن ، يرون ويفهمون نشاطنا واهدافنا في البلد ، ولكنهم يسكتون ويتظاهرون بانهم لا يسلمون ، لانهم لا يرون في اعمالنا حتى الآن خطرا علـى مستقبلهم ... ولكن اذا جاء وقت ، يتطور فيه نشاط ابنـاء شعبنـا الى حد سحب البساط من تحت ارجلهم ، قليلا او كثيرا ، فان هؤلاء لن يتحركوا بسهولة من اماكنهم . » والواضح ان آحاد هعام صدق في نبوءته — تحذيره هذا .

هرتسل : « طلائع حراس المدنيـة ضد البربرية »

في الوقت الذي كانت فيه تجربة الاستيطان الصهيوني الاولى في فلسطين تصل الى

طريق شبه مسدود، مع نهاية القرن الماضي، كانت الفكرة الصهيونية تنتعش في مكان اخر، بفضل يهودي هنغاري الاصل ، يدعى الدكتور تيودور هرتسل ، كان قد انتقل للعيش في باريس ليعمل فيها مراسلا لصحيفة نمساوية . وهرتسل مؤلف كتاب « دولة اليهود » (١٨٩٦) ، احد الكتب الصهيونية الرئيسية ، ومؤسس المنظمة الصهيونية العالمية ، في المؤتمر الصهيوني الاول (١٨٩٧) ، واول رئيس لها .

تأثر هرتسل اثناء وجوده في باريس — هكذا يقول في مذكراته — بظواهر اللاسامية والعداء لليهود التي برزت اثناء محاكمة ضابط يهودي فرنسي ، يدعى درايفوس ، كان قد اتهم زورا بخيانة بلاده وتسليم معلومات عسكرية الى المانيا ، واستمرت محاكمته وقتا غير قصير ، الى ان ثبتت براءته في النهاية . ويبدو ان ظواهر العنصرية اللاسامية تلك قد اثرت على تفكير هرتسل ونشاطه اكثر مما ينبغي ، بحيث دفعته الى الترويج لعنصرية مضادة . ففي كتابه « دولة اليهود » الذي يدعو فيه للعمل على حل المسألة اليهودية بواسطة اقامة دولة لليهود ، ينطلق هرتسل من فرضيات تثير الاستغراب ، منها ان كل الشعوب التي يعيش اليهود بينها لاسامية ، « بعضها بقناع وبعضها بدون قناع » ، والمسألة اليهودية قائمة في كل مكان يوجد فيه يهود ، وتبرز مجددا في كل مكان يصلون اليه ، وان الشخصية اليهودية لن تسمح لنفسها ، ولن يسمح لها ، بالزوال لان أعداءها يعملون على تكتلها ، بعد ان جعلوا من اليهود شعبا واحدا . والواضح ان هرتسل بفرضياته هذه ينزع الثقة من كل شعوب العالم ، ولا يأمل منها اي خير تجاه اليهود — والطريق بين مثل هذه المعتقدات وبين العنصرية ليس طويلا . ويلاحظ ايضا ان هرتسل ، في تعامله السياسي مع الدول التي كان بحاجة لمساعدتها لتأمين تنفيذ مشروعه الصهيوني ، ينطلق ايضا من هذه الفرضيات ، اذ لم يجد ما يقوله للدول الاوروبية ، في محاولة منه لحملها على تأييد منظمته ، الا وعدها بان الصهيونيين سيكونون في فلسطين بمثابة « سور تجاه اسيا وطلائع لحراس المدنية ضد البربرية » . ولكن رغم ذلك لا نراه يكن احتراما كبيرا لتلك الدول ، او ممثليها ، ولا لغيرهم . ففي مذكراته يصف هرتسل ، مثلا ، كيفية مقابلته للممثل البابوي في فيينا بقوله انه دخل الى مقره بعد ان تلفت حوله ، يمينا ويسارا ، خشية ان يراه أحد ، « كمن يدخل الى بيت اساسه رديء » ، وخلال مقابلته مع سلطان تركيا ، لمفاوضته بشأن اقامة دولة يهودية في فلسطين ، لفت نظره اسنان السلطان « الطويلة الصفراء » .

لم يسفر نشاط هرتسل السياسي ، منذ عقد المؤتمر الصهيوني الاول سنة ١٨٩٧ وحتى وفاته سنة ١٩٠٤ عن مكاسب صهيونية تذكر ، عدا عن اقامة المنظمة الصهيونية العالمية ووضع الاسس للاجهزة التابعة لها (وهي انجازات صهيونية مهمة بحد ذاتها) . ولكن خلال عهده وضعت الاسس لمؤسسة تعتبر من اكثر المؤسسات الصهيونية عنصرية ، وهي شركة الكيرن كاييمت لاسرائيل (J N F) ، وأرسيت القواعد التنظيمية « الفلسفية » لاكثر التجمعات الصهيونية عنصرية ، ونقصد بهذا الصهيونيين المتدينين .

اقيمت شركة الكيرن كاييمت باعتبارها الاداة الرئيسية للحركة الصهيونية لشراء الاراضي في فلسطين . وبصفتها هذه ، ادخل الى عقد تأسيسها بند رئيسي ينص على ان الاراضي التي تشتريها ستكون ملكا دائما لليهود ، دون غيرهم . وقد عملت الشركة على تطبيق هذه السياسة بشكل صارم للغاية ، ودون هوادة ، بحيث لم تنتقل قطعة ارض من اراضي فلسطين الى ملكيتها الا وعملت اولا على طرد العمال الزراعيين العرب منها وسلمتها لليهود لاستغلالها ، محرمة عليهم حتى السماح للعرب بالعمل لديهم كعمال مأجورين ، وبموجب شروط قاسية تخولها استرجاع تلك الارض اذا اخل المستوطن

بهذه الشروط . ورغم المشاكل العديدة ، السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، التي نجمت عن هذه السياسة والخلافات الشديدة التي كانت تقع بين اليهود والعرب في فلسطين ، واحيانا بين الوكالة اليهودية وسلطات الانتداب ، بسببها ، ورغم ان هذه الممارسات تفضح الادعاءات الصهيونية التقليدية بشأن اعمال « التطوير » التي كانت تقوم بها في فلسطين ، لمصلحة اليهود والعرب ، فقد واظبت الكيرن كاييمت ، بعناد فريد في نوعه ، على تنفيذها خلال الحكم العثماني في فلسطين والانتداب البريطاني على البلد . واستمرت الشركة في تطبيق سياستها حتى بعد اقامة اسرائيل ، بل حملت حكومتها ـ كما سنرى ـ على اتباع سياسة التمييز العنصرية هذه حتى ضد سكانها العرب ، الذين يعتبرون ، رسميا على الاقل ، مواطنين فيها .

« شعب الله المختار » و « ارض ـ اسرائيل »

اذا كانت الكيرن كاييمت قد اقيمت بتأييد هرتسل وبركته فان «المؤسسة» العنصرية الاخرى ـ التنظيمات الصهيونية المتدينة ـ اقيمت رغما عنه ، او بصورة اكثر دقة ، كتحد لسياسته ومواقفه . فحتى ظهور هرتسل كان اليهود المتدينون ، عامة، يحجمون عن الحديث عن اقامة دولة يهودية في فلسطين او غيرها ، وان كان بعضهم يهاجر الى فلسطين من حين لاخر للعيش هناك ، وخاصة بالقرب من الاماكن اليهودية المقدسة ، او يساهم في تأسيس بعض المستوطنات اليهودية في البلد ، وذلك بفضل تقاليد او اجتهادات دينية مفادها ان دولة يهودية ، تجمع شتات اليهود ، ستقوم عند ظهور المسيح ـ المخلص ، الذي سيأتي لانقاذ اليهود خصيصا ، عندما يقترب العالم من نهايته وقبيل قيام القيامة . ومن يتوق من اليهود الى ساعة الخلاص هذه ويأمل « بالمساهمة » فيها وهو حي ، عليه الاكثار من اقامة الصلوات والابتهالات لله ، للاسراع في ارسال مسيحه . واما العمل على اقامة دولة يهودية ، بقوى بشرية،فليس الا كفرا ، لان اقامة مثل هذه الدولة يعتبر نوعا من « الضغط » على المسيح ـ المخلص و « اجباره » على الظهور قبل الوقت الذي حدده لذلك ، او « الاسراع في نهاية العالم » قبل اوانه. ولكن مع تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية وتكثيف هرتسل لنشاطه السياسي ولقاءاته مع عدد من زعماء العالم يومها ، لحملهم على تأييد مشاريعه، بشكل بعث الامل في اقامة دولة يهودية ـ وقريبا ـ تكونت لدى فئات المتدينين افكار اخرى . وعلى الاثر بدأت حملة اعادة نظر في الاجتهادات الدينية ومحاولة ملاءمتها للتطورات المتوقعة ، اهمها ادخال تعديلات عليها مفادها ان دولة يهودية ستقام فعلا عند ظهور المسيح ـ المخلص ، ولكن لا مانع من « مساعدته » والقيام بخطوات معينة تمهد لاقامة مثل هذه الدولة ، ثم اذا كان اليهود العلمانيون « الكفرة » ، من امثال هرتسل ومؤيديه ، يعملون لاقامة دولة يهودية لا يلتزم سكانها بتعاليم التوراة والتلمود ، فعلى اليهود المتدينين التعاون معهم ومحاولة التأثير عليهم للسير على هدى تعاليم الدين ، وليس مقاومتهم ، والسماح لهم بالاستمرار في جهلهم و « كفرهم » . ولم يتوقف الصهيونيون المتدينون عند هذا الحد ، اذ سرعان ما اتجهوا الى العمل على بلورة عقيدة متكاملة لهم ، وذلك بالاتجاه ـ طبعا ـ الى كتب الدين واختيار نصوص منها ، كانت سارية المفعول وملائمة للواقع ـ ربما ـ قبل مئات او الاف السنين لتبرير مواقفهم الجديدة . وتلخصت المعتقدات الجديدة هذه في الاعلان ان اليهودية هي دين وقومية في آن معا ، وان اليهود هم شعب الله المختار وفلسطين ملك لهم ، بناء على وعد الهي . وفي الوقت نفسه اسقطت كل الاسماء التي كانت تطلق على الديار المقدسة ، وخاصة اسم « فلسطين » ، واستبدلت بعبارة « ارض ـ اسرائيل » ، وبوشر بحملة مركزة

تهدف الى ابراز ذلك النوع من الاجتهادات الدينية الذي يركز على قدسية ارض ــ اسرائيل واهميتها بالنسبة لليهود ، من خلال تضخيم وتعميق الاراء التي تعتبر ان استيطان ارض ــ اسرائيل فريضة يجب على اليهودي تأديتها ، اسوة بباقي الفرائض التي تلزم اليهودية اتباعها بها . وارفقت هذه الاجتهادات بحملة من التشكيك في جدوى حياة اليهود في المهجر وانجازاتهم هناك ، مهما كان نوعها ، وبشكل يوحي بان اليهودي المؤمن ملزم بالانتقال من بلده للعيش في ارض ــ اسرائيل في اول فرصة تسنح له . واما تجاه غير اليهود ، وخاصة العالم المسيحي ، فقد تم التركيز على ان الصهيونية ليست الا مرادفا لليهودية او ، على الاقل ، اليهودية المتجددة .

لم يترك الصهيونيون المتدينون اجتهاداتهم هذه بمثابة حبر على ورق ، اذ سرعان ما اتجهوا الى تنفيذها بواسطة حمل المنظمة الصهيونية العالمية على تبني مطالبهم واضفاء طابع ديني على كل نشاطاتها ، وعندما فشلوا في ذلك عمدوا الى تنظيم انفسهم ليصبحوا قوة ضغط فعالة ، فاسسوا منظمة مزراحي المتدينة (التي تشترك حاليا في حكم اسرائيل تحت اسم « الحزب الديني القومي ») وكانوا بذلك اول حزب منظم داخل الحركة الصهيونية . واثر نشاطهم ، منذ مراحل تنظيمهم الاولى ، بشكل مباشر على الحركة الصهيونية . وكان من بين النتائج المترتبة على هذا النشاط ، مثلا ، ان اضطر هرتسل ، للحد من تأثيرهم او ربما لكسب تأييدهم ، الى تأليف كتاب جديد ، بعد ان نشر كتاب « دولة اليهود » ، بعنوان « الارض الجديدة ــ القديمة » (١٩٠٢) ، يصف فيه دولة المستقبلاليهودية ونظامها وطريقة العيش فيها في فلسطين ، دون غيرها ، « ككفارة » عما كتبه في « دولة اليهود » بشأن امكانية قيام دولة يهودية في الارجنتين ايضا ، وليس في فلسطين بالذات . كذلك كان اولئك المتدينون من كبار المعارضين لمشروع اقامة دولة يهودية في اوغندا ، الذي عرضته الحكومة البريطانية على هرتسل، واجبروه على التخلي عنه بعد ان هددوا بالانشقاق عن المنظمة الصهيونية .

ولم يقف الصهيونيون المتدينون عند هذا الحد ، وانما اتجهوا ايضا الى مناوءة ، ثم مطاردة التيارات المعارضة لهم داخل اليهودية ، التي لا تقبل باجتهاداتهم . وقد ذاق ، مثلا ، اليهود الذين يطلق عليهم اسم ناتوري كارتا ، داخل اسرائيل وخارجها ، الذين لا يؤمنون باقامة دولة يهودية من قبل الصهيونية ولا « يعترفون » باسرائيل وسلطاتها، الامرين من اضطهادهم . كذلك كانت هذه المعاملة من نصيب اليهود الاصلاحيين ، المتمركزين بشكل خاص في الولايات المتحدة ، نظرا لخلافاتهم الدينية معهم ، ومنها عدم ايمان الاصلاحيين بضرورة عودة اليهود الى فلسطين . وحتى اغودات يسرائيل ، رغم مساهمتها في المشروع الصهيوني ، ورغم ان نوابا منها يجلسون في الكنيست (البرلمان) الاسرائيلي ، لم تسلم من اذاهم ، لانها لا تفضل عيش اليهود في فلسطين على عيشهم في « المهجر » ، وتعتقد ان ارض ــ اسرائيل و « المهجر » متساويان من هذه الناحية.

ومع مرور الزمن وسع الصهيونيون المتدينون نشاطهم وازداد نفوذهم ، بحيث سيطروا على كافة النواحي الدينية في النشاط الصهيوني ــ وفيما بعد على الحياة الدينية في اسرائيل ــ وصبغوه بالعنصرية المكثفة الكامنة في مفهومهم الخاص لعقيدة « شعب الله المختار » وما يتفرع عنها . ولا نبالغ ان قلنا ان ادعاء «شعب الله المختار» وما يتبعه حتما من استعلاء على باقي الشعوب صراحة وضمنا ، ثم الادعاء ان فلسطين ملك ابدي ، وبناء على وعد الهي لهذا الشعب ، وما يترتب على ذلك من اجراءات لاستعادة البلد من سكانها وتسليمها لليهود ، هي الاسس العقائدية الرئيسية للعنصرية الصهيونية ، بشطريها « المتدين » و « العلماني » ، وما نجم عنها من اضطهاد للشعب الفلسطيني ، ثم طرده من بلده .

سياسة « العمل العبري »

مع وفاة هرتسل ، بدأت حقبة جديدة في تاريخ الصهيونية اسفرت عن وضع الاسس لعنصرية صهيونية « علمانية » ، لا تقل خطورة عن تلك التي سبقتها ، المتخفية وراء قناع الدين . فقد صادف موت هرتسل بداية موجة جديدة من الهجرة اليهودية من روسيا ، استمرت نحو ١٥ سنة (١٩٠٤ — ١٩١٨) وعرفت باسم الهجرة الثانية . وخلال هذه الفترة دخل الى فلسطين نحو ٣٠ الف مهاجر يهودي جديد ، ولكن معظمهم اضطر الى ترك البلد ، خاصة خلال الحرب العالمية الاولى ، بحيث لم يبق منهم هناك مع نهاية الحرب الا نحو ٦ الاف مهاجر .

لعب المهاجرون من ابناء الهجرة الثانية دورا حاسما في تاريخ الحركة الصهيونية في فلسطين وبلورة اكثر من ناحية في عقيدتها وممارستها العنصرية ، وامتد تأثيرهم ليشمل الواقع الاسرائيلي اليوم ، على اكثر من صعيد . فقد كان معظم اولئك المهاجرين من الشباب المتحمس ، الذي قدم من روسيا ، بعد الاضطرابات التي حدثت فيها وقتها وانعدام الاستقرار الذي ساد بسببها ، وهو متأثر بالمبادىء الاشتراكية التي كانت منتشرة في بلده ، وينوي دمج هذه المبادىء بالصهيونية واقامة مجتمع عمالي يسعى الى تحقيق « الصهيونية — الاشتراكية » في فلسطين . ولكن مع وصولهم الى البلد صدمهم الواقع ، اذ ان الحركة الصهيونية كانت تعارض حتى ذلك الوقت القيام بنشاطاستيطاني رسمي في فلسطين قبل حصولها على ضمانات دولية لذلك ، ولم تكن في الوقت نفسه تملك الامكانات المالية الكافية لدعم مثل هذا الاستيطان ، حتى ان ارادت ذلك . واما المستوطنون القدامى فقد رفضوا استخدام اولئك المهاجرين كعمال في مزارعهم ، بدل العمال العرب ، لانهم لم يكونوا يتقنون القيام بالاعمال الزراعية مثل العمال العرب اولا ، بينما يطالبون بأجر يفوق اجر اولئك العمال ثانيا . ولم يمر وقت طويل حتى ادرك المهاجرون الجدد ان عليهم الاعتماد على انفسهم ان ارادوا البقاء في فلسطين ، وايجاد السبل الكفيلة بتأمين ذلك .

وفي محاولاتهم لتأمين وجودهم في فلسطين ، او لتبريره ، اكتشف المهاجرون الجدد اكثر من طريقة ، كانت احداها اقامة المزارع الجماعية الخاصة بهم ، كالكيبوتس والموشاف وغيرها ، وذلك كحجر اساسي لاقامة المجتمع الصهيوني — الاشتراكي الذي تطلعوا اليه . وفي الوقت نفسه ، ومن خلال التجربة التي مروا بها ، وخاصة رفض المستوطنين القدامى استخدامهم وتفضيل العمال العرب عليهم ، ومن خلال سعيهم الى تأمين حاجاتهم الاقتصادية ، اتجه اولئك المهاجرون الى وضع الاسس لعقيدة خاصة بهم تبين كيفية تصورهم لبناء المجتمع الصهيوني — الاشتراكي في فلسطين . وملخص هذه العقيدة هو ان الحركة الصهيونية ملزمة بالعمل على ادخال تغيير طبقي على حياة اليهود الذين يفدون الى فلسطين ، وذلك بواسطة نقلهم الى حياة العمل الزراعي المنتج ، بدلا من المهن التي كانوا يتعاطونها في المهجر ، كالتجارة والحرف والمال وغيرها . وهذا التحول ضروري ايضا من ناحية اخرى ، لانه لا يمكن ان تكون فلسطين ملكا لليهود بمجرد استملاك اراضيها من قبلهم فقط ، وانما ينبغي ايضا ان يقوم اليهود انفسهم بالعمل على تلك الاراضي ، وتعاطي جميع الاعمال ، السهلة والشاقة ، عليها : «ارض عبرية » و « عمل عبري » . وبهذا رفع اولئك المهاجرون شعار « العمل العبري » ، الذي وضع ولا شك لتأمين حاجاتهم الاقتصادية أيضا ، الى مرتبة مبدأ أساسي ينبغي على الحركة الصهيونية الكفاح من اجل تحقيقه ، مهما كلفها ذلك من خسائر مادية ومعنوية ومن توتر للعلاقات بين اليهود والعرب في فلسطين ، بسبب الاجراءات

التي كانت تتخذ لطرد العمال العرب من اماكن عملهم لدى مستخدميهم اليهود ، لمجرد كونهم عربا ، واحلال يهود محلهم ، ورغم الخسارة الاقتصادية التي كانت تعود على اليهود بسبب ذلك . ومن الجدير بالذكر ان العمال الصهيونيين ، برفعهم شعار « العمل العبري » التقوا بشكل كامل مع رجال الكيرن كاييمت وسياستهم في استملاك الاراضي ، واصبحوا النصف المكمل لهم وساعدهم الايمن في تنفيذ سياستهم العنصرية ، بعد ان قام بينهم تحالف مرتكز على مصالح عنصرية مشتركة : الكيرن كاييمت تقوم « بتحرير » الارض او « اعتاقها » ، اي شرائها من مالكيها ، ومعظمهم من الاقطاعيين العرب ، وتطرد العمال العرب منها وتسلمها الى العمال اليهود ، الذين يتعهدون ، رسميا بناء على عقود توقع مع الكيرن كاييمت وادبيا بناء على الالتزام العقائدي بسياسة « العمل العبري » ، بعدم السماح للعمال العرب بدخول تلك الارض والعمل فيها ثانية . ومنذ ذلك الوقت ، اي منذ مطلع القرن الحالي ، وحتى اليوم لا يزال الطرفان ملتزمين بتنفيذ هذه السياسة ، سياسة « تحرير الارض » و « العمل العبري » التي اصبحت بمثابة صيحة الحرب للاستيطان الصهيوني في فلسطين ، ضد العرب ووجودهم في البلد .

ولعله من المناسب ان نورد هنا بعض الحوادث للدلالة على السخف العنصري الكامن في هذه السياسة . ففي عام ١٩٠٥ قام العمال اليهود في مزرعة بن ــ شيمن، في اواسط فلسطين بقلع غابة من أشجار الزيتون ، زرعت تخليدا لذكرى هرتسل ، كان عمال عرب قد قاموا بغرسها ، واعادوا غرسها من جديد ، لكي لا « تدنس » ذكرى هرتسل بزرع غابة تحمل اسمه من قبل عمال عرب . ويروي الدكتور روبين ، مدير المكتب الصهيوني في فلسطين ايام الحكم العثماني ، في مذكراته ان الادارة الصهيونية صممت ، عند وضع الاسس لمدينة تل ــ ابيب بصفتها اول مدينة يهودية في العالم ، استخدام عمال يهود فقط في بناء المدينة ، ولكنها عدلت عن هذا الرأي واضطرت ــ آسفة ــ الى طلب النجدة من عمال البناء العرب ، بعد ان انهارت الابنية التي اقامها العمال اليهود نظرا لعدم كفاءتهم . وفي الفترة نفسها أيضا ارسل المكتب الصهيوني في فلسطين مبعوثا من قبله الى اليمن ، استطاع حمل عدد من اليهود فيها ، على الهجرة الى فلسطين ، بهدف اسكانهم بجانب المستوطنات القديمة وحمل مستوطنيها على استخدامهم ، بدلا من العمال العرب ، لقاء أجر زهيد يقل حتى عن ذاك الذي كان يدفع للعمال العرب ، بحيث يستطيعون منافسة اولئك العمال ، لان « متطلباتهم قليلة » ويكتفون باجور زهيدة ، وذلك بعد أن خسر العمال الاشكناز تلك المنافسة . اي ان الادارة الصهيونية ، بعملها هذا ، لم تتورع عن استغلال عمال يهود من اصل شرقي ، في سبيل المحافظة على السيطرة الاشكنازية على العرب وعليهم (واليهود اليمنيون ، وحتى اولئك منهم الذين قدموا الى اسرائيل بعد قيامها ، لا يزالون يعتبرون من الطبقات المسحوقة للغاية في اسرائيل ، واوضاع اليهود الشرقيين عامة في اسرائيل ليست احسن كثيرا من اوضاع اليهود اليمنيين) .

وتجدر الاشارة هنا الى أن عنصرية سياسة « العمل العبري » لم تنحصر في الفترة التي تبلورت فيها او بين الذين وضعوا أسسها ، اي خلال الحكم العثماني في فلسطين وبين ابناء الهجرة الصهيونية الثانية الى فلسطين ، اذ ان جذورها تعمقت وامتدت لتلف اكبر جناح في الحركة الصهيونية ، وهو الجناح العمالي ، الذي تبناها كسياسة رسمية ولا يزال يمارسها حتى اليوم ، وذلك بفضل الظروف الخاصة التي نشأت فيها هذه السياسة وتأثيرها على المنظمات الصهيونية

وزعمائها ، الذين سيطروا فيما بعد على الحركة الصهيونية . فخـلال الفترة التـي تبلورت فيها أسس « العمل العبري » ، اقيم في فلسطين حزبان عماليان صهيونيان ، « بوعلي تسيون » و « هابوعيل هاتسعير » ، قبلا بهذه السياسة باعتبارها جزءا من عقيدتهم . وعندما اقيم حزب احدوت هعفوداه ، سنة ١٩١٩ ، بعد اتحـاد بوعلي تسيون مع مجموعة من غير الحـزبيين ، ليصبح اكبـر الاحزاب الصهيونية فـي فلسطين خلال اولى سنوات الانتداب البريطاني في البلد ، ورث الحزب الجديد هذه السياسة عن آبائه ، ثم اورثها بدوره الى حزب مباي ، الذي اقيم سنة ١٩٣٠ بعـد اتحاد احدوت هعفوداه مع هابوعيل هاتسعير . وعندما اقيم حزب العمل الاسرائيلي ، سنة ١٩٦٨ ، بعد اتحاد مباي مع حزبي احدوت هعفوداه ورافي ، اللذين كانا قـد انشقـا عنه سابقا ، انتقلت العدوى الى الحزب الجديد ايضا . وسنرى فيما يلي ان الجناح العمالي الصهيوني واصل على تنفيذ سياسة العمل العبري العنصرية واضطهاد العمال العرب ومحاولة طردهم من اعمالهم او دفع اجور اقل لهم ، خلال كل فتـرة وجوده ، ومهما كان الاسم الذي يحمله ، رغم ان ظواهر هذه السياسة اختلفت من فترة لاخرى ، بحسب الظروف التي كانت تمر بها . ومن الجدير بالذكر أيضـا ان سياسة العمل العبري اكتسبت ، من ناحية ثانية ، اهمية كبيرة وبعدا عميقـا بفضل تأييد عدد من زعماء الهجرة الثانية لها ، الـذين قدر لهـم فيما بعد ، بسبب اقدميتهم او مثابرتهم وعنادهم ، احتلال مراكز مرموقة في الاجهزة الصهيونيـة ، مكنتهم من تنفيذ هذه السياسة . ونخص بالذكـر من بين هؤلاء دافيد بن — غوريون (سكرتير الهستدروت ، ثم رئيس الوكالة اليهودية واول رئيس حكومة ووزير دفاع فـي اسرائيل) ويتسحاق بن — تسفي (ثاني رئيس لاسرائيل) وليفي اشكـول (ثالث رئيس حكومة في اسرائيل) وشموئيل دايان (احد مؤسسي حركة الموشافيم — ووالد موشي دايان) وابراهام هرتسفيلد (رئيس المركز الزراعي واحد كبار المشرفين على الاستيطان الصهيوني في فلسطين ايام الانتداب) ويتسحاق طابنكين (زعيم حزب احدوت هعفوداه الذي انشق عن مبـاي خـلال الاربعينات) وابراهـام غرانوت (رئيس مجلس ادارة الكيرن كاييمت) وغيرهم — وكلهم من كبار المؤمنين بسياسـة العمل العبري والعاملين على تنفيذها ، كل في مجال عمله او نفوذه .

عـارضـوا الـديمقـراطيـة البـرلمـانيـة

مع نهاية الحرب العالمية الاولى ، التي صدر خلالها وعد بلفور ، ثم اقرار الانتداب البريطانـي على فلسطين الذي تعهدت بريطانيا بموجبه بتسهيل اقامة « وطن قومي يهـودي » في البلد ، وسعت الصهيونية نشاطها ، وحـاولت حمـل السلطـات البريطانية على اتبـاع سياسة عنصرية ، في اكثر من مناسبة وعلى اكثر من صعيد ، تجاه العرب في فلسطين من خلال الزعم بأن تلك « الاجراءات الاستثنائية » التـي كانت تطالب بها ضرورية لوضـع الانتداب ، وشروطه التي تنص على اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، موضع التنفيذ . وعنـد تقديمها لهذه المطالب استندت الحـركة الصهيونية على بنود صك الانتداب ، والوثائق المتعلقة به ، التي كانت قد صيغت من خلال التواطؤ بين الصهيونية والاستعمار البريطاني ، وكلهـا تركز على ضرورة اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، والاجراءات التي ينبغي اتخاذها لتسهيل العملية ، وتتجاهل حقوق ابناء البلد الاصليين . ولعل ابلغ دليل على ذلـك أن صك الانتداب يذكر اسم اليهود فقط ويتحدث عن حقـوقهم وامتيازاتهم ، بينمـا يشير الى السكان العرب الاصليين بعبارة « الطوائف الاخرى » رغمان هذه « الطوائف

الاخرى » كانت تشكل ، يوم صدور صك الانتداب ، نحو ٩٠ ٪ من سكان فلسطين .

استنادا الى نصوص صك الانتداب ، التي أصرت الحركة الصهيونية على التمسك بها ، عارض زعماؤها العديد من الاجراءات التي كـانت تتخذهـا سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين ، من حين لاخر ، لمصلحة السكان العرب واليهود في آن معا . وكان من ابرز هذه الحوادث ، على سبيل المثال ، المعارضة الصهيونية لاقامة اي نوع من الحكم الديمقراطي في فلسطين ، اذ عدا عن موافقة الادارة الصهيونية على اقامة مجلس تشريعي في فلسطين خلال اولى سنوات الانتداب ، عندما كانت الحركة الصهيونية ضعيفة ، عامة ، وهو الاقتراح الذي رفضه العرب من خلال رفضهم للانتداب اساسا ، ولهذا كان نصيبه الفشل ، اصر الزعماء الصهيونيون بعد ذلك على رفض اي خطوة تهدف الى منح السكان العرب اي نوع من المشاركة في حكم البلد بواسطة اي هيئة منتخبة ، كليا او جـزئيا ، وافشلت كل المشاريع التي قـدمت في هذا الصدد ، منتقدة « الديمقراطية العددية » التي كانت اساسا لتلـك المشاريع . وتلخص الرد الصهيوني « المنطقي » على تلك المشاريع بالقول ان تنفيذهـا سيكون ممكنـا عندما يصبح اليهود اكثرية في فلسطين . كذلك وجهت الادارة الصهيونيـة اللوم ، في اكثر من مناسبة ، الى سلطات الانتداب ، عندما كـانت تبادر الـى انشاء مشاريع ، تعليمية او زراعية او صناعية ، قد تعود بالفائدة على العرب ، مدعية ان مثل هذه الاعمال يعتبر « تمييزا » بين العرب واليهود .

الكتاب والشعـراء الصهيونيون ضد العمال العـرب

بعد اقرار الانتداب على فلسطين ، اعاد الجناح العمالي الصهيوني تنظيم نفسه . ونركز في هذا المقال على هذه الفئة بالذات لكونها اكبر الفئات الصهيونية واكثرهـا تأثيرا على السياسة الصهيونية ، خاصة وانها تسيطر على الحركة الصهيونية العالمية منذ مطلع الثلاثينات وتحكم اسرائيل منذ اقامتها وحتى اليوم ، دون انقطاع ، فـي سلسلة من الاجراءات التنظيمية التي نفذت في مطلع العشرينات ، عندما شكلت احزاب وتنظيمات ، واقيمت مـؤسسـات صهيونيـة عمالية مختلفة . وخلال ارساء الاسس التنظيمية الجديدة هذه ، عاد الجناح العمالي وتبنى مبادىء « الصهيونية الاشتراكية » التي كانت قد اقرت حتى ذلك الوقت ، بما في ذلك سياسة « تحرير الارض » و « العمل العبـري » . ثم اضاف اليها عنصرا آخر ، اكثر « تقدمية » ، وذلك عندما رسـم سياسته تجاه العرب ، معلنا انه لن يتعامل مع الزعماء العرب الاقطاعيين ، بـل يعتبر الحركة العمالية الفلسطينية حليفا له ، ومعها فقط يمكن ان يصل الى حل لمستقبل العلاقات بين اليهود والعرب في فلسطين ، واذا كانت مثل هذه الحركة العمالية غـير موجودة او ضعيفة ، فمن واجبه العمل على خلقها او تقويتها . ولكن ، على الرغـم من ذلك ، عندما اقام العمال اليهود اتحادهم العمالي العام ، الهستدروت (النقابـة العامة للعمال اليهود في ارض ــ اسرائيل) أصروا على استبعاد العمال العرب منه ، ولم تشطب كلمة « اليهود » من أسم الهستدروت الا سنة ١٩٦٥ ، اي بعد مرور ٤٥ سنـة على قيامها ، بعـد أن سمح يومها للعمال العرب في اسرائيل بالانضمام اليهـا (وكانت الزعامة الصهيونية قد شجعت ايام الانتـداب اقامة اتحاد مستقل للعمال العرب في فلسطين ، ولكن مساعيها باءت بالفشل) .

ولم تكتف الزعامة العمالية الصهيونية بالاصرار على اتباع سياسـة « العمـل العبـري » حتى خلال ايام الانتداب البريطاني في فلسطين فقط ، بل حاولت ايضا حمل

السلطات على اتباع هذه السياسة ومنح الافضلية للعمال والموظفين اليهود في ورش الحكومة ودوائرها . وفي بعض المناسبات طالبت السلطات حتى بأن تدفع للعمال اليهود اجورا تزيد عن تلك التي تدفع للعمال العرب ، لقاء العمل نفسه ، مبررة طلبها هذا بأدعاء عنصري آخر مفاده ان « المتطلبات الثقافية » للعمال اليهود تزيد عن تلك التي يحتاجها العمال العرب . وبقيت سياسة العمل العبري ، خلال فترة الانتداب ، تتأرجح بين مد وجزر ، حتى مطلع الثلاثينات عندما وصلت درجة من الحدة دفعت السلطات البريطانية الى التدخل والحكم بالسجن على بعض مؤيديها من الزعماء العماليين . ولعله من المناسب التوقف قليلا عند هذه الفترة ، للاطلاع على بعض الاجراءات العنصرية « الطريفة » التي اتخذتها الزعامة الصهيونية لمنع العمال الزراعيين العرب من الوصول الى اعمالهم لدى مستخدميهم اليهود . فخلال النصف الاول من الثلاثينات كان الاقتصاد الصهيوني في فلسطين ، خاصة في مجال الزراعة ، يمر في فترة ازدهار لا عهد له بها ، وبحاجة الى اعداد كبيرة نسبيا من الايدي العاملة ، لم تكن متوفرة لدى اليهود ، بحيث اضطر ارباب العمل اليهود الى استخدام اعداد كبيرة من العمال العرب . ولكن تلك الفترة نفسها امتازت ايضا بصراع حاد بين الجناح العمالي الصهيوني وبين الصهيونيين الاصلاحيين اليمينيين ، بزعامة جابوتينسكي ، واتحادات العمال التابعة لهم ، المعروفة باسم نقابة العمال القومية ، في محاولة للسيطرة على مقاليد الامور بين المستوطنين اليهود في فلسطين ، وبالتالي على الحركة الصهيونية العالمية . وكانت احدى ساحات هذه الحرب ، محاولات السيطرة على سوق العمل اليهودي في البلد ، التي سرعان ما اتسعت من حرب بين العمال واليمين الى حرب على العمال العرب . وخلال هذه الحرب اضطرت الزعامة الصهيونية ، على سبيل المثال ، الى اصدار أمر بتعطيل الدراسة في المدارس الثانوية اليهودية وارسال الطلاب الى البيارات اليهودية لقطف ثمارها لمنع وصول العمال العرب الى هناك . ولما لم يجد هذا نفعا عمدت الى اقامة حراسات على مداخل البيارات لمنع العرب من دخولها ـ وكان من بين الذين اشتركوا في هذه الحراسات بنحاس سابير (فيما بعد وزير مالية اسرائيل ثم رئيس الادارة الصهيونية والوكالة اليهودية) ، الذي حكم عليه ، سنة ١٩٣٤ ، بالسجن ٦ اشهر بسبب ذلك . وقد أثار هذا الحكم مشاعر المثقفين الصهيونيين فقرروا الانضمام الى تلك الحراسات لابعاد « خطر » العمال العرب عن البيارات اليهودية التي كان اصحابها يفضلون العمال العرب لقيامهم بكمية اكبر من العمل لقاء أجر اقل من ذلك الذي يحصل عليه العامل اليهودي . وكان من بين المثقفين الذين اشتركوا في تلك الحراسات الشعراء تشرنيحوفسكي وشمعوني وفيخمان والكتاب براش وعجنون (الحائز فيما بعد على جائزة نوبل للاداب) وبورلا وكويغمان وغيرهم ، ومحرر « هآرتس » ، الدكتور موشي غليكسون .

بقي ان نشير فقط الى ان حدة سياسة العمل العبري قد خفت تلقائيا بعد الاحداث التي وقعت خلال الثورة العربية الكبرى في فلسطين (١٩٣٦/٣٩) ، وما تبعها من تزعزع العلاقات الاقتصادية بين العرب واليهود في فلسطين ، الى ان عادت حكومة اسرائيل الى تطبيقها بعد اقامة الدولة .

« الشرق » يثير قرف جابوتينسكي

لم تكن « مبادىء » العمل العبري الاسس الوحيدة التي تبناها الجناح العمالي الصهيوني او تصرف بموجبها ، خلال فترة الانتداب البريطاني على فلسطين ، اذ ان

تعديلات مهمة طرأت على عقيدة هذا الجناح السياسية ، وخاصة موقفه من العرب عامة ، وتصوره للعلاقات معهم ، حاضرها ومستقبلها . وكما كان عهد هرتسل والفترة التي تلته ، المرحلة التي تبلورت خلالها عقيدة الجناح الصهيوني المتدين ، كانت فترة الانتداب ، وخاصة سنوات العشرين ، الفترة التي تبلورت خلالها عقيدة الجناح العمالي . واستنادا الى نصوص صك الانتداب ، وربما مجاراة لها ، اعلن العمال عن نظرية سياسية جديدة ، تتلاءم مع الامتيازات التي منحها الانتداب للصهيونية . وتتلخص هذه النظرية ـ التي تعبر بحد ذاتها عن موقف اكبر الاجنحة الصهيونية من العرب ـ في ان « الحقوق في ارض ـ اسرائيل » (اي فلسطين) تعود لليهود الذين يسكنونها ولكل يهود العالم الذين ينوون القدوم اليها ، بينما يملك العرب الفلسطينيون حق السكن فيها فقط ، وهو الحق الذي يفقدونه في اللحظة التي يتركون البلد فيها (و « تطورت » هذه الاراء ـ المواقف فيما بعد ووصلت الى ضرورة « تشجيع » العرب الفلسطينيين ، من قبل الاجهزة الصهيونية ، على ترك البلد) ولهذا فالسيادة على فلسطين تعود لليهود ، دون غيرهم . أما ممارسة هذه السيادة فينبغي ان تؤجل الى أن يصبح اليهود اكثرية في فلسطين .

بقيت هذه الاراء ـ والعنصرية الكامنة فيها واضحة لجهة ادعائها بأمتيازات وحقوق سيادة لليهود لمجرد كونهم يهوداً ـ حتى نهاية العشرينات ، عندما اضطر العمال الى تعديلها تدريجيا ، منذ بداية الثلاثينات ، وأتباع مواقف اكثر تطرفا نتيجة لمعارضة العرب المتزايدة للنشاط الصهيوني في فلسطين من جهة والصراع داخل الحركة الصهيونية ، الذي اشتد يومها ، من جهة اخرى .

فعلى صعيد موقف العرب ونشاطهم ، جوبهت الحركة الصهيونية في فلسطين ، منذ مطلع الثلاثينات ، بمعارضة راحت تشتد من فترة لاخرى ، وصلت احيانا الى حد الاضطرابات كما حدث خلال ١٩٢٩ ثم ١٩٣٣ والثورة العربية الكبرى خلال ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ، وما تبعها من كتب بيضاء ، صادرة عن سلطات الانتداب ، والحديث عن تغيير السياسة البريطانية في البلد ، ثم ما فسرته الصهيونية بانه تخل عنها من قبل بريطانيا ، وخاصة بعد صدور الكتاب الابيض لسنة ١٩٣٩ ، الذي بقي رسميا ساري المفعول حتى نهاية الانتداب البريطاني على فلسطين سنة ١٩٤٨ . وقد دفعت هذه الاوضاع الصهيونيين ، في اكثر من مناسبة ، الى محاولة التقرب من العرب وبذل الجهود لايجاد حل للقضية الفلسطينية معهم . وجرى خلال الثلاثينات اكثر من لقاء ، ودارت اكثر من جولة من المفاوضات بين اليهود والعرب من فئات مختلفة ، داخل فلسطين وخارجها ، بهدف الوصول الى حل ما ، الا ان تلك المحاولات باءت بالفشل ، بسبب اصرار الصهيونيين على « حقوق » السيادة التي ادعوها لانفسهم وما تبع ذلك من طلبات منها مثلا ، عدم المس بالهجرة اليهودية الى فلسطين وعدم تقرير مصير البلد حتى يصبح اليهود اكثرية فيه ، او الاعتراف بامتيازات خاصة طالبوا بها من جهة ، وأصرار العرب على رفض الانتداب وما ترتب عليه ، ثم تقرير مصير فلسطين بناء على ذلك من جهة اخرى . أما العبرة التي استخلصها الصهيونيون من فشل محاولات التفاهم هذه فكانت ضرورة العمل على ايجاد حل منفصل لمسألة وجودهم في فلسطين ، دون الحصول على موافقة عرب فلسطين ، او حتى دون أخذ رأيهم .

غير ان التطور الاكثر أهمية ، الذي حدث خلال هذه الفترة ، وخاصة خلال النصف الاول من الثلاثينات ، كان ذلك الذي نجم عن الصراع الذي دار يومها داخل الحركة الصهيونية ، وما تبعه من تطرف ، ثم عنصرية ، في المواقف الصهيونية عامة . فخلال

النصف الثاني من العشرينات ، وفي نفس الفترة التي كان الجناح العمالي يبسط خلالها نفوذه على الاجهزة الصهيونية ، واحدا بعد الاخر ، ويدعم وجوده في فلسطين ، انتقل الجناح الصهيوني اليميني ـ الاصلاحي ، بزعامة فلاديمير جابوتينسكي ، من طور وضع النظريات وبلورتها الى مرحلة اقامة التنظيم الخاص به . ومع بداية الثلاثينات كان اليمين يخوض مع العمال صراعا مريرا هدفه السيطرة على الحركة الصهيونية ، داخل فلسطين وخارجها ، وخاصة في دول اوروبا الشرقية ، حيث كانت تتركز اكثرية مؤيدي الحركة الصهيونية بين اليهود . ولم تمر اكثر من ٥ سنوات على بداية هذا الصراع عمليا ، حتى ربح العمال الحرب وسيطروا على المنظمة الصهيونية ، سنة ١٩٣٥ ؛ بعد ان انتخب المؤتمر الصهيوني التاسع عشر ، الذي انعقد يومها ، اكثرية من ممثلي العمال ومن المتحالفين معهم لعضوية اللجنة التنفيذية الصهيونية ، واصبح بن ـ غوريون رئيسا للوكالة اليهودية ، بينما قام اليمين بالانشقاق عن المنظمة الام ، وأسس منظمة صهيونية خاصة به اطلق عليها أسم « المنظمة الصهيونية الجديدة » (التي عادت ، على اي حال ، وانضمت الى المنظمة الام بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، سنة ١٩٤٦) .

كان للصراع بين اليمين والعمال داخل الحركة الصهيونية تأثيره الواضح على مواقف ، ثم عقيدة بعض اجنحتها ، وخاصة العمال ، وهو تأثير لم يتوقف عند محاولة اليمين السيطرة على الحركة ثم فشله فانشقاقه عنها فقط ، وأنما تعداه الى اكثر من ذلك . فالصراع بين التيارين لميتوقف في اية فترة ، لا عندما كان اليمين جزءا من المنظمة الصهيونية ، ولا عندما انشق عنها او حتى عندما عاد اليها ، ولا يزال مستمرا الى حد ما ، حتى يومنا هذا . وقد شمل هذا الصراع ، في حينه ، معظم نواحي الفكر والممارسة الصهيونية ، وخاصة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية ولكن اضراره الرئيسية ، لجهة تصليب الموقف الصهيوني من العرب عامة ، نجمت عن الصراع في المجال السياسي اساسا ، رغم عدم وجود اي خلاف جوهري بين التيارين ، في هذا المجال ، بعد ان انحصرت مشاحناتهما في النواحي التكتيكية لا الاستراتيجية ، وبحيث لم يكن الاختلاف في وجهات النظر بين جابوتينسكي من جهة وبن ـ غوريون ، او وايزمان ، من جهة أخرى اكثر من تلك القائمة حاليا ، مثلا ، بين بيغن ورابين . ولكن على الرغم من هذا ، كان لتلك المشاحنات التكتيكية تأثير حاسم على بلورة موقف صهيوني عام من العرب يفوق في عنصريته كل المواقف التي سبقته . فاليمين الصهيوني ، في محاولته كسب التأييد والتصدي للعمال ، الذين كانوا يحتلون خلال صراعهم معه الموقع تلو الاخر ، لم يجد احسن من الغوغائية والتطرف لتوسيع نفوذه . وكان اولى خطواته ، في هذا المجال ، سحب « موافقته » على حدود فلسطين ايام الانتداب ، التي رسمت بموجب الصلاحيات التي منحها فرض الانتداب على فلسطين ، من خلال الادعاء بأن جابوتينسكي ، الذي صوت سنة ١٩٢٢ لصالح قبول اقتراح بريطانيا بفصل شرق الاردن عن المنطقة التي ينبغي ان يقام فيها وطن قومي لليهود ، وحصرها في فلسطين فقط ، اضطر الى القيام بذلك مرغما . وعلى الاثر ، عاد اليمينيون الى المطالبة بالحدود التي رسمتها الخارطة التي تقدمت بها المنظمة الصهيونية الى مؤتمر الصلح في باريس سنة ١٩١٩ ، وطالبت بموجبها بفرض الانتداب (وبالتالي سياسة الوطن القومي) على فلسطين بكاملها وجنوب لبنان ومنطقة الجولان في سوريا والقسم المأهول من شرق الاردن . وعلى الدولة المنتدبة ـ وفقا لطلبات الصهيونيين الاصلاحيين ـ اليمينيين ـ تنفيذ الانتداب والسعي حثيثا لاقامة انوطن القومي اليهودي ، دون لف او دوران ، حسب ما تفرضه عليها نصوص

الانتـداب . وأما العرب فلا ينبغي أخذ رأيهم ، او استشارتهم في ما ينبغي عمله لتنفيذ ذلك ، لان هذه هي ارادة المجتمع الدولي . ومع استكمال تنفيذ الالتزامات التي ينص عليها الانتداب واقامة الوطن القومي اليهـودي في فلسطين ، اي عندما يصبح اليهود اكثرية هناك وينشأ مجتمع ومؤسسات يهودية قادرة على البقـاء بقواتها الذاتية ، ينتهي الانتداب وتسلم السلطة في البلد الى المنظمة الصهيونية ، ويعلن عن قيام الدولة اليهودية . أما العرب سكان البلد فيستطيعون الاستمرار في العيش فيها كمواطنين ، وفق الانظمـة التي تقـرها تلك الدولة ، ومن منهم يريد الهجرة يستطيع القيام بذلك في اي وقت .

ان خلاصة افكار اليمين الصهيوني هذه صيغت هنا بلغة « مهذبة ولطيفـة » ، ولكنهـا نشرت في الاصل باشكال ولهجات وصيغ تنضح عنصرية ، جعلت اكثـر الصهيونيين اعتدالا يبتعدون عن التفكير في اي حل يتعايش بموجبه العرب واليهود في فلسطين او ، على الاقل ، لا يجرأون على التعبير عن آرائهم تلك خشية حملات التشهير التي كانت تشن ضدهم . ونكتفي هنا للدلالة على النفسية التي صيغت بهـا تلك العقيدة ، وبالتالي لمدى تأثيرها على المؤمنين بها او المتعاونين معهم باثبات رأي جابوتينسكي — وللرجـل تاثير سحـري على الجناح اليميني الصهيوني ويعتبـر منظره الوحيد ، ويحتل تلامذته والمتحالفون معهم ثلث مقاعد البرلمان الاسرائيلي حاليا — في الشرق والغرب وحتى اليهود الشرقيين ، طريقة التعامل التي يقترحها معهم . « غريب عني هذا « الشرق » وكل ما يتعلق بهذا التعبير » — هكذا يعلن جابوتينسكي ، « لا استسيغ جماله ولا افهم تقاليده ، اذناي تتمردان على انغامه ، وفكره لا يهمني ، ولو قدر لي ان ازور قبيلة اسكيمو في أقصى الشمـال ... لوجدت نفسي مرتاحـا بينهـا اكثر مما أشعر هنا » . وكيف اذن ستستطيع الدولة اليهودية العيش فـي هذا « الشرق » والتعامل مع سكانه « الشرقيين » ؟ — الجواب واضح : « بالمدى الذي سنضطر فيه ، خلال فترة الانتقال او بعـد ذلك ، الـى العيش في ارض — اسرائيل (اي فلسطين) في بيئة تفوح منها روائح « الشرق » — ان كانت تلك بيئة عربية او يهودية من اخواننا (يقصد اليهود الشرقيون) — فاننا نوصي بتلك الحركة ، التي يقوم بها كل منا بديهيا ، عندما يمر وهو يرتدي معطفا طويـلا في الشـوارع « الشرقيـة » الضيقة ، في استانبول او القاهرة او القدس : حين يرفع المعطف كي لا يطاله الغبار بأي شكل كان ، وينظر في اي مكـان يضع رجله . لا لاننا يهود ، ولا لاننا من اوروبا ، ولكن ببسـاطـة لاننـا بشر متحضرون » .

فضلـوا التقسيم علـى فلسطـين الموحـدة

كان للاراء التي طرحها اليمين ونشاطه الواسع على الساحة الصهيونية ، ثم فشل محاولات الوصول الى حل سياسي لمسألة العلاقات العربية — اليهودية في فلسطين خلال الثلاثينات ، وكذلك نشـوب الثورة العربية الكبـرى في البلد خلال ١٩٣٦ — ١٩٣٩ والتغيير في السياسة البريطانية ، كما تمثل في الكتاب الابيض لسنة ١٩٣٩ ، الذي اعتبرته القيـادة الصهيونية بمثابة تراجع من قبل بريطانيا عن الالتزامات التي تعهـدت بها بمـوجب صك الانتداب بشأن اقامة وطن قومي يهودي في فلسطين — كان لكل هذه العوامل مجتمعة تأثيرها الواضح في ازدياد تصلب السياسة الصهيونية . ويلاحظ ان الزعامة الصهيونية بدأت ، منذ نهاية الثلاثينات تتبع سياسة جديدة تمتنع بموجبهـا حتى عن النظر في اي اقتراح يدعو الى حل المسألة الفلسطينية من خلال

التعاون بين العرب واليهود ، وخاصة بعد ان كان المجتمع اليهودي في فلسطين قد وصل ، من ناحية ثانية ، الى مستوى من النمو والازدهار ، وبالتالي القوة ، يستطيع معه ، بحسب تقديرات الزعماء الصهيونيين ، اقامة كيان خاص به هناك والصمود امام المخاطر التي قد تواجهه ، ومنذ تلك المرحلة ادخلت الحركة الصهيونية تعديلا مهما على برامجها وسياستها ، بحيث راحت ترفض الحلول القائمة على اساس فلسطين موحدة ، واتجهت بدلا من ذلك الى المطالبة بالتقسيم .

تبنت الحركة الصهيونية فكرة تقسيم فلسطين حال طرحها جديا ، لاول مرة ، في اواخر الثلاثينات ، رغم الاحتجاجات اللفظية التي رافقت موقفها هذا وحديثها عن الغبن الذي يلحق باليهود واضطرارهم الى « التنازل » عن جزء من فلسطين ، بعد ان كانوا قد « تنازلوا » عن شرق الاردن يوم صدر الكتاب الابيض لسنة ١٩٢٢ . صحيح ان مشروع التقسيم ، الذي اعلنت عنه بريطانيا يومها ، والقاضي بأقامة دولة يهودية على جزء من فلسطين ، رفض من قبل المؤتمر الصهيوني الحادي والعشرين ، المنعقد سنة ١٩٣٩ ، والذي انهى اعماله قبل نشوب الحرب العالمية الثانية ببضعة ايام ، ولكن المؤتمر فوض الادارة الصهيونية في الوقت نفسه الاستمرار في الاتصالات مع بريطانيا حول اقامة دولة يهودية في فلسطين ، وهو قرار اعتبر بمثابة موافقة ضمنية على اقامة تلك الدولة على جزء من البلد فقط . وصحيح أيضا ان برامج بلتيمور ، الذي صيغ سنة ١٩٤٢ ، طالب أيضا بتحويل فلسطين بأكملها ، بعد الحرب ، الى « كومنولث يهودي » ، ولكن القيادة الصهيونية وبضمنها اولئك الذين كانوا من كبار مؤيدي ذلك البرنامج اصرت ، على الرغم من ذلك ، في كل اتصالاتها مع السلطات البريطانية ، وغيرها ، على الترويج لمشاريع تقسيم البلد ، واقامة دولة يهودية على جزء منه ، مع بذل المحاولات المضنية ، على مختلف الاصعدة ، لان يكون ذلك الجزء المخصص للدولة اليهودية كبيرا قدر الامكان . ومن المعروف جيدا ان الحركة الصهيونية وافقت أيضا ، دون تردد ، على قرار تقسيم فلسطين الصادر عن الامم المتحدة سنة ١٩٤٧ وقبلت به .

لم يقتصر قبول الحركة الصهيونية بفكرة التقسيم على الصعيد النظري ، وانما تعداه — بالطبع — ليصل الى الصعيد العملي ، فاتخاذ الخطوات الفعلية لتكريس ذلك التقسيم ثم تثبيته عند وقوعه . وفي هذا المجال ، استغلت القيادات الصهيونية التقسيم الذي حدث على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي بين العرب واليهود ، خلال احداث ١٩٣٦ — ١٩٣٩ ، وعملت بنشاط على الافادة من هذا الوضع وأقامة نظام اقتصادي يهودي مستقل في فلسطين ، يستطيع عند الضرورة الوقوف على رجليه دون التعامل اقتصاديا مع العرب . وحتى عندما انتهت الاضطرابات في فلسطين مع نشوب الحرب العالمية الثانية ، اصرت القيادة الصهيونية على التمسك بسياستها هذه خلال سنوات الحرب وبعدها ، فأقامت فعلا اقتصادا يهوديا مستقلا في فلسطين ، كان في ما بعد من العوامل المهمة التي شجعتها على القبول بقرار تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧ ، وساعدتها على الاعلان عن اقامة اسرائيل كدولة سنة ١٩٤٨ .

اضافة الى الاجراءات التي أشرنا لها ، شنت القيادة الصهيونية الرسمية أيضا ، منذ قبلت بفكرة التقسيم ، حملات شعواء على معارضيها السياسيين الذين كانوا ينادون بحلول على اساس فلسطين موحدة . وخلال هذه الفترة تعرضت ، بشكل خاص ، حركات هاشومير هاتسعير (اليوم جزء من حزب مبام) وايحود وغيرها من

الفئــــات الصغيرة ، او الافراد ، الذيــــن كانوا ينادون بحــــل علــى اساس اقامــــة دولــة ثنائيــة القومية ، من العرب واليهود ، فــي فلسطين الى حملات شرسة لدفعهم الى التخلي عن تلــك « الشعارات الضارة » ، التــي لا يعتــرف اصحابهــا بسيادة اليهود ، دون غيرهم ، على فلسطين . اما المعارضة ، المتمثلة في اليمين ــ الاصلاحي ، فقد عملت كل مــا في وسعها ، خاصة بواسطة منظماتهــا العسكرية ، وعلى رأسها اتسل (الارغون) ، لتوسيع الشرخ النفسي بين العــرب واليهود وزرع الشكوك بينهم ، وذلك بواسطة قتل الابرياء من بين العرب ، من حين لاخر ، دون تمييز ، واحيانا لأتفه الاسباب . وفي هذا المضمار ، كان رجال اتســل اول من لجأ الــى استعمال وسيلة تفجير السيارات الملغومة في الاسواق والمحلات العربية الامنة (وهي الطريقة التي « اقتبسها » العــرب فيما بعد) . وخاصــــة خلال المرحلة الثانية من احداث ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ ، كوسيلة لارهاب المواطنين العرب وحملهم على التخلي عــن معارضتهم للصهيونية او ، في مــرحلة لاحقة ، الى تــرك البلد . كذلك كان رجال اتسل اول من لجأ الى طرد العرب من قراهم ، خاصة في منطقة تل ابيب وجوارها ، قبل الاعلان عن قيام اسرائيل ، بينما اقرت الهاغاناه ، في الوقت نفسه ، اي خلال الاشهر الاولى لسنة ١٩٤٨ ، « الخطة د » القاضيــة بالسيطرة على القرى والمدن العربية ، الواقعــة ضمن المساحــة المقــررة للــدولة اليهودية ، واحيانا خارجها ، وطرد سكانها منها ثم هدمها ، في محاولة منها لاقامة دولة يهودية تكون اكثر ما يمكن « نقاء » وعلى اكبر مساحة من فلسطين يمكن السيطرة عليها .

قوانــين عنصريــة ...

رغم الجهود المضنية التي بذلتها القيادات الصهيونية ، على مختلف انتماءاتهــــا العقائديــة ، خلال ١٩٤٧ ــ ١٩٤٩ ، لاقامة اسرائيل كدولــة يهوديــة « نقية » ، وجدت تلك الدولة نفسها بعد اقــامتها ثم توقيعهــا على اتفاقيات الهدنــة مع الدول العربية المجاورة ، تضم اقلية عربية ، يزيد عددهــا قليلا علــى ١٠ ٪ من مجموع السكان ، قسم منها بقي في منطقتي الجليل والنقب بعد احتلالهما والقسم الاخر سلــم مع قراه ، في منطقة المثلث في وسط فلسطين ، الى اسرائيل ، بناء على اتفاقية الهدنة الاردنية ــ الاسرائيلية لسنة ١٩٤٩ . وفي تعامل سلطات اسرائيل مع هذه الاقلية ، منذ ١٩٤٨ وحتى اليوم ، تبرز العنصرية بأوضح اشكالها ، مصاغة في شكل قوانــين عنصرية تطبقها سلطات دولة بحق جزء من سكانها ، يعتبر ، رسميا من مواطنيها .

باشرت اسرائيل بتطبيق سياستها العنصرية بحق سكانها العرب منذ لحظة اقامتها ، عنــدما قامت بفرض الاحكام العسكرية عليهم حال سيطــرتها على المناطق التــي يعيشون فيها ، استنادا الى انظمة طوارىء كانت سلطات الانتــداب البريطاني قــد سنتها في حينه لاضطهاد كل من العرب واليهود في فلسطين ، تحت ستار المحافظــــة على استتباب الهدوء والامن . و بمــوجب الاحكــام العسكرية هذه ، فرضت مختلف القيود على السكان العــرب ، واهمها منعهــم من الانتقال من قراهم ومدنهم الى اي مكــان آخر في اسرائيل دون تصريح خطي بذلك ، صادر عن الحاكم العسكري او من ينوب عنه ، بحيث اجبروا على العيش في غيتوات صغيرة ، مكن وجودها السلطــــة من التحكم في مقدراتهم . وقد استغل نظام الحكم العسكري هذا بشكل ضمن للسلطة الاسرائيلية السيطرة على حياة العرب ، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، ومنع نشوء تنظيمــات او تطورات « معادية » بينهم ، لا ترضى عنها السلطة . وبقي هذا النظام

قائما ١٨ عاما ، الى ان الغي جهازه في اواخر سنة ١٩٦٦ ، وبعد ان ادى المهام التي اوكلت له ، رغم ان اساسه القانوني لا يزال قائما ، ويمكن اللجوء لاستعماله في اي وقت (ويعمل نظام مماثل له حاليا ، وعلى نطاق واسع ، في المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧) .

ولم تتوقف الاجراءات الاسرائيلية ، الصهيونية العنصرية ، عند هذا الحد بالطبع ، اذ ان جهاز الحكم العسكري لم يكن الا الارضية الضرورية لتنفيذ تلك الاجراءات ، التي سرعان ما اتسعت لتشمل كل المجالات التي اعتبرتها الصهيونية « حيوية » لضمان طابع يهودي — صهيوني لاسرائيل . وكانت اولى هذه الاجراءات تلك التي تتعلق بنظريات « تحرير الارض » الصهيونية القديمة ، اذ ان السلطات الاسرائيلية لم تكتف بالاستيلاء على ملايين الدونمات من الاراضي الزراعية وغيرها والاف البنايات ومئات القرى ، التي كان يملكها العرب الفلسطينيون الذين طردوا من بلادهم او اضطروا الى النزوح عنها ، لتوطين المهاجرين اليهود الجدد عليها ، وانما اتجهت ايضا الى مصادرة الاراضي التي يملكها العرب الذين بقوا داخل اسرائيل . ولهذه الغاية لجأت السلطات الاسرائيلية الى استغلال قوانين قديمة ، ثم سنت مجموعة جديدة من القوانين الخاصة بها ، اسفرت في نهاية الامر عن مصادرة ما تزيد مساحته على مليون دونم من الاراضي التي يملكها العرب سكان اسرائيل ، ابتداء بانظمة الدفاع (الطوارىء) لسنة ١٩٤٥ وانظمة الدفاع (مناطق امن) لسنة ١٩٤٩ ، مرورا بانظمة الطوارىء (استغلال الاراضي المبورة) لسنة ١٩٤٩ ، قانون تنظيم الاستيلاء على عقارات في ساعات الطوارىء لسنة ١٩٤٩ ، قانون اموال الغائبين لسنة ١٩٥٠ وتعديلاته وقانون استملاك الاراضي (مصادقة الاعمال والتعويض) لسنة ١٩٥٣ ، وانتهاء بقانون التقادم لسنة ١٩٥٨ وتعديل قانون الاراضي (تسوية حقوق الملكية) لسنة ١٩٦٠. ثم قانون الاراضي (الاستملاك للمقاصد العامة) لسنة ١٩٤٣ .

سلمت الاراضي التي صودرت بالشكل الذي اشرنا له الى المستوطنين اليهود ، لزراعتها او اقامة المستوطنات عليها ، ومع نهاية الخمسينات كانت عمليات المصادرة والتسليم تشرف على نهايتها . غير أن قصة هذه الاراضي ، وغيرها ، لم تنته عند هذا الحد ، فمع أواسط الستينات اكتشفت السلطات الاسرائيلية ان جزءا من المستوطنين الذين استلموا تلك الاراضي لفلاحتها راحوا يؤجرونها لعمال عرب لزراعتها أو يشركونهم في مشاريع لاستغلال تلك الاراضي ، لقاء منافع اقتصادية جمة تعود على المستوطنين من خلال استغلالهم للعمال الزراعيين العرب (استمرارا لظاهرة استغلال العمال العرب التي رافقت الاستيطان الصهيوني في فلسطين منذ نهاية القرن الماضي) . وعلى الاثر تحركت السلطات الاسرائيلية المختصة للتصدي لهذا « الخطر » وابعاد « وباء العمل العربي » عن الاستيطان الصهيوني ، فعملت على اقرار قانون عنصري اخر — قانون الاستيطان الزراعي (قيود لاستعمال الاراضي الزراعية ولاستعمال المياه) لسنة ١٩٦٧ — منع بموجبه المستوطنون اليهود الذين سلمت لهم « اراضي الامة » ، وهو تعبير يطلق على معظم الاراضي التي استدلت اسرائيل عليها او صادرتها من اصحابها ، لاستغلالها من استخدام العمال العرب لديهم ، او اشراكهم في استغلال تلك الاراضي ، تحت طائلة مصادرة حقوقهم في تلك الاراضي ، اي طردهم من مستوطناتهم . وبلغة أخرى ، منع العمال العرب بذلك من العمل حتى كأجراء على الاراضي التي كانت قد صودرت منهم او من آبائهم . ويبدو ان الاجراءات التي نص عليها القانون المشار اليه لم تكن كافية للقضاء على « وباء العمل العربي » وابعاد العمال الزراعيين العرب عن المستوطنات اليهودية (تماما كما كانت

تفعل الكيرن كاييمت ايام الانتداب وقبلها) ، فلجأت السلطات فيما بعد الى تعديل القانون وفرض عقوبـــات اشد قسوة على مخالفيه .

كذلك امتدت الاجراءات العنصرية الاسرائيلية ـــ الصهيونية ، الى مجالات اخرى ، ومن ابرزها فرض قيود على حقوق الجنسية العائدة للعرب . فقد اقرت اسرائيل ، مثلا ، بعد اقامتها قانون العودة الذي يسمح بموجبه ، عامة ، لكل يهودي بالقدوم الى اسرائيل والعيش فيها ، على ان يمنح الجنسية الاسرائيلية حال قدومه الى البلد ، بينما منع اللاجئون العرب الفلسطينيون من العودة الى ديارهم ، رغم القرارات المتعاقبة التي اتخذتها الامم المتحدة بهذا الشأن . وفي مرحلة لاحقة عدلت هذه القوانين بحيث سمح للسلطات بمنح الجنسية الاسرائيلية لاي يهودي يطلبها ، في اي مكان من العالم ، حتى وان كان وقتها مواطنا في دولة اخرى ، وذلك في محاولة لفرض « هيبة » اسرائيل، من خلال مطالبتها « بحماية » اولئك اليهود ، وبالتالي التدخل في شؤون الدول الاخرى الداخلية . ومقابل هذه التسهيلات في منح الجنسية الاسرائيلية ، وما ترتب عليها من حقوق ، نرى قيودا خاصة تفرض على العرب من سكان اسرائيل ، لجهة حقوقهم في الجنسية (غيرهم لا يحق له حتى المطالبة بذلك) في محاولة واضحة لتقليص ذلـــك العدد منهم الذي يحمل الجنسية الاسرائيلية والانتقاص من حقوقه داخل بلده .

ومن « مآثر » اسرائيل في مجال التمييز العنصري ضد مواطنيها العرب ايضا ، اتباع اجراءات تهدف الى « تقليل » عددهم والحد من تكاثرهم الطبيعي . فالحركة الصهيونية سعت دائما ، كما هو معلوم ، الى خلق اكثرية من السكان اليهود في فلسطين ، وقد تم لها ذلك داخل اسرائيل في حدود ما قبل ١٩٦٧ ، التي وصلت نسبة السكان اليهود فيها نحو ٩٠٪ . ولكن هذه النسبة ، رغم الهجرة اليهودية المستمرة الى اسرائيل ، راحت تنخفض من حين لاخر ، بسبب النسبة المرتفعة للتكاثر الطبيعي بين السكان العرب ، وبشكل ازعج السلطات الاسرائيلية المختصة وحملها ، خاصة في منتصف الستينات ، على التفتيش جديا عن طرق كفيلة بتغيير هذا الوضع . واستقر الرأي ، بعد دراسات عديدة ، على ضرورة زيادة المعونات المالية التي تدفعها الدولة للعائلات كثيرة الاولاد لمساعدتها على تربية اولادها وتشجيع العائلات الاخرى على انجاب المزيد من الاولاد . ولكي لا تستفيد العائلات العربية من هذه المعونات (وبعد أن قررت السلطات ان المعونات التي تحصل عليها تلك العائلات بموجب قوانين الضمان الاجتماعي كافية) عمدت السلطة الى دفع تلك المعونات بواسطة تعديل قانون الجنود المسرحين، سنة ٧٠ بحيث تقتصر هذه المساعدات على العائلات اليهودية كثيرة الاولاد فقط ، اذ ان معظم العرب لا يخدمون في الجيش الاسرائيلي ، وبالتالي لا يحق لهم الحصول على تلـــك المساعدات (ولكن على الرغم من ذلك ، على اي حال ، لم تزد نسبة التكاثر الطبيعي بين اليهود ، ولم تقل بين العرب، عما كانت عليه قبل اقرار هذه الاجراءات) .

وحتى العمال العرب لم يسلموا من التمييز ضدهم ، بعد اقامة اسرائيل . فحتـــى اولئك العمال كانوا يحصلون خلال السنوات الاولى لاقامة اسرائيل على اجر يقل عن الاجر الذي يتقاضاه العمال اليهود ، لقاء قيامهم بالعمل نفسه . وحتى موظفي الدولة العرب ، وعلى رأسهم معلمي المدارس الرسمية ، وهم اكثرية موظفي الدولة العرب ، كانوا يحصلون على اجور تقل عن تلك التي يحصل عليها المعلمون اليهود . ولم يتوقف هذا التمييز ، رسميا ، الا مع مطلع الستينات ، عندما وافقت الهستدروت ، النقابة العامة للعمال ، على قبول العمال العرب اعضاءا فيها ، وبعد ان اصبح الاقتصـــاد الاسرائيلي بحاجة لليد العاملة العربية (وبعد احتلال ١٩٦٧ ، انتقل هذا التمييز الـــى المناطق المحتلة يومها ، وطبق ضد عمال تلك المناطق الذين يعملون في اسرائيل) .

وما اوردناه لا يمس الا بعض مظاهر التمييز العنصري « الرسمي » الذي تطبقه اسرائيل ضد مواطنيها العرب . وينبغي ان نضيف اليها تلك الاجراءات غير المكتوبة التي تنفذ في مجال العمل والتوظيف والتعليم ، الخ ، مما يجعل العربي في اسرائيل ، في نهاية الامر وفي احسن الحالات ، مواطنا من الدرجة الثانية .

... وممارسات عنصرية

لم تقتصر تجربة التعامل العنصري ، من قبل السلطات الاسرائيلية ، على سكان اسرائيل العرب دون غيرهم ، اذ ان الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة والجولان وسيناء سنة ١٩٦٧ ادى الى فرض تلك المعاملة على السكان العرب في تلك المناطق المحتلة ايضا . والسياسة الاسرائيلية في المناطق المحتلة ، على اي حال ، لم تتوقف عند حد التمييز العنصري فقط ، وانما تعدته لتتخذ طابع سياسة استعمارية كلاسيكية .

لا حاجة بنا للحديث كثيرا عن الطابع الاستعماري للسياسة الاسرائيلية في المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ ، ويكفينا ان نشير في هذا الصدد الى الملامح الرئيسية لهذه السياسة، التي تمتنع من جهة عن ضم معظم المناطق المحتلة اليها ولكنها تصر في الوقت نفسه على عدم الانسحاب منها ، تدعي انها تعترف « بالهوية القومية » لسكانها الفلسطينيين من جهة وتطالب بحل مشكلتهم القومية من خلال مصالحها وحسب ارادتها من جهة ثانية ، تعلن انها لا تريد التدخل في حياة السكان العرب في تلك المناطق من ناحية وتعمل على ربطهم بعجلة الاقتصاد الاسرائيلي من ناحية ثانية . يضاف الى هذا كله اجراءات القمع التي تنفذها سلطات الاحتلال ضد السكان العرب ، من اعتقال وطرد واقامة معسكرات اعتقال ونسف بيوت ومصادرة املاك ، ثم اقامة المستوطنات في الاماكن التي تختارها ، وحتى دون ضم اراضي تلك المستوطنات اليها .

خلاصة القول ، يبدو ان الاستعمار الذي كان من بين العوامل الرئيسية التي ادت الى نشوء الصهيونية في نهاية القرن بعث ليصبح الطابع المميز للسياسة الصيونية ، كما يتضح من ممارساتها في المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ ، وخلال الربع الاخير من القرن العشرين .

تعاونوا مع اللاساميين والفاشيين والنازيين

يلاحظ المتتبع لتاريخ الصهيونية ونشاطها ، ان هذه الحركة وزعماءها ، على اختلاف مذاهبهم ، لم يمتنعوا عن التعاون مع اكبر اعداء اليهود ، من لاساميين وفاشيين ونازيين ، خلال تاريخهم الطويل ، في اي وقت بدا لهم فيه ان مثل هذا التعاون قد يعود بالنفع على الصهيونية او يساعدها على تنفيذ اي من مشاريعها . ونكتفي هنا للدلالة على ذلك بايراد بعض الامثلة على هذا التعامل .

ففي سنة ١٩٠٢ قام هرتسل بزيارة لروسيا القيصرية اجتمع خلالها مع فون بليفه ، وزير الداخلية وجزار الحركة الثورية واليهود في روسيا ، ووصل الى تفاهم معه (وحصل منه على رسالة خطية بهذا الشأن) مفاده ان تمتنع السلطات القيصرية عن اضطهاد اليهود الصهيونيين الذين يريدون الهجرة الى فلسطين ، وان توصي خيرا بالحركة الصهيونية لدى السلطان التركي ، وذلك في الوقت الذي كان بليفه يشن فيه ابشع حملات الاضطهاد ضد الحركة الثورية الروسية وضد اليهود في روسيا .

وفي سنة ١٩٢١ عقد جابوتينسكي ، وكان لا يزال يومها عضوا في الادارة الصهيونية، اتفاقا مع وزير داخلية حكومة روسيا البيضاء ، رغم ان تلك الحكومة قامت بارتكاب مذابح ضد اليهود في اوكرانيا من خلال مناوءتها للبولشيفيكيين ، تعهدت الحكومة الاوكرانيه بموجبه باقامة وحدة شرطة يهودية ، تساعد على حفظ الامن بين اليهود ، بناء على طلب جابوتينسكي ، وتعتبر جزءا من القوات المسلحة التابعة للحكومة الاوكرانية (حكومة بتليورا) . ولما وجهت الادارة الصهيونية اللوم الى جابوتينسكي لاقدامه على هذا العمل ، اعلن انه سار على خطى هرتسل وفعل مثله ، عندما عقد اتفاقه مع بليفه .

وفي اواخر الثلاثينات تمكن جابوتينسكي ايضا من اقناع حكومة بولونيا ، التي كانت تنهج سياسة مناوئة لليهود فيها ، بتولي تدريب اعضاء منظمته العسكرية ، اتسل ، لقاء تعهده بنقل اولئك الاعضاء وغيرهم من اليهود الى فلسطين ، بحيث تتخلص بولونيا منهم في النهاية . ولكن نشوب الحرب العالمية الثانية ، سنة ١٩٣٩ ، منع الاستمرار في عمليات التدريب تلك .

وفي مطلع الثلاثينات اجريت اتصالات عدة بين الزعامة الصهيونية وبين سلطات ايطاليا الفاشية ، واجتمع وايزمان بموسوليني اكثر من مرة ، في محاولة للوصول معه الى اتفاق يساعد على تنفيذ المشروع الصهيوني في فلسطين .

وفي سنة ١٩٣٣ ، وبعد سيطرة النازيين (كبار اعداء اليهود واليهودية) على المانيا توصلت الزعامة الصهيونية الى اتفاق معهم ، بقي ساري المفعول حتى نشوب الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ ، سمح بموجبه لليهود الراغبين في الهجرة الى فلسطين بنقل (هعفراه) املاكهم الى هناك . وقد تمكنت الحركة الصهيونية ، بواسطة هذا الاتفاق ، من تحويل ما قيمته ٨ ملايين ليرة فلسطينية ، وهو مبلغ ضخم اذا قيس بمقاييس تلك الفترة ، من الاموال والبضائع التي كان ملكا لليهود الالمان الى فلسطين ، وهي الاموال والبضائع التي ساعدت على اقامة اسس الصناعة اليهودية في فلسطين . اما القيادة النازية ، من ناحيتها ، فقد وافقت على هذا الاتفاق ونفذته لاستغلاله في كسر حملة المقاطعة التي شنتها المنظمات اليهودية في مختلف انحاء العالم للبضائع النازية ، احتجاجا على الاجراءات المعادية لليهود التي اتبعتها المانيا ، وقد تم لها ما ارادت .

وبعد اقامة اسرائيل قامت الحركة الصهيونية ، كما هو معروف ، بالحصول على ما تبقى من تلك الممتلكات (بل واكثر من قيمتها) في اطار اتفاقية التعويضات التي عقدت بين المانيا الغربية واسرائيل ، وساعدت على دعم اسرائيل وتقدمها اقتصاديا .

وحتى اليوم ، لا تزال اسرائيل — ومنذ فترة غير قصيرة — تحافظ على علاقات ودية للغاية وتعاون وثيق في عدة مجالات مع النظام العنصري في جنوب افريقيا .

وعليه . استنادا الى السجل الذي قدمناه حول الملامح العنصرية في عقيدة الصهيونية وممارساتها ، منذ نشأتها وحتى اليوم ، يظهر بوضوح ان الجمعية العمومية للامم المتحدة لم تخطيء عندما ادانت الصهيونية واعتبرتها شكلا من اشكال التمييز العنصري . ولا اسس موضوعية للحملة التي تشنها الدوائر الصهيونية في العالم ، او المتعاونين معها ، ضد هذا القرار او ضد الدول التي صوتت لجانبه .

لنا ملاحظة واحدة فقط حول هذا القرار — جاء متأخرا .

قراءة في الفسيفساء اللبنانيـــة

مـازن البنـدك

من الامور الصعبة قراءة فسيفساء السياسة اللبنانية في المرحلة الحالية . فهي اقرب شيء الى كلمات متقاطعة ولكن بلغات مختلفة ، فمسرح السياسة اللبنانية يشهد تفاعل الحقائق اللبنانية مع الحقائق الفلسطينية مع التيارات والمداخلات العربية والدولية . فلبنان يعيش صراع القوى المتناقضة في داخله ، والوجود الفلسطيني بكل نتائجه والذي اصبح أحدى الحقائق السياسية الجديدة ، وعلى ارضه تتداخل وتتجابه القوى الدولية والعربية التي تحاول كل منها ان تدفع الرياح الى قلاعها المتعارضة مع الاخرى ، ولبنان بعد ذلك دولة مواجهة مع اسرائيل بحكم كونها على حدود اسرائيل ، حتى ولو ارادت ان تكون خارج المواجهة الساخنـــة .

اذن ، نحن في لبنان نواجه وضعا مركبا وبالغ التعقيد ، ويكون من باب التبسيط الغبي محاولة تحميل احد عناصر الوضع اكثر مما يحتمل ، فعناصر الازمة او ازمـــة المأساة الحالية متشابكة ، متداخلة ، مؤثرة ، ومتأثرة ، وهي في مجملها تضع لبنان على مفرق طرق وتجعل من لبنان ساحة مجابهة ساخنة في الشرق الاوسط. من اين نبدأ ؟ من الاساس ، وهو الوضع اللبناني الداخلي ، وهو وضع مثالي للتفاعل مع المؤثرات والقوى الاخرى ، ثم الوضع الفلسطيني في لبنان ، ثم الصراع في وعلى الشرق الاوسط، وبعد اتفاقية سيناء ، ثم ... ثم ... اين هي الطريق السالكة والامنة ؟!

١ ـــ لبنان : برميل البارود الذي ينتظر عود الثقاب !

ينفرد لبنان بين الاقطار العربية جميعا بانه الوحيد الذي لم يتعرض بناؤه السياسي وبنيته الاجتماعية للتغيير او التطور منذ الاستقلال الى اليوم ، اي حوالي ثلاثين سنة . ففي خلال هذه الفترة شهد الوطن العربي من الكويت الى المغرب هزات سياسيـــة واجتماعية عنيفة غيرت جزءا ليس بسيطا من معالمه . فقد سقطت طبقة الافنديـــــة والبكوات في مصر وسوريا والعراق ، وسقطت الملكية في مصر والعراق، وانتزعت اقطار الشمال الافريقي استقلالها ، وفي الجزائر انتزعته بدماء مليون شهيد ، ودول الخليج والجزيرة شهدت ثورة نفطية نقلت حياة المواطنين كما لم تفعل ثورة اخرى في التاريخ ، ولم تبق ارض عربية لم تنلها يد التغيير ولم تتزحزح فيها الامتيازات السابقة للطبقات الحاكمة والعليا . وفي بعض الاقطار العربية اندثرت تماما الطبقات السابقة ، كما هو الحال في سوريا ومصر والعراق وليبيا واليمن بشقيه والجزائر وتونس ، وفي البقيـــة تراجعت الطبقات التقليدية ، واخيرا في السعودية تألفت وزارة جديدة معظم اعضائها من الشعب وليس من الاسرة المالكة . وفي الكويت نشاهد نموذجا فريدا للمشاركة فـــي السلطة بين القوى التقليدية والقوى الجديدة في ظل نظام برلماني .

الا في لبنان . فرغم الواجهات البراقة في الحمراء والكازينو والفنادق الفاخرة فقـــد احتفظت الطبقات العليا في المجتمع اللبناني بامتيازاتها واتيحت للفئات المالية فـــرص

الاثراء بلا حدود وبلا رقيب . ونظرة واحدة على اسماء الطبقة الحاكمة تكشف نظاما « وراثيا » يخلف فيه الابناء اباءهم ، والنظام الطائفي الذي اوجدته الصيغة اللبنانية حول الطوائف الى قبائل يحتكر زعامتها زعماء بالحصر والتعيين . ونظرة فاحصة على بنية المجتمع تبين مجتمعا متخلفا في قوانينه وتطبيقاته المالية والاقتصادية والاجتماعية .

ورغم تدفق رؤوس الاموال العربية النفطية ولجوء عناصر انسانية من اكفأ العناصر العربية التي اضطرت الى الخروج من اقطارها لسبب او لاخر واختيار لبنان كمقر جديد فان الطبقة العليا عجزت عن الافادة الكاملة من هذه الفرص الذهبية وتحويل لبنان الى سويسرا الشرق ، بمعنى قيام صناعة حديثة وزراعة الية وموطن مختار لراس المال العربي ، فلا تكون بيروت محطة عابرة في رحلة المال النفطي الى عواصم العالم الاخرى، وايجاد دولة حديثة يشعر فيها المواطن بروابط الانتماء الكاملة متجاوزا حدود الطائفية والعشائرية .

ولا يمكن العبور او الاستخفاف بالجهود الفردية الجريئة التي اتجهت الى بناء صناعات جديدة مستغلة ظروف توافر راس المال العربي التي تنبيء في حد ذاتها عن العبقرية اللبنانية وتنبيء ايضا عن امكانية بناء دولة صناعية حديثة .

ولكن الجهاز الحكومي تخلف عن موازاة التقدم اللبناني الخاص ، اي ان المفهوم الحديث في الدولة الليبرالية الراسمالية الحديثة لم يتحقق ، من حيث دور الدولة ومهماتها في وضع الضوابط والكوابح والحوافز لايجاد مجتمع متوازن بين الطموح الجارف للطبقات المالية الجريئة وضرورات الامن الاجتماعي للمواطن . وحين تعاظم قطاع البناء واشتدت الحاجة الى ايد عاملة جديدة ، اتجهت الفئات المالية الى الايدي الرخيصة القادمة من الخارج ، السورية والفلسطينية بل والتركية والباكستانية ، حتى سادت الايدي العاملة غير اللبنانية في قطاعات البناء والطرق وبقية القطاعات الشاقة . وكأن اللجوء الى هذا الاتجاه يعفي النظام من مهامه الاساسية في الدولة الحديثة ، الاعتناء بالطبقات الكادحة والدنيا في المجتمع ، وبناء نظام ضرائبي حديث ، وايجاد مختلف الضمانات الاجتماعية ، فلم تعط الدولة اهتمامها لهذه المهام الواجبة ، بل ، على العكس من ذلك فان استيراد العمل الرخيص ادى الى انخفاض الاجور في وقت قفزت فيه الاسعار العالمية ، واسعار المواد الاساسية بصفة خاصة ، حتى اصبحت اعباء الحياة العادية وبشق النفس ليست مسألة سهلة للذين يعملون .

وانخفاض الاجور او تجميدها في نقطة معينة وارتفاع الاسعار والايجارات العقارية شد الطبقة الوسطى الرقيقة الى تحت وقلل منها وزاد الاستقطاب الى فقراء معدمين وهم الغالبية المسحوقة واقلية محظوظة هي الاقلية الساحقة .

فبنية الدولة لم تتقدم على طريق التحديث ، بغض النظر عن الاعتبارات الايديولوجية اليمينية او اليسارية . فبقيت الدولة القديمة هي الاطار البالي لحياة ديناميكية متجددة. فالدولة الحديثة في الغرب الليبرالي ، تعني الضمانات الاجتماعية في التعليم وفرص العمل والصحة والتقاعد ، وتعني الضرائب التصاعدية وحماية الفقير والحد من شراهة راس المال الخاص وتقنين وتهذيب اندفاعات المغامرات الفردية وجنونها للتملك والاستئثار والتسلط . ففي الوقت الذي تحمي فيه الدولة الليبرالية راس المال الخاص فانها تقدم ضمانات للحد الاولي من الانسانية والتكافل الاجتماعي . فقد انتهت عصور الراسمالية القديمة التي لا تعرف حدودا . والدولة الحديثة في العالم الاشتراكي تعني امتلاك الدولة لادوات الانتاج واخضاعها لخدمة المواطن وتحقيق رفاهيته وسعادته .

فأين لبنان من كل هذا ؟

بقي لبنان « بلد الخمسة في المئة الذين يسيطرون على الخمسين في المئة من الدخل العام ، بينما القطاعات الشعبية — العمال الزراعيون وعمال القطاع الصناعي والبناء وسواهم لا يتجاوز مجموع مداخيلها ١٢ — ١٥ بالمائة من الدخل العام ، وهم غالبية السكان ؟! » والتشريع لا يطال الاغنياء ، فالقانون القاصر نفسه لا يطبق ، وليس هناك اية ضرائب على المضاربات العقارية التي رفعت ثمن المتر الواحد في الحمراء من مئتي ل.ل. الى حوالي ١٦ الف ل.ل.

والمحاولات القليلة لاضفاء صفات التحديث على مجتمع ليبرالي بلا كوابح باءت بالفشل . فمحاولة رفع الضريبة على المواد الاستهلاكية والمعروفة بقانون ١٩٤٣ ، تضافرت عليها وحوش النظام حتى اجهزت عليها . والمحاولة الاخرى لتقنين استيراد الدواء (محاولة الوزير اميل بيطار) الذي اصبح مجانا في معظم بلاد الغرب الرأسمالي، ناهيك عن العالم الاشتراكي ، انقضت عليه ايضا وحوش النظام . وبالاضافة الى معاناة الطبقة الكادحة ساد الشعور بعدم المساواة والاحساس بالفروق الهائلة بين طبقات كتب عليها ان تأكل خبزها بدمها وطبقات اخرى تصنع الثروات الاسطورية بالعمولات والوساطات وبأهون السبل .

وكان النظام اللبناني القائم على الطائفية اي الصيغة اللبنانية التي اصطنعت سنة ١٩٤٣ هو سبب هذا التعطيل الذي اصاب الحياة اللبنانية وجمدها في نقطة معينة . فهذه الصيغة كانت تصلح ان تكون بداية مؤقتة ، فحسب ، في رحلة طويلة ومتجددة . فليس من المعقول اقامة وطن على اقتسام المنافع والوظائف على اساس طائفي . فالاعتراف بالوضع الطائفي وهو الصيغة اللبنانية شيء ، ولكن اقامة الدولة التي تعني انتماء المواطن قلبا ولسانا ويدا لوطن وارض ، فهي شيء اخر . والاعتراف بالطائفية كاحدى مخلفات الماضي المتخلف واحدى رواسبه الهمجية هو تشخيص ضروري لامراض الجسم اللبناني ، على اساس المضي في بناء الدولة على طريق انهائها والقضاء عليها ، وتحويل الولاء القبلي للطائفة الى ولاء علماني للوطن . ولكن الاعتراف بالطائفية والاقرار ببقائها حالة دائمة يجب الاحتفاء بها والمحافظة عليها فهو يعني اولا واخيرا اقامة تجمع قبلي في ظروف طارئة ، سرعان ما يتشتت متى انتهى الظرف او استمر ظرف جديد .

ولعل السيد ريمون اده حين يقول بان الرؤساء الموارنة هم سبب بلاء هذا الوطن ، فهو يعني تخلف الرؤساء اللبنانيين عن اقامة الدولة الحديثة ، نظرا للسلطات الواسعة التي يملكها الرئيس اللبناني بموجب الدستور . ولعل الرئيس شهاب هو الرئيس الوحيد الذي استخدم كلمة العدالة الاجتماعية ، واتجه اليها ولو بنصف قلب ، واقام بضع مؤسسات فوقية ، ولكنها بعيدة عن صلب النظام واسسه ، التي بقيت على حالها لا يمسها شيء من قدام او خلف . اما الرئيس فرنجية فقد جاءت ولايته بعد ان تفاقمت الامور وتعرضت المنطقة لظروف صعبة تواجه ظروفا اصعب .

كذلك فان الديمقراطية اللبنانية التي نتجت عن الصيغة اللبنانية هي صيغة قاصرة في وجهين اساسيين : فهي ، اولا لا تتيح تمثيل القوى الجديدة في المجتمع ، اي القوى الشابة الطموحة واستيعابها ، وبالتالي قصور النظام عن التمثيل الحقيقي او الكافي للسكان والاستفادة من العناصر المثقفة والمستقبلية والقادرة على التجاوب مع متطلبات ومتغيرات العصر . وذلك نتيجة الاعتلال في قانون وطرق الانتخاب الحالية التي تحصر دائرة المنافسة بين طبقة سياسية تنتمي في معظمها الى مدرسة واحدة .

وثانيا ، فان النظام البرلماني الحالي ، ونتيجة لعجزه عن التمثيل الدائم لقوى المجتمع المتغيرة الجديدة ، قد فقد احدى مقومات الديمقراطية الحديثة وهي وجود التكتيك الذي

يسمح بالتغيير من داخل النظام وبواسطة اجهزته . وكما يقول هارولد لاسكي ، فان الدولة الديمقراطية التي تفقد تكنيك التغيير من داخلها فانها تحكم على نظامها بالموت حين لا تبقي لغير القوة والسلاح طريقا لاحداث التغيير المطلوب .

وبسبب ظروف مختلفة اتجهت الدولة الى الاعتناء بمناطق دون اخرى ، حتى تحولت مناطق بكاملها ، كالجنوب والهرمل وعكار الى مناطق محرومين .

وفي السنوات الاخيرة ، ازدادت الهجرة الى المدن حتى نما ما سماه المعلقون الاجانب « حزام البؤس » حول بيروت وهو حوالي ستماية الف من البؤساء الذين يعيشون في « مدن تنكية » بتعبير ادبيات حراس الارزة ، ولا يملكون من الاشعاع اللبناني سوى التلمظ بمشاهدة الانوار الحمراء وفترينافاتها .

وبسبب التوافق بين بؤس المناطق المحرومة وعذاب الحزام « التنكي » حول بيروت وبين انتماء هؤلاء الى طائفة معينة بالذات احس الكثيرون بان الامتيازات الطبقية هي نتيجة للامتيازات الطائفية ، حتى اصبح الشعور الطبقي ملازما للشعور الطائفي في احيان كثيرة . وفي الوقت نفسه ، فان « عقدة الاقلية » استمرت تنخر في جسم الطرف الاخر وتزداد حساسية وانفعالا .

وهكذا انتهت الصيغة اللبنانية سنة ١٩٧٥ الى ما يشبه « الانقسام العمودي » وتحول المجتمع الى هم ، اي اهل النظام واكلة الجبنة ، ونحن ، اي المسحوقين والفقراء .

ولعل اسوأ ما تتجلى فيه فظاعة صيغة ١٩٤٣ هو طبقة السياسيين اللبنانيين خاصة الاحزاب اليمينية التي تنتمي في الواقع الى عصر مضى . فاين هو الزعيم الذي يقول : اتركوا الاغنياء فلهم الله . . . بالمفهوم الاوربي الحديث ، لو ان سياسيا اوروبيا ظهر على التلفزيون ودافع عن الاغنياء بهذا المنطق ، لانتهت حياته السياسية على الفور . واين موقع الزعيم الذي يتحرك بمنطق مختار الضيعة فيبيع الكلام والمواقف بما يناسب المقام ، فهو مع قومه اشد ما يكون تعصبا ولبنانية وهو مع زواره الفلسطينيين اشد ما يكون عروبة وفلسطينية حتى تحسبه من اتباع القسام ؟

وتعبير اليسار الدولي الذي ورد على لسان بعض الزعماء هو تعبير قد انقرض ، بانتهاء الحرب الباردة وانقسام الكتلة الشيوعية لعدة محاور : موسكو ، بكين ، بلغراد ، صوفيا وانتهى استخدامه بوفاة دالاس . وتكراره يدعو الى السخرية والشفقة معا .

فالاحزاب التي تدعي تمثيل اعرض القطاعات المارونية لا تقدم شيئا جديدا يتجاوز صيغة ١٩٤٣ ، بل هي تريد ان تقف الدنيا عندها . وزعاماتها لا تجد غير الخوف والتخويف ايدلوجية تدعم بها مواقفها واستمرارها وتحويل النظام الى ساتر لكل امتيازاتها وفظاعاتها .

وفي الجانب الاخر ، ورغم الامراض التقليدية التي يتعرض لها اليسار العربي من الفرقة والانقسام ، نشأت الحركات التقدمية الجديدة ، التي تتكلم لغة العصر وتفهم منطقه وتعاني عذاب المحرومين وتقدم ايديولوجية الفقر الغاضب والبؤس المتمرد . وليس غريبا أن تجد في الحركة التقدمية اللبنانية اكثر الشباب اللبناني ، ومن جميع طوائفه ، وعيا وثقافة ونشاطا . ولا يمكن الا التسليم بان العناصر الديناميكية في اليسار اللبناني قد استطاعت ان تحوز ثقة الفئات المحرومة وان تحرك هذه الفئات بقيادتها . وهل أبقى اهل النظام القديم بابا اخر امام الشباب الجديد وضرورات التغيير وطموحات اجيال الفقر ؟!

وحرية التعبير النسبية التي يتمتع بها لبنان كان الجو المثالي الذي تستطيع فيه القيادات التقدمية ان تشحن طاقات الجماهير وتنمي وعيها وتحرك ارادتها في اتجاه التغيير . فلقاء العذاب مع الوعي به وباسبابه لا يترك سوى منفذ واحد ، قد يتأخر الوصول اليه ولكن لا بد منه .

ويجب الاعتراف ايضا بان المثقفين التقدميين استطاعوا ان ينفذوا في كثير من الاحيان من جدار الطائفية وان يكسبوا جزءا لا يستهان به من الراي العام المحسوب على الطائفية ، الى جانبهم .

ثم كانت هناك القضية الوطنية .فالوطن العربي، خاصة في الشرق، يعيش دائما قضية وطنية واحدة ، وهي القضية الفلسطينية منذ اقامة الدولة اليهودية في فلسطين المحتلة . فالقضية الفلسطينيه هي القضية المركزية في الحياة العربية منذ ١٩٤٨ اي منذ اكتمل الوعي العربي بالخطر الصهيوني ، لان الوعي به قبل ذلك اقتصر على الشعب الفلسطيني وجزء من الطلائع العربية الواعية . وكل المعارك التي خاضتها المنطقة كانت في سبيل فلسطين ، بشكل او باخر وبطريقة مباشرة او غير مباشرة ، سواء مقاومة الانظمة الفاسدة واسقاطها ، او طرد الاحتلال او محاربة الاحلاف كحلف بغداد الذي كان يتحدث عن خطر شيوعي موهوم لتفادي مجابهة الخطر الصهيوني الداهم ، او النضال في سبيل الوحدة .

ومنذ استقلال لبنان انعكست صيغة ١٩٤٣ او انعكس جانبها السلبي في المفهوم الطائفي للقضية الوطنية . فالواقع ان مواجهة الخطر الصهيوني لا تكتفي من لبنان بموقف ان لا يكون لبنان مقرا او ممرا للاستعمار وقد يكون هذا الموقف مقبولا او مفهوما سنة ١٩٤٣ ، ولكنه اصبح موقفا متخلفا بعد ١٩٤٨ . فلو غضضنا النظر عن روابط الامة الواحدة التي تربط الشعب المحيط بفلسطين المحتلة ، مهما كانت النظرة القومية ، فلا يمكن غض النظر عن الخطر المباشر الذي تشكله الدولة اليهودية على لبنان . فمنذ ١٩١٩ ، وفي مؤتمر فرساي طالب حاييم وايزمان ، ابو الصهيونية الحديثة ، بضم الجنوب اللبناني ومصادر المياه فيه الى حدود الوعد بالدولة الصهيونية . فكيف اذن ، اذا لم يكن من الممكن الى جانب الخطر الصهيوني ومطامعه في لبنان ، اسقاط الروابط القومية التي تربط لبنان بالكفاح العربي ضد الصهيونية .

وقد يقول البعض بان حماية جنوب لبنان هو اجدى بالضمانات الاجنبية ولكن هذه الحجة قد سقطت تماما في حرب ١٩٦٧ ، حين عجزت الضمانات الاميركية عن ان تحمي الضفة الغربية ورغم ان النظام الاردني هو من اخطر واهم حلقات الانظمة الموالية للسياسة الاميركية . ومن الخطأ اذا لم يكن من السفاهة والبلاهة الاعتقاد بأن الضمانات الاجنبية ، او اميركا ، يمكن ان تضع لبنان في موضع افضل من النظام الاردني . واذا كان الجنوب اللبناني لم يسقط للان فلأن الظروف التي تتيح حرية الحركة لاسرائيل في هذا الاتجاه لم تنضج بعد ، وحين تؤاتي الظروف فان اسرائيل لن تتوانى لحظة عن احتلال جنوب لبنان .

على اي حال ، ومهما اختلفت الاراء في جدية الخطر الصهيوني على لبنان فان عنصرا اساسيا في القضية لا يمكن المرور به ، وهو الاعتقاد العميق لجزء اساسي من السكان بان القضية الفلسطينية وبكل ما تعنيه من خطر على السيادة والارض اللبنانية هي قضية لبنانية . ولا يمكن الاستهانة بالمشاعر الجياشة لغالبية الراي العام اللبناني التي تعتقد بان الدولة لم تقم بكل ما عليها من اعداد عسكري والتزام مبدئي بالقضية ، وان المواقف

السياسية مهما كانت حيوية ومهمة فهي لا تكفي ، بل ذهب الشك الى ان هذه المواقف السياسية التي لا تكلف كثيرا هي حجة للتنصل من الالتزام المبدئي .

وقد ادت صيغة ١٩٤٣ الطائفية الى تقسيم عامودي جديد في الجسم اللبناني ، فجزء اساسي من الشعب اللبناني يعتقد بان القضية الفلسطينية هي قضيته الوطنية وجزء اخر ينظر اليها ، ان لم نقل بالشك والريبة ، فبالحياد والابتعاد . ومما زاد في حدة الانقسام الجديد حرارة القضية الفلسطينية العالية وتأثيرها العميق في القلوب والنفوس . فالرأي العام المتعاطف مع القضية الفلسطينية يرفض موقف الحياد ، وبالتالي يشكك في وطنية واخلاص الذين يقفون موقف الحياد .

وحين تقول احدى المجلات التي تصدرها المخابرات الاسرائيلية بان هنالك وجهتي نظر واحدة لبنانية وواحدة فلسطينية ، فان هذا الطرح مرفوض كله ، لانه في النهاية محاولة للخروج بلبنان من التزامه بالقضية الفلسطينية التي هي لبنانية بقدر ما هي فلسطينية .

جغرافيا ، لبنان دولة مواجهة مع اسرائيل ، وسياسيا ليس امامها الا ان تكون في موقعها الطبيعي حلقة اساسية في الجدار العربي المحيط باسرائيل . وتعلمنا تجارب التاريخ ان الحقائق الجغرافية ــ السياسية (الجيوبوليتيك) هي اقوى من كل الاراء والنظريات والاتجاهات ، فالحقائق اقوى من ارادة الافراد ومستقلة عنها . وحين لا تعترف الدولة بهذه الحقائق فانها تغامر بفقدان شعور الانتماء لمواطنيها ، والذي بدونه لا يكون هنالك وطن .

وهكذا فنحن في لبنان نشهد وضعا مثاليا للتحرك والانتفاضة :

* نظام قديم لا يعترف بالقوى الجديدة ويحصر الامتيازات السياسية والطبقية في طبقة يصعب تجاوز حدودها .

* جماهير مسحوقة ، تعاني الحرمان ، وتعتقد بان الفرص غير متكافئة بين المواطنين واخطر من ذلك بين المناطق .

* دولة قديمة غير قادرة على التلاؤم مع نمو القوى الجديدة والتجدد معها .

* انتشار الشعور بان الامتيازات الطبقية هي نتيجة للامتيازات الطائفية .

* نشوء حركات يسارية نشطة وجادة قادرة على الوصول الى اوسع قطاعات الرأي العام والجماهير المسحوقة .

* تخاذل الدولة ، وجزء من الرأي العام المناصر لها ، في مجابهة القضية الوطنية والتهرب من حقائق التاريخ والجغرافيا والقومية ، التي تفرض الالتزام المبدئي والفعلي والحياتي لمواجهة الخطر الصهيوني ، الذي يهدد المصير .

ماذا بقي اذن حتى يشتعل برميل البارود ؟ . . .

٢) الثورة الفلسطينية : حقيقة سياسية جديدة في لبنان .

اليمين اللبناني : ثورة مضادة او ضربة استباقية ؟

لم تأت الثورة الفلسطينية الى لبنان اعتباطا ، فقبل الطلقة الاولى في بداية ١٩٦٥ تجول اثنان من قيادة فتح ، ابو جهاد والشهيد ابو علي اياد ، في جنوبي لبنان وعرفا ان

الجبهة اللبنانية هي ارض مثالية للحرب الشعبية التي تنوي فتح ان تفجرها . فطبيعة الارض تساعد على شن حرب العصابات داخل الاراضي المحتلة انطلاقا من جنوب لبنان والعودة اليه بعد ذلك ، كما ان الاهداف الاسرائيلية التي يمكن ان تطالها الضربات الفدائيه تصيب شمال اسرائيل الذي يتركز فيه جزء اساسي من الصناعة الاسرائيلية وتزداد فيه الكثافة السكانيــة .

وبعد سنة ١٩٦٧ ، وبعد ان تصاعدت الاعمال الفدائية من جنوب لبنان قــال جمال عبد الناصر لبعض زواره من القادة الفلسطينيين : ان العمل الفلسطيني الذي ينطلق من جنوب لبنان شيء اساسي ، فهو يضطر اسرائيل الى وضع جزء من قواتها في الجبهة اللبنانيه ، وهذا يخفف من الضغوط على بقية الجبهات من ناحيــة ويزيــد النزيــف الاسرائيلي من ناحية اخرى . وقد قال عبد الناصر هذا الكلام حين كان يخوض حــرب الاستنزاف في قناة السويس وسيناء ورأى في الجبهة اللبنانية التي يشعلها العمــــل الفدائي حلقه مكملة لاستراتيجية حــرب الاستنزاف في القنـــاة .

وكان العمل الفلسطيني من لبنان يعني شيئين :

اولا ، تأكيد الالتزام اللبناني بالقضية الفلسطينية . فالوجود الفلسطيني جاء بكــل نتائجه . فالهجمات يقابلها هجمات ، والمواجهة الساخنة تجري يوميا علــى ارض الجنوب . والذين يؤمنون بأن فلسطين هي قضية لبنان رأوا في الوجود الفدائي قــوة يجب ان تكون . ونديرا بالخطر الصهيوني الذي يتهدد لبنان لا بد من ان يستنفره .

ثانيا . تحول الفلسطينيون في لبنان من مجرد لاجئين الى ثورة تحمل السلاح . ولــم يعد ممكنا ان تتعرض المعسكرات الفلسطينية الى صنوف المعاملات التي كانت تتعرض لهـــا في السابق .

ولم تمض فترة طويلة قبل ان نبدأ الحساسيات وتحدث الصدامات ، المفتعل جــزء منها . وكان من ابرز اسباب الصدام لجوء بعض اطراف الصراع اللبناني الداخلــي الى استخدام المسألة الفلسطينية لاسباب داخلية محضة . فالمكتب الثاني ، حينذاك ، كان يفتقر الى تأييد الرأي العام المسيحي ، فضخم الاحداث وافتعل الصدام لاستعادة بعض الرأي العام ، وقد فضحت رسالة فتح المشهورة سنة ١٩٦٩ للشعب اللبناني تحركات المكتب الثاني لافتعال الصدام وكشفت عن خطة لاحراق بيروت . (هل حريق سرسق تنفيذ لخطة قديمة ؟ .) ولكن تماسك القوى العربية ، في عهد عبد الناصر ، منع المزيد من المتاجرة والتدهور ، وانتهت المصادمات الى اتفاقية القاهرة التي وقعها عن الطرف اللبناني (حينذاك) قائد الجيش العماد بستاني ، وصدقها رئيس الجمهورية السيد شارل حلو ومجلس الوزراء ومن بين اعضاءه السيد بيير الجميل .

ورغم مختلف الاراء حول اتفاقية القاهرة فهي تعني ان وضعا جديدا قد نشأ فــي لبنان ، وهو حرية العمل الفدائي وشرعيته من وفي الاراضي اللبنانية وفق شروط معينة ، وهذا الوضع يشكل الحد المعقول للالتزام اللبناني بالقضية الفلسطينية .

ولكن احداث الاردن سنة ١٩٧٠ والتي انتهت بتصفية العمل الفدائي هناك دفعت ببعض القوى الى اعادة النظر في الوضع الفلسطيني في لبنان . وتضافر عاملان ، واحد داخلي واخر دولي ، لدفع الاحداث لصدام لبناني ــ فلسطيني جديد ، ينهي اتفاقيــة القاهرة ويعود بالفلسطينيين في لبنان من ثورة الى لاجئين من جديــد .

العامل الداخلي ، الذي قد يكون مخاوف حقيقية او عودة لاستخــدام المسألــــة

الفلسطينية في الصراع السياسي الداخلي ، يوجه للثورة الفلسطينية اتهامين : الاول : انها اخلت بالتوازن السكاني ورجحت عدد احدى الطوائف على حساب الاخرى . والثاني : ان الثورة الفلسطينية هي نصير لليسار اللبناني وهي التي اتاحت له فرص التحرك والتعبئة والقوة .

ومن السخف المرور بهذين الاتهامين وكأنهما مجرد تجريح مقصود وسوء نية . فمن المؤكد ان الثورة الفلسطينية بقوتها واشعاعها وديناميكيتها لها تأثير مهم في كل الاقطار العربية ، ويختلف هذا التأثير من بلد الى بلد . ومن الطبيعي ان يكون تأثيرها في القطر الذي تتواجد فيه اكثر من مكان اخر لا تتواجد فيه . وفي العشرين سنة الاخيرة عاش الوطن العربي كله وهو يتفاعل ويتأثر بثورة عبد الناصر ، وليس عيبا ان تتمتع الثورة الفلسطينية بالقدرة على التأثير ، بل ان ذلك احد اسباب قوتها واستمرارها .

وفي لبنان ، وبدون شك ، استطاعت الثورة الفلسطينية ان تكون قوة مؤثرة بحق . ولكن ، في اي اتجاه ، ولمصلحة من ؟

فالثورة الفلسطينية لم تكن تعرف جيدا فسيفساء التركيبة اللبنانية ، ولم تع الوضع الطائفي او لو وعته فانها اعتقدت بان ثلاثين سنة من الاستقلال الوطني قد صهرت اللبنانيين في بوتقة واحدة ، والثورة بتجربتها الذاتية لم تواجه الطائفية ، وبنظرتها المستقبلية فانها كانت تدعو الى دولة علمانية في فلسطين تختفي منها الفوارق الطائفية والعرقية . ولذلك ، فان الثورة ، من رسالة فتح سنة ١٩٦٩ الى تصريحات ابو اياد في الازمة الاخيرة الى رسالة ابو عمار ، قائد الثورة ، الى الشعب اللبناني في الفترة الاخيرة لم تعتبر نفسها عددا ينضاف الى طائفة ما . والثورة ترفض بعنف مبدأ الوطن البديل . فهي ترفض كل مشاريع الاسكان ، والتجنيس والهجرة ، وتجاهد وتقدم اسخى التضحيات الدامية في سبيل العودة . كيف اذا يمكن ان تكون عددا جديدا في قطر لن تبقى فيه ، ولو في المدى الطويل ؟!

وفي المأساة الدامية التي عاشها لبنان استطاعت الثورة الفلسطينية ان تكبح الجنون الطائفي بالخطف والتقتيل على الهوية ، **واستطيع ان اؤكد ان الثورة الفلسطينية لم تقتل اسيرا واحدا ، حتى بعض الاسرى من الذين كانوا يحملون السلاح ضدها اطلقت سراحهم ، وانها كانت تضع كل ثقلها لتخليص المخطوفين** . وفي المجال الطائفي ، اذا كانت الثورة قد مارست دورا ما فانه دور ضد الطائفية ، سواء بادانتها وكبحها وتهذيبها .

ولكن ، للاسف ، فان النصرة اللبنانية للثورة عكست اتجاها معينا هو بموجب الفسيفساء اللبنانية يمكن اضفاء صفة طائفية عليه . ولكن اليسار اللبناني مسألة اخرى .

فالمقاومة تعتبر نفسها « الشرارة التي تشعل النار في كل الحقل » ، فهي تحفز كل القوى العربية الى مناصرتها وحمل السلاح معها ، خاصة في اقطار المواجهة . وفي الجنوب ، تدفق اليها شبابه وابناؤه وكان عليها ان تعتني بالامر هناك بعد ان اعفت السلطة نفسها من مهامها الجنوبية . وفي الشارع ، اندفعت الجماهير المسحوقة وقوى اليسار الى مناصرة الثورة اكثر من غيرها .

ولكن الثورة لم تفقد الامل في الطرف الاخر ، فحاورت الكتائب بعد احداث ١٩٧٣ ، واستمرت محادثات فتح — الكتائب اكثر من شهر ، وحين اتفق على بيان مشترك رفض السيد بيير الجميل ، الذي كان في الخارج ، اصداره ، بعد عودته . والثورة تقيم الان حوارا متصلا مع قوى كثيرة غير يسارية . فنظرتها الى الصراع العربي —

الاسرائيلي بأنه صراع قومي يجمع كل فئات الامة وطبقاتها يجعلها دائما تطمح الى تأييد ومناصرة كل لبنان .

والثورة لا تستطيع ان تعترض على دعم اليسار ومناصرته ، بل ترحب به . والثورة لا يمكن الا ان تؤكد على وحدة المصير ، الذي تدعو له قوى اليسار اللبناني . واذا كان اليسار يتسلح دعما للثورة ، واذا كان اليسار يحقق مزيدا من القوة بسبب ذلك ، فهذا من طبيعة الامور .

فالقول بان الثورة الفلسطينية تمس التوازن السكاني فيه من سوء النية الكثير ، وفيه من المخاوف المشروعة التي يفرزها الواقع اللبناني المريض ، الكثير ايضا .

والقول بان اليسار قد قوي بالثورة ليس خطأ ، والصحيح ايضا ان الاوضاع اللبنانية الناضجة للثورة ، للاسباب التي اوردناها في الحلقة الاولى من هذه الدراسة وجدت في الثورة الفلسطينية قوة دفق هائلة حركتها وتحركت بها .

وبذلك ، فان كل النتائج الداخلية للثورة تنتج من الواقع اللبناني نفسه ، وهو واقع حي تفاعل في السابق مع عبد الناصر وهو يتفاعل اليوم مع الثورة الفلسطينية .

ثم هنالك العامل الدولي الخارجي ، الذي لا يمكن بدونه فهم الابعاد الكاملة لما يجري في لبنان .

دوليا ، هنالك اعتراف بحقوق شعب فلسطين . كذلك هنالك اعتراف بان منظمة التحرير الفلسطينية بقيادتها الحالية والمقاومة بتشكيلها الحالي بقيادة فتح ، هي الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني وهذا الاعتراف تقرر عربيا بالرباط اخيرا ، وتوافق عليه معظم دول اوروبا الغربية ، وتدعمه الكتلة الشرقية كلها ، وتعترض عليه امريكا واسرائيل .

وبعد اتفاقية سيناء ، واخراج العنصر الفلسطيني من الحسابات الامريكية كما هو واضح الان ، اشتد العداء الامريكي للثورة الفلسطينية التي ترى فيها الخطر الذي يتهدد كل خططها في المنطقة والشرارة التي يمكن ان تشعل روح المقاومة العربية من جديد .

والمخرج الوحيد للسياسة الامريكية ، ومن ورائها السياسة الاسرائيلية ، يكمن في الحلول التالية :

- استيعاب المقاومة بشكل او باخر ، ولكن لم تتوفر بعد طريقة لذلك .

- تصفية المقاومة في موقعها الاخير في لبنان على الطريقة الاردنية ، ويتوافق مع هذا الهدف تصريح وزير الخارجية الامريكية هنري كيسنجر ، في ايار الماضي وعند بداية الاحداث اللبنانية ، بان ما يجري في لبنان هو شبيه لما جرى في الاردن .

- واذا لم يكن من الممكن تطبيق الحل السابق فلا اقل من اغراقها في رمال السياسة اللبنانية المتحركة وتوريطها في معركة دائمة تستهلك قواها ، ومحاولة اصطناع قضية لبنانية في مكان القضية الاساسية والحقيقية وهي القضية الفلسطينية .

وحين يربط المراقبون السياسيون بين العوامل الداخلية التي يتذرع بها اعداء الثورة، وبين العامل الدولي الذي تمثله امريكا فانهم لا يبتعدون عن الحقيقة .

وحين تنشر ملف غودلي في لبنان اوساط المقاومة التي تملك هذا الملف ، وحين تكشف تحقيقات مجلس الشيوخ الامريكي عن التورط الامريكي في احداث لبنان ، فان الصورة تصبح واضحة جدا .

والغريب في احداث الازمة المأساة التي نعيشها في لبنان ان الطرف المفترض فيه أن يندفع الى الثورة لم يندفع . فاليسار وجماهيره العريضة تمثل غالبية اللبنانيين وظروفها الناضجة والمهيأة للثورة فضلت خوض المعركة السياسية فحسب ، حتى ان السيد كمال جنبلاط قبل الاحداث الاخيرة صرح لبعض الصحفيين الاجانب ان اليسار قوة خلقية اكثر من اي شيء اخر ، وانها تسعى للاصلاح في اطار النظام .

ولكن الاغرب من ذلك ان تندفع قوى النظام الى اطلاق الرصاصة الاولى ، وان تحاول دفع الاحداث الى ما هو اعظم من مذبحة عين الرمانة في نيسان الماضي الى الان.

ترى ، هل هو توافق بين العوامل الداخلية والخارجية .

ام ، هو ثورة مضادة قام بها اليمين استباقا لثورة شعبية ! او كلاهما .

وعلى اي حال ، ماذا حققت هذه الثورة المضادة، وهل تساعد نتائج المعركة الساخنة ان تفتح باب الحل السالك والآمن ؟!

٣)الحل : حسابات ... واستنتاجات

لبنانيا : صيغة متوازنة ولكن حضارية

فلسطينيا : المطلوب حياد السلطة الرسمية .

ويل لبيت الخزف من الفيل المجنون ! وقد كان لبنان ، هذا البيت الجميل مسرحا لصراع مجنون يكاد يقضي عليه ، عندئذ ، تتساوى الاضداد ، لانهم جميعا مهزومون .

والنتائج حتى الان هي هزيمة ساحقة للاهداف التي انطلق من اجلها الرصاص والنار والخراب ، فالذين حملوا السلاح ، منذ استشهاد معروف سعد ومجزرة عين الرمانة حتى اليوم قالوا انهم يفعلون ذلك في وجه ما سموه بخطر اليسار وبتجاوزات العمل الفلسطيني وذهب بعضهم الى حد الاعتراض على وجود الثورة نفسها . هذه هي الاهداف المعلنة ، واذا كانت هنالك اهداف اخرى ، كالتقسيم فذلك لم يزل في منطقة النوايا بعد .

فهل حققت الثورة المضادة ، او الجنون المسلح الذي انطلق بغير حدود هدفا من هذه الاهداف ؟!

في مجال اليسار ، فان اليسار اللبناني بعد المعركة هو غيره قبل المعركة . فجبهة القوى التقدمية والوطنية كانت تخوض معركة سياسية في سبيل القيام ببعض الاصلاحات في النظام ، ولكن من داخل النظام وليس خروجا عليه كما كان يؤكد السيد كمال جنبلاط دائما وباستمرار . وكانت هذه القوى تخوض معركتها بالطرق السلمية ، وبالاجتماعات والمظاهرات والدعاية والصحافة . ومن المؤكد ان هذه القوى لم تكن تفكر باستخدام العنف لتحقيق اهدافها .

ورغم كل ما يقال فان اليسار لم يكن مسلحا في بداية المعركة . ولكن ، انتشار ظاهرة المليشيات اليمينية، ومعسكرات التدريب في المناطق المعروفة، وظهور الجيوش الخاصة،

هذا كله نبه اليسار الى خطورة التسلح اليميني . وبعد الشراسة والاستهتار بحياة الناس اتجه اليسار الى تسليح نفسه .

ونتيجة للصدام المسلح الذي فرضته قوى اليمين فرضا ، فان الصورة قد تغيرت تماماً .

فالمطالب التي كان يمكن ان يتم التوصل الى بعضها خلال بضعة اعوام ، اصبحت مطروحة طرحا جديا واشبه ما تكون بالامر الواقع .

واليسار الذي كان يخوض معركته بالطرق السلمية قد اصبح اليوم يسارا مسلحا ، وقدم تضحيات سخية لا يمكن ان يتنازل عن ثمنها وعن الاهداف التي دفعته الى هذا الثمن الدامي .

كذلك ، فان الثورة الفلسطينية اليوم اقوى منها في اي وقت مضى . ورغم ذلك ، فان الثورة تظهر من الاعتدال والتفهم للواقع اللبناني والنية على التأثير الايجابي ، كما يعرف جميع الاطراف ، لانها حريصة على لبنان حرصها على قضيتها .

بقي التقسيم ، ورغم كل ما افرزته المعركة من عوارض مرضية وظواهر بدائية منحطة فان التقسيم الذي لاكته بعض الالسن ، جديا او من باب التهويل ، قد سقط تماما . فصيغة التعايش اللبنانية يحرص عليها الجميع وهي ليست مسألة عارضة ولكنها عميقة الجذور التي لا يمكن اجتثاثها .

الا اذا كانت هنالك جهة قد اتخذت قرار التقسيم وتريد مواصلة القتال وافتعال الاحداث وفرض الهجرة حتى التقسيم !

ففي حساب الارباح والخسائر يمكن القول ان القوى التي حملت السلاح لم تحقق نقطة واحدة .

وفي راينا ان معركة اليمين كانت خاسرة من اللحظة الاولى . ولعل بعض هذه القوى كانت تحاول استدراج الجيش للمعركة ، لعلها تستطيع حسم الامور لمصلحتها ، ولكن ذلك لم يتحقق ، ولم يكن ممكنا ، كما اكد رئيس الوزراء السيد رشيد كرامي الذي عرف ان استخدام الجيش لا يدرأ خطرا ولكنه الخطر الاعظم .

ولعل القوى اليمينية قد استهانت بموقف الدفاع الذي اصر عليه خصومها في المراحل الاولى . ولكن التغير الذي اضطرت اليه القوى الوطنية والتقدمية ، من الدفاع الى الرد العنيف والى الرد الرادع ، بين حدود القوى اليمينية التي لا يمكنها ان تتجاوزها . وحين استطاعت القوى التقدمية ان تنقل معركة الاستنزاف الى الطرف الاخر ، فان معركة اليمين انتهت بالفعل .

هذا كله ، وجبهة القوى الوطنية والتقدمية لم تستخدم سوى جزء بسيط من قوتها الممكنة والفعلية . فاذا كانت القوى اليمينية لا تستطيع أن تدفع الامور في اتجاه الحسم لمصلحتها ، فان القوى التقدمية لا تريد ان تحسم الامور لمصلحتها . فالطابع الطائفي الذي صبغ الاحداث كان هاجسا عنيفا يدفع القوى الوطنية الى ان تدافع بيد وتمد يدا اخرى بحثا عن حل لوقف النزيف الدموي والخراب العام . وهكذا ، فان الصراع الذي انفجر تحدد من لحظته الاولى بانه صراع متوازن لا يمكن لاحد اطرافه ان يحسمه لمصلحته ، ولا يريد الطرف المقابل ان يحسمه لمصلحته ايضا .

ورغم ذلك ، فان حصيلة هذا الصراع هي شيء جديد في السياسة اللبنانية . فهي ليست صيغة : « لا غالب ولا مغلوب » التي طرحت بعد ثورة ١٩٥٨ ، لان ذلك لم يعد ممكنا . ويذهب بعض المعلقين الى القول بان احداث ١٩٧٥ حققت ما فشلت فيه ثورة ١٩٥٨ . فقد انتهت ثورة ١٩٥٨ الى مصالحة بين اهل النظام ، اما احداث ١٩٧٥ فهي تشهد صورة اخرى .

فنحن نشاهد اليوم لجان التنسيق التي تتألف من جوزف شادر وداني شمعون في جانب وابراهيم قليلات وعباس خلف في جانب اخر . وفي لجنة الحوار ، يجلس بيير الجميل وكميل شمعون وفي مقابلهما عاصم قانصوه وحسن عواضة . وحين يقول كمال جنبلاط « اننا » اي التقدميين لن نشترك في الحكم الا اذا كنا خمسين في المئة زائد واحد ، فانه يكاد يعبر عن واقع جديد في الحياة اللبنانية .

اذن ، نحن على اعتاب صيغة لبنانية جديدة ، مهما تكن التسمية او الشكل الذي سوف تتخذه التسمية .

والقوى التقدمية تواجه تجربة صعبة وهي تسهم في ايجاد هذه الصيغة الجديدة . فمن المفترض ان تكون صيغة متوازنة بمعنى أن تكون محصلة لعنصرين :

الاول ، ان تكون صيغة حضارية وحديثة ، تتيح اقامة الدولة — الوطن ، وتهيء ظروف النمو الروحي للمواطن في اتجاه الولاء لهذا الوطن ، فلا يكون دولة « اولئك » دون « هؤلاء » ، وتضع العربة على الخط ، اي تبدأ من نقطة الانطلاق التي تؤدي الى لبنان الغد ، من حيث قانون الانتخاب والتشاريع المالية والضرائبية والاجتماعية .

الثاني ، هو وجود عنصر التوازن ، فالارقام ليست كل شيء ، والعدد مهم ولكنه لا يلغي الاعتبارات الاخرى . وبعد ثلاثين سنة من الاستقلال انفجرت الطائفية كأنها كابوس لا يمكن ان يحدث . واي صيغة جديدة لا يمكن ان تلغي المخاوف المقيمة بجرة قلم . ومن الضروري حساب هذه المخاوف ، وتوفير المناخ الذي يمكن ان يقلل منها ، حتى لا تصبح معوقا في انشاء بلد حديث بلا طائفية .

ولعل الصيغة الجديدة لا تتعثر في شأن عروبة لبنان او اعتبار قضية فلسطين هي قضية العرب الوطنية بما فيهم لبنان ، ما دام هنالك احتلال اسرائيلي . واذا امكن تفادي مشاعر التخوف والعزلة الحادة ، فان العقل اللبناني المجرد يستطيع ان يرى وبسهولة اننا نعيش عصر التكتلات الكبرى ، وان عصر الاوطان الصغيرة انتهى ، وان الرفاهية الغربية الحالية امكن التوصل اليها عبر السوق المشتركة والاحلاف المشتركة، حتى اصبح الاستقلال الوطني لقطر واحد هو الاستقلال المشترك لكل اوروبا Interdependence ، فهذه هي الطبيعة الجديدة للاستقلال الوطني في عصرنا الحديث، والحقيقة الاولية ان رفاهية لبنان مرتبطة ارتباطا تاما بالمنطقة العربية ، كمصيره . ولا يمكن وقف تدفق الهجرة لخارج لبنان وافراغه من احسن كفاءاته البشرية الا اذا تأكدت جسور اتصاله بالمنابع والاصول .

تبقى مسألة العلاقات اللبنانية والفلسطينية ، او الوجود الفلسطيني في لبنان.

وفي رأينا ، ان المسألة تتعدى الاتفاقيات المعقودة بين الدولة اللبنانية والثورة الفلسطينية ، فهذه الاتفاقيات يمكن تطبيقها بنصوصها وروحها . واذا كانت هنالك تجاوزات ، وهي لا بد من ان تحدث فان الموقف هو ادانة هذه التجاوزات بالتحديد والتحرك الى منعها ومنع حدوثها ثانية .

ولكن المسألة هي الصراع الذي تخوضه الثورة الفلسطينية ضـــد القوى المعادية . والثورة من موقعها في لبنان قادرة على التصدي لاعدائها ، وتحريك الرأي العام العربي ، وكشف مواقع الخطأة والخونة وتهيئة المنطقة لانطلاقة جديدة .

ولهذا فان محاولة اشغال الثورة في لبنان ، بحجة او باخرى ، هي محاولة لتعطيل دور الثورة ، واخطر من ذلك ، فان هذه المحاولة هي لحساب القوى المعادية للثورة . ومهما اختلفت آراء اللبنانيين بشأن الثورة الفلسطينية ، فليس من مصلحة لبنان معاداة الثورة ، خاصة اذا انطلق هذا العداء لحساب قوة خارجية .

والثورة لا تنتظر عونا من الذين لا يؤيدونها في لبنان ، ولكنهـــا لا تنتظر منهـــم ان يورطوها في عراك مسلح . وذلك من حقها .

ولعل سابقة الرئيس شهاب سنة ١٩٥٨ تصلح ان تكون هي المثال للعلاقات القادمة بين لبنان والحركة الفلسطينية . فقبل ان يتولى فؤاد شهاب مقاليد الرئاسة ، كـــان لبنان قـــد جعل نفسه طرفـــا في الصراع الدائر حينذاك ، ضد حركة التحرر الوطني العربية التي كان يقودها جمال عبد الناصر . ولكن مجيء شهاب انهى تورط لبنان ضد الحركة العربية الحديثة ، ولو على المستوى الرسمي ، واصبح لبنان مسرحا محايدا ، لا ينحاز لطرف ولا يعادي طرفا . والمطلوب اليوم هو موقف مشابه ، على المستوى الرسمي ، لا يعادي الثورة ، ولا يشغلها عن دورها ، ولا يبعدها عن خندقها الحقيقي .

واذا استقرت القلوب على مفهوم كهذا ، للعلاقات اللبنانية ــ الفلسطينية ، فان الثورة الفلسطينية سوف تذهب الى ابعد مدى في مقابلة كل المطالب اللبنانية الرسمية، والى ان تكون عنصر الاعتدال الاساسي .

وبدون هذا الحل ، صيغة لبنانية جديدة حضارية ومتوازنة ، وموقف لبناني رسمي لا يعادي الثورة فان الفيل المجنون سوف يبقى يعربد في بيت الخزف !

الاثار السياسية والاقتصادية لمرور البضائع الاسرائيلية في قناة السويس

حسين ابو النمل

من ضمن سياسة النظام المصري لتمرير اتفاقية سيناء ركزت اجهزة الاعلام المصرية والمرتبطة بها على الطابع العسكري للاتفاقية المذكورة ، واستصرحت الكثيرين بهدف تمرير الحملة التي كان مصيرها الفشل ، وفي محاولة منها لاستغلال الاوراق التي بيدها لاخر مدى حاولت الاستفادة من رصيد الفريق عبد الغني الجمسي لدى الجماهير العربية بوصفه احد الاشخاص الذين ارتبطت بأسمهم حرب تشرين . حيث لم يتورع النظام المصري عن وضع رصيد الجمسي في خدمة هدف تمرير التسوية فاستصرحه كلاما نسبته اليه وكالة انباء الشرق الاوسط المصرية ونشر في جريدة النهار يوم ١٩٧٥/٩/١٩ ، يقول التصريح « **ان اتفاق سيناء اتفاق عسكري وقعه العسكريون وهو احد استثمارات حرب تشرين الاول** » . ولو تجاوزنا مغالطة الفريق الجمسي باعتبار ان الاتفاق قد وقع بالاضافة الى العسكريين من قبل دبلوماسي مصري أوفد خصيصا لتوقيع الاتفاق ، ولو تجاوزنا الحديث الصريح للاتفاقية المذكورة عن انهاء حالة الحرب وغيرها من النصوص التي وردت في الاتفاق المذكور ، لو تجاوزنا كل هذا وتساءلنا عن معنى ان يكون الاتفاق المذكور من استثمارات حرب تشرين ؟ فكيف يمكن ان يسمي تقديم المكاسب لاسرائيل استثمارات لحرب تشرين ، الا اذا كان المقصود استثمارا سلبيا ؟

ان التلاعب بالنصوص وبالكلمات امر سهل ، ولكن عندما تكون المسالة متعلقة بالارقام فان احدا لا يستطيع الخداع حتى ولو كان له رصيد الفريق الجمسي . وقد اشار الكثيرون الى المضامين السياسية للاتفاق المذكور ، وكان الرد دائما أن الاتفاق هو اتفاق عسكري ، ولكن من بين القضايا التي لا يستطيع احد المجادلة بشانها تلك القضايا ذات الطابع الرقمي حيث لا تحتمل المسألة الا تفسيرا واحداً . وفي راس هذه المسائل قضية مرور البضائع الاسرائيلية في قناة السويس ، لان هذا المكسب الذي اعطي لاسرائيل قد اعطى للاتفاق المذكور بعداً جديدا هو البعد الاقتصادي اضافة الى الطابع العسكري والسياسي للاتفاق المذكور . فبهذا اعطيت اسرائيل مكسبا ضخما كما سيدلنا العرض التالي ، فبالاضافة الى معناه السياسي فله مضمون اقتصادي بعيد الاثر .

ضمن سياسة النظام المصري ومحاولته تصوير الاتفاق المذكور باعتباره مكسبا لمصر فقد حاولت ان تلقي ظلالا من الشك حول جدوى ما حصلت عليه اسرائيل ، وعلى صعيد مرور البضائع الاسرائيلية في قناة السويس ارتكزت الحملة الاعلامية المصرية على « **ان البضائع الاسرائيلية كانت قبل ذلك تمر في قناة السويس** » بهدف القول ان المكسب الذي اعطي لاسرائيل هو مكسب قديم ، ولم تحصل على اي شيء جديد

على هذا الصعيد ، ولم تكن تلك الحملة الا تطبيقا حرفيا لسياسة « توسيع الشبهة » التي درج عليها النظام المصري . وقد كانت اسرائيل متفهمة تماما لظروف النظام المصري فشاركته حملته واذا بسيل من التصريحات الرسمية لمسؤولين اسرائيليين موجهة خصيصا للمواطن العربي يتحدثون بها عن عدم وجود حاجة اسرائيلية ماسة لقناة السويس في ظل وجود ميناء ايلات على البحر الاحمر والذي يؤمن تجارة اسرائيل الخارجية مع اسيا وافريقيا ، ووجود عدة موانىء على البحر المتوسط تؤمن التجارة البحرية مع اوروبا وغيرها من الدول الواقعة في حوض البحر الابيض المتوسط. وما لا خلاف حوله ان الحملة المصرية بما فيها المساهمة الاسرائيلية لم تستطع ان تحجب حقيقتين بديهيتين يعرفهما اي انسان يمتلك حدا ادنى من المتابعة للأمور .

١ ـ ان تكالب اسرائيل على المرور في قناة السويس امر معروف ولطالما اثارت اسرائيل ضجة حول هذا الامر منذ العام ١٩٥٠ ، وقد اتى عدوان ١٩٥٦ ليشكل محاولة اخرى من اسرائيل للمرور في القناة ولم تقف الحملة منذ ذلك التاريخ ، بل على العكس كانت تزداد ضجيجا ، وكانت تتسع لتشمل مطالب جهات اخرى غير اسرائيل للسماح بمرور سفنها وبضائعها في القناة . ومن غير المعقول او المنطقي ان تكون حملة اسرائيل حملة مفتعلة تهدف للحصول على (مكسب) سبق لها الحصول عليه ، او لانجاز هدف هي في غير حاجة اليه .

٢ ـ حتى لو سلمنا جدلا بان البضائع الاسرائيلية كانت تمر قبل ذلك في قناة السويس وهو اخلال صريح وواضح بمبدأ الصراع مع العدو الصهيوني ، ولكن تضمين ذلك في اتفاق رسمي ، يعطي شرعية دولية لما تحصل عليه ، وهنالك معنى هام جدا لاعطاء امر ما صفة الشرعية ، ولو استرسلنا مع اصحاب هذا المنطق الى نهايته لطرحنا السؤال التالي هل (سيطرة) الدولة العنصرية على ارض فلسطين يجعل من مسألة الاعتراف باسرائيل امرا بسيطا ونوعا من تحصيل الحاصل ، واذا كان الامر كذلك فما هو تفسير لهاث العدو وتكالبه على انتزاع الاعتراف من قبل العرب به طيلة الحقبة التاريخية التي مضت على انشاء دولة العدو ؟

ان مرور البضائع الاسرائيلية في قناة السويس كتمهيد في مراحل لاحقة لمرور السفن الاسرائيلية نفسها هو موضوع ذو شقين ، سياسي واقتصادي . ان السماح بمرور البضائع الاسرائيلية هو شكل من اشكال **« ممارسة التعايش »** بين العرب واسرائيل ونوع من اختبار نوايا العرب ومدى جديتهم في هذه المسألة والمرور في قناة السويس يمكن اعتباره مرحلة اولى من مراحل التعايش ، وكمقدمة لمرور السفن الاسرائيلية وبدورها مقدمة لرفع المقاطعة نهائيا عن اسرائيل وذلك بشكل متدرج وفي ضوئها تتم انسحابات اسرائيل من بعض المناطق المحتلة، بحيث لا تقدم على اي انسحاب جديد الا اذا نجحت التجربة السابقة ، وهذا هو تفسير سياسة التسوية الجزئية او سياسة الخطوة خطوة . او ما عرف تحت شعار « قطعة من الارض مقابل قطعة من السلام » . وقد قال المراسل السياسي للاذاعة الاسرائيلية باللغة العبرية في نشرة ١٩٧٥/٨/٢٨ ، بشأن هذا الموضوع ما يلي : **« هناك محاولة لارسال بضائع اسرائيلية عبر قناة السويس ... لاختبار نوايا المصريين »** . وهذا ما حدث فعلا ، ففي الوقت الذي يبحث فيه المندوبون المصريون والاسرائيليون تفاصيل الاتفاق ، تبحر سفينة تحمل شحنة من البضائع الاسرائيلية في طريقها لعبور قناة السويس .

وفي هذا الصدد اشارت الاذاعة الاسرائيلية يوم ١٩٧٥/٩/١٦ الى ما نشرته صحيفة واشنطن بوست و « هي احدى الصحف الموثوقة جدا في الولايات المتحدة » ـ

حسب تعبير الاذاعة ـ عن « ان الولايات المتحدة الاميركية قد تعهدت خطيا بألا تتوقع من اسرائيل تطبيق التسوية الجزئية طالما لا تسمح مصر بمرور البضائع الاسرائيلية في قناة السويس » . والاتفاق الذي اشارت اليه الاذاعة الاسرائيلية هو جزء من الاتفاق الثنائي الذي وقع بين اسرائيل والولايات المتحدة على هامش الاتفاق الذي وقع بين اسرائيل ومصر .

ان تصريحات المسؤولين الاسرائيليين وتصرفاتهم تظهر حرصهم الشديد علىتأمين طلباتهم بأقل قدر من الاحراج للنظـام المصري ، ففي الوقت الذي قالت فيه الاذاعـة الاسرائيلية يوم ١٩٧٥/٩/١٠ « في مكان ما وسط البحر تبحر سفينة .. ستمر في قناة السويس كاختبار لاحد بنود اتفاق التسوية الجزئية .. وتحمل السفينة اكثر من خمسة الاف طن من البضائع لمستوردين اسرائيليين » .. وعن حمولتها قالت الاذاعة «البضائع تشمل حديدا ومنتجات الكترونية » .. وقد انقطعت بعد ذلك اخبار السفينة ، ولكن الاذاعة الاسرائيلية عادت لتقول بعد ذلك بصريح العبارة في يوم ١٩٧٥/٩/١٤ « **الى ان المصريين اشترطوا عدم نشر معلومات عن عبور السفن** » ولذا فقـد قامت « مصادر رفيعة المستوى من القدس » ــ حسب وصف الاذاعة الاسرائيلية ــ بالتصريح « **الى انه لا توجد نية للاعلان مسبقا عن عبور سفينة شحن في قناة السويس** » . وبهذا كانت اسرائيل تحقق شرط السادات الوحيد تجاه هذا الموضوع وهو عدم النشر .

اما على الصعيد الاقتصادي فان مرور البضائع الاسرائيلية في قنـاة السويس لا بد وان يكون له اثره على وضع اسرائيـل الاقتصادي ولسوف تتشعب نتائجـه في مجالات عدة . وابرزها ١ ـ **تخفيض تكاليف النقل بنسبة كبيرة** . ٢ ـ **فتـح مجالات جديدة امام البضائع الاسرائيلية** . ٣ ـ **استفادة اسرائيل من خط الملاحة الدولي المـار في قناة السويس بين اوروبا وافريقيا** . ٤ ـ **تخفيض تكاليف المنتجـات الاسرائيلية وبالتالي تحسين قدرتها التنافسية** . ٥ ـ **واخيرا تحسين وضـع ميزان المدفوعـات الاسرائيلي والغاء نسبة معينة من معونات التصدير التي كانت تقدمها الدولة للمصدرين الاسرائيليين** . ٦ ـ **تخفيض تكاليف التأمين** . ولسوف نقف امام هذه النقاط بالتفصيل .

تخفيض تكاليف النقل

تشكل تكاليف النقل عنصرا ثابتا من التكاليف النهائية لاي من المنتجـات وتتحدد هذه التكاليف في ضوء الوسيلة التي تعتمد لنقل السلع ، سواء كانت برية او بحرية او جوية وعدد مرات التحميل او التفريغ وغيرها من العناصر التي لا بد وان تراعى عنـد تقدير تكاليف النقل ، وقد اشارت الاذاعة الاسرائيلية باللغة العبرية الى السفينة التي تحمل نحو ٥ الاف طن من الاسمنت والتي سترسو في ميناء اشدود على البحر المتوسط بعد ذلك تنقل حمولتها بشاحنات من اشدود الى ايلات ، وهنا حددت الاذاعة مقـدار الخفض في تكاليف النقل الذي تؤمنه مرور الشحنات في قنـاة السويس اذ قـالت يوم ١٩٧٥/٩/١٤ « **ان نقل الاسمنت الى ايلات مباشرة يوفر مبلغا يقدر بنحو ربع مليـون ليرة** » . اي ان مقدار الوفر هو بمعدل خمسين ليرة للطن الواحد . اذ ان رسم المرور في قناة السويس هو بمعدل دولارين للطن الواحد ـ كما ذكرت الاذاعة الاسرائيلية في ١٩٧٥/٩/١٠ وباعتبار ان الدولار يساوي ٦ ليرات اسرائيلية ، فان اسرائيـل تتكلف حوالي ١٢ ليرة اسرائيلية للطن الواحد لقـاء المـرور في قناة السويس اي ان العبء يساوي اقل من ٢٥ ٪ من الوفر الذي تحقق .

وبشأن حجم البضائع التي ستحول من ميناء ايلات الاسرائيلي الى قناة السويس

في طريقها الى الموانىء الاسرائيلية على البحر الابيض المتوسط نقلت الاذاعة تصريحا لارييه مهولال سكرتير اتحاد المعتمدين على النقل الجوي يقول التصريح « **اذا تجاهلنا الناحية السياسية التي هي الاهم في الاتفاق مع مصر في المرحلة الاولى وانتقلنا الى الناحية الاقتصادية وربحية المصدرين والمستوردين الاسرائيليين ، يتضح من دراسة اجريناها ان البضائع التي تتراوح رسوم نقلها من اسرائيل واليها بين ٥٠٠ ــ ٦٠٠ ليرة للطن الواحد من الربح للمستوردين والمصدرين نقلها عن طريق قناة السويس ٠٠ ويمكن القول ان ثلث البضائع التي تستورد وتصدر عن طريق ميناء ايلات اليوم ، من الافضل نقلها عبر قناة السويس في المستقبل ٠٠** » . ولادراك ابعاد كلام المسؤول الاسرائيلي لا بد ان نتذكر طبيعة فلسطين المحتلة حيث تمتد طوليا بعرض لا يتجاوز ١٨ كلم بين مستعمرتي المطلة على الحدود اللبنانية وبين مدينة حيفا ، في الوقت الذي تبلغ به المسافة بين مدينة ايلات حيث يوجد ميناء ايلات وبين مدينة القدس ٣٣٨ كلم و٣٤٢ كلم عن مدينة تل ابيب و ٤٣٥ كلم عن مدينة حيفا و٥٠٩ كلم عن مدينة طبريا و٢٣٣ كلم عن مدينة بئر السبع ، وفي الشريط الساحلي الضيق الذي يشكل عرض فلسطين المحتلة تتركز معظم المنشآت الصناعية الاسرائيلية ، هذا بالاضافة الى الكثافة السكانية العالية لهذه المنطقة ، الامر الذي يجعلها مركز حركة التصدير والاستيراد ، وبالتالي فان القسم الاكبر مما يصدر او يستورد عن طريق ميناء ايلات سيعود في النهاية الى هذه المنطقة الساحلية التي تبعد عن ميناء ايلات بحد اقصى حوالى ٥٠٩ كلم وبحد ادنى ٢٣٢ كلم .

ومن ناحية اخرى تحقق اسرائيل بمرور بضائعها في قناة السويس فتح مجالات جديدة امام صادراتها ووارداتها ، وقد اشارت الاذاعة الاسرائيلية الى امكانية « ان يستخدم خط قناة السويس لنقل بضائع جديدة الى الشرق الاقصى لم نكن نفكر بتصديرها او استيرادها من تلك المنطقة » . ولادراك ابعاد ان تفتح اسواق الشرق الاقصى للبضائع الاسرائيلية علينا ان نتذكر ان السوق الممكنة للبضائع الاسرائيلية هي سوق افريقيا واسيا واي تفكير اسرائيلي بزيادة حجم الصادرات الاسرائيلية لا بد وان يتجه اولا الى هذه السوق ، لان السوق الاوروبية والاميركية باعتبارهما سوقا لدول صناعية متقدمة لا يمكن ان تشكل المنفذ المربح لصادرات اسرائيل بل على العكس من ذلك فانها ستتعرض الى منافسة شديدة لا يمكن ان تجد مثيلها في السوق الاسيوية الافريقية ، خصوصا وان اسرائيل تستطيع ان تستفيد من ميزة قربها الجغرافي من هذه الاسواق قياسا بالنسبة للدول الاوروبية البعيدة ، حيث يساهم هذا الامر في تخفيض تكاليف النقل ، وان مزيدا من تخفيض تكاليف الحصول على المواد الخام ثم تكاليف نقل الصادرات سوف يزيد من القدرة التنافسية للسلع الاسرائيلية . ولا بد من مراعاة اهمية تخفيض تكاليف النقل بمبلغ يساوي ربع مليون ليرة اسرائيلية لشحنة مكونة من خمسة الاف طن ، حيث في هذه الحالة تكون اسرائيل امام خيارين احدهما افضل من الاخر فهي اما ان تحقق مزيدا من الارباح يساوي مبلغ تخفيض تكاليف النقل ، او تقوم بتخفيض الاسعار بمبلغ يساوي ما حققته من وفر في تكاليف النقل وهذا التخفيض في الاسعار ولو بنسبة قليلة يتحول تلقائيا الى زيادة في الطلب على السلع الاسرائيلية وزيادة في قدرتها التنافسية . وكلا الخيارين ممتاز بالنسبة لاسرائيل ، حيث تتحول بعض السلع من سلع قد تلحق خسائر بالمنتج الاسرائيلي الى سلع مربحة .

واما الانجاز الثالث فهو استفادة اسرائيل من خط الملاحة الدولي بين اوروبا وافريقيا عبر قناة السويس . وقلما كانت تجارة اسرائيل الخارجية تستطيع الاستفادة من هذا الخط . فقبل الاتفاق الاخير كان يحرم المرور في قناة السويس على اي سفينة تحمل بضائع اسرائيلية حتى ولو كانت جزءا من حمولتها ، ومن المعروف ان خط رحلة

معظم السفن يبدأ من الموانىء الاوروبية مرورا بموانىء البحر الابيض المتوسط انتهاء بالموانىء الافريقية . وغالبا ما تقف هذه السفن في معظم الموانىء التي في طريقها حيث تقوم بتفريغ او تحميل شحنات ، لان شحنات هذه السفن لا تقتصر على بلد واحد . اي ان هذه السفن لا تنقل شحنة خاصة لبلد واحد الا في حالات نادرة . ونتيجة لموقف الدول العربية من مقاطعة اسرائيل فلم تكن شركات الملاحة تفكر بارسال سفنها الى الموانىء الاسرائيلية او تحميلها شحنات تخص اسرائيل ، ولهذا السبب فقد كانت اسرائيل مضطرة للاعتماد على سفن خاصة بها سواء مؤجرة او تابعة لشركة « زيم » الاسرائيلية لنقل بضائعها . هذا بالاضافة الى عمل شركة الملاحة الاسرائيلية على خطين منفصلين هما خط ايلات — افريقيا — اسيا وخط موانىء البحر المتوسط — اوروبا — امريكا ، ولم يكن من السهل عليها نقل سفينة من خط لاخر في ضوء حجم الضغط الموسمي الذي قد يتعرض له احد هذين الخطين .

ان اضطرار اسرائيل في الغالب لنقل بضائعها على سفن شحن خاصة قد حرمها بشكل عام من ميزات وفوائد « النقل الكبير » . اذ بمقدار ما يكون حجم الناقلة كبيرا بمقدار ما تنخفض تكاليف النقل . وفي حالة سفينة شحن حمولتها ١٠٠ الف طن ومحملة بالكامل فان تكاليف نقل الطن الواحد هي بنسبة حمولة السفينة الفعلية الى حمولتها الاسمية . اي ان تكاليف نقل خمسة الاف طن هي خمسة الاف الى مئة الف طن. لان الجزء المتبقي من حمولة السفينة يكون في الغالب لدول اخرى . واما في حالة اسرائيل فانها مضطرة لتحمل نفقات السفينة كاملة حتى ولو كانت محملة بأقل من طاقتها . وفي هذه الحالة تتضاعف تكاليف النقل بنسبة قريبة من نسبة الحمولة الاسمية للسفينة الى حمولتها الفعلية . ويحضرنا في هذه الحالة مثل بسيط من واقعنا اليومي كذلك الذي ينتقل بالسرفيس ويتحمل اجرة راكب عادي بالقياس الى شخص اخر يضطر للانتقال بسيارة اجرة خاصة حيث يتحمل في هذه الحالة تكاليف مضاعفة خمس مرات على الاقل .

لقد حاولت اسرائيل ان توجد حلا لهذه المشكلة ، ولكن خياراتها كانت صعبة ومكلفة ، فاما الاعتماد على بواخر شحن خاصة لنقل منتجاتها فقط وفي هذه الحالة تدفع تكاليف نقل مضاعفة واما انها تضطر لتجميع الشحنات بحيث لا تقوم البواخر بالشحن الا بعد توفر حمولة كاملة للسفينة وفي هذه الحالة تضطر اسرائيل لتاخير وصول او ارسال شحناتها . ولهذا الامر انعكاسات سلبية جدا على علاقتها بزبائنها المحليين او الخارجيين ولن تستطيع مراعاة اعتبارات السوق كما يجب ، لان التجارة كثيرا ما تعتمد على وصول الشيء المناسب في الوقت المناسب ، هذا بالاضافة الى ان كثيرا من الشحنات لا تستطيع الانتظار طويلاً ، سواء لاعتبارات تتعلق بالموسم او لاعتبارات السوق . اما الخيار الثالث فهو اعتماد اسرائيل على سفن شحن صغيرة حمولتها ضمن حدود ما تحتاجه السوق الاسرائيلية ، ومثل هذا الخيار صعب ايضا ومكلف ، لان مثل هذه السفن بطيئة بالقياس الى السفن الضخمة اضافة الى عدم توفر الاجهزة الحديثة بها من مخازن ذات تهوية .. الخ وهي اعتبارات تؤثر على سلامة وصول الشحنة بالشكل المناسب .

ان ما تقدم هو ما دفع الاذاعة الاسرائيلية للقول بلسان احد المسؤولين الاسرائيليين عن « **ان بعض الشركات الاجنبية لم تكن في الماضي تفكر بارسال سفنها الى موانىء البلاد بسبب المقاطعة العربية وبسبب ذلك البند الشهير في فواتير البضائع الذي يمنع البضائع من المرور في قناة السويس في حال ارسالها الى اسرائيل .. وهكذا فان السفن الاجنبية التي لم تكن تحضر في الماضي الى موانئنا ستبدأ باستخدام ميناء**

اشدود وميناء حيفا في طريقها من الشرق الاوسط الى موانىء اوروبا عبر قناة السويس)».

ان ما تقدم يوضح بما لا يقبل الجدل ان السماح بمرور البضائع الاسرائيلية سوف يؤدي بشكل مباشر او غير مباشر الى تخفيض تكاليف نقل البضائع الاسرائيلية ، لان لموضوع السماح انعكاسات وابعاد تتجاوز حدود الخفض المباشر لتكاليف النقل والذي اتضح في العرض السابق . ان هذا الامر له انعكاسات مباشرة علـى تكاليف السلع الاسرائيلية ، وان مجرد خفض هذه التكاليف سيؤثر مباشرة على القدرة التنافسيـة للسلع الاسرائيلية بحيث يزيد تلقائيا من صادرات اسرائيل . وان لزيادة الصـادرات انعكاساتها المباشرة على وضع ميزان المدفوعات المتدهور لاسرائيل ، خصوصا اذا ما اضيف لهذا الامر تطور اخـر حصل علـى هامش الاتفاق بـين نظـام السادات واسرائيل . فقد « **خفضت مؤسسة التامين في لندن بنسبة ٥٠٪ رسم التامين ضـد اخطار الحرب على جميع البضائع الاتية والخارجة من والى الموانىء الاسرائيلية الثلاثة .. وان هذا التخفيض سيعود بوفر كبير على المستوردين والمصدرين . وقـد جرى هذا التخفيض في اعقاب التوقيع على التسوية الجزئية مع مصر** » . هـذا هو ما ذكرته الاذاعة الاسرائيلية يوم ١٩٧٥/٩/١٢ وهو احد الثمار الاقتصادية للاتفاقية .

ان تخفيض تكاليف السلع الاسرائيلية كنتيجة للتطورات الاخيرة سوف يرفع عن عاتق الحكومة الاسرائيلية عبئا ثقيلا طالما تحملته بسبب الظروف غير الطبيعية التي كان يعمل في ظلها الاقتصاد الاسرائيلي فقد درجت الحكومة على تعويض المصدرين من خلال ما يسمى«**باعانة التصدير**» والتي كانت تبلغ حوالي ثمن(١/٨) قيمة المنتجات، وقد اشار كتاب (بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي الصادر عن مركز الابحاث) الى ان الحكومـة الاسرائيلية قد دفعت ٦٠٠ مليون ليرة كاعـانة تصدير للمصـدرين ، حتى يستطيعوا الصمود في السوق الدولية . ان السؤال الذي يطرح الان هـل ستستمر الحكومـة الاسرائيلية بدفع اعانات التصدير ؟.. بالتأكيد ان هذه الاعانة ستكون عرضة للنقص بدرجة كبيرة ، او الى الالغاء بشكل كامل بعد ان زال الظرف الاستثنائي الذي كـان يعمل في ظله المنتجون الاسرائيليون .

ان هذه المكاسب التي اعطيت لاسرائيل هي بالتأكيد ذات (طابع عسكري) ، ولكن ليس كما يفهمها الفريق الجمسي وغيره من المسؤولين المصريين ، بل بمعنى ان تدعيم القدرة الاقتصادية للخصم هي تدعيم لقدرته السياسية والعسكرية .

ان الاتفاق المذكور يجب ان يفهم ضمن سياقه العام ، واسرائيل التي انتزعت هذا القدر من المكاسب ضمن قدر معين من الانسحاب ، تطمع بانتـزاع مكاسب اكبر في المستقبل . واذا كانت الخطوة الاولى مرور البضائع ، فبمقابل الخطوة الثانية سوف تمر السفن الاسرائيلية نفسها . والخطوة الثالثة لا بـد وان تكـون دخول البضائع الاسرائيلية للاسواق العربية ، لان هـذا هو السلام الاسرائيلي وهـذه هي الشروط الاسرائيلية لتحقيق التسوية . وبدلا من ان تتحقق شعارات العرب وطموحاتهم ، بدىء بتحقيق شعار اسرائيل للسلام الذي عبر عنه خطاب ابا ايبان وزير خارجية اسرائيل السابق الذي القاه عند افتتاح مؤتمر جنيف حيث قال عن السلام المقترح « **ان اسرائيل تعتبره واقعا انسانيا جديدا ، ليس سلاما على الورق فقط وليس حدودا محكمة الاغلاق .. ان على اتفاق السلام ان يضع حدا لاي حصار او مقاطعة او عداوة**». وكان ييجال آلون قد اكد قبل ذلك على « الارتبـاط الوثيـق بين المبـادرة السياسية والمبـادرة الاقتصادية .. وانه يأمل بالتعاون الاقتصادي بين اسرائيل وجاراتها قبل احلال السلام الدائم .. » .

خليل حاوي يكتب
ملحمـــة الانسان والحضارة

ريتـــا عـوض

لعل احدى السمات الاساسية التي اختص بها الشعر العربي الحديث هي اعادة ربط الفن الشعري بالبناء الحضاري الذي ينبثق الشعر عنه ويكون صورة له . فعــاد بذلك الشعر الحديث الى الدور الذي كان يقوم به في الاطــوار الاولى مــن الحضارة الانسانية حين كــان الشاعر نبي القــوم وكــاهنهم وساحرهم وقائدهم السيــاسي والاجتماعي . وهذه هي احدى الدلالات التي تحملها فلسفة الالتــزام التي اعتنقهــا الشعراء المحدثون : ان الشاعر الحــديث ــ بالضرورة ــ ملتزم بقضية الانســان والحضارة . وليس هذا القول تعميما تجوز فيه استثناءات ــ كثرت ام قلت ــ بل هو تعريف يحدد الشعر الحديث ، وكل ما يخرج عنه لا يعد شعرا حديثا ، لان الحداثة لا تعني المعاصرة من حيث الزمان بل تنطوي على خصائص معينة لا يمنع ان يتسم بهــا بعض الشعر العظيم وان كان سابقا على عصرنا .

من هنا كان الشاعر العربي الحديث هو الشاعر الذي وعي العلاقة الجدلية التي تربط بين الانسان والحضارة من حيث ان الانسان ابو الحضارة وابنها ، وهو الفاعل فيها والمنفعل بها . كما وعى قضية الحضارة العربية من جنينيتها الجاهلية الى ولادتها بانبثاق الدعوة الاسلامية وفتوتها وشبابها الى هرمها وشيخوختها وموتها . وعــانى معاناة يومية عميقة وحادة مسألة التحديات التي تواجهها الحضارة العربية منذ اكثر من قرن ، وكان صاحب موقف راسخ وواضح من هــذه المسألة . ولا انكر ان هــذا التحديد يقوم على شروط صعبة لا يطالهــا عدد كبير ممن اصطلــح عــلى تسميتهم « شعراء » ، لكنه حيوي لمن حمل على عاتقه مهمة النبي والقائد .

ان القضية الحضارية الاساسية التي تطرح ذاتها على الشاعر العربي في هــذا العصر هي موت الحضارة العربية وانبعاثها . وقد برزت اسئلة عديدة كان على الشاعر ان يكتشف بحدسه اجابات لها : هل نحن في عصر انبعاث ام هل الحضارة العربية ما زالت تعاني الموت والاضمحلال ؟ واذا كان موتا ، كيف يتم الانبعاث ؟ وان كان انبعاثا، هل هو انبعاث اصيل ؟ وما هي القضية الاساسية التي يمكن ان تكون محكا يقرر اجابة على هذه الاسئلة ؟

تفاوتت اجابات الشعراء على هذه الاسئلة ، كل بقدر نفاذ حدسه وصدق وعيه لقضية الانسان والحضارة ، وعمق فعله وتفاعله مع المسألة الحضارية باشكالها جميعا. ولعل خليل حاوي ، احد رواد الشعر الحديث ، كــان من اكثر هؤلاء الشعراء وعيــا وانفذهم حدسا واشملهم ثقافة واعمقهم تجربة واشدهم اخلاصا ووضوحا في موقفه . من هنا كان نتاجه الشعري كشفا اضاء جوانب كانت مظلمة بالنسبة للانسان العــادي الذي يفتقد ملكة الرؤيا التي ينفرد بها الانبياء والشعراء ، ووفر اجــابات سبق بهــا الاحداث التي جاءت لتؤكدها .

فمن ديوانه الاول **نهر الرماد** (١٩٥٧) الذي طرح فيه قضية الحضارة في الشرق والغرب ، فوجد الشرق منجذبا في حلقات الدراويش يعاني من سبات طويل عميق والغرب متحجرا في آليته يعاني قشعريرة الحياة المولية ، الى ديوانه الثاني **الناي والريح** (١٩٦١) الذي غنى فيه انبعاثا عربيا شاهد انبثاقه في بشائر الوحدة العربية بين مصر وسوريا التي رأى فيها منطلقا لوحدة عربية شاملة هي الدليل القاطع على انبعاث الحضارة العربية بعد موت طويل ، وحتى ديوانه الثالث **بيادر الجوع** (١٩٦٥) الذي عاني فيه مأساة الانفصال التي صفعته وايقظته من وهم ظن بعض الوقت انه اليقين ، فكانت قصيدته « لعازر ١٩٦٢ » التي صورت الانسان العربي متشبثا بالموت، رافضا الانبعاث ، ميتا في الحياه — فقرر ان انبعاثه كان مشوها وغير اصيل .

كانت مأساة سقوط البطل العربي مأساة خانقة لخليل حاوي على الصعيدين التوأمين : الحضاري والشعري . فعلى الصعيد الحضاري تمثلت ازمة الحضارة العربية التي وصلت الى مأزق لم يسعها ان تخرج منه : فاذا كانت الوحدة هي النتيجة الحتمية للعوامل والعلل التي تؤدي الى الانبعاث فان مــا ينطوي عليه الانفصال من نواقص وعاهات ليس سوى نذير بانتصار الموت واستمراره . وعلى الصعيد الشعري عانى الشاعر مأساة رؤيا خادعة بشرته بالانبعاث في **الناي والريح** ، او لعلها كانت وهما تنكر رؤيا . لكن هل يمكن ان يخدع الشاعر ؟ وهل بقي هناك في الكون كله من يقين؟ لعل الرعب الذي عاناه خليل حاوي حين تمثلت له قصيدة « لعازر ١٩٦٢ » بصدقها الموجع كان سببا اساسيا في صمته الطويل الذي تلا القصيدة . وكان استمرار الاوضاع والعاهات التي كشفتها القصيدة عاملا ثانيا في هذا الصمت : فقد عبر عمــا يعتمل في خضم الحضارة العربية من تيارات وصور وعوامل فلماذا يكرر القول ؟ ثم جاءت هزيمة الامة العربية عام ١٩٦٧ لتؤكد الرؤيا التي تكشفت لحاوي منذ عام ١٩٦٢ . ولم تكن الهزيمة بالنسبة اليه مفاجأة او صدمة كما كانت لكثيرين ، بل كانت نتيجة حتمية لصور الموت والدمار التي اعلنت عن ذاتها في « لعازر » . لذلك لم ينح خليل حاوي كما ناح كثيرون ولم يصرخ ولم يلعن ولم يلق اللوم على هذا او ذاك ، بل تألم في صمت من كان يحلم بنبأ يكذب ما رآه وعاناه فانقض عليه نبأ اكد المأساة بحيث لم يعد هناك مجال للشك .

لم يصدر لخليل حاوي اي ديوان بعد هذه الدواوين الثلاثة . غير ان حــاوي لم يرحم ذاته او لم ترحمه ذاته من الانصهار في اتون الابداع الشعري ، فكانت السنوات الثماني الاخيرة منذ عام ١٩٦٧ الى اليوم فترة مخاض مؤلم تولدت عنها اربع قصائد ستنشر قريبا في ديوان . ولعل هذه الفترة كانت صورة لمرحلة جديدة من مراحل نتاج حاوي الشعري .

ظلت قضية الحضارة العربية محورا ترتكز اليه تجربة خليل حاوي الشعرية في هذه الفترة . بل ان القضية اصبحت اكثر جدية وخطرا مما كــانت عليه في اي وقت مضى . لقد كانت هناك مجالات لشك وامل في الماضي ، اما الحاضر فقد اعلن عــن ذاته بوضوح لا يسمح بالتباس او تأويل . ان الامة العربية بعد قرن كامل من البحث عن استجابة اصيلة للتحدي الغربي الساعي الى تذويب شخصيتها الحضارية ثقافيــا واجتماعيا وسياسيا وجدت نفسها منهزمة أمام هذا التحدي في هزيمتها امام الحركة الصهيونية التي اتخذها الاستعمار الغربي مطية لتحقيق اغراضه في العالم العربي . ولم تكن الهزيمة العربية بنت الساعة ولم تكن خطأ استراتيجيا او تكتيكيــا ولم تكــن مسؤولية هذا البلد العربي او ذاك ولم تكن خطيئة زعيم عربي او آخر. كانت الهزيمة

العربية مسؤوليه كل انسان عربي في القرن الاخير في تفاعله مع الواقع الحضاري وكانت اعلانا عن تقصير الحضاره العربيه عن تقديم الاستجابة الصحيحة للتحدي الذي نواجهه . من هنا يمكن القول ان قضيه فلسطين هي المحك الذي سيقرر موت الحضاره العربيه او انبعاثها ، لان التحدي الصهيوني هو تحد حضاري في الدرجه الاولى، ولن الاستجابه العربيه ستقرر اذا كانت الحضارة العربية تحمل في احشائها طاقه على الاستمرار او ان شعلة الحياة انطفأت ولم تعد قابله للاشتعال .

وعى خليل حاوي هذه القضية وكانت اطارا ضم في داخله قصائده الاخيرة وكانت محورا انبثقت عنه وارتكزت اليه ، من قصيدة « الام الحزينة » (١٩٦٧) الى «ضباب وبروق» (١٩٧١) الى « الرعد الجريح » (١٩٧٣) الى « رسالة الغفران » (١٩٧٤) . وتعد هذه القصائد الاربع قصيده واحده تنتظمها تجربة واحدة تطورت عبر السنوات الثماني وكانت ملحمة الانسان والحضارة . وساقصر هذه الدراسة على تحليل القصائد الثلاث الاولى منها . وستكون لنا عوده الى القصيده الرابعه .

كانت التجربة التي عاشها حاوي في قصيدته « الام الحزينه » التي كتبها بعد هزيمة العرب في حزيران هي ذاتها التجربة التي عبرت عنها قصيدة « لعازر ١٩٦٢ ». من هنا كانت قصيده قصيره جاءت لتؤكد صدق الرؤيا الموجعة ومطابقتها للواقع المؤلم. ويلاحظ دارس القصيدة ان المأساة فيها ليست مأساة البطل بل مأساة الام التي هي الارض والحضارة . وكأن الشاعر استعار عنوان قصيدته من التراث المسيحي حيث كانت العذراء مريم ام المسيح هي الشخصية المأساوية التي عانت بموت ابنها موت جزء من ذاتها دون ان تعرف يقينا انه سيبعث . ولم يعان المسيح مأساة الموت لان موته لم يكن سوى سبيل لانبعاث يقيني هو الحياة الابدية . اما في القصيدة فان الام تعاني المأساة لان جذوة الحياة لم تنطفىء في اعماقها وهي تعيش موتا بطيئا مستمرا بموت كل عضو من اعضائها على حدة . وهي ام حقيقية عريقة واصيلة الامر الذي يزيد من مأساة انهيارها وموتها . اما البطل فهو غير موجود : انه ميت منذ مطلع القصيدة . وبانتفاء وجود البطل انتفت المأساة من حيث هي ملحمة بطولة وسادت حالة ركود وموت مطلق . لذلك لم يكن هناك مسيح واحد فاد ، بل « الف مسيح ومسيح» ماتوا في اجواء قاحلة مظلمة تؤكد موتا ابديا لا يتلوه انبعاث . فكان كل واحد منهم مسيحا ليس في كونه ميتا منبعثا بل في عدم كونه بطلا مأساويا . وكانت هذه القصيدة في بنائها موازية لبناء قصيدة « لعازر » اذ لم يكن لعازر بطلا مأساويا بل ميتا يشتهي موته ويرفض ان يتخطاه . وكانت زوجه شخصية مأساوية لانها تعي الحياة وتكره ان تنجر الى حفرة زوجها ، لكن قوى داخلية وخارجية تعمل مجتمعة على جرها نحو الحفرة دون ان تقوى على مقاومة كبيرة لانها هي ايضا تعاني شيخوخة وعجزا ومرضا .

تبدأ القصيدة بصورة مرعبة خانقة يتحول فيها الله ، العلة الاولى ، صحراء مجدبة قاحلة تعجز عن الخلق والعطاء . وينقطع الكون انقطاعا تاما عن مبدعه فترتفع العناية ويقف الانسان وحيدا في كون تخلى عنه خالقه لانه فقد قدرته على الابداع والخلق . وتكون المأساة الاساسية في القصيدة هي مأساة موت الله . واذا كانت هذه المأساة هي احدى المبادىء التي قامت عليها بعض المذاهب الفلسفية في العصر الحديث ، فانها اتخذت طابعا مغايرا واكثر حدة في هذه القصيدة . فاذا كان نيتشه الذي طرح هذا المبدأ يؤمن بان الانسان يستطيع ان يتخطى ذاته ويتفوق عليها وان يحل محل الاله الميت فان حاوي يعلن في هذه القصيدة موت الانسان ايضا وسيطرة عنصر الشر سيطرة تكاد تكون مطلقة . من هنا كانت مأساة حاوي اكثر حدة ومرارة من مأساة

الانسان الغربي الحديث الذي وعى موت الله لكنه سعى لاحتلال مكانه . وتتمثل الارض العربية صحراء كانت قبسا ميتا من ذات خالقها الميت ، وارتدت الى ما قبل المنـــاداة بالدعوة الاسلامية التي مثلت ولادة الحضارة العربية : ان الله صامت لم يلق كلمته ، فليس من رسالة وليس من حضارة . يقول :

ما لوجه الله صحراء

وصمت يترامى عبر صحراء الرمال

وفي حالة موت الله ترفع العلل ويختل نظام الكون وينتفي الثبات ويزول اليقين ويغدو كل شيء ممكنا . وتنهـــزم في نفس الانسان العربي المنـــاقب العربية الاصيلة وتنقلب القيم ويسيطر نقيض ما عرف عن حياة البداوة العربية من احوال : فبديل ان يشعل العربي ناره ليهتدي بها الضيف اغتصب الضيف دار مضيفه واوقد هو النـــار ليؤكد ان ما اغتصبه صار ملكا له . واصبحت الافـــاق الواسعة جدران مغارة هي صورة للقبر الذي يضم الانسان العربي ، ومشت الغابة وكأن جذورها لم تعد متغورة في احشاء الارض تأخذ منها وتعطيها وانحلت الروابط جميعا وهبت ريح عقيم ليست ريحا شفافة ممطرة بل موحلة تحمل في طياتها امواجا من الرمال ، ولم يتحرك الانسان العربي ليطلب الثأر كما كان يفعل في طفولة حضارته وفتوتها بل تقاعس عن بلوغ مثاله الحضاري لان جذوة الحياة انطفأت في داخله ، يقول :

ما لضيف غاصب

يوقد ناره

حوله الآفاق جدران مغاره

حوله ايدي الرجال

غابة تمشي

ويمشي معها تيه الصحارى والبطاح

ويمحي دربها

موج من الرمل المدوي في الرياح

ما ترى تحكي الرياح

عن جراح فاتها الثأر

وما يسكب من ضوء ومسك

في الجراح

وتكون المأساة في موت المأساة واختفاء الملحمة وانتصار عنصر الشر انتصارا مبرما. استبيح البيت المقدس وليس من يدافع عنه بعد موت ربه ، وتخاذل عنصر الخير عن امتطاء الريح ومحاربة عنصر الشر والقضاء عليه . وبانتصار اليهود، وهم الذين سماهم المسيح ابناء الافاعـــي ، انتصرت الافعى ــ علة سقوط الانسان ــ وسيطر عـالـــم السقوط وتكرست ســـدوم اليهودية سيدة مطلقة لم يعـــد هناك من ينذرهـــا ويسقـــط لعنتـــه عليهـــا ، يقـــــول :

ما لبيت القدس ، بيت الله

معراج النجوم

ما لم يحمه سيف ملاك

يمتطي الريح وابراج الغيوم

يضرب الكفار ، ابناء الافاعي
من سدوم

ويتحول الانســـان العربي الى عكس ما كان عليه عند انبثاق الدعوة الاسلامية . فهـو لم يعد مندفعـا الى حماية بيت المقـدس وافتدائه بروحه ، ولم تعـد تشتعل فيه حمية من يتور على العار ويرفض وجوده ، ولم يعد يهمه الاخذ بثأر مـن استبيح من الضحايا . هـو بايجاز نقيض البطل العربي في الفتوحات الاسلامية حين كان يؤمن ان بينه وبين الجنة لحظات يختصرها رمح يستقر في صدره فيستشهد في سبيل ما يؤمن به من مبادىء . لهذا كانت الدعوة الاسلامية ولادة حضارة وكانت حرب حـزيران تكريسا للمـوت والاضمحـلال ، وكـان الانسان الـذي خـاض حـرب حزيران ميتا ولم يمت في الحـرب فانتفت بذلك المأساة ، ولم تكن حربـه حـرب بطـولة بـل كانت ذلا وسقوطا ، يقول :

ما حماة البيت ، والعار يغني
والضحايا تستباح
لم تر الجنة في ظل الرماح
ويظل العار حيا في جفون الميت
حيـا
يجلد الميت رؤاه وتذله
لن تروي قبره
رائحة الغار وظله

لكن الشاعـر هو نفســه يحس بالعار ، ويقف حـائرا غير متأكد اذا كـان احـد غيره يعي هذا العار ويتألم منه . فيكون الشاعـر بذلك رائدا يتخطى وعيه وعـي الجماعـة الراكدة الذليلة التي لا يؤثر فيها شعور بالذل . وتتكرر صور الموت في مخيلة الشاعر فتكـون ايامه ولياليه المؤرقة سلسلة من الجنـازات الصاخبـة . ويسيطـر ظلام كلي : فبديل أن يحمل الصبـح شمسا منبعثة فتية يأتي بجنازات متتابعـة يبـدو كأن ليس لهـا نهاية ، وتخمد العزة العربية التي طالمـا التمعت في الجبـاه ، ويسقط السيف عاجزا محطما ، وتلف العالم العربي من محيطه الى خليجه غـلالة حـداد سوداء لا يتراءى خلالها غير ضفـة نهر الاردن الذي كان يوما رمزا لانبعاث المسيح في المعمودية فغدا مع هزيمة حزيران صورة اخرى من صور موت متحجـر يرفض الانبعاث . ويحس الفلسطيني المشرد وحده بالاضافة الـى الشاعـر الم الهزيمة ، لان الفلسطيني ـــ كما يبدو في القصيدة ـــ لم يمت وان لم يكن فاعـلا . فما زال في داخله بصيص امل بالعودة يدفعه للاحتفاظ بمفتاح داره وان صدىء لطول الانتظار . لذلك يسمي الشاعر الفلسطينيـين « بالعائدين » ، لانه يؤمن ايمانا يقينيا بانهم لا بد ان يعودوا . يقـــول :

ما لثقل العار !
هل حملته وحدي
وهل وحدي ترى كنت وجهي بالرماد
الجنازات التي يحملها الصبح
تدوي في جنازات السهاد
الجباه انطفأت وانطفأ السيف
واضواء البروج

ليس في الافق سوى دخنة فحم
من محيط لخليج
ليس في الافق
سوى ضفة نهر ، وبيوت لا تبين
صدئت في خيم المنفى المفاتيح
بايدي العائدين ،
ليس في الافق
سوى صمت السؤال
من حماة القدس
والعار المغني خلف آثار النعال
وضمير الله صحراء
وصمت يترامى عبر صحراء الرمال

وتبرز مأساة الام الحزينة في المقطع الاخير من القصيدة . وقد كانت مأساتها اكثر ايلاما من مأساة العذراء مريم : فان كانت مريم شيعت مسيحا واحدا فان الام العربية الحزينة شيعت الف مسيح ومسيح تشك شكا حقيقيا في امكان انبعاثهم . ولم يعد المسيح في القصيدة رمزا للفداء والخلاص فكان على كل انسان ان يعمد ذاته بموت يبدو انه لا ينطوي على بذرة الانبعاث ، اذ ليس هناك من يفتديه . وتفقد الام الحزينة وعيها وتبحر في سديمية اللاوعي فتنحل الروابط المنطقية وتعيش تجربة الجنون من حيث هو انقطاع وفوضى وعدم يقين ، وتدمن العذاب وتنتشي بالحزن وتقيم اعياد الجنون وكأنها اغاي ام بنثيوس : القى عليها ديونيسوس لعنة الجنون فقتلت ابنها على غير وعي منها وانتبهت فجأة وتكشف وعيها بعظم الفاجعة وبعجز الانسان امام القوى الخارقة . ولا تستطيع الام ان تطال رحمة الموت ونعمته ، لان حالة الموت في الحياة التي تعاني اقسى من الموت وكأنها بحار كولريج العتيق الذي حلت عليه لعنة الموت في الحياة فعاش على ظهر سفينة تخلت عنها العناية الالهية في اعماق محيط تجمدت فيه الامواج والرياح ، ووقف وحيدا في مواجهة بحارة اموات — اراحهم الموت من هول المأساة — ترمقه عيونهم الميتة بلعنة ابدية . فكانت السفينة والبحار صورتين لحقيقة واحدة . وليست الام في قصيدة حاوي سوى تلك السفينة المتجمدة وهي البحار العتيق : يوازي ما تجمد في داخلها صور الجمود المحيطة بها — انها صخر يرتمي على الصخر ، يقول :

ما لام شيعت
الف مسيح ومسيح
واراقت دمها المجنون في اعياد حزن
وانتشت بالحزن واشتقت جنونه
ما لها الام الحزينة
ترتمي صخرا على الصخر
سوى شعر يلوح
خصل تنفضها الريح وتلقيها
على طفل ذبيح

وتتحـــد الام اتحادا مطلقا بالارض . لكن الارض صارت يبابا : سيطر عليها التنين واعتلى عرشهـــا وقتل الملك الصالح وحمل الميزان ليرجح كفة الشر استجابــــة لطبيعته الشـــريرة . وتحول الكون كهفا ضلت الشمس طريقها اليه فتجمـــد فيه الزمن كمـــا تجمد في كهف الفتية المؤمنين : « وترى الشمس اذا طلعت تزاور عـــن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه » (الاية) لكن هـــل يكـــون هـــذا القبـــر رحما يتفتح عن الحياة أم هل سيظل قبرا متجمدا لـــن يطاله دفء ونـــور ؟ أن التنين انشب انيابه في وجه الام وادمـــاه واستقـــرت حربة الخضر في وجهها ايضا لانه خضر قتيل لا يعرف اين يصوب حرابه . فكـــانت الضحيـــة ضحيتين :ضحية التنين الشـــرير وضحية البطل الميت . ويبرز اتحـــاد الام بالارض في ان وجهها المدمى الذي التمـــع فيه الناب والحربة هو نفسه الارض اليباب التي امتص التنين منها الدفء والحياة وتركها وحيدة تبحث عن اله يتخفى وراء جدران الصمت ويهرب الى سماء مجدبة تعاني موت الصحراء . ويتجمد في عروق الام دم الحياة وتنهار الـــى حفرة اللامبالاة ويكون ذلك اعلانا عن موتها هي ايضـــا ، يقول :

ما وحوش تدعي الميزان والعرش
وتزهو وتغالي
تدفع الارض الى كهف
تضل الشمس عنه ، ومصابيح الليالي ،
ما التماع الناب والحربة
في وجهي المدمى
حسرتي ، لحمي ، دمي
ارضي التي يمتصها كابوس حمى
ما جدار الصمت في وجه اله
يتناءى عبر صحراء الاعالي
في عروق الام صمت حجري لا يبالي

قـــدم خليل حاوي في قصيدة « الام الحزينة » صـــورة قاتمـــة للانسان العربي والحضارة العربية . وكانت القصيـــدة رؤيا سوداء فاجعة جسدت صورا متعددة لموت كلي لا يبدو انه يبشر بالانبعاث . لكن القصيدة تحمل بصيصا خافتا من النور يتمثل في الانسان الفلسطيني الذي ما زال يحافظ على مفتاح داره في فلسطـــين وان تآكله الصدا ، لان الامل يراوده بالعودة . هذا النبض الذي تكشفت عنه الرؤيـــا كان نبوءة بتحرك فلسطينـــي تحقق في الســـنوات التالية في انطلاقة حركة المقاومة الفلسطينيـــة .

بعـــد هذه القصيدة صمت خليل حاوي مدة اربع سنوات : احس بالاختناق من الرؤيـــا الجحيمية التي انشبت اظفارها في جسده وروحه ، وغصت الكلمة بالرؤيـــا ولـــم تستطع أن تجســـد ما فيها من رعب وهول . وفي عام ١٩٧١ كتب قصيـــدة « ضباب وبروق » التي تعبـــر عن مرارة من اعتاد الهزيمة فصارت جزءا طبيعيـــا من حياته اليومية ، فاختفـــى الحزن لتحل محله سخرية مريرة اشد ايلامـــا مـــن الحزن . وكـــان الضباب الذي يحجب الرؤية هو العنصر المسيطـــر على القصيدة ، لان الشاعـــر ما زال يعيش في كهف الرؤيـــا القاتمة لا يستطيع ان يـــرى خلالهـــا غير سواد متحجـــر . لكن هناك بروقا تلمع وتخبـــو وسط الضباب . هل هي بروق حقيقيـــة تبشر بمطـــرقريب ام انها مجـــرد سراب مدع متلون ؟ ان الشاعـــر في

هذه القصيدة ليس على يقين . انه ينظر التماعات يخاف ان يحدد طبيعتها خـوفا من السقـوط في الوهم لكنه يجسـد ما يـرى . ويعود الضباب ويلف كل شيء ولا يحل نعمة اليقين .

تبدأ القصيدة بالابحـار في اعماق الذات ، والشاعر يجلس في المقهـى وكأنه ركن هـو ايضـا الى مـا يشبه الخمول بعـد ان فقـد امله بجدوى الفعل وسط عالم سيطر عليـه الموت والعدم وعاد الى السديمية الاولى قبل فعل الخليقة . واصبـح قلب الشـاعر عشا لبـوم يفرخ ويتكـاثر فيـزداد شعـوره بسيطرة الخـراب والدمـار ويموت في نفسه نبض البطولة ويفقد نعمة الاحساس بالالم الذي يؤكـد له انه ما زال حيـا ويسود مكانه شعور باللامبالاة معادل للموت . وكـأن الهزيمـة لطول ما سادت وتحكمت اصبحت جزءا طبيعيا من ذات الشاعـر التي كانت فـي مطلع القصيدة صورة لذات كل انسان آخر اختـار ان يفني الساعـات الميتـة في المقهـى ، يقـول :

طالما اوغلت في بحر خفي
لا يداني
شطه المرصود ايقاع الثواني
حيث لا يشتد هول الموج
حتى يمحي نجم وصبح وموانى

الـى ان يقـول :

واري عبر الوجوه الصم
في المقهى العباب
صمت وجهي ووجوهه
افرخ البـوم
ومات النسر
في قلبي الذي اعتاد الهزيمه

ويجسد الشاعـر مأساة الحضارة الميتة التي غدت معلبة في المقاهـي في صورة ساخـرة مريرة : ان الفارس البطل الذي خاض الفتوحات العربية وابدع انتصارات خارقة مسخ خصيـا حقيرا تجلده الشهوة ويلجمه العجز ، فتسخر الجـواري مـن عجزه وخيبتـه ويهزآن به . لكنه يظل « فارسا » دونكيشوتيا يجد مـن يهابونـه ويستكينون عبيدا له لانهم اشـد منه عجزا واكثر تجمدا ومشاركين له في الموت . وتتحول الارض خرابا لان الملك الصياد يعاني شيخوخة وضعفـا ويقف عاجزا عن اشبـاع شهوة ازواجه . فتحل اللعنة وتجف الينابيع ويذوي الزرع وتغدو الارض صحراء ميتـة تعـاني شيخوخة ملكهـا وعجـزه . واذا كـان ابو الطيب المتنبي قـد احس ان بدايـة انهيـار الحضـارة العربيـة يستدل عليه ــ فيما يستدل ــ بتسلط خصي اسود على الحكم ورضـوخ الفحول البيض امامه ، فان حاوي يرى ان هذا الخصي لا يزال في السلطة منذ اكثر من الف سنة مؤكدا بذلك ان الانهيـار والتفسـخ والركون آفات ظل يعاني منها الانسان العربي والحضارة العربيـة حتـى اليوم : ان تفتت الدولة العربية العظمى الى دويلات تحارب احداها الاخرى كـان مأسـاة عاشها المتنبي فحاول في شعره ان يعيد خلق الفارس العربي الاصيل ، وبقي استمـرار ذاك التفتت وتلك الحروب الداخليـة هـو المأسـاة التي حـاول

حـــاوي ان يتخطاها باحـــلام الوحدة والانبعاث التي تكشفت عن سراب ، يقول :

طالما عاينت رسما
في ضباب التبغ ينمو بين
عيني وينمو في وجوم
يتخطى فسحة المقهى
ويخفي ظله سيل الرسوم
كيف كانت تلتوي الشهوة
في وجه خصي
سخـــرت منه الجواري
يمتطي الفرسان
مرهوبا وليا لا يداري
كيف ساقتني الى غيب الصحاري
لعنة العار القديم

ويظل الضباب مسيطرا ويقف الشاعر في رعب امام نفسه وامام الكون غارقا في جحيم الحيرة المظلمة ، معلقا بين السماء والارض ، تائها في بحـــور ابتلعت شواطئها وامتدت الى ما لا نهاية . والشاعر يبحث عن اليابسة ليصل الى اليقين ، ويتصيـــد بـــروقـــا وسط الضباب. لكن الرؤيا لا تسعفه ، وكأنه نبي يقف وحيدا في الصحراء ينتظـــر وحيا حبس عنه ويواجه ذاته ليصفيها عل البشارة ترضـــى ان تحل فيهـــا وتنقـــذهـــا من جحيم المعاناة . لكن الكون جميعا استحال وهما وصدى : تفتت نظـــامه حتى شك الشاعر بالوجـــود الخـــارجي ولـــم يستطع ان يرتـــاح الى شك بوجوده الداخلي لان هناك يقينا واحدا هو الاحساس بالرعب اكد له وجوده واجبره على مجابهـــة نفسه عاريـــة دون قنـــاع . فاكتشف كنه ذاته ومحور المأساة : انه خـــالق مخلوق يحمل في اعماقه رغبة الخالق في الابداع والتوق الى الكمال والخلود ويعـــانـــي في الوقت نفسه عجز الذات المخلوقـــة عن بلوغ ما يبتغيه ويتوق اليه . ويعيش الشاعـــر مأساة بروميثيوس الاله ــ الانسان : آمن ان النار سر خلود الالهـــة فسرقها منهم ووهبها للانسان فابدع حضارة فكان كالالهـــة خالقا واستمر وجوده بوجود ما ابدع . لكن بروميثيوس ليس الخالق المطلق لينعم في جنـــة لا يسمر اليها الصراع والرعب والالم بل كان خالقا مخلوقا : اصابته لعنة الآلهة فسقط فـــي جحيم النـــار التي سرق فكانت نعمة ولعنة ــ كانت سلاحا تصرع الجـــن بسلاحهـــا وتقضـــي على عنصر الشر وكانت ريحا سموما تخنقه وتذيب بلهيبها وجهه ، يقول :

وبلوت الحيرة الحرى التي
ينحل فيها الكـــون
وهمـــا و صدى
غير حس بيقين الـــرعب
في تيـــــه المدى
كنت فيه الخالق المخلوق
وجهـــــــا
صهرته الشمس والريح السموم
فتجلت فيه نار صلبة
تمضي علـــى نـــار الجحيم

تصرع الجن وتطمان الضواري
تتعـــالى شهبـــا
من رحم الارض لابراج النجوم

ويلمع برق وسط الضباب : هل ستسعفه رؤيا جديدة ؟ وتجلت في البرق صـــورة موجعة سوداء اغمض الشاعر عينيه خوفا من مواجهتهـــا وهربـــا منهـــا ، لكنهـــا استقرت خنجرا بين الجفن والعين . وكانت مواجهة مؤلمة بين ذاته وذاته . وتكثف ما اضمر في لاوعيـــه وانطلق الى الوعي يقينا لا يـــرد : ان رؤيا الانبعاث التي شاهد يومـــا لم تكن كشفـــا كونيا مطلقـــا يضرب جذوره في ارض الواقع وتتنفس غصونه الهـــامات علوية شفافة بل كـــان تصيـــدا لنموذج أصلي كـــامن في اعماق اللاوعي الانســـاني يحتمي بالانبعاث من هول الموت ، وكانت ثورة على لعنة يبدو كأنهـــا ابدية . لذلك اصطدمت تلك الرؤيـــا بالواقع المغاير وارتدت الى مصدرها جحيما داخليـــا يلتهم احشاء الشاعر فتعجز الكلمـــة عن الاحاطة بأهواله . ويرسم الخنجر فـــي عيني الشاعـــر رؤيـــا كانت اكثر هولا ومرارة من الرؤيا التي تجسدت في « لعازر » أو « الام الحزينة » : ان الحضارة العربية ليست زوج لعازر التي تحاول ان تنتشله من حفرته فتسقط هي فيهـــا ، وليست الام الحزينة الحقيقية التي تتألم لموت ابنهـــا وتعيش مأساة فنائه ــ انهـــا بغي هرمة تتاجر بجسدها لتعيش حياة الرذيلة ، يقـــول :

طالما اغمضت دون البـــرق
عيني ، وارخيت الستـــار
وتركت الليـــل
ينهـــال على اشلاء مصباح يمـــوت
وتلحفت السكـــوت
فتلـــوت خلف جفنـــي
مـــن البرق التمـــاعات الخناجر
انت يا من غـــورت
في جوفـــه الرؤيـــا وغصـــت
فاستحالت جمرة ملتهبـــه
تلك رؤيـــا اختنقت
فـــي الكلمـــه
حين نارت ، وتحدت
لعنـــة ما بـــرحت تشتـــد
مـــن جيل لجيـــل
لعنـــة الارض البغـــي الهرمه

ويمر الشاعـــر في تجربة مريرة يهزأ فيها من اخلاصه وتفانيه ويتساءل عن جدوى التزامـــه بقضية الانســـان والحضارة . فاذا كان الشاعر الرائي عاجزا عن تغيير الواقع المتحجر فما جدوى الالتزام وما جدوى الشعر ؟ لماذا لا يهرب الى عـــالم وهمي يخلع عليه صفات اثيرية تعارض جحيم الواقع ويتحول هو الى مهرج يطلي سواد وجهه بياضا ويطلي وجه البغي الشمطاء عله يستطيع ان يتعامى عما حفر فيه الزمان وعله ينسى آثار التشويه والرذيلة ، يقول :

كـان اجـــدى
لـو بنت كفـاك برجـا متعالي
فـي حنايا صمتـه
يرفـل وهـج الطيب
في وهج اللآلي
وغـلالات من الوهم المغالـي
وشحتهـا حنـوة الليل الطـوي
وصفاء مخملي قمـري
يلتـوي عنها جنون الشمس
ترقـد ظنـون الأعين المتهمـه
كـان اجـــدى
لـــو تبرجت
وبرجت البغي المرمـه .

لكنْ طبع الشاعر الغريب في صدقه واصالته يأبـى عليه الانطواء في بـرج عاجي ولا يقر بان مـا ارتكبه كان ذنبا لانه لا يطمع بالغفران ، ويفضل ان يكتـوي بالرعب الصادق على ان يتذلل بالبكـاء والصلاة والصوم :

ان يكن يطمـع بالغفـران
من يبكـي يصلي ويصـوم
فانا طبع غريب لا يـــدوم
يكتـوي بالرعب من طبـع
غـريب لا يـــدوم

لذلك لا يتوب الشاعر عن مواجهة ذاته والغوص في اعماقها بحثا عما تختزنه من صور ونماذج ورؤى . ويكون اول ما يواجهه في رحلته في اعماق نفسه صورة بومـة خرساء تجتر مـا حولهـا من سواد . لكن الشاعر يرى وسط السواد برقـا يتجلى فـي صورة فـارس شـاب عنيد عاد ليخلص الارض من براثن التنين ويعيد الخير الى الارض اليبـاب ، فيكون الهـا حقيقيـا يعود بالفعل الى عريه الاول فتتحقـق الخليقـة ويستعـاد الفردوس المفقود . لكن البومة ـ التنين لم تفقد بعد القدرة علـى المقاومة وهي مستعدة لخوض حرب طاحنة مع الاله الشاب . وتكون ذات الشاعر ساحـة لهـذا الصراع الطاحن ، ولا تسقط عليـه نعمـة اليقين فتهـوي البومة وتغيب ويهوي البطل ويغيب . فليست هـذه الرؤيا سوى برق بين اكداس من الضباب ، يقـول :

في جبال من كوابيس التخلي والسهاد
حيث حطت بـومة خـرسـاء
تجتـــر الســـواد
الصدى ، والظل ، والدمع جماد
يتجلى فارس غض منيـع
فارس يمسح غصات الحزانى والجياع
ويعـري الفعل
من اسم وظرف وقنـاع
وتـود البومة الخرسـاء

لــو مات الجميــع
لو توارى الفارس الغض المنيع
مــوجة يلهــو بهــا ، يهدمهــا
مـــوج الطبـــاع
وارى الفارس يهوي ويغيب
واری البومــة تهــوي وتغيب
بين شطين من الموج العبــاب
واری عبـــر الغيـاب
شبحــا يحـر في البحران
يغويـــه الســراب
تلتقيه في ضبـــاب التبغ
اشباح يغشيهــا الضباب

عانـى خليل حاوي في هــذه القصيدة صراعا نفسيا حادا : ان الرؤى السوداء ما زالت تتكرر في صــور اكثر سوادا وتحجرا . وكانت اللعنة التي حلت عليه هي ان يظل واقفا في مواجهة هذه الرؤى لا يستطيع ان يهرب منها ولا ان يطليها بوهم خادع . ولم تجده محاولة الهرب من ذاته ولم يستطع التوبة عن الابحار في اعمـاق الذات ونصيد الرؤى ومجابهة خيبات متكررة . وهذه هي لعنة الشاعر الرائي فـي مراحل الموت التي تعيشهـا الحضارات .

كانت قصيدة « ضباب وبروق » مقـدمة حتمية لقصيدة « الرعد الجريـح » التي تلتهـا عـام ١٩٧٣ . فمن ينظر البرق ينتظر قدوم الرعد ليؤكد ان الالتماعات كانت بروقـا حقيقية ولم تكن سرابا . فجاءت « الرعد الجريح » لتثبت ان البـروق التي سبقتهـا لم تكن وهمـا وان حجبتها اكداس الضباب ، وان الرؤيا لا بد ان تعود وتفرض ذاتها وان بدت بعيدة لا تطال . وقد وجد خليل حاوي نفسه في هذه القصيدة يسير على درب اليقين ، وبدأت تحل عليه نعمة الارتيـاح من الشك القـاتل حـول مصير الحضارة العربية . بدأت القصيدة بصور الموات التي كانت مسيطرة على مـا سبقهـا من قصائد ، وانطلقت فجأة صورة الرعد الجريـح وهـو البطل العـربي المخلص الذي بدأ بازاحـة صـور السواد والتحجـر ورسم معالم حياة جديدة . وفي ذلك يقول الشاعر في مقدمة القصيدة :

وكـــاد يسيطـر ايقـاع الهـلاك عـلى القصيـدة مـن المستهـل
الى الخـاتمة . ثـم تجلت الرؤيـا هـالة مـن هـول الرعـد
ومهـابة الجبـل في طلعـة بطـل مخلص ، صـاغه دفـق
الحيـاة البكـر في ارض راحت ترتـل بحيـوية الفطـرة ،
لطـول مـا اختـزنت مـن طـاقة هـائلة عبـر هجـوع
طـويل . كـانت في حضـور البطـل صفـوة الاصـالة
العربيـة ، تتخطى مـا تتصف بـه ذاتـه مـن عفـة
وكرامـة ونـداء . يتجسـد في التـاريخ فيكـون الانبعـاث
العـربي الاصيـل ، ويغيب فيطغى التهـافت وينتهـي
الـى مـا يشبـه المـوات ...
كنت كمـن يسمـع ويطبـع فيرسم بايقـاع التمجيـد
والتهليـل لوحـة تنـافي الايقـاع فيمـا رسمتـه مـن
لوحـات سابقـة .

ولم تكن الرؤيـــا المشرقة في هذه القصيدة مناقضة تماما للصور التي جاءت فيما سبقها من قصائد ، بـــل يستطيع القارىء ان يجد بذورها في تلك القصائد . ولم تكـــن ولادة البطل العربي فيها أمرا مفاجئا او مستحيلا فان الشاعر منذ قصيدة « الام الحزينة » وجد في الانسان الفلسطيني ظاهرة صمود وتجسيدا لامل فـــي العودة . وكانت الحركة الفدائية تأكيدا لوجود نبض الحياة في العروق . لذلك فان كان العضو الفلسطيني في الجسم العربي ما زال حيا ، فان الاعضاء جميعا لا بد أن تكـــون حيـــة وان اصابها حينا بعض الخمول . وقد كان ذلك ما اكدته حرب تشرين الاول في صور البطولات الرائعة التي شهدتها الارض العربية ، الامر الـــذي اعـــاد للانسان العربي كرامته المفقودة واكد للعالم اجمع ان الانسان العربي ما زال فاعلا في التاريخ والحضارة . وكان الشاعـــر قد أنتهى من كتابـــة القصيدة عدة اشهر قبل حرب تشرين ولم يكن يعرف سر تفاؤله ، ثم كانت الحرب تأكيدا لصـــدق الرؤيـــا . وفـــي ذلك يقول الشاعـــر في المقدمة التي كتبهـــا مؤخرا للقصيدة : « وليس فـــي القصيدة تعبد لبطل فـــرد ، بل نمـــوذج لامثاله من الابطال المناضلين الذين امتزجت دماؤهم واتحدت في الحرب الاخيرة فكانت شهادة دامغة : ان الظاهرة التي تدعـــى عـــادة بالعالم العربي تنطوي على كيان اصيل لامة واحدة ذات حدود واحدة فـــي الصراع مع الدخيل والغاصب .

عانـــي خليل حاوي قضية الموت والانبعاث في « الـــرعد الجريـــح » بمستوياتها المختلفة : الذاتي والانساني والحضاري . وكان في السنوات العشـــر الاخيرة مـــا بين عـــام ١٩٦٢ وعـــام ١٩٧٢ يعيش تجربة موت الانسان والحضارة في وجوههـــا ومستويـــاتها المختلفـــة واحس بعجـــز الشاعـــر ، وهو الرائد والنبي والمبدع ، عن تحويل صور الجمود وازاحـــة الظلام المتحجر . فبدأ شعور ببرود الشيخوخة وعجزها يتسلل الى نفسه ليواجه صـــورة مغايرة متجذرة في اعماقه هي صورة الطفل التي لا يمكن ان تفارق ذات اي شاعر اصيل . فالطفل في براءته ودهشته امام الاشياء ، وايمانه بحقيقةمايمثله لاوعيه من صور ، وتوهج شعوره ، وفعله من حيث هـــو وحدة في الوجود مثل الشاعر في خصائصه هذه جميعا . ان الشاعر والطفل همـــا عود الى الحياة البدائية حيث كان الكون وحدة متكاملة يخاطب الانسان الالهة وعناصر الطبيعـــة ويعيش في وحـــدة صوفيـــة لا تعرف المتناقضات ولا يفصل فيها بين الخير والشر ، فيتحقق الفردوس ويعود الانسان الى ما قبل السقوط . لذلك فان احساس الشاعـــر بالشيخوخـــة والعجز يتخذ طبيعة مأساوية حـــادة تفوق الى حـــد كبـــير احساس الانسان العادي بهما . من هنا تجسد الزمن موجا داخليا يتكسر في صدر الشاعر على سور عتيق تداعت جدرانه ، وتجسد مبردا اعمى يشوه جوهرة خالصة هـــي ذات الشاعـــر ، يقول :

كانت الغصات موجـــا
يتلـــوى ويـــدوي
في مضيـــــق
يـــزحم الموج الذي يرتـــد
عـــن ســـور عتيق
كـــان في الغصات
ينحل تنـــــاعـــي
عـــن نسوخ ترتعـــي
جدران جسم متداعـــي

فرحـــة الام التـــي تحتضـــن
الطفل الطـــري
وتبـــاهي بالفتـــى المنحـــوت
من زهـــو الصفاء المرمري
مـــا تـــرى لو تتحـــدى
مبـــردا اعمـــى خفيـــا
يشتهـــي التشويـــه
يجتـــاح صحاح الجوهـــري

ويقف الشاعـــر ــ الطفل في مواجهة النهاية الفاجعة : ان درب الحياة تســـير به حتما الى هوة الموت المظلم . وتتحول هذه المأساة الذاتية مأساة انسانية شاملة حين يدرك ان الموت هو محور مأساة الانسان : غرق في عتمته جيل الاباء وتطاول حتـــى على الشبان والاطفال . فصار الشاعر في وعيه الحاد لقضية الموت رمزا لكل انسان لانه يعايش مأساة مشتركة يرى هايدغر انها توحد الانسانية ، فيكتشف ان الانسان « كائن للموت » ، يقول :

ذلك الطفل الطـــري
لـــو تـــراه
في الكوابيس التـــي تعجنـــه
تعمـــي نهـــاره
اخطبوطـــا في محـــاره
وتـــرى الـــدرب تمشيـــه
الى هوة ليل يتقيه
ولماذا يتقـــي
مـــا ضم في عتمته
وجـــه ابيـــه
وجباهـــا غضـــة مستعره
وصغـــارا في قبـــور نضره

وفجأة ظهرت صورة الرعد الجريح . فكان بطلا فتيا يحمل في عينيه غضبة الفارس على عدو متحكم ، واعتداد الموقن بالانتصار وكانت عودته عود الشمس المنبعثة من غور الليالي وانبعاث الميت من ظلمة القبر . هذا الفارس البطل جاء من وراء الزمان والمكان حيث لاتـــؤرخ الشمس ايامـــا واعواما وحيث لا تصل الريح ، فكان الانسان المتفوق الذي عاد ليحتل مكانة الاله القتيل ، فأحرق مظـــاهر السواد وافنى الظـــلام فكان شمس الصباح المنبعثة ورمز الخصب والحياة . لهذا فهو ليس انسانا عاديا من طين ومـــاء بل شعلة لهيب تفيض جمرا ولالىء . وتكون السمة الاساسية التـــي تميز هذا البطل هي التضحية ، لذلك فهو رعد جريح افتدى قومه بدمه وبعث مسيحا يحمل جرحه ويطلب من تلاميذه ان يتحسسوا آثار المسامير والحربة ، لانه مسيـــح حقيقي يحمل في جسده الدليل على صدقه وتضحيته وافتدائه لكل انسان . فلا يقوى ظلام الليل على مواجهته فيحترق من تلقاء نفسه ويفنى دون ان يفعل الرعد لاحراقه وكأن ظهور الرعد كاف لاذابة تحجر الظـــلام ، يقول :

ثـــم هلت
نعمة التهويـــــم
في طلعـــة ضيف
عـــاد من غــور الليالــي
عـــــــــاد
غضـــا وغضوبـــا متعالي
يحمل الجرح الذي ينزف
جمـــرا ولالـــي
اتـــرى هل كـــــان
في حنـــوة ليل يستريح
حيث لا تضربه شمس
ولا تحنيه ريـــح
كيف لا يحترق الليـــل وينثنى
حين يلتف علـــــى
رعـــــد جريح

ويتبـــدى الرعد الها اسطوريا يسوق خيولا نارية في الافاق الواسعة ويزيح صور الظلام ويلهب السماء وينطفىء ليعود الى الاشتعال مجددا ، فيكون نسرا في قوتـــــه وعنفه وتجدده الدائم وعنقاء في شهوته للحياة ولولادته المتجددة ابدا في كل اشتعال . هـــذا البطل الذي يسمـــو على طينة الانسان العادي لا يعيش في الزمان بل هـــــو يعيش ابدا لحظة بطولة مركزة مكثفة هـــي حلقات لامتناهية من الموت والانبعاث ، يقـــول :

ان نك الـــرعد الذي يحدو
صهيل النـــــار
من افق لافق ويروح
بعـــد ان يشنف ما ينزف
من وهج الجـــروح
لـــو تمادى عمـــرك
المحتـــوم الا يتمادى
كنت اشعلت الظلال الســـود
في درب المساء
كيـــــف تدري
ما يعـــاني كـــــل حـــي
صيغ من طين ومـــاء ؟
غير نسر ما يزال
يتملى العمـــــر
اعمارا طـــوال
لـــو تهاوى وانطـــوى حول جناحيه
مساء في الذرى الملتهبة
ارخت شهوته للعمـــر
وروت لهبـــــه

ويتجلى الرعد الجريح نبيا ورسولا هو الصورة الرمزية للنبي العربي ، فيكـــون فرعا اصيلا من شجرة نبتت في الصحراء هي رمز للامة العربية ، وكأن الشجرة صفت ذاتها في هذا الفرع فكان ذروة ما يمكن ان تصل اليه الشجرة من صفاء . ومن هنـــا تجلى فرعا اصيلا خالصا . وبذلك تولد الحضارة العربية مجددا في ولادة رسول عربي اصيل يتفجر في الصحراء ينبوعا ويحقق الخصب ويعطي الحياة . لكن هذا النبـــي المختار الذي جاء ليدلي برسالته فيطاع يواجه قوما ختم على اسماعهم بالطين فيصمون آذانهم عن تلقي الدعوة النابعة من أعماق النفس الانسانية والمستجيبة لطبيعتهـــا ويرفضون ان ينظروا الحقيقة الانسانية المطلقة التي لخصتها حياة الاجيال السابقـــة فكانت جوهر الطبيعة الانسانية ، يقول :

ولماذا كنـــت
مختارا سميـــع
وتجليت مطاعا ومطيع
ولماذا ختمت بالطين
اسمـــاع الجميع
عـــن مصـــير
صاغـــه التاريخ في صلب الرجـــال
لخصتـــه
فـــي مجـــال العمـــر
اجيـــال طـــوال
وتصفت دوحـــة الصحراء
فـــي فـــرع أصيل
يتعـــالى عن جلال المجـــد
ينبـــوعـــا يسيل

ويبدو ان عدم التفاف الناس حول الرسول وصم آذانهم عن تقبل رسالته همـــا نتيجة لسيطرة الطغيان الذي حوله الملوك الضئيل لهوا ومهرجانا . وتبتدىء مسرحية متكاملة : يظهر الملك ـــ الملوك مهرجا يلبس جبة ملتمعة اكبر من حجمه فيغوص وجهه المقنع فيها ويحكم طاغية مستبدا لكنه يمثل دور بهلول بريء ليخدع آلاف الالاف مـــن المتفرجين فتنطلي اللعبة على غالبيتهم . ويحقق الطاغية مأربه بالهائهم بحركاته المسرحية المموهة عن طرح السؤال الجوهري والغوص الى جوهر القضيـــة ، فيطربون لمـــا يرون وينتشون ويطلقون صيحات : آه . فلا يظلون مجرد متفرجين بل شركاء في المهزلة وكأنهم الجوقة في المسرح الاغريقي . وكي تتم المسرحية المهزلة يصعد شاعر الملوك الى الخشبة صورة كاريكاتورية ممسوخة : انه وجه دون جبين نبتت فيه اعداد كبيرة من الوجوه المقنعة هي صورة الوجوه المتفرجة دون غضب او كرامة . ويقـــوم « الشاعر » بالدور الموكول اليه فيتغنى بامجاد واليه الوهمية ويحاول أن يحشو فراغه، لكنه حشو فارغ ايضا لان ما يتفوه به ليس سوى رغوة وتبن وصدى ، يقول :

من مطاوي جبـــة ملتمعه
غاص فيها وجه مملوك ضئيل
حـــول الطغيـــان
لهـــوا ، مهرجانا
وعلت صيحة آه
وتهـــادى شاعـــر الملوك

وجهـا من وجوه كورت
دون جبـــاه
كـــل وجه نبتت نيـــه
وجوه طيعه
ما احست غضبة ثارت وغصت
في مزيج الاقنعه
شـــاعر العصر
يصوغ الشعــر
ترنيهـا يغني عبر تمويه الشفاه
يحتفي بالرصف والترصيع
في بيت ، خوى من ساكنه
ويصلي باسم واليـــه
ويحشـــو ربـــه الاكبـــر
حشـــوا فارغا في باطنه
منسف التبن ، صدى الرغوة
ترجيع الصدى

وبذلك يتحول الشعر وهو النبوءة المتجددة في كل عصر من العصور تمويها وتدجيلا ويغدو الشاعر مشعوذا بديل ان يكون نبيا فيضلل الناس بدلا من ان يكشف لهـم الحقيقة المطلقة. ويتأكد بذلك مدى خطورة الداء الذي تعاني منه الامة : ان الشاعر ــ النبي المخلص استحال دجالا منافقا، فكيف يتم الخلاص ؟ غير ان العزاء والامل يكمنان في أن آفة الاستزلام لم تنسحب على الشعراء جميعا . فما زال هناك شعراء حقيقيون وانبياء ما برحوا يؤمنون ان الحياة رسالة تؤديها شفاه بكر طاهرة بريئة رفضت ان تمتهن البغاء لتجمع الاموال وتغرق في الثراء ورضيت ان تحيا حياة الكفاف التي عاشها الانبياء المخلصون على مدى التاريخ ، فتحقق بالفقر اعلى ما يمكن ان يصل اليـــه انسان من صفاء : «مرور جمل من ثقب ابرة ايسر من ان يدخل غني الى ملكـــوت الله » . ويحقق الانسان بالعفة فردوس البراءة الاولى ويعود الى عالم مـــا قبـــل السقوط فيتحد اتحادا صوفيا مطلقا بالله ويغدو بدوره خالقا تلقي شفاهه الطاهـــرة كلمة « كن » فتجري الينابيع وتنمو الكروم وتشمخ الغابة عزيزة منيعة ويرتفع البيـــت حصنا يجد الانسان فيه راحة الانتماء ودفء الامان . فيتوحد الشاعر الحقيقي بالله ويغدو هو مبدع الحياة من جديد . وتولد الاشياء بكرا عفيفة عفة الصحراء ، عذراء عذرية الشجرة الاصيلة ، فيكون الشاعر المبدع هو الرعد الجريح الذي تجلى شجرة اصيلة في الصحراء العربية العذراء التي تطهرت من رجس اقدام المغول وعادت الى براءتها قبل ان تغتصبها خيولهم . وتجلت الصحراء ارضا منيعة لن تطالها حوافر خيل المغتصب . ويبارك الشاعر ــ الرعد حياة الكفاف الشحيحة من حيث المادة ، الغنية في طهرها وعفتها والتي تمارس حرقا متواصلا لذاتها فتعمد نفسها بالنار وتعيش انبعاثا متجددا في اللهب الابدي وتعلو باتجاه الافاق الواسعة جبالا منيعة مناعة صخر لا يتفتت ، يقول :

غير اسماء
تسميهـــا الشفاه البكـــر :
ينبـــوعـــا ، كروما ، غابـــة ،
حيا ، عمـــاره

تلـد الاشياء في طهر البكاره
عفـة الصحراء في نزع اصيل
بارك الشح الذي يرشـح
من جمـر الرمـال
ومناخ الصخـر في جرد الجبال
بين انياب الجلاميد التي تعصى
على خيل المغـول
طالما هاجت وماجت
وارتعت وانتعلت
خصب السهـول

ويتحول الوجود بمجيء الرعد الجريح : فتختفي صور السواد والتحجر التي كانت محور « الام الحزينة » و « ضباب وبروق » وتسيطر صور البياض واللهب والحياة ويحل صحو ابولوني شامخ شموخ الجبال متفجر تفجر البراكين وغضـوب غضب الرعـد يتحقق جنة هي الفردوس المفقود . ويعود الانسان الى الجنة بعد ان يولد ثانية في معمودية لهب ابيض بكر ليس من هذا العالم ، بل هو نار ازلية ابدية تصهر الشمس والارض في احشائها وتعيد خلق الوجود طفلا بريئا وجنة تضل الحية السبيل اليها . وتحل نعمة اليقين وتنزاح كوابيس الشك الاسود حول مصير الانسان والحضـارة ويزول الرعب من سيطرة موت بدا انه تخطى الزمان ولم يعد خاضعا لسيطرته فكأنه اله الموت الثابت المطلق . وبعد عذاب سنوات طويلة امضاها الشاعر في المطهـر حيث صفى ذاته من ارجاسها وعاني جمود صمت استحال في حلقه الى صخور وعاش في ظلمة الاعمى الذي تنمو في جفنيه ابر ذابحة ــ تتجلى له بياتريس رؤيا علوية مشرقة فاتحة ذراعيها تدعوه الى دخول الفردوس فتنزاح اسباب الظلام وتبدو الجنـة درة خالصة ملتمعة تتوج قمة الجبـل المقدس ؛ يقول :

وكفانا ان نـرى
في الجبهـة السمـراء
ما صحو الجبال المطمئنه
ترتوي من غضب
البركـان والرعـد
وتروي في شعاب السفح جنه
في لهاث الشمس والارض
اغتسلنا ، وغسلنـا
في بياض لاهب
ادمغة كانت تعـانـي
هـول مـا كان
وما سـوف يكـون
هـول آن
ليس من عمر الثواني
يرتمي في الحلق جلمودا
وينمو ابرا بين الجفون
وكفـى بالجبهة السمراء
ما ينهل من رؤيا

لها في دمنا طعم اليقين
تصهر الظل الذي يغفــو
على رمل الموانـــي
في صهيل الصاعقــه
والريـــاح السود تدميها
التماعـات الجباه الشامخه

ويعود الانسان الى صفاء العيش الاول ، فيرجع الى حياة رعوية بريئة يتوثق فيها ارتباطه بالارض . ويعمل بالزراعة فيبدع صورة انسانية متكاملة من الطبيعة هي مـــا يدعي بالحضارة الانسانية التي يرى هايدغر انها تتحقق بالزراعة وفن العمارة ويسميها عودة الى « المسكن » تنتشل الانسان من السقوط في العدمية . وتناط بالشعر كمـــا يقول نورثروب فراي وظيفة التعبير عن رؤيا الانسان الحضارية : عن رغبـــة دفينـــة يحققها العمل . ويستمتع الانسان بحياة الكد والعمل لانها سبيله الى تخطي ذاتـــه وابداع اثر يستمر فيه فيخلده . ولا يطمع في حياة غنى بل يبتغي خبز الكفاف فيعيش اعياداً مستمرة وينتشي نشوة ديونيسية في سريان النبع وزغردة الموال ودوي الجرن والمهباج والحكايات الدائمة حول الموقدة فيعود الى ما قبل سيطرة المدينة الخانقة الى حياة القرية البريئة ، جنة الانسان على الارض ، يقول :

وقلوب ولدت
في صفوة العيش البري
راوحت ما بين
كد ، عرق ، زرع
وشح في الحصيد
ودوي الجـــرن والمهباج
من عيـــد لعيـــد
حيث يجـــري
النبع والموال في ظل طـــري
النت طيب الليالي
حول نار الموقـــده

وتنتشي الارض في لذة الولادة الجديدة . لقـــد عاد الفارس البطل اليهـــا بعد طول غياب سيلا وشلالا من الرعد يمخر احشاءها ويزرع فيها نبضة الحياة فيطال الرحـــم الاحمر الريان الذي مـــا زال حيـــا . وينطلق التراب الاحمر الحي الى وجـــه الارض فتخفق جميعا في لحظة الولادة . ويصل الرعد الى الاعماق فيلتقي صخرا يجلوه مـــن ادران علقت به على مدى السنين ويعود به الى صفاء الرخام الاول وينثره دررا لامعة عـــلى رمل الشواطىء . ويهلل الانسان ويمجد الرعد الجريـــح الذي اخصب الارض الخراب فبعثت طفلة بريئة بعد ولادة عسيرة مؤلمة ، يقول :

ولماذا هدرت عبر الاعالي
لم تعد تذكر عيشا وتبالي
وتعرت عن سيول ورعود مزبده
وتهـــاوت صوب شلال

من الرعـد العبـاب
يمخـر الارض
ويرمي بالتراب الاحمر الريـان
من قلب التـراب
يلتقـي صخـرا رخاما
فيصفيه ويجلو مقلعه
وعلى رمل الشواطي
تترامى الدرر الملتمعه
وتهللنـا ، ومجدنـا
جـراح الرعـد ،
مجدنا لآلي الرعـد
في الارض الخـراب
النجـوم انسحبت
خلف شهـاب احرق الليل
وغـاب

ثم يرسم خليل حاوي صورتين واقعيتين للبطل العربي كمـا تراه امرأة تحبه وكما تراه امه . ففي المقطع المسمى « الرفيقة » تظهر امرأة كانت تحب الرعد الجريح لكنها تزوجت رجلا غيره لطول غيابه . ولم تستطع ان تحب زوجها لانها في لاوعيها ما زالت تتوق الى الرعد الجريح . لذلك كانت تعيش صراعا داخليا ضائعة في ضبـاب فاحم متخذة شغل البيت قناعا وسبيلا الى الهروب من الذات . ويتكثف ما يعتمل في لاوعيها ويتبدى فجأة في نور الوعي فتمحي في اللهب الداخلي صورة الزوج والام والاب ولا تعود تعي سوى ذاتها كأنها وجدت نفسها فجأة بعد طول ضياع فتكتشف ان عيشها الماضي كان باطلا ، تقول :

باطل طول الصراع
وضياعـي في دوي
فاحم الدخنة
يشتف الضيـاع
عنت ظل البيت
شغل البيت درعـا وقنـاع
وامحـى وجه رفيق طيب
في لهيبـي
وجـه امـي
وظلال الوعر في وجه ابـي

لكن البطل المخلص يتحول شعارا وصورا تآكلتها الغبرة والامطار علـى جدران الشوارع فتهاوت نتفا صفراء مهترئة ، فتفرغ البطولة من معناها الحي المتنامي وتتجمد صورا وشعارات باردة لا تنبض بالحياة . وتلك هي مأساة الابطال في الامة ، حيـث يظل البطل غريبا فلا تحتفل الامة الا بالمظاهر الخارجية لبطولته تحولها شعارات تسقط معانيها لطول ما تردد . لكن الرفيقة وهي تنظر الصور والشعارات وتسير هائمة على ارصفة ما زالت تلفها العتمة ، تحس الرعد الجريح نبضا حيا في أعماقها وتسعى ــ دون وعي منها ــ باحثة عنه فتقودها قدماها الى جرد المهاوي العاصفة ، تقول :

كنت فـي دربـي
الى جرد المهاوي العاصفه
وبقايا الليل
ما زالت ركاما
في زوايـا الارصفه
جبهـة الرعد استحالت
لشعـار
لحروف ، نتف صفر تهاوت
عـن جدار وجدار

وتطول بها الدرب لانها لا تقصد مكانا معينا ولا تبحث عن شيء معين سوى هويتها الضائعة التي لن تتحقق الا بالتحامها بالرعد الجريح الذي وعت في تلك اللحظة انه هو جوهر ذاتها وصورتها وانها اخفقت في الغوص الى اعماق لا وعيها واكتشاف مـا ينطوي عليه من رغبات وحقائق مطلقة حين اختارت ان تقترن بغيرة . واذا كان فعل الاختيار هو فعل تحقيق الذات واكسابها ماهيتها فان الخطأ في الاختيار خطيئة وجودية لا ترد ولا تعوض . لذلك كان على الرفيقة ان تدفع من جسدها وروحها جزية هـذه الخطيئة فأحست ان الفناء يسري في جسدها وأن روحها هائمة في ضياع ابدي لا سبيل فيه الى الخلاص . فحلت عليها لعنة الموت في الحياة . ويسيطر لاوعيها سيطرة تكاد تكون مطلقة فيولد صورا واحلاما تسعى الى أن تحقق في الحلم ما اخفق الواقع عـن تحقيقه . فيتمثل الرعد الجريح نارا تحرق عينيها وتجتاح جسدها وتصهر ذاتها القديمة وتبدعها في لحظات انسانا جديدا تستطيع ان تلتحم به ولو في الخيال . غير ان الحلم في تلك اللحظة كان اكثر صدقا من الواقع فكان اتصالها بالرعد اتصالا متوهجا حقيقيا أحست انه يسري في خلايا جسدها نبضا حيا وحقيقة داخلية وواقعا تتلمسه حواسها. وتتحد الرفيقة للحظات اتحادا صوفيا بالارض : انها تعيش نشوة الارض اليباب التي اخترق رعد الربيع احشاءها فزرع بذرة حية واخصبها فترنحت لذة وانتشاء وطربا : لقد دبت الحياة في العرق الميت ، تقول :

طالت الدرب
وطالت سكرة الجـوع
وانثت شهوتي للزاد
انثت جسدي
وخطـى تمضي وتمضي
في ضياع ابدي
كيف لي ان اجتلي
ما كنت في حال السرى
هل تحولت الى طيف
يرى مـا لا يـرى ؟
ومضات الهبت عيني
واجتاحت كيانـي
صهرت لفظـا ، حروفا ، ومعـاني
وتجلـت
جبهـة سمراء في وهج الذرى ،
جبهـة الرعـد

تجلت ملء عيني ويدي
وتمشت في خلايا جسدي
نشوة الارض التي
رنحها رعد الربيع

غير ان نعمة الحلم لا تستمر ، فتفيق الرفيقة الى الواقع المؤلم ، وتجد انها ما زالت هائمة تبحث عن ذاتها الضائعة وعن درب لامتناهية فقدت نفسها في سراديبها . وليس الواقع سوى ليل صقيع لا يصل دفء العاطفة المشتعلة اليه وهو ليل موحش يكسوه جليد الوحدة القاسية ويزيد من شقائه لهيب اعمى هو جحيم الذات الداخلي الذي لا مهر منه . وتحاول الرفيقة ان تهرب من جحيم الصقيع الخارجي الى اعماق ذاتها فتلتقي جحيم لهيب داخلي مساو له من حيث العذاب . وتكتشف ان احشاءها ما زالت ارضا يبابا جائعة لا تنال اشباعا ، ملجومة لا تقوى على الانين وتعجز عن الانطلاق . وتعي ان ما حلمت به من انطلاق في دروب ضائعة وما احسته من اتصال واشباع لم يكن سوى ابحار ساكن متجمد في غرفة نومها . انها لا تفعل سوى الانتظار ولا نعيش سوى الاوهام . وتجلس مثل بنلوب تحوك صامتة ، ساكنة سكونا خارجيا يخفي ما يعتمل في اعماق البراكين من لهب ، منتظرة عودة يوليسيز ، يقول :

ولماذا خلفت جرحا ،
دويا ناحبا
لهبا اعمى ، النماعات تشيع
من صخور الجرد
في ليل الصقيع
ضاع في حومتها
وجهي ودربي
قلت علي احتمي
في برج قلبي
فالتقيت الجوع ملجوما حزينا
ينسج الخصب
على ارض بوار
ابرة عاشت على الصبر
مشت طوع يدي
وشحت في غرفة النوم
مناهات الحرير
روت الواحات
بالامطار والصحو الندي

وتستمر حياة الرفيقة كما اختارت لها ان تكون : اختارت هذا الرجل زوجا ولن تستطيع الهروب من نتائجذلك الاختيار . وقد وعت متأخرة انها اخطأت في اختيارها وان زوجها وان كان طيبا وقريرا فهو ليس النصف الاخر من ذاتها الذي هو انعكاس للذات واكمال لها . لذلك فهي تعيش صراعا بين الشهوة والنفور ، وتتلوى الشهوة في جسدها دون ان تشبع لانها ، بعد ان عاشت في الحلم لذة حقيقية بالتحامها بالرعد الجريح ، ترفض ان تسلم جسدها لانسان اخر وان كان زوجها . وتظل الرفيقة تشعر باتحاد صوفي مع الارض وتحس في لاوعيها الم مخاض الارض التي تتفتح عن زرع حي متنام وتعيش زهو الام المعطية حياة جديدة . لكن وعيها لواقعها قائم هو ايضا لانها تعي انها ما زالت متجمدة مكانها في غرفة النوم ، فتحيا تمزقا حادا بين ذاتين لا يمكن

التوفيق بينهما ، تقول :

كنت في ليـــل
التشهـــي والنفار
ارتمي جنب رفيق
طيب القلب ، ترير
جسدا يغنو ويصحو ، يتلوى
فـــي السرير
ويعـــاني ما تعاني الارض
زهـــوا موجعـــا
ينمو مع الزرع النضير
في متاهات الحرير

وفي المقطع الثاني بعنوان « الام » يصور الشاعر ام الشهيد البطل اثناء جنازته ويقدم صوره متوهجة حية للمأتم ـــ العرس : ان الاستشهاد ولادة ثانية وهو عود الذات الى مصدرها ، وتحقيق الفردوس الموعود . لذلك كان مأتم الشهيد عرسا تزغرد فيه الصبايا وتطلق الحناجر الملهفة الباكية اناشيد الانبعاث والفرح . وتقف ام الشهيد في هـــذا المشهد الدرامي المنوتر الممزق بين الحزن المحرق وبين الزهو والافتخار تعاني صراعا حادا بين الدور الذي رسمته لها الاعراف والتقاليد وبين احساس اية ام فقدت عضوا من احشائها . لقد عين لها دور الصابر المتجلد وينبغي عليها ان ترسم ابتسامة حزينة على شفتيها وتقر بان ابنها يزف في تلك اللحظة الى الارض ـــ العروس والام وان ذاك الزفاف هو العرس الحقيقي . غير انها نرفض ان تخادع نفسها ، وتتغلب في لحظـــة بطوله داخلية على الدور المرسوم لها ، وتخلع قناع الممثل ـــ النمط ، وتتوهج ذاتـــا فردية في بطولتها ورفضها وكلية في تعبيرها عن حقيقة شعور كل ثكلى . وتعترف الام في حوار داخلي بحقيقة ما تشعر فتجد ان فقدان ابنها ليس فجيعة لاحد غيرها . وتتمثل الفجيعة في كلمة « ضيعت » التي نرددها الام مرتين في السطر الاول . فالكلمة في صيغة المبالغة وهي كلمة عامية تحمل خصائص جارحة في صدقها لا تعبر عنها كلمة «اضعت» . ويمثل الابن الشهيد لامه درة الكون اي صفوة ما وصل اليه الكون باسره من صفـــاء وندرة وتفرد وصلابة ونفاسة . لذلك فان ما اضاعته لا يعوض ولا يجدي معه عزاء ، لانها فقدت نبضا في رحمها وامتدادا لذاتها . لكن هذه الحقيقة التي تكشفت لها عارية دون قناع كانت ساطعة ومحرقة لم تستطع التعبير عنها وكأنها لم تجد سبيلها الى العبارة فظلت جحيما داخليا زاد انحباسه في تأججه . وكأن صوتها خانها حين ارادت ان تصيح معلنة ما تكشف لها لانه يعجز عن احتواء تلك الحقيقة والخروج بهـــا : ان تلك اللحظة ليست عرسا وابنها ليس عريسا وان غنت الصبايا الاهازيج . وتشعر الام انها تريد ان تحطم مظاهر الفرح حولها وتسحق ازهار البهجة وتفني عطرهـــا ، لكن قواها لا تسعفها ايضا ، وكأن التقاليد المرسومة ما زالت اقوى من الحقيقة الوليدة : ان العريس الغض قتيل يغفواغفاءة ابدية في حفرة لا تطال . ولا تنتظر الام عودتـــه بالجسد لانها تعرف يقينا ان ابنها انسان وليس مسيحا . وهي لا تفكر بخلود الروح او الانبعاث المعنوي لانها ام حقيقية تعانيآلاما عينية واقعية وتعيش تجربة حسية حادة لا يجدي معها انطلاق ماورائي ولا تسمح بانطلاق كهذا . وهي لا تجد عزاء في مظاهر الفرح الحزين ولا تطيق البقاء في جو يجمع المتناقضات في وجوه هائجة يعصف فيهـــا الحزن والزهو والاحتراق . وتشتعل حواس الام بما تبصر وتسمع وتحس وترتد جحيما

الى رحمها فتعاني آلام ولادة ليست بولادة ، تقول :

ولدي ضيعته ، ضيعت وحدي
درة الكــون
وما يجدي ويجــدي
ليت لي صوتا يصيح
ليس عرسا وعريسا
ولدي ليس المسيح
ويدي ليت يدي نبض
عنفا ونزيــح
بهجــة الورد وعطره
العريس الغض
يغفو اليوم في هوة حفره
والصبايا واهازيج الصبايا
لا تعزي ، لا تطاق
ووجوه زمهرت
حزنا وزهوا واحتراق
زبـــد يرغي وفوره
بصري ، سمعي ، حواسي
غورت في رحمي
نبضـــة جمـــره

ويتجسد الصراع الداخلي حوارا واقعيا ملموسا حين يتقدم احد العقائديين ليقـــدم تعازيه لام الشهيد فيردد امامها شعارات باردة لا يمكن ان تصدر الا عن متفرج مـــن الخارج لم يكتو بلهيب التجربة . فيقول ان الابن الشهيد ولد ليكون ضحية لان الفـــداء كتب عليه منذ ولادته ، وان دمه نار حياة يبعث من يعتمد بلهيبها ، وان جنازته عرسا نغني فيه الصبايا وليست مأتما ينحن فيه ، وان دفنه في الارض عود الى الام الكبرى واتحاد مع العروس الحقيقية وتحقيق للانبعاث الاصيل . وتقف الام مصغية الى الدور الذي كان عليها ان تقوم به ومنفرجة على القناع الذي كان عليها ان تلبســه وقد انطلقا الى الوجود الخارجي فتتمسك بشعورها الحقيقي وترفض ان ترد بشعارات فارغـــة لان النار المتأججة في احشائها هي التي تتكلم . وتتجسد الحقيقة الداخلية الوليـــدة عبارة بكرا ما تفوهت بها شفاه من قبل : انها وحدها الام الحقيقية التي عاشت تجربة اتصال حسي متوهج في ارضاع طفل حملته هي وحدها في احشائها العذراء وكأنه ليس جزءا مضافا الى ذاتها بل صورة تلك الذات وجوهرها . ويصدم العقـــائدي للاجـــابة البكر الطاهرة فيردد شعارا آخر هو ان أم الشهيد لا تفقد ابنها بموته بل تكتسب الابطال جميعا ابناء لها فتغدو اما للرفاق الابطال . وترفض الام مجددا منطق الشعارات الفارغة ولا تهرب من جحيم التجربة الصادقة وتأبى العودة الى القناع وتعبر عما عجزت ان تعبر عنه في البداية : لقد ضيعت وحدها درة الكون فلن يجدي عزاء وليس من تعويض ، وليست عبارات التعزية على حرارتها الظاهرة سوى نفاق لا تتحمله ذات تعمدت في لهب الحقيقة الساطعة فولدت ولادة جديـــــدة :

كان مرسوما على جبهته
وسم الضحايا
دمه النار التي تحيي

عروقــا يبست فيها الخطايا ،
وحراما ان يلبي
لسرير العرس غصات الصبايا
امه الارض دعته
لمصير يدعــي من يصطفيه
ــ كنت اما ارضعت
ما حملت احشاؤها العذراء
من صلب ابيه
ــ أنت ام انت ام للرفــاق
ــ وحده ضيعنه ، ضيعت وحدي
درة الكون
وما يجدي ويجدي ،
انت ام ، انت ام للرفاق
كــان يا ما كان ،
والنعزية الحرى لها في كبسدي
طعم النفــــاق

وتنم القصيدة وحدة متكاملة مؤلفة من اصوات متناغمة لكنها كيان حي هو اكثر مــن مجموع الاجزاء التي تكونه . واستطاع الكيان الحي ان يصهر في ذاته ما قــد يبدو متناقضا في الظاهر فكانت القصيدة عينية مطلقة وواقعية رمزية وسلما من المستويات المتدرجة . وغدت القصيدة بما هي تعبير عن رؤيا وتجربة تطهيرا لذات الشاعر وذات القارىء المتعمق الذي يعيد ــ بالقراءة الجدية ــ خلق ذاته في القصيدة وخلق القصيدة في ذاته . ويصل الشاعر والقارىء الى شاطىء اليقين بعد ابحار ضائع في ظــــلام الشك : ان انبعاث الانسان والحضارة مبدأ حتمي قائم في جوهر الذات الانسانيـــــة وخاصة تكسب الانسان جوهر انسانيته . ان البروق الحقيقيـــة تحمل رعدا بالضرورة ولا بــد ان يأتي المطــر وتبعث الارض اليبــاب .

كانت قصائد حاوي الثلاث هذه اناشيد تؤلف ملحمة الانسان والحضارة : انهـــا ملحمة الانسان العربي في صراعه مع رواسب التخلف التي ما زالت تتراكم في اعماقــه وفي صراعه مع صور الانحطاط الحضاري المهيمنة في مجالات عديدة . ويسترجع خليل حاوي رحلة دانتي الكونية : فمن جحيم الشك المطلق وانعدام اليقين ، الى تدرج النفس في جبل المطهر حيث صفى الشاعر نفسه مما علق بها من ادران ويعيش متأرجحــا بين شك ما برح قابضا عليهويقين يبدو انه يلمحه من البعيد ، الى ظهور بياتريس ، المعشوقة الالهية ، التي تسير به الى فردوس الصحو واليقين حيث ترتاح النفس الى صفاء كلي . ويرتاح خليل حاوي الى رؤيا الانبعاث العربي : ان البطل الذي كـــان راقدا في موت بدا انه ابدي انتفض حيا وعاد ليواصل صراعه مع التنين الغاشم فيصرعه فتجري الينابيع وتعود الارض بكرا فتية بعد موات . ويعود الشاعر الى ممارسة وظيفته الاصلية الاولى في الحضارة الانسانية حين يكتشف بحدسه حاضر الحضارة ومستقبلها ، ويعود محددا نبي القوم وكاهنهم وساحرهم وقائدهم السياسي والاجتماعي .

تعيين الحدود الشمالية لفلسطين في الاعوام ١٩١٨ ـ ١٩٢٠

يان نيلسن

لقد قننت سياسة تأسيس الوحدتين لبنان وفلسطين في نهاية الحرب العالمية الاولى عبر مجموعتين من الاتفاقيات ، بشكل رئيسي ، هما : المراسلات بين السير هنري مكماهون ، المندوب السامي البريطاني في مصر ، والشريف حسين ، شريف مكة ، واتفاقية سايكس بيكو الانجلو فرنسية .

وفي الواقع ، فان مراسلات مكماهون ، باستعمالها الغامض لكلمة ولاية ، وباشارتها الى الاقليات والمصالح الفرنسية ، قد استثنت المنطقة الساحلية من اضنة والاسكندرون وجنوبهما من المملكة العربية المقترحة (١) . وفي الجنوب ، ربما ضمت هذه المنطقة ، تبعا لنص الرسائل ، مقاطعة لبنان المستقلة وربما سنجق بيروت ايضا . وكان من شأن ذلك خلق حدود في مكان ما بين صيدا وعكا . حتى بخيال واسع لا يمكن اعتبار المنطقة المستثناة تضم كل « ولاية بيروت وسنجق القدس المستقل » ، على حد ادعاء تشرشل عام ١٩٢٢ عندما رد ، بوصفه سكرتيرا للمستعمرات ، على مطالب العرب في فلسطين (٢) .

لقد اعطت اتفاقية سايكس بيكو السرية (ايار (مايو) ١٩١٦) اساسا لادعاءات فرنسة بوجود مصالح لها في المناطق الساحلية من لبنان وشمالا (٣) . وكان العنصر الجديد المهم هنا هو تأسيس فلسطين كوحدة منفصلة تحت ادارة دولية مع وجود بريطاني حول حيفا وعكا . وقد اظهرت الخارطة الملحقة بالاتفاقية (٤) حدودا شمالية لفلسطين رسمت بطريقة اعتباطية تبدأ في منطقة رأس الناقورة وضواحي صور (برج البياضة) وتتأرجح باتجاه جنوبي شرقي نحو الشاطىء الشمالي لبحيرة طبريا . ان الاعتباطية التي رسمت بها هذه الحدود كانت بذاتها سببا لعديد من الصعوبات اللاحقة .

وكان العنصر الاخير ، والاكثر عرقلة في المفاوضات اللاحقة هو وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ ، والذي اعترف بالمصالح الصهيونية في فلسطين (٥) .

تمت وعود واتفاقيات زمن الحرب في وقت لم تكن تسيطر فيه بريطانيا على المناطق التي كانت توزعتها باستخفاف . وكان الهدف الرئيسي هو شراء تحالفات مع اكبر عدد ممكن من المجموعات وتعزيزها ، وهكذا لم يكن مهما ما اذا كانت الاتفاقيات متضاربة مع بعضها بعضا ، او اذا رسمت الحدود المقترحة بطريقة اعتباطية . ولكن في عام ١٩١٨ تغير الوضع جذريا عندما اعطى احتلال الجنرال اللنبي فلسطين وسورية لبريطانية سيطرة فعلية على المنطقة ـــ والصداع في تنفيذ وعودها .

وفي كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٧ ، بعد المعركة الاجرامية في **يبرس** ، وجه رئيس وزراء بريطانية لويد جورج انتباهه نحو حلفاء المانية . فأراد من اللنبي التقدم الى حلب ، واذا لم يكن ذلك ممكنا ـــ وقد اصر اللنبي على انه لم يكن ـــ فيجب احتلال

فلسطين على الاقل باعتبارها « تضم المنطقة الواقعة بين دان وبئر السبع بكاملها » . وقد فهم اللنبي والحكومة البريطانية خلال المفاوضات اللاحقة « دان على انها بالقرب من بانياس ، اي في منتصف المسافة بين الناصرة ودمشق » (٦) . ومع حلول تشرين الاول فقدت تركيا سيطرتها على سورية ، برغم بقاء القوات التركية في منطقة حلب والشمال . ففي الثالث والعشرين منه بعث اللنبي بتقرير الى الوزارة الحربية حول نظامه الاداري في سورية جاء فيه ما يلي : مناطق العدو المحتلة في الجنوب كانت فلسطين ، المناطق المحتلة في الشمال (من كانون اول (ديسمبر) ١٩١٨ المناطق المحتلة الى الغرب) الممتدة على طول الشاطيء من شمال عكا الى الاسكندرون ، المناطق المحتلة في الشرق كانت المنطقة الداخلية من وادي البقاع ونهر الاردن (٧) . لقد طابق هذا التقسيم اتفاقية سايكس بيكو تقريبا ، فيما عدا ان المنطقتين أ ، ب قد دمجتا . ولكن كان هناك تغيير مهم اخر في حدود اتفاقية سايكس بيكو ، لقد حذفت المنطقة الزرقاء الفرنسية . ويسجل التاريخ الرسمي البريطاني استثناء وادي البقاع (٨) ، ولكن يتجاهل التحريف المهم في حدود فلسطين الشمالية . لقد تحولت الان الى الشمال الشرقي باتجاه بانياس بدل تحويلها الى الجنوب الشرقي باتجاه بحيرة طبريا ، وهكذا ضمت المناطق الجنوبية المحتلة معظم قضاء صفد وبحيرة الحولة .

لقد لوحظ ان هذا التقسيم نال موافقة فرنسا ، وكان من المتوقع ان تطلب فرنسا تطبيقا كاملا لاتفاقية سايكس بيكو . ومن ناحية اخرى ، كانت بريطانية في مركز الامر نظرا لسيطرتها الفعلية على تلك المناطق . وكانت فرنسا واعية ذلك ، ففي بداية كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٨ وافق كليمنصو على اعطاء منطقة الموصل لبريطانية وتحويل السيطرة الدولية على فلسطين الى سيطرة بريطانية . يسود الغموض لقاءات كليمنصو ولويد جورج التي ادت الى هذه التغييرات في اتفاقية سايكس بيكو . ادعى لويد جورج لاحقا انه لم تكن هناك ثمة شروط ، واصر كليمنصو على عكس ذلك . وفي الواقع ، تبدو موافقة كليمنصو وكأنها الثمن الذي كان عليه ان يدفعه مقابل قبول متواصل لمطالب فرنسا من ناحية ، ودعم بريطانية لمطالب فرنسا في المانية بخصوص منطقة الراين من ناحية اخرى (٩) . هكذا كان التخطيط النهائي للجبهتين المتقابلتين لحدود فلسطين الشمالية . فرنسا تضغط من الشمال وبريطانية مع تشجيع الصهيونية من الجنوب . وكان ثمة شكوك حول حصول بريطانية على انتداب في فلسطين ، لكن هذه الشكوك تظهر وكأنها كانت شكلية انسجاما مع تحريات بعثة **كنج ــ كراين خلال** صيف ١٩١٩ (١٠) .

خلال ١٩١٩ توصلت بريطانية تدريجيا الى فكرة الانسحاب من اجزاء من مناطق العدو المحتلة ، وذلك تحت ضغط داخلي لاجل اعادتها الى اقتصاد السلم . وقد تضمن ذلك التخلي عن ممتلكات كانت تشكل دعما لبريطانية في مفاوضاتها . والسبب الرئيسي لتأخير الانسحاب الفعلي هو الاختلاف حول اي من المناطق تسلم لفرنسا واي منها للعرب ، لم يرق للويد جورج ان يرى الفرنسيين في دمشق وحمص وحماه وحلب (١١) . فحاول عبثا جعل الانسحاب يعتمد على تسوية قضية الحدود ، وحاول باستمرار فرض وجهة نظره بالاشارة الى المجهود البريطاني المطلق في المنطقة (١٢) . علاوة على ذلك كانت هناك مخاوف حقيقية لدى الادارات العسكرية البريطانية حول امكانية متاعب جدية من قبل العرب اذا سمح للاحتلال الفرنسي ان يحل هناك (١٣) .

عرض لويد جورج بسبب ضغط مستمر من عدة اطراف على كليمنصو في الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) ١٩١٩ في **ديوفيل** ان لا ينتظر الانسحاب البريطاني التسوية النهائية للانتداب التركي (١٤) . فوافقه كليمنصو على ان الانسحاب قضية تعود

لبريطانية وفرنسا لكنه اشار الى ان كون القضية محض عسكرية فيجب « ان لا تؤثر على التسوية النهائية للقضية السورية .... » (١٥) وبناء عليه قدم لويد جورج مذكرة الى كليمنصو في الثالث عشر ذاته يعلمه فيها ان الجيش البريطاني سيبدأ باخلاء كيليكيا وسورية في الفاتح من تشرين الثاني (نوفمبر) . وتسلم المناطق التي اخليت الى فرنسا او الى العرب بحسب الاتفاقيات المعقودة خلال الحرب .

« ٤ . عملا بهذه السياسة تحل القوات الفرنسية محل حاميات سورية غربي خط سايكس بيكو ومحل حاميات كيليكيا ، امـــا حاميـــات دمشق وحمص وحماه وحلب فتستبدل بقوة عربية .

. . .

٦ . حينئذ ستصبح المناطق المحتلة من قبل بريطانية فلسطين ، محددة بحسب حدودها القديمة من دان الى بئر السبع ، وما بين الرافدين بما فيها الموصل ويصبـــح عندها الاحتلال مناسبا للاجراءات التي اتفق عليها كليمنصو ولويد جورج في كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٨ » .

كما اعرب لويد جورج عن رغبته في بحث هذه الحدود وعن استعداده لاحالة اي اختلاف لتحكيم ولسون ، رئيس الولايات المتحدة (١٦) .

وفي اجتماع للقوى الكبرى الخمس عقد في الخامس عشر من ايلول (سبتمبر) في باريس حاول لويد جورج ثانية الحصول على قبول لفكرة الانسحاب الى حـــدود مؤقتة (١٧) . ووافق كليمنصو على ارسال قوات تحل محل القوات البريطانية المنسحبة، لكن بشرط ان لا يعني ذلك الاتفاق مع اي جزء من مذكرة الثالث عشر من ايلـــول (سبتمبر) « باستثناء احتلال القوات الفرنسية » . وكان على لويد جورج ان يوافـــق على ذلك (١٨) واعلم بذلك الامير فيصل في التاسع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ، وبالرغم من رفضه القوي للوجود الفرنسي ، لم يستطع ان يفعل شيئا (١٩) .

من احد الاهداف التي كان البريطانيون يحاولون تحقيقها هو تأمين منطقة فلسطينية يمكن ان تساعد على تطور الحركة الصهيونية بالانسجام مع وعد بلفور ، الذي وافـــق عليه كل من الولايات المتحدة وفرنسا وايطالية (٢٠) في اوقات مختلفة . وفي ايـــــار (مايو) ١٩١٩ كرر الرئيس ولسون دعمه لذلك الوعد في تصريح للسيد فرانكفورتر ، احد ممثلي الصهيونيين الامريكيين (٢١) . وازداد ضغط الصهيونيين في انحاء عدة من العالم ، بالرغم ان الاقلية منهم فقط كانت تطلب كثيرا مثل السيد دافيد تريتش مـــن براغ ، الذي اقترح في تموز (يوليو) ١٩١٩ استعمارا يهوديا لقبرص وفلسطين ، بحيث تضم صيدا (٢٢) .

وقد جاء في ادعاء بريطاني يقترح تخطيط الحدود ، في مذكرة من بلفور الى لويد جورج بتاريخ السادس والعشرين من حزيران (يونيو) ما يلي : « لا اطلب سوى ان يتـــم تحديد هذه ، فيما يهم الدول العظمى على الاقل ، مع اعتبار قليل لمسائل الاستراتيجية واعتبار بالغ المسائل الاقتصاد . فعلى سبيل المثال ، اعتقد ان الجنود يتحدثون عن الحدود الشمالية لفلسطين من وجهة نظر الدفاع عـــن مصر . آمـــل ان لا يعطى لمناقشات كهذه وزنا كبيرا . ففي تحديد الحدود الفلسطينية ، الشيء الرئيسي الذي يجب ان يؤخذ في عين الاعتبار هو جعل السياسة الصهيونية ممكنة من خلال اعطاء اوسع مجال للتطور الاقتصادي في فلسطين . وهكذا يجب ان تعطى الحدود الشمالية لفلسطين سيطرة كاملة على القوة المائية التي تنتمي جغرافيا الى فلسطين وليس الى سورية ، بينما يجب رسم الحدود الشرقية بحيث توفر اوسع مجال للتطور الزراعي على الضفـــة

اليسرى من نهر الاردن ، الامر الذي ينسجم مع ابقاء سكة حديد الحجاز تحت سيطرة العرب الكاملة » (٢٣) . كما جاء في المذكرة التي نجمت عن اهتمام بلفور عند تراجع الوفود بتوقيع معاهدة فرساي بعد مرور يومين فقط . مناقشة المشكلة التركية الكاملة وتسلم لورد كيرزون نسخة في باريس واعرب عن موافقته عليها ، الا انه دون فيها : « من الافضل عدم تداولها في الوقت الحاضر » .

لقد كان الاهتمام بشأن موارد المياه في شمالي فلسطين العنصر المهم في المفهوم البريطاني للمكان الذي يجب ان ترسم فيه الحدود الشمالية . ودونما انتظار لقرارات **مؤتمر السلام** ، كانت بريطانيا قد بدأت بالسماح لخبراء المياه والري الذين ارسلوا من قبل المنظمة الصهيونية بدخول فلسطين (٢٤) . وفي مسح بالغ الصراحة للتطورات المؤدية الى الاختلافات مع فرنسا ، كتب بلفور في ١١ آب (اغسطس) حول ما كان يعتقد انه افكار كليمنصو بشأن الموقف البريطاني : ... « سألت رئيس الوزراء ما هي التعديلات التي كانت ترغبها انكلترا في اتفاقية سايكس بيكو » . فأجاب : « الموصل » . قلت : « ستكون لكم . هل من شيء اخر ؟ » فأجاب : « فلسطين » . ومرة اخرى قلت : « ستكون لكم » . لقد غادرت لندن ولدي بعض الشكوك حول الاستقبال الذي ستحظى به هذه الاتفاقية فيفرنسا ، ولكنني كنت متأكدا تماما انها ستكون بالنسبة لبريطانيا العظمى على الاقل مرضية . وكم كانت دهشتي بعدئذ عندما وجدت أن ما اعطيته بسخاء بالغ فسح المجال امام طلبات جديدة . اذ يبدو ان الموصل كانت غير ذي نفع ما لم تعط تدمر ايضا . ولم تكن فلسطين تكفي وطنا لليهود ما لم تدفع حدودها شمالا داخل سورية » (٢٥) .

واستمر بلفور بعدئذ يبين كيف ان كل الاتفاقيات المتعلقة بالمنطقة ، ابتداء بمراسلات مكماهون وانتهاء بميثاق عصبة الامم ، كانت تتعارض مع بعضها بعضا . وقد اقترح نظرة واقعية في تقسيم المنطقة الى سورية وفلسطين وبلاد الرافدين : « ما يجب علينا فعله هو جعل الاتفاقيات الدولية ، الاقتصادية منها والاقليمية ، تمكن كل منطقة من تطوير ذاتها الى اقصى مدى ممكن دون فسح المجال امام الغيرة والنزاعات. ليست هذه المهمة مستحيلة ، ولكن تنفيذها يتطلب خبراء يمتلكون معرفة اكثر بكثير مما لدي او ما استطيع تحصيله . وفيما يلي ملاحظات عابرة حول هذه النقاط كما خطرت بذهني :
فلسطين : اذا كانت الصهيونية ستؤثر في المسألة اليهودية في العالم فيجب تهيئة فلسطين لاستقبال اكبر عدد ممكن من المهاجرين اليهود . وهكذا فانه لمن المفضل بشكل واضح ان تحصل على سيطرة على القوة المائية التي تتبع لها بشكل طبيعي ، اما من خلال توسيع حدودها الى الشمال او من خلال معاهدة مع الانتداب في سورية ، الذي لا تستطيع مياه جبل الشيخ المنحدرة جنوبا ان تكون ذات نفع له بأي حال من الاحوال. ولنفس السبب يجب توسيع فلسطين بحيث تضم الاراضي الواقعة شرق نهر الاردن . ولكنها يجب ان لا تضم سكة حديد الحجاز ، التي ترتبط بشكل جلي تماما بالمصالح العربية دون غيرها (٢٦) .

لقد طالبت مذكرة لويد جورج المؤرخة ١٣ ايلول (سبتمبر) بان تصل حدود فلسطين حتى دان شمالا ، على اساس مبادىء كتلك التي اقترحها بلفور . وفي ملاحظة مؤرخة ١٠ تشرين الاول (اكتوبر) اعترض كليمنصو بشدة على هذه الحدود المقترحة : « لقد عينت الحدود بين فلسطين وسورية في اتفاقية عام ١٩١٦ بعد دراسة مفصلة ، آخذة بعين الاعتبار مصالح المنطقتين . وان اعادة رسمها فوق خط عرض صور وحتى ضواحي دمشق تقريبا ستحرم سورية من بعض اكثر مناطقها خصبا واشجع سكانها » (٢٧) .

لقد كان الانسحاب البريطاني ، الذي بدأ في اول تشرين الثاني (نوفمبر) ، مـــن اجل تسليم قوات الامير فيصل المناطق الواقعة شرق خط سايكس بيكو ، وتسليـــم القوات الفرنسية المناطق الواقعة غربه . وتبعا لخطة لويد جورج الملخصة في مذكرة ١٣ ايلول (سبتمبر) ، سيصل الانسحاب حتى « دان » جنوبا فقط . وهكذا فان « خـــط ديوفيل » الحاصل يتبع نهر الليطاني من مصبه وحتى الانحناء ومن هناك الى بانياس . ولكنه سرعان ما تبين أن البريطانيين كانوا يسلمون الى الامير فيصل مناطق تقع في وادي البقاع ، اي غرب خط سايكس بيكو . وقد سلمت مذكرة احتجاج فرنسية من قبـــل القائم بالاعمال في لندن يوم ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) تصر على خط سايكس بيكو (٢٨) . وفي ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) اوضح لورد كيرزون مرة اخرى لفرنسا موقف بريطانيا بشأن الحدود التي قامت على اساس الانسحاب . وقد اقترب الموقف البريطاني الى حد كبير من الموقف الذي عبر عنه كليمنصو سابقا : « وعلى اي حال سيكون حسنا بالنسبة لي ان اسجل انه (اي الانسحاب) ينفذ من قبل حكومة جلالته بدون تحيز للتحديد المستقبلي للحدود الشمالية والشرقية لفلسطين ، التي تحتاج للفحص والتعديل فـــي التسوية النهائية » (٢٩) . لقد تم الخروج من الازمة مؤقتا في نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) عندما قام اللنبي في التاسع والعشرين منه باعـــلام الجنرال الفرنسي جورو بقراره الانسحاب جنوب « خط ديوفيل » الى الحد الشمالي لمنطقة العدو المحتلة جنوبـــا ، « دون تحيز للاجراءات المستقبلية . انني اعرف انه سيوافق على ذلك ، ولكننـــي لست متأكدا من انه لن يطرح لاحقا خط سايكس بيكو الاصلي على اساس انه الخط الذي اعطته اياه حكومته . وعلى اساس خـــط سايكس بيكـــو سيطالب الفرنسيون بصفـــد » (٣٠) .

وفي تعليقه على هذا القرار ، اوضح اللورد كيرزون في رسالة بتاريخ ١٢ كانـــون الاول (ديسمبر) الى اللورد ديزلي ، السفير البريطاني في باريس ، انه نظرا للخوف من المشاكل مع العرب ، اتفقت بريطانيا وفرنسا على ان تحجما عن احتلال تلك الاجـــزاء من منطقة العدو المحتلة شرقا المواجهة للمناطق الساحلية المقابلة . وكـــ « استجابة منطقية » لهذه « التنازلات للمشاعر المحلية » ، قررت بريطانيا الانسحاب من المنطقـــة المحتلة غربا و « حصر منطقة احتلالها في فلسطين منطقة العدو المحتلة جنوبا . وكـــل ذلك ، بالطبع ، دون تحيز « للتحديـــد المستقبلي للحـــدود الشماليـــة والشرقيـــة لفلسطين » (٣١) . وعاود الفرنسيون مطالبتهم القديمة بخط سايكس بيكو يوم ٢٦ كانون الاول (ديسمبر) .

لقد سلم البريطانيون البقاع الى الامير فيصل بدلا من الفرنسيين ، لانهم كانوا علـــى قناعة بان السكان المحليين سيثيرون القلاقل فيما لو سمح للفرنسيين بالدخول . وعندما أصرت الحكومة الفرنسية على تطبيق اتفاقية سايكس بيكو كانت القوات البريطانيـــة سحبت الى الجنوب اكثر من ذي قبل للتعويض ، مؤكدة بذلك مؤقتا سيطرة فيصل في البقـــاع .

وفي ١٥ كانون الاول (ديسمبر) ، تلقـــى اللورد كيرزون مذكرة من الكولونيـــل ماينرتزهاجن ، كبـــير الضباط السياسيين البريطانيين في القاهرة . وقـــد اخـــذت هذه الوثيقة لاحقا من قبل المفاوضين البريطانيين لتمثل المطالب الصهيونية . وبعـــد وصفه خط سايكس بيكو و « خط ديوفيل » اشار الى ان ايا منهما لا يحقق المصالـــح الاقتصادية لفلسطين ، واضاف : « ان التنمية النهائية لفلسطين غرب نهر الاردن تعتمد اساسا على الزراعة بسبب تربتها ومناخها وقربها من شاطىء البحر . ولا يمكن تأمين

الصحة الاقتصادية في فلسطين الا بالري على نطاق كبير ، وعلى جلب المياه من غير المطر . ولا يمكن الحصول على هذه المياه الا في شمالي فلسطين من منابع نهر الاردن والليطاني . واذا ما حرمت فلسطين من وسائل الري والقوة المائية على اوسع نطاق ، فسيعاق مستقبلها الاقتصادي منذ البداية اما اثر فقدان القوة التي تحتل سورية لهذه المياه فهو ضئيل بالمقارنة . فاذا ما اريد تأمين هذه الاوضاع الاقتصادية فيجب ان « ترسم الحدود الشمالية من البحر ، شمال نهر الليطاني بالضبط وتتبعه الى فوق ، وعلى مسافة معينة من الضفة اليمنى ، تقطعه من الغرب الى الشرق بالقرب من مكان انحدار الليطاني . ومن هناك يجب ان تتجه الحدود بحيث تضم مياه جبل الشيخ التي تجري الى وادي الليطاني او الاردن . ان خط ديوفيل ، الذي يطابق نهر الليطاني ، يعدل المياه ولا يقود الا الى النزاعات » (٣٢) .

وقبل ثلاثة ايام كانت مذكرة فرنسية قد اظهرت بعض مظاهر الليونة بصدد مسألة حدود فلسطين الشمالية . وقد جاء فيها ان كليمنصو كان على استعداد لتقديم تنازلات فيما يتعلق بالموصل ، « ولكنه لا يستطيع ، دون التخلي عن كامل امكانية وكل قيمة لانتداب على سورية ، تمديد الحدود الشمالية لفلسطين حتى ضواحي دمشق لمصلحة الصهاينة ... والتخلي عن كل مياه دمشق للمستوطنات اليهودية ... (٢٢) وقد اقترح تعليق القسم السياسي في بعثة السلام البريطانية انه يمكن فهم ذلك على ان كليمنصو قد يكون مستعدا للتنازل . وقد كانت الاعتراضات الفرنسية متوقعة على الجبهة الشمالية التي اقترحها الكولونيل منير تزهاجن ، لذلك اقترح حل وسط يأخذ بعين الاعتبار انقاذ اكثر شيء ممكن لتأمين المطالب الصهيونية : « ... اننا نعتقد انه يمكن تحقيق الاهداف الصهيونية في هذا الاتجاه اذا جعلت الحدود ، بدلا من ان تضم وادي الليطاني بأكمله من البحر وحتى الانحناء شمالا ، تمتد من مكان بالقرب من نقطة البدء الحالية لخط سايكس بيكو ، شمال عكا ، باتجاه شمال شرقي بحيث تضم لفلسطين انحناء الليطاني ذاته وجزءا صغيرا من (المنطقة ؟) حتى شمال الانحناء . ومن هناك يمكنها ان تمتد شرقا حتى السفوح الجنوبية لجبل الشيخ جنوب راشيا قاطعة نهر الحاصباني .

ان هذا الاقتراح الاخير الذي يترك لسورية المنطقة الساحلية شمال عكا وحول صور ، وكذلك مقاطعات حاصبيا وراشيا سيكون حلا وسطا عادلا جدا » (٢٤) .

لقد قدم الاقتراح الوسط هذا في اجتماع للمندوبين البريطانيين والفرنسيين بلندن يوم ٢٣ كانون الاول (ديسمبر) . ولكن اقصى ما كانت فرنسا تقدمه ، بالاضافة الى خط سايكس بيكو ، هو عمل اجراءات مع الصهاينة لاعطائهم ٣٣٪ من مياه جبل الشيخ المتدفقة جنوبا الى فلسطين كما تعرفها اتفاقية سايكس بيكو (٢٥) . ووصلت المفاوضات الى توقف تام واستمر هذا الوضع حتى ١٩٢٠ . كررت فرنسا موقفها بشأن خط سايكس بيكو (٢٦) ، بينما اعربت الولايات المتحدة عن املها في انه لا يجري تنفيذ اتفاقية سايكس بيكو « لاضعاف وعد بلفور فيما يتعلق بفلسطين المستقبل » (٢٧) .

بدأ **مؤتمر لندن** الاول في ١٢ شباط (فبراير) ١٩٢٠ ، حيث اعيد طرح المواقف . ولكن في ١٨ شباط (فبراير) اعرب الامين العام لوزارة الخارجية الفرنسية ، برثلوث ، عن رغبته في سؤال الحكومة الفرنسية « ما اذا كانت توافق على ضم المنطقة التي تحتلها القوات البريطانية الان في قضاء صفد الى فلسطين » (٢٨) . وكانت تلك المنطقة هي تقريبا المنطقة الواقعة شمال خط سايكس بيكو وحتى حدود منطقة العدو المحتلة الجنوبية . استمرت المفاوضات ، وفي مؤتمر سان ريمو في ٢٥ نيسان (ابريل) ، اعلن

برثلوت ، عندما طلب منه تسوية تفاصيل معاهدة السلاح مع تركيا ، الاتفاق على مسألة الحدود فيما يتعلق بالحدود الشمالية لفلسطين : « تتبع الحدود الجنوبية (لسورية) خط سايكس بيكو ، باستثناء تعديل طفيف لحدود فلسطين ، يتوافق مع التعريف الذي يدعو له السيد لويد جورج ، الذي كان يفضل الحدود القديمة لدان وبئر السبع ، وبكلمات اخرى ، ان فلسطين ستضم قضاء صفد حتى دان شمالا ، وان الحدود ستعين الى الشرق بخط عمودي يرسم من جنوب جبل الشيخ الى حيث تقطع الحدود التي تصفها اتفاقية سايكس بيكو لعام ١٩١٦ . لقد ضمنت هذه الحدود في العهد التمهيدي الذي قدم الى البعثة البريطانية في لندن . ولم تبد اية اعتراضات على الاطلاق ، لانه تم التوصل الى اتفاق كامل بين المبعوثين البريطانيين والفرنسيين »(٣٩). ومع ان فرنسا كانت ترغب في تضمين الحدود في معاهدة السلام مع تركيا . الا ان مؤتمر سان ريمو قرر ان يترك تعيينها النهائي الى قوى الحلفاء الرئيسية (٤٠) .

لقد مرت ستة شهور اخرى قبل ان يصبح ممكنا توقيع الاتفاقية الانجلو فرنسية المتعلقة بحدود فلسطين الشمالية . وكان السبب يعود الى المباحثات الفرنسية والبريطانية المستمرة بشأن السيطرة على مياه السفوح الجنوبية لجبل الشيخ والسفوح الغربية لمرتفعات الجولان ونهر اليرموك . ولكن برثلوت كان قد وقع في مشاكل مع الصحافة الفرنسية ومجلس النواب بسبب تنازلاته في لبنان الجنوبي . وفي ٢١ حزيران (يونيو) وصف فانزيتارت ، مسؤول فريق المفاوضين البريطانيين ، الوضع بشكل بليغ . اذا لم ينجح بشأن حدود فلسطين الشرقية (٤١) ، فسيكون على اليهود تحملها . نحن نستطيع اعطاءهم خط منيرتزهاجن جنوب خط سايكس بيكو ، واذا لم استطع تحريك الفرنسيين ، فيجب عليهم ان يقنعوا بذلك » (٤٢) . وبكلمات اخرى ، تستطيع بريطانية توسيع فلسطين بحيث تضم الضفة الشرقية للاردن ولكن اي توسيع باتجاه مرتفعات الجولان او السفوح الشرقية لجبل الشيخ كان يعتمد على الفرنسيين .

وفي ٣٠ ايلول (سبتمبر) ارسل اللورد كيرزون تعليمات الى فانزيتارت ليضغط من اجل الخط التالي : « خط يمتد شرقي رأس الناقورة على الساحل حتى التلال الواقعة على بعد خمسة اميال غربي بحيرة الحولة ، ومن هناك شمالا على طول خط المنتصف بين نهري الليطاني والحاصباني حتى آلبير . ومن هناك على طول « خط منيرتزهاجن » حتى نهر اليرموك... » واذا لم يوافق الفرنسيون على ذلك ، فعلى فانزيتارت حينذاك الاصرار على اجراء ما يضمن استعمال الليطاني واليرموك لفلسطين (٤٣) . وقد اجبر الفرنسيون فانزيتارت على التراجع حتى المطلب الادنى الاخير (٤٤) .

وخلال تشرين الثاني (نوفمبر) حاولت وزارة الخارجية البريطانية مرة اخرى الضغط من اجل عبارة تضمن مياه الليطاني واليرموك لفلسطين . ولكن فانزيتارت الح من باريس على توقيع المعاهدة بالشكل المتفق عليه . فقد خاف ان يكون من شأن التأخير اغراء الفرنسيين في بالتخلي عن المعاهدة واعادة مطالبهم بخط سايكس بيكو (٤٥) . وفي مؤتمر لندن الثاني ، توضحت هذه المسألة الاخيرة في النهاية. وافقت فرنسا على فحص مسألة المياه في اليرموك ووادي الاردن الاعلى ، ولكن كان على بريطانيا ان تتخلى عن مطالبتها بمياه الليطاني (٤٦) .

لقد تم التوقيع على « المعاهدة بين بريطانيا العظمى وفرنسا بشأن تسوية نقاط معينة متعلقة بالانتداب على سورية ولبنان ، وفلسطين وبلاد الرافدين » في باريس يوم ٢٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٠ (٤٧) . عينت المادة ١ كل الحدود ، والتفاصيل التي سيتم تسويتها على الطبيعة من قبل بعثة مشكلة من اربعة رجال تؤسسها المادة

٢ . وقد وصفت حدود فلسطين الشمالية بالشكل التالي : « ومن هناك (من بانياس) سترسم الحدود باتجاه الغرب حتى المطلة التي ستبقى ضمن الاراضي الفلسطينية . وسيقتفى اثر هذا الجزء من الحدود بشكل يضمن معه للمنطقة الواقعة تحت الانتداب الفرنسي مواصلات سهلة داخل المنطقة بأكملها مع مناطق صور وصيدا ، وكذلك استمرار الطريق الواصلة ما بين غرب وشرق بانياس . ومن المطلة ستصل الحدود حتى الخط الفاصل بين وادي الاردن وحوض الليطاني . ومن هناك ستتبع هذا الخط باتجاه الجنوب . وبعد ذلك ستتبع بشكل اساسي الخط الفاصل ما بين واديي فرح حورون وقرقرة ، التي ستبقى تحت الانتداب البريطاني ، ووديان الدبلة والعيون والزرقة التي ستبقى في المنطقة الواقعة تحت الانتداب الفرنسي . وستصل الحدود البحر المتوسط في ميناء رأس الناقورة ، الذي سيبقى في المنطقة الواقعة تحت الانتداب الفرنسي » (٤٨) . وقد نظمت مسألة المياه في المادة ٨ (الثامنة) . وقد استغرق المسح التفصيلي للحدود الذي قامت به **بعثة الحدود** حوالي عامين ، وتم التوقيع على تقريرها في النهاية يوم ٧ اذار (مارس) ١٩٢٣ (٤٩) .

بعد مرور اكثر من عامين على احتلال بريطانيا لفلسطين وسورية تمت التسوية النهائية للحدود . وكان السبب في التأخر جزئيا الاحداث التي حصلت في دمشق ، ولكن معظم اللوم يجب ان ينصب على تعقيدات حدود فلسطين . ويعود تاريخ هذه التعقيدات الى الاتفاقيات والتصريحات خلال فترة الحرب في وقت لم يجرأ فيه الا قلة على التنبؤ بان بريطانيا ستكون يوما ما مسؤولة عنها . وكانت النتيجة اكثر من عامين من الشجار بين الحلفاء ، الذين كانوا كلهم اوروبيون وكانوا كلهم يسعون للحصول على اكبر قدر مستطاع . ومما زاد في تعقيد المفاوضات اصرار بريطانيا على الاخذ بالاعتبار المصالح الاقتصادية لجماعة من الناس كانت ما تزال تخطط لاستيطان بلد يطالبون به على اساس غياب الفين عام . وكانت المحاولة الوحيدة لضمان مصالح شعب المنطقة هي المحاولة التي قامت بها بعثة **كنج كرين** التي وصلت الى استنتاج مفاده ان الشعب لا يريد حدودا على الاطلاق .

---

١ — في الطبعة الانكليزية انظر تحت *Cmd. 5957* الذي نشرته الحكومة البريطانية عام ١٩٣٩ بعنوان
Correspondence between Sir Henry MacMahon, His Majesty's High Commissioner at Cairo and the Sherif Hussein of Mecca, July 1915 — March 1916
والرسائل المهمة هي رسائل مكماهون في ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) و ١٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٥ ، ورسائل الشريف في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٥ و ١ كانون الثاني (يناير) ١٩١٦ .

٢ — بريطانية العظمى *Palestine Royal Commission, Report, Cmd. 5479* (تقرير بيل) ، (لندن ١٩٣٧) ص ١٩ وما يليها.

٣ — بريطانية العظمى ، *Documents on British Foreign Policy 1919-39* السلسلة ، المجلد ٤ (لندن ١٩٥٢) ص ٢٤٤ — ٤٩ ، في الطبعة الفرنسية انظر : *Dictionnaire diplomatique* (باريس ١٩٣٣) ، عدد ٢ ، ص ٨٩٢ وما يليها.

٤ — اعيد اصدارها مصورة في الغلاف الخلفي لكتاب زين ن . زين ، **النضال من اجل استقلال العرب** (بيروت ١٩٦٠) .

٥ — طبعت في *Cmd. 5479* ، ص ٢٢ *Cf. Documents* سلسلة ١ ، مجلد ٤ ، ص ٢٤١ .

٦ — السير جورج مكمون سيريل فولز ، *History of the Great War: Military operations, Egypt and Palestine* (لندن ١٩٢٨ — ٣٠) ، جزء ٢ ، ص ٢٩٤ .

٧ — نفس المصدر . ص ٦٠٧ وما يليها .

٨ — المصدر نفسه . ص ٦٠٧ .

٩ ــ الولايات المتحدة *Papers relating to the foreign relations of the United States, the Paris Peace Conference 1919*
(واشنطن ١٩٤٦) ص ٣ وما يليها ، ٨٠٧ وما يليها ، ٨١٠ وما يليها *Documents* سلسلة ١ مجلد ٤ ص ٢٥١ ، زين ، النضال ... ، صرص ٥٥ ــ ٦٠ ، نقلها هـ.ف. فريشواسر ــ رعنان ، *Frontiers of a Nation* (لندن ١٩٥٥) ، ص ٩٨ .
١٠ ــ انظر مثلا مذكرة من بلفور الى لويد جورج بتاريخ ٢٦ حزيران (يونيو) ١٩١٩ . *Documents* سلسلة مجلد ٤ ، ص ٣٠١ .
١١ ــ *US foreign relations, Paris Peace Conference* مجلد ٥ ، ص ٦ .
١٢ ــ نفس المصدر . الصفحات ٧٦٠ وما يليها ٧٦٤ ، ٨٠٩ .
١٣ ــ *Documents* ، السلسلة ١ ، المجلد ٤ ، صرص ٢٥٥ وما يليها .
١٤ ــ نفس المصدر . ص ٣٧٩ .
١٥ ــ المصدر نفسه . صرص ٦٩٠ وما يليها .
١٦ ــ *Documents* ، السلسلة ١ ، المجلد ١ (لندن ١٩٤٧) ، صرص ٧٠٠ وما يليها .
١٧ ــ نفس المصدر . صرص ٦٩٠ وما يليها .
١٨ ــ المصدر نفسه ، ص ٦٩٢ ، وايضا ملخص ما سبق حول الانسحاب العسكري حضرهـا م.ب.أ. هانكي ، سكرتير حكومة الحرب ، *Documents* السلسلة ١ المجلد ٤ صرص ٣٨٤ وما يليها .
١٩ ــ *Documents* ، السلسلة ١ ، المجلد ٤ ، صرص ٣٩٧ وما يليها . *Documents*
٢٠ ــ *Cmd. 5479* ، ص ٢٢ .
٢١ ــ *Documents* ، السلسلة ١ ، المجلد ٤ ، صرص ٢٦٠ ــ ٦٢ .
٢٢ ــ نفس المصدر . صرص ٣١٣ وما يليهـا ، للاطلاع على تفاصيل مطالب صهيونية اخـرى انظر فريشواسر ــ رعنان ، *Frontiers* صرص ٨٦ وما يليها و ١٠١ وما يليها .
٢٣ ــ نفس المصدر . ص ٣٠٢ .
٢٤ ــ نفس المصدر . ص ٣٢٥ .
٢٥ ــ نفس المصدر ص ٣٤٠ وما يليها .
٢٦ ــ نفس المصدر . ص ٣٤٧ .
٢٧ ــ نفس المصدر . ص ٤٥٤ .
٢٨ ــ نفس المصدر . ص ٥٠٥ وما فوق .
٢٩ ــ نفس المصدر . ص ٥٥٠ .
٣٠ ــ نفس المصدر . ص ٥٦١ .
٣١ ــ نفس المصدر . ص ٥٨٩
٣٢ ــ نفس المصدر . ص ٥٢٤ ، ريتشارد منسير تزهاجن *Middle East Diary,* ١٩١٧ ــ ١٩٥٦ ، (لندن ١٩٥٩) ، ص ٦٤ . اقتـرح هذه الحدود في البداية صهاينة المان سنة ١٩١٧ نقلها فريشواسر ــ رعنـان ، *Frontiers* ص ٩١ .
٣٣ ــ *Documents* ، السلسلة ١ ، المجلد ٤ ، ص ٥٧٩ (بترجمتي) .
٣٤ ــ نفس المصدر . ص ٥٨٢ وما يليها .
٣٥ ــ نفس المصدر . صرص ٥٩٥ ــ ٥٩٨ .
٣٦ ــ نفس المصدر . ص ٦٣٠ وما يليها .
٣٧ ــ نفس المصدر . ص ٦٣٤ .
٣٨ ــ *Documents* ، السلسلة ، المجلد ٧ (لندن ١٩٥٨) ، ص ١١٣ .
٣٩ ــ *Documents* ، السلسلة ١ ، المجلد ٨ (لندن ١٩٥٨) ، ص ١٧٢ والتي تليهـا
٤٠ ــ *Documents* ، السلسلة ١ ، المجلد ١٣ (لندن ١٩٦٣) ، ص ٢٥١ . نقلا عن المادة ٩٥ من معاهدة سيفر الموقعة في ١٠ اب (اغسطس) ١٩٢٠ ، مع انه لم يصدق عليها ابدا ، بريطانية العظمى *British and foreign state papers* مجلد ١١٣ (لندن ١٩٢٠) ، صرص ٦٧٣ وما يليها
٤١ ــ اي حدود فلسطين من بانياس جنوبا حتـى النقطة التي يتحول عندها خط سايكس بيكـو الى الشرق باتجاه الصحراء السورية .
٤٢ ــ *Documents* ، السلسلة ١ ، المجلد ١٣ ص ٢٩١ .
٤٣ ــ نفس المصدر ، ص ٣٥٠
٤٤ ــ نفس المصدر . ص ٣٥٩ وما يليها .
٤٥ ــ نفس المصدر . الصفحات ٣٨٢ ، ٣٨٤ ــ ٣٨٧ ، ٣٩٠ والتي تليها .
٤٦ ــ نفس المصدر . ص ٨٦٥ .
٤٧ ــ بريطانية العظمى ، *State Papers* المجلد ١١٣ ، صرص ٣٥٥ ــ ٣٦٠ .
٤٨ ــ نفس المصدر . ص ٣٥٦ .
٤٩ ــ بريطانية العظمى ، *State Papers* المجلد ١١٧ (لندن ١٩٢٣) صرص ٢٩٣ ــ ٣٠٦ .

حوار مع المر بيرغر

- ❋ نحو حركة عالمية لمكافحة الصهيونية
- ❋ اتفاقية سيناء ومطامح كيسنجر
- ❋ حق المقاومة الفلسطينية في العنف

مصطفى كركوتي

اثناء زيارته الى لندن خلال النصف الاول من شهر ايلول (سبتمبر) الماضي ، التقى مندوب شؤون فلسطينية في بريطانيا المر بيرغر ، رئيس منظمة « البديل اليهودي الاميركي للصهيونية » والرئيس السابق « للمجلس اليهودي الاميركي » . والمعلوم ان بيرغر هو حاخام اصلاحي ، وهو من اوائل يهود اميركا الذين تصدوا لادعاءات الحركة الصهيونية وفضحوا اساليبها في التضليل والخداع في تجربة يبلغ عمرها ٣٠ سنة . وفي الحوار معه كان الحديث حول تجربة « المجلس اليهودي الاميركي » والاسباب التي دعته الى الاستقالة من لجنته التنفيذية بعد حرب حزيران ، وحول استكمال هذه التجربة في منظمة « البديل اليهودي الاميركي للصهيونية » التي تشكلت بعد استقالته . وكان الحديث حول رأيه بمواقف منظمة التحرير ، السياسية والعسكرية ، خلال العامين الماضيين .. وحول الاتفاق المصري ـ الاسرائيلي الاخير ... وكان الحوار التالي :

شؤون فلسطينية : من المعلوم انك واحد من العناصر اليهودية الاميركية البارزة التي اتخذت موقفا ازاء مشكلة الشعب الفلسطيني منذ نحو ٣٠ سنة . والمهتمون الفلسطينيون والعرب يدركون جيدا تجربتك الغنية وخبرتك الطويلة في مواجهة الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة وتفنيد ادعاءاتها ، لا سيما بعد مساهمتك الرئيسية في تأسيس وفي اعمال « المجلس اليهودي الاميركي » . ويهمنا في هذا السياق ، وعلى ضوء خبرتك الطويلة ، ان نعرف الاسباب التي ادت الى فشل تجربة المجلس اليهودي الاميركي الذي لم يعد يسمع عنه ، او حوله ، نتيجة لانعدام نشاطه منذ استقالتك من لجنته التنفيذية ؟ وما هو ، في رأيك ، البديل ؟

المر بيرغر : ان هذا التساؤل هام للغاية ، والاجابة عليه ، من دون شك ، تسعدني كثيرا . ولكن ارجو ان تسامحني ان اطلت في الاجابة .

كانت ٣٠ سنة صعبة وقاسية . بدأنا عملنا في المجلس اليهودي الاميركي منذ عام ١٩٤٣ ، وكانت العاطفة لدى العاملين في المجلس تتغلب على عقولهم ، وقد ساعد جهلنا بعناصر منطقة الشرق الاوسط والعرب على ذلك . دوافعنا كانت مستمدة من اعتقادنا آنذاك بان الصهيونية كانت تعبر عن الحركة الوطنية اليهودية ، والذي يسمعني الان وانا اردد هذا لا بد وان يستغرب الامر ، الا ان هذه هي الحقيقة بذاتها . والصهيونية ، في الواقع ، لم تكن كذلك في يوم من الايام ، اذ انها كانت تطرح نفسها في الولايات المتحدة تحت غطاء مموه يغلب عليه الطابع الديني والعاطفي . والجدير بالذكر ان زعماء الحركة الصهيونية آنذاك كانوا يتجنبون الاجابة على

تساؤلاتنـــا حول اهدافهم باقامة الدولة اليهودية ، وكانوا يرددون دائما ان هذه المسألة ليست ملحة ، الامر الذي جعل الجميع يعتقدون ان الصهيونية كانت تحصر اهتماماتها بمسألة اليهود القادمين من اوروبا هربا من الارهاب النازي .

وهكذا فقد تمكنت الحركـــة الصهيونية من تعقيد المسألة امامنا كي يتعذر علينـــا فهمها ومناقشتها ، لا سيما واننا كنا نشهد فترة نقص في الخبـــراء والاختصاصيين ، وارغب في الاشارة الى اننا ، مثل غيرنا من التنظيمات ، كنا نواجه مأساة الحـــرب العالمية الثانية ونتائجها المعقدة حيث بدت الحركة الصهيونية آنذاك مجهزة بالاجابة السهلـــة علـــى مجمـــل التســـاؤلات .

ولا بد ان اذكر ان غياب العرب آنذاك عن ساحة عملنا سهل المهمة امـــام الحركة الصهيونية ، الامر الذي دفعنا الى مواقع حتمت علينا قبول الحل الصهيوني وفقـــا لقواعد ايديولوجية وفلسفية ودينية . ولم يشعر احدنا بالظلم الذي سينتج عن الحل الصهيوني آنذاك ويلحق بالعرب والفلسطينيين . فمـــع الغياب العربي السياسي والاعلامي — علما بأنه لو توافر الحضور العربي آنذاك فقد كان متخلفا وغير ملائم — خرجنا باجوبة تلاءمت مع الظروف القائمـــة آنذاك . ورغـــم مطالبة المجلس اليهودي الاميركي في اول بيان رسمي صدر عنه في عام ١٩٤٣ باقامـــة نظام حكـــم ديمقراطي علماني في فلسطين ، فان مواقفنا المبكرة آنذاك ازاء الحركة الصهيونيـــة والمشكلة برمتها اظهرت ديناميكية واصول اهتماماتنا التي كانت ، في الاســـاس ، اميركية ويهودية . وقد تزول الدهشة عندما اذكر لك ان اول اتصال مع طرف عربي تم في اواخر الاربعينات ، وكان فايز صايغ ، الذي كان عضوا في البعثة الدبلوماسيـــة اللبنانية في واشنطن ، اول عربـــي اجري حديثـــا معـــــه .

ارجو ان لا يفهم من كلامي باني اعتذر من العرب بسبب المواقف التي اتخذناهـــا في السابق . فانا ، قبل اي شيء آخر ، مواطن اميركي اؤمن بالديمقراطية والليبرالية واحتفظ بحقي بانتقاد من شئت . فالعرب هم الذين كانوا غائبين ، حتى ان تواجدهم السياسي والاعلامي في الولايات المتحدة آنذاك كان غير فعال وغير ملائم . على اية حال ، لقد واجهنا صعوبات بالغة خلال عملنا وذلك بسبب دوافعنا الدينية ازاء يهـــود اوروبا ، لا سيما وان الحركة الصهيونية كانت تقوم بعمل متقن ومدروس ، ليس بـــين يهود اميركا فحسب ، بل بين صفوف الشعب الاميركي كله .

وفي اواخر الاربعينات بدأنا باستدراك بعض الاخطاء في مواقفنا السابقة ، لا سيمـــا بعد الاتصالات الثابتة والمستمرة ، التي اجريناها ، ولا نزال نجريها ، مع عدد مـــــن عناصر الصف الثاني من العاملين في وزارة الخارجية الاميركية ، حيث كشف لنا هؤلاء الاصدقاء اهداف الحركة الصهيونية والنتائج المترتبة على تحقيقها لتلك الاهداف التي ستزيد من تعقيد الازمة في منطقة الشرق الاوســـط .

وفي الواقع ، فان استذكار ٣٠ سنة من العمل والخبرة بين صفوف يهـــود اميركا ، قضية هامة بالنسبة للشعبين الفلسطيني والعربي الذين تحتل اســـرائيل اراضيهم . ويمكنني ان اقول ان الشعب الاميركي ، واليهود من بينهـــم ، باتـــوا يصغـــون جيدا، وباحترام بالغ للمواد التي نطرحها . ولا اعني انهم يوافقون على وجهة نظرنـــا بالضرورة ، بل انهم ، على الاقل ، يصغون باحترام بالغ . فالذي يجـــري في هـــذه الاونة هو ان اليهود بدأوا يدركون انهم تبعوا زعماء الحركة الصهيونية وعصبة على عيونهم ، لا سيما بعد حرب عام ١٩٦٧ مباشرة حيث ادركوا ان الطريق الذي اختارته

الحركة الصهيونية لحل المشكلة في المنطقة اثبت بطلانه وعدم صحته . وهكذا فان عددا متزايدا منيهود اميركا بدأوا يدركون ان الحركة الصهيونية ضللتهم بما فيه الكفاية ، ووصل الحد بهم الى التساؤل ، حتى قبل الاعلان عن حظر شحن النفط الى الغرب ، عن اسباب مطالبتهم بالتبرع لدولة اسرائيل التي اعلن المسؤولون فيها — واقصد ابا ايبان وزير الخارجية آنذاك — « ان توازنا جديدا للقوى قد فرض في المنطقة نتيجة لحرب حزيران (يونيو) » .

واستطيع ان اقول اننا ، لا سيما بعد تشكيل منظمتنا الصغيرة التي تعرف باسم « البديل اليهودي الاميركي للصهيونية » ، اصبحنا اكثر قدرة على التوجه الى جمهور اوسع بين صفوف الشعب الاميركي ، كما ان عملنا لم يعد مقتصرا على التوجه الى اليهود الاميركيين بل الى جمهور اوسع . فعلى سبيل المثال ، ان مجمل الندوات والمحاضرات التي قمت بها خلال العامين الماضيين كانت موجهة الى طلبة الجامعات والكليات الاميركية التي يتواجد فيها العديد من اليهود الشباب .

هل نفهم من هذا ان تشكيل منظمة « البديل اليهودي .. » وضع حدا للخلاف الذي كان دائرا بين اعضاء اللجنة التنفيذية « للمجلس اليهودي الاميركي » ؟ .. واذا كان الامر كذلك ، هل تعتبر ان المنظمة الجديدة بمثابة البديل عن « المجلس اليهودي الاميركي » الذي لم يتوضح بعد الاسباب المباشرة لنشوء الخلاف بين اعضاء لجنته التنفيذية ؟ ..

دعني اعود قليلا الى الوراء . قبل بداية حرب حزيران (يونيو) كانت غالبية الاميركيين ، اليهود منهم وغير يهود ، يخشون على مصير اسرائيل ، لا سيما بعد تركيز اجهزة الاعلام الغربية والصهيونية على توزيع الاخبار يوميا حول التسليح الكثيف الذي بدأته الدول العربية . الا ان ما حدث بعد الحرب اكد بطلان هذا الادعاء ، فنتائج حرب ١٩٦٧ لم تحل المسألة بالطبع بل زادتها تعقيدا ، سيما وان اسرائيل احتلت اراض عربية اخرى فضلا عن الاراضي الفلسطينية . ومنذ ذلك الحين بدأت وعدد من اعضاء المجلس باتخاذ مواقف معادية لاسرائيل لان الوضع آنذاك لم يعد يحتمل استمرار المواقف السابقة . وكنا نعمل على محور آخر ونواجه الحملات الاعلامية التي بدأتها الدوائر الصهيونية والاميركية بعد حرب ١٩٦٧ والتي اثرت على اليهود الذين باتوا يعتقدون ان اسرائيل ، بعد الانتصار في الحرب ، اصبح بامكانها ان تمنع المد الشيوعي في السيطرة على المنطقة . وكانت وجهة نظرنا آنذاك ، ولا تزال ان عددا من الانظمة العربية اكثر حرصا من اسرائيل على وقف المد الشيوعي ، وان ادعاء الحركة الصهيونية بان اسرائيل تحتل الاراضي العربية والفلسطينية لتنفيذ هذه المهمة ليس الا مبررا لتحقيق الاهداف التوسعية والاستيطانية .

الا ان الذي حدث بعد ذلك على صعيد « المجلس اليهودي الاميركي » ، ان طلب عدد من اعضاء المجلس البارزين عقد جلسة لمراجعة موقفنا بهدوء . وقد تم ذلك بالفعل ، فبعد امتداح هؤلاء للاعمال التي قمت بها خلال عملنا سوية في المجلس اخبروني ، ما معناه ، انه لم يعد بالامكان ان نعمل سوية ما دامت مواقفي « مؤيدة بشكل فاضح للشيوعيين العرب » . واتهامي بالعمل مع الشيوعيين العرب استمده الغاضبون من اعضاء المجلس من جراء مواقفي المعادية لاسرائيل بعد حرب حزيران ١٩٦٧ واتخذت اللجنة التنفيذية للمجلس آنذاك قرارا بعدم اصدار بيانات وتصريحات واجراء اتصالات منفردة ، والعمل الجماعي ضد الحركة الصهيونية وحصره في الولايات المتحدة فقط وقطع اي اتصال مع الاحداث والتطورات السياسية الجارية في منطقة

الشرق الاوسط . وبعبارة اخرى ، فان اللجنة التنفيذية قررت اتخاذ موقف محايد ، ان لم يكن مؤيدا ، لاسرائيل على الصعيد الدولي ، وموقف معاد للصهيونية في الولايات المتحدة .

والحادث الاخر الذي اكد عدم امكانية الاستمرار في العمل داخل « المجلس اليهودي الاميركي » كان الضجة التي أثيرت بعد مقال كنت قد نشرته في صحيفة « نيويورك تايمز » حول حرب ١٩٦٧ . وفي محاولة من ريتشارد كولن ، رئيس المجلس ، وضع حد للخلاف العلني بين اعضاء المجلس ، لا سيما بعد صدور بيانات وتصريحات بعد مرور اشهر قليله على حرب ١٩٦٧ طالبت الحكومة الاميركية بوقف الدعم الذي نقدمه لدولة اسرائيل والتوجه نحو تناول المسألة الاساسية في المنطقه . وكان كولن صديقا حميما لسولزبرغ صاحب صحيفة نيويورك تايمز ، ووافقت على طلب الاول بعقد لقاء مع سولزبرغ لمناقشة مسألة المقال في الصحيفة وتم اتفاق في هذا الشأن ، الا ان الصحيفة نشرت المقال تحت عنوان يقول ما معناه : « بيرغر يتهم اسرائيل بانها بدأت العدوان في عام ١٩٦٧ .. الخ ... » وتلا ذلك ضجة كبيرة ومفتعلة . وبالحقيقة ، اني لم اكتب المقال في هذا الوضوح ، فانا لم اذكر اسرائيل ، بل قلت ان الحركة الصهيونيه هي عدوانية وتوسعية بحد ذاتها . وجرت بعد ذلك مناقشة حامية بيننا في اجتماع لاعضاء اللجنة التنفيذية للمجلس قاومت خلالها محاولات عدد من الاعضاء لاتخاذ موقف محايد ازاء اسرائيل . والجدير بالذكر ان اولئك الذين كانوا يحاولون اقناعي على العدول عن رأيي بالاستقالة من المجلس ، بدأوا في توجيه اللوم والعتاب لاني اتخذت موقفا معاديا ازاء اسرائيل التي كانت تمثل بالنسبة اليهم — على حد ذكرهم — « الدولة الديمقراطية الوحيدة في المنطقة ، والدولة الوحيدة التي تحمي المصالح الاميركية فيها » . على اي حال ، كان موقفي ثابتا خلال النقاش . اذ من غير المعقول ان يتخذ موقف معاد للصهيونية في الولايات المتحدة فقط واتخاذ موقف محايد ، في الوقت ذاته، ازاء اسرائيل . فاسرائيل هي الصهيونية وهذه الاخيرة هي اسرائيل .

ولم يكن امامي ، في هذه الحالة ، الا تقديم استقالتي من دون ان يتوافر لدي البديل آنذاك . ولحسن الحظ لم اكن ، وكذلك زوجتي ، ولعدة سنوات اعتمد ماليا على عملنا في المجلس ، الامر الذي ساعدني على تجنب العديد من المشاكل . وتجدر الاشارة الى أن عددا من اعضاء اللجنة التنفيذية للمجلس الذين كنت على اتفاق معهم طلبوا عقد اجتماع عاجل بعد تقديم استقالتي لمناقشة الوضع برمته . وقال لي هؤلاء الاصدقاء ان خبرة ٢٥ سنة في المجلس يجب ان اعيد استثمارها في عمل مماثل ، واتفق فعلاً على تشكيل المنظمة الجديدة « البديل اليهودي الاميركي للصهيونية » وفقا لشروط ثلاثة : (١) رفضي لتلقي راتب شهري ثابت من المنظمة نظرا لعدم معرفتي بمقدرتي الجسدية على العمل ، لا سيما واني تجاوزت الستين آنذاك ، (٢) رفضي لصرف ٥ دقائق في العام الواحد لجمع التبرعات المالية للمنظمة الجديدة . وطالبت الجميع بالمساهمة المالية الشخصية وفقا لامكاناتهم ، (٣) عدم تضييع الوقت على مسألة الانتساب الى التنظم لان هذه المسألة اقل اهمية من تلك التي يجب ان تخصص لمسألة اعداد البرنامج الاعلامي والسياسي الذي سنعمل وفقا له : واتفقنا على هذه النقاط بالفعل ، وتم فتح مكتبنا في نيويورك خلال عشرة اشهر .

وهكذا فان تنظيم « البديل اليهودي الاميركي للصهيونية » في رأيي هو اكثر من بديل عن « المجلس اليهودي الاميركي » . فتنظيمنا الان ليس منظمة ترتكز على العضوية ، كما ان العضوية فيه ليست محصورة باليهود وحسب ، رغم اهمية هذا الامر ، بل هي مفتوحة امام جميع الاميركيين الذين يعادون الصهيونية .

من الملاحظ ان يهود اوروبا الغربية المعادين للصهيونية ، امثال ماكسيم رودنسون يعملون ، او عملوا في السابق في الاحزاب الشيوعية الاوروبية المختلفة ، بينما يلاحظ ، في الوقت ذاته ، ان يهود اميركا ، امثالك ، لا تتعدى مواقفهم السياسية حدود المواقف « الديمقراطية — الليبرالية » . ما هي الاسباب التي ادت الى ذلك في رأيك ؟ وهل تعتقد ان الفرص متاحة امام اقامة تعاون منسق ، او شبه منسق ، بين يهود اوروبا ويهود الولايات المتحدة ، وذلك نظرا لاهمية هذا الامر ؟

لا ادري إن كان بامكاني ان اقدم جوابا مباشرا لهذا التساؤل ، الا انني ساحاول . قبل اي شيء ، علاقتي مع ماكسيم رودنسون ممتازه واعرفه منذ زمن بعيد . ورغم انني معروف سياسيا بمواقفي « الديمقراطيه — الليبراليه » الا انني اعتبر نفسي في معظم الاحيان « فوضويا » . وفي رايي انه يمكن للمرء ان يكون عضوا في حزب ديمقراطي — ليبرالي ويمارس ، في الوقت ذاته ، انشطة يسارية ويتخذ مواقف يعتبرها البعض مواقف متطرفه وماركسية . واعتقد انه ليس بالضروره ان يحمل المرء « عنوانا » كي يعرف بانه ماركسي ام غير ماركسي . هذا الامر لا يقلقني على الاطلاق ، فانا على وشك الاحتفال بعيد ميلادي الـ ٦٨ . وقد نشأت في هذه البيئة وترعرعت في ظل المفاهيم السائده في بلدي . واود في هذا السياق ان الفت النظر الى امر في غايه الاهميه ، وهو ما يعرف بـ « اليسار الجديد » الذي بدأ في العمل السياسي بعد تشكيله خلال الاعوام القليلة الماضية . فانا والعاملون في هذا اليسار نتمتع بعلاقة حميمة وممتازه تصل في أغلب الاحيان الى درجة التنسيق ، لا سيما في المسائل المتعلقة بازمة الشرق الاوسط ، فهؤلاء معروفون بتأييدهم ودعمهم المتواصل لحركة المقاومة الفلسطينية ولحق الشعب الفلسطيني باسترداد حقوقه الوطنية والمشروعة . كما تجدر الاشارة الى انني اقوم في معظم الاحيان مع العاملين في اليسار الاميركي بتنظيم ندوات مشتركة حول القضية الفلسطينية ، كما ان معظم هؤلاء يقدرونني ويحترمونني ويحافظون على طبيعة الاتصال والعلاقة فيما بيننا . وهم لا يحاولون اقناعي كي ادعم برنامجهم السياسي ، وانا بدوري لا اتدخل في شؤونهم . فانا براغماتي ازاء هذا الامر .

والشيء اللافت للانتباه هو الانتماء السياسي ليهود اسرائيل الذين يعادون الصهيونيه . فعلى سبيل المثال اسرائيل شحاق رئيس لجنة حقوق الانسان في اسرائيل والمحامية فيليسيا لانغر وغيرهما من يهود اسرائيل ، معظم هؤلاء هم اعضاء ، او كانوا اعضاء في الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، او من العاملين في « اليسار الجديد » في اسرائيل — المنظمة الاشتراكيه الاسرائيلية (ماتسبن) مثلا . وارغب في ان اضيف هنا باني على اتصال دائم مع هؤلاء ، كما اننا نلتقي دائما خلال وجود احدهم في الولايات المتحدة .

وبما اننا نتحدث عن الماركسية واليسار — وارجو معذرتي فيما لو اطلت — اجد نفسي مضطرا كي اضيف نقطة اخرى الى ما ذكرته في السابق . الملاحظ ان قوى اليسار في منطقة الشرق الاوسط تشهد نموا متزايدا لا سيما بعد فشل « القوة الثلاثية » (الولايات المتحدة + المال + النفط) في حل المشكلة الفلسطينية . وانا كنت واحدا من اولئك الاوائل الذين قالوا في وقت مبكر منذ نحو ٢٠ سنة — انه ما لم تتحرك هذه « القوة الثلاثية » لحل مشكلة الشعب الفلسطيني فان المسألة الفلسطينية ستتغير من طبيعة المنطقة بانتقال القدرة على اتخاذ قرار بشأن المسألة من ايدي القيادة التقليدية الى ايدي اليسار وقوى الشعب المسلحة والمقاتلة . والملاحظ الان ان قوى اليسار في منطقة الشرق الاوسط اصبحت اكثر قبولا لدى شعوب المنطقة ،

كما اصبحت قادرة على لعب دور مؤثر في تغيير التركيب الاجتماعي والاقتصادي السائد في المنطقة .

على اية حال ، اعتقد ان الاجابة المباشرة باختصار على سؤالك حول الاسباب التي جعلت من يهود اوروبا ينتمون الى احزاب شيوعية ، ومن يهود اميركا يعملون في احزاب « ديمقراطية — ليبرالية » ، هي ان الاسباب تعود الى عديد من العوامل الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية . فالماركسية نشأت في اوروبا التي هي بدورها شهدت انطلاق الثورة الصناعية ، كما ان الماركسية ، وفقا للعوامل التي ذكرتها آنفا شهدت قبولا وترحيبا في اوروبا اكبر مما شهدته في الولايات المتحدة .

ارجو ان تحدثنا عن الجزء الثاني من التساؤل ، وهو هل تعتقد بامكانية قيام تعاون مشترك بين يهود اميركا ويهود اوروبا الغربية لتنظيم العمل الاعلامي ضد الصهيونية على نطاق دولي ؟

كم اتمنى ان يتحقق ذلك . لقد تحدثت انا وورودنسون مطولا حول هذا الامر ، كما اجريت خلال زيارتي الحالية الى لندن اتصالات بهذا الشأن مع المسؤولين في « مجلس تعزيز التفاهم البريطاني — العربي » (الذي يعرف باسم « كابو — C. A. A. B. U.) واستمزجت آراء العاملين في « كابو » من اليهود . ويبدو ان الجميع متفقون على ضرورة تحقيق هذا الامر . الا ان المشكلة الكبرى التي تواجهنا هي مشكلة التمويل اللازم لانشاء جهاز ادارة يشرف على المشروع وتنفيذه . وجدير بالذكر ان هناك اتصالات دائمة بيني وبين ماكسيم رودنسون ، كما ان علاقات شخصية قائمة بيننا . ولا استطيع منفردا ان اصف تماما التنظيم الذي نحتاجه . وقد يكون هذا شيئا مثل المؤسسة — مثل « كابو » — ولكن بشرط وجود اميركيين في جهاز الادارة . ويمكنني ان اقول انني على اتم الاستعداد للعمل في مثل هذه المؤسسة ، وليس بالضرورة ان يسند لي دور قيادي فيها ، اذ ان مجرد مشاركتي في نشاطها سيساعد ، من دون شك ، على تطوير وسير العمل . وارغب في ان اضيف نقطة اخرى . رغم اعتقادي الشديد بان تنظيما يهوديا دوليا يعادي الصهيونية لا بد وان يتحقق في المستقبل ، وعلى ضوء تجربتي في « المجلس اليهودي الاميركي » و « البديل اليهودي الاميركي للصهيونية » بعد ذلك ، فاني اقترح ان يبدأ العمل على انشاء تجمع دولي ، ليس من الضروري ان يكون محكم التنظيم في البداية ، يضم يهودا ومسيحيين ، وربما مسلمين ايضا للعمل ضد الصهيونية ، ولكن بشرط ان يكون فيه لليهود دور رئيسي وقيادي . والذي يدفعني الى قول ذلك هو ما اكدته التجربة من ان عددا متزايدا من سكان المجتمعات الغربية من غير اليهود يصغون جيدا وباهتمام بالغ الى اليهود الذين يتناولون مسألة الشرق الاوسط . ويجدر بي ان اذكر ان عددا متزايدا من الاميركيين من غير اليهود بدأوا يهتمون بالمسألة .

السؤال الاخر يتعلق بالفلسطينيين ، او اكثر تحديدا ، بحركة المقاومة الفلسطينية وبنضالها السياسي والعسكري . فالمعروف انك كنت خلال السنتين و السنوات الثلاث الاولى من هذه الحقبة تفضل ان تلجأ منظمة التحرير الى استعمال « الكلمة » ، الاساليب السياسية ، وتقلل من اعتمادها على « الرصاصة » ، العمليات العسكرية . فعلى ضوء التطورات الدولية والعربية والفلسطينية التي حدثت خلال العامين الماضيين ، بدءا من حرب تشرين الاول (اوكتوبر) .. وفرض حظر على شحن النفط .. ومرورا بقرار المجلس الوطني الفلسطيني باقامة الدولة الفلسطينية المستقلة فوق الاراضي التي يتم تحريرها .. وخطاب ياسر عرفات في الامم المتحدة ، وانتهاء بالاتفاق الثنائي الذي وقع مؤخرا بين مصر واسرائيل ، فهل تعتقد ان المنظمة قد ذهبت بعيدا في اعتمادها على « الكلمة » ، ام انها يجب ان تقلل

من اعتمادها على « الرصاصة » بقدر اكبر .. ام انها تحقق التوازن بين استعمال السلاحين السياسي والعسكري ؟

اجابتي المباشرة هي ان هناك حالة من التوازن ، بين العمل السياسي والعمل العسكري ، قائمة خلال العامين الماضيين . والذي كنت اردده في السابق عبارة اطلقها روزفلت في احدى المناسبات وهي : « قل كلمتك برقة . . واحمل عصا غليظة » . واضح ان العنف ليس اسلوبا للحياة ، كما ان اولئك الذين يعتمدون العنف كاستراتيجية لا مستقبل لهم لان ذلك لا يبرهن عن اي شيء . والعنف المسلح الذي يمارسه الشعب الفلسطيني ، على اية حال ، ليس عملا استراتيجيا ، بل له مبرراته العديدة .

ولكن عليك ان لا تنسى انني واقعي . فالذي دفع وزير الخارجية الاميركي ، الدكتور هنري كيسنجر ، الى السفر الى القاهرة في شتاء عام ١٩٧٣ هو المشاهد التي كانت تعرض على شاشة مختلف المحطات التلفزيونية ، لعشرات الالاف من الاميركيين الذين اصطفوا في طوابير طويلة لشراء غالون من المحروقات . فانا اعتقد ان هذه المشاهد هي التي حركت كيسنجر ونكسون ، الرئيس السابق ، « للسعي من اجل التوصل الى حل للمسألة في منطقة الشرق الاوسط » . الا ان المسألة مختلفة تماما بالنسبة للفلسطينيين . فهؤلاء لا يسيطرون على النفط . . مما يجعل المرء يتساءل: ما هو « عرض القوة » الذين يمكن ان يقدمه الفلسطينيون ؟ فليس لديهم الا ذلك اللجوء الحزين ، الامر الذي دفعهم الى استعمال العنف المسلح كي يجبرون العالم على الاهتمام بمشكلتهم والاصغاء اليهم . وبالطبع ، عندما اذكر العنف لا اعني مطلقا العرض الذي قدمه البعض في ميونيخ ، فموقفي من هذه العملية معروف لدى اصدقائي العرب والفلسطينيين الذين فهموا جيدا وجهة نظري آنذاك . فاذن ، ان اللجوء الى الاساليب العسكرية امر لا بد منه ما دامت الوسائل الاخرى غير متوافرة .

واود ان اذكر في هذا السياق أنني اجد نفسي متفقا تماما مع سلوك منظمة التحرير الفلسطينية الذي يقوده ياسر عرفات ، كما اجد ان خطابه في الامم المتحدة والذي قال فيه ان الشعب الفلسطيني يحمل غصن الزيتون بيد ويحمل سلاح الحرية باليد الاخرى ، اجده منسجما تماما مع وجهة نظري . الا ان الذي لا يمكنني قوله ، وهذا ينطبق على الاخرين ، هو الى اي مدى ، واي زمن ، يتحتم على منظمة التحرير ان تتخذ هذا الموقف . فهذه مسألة يحددها الشعب الفلسطيني الذي عانى وقاسى مدة طويلة ، الا انني اتمنى ان يتم التوصل الى حل للمسألة باقل عدد ممكن من الضحايا . ولا بد ان اذكر انه فيما لو تبين ان الاتفاقية الموقعة مؤخرا بين مصر واسرائيل هي اتفاقية خيانية ، ولا يمكنني ان اقول انها كذلك في هذه اللحظة — وخالد الحسن * قال لي : باننا مستعدون ان نتريث ٣ او ٤ اشهر قبل ادانة الاتفاقية ريثما تتبين اهدافها ، واعتقد ان هذا قول معقول وحكيم — فاذا تبين انها خيانية فلا احد يستطيع ان يلوم الفلسطينيين فيما لو تخلوا تماما عن غصن الزيتون . واعتقد انه من الحكمة التريث ليس ازاء الاتفاق الثنائي وحسب ، بل بشأن المواقف الدولية والعربية المختلفة من المشكلة برمتها ، ريثما تتمكن المنظمة ، وبهدوء كامل ، من تحديد موقعها كطرف اساسي من الاطراف المعنية التي علمت مؤخرا انها على وشك الدخول في مفاوضات قادمة ، الامر الذي يجعلني اتفاءل بان اللجوء الى الاعمال العسكرية احتمال ضعيف .

فيما لو افترض ان وزير الخارجية الاميركي جاد في مساعيه للتوصل الى حل لمشكلة الشرق الاوسط ، فلماذا لا يتناول هذه العقدة الاساسية في المشكلـــة ويبدأ في رحلة الميل الواحد بدلا من رحلة الالـــف ، او الاف الاميـــال ؟

ذكرت آنفا ان لدينا اصدقاء يعملون في الخارجية الاميركية ، فهؤلاء ، وكذلك عدد كبير من اعضاء الكونغرس الذين نلتقي بهم ، يدركون ان الطريقة الوحيدة للتوصل الى استقرار ، وليس الى حل مؤقت ، هو الاعتراف بالمسألة والاعلان عن ذلك بصراحة ودقة . الا انني اعتقد ان كيسينجر يعتقد بانه ، فيما لو اقدم على ذلك فانه سيواجه معارضة صهيونية كبيرة قد تقود الى ضرب دبلوماسية الخطوة ـــ خطوة التي يتبعها .

لا بد من وجود اسباب اخرى تمنع الخارجية الاميركية من الاعتراف باساس المشكلة ، اليس كذلك ؟..

على المرء ان يكون بالغ الحذر عند تناوله المسألة . ورغم ما يقال عن او حـــول كيسينجر فانه ليس غبيا ، وقد يكون شيطانيا وغامضا .. الى درجة ان اصدقاءنـــا من العاملين في الخارجية يقولون دائمـــا انهم يجهلون رغبات كيسينجر ، حتى ان بعضهم يردد بانهم لا يدرون ماذا يريد غدا ! . اقصد من كلامي هذا توضيح نقطـــة هامة قد لا نتعلق بصلب المشكلة في الشـــرق الاوسط الا انهـــا ، من دون شك تتعلق بالاطار الذي يحيط بها على الاقل . اعتقد ان ما يحرص كيسينجر على تحقيقه هو ان يحفر اسمه في التاريخ كاعظم وزير للخارجية الاميركية . وفي رأيي انه لم ينجز شيئا حتى الان يؤهله لان يفعل ذلك . فكل ذلك الـــذي قيل عن فيتنام والتســـوية التي تم التوصل اليها انتهى بكوارث لا يمكن نسيانها . كما ان مفاهيمه ، وكذلك مفاهيـــم ريتشارد نكسون حول الوفاق الدولي والعلاقات مع روسيا والصين والعلاقات بين الشرق والغرب الخ .. اصبحت مفاهيم باطلة فقدت مفعولها خلال السنتين ، او الثلاث سنوات الماضية . وما اود ان اسجلـــه هو ان امام كيسينجر فرصة واحدة قبل انتخابات الرئاسة كي يحقق اهدافه ، علما بانني اشك في انه سيبقى في منصبه بعد الانتخابات ، وهذه الفرصة مـــوجودة في الشـــرق الاوسط . واعتقد ان تجاهله للشعب الفلسطيني كطرف اساسي من الاطراف المعنية بالمشكلة لن يساعده علـــى ذلك ، كما لن يسهل من مهمة التوصل الى حل لمشكلة الشرق الاوسط ، لا سيما وان هنري كيسينجر لا يقدم حلولا للمشكلة يمكن ان تعتبرها منظمة التحرير بمثابة الحد الادنى الذي تقبل به . والحـــد الادنى الذي اقصده بالطبع ، هو اقامة دولة مستقلة للفلسطينيين فوق الاراضي التي يجب ان تنسحب منها اسرائيل ، اي الضفة الغربية وغـــــزة .

من خلال هذا الفهم الفلسفي والنظري لا ازال اشارك الاخرين في تعاستهم وخيبة املهم ازاء التطورات التي حصلت مؤخرا في المنطقة . فرأيي بالاتفـــاق المصري ـــ الاسرائيلي الاخير لا يختلف كثيرا عن اراء هؤلاء ، لا سيما النتائج المترتبة على المـــدى القريب من جراء وقف الحملات الاعلامية ضد اسرائيل . ولدي شعور بان الاستراتيجية المتبعة منذ فشل كيسينجر في جولته السابقة خلال شهر آذار (مارس) الماضي ، وبعد الرسالة التي بعث بها ٧٦ من اعضاء الكونغرس الى الرئيس الاميركي وحذروه

---

* التقى المر بيرغر بخالـــد الحسن خلال ترأس هـــذا الاخير لوفـــد المجلس الوطنـــي الفلسطيني الـــى المؤتمر البرلماني الدولي الذي عقد في لندن خلال شهر ايلول (سبتمبر) .

فيها من التخلي عن اسرائيل ، اعتقد ان الاستراتيجية المتبعة منذ ذلك الحين هي القاء عبء اتخاذ القرار ، اي قرار بشأن المنطقة ، على عاتق الكونغرس وليس على عاتق وزير الخارجية او رئيس الدولة ، فخلال ٣٠ سنة ، التي هي عمر تجربتي ، لا اذكر بان الولايات المتحدة ساعدت اسرائيل مثلما تفعل الان وتقدم لها معونات بمبلغ ٣ بلايين دولار . الا انني اشك بان الامر سينتهي بهذه السهولة . فقبل مغادرتي مدينة « سيروسودا » في ولاية فلوريدا في طريقي الى لندن ، اذكر ان صحيفة المدينة المحلية وتدعى « سيروسودا هيرالد تريبيون » خرجت ، بعد الاعلان عن الاتفاق المصري ـ الاسرائيلي ، بعنوان رئيسي كبير احتل صدر صفحتها الاولى كان يقول : « السلام الاسرائيلي يكلف ٣ بلايين دولار .. » . وتجدر الاشارة الى ان هذه الصحيفة ، مثل غيرها من الصحف المحلية ، لا تهتم في العادة بالاخبار الدولية بل تحصر اهتمامها بشؤون المدينة اولا ، ومن ثم ، الولاية .

امر آخر لا بد من ذكره وهو ذلك الذي يتعلق بوضع ٢٠٠ مراقب اميركي في سيناء . فهذا الامر في غاية الخطورة بحد ذاته ، لانه لن ينتهي عند هذا الحد . فالعشرون سنة القادمة ستكشف كل شيء . وقد يكون هذا من اكثر البنود التي تدعو المرء الى الاستغراب اكثر من البنود الاخرى . فانا اعتقد ان وضع ٢٠٠ مراقب اميركي يمثل رغبة كيسينجر وحده . فالمصريون لم يضغطوا من اجل تحقيق ذلك كما ان الاسرائيليين لم يطالبوا بذلك . انها الخطوة الاولى لمرحلة جديدة من تورط اميركي شامل ياخذ شكل ضمانات ، اما عن طريق عقد اتفاق مع اسرائيل ، او عن طريق اشراف كامل على تسوية شاملة بعيدة المدى في المنطقة . والسبب الذي يدعوني الى قول ذلك هو تاريخي ويتعلق بالتورط الاميركي في فيتنام ، واعتقد ان الكونغرس سيشهد في المستقبل القريب واحدة من اهم حلقات المناقشة في تاريخه حول التورط الاميركي في المنطقة فيما لو عقدت الولايات المتحدة اتفاقا مع اسرائيل من جهة ، والمصالح الاميركية في العالم العربي وكيفية حمايتها من جهة اخرى . فالامران متناقضان مما يزيد من تعقيد المسألة . الا ان الخارجية تخطط منذ زمن من اجل وضع المسألة برمتها في « حضن » الكونغرس كي يتخذ قرارا بشأنها ترضى عنه الخارجية من دون ان تتحمل نتائجه السياسية والاقتصادية والعسكرية .

قبل ان ننهي الحديث واشكرك .. هل من كلمة اخيرة ترغب في توجيهها الينا ؟ ..

امر واحد فقط ارغب في الاشارة اليه ، وهو الاعلام العربي في الولايات المتحدة . هذا الاعلام يكاد يكون معدوما ، وذلك لعدم توافر الكفاءات القادرة على فهم عقلية اليهودي ، وغير اليهودي في اميركا ، فضلا عن الغموض الذي يحيط بموقف منظمة التحرير لا سيما بعد اعلانها عن ضرورة قيام الدولة العلمانية الديمقراطية كحل للمشكلة في الشرق الاوسط . هناك عدد كبير من اليهود الذين يتساءلون عن مصير الدولة اليهودية ويقولون بان الفلسطينيين لا يوضحون تماما اهدافهم عندما يتحدثون عن المستقبل . من الطبيعي ، لا سيما في ظل غياب الاعلام العربي الملائم ، ان يقول يهود اميركا ان السيد ياسر عرفات يقصد اذن تدمير الدولة اليهودية . فهؤلاء يهمهم ان يعلن عرفات بداية ما يعنيه بالدولة الديمقراطية العلمانية . وهنا لا بد ان اشير الى « الورقة » التي قدمها سعيد حمامي ، مندوب منظمة التحرير في لندن ، الى الندوة السياسية التي عقدها « كابو » و « يرابيا » (مقرها باريس) في لندن خلال شهر اذار (مارس) الماضي . فقد ساهمت في تسهيل مهمتنا لانها اوضحت ، قليلا ، ما هو المقصود بخطة المستقبل .

النخبة السياسية ليهود فلسطين ايام الانتداب البريطاني

الدكتور تيسير الناشف

نشرت شؤون فلسطينية في شهر آب (اغسطس) ١٩٧٥ مقالا عن النخبة السياسية في المجتمع العربي في فلسطين ، وهي جزء من رسالة جامعية قدمها الدكتور تيسير الناشف في جامعة ولاية نيويورك لنيل شهادة الدكتوراه ، وفيما يلي ترجمة للفصل الثالث من الرسالة .

سنتقدم فيما يلي وصفا للنخبات السياسية للحركة الصهيونية العالمية للمجتمعات اليهودية في الغرب وفي فلسطين ، باللجوء الى النهج المؤسسي . تتمثل النخبات اليهودية السياسية بالاعضاء الصهيونيين وغير الصهيونيين في اللجان التنفيذية للوكالة اليهودية لفلسطين ، وباعضاء اللجان التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية (١) . ومن الجلي ان هذا التحديد الكيفي يستبعد الشخصيات ذات النفوذ السياسي التي لم تنخرط في عضوية اي من هذه اللجان التنفيذية لسبب او لاخر . ان الغاية من اللجوء الى النهج المؤسسي ، تجنب المعايير الذاتية في تحديد تركيبة النخبات السياسية التي نتناولها في هذه الدراسة . ولقد كانت اللجان التنفيذية للوكالة اليهودية وللمنظمة الصهيونية العالمية من اهم وابرز الهيئات التي امتلكت الحق في القدرة على اتخاذ القرارات في المجتمعات اليهودية في فلسطين والغرب ، خلال الفترة محل الدراسة ، كما لعبت دورا اساسيا للغاية في خلق اسرائيل عام ١٩٤٨ .

ان الفترة الزمنية التي تغطيها هذه الدراسة هي بحدود حوالي ٢٥ عاما ، بدءا من العام ١٩٢١ ، وهو العام الذي انتخبت فيه اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية من قبل المؤتمر الصهيوني الثاني عشر ، وهو ايضا العام التالي للعام الذي تقرر فيه مؤتمر سان ريمو في ١٩٢٠ تكليف بريطانيا بمسؤولية الانتداب على فلسطين تحت اشراف عصبة الامم . وتنتهي الفترة الزمنية في العام ١٩٤٦ ، وهو العام الذي شهد انعقاد المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرين . ولقد بلغ اجمالي عدد اعضاء اللجان التنفيذية من صهيونيين وغير صهيونيين في هذه الفترة سبعة وخمسين عضوا . وحيث ان هؤلاء جميعا كانوا من اليهود ، فسنستعمل في الغالب تعبير « اللجان التنفيذية اليهودية » ، للدلالة على اللجان التنفيذية للوكالة اليهودية وللمنظمة الصهيونية العالمية .

مقدمة تاريخية

في العام ١٩٢٠ نيطت عصبة الامم انتداب بريطانيا على فلسطين . واعترف البند الرابع من صك الانتداب بوكالة يهودية ملائمة تتعاون مع الادارة البريطانية في فلسطين في الشؤون المتعلقة بتأسيس الوطن القومي اليهودي والسكان اليهود في فلسطين . واعتبرت الحكومة البريطانية المنظمة الصهيونية بمثابة الوكالة اليهودية المقصودة . (٢)

وفي العام ١٩٢٩ ، جرى توسيع الوكالة اليهودية التي كانت عضويتها قاصرة على الصهيونيين وحدهم حتى ذلك التاريخ ، بحيث ضم اليها غير الصهيونيين من اليهود . وقامت هذه المشاركة على اساس المساواة بين الصهيونيين وغير الصهيونيين ، وبناء لهذا ، تكونت اللجنة التنفيذية وهي الهيئة الحاكمة في الوكالة اليهودية، من خمسين بالمائة من الاعضاء الصهيونيين جرى انتخابهم من قبل المنظمة الصهيونية العالمية ، وخمسين بالمائة من غير الصهيونيين ، انتخبوا من جانب مجلس الوكالة اليهودية . (٣)

اعتبرت اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية ، حتى العام ١٩٢٩ ، على انها اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية ، وذلك لان الحكومة البريطانية اعترفت بالمنظمة الصهيونية العالمية باعتبارها الوكالة اليهودية لفلسطين . ومع تأسيس الوكالة اليهودية الموسعة ، اصبحت

المنظمة الصهيونية العالمية ، والوكالة اليهودية الموسعة ، تنظيمين منفصلين . ولم تعد المنظمة الصهيونية العالمية تعامل (بفتح الميم) باعتبارها الوكالة اليهودية لفلسطين ، حيث ان هذه المهمة القيت على عاتق الوكالة اليهودية الموسعة . كما كان هناك تمايز بين المؤسستين : المنظمة الصهيونية العالمة والوكالة اليهودية ، حيث ان عضوية الاولى اقتصرت على الصهيونيين اليهود ، في حين ضمت الثانية في عضويتها يهوداً من الصهيونيين وغير الصهيونيين . ومع ذلك ، فان مبدأ التكافؤ او المساواة بين الصهيونين وغير الصهيونيين من اليهود في عضوية اللجان التنفيذية للوكالة اليهودية لم يعمل به طويلا ، فاصبح العنصر الصهيوني هو الراجح . ويعود ذلك الى اسباب شتى منها الخلافات بين الصهيونيين وغير الصهيونيين ، والانهيار شبه الكامل ليهود اوروبا . (٤) ولقد استقال اخر عضو غير صهيوني من اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية في العام ١٩٤٧ . وبهذا عادت اللجنتان التنفيذيتان للمنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية ، وكذلك جسما المنظمتين ، الى تماثلهما السابق .

فئات العضوية

يمكن تصنيف اعضاء اللجان التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية وللوكالة اليهودية في عدة فئات . لقد كانت اغلبيتهم الساحقة من الاعضاء المنظمين. وان رئيسي المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية لفلسطين ، يعتبران عضوين في اللجنتين التنفيذيتين للمؤسستين المعنيتين .

وكان هناك تصنيف اخر مشابه بين اعضاء كل من اللجنتين التنفيذيتين للمنظمة الصهيونية العالمية وللوكالة اليهودية . فالاعضاء الاحدث عهداً او نواب الاعضاء يشكلون فئة واحدة . والاعضاء اصحاب المراكز في اللجنتين التنفيذيتين للمنظمة الصهيونية العالمية وللوكالة اليهودية الذين يملكون حق التصويت الاستشاري في الشؤون السياسية او الاقتصادية يشكلون فئة ثانية من فئات العضوية. ولقد ضمت اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية اعضاء لهم حق التصويت في النواحي السياسية فقط . أما بالنسبة للجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية ، فلم يعط غير القليل من الاعضاء مراكز فيها بسبب عضويتهم في اللجان المالية والاقتصادية (او في المجلس) . (٥)

وكان بعض هؤلاء الاشخاص الذين لا يملكون حقوق العضوية النظامية الكاملة ينالون ترقية بحيث يكتسبون جميع هذه الحقوق للعضوية النظامية .

بالنسبة لدراستنا هذه ، فان جميع اعضاء اللجان التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية وللوكالة اليهودية الذين انتموا الى اي من فئات العضوية السالفة الذكر ، يشكلون العدد الاجمالي للنخبات اليهودية السياسية التي تتناولها هذه الدراسة .

العمر ومدة الخدمة

انخرط جميع اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية (٦) في العمل السياسي في وقت مبكر من حياتهم ، وقبل ان يتسلم كل منهم منصبه السياسي الاول . وفي كثير من الحالات ، بدأ هذا الانخراط في العمل السياسي في مرحلة الفتوة او الحياة الدراسية المبكرة .

ويتبين من الجدول الرقم واحد ، ان معدل عمر اعضاء اللجان التنفيذية عند بداية توليهم المنصب السياسي الأول هو ٢١ و ٣١ سنة ، الذي يمثل سواء بالمقاييس المطلقة او النسبية ، عمراً شاباً حقا . وكان يمكن ان يكون معدل العمر ادنى من ذلك ايضا لولا اشتراك اثني عشر شخصاً بعضوية اللجان التنفيذية اليهودية الذين كانوا في الاربعينات او في الخمسينات من اعمارهم حين تقلدوا مناصبهم السياسية الاولى .

أضف الى ذلك ، ان صغر سن اعضاء اللجان التنفيذية عند توليهم مناصبهم السياسية للمرة الاولى ابقى معدل عمر اعضاء اللجان التنفيذية شاباً نسبيا ، وهو ٣٦ر٤٦ سنة .

الجدول الرقم ١
احتساب اجمالي لمعدل العمر

	العمر بالسنوات
معدل عمر اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية لدى تقلدهم مناصبهم السياسية لاول مرة	٢١ر٣١
معدل عمر اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية عند توليهم عضويتها لأول مرة (٧)	٣٦ر٤٦
معدل عمر اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية عند انتهاء عضويتهم فيها (٨)	٩٦ر٥٣

مر بنا من قبل ان هذه الدراسة تتناول اللجان التنفيذية اليهودية ــ باعتبارها النخبات اليهودية

السياسية — بدءا من سبتمبر ١٩٢١ ، عندما انعقد المؤتمر الصهيوني الثاني عشر في كارلوفي فاري (كارلسباد) . وكما هو واضح في الرقم التسلسلي للمؤتمر ، فان احد عشر مؤتمرا انعقدت قبله ، كان اولها في بال في اغسطس ١٨٩٧ (٩). والواقع ان عضوين من اللجنة التنفيذية الصهيونية انتخبا من جانب المؤتمرات الصهيونية التي سبقت المؤتمر الصهيوني الثاني عشر عام ١٩٢١ . ان احدهما ، ميناحيم م. اوسستشكين ، انتخب لعضوية اللجنة التنفيذية في العام ١٩٠٥ في المؤتمر الصهيوني السابع ، في حين انتخب الثاني وهو ناحوم سوكولوف في العام ١٩١١ في المؤتمر الصهيوني العاشر . فاذا اخذنا في اعتبارنا هذين التاريخين السابقين باعتبارهما الموعدين اللذين حدث فيهما تولي عضوية اللجان التنفيذية لاول مرة (في هذه الدراسة) ، فان معدل عمر اعضاء اللجان التنفيذية عند توليهم عضويتها لأول مرة يهبط الى ٤٤٫٠٧ سنوات .

واذا كان معدل عمر اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية عند العام ١٩٢١ (وهو نقطة البدء بالنسبة للدراسة) ، كما قلنا من قبل ٤٦٫٣٦ ، فان معدل عمرهم عند انتهائهم من عضوية هذه اللجان في ديسمبر من العام ١٩٤٦ ، كان ٥٣٫٩٦ سنوات .

وبما ان هذه الدراسة تغطي الفترة بين سبتمبر ١٩٢١ وديسمبر ١٩٤٦ — وهو موعد انعقاد المؤتمر الصهيوني الحادي والعشرين في جنيف — فان احتساب معدل العمر لا يشتمل على مدة ولاية اعضاء اللجان التنفيذية الذين انتخبوا بعد هذا التاريخ .

ويمكن التبصر بعملية تجدد وتغير القيادة اليهودية السياسية بالقاء نظرة تحليلية على بيانات معدل العمر لأعضاء اللجان التنفيذية اليهودية . وكما يتبين من الجدول الرقم ٢ فان ما يميز معدل عمر اعضاء اللجان التنفيذية هو التقلب البارز بين وقت واخر * . لقد كان معدل عمر الاعضاء في العام ١٩٢١ ستة واربعين عاما . وان هذا العمر مؤشر على السن الصغيرة نسبيا التي كان اعضاء اللجان التنفيذية يتأهلون بها على الصعيد السياسي . لكن معدل عمر اعضاء اللجان التنفيذية التالية كان يرتفع بلا انقطاع ، واصلا الى الذروة في اعضاء ١٩٢٩ عندما بلغ معدل العمر ٥٠٫٨ سنوات . وتلا ذلك الارتفاع هبوط الى ٤٥٫٢ سنوات في العام ١٩٣١ . ولقد كان هذا المعدل للعمر اصغر حتى من معدل العمر للجنة التنفيذية الاولى في العام ١٩٢١ . ويعود هذا الهبوط في معدل العمر في العام ١٩٣١ الى انتساب الاعضاء غير الصهيونيين الشبان نسبيا .

الجدول الرقم ٢

معدل العمر في كل من اللجان التنفيذية اليهودية

اللجنة التنفيذية اليهودية		الرقم	معدل العمر بالسنوات
سبتمبر	١٩٢١	١٥	٤٦٫٠
اغسطس	١٩٢٣	١٣	٤٦٫٤
اغسطس	١٩٢٥	١٥	٤٩٫٩
اغسطس — سبتمبر	١٩٢٧	٩	٥١٫٠
يوليو — اغسطس	١٩٢٩	١٣	٥٠٫٨
اكتوبر	١٩٣٠	١٠	٤٩٫٧
يوليو	١٩٣١	١٢	٤٥٫٢
سبتمبر	١٩٣٣	١٣	٤٩٫٦
اغسطس — سبتمبر	١٩٣٥	١٥	٥٤٫٠
اغسطس	١٩٣٧	٢٠	٥١٫٠
اغسطس	١٩٣٩	٢٦	٥١٫٤

وبعد ان بلغ معدل العمر حده الاقصى عموما في العام ١٩٣٥ ، وذلك بتسجيل ٥٤ عاما ، فان معدل عمر اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية الاخيرة في العام ١٩٣٩ توقف عند ٥١٫٤ سنوات . وهكذا كان هناك فارق بحوالي خمس سنوات بين اللجنة التنفيذية اليهودية الاولى في العام ١٩٢١ وبين معدل العمر في الاخيرة في العام ١٩٣٩ . ولا جدال في ان هذا الارتفاع بمعدل العمر بحوالي الخمس سنوات ، يعود الى تقدم الاعضاء القدامى في السن ، وكان هذا الارتفاع سيحدث بخطوات اسرع لولا « تطعيم » اللجان التنفيذية باستمرار بعناصر جديدة شابة . واذا اخذنا في الاعتبار مضي ثمانية عشر عاما من ولاية اعضاء اللجان التنفيذية — بين ١٩٢١ و ١٩٣٩ — فان ارتفاع معدل العمر بحوالي خمس سنوات ونيف ، يبدو أمرا غير ذي شأن في الحقيقة .

هذا الفارق الضئيل بين معدل عمر اعضاء

---

* من حيث الاتجاه العام ، كان هناك ارتفاع عام وملموس — وان كان بطيئا — في معدل اعمار اعضاء اللجان التنفيذية .

اللجان التنفيذية اليهودية في العام ١٩٢١ والعام ١٩٣٩ ، يدعم صحة الراي القائل ان النخبات اليهودية السياسية شهدت عمليات تغذيه بدماء جديدة شابة على الدوام ، وان فجوة الاجيال كانت ضيقة بين القيادة اليهودية وبين الجماهير . ان اكتساب العناصر الجديدة الشابة لعضوية اللجان التنفيذية اليهودية بصورة متواصلة ، هو الذي ابقى نسبة معدل ارتفاع العمر متدنية نسبيا على امتداد الاعوام الثمانية عشر بين ١٩٢١ و ١٩٣٩ .

وان الاسلوب الكاشف الذي يتيح لنا امكان التحقق مما اذا كان هناك تجدد في بقية النخبات اليهودية السياسية، هو البحث عما اذا كانت هناك اي تغيرات في معدل العمر بين الاعضاء الجدد والقدامى في كل من اللجان التنفيذية ، وفي حال وجود هذا الفارق في العمر ، اكتشاف ما اذا كان الأختلاف في اتجاه هابط م صاعد .

ويبين الجدول الرقم ٣ تباينا ملحوظا بين معدل عمر الاعضاء القدامى والاعضاء الجدد في الاكثرية الساحقة من اللجان التنفيذية ، الا في العام ١٩٣٥ عندما كان معدل عمر القادمين الجدد اعلى باكثر من سنة واحدة قليلا من فئة الاعضاء السابقين .

الجـدول الرقـم ٣

معدل اعمار والنسبة المئوية للاعضاء السابقين والجدد في اللجان التنفيذية اليهودية: في كل لجنة منها على حدة

اللجنة التنفيذية	الرقم	الاعضاء السابقون عددهم	الاعضاء السابقون نسبتهم المئوية	معدل العمر	الاعضاء الجدد عددهم	الاعضاء الجدد نسبتهم المئوية	معدل العمر
٩ /١٩٢١	١٥				١٥	١٠٠ر٠	٤٦ر٠
٨ /١٩٢٣	١٣	١٠	٧٦ر٩	٤٨ر٥	٣	٢٣ر١	٣٩ر٧
٨ /١٩٢٥	١٥	١٣	٨٦ر٧	٤٩ر٨	٢	١٣ر٣	٥١ر٠
٨—٩/١٩٢٧	٩	٦	٦٦ر٧	٥٢ر٠	٣	٣٣ر٣	٥٠ر٧
٧—٨/١٩٢٩	١٣	١٠	٧٦ر٩	٥١ر٦	٣	٢٣ر١	٤٧ر٠
١٠ /١٩٣٠	١٠	٦	٦٠ر٠	٥٢ر٥	٤	٤٠ر٠	٤٥ر٥
٧ /١٩٣١	١٢	٥	٤١ر٧	٤٩ر٠	٧	٥٨ر٣	٤٢ر٤
٩ /١٩٣٣	١٣	٨	٦١ر٥	٤٩ر٩	٥	٣٨ر٥	٤٩ر٢
٨—٩/١٩٣٥	١٥	١١	٧٣ر٣	٥٤ر٨	٤	٢٦ر٧	٥١ر٠
٨ /١٩٣٧	٢٠	١٥	٧٥ر٠	٥٣ر٧	٥	٢٥ر٠	٤٣ر٦
٨ /١٩٣٩	٢٦	٢٠	٧٦ر٩	٥٢ر٧	٦	٢٣ر١	٤٧ر٣

هذا الفارق الواضح جيدا بين معدل عمر الاعضاء القدامى في اللجان التنفيذية اليهودية وبين الوافدين الجدد الى عضويتها ، دليل قاطع على ما شهدته النخبات اليهودية السياسية من عملية حقن مستمر بالدماء الجديدة الشابة .

ان عدد الوافدين الجدد الى الهيئة المخولة باتخاذ القرارات مؤشر حقيقي وسليم على كثافة ما شهدته النخبات اليهودية السياسية من تبدل وتجدد . فعلى امتداد الفترة كلها ، كان هنالك « تطعيم » متواصل للجان التنفيذية اليهودية باعضاء جدد . وبالنظر الى عدد الاعضاء الجدد ، يمكن تصنيف اللجان محل البحث في فريقين : الفريق الاول يضم اللجان التنفيذية التي تولت مسؤولياتها بين العام ١٩٢٣ والعام ١٩٢٩ . وكان عدد الوافدين الى كل من هذه اللجان التنفيذية ثلاثة في العادة. اما الفريق الثاني فيشتمل على اللجان التنفيذية التي امتدت ولايتها بين العام ١٩٣٠ والعام ١٩٣٩ ولقد شهدت هذه اللجان دخول اعضاء جدد يتراوح عددهم في كل لجنة بين اربعة اعضاء وسبعة اعضاء . ويمكن تفسير هذا التزايد الكبير في عدد الوافدين الجدد الى عضوية اللجان التنفيذية ، بأنه مؤشر على انفتاح النخبات اليهودية المتزايد على عناصر اجتماعية جديدة .

واذا استثنينا اللجنة التنفيذية للعام ١٩٣٥ عندما سجل الاعضاء الجدد فيها — بصورة غير متوقعة — نسبة ١٣ر٣ بالمائة ، فان نسبة الوافدين الجدد الى عضوية اللجان التنفيذية الباقية تراوحت بين ٢٣ر١ بالمائة كحد ادنى ، وبين ٥٨ر٣ بالمائة كحد

المسى . فاذا اخذنا في الحسبان المدى الزمني القصير — سنة واحدة او سنتين — بين عمليات انتخاب اللجان التنفيذية ، تصبح هذه النسب للدماء الطازجة الجديدة التي كانت تحقق بها النخبات اليهودية ، ذات وزن مهم وذات مغزى . انها تعكس بالتأكيد نمطا من التجدد الكثيف في بنية النخبات .

وان الاعضاء الجدد في تصنيفنا هم الاعضاء الذين جرى انتخابهم لعضوية اللجنة التنفيذية للمرة الأولى . وبعد ان يخدموا في لجنة تنفيذية اولى ، يصبحون في اعتبارنا اعضاء قدامى ، ولو كان انتخابهم للجان تنفيذية لأحقة قد حدث في فترات متقطعة . في ضوء هذا النهج ، وفي ضوء السرعة التي خلفت بها اعضاء اللجان التنفيذية بعضهم بعضا ، فان مدة خدمة العضو التي يعتبر فيها وافدا جديدا لم تكن طويلة. وحالما يدخل الوافد اللجنة التنفيذية كعضو جديد ، فانه يخدم في اللجان التنفيذية التالية كعضو قديم . ولو اننا تبنينا معيارا اخر في تصنيف «الاعضاء الجدد» و « الاعضاء القدامى » ، ولو كانت المسافة الزمنية بين لجنة تنفيذية واخرى اطول ، لكانت النسبة المئوية للوافدين الجدد الى تركيبات اللجان التنفيذية اليهودية اكبر ، ولأصبح التباين بين معدل اعمار الاعضاء القدامى والجدد اكبر ايضا .

بقدر ما يمثل عدد فريق الوافدين الجدد الى النخبة السياسية وسنهم ، دليلا على استمرارية الاجيال ، فان النسبة المئوية الاصغر سنا وذات الحجم المعتبر من الاعضاء الجدد في النخبات اليهودية السياسية ، مؤشر على الفجوة الضيقة بين النخبات والجماهير . ولقد خدم هذا الفريق باستمرار كجهاز موصل من القاعدة الى القمة .

ويتبين لنا من الجدول الرقم ٤ ان معدل اعمار اعضاء اللجان التنفيذية الصهيونيين كان اعلى من معدل اعمار الاعضاء غير الصهيونيين . ويمكن تفسير هذا الفارق بين معدلي العمر — حوالي ثلاث سنوات ونصف السنة — بان الاعضاء الصهيونيين كان يتوجب عليهم ان يقطعوا طريقا طويلا من العمل السياسي قبل ارتقائهم منابر القيادة السياسية .

كان المعدل الشامل لاجمالي مدة ولاية اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية طويلا نسبيا ، بحدود سبع سنوات وشهر واحد ، وهو مؤشر على ما تمتعت به تركيبة اللجان التنفيذية من استقرارية واضحة .

الجدول الرقم ٤

المعدل العمري لاعضاء اللجان التنفيذية اليهودية من صهيونيين وغير صهيونيين لدى توليهم العضوية لاول مرة .

الانتماء الايديولوجي	العدد	النسبة المئوية	معدل العمر بالسنوات
غير صهيونيين	٧	١٢ر٣	٤٣ر٢
صهيونيون	٥٠	٨٧ر٧	٤٦ر٨
المجموع	٥٧	١٠٠ر٠	

التخصص الدراسي

يتبين من البيانات المتوفرة ، ان اثنين واربعين من اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية السبعة والخمسين ، حصلوا على تعليم عال . وبين هؤلاء القادة الاثنين والاربعين ، واحد وثلاثون حصلوا على درجات جامعية او من كليات معادلة . ويكشف الجدول الرقم ٥ عدد اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية الذين نالوا تعليما في الجامعات او الكليات ، بصرف النظر عن مستوى الدرجات العلمية التي حصلوا عليها ، وبغض النظر كذلك عن عدد الدرجات العلمية التي حصل عليها كل منهم في حقل من حقول الدراسة او اكثر. والمقصود بعبارة « درجات علمية » هنا شهادات البكالوريوس والماجستير والدكتوراه والمستويات التي تعادلها (١٠) .

ولقد حصل بعض اعضاء اللجان التنفيذية على اكثر من درجة علمية واحدة في حقل دراسي واحد . ان وضع حقلين من حقول التخصص الى جانب بعضهما بعضا في الجدول ، كالقانون والاقتصاد على سبيل المثال ، دلالة على ان العضو تلقى درجة علمية او اكثر في كل من هذين الحقلين من حقول الدراسة .

وبما ان الجدول الرقم ٥ يقدم التخصصات الدراسية للنخبات اليهودية السياسية بعدد الدرجات العلمية في حقول الدراسة ، فلم يرد فيه سجل لعدد الدرجات العلمية في الحقول الدراسية

التي لم يمكن تحديدها . لقد كان هناك ثمانية اعضاء يحملون مثل هذه الدرجات العلمية . وبهذا قد نكون هناك حقول دراسية غير الواردة في الجدول الرقم ٥ .

الجدول الرقم ٥

التخصص الدراسي لاعضاء اللجان التنفيذية اليهودية والدرجات العلمية من الجامعات او الكليات حسب حقول التخصص : سجل اجمالي

حقول الدراسة	العدد	النسبة المئوية
القانون	١٠	١٧٫٥
القانون وعلم السياسة	١	١٫٨
القانون والكيمياء	١	١٫٨
القانون والاقتصاد	١	١٫٨
الاقتصاد	٤	٧٫٠
الدراسات الدينية اليهودية	٤	٧٫٠
الدراسات الدينية اليهودية والادب	١	١٫٨
الهندسة	٤	٧٫٠
التربية	١	١٫٨
اللغات السامية	١	١٫٨
الفلسفة	١	١٫٨
الطب	١	١٫٨
الرياضيات	١	١٫٨
غير معروف	٢٦	٤٥٫٦
المجموع	٥٧	١٠٠٫٠

وكما هو الوضع في نخبات سياسية اخرى ، فان المادة الدراسية الفضلى لدى النخبات اليهودية السياسية ، كانت دراسة القانون . فمن بين حملة الدرجات العلمية الواحد والثلاثين ، كان القانون حقل الدراسة الوحيد لعشرة اعضاء منهم. وبهذا كانت فئة دارسي القانون هي الاكبر . (١١)

ومن الجدير بالملاحظة وجود اربعة من حملة الشهادات العلمية ، تخصص كل منهم في حقلين دراسيين معا . وكان بينهم ثلاثة تخصصوا في القانون والعلوم السياسية ، القانون والكيمياء ، القانون والاقتصاد .

فاذا اضفنا هؤلاء الثلاثة الى الاعضاء العشرة في فئة دارسي القانون ، يصبح عدد المتخصصين بالقانون ١٣ ، اي ما يوازي ربع مجموع اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية بصورة تقريبية . ان هذه النسبة المرتفعة نسبيا بين اعضاء اللجان التنفيذية المتخصصين بدراسة القانون ، تعكس اعتماد النظام اليهودي السياسي الى حد كبير على اصحاب الدراسات « العامة » اي غير المتخصصين بالمعنى الضيق للكلمة . وربما كانت هذه النسبة العالية تأكيدا للمكانة الرنيعة التي يتمتع بها القانون والقانونيون في المجتمعات اليهودية . وربما كانت انعكاسا لوجود، او لاعتقاد المحامين وعائلاتهم بوجود ، فرص عظيمة من النجاح تنتظر الاشخاص الحقوقيين في مجتمعاتهم .

وينبغي الاقرار بان القيادة الصهيونية كانت في حاجة الى القانونيين ، ذلك انها كانت منخرطة في عمل مستمر لا هوادة فيه لتأسيس دولة يهودية في فلسطين . ومما لا ريب فيه ان تحقيق مثل هذه الغاية ، يستلزم اعتمادا مؤكدا على الحقوقيين والحجج القانونية .

وكان المتخصصون بالدراسات الدينية اليهودية خمسة اعضاء ، يمثلون ٨٫٨ بالمائة من مجموع النخبات اليهودية . وان وجود هذا الفريق بين اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية شهادة على اهمية التوجه الديني لنسبة ذات شأن من القيادة اليهودية . ويمكن القول ان القيم الدينية اليهودية كانت — تاريخيا — عنصرا في الحياة اليهودية السياسية والاجتماعية على امتداد عدة قرون. (١٢)

وكان الاقتصاد حقل التخصص لخمسة من الاعضاء ، كما كان هناك اربعة من القادة من المتخصصين بالهندسة . ان هذا الفريق ذا الحجم المعتبر الذي يمكن ان نضم فيه متخصصي الاقتصاد ومتخصصي الهندسة ، والذي يمثل ١٥٫٨ بالمائة من اجمالي عدد افراد النخبات اليهودية ، دلالة على المستوى الرفيع الذي احتلته النواحي الاقتصادية والتقنية في سلم اولويات النظام الصهيوني السياسي . فحيث ان الصهيونية حركة سياسية استهدفت انشاء دولة يهودية في فلسطين من خلال المستوطنات الزراعية والمدينية ، وتجميع مئات الالوف من اليهود في فلسطين ، كان طبيعيا ان تقر القيادة اليهودية بالاهمية الحيوية للخبراء في مجالي الاقتصاد والهندسة ، لجمع الاموال لتحقيق الاهداف اليهودية ، وادارة المشروعات اليهودية الاقتصادية ، وتأسيس المستوطنات والمستعمرات

الزراعية والمدينية .

ومن المفيد القاء بعض الضوء على التغيرات التي شهدها التخصص الدراسي في مدى الاحدى عشرة لجنة تنفيذية ، وتحليل معانيها . ومن الزاوية الاحصائية قد يكون اكثر اهمية تحليل التغيرات التي حدثت بمرور الزمن في مجال التخصص الدراسي ، وذلك بتصنيف التخصصات الدراسية في ثلاث فئات : القانون ، والمهارات (التي تشمل الكيمياء والاقتصاد والهندسة والطب والرياضيات) ، والادبيات (التي تشمل العلم السياسي ، والدراسات اليهودية الدينية ، والاداب ، والتربية ، واللغات السامية ، والفلسفة) . على انه لا ينبغي ان يفهم من هذا التصنيف الاجمالي للحقول الدراسية ان « القانون » يفتقر عنصر « المهارة » ، او ان « القانون » و « المهارات » يفتقران الى العنصر « الادبي » او « الثقافي » .

وامامنا الجدول الرقم ٦ الذي يكشف عن تقلب واضح في نسب هذه الفئات الثلاث . ويمكن القول قياسا على الاتجاه العام ، انه كان هناك ارتفاع — بالمفهومين المطلق والنسبي — في متخصصي القانون ، واصلا الذروة في العام ١٩٣٩ عندما بلغ عدد الحقوقيين ستة اعضاء ، بما يمثل ٢٣ بالمائة من مجموع اعضاء اللجنة التنفيذية في ذلك الحين . لقد كانت فئة الحقوقيين علامة ثابتة وصاعدة على امتداد الفترة التي تغطيها هذه الدراسة .

فيما عدا اللجنة التنفيذية للعام ١٩٣١ عندما فاقت النسبة المئوية لفريق الحقوقيين نسبة عدد اصحاب المهارات ، فان نسبة عدد اصحاب المهارات كانت اعلى من نسبة الحقوقيين في الاغلبية

الجدول الرقم ٦

التخصصات الدراسية لاعضاء اللجان التنفيذية اليهودية بشهادات الجامعات او الكليات : في كل واحدة من هذه اللجان

اللجنة التنفيذية	المجموع	القانون العدد	القانون النسبة المئوية	المهارات العدد	المهارات النسبة المئوية	الادبيات العدد	الادبيات النسبة المئوية	مجهولون دراسيا العدد	مجهولون دراسيا النسبة المئوية
١٩٢١	١٥	٢	٣ر١٣	٤	٧ر٢٦	٢	٣ر١٣	٧	٧ر٤٦
١٩٢٣	١٣	١	٧ر٧	٢	٤ر١٥	٢	٤ر١٥	٨	٥ر٦١
١٩٢٥	١٥	٢	٣ر١٣	٢	٤ر١٣	١	٧ر٦	١٠	٧ر٦٦
١٩٢٧	٩	١	١ر١١	٢	٢ر٢٢	٠	٠ر٠	٦	٧ر٦٦
١٩٢٩	١٣	٣	٠ر٢٣	٣	١ر٢٣	١	٧ر٧	٦	١ر٤٦
١٩٣٠	١٠	٢	٠ر٢٠	٢	٠ر٢٠	١	٠ر١٠	٥	٠ر٥٠
١٩٣١	١٢	٣	٠ر٢٥	٢	٦ر١٦	١	٣ر٨	٦	٠ر٥٠
١٩٣٣	١٣	٢	٤ر١٥	٣	١ر٢٣	١	٧ر٧	٧	٨ر٥٣
١٩٣٥	١٥	٣	٠ر٢٠	٥	٣ر٣٣	١	٧ر٦	٦	٠ر٤٠
١٩٣٧	٢٠	٤	٠ر٢٠	٧	٠ر٣٥	١	٠ر٥	٨	٠ر٤٠
١٩٣٩	٢٦	٦	٠ر٢٣	٨	٧ر٣٠	٤	٤ر١٥	٨	٨ر٣٠

الساحقة من اللجان التنفيذية . ونضرب لهذا مثال العام ١٩٣٩ عندما ضمت فئة الحقوقيين ستة اعضاء مثلوا نسبة ٢٣ بالمائة من اجمالي اعضاء اللجنة التنفيذية ، فيما كان اصحاب المهارات ثمانية اعضاء يمثلون ٧ر٣٠ بالمائة من ذلك الاجمالي .

بقدر ما تمثل التغيرات والتقلبات في اوجه التخصص الدراسي معيارا للتبدلات في خيارات وتوجهات النخبات اليهودية السياسية على الاصعدة الاجتماعية — الاقتصادية — السياسية ، فان هذه التغيرات في اوجه تخصص اعضاء اللجان التنفيذية التي بيناها منذ قليل ، مصداق على استمرار التزام النخبات اليهودية بصورة دؤوبة بالقضايا السياسية الصهيونية ، وكذلك وبالقدر نفسه بالبرامج الصهيونية في نطاق التنمية

الاقتصادية . ان النسب المئوية للفئات الثلاث (الحقوقيين واصحاب المهارات ورجال الادبيات) تكشف عن حاجة النظام السياسي اليهودي لاصحاب الدراسات « العامة » بقدر حاجته لاصحاب الاختصاصات المحددة . (١٣)

لكن اللافت للنظر هو وجود هذه النسبة المرتفعة من الأعضاء في خانة المجهولين دراسيا كما مر بنا في الجدول الرقم ٦ . وانه لمن العسير ان نقرر ما اذا كان هذا النقص في المعلومات عن تعليم وتخصص هؤلاء الأعضاء ناجما عن كونهم لم يتلقوا دراسة ، او بالاحرى غير متخصصين ، او ناجما عن افتقار البيانات المتوفرة والمجموعة لمعلومات دقيقة وتامة . وفي ضوء هذه المصاعب ، فان عبارة « مجهولين دراسيا » تستخدم بمعنى اكثر شمولا، انها اشارة الى ان الجهل بهذه الناحية اما ان يكون مرده مجرد النقص في المعلومات المتاحة عن هؤلاء الاعضاء ، او نتيجة لافتقار هؤلاء الى اي تخصص دراسي . وبما ان ابحاثي المتصلة بهذا الشأن غطت عددا كبيرا للغاية من المصادر الرسمية وغير الرسمية ، فانني اميل الى الاعتقاد بقوة بأن عددا كبيرا من هؤلاء « المجهولين دراسيا » لم ينالوا اي تخصص دراسي .

المستوى التعليمي

والحقيقة المثيرة للانتباه بشأن النخبات اليهودية السياسية تتمثل في ارتفاع مستواها التعليمي نسبيا ويدل الجدول الرقم ٧ ان تسعة وثلاثين عضوا على اقل تقدير — اي بنسبة ٦٨٫٥ بالمائة — من بين الاعضاء البالغ عددهم سبعة وخمسين عضوا ، حملوا درجات علمية من جامعات ومراكز للدراسة العليا .

الجدول الرقم ٧

المستوى التعليمي للنخبات اليهودية السياسية : عدد اجمالي

المستوى التعليمي	العدد	النسبة المئوية
الاعضاء حاملو شهادات R.D. فقط	٣	٥٫٣
الاعضاء حاملو شهادات B.A. فقط	٦	١٠٫٥
الاعضاء حاملو شهادات M.A.	٣	٥٫٣
الاعضاء حاملو درجة Ph.D., M.D. (١٤)	٢٧	٤٧٫٤
اعضاء اللجان التنفيذية الذين لم يستكملوا دراساتهم العليا	١٤	٢٤٫٦
اعضاء لا نملك معلومات عنهم	٤	٧٫٠
المجموع	٥٧	١٠٠٫٠

وهنا يجب ان نسترعي الانتباه الى هذه الحقيقة البارزة المتمثلة في هذا العدد غير المألوف بين القادة السياسيين من حملة درجات الدكتوراه . ان عددهم ٢٧ عضوا ويمثلون ٤٧٫٤ بالمائة من جسم النخبات اليهودية السياسية جميعا . وان هذه النسبة المرتفعة لحملة الدكتوراه بين اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية دلالة على ما في هذه الدرجة العلمية من نفع واضح في عملية التعبئة الاجتماعية — السياسية . (١٥)

كان من المجدي ، لو اننا تمكنا من عقد مقارنة بين المستويات التعليمية للنخبات اليهودية السياسية وبين المستويات التعليمية للمجتمعات اليهودية في الغرب ، وذلك لادراك التماثل او عدم التماثل بين مستوى تعلم النخبات وبين مستوى تعليم الجماهير لكن من المتعذر اجراء مثل هذه المقارنة ، وذلك لعدم توفر بيانات احصائية عن مستويات التعليم للسكان اليهود في البلدان التي ولد فيها اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية مدار البحث .

ويتضمن الجدول الرقم ٨ توضيحا بالارقام لتقلبات المستوى الدراسي للقيادة اليهودية السياسية من العام ١٩٢١ حتى العام ١٩٤٦ . ويتضح ان هذه المستويات تقلبت في الاعداد وفي النسب المئوية على السواء .

الجـدول الرقم ٨

المستوى التعليمي لاعضاء اللجان التنفيذية اليهودية في كل لجنـة منهـا

اللجنة التنفيذية	العدد الاجمالي	R.D. (١٦) العدد	R.D. النسبة المئوية	B.A. العدد	B.A. النسبة المئوية	M.A. العدد	M.A. النسبة المئوية	Ph.D. العدد	Ph.D. النسبة المئوية	مجهولون دراسيا العدد	مجهولون دراسيا النسبة المئوية
١٩٢١	١٥			١	٦ر٧	١	٦ر٧	٩	٦٠ر٠	٤	٢٦ر٧
١٩٢٣	١٣							٧	٥٣ر٨	٦	٤٦ر٢
١٩٢٥	١٥							٨	٥٣ر٣	٧	٤٦ر٧
١٩٢٧	٩							٥	٥٥ر٥	٤	٤٤ر٥
١٩٢٩	١٣	١	٧ر٧	١	٧ر٧			٥	٣٨ر٥	٦	٤٦ر٠
١٩٣٠	١٠	١	١٠ر٠					٧	٧٠ر٠	٢	٢٠ر٠
١٩٣١	١٢			٢	١٦ر٧			٨	٦٦ر٧	٢	١٦ر٧
١٩٣٣	١٣			٢	١٥ر٤	١	٧ر٧	٧	٥٣ر٨	٣	٢٣ر٠
١٩٣٥	١٥	١	٦ر٧	٢	١٣ر٣	١	٦ر٧	٩	٦٠ر٠	٢	١٣ر٣
١٩٣٧	٢٠	١	٥ر٠	٣	١٥ر٠	٢	١٠ر٠	٩	٤٥ر٠	٥	٢٥ر٠
١٩٣٩	٢٦	٢	٧ر٧	٣	١١ر٥	٢	٧ر٧	١٣	٥٠ر٠	٦	٢٣ر٠

ان احدى ابرز الحقائق المستخلصة من الجدول الرقم ٨ بشأن المستوى التعليمي للنخبات اليهودية السياسية ، تتمثل في رجوع كفة حملة الدكتوراه في جميع اللجان التنفيذية ، سواء في الارقـام او في النسب المئوية . وبالرغم من التقلبات ، فان حملة درجات الدكتوراه حافظوا باستمرار علـى تفوقهم العددي .

هناك نقص في المعلومات بشأن مستوى المجتمعات اليهودية التي طلع منها اعضاء اللجان التنفيذية . لكن الانطباع هو ان نسبة حملة شهادة الدكتوراه بين السكان اليهود البالغين تقل عن نسبة حملـة الدكتوراه بين اعضاء اللجان التنفيذية . وعلـى قدر ما يصلح هذا الانطباع لبناء احكام ، يمكـن الافتراض ان هناك فجوة ذات شأن بين المستـوى التعليمي لاعضاء اللجان التنفيذية ، وبين المستوى التعليمي العام للسكان اليهود في البلدان التي ولد فيها اولئك الاعضاء .

واذا جاز القول ان ضآلة نسب حملة شهادات البكالوريوس والماجستير (١٧) بين اعضاء اللجان التنفيذية ، مرده ارتفاع نسبة حملة الدكتوراه ، يصبح من الممكن القول ان حملة الدكتوراه قـد حالوا دون وصول عدد اكبر من غير حملة الدكتوراه الى عضوية اللجان التنفيذية . واذا كان هناك من يستنتج في ضوء عدد الاعضاء حملـة الدكتوراه بالمقارنة مع الاخرين من غير حملة الدكتوراه ان لهم اولوية او افضلية في عملية الصعود السياسي ، يصبح من اليسير تفسير قلة عدد حملة غير الدكتوراه بين اعضاء اللجان التنفيذية بانه امر عائد الى توفر الشخصيات السياسية المؤهلة بشهادات الدكتوراه والمهيأة لعضوية اللجان التنفيذية .

مكـان التعليـم

الاماكن الجغرافية التي تلقى فيها اعضاء اللجان التنفيذية تعليمهم متنوعة وكثيرة للغاية . ومـن الطبيعي ان هذا التوزع الجغرافي الواسع يعكس الى درجة ملحوظة ، الانتشار الجغرافي للسكـان اليهـود .

الجدول الرقم ٩ يحلل الدرجات العلميـة (البكالوريوس والماجستير والدكتوراه ومـا يقابلها) من حيث مصدرها ، اي المعاهد العلمية والبلدان التي اعطتها ، وعددها ، عندمـا يكون ذلك متاحا . وكلما كان تقديم هذه المعلومات متعذرا ، فان الدرجات العلمية لا تكون محتسبة .

وبما ان الجدول الرقم ٩ يمثل « تحليلا » للدرجات العلمية من حيث البلد الذي جاءت منه والمعهـد الدراسي الذي اعطيت منه ، فان المعاهد الدراسية التي درس فيها الاعضاء دون ان يأخذوا منهـا

درجات علمية ، لم تذكر كما هو مفهوم .

من بين درجات دبلوم الحاخامية الاربع التي حملها اعضاء اللجان التنفيذية ، ثلاث من كليات دينية في روسيا ، مما يدل على قوة التوجه الديني لبعض اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية . اما الدبلوم الرابع فلقد كان من معهد أمريكي .

الجدول الرقم ٩

المعاهد العلمية والبلدان التي اعطت الدرجات العلمية

الولايات المتحدة الامريكية

العدد	النسبة
٢٠	٢٨ر٥٪
جامعة شيكاغو	— ١
جامعة سنسناتي	— ٢
كيه نيويورك	— ١
جامعة كولومبيا	— ٩
جامعة هارفارد	— ٢
كلية الاتحاد العبري	— ٢
جامعة نيويورك	— ١
جامعة بنسلفانيا	— ١
جامعة الاحتياط الغربي	— ١

المانيا (١٨)

العدد	النسبة
١٣	٢٥٪
جامعة برلين	— ٢
جامعة فريبورج	— ١
جامعة هايدلبرج	— ٢
جامعة لايبزج	— ١
جامعة ميونيخ	— ١
المانيا (٢٠)	— ٦

بريطانيا

العدد	النسبة
٦	١١ر٥٪
جامعة كامبردج	— ١
مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية والسياسية	— ١
جامعة لندن	— ٢
جامعة مانشستر	— ٢

الاتحاد السوفياتي (١٩)

العدد	النسبة
٥	٩ر٦٪
جامعة خاركوف	— ١
ليتوانيا (٢٠)	— ١
تلميه مير الدينية	— ١
جامعة موسكو	— ٢

النمسا

العدد	النسبة
٣	٥ر٨٪
معهد فينا للتكنولوجيا	— ١
جامعة فينا	— ٢

كندا

العدد	النسبة
٢	٣ر٨٪
جامعة ماجكل	— ٢

تشيلي

العدد	النسبة
١	١ر٩٪
جامعة فالبراسو	— ١

بولندا

العدد	النسبة
١	١ر٩٪
بولندا (٢٠)	— ١

تركيا

العدد	النسبة
١	١ر٩٪
جامعة اسطنبول	— ١

ومن الجدير بالملاحظة ان القسم الاعظم من المعاهد الامريكية التي حصل منها اعضاء اللجان التنفيذية على شهاداتهم ، تقع في الولايات الشمالية الشرقية من الولايات المتحدة . ويمكن تفسير هذا جزئيا بتركز السكان اليهود اجمالا في هذه الانحاء ، وعلى الاخص في مدينة نيويورك .

وان قسما من اعضاء اللجان التنفيذية حصلوا على درجاتهم العلمية من معاهد في غير بلدانهم الاصلية . ويبين الجدول الرقم ١٠ ان عدد هؤلاء يبلغ ١٦ عضوا .

الجدول الرقم ١٠

مكان الولادة والدراسة لاعضاء اللجان التنفيذيــة الذين تختلف مكان ولادتهم عن مكان دراستهم

مكان الولادة	مكان الدراسة	العدد
روسيا واوروبا الشرقية	اوروبا الوسطى	٨
روسيا واوروبا الشرقية	الولايات المتحده الامريكية	٥
روسيا واوروبا الشرقية	انجلترا	٢
روسيا	تركيا	١
المجمـوع		١٦

ان جميع الذين تابعوا دراساتهم العليا في بلدان اجنبية هم من روسيا واوروبا الشرقية . امـا اعضاء اللجان التنفيذية الذين هم من اوروبـا الوسطى واوروبا الغربية والولايات المتحدة ، فلم يدرس احد منهم في روسيا واوروبا الشرقية . ويمكن الاستنتاج من هذا بوجود توجه نحو الغرب. ويمكن تعليل حركة « الاستغراب » هذه بعاملين : لقد شهد العقدان الاخيران من القرن التاسع عشر والعقدان الاولان من القرن العشرين حركة هجـرة يهودية ناشطة من اوروبا الشرقيه الى « العالـم الجديد » . وتعدى هذه الهجرة بصوره قويــة الاضطهاد الذي عاناه اليهود في روسيا ودول شرق اوروبا (٢١) . ولهذا فان بعض الاشخاص الذيـن ولدوا في هذه الانحاء ، هاجروا في مرحلة الصبا مع عائلاتهم الى الولايات المتحــدة حيث نشأوا وحصلوا دراساتهم العليا .

ذلك عن العامل الاول . اما العامل الثانــي — والمتصل بالاول — فيتمثل في سياسات القبـول في الجامعات والكليات في اوروبا الشرقية وروسيا. فحين لاحظت السلطات المشرفة على الجامعـات في هذه البلدان ، ان نسبة عدد الطلبه اليهود تفوق كثيرا نسبة عدد اليهود بالمقارنة مع غيرهم مــن السكان ، فرضت قيودا على قبول اليهود في مختلف الكليات ، وعلى الاخص كليه الطب . (٢٢) ومع ان قبول اليهود في جامعات وكليات وسط اوروبـا كان ايضا مقيدا . الا ان هذه القيود جاءت فـي مرحله لاحقة ، كما انها لم تكن ، في بدايتها ، بمثل ما كانت عليه في روسيا وشرق اوروبا من شـدة وصرامه . (٢٣) ان موقف السلطات الجامعيــة من الطلبه اليهود في روسيا واوروبا الشرقيــه ، يفسر سبب التحاق هؤلاء الطلبه بجامعات وسـط اوروبا ، والولايات المتحده ، وانجلترا .

ولقد تبين لنا ان الجامعات والكليات التــي تلقى فيها اعضاء اللجان التنفيذية اليهــود دراساتهم ، والتي تخرجوا منها ، مبعثرة وموزعـة بين تسعة بلدان ، وتمثل ثقافات اجتماعية متنوعة وانظمة حكم سياسي متباينة . وان لكل من هـذه الجامعات المختلفة توجهها المناقبي . ونستشف من هذه الحقيقه ان اعضاء النخبات اليهودية السياسية كانوا على اطلاع واسع وكثيف وعلى مدى فسيح للغايه من الخبرات والاراء . وعلى اساس هـذه الحقيقه هناك ما يبرر الافتراض ايضا ان المـام اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية باحوال العالم كان نسبيا اوسع واكثـر انفتاحـا على التيارات المعاصرة الثقافية والسياسية والاجتماعية .

اللغــات

تعرف النخبات اليهودية عددا كبيرا من اللغات. ويوضح الجدول الرقم ١١ ان تسعة اعضـاء ، يشكلون ١٥٫٨ بالمائة من اجمالي عدد الاعضاء ، كان كل منهم يعرف خمس لغات . ان هذه المعرفة بهذا العدد الكبير من اللغات امر غير اعتيادي . على ان الاشد اثارة هو معرفة ثلاثة اعضـاء لست لغات ، ومعرفة عضو واحد لثماني لغات ، ومعرفة عضو واحد لتسع لغات . ويتبين ان كـل عضو من اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية كـان يعرف — كمعدل عام — ٣٫٦ لغات .

الجدول الرقم ١١

اعضاء اللجان التنفيذية وعدد اللغات التي يعرفونها

عدد اللغات	عدد الاعضاء الذين يعرفونها	النسبة المئوية
لغة واحدة	٤	٧٫٠
لغتان	١٣	٢٢٫٨
ثلاث لغات	١١	١٩٫٣
اربع لغات	١٤	٢٤٫٦
خمس لغات	٩	١٥٫٨

ست لغات	٣	٥ر٣
ثماني لغات	١	١ر٨
سبع لغات	١	١ر٨
لا معلومات	١	١ر٨
المجمــوع	٥٧	١٠٠ر٠

كان اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية يعرفــون ثماني عشرة لغة على الاقل . وبالطبع فان درجات اجادة كل لغة تتفاوت بين عضو واخر . علــى ان من الثابت ان اللغات التي كان الاعضـــــاء يستخدمونها كانت مختلفة . ومن المؤكد ان اختلاف البلدان التي طلع منها الاعضاء يفسر جزئيا كثرة عدد اللغات التي كانوا يعرفونها . كما يعود هـــــذا التنوع في عدد اللغات الى كثرة تغيير الاعضـــــاء لمواطنهم ومقار اقامتهم . فان الظروف الاجتماعية والسياسية السائدة في بعض البلدان الجأت بعض الاعضاء الى الانتقال وتغيير البلد . وان بعـــض الاعضاء سعوا لتحصيل دراساتهم العليا في غـــير البلدان التي ولدوا فيها ، فتعلموا لغة او لغتين اضافيتين . ولقد هاجر بعض الاعضاء الى فلسطين حيث تعلموا اللغة العبرية لاسباب عقائديـــة ، وكتعبير عن « الوعي القومي اليهودي » . علــى ان هذا لا يعني بالطبع انه لم يكن احد من الاعضاء يعرف العبريه قبل هجرته الى فلسطين ، فالواقع ان بعض اليهود كانوا يدرسون اللغة العبرية خلال اقامتهم في مواطنهم الاصلية . لكن البيانات المتوفرة لا توضح لنا عدد اعضاء اللجان التنفيذية من المقيمين في فلسطين الذين تعلموا اللغة العبرية فعلا قبل هجرتهم . على انه يمكن القول ايضا ان نزوع اليهود الى تعلـــم اللغات وولعهم بها ، هو — بالاضافة الى جميع الاسباب والظروف السابقة — عامل اخر وراء هذا العدد الكبير من اللغات التي عرفها افراد النخبات اليهودية .

الجدول الرقم ١٢

اللغات التي عرفها افراد النخبات اليهوديـــــة السياسية

اللغة	عدد اعضاء اللجان التنفيذية الذين كانوا يعرفونها	النسبة المئوية
الانجليزية	٤٧	٨٢ر٥
العبرية	٤٧	٨٢ر٥
الالمانية	٣٠	٥٢ر٦
الروسيه	١٩	٣٣ر٣
البولندية	١٧	٢٩ر٨
اليديش	١٤	٢٤ر٦
الفرنسية	٧	١٢ر٣
التركية	٤	٧ر٠
العربية	٣	٥ر٣
الرومانية	٣	٥ر٣
الليتوانية	٢	٣ر٥
البلغارية	١	١ر٨
التشيكية	١	١ر٨
الهولندية	١	١ر٨
اليونانية	١	١ر٨
الايطالية	١	١ر٨
الاسبانية	١	١ر٨
السويدية	١	١ر٨

هذه المعرفة الواسعة بهذا العدد الكبير من اللغات من جانب اعضاء اللجان التنفيذية ، تدل بالطبع على مدى قدرتهم على بناء واقامة علاقات مباشرة مع الشعوب التي تعرف هذه اللغات . ومن المفهوم ان هذه اللغات كانت نوافذ للاطلاع علــى تشكيلة واسعة ومنوعة من القيم والثقافات ، كما كانت وسائل تتيح للاعضاء ايصال وجهات نظرهـــم السياسية والاجتماعية الى الشعوب التي يعيشون بينها . وبمعرفة القيادة اليهودية السياسيـــــة لهذا العدد الهائل من اللغات ، امكن لها بواسطة الصحافة وسواها من اجهزة الاعلام والاتصال ، ان تجعل ايديولوجيتها السياسية معروفة فـــي اوساط عدد كبير من الشعوب . اضف الى ذلــك كله ان المام الاعضاء بهذا العدد الكبير من اللغات، مكنهم من ان يظلوا على اطلاع مستمر علـــى تطورات الاحداث التي تعنيهم كقادة سياسيين .

وانه لامر ذو مغزى مقارنة اعداد الاعضـــاء الذين يعرفون الانجليزية والالمانية والروسيـــه والبولندية ، باعداد اعضاء النخبات المولودين في البلدان التي يتكلم سكانها الانجليزية والالمانيـــه والروسية والبولندية . لقد كانت هذه اللغات الاربع من اوسع اللغات المعروفة من جانب اعضاء اللجان التنفيذيه . وكما يبين الجدول الرقم ١٣ ، فــان معرفة الاعضاء باللغه الانجليزية ، اذا ما قورنت بنسبة الاعضاء المولودين في البلدان الناطقـــة بالانجليزية ، كانت راجحة . فبينما كان عدد الاعضاء المولودين في البلدان الناطقة بالانجليزية — الولايات المتحدة الامريكيه وبريطانيا وكندا والهند (٢٤) —

عشرة اعضاء يشكلون ١٧٫٦ بالمائة من المجموع الكلي لاعضاء النخبات ، فان عدد الاعضاء الذين كانوا يعرفون الانجليزية كان سبعة واربعين ، يشكلون ٨٢٫٥ بالمائة من المجموع .

وان نسبة عدد الاعضاء الناطقين بالالمانية والبولونية ازاء المجموع الكلي للنخبات اليهودية موضع البحث ، اعلى بكثير من نسبة عدد الاعضاء المولودين المانا او بولنديين ، مما يعني ان المسألة بالنسبة للالمانية والبولندية لم تكن مختلفة عنها بالنسبة للانجليزية .

اما فيما يخص الاتحاد السوفياتي ، فلقد كان تعادل متوازن بين اعضاء النخبات المولوديين كسوفيات ، وبين عدد الاعضاء الناطقين باللغة الروسية .

ويعكس هيمنة اللغتين الانجليزية والالمانية اذا ما قورنتا باللغات الاخرى ، باستثناء العبرية ، المكانة الثقافية العالية التي تمتعت بها بريطانيا والولايات المتحدة والمانيا . اضف الى ذلك ، ان اللغة الانجليزية ذات اهمية عالية لدى كثير من الشعوب . ولقد كانت النخبات اليهودية مثل غيرها من النخبات في هذا المضمار من حيث احتياجها للانجليزية .

ونرى من الجدول كذلك ان الثماني عشرة لغة التي عرفها اعضاء اللجان التنفيذية ، لم يكن بينها سوى ثلاث ، هي العربية والعبرية والتركية ، من غير اللغات الاوروبية . ولقد كان ثلاثة اعضاء فقط يعرفون اللغة العربية . والواقع ان ضآلة هذا العدد امر يدعو الى الارتياب . ذلك انه حتى العام ١٩٤٨ ، كانت العربية اللغة الام للاغلبية الساحقة من سكان فلسطين . ولقد نشأت علاقات وثيقة عبر عقود من السنين وعلى مستويات متنوعة بين الشعب الناطق بالعربية — وعلى الاخص سكان المدن — وبين عدد لا بأس به من اعضاء اللجان التنفيذية الذين استوطنوا فلسطين . وعلى سبيل المثال ، فان مئير ديزنجوف كان عضوا في بلدية يافا التي كانت اكثرية سكانها الساحقة حتى العام ١٩٤٨ عربية ، ثم اصبح نائبا لرئيس البلدية . وعلى ضوء هذه الحقائق، يجدر الافتراض ان عدد اعضاء اللجان التنفيذية الذين كانوا يعرفون العربية ، كان اكثر من ثلاثة .

ومن بين الاعضاء الاربعة الذين عرفوا اللغة التركية ، ثلاثة تلقوا دراستهم في جامعة اسطنبول وان الاربعة جميعا شكلوا نشاطا صهيونيا في تركيا العثمانية منذ بدء العقد الاول من القرن الحالي . ولقد ابدى قادة الحركة الصهيونية اهتماما فائقا باقامة علاقات طيبة مع الامبراطورية العثمانية ، وذلك لانها كانت تضم في نطاقها فلسطين حتى العام ١٩١٧ ، وذلك لادراكهم ان العلاقات الصهيونية — العثمانية قد تلعب دورا مؤثرا على اوضاع اليهود في فلسطين . ولقد الح القادة الصهاينة على الحكومة الالمانية في العديد من المناسبات كي تستخدم نفوذها لدى حلفائها الاتراك ، وذلك بغية الا يتخذ العثمانيون اجراءات ضد اليهود الصهيونيين الروس الذين استوطنوا فلسطين دون ان يكونوا يحملون المواطنية العثمانية . ووصلت القيادة الصهيونية اهتمامها بتركيا بعد الحرب العالمية الاولى . ومن ذلك ان موشي شاريت رافق حاييم وايزمان في بعثة الى تركيا استهدفت عن طريق الاجراءات الاقتصادية ، تبديد التوجه التركي الموالي للالمان وللعرب .

الجدول الرقم ١٢

توزيع اماكن ولادة الاعضاء ومعرفتهم اللغوية في اربع مناطق

المنطقة	عدد الاعضاء المولودين فيها (٢٥)		عدد الاعضاء الذين يتكلمون اللغة (٢٥)	
	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية
البلدان الناطقة بالانجليزية				
(الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا والهند)	١٠	١٧٫٦	٤٧	٨٢٫٥
البلدان الناطقة بالالمانية				
(المانيا والنمسا)	٦	١٠٫٥	٣٠	٥٢٫٦
روسيا	١١	١٩٫٣	١٧	٢٩٫٨
بولندا	١٩	٣٣٫٣	١٩	٣٣٫٣

الرحلات الى الخارج

كانت للنخبات اليهودية السياسية صلات مباشرة ووثيقة وكثيفه مع العديد من البلدان والثقافات العربيه . والواقع انه لم يكن هناك عضو واحد من اعضاء اللجان التنفيذية قصر اقامته على بلد واحد فقط . ويبين الجدول الرقم ١٤ عدد البلدان التي اقام فيها اعضاء اللجان التنفيذية . ويعود اقامة اي عضو من الاعضاء في اي بلد من البلدان الى جملة من العوامل : مكان الولادة ، وعامل الهجرة ، وطلب العلم ، والنشاط السياسي ، او الى اكثر من عامل واحد من هذه العوامل . وعلى هذا فان اقامة العضو في البلد المعين قد تكون مؤقتة او دائمة .

الجدول الرقم ١٤

عدد البلدان التي اقام فيها اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية

عدد البلدان	عدد الاعضاء	النسبة المئوية
بلدان الى خمسة	١٨	٣١ر٦
ستة الى سبعة	٢٣	٤٠ر٣
عشرة الى ثلاثة عشر	١٤	٢٤ر٦
خمسة وثلاثون	١	١ر٨
لا معلومات	١	١ر٨
المجموع	٥٧	١٠٠ر٠

تنوعت اسباب ارتحال اعضاء النخبات اليهوديه الى الخارج . فلقد ارتحل بعضهم طلبا للعلم ، او بهدف الزيارة . وهاجر قسم منهم الى بلدان اخرى بينها فلسطين والولايات المتحدة . وسافر بعضهم للمشاركه في مؤتمرات دولية غير سياسيه ، كالمؤتمر الدولي للبلديات الذي انعقد في باريس . وتوجه عدد من الاعضاء الى بلدان اخرى لادارة مشروعات اقتصادية . كما ان قسما من الاعضاء ، سافر الى الخارج في مناسبات قليلة نسبيا لممارسة نشاطات سياسية او اقتصادية او دبلوماسية ، بصفتهم موظفين رسميين في بلدانهم الخاصة . وفي كثير من الاحيان سافر العديد من الاعضاء في مهمات حزبية بصفتهم مندوبين لحضور مؤتمرات حزبية دولية او ما شاكل ذلك . وباستثناء عضو واحد ، فان جميع الاعضاء قاموا برحلات بصفتهم من نشطاء المنظمة الصهيونية العالميه والوكالة اليهودية لفلسطين . فبسبب المراكز السياسية او الاقتصادية او الدبلوماسية التي تبوأها الاعضاء في هاتين المؤسستين ، قاموا بالعديد من الرحلات والبعثات بصفتهم التمثيلية لهاتين المنظمتين او للمنظمات المنتسبة اليهما والمتفرعة عنهما .

يوضح الجدول الرقم ١٥ البلدان الاثني عشر التي كانت الاكثر تعرضا لاقامة او لزيارة اعضاء اللجان التنفيذيه ، وعدد الاعضاء الذين اقاموا في كل من هذه البلدان . وان بلدان الولادة واردة في هذا التعداد .

الجدول الرقم ١٥

البلدان التي اقام فيها افراد النخبات اليهودية السياسية

	عدد الاعضاء	النسبة المئوية من المجموع الكلي للاعضاء
فلسطين	٥٢	٩١ر٢
سويسرا	٤١	٧١ر٩
الاتحاد السوفياتي	٤٠	٧٠ر٢
بريطانيا	٣٨	٦٦ر٧
النمسا	٣٥	٦١ر٤
تشيكوسلوفاكيا	٣٥	٦١ر٤
المانيا	٣٣	٥٧ر٩
الولايات المتحدة	٣٠	٥٢ر٦
هولندا	٢٣	٤٠ر٤
بولندا	١٧	٢٩ر٨
فرنسا	١٦	٢٨ر٠
تركيا	٧	١٢ر٣

لقد اقام اعضاء اللجان التنفيذيه في اثنين واربعين بلدا على الاقل . ويعكس هذا الاختلاف الكبير في عدد البلدان ، الى مدى معين ، الانتشار الجغرافي للمنظمات الصهيونيه واليهودية التي انتشرت نشاطاتها في مختلف ارجاء العالم ، وبالاخص العالم الغربي . كما يعكس هذا العدد الواسع للبلدان التي ارتحل اليها الاعضاء ، الكثافة والشمول في النشاطات الصهيونية السياسية . وفي سياق هذه السفرات والرحلات الكثيرة للغاية ، اتيح للنخبات اليهوديه عبر زياراتها واقامتها في البلدان الاخرى ، ان تتعلم الكثير من العادات الاوروبية والامريكية ، وان تكتسب خبرة سياسية عميقة . ولقد كيفت نفسها مع الاتجاهات السياسيه

التي كانت سائدة وقتئذ على مسرح السياسات الاوروبية والامريكية . ونتج عن ذلك انها كانت قادرة على رسم استراتيجيه ملائمة للعمل السياسي وللتطبيق السياسي . لوفرة العلاقات المباشرة التي انشأتها مع الشخصيات السياسيه في الغرب ، ولعمق معرفتها بالمواقف المنقسمة ــ السياسيــة للشعوب العربية . وهكذا فان النخبات اليهودية السياسيه كانت في موقف ملائم تماما لترجمة الاختبارات التي مرت بها في الدول العربية على الصعيدين السياسي والاجتماعي ، الى قواعد ترسي عليها دعائم السياسات الصهيونية القومية .

وكانت فلسطين واوروبا والولايات المتحدة المناطق الثلاث التي استقبلت العدد الاكبر من الاعضاء كزوار او كمقيمين .

وان اقامة عدد كبير من اعضاء اللجان التنفيذيه في فلسطين ، وسويسرا ، والاتحاد السوفياتي ، وبريطانيا ، والنمسا ، وتشيكوسلوفاكيا ، والمانيا ، والولايات المتحدة ، وهولندا ، وبولندا ، وفرنسا ، هذه الحقيقة يمكن تفسيرها بالعديد من العوامل . لقد شهدت هذه البلدان ، خلال الفترة التي تناولها هذه الدراسة ، نشاطا صهيونيا سياسيا ويهوديا كبيرا . كما كانت هذه البلدان محل تركيز الكتله الاساسية من اليهوديه العالمية . وحيث ان المنظمه الصهيونيه دوليه ، فلقد حتمت مؤتمرات المنظمة سفر الاعضاء الى الاماكن التي عقدت فيها . انعقدت مؤتمرات المنظمة الصهيونية بين ١٨٩٧ و ١٩٤٦ في البلدان الاوروبية التالية : سويسرا ، بريطانيا ، هولندا ، المانيا ، النمسا ، وتشيكوسلوفاكيا . اما المؤتمرات التي حدثت بعد العام ١٩٤٦ فلقد انعقدت في القدس . وان الاغلبية الساحقة من اعضاء اللجان التنفيذية كانوا مندوبين الى هذه المؤتمرات . ولعل هذا يفسر سبب ارتحال العدد الاعظم من الاعضاء الى اماكن انعقاد المؤتمرات .

وبالرغم من ان اكثر من نصف اعضاء اللجان التنفيذيه اليهوديه كانوا مقيمين في فلسطين ، ورغم ان معظم سكان فلسطين كانوا من العرب ، فان النخبات اليهودية السياسية اقامت صلات شخصية محدودة للغاية مع العرب المجاورين المحيطين بفلسطين . وان كلا من مصر ولبنان وسوريا زارها عضو واحد من الاعضاء . وان العراق وتونس البلدين العربيين غير المجاورين لفلسطين ، زار كلا منهما عضو واحد . وتعود ندرة زيارات النخبات اليهودية السياسيه للاقطار العربية الى صلة هذه المسالة بمجمل قضية النزاع العربي ــ الصهيوني على فلسطين . ولعل ضآلة الصلات الشخصيه التي انشاها اعضاء اللجان التنفيذية مع العرب ، عائدة الى سياسة صهيونية استهدفت ابقاء الاتصال العربي ــ اليهودي المباشر في ادنى حد له .

كما كانت الصلات الشخصية للنخبات اليهودية بشعوب آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية واستراليا ونيوزيلندا محدودة للغاية . وانه لمن المؤكد ان القيادة الصهيونية السياسية كانت على وعي بان الغرب هو مركز النفوذ العالمي على الصعيدين السياسي والاقتصادي ، وبان الدعم الغربي سياسيا وادبيا واقتصاديا ، هو وحده الكفيل بتحقيق الاهداف الصهيونية بانشاء دولة يهودية في فلسطين . ومن اجل هذا كان جل تركيز النخبات اليهودية ينصب على الغرب بالذات . على ان هذا التحليل لا يعني بالطبع التقليل من اهمية العاملين اللذين ساهما الى حد بعيد في تركيز النشاط الصهيوني السياسي على الغرب ، وهما واقع التركز السكاني اليهودي في الغرب ، ومولد ابناء النخبات اليهودية في الغرب . هذان العاملان ، بالاضافة الى الوزن السياسي العالمي الراجح للغرب في اثناء الفترة محل الدراسة ، اديا الى خلق الارضية الطبيعيه لاقامة امتن العلاقات واوثقها مع الغرب .

النتاج الادبي

يتضح من المعلومات المتوافرة ، ان القيادة اليهودية كانت على صلة وطيدة بالصحافة والكتابة ان ثمانية واربعين عضوا من بين اعضاء اللجان التنفيذية السبعة والخمسين ، قدموا نوعا او آخر من النتاج ، ككتابة المقالات ، او تأليف الكتب بما في ذلك السير والمذكرات ، وتحرير الصحف والمجلات وادارة دور النشر . وحيث ان هؤلاء الاعضاء ولدوا في اصقاع متباينة ، فان نتاجاتهم كانت بلغات مختلفة . على ان معظم هذه النتاجات كان بالعبرية والانجليزية واليديش والالمانية والروسية والبولندية . وان هناك عدة اعضاء كتبوا بأكثر من لغة واحدة . وفيما اقتصرت مساهمات البعض على الترجمة ، مارس آخرون عمليتي الترجمة والكتابة معا .

وكانت الميادين التي دبج بها الاعضاء نتاجاتهم شديدة التنوع . ويتبين من الجدول الرقم ١٦ ان معظم هذه الميادين كان في نطاق المجال اليهودي والصهيوني . ويعود هذا بالطبع الى شدة اهتمام اعضاء اللجان التنفيذية بقضايا اليهود والصهيونية.

الجدول الرقم ١٦

الميادين التي كتب فيها اعضاء النخبات اليهودية السياسية وعدد الاعضاء الكتاب في كل ميدان منها

ميدان الكتابة	العدد	النسبة المئوية
القومية اليهودية والشؤون السياسية	٥٧	١٠٠ر.
التاريخ اليهودي	١٧	٢٩ر٨
الاقتصاد	١١	١٩ر٣
الديانة والفلسفة اليهوديتان	١٠	١٧ر٥
علم الاجتماع	١٠	١٧ر٥
حركات العمل الصهيوني	٨	١٤ر.
السكان اليهود وسكان فلسطين	٥	٨ر٧
مسائل تقنية وعلمية	٥	٨ر٧
التربية والتعليم	٤	٧ر.
جغرافية فلسطين	٤	٧ر.
العسكرية اليهودية	٤	٧ر.
الفنون الادبية	٣	٥ر٣
العالمان العربي والاسلامي	١	١ر٨

دارت كتابات الاعضاء على محور الشؤون السياسية والقومية اليهودية او الصهيونية . وجرى تسجيل لتاريخ الحركة الصهيونية الحديثة عموما ، وفي بلدان مثل بولندا والولايات المتحدة والمانيا وروسيا خصوصا . وتناول بعضهم بالدرس مرحلة ما قبل هرتزل ، اي حركة « احباء صهيون » التي بذلت جهدا لاستيطان فلسطين واستعمارها في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر . وبما ان هرتزل كان مهندس الصهيونية السياسية الحديثة فلقد كانت حياته وايديولوجيته السياسية موضع دراسة العديدين من اعضاء اللجان التنفيذية . وكانت هناك مصنفات تناولت بالدرس الجذور الغربية للفكرة الصهيونية والقومية اليهودية . وكان بينهم كتاب طالبوا بضمان حقوق الاقليات اليهودية حيثما كانت والمساواة المدنية لليهود . وكانت هناك كمية ذات شأن من الكتابات جل غايتها ترغيب اليهود وغير اليهود بالصهيونية وبفكرة تأسيس وطن قومي يهودي في فلسطين . واستهدفت بعض الكتابات اقناع اليهود المتدينين الذين نبذوا الصهيونية لطبيعتها اللادينية ، بقبول الصهيونية . وبين الامور التي سجلتها الكتابات السياسية ، مساعي قادة الصهيونية للظفر ببيانات رسمية مؤيدة للصهيونية من جانب الحكومات الغربية ، مثل بريطانيا وفرنسا ، كما سجلت المجهودات التي بذلها الرسميون الاسرائيليون لنيل اعتراف المجتمع الدولي باسرائيل . وتضمن عدد لا يستهان به من المؤلفات مسحا للعلاقات اليهودية — العربية — البريطانية خلال فترة الانتداب وسياسات هذه الاطراف ازاء فلسطين . وعنيت بعض الكتابات بتوضيح الموقف اليهودي الرسمي من بعض القضايا مثار النزاع ، كمسألة البراق حائط المبكى » وكانت هناك كتابات كرست للاحزاب الصهيونية ، فارخت لسيرة هذه الاحزاب وخلفياتها ومفاهيمها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . ومن البدهي ان الكتابات الحزبية كانت مشحونة بالكثير من الجدل الحزبي .

سبعة عشر من الاعضاء ، اي ٢٩ر٨ بالمائة من افراد النخبات ، قاموا بالتأريخ لليهود . ولقد ارخ هؤلاء الكتاب للتاريخ اليهودي القديم ، والموسط ، والحديث ، في العرب وفي الشرق الاوسط . ومن اليسير ان نلاحظ في هذه الكتابات جهدا مدولا يستهدف تضخيم العلاقة التاريخية بين اليهود وفلسطين . كما اهتم هؤلاء الكتاب بصورة خاصة باضطهاد اليهود وافناء مجموعات منهم على ايدي النظام النازي . كما تزخر كتب التاريخ اليهودي الحديث بوصف للاوضاع اليهودية السياسية في فلسطين في السنوات القلائل التي سبقت انشاء اسرائيل في العام ١٩٤٨ .

وكان بين الاعضاء الكتاب ، احد عشر عضوا تناولوا موضوعات اقتصادية . وعالجوا في هذه الكتابات بصورة اساسية الاحوال الاقتصادية في فلسطين ، والنواحي الاقتصادية المتعلقة بالهجرة اليهودية ، واستيطان فلسطين . كما تطرقت الى شراء الاراضي والتعاونيات الزراعية والمدينية في فلسطين . وبما ان الهدف كان تحسين الوضع الاقتصادي اليهودي ، وتوسيع قدرة فلسطين الديموغرافية لاستيعاب المهاجرين اليهود الجدد ، فلقد حث الكتاب على تصنيع فلسطين ، ووضع برنامج شامل للدعم المالي من جانب اليهود للمجتمع

اليهودي في فلسطين . كما دعوا الى قصر العمل في الاراضي التي يملكها اليهود وفي المؤسسات الاقتصادية اليهودية على اليهود وحدهم ، وذلك بغية سريع وترسيخ الاستعمار الصهيوني على تراب فلسطين .

ولم يكن من الغريب ان يكتب عشرة من الاعضاء ، اي ما يعادل ٥ر١٧ من مجموع افراد النخبات ، في القضايا المتعلقة بالدين اليهودي والفلسفة اليهودية ، وذلك لوفرة عدد الحاخامين بين اعضاء اللجان التنفيذية . وعالج الكتاب في هذا الميدان عقائد اليهودية ، والمسائل المتصلة بالاحبار اليهود والتلمود ، وتاريخ النقد التوراتي ، وتفسير وشرح التوراة ، والدراسات التوراتية . كما كانت هناك دراسة حول اعمال المفكرين اليهود المشهورين مثل ميمونيديس ، وسعاديا جاؤون ، ويهودا هليفي ، وسولون بن جابيرول ، ورابي يتسحاق يعقوب ربين ، وباعل شيم توف ، ورابي ابرهام يتسحاق كوك .

وبذل بعض هؤلاء الكتاب مجهودات لرسم مكانة اليهودية في العالم المعاصر، وذلك في ضوء ملاحظتهم للخطى السريعة التي يتغير بها العالم الحديث .

وكان علم الاجتماع الميدان الذي كتب فيه عشرة من الاعضاء . وانكب بعضهم على قضايا الانعاش الاجتماعي عموما ، والاحوال الاجتماعية ليهود العالم خصوصا.وكانت هناك معالجة لاضطهاد اليهود ومعاداة السامية . وتبنى بعضهم الرأي القائل ان هده الظواهر نتيجة لكون اليهود يشكلون اقليات في البلدان التي يعيشون فيها ، وان اللاسامية ستختفي اذا ما تجمع اليهود وركزوا انفسهم في دولة يهودية في فلسطين .

وبين الاعضاء الكتاب ، ثمانية تناولوا شؤون حركات العمال الصهيونية في الغرب ، وبالاخص في اوروبا الشرقية وروسيا.وكانت هناك محاولة لتبيان الصلة بين الطبقة اليهودية العاملة وبين الشعب اليهودي ، كما كان هناك نظر في التوجه السياسي للعمال الصهيونيين .

وكانت هناك عناية خاصة من جانب الاعضاء الكتاب بشؤون التوزيع الديموغرافي لسكان فلسطين وحيث انه كان من العسير انشاء دولة يهودية في فلسطين طالما كانت اكثرية سكانها من العرب ، فلقد كانت غاية الصهيونية تحويل فلسطين (او قلبها) الى بلد ذي اكثرية سكانية يهودية . وسجلت القيادة اليهودية بقوة اهمية هجرة اي يهودي الى فلسطين ، « شرعية » كانت او غير شرعية . وهيمنت على هذه القيادة خلال الفترة الزمنية التي نتناولها بالدرس ، حساسية فائقة ازاء الميزان الديموغرافي اليهودي — العربي في فلسطين .

واهتمت الكتابات الديموغرافية بالتوزيع الجغرافي ليهود العالم واعدادهم ، وقامت بتحليل موجات الهجرة اليهودية المتنوعة الى فلسطين، والمضاعفات التي يتركها هؤلاء المهاجرون اقتصاديا وسياسيا وثقافيا .

اما في حقل التكنولوجيا والعلوم ، فلقد كانت هناك كتب وضعت في قضايا الرياضيات والميكانيك والكيمياء .

وفي الميدان الجغرافي الذي انتج فيه اربعة من الاعضاء ، كان هناك مسح لجغرافية فلسطين . وكان هناك تركيز خاص على الناحيتين الجغرافية — السياسيه والجغرافية — الديموغرافية في فلسطين. والمقصود ب « الجغرافية — السياسية » لفلسطين اجزاء فلسطين ذات الاهمية السياسية البارزة ، كسهل فلسطين الساحلي على البحر الابيض المتوسط والنقب — الجزء الجنوبي من فلسطين. اما المقصود ب « الجغرافية — الديموغرافية » لفلسطين ، فهو اجزاء فلسطين التي كانت قادرة على تحمل اقامة واستيعاب المهاجرين اليهود الجدد . كما بذل مجهود خاص لاكتشاف مواضع المستوطنات القديمة والاثار في فلسطين . وفي بعض الحالات جرى احياء اسماء عبرية لاماكن معروفة باسمائها العربية .

وكانت الهاجناه — تشكيلها ، ونموها ، وغاياتها — التي اصبحت جيش اسرائيل الرسمي بعد العام ١٩٤٨ ، موضوع عدة كتب وكتابات .

وتحت عنوان « الفنون الادبية» الوارد في الجدول — الرقم ١٦ — تأتي مقتطفات شعرية لاحد الاعضاء وقصص كتبها عضوان اخران . وتتضمن هذه النتاجات الادبية موضوعات عن البعث اليهودي والقومية اليهودية .

وكتب احد الاعضاء عن العالمين العربي والاسلامي ، من واقعهما ، وليس من واقع الصراع العربي — الصهيوني اذا جاز التعبير . اي انه تناول انبثاق الحركة القومية العربية الحديثة في الشرق الاوسط ، والصلة بين العروبة والاسلام .

العلاقة بين التخصص الدراسي والمناصب الادارية والوزارية

طبقا للمادة الرابعة من صك الانتداب على فلسطين ، اعترف الانتداب البريطاني بالوكالة اليهودية كمؤسسة استشارية معاون مع الادارة البريطانية لفلسطين في مختلف الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والنواحي الاخرى المتصلة بانشاء وطن قومي يهودي في فلسطين ، وبمصالح السكان اليهود في فلسطين . وهذه النواحي المتنوعة المتعلقة بالوطن القومي اليهودي ويهود فلسطين ، واسعة ، وتتضمن نواح وحقولا شتى ، كاوضاع التربية والتعليم ، والتنمية ، والاستيطان ، والدين ، والهجرة ، واستيعاب المهاجرين ، وجوانب اخرى .

ولقد تولت اقسام معينة او مكاتب في اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية ، المهمات التي قررها صك الانتداب للوكالة اليهودية . وتمركزت هذه المكاتب في كل من القدس ولندن . وكان على رأس كل مصلحة او قسم او مكتب منها ، رئيس او مدير . وتولى اعضاء اللجان التنفيذية — في معظم الحالات — رئاسة او ادارة هذه المصالح . (٢٦)

ونظرا لقوة الوكالة اليهودية السياسية والاقتصادية ، اصبحت هذه الوكالة عاملا مهيمنا على المسرح الفلسطيني السياسي والاقتصادي . واجملت لجنة بيل في العام ١٩٣٧ دور الوكالة اليهودية بايجاز بارع بقولها : « ومع مرور الوقت خلقت جهازا اداريا كاملا . وبلغت قوة ... هذه المنظمة حدا جعلها حكومة قائمة جنبا الى جنب مع حكومة الانتداب » . (٢٧)

ان الوسيلة الناجعة للتحقق من اهمية التخصص الدراسي في اكتساب واداء الادوار القيادية ، هي قياس مدى التوافق بين ميدان الدراسة وبين نوعية المنصب الاداري «المشغول». وبكلمات اخرى ، ان السؤال هو ما اذا كان « العضو » يقوم باعباء منصب دارت دراسته التعليمية حوله ، او تلقى تدريبا سابقا على شؤونه ، وما اذا كان تخصص العضو الدراسي ذا اثر وفائدة في اكساب وتولي دوره القيادي :

بين المعلومات المتوافرة ان ٣١ عضوا من اعضاء اللجان التنفيذية السبعة والخمسين ، اي ٥٤ر٤ بالمائة من افراد النخبات ، ترأسوا مصالح ودوائر اللجنة التنفيذية اليهودية . ومن بين هؤلاء الواحد والثلاثين ، خمسة اعضاء لم نتمكن من معرفة ميادينهم الدراسية .

ويكشف الجدول الرقم ١٧ ان ثلاثة من اعضاء اللجان التنفيذية ترأسوا اقساما تتوافق وحقول تخصصاتهم الدراسية . وان ثمانية اعضاء ترأسوا اقساما لا تتفق مهماتها وتخصصاتهم الدراسية . في حين ان خمسة عشر عضوا ترأسوا اقساما كانت وظائفها تتفق ولا تتفق وتخصصاتهم الدراسية . وان كبر هذه الفئة التي تضم خمسة عشر عضوا ، يعود الى توليهم اقساما مختلطة . فاذا جمعنا النسبة المئوية للفئة الاولى والنسبة المئوية للفئة الثالثة نحصل على

الجدول الرقم ١٧

التوافق وعدم التوافق بين التخصصات الدراسية للاعضاء وبين المراكز التي تولوها

	العدد	النسبة المئوية
اعضاء ترأسوا اقساما تتوافق وتخصصاتهم الدراسية	٣	١١ر٥
اعضاء ترأسوا اقساما تتوافق وتخصصاتهم الدراسية	٨	٣٠ر٨
اعضاء ترأسوا اقساما بعضها يتوافق وبعضها لا يتوافق وتخصصاتهم الدراسية	١٥	٥٧ر٧
المجموع	٢٦	١٠٠ر٠

نسبة ٦٩ر٢ بالمائة ، وهي نسبة تكشف عن اهمية التعليم في نيل المراكز القيادية السياسية .

سبل الوصول الى السلطة السياسية

ان سبل التصنيف المتعلقة بالانماط المهنية للنخبة العربية السياسية في فلسطين والتي كنا قد ذكرناها في باب « سبل الوصول الى السلطة السياسية » ، قد لا يكون هذا هو العنوان نفسه حرفيا) ، وهو الباب المنشور في الجزء العربي من هذه الدراسة المنشور من قبل ، تنطبق على المعايير المهنية للنخبات اليهودية السياسية .

ان المهنة الاصلية للفئة الكبرى من القيـــــادة اليهودية هي القانون . وتضم هذه الفئة اربعـــــة عشر عضوا يشكلون ربع العدد الاجمالي للنخـــبات اليهودية (انظر الجدول الرقم ١٨) .

اننا لا نملك معلومات عن عدد دارسي القانـــون بين خريجي الجامعات من الشعب اليهودي ومـــع ذلك فاننا نميل الى القول ان كثر وجود فريـــق الحقوقيين الذي يشكل ٢٥ بالمائة من افراد النخبات دليل على المكانة التمثيلية « الزائدة » المعطاة لمهنة القانون ، وعلى حساب المهن الاخرى ، وكذلك دليل على النفوذ الكبير الذي يمنح به اصحـــاب الدراسات « العمومية » او غير التخصصية بالمعيار الضيق للكلمة في اوساط القيادة اليهودية

الجدول الرقم ١٨

تعداد اجمالي للمهن الاصلية للاعضـــاء

المهنة	العدد	النسبة المئوية
القانون	١٤	٢٤ر٦
الوظائف الادارية	١١	١٩ر٣
وظائف حاخامية	٦	١٠ر٥
الهندسة	٥	٨ر٨
الشؤون المالية	٥	٨ر٨
السلك الجامعي	٤	٧ر٠
الصحافة	٤	٧ر٠
التدريس الغير مستوى الكلية او الجامعة)	٣	٥ر٣
الطب	٢	٣ر٥
أمانة مكتبة	١	١ر٨
العسكرية	١	١ر٨
لا معلومات	١	١ر٨
المجمـــوع	٥٧	١٠٠ر٠

والفئة الثانية من حيث الحجم للمهن الاصليـــة لافراد النخبات اليهودية هي السلك الوظيفـــي والادارة ، وتضم هذه الفئة احد عشر عضـــوا يشكلون نسبة ١٩ر٣ بالمائة . وتكشف هـــذه النسبة عن الاهمية البارزة لهذا السلك كنقطـــة انطلاق للظهور السياسي ، ويعكس الوزن الكبير « للبيروقراطيين » ومدى اعتماد النخبات اليهودية عليهم . ولقد اكتسب اليهود في سياق خدمتهـــم الطويلة في الحقل « البيروقراطي » خبرة في النواحي الشائكة والمعقدة للمنظمات والتنظيم .

وكان الموظفون الحاخاميون الفئة الثالثة مـــن حيث الحجم ، اذ بلغ عددهم ستة اعضـــــاء يشكلون ١٠ر٥ بالمائة من النخبات . ومن الواضح ان العلوم التي درسوها هي الدراســـات الدينيـــة اليهودية . وان انتخاب ستة حاخاميين لعضويـــة اللجان التمثيلية يعكس مساهمة رجال الديـــن اليهود في تحديد التوجه السياسي للحركة الصهيونية العالمية .

وكانت الهندسة المهنة الاصلية لخمسة اعضاء اي نسبة ٨ر٨بالمائة من النخبات.وجاء خمسة اعضاء اخرين من عالم المال . ويشكل هذان الفريقان نسبة ١٧ر٦ بالمائة من الاعضاء ، الامر الذي يكشف عن اعتماد النخبات اليهودية على الاختصاصيين واحالة النشاط التقني والمالي اليهم .

وكان التدريس سواء على مستوى الكليات الجامعية او ما دون ذلك ، المهنة الاصلية لسبعة مـــن القـــادة .

ومما لا ريب فيه ان السلك الاكاديمي يتمتـــع بمكانة مرموقة . ولا شك في ان استاذية حاييـــم وايزمان الجامعية ومحاضراته في علوم الاحياء فـــي هذا الاطار ، واختراعه لمتفجرات حربية لعبا دورا مهما في بروزه على المسرح السياسي .

الجـدول الرقـم ١٩
الاصول المهنية لاعضاء اللجان التنفيذية اليهودية

اللجنة التنفيذية	القانون		السلك الوظيفي		رجال الدين		الهندسة		المال		التدريس		الصحافة		الطب		امانة مكتبة		العسكرية		لا معلومات		المجموع
	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئويه	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبه المئويه	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئويه	العدد	النسبة المئويه	العدد	النسبة المئوية	
١٩٢١	٢	١٣ر٣	٣	٢٠ر٠			١	٦ر٧	٣	٢٠ر٠	١	٦ر٧	٣	٢٠ر٠	١	٦ر٧	١	٦ر٧					١٥
١٩٢٢	٢	١٥ر٤	٢	١٥ر٤					٣	٢٣ر٠	١	٧ر٧	٣	٢٣ر٠			١	٦ر٧	١	٧ر٧			١٣
١٩٢٥	٣	٢٠ر٠	١	٦ر٧			١	٦ر٧	٣	٢٠ر٠	١	٦ر٧	٣	٢٠ر٠	١	٦ر٧	١	٦ر٧	١	٦ر٧			١٥
١٩٢٧	٢	٢٢ر٢									٣	٣٣ر٣	٢	٢٢ر٢	١	١١ر١			١	١١ر١			٩
١٩٢٩	٣	٢٣ر٠	١	٧ر٧	١	٧ر٧	١	٧ر٧			٣	٢٣ر١	٢	١٥ر٤					١	٧ر٧		٧ر٧	١٣
١٩٣٠	٢	٢٠ر٠	١	١٠ر٠	١	١٠ر٠			١	١٠ر٠	٣	٣٠ر٠	١	١٠ر٠					١	١٠ر٠			١٠
١٩٣١	٣	٢٥ر٠	٥	٤١ر٧							٣	٢٥ر٠	١	٨ر٣									١٢
١٩٣٣	٢	١٥ر٤	٤	٣٠ر٧			١	٧ر٧	١	٧ر٧	٣	٢٣ر٠	٢	١٥ر٤									١٣
١٩٣٥	٣	٢٠ر٠	٣	٢٠ر٠	١	٦ر٧	٢	١٣ر٣			٤	٢٦ر٧	٢	١٣ر٣									١٥
١٩٣٧	٥	٢٥ر٠	٤	٢٠ر٠	٢	١٠ر٠	٣	١٥ر٠			٥	٢٥ر٠	١	٥ر٠									٢٠
١٩٣٩	٨	٣٠ر٨	٥	١٩ر٢	٤	١٥ر٤	٣	١١ر٥			٤	١٥ر٣	١	٣ر٨	١	٣ر٨							٢٦

وكانت الصحافة المهنة الاصلية لاربعة قادة ، والطب لعضوين ، وكان هناك شخص واحد مهنته الاصلية امينا لمكتبة ، وشخص واحد عسكريا .

ويقدم الجدول الرقم ١٩ « تحليلا » للمنابع المهنية لاعضاء اللجان التنفيذية . وادمجنا فيه فريق السلك الجامعي مع فريق المدرسين لما دون الجامعة ، في فئة واحدة هي فئة التدريس ، وذلك كي يكون المعنى الاحصائي اكثر جدوى .

وكما نرى في الجدول الرقم ١٩ ، فان القانون سجل ارتفاعا عاليا من عضوين — النسبة المئوية ١٣ر٣ — في اللجنة التنفيذية لسبتمبر من العام ١٩٢١ ، الى ثمانية اعضاء — يشكلون ٣٠ر٨ ٪ — في اللجنة التنفيذية لاغسطس من العام ١٩٣٩ . ويدل هذا الارتفاع على تزايد اعتماد النخبات اليهودية على اصحاب الدراسات « العمومية » ، وعلى النمو المستمر للحقوقيين .

وشهد مرور الوقت ارتفاعا في نسبة رجال الدين . ومع ان اللجان التنفيذية الاربع الاولى كانت خالية من اي رجل دين يهودي ، فان اربعة حاخاميين ، انتخبوا للجنة التنفيذية الاخيرة التي شكلوا فيها نسبة ١٥ر٤ بالمائة . وهذا دليل قاطع على التأثيرات الدينية المتزايدة على النخبات اليهوديــة .

وكان هناك تقدم في نسبة المهندسين . فحيث لم يكن هناك سوى مهندس واحد — يشكل نسبة ٦ر٧ ٪ — في اللجنة التنفيذية الاولى ، اصبح المهندسون ثلاثة — بنسبة ١١ر٥ ٪ — في اللجنة التنفيذية للعام ١٩٣٩ .

كما كان هناك تزايد ملموس في عدد الاساتذة والمدرسين . ففي اللجنة التنفيذية للعام ١٩٢١ لم يكن هناك غير شخص واحد يتعاطى هذه المهنة — وشكل نسبة ٦ر٧ ٪ — ارتفعت جماعة التدريس الى خمسة اعضاء شكلوا نسبة ٢٥ بالمائة من مجموع اعضاء اللجنة التنفيذية للعام ١٩٣٧ . لكن العدد هبط الى اربعة شكلوا نسبة ١٥ر٣ بالمائة . ولعل معنى هذه الزيادة في عدد الاساتذة والمدرسين ،

ان القيادة اليهودية اصبحت اكثر وعيا باهمية التربية اليهودية ، وخصوصا في فلسطين .

مصير النخبات اليهودية السياسية

كما نلاحظ في الجدول الرقم ٢٠ ، فلقد اعتبرنا يناير ١٩٤٧ نقطة النهاية لتحديد وضع ومصير اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية . وكما فعلنا في الجزء العربي من هذه الدراسة المنشور سابقا ، سنفعل في هذا الجزء اليهودي ايضا، في حال تعاطي العضو لعدة مهن مختلفة بعد التاريخ المذكور. اي ان المهنة التي سوف نعتبرها بين المهن « الجديدة » التي انتقل اليها العضو ، هي المهنة التي تطلبت منه القسم الاكبر من وقته ، والتي كرس لها نفسه اكثر من غيرها باذلا فيها القدر الاعظم من نشاطه . « هذه » المهنة هي التي سنسجلها على انها مهنة العضو « الجديدة » بعد التاريخ المذكور . والواقع ان القسم الاعظم من الزعماء والقادة اليهود كان يتعاطى اكثر من مهنة واحدة . كان جميع الاعضاء الصهيونيين منهمكين بالشؤون السياسية على درجات متفاوتة طبعا ، وفي اوقات متراوحة. وان بعض الاعضاء غير الصهيونيين ابدى اهتماما ونشاطا بالشؤون « اليهودية الخالصة » اذا جاز القول ، مميزا لها عن الشؤون الصهيونية . نرى في الجدول الرقم ٢٠ ، وهذا العدد يمثل اكثر من ثلث مجموع اعضاء النخبات . ولعل هذا يؤكد من جديد التأثير البالغ الذي مارسه «البيروقراطيون» في الحركة الصهيونية ، واعتمادها الكبير عليهم .

الانتماء الجغرافي (المنطقي)

من المعالم البارزة في تكوين النخبات اليهودية السياسية ، ان ٥٥ عضوا ، اي ٩٦٫٥ بالمائة من اعضاء اللجان التنفيذية ، ولدوا في اوروبا واميركا الشمالية . وفيما يتعلق بالعضوين الاخرين فان مكان ولادة احدهما مجهول ، وكان الاخر من مواليد الهند . وكان هذا ابنا لاسرة يهودية بريطانية كان ربها موظفا في السلك البريطاني الخارجي العامل في الهند . ولذا فان من المسلم اعتباره بريطانيا في الاصل . لقد شكل الغرب ، وبالاخص الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وبولندا ، مناطق تركز اضخم التجمعات السكانية اليهودية . ويتضح من الجدول الرقم ٢١ ان حصة السكان اليهود في اوروبا واميركا الشمالية لم تتجاوز التسعين بالمائة من يهود العالم

اذا قارنا نسبة اليهود الغربيين من اعضاء اللجان التنفيذية ، بنسبة السكان اليهود الغربيين قياسا على السكان اليهود في العالم اجمع ، يتضح لنا ان نسبة اليهود الغربيين بين اعضاء اللجان التنفيذية كانت زائدة عن المعدل التمثيلي .

الجدول رقم ٢٠

الوضع الجديد لاعضاء اللجان التنفيذية بعد انتهاء عضويتهم في موعد افتراضي هو يناير ١٩٤٧

	العدد	النسبة المئوية
السلك الوظيفي والاداري	٢٠	٣٥٫١
لا يزالون اعضاء في اللجنة التنفيذية	١٢	٢٢٫٨
السلك الاكاديمي	١	١٫٨
تحرير منشورات يهودية دينيه	١	١٫٨
حالات وفاة	١٤	٢٤٫٦
لا معلومات	٨	١٤٫٠
المجموع	٥٧	١٠٠٫٠

لقد استقبل السلك الوظيفي والاداري عشرين عضوا من اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية كما

الجدول الرقم ٢١

النسبة المئوية ليهود العالم في كل منطقة (في العام ١٩٣٩) (٢٨)

المنطقة	النسبة المئوية من يهود العالم
البلدان الاوروبية والاميركية الشمالية	٨٦٫٦
البلدان الواقعة في غرب اوروبا واميركا الشمالية	٩٫٢
البلدان من كلا المنطقتين	٤٫٢
المجموع	١٠٠٫٠

ان رجحان كفة اليهود الغربيين بين اعضاء اللجان التنفيذيه ، بل اقتصارها عليهم ، يعود الى جملة من العوامل والاسباب . ان الصهيونية كحركة سياسية انبثقت من الغرب . لقد كان

اليهود الغربيون السباقين والرواد ، والمنظمين ، ودعاة الصهيونية السياسية . ولقد وصل يهود الغرب الى مرحلة الوعي القومي اليهودي قبل يهود اسيا وافريقيا بكثير . (٢٩) وكان يهود الغرب ، وبالاخص يهود روسيا وبلدان شرق اوروبا عرضة لاساءة المعاملة . وكانت المشاق التي عاناها اليهود في غير روسيا وشرق اوروبا اخف بكثير . ان الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تعرضت لها الحياة اليهودية في اوروبا ، قدمت الحوافز الكفيلة بتحقيق التزام يهودي ذي شأن بالفكرة الصهيونية والمقاصد الصهيونية .

وحيث ان قطاعا مهما من يهود العالم ، كان موزعا بين عدة بلدان في اوروبا ، كان من المفهوم ان يخرج اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية من بلدان شتى من القارة الاوروبية . وكما يتضح من الجدول الرقم ٢٢ ، فان الفئة الاكبر التي تضم تسعة عشر عضوا بنسبة ٣٣٫٣ بالمائة من المجموع الاجمالي للنخبات اليهودية ، كانت من مواليد الاتحاد السوفياتي .

وبعد الاتحاد السوفياتي تأتي بولندا التي ولد فيها احد عشر عضوا يشكلون ١٩٫٣ بالمائة من المجموع. ثم المانيا ثم الولايات المتحدة ، اللتان خرج من كل منهما خمسة اعضاء — ٨٫٧ / — اما الخمسة الامريكيون فلقد كان احدهم من ماريلاند ، وآخر من اوهايو ، والثلاثة الباقون من نيويورك ، فغني عن البيان ان نيويورك مقر لتجمع سكاني يهودي كبير .

الجدول الرقم ٢٢

البلدان التي ولد فيها اعضاء اللجان التنفيذية

الدولة		العدد	النسبة المئوية
الاتحاد السوفياتي		١٩	٣٣٫٣
بيلوروسيا (٣٠)	٩ — ١٥٫٨٪		
أكرانيا	٨ — ١٤٫٠٪		
روسيا	٢ — ٣٫٥ ٪		
بولندا		١١	١٩٫٣
المانيا		٥	٨٫٧
الولايات المتحدة		٥	٨٫٧
ولاية نيويورك	٣ — ٥٫٣ ٪		
ماريلاند	١ — ١٫٨ ٪		
أوهايو	١ — ١٫٨ ٪		
بريطانيا		٣	٥٫٣
رومانيا		٣	٥٫٣
ليتوانيا		٢	٣٫٥
النمسا		١	١٫٨
كندا		١	١٫٨
تشيكوسلوفاكيا		١	١٫٨
هنغاريا		١	١٫٨
الهند		١	١٫٨
لاتفيا		١	١٫٨
السويد		١	١٫٨
هولندا		١	١٫٨
لا معلومات		١	١٫٨
المجموع		٥٧	١٠٠٫٠

ولمزيد من التبسيط والتوضيح لاماكن ولادة اعضاء اللجان التنفيذية ، سنعمد الى تصنيف بلدان ولادتهم الى اربع مجموعات : الاتحاد السوفياتي وشرق اوروبا ، اوروبا الوسطى ، غرب اوروبا ، امريكا الشمالية . وعلى هذا الاساس يتبين ان ثلثي اعضاء اللجان التنفيذية من الاتحاد السوفياتي وشرق اوروبا . ثم تأتي منطقة وسط اوروبا ومنطقة امريكا الشمالية اللتان ولد في كل منهما ستة اعضاء ، اي ١٠٫٥ بالمائة . وهناك خمسة اعضاء من غرب اوروبا ، بنسبة ٨٫٦ بالمائة ، وعضو واحد من مواليد الهند ، البلد الوحيد غير العربي .

الجدول الرقم ٢٣

المناطق التي ولد فيها اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية (٣١)

المنطقة	العدد	النسبة المئوية
الاتحاد السوفياتي وشرق اوروبا	٢٨	٦٦٫٧
اوروبا الوسطى	٦	١٠٫٥
امريكا الشمالية	٦	١٠٫٥
اوروبا الغربية	٥	٨٫٦
الهند	١	١٫٨
لا معلومات	١	١٫٨
المجموع	٥٧	١٠٠٫٠

اذا قارنا بين نسبة اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية في كل من هذه المناطق وبين نسبة عدد يهود العالم الموجودين فيها ، يتضح لنا ان نسبة عدد الاعضاء من الاتحاد السوفياتي وشرق

اوروبا واوروبا الوسطى وغرب اوروبا (حتى مع استبعاد السكان اليهود في السويد الذين لا نملك معلومات عن نسبتهم المئوية الى يهود العالم) ، كانت « زائدة » ، وان نسبة عدد الاعضاء من امريكا الشمالية كانت « ناقصة » . ونكتفي بتقديم مثالين (انظر الجدول الرقم ٢٤) فبينما يشكل يهود الاتحاد السوفياتي وشرق اوروبا ٤٩ بالمائة من يهود العالم ، فان ٦٦ر٧ بالمائة من عدد الاعضاء ولدوا فيها . وبالمقابل كان السكان اليهود في امريكا الشمالية (العام ١٩٢٩) ٤ر٣٠ بالمائة من يهود العالم ، ومع ذلك فلم يكن من مواليد هذه المنطقة سوى ٥ر١٠ بالمائة من اعضاء اللجان التنفيذية .

كانت اوروبا ، في العقدين الاخيرين من القرن التاسع عشر ، وفي العقدين الاولين من القرن العشرين ، المركز الرئيسي للنشاط الصهيوني ، ولهذا من المفهوم أن أغلبية القادة السياسيين اليهود الصهيونيين كانوا من أوروبا . فالتأهيل السياسي الصهيوني في اوروبا سبق مثيله في أمريكا الشمالية . (٣٣) هذه الحقيقة تفسر جزئيا سبب تفوق التمثيل الاوروبي في اللجان التنفيذية اليهودية ، وتدني التمثيل الامريكي فيها . كما لا ينبغي أن يغرب عن البال في سياق هذه النقطة ، أن بعض أعضاء اللجان التنفيذية الذين ولدوا في أوروبا الوسطى والاتحاد السوفياتي ، هاجروا الى الولايات المتحدة وهم بعد في مرحلة الطفولة ، ونشأوا وترعرعوا في أمريكا قبل أن يضطلعوا بمهمات القيادة السياسية .

كانت البلدان التي رأى فيها النور أعضاء اللجان التنفيذية ، منبعا لايديولوجيات اجتماعية وسياسية متباينة . كما كانت موئل ثقافات متنوعة . ولقد غذى سكان هذه البلدان التجمعات اليهودية التي تعيش بينهم بانماط وطرائق اجتماعية معاشية متفاوتة . هذه هي الخلفية التي يجب اخذها في الحسبان لدى تأمل النظرات والمفاهيم المتباينة لافراد النخبات اليهودية السياسية على الاصعدة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . ويمكن القول بعبارة أخرى ان هذا الاختلاف الكبير بين العدد الكبير من البلدان التي ولد فيها أعضاء اللجان التنفيذية ، كان مدعاة لاختلافات مؤثرة بينهم .

والبيانات المتاحة تبين ان أربعة وخمسين عضوا على الاقل من الاعضاء السبعة والخمسين — أي بنسبة ٧ر٩٤ بالمائة — ولدوا في مدن صغيرة أو كبيرة . فمنذ قرون والاغلبية الساحقة من التجمعات اليهودية في العالم من سكان المدن . وهذه الحقيقة تكفي لتفسير سبب ولادة القسم الاعظم من النخبات اليهودية في مناطق مدينية .

الايديولوجية

شهدت الحياة اليهودية السياسية المعاصرة تشكيل عدة حركات سياسية وتكوين عدة أفكار سياسية ، كانت الصهيونية أبرزها وأشدها تأثيرا .

الصهيونية حركة قوميه حديثة تسعى لان تكسب « الشعب اليهودي » خصائص الامة الحديثة : الارض القومية ، واللغة القومية ، والسيادة . (٣٤) . واختارت الصهيونية فلسطين على أنها الارض القومية اليهودية ، والعبرية كلغة قومية يهودية . وان حشد اليهود

الجدول الرقم ٢٤

النسبة المئوية ليهود العالم ولاعضاء القيادة اليهودية السياسية في مختلف المناطق

المنطقة	النسبة المئوية للاعضاء المولودين فيها	النسبة المئوية للسكان اليهود من يهود العالم (العام ١٩٣٩)
الاتحاد السوفياتي وشرق اوروبا	٦٦ر٧	٤٩ر٠
اوروبا الوسطى	١٠ر٥	١ر٧
امريكا الشمالية	١٠ر٥	٣٠ر٤
اوروبا الغربية	٨ر٩	٣ر٢ (٣٢)
الهند	١ر٨	
لا معلومات	١ر٨	
المجموع	١٠٠ر٠	

ومركزهم في فلسطين يحل — بالنسبة للصهيونية — مشكلات اليهود السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية .

أن المنظمة الصهيونية . التي أعيدت تسميتها في العام ١٩٦٠ باسم « المنظمة الصهيونية العالمية » ، فلقد كانت على الدوام الجهاز الرسمي للحركة الصهيونية . كان المبادر الى اقامتها تيودور هرتزل في بال في سويسرا في اغسطس ١٨٩٧ . ولقد صاغت المنظمة في هذا المؤتمر وتبنت برنامجا أصبح يعرف ببرنامج بال . (٣٥) ويضمن البرنامج التزاما بخلق وطن يهودي في فلسطين . ولتأمين تحقيق هذا الهدف ، دعا البرنامج الى دمع عجلة الاستيطان اليهودي في فلسطين ، والى توحيد يهود العالم ، والى تغذية الوعي القومي اليهودي ، والى اتخاذ خطوات من شأنها توفير مساندة الحكومات المختلفة للمخطط الصهيوني . (٣٦)

من بين أعضاء اللجان التنفيذية اليهودية السبعة والخمسين ، خمسون عضوا — يمثلون ٨٧٫٧ بالمائة — كانوا صهيونيين ، بينما كان سبعة أعضاء فقط — أي ١٢٫٣٪ من النخبات اليهودية السياسية — غير صهيونيين . (أنظر الجدول الرقم ٢٥)

الجدول الرقم ٢٥

الاتجاهات الايديولوجية لاعضاء النخبات اليهودية

الانتماء الايديولوجي	العدد	النسبة المئوية
صهيونيون	٥٠	٨٧٫٧
غير صهيونيين	٧	١٢٫٣
المجموع	٥٧	١٠٠٫٠

تحوي الصهيونية على عدة أفكار : الاشتراكية ، الليبرالية ، الديمقراطية ، والرأسمالية . وتجسدت هذه الافكار ، ضمن اطار الحركة الصهيونية السياسية ، في برامج عمل العديد من الاحزاب والتكتلات السياسية : حزب عمال أرض اسرائيل (مباي) وأحدوت هعفودا (وحدة العمل) ، والحارس الفتي ، والعامل المزراحي ، واتحاد الصهيونيين العموميين ، والهجرة الجديدة ، والمزراحي ، والاصلاحيون (أو المنقحون بمعنى أدق) ، والعصبة الديمقراطية ، وايحود (الاتحاد) ، ورابطة التقارب اليهودي — العربي . كما كانت هناك تكتلات سياسية أخرى ، لكننا غير معنيين هنا الا بتلك الاحزاب التي طلع منها اعضاء اللجان التنفيذية . والواقع ان الاحزاب والاتجاهات السالفة الذكر تمثل الفكر السياسي اليهودي في العصر الحديث . وان معظم هذه الاحزاب موجودة قبل الفترة الزمنية التي بدأت بها هذه الدراسة ، أي انها تأسست قبل العام ١٩٢١ ، وتابعت نشاطها خلال الفترة الزمنية التي تغطيها هذه الدراسة . وشهدت هذه الاحزاب في سياق الفترة جملة حركات اندماجية وانشقاقية متنوعة . وكانت لها جميعا فروع في فلسطين وغيرها من الاقطار . ورغم ان اعضاء هذه الاحزاب كانوا في أمصار وأقطار شتى ، الا ان برامجها كانت الى حد بعيد ، متشابهة . على ان كلا من هذه الاحزاب احتوى في اطاره العديد من الميول الايديولوجية . وسنعرض في الصفحات التالية بصورة موجزة لتاريخ ، ولافكار هذه الاحزاب بالقدر الذي يسمح به المجال .

يؤكد مؤرخو الصهيونية أن الفترة بين أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، شهدت تنافسا اقتصاديا بين العمال اليهود والمسيحيين في أقطار مثل روسيا والنمسا وشرقي أوروبا . (٣٧) . ويسجل هؤلاء الكتاب ، انه بسبب هذا التنافس ، وبسبب التمييز ضد اليهود ، لم يكن ممكنا رفع المستوى الانتاجي للعمال اليهود ، الامر الذي أدى الى جعل عملية تحويل الجماهير اليهودية الى بروليتاريا مهمة تقف أمام طريق مسدود . (٣٨) ولقد ارتبطت الصهيونية العاملة او البروليتارية ببير بوروخوف . وكان المخرج الوحيد مما تعانيه البروليتاريا اليهودية من ضعف في الحجم ونقص في الاهمية — في نظر بوروخوف — هو تجميعها في بلد واحد . فبحث عن بلد يكون شبه زراعي ، وضئيل السكان ، ولا يواجه اليهود فيه منافسة من جانب شعوب اخرى لدى سعيهم لاقامة حركة تصنيع . والارض التي كانت تتوفر فيها هذه الشروط — بالنسبة اليه — كانت فلسطين . (٣٩) . ولم تجد البوروخونية غير قلة من الانصار والمؤيدين في أوساط الحركة العمالية الصهيونية ، انهم بوعالي تسيون (عمال صهيون) . وبينما كان البوروخونيون وأخصامهم يصطرعون ، كانت حركة قوميه صهيونية جديدة تكتسح فلسطين . وكان صاحب

ايديولوجية هذه الحركة آرون ديفيد جوردون ، الذي كرس دعوته للقومية اليهودية . وكان معنى القومية في مفهومه بعثا يهوديا يقوم على غزو لفلسطين ، بواسطة العمل ، ومن خلال المسئولية الاجتماعية . (٤٠) ولقد تبنى حزب « العامل الفتي) أفكار جوردون بشأن العمل الصهيوني . وفي نظر هؤلاء كان نمو العمال اليهود في فلسطين شرطا لازما لتجسيد الصهيونية وجعلها حقيقة واقعة . وعارضوا مبدأ الصراع الطبقي ، واعتبروا الملكية اليهودية العامة للارض ووسائل الانتاج سبيلا لخلق الشعب اليهودي .

وكان (الصهيونيون الفتيان) حركة صهيونية انبثقت من شرق أوروبا في مطلع القرن العشرين . وكانت شديدة التأثر بأفكار (العامل الفتى) . وانضمت الى الصهيونيين الفتيان مجموعات من الشباب الصهيوني في روسيا قبل الحرب العالمية الاولى . وفي مؤتمر انعقد في براغ في العام ١٩٢٠ ، ظهر الى الوجود (الأتحاد العالمي للعامل الفتى والصهيونيين الفتيان) . وركز (الاتحاد) على أهمية تعزيز الهجرة ، وشراء الاراضي ، واقامة اليهود في فلسطين . (٤١) وكان عمال صهيون (بوعالي تسيون) حركة صهيونية اشتراكية . ودعت الى تجميع اقليمي للعمال اليهود في فلسطين حلا لمشكلاتهم في الاقطار التي يقيمون فيها . ثم تبنوا في مرحلة لاحقة افكار جوردون في فلسطين . وبعد أندماجهم ببعض التجمعات العمالية ، اتخذوا اسما جديدا هو الاسم الذي لا يزال مستعملا حتى الأن : احدوت هعفودا ، اي (وحدة العمل) . وفي العام ١٩٢٩ اندمج حزب (العامل الفتى) بأحدوت هعفودا فيما عرف باسم حزب مباي . وكانت المهمات الرئيسية لمباي شراء الاراضي ، وتعزيز الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وتمكين الوجود اليهودي فوق التراب الفلسطيني . واعتبر مباي مهمته : « ازالة العبودية الطبقية والتفاوت الاجتماعي ... وتحويل المصادر الطبيعية والوسائل الانتاجية الى عموم المجتمع العامل ، وتأسيس مجتمع يقوم على العمل والمساواة والحرية » . (٤٢) . وارتأى مباي تطابقا بين مصالح الحركة العمالية وبين مصالح الشعب اليهودي . كما ارتأى تحقيق الوحدة القومية اليهودية في فلسطين ، بتحويل الجماهير اليهودية والاخذ بيدها الى الحركة العمالية الصهيونية . (٤٣) .

وتدل البيانات المتوافرة على أن اثنين من اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية ، هما حاييم وايزمان وبي . فيويل ، كانا ينتميان الى (العصبة الديمقراطية) . وكانت هذه عصبة علمانية في اطار المنظمة الصهيونية العالمية . ولقد اعترضت العصبة الديمقراطية على اهتمام هرتزل الطاغي بالعمل السياسي ، وطالبت بتوسيع قاعدة القيادة الصهيونية . كما طالبت القيادة الصهيونية بتكريس اهتمامها للنشاطات الاجتماعية والثقافية سواء في فلسطين او في البلدان الاخرى التي يقيم فيها اليهود . وطالبت المنظمة الصهيونية بأن تكون أكثر ثورية ، كي تصبح قادرة على منافسة الحركات الثورية المعاصرة التي تتنازع الشباب اليهودي .

وفي عام ١٩٤٥ انشق حزب مباي وخرجت منه مجموعة عرفت باسم مجموعة (وحدة العمل) . هده المجموعة اليسارية الاشتراكية الصهيونية ، أي حزب وحدة العمل ، اتحدت في يناير ١٩٤٨ مع المجموعتين اليساريتين الاشتراكيتين الصهيونيتين ، يسار (عمال صهيون) ، ومجموعة (الحارس الفتى) ، وكونت هذه المجموعات معا حزب مبام . ولقد مثل توحيد هذه المجموعات الثلاث ، توحيدا لليسار الصهيوني العمالي . ودعا مبام الى الصهيونية ، والاشتراكية ، والى التفاهم اليهودي — العربي ، وشكلت هذه المفاهيم قاعدته الايديولوجية . (٤٤)

وكانت هناك اختلافات ايديولوجية داخل مبام . فقبل تأسيس اسرائيل ، دعت مجموعة الحارس الفتى التي كانت قلب حزب مبام ، كحل للمجابهة اليهودية — العربية ، الى دولة مزدوجة القومية يتساوى فيها الشعبان بالحقوق المدنية والقومية ، والى هجرة يهودية غير محددة الى فلسطين . (٤٥) وفي مقابل هذه الدعوة من مجموعة الحارس الفتى ، دعت مجموعتا أحدوت هعفودا — بوعالي تسيون (عمال صهيون) الى تأسيس دولة يهودية على تراب كل فلسطين .

ولقد انتظم جماعة هبوعال همزراحي (العامل المزراحي) في القدس في العام ١٩٢٢ . وحيث ان هذا كان حزبا صهيونيا دينيا عماليا ، فلقد استقى مفاهيمه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية من التوراة . وتقوم ايديولوجية الحزب على تأسيس مجتمع يهودي يقوم على العمل والعدالة الاجتماعية وفق المعتقدات التوراتية . (٤٦) وفي مفهوم

الحزب أن التشريع التوراتي في حقل العمل يغطي جميع العلاقات العمالية . وحارب هذا الحزب (العامل المزراحي) الاشتراكية المادية ، ذلك ان التاريخ الانساني — في نظر الحزب — يتشكل وفق القيم الروحية كما تعبر عنها التوراة .

أما اتحاد الصهيونيين العموميين فيختلف عن العديد من الاحزاب والجماعات الاخرى ، في أنه ليس اشتراكيا وليس دينيا . ويمكن تعريف هذا الحزب بأنه حركة ديمقراطية ليبرالية تقف في منتصف الطريق . (٤٧) دعت (الصهيونية العمومية) الى المشروعات الخاصة الحرة الساعية الى المنفعة والربح . وأبدت استعدادا لمساندة القوانين الاشتراكية — كالملكية العامة للارض — اذا كان وجود مثل هذه القوانين يخدم مصالح الشعب اليهودي . (٤٨)

أما حرب (الهجرة الجديدة) الذي تشكل في العام ١٩٤٢ ، فلقد تألف من مهاجري أوروبا الوسطى . ودعا الى حل عملي للنزاع في فلسطين وعليها . وأبدى ميلا لبريطانيا . وحث على استيطان يهودي سريع في فلسطين . وأعلنت مجموعة من هذا الحزب صراحة موافقتها على تقسيم فلسطين . (٤٩)

أما حرب (المزراحي) ، فيرى ان الفكرة الصهيونية مرع من اليهودية . وان رغبة اليهود بالعودة الى فلسطين بقيت حية على مدى القرون ، بفضل التعاليم الدينية . ويمضي الحزب الى القول ان احدى الوصايا الاساسية في التوراة تقول بعودة اليهود وبناء الارض المقدسة . ويرى الحزب ان الفصل بين القومية اليهودية والديانة اليهودية عملية تشويه وتحريف لليهودية . ويدعو الحزب الى اعتبار التوراة دستورا للدولة اليهودية . (٥٠) . وفي رأيه ان اقامة الدولة اليهودية على أسس التوراة ، ضمانة لعدم ذوبان اليهود . ويؤكد الحزب ان التوراة صالحة لتكون دستورا للدولة اليهودية في الزمن المعاصر ، ويعود ذلك الى جملة اسباب ، بينها ان افكارا مثل المساواة والديمقراطية وردت في التوراة .

وكان (الاصلاحيون) او (التحريفيون) حزبا متطرفا وصهيونيا صريحا . وان المشكلة اليهودية تجد حلها — في نظرهم — في تجميع اليهود في دولة يهودية على جانبي نهر الاردن . ولم يذعنوا لما قامت به بريطانيا من فصل لشرق الاردن عن فلسطين ، وظلوا يعتبرون شرق الاردن جزءا من « الوطن القومي اليهودي » . ووجه الاصلاحيون حملات ناقدة لسياسة غالبية الصهيونيين في المنظمة الصهيونية العالمية بقيادة حاييم وايزمان ، نحو بريطانيا والعرب . وتبنى الاصلاحيون ، ومارسوا ، خطا أكثر تشددا تجاه هذين الفريقين ، اي بريطانيا والعرب . (٥١) وكي تصبح فلسطين قادرة على استيعاب المهاجرين اليهود ، حث الاصلاحيون على استيطان أبناء الطبقة الوسطى ، وشجعوا المبادرات الخاصة ، وتدفق رأس المال الخاص . (٥٢)

أما (ايحود) فلقد كان تجمعا سياسيا يهوديا فلسطينيا دعا الى التقارب العربي — اليهودي ، ووافق على تحويل فلسطين الى دولة مزدوجة القومية يتمتع فيها العرب واليهود بحقوق سياسية متساوية . وتبنى بعض أعضاء هذا الحزب الدعوة الى تحييد فلسطين على غرار سويسرا . ودعا آخرون الى ضم الدولة الفلسطينية المزدوجة القومية الى اتحاد شرق أوسطي . (٥٣) . وأكدت هذه المجموعة ان من الضروري لاقامة المساواة في الحقوق السياسية بين كل من العرب واليهود ، وجود تكافؤ ديموغرافي وتكافؤ في الارض بين الشعبين ، أي أن تكون هناك مساواة حسابية بين عدد السكان اليهود والعرب في فلسطين ، وتوزيع متساو للاراضي القابلة للزراعة . (٥٤) وحين قامت دولة اسرائيل ، تقبلها الايحوديون كأمر واقع ، لكنهم بذلوا مجهودات غير مثمرة لانشاء اتحاد سامي يشتمل على اسرائيل .

وكانت هناك أيضا (رابطة التقارب اليهودي — العربي) التي ضمت بين صفوفها حزب أيحود ، وشرذمة من حزب الحارس الفتى ، وشرذمة أخرى من حزب بوعالي صيون (عمال صهيون) . واستهدفت الرابطة في الجزء الاعظم من تفكيرها ، الغايات نفسها التي سعى اليها ايحود . (٥٥)

وكثيرا ما سدلت الانتماءات الحزبية لاعضاء اللجان التنفيذية اليهودية منذ المؤتمر الصهيوني الاول في ١٨٩٧ . كما شهدت أسماء الاحزاب الكثير من التغير نتيجة لعمليات الانضمام والانشقاق . ويبين الجدول الرقم ٢٦ الهوية السياسية لاعضاء اللجان التنفيذية اليهودية في

العام ١٩٤٦ ، وهو العام الذي ينتهي اليه هده الدراسة ، أو في عام الوفاة في حال موت العضو قبل ١٩٤٦ . ويتضح من الجدول أن هناك سبعة أعضاء ينتمون الى كل من (الصهيونية العمومية) (٥٦) و (مباي) ، أي ٨ر١٥ / لكل من الحزبين . وينتمي الى الحـرب المزراحي سبعة من الاعضاء يشكلون ٣ر١٢ بالمائة من مجموع النخبـاب اليهودية . وكان هناك عضوان من كل من (ايحود ورابطة التقارب اليهودي — العربي) ، و (مبام) ، و (الاصلاحيين) . وكان هناك عضو واحد من كل من حزب (الهجـرة الجديدة) ، و (العامل المزراحي) . وكان هناك ثمانية عشر عضوا صهيونيا — يشكلون ٦ر٣١ بالمائة من المجموع — بدون هوية سياسية محددة . والاحتمال الارجح ، أن هؤلاء الاعضاء الثمانية عشر ، الذين يشكلون الفئة الاكبر ، كانوا ينتمون اما الى (مباي) أو الى (الصهيونيين العموميين) .

الجدول الرقم ٢٦

الانتماءات الحزبية لاعضاء اللجان التنفيذيةاليهودية

الحزب او المجموعة السياسية	العدد	النسبة المئوية
الصهيونيون العموميون	٩	٨ر١٥
مباي	٩	٨ر١٥
المزراحي	٧	٣ر١٢
ايحود ورابطة التقارب العربي — اليهودى	٢	٥ر٣
مبـام	٢	٥ر٣
الاصلاحيون	٢	٥ر٣
الهجرة الجديدة	١	٨ر١
العامل المزراحي	١	٨ر١
صهيونيون غير محددي الانتماء الحزبي	١٨	٦ر٣١
غير صهيونيين	٦	٥ر١٠
المجمـوع	٥٧	٠ر١٠٠

يتبين من مراجعة نتائج انتخابات المؤسسات القومية اليهودية المنتخبة في فلسطين ، ومن التكوين الحزبي للمندوبين الى المؤتمرات الصهيونية ، أن هناك تباينا هائلا بين نسب مباي المئوية في اللجان التنفيذية وبين نسبه في المؤسسات اليهودية الصهيونية المنتخبة التي كانت أعلى بكثير من ٨ر١٥ بالمائة . وان ميل كاتب هده الدراسة لاعتبار عدد مهم من فئة الثمانية عشر عضوا على انهم من الصهيونيين "العموميين" يمكن تبريره بنطاق الصهيونية و الصهيونية العمومية في فترة الاعوام العشرة التالية مباشرة لانعقاد المؤتمر الصهيوني الاول في العام ١٨٩٧ . ففي هده الفترة كانت الصهيونية والصهيونية العمومية مترادفتين . وعلى هدا فان الدين اعتبرناهم في هده الدراسة صهيونيين ، يمكن أن يكونوا صهيونيين عموميين . (٥٧) .

وكما بينا في الجدول الرقم ٢٥ ، فان اللجان التنفيذية اليهودية ضمت سبعة من غير الصهيونيين . وكان أحد هؤلاء السبعة عضوا في ايحود ورابطة التقارب العربي — اليهودي ، مع ان هذا الفريق كان صهيونيا . فالواقع أن قسما من هؤلاء السبعة أظهر ميولا صهيونية رغم انه لم يكن صهيونيا من الوجهة الرسمية . وكان العضو الاخر المنتمي الى ايحود والرابطة شخصا صهيونيا . (٥٨) .

وكما قررنا في الصفحات السابقة ، فلقد اختلفت مواقف الاحزاب تجاه العمل والعمال ، وتجاه نمط الملكية ، وتجاه أنواع المشروعات . ويمكن القول بايجاز ان مفاهيم الاحزاب السياسية في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية كانت متباينة . ومن هذه الزاوية يمكن تصنيف الاحزاب التي انتمى اليها أعضاء اللجان التنفيذية الى ثلاث مجموعات : اليسار ، والوسط ، واليمين . وبالطبع كانت هناك درجات متفاوتة من التوجهات اليسارية والوسطية واليمينية . وعلى أساس هدا المعيار يمكن تصنيف مواقع الاحزاب على الشكل التالي :

اليسار

مبـاي (٩ اعضـاء)

مبـام (عضـوان)

العامل المزراحي (عضو واحد)

الوسط

الصهيونيون العموميون (٩ اعضاء)

المزراحي (٧ اعضاء)

الهجرة الجديدة (عضو واحد)

اليمين

الاصلاحيـون (أو

المتحدون (— (عضوان)

ويتضح من هذا ان ١٢ عضوا يشكلون ٢٠ر ٢٠ بالمائة من المجموع ؛ كانوا يتبنون مفاهيم اجتماعية واقتصاديـة يسارية . ولقد تشكل اليسار من مباي ومبام والعامل المزراحي . وكانت جميعـا أحزابا عماليـة . وحيث ان بعض الاعضـاء الصهيونيين الثمانية عشر الذين لم يكن انتماؤهم الحزبي واضحا بصوره أكيدة ، لا بد أن يكونوا منتمين الـى الاحزاب العماليـة ، فان التمثيل العمالي في اللجان التنفيذية يصبح أعلى بالتأكيد من ٢٠ر ٢٠ بالمائة . وكان هناك ١٧ عضوا ينتمون الى الوسط ، وعضوان ينتميان الى اليمين .

الحزبان الدينيان ، المزراحي والعامل المزراحي، كان لهما ثمانية أعضاء يشكلون ١٤ر ١٤ بالمائة من مجموع النخباب السياسية . ويدل هذه النسبة على تمثيل قوي وان لـم يكن مهيمنـا ، للاتجـاه الديني .

وهناك نقص في البيانات بشأن المفاهيم الاجتماعية والاقتصادية للاعضاء المنتمين الى ايحود ورابطـة التقارب والاعضاء غير الصهيونيين ، وكذلك مفاهيم الاعضاء الصهيونيين الذين لم نتمكن من التيقن مـن هويتهم الحزبيـة .

ولعل احدى الطرق الملائمة لفهم اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية ، ان نحيط علما بمواقفهم مـن المسائل المتصلة بالعرب ، كقضية حجم الدولـة اليهودية المسماة ، والموقف من فكرة الدولة الثنائية القومية في دولة فلسطين ، ومدى يهودية الدولة ، وحجم الهجرة اليهودية المطلوبة الى فلسطـين ، والموقف من تقسيم فلسطين .

اما فيما يتعلق بمسألة الدولة الثنائية القوميـة فلقد كانت رابطة التقارب العربي — اليهودي ، والحارس الفتى ، الجماعتين الوحيدتين اللتـين دافعتا عن الفكرة . اما باقي الاعضاء الصهيونيين فلقـد اصروا على اقامـة دولـه يهوديـة . وباستثناء ايحود ، فـان جميـع الاعضـاء الصهيونيين كانوا يدعون الى تعزيز وزيادة الهجرة اليهودية بصورة غير محدودة ، لسريع خلق الاكثرية السكانية اليهودية في فلسطين . اما ايحود فلقـد دعت الى هجره يهودية يتحقق فيها تكافؤ عـددي بين العرب واليهود . واذا ما زاد عدد العـرب على عدد اليهود نتيجة لزيادتهم الطبيعية الاعلى ، فان استمرار الهجرة اليهودية لاعادة التكافؤ العددي يصبح امرا موقفا على اتفاق عربي — يهودي .

وفي مايو ١٩٤٢ انعقد في فندق بلتيمور في نيويورك المؤتمر الاستثنائي للصهيونيين الامريكيين . وتبنى المؤتمر عددا من القرارات بصدد الاغـراض الصهيونية في فلسطين . وكانت للقرارات التالية اهمية خاصة :

اولا : انشاء فوري لكومنولث يهودي في فلسطين.

ثانيا : هجرة يهودية غير محدودة واستيطـان غير محدود .

ثالثا تشكيل قوة يهودية مسلحة تقاتل تحـت علمها الخاص . (٥٩)

وكانت هـذه اول مرة يظهر فيها تعبـير « كومنولث يهودي » ، وكان ذلك من جانـب الصهيونيين الامريكيين ، ومن الواضح ان المقصود به الحث الصريح على تأسيس دولة يهوديـة مستقلة في فلسطين . (٦٠)

ومن الممكن تصنيف الاحزاب التي انتسب اليها اعضاء اللجان التنفيذية ، وفقا لمواقفها مـن برنامج بلتيمور . وكما يتضح من الجدول الرقـم ٢٧ ، فان مباي ، والعامل المزراحي ، والصهيونيين العموميين ، والمزراحي ، والاصلاحيين ، اعلنوا تبنيهم للبرنامج . اما الحارس الفتى ، والهجـرة الجديدة ، وايحود ورابطة التقارب فلقد عارضوا البرنامج . ولقد ضم الفريق الاول (مؤيدو البرنامج) ٢٨ عضوا شكلوا ٤٩ر ٤٩ بالمائة من اجمالي عـدد النخباب السياسية . اما الفريق الثاني (معارضو البرنامج) — باستثناء الحارس الفتى (٦١) — فلقد ضم ثلاثة اعضاء شكلوا ٣ر ٥ بالمائة .

الخلفيـة الاجتماعية — الاقتصادية

لم يتسن لنا الالمام بالخلفية الاجتماعيـة — الاقتصادية لاعضاء اللجان التنفيذية اليهودية ، نظرا لقلة المعلومات . لكن البيانات المتوفرة تشير الى ان بعض الاعضاء جاءوا من اسر فقيرة . ومثال هؤلاء آرثر روبين الذي تقطعت حياته الدراسية بسبب فقر عائلتـه .

ولقد كانت شريحة ذات شأن من المجتمعـــات اليهودية في اوروبا وامريكا الشمالية من الطبقات الوسطى . وان هذه المعلومة تغري الدارس لاعتبار قسم مهم من اعضاء اللجان التنفيذية اليهوديـــة من ابناء الطبقـــة الوسطى .

وليس من الممكن بالطبع ، الاستدلال بنتائج حول الخلفيات الاجتماعية ــ الاقتصادية للاعضاء ، بـــن واقع انتماءاتهم الحزبية واتجاهاتهم الايديولوجيـــة ومكان الولادة . انما لدينا امر واحد مؤكد ، وهـــو ان الاغلبية الساحقة من الاعضاء ولدوا في مراكـــز مدينية . ان هذه الحقيقة ، مضافة الى المعلومـــات الاخرى المتاحة ، تساعد في فهـــم الخلفيـــات الاجتماعية ــ الاقتصادية للاعضاء .

ويمكن رد غياب وضعية الاعضاء الاجتماعية ــ الاقتصادية عن مراجع السير التي عاد اليها كاتب هذه الدراسة ، الى ان الكتاب ربما لم يعطوا غير وزن قليل الاهمية لهذه المسألة في المحيط الاجتماعي اليهودي .

الجنس

كانت مكانة المرأة الاجتماعية والسياسية علـــى امتداد عدة قرون ، وفي جميع بلدان المعمورة ، ادنى من مكانة الرجل . هذا التفاوت المبني على اساس الجنس ، لا يزال قائما ، وان يكن بنسب اقل ، في عدة انحاء من العالم وحتى في الوقت الحاضر . صحيح ان النساء اعطين حقوقهن السياسية فـــي بعض البلدان ، وخاصة الاوروبية . لكن هذا لـــم ينتج اي تبديل كبير في هيمنة الرجل على دنيـــا السياسة . والواقع ان الرجل لا يزال حتى الان يتولى القيادة السياسية في المجتمع الانساني . (٦٢)

ولم تكن النساء اليهوديات استثناء في هـــذه المسألة . فحتى اواخر القرن الماضي ، لم تكـــن النساء اليهوديات قد تحررن اجتماعيا وسياسيا . ان الشروع بعملية تحرير المرأة ، ادى الـــى تحسين وضعية المرأة اليهودية ، لكنه لم يستأصـــل كليا نواحي عدم المساواة الاجتماعية والسياسيـــة التي تعانيها النساء لاختلاف الجنس . (٦٣)

ان النسبة المئوية لعدد النساء في المجمـــوع الكلي للنخبات اليهودية السياسية التي نتناولهـــا في هذه الدراسة ، يمكن اعتبارها دليلا علـــى الوضعية السياسية « الدونية » للنساء اليهوديات . ممن بين اعضاء اللجان التنفيذية السبعة والخمسين كانت هناك امرأتان فقط تشكلان ٣ر٥ بالمائة . ان هذه النسبة المئوية الضئيلة للنساء في القيـــادة ، شهادة على التمثيل الهابط للغاية «للجنس الضعيف» في الشرائح العليا للقيادة التي تصدر القرارات . وليس من المتصور ان تكون النساء ــ بهذه النسبة الضئيلة ــ قد تمكن من لعب اي دور قيادي فـــي الشؤون السياسية للجان التنفيذية اليهودية .

وكانت المرأتان المذكورتان من مواليد الولايـــات المتحدة : احداهما في نيويورك والاخرى في بلتيمور ، ماريلاند . وكلتاهما تلقتا تعليما في المستوى الجامعي وكانت احداهما متخصصة في الدراسات الدينيـــة اليهودية ، والاخرى في نظام التعليم . اما الاولى فلقد تلقت تعليمها في المعهد اللاهوتي الامريكي . والثانية في مدرسة نيويورك لتدريب المعلمين ، ثم في كلية المعلمين في جامعة كولومبيا ، ثم في جامعـــة تشاتانوجا في تينيسي .

الجدول الرقم ٢٧

الاحزاب والتجمعات السياسية التي انتمى اليهـــا اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية من حيث مواقفهـــا من برنامج بلتيمور

قوى تبنت البرنامج	العدد	النسبة المئوية	قوى عارضت البرنامج	العدد	النسبة المئوية
مباي	٩	١٥ر٨	الحارس الفتي		
العامل المزراحي	١	١ر٨	الهجرة الجديدة	١	١ر٨
الصهيونيون العموميون	٩	١٥ر٨	ايحود ورابطة التقارب العربي — اليهودي	٢	٣ر٥
المزراحي	٧	١٢ر٣			
الاصلاحيون	٢	٣ر٥			
المجموع	٢٨	٤٩ر٢		٣	٥ر٣

وكانت مهنة كل من المرأتين التدريس لما دون المستوى الجامعي . وكلتاهما لعبتا دورا قياديا في المنظمة النسائية الصهيونية في امريكا «هداساه»(٦٤) كما تولتا مناصب قيادية في المنظمات اليهودية والصهيونية سواء في الولايات المتحدة او في فلسطين . وبادرتا الى اقامة مشروعات خيرية يهودية وانخرطتا في نشاطات تتصل بالانعاش الاجتماعي للشعب اليهودي . كما اشتركتا لسنوات ثلاثة بتحرير مطبوعات يهودية . وكانتا صهيونيتين. احداهما ، وهي هزييتا سزولد ، كانت منتمية الى الجناح المعتدل في المجموعة اليهودية ــ الصهيونية ايحود (الاتحاد) ، وهي المجموعة التي كانت تدعو الى التقارب العربي ــ اليهودي والى اقامة دولة ثنائية القومية في فلسطين .

هذه المعطيات والنتائج التي توصلنا اليها الان ، تؤيد ما كنا قد توصلنا اليه من قبل بشأن النخبات النسائية السياسية في انظمة سياسية اخرى ، وهي ان النساء المرتبطات بالنخبات السياسية، يكن اقرب الى الانخراط في نواحي النشاط الملازمة بصورة وثيقة للوظائف النسائية التقليدية مثل الانعاش الاجتماعي والصحة والتعليم . (٦٥)

الفرصة السياسية

يشكل التحليل السابق اساسا لتحديد عدد من الشروط اللازمة لصعود الاشخاص الى مراتب القيادة السياسية . ومن الجلي ان عدد الاشخاص الجدد الذين يتاح لهم دخول اللجان التنفيذية يتوقف على مدى حصول مراكز شاغرة فيها . وكان التغير في تركيب اللجنة التنفيذية يحدث اما بسبب وفاة العضو موتا او اغتيالا ، او بسبب استقالته على ضوء خلافات سياسية ونزاعات ايديولوجية . وكان هذا بالطبع يفتح الباب امام الطموحين لاغتنام فرصة سياسية مناسبة .

والعنصر الاخر الذي كان يؤثر على فرص الاشخاص لدخول اللجان التنفيذية ، هو حجم كل من اللجان . اذ كلما كان حجمها اكبر ، كلما كان عدد الاعضاء والداخلين اكبر بالطبع . وكان حجم اللجان خلال الفترة موضع الدراسة شديد التقلب والتأرجح باستمرار . فاللجنة التنفيذية الصهيونية في العام ١٩٢١ ضمت ١٥ عضوا . واصبح اعضاؤها ١٣ في ١٩٢٣ . ثم هبط العدد الى ادنى مستوى له ، ٩ اعضاء ، في العام ١٩٢٧ . ثم عاد وارتفع الى ١٣ عضوا في ١٩٢٩ . وبعد عدة تقلبات اصبح عدد اعضائها ٢٠ في العام ١٩٣٧ ، ثم ارتفع العدد الى اعلى مستوى في العام ١٩٣٩ اذ اصبح ٢٦ عضوا .

وكانت هناك عوامل اخرى تؤثر في مدى الفرصة السياسية المتاحة امام الطموحين . فلقد كانت الظروف والاوضاع السياسية تحدد في الغالب مدى القبول في عضوية اللجان التنفيذية اليهودية . ففي النظام السياسي اليهودي كما في غيره من الانظمة السياسية ، شكلت الجدارة بالثقة السياسية معيارا مهما لمدى الصعود الى المراتب النخبوية السياسية . وكانت ترجمة الجدارة بالثقة السياسية تعني تكريس النفس بحماسة للنشاطات والغايات اليهودية والصهيونية في فلسطين .

وتأثر ارتقاء الاعضاء الى المسرح السياسي بالعوامل الاقتصادية . واتضح في الاقسام السابقة من هذه الدراسة ان توسيع اطار الوكالة اليهودية في العام ١٩٢٩ لتضم شخصيات يهودية غير صهيونية كان نتيجة لاعتبارات اقتصادية . فلقد كان حساب القيادة الصهيونية ومقصدها من خطوة التوسيع هذه ، ان اليهود الاثرياء غير الصهيونيين سوف يتبرعون بسخاء لخدمة وتنمية مشروعات الاستعمار الصهيوني في فلسطين .

وكان للعوامل الخارجية تأثيرها كذلك في مدى الفرصة السياسية المتاحة . فغداة توسيع اطار الوكالة اليهودية في العام ١٩٢٩ مباشرة ، اصبح الصهيونيون وغير الصهيونيين ممثلين بالتساوي في مختلف مؤسسات اللجنة التنفيذية ، والمجلس ، واللجنة الادارية للوكالة اليهودية . ولكن العناصر غير الصهيونية في اللجنة التنفيذية هبط عددها بصورة مثيرة ثم اختفت كليا في العام ١٩٤٧ ، وكان ذلك نتيجة اساسية من نتائج ما لاقاه اليهود في وسط وشرق اوروبا خلال الحرب العالمية الثانية . وكان اليهود غير الصهيونيين ممثلين لمجتمعات يهودية في عدة بلدان غربية ، وعلى الاخص في اوروبا . ومع تدمير المجتمعات اليهودية في اوروبا ، تلاشى التمثيل اليهودي غير الصهيوني في اللجان التنفيذية .

وكانت عضوية المنظمة الصهيونية العالمية تكتسب بدفع بدل اشتراك . وكانت مقاعد المؤتمر الصهيوني مخصصة للاشخاص الصهيونيين في مختلف البلدان ، تبعا لعدد حاملي بطاقات العضوية في

ذلك البلد ونسبتهم الى اجمالي حاملي البطاقات في العالم كله . وكانت اللجنة التنفيذية ، حتى العام ١٩٢٩ ، تنتخب من جانب المؤتمر الصهيوني . وبعد العام ١٩٢٩ اصبح خمسون بالمائة من اعضاء اللجنة التنفيذية الصهيونية يأتون عن طريق الانتخاب في المؤتمر . وبالنتيجة فان عدد حاملي بطاقات عضوية المنظمة الصهيونية العالمية واتجاهاتهم السياسية ، في شتى الدول ، كانا يؤثران كذلك في مدى الفرصة السياسية المتاحة امام الطامحين للمراكز السياسية .

أما اللجنة التنفيذية اليهودية فلقد كانت تنتخب كل عامين . وان عدم الثبات هذا ، بالاضافة الى حجم اللجنة وانتظامية انتخاب اعضائها ، ذلك كله انتج هذه الكمية غير اليسيرة من الاعضاء — ٥٧ عضوا — الذين تولوا عضويتها بين العامين ١٩٢١ و ١٩٤٦ .

وكان تكوين اللجان التنفيذية يتغير على الدوام . وعلى سبيل المثال فان خمسة اعضاء في اللجنة التنفيذية لعام ١٩٢١ التي ضمت ١٥ عضوا ، اختفوا من اللجنة التنفيذية لعام ١٩٢٣ التي ضمت ١٣ عضوا . وان ثلاثة اعضاء جدد انتخبوا للجنة ١٩٢٣ . وان سبعة من اعضاء لجنة ١٩٢٥ لم يكونوا اعضاء في اللجنة التالية في العام ١٩٢٧ . وهناك اربعة اعضاء في لجنة ١٩٣٣ لم ينتخبوا للجنة ١٩٣٥ . ولقد انتخب لعضوية لجنة ١٩٣٧ ستة اشخاص لم يكونوا اعضاء في لجنة ١٩٣٥ . وهناك عضو واحد في لجنة ١٩٣٧ لم يظهر مجددا في لجنة ١٩٣٩ ، بينما انتخب للجنة ١٩٣٩ سبعة اشخاص لم يكونوا اعضاء في لجنة ١٩٣٧ . ان هذا التغير المتواصل في تركيب اللجان التنفيذية دليل على حدوث شواغر باستمرار في عضويتها .

ويتضح كذلك ان انتخاب الاشخاص لعضوية اللجان التنفيذية كان متقطعا . فلا يوجد عضو واحد خدم في جميع اللجان التنفيذية . وكي نحيط علما بصورة جيدة لعمليات تجدد وتغير النخبات السياسية اليهودية ، سنحصي الاعضاء الجدد في كل لجنة من اللجان . وبما ان هذه الدراسة انطلقت من لجنة ١٢١ كبداية ، فاننا سنعتبر اعضاء هذه اللجنة الخمسة عشر بمثابة اعضاء جدد . ونستدل من الجدول الرقم ٢٨ ان هناك وافدين جددا الى كل لجنة من اللجان . وان هذا القبول المتواصل لاعضاء جدد في كل من اللجان . وان هذا القبول المتواصل لاعضاء جدد في كل من اللجان التنفيذية ، دليل على حركة صعود مستمر للاشخاص من الشعب اليهودي الى مراتب النخبة القائدة .

الجدول الرقم ٢٨

عدد الاعضاء الجدد في كل من اللجان التنفيذية اليهودية

اللجنة التنفيذية	عدد الاعضاء	الاعضاء الجدد: العدد	الاعضاء الجدد: النسبة المئوية
١٩٢١	١٥		
١٩٢٣	١٣	٣	٢٣ر٠
١٩٢٥	١٥	٢	١٣ر٣
١٩٢٧	٩	٣	٣٣ر٣
١٩٢٩	١٣	٣	٢٣ر٠
١٩٣٠	١٠	٤	٤٠ر٠
١٩٣١	١٢	٧	٥٨ر٣
١٩٣٣	١٣	٥	٣٨ر٥
١٩٣٥	١٥	٤	٢٦ر٧
١٩٣٧	٢٠	٥	٢٥ر٠
١٩٣٩	٢٦	٦	٢٣ر٠

لم يكن هناك قبول مستمر لاعضاء جدد في اللجان التنفيذية فقط ، بل كان هناك ايضا عدد مرتفع منهم في كل لجنة ، وهذا امر مهم وذو مغزى . فلقد كانت نسبة الاعضاء الجدد في لجنة ١٩٢٥ ، ١٣ر٣٪ . فاذا استثنينا لجنة ١٩٢٥ ، فان نسبة الاعضاء الجدد لم تهبط في جميع اللجان التنفيذية الاخرى الى ما دون ٢٣٪ . وكانت النسبة المئوية للاعضاء الجدد في لجنتي ١٩٣٠ و ١٩٣١ مرتفعة بصورة خاصة . وتفسير هذا جزئيا هو ان فتح ابواب الوكالة اليهودية امام اليهود غير الصهيونيين في العام ١٩٢٩ رفع نسبة الاعضاء الجدد بصورة عالية للغاية .

خلافات النخبات السياسية

كانت هناك خطوط متعددة اختلف عليها وبسببها القادة السياسيون اليهود . وسبق ان تناولنا في هذه الدراسة نقاط الاختلاف . الا اننا سنقدم فيما يلي خلاصة مكثفة لنواحي الشقاق .

كان هناك نزاع بين اعضاء اللجان التنفيذية على امتداد الفترة من ١٩٢٠ حتى ١٩٢٩ حول مسألة

بوسيع الوكالة اليهودية وادخال شخصيات يهودية غير صهيونية الى هيئتها القيادية . وكانت اكثرية الاعضاء محبذة للتوسع بدعوى ان هذا سوف يؤدي الى حشد تايبد الشعب اليهودي كله لتأسيس الوطن القومي اليهودي في فلسطين . وكانت الاقلية معارضة لهذا الاتجاه لخشيتها من ان يؤدي ادخال اليهود غير الصهيونيين الى الوكالة اليهودية الى اعاقة قيام الدولة اليهودية في فلسطين .

وكان ضم غير الصهيونيين مصدرا اخر من مصادر الشقاق . ففي حين كان خمسون عضوا صهيونيين ، كانت سبعة غير صهيونيين . وهذا الانقسام الايديولوجي تجسد في المجال السياسي . فبينما كان الصهيونيون ملتزمين بالاماني السياسية للصهيونية ، وبالذات بتأسيس دولة يهودية في فلسطين ، فان غير الصهيونيين ساندوا اقامة وطن قومي يهودي في فلسطين دون ان يلزموا انفسهم بفكرة تأسيس دولة يهودية في فلسطين .

وكان اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية منتمين الى عدد كبير من الاحزاب والجماعات السياسية التي تحمل مفاهيم اجتماعية واقتصادية وسياسية متباينة . وهذه هي الاحزاب والحركات التي انتسبوا اليها في وقت من الاوقات : البوروخوفية ، عمال صهيون ، العامل الفتى ، الصهيونيون الفتيان ، العمال الصهيونيون العاملون ، مباي ، وحدة العمل ، الحارس الفتى ، العامل المزراحي ، المزراحي ، اتحاد الصهيونيين العموميين ، الهجرة الجديدة ، الاصلاحيون ، العصبة الديموقراطية ، الاتحاد ، رابطة التقارب العربي — اليهودي ، ومبام . هذه الاحزاب والتجمعات السياسية كانت ذات مواقف مختلفة من الصهيونية ، والدين ، والعمل ، والاشتراكية ، والرأسمالية ، وسلطات الانتداب البريطاني ، واتجاه السياسة الخارجية، وعرب فلسطين ، وحجم الدولة اليهودية المبتغاة في فلسطين ، والتحديد الجغرافي لكلمة « فلسطين ». وكان كل من هذه الاحزاب والتجمعات يتخذ موقعا مختلفا في كل قضية من القضايا السالفة الذكر على اساس معيار اليسار والوسط واليمين . اضف الى ذلك ان عدة عمليات اندماجية وانشقاقية حدثت في هذه القوى السياسية . وكانت هناك عدة توجهات ايديولوجية داخل كل قوة منها بشأن النواحي والمفاهيم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . (٦٦) .

وبين موضوعات الخلاف المتصلة بالجماعات السياسية المذكورة ، لا بد من كلمة ايضاح للخلاف حول تحديد كلمة « فلسطين » . فغالبا ما يشار الى « فلسطين » في الادبيات الصهيونية السياسية والدينية ، باعتبارها مرادفا لعبارة « ارض اسرائيل » وبناء لهذا المفهوم تمتد « ارض اسرائيل » على جانبي نهر الاردن . ولم يكن هناك خلاف بين افراد النخبات الصهيونية السياسية على الحدود الغربية « لارض اسرائيل » حيث انها محددة ببساطة بشاطىء البحر الابيض المتوسط ، لكن الحدود الشمالية ، والشرقية ، والجنوبية « لارض اسرائيل » هي التي كانت على الدوام مثار نزاع بين النخبات اليهودية السياسية. وانه لما يخرج عن نطاق هذه الدراسة ان نتوسع في بحث موضوع حدود الدولة اليهودية مع الدول العربية القائمة . انما يكفي القول انه كانت هناك بين اعضاء اللجان التنفيذية اليهودية عناصر تطالب بالحد الاقصى ، وعناصر اخرى تطالب بالحد الادنى ، وفق تعريف كل منها لكلمة « فلسطين » ، ومصطلح « ارض اسرائيل » . وتدرجت مواقف الاعضاء وتحديداتهم الجغرافية بين هذين الموقفين المتطرف والمعتدل .

---

(١) كان بعض اعضاء اللجان التنفيذية للوكالة اليهودية صهيونيا ، وكان بعضهم غير صهيوني ، لكن اعضاء اللجان التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية كانوا جميعا صهيونيين بالطبع .

(٢) بشأن المنظمة الصهيونية العالمية ، انظر **« دائرة معارف الصهيونية واسرائيل »** ، من تحرير ر. باتاي (نيويورك « ماكجرو — هيل » ، ١٩٧١) الصفحتان ١٢٣٤ — ١٢٣٥ .

(٣) د . كتماني ، محرر ، **موسوعة العلوم الاجتماعية** (مرحافيا : سفريات بوعاليم ، ١٩٦٢) ، الصفحتان ٢٠٣ — ٢٠٤ .

(٤) كتماني ، **المصدر نفسه** ، الصفحة ٢٠٣ ، كتب المادة غيتسل كريسل .

(٥) تجد بيان تكوين اللجنتين التنفيذيتين للمنظمة الصهيونية العالمية وللوكالة اليهودية بمختلف فئاتهما واصنافهما في « **تقارير عن اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية الى المؤتمرات الصهيونية** » و « **تقارير اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية لفلسطين** » المقدمة الى اجتماعات وجلسات مجلس الوكالة اليهودية .

(٦) كما بينت من قبل فاني افضل استخدام هذا المصطلح « اللجان التنفيذية اليهودية » لانه لم يكن جميع اعضائها صهيونيين ، لكنهم جميعا كانوا يهودا .

(٧) سهيلا لاغراض هذه الدراسة ، اعتبرنا اللجنة التنفيذية الاولى بعد العام ١٩٢٠ .

(٨) اعتبرنا في هذه الدراسة الثامن من ديسمبر ١٩٤٦ ، موعد انتهاء اللجان التنفيذية اليهودية .

(٩) باتاي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٢٠٥ — ٢١٢ .

(١٠) تضم فئة شهادات .R.D دبلوم التلمود وسيامة الاحبار Rabbinical Diploma وتضم فئة .B.A حملة شهادات الاداب ، والعلوم ، والقانون المدني ، (او : التخصص بالشريعة اليهودية وتسمى الشهادة .B.C.L والفلسفة ، والهندسة المدنية . وتضم فئة .M.A حملة الدرجات العلمية العالية في الاداب ، والقانون . وبين اصحاب درجة .Ph.D الدكتور في الفلسفة ، والدكتور في القانون (او الدكتور في الشريعة والقضاء)، والدكتور في اللاهوت ، والدكتور في الادب ، والدكتور في الطب ، والدكتور في العلوم .

(١١) للاطلاع على احوال التعليم اليهودي العالي في العالم في القرن العشرين ، يمكنك الرجوع الى « اسرائيل كوهين » ، « **اليهودية المعاصرة : مسح للاوضاع الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية** » ، (لندن : ميثوين ، ١٩٥٠) ، الصفحات ٥٧ — ٦٥ .

(١٢) كوهين ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٥١ — ٥٣ .

(١٣) يمكنك الاطلاع على الموضوعات والمهام المدرجة على جداول اعمال المؤتمرات الصهيونية بالرجوع الى كتاب باتاي **المصدر السابق** ، الصفحات ٢٠٨ — ٢١٠ .

(١٤) لم ندرج في جدولنا حملة درجات الدكتوراه الفخرية .

(١٥) ان عددا لا يستهان به من حملة الدكتوراه كانوا يحملون فعلا اكثر من درجة علمية واحدة في المستوى التعليمي نفسه . لكن اهتمامنا هنا لا ينصب على عدد الدرجات العلمية التي كان العضو يحملها في كل من المستويات ، وانما ينصب على مستوى الانجاز الدراسي .

(١٦) تشمل فئة حملة شهادات .R.D اعضاء اللجان التنفيذية الذين يحمل كل منهم دبلوما في الدراسات التلمودية او سيم حبرا من الاحبار فقط .

(١٧) تضم فئة حملة شهادات .B.A الاعضاء الذين يحمل كل منهم درجة .B.A واحدة او ما يعادلها . او فئة .M.A فتشتمل على الاعضاء الذين يحمل كل منهم درجة .M.A واحدة او ما يعادلها ، اما لا يحملون درجات دكتوراه . وعلى هذا فان بعض الاعضاء المدرجين في فئة .M.A يحملون .B.A واحدة او اكثر . وان بعض الاعضاء الواردين في هذه الفئة يحملون درجة .B.A واحدة ، واخرون يحملون درجتي .B.A ، على ان اخرين يحملون درجتي .B.A و .,M.A ، بالاضافة الى درجة دكتوراه واحدة او اكثر.

(١٨) « المانيا » تشمل شرقيها وغربيها .

(١٩) ان اوكرانيا التي تقع فيها جامعة خاركوف وكلية مر الدينية ، وكذلك ليتوانيا ، واردنان في « الاتحاد السوفياتي » في هذا القسم .

(٢٠) حيث لم يكن بالمستطاع تحديد الجامعة التي نال (او نالت) منها عضو النخبات اليهودية محل البحث ، درجته (او درجتها) العلمية، اكتفينا بذكر البلد الذي تقع فيه الجامعة .

(٢١) كوهين ، **المصدر السابق** ، الصفحة ١٦

(٢٢) **المصدر نفسه** ، الصفحة ٥٧

(٢٣) **المصدر نفسه** ، الصفحة ٥٨

(٢٤) كانت الانجليزية اللغة الام للعضو الوحيد المولود في الهند .

(٢٥) تعود النسب المئويه الى المجموع الكلي للنخبات السياسية .

(٢٦) كانت هناك الدوائر والمصالح التالية : السياسية ، الاستيطان المديني ، التجارة والصناعة ، الهجرة ، الشباب والرواد ، التنظيم ، التنمية ، التعليم والثقافة الدينيان في بلدان الشتات ، العمل ، الاستيعاب ، الاستيطان الزراعي ، المالية والاداريه ، الصندوق ، الاقتصاد ، الاعلام والنشر ، موطني اليهود الالمان ، معهد الابحاث الاقتصادية ، المعينة ، الثقافة ، التربية والصحة ، وهجرة الشبيبة من اوروبا ، الحرفيون وصغار المهنيين .

(٢٧) اقتبسنا هذا عن « **دائرة معارف الصهيونية واسرائيل** » ، **المصدر السابق** ، الصفحة ٦١٣ . وكان لكل دائرة في اللجنة التنفيذية رئيس ومدير . وسنشير الى الرؤساء والمدراء في دراستنا هذه باسم « رؤساء » .

(٢٨) تحرير صوفي اي . يودين ، « **كتاب فلسطين السنوي والدولة الاسرائيلية** » **١٩٤٧ — ١٩٤٨** (نيويورك ، المنظمة الصهيونية لامركا) المجلد الثالث ، الصفحة ٧٧ .

(٢٩) خلال مناقشات اجراها الكاتب مع اليهود الاشكناز في اسرائيل ، سمع في عدة احيان تصريحات تقر بان يهود الغرب يستحقون الاولوية في الدولة والوظائف العامة على اليهود غير الغربيين ، وذلك نظرا للدور الهائل الذي لعبه يهود الغرب في خلق اسرائيل .

(٣٠) معروفة كذلك باسم « روسيا البيضاء » .

(٣١) تشمل منطقة الاتحاد السوفياتي وشرق اوروبا كلا من الاتحاد السوفياتي وبولندا ورومانيا وليتوانيا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا ولاتفيا . وتشمل منطقة اوروبا الوسطى المانيا والنمسا . وتشمل منطقة غرب اوروبا بريطانيا والسويد وهولندا . وتشمل امريكا الشمالية الولايات المتحدة وكندا . وقد لا يكون هذا المعيار للتقسيم الجغرافي **دقيقا** ، الا ان فائدته ملموسة من حيث الجدوى العملية .

(٣٢) لم نورد هنا نسبة السكان اليهود من يهود العالم لنقص المعلومات ولقد استقينا المادة الاحصائية من « **كتاب فلسطين السنوي** » من تحرير صوفي اي . يودين **السالف الذكر** ، الصفحة ٧٧ .

(٣٣) باناي ، **المصدر السابق** ، الصفحتان ١١٦٣ — ١١٦٤ .

(٣٤) الراغب في الاطلاع على شروحات لمفاهيم الصهيونية بشأن السيادة ، يمكنه الرجوع الى كتاب بن هالبرن **السالف الذكر** ، الصفحات ٢٠ — ٥١ .

(٣٥) للاطلاع على تركيب المنظمة الصهيونية العالمية ، انظر باناي ، **المصدر السابق** ، الصفحتان ١٢٣٤ — ١٢٣٥ .

(٣٦) **المصدر السابق** ، الصفحة ١١٤ .

(٣٧) من تحرير بازيل جي . فلانياتوس وفيلكس جروس ، **كفاح من اجل الغد : الايديولوجيات السياسية الحديثة للشعب اليهودي** ، (نيويورك : آرتس ، ١٩٥٤) الصفحتان ٥٤ — ٥٥ .

(٣٨) **المصدر نفسه** ، الصفحة ٥٥

(٣٩) **المصدر نفسه** ، الصفحة ٥٦

(٤٠) انظر : جوردون ، **مقالات مختارة** ، ترجمها عن العبرية فرانسيس بورنس (نيويورك : رابطة فلسطين العاملة ، ١٩٣٨) الصفحتان ٥٥ — ٥٦ .

(٤١) باناي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٤٥٨ — ٤٦٠ .

(٤٢) **المصدر نفسه** ، الصفحة ٧٦١

(٤٣) يمكنك الرجوع الى الفصل الخامس « المهمة القومية للعامل اليهودي » في « **من الطبقة الى الامة** » بقلم ديفيد بن غوريون (تل

ابيب : دافار ، ١٩٣٣) باللغة العبرية ، وكذلك : **حزب العمل في فلسطين : برنامجنا الصهيوني الاشتراكي** ، (تل ابيب ، اللجنة المركزية لحزب العمل في فلسطين ، ١٩٤٤) باللغة العبرية .

(٤٤) **مسح فلسطين** ، **المصدر السابق** ، الصفحة ٩٥ .

(٤٥) **المصدر نفسه** ، الصفحة ٩٥ .

(٤٦) **المصدر نفسه** ، الصفحة ٩٥٧ .

(٤٧) **المصدر نفسه** ، الصفحة ٩٥٨ .

(٤٨) فلانيانوس وجروس ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٢٤ — ٤٣ .

(٤٩) **مسح فلسطين** ، **المصدر السابق** ، الصفحة ٩٥٨ .

(٥٠) **المصدر نفسه** ، الصفحة ٩٥٩ .

(٥١) **المصدر نفسه** ، الصفحة ٩٦٠ .

(٥٢) **المصدر نفسه** ، الصفحة ٩٦٠ .

(٥٣) ونقا لما دكره البروفسور اي . سايمون (شخصية قيادية في حزب ايحود) لكاتب هذه الدراسة شخصيا . حدث هذا اللقاء في القدس في العام ١٩٦٨ .

(٥٤) فلانيانوس وجروس ، **المصدر السابق** ، الصفحتان ١٠١ — ١٠٢ .

(٥٥) **مسح فلسطين** ، **المصدر السابق** ، الصفحة ٩٦١ .

(٥٦) للاطلاع على جذور النزاع والانشقاق في (الحزب الصهيوني العمومي) ، يمكن الرجوع الى باناي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٣٧٤ — ٣٧٨ ، وكذلك الى شوارتزبارت ، « الصهيونية العمومية » ، في **« كفاح من اجل الغد »** ، **المصدر السابق**، الصفحات ٢٤ — ٥٠ .

(٥٧) باناي ، **المصدر السابق** ، الصفحة ٣٧٤ .

(٥٨) لمعرفة التمثيل النسبي للاحزاب في المجلس المنتخب للمجتمع اليهودي في فلسطين ، انظر **« مسح فلسطين »** ، **المصدر السابق** ، الصفحة ٦٩٢ ، ولمعرفة التركيب الحزبي للمندوبين الى المؤتمرات الصهيونية العالمية، انظر **« دائرة معارف الصهيونية واسرائيل»**، المصدر السابق ، الصفحات ٢٠٥ — ٢١٢ .

(٥٩) **مسح فلسطين** ، **المصدر السابق** ، الصفحة ٩٥٦ .

(٦٠) باناي ، **المصدر السابق** ، الصفحتان ١٣٨ — ١٣٩ .

(٦١) اعلن برنامج بلتيمور في ١٩٤٢ ، اي قبل ست سنوات من اندماج حزب وحدة العمل والعمال الصهيونيين اليساريين والحارس الفتى معا في حزب مبام . واذا كنا نعرف ان حزب الحارس الفتى عارض برنامج بلتيمور ، فاننا لا نعرف موقف الحزبين الاخرين اللذين شكلا معه مبام ، من البرنامج .

(٦٢) بخصوص الحقوق السياسية للنساء يمكن الرجوع الى موريس دوفرجيه، **« دور النساء السياسي »** (باريس ، يونيسكو ، ١٩٥٥).

(٦٣) انظر **« دائرة المعارف اليهودية الكونية »** ، من تحرير اسحاق لاندمان (نيويورك : ١٩٦٨) المجلد العاشر ، الصفحة ٥٦٩ ، ولمعرفة وضعية المرأة اليهودية كما تضعها الادبيات اليهودية الكلاسيكية ، يمكن الرجوع الى « روت » **المصدر السابق** ، الصفحتان ١٩٢٤ — ١٩٢٥ ، اما بخصوص حقوق المرأة في الشريعة اليهودية والعادات اليهودية ، فيمكن الاطلاع على ايزيدور سنجر مدير تحرير **« دائرة المعارف اليهودية »** (نيويورك : فنك وواجنالس ، ١٩٠٥) ، الصفحات ٥٥٦ — ٥٥٨ .

(٦٤) عن هداساه انظر روث ، **المصدر السابق** ، الصفحتان ٨١٠ — ٨١١ .

(٦٥) دوفرجيه ، **المصدر السابق** ، الصفحات ١٢٢ — ١٢٤ ، وهناك بحث حول الخصائص الاجتماعية للنائبات التركيات في كتاب فري ، **المصدر السابق** ، الصفحتان ١٥٤ — ١٥٥ والصفحتان ١٩٢ — ١٩٣ .

(٦٦) يمكن الرجوع الى القسم الخاص بالايديولوجية في هذه الدراسة .

تعقيب على دراسة الدكتور تيسير الناشف عن النخبة السياسية في المجتمع العربي في فلسطين

جاد ، جديد ، وطريف ، ذلك البحث الذي نشرته « شؤون فلسطينية » في عدد آب (اغسطس) ١٩٧٥ ، للاخ الدكتور تيسير الناشف ، تحت عنوان « النخبة السياسية في المجتمع العربي في فلسطين » . واذا كان من الطبيعي ان هذا البحث جادا شأن كل ما ننشره « شؤون فلسطينية » ، فان جدته وطرافته هما اللتان شدتا الانظار . على ان ثمة ملاحظات، ربما كان مفيدا الاشارة اليها :

١ — لم يشر الباحث الى المراجع التي استقى منها مفردات جداوله .

٢ — انسحاب حزب الدفاع من اللجنة العربية العليا لم يكن احتجاجا من الحزب على اغتيال فخري النشاشيبي ، لانه لم يكن قد اغتيل بعد . بل ان الدفاع انسحب من اللجنة بمجرد علمه — بواسطة امير شرق الاردن عبد الله — بأمر تقرير لجنة بيل البريطانية الملكية ، وجاء انسحابه من اللجنة العربية العليا قبل ثلاثة ايام فقط من نشر التقرير المذكور ، والذي نشر في ١٩٣٧/٧/٧ .

٣ — « الجبهة العربية العليا » لم تضم قادة الاحزاب الخمسة ، بل ضمت قادة كل من « عصبة التحرر الوطني » و « الاصلاح » و « الدفاع » و « الكتلة الوطنية » .ولم تدم هذه « الجبهة » سوى ايام معدودات ، اوفدت بعدها الجامعة العربية رئيس وزراء سوريا انذاك ، جميل مردم بك ، لفض تحالف عصبة التحرر بقية الاحزاب في الجبهة ، ونجح مردم في مهمته .

٤ — كان ينقص الجداول اسماء الاعلام ، حتى تكتمل المعلومات الهامة التي وردت في هذه الجداول ، وحتى تجري دماء الحياة في عروق الجداول ، اذا صح التعبير .

٥ — لم يكن الشقيري عضوا في الحزب العربي في اي يوم من الايام ، على عكس ما يذكر الباحث .

٦ — لم يكن حزب الاصلاح « فرعا من الحزب العربي الفلسطيني » كما يقول الدكتور الناشف ، بل كان رئيسه — الدكتور حسين فخري الخالدي — اقرب الى النشاشيبية منه الى الحسينية ، ثم انقلب ضد النشاشيبية عقب نزوله ضد راغب النشاشيبي في انتخابات رئاسة بلدية القدس في العام ١٩٣٥ ، وفوزه عليه ، بعد مساندة الحسينية للخالدي . والاخ الباحث نفسه يقر (ص ١٥٤) بان حزب الاصلاح يقف في اليمين مع الدفاع (حزب النشاشيبية) ، بينما يقف الحزب العربي في اليسار (نسبيا بالطبع) . ويعود الباحث (ص ١٥٥) ليقرر بأن الخالدي كان ، في فترة ما قبل ١٩٣٤ ، مناصرا للحسينيين ، وبعد العام ١٩٣٤ أصبح معاديا لهم ، ومرة اخرى عاد — في مرحلة لاحقة — وأصبح حسينيا !

٧ — يرجع الباحث التمايز في المواقف السياسية داخل العائلة الواحدة الى صراع الاجيال، متجاهلا تأثير الفكر والثقافة التي يتلقاها الابناء فتسلخهم عن طبقتهم ، كما يتجاهل الباحث تأثير صراع الطبقات ، فالعائلة الواحدة لم تكن متجانسة طبقيا في اي حال من الاحوال .

٨ — في اخر الدراسة يورد الباحث « خلفية اجتماعية — اقتصادية » ، اعتقد ان موقعها الصحيح كان مستهل الدراسة .

٩ — يقول الباحث في الجدول رقم ٢٤ (ص ١٥٧) انه يوضح الانتماء الطبقي لاعضاء الهيئة العربية العليا ، ثم لا يقسمهم الا الى « الطبقة العليا » و « الطبقة الوسطى » . وقبلها قسم المجتمع العربي الفلسطيني الى ثلاث طبقات اجتماعية : العليا ، الوسطى والدنيا . اما الرأسمالية (بشرائحها) ، والعمال ، والفلاحين ، فلا وجود لهم في تكوين الباحث الطبقي .

١٠ — تبنى الحاج امين الحسيني منظمة فدائية في العام ١٩٦٩ ، وليس في العام ١٩٧١ كما يقول الباحث (ص ١٦١) . وكان اسمها « فتح الاسلام » وليس « الفتح الاسلامي » . ومعروف انها حملت هذا الاسم بهدف استغلال شعبية « فتح » من جهة ، والارضية السلفية لشعبنا الفلسطيني من جهة اخرى . الا انها لم تعمر اكثر من اسابيع لا تتعدى اصابع اليد الواحدة .

وبعد ،

فان هذه الملاحظات لا تنقص من قيمة هذه الدراسة ، ولا من درجة امتاعها للقراء ، كل القراء .

عبد القادر ياسين

الحقيقـة حول الصهيونيـة

رومـان برودسكي

تنتشر معسكرات الخيام للاجئين الفلسطينيين بعيدا فوق الرمال القاحلة . فمئات الالوف من العرب ، وقد طردهم من ارض بلادهم الغزاة الصهاينة الذين جعلوا منها « مجالا حيويا » خاصا بهم ، لا يجدون الا بصعوبة ما يبقيهم احياء بمعونة المؤسسات الخيرية . واولادهم ، المنهمكون في الحصول على لقمة عيش ، لا يعرفون من مباهج الطفولة شيئا . وقد ولد جيل كامل من العرب الذين لم يروا وطنهم ابدا ونشأوا في المنفى .

اربع مرات اندلعت الحرب في الشرق الاوسط في اقل من عقدين . وكانت القوات الاسرائيلية تجتاح مخيمات اللاجئين العرب وتترك الدمار والرماد خلفها ، وتبعتها الالام والعذاب اينما ذهبت ، لكون الصهيونية لا تعرف الرحمة .

صارت الصهيونية حركة سياسية بين البورجوازية اليهودية في نهاية القرن التاسع عشر ، عندما ازدادت العداوات الطبقية حدة بمجيء الامبريالية. كان الاب الروحي للحركة هو تيودور هيرتزل ، احد اعضاء هيئة تحرير « نيو فراي بريس » انذاك ، وهي صحيفة تصدر في فيينا . ولد في عائلة تاجر ثري ، واندمج اندماجا تاما في المجتمع ، مغيرا اسمه اليهودي الى اسم نمسوي — تيودور هيرتزل ومع ان هيرتزل لم يكن يعرف اللغة العبرية ولا التاريخ اليهودي ، فقد صار ايديولوجي القومية اليهودية .

نشر هيرتزل كتابه « الدولة اليهودية » (١٨٩٥) ، مستغلا حالة مؤاتية كانت قد نشأت بعد القضية المشهورة لالفرد دريفوس ، وهو ضابط برتبة كابتن في الاركان العامة الفرنسية اتهمه اللاساميون ظلما بالتجسس لالمانيا وحكم عليه عام١٨٩٤ بالسجن مدى الحياة . وفي كتابه دعا هيرتزل اليهود الى عدم الجلوس وانتظار مجيء المسيح ، بل الى المسارعة لاعادة استيطان « الارض التي وعدهم بها اللـه » وتأسيس دولة قومية يهودية هناك .

كحجة رئيسية لتأييد هجرة اليهود الجماعية الى فلسطين ، قدم هيرتزل ما دعاه اللاسامية العالمية الشاملة لا يمكن السيطرة عليها وكبحها ، اعتقادا منه بان الشعوب التي كان اليهود يعيشون بينها كانت جميعا لاسامية اما علنا او سرا . وسرعان ما تبنى اتباع هيرتزل هذه النظرة الخاطئة في الاساس . وهكذا فان حاييم وايزمان ، الذي كان انذاك استاذا للكيمياء في احدى الجامعات البريطانية ، ادعى ان اللاسامية هي جراثيم يحملها كل امرىء معه اينما كان، رغم اقتناعه بعكس ذلك.

هذه النظرة القومية وجدت تحديا قويا من لينين. فقد فضح الطبيعة الرجعية للاسامية واشار الى « الصلة التي توجد بلا شك بين اللاسامية ومصالح البورجوازية ، دون مصالح اقسام الطبقة العاملة من السكان ... » وسخر لينين من « الخرافة الصهيونية حول كون اللاسامية ابدية » . (١)

وفي ١٨٩٧ عقد اتباع هيرتزل وانصاره اول مؤتمر دولي لهم في بال بسويسرا ، وفي هذا المؤتمر ولدت المنظمة الصهيونية العالمية.واستعارت المنظمة اسمها من جبل صهيون ، وهي تلة عند طرف القدس تقول التوراة ان منزل الملك داود ، حاكم اليهودية شبه الخرافي ، كان يقوم عليها . وقد بني هناك هيكل القدس ، الذي صار مركزا لليهودية ، في عهد الملك سليمان ، ابن داود .

ولا تقبل المنظمة الصهيونية العالمية بأي افراد كاعضاء . فلدى تأسيسها وحدت ، وتستمر في توحيد ، جماعات واحزاب سياسية مختلفة — من حيروت الفاشي النزعة الى احزاب تسمي نفسها عمالية او حتى اشتراكية مثل ماباي ومابام . اما الهيئة العليا للمنظمة الصهيونية العالمية فهي « المؤتمر الصهيوني » الذي ينعقد دوريا ، ويعين الموفدين اليه زعماء المنظمات الصهيونية في بلدان بعينه . وفي الاصل كانت المؤتمرات تعقد سنويا، الا ان الفترات الفاصلة بينها ازدادت تباعدا فيما بعد ، الى ان صارت تعقد اليوم مرة كل اربعة اعوام . وينتخب المؤتمر « المجلس الصهيوني العالمي » الذي يؤلف اللجنة التنفيذية وله ممثلون

في كل من نيويورك والقدس . وللمنظمة الصهيونية العالمية فروع في اكثر من ٦٠ بلدا .

ومند البداية نبنت المنظمة الصهيونية العالمية ، اليهودية ايديولوجية لها . فان الاساطير التي احترعها الحاخاميون اليهود حول كون اليهود شعب الله المختار ، وحول ارض الميعاد وارتفاع هيكل دمره الرومان سنة ٧٣ بعد المسيح من الاطلال في جبل سيناء ، وجهود الحاخامين للمحافظة على عزلة الجاليات اليهودية — كل ذلك اتفق تمام الاتفاق مع الاهداف السياسية للزعماء الصهاينة . ويسعى الصهاينة ، بتطبيقهم المذهب الديني على السياسة ، الى در الخلاف الوطني بين الشعب العامل . هم يوسعون الادعاء اليهودي حول كون اليهود شعب الله المختار ليزعموا ان اليهود « عرق نبيل » و « انقى الاعراق بين امم العالم المتمدنة » . وبعدما اعادوا تأليف بحث يرقى عهده الى القرن الرابع كتبه حكماء تلموديون ، فانهم يستعملونه الان ككتاب للتعليم الديني في المدارس الاسرائيلية . والكتاب يخبر التلاميذ ان اليهود هم « نخبة البشرية » وان « اقوام الجنسيات الاخرى يجب ان يكونوا عبيدا لليهود » .

وتدعي الدعاوة الصهيونية ان اليهود ، الى جانب الحصرية التاريخية للجنس اليهودي ، يملكون قدرات ونشاطا اعظم من الاوروبي المتوسط . ناهيك بالشعوب الاسيوية والافريقية . ويؤدي هذا الى الاستنتاج البعيد الاثر بان شعوب الاجناس او الاعراق الاخرى لا بد وان تحسد اليهود وان تحتقرهم نظرا لعجزها ، في حالات متساوية ، عن التنافس معهم . ويزعم الصهاينة ان هذا هو سبب الكراهية المريرة التي يثيرها اليهود . ومثل هذه النظريات هي غير علمية وتتناقض مع التاريخ ، اذ لا يمكن لاي عرق البقاء « نقيا » خلال قرون كثيرة من الاتصال مع الشعوب الاخرى . ولذا فالمحاولات لاثبات « النقاوة العنصرية » سخيفة .

وفيما يتعلق باليهود ، فان اسلافهم الذين جاءوا الى فلسطين من الصحراء العربية حوالي ١٣٠٠ قبل الميلاد اختلطوا بحرية مع سكان فلسطين الاصليين ، الكنعانيين . وعندما منع الكهنة اليهود الزواج المختلط بعد ذلك بألف سنة ، كان الاوان قد فات : فان عملية اختلاط « شعب الله المختار » بالسكان المحليين كانت قد تقدمت الى حد لم يعد من الممكن عكسها بعد ذلك . وهي لم تتوقف رغم المنع ، في اية حال . والى ذلك ففي القرن السادس قبل الميلاد ، بعدما احتل البابليون اواسط فلسطين ، اخذ اليهود يغادرون بيوتهم ويستقرون في اماكن اخرى من العالم . وازداد الخروج بنوع خاص بعدما استولى الرومانيون على فلسطين . وفي النهاية طرد الرومانيون اليهود من فلسطين في اعقاب تمرد يهودي رئيسي في ١٣٢ — ١٣٥ بعد الميلاد . واستقروا في بلدان كثيرة في اوروبا وآسيا وافريقيا . ومع ان الحاخامين ، في محاولة للمحافظة على نفوذهم ودخلهم ، ظلوا يعارضون الزواج المختلط بعناد ، ويلعنون المرتدين ، مهددين بعقاب رهيب في العالم الاخر ، واسسوا الغيتوات ، فانهم اخفقوا ، بالطبع ، في حفظ رعيتهم حفظا تاما من « الوقوع » .

كان الصهاينة بحاجة الى اسطورة النقاوة العنصرية لتسويغ زعمهم بان الفوارق الطبقية غريبة عن الامة اليهودية . فهم يدعون ان الفوارق في الملكية ليس لها اي تأثير بين اليهود ، فجميعهم عائلة واحدة ضمن حدود امة واحدة . وهم جميعا اخوة واصدقاء توحدهم مصالح مشتركة . ومعا يعارضون الشعوب المعادية المحيطة بهم ، ومعا يصونون مصالحهم المشتركة .

وهكذا ، في روسيا القيصرية على سبيل المثال ، ووفقا للمنطق الصهيوني ، لم يكن العمال الروس والاكرانيون والبولونيون والتابعون للجنسيات الاخرى هم اصدقاء العمال اليهود واخوانهم ، بل كان اصدقاؤهم واخوانهم صاحب مصانع السكر برودسكي ، ورجال المصارف غينزبرغ وكامينكا والاخوة بولياكوف ، وملك الشاي فيسوتسكي ، وعائلة رونشيلد المليونيرة الفرنسية — البريطانية ، والرأسمالي أوسار فاسرمان ، وكبار المتمولين الاميركيين جاكوب هـ . شيف وهنري مورغنتاو وبرنارد دوينشر واونو واربورغ وغيرهم ممن وظف رؤوس اموال في الصناعة الروسية وجنى ارباحا طائلة .

وكان من الطبيعي ان تلقى فكرة سلام طبقي مؤات جدا للبورجوازية اليهودية ، موافقة تامة من البورجوازية غير اليهودية التي كانت مثلها مهتمة باستبدال العدوات الطبقية بعدوات قومية .

وفي محاولة لاثبات عدم وجود فوارق مميزة بين اليهود ، ووجود امة يهودية عالمية ، بنى الصهاينة تحديدا سخيفا « للامة » . فالامة ، حسب مفهومهم ، هي جماعة من الناس يوحدهم الصراع ضد عدو مشترك . ومن شأن هذا التحديد ان يجعل جميع الشعوب التي اشتركت في الحرب ضد فرنسا النابليونية او ضد المانيا النازية امة واحدة .

ولم تكن تقل عنها سخفا محاولة الصهاينة اعلان اليهود في جميع انحاء العالم امة واحدة على اساس الديانة اليهودية ، التي زعموا انها الديانة المشتركة بينهم جميعا . ولكن ، اولا ، لا يؤمن جميع اليهود بيهوه او يعلنون ايمانهم بالديانة اليهودية . وثانيا ، فالمعتقدات والاقتناعات لا تقرر الجنسية ، والا لاعتبر جميع الكاثوليك او اللوثريين او الارثوذكس او البوذيين امة واحدة .

ولم تكن ثمة امة يهودية ، « عالمية » يدعي الصهاينة تمثيلها ، كما لم تكن ثمة امة كهذه في اي يوم من الايام . ففي تلك الايام القديمة عندما كانت اكثرية اليهود تعيش كجالية متماسكة نوعا ما ، لم يكن بامكانهم كما لم يكن بامكان الجماعات العرقية الاخرى ، ان تصير « امة عالمية » ، او حتى امة عادية ، لانه لم تكن هناك روابط اقتصادية مستقرة بينهم ، وهو شرط مهم لبروز امة من الامم . وبعدما تشتتوا في جميع انحاء العالم وفقدوا صفات وطنية مميزة كالارض المشتركة واللغة المشتركة والخصائص السيكولوجية المشتركة ، حرم اليهود الاسس الضرورية التي تؤلف منهم الامة . وقد ندد الشيوعيون الاسرائيليون في مؤتمرهم السادس عشر بالنظرية الصهيونية الرجعية وغير الواقعية القائلة بان يهود العالم ، القاطنين في بلدان مختلفة وفي ظل حكومات مختلفة، يشكلون امة واحدة رغم انعدام وجود اقتصاد مشترك وارض مشتركة وثقافة ولغة وعادات مشتركة .

وقد عارض الماركسيون — اللينينيون معارضة شديدة محاولات الصهاينة شق حركة الطبقة العاملة بتقسيمات وطنية وبتمييز اليهود عن الشعوب الاخرى . ورفضوا النظرية القائلة بوجود مجتمع يهودي عالمي واحد وامة يهودية واحدة . وقد كتب لينين يقول في مقالته « مركز البوند (٢) في الحزب » : « ان الفكرة القائلة بان اليهود يشكلون امة منفصلة هي فكرة رجعية من الناحية السياسية » . (٣)

لقد اعتبر لينين محاولات الصهاينة عزل اليهود عن الشعوب الاخرى خاطئة . واشار الى ان افضل وسيلة واسهلها لليهود انفسهم هي ان ينصهروا تدريجيا وطوعا مع الشعوب التي يعيشون بينهم ، فيتبنون لغتها وقواعد سلوكها وعاداتها . وكتب يقول : « هذه على وجه الدقة هي المشكلة اليهودية : الانصهار او العزلة ! — وان فكرة الجنسية اليهودية هي حتما رجعية لا عندما يشرحها دعاتها الدائمون (الصهاينة) فحسب ، بل هي رجعية ايضا على شفاه الذين يحاولون ان يضموا اليها افكار الديموقراطية الاشتراكية (البونديين) ففكرة الجنسية اليهودية تعارض مع مصالح البروليتاريا اليهودية اذ انها تعدي بينهم ، مباشرة او مداورة ، روحا معادية للانصهار ، هي روح الغيتو » . (٤)

كذلك هاجم لينين بقوة النظرة الصهيونية الى الحكم الذاتي الوطني والثقافي لليهود ، التي وصف دعاتها بانهم « ادوات القومية البورجوازية بين العمال . » (٥)

وكتب لينين ، في معرض انتقاده البونديين ، الذين ادعوا لانفسهم دور حماة مصالح الشعب العامل اليهودي ، يقول : « كل من يطرح ، مباشرة او مداورة ، شعار (الثقافة القومية) اليهودية ، مهما كانت نواياه حسنة) هو عدو للبروليتاريا ، ونصير لكل ما تخطاه الزمن ، ومرتبط بالطبقة المغلقة بين الشعب اليهودي ، هو شريك الحاخامين والبورجوازية . ومن الناحية الاخرى ، فان الماركسيين اليهود الذين يختلطون بالعمال الروس والليتوانيين والاوكرانيين وغيرهم في المنظمات الماركسية الدولية ، ويساهمون (بالروسية واليديشية على السواء) في خلق الثقافة الدولية لحركة الطبقة العاملة — هؤلاء اليهود ، رغم انفصالية البوند ، يحفظون افضل تقاليد اليهودية بمقاومة شعار « الثقافة القومية » . (٦)

لقد كان التاريخ اليهودي يتطور وفقا للقوانين العامة للتطور التاريخي ، في عملية الصراع الطبقي بين المستغلين (بكسر الغين) والمستغلين (بفتح الغين) . ولا يمكن لاية حجج دينية او عنصرية او

قومية الصبغة ان سبب التوكيدات الصهيونية التي لا أساس لها بأن اليهود يشذون عن القاعدة وبأن لا الملكيه ولا الفوارق الطبقيه ولا الصراع الطبقي لها اية اهمية او دلالة بالنسبة اليهم .

كتب لينين : « هناك بين اليهود اناس يعملون ، وهم يشكلون الاكثريه . انهم اخوة لنا يظلمهم الرأسمال كما يظلمنا . وهم رفاقنا في النضال من اجل الاشتراكية . وهناك بين اليهود استغلاليون ورأسماليون ، تماما كما يوجد امثال هؤلاء بين الروس وبين شعوب جميع الامم . ويجهد الرأسماليون لزرع وتشجيع الكراهية بين عمال الديانات المختلفه والامم المختلفه والاجناس المختلفة . والذين لا يعملون يبقيهم في السلطة سلطة الرأسمال وقوته . والاثرياء اليهود ، كالاثرياء الروس ، والاثرياء في جميع البلدان ، متحالفون لقمع العمال وسحقهم وسرقتهم وايقاع الشقاق بينهم . » (٧)

الوسائل التي استخدمها الصهاينه لاستمالة قسم كبير من الفقراء اليهود تذكرنا بالوسائل التي استخدمها النازيون الذين افلحوا ، بطريقة الديماغوجية والخداع والعواطف القومية المضخمه ، في حشد تأييد جماهير البورجوازية الصغيرة واقسام عاملة من الشعب الالماني ، فيما هم يصونون مصالح الاوليغارشية المالية . وقد استغلت اللاسامية في كلا الحالين . والفرق الوحيد هو ان النازيين حرضوا عليها ، والصهاينة استغلوا النتائج . فهم بقطعهم وعودا كاذبة وبفردوس ارضي في الارض المقدسة استخدموا غول اللاسامية لترويع الابرياء . واعتبروا ذلك ، بحق ، احدى اوراقهم الدعاوية الرئيسية ، وبفرح استغلوا اقل ظواهرها . وكان يحق لهم ان يعتبروا ان اللاساميين يفيدون الحركة الصهيونية .

كان ثيودور هيرتزل احد اول من نظر الى اللاسامية في ضوء ايجابي . وكتب في يومياته يقول : « صرت انظر الى اللاسامية نظرة اوسع . فمن الناحية التاريخية ، ابتدأت افهمها وحتى اسامحها . والى ذلك ادرك لا جدوى وعدم نفع محاربة اللاسامية . فهي قوة قوية ولا شعورية نوعا ما ، ولا تؤذي اليهود . واعتبرها عاملا مفيدا في تطور الفردية اليهودية » .

وفي عام ١٩٠٥ كتب ايديولوجي صهيوني آخر ، هو فلاديمير جابوتنسكي ، الروسي المولد ، الذي اسس حزب حيروت اليميني المتطرف والذي « ألهه » الصهاينة بعد موته ، قال . « ان اللاسامية كحجة في الدعاوة الصهيونية ، وخصوصا كمبدأ ، هي بالطبع ملائمة ومفيده جدا » .

وانسجاما مع هذه النظريات كان اتباع هيرتزل وجابوتنسكي يعتمدون دوما على اللاسامية في نشر الدعاوة بين اليهود . حتى انهم كانوا مستعدين لاستثارة احداث لاسامية لكي تكون اقوالهم اكثر اقناعا . مثال ذلك ان دافيد بن غوريون ، وهو زعيم صهيوني وفيما بعد اول رئيس وزراء لاسرائيل ، نظم ، عن طريق عملاء صهاينة ، عمليه نسف كنيس في بغداد بغية توفير الدليل على اضطهاد اليهود في العراق وتسويغ اضطهاد العرب في اسرائيل . وقال متهكما انه يجب ان يرسل شبانا يتم اختيارهم بشكل خاص الى بلدان الاستيطان اليهودي الجماهيري لتغذية الحملات اللاسامية التي ستكون اكثر فعالية في حمل اليهود على الهجره الى اسرائيل من الدعوة الى « الوطن القديم » .

ينظر الصهاينة الى كل يهودي على انه نصير ، يتوق للعودة الى « ارض الاباء والاجداد » . ووفقا لمنطق الصهاينه ومنطق مدبري المذابح اليهودية ــ المسعورة ، فان جميع اليهود هم اما موالون للصهيونية او موالون للشيوعية .

لفترة طويلة من الزمن ظل نطاق الهجرة اليهودية الى فلسطين ضيقا جدا رغم جميع الاغراءات والاقناع ودعم البلدان الرأسمالية . وبين عام ١٨٩٧ وعام ١٩١٨ ، على سبيل المثال ، نمت نسبة السكان اليهود في فلسطين من ٥ ٪ الى ١٠ ٪ فقط . ولم يحقق دعاة الصهيونية نجاحا كبيرا لا بالاوصاف الزاهية البراقة « لفردوس أرضي » في « الوطن القديم » ولا بمخاطبة العواطف والمشاعر القومية و « نداء الدم » .

فالاشخاص المستعدون لنشدان السعادة في بلد غريب ذي مناخ غير مألوف واوضاع مادية قاسية لم يكونوا كثيرين . وحتى بعد ١٥ سنة ، في اوائل الثلاثينات ، لم تكن الجالية اليهودية تؤلف اكثر من ١٩ ٪ من سكان فلسطين .

بيد ان الارهاب النازي عاد فحقق ما اخفق عملاء التجنيد الصهاينة في فعله . فاللاسامية النازية المسعورة وموجة المذابح اليهودية المنظمة

التي اجتاحت المانيا في مســاء التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر) ، ١٩٣٨ ، ومما يدعــو الــى السخرية ان تلك الليلة سميت « ليلة البلور » ، لان الشوارع كانت مغطاة بالزجاج من نوافــذ المتاجر والشقق اليهودية) كانت بركة ونعمة خفية بالنسبة للصهاينة . ففي الاعوام الثلاثة الاولــى فقط من وجود هتلر في الحكم ، مــن ١٩٣٣ الــى ١٩٣٦ ، ازدادت الجالية اليهودية في فلسطــين بنسبة ٥٠٪ . وصار تدفق اللاجئين اليهود علــى فلسطين كبــيرا بنوع خاص حين ابتدأت الحــرب العالمية الثانية . وتزايد عدد اللاجئين اليهود فيما استولى النازيون على المزيد من البلدان .

وقامت منظمات صهيونية مختلفة ، تعمل باتصال مع النازيين ، بارسال اللاجئــين الى فلسطــين فقط ، رافضة التعاون مع الذين يرغبون في الهجرة الى بلد آخر ، بل حتى عرقلــة دعاتهم . وقــام ليفي اشكول ، الذي صار فيما بعد رئيسا للحكومة الاسرائيلية ، وكان اسمــه ليف شكولنيك عنــد مغادرته روسيا مع والديه الى فلسطين في ١٩١٣) بدور نشيط في تأسيس المكتب الفلسطيني فــي برلين . وصنف هــذا المكتب اللاجئين اليهــود الذين سيرسلون الى « وطنهم القديم » ، مختارا في المقام الاول الصهايــنة العامليــن ، والرجال الميسورين والشبــان . وكــان ترحيــل الشيوخ والعجائز والفقراء الى فلسطين ترحا بدرائــع مختلفة . ويمكن الحكم على مدى كلبية القائمــين بعملية الاختيار من رد رئيس المنظمة الصهيونيــة العالمية ، حاييم وايزمان ، على بعض النــواب البريطانيين الذين سألوه ما اذا كان من الممكن نقل جميع اليهود الاوروبيين الغربيين الــى فلسطين .

قال : « كلا ، لا مكان للمسنين ... انهم غبار ، الغبار الاقتصادي والمعنوي للعالم الاكبر ... »

وعلى هذا النحو يعالــج الزعمــاء الصهاينة بالفعل ، لا بالكلام ، مفاهيم مثل الوحدة والاخوة ووحدة مصالح اليهود التي يسهبون في الحديث عنها في دعاواهم . فالزعماء الصهاينة هم الذين اصروا على وجــوب رفض وزارة داخلية الولايات المتحدة السمــاح للاجئــين اليهــود من اوروبــا بالاستقرار في الاسكــا . وفي الوقت ذاته الحوا في اقناع السلطات البريطانية بمنع الهجرة ليهودية الى استراليــا الغربيــه .

ففي وجه الخطــر المهدد بالابادة المادية لكامل السكان اليهود في المانيا ، لم يكن « الاوصياء » الصهاينه على اليهود يعبأون بانقاذ ارواح اليهود الالمان — بل كانــوا مهتمــين وحسب في توسيــع المستعمرة اليهودية في فلسطين . ووجهوا احتجاجا شديدا عندما اعرب الرئيس الاميركي فرانكلين د. روزفلت عن استعداد بلاده لمنح اللجوء الى نصف مليون لاجيء يهودي من اوروبا . واصروا علــى وجوب فتح باب واحد فقط للاجئــين — هو باب فلسطين . وبذلوا قصارى جهودهــم للتأكد من انه لن تتاح لضحايا الارهاب النازي اية فرصة للخلاص سوى في « ارض الميعاد » .

وبعد الحــرب العالمية الثانية استمر عمــلاء الصهاينة بالحماسة نفسها في منــع اليهــود من الذهاب الى اي مكان غير فلسطين . وتوصلوا الى اتفاق مع السلطات الاميركية والبريطانية على الا يكون امام اليهود في مخيمات « المشردين » غــير طريق واحد — الى « ارض الميعاد » .

ونتيجــه للاجراءات القسريــة المذكورة آنفــا ، صار عدد الجاليه اليهودية في فلسطــين في ١٩٤٨ يزيد على ٦٠٠ الف نسمة ، او ثلث السكان . وكانت هذه ايضا هي نتيجة للفظائع التي ارتكبهــا النازيون ، الذين عملوا بالتراكة مع الصهاينة ، فضلا عن استعمال الخداع والقوة الغاشمة .

وتوضح الحقائق الصفة الطبقيه للصهيونيه وتظهر من هــي تخدم فعلا . فالصهيــونيه ، طــوال تاريخها الممتــد ثلاثة ارباع القرن ، لم تطرح او تؤيد ابدا ، ولا في اي ظرف ، شعارات تدعــو العمال اليهود الى النضــال ضــد استغــلال الرأسماليين اليهود . فالصهاينة لم يرفعوا صوتهم قط ، في اي مكان ، دفاعا عن العمال اليهود ضد المصرفيــين والتجــار والصناعيــين اليهــود ، وباستبدالهم الصراع الطبقــي بالقضايا القوميــة الحقوا ضررا كبــيرا بقضية تحرير العمال اليهود من الظلم الرأسمالي .

ففي الحركه الثــورية في روسيا ، على سبيــل المثال ، وقف الزعماء الصهاينة جانبا بشكــل واضح ، قائلين على نحو ساخر في احد بياناتهــم السياسيه ان الثورة الروسيه لن تحل المشكلــة اليهوديه حتى بالنسبه ليهود روسيا . وكان مــن الطبيعي ان ترضي الشرطة القيصرية عن مثل هذا الموقف . وقــد حث احــد رؤسائهــا ، واسمــه

روباتوف ، دائرة الشرطة على دعم الصهاينة بكل طريقة ممكنة .

وبعد تقييم تام لنظريات الصهاينة ، استقبل وزير الداخلية القيصري ومنظم المذابح اليهودية في كيشينيف ، واسمه بليف ، هيرتزل في ١٩٠٣ واجرى معه حديثا وديا طويلا . ووافق موافقة تامة على رغبة الصهاينة في اقامة منظمة قانونية في روسيا ووعد بتأمين « الموافقة الملكية » .

ومن الامور التي لها دلالتها المهمة ان الصهاينة تعاونوا بنشاط مع المناهضين للثورة . فاحد الصهاينة العاملين ، وهو محام اسمه هيسين ، حافظ على علاقات وثيقة مع الملكيين . (٨) وبعد ثورة اكتوبر ١٩١٧ الاشتراكية صار على صلة بالحراس البيض ، وبذل قصارى جهده لتبرير المذابح اليهودية التي نظموها . كما ان زعيما صهيونيا آخر ، هو باسمانيك ، حث اليهود ابان الحرب الاهلية في روسيا على التعاون مع القوى المناهضة للثورة . وعندما تعززت السلطة السوفياتية ، فر الى باريس حيث اشترك في التخطيط لمؤامرات عسكرية جديدة ضد السوفيات.

وحافظ الصهاينة على روابط وثيقة مع الانظمة الفاشية التي تزعمها بيلسودسكي في بولونيا وموسوليني في ايطاليا وانطونيسكو في رومانيا . حتى انهم توصلوا الى اتفاق مع النازيين . فالصحافي الالماني جوليوس مادر يقول ان قائمة الصهاينة الذين تعاونوا مع النازيين تتألف من ١٠ صفحة متلاصقة الطباعة . ويتبين بعد اعوام كثيرة ان زعماء صهاينة امثال حاييم وايزمان ، اول رئيس لدولة اسرائيل ، وموشي شاريت ، احد كبار ساسة الاسرائيليين ، ودافيد بن غوريون ، رئيس وزراء اسرائيل الاسبق ، ورودولف كاستنر ، الزعيم الصهيوني المجري عقدوا صفقات مع النازيين .

وتعاون الصهاينة تعاونا وثيقا مع قائدي فرق الصاعقة النازية ادولف ايخمان وكورت بيشر ، التابعين لهتلر اللذين نظما مذابح اليهود الجماعية . وفي اوائل ١٩٣٩ ، قبل ان يخطط هتلر « للحل النهائي » للمسألة اليهودية بوقت طويل . عقد الزعماء الصهاينة مع ايخمان صفقة سمح النازيون بموجبها لقطار من اليهود بمغادرة المانيا الى فلسطين . وقد اختير ركاب ذلك القطار بعناية فائقة وكان بينهم صهاينة عاملون ورأسماليون يهود . ولقاء تلك الخدمة ، ساعد الزعماء الصهاينة ايخمان على اختيار ٤٠ الف شخص من الفقراء والعمال اليهود وارسالهم الى معسكرات الابادة . ويسهل علينا ان نرى لماذا كان ايخمان ينظر بعين الرضى الى النشاطات الصهيونية .

وتقول المجلة الالمانية الغربية دير شبيغل ان رئيس دائرة الشؤون اليهودية التابعة لجهاز المخابرات النازية ، فون ميلدنشتاين ، تعاون مع الصهاينة في اقامة معسكرات خاصة كان الشبان اليهود يتدربون فيها على الاعمال الزراعية قبل ارسالهم الى فلسطين . وكان فون ميلدنشتاين يتابع الدعاوة الصهيونية بصورة وثيقة . حتى انه كان يحتفظ بخارطة في دائرته تظهر انتشار الصهيونية بين الالمان اليهود .

ومن اوضح الامثلة على التعاون بين الصهاينة والنازيين الصفقات التي عقدها رودولف كاستنر ، رئيس الفرع المجري للوكالة اليهودية والموفد الدائم الى المؤتمر الصهيوني الدولي ، ومعاونوه عروس — باندي جيورجي ، وموشيه شفايتزر ، وموشيه كراوس ، وجويل برانت وزوجته . فهؤلاء رتبوا الامر مع ايخمان وبيشر لانقاذ صهاينة عاملين ويهود اغنياء ميسورين لدى النازيين بألف دولار لكل منهم . وتم الاتفاق على ابقاء الصفقة سرية . ونسي الصهاينة ، دفعة واحدة ، كلامهم على « عدم وجود فوارق طبقية » بين اليهود ، و « الوحدة العرقية » و « الاخوة التي لا تنفصم » . واعترف كاستنر فيما بعد بأن ركوب القطار عرض قبل كل شيء على الذين يستطيعون ان يدفعوا اكثر من غيرهم اموالا او نفائس .

وربح النازيون من الصفقة ٢٠٠ الف دولار ، و٢٠٠ كيلو غرام من الذهب ، و ٧٥٠ غراما من البلاتين ، ناهيك بالنفائس والعملات الاخرى . غير ان كاستنر وجماعته دفعوا اكثر من مجرد « مال خسيس » لانقاذ ارواح رفاقهم . ففي تلك الايام كان مئات الالوف من المجريين اليهود في معسكرات اعتقال ارسلوا منها الى اوشفيتز لابادتهم . ولم تكن المعسكرات تبعد اكثر من بضعة اميال عن الحدود الرومانية ، وكان قد سبق لرومانيا ان استسلمت تحت ضغط القوات المسلحة السوفياتية المتقدمة . ولو علم نزلاء تلك

المعسكرات بانهم سيواجهون الموت المحتم لحاولوا الفرار ، وما كان باستطاعة القوة الصغيرة الموجودة هناك لحراستهم ان تنجح في منعهم . ويكتب المؤرخ المجري اينو ليفاني قائلا : « مما لا ريب فيه انه لو كان مئات الالوف من اليهود المجريين يعلمون اي مصير ينتظرهم ، ولو اعلموا بذلك ، لما استطاع النازيون سوقهم كالخراف الى الغيتوات ، ومن هناك ، بالسهولة ذاتها ، الى قطارات الموت . الا ان احدا لم يعلمهم بذلك . وبالعكس ، فالمنظمات اليهودية ، وبينها الوكالة اليهودية ، طمأنتهم وحثتهم على الاذعان لجميع الطلبات بغية اجتناب شر اعظم » .

وعندما خرجت دولة اسرائيل الى حيز الوجود ، اعطي كاستنر منصبا مسؤولا في وزارة الصناعة والتجارة . كذلك انيطت به مهمة الاشراف على دائرة « صوت اسرائيل » التي توجه الاذاعات الى المجر ورومانيا .

في ١٩٥٣ رفع كاستنر دعوى قدح وذم ضد الصحافي م. غرينوالد : وكان هذا الاخير في مقالته قد اماط اللثام عن نشاط كاستنر الخائن في المجر . وقد ارتدت الدعوى اخيرا الى نحر كاستنر عندما نظرت فيها احدى محاكم القدس . فقد اثبتت شهادات الشهود والوثائق الحقيقية انه كان يتواطأ مع النازيين . وفي محاكمة اخرى جرت في بودابست في ايار (مايو) ١٩٥٥ ، تم فضح كاستنر بشكل قاطع كمتعاون مع النازيين . فقد اعترف ، بعدما وضع في موقف حرج ، بانه تعاون مع ايخمان وبيشر وغيرهما من قتلة اليهود . الا ان صراحته كلفته حياته . ففي الثالث من ايار ، ١٩٥٧ ، اطلق عليه الرصاص في الشارع ، ومات في مستشفى اسرائيلي في ظروف غامضة نوعا ما . وخلال التحقيق في اطلاق الرصاص ، تبين ان اثنين من المهاجمين الثلاثة كانوا عملاء للشرطة السرية الاسرائيلية . وقال احدهما للمحكمة انه تصرف بناء على اوامر الشرطة السرية الاسرائيلية . وهكذا نجح الزعماء الصهاينة في اسكات زميلهم الثرثار .

ولم تكن قضية كاستنر بالحالة الاستثنائية بين الصهاينة . فان س. ماير ، رئيس الفرع الصهيوني في سويسرا ، انتدى هو الاخر زملاءه من النازيين . وقد فعل ذلك بواسطة قائد فرقة الصاعقة النازية هانز اغن . وقد استخدمت الصاعقة المبالغ الكبيرة من المال المعطاة لاغن لشراء مواد استراتيجية ووسائل نقل ومعدات عسكرية .

وكانت احدى الظواهر القبيحة هي تعاون المنظمة الصهيونية ، المسماة « يودنرات » — Judenrats ، مع النازيين . وقد ساعدت القتلة النازيين على فرض نظامهم بالقوة في الغيتوات . واعدت المنظمة قوائم بالنزلاء المحكوم عليهم بالموت ، واعدت « صندوق مقايضة » للاشخاص الذين سيستبدلون بالصهاينة العاملين كلما وردت اسماء الاخيرين في قوائم فرقة الصاعقة للاشخاص الذين سيبادون . وكانت منظمة يودنرات في لفوف باوكرانيا تشتمل على رأسماليين يهود امثال هاينريش لاندزبرغ ويوسف بارناس واينوغلر وادولف راتفيلد . وكان لها جهاز اداري يضم نحو ٣٠٠٠ ، وقوة شرطة من ٧٥٠ رجلا مسلحين بالهراوات المطاطية . وساعد هؤلاء الاخيرون رجال الصاعقة في المحافظة على الانضباط في الغيتو وفي سوق الاشخاص المحكوم عليهم بالاعدام الى داخل عربات تحملهم الى الخارج حيث يصار الى قتلهم رميا بالرصاص .

على ان النازيين افترضوا ان الذين خانوا اصدقاءهم وجيرانهم وانسباءهم يمكنهم ان يخونوهم كذلك ، فالغوا في النهاية اليودنرات والشرطة اليهودية . ولكن ذلك التعاون الشائن مع القتلة النازيين يبقى احد اشنع الفصول في تاريخ الصهيونية .

وقصة الدكتور الفرد نوشيع ، احد قدامى اعضاء الحركة الصهيونية ، تختلف بعض الشيء عن قصة قادة اليودنرات . فقد كان لاعوام كثيرة مخبرا للغستابو ووضع بالتعاون مع النازيين خططا لابادة اليهود الفقراء والمسنين . وكان قد بلغ الثمانين من عمره عندما القى مناضلو غيتو وارسو القبض عليه ، ووجهوا اليه تهمة الخيانة واعدموه .

وقبيل نهاية الحرب ، عندما اتضح ان النازيين سيدمرون عما قريب ثمن الجرائم التي ارتكبوها ، سارع صهاينة بالغو الاهمية الى الدخول في محادثات معهم فيما يتعلق بمستقبل علاقاتهم . واخذ قادة الغستابو وقوة الامن النازية يجتمعون بزعماء صهاينة امثال ن. مازور ، ج. شتورنتش ،

الاخوة شتيرنبوش وغيرهم . واستقبل هملر مازور في مكتبه . وحاول ان يفوز بالخطوة عند هـ. شتورتش ، ممثل المؤتمر اليهودي العالمي في ستوكهولم ، على أمل تأمين حمايته في المستقبل . ووعد هملر الدكتور موزي ، رئيس جمهورية سويسرا السابق الذي توسط بين هملر والصهاينة ، بالسماح لجماعات صغيرة من اليهود بالذهاب الى سويسرا وفقا لقوائم وضعها الصهاينة . وقد دفع ثمن الصفقة بالعملة الاجنبية . وفي محاولة للتخفيف قدر الامكان من العقوبة التي سيلقاها هملر ، عهد ضابط فرقة الصاعقة فالتر شيللنبرغ ، واحد اعوان هملر الكبار ، الى كتابة مقالات نشرتها صحف اميركية ، بمعونة منظمة الحاخامين الاميركيين ، يثنى فيها على تواضع هاينريش هملر ويظهر جدارته بالاحترام .

ولم يخيب الصهاينة ظن النازيين . فبفضل الحماة الصهاينة تخلص بعض النازيين من حبل المشنقة . مثال ذلك ان شهادة شهود الدفاع التي ارسلتها المنظمات الصهيونية انقذت ارواح مجرمين نازيين لدى مثولهم امام محكمة نورمبرغ الاميركية بعد الحرب ، وبينهم قادة فرقة الصاعقة هانز يوتنر وكورت بيشر وهيرمان كرومي وكثيرون غيرهم . ومن الواضح ان احد العوامل الرئيسية هنا كان ان بيشر ، قبيل اعتقاله ، سلم صندوقين مليئين بالذهب والحجارة الكريمة الى موشيه شفايتزر الذي ارسلهما ، بواسطة ممثل الوكالة اليهودية في فلسطين ، أرمان ، الى أمين صندوق الوكالة كابلان . ولم يخجل هذان العميلان لكون الذهب والحجارة الكريمة جاءت من حساب فرقة الصاعقة النازية في مصرف الرايخ وقد جنيت من معسكرات الموت . فمعسكر اوشوفيتز وحده زود فرقة الصاعقة بتسعة اطنان من الاسنان الذهبية كل سنة .

وربما كانت مفارقة مريرة انه بهذه الاموال تم بناء نصب ياد فاشيم التذكاري ، الذي رصفت ارضه ببلاط يحمل اسماء اوشوفيتز ومايدانيك وتربلينكا وداشاو وبيرغمت — بلسن وبابي يار وغيرها من الاماكن التي شهدت ابادة جماعية لليهود ، على تلة قرب الطرف الغربي للقدس ، او زرعت « غابة الشهداء » ، التي تتكون من ستة ملايين شجرة — عدد ضحايا النازية . لقد اسهل اسياد الصهيونية وعجلوا اكثر من اللازم في تنظيف سجل تعاونهم مع النازيين . فالصهاينة الذين يوجههم المبدأ الساخر بأن الغاية تبرر الوسيلة كانوا مستعدين ، في سبيل تحقيق هدفهم ، للتعاون مع اي كان على الاطلاق ، وللمساومة على ملايين الارواح اليهودية لخيانة شعبهم دون وازع من ضمير .

لقد وصف المؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعي في اسرائيل ، الصهيونية بأنها « الاداة الايديولوجية للبورجوازية اليهودية في مرحلة الامبريالية » وبانها الاساس لتعاون البورجوازية اليهودية مع الرجعية الامبريالية . وقد كانت البورجوازية تستخدم تلك الاداة على نطاق واسع ، في تحالفها وتعاونها مع القوى الامبريالية الشريرة .

اسرائيل قاعدة العمليات الصهيونية

كانت الارض ضرورية لاعادة تأسيس دولة يهودية . ولكن اين يمكن العثور عليها ؟ كانت تلك هي المشكلة التي اقلقت الصهاينة منذ البداية . ولا بد من القول انهم لم يفكروا بفلسطين وحدها . بل كانوا مستعدين للقبول بأي اقتراح .

فالايديولوجي الصهيوني بنسكر كتب يقول : « لسنا مضطرين الى الاستيطان في نفس المكان الذي سحقت فيه دولتنا ومحيت من الوجود ... فنحن لا نريد سوى قطعة من الارض تكون ملكنا .. وسنحمل الى هناك قدس الاقداس الذي تم انقاذه أبان سقوط الوطن القديم — مفهوم الله والتوراة، فهما اللذان جعلا وطننا الام ارضا مقدسة ، وليس الاردن او القدس . »

وفي ١٩٠٣ ، اعلن تيودور هيرتزل في المؤتمر الصهيوني السادس عرض الحكومة البريطانية اقامة دولة يهودية في اوغندا وتسميتها فلسطين الجديدة . فقد كان بامكان الامبريالية البريطانية ان تستفيد من المستوطنين اليهود خلال التطوير الاستعماري لاوغندا . ويلاحظ حاييم وايزمان في مذكراته ان الفكرة لاقت موافقة دوائر الاعمال اليهودية التي لم تعبأ بما اذا كان « للوطن القومي لليهود » ، الجديد ، اية صلة « بالوطن القديم » . وكان الصهاينة مستعدين ايضا للقبول بوطن قومي يهودي في الارجنتين او كينيا او سيناء — حيثما يعطيهم الامبرياليون ارضا . واما

الحاخامون ، فكانوا يميلون بقوة الى فلسطين . وفي المؤتمر الصهيوني السابع الذي عقد في ١٩٠٥، اختيرت الارض المقدسة اخيرا كموقع لتأسيس دولة يهودية .

كانت فلسطين قد ضمت الى الامبراطورية العثمانية منذ ١٥١٧ . ولمدة طويلة توسل زعماء الجالية اليهودية هنا الى السلطان ليعطيهم ارض فلسطين ، عارضين عليه دفع جزء من ديون تركيا ، والمساعدة في تمويل بناء اسطول بحري حديث الطراز ، ودعم السلطان في الشؤون الدولية . الا ان جهودهم لم تجدهم نفعا . وبعدما يئسوا من التفاهم مع السلطان ، اخذوا يعقدون الامال على مساعدة احدى الدول الامبريالية التي تنتهج سياسة استعمارية نشطة في الشرق الاوسط . ومنذ ذلك الحين لم تبق دولة امبريالية الا وعرض الصهاينة خدماتهم عليها بهدف الاستيلاء على فلسطين . وكذلك ، فما من دولة امبريالية الا واستخدمت الصهاينة في تحقيق مصالحها الامبريالية.

قبل الحرب العالمية الاولى كان الزعماء الصهيونيون يعتمدون بصورة رئيسية على برلين حيث كانت تدعمهم وتمولهم مؤسسة اوسكار ماسرمان المصرفية . وقد شجعهم ايضا الروح العدوانية التي حاول بها الامبرياليون الالمان كسب موطىء قدم في الشرق الاوسط . وابان الحرب ، فيما تقلصت الفرص لانتصار الماني مع كل سنة ، غير الصهاينة سياستهم ، معلقين امالهم على بريطانيا . ومع ان برلين امنت في ١٩١٦ موافقة تركيا على تأسيس دولة يهودية في فلسطين تحت حماية المانية ، فقد اخفقت في اقناع الصهاينة : كان من الواضح ان عواطفهم هي مع الحلفاء .

وفي الثاني من تشرين الثاني « نوفمبر » ، ١٩١٧ ، اعلن اللورد بلفور ، وزير الخارجية البريطانية ، في رسالة الى المصرفي روتشيلد ، ان حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين الرضا الى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين وانها مستعدة للقيام باي اجراء لتسهيل تحقيق ذلك الهدف . وتوقع الامبرياليون البريطانيون نصرا مبكرا ، وبالتالي فرصة للاستيلاء على فلسطين ، وكانوا مستعدين لاستخدام الصهاينة من اجل اهدافهم الاستعمارية .

وعندما انتهت الحرب وحصلت بريطانيا من عصبة الامم على انتداب على فلسطين ، اخذت تساعد هجرة اليهود الى فلسطين ماليا وسياسيا . وكان عمل الخير او الرغبة في الوفاء بالتزامات معينة لليهود هما اقل العوامل التي دفعت الامبرياليين البريطانيين في عملهم ذلك . فالهجرة اليهودية الى « ارض الميعاد » فتحت امامهم فرص تطبيق مبدأ « فرق تسد » الذي ارتكزت اليه الوسائل البريطانية للادارة الاستعمارية . وقد اعتمدت بريطانيا على ذلك المبدأ مستخدمة اثارة النزاعات الدينية والقبلية والعنصرية للمحافظة على سيطرتها الاستعمارية .

وكي يتمكن البريطانيون من تطبيق طريقتهم المجربة في فلسطين ، اضطروا الى استقدام اكبر عدد ممكن من اليهود اليها واثاروهم ضد السكان العرب الوطنيين ، مسببين العداء بين الجانبين . وفيما قدم الانتداب البريطاني كل تشجيع ممكن للمستوطنين اليهود لشراء الاراضي من الملاكين العرب المفلسين ، مما ادى الى طرد الفلاحين المستأجرين من اراضيهم ووفر للمستوطنين فرصا في التجارة والربا والصناعات الصغيرة ، شرع يستعيض بالعداوات القومية عن التناقضات الطبقية التي نشأت بين الطبقة المستغلة (بكسر الغين) من المهاجرين اليهود والفقراء العرب . وهكذا استثير العداء الحاد بين العرب واليهود في فلسطين . وتحول مع الوقت الى نزاع مسلح مستمر .

وبعد وقت قصير من قيام « الوطن القومي اليهودي » في « ارض الميعاد » بمساعدة الامبرياليين البريطانيين واموال روتشيلد ، اخذ الصهاينة يعملون لتحويله الى دولة يهودية مستقلة . ولتحقيق ذلك الهدفكانوا مستعدين للبقاء في خدمة الامبرياليين البريطانيينليصيروا قاعدتهم الامامية في الشرق الاوسط. وفي العشرينات قال الزعيم الصهيوني ماكس نورداو للبريطانيين : « نعلم ما تتوقعونه منا . تريدوننا ان نحرس قناة السويس ، طريقكم الى الهند عبر الشرق الاوسط . حسنا ، اننا مستعدون لتحقيق تلك المهمة الصعبة . ولكن عليكم ان تساعدونا لنصير قوة قادرة على القيام بواجبنا نحوكم » .

وقد اكد ناحوم غولدمان ، الرئيس السابق للمنظمة الصهيونية العالمية ، تكرارا على ان « الصهاينة مستعدون لمنح بريطانيا العظمى الحق المتصور عليها لاقامة قواعد عسكرية في فلسطين، بما فيها قواعد بحرية وجوية ، شرط ان توافق بريطانيا على تأسيس دولة يهودية على ٦٥٪ من

الاراضي الفلسطينية » . وتقدم اقتراحا مماثلا ايضا الى الولايات المتحدة بشرط ان تدعم الدولة اليهودية وتحميها .

على ان لندن لم تكن تنوي الذهاب في «صداقاتها» للصهيونية الى حد اعطائها فلسطين . فقد كان الامبرياليون البريطانيون قانعين تماما بترك العداء العربي — اليهودي يساعدهم على قمع كل من اليهود والعرب . وازداد اهتمامهم بالمحافظة على وضع كهذا ، اذ ان التوسع المتزايد للرأسمال الاميركي في الشرق الاوسط والنفوذ النامي للجماعة الموالية لاميركا بين الصهاينة اثارا قلقا خطيرا لدى البريطانيين الذين خشوا ان تصير الدولة اليهودية المستقلة في حال قيامها ذات اتجاه اميركي .

كان القلق الذي شعر به البريطانيون في محله . ففي ١٩١٩ كان الرئيس الاميركي ولسون قد ارسل بعثة غير رسمية الى فلسطين . ولدى عودة البعثة الى واشنطن اوصت بان تعمل حكومة الولايات المتحدة من اجل تأسيس دولة في الشرق الاوسط تضم فلسطين ولبنان وتدعى « سوريا المتحدة » . وكان متوقعا الا تكون الدولة الجديدة تحت سيطرة بريطانية ، بل تحت سيطرة اميركية .

وتقدم عضو البعثة وليم بيل ، الذي كان يمثل مصالح شركة ستاندرد اويل ، بخطة مختلفة . ونصورت هذه الخطة فصل فلسطين عن سوريا واقامة « وطن قومي » هناك لليهود . وقال ان دولة يهودية ستقع حتما تحت سيطرة يهود الولايات المتحدة الذين سيطعمون حياتها بالمثل الاميركية والمدنية الأميركية ، وان دولة ديموقراطية يهودية في فلسطين من شأنها ان تصير قاعدة امامية — اميركية في الشرق الاوسط .

وفيما ازدادت حدة الصراع الامبريالي الانكلو — اميركي من اجل الهيمنة على العالم ، تزايد اهتمام الاحتكارات الاميركية في الشرق الاوسط الغني الذي كانت له ايضا اهمية استراتيجية فائقة . وطوال ذلك الوقت استمر الزعماء الصهاينة عبثا في اقناع بريطانيا بان تدعهم يؤسسون دولة صهيونية على ارض فلسطين المنتدبة هي عليها . وكانت اقوى حججهم المؤيدة لخطة كهذه هي استعدادهم لتحويل هذه الدولة الى حصن لسياسة الامبرياليين المناهضة للسوفييت، حتى ان بن غوريون اقترح اتفاقا توافق بريطانيا بموجبه على اقامة دولة يهودية على جزء من الارض الفلسطينية ، ويضمن زعماء الدولة الجديدة جعلها قاعدة عمليات ضد روسيا .

بيد ان البريطانيين لم يكونوا على عجلة للقيام بتنازلات . واعتبروا ان نموا سريعا في السكان اليهود في فلسطين من شأنه ان يعقد سياستهم الرامية الى التوازن على حافة نزاع عربي — يهودي ، ويعوق مقاومتهم لاقامة دولة يهودية ، ويقدم للاميركيين ذريعة للتدخل في الشؤون الفلسطينية . ولذا اخذت الحكومة البريطانية تحد تدريجيا من الهجرة اليهودية الى فلسطين . واخيرا قررت ، في ١٩٣٩ ، وخلافا لالتزاماتها السابقة ، وبصورة معارضة لجهود الصهاينة ، ان توقف استيطان اليهود في « ارض الموعد » .

الحرب العالمية الثانية اضعفت مركز بريطانيا في الشرق الاوسط الى حد كبير ، ومكن ذلك الولايات المتحدة ، منذ نيسان (ابريل) ١٩٤١ ، من ايجاد « لجنة فلسطين الاميركية » التي ضمت ٦٨ عضوا في مجلس الشيوخ وما ينوف على ٢٠٠ عضو في مجلس النواب . ودعت اللجنة بصورة مكشوفة الى اقامة « وطن قومي» يهودي في فلسطين وفي اذار (مارس) ١٩٤٤ اعلن الرئيس روزفيلت ان الحكومة الاميركية كانت دوما تخالف السياسة البريطانية الرامية الى عرقلة تأسيس دولة يهودية مستقلة في فلسطين . وبعد ذلك بشهرين وضع مجلسا الشيوخ والنواب الاميركيان مسودة قرار مشترك يعرب عن استعداد اميركا للتعاون في تبني الاجراءات اللازمة لتأمين هجرة يهودية غير مقيدة الى فلسطين ولاقامة « دولة يهودية حرة وديموقراطية » هناك .

وخلال حملة انتخابات الرئاسة عام ١٩٤٤ وجدت مطالب الصهاينة التي دعمها كبار الرأسماليين اليهود طريقها الى البرامج السياسية الانتخابية لكل من الحزبين الجمهوري والديموقراطي ، وكانت هذه المطالب ، ومعظمها معني بتأسيس دولة يهودية ذات سيادة ، تتفق كل الاتفاق مع مصالح رأسمال الاحتكار الاميركي ، وبالتالي تمتعت بتأييد البيت الابيض .

وفي آب (اغسطس) ١٩٤٥ ، طلب الرئيس ترومن من الحكومة البريطانية ان تسمح لمئة الف

مهاجر يهودي بدخول فلسطين دون تأخير ، ولانه كان قد اخذ يصبح من المستحيل على بريطانيا السيطرة على فلسطين بالطرق القديمة ، ولانها اضطرت الى الرضوخ للضغط الاميركي ، فقد احالت الحكومة البريطانية ، في نيسان (ابريل) ١٩٤٧ ، القضية الفلسطينية الى الامم المتحدة . وكانت تؤمل لندن ، بفعلها ذلك ، الا تجد الامم المتحدة حلا يقبل به العرب واليهود وان يكون بوسع بريطانيا ، نتيجة لذلك ، تعزيز مراكزها فيما يتعلق بفلسطين .

وفي التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ ، قررت الجمعية العامة للامم المتحدة ، باكثرية الثلثين ، وجوب انهاء انتداب بريطانيا في فلسطين ووجوب اقامة دولتين مستقلتين — عربية ويهودية — على ارض فلسطين . وخصصت منطقة مساحتها ١١٫١٠٠ كلم مربع ، او ٤٢٪ من اراضي فلسطين ، للدولة العربية التي سيبلغ عدد سكانها ٧٣٥ الف نسمة ، بينهم ١٠ الاف يهودي . اما الدولة اليهودية ، التي سيبلغ عدد سكانها ٩٠٥ الاف نسمة ، بينهم ٤٠٧ الاف عربي ، فكانت ستحصل على ارض مساحتها ١٤٫١٠٠ كلم مربع ، او ٥٦٪ من الاراضي الفلسطينية . وكان سيقام على الاثنين بالمئة الباقيين من الارض جيبان لهما ادارة دولية ، هما القدس وبيت لحم .

وكان الناس في جميع انحاء العالم يأملون ان تتخذ اسرائيل طريق السلام والتعاون مع جيرانها . واعترف الاتحاد السوفياتي بدولة اسرائيل اعتقادا منه بانها ستفعل ذلك . غير ان الزعماء الصهاينة اخذوا طريقا مختلفا . فقد استغلوا الرغبة الشديدة في الاستقلال التي شعر بها الكثيرون من اليهود بعد الحرب ، وخصوصا المهاجرون من البلدان الرأسمالية ، لاجل تحقيق مآربهم السياسية: ورأوا في تأسيس دولة يهودية فرصة متاحة لتنفيذ خططهم التوسعية الواسعة النطاق . وهكذا طفقوا يحولون البلد الى دولة عسكرية تنهج سياسة الضم بهدف خلق « اسرائيل الكبرى » . وافاد الصهاينة على اوسع نطاق من كون الحكام العرب الرجعيين انذاك والخاضعين للامبرياليين ، منعوا شعب فلسطين العربي من ممارسة حقه في تقرير مصيره واقامة دولة خاصة به على ارض فلسطين وفقا لقرار الامم المتحدة .

ولكن لضمن بريطانيا والولايات المتحدة سيطرتهما النامة على الدولتين العربية واليهودية، شجعتا في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٧ النزاع العربي — اليهودي المسلح الذي تطور ، في اوائل ١٩٤٨ ، الى نزاع عسكري خطير . وهذا النزاع اعطى الأمبرياليين الانكلو — اميركيين المناسبة المرغوب بها لاظهار « قلقهم » والتدخل .

وفي الثالث عشر من ايار (مايو) ١٩٤٨ ، استقبل الرئيس ترومان الزعيم الصهيوني حاييم وايزمان وامن الثاني موافقة الاول على الاعلان الفوري لدولة يهودية وبالفعل اعلن الصهاينة دولة اسرائيل في اليوم التالي عينه . وقام حاييم وايزمان ، الذي صار رئيس الدولة المولودة حديثا ، بزيارة ترومان مجددا قبل مغادرته الولايات المتحدة ، وحصل على المزيد من الوعود المحددة بالمعونة الاقتصادية السياسية التيستتطلبها اسرائيل في الاشهر الاولى الخطيرة . وضمن رئيس الولايات المتحدة لاسرائيل تسليمها كميات كبيرة من الاسلحة والقروض للغايات العسكرية .

وكانت نتيجة الحرب الاسرائيلية — العربية الاولى ، التي دامت حتى صيف ١٩٤٩ ، ان اسرائيل استولت على ٦٦٠٠ كلم مربع من المنطقة المخصصة لدولة عربية في فلسطين ، اضافة الى جزء من القدس (المدينة الجديدة) . واحتلت الجزء الاخر حتى القدس (المدينة القديمة) القوات الاردنية . وهكذا لم يتم قط تنفيذ قرار الجمعية العامة للامم المتحدة . وتبين ان اراضي اسرائيل هي اكبر بنحو ٥٠٪ من المساحة التي خصصتها الامم المتحدة ، وبلغت مجموع ٢٠٫٧٠٠ كلم مربع . ولم تؤسس دولة عربية في فلسطين ، ولم يؤلف قط الجيبان الدوليان ، القدس وبيت لحم .

وابان الحرب والارهاب الصهيوني ، اجبر حوالي مليون شخص — اي حوالي ثلاثة ارباع سكان فلسطين العرب — على الفرار من وطنهم والتحول الى لاجئين . وفي السنين اللاحقة رفضت اسرائيل بعناد واصرار الامتثال لقرار الامم المتحدة المتعلق بعودة اللاجئين الى ديارهم . وادى ذلك الى المشكلة المعقدة للاجئين الفلسطينيين وزاد من حدة الوضع المتوتر في الشرق الاوسط .

منذ البداية كانت واشنطن توجه سياسة اسرائيل الخارجية . وقد استخدمت الولايات المتحدة اسرائيل

كسيف مسلط فوق العالم العربي ، كسلاح لمقاومة قيام انظمة تقدمية في بعض البلدان العربية . وبما ان الولايات المتحدة كانت تحول اسرائيل الى مركز انطلاقها الاستراتيجي في الشرق الاوسط ، فقد كانت سخية في مساعدتها ودعمها لربيبتها الصهيونية . وردت حكومة تل ابيب هذه البادرة بان فتحت الباب على مصراعيه للاحتكارات والمؤسسة العسكرية الاميركية .

وفي الثالث عشر من حزيران (يونيو) ، ١٩٥٠ ، وقعت الولايات المتحدة واسرائيل اتفاقا يسمح لسلاح الجو الاميركي بموجبه باستخدام الاراضي الاسرائيلية . واستخدمت اول قروض تلقتها اسرائيل من الولايات المتحدة لبناء ميناء حيفا ، وتوسيع قاعدة اللد الجوية ، وتشييد سكك حديدية استراتيجية ، وفي كانون الاول ١٩٥١ وايار ١٩٥٢ وتشرين الثاني ١٩٥٢ وقع البلدان اتفاقات حول المعونة الاقتصادية الاميركية لاسرائيل التي التزمت ، بدورها ، بان تحمي هي والولايات المتحدة معا تلك المنطقة من العالم التي تؤلف اسرائيل جزءا منها ، وبان تشارك في اجراءات تهدف الى المحافظة على الأمن الدولي . هذه الاتفاقات وغيرها حددت التعاون الدبلوماسي والسياسي والأقتصادي والعسكري بين الولايات المتحدة واسرائيل ، ذلك التعاون الذي حاول الجانبان ان يربحا منه اكبر قدر ممكن .

وبسخرية يعترف الزعماء الصهاينة بان اسرائيل هي قاعدة امامية اميركية . وكان زعيم الحزب الليبرالي الصهيوني في اسرائيل ، س. ابراموف ، صريحا للغاية من هذه الناحية . قال : « لا تقاتل اسرائيل من اجل حماية نفسها فحسب ، بل ايضا لتحمي المصالح الحيوية للغرب ... فالجنود الاسرائيليون في قناة السويس يوفرون على الولايات المتحدة الحاجة لارسال قوات الى تلك المنطقة». (١٠) .

من الخطأ الظن ان الصهيونية اضحت مخلب قط الامبريالية الاميركية وان الصهاينة وضعوا سياستهم كلها ودولة اسرائيل في خدمتها . فهم لا يؤيدون المصالح الأميركية الا طالما يدعمهم الامبرياليون الاميركيون .

هناك نحو ستة ملايين يهودي يعيشون في الولايات المتحدة ، وهذا يعني اكثر من ضعف السكان اليهود في اسرائيل . ويقيم نحو نصف اليهود الأميركيين في نيويورك ، حيث يؤلفون نسبة كبيرة من سكان المدينة . ولا يستطيع الحزب الديموقراطي ولا الحزب الجمهوري تجاهل المقترعين اليهود ، الذين يقيم نحو ٧٥٪ منهم في المدن الكبيرة لست ولايات تقدم بموجب النظام الانتخابي ذي المرحلتين في الولايات المتحدة ١٧٨ ناخبا في هيئة الناخبين .

ومع ان بريطانيا لم تعترف بدولة اسرائيل الا في اذار ١٩٥٠ ، فقد كانت قبل ذلك الوقت قدرت اسرائيل كشريك في الصراع ضد حركة التحرير الوطنية لشعوب الشرق الاوسط . ولذا فان التقارب الذي ابتدأ بعد ان اقدمت مصر على تأميم شركة قناة السويس ما لبث ان نما متحولا الى تحالف وثيق . وكان لفرنسا دوافع مماثلة في عواطفها نحو اسرائيل . والى ذلك ، فان تأييد اسرائيل لسياستها المعادية للعرب السابقة في الامم المتحدة كان احد العوامل المهمة .

والعلاقات بين اسرائيل وجمهورية المانيا الاتحادية جديرة بالاهتمام ايضا ، فهي تعود الى العاشر من ايلول (سبتمبر) ، ١٩٥٢ ، عندما وقعت اسرائيل والمانيا الاتحادية اتفاقا حول التعويضات لاسرائيل . ولعب ناحوم غولدمان ، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية دورا مهما في اقامة الاتصال وتنظيم المفاوضات مع المانيا الاتحادية . وكان غولدمان هو الرجل الذي اقام المستشار الالماني ، الدكتور اديناور ، اول اتصال معه ، وبواسطته نقل الى تل ابيب اقتراحه لبدء المفاوضات . وكانت المانيا الاتحادية بحاجة الى مفاوضات كهذه لكسب الاحترام في نظر العالم . فقد انتحل زعماء اسرائيل الصهاينة حق التكلم نيابة عن جميع اليهود ، وبعدما قدروا ثمن روح ضحية من ضحايا الابادة الجماعية النازية وضربوها بعدد اليهود الذين ماتوا على ايدي النازيين ، اتفقوا مع حكومة المانيا الاتحادية على ان تسلم اسرائيل ، خلال فترة ١٢ سنة ، سلعا بقيمة ٨٢٢ مليون دولار ونمدها بخدمات مختلفة . واضافة الى ذلك ، اتفق على ان تحتفظ اسرائيل لمواطنيها اليهود بحق المطالبة بتعويض فردي من المانيا الاتحادية . وبحلول ١٩٦٥ كانت هذه التعويضات الفردية قد بلغت ما مجموعه الف مليون دولار .

هكذا سعت المانيا الاتحادية الى رد الاعتبار المعنوي اليها ، والى كسب عضوية حلف شمال

الاطلسي (ناتو) معه . اما بالنسبة الى اسرائيل، فقد طغت الاعتبارات التجارية لزعمائها على الاعتبارات الاخلاقية . وكما لاحظت بحق صحيفة معاريف الاسرائيلية ، فمن الواضح ان الزعماء الصهاينة الذين ايدوا التعويضات الالمانية نسوا ان الصناعة الالمانية قد انتجت الصابون من عظام ابائهم .

• نتج الاتفاق حول التعويضات للحكومة والافراد اليهود ، الفرص امام تعاون اوثق بين حكام اسرائيل والدوائر النازية الجديدة الساعية الى التوسع في المانيا الغربية ، وقد كانت انذاك قوية النفوذ نوعا ما . ووجدت اسرائيل في المانيا الاتحادية نصيرا دبلوماسيا ومصدر تمويل وامدادات .

وادى قيام علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة وعلاقات ودية مع البلدان الامبريالية الاخرى الى تمكين الصهاينة من بدء تنفيذ خطط الضم الجديدة. وفي صيف ١٩٥٤ ، قام موشيه دايان ، رئيس اركان الجيش الاسرائيلي انذاك ، بزيارة الولايات المتحدة حيث بحث المساعدات العسكرية لاسرائيل. وفي آب (اغسطس) ١٩٥٤ ، ابتدأ ابا ايبان ، سفير اسرائيل في الولايات المتحدة انذاك ، محادثات مع وزارة الخارجية الاميركية حول التزامات اسرائيل العسكرية تجاه الولايات المتحدة والضمانات الاميركية لامن اسرائيل . ودامت هذه المحادثات ثمانية عشر شهرا .

وفي اوائل ١٩٥٥ قرر علاة الصهاينة ، اعتمادا على تلك الضمانات ، توسيع اشتباكات الحدود الاسرائيلية ــ العربية وتحويلها الى عمليات عسكرية واسعة النطاق . وفي ربيع ١٩٥٦ اعلن بن غوريون في الكنيست ان الحرب ضد الدول العربية محتومة . وكان قد تم تحضير اسرائيل لحرب عدوانية بمعونة الولايات المتحدة والدول الغربية الاخرى ، وفي خريف ١٩٥٦ انتهز الزعماء الصهاينة فرصة العدوان الانكلو ــ فرنسي المشترك على مصر ليهاجموا ذلك البلد .

ابتدأ العدوان البريطاني ــ الفرنسي ــ الاسرائيلي المشترك على مصر في التاسع والعشرين من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٦ ، في اعقاب تأميم الحكومة المصرية لقناة السويس . وتميز العدوان بوحشية فائقة نحو السكان المصريين المسالمين . وشجبت الامم المتحدة والقوى التقدمية العالمية العدوان بقوة . وتحت ضغط الرأي العام العالمي ، وبفضل الموقف الشديد الذي وقفه الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية الاخرى حول تلك القضية ، اجبر الغزاة الصهاينة على الاذعان لقرار مجلس الامن التابع للامم المتحدة ، وفي السابع من اذار (مارس) ١٩٥٧ ، سحبوا قواتهم من قطاع غزة .

الا ان اسرائيل ، في خريف ذلك العام ، كانت مستعدة للاشتراك في التدخل العسكري الذي خططت الولايات المتحدة له ضد سوريا باستخدام القوات المسلحة التركية والاسرائيلية . وكان لاسرائيل ايضا ضلع في التدخل المسلح الانكلو ــ اميركي ضد لبنان والاردن في صيف ١٩٥٨ .

وكانت اسرائيل ، بتشجيع من الدول الامبريالية وبدعمها النشيط لسياساتها العدوانية في الشرق الاوسط ، مسؤولة عن التوتر المتزايد في ذلك الجزء من العالم .

وفيما كانت المنظمات الصهيونية في اسرائيل وخارجها ترتكب اعمالا عدوانية وتخطط لضم اراض عربية جديدة ، راحت تشن حملة دعائية واسعة لتسويغ افعالها . وفي خطاب امام الجنود الاسرائيليين في تشرين الاول ١٩٥٨ ، قال ميناحيم بيغن زعيم حزب حيروت دي الطابع الفاشي ، والذي يمثل الدوائر الصهيونية الاكثر رجعية ، وعضو الكنيست : « انتم اسرائيليون، ويجب ان لا تشعروا بأي ذنب حول قتل اعدائكم . ويجب ان لا يكون لديكم اي عطف عليهم الى ان ندمر الثقافة العربية المزعومة . وعلى اطلالها سنبني مدنيتنا نحن » . وبروح اسوأ التقاليد الفاشية اعلن قائلا : « لن تكون لنا فرصة للتطور حتى نسوي مشكلاتنا الاقليمية من مراكز القوة . وسنجعل العرب يطيعوننا طاعة عمياء » .

وفي خطاب امام الطلبة قال بن غوريون ، احد ابرز المنظرين الصهاينة ورئيس وزراء اسرائيل الاسبق : « ان خارطة اسرائيل ليست خارطة وطننا . لدينا خارطة مختلفة عليكم انتم تلامذة المدارس اليهودية وطلبتها ان تجعلوها حقيقة واقعة . فعلى الامة الاسرائيلية ان توسع اراضيها لتشمل المنطقة من الفرات الى النيل » .

وهذا القول ليس كلاما عابرا بل بيانا بسياسة

الحكومة . فان غلاة الصهاينة قدموا لشعب اسرائيل هدفا ذا صياغة واضحة للتوسع الاقليمي. وشرح طرق تحقيق ذلك الهدف الزعيم الصهيوني فلاديمير جابوتنسكي ، قبل قيام دولة اسرائيل بوقت طويل . فقد اعلن قائلا : « فلسطين يجب ان تكون ملك اليهود . وان استخدام طرق ملائمة لتأسيس دولة يهودية قومية سيكون عنصرا ضروريا دائم الحضور من عناصر سياستنا . ويعرف العرب منذ الان ما ينبغي علينا ان نفعله بهم وما نطلبه منهم . علينا ان نخلق وقائع وحقائق جديدة ، ونشرح للعرب ان عليهم مغادرة ارضنا والخروج الى الصحراء . »

وسرعان ما نبتت البذور السامة للدعاوة الصهيونية . وكانت احد الاسباب الرئيسية « لحرب الايام الستة » في الشرق الاوسط ، العمل العسكري الجديد عام ١٩٦٧ .

العدوان الاسرائيلي يستمر

كانت « حرب الايام الستة » قد انتهت ، لكن الدبابات الاسرائيلية زحفت حتى قناة السويس ، ووقفت على طول الضفة الغربية الكاملة للاردن واستولت على الجولان ، مخلفة الدمار والموت . وواجه الصهاينة مهمة جديدة — هي المحافظة على غنائم النصر . كان في نية تل ابيب اجبار الدول العربية ، ضحايا العدوان ، على الموافقة على مفاوضات سلام تأمل في ان تؤيد نتائج العدوان وتترك اسرائيل اراضيها الجديدة ، متوسعة على حساب جاراتها . الا ان الشعوب العربية ، رغم النكسات العسكرية ، لم تستسلم ولم توافق على المفاوضات طالما ظلت اسرائيل محتلة لجزء من اراضيها .

وهكذا اخفقت المؤامرة الامبريالية ضد القوى التقدمية في الشرق الاوسط ، فمع ان قوات المعتدي كانت متمركزة على تراب عربي ، فقد عجزت عن الاطاحة بحكومتي مصر وسوريا ، او تحطيم ارادة الشعوب العربية في مقاومة العدوان. كذلك اخفقت في تمزيق العلاقات السوفياتية — العربية الوديـة .

وبعدما حقق الصهاينة النجاح في ساحة المعركة، استمروا يعتمدون على قوة السلاح لممارسة الضغط السياسي . واخذوا يقصفون بالقنابل والمدافع مراكز القوات العربية على طول خط وقف النار وعلى الحدود مع لبنان ، ويشنون غارات جوية بربرية في عمق سوريا ومصر والاردن . ولم يكن الهجوم الوحشي الذي شنه سلاح الجو الاسرائيلي على قرية كفر اسد الاردنية ، والتي اشتملت ضحاياه على رجال ونساء واطفال ، غير مثل واحد على السياسة الصهيونية الرامية الى « الضغط » على العرب الصامدين . وتوالت هذه الغارات الجوية الاثيمة على المدن والقرى في البلدان العربية ، وبخاصة مصر التي كان غلاة الصهاينة يعتبرونها العقبة الرئيسية في طريق تنفيذ خططهم .

وفي اوائل شباط (فبراير) ، ١٩٧٠ ، تباهى رئيس الاركان العامة الاسرائيلي الجنرال بارليف بان سلاح الجو الاسرائيلي قام منذ نهاية « حرب الايام الستة » بنحو ٣٠٠٠ غارة جوية على الاراضي المصريـة .

وفي محاولة لاستفزاز حرب اخرى ، ارسلت اسرائيل طائراتها القاذفة للقنابل موغلة اكثر فاكثر في البلدان العربية واغارت على مواقع آهلة بالسكان قرب القاهرة ودمشق وعمان . حتى ان المظليين الاسرائيليين شنوا غارة كومندوس ضد محطة المحولات الكهربائية القريبة من نجع حمادي ، جنوبي القاهرة . وكررت الغارة في نيسان (ابريل) ، ١٩٦٩ .

وفي اواخر ١٩٦٩ كانت الخسائر بالارواح التي وقعت نتيجة للقصف الاسرائيلي ١٢٠٠ ضحية . وشرع الزعماء الصهاينة يشيرون في خطبهم الى « حرب دائمة » .

وانجرفت رئيسة الوزراء الاسرائيلية غولدا مئير في نوبة من حمى الحرب فاعلنت للعالم الساخط الغاضب ان الغارات الجوية ستستمر الى ان « تحقق الاهداف المحددة سابقا » . وكانت اهداف غلاة الاسرائيليين تتألف من استفزاز رد انتقامي عربي بغية تومر الذريعة لاشعال حرب اخرى .

وقد ندد الاجتماع العاشر المنعقد بكامل اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاسرائيلي في نهاية كانون الثاني (يناير) ، ١٩٧٠ ، تنديدا شديدا بأعمال غلاة الصهاينة وقال ان المغامرات العسكرية الاسرائيلية انما تهدف لتوريط البلدان العربية في حرب ، ولقلب النظامين المناهضين للامبريالية في مصر وسوريا ، ولتقويض الصداقة السوفياتية — العربية ، ولمنع الوصول الى تسوية

سلميـة لازمة الشرق الاوسط .

وشهد كانون الثاني ١٩٧٠ توسيعا اخر للعدوان الاسرائيلي . فقد زاد الاستراتيجيون الصهاينة من تصفهم للاراضي العربية ، بصورة منافية لقرارات مجلس الامن التابع للامم المتحدة . ففي السادس من شباط (فبراير) ، على سبيل المثال ، قام الطيارون الاسرائيليون بما يزيد عن ثلاثين غارة ، مغيرين على تل الكبير ومرفأي البحر الاحمر الغردقة وصفاجه وبعض المناطق الكثيفة السكان . وكان غلاة الصهاينة يعتمدون على تأثير نفسي : ارادوا اشاعة الذعر بين السكان وتحطيم معنوياتهم وارغامهم على الاستسلام .

وفي الثاني عشر سباط صعق العالم بغارة وحشية تشن على مشروع غير عسكري ، هو مصنع لاشغال المعادن في ابو زعبل ، احدى ضواحي القاهرة . ففي اللحظة التي كان يجري فيها تغيير نوبات العمل ، قصف الطيارون الاسرائيليون المصنع ، فقتلوا ما يزيد عن ٨٠ شخصا وجرحوا نحو مئة . وكانت هذه الغارة الجوية ، التي لا معنى لها على الاطلاق من وجهة النظر العسكرية ، جزءا من حرب اسرائيل النفسية .

وفي سنتين ونصف السنة بعد « حرب الايام الستة » وقع ، الى جانب الغارات الجوية العديدة ، نحو ٤٠٠٠ اشتباك مسلح على خط وقف النار بين اسرائيل ومصر ، واكثر من ٣٠٠٠ على حدود اسرائيل مع الاردن ، واكثر من ٣٠٠ على حدودها مع سوريا .

وفي الثامن من ايلول ، ١٩٧٢ ، اغار عدد من الطائرات الاسرائيلية من طرازي سكاي هوك وفانتوم على مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في سوريا ولبنان . ومن مستوى طيران منخفض ، قصف الطيارون الاسرائيليون النساء والاطفال الذين استولى عليهم الذعر . وكررت الغارة الجوية في اليوم التالي . وجرى قصف عشر مناطق في سوريا ولبنان وقرية اردنية . وزادت الخسائر البشرية بين المدنيين المسالمين عن الاربعماية في يومين فقط .

وبعد ذلك باسبوع ، في السادس عشر من ايلول ، قامت وحدات الية ومدرعة اسرائيلية ، تؤازرها الطائرات ، بغزو لبنان في الجنوب ، ولنحو ٣٦ ساعة راحت القوات الاسرائيلية تقتل وتدمر عبر البلدان والقرى ، ولم ترغم على التراجع الا بعد وصول عدد كبير من القوات اللبنانية . وخلال الغارة سقط اكثر من ٤٠ قتيلا و ١٠٠ جريح عربي ودمر ١٣٠ منزلا .

وفسرت تل ابيب هذه الغارة البربرية على انها انتقام لاعمال متطرفين عرب من منظمة ايلول الاسود . بيد ان الحكام الصهاينة لم يحاولوا حتى تسويغ هجومهم التالي ، يوم الاحد الخامس عشر من تشرين الاول ، ١٩٧٢ ، ففي ذلك اليوم قامت اكثر من ٢٠ قاذفة قنابل اسرائيلية بقصف ضواحي صيدا ، في لبنان ، والقرى المجاورة بالقنابل والصواريخ . وفي الوقت ذاته وجهت ضربة جوية ضد مدينة مصياف وجوارها . وفي مقابلة مع وكالة انباء اميركية قالت القيادة الاسرائيلية ان الغارات ينبغي اعتبارها اشارة الى استعداد اسرائيل لان تهاجم حيثما ارادت وكلما ارادت .

وجاء الدليل الاخر على هذا الاستعداد في الثلاثين من تشرين الاول ، ١٩٧٢ ، عندما قامت اسرائيل بغارة جديدة على عدة قرى سورية . والقت الطائرات الاسرائيلية الكثير من القنابل الكبيرة التي لا تنفجر ساعة القائها ، مما جعل عمليات الانقاذ خطرة جدا . وقالت وكالة الصحافة الفرنسية ان نحو مئة شخص قتلوا خلال تلك الغارة . ودمرت الكثير من منازل الفلاحين والمباني الزراعية ، ونفقت رؤوس عديدة من الماشية .

وقبل فجر الحادي والعشرين من شباط ١٩٧٣ ، بعد الكثير من اعمال خرق الحدود والاجواء السورية واللبنانية ، انزل المعتدي الاسرائيلي قوات محمولة جوا في الاراضي اللبنانية وهاجمت مخيمات اللاجئين الفلسطينيين التي تبعد عن خط وقف النار مسافة ١٨٠ كلم . وفي ذلك اليوم ايضا اسقطت الطائرات المقاتلة الاسرائيلية طائرة ليبية مدنية قرب قناة السويس . وقتل الركاب ، الذين يربو عددهم على المئة ، وطاقم الطائرة .

وفي العاشر من نيسان ، ١٩٧٣ ، تسللت جماعة ارهابية اسرائيلية الى بيروت . فدمرت عدة بنايات وقتلت ثلاثة من زعماء منظمة التحرير الفلسطينية . وقتل الارهابيون او جرحوا ٤٠ شخصا .

وبالطبع ، لم تسفر تلك الاشتباكات المسلحة عن خسائر في الجانب العربي وحده . فالقوات

الاسرائيلية تكبدت ايضا خسائر كبيرة في الطاقة البشرية والاعتدة . بيد ان هذا لم يزعج الزعماء الصهاينة كثيرا . فاجتذاب المهاجرين الجدد بين السكان اليهود في « الشتات » والموقف المتعاطف للدول الامبريالية امنا لاسرائيل تعويض النقص في الطاقة البشرية والاسلحة .

وكل يوم من العدوان كلف اسرائيل ١٤٠٠٠٠٠ر٣ دولار ، او ١٢٠٨ دولار للمواطن الواحد ، كذلك انفقت مبالغ طائلة من المال على بناء شبكة دفاعية قوية على طول الضفة الشرقية لقناة السويس . وسميت الشبكة « خط بارليف » ، وجاءت الاموال الضرورية لكل هذا من المنظمات الصهيونية وحكومات البلدان الامبريالية .

وفي حين تجنب حكام اسرائيل الصهاينة الوصول الى تسوية سلمية مع البلدان العربية وحافظوا على حالة « لا حرب ولا سلم » في الشرق الاوسط، فقد اصروا على مواصلة سياسة الضم « من اجل الامن » . وقد ادعوا ان مصر ترفض الاعتراف بسيادة اسرائيل والسماح لها باستخدام المياه الدولية . وفي اوائل ١٩٧١ ، ردا على سؤال من غونار يارينغ ، الممثل الخاص لامين عام الامم المتحدة ، قالت الحكومة المصرية ان مصر مستعدة لضمان سيادة اسرائيل ، بشرط ان يلتزم الجانبان الحدود التي كانت قائمة قبل العدوان الاسرائيلي في حزيران ١٩٦٧ ، وان مصر ستضمن الملاحة الدولية على طول خليج العقبة . والى ذلك ، فلدى انسحاب القوات الاسرائيلية من الضفة الشرقية لقناة السويس ، تضمن مصر ابقاء القناة مفتوحة طوال الاشهر الستة التالية لجميع السفن ، بما فيها السفن الاسرائيلية . ولم تعترض الحكومة المصرية على تمركز قوات مراقبة دولية في شرم الشيخ .

وقال تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي لمؤتمر الحزب الرابع والعشرين الذي تلاه ليونيد بريجنيف، الامين العام للجنة المركزية للحزب « طلعت الجمهورية العربية المتحدة اخيرا بمبادرات مهمة . فقد اعلنت قبولها باقتراح تقدم به الممثل الخاص للامم المتحدة ، الدكتور غونار يارينغ ، واستعدادها للوصول الى اتفاق سلام مع اسرائيل حال سحب القوات الاسرائيلية من الاراضي العربية المحتلة ، كذلك اقترحت الجمهورية العربية المتحدة خطوات لاستئناف الملاحة على طول قناة السويس في المستقبل القريب جدا . وهكذا فان موقف الجانب العربي يوفر اساسا حقيقيا لتسوية الازمة في الشرق الاوسط . ويظهر رفض الحكومة الاسرائيلية لجميع هذه المقترحات ، وتمسك تل ابيب الوقح بصورة مكشوفة الان بالاراضي العربية ، يظهر بوضوح من الذي يسد الطريق الى السلام في الشرق الاوسط ، وعلى من يقع اللوم لمناخ الحرب الخطر الذي يحافظ عليه في تلك المنطقة . »

وفي القدس قامت الجرافات الاسرائيلية ، لتوسيع الساحة حول حائط المبكى ، بهدم المساكن العربية المجاورة لها . الا ان الصهاينة لم يتوقفوا عند ذلك الحد ، بل هدموا مجموعات كاملة من المنازل العربية واستبدلوها بما سموه وحدات اسرائيلية . وتقول وزارة الاسكان ان ٦٥ الف يهودي آخر سيصار الى اسكانهم في القسم الشرقي من القدس بطول ١٩٧٥ . وينسجم هذا مع السياسة العامة لاخراج العرب من المدينة . ويرافق طردهم تدمير بربري للمعالم التاريخية وغيرها من معالم الثقافة العربية . ويعتزم الصهاينة ، الذين اعلنوا القدس عاصمة لاسرائيل في كانون الثاني ١٩٥٠ ، رفع عدد السكان اليهود في المدينة الى ٩٠٠ الف . وآنذاك سيواجهون العالم كله ، وليس العرب وحدهم ، بحقيقة واقعة — تحويل تلك المدينة الى المركز الديني والاداري والسياسي للدولة الصهيونية .

وتعقد السلطات الاسرائيلية مؤتمرات صهيونية تظاهرية في القدس . كان احدها مؤتمر المليونيريين اليهود ، الذي اظهر دعم كبار رجال المال الصهاينة في العالم للسياسة التوسعية التي تنتهجها اسرائيل .

ويجري تشييد المساكن لليهود والمستوطنات الزراعية على اراضي طرد منها العرب . ففي اوائل ١٩٧٣ كانت هناك ٤٥ مستوطنة كهذه ، وعددها آخذ في الازدياد . وخصص نصف هذه المستوطنات لكتائب الشبيبة المشرفة على ما يسمى حزام الامن في خط الحدود وغيره من المناطق المهمة استراتيجيا في البلاد . وفيما تستصلح الاراضي، يجري تحويل بعض المستوطنات المحصنة الى مشروعات زراعية . ولم يعد عمالها الشبان يحملون بندقية او رشيشا معهم الى

الحقول ، مما يؤكد « الحقيقة الواقعة » . وعزمهم على البقاء في الارض .

وحتى نهاية ١٩٧٠ ، لم تكن الحكومة الاسرائيلية قد اوصت رجال الاعمال بتوظيف رؤوس الاعمال في اعمال البناء في شرم الشيخ ، ولكنها تشجعهم الآن بكل وسيلة . ونتيجة لذلك تتكاثر بسرعة الفنادق والمخيمات السياحية والمقاهي والمطاعم ومرآب تصليح السيارات ومحطات البنزين .

والغزاة منهمكون الى حد كبير ايضا في قطاع غزة . فخلال ١٩٧٢ هدموا ٧٧٢٩ مسكنا هناك ، وفي شهرين فقط ، تموز وآب ، طردوا ١٦ الف شخص من بيوتهم . وحولوا عدة مدارس في المنطقة الى ثكنات للجيش .

وفي التشجيع المتواصل لتل ابيب في سياستها العدوانية يعتمد حماة الصهيونية الاميركيون على العناصر الاكثر مغامرة بين الدوائر الاسرائيلية الحاكمة . فعندما شكلت في كانون الاول ، ١٩٦٩، حكومة جديدة في اسرائيل ، صار ثلاثة جنرالات اعضاء . وكان هذا امرا لم يسبق له مثيل ، وقد تحقق بمعونة واشنطن . كان الجنرالات الثلاثة هم : ييغال الون ، القائد السابق للبالماخ ، وموشيه دايان ، وزير الدفاع ، وعيزر وايزمان ، مؤسس سلاح الجو الاسرائيلي . وشكل هؤلاء الثلاثة ، مع قوميين متطرفين ، هماميناحيم بيغن وشمعون بيريز ، فريقا يمينيا متطرفا في الحكومة ، اعتمدت عليه رئيسة الوزراء غولدا مئير لدعمها . وتجدر الملاحظة ان الكثيرين من المعلقين السياسيين في الخارج وصفوا الحكومة الجديدة بانها « وزارة حرب » حال اعلان اسماء اعضائها .

واثناء تأليف الحكومة ، اخذ الصهاينة الاسرائيليون تعليماتهم من خطاب لوليم روجرز ، وزير الخارجية الاميركية السابق ، في مؤتمر للمربين في واشنطن . ففي وقت كانت تجري فيه مباحثات حول المرشحين للمناصب الوزارية وسياسات الحكومة المقبلة في تل ابيب ، اعلن روجرز انه قبل ان يصير من الممكن بدء حل مشكلة انسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي المحتلة ، ينبغي على البلدان العربية ان تقنع اسرائيل بانها ترغب في سلام دائم في الشرق الاوسط. فوفقا لمنطق وزير الخارجية الاميركية ، يتوجب على ضحية الاعتداء ان تقنع المعتدي بانها مسالمة . وكان هذا امر لم يسبق له مثيل في الدبلوماسية العالمية وممارسة القانون الدولي . والى ذلك ، اعلن روجرز ان القدس يجب ان تصير مدينة موحدة وهذا يتعارض مع قرار الجمعية العامة للامم المتحدة حول اعادة المدينة الى وضعها السابق للحرب . وكان الأمر الذي لا يقل دلالة هو تجنبه السؤال المتصل بالمناطق المحتلة في سوريا والاردن ، والمشكلة الفلسطينية .

وفي تل ابيب فهم خطاب روجرز كتحريض مباشر على الاعمال المعادية للعرب وبالتالي كتعليمات حول كيفية اختيار المرشحين للمناصب الوزارية . وتبين ان القدرة على تنفيذ توصيات واشنطن ، خصوصا فيما يتعلق بتأليف الحكومة الاسرائيلية ، تعتمد على حجم المعونة الاميركية لتل أبيب .

ويقوم زعماء صهاينة نافذون في الولايات المتحدة امثال السناتور جاكوب جافيتس والمستشار الخاص في البيت الابيض ماكس فيشر ، بالضغط ضغطا متواصلا على الحكومة الاميركية من اجل امدادات جديدة من طائرات الفانتوم والسكاي هوك والدبابات والصواريخ والادوات الالكترونية لاسرائيل . وتقوم بنشاط كبير الهيئات الصهيونية الضاغطة على الكونغرس الاميركي حيث تشن حملات سياسية دقيقة التخطيط لحمل الحكومة على دعم اسرائيل دعما مطلقا .

كما ان الارتباطات الدولية للمتمولين الصهاينة تمكنهم من تنسيق المعونة المالية التي يقدمها المليونيريون الاميركيون ونظراؤهم في البلدان الاخرى للعسكريين الاسرائيليين . وكان بين المشتركين في « مؤتمرات المليونيريين » الثلاثة التي انعقدت في اسرائيل بعد « حرب الايام الستة » ، روتشيلد البريطاني وروتشيلد الفرنسي ، شارلز كلور رئيس او مدير ادارة ١٤ شركة ومصرفا في انكلترا ، وزيغموند واربورغ المصرفي اللندني البارز ، وايزاك ولفسون صاحب اكبر متاجر « الديبارتمانت ستورز » في انكلترا ، واسرائيل كالبين رئيس او مدير ادارة ١١٦ مصرفا وشركة في البرازيل . وتوصلوا جميعا الى اتفاق سريع وسهل فيما يتعلق بتلبية احتياجات الصهيونية .

التأم اول هذه المؤتمرات في آب ١٩٦٧ . حضره ٦٠ رأسماليا صهيونيا ، بينهم ٣٨ موفدا

من الولايات المتحدة . فوافقوا على اعمال اسرائيل العدوانية واعربوا عن استعدادهم لتقديم المبالغ المطلوبة على الفور .

واجتمع المؤتمر الثاني والاكثر تمثيلا في نيسان ١٩٦٨ وحضره ٥٠٠ رجل اعمال مهم و ٣٠٠ مستشار اقتصادي . وجرى بحث شامل لاحتياجات المعتدي . وتقرر بناء على اقتراح ولفسون ، تأسيس شركة تأمين اسرائيلية كبيرة . كذلك سوى المؤتمر مشكلة تمويل بناء خط انابيب نفط من مرفأ ايلات ، على خليج العقبة في البحر الاحمر ، الى مرفأ اشدود على ساحل البحر الابيض المتوسط وتعهدت شركتا تيسن ومانزمان الالمانيتان الغربيتان بتقديم الصلب لخط الانابيب .

انعقد المؤتمر الثالث لكبار الممولين الصهاينة في حزيران ١٩٦٩ . واشتمل موفدوه على ٣٠٠ مصرفي وصناعي ورجل اعمال . وكان الموضوع الرئيسي للمؤتمر هو الخطط التوسعية بصورة مكشوفة . واضافة الى المخصصات التالية للتسلح ، بحث الموفدون توظيف رؤوس الاموال في الاراضي العربية المحتلة ، وبخاصة في قطاع غزة والضفة الغربية . و « لاسباب امنية » ابقيت تفاصيل الخطط الاسرائيلية الجديدة ، التي تطلبت مبالغ كبيرة من المال ، طي الكتمان ولم تبحث في المؤتمر . الا ان وزير المالية الاسرائيلية اكد للموفدين ان توظيفات رؤوس اموالهم مأمونة تماما ، مهما طرأ من تحول على الاحداث في الشرق الاوسط .

والى جانب الاستثمارات والقروض الاجنبية ، تلعب تبرعات الصهاينة دورا مهما في اقتصاد اسرائيل . وفي اقل من ربع قرن حولوا اسرائيل من بلد ضئيل السكان متخلف اقتصاديا الى دولة صناعية . ولولا جميع هذه المساعدات المالية والاقتصادية لكان هذا الوليد الصهيوني افلس منذ وقت طويل عاجزا عن معالجة الصعوبات المادية التي ولدتها سياسة المغامرات والحروب المتواصلة التي تشنها . ففي ١٩٧٠ وحدها تلقت اسرائيل في اشكال مختلفة وعملات مختلفة ، نحو ٥٠٠ مليون دولار ، وهو مبلغ انزل عجز ميزان مدفوعاتها الى النصف تقريبا .

وللصهاينة شبكة واسعة من المنظمات التي تفرض « ضرائب على يهود الشتات » . واكبر هذه المنظمات الوكالة اليهودية ومركزها القدس . وتتولى العمليات المصرفية في تحويل الاموال المجموعة ، الكيرن هايسود ، وهي منظمة خاضعة للوكالة اليهودية ولها فروع في ٣٤ بلدا .

تتلقى اسرائيل نحو ٨٠ بالمئة من هداياها المالية وقروضها من الولايات المتحدة التي يبلغ عدد السكان اليهود فيها ستة ملايين . ولا يجمع الصهاينة المال في اية جالية يهودية اخرى على مثل هذا النطاق الكبير وبمثل البراعة التي يظهرونها في الولايات المتحدة . وتقوم مكاتب « النداء اليهودي الموحد » ، الفرع الاميركي لمنظمة كيرن هايسود ، في الطبقة التاسعة والعشرين من بناية سبيري راند . ويستخدم عدد كبير من الموظفين الذين يتقاضون اجورا ومن المتطوعين لجمع الاموال . ويقيم مكاتب « النداء » اتصال « تلتيب » مباشرا مع نحو ٢٠٠ جالية يهودية في الولايات المتحدة . وانتجت زيارة غولدا مئير الى الولايات المتحدة في اوائل ١٩٧٣ لاسرائيل منحة مجانية مقدارها ٥٠ مليون دولار .

ولا تقل المنظمات الصهيونية في البلدان الرأسمالية الاخرى اصرارا على سلب اليهود . وهي كثيرة النشاط في فرنسا ، على سبيل المثال . وذات مرة وجه المليونير الفرنسي روتشيلد نداء للنصف مليون يهودي فرنسي للتبرع بعشرة بالمئة من مداخيلهم لاسرائيل .

وفي بريطانيا ، كذلك ، يساعد الفرع الانكليزي من اسرة روتشيلد المصرفية والرأسماليون الصهاينة الاخرون اسرائيل بمبالغ ضخمة من المال . وباستطاعة المنظمات الصهيونية التي تملك اموالا ضخمة في بريطانيا ان تضغط من اجل التبرعات بواسطة اعلانات تنشرها لا في صحافتها هي فحسب بل ايضا في الصحف التي يملكها رأسماليون انكليز .

ونتيجة لجمع الاموال على نطاق واسع ، فان سيلا متواصلا من المال يتدفق على تل ابيب من ٥٤ بلدا في العالم . وينوف المبلغ الاجمالي للتبرعات التي جمعها الصهاينة من « الشتات » في الاعوام الاثنين والعشرين الاولى بعد قيام اسرائيل على اربعة الاف مليون دولار . ويقول زعماء الصهاينة على سبيل النكتة انهم افلحوا في تطوير حيوان هجين بين بقرة وزرافة :

فهو يتغذى من الخارج ولكنه يعطي حليبا في اسرائيل .

وانطلاقا من القول المأثور بان المال لا رائحة له ، لا يأنف الصهاينة من جمع الاموال حتى من رجال عصابات معروفين ، واصحاب بيوت القمار وغيرها من اوكار الشر . ففي ١٩٧١ اعلنت الصحف الاسرائيلية مهللة بان مئير لانسكي ، زعيم العصابات الاميركي البالغ من العمر ٦٩ عاما ، قد صار مواطنا اسرائيليا . ولم يكن دافع لانسكي في طلبه المواطنية هو رغبته في الافادة من المنافع التي يقدمها لرجل ثري الدولة التي تصورها تيودور هيرتزل ليس الا . بل كان دافع لانسكي ايضا هو كون نشاطاته قد اجتذبت اهتمام الجمهور الاميركي الى حد ان الشرطة الاميركية المتساهلة وجدت صعوبة في الاستمرار في التغاضي عنها . وخشي زعيم العصابات المتقدم في السن الفضيحة والاعتقال فقرر اللجوء الى اسرائيل ، اذ انه كان اسدى مكرارا خدمات جلى للصهاينة وقاسمهم ارباحه البغيضة اخلاقيا . وكانت حسابات لانسكي دقيقة . فان كلا من الزعماء الصهاينة الاسرائيليين والاميركيين ، الذين كان لانسكي ورجاله بناء على طلبهم قد ارهبوا معارضي الايديولوجيا العنصرية الصهيونية والتنافر الوطني في الولايات المتحدة ، لم يستطيعوا تجاهل كون المجرم المتأصل يملك وثائق تعرضهم للشبهة ووصولات موقعة من جامعي اموال التبرع الصهاينة الذين كان يتبرع لهم بانتظام لذا كان الصهاينة مجبرين على فتح بوابة الارض المقدسة للانسكي وامواله .

ولكن مهما عظمت الخدمات المسداة لاسرائيل من المنظمات الصهيونية الدولية او التبرعات المجموعة ، فهي ما كانت لتكفي بحد ذاتها لتمكين اسرائيل من مواصلة سياسة المغامرات والعدوان والسلب طيلة هذه الاعوام . وصارت هذه السياسة ممكنة بفضل البلدان الامبريالية التي اوجدت اسرائيل في العالم وما برحت تدعمها .

فالمصادر الصحافية الاميركية تقول ان اسرائيل قادرة على صيانة جيش نظامي من ٨٠ الف رجل يتألف من ٢٠ لواء ومجهز بـ ١٢٠٠ دبابة و ٣٠٠ مدفع ذاتي الحركة (من عيار ١٠٥ مم و ١٥٥ مم) ، و ١٥٠٠ سيارة مدرعة وحاملة جنود وغيرها من الاعتدة .

في اوائل ١٩٧٣ كان سلاح الجو الاسرائيلي قد صار يتألف من ٥٠٠ طائرة مقاتلة ، بينها الميراج والفانتوم والسكاي هوك . وخلال بقية السنة طرأت زيادة كبيرة على القوة بفضل الطائرات الجديدة التي وصلت من الولايات المتحدة .

سن الدعوة للالتحاق بالجيش بالنسبة للرجال في اسرائيل هي ١٨ الى ٢٩ سنة . وهناك ايضا نساء غير متزوجات تتراوح سنهن من ١٨ الى ٢٦ ، يخدمن فيوحدات الخفر ومقر القيادة ووحدات السوميات في الجيش الاسرائيلي ، وتحرس كتائب النساء المراكز الحكومية والسلك الدبلوماسي .

وبين جنود القوات المسلحة الاسرائيلية ٣٥٠٠ جندي مرتزق من ١٢ بلدا (معظمهم من الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا وجنوب افريقيا واستراليا) لم يتجنسوا بالجنسية الاسرائيلية ، و ١٠ الاف يهودي يحملون جنسية مزدوجة — اسرائيلية وجنسية البلد الذي جاءوا منه .

وقالت غولدا مئير بعد زيارتها لواشنطن في ربيع ١٩٧٣ ان الولايات المتحدة اظهرت فهمها للموقف الاسرائيلي افضل من اي وقت مضى . وكان دليل ذلك التسهم القروض والمنح المعطاة لاسرائيل وتبلغ ٥١٥ مليون دولار ، خصص ٣٠٠ مليون منها لشراء ٤٨ طائرة فانتوم وعشرات الزوارق المزودة بمحركات وعدد من طائرات سكاي هوك وقنابل يوجهها شعاع ليزر وغيرها من معدات القتال الحديثة . وخصص تل ابيب ١٠٠ مليون دولار « لبناء المساكن » ، يعني « انماء » الاراضي العربية المحتلة .

ومع ان بون اعلنت عن حيادها التام فيما يتعلق « بحرب الايام الستة » ، فان المانيا الاتحادية لم توقف قط عن مساعدة المعتدي ، وتستمر في مساعدته . وقد وقع السفير الاسرائيلي في بون ، أشر بن ناتان ، ووزير الدولة لار في وزارة الشؤون الخارجية لالمانيا الغربية ، عقدا لمنح اسرائيل قرضا بمبلغ ١٦٠ مليون مارك لفترة ٢٥ سنة . والى ذلك اسهم الدويتش بنك ، وهو مصرف الماني غربي كبير ، في القرض المصرفي الذي قدمه لتل ابيب اتحاد مصرفي دولي من سبعة بلدان ويبلغ ١٥ مليون مارك .

وتقوم اسرائيل بالاشتراك مع المانيا الاتحادية باجراء ابحاث حول استخدام الطاقة النووية من

اجل الغايات العسكرية . ويشترك اكثر من ٧٠ عالما فيزيائيا المانيــا غربيا في هــذا العمل الذي يقوم به معهد وايزمان وتموله ، من بين من يموله ، مؤسستا فريتز يتسين وفولكسفاغن .

اول زيارة رسمية قام بها وفد حكومي اسرائيلي الى بون جرت في شباط ١٩٧٠ . تــرأس الوفد وزير الخارجية (آنذاك) ايبان . وظلت المحادثات التي اجراها الــوفد مع رئيس جمهوريــة المانيا العربية ومستشارها ووزير خارجيتها سرية تماما .

والى جانب المانيا الاتحادية ، زار ايبان بلجيكا وهولندا ولوكسمبرغ حيث اجتمــع بممثلي المنظمات الصهيونية المحلية وحثها على مضاعفة جهودهــا لجمع الاموال لاسرائيل . وفي بروكسل اجـــرى محادثات مع ممثلــي الاسرة الاقتصادية الاوروبية بحث خلالها التعاون بين اسرائيل وبلدان السوق المشتركه . وقامت المنظمات الصهيونية في تلــك البلدان بدور الوسيط في الوصول بالمفاوضات الى اتفاق بين الاسرة الاقتصادية الاوروبية واسرائيل وهو اتفاق تهتم به هذه الاخيرة اهتماما كبيرا .

وفي انتهاج غلاة الصهاينة سياستهم العدوانية، فانهم يسعون على الــدوام الى تعزيزها بدعائم جديدة . فالنزاع في الشرق الاوسط في تشريــن الاول ١٩٧٣ الذي سبب توترا في الوضع الدولي نجم عن استيلاء اسرائيل على الاراضي العــربية ورفضها العنيد تنفيذ قرار مجلس الامن الصادر في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧ وسحب قواتها مــن الاراضي العربية المحتلة . ووقعت اعمال عسكرية في الاراضي المصرية والســورية ، ولا يستطيــع احد ان يشك في حق الشعوب العربية في القتال من اجل تحرير هذه الاراضي . وفي حين ســدافع الشعوب العربية عن هذا الحق فانها تؤيد جعل الحالة في الشرق الاوسط سوية ، الامر الــذي يخلق الاوضاع لتمديد الوفاق الى هذا المنطقة .

صورة حقيقية عن « الفردوس » الصهيوني

الاهداف الراهنة للصهاينة الاسرائيليين هي : الاحتفاظ بالاراضي المحتلــة ، ارغــام السكان العرب على النزوح عنها ، وعن طريق اعمال الضم الجديدة توسيع اراضي اسرائيل ، وفي الــوقت ذاته اجتذاب مستوطنين جدد من يهود الشتات . وسيصار الى تحقيق هذه الاهداف في وقت واحد مع مواصلة النشاط التخريبي ضد النظام الاشتراكي العالمي وحركات التحرير الوطني .

وهذه الاهداف تــوحد الاحــزاب والجماعات الصهيونيــة ــ من حــزب حــيروت ذي الصبغة الفاشية الــى حزبــي مابــام ومابــاي المدعي الاشتراكية . وخلال الاعوام الاخيرة ، في محاولة لكسب عطف العمال ، كانت الدعاوة الصهيونية تركز على مفهوم « الاشتراكية الصهيونية » فــي اسرائيل . ويقصد بهذا المفهوم ان يغطي امورا كثيرة وهو موجه الى البسطــاء السذج . مثال ذلك ان المشاريــع الصناعية لجمعيــة اتحادات العمال الاسرائيلية ، المسماة هستدروت ، اعلن عن انها « طريق مباشــر الى مرحلة اعلــى من الاشتراكية » ، في حين يزعم ان التعاونيــات الزراعية ، الكيبوتزات ، هي منظمات فيها عناصر الشيوعيـــة .

الصهاينة هم اعداء الاشتراكية الحقة ، الا انهم يلجــأون الــى التأكيــدات الــديماغوجية لتوجيههم الاشتراكي ، والى انتحال الاشتراكية . فهم يستغلون بمكر شعبية الافكار الاشتراكية لكسب جماهير العمال اليهود .

لقد صار من الصعب اكثر فاكثر اخفاء الطبيعة الرجعية للصهيونية عن طريق الاساطير حــــول « الرسالة التاريخيــة لشعب الله المختار » ، والروحانية الدينية ، والنظرية التي ظلت حتــى الاونة الاخيرة مفيدةحول « وحدة واخوة » اليهود . ويجري فضح الاعمال والخطط الصهيونية المجرمة شيئا فشيئا ، واثار هذا الريبة والنقد بين الكثيرين من اليهود . فالسياسة الرجعية التي تنتهجهـــا الصهيونية العالمية شجبتها علنا منظمات صهيونية كبيرة في بريطانيا وهولندا وفرنسا واوروغــواي وبعض البلدان الاخرى . وحتى في اسرائيل ، ليس الشيوعيون هم وحدهم الذين يدركون ان الحكــام الصهاينة يقــودون الشعب في طــريق محفــوف بالاخطار . وهذه الظــروف تجبــر الايديولوجيين الصهاينــة الاكثــر مكــرا على التظاهــر بانهم اشتراكيون .

اسرائيل ، في الواقع ، دولة رأسماليــة كاي دولة رأسماليــة اخرى ، وبالتالــي لا يمكن ان تحتوي على اقل عنصر مــن عناصــر الاشتراكية الحقــة في مجتمعها . فهــي دولــة ترتكز على

الاستغلال ، دولة يملك الرأسماليون فيها ادوات ووسائل الانتاج ، ويصون جهاز الدولة مصلحة الطبقات الملاكة . وتقوم الشركات الخاصة التي يملكها رأسماليون محليون او اجانب بالقسم الاكبر من الانتاج الصناعي في اسرائيل . وفيما يتعلق بمشروعات الهستدروت ، الورقة الوحيدة التي يعتمد عليها « الاشتراكيون » الصهاينة ، فهي لا تمثل الا ٢٠٪ من مجمل الانتاج الصناعي ، والاهم من ذلك هو انها ليست ملكا عاما . بل تملكها شركات ذات رأسمال مشترك تتشارك فيها نقابات العمال مع الرأسماليين المحليين والاجانب الذين يملكون القسم الاكبر من الاسهم . ولا يصار الى استخدام حصة الهستدروت من الارباح واشتراكات عضوية النقابات لتحسين الوضع المادي للعمال او لتلبية متطلباتهم الثقافية بل لتوسيع الانتاج واعالة موظفي ادارة النقابات . ويسلم قسم من الايرادات الى زعامة الاحزاب الصهيونية .

وثمة وضع مماثل نوعا ما في الزراعة . فاكثر من ٩٠٪ من الاراضي المزروعة تملكها الحكومة والوكالة اليهودية اللتين تؤجرانها بقيمة مرتفعة لمزارعين افراد ولمستوطنات جماعية ، والكيبوتز هو نوع المستوطنة الجماعية الاكثر شعبية ومع ان اعضاء الكيبوتز يعملون معا ، فهم لا يشاركون في الارباح او يملكون المباني الزراعية والادوات او غيرها من الممتلكات العائدة للمستوطنة الجماعية . ويعمل اعضاء الكيبوتز عشر ساعات يوميا ولا يحصلون على اي أجر لا بالمال ولا بالنتاج . والذي يحصلون عليه هو المأوى والغذاء العادي وبعض الالبسة . ويحق لهم التمتع بعطلة مرة كل عامين . ولكن حتى الذي عملوا اعواما عديدة في الكيبوتز لايحق لهم الحصول على اي شيء لدى تركهم له ، فقد جاءوه فقراء ويغادرونه فقراء . وهذه هي « عناصر الشيوعية » على الطريقة الصهيونية .

وتستولي على كامل ربح الكيبوتز الادارة الصهيونية غير المسؤولة تجاه اعضاء الكيبوتز وتتألف قوة الكيبوتز العاملة في غالبيتها من مهاجرين شبان واصحاء لا يملكون المال للعمل بشكل مستقل فيضطرون بالتالي الى تأجير انفسهم .

وبوصف الكيبوتزات ومشروعات الهستدروت بانها « اشتراكية » ، يحاول الصهاينة اخفاء الطبيعة الحقيقية لمشروعاتهما ، وفي الوقت ذاته ان يطعنوا في مبادىء الشيوعية العلمية ، ويشوهوا سمعتها في نظر المستوطنين السيئي الطالع الذين يلعنون وضعهم و « الاشتراكية » الصهيونية .

ان الدولة التي اسسها الصهاينة في الارض المقدسة هي ابعد ما تكون عن الفردوس الذي وعدوا به اليهود . فجميع السلطات في تلك الدولة هي ، في الواقع ، في ايدي البورجوازية الكبيرة . وتسيطر على الحكومة الائتلافية احزاب صهيونية رجعية . وليس لاسرائيل دستور حتى يومنا هذا فالقوانين التي صدرت عندما كانت فلسطين تحت سيطرة الاستعمار البريطاني ، وحتى قبل ذلك ، عندما كانت تحت العثمانيين ، ما تزال سارية المفعول . وتنظم العلاقات العائلية والشؤون اليومية « محاكم الحاخامين » التي تقيم العدل على اساس وصايا التوراة وقوانين التلمود واحكام هذه المحاكم ملزمة بالنسبة لكل من المدينين والملحدين .

وتتميز الايديولوجيا المسيطرة في الحياة العامة الاسرائيلية بعنصرية صريحة ورجعية سياسية وروح عسكرية واكليروسية مطرفة . وتمجد القوة الغاشمة وتمارس العادات القروسطية على نطاق واسع . واسجاما مع هذه العادات ، مثلا ، لا يحق لغير الرجال ان يطلبوا الطلاق ، ووحدهم الرجال يتمتعون بحقوق الارث الشرعية . ولا تملك النساء حقوقا كهذه ، واذا مات زوج لا يحق لزوجته الزواج الا من اخيه واذا لم يكن شقيق زوجها الراحل يرغب في الزواج منها ، وترغب هي في الزواج من شخص آخر ، فعليها الحصول على اذن من الاخ . واذا كان الشقيق قاصرا يتوجب على المرأة ان تنتظر حتى يبلغ سن الرشد ويقرر لها مصيرها . كما ان بعض الحاخامين ، انسجاما مع التقاليد وبشيء من الفسق على ما يبدو ، يجعلون النساء اللواتي يعتنقن اليهودية يقمن بالتطهر بالماء في بركة طقسية في حضور ثلاثة حاخامين .

ويمكن تقدير مدى تأثير الحاخامية على حياة اسرائيل الاجتماعية والسياسية من الحقائق التالية . هناك حوالي ٦٠٠٠ كنيس في اسرائيل . والجزء الجديد من القدس ، الذي استولت عليه

اسرائيل خلال « حرب الايام الستة » يوجد فيه وحده اكثر من ٤٥٠ كنيسا . والمجند في الجيش الاسرائيلي يعطي مجلد من التوراة مع بندقيته . وثمة حاخام وكنيس متحرك في كل وحدة من وحدات الجيش . ويحمل كبير حاخامي الجيش رتبة جنرال . ووفقا لمفهوم المؤسسين الصهاينة ــ الاكليركيين لاسرائيل ، فان الدور المهم الذي تلعبه الحاخامية في شؤون الدولة يجب ان يهدىء التنامر الطبقي ويشجع التنشئة الشوفينية للجيل الجديد ويخلق وهم الوحدة بين اليهود .

وفي اقناع اليهود في جميع انحاء العالم بالهجرة الى اسرائيل ، لم يكن « عملاء التجنيد » الصهاينة مقتصرين في وصف امجاد « الفردوس الارضي » . وموضوعهم المفضل في التنديد بالحياة في الشتت هو وجود اللاسامية هناك ، وانعدام الحقوق لليهود والتمييز ضدهم . ويؤكد « عملاء التجنيد » الصهاينة لسامعيهم ان استقبالا وديا ومعونة مادية كبيرة وشققا مريحة وعملا في اختصاص المرء ووحدة وطنيه والموقف المقدر الودي للسلطات سنظرهم في اسرائيل . ويقع الكثيرون من البسطاء السذج ضحيه لهذه الدعاوة . وتوجه اناس من ٩٠ بلدا ، ويتكلمون عشرات اللغات المختلفة للعيش في اسرائيل . فماذا وجدوا هناك ؟

احدى مشكلات اسرائيل الرئيسيه ، التي بدت منذ البداية وبقي الى اليوم غير قابلة للحل ، هي مشكله الفقر ، فان مستوى معيشة ٢٠٪ من العائلات الاسرائيلية هو تحت « خط الفقر » . ولا يتجاوز المدخول الشهري لكل عضو من اعضاء هذه العائلات السبعين ليرة اسرائيلية ، وهو لا يكاد يكفي لشراء الخبز والمرطبين .

والبطالة الجماعية كارثة وطنية في اسرائيل . وفيما تعمل الصناعة الحربية بكامل طاقتها ، يتقلص حجم الانتاج المدني بسرعة نتيجة لانخفاض القدرة الشرائية لدى اكثرية الشعب . كما ان النفقات الهائلة على الغايات العسكرية ، التي تلتهم اكثر من نصف ميزانية الدولة ، والضرائب العالية (وهي الان الاعلى في العالم) تؤدي حتما الى انخفاض في قدرة الشراء لدى الشعب ، مما يؤثر تأثيرا ضارا في السوق الداخلية وحالة العمالة . ويدل ان تحسن البطالة الناجمة عن ذلك ، الوضع . فانها تفضي الى انخفاض آخر في الطلب على سلع الاستهلاك . وحكام اسرائيل الصهاينة عاجزون عن ايجاد حل للخروج من هذه الحلقة المفرغة الاقتصادية . وعلى مئات الالوف من اليهود الذين صدقوهم ان يتحملوا الآن العواقب السياسية للمغامرات التي انتهجوها .

وبسبب البطالة والاجور المنخفضة والضرائب المتزايدة والاسعار الآخذة بالارتفاع (وقد تضاعفت اسعار سلع المستهلكين خلال الاعوام القليلة الماضية) ، فان نحو ٥٠ بالمئة من ابناء وبنات الجيل الجديد عاجزون عن الحصول على ثقافة ، اذ ان رسم التعليم في المدرسة هو الف ليرة سنويا . بيد ان الحاجة تدعو الى المزيد من المال لشراء الكتب المدرسية وغيرها من اللوازم المدرسية .

وفي حين ان النفقات المباشرة وغير المباشرة للغايات العسكرية في اسرائيل تبلغ ٧٠ ــ ٧٥ ٪ من ميزانية الدولة ، فان المخصصات للاحتياجات الاجتماعية لا تؤلف اكثر من ١٢ ٪ ، وللتربية ٥ ٪ فقط .

وفي خطاب خلال مؤتمر لحزب الماباي اعترف وزير الاسكان رئيف شريف بان الحكومة تنفق على الاحتياجات الاجتماعية بقدر ما ينفق الاسرائيليون الاغنياء على المآدب في المطاعم .

وتقدم الحركة الصهيونية العالمية والبلدان الامبريالية مساعدات مالية كبيرة لاسرائيل ، الا انها ليست كبيرة الى حد يكفي لتغطية النفقات العسكرية التي تنمو من سنة لسنة .

ولدى عرض مسودة ميزانية الدولة لسنة ١٩٧٣ على الكنيست ، قال وزير المالية بنحاس سابير أن اسرائيل في الاعوام الستة السابقة لذلك التاريخ انفقت ٢٥ الف مليون ليرة اسرائيلية (٦ الاف مليون دولار امركي) على الاغراض العسكرية ، وان النفقات ستضاعف خلال الاعوام الستة التالية . وتنفق اسرائيل على الاغراض العسكريه بالنسبة لسكانها اكثر مما تنفق الولايات المتحدة بمرتين ونصف المرة . وتبلغ نفقات اسرائيل العسكرية اليومية حاليا اربعة ملايين دولار ، او ٤٨٢ دولارا لكل واحد من سكانها . وفي ١٩٧٢ ، على سبيل المثال ، انفقت تل ابيب ٢٠٠٠ مليون ليرة (قرابة ٥٠٠ مليون دولار) على شراء الاسلحة من الولايات المتحدة . ونفقات اسرائيل العسكرية بالنسبة للفرد هي الاعلى

في العالم . وفيما تنمو نفقات اسرائيل على الشؤون الحربية ، تنمو ايضا ديونها الاجنبية . وفي الاول من كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢ بلغت تلك النفقات ٤٢٠٠ مليون دولار . وفي تلك الاثناء كان احتياطي الذهب والعملة الاجنبية في اسرائيل يتلاشى بصورة رهيبة : وقد تقلص خلال الاعوام الاخيرة الى ثلث حجمه السابق .

والحملة لشراء الاسلحة هي عبء ثقيل يتحمله الشعب العامل . وفي حين ان الشعب الاسرائيلي كان في ١٩٧٠ يدفع من الضرائب اكثر بثلاث مرات مما كان يدفع قبل عدوان حزيران (يونيو) ، فان سنة ١٩٧١ حملت اليه زيادة جديدة في الضرائب على السجائر والبنزين وغيرهما من انواع الوقود ، وفي رسوم الهاتف والخدمات البريدية والكهرباء والنقل .

وتظهر الحكومة الاسرائيلية براعة كبيرة في سياستها الضريبية . فهي تنجح في اختراع ضرائب لا صلة لها البتة باحتياجات الشعب الاساسية . مثال ذلك انها فرضت في الاول من نيسان (ابريل) ١٩٧٠ ضريبة جديدة — على شراء اقنعة الغاز للسكان المدنيين . ويقول المدير العام للمصرف الاسرائيلي ، شافنر ، ان كل مواطن من مواطني اسرائيل دفع للصندوق الحربي خلال العامين الماضيين اكثر مما دفع المواطن في مصر او سوريا او لبنان او الاردن باحدى عشرة مرة .

ويلجأ الزعماء الصهاينة الى حيل خادعة بغية تمويه نشاطهم المعادي للمجتمع . ففي ١٩٧٠ ، مثلا ، بعد محادثات بين الحكومة والهستدروت دامت قرابة سنة ، تقرر رفع الاجور بنسبة ٨ بالمئة . لكن تبين ان هذه الزيادة هي خدعة . ففي الوقت ذاته رفعت « ضريبة الدفاع » من ١٠ الى ١٥ بالمئة من الاجر المتوسط ، والى ذلك فان نصف زيادة الثمانية بالمئة دفعت في شكل سندات الزامية لاكتتاب « قرض الامن » . وبلغت الضريبة المزادة وحسومات الاكتتاب ٩ بالمئة من الاجر ، بحيث لا يبقى شيئا من زيادة الثمانية بالمئة . وهذا مثل على « العناية » التي يبديها زعماء النقابات العمالية الصهاينة بالشعب العامل .

وردا على احتجاجات العمال طرح الصهاينة الشعار : « لا يمكن الدفاع عن البلد ورفع الاجور في الوقت ذاته » . وهذه اعادة صياغة لشعار غورنغ : « المدافع بدلا من الزبدة ! » فللزعيم النازي مقلدون يطبقون فكرته بفعالية في اسرائيل اليوم .

وهناك ازمة اسكان حادة في اسرائيل . ففي ١٩٧٠ ، مثلا ، ارتفعت الايجارات بنسبة ٢٠٪ ورغم استمرار مجيء المهاجرين ، الذين يحتاجون الى شقق غير غالية ، فليست الحكومة مستعجلة لتزويدهم بالمساكن . والى ذلك فان بنحاس سابير (وزير المالية السابق) كان يعتبر بناء المساكن غير مفيد اقتصاديا لانه يستنفد المال الضروري لمهمات عسكرية اكثر الحاحا . ونتيجة لذلك ، تؤكد الاحصاءات الرسمية ان اكثرية المهاجرين تبقى في فقر مدقع . وثلاثة ارباع الذين يعيشون في احياء الفقراء القذرة والمزدحمة بالسكان ويحتاجون الى اغاثة هم مستوطنون وصلوا الى البلاد خلال الاعوام القليلة الماضية . وهم يشتملون على ٨٠٪ من الشبان العاطلين عن العمل .

ورغم ذلك يستمر الصهاينة في جلب المهاجرين . وتنفيذا لاوامر البورجوازية اليهودية الكبيرة

يستمر الصهاينة في الاصرار على ان الحل النهائي للمسألة اليهودية لا يمكن تحقيقه الا بجعل جميع اليهود ، او اكثريتهم على الاقل ، يستوطنون فلسطين .

في خطاب امام جمهور اميركي في ايار ١٩٥١ ، اعلن بن غوريون ان اربعة ملايين يهودي سيستقرون في اسرائيل خلال الاعوام الاربعة التالية . ولم يحدث ذلك قط ، الا ان الايديولوجيين اليهود يستمرون في التمسك بمنطقهم القائل بان مثل هذه الهجرة هي ضرورية لليهود وبان تحررهم غير ممكن طالما هم يعيشون بين شعوب اخرى .

حتى الاونة الاخيرة كان استجلاب المستوطنين في ايدي منظمات عدة . وفي ١٩٦٨ تغيرت الحالة : فقد اقيمت في تل ابيب مصلحة خاصة ، هي وزارة الهجرة ، التي تولت المسؤولية الكاملة لاستجلاب المهاجرين ونقلهم وتأمين احتياجات استيطانهم .

وفي حجم المخصصات من ميزانية الدولة ، تحل وزارة الهجرة ثانية بعد وزارة الدفاع ، ويمكن تقدير الأهمية المعلقة على الوزارة الجديدة ونطاق عملها من ميزانيتها السنوية البالغة ٢٠٠ مليون دولار والمخصصة لاستجلاب المستوطنين .

في شباط (فبراير) ١٩٧١ اشارت احدى الصحف

الصهيونية الى ان احد الاهداف الرئيسية للصهيونية اليوم هو تصحيح الوضع الشاذ لليهود في «الشتات» متجاهلة الفرص القائمة التي تعتنيها الهجرة الى اسرائيل بالنسبة لاكثرية المستوطنين . ومما لا ريب فيه ان مثل هذه الخطة تروق للرأسماليين اليهود اذ انها تعدهم بارباح طائلة . فأرباح الرأسماليين ترتفع كلما ازداد عدد العاطلين عن العمل في سوق العمال ورخصت الطاقة العاملة . وتأثير الخطة على العمال لا يقلق بال اصحابها الصهاينة . فهم اكثر قلقا حول كون اكثر من ١٠ بالمئة من المهاجرين الى اسرائيل سرعان ما يعودون الى البلد الذي جاءوا منه ، وتنشر تل ابيب على مضض احصاءات حول عدد اليهود الذين يغادرون « الفردوس » الصهيوني . فذكريات «حرب الايام الستة» والخطر الماثل ابدا لنزاع مسلح جديد في الشرق الاوسط والمشقات المتزايدة التي ينبغي على الشعب في اسرئيل ان يمر فيها تؤدي الى زيادة مد الهجرة من « ارض الموعد » . وقد غادر اسرائيل ربع مليون نسمة منذ تأسيسها ، ولا سبيل الى التكهن بعدد الدين يرغبون الان بمغادرتها ولكنهم لا يستطيعون دلك ، بعدما شعروا انهم خدعوا بالاغراء والخداع على الذهاب الى « الوطن القديم » .

فزوال الوهم ينتظر المهاجرين منذ اللحظة التي يصلون فيها الى اسرائيل . اذ يمكنهم ان يروا بأم اعينهم الفجوة الواسعة بين الغنى والفقر . وتحل اعظم المشقات بالفقراء القادمين من اسيا وافريقيا، اد ان المجتمع الاسرائيلي لا يقسم تبعا للطبقات الاجتماعية ولمنزلة الناس كملاكين فحسب بل ايضا وفقا للجماعات العرقية ، فالسكان اليهود الفلسطينيو الاصل ، وليسوا عديدين ، يؤلفون الطبقة العليا الممتازة المسماة « الصابرا » . وتحتهم يوجد الاشكينازيون ، وهم مستوطنون من اوروبا والولايات المتحدة . وينقسم الاشكينازيون الى الذين جاءوا من الغرب والذين جاءوا من الشرق ، والاولون مفضلون . ويعامل مواطنو الاتحاد السوفياتي معاملة حذرة بنوع خاص .

يحتل ادنى درجة في هذا السلم الاجتماعي المتعدد الدرجات السيفارديون ، وهم مستوطنون من البلدان الاسيوية والافريقية . ويؤلف السيفارديون الذين يسمون بازدراء « اليهود السود »، المجموعة الرئيسية من العاطلين عن العمل ، خلافا للمزاعم الديماغوجية الصهيونية عن « الوحدة الوطنية والمساواة » . فهم يعطون ، بعد جميع الاخرين فقط ، اشق الاعمال واقلها اجراء وتخصص لهم مساكن ادنى مستوى ، معظمها في ابنية ضخمة بسيطة مكتظة ، تتقاسم الغرفة الواحدة فيها عائلتان او ثلاث عائلات . ومع ان السيفارديين يؤلفون اكثر من نصف السكان اليهود في اسرائيل ، فان عضويتهم في نقابات العمال الصهيونية هي اقل من واحد بالمئة . ومن اصل ١٢٠ مقعدا في الكنيست ، يحتل « الصبرا » ٣٣ مقعدا ، والاشكينازيون ٧٠ مقعدا ، والسيفارديون ١٧ مقعدا فقط ، ولا يؤلف « اليهود السود » غير ٥ بالمئة من الجسم الطالبي في الجامعات الاسرائيلية. وقد منعت الحاخامية الزواج بين السيفارديين واعضاء الطبقات العرقية الاعلى .

واقسى وضع على الاطلاق يعانيه الغوييم ، اي غير اليهود في اسرائيل . والعنصريون الصهاينة يعتبرون اليهود المولدين غوييم ايضا ، وليس العرب وحدهم . ففي العاشر من اذار (مارس) ١٩٧٠ ، اقر الكنيست قانونا حدد من يمكن اعتباره واحدا من « شعب الله المختار » . وبموجب هدا القانون لا يمكن لغير شخص امه يهودية خالصة النسب تدين باليهودية ان يكون مواطنا مكتمل الشروط في المجتمع الاسرائيلي . وبكلام اخر ، اذا كان احد والدي الام غير يهودي لا يمكن لاولادها ان يتوقعوا الحصول على شرف اعتبارهم يهودا اصيلين . فبحكم سخرية القدر اضحت النظريات النازية البيولوجية والعنصرية ، التي اوحت « بقوانين نورمبرغ » المخزية ، الاساس الدي يقرر المنزلة الاجتماعية في اسرائيل . غير ان هذا الامر منطقي اذ ان كلا من القوانين العنصرية لالمانيا النازية واسرائيل نبع من نفس الايديولوجيا الامبريالية .

وتمارس السلطات الصهيونية تمييزا شديدا ضد السكان العرب . فعلى العرب ان يحصلوا على اذن خاص من الشرطة اذا ارادوا الذهاب من احد اجزاء البلاد الى جزء آخر . وفي الكثير من المدن والقرى ينبغي حتى على العرب الذين يقيمون هناك بصورة دائمة اثبات وجودهم يوميا في مركز الشرطة المحلية . ويحق للشرطة ان تضع اي عربي تحت المراقبة ، وان تصادر ممتلكاته ، وان تطرده من بيته ، وان تعتقله هو واعضاء عائلته ، وان تحتجزه لمدة محدودة . والعرب

مجردون من الحقوق المدنية الاولية ولا يعطون من الاعمال غير التي يرفض حتى السيفارديون القيام بها او عندما يكون ثمة نقص مؤقت في الايدي العاملة . وتشتمل مثل هذه الأعمال على حفر الاقنية وشق الطرقات عبر الصحاري وتجفيف المستنقعات . والامية مصير جميع الاولاد العرب تقريبا .

وسبع اعمال الانتقام الوحشية ادنى اشتباه بالتعاون مع الفدائيين الفلسطينيين او حتى التعاطف معهم . وبأمر من موشيه دايان يصار الى انزال « العقاب الجماعي » و « العقاب للوجود قرب المكان » بالعرب . ولا ينزل هذا العقاب بالذين يشتبه بانهم ساعدوا الفدائيين او ساعدوا اي شكل اخر من اشكال مقاومة المحتلين فحسب ، بل ينزل ايضا بالذين كانوا يقيمون قرب المكان الذي قام فيه الفدائيون باحدى عملياتهم .

وكثيرا ما تبرز الصحف الصهيونية « مآثر » ذوي « القبعات الخضراء » ، وهم قوة حدود خاصة تعمل في الاراضي المحتلة . وفيما يلي تقرير من صحيفة هآرتس : « أمرت الدورية الجميع بالوقوف مكانهم والاستعداد للتفتيش . بيد ان البعض حاول الفرار بالقفز الى الباص الذي كان يمر بهم . ففتحت الدورية النار على الباص وجرحت خمسة من ركابه » .

يستشهد بهذا التقرير صحافي الماني غربي اسمه ميخائيل غلازر . ويكتب ايضا : « عدة مرات شاهدت انا نفسي رجال الدورية يضربون الفلسطينيين بالهراوات فيما يجري التدقيق بوثائقهم . ومن التسليات المفضلة لدى ذوي القبعات الخضراء ان يعروا النساء من ثيابهن بحجة التثبت من هويتهن وان يستجوبوهن ساعات وهن عاريات . وهذا ما حدث اخيرا بالضبط لجماعة من المرضات» ويروي غلازر حالات اخرى من المعاملة غير الانسانية التي لقيها عرب على يد السلطات الاسرائيلية . فقد قالت امرأة مسجونة ، هي عبله طه ، لمحاميها بحضور احد مفتشي الشرطة انها وضعت بعد اعتقالها مباشرة في زنزانة مع بعض المومسات الاسرائيليات اللواتي خلعن عنها ثيابها وانهلن عليها بالضرب . وبعد ذلك رمي بها وهي عارية تماما في زنزانة العقاب حيث القى با ارضا شرطي يدعى دويك واخذ يركلها . وكانت المرأة المسكينة حامل فاصيبت بنزف ، ولكن منعت المعونة الطبية عنها .

وعندما سمع المؤيد عثمان البحش ، وهو طالب عربي ، بمقابلة محاميه كانت ذراعه مصابة بالشلل . وروى له ما يلي : « علقوني بالسقف من ذراعي واخذوا يشدون قدمي. وظلوا يضربونني الى ان غبت عن الوعي . ثم قيدوني بالاغلال وضربوني بالعصي ، وجعلوا التيارات الكهربائية تعبر جسدي ، وحرقوا جلدي بالسجائر » . ويبدو واضحا ان الاسرائيليين لم يتركوا ايا من ممارسات مدرسة هتلر الا واستعملوها .

ويحتج الكثيرون من المهاجرين اليهود ، فضلا عن العرب المضطهدين ، على النظام الصهيوني في اسرائيل . وثمة حركة نامية مناهضة للعسكرية الاسرائيلية . وكذلك تزداد قوة الحملة المضادة للاستغلال الراسمالي والعنصرية ووسائل الادارة الارهابية ، وسيادة اللاشرعية .

ويتزعم الحزب الشيوعي الاسرائيلي الحركة من اجل سلام دائم في الشرق الاوسط ، ومن اجل التحرير الاجتماعي والديموقراطي كذلك تدعو «حركة الاستقلال اليسارية » التي يترأسها النائب في الكنيست جاكوب رفين الى تنفيذ قرار مجلس الامن التابع للامم المتحدة وسحب القوات الاسرائيلية من الاراضي العربية المحتلة . وتنشط عدة منظمات شبيبة اسرائيلية في النضال من اجل السلام وضد السياسة العسكرية التي تنتهجها الحكومة .

وفيما تتدنى مستويات معيشة العمال الاسرائيليين يزداد الصراع الطبقي حدة ، وتتخذ حركة الاضرابات نطاقا متعاظما اكثر فاكثر . وجاء في احصاءات رسمية نشرتها تل ابيب ان ٩٠ اضرابا حدث في الفترة بين كانون الثاني (يناير) وايلول (سبتمبر) ١٩٦٩ ، وبلغ عدد المضربين ٣٠ الفا . وفي الفترة نفسها في عام ١٩٧٠ حدث في اسرائيل ١٢٧ اضرابا اشترك فيه ٧٢ الف شخص . وفي ١٩٧٠ بلغ مجموع عدد المضربين ١٢٠ الف شخص . واستمرت حركة الاضرابات تزداد زخما في ١٩٧١ ، وانضم اليها عمال صناعة الورق وموظفو البريد والسكك الحديدية والكهربائيون وعمال ارصفة الموانيء والاطباء وموظفو وطيارو شركات الطيران المدنية وسائقو الباصات وسيارات الاجرة، والعمال في مختلف الصناعات . وقام معلمو المدارس الثانوية باضراب استمر اسبوعا . كذلك قام موظفو الجمارك في ثاني اكبر مرفأ اسرائيلي ، اشدود ، باضراب غايته التمهل في العمل ، مطالبين

باجور اعلى .

وشهدت نهاية ١٩٧٢ موجة جديدة من الاضرابات اشترك فيها الالوف من العمال الصناعيين وموظفي المكاتب الاسرائيليين . وتوقف العمل مرة اخرى في الموانىء . وما لبث ان انضم الى عمال ارصفة الموانىء المضربين عمال من عدة شركات عامة وخاصة ، فضلا عن موظفي المستشفيات الفنيين ، وقالت تقارير وكالات الانباء الاميركية في تل ابيب ان اتصالات الهاتف والتلكس اصيبت بالشلل ، واوقفت شبكات الطاقة عن العمل في بعض المناطق ، وعرقل العمل في مطار اللد عندما اضرب ١٥٠ فنيا وموظفا اداريا في شركة طيران ال عال الاسرائيلية .

وفي اوائل كانون الثاني ١٩٧٣ ارغمت الاضرابات المستمرة الحكومة على ان تدعو الى اجتماع طارىء لجنتها المولجة بتنظيم الاجور والضرائب والاسعار، التي ارتفعت فيما بعد بنسبة ١٤٪ عام ١٩٧٢ . الا ان الحكومة لم تنشر اي تصريح يظهر نيتها في تحسين حالة العمال او في تلبية مطالب المضربين ، جزئيا على الاقل .

واقلق عدد الاضرابات المتزايد رئيسة الوزراء غولدا مئير فدعت العمال الى انهائها ، بحجة ان البلاد لا تستطيع تلبية مطالباتها بزيادة الاجور وثار سخط رئيسة الوزراء العجوز عندما لم يعبأ احد بندائها وامرت باتخاذ اجراءات عنيفة لقمع الاضرابات ، بما فيها معاقبة المضربين . واقترح وزير الدفاع موشيه دايان ، بدوره معاملة المضربين باقسى طريقة ممكنة ، بما في ذلك السجن .

كما ان الفقر والبطالة وارتفاع كلفة المعيشة والاحياء السكنية الخربة والقذرة والمكتظة بالناس وعدم تيسر التعليم بالنسبة لعدد كبير من ابناء الجيل الجديد هي من العوامل الثابتة في تشجيع الجرائم وادمان المخدرات والبغاء في الارض المقدسة . وشرح ابراهام بولاك ، وهو ضابط سابق في الجيش الاسرائيلي ، لماذا هاجر من اسرائيل فقال : « لقد اسعدني الخروج من ذلك الجحيم » .

وتكاد المخدرات تباع بصورة مكشوفة في اسرائيل على الرغم من القوانين الشديدة التي تنص على سجن الذين يبيعونها حتى ١٠ سنين وتغريمهم ٢٠ الف دولار . وتنمو هذه التجارة المربحة بصورة مطردة محولة الالوف الجديدة من الشبان والشابات الى مدمني مخدرات ومدمرة حياتهم . كما ان البغاء ، وهو ليس ممنوعا في اسرائيل ، يزداد بسرعة .

وخلال الاعوام الخمسة الاخيرة ازداد معدل الجريمة في اسرائيل بنسبة ٣٥٪ . وفي تلك الفترة ازدهر السطو على المنازل بنوع خاص ، مشيرا الى زيادة بنسبة ٢٠٠٪ . ويزداد عدد الاعتداءات المسلحة بسرعة ومن سنة الى سنة . واعرب المدعي العام مئير شمعار عن قلقه لان العنف المسلح اخذ في الازدياد . وبلغت الجرائم في تل ابيب درجة حدت بالسلطات في تشرين الاول (اكتوبر) الى ارسال كتائب خاصة من القوات التي كانت تستخدم لقمع الثورات العربية في قطاع غزة على جناح السرعة الى تل ابيب لمساعدة الشرطة .

ويستمر جنوح الاحداث في اسرائيل بالنمو . ونحو ٢٠ الف حدث تتراوح سنهم بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة لا يدرسون ولا يعملون . ولقسم كبير منهم ارتباطات بعصابات الاجرام .

هذه هي بعض نتائج العسكرية في البلاد ، وسياسة العنف والعدوان التي تنتهجها اسرائيل نحو الدول العربية المجاورة . هذه هي الثمرة المرة للارهاب الممارس في الاراضي العربية المحتلة، والغارات البربرية على المدن والقرى الآمنة في سوريا ولبنان ، وعبادة العنف ، والتخلي عن كل تحفظ في سلوك العسكرية الاسرائيلية .

الصهيونية في خدمة الامبريالية العالمية

مقابل المساعدات الكبيرة والشاملة التي يتلقاها الصهاينة من الولايات المتحدة والبلدان الامبريالية الاخرى ، فانهم يقدمون خدمات مختلفة للاحتكارات الاميركية وغير الاميركية في صراعها ضد حركات التحرير الوطني . ففي البلدان النامية ، مثلا ، نجد ان الصهاينة هم المعاونون الرئيسيون مع المستعمرين الجدد .

واستقبلت الصحافة الصهيونية خبر الغاء المستعمرات البرتغالية في الاراضي الهندية بهجمات قذف وافتراء ضد الهند ، مع انه ليست لاسرائيل اية مصالح على الاطلاق في ذلك البلد . وكان رد فعل الصهاينة لتصحيح ظلم تاريخي بحق الشعب الهندي مدفوعا برغبة في ارضاء الامبرياليين الذين

« تكبدوا خسارة » . وكان رد فعلهم هو نفسه حينما قررت حكومة اندونيسيا انهاء الوضع الاستعماري لغربي اريان . فقد وجه الصهاينة وابلا من الافتراءات والشتائم الى الحكومة الاندونيسية . وفعلوا ذلك ايضا لا لان مصالح الصهاينة اصيبت بخسارة ، بل لانهم ارادوا ان يظهروا ولاءهم للامبرياليين الاميركيين والبريطانيين والهولنديين .

وفي افريقيا يقوم الصهاينة بنشاطهم كخدم للامبريالية العالمية على نطاق واسع بنوع خاص . وقد اخذت اسرائيل تتغلغل في افريقيا حال تأسيسها . وكانت في كل مناسبة تزدهي بانه لا يوجد لها ما من استعماري يعوقها ، وزعمت ان دوافعها « نزيهة » . وارسل عملاء صهاينة على جناح السرعة الى افريقيا ، مجهزين بخطط المعونة الفنية وبعروض القروض وبوعود تدريب العسكريين والخبراء الاقتصاديين للبلدان الافريقية.

وادركت تل ابيب الاهتمام البالغ الذي تبديه الامم الافريقية بمشكلات التنظيم الاجتماعي ، فاخذت تعرض باصرار مشروعاتها على الدول الافريقية الفتية، مدعية انها الاكثر ملائمة للاوضاع الافريقية. وتستغل اسرائيل الحاجة الملحة لدى الدول الفتية الى الايدي العاملة الماهرة، من اجل تحقيق اهدافها الصهيونية . وفي خطاب امام اجتماع عقدته المنظمات الصهيونية في زيورخ ، قال ش . امير ، وهو مسؤول في وزارة الخارجية الاسرائيلية ، ان ١٣ الف شخص من بلدان العالم الثالث قد تم تعليمهم وتدريبهم في اسرائيل . ونحو ثلثي ذلك العدد كانوا طلبة افريقيين . وفي الوقت ذاته ارسلت اسرائيل ٢٥٠٠ من اخصائييها الى تلك البلدان . وخلال التعليم والتدريب يعرض الاخصائيون الاسرائيليون الطلبة الافريقيين لغسل دماغ معاد للسوفييات وللشيوعية ، بينما يزرع جهاز الاستخبارات الاسرائيلي عملاءه بينهم .

ويجمع عملاء الصهاينة بين نشر خبرتهم «الثمينة» في تنمية الدولة والنشاطات التخريبية وبث الافكار الاستعمارية الجديدة بين طلبتهم . وهكذا كان يرأس مزرعة نموذجية تدعى « كوندل » ، قرب فورت لامي عاصمة جمهورية التشاد « مستشاران » اسرائيليان راحا يكملان عملهما الاداري بمحاضرات حول الشؤون العالمية والتاريخ والجغرافيا ويثنيان فيها على ساسة اسرائيل ورسالة الغرب التمدينية ، ويشددان على حاجة البلدان الافريقية لدعوة الاستثمارات الرأسمالية الاجنبية .

والى جانب القيام باعمال التخريب الايديولوجي في البلدان الافريقية ، كان الصهاينة يقومون بدور الوسطاء للدوائر المالية الدولية ، وفيما هم يعملون نيابة عن اسرائيل « النزيهة » باموال يتلقونها من الامبرياليين ، فانهم لا ينسون مصالحهم التجارية والمالية . وبكلام اخر ، كان الصهاينة يلعبون دور الوسيط في افرقيا لقاء مكافأة مناسبة، ويساعدون دولا كبيرة معينة في تنفيذ سياساتها الاستعمارية الجديدة هناك .

ففي اوغندا ، مثلا ، كانت اسرائيل منهمكة في تشييد طرقات رئيسية حديثة باموال قدمها البنك العالمي للتعمير والانماء . وعن طريق مساعدة الرأسمال الاجنبي بهذه الطريقة يؤمن « المحسنون » الصهاينة في البلدان الافريقية لأنفسهم الوصول الى الاسواق الافريقية المربحة جدا .

احدى الطرق الاخرى للتغلغل في الاقتصاد الافريقي كانت اقامة امتيازات وشركات مشتركة مختلفة. ففي ١٩٦٩ كان هناك اكثر من ٤٠ شركة مشتركة في افريقيا بلغت فيها الاستثمارات الرأسمالية الاسرائيلية ٢٠٠ مليون دولار . والى ذلك كان هناك الكثير من الشركات الاسرائيلية في افريقيا ، التي تعمل امنا بهذه الصفة او في شكل مشروعات افريقية . ففي اثيوبيا ، مثلا ، هناك نحو ٤٠ مشروعا مسجلا رسميا على انه اثيوبي ولكنه في الواقع اسرائيلي.

ويرسل حكام اسرائيل الصهاينة ضباط مخابراتهم الى البلدان الافريقية فيما هم يقدمون خبراءهم ومستشاريهم مصورينهم على انهم مثاليون همهم الوحيد مساعدة « اخوتهم الصغار » . وهكذا فان جماعة من الخبراء الزراعيين الذين كانوا قد ذهبوا الى توغو غادروا البلد على عجلة في حزيران ١٩٦٧ ، حينما ابتدأ العدوان الاسرائيلي . ولكن عندما انتهت الحرب عادوا واستمروا يعملون كخبراء زراعيين . كما ان « اخصائيا » اسرائيليا اخر ، يحمل رتبة كولونيل ، كان مستشارا لاحدى منظمات الشبيبة في ليبيريا ، اخذ هو ايضا اجازة غياب ليشترك في العمليات العسكرية في شبه جزيرة سيناء . وعندما كان العميل الامبريالي تشومبي يحكم الكونغو ، كان كولونيلا اسرائيليا اخر اسمه بن هشال ، ينتحل صفة منظم لحركات الشبيبة حيث جند العملاء لاسرائيل .

وكان معظم السفراء الاسرائيليين في البلـــدان الافريقية اما ضباط جيش محترفون او ضبـــاط مخابـرات .

ويمكن رؤية الدور الذي كانت اسرائيل تلعبـه في افريقيا من الحقائق التالية . وجد الثـــوار الانغوليون خلال فحصهم لاسلحة اقتنصوها مـــن القوات البرتغالية ان الرشيشات كانت اسرائيلية الصنع . وعلم فيما بعد ان تل ابيب باعت شحنـــة كبيرة من تلك الاسلحة للبرتغال التي كانت بحاجـــة اليها لمقاومة حركة التحرير الوطنية في مستعمراتها الافريقية . وفي مرة اخرى ، بعد اشتباك بين قوات الحركة الوطنية لتحرير انغولاً واحدى الوحـــدات البرتغالية ، وجد اربعة جنود اسرائيليين بـــــين القتلى البرتغاليين .

واسرائيل مذنبة ايضا بتقديم الاسلحة والمدربين للمستعمرين البرتغاليين في غينيا والموزامبيق . كما اشرف الاسرائيليون في اسرائيل على تدريبهم لسحق حركات التحرير والاستقلال الوطني .

واقيمت علائق وثيقة من الصداقة والتعاون بـــين الاسرائيليين والعنصريين الجنوب افريقيين . ورغم الموجة الراهنة من اللاسامية في جمهورية جنـــوب افريقيا ، تحافظ اسرائيل على اتصالات ديلوماسية واقتصادية وسياسية وثيقة معها . وكانت اسرائيل الدولة الوحيدة التي امتنعت عن انتقاد السياسة العنصرية لجنوب افريقيا في الامم المتحدة .

وفي صيف ١٩٧١ قررت اسرائيل التأكيد للـــدول الافريقية النامية الفتية انها تبقى صديقة ونصـــيرة للحرية والمساواة . ومن اجل تلك الغاية قامت اسرائيل بالعمل التالي . فقد اتخذت الحكومــــة الاسرائيلية قرارا لاعطاء منظمة الوحدة الافريقية هدية مقدارها ٢٨٠٠ دولار ، وهو مبلغ تافه بالنسبة للمنظمة . الا انه اعطى العنصريين الجنـــــوب افريقيين الفرصة للتظاهر بالسخط واتهام اسرائيل بخيانة « المثل المشتركة » . وحسبت اسرائيل ان الشجب الصاخب لعملها من قبل جنوب افريقيـــــا سيرد الاعتبار اليها في نظر البلدان الافريقية الاخرى ويجعلها تمتنع عن توجيه انتقادات علنية لسياســـة اسرائيل في الشرق الاوسط . ونظرا لذلك اعرب وزير خارجية اسرائيل انذاك ، ابا ايبان ، عـــن امله بان الجلسة التالية لمجلس وزراء خارجيةمنظمة الوحدة الافريقية ستمتنع عن اصدار تصاريح مضادة لتل ابيب .

على ان مجلس وزراء خارجية المنظمة وجمعية رؤساء الدول والحكومات الاعضاء فيها لم يذعنا للعدوان الصهيوني وطالبا بانسحاب القـــوات الاسرائيلية فورا من جميع الاراضي المحتلة. وانذاك سحبت الحكومة الاسرائيلية عرضها المالي لمنظمـــة الوحدة الافريقية ، وكان « السخط الكاذب » لزعماء جنوب افريقيا غير مجد .

ويقول الكثيرون من الصحافيين الغربيـــــين ان جمهورية جنوب افريقيا تحكمها في الواقع منظمـــة فاشية سرية ، اسمها « بروردربوند » ، تجمع بشكل عجيب بين اللاسامية المسعورة والاحترام العميـــق للصهيونية . ويبدو ان للصهاينة تأثيرا قويا علـــى لجنة عمل البروردربوند . وعلى اية حال ، فـــــان صحيفة ستار الصادرة في جوهانزبرغ قالـــــت ان البروردربوند سارعت الى تقديم الدعم المعنـــــوي والمادي الكبير الى تل ابيب خلال « حرب الايـــام الستة » . وبعد التبرع الكبير الذي قدمتـــــه البروردربوند الى « صندوق مساعدة اسرائيل » اسس الصهاينة ، اقرارا بالجميل للتفهم الـــــذي اظهر لهم ، جمعية اصدقاء جنوب افريقيا » ، وبذلك اضفوا الصفة الرسمية على الوفاق الذي يربـــط بين النظامين العنصريين .

ومنذ ذلك الحين والبروردربوند تساعد اسرائيل بثبات وسخاء . وتم تحويل ملايين الرنـــــدات والدولارات والجنيهات للحسابات المصرفيةالخاصة بالمنظمات الصهيونية ، ولا يعود مثل هذا السخاء الى الصلات الايديولوجية فحسب . فان اعتبارات اخرى ، اكثر عملية ، تلعب دورها كذلـــــك . فاسرائيل في نظر العنصريين الجنوبافريقيين هيحصن « المدنية البيضاء » وحارسها ضد « الخطر الافرو — اسيوي » . والى ذلك فان العدوان الاسرائيلي مفيد جدا لجنوب افريقيا ، اذ انه يعطل عمـــل قناة السويس ، مما يفتح المجال لمصدر من الارباح الكبيرة غير المتوقعة لرأسماليي جنوب افريقيـــا . اذ يتوجب على الوف السفن المبحرة عبر المحيطات من اوروبا الى شواطىء الهند او الشرق الاقصـــى و في الاتجاه المعاكس — الى اوروبا — انذاك ان تستخدم المرافىء الجنوب افريقية لتملأ مستودعاتها بالوقود وتتمون وتجري الاصلاحات اللازمة . وكل هذا يجعل البورجوازية وحكومتي جنوب افريقيـــا واسرائيل مهتمة في اطالة نزاع الشرق الاوســـط أطول مدة ممكنة .

وفي الايام التي كان فيها العالم المتمدن كلــــه ساخطا على الهجوم العسكري الذي شنته اسرائيل على مطار بيروت الدولي ، اعرب الجنرال مارتن ، رئيس الاركان السابق لدفاع جنوب افريقيا ، عـــن تضامنه مع الغارة القرصانية واشار الى اوجـــه الشبه بين الصعوبات التي تواجه اسرائيل وجنوب افريقيا . وفي المقابل ، نان حاييم هرتزوغ ، المدير السابق للاستخبارات العسكرية الاسرائيلية والمعلق العسكري في اذاعة اسرائيل ، لا تفوته فرصـــــة لاطراء جنوب افريقيا والدعوة الى تمتين علاقـــات الصداقة معها . وبالفعل ، تزداد تلك العلاقـــات اتساعا وقوة يوما بعـــد يـــوم .

وبما ان الكثير من البلدان الافريقية منعـــت طائرات الخطوط الجوية الجنوب افريقية من الطيران فوق اراضيها ، فقد كان على طائراتها ان تطـــير فوق المحيط على طول الساحل الغربي لافريقيا . الا ان اسرائيل وجنوب افريقيا وقعتا في ١٩٦٩ على اتفاق للتعاون بين الخطوط الجوية الجنوب افريقية وشركة ال عال، ولفتح خط بلا توقف بين جوهانزبرغ وتل ابيب ، تطع الى النصف مسافة الطيران بـــين جنوب افريقيا والشرق الاوسط .

وتهدف التكتيكات الصهيونية لدق الاسافين بين الدول الافريقية وتنظيم انقلابات رجعية وتمهيـــد الطريق لتسلل الرأسمال الاجنبي الى عرقلـــة واضعاف حركة التحرير الوطني ، واعاقة نمـــو الدول الفتية باستخدام اساليب استعماريـــة جديدة .

غير ان الصهاينة ، في خدمتهم لمصالح الـــدول الامبريالية في العالم ، يظهرون اكبر قدر من الحماسة في نشاطهم المعادي للسوفييت وللشيوعية . وفـــي هذا يتصرفون على نحو مكشوف بوصفهم قـــوات الصاعقة المسعورة للامبريالية . وفي الدعاوة التـــي يوجهونها نحو البلدان الاشتراكية يركزون علـــى زرع التباعد بين اليهود ومواطني القوميات المختلفة، وعلى عزلهم عن الايديولوجيا الشيوعية والمشاركة في البنـــاء الشيوعي .

ويحاول عملاء الصهاينة ان يشربوا شبيبة البلدان الاشتراكية اللامبالاة بالسياسة وانعدام المبادىء والايديولوجيا . ويحاولون ان يحطوا مـــن شأن الماركسية ــ اللينينية وان يشوهوا سمعتها فـــي اعينهم وان يضعفوا تقتهم بالمستقبل ، ويبحـــث الصهاينة عن اشخاص يهود غير مستقرين معنويـــا وسياسيا ويحولونهم الى ابواق لدعاوتهم ويزرعون فيهم نفسية ملاكي البورجوازية الصغيرة .

وفي البلدان الرأسمالية يوجه الصهاينة جهودهم نحو تشويه سمعة النظام الاشتراكي ونحو تنفير العمال من الاحزاب الشيوعية والعمالية ، ونحو التحريض على العداوات الوطنية . ولا يتـــورع الصهاينة عن استخدام اية كذبة ضد الاتحـــــاد السوفياتي ، على امل الحط من شأنه وتقويض الثقة والصداقة اللتين تمنحهما له شعوب العالم ، وتشويه صورة سياسته . ولا يترددون فـــــي استخدام اية كذبة او استفزاز او خدعة مهما كانت خسيسة طالما انها تخدم غرضهم .

كانت المشكلة اليهودية المزعومة في الاتحـــاد السوفييتي احدى الحيل المفضلة لدى الصهاينـــة لاعوام عديدة . حتى انهم في شباط (فبراير) ، ١٩٧١ ، دعوا الى مؤتمر دولي خاص في بروكسل لبحث « المشكلة » التي اخترعوها انفسهم . فهـــم يزعمون ان وضع اليهود السوفييت يرثى له ، وانهم يتعرضون للتمييز ، وانه توجد لاسامية رسمية في الاتحاد السوفياتي . ويعرض « المحسنون » الصهاينة على اليهود السوفييت المساعدة والحماية ويطالبون بتلبية رغبة اليهود السوفييت في الذهـــاب الى (ارض الموعد) في اسرع وقت ممكن ودون تأخير .

ويصار الى نشر تلفيقات افترائية حول وضـــع اليهود السوفيات في خطب الخطباء الصهاينة ، وفي مقالات لصحافيين ومؤلفين وصانعي دعـــاوة صهاينة ، وفي مؤتمرات صحافية الخ . واسست منظمات خاصة لانقاذ «اليهود السوفييت المساكين». واحداها « عصبة الدفاع اليهودية » التي اسسها في ١٩٦٨ مئير كاهان ، وهو حاخام نيويورك في الثامنة والثلاثين من عمره وكاتب سابق في الصحـــف اليهودية والصهيونية . وقد كان كاهان منذ وقت بعيد عضوا نشطا في « التصحيحيين الصهاينـــة المتحدين » اليمينية في اميركا ، وهي منظمة رجعية متطرفة لها صلات وثيقة بحزب حيروت الاسرائيلي . وكان مئير كاهان ايضا مستشارا لوكالات حكوميـــة اميركية وعمل بانتظام من اجل لجنة النشاطـــات اللااميركية . ويرأس شقيقه نيحام كاهان ، وهـــو ايضا حاخام ، احدى دوائر وزارة الشؤون الدينية باسرائيـــل .

واكتسبت عصبة الدفاع اليهودية سمعة رديئة جدا في غضون وقت قصير جدا . ويلجأ اعضاء العصبة ، الذين يظهرون عداء مسعورا للشيوعيين والسوفييت ، الى احط الاساليب — بما فيها الاستفزازات والاعمال الارهابية . وبتغاض من السلطات الاميركية يرجمون الوكالات السوفييتية في الولايات المتحدة بالحجارة ويحاولون تمزيق حفلات الممثلين والموسيقيين السوفييت .

وفي الثاني والعشرين من حزيران (يونيو) ، ١٩٧١ ، وهي الذكرى الثلاثون لهجوم المانيا النازية على الاتحاد السوفياتي ، عندما يعرب العالم كله عن احترامه للشعب السوفياتي لانقاذه من الفاشية ، زرع بعض اعضاء عصابة الدفاع اليهودية لغما مؤجل الانفجار عند مدخل البعثة السوفياتية في الامم المتحدة . وكان اللغم موقتا للانفجار عند الظهر لدى وجود عدد كبير من الناس هناك . ولحسن الحظ اكتشف اللغم في الوقت المناسب وابطل مفعوله .

و « لحماية اليهود » نظم مئير كاهان اعضاء العصبة في كتائب مسلحة . وهذه الكتائب مدربة على استخدام المسدسات والبنادق والرشيشات في مخيمات خاصة ، يقوم احدها في جبال كاتسكيل ، على مسافة غير بعيدة عن نيويورك . وتدرب هذه المخيمات ٣٠٠ شخص شهريا . ويشتمل برنامج التدريب على تلقين ايديولوجي مكثف ودروس في الكاراتيه وتعليم في استخدام الأسلحة .

وهناك ايضا قاعات خاصة للتدريب على الرماية في الكثير من المدن الاميركية — حيث يمارس اعضاء العصبة التدريب يوميا . وبالأموال التي تدفعها مليونير صهيوني في بروكلين اسمه برنارد دويتش ، اقامت العصبة مدرسة عسكرية وكلية عسكرية لتدريب الارهابيين .

وفي السابع والعشرين من كانون الثاني (يناير) ، قامت العصبة بعمل ارهابي دقيق التخطيط يهدف الى تمزيق العلاقات الثقافية السوفييتية — الاميركية ففي الساعة التاسعة والخمس والاربعين دقيقة صباحا فجر عملاؤها قنبلة في المكتب النيويوركي الخاص بمعهد الحفلات سول هوروك ، الذي ينظم عروض الفنانين السوفياتيين وعرض الافلام السوفياتية في الولايات المتحدة . وقتلت القنبلة فتاة يهودية في السابعة والعشرين تدعى ايريس

وسببت الجراح والحروق لثلاثة عشر شخصا اخر . وكان متعهد الحفلات البالغ من العمر ٨٣ سنة ، وهو ايضا يهودي ، بين ضحايا الانفجار ، وادى هذا الحادث الى اثارة السخط العام . واعلن سول هوروك لدى مغادرته المستشفى انه لن يتخلى عن نشاطه كمروج للفن السوفياتي الذي يكن له اعجابا كبيرا .

ان احدى النقاط الخاصة في برنامج عمل عصبة الدفاع اليهودية تسبب المتاعب لليهود السوفييات الذين يذهبون الى الولايات المتحدة للاجتماع باليهود الاميركيين . فالسفارة الاسرائيلية في واشنطن ومنظمة كاهان يقلقهما احتمال اطلاع الراي العام الاميركي على الحقيقة حول وضع اليهود السوفييات. وتخشيان افتضاح التلفيقات الهائلة التي تنشرانها، وقد ظهرت احداها في صحيفة اعمال بمدينة كليفلاند . وكانت نداء ، مؤطرا بالسواد كالنعي ، يطالب بوضع حد « لمجزرة اليهود » في الاتحاد السوفياتي .

وعندما ذهب يهودا لئيب لفين ، كبير حاخامي كنيس موسكو ، الى الولايات المتحدة في ١٩٦٨ ، حاول اشقياء كاهان ، بتحريض من جماعة تسمي نفسها « المؤتمر اليهودي الاميركي حول اليهود السوفييت » ، ان يحطموا الاجتماع الذي حضره نحو ٣٠٠٠ شخص جاءوا ليستمعوا الى حاخام موسكو ، فقد راح رجال كاهان يصرخون موجهين التهديدات والاهانات للرجل البالغ من العمر ٧٣ سنة ، وحاولوا ان يطمسوا خطابه بصراخ الهزء المعادي للسوفيات .

واجتمع لفين خلال وجوده في الولايات المتحدة بالسكرتير الاول للسفارة الاسرائيلية هناك . وفي معرض بحث شؤون مختلفة ، سأله الدبلوماسي الاسرائيلي فجأة : « هل هناك لاسامية في الاتحاد السوفياتي ؟ » فطلب حاخام موسكو منه ان يحكم في الامر هو نفسه . وذكره باضطهاد اليهود في روسيا القيصرية ، وبالمذابح اليهودية المنظمة التي ارتكبها اعضاء « المئة السود » ، وبالقانون الذي يحدد الانتساب اليهودي الى المؤسسات التربوية بنسبة معينة . ثم اخبر الدبلوماسي الاسرائيلي عن حياة اليهود السوفيات ، آتيا على ذكر اسماء ذات شهرة عالمية في العلوم والثقافة والفن . واخبره عن اليهود الذين منحوا لقبي بطل الاتحاد السوفياتي وبطل العمل الاشتراكي . وفي الختام

سأل الدبلوماسي الاسرائيلي : « ماذا كان حل بهؤلاء القوم لولا ثورة ١٩١٧ ؟ » وصمت الدبلوماسي واجاب لغين عنه : « كانوا تحولوا الى تجار بالتجزئة ونجار خردة وحذائين وخياطين ، فانت تعلم تمام العلم انه لم يكن امام اليهود من خيار كبير » .

وكان يدير اعمال عصبة الدفاع اليهودية اسحق رابين ، سفير اسرائيل السابق في واشنطن ورئيس الوزراء الحالي ، الذي كان رئيسا للاركان العامة الاسرائيلية ابان « حرب الايام الستة » . وهو سخي في دعم العصبة ماليا ويشجعها على استعمال العلم الاسرائيلي في حملاتها المناهضة للسوفييت .

ولاعضاء العصبة برات خاصة ، الا ان قمصانهم زرقاء اللون بدل ان تكون سوداء ، ويحمل شريط ذراعهم النجمة السداسية ودرع داود ، بدلا من الصليب المعقوف .

واستنادا الى خبرة عصبة الدفاع اليهودية اقام غلاة الاسرائيليين ومناصروهم الاميركيون شبكة من « مرق عمل » صهيونية في عدد من بلدان اوروبا الغربية . ويستخدمون وسائل للقيام باستفزازات معادية للسوفيات واعمال ارهاب مستمارة من مئير كاهان . مثال ذلك ، نجر الصهاينة الهولنديون في نيسان (ابريل) ١٩٧١ قنبلة عند مدخل بعثة التجارة السوفياتية في امستردام . غير ان الحكومة الهولندية اكتفت في ردها على الحادث باصدار تصريح رسمي .

بعد الحرب العالمية الثانية بوقت قصير اسست في الولايات المتحدة منظمة تدعى «القضية المشتركة» بمبادرة من جون فوستر دالس ، الذي كان انذاك مستشارا سياسيا لطوماس ديوي زعيم الحزب الجمهوري،وجايمس فارلي زعيم الحزب الديمقراطي الذي تعاون تعاونا وثيقا مع دالس . وسارعت الحاخامية والمنظمات الصهيونية للانضمام الى « القضية المشتركة » ، مؤلفة ضمنها قسما يدعى « العصبة اليهودية الاميركية ضد الشيوعية » . وضم ممثلون من الحاخامية الى « المجلس الديني » التابع للمنظمة ، وبتوجيه منهم شرع الحاخاميون في تأليف شبكة من المخبرين ، جندوهم من بين رعيتهم ، للتجسس على « الاشخاص المشبوه بهم » من اليهود . وكذلك استخدم مخبرون في المدارس الثانوية والجامعات لاكتشاف حملة « الثورة الحمراء » بين الطلبة . وعقبت صحيفة النيويورك تايمز يومها باستحسان قائلة ان هدف القسم اليهودي من « القضية المشتركة » هو اكتشاف النشاط الشيوعي بين اليهود في جميع الحقول . وهكذا فان النموذج الاصلي لعصبة الدفاع اليهودي بني بمبادرة ومشاركة من السياسيين الاميركيين الرئيسيين قبل ولادة العصبة بزمن طويل .

كما ان ب.ج. هارغيس ، المبشر الاميركي الشهير وزعيم « الصليبية المسيحية ضد الشيوعية» قام بزيارة الى اسرائيل بحثا عن شركاء لحملته المناهضة للشيوعية والسوفيات واجرى محادثات مع الزعماء الصهاينة . وقالت التقارير الصحافية الغربية ان نحو ٢٠٠ الف رجعي اميركي انضموا الى « صليبيته » المناهضة للسوفيات والشيوعية . وبميزانية سنوية تبلغ نحو مليوني دولار ، تملك منظمة هارغيس مئة محطة اذاعة تعمل يوميا على تسميم عقول المستمعين باذاعات تفتري على البلدان الاشتراكية والاحزاب الشيوعية . ويعمل هارغيس في اتصال وثيق مع جميع الذين يدعون الى « تطهير شامل للحمر » .

ولا تستخدم جميع المنظمات الصهيونية بحال من الاحوال ، خصوصا في الولايات المتحدة ، كلمة « صهيونية » او مشتقاتها في اسمائها . فهي وثيقة الارتباط بافكار العدوان والعنف والعنصرية . ويفضل الكثير من هذه المنظمات حذف تلك الكلمة من اسمائها . ويتجلى هذا في اسماء مثل عصبة الدفاع اليهودي، ولجنة فلسطين الاميركية، ومجلس المنظمات اليهودية ، واللجنة اليهودية الاميركية ، وجمعية النشر اليهودي في اميركا الخ ..الا ان طبيعة هذه المنظمات هي نفسها ، وان اختلفت الاسماء .

ومع ان الاحزاب والجماعات والاتحادات الصهيونية تدرك تمام الادراك ان جميع الشعوب والقوميات في الاتحاد السوفياتي تتمتع بالمساواة التامة ، فهي على اختلاف اوصافها تشن حملات صاخبة تتهم الاتحاد السوفياتي باللاسامية والتمييز ضد اليهود . وفي الوقت ذاته تبذل قصارى جهدها لاخفاء الصفة الطبقية للصهيونية ، وتصويرها كحركة اوروبية شاملة ، والمساواة بين افكار مثل اليهود والصهاينة واليهود واسرائيل .

ويتجاهل الصهاينة – كون ٢٠ بالمئة من السكان اليهود يتمتعون بالتعليم العالي في الاتحاد

السوفياتي ، حيث لا توجد اية قيود وطنية ، ولا يمكن ان تكون ثمة قيود ، وحيث العلم الشامل يعم جميع القوميات . ويزعمون ان اليهود السوفيات محظور عليهم الانضمام الى الانتلجنسيا واحتلال مناصب ادارية عالية في الاقتصاد الوطني ودخول حقل الادب والفن . وتظهر الاحصاءات انه في حين لا يؤلف اليهود غير نحو واحد بالمئة من مجموع سكان الاتحاد السوفياتي، فهم يشكلون ٥ر٣ بالمئة من جميع الخبراء الاقتصاديين — و ١٤ بالمئة من جميع الاطباء والكتاب و ٢٣ بالمئة من جميع الموسيقيين . ويعتز الشعب السوفياتي بكتاب ذوي شهرة عالية امثال ايليا اهرنبورغ ونانان ريباك وبافيل انتوكولسكي وصموئيل مرشاك ، وبلاعبي الشطرنج ميخائيل بوتفينيك وميخائيل تل ويفيين غيللر ومارك تايمونوف ، وبعازفي الكمان ليونيد كوغان وديفد اويستراخ ، وبراقصة الباليه الباليرينامايا بليستسكايا والممثلة الينا بيستريسكايا والكوميدي اركادي رايكين والكثيرين غيرهم من اليهود الدائمي الصيت .

يزعم الصهاينة ان الشبان والشابات اليهود في الاتحاد السوفياتي لا يستطيعون الحصول على التعليم العالي . الا ان السكان اليهود ، وفقا للاحصاءات ، يحلون في المرتبة الثانية عشرة من حيث الحجم بين القوميات في الاتحاد السوفيتي. اما في الانتساب للكليات العليا والمدارس الثانوية المتخصصة فيحلون في المرتبة الخامسة من حيث الحجم . وهذه الارقام تدحض الزعم الصهيوني .

وفي معرض تكذيب هذا الادعاء نشرت صحيفة الحزب الشيوعي الاسرائيلي زو هاديريخ احصاءات تثبت ان نسبة الطلاب الى مجموع السكان اليهود في الاتحاد السوفياتي هي ٨ر٣ بالمئة ، في حين ان النسبة الموازية لها في اسرائيل هي ٢ر١ بالمئة فقط . وكان عنوان المقالة التي وردت فيها هذه الاحصاءات هو « اين هو التمييز ضد اليهود ؟ »

يدعي الصهاينة ان الاتحاد السوفياتي ليس وطنا اما لليهود السوفيات بل هو في افضل الحالات « زوجة اب » ، قاسية وظالمة . غير ان شعور اليهود نحو الاتحاد السوفياتي تجلى على اكمل وجه ابان الحرب ضد المانيا النازية عندما تلقى ١٦٠ر٧٢٢ منهم اوسمة وميداليات ، في حين تلقى ١١٧ اخر ،على وسام في البلد ، وهو لقب « بطل الاتحاد السوفياتي » . وبلغ عدد اليهود السوفيات الذين قلدوا اوسمة حكومية ، بالاضافة الى العمال في المؤخرة ، ٢٠٠ر٢٤٠ (من مجموع السكان اليهود البالغ مليوني نسمة) . وارتقى كثيرون من القادة العسكريين اليهود الى الشهرة في الاتحاد السوفياتي . وهؤلاء هم : قائد الجيش من الدرجة الاولى ياكير ، القائد الاعلى السابق لسلاح الجو سموشكيفيتش الذي منح لقب بطل الاتحاد السوفياتي مرتين ، وجنرال الجيش كريزر بطل الاتحاد السوفياتي، والكولونيل جنرال دراغونسكي الذي منح لقب بطل الأتحاد السوفياتي مرتين ، واللوتينانت جنرال فاينروب بطل الاتحاد السوفياتي، والماجور جنرال دوناتور بطل الاتحاد السوفياتي .

ودحضا للمزاعم الصهيونية حول كون اللاسامية صفة مميزة من صفات النظام السوفياتي ، عمدت صحيفة الحزب الشيوعي الفرنسي لومانيتيه الى تذكير كثيري النسيان في السادس والعشرين من شباط (فبراير) ١٩٧١ بان اول رئيس للدولة السوفييتية ياكوف سفير دلوف كان يهوديا وبان فينيامين ديمشيتز ، اليهودي ايضا ، هو اليوم نائب لرئيس الوزراء السوفييتي .

وقد اسست منطقة يهودية متمتعة بالحكم الذاتي تدعى بيروبيدجان في الاتحاد السوفياتي لبضعة عقود خلت . وتقع بيروبيدجان على ضفاف نهر الامور في الشرق الاقصى وتبلغ مساحتها ٧٠٠ر٣٥ كلم مربع — ١٢٥ مرة اكبر من مساحة اسرائيل . وفيها صحيفتان — هما بيروبيدجانسكايا زفيزد الناطقة بالروسية وبيروبيدجانر شتيرن الناطقة باليدش — محطة اذاعة واحدة تذيع يوميا باليديش . وهناك ١٥٠ مدرسة ثانوية ، وسبع مدارس متخصصة واربع مدارس مهنية ، وكل ثالث شخص من سكان بيروبيدجان يدرس — ولا يشمل هذا الرقم الذين يدرسون في الكليات العليا والمؤسسات التربوية الاخرى خارج حدودها .

ويجتهد الصهاينة في نشر الشائعات بان اليهود السوفيات يتوقون للعودة الى « الوطن القديم » ولكنهم ممنوعون منعا باتا من مغادرة الاتحاد السوفياتي . ففي عام ١٩٦٦ عندما قام رئيس الوزراء السوفياتي أ.ن. كوسيغين بزيارة باريس ، سأله احد الصحافيين ما اذا كان بامكان اليهود السوفيات الذهاب الى اسرائيل . فاجاب رئيس الوزراء كوسيغين ان الحكومة السوفياتية لا تمنع من يرغب في الذهاب الى اسرائيل من الانضمام الى

عائلته . ومنذ تأسيس دولة اسرائيل ذهب الكثير من العائلات اليهودية السوفياتية الى «ارض الموعد» الا انهم لم يجدوا دوما هناك وطنا طيبا كالذي تركوه . وتبقى الأكثرية الساحقة من العائلات اليهودية في الاتحاد السوفياتي مخلصة لبلدها ، ولا تغريها قصص الدعاوة الصهيونية بالذهاب . وهي ترفض بغضب العناية المفرطة وغير المرغوب فيها التي يبديها غولدا مئير ومئير كاهان وبن غوريون .

ويحسن بالصهاينة الا يقتربوا بعنايتهم المفرطة هذه من ابرام بوريسوفيتش سوروكين . فلمدة ٢٨ سنة كان يدير مزرعة جماعية في منطقة دونيتسك . وخلال الحرب قاتل في ستالينغراد . وكان برتبة ملازم كبير يقود سرية رشاشات . ولان سوروكين حقق النجاح الاقتصادي لمزرعته الجماعية منح لقب بطل العمل الاشتراكي . ولا وقت عنده للعناية المفرطة التي يبديها « حماة » اليهود السوفيات ، ولا نية لديه لمغادرة البلد الذي دافع منه في ساحة المعركة وهو الان احد مواطنيه المحترمين .

كذلك يحسن بالصهاينة الا يقتربوا من زينوفي ابوسيفوفيتش كراسوفيتسكي، رئيس قسم الامراض المعدية في دائرة صحة منطقة سومي ، وهو ملازم سابق في « الحرس » قلد اربعة اوسمة وميداليات عديدة . وخلال الحرب انقذ حياة ١٧٨ ضابطا ورجلا اصيبوا بجراح ثخينة باخراجهم من ساحة المعركة . وكان بينهم روس واوكرانيون ومواطنون من روسيا البيضاء ويهود وازبكستانيون . وفي معركة برلين اصيب كراسوفيتسكي بجراح بالغة هو نفسه وانقذه زخر سيمينوفيتش فاسيلينوكو وهو الحرانسي .

ويجدر « بحماة » اليهود السوفيات الصهاينة الا يعرضوا خدماتهم على اسحق لفوفيتش برونغمان وهو شاعر بيروبيدجاني كان ملازما ابان الحرب وقد انقذ حياته صديقه الحميم فاسيلي بارانوف الذي حمى دبابة اسحق بدبابته هو في لحظة حرجة . ويحسن بالصهاينة الا يعرضوا خدماتهم على فلاديمير مويزيفيتش غوبنيك ، الكولونيل المتقاعد الذي كان يقود طائرة هجومية ابان الحرب وهو الان عضو سوفيات نواب العمال لمدينة لفوف — او على الكثيرين غيره ، بل على مئات الالوف من اليهود السوفيات الذين سيرفضون محاولات الصهاينة رفضا باتا .

كذلك يستاء الكثيرون من التقدميين اليهود في الخارج من هجمات الصهاينة المناهضة للاتحاد السوفياتي . فالصحافي والكاتب الذائع الصيت حاييم جيتلونسكي ، مؤلف عدة اعمال عن تاريخ اليهودية ، يكتب عن الاتحاد السوفياتي باحترام عميق ويستهجن الافتراءات المناهضة للسوفيات . فهو يسأل : « في اي مكان من العالم يعطى اليهود حقوقا كاملة ؟ اية حكومة توفر جميع الفرص لتطورهم القومي التقدمي ؟ اين اعطي اليهود قطرا خاصا ؟ اين تعتبر اللاسامية جريمة رسمية ؟ اين يتمتع اليهود بكل فرصة لتنمية قواهم الروحية والمادية ؟ ما من مكان اخر في العالم يتمتع فيه اليهود بكل ذلك بقدر ما يتمتعون به في الاتحاد السوفياتي » .

قال الكاتب اليهودي الاميركي الشعبي شولوم أش ذات مرة انه يحني رأسه للشعب الروسي العظيم الذي فتح كل تلك الفرص الكبيرة امام اليهود . فان حكمة الحكومة السوفياتية وبعد نظرها وبصرها ساعدت اليهود على تحرير انفسهم من اغلال العداء والافتراء .

نشرت الصحف اليهودية الديموقراطية في الولايات المتحدة منذ بعض الوقت رسالة مفتوحة من عامل اميركي . وكان كاتب الرسالة منذ اعوام عديدة عضوا نشيطا في البوند الصهيوني وقارئا لصحيفتها، فورواردز . الا ان دراسة للسياسة الداخلية التي تنتهجها الدولة السوفياتية ساعدته على ادراك ان ما قرأه في فورواردز عن كون اليهود محرومين الحقوق المدنية في الاتحاد السوفياتي ليس الا محض كذب وتلفيق .

ويجمع الصهاينة بين الافتراءات الماكرة ضد الاتحاد السوفياتي والهجمات الشرسة على الماركسية — اللينينية واظهروا عداء للافكار الشيوعية منذ البداية . ففي اليوم التالي لثورة اكتوبر في روسيا (٢٦ اكتوبر ١٩١٧) دعت اللجنة المركزية الصهيونية الى اجتماع طارىء وصف ثورة اكتوبر بأنها « جريمة ضد حقوق الشعب » ، واصدر التعليمات الى جميع المنظمات الصهيونية «باسداء المساعدة النشطة لاية هيئة محلية مؤسسة حديثا تدعم سلطة الحكومة المؤقتة » . وطلب الاجتماع من اعضاء المنظمات الصهيونية الانضمام الى « اللجان من اجل انقاذ البلاد والثورة » التي كان يقيمها « الاشتراكيون — الثوريون» والمنشفيك، الذين عارضوا دكتاتورية البروليتاريا . ومطاوعة

لهذه التعليمات قام اعضاء البورجوازية اليهوديـة بدور نشيط في تمرد مضاد للثورة اعده الطلبـة العسكريون في بتروغراد . وكانت تلك هـي اول محاولة جدية للاطاحة بالسلطة السوفياتية .

وفي الرابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ ، قالت راسفيت ، الصحيفة الصهيونيـة الصهيونية الرئيسية في روسيا ، متأسفة : « لقد بعث روسيا لنين . ونحن لا نريد هذا . والـى ذلك ، تاومناه ... » . وصدرت تصريحات كثيـرة مماثلة عن الصهاينة في ذلك الحين . وفي الثانـي من ايار (مايو) ١٩١٧ تبنت احدى المنظمـات الصهيونية النشيطة في روسيا ، في مؤتمر سري ، خطة صراع ضد الشيوعية . فقد وافق المؤتمـر على برنامج عمل جاء فيه :

« الاشتراكية عقبة في طريق الصهيونية . ولـذا فان الصهيونية والاشتراكية ليستا متضاربتيـن فحسب ولكنهما عنصران يلغي احدهما الاخر » .

ومنذ ذلك الحين قام الصهاينة بمهاجمة الشيوعية العلمية تحت اي علم وفي اي شكل وبالتحالف مـع معظم العناصر الرجعيـة . ولعبت الديانـة اليهودية دورا كبيرا في حملهم . فعندما كانت دولة اسرائيل ما تزال في عامها الاول اسس مارتن بوبر ، المنظر التلمودي واحد دعاة ما يسمى الانسانيـة الدينية ، معهدا خاصا لتدريب موظفين على العمل بين المهاجرين بغرض تعليمهم رفض الماركسيـة والعودة الى « حضن الدين » .

ويهدد اتباع بوبر العمال اليهود بعقاب صارم من يهوه اذا ما تبنوا الافكار الماركسية ، ويصرون على ان الغاء الملكية الخاصة لادوات ووسائـل الانتاج هو اجراء لا اخـلاقي ويؤدي حتما الـى الكارثة . ويدعون قائلين : « سيصيـر الانسان مبدرا اذ لن يكون ثمة معنى للتدريس ولا مصلحة . وسيكون هناك تهافت مجنون على الترف فيما موسع الثروة الطبيعية وقوى الانتاج بلا شفقة ولا رحمة » . ولا يوفر دعاة الصهيونية جهدا في محاولة اثبات ان التعدي على الرأسمال لا اخلاقي وغير جائز . ويعلنون ان الاستياء من الثراء ومقاومة الاستغلال هما خطيئتان كبيرتان ينبغي على اليهودي المتديـن تجنبهما في مطلق الاحوال .

ويعتمد الصهاينة الى حد كبير على اثارة المشاعر القومية في البلدان الاشتراكية . فهم يبالغـون كثيرا في تقدير مقدراتهم ، ويزعمون ان بامكانهم توجيه ضربات ساحقة الى الاشتراكية في بلـدان اوروبا الشرقية . ويقترح اليف شيم ، مراسل صحيفة هآرتس الاسرائيلية في لندن ، في احدى مقالاته خلق « المصاعب » في البلدان الاشتراكية باثارة المشاعر القومية المتطرفة بين السكـان اليهود عن طريق وسائل الاعلام الجماهيرية ، وبالدرجة الاولى محطات الراديو والتلفزيون التـي يملكها الامبرياليون .

واهداف الصهيونية هي نفسها اهداف اي نـوع اخر من انواع القومية البورجوازية ، التي اضحت احد الاسلحة الايديولوجية الرئيسية في ايدي القوى المناهضـة للاشتراكية . ويسر الايديولوجيـون البورجوازيون كثيرا ، في صراعهم ضد الاشتراكية وضد الحركة الشيوعية ، ان يفيدوا من النزعات القومية ، وبخاصة تلك التي تتخذ شكلا معاديـا للسوفيات .

حضر المؤتمر الثامن والعشرون للمنظمة الصهيونية العالمية ، الذي انعقد في القدس في كانـون الثاني ١٩٧٢ ، ٥٢٥ موفدا من بلدان كثيـرة . وقد عقد بعد اعمال تحضيرية واسعة . وسبقـت المؤتمر اجتماعات مثل مؤتمر عالمي للمعابد اليهودية واجتماع للصحافيين اليهود ، ومؤتمر للحاخامين الاميركيين ، وندوة «للخبراء في الشؤون السوفياتية» في جامعة تل ابيب . وكانت جداول اعمال هـذه الاجتماعات والمؤتمرات متشابهة الى حد كبير : فقد تضمنت جميعا نفس البرنامج المعـادي للسوفيات والشيوعية الذي تبناه المشاركون ، وقد بحث هؤلاء افضل السبل المتوفرة امـام المؤتمر المقبل لتحقيق هذه الاهداف .

وفي جلسة الافتتاح اقترح رئيس دولة اسرائيـل زلمان شازار بحث « مشكلة اليهود السوفييـات » بوصفها اول نقاط جدول الاعمال . وثنى علـى الاقتراح بكثير من الحماسة الموفدون الذين كانـوا قد اختيروا بعناية . ويبدو ان الذين كان يتوقـع منهم اظهار اية معارضة منعوا ببساطة من حضور المؤتمر . وهكذا فان جماعة من الاميركيين اليهـود برئاسة ماندل ، معروفين بموقفهم المستنكر للعنصرية والعدوان ، لم يصلوا الى المؤتمر على الاطلاق : فلدى وصول اعضاء الجماعة الى القدس زج بهم في السجن مع الذين نددوا في اسرائيل بالنوجيـه المعادي للسوفيات والشيوعية في المؤتمـر .

واستخدمت الشرطة هراوات من مطاط لتفريق التظاهرة الكبيرة المؤلفة من العاطلين عن العمل وضحايا الدعاوة الصهيونية الذين زحفوا على المبنى حيث كان المؤتمر منعقدا لتسلمه عريضة . ويمثل هذه التسهيلات ضمن منظمو المؤتمر انه سيكون حرا في مهاجمة الاتحاد السوفياتي ، بحيث يحول الى الاجماع المعادي للسوفيات والشيوعية كما هي العادة .

ويخدم الصهاينة باخلاص مصالح الامبريالية العالمية ، وتدفع لهم اجور سخية على اتعابهم . ويرتكز تحالف الصهيونية والامبريالية ، وهما شريكان يستحق احدهما الاخر ، على تماثل اهدافهما الرجعية .

ويجب ان لا نستخف بالخطر الكامن الذي تشكله الصهيونية على المصالح الطبقية للشعب العامل في العالم . ولا يمكن خفضه الى خطر حروب جديدة موندها سياسة اسرائيل العدوانية . فليست اسرائيل غير مكان نختبر فيه الصهيونية العالمية قوتها . واسرائيل هي قاعدة عملياتها ليس الا .

والصهيونية قادرة على نشر نفوذها في كل مكان لا تجد فيه اية مقاومة ، او مجرد مقاومة ضعيفة ، وحيثما نسي الناس اهدافها العدوانية واساليبها الدعائية الغادرة ، وحيثما لا يصار الى نضح محاولاتها الرامية الى شق وبلبلة صفوف حركة الطبقة العاملة .

ولا بد من كشف النقاب كاملا عن سياسة الخداع والعنف والافتراء الصهيونية . فشعوب العالم يجب ان تدرك الحقيقة عن الصهيونية .

المبادرات الجماهيريــة ولجان الاحيــاء الشعبيــة خلال الاحداث في لبنــان

غـازي الخليـلي

خلال الشهور الثمانية الماضية ، اي منذ نيسان الماضي حتى الان ، شهدت الساحة اللبنانية معارك حامية بين القوى الانعزالية والطائفية من جهة ، والقوى الوطنية من الجهة الاخرى ، وقد شملت هده المعارك معظم المناطق ، واكتوت بنيرانها اوسع الجماهر ، لدرجة انه لم يعد بالامكان وجود موقف محايد لاي طرف او جهة لبنانية ، في الوقت الذي كان فيه لبنان يشتعل رصاصا وقنابل وقذائف ، وفي الوقت الذي تحولت فيه الاحياء المكتظة بالسكان في معظم المدن اللبنانية الى ساحات قتال . لقد كان لبنان خلال هذه الشهور الثمانية ساحة حرب فعلا ، فالاحياء في كل مدينة ، وحتى الشوارع في كل حي — احيانا — كانت عبارة عن جزر معزولة عن بعضها بالحواجز ومتاريس المقاتلين ، وخدمات المرافق العامة توقفت موقتا كليا في بعض المناطق او جزئيا في مناطق اخرى ، الاوساخ والقاذورات تراكمت في الشوارع بشكل كان يهدد بانتشار الاوبئة . المواد التموينية نفدت من الاسواق ، واصبح هناك شبه مجاعة يخيم على لبنان ، عندما تعذر تأمين رغيف الخبز . عائلات كثيرة تشردت ، اما لان بيوتها تعرضت للهدم والخراب من جراء القصف ، او لانها اضطرت للرحيل لان بيوتها تقع في المناطق الفاصلة بين المقاتلين . اضافة الى ذلك فان الكثير من العائلات الفقيرة اصبحت بامس الحاجة الى المساعدة ، بعد ان فقدت مورد رزقها الذي كانت تعتاش منه .

لقد طرح هذا الوضع مجموعة من المهمات على القوى الوطنية ، لا تتعلق فقط بضرورة بذل المزيد من الجهد التعبوي ، لتعبئة الجماهير سياسيا والارتقاء بوعيها السياسي وقدرتها على مواجهة الاحداث ، ودعم امكانات صمودها في وجه العنف الفاشي ، بل تتعلق ايضا بضرورة ايجاد حلول سريعة لمجموعة من المشكلات الجديدة التي طرحت نفسها — وبالحاح — خلال الاحداث . فهل كانت القوى الوطنية بمستوى هذه المهمات ؟ وهل استطاعت ان تطور اشكالا جديدة من العمل الجماهيري في مواجهة مهمات من هذا النوع ؟ والى اي مدى كان تحرك القوى الوطنية — احزاب ومنظمات ومؤسسات اجتماعية — في مواجهة مهمات كهذه يسبق او يلتقي مع مبادرات الجماهير ؟

للاجابة على هذه الاسئلة ، قمنا بدراسة على الواقع ، شملت معظم الجهات والمؤسسات التي كان لها دور في هذا المجال في منطقة بيروت وضواحيها . وعلى ضوء الدراسة التي اجريناها ، فقد امكن التمييز بين اربعة اشكال من العمل في هذا المجال ، وهي :

١ — المبادرات الجماهيرية ، وهي مبادرات ذاتية قامت بها العناصر النشطة من الجماهير في عدد من الاحياء لتأمين بعض الخدمات لسكان هذه الاحياء ، وقد تفاوتت هذه المبادرات من حي لاخر ، كما تفاوتت في نوع الخدمات التي قامت بها او اهتمت بها ، وذلك على ضوء طبيعة المشاكل الاكثر الحاحا التي كان يواجهها هذا الحي او ذاك .

٢ — الدور الذي قام به بعض الاحزاب والمنظمات الوطنية اللبنانية في هذا المجال .

٣ — الدور الذي قام به بعض المؤسسات او النوادي الاجتماعية اللبنانية .

٤ — الدور الذي قام به بعض مؤسسات الثورة الفلسطينية في هذا المجال ، وهنا ركزنا فقط على دور كل من جمعية الهلال الاحمر الفلسطيني ، واتحاد المرأة الفلسطينية . وقبل البحث في هذه الاشكال الاربعة من العمل ، ارى انه من المهم

لفت الانتباه الى عدد من النقاط وهي :

■ لقد كانت المهمة المركزية للقوى الوطنية خلال الاحداث هي المجابهة العسكرية للقوى الانعزالية والطائفية ، وبالتالي فان هذه المهمة كانت تطغى في كثير من الاحيان على المهمات الاخرى .

■ لم يكن لدى القوى الوطنية — احزاب ومنظمات — تصور واضح عن المدى الزمني لاستمرار الاحداث ، وبالتالي فانها في البداية اي منذ احداث نيسان ، لم تعط اهتماما للمشاكل الاجتماعية والتموينية والصحية التي نجمت عن هذه الاحداث ، واعطت كل جهدها للمواجهة العسكرية ، ولكن امام استمرار الاحداث هذه الفترة الزمنية الطويلة — نسبيا — وامتلاك تصور واضح — الى حد ما — عن احتمالات استمرارها ، وجدت القوى الوطنية نفسها تحت الحاح ضرورة ايجاد حلول للمشاكل الجديدة التي طرحتها الاحداث فتعاطت معها باهمية وبفعالية .

■ ان زخم المبادرات الجماهيرية كان يتصاعد ابان اشتداد المعارك ، ليتراجع عندما تهدأ الاحوال وهذا يدل على ان الجماهير اللبنانية ، كغيرها من الجماهير العربية ، تدفعها الاحداث الساخنة الى المواجهة والعمل ، لتفتر همتها من جديد عندما تفقد الاحداث سخونتها . وهذه الظاهرة تؤكد مدى اهمية التعبئة السياسية المستمرة للجماهير ، وضرورة ايجاد اشكال متطورة من العمل ، تعبىء وتجند طاقات الجماهير وامكاناتها في كل الظروف والاحوال .

المبادرات الجماهيرية : وهي مبادرات دائمة تقوم بها الجماهير بشكل عفوي ، وبشكل خاص العناصر النشطة منها ، الهدف منها تعبئة سكان حي او منطقة ما لمواجهة بعض المشاكل التي تعرض لها سكان هذا الحي او المنطقة . ومثل هذه المبادرات تقوم عادة بشكل عفوي ولا تضم في البداية اوسع الجماهير في الحي ، بل العناصر النشطة فيه ، وتعتمد اساسا على العمل التطوعي وعلى حث همم الجماهير لمواجهة طارىء ما ، وهذا الطارىء قد يكون قضية اجتماعية او سياسية . وتبدأ المبادرة عادة صغيرة وخجولة وضمن الحي فقط معتمدة على حماس واندفاع القائمين بها تأخذ بالاتساع شيئا فشيئا عندما تجند اوسع الجماهير ، وتأخذ مهامها بالاتساع ايضا تدريجيا ، لتنمي في بعض الاحيان ، لدى امتدادها الى احياء ومناطق اخرى ، الى ارساء تقليد في العمل الجماهيري يتطور مع الزمن الى شكل من اشكال النضال الجماهيري على الصعيدين السياسي والاجتماعي. ان مثل هذه المبادرات لا تظهر عادة الا في ظل الاحداث الساخنة ، وقد تنتهي مثل هذه المبادرات عندما تفقد الاحداث سخونتها ، وقد تستمر بعد ذلك وتتكرس في العمل الوطني كاسلوب من اساليب النضال . ان مثل هذه المبادرات ، بالاضافة الى انها تظهر العبقرية التي تتمتع بها الجماهير في ابتداع اشكال واساليب في النضال والعمل الجماهيري متطورة ومستحدثة ، فانها تظهر ايضا ، الطاقات الكامنة لدى الجماهير ، وكيف انه اذا امكن تنظيم هذه الطاقات وتوجيهها الوجهة الصحيحة ، فانها تعطي نتائج جيدة وكبيرة. ولا يخلو تاريخ اي شعب من الشعوب من هذه المبادرات ، مع التفاوت في دور هذه المبادرات بين شعب واخر على ضوء التجربة النضالية لكل منهما .

وبالنسبة للشعب اللبناني ، فقد ظهرت مثل هذه المبادرات في نضاله الوطني ، وحديثا ظهرت اشكال من هذه المبادرات في مواجهة الاعتداءات الصهيونية على جنوب لبنان ، على شكل لجان شعبية لدعم صمود اهالي الجنوب ، او على شكل لجان لاعمار القرى التي دمرتها الاعتداءات الصهيونية مثل **لجنة اعمار كفرشوبا** ، او على شكل لجان قامت بها بعض العناصر المثقفة بدعم من بعض الاحزاب السياسية لتقديم خدمات صحية لقرى الجنوب ، مثل **النجدة الشعبية** التي قامت بالاساس على فتح مستوصفات شعبية في قرى الجنوب ، ثم طورت عملها لفتح مستوصفات اخرى في عدد من الاحياء اللبنانية في اكثر من مدينة لبنانية .

وخلال الاحداث الاخيرة في لبنان ، برزت العديد من المبادرات الجماهيرية في عدد من الاحياء في بيروت الغربية وضواحيها، وذلك على ضوء اشتداد هجمة القوى الانعزالية والطائفية على الاحياء الوطنية الفقيرة في بيروت . وقامت هذه المبادرات في البداية بشكل عفوي ، من خلال بعض العناصر النشطة في بعض الاحياء والتي كانت في غالبيتها عناصر مثقفة ، واتخذت شكل تشكيل لجنة شعبية لهذا الحي او ذاك ، بهدف تجنيد انشط العناصر في الحي ، للقيام ببعض الخدمات لسكان الحي .

في البداية انصب اهتمام العديد من هذه اللجان على تنظيف الاحياء من القاذورات والاوساخ ، عن طريق تجنيد عدد من شبان وشابات الاحياء لأزالة الاوساخ ونقلها الى اماكن بعيدة عن الحي وخالية من السكان ، وكانت هذه اللجان تقوم احيانا بالاتصال بمصلحة التنظيفات لتأمين سيارة لنقل الاوساخ المتراكمة او استئجار بعض السيارات لنقل هذه الاوساخ ، ثم طورت هذه اللجان عملها في مرحلة لاحقة لتأمين الخبز للمواطنين في بيوتهم ، بدلا من الوقوف في تجمعات كبيرة امام الافران ، مما يجعلهم عرضة للقتل الجماعي بفعل قذيفة او صاروخ ، كما جرى في حادثة الفرن في الطريق الجديدة ، حيث ان قذيفة واحدة ادت الى مقتل واصابة اكثر من ٦٠ شخصا كانوا مجتمعين امام احد الافران . كذلك فان بعض هذه اللجان طورت نشاطها الى المجال الصحي فساهمت بشكل جيد في اقامة بعض مراكز الاسعاف المتقدمة في الاحياء التي كانت تتعرض للقصف المستمر . ومن هذه اللجان من قام بجمع التبرعات الشعبية لاعالة العائلات المتضررة ولاعادة بناء البيوت المهدمة مثل لجنة اعمار حي البرجاوي ، التي تشكلت بمبادرة من سكان الحي ، بهدف جمع الاعانات والتبرعات لدعم صمود عائلات حي البرجاوي ولاعادة اعمار العديد من مساكنه التي تهدمت بفعل القصف الشديد .

بالمقابل فان بعض القوى السياسية التقليدية ، حاولت استغلال الحالة الجماهيرية النشطة ، فاعلنت عن تشكيل لجان شعبية في بعض الاحياء ، مثل لجان الصمود الشعبي في منطقة الشياح — الغبيري وهذه اللجان لا تمت الى الجماهير بصلة ، بل هي عبارة عن تجمع لبعض العائلات الغنية في منطقة الشياح ، وجدت اساسا لتعطيل مهمة اللجان الشعبية التي ظهرت في منطقة الشياح .

لقد كانت الجماهير في مبادراتها اسبق من الاحزاب والمنظمات الوطنية ومتقدمة عليها في هذا المجال ، واتضح لنا ذلك من خلال دراستنا الميدانية لتجربة اكثر من منطقة وبشكل خاص تجربة منطقة الشياح — الغبيري ، التي كانت اسبق من غيرها في هذا المجال .

تجربة الشياح — الغبيري .

يبلغ عدد سكان الشياح — الغبيري اكثر من ١٢٠ الف نسمة معظمهم من الفقراء المعدمين وذوي الدخل المحدود ، ونسبة ليست قليلة من سكان هذه المنطقة قدمت من قرى الجنوب ابان اشتداد الاعتداءات الصهيونية على جنوب لبنان . كانت هذه المنطقة من اكثر المناطق سخونة منذ بداية الاحداث ، وتعرض الكثير من بيوتها للقصف والدمار ولا سيما تلك البيوت التي تقع في الشوارع القريبة من مناطق الاشتباكات . ولذا فان بعض العائلات القاطنة في هذه الشوارع اضطرت الى الرحيل والعودة الى قراها في الجنوب موقتا ، في حين ان البعض الاخر تشرد او اضطر ان يعيش تحت القصف والرصاص ، لانه لم يجد مكانا يلجأ اليه . وحيث ان هذه المنطقة وبشكل خاص الشياح ، كانت مستهدفة ، منذ البداية في هجمة القوى الانعزالية والطائفية التي بدأت في نيسان الماضي ، فقد ظهرت فيها بشكل مبكر العديد من المبادرات الجماهيرية والتي اتخذت اشكالا عدة . فمن ناحية ظهرت في البداية **مبادرات جماهيرية عفوية** في عدد من احياء المنطقة ، قامت بها بعض العناصر المثقفة والطالبية غير المنتمية حزبيا . وتبلورت هذه المبادرات في تشكيل لجان شعبية في عدد من الاحياء قامت بمهمات النظافة وتنظيم توزيع الخبز ، وجمع بعض التبرعات لاعانة بعض العائلات المتضررة كما قامت بنوع من التوعية السياسية بين السكان عن طريق السهرات التي كانت تعقدها في العديد من المنازل . لقد كان دور هذه المبادرات محدودا وضيقا من الناحية العملية ، الا ان هذه المبادرات كان لها الفضل في تنبيه اذهان القوى الوطنية من احزاب ومنظمات الى ضرورة المبادرة بدعم مثل هذه المبادرات وتطويرها ، وبالتالي اعتمادها كشكل من اشكال العمل الجماهيري .

لقد ترافقت هذه المبادرات مع التجربة التي قامت بها لجان انصار الثورة الفلسطينية في المنطقة عندما بادرت الى تشكيل **لجان العمل الشعبي .** لقد كانت تجربة لجان العمل الشعبي مختلفة عن المبادرات الجماهيرية حيث ان هذه اللجان لم تكن اساسا لجانا قاعدية ، بل قامت بالاساس على تشكيل لجنة مركزية تم اختيار عناصرها اختيارا من قبل لجان انصار الثورة الفلسطينية ، على اساس ان تقوم هذه اللجنة بتشكيل لجان فرعية لتنظيم عملية التموين والعناية الصحية واعانة العائلات المتضررة . اضافة الى ذلك فان هذه اللجان قامت على اساس سياسي ، وهو ايجاد اطار تنظيمي — الى حد ما — لتجنيد اوسع

الجماهير اللبنانية في المنطقة لمواجهة هجمة القوى الانعزالية والطائفية . وعلى الرغم من الحماس الذي بدأت فيه هذه اللجان عملها ، حيث كانت تصدر بعض البيانات السياسية ، بين فترة واخرى ، كما اصدرت نشرة باسم « صوت الشياح » — لم يصدر منها الا عددين — كما قامت بتوزيع كميات لا بأس بها من المواد التموينية على العائلات المتضررة ، اضافة الى اقامة مستوصف ومركز اسعاف متقدم ، كان يشرف عليه طبيب واحد ، على الرغم من ذلك ، فان تجربة لجان العمل الشعبي تعثرت ، لأنها لم تعتمد اساسا على المبادرة الجماهيرية ، كما ان العناصر التي شكلت اللجان ، اختيرت اختيارا وكان ينقص بعضها الخبرة في العمل الجماهيري ، كما كان بعضها يفتقر الى الحماس والاندفاع في العمل . ان بعض لجان العمل الشعبي لا زال قائما حتى الان في عدد من الاحياء ، وتجري الان محاولة لتقييم التجربة السابقة ومحاولة الاستفادة منها ، لوضع صورة افضل لعمل هذه اللجان مستقبلا .

وفي الفترة الاخيرة ، اي اعتبارا منذ ابتداء الحوادث في منتصف ايلول الماضي ، ظهرت تجربة اخرى في هذه المنطقة ، حيث قام الحزب الشيوعي اللبناني وكذلك منظمة العمل الشيوعي اللبناني بتشكيل العديد من اللجان الشعبية في عدد من احياء المنطقة . واعتمدت هذه التجربة على اساس دعم مبادرات العناصر النشطة في كل حي لتشكيل لجان شعبية في الاحياء التي تقيم بها ، وكان يجري تشكيل هذه اللجان اما من خلال تشكيل لجنة من الانصار الحزبيين في الحي ، او من خلال دعوة اكبر عدد ممكن من سكان الحي الى سهرة سياسية تشترك بها عناصر حزبية حيث يجري التداول بالاوضاع السياسية القائمة ، ثم يجري بعد ذلك اختيار عدد من الاشخاص ليكونوا بمثابة لجنة للحي ، واللجنة عادة تكون من ٥ — ١٠ اشخاص ، وقد شارك بعض النساء في بعض هذه اللجان جنبا الى جنب مع الرجال ، في حين ان بعض الاحياء كان لها لجانها النسائية الخاصة ، وحتى الان ما زالت للحزب الشيوعي لجانه الخاصة التي يشرف عليها بشكل غير مباشر ، كما ان لمنظمة العمل الشيوعي لجانها الخاصة التي تشرف عليها بشكل غير مباشر ايضا ، على الرغم من العلاقات الجيدة بين الحزب والمنظمة .

لقد قامت هذه اللجان بالاعمال نفسها التي تقوم بها لجان الاحياء الشعبية الاخرى ، من توفير بعض المواد التموينية وتوزيعها على العائلات المتضررة ، الى فتح بعض مراكز الاسعاف المتقدمة ، الى القيام بحملات نظافة ، اضافة الى التوعية السياسية للمواطنين ، ثم مؤخرا الاشراف على فتح بعض المدارس في المنطقة ، حيث تم فتح ثلاث مدارس تكميلية حتى الان ، يدرس فيها الطلاب مجانا ، كما يقوم بالتدريس فيها معلمون متطوعون .

التجمع الوطني : ان وجود العديد من اللجان التابعة لاكثر من مركز توجيه ، قد خلق نوعا من الفوضى والارباك في عمل هذه اللجان ، وجعلها تتأثر بالمنافسات الحزبية والعصبيات الحزبية والتنظيمية ، وهذا ما ادى الى وجود اكثر من لجنة واحدة في بعض الاحياء تابعة لهذا المركز او ذاك ، مما خلق تضاربا في العمل ، واثر على حماس الجماهير واندفاعها . وقد شعرت كل القوى السياسية في المنطقة بضرورة توحيد كل اللجان وتوحيد عملها من خلال التجمع الوطني القائم في المنطقة . وهذا التجمع يضم حاليا كل الاحزاب والمنظمات الوطنية المتواجدة في المنطقة اضافة الى بعض الشخصيات الوطنية . لقد قام التجمع الوطني قبل الاحداث كاطار لتجميع القوى والشخصيات الوطنية في المنطقة ، ولم يكن يضم كل القوى الوطنية المتواجدة في المنطقة في البداية. في بداية الاحداث كان دور التجمع غير واضح وغير مبلور ، اضافة الى انه لم يكن مهتما بقضية صمود المنطقة وقضاياها المعيشية ، كان همه الاساسي هو ايجاد جبهة عريضة تضم كل القوى الوطنية ليتم من خلالها طرح القضايا السياسية . ولكن على ضوء استمرار الاحداث هذه الفترة ، وبعد ان اتضحت ابعاد المعركة الدائرة في لبنان ، فان التجمع اخذ يعد نفسه كي يلعب دورا جماهيريا في تنظيم مبادرات الجماهير ودعم صمود المنطقة . وكانت البداية في ذلك دخول كل القوى الوطنية المتواجدة في المنطقة الى التجمع، تلاها تشكيل لجان عدة ، مالية وتموينية وصحية ، تابعة للتجمع للاشراف على هذه النواحي ، ويجري الان الاعداد لاصدار بطاقة تموينية لكل عائلة متضررة او محتاجة لتقديم ما يمكن من المساعدات التموينية لها باستمرار . وفي مرحلة تالية، سيحاول التجمع توحيد كل اللجان الشعبية القائمة والاشراف عليها ، الا ان هذه المحاولة على ما يبدو ستواجه صعوبات عديدة ، والخطأ الكبير الذي قد يقع فيه

التجمع ان يعيد تشكيل هذه اللجان على اساس المندوبين الحزبيين بحيث ان يكون مندوب لكل حزب او تنظيم في كل او معظم لجان الاحياء القائمة ، مما يعني قتل المبادرات الجماهيرية التي قامت فـي السابق ، ومما يعني ايضا جعل هذه اللجان ارضا لنمو العصبيات الحزبية والتنظيمية . ان الحـل الممكن ، والذي يساعد على دعم وتنظيم المبادرات الجماهيرية التي قامت ، هو حل كل اللجـان القائمة ، واعادة تشكيلها على اساس ان ينتخب كل حي بشكل ديموقراطي لجنته الخاصة بـه ، ثم ينتخب من كل هذه اللجان لجنة مركزية تشرف على كل اللجان الشعبية القائمة ، ويتم ربط التجمع الوطني بهذه اللجان من خلال اللجنة المركزيـة ، ان مثل هذا الحل سيفرز تجربة اكثر نضجـا ووعيا وتنظيما ، ويجعلها قدوة ومثالا للمناطـق الاخـرى .

اضافة الى ذلك فانه من الخطأ الكبير حصـر مهمة هذه اللجان في تقديم الخدمات للجماهير فقط ، دون ان يجري العمل على تطوير هذه اللجان لتصبح اطارا تنظيميا واسعا لتجنيد اوسع الجماهـير وتربيتها تربية سياسية ونضالية . ان حصر مهمـة هذه اللجان في تقديم الخدمات فقط سيجعل منهـا مجرد شكل متأخر للجمعيات الخيرية ، وهي بهذه الصفة لا تجند الا عناصر محدودة جدا من الجماهير ، اضافة الى ان حصر مهمتها بهذه الناحية ، سيؤدي الى تنمية النزعات الاتكالية والاعتماد على الاخرين لدى الجماهير . بدل ان تكون هذه اللجان ارضا لغرس التقاليد الثورية وتنمية روح المبادرة والعمـل التطوعي لدى اوسع الجماهير .

النوادي والمؤسسات الاجتماعية .

قامت بعض النوادي والمؤسسات الاجتماعيـة بنشاطات مختلفة خلال الاحداث ، ولا سيـمـا في مجالات توفير المواد التموينية وتقديم الخدمـات الصحية للجماهير ، وكذلك القيام بحملات النظافة في الاحياء المتواجدة فيها . وقد اعتمدت هـذه النوادي على تجنيد اعضائها ، وعلى تجنيد اعداد لا بأس بها من المتطوعين والمتطوعات . وكان مـن ابرز النوادي التي قامت بهذه النشاطات نـادي الضاحية الاجتماعي في الغبيري ونادي الرواد فـي المزرعـة .

نادي الضاحية الاجتماعي : تأسس في العـام ١٩٦٨ بمبادرة مجموعة من المواطنين القاطنين في منطقة الغبيري . كانت اهتمامات النادي في البداية رياضية وصحية . فعلى الصعيد الصحي ، افتتـح النادي في مقره مستوصفا صحيا لمعالجة المواطنين مجانا ، وكان النادي يعتمد على نحو ١٥ طبيبـا متطوعا يداومون في المستوصفات في فترات مختلفة. خلال الاحداث ، وابتداء من احداث نيسان ، قام النادي بالعديد من النشاطات فعلى الصعيد الصحي نسق النادي مع جمعية الهلال الاحمر الفلسطيني ، فقام بتجهيز ٢٤ سريرا لاستقبال الجرحى المصابين باصابات خفيفة ، والمصابين الذين يحتاجون الـى فترة نقاهة ، كما جهز غرفتين لاجراء العمليـات الجراحية البسيطة. كذلك قام بالاشتراك مع الهلال في تنشيط عملية التبرع بالدم ، وفي التطعيم ضـد التيفوئيد . كما قام النادي بحملة للنظافة العامة في منطقة الغبيري ، لم تقتصر على ازالة الاوسـاخ المتراكمة ، بل اشتملت على نشر الوعي باهمية النظافة بين المواطنين كما شملت توزيـع سـلال في العديد من الاماكن في المنطقة لوضع الاوسـاخ بها بدلا من القائها على الارض . بالاضافة الـى ذلك فقد قام النادي باجراء مسح اجتماعي للعائلات المتضررة في المنطقة ، ووزع كمية من المواد التموينية على هذه العائلات . ومؤخرا افتتح النادي دورة لمحو الامية اشترك بها نحو ٨٠ شخصا من الذكور والاناث ، ويقوم بالتدريس عشرة مدرسين متطوعين.

نادي الرواد : تأسس نادي الرواد في العـام ١٩٥٩ ، وكان عبارة عن نزل للشباب على نسـق بيوت الشباب المنتشرة في العديد من بلدان العالم . وخلال الاحداث الاخيرة حول النادي نشاطاتـه لمواجهة الحالة التي نشأت عن هذه الاحداث . فاعتمد على تجنيد اعضائه ، وكذلك على تجنيـد عدد من المتطوعين والمتطوعات من سكان المنطقة . فقام بالتعاون مع جمعية الهلال الاحمر الفلسطيني بافتتاح مركز اسعاف وصيدلية في مقر النادي ، اشرف عليهما ثلاثة من الاطباء ، يعاونهم بعـض الممرضات والمسعفين . وساهم النادي في تنشيـط عملية التبرع بالدم وحلل فئة الدم لاكثر من ٢٠٠٠ شخص. كذلك فقد جهز في مقره غرفة طوارىء للقيام بالاسعافات الاولية للمصابين . واجرى بالتعاون مع جمعية الهلال الاحمر الفلسطيني عـدة دورات للاسعاف الاولي تخرج منها نحو ١٥٠ مسعفا . اشترك النادي في عملية التلقيح ضـد التيفوئيـد وضد شلل الاطفال . كما قام النادي بتنظيم عملية توزيع الخبز على بيوت المواطنين خلال الاحداث .

جمعية الهلال الاحمر الفلسطيني :

قامت جمعية الهلال الاحمر الفلسطيني بدور فعال خلال الاحداث ، وذلك من خلال عدد من العناصر النشطة والاطباء العاملين فيها . فقامت بتوسيع قدرتها على استيعاب الجرحى والمصابين بزيادة عدد الاسرة . فبالاضافة الى مستشفى غزة الذي يتسع لـ ٣٠ سريرا فقط ، ومستشفى تل الزعتر ، تم استخدام احدى قاعات جامعة بيروت العربية كمستشفى حيث جهز بغرفتين للعمليات و بـ ١٠٠ سرير ، وذلك عوضا عن مستشفى القدس الذي اضطرت الجمعية الى اغلاقه لانه يقع في منطقة سيطر عليها القوى الانعزالية والطائفية ، اما مستشفى حيفا فقد خصص للمصابين الذين يحتاجون لفترة نقاهة .

لقد شمل نشاط جمعية الهلال الاحمر الفلسطيني خلال الاحداث ، وجوها عدة، فبالاضافة الى استقبال الجرحى الكثيرين واجراء العمليات الجراحية اللازمة لهم ، قامت الجمعية بتنظيم عملية التبرع بالدم ، عن طريق تشكيل بعض اللجان الشعبية في عدد من الاحياء ، وعن طريق التنسيق مع عدد من اللجان الشعبية القائمة في بعض الاحياء ، وكذلك بالتنسيق مع بعض النوادي والمؤسسات الاجتماعية والاتحادات الشعبية . وفي الفترة ما بين ٩/١٨ — ١٢/٢ تم جمع ٨٥٠ وحدة دم ، كما تم تحديد فئات الدم لاكثر من ١٥ الف شخص ، ثم تسجيل اسماء وعناوين عدد كبير منهم للاستعانة بهم وقت الحاجة . كذلك فقد قامت الجمعية بتنظيم عدد من دورات الاسعاف تخرج منها ما يقرب من ٢٠٠ مسعف . كما قامت بدعم مراكز الاسعاف المتقدمة بالادوية والعلاجات وبالمرضات من المتطوعات . واعتمدت الجمعية في نشاطاتها على تجنيد عدد من المتطوعات — ممرضات ومسعفات — واللواتي بلغن نحو ٥٠ متطوعة ، بالاضافة الى النشاط الاساسي الذي كان يقوم به عدد من العناصر النشطة العاملة فيها. لقد استطاعت الجمعية ان تغطي — الى حد ما — النقص الحاصل في الخدمات الصحية في منطقة بيروت الغربية وضواحيها ، وان تنشر وعيا صحيا بين سكان هذه المناطق . ومن النشاطات الاخرى التي قامت بها الجمعية ، حملتها ضد التيفوئيد وضد شلل الاطفال في منطقة بيروت الغربية .

اتحاد المرأة الفلسطينية :

كان اتحاد المرأة الفلسطينية من انشط الاتحادات الفلسطينية خلال الاحداث . وقام الاتحاد بعدد من النشاطات منذ بداية الاحداث في نيسان الماضي ، واعتمد في ذلك على اعضائه وعلى عدد كبير من المتطوعات اللواتي بلغن اكثر من ٢٠٠ متطوعة معظمهن لبنانيات . في البداية اهتم الاتحاد في دعم العائلات المتضررة في تل الزعتر ، فقدم مساعدة تموينية لنحو ١٥٠ عائلة في تل الزعتر ، وتم جمع هذه المواد التموينية من خلال التبرعات التي كان يقوم بها الاتحاد . كذلك قام الاتحاد بتأمين عدد من وجبات الطعام لعدة ايام لافراد الميليشيا في الكمائن القريبة من منطقة الجامعة العربية . ونتيجة لاستمرار الاحداث وتصاعدها ، فقد وسع الاتحاد اطار نشاطاته ، ففرغ اكثر من ٥٠ ساعة للمداومة في المستشفيات للعناية بالجرحى والسهر على راحتهم والاتصال باهاليهم . كذلك قدم للجرحى ما يحتاجونه من البسة وغيارات خلال وجودهم في المستشفيات . بالاضافة الى ذلك فقد قام الاتحاد بتنظيم عدد من دورات الاسعاف للمتطوعات ، الذي جرى توزيع عدد منهن على المستشفيات ومراكز الاسعاف المتقدمة في المناطق التي كانت تتعرض للقصف الشديد . كما تم توزيع العدد الآخر على مراكز اسعاف متنقلة في عدد من المناطق ، وذلك عن طريق وضع فتاة او اكثر في احد المحاور بعد تزويدها بجعبة اسعاف، كي تقوم بالاسعافات الاولية اللازمة للجريح قبل نقله الى المستشفى .

من ناحية اخرى ، فقد قامت اللجان والروابط الفرعية للاتحاد في المخيمات الفلسطينية بتهيئة الملاجىء في المخيمات ، بتنظيفها وتزويدها بوسائل الانارة والحرامات وبقصص الاطفال استعدادا لكل طارىء ، وتم تخصيص فتاتين لكل ملجأ ، كي تقوما بخدمة من يلجأ الى الملجأ اثناء الطوارىء. بالاضافة الى ذلك فقد كان للاتحاد دور جيد في دعم حملة التبرع بالدم ، وهذا يظهر في كون ان ٦٠٪ من المتبرعين بالدم كن من النساء .

مراجعــات

د . عائشة عبـــد الرحمــن ، الاسرائيليــات في الغــزو الفكــري ، (معهد البحوث والدراسـات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٥) .

مرت الكتابات العربية بشأن الوجود الاسرائيلي بثلاث مراحل : **الاولى** : مرحلة التجاهل التـــام والتي امتدت منذ بدء هذا الوجود حتى عام ١٩٦٧، **الثانية** : مرحلة الاغراق والكثافة للمؤلفات المتعلقة باسرائيل منذ عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٧٣ ، وكان معظمها يتأثر بالكتابات الاسرائيلية التي متنـاول بالتضخيم والاعجاب **بالتجربة الاسرائيلية الثالثة** : ابتداء من ١٩٧٣ ، حيث بدأت تتسم الكتابـات بالاتزان وانتقلت الى تناول الجانب الفلسطينـــي وليس الاقتصار على التجمع الاسرائيلي .

رغم ذلك فالكتاب الذي نحن بصدده ، يذكرنـا بالمرحلة الثانية ، اذ تتحدث الكاتبة في البدايــة عن « ابتلاء الامة بطاغوت بني اسرائيل » ، وتتحدث عن الاجتياح اليهودي (ص ٩) ، ثم تلخـص مضمون الكتاب في ص ١٣ بقولها « فما تصورت من قبل وانا اوغل في الكشف عن ذرائع الاسرائيليات في الغزو الفكري ان **الشيطان** نفسه يمكن ان يصل الى ذلك **المدى الرهيب** من حيث الشر ومكر الحيلة، وذكاء الدهاء ، ولا خطر على بالي ان **عصابـات اليهود المشردين** .. كانوا وراء **ما نكبت بـــه البشرية** في العصر الحديث من اهوال الحـروب وعواصف الفتن والفوضى والالحاد والاغلال ، وانهم ينفذون **مؤامرة رهيبة للسيطرة على العالم كلــه** .

ويبدو ان الكاتبة ، مدفوعة بحماس ديني حاد ، لم تستطع ، او هي اغفلت التمييز بين اليهودية من جانب والصهيونية من جانب اخر ، واسرائيل من جانب ثالث ، فمنذ البداية ندرك انها تستخـدم ايا من المصطلحات الثلاثة للدلالة عليها جميعا ، رغم ثبوت التفرقة بينها ليس فقط لاعتبارات سياسية وتاريخية ومنطقية ولكن ايضا لاعتبارات دينية ، وهي المنطلق الذي يوجه فكر الكاتبة .

ينقسم الكتاب ثلاثة مباحث ومقدمة ومدخل ، تخبرنا في المدخل انها تعتمد على كتاب وليم غاي كار « احجار على رقعة الشطرنج » والذي يتناول بالوثائق الطاغوت اليهودي والمؤامرة الصهيونية على العالم الى حد السيطرة عليه ، وتؤمن معـه الكاتبة بان المنظمة الصهيونية لعبت دورا هامـا ما بعد الحرب العالمية الاولى الى حد القول بان عصبة الامم ما هي الا فكرة يهودية للسيطرة علـى عالم ما بعد الحرب . وهي هنا تستخدم اصطلاح « اليهودية العالمية » (ص ٢٢) رغم ان اليهودية ديانة تنفصل عن السياسة ، وكما لا يصـــح الحديث عن « الاسلامية العالمية » او « المسيحية العالمية » ، فكذلك الحال بالنسبة لليهودية ، الا انه من الواضح ان الكاتبة تستخدم هذا الاصطلاح للدلالة على الصهيونية العالمية رغم ما ذكرناه من ضرورة الفصل بينهما ، فما نواجهه ليس اليهودية وانما الفكر الصهيوني ، ومعنى هذا الخلط هو التعصب غير المنطقي ضد احدى ديانات السماء ، والاسلام — الذي هو منطلق الكاتبة — ديـــن تسامح واعتراف باليهودية .

في البحث الاول : متناول الاسرائيليات في المجال التاريخي : حيث تعرض ثلاث قضايا للتدليل علـى المؤامرة الرهيبة للسيطرة على العالم (أ) **الاولى**: هي التآمر اليهودي ابتداء من بدء الدعـــوة الاسلامية ضد الاسلام ، وتدلل على ذلـك بان عبدالله بن سبأ ، ذلك اليهودي اليمني ، الـذي اسلم ، كان وراء الفتنة الكبرى بين علي بن ابي طالب ومعاوية ، ومن قبل اثارة المسلمين ضـــد عثمان لانه استولى على الخلافة من علي الوصي بعد النبي ، وعلى الرغم من اني لا ادعي ثقافة دينية ، غير ان المهم هو اعلان الاسلام ، وعبـد الله بن سبأ ، في تصوري ، ان كان قد تآمر ،

فقد حدث ذلك ، من واقع انه مسلم وليس لكونه يهوديا ، **والثانية** : هي قصة هرتزل مع عبد الحميد السلطان العثماني ، وتفخر الكاتبة من موقف عبد الحميد من هرتزل ورفضه التسليم لليهود وبدخول فلسطين ، ولكنها تتباكى على سقوط الامبراطورية العثمانية ، وتندب حظها وشماتة العرب لها (ص ٢٢) ، ومن واقع التعصب ترى ان تقسيم تركة الرجل المريض هو اخذ بالثار من سقوط القسطنطينية عاصمة الروم المسيحيين والثار للهزيمة الصليبية (ص ٣٧) ، ولا تدري الكاتبة ان الحملات الصليبية لم تكن مدفوعة باسباب دينية (الحفاظ على المسيحية) ، ولكنها كانت مدفوعة بعوامل اقتصادية مضمونها البحث عن اسواق في المشرق العربي لصناعات اوروبا الناهضة ، فضلا عن البحث عن مصادر للمواد الاولية ، ولقد عاصر تلك الغزوات الكشوف الجغرافية للامريكتين لنفس الاغراض ، ولكن الدين استخدم كأداة لجمع ملوك اوربا وراء تلك الحملات وليس كغاية في ذاته ، وهي ترى ان هرتزل هو عبد الله بن سبأ القرن التاسع عشر . ومن الغريب فعلا ان تنظر الى السلطان عبد الحميد بانه كان الشهيد الاول الذي سقط دفاعا عن فلسطين (ص ٤٨) ، وبالرغم من احترامنا لدور عبد الحميد ، الا انه كان يتحرك من واقع الدفاع عن امبراطوريته الاستعمارية من جانب ، والمناورة مع الدول الاوربية الاخرى لتسديد ديونه ، **والثالثة** : قضية الاستعمار ، هي ترى ان اليهود كانوا وراء احتلال فرنسا للجزائر واحتلال بريطانيا لمصر (ص ٣٦) ومن قبل فتحت البيوت المالية اليهودية ابوابها امام الخديوي اسماعيل حتى اغرقته في الديون ، وكانت رقابة صندوق الدين على المالية المصرية احتلالا اقتصاديا يهوديا محضا ، هكذا تفهم الدكتورة بنت الشاطىء الصراعات الامبريالية المادية ضد الشعوب المتخلفة على انها مؤامرة دينية يهودية ضد المسلمين ، والواقع ان العامل الديني في كل تلك الصراعات لا يلعب دورا يكاد يذكر امام التنافس وتوازن القوى بين الدول الاستعمارية في تلك الفترة خاصة بين انجلترا وفرنسا .

البحث الثاني : تتناول الاسرائيليات في الغزو الثقافي والفكري : نحدث صناعة حركة الاستشراق وتأثيرها على شعور اجيالنا بالنقص تجاه القيم الاوربية ، والسبب يعود الى الارساليات التبشيرية والبعثات التعليمية الاجنبية التي سيطرت على الكليات الحساسة (الحقوق ، الاداب .....) واجهزة الاعلام ، وكافة المجالات الثقافية والعلمية وانتهت تلك المرحلة بسيطرة بني اسرائيل على حياتنا ابتداء من الضفة الشرقية للقناة حتى مشارف الفرات ، وفي تفسيرها لكيفية نفوذ هذا الغزو اليهودي الى حياتنا ، ترى انهم ادخلوا علينا شعارات مضللة ، فقد ادخلوا العروبة محل الاسلام (ص ٦٢) وحينما قوي الشعور القومي العربي ضد محاولات التسلط الاجنبي عمدوا الى اثارة فتنة السلالات القديمة لشعوب وطننا ، وظهر بيننا ازدواج العقيدة ، فهناك المسلم الماركسي ، والمسيحي اللينيني ، والمسلم البهائي ، وهكذا افضت الدروب كلها الى تل ابيب ، (٦٤) ومما لا شك فيه ان فكرة القومية العربية ظهرت كنتيجة للنضالات العربية ابتداء من اواخر القرن التاسع عشر حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ومنها حتى اليوم ، ولا تعارض بينها وبين الاسلام ، ولكنها فكرة علمانية ككل قومية ، تضم مسلمين ومسيحيين ويهود وبهائيين ، وغيرهم ، واذا اخذنا بتفسير الدكتورة بنت الشاطىء لاصبنا باحباط وانعدام وزن ولتصورنا ان الصهاينة (او اليهود في مفهومها) يملكون مفتاح الكون ، يديرونه وفقا لمشيئتهم .

وتنتقل لنقطة هامة جدا ، وهي نقطة السامية ، هي ترى ان اليهود ادخلوها علينا خطأ ليثبتوا اننا وهم من اصل واحد هو « سام » وهي ترفض ذلك بشدة ، بل وترفض انتماء اليهود الكنعانيين الى الجزيرة العربية ، لانها تفخر بخصال العرب وتندد بخصائص اليهود ، غير انها حين ترفض انتماء اليهود — معنا — الى سام ، لا تقدم اجابة عن السؤال الرئيسي ، ما هو اصل اليهود اذن ؟ ما هو اصل العرب النادر هذا ؟ وترفض كذلك — دون تدليل — اعتبار اليهود ابناء عمومتنا (ص ٨١) ، والواقع ان ما وقعت يداي عليه من مراجع تاريخية تؤكد وحدة الاصل السامي لكل من قطن الجزيرة العربية وبلاد الشام ، ولماذا ترفض اشتراك اليهود معنا في اصل واحد ، او قرابة ما ، ونحن نسعى — كعرب — وليس كمسلمين ومسيحيين فقط — الى الدعوة الى اقامة الدوله العلمانية في فلسطين محل دولة اسرائيل لتضم — دون تمييز بسبب الجنس او الدين او اللغة او الانتماء الطبقي — الفلسطينيين واليهود معا .

البحث الاخير : الاسرائيليات في الموقع الديني :

مر ذلك بثلاث مراحل : **الاولى** : بث اخبار اليهود ممن تظاهروا بالدخول في الاسلام في عصر البعث اسرائيليات من تراثهم الديني . **الثانية** : ما قام به اليهود المستشرقون من دس بالاسرائيليات الى الفكر العربي . **الثالثة** : ما قام به العرب انفسهم ممن تربوا في مدارس الاستشراق من نقل واقتباس للاسرائيليات الى الفكر العربي .

وهي تتناول باسهاب محاولات بعض المستشرقين تشويه التفسير القرآني مثل « جولد تسهير » الذي نقب بعمق عن اسهامات اليهود وقصصهم في التفسير القرآني وتأثيره على القران ذاته انطلاقا من **مقولتهم الجريئة الفاحشة** : الاسلام كله بضاعة اسرائيلية ، ثم تنتقل الى علاقة حركة البهائيين في عكا وحيفا اثناء الحرب العالمية الاولى باليهود ، فلقد عبأ اليهود البهائيين ، مقابل اقرار الاخيرة بان تؤول فلسطين لليهود ، وتحاول رصد العلاقات الخاصة بين الحركتين « الصهيونية والبهائية » خاصة بعد نشأة دولة اسرائيل ، فلقد رأى البهائيون أنهم دين جديد لا يمكن ان يترعرع الا في دولة جديدة ، واسرائيل هي تلك الدولة الجديدة .

وتعرض لما قام به البعض من ترجمة للقرآن — مشوهة — لتقديمها الى المسلمين غير العرب ، وترى انها ترجمات قام بها اليهود ، وترى ان محاولات الدكتور مصطفى محمود تقديم تفسير عصري للقرآن هي محاولات مبثوثة متأثرة بالاسرائيليات .

وترى في الختام ان الفصل بين اليهود واسرائيل والصهيونية خدعه لانها ليست سوى اقنعة لوجه واحد (١٧٤) (أ) ، وتتساءل : متى كانت الصهيونية منفصلة عن اسرائيل واليهود ؟ وكيف جازت علينا خدعة الخلط بين اليهودية والموسوية ؟ فاليهود اسبق في الوجود التاريخي من الديانة الموسوية ، **ومحنة البشرية بهم اقدم** من مولد موسى بقرون . والذي يجب ان ندرك تماما هو التفرقة بين الموسوية دينا ، والصهيونية نحلة وعنصرا ، وتخلص في النهاية : الى انه لم يكن التاريخ الديني والحضارى للانسان يعرف منهم اصحاب شريعة دينية ، ولا كانت الاجيال من شعوب البشرية في مقاومتها للشر اليهودى ...... تنظر فيهم قط الى اهل ملة ودين .

ولعل اخطر ما في الكتاب هو ذلك الاقتباس السابق ، وفيما يتعلق بالفصل بين اليهودية والصهيونية واسرائيل ، نذكر عدة اعتبارات :

أ — المفهوم الاول هو مفهوم ديني ، والثاني مفهوم ايديولوجي سياسي ، اما المفهوم الثالث فهو من قبيل مصطلحات السياسة العملية المتعلق بالدولة الاسرائيلية .

ب — المفهوم الاول : قديم يعود الى بدء ظهور موسى بني اليهود ، المفهوم الثاني لم يظهر الا كحركة سياسية ظهرت في منتصف القرن ١٩ ، وبصفة خاصة في الربع الاخير منه ، وتعود في الواقع الى الثورة الصناعية حيث تحالفت البورجوازية المسيحية مع البورجوازية اليهودية ضد بروليتاريا اليهود الزاحفة الى المدن للعمل — كعمال — في المصانع الضخمة ، والخوف من ان تمد تلك الاخيرة الحركات العمالية الثورية والاحزاب الاشتراكية بمدد بشري اخر ، لذا تم البحث عن وسيلة لابعاد هؤلاء عن اوروبا ، وكان ان ظهرت الفكرة الصهيونية التي نادت بالوطن القومي او الدولة اليهودية (هرتزل) لتضم اليهود العاطلين في اوربا وابعادهم عن النضالات الثورية ضد تلك البرجوازيات ، اما المفهوم الاخير فلم يظهر الا في عام ١٩٤٧ ، بعد قرار تقسيم فلسطين (رقم ١٨١) (٢) في ٢٩ نوفمبر (١٩٤٧) وهكذا يصبح من الخطأ — كل الخطأ — بل من الخطر ، ان لم يكن من الجهل استخدام المفاهيم الثلاثة بمعنى واحد وهي — كما يبدو لي في النهاية — ترفض حتى اعتبار اليهود بشرا ، وهذا ما يؤدي بنا الى الاغراق في متاهات اليوتوبيا التي لا مجال لها في ميدان السياسة العملية .

وفي تقييمنا لهذا الكتاب نبدي الملاحظات التالية :

اولا : عنوان الكتاب ينطوي على خطأ تاريخي فاحش ، ما كان يجب ان تقع فيه الدكتورة بنت الشاطىء « الاسرائيليات في الغزو الفكري » وكان يجب ان تختار له عنوانا اخرا مثل « الصهيونية في الغزو الفكري » ولكنها تريد ان تظهر تعصبها الديني الذي اعتقد انه لن يحقق ما تصبو اليه ، ان كانت تريد خدمة قضايا الدين ، وكما رأينا فان اسرائيل — كاصطلاح — لم تستعمله الا منذ نشأة الدولة الاسرائيلية عام ١٩٤٧ .

ثانيا : من حيث المنهج ، يتميز الكتاب

بالتفكك والضعف ، ذلك ان ينطلق من منهج ديني لخدمة قضية سياسية — هي قضية الصراع العربي الاسرائيلي — وكان بودي ان تقتصر الدكتورة بنت الشاطىء على التفسير القرآني والادب الديني ، بدلا من تخطي ذلك الى قضايا قد لا تصيب فيها . واذا قيمنا المنطق الديني للكتاب ، وجدناه اعلانا صارخا بالتعصب — دون سبب يذكر — للدين الاسلامي ، ذلك التعصب الذي دعا مثلا الى اعتبار سقوط الدولة العثمانية مأساة المسلمين في القرن العشرين ، واعتبار سلطانها عبد الحميد اول شهيد من اجل فلسطين ، ثم تجريد اليهود من دينهم « اليهودي » ومن اصلهم « السامي » (!)

ومن جانب اخر ، فالكتاب يعسر دعوة الى حرب صليبية جديدة ، ضد اليهود في كافة انحاء العالم رغم ان هناك يهود يؤيدون الحق العربي ، ويهود داخل اسرائيل يؤيدون عودة الفلسطينيين الى وطنهم — وان كانوا لا ينادون بزوال دولة اسرائيل .

ثالثا : الكتاب يدعو الى البحث عن المجهول ، وقد صنعه خيال الدكتورة بنت الشاطىء ، وترك الواقع الملموس ، فلقد طرح الصراع العربي — الصهيوني معطيات نعتمد عليها في حربنا ضد اسرائيل ، معطيات احتلال الارض العربية ، وتشريد سكان فلسطين خارج ارضهم ، تلك معطيات يجب الدفاع من اجل تصحيح مسار التاريخ بشأنها ، اما البحث عن عبدالله بن سبأ ، وسقوط الدولة العثمانية وصندوق الدين المصري واحتلال الجزائر وحملات الاستشراق ، فهو حديث المدفأة لا حديث السياسة ولا حتى حديث الدين « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ، انك لن تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء .

رابعا : المضمون الكلي للكتاب يدعو الى التقاعس والاحباط ، فاذا كان اليهود منذ بدء الخليقة متامرون ، ويخططون المؤامرة خطيرة للسيطرة على العالم كله ، واذا كانت الديانات قد تعرضت لمؤامراتهم ، واذا كانت الحروب الصليبية من تخطيطهم ، واذا كانت الصراعات والفتوحات الاستعمارية بوحي منهم ، فماذا بقي لارادة شعوب الارض من غير اليهود ؟ انها دعوة ليست للمقاومة ، ولكنها للوقوف مكتوفي الايدي، خشية تلك المؤامرة العالمية ، والتحليل الموضوعي للوجود الاسرائيلي وللحركة الصهيونية انما يتأتى بفهم ارتباطاتهما بالمصالح الامبريالية العالمية ، سواء في مرحلة تكوين تلك الامبريالية في اواخر القرن التاسع عشر ، ام في مرحلة التوسع والدفاع الامبريالي عن النظام الرأسمالي اليوم ، ليس ضد النفوذ الشيوعي في دول الشرق الاوسط — كما تدعي الولايات المتحدة — ولكن ضد ثورة التحرير في الوطن العربي ، وبصفة خاصة تلك الحركات التقدمية ذات المضمون الاجتماعي والتوجهات الجماهيرية في بعض دول الوطن العربي هذا التحالف الامبريالي الصهيوني لا يتطلب التنقيب في الحفريات الاثرية للبحث عن بصمات الصهيونية ، ولكن يتطلب تقديم العلاجات الثورية للمعطيات الواقعية في الصراع العربي — الصهيوني في فلسطين .

خامسا : ان الاسهام الحقيقي للنخبة المثقفة العربية بشأن الصراع العربي — الصهيوني ، ليس التعلق بجانب واحد — ولو كان الدين — ولكن البحث في مسببات ذلك الصراع في صورتها الشاملة ، تلك المسببات الحضارية والتاريخية في شكلها المادي المتمثل في الصراع بين القيم الثورية ، والمصالح الاستعمارية المنبثقة عن بنية النظم الرأسمالية الغربية وخاصة الامريكية وارتباطها بالدولة الاسرائيلية ، ذلك يفتح الباب الحقيقي امام النضال الفلسطيني والعربي .

عبد المنعم المشاط

كاتبة اميركية يهودية في مصر

Gornick, Vivian, *In Search of Ali Mahmoud—An American Woman in Egypt* (Saturday Review Press/E.P. Dutton & Co., New York, 1973).

فيفيان غورنيك هي كاتبة اميركية في العقد الرابع من عمرها ، تتعرف على شاب مصري يحضر للدكتوراه بالفيزياء في احدى الجامعات الاميركية ، فتفتتن به وتعيش معه ستة اشهر . وهذه التجربة تثير اهتمامها ، ككاتبة ، على اكثر من صعيد واحد : فقد سبق لها ان شاركت في وضع كتاب عن المرأة الاميركية المتحررة * ، ولكنها الان عشيقة رجل قادم من مجتمع شرقي محافظ . وهي يهودية نشأت في كنف اسرة صهيونية الميول ، بينما علي محمود (والاسم مستعار كسائر الاسماء الاخرى بهذا الكتاب) عربي ينتمي الى دولة في حالة حرب مع اسرائيل . وهي امرأة لا تترك انطباعا او احساسا دون ان تبسطه على طاولة التشريح والتحليل ، بينما علي محمود نقيضها تماما في ذلك . وهذا التضارب في المواقف يولد في نفسها الفضول ، كانثى وكمؤلفة ، ويدفعها الى القرار بان تقوم برحلة استكشاف في مصر « بحثا عن علي محمود » . وهي تسجل في مطلع كتابها ردود فعل اهلها ومعارفها على قرارها هذا :

احد اصدقائها المقربين : هل جننت ؟!

رئيس تحرير المجلة التي تعمل فيها : لن يسمحوا لك بدخول بلادهم .

شقيقها : لو كنت مكانك لراجعت قراري مرة اخرى .

دبلوماسي اوروبي في الامم المتحدة : انهم سيراقبونك اينما ذهبت في مصر ، ولن يفسحوا لك المجال لان تفعلي ما تريدينه .

كاتب ايراني : انها فكرة رائعة .

صديقة فرنسية سبق لها ان اقامت في مصر : ان مشكلتك في مصر لن تكمن في كونك اميركية او يهودية ، وانما في كونك انثى .

واخيرا امها : انك تخونين اليهود !

فيفيان : ارجوك !

فتعود امها لتقول : ان المصريين سيقتلونك .

فتسألها ابنتها : ولكن لماذا يقتلونني ؟

فتجيبها امها : لاننا في حرب معهم يا ابنتي الذكية .

فتقول فيفيان : اني مواطنة اميركية واميركا ليست في حالة حرب مع مصر .

ويكون تعليق امها على ذلك : انك حمقاء !

ولكن ردود الفعل السلبية لا تثبط عزيمة فيفيان وكخطوة اولى في طريقها لتحقيق المشروع ، تدعو علي محمود لزيارتها في بيتها ، بالرغم من اعتراض امها واستنكارها . (عربي في بيتي ؟! مستحيل !) ويزورها علي محمود ويتعرف على امها ، وهذه الاخيرة تضطر الى ابداء الاعجاب به ، مبررة اعجابها هذا بقولها : اني لم ازعم ابدا بان الاشخاص الاستثنائيين غير موجودين بين العرب .

ثم تستقل فيفيان الطائرة وتصل القاهرة في الشهر الثاني من عام ١٩٧١ .

قبل الاستطراد في الحديث عن هذا الكتاب ، علينا اولا ان نصنفه . ولعل افضل طريقة لتصنيفه هي تلك القائمة على النهج التصنفوي . ان كتاب فيفيان غورنيك لا يدور حول تاريخ مصر ، ولا يتناول سياستها او اقتصادها او ثقافتها وحضارتها . وهو بالتأكيد ليس جولة سياحية في بلاد النيل ، وانما هو حسب تعريف المؤلفة نفسها محاولة لتحليل شخصية الفرد المصري المنتمي الى الطبقة المتوسطة المتعلمة في المدن ، تلك الفئة التي تقول المؤلفة ان نسبتها لا تتجاوز الواحد بالمئة من مجموع الشعب المصري .

وتندمج فيفيان مع اسرة علي محمود (وكان قد زودها برسائل التقديم الى اهله) وتدخل في علاقات حميمة مع اخواته وعماته وخالاته واعمامه وسائر اقربائه ، وكذلك تعقد العلاقات الغرامية مع رجلين (ليس في نفس الوقت) وهي طوال فترة اقامتها التي امتدت بضعة اشهر ، تدرس وتحلل وتسجل ، ليس من موقع المراقبة المحايد ، وانما من الداخل ، ومن موقع الشخص الذي هو

* Vivian Gornick & Barbara Moran: Woman in Sexist Society.

ايضا يلعب دورا في الاحداث . وهذا النهج في البحث يتيح لها الحصول على انطباعات تخالف تلك التي دونها كتاب غربيون كثيرون كتبوا عن مصر قبلها . انها مثلا لا تستخلص من حالة الفقر المدقع التي يعيش فيها معظم المصريين ، بانهم فريسة الخمول وتبلد الاحساس . بل بالعكس ، فسان النشاط الذي تشاهده في شوارع القاهرة وازقتها يذكرها بنيويورك . فالناس هنا لم يستسلموا « للقسمة والنصيب » ، وانما هم في سعي دائم محموم وراء لقمة العيش . وبينما تحدث جون سايكس في كتابه عن مصر * عن جو العنف المستتر الذي يحس به المرء في شوارع القاهرة ، تكتب فيفيان عن مناخ اللطف والرقة Tenderness الذي يسري في كل مكان بمصر . فهي من البداية تشعر بانها قد تصاب بالارتباك في القاهرة ، ولكن ابدا ليس بالخوف . ولها ايضا ملاحظة طريفة عن التزمير المستمر للسيارات في شوارع القاهرة ، فهي تقول : ان القاهريين يزمرون مثلما يتبادلون التحيات فيما بينهم ، وكأن كل واحد منهم يقول للمارة وسائقي السيارات الاخرين حواليه : مرحبا ازيكم ؟ انا هنا ! وفي المرة الوحيدة التي تسمع فيها نفير سيارة يزأر بهياج وكانه يشتم الناس حوله ، تخمن فورا بان صاحب الصوت الغاضب ليس مصريا . وفعلا تكتشف بانه اميركي !

الا ان العدسة اللاقطة لهذه المؤلفة المجهزة بحواس دقيقة كانتينات الرادار ، لا تسجل الايجابيات وحدها . فان احد افراد اسرة علي محمود ينفجر في حملة حاقدة على عبد الناصر : اننا نكرهه .. نكرهه من كل قلوبنا .. كلنا نكرهه . والمتحدث هو رجل كان يملك مصنعا انتزع من ملكيته وامم . واخر يقول لها : ان الاشتراكية هي خازوق البشرية وهي الان خازوق مصر . ومع ان المؤلفة لا تدعي الاعجاب بعبد الناصر او بالاشتراكية ، الا انها تنصت بعطف اكبر الى قريب لهذين الرجلين ، يصف لها باسلوب مؤثر المظاهرات الهائلة التي عمت القاهرة اثر استقالة عبد الناصر . ان عطفها ينبعث من احساسها بان هذا المتحدث هو اكثر اخلاصا وصدقا من سابقيه اللذين رسما لها صورة ملونة تعكس حقدهما الشخصي . ان هذا الرجل يحذرها من العائلة التي صادقتها والذي هو احد افرادها ، فهي لا تمثل روح مصر على حد قوله ، وذلك لجشعها وقلة ثقتها بالبلاد وعدم اهتمامها بشيء يتجاوز مصالحها البورجوازية الخاصة . انه يقول لها : **هؤلاء الناس لا يرون ما يجري امام اعينهم ، وهم يكرهون ويخافون الشيء الوحيد الذي بامكانه ان يرفع مصر من القرون الوسطى .**

وتلاحظ المؤلفة افتتان هذه الطبقة بكل ما يتعلق بالغرب ، وخاصة اميركا ، ذلك الافتتان الذي يرافقه نفور شديد من الكتلة الاشتراكية ، اذ دوما تسمع اللوم الموجه الى سياسة اميركا تجاه مصر ، والتحسر على تردي العلاقات بين البلدين . الا انها لا تنجر الى المناقشات السياسية بل تصر على انها لا تفهم في السياسة . وهذا الموقف يرسم بعض علامات التساؤل حول صدق المؤلفة حول هذا الموضوع بالذات . فهي من جهة تبين بكل وضوح شعورها القوي بيهوديتها ، ولا تخفي استياءها عند سماعها لملاحظة جارحة لليهود تصدر من احد معارفها المصريين (واغلبهم لا يعرفون انها يهودية) الا انها لا تسجل موقفها من اسرائيل ، وان كانت قد ذكرت في سياق كتابها بان اهلها صهيونيو الميول . ولعلها تعتنق ذلك الرأي الذي عبر عنه احد اليهود عندما قال ان ارتباطه باسرائيل هو مثل ارتباط الكاثوليك بالفاتيكان . ان المرة الوحيدة التي تتطرق فيها للقضية الفلسطينية هي اثر زيارتها لمخيم للاجئين اثناء زيارة قصيرة تقوم بها لبيروت ، اذ تقول لمرافقها الفلسطيني : لقد سبق ان رأيت ما هو اسوأ من ذلك في الصعيد المصري . (وكتعبير عن نزاهتها في تسجيل جميع معالم الصورة ، فهي تسجل رد مرافقها الذي يقول : ان هذا هو ليس بيت القصيد).

ما الذي نستخلصه من هذا الكتاب ؟ قد يكون رد فعلنا المبدئي هو مزيج من الجدية والهزل عندما نقول بان افضل مرشح لدراسة شخصية الفرد العربي المتطلع هو كاتبة يهودية — اميركية تقوم بقسط كبير من بحثها الميداني في فراش الغرام. فالحقيقة التي لا يمكن نكرانها تشير الى انفتاح الرجل العربي امام المرأة الاجنبية ومصارحته لها باشياء لا يمكن ان يخطر في باله البوح بها لاخيه او لاصدق اصدقائه . وهذه الحقيقة قد اتاحت الفرصة لفيفيان غورنيك ان تكتب كتابا ممتازا عن مصر . فهي فعلا قد رفعت شخصية المصري من المستوى الكاريكاتوري الذي طالما صورته فيه الصحف الغربية ، لتقدمه كرجل من لحم ودم ، ذو ملامح انسانية صادقة . الا ان رحلة الاستكشاف

* Sykes, John: Down into Egypt.

التي قامت بها فيفيان غورنيك في قلب مصر تثير اسئلة تبقى بلا اجوبة ، وهو مـا نقر به المؤلفـة وما يذكره الناشر على غلاف الكتاب ، فالموضوع شديد التعقيد وقلة الاجوبة دليل على اخـلاص هذه المؤلفة النيويوركية التي تكاد تخنق مشاعرها واحاسيسها بالتحليل والاختبار . ان الكثير مما تذكره هو محرج وقد يظنه البعض مسيئا للسمعة الا انه بالتأكيد ليس مختلقا وليس مجهولا . ولا اظن المؤلفة قد تناولت الموضوع من زاوية التحيز المسبق او الرغبة في الجرح والشتم ، كمعظـم الكتاب الغربيين الذين سبقوهـا ورسموا المواطن العربي في شكل الغول الرهيب ، بل انها تكتـب بعطف وتفهم ، واذا كانت لوحة الفسيفسـاء الواسعة التي صفت احجارها حجرا حجرا عبـر ٢٤٢ صفحة تحتوي على بعض الجوانب المتآكلة ، فذلك لان هذه اللوحة هي بمثابة المرآة التي نرى نفوسنا فيها بدون رتوش . وهذه القناعـة تدعونا الى ان نطلب من الناشر العربي ان يقدم هذا الكتاب الى قراء العربية ، فبغض النظر عن موقف المؤلفة من الصهيونية ، ونحن لا نعلم عنـه الكثير ، فهي بقدر ما يتعلق الامر بمصر قد الفت كتابا في غاية الاهمية ، ومن مصلحتنا نحن ان نقرأه بتمعن ونضعه قيد المناقشة . ان الفرد العربي يكره النظر في المرآة ، الا اذا كـان واثقا من ان الصورة المنعكسة التي سيراهـا ستكون باهرة الجمال . وطبعا الصورة التـي ترسمها لنا فيفيان غورنيك هي واقعية وبلا مكيـاج ولكنها لا تنزع منا انسانيتنا . فلننطلق من هـذا المنطلق وننظر الى انفسنا لنقارن بين الواقع ، والصورة التي رسمناها لانفسنا في اذهاننا .

فارس المنصوري

مصطفى كمال . **الطريق الى جنيف ومخططات الصهيونية**
(دار الثقافة الجديدة . القاهرة ، ١٩٧٥) .

لا زلنا نفتقد الى حد كبير في الكتابة العربيـة وجود وتوافر « الكتاب ــ المناسبة » ، اي الكتاب الذي يدور ــ بالبحث والدراسة ــ حول مسألـة محددة ، مثارة في وقت محدد ، وتثير النقـاش الذي يمهد لاتخاذ اجراء او قرار ، او تدعـو الحاجة الى بلورة اتجاهات واتخاذ مواقف ، ازاء هذه المسألة وقد تجددت زمانا ، ومكانا . لا زلنا نفتقد هذا النوع من الكتابة ، رغم ان وطننا العربي شهد ويشهد كثيرا من الاحداث او المناسبات التي استدعت وتستدعي صدور « الكتاب ــ المناسبة ».

وعندما يصدر عندنا كتاب من هذا النوع ، فانه يتصف في اكثر الاحيان ، بقدر غير قليل من السطحية والتسرع ، ويعتمد على تجميع كمية من المعلومات

ــ قد تكون غير دقيقة ــ ولصقها ببعضها ، بدون منهج دراسي واضح ، وبدون رؤية فكرية متكاملة .

يكفي ان يشار مثلا الى الفترة التي ارتفع فيها في مصر شعار « كتاب كل ست ساعات » من مجموعة سلاسل وصفت بأنها « السلاسل العشر » كانت من مجموعها وفي اغلبها عنوانا بارزا على تفاهة كتب المناسبات في حياتنا . علما بان الكتاب ــ المناسبة يكاد يملك منهجه الخاص في البحث والدراسة ، حيث ينقسم هذا النوع من الكتب الى نوعين اساسيين : يقوم الاول بالاساس على عرض وتقديم الظروف والملابسات التي قادت الى « المناسبة » موضع الدراسة ، وكذلك الظروف والملابسات التي تكتنف وقوعها من ناحية ، وتطورها من ناحية اخرى ، هذا بينما يعتمد النوع الثاني من « الكتاب ــ المناسبة » على تقديم وجهة نظر معينة حول هذه المناسبة ، سواء كانت معارضة للاسلوب المتبع في علاجها او مؤيدة ، او داعية الى اتباع نهج محدد في علاج المناسبة ، والتعامل معها .

ولكن هذا التقسيم ليس نهائيا ، ففي اساليب البحث والدراسة لا توجد فواصل قاطعة بشكل نهائي ، وكلما تعددت طرق التحليل كان ذلك ادعى الى الاقتراب الموضوعي من الظاهرة التي تجري عليها الدراسة . ولذلك ، فان افضل ما يصدر من كتب المناسبات هو ذلك الذي يستطيع الجمع بين الاسلوبين المذكورين في العرض والتحليل ، بحيث تكون « الخلفية » اداة ووسيلة لدعم وجهة النظر التي يتبناها الكاتب ويدعو اليها ، ويدافع عنها بشكل واضح وصريح . وهذا هو المسلك الذي اختاره الاستاذ مصطفى كمال (رئيس القسم الخارجي في جريدة « الجمهورية » القاهرية) في كتابه « الطريق الى جنيف ومخططات الصهيونية » وان كان لم يوازن بين الجزء الخاص بالخلفية والجزء الخاص بالرأي ، اذ طغى الاول على الثاني . ولكن يبدو على الارجح ان ذلك تم بشكل مقصود ومتعمد ، املته ظروف صدور الكتاب ، وموضوعه « الشائك » في مصر حاليا . فقد لجأ الكاتب بشكل بارع وبطريقة ذكية الى ايراد الحقائق والوقائع بشكل موضوعي ، متسلسل ، بحيث خدمت بشكل غير مباشر وجهة النظر التي يريد قولها ، فاذا بها بارزة امام القارىء دون ان يتدخل المؤلف ليعلن صراحة

وبشكل فج ومباشرة : هذا رأيي وما عداه خطأ . فذلك من الصعب المجاهرة به الان ، داخل مصر حيث تخفق رايات حرية الصحافة والنشر !

والظروف التي الجأت الكاتب الى هذا الاسلوب، ساعدته دون شك على اصدار كتاب صغير الحجم وعظيم الاهمية في نفس الوقت ، لانه يعبر عن وجهة نظر قطاع هام في مصر ازاء الموقف من الامريكان ، ومن السوفييت ، ومن التسويات المطروحة ، والتي يجري الترويج لها تحت شعار ودعوى ان كل اوراق القضية في يد الامريكان ، او ان الوفاق الدولي هو الذي يملي ذلك ويفرضه ، مع ان « التطورات الجديدة في المناخ الدولي ... تكون في صالح قضيتنا اذا ادركنا انه انفراج دولي لا يمنعنا من حرية النضال ضد الامبريالية ولا يحرمنا من تأييد الاتحاد السوفييتي ، ولا يقيد حركة الاتحاد السوفييتي ــ وسائر بلدان العالم الاشتراكي ــ في مساعدتنا بمختلف الاشكال » (ص ٩٢) .

ويمتلىء الكتاب بالكثير من الافكار الجريئة والموضوعية التي تناقض الخط السياسي والفكري والاعلامي السائد الان في مصر . ومن هنا تجب الاشادة بجرأة المؤلف وشجاعته . وحيث ان الاهمية السياسية لهذا الكتاب تفوق كثيرا كثيرا اهميته الفكرية او العلمية ، فليس ثمة ما يدعو الى الوقوف كثيرا حول الهنات والثغرات ونقاط الضعف. الاهم من ذلك ، والاجدر بالبحث بل والثناء هو ابراز « الخط العام » الذي يسير عليه المؤلف ، في الدعوة الى افكار تضاد تماما تلك الافكار التي اتيح لها ان ترفع رأسها مرة اخرى ومن جديد ، بعد ان غلب على الظن يوما انها ووريت التراب من سنين .

ان احدا لا يستطيع ان يناقش الان في وسائل الاعلام والدعاية المصرية ــ سواء المسموعة او المرئية او المقروءة ــ يناقش بشكل موضوعي وعلمي حقيقة موقف امريكا ، وحقيقة علاقتها باسرائيل والصهيونية ، واهدافها في الوطن العربي . وهنا، يخرج مصطفى كمال شاهرا سيفه اي كتابه ، وممزقا هذا الحجر ومؤكدا ان امريكا هي العدو الرئيسي . وهو لا يقول ذلك بخطابية ، او بلهجة عنترية ، ولكن يقوله بالوقائع والحقائق والارقام التي يستقيها من المصادر الامريكية نفسها ، ويقوله بالتصريحات والبيانات التي يعلنها المسؤولون

الامريكيون انفسهم ، بحيث يتبين مدى خطأ اولئك الدين لا زالوا يتحدثون عن امكانية تحييد امريكا ، وينتظرون الحل على يدها . ثم لا يتردد الكاتب في اعلان ذلك بشكل مباشر ، بعد ان يقدم كل الادلة التي تؤيد وجهة نظره نيقول : « علينا نحن ان نتحرك — سلما او حربا — وعيوننا مفتوحة جيدا على كل ما يجري هناك . فعدونا ليس هو فقط اسرائيل بملايينها الثلاثة ، وانما عدونا ايضا هناك ، على الجانب الاخر من المحيط الاطلسي ، هو الجناح الرجعي المتطرف من المؤسسة الاحتكارية الصهيونية ، بكل ما يملك من نفوذ على اداة الحكم وسائر الاجنحة الاخرى» (ص ٤٦) .

ومع اني اسلفت انه لا حاجة الى الوقوف امام نقاط الضعف ، فان هذه العبارة تكشف نقطة حلاقية تستحق الدكر . ذلك ان الكاتب في سبيل تأكيد مدى خصوصية العلاقة بين اسرائيل والصهيونية وامريكا قد اورد كثيرا من الحقائق التي تدل على ذلك ، وهذا امر لا غبار عليه ، بل هو ضروري ، ولكن من الخطأ تصوير ان امريكا كلها « لعبة صهيونية » او انها اي الصهيونية تبسط — على حد تعبير المؤلف — « سيطرتها تماما على الولايات المتحدة وتسخير كل ثروتها وقوتها ووزنها الدولي في سبيل تنفيذ الحلم الصهيوني » (ص ٤٨) بحيث تقع « امريكا في شبكة العنكبوت الصهيوني » (عنوان الفصل الرابع) وبحيث تكون الصهيونية هي الامبريالية كاملة ويكون « الهدف الحقيقي للصهيونية هو بسط سيطرتها على العالم كله » !

اعتقد ان المبالغة واضحة ، ذلك ان الصهيونية لا تعدو ان تكون جزءا من الامبريالية ، بل وجزءا ليس قوي الوزن في اطار « الاخطبوط الامبريالي » بحيث تكاد ان تكون احيانا مجرد اداة لتحقيق الاهداف الامبريالية في المنطقة ، وبحيث تكاد تفتقد — اقول تكاد — استقلالها الذاتي في اكثر الاحيان . اما نفوذ الصهيونية داخل الكونجرس ، وفي البيت الابيض ، وفي وزارة الدفاع الامريكية ، فليس الا لعبة « صناعة امريكية » . ولذلك فمن الخطأ تصوير امريكا بكل جبروتها ونفوذها على انها مجرد جزء من « المؤسسة الصهيونية المالية» هذا خطأ ، وخطأ ايضا قول المؤلف : « انه حتى هذه اللحظة ، فان اي قرار او موقف تتخذه الولايات المتحدة الامريكية على الصعيد الرسمي انما هو في حقيقته وجوهره قرار وموقف المؤسسة الصهيونية العالمية . اي انه قرار يضع في المقام الاول مصلحة اسرائيل ، وفي المقام الثاني مصلحة الدوائر العليا في الاوليجاركية الامريكية المرتبطة تماما براس المال الصهيوني ، وفي المقام الثالث مصلحة الراسمالية الامريكية ككل » (ص ٧٠) .

بالاضافة الى ذلك ، يؤخد على المؤلف ميله الى القول بامكانية انهيار اسرائيل من الداخل او بنص كلماته « ان الظروف الذاتية داخل اسرائيل قد اصبحت مهيأة — اي ناضجة — لحدوث الانهيار في اسس الكيان الصهيوني بأكمله » وان كان يرى ان الظروف الذاتية وحدها لا تستطيع ان تحدث هده العملية التاريخية اذ يجب ان تتوفر معها ظروف موضوعية مناسبة للوصول الى نفس النتيجة . (ص ١٩) ونقطة الخلاف هنا ان اسرائيل لم تعد حتى الان وحتى بعد حرب اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣ مهيأة للانهيار من الداخل ، ان تلك عملية معقدة ، وليس هناك جدار ينهار من تلقاء نفسه الا اذا تقوض اساسه تماما ، وليست اسرائيل في هذا الوضع حتى الان .

وعلى اي حال ، فاختلاف الراي لا يفسد للود قضية ، كما انه لا يقلل من شجاعة هذا الكتاب ، وجراة مؤلفه الدي يضع فوق كل حرف نقطة بارزة واضحة ويتساءل مادا تريد امريكا ؟ ويجيب تريد اخراجنا من حالة الثورة الى حالة اللاثورة (ص ٩٧) ثم يتساءل هل نحن مستعدون لدفع هذا الثمن ولا يتردد في ان يجيب « اننا لا نستطيع ان ندفع الثمن الذي يطلبونه ، حتى لو حاولنا فلن نستطيع . فان هناك قوى اجتماعية في بلادنا اصبح لها من الوزن ومن القوة ما تستطيع به ان تسقط هذه المحاولة وهي بعد في دور التمهيد » .

وفي النهاية يبلور مصطفى كمال رأيه في عبارة مقتضبة « ان البديل الوحيد لنجاح مؤتمر جنيف هو حرب خامسة وعلى هذا الاساس يجب ان نعد انفسنا » فاذا وضعنا في الاعتبار ان الكتاب كله مكتوب ومصاغ بشكل يوحي ان الاسلوب المتبع في معالجة القضية لا بد ان يقود الى فشل مؤتمر جنيف ، ادركنا ان المؤلف ينبه الى ضرورة الاستعداد لحرب خامسة « حتى لا نخون فلسطين» وهي العبارة الاخيرة في الكتاب .

عبد العال الباقوري

نزيه قوره ، تعليم الفلسطينيين ــ الواقع والمشكلات
(بيروت ، مركز الابحاث الفلسطيني ، نيسان ١٩٧٥)

[أ]

قبل انطلاق الثورة الفلسطينية المسلحة ، امتلأت المكتبة العربية والمكتبة الاجنبية بالعديد من الكتب التي تناولت القضية الفلسطينية من مختلف جوانبها ، بالتوثيق والتمحيص والبحث والتحليل حتى اتخمت . ولكن ، مع تنامي قوى الثورة وامتداد فعاليتها ، ازداد الاهتمام بالفلسطينيين انفسهم ، بعد ان كانت قد اهملتهم الدراسات السابقة طيلة الفترة الماضية كأنهم غير موجودين . فثارت حولهم اسئلة عديدة بقيت حائرة بلا اجابات واضحة موثقة فترة طويلة ، الى ان صمم البعض (ممن لم يستكن للذة الاغفاء والاسترخاء تحت ظلال الشكوى ، بانتظار ما سيأتي في ظل الظروف الصعبة القائمة) على حمل مسؤولية البحث والاستقصاء والجمع واجراء التجارب والدراسات الحقلية والابحاث المعمقة والشاملة ، يقوم بها اختصاصيون ومؤسسات جادة ، تحدد المشكلات القائمة وتحلل الواقع وتولد الحلول .

ولقد كان مركز الابحاث الفلسطيني من اوائل الذين وعوا خطورة هذه المشكلة بابعادها الراهنة والمستقبلية . ففرز من بين باحثيه مجموعة شكلت قسما خاصا يتعاطى كافة شؤون الشعب الفلسطيني بالتوثيق والدرس والتحليل . فوفر المركز من خلال عدد من الدراسات التي تم نشرها مادة مكثفة شملت بعض جوانب حياة الفلسطينيين من زوايا مختلفة ، ساهمت في التخفيف الى حد ما من حدة الاسئلة المثارة .

وكتاب (تعليم الفلسطينيين ــ الواقع والمشكلات) لنزيه قوره هو مساهمة جديدة من مركز الابحاث في توسيع رقعة الضوء التي يقف عليها الفلسطينيون الان . ففي خضم صراع المصالح الناشب والمحتدم ، بين العرب من جهة وبين الحركة الصهيونية والامبريالية من جهة اخرى ، والذي يتخذ ابعادا حضارية مستقبلية مصيرية ، يصبح من الطبيعي والمؤكد ان يكون التعليم جانبا من اهم جوانب حياة امتنا الجديرة بالدرس والتحليل في هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الصراع . اذ المعروف ، ان التعليم في النهاية هو عملية صناعة المستقبل ، بعد مواجهة تحديات الحاضر ، وعلى رأسها بلا شك التحدي الكبير ، الممثل بالامبريالية والصهيونية .

وبالتأكيد ، فان الباحث الجاد الذي يهتم بوصف او تحليل المشاكل التي واجهها الفلسطينيون في عملية تعليمهم ، سيواجه بعدد كبير من الصعوبات المعقدة ، اولها قلة المعلومات المدونة والموثوقة في هذا الموضوع الهام ، بعد ان فقدوا مؤسساتهم الاجتماعية والاقتصادية وسلطتهم السياسية منذ عام ١٩٤٨ ، لا تزيد عن بعض النتف الصغيرة الموزعة هنا وهناك ، والتي لا تشكل في مجموعها مرجعا متكاملا صالحا ، لفهم ابعاد مشاكل تعليم الفلسطينيين وتمكن من استخلاص نتائج علمية حول شخصيتهم في الداخل والخارج ، بينما تتوفر المواد والدراسات بغزارة حول مشاكل التعليم العربي وتطوره .

والدراسة التي بين ايدينا معبر (على الرغم من بعض الهنات فيها) عملا رائدا في هذا المجال ، يعكس جهدا كبيرا ومشكورا ، ويمثل نقطة انطلاق صحيحة ضرورية في الاتجاه الصحيح ، لرسم استراتيجية وتخطيط سليمين لتطوير تعليم الفلسطينيين . فهي بعرضها شبه الشامل الواقع لتعليم الفلسطينيين ومشكلاته ، اعتمادا على المعلومات والاحصاءات المتوافرة حاليا ، والتي تسمح بصياغة بعض الفرضيات والمؤشرات الهامة ، توفر للقيادة السياسية الفلسطينية معطيات افضل لرسم استراتيجية تعليمية ، تستجيب استجابة بناءة وديناميكية لمتطلبات الثورة النضالية مرحليا ومستقبليا ، وللحاجات المتغيرة للافراد والجماعات وكل هذا في اطار تتوافق من خلاله مع قومية العمل التربوي ، خاصة وان التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للاقطار العربية التي استوطنوها بعد اقتلاعهم من فلسطين .

والكتاب في حقيقته جهد جيد ، يقع في ١٦٦ صفحة من القطع الصغير موزع على مدخل وخمسة فصول وثبت بالمراجع .

يبين الكاتب في المدخل الذي اعده للكتاب ، الظروف القاسية التي عاشها الشعب الفلسطيني بعد سنة ١٩٤٨ ، والتي افقدت التعليم طابعه الاجتماعي ، واكسبت مسألة التعليم بعدا وطنيا هاما قلما نرى له مثيلا في اي بلد اخر .

ويحدد الكاتب اهداف هذه الدراسة في « القاء الضوء على الدور الذي لعبه التعليم في حياة الفلسطينيين ، وحجم التعليم ومضمونه ، والمشكلات التي تعترض الفلسطينيين في سعيهم لاحراز مستوى علمي يساهم في حل قضاياهم ، والمشكلات الناتجة عن طبيعة تركيب الاجهزة التي تشرف على تعليمهم وعن مضمون هذا التعليم » .

ويختتم السيد قوره هذا المدخل بتعداد العقبات التي اعترضته عند تصديه لمعالجة هذه المواضيع، والتي تبرز في الحقيقة عند كل دراسة جادة تتصل بحياة الشعب الفلسطيني . واهم هذه الصعوبات على الاطلاق ، هو بلا شك غياب المعطيات الاحصائية الشاملة والدقيقة والموثوقة لمختلف جوانب حياة الفلسطينيين .

بعد تلك المقدمة ، يمهد الكاتب لدخوله الى صلب دراسته ، بشرح واف لاوضاع الفلسطينيين التي افرزتها النكبة عام ١٩٤٨ . فيبين التوزيع الديمغرافي للفلسطينيين في منافيهم التي القوا فيها قسرا بعد ان حطمت سلطتهم السياسية ومؤسساتهم الاجتماعية والاقتصادية . ويذكر السيد قوره ان الصهيونية والاستعمار لم يكتفيا باقتلاع الفلسطينيين من وطنهم . بل عملا بلؤم على اعادة تشتيت الفلسطينيين بعيدا عن حدود بلادهم بطرق عدة ملتوية مباشرة وغير مباشرة سموها بعملية « التهجير الاقتصادي » بعد ان نشلت مشاريع التوطين المعدده بعيدا عن حدود فلسطين، لاستيعاب الفلسطينيين كمشروعي وادي الاردن وسيناء وغيرهما من المشاريع .

ولقد لعبت وكالة الغوث الدولية (الاونروا) عبر استخدام التعليم دورا بارزا في ذلك بالتعاون مع جهات عدة يهمها ضخ الشعب الفلسطيني بعيدا عن الارض الفلسطينية . يدل على ذلك ويؤكده الكتابات العلنية والسريه المعبرة عن سياسة الاونروا في هذا المجال ، الى جانب « ان ما انفق على التعليم في السنوات الاولى يدل على مدى الاهتمام الذي كانت توليه الوكالة والجهات الممولة لها للتعليم » .

وفي الفصل الثاني من هذه الدراسة يتناول الكاتب بالبحث والتحليل تطور التعليم الفلسطيني بعد النكبة مقدما لذلك بعرض سريع للوضع التعليمي عند نهاية الانتداب البريطاني على فلسطين ، يبين فيه ان مجموع نسبة طلبة المدارس الحكومية وغير الحكومية كانت قد بلغت ٣ر١١ ٪ من مجموع السكان في فلسطين . وهذه النسبة تفوق النسب المقابلة لها في معظم الدول العربية . ويعود ارتفاع هذه النسبة الى التحديات التي كان يفرضها الوجود الصهيوني على اهل البلاد ، بالاضافة الى الازدهار النسبي الذي شهدته فلسطين خلال سني الحرب العالمية الثانية » .

وبالتأكيد فان السياسة التعليمية التي اختطتها سلطات الانتداب البريطاني لتطوير التعليم في فلسطين كانت فقط من اجل سد احتياجات ادارته الحكومية وخدمة لاغراضه الاستعمارية .

منذ البدايات الاولى للنكبة نجد ان تعليم الفلسطينيين قد خضع لاشراف هيئات عديدة سواء على صعيد المناهج او التحويل او الادارة او التفتيش . وهذا التعدد والتباين بالاضافة الى عوامل اخرى عديدة ساهما في خلق « شخصية فلسطينية جديدة لا تملك من الخصائص المشتركة غير ما هو مرتبط بالعامل السياسي الذي يتجسد في الطموح لتحرير الوطن » . ويحذر السيد قورة اثناء عرض لاعداد الطلاب الفلسطينيين من خطورة الانبهار بالارقام المجردة التي قد تؤدي الى استنتاجات خاطئة اذا لم توضع ضمن اطارها وسياقها الصحيح . « فمردود الاستثمار في مجال التعليم لا يعاد استثماره في التجمعات الفلسطينية » .

لقد كان الفشل في الوصول الى حل يضمن عودة الفلسطينيين الى وطنهم والخشية من الخطر الناجم عن ازدياد سخط الفلسطينيين مع الايام ، على أمن المنطقة وعلى الانظمة التي خلقتها الامبريالية فيها ، هو الدافع الكامن وراء التوجه الى تهيئة الاجيال الفلسطينية واعدادها للتصدير الى مناطق النفط سواء في الخليج العربي او في ليبيا وغيرها من دول النفط ، كل ذلك ما كان ليتم الا عبر برامج تعليمية واسعة على اعتبار ان هذه البرامج هي من اقل البرامج التي تثير اعتراض الفلسطينيين وحذرهم . فكان الاقبال على التعليم شديدا ، فازدادت اعداد الطلاب ازديادا كبيرا

يفـوق الزيادة في عدد السكان . فبلغت نسبـة الذين يتلقون التعليم ٢٨٫٨٢ ٪ مـن مجمـوع السكـــان .

وحيث « ان نسبة الذين يتلقون التعليم من ابناء الشعب الفلسطيني ليست واحدة في جميع الاقطار التي يتواجدون فيها » يتفحص السيد قورة الوضع التعليمي للفلسطينيـين في كل منطقـة من المناطق الاربع التي تضم القسم الاعظم منهم (سوريـا لبنان ، غزة ، الضفة الغربية وفلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨) على حدة ، « مبينا الخصائص العامة لكل منطقة ولنظام التعليم في كـل منهـا والاهداف التي تتوخاها السلطة المشرفة » هناك . ويختتم السيد قورة هذا الفصل بالتأكيد علـى « فشل مراهنة القوى التي تآمرت علـى الشعب الفلسطيني واعتبرت ان التعليم قادر على حـل المشكلة الفلسطينية ، وذلك عن طريق تمكـين الفلسطينيين من الاندماج في الكيانات المحيطة .

كان من جملة ما استهدفته عملية الاقتـلاع والنفي الذي مارسته الصهيونية والقوى الامبريالية على الفلسطينيين هو افتقادهم شخصيتهم الوطنية المميزة والمستقلة واجبارهم على الذوبان والاندماج باقصى سرعة في الكيانات العربية الاخرى بعـد زرع اليأس في نفوسهم . فاستخدموا لاجل هـذه الغاية عدة وسائل مباشرة وغير مباشرة منها التعليم الموجه باستخدام مناهج خاصة تساعد على صياغة شخصية جديدة للفلسطيني ، ننفذ هـذا المخطط وتكون الدليل المادي على نجاحه .

ويتناول السيـد قورة في هذا الفصـل بالنقـد والتحليل المناهج التعليمية المستخدمة في تعليـم الفلسطينيين وعلى الاخص الكيفية التي عـرضت فيها القضية الفلسطينية في ثلاثة اقطار عربية هي الاردن ولبنان وسورية معتمدا في ذلك الى حـد كبير على دراسة في هذا الموضوع كان قد اعدهـا قسم التخطيط التربوي في مركز التخطيط التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية . ويعتمد الكاتب ايضا في تحليله لمناهج التعليم في الارض المحتلـة علـى دراسة قيمة كان قد اعدها الدكتور صالح سريـة لنيل شهادة الدكتوراه واسمها « تعليم العرب في اسرائيل » .

ان سياسة ضخ الفلسطينيين بعيدا من اماكن تجمعهم حول فلسطين وتشتيتهم في اقطار نائيـة هي « احدى الاعمدة الاساسية التي قامت عليها سياسة وكالة الغوث الدولية » . وقد عبـر عن ذلك بشكل ملتو المدير العام للوكالة فـي تقاريره السنوية . وهذا ما حـدا بالوكالة التي كانت تريد تحقيق نتائج سريعة على هذا الصعيد الى عدم الاهتمام بالتعليـم الثانوي الاكاديمـي الصرف الذي لا يساعدها على ايجاد اعمـال ستوعب الخريجين بسهولة في اسواق العمـل المفتوحة في دول النفط ولهذا ركزت جزءا كبيرا من جهودها ونشاطاتها على التدريب المهني ، فافتتحت من اجل ذلك سبعة مراكز ، اثنان في الضفة الشرقية من الاردن واثنان في الضفة الغربية ، وواحد في غزة واخر في لبنـان والاخير في سـوريا ، توزع التدريب في هذه المراكـز على سبعة فروع مـن فـروع المهن . « لقد بدأت الوكالة بالاهتمـام ببرامج التدريب المهني عـام ١٩٥٤ حيث افتتحت مركزا للتدريب المهني في قلندية بالقرب من القدس ، وقد ضم هذا المـركز عام ١٩٥٤ ، ٢٧ طـالبا » واستمر فتح المراكز وازدياد طاقتها على الاستيعاب حتى بلغ عدد طلابها عام ١٩٧٢ ، ٢٥٦١ طالبـا وطالبة . وبلغ مجموع الخريجين منهم حتى عـام ١٩٧٢ ، ١٢٦٠٥ خريجين .

ولقد اولت الوكالة اهتماما بالغا لقضية ايجاد وظائف لاولئك الخريجين وقـد نجحت في ايجـاد عمل لنسبة كبيرة منهم سواء محليا او في اجهزتها او الدول العربية وغيرها .

أما على صعيد تـدريب المعلمـين فقد تمكنت الوكالة من التغلب على النقص الكبير في المقومات الاساسية التي كان يعاني منها جهـاز التعليـم الفلسطيني التابع لها وعلى الاخص في مجـال تاهيل المعلمين وتدني مستواهم بافتتاح معهـد تربوي في لبنان عام ٦٤ لـتدريب المعلمـين اثناء الخدمة . وقد بلغ مجموع خريجي دور المعلمـين التابعة للوكالة حتى سنة ١٩٧٢ ، ٤٥١٦ معلما تخرجوا من ست دور معلمين تابعة للوكالة .

في الفصل الخامس والاخير من هذه الدراسة يتناول السيد قورة مشكلـة التعليـم الجامعـي للفلسطينيين بالقول « لقد اصبح التعليم بشكل عام والتعليم الجامعي بشكل خاص ، خشبة خلاص بالنسبة للاغلبية الساحقة من شبابهم » ويقـدر الكاتب عدد الجامعيين الفلسطينيين المنتشرين فـي كل انحاء العالم ما بين ٤٠ ـــ ٥٠ الفا طـالب

يدرسون كل انواع العلوم مشكلين نسبة تصل الى ١٦ر٦ بالالف من مجموع الفلسطينيين وهي من اعلى النسب في العالم .

ويحدد السيد تورة اهم المشاكل التي يعاني منها التعليم الجامعي الفلسطيني « بانخفاض نسبة المتخصصين في الدراسات العلمية ونسبة الفتيات الى المجموع » بالاضافة الى « عدم قدرة الشعب الفلسطيني وتجمعاته الاساسية من الاستفادة من هذا العدد من ذوي الكفاءات العالية » .

ويختتم الكاتب دراسته باستعراض المقترحات المقدمة حول مسألة اقامة جامعة وطنية فلسطينية ويناقش حيثيات وضرورة انشائها ودورها وموقعها في التعليم الجامعي الفلسطيني كما هي مقدمة في تلك المقترحات . ويخلص السيد تورة في مناقشته تلك الى القول بان هناك « انفصاما كاملا بين الواقع الذي يحياه الشعب الفلسطيني وبين الاهداف والمبررات لاقامة هذه الجامعة » .

ومن الجدير بالذكر ان هناك مجموعة كبيرة من الملاحظات المتنوعة على هذه الدراسة قللت الى حد كبير من جدية معالجة الكاتب لهذا الموضوع على الرغم من اهميته البالغة وعلى الاخص في هذه المرحلة التي تتميز بخصوصية استثنائية من مراحل النضال الفلسطيني ، ومما يزيد من حدة الاثر السلبي الذي تتركه الاخطاء التي وقع فيها الكاتب على مجمل الدراسة ، هو صدورها من احد الكوادر البحثية في مركز الابحاث الفلسطيني والتي كان من المحتم على مركز الابحاث ان يتشدد الى حد الصرامة « والحنبلة » في ضرورة التمسك بكل القواعد والاسس العامة والمتعارف عليها في اعداد الدراسات والابحاث وخاصة في الدراسات الصادرة عنه لمنع وقوع مثل هذه الاخطاء والتي ساختار منها عينات منتقاه ولا تشكل حصرا شاملا لها .

١ ـ من الواضح ان كاتب البحث لم يول القواعد التي تحكم الاقتباس والنقل اية اهمية بدليل عدم استخدامه الاقواس التي تشير الى الكلام المقتبس او المنقول تمييزا له عن باقي الكلام . والشواهد كثيرة وموزعة ما بين صفحات الكتاب (ص ٢٠ ، ٢١ مثلا) .

٢ ـ لكتابة المراجع في الحواشي ، هناك قواعد عامة ايضا ، اتفق اغلب الباحثين على اتباعها والتقيد بها تنص على ضرورة كتابة عائلة المؤلف ثم اسمه ، وبعد ذلك اسم الكتاب والدار التي نشرته ومكان نشره وسنة النشر واخيرا رقم الصفحة التي اقتبس منها . والانفلاتات التي نشاهدها في بعض المواقع من الدراسة (ص ٢١ ، ٤٠ مثلا) تدل على ان السيد تورة لم يتقيد بشكل دقيق ومتصل في كل الدراسة بتلك القواعد .

٣ ـ في الاعمال البحثية على الباحث ان يتقيد عند اقتباسه استشهادات متتالية من كتاب واحد باستعمال مصطلح ثابت يشير الى ذلك الكتاب وذاك المصطلح هو اما Ibid او « المرجع السابق » وليس كما فعل السيد تورة حين استعمل في الاستشهاد رقم ٢ في الصفحة ٤٠ المصطلح الاجنبي وفي الاستشهادين الثالث والرابع عاد واستعمل المصطلح العربي .

٤ ـ لا يجوز اعادة ذكر كل المعلومات التفصيلية عن مرجع سبق وذكر في حاشية احدى الصفحات السابقة عندما يقتبس منه مرة ثانية وهذا ما لم يراعه السيد تورة في الصفحات ٤٠ ، ٤٢ .

٥ ـ هناك ارقام يستخدمها السيد تورة لم يذكر لنا المصدر الذي استقاها منه وهذا بالتأكيد يثير الشك بصدقها ولا يتيح للمراجع فرصة التحقق منها (ص ٩٧ ، ١٤٤ مثلا) .

٦ ـ هناك اقتباس مرقم بعدد (١) صفحة ٥٤ لم يذكر لنا الكاتب مصدره في حاشية الصفحة مع اهمية ذلك .

٧ ـ في حواشي الصفحات ١١٤ ، ١١٦ خطأ كبير في كتابة اسم المرجع المقتبس منه وقع فيه السيد تورة لعدم تقيده بالقواعد المتبعة في مثل هذه الحالة والتي ذكرتها في الملاحظة رقم ٢ .

٨ ـ لم يذكر السيد تورة ارقام الصفحات التي اقتبس منها النصوص التي استعملها هذا وان كان قد ذكر اسم المصدر (ص ١٢٦ ، ١٣٤ ، ١٣٦ مثلا) .

٩ ـ كان على الكاتب ان يذكر العلم الذي شمله الارقام التي استعملها في الحاشية د في الصفحة ٥٩ حول عدد الفلسطينيين المسجلين في احصاءات الوكالة وكذلك في الصفحات ٢٠ ، ٢١ .

١٠ ـ لم يلتزم الكاتب بضرورة وضع عناوين او ارقام للجداول المستخدمة في دراسته ، فهو مرة يرقم بعضها ويعنون البعض الاخر ولا يرقمه

واحيانا لا يرقم تلك الجداول ولا حتى يعنونها وفي ذلك خروج واضح على الف باء قواعد البحث .

١١ — يحيل الكاتب القارىء في اكثر من موقع من دراسته الى جداول وهمية غير موجودة في صلب الدراســـة . فهو يقـــول مثلا في الصفحــة ١٤٨ « فقد بلغ المجمـــوع العام للجامعيات من حملة الجوازات الاردنية عام ٧١/٧٠ ، ٣٩٠٤ فتاة ، الجدول رقم ٢ » بينما الجدول رقم ٢ والموجود في الصفحات ٥٠ ، ٥١ يبين تطور ميزانية الوكالــة وتطور نفقات التعليم ليس الا . وفي الصفحـــة ١٥٠ يقول السيد تورة « اما في الهندسة فقـــد بلغ عدد الطلاب ٢٤٤٤ طالب عام ٧١/٧٠ الجدول رقم ٣ » بينما الجدول رقم ٣ في الصفحات ٥٢ — ٥٣ لا يبين الا اعداد اللاجئين المسجلين حسب فئة التسجيل . وكذلك في الصفحة ١٥٥ يذكر الكاتب ان الجدول رقـــم ١ يبين ان مجمـــوع الطـــلاب الفلسطينيين في الجـــامعات العربيـــة بلـــغ ٧٧٧٢ طالبا جامعيا في العام الدراسي ٦٩/٦٨ بينما الجدول المشار اليه وهو في الصفحة رقم ٤٦ هو حول عدد الطلبة في المرحلتين الابتدائية والاعدادية في مدارس الاونروا .

١٢ — استخدم الكاتب مصطلحات في دراستـــه لم يبين للقارىء مفهوماتها المحددة والمستخدمة في هده الدراسة بشكل واضح مميز ، واخص بالذكر مصطلح« سن العمل » « الفئات N.S.R. » (الدور الهامشي) واخـــرا مصطلح « التهجـــير الاقتصادي » الذي لم يبين لنا اين استخدمه القادة الصهاينة في كتاباتهم .

١٣ — يذكر الكاتب في معرض تفسيره لظاهرة تدفق الطلاب الفلسطينيين على الدراسة الجامعية ان الشهادة الثانوية اليوم لم تعد تكفي وحدها لضمان العمل مما جعل الاغلبية الساحقة من الطـــلاب الذين ينهون المرحلة الثانوية لا يكتفون بذلك بـــل يلتحقون بالجامعـــات وهذا باعتقـــادي هو بعض الحقيقة ، اما بعضها الاخر فهـــو نظام التعليـــم بالانتساب في بعض الجامعات وعلى الاخص جامعة بيروت العربية الذي اتاح وسمح للكثيرين مـــــن الفلسطينيين بمواصلة العمل والتحصيل الجامعي بنفس الـــوقت .

١٤ — هناك عدة اسبـــاب هامـــة جـــدا دفعت الفلسطينيين دفعا الى التحصيل العلمي غير رغبة الاونروا في ذلك كما يذكر السيـــد تورة فـــــي دراستـــــه .

فمن الواضح ان الفلسطينيين الذين عانـــوا من قسوة الحياة في النزوح قد ناضلوا من اجـــل الحصول على اكبر قسط من التعليم للتغلب على التحديات التي تواجههم ، فسعوا للحصول على تعليم حيوي ليمارسوا مهنا تساعدهم على التحرك وتمكنهم من الحصول على وظائف تدر دخلا مربحا لهم الى جانب التعويض النفسي الـــذي جلبــــه النجاح التعليمي والمهنـــي للفلسطيني الذي كـــان مجردا من كـــل شيء . والذي اغنى قـــدرة الفلسطيني على التنافس والتغلب على السلبيات الناجمة عن وضعه كلاجىء .

ومن المؤكد والمعروف ايضا ان الفلسطينيين قد تمكنـــوا من الحصـــول على التعليـــم عن طريق الامكانات الذاتية وتعـــاون العائلـــة وانفتـــاح الجامعات العربية على تعليم الفلسطينيين الاكفاء بدون رسوم او برسوم زهيدة ومن بعض مساعدات الاونروا وبالحصول على منح دراسيـــة جامعيـــة للدراسة في الخارج .

وهذا بالتأكيد يتعارض مع ما يقوله السيـــد تورة في الصفحة ٤٤ حين يؤكد بان التطور الكمي والنوعي في تعليم الفلسطينيـــين لم يكن ليحصـــل اساسا بالصورة التي حصل بها لولا التوجيـــه الاميركي لوكالة الغوث من ناحية والنظام الاردني من ناحيـــة اخرى حيـــث يعيش نصف الشعب الفلسطينـــي .

١٥ — لا اتفق مع السيد تورة حين يقول فـــي الصفحـــة ٤٤ ان مـــردود الاستثمار في مجـــال التعليم لا يعاد استثماره في التجمعات الفلسطينية . خاصة اذا مـــا علمنا ان مـــن تعلـــم مـــن اسره فلسطينية كان يعود ويوفر اسباب التعليم لباقي افراد الاسرة لاهمية التعليم في الصراع مع الحياة .

١٦ — يشكل الفلسطينيون الان مصدرا هامـــا للطاقة البشرية العربية ذات المستوى العالي . ولقد ساهمـــوا في عملية البناء القـــومـــي وفي تأسيس وتطوير المؤسسات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتربوية في مختلف اقطـــار الوطن العربي . وهذا يتناقض مـــع قـــول السيد تورة الذي لا اتفق معه فيه حين يقول في الصفحـــة ٩٩ ان تعليـــم الفلسطينيـــين ظـــل يلعب دورا هامشيا في حياة الكيانات العربية التـــي احتوته .

١٧ — لم افهم ما يعني السيد تورة « بالتعليـــم العالي » في قوله في صفحة ١٢١ « يتميز التعليـــم العالي لابناء اللاجئين الـــذي تشـــرف عليه وكالة الغوث ، بارتباطه المباشر بسوق العمل » واغلب الظن ان الكاتب يقصـــد « بالتعليـــم العالـــي »

التدريب المهني ومعاهد المعلمين ، واذا كان ذلك كذلك فهذا توسيع لمدلول المصطلح لا مسوغ له .

١٨ ــ ان عدد الفلسطينيين في لبنان والذي يذكره السيد قورة في الجدول المنشور في الصفحة ٥٩ هو دون الحقيقة بكثير حيث ان الكاتب لم يلاحظ وجود اربعين الفا من الفلسطينيين دخلوا لبنان بعد الاحصاء العام اللاجئين في اوائل عام ١٩٥٢ وذكرهم تقرير الدكتور مصطفى خالد المدير العام لمديرية شؤون الفلسطينيين المرفوع الى وزير الداخلية اللبناني . ولو اضفنا الى هؤلاء ثلاثين الف شخص اخرين تذكر مصادر الامن العام انهم دخلوا لبنان على مرحلتين ، اولى بعد احتلال غزة سنة ١٩٥٦ والثانية بعد احتلال الضفة الغربية عام ١٩٦٧ ، لاصبح العدد الصحيح للفلسطينيين المقيمين في لبنان حتى اواخر عام ١٩٧٢ هو ٣٢١٫٠٠٠ نسمة تقريبا وشتان ما بين هذا الرقم والرقم الذي يذكره السيد قورة .

١٩ ــ هناك استهانة كبيرة باهمية الارقام التي يوردها السيد قورة اثناء دراسته بينتها الملاحظة رقم ١٨ السابقة ويزيدها وضوحا ما ورد في الصفحة ٩٢ من الدراسة من قول الكاتب بان عدد الطلاب الثانويين الفلسطينيين في لبنان لم يزد عن ١٩٠ طالبا وطالبة للعام الدراسي ٧١/٧٢ ، بينما يشير الكتاب الاحصائي السنوي الصادر عن الاونروا ــ الاونسكو في بيروت عام ٦٦/٧٠ في الصفحة رقم ٢٠ منه بأن عدد الطلاب الثانويين الفلسطينيين قد بلغ في ذلك العام ١٦٤٢ طالبا وطالبة موزعين كالتالي : ١٦٧ طالبا وطالبة في مدارس الحكومة ، و١٤٧٥ طالبا وطالبة في المدارس الخاصة .

٢٠ ــ استغرب كثيرا كيف وضع السيد قورة في الصفحة ٨٢ عنوانا فرعيا لجدول ذكره في تلك الصفحة ، يقول النسبة المئوية لمن هم فوق سن ١٤ سنة ونالوا اكثر من ستة عشر عاما دراسيا وفي هذا خطأ فاضح اذ تكون عدد سنوات الدراسة اكثر من عدد سنوات العمر وكان من الممكن ايجاد صيغة اصح وذلك برفع عدد سنوات السن الى ما فوق عدد سنوات الدراسة او بتخفيض عدد سنوات الدراسة الى ما دون عدد سنوات السن .

٢١ ــ يورد المؤلف في الصفحة ١٤٨ كلاما يدل على جهل كبير بواقع المخيمات الفلسطينية في لبنان حيث كان يعيش وقت كتابة دراسته وعلى جهل اكبر بمؤسسة فلسطينية معروفة هي جمعية الهلال الاحمر الفلسطيني وذلك حين يدعي المؤلف بان هناك مخيمات فلسطينية في لبنان يتراوح عدد سكانها ما بين ١٠٫٠٠٠ ــ ٢٠٫٠٠٠ نسمة لا يوجد بها طبيب واحد ، والمعروف ان لجمعية الهلال الاحمر الفلسطيني عيادات مجهزة بالاطباء والمساعدين في كل المخيمات الفلسطينية في لبنان مع وجود ستة مستشفيات عاملة للهلال في ستة تجمعات كبيرة للفلسطينيين في لبنان .

٢٢ ــ حبذا لو عقد الكاتب مقارنة ولو سريعة بين تعليم الفلسطيني والتعليم في الدول المضيفة لهم معمما للفائدة .

٢٣ ــ من الواضح ان موضوع تعليم الفلسطينيين موضوع هام ودراسته اهم ، الا ان هذه الدراسة لم تعط الموضوع حقه من الاهمية والتاني فجاءت دراسة مبترة عجولة في اجمالها وتفصيلاتها ، خاصة اذا ما علمنا ان تعليم الفلسطينيين في دول النفط لم يستغرق من الكاتب سوى ثلاث صفحات فقط . وان هناك دراسات اخرى غير هذه الدراسة صدرت عن مركز الابحاث لم يكن تعليم الفلسطينيين هو الاساس فيها ومع ذلك فقد تناولت الموضوع بجدية واسهاب اكثر مما اتبع السيد قورة في دراسته .

٢٤ ــ واخر ملاحظاتي تدور حول عدم فهمي للمسوغ السياسي والاستمرار في الاصرار على تقسيم فلسطين الى ضفة غربية ، وقطاع غزة ، وارض محتلة قبل عام ١٩٦٧ وان كنت اثق بان مثل هذا التقسيم يسهل عملية الاستقصاء والدراسة امام الباحث ومع ذلك فقد آن الاوان للانتباه الى هذه النقطة وعلى الاخص من جانبها السياسي الهام الذي لا يجوز اغفاله اطلاقا .

وبالرغم من كل ما ابديت من ملاحظات يبقى للكاتب فضل البحث والجهد الذي بذله ويشكر عليه .

سمير أيوب

[٢]

ان دراسة نزيه قوره عن واقـــع ومشكلات « تعليم الفلسطينيين » تحمل في مضمونها اشارة بالغة الاهمية عن خصوصية الواقع الفلسطيني ذاته . وعن خصوصية كل ما يمكن ان يفرزه هـذا الواقع (سياسيا ، اجتماعيا ، اقتصاديا، وثقافيا). ان الاتفاق مع قول قوره بان « التعليم هو البضاعة الرئيسية التي يملك الفلسطينيون عرضهـــا في السوق » — سوق العمل — « وحتى تكون هذه البضاعة صالحة للتسويق لا بد من توفر مواصفات ومقاييس معينة » . ان الاتفاق مع ذلك يحرضنا في الحقيقة لنسبر خصوصية كل اشكال والـوان وخطوط واتجاهـــات ودوافع وحركات وانجازات الساحة الفلسطينية حين نتقدم لبحثها او الكتابــة عنهـا .

اذن ، فخارج اطار واقع ومشكلات « تعليـــم الفلسطينيين » يجدر التنويه بدقة وتأكيد بهـــده المسألة المركزية التي شكلت دليلا لنزيه قوره فـي بحثه . وهكذا انطلاقا من ذلك يتم التساؤل عــن الاسباب التـي جعلت مـــن قضيـة التعليـــم ، شغــل كــل هــذا الحجـم في واقــع شعبنــا الفلسطيني وحياته حيث تظهر احصاءات « وكالــة غوث اللاجئين » ان اقبال الفلسطينيين على التعليم لا يعادله اقبال اي مجتمع من مجتمعات المنطقة ، وحيث ان نسبة الطلبة الجامعيين المتراوحة بـين ١٣٫٣ بالالف — ١٦٫٦ بالالف من مجموع الشعب الفلسطيني تفوق كثيرا مثيلاتها من النسب السائدة في الاقطار العربية وبعض البلدان الاوروبية ، كمـــا ان عدد الطلاب الجامعيين الفلسطينيين يزيد عــن عدد الطلاب الجامعيين اليهود في فلسطين المحتلة .

وللاجابة على التساؤل يجدر تسجيل هـــــذه المجموعة من الملاحظات والنتائج التي ترد متفرقة في كتاب نزيه قوره البالغ الاهمية :

١ — لم يكن ما جرى عام ١٩٤٨ حكما بالاعــدام على الشعب الفلسطيني بمقدار ما كان حكمـــا بالتوقيف الاداري ريثما تجد الاطراف المختلفة حــلا للمعضلة . اي ان الذي حصل لم يكن مجـــرد حرمان من البيت والارض ، بل كان عملية اقتـلاع كاملة ، اذ قد تم سلخ المجتمع الفلسطيني عن جميع المقومات اللازمة لقيام مجتمع ما واستمراره ، وفقد البناء الفوقي اساسه المادي .

٢ — لقد كان مطلوبا ان يظل شعبنا محجورا عليه في هذه المعسكرات حتى يتم ترويضه والاعـــداد لتصفية قضيته تصفية كاملة . وقد اتخذت محاولات التصفية شكلين اساسيين كانا ينفصلان ويتداخلان حسب المراحل :

●● الشكل الاول هو مشروعات التوطين ، اذ حيث اعتبار ان ابادة الفلسطينيين غير ممكنة مــن الناحية العملية ، لم يبق امام القوى الامبريالية والرجعية غير العمل على توطين اللاجئـــين الفلسطينيين في مناطق بعيدة نسبيا عن حـــدود وطنهم ، وقد وضح ذلك من خلال ما ذكرته بعثـة التحقيق الاقتصادي التابعة للامم المتحدة المسماة « بعثة كلاب » ، في تقريرها عن ضرورة وضــع برنامج مترابط شامل يرمي الى « تيسير عــودة اللاجئين وتوطينهم واسترداده‍م مكانتهم الاقتصادية والاجتماعية ، وذلك في سبيل ادماجهم في حيـاة المنطقة الاقتصادية على اساس الاعتماد علــى النفس في اقصر وقت ممكن » وهكذا توصلت وكالة الغوث الى مشروعين اساسيين لتوطين الفلسطينيين الدائم — وهما مشروع وادي الاردن ومشروع سيناء لكن ، ولاسباب مختلفة ليس اقلها خيالية وارتجالية مثل هذه المشاريع القائمة على الغاء وشطـــب كيان شعب متكامل التكوين وبارز الملامح ، فشل كل ذلك تماما ، واستعيض عنه بمشاريع مختلفــة للمهجر الاقتصادي اهمها :

● تقديم المساعدات المالية للراغبين في الهجرة الاجنبية وخاصة امريكا الشمالية والجنوبية .

● عقدت الوكالة مع الحكومة الليبية اتفاقا عام ١٩٥٢ يقضي بان تسمح الحكومة الليبية لعدد من اللاجئين بالهجرة الى ليبيا ، وفي الوقت المناســب منحهم « الحقوق والامتيازات » التي يتمتع بهـــا الليبيون .

● انشأت الوكالة مكتبا للتوظيف للقيام بالاتصال بالشركات والحكومات لمعرفة احتياجاتهم الــــى الموظفين والمستخدمين ، بحيث يتم عبر هذا المكتب توظيف الفلسطينيين .

● قامت الوكالة بمنح عدد من ذوي الحـــرف والمهن قروضا صغيرة للمباشرة بمشاريع تتناسب وخبراتهم .

● افتتحت الوكالة مركزين للتدريب المهني في كل من الاردن وغزة لتأهيل الشباب للعمل في المجالات المتاحة وخاصة في بلدان النفط .

وهكذا نلاحظ هذا السعي الحثيث من جانب « وكالة الاغاثة » في سبيل محو التكوين الفلسطيني ذاته ، والغاء كل حس لدى الفلسطيني بالانتماء الى كيان وشعب ومجتمع محدد الاطر .

ورغم وصول الوكالة والقوى التي تردفها الى بعض النتائج في صراعها هذا الا انها لاحظت انها لا تستطيع المراهنة على نتائج استراتيجية عبر هذه المشاريع الفردية ، لذا فقد اتجهت الى مراجعة كل خططها . وفي هذه المرحلة شرعت الوكالة في ايلاء مسألة التعليم والتدريب المهني اهتماما متزايدا وصل الى حد تخصيص نصف ميزانيتها لذلك .

●● الشكل الثاني هو تطوير جهاز تعليم وتدريب للاجيال الجديدة من الشعب الفلسطيني، بحيث يؤدي هذا التعليم الى تخريج كوادر من المثقفين لا يجدون مجالا للعمل في مناطق تجمع شعبهم ويضطرون بالتالي الى الهجرة . لقد وضع الفلسطيني في المخيم امام خيارين : اما الاعتماد على وكالة الغوث والانتظار الى ما لا نهاية ، او التعليم الذي تتلوه الهجرة ، والخياران لا يستلزمان الا الحد الادنى من الشعور بالانتماء .

ان عدم توفر الشروط ـ في السنوات التي اعقبت النكبة ـ لحل المشاكل المادية والاجتماعية والاقتصادية ، مضافا اليه تسليم مسؤولية التعليم لجهات متعددة من بينها وكالة غوث دولية الوجه امريكية القلب ، عمل على تفتيت الشعب الفلسطيني ودفع افراده الى تبني نوع من ايديولوجية تحض على استعمال الوسائل الذاتية والفردية لحل القضايا التي يواجهها .

وهكذا كان المطلوب ان تلعب الضفة الغربية وقطاع غزة دور محطات على الطريق ، حيث منها كان المفروض ان تجري عملية اعادة تشتيت للتجمعات الفلسطينية الجديدة ، ولكن بطرق جديدة . اي ان ما كان مطلوبا بالتحديد هو اعداد سلع بشرية صالحة للتصدير .

٣ ـ لكن الى ماذا يعود هذا التركيز منجانب وكالة الغوث ومموليها على «تعليم الفلسطينيين» ؟ يحدد نزيه قورة اربعة اسباب لذلك : ١) ان التعليم ، في ظل معطيات واقع المنطقة ، هو الوسيلة الوحيدة للوصول الى حالة من الاعتماد على النفس بالنسبة لقطاع واسع من الفلسطينيين. ٢) ان التعليم وما ينتج عنه بالضرورة ، من ابعاد للعناصر المتعلمة والمؤهلة فنيا وعلميا من تجمعات الفلسطينيين يقلل من اخطار الانفجارات السياسية على الاوضاع السائدة . ٣) ان التحويلات المالية التييرسلها عشرات الالوف من الشباب الفلسطينيين الى اهلهم في الاردن (الضفة الغربية) وقطاع غزة ، ساعد في تخفيف حدة الشقاء الذي يعاني منه الفلسطينيون ، وتعمل ، بالتالي ، علىتجميد الاوضاع القائمة . ٤) ان برامج التعليم هي اقل البرامج اثارة للاعتراض من قبل الفلسطينيين ، بغض النظر عن الاهداف التي تتوخاها الوكالة منها .

ثم الملاحظات التالية : ١) ان مردود الاستثمار في مجال التعليم لا يعاد استثماره في التجمعات الفلسطينية . وهذا يعني ان الدورة الحضارية تظل دورة غير مكتملة ويظل الاستثمار في المجال البشري استثمارا ضعيف المردود حتى في حالة ارتباطه بهذا المردود . ٢) ان ظاهرة « هجرة الادمغة » التي تعاني منها معظم بلدان العالم المتخلف وعدد من الدول المتقدمة ، يعاني منها المجتمع الفلسطيني بشكل مضاعف . فحيث تجري في البلدان الاخرى هجرة العناصر الفائضة عن القدرة الاستيعابية لهذه البلدان ، فان التجمعات الفلسطينية لا تملك في معظمها اية قدرة استيعابية على الاطلاق . ٣) ان الفشل في ايجاد حل سياسي يضمن عودة الفلسطينيين الى ارضهم لم يكن يعني ابقاء الفلاحين والعمال الفلسطينيين في حالة بطالة دائمة وحسب ، ولكن الاخطر من ذلك هو «تخرج» ٣٠ ـ ٤٠ الف شاب فلسطيني ، يبلغون سن النضج سنويا ، لا هم بالعمال ولا هم بالفلاحين ، ولا يحملون اية مؤهلات اخرى .

٤ ـ وهكذا نصل الىالمناهج التي تم استخدامها لكي تكون عملية « تعليم الفلسطينيين » هذه قادرة على تحقيق اهدافها التي تتلخص بالغاء الوجود الفلسطيني ، وذلك من خلال التفتيت اليومي لكيانه المتبلور . فحيث ان مستقبل الفلسطينيين ، من وجهة نظر وكالة الغوث ومموليها كان يتلخص في توطينهم ودمجهم ، فقد وجب ان تكون المناهج هي تلك التي تخلق مواطن الكيانات العربية الجديدة وموجب بالتالي قطع كل خيط يربط الفلسطينيبوطنه

وبقضيته ، وتوجب ايضا محو هوية وملامح الانسان الفلسطيني واعطاءه هوية جديدة وملامح جديدة لا علاقة لها بهويته القديمة . وفي الواقع انه بعد نكبة عام ١٩٤٨ لم تعد هناك مناهج « فلسطينية » واصبحت المناهج التي يتعلمها ابناء الفلسطينيين اما اردنية او لبنانية او مصرية او سورية او اسرائيلية او غيرها .

ويسجل نزيه قورة هنا اعتراضا مبدئيا : فهو يعتبر ان اعتراضه ليس موجها ضد مناهج الاقطار العربية بقصد ايجاد منهاج تعليمي فلسطيني يضاف الى سلسلة المناهج التعليمية القائمة في المنطقة . وليس الغرض هو الدعوة الى كتابة تاريخ فلسطيني خاص وجغرافية فلسطينية خاصة وتربية وطنية فلسطينية خاصة . فالتاريخ الفلسطيني — برأي قورة — امر لا وجود له ، اذ لم يكن لفلسطين تاريخ خاص بها عبر معظم عصور التاريخ ، ومن الناحية الجغرافية كانت فلسطين هي سورية الجنوبية ، وكان الاعتراض الاساسي على وعد بلفور يتركز حول اقتطاع فلسطين من سوريا . اما التربية الوطنية الفلسطينية — ايضا برأي قورة — فلا تعني شيئا بالنسبة لنا غير قيام الفلسطينيين بالمساهمة في نضال الشعوب العربية من اجل تحررها وتقدمها ، والقضاء على البؤر الاستعمارية في المنطقة ، وبدرجة اساسية على الوجود الصهيوني في فلسطين .

من هنا فان نقد قورة للمناهج التعليمية المطبقة على الطلبة الفلسطينيين في الاقطار العربية ينطلق اساسا من مدى مساهمة هذه المناهج في تكوين الانسان العربي المؤمن بقضايا امه وباهدافها الانسانية التقدمية .

وهكذا يلاحظ الكاتب ان اول ما يلفت نظره في هذه المناهج هو ضآلة المعلومات المقدمة حول تاريخ وجغرافية فلسطين . ففي مناهج الاردن مثلا يبلغ مجموع صفحات كتب التاريخ ٢١١٨ صفحة منها ٢٢٤ صفحة خاصة بفلسطين .

اما عدد صفحات كتب الجغرافية فتبلغ ١٤٦٣ صفحة منها ١٣ صفحة خاصة بفلسطين . هذا في بلد يشكل الفلسطينيون اكثر من ثلثي سكانه . ويلاحظ الكاتب ايضا حول مضمون المادة المقدمة للطالب الفلسطيني ان كتاب التاريخ للخامس الابتدائي في لبنان لا يذكر كلمة صهيونية على الاطلاق وانما يكتفي باستعمال كلمة يهود او يهودية .

اما من حيث الاساليب التربوية المتبعة في تدريس هذه المواد ، فعلى اعتبار ان المواطن المطلوب في الاردن مثلا هو المواطن الموظف، فان صفات الابداع والخلق والتغيير والتمرد تصبح صفات غير مطلوبة . وفي لبنان حيث تستهدف مؤسسات التعليم خلق مواطنين مناسبين للعمل في القطاع الخاص السائد ، فيصبح التشديد على الفردية والعمل الفردي هما المحورين الاساسيين في المناهج المدرسية . وهكذا .

٥ — بعد ذلك يضيف قورة فصلين آخرين الى كتابه يخصان التدريب المهني ومعاهد تدريب المعلمين، ثم التعليم الجامعي للفلسطينيين ، لكي يصل في النهاية الى مسألة جديرة بالتسجيل وتدور حول مسألة اقامة جامعة وطنية فلسطينية . فبعد ان يستعرض الكاتب المحاولات التي جرت لاقامة جامعة فلسطينية ، بدءا من العام ١٩٢٢ اثر اقتراح تقدم به السير رونالد ستورز حاكم القدس آنذاك، وحتى الدعوة الى اقامة جامعة فلسطينية في ظل الاحتلال العسكري الاسرائيلي . بعد ذلك يناقش الكاتب تلك الدعوات التي برزت خارج الاراضي المحتلة لاقامة مثل هذه الجامعة ، برعاية المقاومة ، في احد البلدان العربية .

وينطلق الكاتب في مناقشته من مسألة مركزية تؤكد على ان هناك انفصالا كاملا بين الواقع الذي يحياه الشعب الفلسطيني وبين الاهداف والمبررات لاقامة هذه الجامعة . ويضيف متسائلا : هل يعاني الشعب الفلسطيني حقا من نقص في الموارد البشرية ؟ ويجيب : ان جوهر المشكلة الفلسطينية هي ان الموارد البشرية الفلسطينية ، بعد اغتصاب فلسطين تعاني اساسا من عدم وجود مجالات كافية لتوظيفها . وبعد ان يستعرض المشاريع المقدمة في هذا الشأن يلاحظ ان نوع الجامعات المقترحة والكليات تصب كلها في اتجاه اعداد العلماء والتقنيين ، الذي لن يخدم في النهاية قاعدة انتاجية فلسطينية، لان هذه القاعدة شبه مستحيلة قبل انجاز التحرير الكامل .

ثم ينهي الكاتب الى القول : ان مشكلة الشعب الفلسطيني تلخص في اعادة الدورة الاقتصادية لحياة الشعب الفلسطيني وتمكينه من بناء علاقات انتاجية خاصة به .

وان الحل يكمن في الخلاص من حالة البداوة الثقافية التي يحياها الشعب الفلسطيني ، ليعود التعليم يلعب دوره الطبيعي في خدمة الانسان الفلسطيني والجماهير الفلسطينية .

ملاحظات :

١ — اننا نخشى ان يكون نزيه قورة قد وقع

في ما يمكن تسميته بشطط الموقف القومي الراديكالي حين اعتراضه الحاد على القول بتوفر الذاتية الفلسطينية ، او ضرورة توفرها . اذ ليس هناك من يعترض على ان التاريخ والجغرافيا الفلسطينيين ليسا الا جزءا من تاريخ وجغرافية المنطقة العربية بمجموعها ، لكن هذا القول بالذات لا يمكن ان يتعارض مع القول بالخصوصية الفلسطينية التي شكلتها مجموعة الظروف والاحوال والتغيرات التي طرأت على هذه المجموعة البشرية القاطنة في هذه المنطقة المسماة فلسطين .

ان مصدر هذا الموقف المتطرف الذي يقفه الكاتب من مسألة ايجاد تربية وطنية فلسطينية يعود — في تقديرنا — الى الالتباس القائم بين طموح الجماهير العربية الى بناء دولة الوحدة العربية الشاملة ، وبين التصور الذاتي المثالي الذي ينطلق من القناعة بان الوحدة حقيقة قائمة !
ورغم ان كل السلوكات والممارسات السياسية الحالية والماضية والقادمة الى فترة ليست قصيرة تؤكد على ان الوحدة ليست غير طموح وهدف وشوق للجماهير العربية تناضل من اجل تحقيقه ، الا ان الاستاذ نزيه قورة يعترض تمام الاعتراض على هذا الامر ، ويؤكد عكسه ، ويصل الى نتيجته القائلة بضرورة نفي امكانية قيام تربية وطنية فلسطينية تنبع من خصوصية فلسطينية لا يمكن ان تتماثل ولا ان تتناقض بذات الوقت مع الخصوصية المصرية او السورية او العراقية الخ.

اننا نخشى فعلا ان يكون الاستاذ قورة قد وقع في موقف لاطبقي وصل به حتى نهايته المنطقية التي تتعارض فعلا مع المحور الذي بنى عليه دراسته القائمة على افتراض بالغ الصحة يقول بان القوى الامبريالية قد استخدمت حتى التعليم كأداة لتفتيت شعبنا والغاء كيانه وتمزيق قضيته .

٢ — نعتقد ان موقف الاستاذ قورة السابق من مسألة بناء التربية الوطنية الفلسطينية هو الذي جعله يتخذ موقف الاعتراض المبدئي من مسألة انشاء جامعة فلسطينية في المنفى .

ونحن قد لا نختلف مع موقف قورة من مجموع المشاريع المقدمة في هذا الشأن ، والمنطلقة من مبدأ تشغيل الفلسطينيين ، باستثناء مشروع الدكتور ابراهيم ابو لغد ، ولكن هذا لا يجعلنا نتفق مع رفضه المطلق لانشاء الجامعة الفلسطينية كمؤسسة علمية تهدف الى « تجميع المواهب الفلسطينية الموزعة في ارجاء العالم من اجل خدمة المجتمع الفلسطيني فكريا وسياسيا » كما يقول الدكتور ابو لغد في مشروعه الذي يصفه الاستاذ قورة بالمثالي .

ان اصرار الكاتب على ان بناء هذه المؤسسة يجب ان لا يكون الا بعد انجاز التحرير الكامل ، كما يفهم من كلامه ، يجعلنا نشير الى بقية المؤسسات العلمية القائمة الان والتي تشكل رديفا فعليا لمنظمة التحرير الفلسطينية وحركة المقاومة (مركزي الابحاث والتخطيط ، مؤسسة الدراسات، الاكاديمية العسكرية) .

اننا لا نعتقد ان اذكاء حس الانتماء لدى الفلسطيني ، وتخليصه من النزعة الفردية الاستهلاكية التي نشربها في الشتات ، وتوجيه وعيه نحو الارتباط المتين بقضيته ، هي مهمات من الضروري ان تنتظر انجاز التحرير الكامل . وقد يكون المطلوب هو العكس تماما .

اننا نعتقد ان الخصوصية الفلسطينية ذاتها هي التي تفرض استمرار الحفاظ على بنائنا الفوقي ، واستمرار العمل على التكتيل السياسي — الايديولوجي للقطاعات الشابة من شعبنا ، رغم تفكك الدورة الاقتصادية لحياة شعبنا وتمزيق علاقات انتاجه .

٣ — بقيت ملاحظة اخيرة على عموم الدراسة التي نفذت بهدف توضيح الدوافع والنتائج المترتبة على «تعليم الفلسطينيين» ، وقد نجحت في ذلك الى حد بعيد ، الا انه لا بد من الاشارة الى ان هناك جانبا اخر من هذه العملية التعليمية قد جرى القفز عنه ، وهو المتعلق بمدى التأثير الايجابي لها في حياة شعبنا . اذ ليس هناك اي شك بان الشعب الفلسطيني يتمتع بقدر غير عادي من الحيوية والفعالية والقدرة على اختراق الحواجز ، وافراز القيادات بمستويات مختلفة ، والتأثير المستمر في تطور حركة الواقع السياسي — الاجتماعي العربي . ورغم ان العوامل التي تقف وراء ذلك كثيرة ومتنوعة ، الا انه لا يجب ان ننسى مدى تأثير تلك القطاعات الكبيرة المؤهلة فنيا وعلميا من شعبنا ، في ذلك .

سميح سمارة

اسرائيليـــات

[١]

اسرائيل واحياء الجبهه الشرقية

في اعقاب حرب تشرين الاول عـــام ١٩٧٣ ، تكاثرت التصـريحات الاسرائيليـــة القائلة ، ان سوريا هي عدو اسرائيل الاول والاخطر « عسكريا وسياسيا وايديولوجيا » ، كما يقول البرفسور موشي ماعوز ، احد ابرز المستشرقين فـــي الجامعة العبرية (هآرتس ، ١٩٧٤/٤/٢٩) . واخذ هذا الاتجاه يتعزز كلما ابتعدت مصر عـــن حلبة الصراع ضد الصهيونية والامبريالية . ذلك الابتعاد الذي تتوج باتفاقية سيناء في بداية ايلول ١٩٧٥ . وكلما نشطت سوريا بالعمل على احياء جبهة شرقية ممتدة « من الناقورة الى العقبة » وتشترك فيهـــا القـــوات الســـورية والاردنيـــة والفلسطينيـــة ، وتعززها قوات عربية اخرى ، وخاصة عراقيـــة .

وفي اطار هذه الجهود السورية ، ابدت الدوائر الاسرائيلية اهتماما شديدا ، بالمبادرة السورية لاقامة قيادة سورية ــ فلسطينية مشتركة عسكريا وسياسيا ، والتي اقترحها الرئيس السوري حافظ الاســـد في اذار ١٩٧٥ . وابـــدت تلك الدوائـــر اهتماما اكبـــر بالتنسيق الســـوري الاردنـــي او « شهر العسل الســـوري الاردني المستمر بدون توقف ، منذ زيارة الملك حسين الى دمشق فـــي نيســـان ١٩٧٥ » (عوديد غرانوت ، معاريف ، ٧٥/٨/٢٠) .

كذلك ابدت اسرائيل اهتماما بالغا بما اسمته « التدخل » السوري في لبنان . واتهمت سوريا و م.ت.ف بالعمل على تحويل لبنان الى دولـــة مواجهة ضد اسرائيل قد تتواجد فيه قوات سورية فلسطينية وربما قوات عربية اخرى . وكذلـــك تحدثت المصادر الاسرائيلية عن وجود احتمـــال للتقارب بين م.ت.ف والاردن تتولى ســـوريـــا دور الوساطة فيه ، وعن امكانيات اكبر بالنسبة للعراق لدفع قوات الى المعركة تكون اكبر ممـــا دفع في حرب تشرين ، بعد تسوية المسألـــة الكردية وازالة التوتر على الحدود العراقية ــ الايرانيـــة .

من هنا ان سوريا اصبحت في نظر الاسرائيليين ، القاعدة الرئيسية في الصراع العربي الاسرائيلي . وهي الى جانب تعاظم قوتها العسكرية والسياسية المدعومة بتأييد المعسكر الاشتراكي تحاول ان تقود جبهة عربية محاربة قوية ومتماسكة عسكريا وسياسيا . وهي اخطر جبهة يمكن ان تواجههـــا اسرائيل فيما اذا قامت نظرا لطولها وقربها مـــن العمق الاسرائيلي . ولانها ، تستطيع ان تشكل خطرا عسكريا وسياسيا على الكيان الصهيونـــي حتى اذا خرجت مصر مـــن المعـــركة . بل قـــد تستطيع نسف ما حققته الامبريالية الاميركية فـــي مصر ، و « جرهـــا » الى المعركة . وفيما يلي سنحاول عرض ومناقشة تقييم الدوائر الاسرائيلية للاتصالات بين سوريا والاطراف المعنية في هـــذه الجبهة على امتداد السنة الجارية ، واحتمالات نجاحها او فشلهـــا .

القيادة السورية الفلسطينية المشتركة

ربطت الدوائر الاسرائيلية بين اقتراح ســوريـــا اقامة قيادة سورية ــ فلسطينية مشتركة ، وبـــين جولة وزير الخارجية الاميركي ، الدكتور كيسنجر في المنطقة في ذلك الوقت ، بهدف ابرام اتفاقية منفردة بين مصر واسرائيل . وقالت ان الهـــدف المباشر لهذا الاقتـــراح هـــو افشال مثل هـــذه الاتفاقية المنفردة .

ويعني هذا الربط ان اميركا واسرائيل كانتـا تسعيان في اطار فرض التسوية الاميركية في المنطقة الى تحقيق اتفاقيـة ، تتخلـى مصر بموجبها عن الشرطين الاساسيين اللذين طرحهما العـرب في المفاوضات السياسية بعد حرب تشرين . وهما :
(١) ربط اية خطوة تتخذ على احدى الجبهـات بالجبهات العربية الاخرى ، وبجـدول زمنـي للانسحاب من كل الاراضي العربية المحتلة عـام ١٩٦٧ .

(٢) ربط اية اتفاقية مرحلية بالتسوية الشاملة وبالالتزام الواضح للحل العادل للقضية الفلسطينية واستعادة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني .

وهذا السعي الاميركي الاسرائيلي لم يكن يستهدف مصر وحدها ، بل كان يهدف ايضا الى ان كون مصر (مفتاح) العالم العربي سيجر دول عربية اخرى لتحذو حذو مصر في عملية الدخول في اطار الاحتواء الاميركـي .

من هنا ان المبادرة السورية في اذار ١٩٧٥ ، كانت خيبة امل مزدوجة بالنسبة للسياسـة الاميركية ــ الاسرائيلية ، اعقبت خيبة الامل التي حققها مؤتمر قمة الرباط في عام ١٩٧٤ والذي اعترف بـ م.ت.ف ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني. فكما ان مؤتمر الرباط وضع « العقبة » الفلسطينية في طريق المخطط الاميركي الذي سعى الى التسوية من خلال الالتفاف حول جوهر القضية ، وهـي القضية الفلسطينية ، وضعت المبادرة السورية عقبة جديدة ، حيث ان وجود قيادة سورية ــ فلسطينية مشتركة ، معناه ان الالتفـاف حـول القضية الفلسطينية هو التفاف حول الجبهـة السورية ايضا . وهذا يعني ايضـا ان المخطط الاميركي اذا نجح في مصر فلن ينجح في سوريا وعدم النجاح في سوريا الملاحمة مع القضيـة الفلسطينية التي تلتف حولها الجماهير العربية لا يعني فقط وضع نواة للجبهة الشرقية بـل قد يعني في نفس الوقت تهديد ما حققـه المخطط الاميركي في مصر ايضـا .

وبعد ابرام اتفاقية سيناء في ايلول ١٩٧٥ ، استمر المسؤولون والمعلقون الاسرائيليون فـي ترديد تصريحاتهم القائلة ان سوريا والفلسطينيين يعملون على نسف هذه الاتفاقية واعادة مصر الى الصف العربي . ويزعم الاسرائيليون ان سوريـا و م.ت.ف لا تتصديان لسياسة مصر الاميركيـة بالوسائل السياسية فقط ، بل ربما ستتجهان الى العمل العسكري . ولتحقيق هذا الهدف يستعـد السوريون والفلسطينيون بدعم الاتحاد السوفيتي الى « معـركة مزدوجـة . فهـم يريدون اولا : تفشيل زيارة السادات الى الولايات المتحـدة الاميركية ونتائجها البعيدة المدى ويحاولون اعادة مصر الى الساحة العربيـة ضـد اسرائيل . وثانيا : كلما فشلوا في ذلك ستزداد جهودهـم لاقامة كتلة عربية ضد مصر . وبواسطة اثـارة الوتر العسكري سيضطرون الاردن وربما العراق لقبول القيادة السورية في المعركة ضد اسرائيل ... ان وجـود لبنان في وضـع غـير مستقـر وتحت سيطرة اسلامية سيضطره الى الركوب علـى العربة السورية ، التي ستكون منظمة التحريـر الفلسطينية احد الخيول التي تجرها ، وسيكون الاتحاد السوفييتي احد سائقيها » (حغاي ايشد ، دافـار ، ٧٥/١٠/٢٤) .

لقد نظر في اسرائيل الى فكرة اقامة قيـادة سورية ــ فلسطينية مشتركة بجدية بالغة . ليس فقط لما يعنيه الملاحم السياسي والعسكري بـين الطرفين السوري والفلسطيني بحد ذاته ، بـل ايضا لما قد ينطوي عليه من معان ونتائج عسكرية وسياسية بالنسبة للجبهـة الشرقيـة وبالنسبـة للساحة العربية ككل . فعدا عن التأثير المحتمل المشار اليه بالنسبة لمصر ، قال احد المعلقين في نيسـان الماضي ان « اقامة القيادة السورية ــ الفلسطينية المشتركة قد يكون لهـا تأثير عملي مباشر بالنسبة للاردن ويتعبر عـن ذلك بالتعاون العسكري القائم فعلا بين سوريـا و م.ت.ف » (عوديد غرانوت ، معاريف ، ٧٥/٤/٤) .

وقال البرفسور موشـي ماعـوز ان سوريا « تنافس مصر على زعامة العالم العربـي ، ففي حال نشوب حرب ضـد اسرائيل ، ستعمل سوريا من اجل تجديد التحالف العسكري السوري ــ المصري ولضم باقي الدول العربية اليـه . وسيكون هدفها هزيمة اسرائيل ، او طردها مـن مناطق جديدة بواسطة ضغوط سياسية وعسكرية منسقـة . ولكن سوريا تأخذ في الحسبان انها قد تضطر لخوض الحرب بدون مصر . وعلى ذلك فهي تعمل على توسيع الجبهة الشمالية الشرقيـة ، ومعنـى ذلك ليس فقط ضمان دخول قوات عراقية قوية في المعركة الى جانب سوريا بل ايضا محاولة لاشراك الاردن بصورة مباشرة في المعارك » واضاف

ماعوز : « على هذه الارضية يجب فهم الجهود الدبلوماسية السورية لأجراء المصالحة بين م.ت.ف والاردن ، وربما لضم الاردن الى الاتحاد السياسي العسكري المقترح بين سوريا و م.ت.ف . وبموازاة ذلك تستمر سوريا في الضغط على لبنان ، لكي يوافق على مرابطة قوات عربية خاصة سورية وفلسطينية في جنوب لبنان ويرجح انه في حال نشوب الحرب ستدخل قوات سورية الى لبنان حتى بدون موافقة الحكومة اللبنانية » (موشي ماعوز ، معاريف ، ٧٥/٤/٢٥) . ان صدور مثل هذه المزاعم حول لبنان في شهر نيسان بالذات الذي شهد بداية احداثه الدامية ، قد لا يكون مجرد صدفة وسوف نتوقف عند هذه النقطة بتفصيل اكثر في سياق هذا المقال .

لقد حاول القائمون على الدعاية الصهيونية الدس بين السوريين والفلسطينيين . فوصفوا فكرة التوحيد السياسي والعسكري بينهما على انها « شراكة الثور والبعوضة » (متتياهو بيلد ، معاريف ، ٧٥/٣/١٤) . وبحثوا عن « نقاط ضعف » سياسية قد تستغلها اسرائيل لصالحها واتهموا سوريا انها تريد « التوسع » و « السيطرة » على حساب الفلسطينين واتهموا ياسر عرفات انه بموافقته على المبادرة السورية يعيد « الكرة الفلسطينية » الى ايدي الحكومات العربية وغير ذلك . ولكنهم في نفس الوقت اشاروا الى عوامل عدة وراء الفكرة يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ — سوريا « لديها التزام ثابت بتحرير فلسطين » (اهود يعاري ، دافار ، ٧٥/٣/١١) . والتنسيق العسكري قائم فعلا بين الطرفين (معاريف ، ٧٥/٣/٢٠) .

٢ — موافقة مصر على اتباع سياسة الخطوة خطوة ، وابعادها التدريجي عن ساحة الصراع ضد اسرائيل « وضع كل من حافظ الاسد وياسر عرفات والملك حسين في سفينة واحدة ، لان الثلاثة يخشون ابرام اتفاقية منفردة بين مصر واسرائيل» (معاريف ، ٧٥/٣/٢١) .

٣ — الرفض الاسرائيلي المعلن للتنازل في الجولان او الضفة الغربية ورفضها الاعتراف بـ م.ت.ف هو عامل موحد بين الاطراف الثلاثة .

٤ — المكاسب السياسية التي احرزتها م.ت.ف على الصعيدين العربي والدولي شجعت الحكومات العربية على « تحمل المسؤولية عن اعمال م.ت.ف ... وكان المبادر الاول لذلك حافظ الاسد » (يديعوت احرونوت ، ٧٥/٣/١١) .

٥ — اقامة قيادة مشتركة بين م.ت.ف قد تكون نواة لجبهة شرقية وقد تجذب اليها قوى عربية اخرى في المستقبل تكون قادرة على خوض الحرب او تحقيق اهداف سياسية عن طريق الضغط العسكري .

٦ — القيادة المشتركة قد يكون الهدف منها حل مشكلة ممثيل الفلسطينيين في مؤتمر جنيف .

التقارب السوري الاردني

اعتبرت الدوائر الاسرائيلية شهر نيسان (ابريل) ١٩٧٥ « منعطفا في سياسة الاردن وموقفه من قضية الصراع في المنطقة ، فقد اعتبرت زيارة الملك حسين الى دمشق في ٧٥/٤/٣ ، بدء التقارب بين القطرين اللذين وجد كل منهما رغم التناقضات القائمة بينهما اسبابا خاصة ومشتركة للتقرب من الاخر . وقيل انه في ذلك اللقاء وضعت الاسس الاولية للتعاون العسكري والسياسي والاقتصادي بينهما . ومنذ ذلك الوقت اخذت الدوائر الاسرائيلية تراقب باهتمام وحذر الزيارات المتبادلة بين المسؤولين في القطرين والتعاون بينهما في النواحي المختلفة واهتمت بشكل خاص بالاستعدادات العسكرية الاردنية على الجبهة ، وبتطوير الجيش الاردني ، وبتصريحات الملك حسين وغيره من المسؤولين الاردنيين حول استعداد الاردن للاشتراك في الحرب القادمة اذا ما نشبت . وقد عبر عن اهتمام اسرائيل بهذا التقارب « التحذير » الذي وجهه اسحاق رابين رئيس الحكومة الاسرائيلي بواسطة التلفزيون النمساوي للملك حسين « بان لا يتمادى في التقرب من دمشق » (معاريف ، ٧٥/٨/٢٠) وكذلك الجولة التي قام بها شمعون بيرس ، وزير الدفاع لمنطقة الاغوار بمرافقه رئيس هيئة الاركان العامة مردخاي غور ، في ايار الماضي ، وصرح بيرس خلالها ان « هناك تغييرات طرأت على التشكيل العسكري الاردني وهناك تحركات لقوات مدرعة اتخذت مواقعها على الحدود مع اسرائيل » (هارتس ، ٧٥/٥/٢١) .

دوافــع الطرفين

ذكر بعض المصادر الاسرائيلية ان فكرة التعاون السوري الاردني طرحت في مؤتمر القمة في الرباط عام ١٩٧٤ . ففي اواخر ذلك العام كتب احــد المراسلين العسكريين ان سوريا « ضغطت فـي الرباط من اجل انشاء قيادة مشتركة تضم سوريا والاردن و م.ت.ف . لان سوريا تخشى من عدم اشتراك مصر في الحرب القادمة » (عوديد زراي، ملحق هآرتس ، ٧٥/١٢/٢٠) وقد تحدث هــذا المراسل بالتفاصيل والارقام عن تعاظم قوة الجيش الاردني في مختلف المجالات والاسلحة بالقياس الى ما كان عليه في عام ١٩٦٧ .

ولكن الحديث عن هذا التقارب ازداد في نيسان ١٩٧٥ حيث ذكرت المصادر الاسرائيلية ان الملك حسين « قام بزيارة مفاجئة الى دمشق ، واجرى مع الرئيس الاسد محادثات سرية تناولت علـى ما يبدو موضوع امكانية اقامة تحـالف سوري اردني فلسطيني . هذا ما ادلت به مصادر عليمة في القدس بناء على معلومات من مصادر مختلفة » (اوري دان ، معاريف ، ٧٥/٤/٤) واضافت هذه المصادر حسب ما ذكره هذا المراسل المعروف بصلاته مع وزارة الدفاع الاسرائيلية ان هذا « المنعطف » في العلاقات السورية الاردنية « قد يحدث في المدى القصير ، بهدف تعزيز الجبهة الشرقية ضد اسرائيل سياسيا وعسكريا فـي مواجهة المرحلة القادمة من الصراع بين اسرائيل والجيوش العربية » (المصدر نفســه) .

في نفس الفتـرة كتـب مـراسل آخـر ان « التعاون العسكري السوري الاردني الذي تـم الاتفاق عليه في دمشق في اوائل نيسان ، مــن الممكن ان يكون حقا نواة لاحياء الجبهة الشرقية على الرغم من المسائل العديدة التي يجب تسويتها في سبيل ذلـك مثل النـزاع القائـم بين دمشق وبغداد ، ومعارضة الملك حسين ادخال قـوات عراقية الى الاردن بدون ان تكون خاضعة لقيادة الجيش الاردني من جهــة ولمعارضته من جهــة ثانية ، تجديد نشاط الفدائيــين في اراضيــه » (عوديد غرانوت ، معاريف ، ٧٥/٤/٢٧) .

وحذر مراسل عسـكـري آخر مــن احتمــال « توقيع اتفاقية سورية ــ اردنية سرية وما قـد يشكله ذلك من احراج للولايات المتحدة » واضاف: « ان تفاهما قد تم بين الطرفين حول التنسيــق العسكري بينهما والاردن اخذ على عاتقه التصدي لعملية التفاف على سوريا من اراضيه في حــال تعرض سوريــا لهجــوم اسرائيلي ... ومــن الواضــح ان ثمــة تغيــر يحدث في المملكــة الاردنية . وعلى اسرائيل ان تتابع ما يجري عن كثب كي لا تتفاجأ في المستقبل » (يعقوب كروز ، يديعوت احرونوت ، ٧٥/٤/٢٨) .

وأكد على ذلك مراسل آخر حيث قال : « كل التقديرات تشير الى أن الاردن سيدخل المعركة القادمة على الجبهة الشرقية ، كما صرح الملــك حسين اثناء زيارته الاخــيرة الى واشنطن ... لقد تم توقيع اتفاقية عسكرية بين دمشق وعمــان في ٧٥/٤/٣ » (يعقوب ايــرز ، معــاريف ، ٧٥/٥/١٣) . وعكست صحيفة « دافــار » شبه الرسمية ، اهتمام الحكومة الاسرائيلية بهذا الشأن حيث كتبت تقول : « تتابع اسرائيل باهتمام بالغ ما يجري على الحدود الاردنية ــ الاسرائيلية اثر المعلومات التي تشهد علــى تغيير في موقف الاردن بعد التقارب السوري الاردني . وقد ورد من مصادر اجنبية ان ثمة استعدادات كبـيــرة وتبادل معلومات بين الجيشين السوري والاردني » (دافار ، ٧٥/٥/١٣) .

لقد شهد النصف الثاني من ايار (مايو) ١٩٧٥ اهتماما اسرائيليا شديدا بما يجري بين سوريــا والاردن ، وبما يجري على الجبهتين السوريـــة والاردنية ، خاصة وان اسرائيل كانت تنتظـر ان تعلن سوريا موافقتها او عدم موافقتها على تجديد مهمة قوة المراقبــة الدولية في الجــولان في نهاية ذلك الشهر . وقد عكست الصحف الاسرائيلية هذا الاهتمام ، وتكهن بعضها ان ثمة تحركات عسكرية اردنية على الحدود مرتبطة بما سيحدث في حال عدم تجديد انتداب قوة المــراقبة التــابعة للامــم المتحدة . وذكر بصدد ذلك : (١) ان سوريا وعدت الاردن بتوفير مظلة جوية فوق الارض الاردنيـــة مقابل اشتراكه في الحرب القادمة . (٢) ان الجيش الاردني يواصل تعزيزاته على الحدود وقد نقل قواته من الخلف الى الخطوط الامامية (ناحــوم برناع ، دافار ، ٧٥/٥/١٥ و ايتــان هابــر ، يديعوت احرونوت ، ٧٥/٥/١٨) .

في تلك الفترة عبر السياسيون الاسرائيليون عن قلقهم من الاتصالات والتحركات السورية الاردنية ، فمثلا قال عضو الكنيست م . شعاري (الاحــرار

المستقلون) : « على جيش الدفاع الاسرائيلي ان يكون جاهزا لكل الاحتمالات بما فيها احتمال ان تصبح الجبهة الشمالية الشرقية ، هي الجبهة الأساسية لجيش الدفاع الاسرائيلي . كما عليه ان يضع في حسابه ان الحرب قد تنشب في كل لحظة . وعلى السياسيين ان يعملوا كل ما في وسعهم لمنعها » (يديعوت احرونوت ، ٧٥/٥/٢٠) .

وبعد موافقة سوريا على تمديد فترة عمل قوة المراقبة الدولية في الجولان في آخر ايار ١٩٧٥ ، استمر الاهتمام الاسرائيلي بالاتصالات السورية الاردنية خلال شهر حزيران ، وخاصة بالزيارة التي قام بها الرئيس السوري حافظ الاسد الى عمان في ١٩٧٥/٦/١٠ . وقد تركز الاهتمام بشكل خاص على الناحية العسكرية في هذه الزيارة لان « مرافقة وفد عسكري للاسد » بالاضافة الى تقارير من مصادر اردنية وسورية تدل على أن التعاون والتنسيق العسكري سيكون له مكانة هامة بل ورئيسية في المحادثات . وسوف يستوضح الاسد من حسين فيما اذا كان مستعدا الان للاشتراك في قيادة عسكرية مشتركة أو مجرد تنسيق وتعاون عسكري » (معاريف ، ١٩٧٥/٦/٩) . وعشية الزيارة أبدت المصادر الاسرائيلية اهتماما خاصا بتصريح لرئيس الوزراء الاردني زيد الرفاعي قال فيه : « يوجد تنسيق سياسي وعسكري بين البلدين وهذا الموضوع سيبحث في المحادثات . وان للزيارة اهمية تتعدى المنطقة العربية الى الميدان الدولي الواسع . وقد تحدث الرفاعي على ضرورة التوصل الى اتخاذ مواقف موحدة لان الشرق الاوسط يقف على مفترق طرق بين التسوية السياسية او مواصلة الجهاد » . (دافار ، ١٩٧٥/٦/١٠) . في نفس الوقت تحدثت المصادر الاسرائيلية عن حرارة استقبال الملك حسين للرئيس الاسد وعن « الصفة الدراماتيكية » التي اعطتها وسائل الاعلام الاردنية لها وفسرت ذلك بقولها ان الملك حسين يريد أن يستخدم الزيارة كوسيلة للتخلص من عزلته في العالم العربي عن طريق الحصول على « شهادة حسن سلوك » سورية . ويريد في نفس الوقت أن ينافس م.ت.ف وأن « يبرز مزاياه كحليف عسكري او سياسي على م.ت.ف بالنسبة لسوريا » (المصدر نفسه) .

من ناحية ثانية ذكرت الصحف الاسرائيلية أن حافظ الاسد سيحاول اثناء زيارته لعمان أن يقرب بين م.ت.ف والاردن « خاصة من مسألة الحكم في الضفة الغربية . كما وان زيارة الاسد ستدفع موقف الاردن من الحل السلمي الى أقصى درجات التصلب » (يهودا ليطاني ، هآرتس ، ٧٥/٦/١١) .

ووجد بين محرري الصحف الاسرائيلية المعبرة عن الاوساط الحاكمة ، من حذر الملك حسين أثناء زيارة الرئيس الاسد لعمان من « خطورة » تقربه من سوريا . فقال احدهم : « وأخيرا فتحت ضدنا جبهة ثالثة غاية في الخطورة فيما اذا نشبت حرب أخرى بيننا وبين العرب . وهذا التهديد يأتينا من دولة تدين لنا بوجودها ... علينا أن نوضح للملك حسين جيدا باننا كما مددنا له يد المساعدة في حربه ضد أعدائه في العالم العربي ، نستطيع أن نفعل العكس وهو بلا شك سيفهم الاشارة » (الدكتور هرتزل روزبنلوم ، يديعوت احرونوت ، ٧٥/٦/١١) .

لقد عبرت الدوائر الاسرائيلية أثناء زيارة الرئيس الاسد الى الاردن في حزيران ٧٥ عن قناعتها أن لدى الطرفين السوري والاردني مصلحة في التعاون في النواحي المختلفة . ولكن معظم المعلقين عبروا عن شكهم في أنه من الممكن عقد تحالف نكون م.ت.ف والاردن شريكين فيه . فبالنسبة لسوريا قيل : « احياء الجبهة الشرقية كان دائما أقصى أحلام سوريا . هذه الجبهة لا يمكن أن تكون ذات فعالية دون اشتراك الجيش الاردني . سوريا ترى في هذا الجيش جناحا أيسر لجيشها ، وعنصرا يستطيع فتح جبهة ثالثة ضد اسرائيل . لقد عبر عن ذلك رئيس الاركان الاردني حابس المجالي عندما قال بأن الجيش الاردني هو بمثابة الجناح الايسر القوي للجيش السوري . والسوريون يحلمون حتى بأكثر من ذلك . فقد ألمح الاسد الى ذلك في حفلة العشاء التي اقيمت على شرفه في عمان عندما قال : سوريا والاردن بلد واحد وشعب واحد وجيش واحد » (هآرتس، ٧٥/٦/١٢) . ولكن هذا المصدر أضاف « ان علينا ان نذكر ان استعداد الملك حسين للاستجابة لمطالب سوريا بخصوص التنسيق العسكري يعتمد على مدى استعداد الاسد في دفع الثمن بعملة فلسطينية أي على حساب م.ت.ف » وقد تحدثت هذه الصحيفة وغيرها عن « قلق يساور

قيادة م.ت.ف بسبب التقارب السوري الاردني »
(المصـــدر نفســـه) .

ولكن على الرغم من ذلك تكهن بعض المتخصصين الصهاينة في الشؤون العربية ان الاتفاق بـين م.ت.ف والاردن أصبح ممكنا وعزا سبب ذلـك الى : (١) أن الاردن تخلص من عزلته التي أحاطت به في العالم العربي منذ معركة الاحراش فـي تموز ١٩٧١ بعد أن حسن علاقاته مع سوريـا والعراق . (٢) لم تثبت صحة الاسطورة القائلة : ان هناك خطة اسرائيلية اردنية خفية ترمي الى تحقيق مشروع حسين آلون سيسكو ، اي مشروع المملكـة المتحدة او الاتحـاد الفدرالي الاردنـي الفلسطيني تحت اشراف اميركي وهي التهمـة التي طالما وجهها الفلسطينيون الى الملك حسين ... والملك حسين يعلن من على منصات مختلفة أنه مستعد أن يمد يد المصالحة نحو الفلسطينيين ويبدو أن ياسر عرفات رفع الثمن بهـدف المساومـة » (آهود يعاري ، دافار ، ١٢/٧/٧٥) . مع ذلك أضاف هذا المعلق أن هناك ثلاث نقاط رئيسيـة يجب الاتفاق حولها من أجل اقامة التحالف الثلاثي السوري الاردني الفلسطيني :

(١) اعادة المقاومة الى الضفة الشرقية ويبدو ان هناك اتجاها للسماح لقوات حطين التابعـة لجيش التحرير الفلسطيني أن تنتقل من سوريا الى الاردن « وقد ألمح الملك حسين في مقابلته مع مجلة الحوادث اللبنانية أنه مستعد أن يمنح « حـق مرور » الى اسرائيل ولكنـه غير مستعد لاعطاء قواعد دائمة للفلسطينيين في اراضيه » .

(٢) اقامة قيادة عسكرية مشتركة وهناك تقدم بطيء في هذا الاتجاه .

(٣) « النقطتان السابقتان شهدنا تقدما ولكـن النقطة الثالثة لم يحصل فيها اي تقدم أو أننـا لا نعرف عن ذلك بعد ، وهـي مسألـة تمثيـل الفلسطينيين ودور كل من م.ت.ف والاردن فـي مفاوضات التسوية » . ولخص هذا المعلق موقف الاردن بقوله « أن الملـك حسـين يتقرب مـن م.ت.ف. لانه يعتقد أن تعزيز مكانة الاردن تتم من خلالها . انه يـريد بنـاء الاردن من الضفتين بالتعاون مع م.ت.ف وليس رغما عنها ولكن بعد تطويقها وترويضها ... ان اتفاق م.ت.ف. والاردن سيخلق مشكلة بالنسبة لاسرائيل . وأن مناورة يقوم بها السادات قد تعرقل ذلك . ولكن يبـدو أن الاوراق هي بيد حافظ الاسد » (المصدر نفسه) .

هل يتغير الاردن ايديولوجيا ؟

لقد كتبت عشرات المقالات في الصحف الاسرائيلية منذ بداية السنة الجارية حول التقارب السـوري الاردني وحول تطـوير وتقوية الجيش الاردنـي واستعداده لفتح جبهة ثالثة ضـد اسرائيل فيمـا اذا نشبت حرب جديدة . ولكن يبدو مما نشر ان الاسرائيليين يخشون من أن قولهم « لا » لـلاردن و « لا » لـ م.ت.ف. في نفس الـوقت ، وأن كونهم في حقيقة الامر لا يريدون التنازل عن الضفة الغربية لا للاردن ولا لـ م.ت.ف. كما ثبت عمليا، يخشون من ان يؤدي اكتشاف الاردن لهذه الحقيقة لدفعه الى التقرب من سوريا و م.ت.ف. ليس فقط عسكريا وسياسيا بل وايديولوجيا أيضا .

فنظريا : من المعروف أن الصهاينة ، ليس فقط في حركة أرض اسرائيل الكبرى وفي حيروت وغيرها من أحزاب المعارضة اليمينية التي تشكل كتلـة ليكود المتطرفة بل أيضا بعض أعضاء حزب العمل الحاكـم ذاتـه ، يغنـون أنشـودة « للاردن ضفتان » ويعبرون بذلك عن أطماعهم في السيطرة على الضفة الشرقية للاردن أيضا .

وعمليا : مـع أن الحكومة الاسرائيلية أعلنت مرارا وتكرارا أنها مستعـدة للتفاوض مع الاردن حول الاراضي المحتلة منذ عام ١٩٦٧ وحتـى بخصوص القضية الفلسطينية بعد عام ١٩٧٣ ، فقد أثبتت أنها ترفض اعادة اي جزء من الضفة الغربية للاردن في نطاق اتفاقية فصل قوات على الجبهة الاردنية كما حدث على الجبهـة المصرية في بداية عام ١٩٧٤ وعلى الجبهة السورية فـي منتصف ذلك العام . وقد قيل في اسرائيل أن وزير الخارجية آلون واضع « خطة آلون » الشهيرة حاول تحقيق ذلك ولم ينجح وان وزير الدفـاع السابق موشي دايان رفض ذلك في حينه قائلا : كيف من الممكن فصل قوات مع الاردن وهنـاك سلام قائم بيننا منذ عام ١٩٧٠ ؟

وبعد الحديث الكثير الذي تردد عن أن هنـاك مخطط اسرائيلي اميركي لوضع الضفـة الغربية في اطار اتحاد فدرالي اردني فلسطيني ظهـر أن اسرائيل تعمل جديا من أجل اقامة اتحاد فدرالي « اسرائيلي فلسطيني » أو ما يسمى « الحكـم المحلي » في الضفة الغربية حسب خطة وزير الدفاع الحالي شمعون بيرس ، الذي يريد أن يبقى باب المناورة مفتوحا على الاردن ، وذلك فهو يقـول

أن الاردن من الممكن أن ينضم الى هذا الاتحاد الفدرالي (هآرتس ، ٧٥/٩/٥) .

من هنا فان ابا ايبن وزير الخارجية السابق ومنظر حزب العمل الحاكم حاليا وجد من المناسب ان يحذر من ان « الاردن قد يقترب ايديولوجيا من سوريا ، مما سيؤدي الى تعاظم قوته العسكرية » (دافار ، ٧٥/٩/١٢) . وقد فسر ايبن ذلك بقوله : « كنا نريد أن نقوي مكانة الملك حسين ، ولكننا في عام ١٩٧٤ توصلنا الى اتفاق فصل قوات مع مصر ثم مع سوريا ولم نفعل الشيء نفسه مع الاردن لاسباب داخلية . لا شك أن الملك حسين اعتقد بعد ذلك أنه أخطأ لانه لم يدخل الحرب في ٦ تشرين الاول » ولكن ايبن ايضا اراد ترك الباب مفتوحا للمناورة مع الملك حسين ضد م.ت.ف. ، اذ قال في المقابلة نفسها « الامر ليس ميئوسا منه بعد . فاذا ما تأكد الفلسطينيون ان عرفات لن يستطيع اعادة اراضيهم فربما يتوجهون الى الملك حسين » (المصدر نفسه) .

أما ما هو التقارب الايديولوجي الذي يمكن أن يحدث بين سوريا والاردن و م.ت.ف. . فقد تعبر عنه بالموقف الاسرائيلي من صفقة الصواريخ الامريكية للاردن . فبعد أن عارض الكونغرس بفعل الضغوط الصهيونية بيع هذه الصواريخ عاد وسمح بها ثانية ولعل من أهم أسباب ذلك أن السفير الامريكي لدى السعودية جيمس ايكنز « أدلى بشهادة في ١٩٧٥/٧/٢٩ أمام اللجنة الفرعية للشؤون الدولية في مجلس الشيوخ الامريكي قال فيها أن السعودية مستعدة لتمويل صفقة صواريخ سوفيتية الى الاردن » (يديعوت أحرونوت ، ٧٥/٧/٢٠) .

وقد شرح ذلك بشكل أوضح روبرت ايليوت عضو معهد الدراسات الاستراتيجية في لندن في مقابلة مع يديعوت أحرونوت (٧٥/٩/١٤) عندما قال ردا على سؤال : « القوة العسكرية بقيادة مشتركة سورية أردنية لا تتعدى الصفر حتى الان . من الصعب علي ان افهم هذه الصداقة المفاجئة . الاردن يريد أن يتخلص من عزلته وسوريا تريد أن تدافع عن مداخل دمشق ، وأفضل طريقة لذلك هي قيادة مشتركة مع الاردن . ان الخطر الحقيقي ازاء الاردن ليس قوته الحالية بل تلك المستقبلية ، أي عندما لا تزوده أمريكا بالاسلحة التي يطلبها وحينذاك يتوجه بواسطة صديقته الجديدة الى الاتحاد السوفييتي » .

ان اسرائيل تعتبر ان الملك حسين لم ولن يتنازل عن الضفة العربية ، رغم قرارات مؤتمر قمة الرباط وهذا في نظرها كفيل بمنع الاردن من « التمادي » في التعاون مع سوريا و م.ت.ف. مع ذلك ابدت اسرائيل قلقها من مجرد التنسيق العسكري بين سوريا والاردن ولو بهدف الحصول على مكاسب سياسية عن طريق التوتر والضغط العسكري وابقاء الخيار العسكري قائما . « والمراقبون العسكريون يأخذون بعين الاعتبار امكانية القيام بعمل عسكري من الجبهة الشمالية الشرقية بدون مصر وهذه الجبهة قد تحشد قوات أكبر وأقوى من القوات المصرية » (يديعوت أحرونوت ٧٥/٨/٢٨) . وأما المراقبون السياسيون فيرون أن الدكتور كيسنجر قد « يستغل » التوتر الموقع على الجبهة الشمالية الشرقية للضغط على اسرائيل بهدف التنازل في الجولان وعقد اتفاقية فصل قوات جديد: مرضي عنها سوريا « من أجل انقاذ الاتفاقية المصرية الاسرائيلية » (يوسف حاريف ، معاريف ، ٧٥/٩/١٢) .

وقد أشار المراقبون الاسرائيليون أن سوريا والاردن قد يعمدان الى الضغط العسكري مع انتهاء عمل قوة المراقبة الدولية في الجولان في ٧٥/١١/٣٠ ، لا سيما ان الجيش الاردني « تشهد تغييرات بورية . وهناك عاملان يدعمان هذا الاتجاه : (١) مصر حصلت على مكاسب اقليمية (٢) مصر تهتم فقط بمصالحها . وهذا قد ولد اتفاقا بين حسين والاسد يدعو الى التعاون السياسي والعسكري » (يهوشواع حلميش ، يديعوت أحرونوت ، ٧٥/٩/١) .

ومن الجدير بالذكر ان احتمال « سخين الحدود » على الجبهتين السورية والاردنية كان من بين المواضيع التي أعلن عشية زيارة وزير الدفاع بيرس الى واشنطن في أيلول الماضي انه سيبحثها مع الدكتور كيسنجر « وسيبحثان تصريح الاسد الاخير حول احتمال اضطرار سوريا والاردن للجوء الى الحرب ضد اسرائيل في حال انعدام أي تقدم في الجبهة السياسية » (يعقوب اهرونسون ، يديعوت احرونوت . ٧٥/٩/١٧) .

بعض المراقبين أعربوا عن رأيهم أن التصادم العسكري قد يبدأ ليس بالضرورة على الحدود السورية او الاردنية بل بالذات على الجبهة اللبنانية كنتيجة لاحتمالات تطور الاحداث في لبنان .

لبنان والجبهة الشرقية واتفاقية سيناء

يوقع المراقبون في اسرائيل انه بعد اتفاقية سيناء قد يحاول السوريون والفلسطينيون والاردنيون نسف هذه الاتفاقية « فهناك علامة سؤال حول نية سوريا بالتجديد لقوة الامم المتحدة في الجولان في نهاية تشرين ثاني بعد أن شعرت ان مصر قد خانتها ... الخاسرون الرئيسيون بسبب اتفاقية سيناء هم الفلسطينيون ولكن سوريا والاردن قد يشكلان اكبر خطر عليها ... ان الفلسطينيين سيريدون من نشاطهم ضد اسرائيل بمساعدة سوريا وربما الاردن . ولذلك (فمن الناحية العسكرية) علينا أن نكون في منتهى اليقظة خاصة على الحدود اللبنانية . (ومن الناحية السياسية) من المناسب ان نطور فكرة الاتحاد الفدرالي مع الفلسطينيين وربما حتى مع الاردن الامر الذي يتحدث عنه كثيرا كل من بيرس ورابين في الفترة الاخيرة . على اسرائيل ان يكون لديها حل خاص للقضية الفلسطينية » (ارئيل عيناي . بديعوت أحرونوت ، ٧٥/٨/٢٩) .

لقد رسم اسحق رابين منذ نهاية السنة الماضية استراتيجية اسرائيل عندما اعلن في مقابلته الشهيرة مع يوئيل ماركوس (هآرتس ، ٧٤/١٢/٢) ان اهداف اسرائيل هي :

١ ــ ابعاد مصر عن الساحة العربية ، ويجب دفع الثمن حتى ولو كان غاليا ، مقابل اتفاقية ثانية مع مصر لكي تسير مصر في المخطط الامريكي . ان سوريا قد تجدد الحرب عام ١٩٧٥ وقد تجر مصر الى الحرب . ولكن هناك فرق كبير فيما اذا دخلت مصر وسوريا الحرب مع تخطيط وحماس مسبقين او فيما اذا انجرت مصر وراء سوريا وبدون حماس » وخاصة في الايام المصرية الاولى من الحرب » .

٢ ــ يجب ان نكسب « سبع سنوات عجاف » بدون حرب وهو الوقت المطلوب لكي تستطيع الدول الغربية الاستغناء عن مصادر الطاقة في العالم العربي . واضاف رابين انه اذا لم تنشب الحرب في عام ١٩٧٥ ستكون اسرائيل قد ربحت عامين لان عام ١٩٧٦ سيكون عام الانتخابات الامريكية .

بعد ذلك برزت فكرة احياء الجبهة الشرقية « من الناقورة الى العقبة » التي كانت سوريا المحرك الرئيسي لها والتي كان من شأنها اذا قامت ، ان تجعل هذه الجبهة قادرة على مواجهة اسرائيل بدون مصر . فبدلا من ان ترى سوريا نفسها مضطرة لان تحدو حذو مصر ستكون قادرة على الصمود في وجه المخطط الاميركي ، في حال وجود جبهة شرقية متماسكة . وربما ستستطيع ان تنسف مكاسب هذا المخطط في مصر ذاتها . لقد كشف الوزير بيرس عن سياسة اسرائيل تجاه سوريا عندما ايد اعطاء سوريا « تعديلات تجميلية » في الجولان « بهدف الحد من تصلبها وتشجيعها على تبول الخيار الاميركي » (هآرتس ، ٧٥/٩/٥) .

المخطط الواضح اذن هو اعطاء الدول العربية كل على حدة « اقراصا مهدئة » بهدف كسب الوقت وخلال ذلك العمل على ازالة « العقبة الفلسطينية » لانه حسب رأي بيرس « التسوية الشاملة غير ممكنة في المدى المنظور بسبب القضية الفلسطينية » (المصدر نفسه) ولكي ينجح المخطط الاميركي الاسرائيلي كان لا بد من العمل على عرقلة قيام الجبهة الشرقية بالاضافة الى عزل م.ت.ف او تصفيتها اذا امكن من هنا ان التحرك الاميركي ــ الاسرائيلي اتخذ عدة اشكال منها :

١ ــ محاولة اقامة « حكم ذاتي » عميل في الضفة الغربية . تلك المحاولة التي نشطت بشكل ملحوظ بعد اتفاقية سيناء . والتي تسعى الى خلق « بديل » لمنظمة التحرير الفلسطينية ، مع التلويح للملك حسين ان ذلك لن يتناقض مع مصالحه « فكل خطوة تبعد سكان الضفة الغربية عن م.ت.ف تخدم اسرائيل ، وتخدم الاردن في الوقت ذاته ... مع انه من الصعب اقناع سكان الضفة الغربية بذلك » (داني غولان ، هآرتس ، ٧٥/١٠/٢٤).

٢ ــ هذا التلويح للملك حسين و « تفضيله » على م.ت.ف من شأنه ان يلجم تقرب الاردن العسكري والسياسي والايديولوجي من سوريا و م.ت.ف ، مما قد يشكل ثغرة في احياء الجبهة الشرقية ضد اسرائيل .

٣ ــ اشغال المقاومة الفلسطينية بأحداث لبنان ومحاولة دفعها لتكون طرفا فيها مع مواصلة ضربها عسكريا من الداخل والخارج قد يخدم عدة اهداف :

أ ــ اضعاف م.ت.ف سياسيا وعسكريا في وقت تعمل فيه اسرائيل على صنع « بديل » لها في الاراضي الفلسطينية المحتلة .

ب ـ زج سوريا و م.ت.ف في احداث لبنان قد يلهيهما عن التنسيق فيما بينهما وقد يلهي سوريا عن التنسيق مع الاردن وقد يلهيهما معا عن التصدي لاتفاقية سيناء ، بهدف اباحة المجال امام استمرار التسوية الاميركية في المنطقة .

ج ـ احداث لبنان ومضاعفاتها قد تشغل المقاومة عن المجابهة على الحدود وقد تحدث ثغرة في الجبهة «من الناقورة الى العقبة » .

د ـ في الوقت الذي تحاول فيه اسرائيل خلق بديل لـ م.ت.ف تظهر « الصيغة اللبنانية » على انها ليست حلا مثاليا للقضية الفلسطينية .

هـ ـ انشغال الرأي العام العالمي باحداث لبنان قد يكون من شأنه ان يظهر للعالم ان النزاع العربي ـ الاسرائيلي ليس هو النزاع الوحيد في المنطقة العربية ، وهو بالتالي لا يستوجب حلا ملحا .

و ـ سوريا قد ترى من المناسب تجديد مهمة الامم المتحدة بسبب احداث لبنان وبذلك قد « تدخل اسرائيل عام ١٩٧٦ بسلام » على حد تعبير اسحاق رابين ، وعام ١٩٧٦ هو عام الانتخابات الاميركية الذي « لا يتيح لاميركا اغضاب اسرائيل » لاسباب انتخابية داخلية ، كأن تضغط عليها من اجل الانسحاب في الجولان او الضفة الغربية او الاعتراف ب م.ت.ف .

يقول البروفسور موشي ماعوز في معرض تعقيبه على زيارة الرئيس السوري حافظ الاسد الى موسكو « ان هدف سوريا هو نسف التسوية الاميركية . وعندما يزور زعيم عربي موسكو يكون هدفه الخيار العسكري . اما عندما يزور واشنطن فيكون هدفه الخيار السياسي ، ومع ذلك فان سوريا والاتحاد السوفييتي سيجربان الخيار السياسي بشرط اشراك الاتحاد السوفييتي فيه بصورة فعالة وبشرط حصول سوريا على رقعة واسعة في الجولان وليس « تعديلات تجميلية » . أما اذا فشل هذا الخيار ، فسيكون هناك الخيار العسكري . وهنا يجب ان لا ننسى الجبهة الشمالية الشرقية وتدفق الاسلحة الكثيف اليها » (رأآ ، ٧٥/١٠/١٢) . الا ان ماعوز اضاف « ... ويجب ان نتذكر عاملا اخر وهو لبنان فسوريا غير ملزمة بشن حرب شاملة او حرب استنزاف ، ويكفي ان تدخل في لبنان او اجزاء منه. فعندها لن تستطيع اسرائيل الوقوف مكتوفة الايدي وهذا سيجعل اسرائيل مدانة امام الرأي العام العالمي وقد يجر مصر الى دخول الحرب » (المصدر نفسه) .

من ناحية ثانية صرح رئيس هيئة الاركان العامة في اسرائيل مردخاي غور للاذاعة الاسرائيلية قائلا « ما يهمنا هو ان لا يصبح لبنان دولة مجابهة . واذا دخلت قوات عربية وخاصة سورية في جنوب لبنان سيكون لذلك مغزى عسكري من الدرجة الاولى . لان ذلك سيكون بمثابة فتح جبهة جديدة على حدود اسرائيل ، في منطقة حساسة من الناحية المدنية » (رأآ ، ٧٥/١٠/٣٠) .

ان السؤال المصيري المطروح الان هو هل ستنجح اسرائيل في تخطي « السنوات السبع العجاف » بسلام ، فيواصل المخطط الصهيوني الامبريالي تقدمه في المنطقة بعد ما حققه على الجبهة المصرية ملغيا بذلك النتائج الايجابية لحرب تشرين . ام ان هذا المخطط الخطير والذي يستهدف كل شعوب المنطقة ومصالحها ، سيتحطم على جدار جبهة شرقية متراصة ومدعومة من قبل قوى التقدم واعداء الامبريالية في العالم بحيث يفشل ليس فقط في ما ينوي تحقيقه بل وفي ما يبدو انه حققه حتى الان.

يوسف حمدان

[٢]

الازمة اللبنانية الدامية كما عالجتها اذاعة اسرائيل باللغة العبرية

كان طبيعيا أن تعطي اذاعة اسرائيل باللغة العبرية * هذا الحجم الكبير من الاهتمام والمتابعة، لاحداث وتطورات الازمة الدامية القاسية التي عصفت بلبنان . وانعكس اهتمامها في الواقع على مجمل « مادتها » المذاعة ، سواء في نشرات الاخبار التي تبثها كل ساعة ، أو في التحليلات والتعليقات والمقابلات والندوات التي تعقدها . واذا كان خارجا عن موضوعنا هنا تفصيل أسباب هذا الاهتمام ، فانه يكفي القول انه يعود الى أسباب استراتيجية وعسكرية وسياسية وايديولوجية واقتصادية وفلسطينية ... بصورة عامة .

وبادىء ذي بدء نود أن نوضح ان الاذاعة التي نتعرض لها بهذا التقرير ، هي الناطقة بالعبرية ، أي الموجهة لليهود عامة حينما كانوا يعرفون العبرية . ولنا في البداية ملاحظتان هامتان :

أولا : أن الاذاعة موضوع الحديث ، لم تحقق طيلة أشهر الازمة ، ما يمكن تسميته سبقا اعلاميا انفردت به مثلا في أي جانب من جوانب الازمة . ولهذه الملاحظة أهمية خاصة ازاء ما يتوهمه « البعض » من قوة غير اعتيادية لهذه الاذاعة في مجال التغطية الاعلامية .

ثانيا : أقول بتجرد كامل ان اذاعة اسرائيل باللغة العبرية كانت بعيدة كل البعد عن مبادىء الامانة الاعلامية ، وعن مفاهيم الاسلوب الموضوعي في نقل الاحداث أو في محاولة تفسيرها وتحليلها . ويكفي لتاكيد صحة ما نقول ايراد الملاحظات التاليـة :

١ — في روايتها للاحداث المجردة ، كانت تنقل وجهة نظر فريق واحد في الصراع ، وتنقل في كثير من الاحيان ما تقوله اذاعة بيروت ، لكنها أغفلت كليا وعلى الاطلاق أية وجهة نظر للفريق الآخر في أي موضوع من مواضيع الصراع ، أو ازاء أي حادث من الاحداث اليومية المتلاحقة تباعا . انها لم تنقل تصريحا واحدا أو بيانا واحدا أو أية رواية للفريق اللبناني الوطني — الفلسطيني في الصراع ، بل اكتفت بنقل بعض ما تبثه وكالات الانباء ممثلا لوجهة نظر « الفريق الاخر » . وينبغي ان نعود الى التذكير مرة أخرى بأن هذه هي الاذاعة الموجهة لليهود انفسهم . على اننا ينبغي أن نضيف في هذا المجال انها اذا كانت قد أغفلت وتجاهلت تماما آراء وتفسيرات الفريق اللبناني الوطني — الفلسطيني في الازمة ، فانها لم تنقل أو تعط شأنا « لجميع » طروحات « الفريق الاخر » . اذ ينبغي أن نسجل هنا بقوة انها تعمدت كذلك اغفال التصريحات « المعتدلة » للفريق الاخر ، كما تجاهلت ما كان بعض عناصر هذا « الفريق الاخر » يطلقه من « بيانات تهدئة » بين وقت وآخر ، تجاهلا كاملا . لقد انصب كل همها من الناحية الاخبارية المحضة على أن تنقل عن راديو بيروت أسماء الشوارع غير الامنة ، وعن وكالات الانباء والصحافة اللبنانية جميع البيانات والتصريحات المتطرفة في عدائها للطرف الفلسطيني خاصة ، وللمطالب المرنوعة من جانب الفريق اللبناني الوطني .

٢ — عمدت الاذاعة الى المبالغة والتهويل الى أبعد الحدود ، متخطية جميع المعطيات السياسية والاعلامية للازمة ، وخاصة فيما يتعلق بما ركزت عليه من « الخوف » و « القلق الشديد » على مصير المسيحيين في لبنان . لقد كان يراد للمستمع أن يصدق أن ما يجري في لبنان هو بكل بساطة « عملية ابادة » شاملة وذبح « للاقلية » المسيحية في لبنـان .

٣ — بل انها لجأت أحيانا الى الكذب ، الكذب المجرد والصريح والمكشوف تماما . فمثلا زعمت في ٧٥/١١/٢ « أن من المؤكد ان قوات سورية قد دخلت لبنان فعلا وقامت بمحاصرة المقاتلين « المسيحيين » في مدينة زحلة الذين أصبحت أوضاعهم سيئة جدا » . لكن المثال البارز على هذا النمط من الكذب الوقح ، يتجسد

---

* أن معظم الاقتباسات الوارده في هذا التقرير ، مأخوذة عن نشرة رصد اذاعة اسرائيل باللغة العبرية (ر.١.١) التي تصدر يوميا عن مركز الابحاث ، والتي يتولى كاتب التقرير رئاسة تحريرهـا .

في رواية غريبة ومدهشة فعلا ، اذاعتها يوم ٧٥/١١/٢٠ (الساعة ١٦٫٠٠) ، وزعمت فيها ان « العرب المسلمين في لبنان يقومون باختطاف واغتصاب راهبات ونساء مسيحيات يقعن في الاسر اثناء القتال . » وأكدت هذا بأن « مئات النساء المسيحيات قد جرى اختطافهن اثناء القتال، وقام المسلمون باغتصابهن بوحشية ، على انفراد أحيانا ، وعلى شكل جماعي في أحيان أخرى !! » وتضيف انه « تم اغتيال عدد من النساء لرفضهن التجاوب مع الخاطفين ! » . بل انها مضت الى ابعد من ذلك لتروي انه حدث قبل أسبوع أن اختطفت في بيروت راهبة مع شقيقتها . « وطلب المسلمون من الراهبة ان تبصق على الصليب ، وهددوا بقتل شقيقتها ان لم تفعل ذلك ، ونفذت الراهبة رغبتهم ، وعندئذ اغتصبوها بحضور شقيقتها » !!!

وبالطبع لا حاجة لاي تعليق !

والان ، ماذا عن تناول الاذاعة لمختلف جوانب الازمة ؟

أولا : اطراف الصراع : ان لها في تصنيف أطراف الصراع طريقة خاصة طبعا منطلقة من عدائها الاصيل لكل ما هو فلسطيني من ناحية ، وعدائها الاصيل كذلك لكل ما هو « تقدمي » . ولهذا فانها في جميع نشراتها الاخبارية وعروضها التحليلية ، تؤكد وتعيد وتكرر ان الصراع هو بين « المخربين » والكتائب المسيحية ، بين « المخربين » الفلسطينيين وبين المسيحيين ، بين الفلسطينيين والمسيحيين ، بين « المخربين » الذين يساندهم المسلمون في الداخل والخارج وبين الاقلية المسيحية ، الخ ... فان هناك تأكيدا متصلا لطائفية الصراع من ناحية ولكون الفلسطينيين « الطرف الاول والاخير » فيه .

ثانيا : اسباب الصراع ، ان السبب الاول والاخير للازمة هو طبعا ما يثيره « المخربون » الفلسطينيون من « متاعب ومشكلات » . وانها حريصة تماما على نقل أي تصريح أو بيان تشم فيه ولو من بعيد رائحة العداء للوجود الفلسطيني في لبنان . فالفلسطينيون هم سبب كل ما نزل بلبنان من بلاء . بل ان الاذاعة تعطي لهذه الناحية طابعا « أكاديميا » حين تجلب الى الاستديو الدكتور ايتمار رابينوفيتش رئيس معهد شيلوح التابع لجامعة تل ابيب ، مساء الاثنين ٧٥/٤/١٤) ليقول ان سبب اندلاع القتال « هو أن أعضاء المنظمات المتطرفة أضروا بالحياة في أحياء مسيحية بحتة في بيروت ، وان حزب الكتائب اعتبر تصرفات تلك المنظمات تحرشا واضحا » ... وان « المنظمات الفلسطينية منذ العام ١٩٥٨ تتحدى أسلوب الحياة اللبنانية » . ثم يلاحظ الدكتور انه « بعد فشل محاولة الجيش اللبناني عام ١٩٧٣ ، حاول منظمات متطوعة مثل الكتائب القيام بالواجبات التي كان يجب ان تقوم بها الدولة » .

ويبدو أن الاذاعة أعجبت بالدكتور رابينوفيتش فعادت الى مقابلته يوم ٧٥/٥/٢١ ليقول ان الكتائب قائمة منذ ٤٠ سنة ، وان مهمتها « هي الحفاظ على الصيغة المسيحية للدولة أمام تحدى الاقلية ، وهناك من يقول الان انها الاغلبية ، الاسلامية ، وجاء هذا التحدي في السنوات الاخيرة من المنظمات الفلسطينية ، وان رأس حربة الكتائب موجه الان ضد هذه المنظمات » . ويشير المتحدث الى ان زعيم الكتائب مرشح لانتخابات الرئاسة للعام ١٩٧٦ ، وان « هذه حقيقة ذات مغزى كبير بالنسبة للاحداث الجارية في لبنان » . ولكنه يعود الى القول « ان اسباب الصراع تعود الى ان الحياة المشتركة غير مريحة بين الميليشيا المسيحية ، وبين المنظمات الفلسطينية التي تخل بالنظام في لبنان ، وتتحدى نظام الحياة السائد في المدينة والدولة » . لكنه يسجل أيضا أن هناك « بعدا اخر للصراع هو الصراع على شخصية لبنان أمام المحاولة الاسلامية لزعزعة السيطرة المسيحية » .

وتنقل الاذاعة عن صحيفة « أومر » الاسرائيلية يوم ٧٥/٥/٢٢ قولها ان الكتائب المسيحية تحاول منع « المخربين » من السيطرة على لبنان » ... « ولكن احتمالات نجاحها ضئيلة لانها لا تتمتع حتى بتأييد العالم العربي والمسيحي » .. وتضيف : « واذا اصبح لبنان دولة مخربين ، تكون للامر انعكاسات خطيرة على اسرائيل » . وتنقل في اليوم نفسه عن صحيفة « نوفيني كورير » الاسرائيلية كذلك ان « المخربين يعتزمون القضاء على الاقلية المسيحية في لبنان » . وتنقل عن صحيفة « شعاريم » الاسرائيلية يوم ٧٥/٩/١١ قولها « ان احداث لبنان جاءت لتشير الى مدى وحشية رجال م.ت.ف الذين يتنكرون للضيافة التي قوبلوا بها من جانب المسيحيين في لبنان » !

وكانت قد نقلت عن « عل همشمار » قولها يوم ٧٥/١١/٢ انها نريد ان نذكر اللبنانيين بأن استضافه الفلسطينيين لا تشكل خطرا على اسرائيل فقط ، بل اضحى الان ان اولئك الفلسطينيين أوصلوا لبنان الى حافة الانهيار » .

على ان الاذاعة تتجاوز في احيان قليلة هذا النطاق الضيق الذي ترسمه لاسباب الازمة ، لكنها تبقى دائما وفية لخطها الطائفي التحريضي ، وملتزمة باللغة الطائفية للصراع الذي يدور بين الشياح الاسلامي وعين الرمانة المسيحية ، بين طرابلس الاسلامية وزغرتا المسيحية ، بين « المخربين » الفلسطينيين وأنصارهم من المسلمين وبين المسيحيين الخ ..

اذن فسبب البلاء هو الوجود الفلسطيني ، وهناك أسباب أخرى « على الهامش » . من ذلك مثلا ان المراسل شمعون شيفر يقول في ظهيرة ٥/٢١ أن سبب الاشتباكات هو « ضعف حكومة لبنان ، وامتناع الجيش اللبناني عن الاشتراك في القتال » . ومن ذلك قول الاذاعة يوم ٧٥/٣/٣ تعليقا على تفجر قضية شركة بروتيين ان هناك محاولة من جانب السلطة لدق اسفين بين الصيادين اللبنانيين المعروفين بتعاونهم مع « المخربين » وبين « المخربين » . ومنذلك اشارة الدكتور يهوشواع بورات في مقابلة معه يوم ٥/٢٤ الى ان « الازمة لن تحل في اعتقادي لان التناقض جوهري بين الفلسطينيين الذين يحيطون ببيروت في مخيمات اللاجئين والذين يكرهون لبنان البورجوازي بشدة ، هذه البورجوازية التي ترفع رايتها الكتائب ، وبين الكتائب » . وان معلق الشؤون العربية دوف ينون يقول في يوم ٦/١ ان استقالة حكومة العسكريين بعد ثلاثة أيام فقط من تأليفها نتيجة لضغط المسلمين ووزير الخارجية السوري ، هو انتصار للمسلمين على المسيحيين وعلى مكانتهم في الحكم . وان جنبلاط يحاول أن يبعد المسيحيين عن مراكزهم التقليدية في الحكم . لكن كرامي لن يمضي في هذا الاتجاه بل سيبحث عن حل وسط مع المسيحيين ، وكلما أسرع المسلمون بادراك هذه الحقيقة ، كلما عاد الاستقرار الى لبنان سرعة ، وهكذا يتوجب على الذين يحلمون في لبنان والعالم العربي بلبنان اسلامي ، ان ينتظروا فرصة اخرى » ! ويقول هذا المعلق في مناسبة أخرى أن الرئيس السادات استغل « انهماك المخربين بسفك الدماء في بيروت ليعيد فتح القناة ، والملك حسين ليحصن مكانته مجددا ، ذلك ان مصر وسوريا تتسابقان على توطيد العلاقات معه على حساب المخربين » . وفي ٧٥/٦/٢٥ تؤكد الاذاعة ان « الكتائب المسيحية » تعتقد بان اي تعديل في الميثاق الوطني اللبناني سيلحق ضررا بالمسيحيين وبطابع لبنان المسيحي » . ونقلت عن الشيخ بيار الجميل زعيم الكتائب قوله ان حزبه « سيقوم بكل ما في وسعه لمنع سيطرة الشيوعيين على لبنان » — ٧٥/٧/١٠ . على ان المراسل العسكري زئيف كومين يقول في ٧٥/٨/٧ « أن الجيش اللبناني ليس مصمما على استخدام القوة ضد «المخربين» كما فعل الملك حسين ، وان هذا هو السبب الذي يجعل الكتائب تعمل بمفردها أحيانا » . لكن على همشمار ترى في ٧٥/٩/٩ أن الاشتباكات تكشف عن محاولة المسلمين السيطرة على لبنان ودمجه مع سائر الدول العربية » . على أن الجيروزاليم بوست تعود الى الموضوعة الاصلية، اذ تقول صحيفة يوم ٧٥/٩/١٠ : « ان اشتعال الحرب بين المسلمين والمسيحيين في لبنان ناجم عن وجود م.ت.ف في لبنان ، الامر الذى عكر صفو العلاقات بين الطوائف المختلفة في هذه الدولة واذا لم تضع حكومة لبنان حدا لنشاط م.ت.ف فلن يكون هناك مناص من تصعيد الحرب الاهلية » .

على أن « دامار » في ٧٥/٩/١٥ (ونحن ننقل ما تنقله الاذاعة عن هذه الصحيفة وغيرها من الصحف المشار اليها في هذا التقرير) تقول ان سبب الازمة اللبنانية يكمن في محاولة سوريا جعل جعل لبنان منطلقا لحرب جديدة ضد اسرائيل ، وذلك بالقضاء على مكانة المسيحيين الذين منعوا حتى الان جعل لبنان دولة مواجهة ضد اسرائيل ».

لكن ميخائيل جوردوس مسئول الرصد في الاذاعة الاسرائيلية باللغة العبرية يقول في ٧٥/١٠/١٦ ان «المسلمين اليساريين يدعون الى تعديل الدستور اللبناني بحيث يمنح الاغلبية الاسلامية المناصب الاساسية في الدولة » .

ونختم هذه النقطة بتسجيل ما ذكرته الاذاعة في يوم ٧٥/١١/٥ وهو « ان مناطق الحدود الاسرائيلية — اللبنانية تشهد هدوءا بسبب انهماك « المخربين » في أحداث لبنان » لكن الاذاعة دعت الحرس الاهلي المحلي مع ذلك الى « اليقظة والتأهب » كي لا يباغتهم « المخربون » .

ذلك هو كل ما تورده الاذاعة بخصوص اسباب الازمة اللبنانية : تركيز على « شرور » الوجود الفلسطيني في لبنان [مع اغفال لكون اسرائيل هي سبب هذا الوجود طبعا] ، وتمييع لاطراف وصورة الازمة ، مع اشارات غامضة ومبهمة ومجتزأة للمطالب السياسية والاقتصادية والاجتماعية الاصلاحية المرنوعة [والباسها الثوب الطائفي الفاتح طبعا] مع عملية متواصلة بلا انقطاع من التحريض الطائفي وتشويه حقيقة المواقف وتحريف مسار التوجهات .

ثالثا : اليهود اللبنانيون ، جريا على عادتها ، وانطلاقا من ايديولوجيها الصهيونية في اعتبار اليهود في اي بلد من البلدان ، هم مجرد « جالية » يهودية أو اسرائيلية تعيش في « الشتات » أي خارج « الوطن — صهيون » ، كان من الطبيعي أن تلعب الاذاعة بورقة اللبنانيين من أصحاب الديانة اليهودية . وبرغم انها بثت في عدة مناسبات روايات عن تعرض « اليهود » و « الحي اليهودي» لاخطار فظيعة ، الا ان معطيات الواقع فضحت المحاولة فلم تتمكن من المضي بها بعيدا ، واضطرت الى الانزواء قليلا . ثم ان الاذاعة نفسها بثت مقابلة مع سيدة لبنانية يهودية غادرت بيروت الى باريس من جراء الاشتباكات ، أكدت فيها هذه السيدة انها غادرت لبنان « بشكل طبيعي » ونفت ان يكون اليهود يعيشون في « جيتو » بل قالت ان وادي ابو جميل « حي يهودي عادي كانت تعيش فيه بدون اي ضغط أو ازعاج من الخارج » ، وان « الوضع كان جيدا بصورة عامة ، وان اليهود يعيشون بحرية ولا احد يتعرضهم » وان يهود لبنان يعدون ما بين ألفين وثلاثة آلاف نسمة . (اذيعت المقابلة يوم ٧٥/١١/٩) .

كما اضطرت الاذاعة يوم ٧٥/١١/٣ الى ان تنقل نبأ قيام م.ت.ف بارسال مواد غذائية تكفي لمدة اسبوعين الى مجموعة من ستين يهوديا احتجزتهم الاشتباكات في كنيس في بيروت » . لكن الاذاعة استدركت بان وكالة الانباء الفلسطينية « لم تذكر ما اذا تم انقاذهم من الكنيس » !

رابعا : التقسيم ، طالما ان التقسيم ، اي تقسيم على الاطلاق في الوطن العربي وفي دولة يخدم مصالح اسرائيل بالدرجة الاولى ، وطالما ان انشاء كيانات طائفية في المنطقة سيكون خير تبرير لوجود الكيان اليهودي ، فمن الطبيعي ان يكون موقف الاذاعة من موضوعة التقسيم المشبوه في لبنان ، مفهوما مسبقا . ولعل اوضح ما فعلته في هذا الصدد الاشارة الى محاولة مفتعلة وغامضة وتافهة الشأن ، لخلق ما وصف بأنه كيان للمسيحيين في احدى مناطق الضفة الغربية . وكانت المسألة فقاعة صابون تلاشت بسرعة دون أن يثير اكتراث أحد .

خامسا : العرب المسيحيون في اسرائيل ،

حاولت الاذاعة بصورة حثيثة أن « تخلق » شعورا « طائفيا » بين أوساط الفلسطينيين المسيحيين الموجودين في اسرائيل وشعورا « تضامنيا » بينهم وبين « اخوانهم » في لبنان الذين يتعرضون « للذبح والابادة » . وفي هذا النطاق ذكرتهم الاذاعة بان لمعظمهم أقارب وأهل بين مسيحيي لبنان . وحاولت مرة أخرى ومرات لاحقة أن تثير موارنة فلسطين بالذات ، ومن ورائهم موارنة الولايات المتحدة كذلك . « اذ كيف يجوز لهم أن يسكتوا أمام ما يجري لاخوانهم في لبنان ؟! » .

وفي ٧٥/١١/٣ كشف النقاب عن محاولة الاثارة أفراد الطوائف المسيحية في حيفا ، وحملهم على العمل من « أجل اخوانهم في لبنان » . وانعقد اجتماع حضره بعض السكان الموارنة والكاثوليك والارثوذكس الذين « تحفظوا على فكرة التظاهر قرب سفارات الولايات المتحدة وفرنسا وايطاليا للمطالبة بانقاذ المسيحيين في لبنان . » ... « وقال حضور الاجتماع انهم يوافقون على التظاهر بثلاثة شروط : اذا تلقوا اشارة من الحكومة ، واذا قام الموارنة في أمريكا بعمل مماثل ، واذا انضم المسلمون في اسرائيل للتظاهرات كذلك » . وهكذا من الواضح تماما ان محاولة الاثارة أخفقت بدليل ان أصحاب الشأن وضعوا شروطا تعجيزية . لكن الاذاعة بررت المحاولة مع ذلك بان المسيحيين في اسرائيل — وعددهم يتراوح بين ٨٠ و ٩٠ ألفا ، « لمعظمهم أقارب في لبنان » !

على ان هذه المحاولة الشريرة لاثارة الفتنة « والتضامن الطائفي » جوبهت بصفعة مدوية قبل ظهر السبت ٧٥/١١/٨ عندما طاف مراسلوها في انحاء فلسطين بحثا عن موقف العرب في اسرائيل — والمسيحيين خاصة والموارنة بصورة اخص —

من احداث لبنان . ولنقرأ معا وبهدوء المقدمة التي بدأت بها الاذاعة تحقيقها هذا : « لنحاول للحظة اجراء تجربة وهمية: خارج حدود اسرائيل الشمالية تعيش جالية يهودية كبيرة نصفها يهود شرقيون والنصف الاخر يهود غربيون . ومنذ ستة اشهر تدور معارك ضارية بين هؤلاء اليهود الشرقيين وبين اليهود الغربيين في مدينة المهجر الشمالية هذه، وعلى بعد ٧٠ كلم من حيفا . فما هي الاصداء التي كان سيثيرها مثل هذا الامر في البلاد ؟ واية تظاهرات كانت ستحدث ؟ » . تلك هي المقدمة الافتراضية المشبوهة التي بدأ بها المراسل جاد ليفي وهي حرية بالتأمل وجديرة بالتفكير . لكننا لن نتوقف كثيرا عندها الان ، بل نريد المضي مع التحقيق الاذاعي لنعرف رد فعل العرب في اسرائيل على احداث لبنان . وهنا يقول المذيع ، وبعد تلك المقدمة المدروسة بعناية : « لكن الجالية العربية في البلاد التي ٢٠٪ منها مسيحيون ، لن تنفعل باحداث لبنان ، واذا كانت لديها مشاعر فان مشاعرها خفية » .

ولقد كان مضطرا للجوء الى حكاية « المشاعر الخفية » هذه ، لان نتيجة التحقيق كما سيتبين فيما بعد ، ان جميع المسيحيين الذين سئلوا عن رأيهم ، خيبوا امله تماما . انه يقول « وكان هدف التحقيق معرفة ما اذا كان المسيحيون في البلاد — اسرائيل — ينظرون الى احداث لبنان على انها هجمة اسلامية على ابناء طائفتهم ، وهل هويتهم كمسيحيين هي الاهم في هويتهم العامة ؟ ان السؤال مطروح بصورة خاصة على اولئك الذين ولدوا في اسرائيل وتثقفوا فيها . اي هل الشباب المسيحي في اسرائيل يعتبر نفسه عربيا اولا وقبل كل شيء وبعد ذلك مسيحيا ؟ »

واكتشف المراسل بعد سلسلة من المقابلات مع العرب المسيحيين في اسرائيل انهم يعتبرون انفسهم عربا اولا وقبل كل شيء ، وانهم لا يعتبرون احداث لبنان امرا يخصهم بصورة خاصة من الناحية الطائفية . وبالاضافة الى ذلك فان العرب المسيحيين اليساريين الذين قابلهم المراسل اكدوا له ان الصراع في لبنان ليس طائفيا ، « بل حربا سياسية طبقية بين الممولين والفقراء » . وقابل المراسل شخصا مسلما وصفه كذلك بانه يساري ، اتهم اسرائيل بانها ساعد احد الاطراف في النزاع في لبنان !

سادسا : الدولة الديموقراطية العلمانية ، كان هذا اخطر جانب استغلته الدعاوة الاسرائيلية في الازمة اللبنانية . لقد اعتبرت « الصيغة اللبنانية » القائمة هي « دولة ديموقراطية علمانية » ، وبنت على هذا الافتراض الخاطىء نتيجة مضللة ، وهي عدم جدوى واستحالة بناء الدولة الديموقراطية العلمانية التي تدعو اليها الثورة الفلسطينية في فلسطين .

وفي هذا السياق نقلت الاذاعة عن رئيس حكومة اسرائيل يسحاق رابين في ٧٥/٩/١٧ قوله « ان كل من يريد دليلا على ان الدولة العلمانية الديموقراطية ذات الاغلبية الاسلامية غير ممكنة ، هو الدليل » . وان قول رابين هنا « ذات الاغلبية الاسلامية » مسألة تستحق النظر !

ثم جاء دور نائب رئيس الحكومة ووزير الخارجية يجال آلون ليدلي بدلوه في ٧٥/٩/٢٠ . لقد صرح بأنه شديد الاستياء « من سكوت العالم بصفة عامة ، والعالم المسيحي بصفة خاصة ، حيال حقيقة ان الطائفة المسيحية التي هي طائفة مهمة جدا في لبنان ، تلاقي الاضطهاد على ايدي غالبية اسلامية متعصبة . وما من احد يفتح فمه ، حتى انك لا ترى تدخلا سياسيا يستحق الذكر لوضع حد لاهراق الدماء . » ثم اضاف : « لقد اعتاد « المخربون » الحديث عن لبنان على انه مثال للدولة الديموقراطية العلمانية التي يمكن ان يعيش فيها ابناء شعوب مختلفة وديانات مختلفة تعايشا سلميا، ومن خلال تعاون ، كما ارادوا ان يروا ارض اسرائيل او فلسطين كما يسمونها . ان الواقع في لبنان يكذبهم . ومع كل الاسف على مصير المسيحيين في لبنان ، فاننا نستغل هذه الحقيقة لنؤكد مقدار كذب نظرية م.ت.ف » .

وجاء دور بيرس وزير « الدفاع » لتنقل عنه الاذاعة في ٧٥/١١/٢ قوله : « انهم يطالبون بدولة ثنائية القومية ، وها نحن تعلمنا معنى هذه الدولة في العراق الذي قام بتصفية الاكراد ، وفي لبنان حيث يعمل المسلمون ما يسمونه ايجاد الديموقراطية » .

سابعا : تدويل الازمة ، لعل اسرائيل كانت اكثر الجهات في العالم اهتماما بتدويل الازمة ، وسعيا وراء التدويل . فطوال شهور الازمة الطويلة ، واسرائيل تناشد العالم ، و « العالم المسيحي » خاصة ، ان يتدخل لصالح المسيحيين

الذين يتعرضون للذبح والابادة في لبنان . وان اسرائيل باذاعتها وصحفها كثيرا ما وجهت اللـوم القاسي والتوبيخ الشديد لهذا « العالم » لوقوفه لا مباليا . وها هي الاذاعة تنقل عن «نوفيني كورير» قولها في ٧٥/٥/٢٢ ان « المخربين يعتزمون القضاء على الاقلية المسيحية في لبنان ، والغريب في الامر ان البابا القلق جدا على مصير القـدس لا يكترث بمصير المسيحيين في لبنان » !

وتنقل عن هآرتس قولها في ١٠/١٢ « ان الزعماء المسيحيين في لبنان خاب املهم لان العالم المسيحي الغربي وقف جانبا ولم يتدخل لصالحهم » .

وهـا هي تنقل عن « اومر » في ٧٥/١٠/١٥ « استغرابها لعدم اكتراث العالم المسيحي تجـاه مسيحيي لبنان ، وان اسرائيل تعطف على الطائفة المسيحية في لبنان لانها عنصر تقدمي يمكن العيش معه في علاقات جوار جيدة في المستقبل » !

طبعا لم ينس العالم بعد ان اهالي قريتي اقـرت وكفربرعم الذين طردتهم اسرائيل من اراضيهـم وكنائسهم ولا تزال ترفض جميع طلباتهم للعودة الى بيوتهم .. هم مسيحيون ، وموارنة !

ومرة اخرى تنقل الاذاعة عن « نوفيني كورير » في ٧٥/١٠/١٦ « احتجاجها لان الحرب الاهلية في لبنان لم تثر حتى الان الرأي العام العالمي رغم ان « المخربين » اعلنوا بصراحة ان في نيتهم السيطرة كليا على هذه الدولة » !

ان الصحيفة لم تجشم نفسها عناء ذكر المصدر الذي فهمت منه ان « المخربين » هؤلاء قـد « اعلنوا بصراحة » ذلك الموقف .. ولا الاذاعـة فعلت ! .

على ان هذه الصحيفة نفسها تعود الى الاحتجاج بلهجة اشد ، كما نقلت عنها الاذاعة صبيحـة ٧٥/١١/٢ ، وذلك « لان الدول الكبرى وجميع دول العالم المسيحي صامتة على الرغم من خطر ابادة الطائفة المسيحية في لبنان » !

وبلغت حملة التدويل ذروة اخرى فيما نقلتـه الاذاعة عن مندوب اسرائيل الدائم في الامم المتحدة حاييم هرتسوج في ٧٥/١١/٣ ، حين قال « انـه مندهش لان الجمعية العامة للامم المتحدة اختارت ان تشغل نفسها باسرائيل ومنظمة التحريـر الفلسطينية ، بينما الطائفة المسيحية في لبـنان معرضة لخطر شديد » . ثم اضاف هرتسـوج مباهيا : « ان صوت اسرائيل كان الصوت الوحيد في الجمعية العامة الذي اعرب عن القلق ازاء الوضع في لبنان » !

.. ووافقت فرنسا على افتتاح مكتب لمنظمـة التحرير الفلسطينية في باريس . وجاءت الفرصة لوزير خارجية اسرائيل ، فنقلت عنه الاذاعـة « لوما لفرنسا لانها فتحت المكتب ، ولانها تتجاهل كذلك مشكلات الطائفة المسيحية في لبنان التي تخلت عنها الدول التي تؤيدها عادة » . ثم يمضي آلون الى القول : « ان منح م.ت.ف مكانة معينة في باريس بينما تلعب م.ت.ف دورا عسكريـا ضد الطائفة المسيحية في لبنان ، كان حتـى من ناحية التوقيت ، وليس من ناحية الاعتبـارات السياسية فقط ، خطأ كبيرا » !

ثامنا : التمهيد للتدخل ، كان واضحا مـن اسلوب توجيه الاخبار والتعليقات ان هناك تمهيدا متواصلا لاحتمال التدخل الاسرائيلي العسكـري في لبنان . وتركزت عملية التمهيد النفسي فـي ذريعتين : احدهما ورقة يهود لبنان وما يتعرضون له من « اخطار رهيبة » ، والثانية التهويل بما ادعته الاذاعة من تدخل سوري عسكري في الازمة اللبنانية . ففي البداية لم تستبعد الاذاعـة (على لسان دكتور يهوشواع بورات في ٧٥/٥/٢٤) ان تغلق سوريا حدودها مع لبنان ، وقيامهـا بتعزيز قوة الصاعقة وجيش التحرير ، او حتـى ارسال جنود سوريين بلباس فلسطين » .

وبعد ذلك بيومين ، قال دكتور رابينوفيتش الذي سبقت الاشارة اليه ، في مقابلة في الاذاعـة يوم ٧٥/٥/٢٦ ان « سوريا تتدخل في لبنان لانهـا ورثت مهمة مصر التي قامت بها في العام ١٩٥٨ ... وان سوريا تتدخل عسكريا بواسطة الصاعقة التي هي في الواقع منظمة سورية » !

وصبيحة يوم ٥/٢٧ نقلت الاذاعـة عن الصحف الاسرائيلية « قلقها من قيام سوريا بالقضاء علـى استقلال لبنان » . واوضحت صحيفة « فياتسا نواسترا » في اليوم نفسه ان عمليـة الجيش الاسرائيلي في جنوب لبنان في ذلك الحين «استهدفت اعطاء تحذير واضح حول ما يمكن ان تفعله اسرائيل اذا سيطر الاسد وعرفات على لبنان » .

وفي ٧٥/٩/٣٠ نقلت الاذاعة عن « شعاريم »

قولها ان القدس وواشنطن اتفقتا على الامتناع عن الادلاء بتصريحات الى ان يتضح ما سيحدث في بيروت » . وأضافت ان مستقبل العلاقات بين اسرائيل وسوريا سيتحدد بعد معرفة ما سيحدث في لبنان » .

ثم ظهر الحديث عن « الابلاع » ، اذ نقلت عن « شعاريم » قولها في ١٠/١٣ ان « سوريا ستزداد قوة نتيجة لابلاع اقسام من لبنان » .

وبمناسبة انعقاد مؤتمر وزراء خارجية الدول العربية في القاهرة للنظر في احداث لبنان ، استعرضت الاذاعة يوم ١٠/١٥ احتمالات التدخل العسكري العربي في لبنان ، وخلصت الى ان « الذين يشكلون الخطر الاكبر على لبنان الان هم المنظمات الفلسطينية التي تتمتع بتأييد كبير في بعض الدول العربية » واستنتجت « ان الموازنة الراغبين بالحفاظ على استقلال لبنان يخشون اكثر من اي طرف اخر دخول قوات عربية الى لبنان » .

وارتفعت عملية التمهيد للتدخل ، او على الاقل التهديد الصريح به يوم ١٠/٣١ حين نقلت الاذاعة عن رئيس الاركان قوله « ان ما يهمنا هو الا يصبح لبنان دولة مجابهة . واذا دخلت قوات عربية وخاصة سورية الى لبنان، فسوف يكون للامر مغزى عسكري من الدرجة الاولى ، لان ذلك سيكون بمثابة فتح جبهة جديدة على حدود اسرائيل في منطقة حساسة من الناحية المدنية » .

بل ووصل التهديد بالتدخل والحث عليه الى الكنيست . فلقد اوردت الاذاعة يوم ١١/٢ عن النائب الليكودي امنون لين انه طلب اجراء مناقشة عاجلة في الكنيست حول ما يحدث في لبنان ، ذلك لان سوريا تبعث بقوات عسكرية تحت ستار منظمات « المخربين » ، وان واجبنا الامني يقضي بالتحرك بسرعة . وكذلك هناك سبب اخلاقي يفرض علينا ان نهب لمساعدة المسيحيين في لبنان ، اذ كيف نبقى صامتين وامامنا شعب كامل يتعرض للابادة»؟!

وبلغ التهديد بالتدخل ذروته في ٧٥/١١/٣ عندما هدد السفير الاسرائيلي في واشنطن سيمحا دينيتس، بان اسرائيل ستدرس بصورة جدية القيام بعملية عسكرية اذا تدخلت اية دولة عربية في النزاع القائم » .

تاسعا : الجانب الاقتصادي ، اهتمت الاذاعة كثيرا بجميع التقارير التي تحدثت عن قيام بعض الشركات والوكالات الاجنبية بنقل اعمالها ومراكزها من بيروت الى عواصم اخرى كاثينا او عمان . كما اهتمت بالحديث عن السفن السياحية التي كانت تصل الى ميناء حيفا « متجاوزة بيروت بسبب الاشتباكات » .

عاشرا : يمكن القول بتجرد ان الاذاعة كانت سعيدة بالازمة في لبنان ، وحرصت على نقل الكثير من « التحليلات » التي تؤكد ان « الازمة في تدهور » وانها « لا مخرج منها ولا حل لها » .

بل ان الاذاعة حرصت في كثير من الحالات على ان تنقل بعض بيانات اذاعة بيروت عن حالة الهدوء ، او الهدوء النسبي في بيروت ، ثم تنقل بعد ذلك ما جاءت به وكالات الانباء من احداث وقعت في بيروت تكذيبا للاذاعة اللبنانية ، ومضيا مع الازمة .

محمد نصر

[٣]

تخفيض الليرة الاسرائيلية

قامت الحكومة الاسرائيلية في اواخر الشهر الماضي باتخاذ قرار خفضت بموجبه قيمة العملة الاسرائيلية بنسبة ٥ر١٪ تقريبا بحيث اصبح سعر الليرة الاسرائيلية ٧١٠ اجورا لكل دولار ، وقد وصفت الاذاعة الاسرائيلية هذا القرار بانه « جزء من سياسة الحكومة لاجراء تخفيضات زاحفة في قيمة العملة للحفاظ على ربحية الصادرات » واضافت الاذاعة « ولن نفرض اعباء جديدة على الاستهلاك وستحافظ السلع الاساسية على اسعارها ... (وقد) تقرر تخفيض قيمة العملة بسبب ارتفاع سعر الدولار بالمقارنة مع عملات اخرى . وحيث ان الليرة مربطة بالدولار فقد ارتفعت قيمتها بالنسبة لسائر العملات ، وبذلك تضررت ربحية الصادرات الاسرائيلية .. » (ر.أ.ف.أ. رقم ٩٥٠) . وقد اتى هذا التخفيض في سلسلة من عمليات التخفيض الضئيلة التي اتخذت أكثر من مرة قبل ذلك ويتوقع ان تستمر كما صرح بذلك اكثر من مسؤول اسرائيلي . وتعتبر هذه التخفيضات ضئيلة بالقياس الى التخفيض الذي جرى على الليرة الاسرائيلية في العام ١٩٧١ حيث خفضت في حينه بنسبة ٢٠٪ وهبطت قيمتها بالتالي من ٥٠ر٣ الى ٢ر٤ ليرة لكل دولار ، وكذلك التخفيض الذي طرأ على الليرة الاسرائيلية من ضمن اجراءات الحكومة التي اتخذتها بعد حرب تشرين حيث خفضت قيمة الليرة بنسبة تبلغ حوالي ٤٣٪ وهبطت قيمتها من ٢ر٤ الى ٦ ليرات لكل دولار . وقد ارتبط تخفيضها الكبير الاول في ١٩٧١ بازمة الدولار وقيام الحكومة الامريكية باتخاذ مجموعة من الاجراءات الاقتصادية وفي رأسها تخفيض قيمة الدولار ، ونتيجة لارتباط الليرة الاسرائيلية بالدولار فقد كان من الطبيعي خفض قيمة الليرة الاسرائيلية بنسبة قريبة من نسبة الخفض الذي طرأ على الدولار وذلك لكي تحافظ الصادرات الاسرائيلية على موقعها في السوق الامريكية والتي تستوعب نسبة عالية من الصادرات الاسرائيلية . والخفض الجديد الذي طرأ على الليرة الاسرائيلية ليس ببعيد عن التطور الذي حدث على الدولار الامريكي الذي تحسنت قيمته نسبيا بعد ان تجاوز الاقتصاد الامريكي بدرجة معينة الازمة الحادة التي عصفت به نتيجة للحرب الفيتنامية . ولكن بالاضافة الى مؤثرات التبدل الذي طرأ على قيمة الدولار الامريكي فثمة اعتبارات وعوامل اخرى وراء قرار الخفض الزاحف الذي اتخذته الحكومة الاسرائيلية ، ولا بد من الاشارة الى هذه الاعتبارات ودلالاتها ونتائجها القريبة والبعيدة . على انه من المفيد الاشارة الى بعض الامور التي قد تساعدنا على فهم بعض الاجراءات الاسرائيلية على حقيقتها ، وذلك تجنبا للدلالات الخاطئة لبعض الظواهر . وفي رأس هذه الامور الفهم الشائع الذي تتداوله بعض الاوساط الاعلامية لموضوع تخفيض قيمة العملة كدليل على ضعف وهزال الاقتصاد ، باعتبار ان مثل هذا القرار لا يعني بالضرورة ضعف الاقتصاد ، فارتفاع قيمة العملة احيانا يكون ذا اثر سلبي على الوضع الاقتصادي ، كما هو الامر بالنسبة لالمانيا واليابان ، عندما جابهتا ضغوطا امريكية لرفع قيمة عملتيهما ، لكنهما قاومتا هذه الضغوط تلافيا للنتائج السلبية لمثل هذا الاجراء على صادراتهما .

وهذا القول لا يهدف لتشبيه الاقتصاد الاسرائيلي باقتصاد هاتين الدولتين بل للاشارة الى خطأ الفكرة الشائعة عن موضوع تخفيض قيمة العملة ، واعتبار التخفيض امرا مرادفا للضعف الاقتصادي ولغيره من الامراض . فالتخفيض قد يكون ناشئا عن اعتبارات تتجاوز الاهداف القريبة للاهداف البعيدة ، ويكتسب هذا الامر بالنسبة لاسرائيل اهمية خاصة نتيجة للدور الكبير الذي يحتله القرار السياسي عند صنع سياستها الاقتصادية . والامر الثالث والهام والذي قد يساعد في تكريس الدلالات الخاطئة لاي هدف اقتصادي تتوخاه الحكومة الاسرائيلية من طراز قرار تخفيض العملة هو تكامل مثل هذا القرار مع ما عرف عن الاقتصاد الاسرائيلي من ازمات حادة كان يجري التركيز عليها ، وبالتحديد ميزان المدفوعات المتدهور . وهنا من الضروري عدم الوقوع في شرك المعلومات المضللة التي تقدمها اسرائيل وهي التي عرف عنها تضخيمها المستمر لازماتها لضمان حصولها على المعونات والمساعدات سواء من يهود العالم او من الدول الامبريالية . واذا كان تدهور ميزان مدفوعاتها يرتبط باعباء الحرب والمصروفات الامنية ، فما علينا سوى ان نتذكر ان كافة تكاليف الحرب مدفوعة من قبل الامبريالية الامريكية ، اذ ليس من قبيل المصادفة

انتبلغ مساعدات الولايات المتحدة الامريكية لاسرائيل في العام ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ مبلغا يساوي ١٤ مليار و ١٨٥ مليون ليرة اسرائيلية في الوقت الذي بلغت فيه موازنة الدفاع الاسرائيلية لذلك العام مبلغا يساوي ٥ر١٤ مليار ليرة اسرائيلية * . اي ان المساعدات الامريكية قد غطت الموازنة العسكرية الاسرائيلية بالكامل ، وبالعملة الحرة ايضا ، في الوقت الذي غطي فيه جزء كبير من الموازنة العسكرية الاسرائيلية من المواد المحلية ، علما بان نسبة المساعدات الامريكية للاعوام اللاحقة لم تقل ، بل على العكس من ذلك فقد حصلت اسرائيل على كافة طلباتها من الولايات المتحدة الامريكية .

وان تخفيض العملة هو جزء من السياسة الاقتصادية الصارمة التي تمارسها الحكومة الاسرائيلية ، وتخدم هذه السياسة هدفين مزدوجين في الوقت نفسه ، اهداف قريبة واهداف استراتيجية بعيدة المدى ، مع الاشارة الى الاهمية الخاصة للاهداف بعيدة المدى ، وتخفيض العملة ليس سوى جزء من الخطة الشاملة .

ان الهدف الأول هو الحفاظ على موقع الصادرات الاسرائيلية ، واحتفاظها باسعارها الحالية في اسواقها الدولية ، ان لم يكن تحسينها . ويرتبط هذا الامر بارتفاع قيمة الدولار في السوق الدولية ، وارتفاع سعر الليرة الاسرائيلية تلقائيا لانها مرتبطة به ، ولذا فقد كان من الضروري اجراء تخفيض في قيمة الليرة الاسرائيلية بنسبة قريبة من تلك النسبة التي ارتفعت بها قيمة الدولار . وتشكل السوق الامريكية مصدرا رئيسيا للسلع الاسرائيلية ، بحيث بلغت نسبة وارداتها عام ١٩٧٢، ٢٢٪ من اجمالي صادرات اسرائيل الصناعية . والوجه الاخر لعملية التخفيض هو الحد من الواردات الاسرائيلية من السلع الاجنبية ، باعتبار ان تخفيض قيمة العملة سيؤدي تلقائيا الى ارتفاع سعر السلع الاجنبية في السوق الاسرائيلية الامر الذي سيخفف الطلب عليها ، وهذا بدوره يسهم في تخفيض العجز في ميزان المدفوعات الاسرائيلي ، وحتى لو لم ينخفض الطلب . ولكن المستهلك الاسرائيلي سيضطر عندها لدفع سعر اعلى مقابل الحصول على السلع المستوردة ، الامر الذي يساعد الحكومة على امتصاص جزء اكبر من العرض النقدي ولهذا الامر انعكاساته على التضخم وهو احد مشاكل اسرائيل المزمنة .

*بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي ص ١٢٦ .

ولكن كلا الاحتمالين لا يشكل حلا لمشكلة ميزان المدفوعات ، والذي اعتبر الهدف الاساسي لموضوع تخفيض العملة ، وذلك لعدم وجود مرونة كبيرة في موضوع الواردات والصادرات الاسرائيلية . خصوصا وان الواردات الاسرائيلية من السلع الاستهلاكية بلغت عام ١٩٧٠ حوالي ٨ر٩٪ فقط من جملة وارداتها بينما تتركز بقية الواردات في السلع الوسيطة والاستثمارية . اضافة الى وارداتها من الاسلحة . وبالتالي فان انعكاسات تخفيض قيمة العملة على ميزان المدفوعات ستكون في حدود ضئيلة .

وان تخفيض قيمة الليرة سوف يؤدي الى خلق ضغوط جديدة على مستوى المعيشة في اسرائيل باعتبار ان ارتفاع اسعار الواردات سينعكس بشكل ارتفاع اسعار السلع المستوردة او السلع التي تدخل في صناعتها موادا مستوردة . لكن وبرغم ان المواطن الاسرائيلي يدفع اعلى نسبة ضرائب في العالم ، فان حجم الضغوط على مستوى المعيشة لا يمكن ان يشكل الى درجة خطرة ، بل هو من صلب الخطة الاقتصادية الاسرائيلية الصارمة ، اذ برغم الاحتجاجات التي جوبهت بها هذه الخطة ، فان الحكومة الاسرائيلية تضع نصب عينيها تخفيض مستوى المعيشة ، والهامش الذي تتحرك في حدوده يبلغ حوالي ٥ ٪ . وقد اشار المسؤولون الاسرائيليون في اكثر من مناسبة الى ضرورة تخفيض مستوى المعيشة بنسبة ٥٪ ، وقد استند المسؤولون الاسرائيليون في قولهم هذا على اساس ان المواطن الاسرائيلي قد حقق في السنوات الماضية معدلات مرتفعة على صعيد مستوى المعيشة يمكنه من تحمل ضغوط جديدة . وبسبب وجود هامش بحدود ٥٪ يمكن للحكومة الاسرائيلية ان تخفض مستوى المعيشة دون ان يصل الامر الى حد الخطر ، كذلك فان التمييز الذي اتبعته على صعيد السلع الضرورية قد حد من الاثار السلبية لموضوع ارتفاع اسعار الواردات ، حيث استثنيت السلع الاستهلاكية الضرورية من هذا الارتفاع . وبهذا القرار خفف العبء عن كاهل ذوي الدخل المحدود .

لكن وبرغم ضوابط هذا القرار فان مستوى المعيشة لا بد وان ينخفض والاثار السلبية لا بد وان تعم المجتمع ككل ، وبالتالي لا بد وان تحدث عمليات احتجاج واسعة النطاق على القرار الاسرائيلي . لكن برغم الاثار السلبية الاتية فانها

لا تقاس بالاثار الايجابية التي يخدمها ذلك القــرار في المدى البعيد والذي هو جزء من خطة الحكومة الاسرائيلية لتحقيق الاستقلال الأقتصـادي ، الذي هو هدف ابعد بكثير من موضوع الحفاظ علـــى الموقع الحالي للصادرات الاسرائيلية .

اننا لا نستطيع عزل قرار الحكومة الاسرائيلية هذا عن ترتيباتها للاندماج الكامل بالسوق الاوروبية المشتركة تنفيذا للاتفاقية التي وقعت بين الطرفين . ويتضح ذلك من ملاحظة الخيار الذي لجأت اليـــه الحكومة الاسرائيلية ، فقد كان بامكانها ان تحافظ على مواقع صادراتها من خلال رفع حوافز التصدير وان تخفض وارداتها من خلال رفع نسبة الجمارك التي تفرضها على الواردات . ولمثل هذين الاجراءين على الاقتصاد الاسرائيلي نفس اثار تخفيض قيمة الليرة تقريبا . وعدم لجوئها الى هذين الاجراءين يرتبط اشد الارتباط باهداف المستقبل اكثر مـــن ارتباطه باهداف الحاضر ، اذ ان سريان الاتفاق بين اسرائيل والسوق الاوروبية المشتركة سيعني ، برغم التسهيلات التي قدمت لاسرائيل ، ان لا مجال لحوافز التصدير او الحواجز الجمركية ، وبحكـم الاتفاق ستكون اسرائيل مضطرة لالغاء مثل هــذه القيود وحريتها في وضع اية حواجز بالمستقبـل ستكون محدودة ومرهونة بموافقة دول السوق ، وبالمقابل فان دول السوق لن تجبر اسرائيل على رفع قيمة عملتها وهذا الامر له نفس اثر الحواجز الجمركية في حماية الصناعة المحلية الاسرائيلية . ويمكن لنا اعتبار خطوة اسرائيل هذه والخطوات اللاحقة جزءا من مرحلة التكيف التي تقرر اعطاؤها لاسرائيــل . وقد تاكد هذا الامر اكثر فاكثــر من خلال سياسة اسرائيل القائمة على فك ارتباط الليرة الاسرائيلية بالدولار ، وربط قيمتها بمجموعة من العملات اي ان تتحرك قيمتها صعودا او هبوطا في ضوء ما يطرأ على قيمة هذه العملات من تبدل ، وربط قيمة الليرة الاسرائيلية بمجموعة عمــلات ، وليس بالدولار وحده ، يعني توجها لربط الاقتصاد الاسرائيلي باسواق هذه العملات . وبالتأكيــــــد فان العملات المقصودة بالاضافة الى الدولار هـــي الجنيه الاسترليني والمارك الالماني ، علمــــا بان بريطانيا والمانيا الغربية هما المستوردان الرئيسيان للسلع الاسرائيلية ، في دول السوق المشتركة ، وقد استوردتا في العام ١٩٧٣ حوالي ٥٠٪ مـــن اجمالي واردات دول السوق المشتركة مجتمعة . ويتضح مما تقدم ان جهود اسرائيــل للتكيف مـــع مرحلة الاندماج الكامل بالسوق المشتركة هـــو الهدف الرئيسي وراء سياستها الاخيرة القائمة على تخفيض الليرة الاسرائيلية بشكل زاحف وبنسب ضئيلة ممهيدا للوصول بالليرة الاسرائيلية الى وضع يمكنها من الاندماج بالسوق المشتركة بدون ان يلحق بالاقتصاد الاسرائيلي اثارا ضارة كبيرة . والاثــار السلبية الجانبية لقرار تخفيض الليرة الاسرائيلية لا تقارن بالاهداف البعيدة التي تتوخاها اسرائيــل من سياستها تلك .

حسين ابو النمل

شهريـــات

(١) المقاومـــة الفلسطينية

فلسطين في الامم المتحدة

بعد سنة من اعتلاء منظمة التحرير الفلسطينية منبر الجمعية العمومية للامم المتحدة عضوا مراقبا في دورتها التاسعة والعشرين والنصر الفلسطيني الذي تحقق في تلك الدورة بالقرار ٣٢٣٦ الـذي اعترف بـ م ت ف ممثلة للشعب الفلسطيني ، بعد سنة من ذلك اتخذت الجمعية العمومية فـي دورتها الثلاثين عددا من القرارات تعزز قرارهـا السابق الذكر وتضيف رصيدا جديدا للنضـال السياسي والدبلوماسي الذي تخوضه م ت ف .

بدأت المعركة السياسية في اطار اللجنة الاجتماعية للامم المتحدة التي صوتت في ١٧ تشرين الاول على توصية للجمعية العمومية استعرضت في مقدمتهـا قرارا للجمعية العمومية اتخذته في العام ١٩٦٣ حول الغاء كافة اشكال التفرقة العنصرية ، والذي يقضي بان كل نظرية تدعو الى التمييز والاستغلال العنصري هي نظرية زائفة علميا ومدانة اخلاقيا وتشكل حالة خطرة اجتماعيا ، كمـا استعرضت التوصية قرار الجمعية العمومية في العام ١٩٧٣ الذي ادان التحالف غير المقدس القائم بين العنصرية في جنوب افريقيا وبين الصهيونية ، وخلصت الـى « ان الجمعية العمومية للامم المتحدة اخذة بعـين الاعتبار كل هذه القرارات ... تقرر اعتبـار الصهيونية شكلا من اشكال العنصرية والتمييـز العنصري » . وقد صوتت لجانب القرار سبعـون دولة وصوتت ضده عشرون .

وكان منتظرا عرض هذا القرار على الجمعية العمومية لياخذ صيغته النهائية . وقد قامت اسرائيل بحملة دبلوماسية واسعة لمنع اقراره حال عرضه . وقالت دوائر القدس (كما نقلت ذلك « وصف »/ « النهار » ١٠/٢٣) ان الدبلوماسية الاسرائيلية تبذل جهودها لكسب الى صفها الوفود التي امتنعت عن التصويت في اللجنة وتلك التي لم تشترك فـي التصويت . واشارت هذه الدوائر الى ان الحملة ستتهدف ايضا الدول التي صوتت ضد هذ القرار للتأكد من انها لن تتأثر « بالجهود العربيــة والسوفياتية » . كما قامت الولايات المتحدة مـن جانبها بجهد مماثل واعلن الرئيس الاميركي فورد ، في مأدبة اقيمت في سان فرنسيسكو ، انه سوف ينظر شخصيا بعدم رضا الى اي تصويت للجمعية العمومية للامم المتحدة في شأن اعتبار الصهيونيـة شكلا من اشكال العنصرية وان الولايات المتحدة « ستحول دونه » ؛ « السفير » ١٠/٣١) .

غير انه بجانب السعي لادانة الصهيونية كحركة عنصرية كان هناك جهد اخر يبذل للخروج بقرارات ايجابية اخرى من شأنها تدعيم القرار ٣٢٣٦ الذي اتخذته الجمعية العمومية في العام الماضي .

وكانت مصر الهادفة من تحركها السياسي الـى اشراك م ت ف في مؤتمر جنيف على اساس القرار ٢٤٢ قد تقدمت بمشروع قرار الى الجمعية العمومية نص على ما يلي :

« الجمعية العامة وقد درست البند المتعلـق بالمسألة الفلسطينية ، واذ تقدر ضرورة التوصـل الى سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط باسرع ما يمكن ، واذ تؤمن بان تحقيق الحقـــوق المشروعة للشعب الفلسطيني طبقا لمبادىء الميثاق واحترامه هو شرط ضروري للتوصل الى سـلام عادل ودائم في الشرق الاوسط ، واذ تأخذ فـي الاعتبار ان مؤتمر جنيف للسلام في الشرق الاوسط يجب ان يتم في القريب العاجل بحضور كافـــة الاطراف المعنية لمعالجة مشكلة الشرق الاوسط من كافة جوانبها بهدف التوصل الى تسوية عادلــة ودائمة : (١) تدعو الى اشراك م ت ف ممثلـــة الشعب الفلسطيني في اعمال مؤتمر جنيف للسلام

على قدم المساواة مع بقية الاطراف المشتركـــة في المؤتمر . ٢) تكلف السكرتير العام بابلاغ هذا القرار الى رئيسي مؤتمر جنيف للسلام واتخــاذ كافة الخطوات التي تؤمن اشتراك م ت ف فـي اعمال المؤتمر ، وتطلب من السكرتير العام تقديم تقرير في هذا الشأن الى الجمعية العامة في اقرب وقت » (« الهدف » ١١/٨) .

• وكان من الطبيعي ان يرفض الوفد الفلسطيني مثل هذا القرار وقد اكد شفيق الحوت ، الناطــق بلسان الوفد - في مؤتمر صحافي عقده في نيويورك ان م ت ف لن تشترك في اي مؤتمر حول ازمـــة الشرق الاوسط يكون مبنيا على قرار مجلس الامن الرقم ٢٤٢ كما هي الحال بالنسبة لمؤتمر جنيف . (« السفير » ١١/٣) .

وقـــد اعلنت دمشق نص مشروع قرار سوري مناقض للمشروع المصري يأخذ في الاعتبار القــرار ٣٢٣٦ ويدعو مجلس الامن الى تعديل قراره ٢٤٢ وقد تضمن نص المشروع « ١) دعوة منظمة التحرير الفلسطينية التي تمثل الشعب الفلسطيني الـــى الاشتراك في الجهود المبذولة داخل نطاق الامــم المتحدة من اجل التوصل الى سلام عادل ودائــم في الشرق الاوسط ، وذلك على قدم المساواة مــع جميع الاطراف الاخرى . ٢) دعوة مجلس الامن الى تعديل القرار الرقم ٢٤٢ الصادر في العــام ١٩٦٧ وذلك في ضوء قرارات الجمعية العامة ذات الرقم ٣٢٣٦ و ٣٢٣٧ للعام ١٩٧٤ . ٣) دعوة مجلس الامن الى تطبيق ما هو وارد في الفقــرة السابعة من الميثاق على اسرائيل بسبب رفضها المستمر لاحترام ميثاق الامم المتحدة ورفضها تطبيق قرارات المنظمة الدولية . ٤) دعوة جميع الدول الى ايقاف مساعداتها العسكرية والاقتصاديـــة والثقافية لاسرائيل . ٥) دعوة السكرتير العــام للامم المتحدة الى ان يعمل على تطبيق هـــذا القرار ، وتقديم تقرير عن ذلك الى الجمعيـــة العامة في دورة طارئة يتم الدعوة اليها في خــلال ثلاثة اشهر من اجل بحث تقرير السكرتير العــام المتعلق بدرجة الالتزام بتطبيق هذا القرار بشأن مشكلة فلسطـــين والموقف في الشرق الاوسط » (« السفير » ١١/٦) .

وقد اعتبر مشروع القرار المصري ، كما ذكر نايف حواتمه (في مقابلة مع وكالة الانباء الكويتية « السفير » ١١/٧) ، « تراجعا مصريا جديدا امام الخطط الامبريالية الاميركية والاسرائيلية . وهذا المشروع تم اعداده والسادات في واشنطـــن ويسقط النص الصريح عن الحقوق الوطنية لشعب فلسطين ولا يعتبر قضية فلسطين جوهر الصراع العربي ــ الاسرائيلي ويغفل النص القرار ٣٢٣٦ الخـــاص بحقوق الشعب الفلسطيني الوطنية » . وكشـــف حواتمه النقاب عن ان الوفد الفلسطيني في الامم المتحدة بذل محاولات مع الوفد المصري لسحـــب المشروع ، ولكن الوفد المصري اصر عليه لتعليمات مباشرة من السادات كما ذكر الوفد .

غير ان الوفد المصري عاد في وقت لاحق فسحب مشروعه وجرى تقديم مشروعي قرارين واحدا ليدرج تحت بند قضية فلسطين والاخر كفقرة في بنـــد مشكلة الشرق الاوســـط . وفـــي ١١/١٠ صوتـــت الجمعيـــــة العموميـــــة علـــى مشروعي القرارين. وادرج قرار القضية الفلسطينية تحت رقم ٣٣٧٦ وفيما يلي نصه (كما اوردتـــه « وفا » ١١/١١) :

« ان الجمعية العامة للامم المتحدة تذكيـــرا بقرارها ٣٢٣٦ الصادر في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٧٤، وملاحظة تقرير الامين العام للامم المتحدة بشأن تنفيذ ذلك القرار ، واعرابا عن قلقها العميق لعدم تحقيق اي حل عادل لقضية فلسطين حتى الان ، واعترافا بان المشكلة الفلسطينية لا تزال تشكل خطرا على الامن والسلام الدولي :

اولا : تؤكد من جديد قرارها الرقم ٣٢٣٦ .

ثانيا : تعبر عن قلقها البالغ من عدم تحقيـــق تقدم نحو :

أ ــ ممارسة الشعب الفلسطيني حقوقه الثابتة في فلسطين بما فيها حق تقرير المصير بدون اي تدخــل خارجي وحق الاستقلال والسيادة الوطنية .

ب ــ ممارسة الفلسطينيين حقهم الثابت في العودة الى ديارهم وممتلكاتهم التي اقتلعوا منها وابعدوا عنهـــا .

ثالثا : تقرر تشكيل لجنة لمتابعة ممارسة الشعب الفلسطيني حقوقه الثابتة تضم كلا من الدول التالية : السنغال وغينيا وموريشيوس وهنغاريا والمانيـــا الديمقراطية واوكرانيا وماليزيـــا والهند والباكستان ويوغسلافيا .

رابعا : تطلب من اللجنة ان تبحث وتوصي الـــى

الجمعية العامة ببرنامج تنفيذي لتمكين الشعب الفلسطيني من ممارسة الحقوق المعترف بها في الفقرتين ١ و ٢ من قرار الجمعية العامة للامم المتحدة الرقم ٣٢٣٦ وان تأخذ بعين الاعتبار في وضع توصياتها لتطبيق ذلك البرنامج ، جميع الصلاحيات التي تملكها الاجهزة الرئيسية للامم المتحدة حسب ميثاقها .

خامسا : تخول اللجنة ، خلال ادائها مهمتها ، ان تقيم اتصالات وان تستقبل وتبحث مقترحات ومشاريع من اية دولة او اية منظمة اقليمية ، بالاضافة الى منظمة التحرير الفلسطينية .

سادسا : تطلب من الامين العام تزويد اللجنة بجميع التسهيلات لاداء مهمتها .

سابعا : تطلب من اللجنة تقديم تقريرها وتوصياتها الى الامين العام في موعد اقصاه اول حزيران ١٩٧٦ ، وتطلب من الامين العام ان يقدم التقرير الى مجلس الامن .

ثامنا : تطلب من مجلس الامن ، في اقرب وقت ممكن ، بعد الاول من حزيران ، بحث قضية ممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه الثابتة المعترف بها بموجب الفقرتين ١ و ٢ من قرار الجمعية الرقم ٣٢٣٦ .

تاسعا : تطلب من الامين العام ابلاغ اللجنة عن الاجراءات التي اتخذها مجلس الامن وفقا للفقرة السابقة .

عاشرا : تخول اللجنة ، اخذا بعين الاعتبار الاجراءات التي اتخذها مجلس الامن ، ان تقدم الى الجمعية العامة في دورتها الحادية والثلاثين تقريرا يتضمن ملاحظاتها وتوصياتها .

حادي عشر : تقرر ان يدرج البند بعنوان « قضية فلسطين » في جدول اعمالها المؤقت لدورتها الحاديه والثلاثين .

وقد فاز القرار بأغلبية ٩٣ صوتا ضد ١٨ وامتناع ٢٧ دولة عن التصويت .

اما الفقرة التي ادرجت في القرار الخاص بازمة الشرق الاوسط الذي اقر باغلبية ١٠١ صوت ضد ثمانية اصوات وامتناع ٢٥ دولة عن التصويت فقد نصت على ما يلي :

« الجمعية العمومية ... اخذا في الاعتبار البند الواقع تحت عنوان قضية فلسطين، وتأكيدا لقرارها رقم ٣٢٣٦ الصادر في الدورة التاسعة والعشرين للجمعية العامة في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٧٤ ، والذي اعترفت بموجبه بالحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني ، واعترافا بضرورة تحقيق سلام دائم وعادل في الشرق الاوسط في اسرع وقت ممكن ، واعتقادا بأن تحقيق الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وفقا لاهداف ومبادىء ميثاق الامم المتحدة هو شرط مسبق لتحقيق سلام دائم وعادل في المنطقة ، واقتناعا بان اشتراك الشعب الفلسطيني هو شرط اساسي في اية جهود او مناقشات تستهدف التوصل الى سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط :

اولا : تطلب من مجلس الامن الدولي دراسة وتبني القرارات والاجراءات اللازمة من اجل تمكين الشعب الفلسطيني من ممارسة حقوقه الوطنية المشروعة وفقا لقرار الجمعية العامة الرقم ٣٢٣٦.

ثانيا : تدعو الى دعوة منظمة التحرير الفلسطينية ممثلة الشعب الفلسطيني الى الاشتراك في كل الجهود والمناقشات والمؤتمرات حول الشرق الاوسط والتي تتم تحت اشراف الامم المتحدة على قدم المساواة مع جميع الاطراف الاخرى على اساس القرار ٣٢٣٦ .

ثالثا : تطلب من الامين العام ابلاغ رئيسي مؤتمر السلام للشرق الاوسط هذا القرار ، واتخاذ جميع الخطوات اللازمة لتأمين دعوة منظمة لتحرير الفلسطينية الى المشاركة في اعمال المؤتمر ، كما في الجهود الاخرى للسلام .

رابعا : تطلب من الامين العام تقديم تقرير حول هذا الموضوع للجمعية العامة في اقرب وقت ممكن » .

وفي الوقت نفسه فاز القرار المقدم من اللجنة الاجتماعية والمتعلق باعتبار الصهيونية شكلا من اشكال العنصرية والتمييز العنصري الذي ادرج تحت الرقم ٣٣٧٩ بـ ٧٢ صوتا ضد ٣٥ صوتا .

لبنان

ان من ابرز مظاهر الازمة اللبنانية انها متعددة الاسباب متشابكها نتيجة تعقد الوضع اللبناني المتأزم نفسه وفعل العوامل المحلية (الاجتماعية والسياسية والاقتصادية) فيه ، بجانب بروز الدور الدولي (الاقليمي والعالمي) في صنعه . ولم

تكن هذه الحقيقة بغائبة عن اعين حركة المقاومة الفلسطينية التي فهمت الازمة بجوانبها المحلية والدولية كافة . وسنعرض هنا لفهم المقاومة لهذه الحقيقة من خلال ما نبدى من ذلك خلال الشهر الماضي وهي الفترة التي تغطيها هذه الحلقة من الشهريات .

لقد ادركت الثورة الفلسطينية ارتباط ما يجري في لبنان بما ترتبه الامبريالية الاميركية للمنطقة من مصير ومستقبل بعد ان شرعت الابواب واسعة امام هجمة النفوذ الاميركي السياسي والاقتصادي ، فـ « هذه القوى الانعزالية [كما قال ياسر عرفات في اجتماع الجبهة العربية المشاركة (« النهار » ١٠/٢٤)] ترى ان هذا هو وقت تثبيت الموقف العربي بعدما انحسرت الموجة التي تصاعدت بعد مؤتمر الرباط عندما خلق موقف عربي نواته سوريا ومصر وفلسطين ، وجاء كيسنجر واستطاع ان يحفر اخدودا في الموقف العربي » . كذلك اعلن فاروق القدومي (ابو اللطف) ، رئيس الدائرة السياسية في م ت ف ، في الامم المتحدة («السفير» ١١/٤) ان « اراقة الدماء في لبنان هي نتيجة مفجعة لسياسة الولايات المتحدة في الشرق الاوسط ... لقد اراد اعداء ثورتنا ان يقضوا علينا بان يورطونا في معركة كان لا بد لها ان نحول بيننا وبين التصدي لسياسة الخطوة — خطوة » . وقد اوضح ابو عمار توضيحا مفصلا هذه الحقيقة بقوله « ان الازمة اللبنانية جزء من المخططات الامبريالية في الشرق الاوسط . لقد كان ولا يزال الهدف الاساسي للامبريالية الاميركية والصهيونية هو ضرب حركة التحرر العربية وطليعتها المقاتلة — الثورة الفلسطينية ، وذلك لتمرير مخططاتها المعادية لطموحات امتنا العربية وامالها في التحرر والعودة . كان ، ولا يزال ، هدف الامبريالية هو استخدام سياسة تعريب الحرب . وقد حاولت ذلك في فيتنام عندما عملت على فتنمة الحرب . وهي تحاول ذلك الان في لبنان ، وذلك بتحريك عملائها لضرب القوى الوطنية والتقدمية اللبنانية ، ولعزلها عن الثورة الفلسطينية . ان تصعيد الازمة اللبنانية في هذه المرحلة بالذات هو تغطية لمعاهدة سيناء ولتحويل الانظار عن هذه المعاهدة غير المتكافئة بين مصر واسرائيل . لقد نبهنا لذلك منذ البداية ونستطيع ان نقول بكل ثقة ان المؤامرة الامبريالية — الصهيونية التي حاولت تصعيد الازمة للوصول الى مخططات التقسيم والمخططات الامبريالية المشبوهة الاخرى قد باءت بالفشل ، بل على العكس من ذلك ظهر التلاحم بين القوى اللبنانية الوطنية والتقدمية ، وظهر التعاون الوثيق بين الشعبين اللبناني والفلسطيني في مواجهة هذه المخططات » (مقابلة مع صحيفة « اليونيتا » الايطالية اعادت نشرها « وفا » ١١/١٢) .

هذا الفهم للبعد « الدولي » للصراع كان يجاريه ادراك لطبيعة العوامل الداخلية التي ان سترت ببراقع طائفية فان حقيقتها من حيث هي صراع اجتماعي/اقتصادي تظل ماثلة من خلال قيام القوى الانعزالية بمحاولة منع كل حديث عن اي صلاح اجتماعي/اقتصادي تحت وطأة تهديد الامن وبممارسات الارهاب المنهج. وبتعبير ماجد ابو شرار في ذكرى تكريم شهداء الحزب الشيوعي ومنظمة العمل الشيوعي في الزيدانية — الطريق غسان « الحقيقة هي انها صراع المسحوقين لرفع الظلم والاستغلال عنهم » (« السفير » ١١/٦) . وقد كتبت « الهدف » (١١/٨) « ان يمينية العصابات التي شكلت اداة المخطط وارتباطها بالقوى الاحتكارية ، والدوائر الفاشية في السلطة ، يؤكد ان من اهداف مخططها ضرب الحركة الوطنية اللبنانية بما تمثله من قوة تقدمية جماهيرية في الصراع الداخلي المعادي للاحتكار والمتطلع الى قيام نظام ديمقراطي شعبي حقا . وضمن هذا الهدف لعب المتآمرون بوحشية وذكاء معا ، الورقة الطائفية لشق وحدة الحركة الشعبية ، وخلق شرخ دموي بين القوى الاجتماعية ذات المصلحة المشتركة في النضال ضد الاحتكار » .

لقد توضح من خلال الصراع العسكري والتعبئة السياسية المرافقة له والفرز السكاني الذي يماشيها ان هناك في الأفق شبهة تقسيم لبنان الى دويلتين طائفيتين ، وقد اقترن ذلك بما ذكر عن اعطاء الفلسطينيين « وطنا » بديلا لهم في احدى هاتين الدويلتين . وقد كان موقف الثورة واضحا من كل ذلك فقد اكد ابو عمار « ان هناك مؤامرة بتقسيم لبنان وقبرصنه وانا اقول ان لبنان وشعبه ومناضليه مع الثورة الفلسطينية سيبقى عربيا عربيا عربيا » . واوضح عبد المحسن ابو ميزر في اجتماع الجبهة العربية المشاركة في دمشق (« النهار » ١٠/٢٣) الموقف من ذلك بقوله « نحن نرفض نظرية الوطن البديل . ان الثورة التي رفضت التقسيم في فلسطين لن ترضى بتقسيم لبنان.

والثورة التي جعلت شعارها الدولة العلمانية لا نرضى بالاوطان الطائفية » .

وكان من الطبيعي ، في ضوء هذا الفهم ، ان تتصدى الثورة الفلسطينية لما يجري . واذا كانت احداث ايلول ١٩٧٠ في الاردن وما تبعها من تطورات قد فرضت على الثورة ان تقف وحيدة في نضالها هناك نظرا لغياب القوة المنظمة للحركة الوطنية في شرق الاردن ، فان ظروف الحركة الوطنية في لبنان تختلف بالنوع والدرجة عن تلك التي هناك . فالحركة الوطنية اللبنانية حقيقة موجودة باحزابها ومنظماتها وبقدراتها البشرية والعسكرية معا وبقواعدها الجماهيرية الواسعة . وهذا الاختلاف النوعي جعل الحركة الوطنية اللبنانية في الموقع الامامي للصدام ، وبتعبير ابو عمار « ان الموقف المقدس الذي وقفته الحركة الوطنية اللبنانية سجله التاريخ . منذ ثمانية اشهر والدم ينزف من شعبنا في لبنان ، هذا الشعب هو الذي قرر ان يتصدى للمؤامرة دفاعا عن الامة العربية » . وكتبت « فلسطين الثورة » (١١/٢) انه « لم يكن امام الشعب اللبناني الملتزم بقضية الشعب الفلسطيني غير الوقوف في وجه المؤامرة والمتآمرين ... وبهذه الوقفة التاريخية المجيدة جسد شعب لبنان البطل تلاحمه النضالي مع شعبنا من اجل خير ومصلحة الشعبين الشقيقين » . غير انه مع هذا الموقف التاريخي للحركة الوطنية اللبنانية فان الثورة الفلسطينية في المقابل ، تجد نفسها ملزمة بسنن اواصر تحالفها مع هذه الحركة ، فـ « الثورة الفلسطينية (بتعبير عبد المحسن ابو ميزر) .. لن تكون حيادية في معركة مصيرها ، وربطت مصيرها بمصير الحركة الوطنية في لبنان » .واوضح ماجد ابو شرار « نعزز من تلاحمنا مع حركة التحرر العربي وخاصة في لبنان مع طلائع الجماهير الشعبية ـ الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية . فوقوفنا الى جانبها هو دفاع عن انفسنا وعن حركة التحرر العربي والعالمي » .

العبور المضاد
واحكام المقاطعة العربية

العبور المضاد هنا مزدوج الاتجاه : الاول انتقال البضائع الاسرائيلية عبر قناة السويس الذي كان احد شروط صفقة ـ اتفاقية سيناء . والثاني المتعلق بالانفتاح المصري الاقتصادي على السوق الرأسمالية (الاميركية تحديدا) وما يعنينا الان في هذه الفترة هو موقف المقاطعة العربية من هذين العبورين .

في البداية نذكر هنا بعض احكام المقاطعة المتعلقة بشركات الملاحة الاجنبية . فقد نصت انظمة المقاطعة على ان « تدرج البواخر والناقلات وغيرها من وسائل النقل البحري الاجنبية في القائمة السوداء اذا ارتكبت احد الافعال التالية :

أ ــ اذا ثبت انها مرت على ميناء عربي واخر اسرائيلي في رحلة واحدة (ذهابا وايابا) .
ب ــ اذا نقلت ادوات او مواد تفيد المجهود الحربي لفلسطين المحتلة .
ج ــ اذا اجرت لشركات او هيئات اسرائيلية .
د ــ اذا نقلت منتجات اسرائيل الصناعية والتجارية والزراعية .
هـ ــ اذا نقلت مهاجرين يهود الى فلسطين المحتلة » .

ويترتب على الادراج في القائمة السوداء «حرمان البواخر والناقلات المخالفة ، من الشحن والتفريغ والتموين بالمياه والوقود والمواد الغذائية وغير ذلك من القيود التي يفرضها هذا الوضع ومن بينها عدم السماح لها بالدخول الى الموانىء العربية » .

وخلافا لكل هذه الاحكام مرت السفينة اليونانية اوليمبوس في مطلع شهر تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي محملة بالاسمنت عبر قناة السويس الى ميناء ايلات الاسرائيلي . وقد صرح قبطان السفينة لدى وصوله الى ايلات (وصف ١١/٤) « بان رجال الشرطة المصريين استقلوا السفينة طوال فترة مرورها في القناة وكانت سيارتا جيب ترافقان السفينة على طول الشاطىء » . وكانت « اوليمبوس » هي الطليعة اذ تبعتها بعد ايام باخرتان : ليبيرية وحمولتها ستة الاف طن وبريطانية وقد توجهتا الى اسدود . (« رويتر » ١١/٩) . والسؤال الذي يطرح هنا هو الى اي مدى يمكن لمنظمة التحرير الفلسطينية والدول العربية المعارضة لاتفاقية سيناء الاستفادة من احكام قانون المقاطعة العربية للقيام بحملة مضادة تستهدف التأثير على الاتفاقية من هذا الجانب ؟ لقد اعلن محمد محجوب، المفوض العام للمكتب الرئيسي لمقاطعة اسرائيل (في تصريح لصحيفة « الاخبار » الاردنية ، نقلته

« السفير » ١١/١٣) ان « موقف اجهزة المقاطعة لم يتغير اطلاقا بالنسبة للبواخر الاجنبية التي تعبر قناة السويس محملة بمنتجات الى اسرائيل او عائدة من موانىء اسرائيلية محملة بمنتجات اسرائيلية » واضاف « ان اي باخرة من هذا النوع تدرج في القائمة السوداء ويترتب على ذلك عدم جواز رسوها في اي ميناء عربي او تقديم اي تسهيلات لها » واعلن « ان الباخرة اوليمبوس التي عبرتقناة السويس محملة بالاسمنت الى اسرائيل تم ادراجها في القائمة السوداء ، وقام المكتب الرئيسي للمقاطعة بمطالبة سائر المكاتب الاقليمية بادراجها في القائمة السوداء » . وان هذه الخطوة الايجابية يجب ان تكون منطلقا لممارسات اكثر فاعلية واوسع مدى تستهدف التصدي لاتفاقية سيناء ، بجانب الجهد السياسي الموجه لها باجمال ، تصديا لمفرداتها ولمكوناتها الجزئية .

اما العبور الثاني الذي اشرنا اليه فهو انفتاح مصر اقتصاديا على السوق الرأسمالية . وهذا الانفتاح سيصطدم حتما باحكام المقاطعة في الحالات التي يكون فيها الرأسمال الاجنبي (المتمثل بالشركات) على علاقة مع اسرائيل . فقد نصت احكام المقاطعة على انه « يحظر ... التعامل مع الشركات او المؤسسات الاجنبية العامة او الخاصة في الحالات التالية :

أ — اذا انشأت لها مصنعا (فرعيا او رئيسيا) في اسرائيل .

ب — اذا انشأت لها مصنعا للتجميع في اسرائيل ...

ج — اذا كان لها وكلاء عامون او مكاتب رئيسية للشرق الاوسط في اسرائيل .

د — اذا منحت امتياز حق استعمال اسمها الى شركات اسرائيلية .

هـ — اذا ساهمت في شركات او مصانع اسرائيلية .

و — اذا قدمت المشورة او الخبرة الفنية الى المصانع الاسرائيلية ... » .

وبالتأكيد فان عددا كبيرا من الشركات الاميركية التي سوف ستفيد من هذا الانفتاح الاقتصادي تقع في واحدة او اكثر من « المحظورات » المدرجة اعلاه . وقد بدأت بوادر الاصطدام بين احكام المقاطعة العربية وتوجه الشركات الاميركية الى مصر في المسألة التي اثيرت حول شركة فورد . ففي شهر تشرين الاول الماضي قام وفد من الشركة بزيارة الى مصر في محاولة لتأسيس مصنع لصناعة السيارات والجرارات . ومن المعروف ان شركة فورد مدرجة في القائمة السوداء ومقاطعة عربيا منذ العام ١٩٦٦ . وننقل فيما يلي المعلومات التالية عن هذا الموضوع :

بدأت قصة فورد بوصول معلومات الى المكتب الاقليمي للجمهورية العربية المتحدة نقلها الى المكتب الرئيسي ، مفادها ان اسرائيل تفاوض مع فورد لانشاء مصنع تجميع سيارات النقل والجرارات . وتقول « الاهرام » (١٩٦٦/١١/٢٤) « انه اذا تم الاتفاق فان فورد ستكون اول شركة اميركية كبرى تنشىء لها مصنعا في اسرائيل ... وفي فترة التحقيق والتحري نهجت فورد اسلوبا غريبا في محاولتها لتوجيه ضربة للمقاطعة وشل اية حركة لها . وبعد انقضاء فترة الانذار المعتادة قررت مكاتب المقاطعة ادراج اسمها على قائمة الشركات الممنوعة من التعامل مع البلاد العربية . وظهر ان الهدف من بناء هذا المصنع هو انتاج سيارات شحن في اسرائيل لاهداف عسكرية وتسهيل انتقال قواتها من منطقة الى اخرى . وذكر ايضا ان البلاد العربية تستورد سنويا ١٤ الف سيارة من انتاج فورد مقابل الف تستوردها اسرائيل . وتقرر ايضا ان تشمل المقاطعة مختلف انواع السيارات التي تنتجها عدة شركات تابعة لها ومصنعين لتجميع قطع السيارات في الاسكندرية والمغرب وكافة وكالاتها في المنطقة العربية ، بالاضافة الى شركات تشرف عليها فورد واهمها شركة فيلكو التي تنتج الادوات والالات الكهربائية المختلفة . وظهرت الحقيقة المذهلة على لسان مسؤول في شركة جنرال موتورز ان شركته لا تسمح بانشاء معامل تجميع لها في اسرائيل خوفا من منع دخول منتجاتها الى البلاد العربية ، واكد ان الضغط الصهيوني بدأ من سنين على شركات السيارات لحملها على انشاء مصانع في اسرائيل ولم ترضخ لهذا الضغط سوى شركة فورد » (هاني الهندي ، المقاطعة العربية لاسرائيل ، ص ص ١١٣ ، ١١٤) .

ان هذه الحقائق جعلت محمد محجوب يصرح ، في اثناء زيارة وفد الشركة الى مصر ، بان شركة

فورد ما زالت مدرجة على اللائحة السوداء وان مصر لا تستطيع ان تتعامل معها . وقال ان الشركة طلبت من مكتب المقاطعة في شهر ايلول ١٩٧٥ رفع اسمها من اللائحة السوداء ولكن المكتب لم يرد على الطلب الى الان (« النهار » ٢٢/١٠).

والجدير بالذكر هنا ان الرأسمال الاميركي تأثيره الحاسم على صنع القرار السياسي في الولايات المتحدة دفع الادارة الاميركية الى الوقوف في وجه المقاطعة العربية سواء لمصلحة اسرائيل ام لمصلحة الرأسمال الاميركي نفسه . ففي العام ١٩٦٤ بدأت حملة في الكونجرس لاصدار تشريعات مناهضة لانظمة المقاطعة . وفي العام ١٩٦٥ صدر قانون صدقه الرئيس جونسون يتوجب بموجبه على المصدرين ابلاغ وزارة التجارة ضمن مهلة ١٥ يوما عن اي طلب من دولة اجنبية يتعلق بمقاطعة دولة اجنبية اخرى او يفرض اي حد على حرية التجارة مع دولة ما (المصدر نفسه ، ص ١١٠). والان بعد الهجمة الاميركية الجديدة على المنطقة العربية تشتد الحاجة الى تدخل الادارة الاميركية تدخلا اكثر فاعلية في التصدي لاحكام المقاطعة العربية . وقد ظهرت بوادر ذلك في الشهر الماضي عندما وافقت احدى لجان مجلس الشيوخ الفرعية على مشروع قانون يعطي الحكومة مزيدا من السلطة للعمل ضد الشركات الاميركية التي تمتثل لمقاطعة اقتصادية تفرضها دولة اجنبية . وقال السناتور هاريسون وليامز احد المشتركين في تقديم مشروع القانون ان هناك حاجة الى سلطات تنفيذية اقوى لأن الحكومة الاميركية لا تفعل غير القليل لتشجيع الشركات على عدم الاذعان للمقاطعة . ويمنع مشروع القانون الشركات الاميركية من رفض التعامل مع شركات اميركية اخرى بسبب اي تهديد بالمقاطعة . كما انه يلزم الشركات بان تبلغ الحكومة اذا كانت ستمتثل لطلبات المقاطعة ويلزم مشروع القانون ايضا الحكومة بنشر التقارير عن الشركات التي تمتثل للمقاطعة . (« السفير » ١٨/٩ ، نقلا عن « رويتر ») . ومن الواضح ان المقصود بهذا القانون المقاطعة العربية تحديدا .

عصام سخنيني

(٢) القضية الفلسطينية دوليا

ما زالت التطورات الدولية المتعلقة بالقضية الفلسطينية تتفاعل وتنكشف بصفتها ذيول ونتائج لاتفاقية سيناء الاسرائيلية — الساداتية . ومن الاحداث الهامة التي جرت خلال الفترة الاخيرة في هذا المضمار هي زيارة الرئيس السادات للعواصم العربية الرئيسية (واشنطن ، باريس ولندن) وتستمد هذه الرحلة خطورتها واهميتها ليس من كونها مجرد زيارة يقوم بها رئيس دولة الى بضع عواصم هامة بل من كونها جاءت تكريسا لكافة المعاني التراجعية والمغازي التنازلية التي تضمنتها اتفاقية سيناء ، هذا بالاضافة الى كون الجولة رمزا يعلن ويؤكد من آن واحد نهج السياسة الساداتية المتجه بسرعة متزايدة نحو الالتقاء الكلي مع اهداف الامبريالية الاميركية في منطقتنا . قبل التطرق الى تفاصيل رحلة السادات « نحو الغرب » لا بد من الاشارة الى بعض العناصر الهامة في الاجواء السياسية التي احاطت بانطلاق جولته . اولا ، هناك الزيارة السريعة والقصيرة التي قام بها الرئيس الاسد الى موسكو في الاسبوع الثاني من تشرين الاول المنصرم على رأس وفد سياسي وعسكري كبير وعلى مستوى رفيع من الاهمية . اكتسبت زيارة الرئيس الاسد اهميتها الخاصة من عدة عناصر اهمها كون الوفد المرافق ضم بين اعضائه ممثلين عن الحكومة السورية وحزب البعث العربي الاشتراكي ووزير الدفاع ، ومن قيام الزعامة السوفياتية اللائقة باستقبال الرئيس الاسد بكامل هيئتها . وعلى الرغم من ان المحادثات في موسكو احيطت بتكتم كبير اكدت مصادر دبلوماسية ان المحادثات تطرقت الى الخطورة التي يتصف بها الوضع الحالي في الشرق الاوسط على اثر توقيع اتفاقية سيناء والصدع الكبير الذي تركه هذه الخطوة المنفردة في علاقات التضامن العربي وخاصة العلاقات السورية المصرية . ولا شك ان البحث في هذا الموضوع قد تناول الحرب الاهلية في لبنان واحتمالات احتلال اسرائيل لجنوب لبنان وتهديدها بذلك امن سوريا ، يضاف الى ذلك مسألة الاتفاقات السرية الاميركية الاسرائيلية المتعلقة بشحنات الاسلحة الهجومية المتقدمة جدا (مثل صواريخ بيرشنغ) والتي تشكل تهديدا ضخما للعواصم العربية . كذلك تطرقت محادثات الاسد

الى الطريق المسدود الذي وصلت اليه محـاولات ايجاد حل للقضية الفلسطينية نتيجة السياسـة الساداتية كما عكستها اتفاقية سيناء . وعلى اثر انتهاء زيارة الرئيس الاسد صدر بيـان اعلن : (أ) ان الاتحاد السوفياتي وسوريا متفقان اتفاقا تاما حول الوضع في الشرق الاوسط . (ب) تصميـم البلدين على بذل كل الجهود اللازمة لاستعـادة الحقوق المشروعة للدول العربية والشعب العربي وتأمينها بما في ذلك حقوق الشعب العربـي الفلسطيني . (ج) تصميم الجانبين على الاستمرار في تعزيز الصداقة بين البلدين (د) ان المحادثات جرت في جو من الصداقة والود والتفاهم المتبادل . وجدير بالاشارة ان وزير خارجية سوريا ودفاعها تخلفـا في موسكو بعد انتهاء الزيارة لاجراء المزيد مـن المشاورات مع المسؤولين السوفيات مما يعني ان المسائل العسكرية قد احتلت حيزا مهما مـن المحادثات السورية السوفياتية . وجدير بالاشارة كذلك ان المصادر الاسرائيلية اعتبرت هدف هـذه الزيارة القضاء على « السلام الاميركي » في المنطقة ثانيا ، التصريحات التي ادلى بهـا رابين حـول جبهة الجولان وذلك قبل سفر الرئيس السادات بحوالي اسبوع . كان اهم ما جاء في اقوال رابين ما يلي : (أ) ان حكومه لا ترى اي امكان لاجـراء مفاوضات مع سوريا هدفها تحقيق تسوية مؤقتـة شبيهة باتفاق سيناء . (ب) انه في حال دخـول سوريا واسرائيل في مفاوضات حول الجولان ستطلب اسرائيل من سوريا اكثر بكثير من مجرد الالتـزام « بعدم اللجوء الى التهديد او استعمال القوة » كما هو وارد في الاتفاق مع النظام المصري ، ذلـك « لان العلاقات مع سوريا لا تشبه اصلا علاقـات اسرائيل بمصر » . وأشار رابين كذلك الى مـا اسماه بالعمق الضيق في جبهة الجولان وموقف سوريا المتصلب تجاه اسرائيل (ج) ان زيارة الرئيس الاسد الى موسكو على قدر كبير جدا من الاهميـة السياسية والاستراتيجية لان هدف البلدين هو تنسيق سياساتهما في المنطقة بهدف نسف اتفاق سينـاء (د) بان الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي لـن يتعاونا في الضغط على سوريا واسرائيل من اجـل التوصل الى اتفاق حول الجولان . ثالثا ، الخطاب الذي القاه الرئيس السادات قبل بدء رحلته بفترة قصيرة حيث حاول تقديم تغطية سياسية تخفف من وقع زيارته بالنسبة للقضايا الوطنية والقوميـة الكبرى . لذلك تعمد السادات — في خطابـه المذكور — ايراد اشارات ودية الى الفلسطينيين والى التزامات مصر بالقضية الفلسطينية لكن على الرغم من هذا فقد اتهم القيادات الفلسطينية ومنظمة التحرير بالوقوع تحت تأثير مدخلات الاطراف العربية الاخرى وضغوطها . وفي الوقت ذاته زعم الرئيس المصري ان المفاوضات التي ادت الى اتفاق سيناء لم تكن باسم مصر وحدها بل باسم سوريا وفلسطين ايضا ولذلك تعهد الرئيس فورد باسم الحكومـة الاميركية بانجاز فك ارتباط مماثل على الجبهـة السورية وباتخاذ خطوة نحو الاعتراف الاميركي بحقوق شعب فلسطين . بالاضافة الى ذلـك عبر عن قلقه من تصعيد اميركا لتسليح اسرائيـل نوعيا وكما لان مثل هذا الاجراء « لا يتفق مـع الدور الذي تقوم به الولايات المتحدة الان فـي المنطقة » كما اكد استمرار سياسة الانفتاح علـى الغرب و « تحرير القطاع العام » الى اخر ذلك من الاجراءات الداخلية التراجعية التي اصبحت عنوانا للسياسة الساداتية .

ننتقل الان الى رحلة السادات نفسهـا التـي ابتدأت في الاسبوع الاخير من شهر تشرين الاول وهي الرحلة الاولى من نوعها التي يقوم بهـا رئيس جمهورية مصري الى الولايات المتحدة ، اي البلد الذي مكن اسرائيل من الانتصار على مصـر وغيرها من الدول العربية في ثلاث حروب وباحتلال قسم من الاراضي العربية . شملت رحلة السادات زيارة عدة مدن اميركية رئيسية بالاضافة الـى واشنطن مثل نيويورك وشيكاغو وهيوستون فـي تكساس . وعشية بدء الرحلة وصفت اجهـزة الاعلام المصرية قمة واشنطن الاميركية — المصرية بانها في مستوى من الاهمية لا يقل ابدا عن قمـة سالزبورغ اذ ان القمة الاولى نجحت في وضـع الاسس اللازمة لتحقق اتفاق سيناء في حـين ستضع قمة واشنطن الاسس اللازمة لمتابعة الجهود الاميركية من اجل التوصل الى حل شامـل للنزاع في المنطقة وعبر انجاز فك ارتباط جديد في جبهة الجولان وارساء الاسس المطلوبة بحل القضية الفلسطينية . اما الاعلام الاميركي فقد عد الزيـارة محاولة من جانب النظام المصري لتعزيز علاقاته بالولايات المتحدة على امل تحقيق تسوية سلمية في الشرق الاوسط « وانقاذ مصر من حالة الفقر التـي تعانيها » . واعتبر الاعلام الاميركي الزيارة تتمـة طبيعية « لعمل السادات الجريء » بتوقيع اتفـاق سيناء « مما ادى الى فصل مصر عن عربة الحرب العربية مع اسرائيل » . ومع ان قمة واشنطن هي

سمة طبيعية للاحداث السابقة فقد رأت فيها الاوساط الاعلامية الامريكية عملا جريئا اخر يقوم به السادات ويوازي في اقدامه خطوة توقيع اتفاق سيناء لان زيارة واشنطن هي « تمهيد للطريق امام صداقة فريدة من نوعها مع الولايات المتحدة التي كانت حتى وقت قريب عدو مصر اللدود » واشارت هذه الاوساط الى ان الصداقة المذكورة يمكن ان تتحقق بمساعدة اميركا لمصر على حل مصاعبها الاقتصادية وبتدفق الخبراء ورؤوس الاموال الغربية على البلد. هنا تجدر الاشارة الى الملاحظات التي ابدتها صحيفة « النيويورك تايمز » حول الزيارة حيث اشارت الى ان الرئيس السادات قد لايخرج الا بخيبة امل نتيجة جولته لان الالتزامات الاميركية امام اسرائيل لا تسمح بتقديم الكثير الى مصر خاصة على صعيد المعونات العسكرية . ولم يفت الصحيفة الاشارة ايضا الى مصاعب السادات الناجمة عن « عزلته عن اشقائه العرب » . اما الصحافة الاسرائيلية فقد باركت جولة السادات عشية انطلاقها معبرة اياها مساهمة في تعزيز احلال الوجود الاميركي محل الوجود السوفياتي في منطقتنا اذ ان اسرائيل « تفضل الوجود الغربي في القاهرة على الوجود السوفياتي »

كانت اول محطة في جولة السادات هي باريس حيث اجرى محادثات مع الرئيس ديستان وكبار المسؤولين الفرنسيين . وقد تناولت محادثات السادات في العاصمة الفرنسية اخر تطورات الموقف في الشرق الاوسط على ضوء اتفاقية سيناء والخطوات المقبلة التي يجب اتخاذها من اجل الوصول الى حل دائم وشامل لازمة المنطقة ، هذا بالاضافة الى تعزيز العلاقات الثنائية بين البلدين وخاصة على المستويين العسكري والاقتصادي . واثناء وجوده في باريس ادلى السادات بتصريحات قال فيها بأنه ما زال يسعى الى تنويع مصادر اسلحة مصر لان القوات المصرية لم تتلق اية اسلحة سوفياتية منذ فترة طويلة . كذلك اكد بانه يعتزم الطلب من الولايات المتحدة عقد اتفاق للتسلح مع مصر مماثل للاتفاق الذي تم عقده مع فرنسا لانه بدون مثل هذه الخطوة لا يمكن لقرار تنويع مصادر التسلح من ان يكون ناجحا . وقبل مغادرته العاصمة الفرنسية اكد السادات ايضا : (أ) ان التطابق في وجهات النظر المصرية والفرنسية يعتبر كاملا بشأن النقاط التي جرى التباحث حولها . (ب) ان فرنسا وبريطانيا موافقتان على كل طلبات مصر المتعلقة بالسلاح (ج) ان سياسة مصر ترفض منطق الصداقات او العداوات التقليدية وفي هذا غمز من قناة الاتحاد السوفياتي (د) ان حزب البعث في سوريا « يرتدي قميص القضية الفلسطينية لانه يعاني من مأزق على الصعيدين الداخلي والعربي » .

من باريس انتقل الرئيس المصري الى واشنطن حيث جرى له استقبال حار وعلى مستوى رفيع جدا وفقا لمعايير البروتوكول الدبلوماسي الاميركي ، وبالاضافة الى المحادثات التي اجراها مع الرئيس فورد ووزير خارجيته كيسنجر وغيرهما من كبار المسؤولين ورجال الاعمال الامريكيين القى خطابا امام الجمعية العمومية لهيئة الامم ، وخطابا اخر امام جلسة مشتركة للكونغرس ومجلس الشيوخ في واشنطن . يضاف الى ذلك تلك السلسلة الطويلة من الاحاديث الصحفية والتصريحات الاعلامية والخطابات الجانبية التي حفلت بها زيارة السادات لاميركا . فيما يتعلق بخطابه امام الجمعية العمومية فقد كان اهم ما جاء فيه اعلانه عن عزم مصر تقديم مشروع قرار الى هيئة الامم يطلب دعوة منظمة التحرير الفلسطينية للاشتراك في اعمال مؤتمر جنيف ومناقشاته وذلك على قدم من المساواة مع بقية المشتركين في المؤتمر . وقد عارضت منظمة التحرير هذا الموقف لان مؤتمر جنيف ينعقد على اساس قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ .

أما بالنسبة لخطاب السادات امام السلطة التشريعية الاميركية بشقيها فقد انطوى على النقاط التالية : (أ) دعوة الولايات المتحدة الى مراعاة مصالحها الحقيقية في الشرق الاوسط بعدم اغضاب الجانب العربي واخذه بعين الاعتبار عند وضع السياسة الاميركية في المنطقة. (ب) دعوة الكونغرس الى منح الشعب الفلسطيني تفهمه وتأييده لان اتخاذ الولايات المتحدة موقفا مؤيدا للفلسطينيين وحقهم في انشاء وطن قومي لهم من شأنه الاسهام بشكل كبير في ايجاد حل سريع لمشكلة الشرق الاوسط . (ج) التأكيد على ان المشكلة الفلسطينية هي لب النزاع في المنطقة وبدون حلها لا يمكن تسوية اي من المشاكل العالقة الاخرى . (د) اعرب عن ارتياحه لبعض العلامات المشجعة التي لاحظها من جانب البرلمانيين الامريكيين « الذين اخذوا يظهرون اهتماما فعليا في القضية الفلسطينية » وجدير بالاشارة ان السادات لم يذكر كلمة الصهيونية على الإطلاق في خطابه .

والاهم من الخطابات الرسمية التي القاها

السادات هو المعاني التي حملتها تصريحاته واحاديثه الصحفية والاعلامية الكثيرة اثناء الزيارة ويمكننا تلخيص اهم الافكار والنتائج التي برزت في هذا الميدان بما يلي: (أ) ان ما درج السادات والمسؤولون المصريون على وصفه بانه تعهدات اميركية لتحقيق اتفاق فك ارتباط في جبهة الجولان والاعتراف بمنظمة التحرير كممثلة للشعب الفلسطيني ليست سوى مطالب مصرية لم يتحقق شيء منها حتى الان اذ بين السادات بأنه طلب من الرئيس فورد خلال اجتماعه به قيام الحكومة الاميركية بتشجيع انجاز فك الارتباط المطلوب في الجولان وبدء الحوار مع منظمة التحرير. الا ان المطالب المصرية بقيت مطالب تماما كما بقي سؤال السادات السابق — حول ما اذا كانت اميركا تحمي اسرائيل داخل حدودها السابقة (قبل حرب ٦٧) ام الموسعة — بدون جواب حتى الان (ب) مطالبة جميع القوى الاجنبية والعربية بعدم التدخل في الازمة التي تعصف بلبنان حاليا. (ج) انه لم يتقدم بطلبات محددة بالنسبة للاسلحة التي يعتزم شراءها من الولايات المتحدة وان محادثاته مع فورد ومع وزير الدفاع السابق شليزنغر تناولت هذا الموضوع بعبارات عامة فقط مع الطلب الى الرئيس الاميركي بذل مساعيه الحميدة لاقناع حلفاء اميركا في اوروبا الغربية واليابان لمساعدة مصر عسكريا واقتصاديا (د) ان هدفه على الصعيد الاقتصادي هو الحصول على معونات اميركية حكومية وخاصة لاعادة بناء اقتصاد مصر، لذلك طمأن السادات رجال الاعمال الاميركيين على مستقبل توظيفاتهم المقبلة في مصر التي ستكون في مأمن من التأميم والمصادرة ونزع الملكية خاصة وان حكومته تعمل حاليا على اعادة صياغة قوانينها وانظمتها على ضوء سياسة الانفتاح الاقتصادي التي ستدعي دخول الرساميل الاجنبية للعمل في مصر. وللتأكيد على هذا الموضوع الحساس اشار السادات الى توقيع حكومته على اتفاقية حماية الاستثمارات بين مصر والولايات المتحدة وانضمام بلاده الى الاتفاقية الدولية المتعلقة بالنزاعات حول الاستثمارات في بلدان اجنبية كما اكد ان حكومته تبذل كل جهدها لترغيب رجال الاعمال للقدوم الى مصر. (هـ) ان علاقات مصر مع الاتحاد السوفياتي مجمدة من الناحية الاستراتيجية ومن هنا اهمية تقدم الولايات المتحدة والغرب عموما لملء هذا الفراغ. (و) ان مصر اعترفت بوجود اسرائيل كحقيقة واقعة عندما وافقت على قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢، لذلك فان حكومته تعارض طرد اسرائيل من الامم المتحدة.

وعند انتهاء زيارته الاميركية عقد الرئيس السادات مؤتمرا صحفيا وداعيا امام الصحفيين المصريين قال فيه بان زيارته الى الولايات المتحدة كانت ناجحة مئة بالمئة ضمن الاهداف التي حددها للزيارة واعترف بان المحادثات لن تؤدي الى اية اتفاقات محددة مع السلطات الاميركية لان الوصول الى مثل هذه الاتفاقات سيتطلب محادثات اضافية في المستقبل وبالنسبة لقضية الشرق الاوسط قال بان الاتفاق قد تم مع اميركا كي تكون الخطوة التالية في جهود السلام هي تحقيق الحل النهائي الشامل للنزاع خاصة وان الرئيس فورد « ملتزم بفكرة التسوية القائمة على اسس عادلة » واضاف السادات ان مناقشة تفاصيل هذا الامر متروكة لمؤتمر جنيف الذي ستحضره كل الاطراف، وامتدح السادات كيسنجر مجددا قائلا بانه رجل شريف واصيل وقوي بالاضافة الى كونه رجل دولة فعلا.

خلافا لما كان متوقعا لم يصدر اي بيان مشترك حول الزيارة بل استعيض عنه بمؤتمر صحفي اجراه جوزيف سيسكو حيث قيم زيارة السادات ونتائجها. وكان اهم ما جاء في حديث سيسكو النقاط التالية: (أ) ان وزارة الخارجية الاميركية ستجري مشاورات حول « المسألة السورية — الاسرائيلية » وقد استدعت واشنطن سفيرها في دمشق لهذا الغرض. (ب) ان الرئيس فورد اكد للرئيس السادات مجددا استعداد حكومته لبذل الجهود اللازمة لترى ما اذا كان بالامكان اجراء مفاوضات بين سوريا واسرائيل. (ج) انه لا توجد اية نوايا او مشاريع لعقد اجتماع بين الرئيسين فورد والاسد في المستقبل القريب. (د) ان محادثات الرئيسين تناولت رغبة السادات في تنويع مصادر اسلحة بلاده، الا ان الرئيس المصري لن يتقدم باية طلبات معينة ولم يحصل على اية التزامات محددة في هذا الشأن. (هـ) ان فورد اكد لضيفه عزم مواصلة حكومته مشاوراتها مع الاطراف المعنية لاستئناف مؤتمر جنيف. (و) ان البلدين وقعا بالاحرف الاولى اتفاقا تشتري بموجبه مصر مفاعلين نووين اميركيين لاستخدامهما في الاغراض السلمية فقط. وقد تضمن الاتفاق ضمانات صارمة لمنع استخدام المفاعلين لغير الاغراض السلمية. (ز) ان الرئيسين اتفقا على الا يتفقا حول موضوعين اساسيين هما طبيعة الصهيونية وطبيعة حقوق الشعب الفلسطيني، خاصة وان الحكومة الاميركية تعارض قرار هيئة الامم اعتبار الصهيونية حركة

عنصرية ومشاركة منظمة التحرير في اي من المشاورات الدولية المتعلقة بحل ازمة الشرق الاوسط لان المنظمة لا تعترف باسرائيل . ويبدو واضحا ان حصيلة زيارة السادات كانت متواضعة خاصة بالقياس الى الضجيج الذي رافقها والتفخيم الذي اعطاها ايجابيات ضخمة . فالمساعدات التي وعدت واشنطن بتقديمها الى مصر ضئيلة جدا بالقياس الى احتياجات البلد الفعلية والى الامال التي علقها النظام الساداتي على تحالفه الجديد مع اميركا .

بالنسبة للجانب الاميركي فقد صدرت عدة تصريحات ومواقف مرتبطة اما بصورة مباشرة او غير مباشرة بزيارة السادات ، وكان اهم هذه التصريحات المؤتمر الصحافي الذي عقده فورد اثناء وجود السادات في البلاد حيث قال بان حكومته لا يمكن ان تقدم على اية اتصالات بمنظمة التحرير او اشراكها في محادثات السلام قبل اعتراف المنظمة بدولة اسرائيل . ومن الواضح ان كلام فورد هو الرد المباشر على دعوة السادات الحكومة الاميركية للاعتراف بمنظمة التحرير والتحاور معها . كذلك اشاد فورد بقرار الرئيس المصري « الجريء » القاضي بالتحول من سياسة المواجهة مع اسرائيل الى سياسة المفاوضات ، واعلن بانه يأمل بزيارة مصر ودول شرق اوسطية اخرى في العام المقبل . وجدير بالاشارة ايضا ان الرئيس فورد اجرى تبديلات هامة في وزارته وفي مراكز حكومية حساسة اخرى (باقالة وزير الدفاع ومدير وكالة الاستخبارات) اثناء وجود السادات في اميركا . الا انه لا يتوقع المراقبون ان ينتج عن هذه التغييرات اي تبديل في السياسة الاميركيه في منطقتنا . في الواقع يعتبر وزير الدفاع الجديد اكثر تعاطفا مع اسرائيل من شليزنجر وقد فتح الابواب امام تزويد اسرائيل بالمعدات العسكرية المتقدمة جدا اكثر مما كانت ممنوحة سابقا . كل ذلك اثناء وجود الرئيس السادات على الارض الاميركيه .

بعد واشنطن زار الرئيس السادات العاصمة البريطانيه حيث اجرى محادثات مع رئيس الوزراء وكبار المسؤولين حول العلاقات الثنائية بين البلدين والمساعدات العسكريه والاقتصادية التي يمكن ان تقدمها بريطانيا لمصر ، بالاضافة الى امكان اشتراكها مع فرنسا في مؤتمر جنيف للسلام واشارت الانباء الى ان الولايات المتحدة ربما تكون قد اعطت الضوء الاحمر الى الحكومة البريطانية بخصوص بيع مصر حوالي ٢٠٠ طائرة قاذفة — مقاتلة من نوع جاغوار والتي يسعى السادات للحصول عليها . كذلك ذكرت الانباء بان الرئيس المصري ناقش القضية الفلسطينية مع ويلسون وحثه على الدخول في حوار مع منظمة التحرير . وخلال وجوده في لندن اعلن السادات (أ) بانه يريد اشتراك بريطانيا في مؤتمر جنيف خاصة بالنسبة لتقديم الضمانات الدولية المطلوبة لاقرار السلام النهائي في المنطقة وان حكومته لن تطالب بريطانيا بالتخلي عن علاقاتها مع اسرائيل ، بل ستطالبها فقط «باتخاذ نظرة موضوعية الى مشكلة الشرق الاوسط » (ب) ان العلاقات التي يقيمها السادات مع الغرب عموما هي علاقات استراتيجية وليست تكتيكية ، ولذلك تدعو مصر رجال الاعمال ورؤوس الاموال الانكليزية الى العمل والاستثمار في مصر علما بان كافة الضمانات لحفظ سلامة هذه الاستثمارات وارباحها اصبحت متوفرة. وفي مؤتمره الصحافي الختامي اكد السادات بانه راض كل الرضى عن رحلته الى الغرب وان بريطانيا قادرة على القيام بدور كبير في الابقاء على زخم التحرك نحو السلام في الشرق الاوسط في الفترة التي ستجمد فيها الجهود الاميركية لمدة عام كامل بسبب انتخابات الرئاسة المقبلة .

بالنسبة للجانب البريطاني اعلن جيمس كالاهان وزير الخارجية : ان بلاده تؤيد السياسة التي ينتهجها السادات بشأن تنويع مصادر التسليح وان العلاقات الثنائية بين البلدين قد تحسنت كثيرا وبوسع بريطانيا ان تقدم قدرا كبيرا من المساعدات الفنية والمعونات الاقتصادية لمصر . وبالنسبة لموضوع مشاركة منظمة التحرير في مؤتمر جنيف كرر كالاهان الموقف الاميركي بحرفيته حين قال ان هذه المسألة خاضعة لموافقة باقي اطراف النزاع . وذكرت الانباء الصحفية على لسان مسؤول بريطاني كبير ان مصر لن تقدم على اي عمل عسكري ضد اسرائيل في السنوات المقبلة بسبب اتفاقية سيناء وان مصالح الغرب واسرائيل تقتضي تزويد مصر ببعض الاسلحة « حتى لا تقع تحت السيطرة السوفياتية ثانية » .

□ على صعيد اخر بدأت الجمعية العمومية لهيئة الامم مناقشتها للقضية الفلسطينية بحضور وفد يمثل منظمة التحرير برئاسة فاروق القدومي وقد شهدت المنظمة الدولية نشاطا كبيرا وتطورات دراماتيكية ادت الى انتصارات دبلوماسية هامة

لصالح منظمة التحرير والشعب الفلسطيني . علق الناطق بلسان وفد منظمة لتحرير — شفيق الحوت — على اقتراح السادات بدعوة المنظمة للاشتراك بمؤتمر جنيف قائلا ان المنظمة ترفض الاشتراك في اي مؤتمر حول ازمة الشرق الاوسط يستند الى قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ واشار الى التعثر الكبير الذي اصاب مؤتمر جنيف منذ نجاح سياسة كيسنجر في شق التضامن العربي عبر اتفاقية سيناء . والقى رئيس وفد منظمة التحرير كلمة فلسطين امام الجمعية العمومية حيث اكد من جديد ان هدف الشعب الفلسطيني هو انشاء الدولة العلمانية الديمقراطية على كامل التراب الفلسطيني ، وهاجم بعنف السياسة الاميركية في المنطقة متهما اياها بالتصميم على « اسقاط غصن الزيتون الذي حملناه في يدنا العام الماضي » ، كما اكد رفض المنظمة الحلول الجزئية « مثل اتفاقات فك الارتباط وسياسة الخطوة خطوة » . كذلك شدد القدومي بانه لا يمكن ان يتحقق السلام في الشرق الاوسط بدون الاعتراف بالحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني كما انه لا يمكن لاي مؤتمر دولي مناقشة قضية فلسطين في معزل عن منظمة التحرير او في غيابها اما المندوب الاميركي فقد كرر موقف بلاده المعروف ، اي الذي يرفض الاعتراف بمنظمة التحرير كممثلة للشعب الفلسطيني ، ويرفض قرار الجمعية العمومية رقم ٣٢٣٦ ، ولا يقر مشاركة منظمة التحرير في مؤتمر جنيف الا بعد موافقة اسرائيل على ذلك ، كما يعارض كل اتجاه من جانب الجمعية العمومية لتعديل قرارات مجلس الامن التي فرضت الاطار الذي ينبغي تسوية مشكلة الشرق الاوسط من ضمنه وهو اطار لا يعترف بالفلسطينيين الا كلاجئين .

من جهة اخرى ، وبناء على معارضة منظمة التحرير وسوريا لمشروع القرار الذي تقدم به الوفد المصري للجمعية العمومية (والذي يطالب بدعوة المنظمة للمشاركة في مؤتمر جنيف) فقد سقط هذا المشروع عربيا وجرى استبداله بمشروعين اخرين حازا على موافقة سوريا ومنظمة التحرير بالاضافة الى الدول العربية الاخرى ومسايرة مصر . نص المشروع الاول على النقاط التالية : (أ) تأكيد الجمعية العمومية من جديد للقرار الصادر عنها (رقم ٣٢٣٦) في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٧٤ حيث جرى تأكيد اعتراف الجمعية بالحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني . (ب) ان اقرار هذه الحقوق يشكل شرطا مسبقا لاي سلام دائم وعادل في المنطقة . (ج) ان اشتراك الشعب الفلسطيني في كل الجهود والمشاورات الهادفة الى السلام في الشرق الاوسط مسألة اساسية ولا غنى عنها . (د) التمني على مجلس الامن اتخاذ القرارات والاجراءات الضرورية من اجل اتاحة لفرصة أمام الشعب الفلسطيني لممارسة حقوقه الوطنية الثابتة وفقا لقرار الجمعية العمومية رقم ٣٢٣٦ (ه) المطالبة بدعوة منظمة التحرير باعتبارها ممثلة الشعب الفلسطيني للاشتراك في كل الجهود والمشاورات والمؤتمرات المتعلقة بالشرق الاوسط والمنعقدة تحت رعاية الأمم المتحدة وذلك على قدم المساواة مع الاطراف الاخرى واستنادا الى القرار رقم ٣٢٣٦ . (و) التأكيد على ضرورة اتخاذ كافة الاجراءات اللازمة لدعوة منظمة التحرير للاشتراك في اعمال مؤتمر جنيف وكافة الجهود الاخرى الهادفة الى تحقيق السلام . (ز) التمني على الامين العام لهيئة الامم تقديم تقريره بهذا الصدد باسرع ما يمكن . وعند طرح هذا المشروع على التصويت فاز باكثرية ساحقة (٩٣ صوتا مقابل ١٨ وامتناع ٢٧) مما اعتبر انتصارا دوليا كبيرا لمنظمة التحرير والقضية الفلسطينية . وجدير بالاشارة ان بين الدول التي عارضت القرار الولايات المتحدة وبريطانيا والمانيا الغربية وكندا واسرائيل ، في حين امتنعت كل من فرنسا وايطاليا عن التصويت . اما مشروع القرار الثاني الذي جرى تقديمه للجمعية العمومية فقد نص على النقاط التالية : (أ) الاعراب عن قلق الجمعية البالغ بسبب عدم انجاز اي تقدم باتجاه ممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه الثابتة في فلسطين بما في ذلك حقه في تقرير المصير والاستقلال والسيادة الوطنية ، بالاضافة الى حق الفلسطينيين الثابت في العودة الى ديارهم التي اخرجوا منها وممتلكاتهم التي انتزعت منهم . (ب) تشكيل لجنة لمتابعة موضوع اقرار حقوق الشعب الفلسطيني بحيث تقوم هذه اللجنة بالدراسات اللازمة وتقديم التوصيات وبرنامج العمل التي تراها مناسبة من اجل تمكين الشعب الفلسطيني من ممارسة حقوقه المشار اليها . (ح) تقوم اللجنة بعرض تقريرها وتوصياتها على الامين العام في موعد اقصاه اول حزيران ١٩٧٦ على ان يحيل الامين العام التقرير الى مجلس الامن ، كما تعرض اللجنة ملاحظاتها وتوصياتها على الدورة القادمة للجمعية العمومية

(د) ادراج بند بعنوان « المسألة الفلسطينية » في جدول اعمال الدورة القادمة للمنظمة الدولية وعند طرح هذا المشروع على التصويت فـاز باكثرية مائة صوت ومعارضة ٨ اصوات وامتناع ٢٥ دولة عن التصويت ، وابرز الدول التي عارضـت القرار هي الولايات المتحدة والمانيا الغربيـة وبريطانيا وهولنده ، وطبعا اسرائيل .

أما الانتصار الثالث فكـان موافقـة الجمعيـة العمومية على القرار الذي اتخذته اللجنة الاجتماعية في الامم المتحدة باعتبار الصهيونية حركـة عنصرية شبيهة بانظمة الاقليات العنصرية في جنوب افريقيا وروديسيا . وقد عارضت الولايات المتحـدة وحلفاؤها هذا القرار وعملت ما في وسعها لتفشيله الا ان مساعيها لم تنجح اذ صوتت ٧٢ دولـة لصالح القرار وعارضته ٢٥ وامتنعت ٣٢ دولة عن التصويت .

□ التطور الهام الاخر على الصعيد الدولـي هو الرسالة التي وجهتها حكومة الاتحاد السوفياتي في اواخر الاسبوع الثاني من شهر تشرين الثاني الى الحكومة الاميركية وطلبت فيها دعوة مؤتمر جنيف الى الانعقاد بحضور كل الاطراف المعنية وعلى قدم المساواة بما في ذلك منظمة التحرير . وجدير بالذكر ان الرسالة السوفياتية لم تشر فقط الى قـرار مجلس الامن رقم ٣٣٨ المستند الى قراره رقم ٢٤٢ بل اشارت ايضا الى قرار الجمعية العمومية رقم ٣٢٣٦ كأساس لانعقـاد المؤتمـر ، كما انتقدت الرسالة الاجراءات والتسويات الجزئية في المنطقة لان التجربة اظهرت بانها لا يمكن ان تؤدي الـى تسوية ازمة الشرق الاوسط التي تفرض الانسحاب الاسرائيلي الكامل من كل الاراضي العربيـة المحتلة وضمان الحقوق الوطنية الشرعية للشعب الفلسطيني بما فيها حقه في انشاء كيانه الوطني . وجاء الرد الاميركي الاول والمباشر على الرسالة السوفياتية بتصريح لكيسنجر قال فيه بان حكومته لن تقبل التباحث مع منظمة التحرير ما لم تعلن الاخيرة عن نيتها الاعتراف بوجود اسرائيل .

٣ ــ المناطق المحتلـة

مشروع الادارة المدنية

عشية الذكرى السنوية الاولى لدعوة منظمة التحرير الفلسطينية للاشتراك في المناقشات الخاصـة بالقضية الفلسطينية في الامم المتحدة ، اجـرت سلطات الاحتلال الاسرائيلي انتخابات لاختيـار اعضاء مجالس محلية وقروية في الضفة الغربيـة بلغ عددها ٥٧ مجلسا محليا وقرويا . وتعـد سلطات الاحتلال كذلك لاجراء انتخابات لاختيـار اعضاء مجالس بلدية في اذار (مارس) القادم لعدد من مدن الضفة المحتلة .

وليس مهما التوقيت الذي جرت فيه الانتخابات بقدر اهمية المغزى السياسي الذي تريد سلطـات الاحتلال كشفه وبلورته من وراء عملية الانتخابات هذه . اذ انه في الوقت الذي تحرز فيه منظمـة التحرير الفلسطينية المزيد من الانتصارات ويندعم الاعتراف الدولي بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ، تحاول سلطات الاحتلال تمرير مشروعات مشبوهة لحل القضية الفلسطينية ، من عيـار مشروع الادارة المدنية والحكم الذاتي . ويجمـع عدد من المراقبين لسياسات الحكم العسكـري الاسرائيلي في المناطق المحتلة ، ان الانتخابـات البلدية والمحلية هذه ، هي مقدمة لطرح مشروع الادارة المدنية ، كنوع من « رد الرجل » لمنظمة التحرير الفلسطينية ووقف حالة الدعم والالتفاف الشعبيين حولها في الضفة الغربية وغيرها .

ويرجع فكرة الادارة المدنية هذه الى الايـام الاولى التي تولى فيها شمعون بيرس وزارة الدفاع في حكومة رابين الحالية . حيث بدأ بدراسة فكرة الحكم الذاتي مع مساعديه ومع اشخاص اخرين من المناطق المحتلة . وقد اجرى بيرس سلسلـة من اللقاءات مع اشخاص من الضفة الغربيـة وقطاع غزة لهذه الغاية . ونشط بيرس فـي سلسلة اتصالاته هـذه بعد صـدور القرارات

الفلسطينية الشهيرة عن قمة الرباط في اواخر العام ١٩٧٤ . تلك القرارات التي رأت فيها الحكومة الاسرائيلية قلبا لكل سياساته المرسومة ونواياها المبيتة تجاه سكان المناطق المحتلة . الا ان اتصالات بيرس هذه اجريت في ظل ما اسمته الحكومة الاسرائيلية « الفراغ » الناجم عن رفع يد السلطات الاردنية عن الضفة الغربية والتحدث باسم سكانها .

وشملت لقاءات شمعون بيرس مختلف رجال « الزعامة » المحلية في المناطق المحتلة . وكان من بينهم رؤساء البلديات الكبيرة ووزراء اردنيون سابقون واعضاء في مجلس الامة الاردني وشخصيات شغلت مناصب رئيسية في عهد الحكم الاردني . ومنهم الشيخ محمد علي الجعبري رئيس بلدية الخليل والحاج معزوز المصري رئيس بلدية نابلس، والحاج رشاد الشوا رئيس بلدية غزة . وانور الخطيب من القدس وغيرهم . كما اجتمع بيرس وشلومو هلل وزير الشرطة الاسرائيلية الذي كلفه حكومته باجراء وادارة الاتصالات السياسية مع وجهاء المناطقالمحتلة في ذلك الوقت، مع الشخصيات التي عرفت في الماضي باعتدالها وبتأييدها للحكم الاردني او بمعارضتها الشديدة لمنظمة التحرير الفلسطينيه . وكان توقع الوزيرين الاسرائيليين بان هذه الشخصيات ستعرب عن امتنانها لهذه الفكرة، غير انهما اكتشفا بعد انتهاء المحادثات ان هذه الشخصيات المعروفة باعتدالها ومسايرتها التاريخية للعهد الاردني قد رفضت فكرة الحكم الذاتي تحت عوامل وضغوط مختلفة ومتباينة .

ولم يكن هؤلاء هم كل الدين اجتمع بهم الوزير الاسرائيلي ، بل كانوا من اصل عشرات الشخصيات التي استدعيت الى مكتبه في تل ابيب من الضفة الغربية وقطاع غزة . وكان الرأي السائد في عقب هذه المشاورات ان لا منافس لمنظمة التحرير الفلسطينية في المناطق المحتلة .

الا ان وزير الدفاع الاسرائيلي ، وبالرغم من كل ذلك ، لم يوقف اتصالاته برجالات الضفة الغربية وقطاع غزة ، من اجل بلورة زعامة محلية مناقشة لمنظمة التحرير . فقالت صحيفة دافار الاسرائيلية (٧٤/١٢/١٢) بان بيرس يواصل اتصالاته مع الشخصيات الفلسطينية في المناطق المحتلة ويتبادل معها الاراء حول الادارة المحلية ، التي يمكن ايجادها في المناطق المحتلة ، وحول التقديرات السياسية حيال العلاقة مع الاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية واسرائيل .

الى جانب ذلك ، قامت الحكومة الاسرائيلية بعده محاولات لدعم فكرة الادارة الذاتية وتكريسها في اذهان المواطنين في المناطق المحتلة . واهم هذه المحاولات هي :

١ — الغاء مخيمات الفلسطينيين وتوطينهم في المناطق المحتلة ، بغية تصفية القضية السياسية التي يمثلها هؤلاء . فقد اعلن شمعون بيرس نفسه في الكنيست يوم ٧٥/١/١٣ ان الحكم العسكري يصرف ٥٠ مليون ليرة في السنة لتوطين اللاجئين وان هناك خطة شاملة لتوطين ١٧٥ الف لاجىء في غزة حيث سيقام لاجلهم ١٩ حيا سكنيا (معاريف ٧٥/١/١٤) . واعلن بيرس بعد ذلك ان ١٥٠٠ عائلة من اللاجئين في قطاع غزة نقلت للسكن في معسكر اخر في رفح (هآرتس ٧٥/٢/٥) .

٢ — تصفية القوى الوطنية في المناطق المحتلة عن طريق القمع والارهاب ووسائل الاعتقال والابعادات خارج الارض المحتلة .

٣ — الضغط الاقتصادي ضد السكان بهدف دفع الزعامة المحلية لقبول مشروع الادارة المدنية ، وذلك « انقاذا » للوضع .

وكان مشروع الادارة المحلية يعرض على السكان ليس على انه بديل لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وانما كمشروع للخلاص من الحكم العسكري ، ومن هذه الادارة المحلية تنبثق قيادة تكون مؤهلة للتفاوض مع الحكومة الاسرائيلية على « الاستقلال » ومن خلال ذلك طرحت مشروعات عديدة مثل منح صلاحيات ادارة ذاتية لمناطق غزة ونابلس والخليل تركز في جهاز عام تكون له صلاحيات اعلى من مستوى صلاحيات المجالس البلدية حاليا . كما طرحت عدة صور يمكن ان تنفذ من خلالها فكرة الادارة الذاتية ، بتعيين اشخاص من المناطق المحتلة في مناصب ضباط القيادة في الشؤون المدنية في ادارة الحكم العسكري . ووفق هذا الاقتراح يكون ضباط القيادة هؤلاء مسؤولين عن مجالات التعليم والصحة والداخلية وما شابه ذلك في الاطار العام للحكم العسكري . ومن بين الامكانيات كذلك بحث اقتراح لمنح صلاحيات ادارية في المجالات المدنية . وحسب هذا الاقتراح تمنح البلدية صلاحيات في مجال التعليم وبعد ذلك في مجال الصحة وهكذا . وطرحت امكانية اخرى وهي منح صلاحيات في جميع المجالات المدنية مرة واحدة

وبصورة تدريجية . وخلال مدة محددة تنقل جميع الصلاحيات في المجالات المدنية الى السكان المحليين (الشعب ٧٥/٣/٧) .

الا ان فكرة تطبيق مشروع الادارة الذاتية على هذا النحو استبعدت فيما بعد ، وحل محلها مشروع الاعتماد على رؤساء البلديات وذلك لعدم وجود هيئات لها صفة سياسية . لذلك اخذ الحديث يدور حول توسيع صلاحيات البلديات في مجالات تخرج عن نطاق اختصاصها الحالي مثل التعليم والصحة وغير ذلك . كل هذا الى جانب تعيين مدراء عامين من سكان المناطق بحيث يشمل مجال اختصاصهم الضفة الغربية كلها وليس محليا كما هو متبع حاليا . وقالت نشرة رصد اذاعة اسرائيل في حديثها حول هذا المشروع ان منظمة التحرير الفلسطينية تعارض هذا المشروع ، كما ان الاردن يعارضه بالضغط على عدد من الشخصيات الذين يعتقد انهم مرشحون لمنصب مدير عام (ر.ا.أ ٧٥/٤/٩) .

على الجانب الاخر فان سكان المناطق المحتلة من جانبهم ما فتئوا يقاومون هذه المشاريع ويعلنون تمسكهم بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد لهم . وقد عبروا عن ذلك بحملة من البيانات والمنشورات والملصقات ضد مشاريع الاحتلال ومخططاته . فقد اصدر المكتب التنفيذي لـ «المؤتمر الاسلامي العام لبيت المقدس» بيانا ندد فيه بالمحاولة الاسرائيلية لاقامة حكومة محلية في الضفة الغربية . وقد تجلت معارضة مشاريع الادارة الذاتية والحكم الذاتي في مدن نابلس ورام الله وجنين وغيرها . كما ان رؤساء بلديات نابلس وطولكرم وجنين شمالي الضفة الغربية تشاوروا حول بيان سياسي يصدر عنهم ، يعلن معارضتهم لتشكيل حكومة محلية ، ويؤكد اصرار الشعب الفلسطيني على التمسك بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد له. وفي غزة صدر بيان بهذا المعنى بعد تعيين الحكم العسكري للمجلس البلدي في المدينة مؤخرا .

واصدرت الجبهة الوطنية الفلسطينية كذلك بيانا يوم ٧٥/١٠/١٩ حذرت فيه جماهير الشعب الفلسطيني من الانسياق لخطط المحتلين لتحقيق مشروع الادارة المحلية في المناطق المحتلة . وجاء في هذا البيان ان هذا المشروع ليس الا نسخة عن مشروع الون ومشاريع تصفوية مماثلة تردد ذكرها خلال السنوات الماضية ، والتي فشل العدو في تطبيقها وفرضها رغم كل الاجراءات الهمجية التي اتبعها بحق جماهيرنا الفلسطينية، من سجن وملاحقة وابعاد واضطهاد وتعذيب ، مضافة اليها عمليات مصادرة الاراضي والاستيطان فيها وتخريب الاقتصاد الوطني ، وعمليات الافساد وشراء الضمائر . وجاء في ختام البيان بان الشعب الفلسطيني يزداد صلابة وصمودا وسيسقط هذا المشروع ويوحد صفوفه ويعزز قوة الجبهة الوطنية الفلسطينية في الارض المحتلة وسيزيد من التفافه حول منظمة التحرير الفلسطينية ، مبتكرا اساليب واشكالا جديدة ضد الاحتلال على طريق النضال لتحرير الارض وتصفية الاحتلال نهائيا .

واذاع راديو اسرائيل يوم ٧٥/١٠/٢٢ ان التحركات في الضفة الغربية ضد دعوة السلطات الاسرائيلية الى تسليم الادارة المحلية لسكان هذه المناطق ، تجد الان استجابة شديدة حتى من قبل الجهات التي كانت تعد مقربة او متفاهمة مع السلطات الاسرائيلية . ومن ابرز ردود الفعل على تحركات السلطات الاسرائيلية جاءت من صحيفة القدس التي وصفتها الاذاعة الاسرائيلية بانها « متزنة جدا » حيث قالت الصحيفة : « ان دعوة الوزيرين الون وبيرس الى اعطاء حكم ذاتي لسكان الضفة الغربية هي مؤامرة جديدة على هذه المنطقة . والمعروف ان هذين الوزيرين يعدان من ابرز الشخصيات التي كانت تعارض الاعتراف بالحقوق السياسية للشعب الفلسطيني . وقالت الصحيفة كما جاء على لسان الاذاعة الاسرائيلية « لن تمر دعوة الوزيرين مرور الكرام في هذه المنطقة ، ولن نسكت الا بعد زوال الحكم العسكري الاسرائيلي » .

وعلى العموم ، فاننا نعتقد ان مشروع الادارة المحلية لم يتعد الى الآن نطاق المداولة وسبر ردود الفعل المختلفة لدى كل الاطراف المعنية . ونعتقد ان فكرة الادارة هذه لم يتعد نطاق مؤيديها على الصعيد الاسرائيلي نفسه صاحبها ومؤدلجها شمعون بيرس . فهي الى جانب المقاومة الشعبية العنيفة التي تواجه بها في الشارع وفي كل مكان من المناطق المحتلة ، لم تنل حتى الان موافقة الحكومة الاسرائيلية .

وفوق ذلك كله فاننا نعتقد مرة اخرى ان اقدام الحكومة الاسرائيلية على اقرار افكار بيرس ودفعها الى الصعيد العملي ، ستكون مغامرة حقيقية من جانب الاسرائيليين . فاذا ما قدر لها ان تلاقي بعض

النجاحات الشكلية ، فانها ستحرق كل الرموز البشرية التي ستشارك بها جماهيريا ، وتقطع كل صلة لها بسكان المناطق المحتلة عبر هذه « الرموز » التي درجت سابقا على التعامل مع السكان عبرهم وبواسطتهم .

تجدد الانتفاضة الشعبية

وايضا ، في الذكرى السنوية الاولى لدعوة منظمة التحرير الفلسطينية للاشتراك بمناقشة القضية الفلسطينية في الامم المتحدة ، التهبت الضفة الغربية مرة اخرى بمظاهرات طلابية وشعبية . فمنذ يوم ٧٥/١١/٧ وحتى كتابة هذا التقرير (٧٥/١١/١٧) ، ما زالت المظاهرات الطلابية وما يصاحبها عادة من اغلاق المحلات التجارية وانقطاع العمال عن اعمالهم ، مستمرة دون توقف بل وتزداد اتساعا وشمولا في مختلف مدن الضفة الغربية . وكما في العام الماضي كانت حناجر الطلاب تدوي بالهتاف لمنظمة التحرير الفلسطينية، دوت هذه السنة حناجر الطلاب وافئدتهم بالهتاف للمنظمة ، تحت اعلام فلسطين التي ارتفعت على ساريات الاعلام في المدارس. والى جانب الشعارات المؤيدة للمنظمة رفعت هذه السنة شعارات تندد بالصهيونية وبالحكم العسكري ومشروع الادارة الذاتية . وقد اتخذ المتظاهرون من تجدد حديث سلطات الاحتلال عن مشروع الادارة المدنية ، مناسبة لتبيان حقيقة مشاعر الجماهير الفلسطينية تجاه هذا المشروع — المؤامرة من جهة ولمحضهمنظمة التحرير الفلسطينية مجددا ثقة الجماهير الفلسطينية بها كممثل شرعي وحيد قادر على التعبير عن الاماني الفلسطينية في الحرية والخلاص الوطني .

واوردت الاذاعة الاسرائيلية الانباء الاولى عن هذه التظاهرات في نشرتها العبرية يوم ٧٥/١١/٩ قائلة ، استمر « الشغب » لليوم الثالث في مدارس رام الله والبيرة « ففي الصباح لم تدخل تلميذات احدى المدارس في المدينة الى الصفوف . وبدلا من ذلك تجمعن في فناء المدرسة ورفعن علمين فلسطينيين من صنع منزلي وصحن بشعارات ضد الصهيونية وضد الحكم (العسكري) وضد مشروع الادارة الذاتية الذي يتجاهل ، حسب اقوالهن ، منظمة التحرير الفلسطينية الممثل المعترف به للشعب الفلسطيني » واضافت الأذاعة قائلة ان « الشغب » انتقل الى مدرسة اخرى في معسكر لاجئين قريب من المدينة . وتقصد بذلك مخيم الامعري قرب رام الله. وعلقت الاذاعة الاسرائيلية على هذه الظاهرة بقولها : « ان الشغب في الدراسة اليوم هو استمرار مباشر للصدامات التي وقعت امس مع قوات الامن في رام الله وللمعركة المنهجية التي تديرها عناصر معينة في الضفة الغربية ضد مشروع الادارة الذاتية وضد كل محاولة للمساس او الاخلال بمركز م.ت.ف.». واشارت الاذاعة الى ان صحيفة « الفجر » التي تصدر في القدس الشرقية قد درجت خلال الاسابيع الماضية على نشر تعليقات « سلبية ضد فكرة الادارة الذاتية » . وهذا ما كانت تفعله صحيفة « الشعب » ايضا خلال تلك الفترة . وقالت ان ذلك اوجد « مجموعة ضغوط قوية على الاهالي الذين ربما ظنوا خلاف ذلك . ولا يوجد ما يثبت ان يدا واحدة تشد كل خيوط المعارضة النشيطة لفكرة الادارة الذاتية . لكن المنشورات التي وزعت في الاسبوع الماضي في الضفة الغربيةوالتي دعت الاهالي الى احباط الفكرة ، تحمل على الظن بان هذه ليست ثورة تلقائية كليا » .

وتفيد اخر تقارير وكالات الانباء الواردة من الضفة الغربية ان الانتفاضة الشعبية ما زالت مستمرة الى الحد الذي حدا بالسلطات المحتلة الى التفكير في توقيع « عقوبات » على مدينتي البيرة ورام الله بشكل خاص ، خاصة وانه رافق التظاهرات الشعبية موجة من انفجارات القنابل في هاتين المدينتين المتلاصقتين . وتفيد التقارير كذلك انه بعد ان تطورت المظاهرات الى اشتباكات عنيفة بين الطلاب وقوات الامن الاسرائيلية واستخدمت فيها الحجارة والقنابل المسيلة للدموع، اقدمت سلطات الاحتلال على اغلاق العديد من المدارس ومعاهد التعليم ، خاصة في مدينة رام الله والى جانب اقفال المدارس واصابة عشرات الطلاب بجروح خلال المظاهرات، فقد لجأت سلطات الاحتلال الى اصدار اوامر باعتقال العديدين منهم والزامهم بدفع غرامات مالية باهظة . وما حدث في رام الله من مظاهرات وغيرها حدث الشيء نفسه في مدن نابلس وطولكرم وجنين وبيت لحم وغيرها . ويتوقع ان تستمر هذه المظاهرات مدة اخرى وان تقابل بالمزيد من اجراءات القمع والارهاب من قبل سلطات الاحتلال الاسرائيلية .

« الوطن » مرة اخرى

بعد انقطاع دام عدة اشهر ، حينما صدرت

جريده الوطن تحمل اسم الحزب الشيوعي الفلسطيني لاول مرة ، عادت هده الصحيفة السرية الى الظهور مرة اخرى في الضفة الغربية باسم « التنظيم الشيوعي الفلسطيني في الضفة الغربية». وحمل هدا العدد الذي صدر في ايلول (سبتمبر) ٧٥ في مكان بارز ، قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاردني حول تسمية فرع الحزب في الضفة الغربيه وجاء في قرار الحزب المشار اليه حول هده القضية كما نشرت « الوطن » : « ان قرار لجنة حربنا المركزية بتسمية فرع الحزب في الضفة الغربية باسم « التنظيم الشيوعي الفلسطيني في الضفة العربية » يمثل تجاوبا واقعيا مع متطلبات المرحله الراهنة من نضال شعبنا الفلسطيني ، ويحقق انسجاما بين مضمون نضالنا واطاره .

« ان التنظيم الشيوعي الفلسطيني في الضفة العربية هو امتداد اصيل للتقاليد الكفاحية للحزب الشيوعي الاردني . وسيبقى ينفذ نفس السياسة ويعمل لنفس الغايات والاهداف تحت راية الماركسية — اللينينية ومبادىء الاممية البروليتارية .

« وهو بهذا الاسم ، وقبل هذا الاسم ، موجود في حلبة النضال الوطني الفلسطيني ضد الاحتلال الصهيوني ومن اجل استرداد الحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني وفي سبيل اقامة الدولة الفلسطينية الوطنية وفقا للمقررات الدولية .

« ان اعلان حزبنا عن هدا التعبير في الاسم في وقت تتزايد فيه المؤامرات على قضية الشعب الفلسطيني وتبذل المحاولات لطمس مكاسبه ، والتهرب من قرارات الرباط من جانب مصر السادات ، هو في حد ذاته تعبير عن ثقة حزبنا بان جميع هذه المحاولات ستلاقي الهزيمة ، وتأكيد من جانب حزبنا على تشديد النضال لانتزاع حقوق شعبنا المغتصبة .

« لقد كان حزبنا على الدوام ، ومنذ تأسيسه، في قلب معارك النضال ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية ، وضد محاولات تصفية القضية الفلسطينية لصالح الامبريالية والصهيونية ... وهو يواصل النضال ضد الاحتلال الصهيوني بمختلف اشكاله وصوره ومشاريعه التوسعية ، وتعرض للاضطهاد والملاحقة ولاقى الكثيرون من اعضائه وقادته التعذيب الوحشي والنفي خارج الوطن والسجن الطويل .

« وهو اليوم ، باسمه الجديد ، ليعاهد الجماهير الفلسطينية في الارض المحتلة وخارجها ، على المضي في النضال بهمة شيوعية ، وبلا تردد في التضحية ، وبوفاء ثابت لكل قيم الشرف والكرامة الوطنية » .

عيسى الشعيبي

(٤) القضية الفلسطينية عسكريا

على الرغم من الاحداث الجارية في لبنان ومحاولات القوى المعادية للثورة الفلسطينية جر المقاومة الفلسطينية الى حلبة الصراع اللبنانية ، ومحاولاتها الهائها وابعادها عن ميدان نضالها الاساسي ، فقد واصلت الخلايا المسلحة وتنظيمات المقاومة السرية نشاطاتها في داخل الارض المحتلة ومقاومتها للاحتلال بفاعلية كبيرة ، بشكل اكسبها اعجاب الامة العربية والدول الصديقة والاجنبية وشيئا فشيئا باتت الجبهة الرابعة (الداخلية) تحتل اهمية كبيرة في المشاريع الامنية والمخططات العسكرية الدفاعية الاسرائيلية . وعلى الرغم من كل ذلك ، ظل محور النشاط الفلسطيني مسلطا باتجاه الارض المحتلة .

ففي ١٩٧٥/١١/٩ صرح ناطق عسكري باسم القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية ان الفدائيين نفذوا خلال اربع وعشرين الساعة الماضية سلسلة عمليات عسكرية ضد الاهداف العسكرية والاقتصادية الحيوية في داخل الاراضي المحتلة في نابلس ومستوطنة رعنانه والخضيرة . (النهار — ١٩٧٥/١١/١٠)

وفي تل ابيب ذكرت الصحف الاسرائيلية نقلا عن المراسلين العسكريين في الشمال ان دورية اسرائيلية تعرضت مساء الاحد ١٩٧٥/١١/٩ في منطقة تل الفرس لنيران اسلحة خفيفة اطلقت عليها من الاراضي السورية . واشارت المصادر نفسها ان افراد الدورية لم يصابوا بأي اذى . هذا ولم يعرف ما اذا كانت مصادر النيران من فعل الجنود السوريين ام الفدائيين الفلسطينيين (المصدر نفسه) .

وفي ١٠/١١/١٩٧٥ قام اربعة من ثـوار جبهة التحرير العربية بعملية جريئة في الجليل الاعلى ، فقد اقتحموا مستعمرة « كفار جلعادي » وكبـدوا العدو (٢٥) اصابة وعطلوا دبابة وناقلتي جنود في معركة ضارية استمرت (١٠) ساعات . فقد جاء في البلاغ الذي اصدرته جبهة التحرير العربية فـي اعقاب المعركة انه « على مر عشر ساعات مـن القتال الضاري على ارض الوطن حشـد العدو الصهيوني خلالها قوات كبيرة من جنوده منقولـة بطائرات الهليـوكبتر والمتركـزة في مستعمرتي « كفر ناحوم» و « حولانه » الـى استـراحة « كفارجلعادي » وحولها حيث الهدف من عملية ثوارنا ، وقد استعمل العدو بكثيبة مـن المشاة معززة بالدبابات لتطويق مداخل المنطقة . ودار قتال عنيف ابتدأ قبيل منتصف ليل ٩ــ١٠/١١/١٩٧٥ واستمر حتى الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم الاثنين ١٠/١١/١٩٧٥ في الاستراحة وحولها وذلك في ظروف جوية صعبة ، وتحت الامطـار الغزيرة ، حتى نفذت دخيرة ثوارنا الاربعة وقاموا بتفجير انفسهم بعد أن احكم حصار كثيف من قوات العدو حول الاستراحة بغية اسرهم » . واضاف البلاغ قائلا لقد كبد ثوارنا الاربعة العدو اكثر من (٢٥) اصابة بين قتيل وجريح . كما كبدوه دبابة واحدة واثنتين من ناقـلات الجنـود ، مما دفعه الى رد فعل فوري استهدف جماهير شعبنا داخل الحدود اللبنانية حيث اقام بعض الكمائن علـى طريق كفركلا ــ العديسـة ــ مركبا وقام بخطـف العديـد من المواطنـين » (الثائـر العربي ــ ١٥/١١/١٩٧٥) .

وفي الارض المحتلـة صـرحت بعض المصادر الاسرائيلية ان الفدائيين الاربعة الدين قتلوا فـي « كفار ــ جلعادي » حملـوا معهـم الى جانب المواد الناسفة والبنادق خرائط وشرائط مسجلة . ويتضح من المكتوب على الخرائط ، ومن مضمون الشرائط المسجلة بعض اهداف هذه المجموعة . فقد كان هدف العملية كمـا اتضـح من الوثائق العديدة التي كانوا يحملونها ، انه كان في نيتهـم اقتحام كبوتس « كفار جلعادي » في محاولة لاحتجاز الرهائن . وكانت هناك اشارة الـى كيبوتس « كفار جلعادي » في الخارطة التي وجدت فـي حوزة الفدائيين . أما الاهداف الاربعة التـي اعدت للهجوم فكانت مفصلة على الخريطة . وكان في حوزتهم رسائل باللغتين العبرية والانكليزيه ، تحتوي على مطالبهم مقابل الافراج عن ٢٠ فدائيا محتجزين في سجون اسرائيل ومـن بينهم المطران كبوجي وكوزو اوكاموتو . كما كان في نيتهم المطالبة بتدخل سفراء رومانيا والنمسا وفرنسا في اسرائيل لاجراء مفاوضات معهم للافراج عن الرهائن مقابل الفدائيين المحتجزين في اسرائيل . كما وجد فـي حوزتهم جهاز تسجيل سجلت فيه بعض المعلومات ، التي يبدو ان الفدائيين كانـوا يزمعـون بثهـا بواسطة مكبر للصوت كانوا يحملـونه معهـم . وكانت الاسلحة والمعدات التي في حوزتهم منظمة هذه المرة واكثر تطورا مـن معـدات واسلحـة المجموعات السابقة التي تم القضاء عليها علـى الحدود الشمالية . (رأ.أ. ــ ١١/١١/١٩٧٥)

وفي الوقت الذي قربت فيه ضربات الفدائيين على مستعمرات التشرة ورجال المقاومة في الداخـل نشرت مجلة « نيوزويك » الاسبوعية الامريكية في عددها الصادر في ١١/١١/١٩٧٥ مقابلة اجرتها مع الاخ « ابو اللطف » رئيس الدائرة السياسية في منظمة التحرير الفلسطينية جاء فيها قوله « ان الفلسطينيين لن يتخلوا عن التحرك السياسي ، ولكن لا خيار لهم سوى القتال وفي الامكان تـوقع تصعيد في عملياتنا ، فقد اصبحنا مقاتلين جيدين ، كما اننا نزداد قوة كل يوم » .

وفي الوقت نفسه دكرت الانباء الواردة من داخل الاراضي المحتلة ان المظاهرات عمت المدن فـي الضفة الغربية ضد الاقتراحات الاسرائيلية القاضية بمنح الضفة الغربية المحتلة حكما محليا صوريا . وذكرت هذه الانباء ان عشرة طلاب آخرين اعتقلوا في رام الله لالقائهم الحجارة على رجال الشرطة الاسرائيلية . وكان مسؤولو الامن قد دكروا في ١٠/١١/١٩٧٥ انه تم اعتقال (٦) طلاب افرج عنهم في وقت لاحق لاشتراكهم في المظاهرات التي قامت ضد الاقتراحات الـتي كـانت الحكومـة الاسرائيلية قد تقدمت بها لمنح الضفة الغربيـة حكما محليا محدودا . وذكرت المصادر نفسهـا انه جرت بعض المجابهات بين الجنود والطلاب الذين كانوا يرشقون الحجارة . كما ان مجموعة طلاب من بير زيت اعتصمت في مبنى الكلية بعـد اصطدامهم بجنود اسرائيليـين يـوم الاثنـين ١٠/١١/١٩٧٥ وهم يهتفون بحياة منظمة التحرير الفلسطينية وبسقوط اسرائيل . وظهرت كتابات على الحدران تقول ان الاعتقالات الاسرائيلية لن تؤثر على التأييـد لمنظمة التحـرير الفلسطينيـة

(النهار — ١٩٧٥/١١/١٣) .

وفي ١٩٧٥/١١/١٢ فجر الفدائيون في قلب القدس عبوات ناسفة موقوتة شديدة الانفجار اسفرت عن قتل وجرح عدد من الاسرائيليين . فقد صرح ناطق عسكري باسم القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية بما يلي « قام ثوارنا مساء يوم ١٩٧٥/١١/١٣ بوضع عبوات ناسفة موقوتة شديدة الانفجار في ساحة صهيون في قلب مدينة القدس . فقد انفجرت العبوات الناسفة في موعدها المحدد في الساعة السابعة من مساء هذا اليوم ، وادى انفجارها الى تكبد العدو خسائر مادية وبشرية كبيرة ، وعلى الفور هرعت اعداد كبيرة من سيارات الاسعاف وقامت بنقل القتلى والجرحى كما حضرت الى المنطقة قوات كبيرة من الشرطة والحرس المدني وقامت باخلاء المنطقة واغلاقها بوجه السيارات والماره . وقد نجم عن الانفجار قتل وجرح عدد كبير من اليهود وتدمير اجزاء كبيرة من الابنية السكنية ، وتدمير واجهات عدد من المحلات التجارية بالاضافة الى عدد من السيارات . وفي اعقاب الانفجار شنت سلطات الاحتلال حملة اعتقالات بين المواطنين العرب في القدس . » (المحرر ١٩٧٥/١١/١٤) .

وفي القدس اعلنت مصادر الشرطة الاسرائيلية ان احد الماره اليهود اكتشف في حي محنا يهودا عبوة ناسفة اخرى قبل وقوع انفجار ساحة صهيون بساعة ، ولكن الشرطة الاسرائيلية قامت بابطال مفعولها قبل ان تنفجر . (المصدر نفسه) وقد اعترف العدو بالعمليتين الا انه كعادته ادعى ان الخسائر كانت طفيفة . وعلى الرغم من محاولته التقليل من الخسائر ، فلا شك ان الحادث يظهر المرحلة المتقدمة الذي وصلت اليه مقاومة الاحتلال في عمق الاراضي المحتلة، على الرغم من الاجراءات الامنية الكبيرة التي تقوم اجهزة الامن الاسرائيلية بتنفيذها في القدس وضواحيها .

فقد هزت العملية اعصاب الاسرائيليين ، وادى الحادث الى قتل ٨ وجرح اكثر من ٤٠ مواطنا يهوديا . ويبدو ان توقيت العملية كان بارعا من حيث تأثيرها معنويا على الاسرائيليين او من حيث مغزاها وبعدها السياسي حتى حملت الصحف الاسرائيلية على اجهزة وقوى الامن وقالت انه كان عليها ان تكون اكثر يقظة في مواجهة العمليات الارهابية (المحرر ١٩٧٥/١١/١٥) .

وفي القدس واصلت الشرطة الاسرائيلية التحقيق في انفجار ساحة صهيون واعتقلت خلال الليل ٦٠ مشبوها وجرى التحقيق معهم ، ثم افرج عن بعضهم . وذكرت مصادر الشرطة ان ٣٠ جريحا يعالجون في مستشفيات القدس المحتلة جراح ثلاثة منهم خطيرة . (ر.أ.ف — ١٩٧٥/١١/١٤) .

وفي ١٩٧٥/١١/١٤ اعلنت مصادر الشرطة الاسرائيلية انها بدأت عمليات مطاردة بحثا عن الفدائيين الدين وضعوا القنبلة في ساحة صهيون . وقالت هده المصادر ان عدد المعتقلين ارتفع الى نحو (٢٠٠) عربي سيتم استجوابهم . واضافت ان الحواجز ودوريات الامن في القدس عززت وان القنبلة تزن خمسة كيلو غرامات . واعلن وزير الشرطة الاسرائيلية شلومو هليل في تصريح نقلته الاذاعة « ان السلطات الاسرائيلية قد تضطر الى اتخاذ اجراءات تحد من حرية الدخول الى القدس » وقال « ان حرية التنقل بين القدس والاراضي الاسرائيلية من جهة والاراضي المحتلة من جهة اخرى معبر كاملة في الوقت الحاضر ، لكن هذا الوضع قد يتغير ، ذلك اننا بذلنا حتى الان كل ما في وسعنا من اجل عدم اتخاذ مثل هذه الاجراءات » . (النهار ١٩٧٥/١١/١٥) وذكرت الانباء الواردة من القدس ان العدو اتخذ اجراءات امن مشددة خوفا من حدوث مزيد من اعمال العنف في المدينة . (المصدر نفسه) .

وفي هذا الاثناء استمرت المظاهرات في مدن الضفة الغربية ، وتركزت بشكل بارز في نابلس . فقد ذكرت المصادر الاسرائيلية ان الطلاب في اربع مدارس رئيسية في نابلس رفضوا الدخول الى صفوفهم وتجمعوا في ساحات المدارس . وبعد برهة جرت محاولة لتنظيم تظاهرة الى داخل المدينة والى سوق نابلس . فدخلت قوات الامن لمنع حدوث التظاهرة . وقد باشر الطلبة بعد ذلك يطلقون الهتافات الوطنية ، وقاموا برجم جنود الاحتلال . (ر.أ — ١٩٧٥/١١/١٧) .

وفي الوقت نفسه اندلعت المظاهرات في عدة اماكن من الضفة الغربية المحتلة احتجاجا على مشروع « بيريز » للحكم الذاتي الداعي الى نقل مسؤولية التجارة والصناعة والصحة والتعليم الى السكان العرب والابقاء على مسؤولية الدفاع والامن والشؤون الخارجية في ايدي سلطات الاحتلال

الاسرائيلية . واوردت وكالات الانباء من المناطق المحتلة ان الغضب العارم يجتاح مدن نابلس واريحا والخليل والبيرة ورام الله والقدس واجزاء اخرى من الضفة الغربية احتجاجا على المشروع الاسرائيلي وهتف المتظاهرون بحياة منظمة التحرير الفلسطينية (المحرر — ١٩٧٥/١١/١٧) .

وفي القدس اعلن وزير الدفاع الاسرائيلي شمعون بيريز « انه يجب على العرب ان يدركوا انهم لن يحققوا اي حل حقيقي بالقوة والمظاهرات او التهديدات » وقال « ان المشكلة الحقيقية مع منظمة التحرير ليست في انها تريد اقامة دولة فلسطينية في جزء من اسرائيل ، بل في انها تريد تدمير اسرائيل كليا » (المصدر نفسه)

وفي ١٩٧٥/١١/١٧ اعلنت مصادر الشرطة في اسرائيل انه تم اعتقال مواطن من نابلس كان عائدا من خارج البلاد في مطار اللد الليلة الماضية وقد اكتشف في امتعته صاعقان وباشرت الشرطة بالتحقيق . (رأ.أ — ١٩٧٥/١١/١٨) .

ومن جهة ثانية اصدرت محاكم العدو الصهيوني في ١٩٧٥/١١/١٧ قرارا باعتقال المواطنين يحي طارق ومحمد ابو وافيه وهما من ابناء مدينة يافا ، واتهمتهما بالقاء قنبلة على منزل علي رشيد في يافا . (المحرر ١٩٧٥/١١/١٩) . وهكذا نرى ان موجة الانتفاضات ضد الاحتلال الاسرائيلي بدأت تعم سائر المدن المحتلة في الضفة الغربية وفي الاراضي العربية المحتلة في عام ١٩٤٨ .

وعلى صعيد آخر افادت التقارير الواردة من الجنوب اللبناني في ١٩٧٥/١١/١٩ ان العدو عزز قواته على طول الحدود الجنوبية بشكل ملحوظ حيث قامت دورياته بحملة لتمشيط الطريق الترابية المحاذية لطريق عديسه — مرجعيون فيما نشطت قواته في العمل لتحصين موقع تل النحاس الجديد . وشوهدت قوات مكثفة وعدة آليات ومجنزرات في اماكن متعددة بالقرب من المستعمرات المتاخمة للحدود اللبنانية. (المحرر ١٩٧٥/١١/٢٠)

وفي مجال آخر نشطت الطائرات الاسرائيلية بشكل اعتيادي ، حيث قامت بعدة طلعات استطلاعية فوق معظم المناطق الجنوبيه . وفي الساعة (١٠،٤٥) من يوم ١٩٧٥/١١/١٩ حلق تشكيل من الطائرات الاسرائيلية فوق منطقة طرابلس في الشمال . فتصدت له المقاومات الارضية في مخيم البداوي . وتأتي هذه التحركات في اعقاب تزايد المقاومة في داخل الارض المحتلة وعلى الحدود (المحرر ١٩٧٥/١١/٢٠) . ويبدو ان العدو يبدي اهتماما كبيرا بالمخيمات الفلسطينية في شمال لبنان لاعتقاده انه يتم تدريب الفدائيين الذين يرسلون الى داخل الارض المحتلة في هذه المخيمات . فقد دأبت اجهزة الاعلام الاسرائيلية على القول ان كافة العمليات داخل الاراضي المحتلة تقوم بها عناصر فدائية في هذه المخيمات . لذلك تأتي هذه الطلعات الجوية فوق الشمال ضمن سلسلة من رحلات الاستطلاع والتصوير الجوي لهذه المناطق ، الهدف منها جمع ادق المعلومات عن مواقع ومعسكرات الفدائيين ، مما يوحي بأن العدو الاسرائيلي يبيت عدوانا على هذه المناطق .

ومن جهة ثانية يمكن تفسير النشاطات الاسرائيلية على الحدود الجنوبية بانها اجراءات لاقامة مراكز مراقبة جديدة على طول هذه الحدود لتشديد الرقابة على اكبر قطاع منها منعا لعبور وتسلل الفدائيين عبرها . والجدير بالذكر ان القوات الاسرائيلية اقامت مركز مراقبة في « رأس تلة جبل كحيل » شرق عيرون سبق للسلطات العسكرية اللبنانية ان اعترضت على احتلال القوات الاسرائيلية له في عام ١٩٧٣ ، كونه يشرف اشرافا تاما على مناطق واسعة في « بنت جبيل الشرقية » وضواحي « عيناتا » و « محيبيب » وسهل « عيرون » . ويتوغل هذا المركز مسافة (٨٠٠) متر في جبل كحيل داخل الاراضي اللبنانية . (النهار ١٩٧٥/١١/٢٠) .

وعلى الرغم من هذه الاجراءات الامنية الاسرائيلية المشددة في الجليل الاعلى والمناطق الشمالية المحتلة ، فقد اقتحم الفدائيون مستعمرة « رمات مجشميم » بالجولان وعادوا الى قواعدهم دون خسائر . وقال بيان المقاومة الفلسطينية « ان الهجوم وقع في الساعة (٢٢،٠٠) من يوم ١٩٧٥/١١/٢١ وقد استخدم فيه الفدائيون الرشاشات والقنابل اليدوية وتمكنوا من اقتحام المستعمرة التي تقع في القطاع الجنوبي من هضبة الجولان السورية المحتلة » . واضاف البيان قائلا « ان الفدائيين سيطروا على المقر المحلي لشبيبة الناحال العسكرية واسروا اثنين من افراد الشبيبة ثم تخلصوا منهما بعد ذلك . »

وقال البيان « انه حدث في الوقت نفسه اشتباك ضار بمختلف الاسلحة بين قوات اسرائيلية حاولت التقدم نحو مقر الشبيبة وبين مجموعة الفدائيين التي لم يذكر عددها استمر من الساعة (٠٠ر٢٢) من اليوم نفسه حتى الساعة (٠٠ر٠٤) من صباح يوم ١٩٧٥/١١/٢٢ . وقد ادى الاشتباك الى مقتل عدد كبير من جنود وضباط العدو ، وتمكنت المجموعة عند الساعة (٠٠ر٠٤) من فتح ثغرة في الطوق الذي ضربه جنود العدو حولهم وتمكنوا من العودة دون اية خسائر » (المحرر ١٩٧٥/١١/٢٢) . وجدير بالملاحظة ان تشكيلات شبيبة « الناحال » هي التنظيم شبه العسكري للجيش الاسرائيلي الذي يرابط افراده في المستعمرات الامامية المتطرفة ، حيث تشكل هذه المستعمرات عيون اسرائيل الامامية . لهذا تلعب هذه المستعمرات اهمية عسكرية كبيرة فيمشاريع اسرائيل الدفاعية وقت السلم والحرب .

وفي ١٩٧٥/١١/١٣ تمكن الفدائيون من نسف استراحة للجنود الاسرائيليين على طريق القدس رام الله في مستعمرة النبي يعقوب . وذكرت المصادر الفلسطينية ان العدو تكبد خسائر كبيرة في الارواح والمعدات نتيجة للحادث . وقد شنت السلطات الاسرائيلية حملة اعتقالات واسعة على الاثر بين المواطنين العرب . واعترف العدو بالحادث لكنه اخفى الخسائر . (المحرر ١٩٧٥/١١/٢٤) .

وفي الامم المتحدة قال السفير الاسرائيلي « لقد قدمت رمات مجشميم نصيبها في الحمل الثقيل الناجم عن الاستيطان والامن وان الحادث هو خرق لاتفاق فك التحام القوات في الجولان » (رأا — ١٩٧٥/١١/٢٤) ومن جبهة اخرى قال رئيس الاركان الاسرائيلي اللواء مردخاي غور « ان مما لا شك فيه ان « المخربين » الذين عملوا في رمات مجشميم حصلوا على مساعدة من الجيش السوري » واضاف قائلا « ان العملية كانت عملية اضرب واهرب » (المصدر نفسه) وكان ناطق بلسان الجبهة الديمقراطية في دمشق قد اعلن مسؤولية منظمته عن العملية . (المصدر نفسه).

وفي اسرائيل وصف مراسل الاذاعة عملية رمات مجشميم بأنها من اجرا العمليات التي نفذها الفدائيون حتى الان . وقال المراسل « هناك امر واحد واضح هو ان « المخربين » استطاعوا الاقتراب من المستعمرة دون اية صعوبات وذلك بعد اجتياز الشريط » . وقال « انه يوجد في المستعمرة جنود مقاتلون تابعون لاجهزة الدفاع في المنطقة ، وقد تلقوا تدريبا خاصا على مواجهة عمليات التخريب » (المصدر نفسه) .

وفي ١٩٧٥/١١/٢٤ صرع الثوار الفلسطينيون ضابطا اسرائيليا اعتبر مسؤولا عن ازالة المخيمات الفلسطينية وتهجير السكان في قطاع غزة . فقد نصب الثوار كمينا لسيارته في منطقة الشيخ رضوان بمدينة غزة . وفي الساعة (١٨٠٠) مرت السيارة وبداخلها الضابط المذكور واثنان من الحرس والسائق ، ففتح الثوار نيران رشاشاتهم عليها وقذفوها بالقنابل اليدوية وتمكنوا من تدميرها وقتل وجرح من فيها . وعلى الاثر هرعت الى مكان الحادث قوات من الشرطة وطوقت المنطقة وشنت حملة تفتيش واعتقال شملت العديد من المواطنين العرب في القطاع (المحرر ١٩٧٥/١١/٢٥) . وفي اسرائيل اعترف ناطق عسكري اسرائيلي — أن النيران اطلقت على سيارة مدنية اسرائيلية اثناء مرورها في احد الاحياء السكنية في مدينة غزه المحتلة ليلة ٢٣— ١٩٧٥/١١/٢٤ . وادعى ان احدا لم يصب بأذى كما نفى وقوع اضرار بالسيارة . وأفاد الناطق ان الشرطة اعتقلت رجلا واحدا نقط للاشتباه بانتمائه الى المقاومة الفلسطينية (المصدر نفسه) .

وفي القدس اعلن عن تشكيل لجنة برئاسة الجنرال الاحتياطي « رحبعام زئيفي » مستشار رئيس الوزراء الخاص لشؤون مكافحة المقاومة ، مهمتها دراسة وسائل اقامة تعاون اكبر بين الشرطة الاسرائيلية وقوات الدفاع لمكافحة العمل الفدائي داخل الارض المحتلة (المصدر نفسه) والجدير بالذكر ان زئيفي شغل منذ عام ١٩٦٨ حتى عام ١٩٧٢ منصب قائد القطاع الاوسط في اسرائيل والضفة الغربية .

وفي ١٩٧٥/١١/٢٧ اعلن ناطق عسكري فلسطيني ان الفدائيين دمروا بفعل عبوات ناسفة صباح ١٩٧٥/١١/٢٦ اجزاء كبيرة من مبان ومعدات والات مصانع اسبا للمفروشات في بتاح تكفا في اواسط اسرائيل وقد قتل وجرح عدد من حراس المصانع . كما دمر الفدائيون بفعل العبوات الناسفة ايضا الباث مجمع لصناعة

النسيج في ديمونا ونقع في الجزء الشمالي من صحراء النقب الى الجنوب الشرقي في بئر السبع، وكبدوا العدو خسائر مادية كبيرة . وقال الناطق بأن الفدائيين الدين قاموا بالعمليتين عادوا الى قواعدهم سالمين . وقد اعترفت اذاعة العدو بالعبرية بالعمليتين وذكرت ان الخسائر تقدر بملايين الدولارات (المحرر ١٩٧٥/١١/٢٧) .

وفي محر ١٩٧٥/١١/٢٧ تصدى شباب قرية كفركلا اللبنانية الحدودية لقوة اسرائيلية حاولت دخول القرية بحثا عن الفدائيين فقد خاض رجال المقاومة الشعبية في البلده معركةبطولية ضد قوة كبيرة من الكوماندوس الاسرائيلية تدعمها المجنزرات حاولت اقتحام البلدة فتصدى شباب البلده لهذه القوة ببسالة واوقعوا فيها خسائر فادحة واجبروها على الارتداد الى ما وراء الحدود . واستمرت المعركة من الساعة (٠٢٣٠) حتى (٠٣٣٠) من فجر اليوم نفسه ، واستعملت فيها القنابل اليدوية والاسلحة الرشاشة . وقد استعان العدو بمدفعيته الممركزة بالقرب من تل النحاس ، حيث قامت بقصف البلدة ، فيما تحركت بعض آلياته لنجدة القوات المغيرة . وكما لم يحقق العدو اي تقدم قرر الانسحاب بعدما فشل في مهمته . وقد مني العدو باكثر من ٢٥ اصابة بين قتيل وجريح في حين استشهد مواطن واحد وجرح اخر وتهدم منزل احد المواطنين . (المحرر ١٩٧٥/١١/٢٨) .

وفي ١٩٧٥/١٢/٢ هاجمت الطائرات الاسرائيلية بشكل لم يكن متوقعا مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في منطقتي طرابلس والنبطية . وقد شنت اسرائيل غاراتها الجوية الوحشية في اعقاب سلسلة الانتصارات التي حققها الشعب الفلسطيني ممثلا بمنظمة التحرير الفلسطينية في الساحة الدولية ، وفي اعقاب فشل الاحزاب والقوى الطائفية الانعزالية في لبنان في جر المقاومة الى اتون الصراع لاستنزاف طاقاتها وامكاناتها وحرفها بعيدا عن ميدانها الحقيقي .

وقد اصدرت قيادة الثورة الفلسطينية بيانا قالت فيه انه « في صباح يوم ١٩٧٥/١٢/٢ اغارت الطائرات الاسرائيلية في الساعة (١٠١٥) على عدد من المخيمات الفلسطينية في لبنان وقصفت بقنابلها وصواريخها ورشاشاتها كلا من مخيمات النبطية ونهر البارد والبداوي . وقد استهدفت الطائرات في هجومها على مخيم النبطية مدرسة الاطفال وبعض بيوت المدنيين وكان من نتيجة القصف استشهاد ٢ وجرح ٦ اخرين . كما قصف العدو اثناء عدوان على مخيم النبطية قرى الدوير وزوطر وكفر بنيت القريبة من النبطية حيث سقط نتيجة للقصف الجوي اربعة من المدنيين اللبنانيين كما استشهد احد العسكريين من الجيش اللبناني . كما دمرت الطائرات الصهيونية كافة البيوت الموجودة في خربة تسول اللبنانية القريبة من النبطية . فنجم عن القصف استشهاد ثمانية اشخاص وجرح ٢٠ اخرين وجميعهم من المدنيين وذلك بعد ١٣ هجمة جوية تعرضت لها المنطقة من قبل ست طائرات مقاتلة » . (فلسطين الثورة — ١٩٧٥/١٢/٧) كما ذكر شاهد عيان في منطقة النبطية ان الطائرات القت بقنابلها وصواريخها من ارتفاع منخفض ، واستخدمت الرشاشات في تمشيط المزارع وملاحقة المزارعين والمواطنين ، كما القت قنابل موقوتة في المنطقة . وقد اجمل الناطق الفلسطيني الخسائر في منطقة النبطية بـ (١٧) شهيدا من بينهم (١١) امرأة وطفل و (٢٣) جريحا من بينهم (١٥) امرأة وطفل (المصدر نفسه) .

أما في الشمال حيث يقع مخيما نهر البارد والبداوي فقد اغارت الطائرات الاسرائيلية في الساعة (١٠١٥) على الاماكن السكنية في المخيمين ، واستمرت الغارة حتى الساعة (١٠٣٥) ، استخدمت فيها الطائرات قنابل وصواريخ من كافة الاحجام ، كما استخدمت قنابل موقوتة انفجر بعضها بعد ساعة من انتهاء الغارة . واستعملت الطائرات ايضا المدافع الرشاشة ضد العزل الذين حاولوا الهرب من المخيمات اثناء الغارة . وفيما كانت الطائرات المغيرة تقصف المخيمين كانت حوالي (٢٥) طائرة اخرى تشكل مظلة جوية لحماية الطائرات المعتدية وقد عطلت هذه الطائرات مفعول الصاروخ الفردي الموجه المضاد للطائرات نوع (سام — ٧) باطلاقها بالونات حرارية . هذا وقد اعلن الناطق الفلسطيني الخسائر في مخيمي نهر البارد والبداوي بـ (٥٧) شهيدا بينهم (٤٢) امرأة وطفل و (١٣٧) جريحا من بينهم (٩٢) امرأة وطفل . (المصدر نفسه) .

أما الناطق العسكري اللبناني فقد اعلن في ١٩٧٥/١٢/٢ في بلاغه العسكري المعلومات

الاية . « اغارت بين الساعة (١٠٠٠ — ١١٠٠) من قبل ظهر ٢/١٢/١٩٧٥ حوالي ٣٠ طائرة معادية على مخيمي البداوي ونهر البارد في الشمال وعلى بلدة حاروف وكرم الزيتون قرب مفرق روطر وحي البياض في النبطية ومخيم النبطية في الجنوب . فنحت اسلحتنا المضادة للطائرات النيران على الطائرات المعادية في جميع مناطق الاعتداءات المجاورة للمراكز العسكرية مما اضطرها للقصف من ارتفاعات شاهقة قبل دخولها الاجواء المحتلة . الخسائر غير معروفة حتى الان » (المصدر نفسه) .

أما العدو الاسرائيلي فقد اعلن في تل ابيب وعلى لسان مصدر عسكري البلاغ الاتي « قبل لحظات قليلة اغارت طائرات السلاح الجوي على عدد من قواعد « المخربين في منطقة النبطية في جنوب لبنان ، وعددا آخر في منطقة طرابلس . والقواعد التي هوجمت تابعة لمنظمات « المخربين المختلفة ، ومن بينها قاعدة هوجمت في منطقة النبطية تستخدم كمقر قيادة لمنظمة الصاعقة وهي المنظمة التي تشرف عليها سوريا . بدأ الهجوم نحو الساعة (١٠٠٠) واستمر نحو ٢٠ دقيقة وعادت جميع طائراتنا الى قواعدها سالمة . وقبل لحظات اعلن ناطق عسكري لبناني ان (٣٠) طائرة اشتركت في الهجوم وانها هاجمت مخيم البداوي ومخيم نهر البارد ومنطقة كرم الزيتون في منطقة النبطية » (رأ—٣/١٢/١٩٧٥)

وعلى الفور ردت المقاومة الفلسطينية على القصف الجوي الهمجي الاسرائيلي بقصف كل من صفد ونهاريا ومسكاف عام بالصواريخ شديدة الانفجار . فقد جاء في البلاغ العسكري الفلسطيني ما يلي : « ردا على الاعتداءات الوحشية الغادرة التي قامت بها طائرات العدو صباح اليوم على مخيماتنا في نهر البارد والبداوي والنبطية ، صدرت الاوامر من القيادة العامة لقواتنا العاملة داخل الارض المحتلة بالرد الفوري على اهداف العدو العسكري . وقد بدأت قواتنا فعلا في الساعة (١٧٠٠) بقصف مواقع العدو بالصواريخ الثقيلة ذات القوة التدميرية الشديدة ، واصابت الصواريخ اهدافها اصابات مباشرة واوقعت بين صفوفه ومنشآته خسائر في الارواح والمعدات . وقد اعترف العدو بالقصف وبالاصابات مباشرة بالافراد والمنشآت في كل من ظهر الحرش والمطله ونلة رياق ، الاانه لم يحدد حجم هده الاصابات » . (المحرر ٣/١٢/١٩٧٥) وفي بلاغ آخر قال الناطق « قامت ثلاث مجموعات من قواتنا العاملة في داخل الارض المحتلة في الساعة (٢٠٠٠) من ليلة ٢—٣/١٢/١٩٧٥ بقصف مركز بالصواريخ الثقيلة شديدة الانفجار ضد اهداف العدو العسكرية في كل من صفد ونهاريا ومسكاف عام . وقد اصابت الصواريخ اهدافها المحددة . (المصدر نفسه) .

وفي تل ابيب اعترف العدو بقصف مستعمراته، وزعم ان شخصين فقط اصيبا بجراح قرب قرية كريات شمونه من جراء شظايا صاروخ من نوع « كاتيوشا » . وقال الناطق ان صواريخ من النوع نفسه اطلقت على مستعمرة المطلة (المصدر نفسه) لكنه لم يعترف بقصف كل من صفد ونهاريا ومسكاف عام . (المصدر نفسه) .

وقد اصبح واضحا ان مثل هذه الغارات الاسرائيلية لم تنجح مرة واحدة في تحقيق هدف ردع المقاومة الفلسطينية وايقاف مد عملياتها داخل الارض المحتلة ، ففي ٤/١٢/١٩٧٥ قام الفدائيون الفلسطينيون بعمليتين ضد العدو الاسرائيلي في قطاع غزة . فقد اورد الناطق العسكري الفلسطيني ما يلي « ان عددا من جنود العدو قتل وجرح في كمين نصب لدورية اسرائيلية صباح ٤/١٢/١٩٧٥ في منطقة بيارات الشيخ رضوان شمالي مدينة غزة . نجم عن الهجوم تدمير آليه نصف مجنزرة وسيارة جيب بينما اعطبت آلية اخرى » . واضاف الناطق قائلا « ان الفدائيين قاموا في العملية الثانية التي تمت في ٤/١٢/١٩٧٥ بالقاء قنبلتين يدويتين على آليتين اسرائيليتين كانتا تقومان باعمال الدورية في الشارع الرئيسي في رفح . وقد تم اعطاب الاليتين وقتل وجرح عدد من ركابها » (المحرر ٥/١٢/١٩٧٥) .

الرائد الطيار حسين عويضه

(٥)

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ١١/١ ــ ١٩٧٥/١١/٣٠

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	جريح	مفقود	المصدر: رقم البلاغ العسكري	تاريخه
١	١١/٢	—	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوات اسفل سيارة في حي البقعة وابطل مفعولها	—	—	—	٧٥/٣١٥	١١/٣
٢	١١/٢	١٤٫٠٠	مسكاف عام/الجليل الاعلى	تفجير	الغام	١	—	تدمير جرار يستخدمه العدو لشق الطرق	—	—	—	٧٥/٣١٦	١١/٣
٣	١١/١	٢٢٫٠٠	رأس العين/جنوب بتاح تكفا	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غير محدد		تدمير جزء كبير من مبنى مركز الشرطة واندلاع النيران فيه.	—	—	—	٧٥/٣١٧	١١/٣
٤	١٠/٩	٢٠٫٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غير محدد		تدمير اجزاء كبيرة من مبنى بنك «ابوتيكاي» واشعال النيران فيه	—	—	—	٧٥/٣١٨	١١/١٤
٥	١١/٤	١٦٫٠٠	دورا/قضاء الخليل	كمين	اسلحة رشاشة وقنابل	غير محدد		تدمير ثلاث باصات للشركة «اجد»	—	—	—	٧٥/٣١٩	١١/٥
٦	١١/٤	١٥٫٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غير محدد		تدمير مصنع البسة شتوية لجيش العدو واشعال النيران فيه	—	—	—	٧٥/٣٢٠	١١/٥
٧	١١/٨	١٤٫٠٠	نابلس	تفجير	عبوات ناسفة	١	—	تدمير سيارة ومقتل احد خبراء المتفجرات اثناء محاولة تفكيك العبوة	—	—	—	٧٥/٣٢١	١١/٩
٨	١١/٨	٢٤٫٠٠	رعنانة قرب هرتسليا(١)	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير اجزاء من مبنى احدى المؤسسات واصابة المباني المجاورة باضرار	—	—	—	٧٥/٣٢٢	١١/٩
٩	١١/٨	١٫٠٠	رعنانة قرب هرتسليا(١)	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير ملهى ليلي واصابة المبنى باضرار	—	—	—	٧٥/٣٢٢	١١/٩
١٠	١١/٨	٢٣٫٠٠	الخضيرة(١)	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غير محدد		تدمير معظم اجزاء مبنى ادارة معامل الكاوتشوك وتصدع الابنية المجاورة	—	—	—	٧٥/٣٢٣	١١/٩
١١	١١/١٠	٢٣٫٠٠	كفار جلعادي	اشتباك	اسلحة مختلفة	٢٥ اصابة		تدمير دبابة وناقلتي جنود في اشتباك دام اكثر من عشر ساعات	٤	—	—	٧٥/٣٢٤	١١/١٠

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة جريح	أسير	شهيد	المصدر البلاغ العسكري رقم	تاريخه
١٢	١١/١٢	١٧٤٢٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير جزء كبير من باص لشركة ايجد	—	—	—	٧٥/٣٢٥	١١/١٣
١٣	١١/١٣	١٩٠٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير اجزاء كبيرة من الابنية المحيطة بساحة صهيون وتدمير عدد من السيارات والمحلات التجارية	—	—	—	٧٥/٣٢٦	١١/١٣
١٤	١١/١٥	٨٠٠	رام الله	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير سيارتين للعدو	—	—	—	٧٥/٣٢٧	١١/١٥
١٥	١١/١٦	١٣٠٠	رام الله	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير اجزاء كبيرة من مبنى مكتب وزارة الداخلية الصهيونية واصابة واجهة مبنى مكتب الحاكم العسكري باضرار	—	—	—	٧٥/٣٢٨	١١/١٧
١٦	١١/٢٠	٧٤٢٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوات في محطة الباصات ، وابطل مفعولها	—	—	—	٧٥/٣٢٩	١١/٢٠
١٧	١١/٢١	٣٤٢٠	جيلايم/	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير مبنى شركة صهيونية وتصدع عدد من المباني المجاورة وتدمير واعطاب عدد من السيارات	—	—	—	٧٥/٣٣٠	١١/٢١
١٨	١١/٢٠	٢٢:٠٠	رمات مكشميم/الجولان	هجوم	رشاشات وقنابل يدوية	غير محدد		اثناء الهجوم تمكن الثوار من السيطرة على المقر المحلي لشبيبة الناحال واسر اثنين من افراده	—	—	—	٧٥/٣٣١	١١/٢١
١٩	١١/٢٢	٦٠٠	زخاريا قرب القدس	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غير محدد		تدمير اجزاء كبيرة من مستودع مصانع تجميع الطائرات العسكرية واشعال النيران فيه	—	—	—	٧٥/٣٣٢	١١/٢٣
٢٠	١١/٢٣	١٢٠٠	النبي يعقوب/قرب القدس	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير استراحة للعدو في معسكر كبير وتدمير عدد من الملاجئ وتدمير واعطاب عدد من الاليات	—	—	—	٧٥/٣٣٣	١١/٢٣
٢١	١١/٢٢	١٨٠٠	غزة	كمين	اسلحة رشاشة وقنابل يدوية	٤ اصابات		تدمير سيارة عسكرية	—	—	—	٧٥/٣٣٤	١١/٢٤
٢٢	١١/٢٦	—	بتاح تكفا(٢)	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير اجزاء كبيرة من مباني مصانع « آسيا » للمفروشات وتدمير واعطاب معظم الاليات واحراق المستودعات	—	—	—	٧٥/٣٣٥	١١/٢٦
٢٣	١١/٢٥	٧٠٠	ديمونة/النقب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير عدد من اليات مصنع للنسيج واندلاع النيران في القاعة الرئيسية والمستودعات	—	—	—	٧٥/٣٣٦	١١/٢٦
٢٤	١١/٢٨	١٢٠٠	تل ابيب	تفجير	قذائف هاون مشركة	١	—	تدمير اجزاء من الطابق الاول لمكاتب احدى الشركات في شارع « شلوش »	—	—	—	٧٥/٣٣٧	١١/٢٨
٢٥	١١/٢٨	١٧٤١٥	اليليم/شمال صفد	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير واحراق عدد من المنشآت السكنية داخل مركز لاستيعاب المهاجرين واعطاب عدد من السيارات	—	—	—	٧٥/٣٣٨	١١/٢٩
٢٦	١١/١١	١٥٠٠	القدس	هجوم	اسلحة رشاشة	غير محدد		قتل وجرح عدد من افراد دورية قرب باب الخليل	—	—	—	٧٥/٣٣٩	١١/٢٩

* اعترف العدو بالعملية التي قام بها ثوارنا بتاريخ ١٩٧٥/١٠/٢٧ امام فندق « ايل » في القدس وادعى باصابة ثمانية جرحى وقدرت الخسائر المادية بمئات الاف الليرات . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٩٣١ ، صفحة ١ ، بتاريخ ١٩٧٥/١١/١) .

١ — ادعى العدو بان الانفجار الذي وقع في رعنانا يعود الى عملية تصفية حسابات وبان انفجار الخضيرة وقع على ضوء الاضراب في مصانع الياتس قبل اسبوعين . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦٣٨ ، صفحة ١٥٦ ، بتاريخ ٧٥/١١/١٠) .

٢ — اعترف العدو بان انفجارا وقع في مصنع « آسيا » للادوية واعقبه حريق وادعى بان الحادث وقع في الثالثة والنصف من صباح يوم ١١/٢٦ وان اسبابه غير واضحة تماما . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل العدد ٦٥٢ ، صفحة ٥٥٦ ، بتاريخ ١٩٧٥/١١/٢٦) .

ملاحظة : تصدر البلاغات العسكرية من الاعلام العسكري في القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية .

جدول بالعمليات العسكرية التي اعترف بها العدو الصهيوني من ١١/١ — ١٩٧٥/١١/٣٠

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعهـا	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	جريح	خسائر العدو الماديـة	خسائر المقاومة: شهيد	جريح	مفقود	المصـدر	تاريخه
١	١١/٤	—	شتولا	قصف	بازوكا	—	—	لم يصب احد من افـراد الدورية	—	—	—	ن.عدد٩٣٤ص٩٧	١١/٥
٢	١١/٤		الخليل	غير محدد	غير محدد	غير محدد		ادعى العدو بان مجموعـة قامت باعطاب ثلاث باصات لشركة ايجد	—	—	—	ن.عدد٩٣٤ص١٠٠	١١/٥
٣	١١/١٠	—	كفار جلعادي	تفجـير	اسلحة مختلفة	—	—		٤	—	—	ن.عدد٩٣٩ص١٨٦	١١/١١
٤	١١/١٢	٦،٣٠	القدس	تفجـير	عبوة ناسفة	—	—	انفجار العبوة في باص لشركة ايجد	—	—	—	ن.عدد٩٤١ص٢٢٥	١١/١٣
٥	١١/١٣	—	القدس	تفجـير	عبوة ناسفة	—	—	تم اكتشـاف العبوة وابطل مفعولها في حي محانيــه يهودا	—	—	—	ن.عدد٩٤٢ص٢٨٠	١١/١٤
٦	١١/١٣	١٩،٠٠	القدس	تفجـير	عبوات ناسفة	٧	٤٨	اصيبت المحلات التجاريـة والمنازل باضرار بالغة في ميدان صهيون	—	—	—	ن.عدد٩٤٢ص٢٨١	١١/١٤
٧	١١/١٥	١٠،٠٠	رام الله والبيرة	تفجـير	عبوات ناسفة	—	١	اعطاب سيارتين	—	—	—	ن.عدد٩٤٣ص٣٠٢	١١/١٥
٨	١١/١٦	—	رام الله	تفجـير	عبوة ناسفة	—	—	تدمير نوافذ مبنـــى وزارة الداخليــة	—	—	—	ن.عدد٩٤٤ص٣٣١	١١/١٧
٩	١١/٢٠	٧،٣٠	القدس	تفجـير	عبوة ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوة وابطـل مفعولهــا	—	—	—	ن.عدد٩٤٧ص٤٢٤	١١/ ٢
١٠	١١/٢٠	٦،٠٠	زرعيت	هجـوم	قذائف بازوكا واسلحة رشاشة	—	—	لم تقع اصابات بين افـراد دورية للعدو	—	—	—	ن.عدد٩٤٧ص٤٢٤	١١/٢٠
١١	١١/٢٠	٢٢،٠٠	رمات مجشيميم/الجولان	هجـوم	اسلحة رشاشة	٣	٢		—	—	—	ن.عدد٩٤٩ص٤٦٢	١١/٢٢
١٢	١١/٢٣	—	غزة	كمـين	اسلحة رشاشة	—	—	لم يصب احد من افراد دورية للعـدو	—	—	—	ن.عدد٩٥٠ص٥٠٣	١١/٢٤
٢٣	١١/٢٧	—	تل ابيب	تفجـير	قنبلة هاون ١٢٠	—	—	تم تفكيكها وابطال مفعولها	—	—	—	ن.عدد٩٥٤ص٦١٠	١١/٢٨

ن — نشرة رصد اذاعة اسرائيل التي تصدر يوميا من مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينيــة .

غازي خورشيد

نشرة رصد اذاعة اسرائيل

أصدر مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية اعتبارا من ١٩٧٢/٨/١ نشرة استماع يومية للاذاعة الاسرائيلية التي تبث برامجها باللغة العبرية ، وذلك بغية تزويد الجهات المعنية والمسؤولة والمختصة في البلاد العربية (العسكريون ، السياسيون ، الاعلاميون ، الصحافيون ، الاقتصاديون ، مكاتب المقاطعة ، الباحثون الخ ...) باخبار العدو ومواقف قادته واتجاهات سياسته والتطورات التي تطرأ عليه في مختلف الميادين ، واخبار المناطق المحتلة حديثا بحيث يسهل على ذوي الشأن ، حين يطلعون على حقيقة ما يجري ويقال في اسرائيل ، اتخاذ الاجراءات اللازمة .

تتميز نشرة مركز الابحاث بانها تتضمن تسجيلا كاملا ودقيقا للتعليقات السياسية والندوات والمقابلات واقوال الصحف التي تبث من الاذاعة يوميا ، بالاضافة الى تسجيل جميع نشرات الاخبـــار .

وتطبع النشرة على « الاوفست » لضمان اخراجها بشكل جيد ومريح للقارىء .

يقوم المركز بتوزيع النشرة يوميا على المشتركين في بيروت . أما المشتركون خارج بيروت فترسل لهم النشرات بالبريد الجوي ، او باية وسائل أسرع .

يتوجه مركز الابحاث اليكم على امل ان تشتركوا بنسخة او أكثر من هذه النشرة . وبالنظر الى التكاليف الباهظة نسبيا للنشرة (الاستماع ، الترجمة ، السحب ، التوضيب ، التوزيع، الورق وخلافه) فقد تقرر ان تكون قيمة الاشتراك خمسماية ليرة لبنانية للحكومات والمؤسسات العامة، وثلاثماية ليرة للمؤسسات الخاصة والصحافة ، او ما يعادل ذلك بالعملات الاخرى، يضاف اليها أجور البريد : في البلاد العربية ١١٠ ل.ل. ، في اوروبة ١٥٠ ل.ل. ، في الاميركتين ٤٠٠ ل.ل. ، وفي آسيه وافريقيه ٣٥٠ ل.ل.

ان مساهمتكم بالاشتراك باكبر عدد ممكن من النسخ هو الذي سيمكن النشرة من الصدور والاستمرار والنمو .

ترسل الاشتراكات الى :

مركز الابحاث ، نشرة الاستماع

ص.ب ١٦٩١ ، بيروت .

المحتويات

خاص بالمشتركين

Palestine Affairs

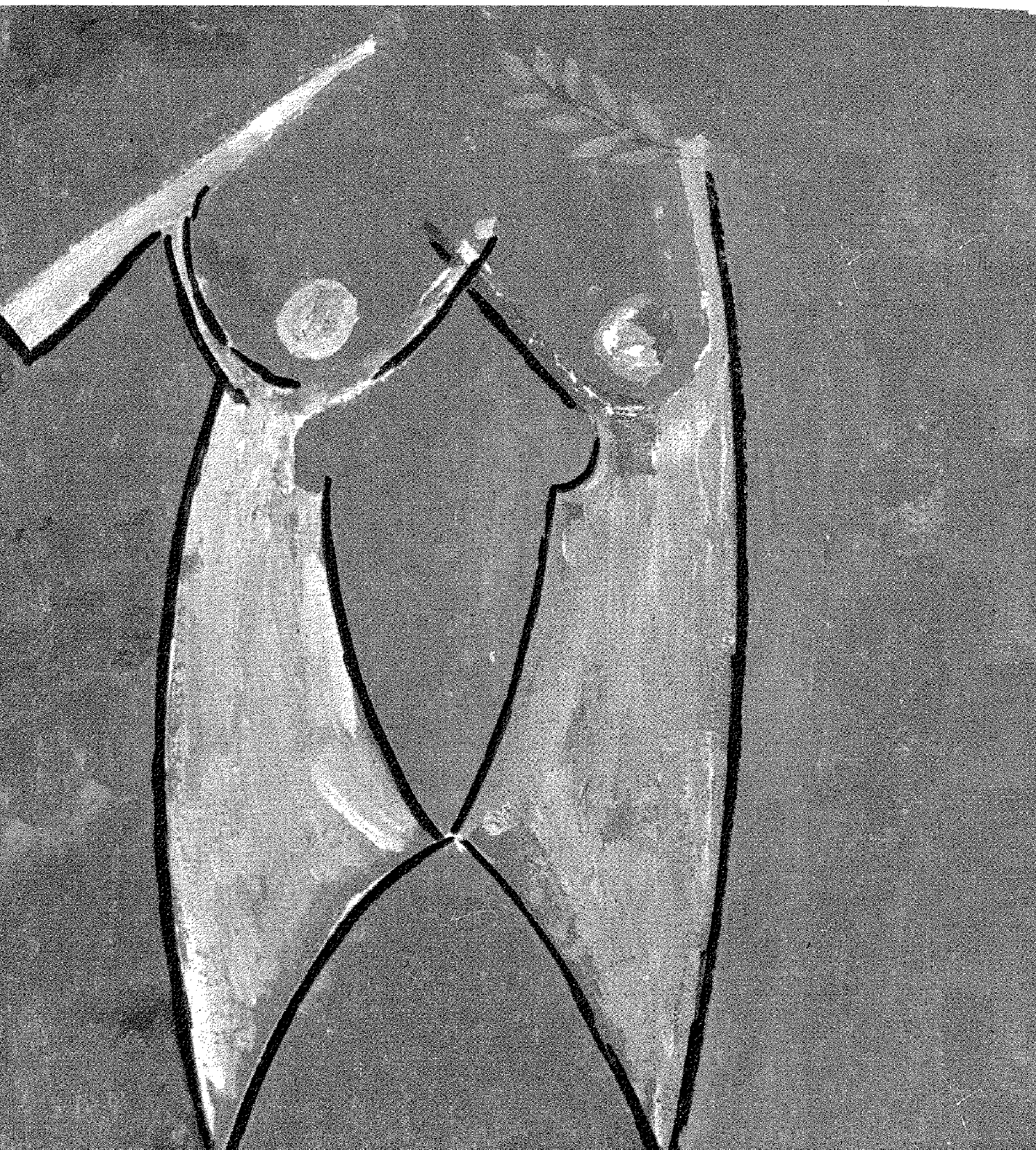
Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor*, Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon and Syria L L 50, other Arab countries L L 60 or equivalent, Africa and Europe L L 80, elsewhere L L 100; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٣½ ل.ل. في لبنان
٤ ل.س. في سوريا
٤٥٠ فلساً في الكويت والعراق
٤½ ل.ل. في سائر الاقطار العربية

شؤون فلسطينية

٥٤/٥٣

كانون الثاني/شباط (يناير/فبراير) ١٩٧٦



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٥٣/٥٤ **كانون الثاني/شباط (يناير/فبراير) ١٩٧٦**

شهرية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

مدير التوزيع : غازي خورشيد .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٣½ ل.ل. في لبنان ، ٤ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٤½ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

المحتويات

مرحلة اعادة النظر

لقد كان طبيعيا ان ينعكس معايشة « شؤون فلسطينية » للأزمة التي سيطرت على لبنان طوال العام المنصرم . ليس على موادها المكتوبة فقط . بل على انتظام طباعتها . وقد بدا ذلك واضحا على تعثر مواعيد صدور المجلة . التي عرفت بانتظامها الدقيق . الامر الذي نفسره . برغم كل شيء : انتصارا على الظروف الصعبة : لأننا في النهاية تمكنا من ابقاء الصلة حية بين المجلة وقرائها .

وهذا العدد . يحمل رقمي عددي كانون الثاني وشباط (يناير وفبراير) امتصاصا لشهر التأخر الذي حملناه من شهر الى شهر . والذي نرجو أن تمكننا الظروف الطباعية الصعبة . من عدم الوقوع في فخه مرة أخرى .

والحقيقة ان هذا الاضطراب صورة مصغرة عن المعنى العام لسنة ١٩٧٥ المنصرمة على الصعيد العربي العام . ثم على الصعيدين اللبناني والفلسطيني .

فمع نهاية العام الماضي . يكون قد مر عامان على حرب اكتوبر التي كانت ــ بغض النظر عن اختلاف التفسيرات ــ حدثا ضخما . لا بد وان يعكس اثاره على كل شيء حولــه .

وبديهي ان شكل هذه الاثار خاضع لعاملين اساسيين :

ــ الحقائق الموضوعية التي كشفتها الحرب . والتي تتجاوز في حجمها وطبيعتها حتى ارادة او تصور القيادة السياسية التي اتخذت قرار الحرب .

ــ الارادات السياسية التي تريد ان تضع بصماتها على اثار حرب اكتوبر . كل ارادة تشد في اتجاه . وكل ارادة تسعى وراء الحد الاقصى من المكاسب .

وبكلمة اخرى فان الاحداث الكبيرة مثل حرب اكتوبر تجعل المنطقة التي تدور فيها هذه الاحداث كالحديد الساخن . الذي يسعى كل طرف من أطراف الصراع الى ان يعطيه الشكل الذي يلائمه .

لقد افرزت حرب اكتوبر حقائق جديدة . وما زلنا حتى الان نعيش مرحلة صراع الاطراف على اعطاء هذه الحقائق الشكل الاكثر ملاءمة للارادة السياسية لكل طرف .

حتى اميركا التي كان التوجه العام للحرب والمعاني العامة لنتائجها الاولية ، خسارة لها في المدى البعيد ، ارادت ان تسارع الى الاستفادة من نتائج الحرب ، فتفرض على حليفتها اسرائيل ـ باسم القوه العربيه التي ظهرت في الحرب والتي لم يعد من مجال للتشكيك في وجودها وفي فعاليتها ـ السعي الى اغتنام الفرصة من اجل سلام دائم . قبل ان تنضج الثمار العربية للحرب ، اي ثمار اكتشاف العرب للحجم الحقيقي لامكاناتهم . فيزداد بذلك تمسكهم باهدافهم الاستراتيجية ، وتتضاءل الفرص امام القوى العربية التي تدعو للتنازل .

وحتى داخل اسرائيل فان القوى المتصارعة داخليا تريد ـ كل على حده ـ ان تفسر نتائج حرب اكتوبر كدليل على صحة توجهها العام ، سواء في ذلك دعاة اغتنام الفرصة للتفاهم مع العرب . او دعاة التصلب في وجه العرب ، بعد أن اصبحوا قوة « لا يؤتمن لهـا » .

ضمن هذا الاطار انفجرت الازمة اللبنانية ، بكل متراكماتهـا التي اعادت بعض المذكرات السياسية الانعزالية جذورها الى منتصف القرن التاسع عشر .

ففرصة اعادة النظر في كل الاوضاع على ضوء اثار الحدث الكبير الذي وقع في اكتوبر عام ١٩٧٣ . ارادت الانعزالية اللبنانية ان تنتهزها ليس فقط لاعادة النظر في الوجـود الفلسطيني على ارض لبنان (اما لالغاء هذا الوجود او لشل حركته) ؛ بل لاعـادة النظر حتى في الصيغة اللبنانية التي ولدت ؛ مع الاستقلال عام ١٩٤٣ ، باتجاه وصل في بعض المقترحات الانعزالية المتطرفة الى حد الدعوة الى فك الشراكة الوطنية التي ولدت مع الاستقـلال .

لقد ادت سخونه مرحلة اعاده النظر في كل شيء الى بروز كمية ونوعية من الفكـر الانعزالي في لبنان . ما كان لنا ان نطلع على مثيلها في الظروف العادية خلال عقود من السنوات . ومع ذلك فقد برزت كلها في شهور قليلة . . . وتقف شؤون فلسطينية برهة عند هذه النقطة لتلفت الانتباه الى ضرورة تصدي الفكر الوطني اللبناني والقومي العربي لشلال الادبيات الانعزالية الذي انبثق بغزارة نادرة في الشهور الاخـيرة ، لدراسته دراسة سياسيه واجتماعية وفكرية دقيقة ؛ تتساوى فيها رغبة الفهم العميق للواقع برغبة التصدي لسلبياته .

من هنا تكتسب المرحلة الحالية عربيا ولبنانيا وفلسطينيا الصفة الانتقالية البالغـة الحساسية والاضطراب والسخونة ، ومن هنا فان « شؤون فلسطينية » تشعر بان مهمات جديدة قد اضيفت الى مسؤولياتها العامة في السنة الحالية ، نرجو أن نكون في مستواها . صورة مصغرة للمهمات الخطيرة الملقاة على عاتق التيارات الوطنيـة الفلسطينية واللبنانية والعربية بصورة عامـة .

شؤون فلسطينية

فلسطين في الامم المتحدة : قرارات تاريخية وخلفيات

سعدات حسن

في أعقاب مأساة حزيران ١٩٦٧ ، واجهت القضية الفلسطينية علــى صعيد الأمم المتحدة تطورين سلبيين : الأول يتمثل في صدور قرار مجلس الأمن ٢٤٢ ، بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ . وهو القرار الذي أغفل ذكر فلسطين وشعبها وقضيتها واكتفى بالتلميح عنها في الفقرة التي تنص على ايجاد حل لمشكلة اللاجئين في الشرق الأوسـط ، والثانـــي : استبدال اسم البند الذي كانت تعالج في اطاره كافة القضايا المتعلقة بفلسطين ومشتقاتها في مجلس الأمن وهو بند « قضية فلسطين » ببند جديد ، مرّ بدون مناقشة وسمي « مشكلة الشرق الأوسط » . وقد تم هذا الاستبدال بدون قرار رسمي من قبل مجلس الأمن وبدون أي اعتراض من أي عضو من أعضاء مجلس الأمن ، بما في ذلك الجانب العربي وأصدقاء العرب . ازاء ذلك ارتأى بعض الأخوة الفلسطينيين العاملين في الأمم المتحدة ضرورة العمل المكثف مـــن أجل اعادة القضية الفلسطينية الى اطارها الصحيح في الأمم المتحدة . كقضية شعب احتل وطنه وشرد من أرضه وحرم من ممارسة حقوقه .

وفي الدورة الثالثة والعشرين (١٩٦٨) بينما كانت المجموعة العربية تتباحث في مشروعات القرارات التي تريد عرضها على اللجان الخاصة التـــي تعالج المشاكل الناتجة عن قضية فلسطين وخـــاصة اللجنتين السياسـة الخاصة واللجنـــة الثالثة (الاجتماعية والانسانية) . وأمام تعدد المشاريع المطروحة ارتأى وفد منظمة التحرير الفلسطينية ان الاستمرار في التجزئـــة التـــي ستكون نتيجـــة تعدد هذه القرارات وتشعبها ، سيؤدي الى التركيز على الفروع والمشاكل الجانبية واهمال أصل المشكلة وكون قضية فلسطين قضية تحرر . فقد كانت هناك مشاريع قرارات تعالج قضية اللاجئين وقضية النازحين منهم وقضية النازحين الجدد (وهم الذين لجأوا من المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ ولم يكونوا لاجئين سابقا) وقضية القدس وقضية معاملة سلطات الاحتلال للسكان في المناطق المحتلـــة وغير ذلك مـــن المشاريع . أمـــام هذا التعدد والتشعب شعرنا آنذاك أن الوقت قد حان لاتخاذ محاولة جديدة نعود فيهـــا للتركيز على جوهر القضية بدلا من فروعها ومشتقاتها ، فطلب وفد منظمة التحرير ادخال مشروع قرار جديد أثناء مناقشة تقرير المفوض العام لوكالة الاغاثة في اللجنة السياسية الخاصة ، ينص على احترام الحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني . وهناك عامل آخر حدا بنا الى الاقدام على هذا المشروع وهو استمرار محاولات الدول الغربية وانصار اسرائيل بالاصرار على بحث الموضوع من ناحيته الانسانية فقط ، وكأنه موضوع اغاثة واستيطان وحقوق فردية في أحسن الحالات . وعندما تقدم وفد المنظمة بهذا الاقتراح الجديد أبدت بعض الوفود العربية تخوفها من أن هذا القرار قد يكون مغامرة سياسية

اذ ربما سيفشل في اللجنة السياسية الخاصة . اما اذا نجح في اللجنة ، فمن المحتم انه سيفشل في الجمعية العامة اذ انه قد يطلب آنذاك بصفته قرارا مهمـــا ان يحوز على أغلبية الثلثين . وجرى نقـــاش طويل حسم عند تدخـل وفد المنظمة قائلا ان شعب فلسطين الذي خسر كل شبر من أرض وطنه لن يضيره أن يخسر قرارا في الأمم المتحدة خاصة ونحن نتقدم به لأول مرة . وأمام اصرارنا على ذلك عهد للجنة فلسطين الفرعية صياغة مشروع قرار حول هذا الموضوع الذي يعتبر نقطـــة البداية في اعادة عرض قضية فلسطين في اطارها الصحيح على الأمم المتحدة .

. وقد فاز مشروع القرار الذي تقدمت به الدول الصديقة ــ اذ جرت العادة وبناء على ادراك من بعض الاخوة الفلسطينيين العاملين في الأمم المتحدة ان مثل هذه القرارات يجب أن لا تتقدم بها الدول العربية وانما يعهد بتقديمها الى أصدقاء لنـــا من الدول الآسيوية او الافريقية ــ عند مناقشته في اللجنة الخاصة بالأكثرية اللازمـــة وبدأت الولايات المتحدة واسرائيل بالضغط على العديد من الدول لتغيير مواقفها في الجمعية العامة ، وطالبنا عن طريق كوستاريكا ــ حليفتها التقليدية في تقديم مشاريع القرارات الاجرائية قبيل التصويت ــ بأن مثل هذا القرار يحتاج الى ثلثي الأصوات لأنه قرار مهم . واحتياطا من الجانب العربـــي تقدمت احدى الدول الصديقـــة بمشروع قرار اجرائي ينص على أن هذا الموضوع رغم أهميته ، اصبح بعد الموافقة علـــى ميثاق حقوق الانسان من المواضيع المسلم بهـــا ولذلك لا يحتاج الا لأكثرية عاديـــة . وبعد الاقتراع على توصية اللجنة السياسية الخاصة فاز القرار بأكثرية الثلثين . وكانت هذه آخر مرة تطلب فيها الولايات المتحدة او اسرائيل ان القرارات المتعلقـــة بفلسطين تحتاج الى أكثريةالثلثين ، اذ أدركتا ان العطف الدولي والتأييد للشعب الفلسطيني في الأمم المتحدة رغم محاولات الضغط منهما يستطيع ان يضمن اكثرية الثلثين وان لم يكن ذلك فالأكثرية البسيطة عند الاقتراع على المشاريع الاجرائية حول هذه النقطة ، اذ باستطاعة الدول العربية وحلفائها أن تجعل الجمعية العـــامة للأمم المتحدة وهي صاحبة الحق المطلق في تحديد اللوائـــح الاجرائية ان تتخذ القرار الـــلازم حول هذا الموضوع . ومنذ ذلك الوقت وعرض قضية فلسطين في الأمم المتحدة في تصاعد مستمر فلم تعد القضية تبحث كمشكلة انسانية وكشعب بحاجة الى اغاثة مثلما كانت تعالج فيه سنة ١٩٥٢ ، عندما اسقط أيضا من جدول أعمال الجمعية العامة بند فلسطين واستبدل بتقرير المفوض العام لوكالة الاغاثة كبند على جدول أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة .

وفي الدورة الرابعة والعشرين للجمعية العامة (١٩٦٩) صعد القرار العربي الذي اتخذته الجمعية العامة باضافـــة حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره . وقد تم التصويت علـــى هذا القرار بأغلبيـــة ٤٨ صوتـــا مقابل ٢٢ . وامتناع ٤٧ دولة عن التصويت . وبعد الحصول على تأكيد للحقوق الوطنية الثابتـــة للشعب الفلسطيني وعلى التركيز على حق هـــذا الشعب في تقرير مصيره أسوة بكافـــة شعوب العالم وانطلاقا من ميثاق الأمم المتحدة اصبح من الضروري معالجة الموضوع من اطار مختلف عن الاطار الذي كنا نعالج فيه قضية فلسطين وهو اطار تقرير المفوض العام . وفي أواسط سنة ١٩٧٠ اجتمع الاخوة الفلسطينيون في الأمم المتحدة واتفقوا علـــى اثارة موضوع ادراج بند مستقل على جدول اعمال الجمعية العامـــة في الدورة الخامسة والعشرين في أول اجتماع تعقده المجموعة العربيـــة . وأجرى وفد منظمـــة التحرير الفلسطينية الاتصالات المسبقة مع بعض أعضاء الوفود العربية قبل الاجتماع للحصول على تأييدهم في ذلك الموضوع . وبعد مناقشة طويلة دامت عدة جلسات ظهر تأييد

من قبل معظم الدول العربية لهذه الفكرة باستثناء ثلاث دول هي مصر والاردن ولبنان وكانت حجة هذه الدول في معارضة ادراج هذا البند آلمستقل رغم تسليمها بأهمية هذه المبادرة ، ان الولايات المتحدة بشكل مباشر أو عن طريق أعوانها وأتباعها قد تتقدم بمشروع قرار مماثل لقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ يصبح هو الأساس الوحيد لمعالجة هذه القضية في الأمم المتحدة وتضطر الدول العربية والتي لم يطلب منها أن تقبل أو ترفض هذا القرار بأن تقترع اما لصالحه أو ضده . اما وفد منظمة التحرير الفلسطينية فقد أصر على أن الوقت سانح لمثل هذه المبادرة وان المكاسب العسكرية التي أحرزها الشعب الفلسطيني بنضاله وتضحياته تتطلب ترجمة هذه الانتصارات الى انتصارات سياسية تليق بتضحيات الشعب الفلسطيني البطولية اذ لا يعقل استمرار معالجة القضية في اطار بند تقرير المفوض العام لوكالة الاغاثة .

ورغم توصية الأخوة الفلسطينيين في آلأمم المتحدة رأت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية بدافع الحرص على وحدة الصف العربي ولأسباب وجيهة أخرى عدم الادراج . ثم جاءت المفاجأة على الصعيد الدولي اذ أقدمت مصر والاردن على طلب نقل بند الشرق الأوسط من مجلس الأمن الى الجمعية العامة في الدورة الخامسة والعشرين . وفي اجتماع للمجموعة العربية انتقد وفد منظمة التحرير هذه المحاولة وايدته في ذلك اغلبية الدول العربية الأعضاء واستشهد بالحجة التي استعملتها الدول العربية الثلاث عند معارضتها الادراج ، قائلة ان الولايات المتحدة او احدى الدول التي تسير في فلكها قد تقدم مشروع قرار شبيه بقرار ٢٤٢ الذي ترفضه منظمة التحرير الفلسطينية وترفضه آنذاك معظم الدول العربية . وكانت احداث أيلول الاسود الدامية وما تكبده شعب فلسطين من خسائر في الاردن ، ولأول مرة في تاريخ المجموعة العربية في الأمم المتحدة عند الاقتراع على القرار المتعلق بأزمة الشرق الأوسط انقسمت المجموعة الى قسمين متساويين فاقترعت سبع دول منها مؤيدة وجهة نظر مصر متبنية مشروع قرار مبني على أساس ٢٤٢ واقترعت سبع دول أخرى ضد هذا القرار . ومارست مصر ضغطا على الدول العربية التى اقترعت ضد هذا القرار بشكل مكشوف ومفضوح تعرض له بعض سفراء هذه الدول .

واستمرت القضية الفلسطينية تناقش في اطار بند تقرير المفوض العام في الدورات المتعاقبة حتى كانت الدورة التاسعة والعشرون (١٩٧٤) . ففي أواسط شهر آب (أغسطس) وفي اجتماع للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية عقد في دمشق وحضره ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في نيويورك ، اتفق على ادراج قضية فلسطين كبند مستقل على جدول أعمال الجمعية العامة ، واتفق في ذلك الاجتماع ايضا على ورقة عمل تتضمن مشروع القرار الذي يراد اتخاذه . وأبرق هذا القرار الى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية وطلبت منظمة التحرير الفلسطينية بحث هذا الموضوع في دورة جامعة الدول العربية في أوائل أيلول (سبتمبر) ١٩٧٤ . كما اتفق ايضا في لقاء مع رئيس اللجنة التنفيذية والقائد العام للثورة الفلسطينية على حضوره شخصيا دورة الأمم المتحدة اذا استطعنا التوصل الى الصيغة اللائقة .

لقد كانت بعض الوفود العربية مترددة حول الادراج بعضها عن طريق المزايدة للاستهلاك المحلي ، والبعض الآخر خشية بزوغ شمس منظمة التحرير الفلسطينية الأمر الذي من شأنه أن يقلص ما لهذه الدول من اثر على مشكلة فلسطين . وبعد لقاءات تمهيدية مطولة ومكثفة بين وفد منظمة التحرير الفلسطينية والوفود العربية تم الاتفاق على الادراج . وأمام اصرار منظمة التحرير الفلسطينية تم ادراج بند اسمه

قضية فلسطين وليس القضية الفلسطينيه أو قضية شعب فلسطين كما حاول البعض وعلما بأن هناك فرقا واضحا بين هذه التسميات . فباصرارنا على ادراج بند قضية فلسطين نشكك مجددا في الأرضية التي يقوم عليها الوجود الاسرائيلي ، ونشكك أيضا في قرار التقسيم الصادر عن الامم المتحدة نفسها كما نشكك في الوقت نفسه بكافة المحاولات الدولية لطمس معالم قضيتنا هذه . ثم جاء النقاش على مكان مناقشة هذا البند وهنا أيضا كان اصرارنا على أن مثل هـذا الموضوع لا بد وان يناقش في اعلى هيئة دولية أي في الجمعية العامة نفسها وليس في احدى اللجان كما حاول البعض . وطلب من الاخوة الفلسطينيين اعداد المذكرة الايضاحية التي يطلب فيها من السكرتير العام ادراج هـذا البند وفقـا لاحكام المادة العشرين مـن النظام الداخلي للجمعية العـامة .

وكانت بعض الدول العربية ترى أن يكتفى بتوقيع طلب ادراج هذا البند من قبل الدول العربية فقط . أما وفد المنظمة فأصر على أن يكون طلب الادراج من أكبر عدد ممكن من الدول وذلك لاظهار أهمية هذا البند ولاظهار أن قضية فلسطين ليست فقط قضية العرب وانما هي قضية عالمية . كما كانت لنا غاية اجرائية وهي معرفة مدى التأييد لمشاريع القرارات التي ستعرضها في الدورة ولكي تكون لنا فرصة اطلاع اكبر عدد ممكن من الدول عن طريق الاتصال المباشر معها عند الطلب من وفودها توقيع طلب الادراج على ورقة العمل التي تمثل ما نريد تحقيقه في القرارات السياسيه . وكان طلب الادراج هذا قد قدم في ١٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٤ أي قبل بدء الدورة بأيام معدوده وقد تم ذلك كمسألة هامة وعاجله .

ولما كـان رئيس الجمعية العـامة في دورتهـا التاسعـة والعشرين هـو وزير خارجيـة الجزائر السيـد عبد العزيز بوتفليقـة ولكـي لا يقـال اننـا اغتنمنـا فرصة رئاسته ، ولتسهيل مهمته وحمايته من مهاجمات أعدائه وأعدائنا في المجموعة الغربية واسرائيل كنا باستمرار نحـاول أن يكون هنـاك أكبر عدد من المتبنين لأي مشروع قرار يقدم أثناء مناقشة هذا الموضوع ، فعدد الدول التي تبنت طلب الادراج بلغ سبعة وخمسين وفدا وارتأت آنذاك بعض الدول الاشتراكية عدم توقيع المذكرة لأن في المذكرة التفسيرية اشارة الى قرار التقسيم الذي اتخذته الجمعية العامة سنة ١٩٤٧ وتنديدا به . وبمـا أن الدول الاشتراكية التـي كانت أعضاء في الأمم المتحدة آنذاك قد اقترعت الى جانب قرار التقسيم اذلك فهـي لا تستطيع أن تتبنى المذكرة الايضاحية وعلى ذلك تقدمت برسائل منفصلة تعلن فيها تأييدها لطلب الادراج .

وكان هناك موضوع آخر ناقشته المجموعة العربيـة وهو موضوع توقيت بحث قضية فلسطين . فقد حاول بعض الوفود العربية تأجيل نظر القضية الى ما بعد انتهاء مؤتمر القمة العربي الذي كـان مقررا عقده في الربـاط واما وفد منظمـة التحرير الفلسطينية فأصر على ان تتم الدعوة لمنظمة التحرير بالمشاركة في المداولات الخاصة ببند قضية فلسطين قبل مؤتمر القمـة وان يتخذ قرار الدعـوة مباشرة بعد الانتهاء من المناقشة العامـة وذلـك في ١٤ أكتوبر ١٩٧٤ . وكانت وجهـة نظرنا الحيلولة دون أن نترك لبعض الدول العربية استخدام مؤتمر القمة كوسيلة ضاغطة على المنظمة بما يتعلق بموضوع تمثيل الشعب الفلسطيني وان تأتي الدعوة من قبل الأمم المتحدة التي تنص على أن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل للشعب الفلسطيني . وقد حاول البعض حذف كلمـة The من عبـارة الممثل للشعب الفلسطيني أسوة بكلمـة The

في قرار ٢٤٢ عندما ينص على انسحاب اسرائيل من الأراضي العربية . وينص قرار الدعوة على ما يلي :

الجمعية العامة ،
آخذة بعين الاعتبار أن الشعب الفلسطيني هو الطرف الرئيسي في قضية فلسطين ،
تدعو منظمة التحرير الفلسطينية ، الممثلة للشعب الفلسطيني ، للمشاركة في مداولات الجمعية العامة لقضية فلسطين .

وقد وقعت هذا الطلب سبعون دولة أي أكثر من نصف أعضاء الجمعية العامة للأمم المتحدة . وقد يكون هذا القرار أسوة بغيره من القرارات المتعلقة بالقضية الفلسطينية من الوثائق النادرة التي تحمل تواقيع كل من الاتحاد السوفياتي وجمهورية الصين الشعبية ، اذ من المعروف أنهما لا يوقعان معا على أي مشروع قرار . وقد تحفظ الاردن على هذا القرار وأنضمت الى تبني القرار دولتان جديدتان فأصبح عدد المتبنين اثنين وسبعين (٧٢) . وفي صباح يوم الاثنين الموافق ١٤ تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٧٤ ولكثرة عدد الوفود التي أدرجت اسماءها للمشاركة في مناقشة الدعوة وكانت معظمها من الدول التي تؤيد الدعوة ، وللحيلولة دون تمييع هذا الزخم اذا ما استمرت المناقشة في الساعات المتأخرة من الليل ، (فقد يكون ذلك من المرات القلائل التي كان يطلب فيها من الدول ان تختصر في كلماتها او أن تسحب اسمها) اضطررنا الى الطلب من أصدقائنا عدم الكلام ليتم التصويت قبل انتهاء جلسة بعد الظهر وفي وقت مناسب تكون فيه معظم الوفود موجودة في قاعة الاجتماعات . وقد تم التصويت على الدعوة في الساعة الخامسة مساء وفاز ذلك القرار بمئة وخمسة أصوات ضد أربعة وامتناع عشرين وفدا عن التصويت . وأصبح هذا القرار التاريخي يحمل الرقم ٣٢١٠ (الدورة التاسعة والعشرون) . واما الدول الأربع التي عارضت القرار فهي الولايات المتحدة وبوليفيا والدومنيكان واسرائيل . وقد امتنعت معظم الدول الأوروبية الغربية عن التصويت الى جانب قرار الدعوة .

وقد اعتبرت جميع الوفود ومعظم الصحف ووسائل الاعلام في الولايات المتحدة فوز هذا القرار بهذا العدد الكبير من الاصوات نصرا كبيرا للمنظمة واعترافا دوليا بتمثيلها للشعب الفلسطيني . وفي ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٤ وعلى اثر انتهاء مؤتمر القمة العربي الذي اتفق فيه على أن يكون التمثيل العربي في الأمم المتحدة على أعلى مستوى ممكن والذي أعلن فيه ولأول مرة عن أن رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية سيفتتح المناقشة العامة لقضية فلسطين ، شكلت المجموعة العربية لجنة صياغة مؤلفة من الأخوة الفلسطينيين العاملين في الأمم المتحدة لصياغة مشروع القرار ولوضع ورقة عمل بالتعاون مع بعض الأخوة العرب واتفق فيها على أن يكون يوم الاربعاء الموافق ١٣ نوفمبر ١٩٧٤ هو بدء المناقشة لبند قضية فلسطين وعلى أن تبدأ الجلسة في ساعة متأخرة نسبيا ليكون رئيس اللجنة التنفيذية هو المتحدث الوحيد فيها . واتفق أيضا على أن تشترك جميع الوفود العربية في المناقشة العامة وان تضمن مشاركة أكبر عدد ممكن من الوفود الصديقة في المناقشة العامة وعلى مطالبة الوفود الصديقة ان تتكلم بعد مندوب اسرائيل الذي سجل اسمه للحديث في كل جلسة من الجلسات المخصصة لمناقشة القضية الفلسطينية . وطلب أيضا الاتصال برئيس الجمعية العامة للبحث معه في صحة هذا الطلب الاسرائيلي واتخاذ الاجراءات اللازمة بشأنه على ضوء ما يستقر عليه الرأي . وكان موقف منظمة التحرير الفلسطينية بالنسبة لذلك الموضوع هو أن نتكلم أيضا في كل جلسة اذا أصر المندوب الاسرائيلي على ذلك .

وقد يكون من الضروري في هذه المرحلـــة التحدث ولو قليلا عن الظروف المحيطة بحضور وفد منظمـــة التحرير الفلسطينية في الدورة التاسعـــة والعشرين وخاصة التطورات والملابسات المتلاحقة بالنسبة لموقف الوفد الامريكي ، اذ تنصل هذا الوفد في البداية من أية مسؤولية خاصة بما يتعلق بحماية الوفد الفلسطيني . وعندما اقترب موعد وصول الوفد وازداد الاهتمام به دوليا واعلاميا خاصة بسبب الحملات الاعلامية التي تعرض لها قرار دعوة المنظمة والاعتراف الدولي بها والهجوم على الأمم المتحدة من قبل المنظمات الصهيونية وبعض وسائل الاعلام الامريكية المتعاطفة مع اسرائيل والحركة الصهيونية اخذ الوفد الامريكي يبدي اهتمامه بالموضوع وخاصة عندما اتضح لهم أن الأخ ياسر عرفات سيرأس وفد منظمة التحرير الفلسطينية . وفي اجتماع عقد من قبل المسؤولين عـــن الأمن في واشنطن والوفد الامريكي لدى الامم المتحدة وكبار رجال الشرطة في مدينة نيويورك للبحث في تدبير الحماية الكافيـــة للوفد أثناء اقامته ذكر أحدهم أن اهتمامهم بالموضوع ناتج من تخوفهم من قيام عدوان من احدى جهتين الاولى هي من اتباع الحركة الصهيونية وأنصار اسرائيل والثانية من عناصر فلسطينية غير راضية عن مشاركة منظمة التحرير الفلسطينية في اجتماعات الأمم المتحدة . وان لديهم معلومات بأن بعض هذه العناصر قد تكون موجودة في نيويورك . أكدت آنذاك لهؤلاء المسؤولين أن الجهة الثانية التي يتخوفون من اقدامها على مثل هـــذه الاعمال غير واردة اذ لا يعقل أن يقدم أي فلسطيني على الاعتداء على وفد منظمـــة التحرير الفلسطينية ، وان الخلافات بين فصائل الحركـــة الفلسطينية لم ولن تصل الى درجة يستعمل فيها العنف على هذا المستوى وان أي خلاف فلسطيني يحل عن طريق الحوار واللقاءات المستمرة بين كافـــة الاطراف وان تخوفـــات الوفد الامريكي من العناصر الصهيونية الموجودة في نيويورك هي مسؤولية السلطة الامريكية بصفتها الدولة المضيفة للأمم المتحدة ونحن لا نطلب حماية خاصة ولا عناية زائدة . واقترح الوفد الامريكي ان تفرز أماكن لاقامة الوفد الفلسطيني في نـــاد للضباط في احد المعسكرات الحربية وعلى الفور رفضت هذا العرض لما ينطوي عليه من اساءة مقصودة بحجة الحماية واقترح الوفد الامريكي فيما بعد أن يقيم الوفد في جزيرة اسمها جوفرنرز ايلند Governer's Island وأن يتم نقل أعضاء الوفد الفلسطيني عن طريق الزوارق الحربية أو الهيلوكبتر ورفض هذا الاقتراح أيضا على الفور وان كانت حجته الأمن ، وقلنا لهم آنذاك ان رصاصة قناص على سطح أي عمارة تستطيع أن تصيب الهيلوكبتر أو أن تلحق الأذى بالزورق عدا عن كون هذه الفكرة مرفوضة لأنه لا يعقـــل أن نطلب باستمرار للذين يريدون الاتصال بالوفد الفلسطيني أخذ اذن مسبق عن طريق التحكم بوسائل النقل من الوفد الامريكي . وأمام تشنج الموقف الامريكي وفي مقابلة مع السكرتير العام الـــذي أبدى اهتماما مرضيا ومريحا بهذا الموضوع قلت لـــه أن هناك ثلاثة احتمالات لا رابع لها :

أولا : ان يصر على الوفد الامريكي باختيار مكـــان مناسب قريب من الأمم المتحدة يتولى الوفد الامريكي تقديم الحماية الكافية لمشاركة وفد منظمة التحرير الفلسطينية .

ثانيا : نقل مناقشة بند قضية فلسطين الى أي مكان آخر في العالم خـــارج نطاق السلطة الامريكية .

ثالثا : السماح لوفد منظمة التحرير الفلسطينية بالاقامة في مقر الأمم المتحدة ولو أدى ذلك الى نصب خيام في حديقـــة الأمم المتحدة . وأبدى السكرتير العام اهتماما بالغا بموضوع اقامة الوفد وحمايته وعرض تخليه عن أحد طوابق السكرتارية لاقامة الوفد الفلسطيني اذا لم يوفر الوفد الامريكي مكانا مرضيا لنا . وبعد المقابلة اتصل

الوفد الامريكي وعرضوا ثلاثة احتمالات اولا : ان تكون الاقامة في احد الفنادق الضخمة التي يسهل حراستها من قبل رجال الشرطة الفدرالية ورجال شرطة مدينة نيويورك أيضا .

ثانيا : ان تكون الاقامة في بيت من طوابق معدودة يسهل أيضا حراسته .

ثالثا : في طابقين بعمارة قريبة من الأمم المتحدة .

وفي كل مرة كان الوفد الامريكي يتكلم عن موضوع الحماية كان موقفنا هو أن الحماية من مسؤوليات الدولة المضيفة واذا كانت هي لا تريد ممارسة مسؤوليتها فنحن على استعداد ان نوفر الحماية لوفدنا اذا سمحت لنا بأن تقوم عناصر مسلحة من منظمة التحرير الفلسطينية بهذا العمل . وفي النهاية استقر الراي على أن تكون الاقامة في أحد الفنادق المعروفة .

ومن المعروف ان الحراسة التي اتخذتها السلطات الامريكية في نبويورك لم يسبق لها مثيل وخاصة يومي مجيء الأخ ابو عمار ويوم مغادرته الى هافانا .

ولعبت الحملة الاعلامية المسعورة الاسرائيلية الصهيونية دورا اساسيا في تسليط الاضواء على الوفد الفلسطيني ومجيئه الى الامم المتحدة كما جاءت المحاولات الرسمية الامريكية سواء منها الاصرار على تخفيض أعضاء الوفد الفلسطيني وخاصة ما سمي بالوفد الاعلامي او الحصار الجغرافي لتنقل اعضاء الوفد في دائرة نصف قطرها لا يتعدى خمسة وعشرين ميلا من وسط المدينة عاملا أساسيا آخر خلق جوا من الاهتمام بالامم المتحدة وجلساتها قلما شهدت مثله منذ قيامها . وكانت هناك محاولات جانبية اخرى ساهمت في خلق ذلك الجو منها الاعتداء على مكتب المنظمة في نيويورك في تلك الفترة من قبل عناصر صهيونية معروفة والتهديد العلني السافر في مؤتمر صحفي من قبل احد المسؤولين في ما يسمى بـ « عصبه الدفاع اليهودي » بالعمل على محاولة اغتيال رئيس الوفد الفلسطيني اثناء اقامته في نيويورك . وكانت هناك أيضا محاولات اعتداء من قبل محتالين أمريكيين تعرض لها مكتب المنظمة في نيويورك اكثر من مرة والقي القبض عليهم من قبل الشرطة المحلية ولكن حتى الان لم تصدر الاحكام ضدهم . هذا الجو الذي رافق عرض القضية الفلسطينية لم يخدم اهداف اعداء هذه القضية بل بالعكس ادى الى ازدياد التعاطف معها بالاضافة الى القرارين السياسيين الصادرين عن الجمعية العامة . فهذان القراران اصبحا ركيزة اساسية ينطلق منها العمل الدبلوماسي الفلسطيني ، وأديا الى عزل اسرائيل عن المجتمع الدولي والى الاعتراف المتزايد بمنظمة التحرير الفلسطينية رغم كل محاولات الولايات المتحدة لضرب منظمة التحرير الفلسطينية عن طريق الامم المتحدة ذاتها . فعلى اثر عملية ميونيخ عام ١٩٧٢ حاولت الامم المتحدة منجرة وراء اهواء الولايات المتحدة الاميركية وبناء على طلب من سكرتيرها العام ادراج بند في جدول اعمال الجمعية العامة كموضوع هام وعاجل سمي بند « الارهاب الدولي » . وكان الهدف منه توجيه ضربة في الصميم الى الثورة الفلسطينية واظهارها كحركة ارهابية وليس كحركة تحرر وطني لهذا الشعب المناضل . ولكن في هذه الدورة وبعد ثلاثة اعوام من ذلك المشهد رأت الجمعية العامة ذلك المشهد الرائع الذي لم يسبق له مثيل ، حتى عندما استعادت الصين الشعبية حقوقها في الامم المتحدة . فعندما كان رئيس اللجنة التنفيذية يخطب في الجمعية العامة استقبل بالتصفيق والهتافات بشكل لم يسبق له مثيل وعلى الرغم من انه لم يسمح للضيوف دخول القاعة بحجة الأمن ، لم

يكن هناك اي مقعد خال بسبب الحضور الكثيف لاعضاء الوفود وللعاملين في الامانة العامـــة للامـــم المتحدة .

في الوقت نفسه كان اقطاب اسرائيل والحركة الصهيونية واتباعهم من اعضـــاء مجلس الشيوخ يخطبون في مظاهرة خارج مقر الامم المتحدة جروا اليها الاف الطلبة والاطفال من مدارسهم في نيويورك وغيرها من المدن الاميركية .

أما بالنسبة للقرارين : فكان القرار الاول المتعلق بحقـــوق الشعب الفلسطيني والذي عرف فيما بعد بقرار ٣٢٣٦ (الدورة ٢٩) مبنيا على الاسس ألتي حددتهـــا اللجنة التنفيذية في اجتماعها في دمشق ، والذي أبرقت به الى مجلس جامعة الدول العربية وتبناها مؤتمر القمة في الرباط . غير انه تعرض لتعديلات ، بعضها من قبل دول عدم الانحياز والبعض الاخر من قبل وزراء الخارجية العرب انفسهم وقد كان هناك اتجاهان اثناء البحث في فحوى القرارين . الاتجاه الاول يدعو الى صياغـــة مشروع قرار يحصل على اكبر عدد من الاصوات في محاولة للحصول على تأييد بعض الدول الاوروبية الغربية . ويدعو أصحاب هذا الاتجاه الى تضمين مشروع القرار الاشارة الى قرارات الامم المتحدة السابقة . والاتجاه الثاني يدعو الى صياغـــــة مشروع قرار لا يخرج عـــن المبادىء الاساسية ويعكس حاضر الثورة الفلسطينية . وينص على الحقوق والحفاظ عليها . وكان موقف المنظمة باستمرار هـــو ضرورة التأكيد على الحقوق في قرار متين منسجم مع اماني الشعب الفلسطيني ورغباتـــه حتى ولو لم يحصل على العدد من الاصوات ألتي قد يحصل عليها قرار هزيل كالذي حاول بعض الاطراف استصداره . وحتى في الوقت الذي سبق عرض مشاريـــــع القرارات وقبل انعقاد مؤتمر القمة العربي في ألرباط ، كانت بعض الاوساط العربية تلمح الى وجود مشروع قرار يدعو لاقامة وطن للفلسطينيين . فكان جوابنا لهم ان للشعب الفلسطيني وطنه وهو ليس شعبـــا بلا وطـــن . فالمطلوب اذن هو عودة الشعب الفلسطيني الى وطنه وليس التفتيش عن وطن له . ومن هنا كان اصرارنا آنذاك على أن تشمل الحقوق التي نص عليها القرار حق الفلسطينيين في العودة الى بيوتهم وممتلكاتهم التي اجلوا عنها واقتلعوا منها منذ عام ١٩٤٧ والدعوة الى عودتهم في اقرب وقت ممكن . واهمية هذه الفقرة الجديدة التي نص عليها القرار رقم ٣٢٣٦ والتي تعتبر التفسير المنطقي الوحيد لقرارات الأمم المتحدة المتعاقبة منذ سنة ١٩٤٩ — عندما تبنت الجمعية العامة قرارها رقم ١٩٤ في الدورة الثالثة ، وخاصة الفقرة ١١ التي تنص على حق اللاجئين ألفلسطينيين في العودة أو التعويض — هي أنها قد اعطت المفهوم المنطقي المبني على الحقوق المعترف بها دوليا ، وهي حق الانسان فى العودة الى بيته وممتلكاته وان هذا الحق هو حق وطني ثابت وليس فقط حقا انسانيا .

واما القرار الثاني المتعلق باعطاء صفة المراقب لمنظمة التحرير الفلسطينية والذي يعرف بقرار رقم ٣٢٣٧ ، فقد انتزعناه رغم معارضة عدد كبير من الدول العربية نفسها ومن الدول الصديقة التي كانت تخشى ان يشكل ذلك سابقة بالنسبة لحركات تحرر قد تنشأ بين افراد شعبها ولهذا القرار خلفيات تعود لاكثر من سنتين قبـــل استصداره وكنا نربط مشاركة منظمة التحرير الفلسطينية مع مشاركة حركات التحرر الافريقية في مثل هذه القرارات لسببين رئيسيين ، احدهما مبدئي وهو ايماننا بوحدة قضايا التحرر وبالارتباط العضوي القائم بين حركات التحرر في العالم والسبب الاخر اجرائي يرمي لضمان مساندة الدول الافريقية لهذا القرار . وفي مؤتمر قانون البحار الذي انعقد في كاراكاس عاصمة فنزويلا اتخذ قرار بدعوة منظمة التحرير الفلسطينية

مع دعوة منظمات التحرير الوطنية المعترف بها مـن قبل منظمة الوحدة الافريقية . وكان للصعوبات والعقبات التي اعترضت مسعى الوفود الشقيقة والصديقة في كاراكاس اثر ايجابي علـى التفكير بضرورة اتخـاذ قرار شامل وعـام لتحاشي مثل هذه الصعوبات ولاستبعاد اي اغفال او نسيان قد يحدثنا عند اتخـاذ القرارات الاساسية التي تتطلب مشاركة من قبل م.ت.ف . ولكي لا نقدم على خوض معركة في كل مناسبة راى الاخوة الفلسطينيون العاملون في نيويورك ضرورة تأمين دعوة منظمة التحرير الفلسطينية ومشاركتها في جميع المؤتمرات الدولية التي تعقد تحت رعاية الجمعية العامة باستصدار قرار أعطاء م.ت.ف صفة مراقب دائم في الدورة التاسعة والعشرين . وهنا لا بد من الاشارة الى ألدور الخاص الذي قام به وفد دولة الامارات العربية بشكل عام ودور الدكتور برهان حماد المستشـار في وفد دولـــة الامارات واحد الاخوة الفلسطينيين الذين اشرت لهم اكثر من مرة في هذا الحديث .

وقد جرى لقاء بين وفد م.ت.ف وكافة وفود حركات التحرر الافريقية التي كانت تحضر ذلك الاجتماع وشارك في اللقاء مندوب منظمة الوحدة الافريقية واتفق علـى ضرورة التنسيق الا ان منظمة الوحدة الافريقية ، لاسباب خاصة ، ارتأت فصـل القرارات المتعلقة بالدعوة لحركات التحرر المعترف بها . وقال اكثر من مسؤول فيها ان منظمة التحرير الفلسطينية لها وضع متطور خاص وليس من العدل ان تعامل اسوة ببعض حركات التحرر الافريقية . وبدافع الحرص على وحدة الصف العربي الافريقي كنا على استعداد للاتفاق على اية صيغة اجرائية معقولة . اما عن طريق بند جديد يضاف على جدول الاعمال في دورتها التاسعة والعشرين تحت عنوان دعوة منظمات التحرير الوطنية المعترف بها من قبل منظمة الوحدة الافريقية وجامعة الدول العربية . للحضور كمراقبين في جميع دورات الجمعية العامة والمؤتمرات الدولية التي نعقد تحت اشراف الامم المتحدة . او عن طريق استصدار قرار بدعوة هـذه المنظمات يدخل ضمن احد البنود الواردة على جدول اعمال الجمعية العامة . وقد حاول بعض الاخوة العرب أمام اصرارنا علـى تقديم مشروع قرار منفصل . ادخال فقرة خاصة بالدعوة ضمن مشروع القرار السياسي المتعلق بالحقوق الفلسطينية الثابتة ، عند بحث قضية فلسطين . وكانت هناك خشية لدى دول عربية وصديقـة بأن هذا القرار قد يؤثر بشكل سلبي على القرار السياسي الذي اتفقنا عليــه . وانه من الافضل الاكتفاء بقرار واحد وكان البعض يصر على ان هذا القرار لن ينجح وقد لا يحصل الا على اصوات قليلة ستقلل من اهميته . وذهب البعض الى حد التهكم قائلا بأن دعوة المنظمة كمراقب سيجعلها تتصرف كحكومة . وليس كحركـــه تحرير ! وكنا باستمرار نواجه هذه الاعتراضات بالحجج والبراهين وقلنا ان مثل هذا القرار هو تجسيد للانتصارات السياسية والعسكرية التي احرزها نضال شعبنا وانـه في الوقت نفسه تجسيد عملي للقرار السياسي المتعلق بالحقوق الثابته . والغريب في الامر ان الذين عارضوا دعوة المنظمة كمراقب هم اكثر الناس اندفاعا في الضغط على المنظمة لاقامة حكومة فلسطينية مؤقتة . وقد ثبت بالتجربه عندما اشتركت المنظمة في الماضـى في المؤتمرات الدولية والاقليمية انها لم تتصرف كدولة وانما كحركة تحرر وطني مسؤولة . ولكنهم تجاهلوا هذه الحقيقة . وبقي مشروع هذا القرار بتأرجح بين القبول وعدم القبول حتى ساعة متأخرة من مساء يوم الخميس [illegible] نوفمبر ١٩٧٤ عندما اقرته المجموعة العربية بعد ان طال بها النقاش [illegible] السياسي المتعلق بالحقوق الوطنية الثابتة وقدمت هذا الطلب ستة وثلاثون [illegible] لدى التصويت على خمسة وتسعين صوتـــا اى ستة اصوات اكثر [illegible] القرار ٣٢٣٦ المتعلق بالحقوق الثابتة .

ونشطت الجهود العربية لاجل استقطاب اكبر عدد من الدول الاعضاء الى جانب القرارين ، ولم تبق هناك دولة من اعضاء الأمم المتحدة باستثناء اسرائيل والولايات المتحدة الامريكية لم يجر الاتصال بها من قبل اكثر من وفد عربي ، وبالطبع من وفد منظمة التحرير الفلسطينية . وكنا على ثقة بان مشروعي القرارين سيحصلان على اصوات قريبة من العدد الذي حازا عليه ، لاننا كنا مدركين لمواقف هذه الدول . وكانت هناك حملة مركزة من التشكيك بالنسبة للقرار الثاني الخاص بمنح المنظمة صفة المراقب ، فقال لنا البعض ان دولا صديقة ستصوت ضد القرار . وجاءنا البعض راجيا سحب مشروع القرار وعدم طرحه على التصويت محملا ايانا مسؤولية تقديم ذلك المشروع . ولكننا كنا نقول لهم باستمرار ان اتصالاتنا بالوفود هي التي تدعونا الى التأكيد بان هذا القرار سينجح .

ومنذ ذلك الوقت تمارس منظمة التحرير الفلسطينية تمثيلها للشعب الفلسطيني في الامم المتحدة وكافة لجانها وكافة المؤتمرات المنبثقة عنها والمنعقدة تحت اشرافها ، عن طريق تلك الصفة التي اكتسبتها كمراقب في تلك الدورة التاريخية . ووجود منظمة التحرير الفلسطينية كمراقب في الامم المتحدة يختلف عن المراقبين الاخرين من الدول غير الاعضاء ، فهؤلاء المراقبون يدعون عن طريق السكرتير العام للامم المتحدة وحقوقهم مختلفة عن الحقوق التي يمارسها وفد منظمة التحرير الفلسطينية . فمثلا يستطيع ممثل فلسطين ان يطلب الكلمة وان يشترك في اية مناقشة ، ليس فقط في القضايا التي تتعلق به وبقضيته وانما في اي موضوع مدرج على جدول الاعمال دون اذن مسبق من اللجنة التي يتكلم امامها . كذلك من حقه ان يمارس الرد بدون ان يخضع ذلك لموافقة مسبقة . وقد لخص الحقوق التي سيحصل عليها وفد منظمة التحرير الفلسطينية قبل التصويت على ذلك القرار ، سفير بريطانيا سير ريشاردز عندما حذر الجمعية العامة من الموافقة على القرار قائلا : ان هذا سيعطي المنظمة كافة الحقوق التي يتمتع بها العضو ما عدا حقي التصويت وتقديم مشاريع القرارات . وسئلت فيما بعد ان كنت اتفق مع هذا التفسير وكان ردي : هناك حق آخر لم يتطرق له المندوب البريطاني وهو الاستفادة من اجهزة الأمم المتحدة دون ان نساهم في ميزانيتها .

تنفيذاً للقرار الذي منح منظمة التحرير الفلسطينية صفة المراقب ، كان من حق منظمة التحرير الفلسطينية ان تشترك في كافة اعمال الجمعية العامة واللجان المنبثقة عنها منذ بداية الدورة وحتى نهايتها ، ليس فقط بالنسبة للقضايا التي تتعلق بقضية فلسطين ، وانما بالنسبة لكافة البنود المدرجة على جدول اعمال الجمعية العامة . غير ان وفد المنظمة لم يشترك الا في مناقشة القضايا المتعلقة بقضية فلسطين . وهذه القضية مدرجة بناء على الفقرة الاخيرة (رقم ٩) في قرار ٣٢٣٦ التي تنص على : « تقرر ان يدرج البند المعنون : قضية فلسطين ، على جدول اعمال مؤقت لدورتها الثلاثين » . وكان اول متحدث في مناقشة هذا البند الاخ فاروق القدومي رئيس وفد منظمة التحرير الفلسطينية في الدورة الثلاثين والذي افتتح المناقشة العامة . وتجدر الاشارة الى ان افتتاح المناقشة من قبل ممثل فلسطين لها مدلول سياسي ودبلوماسي ، اذ جرت العادة في الامم المتحدة ، ان يبدأ مناقشة اي بند على جدول الاعمال صاحب تلك القضية . وهذا يعني ان الشعب الفلسطيني ، على الصعيد الدولي ، قد خرج من الوصاية التي كانت مفروضة عليه ، بسبب حرمانه من حقه في ابداء رايه والتعبير عن مشاعره بالنسبة لقضيته من آعلى المنابر الدولية. ونستطيع القول ان اشتراك الكثيرين من اعضاء الدول في التحدث في الجمعية العامة

اثناء مناقشة بند قضية فلسطين هو دليل على الاهتمام الدولي المتزايد بهذه القضية التي اصبحت كامه الدول الاعضاء ندرك انها صلب النزاع في الشرق الاوسط وانها مفتاح الحرب أو السلام في المنطقة ان لم تكن في العالم .

وفي مناقشة هذا البند ركز الجانب الفلسطيني على استصدار قرار أساسي واحد هو القرار رقم ٣٣٧٦ (الدورة الثلاثون) الذي تبنته اثنتان وخمسون دولة وينص على ما يلي :

الجمعية العامة ،

اذ تستذكر قرارها رقم ٣٢٣٦ (الدورة التاسعة والعشرون) ، بتاريخ ٢٢ نوفمبر ١٩٧٤ ،

واذ تأخذ علما بتقرير السكرتير العام حول تنفيذ هذا القرار ، تعرب عن قلقها العميق من أن حلا عادلا لمشكلة فلسطين لم يتحقق بعد ،

واذ تعترف بأن مشكلة فلسطين مستمرة في تهديد السلام والأمن الدوليين :

١ ـ تؤكد قرارها رقم ٣٢٣٦ (الدورة التاسعة والعشرين) .

٢ ـ تعرب عن قلقها العميق من عدم حصول أي تقدم نحو :

أ ـ ممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه الثابتة في فلسطين بما في ذلك حق تقرير المصير من دون تدخل خارجي ، وحقه في الاستقلال والسيادة الوطنيين .

ب ـ ممارسة الفلسطينيين لحقهم الثابت في العودة لبيوتهم وممتلكاتهم التي انتزعوا منها وأرغموا على النزوح عنها .

٣ ـ تقرر تشكيل لجنة متابعة لممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه الثابتة ، مؤلفة من عشرين دولة تنتخب من قبل الجمعية العامة في هذه الدورة .

٤ ـ تطالب لجنة المتابعة هذه ان تعد برنامجا للتنفيذ ، وان تتقدم به كتوصية للجمعية العامة ، من أجل تمكين الشعب الفلسطيني من ممارسة حقوقه المعترف بها في الفقرتين ١ و ٢ من قرار الجمعية العامة رقم ٣٢٣٦ (الدورة ٢٩) وان تأخذ في الحسبان أثناء صياغة توصياتها بتنفيذ هذا البرنامج ، كافة السلطات التي خولها الميثاق لأجهزة الأمم المتحدة الرئيسية .

٥ ـ تخول اللجنة للقيام بواجباتها اجراء الاتصالات ، وتسلم الاقتراحات ومشاريع القرارات والبحث فيها مع أية دولة أو أية منظمة دولية اقليمية ومع منظمة التحرير الفلسطينية .

٦ ـ تطلب من السكرتير العام أن يضع تحت تصرف اللجنة كافة التسهيلات الضرورية للقيام بمهماتها .

٧ ـ تطالب اللجنة أن تقدم تقريرها وتوصياتها الى السكرتير العام بتاريخ أقصاه ١ حزيران ١٩٧٦ وتطلب من السكرتير العام أن ينقل هذا التقرير لمجلس الأمن .

٨ ـ تطالب مجلس الأمن أن ينظر بأسرع وقت بعد تاريخ ١ حزيران ١٩٧٦ ، في موضوع ممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه الوطنية الثابتة المعترف بها في الفقرتين الاولى والثانية من قرار الجمعية العامة رقم ٣٢٣٦ (الدورة التاسعة والعشرون) .

٩ ـ تطلب من السكرتير العام أن يخبر اللجنة بالعمل الذي يتخذه مجلس الأمن وفقا للفقرة الثامنة أعلاه .

١٠ ـ تخول اللجنة ، آخذة بالاعتبار ما يتخذه مجلس الأمن من خطوات أن تقدم للجمعية العامة في دورتها الحادية والثلاثين تقريرا يحتوي على توصياتها وملاحظاتها .

١١ ـ تقرر أن تدرج بندا بعنوان قضية فلسطين على جدول أعمالها المؤقت للدورة الحادية والثلاثين :

(١) تقرير رقم ٦٥ A - 10265

يتضح من نص هذا القرار اننا قد انتقلنا الى مرحلة جديدة في العمل في الامم المتحدة ، وهي مرحلة العمل على تطبيق القرار التاريخي الذي اتخذته الجمعية العامة

في الدورة التاسعة والعشرين والخاص بالحقوق الوطنية الثابتة . ومع ادراكنا ان صعوبات جمة تعترض مسعى هذه اللجنة منذ اتخاذ هذا القرار نتيجة تشنج بعض الدول الغربية وفي مقدمتها الولايات المتحدة ، ونتيجة للموقف الاسرائيلي المعروف حول عدم تعاون دولة الاحتلال مع اية لجنة تنبثق عن الامم المتحدة . الا ان تكوين هـــذه اللجنة ضروري للتركيز على الحقوق الثابتة وعلى اصل القضية الفلسطينية وليس على فروعها كما كان يحدث في الماضي . كما ان تشكيل مثل هذه اللجنة سيساهم في استمرارية عملية التعرية التـــي نقوم بهـــا بالنسبة لاسرائيل وللحركة الصهيونية لبس عن طريق حكم عربي وانما عن طريق لجنة دولية تمثل الجمعية العامة للامـــم المتحـــدة .

واثناء البحث والتفكير في الدول التي يجب ان تتشكل منها هذه اللجنة ، كان وفد منظمة التحرير الفلسطينية يسعى لان تكون اللجنة ممثلة للمجموعات الجغرافيـــة الموجودة في الامم المتحدة . فاجريت اتصالات مع العديد من الدول في المجموعـــات اللاتينية والاوروبية الغربية والافريقية والاسيوية والاشتراكية . الا ان معظم دول المجموعة الاوروبية رفضت المشاركة في هذه اللجنة مدعية انها ستقبل فقـــط اذا طلب منها بعد قرار بالموافقة مـــن قبل المجموعة الاوروبية . كما اعتذر بعض الوفود عن المشاركة في تنفيذ القرار ٣٢٣٦ بحجة أنهم لم يقترعوا لصالح هذا القرار في الدورة التاسعة والعشرين ولذلك ليس من المعقول على حد زعمهم المشاركة في تنفيذ قرار كانت عندهم تحفظات عليه ، وكانت هذه حالة بعض الدول اللاتينية . وحرص وفد منظمة التحرير الفلسطينية على ان تكون بعض الدول التي لا زالت لها علاقة دبلوماسية مع اسرائيل ممثلة في هذه اللجنة ، لكي لا تستغل اسرائيل حجة عدم وجود ممتيـــل دبلوماسي بينها وبين الدول الاعضاء في اللجنة ، كما حدث بالنسبة للجنة الثلاثيـــة التي شكلتها الجمعية العامة سنة ١٩٦٨ للبحث في الممارسات الاسرائيلية بالنسبة للمواطنين في المناطق المحتلة ، وفي مخالفة اسرائيل لاتفاقية جنيف المتعلقة بحقوق الانسان ، اذ ما برحت اسرائيل تطعن في عضوية هذه اللجنة المؤلفة من يوغسلافيا والسنغال وسيرالانكا برئاسة سفير سيرالانكا شيرلي اما راسينغي ، وتقاطعها بحجة ان هذه الدول ليست لها علاقة مع اسرائيل . لذلك حرصنا مثلا على ان تكون رومانيا وهي الدولة الاشتراكية التي ابقت على علاقات دبلوماسية مع اسرائيل وكذلك مالطا وقبرص اعضاء في اللجنة .

وانتخبت الجمعية العامة هذه اللجنـــة من الدول الاتيـــة لتنفيذ هـــذا القرار : افغانستان ، كوبا ، قبرص ، جمهورية المانيا الديمقراطية ، غينيا ، المجر ، الهند ، اندونيسيا ، لاوس ، مدغشقر ، ماليزيا ، مالطا ، باكستان ، رومانيا ، السنغال ، سيراليون ، تونس ، تركيا ، الاوكران ويوغسلافيا .

ويعتبر هذا القرار ايضا محاولة للضغـــط على مجلس الامن لاتخـــاذ الخطوات الفعالة والاجراءات اللازمة لتمكين الشعب الفلسطيني من ممارسة حقوقه الوطنية الثابتة بالنسبة لحق تقرير المصير والاستقلال والسيادة الوطنيين ، وحق الفلسطينيين في العودة لبيوتهم وممتلكاتهم التي اجبروا على النزوح عنها منذ سنة ١٩٤٧ . كمـــا يعتبر هذا القرار محاولة لحمل مجلس الامن بصفته الجهاز المكلف من الامم المتحدة بالمحافظة على السلام والامن الدوليين بالنظر الى طبيعة القضية الفلسطينية وكونها المحور الاساسي في الصراع في الشرق الاوسط ، والتي من شأنها ان تستمر في تهديد السلام والامن الدوليين . ومع ادراكنا منذ البداية أن الموقف العدائي الذي تتخذه

الولايات المتحدة بالنسبة للشعب الفلسطيني وقضيته ، ليس فقط في الجمعية العامة، وانما في مجلس الامن ايضا ، فمن المؤكد ان تستعمل الولايات المتحدة حق النقض (الفيتو) ضد اية محاولات يمكن ان يتخذها معظم اعضاء مجلس الامن حول تنفيذ هذه الحقوق . الا ان هذا القرار الذي هو بشكل توصية لمجلس الامـن يساهم في الضغط على الولايات المتحدة والتشهير بموقفها العدائي في وقت تدعي فيه بأنها جادة لاقامة صداقات مع الدول العربية .

واما القرار الثاني الذي اتخذ في الدورة الماضية اثناء مناقشة قضية فلسطين ، فهو القرار بعنوان « دعوة منظمة التحرير الفلسطينية للمشاركة في كافة الجهود من اجل السلام في الشرق الاوسط » ، وهذا القرار جاء نتيجة الكلمة التي القاها رئيس جمهورية مصر العربية السيد محمد انور السادات في الجمعية العامة للامم المتحدة ، قبل البدء بمناقشة بند قضية فلسطين ، والتي دعا فيها الى ضرورة مشاركة م.ت.ف في مؤتمر جنيف . فمنذ وصول الوفد الفلسطيني الى الامم المتحدة ولاسبوع كامل ، أثناء مناقشة بند قضية فلسطين ، كان جهدنا الرئيسي منصبا على كيفية الخروج من تلك الأزمة التي فاجأنا بهـا الرئيس السادات . فقد حاولنـا أن لا يصدر هذا القرار تحت بند قضية فلسطين ، اذ لم يتكلم سيادة الرئيس أثناء مناقشة هذا البند ، وانما من الممكن ان يصدر هذاا لقرار عند مناقشة بند ازمة الشرق الاوسط المدرج على أعمال الجمعية العامة . وقد حاولنا ايضا التركيز في اكثر من مناسبة خـلال اجتماعات المجموعة العربية ، على العمل من أجل توحيد الصف العربي الذي كاد يكون معدوما قبل وصول وفد منظمة التحرير الفلسطينية . وادراكا منا بان المواضيع الفلسطينية الاساسية ، سواءا مشروع القرار المتعلق باقامة لجنة لتنفيذ الفقرتـين الاولى والثانية من القرار ٣٢٣٦ (الدورة ـــ ٢٩) ، أو القرار التاريخي الذي تبنته اللجنة الثالثة « الانسانية والاجتماعية المتعلق بتعريف الصهيونية كحركة عنصرية ، قد يتعرضان للخطر في هذه الدورة نتيجة عدم الاتفاق العربي ، ونتيجة الشلل الذي تعرضت له المجموعة العربية وللارتجال والانفراد بتقديم قرارات لم يسبق ان اتفق عليها ، مثل مشروع القرار الداعي لاشتراك م.ت.ف في مؤتمر جنيف . فقد عمـل الوفد الفلسطيني بكـل جهد لرأب الصدع في الصف العربـي ولاقامة جو بعيد عن التراشق بالتهم والمزايدات والمناقصات محاولين بذلك الخروج باجماع عربي حـول كافة المواضيع والقرارات ، ومدركين ايضا انه لا يمكن لوفد م.ت.ف أن يقبل باي قرار يكون مخالفا لقرارات المجالس الوطنية الفلسطينية ، وأن أي مؤتمر مـن أجل السلام لا يمكن أن تحضره م.ت.ف اذا كان مبنيا على القرار رقم ٢٤٢ ذلك القرار الذي يجسد الاحتلال الاسرائيلي للقسم الاكبر من الوطن الفلسطيني ويعتبر قضية الشعب الفلسطيني « مشكلة لاجئين في الشرق الأوسط » . وكانت ثلاثة عوامل اساسية تحكم تصرف وفد م.ت.ف بالنسبة لهذا الموضوع :

اولا : ان لا يكون في اي قرار يتخذ بالنسبة لدعوة م.ت.ف للمشاركة في جهود السلام في الشرق الاوسط اي نص او تلميح لاي قرار سابق اتخذته الجمعية العامة او مجلس الأمن القرار رقم ٣٢٣٦ . وان تكـون المشاركة مبنية على أساس تنفيذ هذا القرار وليس على اي اساس اخر وذلك للمحافظة على وحدة الصف الفلسطيني الذي هو في النهاية اهم من اي اعتبـار اخر .

ثانيا : المحافظة على وحدة الصف العربي والخروج بقرار مقبول من كافة الاطراف العربية وذلك للمحافظة على قدرة المجموعة العربية في ان تتحرك في اوساط الامـم

المتحدة بالشكل الذي جرت عليه العادة ، وخاصة في الدورة التاسعة والعشرين عندما كانت وحدة الصف العربي والتنسيق بين كافة الاعضاء فيها مثلا يحتذى به ولكون هذا الاجماع العربي عاملا أساسيا في المحافظة على أكبر عدد ممكن من المؤيدين والاصدقاء على الصعيد الدولي . اذ ان اي خلاف في داخل المجموعة العربية يعكس نفسه باستمرار على عدد مؤيدينا ومؤيدي قضيتنا ، ونحن في امس الحاجة لتأييدهم بالنسبة للقرار المتعلق بالصهيونية .

ثالثا : المحافظة على الاسس والمبادىء التي نعتقد انها حجر الاساس بالنسبة للقضية الفلسطينية والتي لا يجوز المساس بها من قريب او بعيد ، أذ لا بد من التركيز على هذه الاسس والمبادىء بدلا من ارضاء المحاولات التي قد يلجأ اليها البعض باسم « التكتكة » او باسم ما يمكن الحصول عليه في مرحلة معينة نتيجة ظروف معينة. فمن البديهي مثلا ان تكون اتفاقية سيناء الاخيرة قد اثرت على مجرى الاحداث في المجموعة العربية في الامم المتحدة وعلى مناقشة بند قضية فلسطين ، وقد يكون لهذه الاتفاقية أثر اساسي في جعل رئيس جمهورية مصر العربية يقدم على تقديم ذلك الاقتراح بالنسبة لدعوة المنظمة للمشاركة في مؤتمر جنيف . ومن هنا ، كان اصرار الوفد الفلسطيني عندما فشل طلبنا بالغاء تقديم مشروع القرار (اذ كان من العسير على وفد جمهورية مصر أن يسحب هذا الاقتراح بعد أن تقدمت به أعلى سلطة في البلد وأمام الجمعية العامة) هو العمل على أن لا يتم تقديم هذا القرار تحت بند قضية فلسطين ، وان نحاول التوصل الى صيغة تشكل أقل ضرر ممكن بالأسس والمبادىء والمنطلقات التي ذكرتها سابقا . وبمجرد مقارنة بسيطة بين ورقة العمل الاولى التي تقدم بها وفد مصر وبين القرار الذي حمل رقم ٣٣٧٥ كما تبنته الجمعية العامة في صيغته المعدلة ، نلاحظ أهمية الفرق بين الاثنين . فقد نصت ورقة العمل التي اقترحها وفد جمهورية مصر العربية على :

الجمعية العامة ،

وقد درست البند المتعلق بالمسألة الفلسطينية واذ تقرر بضرورة التوصل الى سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط بأسرع ما يمكن ،

واذ تؤمن بأن تحقيق الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني طبقا لمبادىء الميثاق وأهدافه هو شرط ضروري للتوصل الى سلام عادل ودائم في المنطقة ،

واذ تأخذ في الاعتبار ان انعقاد مؤتمر جنيف للسلام في الشرق الأوسط يجب أن يتم في القريب العاجل ـ بحضور كافة الأطراف المعنية ـ لمعالجة مشكلة الشرق الأوسط من كافة جوانبها بهدف التوصل الى تسوية عادلة ودائمة .

١ ـ تدعو الى اشتراك منظمة التحرير الفلسطينية ممثلة للشعب الفلسطيني في أعمال مؤتمر جنيف للسلام على قدم المساواة مع بقية الأطراف المشتركة في المؤتمر .

٢ ـ تكلف السكرتير العام بابلاغ هذا القرار الى رئيس مؤتمر جنيف للسلام واتخاذ كافة الخطوات التي تؤمن اشتراك منظمة التحرير الفلسطينية في أعمال المؤتمر .

٣ ـ تطلب من السكرتير العام تقديم تقرير في هذا الشأن الى الجمعية العامة في أقرب وقت .

وأما صيغة القرار المعدلة التي تبنتها الجمعية العامة (القرار رقم ٣٣٧٥) فينص على :

الجمعية العامة ،

بعد ان نظرت في البند المعنون قضية فلسطين ،

مستذكرة قرارها رقم ٣٢٣٦ (الدورة التاسعة والعشرون بتاريخ ٢٢ نوفمبر ١٩٧٤) الذي اعترف بالحقوق الوطنية الثابتة لشعب فلسطين ،

معترفة بضرورة تحقيق سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط في أقرب وقت ممكن ،

معتقدة أن تحقيق الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني وفقا لأهداف ومباديء ميثاق الأمم المتحدة هو شرط مسبق لتحقيق سلام عادل ودائم في المنطقة ، ومقتنعة أن مشاركة الشعب الفلسطيني ضرورية في أية مجهودات ومداولات تهدف الى تحقيق سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط ،

١ ـ تطلب من مجلس الأمن أن يبحث وان يتخذ القرارات والاجراءات الضرورية من أجل تمكين الشعب الفلسطيني من ممارسة حقوقه الوطنية الثابتة طبقا لقرار الجمعية العامة رقم ٣٢٣٦ (الدورة التاسعة والعشرون) ٠

٢ ـ تدعو الى دعوة منظمة التحرير الفلسطينية ، الممثلة للشعب الفلسطيني للمشاركة في كافة الجهود والمداولات والمؤتمرات حول الشرق الأوسط ، والتي تعقد تحت اشراف الأمم المتحدة ، على قدم المساواة مع كافة الأطراف ، طبقا للقرار ٣٢٣٦ (الدورة التاسعة والعشرون) ٠

٣ ـ تطلب من السكرتير العام أن يخبر رئيسي مؤتمر السلام في الشرق الأوسط بهذا القرار الحالي وأن يتخذ الخطوات الضرورية لضمان دعوة منظمة التحرير الفلسطينية للمشاركة في أعمال المؤتمر وفي كافة الجهود الأخرى من أجل السلام ٠

٤ ـ تطلب من السكرتير العام أن يقدم تقريرا حول هذا الموضوع الى الجمعية العامة في أسرع وقت ممكن ٠

ولم يأت النص النهائي دفعة واحدة وبدون اجتماعات مطولة ومكثفة ومحتدة النقاش في بعض الحالات ، فكان من الصعب مثلا أن نحول دعوة المشاركة في جنيف الى دعوة المشاركة لتنفيذ القرار ٣٢٣٦ . كما كانت هناك مناقشات طويلة بين وفد منظمة التحرير الفلسطينية ووفد الجمهورية العربية السورية من جهة، ووفد مصر من جهة أخرى . فقد تقدمت سوريا باقتراح مشروع قرار على المجموعة العربية كان من المستحيل ان ينجح في الامم المتحدة . وقد قال مندوب سوريا الدائم لدى الامم المتحدة السيد موفق العلاف ان ورقة العمل هذه هي نتيجة اتفاق سوري ـ فلسطيني على اعلى المستويات . ومع تحبيذنا لورقة العمل هذه الا أنه كان من غير الممكن التفكير بها في هذه الدورة وفي ظروف المعطيات الدولية والعربية القائمة ، ولانها بالاضافة الى ذلك جاءت متأخرة من حيث التقديم . وقد قامت اتصالات مكثفة ونقلت الخلافات العربية من داخل المجموعة الى مجموعة عدم الانحياز ومجموعة الدول الاسلامية مما خلق بلبلة وعدم وضوح كان لهما أثر سيء على العمل العربي في الدورة الماضية .

وعندما تم الاتفاق على صيغة مقبولة نسبيا مع تحفظ وفد م.ت.ف على الفقرة الثانية من المشروع المعدل (لان وفد منظمة التحرير لا يمكن له ان يتصرف في موضوع من دون العودة للمجلس الوطني الفلسطيني) قبلت مصر بالصيغة النهائية المعدلة بعد ان كانت قد قدمت مشروع قرارها تؤيدها في ذلك دولتان عربيتان فقط هما السودان وعمان . وتبنت مشروع القرار المعدل غالبية الدول العربية باستثناء ليبيا والعراق وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية . وتم التصويت على هذا القرار في ١٠ نوفمبر ١٩٧٥ .

وأما القرار التاريخي الذي سبق للجنة الثالثة ان اتخذته في ١٩٧٥/١٠/١٧ والذي تم التصويت عليه ايضا في ١٠ نوفمبر ١٩٧٥ المتعلق بادانة الصهيونية بكونها شكلا من أشكال العنصرية ومن التمييز العنصري فقد كان له أيضا مجال واسع من الاخذ والرد في داخل المجموعة العربية التي اجتمعت أكثر من مرة سواء كان ذلك بكافة اعضائها او بلجنة فلسطين الفرعية المصغرة . وقد كان البعض يسعى لادخال تعديلات على هذا القرار تنبثق من مواقف اما مبدئية عند البعض واما نتيجة ارضاء

بعض الدول الغربية التي كانت تصر على ضرورة ادانة اللاسامية في نفس القرار . وكان موقفنا من هذه المحاولة أنــه ليس لدينا أي مانع في ادانة اللاسامية في أي قرار منفصل تستصدره الجمعية العامة ويقيننا ان كافة الدول العربية ستصوت لصالح هذا القرار اما محاولة ربط موضوع اللاسامية بموضوع ادانــة الصهيونية ووصفها بالعنصرية في هذا الوقت وبالشكل المقترح فأمر مرفوض جملة وتفصيلا . وقد نال هذا القرار اعتناء خاصا نظرا لاهميته التاريخية ونظرا للضغط التي مارسته كل مــن اسرائيل والولايات المتحدة الى حد أن حكومة الولايات المتحدة اعتبرت الاقتراع لصالح مثل هذا القرار موجها ضدها بشكل خاص . فكان التهديد والوعيد ، وكان الضغــط والتشكيك الى درجة أننا كنا نتخوف من ان تفلت مجموعة الدول التي ايدتنا نتيجــة الضغط هذا ونتيجة الانقسام العربي والبلبلة التي عانت منها بعض الوفود العربية. وأمام محاولات الدول الغربية لتأجيل النظر في هذه التوصية والتهديد بقطع مساعداتها عن الدول الافريقية في العقد المخصص لمكافحة سياسة الابارتايد (Apartheid) ولازالة كافة اشكال التمييز العنصري ، فقد جاء أكثر من مسؤول افريقي يطلب منــا القبول بالتأجيل وقد جاء من يحاول تأجيل كافة توصيات اللجنة الثالثة الى موعد اخر أو حتى الى الدورة القادمة. ولكن الموقف العربي بعد أن تبلور وانسجم مع موقف م.ت.ف لعب دورا في الحيلولة دون التأجيل . ووقفت الدول التي صوتت لصالح التوصية في اللجنة الثالثة في معظمها صفا واحدا وصلبا . وقد علمنا من أكثر من مصدر بأن بعض الدول التي اقترعت لصالح القرار في اللجنة الثالثة ستمتنع عن التصويت وذكر منها شيلي ، فكان تعليقنا ان اقتراع حكومة شيلي الحالية لصالح القرار كان احراجا لمنظمة التحرير الفلسطينيــة .

ومما لا شك فيه ان هذا القرار جاء مكملا للقرارات التي اتخذت في الدورة السابقة بالنسبة لحقوق الشعب الفلسطيني الوطنية الثابتة وبالنسبة لمنح م.ت.ف صفــة المراقب .

وهذا القرار الذي اعترف زعماء اسرائيل والحركة الصهيونية بخطورته ، وبكونه من الناحية الايديولوجية « حكمــا بالاعدام » ضد اسرائيل ، سيكون منطلقــا فكريا وتاريخيا لا بد من الاعتماد عليه لتعرية الكيان الصهيوني العنصري وفضحه ، تمهيدا لحرمانه من ممارسة حقوقه في الجمعية العامة على غرار ما حدث للكيان العنصري في جنوب افريقيا .

١٩٧٥ العربي واللبناني :
عام الرهان على السلبيات

مروان ناصر

ربما سجل تاريخ هذا القرن العشرين أن عروبة لبنان لم تتثبت وتتأكد في يوم من الايام أكثر مما تثبتت وتأكدت من خلال اشرس محاولة للانعزالية اللبنانية لاثبات العكس وتكريسه .

فليس من قبيل الصدفة ابدا أن تجد ازمة انحسار النضال العربي (التي وصلت في عام ١٩٧٥ الى درك بارز من دركاتها) في لبنان ميدانا تنفجر فيه ، وتصيب بشظاياها الوضع العربي بأسره .

ربما لعبت الظروف دورها في التوقيت فقط ، فقد كان بوسع الأزمة القومية ان تجد لنفسها ميدانا عربيا آخر تنفجر فيه ، لولا أن الظروف تجمعت لتجعل من لبنان في عام ١٩٧٥ — كما يبدو — أضعف حلقات السلسلة العربية ، وأكثرها استعدادا لتلقي الجرثومة . ولعل هذا ما دفع احد الدبلوماسيين الاجانب في بيروت الى القول بأنه اذا كان لا بد من التسليم بأن لبنان قد أصبح الرجل المريض في المجموعة العربية ، فان الخوف في أن يكون مرضه ساريا .

بين النكبة والنكسة

ان تشخيص معالم المرض والصحة في النضال العربي ، وامكانية الخروج من التعقيد الحالي بوضع اليد على المفتاح الأساسي الذي يحرك الاحداث العربية والذي يحدد مسيرة هذه الاحداث ، كل ذلك يكمن في المقارنة التاريخية بين حدثين عربيين بارزين ، متشابهين في الشكل الى حد التطابق ، مختلفين في الجوهر الى درجة التناقض ، وهما نكبة ١٩٤٨ ونكسة ١٩٦٧ .

ومع ان نكبة ١٩٤٨ قد أودت بجزء كبير من أرض فلسطين ، وأودت نكسة ١٩٦٧ بالجزء الباقي منها ، فان هذين الحدثين يظل كل منهما رمزا للتناقض الذي يتجاذب السياسة العربية في العصر الحديث ، والذي يتركز على نقطة محورية هي تحديد نوع العلاقة بين المنطقة العربية والقوى الخارجية الكبرى ، خاصة تلك التي تملك تطلعات عربية ، وتملك تراثا من الانجذاب نحو المنطقة العربية .

ولو نحن محصنا قليلا في تفاصيل الزواج بين الحلم الصهيوني بانشاء دولة اسرائيل وبين المطامع الاستعمارية في المنطقة العربية (هذا الزواج الذي تم من خلال وعد بلفور) لوجدنا أن ابرام التعهد الاستعماري بانشاء دولة اسرائيل قد مر بمراحل

شد وجذب ، تحسبا للأضرار التـي يمكن ان يسببها هـذا المشروع لسكان البلاد الأصليين ، ولردود فعل الفلسطينيين والعرب على هذه الأضرار .

وكالعادة في مثل هذه الاحوال انقسم الراي في الاوساط السياسية الاوروبية التي التي كانت تساهم في طبخ صيغة وعد بلفور بين معتدل يحذر من ردود الفعل العربية وضرورة مراعاتها ، ومتطرف يستخف بردود الفعل العربية .

ومع أن صيغة الوعد قد حملت لمحة من لمحات الحذر من ردود الفعل العربية ، الا أن عملية التنفيذ بعد ذلك ، قد اندفعت تحقق المشروع مرحلة وراء مرحلة ، تتوقف كلما قويت ردود الفعل ، وتندفع كلما همدت .

ولو القينا نظرة شاملة على السنوات الاخيرة التي سبقت انشاء دولة اسرائيل ، والتي تفصل بين اخماد ثورة ١٩٣٦ الكبرى ونكبة ١٩٤٨ ، لرأينا أن مشروع انشاء دولة اسرائيل لم يندفع نحو مرحلته الحاسمة ، الا بعد أن تكون وضع عربـي عام (بفعل طبيعة الأنظمة العربية في تلك الفترة) يتبنى موقف مهادنة الاستعمار وملاينته ، بل والائتمار بأوامره على بعض المستويات العربية .

وهكذا بنيت نكبة ١٩٤٨ علـى أساس عدم الايمان بقدرة الامكانات العربية على مواجهة التحدي ، فخسرنا المعركة من غير أن نخوضها .

نكبة عام ١٩٤٨ كانت اذن استغلالا استعماريا لرفض الأنظمـة العربية التحدي الاستعماري المفروض عليها ، وانصياعها له ، امـا نكسة ١٩٦٧ ، فقد كانت على العكس من ذلك تماما عقابا للعرب على اصرارهم هذه المرة على قبول التحدي ، ثم كسرا لشوكة الانتصارات الواضحة التي سجلوها وهم يخوضون حلبة التحدي ، وهي الانتصارات التي ما كانت القوى الاستعمارية تطيق تحمل آثارها ونتائجها ليس على المستوى العربي فحسب (وهو بحد ذاته منطقة حساسة بالنسبة للاستعمار القديم والحديث) بل على مستوى العالم الثالث أيضا .

الموقف من أميركا

ولعل أهم المواقع الحساسة التـي يمكن ان نراقب فيهـا عملية المد والجزر بين منطق قبـول التحدي ومنطق الاستسلام أمامـه ، هو موقع العلاقـات العربية ــ الاميركية ، خاصة وان التحدي الخارجي الرئيسي الذي أصبح العرب يواجهونه بعد معركة السويس وانحسار النفوذين الفرنسي والبريطاني ، هو تحدي النفوذ الاميركي .

ان احدى الحجج الرئيسية التي يبرر بها النظام المصري الحالي عملية اعادة النظر والتراجع التي يخوضها بالنسبة للمرحلة الناصرية هي ان تلك المرحلة لم تكن تعترف في حسابات ادارة الصراع بحجم الثقـل الاميركي في الصراع ، وان هـذا الخطأ في الحسابات كلفنا هزيمة ١٩٦٧ ، وكاد يكلفنا هزيمة جديدة في عام ١٩٧٣ لولا مسارعة القاهرة الى توقيع اتفاقية وقف اطلاق النار ، وان الفارق بين حسابات المرحلة الجديدة في مصر والمرحلة السابقة هو الفارق بين الواقعية واللاواقعية .

وخلاصة المنطق السياسي المبني على مثل هذه الحجج يقول انه « ما دام صراعنا مع الاستعمار الاميركي حول القضية الفلسطينية قد ادى بنا الى نكسة ١٩٦٧ ، فلتحل المشكلة بالتصالح أو بالتفاهم ، بدل الصراع » .

والرئيس السادات بالذات واضح جدا حول هذه النقطة ، لا يخدع نفسه ولا يخدع احدا ، فهو عندما يتحدث عن أن التفاهم مع أميركا حول قضية الصراع مع اسرائيل هو الطريق الوحيد للحل ، « لأن في يد أميركا كل أوراق اللعبة » ، لا ينفي أبدا أن اميركا هي العدو الأول ، بل هو يؤكد هذه الصفة ثم يستنتج معلقا : « أنا لا أقدر على محاربة أمريكا » (راجع نصوص العديد من الخطابات التي استعاد فيهــا الرئيس لسادات أكثر من مرة ظروف اقدامه على اتخاذ قرار وقف اطلاق النار في ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ ، حين يؤكد أن ذروة اقتناعه بضرورة انتفاهم مع أميركا حول الحل ، ولدت مع ذروة اكتشافه لمدى تورط أميركا في معاداتها للعرب ودعمها لاسرائيل) .

في هذه النقطة الشديدة الوضوح والرمزية ، يكمن المنطق السياسي الذي يسيطر على المنطقة العربية بشكل رئيسي في هذه المرحلة ، ومن الواضح تماما أن الولايات المتحدة هي في مقدمة الدول المتنبهة لهذا المنطق ، وفي مقدمة الدول والقوى القادرة على الاستفادة منه .

لقد قفز النفوذ الاميركي في أعقاب معركة السويس عام ١٩٥٦ ، يحاول أن يسترد الفرصة التي أضاعها بحساباته الخاطئة التي بناها ، على طرح تحدي رفض تسليح الجيش المصري ورفض تمويل مشروع السد العالي (متأكدا من عدم قدرة مصر على قبول التحدي) فأطلق دالس المشروع الشهير باسم «مشروع ايزنهاور» لملء «الفراغ» الذي خلفه انهيار النفوذ الانجليزي ــ الفرنسي ، بالوجود الاميركي . وكانت الحسابات الاميركية هذه المرة تعتمد على أنــه اذا كانت مصر قد قبلت التحدي علــى أرضها في موضوعي التسلح والسد العالي ، فلن يكون في وسعها قبول التحدي عندما يكون على مستوى الارض العربية .

ولكن مصر قبلــت التحدي مرة أخرى أزاء مشروع « مــلء الفراغ » الاميركي ، ومشروع حلف بغداد ، ولم يكن من نتائج معركة التحدي هذه فقط هزيمة جديدة للنفوذ الاميركي في المنطقة ، وفشلا للمخططات الاميركية ، بل كانت له أيضا نتيجة مضاعفة بالغة الأهمية هي بلورة الدور القومي لمصر ووصول هذا الدور الى احدى ذراه بتحقيق الوحدة مع سورية عام ١٩٥٨ .

وعلى قدر ما كان التحدي كبيرا ، وعلى قدر ما كانت الجراة في قبول التحدي كبيرة ، جاء الانتقام ــ او العقاب ــ كبيرا هو الآخر ، وكانت عملية الانفصال التي كان فيها للنفوذ الاميركي دور بارز لا يمكن أن تخفيه أو تخفف من اهميته الصعوبات والاخطاء الاكيدة التي مرت بها عملية تطبيق الوحدة .

ولكن الاختيار ، في مرحلة عبد الناصر ، كان نهائيا وكان استراتيجيا ، ولذلك كان لا بد لحركة مصر القيادية في الوطن العربي من أن تخضع لمنطق موحد .

لذلك كان منطقيا جدا أن تتسع رقعة الاستجابة للتحدي كلما اتسعت رقعة التحدي نفسه ، وان تتطور أساليب المواجهــة وأدواتها ، بتطور أساليب التحدي المطروح وأدواته ، وكانــت حرب اليمن ذروة من ذرى هـــذا التحدي ، حــين انتقلت ارادة الاستقلال العربي ووحدة المصير العربي لتدافع عن نفسها على الطرف الغربي الجنوبي من الجزيرة العربية (اليمن) التي تحضن في جوفها أكبر ثروة اقتصادية عربية .

وعند هذا الحد ، ومع جراة عملية الانتقال العسكري المصري الى اليمن ، ومع حساسية الجوار اليمني ، أدرك الاستعمار الاميركــي أن مصر اذا استمرت في الشب

عن الطوق وفي تسجيل نجاحات على هذا انطريق ، فلن تكون النتيجة فقط خروج مصر نهائيا من منطقة النفوذ الاميركي بل خروج الوطن العربي كله بالتدريج ، وقلب ميزان القوى نهائيا في المنطقة ، بما في ذلك اعادة النظر جديا في الوجود الاسرائيلي برمنه .

ولم يكن صدفة في تلك الأيام (منتصف الستينات) أن تتحرك الشراسة الاستعمارية الاميركية ، فشهد العالم الثالث سلسلة مـن الانقلابات في أهم مواقع حركات التحرر الوطني فيه مثل غانا وأندونيسيا والكونغو ، كما بدأ التورط الاميركي في فيتنام الجنوبية يتخذ حجما متناميا .

واذا كانت حرب ١٩٦٧ تتويجـا لهذه الهجمـة الاميركية في العـالم الثالث ، فقد انقسمت الآراء حول استخلاص العبرة السياسية من هذه النكسة :

ـــ الأنظمة والتيارات الرجعية التي كانت تنتظر دورها في السقوط أمـام الموجة التحررية العارمة المعتمدة علـى منطق منازلة النفوذ الاستعماري وتأليب الامكانات العربية ضده ، أرادت أن تعتبر النكسة دليل فشل نهائي لهذا الخط ، وضرورة اعادة الاعتبار لمنطقها السياسي .

ـــ الأنظمة والتيارات الوطنية أدركت ان اختلال الميزان بين امكانات التحدي وبين حجم التحدي هو المسؤول عن التراجعات ، وليس قرار قبول التحدي بحد ذاته . من هنا انطلقت في مصر بالذات ـــ مركز الثقل العربي ـــ عملية اعادة بناء القوات المسلحة على أسس عصرية جدية ، مع التشدد ازاء كل عمليات التسيب والتراخي والترهل التي رافقت المراحل السابقة لبناء القوات المسلحة المصريـة ، والتي ظهرت آثارها بشكل فاضح ومخز ليس في هزيمة ١٩٦٧ فقط ، بل في حجم هذه الهزيمة ، والسهولة الفظيعة التي تمت بها .

واذا كان الجيش المصري قد انجز في عام ١٩٧٣ عملا عسكريا فذا بعمليتي عبور قناة السويس واقتحـام وتدمير خط بارليف الدفاعي العصري الالكتروني ، فقد كان واضحا أن هذا العمل هو ثمرة منطق قبول التحدي ، والارتفاع بالامكانات العربية الى مستواه ، ولم يكن هذا العمل أبدا ـــ كما حاول الكثير من الساسة العرب بعد ذلك تفسيره ـــ ثمرة منطق التفاهم مع الاستعمار والاقرار بعدم القدرة العربية على تحدي الولايات المتحدة .

فتح الملفات الاستعمارية القديمة

عندما ولدت فكرة الوعد الأوروبي لليهود بوطن قومي في فلسطين ، كان هناك بين الساسة الأوروبيين ـــ كما ذكرنا ـــ تياران ، احدهما يدعو الى التنبه لردود الفعل العربية ، والآخر يدعو لعدم الاكتراث بها .

وعندما كان أحد كبار الصحفيين المصريين يحاور السياسي الفرنسي البارز كوف دي مورفيل حول رأيه في الحلول الممكنة لأزمة الشرق الاوسط (كان ذلك عام ١٩٧١) قال دي مورفيل أن العرب اذا لـم يسخنوا قضيتهم ويفرضوا موقفهم علـى ساحة المعركة ، فان أيا من القوى الكبرى لن يتحرك للمساهمة في ايجاد حل .

وعندما انطلق الرئيس السادات في أكثر من خطاب يحاول تبرير موقف التصالح مع الولايات المتحدة في ذروة انكشاف موقفها العدائي تجـاه العرب ، استشهد بحوار

سياسي بينه وبين وزير الخارجية الاميركي كيسنجر (قبل حرب اكتوبر) ، ونقل كلاما على لسان كيسنجر معناه ان أميركا لا تستطيع أن تفعل شيئا وتضغط على اسرائيل « اذا لم يثبت العرب انهم بشر » .

واضح جدا من هـذه الأمثلـة السريعة ان حركـة الاستعمار الاميركي ـ واي استعمار ـ نحو تنفيذ مشاريعه تكون محكومة بعدة اعتبارات ، اهمها بالطبع طبيعة المشروع الاستعماري ومـدى ملاءمته للمصالح الاستعماريـة ، ثم طبيعـة الارض السياسية التي سينفذ عليها المشروع ، وطبيعة القوى السياسية المتحركة على هذه الارض ، ومدى قبولها أو رفضها للمشروع ، ومدى امكاناتها على الرفض .

ولو نظرنا الآن الى اتفاقيـة سايكس ـ بيكو التـي اقتسمت بموجبها بريطانيا وفرنسا مناطق النفوذ في البلاد العربية ، لرأينا أن الجرأة الاستعمارية في رسم مثل هذا المشروع لا يوازيها الا مستوى التفكك والضعف الذي كانت عليه الأوضاع العربية عند انهيار الامبراطورية العثمانية ، لدرجة أن المشروع ، الذي ربمـا وجد في ذلك الوقت سياسيون أوروبيون يعتبرونه أجرأ مـن امكانيات التنفيذ الواقعيـة ، قد مر بسهولة نسبية ، وبرغم الوعد البريطاني لشريف مكـة بالاستقلال العربي ، مكافأة لدعم العرب للحلفاء في الحرب العالمية الاولى .

طبعا كان من مصلحة القوتين الاستعماريتين بريطانيا وفرنسا بعد ذلك محاولة كبت موجة اليقظة القومية العربية التـي فتحت عيونهـا بعد انهيار الامبراطورية العثمانية ، والتي صدمت بالوعد البريطاني ... من هنـا ولدت في خزائن وزارات الخارجية الاوروبية مشاريع الدويلات الطائفية المكملة لمشروع الدولة اليهودية في فلسطين ، والكفيلة في حال تحقيقها ، باستبدال العصبية القومية العربية التي تغطي الرقعة الشاسعة من المحيط الأطلسي الى الخليج العربي ، بعصبيات طائفية مجزأة مستضعفة ، متناحرة فينفس الوقت بما يكفي القوى الاستعمارية مؤونـة ضبطها وتسكين انتفاضاتها الممكنة .

ليس هناك أمامنا مرجع شامل ودقيق ونهائي لكل هذا النوع من المشاريع ، ولكن تاريخ الاستعمار البريطاني والفرنسي في المشرق العربي بالذات رافقته أجواء سياسية مكشوفة عن مشاريع اقامة الاوطان الطائفية ، بل وتعدى الأمر ذلك الـى محاولات مكشوفة في سورية لاقامة دويلة علوية واخرى درزية وثالثة سنية ، بالاضافة الـى التلويح المتكرر بوطن قومي مسيحي في جبل لبنان ، وبالاضافة الى التأسيس الفعلي للوطن القومي اليهودي في فلسطين .

واذا كانت الاحاديث عن مثل هذه المشاريع المجنونة قد انحصرت طيلة فترة المد الوحدوي التقدمي في الوطن العربي ، في الاهتمام بتاريخ الاقطار العربية في النصـف الأول من القرن العشرين ، واذا كانت المحاولات الاسرائيلية لعزل الدروز العرب في اسرائيل عن المجموعة العربية وجعلهم يكونون مجتمعا عربيا منفصلا ، تبدو لنـا في فترات المد الوحدوي التقدمي محاولات سقيمة ومضحكة ومستحيلة ، فان كل هذا الجو المجنون والمتخلف من المشاريع الاستعمارية يطل علينا اليوم من خلال الازمة اللبنانية المستعصية ، حتى ان أحد كبار المسؤولين العراقيين الذي قدم الى لبنان لمحاولة فهم ادق للأزمة اللبنانية ، تحدث للمسؤولين اللبنانيين الذين قابلهم (كما نقلت الصحف) عن وجود محاولات لتقسيم العراق .

ولو نحن قارنا بين ذروة من ذرى المد الوحدوي التقدمي ، عندما كانت الوحدة بين

كل من مصر وسورية والعراق تبدو وشيكة الحدوث في نيسان (ابريل) من عام ١٩٦٣ على اثر الانقلاب السوري على الانفصال والانقلاب العراقي على عبد الكريم قاسم ، وبين درك من دركات التراجع الوحدوي التقدمي الذي نعيشه اليوم والمتمثل في امكانية زوال وطن عربي من الخريطة السياسية (لبنان) وتحوله الى دويلتين طائفيتين ، اذا امتدت الأزمة الى منتهاها ، لأدركنا بوضوح شديد أن المشاريع الاستعمارية المجنونة لتفتيت الوطن العربي اكثر مما هو مفتت الآن لم تزل موجودة في ملفات وزارات خارجية الدول الاستعمارية ، وان بقاء هذه الملفات تحت ستار الغبار أو احتلالها موائد عمل ساسة هذه الدول مسألة متعلقة بنا نحن العرب ، وبنوعية المناخ السياسي الذي نفرضه على منطقتنا ، فهل كان لاحد ان يتخيل مجرد الحديث عن تقسيم لبنان عندما كان مشروع الوحدة المصرية ــ السورية ــ العراقية وشيك التنفيذ عام ١٩٦٣ ؟

★★★

لقدتميز عام ١٩٧٥ والعام الذي سبقه بحدث رئيسي على الصعيد العربي هو خروج مصر من منطقة قبول التحدي ودفع كل الامكانات المصرية والعربية الى هذه المنطقة ، ودخولها (مصر) الى منطقة التفاهم مع الاستعمار الاميركي لحل مشاكلنا الكبرى « ما دامت في يده الاوراق الرئيسية للعبة » . . .

الأمر البديهي الذي يغيب عن ذهن الساسة الذين يحملون مثل هذا المنطق هو ان للاستعمار هو الآخر مشاكله التي يريد حلها بما يلائم مصالحه ، وان الاستعمار ينتظر دائما الفرص السانحة لتأمين الحد الاقصى من مصالحه ، وهذه المصالح الاستعمارية هي العامل الرئيسي الذي يحدد طبيعة وحجم اي حركة يمكن ان يقوم بها مسؤول اميركي .

صحيح أن في كل نظام سياسي تيارات متعددة ، ولكن من السذاجة المراهنة على أن تنازلنا عن مقارعة التحدي المفروض علينا ، سيقوي شوكة الساسة المعتدلين في المعسكر الاستعماري . ان تيارات الاعتدال في الانظمة الاستعمارية لا تظهر على السطح عادة ولا تنتقل الى مواقع النفوذ في بلادها الا كلما ارتفعت موجات نضال الشعوب ضد المشاريع الاستعمارية هنا وهناك ، أما التراخي والتراجع امام التحدي الاستعماري ، فلا يصاحبه عادة الا بروز الاجنحة المتصلبة في السياسات الاستعمارية ، وسيادة منطقها الذي يقول ان نضالات الشعوب الصغيرة لا داعي لأخذها بعين الاعتبار ، لأنها اضعف من أن تقف في وجه اي مشروع استعماري لدولة كبرى .

لقد امتلأت كل احاديث المبادرات العربية ازاء الأزمة اللبنانية بالكلام عن وجود مؤامرات خارجية على لبنان ، والحقيقة أن هذه المؤامرات لم تتوقف يوما عن ان تكون موجودة ، لا بالنسبة للبنان ولا بالنسبة لأي قطر عربي ، ولكن تبقى الظروف التي نتيح نحن للمؤامرات أن تمر من خلالها أو لا نتيح .

ومنذ أن خرجت مصر من ساحة التحدي الاستعماري المطروح على الأمة العربية ، ومنذ أن تخلى حكام مصر الحاليون عن الرهان على الايجابيات العربية ، وانتقلوا الى الرهان على السلبيات العربية ، بدات كل هذه السلبيات وكل نقاط الضعف في الوطن العربي تنتقل الى السطح والى دائرة الضوء ، وخرجت من جحورها كل ملفات

المشاريع الاستعمارية القديمة ازاء كل منطقة عربية حساسة (ايران تحتج بعنف على اسم « وكالة أنباء الخليج العربي » وتسحب سفراءها من سبع دول عربية) فما دامت الأمة العربية ، بلسان مركز الثقلفيها ، قد أعلنت الهدنة مع الاستعمار ، بل والتصالح معه ونقله من موقع الخصم الى موقع الحكم النافذ الكلمة والمشورة ، فلماذا نريد لتيارات الطموح الاستعماري في كل شبر من أرضنا العربية أن تهدأ وان لا تكشر عن أنيابها ، وأن لا تنتقل من التلميح الى أطماعها ، الى التصريح الواضح بها ؟

عام ١٩٧٥ (كالعام الذي سبقه) كان عام الرهان على السلبيات العربية وعلى الضعف العربي أمام التحدي ... ليت المبادرات العربية لحل الأزمة اللبنانية تتوجه نحو هذه المشكلة الأساسية ، وليت الحكم المصري الذي يبدي في الفترة الأخيرة تخوفا حقيقيا من انعكاسات الأزمة اللبنانية على الصراع مع اسرائيل ، ليته يرى صلة النسب بين هذه الثمرة وبين بذور المهادنة التي طرحها في كل الارض العربية .

اسرائيـل والازمة اللبنانيــة

يوسف حمـدان

يجمع الكثيرون على أن الأزمة اللبنانية الناشبة منذ نيسان ١٩٧٥ ليست مجرد أزمة محلية . ولكن هناك اختلاف ولبس حول الاطراف الخارجية الضالعة في الأزمة وحقيقة ادوارها وأهدافها . والملاحظ أن هناك أطرافا محلية في الصراع الداخلي توجه اتهاماتها الى هذا الطرف الخارجي أو ذاك ، بينما هدفها من ذلك : البلبلة والتمويه عن الاطراف الخارجية الحقيقية التـي تخطط للصراع وتشارك فيــه ، من أجل المساعدة علـى الاستمرار في تنفيذ المخطط .

فاذا ما وضعنا هذا الصراع في اطاره الصحيح لا يسعنا الا نرى فيــه ، وبنظرة شمولية ، جزءا من الهجمــة الامبريالية ــ الصهيونية متعــددة الاساليب والجبهات الموجهة ضد حركة التحرر الوطني العربية في المرحلة الراهنة . هذه الهجمة التي هي حلقة جديدة في الصراع التاريخي بين قوى التحرر في العالم والقوى الامبريالية التي تحارب بشراسة ، رافضة التخلي عن مصالحها الاستعمارية في دول العالم الثالث ، المتمثلة باستغلال شعوبها وثرواتها ، والمتحالفة تاريخيا مع الصهيونية والرجعيات المحلية ، المستفيدة من خدمة هذه المصالح الامبريالية ، وهكذا نرى ان حروب الشرق الاوسط المتوالية ، وحرب الفيتنام التـي انتهت مؤخرا بفوز حركة التحرر الوطنـي الفيتنامية ، والحرب الدائرة في أنغــولا وفي لبنان الآن ، والحرب التــي قد تنشب في كوستاريكا أو ليبيريا غدا هي جبهات مختلفة في حرب واحدة . انها حرب واحدة في الجوهر ولكن لكل منها تفاصيلها الخاصة .

ويجب ان نذكر ان الامبريالية الاميركية لم تنه حروبها الاستعمارية بانتهاء حربها الخاسرة في فيتنام . لقد كانت اسرائيل تقف علنا ضد الانسحاب الاميركي من جنوب شرق آسيا . ولكن بعد أن وقعت الهزيمة كانت تعزية اسرائيل التي عبرت عنها صحفها في العام الماضي ، هي ان الولايات المتحدة ستوجه اهتمامها الآن الى مناطق اخرى في العالم والأرجح أن تختار منطقة الشرق الاوسط خاصة وان حرب تشرين أكدت حيوية هذه المنطقة بالنسبة لها .

ويجب ان نذكر أيضا ان الصهيونية ما تزال أفضل أداة لخدمة المصالح الامبريالية في المنطقة . وان للصهيونية اهدافها « القومية » الخاصة بها التي يتناقض وجودها مع وجود القومية العربية . وانهــا دائما رأت في لبنان « أضعف حلقــة في الجامعة العربية » على حد تعبير دافيد بن غوريون .

ان كون ما يجري في لبنان بدأ خلال عملية صنع اتفاقية سيناء واستمر بعدها يدل على أن هناك لقاء بين الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية ، حول خطة شاملة في الوطن العربي كله . وكما ان ان ما حدث في مصر لا يمكن عزله عن بقية أجزاء العالم العربي ، فان ما يحدث في لبنان أيضا لا يمكن حصره في حدود الارض اللبنانية . ولمحاولة فهم أبعاد هذه المؤامرة لا بد من فهم ابعاد الدور الصهيوني في الحرب اللبنانية .

من تقسيم فلسطين الى تقسيم لبنان

ان استمرار المعارك في لبنان لمدة تسعة اشهر ، بدون أن يستطيع أحد أن يحدد متى ستنتهي . وفظاعة أساليب هذه المعارك . ثم ان حجم تكاليف هذه المعارك (يقدر البعض تكاليفها العسكرية فقط بحوالي مليون ليرة لبنانية يوميا !) كل ذلك يدل على ان وراء الثمن الباهظ أهداف خطيرة لا تقتصر على لبنان وحده بل تتعداه الى حدود الوطن العربي . واذا كانت فكرة تقسيم لبنان التي بدأت تطرح بصورة أكثر جرأة تبدو فكرة ساذجة ، فيجب النظر اليها بكل جدية ليس فقط كخطوة تهدد لبنان مرحليا ، بل أيضا كخطوة استراتيجية تهدد حركة التحرر العربية والوطن العربي ككل .

لقد وافق زعماء الحركة الصهيونية في حينه على اقتراح « لجنة بيل » بتقسيم فلسطين ليس لأنهم كانوا يريدون الاكتفاء بذلك الجزء من فلسطين ، بل من أجل اتخاذه كقاعدة انطلاق الى الخارطة الصهيونية المرسومة كما عبر عن ذلك دافيد بن غوريون ومن بعده موشي دايان . وكما ثبت عمليا بعد حرب ١٩٦٧ .

اننا ونحن في مواجهة فكرة تقسيم لبنان الى دويلات طائفية ، يجب ان نعود ونقرأ بكل انتباه وتيقظ ، ما قاله دافيد بن غوريون حول خطة تقسيم فلسطين عام ١٩٣٧ ، وحول ما قاله عن لبنان بالذات في معرض « تبريره » للموافقة على تلك الخطة .

ففي ٢٩ تموز (يوليو) ١٩٣٧ خطب بن غوريون في مدينة زوريخ ، أمام مؤتمر حزب العمل الصهيوني الموحد ، عشية انعقاد المؤتمر الصهيوني العشرين في نفس المدينة ، ومما قاله حول خطة التقسيم :

« ... ان تقرير لجنة بيل لا يضع كل سهول فلسطين داخل حدودنا بل معظم هذه السهول ... وكما أن السهول مهمة بالنسبة لنا من وجهة نظر استيطانية فهكذا جبال الجليل من وجهة نظر سياسية . ان احدى المزايا الاساسية في الخطة هي أنها تجعل لنا حدودا مشتركة مع لبنان . فعدا عن الاهمية التاريخية لجبال الجليل وأهميتها العملية بالنسبة لسلامتنا القومية هناك أهمية سياسية عظيمة لكون لبنان جارا لنا . ان لبنان هو الحليف الطبيعي لفلسطين اليهودية . ان وضع المسيحيين يشبه الى حد كبير وضعنا في فلسطين . والفرق بيننا هو أنهم لا يستطيعون التوسع عن طريق الهجرة بينما نحن نستطيع : لبنان أيضا محاط مثلنا ببحر اسلامي . وهو مثلنا جزيرة حضارية في صحراء بدائية . لبنان في حاجة الى دعمنا وصداقتنا بالدرجة نفسها التي نحن في حاجة لدعمه وصداقته ، ليس كل سكان لبنان مسيحيين ، وليس كل المسيحيين فيه ينتمون الى طائفة واحدة . المارونيون مع أنهم المسيطرون هم أقلية . وبدون اليهود كجيران سوف لن يكون لهم (المارونيون) مستقبل مستقل . ان الدولة اليهودية بقوتها وامكانياتها سوف تحصل على صداقة كل جيرانها العرب مع ان هذه الصداقة لن تخلق في يوم واحد ، ولكن الدولة اليهودية سوف تجد في لبنان كجار لها ، حليفا وفيا منذ اليوم الاول لوجودها ولن يكون من المستبعد اننا عبر الحدود اللبنانية سوف نملك الفرصة الاولى لتوسيع عملنا ونيل التعاون الكامل والنية الحسنة من جيراننا* » .

---

* David Ben - Gurion , The Peel Report And The Jewish State , P.L.S. London , 1938 , P. 61.

وفي عام ١٩٥٤ ظهر أن فكرة تقسيم لبنان ظلت تعتمل في مخيلة بن غوريون . فقد نشرت دافار (١٩٧١/١٠/٢٩) فمن مذكرات الياهو ساسون رسائل متبادلة بين بن غوريون وموشي شاريت والياهو ساسون ، موقعة في عام ١٩٥٤ **يقترح فيها بن غوريون العمل على اقامة دولة مارونيه مستقلة في لبنان لمصلحة الصهيونية وان الفرصة مؤاتية لذلك** . واما شاريت فعارض الفكرة واما ساسون فلم يعارض ولكنه أبدى شكوكه في وجود امكانية عملية لذلك .

ان هذا الكلام الصادرعن مؤسس الدولة الصهيونية قبل تأسيسها باحدى عشر سنة ثم بعد تأسيسها بخمس سنوات ينطوي على معاني كثيرة وخطيرة منها :

١ ـ خطة تقسيم لبنان ليست جديدة وليست نابعة من أرض لبنان وليست لمصلحته ، **بل هي خطة قديمة حواها مخطط صهيوني عنصري استعماري توسعي لخدمة أهدافه هو** .

٢ ـ بن غوريون وزملاؤه في الحركة الصهيونية وتلامذتهم اليوم ، لا ينظرون الى لبنان وغيره من الاقطار العربية كشعوب عربية ، بل ينظرون الى كل قطر عربي كمجموعة طوائف لكل منها تصنيف خاص وفقا للمصلحة الصهيونية . وبالتالي فان الأمة العربية والقومية العربية ، مشطوبة في كل القواميس الصهيونية ، وفي كل كتب التدريس في المعاهد الاسرائيلية . وهذا ينسجم مع تقسيم الدوائر الرسمية في الكيان الصهيوني لسكان اسرائيل ، ليس على أنهم يهود وعرب بل ! « يهود وأقليات » !

٣ ـ حتى في سنة ١٩٣٧ وقبل تقسيم فلسطين وانشاء الدولة الصهيونية ، كانت اسرائيل العتيدة تخطط لجعل لبنان « ممرا » لبقية الجيران من أجل « توسيع العمل » الصهيوني بين ظهرانيهم وكسب « حسن نيتهم » فكيف بها اذا تحقق فعلا حلمها بتقسيم لبنان ؟!

٤ ـ ان الدولة الصهيونية ككيان عنصري طائفي غريب في المنطقة ، لا يستطيع التوسع ، ولا حتى مجرد الوجود ، في مواجهة حركة تحرر وطنية عربية . ولكنه قد يتعايش مع مجموعة كيانات طائفية متناقضة تذوب فيها القومية العربية .

٥ ـ اذا كان لبنان هدفا للمخطط الصهيوني في ظروف الثلاثينات من هذا القرن ، فكيف به الآن وهو يستضيف المقاومة الفلسطينية ، التي تحقق الانتصارات العسكرية والسياسية كل يوم ، وكيف به الآن ، والمنابر الصهيونية المختلفة تشكو منذ حرب تشرين ١٩٧٣ ، من تعاظم القوى الوطنية فيه ، وكيف به الآن والدوائر الاسرائيلية تبدي منذ تلك الحرب « قلقها » عليه من سوريا المجاورة ، التي أصبحت قوة جذب قريبة ، بعد ان ظهرت عدا عن كونها قاعدة صلبة للقومية العربية ، كقوة عسكرية وسياسية يحسب حسابها . وتعمل على انشاء جبهة شمالية ـ شرقية ليس فقط ، تستطيع مواجهة اسرائيل وحدها ، وبدون مصر ، بل تستطيع اذا قامت أن تعيد مصر الى مكانها الطبيعي ، ملغية ما تحقق فيها بواسطة الامبريالية واسرائيل حتى الآن ؟!

أهداف سياسية واستراتيجية

بعد حرب تشرين عبرت الصحف الاسرائيلية عن قلقها من تحول لبنان الى دولة مواجهة ، خاصة بعد الخطوات التي اتخذت لاقامة قيادة سورية ـ فلسطينية موحدة

ولارساء التعاون العسكري السوري ـ الاردني ، في اطـار التحرك لاقامة الجبهة الشرقية . في نفس الوقت شكت الدوائر الاسرائيلية من عمليات المقاومـة الفلسطينية في منطقة الجليل التي اصابت المستوطنات فيه بالشلل تقريبا ، وأدت الى نزوح العديد من مستوطنيه الصهاينة . وشكت أيضا من الفكر الثوري الذي تنشره الصحف اللبنانية ومن نمو الحركة الوطنية فيـه ، ومن ظهور أصوات لبنانية تطالب بادخال اسلحـة سوفييتية الى أرض لبنان .

ازاء ذلك ظهرت دعوات محمومة في اسرائيل تدعو لضرب « المخربين » في لبنان . ولكن من ناحية ثانية ظهرت اصوات أخرى ، حذرت من أن ضرب المقاومة عبر الحدود اللبنانية بالوسائل العسكرية التقليدية ، لن يحل المشكلة بل سيؤدي الـى العكس تماما . وكان من أبرز هؤلاء **حايم هرتسوغ** رئيس المخابرات الاسرائيلية سابقا ، وأبرز المحللين العسكريين في اسرائيل خلال حرب تشرين ، ومندوب اسرائيل في الأمم المتحدة اليوم .

ففي بداية عام ١٩٧٥ ، وقبل انفجار « الأزمة اللبنانية » بثلاثة أشهر وبالتحديد في ٧٥/١/١٥ ، قال هرتسوغ للاذاعة الاسرائيلية : « هناك شعور بأن النشاط العسكري الاسرائيلي في جنوب لبنان لا يعمل بالضبط في صالح اسرائيل ذلك أنها تريد من جهة ، ان لا تمكن المخربين من السيطرة على المنطقة والتمركز فيها . ومن الجهة الاخرى على اسرائيل أن تحذر الوقوع في اللعبة وفقا لتخطيط المخربين الذين يكسبون وحدهم من هذا الوضع ... ان السؤال الذي يواجـه الحكومة هو كيف تقرر عمليـات للمدى القصير وسياسة للمدى البعيد ، وكيـف توفق بـين احتمالات مشاكل الامن الجاري والاحتمالات بالنسبة لحرب شاملة محتملة في المستقبل . ان القرار يجب ان يتخذ مع مراعاة مجموعة من وجهات النظر بما في ذلك وجهة النظر السياسية والاستراتيجية وليس فقط وجهة النظر العسكرية الضيقة » (ر أ أ ، ٧٥/١/١٥) .

فاذا كانت الهجمات العسكرية الاسرائيلية على المقاومة في الجنوب لا تفيد اسرائيل بل تضرها ، وتفيد المقاومة ، كان لا بد لاسرائيل من البحث عن «وسائل غير تقليدية» لمحاولة ضرب المقاومة وحلفائها في لبنان . وكما ذكرت صحيفة هآرتس (٧٥/١/١٠) كان « يجب أن ندرس الطرق الفعالة لدفع نظام الحكم في بيروت الى العمل على تقليص عمليات المخربين من أراضيه . وبالاضافة لذلك يجب ان ندرس من جديد الطرق الكفيلة باعادة الثقة بقدرة اسرائيل ، والاستعداد للعمل ضد سوريا في حـال تغيير الوضع الراهن من جانبها في جنوب لبنان » .

وفعلا بعد ثلاثة أشهر بدأت « الحرب اللبنانية » ، وظهر بعد ذلك خلال المعارك الدائرة أن اسرائيل « صدّرت » الـى لبنان رصاصا يحمل ماركـة المصانع الحربية الاسرائيلية الى جانب فكرة التقسيم القديمة ودولة بن غوريون « المارونية التـي لن يكون لها مستقبل مستقل بدون مساعدة اليهود » !

لقد قال ابا ايبن وزير الخارجية الاسرائيلي السابق على أثر جريمة فردان في نيسان ١٩٧٣ ان لبنان هو « ماخور الدبلوماسية الدولية » . وقال أحد الخبراء في الشؤون العربية في صحيفة دافار شبه الرسمية في منتصف عام ١٩٧٥ أن أمرا يصدره ضابط اسرائيلي صغير ، يستطيع أن يحدث زوبعة في لبنان !. أي ان اسرائيل تستطيع أن تعبث بلبنان كما تريد طالما ان هذا القطر يشكل ثغرة أمامها في المشرق العربي .

فهل بعد ذلك يمكن القول ان « حرب اسرائيل » في لبنان مستترة ومجهولة المعالم . ان تدخلها المادي والعسكري قد يكون خفيا ، ولكنها تشارك في الحرب اعلاميا بشكل مفضوح . فقد هللت لقيام حكومة « الويك أند » العسكرية مع المهللين ، وحرضت ضد رئاسة رشيد كرامي للحكومة مع المحرضين . وعارضت قيام هيئة الحوار الوطني مع المعارضين . وعلى سبيل المثال قالت افتتاحية هآرتس في ٧٥/٩/١٨ بخيبة أمل : **« ان دعوة بيار الجميل ، أبرز الزعماء الوطنيين التي وجهها ودعا فيها لوضع حد للاخلال بالنظام ، وحفظ السيادة ، قوبلت بعدم التجاوب . لقد اعلن عن قيام لجنة حوار وطني لن يكون بمقدورها حل المشكلة . ان هناك حلا واحدا فقط : وهو ان يفرض الجيش اللبناني بمساعدة قوى الامن والميليشيات القومية المخلصة للدولة ، النظام في البلاد والأهم من كل شيء آخر ان تقضي على الوجود المسلح للمخربين (المقاومة) الذين هم مصدر كل مصائب لبنان ... ان لجنة الحوار الوطني ما هي الا جواب مائع لدعوة بيار الجميل ... » !!**

نعم هذا الكلام نشر في هآرتس الاسرائيلية ولم نسجل هذا الاقتباس من أي صحيفة لبنانية ! .

هكذا ذهبت اسرائيل الى حد تنصيب نفسها طرفا في النزاع السياسي الدائر في لبنان أو حليفا لطرف فيه ، منطلقة من موقف طائفي مفضوح . فمثلا قالت صحيفة معاريف (٧٥/٩/١٢) : « قبل ٧٠ يوما ، خضع سليمان فرنجية لمطالب الأوساط الاسلامية بتعيين رشيد كرامي رئيسا للحكومة . والآن خضع مرة أخرى عندما وافق على خلع قائد الجيش اسكندر غانم » ! ولكن هذه الصحيفة لم تشأ الا ان تكشف عن أهدافها الحقيقية عندما أضافت : « في اشتباكات الشمال ، عرف المخربون (فصائل المقاومة) كيف يحافظون على صورة غير المتدخل ، بل بالعكس ظهروا على أنهم يساعدون على حفظ الامن في طرابلس **ولكن اذا استمرت الاشتباكات فلا بد أنهم سيتدخلون الى جانب اليسار »** .

وفي الوقت الذي أخذ المسؤولون ورجال الاعلام في اسرائيل « يستصرخون » الرأي العام الغربي « لنجدة المسيحيين في لبنان » استمروا في التعبير عن رغبتهم ، في اظهار المقاومة وسوريا على أنهما يتدخلان عسكريا ، وعن رغبتهم في استمرار المعارك لكي تضطران الى التدخل ، من أجل اتاحة الفرصة أمام اسرائيل بالتدخل المكشوف عندما تكون الظروف قد تهيأت لذلك ، وفضح النائب أمنون لين (ليكود) نوايا اسرائيل عندما ادعى انه حسب معلوماته « قد يسيطر السوريون على لبنان ، أو على الاقل في المناطق المجاورة للحدود الاسرائيلية ، مما سيغير وضعنا الأمني . علينا ان نعمل بسرعة لخلق حقائق قائمة على حدودنا ، ولمنع احتلالها بواسطة قوات سورية فلسطينية ، يجب أن نفعل ذلك **تحت الشعار الاخلاقي وهو مساعدة مسيحيي لبنان »** (ر أ أ ، ٧٥/١١/٣) وأكد على ذلك سمحة دينيتس ، سفير اسرائيل في واشنطن ، عندما قال : « اسرائيل ستدرس بجدية القيام بعملية عسكرية اذا تدخلت في لبنان أية دولة عربية . ان اسرائيل لا ترغب في أن تصبح حدود لبنان حدود مجابهة » (المصدر نفسه) .

ان اسرائيل ترغب ، ولا ترغب بأشياء كثيرة في لبنان منها ما هو آني ومنها ما هو استراتيجي :

١ ــ اسرائيل تريد أن تسحب الارض اللبنانية سياسيا وعسكريا من تحت اقدام

المقاومة الفلسطينية ، قبل ان تنجح الثورة الفلسطينية باقامة سلطتها الوطنية على جزء من فلسطين ، لأن اقامة السلطة الوطنية لا يعني فقط ايقافا للمد الصهيوني . بل بداية تراجع له ، وهي تعتقد أن بداية التراجع بالنسبة للمشروع الصهيوني سيقود الى انهاء دوره ، وبالتالي الى انهاء وجوده .

٢ ــ أن استمرار المد الصهيوني لا يمكن ان يتم الا على حساب المد الوطني العربي. لأجل ذلك فهي ترى أمرا ملحا ، ضرب الثورة الفلسطينية في قاعدتها الرئيسية ، حيث أنها تعتبرها « رأس الحربة » لحركة التحرر الوطني العربية ، وترى كذلك وجوب ضرب الحركة الوطنية في لبنان ، كأقرب حليف للمقاومة وكجزء من حركة التحرر الوطني العربية .

٣ ــ اطالة عمر الأزمة اللبنانية . وفشل حلها لبنانيا . ثم محاولة حلها عربيا بهدف الفشل ، مع محاولة ابقاء وتكريس الصبغة الطائفية للصراع . قد يؤدي الى التدويل ، الذي قد يتمخض عن ايفاد « لجنة بيل » جديدة الى لبنان ، قد تعد تقريرا ، تقول فيه انها وجدت بعد الدراسة وتقصي الحقائق لدى مختلف الاطراف ان « التقسيم شر لا بد منه » . وهكذا يكون التقسيم الطائفي اذا حصل ، لطمة لحلم الوحدة العربية. **فبدلا من أن تتم خطوة نحو الوحدة تتم خطوة نحو التفكك** . ويكون **ذلك سابقة خطيرة بالنسبة لاقطار عربية أخرى** وكسب خطير للصهيونية والامبريالية .

٤ ــ ان الجواب الطبيعي لمحاولة عزل مصر عن جبهة القتال مع العدو ، هو العمل على اقامة جبهة شرقية متماسكة تستطيع بصمودها الغاء التراجع المصري ، وافشال مخطط السيطرة الامبريالية الصهيونية على المنطقة . وتفجير لبنان من الداخل لا بد ان تكون له انعكاسات خطيرة على امكانية اقامة جبهة واحدة مؤلفة من دول المشرق العربي .

٥ ــ لاسرائيل اطماع قديمة بمياه الليطاني . وبعد يومين فقط من انفجار الأزمة اللبنانية في ٧٥/٤/١٣ . طالبت صحيفة **دافار** (٧٥/٤/١٥) بضخ مياه الليطاني في الاردن لاقتسامه بين اسرائيل ولبنان والاردن « رغم ان القانون الدولي لا يعترف بحق اسرائيل في هذا النهر » . هذا بالاضافة الى أن اتاحة الفرصة امام اسرائيل للسيطرة على جنوب لبنان ستكون له انعكاسات خطيرة بالنسبة لأمن المقاومة وسوريا .

٦ ــ اسرائيل ما زالت تعاني بصورة خطيرة من نتائج حرب تشرين على كل المستويات . وأحداث لبنان تضع البلسم على جراحها، وعلى سبيل المثال ذكرت صحيفة هآرتس (٧٥/١٠/١٤) ان « حركة السياحة الى اسرائيل شهدت انتعاشا ملحوظا منذ احداث لبنان . وبلغت نسبة شغل الفنادق في اسرائيل ٧٥ ــ ٩٠٪ بدلا من ٥٠ ــ ٦٠ ٪ » .

٧ ــ ان احداث لبنان المؤسفة أتاحت لحايم هرتسوغ الذي سبق وان دعا الى تفجير لبنان من الداخل قبل ان يصبح سفيرا في الأمم المتحدة ، لان يذرف دموع التماسيح على مسيحيي لبنان ، عندما دمغت الجمعية العامة للأمم المتحدة الصهيونية بالعنصرية . وهو وغيره من الرسميين الاسرائيليين قالوا للعالم : « فكرة الدولة الديمقراطية العلمانية في فلسطين لا يجوز ان تخرج الى حيز التنفيذ . انظروا الى ما يجري في لبنان » !! .

٨ ــ قال رئيس الأركان الاسرائيلي **مردخاي غور قبل** شهرين « **لا يكفي أن ينتصر الجيش الاسرائيلي في الحرب المقبلة ، بل يجب خلق وضع جغرافي سياسي** جديد ومنع العرب من أمكانيـــة التهديد باستئناف الحرب كمـــا فعلوا بعد حرب يوم الغفران » (معاريف ، ٧٥/١٠/٣١) .

أوليس ما يجري في لبنان جزء من عملية التحضير لخلق هـــذا الوضع الجغرافي السياسي الجديد ، الذي تأمل اسرائيل ان يحقق لها أكثر من النصر العسكري ؟ !

ان وعي الحركة الوطنية في لبنان والوطن العربي لابعاد هذه المؤامرة الخطرة ، كفيل باحباطها . اما الذين ينفذون سياسة اسرائيل في لبنان فهل يعون حقا حقيقة وابعاد الدور الذي يؤدون ؟؟!!

اتفاقية سيناء
ومستقبل النزاع العربي ــ الاسرائيلي

الدكتور عدنان العمد

منذ توقيع مصر لاتفاقية سيناء في سبتمبر ١٩٧٥ * تعرضت عدة دراسات ومقالات لجميع جوانب الاتفاقية واثارها على العلاقات العربية والقضية الفلسطينية وسياسات الدول الكبرى تجاه المنطقة وقد ركزت معظم الدراسات تركيزا مقصودا اما على ايضاح مبررات الاتفاقية وفوائدها او على ابراز نقائصها واخطارها حسب الموقع السياسي والايديولوجي للمحلل والباحث كما قدمت هذه الدراسات انعكاسا صادقا للتيارات السياسية والايديولوجية المتفاعلة في العالم العربي حول القضية الفلسطينية . ان هذا البحث هو محاولة لفهم مستقبل النزاع العربي ــ الاسرائيلي على ضوء مضمون الاتفاقية السياسي والعسكري .

اولا : مضمون الاتفاقية **

في تقديمنا لمضمون الاتفاقية رأينا التقيد قدر الامكان بالنص الحرفي لموادها . تتضمن الاتفاقية تسعة مواد تشكل محور الاتفاق بين مصر واسرائيل حول مسائل سياسية وعسكرية واجرائية .

تنص المادة الاولى من الاتفاقية على ان النزاع بين مصر واسرائيل لا يتم حله بالقوة المسلحة وانما بالوسائل السلمية . ويتفق الطرفان (المادة الثانية) على عدم استخدام القوة او التهديد بها او الحصار العسكري في مواجهة الطرف الاخر . وتحدد المادة الثالثة الوسائل التي سيلجأ اليها الطرفان للحفاظ على التعهدات التي تنص عليها المادة ١ و ٢ وتنص على أن الطرفين سوف يستمران في ان يراعيا وقف اطلاق النار في البر والبحر والجو والامتناع عن اي اعمال عسكرية او شبه عسكرية ضد الطرف الاخر كما يقرأن ان الالتزامات الواردة في ملحق الاتفاقيه والبروتوكول الخاص بها سيكونان جزءا لا يتجزأ منها .

تهتم المادة الرابعة بمسائل تحريك القوات المسلحة للطرفين وخطوط انسحاب القوات الاسرائيلية وتقدم القوات المصرية الى المواقع المتفق عليها وكذلك تحديد المناطق العازلة والمناطق المحددة للقوات واستمرار قوات الطوارىء التابعة للامم المتحدة بالقيام بوظائفها بموجب الاتفاقية المصرية الاسرائيلية المعقودة في ١٨ يناير ١٩٧٤ .

---

* تم توقيع الاتفاقية بالاحرف الاولى من قبل مصر واسرائيل في اول سبتمبر ١٩٧٥ وجرى توقيعها وتصديقها فيما بعد .

** على اساس النص المنشور في « الاهرام » ١٩٧٥/٩/٢ و « فلسطين الثورة » العدد ١٥٩ في ١٩٧٥/٩/٧ ووثيقة الامم المتحدة الصادرة عن مجلس الامن رقم S/11818. Adol 1-2 Sept. 1975

وتؤكد المادة الخامسة الدور الاساسي لقوات الطوارىء الدولية وتجديد مدتها سنويا . وتنص المادة السادسة على انشاء لجنة مشتركة بين الطرفين اثناء سريان الاتفاقيـــة تعمل تحت رئاسة المنسق العام لعمليات الامم المتحدة للشرق الاوسط وتنظر في اي مشكلة تنجم عن الاتفاقية وتعمل وفقا للاجراءات الواردة في البروتوكول * .

تنص المادة السابعة على السماح بمرور الشحنات غير العسكرية المتجهـــة الـــى اسرائيل ومنها عبر قناة السويس .

أما المادة الثامنة (وهي كالمواد الثلاث الاولى من الاتفاقية تبحث في النواحـــي السياسيه) فتنص على ان الطرفين يعتبران الاتفاقية خطوة هامه نحو سلام دائـــم وعادل وانها ليست اتفاق سلام نهائي وان الاطراف ستواصل بذل الجهود للتوصـــــل بالتفاوض الى اتفاق سلام نهائي في اطار مؤتمر جنيف للسلام وفقا لقرار مجلس الامن رقـــم ٣٣٨ .

وتنص المادة التاسعة (الاخيرة) على ان الاتفاقية تسري بعد توقيع البروتوكـــول وتبقى سارية المفعول حتى تحل محلها اتفاقية جديدة .

لقد قامت مصر بتوقيع البروتوكول بجنيف يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٧٥ بينما وقعته اسرائيل يوم ١٠ اكتوبر ١٩٧٥ وعليه فان الاتفاقية وملحقاتها اصبحت سارية المفعول للطرفين ابتداء من يوم ١٠ اكتوبر ١٩٧٥ .

ثانيـــا : خلفية الاتفاقية **

ان كل اتفاقية هي محصلة لوضع قائم وانعكاس للاحداث التاريخية كما هي تصوير دقيق لموازين القوى بين الاطراف المتنازعة . وفي اطار التسوية السلمية تبدو اي اتفاقية خطوة منطقية ، فبعد حرب يونيو ١٩٦٧ وافقت مصر على قرار مجلس الامن ٢٤٢ الذي وضع المبادىء العامة لتسوية سلمية للنزاع العربي — الاسرائيلي كما وافقت مصر على مهمة الوسيط الدولي يارينج لاجراء مفاوضات بين اطراف النزاع ضمن اطار قرار مجلس الامن وفيما بعد وافقت على مشروع وزير الخارجية الامريكي روجرز الذي تضمـــن برنامج عمل لوضع قرار مجلس الامن موضع التنفيذ تحت اشراف الولايات المتحدة . وكان محور جميع هذه المحاولات هو حصر النزاع في الاراضي العربية المحتله من مصر وسوريا والاردن وانتزاع اعتراف عربي تدريجي باسرائيل وانهاء حالة الحرب بين الدول العربية واسرائيل ورفع المقاطعة الاقتصادية العربية عن الكيان الاسرائيلي ورفـــــع الحصار البحري والسماح للبضائع والسفن الاسرائيلية بالمرور في المياه الاقليمية العربية . من الناحية السياسية كانت جميع هذه المحاولات تعالج القضية الفلسطينية بعيدا عن جذورها التاريخية وتدفعها الى زاوية هامشية من زوايا النزاع كمشكلة لاجئين يمكن حلها اقتصاديا واجتماعيا . ومن الناحية العسكرية كانت اي تسوية قائمة على هـــذه المحاولات تعني مباشرة منع الاعمال الفدائية وتجميد المقاومة الفلسطينية المسلحة . وبالنسبة لدول المواجهة العربية كانت التسويات التي طرحت بعد حرب يونيو ١٩٦٧ تحمل تنازلات سياسية وعسكرية واقليمية تمثل حجم النصر العسكري الاسرائيلي مضافا اليه حجم التدهور والانهيار الذي اصاب البنيان العسكري والسياسي للدول والانظمة

---

* تم وضع هذا البروتوكول في محادثات اللجنة المشتركة بجنيف من ٥ — ٢٣ سبتمبر ١٩٧٥ بحضور لجـــان عسكرية عن مصر واسرائيل وتحت اشراف المنسق العام لعمليات الامم المتحدة للشرق الاوسط .

** انظر ملحق هذا البحث لتواريخ ووقائع الاحداث منذ اكتوبر ١٩٧٣ .

العربية التي تعرضت للهجوم الاسرائيلي والاحتلال الذي تلاه .

في السنوات التي تلت حرب يونيو ١٩٦٧ دخل الفكر السياسي العربي في عملية اعادة نظر في المفهوم العربي للنزاع مع اسرائيل والاستعمار وكان قبول مبدأ التسوية يشكل العنصر الجديد في هذه العملية وكان هذا العنصر يعني منطقيا قبول مبدأ وجــود دولة صهيونية في المنطقة دون الغاء امكانية مواجهتها بالقوة في المستقبل . وقد اطلقت الانظمة العربية على سياستها تجاه النزاع في هذه الفترة تعبير « ازالة اثار العدوان » بينمــا اطلق عليها المنظرون السياسيون تعبير العقلانية والامر الواقع على اساس التعامل مع النزاع كما هو قائم وترك مسألة حسمه الى المستقبل عندما تتكامل عناصر الثـــورة العربية . وكان على هذا النوع من التفكير ان يقر تلقائيا بحقيقتين :

الحقيقة الاولى : ان حل النزاع ضمن الشرعية الدولية يتطلب تنفيذ قرارات الامــم المتحدة بدءا بالقرار ٢٤٢ وانسحابا الى قرارات اخرى مثل عودة اللاجئين الفلسطينيين وقرار التقسيــم .

الحقيقة الثانية : ان حل النزاع بموجب الشرعية الدولية يتوجب عليه الاقرار بتنازلات من قبل الطرفين وان حجم هذه التنازلات يحدده المركز العسكري والدعم الخارجــي والراي العــام العالمي تجاه الطرفين .

بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ وعلى الرغم من الدفعة الايجابية التي احدثتها هذه الحرب على مستوى القيادات السياسية والجماهير العربية فان « فكر التسوية » ظل هو المهيمن على مستوى القيادات العربية التي في يدها قرارات ادارة النزاع . وبينما كان فكــر التسوية بعد حرب يونيو ١٩٦٧ يستمد مبرراته من عناصر الهزيمه العسكرية والمعنوية التي عمت الوطن العربي فان هذا الفكر بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ بدأ يستمد عناصر مبرراته من مصادر الايجابيات التي برزت على الساحة العربية ، وهي ارادة التحرير التي بثتها المقاومة الفلسطينية المسلحة في الشعوب العربية ، والانتصارات العسكرية التي حققتها الجيوش العربية في المعارك الاولى في سيناء والجولان ، وقوة البترول والمال العربي وامكانية استعمالها لتحقيق المطالب العربية . وفيما حاولت القوى العربيـــة المعارضة للتسوية القائمة على القرار ٢٤٢ وضع هذه المصادر في خدمة هدف استمرار المعركة الى ان يتم تحقيق سلم حقيقي عملت القوى العربية المؤيدة لتسوية قائمة على القرار ٢٤٢ على وضع هذه المصادر في خدمة هدف مرحلي كانت خطوطه العريضـــة قد تم وضعها في اواخر عام ١٩٦٧ وقبل ذلك .

انه مما لا شك فيه ان حرب اكتوبر اوجدت تغيرا في استراتيجية النزاع لدى جميـــع الاطراف بما فيها الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ولكن ما يهمنا هنا هو التغير الذي طرأ على استراتيجية الجانب العربي وهو التغير الذي يفسر اكثر من غيره الخلفية التي قامت عليها اتفاقية سيناء . في قلب هذا التغيير تقع حقيقة تسرب الاقتناع بقبول اسرائيل كواقع سياسي واقليمي من اوساط القيادات السياسية الحاكمة في الدول العربية الــى اوساط الجماهير العربية وخاصة القيادات الفكرية لهذه الجماهير وهي الطبقة المتنورة التي تتبوأ مراكز ادارية وتنفيذيه في المؤسسات الرئيسية . ففي مصر ودول عربية اخرى اصبحت التسوية الممكنة فلسفة يومية يتغذى منها الراي العـــام العربي واصبحت شعاراتها واطروحاتها متداولة رسميا وشعبيا على موجات مختلفة . ومع اقتــراب محاولة وزير خارجية الولايات المتحدة كيسنجر الثانية لتحقيق اتفاق بين مصر واسرائيل كانت القناعات بالتسوية داخل مصر قد اكتمل تبلورها حول محورين :

المحور الاول : ان النزاع العربي ــ الاسرائيلي يمكن ان يتخذ شكلا سلميا تلعب فيه السياسة والديبلوماسية دورا اهم من دور الحرب والقوة العسكرية اي ان المواجهــة

العسكرية يمكن ان تنتهي ويحل مكانها مجابهة حضارية بين الكيان الاسرائيلي والكيانات العربية المحيطة به .

المحور الثاني : الافتراض بان العلاقة السلمية مع الكيان الاسرائيلي يمكن ان تحمل معها المنعطف التاريخي لهذا الكيان حيث ستزول عنه صفة الصهيونية والعدوانية والتوسعية ويمكن انذاك امتصاصه تدريجيا في الكيانات العربية .

هذه هي الخلفية السياسية الفكرية التي تم من خلالها صناعة اتفاقية سيناء وكان لا بد من استعراض معالمها تمهيدا لاستنتاج ابعادها السياسية والعسكرية على مستقبل النزاع .

ثالثا : الاثار السياسية للاتفاقية :

يقع مركز الثقل السياسي في صياغة الاتفاقية بشكل خاص على المواد الاولى والثانية والثالثة والثامنة والتاسعة بينما تعتني المواد الباقية بنواح عسكرية وفنية لا يمكن تحديد ابعادها ضمن اطار هذا البحث الا بالقدر الذي يخدم اغراضه . ان محور المواد السياسية في الاتفاقية يدور حول اسقاط احتمال استعمال القوة العسكرية لحل النزاع: اتفاقية سلام نهائي ، اي ان المادة الثامنة تنفي انهاء حالة الحرب عامة . وتؤكد المادة الثامنة بان الاطراف الموقعة نعتبر الاتفاقية خطوة هامة نحو سلام دائم وعادل وليست اتفاقية سلام نهائي اي ان المادة الثامنة تنفي انهاء حالة الحرب عامة . وتؤكد المادة التاسعة هذا المفهوم فتربط سريان الاتفاقية بحلول اتفاقيات جديدة محلها . ولكن اي تفسير للاتفاقية مهما كان مرنا وواسعا وصادقا مع روح النص ، لا يمكن ان ينفي بان الاتفاقية بمجملها تضع قيودا عسكرية وسياسية على حرية مصر في استعمال جميع الوسائل المتوفرة في حالة الحرب مثل الحصار العسكري واستعمال القوة العسكرية برا وبحرا وجوا واللجوء الى المقاطعة الاقتصادية ومنع مرور سفن العدو في المياه الاقليمية . ان ملحق الاتفاقية وبروتوكولها الخاص والاتفاقيات الثنائية التي تم توقيعها على ضوئها بين الولايات المتحدة واسرائيل وبين الولايات المتحدة ومصر تحتوي على تفاصيل اكثر على كيفية ضمان عدم استعمال القوة بين الطرفين ،ومثال على تلك الضمانات اجهزة المراقبة وتواجد القوات الدولية والمناطق العازلة ومرابطة الفنيين الامريكيين .

اذا نظرنا الى الاتفاقية من زاوية تبادل التنازلات فان الانسحاب الاسرائيلي تم الى خطوط متفق عليها تعاقديا مقابل تعهد مصر بعدم البدء باستعمال القوة مما يؤدي الى الانطباع بان اسرائيل دفعت ثمنا عسكريا لا يتناسب مع حجم مكاسبها العسكرية منذ ١٩٤٨ في الوقت الذي دفعت فيه مصر ثمنا سياسيا لا يتناسب مع القوة والمركز الذي تحتله في المجموعة العربية ، فقد قدمت مصر التزاما بعدم استخدام القوة في نزاع تبدو فيه نسبة القدرة على الحسم بالاساليب السياسية ضئيلة جدا * .

ان التفسير السياسي الموضوعي لاثار الاتفاقية على مستقبل النزاع يعتمد على رغبة وارادة الاطراف الموقعة ، ورغبة الدول في السياسة لا تخرج عن حصيلة مصالحها وعليه فاننا اذا اعتبرنا الاتفاقية عسكرية (فك ارتباط ثان مثلا) فان الاثر المترتب عليها يبقى محدودا ويمكن بالتالي النظر اليها تماما كالنظر الى اتفاقيات الهدنة العربية —

---

* اتفقت عدة تحليلات عسكرية واستراتيجية (عربية واجنبية) على ان الالتزام الذي قدمته مصر « بعدم اللجوء الى القوة » يفوق بقيمته السياسية ما قدمته اسرائيل من « انسحاب رمزي » وان الالتزام بعدم استعمال القوة كان يمكن اعتباره في حالة توقيع معاهدة صلح عامة .

الاسرائيلية لعام ١٩٤٩ اي انها تجميد مؤقت للاعمال الحربية ومحاولة لكسب الوقت لحل النزاع بالوسائل السلمية داخل اطار قرارات الامم المتحدة مع ان الاتفاقيـــة لا تذكر من هذه القرارات سوى القرار ٣٣٨ (القائم على تنفيذ القرار ٢٤٢) . ان اتفاقية سيناء كما تقف حاليا بموادها التسع يمكن حصر نتائجها على ضوء ما تقدم بالنقـــاط التالية (وهنا تتداخل النتائج السياسية والعسكرية ولا يمكن فصل احدها عن الاخر) :

١ ــ تجميد الوضع العسكري على الجبهة المصرية وازالة ضغط هذه الجبهة عـــن اسرائيـــل .

٢ ــ حصر الضغوط على اسرائيل بالوسائل الدبلوماسية وهـــي غـــير متوفـــرة لغير امريكـــا .

٣ ــ استراتيجيا ــ وقد ثبت من خلال ثلاث حروب (١٩٤٨ ، ١٩٦٧ و ١٩٧٣) ان لا سوريا تستطيع لوحدها ولا مصر تستطيع لوحدها ان تقوم بعمل عسكري فعال ضـــد اسرائيل مما يعني ان تجميد اي جبهة من الجبهتين المصرية او السورية يؤدي تلقائيا الى تجميد الجبهتين ومن هنا يمكن فهم التصريحات المصرية بان سوريا لا تقل رغبة عن مصر في الدخول بمفاوضات تؤدي الى اتفاقية سورية ــ اسرائيلية لا تختلف عن اتفاقية سيناء .

٤ ــ تتعهد مصر بواسطة الاتفاقية وملحقاتها (والاتفاقيات الثنائية الجانبية مـــع الولايات المتحدة) بان لا تدخل الحرب مباشرة اذا بدأ فيها طرف عربي ولا تتطرق الاتفاقية الى ما يمكن ان تقوم به مصر لو ان الطرف الاسرائيلي قام بالهجوم ... واذا تركنا جانبا الالتزام المصري العام بمبدأ التضامن والدفاع العربي المشترك فان اسرائيـــل تعتبر مصر بموجب الاتفاقية خارج نطاق المواجهة العسكرية مع انه من السذاجـــة السياسية اخذ الاعتبار الاسرائيلي مأخذ الجد على المدى البعيد .

٥ ــ ان الخطر الاكبر الكامن في الاتفاقية يقع في ما توفره لاسرائيل من وضع عسكري وسياسي مريح بعد الانهيار والتآكل الذي بدأت تعانيه من جراء الضربة التي انزلتهـــا بكيانها ومؤسساتها الجيوش العربية والمقاومة الفلسطينية خلال حرب اكتوبر ، وبموجب الاتفاقية لم تقدم اسرائيل اي تنازل مقابل منحها هذا الوضع المريح فانها لم تنسحب من شرم الشيخ او شمال سيناء وهي مواقع مصرية في غاية الاهمية ، هذا اذ لم نعدد غزة والضفة الغربية والجولان باعتبار حرب اكتوبر جزءا من معركة عربية قومية مع الكيان الصهيونـــي .

٦ ــ ان مصر بعد توقيع الاتفاقية لم يبق بيدها سوى ورقة الضغط الامريكي بعد ان ادت سياسة التسوية على اساس ثنائي الى ابعاد الاتحاد السوفياتي عن لعبة الضغوط الدبلوماسيه ، كما عزلت الساحة السورية والساحه الفلسطينية ، أما الساحة الاردنية واللبنانية فقد انتهى دورها وضعف تدريجيا منذ عام ١٩٦٧ ولم يتبق من اداه البترول والمال العربي سوى الضجة الاعلامية والعامل النفسي . ولمعرفة مدى ضعف الاعتماد على الموقف الامريكي تجدر الاشارة الى ان الاتفاقية الامريكية ــ الاسرائيلية * التي تتضمن ضمانات امريكية عسكرية واقتصادية ومالية لاسرائيل تفوق جميع الضمانات التي كانت قائمة قبل توقيع الاتفاقيـــة .

---

* نشرت نصوص هذه الاتفاقية في الواشنطن بوست والهيرالد تريبون ١٦/٩/١٩٧٥ ومجلة US News and World Report وصدرت في اعلان رسمي عن الكونجرس الامريكي .

٧ ـ لا يمكن اعتبار الاتفاق بين مصر واسرائيل خطوة في سبيل السلام كما تنص الاتفاقية اذ انه بالنسبة لحجم النزاع لا يحل اي مشكلة بل يميل الى جعل النزاع اكثر خطورة بمنحه اسرائيل اسبابا اضافية للتمسك بسياسة الاحتلال والغاء مفعول قرارات مجلس الامن ٢٤٢ ـ و ٣٣٨ وقرار الامم المتحدة رقم ٣٢٣٦ بجانب الغاء دور الاتحاد السوفييتي في مؤتمر جنيف ، فاتفاقية سيناء ابتعدت عن هدف الوساطة الدولية لاحلال السلام فهي اتفاقية ثنائية لم تشترك فيها جميع الاطراف المعنية . ومن الناحية العسكرية المجردة فقد منحت الاتفاقية اسرائيل حرية القيام بالهجوم على اي طرف يعارض ارادتها بينما منحت امريكا فرصة جديدة لاحتواء المكاسب التي حققتها سياسة الاستقلال والتحرير في المنطقة .

هذه النقاط السبع كافية لتبرير ردة الفعل العربية والفلسطينية المضادة للاتفاقية دون الحاجة للدخول في المناورات والمزايدات التي دارت وتدور حول الاتفاقية .

رابعا : الاتفاقية ومستقبل القضية الفلسطينية

لما كانت القضية الفلسطينية تشكل الجوهر الانساني والمدار القومي والتاريخي للنزاع العربي الاسرائيلي فان اتفاقية سيناء سيكون لها (عربيا ودوليا) ابعد الاثار على هذه القضية . فاذا اخذنا مضمون الاتفاقية حسب نصوص موادها فانه لا يبدو ان للقضية الفلسطينية اي علاقة بما تم الاتفاق عليه بين مصر واسرائيل سوى الاشارة في المادة الثامنة الى بذل الجهود للتوصل الى اتفاق نهائي في اطار مؤتمر جنيف . اما بالنسبة لاعتماد القضية الفلسطينية عربيا على المجهود العسكري العربي الذي تمثل فيه مصر الدور الاكبر والاكثر فعالية فان معركة تحرير فلسطين (الشعار الذي التف حوله العرب منذ ١٩٤٨) يمكن اعتبارها تجمدت بعد تقليص وتقييد دور الجيش المصري فيها . واذا استعدنا تعداد الخطوات السلبية والايجابية التي اقدمت عليها الدول العربية بصدد القضية الفلسطينية منذ عام ١٩٤٧ فاننا لا نجد خطوة أقدمت عليها دولة عربية تجاه القضية يمكن اعتبارها اكثر خطورة ، وهذا ما يفسر وصف منظمة التحرير الفلسطينية لخطوة مصر الاخيرة بانها انسحاب من المعركة لا يقابله من الجانب الاسرائيلي اي التزام واضح بحقوق الشعب الفلسطيني * واذا كانت مصر بتوقيعها الاتفاقية ترمي الى تأجيل البحث في القضية الفلسطينية الى مفاوضات مقبلة والى مرحلة يتم فيها توقيع صلح شامل مع اسرائيل فان الاتفاقية الحالية لا تحتوي على اي شروط او تعهدات ملزمة بطرح القضية الفلسطينية طرحا يتناسب مع المكان الذي تحتله داخل النزاع . فبنظر الفلسطينيين ــ منظمة التحرير الفلسطينية ــ فان الاتفاقية تحمل بين بنودها جميع اسباب وشروط الصلح بين بلدين متحاربين بحيث تبدو الدعوة الى مواصلة الجهود مجرد اشارة الى هوامش وهنا تكمن بعض مواقع الخلاف بين منظمة التحرير الفلسطينيه وبين مصر . فالاولى تنظر الى الاتفاقية كنهاية لمرحلة المواجهة دون ان تكون هذه المواجهة قد حققت ايا من اهدافها بينما تنظر مصر للاتفاقية كمرحلة تمهيدية تضع المواجهة بمجملها في اطار بعيد عن احتمالات استعمال القوة. فالاتفاقية بالنسبة لمصر هي تجربة تاريخية لا بد للنزاع أن يمر بها قبل ان يدخل مرحلة الاعداد للتعايش السلمي . وبنظر منظمة التحرير الفلسطينية فان الدخول الى هذه المرحلة لا يمكن ان يتم قبل ان يحقق الجانب العربي عامة والفلسطينيون خاصة استعادة الحد الادنى من مطالبهم وحقوقهم في الارض الفلسطينية وانه لا يمكن التوصل الى هذه المطالب تحت ظروف

---

* في بيان لحركة فتح صادر في ١٩٧٥/٩/٥ اعلنت الحركة ادانتها للاتفاقية واعتبرتها تجميدا للصراع وتجزيئا للقضية الواحدة ــ نشر البيان في « فلسطين الثورة » عدد ٧ ايلول ١٩٧٥ (رقم ١٥٩) .

الاحتلال الاسرائيلي وميزان القوى العسكري القائم . ان الموقف الفلسطيني كان دائما شديد الحساسية تجاه اي تحرك عربي نحو التسوية على اساس الوضع القائم وذلك لان اي اعتراف ضمني بشرعية الكيان الاسرائيلي وامكانية التعامل معه (كواقع سياسي قائم) على غير اساس حالة الحرب — اي انهاء حالة الحرب معه ولو مؤقتا — يشكل خطرا حقيقيا على مبدأ السيادة القومية سواء على فلسطين او على الاراضي العربية المحتله من مصر وسوريا ، كما يشكل اختلالا في توازن القوى العسكري الذي استطاعت الدول العربية المحافظة عليه بعد حرب ١٩٤٨ وحتى بعد حرب يونيو ١٩٦٧ . ان الاتفاقيه من هذه الزاوية تضع قضية فلسطين لاول مرة امام امتحان تاريخي لم تتعرض لمثيل له منذ وعد بلفور ١٩١٧ : اذا استطعنا التفسير المرحلي للاتفاقية واخذنا بالتفسير التاريخي فان الاتفاقية تقدم مفهوما ضيقا للنزاع حيث تلغي عنصره الرئيسي — القضية الفلسطينية .

خامسا : مستقبل النزاع بعد الاتفاقية — ملاحظات واستنتاجات

١ — كما شكلت اتفاقيات الهدنة العربية الاسرائيلية عام ١٩٤٩ انعطافا جوهريا في تطور النزاع العربي — الاسرائيلي فان اتفاقية سيناء (ومن قبلها اتفاقيات فك الارتباط بين مصر واسرائيل ١٩٧٣ وبين سوريا واسرائيل ١٩٧٤) تشكل الانعطافة التاريخية الثانية لهذا النزاع في اتجاه حله خارج اطار المواجهة العسكرية مما سيترتب عليه نتائج تاريخية هامة على قضايا عربية مصيرية مثل قضية تحرير فلسطين ، والوحدة العربية ، والعلاقات العربية الدولية ومسألة التنمية والتطور في العالم العربي . مما لا شك فيه ان التزام مصر بقيادة الجبهة العسكرية العربية ضد اسرائيل كان يعطي حركة الوحدة العربية التماسك والدعم الكافي لجعلها محور النشاط السياسي في العلاقات العربية ، بينما سنؤدي حالة الركود العسكري على الجبهة المصرية الىتقوية مركز اسرائيل كحاجز جغرافي وسياسي ونفسي امام تحقيق اي وحدة عربية على المدى القريب بل وربما يؤدي هذا الركود الى تغير جذري في مضمون الوحدة بحيث لا يشمل مصر على المدى القصير .

٢ — على صعيد العلاقات العربية الدولية ابرزت الاتفاقية سياسة التقارب المصري الامريكي مع قبول مبدأ الالتزام الامريكي بحماية اسرائيل وسياسة الاحتلال والتوسع التي تمارسها في الوطن العربي . وقد وضعت الاتفاقية حدا لسياسة التقارب المصري السوفييتي وهي السياسة التي ثبت من التجربة انها افسدت المخطط الامريكي للسيطرة على العالم العربي بواسطة اسرائيل بالرغم من اتخاذ الاتحاد السوفييتي هذه السياسة فرصة لاختراق سياسة الاحتواء الامريكي خلال الخمسينات . ان التقارب المصري الامريكي بعد الاتفاقية يجعل من سياسة امريكا المزدوجة في حماية اسرائيل وحماية مصالحها — اي امريكا — في المنطقة تبدو سياسة متكاملة ومنسجمه بحيث يختفي التناقض بين هدف تنمية الوطن العربي وهدف ربط هذه التنمية بعودة النفوذ الاجنبي الى المنطقة .

٣ — ان جميع التوقعات العربية بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ كانت تدور حول وجود فرصة لتحقيق السلم بشروط عربية الى ابعد الحدود ولكن هذه التوقعات سرعان ما ثبت خطأها اذ انه كما تبين بعد الانتصار الاسرائيلي عام ١٩٦٧ من انه انتصار مؤقت لا تبرره موازين القوة الحقيقية عسكريا وبشريا واقتصاديا فان الانتصار العربي في حرب اكتوبر ١٩٧٣ لم يؤد الى تغيير حقيقي وملموس لميزان القوى العسكري محليا ودوليا وهكذا عاد النزاع بعد ايام قليلة من حرب اكتوبر الى توازنه التقليدي بين مجموعة دول عربية ذات نسب متفاوتة من الانهماك في النزاع وبين المركز الاسرائيلي المستند الى ترسانة التسلح الامريكي والدعم السياسي المطلق لاصحاب هذه الترسانة . ان كل ما اوجدته

حرب اكتوبر بجانب شعور النصر والكرامة لدى العرب هو تغيير قاعده النزاع من صراع بين قوى غير متكافئة في الاداء العسكري الى قوى اقرب الى تكافؤ الفرص في امكانية انزال احدها ضربات مؤلمة بالاخر . وقد اعطت هذه القاعدة القيادة المصرية حجة سياسيه لتبرير التفاوض من مركز القوة وهو ما افتقدته القيادات العربية التي تمت على يدها حرب يونيو ١٩٦٧ . فبالنسبة لمصر اليوم تبدو التسوية وكأنها نتيجة للنصر بعد ان ادت الضربه التي انزلتها القوات المصرية بجيش اسرائيل تحطيم اسطوره التفوق العسكري الاسرائيلي في كل زمان ومكان واستطاعت مصر في مرحلة تحركها السياسي الدولي ضمان اعادة قناة السويس وابار نفط سيناء كما اعادت بعض الثقة الى الاقتصاد المصري وخففت عنه الضغوط المالية واوجدت التفافا داخليا حول النظام ووحدة وطنية حول القيادة السياسية كما خففت قليلا من ضغط الاحتلال الاسرائيلي على الوضع الداخلي للنظام في مصر .

٤ ــ في العمل الدولي وداخل الامم المتحدة لا زالت مصر تشترط ان لا يتم الحل الشامل دون منح الفلسطينيين « حقوقا مشروعة » ولكن اسرائيل لا زالت تعارض مثل هذا الحل ولا زالت تحتفظ باكثر من ٩٥ ٪ من الاراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧ ولا زال اكثر من مليون ونصف عربي يعيشون تحت سيطرة سلطات الاحتلال الاسرائيلي ، كما استطاعت اسرائيل لغاية الان مقاومة جميع الضغوط الدولية بما فيها الضغوط الامريكية . ان حجم المكاسب التي لا زالت اسرائيل تحتفظ بها كنتيجة لحرب يونيو ١٩٦٧ كافية لتبرير شروطها برفض انهاء النزاع على اساس قرارات الامم المتحدة اي انها كافية لتبرير احتفاظها بمعظم الاراضي المحتله واصرارها على عدم تضمين المفاوضات مواضيع مثل القدس ، والمستعمرات الاسرائيليه في الضفة الغربية والجولان وسيناء .

٥ ــ ان موقف مصر من النزاع كان هو دائما الذي يملي موقف سوريا والاردن وهو لا يزال كذلك وان كان قد تعرض للهجوم والتشكيك بعد توقيع الاتفاقية . وفيما ترمي سياسة مصر الان الى اعادة الوضع الاقليمي كما كان عليه قبل حرب يونيو ١٩٦٧ مع قبول مبدأ تسويه النزاع دون المساس بجوهر القضية الفلسطينية ، فان اسرائيل ترمي الى اعادة الوضع الى ما كان عليه قبل حرب اكتوبر ١٩٧٣ وتتصرف سياسيا وعسكريا على هذا الاساس . انه اذ لم يتم اجراء مراجعة جذرية ضمن اطار عربي للموقف المصري الجديد من النزاع واذ لم يتم وضع حد لسياسة اسرائيل في استعمار وضم الاراضي العربية المحتلة فان اي تسويه شاملة ودائمة ونهائية للنزاع ، ستظل المناقشة مجرد مناقشة اكاديمية .

٦ ــ تتميز اتفاقية سيناء بأنها جاءت نتيجة لمبادرة ومجهود امريكي خارج اطار المشاورات السوفييتية ــ الامريكية وخارج نطاق المجهودات الدولية داخل الامم المتحدة ، وتعتبر الاتفاقية من هذه الزاوية احدى نقاط النجاح في سياسة كيسنجر الخارجية والثمرة الرئيسية لسياسة التقارب المصري ــ الامريكي . ومما يدعو الى الاستغراب ان يحدث هذا التقارب في الوقت الذي تجدد فيه الولايات المتحدة التزاماتها السابقة لاسرائيل وتضيف عليها التزامات جديدة وان يتم كل هذا خلال عملية اعادة ترتيب المصالح الاستراتيجية والاقتصادية للولايات المتحدة في المنطقة وذلك على اثر انحسار النفوذ الامريكي في جنوب شرق اسيا بعد انسحاب القوات الامريكية من فيتنام وكمبوديا . ان المعادلة الجديدة للسياسة الامريكية في الشرق الاوسط بعد الاتفاقية اصبحت تقوم على الدعائم التالية :

ــ تجديد الالتزام بحماية اسرائيل وانعاش دورها التقليدي في رعاية ومراقبة المصالح الامريكية في المنطقة .

ــ مراعاة التطورات الجديدة التي فجرتها حرب اكتوبر في العالم العربي (قوة

البترول والمال العربي ، سياسة التنمية الذاتية وبناء قوة اقتصادية عربية) ومحاولة احتواء هذه التطورات وابطال مفعولها على النـــزاع .

ــ ابقـــاء ميزان التسلح لمصلحـــة اسرائيل .

ــ حصر ظاهرة المقاومة الفلسطينية المسلحة في اضيق نطاق ممكن ومحاولة عـــدم تعميمها كاسلوب ناجح لترجيح النزاع لمصلحة قوى التحرر والتقدم في العالم العربي .

ــ الضغط على الدول العربية لتوقيع معاهدة صلح على اساس الوضع القائم .

ــ تقوية اسس التقارب المصري ــ الامريكي والابقاء على دور الوسيط الامريكـــي كطرف مقبول به من الجانب العربي في محاولات حل النزاع نهائيا في المستقبل .

٧ ــ تجدر هنا الاشارة الى دور الاتحاد السوفييتي في مستقبل النزاع على ضـــــوء الاتفاقية . ان توقيع الاتفاقية قد تم بعيدا عن اي اثر للاتحاد السوفييتي فقد ادى التقارب المصري ــ الامريكي الى ادخال السياسة السوفييتية في الشرق الاوسط في مأزق لـــم تواجهه من قبل . فالاتحاد السوفييتي الذي ظل يلعب دورا رئيسيا في المنطقة منذ عـــام ١٩٦٠ شعر نفسه بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ وكأنه دفع ثمن صفقة خاسرة مرتين ، مـــرة عند هزيمة شريكه الاصيل عام ١٩٦٧ ومرة عند تحول هذا الشريك الى الفريق المنافس عند ظهور اول بادرة تعويض عن الخسارة الاولى (انتصار السلاح السوفييتي في اكتوبر ١٩٧٣ . ان الاتحاد السوفييتي امام تدهور علاقاته مع مصر عبر عن عدم موافقتـــه رسميا على الاتفاقية وذلك بغياب مندوب عنه في جلسات اللجنة العسكرية المشتركـــة التي اجتمعت بجنيف لصياغة البروتوكول الخاص بالاتفاقية ، كما دلت التصريحـــــات السوفييتية الصادرة بعد توقيع الاتفاقية بان السياسة السوفييتية تحبذ عدم بحث ايـــة تسوية للنزاع خارج اطار مؤتمر جنيف وبحضور جميع الاطراف ، ويصر الاتحـــــاد السوفييتي ان تكون منظمة التحرير الفلسطينية طرفا رئيسيا بجميع المحادثات المقبلـــة حول النزاع . ان هذا الموقف يبدو اكثر انسجاما مع موقف سوريا ومنظمة التحريـــر الفلسطينية كما انه يعني ان الاتحاد السوفييتي لا زال ينطلق في سياسته نحو النزاع من نفس المبادىء وباعتماد نفس الاستراتيجية التي املتها مصالحه وقناعاته قبل عـــام ١٩٦٧ ، وان ابتعاد مصر عن الخط السياسي للسياسة السوفييتية لم يؤثر فعليا على الدور الذي حددته القيادة السوفييتية لنفسها في النزاع خاصة وان مراكز القوة وموازين القوى في المنطقة تجعل من السهل على الدول الكبرى تبديل الحلفاء وتعويض الاصدقاء ضمن فترات قصيرة .

٨ ــ يعتبر موقف اسرائيل من الاتفاقية وملحقاتها وبروتوكولها حجر الزاوية في اي عمليه تقييم لاثارها ونتائجها على مستقبل النزاع . فكما وضعت الحركة الصهيونية جميع الاتفاقيات والعهود السابقة (الهدنة ، ايقاف اطلاق النار ، فك الارتباط) في خدمـــة الاهداف الصهيونية الرئيسية ــ الاستيطان والضم والتهويد ــ فانه ليس في سياسة اسرائيل ونظرتها للاتفاقية ما يدل على انها تزحزحت قيد شعرة عن مفهومها التقليـــدي لاي اتفاق دولي او ثنائي بشأن النزاع . وبناء على السوابق المتوفرة لاختبارات العرب بالمواثيق التي وقعت عليها القيادات الصهيونية والحكومات الاسرائيلية المتعاقبة فـــان اتفاقية سيناء يمكن اعتبارها اداة اضافية بيد اسرائيل لتحقيق الاهداف التالية :

ــ بالنسبة لمفهوم اسرائيل للحدود الامنة تعتبر الاتفاقية اول اتفاق ثنائي مع طرف عربي يحتوي على صياغة قانونية ومضمون سياسي لموضوع الحدود وعليه فان هـــدف اسرائيل سيظل المحافظة على الوضع الجديد للحدود ضمن مفهوم الامن الاسرائيلي .

ــ ستتخذ اسرائيل من الاتفاقية اداة لعرقلة الاستراتيجية العربية للسلام القائمة على

ازالة الاحتلال واقامة وطن فلسطيني ضمن حدود الشرعية الدولية ، وكانت اسرائيل قد تمكنت من خلال اتفاقيات فك الارتباط من ايجاد شرخ عميق في الاستراتيجية العسكرية العربيه ، فانقسم الجانب العربي من مؤيدي استمرار المعركة عسكريا ومؤيدي الاعتماد على التحرك الدبلوماسي .

ـ منحت الاتفاقية أسرائيل مادة كافية لتصعيد حربها النفسية على الرأي العام العربي . فقد استطاعت الحكومه الاسرائيلية اخراج النقاش الذي دار بين احزاب اليمين الاسرائيلي وفريق الحكومه حول الاتفاقية للايحاء للرأي العام العربي (والعالمي) بان اي انسحاب اسرائيلي مهما كان حجمه رمزيا يعتبر من القضايا « المقدسة والممنوع لمسها » بالنسبه لامن اسرائيل وبقائها بحيث تبدو جميع الخطوات المقابلة من اي طرف ثان (مصر او سوريا) او اي طرف ثالث (الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفييتي ، الامم المتحدة) مجرد حق مكتسب لاسرائيل .

ـ ستعمل اسرائيل على استغلال الهدوء النسبي على الجبهة العسكرية العربية من اجل تثبيت وجودها في المناطق المحتلة وذلك قبل ان يتمكن التحرك العربي الدبلوماسي من تحقيق اي مكاسب سياسية ملموسة .

ملاحظة ختاميه

طرحت الاتفاقية فيما طرحته مجددا على الساحة العربية موضوع التضامن العربي الذي وصل اوجه اثناء حرب اكتوبر ثم بدأ ينحدر تدريجيا منذ انعقاد مؤتمر جنيف ووصل حده الادنى بعد توقيع الاتفاقية .

مع ذلك يظل التضامن العربي بمفهومه التقليدي (الجامعة العربية ومؤتمرات القمه) هو الرصيد الوحيد لاي عمل مشترك تجاه النزاع في المستقبل ، اذ ان تمسك مصر بمبدأ التضامن العربي لميكن مظهرا طارئا في السياسة المصرية ولكنه جزء من الشخصية الحضارية لمصر ولوعيها لدورها التاريخي في المنطقة ، وان كل ما يمكن ان تؤدي اليه التيارات الانعزالية (وهي موجودة في مصر ودول عربية اخرى) لا يمكن ان ينتج عنه اكثر من العودة لسياسة المحاور التي اثبتت بانها لا تدوم طالما ظل النزاع يهدد مصالح جميع الاطراف العربية بنفس الدرجة . كما ان الاتفاقية وان كانت قد ادت الى تجميد الجبهة العسكرية الرئيسية في النزاع الا ان المواجهة العربية مع الكيان الصهيوني ستستمر على جبهات اخرى لا تقل اهميه عن الجبهة العسكرية ، فالنواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والاعلامية مضافا اليها ميدان المقاومة الفلسطينية المسلحة ستظل تشكل درجة اعلى في نسبة حسم النزاع مستقبلا .

ملحق :

خلفية الاتفاقية المصرية ـ الاسرائيلية بالتواريخ والوقائع

١٩٧٣

٦ **اكتوبر** ـ الهجوم المصري ـ السوري على مواقع الجيش الاسرائيلي في سيناء والجولان . الحرب العربية ـ الاسرائيلية تبدأ بانتصارات عربية .

١٠ **اكتوبر** ـ الهجوم الاسرائيلي المضاد في الجولان .

١٧ **اكتوبر** ـ الدول العربية المنتجة للنفط تقرر في الكويت تخفيضا تدريجيا لتصدير النفط ، وترتفع اسعار النفط بـ ١٧ ٪ .

١٨ **اكتوبر** ـ المعارك تخف في الجولان وينتقل ثقل القتال الى جبهة سيناء .

٢٠ اكتوبر — القوات الاسرائيلية تخترق قناة السويس الى الضفة الغربية منه .

٢١ اكتوبر — كيسنجر يطير فجأة الى موسكو .

٢١ اكتوبر — الدول العربية المصدرة للنفط تفرض حظرا على الولايات المتحدة .

٢٢ اكتوبر — الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي يتخذان قرارا في مجلس الامن لوقف اطلاق النار .

٢٣ اكتوبر — اسرائيل لا تتقيد بوقف اطلاق النار وتحتل قواتها مدينة السويس وتحاصر الجيش المصري الثالث .

٢٤ اكتوبر — سوريا توافق على وقف اطلاق النار .

٢٥ اكتوبر — الانذار الذري : امريكا تعلن حالة الانذار الذري لقواتها متذرعة بخطر تدخل عسكري سوفييتي . مجلس الامن يقرر ارسال فيلق سلام للمنطقة . وقف اطلاق النار يصبح ساريا وفعالا وتتوقف الحرب.

١١ نوفمبر — القادة العسكريون المصريون والاسرائيليون يوقعون في خيمة الامم المتحدة على الكيلو ١٠١ اتفاق وقف اطلاق النار والذي يتضمن تبادل اسرى الحرب .

٢١ ديسمبر — انعقاد مؤتمر السلام للشرق الاوسط بجنيف بغياب سوريا . حضر المؤتمر وزراء خارجية مصر والاردن واسرائيل والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي والسكرتير العام للامم المتحدة .

١٩٧٤

١٨ يناير — بعد الوساطة الثالثة لكيسنجر بين الاطراف المتنازعة ، مصر واسرائيل توقعان اتفاق فك الارتباط على الكيلو ١٠١ .

٢٥ يناير — القوات الاسرائيلية تنسحب عن منطقة قناة السويس .

٢٧ يناير — اندلاع قتال محدود بين سوريا واسرائيل في الجولان .

٢٨ فبراير — مصر والولايات المتحدة تعيدان علاقاتهما الدبلوماسية التي انقطعت عام ١٩٦٧ .

١٨ مارس — الدول العربية المصدرة للنفط ترفع حظرها عن الولايات المتحدة ولكنها تبقي على ارتفاع الاسعار

١٠ ابريل — جولدا ماير رئيسة وزراء اسرائيل تتنحى عن الحكومة بعد خلاف حول اخطاء وقعت اثناء حرب اكتوبر .

١٨ ابريل — السادات يعلن ان مصر لن تعتمد فقط على المساعدات العسكرية السوفييتية .

٢٨ ابريل — كيسنجر وجروميكو يبحثان في جنيف مسألة تحقيق اتفاق جزئي بين سوريا واسرائيل .

٢٩ مايو — كيسنجر يحقق بعد مفاوضات دامت اسابيع اتفاق فك ارتباط على الجولان (تم توقيعه فيما بعد يوم ٥ يونيو) . قوات الامم المتحدة تتخذ مواقعها في المنطقة العازلة بالقنيطرة .

١٢ — ١٩ يونيو — نيكسون يزور مصر والسعودية وسوريا واسرائيل والاردن .

٢٨ يونيو — رابين يشكل وزارة اسرائيلية جديدة بعد ازمة وزارية شديدة .

٢١ يونيو — مصر تعترف رسميا بمنظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني . احتجاج الاردن .

١٤ اكتوبر — الجمعية العامة للامم المتحدة تدعو منظمة التحرير الفلسطينية لحضور مناقشة القضية الفلسطينية .

٢٣ اكتوبر — مجلس الامن يمدد فترة قوات الامم المتحدة في سيناء الى ابريل ١٩٧٥ .

٢٩ اكتوبر — مؤتمر القمة العربي في الرباط يتخذ قرارا باعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني .

١٣ نوفمبر — ياسر عرفات يتحدث أمام الجمعية العامة للامم المتحدة بنيويورك ، الجمعية العامة تتخذ

قرارا بالاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في الاستقلال .

١٩٧٥

٢ يناير ــ كيسنجر يلمح بان الولايات المتحدة ستدافع عن تأمين امدادات النفط ولو تطلب الامر التدخل العسكري .

١٥ يناير ــ اسرائيل تقوم بسلسلة هجمات على جنوب لبنان .

١٠ فبراير ــ كيسنجر يبدأ رحلة وساطة جديدة تدوم لغاية ١٩ يناير .

٨ مارس ــ كيسنجر يصل الشرق الاوسط ثانية .

٢٢ مارس ــ كيسنجر يعلن عن فشل مهمته لتحقيق فك ارتباط ثان بين مصر واسرائيل ويعود الى واشنطن

٢١ ابريل ــ السادات والاسد يتفقان على سياسة موحدة تجاه النزاع .

٢٢ مايو ــ سوريا توافق على تمديد فترة قوات الامم المتحدة في الجولان لمدة ستة اشهر .

١ يونيو ــ السادات وفورد يلتقيان في سالزبورغ (النمسا) ويعبران عن وجود فرصة جديدة لتسوية النزاع .

٥ يونيو ــ اعادة فتح قناة السويس .

١٠ يونيو ــ زيارة الاسد لعمان والتقارب السوري ــ الاردني .

٢١ اغسطس ــ كيسنجر يبدأ رحلة وساطة جديدة في الشرق الاوسط بين مصر واسرائيل تنتهي في اوائل سبتمبر بالتوصل الى اتفاق سيناء .

سياسات النظام الاردني
تجاه مسألة تقرير مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة

غـازي الخليلـي

مما لا شك فيه* أن نحديد موقف النظام الاردني من مسألـة تقرير ، ليس فقط ، مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة ، بل ومستقبل الشعب الفلسطيني بشكل عام ، أمر من الاهمية بمكان ، لأنـه بهذا التحديد ، اضافة ، الـى اننا نزيح الغطـاء عن السياسات التي لجأ ويلجأ اليها النظام الاردني في المضي قدما بسياسته الالحاقية للضفة الغربية ، فاننا نصبح أكثر قدرة علـى بلورة سياسات صائبة في مواجهـة تحركاته وسياساته والعمل على احباطها .

لقد أنيط بالنظـام الاردني منذ نشأته في العـام ١٩٢١ دور خـاص تجاه المسالة الفلسطينية ، ضمن استراتيجية الأمن البريطانية في المنطقة ، على ضوء التزام بريطانيا بتنفيذ وعد بلفور (١) . وبالامكان تحديد معالم هذا الدور بثلاث قضايا رئيسية هي :

١ ـ أن يشكل شرق الاردن الارض التـي سيجري عليها اعـادة اسكان العرب الفلسطينيين الذين قد يضطرون لمغادرة فلسطين على ضوء ما يحصل من تقدم بصدد تنفيذ وعد بلفور ، ولذا استثني شرق الاردن من الارض المشمولة بالوعد ، وتم الاتفاق بين تشرشل والامير عبدالله بن الحسين على تأسيس امارة شرق الاردن في العـام ١٩٢١ ، ضمن الالتزام البريطاني بما سمي «انشاء» وطن قومي يهودي في فلسطين .

٢ ـ أن تقوم امارة شرق الاردن بدور الحاجز الامنـي ضد أي امتدادات للحركة الوطنية الفلسطينية خارج فلسطين ، وتحديدا في شرق الاردن . ولذا جـرى تزويد الامارة منذ نشأتها بأداة قمع عسكرية ، تم تطويرها وزيـادة فعاليتها وقدرتها على المطاردة وممارسة القمع ، على ضوء النمو المتزايد للحركة الوطنية الفلسطينية (٢) . وبنفس الوقت تم سن مجموعة مـن القوانين القمعية باسم قـانون الدفاع ، لمواجهة الحركة الوطنية الفلسطينية وامتداداتها نحو شرق الاردن (٣) .

٣ ـ أن تشكل امارة شرق الاردن ، الدولة التي سيضم اليهـا الجزء المتبقي من فلسطين ، بعد أن يجري تنفيـذ الجزء الاول مـن المشروع الصهيوني باقامـة دولة صهيونية على أرض فلسطين ، ذلك أن بريطانيا كانت حريصة على ابقاء سيطرتها على جزء من فلسطين حتى بعد قيام « الوطن القومي اليهودي » كجزء مـن استراتيجيتها

---

* محاضرة ألقيت في مركز التخطيط التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية بتاريخ ١٩٧٥/١٢/١٩ ، ضمن سلسلة الندوات التي أقامها المركز لاستكشاف مواقف أطراف الصراع المختلفة من هذه المسألة .

شرقي قناة السويس (٤) ولذلك فقد عمل الامير عبدالله منذ البداية على اقتسام الوطن الفلسطيني مـــع العدو الصهيوني ، واخذ يوطد علاقاته مـــع الجماعات الفلسطينية المحسوبة على الانتداب البريطاني ، كما أخذ يتدخل في شأن الحلول التي تطرح لمعالجة المسألة الفلسطينية أمام تزايد الصراع بين الحركة الوطنية الفلسطينية من جهة ، وبين سلطات الانتداب البريطاني والحركـــة الصهيونية من الجهـــة الاخرى . وكانت أول اشارة تنم عـــن تفاهم بريطاني ــ هاشمي بصدد اقتسام الوطـــن الفلسطيني بـــين الهاشميين والحركة الصهيونية ، ما أوصت به لجنة « بيل » بضم القسم العربي من فلسطين الى امارة شرق الاردن(٥) . وقد عبر الامير عبدالله عن أطماعه بضم جزء من فلسطين الى حكمه ، عندما اقترح على لجنة « ودهيد » البريطانية في العام ١٩٣٨ ، تشكيل « مملكة موحدة عربية من فلسطين وشرق الاردن تحت يد ملكية عربية قادرة على القيام بمهمتها **وتعهداتها** » على أن تعطي هذه المملكـــة ادارة مختارة لليهود في المناطق اليهودية التي تتعين خارطتها بواسطة لجنة تتألف من رجال بريطانيين وعرب ويهود (٦) .

ولقد تأكدت حقيقة أطماع الامير عبدالله هذه ، عندما وافق على قرار التقسيم في العام ١٩٤٧ ، واتبع هذه الموافقة بسياسة على عدة أصعدة ، لضمان الحاق « القسم العربي » الذي أقره قرار التقسيم الى حكمه . فمن جهة ، جعل مسرح عمليات الجيش الاردني لما اندلعت حرب العـــام ١٩٤٨ ، لا تتعدى حدود قرار التقسيم ، أي حدود المناطق المعتبرة عربية بموجب قرار التقسيم ، وتم الاتفاق على ذلك عبر تفاهم رئيس وزرائه توفيق أبو الهدي ، مع بيفن ، وزير الخارجية البريطاني آنذاك . مـــن جهة ثانية ، مارست قواته سياسة قمع ضد المناضلين الفلسطينيين في المناطق التي تعمل بها ، فقامت بتجريدهم من السلاح وملاحقتهم ومطاردتهم ، وذلك حتى يضمن سيطرته العسكرية الكاملة على هذه المناطق . من جهـــة ثالثة ، أخذ يعد العدة لالحاق الجزء المتبقي من فلسطين لحكمـــه ، عبر تشجيع ورشوة بعض القيـــادات أو الوجاهات الفلسطينية ، وعبر ممـــارسة الاضطهاد والارهـــاب ضد الذين عارضوا سياستـــه الالحاقية . فرتب هو ورجال حكمه مع بعض عملائه الفلسطينيين ، مؤتمرا فلسطينيا عقد في عمان بتاريخ ١٩٤٨/١٠/١ ردا على مؤتمر غزة الذي دعت اليه القيـــادات الفلسطينية التي كانت ترفض مشروع الالحاق الهاشمي* . وقد أصدر المؤتمر قرارا بتفويض الملك عبدالله «تفويضا تاما مطلقا في ان يتحدث باسم عرب فلسطين وأن يفاوض عنهم ويعالج مشكلتهم بالشكل الذي يراه » (٧) وتبع هـــذا المؤتمر ، عقد مؤتمر آخر في أريحا بتاريخ ١٩٤٨/١٢/١ ، كان الشيخ محمد علي الجعبري ، عرابه ، ومن أكبر الداعمين له ، واتخذ المؤتمر قرارا بالحاق الضفة الغربية بالحكم الهاشمي . وأصدرت الحكومة الاردنية بعد ذلك عددا من القرارات لجعل عملية الالحاق دستورية . وقد تكرس الضم والالحاق باجراء انتخابات نيابية في الضفتين في ١٩٥٠/٤/١١ وتشكيل برلمان موحد وحكومة ضمت فلسطينيين وشرق أردنيين .

لقد وقع الجزء المتبقي من فلسطين بعد حرب العام ١٩٤٨ تحت سياستين وادارتين

---

* مما يجدر ذكره هنا ، أن تقرير وضع ما تبقى من فلسطين بعد حرب العام ١٩٤٨ ، كان آنذاك ضحية الصراعات العربية بين الهاشميين من جهة والسعوديين والمصريين من الجهة الاخرى . والقيادة الوطنية الفلسطينية ، كانت عاجزة ومشتتة آنذاك ، لدرجة أنها فقدت القدرة على التحرك الفاعل في مواجهة ما يرتب من سياسات لالحاق الضفة الغربية بالحكم الهاشمي .

مختلفتين ، فمن جهة ، وضع قطاع غزة الذي شكل جانبا من مسرح عمليات الجيش المصري خلال الحرب ، في عهدة الادارة المصرية ، واقيمت في قطاع غزة ما سمي حكومة عموم فلسطين ، وكانت حكومة شكلية أعجز من أن تقوم بأي دور وطني ، وخاضعة لسيطرة الادارة المصرية . ومن جهة ثانية الحقت الضفة الغربية ، بسكانها ومن لجأ اليها والى الضفة الشرقية من الفلسطينيين الى الحكم الهاشمي ، وعلى أرض الضفة الغربية والفلسطينيين الذين ألحقوا بالحكم الهاشمي ، تابع النظام الاردني سياساته الالحاقية ، هذه السياسات التي أخذت منحى أكثر خطورة من السابق ، اذ شملت العمل على مصادرة وتبديد الهوية الوطنية الفلسطينية .

سياسات النظام الاردني بعد الالحاق ١٩٤٨ — ١٩٦٤

دأب النظام الاردني بعد العام ١٩٤٨ على انتهاج سياسات واضحة لمصادرة وتبديد الشخصية الوطنية الفلسطينية ، واتخذت هذه السياسات مظاهر عدة ، يمكن الاشارة الى أهمها وهي :

● افراغ منطقة الحدود مع العدو الصهيوني من أية امكانات دفاعية أو هجومية ، بالتأكيد على الدور القمعي الداخلي للجيش الاردني ، وبمقاومة أية توجهات لتسليح القرى الامامية واكسابها قدرة دفاعية ، وكذلك بعدم السماح لأية دولة عربية أن تستخدم الارض الاردنية أو الضفة الغربية في حشد قوات عسكرية عربية على طول الحدود مع العدو الصهيوني . وبهذه السياسة شكل النظام الاردني حاجزا أمنيا يحمي حدود اسرائيل ويحافظ عليها ، ولذا فقد أعتبرت اسرائيل الابقاء على النظام الاردني احدى أهم مرتكزاتها الامنية في المنطقة ، وأعلنت أكثر من مرة أن أي تغيير أساسي في وضعية النظام الاردني ، سيستتبع بالضرورة تدخلا اسرائيليا مباشرا لاعادة الامور الى ما كانت عليه .

● ممارسة أشد أنواع القمع ضد الحركة الوطنية في الاردن ، سواء بتوجهاتها الوطنية الفلسطينية أو بتوجهاتها المضادة للنظام الرجعي في الاردن . لقد مارست أجهزة النظام القمعية أشد انواع القمع والاضطهاد ، ضد المحاولات التي قام بها بعض الفلسطينيين في الضفة الغربية ، بمتابعة الاغارة على المواقع الاسرائيلية . وسن النظام الاردني قانون مكافحه الجاسوسية ، ليكون ستارا لملاحقة ومحاكمة من يقوم بنشاط ضد الكيان الصهيوني . اضافة الى ذلك ، فان تاريخ الاردن من العام ١٩٤٨ حتى الآن ، هو تاريخ يقوم أساسا على ما كان يقوم به النظام الاردني من عمليات قمع واضطهاد واسعة لكل الوطنيين في الاردن .

● مصادرة وتبديد الهوية الذاتية للفلسطينيين عبر عملية منح الجنسية الاردنية لكل الفلسطينيين المقيمين في الاردن أو الضفة الغربية . ان جعل الفلسطينيين أردنيين واسقاط هويتهم الذاتية الفلسطينية ، لم يأت لمواجهة الضرورات العملية باتاحة المجال للفلسطينيين المقيمين في الاردن بالحركة والتنقل ، بل أتى ضمن السياسة المرسومة في نفي الهوية الذاتية الفلسطينية ، وقتل الشعور أو الوعي بالانتماء الوطني الفلسطيني . ان استناد النظام الاردني الآن على واقعة ان الفلسطينيين المقيمين في الاردن هم رعايا أردنيون ، لتبرير ادعاءاته في تمثيلهم والتحدث باسمهم ، يوضح المرامي والاهداف الحقيقية التي كان يبتغيها النظام الاردني من سياسة التجنيس .

وهـي سياسة لا تصب الا في طاحونـة مصادرة وتبديد الهوية الوطنيـة للشعب الفلسطيني . لا سيما اذا ربطنا هذه السياسة ، بسياسات النظام الاردني في تفتيت البنية الاقتصادية ــ الاجتماعية للفلسطينيين هناك ، لتكريس عملية المصادرة والتبديد واكسابها مضامين اقتصادية واجتماعية .

● **تفتيت البنية الاقتصادية ــ الاجتماعية** للفلسطينيين في الاردن والضفة الغربية . يعتبر الوجود الاقتصادي والاجتماعي المتماسك ، احدى المقومات الاساسية لوجود أي شعب أو أية جماعة من الناس . وبالتالي فانه أمام فقدان القسم الاكبر من الشعب الفلسطيني لأرضه وتشتته في أقطار عديدة ، كان يجب اعتبار الارض الفلسطينية التي لم تحتل ، بمثابة الارض التي يجري عليها اعادة بنيان الهيكلية الاقتصادية والاجتماعية للشعب الفلسطيني ، وذلك بانماء مجالات الانتاج المختلفة من زراعة وصناعة علـى الارض الفلسطينيه ، واستيعاب قوى الانتاج الفلسطينية فيها . لقد قامت سياسة النظام الاردني على افراغ الضفة الغربية من اية امكانية لنمو اقتصادي خاص ومتبلور ، وجعل اقتصاد الضفة الغربية اقتصادا ملحقا باقتصاد الضفة الشرقية ، وكرس النظام هذه السياسة بسن مجموعة من القوانين التي تحرم انشاء أية شركات أو مؤسسات صناعية كبيرة في الضفة الغربية ، وتوجب قيام أيـة شركات أو مؤسسات من هذا النوع في الضفة الشرقية ، حتـى ولو كانت شروط نجاحها تجاريا تتطلب اقامتها في الضفة الغربية . من ذلك مثلا ، ان الحكومة الاردنية مانعت وماطلت كثيرا في انشاء مصنع لتعليب البندورة في الخليل ، وأصرت علـى أن يقوم هـذا المصنع في الضفة الشرقية ، على الرغم من أن المصنع يجب أن يكون قريبا من مركز انتاج البندورة في الخليل . ولم تسمح الحكومة باعطاء ترخيص لانشاء المصنع الا عندما رخصت بانشاء مصنع آخر لتعليب البندورة في عمـان . ان وجود معظم الشركـات والمؤسسات الصناعية الكبيرة في الضفة الشرقية ، لم يكن صدفة ، أو خوفا من احتمالات اجتياح اسرائيل للضفة الغربيـة مستقبلا ، بل كـان جزءا مـن سياسة مرسومة لافقاد الفلسطينيين في الضفة الغربية أية امكانية للصمود الذاتي ، ومـن أجل العمل على التفتيت السريع للبنية الاقتصادية ــ الاجتماعية للفلسطينيين هناك . ومن الامور التي باتت مؤكدة ، انه لو كانت الضفة الغربية متمتعة بامكانات الصمود الاقتصادي في وجـه الاحتلال الاسرائيلي لها ، لكانت أقدر علـى المقاومة والصمود ، ولواجهت السلطات الاسرائيلية المحتلة ، صعوبة كبيرة في تشغيل هذا العدد الكبير من الأيدي العاملة الفلسطينية في الاراضي المحتلة في العام ١٩٤٨ . وفي جعل اقتصاد الضفة الغربية تابعا وملحقا ــ بشكل كبير ــ بالاقتصاد الاسرائيلي . لقد كان من الممكن جدا ، لو قام حكم وطني ديموقراطي في الاردن بعد العام ١٩٤٨ ، أن تشكل الضفة الغربية ، الارض الفلسطينية التي يجري عليها اعادة بناء الوجود الوطني الفلسطيني ، من خلال اعادة بناء وجوده الاقتصادي ــ الاجتماعي المتماسك . لقد وقعت الحركة الوطنية في الاردن ، بشقيها الفلسطيني والاردني ، بخطأ كبير ، عندما لم تطرح في برامج عملها النضالية ضد النظام الرجعي في الاردن ، مـا يناهض سياسة الالحاق الهاشمي للضفة الغربية ، من خلال طرح تصور وطني لتجديد وحدة الضفتين علـى أسس جديدة ، تكفل النمو الوطني الخاص للفلسطينيين هنـاك ، وتكفل الحد من سياسات النظام الاردني لمصادرة وتبديد الهوية الوطنية للشعب الفلسطيني .

النظام الاردني والنهوض الوطني الفلسطيني

لقد استمرت هذه السياسة بمظاهرها وأشكالها المذكورة أعـلاه ، هي السياسة

السائدة للنظام الاردني تجاه الشعب الفلسطيني طيلة الفترة الممتدة من العام ١٩٤٨ ــ ١٩٦٧ ، ولا زال « النظام » يعمل على أساس مــن الوقائع التي أفرزتها هذه السياسات خلال هذه العشرين سنة ، بطرح نفسه كطرف أساسي في تقرير مستقبل الشعب الفلسطيني . ولذا فانــه اتخذ ــ منذ البداية ــ موقفــا عدائيا من ظاهرة النهوض الوطني الفلسطيني الخاص في بداية الستينات من هذا القرن ، هذه الظاهرة التي عبرت عن نفسها بظهور العديد من التنظيمات الفلسطينية التي طرحت موضوع دور الشعب الفلسطيني الخاص في معركة تحرير فلسطين ، ومارست الكفاح المسلح الفلسطيني ــ وان بشكله المحدود ــ لتأكيد هذا الدور . وقد جــاءت ولادة منظمة التحرير الفلسطينية بقرار من مؤتمر الملوك والرؤساء العرب في العام ١٩٦٤ ، تعبيرا عن هذه الظاهرة ، ومحاولة للالتفاف حولها منذ البداية قبل أن تستكمل شروط نموها الخاص والمستقل . لقد شكلت ولادة منظمة التحرير الفلسطينية بداية مرحلة جديدة في التاريخ الوطني الفلسطيني ، كانت سمتهــا العامة ، مــا ولده النهوض الوطني الفلسطيني من ضرورة احداث تغييرات في مواقف القوى المختلفة من قضية الشعب الفلسطيني . وحيث أن هذه المواقف كانت عرضة للتغيير على ضوء ما كان يشكله النهوض الوطني الفلسطيني من قدرة على الفعل والتأثير في مجرى الاحداث ، فاننا هنا نميز بين أربع فترات كان للنظام الاردني فيها مواقف متغايرة او متفاوتة ، على الصعيد التكتيكي ، في حين كانت تعمل بما يشبه الانسجام على الصعيد الاستراتيجي وضمن الخط السياسي العام « للنظام » في العمل علــى تكريس سياساته الالحاقية للضفة الغربية . وهذه الفترات هي ١٩٦٤ ــ الى حرب حزيران « يونيو » ١٩٦٧ ، ومن حرب العام ١٩٦٧ ــ تموز « يوليو » ١٩٧١ ، ومن ١٩٧١ الى حرب تشرين « أوكتوبر» ١٩٧٣ ، والرابعة من حرب ١٩٧٣ الى الآن .

أولا : الفترة من ١٩٦٤ ــ حرب العام ١٩٦٧ . ان أهم ما يميز هذه الفترة هو (١) موقف النظام الاردني العدائي تجاه بدايات العمل الفدائي الفلسطيني والتي اتخذت من الضفة الغربية مسرحا رئيسيا لنشاطاتها . وقد مرر « النظام » موقفه العدائي هذا ، تحت مظلة الموقف العربي الرسمي الذي كــان سائدا آنذاك ، والذي كــان يتعارض مع استراتيجية العمل الفدائي الفلسطيني ويعمل علــى احتوائه ضمن القيادة العربية الموحدة . (٢) الموقف المعارض الذي اتخذه « النظام » تجاه ممارسة منظمة التحرير الفلسطينية لدورها في تعبئة وتنظيم الفلسطينيين في الاردن ، ولو ضمن أبسط الاشكال التعبوية . في البداية كان « النظام » مجبرا على الموافقة على انشاء منظمــة التحرير الفلسطينية أمام اجماع الدول العربية على ذلك . ولكنه وقف بشدة ضد أن يشكل هذا الانشاء مقدمة لبلورة الشخصية الوطنية الفلسطينية . لقد سمح « النظام » بعقد اول مجلس وطني فلسطيني في القدس وبانشاء بعض المكاتب للمنظمة في القدس ، على أساس ان ممارسات المنظمة لن تتعدى هذه الاجراءات الشكلية ، وعلــى أساس ان يحول نشاطات المنظمة في خدمة سياساته باعتبار ما يدعيه من « أن الاردن بلد الحشد ومنطلق التحرير » . لقد وقف « النظام » بحزم ضد تسليح القرى الامامية ، وضد ادخال أية قوات من جيش التحرير الفلسطيني الى الاردن . كما وقف بحزم ضد أية نشاطات للمنظمة بين الجماهير الفلسطينية هناك ، لدرجة أنه قام في العام ١٩٦٦ باغلاق مكاتب المنظمة في القدس ، وشن حربا اعلامية شرسة ضد سياسات المنظمة ، موظفا لصالحه ، العديد من الثغرات التي كانت قائمة في بنية المنظمــة وممارسات قياداتها آنذاك .

لقد كشفت مواقف « النظام » هذه ، حقيقة مراميه واهدافه بشكل مبكر ، وأكدت بالملموس أن ابراز الشخصية الوطنية الفلسطينية يتناقض كليا مع واقع النظام الاردني وسياساته ، وان « النظام » لن يكون متهاونا أو مرنا فيما يتعلق بهذه المسألة ، وانه على استعداد لأن يمضي بعيدا في معركته ضد ابراز الشخصية الوطنية الفلسطينية ، وصيرورتها المعبرة والممثلة للشعب الفلسطيني في الاردن وخارجه .

الفترة من حرب العام ١٩٦٧ — الى معركة الاحراج في تموز ١٩٧١ . لقد شكلت هزيمة الجيوش العربية في حرب العـــام ١٩٦٧ ، الظرف السياسي المـــلائم للنهوض الوطني الفلسطيني ، وخروج ظاهرة الكفاح المسلح الفلسطيني الـــى حيز العلن . وبحكم اعتبارات عديدة ، شكل الاردن الساحـــة الرئيسية لهذا النهوض الوطني . لقد مكن الخلل الذي أصاب أجهزة القمع الاردنية بفعل الهزيمة ، ان تفلت الجماهير من اطار هذه الاجهزة ، وتعبر عن تطلعاتها في استكمال شروط نهوضها الوطني . في البداية حاول « النظام » ان يضع حدا لهذا الانفلات ، بدءا من محاولة التضييق على تحرك الفدائيين الداخلين الى الارض المحتلة ، وانتهاء بمحاولة توجيه ضربة سريعة لقواعد المقاومة في الاغوار كما جرى في ١٩٦٨/٢/١٠ . ولما لم تنجح محاولاته هذه ، انتظر أن تتم التصفية عبر العدو الصهيوني عندما شن هجمة قوية وشاملة ضد قواعد الفدائيين في الاغوار في معركة الكرامة في ١٩٦٨/٣/٢١ . وأمام فشل العدو الصهيوني في هجمته ، والنتائج السياسية التي ترتبت على معركة الكرامة ، وجد « النظام » نفسه مجبرا على تغيير تكتيكاته . فأبدى استعداده للتعاون مع المقاومة والتنسيق معها وطرح شعار « كلنا فدائيون » وذلك على أمل أن يتمكن من احتواء المقاومة ، او أن يأخذ فترة من الوقت ، بانتظار ظرف سياسي ملائم لتوجيه ضربة للمقاومة في الاردن . وكانت معارك ١٩٦٨/١١/٤ ، ١٩٧٠/٢/١٠ و ١٩٧٠/٦/٩ بمثابة مقدمات للهجمة الشاملة التي شنها علـــى المقاومة في الاردن في أيلول « سبتمبر » ١٩٧٠ . وعلى الرغم من أن « النظام » لم يحقق في هجمته هذه كامل أهدافه ، حيث استطاعت المقاومة الصمود والتصدي للهجمة ، الا أن « الهجمة » مكنته مـــن الامساك مجددا بزمام المبادرة السياسية والعسكرية ، فاستغل حالة التخبط السياسي التي سادت في أوساط قيادات المقاومة بعد أيلول ، لمتابعة هجمته بانهاء الوجود العلني لحركة المقاومة في الاردن ، بعد هجمته على ما تبقى من قواعد عسكرية للمقاومة في الاحراج في تموز « يوليو » ١٩٧١ .

الفترة من تموز « يوليو » ١٩٧١ — حرب تشرين « أوكتوبر » ١٩٧٣ . ان اهم ما تمتاز به هذه الفترة هو (١) قدرة « النظام » علـــى حسم الظاهرة العلنية لحركة المقاومة في الاردن لصالحه ، واجبارها على العودة الى العمل السري المحدود ، في ظل أجواء قمع قل أن شهدت الساحة الاردنية مثيلا لها . وقد نتج عن قدرة النظام هذه عدة نتائج منها ، ابتعاد المقاومة عن ميدان عملها الرئيسي داخل الارض المحتلة باقفال الحدود الاردنية أمامها ، واضطرارها ايضا الـــى أن تفقد وجودها المباشر والفاعل بين أكبر تجمع شعبي لها في الاردن . ومنها أيضا ، اضطرارها الى التراجع الى ساحات ، ليست بأهمية ساحة الاردن ، ويخضع وجودها فيها الى اعتبارات عديدة تحد من حرية حركتها السياسية والعسكرية . (٢) واستنادا على هذه النتائج ، فقد شعر النظام الاردني انه قادر على التصرف **منفردا** بتقرير مستقبل الضفة الغربية. فطرح ما يسمى مشروع المملكة العربية المتحدة ، وسعى تحت مظلة هـــذا المشروع لعقد تسوية منفردة مع العدو الاسرائيلي ، ضاربا عرض الحائط بعلاقاته مع العديد

من الدول العربية . ولكن محاولات « النظام » هذه اصطدمت بثلاث عقبات رئيسية ، هي (أ) قدرة المقاومة الفلسطينية على الصمود في وجه مخططات « النظام » بتأكيد قدرتها على الفعل والحركة علـى الرغم من جراح ايلول . (ب) الموقف العربي العام الذي كـان سائدا آنذاك ، والذي لم يكـن مهيئـا لاستيعاب محاولـة الملك هذه وامتصاصها . فمحاولات الوصول الى تسوية مـع العدو الاسرائيلي كانت لا تزال تراوح مكانها أمام التعنت الاسرائيلي ـ الاميركي . وعليه فقد واجهت محاولة الملك الهاشمي موقفا عربيا عاما معارضا لها ، ممـا جعل النظام الاردني يعيش في عزلة عربية خانقة (جـ) تخوف اسرائيل مـن أن لا يصمد النظام الاردني ـ في ظل الظروف السياسية التي كانت سائدة آنذاك ـ أمام ردود الفعل التي ستنجم عن عقد تسوية منفردة معه فيما يتعلق بالضفة الغربية المحتلة . اضافة الى أن اسرائيل كانت تدرك ان كسر الموقف العربي من طبيعة التسوية وشروطها لا يتم عبر الاردن الذي يمثل الحلقة الأضعف ـ في هذه الناحية ـ من حلقـات الانظمة العربية المعنيـة مباشرة بالتسوية ، بحكم الدور التاريخي الخياني « للنظام » من القضية الفلسطينية ، بل تتم عبر مصر التي تعتبر مركز الثقل الأساسي في القوى العربية التي تواجهها . فاذا تم كسر الموقف المصري ، فان الموقف العربي برمته ينفرط ـ حسب اعتقاد اسرائيل ـ . هذا اضافة الـى أن النظام الاردني لم يكن يملك القدرة الكافية على القبول بالشروط الاسرائيلية التي كانت تطرحها آنذاك لعقد تسوية منفردة معه في ظل موقف عربي عام معارض له ، وفي ظل موقف عربي عام يغلب احتمالات الحرب على احتمالات التسوية .

لقد تأكد الملك قبيل حرب تشرين بأشهر قليلة ، ان محاولته للانفراد بالتسوية تسير في طريق مسدود . ولذا أخذ يعمل على الخروج من عزلته العربية والعودة الى السير في الاتجاه العربي العام نحو التسوية . وقد لاقى توجه الملك هذا نجاحا نسبيا في ظل الاتفاق المصري ـ السوري غـير المعلن لخوض حـرب محدودة ضد اسرائيل . وانسجاما مع هذه السياسة الجديدة للنظام الاردني ، تم اطلاق سراح غالبية الفدائيين المعتقلين في الاردن في ١٩٧٣/٩/١٩ ، وبرزت على السطح مجددا بعض المحاولات العربية لخلق أرضية جديدة من التفاهم بين « النظام » ومنظمة التحرير الفلسطينية . الا ان اندلاع الحرب في السادس مـن تشرين « أوكتوبر » ١٩٧٣ ، قـد أوقف هذه المحاولات مؤقتا ، لتتجدد بعد الحرب متأثرة بالمعطيات الجديدة التـي ولدتها حرب تشرين .

الفترة من حرب تشرين « أوكتوبر » ١٩٧٣ الى الآن . لقد كان من جملة المعطيات الأساسية التي تولدت عن حرب تشرين ، هي خلق امكانات قوية لقطع خطوات عملية باتجاه تسوية الصراع مع العدو الاسرائيلي على أرضية النتائج التي أفرزتها حرب العام ١٩٦٧ ، وما استتبع ذلك من ضرورة لايجاد « تسوية ما » للقضية الفلسطينية . لقد أدى هذا المعطى الجديد الـى طرح مسألة تقرير مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة على بساط البحث ، وبشكل أقوى من أية فترة مضت . ان طرح هذه المسألة على بساط البحـث الجدي اقتضى تحديد دور الاطراف ذات العلاقـة بتقرير هذه المسألة ، واذا استثنينا أطراف العلاقة غير المباشرة ، وكذلك الدول العربية المعنية مباشرة بالمسألة ، فانه لا يبقى أمامنا الا النظام الاردني ومنظمة التحرير الفلسطينية . فالنظام الاردني يعتبر نفسه معنيا مباشرة بهذه المسألة ، بحكم أن الضفة الغربية كانت جزءا أساسيا من مملكته قبل حرب العام ١٩٦٧ ، وان الفلسطينيين المقيمين في الاردن يعتبرون رعايا أردنيين ، وبحكم انه الطرف المخاطب والمعني بقرار مجلس الامن رقم

٢٤٢ الذي اعتمد كأساس للتسوية . في حين أن م.ت.ف رفضت هذه الادعاءات ، واعتبرت أنها الوحيدة المعنية مباشرة بتقرير مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة أو أية أراض فلسطينية ينسحب منهـا العدو الاسرائيلي ، بحكم انهـا قيادة الشعب الفلسطيني والممثلة الشرعية والوحيدة له ولطموحاته الوطنية . وبحكم أن النهوض الوطني الفلسطيني كما تجلى بعد العام ١٩٦٧ ، قد وضع حدا نهائيا لادعاءات النظام الاردني في اعادة الحاق الضفة الغربية به .

لقد كان على النظام الاردني بعد حرب تشرين ، أن يواجه الواقع الجديد الذي مثله النهوض الوطني الفلسطيني ، هذا الواقع الذي أمسى حقيقة أكيدة فرضت نفسها على كل المحاولات التي كانت تجري للوصول الى « تسوية ما » مع العدو الاسرائيلي. ولقد كان « النظام » في مواجهة هذا الواقع أمام خيارين : **امـا** الانسحاب نهائيا من المسألة الفلسطينية ، والعودة الى حدود دولة شرق ـ أردنية ، مع كل ما يترتب على هذا الانسحاب وهـذه العودة ، من نتائـج سياسية واقتصادية واجتماعية . **واما** الاستمرار في سياساته السابقة والاصرار على ممارسة دور فلسطيني له . مع كل ما يترتب على ذلك من نتائج سياسية وغيرها .

بعد حرب تشرين مباشرة والى حين صدور قرارات مؤتمر القمة في الرباط ، والتي أكدت أن م.ت.ف هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ، استبعد « النظام » الخيار الاول من جدول أعماله ، وانتهج سياسات عدة بصدد بلورة امكانات الخيار الثاني ، وأخذ يتحرك على المستوى العربي والدولي لجعل هذا الخيار حقيقة واقعة وممكنة ، من خلال التلويح بأكثر من ورقة للضغط ، منها ، التهديد بالانسحاب من مؤتمر جنيف ، مما قد يؤدي الى نسف المؤتمر برمته ، ولا سيما انه لم تتبلور بعد أمكانات دعوة م.ت.ف للحضور الى المؤتمر كطرف مستقل ومفاوض باسم الشعب الفلسطيني ، ومنها ، أنـه لا يزال الطرف المقبول أميركيا واسرائيليا للتفاوض نيابة عن الفلسطينيين ، ولتقرير مستقبل الاراضي الفلسطينية التي ينسحب منهـا العدو الاسرائيلي ، وان الاصرار على ادخال المنظمة كطرف مفاوض سيثير حفيظة الاميركان والاسرائيليين وقد يعرقل محاولات الوصول الى تسوية .

وبناء على ذلك ، فقد طرح « النظام » أكثر من معادلة لخلق نوع من التوافق بين ما يبتغيه وبين ما تسعى اليه المنظمة . فطرح في البداية معادلة تقوم على أساس أن يفوض النظام الاردني عربيا وفلسطينيا بالعمل على استرجاع الضفة الغربية ، على أن يجري بعد ذلك استفتاء بين السكـان الفلسطينيين يخيرون بين العودة الى المملكة الاردنية كالسابق ، أو الاتحاد الفدرالي بين الضفتين ، أو قيام كيان فلسطيني مستقل . ولما لم تجد هذه المعادلة أو هذا الطرح قبولا فقد طرح معادلة أخرى تقوم علـى **اقتسام** تمثيل الشعب الفلسطيني بين المنظمة و « النظام » على أساس أن يمثل « النظام » فلسطينيي الضفـة الغربية والضفـة الشرقية ، أي الفلسطينيون المعتبرون رعايا أردنيين ، وأن تمثل المنظمة بقية الفلسطينيين . وبناء على هذه المعادلة يتم التفاهم بين المنظمة و « النظام » على تشكيل وفد أردني ـ فلسطيني موحد لحضور مؤتمر جنيف والبحث في مسألـة تقرير مستقبل الضفـة الغربية وقطاع غزة . لقد اصطدمت محاولات « النظام » لاقتسام تمثيل الشعب الفلسطيني بمعارضة قوية من م.ت.ف ، على الرغم من قدرة « النظام » على انتزاع موافقة مصر على مثـل هذا الاقتسام كما ظهر في بيـان الاسكندرية الاردنـي ـ المصري ، الـذي صدر بتاريخ ١٩٧٤/٧/١٨ ، والذي سلمت فيـه مصر للأردن بتمثيل فلسطيني « المملكة الاردنية

الهاشمية » . لقد اثار صدور بيان الاسكندرية معارضة قوية من أوسع الجماهير الفلسطينية والعربية ، عبرت عن نفسها بامكانية الحصول على قرار مضاد له ، في مؤتمر الرباط « أوكتوبر ١٩٧٤ » الذي أكد شرعية ووحدانية تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية للشعب الفلسطيني .

النظام الاردني يقذف بسلاح « الاردنة » في وجه قرارات الرباط

لم يكن أمام النظام الاردني بعد قرارات الرباط الا العودة — ولو تكتيكيا — الى الخيار الاول — الانسحاب من المسألة الفلسطينية — للضغط على الانظمة العربية واجبارها على التراجع عن قرارات الرباط . فأعلن التزامه بهذه القرارات ، وانه بناء على هذا الالتزام ، لن يحضر مؤتمر جنيف ، وانه سيقوم بعدد من الاجراءات الداخلية « لأردنة » الاردن . وأتبع هذا الاعلان ، بتعديل المادتين ٣٤ و ٧٣ من الدستور الاردني، وحل مجلس النواب على أساس أن يجري انتخاب مجلس نيابي شرق — أردني جديد بعد سنة ، وباحالة عدد من الموظفين الكبار — من أصل فلسطيني — على التقاعد ، وهدد المنظمة بأنه سيغرقها بالعديد من الاشكالات الادارية عن طريق اجراء استفتاء بين الفلسطينيين في الاردن ، ليختاروا بين الابقاء على تابعيتهم الاردنية وان يكونوا مواطنين أردنيين ، أو الوقوف الى جانب منظمة التحرير الفلسطينية مع ما يترتب على ذلك من معاملتهم كأجانب وانتزاع جنسياتهم الاردنية منهم .

لقد كان للسرعة التي اتسمت بها حركة « النظام » باتجاه تطبيق سياسة الاردنة ، ثم ما رافق هذه الحركة من بروز ملحوظ للاتجاه السياسي الاردني الذي كان يطالب بالانسحاب من المسألة الفلسطينية والعودة الى دولة شرق — أردنية* ، أثر كبير في اشاعة جو واهم أن الاردن ماض بسياسة « الاردنة » الى نهايتها ، وانه اذا ما استمر بهذه السياسة ، فانه سيفرض على المنظمة مواجهة العديد من الاشكالات السياسية والادارية قبل أن تتهيأ لها . وعليه فقد أصدرت اللجنة التنفيذية لـ م.ت.ف بيانا عارضت فيه توجهات النظام الاردني نحو الاردنة ، وأكدت أنها « ستتخذ الخطوات التي تكفل صيانة قرارات الرباط وتنفيذها (٨) » .

ولكن ، هل كان « النظام » جادا في تنفيذ سياسة الاردنة ، أم انه طرحها كمناورة تكتيكية وكسلاح تهديدي فقط ، للالتفاف على قرارات الرباط والضغط على الدول العربية كي تعود الى اطار المعادلة السابقة « المنظمة والنظام مسؤولان عن تقرير مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة » والبحث عن أرضيــة للتوازن بين دوره ودور المنظمة في هذه المسألة ؟ .

لقد كان واضحا منذ البداية ، أن سياسة الاردنة لم تكن الا مناورة تكتيكية وسلاحا تهديديا رفعه النظام الاردني في وجه الدول العربية للخروج من دائرة الالتزام بقرارات الرباط (٩) ، وذلك للاعتبارات التالية : ١ — ان أهمية النظام الاردني ، دوليا وعربيا ، هي — الى حد كبير — وليدة دوره الفلسطيني ، وفي الوقت الذي ينتهي فيه هذا الدور ، فانه سيفقد كثيرا من أهميته هذه . ولقد كانت هذه حجــة الملك في مواجهة المجموعة القليلة من الاردنيين الذين طالبوا بانسحاب الاردن من المسألة الفلسطينية والانكفاء

---

* كان أنصار هذا الاتجاه يلتفون حول الامير حسن ، وبعض الشخصيات الاردنية المعروفة بأنها من جماعة وصفي التل .

على نفسه كدولة شرق — اردنية . ٢ — ان كون معظم القوى المنتجة في الاردن من عمال ومزارعين وعاملين في قطاع الخدمات ، هي فلسطينية نتيجـة سياسة النظام الاردني في تقسيم العمل بين الفلسطينيين والشرق اردنيين** ، يجعل من الصعب جدا على « النظام » أن يقدم على اجراء عملية فرز واسعة بين فلسطيني وشرق أردني ، لأنه بذلك يحدث اكبر خلل في بنيته الاقتصادية ويعرض وضعه الاقتصادي الانهيار الكامل ، اضافة الى ان البورجوازية الفلسطينية تعتبر أقوى وانشط من البورجوازية الشرق — أردنية وتسيطر على القسم الأعظم من الاقتصاد الاردني . وعليه فان « النظام » سيكون حريصا أن لا يشعر البورجوازية الفلسطينية بخوف يشل تحركها الاقتصادي . ٣ — ان اجراء عملية فرز واسعة ، ستعني في جملة ما تعنيه تسريح الفلسطينيين في الجيش الاردني ، والذين يشكلون نسبة الثلث تقريبا — « حوالي ٢٥ الف جندي وضابط » وتسريح مثل هذا العدد دفعة واحدة ، سيخلق ارباكا اقتصاديا واجتماعيا للنظام ، لن يكون قادرا على مواجهته بسهولة وخلال فترة زمنية قصيرة . ٤ — لقد شكلت الضفة الغربية منطقة استغلال اقتصادي مثلى للحكم الاردني ، مما يجعل من عملية تخليه عن الضفة الغربية ، عملية ليست صعبة ، وتؤثر — الى حد كبير — على وضع النظام الاردني فقط ، بل وعملية لا يمكن القبول بها وبنتائجها الا بعد أن يستنفد « النظام » كل الوسائل الممكنة للحفاظ على علاقاته مع الضفة الغربية .

استنادا الى كل هذه العوامل ، فقد كانت حركة النظام الاردني نحو تنفيذ سياسة الاردنة حركة محدودة جدا ، رسمها بدقة وعناية لخدمة غاياته التكتيكية في المساومة على تأكيد دور فلسطيني له فيما يتعلق بتقرير مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة ، عبر العمل على ايجاد نوع من التوازن بين دوره ودور المنظمة ، على أرضية اقتسام تمثيل الشعب الفلسطيني . ولو كان « النظام » جادا في تنفيذ سياسة الاردنة ، لتوسع باجراءات الاردنة ، بالعمل على احداث تغييرات واسعة في بنيته الاقتصادية والاجتماعية ، تسمح باعادة بناء هيكليته الاقتصادية والسياسية على أسس جديدة . ان استقراء الاحداث منذ صدور قرارات الرباط حتى الآن ، يؤكد أن النظام الاردني لن يلجأ الى التنفيذ الجاد لسياسة الاردنة ، الا اذا وصل الى قناعة تامة ، بأنه لم يعد أمامه من خيار الا الانسحاب نهائيا من المسألة الفلسطينية ، وحتى الآن لم يصل « النظام» الى مثل هذه القناعة ، بدليل استمراره في سياساته السابقة ، بالعمل على اقتسام تمثيل الشعب الفلسطيني مع المنظمة . ان سياسة اقتسام التمثيل هذه ، هي السياسة التي يتحرك على أساسها النظام الاردني الآن ، وهي التي تفسر — الى حد كبير — مجمل حركته على الصعيدين العربي والدولي ، اضافة الى أنها تفسر أيضا محاولاته لايجاد نوع من المصالحة أو التفاهم مع منظمة التحرير الفلسطينية . وتكتسب حركة « النظام » بهذا المجال أهمية وخطورة خاصتين ، لأنها تأتي في ظل مجموعة من المعطيات التي يحاول « النظام » توظيفها في خدمة سياساته هذه . من هذه المعطيات ، اعتبار الاردن أنه الطرف المعني بقراري مجلس الأمن ٢٤٢ و ٣٣٨ ، بحكم ان الضفة الغربية كانت جزءا منه قبل حرب العام ١٩٦٧ . ومنها ، أن الموقف الاسرائيلي —

** لقد كانت السياسة الاقتصادية للنظام الاردني — ما بعد عملية الالحاق — تقوم على الاعتبارات الأمنية . ولذلك فقد جعل « النظام » من الجيش وأجهزة الامن والادارات المختلفة المجال الاساسي لاستيعاب القوى المنتجة الشرق — أردنية ، في حين كانت أغلبية العمال والمزارعين وعمال الخدمات من الفلسطينيين . لقد ساهمت هذه السياسة الاردنية في احداث شق عامودي بين الفلسطينيين والشرق الاردنيين ، وجعلت الغالبية العظمى من الشرق أردنيين مرتبطين اقتصاديا بالنظام ويشاركون معه في نهب فائض انتاج عمل الفلسطينيين . كما جعلتهم يشكلون المادة البشرية الاساسية لأجهزة ومؤسسات القمع الاردنية .

الاميركي لا زال يراهن على الدور الاردني الخاص والأساسي في تقرير مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة ، ومنهـا التعارضات التـي تبدو في الموقف العربي العام بصدد التسوية ، مما يعطيه مجالا أوسع للحركة وتوظيف هذه التعارضات لصالحه . ومنها ايضا ، **ادراك « النظام » أن الكيان الفلسطيني الذي سينشأ في الضفة الغربية وقطاع غزة ، سيظل محكوما بضرورة ايجاد علاقات أوسع من علاقات حسن الجوار مع الحكم في الضفة الشرقية ، بحكم أن الضفة الشرقية ستشكل المجال الحيوي للكيان الفلسطيني المنوي انشاؤه . وهـي ضرورة سيظل النظام الاردني يراهن عليها لجعل علاقاته مع الكيان الفلسطيني تندرج منذ بدايتها في اطار علاقات الاتحاد الكونفدرالي او الفدرالي أو عودة — ولو معدلة — لصيغة مشروع المملكة العربية المتحدة .** أضافة لذلك ، فان النظام الاردني يتحرك على أساس أنه لم يفقد كامل دوره في استراتيجية الأمن الاميركية في المنطقة ، ذلك انه على الرغم مـن أن الولايات المتحدة وسعت اطار علاقاتها مع العديد من الانظمة العربيـة بعد حرب تشرين ، وأقـامت مرتكزات جديدة وأساسية لوجودها ، فان النظام الاردني لا زال يشكل احدى المرتكزات الهـامة في استراتيجية الأمن الاميركية في المنطقة ، سواء فيمـا يتعلق بضرورة مواجهـة الوضع الفلسطيني واحتمالات تطوره مستقبلا ، أو فيما يتعلق بالدور القمعي الذي لعبه — ولا زال يلعبه — النظام الاردني ضد الحركات الوطنية في المنطقة العربية .

المشروع الاسرائيلي لايجاد مـا يسمى بالحكم المدنـي الذاتي ، الـى جانب هذه المعطيات ، فان توجهات السلطات الاسرائيلية المحتلة لايجاد ما يسمى بالحكم المدني الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، يشكل احدى المعطيات الاساسية والهامة ، التي ستصب في طاحونة السياسات الاردنية نحو اقتسام التمثيل السياسي للشعب الفلسطيني . فمما لا شك فيه أن الحكومة الاسرائيلية تحاول الالتفاف حول حقائق الوضع الفلسطيني ، بالالتقاء مع النظام الاردني باعتباره الجهة الممكن التفاوض معها لتقرير مستقبل الأراضي الفلسطينية التي قد تنسحب منهـا ، وكذلك بتنمية قيادات فلسطينية محلية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، تلتقي مـع حركة النظام الاردني ، وتشكل معه اطارا أردنيا — فلسطينيا يجري من خلاله البحث عـن حلول ومخارج للوضع الفلسطيني خارج اطار منظمـة التحرير الفلسطينية علـى أبعد تقدير ، أو باشراك هذين الطرفينمع المنظمة في البحث عن حلول على أقل تقدير ، مما يضعف من قدرة المنظمة على الحكم — منفردة — بتقرير مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة ، ومحتوى السلطة التي ستنشأ عليهما .

ويضع النظام الاردني في اعتباره هذه النتائج الممكنـة للتوجهات الاسرائيلية نحو ايجاد ما يسمى بالحكم المدنـي الذاتي في الضفـة الغربية وقطاع غزة عبر اجراء انتخابات جديدة للمجالس البلديـة والقروية هنـاك . ولذلك أوقف معارضته لهذه الانتخابات التي قامت بها السلطات الاسرائيلية المحتلة في العام ١٩٧٢ بناء على مذكرة رفعها الى الملك حسين الدكتور فيصل كنعان ، بين له فيها مخاطر المعارضة الاردنية للانتخابات على سياسات « النظام » الفلسطينية (١٠) . وعليه فقد اتخذ « النظام » سياسة الصمت على ما تقوم به السلطات الاسرائيلية المحتلة بهذا الخصوص ، مع تقديم الرشاوي والدعـم السياسي للأشخـاص المحسوبين عليـه هناك ، لخوض الانتخابات . وقد تابع النظام الاردني هذه السياسة بصدد الانتخابات الحالية ، على أساس ما يراه من أن المجالس البلدية والقروية الجديدة ، قد تشكل الارضية التي سيلتقي عليها مع العدو الاسرائيلي لتقرير مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة . أو

على أساس ما يراه من أن هذه المجالس ستشكل مستقبلا احدى الأطر الفلسطينية التي سيتصارع هو والمنظمة على كسب ولاءاتها ، وعلى تحديد ، لمصلحة من ستصب مواقفها في النهاية لدى دخول مسألة تقرير مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة مرحلة التنفيذ العملي .

ولهذا فان انتخابات المجالس البلدية والقروية الحالية ، تكتسب خطورة اكبر من تلك التي تمت في العام ١٩٧٢ . ذلك انه على الرغم من أن الانتخابات السابقة جاءت ضمن المحاولات الاسرائيلية لاحتــواء الموضوع الفلسطينــي في المشروع الاسرائيلي لمستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة ، فان الظروف السياسية التي جرت فيها اعادة تشكيل هذه المجالس ، أبقاها ضمن محاولات الاستكشاف ولم تسمح لها بالتطور الى أبعد من ذلك، في حين أن اعادة تشكيل المجالس البلدية في هـــذه الفترة تأتي ضمن ظروف سياسية جديدة ، يقف على رأسها وفي طليعتها ، ليس فقط ، جدية التوجه الاسرائيلي في ايجاد اطار بديل أو موازن لمنظمة التحرير الفلسطينية ، بل وأيضا ، كون هذه الانتخابات تتم في ظل الامكانات العملية التي قامت بعد حرب تشرين لتسوية الصراع مع العدو الاسرائيلي ، هذه التسوية التي يشكل حل الموضوع الفلسطيني أحد أهم بنودها . ومن هنـــا فان الموقف من هـــذه الانتخابات ، يجب أن يقوم على الاعتبارات الستراتيجية وليس الاعتبارات التكتيكية المحضة . ان سياسة الاعتصام بالصمت على ما يجري بهذا الخصوص ، ودعم بعض العناصر غير الملوثة بوطنيتها لخوض الانتخابات الحالية ، سياسة تنم عن رؤيا تكتيكية لا تستشف البعد الاستراتيجي لمخاطىء امكانية تكريس المجالس المنتخبة كاطار لقيـــادة فلسطينية محليـــة ، يجري الصراع على كسب ولاءاتها من قبل المنظمة والنظام الاردني ، ومن قبل أطراف عربية ودولية ، قد تجد من مصلحتها تنمية ودعم اطـــار بديل أو موازن لمنظمـــة التحرير الفلسطينية .

ان مجموعة المعطيات القائمة محليا وعربيا ودوليا ، تجعل بالامكان التأكيد على أن النظام الاردني ، لا زال يراهن على أن له دورا فلسطينيا لم يجر نفيه على الرغم من صدور قرارات الرباط ، ولا ينتظر أن يتخلـــى « النظام » عن المراهنة على هذا الدور خلال المرحلة القادمـــة ، وبالتالي فان احتمالات لجوء « النظام » الـــى خيار الانسحاب من المسألة الفلسطينية ، احتمالات ضعيفـــة جدا . وعليه ، فان عودة « النظام » الى سياسة القذف بسياسة الاردنة على المسرح في المرحلة القادمة أمام نمو معطيات جديدة ، لن تخرج عن كونها مناورة تكتيكية ، لن يستطيع اكسابها بعدا استراتيجيا . اضافة ، الى أن عودة « النظام » الى القذف بهذه السياسة من جديد في وجه المنظمة ، يجب أن تقابل بالتحدي الكامل له على المضي في هذه السياسة الى مداها الكامل حتى تكتسب بعدها الاستراتيجي ، لأن احدى النتائج الاساسية لتنفيذ « النظام » الـــى القذف بسياسة الاردنة علـــى المسرح في المرحلـــة القادمـــة أمام الدستورية والسياسية التـــي يستند عليهـــا في ادعاءاتـــه لتمثيل القسم الاكبر من الفلسطينيين . ان اضطرار « النظام » الى اجراء عملية فرز شرق أردني — فلسطيني على الساحة الاردنية ، اضافة الى انها سياسة أكبر من قدرة «النظام» على استيعابها وامتصاص نتائجها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فانها ستشكل سلاحا يرتد الى صدره ، يهدم كل مكونات وجوده القائمة حاليا ، ويجعل من سياسة الانكفاء نحو دولة شرق — أردنية ، هي السياسة الممكنة والخيار الوحيد الذي يظل مفتوحا أمامه . وهو خيار لن يحشر « النظام » نفسه في اطاره ، طالما أنـــه لا زال يعتقد ان هناك امكانات لاقتسام التمثيل السياسي للشعب الفلسطيني .

١ — Alec Kirkbride , A Crackle Of Thorns , (London 1965) P. 19

٢ — انظر مراد ، عباس **الدور السياسي للجيش الاردني** ، ص ٢٤ — ٣٦ .

٣ — أنظر مقالنا حول القانون في الأردن ، **السفير** بتاريخ ١٩٧٥/٤/٥ .

٤ — انظر سخنيني ، عصام ، ضم فلسطين الى شرق الاردن ١٩٤٨ — ١٩٥٠ ، **شؤون فلسطينية** ، العدد ٤٠ ص ٥٦ .

٥ — **المصدر نفسه** ص ٥٦ .

٦ — **المصدر نفسه** ص ٥٦ .

٧ — سخنيني ، عصام ، **المصدر السابق** ص ٦٠ .

٨ — أنظر بيان اللجنة التنفيذية بهذا الخصوص ، **النهار** ١٩٧٤/١١/٢٥ .

٩ — أنظر مقالي ، قرارات الرباط الفلسطينية ومناورات النظام الاردني ، **الى الامام** ٧٤/١١/١٥ ، وكذلك مقالي ، سياسة الاردنة سلاح للتهديد أم للتنفيذ ، **الى الامام** ١٩٧٥/١/٢٤ .

١٠ — د. حمود ، سعيد ، انتخابات المجالس البلدية في الضفة الغربية المحتلة **شؤون فلسطينية** ، العدد « ٨ » ص ١٠ .

اليهود الاسرائيليون المعادون للصهيونية

شارلز غلاس

روى موشيه دايان في خطاب ألقاه في الضباط المتخرجين من كلية الاركان والقيادة في الجيش الاسرائيلي في العام ١٩٦٨ قصة الدكتور آرثر ربين الذي أدار الاستيطان اليهودي في فلسطين منذ العام ١٩٢٠ ، وهو العام الذي عاد فيه الى فلسطين بعد أن قضى اثنتي عشرة سنة في المنفى بأمر من السلطات العثمانية . وكان الدكتور ربين في أثناء غيابه عن فلسطين أحد الصهيونيين القلائل الذين سعوا سعيا جديا للاجابة عن « المسألة العربية » .

وقال دايان للضباط الشبان : « لقد كان الدكتور ربين من معتنقي مبدأ الانسانية بطبيعته وصاحب ضمير ، وعندما واجه (المسألة العربية) أراد أن يقتنع بأنه من الممكن تحقيق الصهيونية بدون الاضرار بعرب فلسطين » (١) . وفي شهر أيار من العام ١٩١١ اقترح « في رسالة الى الهيئة التنفيذية الصهيونية ، انتقالا سكانيا محدودا » للعرب الفلسطينيين الى أراض أخرى قرب حلب وحمص نتيجة فقدانهم أرضهم نتيجة شراء الاراضي بواسطة اليهود . « ولكن هذا (الاقتراح) لقي اعتراضا نقضيا لأنه كان لا بد له من أن يزيد من شكوك العرب بشأن النوايا الصهيونية » (٢) . واقترح في العام ١٩١٤ ان يخصص جزء من جميع الاراضي التي حصل عليها اليهود في فلسطين للمستأجرين العرب (٣) . وفيما كان ربين ينوي تماما استعمار فلسطين ، الا أنه كان ينوي عدم القيام بذلك دون الاخذ بعين الاعتبار مشاعر السكان الاصليين .

ولكن جواب ربين عن « المسألة العربية » مر ، على حد تعبير دايان أمام الضباط ، في مراحل ثلاث : ١ — في العام ١٩٢٣ كان يأمل بدمج المهاجرين اليهود في نسيج المشرق العربي . ٢ — وفي العام ١٩٢٥ كان يفضل اقامة دولة واحدة في فلسطين تكون « دولة ثنائية القومية » اذ أدرك الفروقات بين المهاجرين اليهود الأوروبيين وأبناء عمومتهم الساميين سكان البلاد الاصليين . ٣ — ومع مقدم العام ١٩٣٦ ، أولى السنوات الثلاث التي شهدت مقاومة عربية قوية ومثيرة ضد الهجرة اليهودية والاحتلال البريطاني ، استنتج ربين أن مصيرنا ان نكون في حالة حرب مستمرة مع العرب » (٤) .

وذكّر دايان الجيل الجديد من الضباط الاسرائيليين أنهم قد ورثوا هذا المصير وان الحرب المستمرة شرط ضروري لوجود الدولة التي ساعد ربين على خلقها وحارب دايان نفسه من أجل توسيعها .

ولم يكن موقف الدكتور ربين من « المسألة العربية » بأي شكل من الاشكال موقفا عاما شاملا في أوساط معتنقي مبدأ الانسانية من اليهود في فلسطين قبل العام ١٩٤٨ .

وقد رفض الدكتور يهودا مغنيس ، أول رئيس للجامعة العبرية في القدس ، تصور ربين للمصير اليهودي في فلسطين . كما قال الدكتور مغنيس قبيل اعلان قيام اسرائيل : « اذا لم أكن مع اقامة دولة يهودية فالسبب يرجع فقط الى ما قلته وهو : أنني لا أريد حربا مع العالم العربي » (٥) . وأدرك مغنيس ، مثله في ذلك مثل ربين ، ان الهدف في خلق دولة يهودية لا يمكن تحقيقه بدون الاضرار بعرب فلسطين . ومثل ربين ايضا ، فهم مغنيس ان المغامرة الصهيونية اليهودية تؤدي الى الحرب . واختار ربين الدولة اليهودية وقبل الحرب ، أما مغنيس فلم يقبل الحرب ورفض الدولة اليهودية . وكما حذر الزعيم الصهيوني المرتد فلاديمير جابوتنسكي منذ العام ١٩٢٢ ، فانه لم تكن هناك امكانية في التوصل الى مساومة (٦) .

وبعد مضي سبع وعشرين سنة شهدت أربع حروب منذ قيام الدولة اليهودية لا تزال الخيارات السياسية أمام اليهود في فلسطين كما كانت بالنسبة الى آرثر ربين ويهودا مغنيس . وان المسائل التي تضطر اليهود الاسرائيليين لتحديد موقفهم تجاه الصهيونية والدولة اليهودية ليست محصورة « بالمسألة العربية » .

وتشهد أوساط اليهود الاسرائيليين ثلاثة انتقادات رئيسية معادية للصهيونية صادرة عن : ١ ــ اليهود المتدينون ٢ ــ اليسار السياسي ٣ ــ معتنقو مبدأ الانسانية أمثال الدكتور مغنيس . وعلى الرغم من أن نسبة المعادين للصهيونية تقدر بما لا يفوق الثمانية بالمئة من يهود اسرائيل ، الا أن هؤلاء يمثلون خمسين بالمئة في النقاش البارز الوحيد في البلاد (٧) .

وقد عارض اليهود الاورثوذكسيون الصهيونية على أسس دينية منذ بدايات الصهيونية في القرن التاسع عشر في كتابات موسى هس وليو بنسكر وتيودور هرتزل (٨) . واليهود المعادون للصهيونية على أسس دينية كانوا يرفضون آنذاك كما يرفضون اليوم الحجة الصهيونية القائلة بأن اليهود يؤلفون أمة . وقد عبّر زعيم ديني يهودي معاد للصهيونية عن رأيه بقوله : « لا يوجد في القانون اليهودي قومية يهودية » .

وقال الحاخام سامسون روفائيل هيرش ، الزعيم الروحي لليهود الاورثوذكسيين في القرن التاسع عشر في فرانكفورت في ألمانية بأن تنشيط الهجرة اليهودية الى فلسطين تنشيطا فعليا يعتبر خطيئة (١٠) . وفي العام ١٨٩٨ كتب حاخام بريسك الاورثوذكسي جورف حاييم سوننفيلد يقول بأن الصهيونيين قد « أعلنوا رأيهم القائل بأن مجمل الفرق والتمييز بين اسرائيل والأمم يكمن في القومية والدم والعرق ، وان الايمان والدين هما أمران لا حاجة لهما ... والدكتور هرتزل ليس قادما من عند الرب بل من جهة الفساد » (١١) . وقد استخدم الحاخام سوننفيلد عادة كلمات « أشرار ووحوش » للدلالة على الصهيونيين (١٢) .

ولا تزال توجد جيوب كبيرة مقاومة للصهيونية مع ان هرتزل والصهيونيين اللاحقين كسبوا جزءا كبيرا من معركتهم في حمل اليهود الاورثوذكسيين على اعتناق الصهيونية ، ومع أن الحزب الديني القومي يمثل جسما مهما من المؤيدين للصهيونية في أوساط اليهود الاورثوذكسيين في اسرائيل . وتحافظ جماعة نتوري كارتا (حراس المدينة) على المقاومة الشرسة الاولى من قبل اليهود الاورثوذكسيين ضد الصهيونية . وتقيم هذه الجماعة في مناطق واسعة في بني براك قرب تل أبيب وحي مي شعاريم في القدس . وقد لخص حاخام نتوري كارتا موشيه ليب ــ هيرش مدى مقاومة طائفته للصهيونية السياسية بقوله : « لن نقبل بدولة صهيونية حتى ولو قبل العرب بها » (١٣) .

وكان رجال نتوري كارتا ، هذه الطائفة الحسيدية الذين يطلقون لحاهم ويضعون حليقات في آذانهم ، أوائل اليهود الذين انتقلوا خارج اسوار القدس في القرن التاسع عشر . وقد نظروا مثل العرب نظرة ريبة وشك الى موجة الهجرة اليهودية الاولى في ثمانينات القرن التاسع عشر . وفي سبيل مقاومتهم للمستوطنين الصهيونيين تلقوا بعض العون من أغودات يسرائيل وهي جماعة يهودية أورثوذكسية تأسست في العام ١٩١٢ في بلدان كثيرة (١٤) . وقد احتج أعضاء هاتين الجماعتين لدى سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين على المزاعم الصهيونية بتمثيل اليهود . وقد قتل ارهابيون سريون من الهاغاناه أحد أعضاء اللجنة التنفيذية في أغودات يسرائيل في العام ١٩٢٤ (١٥) .

وحاول اليهود الاورثوذكسيون في القدس في السنوات التي تلت تصريح بلفور كسب دعم العرب لهم ضد السيطرة الصهيونية على يهود فلسطين . الا ان اليهود الحسيديين وقعوا ضحايا الى جانب الصهيونيين الذين سقطوا نتيجة المقاومة العربية العنيفة للاستعمار الصهيوني في فلسطين في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن . وقد أدى ذلك الى جانب عدم مشاركة الحسيديين التقليدية في السياسة ، الى الحؤول دون قيام جبهة مشتركة في فلسطين بين العرب واليهود الاورثوذكسيين .

وقد رفض أعضاء نتوري كارتا منذ العام ١٩٤٨ أن يصبحوا مواطنين اسرائيليين . وقد هددتهم الحكومة بالغاء اعفاء طلاب المدارس الدينية من الخدمة العسكرية . الا ان هذا التهديد لم ينفذ قط . وطائفة نتوري كارتا لا تشكل عاملا من عوامل الحياة السياسية الاسرائيلية ، ولكن تمسك أعضائها الشديد بالشريعة اليهودية وتفانيهم للتقليد اليهودي ، اجتذب اليهم بعض اليهود الاسرائيليين الباحثين عن جذورهم الروحانية . ويقوم انتقاد نتوري كارتا للصهيونية ورفض الدولة اليهودية على أساس فهمهم لمعنى « اليهودي » :

« ولد الشعب اليهودي في أثناء تلقي الشريعة على جبل سيناء . وان شريعتنا تبين لنا كيف يجب أن نتصرف كيهود فيما بيننا وتجاه الأمم » . هذا ما أوضحه الحاخام أهارون كاتسينيلبوجن ، الزعيم الروحي لطائفة نتوري كارتا في القدس . ويضيف قائلا : « انها تبين لنا كيف يجب ان نعبد الرب . وان شريعتنا ليست مسألة طقوس وشعائر » (١٧) .

وتتألف الشريعة من ستمئة وثلاث عشرة وصية تحكم فعليا كل أوجه الحياة الدينية لليهود بدءا بطريقة العبادة وانتهاء بالطعام (١٨) . والحياة كلها بالنسبة الى نتوري كارتا هي عبارة عن تقوى وورع . والعيش وفقا للشريعة هو في نظرهم ما يجعلهم يهودا . والصهيونية بالنسبة لهم هي ارتداد ورجعة عن الدين ، لأنها بتوكيدها على الهوية القومية والعرقية لليهود تنسف أهمية الشريعة اليهودية . « فالشعب اليهودي يقوم فقط على الايمان بالرب وعلى تنفيذ الشريعة . وعندما يأتي الصهيونيون لجعل اليهود شعبا قوميا انما يلغون الايمان وضرورة الحفاظ على الشريعة » (١٩) .

وعندما يجعل البرنامج الصهيوني اليهود أمة كسائر الأمم ، بهدف جعل الحياة اليهودية حياة « عادية » ، فانه يسعى على المستوى الفردي ، أي الاندماج . وفي نظر نتوري كارتا فان دولة اسرائيل انما تدمر الحياة اليهودية عن طريق علمنتها .

ومن مركزه في يشيفا توراه فيرا (مدرسة دينية للتوراة والتقوى) في حي مي شيعاريم حيث يدرس التلمود يوميا يعرب الحاخام كاتسينيلبوجن عن أسفه لما يراه يحدث لليهود

المتدينين القادمين الى اسرائيل . « لقد أتى الصهيونيون باليهود من جميع إنحاء ارض الشتات — من المغرب وايران والجزائر واليمن حيث كان اليهود في جميع هذه الأماكن متدينين الى أن جعلهم الصهيونيون غير آبهين بالدين » . كما يعتقد هذا الحاخام بأن الصهيونيين بابعادهم اليهود المتدينين عن الشريعة انما « خرجوا من الشعب اليهودي لوضع نهاية للشعب اليهودي » .

وتصر نتوري كارتا على أن الحكومة الاسرائيلية لا تمثلهم ولا تمثل اليهودية ككل . وهي تريد ان تقيم جبهة مشتركة مع العرب الفلسطينيين ، هذه الارادة التي فاتتهم في العشرينات . ولدى الحاخام كاتسينيلبوجن ذكريات عزيزة عن الحياة اليهودية وسط عرب فلسطين في ظل العثمانيين ولكنه يوجه انتقادا واحدا للسياسة العربية هــو : « ان العرب لا يعرفون كيف يميزون بيننا وبين الصهيونيين . اننا نعاني في جميع هذه الحروب في الوقت الذي لا دور لنا في خلقها » .

وقد اقترح الحاخام موشيــه ليب — هيرش ، صهر الحاخام كاتسينيلبوجن ، أن تتفاوض نتوري كارتا مع منظمـــة التحرير الفلسطينية وأعرب عن تأييده لما يفهم أنه المقترحات الرئيسية الثـــلاث لياسر عرفات ، رئيس اللجنـــة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية وهي : « أ — اقامة دولة علمانية في أرض اسرائيل تتعايش فيهـــا جميع الأمم والاديان بمساواة ورفاقية ، ب — عندما تتحدث منظمة التحرير الفلسطينية عن الآمال الفلسطينية المستقبلية أنما تشمل جميع اليهود الذين يعيشون هنا اليوم والذين يريدون العيش مع العرب ، جـ — تميز منظمة التحرير الفلسطينية بين الديانة اليهودية والصهيونية » (٢٠) .

واضاف الحاخام ليب — هيرش : « اننا نعتقد بأن هناك مجالا كافيا في أرض اسرائيل لكلا الشعبين ولكن لا مجال فيها للصهيونية السياسية » (٢١) .

وفي الوقت الذي يؤيد فيه اليسار اليهودي الاسرائيلي المعـــادي للصهيونية هدف نتوري كارتا في اقامة « دولة علمانية في أرض اسرائيل » يقوم نقد هذا اليسار على أساس تقليد سياسي لعب اليهود فيه دورا رئيسيا ، أكثر مما يقوم على التقليد الديني اليهودي كما هي الحـــال بالنسبة الى نتوري كارتـــا . فقد كـــان كثيرون من أوائل المستوطنين الصهيونيين اشتراكيين علـــى الرغم من أنـــه في الصراع بين الاهداف الاجتماعية والوقائع العسكرية تخلـــى اليسار الصهيوني بثبـــات مستمر عن صفته الراديكالية لصالح الوقائـــع الجديدة من استيلاء علـــى الارض وطرد للسكان وغزو عسكري . وفي وجه أحزاب اليسار الصهيوني ، مثل المابام وماكي ، يستطيع اليسار المعادي للصهيونية ان يقول : « ان تصنيف الصهيونية الى (يمين) و (يسار) ، هو في الحقيقة أمر سطحي » (٢٢) .

وقد شهدت أيـــام الصهيونية الاولـــى توجـــه الاشتراكيين اليهود الـــى البوند (الاتحاد) (٢٣) والبلشفية بأعداد فاقت كثيرا الاعداد التي اتجهت فيهم الـــى الحركة الصهيونية . ولقد قام بير بوروشوف ، اليهودي الروسي وعضو الحزب الديمقراطي الاجتماعي الروسي ، بتوجيه نداء الـــى البروليتاريا اليهودية في البوند والى المثقفين اليهود في صفوف البلشفيك مبينا ان الصهيونية يمكن ان تستمد من الماركسية . الا ان بوروشوف واجه انتقـــادا ابان حياته النشطة مـــن قبل الصهيونيين اليمينيين لربطه الصهيونية بالاشتراكية (٢٤) . وأعلن بوروشوف وحزبه **باعولاي زيون سمول** (يسار عمال صهيون) أن الصهيونية تشكل الحل لمشاكل البروليتاريا اليهودية : « من منطلق

مصالح البروليتاريا اليهودية المناضلة ومن اعتبارنا اياها **طليعة** المستقبل اليهودي ، **نستنتج** مبدأ ضرورة الأرض (أو مبدأ الاقليمية) للشعب اليهودي كله » . وفي العام ١٩٤٨ انضم حزب باعولاي زيون سمول الى حزبين غير بوروشوفيين لتأليف حزب **المابام** (حزب العمال الموحد) ، الذي كان الهدف منه طرح البديل اليساري للحزب الحاكم **ماباي** (حزب عمال اسرائيل) ، الا ان المابام ساوم على راديكاليته بانضمامه الى عدد من الحكومات الائتلافية قبل العام ١٩٦٧ . وفي العام ١٩٦٨ قام المابام « باجتياز روبيكون* التحريفية » بموافقته على المشاركة في تحالف عمال اسرائيل اليميني (٢٦) .

وعلى الرغم من زوال البوروشوفية كقوة سياسية في اسرائيل الا ان تحليل بوروشوف للصهيونية بعث من جديد لأجل التبشير بالصهيونية في أوساط اليسار العالمي . أما اليسار المعادي للصهيونية في اسرائيل فيرفض تحليل بوروشوف للمسألة اليهودية مما يسلب الصهيونية المحاولة الوحيدة لتبريرها في اطار ماركسي . والماركسيون المعادون للصهيونية يرفضون بوروشوف بقولهم :

« أولا ، زعم بوروشف أن الجماهير اليهودية البرجوازية الصغيرة التي هاجرت الى البلدان الرأسمالية المتقدمة سرعان ما ستصبح فقيرة وبروليتارية ... وهكذا سوف تتجه الجماهير اليهودية الى الصهيونية البروليتارية وتهاجر الى فلسطين . وبالطبع لم يحدث هذا قط .

« ثانيا ، أصر بوروشوف على عدم الحاجة الى بث الدعاية في أوساط العمال اليهود لتشجيعهم على الذهاب الى فلسطين . وكرر القول بأن رأس المال اليهودي سيتجه الى فلسطين عفويا ، وان العمال اليهود سوف يتبعونه بطبيعة الحال . والحقيقة أن رأس المال اليهودي لم يجد طريقه الى فلسطين ... ولا العمال اليهود تبعوه ...

« ثالثا ، وارتأى بوروشوف أن من الحسنات الرئيسية لفلسطين انها تحت الحكم التركي ، ورفض بشدة فكرة الاستعمار اليهودي في أي بلد تحكمه قوة رأسمالية متقدمة . وفي الواقع العملي لم يبدأ الاستعمار اليهودي الا عندما وقعت فلسطين تحت الحكم البريطاني ...

« وأخيرا ، رأى بوروشوف أن عرب فلسطين (الذين يشير اليهم باسم «سكان فلسطين المحليين») يفتقرون الى أية ثقافة خاصة بهم وليست لهم أية ميزات قومية ... ولذلك فقد استنتج ان « سكان فلسطين المحليين » سوف يندمجون اقتصاديا وثقافيا فيمن يأتي بالنظام الى البلاد ... » (٢٧) .

وكما يحاجج المتدينون المعادون للصهيونية بقولهم ان الصهيونية أساسا معادية لليهودية ، فان اليساريين يؤكدون أن الصهيونية مخالفة للاشتراكية ولا تستطيع بكل تأكيد أن تستمد مقوماتها من الماركسية . وقد نشرت مقالة عن المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية تحت عنوان « مبادىء أساسية » جاء فيها : « ان مبادئنا الاشتراكية تضعنا في مواجهة مع الصهيونية لا مجال فيها للتوفيق » (٢٨) .

أما يوري أفنيري ، وهو اسرائيلي لا صهيوني بصورة غامضة ورئيس تحرير صحيفة **هاعولام هازيه** ، فيطرح نظرة شائعة في أوساط اليسار اللاصهيوني في اسرائيل وهي النظرة القائلة بأن الصهيونية ميتة . وقد وصف أفنيري «المبادىء الاساسية للصهيونية» التي يعتقد أنها لم تعد لها قوة في المجتمع الاسرائيلي :

« أ – ان جميع اليهود في العالم هم امة واحدة . ب – ان اسرائيل هي دولة يهودية خلقها

---

* الروبيكون نهر صغير في شمالي ايطالية كان يشكل جزءا من الحدود بين الجمهورية الرومانية والولايات التابعة لها ، وقد اجتازه يوليوس قيصر في العام ٤٩ قبل الميلاد الى ايطالية مشعلا بذلك نار الحرب الأهلية التي جعلته سيد رومه ، وتعبير اجتياز الروبيكون بات يعني اتخاذ قرار حاسم لا عودة عنه .

اليهود من أجل اليهود في العالم بأسره • ج ـ ان الشتات اليهودي هـو وضع مؤقت ، وعاجلا أم آجلا ، سيأتي جميع اليهود الى اسرائيل بدافع الاضطهاد الحتمي المعـادي للسامية ، ان لم يكن بأي شيء آخر • د ـ ان تجميـع هؤلاء المنفيين هـو مبرر وجـود اسرائيل والهـدف الرئيسي الذي لا بد ان تعمل في سبيله جميع الاهداف الاخرى •••

« ومع ذلك فان شيئا لا يمكن أن يكون أبعد شأنا مما يؤمن به الاسرائيليون الشبان ••• » (٢٩) •

أما موشيه ماكوفر الذي أسس المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية (ماتسبن) في العام ١٩٦٢ (٣٠) فقد قال أن الصهيونية ليست من آثار ما قبل العام ١٩٤٨ بل هي القوة الدافعة لدولة اسرائيل :

« كيف تستطيع ان تفسر قيام كل هذه المستوطنات الجديدة في المناطق المحتلة بدون الصهيونية ؟ كيف تستطيع أن تفسر الاستيلاء الى درجة كبيرة على الارض العربية ؟ كيف تفسر حقيقة انه في كل الاراضي التي تم الاستيلاء عليها في المناطق المدينية مثل القدس هناك مساكن أنشئت لليهود فقط ؟ كيف تفسر كل هذه الحالات حيث يتم الاستيلاء على الارض من العرب لتعطى لليهود ولليهود وحدهم، ثم في حالات كثيرة حيث بقيت الارض ليعمل فيها العرب تقوم المؤسسة كلها بمواجهتهم ومطاردتهم• من اين يأتي كل ذلك غير الصهيونية ؟ » (٣١) •

واليسار المعادي للصهيونية في اسرائيل يتهم الدولة اليهودية بالصهيونية ، وبأنها في الاساس ، وبسبب ذلك ، عنصرية وامبريالية ــ استعمارية وعائق رئيسي في وجه السلام والتقدم الاجتماعي في الشرق الأوسط .

وقد أبرز ايلان هليفي عن الحلف الشيوعي الثوري معنى الدولة الصهيونية بالنسبة الى اليسار الاسرائيلي بقوله :

« ان الدولة الصهيونية تعني دولة يسود فيها اليهود في كل مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية • وهي مفروضة دستوريا » (٣٢) •

وقال ان العنصرية الشائعة في اسرائيل هي النتيجة المباشرة للرؤية الصهيونية :

« ليست المسألة هـي القول بأن هؤلاء الناس (أي اليهود الاسرائيليين الذيـن يكرهون العرب ويسيئون معاملتهم) هم مجرمون عنصريون • ان هؤلاء الناس هم جزء من رؤية معينة وضعت في أذهانهم رسميا وعلموها وشربوها هم وأولادهم رسميا ، وهي الايديولوجية الرسمية الاساسية لهذه الدولة • وهي تقول بأنه يتوجب علينا جعل هذه الدولة يهودية ، وذلك عن طريق القوة • وان الرسالة السياسية لهذه الدولة هي ضمان هيمنة اليهود على غير اليهود » (٣٣) •

وقال موشيه ماكوفر أيضا : « ان هذا يساوي ما يسمى في أماكن أخرى ما يعرف بتفوق العرق الابيض ، وهنا توجد خطوط موازية تماما بشأن تفوق اليهود » (٣٤) .

ان علاقة اسرائيل بيهود العالم كمـا تتجسد في قـانون العودة (١٩٥٠) وقانون الجنسية (١٩٥٢) هو ما « يؤكد صفة وحدانية العرق في دولة اسرائيل » (٣٥) . ان هذين القانونين الاساسيين يخولان جميع اليهود ويضمنان لهم الحق بدخول اسرائيل والحصول على الجنسية الاسرائيلية أوتوماتيكيا ، في الوقت الذي لا ينطبقان فيه على عرب فلسطين بمن فيهم الذين ولدوا في البلاد . وقد كتب يوري أفنيري يقول : « ان فكرة تجانس الدولة اليهودية هي فكرة في صلب الصهيونية » (٣٦) .

وبسبب القوانين الصهيونية وهدف دولة اسرائيل قال موشيه ماكوفر :

« ان معـارضة الصهيونيـة تتضمـن معـارضة دولـة اسرائيـل علـى الأقـل في تكوينهـا الراهـن ، لا كدولـة لهـا سكانهـا مهمـا كانـت هويتهـم القوميـة ، بـل كدولـة لليهود في جميـع أنحـاء العالم • معنى هـذا علـى سبيل المثـال أن يهوديـا مولودا في نيويورك لـه حق

أوتوماتيكي في المواطنية في هذا البلد ، بينما عربي مولود في حيفا أو يافا حيث ولد أجداده أيضا لا يتمتع أبدا بمثل هذا الحق . وهذا يتجسد في قوانين هـذا البلد وممارساته ، الامر الذي يجعل منه دولة صهيونية » (٣٧) .

ويقدم اليساريون اتهامـا يقول بأن ممارسة التمييز العنصري في اسرائيل تتسع لتشمل يهوداً أيضا ، أي اليهود الشرقيين (أو السفارديين) . فطائفة بني اسرائيل هندية الاصل ، والفلاشيون أحباش الاصل ، اتهموا الحكومـة الاسرائيلية بالتمييز ضدهم . أما كوهافي شيمش ، من حركة الفهود السود ، المؤلفة من يهود سفارديين والتي يبدو أنها في مرحلة سبات الآن ، فقد قال في مقابلة : « يوجد في اسرائيل اليوم عداء للسامية . وما يحدث لليهود في الخارج يحدث للسفارديين هنا . . . » (٣٨) وان اليهود من غير الأوروبيين اتهموا الدولة بدعم التمييز ضدهم في الاسكان والاستخدام والتربية والمركز الاجتماعي والمشاركة في الحكومة . وكان الفهود السود لفترة من الزمن نشطين في أوساط الحركات اليسارية في البلاد . وكانت صيحة معركتهم هي : « متى يتساوى أبو طبول مـع فيغين ؟ » وجـاء رد ماتسبن علـى هـذه الصيحة مؤكدا على النضال المشترك بين السفارديين وعرب فلسطين : « يتساوى أبو طبول مع فيغين عندما يتساوى محمد مع ابو طبول » (٣٩) .

كانت الصهيونية ولا زالت في التحليل اليساري حركة استعمارية . ولكن هناك فرقا جوهريا بين الاستعمار الصهيوني وغيره من أشكال الاستعمار . تقول ماتسبن في هذا المجال : « بينما طبيعة الاستعمار « الكلاسيكي » هي بشكل رئيسي **الاستغلال** ، فان طبيعة الاستعمار الصهيوني هي **التشريد والطرد** » (٤٠) . ان طرد العربي الفلسطيني من أرضه يضيف بعدا غير عادي للوضع الاستعماري وللمشاكل التـي يترتب على الشعب المستقر مواجهتها . وقد أوضح ماريوس شاطنر ، مـن الحلف الشيوعي الثوري ، ذلك بقوله :

« انني اعتقد أن الحركة الفلسطينية تواجه مشكلة تاريخية كان على شعوب مستعمرة قليلة جدا أن تواجهها . لننظر الى واقع استعماري آخر مثـل الجزائر أو روديسيا ، اننا نجد هنـاك احتلالا استعماريا وحركة (تحرير) وقتالا . والنتيجة الاولى لهذا القتال ان يبدأ المستعمر يفهم انـه لا يستطيع ان يفعل ما يريد وان هناك شعبا آخر . ان هـذا هو الشيء الاول ، أي ان الشعب الآخر موجود » (٤١) .

ومنذ بداية الاستعمار اليهودي في فلسطين شكا مراقبون حساسون يهود من الغياب التام لدى المستوطنين لأي شعور مع السكان العرب أو اعتراف بهم . وقد كتب آحاد هاعام الصهيوني الروحاني عن أوائل مرحلة اليشوف فقال : « انهم يعاملون العرب بعداء وقسوة ويحرمونهم مـن حقوقهم ويسيؤون اليهـم بدون سبب بل ويتباهون بأعمالهم ، ولا أحد بيننا يعارض هذا الميل الحقير والخطير » (٤٢) .

ولاحظت ماتسبن « ان السكان المحليين ، العرب الفلسطينيون ، قد فقدوا أماكنهم دون أن يعاد دمجهم كعمال ، لأن جميـع الوظائف الاجتماعية كـان لا بد ان تحجز لليهود » (٤٣) . وان المبادىء الاساسية الثلاثة للاستعمار الصهيوني تضمن أن يبقى الفلسطيني الذي فقد مكانه نتيجة لهذا الاستعمار ، خارج مجتمع المستوطنين :

١ ــ كيبوش هاكركه (غزو الارض) : « يجب أن يعمل اليهود في الارض واليهود وحدهم هم المؤهلون لذلك » .

٢ ــ كيبوش هاعفودا (غزو اليد العاملة) : « ان المشروعات اليهودية يجـب ان تستخدم عمالا يهودا فقط » .

٣ ــ توتسيريت هآرتس (محصول الارض) : « مقاطعـــة شديدة للمنتوجـــات العربية » (٤٤) .

وعندما أجبر عرب فلسطين على الخروج من بلدهم في العام ١٩٤٨ بأعداد كبيرة أصبحت مقدرتهم على التأثير في مستعمريهم وترك تأثيرهم في وعي هؤلاء المستعمرين أمرا أكثر صعوبة . الا ان اليسار المعادي للصهيونية في اسرائيل يرى الوضع في تغير منذ بروز المقاومة الفلسطينية في العام ١٩٦٧ . وأوضح ماريوش شاطنر قائلا : « اننا نرى اليوم الشعب الفلسطيني من خلال قتاله وقتال البلدان العربية ، وهذا ما يثبت للاسرائيلي بأن الفلسطيني موجود . والآن بامكانك ان تنزل الى الشوارع وتسأل الناس عما اذا كان الفلسطينيون موجودين ، وعما اذا كان هنـــاك شعور قومي فلسطيني . وكل شخص سوف يجيبك بالايجاب » . وتابع شاطنر قائلا بأن أحدا اليوم لا يردد مقولة غولدا مئير بأنه لا يوجد شعب فلسطيني (٤٥) .

ولكن الاستعمار اليهودي مستمر ، على حد قول اليساريين الذين يقدمون الدليل على ذلك انتظام اقامة المستعمرات اليهودية في المناطق المحتلة ، والخطـــة الجديدة « لتهويد الجليل » لضمان غالبية يهودية في الجليل (٤٦) هذا بالاضافة الـــى دعوات الحكومة من أجل استمرار قدوم المهاجرين الى اسرائيل .

وفي نظر اليسار فان استمرار الاندفاع الاستعماري في الصهيونية يؤدي الى استمرار خدمة الصهيونية للامبريالية الغربية . ويرفض المعادون للصهيونية الحجة التي يقدمها بوري أفنيري وغيره بأن الصهيونية معادية للامبريالية الى حد ما ، وهذه الحجة هي : « ان القتال السري اليهودي ضد الحكم الاستعماري البريطاني في فلسطين كان أول حرب تحرير ناجحة في الشرق الاوسط . وهذا ما يسخف الفكرة القائلة بأن الصهيونية أو دولة اسرائيل هي ربيبة الامبريالية أو الاستعمار » (٤٧) .

أما « حرب التحرير » هذه فهـــي في نظر اليساريين المعادين للصهيونية أقرب الى اعلان روديسيه الاستقلال من طرف واحد منها الى نضال معاد للاستعمار خاضه سكان أصليون . ان « حرب التحرير » كانت قتالا خاضه مستوطنون يهود بيض دونما حساب مرض « للسكان المحليين » في فلسطين .

ويرى التحليل اليساري ان الاستيطان اليهودي في فلسطين كـــان بحاجة لازمة الى الامبريالية البريطانية وقام بخدمتها ، اذ ان استقدام اعداد كبيرة من اليهود الأوروبيين الى فلسطين « استلزم دعما اقتصاديا وعسكريا وديبلوماسيا من قوة امبريالية واحدة أو أكثر » (٤٨) . وفيما بعد أصبحت دولة اسرائيل العميل القابل والشريك لخليفة الامبريالية البريطانية في الشرق الاوسط ، أي الامبريالية الاميركيـــة . ويرى الحلف الشيوعي الثوري أنه منذ حرب تشرين الاول ١٩٧٣ جرى تحول في المصالح الامبريالية الاميركية مما أثار قلق الدولة الصهيونية التي تعتمد اعتمادا شبه تام ومحصور على المساعدة الاميركية . وقد ذكر الحلف عن موقفه في « المسألـــة الفلسطينية ومهماتنا الراهنة » ما يلي :

« لقد بـات واضحا أن الامبريالية الاميركية ، التي تواجه أزمة سياسية واقتصادية خاصة بها ، لا تستطيع أن تقدم لاسرائيل دعما غير مشروط في كل تحركاتها ، وهـي مستعدة ، على أساس المقتضيات الضرورية ، للمناورة بين مختلف حلفائها في المنطقة . وان تطلع رأس المال الاميركي الى الدخول عميقا في أسواق المنطقة يتطلب تعزيز الروابط مع البرجوازية العربية ، كما يحد هذا التطلع من دور دولة اسرائيل وأهميتها بصفتها القاعدة الرئيسية للامبريالية الاميركية في المنطقة ...

« ولا يعني هذا ان الامبريالية هي على وشك « التخلي عن اسرائيل » ، ذلك ان الضعف النسبي لدولة اسرائيل على الصعيدين الدولي والاقليمي انما يعزز فقط اعتمادها على الولايات المتحدة واستعدادها لبيع الامبريالية خدمات مقابل التسلح والدعم المالي . ويعني هذا فقط أنه في المستقبل القريب على الأقل سوف تميل الولايات المتحدة الى « تشتيت » دعمها وبحثها عن شرطة وعملاء في المنطقة دون أن تتخلى عن أي واحد منهم ، وهي بالتأكيد لن تتخلى عن اسرائيل . وهذا وضع تفقد فيه الصهيونية ملزمة دورها التقليدي وهو أنها المتراس (الوحيد) للثقافة الغربية ضد البربرية الآسيوية ، (هرتزل) . » (٥٠)

ويلاحظ اليساريون ان احدى الصعوبات في دور اسرائيل « كقلعة ديمقراطية » للغرب في الشرق الاوسط هي تعرض اسرائيل للتحولات في السياسة الامبريالية وضعفها أمام هذه التحولات . أما الخدمة التي تقدمها اسرائيل للمصالح الغربية ، على حد قول اليساريين ، في « مقاومة القوى التقدمية في العالم العربي » فهي خدمة لم تكن دوما مثمرة . وتقول ماتسبن « ان أجلى مظهر (وإن لم يكن المظهر الوحيد) لهذا الدور في السياسة الاسرائيلية الرسمية كان في العام ١٩٥٦ عندما انضمت الحكومة الاسرائيلية الى الامبريالية البريطانية — الفرنسية في مؤامرة عدوانية ضد مصر بل قامت حتى بتزويد هاتين القوتين بذريعة التدخل العسكري » (٥١) ، والسخرية انه على الرغم من كل آلام اسرائيل في غزو سيناء ، قامت الولايات المتحدة باجبار بن غوريون على التخلي في السنة التالية عما تم احتلاله . وفي رأي اليسار ان الخدمة التي تقدمها اسرائيل للامبريالية واعتماد اسرائيل على هذه الامبريالية يجعل من مزاعم اسرائيل عن استقلالها مهزلة .

وأهم من ذلك ان الانتقادات اليسارية تتهم الصهيونية بالفشل في الاستجابة للمشاكل التي خلقت دولة اسرائيل لحلها . وقد لخصت ماتسبن ما تعتبره هذا الفشل بقولها :

« كان المفترض بالدولة اليهودية ان تصبح أداة تجميع اليهود في العالم من أجل توحيدهم في امة ابية مستقلة ... والواقع ان عدد يهود مدينة نيويورك يفوق عدد جميع اليهود في اسرائيل...

« وكان المفترض بالدولة اليهودية ايضا ان تمكن الشعب اليهودي من تطوير ثقافة متنورة ديمقراطية ، الا انه في الواقع بات طلاب المدارس الثانوية ، الذين أخذوا اليوم يتساءلون عن بعض جوانب السياسة الصهيونية والثقافة الصهيونية ، يجدون من الضروري تشكيل جماعات سرية ...

« وان وحشية الشرطة ضد المتظاهرين وخاصة ضد الفهود السود ، واللجوء الى أنظمة الطوارىء بل حتى الى المحاكم العسكرية ضد العمال المضربين قد أثبتت مرة أخرى أن شعبا يضطهد شعبا آخر لا يستطيع أن يكون هو حرا ...

« وفوق كل شيء كان المفترض بالدولة اليهودية تأمين الوجود الجسدي لليهود وانهاء المذابح الى الابد ودرء مذبحة ثانية . والواقع ان اليهود يخضعون في اسرائيل الى خطر جسدي اكثر مما يتعرضون له في أي مكان آخر ...

« ولم يحدث هذا الوضع فجأة ، بل على العكس من ذلك ، فهو النتيجة الحتمية للمشروع الصهيوني القاضي باقامة مجتمع يهودي مغلق في أرض هي ملك شعب عاش عليها وعمل فيها منذ زمن سحيق » (٥٢) .

ان عجز دولة اسرائيل عن حل مشاكل اليهود الاسرائيليين ، بالاضافة الى مشاكل الغالبية العظمى من يهود العالم الذين لم يختاروا طريق الهجرة الى اسرائيل ، قد ولد بعض الاستياء الشعبي في المجتمع الاسرائيلي . والاستياء الشعبي ليس عداء واعيا للصهيونية . ولكن ايلان هاليفي قال ان مهمة أمثاله من المعادين للصهيونية ربط الاستياء بسببه الذي هو « الايديولوجية الصهيونية ، أهدافها ، أساليبها ، ونظرتها الشاملة الى العالم » . وتابع هاليفي قائلا :

« بهذا المعنى هناك الكثير من أشكال معاداة الصهيونية في الممارسة الاجتماعية اليومية في اسرائيل • هناك الهجرة المضادة (٥٣) ، وهناك رفض الانضمام الى الجيش ليس على أساس موقف سياسي واضح بل مجرد نزوة فردية لعدم المشاركة في المجهود الحربي لأسباب أنانية • ان هذه أشكال من أشكال الاستياء الفعلي من التعبئة النفسية والايديولوجية الصهيونية • وهناك أيضا الصراع الطبقي والصراع الاجتماعي وهو ما جسده الفهود السود لبعض الوقت والقيادة الجديدة التي نشأت في حركة الاضرابات في اسرائيل اليوم • وكل هذه هي أشكال للممارسات الاجتماعية الآخذة في التطور الى حد بعيد جدا في اسرائيل ، وهي لم توجد قبل عدة سنوات ، وهي في تناقض موضوعي مع العملية كلها والوجهة التي تريد الصهيونية أن تفرضها على المجتمع الاسرائيلي •

« لذلك اعتقد أن المسألة برمتها تتعلق بكيفية الربط بين هذه العمليات وبين عدائنا النظري والواعي القوي للصهيونية » (٥٤) •

وقد أشار ماريوس شاطنر الى مثل آخر على الاستياء الشعبي من السياسة الصهيونية : « ان الشعب يعارض الهجرة وخاصة هجرة اليهود الذين يأتون الآن من روسيه . وان الشعب غير مستعد لتقديم تضحيات تطلبها منه الحكومة لمساعدة أناس جدد يأتون الى هنا » (٥٥) . واليهود الشرقيون خصوصا يمقتون تدفق اليهود السوفيات اذ يرون فيهم اصحاب امتيازات مثل المساكن الحديثة التي وعد بها السفارديون لسنوات .

ودخل السجن كل من ماريوس شاطنر ، وجيورا نويمان ، وروبين لاسمان واريث يعقوبي وغيرهم من الاسرائيليين الشبان وذلك لرفضهم الخدمة في الجيش لاسباب سياسية (٥٦) . وبعض اليساريين ومنهم يوسيّ كوتن ، عضو سياح ، رفض تحديدا الخدمة في المناطق المحتلة (٥٧) . وهناك آخرون مثل ايحود اديف ، ودان فيرد ، ورامي ليفنه ، حكم عليهم بالسجن في اسرائيل لأنهم يعملون ضد الدولة .

والتقى يوم الحادي والعشرين من أيلول ١٩٧٢ الفهود السود وسياح (اليسار الجديد الاسرائيلي) ، والحلف الشيوعي الثوري ، والطليعة (تحالف العمال) ، وماتسبن وماتسبن — الماركسية لتشكل « جبهة معادية للفاشية » من أجل « تنظيم عون قانوني مشترك لمختلف الجماعات وتقديم الحماية من هجمات رابطة الدفاع اليهودية ضد المتظاهرين اليساريين وخوض حملة لتحذير الراي العام من مخاطر الرابطة » (٥٨) .

ومنذ قيام « الجبهة المعادية للفاشية » في العام ١٩٧٢ وقبل هذا التاريخ تعرض أعضاء هذه المنظمات المعادية للصهيونية واللاصهيونية لهجمات الصحافة الاسرائيلية وادخلوا السجون الاسرائيلية . كما عانوا من انقسامات داخل صفوفهم .

وقد كتب محلل من اليساريين الجدد في بداية مناقشة للمنظمات المعادية للصهيونية في اسرائيل يقول : « لقد دخلنا ذلك المجال حيث جميع القيم العددية عبارة عن ارقام صغيرة » (٥٩) . فقد عانت ماتسبن ، التي كانت الجماعة الاشتراكية المعادية للصهيونية الأبرز في اسرائيل ، من انشقاق ثلاثي في أواخر العام ١٩٧٠ . وترك الانشقاق ماتسبن الاصلية مع موشيه ماكوفر وحاييم هانغبي وغيرهما ، بالاضافة الى مجموعتين جديدتين هما الحلف الشيوعي الثوري وماتسبن — الماركسية (وتدعى الآن الرابطة الشيوعية) . وفي تشرين الاول ١٩٧١ انفصل الحلف الشيوعي الثوري — الجبهة الحمراء عن الحلف الشيوعي الثوري وذلك في نزاع تكتيكي على ما يبدو . وانشقت عن الرابطة الشيوعية في أيار ١٩٧٥ جماعة دعت نفسها الفصيل البروليتاري . وهناك مجموعة اخرى هي الطلائع (حلف العمال) قريبة من مبدأ بيار لومبير ، التروتسكي الفرنسي ، الداعي الى

اقامة التنظيم داخل صفوف العمال . وقد اصبح اعضاء هذه المجموعة اهدافا خاصة لوسائل الاعلام الاسرائيلية (٦٠) . وعلى الرغم من الانشقاق في صفوف اليسار ، يلتقي أعضاء مختلف الجماعات معا في الاحتجاج والتظاهر وعلى هدف اقامة دولة علمانية ديمقراطية في « أرض اسرائيل » او فلسطين (٦١) .

وتقوم الطليعة بالعمل لتجنيد الاعضاء من أوساط الطبقة العاملة مؤكدة على الصراع الطبقي أكثر من التركيز على الصراعات القومية . وقد قالت في عدد خريف العام ١٩٧٤ من مجلتها : « ان كل مطلب ، من مطالب النضال المباشر والموحد ضد ارتفاع الاسعار باقامة الاتحادات المهنية وحزبا عماليا الـى مطلب اقامة دولـة موحدة ذات مجلس تأسيسي ، يصبح جزءا من مسألة واحدة ويقل تدريجيا تميزه عن غيره من المطالب ، وهذه المسألة هي : محاولة تنظيم الجماهير من أجل القضاء على البورجوازية قبل ان تقضي عليهم » (٦٢) . وعندما وجدت يوم الثاني والعشرين من تشرين الاول ١٩٧٤ مجندة في التاسعة عشرة من عمرها مينة اختناقا في قيسارية، بدأت الصحافة الاسرائيلية حملة ضد جماعة الطليعة . واتهمت الصحافة هذه الجماعة بارتكاب هـذه الجريمة وغيرها من الجرائم كما اتهمت اعضاء من الطليعة بالانحراف الجنسي . والقي القبض على يورام بيشونسكي ، عضو الطليعة ، ثم اطلق سراحه لعدم وجود أدلة . الا ان نسب الجرائم الجنسية الى الطليعة لم ينمح ابدا من وسائل الاعلام العامة . وعلقت نشرة **ايسرالفت** الصادرة عن سياح على ما أسمته « تغطية القضية في الصحافة بتوجيه الشرطة » ووصفت الحملة المعادية للطليعة بالطعن والتشهير » (٦٣) .

ان الحلف الشيوعي الثوري ــ الجبهـة الحمراء هو أنشط الجماعات اليسارية المعادية للصهيونية بل واخطرها ، اذا ما حكمنا من خلال اتهام النيابة العامة لاعضائها . وكان ايحود اديف ، زعيم الجبهة الحمراء ، قد انتقد ماتسبن لقلة نشاطها . فهو يعترف بسلامة نظريتها ، هذه النظرية التي ينقصها فصل بعنوان « ما العمل ؟ » (٦٤) وايمان اديف بالايديولوجية والنشاط العملي معا أدى الى اشتراكه في منظمة سرية فلسطينية ــ اسرائيلية وبالتالي الى سجنه .

وقد مثل ايحود اديف وخمسة آخرون من رفاقه ، أحدهم يهودي والأربعة الباقون من الفلسطينيين المقيمين في اسرائيل منذ العام ١٩٤٨ ، أمام المحكمة في حيفا بتهمة تشكيل « شبكة تجسس وتخريب » (٦٥) .واعترف اديف بخمس وعشرين من التهم الست والاربعين التـي وردت في قرار الاتهـام (٦٦) . وقد وجهت لـه التهم يوم ١٩٧٣/٢/١١ وصدر عليه الحكم بعد شهر بالسجن سبعة عشر عاما . واعترف اديف انه التقى في أثينا عربيا كان يقيم في السابق في اسرائيل وانه قام بزيارة دمشق . الا انه نفى تهريب أية معلومات عسكرية ، أما الآخرون فقد صدرت عليهم أحكام بالسجن تتراوح فتراتها بين ثلاثة وسبعة عشر عاما (٦٧) . .

لقد كانت « محاكمة الجبهة الحمراء » صدمة للمجتمع الاسرائيلي الذي اعتاد على صورة الشباب الشوفيني المستعد للدفاع عن الأمة في ظل أي ظرف . واثارت المسألة سيلا من التقارير الصحافية الاسرائيلية المتناقضة . وقد شوشت وسائل الاعلام الامر على الرأي العام بحيث بات لا يعرف ما اذا كان يتزعم الجبهة الحمراء عربي فلسطيني أم يهودي اسرائيلي ، وما اذا كان اديف قد ذهب الى القاهرة أم لا ، وما اذا كانت الجبهة قد قامت فعلا بأعمال تخريبية ، وما اذا كان أعضاؤها مسلحين وما اذا كانت الجبهة تشكل أي تهديد عسكري (٦٨) . ومع ان الجبهة الحمراء ربما لم تشكل قط خطرا على أمن دولة اسرائيل الا انها شكلت تهديدا نفسيا هائلا . فهم أمام يهود ولدوا

في اسرائيل ونشأوا فيها ، واديف نفسه ابن كيبوتس ، يعملون مع العرب لاسقاط الدولة ! ولم يكن بوسع الاسرائيليين الشبان الا ان يسألوا : لماذا ؟

وقد أوضح روبين كامينر ، عضو جماعة سياح اللاصهيونية وذات الانتماءات الدولية اليسارية الجديدة ، كون أسئلة معينة تشكل خطرا :

« من الصعب جدا على كثير من الآباء والامهات أن يفهموا عندما يبدأ أبناؤهم بطرح بعض الاسئلة • ربما يجد أحد الوالدين في أميركا صعوبة ما في الاجابة عن سؤال من ابنه حول ما فعله الاميركيون البيض بالهنود الا أن ذلك أمرا بعيدا وقديما جدا • أما هنا فعندما يسأل الطفل الاسرائيلي : من أين حصلنا على هذه الارض ؟ ماذا كان اسم هذه المدينة من قبل ؟ أين الناس الذين كانوايعيشون هنا ؟ ويطرح أسئلته بلهجة تتساءل عن الحق بحد ذاته في الاقامة على تلك الارض ، يكون الأمر سبب قلق عميق بين الآباء والامهات الاسرائيليين » (٦٩) •

وقد قالت توفا ، والدة ايحود اديف ، الى صحيفة « معاريف » الاسرائيلية اليومية : « اننا لا نتنصل من مسؤوليتنا عن آراء ولدنا . لقد علمناه أن كل الناس ولدوا سواسية بغض النظر عن العرق أو اللون أو الدين » (٧٠) .

ان الدعاية التي تعطى لمقاومة التجنيد وللعناصر اليهودية ــ العربية السرية ربما تؤثر أكثر من الظواهر ذاتها في احداث عملية مراجعة الذات المؤلمة في اسرائيل . وقد قال يساري اسرائيلي قضى حرب تشرين الاول في سجن عسكري لرفضه الاستجابة لدعوة المجندين الى الخدمة انه يعتقد ، كما يعتقد آخرون غيره كانوا معه في السجن ، انهم لم يضطهدوا بعد الحرب بهدف تجنب فضح تصدع في المعنويات في تلك الفترة . وكان بعض السجناء قد القوا سلاحهم ببساطة وفروا من المعركة (٧١) .

وفي الثانية من المجموعات الخمس من المتهمين الذين مثلوا أمام المحكمة في العام ١٩٧٣ في حيفا حكم على رامي ليفنه ، زعيم الحلف الشيوعي الثوري ، بالسجن عشر سنوات بتهمة الاجتماع الى عضو من فتح بالقرب من الناصرة (٧٢) . وليفنه يرئس جماعة يرفض أعضاؤها ، أمثال ايلان هليفي وماريوس شاطنر ، الخدمة في الجيش الاسرائيلي . وقال ليفنه أن سبب سجنه هو عضويته في الحلف الشيوعي الثوري وليس مناقشاته السياسية مع عضو من فتح . وبعد محاكمة ليفنه اجتمع نفتلي فيدر ، السكرتير السياسي في حزب المابام ، الى مندوب من منظمة التحرير الفلسطينية في براغ (٧٣) . كما اجتمع يوري أفنيري في رومة الى ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في لندن سعيد حمامي . ولم يتهم بسبب ذلك اي من هذين الشخصين .

وقد أصبحت ماتسبن ، المنظمة الأم للجماعات الراديكالية ، هدفا للانتقاد الحكومي والصحافي في اسرائيل . فوسائل الاعلام جعلت من كلمتي ماتسبن وماتسبني كلمتين للدلالة على الرأي اليساري الخطر أو غير المسؤول في اسرائيل . وقد اشارت الصحافة العبرية في تغطيتها لمحاكمة الجبهة الحمراء الى صلة الجبهة بماتسبن (٧٤) .

ويؤكد اليساريون أن انتقادهم المعادي للصهيونية ونشاطاتهم ومقاومتهم للدولة ومحاولاتهم لاقامة حوار مع الفلسطينيين هدفها جميعا واحد وهو : اسرائيل بدون صهيونية .

وقد قدمت ماتسبن هذا التحليل :

« ان المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية قالت بأنه على الرغم من حقيقة ان الأمة العبرية قد خلقتها الصهيونية فان هذه الأمة بكل ما في الكلمة من معنى موجودة الآن في فلسطين • وعلى هذا الاساس

فان لها الحق في تقرير المصير ليس بالمعنى الصهيوني بالتأكيد بل ضمن اطار اتحاد فيدرالي اشتراكي يضم الشرق الاوسط » (٧٥) .

وتحبذ ماتسبن قيام اتحاد فيدرالي شرق أوسطي يكون فيه « للقوميات غير العربية (اليهود الاسرائيليون ، الأكراد ، وجنوب السودان) حقوق قومية معترف بها ، وبكلمة اخرى حق تقرير المصير » (٧٦) . أما الحلف الشيوعي الثوري فيدافع عن « تقسيم فلسطين مباشرة الى دولتين قوميتين تضمنان الحقوق الديمقراطية الكاملة للأقلية الباقية من الشعب الآخر في كل منهما » . ويطالب الحلف بعودة لاجئي العام ١٩٤٨ الى بيوتهم ، وأعرب عن اعتقاده بأن دولة اسرائيل سوف تندمج في النهاية في « ديمقراطية متعددة القوميات » واسعة في المشرق العربي (٧٧) .

ويرى اليسار أن انهاء العنصرية والامبريالية والاستعمار والقهر والحرب يفترض مسبقا ازالة الصهيونية من اسرائيل . « وازالة الصهيونية تعني الغاء الاقتصارية اليهودية (الكامنة في قانون العودة على سبيل المثال) . . . » (٧٨) . وان ازالة الصهيونية تتطلب مشاركة نشطة من قبل الراديكاليين العرب وتتضمن حق تقرير المصير للاسرائيليين بمعزل عن الروابط القانونية بيهود العالم وعن الروابط الاقتصادية بالامبريالية الغربية . ويتبع ذلك ، كما يرى اليهود الاسرائيليون اليساريون المعادون للصهيونية ، السلام والعدل بصورة طبيعية .

والى جانب اليهود المعادين للصهيونية في اسرائيل من متدينين ويساريين يوجد ، على حد قول الدكتور اسرائيل شاحاك ، « عدد غير قليل من الناس مثلي ليسوا ماركسيين وليسوا أيضا يهودا متدينين جدا ، ويعارضون الصهيونية على اسس ليبرالية أو انسانية » (٧٩) . فبينما يرفض أعضاء نتوري كارتا والماركسيون الاسرائيليون الصهيونية بناء على تحليلات أساسية للعالم ، نجد المعادين للصهيونية على أسس انسانية يبدأون من تجربة حياتية ومن نظرة الى الحياة تقوم بصورة مميزة على الأخلاق الشمولية اليهودية .

وقد أوضح فيتولد يادلينسكي ، وهو يهودي اسرائيلي من معتنقي مبدأ الانسانية ، كيف أن تعرضه للاضطهاد كيهودي أدى به الى معارضة الصهيونية :

« انني يهودي بولوني سجنت في السابق في سجن نازي . وقد مررت في بعض أسوأ تجارب المذبحة . وان أبرز ما أذكره تماما عن تلك الاوقات هو شيوع العداء للسامية في أوروبة الشرقية ، وبعض الصور النموذجية عن هذا العداء هي ، على سبيل المثال ، القصص عن العقلية اليهودية مثل القول بأن « اليهودي يفهم فقط لغة المال » أو أن « اليهودي يفهم فقط لغة القوة » أو أن « اليهودي شخص ليس بامكانك أن تثق به » . انني أسمع كل هذه الامور المرة تلو المرة مع فرق واحد هو أنها ليست باللغة البولونية وانما بالعبرية مع استبدال كلمة «اليهودي» بكلمة «العربي» » .

والدكتور اسرائيل شاحاك ، معتنق مبدأ الانسانية أو المستقل بهذه الصفة ، هو ابرز اسرائيلي معاد للصهيونية ، وأحد الناجين من معسكرات الاعتقال النازية . وهو يدرس الكيمياء في الجامعة العبرية في القدس ورئيس الرابطة الاسرائيلية للحقوق الانسانية والمدنية . وقد وصف تطوره عبر ثلاث مراحل الى معاد نشط للصهيونية بقوله :

« كانت المرحلة الاولى هي حرب السويس في العام ١٩٥٦ عندما صدمت فور الانتصار الاسرائيلي بقيادة بن غوريون وغيره من الذين قالوا أنها لم تكن حربا دفاعية بل حربا لغزو الارض وانها بداية مملكة اسرائيل الثالثة الى غير ما هنالك من كلام . بل صدمت أكثر من ذلك بسبب مذبحة كفر قاسم (٨٠) التي ذهب ضحيتها تسعة وأربعون عربيا اسرائيليا بدون استفزاز ولم يكن مصدر

هذه الصدمة المجزرة في ذاتها ولكن حقيقة انه أمكن اخفاؤها ستة أسابيع ٠ وقد كنت في حينها بريئا لحد توجيه نداءات لبضعة أشخاص أتساءل فيها كيف أمكن حدوث ذلك ، وكانت مبررات هؤلاء أهم عامل في جعلي معاديا للصهيونية ٠

« والمرحلة الثانية بدأت بزيارتي الى الولايات المتحدة كعالم وذلك في الفترة (١٩٦١ ـ ١٩٦٣) وكانت أول مرة خرجت فيها من اسرائيل ٠ ودهشت أشد الدهشة عندما اكتشفت أنه بالامكان العيش في بلد ديمقراطي يعامل مواطنيه ، على الاقل في القانون ، بدون اعتبار للقومية أو العرق أو الدين ٠ لقد تعلمت في اسرائيل الاعتقاد بأن هذا شيء مستحيل وان كل بلد يميز علـى أساس القومية ٠٠٠

« والمرحلة الثالثة بدأت بحرب الأيام الستة ٠ ومرة ثانية بدأت باطلاق التصريحات القومية فور انتهاء الحرب ٠ وكذلك الاكاذيب القائلة بأننا لا نريد أرضا ٠ وسرعان ما اتضح اننا نريد أرضا ٠ وشهدت بنفسي طرد العرب في أماكن كثيرة ٠ وهذا أقنعني بأنني لا بد أن أخرج الى العلن لأنني حتى ذلك الوقت لم أكن ناشطا في السياسة » ٠

وجاءت لحظة كانت حاسمة بالنسبة الى يادليتسكي :

« كانت هـذه مقالة عيزر وايزمن ومقالتان أخريان أظهرت بشكل قاطـع أن حرب الايام الستة ١٩٦٧ ، على عكس ما كنت وكثيرين آخرين نعتقد ، لم تكن حربا دفاعية في وجـه التهديد بالابادة الجماعية ٠ لقد شنت هذه الحرب من أجل كسب أرض أجنبية ٠٠٠ وقد اعترف عدد من الكتاب بأن الاركان العامـة في العـام ١٩٦٧ لم تشارك الشعب شعوره بالتهديد الوشيـك ، التهديد بالهجوم وبالابادة الجماعية ٠ وهؤلاء الكتاب هم عيزر وايزمن الذي كان قائدا لسلاح الجو آنذاك ، ومردخاي بنتوف الذي كان وزيرا للاسكان في وزارة الحرب في العـام ١٩٦٧ ، وميتيتياهو بيليد أحد المحللين العسكريين الرئيسيين في اسرائيل ، وحاييم بارليف الذي كان رئيسا للاركان العامة ٠ وقد دارت الحرب على فرضيات مختلفة ٠ فقد قال وايزمن تحديدا اننا كنا نسعى وراء « مصالحنا المشروعة في الاراضي المجاورة » ٠ وهذه كانت اللحظة الحاسمة بالنسبة لي » ٠

ليست ردود فعل كل من شاحاك ويادليتسكي للصهيونية نموذجا لردود فعل اناجين من المذبحة النازية الذين هاجروا الى اسرائيل . وقد عدد يادليتسكي الاسباب التي تجعل اليهود الآخرين الذين أنقذوا مـــن الأفران يقبلـــون بالصهيونية بقولـــه : « ان الخوف من ابادة جماعية جديدة والخوف من تكرار تجربة المذبحة النازية بالاضافة الى توجيه وسائل الاعلام والتوجيه التربوي يدفع بالشعب الى الشوفينية اليهودية » .

وقال شاحاك بأن الرد الصهيوني طبيعي ولكنه شراني :

« أخشى أن يكون طبيعيا ألا تصبح جماعة مضطهدة جماعـة أفضل ، بل أن تقوم باضطهاد الآخرين ٠ فعندما هرب الآباء الحجاج من انكلترة الى ماساتشوستس لم يصبحوا جماعة متسامحة ، بل اضطهدوا الكويكرز بطريقة أسوأ من الطريقة التي كانوا هم قد اضطهدوا بها من جانب الكنيسة الانكليزية ٠ ولكن هذا لا يجعل الوضع أفضل بأي صورة ٠

« أود أن أقول بأن الاستجابة الانسانية الوحيدة للمذبحة النازية هي محاولة ألا نحب النازيين قولا أو عملا ٠ وان ما أحدث المذبحة النازية هو الموقف العنصري تجـاه اليهود وتقسيم المجتمع الالماني الى يهود وغير يهود على أساس العرق ، وهذا الشيء نفسه يحدث في اسرائيل » ٠

والمسألة بالنسبة لمعتنقـــي مبدأ الانسانية أمثـــال شاحاك ويادليتسكي ليس فائدة العنصرية لليهود ، بل ما اذا كانت العنصرية صحيحة أم خاطئة . وقد أثـــار شاحاك مستمعيه من الاسرائيليين بمساواته العنصرية الصهيونية بالعنصرية النازية . وحلل شاحاك الوضع بقوله :

« بامكانك تعريف المجتمـع الاسرائيلي بأنـه مجتمع ليس فيـه اسرائيليين بل فقط يهود وغير يهود (٨١) ، فهناك قوائم منفصلة بوفيات الاطفال اليهود وغير اليهود ، وهلم جرا ٠ وهذا صبغ

للمجتمع اليهودي بالنازية ويمكن أن يؤدي الى الكارثة ذاتها التي حدثت في أوروبة في عهد النازية ولكن ضحايا الكارثة هذه المرة هم العرب ٠

« واذا كان للانسان ان يتعلم أي شيء من تجربة النازية فهذا الشيء هو ان يكون الانسان ضد النازية ، وانني ضد النازية سواء أكانت ألمانية أم يهودية أم عربية » ٠

ان العداء للصهيونية من منطلق انساني له جذوره في كتابات عدد غير قليل من أوائل أعضاء اليشوف الذين يحركهم ضمير حـي ، والذين سموا صهيونيين « معتدلين » لمعارضتهم أقامة دولة يهودية . وقبل الانتداب البريطاني حذر كتاب مثل احاد هاعام والدكتور يتسحاق ابشتاين الصهيونيين السياسيين من « ان الشعب الذي يعيش الآن في هذه الارض له أيضا قلب وروح » (٨٢) .

وشكل الصهيونيون « المعتدلون » في العـام ١٩٢٥ مجموعة **بريت شالوم** (عهد السلام) في القدس وكان أحد مؤسسيها الدكتور آرثر ربين ، وقد نادت بدولة ثنائية القومية في فلسطين وأيد يهودا مغنيس هذه المجموعة على الرغم من انه لم ينضم اليها . وتعرض أعضاء بريت شالوم لهجوم مرير من قبل الصهيونيين السياسيين واصفين اياهم بأنهم « اندماجيون في أعماقهم » تماما كاليهود الماركسيين أمثـال روزا لوكسمبورغ واتهموا « بكراهية الذات » (٨٣) . وانسحب الدكتور ربين في العام ١٩٢٩ من بريت شالوم عندما أتخذت صهيونيته منحى آخر في تطورها الثلاثي . وانتهت هذه المجموعة من الوجود في العام ١٩٣٣ وحلت محلهـا لبعض الوقت رابطة **التقارب** اليهودي — العربي ٠

ودفع الدكتور مغنيس وبنحاس روتنبرغ وموشيه سميلانسكي مـن جديد بفكرة ثنائية القومية قدما في العام ١٩٣٦ . ولكن الصهيونيين رفضوها . وشكل معتنقو مبدأ الانسانية اليهود مجموعة **ايحود** (الاتحاد) التي عارضت تقسيم فلسطين . وبعد وفاة الدكتور مغنيس في العام ١٩٤٨ تخلت ايحود عن فكرة ثنائية القومية (٨٤) .

وبعد العام ١٩٤٨ انقسم الصهيونيون « المعتدلون » الى قسمين أحدهما ايد الدولة اليهودية التي باتت أمرا واقعا وثانيهما لم يعد صهيونيا لأن الصهيونية باتت مرتبطة بالدولة .

واستمر أحد اوائل معتنقي مبدأ الانسانية من اليهود في معارضة الدولة معارضة ناشطة بعد قيامها ، كما استمرت المنظمة التي ساعد في انشائها للدفاع عن حقوق الانسان في البلاد . وهذا الشخص هو مردخاي افي شول العضو المؤسس في العام ١٩٣٥ للرابطة الاسرائيلية للحقوق الانسانية والمدنية وكان قد هاجر الى فلسطين في العام ١٩٢١ وهو لا يزال ناشطا مع الدكتور اسرائيل شاحاك في الرابطة المذكورة التي كان غرضها الاصلي مقاومة الاضطهاد البريطاني لليهود والعرب في عهد الانتداب .

لقد نشأ في اسرائيل جيل شاب جديد يعرف بالصابرا ، وقد اختارت قلة ضئيلة من هؤلاء اتباع مغنيس ، وافي شول ، وشاحاك ، في نظرتهم الشمولية الاخلاقية المعارضة للصهيونية الرسمية للدولـة . واصبح أحد هؤلاء الاسرائيليين الشبـان نائبا لرئيس الرابطة الاسرائيلية للحقوق الانسانية والمدنية وذلك في العام ١٩٧٠ عندمـا أصبح الدكتور شاحاك رئيسا للرابطة . وهـذا الشاب هو يوري دافيز الذي برز في العام ١٩٦٢ كأول يهودي يعتقل وفقا لأنظمة الطوارىء الصادرة عن الانتداب البريطاني في فلسطين في العام ١٩٤٥ (٨٥) . وقضى دافيز خمسة اشهر في السجن لدخوله قريـة

دير الاسد العربية الواقعة في منطقة امنية ، وحيث تم الاستيلاء على اراض عربية قبيل قيامه بزيارتها (٨٦) .

وفي السنة نفسها قاوم دافيز الخدمة العسكرية ، وكانت « رحلة دافيز خارج الصهيونية » عملية طويلة تأثر فيها بكتابات عين راند ومارتن بوبر ، واستنتج ان مشكلة الاسرائيليين والفلسطينيين « لا يمكن الدخول اليها الا من خلال موقف راديكالي ايديولوجي » (٨٧) .

وهناك اسرائيلية شابة هي ميرا نيستار كان العداء للصهيونية بالنسبة لها شيئا مقبولا بصمت ولم تكتشفه الا عندما بدأت نشاطها السياسي . قالت : « انني من الصابرا . وكنت صهيونية بطبيعة الحال . ولكن ثقافتي اشتراكية وانضممت الى الموكيد لأنني كنت أعتقد أنها مجموعة اشتراكية . وعندما دخلت الحياة السياسية بدأت أفهم أنني لست صهيونية » (٨٨) .

ادركت ميرا نيستار معارضتها للصهيونية لأنها لم تستطع الايمان بما اعتبرته عنصرية . ولكنها رأت في الصهيونية أيضا عائقا للتقدم الاجتماعي في اسرائيل بسبب الصفة السياسية ــ الدينية لاسرائيل . قالت ميرا على سبيل المثال :

« أنظر الى القانون الاخير حول حقوق المرأة . لقد أرادت شولاميت الوني اصدار قانون يعطي المرأة حقوقا مساوية ولكن القانون لم يمر . فقد وعد رابين الاحزاب الدينية بعدم اصداره » .

أما بالنسبة للاسرائيليين الآخرين الذين ليسوا بالضرورة نشطين في معارضة الصهيونية فقد وقعت حادثتان وحيدتان ادتا وتفرعاتهما الى تساؤلات جدية حول الفرضيات الصهيونية المسبقة للدولة . الحادثة الاولى هي احتلال ما تبقى من فلسطين الانتداب في العام ١٩٦٧ وما صحب هذا الاحتلال من طرد وعقاب جماعي وهدم المنازل واعتقالات ادارية بدون محاكمة ، وسوء معاملة للسجناء ، واستيلاء على الممتلكات الى درجة كبيرة . في تلك الايام ، بالنسبة للبعض ، « ولدت اسرائيل البشعة الاستعمارية » (٨٩) . وعندما رأى شبان اسرائيليون آخرون الطرد الجماعي للعرب الفلسطينيين لأول مرة بدأوا يتساءلون عما اذا كان ثمة فرق نوعي بين عمليات الطرد في العام ١٩٤٨ والعام ١٩٦٧ . والسخرية ان ما ساعدهم في هذه العودة الى الذات والبحث فيها هو شوفينية الاحزاب الصهيونية اليمينية التي قالت لهم : « اذا كنتم تتساءلون عن حقنا في استيطان اليهودية فانكم تتساءلون عن حقنا في تل أبيب » .

والحادثة الثانية التي كانت مثاراً للتساؤل هي اعلان الحكومة في العام ١٩٧٠ انها رفضت عرضا مصريا من الرئيس جمال عبد الناصر لمناقشة شروط السلام مع ناحوم غولدمان في القاهرة ، ومر الشباب على هذا الموقف سريعا . فقد كتبت جماعة من الطلاب الثانويين رسالة شمطوف المشهورة متهمين فيها الحكومة بتفضيل الاراضي على السلام . واعلن ابن زعيم البالماخ سابقا « ان الاساس المعنوي لكوننا اسرائيليين قد ضاع » (٩٠) وقال آسه ، ابن موشيه دايان ، أنه يفضل الانسحاب التام من كل المناطق المحتلة بما فيها القدس الشرقية مقابل السلام (٩١) .

وقال الدكتور شاحاك انه من الصعب على اليهودي المعاصر الذي درس في اسرائيل ان يصل كليا الى وجهة نظر معادية للصهيونية . وعزا ذلك الى حقيقتين في التربية الاسرائيلية :

« لقد تعرضنا في المدرسة تعرضا كليا الى عملية غسل دماغ أولها كره العرب ، وثانيها شيء

مهم عن العالم كله : ان الجميع من غير اليهود يكرهون اليهود . وغسلت أدمغتنا بحيث نعتقد أن المغول الذين لم يروا يهوديا قط يصبحون معادين للسامية عندما يرون يهوديا . وغسلت أدمغتنا أيضا بحيث نعتقد أن هذه الكراهية تختلف تماما عن الكراهية العادية السائدة في أماكن كثيرة بين القوميات وخاصة الاقليات » (٩٢) .

وأضاف شاحاك بأن المعادين للصهيونية يتقدمون ببطء ولكن من المهم ملاحظة انهم يتقدمون . وميز بين تأثير المعادين للصهيونية من منطلقات انسانية على « المؤسسة » وتأثيرهم على « المجتمع » :

« ان لنا اثرا على المجتمع وهو أثر بطيء ولكنه متزايد طوال الوقت . وليس لنا اثر على المؤسسة ، أولا لأن أصحابها كبار في السن ، وثانيا لان عقولهم مغلقة على كل شيء . وأهم شيء أنهم عنصريون . بامكانك أن تعلم الناس العاديين تغيير مواقفهم العنصرية ولكنك تعرف جيدا أن العنصريين الذين في مراكز السلطة لا يمكن تغييرهم » (٩٣) .

ومن خلال عمل الرابطة في توثيق انتهاكات اسرائيل لحقوق الانسان كان لشاحاك وآخرين اثر في معالجة معاناة كثيرين من الفلسطينيين العرب . وصرح شاحاك بأن أعظم خدمة يقدمها المعادون للصهيونية هو جمع المعلومات ونشرها عن انتهاكات حقوق الانسان . وقال لماتسبن : « اننا بحاجة الى قائمة بجميع البيوت التي نسفت وجميع الناس الذين اعتقلوا . وان باستطاعتنا بكل تأكيد ان نقوم في مجموعات صغيرة وبدون ملصقات بزيارة اثار البيوت المنسوفة أو زيارة عائلة احد أبنائها في السجن . ونستطيع أن نطالب بزيارة السجناء من خلال المحامين أو غيرهم » (٩٤) . ويعمل شاحاك بالتدريج ، مركزا على المعاناة الفردية ، عربية ويهودية . وقد جمع هو والرابطة أشمل ادانة بجرائم الدولة المتوافرة وقدمها للرأي العام ، وهي تغطي الجرائم بدءا بالتعذيب والقتل وانتهاء بالتفرقة العنصرية في الجامعة .

وقد ساعد شاحاك على سبيل المثال في « اجراء تحقيق ، عن طريق الدعاية في اسرائيل ، في القمع الوحشي في قطاع غزة في كانون الثاني وشباط ١٩٧١ » . واعتبر ما حققه في غزة انتصارا جزئيا في أفضل الاحوال : « اذا أدى تأثيري الى وقف جلد جماهير الشعب في قطاع غزة في الشوارع فانه لم يكن كافيا لنزع سياج الشريط الشائك المضروب حول قطاع غزة جاعلا منه معسكر اعتقال كبير » (٩٥) .

وعزيمة الدكتور شاحاك لا تهبط بسهولة مثله مثل المحامية الاسرائيلية فيليسيا لانجر التي تعمل معه ، وهي عضو حزب راكح وقد دافعت منذ العام ١٩٦٧ عن مئات الفلسطينيين العرب أمام المحاكم الاسرائيلية والسلطات العسكرية . وقد أصبحت تعرف في اسرائيل باسم « محامية الارهابيين » ، لا لمجرد انها تدافع عن الفلسطينيين ، بل أيضا لأنها تتهم الدولة بارتكاب الجرائم في حق موكليها . وأصبح شاحاك ولانجر أكثر يهوديين اسرائيليين يثق بهما الفلسطينيون العرب الذين يعيشون في اسرائيل والمناطق المحتلة (٩٦) .

وأشار شاحاك الى أن عمله وعمل لانجر يختلف نوعا ما عن عمل اليساريين الاسرائيليين : « ان اهم جانب في هذا العمل هو رؤية المشكلة الحقيقية للصهيونية ، المشكلة الحقيقة في ما هي الصهيونية لا كأيديولوجية بل في ما تفعله الصهيونية يوميا بالناس » (٩٧) . ففي الوقت الذي يهاجم اليسار فيه الصهيونية في أسسها النظرية فان شاحاك ولانجر يقاتلان نتائجها . واليساريون المعادون للصهيونية يعملون بانتظام مع لانجر وشاحاك والرابطة مدركين أنهم يقاومون الصهيونية ذاتها ، وانهم يسعون وراء الحل الديمقراطي ذاته .

وبالنسبة لليهود الاسرائيليين المعادين للصهيونية سواء أكانوا متدينين أم يساريين أم منطلقين من منطلقات انسانية فان الخيار أمامهم بين الصهيونية ومقاومتها ليس خيارا بالمرة . فرفض الصهيونية لأسباب روحية او ايديولوجية أو أدبية هو رفض للمصير الموروث وهو الحرب المستمرة .

---

١ — موشيه دايان ، خطاب في متخرجي كلية الاركان والقيادة بعنوان : «A Soldier Reflects On Peace Hopes» منشور في كتاب ايرين ل. غندزر (محررة) A Middle East Reader ، صادر في نيويورك سنة ١٩٦٩ ، ص ٤٠٧ .

٢ — وولتر لاكير ، **تاريخ الصهيونية** صادر في لندن ، سنة ١٩٧٢ ، ص ٢٣١ .

٣ — يوري افنيري **اسرائيل بدون صهيونيين : نداء من اجل السلام في الشرق الاوسط** صادر في نيويورك سنة ١٩٦٨ ص ٨٦ .

٤ — دايان ، المصدر السابق ، ص ٤١٧ .

٥ — نورمان بنتويتش ، **من أجل صهيون : سيرة يهودا مغنيس** صادر في فيلادلفيا في الولايات المتحدة سنة ١٩٥٤ ص ١٨٨ .

٦ — ألن ر. تايلر ، **العقل الصهيوني** صادر في بيروت عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية سنة ١٩٧٤ ص ٨٤ — ٨٦ .

٧ — ان رقم ٨٪ كحد أقصى هو رقم تقريبي فقط حسب تقدير الرابطة الاسرائيلية للحقوق الانسانية والمدنية ، وكذلك حسب تقدير عدد من المجموعات الاشتراكية المعادية للصهيونية وصحافيين اسرائيليين . وغالبية هؤلاء ٥ — ٨٪ هم يساريون وعدد صغير منهم فقط ناشط سياسيا .

٨ — موسى هس ، **رومة والقدس** صادر سنة ١٨٦٢ . كما نشر ليو بنسكر كتاب **التحرر الذاتي** سنة ١٨٨٢ . والكتابان من معالم الفكر الصهيوني ، وربما كان « مؤسس الصهيونية » تيودور هرتزل لم يطلع عليهما على ما يبدو عندما نشر كتابيه **دولة اليهود والارض القديمة — الارض الجديدة** في ١٨٩٥ و١٩٠٢ على التوالي .

٩ — الحاخام اهارون كاتسينيلبوجن هو الزعيم الروحي لطائفة نتوري كارتا في القدس . مقابلة أجريت في آب ١٩٧٥ .

١٠ — لاكير ، المصدر السابق ، ص ٤٠٧ . أنظر أيضا : ايسيدور ايشتاين ، **اليهودية** الصادر في بريطانيا سنة ١٩٥٩ ص ٢٩٥ . وقد أسس الحاخام هيرش الاورثوذكسية الجديدة وهي حركة صهيونية انفصالية معارضة لليهودية الاصلاحية .

١١ — تايلر ، المصدر السابق ، ص ٧١ .

١٢ — لاكير ، المصدر السابق ، ص ٤٠٩ .

١٣ — الحاخام ليب — هيرش ، **بديعوت احرونوت** ٢١/٢/١٩٧٥ ، ص ٨ (الترجمة الانكليزية في **ايسرالفت** ، العدد ٥٧ أول آذار ١٩٧٥ ، ص ١١) .

١٤ — لاكير ، المصدر السابق ، ص ٤٠٧ و٤٠٩ . اغودات اسرائيل لا زال ناشطا في السياسة الاسرائيلية على الرغم من انه حزب صهيوني ديني .

١٥ — المصدر ذاته ، ص ٤١٠ . هذا هو دو هان الذي « استنكر الصهيونية بعنف في برقيات الى الصحف البريطانية وهاجم تصريح بلفور » . وبعد مقتله في ١٩٢٤/٦/٣٠ أصبح شهيدا بالنسبة لليهود الاورثوذكس المعادين للصهيونية في القدس .

١٦ — تعتبر نتوري كارتا ان من التجديف استخدام اللغة المقدسة للشؤون الدنيوية . وفي أوساط اليهود السفارديين المتدينين فان اللغة المتداولة يوميا هي اللادينو بينما يستخدم الاشكناز اليديش .

١٧ — مقابلة أجريت في آب ١٩٧٥ .

١٨ — بالنسبة الى العالم والفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون الذي عاش في القرون

الوسطى فان مبدأ الشريعة اليهودية تتألف من ٢٤٨ مبدأ ايجابيا و٣٦٥ مبدأ سلبيا . وتعتبر نتوري كارتا ان تحريم أكل لحم الخنزير هو تماما مثل تحريم الزنى والقتل .

١٩ — هذا الاستشهاد وما يليه مأخوذة من مقابلة أجريت مع كاتسينيلبوجن في آب ١٩٧٥ .

٢٠ — ليب — هيرش ، المصدر السابق .

٢١ — المصدر ذاته .

٢٢ — اريبه بوبر (محرر) **اسرائيل الاخرى** ، صادر في نيويورك سنة ١٩٧٢ ، ص ٦ .

٢٣ — الاتحاد هو الاسم المعروف الذي أطلق على « الاتحاد العام للعمال اليهود في ليتوانيه وبولنده وروسيه » . وكان الاتحاد حزبا يهوديا اشتراكيا مستقلا منذ العام ١٩٠٧ حتى العام ١٩٤٨ . وأيد الاتحاد قومية يهودية في أوروبه الشرقية ولكنــه رفض الهوية القومية اليهودية في العالم أجمع . وقام قاوم الاتحاديون الصهيونية ووقفوا في العــام ١٩١٢ الى جانب المنشفيــك ضد البلشفيك . انظر دائرة **المعارف اليهودية** (جودايكا) الصــادرة في القدس سنــة ١٩٧١ ، المجلد الرابع ، ص ١٥٠٢ .

٢٤ — ذهب بوروشوف الى الولايات المتحدة في العام ١٩١٤ حيث عمل مع الاشتراكيــة الصهيونية التي لخصت أهم أفكارهــا في مقالته « برنامجنا » في العام ١٩٠٦ . وقد توفي في العام ١٩١٧ في كييف . المصدر ذاته ، ص ١٢٠٤ . أنظر أيضــا ناثان فاينستوك **الصهيونية ضد اسرائيل** الصادر في باريس سنة ١٩٦٩ ، ص ٢٧٢ — ٢٧٨ .

٢٥ — عن « برنامجنا » مقتبسة في بوبر ، المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

٢٦ — روبين افينوم (كامينر) . « اليسار الجديد في اسرائيل » ص ١ — ٣ . أنظر أيضا بوبر ، المصدر السابق ، ص ١٥٧ — ١٥٨ ، فاينستوك ، المصدر السابق ، ص ٣٥٩ .

٢٧ — بوبر ، المصدر السابق ، ص ١٥٤ — ١٥٥ .

٢٨ — المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية ، « **المبادىء الاساسية** » ، المعاد طباعتها في **ايسرالفت** ، العدد ٧ ، ١٩٧٢/١٢/٦ ، ص ٢ .

٢٩ — افنيري ، المصدر السابق ، ص ١٥٧ — ١٥٨ . وفي حديث معه في آب ١٩٧٥ كرر افنيري قوله بأنه يعتقد ان الصهيونيــة ايديولوجية ميتة . قال : « كانت الصهيونية تعني جمع المنفيين . ولكن الناس لا يأتون الى هنا » . أنظــر فاينستوك ، المصدر السابق ، ص ٣٦٤ .

٣٠ — موشيه ماخوفر انفصل عن ماكي في العام ١٩٦٢ وذلك قبل سنوات ثلاث من الانقسام الرئيسي في الحزب الشيــوعي الاسرائيلي الى ماكي (الاسم الاصلي) وراكح . ثم شكل المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية التي أصبحت معروفة باسم ماتصبن ، وهو اسم النشرة التي تصدرها المنظمة اسبوعيا .
ويعيش ماخوفر الآن في لندن . أنظــر افينوم ، المصدر السابق ، ص ٤ — ٥ . أنظر أيضا جون ك. كولي ، **آذار الاخضر ، أيلول الاسود** الصادر في لندن عام ١٩٧٣ ، ص ٢١١ .

٣١ — مقابلة أجريت في آب ١٩٧٥ .

٣٢ — المصدر ذاته .

٣٣ — المصدر ذاته .

٣٤ — المصدر ذاته .

٣٥ — فاينستوك ، المصدر السابق ، ص ٣١٣ .

٣٦ — افنيري ، المصدر السابق ، ص ١٦١ . أنظر دورون روزنبلم ، « ماذا حدث لحركات الشباب » ، **هآرتس** ١٩٧٥/٧/١٨ حول تشرب الصهيونية . أنظر أيضا شلومــو فرنكيل : « وماذا ؟ » وهي المقالة التي أعيدت طباعتها بالانكليزية في كتاب عدنان العهد (محرر) ، **الرابطة الاسرائيليــة للحقوق الانسانية والمدنية** الصادر عــن مركز الابحاث في بيروت سنــة ١٩٧٥ ، ص ١٦١ — ١٦٢ . ومقالة فرنكيل مثل صاعق على الكتابات العنصرية المعادية للعرب التي يجري تداولها علنا في الجامعات الاسرائيلية .

٣٧ — مقابلة أجريت في آب ١٩٧٥ .

٣٨ — أضاف شيمش : « لم يكن هناك أي درجة عالية من العداء للسامية في البلدان العربية . **ايسرالفت** ، العدد السادس ٢٠/١١/١٩٧٢ ، ص ٧ .

٣٩ — فيفين وأبو طبول ومحمد أسماء تمثل اليهودي الروسي واليهودي شمال الافريقي والفلسطيني العربي على التوالي . بوبر ، المصدر السابق ، ص ٣٠ .

٤٠ — المصدر ذاته ، ص ١١ (التأكيد في الاصل) . أنظر مكسيم رودنسون ، **اسرائيل : دولة استعمارية استيطانية ؟** الصادر في نيويورك في العام ١٩٧٣ . وتجدر الاشارة ان عدد اليد العاملة العربية الرخيصة بعد حرب ١٩٦٧ بلغ في اسرائيل مئة ألف عامل في الصناعة والزراعة .

٤١ — مقابلة أجريت في آب ١٩٧٥ .

٤٢ — نقلا عن تايلر ، المصدر السابق ، ص ١٠٣ . احاد هاعام هو الاسم السري المستخدم في الكتابة لرجل الاعمال آشر غنزبرغ . أنظر نفيل بريور ، **نيسي دومينوس** الصادر بالانكليزية عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت سنة ١٩٦٩ ، وخاصة الصفحات ١١٣ — ١٣١ للاطلاع على نظرة عن الاستيطان اليهودي الصهيوني واللاصهيوني في فلسطين قبل الانتداب وخلاله .

٤٣ — بوبر ، المصدر السابق ، ص ١٠ .

٤٤ — المصدر ذاته ، ص ١١ .

٤٥ — مقابلة أجريت في آب ١٩٧٥ .

٤٦ — انظر تيرنس سميث ، « اسرائيل تخطط لتنمية هائلة في الجليل » ، **نيويورك تايمز** ، ٨/١١/١٩٧٥ .

٤٧ — انتيري ، المصدر السابق ، ص ٦٣ .

٤٨ — بوبر ، المصدر السابق ، ص ١٩٢ .

٤٩ — هناك دليل كبير على هذا في التصريحات الصهيونية . وقد قال موشيه دايان على سبيل المثال لجمهور أميركي من المستمعين في جامعة كاليفورنيه في لوس انجيليس في آذار ١٩٧٥ ان اسرائيل القوية هي أمل اميركه الوحيد في منع التغلغل السوفياتي في الشرق الاوسط وثروته النفطية .

٥٠ — الحلف الشيوعي الثوري ، « المسألة الفلسطينية ومهماتنا الراهنة » ، القدس ، في آذار ١٩٧٤ ، ص ٣ .

٥١ — بوبر ، المصدر السابق ، ص ٢٠٩ .

٥٢ — المصدر ذاته ، ص ٨ — ١٠ .

٥٣ — أنظر اريك مارسدن (More And More Quit Fortress Israel) **صنداي تايمز** ٤/١٠/١٩٧٥ .

٥٤ — مقابلة أجريت في آب ١٩٧٥ .

٥٥ — المصدر ذاته .

٥٦ — مقابلات أجريت في آب ١٩٧٥ . أنظر أيضا كولي ، المصدر السابق ، ص ٢١٦ .

٥٧ — **ايسرالفت** ، العدد الثامن ، ٢٥/١٢/١٩٧٢ ، ص ٩ . حكم يوسف كوهين بالسجن ٣٥ يوما لرفضه الخدمة في المناطق المحتلة . **معاريف** ، ٩/٤/١٩٧٣ .

٥٨ — **ايسرالفت** ، العدد الثالث ، ٢٧/٩/١٩٧٢ ، ص ٣ .

٥٩ — أفينوم ، المصدر السابق ، ص ٣ .

٦٠ — المصدر ذاته ، ص ٤ — ٥ و ١٢ . ومقابلات أجريت في آب ١٩٧٥ .

٦١ — أنظر على سبيل المثال **هآرتس** ٧/٦/١٩٧٣ حول المظاهرات المشتركة « ضد الغزو » في ٤/٦/١٩٧٣ . وجدير بالملاحظة ان سياح كانت أكثر نشاطا في التظاهر والدعاية في المناطق المحتلة بما في ذلك احداث أدت ببعض الاعضاء الى السجن أكثر من أي مجموعات راديكالية أخرى معادية للصهيونية .

٦٢ — **ايسرالفت** ، العدد الحادي والخمسون ، ١/١٢/١٩٧٤ ، ص ٧ .

٦٣ ـ المصدر ذاته ، العدد الثالث والخمسون ، ١٩٧٥/١/١ ، ص ٢١ ، العدد الخامس والخمسون ، ١٩٧٥/٢/١ ، ص ٩ ، العدد السادس والخمسون ، ١٩٧٥/٢/١٥ ، ص ١١ . وفي هذه الاعداد الروايات الصحافية العبرية عن القضايا وتعليقات **ايسرالفت** عليها .

٦٤ ـ **مجلة الدراسات الفلسطينية** ، المجلد الثاني ، العدد الرابع ، صيف ١٩٧٣ ، ص ١٥٠ .

٦٥ ـ المصدر ذاته ، ص ١٢٨ .

٦٦ ـ **ايسرالفت** ، العدد الحادي عشر ، ١٩٧٣/١٢/١٥ ، ص ١٠ ـ ١١ .

٦٧ ـ **مجلة الدراسات الفلسطينية** ، المصدر ذاته .

٦٨ ـ أنظر **ايسرالفت** ، العدد الثامن ، ٢٥/١٢/١٩٧٢ ، ص ١ ـ ٦ ، وذلك للحصول على ترجمة انكليزية للتقارير الصحافية العبرية خلال هذه الفترة .

٦٩ ـ مقابلة أجريت في آب ١٩٧٥ .

٧٠ ـ **معاريف** ، ١٩٧٢/١٢/١٠ ، ص ٣ .

٧١ ـ مقابلة أجريت في آب ١٩٧٥ .

٧٢ ـ نعوم تشومسكي ، **السلام في الشرق الاوسط** ، صادر في نيويورك ، سنة ١٩٧٤ ، ص ١٧٤ . أنظر ايضا تقرير لجنة العفو الدولية ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ ، ص ٧٢ . وقد خفض الحكم على ليفنه أخيرا الى أربع سنوات ولا زالت لجنة العفو تتابع التحقيق.

٧٣ ـ **ايسرالفت** ، العدد الرابع والخمسين ، ١٩٧٥/١/١٥ ، ص ٤ .

٧٤ ـ أنظر على سبيل المثال **يديعوت احرونوت** ١٩٧٢/١٢/٨ ، ص ١ .

٧٥ ـ بوبر ، المصدر السابق ، ص ١٧٦ . هناك دليل على ان المؤسسة الاسرائيلية ترفض فورا فكرة القومية الاسرائيلية . أنظر الحاشية ٨١ .

٧٦ ـ أنظر تعليقات الصحافة الاسرائيلية حول معالوت في **ايسرالفت** ، العدد الحادي والاربعين ١٩٧٤/٦/١ ، ص ١٧٩ . انظر ايضا بيان الحلف الشيوعي الثوري ، الذي أعيد نشره في **ايسرالفت** ، العدد الثاني والاربعين ١٩٧٤/٦/١٥ ، ص ٩ ـ ١٠ .

٧٧ ـ الحلف الشيوعي الثوري ، المصدر السابق ، ص ٢٣ ـ ٢٥ . وتؤيد المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية أيضا الانسحاب الفوري من جميع الاراضي التي احتلت في العام ١٩٦٧ .

٧٨ ـ بوبر ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

٧٩ ـ الدكتور اسرائيل شاحاك . هذا الاستشهاد والسنة التي تليه منقولة عن شاحاك ويادليتسكي صرحا بهما في مقابلات أجريت معهما في القدس في آب ١٩٧٥ .

٨٠ ـ وقعت مجزرة كفر قاسم في ١٩٥٦/١٠/٢٩ حيث اعلموا بمنع التجول قبل نصف ساعة فقط من موعد تنفيذه وهو الساعة الخامسة حيث يبدأ الفلاحون بالعودة الى بيوتهم علما ان من الصعب الاتصال بهم من قبل المختار في نصف ساعة .

٨١ ـ كان هذا هو رأي المحكمة العليا الاسرائيلية في قضية البروفسور جورج تامارين في العام ١٩٦٩ . فقد رفضت المحكمة السماح له بتغيير قوميته من « يهودي » الى « اسرائيلي » على بطاقة هويته .

٨٢ ـ نقلا عن تايلر ، المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

٨٣ ـ لاكير ، المصدر السابق ، ص ٢٥٣ و٤٣٥ . ولاكير نفسه يتهم روزا لوكسمبورغ بكره الذات .

٨٤ ـ المصدر ذاته ، ص ٢٦٥ . تايلر ، المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

٨٥ ـ تشومسكي ، المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

٨٦ ـ صبري جريس ، **الحريات الديمقراطية في اسرائيل** ، الطبعة الانكليزية الصادرة عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت سنة ١٩٧٢ ، ص ٩٣ .

٨٧ — يوري دايفز ، « رحلة خارج الصهيونية » ، **مجلة الدراسات الفلسطينية** ، المجلد الاول ، العدد الرابع ، صيف العام ١٩٧٢ ، ص ٧٠ .

٨٨ — مقابلة أجريت في آب ١٩٧٥ .

٨٩ — أموس كينان « Between Gaza And TEL AVIV , De Facto, We Already Live In a Bi - National State »

في كتاب غاري في. سميث (محرر) ، **الصهيونية : الحلم والحقيقة** الصادر في لندن سنة ١٩٧٤ ، ص ١٨٦ .

٩٠ — **هآرتس** ، ١٩٧٠/٤/١٩ ، نقلا عن بوبر ، المصدر السابق ، ص ٢٢ .

٩١ — **هاعولام هازيه** ، ١٩٧٠/٥/٢٠ ، نقلا عن المصدر ذاته .

٩٢ — هذا الاستشهاد والذي يليه من مقابلة أجريت في آب ١٩٧٥ .

٩٣ — العمد ، المصدر ذاته ، ص ٦٤ .

٩٤ — كولي ، المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

٩٥ — العمد (محرر) ، **الرابطة الاسرائيلية للحقوق الانسانية والمدنية** ، المصدر السابق ، ص ٥٩ .

٩٦ — يقوم هذا الحكم على أساس عدد من الاحاديث مع فلسطينيين عرب في اسرائيل والمناطق المحتلة أجريت منذ العام ١٩٧٢ .

٩٧ — العمد ، المصدر السابق ، ص ٦٦ .

تقنية المقاتل الفلسطيني

طارق الصواف

التقدم التقني في الكيان الصهيوني موضوع تناولته أبحاث ودراسات كثيرة مستفيضة أبرزت من خلالها وجه التفوق التقني الاسرائيلي بالمقارنة مع المستوى التقني المتخلف للعالم العربي . غير أن هذه الموضوعة تتناول فقط ذلك الجانب الذي يبين الفارق الكبير بين المستوى التقني للمقاتل الاسرائيلي وبين المستوى التقني المتدني للمقاتل الفلسطيني مع بحث السبل الواجب سلوكها لردم الفجوة التقنية بينهما أو لتقليل اتساعها على الاقل ، وذلك خدمة لمسيرة الثورة وهدف التحرير .

وقبيل الغوص في بحر هذا البحث الشائك علينا أولا تعريف الخلفية التقنية موضوع هذا البحث مع توضيح الفارق الكبير بينها وبين التدريب القتالي واستيعاب السلاح ، لأن الامر يلتبس على الكثير من الخاصة والعامة نظرا لوجود مفاهيم خاطئة لديهم تخلط بين الخلفية التقنية والتدريب العسكري واستعمال السلاح . ومع ان الخلفية التقنية الضرورية للدول الصناعية واضحة المفهوم عموما ، الا ان المستويات القيادية في الشعب الفلسطيني ما تزال بحاجة الى تفهم عميق ودقيق لمفهوم « الخلفية التقنية » لأن بيد هذه المستويات القيادية وضع المخططات القادرة على خلق واقع جديد في هذا المجال ، بدل الخلط القائم حاليا ، والذي يعتبر التدريب العسكري العادي للمقاتل الفلسطيني هو البديل للخلفية التقنية ، أو هو الخلفية التقنية عينها .

نقصد بالخلفية التقنية في هذا البحث ، ذلك القدر الكبير من المهارة والكفاءة المتمثلة في القدرة على استنباط الادوات وتطويرها ، وتلك المعرفة المبنية على مبادىء ونظريات علمية سليمة ، والمكتسبة من مجمل النشاطات اليومية من خلال الآتي : أ) الهوايات والممارسات العملية اليدوية للوالدين والكبار لدى انجاز المتطلبات العملية الضرورية في المنزل كالنجارة والحدادة والطلاء واصلاح السيارة الخ .. ، ب) التعليم المهني في المدرسة الابتدائية والمتوسطة والثانوية ، ج) النشاطات العلمية ـ العملية في الجمعيات والاندية العلمية ، د) العمل اليومي في المصنع ، هـ) العمل في المختبرات ومراكز الابحاث . ان جميع هذه الخبرات التقنية هي خبرات غير عسكرية ولا تمت الى التدريب والقتالية العسكرية بأية صلة مباشرة ، وهي ما ندعوها بالخلفية التقنية . ان هذه الخلفية هي عبارة عن خبرات عملية يكتسبها المقاتل من خلال الممارسة المتواصلة في الحقول المهنية المختلفة ومن الضروري جدا أن يمتلكها المقاتل الفلسطيني الآن في مستوياتها البسيطة والمتوسطة ، قبل أو خلال مراحل تدريبه العسكري كي يتمكن مقاتل الثورة من مقارعة المقاتل الاسرائيلي والتغلب عليه .

نبتدىء أولا ببحث أسباب وظروف التفوق التقني لدى المقاتل الاسرائيلي فنجد أن

الكثير من الجنود الاسرائيليين هم من المهاجرين الذين حملوا معهم تقنيات أوروبا وأميركا ، بينما لا تتوفر مثل هذه الخبرات للمقاتل الفلسطيني نظرا لعدم تمرسه بتقنية متقدمة من ذات الحجم والمستوى . كذلك ، فان اتساع القاعدة الصناعية ــ الزراعية المكننة في الكيان الصهيوني يجعلها تستوعب نشاطات الغالبية العظمى من الجنود الاسرائيليين في أوقات السلم فتساهم دون ريب في تطوير القدرات التقنية المختلفة للمقاتل الاسرائيلي . وفي المقابل ، لا تتوفر للمقاتل الفلسطيني مثل هذه القاعدة الصناعية ــ الزراعية ولا حتى دونها بمراتب نظرا لفقدان الارض الفلسطينية التي يمكن أن تقوم عليها مثل هذه القاعدة ، ونظرا لفقدان التوجه الى هذه القاعدة في الوطن العربي أو في خارجه .

اضافة الى هذا ، تقدم المؤسسة العسكرية الاسرائيلية لجنودها التخصص التقني الحربي من خلال برامج التدريب المتواصلة والمتطورة ، فيضيف ذلك الى المستوى التقني للمقاتل الاسرائيلي قدرا كبيرا من المعرفة والخبرة والقدرة . وفي الجهة الاخرى لا يتوفر مثل هذا التخصص التقني الحربي للمقاتل الفلسطيني لكونه لا ينال الا القدر المحدود من التدريب العسكري دني المستوى التقني المتواضع .

جذور مشكلة التخلف التقني الفلسطيني

كانت فلسطين في العهد العثماني مجتمعا زراعيا متخلفا ، وعندما حل الانتداب البريطاني ، لم يتح للشعب الفلسطيني فرص التعرف على العلوم التطبيقية (التكنولوجيا) وذلك بتوجيه من مخططاته الاستعمارية التي كانت تمهد الطريق لتسهيل تسليم فلسطين لقمة سائغة للصهيونية العالمية . وبعد النكبة عام ١٩٤٨ بدأ الكفاح اليومي الفلسطيني من أجل لقمة العيش بعد أن حرم على مجموعات الشعب الفلسطيني التي أبعدت عن أرض الوطن جميع مقومات كسب العيش الرغيد . اذ فقد هؤلاء معظم الارض وكامل رأس المال واتجهوا بأنظارهم الى الحكومات العربية على أمل أن تسترجع لهم فلسطين . لكن الانتظار طال ومرت الشهور وبعدها السنوات ، ولم يتحقق شيء من وعود الحكومات العربية باسترجاع فلسطين ... وفي أثناء رحلة الشتات خارج الوطن لم يجد الفلسطيني أفضل من العلم وسيلة لتحصيل قوت يومه والاستعداد لتحرير فلسطين .

كان طلب العلم في البداية عشوائيا دونما تخطيط مسبق نظرا لافتقاد الشعب الفلسطيني الى قيادة سياسية قادرة على توجيه العلم الوجهة العملية الفضلى . وكانت نتيجة السنوات العشرين الاولى التي أعقبت النكبة ارتفاع هائل في اعداد المتعلمين الجامعيين من الفلسطينيين مع اهمال مطبق للتعليم التقني بكل فروعه . وقد غطت هذه الظاهرة للمنهج التعليمي ليس فقط الشباب الفلسطيني بل شملت معظم الاقطار العربية . وانعكست آثار هذا الترف التعليمي على الاقتصاد القومي في الوطن العربي وعلى الأخص قطاعي الصناعة والزراعة المكننة فتركتهما في حالة مزرية من التخلف . كما أن ذلك انعكس بالتالي على القدرة العسكرية للوطن العربي . أما الشعب الفلسطيني الذي افتقد معظم الارض ، فقد كان معفيا من الآثار المباشرة للعلم العالي النظري المفرط الضرر للوطن العربي .

بعد قيام الثورة عام ١٩٦٥ ، بدأت تظهر تدريجيا مضار الاسترسال في متابعة التعليم العالي النظري للشعب الفلسطيني . فالثورة تواجه الآن عدوا شرسا ومتقدما تقنيا بينما المقاتل الفلسطيني الذي يشكل العامود الفقري للثورة يتخلف تقنيا عن عدوه

بمراحل . ولم تتنبه قيادة الثورة حتى الآن ، على ما يبدو ، الى هذا الفارق الكبير في التخلف ، معتقدة ان التعليم الجامعي الذي ناله الفرد الفلسطيني هو البديل او الرديف للتقنية الفلسطينية المفتقدة . ان هـذا الاعتقاد خاطىء جملـة وتفصيلا ، لأن التعليم الجامعي النظري لن يفيد في شيء لمواجهة تقنية المقاتل الاسرائيلي المتفوقة .

اما أسباب الابتعاد الفلسطيني عن امتلاك الخلفية التقنية فهي مختلفة ومتعددة منها :

أولا : عدم توفر الأرضية الصناعية في الوطن العربي والتي يمكن أن تتولى تخريج الكوادر التقنية الفلسطينية على مختلف المستويات بدءاً من الباحث في المختبر والذي يكون عادة في أعلى الهرم ونزولا الـى أقل العمال مهارة في هـذه القاعدة الهرمية . فالصناعة ، والزراعة المكنتان الى حد بسيط ، هما الوسيلتان الوحيدتان لخلق الخلفية التقنية لدى الكوادر المتخلفة المتنوعة ، وكانتا ولا زالتا متخلفتين الى حد متدني ينتفي معها اي وجود عملي لهما في معظم الاقطار العربية . لهذا لم يكن من السهل تخريج الكوادر التقنية . وفي مقابل ذلك حصلت محاولات هزيلة وسقيمة من خـلال التعليم المهني في معاهد ومدارس رديئة البرامج والمستوى والنتائج أمثال معاهد وكالة غوث اللاجئين للتعليم المهني وغيرها .

هنا يجب لفت نظر الكثير من قياديي الثورة الفلسطينية ومن قياديي الوطن العربي الى استحالة الحصول على التعليم التقني من خلال المعاهد العليا والجامعات فقط . فالتقنية تكتسب من خلال الممارسة اليومية أثناء العمل في المصانع ومراكز الابحاث لتطبيق النظريات والعلوم التي تدرس في تلك المعاهد والجامعات والحصول من ثم على « انتـاج صلـب » HARD - WARE ذي فائدة عمليـة في حياتنـا اليومية . امـا في الجامعـات فتكتسب فقـط العلـوم النظريـة ولا تكتسب التقنيـات اطلاقا . هذا مـا يجب أن يعيـه قـادة الثورة الفلسطينية وبقيـة قـادة الوطن العربـي . فكـم هنـاك من حملـة الشهادات العاليـة في العلـوم والرياضيات والهندسة وغيرها من التخصصات ممن لا يستطيعون صنع او تطوير اي جهاز عسكري تفيد منه الثورة . كم هناك من يحمل شهادة دكتوراة في فيزياء البصريات ولا يستطيع مثلا ، صنع منظار ليلي يعمل على أساس نظرية « تكبير الضوء المنبعث من النجوم للـ IMAGE INTENSIFIER » وهو جهاز يحتاجه المقاتل الفلسطيني بشكل ملـح في قتاله الليلي مع العدو . وكم من مهندس وحامل دكتوراه في الهندسة الميكانيكية ممن لا يستطيع اقامة مصنع صغير لانتاج الاسلحة الشعبية المفيدة في حرب الشعب التي يفيد منها المقاتل الفلسطيني في صراعه الراهن مع العدو الاسرائيلي .

لكل ما ذكرنا من تخلف في الصناعـة والزراعة في الوطن العربي وطغيان التعليم النظري المجرد ، تبقى الخلفية التقنية للمقاتل الفلسطيني متخلفة الى هذا الحد .

ثانيا : النظرة الاجتماعية في أوساط الشعب الفلسطيني (والعربي) التي تحارب اي توجه حقيقي نحو التقننة وهي مشكلة موروثة في كافة انحاء الوطن العربي ، اذ يعتبر العمل اليدوي قذرا ومهينا ، لذا يتجـه الشباب الطموح الـى التعليم النظري المجرد كالعلوم والآداب وادارة الاعمـال والصيدلة والطب والهندسة وكلها بالتالي كفاءات تصب في حقل الخدمات كالتعليم والانشاءات والتجارة والصحة العامة وتبتعد كل البعد عن التقننة والعلوم المطبقـة ، بدل اتجاهه الـى اكتساب الخبرات التقنية التطبيقية .

ثالثا : افتقاد القيادة السياسية المخططة لتقننة الشباب الفلسطيني وبالتالي تقننة المقاتل الفلسطيني . وهنا لا بد لي من ان اشير في هـذا الصدد الـى الدور المقصر للمؤسسات الفلسطينيـة المتخصصة في منظمـة التحرير الفلسطينية ، وفي المراكز القيادية الاخرى الموجهـة في الثورة ، فنرى ان الاهتمامات بالتقننة تتراوح بين عدم التأييد المطلق لهذا التوجه وبين المعاضدة المرحلية في بعض المناسبات والاحداث فقط .

رابعا : واد التراث التقني للشعب العربي (ومن ضمنه الشعب الفلسطيني) خلال عهود الانحطاط المختلفة . أن الظروف التاريخية التي مرت على الشعب العربي بدءا من عهود المماليك مرورا بغزوات التتر فالحكم العثماني ، أحدثت انقطاعا تاريخيا في تراث الشعب العربي والفلسطيني من الناحية التقنية (الى جانب الانقطاع في النواحي الحضارية الاخرى) . مثلا صناعة الفولاذ كانت موجودة في دمشق منذ قبل الف سنة ولا زلنا نتغنى بها حتى يومنا هذا . ومثال حي على ذلك السيوف الدمشقية الشهيرة المصنوعة من الفولاذ الممتاز ، فقد صنعها أجدادنا منذ أكثر من الف سنة واستعملوها في حروبهم وانتصاراتهم المجيدة . وعلى رغم ذلك نرى وللأسف الشديد ان العديد من الكليات الحربية في بعض الدول العربية تستورد في أيامنـا هذه سيوف خريجيها من الضباط من دول أوروبا وأميركا . كذلك الحال مع العديد مـن الصناعات الكيماوية والمعدنية الاخرى وهي صناعات مارسها أجدادنا في حقبات التاريخ الغابر .

ان واد التراث التقني العربي خلال عهود الانحطاط أقام بين الشعب العربي ومن ضمنه الشعب الفلسطيني ، وبين تاريخه الحضاري التقني جدارا من الجهل وعدم الثقة بالنفس ، فترك الجميع خبراتهم التقنية واتجهوا الى النظريات العلمية البعيدة كل البعد عن حاجات شعبنا العملية في يومنا هذا . ان انقطاع ذلك الرابط الروحي مع التراث أوصلنا اليوم الى واقعنا المتطرف في التنظير والعلوم غير التطبيقية .

حاجة المقاتل الفلسطيني الى خلفية تقنية أفضل

ازاء الفارق الكبيـر في المستوى التقنـي بين المقاتـل الفلسطيني وعدوه المقاتل الاسرائيلي ، تحاول الثورة الفلسطينية من خلال مقاتليها ردم هذه الهوة الكبيرة . لكن البعض يرى أن الوسائل المتبعة لتحقيق ذلك لا تكفـي ، ذلك ان الفارق التقني بين المقاتل الفلسطيني والمقاتل الاسرائيلي لا زال كبيرا ، وطبعا يرى البعض أن الجهود المبذولة حاليا لا تؤدي الى نتيجة ايجابية في المدى القصير ، خاصة وان جانبا منها يركز على البطولات الاسطورية وهي كما يراها هذا الفريق لا تحقق الانتصار الحاسم في معركة التحرير الدائرة الآن .

ولنأخذ شعب فيتنام مثلا على ذلـك . ان هذا الشعب لم يستطع مقاومة الآلـة الحربية المتقدمة والمتطورة جدا بالبطولات والملاحم وحدها . وهنا يجب التوضيح ان التقنية السوفييتية بأكملها (باستثناء الاسلحة الذرية والطيران) كانت وراء شعب فيتنام في انتصاره المظفر . وعلـى سبيل المثـال لا الحصر استعمل الفيتناميون صواريخ (سام ٧) المقاومة للطائرات منذ ما قبل عام ١٩٦٨ وكانت هذه الصواريخ قد تم انتاجها حديثا . كمـا وان صواريخ (سام ٢) كانت بالمرصاد لغـارات القاذفات الاميركية « ب ٥٢ » فعملت هذه على اسقاط العشرات منهـا . كذلك اعتمد الفيتناميون ، في مقاومة الحرب الكيمائية على أرفع مستويات التقنية السوفياتية وهناك العشرات من

الشواهد والأدلة الاخرى التي تثبت بدون أدنى شك وقوف التقنية السوفييتية بأكملها وراء النجاحات الباهرة التي حققتها الثورة الفيتنامية .

نفهم مما أوردناه ان ثورة فيتنام لم تنتصر فقط بالبطولات بل وبالدعم التقني المتقدم من قبل الاتحاد السوفييتي . بينما نرى المقاتل الفلسطيني لا زال مكشوف الظهر تقنيا ويخوض كفاحه ونضاله دون اي دعم يذكر من قبل الدول العربية والصديقة الاخرى . فهو يفتقد الى القدر الكافي من الخلفية التقنية المطلوبة . وقبل البحث في وسائل تخطي عقبة التخلف التقني علينا توضيح حاجة المقاتل الفلسطيني الحقيقية لمثل هذه الخلفية .

خلال المرحلة النضالية الراهنة لا يحتاج المقاتل الفلسطيني في الواقع الى خلفية تقنية بالغة انتطور والتعقيد نظرا لعدم امتلاك الثورة الفلسطينية للآلة الحربية المعقدة التي يمكن ان تتطلب مثل هذه الخلفية المتطورة . فالمقاتل الفلسطيني ليس بحاجة لأن يكون الآن على نفس المستوى التقني للمقاتل الاسرائيلي الذي يمتلك تلك الآلة الحربية البالغة التعقيد . انه بحاجة الآن الى خلفية تقنية متوسطة المستوى تؤهله حاليا لاستخدام الأسلحة المتوفرة والتي يمكن توفرها في المستقبل القريب الى جانب استخدامه أسلحة حرب الشعب التقليدية البسيطة . انه بحاجة لامتلاك الحد الادنى من هذه الخلفية كي يستطيع أن يتعامل بفعالية تامة مع وسائله وظروفه القتالية الحالية أو المستقبلية في المدى القريب والأبعد . كذلك انه بحاجة الى مستوى من التقننة تؤهلـه للتعامل مع أسلحة العدو الفردية والجماعية القليلة التعقيد كي يستطيع استعمالها حين يغنمها خلال معاركه مع العدو .

ان الخلفية التقنية الحالية للمقاتل الفلسطيني لا زالت أبعد ما تكون عن المستوى المطلوب . ولنأخذ مثلا كيفيـة تعامل المقاتل مـع أسلحته المقاومة للدروع من نوع (أر. بي. جي-٧) ، وهي من الاسلحة الرئيسية في الصراع ، فنجد التردي المريع في قدرته على استعمال هذا السلاح . أما الانتصارات التي حققها باستعماله هذا السلاح في معارك المواجهة مع آليات العدو والنظام الاردني فلم تكن بفعل استخدامه الجيد لهذا السلاح المقـاوم للدروع بقدر مـا كانت بفعل طبيعـة أرض المعركـة (داخل المدن) والاعداد الكبيرة التي توفرت من هذا السلاح وكلها زادت من كفـاءة السلاح ونتيجة المـلاحم والبطولات الأسطورية الفدائية التـي تحققت بالدماء والتضحيات الغالية . ففي معارك جرش والأحراش واجه المقاتل دبابات النظام على مسافة أقل من عشرة أمتار معرضا نفسه لخطر اصابته بشظايا سلاحه وهو لا يدري ان استعمال الأر. بي. جي ٧ على هذه الصورة هو الخطأ بعينه . فقد كانت قذائفه تتساقط على دبابات وآليات النظام دون أن تنفجر ودون أن تسبب لها أي أذى . فنجم عـن ذلك ردات الفعل النفسية المذهلة .

ولو توفرت لهذا المقاتل في تلك الحقبـة الخلفية التقنيـة المناسبة ، وفهم مسبقا ميكانيكية سلاحه ، بالعمق والقدر الوافيين ، لارتد بضعـة أمتار الـى الوراء لتكون المسافة بينه وبين الهدف لا تقل عن تسعة عشر مترا (وهي المسافة الدنيا التي يمكن للقذيفة ان تنفجر بعدهـا) ولدمرت قذائفه أهدافهـا ولأثمرت تضحياتـه وبطولاته اللامتناهية .

الى جانب استيعاب المقاتل لسلاحه وسلاح عدوه من خلال خلفية تقنية مناسبة ، هناك ضرورات أخرى تحتم وجود مثل هذه الخلفية لديـه منها صيانة السلاح على أسس علمية صحيحة . ان صيانة السلاح والعتاد من قبل المقاتل لأمر في غاية الاهمية

على الاخص بالنسبة لواقـــع الثورة الفلسطينية ومعاركها الدائرة على امتداد الوطن المحتل وخارجه .

مثلا ، لنأخذ تخزين السلاح والعتاد فهو من لا يتم بالطرق العلمية الصحيحة ، لأن التخزين الجيد هو أولـــى الخطوات نحو المحافظة علـــى ميزات وخصائص السلاح والعتاد . والواقع أن مقاتلي الثورة لا ينتبهون الى أهمية هذا الموضوع . فالرطوبة والأملاح والاوساخ المختلفة هي من ألد أعداء السلاح والعتاد ، وما الصـــدأ والتآكل وضعف او فشل المواد المشتعلة والمتفجرة الا نتيجـــة تعرض الاسلحة والاعتدة الى مثل هذه الظروف المناخية غير الملائمـــة . فلو توفرت الخلفيـــة التقنية الجيدة لدى المقاتل لفهم مبكرا الاضرار التي تلحق بسلاحه وعتاده نتيجـــة تعرضها لهذه الظروف المناخية السيئة . ولو كان يعرف كيف تتفاعل الرطوبة والامـــلاح والاوساخ مـــع الفولاذ والبارود والنحاس الاصفـــر لاهتم اكثر واكثر بالتعليمـــات العسكرية التي تعطى له من قبل قادته ومدربيه حول تخزين السلاح والعتـــاد وعمل على تنفيذهـــا بدقة فيحفظ بذلك سلاحه وعتاده بصورة جيدة .

هناك ايضا الظروف الميكانيكية السيئة التي تتعرض لها كل من الاسلحة والاعتدة نتيجة الاستعمال الخاطىء أثناء المعارك أو التمارين . ان أكثر هذه الظروف الميكانيكية الخاطئة التـــي تتعرض لها الاسلحة والاعتدة الحربيـــة تؤدي مع مرور الوقت الى تلف السلاح جزئيا او كليا . فان تعريض الاسلحة والاعتدة الـــى الضغوط والاوزان الكبيرة المختلفة يسبب التوائها وحدوث تغيير في احجامها ومقاساتها مما يجعلهـــا غير صالحة للاستعمال بعد مدة . وكم مـــن حوادث خطيرة اودت بارواح عدد من المقاتلين ونجمت عن الجهـــل المطبق لابسط القواعد الفيزيائيـــة ــ الميكانيكية التي تؤثر علـــى عمل السلاح وعتاده ، ويرجع السبب فيها الـــى افتقار المقاتل للذهنية العلمية ــ العملية او بعبارة اخرى للخلفية التقنية المطلوبة .

ناحية أخرى هامة تستوجب الاهتمام الجاد الكامل من قبـــل الاجهزة المسؤولة في قيادة الثورة هي مسألة اصلاح السلاح خلال المعارك أو التمارين . فالجندي الاسرائيلي الذي يتولى قيادة دبابة ، يستطيع اصلاح بعض الاعطال التي تطرأ على دبابته أثناء القتال وبهذا يعمل علـــى عودتها للعمل فورا خلال احتدام المعركة ، بينما نجد المقاتل الفلسطيني الذي يرمي على مدفع من عيار ١٠٦ ملمتر غير المرتد ، لا يستطيع اصلاح بعض الاعطال التي تطرأ على مدفعه أثناء القتال . ففي معارك أيلول استعملت هذه المدافع لفترة زمنية غير معقولة . فحدث تآكل في بعض أجزائها نتيجة لارتفاع حرارتها في داخل الصبطانة والصعوبات التيكانت ترافق عملية اصلاحها ، وهو عامل كانت له نتائج سلبية على المعركة . ان كل ما كان مطلوبا من المقاتل هو قليل من الخلفية التقنية التي تمكنه من فـــك بعض البراغي والصواميل واستبدال الاجزاء المعطوبـــة بأخرى متوفرة ، تعود بعدها المدافع الى العمل من جديد وبسرعة ، فتتغير كفة المعركة الملتهبة لصالح الثورة .

كذلك هنالك ورش التصليح المركزية والميدانية المتنقلة ، وكلها تحتاج الـــى كوادر تكون خلفياتها التقنية مناسبة بحيث يتولى هؤلاء كافـــة الاصلاحات التي تشتمل على العمليات التي يكون لهـــا علاقة بقطع الغيار غير المتوفرة لدى الثورة . اضافة الى ذلك هناك حاجة دائمة لتصنيع العديد من الاسلحة والاعتدة التي تحتاجها الثورة والتي تكون بحاجة ماسة اليها ولا يمكنها الحصول عليها من الخارج . ان المصانع الصغيرة التي اقامتها الثورة (ورد ذكرها في بحث التصنيع الحربي للثورة الفلسطينية الذي صدر

في جريدة الغارديان البريطانية عام ١٩٧١) او تلك التي يمكن ان تقوم بها في المستقبل بهدف تصنيع الاسلحة الشعبية البسيطة ، او تلك الاكثر تقدما ، تحتاج كلهـا الى الكوادر الفنية من ذوي الخلفيات التقنية التي تؤهلهم للقيام بمثل هذه المهام .

للأسباب السالفة الذكر ، يتعين على قيادة الثورة بحث الوسائل والسبل التي تمكن المقاتلين من زيادة خلفياتهم التقنية ورفعها الى المستويات المطلوبة في أقرب وقت ممكن للتغلب على كافة المشاكل التقنية التي تعترض سبيل الثورة ومقاتليها . ومن خلال هذه المنطلقات الموضوعية تعالج حاجات المقاتل التقنية في مرحلة ما قبل التحرير . أما على فرض ان الظروف والاوضاع أدت الى انحسار دور المقاتل الفلسطيني في المرحلة المقبلة لسبب أو لآخر ، كأن تقوم الجيوش العربية لوحدها بمهمـة التحرير ، فان اكتساب المقاتل الفلسطيني للخلفية التقنية من شأنه أن يحولـه بعد التحرير الى كفاءة تقنية تتضاعف قيمتها في مرحلة بناء دولة فلسطين المحررة .

التنظير التقني والقيادات الفلسطينية

وضع كثير من المنظرين في حقل التحديث التقني دراسات عديدة على أمل ردم الفجوة التقنية بين اسرائيل والشعب العربي . وكان أسوأ ما في الامر ان الغالبية العظمى من هؤلاء المنظرين هم ممن تنعدم لديهم الخبرة التقنية الحقيقية ، وكل ما أنجزوا كان مجرد وضع تصورات نظرية محضة لحل مشاكل التقننة العربية ، ولكنهم كانوا دون معرفة حقيقية بهذه المشاكل بسبب عدم معايشتهم لها . والشيء المؤسف أن يلقى هؤلاء الآذان الصاغية من الحكام والمسؤولين العرب الذين باتوا يأخذون بآرائهم . ان كل ما يتمتع به هؤلاء هو شهاداتهم المدرسية وهي لا تكاد تكفي لنقل آرائهم وترجمتها علـى أرض الحقيقة والواقع ، لهذا لا يزال الوطن العربي تائها في مزالق هذه التنظيرات الضيقة دون الحصول على الحلول العملية لمشاكل التحديث التقني العربي . وكـان نصيب القيادة الفلسطينية بفصائلها المختلفة من هذا السيل العارم من التنظيرات الضيقة ، وافرا ، وانعكس ذلك على معظم المجالات التقنية داخل الحركـة الفدائية فأبقى ظهر المقاتل الفلسطيني مكشوفا من الناحية التقنية فلم تستطع كوادر المقاتلين الاستزادة من الخبرات التقنية المتوفرة ولو على نطاق محدود خـارج طوق حملة الشهادات ، وبقيت هذه الكوادر محتاجة لهذه الخبرات في قتالها اليومي مع العدو وبقيت المشاكل الناجمة عن افتقاد التقننة دون حلول .

نقصد من هذا النقد ، ضرورة اجراء تغيير جذري في منهجيـة القيادة الفلسطينية بالنسبـة للخلفيـة التقنيـة للمقاتل بشكل خـاص وللثورة الفلسطينيـة بشكـل عـام . ان حصول القيـادة الفلسطينيـة علـى جهـاز استشاري ــ تنفيذي كفوء يتمتع بمستوى عـال من الخبرة التقنية ــ العسكرية ، يساهم الى حد بعيد في شروط التوفيق بين التخطيط لرفع الكفاءة التقنية ــ القتالية للمقاتل وبين التخطيط لرفع المستوى العملياتي القتالي المتناسب تدريجيا مع تنامي تلك القدرة . هـذا من ناحية مرحلية آنية . اما على المدى البعيد ، فيترتب على القيادة السياسية الفلسطينية من خلال جهازها الاستشاري ــ التنفيذي المقترح ، التخطيط تقنيا للمدى البعيد على أساس معالجة جذور التخلف التقني للمقاتل الفلسطيني بشكل خاص وللشعب بشكل عام . وذلك يشمل بالضرورة نواحي حياتية متعددة للشعب الفلسطيني بأكمله في معظم مناطق تواجده الرئيسية .

أن من يتتبع مجمل نشاطات القيادة الفلسطينية في يومنا هذا ، يجد أنها منشغلة

باستمرار عن كل هذه التوجيهات المطروحة وذلـك بفعل تسارع الاحداث السياسية والقتالية ولهذا يصعب عليها حتـى الآن تخصيص قدر معقول مـن مجهوداتها لهذا الغرض . ومن الامور المزعجة هو تصور القيادة المسبق لهذه المسألة على انها مشكلة لا يمكـن ضبط ملامحها ومعاييرها ، أو اعطاء أحكـام سديدة بشأنها . غير ان تلك التصورات ليست بالضرورة صائبة اذ انه يمكن وضع تصور لجميع خطوطها العريضة والتفصيلية دون اقتراف اخطاء كبيرة قاتلة .

حدود ومقاييس الخلفية التقنية المطلوبة

تعترض قيادة الثورة مشاكل يومية كثيرة من نوعيات مختلفة ، اذا ما أرجعناها الى أسبابها الاساسية ، نجد أنها بأغلبيتها الساحقة تعود الى أسباب التخلف التقني للشعب الفلسطيني بشكل عام وللمقاتل بشكل خاص . وينجم عن هذه المشاكل عادة ، مشاكل وليدة جديدة قد تكوّن على المدى البعيد خطرا يهدد الروحية القتالية للثورة . ولنأخذ نموذجا من هذه المشاكل مـن نوع ذي تفاعل متسلسل ونجزئه الى عناصره الاساسية الصغيرة ، فنجد أن أسبابه تكمن عـادة في النقص الكبير في الحدود الدنيا للخلفية التقنية لدى جميع أطراف هذا التسلسل . أما النموذج فسيكون مقتصرا أيضا على سلاح المقاتل المضاد للدروع من نوع (ار. بي. جي-٧) . اذ هنـاك حوادث كثيرة انفجر فيها هذا القاذف لدى استعماله وقتل الرامي أو الحق به أذى عظيما . وبعد كل حادثة كانت الاخبار تنتشر عنها كانتشار النار في الهشيم وتأخذ الأقاويل طريقها الى ألسنة الخاصة والعامة من الناس . فهناك فلان يجزم أن « هذا السلاح الروسي » سيء ويجب ألا يستعمل بعد الآن . وهناك آخر من يعزو السبب الى القذائف السيئة التي تنفجر وتدمر القاذف والرامي معا . وغيره من يؤكد وجود جواسيس في الثورة يتلاعبون بالقذائف لتنفجر هكذا لدى استعمالها ، الى آخر هذه السلسلة الطويلة من الأقاويل والشائعات . ومنعا لهذه التقولات من أن تنتشر وتؤذي من خلال تداولها على هذا الشكل ، كانت تتألف مباشرة بعد كل حادثة لجـان تحقيق للكشف عن ملابسات الحادث والظروف التي أحاطت به . ولشدة دهشة أعضاء هذه اللجان ، كانت أسباب الاعطال دائما بسيطة أو حتى تافهة ولكنها كانت كافية لاحداث الضرر الجسيم بالسلاح وبمن يستعمله . ومعظم الاسباب كانت ، برأي أعضاء هذه اللجان لا تعدو عن كونها نقصا في المعلومات المقدمة للمقاتل حول كيفية استعمال هذا السلاح ولم تكن اطلاقا بسبب أعطال في السلاح أو في عتاده . كـان النقص ينحصر في فهم المقاتل استعمال السلاح أولا ، وفي الدرجة الثانية في فهم المقاتل للنظرية العلمية العملية لطبيعة السلاح . كانت العلة تبدأ في المدرّب اما لتقصيره وعجزه في ايصال تلك المعلومات الى المقاتل وترسيخها في ذهنه ، واما بسبب عدم استيعاب المدرب للسلاح ولطبيعـة استعماله بالشكل الصحيح . أما الجانب الآخر من المشكلة فكان المقاتل نفسه ، فهو اما انه لم يستطع استيعاب السلاح واما انه من النوع المهمل الذي لا يقيم وزنا لتلك التعليمات . وهذا الكلام عن النقص في التدريب واستيعاب السلاح واكتساب المعلومات لدى المدرب والمقاتل معا ، سليم وصحيح ، ولكن اذا عدنا الـى الاسباب الحقيقية التـي تكمن وراءه نجد انه يعود الـى النقص في الخلفية التقنية لكليهما معا . فلو توفرت لهمـا الخلفيات التقنية في حدودها الدنيا المطلوبة ، لاستطاعا استيعاب السلاح على الوجه السليم ، ولترسخت في ذهنهما هذه المعلومات بشكل سليم .

اذن العلة هي دائما في تلك الخلفية التقنية المتخلفة المستوى . والسؤال الذي يطرح

نفسه الآن هو ، ما هي حدود وملامح ومعايير هذه الخلفية المطلوبة لكل من المدرب والمقاتل ؟

ان الاجابة عن هذا التساؤل ليست من البساطة بالقدر الذي يسمح لنا باجابة مختصرة من خلال بضع كلمات و جمل . فالخلفية التقنية ليست مادة صلبة يمكن ضبط مقاييسها ومعاييرها وتعيين ملامحها وحدودها الدنيا والقصوى ببساطة أو سهولة ، لأي مقاتل مهما كان وضعه التدريبي أو ثقافته العلمية . غير أنه من الممكن وضع قواعد وضوابط أساسية عامة لهذا التوجه ، تقضي **قاعدتها الاولى** دائما بتفضيل المستويات العليا من الخلفية التقنية ، ذلك لأن العمل خارج نطاق هذه المستويات يصبح ضارا بالمقاتل نفسه . أما **القاعدة الثانية** فتقول بأنه كلما تساوى الجانب التطبيقي مع الجانب العلمي النظري خلال اكتساب الخلفية التقنية كلما كانت هذه الخلفية أفضل وأجدى . على حين تؤكد **القاعدة الثالثة** أفضلية اكتساب الخلفية التقنية من خلال عمليات تصنيعية من أنماط واختصاصات مختلفة . أما **القاعدة الرابعة** فتظهر أن الخلفية المكتسبة من خلال عمليات التصنيع الحربي هي خلفية أجدى وأرسخ وأبعد أثرا . كما تذكر **القاعدة الخامسة** انه اذا كانت الخلفية التقنية تصنيعية على نفس السلاح الذي يستعمله المقاتل تكون الخبرة أفضل نظرا لازدياد ثقة المقاتل بسلاحه الذي صنعه . وتذكر **القاعدة السادسة** أنه كلما كانت سنوات الخبرة أكثر وأطول كلما كانت الخلفية المكتسبة أكثر فائدة . هذه هي القواعد العامة الواجب وضعها في حسابات المسؤولين الذين يسعون الى تقننة المقاتل الفلسطيني . أما بالنسبة للمستويات التقنية وتحديدها فيمكن اتباع النهج التالي : **أولا** ــ على كل مقاتل أن يلتحق بدورة تدريبية تقنية (تطبيقية ونظرية) قبل أو خلال التحاقه بصفوف المقاتلين في الثورة . **ثانيا** ــ تحدد نوعية الاسلحة التي يستعملها المقاتل طبيعة التقننة المطلوبة وبالتالي تتقرر في ضوئها أفضل الوسائل التقنية التدريبية الواجب اتباعها . **ثالثا** ــ تحدد سني التدريب التقني بالنسبة للمؤهلات العلمية وبالنسبة للتوجه التطبيقي لدى كل مقاتل على حدة ، وذلك من خلال أنظمة متخصصة لفحص القابلية APTITUDE TESTS . **رابعا** ــ يخضع جميع المقاتلين لاختبارات تقنية دورية خلال فترات التدريب وتحدد قابلية الافراد تبعا لهذه الاختبارات. **خامسا** ــ تقارن نتائج المقاتل خلال فترة التدرب التقني مع نتائج تدريباته العسكرية السابقة والحالية ويقيم المقاتل تقنيا تبعا لهذا التقييم المزدوج .

ان جميع ما أسلفنا يقع ضمن احتياجات حرب الشعب ومستلزماتها ، والمستويات التقنية تحدد على أساس هذه الاحتياجات . غير أن هناك نظرة مستقبلية تستوجب البحث في مستويات تقنية متقدمة يجب ان تتوفر من أجل استيعاب أسلحة المستقبل . ان ثورة فيتنام بعد انتصارها ، لا زالت تنمو تقنيا كي تستوعب الاسلحة الأكثر تعقيدا . **مثلا** أصبح لثوار فيتنام الآن سلاح طيران وهذا يتطلب مثل هذا النمط المتقدم من التقننة . كما أصبح لديهم مصانع ستنمو وتتطور مما يتطلب أنماطا متطورة من الخلفيات التقنية . انهم يبنون مصانعهم الحربية وهذه تتطلب خلفيات تقنية جديدة . وهكذا الثورة الفلسطينية ، انها بحاجة لأنماط من التطور التقني ليس فقط من اجل مقاتليها الحاليين ولنجاحها في معاركها الحالية ، بل أيضا من أجل حاجات الثورة في المستقبل المنظور القريب والبعيد .

كيف نخلق الخلفية التقنية الضرورية للمقاتل الفلسطيني

ان أول ما ينبغي تأمينه للحصول على خلفية تقنية حسنة للمقاتل الفلسطيني هو وعي القيادة السياسية للثورة الفلسطينية ، لضرورة واهمية تأمين هذه الخلفية للمقاتل

الحالي ولمن سيأتي بعده في المستقبل . فاذا حصل لدى القيادة مثل هذا القناعة والوعي وجب عليها ان تقدم الامكانات المادية والبشرية الضرورية للحصول على هذه الخلفية . كذلك فان ايمان القيادة بجدوى هذا التوجه أمر حيوي من المهم حصوله بشكل مسبق قبل البدء في عملية التقننة المرجوة ، والا سيكون العمل في هذا الاتجاه فورة عابرة لن تؤدي الى النتائج المرجوة . في حال توفر الوعي والايمان لدى القيادة يمكن عندئذ بدء العمل في هذا الحقل ضمن توجهين رئيسيين : **التوجه الاول** يهدف الى رفع مستوى تقننة المقاتل الفلسطيني الحالي مباشرة من خلال حلول واجراءات معينة ، بينما يهدف **التوجه الثاني** لتقننة الشباب الفلسطيني الذي سيفرز للثورة خلال السنوات العشرين القادمة المقاتلين والتقنيين الذين تحتاجهم في مسيرتها .

لنبدأ بتفصيل الشق الأول الهادف الى تقننة المقاتل الحالي ..

ان أول خطوة في هذا الاتجاه يجب أن تهدف الى اجراء مسح عام لحاجات المقاتل التقنية حسب ظروفه القتالية الحالية والمستقبلية ، في المدى القريب المنظور ومن ضمن مستوياته العلمية النظرية وكفاءاته الحالية . بعدئذ يمكن وضع منهاج تدريبي تقني — عسكري مبني على جميع المعطيات السابقة والتي أهمها سلاح المقاتل الحالي والمستقبلي . ويقوم على وضع هذا المنهاج مجموعة من الخبراء في حقول التقننة والتدريب والتخطيط العملياتي والتخطيط العسكري العام وغيرها من المؤسسات التي لها علاقة بموضوع تقننة الثورة .

ان القاعدة الأساسية في هذا التوجه هي اعتبار المصنع الحربي الانتاجي الوسيلة الاولى لاكساب المقاتل التقنية المطلوبة . وبهذه الوسيلة نضع المقاتل الفلسطيني في جو العمل المنتج والمبدع . فكل ما في المصنع هو حقائق ملموسة وهي بعكس المعهد المهني والصناعي حيث أن كل شيء تمثيلي ولا يصل الى جو الجدية والنتائج الملموسة في المصنع . لهذا ، ومنذ البداية ، يجب التخطيط لتوفير المصنع الحربي الذي سيستوعب المقاتل الفلسطيني لفترات زمنية تطول وتقصر حسب المعطيات المتغيرة العديدة التي سنأتي على ذكرها فيما بعد . ففي المصنع الحربي يجب ان يفسح المجال واسعا للمقاتل المتدرب كي يطلع على كافة تفصيليات العمليات الصناعية بدون التركيز على تخصص معين ، حتى يتسنى له الالمام الفعلي بشتى أنواع العمليات الماما واسعا .

ان من مزايا التقننة على هذا النحو خلق الثقة بالنفس لدى المقاتل فأي شك بصحة وصدق المعلومات التي تعطى له سيزول من خلال الممارسة اليومية في عمليات الانتاج التي يقوم بها . أضف الى ذلك ، ان اختبار الأدوات والاسلحة المنتجة في ظروف عملها العادية سيكون خير دليل على صحة الخبرة التي يحصدها المقاتل المتدرب . ومن المزايا الاخرى لهذا النمط من التدريب مساهمة المتدرب في توفير جزء كبير من الأيدي العاملة وبالتالي توفير في مصروفات ادارة هذه المصانع مما يجعل عملية التدريب مزدوجة الفائدة للمتدرب وللمصنع في آن واحد .

ومن المبادىء الاساسية في عملية تدريب المقاتلين ضرورة جعل فترة التدريب العملي مساوية زمنيا لفترة التدريب النظري الذي يعطى للمقاتل خلال تدريبه في المصنع اذا كان المتدرب بحاجة الى مثل هذا الأساس العلمي النظري . اما اذا كان المتدرب قد حاز مسبقا على قسط وافر من المعلومات النظرية من خلال تحصيله المدرسي فان ذلك سيساعد على توفير الوقت للتدريب العملي الاضافي ، فيحصل المتدرب عندئذ على مستوى أفضل من التدريب التقني .

لقد جاء في منشورات جينز لعام ١٩٧٥ 1975 JANES' INFANTRY WEAPONS أن الثورة الفلسطينية اقامت مصانع حربية متقدمة لانتاج الاسلحة التي تحتاجها وهذا يثبت اقوال صحيفة الغارديان البريطانية حول الموضوع نفسه ، ان هـــذه المعلومات تفرح كل عربي وفلسطيني لأنها تظهر امكانات الثورة في حقل التصنيع الحربي . لهذا نشدد هنا على ضرورة الافادة من هذه المصانع في مناطق الطوق المتاخمة لحدود اسرائيل (لبنان سوريا ومصر) على أن يصار النزول بها تحت الارض ضمن تحصينات منيعة مضادة لقذائف المدفعية وقنابل وصواريخ الطائرات الاسرائيلية ، وان يصار كذلك الى افساح المجال لاستيعاب أعداد اضافية كبيرة من المقاتلين المتدربين فيها . ان قرب هذه المصانع من المواقع العسكرية لهؤلاء المتدربين يجعل من الممكن التحاقهم فورا بوحداتهم القريبة والدفاع عنها وقت اعلان الاستنفار او في أي وقت من الاوقات التي تستدعي وجودهم فيها . وعندما ينتهي الاستنفار يعود هؤلاء المتدربون فورا ، الى مصانعهم .

ان تقييما شاملا لهذه المصانع الحربية القائمة يجب ان يسبق اي خطوة اخرى . ان هذا التقييم يجب ان يشمل الادارات الصناعية والمخصصات ومشاكل الانتاج ان وجدت والمعدات وغيرها والعمل على تصحيح هذه الاوضاع ومن ثم النزول بتلك المصانع تحت الارض مع توسيع آفاقها العلمية وتطويرها كما ونوعا . أما الخطوة التالية فيجب أن نركز على تشييد مصانع اخرى جديدة (تحت الارض أيضا) بحيث تنتج أسلحة ومعدات اخرى تحتاجها الثورة مثل قطع الغيار للأسلحة المختلفة والاسلحة الشعبية والمتفجرات وغيرها . ويجب أن يراعى في هذه الخطوة الامكانات الفعلية المتوفرة للثورة اذ انه من الاجدى أن تقوم وتنجح بضع مؤسسات فقط خلال فترة زمنية معقولة على أن يخطط لعشرات المؤسسات الصناعية ولا ينجح اي منها على الاطلاق . هذا المفهوم العملي يجب أن يشمل كافة المراحل كي تقوم هذه المؤسسات الصناعية علـــى أسس عملية اقتصادية سليمة فيكون الجهد المبذول منتجا ان من ناحية السلاح أو من ناحية التدريب التقني للمقاتل . وهكذا نتحاشى بعثرة الجهد والمال دون طائل .

ومن الملاحظات الهامة حول المصانع الحربية الواجب تشييدها في مناطق الطوق حول اسرائيل ، التركيز على وجوب اقامتها على أسس علمية عملية افضل وان تبقى عملية التطوير موجهة نحو المستوى الأفضل بحيث تقوم عليه جميع مخططات وعمليات بناء المصانع الحربية في الثورة . ان مبدأ التطوير الدائم المستمر لهذه المؤسسات الصناعية أمر بالغ الأهمية من أجل نمو هذه المؤسسات بشكل مستمر . هذا هو المفهوم الثوري الحقيقي لهذه المؤسسات . اذ أن تقييم الثورية على أسس غير صناعية — تدريبية يصبح مع مرور الوقت ضربا من الجهل والحمق الكبيرين .

وخلال اقامة المصانع الحربية تحت الارض في مناطق الطوق ، يجب التخطيط لاقامة مصانع حربية فوق الارض خارج نطاق الطوق بحيث تكون أكثر تقدما ان من ناحية نوعية السلاح المنتج وكميته وأن من ناحيـــة استعدادها لاستيعاب اعداد كبيرة من المقاتلين المتدربين . وبالطبع ، يظل السلاح المنتج هو المطلوب أولا لسد حاجات الثورة الى جانب التدريب التقني للمقاتلين . كذلك يجب أن تقوم هـــذه المصانع على اسس اقتصادية سليمة وان توفر طاقات تقنيـــة ترفد باستمرار الكوادر العاملة في الارض المحتلة وكوادر المصانع في مناطق الطوق ، وذلك لتشغيل ورش التصليح والصيانة المركزية أو الميدانية للثورة . كذلك يجب أن تغطى المصانع المقامة خارج الطوق جزءا كبيرا من نفقات المصانع الحربية فيمكن أن تكون في الدول العربية التي تبدي استعدادا لاقامة مثل هذه المنشآت على أراضيها ، على أن لا ينحصر ذلك في دولة واحدة وان لا

يقوم في دولة منها أكثر من مصنع واحد . ويعود السبب في ذلك الى ضرورة تجنيب ايقاف هذه المصانع عن العمل أو مصادرتها في آن واحد اذا ما قرر البلد المضيف ذلك لأسباب متعددة ، على حين ان تفرق هذه المصانع في معظم البلدان العربية يتيح للثورة فرصا لتأمين بقاء عدد منها مستمرا بالعمل تحت اشرافها ولمصلحتها ، ذلك لأنه لا يعقل أن تجمـــع عشرون دولة عربية علـــى اغلاق جميـــع المصانع دفعة واحدة وبالتالي مصادرتها .

ان اقامة الثورة للمصانع في البلاد العربية يتيح لها امكانية الافادة مـــن الامكانات المادية والبشرية المتوفرة في هذه الدول كان تقوم الثورة بمشاريع مشتركة مع حكوماتها لانتاج الاسلحة المختلفة التي تحتاجها هي وتلك الحكومات معا ؛ على أن يؤخذ بعين الاعتبار أهمية التدريب التقني للمقاتلين في هذه المصانع . خاصة وانه يوجد في الدول العربية جامعات وكليات للهندسة لا يستفاد من مختبراتها ومدرسيها بالشكل الصحيح . وفي هذه الحالة يمكن الاتفاق مع هذه الحكومات على تحريك فعاليات تلك الجامعات والقيام بمهـــام تطبيقية لتلـــك المصانع يكون بمقدورها توفير الوقـــت والجهد والمال للمؤسسات التصنيعية المقترح اقامتها . ومن القنوات الممكن سلوكها في سبيل تقننة المقاتل الفلسطيني ، اقامة دورات تدريبية لهم في المصانع الحربية والمدنية في الدول العربية وفي الدول الاشتراكية والدول الصديقة الأخرى التي تقبل التعامل مع الثورة . وهنا يجب الانتباه الى نوعيات المقاتلين وخلفياتهم العلمية ، فالذين سيرسلون في هذه البعثات يجب ان يكونوا مـــن ذوي الخلفيات الحسنـــة والا سيكون ارسالهم مضيعة للوقت .

أما التوجه الثاني فيهدف الى تقننة كافة قطاعات الشباب الفلسطيني الذي سيرفد الثورة خلال العقد أو العقدين القادمين ، بالمقاتلين والتقنيين لاتمام مسيرتها النضالية الطويلة حتى التحرير . وأول خطوة في هذا الاتجاه تهدف الـــى درس أوضاع التعليم الابتدائي والثانوي الذي يناله الشعب الفلسطيني وذلك من أجل وضع التعليم في خدمة تقننة مقاتلي الغد . وأثناء اتمام الدراسة ، يجب ألا نتسرع ونعطـــي أحكاما تقليدية مغلوطة من تلك التي يتبناها عادة أولئك المنظرين في التحديث التقني في الوطن العربي . فالتعليم الابتدائي والثانوي المقدم للناشئة في كل الوطن العربي (ومن ضمنها الناشئة الفلسطينية) قد وضع أساسا لخدمة أغراض التعليم الجامعي . أي أن مئة بالمئة من الطلاب في مرحلتي التعليم الابتدائي والثانوي يدرسون كي يلتحقوا بالجامعة بعد انهاء هاتين المرحلتين . لكننا نعلم أن أرقى بلاد العالم لا يتجاوز التعليم الجامعي فيها نسبة العشرين في المئة من مجموع طلابها ، وكون المجتمع العربي من المجتمعات غير المتقدمة فان ذلك يعني أن نسبة التعليم الجامعي فيه لا تتجاوز **العشرة بالمئة** على أكبر تقدير . من هنا نرى بشاعة الجريمة التي ترتكب بحق الطالب العربـــي والفلسطيني اذ ان مناهج التعليم وضعت فقط لخدمة العشرة بالمئة من الطلاب (الجامعيين) واما التسعون بالمئة من الطلاب فقد أغفلتهم الأيدي المشرفة على هذه المناهج .

ومن هذا المبدأ التربوي الخاطىء يجب أن يبدأ تعديل برامج تعليم الطالب الفلسطيني (والعربي) لتكون قاعدته التربوية في خدمة الأغلبيـــة الساحقة مـــن الطلاب الذين سينطلقون بعدها الى حقول التقننة المختلفة ، شريطة ألا يؤثر ذلك على الفرص المتاحة لنسبة العشرة بالمئة من الطلاب الذين سيسعون للالتحاق بجامعاتهم من أجل تحصيل الدرجات العلمية العالية . .

وبالطبع سيتنافى هذا الحديث مع رأي المنظرين في حقل التحديث التقني على اعتبار

ان التعليم الجامعي هو السبيل الى اقامة المصانع والمؤسسات البحثية العليا . ان الجواب البسيط على هذا الراي هو أن الشعب الفلسطيني متخم بالجامعيين الآن حتى لو توقف التعليم الجامعي للفلسطينيين كليا خلال العقدين القادمين فلن يغير ذلك شيئا يذكر في حياة الشعب الفلسطيني .

أما الخطوة التالية فهي وجوب تعيين جهاز تخطيطي تربوي — تقني ليصبح نواة لمؤسسة التصنيع والتدريب التقني للمستقبل بحيث تكون مهمته درس واقع ومعطيات الشعب الفلسطيني وحاجات الثورة خلال العقدين القادمين من السنين ، ومن ثم بدء العمل على وضع برنامج تربوي — تقني يمكن تنفيذه من خلال المؤسسات التعليمية التي تخضع أو التي يمكن ان تخضع لرقابة وتوجيه الثورة مباشرة أو مداورة . ومن بين هذه المؤسسات التعليمية مدارس (الأنروا) في سوريا ولبنان ، والمدارس التي تشرف عليها منظمة التحرير الفلسطينية كمدرسة اسعاد الطفولة في سوق الغرب ، ومدارس منظمة التحرير في الكويت والمدينة التعليمية المزمع اقامتها في سوريا وغيرها . وهنا تجدر الاشارة الى المحاولة الجريئة التي يقوم بها الآن القسم التربوي في مركز التخطيط التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية وضرورة دعم هذا القسم في جهوده واشراكه في وضع هذه البرامج ومراقبة تنفيذها .

ان من المهم جدا أخذ اراء ادارات المصانع الحربية التابعة للثورة والعمل بمضمون تلك الآراء . فلهذه الادارات الخبرات الحقيقية في حقل التقننة ويجب ان تشارك مشاركة أساسية في وضع وتنفيذ هذه البرامج .

هذا بالنسبة للمعاهد التي يمكن ممارسة رقابة وتوجيه عليها وعلى طلابها ، وهذا بالطبع لن يشمل أغلبية الطلاب الفلسطينيين في الدول العربية . اذ من سيعني بتقننة هذه البقية من الطلاب ؟ بالطبع ستكون المصانع الحربية التابعة للثورة مباشرة او مداورة هي من تعنى بهذه الفئة خلال أو بعد تركها معاهدها بما في ذلك الطلاب الجامعيين . فسيربط هؤلاء الطلاب مع خريجي المدارس الموجهة (ذات البرامج المتقننة) ، الى مناهج التعليم الصناعي المطبق على المقاتلين في المصانع الحربية داخل نطاق الطوق (حول اسرائيل) وخارجه ، بطريقة مشابهة لما أسلفنا في الشق الاول من هذين التوجهين .

وفي نفس الوقت ينبغي تطوير كافة المصانع والورش التي تهتم بالانتاج الحربي للثورة الفلسطينية بحيث تستطيع هذه المؤسسات ان تنمو باستمرار فتزود الثورة الفلسطينية بالانتاج المتطور دائما وبالتدريب التقني للمقاتلين المتطورين مع تطور الانتاج .

ان جيلا من المقاتلين من ذوي الخلفية التقنية الجيدة ، يولد ويتطور وينمو خلال العقدين القادمين من التدريب التقني سيؤمن للثورة فرص النصر ويقوم بمهامه الحضارية في فلسطين الديمقراطية بعد التحرير .

توفيق زياد شاعر الواقيعة المقاتلة

الدكتور فيصل دراج

وادمي وجه مغتصبي
بشعـــر كالسكاكـــين
توفيق زياد

عندما ندرس عملا ادبيا فاننا لا ندرسه في الفراغ او المطلق بل في سياقه التاريخي وفي الشرط الذي انتجه ، فليس هناك مثالا كاملا نقارن به العمل الفني ونحكم بالتالي على قيمته الفنية والاجتماعية ، لذلك لا يعالج الانتاج الفني الا من خلال زمانه ، ومن خلال الغلاف الاجتماعي — التاريخي الذي اعطاه جذوره . فلا يمكن الانطلاق عنـــد معالجة العمل الادبي من شروط مسبقة ومن معايير « مطلقة » معدة مسبقا ، فنقطـــة الانطلاق والنهاية هو العمل الادبي المرتبط بزمانه ومكانه ، اي العمل الادبي كما هو دون زيادة او نقصان .

انطلاقا من هذا سنضع شعر توفيق على مائدة موضوعية ، مائدة قضيته ، لن نبحث في بنيانه عن امور غريبة عنه ، بل سنحاول ان نقرأ ما هو موجود فعلا في اركان وزوايا هذا القصر الشعري ، وعندما سنركز على منفعة هذا الشعر وتحريضيته لن يكون ذلك تعسفيا او مجرد موقف شخصي ، بل اقرار موضوعي لما يوجد فعلا في اركان ذلك الشعـــر .

الاجتماعي والجمالي في الانتـــاج الادبـــي :

لا تنبع القيمة الجمالية للعمل الشعري من الذات الشاعرة او من اغوار شاعـــر استوى على عرشه اللغوي منزها عن مكانه وزمانه ، فعالم الشاعر ليس وادي ابليس او كهف افلاطون بل عالمه المعاش ، عالم مجتمعه بكل تناقضاته ، ولا تنبع القيمـــة الجمالية الا من رصدها وتمثلها لحركة المجتمع وعكسها في نمط لغوي خاص لهذه الحركة، فليست القيمة الجمالية معطاة مسبقا في وعي الفنان او الاديب ، فهي تتشكل تاريخيا في وعي الفنـــان لا كنزوة فرديه بل كقيمة محددة موضوعيا بالوجود المادي للمجتمع . لذلك تتضمن كل قيمة جمالية عنصرين متجاورين : الفني والاجتماعي ، ولا يتواجدان مستقلان او منفصلان بل يتواجدان في وحدة او بشكل ادق يشكلان وحدة متماسكة هي في المستوى الاخير القيمة الجمالية . من هنا فان القيمة الجمالية تتضمن باستمرار بعدين يحددان اثرها على المجتمع والتاريخ ، ويرتبط البعد الاول في اثرها المباشر ، اي لحظة ظهور العمل الفني واثره على مجتمعه في زمانه (اثر آني) ، اما البعد الثاني فيأتي من الاثر الدائم والمستمر للعمل الفني كانعكاس صحيح لزمانه (اثر كوني) . اما ما يعطي العمل الفني قيمته الموضوعية فهو وحدة الاثرين بحيث يكون فيهما الثاني مسيطرا . ان الاثر الاول يعطي للشعر قيمة في وقته لكنه يتلاشى بعد ذلك ، في حين يعطي الاثر الثانـــي للشعر ديمومة لا تنغلق وراء زمان او مكان ، ديمومة مفتوحة في التاريخ .

ينشأ الجمالي عن ديالكتيك الذاتي والموضوعي ، فالموضوعي يشكل اساس الذاتي وكلاهما في نهاية المطاف محددان ماديا اي اجتماعيا . ان الجمالي بمعناه الحقيقي يبرز فقط كنتيجة للتفاعل المادي العملي بين الذات والموضوع ، وتتشكل كل التصورات الجمالية عند الفنان بتأثير الواقع ، فنحن اذن ازاء ثلاثة عوامل : الاجتماعي (المجتمع) والذاتي (الفنان) والعمل الفني الذي هو تركيب للعاملين الاول يلعب فيه الذاتي الدور المسيطر ، فالجمالي يأتي من الفنان من الذات المبدعة التي تعيش زمنها وتعطي لجماليتها طابعا تاريخيا اجتماعيا نوعيا جديدا . فالفنان يعكس مشاعره في عمله الفني لكن ذلك لا يتم في الفراغ بل في العالم المادي ، فالعمل الفني كقيمة جمالية يحتضن اذن عنصرين الانفعالي والعقلي ، الذاتي والموضوعي ، فالفنان يستعيد واقعه بشكل انفعالي ، فهو يأخذ مضمون شعره من واقعه بشكل واع ثم يعكسه انفعاليا في شعره ، وتتحدد الاستعادة الشعرية للعالم بجملة عوامل متشابكة : قدرة الشاعر على العمل في اللغة ، الخيال الشعري ، لا شعور الفنان ، فهمه للواقع الاجتماعي بخصائصه الاساسية . ينهل الشعر مادته من المجتمع لكنه يأخذ صورته اي ماهيته كشعر من الصياغة الفنية لهذه المادة في نمط شعري كشكل ابداعي متميز . ان الموقف الجمالي من الواقع ، اي صياغته فنيا ، يعطي شكلا خاصا لعلاقة الذات بالموضوع ، علاقة الشاعر بجمهوره . وتتحدد قوة هذه العلاقة بقدرة الصورة الفنية على عكس الشعور الجمعي ، اي التعبير عن طموحات وامال واحاسيس المجتمع الذي يتوجه اليه الشاعر ، لكن هذا التوجه يبقى على المستوى الاخير توجها شعريا ، فعندما يقدم الشاعر واقعه بواسطة محاكمات نظرية ، سرد اجتماعي مبتذل ، يسقط كشاعر ، فيظل بعيدا عن حقل الانتاج الفني . فنحن لا نفهم من خلال الانتاج الشعري الواقع بل نحسه ونتملكه شعوريا ، لاننا لسنا ازاء نص نظري بل بنيان شعري . فكل اهتمام تربوي محض ينفي عن الشعر والفن بشكل عام خصائصهما النوعية الجمالية ، ويجهض في الوقت نفسه اثرهما الجمالي الذيبتواجد فيهما .

وعندما يعكس الشاعر بالصورة الفنية بعض جوانب الواقع ، ويفرضها على القارىء ويصل الى عقله ، فمعنى ذلك ان القيمة الجمالية المتضمنة في الصورة لها واقع موضوعي . وقد اظهر ماركس ان التجليات الايديولوجية « لها قيمة موضوعية من حيث هي انعكاس لعلاقات اجتماعية حقيقية محددة تاريخيا » (١)

تفرض الصورة الفنية نفسها على الفرد عندما تكون تعبيرا عنه ، فيتواصل معها ويتعاطف باحساسه بشكل مستقل عن ارادته ، فهي صورة له . واذا سمينا الصورة الفنية بالموضوع والفرد الذي يتلقاها بالذات ، فاننا نقول ان بين الذات والموضوع علاقة ديالكتيكية . فالصورة الفنية كموضوع تتوجه الى ذات موجودة فعلا ، انها تنطلق من الواقع ثم تعود اليه بشكل جديد ، تنطلق من الشرط الاجتماعي ــ التاريخي ثم تعود اليه كصورة فنية له ، وبهذا تخلق الصورة الفنية لنفسها مستقبلا ، اي جمهور . لهذا يقول ماركس : ان الصورة الفنية « لا تخلق موضوعا للذات بل تخلق ايضا ذاتا للموضوع ، اي تخرج من الواقع لتعود اليه ، فتستحيل بذلك الى قيمة حقيقية ذي جود وتحقق مادي . والااصبحت صورة تائهة بلا دلالة .

عندما تظهر الصورة الجماليه المعبرة عن واقعها لا تتلاشى آنيا ، فهي تحافظ على وجودها باستمرار ، لان الابداع الفني يشكل احد اشكال التملك العملية والروحية للواقع ، فهو ليس مجرد وصف خارجي للواقع بل احد ميزاته التاريخية من حيث هو تكثيف وبلورة للوعي في زمانه ، صورة تاريخية للمشاعر والعواطف والطموحات في فترة تاريخية محددة .

يدخل الانتاج الفني ــ الادبي التاريخ ، ويمتلك قوه مستمره ، اي يصبح كونيا ، عندم يقدم صوره صحيحة لوعي زمانه . ولا تتأتى هذه الصورة عن رسم اعتباطي للواقع ، بل عن قدرة الفنان على اختيار عناصر ذات دلالة ، عناصر تعبر عن المنحى العام لحركة المجتمــع . وصياغتها فنيا . ان الشعر والعمل الفني بشكل عام لا يصبحان كونيان الا بقدر ما هما محليان ، فلا تعني الكونية التوجه الى الانسان بشكل عام ، او الى انسان المستقبل ، بل تعني عكس الواقع بكل خصائصه المحلية المحددة تاريخيا خلال بنيــان فنــي .

ينطلق الابداع الفني من تربة محددة ، ويصبح كونيا عندما يعطي وثيقة فنية عن هذه التربة ، فلا تنتج كونيته والحالة هذه من عدم تحدده (انسانية غائمة) بــل تنتــج بالعكس من خلال تحدده ،وقدرته على ايصال ذاته الى مجتمعه والى البشرية جمعــاء كوثيقة ادبية متميزة ، اي مرتبطة بواقع محدد تاريخيا ، فالكونية هي التميز . بمعنى اخر ، ان الكونية غير المحددة اجتماعيا وتاريخيا كونية زائفة ، كونية ميتافيزيقية تنطلق من جوهر انساني ميتافيزيقي لا وجود له . اما الكونية الحقيقية فهي التي تعبر عــن واقعها وتصل الى البشرية جمعاء ، فهي من ناحية تقوم على واقعها ، مصدر تميزها ، وتحمل في ذاتها خصائص انسانية شمولية . او بشكل اخر فان شكلها الفني يحمــل صفات انسانية شاملة (التعبير عن ما هو انساني بشكل عام) لكن مضمونهـــــا واساسها الفكري مرتبط بواقعها الاجتماعي المعاش . فكلما تميز العمل الفني اصبــح كونيا . وليس هناك اي تناقض بين التميز والكونية ، فالكونية هي التميز .

ان الكونية الحقيقية هي كونية التميز ، اما الكونية اللامتميزة فهي زائفة ومضللة ، وليست « كونيتها » الا هروبا من واقعها وعجزا عن فهم هذا الواقع والتعبير عنــه ، وتصبح بذلك مجرد « كونية » صوفية مبهمة بدون اي مضمون محدد .

فالفنان الحقيقي يخلق في انتاجه موضوعا ماديا مشخصا ، ويبقى هذا الموضوع حيا لانه حقيقة جمالية موضوعية (٢)

اننا لا ننطلق هنا من موقف انساني غائم ، موقف بلا تحديد ، بل بالعكس تماما ننطلق من رؤية علمية للانتاج الفني . فليس هذا الاخير بالنسبة لنا الا التعبير عن وعي اجتماعي محدد تاريخيا ، وبذلك نبتعد كثيرا عن هؤلاء الذين يعتبرون الفن بكل اشكاله تعبيرا عن نزوة فردية ، او صورة لفردية متميزة . فالقيمة الفنية تستمد قيمتها هذه من ارتباطها بمجتمع موجود وبعلاقات اجتماعية موجودة ، فهي لا توجد قبل وجود هذه العلاقات الاجتماعية ، ولا قبل الظرف التاريخي الذي تعكسه ، فهي تصدر منه وتعبر عنه وتعود اليه ، والا فقدت قيمتها ، معنى ذلك انها تعكس **شيئا موجودا** يمنحها موضوعيتها .

يجب ان نشير بعد ذلك الى امرين :

١ ــ ان القيمة الجمالية للصورة الفنية المعبرة عن واقع ما ، تتحدد بقدرتها على عكس الواقع فنيا ، تملك العالم جماليا ، في ليست وثيقة تاريخية ــ اجتماعية ، بل وثيقة جمالية لشرط تاريخي ــ اجتماعي محدد . فنحن لا نفهم الواقع من خلال الصورة الفنية، بل نحسه ونعيشه جماليا ، لانها لا تشرح الواقع بل تشير اليه والى ميزاته بخصائصها النوعيــة .

والصورة الفنية تتشكل من وحدة تركيبية تتضمن الحسي والعاطفي والعقلي ، ولا تفرض نفسا على الذات (الانسان) من خلال عقلانيتها بل قدرتها على تحريض عواطف الانسان ومشاعره . ولا يتذوق هذا الاخير الصورة الفنية عند فهمها ، لكنه « يفهمها »

بسبب احساسه بها . لذلك فان الوعي الجمالي او الفني للعالم وعي من نوع خاص وعي فني — جمالي للعالـم .

٢ — تتحقق القيمة الجمالية عندما يتمثلها الوعي الانساني ، ويفترض التمثل الجمالي وعيا جماليا لدى المجتمع . فالقيمة الجمالية هي الانعكاس الجمالي للوجود الاجتماعي في الوعي الاجتماعي .

ان عدم تمثل المجتمع للقيمة الجمالية المعبرة عنه لا يفقدها كونيتها وموضوعيتـا ، لان هذه القيمة لا تتحدد بموقف الذات منها ، بل بقيمتها من حيث هي انعكاس جمالـي لواقع موضوعي . لذلك فان الشاعر ، كي لا يجهض **الوظيفة الاجتماعية** لشعره ، يلجأ احيانا الى صياغة تجربته الفنية خلال مستويات متعددة ، تكفل له دوره الاجتماعي وتحفظ لـه كونيتـه .

الشعر كتعبير عن زمانه — حالة توفيق زيـاد :

عندما نقرأ توفيق زياد ، نقرأ مسار حركة الشعب الفلسطيني بكل وهادها وسهولها ، بكل عثارها واندفاعها التياري نحو المستقبل ، فليس شعره ترجمة ادبية لحياة خاصة بل ترجمه لتجربة نضالية لشعب ، يقف في بؤرتها ويعكسها كمثقف جمعي ، مثقف مرتبط بقضية وبطبقة . ان توفيق زياد يعكس واقعه شعريا ، ليس كواقع صامت بل كواقع في حركة ، وتهدف حركته هذه الى تغييره ، فهو صوت الواقع واداة لتغييره .

وسنحاول الان ان نبحث عن الافكار الرئيسية التي تحكم شعر توفيق زياد ، اي عن طبيعة المضمون الايديولوجي والسياسي المتواجد في شعره والذي يشكل المفتـاح الاساسي لفهم هذا الشعر وشكله ووظيفته الاجتماعية . ويجب ان نشير هنا الى اننا عندما نقف امام عمل شعري فاننا لا نقف فقط امام مضمونه ، فلكل عمل شعري قراءتين، القراءة الاولى فنية ، قراءة النص من حيث انه عمل فني — الشعر كعمل في اللغة — والقراءة الثانيه تحليلية تهدف الى معرفة مضمون العمل ومركباته .وهذا التمييز من حيث المبدأ تعسفي — تبسيطي ، فقراءة العمل الفني فنية — ايدولوجية في الوقت نفسه . وسنطبق نحن في حالة توفيق زباد القراءة التعسفية للعمل الفني . وليست هذه القراءة مجرد خيار لتبسيط التحليل ، فهي ضرورة لا بد منها ، فمن خلالها سنصل الى الخلفية التي ينطلق منها الشاعر ، اي التربة التي يقف عليها ، والشرط التاريخي الذي يعكسه ليس من خلال مرآة شعرية واحدة بل من خلال جملة من المرايا . ان تقييم شعر توفيـق جماليا غير ممكن بدون تقييم الظروف التي ولدته و**الدور الاجتماعي** الذي يقوم به ، وتميز هذه الظروف وخصوصيتها تطرح ضرورة تميز القراءة الفنية للعمل الشعري . ومعنى هذا فاننا لن نطبق على شعر توفيق المعايير الفنية المطلقة ، المعايير المنسقة ؛ لان توفيق لا يعيش في زمن منسق،بل يعيش زمنا مفعما بالتناقضات ، زمنا متميزا ، مأساة امة .

واذا اردنا انفهم عالم توفيق الرحب ، عالم دلالاته وقضيته ، فلنبدأ به « كفرد » . فكيف يرى هذا الشاعر ذاته ، وما هو نمط الوجود التاريخي لهذه الذات ، من ايـن نبع ، واين تصب !!

وأدمي وجه مغتصبي
بشعر كالسكاكين
وان كسر الردى ظهري ،
وضعت مكانه صوانة ،
من صخـر حطين !! (٣)

شاعرنا توفيق زياد لا يلهو ، يقاتل بشخصه ، ويقاتل بشعره . فالشعر سكين يحمي صخور حطين . واذا ربطنا الكلمات : شعر ، سكين ، حطين . لمسنا مباشرة مكان الشاعر وحقل قضيته ، قضية الشعب المناضل .

يمور الشاعر بين وطنه وشعبه . فهناك تكافل بين الشاعر وشعبه وبين شعره والوطن :

اجيبيني ....
انادي جرحك المملوء ملحا ، يا فلسطين
اناديه واصرخ :
ذوبيني فيه .. صبيني . (٤)

فاذا انتهى الشاعر من الفراغ المكاني الذي يتشبث فيه — الوطن — انتقل الى شعبه ليعيش مأساته ومعاناته :

يا اغلى من روحي عندي
انا .. باقون .. على العهد ... (٥)
....
واقول : افديكم
واهديكم ضيا عيني
ودفء القلب اعطيكم
فمأساتي التي احيا
نصيبي من مآسيكم (٦)

يمكن ان نقول اذن الاطروحة الاولى : شاعرنا شاعر قضية ، وشعره في ذلك له دور وظيفي .

اما الاطروحة الثانية : ان الشاعر في نضاله وشعره جزء من شعبه وجزء من نضال شعبه . وهذا ما يوصلنا الى الاطروحة الثالثة : ان شعر توفيق زياد شعر تحريضي ، وله دور في تحريك الشعب وتنويره ودفعه الى الصمود :

اصرخ .... اصرخ .... اصرخ
في اعجاب يزداد ويكبر :
« هذا شعب
لم يخلق
حتى يقهر » (٧)
....
ان يحبسونا .. انهم
لن يحبسوا نار الكفاح (٨)
....
صمودا ايها الناس الذين احبهم
صبرا على النوب (٩)

ليس الشعر هنا تذوقا جماليا محضا ، تفقد اللذة الجمالية اولويتها ، ويبنى الشعر ويشكل للتحريض ، فهو شعر هادف ذو غرض ، وتتحكم وظيفية الشعر هذه بشكل الشعر ومضمونه :

عندما نقف امام شعر توفيق زياد ، يمكن ان نقول اننا امام مقال سياسي ايديولوجي

مترابط ، فهو يصف الواقع وبؤسه ، ثم يدعو الى الحركة ، ويعود بذلك ليطرح تفاؤلية لا متناهية ، وبذلك يشكل استشراف المستقبل الموعود الاطروحة الرابعة في شعر توفيق التحريضي :

سواعدكم تحقق اجمل الاحلام
تصنع اعجب العجب (١٠)
مساكين ....
لقد خدموا ، بصمت الرعد ! (١١)
....
ودربنا — وان قسا — منور (١٢)

ان اهم مزايا شعر توفيق زياد يتأتى من خصوصيته كانعكاس لحقل تاريخي — اجتماعي معين ، وتتحدد هنا القيمة الجمالية له ليس من بنيانه الشعري بل من قدرة هذا البنيان على ان يكون غلافاشعريا يتضمن تناقضات الفراغ الزماني والمكاني الذي ولده ، فنحن هنا امام **التشرط التاريخي للعمل الادبي** ، او **تاريخية العمل الادبي** ، فليس الشاعر حرا في عمله في اللغة ، لكنه محكوم بالضرورة التاريخية ، ووعيه لهذه الضرورة يجعله حرا بالمعنى الحقيقي للكلمة .

حر ، اي يفهم خصائص زمانه ، ضرورة تحويله ، فيلتحم ويتكافل مع الشعب ، ويخضع شعره لهذه الضرورة ، فيعطيه كل الاشكال الممكنة . لكن اخضاع الشكل هذا ليس مجانيا ، فهو ذو وظيفة :التعبير عن تطلعات الشعب ودفعه الى الحركة ، ولتحقيق ذلك فعلى الشعر ان ينفذ ويرشح الى الشعب بأسره .

فالمضمون اذن ليس تاريخيا ، فمقولات الحرية والدفاع عن الوطن خالدة . لكن الشكل على عكس ذلك يخضع للتاريخ ، ويتغير وينمو تبعا للظرف التاريخي الذي ولده ، ويحصل الشكل على استقلاله الذاتي ، على حركته المطلقة، عندما يتحرر من الضرورة التاريخية، اي عندما يعكس شرطا تاريخيا لا تناقض فيه . يصل الشعر الى ذروة حريته في مملكة الحرية .

الشاعر والمجتمع والوظيفة التحريضية للادب :

عندما يضع الشعر نفسه فوق الطبقات ويلهث سادرا وراء كماله الشعري ، هل يعبر عن حقيقة موضوعية موجودة فعلا ؟

نقول اولا ان الشعر ليس فوق الطبقات ، وكل نص ادبي يتضمن بالضرورة بعدا طبقيا بوعي او بدون وعي . فالشعر حقل متميز في حقل الادب ، معنى ذلك انه يرتبط بالبنيان الفوقي ، فكل تصور ورؤيا للعالم تعكس بالمعنى الحرفي للكلمة موقعا اجتماعيا ، اي طبقيا (١٣)

ولا يمكن ان يرى الشاعر كذات فقط ، فهو ذات محددة اجتماعيا ، علاقة اجتماعية تعبر عن نفسها ونمط سلوكها وتصوراتها عن موقع اجتماعي محدد على المستوى الاخير بالانتماء الطبقي . يقول ماركس « ليس الانسان تجريدا محاثيا للفرد المعزول ، فالانسان في الواقع هو مجمل علاقاته الاجتماعية » (١٤)

ان موهبة الشاعر لا تخلق وحدها عملا فنيا حقيقيا ، فالموقع الايديولوجي للفنان يحتل مكانا هاما في توجيه عمله الفني واعطائه مضمونا محددا ، وليس العمل الشعري الا غلافا فنيا يتضمن تجربة وثقافة اجتماعية محددة . ويصل الفنان الى ذروة ازمته

عندما يفقد النقطة الاجتماعية التي تحكم ابداعه وبحثه الفني ، وتفقد الصورة الفنية قيمتها وحرارتها عندما تخفي وراءها مضمونا غائما ، مضمونا غائبا ، ولا يعني هذا ابدا ان المضمون هو الذي يحدد قيمة عمل فني ، لكنه يعني ان هناك خطا احمرا نحسه من خلال تذوق العمل الفني ، هناك معنى (ما) في العمل الفني نتلمسه تارة بوضوح واخرى بشكل غائم ، لكن هذا المعنى قائم مرة يطفو فوق سطح العمل الفني ومرة يغيب لكننا نتملك وجوده عن طريق الفهم والاحساس والانفعال .

لا يشب اي فنان في عمله الابداعي عن تأثير الشروط الاجتماعية وعن الايديولوجيا التي تفرزها هذه الشروط ، ونؤثر هذه الشروط بشكل واسع على ابداع الفنان ووعيه . يقول غوركي « الفنان عين واذن وصوت طبقته ، قد لا يعي ذلك احيانا ، وقد ينفيه ، لكنه يبقى حتماعصباحسيا لطبقته » (١٥)

ليس هناك تطابقا كاملا بالضرورة بين الفنان وعمله الفني ، قد يكون هناك بونا بينهما يتحدد على المستوى الاخير بممارسات الفنان المتباينة ، ولا يحصل هذا التطابق الا عندما تشكل كل العناصر المكونة لعالم الفنان الروحي وحدة عضوية ، عندما يعكس فنيا ما يعيشه يوميا ـ حالة توفيق زياد ـ ويتابع عندها ابداعه الشعري بكل حرية ، لانه لا يتعامل مع نصه بدون وعي بل بوعي ومبادرة .

نصل الان الى نقطة اخرى ، علاقة الفنان **بالمادة الاجتماعية الخام** التي يكدسها من خلال ممارسته وملاحظاته .

ان مفهوم العمل الفني يتضمن تناقضا ديالكتيكيا ، فهو في الوقت نفسه عملية بناء وعملية هدم ، يعيد الفنان صياغة تجربته المادية شعريا ، اي يبنيها من خلال مقاله الشعري ، ويهدمها كمادة خام . ان غياب عملية الهدم يغيب في الوقت نفسه عملية البناء الفني . ويلازم التناقض الديالكتيكي كل ميكانيكية داخلية للعمل الابداعي ، فهناك فهم الواقع الخام واستيعابه ، وهناك في الوقت نفسه قدرة الفنان على التسيد فنيا على هذه المادة الخام .

اذا رجعنا الى توفيق زياد ووقفنا امام مدى تسيده على المادة التي يبنيها شعريا ، وجدنا ان هذا التسيد متفاوت في درجاته ، فهناك قصائد تملأ الشرط الضروري للشعر من حيث هو تفكير في صور ، ووجدنا قصائد اخرى تخون مباشرتها جوهر الشعر ومقوماته . لكن كلا الشكلين هذين في تفاوت بنيانهما الفني يتميزان بأمرين : التعبير عن تجربة جمعية ، تجربة شعب بكل عمق مأساته من ناحية ، والطابع التحريضي للشعر من ناحية ثانية . ان الضرورة التاريخية لتحريضية الشعر كما نلقاها في حالة توفيق تقصم احيانا البناء الفني لديه ، لكن هذه التحريضية هي التي تشفع نفسها لسقوط الشكل الفني احيانا ، ولفهم ذلك وربما تبريره ليس امامنا افضل من بريشت .

ويمكن ان نلخص موقف بريشت بالنقاط التالية :

ـ للفن العظيم اثر مباشر ، يعمل من خلال مضمونه على توحيد البشر حتى لو دعاه ذلك الى التضحية بالمتعة الجمالية « اننا نتخلى عن الفن العظيم المعتمد على المتعة الجمالية اذا لم يستطع القيام بدوره الاجتماعي » .

ـ تأتي عظمة الفن من عظمة القضية التي يكافح لاجلها .

ـ تأتي عظمة الفن من قدرته على التحول من فكر الى قوة مادية،اي فاعلة اجتماعيا.

ـ ان الفن العظيم لا يمكنه ان يكون فنا لكل الطبقات (١٦)

مما لا شك فيه ان بريشت هنا لا يدعو الى فن بلا اصالة ، بل يدعو الى فن مرتبط

بالحركة الجماهيرية من اجل الوصول الى زمن يتحرر فيه الانسان والشعر معا .

قد يقول قائل لماذا نتعاطف ونحس شعر توفيق زياد حتى في اكثر اشكاله مباشرة ؟

ربما يجثم الجواب في تعبيره عن التجربة الجمعية ، تجربة يعيشها ويعانيها كل فلسطيني ، ويذكرنا هذا بما قاله رسكن : « تستطيع فتاة شابة ان تغني قصة حبها الضائع ، لكن لا يستطيع البخيل ان يغني ضياع نقوده » (١٧)

يصل الشاعر الى المجتمع ويؤثر فيه عندما يعبر عن قضية سامية ، فيلمس نبض القلب ويهز المشاعر ، اي يقف موقفا ايجابيا من المجتمع متقدما اليه ليس بالشكل الشعري فقط بل بالمضمون القائم في هذا الشكل ، فيستحيل الشعر بذلك الى اداة تقارب روحي بين البشر ، وكلما كان هذا المضمون اكثر سموا كلما كان نفوذ الشاعر اكثر عمقا ، فيقوم بتوحيد المشاعرمن حيث كونه عاكسا لكلية هذه المشاعر .

ان البخيل لن يهز احدا بغنائه ، لانه لا يعبر الا عن نفسه . اما عندما يغني الشاعر لقضية قومية يعيشها كما يعيشها الاخرون ، فهو يخلق قارئا ومستمعا من نوع خاص ، فلا يبقى جمهور الشاعر مجرد متفرج او مستهلك لشعره ، بل يصبح منتجا لفاعلية جديده . فتوفيق زياد عندما ينتج شعره يعمل لايقاظ وتحريك الشعور القومي ، اي ينتج اثرا في الحقل النضالي . يقوم العمل الادبي بتحويل كيفي في عواطف الاخرين وعقولهم . ويمكن ان نلمس جهد توفيق من اجل خلق شعر قومي مقاتل من خلال الاشكال المختلفة التي يصب فيها تجربته الشعرية * ، ومن خلال المقولات والخصائص الكامنة في شعره .

عناصر الواقعية المقاتلة – توفيق زياد من خلال بريشت :

يندرج شعر توفيق بأكمله في حقل الادب الملتزم بقضية الشعب والفقراء ، فهو انعكاس نوعي للواقع ، انعكاس لواقع يجب تغييره ، لذلك سندرج هذا الشعر في اطار تسمية مأخوذة من بريشت : الواقعية المقاتلة . لا ترتكز هذه الواقعية في منطلقاتها على الصراع الطبقي وتجلياته في ميدان الادب ، بل ترتبط بحقبة تاريخية محددة بكل خصائصها تتسم بالتناقض الاجتماعي .

ان الخصائص التي سندرسها في شعر توفيق ليست متناثرة ، مجزاة ، فهي تشكل وحدة متعددة الابعاد ، لا تتواجد فقط في بعض الجوانب دون الاخرى ، قائمة ومتواجدة في كل حنايا العمل الشعري وتحكمشكله ومضمونه ، فتعطي بذلك خصائصه وتميزه . فلا يتحدد نمط الانتاج الشعري عند توفيق في حقل طبقتين متصارعتين ، بل في حقل اكثر اتساعا ، حقل التحرر واستعادة الشخصية القومية .

ولنر كيف تتجلى مقولات هذه الواقعية في شعر توفيق زياد (١٨)

– الادب الواقعي ادب معركة ، يهتك ظلام الواقع ، ويلقي الضوء على جوانب التعميم والتضليل فيه ، يحرض على هدمه وبناء عالم يتجاوزه .

من اين نأتي النقود
وهذي السماوات رغم الدعاء
ورغم الصلاة صباح مساء
أبت ان تجود ولو بالقليل (١٩)

يرفع الشاعر هنا عن الواقع ردائه الصوفي ، ويتركه عاريا كواقع محكوم بالتناقض

---

* سنرجع الى موضوع الشكل والمضمون عند توفيق زياد في دراسة اخرى .

الاجتماعي ، وتدفع انارة الواقع الى كسره ، فيضحو الشعر هنا معرفة / تحريض .

ــ ينطلق الادب الواقعي من المحسوس ، من العالم المعاش بكليته ، ويركز على ما هو نمطي فيه ، على ماله دلالة تاريخية ، فيضع يده على العصب الذي يحكم الواقع :

وتلاقي المعذبون على الارض
انتفاضا على الشقاء اللعين (٢٠)

ان الخط الاحمر المسير للشاعر هنا يكمن في الدفاع عن الانسان المسحوق . فالشاعر وعالم المسحوقين وحدة ، لا يلتزم بقضية انسان ميتافيزيقي ، انسان ــ فكرة ، بل عن انسان محدد طبقيا ، لا ينبع هذا الالتزام من رؤية اخلاقية بل عن وعي مادي للعالم .

ــ يركز الادب الواقعي على عامل الصيرورة واضمحلال الاشياء ، يرى العالم بشكل تاريخي ، الحاضر والماضي المولدان للمستقبل . فهو يرى العالم في حركة مستمرة:

انا علقت هذا الراس
. . . .
انا علقته اليوم
فقد علقني امسا (٢١)

يستشف الشاعر المستقبل الايجابي ، حتى وهو غارق في مملكة العسف ، لا يستشف ذلك برؤية عمياء ، بل برؤية ديالكتيكية ، فلا تعيد الاشياء نفسها بالشكل ذاته مرتين ، فهي تنحو باستمرار الى مملكة الحرية ، تنحو اليه حتى عندما تراوح .

ــ يظهر الاديب الواقعي التناقضات القائمة في الحياة ، والعلاقات المتبادلة بين البشر ، كما يبرز الشروط التي تتطور فيها هذه التناقضات :

دارت يد السجان بالمفتاح
تغلق كل بـــاب
الا بقايا كوة
من خلفها تبدو الروابي (٢٢)

ليس السجان وحيدا ، فأمامه يوجد نقيضه . فهناك من ناحية « السجان الانقر » ومن ناحية ثانية « البطون الجائعة والاقدام الحافية » و « تهاليل شعب متمرد » .

ــ يهتم الادب الواقعي بالتغيرات التي تحصل لدى الانسان ، وعلاقة هذا الاخير بالتغيرات المستمرة والمفاجئة ، اي يرصد الانسان وتحولاته في علاقتها بالواقع المتغير ايضا ، فهناك باستمرار جديد في الواقع وفي الانسان ، فالفرد والواقع وحدة في كل مرحلتها التاريخية :

لاني لست كالكبريت
اضيء لمرة ... واموت
ولكني ...
كنيران المجوس : اضيء ..
من
مهدي
الـى
لحدي (٢٣)

تتجدد الصورة الفنية باستمرار بقضية الانسان وتجدده ، تجدد بالموت وتجدد في الحيـاة .

ـــ يظهر الادب الواقعي قوة الافكار واساسها المادي . فالفكر يضيء ظلمة التاريخ :

يا من اعطيت الكلمات
تعابير .. ملامح
ووهبت الدنيا الحرف الجارح (٢٤)

ـــ الادب الواقعي انساني ، صديق للانسان ، يظهر العلاقات الاجتماعية بحيث يدعم الاتجاه الايجابي ، وذلك بفضل رصده لالة المجتمع وحركتها ، فيعطي بذلك لنضـــال الانسان متعـــة :

وجه الدنيا اصبح انضر
مجرى التاريخ تغير
عالمهم جثة كلب
تتكوم تحت نعال الشعب (٢٥)

لا تتواجد هذه العناصر في شعر توفيق بشكل اعتباطي ، فهي سمة ومفتاح شعره من حيث هو شعر ملتزم/تحريضي . فشاعرنا مثقف مناضل ، مثقف جمعي ، يتوجه الـــى جمهوره بكل الاشكال المكنة . لذلك يمكن ان نقوم بقراءة ديالكتيكية لشاعرنا ، فشعره ديالكتيكي وصورته ماديـــة .

ملاحظات حول معنى الكونية :

نعثر عند توفيق على شكلين من الكونية ، اولاهما حقيقية في صورتها الفنية ومضمونها الادبي ، وثانيهما كونية ظاهرية ، اي لا كونية فهي مجرد موقف ايدولوجي ذو غطـــاء شعـــري .

نتلمس الكونية الاولى ، الحقيقية ، في القصائد المعبرة عن واقع الوطن ومعانـــاة الفلسطيني في منفاه الازدواجي : وطنه وخارج وطنه . تعكس الصورة الفنية هنا واقعا محليا وتأخذ فنيتها وكونيتها من شكل هذا الانعكاس ، يصبح الشعر هنا نمطا فنيـــا حاملا لتجربة شعب ، ورسالة انسانية قادرة على خلق التواصل والتعاطف ، فنرى خلاله الفلسطيني وبيته المهدم ، وحقله المنهوب ، وحلمه الكابي تارة والمتيقظ تارة اخرى ، اي نتلمس تجربة شعبه في فراغه الزماني والمكاني والعاطفي :

من شدة حبي لبلادي
لا افنى واموت
لكن اتجدد
دوما اتجدد : (٢٦)
. . . .
وان كرومي .. عرائس زندي
لوتها يد الموت .. ليلة نحس (٢٧)
. . . .
هنا على صدوركم باقون ، كالجدار
. . . .
لعله ذات يوم يهتف النهر :
« تنفس ..... » اهلك الغياب
يا مصلوب ... قد عبروا ... (٢٨)

فالكونية هي تجربة شعب في شكلها الشعري ، تجربة الشعب وهو ينقش « ذكرياته فوق زيتونة في ساحة الدار » ، « ينتظر عودة الغياب » ، ينتظر الشمس تحت سوط الجلاد . **ليست الكونية الا البلورة والتكثيف لتجربة محلية : المكانية والزمانية المقدمة في شكل ابداع فني .**

الكونية الاخرى ظاهرية ، ايدولوجية ، موقف انفعالي ازاء حدث (ما) ايجابي في دلالته لكنه لا يعبر عن قضية الشاعر المباشرة (قضية شعبه) . فان سقط شكلها الفني كانت قصيدة/مناسبة ، عارضة ، وان كان هناك تطابقا بين شكلها ومضمونها ، دخلت في ميدان الانتاج الفني العام ، ابداع لا يستلزم الكونية الا اذا تلاحم المحلي بالكوني بشكل عضوي .

لقد كتب توفيق قصائد عدة عن حركات التحرر ، والانتفاضات السياسية ، وعن مناضلين من اجل التقدم . كتب عن لينين وناظم حكمت ، وعن العراق وموسكو وكوبا والسودان والجزائر . لكن هذه القصائد لا تشكل كونية شعره ، فهناك فرق بين الكونية والاممية ، ليست قصائده المشار اليها الا موقفا امميا ، موقف ذو غطاء شعري . تتحدد الكونية فنيا ، بتلاحم الفني والمعاش المحلي ، في حين تتحدد الاممية ايدولوجيا وسياسيا . ان اممية توفيق ليست امرا عارضا ، فهي تتسرب بنقطة انطلاقها الايدولوجية الى جملة شعره ، لكن كونية شعره لا تنبع بالتأكيد من امميته .

حول مفهوم العمل الشعري : قد يقول البعض اننا قد قدمنا قراءة خاصة لشعر توفيق زياد ، قراءة سياسية — ايدولوجية لا قراءة شعرية ، بدلا من الانطلاق من الشعر كابداع محض ، ولكن ما هو هذا الابداع المحض ؟

يقول هيجل « الشعر ابداع حر لا يمكن تقييده من الخارج ، وينبغي على الشاعر ان يتجاوز سجل الاهتمامات العملية وما شابهها ، وان يتأمل العالم الداخلي والخارجي بعين هادئة حرة ، ويترك جانبا كل ما هو غريب عن عاطفته ورغبته ، .... ، ويمكن ان نقول بشكل عام ان صفة الفكر الشعري تكمن بشكل جوهري في مجازيته» (٢٩) واذا كان هيجل يركز على مجازية العمل الشعري من حيث هو تفكير في صور فانه يفعل ذلك في اطار فلسفته المثالية ، فالجمالي هو نتاج الوعي ومرحلة عابرة في طريق الروح الباحثة عن نفسها . ان الشعر عنده ليس الا ابداعيا صوفيا ، لحظة في تحقق الفكرة الباحثة عن نفسها ، اي نشاطلا زماني ولا مكاني معلق في سديم مسار الفكرة المطلقة يضع التاريخ المادي بين قوسين . ان مثل هذا الشعر في شكله المطلق يستند الى امرين:

١ — مقولة جوهر الانسان والتي تقول ان هناك انسانا بشكل عام دون اي تحدد تاريخي او اجتماعي ، انسان كهف افلاطون الذي لا يرى الشمس الحقيقية بل يرى فقط شمسه الصوفية الخاصة .

٢ — التاريخ مسار روحي بعيد عن المادة والمجتمع وحركته وتناقضاته ، اطار صوفي لتحقق الروح او الفكرة ، اي بعيد عن التاريخ الحقيقي كهجومه وصراعاته المادية التي تحكم فعلا وموضوعيا وضعنا في التاريخ .

ان مثل هذا الشعر لا وجود له الا في « الفكرة » ، او في ضمير شاعر يجتر مملكة افكاره وعزلته ، فليس هناك انسانا بالمطلق بل نحن دائما امام انسان محدد تاريخيا واجتماعيا، انسان يصارع ويصارع بالضرورة ضد اخر ، ويتم هذا الصراع في التاريخ ، في فترة لها صفات ومزايا معينة ذات وعي اجتماعي ينبت من تربتها التاريخية ، وبالتالي فان العمل الشعري بكل تنوعه وخصائصه وتطور اشكاله يتجه بالضرورة الى انسان له تاريخ ، لا الى انسان (ما) في تاريخ (ما) . والشعر كموضوع له ذات اي قارىء

وجمور وطبقة ، يولد ويدور ويعيش في مكانه (مجتمعه) وفي زمانه (حقبة تاريخية معينة) ، وعندما يبتعد هذا الشعر وينأى عن زمانه ومكانه يغدو صوفيا او ذاتيا مبهما يدور في « فضاء وزمان » كاتبه ، اي مجتث الجذور .

ان قراءتنا لشعر توفيق بشكل خاص ولشعر المقاومة الفلسطينية بشكل عام تتم في هذا الاطار ، فهذا الشعر هو صوت نوعي للنضال الفلسطيني ، وهو انعكاس لهذا النضال واعداد تربوي لمتابعته ، وهذا ما يحدد المنحى العام ، المنحى الثوري والفني له. لذلك فنحن لا نبحث عن خصائص الشعب الفلسطيني (شعب ذو قضية) في شعره بل نبحث عن خصائص شعره فيه ، فالشعر الفلسطيني نما في رحم فلسطيني وولد على فراش فلسطيني ايضا ، وبذلك يلتقي الفني والاجتماعي والتاريخي بشكل كامل . فالفني هو الانعكاس الذهني للحدث المادي « الذي يدرس القوى التي تحرك العالم لضمان استمرار هذه الحركة » (٣٠)

ان الابداع الفني كتعبير عن وضع معين لا يستطيع ان يتجاوز حدود هذا الوضع ، ربما يستطيع ان يشير الى المستقبل والى افاق قادمة ، لكن هذه « الاشارة » لا تأخذ دلالتها ومعناها ان لم تستند الى ذلك الوضع المعين ، فوعي الفنان لا يكون وعيا ممكنا الا اذا ترابط بالوعي الاجتماعي في زمانه ، ويمكن ان نقول ان للفنان وعي راهن يرى فيه زمانه ووعي ممكن يقذفه الى المستقبل ، لكن هذا الوعي في شكله الراهن والممكن يخضع بالضرورة لضغط الوعي الاجتماعي ، (٣١) ، وهذا ما يخلق احيانا شرخا في عمله الفني ، ولا نقول شرخا بالمعنى السلبي للكلمة بل بمعنى تواجد الحاضر والمستقبل في العمل الفني ، الحاضر كحاضر وكمحدد للمستقبل في الوقت ذاته ، اي تناقض ظاهري يتضمن في جوهره وعيا « عميقا » لحركة الحاضر ومساره ، وهنا يأخذ الفهم شكل الحدس في غطاء شعري او فنيبشكل عام .

ان شعر توفيق زياد لا يعكس وضعا فلسطينيا بشكل عام ، بل يعكس وضعا ثوريا يشرع له اشكاله الشعرية المختلفة من الشعر الكوني الى شعر المناسبات مرورا بالشكل التحريضي . واذا كان شعره الكوني سيدخل كوثيقة ادبية في التاريخ فان شعره التحريضي سيدخل ايضا التاريخ كوثيقة تاريخية تحمل في طياتها نضال ومأساة شعب .

في زمن الثورة ، زمن توفيق زياد ، لا نقف طويلا امام « اللذة » الشعرية و « كمال الموهبة » ، بل نقف امام مدى تواجد الثورة في الشعر ومدى تواجد الشعر في الثورة بشكل يدفع على المستوى الاخير الثورة الى الامام . وبذلك لا يقف شاعرنا مغتربا لا في ذاته ولا في شعره ، فنمط ممارسانه لا يسمح بشعر تائه او مغترب . يقول ستيفان مورافسكي عالم الجمال البولوني :

« في زمن الثورة علينا ان نحاكم الفن من خلال مضمونه وشكله ، وفي زمن الهدوء علينا ان نحاكمه من خلال شكله » (٣٢)

ان شعر توفيق **بكليته** لا يعبر عما يريد شاعره بل عن الحاجات الانسانية في زمانه . وسيبقى شعره **بكليته** وثيقة في التاريخ ، لان شاعرنا لم يغن في اشعاره نقودا ضائعة او عشيقه هجرته لكنه غنى ضياع الوطن وغنى لاستعادة الوطن المفقود .

مراجع الموضوع

1-MARX : Critique de l'économie politique, p. 88.
2-Recherches internationales, No. 38, pp. 83-84.

٣ ــ ديوان توفيق زياد ، دار العودة ، ص ١٢٦
٤ ــ نفس المرجع السابق ، ص ١٢٤
٥ ــ نفس المرجع السابق ، ص ١٢٠
٦ ــ نفس المرجع السابق ، ص ١٢٣

٧ ــ نفس المرجع السابق ، ص ٥٢٣
٨ ــ نفس المرجع السابق ، ص ١٠٨
٩ ــ نفس المرجع السابق ، ص ١٠١
١٠ ــ نفس المرجع السابق ص ١٠١
١١ ــ نفس المرجع السابق ، ص ١٢٨
١٢ ــ نفس المرجع السابق ، ص ١٧٣

13-Ch. Buci-Glucksmann : Gramsci et l'Etat, p. 295, Eds : FAYARD.

14-MARX : L'idéologie ALLEMAND, p. 33, Eds. Sociales.

15-Esthétique Marxiste et actualité, p. 294, Eds. Moscou.

16-B. Brecht : Ecrits sur le théâtre, pp. 49-93, Eds. L'Arch.

17-Plékhanov : L'art et la vie sociale, p. 27, Moscou.

18-Littérature / Science / Idéologie, No. 5-6, pp. 10-15.

١٩ ــ ديوان توفيق زياد ، ص ١٧٧ــ١٧٨
٢٠ ــ ديوان توفيق زياد ، ص ٢٠٧
٢١ ــ ديوان توفيق زياد ، ص ٤٦ــ٤٧
٢٢ ــ ديوان توفيق زياد
٢٣ ــ ديوان توفيق زياد ، ص ٢٧٩
٢٤ ــ ديوان توفيق زياد ، ص ٢٦٨
٢٥ ــ ديوان توفيق زياد ، ص ٢٦٩
٢٦ ــ ديوان توفيق زياد ، ص ٤٨١
٢٧ ــ ديوان توفيق زياد ، ص ٣٤٥
٢٨ ــ ديوان توفيق زياد ، ص ١٢٤

29-Hegel : Esthétique P.U.F., pp. 118-119.

30-B. Brecht : Ecrits sur la politique et la Société, Eds. L'Arch, p. 48.

31-S. Morawski : L'absolu et la forme, Eds. Klincksieck, p. 200.

32-*Ibid.*, p. 213.

مشكلات اللاجئين في مخيمات الاردن

كما يراها ابناؤهم في معهد تدريب عمان التابع لوكالة الغوث

حياة ملحس ياغي

الدراسة التالية هي ملخص رسالة للماجستير قدمتها صاحبتها الى الجامعة الاردنية في عمان . وسوف ينشر مركز الابحاث الدراسة كاملة في ربيع ١٩٧٦ .

اللاجئون الفلسطينيون ووضعهم العام في مخيمات الاردن كأساس لدراسة مشكلاتهم : —

١ — اللجوء الاول عام ١٩٤٨

كان الفلسطينيون شعبا يعيش في وطنه تحت الانتداب البريطاني . وقد عانوا ما عانوه من سياسة الحكومة البريطانية المتحيزة للجانب اليهودي. وقد اظهر الفلسطينيون رفضهم لهذا التحيز ولتشجيع الهجرة اليهودية الى بلادهم بالثورات المتكررة في وجه حكومة الانتداب وفي وجه الصهيونية الوافدة .. الى ان تفجرت الازمة في العام ١٩٤٨، حين اتسع نطاق النزاع المسلح بين العرب واليهود وحين اضطر المواطنون الفلسطينيون لترك وطنهم وديارهم ومورد رزقهم واموالهم في فلسطين نتيجة عنف الهجمة اليهودية تؤازرها سلطات الانتداب والامبريالية العالمية . وقد علق الكونت برنادوت الوسيط الدولي في فلسطين لدى الامم المتحدة انذاك قائلا « ترتب على حرب عام ١٩٤٨ في فلسطين ان كل السكان العرب تقريبا طردوا او فروا من الرقعة التي صارت تحت الاحتلال اليهودي . ومن هؤلاء العدد الكبير من سكان يافا وحيفا وعكا والرملة واللد الخ ... وبينما كان عدد السكان اكثر قليلا من (٤٠٠،٠٠٠) عربي قبل اندلاع نيران الحرب ، فان العدد الباقي في الاراضي الخاضعة للسيطرة اليهودية يقدر بنحو ٥٠،٠٠٠ » (١)

وقد لاحظ الدكتور جون هـ ديفيز الذي شغل منصب المفوض العام لوكالة الامم المتحدة لاغاثة اللاجئين الفلسطينيين وتشغيلهم في الشرق الادنى مدة خمس سنين ، « ان مقدار الوحشية التي استخدمها الاسرائيليون في طرد اللاجئين باعتبارها جزءا من خطة مدبرة متعمدة ، هو أمر لم يقدر حق قدره ، وقد تفاوت هذا الطرد بين حرب نفسية دبرها خبراء ، وبين طرد بالقسر وبلا رحمة » (٢) .

لجأ هؤلاء الفلسطينيون عام ١٩٤٨ من فلسطين الى البلدان العربية المجاورة: الاردن، لبنان ، سورية ، قطاع غزة ، مصر والعراق .

كان عدد اللاجئين في الاشهر الثلاثة الاولى من عام ١٩٤٨ صغيرا نسبيا في البلاد العربية المجاورة ، ولكنه تضخم واتسع نتيجة لمذبحة دير ياسين في يوم ٩ من نيسان (ابريل) ١٩٤٨ ولقيام الاسرائيليين بطرد السكان العرب من طبريه في ١٩ من نيسان

(ابريل) ومن حيفا في ٢٢ من نيسان (ابريل) ويافا في ٢٩ من نيسان (ابريل) وصفد في ١٠ من ايـــار (مايو) والرملة واللد في ١٢ من تموز (يوليو) وبئر السبع في ٢١ من تشرين الاول (اكتوبر) وغرب الجليل في خلال تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٨ » (٣) .

لقد كانت الارقام الاولى من عدد اللاجئين تقديرات غير دقيقة اجريت بينما كانت موجة الرحيل متصلة. وقدر الكونت برنادوت عدد اللاجئين حتى يوم ١٠ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٨ بما مقداره (٣٣٠ر٠٠٠) . ثم جاء تقرير الوسيط بالنيابة في شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٨ ، فعدل الرقم الى (٤٧٢،٠٠٠) ولكنه ذكر ان التقديرات التي قامت بها السلطات العربية جعلت المجموع يتفاوت بين (٧٤٠) الفا و (٧٨٠) الفا (٤) . وعندما تسنى اجراء تقدير على وجه ادق ، تبين ان الرقم الحقيقي اكبر من ذلك بكثير ، وفي شهـــر حزيران (يونيو) ١٩٤٩ ، قدم الامين العام للامم المتحدة تقريرا الى الدورة الرابعـــة للجمعية العامة قال فيه : « ان عدد اللاجئين هو (٩٤٠) الفا » (٥) . عندما انشئت وكالة الامم المتحدة لاغاثة اللاجئين وتشغيلهم في اول ايار (مايو) ١٩٥٠ ، قدر عددهم بما مقداره (٩٦٠) الفا (٦) . ولم يشمل هذا الرقم ، عددا اخر من اللاجئين لم يسجلوا، اما لانهم لم يسجلوا انفسهم لدى وكالة الاغاثة ، واما لانهم لم يتلقوا مساعدة منهـــا . ويمكن القول بان عدد اللاجئين الفلسطينيين في سنة ١٩٤٨ كان نحو مليون شخص . وهذا هو التقدير الذي اجراه في ذلك الوقت مندوب رابطة جمعيات الصليب الاحمر في الشرق الاوسط (٧) .

ونتيجة للزيادة الطبيعية ، فقد اصبح عدد اللاجئين الفلسطينيين المسجلين لدى وكالة الاغاثة في يوم ٣١ من ايار (مايو) ١٩٦٧ ما مقداره (١ر٣٤٤ر٥٧٦) (٨) . غير ان هذا الرقم ايضا لا يمثل جملة عدد اللاجئين لانه لم يحدث مطلقا ان اجرى احصـــاء لعـــدد الذين ، رغم تشردهم عام ١٩٤٨ ، لم يتلقوا اية مساعدات من وكالة الغوث ولـــم يكونوا عالة عليها ، بل عاشوا من امكانياتهم الخاصة ومن كدهم وعملهم وهؤلاء اكثرهم حرفيون او تجار او صناع ، (اطباء ، مهندسون ، محامون الخ) .

وقد عاش بعضهم في الاردن وسورية ولبـــنان ، بينمـــا عمـــل بعضهم في الكويت والسعودية والعراق وغير ذلك من البلدان (٩) .

وفي التقرير السنوي الذي وضعه المفوض العام لوكالة الاغاثـــة ، بتاريخ ٢٧ آب (اغسطس) ١٩٦٢ بلغ عدد اللاجئين غير المسجلين بنحو عشرين في المائة من المجموع (١٠). وهذا التقدير على الارجح اقل من الواقع ، والارجح ان نسبتهم تصل الى نحو خمسة وعشرين في المائة (١١) . ولكن حتى لو اعتبر تقدير المفوض العام اساسا ثم اضيف هـــذا التقدير الى عدد المسجلين لدى وكالة الغوث ، فان مجموع عدد اللاجئين الفلسطينيين الذين شردتهم حوادث عام ١٩٤٨ لا بد ان يكون قد اربى في ٣١ ايار (مايو) ١٩٦٧ ، على ١ر٦٠٠ر٠٠٠ (١٢) .

وبالرغم من ان هذا الرقم ١ر٦٠٠ر٠٠٠ اوردته المصادر المبينة لوصف عدد اللاجئين لعام ١٩٦٧ يبين لنا الجدول التالي تفاوتا غير متوقع لوصف عدد اللاجئين المسجلين في دوائر وكالة الغوث في ١٩٦٩/١/١ (١٣) وفي ١٩٧٢/١٢/٣١ (١٤) .

وهذا جدول يبين عدد اللاجئين المسجلين لدى وكالة الغوث في البلدان المضيفة حتى ١٩٧٢/١٢/٣١ .

الجدول رقــم (١)

اسم البلـــد المضيف	عدد اللاجئين المسجلين في وكالة الغــوث حتــى ١٩٦٩/١/١	عدد اللاجئين المسجلين لدى وكالة الغــوث حتـى ١٩٧٣/١٢/٣١
الضفة الشرقية من الاردن	٤٧٨٣٦٩	٥٥٧٩٧١
الضفة الغربية من الاردن	٢٦٩٠٦٥	٢٨١٠٥٨
قطـاع غــزة	٣٠٧٨٢٤	٣٢٧١٧٩
لبـنان	١٦٨٩٢٧	١٨٥٥٩٧
سوريــة	١٥١٧٣٠	١٧١٢٣٠
المجمــوع	١ر٣٧٥٩١٥	١ر٥٢٣٠٣٥

تعرض لاجئو عام ١٩٤٨ لظروف بالغة القسوة ، فقد افتقروا الى وسائــل الرزق والمعيشة . واضطر بعضهم للمكوث في المساجد والاماكن العامة . بينما الفى مئات الالاف منهم انفسهم بلا طعام او مأوى ، فضربوا الخيام تحت الاشجار ، او سكنــوا المغاور في احسن الظروف ، وتوزعوا في البراري هنا وهناك . والى القارىء الوصف الذي ساقه وسيط الامم المتحدة لفلسطين مصوراً احوال اللاجئين العرب في رام الله في صيف عام ١٩٤٨ (١٥) : « قبل ان نبرح القدس ، زرت رام الله حيث احتشد الالاف مــن اللاجئين القادمين من اللد والرملة . وكنت قد زرت مخيمات اللاجئين من قبل . ولكنني لم ار من قبل مثل هذا المنظر الرهيب الذي طالع عيني في رام الله . كانت السيارة تدلف وسط هدير كهدير العاصفة من حشود منفعلة تهتف بحماسة شرقية طلبا للطعام ورغبة في العودة الى ديارها ، وكان هناك عدد من العجزة الذين لا حول لهم ولا قوة ، طالت لحاهم ، دفعوا وجوههم النحيلة داخل سيارتي واخذوا يلوحون بكسر الخبز ، وهــي مما يأنفه بكل تأكيد اي شخص عادي ولكنها مع ذلك . . كانت طعامهم الوحيد . ولعله ليس ثمة خطر مباشر من ان يغدو هذا المخيم مرعى لامراض وبائية تفتك بفلسطــين بأسرها . ولكن ماذا يحدث في اوائل تشرين الاول (اكتوبر) حين يبدأ موسم المطر ، ويأتي الجو البارد ؟ . . وخير للمرء الا يتابع هذا الامر الى نهايته » (١٦) .

ولقد تنبأ الكونت برنادوت بما كان يدخره الغد . ذلك ان اسرائيل ابت ان تسمــح للاجئين الفلسطينيين بالعودة الى ديارهم . وكان من عاقبة ذلك أن آلافا كثيرة منهم وجدت نفسها في مطلع الشتاء دون اية حماية من اخطار الطبيعة (١٧) . وقد مات منهم كثيرون راحوا ضحايا دون انيأبه بهم احــد .

والاجراءات الاولى التي اتخذت لغوث اللاجئين ، تولاها السكان المحليون والحكومات العربية ولاكثر من سنة ، اعتمد هؤلاء اللاجئون على هذه المساعدة وحدها . ولكــن لتضخم ابعاد مأساة اللاجئين ، تطوعت بعض هيئات الاغاثة الخاصة لمساعدتهم منهــا رابطة الصليب الاحمر ، والصليب الاحمر الدولي ، ولجنة خدمة الاصدقاء (الفرندز) على انه سرعان ما وضح لوسيط الامم المتحدة انه لا الجهود التي تبذلها الحكومــات العربية والسكان العرب ، ولا التبرعات التي تجود بها هيئات الاغاثة الاجنبية بكافية لمعالجة مشكلة اللاجئين الضخمة . ولم يكن ثمة خيار ، كما قال وسيط الامم المتحــدة ، الا بين انقاذ حياة آلاف كثيرين او تركهم يموتون . وكان ضروريا للامم المتحدة ان تتدخل لتحول دون وقوع الكارثة . وفي سنة ١٩٤٩ ، انشئت هيئة اغاثة اللاجئين الفلسطينيين التابعة للامم المتحدة لعون اللاجئين على اساس مؤقت . ثم في اول ايار (مايو) ١٩٥٠ بدأت وكالة الغوث التي انشئت بقرار من الجمعية العامة تاريخــه ٨ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٩ ، مهمتها في مساعدة اللاجئين الفلسطينيين فاستطاعت ان تبعد عنهم

شبح الموت جوعا ، كما خففت من الشدة التي كانوا يعانون منها بما وفرته لهم من الطعام والمأوى والعناية الطبية . وفي السنين الاخيرة وجه اهتمام الى التدريب المهني وتخريج المعلمين بين قطاع اللاجئين .

وقد انشأت وكالة الغوث اربعة وخمسين مخيما تابعا لها في البلدان المضيفة حيث أوت فيها حوالي (٤٠ بالمائة) من اللاجئين الفلسطينيين حتى شهر حزيران ١٩٦٧ (١٨).

لقد وضع هؤلاء اللاجئون في مخيمات كانت تتألف في البداية من الخيام فقط وقد كان هذا الاجراء اجراء مؤقتا لا مفر منه الى ان استبدلت هذه الخيام باكواخ بنيت من الطوب الطيني او من الزينكو او من قوالب الاسمنت الأكثر متانة (١٩) .

وهذه قائمة باسماء واعداد المخيمات (٢٠) التي انشئت في الاردن بعد حوادث عام ١٩٤٨ : —

الجدول رقم (٢)

اسم المخيم	عدد سكانه المسجلين
١ — مخيم الوحدات في مدينة عمان	٤٢ر٤٩٦ نسمة
٢ — مخيم جبل الحسين في مدينة عمان	٣٢ر٨٧٥ نسمة
٣ — مخيم الزرقاء في بلدة الزرقاء	١٧ر٢٣٢ نسمة
٤ — مخيم اربد في مدينة اربد	١٨ر٥٠٣ نسمة

قائمة باسماء واعداد المخيمات (٢١) التي انشئت في الاردن بعد حوادث عام ١٩٦٧ وتدعى (بمخيمات الطوارىء) .

الجدول رقم (٣)

اسم المخيم	عدد سكانه المسجلين
١ — مخيم البقعة — شمالي مدينة عمان	٤٣ر١٨٤ نسمة
٢ — مخيم ماركة — طريق الزرقاء	٢٣ر٠٩٥ نسمة
٣ — مخيم الحصن — قرب مدينة اربد	١٥ر٠٦٥ نسمة
٤ — مخيم جرش — شمالي مدينة عمان	١٤ر١٠٠ نسمة
٥ — مخيم سوف — في الشمال	٩ر٤٨٨ نسمة
٦ — مخيم الطالبية — زيزيا — طريق مادبا	٥ر٥٥٧ نسمة
المجموع	١١٠ر٤٨٩ نسمة

والواقع ان مساعدات الوكالة لا يتلقاها جميع اللاجئين المسجلين ، فنسبة الذين لا يتلقون مساعدة من الوكالة مطلقا ١٠٪ من اللاجئين حسب احصائيات الوكالة كما ان هناك حوالي ٢٨٪ من اللاجئين يحصلون فقط على خدمات الاونروا الصحية والتعليمية، ولكنهم لا يحصلون على مخصصات الاعاشة وهؤلاء هم اصحاب الدخل الذين يعملون اما في جهاز وكالة الغوث او في مؤسسات اخرى . وهناك حوالي ٦٢٪ من اللاجئين المسجلين يحصلون على كل من خدمات الوكالة ومخصصات الاعاشة (٢٢) .

ففي عام ١٩٦٦ كان عدد اللاجئين الذين يتلقون مساعدات (٨٦٠) الفا من جملة عدد اللاجئين المسجلين الذين يزيد عددهم عن (١ر٣٠٠ر٠٠٠) . وبين عامي ١٩٥١ و ١٩٦٦ تفاوتت نفقات وكالة الاغاثة السنوية ما بين (٢٦) مليون دولار و ٣٧ مليونا .

وفي عامي ١٩٦٧ و ١٩٦٨ زادت النفقات السنوية على (٤٠) مليون دولار وفي عام ١٩٦٩ قدر ان ميزانية الوكالة ستتجاوز ٤٢ مليون دولار . وهذا يعني في حقيقة الأمر أن معدل المساعدة بالنسبة للفرد يقل عن ٣٠ دولارا في السنة هي كل مـا ينفق علـى اللاجيء الواحـد (٢٣) .

٢ ــ نزوح ثان في حزيران سنة ١٩٦٧

لقد تسببت اسرائيل في مأساة ثانية للاجئين اذ بلغ عدد الفلسطينيين الذين شردوا من الضفة الغربية وقطاع غزة نتيجة للحرب الاسرائيلية العربية التي نشبت في ٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ حسب تقدير حكومة الاردن في ٣١ ايار (مايو) ١٩٦٨ مـا مقداره (٤١٠ر٢٤٨) شخصا. وقد تلقى عدد كبير منهم المساعدة من وكالة الغوث وقدر عددهم في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٨ بنحو (٣٢٥) الفا . ويتألف هذا الرقم من (١٤٥)الف لاجيء فلسطيني منذ حرب سنة ١٩٤٨ ، وهم مسجلون رسميا لدى وكالة الغوث فـي الضفة الغربية وشردوا للمرة الثانية في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، ومن (١٨٠) الفا من اللاجئين الجدد من الضفة الغربية وقطاع غزة . ويجب ان يضاف الى عدد اللاجئين الفلسطينيين الذين شردوا من الضفة الغربية وقطاع غزة (١٦) الف فلسطيني سجلوا لدى وكالة الغوث باعتبارهم لاجئين بعد حرب عام ١٩٤٨ ثم شردوا في سورية ، كذلـك يضاف بين ثلاثة الاف واربعة الاف شاب فلسطيني كانوا مسجلين لدى وكالة الغـوث طردتهم اسرائيل من قطـاع غزة الـى مصر (٢٤) .

ان مجموع عدد اللاجئين الفلسطينيين نتيجة لحربي ١٩٤٨ و ١٩٦٧ يحتاج الى شيء من الايضاح . فقد لاحظنا فيما سبق ان المفوض العام لوكالة الاغاثة قدر في عام ١٩٦٢ عدد اللاجئين الفلسطينيين الذين لم يسجلوا لدى وكالة الاغاثة والذين عاشوا بوسائلهم الخاصة بما نسبته عشرون بالمائة من عدد اللاجئين المشردين (٢٥) كذلك قـال المستر جسينغ المثل الخاص للامين العام في تقريره المؤرخ في ١٥ ايلول (سبتمبر) ١٩٦٧ ان عدد اللاجئين المسجلين لدى وكالة الغوث « يقدر بسبعين في المائـة من جملـة عدد اللاجئين » (٢٦) والرقم الذي لدى وكالة الغوث اللاجئين يوم ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٦٨ هو ٢٦٨ر٣٦٤ر١ (٢٧) فاذا اضيف الى هذا الرقم عدد النازحين الذين كانوا ضحية حرب ١٩٦٧ ، وكذلك عدد اللاجئين غير المسجلين لدى وكالة الغوث زادت جملة اللاجئـين الفلسطينيين الذين شردتهم اسرائيل من سنة ١٩٤٨ بكثير على ارقام وكالة الغوث لعدد اللاجئين المسجلين لديهـا .

واثر هذا النزوح الثاني قامت الوكالة بانشاء مخيمات طوارىء لهؤلاء النازحين ستة منها في الاردن ، واربعة في سورية . اقيمت هذه المخيمات المؤقتة الجديدة في التـلال الواقعة الى الشمال والجنوب من مدينة عمان . وباقتراب الجو البارد جرى نقل هـذه المخيمات الواسعة الى وادي الاردن لان شتاءه اقل قساوة من مناطق اخرى . كذلـك فصلت الوكالة مع اللاجئين المسجلين في قوائمها والذين نزحوا عام ١٩٦٧ اثر اندلاع الحرب بين اسرائيل والبلدان العربية ــ هؤلاء اللاجئين الذين كانوا يتقاضون مؤنا ــ فصلتهم عن بقية النازحين ونقلت مؤنهم من المنطقة التي نزحوا منها في الضفة الغربية الى الضفة الشرقية ، وبدأت تساعدهم كبقية اللاجئين المقيمين في الضفة الشرقية مـن الاردن . اما النازحون الباقون فتولت امر اعاشتهم اللجنة الوزارية العليا التابعـة لوزارة الإنشاء والتعمير الاردنية وذلك باعطائهم مخصصات تموينيـة وغيرها مـن التبرعات التي تفد اليها من الجمعيات الخيرية في البلدان المختلفة عن طريق الحكومـة الاردنيـة .

وبحلول شتاء ١٩٦٨ ــ ١٩٦٩ كان حوالي ٩٢٫٠٠٠ شخص لا زالوا يقيمون في احوال طارئة تحت الخيام في الضفة الشرقية من الاردن وفي سورية (٢٨) .

وقد جرى اتخاذ اجراءات خاصة لانشاء مآو مؤقتة ومتينة لحماية خمسة من المخيمات الطارئة الستة في الاردن من قساوة الشتاء ، والمخيم السادس زود بمآو من الخرسانة بنتها جمعية الأسد والشمس الحمراء الايرانية (٢٩) . وقد رفض لاجئوا المخيمات الطارئة بناء غرف متينة لهم من الخرسانة لشعورهم بان في هذا المشروع تأكيدا للخطة بتوطين اللاجئين في الدول العربية الامر الذي يرفضه معظم اللاجئون في المخيمات ومعظم اللاجئون خارج المخيمات ايضا يرفضونه بشدة وحزم ، ولا يرضون عنه بديلا سوى العودة الى وطنهم السليب فلسطين .

وقد جرت محاولة التوطين هذه سنة ١٩٤٩ حيثرعتها وزارة الخارجية الاميركية (٣٠) وقد كانت محاولة لتصفية مشكلة اللاجئين بتوطينهم بعيدا عن ديارهم فقد قدم انذاك المستر بورتر (Porter) العضو الاميركي في لجنة التوفيق الخاصة بفلسطين اقتراحا بتعيين لجنة للاستقصاء الاقتصادي في الشرق الاوسط تكون مهمتها التوصية ببرنامج للتنمية في الشرق الاوسط لاعادة دمج اللاجئين « في الحياة الاقتصادية للمنطقة على اساس الاكتفاء الذاتي في اقصر وقت ممكن » (٣١) . وقد عينت لجنة الاستقصاء برئاسة المستر غوردن ر . كلاب ــ Klapp ــ ، وبسرعة مدهشة قدمت تقريرها ، وقد أوصت بعثة كلاب كما سميت في ما بعد ببرنامج للاشغال العامة باعتبارها « مشروعات نموذجية » في البلدان التي ينزل اللاجئون فيها ، وذلك لتهيئة اسباب العمل للاجئين والمبادرة الى خفض قوائم اللاجئين المسجلين بنسبة الثلث - وانهاء اعمال اغاثة اللاجئين في خلال ثمانية عشر شهرا . وقد قبلت الجمعية العامة للامم المتحدة توصيات بعثة كلاب فيما يتعلق بوضع برنامج الاعمال ، ولكنها ابت ان ترضي توصيتها المتعلقة بانهاء غوث اللاجئين . وفي القرار الذي اتخذته الجمعية العامة بتاريخ الثاني من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٠ ، كلفت وكالة الاغاثة والتشغيل بان تهيء صندوقا لاعادة دمج اللاجئين قوامه (٣٠) مليون دولار على ان تستخدم في مشروعات قد تطلبها حكومات الشرق الادنى لتمكين اللاجئين من الوقوف على اقدامهم ورفع اسمائهم من قوائم الاغاثة (٣٢) . وفي يوم ٢٦ من كانون الثاني (يناير) ١٩٥٢ ، وافقت الجمعية العامة على برنامج لانفاق مائتي مليون دولار لاعادة دمج اللاجئين .

ولكن مشروعات الاشغال التي اقترحتها بعثة كلاب اخفقت اخفاقا تاما ففي يوم ٣١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٠ ، وهو التاريخ الذي حددته بعثة كلاب لانهاء غوث اللاجئين ، لم يزد عدد الذين عثروا على عمل على (١٢) الف لاجيء من مليون لاجيء . ولم يستخدم من المائتي مليون دولار المخصصة للاجئين الا خمسة في المئة . اما سبب الاخفاق ، فقد اعرب عنه هنري ر . لابويس مدير وكالة الاغاثة في تقريره السنوي لعام ١٩٥٥ ــ ١٩٥٦ حيث قال : « ان مشكلة اللاجئين الفلسطينيين انما تتعلق بالانسانية المعذبة ، وبالذكريات ، وبحالة التمزق التي يعاني منها مئات الالاف من افراد بني البشر ، وليست مجرد مشكلة اقتصادية تقبل الحلول الاقتصادية » (٣٣) .

ولكن عندما لم تنجح خطة كلاب حاولت وكالة الغوث في عام ١٩٥٥ اعطاء مبالغ مالية تتراوح بين ٢٠٠ ــ ٤٠٠ دينار اردني لاقامة مشاريع صغيرة تتعلق بالشؤون الزراعية او مشاريع حرفية بسيطة للاجئين مقابل استغناء اللاجيء المستفيد عن بطاقة مؤنه نهائيا . وقد عانى ابناء هؤلاء اللاجئين المستفيدين من هذه المشاريع الصغيرة ، اذ انهم عندما اصبحوا في سن تؤهلهم لدخول دور معلمي الوكالة رفضوا رفضا قاطعا من قبل المسؤولين في الوكالة بحجة ان اباءهم كانوا من المستفيدين من مثل هذه المشاريع .

اوردت هذه اللمحة عن نتائج استقصاء لجنة التوفيق الخاصة بفلسطين ورفض اللاجئين قبول مشروعها بشكل عام ، لان نتائج البحث في هذه الدراسة ابرزت بشكل بارز ان المعاناة النفسية للجوء واثر اللجوء النفسي على اللاجيء ، كانت من اهم المشاكل واكثرها حدة عند طلبة معهد تدريب عمان وهم ابناء اللاجئين في المخيمات كما سينضح ذلك في فصل تحليل النتائج .

ومن هذه الامثال وغيرها التي اوردناها على سبيل المثال نرى انه من الخطأ علميا الاعتقاد بان حالة التوتر لا توجد الا عندما تكون هناك عمليات عسكرية او حوادث على الحدود او عداوات سياسية تتصدر اخبارها عناوين الصحف العالمية ، ومع ان هناك فارقا في الدرجه ، فان هناك توترا مستمرا في هذه المنطقة الحساسة ، وهو امر يبعث على القلق الدائم ...وينبغي التأكيد مرة اخرى بان رغبة اللاجئين في العودة الى وطنهم رغبة مستمرة لا تخمد .. وجدير بالذكر ان الاجابة على سؤال رقم **٣ ص** في الاستبيان وهو « هل لديك حلول تقترحها لحل بعض هذه المشكلات ؟ » ، كانت معظمها تقول ان الحل الوحيدهوالعودة الى فلسطين . مع انه قد مر حوالي ٢٤ عاما على الهجرة وما زال الحنين الىالوطن قائما ، والاصرار على العودة ثابتا مع ان الاشخاص الذين اجابوا عن هذا السؤال هم من ابناء وحتى من احفاد اللاجئين الذين لم يروا فلسطين ، بل تمسكوا بها واحسوها من خلال تمسك ابائهم واجدادهم بها . وهذا يطابق تعليق السيد لابويس في تقريره السنوي للعام ١٩٥٥ – ١٩٥٦ المذكور سابقا . غير انه ما دام اللاجيء لا يشعر بان هناك خطوات محسوسة تهدف الى اشباع هذا الشوق الى الوطن ، سواء بمنحه خيارا بين العودة او التعويض المنصوص عليه في الفقرة ١١ من القرار رقم (١٩٤ – ٣) الصادر عن الجمعية العامة في ١١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٨ ، او عن طريق حل اخر يقبله جميع ذوي الشأن ، فان المهمة الطويلة المدى المسندة الى الوكالة ستبرهن على انها غير قابلة للتحقيق .... ومن السهل ان نفهم لم ادت رغبتهم في العودة الى ديارهم الى جعل اي تقدم واسع النطاق في مهمة الوكالة البعيدة المدى امرا مستحيلا ، الا وهي مهمة تحقيق (دمج اللاجئين في الحياة الاقتصادية للشرق الادنى) (٢٤) . كما ان اثار هذا الوضع السيكولوجية على اللاجيء قد تشكل قوة احباطية مضادة لقبول اي حلول يشعر اللاجيء انها مؤقتة او مخدرة لا تؤدي الى هدفه المنشود .

وكما اعلن مدير وكالة الاغاثة ان المشكلة كامنة في دائرة السياسة وفي العواطف الانسانية العميقة التأصل ، وليست كامنة في مجال الاقتصاد . وتستطيع وكالة الاغاثة والتشغيل بكل تأكيد تمكين بضع مئات من اللاجئين من ان يصبحوا قادرين على اعالة انفسهم في كل سنة ، وذلك عن طريق مشروعات صغيرة للتنمية الزراعية ، ومنح لانشاء صناعات صغيرة ، وما الى هذا ، ولكنها لن تستطيع ان تتغلب على كون اللاجئين في مجموعهم يصرون على الاختيار الذي نص عليه لهم في قرار الجمعية العامة رقم ١٩٤ – وهو العودة الى ديارهم او التعويض . ومع انعدام هذا الاختيار ، فانهم يعارضون بمرارة كل ما يحمل شبهة اسكانهم في مكان اخر .

والرجال المسؤولون في الحكومات التي تستضيف اللاجئين ، مع استثناء قلة قليلة ، يعلنون تأييدهم للاجئين في موقفهم ، ويعارضون مشروعات التوطين الواسعة النطاق. ومن ناحية اخرى ، ففي موضوع اعادة اللاجئين او تعويضهم لم تتخذ حكومة اسرائيل اي اجراء ايجابي (٢٥) .

وقد اكد المديرون المتعاقبون لوكالة الغوث في تقاريرهم السنوية الاخفاق الكامل لجميع محاولات توطين اللاجئين . وفي التقرير السنوي عن عام ١٩٥٥ – ١٩٥٦ قال

مدير وكالة الغوث : « هناك طبعا عدد استطاع ان يهيىء لنفسه استقرارا مرضيا في حياته الجديدة ، ولكن الغالبية الكبرى تتمسك بمطلبها الجماعي وهو ان ظلما مروعـا قد احاق بها ، وتؤكد ان الحل الوحيد المقبول هو العودة الى ديارها » (٢٦) . وهـذا ما يؤكده مجتمع الدراسة في معهد تدريب عمان في اجابته حول السؤال رقم ٣ ص من الاستبيان والذي يقول : « هل لديك حلول تقترحها لحل بعض هذه المشكلات » حيث اجاب حوالي ٤١٪ من مجتمع الذكور ان الحل الوحيد هو العودة الى الوطن فلسطين .

٣ ــ خدمـات وكالـة الغوث (٢٧)

١ ــ تعطيه وحدة سكنية في احد المخيمات .

٢ ــ تسلم وكالة الغوث للاجىء المسجل بطاقة التموين حيث يتسلم رب العائلـة مخصصاته ومخصصات افراد عائلته المسجلين في بطاقة المؤن .

٣ ــ كذلك تولي الوكالة اللاجئين المرضى وبعضا من طلاب مدارسها المحتاجين عناية خاصة وذلك بتهيئة البرنامج الطارىء لخدمتهم .

٤ ــ كذلك هنالك مراكز تغذية اضافية للاجئين المرضى وطلاب المدارس والاطفال حيث ان هناك اكثر من ٢٥٠,٠٠٠ لاجىء معظمهم من الرضع والاطفال يستفيدون مـن هذا البرنامج وتقدم هذه الخدمـة ايضا الى الحوامل والمسنين المحتاجين بين النازحين ايضـا .

٥ ــ هنالك اكثر من ربع مليون من ابناء اللاجئين يذهبون الى المدارس ، الا ان ٢٠٩,٠٠٠ منهم يتلقون العلم في ٤٦٦ مدرسة تابعة للاونروا ــ اليونيسكو .

٦ ــ انشأت الوكالة عشرة مراكز للتدريب المهني ولتكوين المعلمين تتسع لما مجموعه ٣٦٠٠ طالب وطالبة سنويا . وهناك خطة لزيادة هذه السعة بحوالي ٥٠ بالمائة .

٧ ــ توفر الوكالة للاجئين الخدمات الصحية في المخيمات تحت الاشراف الفني لمنظمة الصحة العالمية WHO وذلك عن طريق مستوصفاتها وفرقها الصحية المتنقلة . وتقـدم هذه الخدمات ايضا الى النازحين الجدد في مخيمـات الطوارىء .

هناك ١٠ مراكز طبية + ٥ عيادات في مخيمات الاردن .

هناك ايضا فرق صحية متنقلة تديرها الوكالة او تدفع لها معونات مالية وتوفر الوكالة ٣٣٢ سريرا في المستشفيات الحكومية في الاردن او تدفع معونات مالية عنها .

كذلك تدير الوكالة (٨٠) مستوصفا لرعاية الامومة والطفولة حصة الاردن منها (١٠) مستوصفات حيث يقوم ٧٥٪ من اللاجئات الحوامل والمرضعات بزيارة هذه المرافق ، كما ان نسبة مماثلة من الرضع مسجلة للحصول على الاشراف الصحي والتحصين ضـد الامراض بصورة منتظمة . وتلعب مراكز معالجة الجفاف والضمور دورا مهما في اعادة الصحة لصغار الاطفال المصابين بالتهابات المعدة والامعاء او الذين يعانون سوء التغذية وهناك الان ستة مراكز من هذا النوع في غزة وخمسة في الضفة الشرقية من الاردن وواحد في الضفة الغربية وثلاثة في كل من لبنان وسورية تتسع مجتمعة الى ٢١٧ سريرا (٢٨) .

كذلك يشرف القسم الصحي في الوكالة على برنامج لمكافحة الامراض السارية . ويبلغ عدد الاطباء المشرفين على الشؤون الصحية للاجئين في الاردن ٢٧ طبيبا . منهـم ٢٢ طبيبا موزعين في عيادات وكالة الغوث في الاردن . حيث يعين ٣ اطباء لاكبر تجمـع

سكاني في المخيم وطبيب واحد لاصغر تجمع سكاني في المخيم ، وهناك طبيبان لجميع مدارس الوكالة في الاردن يشرفان على برنامج الصحة المدرسية ، و ٣ اطباء ، منهم رئيس الخدمات الطبية في الاردن ،يشرفون على الامور الادارية للخدمات الصحية لوكالة الغوث في الاردن (٣٩) .

أ ــ برنامج الرعاية الصحية في المدارس : ــ

هناك (٢٠٨٨٧٠) طفلا يتلقون العلم في المدارس التابعة للاونروا (٤٠) . ومن هذا العدد (٥١٦٦٠) ولدا و (٩٥٥٨٢) بنتا وما مجموعه (٩٧٢٩٢) تلميذا في مدارس الوكالة في الاردن (٤١) . ويتضمن برنامج الوكالة للرعاية الصحية في المدارس أجراء فحص طبي عادي لكل تلاميذ الوكالة عند دخولهم مدارسها . كذلك يتضمن هذا البرنامج تقديم الخدمات العلاجية وصرف الحليب يوميا ، وبرنامجا للتحصين ضد الامراض ومكافحة الامراض السارية والارشاد الصحي :

١)الارشاد الصحي :

ان هدف برنامج الارشاد الصحي يشمل جميع قطاعات السكان من اللاجئين . وتقوم الوكالة تعزيزا لهذا البرنامج بتوظيف ٢٤ مرشداً صحيا يستخدمون الادوات السمعية البصرية لتساعدهم في أعمالهم . حصة الاردن من هؤلاء المرشدين ٤ مرشدين .

٢) التمريض :

توظف وكالة الغوث في مراكزها الصحية ومستوصفاتها ومستشفياتها ١٦٦ ممرضة وقابلة مجازة ــ حصة الاردن منها ١٩ ممرضة و ٢٩٥ ممرضة مساعدة ــ حصة الاردن منها ٧٢ و ٥٦ قابلة ــحصة الاردن منها ٣١ . تقوم مرافق التدريب الاساسي في كل بلد من البلدان المضيفة وتقدم الاونروا منحا للتدريب .. كما ترتب ايضا دورات للتدريب اثناء الخدمة (٤٢) . كل هؤلاء الموظفين يؤدون خدماتهم في مخيمات الوكالة وعياداتها .

ب ــ برنامج الخدمات التعليمية :

لقد بلغت اعداد التلاميذ للعام ١٩٧١ ــ ١٩٧٢ المسجلين في مدارس وكالة الغوث الابتدائية والاعدادية (٢٤٥ر٠٧٨) طالبا وطالبة ، و ٣٠٥٩٢ طالبا وطالبة في مراكز التدريب التعليمية والمهنية التابعة للوكالة . وبالاضافة الى هذه الاعداد كان هناك ٦٩ر٠٠٤ طلاب لاجئين يتلقون تعليمهم في المدارس الحكومية والمدارس الخاصة في البلدان المضيفة للمراحل الابتدائية ، والاعدادية والثانوية .

وقد شمل برنامج منح وكالة الغوث في الجامعات العربية للعام ١٩٧١ ــ ١٩٧٢ (٦٨٧) منحة . كذلك هنالك (١١٦٧) معلما غير مؤهل يتلقون تدريبهم في معهد التأهيل الذي ترعاه وكالة الغوث بالتعاون مع منظمة اليونيسكو العالمية (٤٣) :

برنامج التعليم في الضفة الشرقية من الاردن :

بلغ عدد المدارس التي ادارتها وكالة الغوث بالتعاون مع منظمة اليونيسكو في الضفة الشرقية من الاردن حتى العام الدراسي ١٩٧١ ــ ١٩٧٢ (١٥٦) مدرسة تضم المرحلتين الابتدائية والاعدادية . وبلغ عدد التلاميذ المسجلين خلال هذه الفترة ولذات المرحلة (٨٦ر٦٧٩) تلميذا . وعدد المدرسين للمرحلة ذاتها (٢٣٧٣) مدرسا . وقد كان عدد المدارس التي تعمل على نظام الفترتين (١٢٦) مدرسة حيث احتوت على (١٤٦٥) صفا .

هناك مركزان لاعداد المعلمين والتدريب المهني في الاردن حيث يضم « معهد تدريب عمان » الذي تبلغ سعته (٧٠٠) طالب وطالبة منهم (٣٠٠) طالب في قسم اعـــداد المعلمين ، وكذلك (٢٥٠) طالبة في القسم ذاته ، و (١٥٠) طالبة في قسم التدريب المهني. كذلك هناك « مركز تدريب وادي السير المهني » الذي يضم حوالي ٥٠٠ طالب يدربـــون على حرف مختلفة تساعد في تطويرمجتمعهم العربي (٤٤) .

د ــ برنامج الخدمات الاجتماعية (٤٥) :

ويرعى هذا البرنامج المحتاجين من اللاجئين ومنهم ذوي العاهات والمرضى المزمنين والارامل ، والعجزة . ولكن هذه المساعدة كانت على نطاق ضيق بسبب الضيق المالي الذي تعانيه وكالـــة الغوث .

حوالي (٢٥٫٠٠٠) لاجيء تم مساعدتهم خلال العام ١٩٧٠ ــ ١٩٧١ . فمنهم مـــن تسلم مساعدات مالية بسيطة لا تتعدى الثلاثة دنانير لعائلة شهريا ، ومنهم من تسلـــم رزما من الثياب المستعملة وبعض الحرامات والكاز في فصل الشتاء .

وقد انتفع ببرنامج الخدمات الاجتماعية حوالي ٢٢٢ لاجئا منهم الاعمى ، والابكـــم والكسيح ، حيث اصبحوا يستطيعون الاعتماد على انفسهم في كسب معيشتهم .

ويشمل هذا البرنامج ايضا مشاريع تنمية البيئـــــة حيث افتتحت مراكز للتطريز والنجارة ومراكز رعاية الشباب في معظم المخيمـــات .

يشمل برنامج الخدمات الاجتماعية ثلاث مناطق في الاردن حيث تكثر تجمعات اللاجئين وهي منطقة عمان ــ منطقة البلقاء ــ منطقة اربد . يعمل (٥) موظفين كمسؤولين علـــى جهاز الخدمة الاجتماعية في رئاسة وكالة الغوث في عمان حيث يشرفون علـــى شؤون هذا الجهاز الاداري في المناطق الثلاث . كما يوجد (٨) مشرفين اجتماعيين يشرفون على المراكز الاجتماعية في المخيمات ، ويشرف عليهم مسؤول واحد وفي منطقة البلقاء يوجد (٣) مشرفين اجتماعيين ويشرف عليهم مسؤول واحد . وكذلك هناك (٣) مشرفين اجتماعيين ويشرف عليهم مسؤول واحد في منطقة اربد . يشرف هذا الفريق على مراكز الخياطة ومراكز رعاية الشباب في المخيمات كذلك لديهم صلاحيات الاشراف الفني على ريـــاض الاطفال ــ ان وجدت ، في بعض المخيمات التي تديرها الجمعيات الخيرية مثل جمعية الخدمـــات الكاثوليكية .

٤ ــ مجتمـــع المخيـــم :

بعد اعطائي لمحة موجزة عن الخدمات التي تؤديها وكالة الغوث الدوليـــة للاجيء الفلسطيني ، أود ان اصف للقاريء مجتمع المخيم بما يحويه من مظاهر مختلفة متناقضة. سأتحدث للقاريء عن موقع المخيم ، تركيبه الاقتصادي ، عدد سكانه بالنسبة لمساحته ، وحداته السكنية ، طرقه الرئيسية والفرعية ، وضع المياه فيه ، دورات المياه ، اماكن اللعب ان وجدت ، مدارسه ،معلميه ، تلاميذه ، عياداته، مسؤولية الامن فيه، اسواقه، نظافته ، واية امور اخرى . حيث ان هذه المقومات هي النمط التقليدي المتبع في معظـــم مخيمـــات الوكالـــة .

مخيم اللاجئين تجمع سكاني يحتوي على عدد من اللاجئين يتراوح ما بين ٤٢٠ شخصا كما هو الحال في لبنان (انظر فصل تعريف المصطلحات في الرسالة) و ٤٥٫٠٠٠ شخص كما هو الحال في مخيم رفح في قطاع غزة .

وكما مر سابقا في فصل الوضع العام للمخيمات ، تبين لنا ان عدد سكان اصغر مخيم

في الاردن ويدعى مخيم (زيزيا) (٥٥٥٧) نسمة . كما ان عدد وحداته السكنية تبلغ ٨٠٠ وحدة . وعدد دورات المياهالعامة فيه تبلغ ١٠٠ دورة . وعدد عمال التنظيفات فيه يبلغ ٩ عمال . كما ان عدد سكان اكبر مخيم في الاردن وهو مخيم البقعة يبلغ (٤٣ر١٨٤) نسمة . كما ان عددوحداتهالسكنية ٧٥٥٥ وحدة . وعدد دورات المياه العامة فيه تبلغ ٨٠٠ دورة . وعدد عمال التنظيفات فيه يبلغ ٧٦ عاملا .

أ ــ موقع المخيم بشكل عام : يخطط المسؤولون عادة بوضع المخيمات في مناطق بعيدة الى حد ما عن التجمع السكاني الاصلي في المدينة التي يقام فيها المخيم . الا انه بمرور السنين وبتوسع المدينة العمراني يتصل المخيم مكانيا في معظم الاحيان وتدريجيا بالمدينة . وقد وضع هذا الاحساس بالعزل بعض الطلبة في معهد تدريب عمان عند اجابتهم على الاستبيان الذي وزع عليهم حيث كتب احدهم عند الاجابة على السؤال رقم (أ ــ ب) من الاستبيان وهو (اذا كانت لديك مشاكل اخرى لم ترد في القائمة ، فالرجاء ذكرها هنا) كتب ما يلي : ــ « ان موقع المخيم النائي عن المدينة يساعد على عدم اختلاط اهله اجتماعيا بسكان المدينة » .

ب ــ وحداته السكنية: تتجمع وحدات المخيم السكنية في صفوفمتراصة تبعد الواحدة عن الاخرى مسافة لا تزيد عن المتر الواحد . منها ما هو محاط بسور بسيط مصنوع اما من التنك او الخيش او الطوب او من قوالب الاسمنت ، يضعه اللاجيء بنفسه ليحس بالعزلة عن جاره ، ولو من ناحية شعورية نفسية ، ومنها ما هو متروك دون اي سياج. والطرق المؤدية الى الوحدات السكنية طينية في الشتاء ، تسيل في وسطها المياه القذرة التي تصرفها الوحدات السكنية من عتبة البيت ، بدلا من ان تمر بمجار خاصة مطمورة تحت الارض .

ولو اتيحت لك زيارة عائلة قريبة لك او حديقة في وحدة من هذه الوحدات السكنية للاحظت ان هنالك بعض المحاولات لزرع بعض الأشجار والخضروات في ساحتها الصغيرة جدا ، وقد يكون هذا انعكاس لحنين اللاجيء لبلدته الخضراء في فلسطين . كذلك ستشاهد بعض السيدات اللاجئات جالسات متربعات او مادات ارجلهن على ابواب وحداتهن السكنية يلاعبن او يضربن اطفالهن احيانا او يتحدثن مع جاراتهن او يتشاجرن مع جار ، او مع بعضهن البعض . كذلك تلاحظ عيون الجيران المحبة للاستطلاع . . . فترى ستارة نافذة هذه الجارة تفتح لترى الزائر ، وترى اطفالا لوحتهم الشمس ، وكلهم عيون يقظة مستطلعة تسأل : من تريد ؟ وها هو البيت . . . وانا سأدلك على هذا البيت . . .نعم اعرفه . . . انه استاذي في المدرسة ، فالكل يعرف الاخر في المخيم .

ولو دخلت واحدة من هذه الوحدات السكنية لشاهدت بعض المحاولات لتحسين منظرها . . . فهذه ستارة مزركشة موضوعة على النافذة . . وهناك مجلى في زاوية الغرفة تحيط به ستارة مزركشة ايضا . . . وهذا سرير رتب في الزاوية الاخرى من الغرفة . . وهناك حصيرة مفروشة على ارض الغرفة يدرس عليها الصغار . . وفي الساحة الصغيرة محاولة لبناء مرحاض بدائي . . . يكتفي به المقتدر من اللاجئين ومنهم المدرس والموظف البسيط في وكالة الغوث كي لا يستعمل المراحيض العامة التي وضعتها الوكالة في بعض الساحات العامة لكل مجموعة من الوحدات السكنية المتراصة . وربما لاحظت وجود عنزة وبعض الدجاج يعيش اللاجيء على لحمها وحليبها وبيضها .

وهناك ظاهرة اجتماعية لاحظها المسؤولون في وكالة الغوث وخاصة قسم الاحصاء والتسجيل الذي له علاقة مباشرة مع سكان المخيمات لاختصاصه بشؤون بطاقة المؤن ،

لاحظوا ان سكان مخيم البقعة مثلا قسموا مناطق سكنهم وتكتلهم حسب المناطق التي كانوا يعيشون فيها في فلسطين . فهناك مثلا منطقة سكنية في المخيم تسمى بمنطقة القدس ، ومنطقة تدعى بمنطقة نابلس ــ وثالثة بمنطقة اريحا ــ ورابعة منطقة الخليل وهكذا .. وهذا دليل اخر على تعلق اللاجيء الفلسطيني بوطنه وبلدته التي اضطر للرحيل عنها .. وحين يعطي اللاجيء المقيم في مخيم البقعة عنوانه لاي مسؤول في قسم التسجيل في وكالة الغوث لشأن يتعلق ببطاقة المؤن ، فانه يعطي رقم الوحدة السكنية التي يعيش فيها قائلا « انها تقع في منطقة نابلس او الخليل او اريحا وهكذا » .

واذا حدث وان اعطي نازح وافد من قضاء نابلس مثلا وحدة سكنية في المخيم بين سكان من منطقة القدس فانه يحاول مبادلتها مع نازح اخر يسكن في منطقة نابلس ليتسنى له العيش مع السكان الذين وفدوا من المنطقة التي كان يعيش فيها في فلسطين (٤٦) .

اما بالنسبة لوسائل الانارة في المخيمات ، فمخيمات الطوارىء وهي مخيمات عام ١٩٦٧ مثلا فتستعمل قناديل الكاز . اما بعض مخيمات عام ١٩٤٨ ومنها ما اصبح متصلا بالمدينة مثل مخيم الحسين ، ومخيم الوحدات تستعمل الكهرباء بسبب العمران السكاني والتوسع الذي طرأ عليهما .

جـ ــ تركيب المخيم الاقتصادي : معظم الرجال العاملين في المخيم هم من الموظفين البسطاء ، اما في جهاز الوكالة واما في مؤسسات اخرى . كذلك هنالك فئة من المعلمين والمعلمات الذين يعملون في مدارس وكالة الغوث في المخيمات . منهم من يعيش في نفس المخيم . ومنهم من يحضر يوميا من اماكن اخرى للعمل في المخيم . كذلك هنالك فئة كبيرة من العمال الذين يعملون اما في اجهزة وكالة الغوث او في مؤسسات اخرى . وبعض نساء المخيم يشتغلن عاملات اما في مدارس المخيم او ينزلن يوميا الى مدينة عمان يعملن فيها بالمياومة ، ويعدن في المساء الى عائلاتهن . لذلك نلاحظ ان معظم سكان المخيم القادرين على العمل هم من فئة العمال وبعضهم لا يجد عملا . وهكذا فمعظم سكان المخيم لا يملكون الا قوت يومهم ، وان وفروا شيئا فيكون على حساب قوت يومهم .

هذا الوضع ينطبق على مخيمات الطوارىء التي انشئت عام ١٩٦٧ ، اما بالنسبة لمخيمات عام ١٩٤٨ فبمرور الزمن وبالتوسع السكاني والعمراني اتصلت مثل هذه المخيمات بمدينة عمان ومنها مخيم الحسين ومخيم الوحدات . وباتصال اهل المخيم بالمدينة توسع مجالهم الاقتصادي فاصبح منهم التجار واصحاب الدكاكين .

كذلك سافر كثير من ابناء اللاجئين الى البلدان العربية المجاورة طلبا للرزق حيث يرسلون لذويهم وعائلاتهم مبالغ مالية شهرية ليعيشوا منها ، وهذه الاموال تصرف على المجالات الحياتية حيث ينتفع منها المخيم .

د) طرق المخيم الرئيسية والفرعية :

هناك في المخيم عادة طريق رئيسية معبدة دون ارصفة تلتف حول المخيم ، وقد انشئت مدارس وكالة الغوث ، ومكاتب وكالة الغوث التي تقوم على خدمة اللاجئين ، والوحدات الطبية التابعة لوكالة الغوث ، ومكتب مدير المخيم ، على هذه الطريق الرئيسية . كذلك انشئت مراكز الامن على هذه الطريق الرئيسية ايضا ، وسوق المخيم التجاري بما يحويه من بضائع مختلفة يقع ايضا على الطريق الرئيسية المعبدة . اما الطرقات الجانبية التي بين الوحدات السكنية فما زالت غير معبدة ، طينية في الشتاء

غبرة في الصيف . وترى اكوام القمامة ملقاة هنا وهناك في احياء المخيم وزوازيه .

هـ) وضـــع ميـــاه الشرب في المخيـــم :

لقد انشأت وكالة الغوث حنفيات عامة في مراكز معينة في المخيم حيث تحمـــل الام او ابنتها الجرة او التنكة اليها لتملأها . لذلك فمياه الشرب لا تصل الى الوحـــدات السكنية في المخيم هذا مما يسبب مشاكل مختلفة لسكان المخيم حيث يكثر التخاصـــم احيانا حول مراكز المياه بين نساء المخيم ، وكذلك يكثر القيل والقال حول هذه المراكز .

و) وضـــع دورات الميـــاه في المخيـــم :

كما ذكرت سابقا ، لقد انشأت وكالة الغوث مراحيض عامة في احياء مختلفة مـــن المخيم . منها ما هو مخصص للذكور ومنها ما هو مخصص للاناث . لكنها احيانا تصبح مراحيض مشتركة ، يدخلها الطرفان مما يسبب مشاكل اجتماعية كثيرة بين سكان المخيم. هناك عمال تنظيفات مسؤولون عن تنظيف هذه المراحيض وعددهم في الاردن ٣٤١ ، حصة مخيم البقعة مثلا ٧٦ عامل تنظيف ، وهو اكبر مخيم في الاردن .

ز) أماكـــن اللعـــب :

ان اماكن اللعب الوحيدة لاطفال المخيم هي الشوارع العامة الرئيسية منها والجانبية. واماكن تجميع القمامة وترسب مياه الامطار والمياه القذرة المتجمعة من البيوت .

اثناء الدوام الدراسي في المخيم يلعب اطفال المخيم في ساحات المدارس الصغيـــرة البسيطة . اما بعد الدوام الدراسي فانهم ينتشرون في الشوارع غير عابئين للسيارات الكثيرة المارة خاصة في الشارع الرئيسي لمخيم البقعة مثلا المؤدي الى جرش واربد وعلى مدخل المخيم يتسلى الصغار في قطع الشارع او اللعب على أطرافه حيث تداهمهـــم السيارات المندفعة في هذا الطريق الرئيسي . ونسبة حوادث الطرق كما هي مسجلة في مركز الامن الموجود في مخيم البقعة مثلا مرتفعة نسبيا . ولعب الاطفال في الشوارع بسبب خصومات بين اهالي الاطفال حيث يتلهى الاولاد احيانا برشق الحجارة وايذاء بعضهم البعض وعندها يتدخل الاهل وتشتد المشكلة وتصل احيانا الى مركز الامـــن ليتدخـــل في حلهـــا .

ح ـــ مدارس المخيمات : يبلغ عدد مدارس وكالة الغوث في اكبر مخيم للوكالة فـــي الاردن وهو مخيم البقعة (١٨) مدرسة ، منها (١٠) مدارس للذكور و (٨) مدارس للاناث، وتضم هذه المدارس (٩٩٥٦) طالبا وطالبة . منهم (٥٥٢٥) طلاب و (٤٣٣١) طالبات وجميعهم ضمن المرحلة الالزامية . هنالك ايضا (٧٦١) طالبة في المرحلـــة الاعداديـــة ، (٣٥٧١) طالبة في المرحلة الابتدائية حيث يقوم بتدريس هذا العدد من الطالبات هيئـــة تدريسية تتألف من (٨٩) معلمة وهيئة ادارية تتألف من (٨) مديرات . وهناك (٨) اذنة ـــ لكل مدرسة آذن واحد. وهناك (١٤١٠) طلاب في المرحلة الاعدادية و (٤١١٥) طالبا في المرحلة الابتدائية . ويقوم بتدريس هذا العدد من الطلاب هيئة تدريسية تتألف مـــن (١١٤) معلما وهيئة ادارية تتألف من (١٠) مدراء و (١٠) اذنة لكل مدرسة آذن واحد .

وهناك مدرسة ثانوية حكومية للذكور تضم ٣٥٩ طالبا يقوم بتدريسهم ١٣ معلما اما بالنسبة لاصغر مخيم للوكالة في الاردن وهو مخيم زيزيا فيضم (٣) مدارس ، منهـــا (٢) للذكور وواحدة للاناث ، وتضم هذه المدارس (١١٧٦) طالبا وطالبة . منهم (٦١٧) ذكور و (٥٥٩) انـــاث . هنالك (٣١) معلمـــا و (٢) مديرين في مدارس الذكـــور و (٩) معلمات ومديرة واحدة في مدارس الاناث . كما ان هناك (٣)اذنة لكل مدرسة آذن واحـــد .

كما ان معظم المخيمات لا تحوي مدارس ثانوية . بل يتحمل الطلاب اللاجئون كثيرا من صعوبات المواصلات وتكاليفها للوصول اليها . وسيظهر هذا واضحا في تحليـــل اجابات طلبة معهد تدريب عمان على الاستبيان في الرسالة .

ط ــ الرعاية الصحية في المخيمات : وتتألف من : ــ ١ ــ الخدمات العلاجية : فــي مخيم البقعة مثلا حيث انه أكبر مخيم في الاردن يشرف على هذا الجانب ثلاثة اطباء ، وطبيبة اسنان ، يساعدهم في ذلك فريق يتكون من (٨) ممرضات و (٢) مساعدي صيادلة وفني مختبر واحد . وعدد من الكتبة والقابلات والعمال . وتضم ملفات العيادة ٢٥٫٨٠٣ بطاقات علاجية فردية . وعند الرجوع الى تقارير العيادة للاشهر الستة الاولى من عــام ١٩٧٢ وجد ان (٢٩٫٢١٥) حالة مرضية قد عرضت على الاطباء الثلاثة في المخيم . اي بمعدل ٦٥ حالة مرضية او اكثر احيانا لكل طبيب في اليوم خلال فترة عمل مقدارهـــا (١٥٠) يوم عمل (بمعدل ٤ ساعات فعلية للعمل يوميا) . وهنالك (٢٫٧٢٩) حالة مرضية في طب الاسنان عرضت ضمن فترة (١٠٠) يوم عمل أ يبمعدل (٢٨) حالة يوميا (٤٧) .

كما يقوم المختبر باجراء الفحوص والتحاليل البسيطة بمعدل (٥٠) حالة يوميا ويقــع ضمن اختصاص هذه العيادة ، الخدمات العلاجية والطب الوقائي ، وهناك سجل خاص يتابع حالات مرض السكر ، والامراض المزمنة ، والمرضى النفسيين والعقليين (٤٨) .

٢ ــ الطب الوقائي : كذلك تهدف عيادات المخيمات الى الوقاية من الامراض المعدية والسارية عن طريق ضبط ومراقبة صحة البيئة وعن طريق القيام بالتطعيمات اللازمـــة للاطفال في الاعمار المناسبة وتقديم الخدمات للحوامل اثناء الحمل والولادة وبعدها . وهناك قسم خاص للعناية بالاطفال دون سن الخامسة وتقوم به جمعية العناية بالاطفال في المخيم (العيادة النرويجية) ويعمل بها طبيبان يقومان بمعالجة الحالات الحادة التي لا تحتاج لعناية المستشفيات يوميا . كذلك تقوم العيادة التابعة للوكالة بتحويل الحالات الحادة الى المستشفيات والى الاخصائيين في العيادات المختلفة . كذلك بعد المسافات بين المخيمات والمستشفيات الحكومية يخلق مشاكل كثيرة للاجىء . وقد تحدث عنها طلبة حيث يعطى منزلا ليقيم في المخيـــم المسؤول عنــــه .

٣ ــ خدمات التغذية : يشرف هذا القسم على تقديم وجبات تغذية اضافية لعدد من المنتفعين (الضعاف من التلاميذ والمرضى) يصل عددهم الى (٢٣٠٠) منتفع كما تقوم بصرف الحليب على (١٩٠٠) منتفع (من المرضى وتلامذة المدارس والحوامل ويعمل في هذا القسم ٣٣ موظفا) .

٤ ــ خدمات الصحة العامة : يعمل في هذا القسم خمسة مراقبين صحيين وثلاثـــة وثمانون عاملا . وتشمل مسؤولياتهم النظافة العامة في المخيم ، والاشراف على محطات المياه ويشرف على عمل هذا الفريق فنيا الطبيب المسؤول في العيـــادة .

٥ ــ خدمات التموين : يعمل في هذا القسم (٤٣) موظفا وعاملا ، حيث يحملـــون مسؤولية توزيع المخصصات التموينية على اللاجئين والنازحين شهريا .

ي ــ الخدمات الادارية : والمشرف الرئيسي على هذه الخدمات في المخيم مدير المخيم . حيـــث يعطي منـــزلا ليقيم في المخيـــم المسؤول عنــــه .

ك ــ الخدمات الاجتماعية في المخيم : في المخيم مركز للشباب يعرف باسم « مركـــز الشباب الاجتماعي » . يشرف على هذا المركز مشرف عام له وهيئة ادارية تتكون من ٧ اعضاء . حيث يشرف على اللجان الثقافية والرياضية والاجتماعية . ويحتوي المركـــز على صالة للبلياردو وصالة اخرى لتنس الطاولــــة (٤٩) .

ل ــ **النواحي الامنية** : يعمل على حفظ الامن في المخيمات ضابط برتبة نقيب ولـــه مساعد برتبة وكيل وعدد من ضباط الصف والجنود ، ويعتبر هذا الجهاز الامني « رئاسة قسم » . كما ان ليس لوكالة الغوث اي اشراف او مسؤوليات لحفظ الامن في المخيم ، بل مسؤولياتها تنحصر في شؤون الاغاثة وتشغيل اللاجئين فقط .

اما بالنسبة لمستوى النظافة في المخيمات فانها دون المستوى الانساني المطلـــق فالطرقات كما ذكرت سابقا مطينة خاصة بين الوحدات السكنية . ومجاري المياه القذرة تسيل من مدخل كل بيت ، ومنظر السوق التجاري لا يوحي بأي نظافة او تخطيط ، فاللجوم المذبوحة معلقة للذباب والحشرات ، ولا توجد ثلاجات في الملاحم لحفظهـــا ، والدكاكين عبارة عن عشش من التنك او الزينكو لا توحي بأي مستوى انساني لمجتمـع تشرف عليـــه هيئـــة دوليـــة مسؤولـــة .

م ــ **وصف عام للباحثة مع تعقيب على مجتمع المخيم بشكل عام** : انه تجمع .. مجرد تجمع تراكمي .. لا يشكل جسما اجتماعيا .. بل لا يشكل مجتمعا .. له مكونـــات ومقومات المجتمعات الانسانية المعروفة .. ولا يقوم بين افراده علاقات وروابط طبيعية كالتي تقوم بالمجتمعات ... وقد فرض هذا التجمع فرضا على افراده دون ان يكون لهم في ذلك حق الاختيار او ارادة الاختيار ... ولم يكن اختيار المكان يهدف الى اية غاية اجتماعية او انسانية .. فلم يكن يقصد من الموقع المكاني ان يكون ذا فائدة ترجى لمن يحتويه .. فلا هو مكان يصلح لممارسة اي جهد انساني .. ولا هو مكان يهيىء الفرصة لجهد زراعي ولا لجهد صناعي ولا لادنى جهد عمالي الا في اضيق الحدود التي لا يمكن ان تصبح وسيلة انتاج طبيعية .. بل ان مكان التجمع هذا لا يهيىء حتى فرصـــة الاتصال الطبيعي بمراكز الحياة التي تقع قريبة منه او بعيدة عنه .. بل يكاد يخلق احساسا لدى من يحتويهم بأنه انما قصد منه أن يكون مندحرا .. ومهملا .. لا يجذب احـــدا ولا ينجذب اليه احد ..وما اقل بل وما اندر ما اضيف اليه او بذل فيه من جهد ليكون مكانا مقبولا .

هذا التجمع المفروض لم يكسب اهله اي امتياز .. بل يذكرهم كل يوم .. بل كـــل ساعة .. بما فقدوه .. فحينما لا يتاح لهم فيه اية فرصة للنمو او للتطور او للسير الى هدف مستقبلي يفرض عليهم الدوران في حلقة مغلقة لا فكاك منها .. فهذا التجمـــع يدفع بهم بالرغم منهم الى التمزق حيث يتنازعهم الضياع والعدم والانسحاق ...... فالشاب الذي يملك الطاقة الانسانية للعمل لا يجد ادنى فرصة للعمل داخل هذا التجمع فيتذكر وضعه السابق . قبل ان يزج به في هذا التجمع ... حين كانت الحياة الطبيعية من حوله تهيء له كل فرص العمل ... سواء أكان عاملا ام صاحب عمل . والفلاح الذي لا يجد بضعة اقدام مربعة يزرعها يدفع به هذا الوضع المتأزم الى سرداب الماضي فيتذكر اراضيه وتربته الخصبة . الموظف الصغير الذي يفرض عليه عمله الهزيل ولا يبدي ادنى اعتراض يتذكر كيف كان من قبل يرأس مؤسسة نامية متطورة واعية . هذا التمزق وهذا التوزع في النفس ليس هنا من يكترث لنتائجه ويعمل على تلافي اخطاره التي تفتك بالنفس .

هذا التجمع المفروض ليس فيه من مقومات المجتمعات السليمة الا مجرد المجاورة والجوار المكاني الذي لا يشكل وحدة رابطة تنميها الحياة الطبيعية وظروف العمل او الانتاج التعاوني او ما الى ذلك من ظروف طبيعية .. بل ان الوحدة التي لا تفتقدهـــا ادنى المجتمعات البشرية قد تفجرت واندثرت وتحولت اشلاء ... فلم تعد هناك اسرة مترابطة .. لان عوامل الترابط قد فقدت جميعها .. ولم يبق منها الا الترابط الميتافيزيقي .. ترابط الدم .. وهو وحده لا يشكل رباطا قويا متفاعلا يصمد امام هزات الحيـــاة

الواقعية ومشكلات العيش الطبيعية فالفرد في هذا التجمع لا يشكل الا رقما في بطاقة.. فلا رب الاسرة بقادر على ان يمنحه شيئا مما كان يمنحه اياه في وطنه .. ولا الام بقادرة على ان تعطي وتجزل في العطاء كما كانت تفعل من قبل .. ولا الاخ بقادر على ان يمد يد العون الى اخيه كما كان يفعل من قبل .. لقد شلت يد العطاء لديهم .. ولم يعودوا يمارسون ادنى قدر من واجباتهم ازاء بعضهم .. بل اصبحوا مجرد اعداد متراكمة في بطاقة التموين .

هذا التجمع المفروض .. لم يوفر مكانا ذا سعة ليكون مجالا حيويا لاي كائن حي .. فلا تتجاوز المساحة الممنوحة للانسان الواحد فيه بضعة ايام مربعة .. هذا الى ان الفرد فيه لا يتيسر له الحركة المنتجة في الداخل ولا في الخارج . وحين تهبط على فرد ما فرصة العمل المجزي تكون دوما خارج المخيم بمسافات واسعة .. بحيث يفر من هذا المخيم ويولي الادبار وكأنما فتح له باب السجن الاصم فغادره دون عودة .. بل دون ان يفكر فيما خلف وراءه من مشكلات ينغلق عليها الباب في صورة احلام يائسة .. بل يكاد لا يعود حتى لابويه .

اما داخل المخيم فاذا اتيحت الفرص الضئيلة فانها لا تعدو مجموعة وظائف او اعمال بسيطة لا تتجاوز الدوائر المحيطة الضيقة في الانتاج .. بحيث لا يتجاوز دخل الموظف المقيم في المخيم الثلاثين دينارا في الشهر . وعدد هؤلاء ضئيل جدا بالقياس الى الاعداد الكبيرة التي تنتظر الوقوف في طوابير مصفوفة تحمل الاوعية ، لتتسلم فيها ادنى قدر لا يقيم اود انسان طبيعي في الشهر . وتتكرر هذه الوقفة المستجدية اكثر من اثنتي عشرة مرة في العام. .بحيث تشعر اللاجىء بأنه عالة على بطاقته. .بعد ان حيل بينه وبين فرص الانتاج الطبيعية .

اما المرافق الاخرى في داخل المخيم فتقوم على ادائها مجموعة من الموظفين المكتبيين تعجز عن الوفاء بواجباتها على الوجه الصحيح لكثرة لاعداد المنوطة بها ولقلة عددها هي .. ولتقيدها بامكانيات ضيقة جدا لا تستطيع تجاوزها .. فيصبح عمله اليا يفتقر الى الحوافز الانسانية فتقوم بينه وبين اللاجىء فجوة تخلق الكثير من المشكلات .. فبالرغم من قصر المسافة بين هذه المرافق وبين بيوت اللاجئين فيندر ان يذهب طبيب ما الى وحدة اللاجىء السكنية حتى ولو كان هذا اللاجىء يحتضر .. من اجل هذا احس اللاجئون ان القائمين على شؤونهم داخل المخيم لا يملكون لهم نفعا .. بل احسوا انهم مهملون لا يكترث بهم مسؤول ولا يحس بمشاكلهم .. كما ان اللاجىء يحس ان كل هم المسؤول الا يتسبب له اللاجىء المراجع بأية مضايقة اثناء عمله .. وليحدث للاجىء ما يحدث ..

هذا التفسخ وهذا التمزق في هذا التجمع المفروض حصر الوحدة الاجتماعية بالفرد المسحوق .. هذا الفرد الذي لا يتجمع على شيء مع فرد اخر .. من هنا قامت الهزات التي زلزلت الكثير من القيم والموازين التقليدية . واصبح اللاجىء يعيش في فراغ شرس .

ومن هنا اصبح يتطلع الى شيء كبير ينقذه من هذا الضياع .. شيء كبير يعيد الحياة الى ساعده .. شيء كبير يجمع هذا الضياع المشتت .. شيء كبير يعيد اليه الحوافز والدوافع الانسانية .. شيء كبير يشده الى غاية وهدف انساني .. شيء كبير يمكنه من الامساك بمصيره بيده ومن اعادة الارادة التي قبضته ... شيء كبير يعبىء هذه الطاقات المهدورة ويؤشر لها الى وجهة السير الصحيحة .. ويضع قدمها على اول خطوة نحو ارض طبيعية .. ونحو وطن يعيد اليه ثقته بنفسه ويقدم له طعام الانتماء ويهيء له فرص التفاعل .. ويحمل اليه امكانيات الجهود التي تعيد اليه ماضيه وحاضره ومستقبله ..

الحواشي

(١) Progress Report of the United Nations Mediator on Palestine, General Assembly Official records: 3rd Session Supplement No. 11, A/648, p. 47.

(٢) John H. Davis, The Evasive Peace, John Murray, London, 1968, pp. 57-60.

(٣) هنري كتن « فلسطين في ضوء الحق والعدل » مكتبة لبنان — بيروت — الطبعة الاولى ١٩٧٠ — ص ٥٧ .

(٤) U.N. Document (A/689), pp. 1 and 5.

(٥) Annual Report of the Secretary-General on the work of the Organization, July 1, 1948-June 30, 1949, p. 102.

(٦) Annual Report of the Director of UNRWA, 1953 (A/2470), p. 5.

(٧) Middle East Journal, 1949, p. 251.

(٨) Annual Report of Commissioner General of UNRWA for the period July 1, 1966-June 30, 1967, U.N. Document (A/6713).

(٩) هنري كتن — فلسطين في الحق والعدل — مكتبة لبنان — بيروت . الطبعة الاولى ١٩٧٠ ص ٥٨ .

(١٠) U.N. Document (A/5214), p. 2.

(١١) هنري كتن — فلسطين في ضوء الحق والعدل — مكتبة لبنان — بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٧٠ ص ٦٨ .

(١٢) المصدر نفسه ص ٥٨ .

(١٣) نشرة الاونروا للعام ١٩٦٩ — ١٩٧٠ ص ٩ .

(١٤) Registration Statistical Bulletin, 4th Quarter 1972, 1973, UNRWA, Amman, Jordan, January 1973.

(١٥) هنري كتن « فلسطين في ضوء الحق والعدل » مكتبة لبنان — بيروت الطبعة الاولى ١٩٧٠ ص ٧٩ .

(١٦) Count Folke Bernadotte, To Jerusalem, Hodder and Steughton, London, 1951, p. 200.

(١٧) W. de st. Aubin, Peace and Refugees in the Middle East, Middle East Journal, 1949, p. 249.

(١٨) Annual Report of Commissioner General of UNRWA, for the period 1 July 1971-30 June 1972.

(١٩) راجع وصف هذه الاكواخ في فصل تعريف المصطلحات .

(٢٠) Registration Statistical Bulletin, 4th Quarter, 1972, dated January 1973, UNRWA.

(٢١) المصدر نفسه .

(٢٢) Annual Report of Commissioner General of UNRWA, for the period January 1969, p. 14.

(٢٣) Annual Report of UNRWA (1966-67), Table 19.

(٢٤) U.N. Document A/67 13 September 15, 1967, para. 40.

(٢٥) U.N. Document A/4514, p. 2.
في الجزء أ — عدد اللاجئين تقدير لعدد اللاجئين ، من سجل منهم ومن لم يسجل وذلك الى يوم ٣١ ايار (مايو) ١٩٦٧ .

(٢٦) U.N. Document A/6797, p. 66.

(٢٧) U.N. Document A/7213, p. 18.

(٢٨) نشرة الاونروا ١٩٦٩ — ١٩٧٠ ص ٧ .

(٢٩) نشرة الاونروا ١٩٦٩ — ١٩٧٠ ص ٧ .

(٣٠) P. de Acararte, Mission in Palestine 1948-1952 (Middle East Institute, Washington DC. P,K54, Don Peretz, Israel and the Palestine Arabs 'The Middle East Institute, Washington D.C., p. 63, 1958'.

(٣١) هنري كتن ، «فلسطين في ضوء الحق والعدل» مكتبة لبنان — بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٧٠ — ص ١٥٧ .

(٣٢) المصدر نفسه ، ص ١٥٧ .

(٣٣) المصدر نفسه ص ١٥٨ .

(٣٤) U.N. Document A/3212, pp. 1-2.

(٣٥) United Nations Press Release 3369, February 11, 1957.

(٣٦) U.N. Document A/3312, p. 1.

(٣٧) نشرة الاونروا للعام ١٩٦٩ — ١٩٧٠ ص ١٤ .

(٣٨) نشرة الاونروا للعام ١٩٦٩ — ١٩٧٠ ص ١٤ .

(٣٩) من سجلات القسم الصحي في وكالة الغوث في الاردن .

(٤٠) نشرة الاونروا للعام ١٩٦٩ — ١٩٧٠ ص ١٤ — ١٥ .

(٤١) Statistical Report on Educational Activities of UNRWA-UNESCO Schools in Jordan, for the School Year. 1972-1973, October 1972. Sheet No. (1).

(٤٢) نشرة الاونروا ١٩٦٩ — ١٩٧٠ ، ص ١٥ .

(٤٣) Report of the Commissioner-General of the United Nations Relief and Works Agency for Palestine Refugees in the Near East; for the period 1 July 1971-30 June 1972, p. 26.

(٤٤) *Ibid.*, p. 30.

(٤٥) من سجلات قسم الخدمات الاجتماعية في وكالة الغوث في الاردن .

(٤٦) من مقابلات مباشرة قامت بها الباحثة مع مسؤولين في قسم التسجيل والاحصاء في وكالة الغوث في عمان .

(٤٧) لاحظ كثرة عدد المرضى اليومي بالنسبة للطبيب الواحد ، وهذا ما شكى منه طلبة المعهد عند اجابتهم على الاستبيان حيث اتهموا الاطباء بعدم الاخلاص في العمل وعدم الدقة في الفحص وتضجروا من الانتظار الطويل حتى يأتي دورهم للفحص الطبي ومن خشونة ومعاملة الموظفين لهم . وفي اعتقادي ان اكثر المراجعين من المرضى وقلة عدد الاطباء يخلق مثل هذه المشاكل .

(٤٨) مقابلات شخصية مع رئيس اطباء وكالة الغوث .

(٤٩) المعلومات من قسم الخدمات الاجتماعية في جهاز وكالة الغوث الدولية — بالارك .

في الذكرى السنوية الاولى لمعركة كفرشوبا

(١) بعض الصفحات المشرقة في تاريخ كفرشوبا والعرقوب*

بقلم : نواف عبدالله

« فليبع من لم يكن له بندقية ثوره او حماره ويشتر بها » .

كفرشوبا (١) ، صاحبة هذا الاسم هي قرية صغيرة تقع على السفح الغربي من مرتفعات جبل الشيخ ، وقد دخلت ضمن دائرة الهوية « اللبنانية » ، منذ اعلان المستعمرين الفرنسيين عن تشكيلهم « للبنان الكبير » وذلك بجمع ولاية بيروت ومتصرفية جبل لبنان وضم بعض اجزاء ولاية دمشق اليهما .

ويسلك المرء الطريق الذي يصل مفترق سوق الخان براشيا الفخار ، ومنها يصعد عبر طريق عبدت حديثا (عام ١٩٦٥) فيصل كفرشوبا وتقف طريق وزارة الاشغال اللبنانية . الا ان كفرشوبا نقطة تماس جغرافي مع دولة الاحتلال الصهيوني فهي لذلك نقطة بداية طريق اخر ، طريق الثوار الى الوطن المحتل ، كما هي نقطة بداية طريق العدوان الصهيوني على لبنان وسوريا .

وكفرشوبا « رأس سهم » من مجموعة قرى العرقوب (شبعا ، الهبارية ، راشيا الفخار ، الفريديس ، كفرحمام ، كفرشوبا) ، ويطل المرء منها على ارتفاع ١٣٥٠ مترا ، على معظم قرى قضاء مرجعيون ـــ حاصبيا ، كما يشرف على الجليل الاعلى وسهل الحولة غربا . ولهذا شقت اقدام اهاليها ، على مر السنين طرقا جبلية في اتجاه الخالصة في شمال فلسطين وقرى العرقوب غربا وفي اتجاه القنيطرة وبانياس شرقا .

علاقات كفرشوبا الاقتصادية

ارتكز اقتصاد القرية لزمن طويل على محورين اساسيين : الزراعة والرعي . وكان فلاحو كفرشوبا يزرعون اراضي القرية بالعنب والزيتون والقمح والشعير والعدس

---

* كتبت هذه المقالة خلال شهر شباط ١٩٧٥ لتشكل مادة اولية من ضمن الجهود الضرورية للتعرف على الماضي النضالي اجماهيرنا في العرقوب وكفرشوبا . والهدف من نشرها في الذكرى السنوية الاولى لمعركة كفرشوبا هو الدعوة الى التوقف عند المحطات الرئيسية في تاريخ العرقوب المعاصر ، وذلك لاظهار استمرارية هذا التاريخ في انتماءاته الاصيلة الى ترك الكفاح القومي ـ الوحدوي لجماهيرنا العربية في لبنان ، تاريخ محطاته هي انتفاضة ١٩٢٠ والثورة السورية الكبرى وثورات فلسطين وانتفاضة ١٩٥٨ التي منها استمدت جماهير كفرشوبا تقاليد النضال الوطني لتسجل بتلاحمها الخلاق مع ثوار فلسطين اروع ضروب الصمود والتحدي ولنصنع من اسم « كفرشوبا » ، بلدة العرقوب الصغيرة ، رمزا على طريق التحرر والوحدة .

ويتاجرون مع فلسطين وسوريا . فكانوا يذهبون الى القنيطرة ليبيعوا فائض الحنطة والدبس والزبيب ويشتروا السمن والبضائع ، اما في الخالصة ، التي كانت تشكل السوق الرئيسي لقرى محور شمال — شرق الجليل الاعلى ، فكان الكفرشوبيون يعرضون اللوبيه والبيض والتين اليابس للبيع ويجلبون الليمون والفاكهة والزيت والدجاج. وعن العلاقات الاقتصاديه — الاجتماعيه لاهالي القرية ، يكتب خلدون الخالد : « وفي ظل غياب التفاوت الاجتماعي الشاسع وتوزع الملكيات المتساوي تقريبا ، فان علاقات التعاون البدائية الجيده كانت تسود القرية ، في الزراعة والرعي ، وفي التعامل . فلا وجود للعامل الزراعي بالاجرة ، بل كان من لا يملك ثورا للحراثة ، يساعد جاره او أحد الفلاحين في زراعته ، مقابل استخدامه للثور في الحراثة ، وسمي ذلك « المجاملة » ، ويتم جمع الزيتون جماعيا لايام عده مع مبيت مشترك في الطبيعة . اضافه الى خدمات زراعية متبادلة . وبما ان حاجة كل فلاح الى راس من البقر للحراثة او للحليب كاساس غذائي ، وتخزيني (لبنة ، جبنة) للشتاء ، فان رعاية البقر لا تتم افراديا ، بل جماعيا ، حيث تتولى كل امرأة صباحا اقتياد ابقارها الى خارج القرية ، مركز التجمع ، ليتولاها راع واحد متفرغ ، يجول بالقطيع (العجال) في الجرود حتى المساء . وهذا التعاون الزراعي والرعوي البسيط انعكس في علاقات اجتماعية ممتازة ، فعند البناء مثلا ، لا يستأجر الفلاح سوى معلم العمار وهو مزارع في الوقت نفسه » (٢)

الا ان قيام دولة الاحتلال الصهيوني عام ١٩٤٨ — ١٩٤٩ على أرض فلسطين وضمها لمجموعه من القرى الحدوديه اللبنانيه ، وما ترتب عنه من اقفال الحدود ، كان له اثر سلبي شديد على الحياة الاقتصادية لكفرشوبا ولسائر قرى العرقوب حيث ضربت حركة التبادل التجاري السابقة واغلق بالتالي احد الشرايين الاقتصادية الرئيسية للمنطقة .

العرقوب في قلب النضال التحرري

ولكن كفرشوبا ، القرية اللبنانية الصغيرة والتي لم تضم يوما اكثر من ٣٥٠٠ نسمة ، فتستمد شهرتها من تاريخ وطني نضالي لاهاليها ، تاريخ ترجع اصوله في الزمن الحديث الى دخول قوات الاستعمار الفرنسي بلاد المشرق العربي .

فتحرك العرقوب ، بعشرات العرائض الموقعة من ابنائه ومنهم الكفرشوبيون بالتخصيص ، يبايع فيصل ابن الشريف حسين اميرا واعلن الولاء للحكومة العربية التي اتخذت دمشق مقرا لها . ويذكر ايضا ان مراد غلميه ، المسيحي المذهب ، قد شارك في اعمال المؤتمر السوري المنعقد بتاريخ ٢ تموز ١٩١٩ في دمشق ، كمندوب عن منطقة مرجعيون . اما عن موقف جبل عامل في ذاك المؤتمر فقد نقله الشيخ عبد الحسين صادق ، وهو يعبر عن مدى اندفاع العامليين في طريق الوحدة السورية ، قال الشيخ موجها كلامه الى فيصل : « **انني باسم جبل عامل ابايعك على الموت** » . (٣) وواجه سكان العرقوب عام ١٩٢٠ ، لجنة كينغ — كراين بعرائض من شبعا والهبارية والفريديس وكفرحمام وكفرشوبا تحمل مطالب الاهالي بالاستقلال « التام الناجز » ورفض البند ٢٢ من نظام عصبة الامم ، **ووقف الهجرة اليهودية الى فلسطين .**

ومع نهاية عام ١٩١٩ ، اخذت حركة العصيان على القوات الفرنسية تشمل كل انحاء جبل عامل متخذة شكل الفرق المسلحة او ما سمي « بالعصابات » . فالى جانب « عصابة » ادهم بك خنجر (او ادهم الدرويش) و « عصابة » صادق حمزة ، تشكلت في العرقوب وحدات مسلحة عرفت ايضا باسماء قادتها : اسعد العاصي ، احمد مريود ، وحسين نصار .

وكان هذا الاخير ، حسين نصار ، شابا من كفرشوبا ، استشهد عام ١٩٢١ بعد أن قاد عدة غارات ناجحة على مواقع القوات الفرنسية ، **وقد تحول في المفكرة الشعبية للكفرشوبيين الى رمز الاقدام والشجاعة في القتال ضد المستعمرين .**

ورغم الطابع المحلي الذي اتخذته حركة الثوار فان قادتها كانوا يلتقون باستمرار لتدارس الموقف وتنسيق غاراتهم على المواقع الفرنسية . وكانت هذه اللقاءات تتم بمعظمها في بانياس او في مغر جبل الشيخ . والجدير بالذكر ان حركات الثوار هذه في الجنوب كانت على اتصال مستمر مع ملحم قاسم قائد انتفاضة منطقة بعلبك ، وكان الاتصال يتم عبر رسل اشهرهم حسين شمص دندش ، او عبر « محمود » ابن علم ملحم الذي كان يتردد باستمرار الى العرقوب ويجتمع بالثوار في حاصبيا وشبعا وكفرشوبا وابرز ما تميز به التحرك الوطني في العرقوب خلال هذه الحقبة ، كان الاغارة المستمرة من قبل الثوار التابعين لقيادة مريود ونصار على مواقع القوات الفرنسية في جديدة مرجعيون ، حيث احرقوا في احدى غاراتهم عام ١٩٢٠ معظم خيام المعسكر الفرنسي .

اما بالنسبة لمساعدة حكومة دمشق للعصابات في جبل عامل ووادي التيم فكتبت جريدة البشير الموالية لحكم الانتداب « وصل الى حاصبيا ، مائة وستون جنديا قادمين من دمشق ، وكان مع هؤلاء جماعة موفدين لبث روح الثورة في تلك الاطراف ، وكان الجند يقولون : فليبغ من لم يكن له بندقية ثوره او حماره ، ويشتر بها » (٤) .

ولكن ، مع انتصار المستعمرين الفرنسيين في معركة ميسلون وسقوط الحكومة العربية في دمشق ، تمكن الجنرال كاسترو من تشديد قبضته على معظم المناطق اللبنانية وفي القضاء التدريجي على الحركات المسلحة في جبل عامل بعد استشهاد بعض قادتها وفي مقدمتهم ادهم بك خنجر . فدخلت القوات الفرنسية بلاد العرقوب وعملت على تجريد الاهالي من السلاح ، كما انشأت بعض مخافر « الجندرمة » في القرى الرئيسية ، ومن بينها كفرشوبا حيث ابقوا على تسعة جنود .

ومن جهة ثانية ، وتمشيا مع سياسة التمييز والتفرقة الطائفية التي اعتمدوها في المشرق العربي نشط المستعمرون الفرنسيون في تسليح ابناء القرى النصرانية ، والمارونية منها بالدرجة الاولى ، فوزعوا السلاح على ابناء كوكبا والقليعة وابل السقي وغيرها ، وحاولوا انشاء « عصابات » مضادة من بين اهلها ، كما سعوا الى ضم اعداد من ابناء هذه القرى الى « جيش المرتزقة » الذي كانوا قد سلموا قيادته الى بعض قدامى ضباط الجيش التركي . **وكانت هذه السياسة الاستعمارية تهدف الى تعزيز علاقة ابناء هذه القرى بالسلطات الفرنسية ، والى تأجيج الصراعات الطائفية داخل صفوف اهالي منطقتي مرجعيون والعرقوب** . وعن بعض نشاطات هذه العصابات كتب الشيخ احمد رضا : « روى لنا اليوم بعض اهالي دير ميماس ، وهي قرية مجاورة لقرية الخربة حديث ما جرى يوم الاثنين الماضي ، بين العرب والعسكر في قريتي القليعة والخربة ، فقال : هاجم فريق من الثوار قرية الخربة في الساعة العاشرة غروبية (شروقية) نهارا ، فقابلهم اهل القريتين بالنار ، ودامت المعركة عدة ساعات ، وجاءت فرقة من العسكر تنجد اهل القريتين ، ودامت النار الى الساعة الثامنة غروبية ليلا ، وكانت القتلى من الفريقين كثيرة وقيل ان خسارة العسكر ، كانت فوق العشرين قتيلا ، وقال بعض القادمين ان ارض الخربة كانت ملطخة بالدم ، ثم بلغنا ان قائمقام مرجعيون الف عصابة من مسيحيي القليعة والخربة ، وان هجوم الثوار على القريتين كان لمحاربة هذه العصابة » . (٥)

العرقوب مع الثورة السورية الكبرى

ونتيجة لاغتيال زعماء الثوار وتجريد الوطنيين من السلاح ، ومع التراجع العام الذي

اصاب الحركة الوطنية في بلاد المشرق العربي ، اخذت حركة مقاومة المستعمر تتراجع في العرقوب وذلك الى ان اندلعت الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ . فراى فيها ابناء العرقوب تحقيقا لاملهم في الانتفاضة ووضعا من القوة يسمح لهم باعلان الثورة والعودة الى مقاتلة قوات المستعمر الفرنسي .

فاستجابة للدعوات المتكررة التي اطلقها ابناء اقليم البلان والعرقوب ، وفي نهاية شهر تشرين الاول من عام ١٩٢٥ ارسل سلطان باشا الاطرش حملة الى « اقليم البلان ووادي التيم » . وعين زيد الاطرش قائدا للحملة . وقد انضم اليه من مشاهير الثورة كل من فؤاد سليم، نزيه المؤيد، علي عامر ، صياح الحمود ، فضل الله اسد ، الامير حسن متعب ، جاد سليمان آل الاطرش ، شكيب وهاب ، حمزة الدرويش ، زكي الدروبي ، نصري سليم ، سعيد اليماني ، ابو تركي سرحان آغا فريد ، صبري البديوي، خليل بصلة ، اسعد كنج . (٦)

واتخذت الحملة قرية مجدل شمس معسكرا لها ، حيث : « عقد زيد الاطرش اجتماعا للقادة والبارزين من رجال حملته ، في منزل اسعد كنج من زعماء المجدل ، اعلن فيه انه جاء من الجبل بقواته بأمر من سلطان الاطرش لنجدة اهل الاقليم ، وتلبية لرغباتهم والهدف تحرير أرض الوطن من يد الغاصبين . واعلن ان الامر شورى بينهم وانه دعاهم لتحقيق هذه الغاية باستشارتهم والاخذ برايهم ، وطالب منهم ان يدلوا بارائهم واقتراحاتهم حول خطه المستقبل ، ومن اقصر الطرق واكثرها صوابا . » (٧) .

وجدد قاده الحملة ، من المجدل اتصالهم بزعماء العرقوب حيث يروى ان رسل الاطرش كانوا يجتمعون كل ليلة بزعماء كفرشوبا عند عبدالله علي خليل في خلة العبد وذلك للوقوف منهم على وضع القوات الفرنسية في المنطقة وللتشاور في خطط التحرك المقبلـــــة .

فمع اعلان الثورة في العرقوب وسير قوات حملة الاطرش باتجاه حاصبيا ، فــر الجنود الفرنسيون من كفرشوبا وكان عددهم تسعة بعد ان تركوا وراءهم عشر بنادق وبعض المئات من « الفشك » ، فاستولى عليها المناضل الوطني عبده خليفة ووزعهــا على من لم يكن في حوزته السلاح من اهالي القريـــة .

وانطلقت الوفود من شبعا والهبارية والفريديس ، وكفرحمام ، وراشيا الفخــار ، وكفرشوبا الى جباتا لتسلم قيادة الحمله مفاتيح منازل قراهم ، كاعلان من الاهالي عن ولائهم لزعماء الثورة .

وفي يوم ١١ تشرين الثاني استولت قوات الاطرش على حاصبيا دون اية مقاومة . وذلك بعد ان اخلتها الحامية الفرنسية وانسحبت باتجاه مرجعيون . **« وهكذا احتــل الثوار المدينة بين زغاريد النساء وهتافات الرجال واخذوا بتأليف حكومة وطنية يراسها نسيب غبريل من اعيان المسيحيين ، وقد قام في قصر تلك الحكومة يومئذ كل من نزيــه المؤيد وصبري البديوي خطيبا في الجمهور يحثه على مؤازرة الثورة والانضمام لها معددا كل منهما ما ترمي اليه من مبادىء سامية واهداف عليا . » (٨)**

وبتاريخ ١٢ تشرين الثاني ، كتبت « الصحافي التائه » (وهي جريدة شعبية وطنية كانت تصدر في ذلك الوقت) : **« ومما يجب الاعتراف للثائرين انهم يسيرون بطرق منظمة وانهم بحاصبيا اظهروا كل عطف على المسيحيين وكانوا يسمحون للنساء والاطفــال بالسفر ولم يتعرضوا لاحد مطلقا بسوء ، وجل ما فعلوه انهم اعلنوا حكومة سوريــة مستقلة وصرح زعماؤهم انه لا مارب لهم مع الاهالي وان ماربهم مع الفرنسيين » .**

اما السلطات الفرنسية فقد اذاعت بيانا جاء فيه : « ارتكب عصاة يقيمون في حاصبيا

اعمال نهب وسلب في تلك المنطقة دون ان يشرعوا في اي عمل عسكري . » (٩)

وفي اليوم الحادي عشر من تشرين الثاني قدم وفد من وطنيي جديدة مرجعيون الى حاصبيا ، ليعرض فتح بلدتهم لجيش الثورة ويعلن ان الفرنسيين قد اخلوها عندما بلغهم وصول الثائرين الى حاصبيا . فبناء عليه ، قرر المجاهدون ارسال حمزة الدرويش على رأس سرية من الثوار الى مرجعيون . « وعندما وصل الى مفرق الطريق الموصلة الى قرية كوكبا ، اعترضه وفد من الاهالي برئاسة كاهن القرية ، فدعاه الى تناول الغداء في القرية ، فلبى حمزة الدرويش الدعوة غير ان اهالي قرية كوكبا كانوا منشقين شقين ، منهم قسم موال للسلطات الفرنسية وقد امدته بالسلاح والعتاد ، وسوست له ان يقاوم الثوار . والقسم الثاني كان مواليا للثوار وهو الذي دعاهم الى تناول الطعام .

ولما وصل حمزة الدرويش الى القرية ، قابله القسم المعادي في الاستحكامات بالرصاص ، مخر ثلاثة من رجاله قتلى ، فنادى حمزة بأعلى صوته : « **يا قوم لا تطلقوا علينا الرصاص ، لاننا ما اتينا هذه البلاد لمحاربتكم بل لمحاربة الفرنسيين المستعمرين واني اقسم لكم بشرف الدروز وشرف هذه الثورة المباركة اننا لا نمسكم بسوء واننا نعتبر هؤلاء القتلى فداء عن الوطن ، فكفوا عن الرمي ، وتأكدوا انكم اذا اردتم مقاومتنا ، انكم لخاسرون** » (١٠)

فلم يلبوا طلبه ، بل داوموا على اطلاق الرصاص على حمزة وعلى الجموع القادمة . وعن الحريق الذي اضرمه الثوار في كوكبا كتب منير الريس : « فأغار عليها الفرسان ، وزحف وراءهم المشاة الى القرية ، لا يأبهون لوابل الرصاص المنهمر عليهم ، حتى دخلوها عنوة ، واضرموا النيران في منازلها ، وفر المعتدون كالارانب ، مخلفين وراءهم النساء والاطفال والشيوخ . . . وكانت خسائر كوكبا بالنفوس كبيره ايضا من رصاص المدافعين والمهاجمين ، وقتل كاهن القرية الوطني الذي اراد ان يثبت للمجاهدين ان النصارى وطنيون لا يتخلفون عن تأييد الثورة ، واستقبال الثائرين الذين جاءوا لتحرير البلاد من ربقه الاستعمار . وعاد الثوار بعد حرق « كوكبا » الى حاصبيا ، حتى لا يساء تفسير حرق كوكبا ، ولا تتعرض الحملة لصدام اخر في احدى القرى التي تمر بها في طريقها الى جديدة مرجعيون . »(١١)

وعاد الثوار الى حاصبيا ، وبعد بضعة ايام سارت قوة جديدة بقيادة حمزة الدرويش ونزيه العظم قاصده الجديدة ، ولما بلغت قريه ابل السقي ، اعترضها اهل هذه القرية وغالبيتهم من المسيحيين ، ودعوا المجاهدين الى تناول الطعام والمبيت في بلدتهم . امـا الفرنسيون فكانوا قد استقدموا الى مرجعيون عصابة بطرس وغطاس كرم (وهي احدى العصابات المسلحة التي شكلها الفرنسيون من بين موارنة جبل لبنان) . فارسل بطرس كرم الى ابل السقي كتابا موجها الى زعماء المجاهدين وضمنه الوعيد والتهديد والاستفزاز الطائفي . وختم كرم انذاره بوجوب انسحاب الثوار من ابل السقي وعدم التعرض لجديدة مرجعيون . فارسل حمزة الدرويش كتابا جوابيا الى بطرس كرم ، ومما جاء فيه : « **ان ثورتهم وطنية ، وليست دينية ، وهم حريصون على الا يثيرهم العملاء ، ولا يجروهم الى تلويث ايديهم بدم اخوتهم المسيحيين ، لذلك عدلوا عن المجيء الى جديده مرجعيون ، وسيغادرون ابل السقي في الصباح ليثبتوا للملأ اجمع انهم يحافظون على وعودهم وعهودهم .** » (١٢)

وعادت السرية الى حاصبيا حيث عقد المجاهدون اجتماعا في اليوم السادس عشر من شهر تشرين الثاني ، قرروا فيه عدم التعرض « للبنان الصغير » ، وان ينحصر نشاطهم في المناطق التي سلخت من دمشق وضمت قسرا الى « لبنان الكبير » وعلى الاثر نسفوا جسر الخردلة على نهر الليطاني . ووصل وفد من « النبطية وجبل عامل الى حاصبيا ،

يطلب من الحملة الوطنية ان تتقدم الى مناطقهم ، وانهم مستعدون لاشعال نار الثورة فيها لاجلاء الفرنسيين ، فافهم اعضاء الوفد ان القياده قررت عدم التجاوز على حدود لبنان ، دون المناطق التي سلخت من سوريا الداخلية والساحل السوري والحقت بلبنان ، اذا لم تجد نفسها مضطرة الى ذلك . اما اذا شاء سكان لبنان ان يثوروا في مناطقهم ، فاننا سنؤيد ثورتهم وندعمها وننجدها اذا طلبوا منا ذلك . » (١٣)

ومن حاصبيا اذاع زيد الاطرش (القائد العام لقوات الاقليم ووادي التيم) البيان التالي :

الدين لله والوطن للجميع

« الى اخواننا المسيحيين في قضائي حاصبيا وراشيا المحترمين اعزهم الله .

« ١ — ماروني من اهالي شمالي لبنان جاء به الفرنسيون الى الجديدة يومئذ للدفاع عنها والفوا له عصابة مارونية امدوها بالسلاح والمال لقتال الثوار وايقاع الشقاق بين طوائف البلاد واغراء المسيحيين بالمسلمين والمسلمين بالمسيحيين .

« بلغنا من الوطنيين الاعزاء ان بعضكم داخلهم خوف من وجود الحملة الوطنية في جوارهم فاخذوا ينزحون توهما منهم ان الثورة الوطنية قد تصيبهم بأذى فساءنا هذا الخبر وآلمنا جد الالم لانهم اخوان لنا لا فرق بينهم ثانعين بما ردوا به على ذلك الماروني بطرس المسكين وان يصبروا عن دخول وبين اي كان من الطوائف الاخرى وثانيا لان علمهم هذا يؤذي شعورنا لما فيه من عدم الثقة بما اسلفناه من البيانات التي اوضحنا فيها حقيقة الثورة الوطنية ولقد اضطررنا بسبب موقفكم هذا الى مخاطبتكم بصفتكم الطائفية على حين اننا لم نفعل ذلك تنزيها للثورة الوطنية من شوائب النزعات البعيدة عن الروح القومية . ولكننا رأينا بعض السذج لم يدركوا الاغراض النبيلة التي ترمي اليها ثورتنا هذه فاسرعنا ببياننا على هذه الصورة تطمينا لهم واننا نرجو ان نثبت لكم عن قريب ان المبدأ الرئيسي الذي تستند عليه حركتنا القومية هو ما صدرنا به هذا الكلام : « الدين لله والوطن للجميع » . (١٤) »

الا ان المجاهدين لم يتمكنوا من الاستقرار طويلا في حاصبيا ، حيث وصل اليها رسل من راشيا الوادي يحملون اخبار المعارك الدائرة بين دروز بلدتهم وحاميتها الفرنسية .

فبقيادة حمزة الدرويش ونزيه المؤيد العظم ، واسد الاطرش شكل الثوار قوة مشتركة من المجاهدين الدروز ومن ابناء قرى العرقوب ومن عشيرة الفاعور ، توجهت لقتال الفرنسيين في راشيا . وعن احتلال راشيا واحراق قلعتها كتب المجاهد عبد الرحمن الشهبندر في مذكراته : « ولما عاد الثوار الى حاصبيا علموا ان معركة كبيرة وقعت بين دروز راشيا وبين حاميتها ،فهرع قسم منهم بقيادة السادة حمزة الدرويش ونزيه المؤيد العظم واسد الاطرش وغيرهم من الزعماء الى راشيا ، فتحصنت الحامية في قلعة (ال شهاب) وتحصن معها معظم مسيحيي القرية . ولما ابصروا جموع الثوار قادمة نحوهم قابلوها بالرصاص ، فهجمت الجموع واحتلت القرية ، وبقي الجند متحصنا في القلعة ودام الحال على هذا المنوال بضعة ايام واخيرا قرر الثوار مهاجمة القلعة فانقسموا الى اربع فرق واحاطوا بالقلعة من جميع اطرافها ، وعهدوا الى السيد نزيه المؤيد العظم بدخولها فقام بمهمته احسن قيام وتمكن من الوصول الى اسفل السلالم بواسطة خرق جدران الدور الموصلة اليها .

ووضعت السلالم على السور فتسلقها الثوار ودخلوا القلعة عنوة ببطولة نادرة تفوق الوصف . واحرقوا قسما كبيرا منها وقتلوا عددا عظيما من المحاصرين الذين لم يفروا ولم يختبئوا في الاقبية الارضية ، والذين حال الليل دون الوصول اليهم ، وقد استسلم اليهم كثير من المسيحيين فلم يمسوهم بسوء بل اطلقوا سراحهم حالا بعدما استولوا على اسلحتهم .

وفي الصباح اتت نجدات كبيرة من الجند مجهزة بالمدافع والدبابات والمصفحات ، ثم حلقت الطائرات فالقت على الثوار مقادير كبيرة من المفرقعات مما اضطرهم الى تـرك البلد والاعتصام بالجبال . حينئذ دخل الجنود القرية فقتلوا جميع من وجدوهم وفـي مقدمة الجميع ، كان الشيخ نعمان وجميع افراد عائلته . » (١٥)

وفي تقييم الفرنسيين لمعارك راشيا نقرأ في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق ١٩١٨ — ١٩٣٦ ، ما يلي : « اجل لقد انقذت الحامية (الفرنسية) ولكن النضال كان شاقا ، واسفر عن خسارة المدافعين (الفرنسيين) لاربعين في المئة من قواتهم . » (١٦)

بعد معارك راشيا ،ونتيجة لاشتداد حصار الجيش الفرنسي لجبـل الدروز ، واضطرار المجاهدين الدروز للانسحاب ، اخذت الثورة تنحسر في حاصبيا والعرقوب . فعادت القوات الفرنسية الى التقدم وبدات قرى العرقوب تسقط من جديد الواحدة تلو الاخرى تحت احتلال الاستعمار الفرنسي ، وتضم قسرا الى « لبنان الكبير » . وكان من نتائج التراجع الذي حل بالحركة الوطنية في عموم المناطق ان شددت سلطات الانتداب من سيطرتها على هذه البلاد ومن قهرها واستغلالها .

العرقوب بعد الثورة السوريـة

الا ان ابناء العرقوب وكفرشوبا منه بالذات لم يتأقلموا وتجزئة الاستعمار الفرنسي بل راحوا يسهمون في النضالات من اجل الاستقلال كما ظلوا بحكم علاقاتهم الاقتصادية — الاجتماعية والقومية مشدودين الى الجولان والحولة وفلسطين طوال الفترة التي امتدت من ١٩٢٥ الى ١٩٤٨ معبرين عن ذلك باشكال متعدده رغم رزوحهم تحت الارهاب والقهـر .

وعندما جاء عام ١٩٤٨ اتخذ جيش الانقاذ عدة مراكز لقواته في قرى العرقوب ، واهمها تلك التي كانت في ضواحي كفرشوبا وعلى مشارفها. وقد انضم يومها ما يزيد عن اربعمئة متطوع من ابناء العرقوب الى جيش الانقاذ وشاركوا في الاغارة على المستوطنات الصهيونية في الجليل والحولة . ويذكر ان القائد فوزي القاوقجي امضى يومها فتـرة غير وجيزة وهو يعود من مراكز العرقوب معارك جيش الانقاذ ويوجه اغارات وحداته .

وعلى امتداد العقد الثاني من العهد الاستقلالي ايضا ، بقي العرقوب بقراه الست اصيلا في انتمائه الى هذا التراث في الكفاح الوطني — الوحدوي الذي بينا اعلاه .

ثـورة ١٩٥٨

سبوجه حكم شمعون وحلف بغداد ومشروع ايزنهاور ، اعلن العرقوب العصيـان وانتفضت جماهيره تهتف لتأميم السويس ، لنهج عبد الناصر الوطني والقومي ولتعلن الالتزام بالوحدة المصرية السورية . فكان العرقوب بؤرة ثورية من اهم بؤر انتفاضة ١٩٥٨ . وكانت منه كفرشوبا مركزا وممرا للثوار وموقع الاتصال بسوريا . فانتشرت في قراه مراكز عدة للمقاومة الشعبية ، والتي قام اعضاؤها بسلسله من العمليـات العسكرية الناجحـة ابرزهـا :

— نسف جسر الحاصباني .
— نسف طريق الهرماس (خط مرجعيون — حاصبيا) .
— الاغارات المتكررة على مواقع القرى المضادة للثوره .

والى كفرشوبا القاعدة الامينة للمقاومة الشعبيه لجأ يومها احمد الاسعد ، احـد الوجوه السيلسيه لثورة ١٩٥٨ في الجنـوب .

وكما ادرك الوطنيون يومها اهمية كفرشوبا المركز والممر والملجأ الامين ، ادركت قوات شمعون المخاطر التي تمثلها صفات القرية الصغيرة . فقصف الجيش كفرشوبا بأربعمئة قذيفة ، ووجه طائراته لضرب برج المطلين . فنزح الاهالي الى بركة بعثائيل والى التحتا ، ولكنهم بعد حوالي ٩٠ يوما عادوا الى قريتهم الصغيرة ، رافضين النزوح عنها وليستكملوا طريقهم في النضال ضد الاستعمار ومن اجل تحرر ووحدة بلاد العرب.

على هذه القاعده الصلبه من الماضي الوطني المشرق دخلت طلائع الثورة الفلسطينية عام ١٩٦٩ قرية كفرشوبا ارض الكفاح العطشى لكل مقاومة ضد الصهيونية والاستعمار وفتحت **هذه الطلائع ، من خلال التحامها الوطني بابناء العرقوب عهداً جديداً من النضال التحرري الوحدوي لاهالي المنطقة ، واخذت تبني معهم اللبنات الاولى في مسيرة حرب الشعب العربية ، مسيرة التحرير والوحدة والثورة الديمقراطية . انها لبنات النصر .**

---

(١) ــ كفراوكفار (كما يلفظ في العامية اللبنانية) جذر سامي معناه الضيعة والقرية والدسكرة وقد يكون الجزء الثاني (شوبا) يعني الحر (كما هو في العامية) وقد يكون ساميا قديما من جذر « شوب » ويقابله في العربية «شاب» بمعنى رجع وعاد . انظر انيس فريحة : معجم اسماء القرى والمدن اللبنانية . مكتبة لبنان ، ١٩٧٢ . (ص ١٥٠) .

(٢) خلدون الخالد : ملحق النهار (٧٥/٤/٢٨) .

(٣) راجع حلاز محمود جابر : مؤتمر الحجير واثاره الجامعة اللبنانية ١٩٧٣ (ص ١٤٠)

(٤) نقلا عن المصدر السابق ، ص ٢٤ . (جريدة البشير ٢٤٩٩ ، ١٩١٩/١/٢٢ ، ص ٣) .

(٥) عن المصدر نفسه ــ احمد رضا ، العرفان ، مذكرات للتاريخ ، م ٣٣ ج ٧ . ص ٧٣٧ .

(٦) راجع الدكتور محي الدين السفرجلاني : تاريخ الثورة السورية ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر . دمشق ١٩٦١ . ص ٢٥٦ .

(٧) منير الريس : الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي. الثورة السورية الكبرى. بيروت ١٩٦٦ . ص ٣٠٣ .

(٨) الدكتور محي الدين السفرجلاني : المصدر السابق . ص ٢٦٠

(٩) الدكتور محي الدين السفرجلاني : المصدر السابق ، ص ٢٦٠ .

(١٠) من مذكرات عبد الرحمن الشهبندر . دار الارشاد ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٢٠٣ .

(١١) منير الريس ، المصدر السابق ، ص ٣٠٧

(١٢) منير الريس : المصدر السابق ص ٣٠٨

(١٣) منير الريس : المصدر السابق ، ص ٣١١ .

(١٤) من الوثائق المنشورة في كتاب الدكتور محي الدين السفرجلاني . المصدر السابق . ص ٢٦٥ .

(١٥) مذكرات عبد الرحمن الشهبندر : المصدر السابق ص ٢٠٥ ــ ٢٠٦ .

(١٦) الكتاب الذهبي (ص ١٦٩) .

(٢) كفرشوبا : التاريخ ، الارض ، والانسان . .

بقلم : فرحان صالح

كفرشوبا ، قرية من قرى الجنوب ، ممارسات سكانها لم تكن الا انعكاسا للتجارب المختلفة التي مرت بها الحركة الوطنية العربية ، وليس فقط في لبنان ، وبل في فلسطين وسوريا خاصة ، وفي بقية انحاء الوطن .

يعتقد الاهالي ، بخاصة المسنون ، بان اوائل الذين سكنوا في هذه القرية كانوا مـن الثوار الذين شاركوا في مجموع الانتفاضات ضد الاستعمار التركي ، ويعتقد اخرون بأنها كانت مكانا للنساك ، هذا وفي نهاية حكم الاستعمار التركي « حيث يتكلم الاهالي عـن استشهاد ابائهم وجدودهم في النضال ضد المستعمرين الاتراك » ، وبداية حكم الاستعمار الفرنسي — الانجليزي — شارك اهالي البلدة ، في الانتفاضات الوطنية ضد الانتداب الفرنسي ، او في نهاية الحرب الاولى ، وكانت الوعود ماثلة في اذهان الجماهـير العربية حول امكانية اعطاء الاستقلال للوطن العربي ، وحكم نفسه بنفسه ، وحيث كانت الجماهير العربيه ترى المستعمرين يضربون عرض الحائط بوعودهم المعسوله فيما قبل الحرب لبعض الحكام ، ثارت الجماهير الشعبية ، ضد المستعمرين ، وكانت عشـرات الانتفاضات ، التى تآمر عليها العملاء حينها ، لمصلحة المستعمرين الفرنسيين والانجليز ، ولمصلحة بقاء امتيازاتهم ومصالحهم .

في تلك الفترة ، شارك الاهالي ، كما شارك غيرهم من سكان المنطقة ، في الحركات الوطنية ضد المستعمرين ، وقد ادت فيما ادت اليه بالنسبة لقضاء حاصبيا ، الى استقلال مؤقت في احدى الفترات ، والى تشكيل حكومة في حاصبيا مناهضة للاستعمار الفرنسي برئاسة نسيب غبريل (١) . وبالتأكيد فقد ساعدت المنافسة القوية ما بين المستعمرين الفرنسيين والانجليز للسيطرة على البلاد العربية ، في تطور هذه الحركات . ولكـن حينمـا اشتد ساعد هذه الحركات ، واخذت تنمو وتتبلور مهدده الوجود الاجنبي ، تحالف المستعمرون وعملاؤهم ، وقسموا الغنيمة « الوطن العربي » فيما بينهم ، وقضوا على الحركة الوطنية العربية . ولكن سرعان ما تعاون المستعمرون ، الانجليز والفرنسيون وكما حصل هنا ، كما تعاون الفرنسيون والاسبان ، وقضوا على وحدة واستقـلال المغرب ، كما مرت ايضا تجربة عمر المختار بظروف مشابهة ، وكل هذه التجارب كانت تصل لهذا المنعطف ، لعدم وحدتها مع بعضها من جهة ، ولعزلها عن بعضها البعض مـن جهـة ثانيـة .

نقول هذا لنبين الوضع العام للبلاد العربيه ، كي يسهل من خلاله فهم الظروف الخاصة التي مرت بها تجربة العصابات الوطنية في الجنوب ، ما بين ١٩١٨ — ١٩٢٦ .

ان اهالي كفرشوبا قد شاركوا كما يقول الكثيرون ممن عايشوا تلك المرحلة ، في هذه الثورات ، واستشهد منهم البعض ، وجرح البعض الاخر ، واعتقل اخرون . فالمناضل حسين نصار استشهد وهو يقاتل المستعمرين الفرنسيين ، كما اعتقل المناضل عبدو خليفة حينها ، الذي هرب من درك الاحتلال الفرنسي والتحق بالثوار ، وقد عمل هؤلاء تحت قيادة احمد مريود وشكيب ارسلان ، كما عمل اخرون من اهالي القريـة منهم : محمود عبدالله ، وعلي احمد الخطيب ، وعلي ذيب صالح ، ومحمد قاسم عمر ، وحسين قاسم عيسى . (٢) هذا ولقد كان مركز قيادة العصابات الوطنية في اراضي كفرشوبا ، وكانت تنقل مرات الى بانياس في الجولان .

ومن ثم فقد شارك بعض اهالي البلدة مع غيرهم في القتال ضد المستعمرين الانجليز ، خلال ثورة المجاهد الكبير عز الدين القسام ، ويذكر منهم ، محمد احمد هاشم (قسم من عائلته في كفرشوبا ، وقسم اخر في شبعا) . (٢) ويذكر بعض اهالي الهباريه ، انهم خلال عملهم في مرفأ حيفا ، خلال ثورة القسام، قد شاركوا في المظاهرات التي قامت حينها ضد الانجليز وتأييداً للحركةالوطنية الفلسطينية يومهـــا .

وفي عام ١٩٤٨ ، كان للاهالي مشاركة في كتائب جيش الانقاذ انذاك ، حيث شارك احمد سعيد عيسى ، ومحمد سعيد عيسى « جرح » وحسين علي عبدالله ، ومحمد احمد عون ، الملقب « بريندي » وعلي احمد حمود ، ومحمد حسن القادري ، ولا زالوا بمعظمهم احياء ، ويحكون بأسى عن الاوضاع المتردية التي كانت عليها الحركة الوطنية، والجيوش العربيـــة في تلــك الفتـــرة .

هذا وبعد نزوح الفلسطينيين من قراهم ومدنهم ، استقبلهم اهالي البلدة ، وقاموا حينها بما يمليه عليهم الواجب الوطني والقومي انذاك ، ولا زال قسم لا بأس به منهـم يسكن في القرية ، «حتى فترة النزوح الاخير » .

وفي عام ١٩٥٨ كان لاهالي البلدة دور مهم في التصدي للمؤامرة التي كان ينفذها عملاء اميركا في لبنان . فتحولت كفرشوبا انذاك الى مركز لقيادة المقاومة الشعبية ، ولتدريب المواطنين كما كانت مركز تجمع لقسم مهم من الذين التحقوا بالمقاومة الشعبية ، وخاصة من ابناء مرجعيون وراشيا الفخار وبقية قرى المنطقة ممن تصدوا للمؤامرة الهادفة حينها الى ربط لبنان بالاحلاف الاجنبية . والى الوقوف بوجه الحركة القومية الوحدوية ، والتي تجسدت في تلــك السنة بالوحـــدة مـــا بين سوريا ـــ ومصر ، بقيادة الرئيس الراحل جمـــال عبـــد النـــاصر .

الوضـــع الاقتصادي لكفرشوبـــا

كان القسم الغالب من السكان ، حتى نهاية الخمسينات ، يعيش من الاعتماد علـــى الموارد الزراعية . وكانت خلال تلك الفترة ، وبالتحديد بعد النكبة ، قد بدأت مكونـــات ثانية لمعيشة الاهالي ، وقد تحددت في الاعتماد على الهجرة من جهة ، وعلى وظائـــف الدولة ، وبالتحديد الجيش من جهة ثانية . وقد ساعدت التطورات التي عرفها الاقتصاد اللبناني على تفسخ العلاقات القديمة، وبدات تحل محلها علاقات متينة رأسمالية، ارتبطت بالتطورات اللاحقة لقطاع الخدمات ، ولبقية الريف وللمدينة بيروت ، ولبقية القطاعات المنتجـــــة .

نتيجة تفسخ العلاقات شبه الاقطاعية ، لتحل محلها العلاقات شبه الراسمالية ، فقد بدأ يصطدم ممثلو العلاقات القديمة ، بممثلي العلاقات الجديدة، وكان ذروة التعارض بين نمطي الانتاج ، ما وصلت اليه الحالة خلال فترة حكم الرئيس شهاب ، الذي قام باصلاحات مختلفة ، مهدت لسيطرة قطاع الخدمات على الريف من جهـــــة ، وبلورة توجهات في الريف مثلت هذا التطور ، وتعارضت في بعض الفترات مع ممثلي العلاقات القديمة . وساعدت ايضا على الهجرة الواسعة بأتجاه المدن وخاصة بيروت .

ان هذه التطورات قد انعكست على سكان كفرشوبا ، كما انعكست على غيرهم من السكان . وادت الى التخلي التدريجي عن الزراعة كمورد وحيد من جهة ، مما ساعد على تفسخ الملكيات ، وتبعثرها ، وهي في الاصل ملكيات صغيرة ، والى التوجه للموارد المعيشية الثانية . علما أن قسما من الاهالي كان يعتمد في معيشته على رعي الماشية ، اذ كان يتجاوز حتى ما قبل عام ١٩٥٨ ، عدد قطعان الماعز والغنم الـــ ٢٥ ألف رأس ، كما كان يتجاوز عدد رؤوس قطعان البقر الاربعة الاف رأس .

وفيما اذ نظرنا الى ما سماه بعض البحاثين باقتصاد الشرق ، او نمط الانتاج الاسيوي او بالاقتصاد المغلق ، فاننا نلاحظ، والكلام غير محصور في كفرشوبا، بان الاكتفاء الذاتي هو ما يجب ان يوصف عليه وضع الفلاحين ، الذين كانوا يستعملون فائض الانتـــاج في المقايضة بحاجات تفيدهم ، وحتى الخمسينات كان ذلك موجودا في هذه البلدة . كما أن ما يلفت النظر داخل هذه القرية وداخل غيرها من القرى في الجنوب وحتـى فـي فلسطين وسوريا وبعض البلاد العربية الاخرى حسبما يردد الاهالي . نرى ان عملية التعاون هي احدى المسائل المهمة في حياة الفلاحين ، مثلا « داخل كفرشوبا » الفلاحـــة هي عمل تعاوني ، فالفلاحون مطالبون بمساعدة بعضهم البعض خلال مواسم الفلاحـــة ومواسم الحصاد . كما ان الابار والبرك الموجوده في املاك القريه ، فان مهمة تنظيفها كل سنة من روث الماشية ومن الاوساخ ، هي مهمة جماعية ، كما ان مسألة تعميـــر منزل داخل القرية ، فانه ايضا في معظم جوانبه مهمة جماعية .

هذا وفي القرية بعض الاشخاص مهمتهم رعاية ابقار القرية ، ويكسبون معيشتهم من الاهالي ، كما ان فتح الطرق ، او تعزيل البعض ، كانت مهمة جماعية ، « وقد تم ذلك منذ حوالي الاربعة اشهر ، حينما تعاون سكان البلدة على فتح طريق في مزرعة حلتا » . وفي داخل القرية سلطة دينية ، ممثلة في المؤذن ، الذي يشارك الاهالي في الصلاة ، وهذا المؤذن ، او الامام من مهمة اهالي البلدة جميعا ، تقديم عون سنوي له مكافاة لما يقوم به .. كما ان في القرية ، مجموعة نواطير يقومون بحراسة املاك القرية ، ويعيشون من هذه المهنة ، كذلك بالنسبة للمختار وكما هو معلوم .

العلاقات الاجتماعية داخل القرية

ان هذه العلاقات ، وتوارثها عن علاقات اقتصادية قديمة ، وعن عادات الجدود والاباء قد بلورت عادات اجتماعية متنوعة . فقد كان على الاهالي جميعا ان يشاركوا في مهمـــة التصدي لاي نوع من الاعتداء على احد سكان البلدة ، او على املاك احدهم ، وهذا لا يعني انه داخل القرية لم يكن من خلافات ، او تناقضات ، وكانت هذه الخلافات تأخذ في احد مظاهرها طابع العنف احيانا ، والذي كان يجب معالجته ضمن عادات وتقاليـــد البلدة ، ولكن تجدر الاشارة الى ان هذه الخلافات ، كانت تؤدي باستمرار الى تقويـــة جذور العصبية العائلية ، والتي كانت تؤدي الى ضعف علاقات الوحدة والتضامن داخل القرية . اذ كانت التحالفات خلال فترة الخلافات داخل مجتمع القرية ، تأخذ طابع القربى وقليلا جدا ، بدا يبرز في الفترة اللاحقة لما بعد الخمسينات ، طابع العلاقات الشخصية .

وفي الحقيقة ، فان اتجاهين رئيسيين تبلورا بعد الخمسينات ، اولهما : الاتجاه المتنفذ في الدولة ، والذي كان ينعاون مع القوى المتأثرة بالعلاقات والنظم القديمة . وثانيهما القسم المرتبط باشكال انتاجية متقدمة ، اصحاب الملكيات الصغيرة حينا ، واصحـــاب الحرف احيانا ، والعمال الزراعيون والورش بعض الاحيان ، ومن ثم بعد تطـــور سيطرة قطاع الخدمات ، تبلور اتجاهان اخران ، الاتجاه المرتبط بالسلطة ، حيث كان يمارس نفوذه من خلالها ، والاخر المرتبط بوسائل معيشية ، مستقلة عن نفوذ السلطة، وبالتأكيد فقد كانت تناقضات مختلفة داخل هذه التوجهات ، والتي لم تكن ابدا مبدئية في معظـــم مراحلهــــا .

لقد ساعدت ، التطورات اللاحقة للاقتصاد اللبناني وخاصة في نهاية الخمسينات ، على بلورة وترسيخ علاقات جديدة ، بدات معالمها تبدو واضحة في نهاية حكم شمعون، وبداية حكم شهاب وهذه العلاقات والتطورات الجديدة ، ترافقت مع المد الوطنـــي والوحدوي في الوطن العربي ، حيث كان القسم الغالب من الاهالي متأثرا بهذا المد ولكن لعبة المحاور انعكست على القرية بقوة ، وادت الى بلورة توجهات سياسية تحددت في

حركة القوميين العرب ــ وفي حزب البعث العربي الاشتراكي ، وقد لعبت الحساسيات القديمة داخل القرية دورا مهما في هذه التوجهات السياسية .

العلاقات الاقتصادية بين كفرشوبا ومحيطهـــا

من المعروف ان منطقة حاصبيا ، ومنها كفرشوبا ، كانت تابعة لولاية دمشق حتى عام ١٩٢٠ ، كما ان القسم الشمالي من فلسطين كان يتبع لولاية بيروت حتى تلك الفترة . وبعد ذلك الحين كانت هناك مساومات بين الانجليز والفرنسيين ، فضم قضاء حاصبيا لدولة لبنان الكبير ، وبالمقابل تنازل الفرنسيون حينها عن شمال فلسطين ، وبخاصة منطقة الخالصة ، والذي كانت تتبع عمليا قضاء مرجعيون يومها . ولم تكن حينها اية عراقيل تذكر فيما يتعلق بتبادل المنتجات الزراعية ، وفيما يتعلق بمسألة الحدود ، وقد استمر هذا الوضع حتى عام ١٩٤٨ . حينما اقفلت الحدود مع فلسطين ، وبدأت نقاط التفتيش ــ الجمارك من جهة العلاقة مع سوريا ، تاخذ طابعا اكثر تشددا من ذي قبل .

وقد كانت فلسطين (جارتنا الجنوبية) الدولة التي كان لبنان يغذي معها في الخمس والعشرين سنة التي سبقت النكبة اوسع العلاقات الاقتصادية بعد سورية ؛ اذ بدأت « التغيرات الطارئة على هيكل الاقتصاد الفلسطيني ، وامكانيات فلسطين الهامة فـــي التصدير ، وقدرتها على استهلاك قسم وافر من انتاج ثمار لبنان ، ومن انتاجنا الزراعي كافة ، وانتاجنا الصناعي بدأت هذه التغيرات تعطي آثارها البالغة . وكانت فلسطـــين من جهة ثانية توفد الينا عددا كبيرا من المصطافين والسياح وهواة الرياضة الشتوية ، وفي هذا دلالة على مقدار اهمية علاقاتنا الاقتصاديه بفلسطين (٥) » . هذا وكانت علاقاتنا « مع فلسطين منذ السنة ١٩٢١ تخضع لاتفاقية تجارية تنص على التبادل الحـــرفي للمنتوجات المحليه ، وتطبق نظام الاسترجاع ، « الدورباك » (المواد المعاد تصديرها) وفي ١٨ ايار ١٩٢٩ مددت هذهالاتفاقية الى عشر سنوات ، مع قليل من التعديل ، وبفضل هذه الاتفاقات المعقودة للتبادل الحر كانت تجارتنا مع فلسطين منذ ١٩٢١ حتى ١٩٣٩ كثيرة الازدهار ، وقد احرزت صادرات سوريا ولبنان الى فلسطين في السنة ١٩٣٥ رقما قياسيا قدره « ٥٣٠٠٠٠٠ » ل.ل اي ما يعادل مليون ليرةعثمانية ذهبا . وفي السنة ١٩٣٨ نقضت الحكومة الفلسطينية ، عاملة تحت ضغط خطط الصناعيين الصهاينة الذين زاحمتهم الصناعة السورية اللبنانية الفلسطينية ، الاتفاقية التجارية المعقودة سنة ١٩٢٩ وابدلت من اتفاقية تجارية جديدة بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني ١٩٣٩ ، تحافظ على حريـــة التبادل في المنتجات الزراعية ، وفي عدد محدود من المنتوجات الصناعية ، وقد ذكرت صراحة في الاتفاقية ، الزيوت النباتية ، المنتوجات القطنية والحريرية ، الصابون ، المجوهرات ، الاوكسجين المائي ، واخضع للتعرفة العادية صنف اخر من المنتوجـــات الصناعية كالمشروبات الروحية والعطور والتبغ ، والسكاير والكبريت والكحول . وكـــل ما عدا ذلك كان خاضعا لتعرفه تعادل ثلثي التعرفة العادية ، وفي شهري كانون الثاني وشباط ١٩٤٦ ، طبق قرار مقاطعة الصهيونية ، وانتهت العلاقة الاقتصادية بعد الاحتلال الصهيونـــي » (٦) . هذا ولقد اثر في زياده تجاره فلسطين مع البلدان التـــي تحـــت الانتداب الفرنسي ، توفر الطرق التي تربط فلسطين ببيروت ودمشق (٧) .

ان اعطاء هذه الصورة ، حول الوضع العام ما بين فلسطين وسوريا ولبنان ، بهدف تحديد صورة ادق ، تأخذ الطابع الخاص للقرية ولعلاقاتها مع محيطها . فمثلا كانـــت الخالصه هي السوق الاولى لاهالي البلده ولسكان المنطقة، وايضا لسكان قضاء مرجعيون ومنطقة الجولان . تقول السيدة « مسعدة عبدالله » من سكان القرية ، ومن الذين يذكرون هذه العلاقات . بان الاهالي كانوا يأخذون البيض والحليب واللبنة ، والعدس والجلبينة والدجاج ، واحيانا ، دراهم حيث كانوا يتعاملون بالعملة الفلسطينية حينها .

وكانوا يجلبون معهم الانتاج الفلسطيني من الحمضيات ومن الليمون ، والصابون والملح وزيت الكاز والحصر ، وكافة انواع الملبوسات والسكر والشاي ، هذا وفي البلدة اناس يسمون « مكارية » ، مهمتهم الدائمة نقل انتاج البلدة واستبداله بالانتاج الاخر من فلسطين ، وكان يتم ذلك على الطرق التجارية القديمة ، وبوسائل بدائية ، اي على ظهر الحمير ، والبغال ، ولا زال البعض من هؤلاء احياء كموسى عبدالله ، ومحمد احمد قمره وعلي عطوي ، وعبدالله عطوي ، واحمد عطيه ، وحسن ميري ، وسواهم من السكان. وهذه العلاقات كانت وايضا وبنفس القدر مع منطقة القنيطرة . حيث كان السكان يأخذون فائض انتاجهم ويبدلونه بسكك الحديد ، والمذاري ، وبالقمح ، والاحذية، وبعض الملبوسات والسمنة ، وكانوا اضافة لذلك يأخذون معهم الفخار حيث كانوا يشترونهـا من قرية راشيا الفخار القريبة من البلدة . اضافة للتين الاخضر والمجفف ، كما يقول محمد احمد يحيى ، والعنب .

ويذكر الكثيرون ما كان يحل بهم عندما يلقى القبض عليهم من قبل نقاط التفتيش سواء منها السورية والفلسطينية ، اذ كانت تؤخذ حمولتهم ، ويعودون وكلهم اسى ولوعة .

خلاصـــة

ان هذه الصوره للعلاقات السياسية ، والاقتصاديه والاجتماعيه داخل البلده، ولمواقف ابنائها من الوجود الاستعماري ، ومن القوى المرتبطه بهذا الوجود . قد ساعدت على بلورة توجهات سياسية اكثر تطورا ، وكانت هذه التوجهات انعكاسا للتطرات السياسية الحاصلة في الوطن العربي . وقد ادى ما ذكر على توثيق الصلة بالحركة القوميـة الوطنيه التحرريه ، حيث كانت هذه التطورات تنعكس مباشرة على الوضع اللبناني . ان ذلك قد ساعد ايضا على تطور الحس الوطني والقومي عند السكان الذين شاركوا في مجمل الانتفاضات ضد المستعمرين ، وكانت هذه الثورات القاسم المشترك الذي يجمعهم في القضايا الصعبة ، وفي المنعطفات التاريخية المهمة ، ان مشاركة الاهالي في الاحـزاب السياسية وفي الانتفاضات الوطنية والقومية الاخرى كما مر . اذ شارك قسم من الاهالي في الحزب الشيوعي في الثلاثينات ، كما شارك قسم من الطلائع في بداية الخمسينات بحزب البعث العربي الاشتراكي وفي حركة القوميين العرب ، اذ شكلت كفرشوبا ، وللحقيقة الطليعة السياسية المهمة وليس فقط داخل المنطقة وفي محيطها ، وبل بتواضع يمكن القـول على صعيد منطقه الجنوب (٨) .

---

١ — المعلومات من السيد صالح صالح في مقابلة في نهاية شهر ايار عام ١٩٧٥ .

٢ — مقابلة مع عزو القادري ، من سكان القرية الذي عاصر تلك المرحلة في ١٩—١٠—١٩٧٥ .

٣ — من الذكريات الشخصية للسيد قاسم حسين ،

٤ — مرجـع سابق .

٥ — جبرائيل منسى — التصميم الانشائي للاقتصاد اللبناني واصلاح الدولة ص ١١٢ — ١٩٤٨ .

٦ — راجع جبرائيل منسى — بتصرف — مرجـع سابق — ص ١٣٣ — ١٣٤ — و ١٣ .

٧ — النظام الاقتصادي في فلسطين — سعيـد حمـاده — ص ٥٠٢ — ١٩٣٩ منشورات الجامعة الاميركية .

٨ — من اجل معلومات اوسع حول وضع البلدة والتطورات الاخيرة، يمكن مراجعة مجلة شؤون فلسطينية ، العددين ٤٣ و ٤٧ ، مقـالات فرحان صالح عن كفرشوبا — والجنوب .

الحسيدية
احدى روافد الغيبية الصهيونية

الدكتور عبدالوهاب المسيري

تنشر شؤون فلسطينية هذه الدراسة في موضوع لم يكتب به في العربية الا نادرا .

ونظرا لدقة الموضوع فقد عرضته شؤون فلسطينية على الاخ صبري جريس « المسؤول عن الدراسات الاسرائيلية والصهيونية فيها ، فسجل الملاحظات والتحفظات التاليـــة :

١ ــ الحسيدية حركة دينية يهودية صرفة ، نشأت وتبلورت قبل ان يظهر اي « برعم » صهيوني بوقت طويل . لا علاقة لها بالصهيونية ، خيرا او شرا ، عــدا عن قرب بعض اعضائها من الحركة الصهيونية او من زعمائها ، ولكن يقابل ذلك ابتعاد بعض الزعماء الاخرين عن تلك الحركة .

٢ ــ معظم ابناء الحسيدية وآبائهــا الدينيين وزعمائهــا يعيشون في اميركــا (نيويورك) ولا يبدون اهتماما ملحوظا بالصهيونية واسرائيل .

٣ ــ التحدث عن الصهيونية والحسيدية بنفس اللهجة غير منصف ، تاريخيا ، في حق الاخيرة ، نظرا لاهتمامها ــ كما اشرنا ــ بالدين والغيبيات ، الخ ، بشكــل رئيســـي .

٤ ــ رغم اشارة المؤلف الى المحاذير التي وضعها نصب عينيه ، كما يقول في اواخر مقالته ، يبدو انه وقع في الخطأ من حيث لا يدري ــ باعتماده على مصادر صهيونية سياسية ، جعلته يتحامل على الحركة .

« الحسيدية » كلمة مشتقة من الكلمة العبرية « حسيد » ومعناها « التقى » ، وتستخدم في العصر الحديث للدلالة على الحركة الدينية الصوفية التي اسسها بعــل شيم طوف (١٧٠٠ ــ ١٧٦١) . وقد بدأت هذه الحركة في منتصف القرن الثامــن عشر في جنوب بولندا وجاليشيا واوكرانيا في القرن الثامن عشر وانتشرت منها الــى وسط بولندا وروسيا البيضاء والمجر ورومانيا حتــى اصبحت هــي عقيدة اغلبية الجماهير اليهودية في شرق اوروبا بحلول عام ١٨٣٠ (١) . ويعزي النجــاح الــذي احرزته الحسيدية لأسباب اجتماعية وحضارية عدة ، فقد كانت الجماهير اليهودية تعيش في بؤس نفسي وفي فقر مدقع نتيجة للتحولات الاقتصادية والاجتمـــاعيــة التي كانت تخوضها مجتمعات شرق اوروبا آنئذ ، فالتنظيم الاقطاعي للمجتمــع مبني على الفصل الحاد والصارم بين الطبقات والفئات ولذا سمح لليهود ان يكون لهم نوع من الاستقلال الذاتي الجيتوي والمؤسســات القضائية والاقتصاديــة المستقلة مثل القهال ، وهي مؤسسة اجتماعية كانت تضطلع بوظيفة اجتماعية ضرورية فكانت تقوم بجمع الضرائب والاشراف على الاقلية اليهودية في كافة شئونها الادارية والقضائية .

ولكن التطور الاقتصادي للمجتمع من الاقطاع الى الراسمالية جعل من القهال شكلا « اقطاعيا » طفيليا لا مضمون له يقوم باستغلال اليهود لحساب الحكومة البولندية والنبلاء الاقطاعيين الغائبين في المدينة (٢) . ومن مظاهر هذه الطفيلية الاستغلالية ان وظيفة رئيس القهال لم يكن يشغلها الا من كان على علاقة طيبة بالحكومة او بالنبلاء ، حيث انها كانت تعد مصدرا للدخل المرتفع لمن يشغلها (٣) . ونفس الطفيلية تتضح في وظائف القضاء التي كان لا يشغلها الا من يدفع رشوة للحكومة ، ولذا كان من الطبيعي ان يتقبل القاضي الهدايا والرشاوي فور تعيينه (٤) . وقد نتج عن هذا ان كبار موظفي القهال اصبحوا طبقة مسيطرة احكمت قبضتها وهيمنتها على اليهود وفقدت كل علاقة بالجماهير خاصة وان يهود الريف لم يكن من حقهم ان يدلوا باصواتهم على الرغم من انهم كانوا يدفعون الضرائب المقررة عليهم (٥) .

وقد بلغت طفيلية القهال درجة كبيرة حتى ان الحكومة البولندية ذاتها الغت مجلس الاراضي الاربع (الاطار الاداري الذي يضم كل قهالات بولندا وليتوانيا) كما انها اخذت في تقليل سلطة الحاخامات (٦) . وقد صاحب هذا التطور الاقتصادي والسياسي تحسن في احوال الطبقة المتوسطة الكبيرة (تجار الجملة) ، اما يهود المناطق الريفية فقد ازدادوا فقرا خاصة بعد زيادة ضريبة الرؤوس (٧) . فقد عاش البقالون واصحاب الدكاكين الصغيرة والباعة المتجولون واصحاب الحانات وجباة الضرائب (وهم من صغار الموظفين) واصحاب الفنادق الصغيرة وصغار المستأجرين من اليهود (٨) حياة قاسية للغاية ، اذ فقدت هذه الفئات الاجتماعية المرتبطة بالنظام الاقطاعي الاساس الاقتصادي لوجودها حتى ان بعضهم كان يكسب قوته (حرفيا) « بمعجزة » في شكل زبون يأتي بالصدفة (٩) . وكانوا يتضورون جوعا حينما لا ترسل لهم الصدفة هذا الزبون ، مما كان يضطرهم ان يقتاتوا بما يتكرم به النبيل البولندي عليهم (١٠) (وظاهرة الشحاذ اليهودي ظاهرة كانت واسعة الانتشار في اوروبا في اواخر القرن التاسع عشر) . ولقد بلغ بؤس هذه الجماهير الاقتصادي ان عشر ارباب الاسر اليهودية كانوا بلا عمل (١١) . وقد كانت هذه الجماهير هي التي اتحدت لتقف ضد سلطة القهال اداة استغلالها وطالبت بتغييره او حله ، وكانت هي الجماهير التي انضمت للحركة الحسيدية . ومن الملاحظ ان الحرفيين والعمال اليهود لم ينضموا للحركة الحسيدية لاسباب عدة من أهمها ان الاساس الاقتصادي لوجودهم كان اكثر ثباتا من اساس البورجوازيين الصغار من اليهود ، كما انهم كانوا لا يكملون دراستهم الدينية اذ كان ابناؤهم لا يدرسون الا اسفار موسى الخمسة ويتركون بعدها الدراسة لفقرهم ، على عكس اولاد اصحاب الدكاكين الذين كانوا يكملون دراستهم الدينية ويقراون الجمارة (جزء من التلمود) مما كان يؤهلهم لدراسة القبالة بنزعتها الغيبية (١٢) . هذا وقد امتصت الحركات الثورية العمالية (اليهودية وغير اليهودية) كثيرا من العمال اليهود (١٣) .

ومع ان الجماهير اليهودية كانت ترزح تحت نير الاستغلال الاقتصادي من جانب النبلاء البولنديين وقيادة القهال ، الا ان قيادتها الفكرية والدينية لم تقم هي الاخرى بأي دور روحي او تعليمي او اخلاقي ، فقد تحول الحاخام الى مجرد موظف له راتب ، لم يكن يعنيه شيء من شؤون الجماعة ، وكانت مواعظ الحاخامات كلها تدور حول مواضيع فقهية عويصة مغرقة في الغيبية . بل ان الحاخامات ، شانهم في هذا شأن بيروقراطية القهال ، كانوا يحصلون على وظائفهم نظير مبلغ من المال يدفعونه . وقد ارتبطت طبقة العلماء اليهود بطبقة الاثرياء عن طريق القرابة والنسب (١٥) وقد لخص احد الفقهاء وضع الحاخامات قائلا « كل شخص به جوع للسلطة وكل شخص يصيح اريد ان احكم (أو اتسلط) لانني عالم (تلمودي) » (١٦) .

وكانت الحياة الثقافية والدينية داخل الجيتو اليهودي وفي منطقة الاستيطان اليهودي في روسيا قد وصلت الى درجة كبيرة من التدني ، ولعل درجة التدني الثقافي والحضاري هذه تظهر في تباهي احد الحاخامات بأن يهود بولندا يكرهون العلوم « فالخالق لا يسر من سهام النحاة الحادة ، ولا قياسات الرياضيين ، ولا حسابات الفلكيين » ، لان الدراسات التلمودية حسب تصوره هي الشيء الاساسي في حياة اليهودي (١٧) . وكان اليهود يعيشون في شبه عزلة عن العالم يؤمنون بالجن والعفاريت والاحجبة (١٨) ، وحينما تعلم المؤرخ اليهودي كروكمال اللغات الاوروبية (الاجنبية) ، كان الحسيديون يظنون ان به مسا من الشيطان (١٩) . ولسد هذا الفراغ الروحي ظهرت فئة « الدراويش » الذين يحملون اسم البعل شيم (صاحب الاسم) وهم اشخاص كانت الجماهير اليهودية تتصور ان عندهم اسرارا باطنية للتحكم والتلاعب بحروف اسم الخالق وملائكته مما يمكنها من أن تطرد الارواح والاشباح ، فكان البعل شيم يكتب حروف اسم الخالق بطريقة جديدة كأن يعكس الحروف ثم يضعها في حجاب لتستخدم كتعويذة . وكان الاعتقاد السائد ان البعل شيم عنده من القدرات ما يؤهله لشفاء الافراد الذين تركبهم العفاريت (٢٠) .

ومما زاد الطين بلة ان الجماهير اليهودية كانت لا تزال تعيش في ظلال ذكرياتها عن هجمات شميلنكي ، وعصابات الهايدماك من الفلاحين القوازق (٢١) ، التي كانت تجوب اطراف بولندا تبث الرعب في قلب اليهود الذين كانوا يمثلون بالنسبة لهم « جامعي الضرائب » البولنديين وقد شاهدت هذه الفترة ايضا اعادة تقسيم بولندا وليتوانيا مما نتج عنه تقسيم الجماعات اليهودية ذاتها .

ادت كل هذه الاوضاع الحضارية والاقتصادية الى ظهور الحركة الحسيدية التي ضمت اعضاء الطبقات المتوسطة الفقيرة الموجودة داخل الجيوب اليهودية في المجتمع البولندي والروسي ، وكما بينا من قبل كانت هذه الطبقة منسحقة نتيجة للتحولات الاقتصادية في المجتمع ، وهي تحولات فتحت الفرصة امام غيرها من الطبقات اليهودية ، واغلقتها دونها ، بل زادتها فقرا على فقرها ، كما انها ظلت طبقة اجتماعية غير منتجة ليس لها اساس اقتصادي واضح . ولعل هذا الوضع الغريب ينعكس على العقيدة الحسيدية التي ترفض العالم نظريا وتطالب التابعين بالزهد في امور الدنيا والهرب منها ! ولكنها في الوقت ذاته تقبل العالم فعليا وترى النقود والثراء على انهما اساسيان للحياة (خاصة بالنسبة لقواد الحركة) . او كما قال احد الزعماء الحسيديين « ان نقود الانسان تحرره ، ونحن لا نعني بهذا الدخل الكافي وحسب وانما نعني الثروة الطائلة فهي ضرورية للعبادة الالهية ، لان تنفيذ كثير من المبادىء والاقوال الدينية يستلزم امتلاك الانسان للثروة » (٢٢) . وقد انعكس هذا ايضا على بنية الفكر الحسيدي فهو فكر يستمد دفعته الاولى من سخط طبقي حقيقي ، ولكنه يتوه في غيبيات صوفيه ، ويظهر عداوة للتفكير والعلم والعقل ، فالطبقة المتوسطة الصغيرة كانت طبقة متطلعة تود الصعود ولكنها كانت طبقة خائفة من الراسمالية الصاعدة (التي كانت تدافع عن الاستنارة والقيم العلمانية (٢٣)) . اما قيادة الحركة فكانت اساسا قيادة دينية (٢٤) من المثقفين (لان العنصر الاجتماعي في الفكر الحسيدي ظل خافتا ضائعا مستوعبا في الشكل الديني المطلق المتكلس) ، وقد ظلت الاصلاحات التي تطالب بها الحسيدية اصلاحات لا تتخطى الاطار القائم (٢٥) — وحينما سنحت الفرصه للحسيديين للاستيلاء على ادارة القهال وهو استيلاء كان يتم احيانا عن طريق الاستعانة بالسلطات البولندية لم يقوموا بتغيير شيء بل احيانا زادوا من معدلات الضرائب (٢٦) وقد أتت القيادة الحسيدية الدينية من صفوف الطبقات الفقيرة ، فكانوا من فقراء الوعاظ والمنشدين والمدرسين والذابحين الشرعيين (٢٧) . وكان بعل شيم

طوف — مؤسس الحركة الحسيدية — نفسه يعمل كمدرس وذابح شرعي وخادم للمعبد (٢٨) .

والحسيدية كمذهب صوفي ، لم تبتدع افكارا دينية او فلسفية جديدة (٢٩) ، فهي امتداد للحلولية اليهودية التقليدية بمزجها بين الشعب والارض والخالق وبمزاوجتها بين الشعب والله ، وبتأكيدها لتقاليد النبوة « المفتوحة » والمستمرة بمعنى ان النبوة امر متاح لكل انسان في كل زمان ومكان ، ولكن الحسيدية مع هذا قد فسرت بعض هذه المفاهيم تفسيرا فيه شيء من الجدة ، كما انها وصلت ببعض هذه المفاهيم الى نتيجتها المنطقية . واحد المفاهيم الحلولية الاساسية في اليهودية الحاخامية يؤكد « ان الله موجود في كل شيء » . وحلولية التصور اليهودي هي حلولية كامنة في بنية اليهودية تنفجر في شكل حركات ماشيحانية (نسبة الى الماشيح او المسيح المخلص اليهودي) وهذا ما حدث بالنسبة للحسيدية . فنجد ان بعل شيم طوف يوصل العبارة لنتيجتها المنطقية ويؤكد ان الله موجود حرفيا في كل شيء — في النباتات والحيوانات وفي أي فعل انساني وفي الخير والشر ذاته . ويستخدم الحسيديون مصطلحات واستعارات صوفية تقليدية للتعبير عن رؤيتهم الحلولية المتفجرة ، فالخالق هو مثل النور الالهي اللانهائي الذي يختفي بشكل تدريجي حتى لا يبتلع كل شيء في جلاله وبهائه وحتى تتمتع المخلوقات بوجود مستقل . والعالم كله بمثابة ثوب لله صدر عنه ولكنه جزء منه — تماما مثل محارةالحيوان البحري المعروف بالحلزونة فهي قشرته الخارجية ولكنها مع هذا جزء لا يتجزأ منه (٣٠) . ويستخدم الحسيديون مثلا آخر لتفسير التنوع والتعدد الظاهرين في العالم ولتأكيد الوحدة المبدئية التي تنتظم الكون (وكل فكر صوفي حلولي هو في نهاية الامر فكر أحادي ينكر انفصال الخالق عن المخلوق ، وينكر بالتالي استقلال الارادة الانسانية) . يجلس ملك عظيم فوق عرشه في وسط قصره ذي الابهاء العديدة المزينة بالذهب والفضة والاحجار الكريمة ويأتي الخدم لزيارته فيركز بعضهم على الذهب والفضة اكثر من اهتمامهم بالتأمل في طلعة الملك البهية ، ويقضون كل وقتهم في الابهاء الخارجية يجمعون الكنوز التي يجدونها ، وعملهم هذا يستوعبهم تماما حتى أنهم لا يبصرون وجه الملك بتاتا . ولكن الخادم العاقل يرفض ان يدع اي شيء يصرف اهتمامه عن الملك ، ولذلك فهو يسير ويستمر في السير حتى يصل الى العرش وسط القصر ، وحينما يصل الى هناك يكتشف على التو أن القصر والابهاء وكنوزها ان هي الا وهم صنعته مقدرات الملك الاعجازية ، وهكذا يخفي الخالق نفسه في الثوب المسمى بالكون (٣١) .

ويدل هذا بالتالي على ان الحسيديين يؤمنون بأن الله هو ذاته « كل شيء » وان ما عدا ذلك وهم وباطل ، لان الاشياء المخلوقة لا حقيقة لها (٣٢) . فكل المخلوقات لا وجود لها اذا نظرنا لها من زاوية الخالق ، (والقول بان « الله هو كل شيء » تختلف عن الصيغة الاسلامية القائلة بأن الله «خلق » كل شيء ، فالاولى تفترض التوحيد بين الخالق والمخلوق ، والثانية تفترض الانفصال) . أن الخالق ، مثل الشمس ، والمخلوقات مثل الاشعة (حسب التصور الحسيدي) أي انه لا وجود الا وجود الله — ولنلاحظ استعارة الشمس المرتبطة تمام الارتباط بفكرة الفيض الالهي (على عكس التصور الاسلامي الذي لا يمكن أن يأخذ بمثل هذه الاستعارة) .

وقد استفاد الحسيديون من القبالة او التراث الصوفي اليهودي وكتبها ونزعتها الكونية (وقد كانت القبالة هي بمثابة الشريعة الشفوية للحسيديين التي شرحها الوعاظ الحسيديون بشكل مبسط حتى اصبحت في متناول الجماهير (٣٣)) ، واذا كانت القبالة تحصر اهتمامها في الكون والاعتبارات الكونية فالحسيدية حاولت ان تربط بين الحقيقة النفسية والحقيقة الكونية (وان كان هذا هو ايضا احد اسس القبالة

الفكرية : كما في السماء في الارض ، وكما في الداخل (الذات) في الخارج (العالم) فنادي الحسيديون بأن يغوص الانسان في أعماق ذاته ، وفي داخل الذات تسقط الحواجز التي تفصل شيئا عن الاخر وفردا عن الاخر ، وفي داخل الذات يرتفع ويتسامى الانسان على حدود الكون والطبيعة ، الى ان يصل في النهاية الى أن الله هو الكل في الكل ولا يوجد سواه (٢٥) . ولعل تأكيد العنصر الذاتي هو محاولة من جانب الحسيديين للاحتفاظ بالحماس الماشيحاني لدى الجماهير ، ولكنه في الوقت ذاته محاولة لمحاصرة هذا الحماس وتبريده وتحديده حتى لا ينفجر بشكل عدمي فوضوي كما حدث في الحركات الماشيحانية السابقة للحسيدية مثل الشباتية ، وهي حركات وجدت نفسها مضطرة ان تحول نزعتها الفردوسية الى حقيقة واقعة ، فذهب الماشيح الدجال شبتاي تسفي الى صهيون ليعتلي عرش داود مما جر عليه وعلى اتباعه الهلاك، لذا آثر مشحاء الحسيدية الغوص في فردوس الذات على الذهاب الى صهيون (وان كان هذا لم يمنعهم من الذهاب الىصهيون حينما كانت الفرصة مواتية ــ أي أن الاحجام عن « الحركة » الغيبية والاكتفاء « بالتأمل » الغيبي ليس جزءا من البنية وانما هو ضرورة عملية برجماتية .

واذا كانت الرؤيه الماشيحانية التقليدية رؤية ابوكاليبسية تحدث بغتة ، فالماشيحانية الحسيدية تدرجية، واصبحت الماشيحانية ليست مجرد وصول الماشيح وانما حركة بطيئة متصاعدة يشترك فيها كل افراد يسرائيل (٢٦) (وكلهم من المشحاء المخلصين حسب التصور التقليدي) : اي انها اصبحت ماشيحانية دون ماشيح ــ ماشيحانية تستند اساسا الى الذات اليهودية الجماعية .

هذه الماشيحانية الذاتية او النفسية المتفجرة ان صح التعبير لها نتائج فكرية وعملية عديدة انعكست على سلوك وتصورات الحسيديين ، سنجمل بعضها فيما يلي :

١ ــ تقبل الحسيديون الايمان التقليدي بان الشريعة المكتوبة (اي التوراة) والشفوية (اي التلمود وكتب القبالة) مرسلة من الله ، ولكن العالم كله ان هو الا كشف روحي الهي ، ولذا تصبح التوراة والشريعة الشفوية مجرد جزء صغير من الكل الاكبر الاشمل (٢٧) (والحسيديون بذلك يبطلون العمل بالشريعة تقريبا وابطال الشريعة حسب التقاليد اليهودية هو من حق الماشيح وحده) . ويصبح الهدف من دراسة التوراة ان يصبح الانسان نفسه « توراة » ، قانونا في حد ذاته .

والتوراة باعتبارها جزء من الكون تعكس الكون ايضا ولذا فكل من يدرس التوراة لا يجد فيها ابراهيم وموسى وحسب وانما يجد بلعام وهامان ايضا (٢٨) ، والخير والشر، اي ان التوراة لا تجسد فكرة القانون وانما اصبحت القانون ونقيضه .

٢ ــ يرى الحسيديون ان الهدف من حياة الانسان ليس هو فهم الكون او تغييره او حتى تنفيذ الاوامر والنواهي (المتسفاه) وانما هو « الدبكوت » او الالتصاق بالله والتوحد به . فدراسة التوراة وتنفيذ الاوامر والنواهي وكل العبادات هي في نهاية الامر ادوات ووسائل للتوحد بالخالق (٢٩) ، نرى هنا مرة اخرى اثر « الماشيحانية النفسية».

٣ ــ يصاحب هذا الانكار لفكرة القانون والحدود ايمان بالحتمية المطلقة ، فاذا كان الكون هو الله ، واذا كان كل مخلوق هو جزء من الخالق ، فان كل شيء يصبح جزءا من خطة الهية محسوبة ، لا شيء يتم فيها بالصدفة ولا يوجد فيها مجال لاي ارادة انسانية (٤٠) مستقلة ، فعدم انفصال الخالق عن المخلوق فيه انكار لحرية المخلوق وفيه تأكيد لمقولة ان الانسان مسير تماما وانه غير مسؤول عن افعاله مهما بلغت من دناسة واجرام (ولنلاحظ هنا التشابه البنيوي بين الحسيدية والنيتشوية فكلاهما يؤكد فكرة الارادة المطلقة بانكار الحدود وكلاهما يؤكد الحتمية المطلقة (فكرة العود الابدي عند

نيتشه) ولعله ليس من قبيل الصدفة ان بوبر وبيرديشفسكي الفيلسوفين النيتشويين الصهيونيين هما ايضا من اكبر المتحمسين للحسيدية) .

٤ — مع انكار الارادة الانسانية المستقلة ومع تأكيد ان الله هو كل شيء يصبح لا مجال لاي جدل ، ولا مجال للحزن او المأساة ، ولذا نجد الحسيديين يرفضون ثنائية الموقف الديني التقليدية ويحلون محلها احادية صوفية عمياء تشبه من بعض الوجوه الفلسفات المادية الميكانيكية في انكارها لاي وجود الا وجود المادة — ويجب ان نتذكر ان الفلسفة المادية الميكانيكية كانت فلسفة البورجوازية في عصر العقلانية البورجوازية التي كانت لا تؤمن الا بالرياضة والمال — والصوفية (الحسيدية) مثل المادية الميكانيكية هي فلسفة تبنتها الطبقات البورجوازية (صغار التجار وما اشبه) لتعبر عن شوقها الديني (لمزيد من الثروة) . ويلاحظ ان تصفية هذه الثنائية (التي هي في جوهرها انكار لوجود الله — لان وجود الله يفترض على التو وجود قطبين متعارضين ، التاريخ والله ، الانسان والخالق الارض والسماء وهكذا) يتضح في عدم اكتراث الحسيديين بالعالم الاخر وتركيزهم على هذا العالم (٤١) . فالفردوس او المطلق الذي يطمح المؤمن في الوصول لهما في العالم الاخر عن طريق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يطمع الصوفي في الوصول لهما الان وهنا عنطريق الذكر والدروشة (وهذا ما اسميه بتداخل المطلق بالنسبي او الفردوس بالتاريخ) .

٥ — اذا كان كل شيء له بعد واحد مطلق ، فانه ينبغي الا يحزن الانسان او يخاف (٤٢) ، فالشر او اليأس ان هما الا غلاف يكفي ان نعرف كيف نعرضه للنور الالهي حتى يتلاشى ويظهر ما تحتهمنخير ، وباختفاء اي وجود حقيقي للشر لا يوجد اي مبرر للحزن ، بل ان الحزن ليصبح عائقا يقف في طريق وصول المخلوق للخالق (ولا ادري كيف يتحدث بعض مؤرخي الحركة الحسيدية عن نزعتها « الوجودية » في تأكيدها لاهمية الفرد ، فكل نزعات الحسيدية تتجه نحو انكار الفرد والجدل واي استقلال انساني عن المطلقات) .

٦ — اذا كان الله هو كل شيء فان كل فعل انساني هو في نهاية الامر فعل رباني كامنة فيه «شرارات الهية » (٤٤) تنتظر ان ينقذها الانسان ويخلصها من خلال رغبته في ان يخدم الخالق ، فحتى مذاقالطعام هو انعكاس للقوة الروحية التي خلقت الطعام ، وهذا المذاق لا بد وان يؤدي بالانسان الى التأمل في الحيوية الالهية وبالتالي في الله ذاته. وقد جاء في كلمات احد القباليين التي يقتبسها الحسيديون ، ان الشرارات الالهية التي يحررها المرء تزود الشخيناه (التعبير الانثوي عن الحضرة الالهية وهي في الوقت ذاته كنيست يسرائيل او جماعة يسرائيل) بالمياه الانثوية التي تسبب بدورها تدفق المياه الذكورية وبالتالي تساعد في التوحيد بين الواحد القدوس والشخيناه (٤٥) ، وينتج عن هذه العملية التناسق الكوني (ولنلاحظ الاستعارة الجنسية التي تصف دائما علاقة الشعب بالخالق — والمصطلح الجنسي مصطلح شائع بين المتصوفين) . وبسبب اهمية الانسان (والانسان اليهودي على وجه التحديد) في هذا التوحيد الكوني وعقد الزواج بين الخالق والشخيناه ، كان الحسيديون ينطقون بهذه العبارة قبل ان يقوموا باي فعل : « من اجل توحيد الواحد القدوس تبارك اسمه ، بالشخيناه » ، كما كانوا يدخنون التبغ لانهم كانوا يعتقدون ان الشراراتالتي يحدثها التبغ ، لها اثر خفي ودقيق على تحرير الشرارات الالهية (٤٦) .

٧ — الله اذن كامن في كل شيء حتى مذاق الطعام وحتى التبغ الذي يدخنه المرء ، ولذلك نادي الحسيديون بأنه يجب ان تتم عبادة الله بكل الطرق وان نخدمه بكل شيء (بالجسد والروح معا) وقد وجدوا سندا لهم في العبارة القائلة « ستجد الله في كل طرقك » التي وردت في سفر الامثال (٣\٦) . بل انهم ليذهبون ابعد من هذا فيفترضوا

انه كي تصل الى الروحانية الحقة لا بد وان تمر بالجسد وبالمرحلة الجسدية لان الروح ان هي الا شكل من اشكال المادة ، ولذلك يجب ان يجابه الانسان الشر بكل قوة حتى يمكنه تخطيه . وقد سمي هذا بالنزول في المويقات ثم الصعود ، او « اليريداه ثم العالياه » (٤٧) بل ان « اليريداه او الهبوط يصبح اعظم من « العالياه » او الصعود لانه ايسر وبالتالي فهو يقرب الانسان من الله . ان الجسد وكل النشاطات الانسانية (خاصة النشاط الاقتصادي مثل البيع والشراء) أن هي الا عربة او عرش للنزعات الروحية (٤٨) ، فالتجارة (دائما التجارة !) ليست عملا دنيويا محضا ، وانما هي بمثابة الصلاة حينما يصاحبها ارتباط بالله (٤٩) .

وقد قال احد قادة الحسيديين انه يتعين على الانسان ان يشتهي كل الاشياء المادية ، ومن ثم يرغب في عبادة الله (٥٠) وكان البعل شيم طوف يروي قصة الملك الذي اراد ان يعلم ابنه شتى صنوف الحكمة اللازمة ، واستدعى لهذا الغرض خيرة العلماء ولكن ابنه فشل في ان يستوعب ايا من دروسهم ، وتملك العلماء القنوط الا عالم واحد . وحينما راى ابن الملك غادة حسناء تملكته الشهوة لفاتنها فاشتكى العالم المتبقي للملك ، الذي اجاب قائلا : « ما دام اشتهى ابني شيئا ، حتى ولو كان شيئا جسديا ، فهو لا مناص من ان يصل الى صنوف الحكمة ! » وبالفعل امر الملك ان تحضر العذراء الى البلاط الملكي وامرها انه حينما يشتهيها ابنه فيجب الا تستجيب له الا بعد ان يحصل على حكمة ما ففعلت . وكلما اشتهاها كانت تطلب منه ان يتعلم حكمة ما حتى حصل على كل صنوف الحكمه وحينما اصبح عالما انصرف عن العذراء وتزوج من اميره تليق بمقامه (٥١) .

وكان بعل شيم طوف يروي اسطوره اخرى لها نفس المغزى تسمى اسطورة « الابن المفقود » وتحكي الاسطورة قصة الابن الذي اسر في الارض الاجنبية وهو يدخل الحاخامات المحليه مع اسريه ، (وكان اليهود في شرق اوروبا يشتغلون اصحاب حانات ويعملون في صناعة الخمور) ولكنه يحفظ سره الدفين طول الوقت (وما سره هذا سوى مفتاح الخلاص) . وبينما يشرب آسروه من اجل الشرب وحسب يشرب هو ليخبىء سعادته الحقيقية التي تكمن لا في الشرب وانما في خطاب ابيه (وسره) الذي يخبره عن قرب خلاصه من الاسر (٥٢) (من ارض الاغيار الاجانب) . والمعنى الكامن لهذه القصة انه لا يوجد طريق للخلاص من اسر المادة الا بالتعاون معها ظاهريا (مثل الماشيح : ظاهره فاسد وباطنه خير) .

لا بد اذن انيغوص الانسان في الفرح الجسدي كي يصل « الى الفرح الروحي » بل ان الحسيدية لتصل الى ابعد درجات التطرف بتأكيدها « روحانية المادة » وايمانها انه كي يصل الرجل الى مرتبة الروحانية الحقة فعليه ان يشتهي امراة الى اقصى درجة حتى يطهر وجوده المادي بل ويتخلص منه تماما ، وذلك بسبب قوة رغبته (٥٣) — اي اننا لا يمكننا ان نصل الى الخير والروحانية المطلقين الا بالنزول في الشر والجسد والمادة ، وهذا مفهوم جديد للاخلاق ينفي الازدواجية التي هي اساس أي اختيار اخلاقي . بل اننا نجد ان جوهر الخير — حسب التصور الحسيدي — هو « معانقة الماديات بطريقة صوفية » او كما يسميه الحسيديون « عفوداه بجاشميوت » او العبادة والخلاص بالجسد (٥٤) بل وعبادة الله من خلال العلاقات الجنسية (واثر جوزيف فرانك ، الماشيح الدجال البولندي ، واضح على تفكير الحسيديين في هذه الناحية) .

٨ — نلاحظ انه ثمة تيارا جنسيا قويا كامنا في الحسيدية تتمثل في استعاره السائل الانثوي وزواج الخالق من الشخيناه ، وتتمثل ايضا في مفهوم « عفوداه بجاشميوت » وهو تيار تدعمه ايضا فكرة سقوط الحدود والقانون والرغبة الصوفية في الوصول الان وهنا ، فكرة اليريداه ثم العالياه . بل وقد ظهر اثر هذه الفلسفة الحلولية الجنسية على

سلوك الحسيديين انفسهم ، فكان بعضهم يجري عاريا في الشوارع او يرقص بشكل خليع وماجن أو يتبول امام الناس (٥٥) . ولم يقتصر اثر الحلولية الحسيدية على سلوكهم الدنيوي وانما انعكست ايضا على الصلوات الحسيدية ذاتهـــا فهي تتسم بالحماس الجماهيري المجنون والتعبير عن النشوة العارمة ، بل ان الصلوات تشبه من بعض النواحي حركات الزار ويتخللها حركات جنسية واضحة وفاضحة . وقد اتبع الحسيدية كثير من النسوة وكان بعل شيم طوف يصاحب عددا لا بأس به من النساء ، ولهـــذا السبب اتهمه اعداؤه بالفساد الخلقي (٥٦) ، ولكن حتى لو صدقت ادعاءات الاعـــداء فالمريدون لا يمكنهم رؤيتها على هذا الشكل ، فالرجل المرفوع عنه الحجاب يتصرف مثل الاله ويتزوج ممن يشاء ويعاشر من يشاء ، وكلها أفعال ربانية ، تماما مثلما يتزوج اغا خان من ريتاهيوارث ، فيدخل السعادة على قلوب المريدين . ومن المعروف ان احـــدى سمات الماشيح انه شرير من الخارج خير من الداخل ، ولذلك حينما ارتد شبتاي تسفي عن اليهودية واعتنق الاسلام لم يلمه اصحابه فهذه هي احدى علامات الماشيحانية . والامر بالنسبة لبعل شيم طوف لا يختلف كثيرا في هذا الشأن .

٩ ــ تعبر الحلولية الحسيدية عن نفسها في شكلين هما في الواقع شيء واحـــد : حب عارم لفلسطين او ارتس يسرائيل ولجماعة يسرائيل (٥٧) (توحيد وتمركز حول الذات) في مقابل كره عميق للاغيار (استقطاب متطرف) . وقد كان الكره العميق للاغيار يستند لوضع الحسيديين الطبقي المتدني ، وهو وضع كان غريبا وشاذا كما بينا ، فالاغيار كانوا هم الحكومة البولندية والنبلاء والكنيسة الذين يقومون باستغلال هذه الجماهير (مـــن خلال سلطة القهال) ــ وقد ترجم هذا الوضع نفسه الى صور ومفاهيم مستقطبة ، فجماعة يسرائيل هي الحمل بين الذئاب ، ويدور الكون حول محوريـــن متعارضين : اورشليم وصور (ويعقوب وعيسو ، وعبادة الله والوثنية ، والطهر والدناسة ، ومملكة الله اليهودية ومملكة الشيطان) ، ولم تبن صور الا حينما تحطمت اورشليم . يقابـــل هذا الاستقطاب الحاد (وهو استقطاب يسم كل الديانات الحلولية القديمة والمذاهب الحلولية الحديثة) التمركز الحاد حول يسرائيل ففي الفكر الحسيدي نجد ان ثمة تعظيما وتقديسا لشعب يسرائيل المرتبط بارتس يسرائيل المقدسه (٥٩) . وقد كان حب يسرائيل حبا دينيا عاطفيا عاما ، ولكنه كان يترجم نفسه ايضا الى فعل يأخذ شكل هجرة (او صعود ــ عالياه)الى ارض الميعاد . وهذه الهجرة هي الترجمة الفعلية لفكرة الخلاص التدريجي واقتراب العصر الماشيحاني عن طريق افعال اليهود (وقد بدأ الحديث في الاوساط الحسيدية عن اقتراب العصر الماشيحاني باعتبار ان الهجرة الحسيدية هـــي احدى علاماته) . ومما شجع هذا التيار ان الحسيدية كانت تؤمن ان حياة الحسيدي حياة مقدسة ، ولاستكمال هذه القداسة كان لا بد للحسيدي ان « يخرج » من بين الاغيار المدنسين وبلاد الاغيار المدنسة ليستقر في الارض المقدسة ، وغاية كل قداسة ومصدرها في الوقت ذاته . ولكن لا بد وان نضع هذا التشوق لصهيون في اطاره الطبقي الفعلي ، فالبورجوازية الصغيرة اليهودية الهزيلة لم تتمكن من ان تلعب دورا اقتصاديا مستقلا له اهميته ولكنها لم تعد قانعة بدور التاجر الطفيلي او البائع المتجول ، بل ان هذا الدور ذاته لم يعد مطلوبا في مجتمع كان يكتسب اشكالا اقتصادية جديدة ، من هنا كان « حب صهيون » والرغبة في العودة لها (٦٠) ، فصهيون هي المكـــان الـــذي ستستقل فيـــه البورجوازية الصغيرة اليهودية باقتصادها حيث يمكنها ان تنتعش وتلعب دورا مستقلا في الشرق المتخلف . وقد هاجر بالفعل بعض مريدي البعل شيم طوف واقاربه وتلاميذه الى فلسطين واستوطنوا فيها (وان كان هو قد بدأ رحلته الى ارض الميعاد ثم قفل راجعا) (٦١) . كما كانت تتم احيانا هجرات جماعية لاسر كاملة ، وكان يصاحب هـــذه الهجـــرات مظاهرات حسيدية .

بعد هذا العرض لبعض جوانب الحلولية الحسيديه يطرح هذا السؤال نفسه : هـــل

من الممكن للمريدين العاديين « الوصول » لدرجة عالية من القداسة ومن الاتحاد بالخالق؟ هنا نجد ان الحسيدية لا تختلف كثيرا عن اي تنظيم يصدر عن فكر حلولي في انه رغم فقدانه الاتجاه ودائريته (النزول يؤدي الى الصعود) ورغم مساواته المطلقة النظرية بين كل الاشياء (الله يحل في كل الظواهر بنفس الدرجة) الا انه يأخذ شكلا هرميا حادا جامدا (او على الاصح شكلا مخروطيا يدور حول نفسه وهو في هذا يشبه التصور اليهودي التقليدي) . وعلى قمةهذا المخروط يقف التساديك ، أو الصديق او الولي (ويطلق عليه ايضا « الربى » او السيد كما يدعى احيانا « بالادمور » وهي اختصار كلمات « ادونا نينو » و « مورينو » و « رابينو » او سيدنا واستاذنا ومعلمنا) . ومفهوم التساديك مفهوم محوري في التصوف الحسيدي ، فالتساديك وهو شخص له قداسة خاصة (او شفافية خاصة ، كما يقول المصطلح الصوفي في العالم العربي) ، وهي تقع في منزلة لا تتلو الا منزلة الخالق (بدرجة بسيطة (٦٢))، ولذلك كان الحسيديون يؤمنون ان كلمنيعارضالتساديك فهو يهرطق او يجدف على الله (٦٣) ، وهو قد وصل الى هذه القداسة والشفافية الخاصة لا عن طريق التقوى او الدراسة وانما في لحظة اكتشاف نورانيه لا يمكن للانسان العادي استيعابها .

لهذا السبب نجد انالتساديك يمتلك مقدرات اعجازيه ، فهو يشفي الامراض ويعظ الناس (٦٤) بما يفيدهم ، ولكن الاكثر من هذا انه قادر على التأمل الصوفي الذي يربط بينه وبين الخالق ، ولذا فهو بمثابة السلم الموصل بين السماء والارض وبين الخالق ومخلوقاته من الناس (٦٥) ، وهو الذي يبعث الحياة في الكون اذ بدونه لا يمكن للقوة الحية ان تسري من الخالق الى الكون انه لا يشبه موسى وحسب بل انه بسبب اتصاله الطويل مع الخالق يصبح بمثابةابن الله الحقيقي (٦٦) ، بل ان الاعتقاد السائد ان الدنيا تستند الى دعامه واحده هي التساديك ، واذا كانت الدنيا قد خلقت من اجل يسرائيل فالتساديكيون هم يسرائيل . ثم تضرب الكتابات الحسيدية مثلا بالاب الذي عنده ابن صغير مدلل يريد عصا يركبها وكأنها حصان ، فيساعده ابوه ويحضر له العصا وبذا يشبع رغبة الطفل . وهكذا يريد التساديكيون ان يقودوا الدنيا « والواحد القدوس قد خلق هذه العوالم ليجدوا الغبطة في قيادتها » والله هو بمثابة الاب للتساديكيين (٦٧) . بل ان التساديك له سلطة على الحياة والموت تفوق قدرة الخالق ذاته ، (وهذه الفكرة سائدة في الفكر الصوفي الغيبي حيث يتحدث الولي الواصل في البداية باسم الخالق ثم بعد ذلك يتحدث نيابة عنه ثم اخيرا يصل الى درجة ادعاء الالوهية) . فقد يقرر الخالق ان يلاقي فلانا حتفه في ساعة معلومة ولكن التساديك من خلال صلواته قد يؤجل هذا القرار لان روحه صافية (شفافة) يمكنها الوصول الى تلك العوالم التي لا يوجد فيها اي قرارات او حدود ، لان الرحمة وحدها هي التي تسود فيها (٦٨) . ولكن لم لم تمنح هذه القوى الخارقة والاعجازية لعظماء اليهود في الماضي ؟ ولم التساديك الحسيدي وحده ؟ للرد على هذا يقول الحسيديون ان « الشعب اليهودي » يوجد الان في المنفى ، ولذلك يحل الله في اي انسان متواضع ، شأنه في هذا شأن الملك المسافر الذي يمكنه ان يحط رحاله في اي منزل مهما بلغ تواضعه ، على العكس من هذا ، لو كان الملك في عاصمته فهو لن ينزل الا في قصره وحده . وفي الماضي كان الزعماء والانبياء اليهود وحدهم هم القادرون على الوصول اليالروح الالهية ، ولكن الشخيناه الان في المنفى ولذلك يحل الله في اي روح خالية من الذنوب (٦٩) (اي ان التساديك هو وسيلة اليهودي المنفي للوصول الى الله ـ اي انها الحلولية اليهودية في المنفى ، وبدلا من ان يحل الله في أرض الميعاد ويتكون الثالوث الحلولي الله ــ الارض ــ الشعب ، يحل الله في التساديك ويظل الثالوث على حاله بعد تعديل طفيف : الله ــ التساديك ــ الشعب في المنفى) .

لكل هذا تحول مفهوم الوساطة بين الخالق والمخلوق الى مفهوم محوري في الحسيدية

وظل يتطور حتى تحولت الحسيدية ككل الى « تساديكية » . لقد اصبح التساديك سوبرمان صوفي لا يمكن للجماعة ان توجد دونه (تماما كما لا يمكن للمخلوقات ان توجد بدون خالق) واصبحت مهمة المريدين هي التشبه بعادات ونمط حياة التساديك الذي يترأسها ، حتى حلت الشخصية محل العقيدة . ولقد كان بعض الحسيديين يقول ان التوراة هي كيان لا حدود لهانتقل الى شخصية التساديك (٧٠) ولذلك كان من الشائع بينهم القول « لقد تحدث التساديك توراة » ، اي ان كلامه (بعد لحظة الوصول) في قداسة التوراة ــ اي في قداسة كلام الله ذاته ، وليس في هذا انحراف عن روح الدين اليهودي التي تساوي بين الشريعة المكتوبة والشفوية . ان التساديك لم يكن سوبرمان وحسب وانما شبه اله ان لم يكن الها بالفعل (وفي هذا وصول الى النتيجة المنطقيه للحلولية الحسيديه وقديما قال الحلاج « ما في الجبة الا الله ») .

وكان المريدون يسافرون يوم السبت للتساديك ليسمعوا مواعظه وليأتنسوا بمشورته وقبل ان يترك المريد المنزل يدس في يد التساديك « بيتكا » ــ اي ورقة مكتوب عليها قائمة باسماء اسرة المريد و « مطالبهم » ، وملحق بها « فيديون » اي فدية او نقود للتساديك (اختصار « فيديون نفش » : اي فدية او خلاص النفس) (٧١) .

وكان التساديك يعيش على معونات مريديه فهم يساعدونه ماليا من فرط حبهم له وهو يعتمد عليهم ماليا من فرط حبه لهم ، اي ان المساعده المالية تصبح وسيله للارتباط الروحي والعاطفي . ونظرا لهذا الارتباط المالي الذي لا تنفصم عراه يمكن ان تجاب دعوة التساديك نيابة عن مريديه لانهم اصبحوا جزءا واحدا (٧٢) ــ وقد قال احد الحاخامات الحسيديين ان حب المال يعد فضيلة ، ولقد غرس الله في قلوب التساديكيين الرغبة في النقود وجمع المال لانهم بهذا يرتبطون بحماية يسرائيل ككل ويرفعون الصلوات بالنيابة عنها . وكلما ازدادت النقود المدفوعة كلما ازدادت مرتبة التساديك عند الله فالتساديكيون الذين يفتحون البوابات بدعائهم ، هم مثل حراس البلاط الملكي : وكلما اقترب الحارس من الملك كلما ازداد المبلغ الذي يجب ان يدفع له (٧٣) . وكان التساديك يلبس الابيض ، وبعد تناول وجبة الطعام يبدأ في تفسير تعاليمه لمريديه ، بعد ان يترك « شيرابيم » (اي فضلات الطعام) يتخاطفها المريدون لانها مصدر بركة ، اذ كانت الوجبة التي يتناولها التساديك بمثابة الطقس الديني . وبعد هذا الطقس يقوم المريدون بالرقص والغناء ويشاركهم في ذلك التساديك ، وحينما كان يموت التساديك كان يدفن في ضريح فاخر يحج اليه المريدون (٧٤) .

وكان بعض التساديكيين يتصفون بالتقوى والزهد والتضحيه بالنفس لما كان كل تساديك يحاول ان يجسد احدى الصفات الحميدة (الانسان\الصفة) . ويقال ان تساديك قد آل على نفسه الا يقول الا الصدق مهما كان الثمن ، ومرة راود السلطات الحكومية الروسية الشك في ان يهود قرية روسية يقومون بأعمال التهريب (وهذه هي شكوى تجار موسكو التي ادت الى اصدار قوانين مايو الخاص بمنع اليهود من الحركة خارج مناطق الاستيطان) . وقد وافقت الحكومة ان تسقط الاتهام ضد اليهود ان اكد التساديك انهم ابرياء . ولم يكن امام التساديك الا ان يقول الصدق ويودي برفاقه ، او يكذب ، ولذا صلى لله انيقبضروحه قبل ان ياتي مندوب الحكومة ، وحينما اتى المندوبون وجدوه بالفعل ميتا (٧٥) . وكانت كل جماعة حسيدية تحاول ان تقتفي خطى التساديك ولذلك اصطبغت كل جماعه بصبغة فردية نابعة من شخصية زعيمها (٧٦) . ولكن لم يكن كل التساديكيين على درجة كبيرة من الزهد ، فقد تكونت اسر (مالكة) تتوارث الحكم والعرش وتعيش على جانب كبير من الثراء الفاحش (٧٧) ، مثل حفيد بعل شيم طوف الذي كان يعيش مثل النبلاء الاقطاعيين والذي كان يحتفظ بمهرج في قصره (٧٨) ، وكان يثور على اي تساديك يأتي الى مملكته ! ولكن الحسيديين فسروا هذا الفساد والثراء على انه ضروري « للوصول » .

وقد تحولت الحسيدية/التساديكية الى بيروقراطية دينية لها مصالحها الخاصة التي تهدد تلك البيروقراطية الدينية القديمة ــ الحاخاميه والحاخامات . وحتى تتدعم ركائز هذه البيروقراطية لجأ الحسيديون لتغيير الصلوات واقتباس بعض العادات السفاردية (رغم انهم اشكناز) (٧٩) كما كان لهم طريقتهم الخاصة في الانشاد ، بل انهم كثيرا ما كانوا يشيدون معابدا خاصة بهم . وقد ركزوا على أساس تحكم الحاخامات في الجماهير اليهودية اي القوانين الخاصة بالطعام ، فعدلوا طريقة الذبح واصروا على طريقة معينة لهم وسكينا خاصا (٨٠) ، اي انه اصبح من الضروري لليهودي الحسيدي ان ينصرف عن الحاخام ليلجأ الى البيروقراطية الحسيدية حتى يحصل على طعامه الشرعي الذي يذبحه الذابح الشرعي . واينما كان للحسيديين اليد الطولى كانوا ينصبون تساديك بدلا من الحاخام مما تسبب في سقوط ارستقراطية الجيتو التقليدية . وناصب الحاخامات بدورهم الحسيدية العداء ، فشنوا الحملات العنيفة عليهم ، واطلق على هذا الفريق اسم « المتنجديم » اي الخصوم . وقد اعترفت الحكومتان الروسية والبولندية بالفريقين ، وكثيرا ما كان احد الفريقين يستعدي الحكومة على الفريق الاخر (٨١) .

ولكن الحسيدية رغم انها حركة واحدة الا انها انقسمت الى فرق متعددة ، ولعل اهم سبب لهذه الانقسامات هو ان كل جماعة كانت تدور حول تساديك واحد تتشبه به وباقواله وافعاله ، وكان من مصلحة كل تساديك ان يكون له اسرته وعرشه وبلاطه . وقد اتجهت بعض الفرق اتجاها صوفيا محضا بينما اتجه بعضها مثل حركة حبد اتجاها صوفيا ذهنيا يعتمد على دراسة القبالة والتلمود ، ولذلك اسست هذه الحركة الاخيرة مدارس تلمودية (٨٢) . وقد سببت الانتماءات القومية المختلفة للحسيديين الانقسام ايضا ، ففي اثناء الحروب النابليونية وجد الحسيديون الروس انفسهم ضد الحسيديين البولنديين ، وادعى حسيديو كل فريق ان تساديكييهم قد انضموا لاحد الاطراف المتنازعة وانهم استخدموا قوتهم السحرية لتحقيق النصر (ويبدو ان القوة السحرية للفريق البولندي كانت اضعف من قوة الفريق الروسي لان نابليون قد اندحر في النهاية !) ولكن من المعروف ان احد التساديكيين كان يمول الجانب الروسي ، كما ان شنيؤر زلمان مؤسس حركة حبد الحسيدية طالب اتباعه بالتجسس لحساب روسيا (٨٣) .

وعلى الرغم من الانقسامات والخلافات بين الحسيدية واليهودية الحاخامية الا انهم قد وحدوا صفوفهم في النهاية بسبب انتشار العلمانية والاستنارة والنزعات الثورية بين اليهود ، الامر الذي هدد كل البيروقراطيات الدينية من جذورها مما جعلها تتناسى خلافاتها (٨٤) . ومما ساعد على هذا الامر ، ان القهال كان قد تداعى كاطار تنظيمي وكان لا بد وان يحل محله اطار اخر واكتشف « المتنجديم » ان الحركة الحسيدية تقدم اطارا تنظيميا جديدا يمكنه ان يحل محل القهال ، ولذا انتشرت الحسيدية لا جغرافيا وحسب ، وانما عبر حدود الطبقات (٨٥) . وبذلك اصبحت الحسيدية أول حركة ماشيحانية تعرفها اليهودية وتقبل من جانب الحاخامات بل وتستوعب استيعابا كاملا في اليهودية ، وانضمت الجماهير الحسيدية لليهودية الارثوذكسية وجماعة اجودات اسرائيل (٨٦) . وقد اتت النازيه على المراكز الرئيسية للحسيدية في شرق اوروبا (٨٧) ، ويظل هناك مركزان اساسيان للحسيدية ، واحد في الولايات المتحدة واخر في اسرائيل (٨٨) . وقد اتسم موقف بعض الحسيديين في بداية الامر بمعارضة الدولة الصهيونية لما تصوره باطلا بالاتجاهات العلمانية في الحركة الصهيونية ، كما انهم اعتبروا ان العودة الماشيحانية دون ماشيح هي هرطقة دينية وهم في هذا يتبعون اجودات اسرائيل (٨٩) ، ولكن بعد تكثيف النشاط الصهيوني تغير موقف الحسيديين اذ بدأوا يتجاوبون معه بل ان متحدثا باسم الحسيديين رفض قرار تقسيم فلسطين في احدى مؤتمرات اجودات اسرائيل حتى يتسنى اقامه دوله يهوديه خالصة في كل ارتس يسرائيل ، ولكن بعد انشاء الدولة

ساند الحسيديون النشاط الصهيوني ، كما استقر العديد منهم في اسرائيل ، وهم الان من غلاة المتشددين في المطالبة بالحفاظ على الحدود الامنة والحدود المقدسة والحدود التاريخية . فالحاخام الحسيدي اهارون روكياح (١٨٨٦ — ١٩٥٧) استقر في تل ابيب وكان المريدون يحجون لزيارته هناك .وفي اثناء عدوان ٥٦ جلس يصلي بشكل متواصل وحيدا في حجرته يطلب النصر من الخالق بالنيابة عن جيش اسرائيل الذي يحارب ضده سبعة جيوش (!) ولم يخرج من حجرته الا ليقول : « يا ابنائي لقد كسبنا الحرب بمعونة الخالق » (٩٠) . ويمتلك احد التساديكيين الان منزلا في تل ابيب ، وان كان بطبيعة الحال لا يزال عرشه في بروكلين في نيويورك وسط اتباعه الامريكيين الذين يقومون بالتمويل . ويتبع الحركة الحسيدية مجموعة من المدارس التلمودية المعاهد التربوية بل وبعض المستوطنات التعاونية . كما انها تملك احد البنوك في اسرائيل (يبلغ راسماله مليون ليرة اسرائيلية) ، ويبلغ عدد الحسيديين في العالم ٢٠٠ الف (٩١) ، ويمكن التعرف عليهم بسهولة فهم يصففون شعرهم بطريقة طريفة فيطلقون شعر الفودين والقفا ويضفرونه ، كما انهم يرتدون قبعة عالية سوداء .

وقد اثرت الحسيدية في الوجدان اليهودي المعاصر تأثيرا قويا ، ومما لا شك فيه ان فرويد الذي كان يعرف اسرار القبالة والذي كان عليما بالحركة الحسيدية قد تدعم اهتمامه بالجنس بالعلاقة بين الذات والكون نتيجة لاهتماماته الحسيدية/القبالية ، ويقال ان ادب كافكا (الذي كان عضوا في احد المؤتمرات الصهيونية) متأثر بالحسيدية ايضا (٩٢) . والفرق بين العبثية والتصوف هو شعرة دقيقة ، فالعبثية مثل التصوف تنكر الاتجاه والغاية ، وابطال كافكا الذين يدورون في حلقات ولا يدركون اي هدف للحياة لا يختلفون كثيرا عن المريدين من الحسيديين الذين يتبعون التساديك في كل شيء . وقد تأثر كذلك عجنون والكاتبة نيللي ساكس (اللذان تقاسما جائزة نوبل (٩٣)) بهذا التراث الحسيدي. وقد اثرت الحسيديه كذلك في المفكر الصهيوني بيرديشفسكي ، كوني النزعة، وله كتاب عن الموضوع . كما ان تأثيرها واضح تماما على اعمال مارتن بوبر وفلسفته التي ترتكز اساسا الى الفكر الحسيدي وخاصة الايمان الحسيدي بالعلاقة التبادلية بين الخالق والمخلوق ، فالإله يحل في كل شيء ويمتزج بمخلوقاته ، ولذا فهو يؤثر في مخلوقاته ولكن مخلوقاته بدورها تؤثر فيه ، ولذا يكتسب كل فعل مهما تدني دلالة كونيه . وقد وصفت فلسفة بوبر بأنها « حسيديه جديدة » (٩٥) ، ولبوبر كتاب عن الحسيديه . والدارس لسير المفكرين والزعماء الصهاينة يلاحظ ان عددا كبيرا منهم اما نشأ في بيئة حسيدية او تعرض للافكار الحسيدية وتأثر بها بشكل واع او غير واع ، بل يمكننا القول بان الصهيونية هي ضرب من ضروب « الحسيدية اللادينية » ان صح التعبير . وعلى الرغم من ان هذا الموضوع لم يدرس بعد بما فيه الكفاية ، فاننا سنحاول ان نوجز التشابه البنيوي بين الحسيدية والصهيونية واثر الطريقة الصوفية على الحركة السياسية في النقاط التالية :

١) الجماهير التي اتبعت الصهيونية ، كانت في وضع طبقي مشابه لوضع الجماهير الحسيدية ، فقد كانت جماهير بورجوازية صغيرة تابعة للراسمالية الام ، غير قادرة على التطور للامام مع الحركة الغربية العلمانية وغير قادرة على التقهقر الى داخل الجيتو ، وهي جماهير خرجت من الجيتو رغم انفها تحت ضغط التطور الراسمالي في المجتمع وهو تطور لم تساهم فيه هي بقسط كبير ولم تكن مدركة لابعاده ، وحتى حينما اسهمت فيه فقد ظلت واقفة على اطرافه وهامشه . ولذلك نجد ان التطور الراسمالي حررها من الاشكال الاقطاعية ثم اكتسحها في طريقه قبل ان تتأقلم مع الاوضاع الجديدة . وقد دخل صفوف الحركة الصهيونية بعض المهنيين بل وكبار التجار الذين سعرت حركة الانعتاق من رغباتهم وتطلعاتهم ثم تركتهم دون انجاز او تحقيق لمطامعهم ، اي ان هذه

القطاعات الاخيرة الاجتماعية رغم اختلافها من ناحية المضمون الاقتصادي عن الجماهير البورجوازية الصغيرة الا انها في علاقتها بالمجتمع ككل لم تكن تختلف عنها كثيرا . ولذلك نجد ان الجماهير الصهيونية مثل الجماهير الحسيدية كانت « تحب صهيون » حيث كانت تظن ان بامكانها الاستقلال باقتصادها وحيث يمكنها ان تنتعش ، ولكنه لم يمكنها ان تفعل ذلك في نهاية الامر ، لانها كانت شريحة اجتماعية واحدة لا تمتلك مقومات انشاء امة متكاملة ، ولذلك لم يمكنها ان تحقق اي نجاح يذكر الا بالاعتماد على الامبريالية العالمية — اي انها ظلت بورجوازية صغيرة تابعة عميلة !

٢) ساهمت الحسيدية ولا شك في اشاعة جو غيبي صوفي اضعف من انتماء يهود شرق اوروبا الحضاري والنفسي لبلادهم ، مما جعلهم مرتعا خصبا للايديولوجية الصهيونية . فقد صعدت الحسيدية من حب اليهود لارتس يسرائيل ومن كره الاغيار ، وزادت من حدة النزعة القومية (٩٦) في الفكر اليهودي (وهي جرعه تزداد دائما بازدياد النزعة الحلوليه الوثنية)، ولذا نجد الحديث عن مركزية ارتس يسرائيل يزداد عن ذي قبل ومن الملاحظ ان الحسيدية والصهيونية تشتركان في الايمان باله حلولي يوجد في كل الاشياء اليهودية ويمنحها القداسة ، فاله الحسيديين الذي يوجد في الخير والشر وفي الحيوانات والارض والذي يذهب الى المنفى مع اليهود لا يختلف كثيرا عن اله الصهاينة المتجسد في الدولة الصهيونية وفي الارض المقدسة (وقد اشار ديان مرة للارض الفلسطينية قائلا انه لا يعرف ربا سواها) .

٣) ترجمت هذه النزعة القومية الدينية الحسيدية نفسها الى حركة هجرة ، ويمكننا ان نرى الهجرة الحسيدية على انها فاتحة وتمهيد للهجرة الصهيونية ، وعلى الرغم من ان الحسيدية ببنائها الجامد النخبوي قد عاقت الهجرة الى حد ما ، فهي كانت حركة تتسم بالسلبية والسكونية (اذ كان ينصب اهتمامها على الايمان والنوايا ولا تهتم كثيرا بالبرنامج العملي ومشاكل الاستيطان) . كما ان مفهوم التساديك كان يعوق الهجرة ، لان الجماعة كانت مرتبطة به ارتباطا عضويا ، لا يمكن للجماعة ان توجد بدونه ، على الرغم من كل هذا الا ان الحسيدية مهدت للهجرة الصهيونية على النحو التالي :

أ) كان اليهودي لا يذهب الى ارض الميعاد الا لغرض الحج ، اما النمط الذي كان يستوطن فكان العالم التلمودي المتفقه خاصة ، وقد احلت الحسيدية هذا النمط بنمط جديد وهو اليهودي العادي الفقير القادر على الدعاء والصلاة والذي تدفعه حاجته المادية للاستيطان .

ب) كانت الهجرة الحسيدية هجرة فردية في البداية ولكنها تحولت بمرور الوقت الى هجرات جماعية (كما هو الحال في هجرة عام ١٧٧٧ (٩٧)) وكانت هذه الجماعات المهاجرة تقابل بالترحاب من الطوائف اليهودية .

جـ) ابقت الجماعات المستوطنة الحسيدية على علاقتها بيهود الدياسبورا ، بل وبدات نظام الجباية الذي تطور فيما بعد الى نظام الجباية اليهودية الموحدة .

٤) الصهيونية في نهاية الامر مثل الحسيدية حركة ماشيحانية هروبية من واقع تاريخي مركب الى حالة من النشوة الصوفية او الى اوهام ايديولوجية (بالمعنى السلبي للكلمة) عن ارض الميعاد التي تنتظر اليهود . فقد استفادت الصهيونية بالمفاهيم الحسيدية الماشيحانية في احلالها فكرة العصر الماشيحاني او الماشيحانية دون ماشيح محل المفهوم الارثوذكسي للعودة الشخصية للماشيح ، كما ان الفكرة الحسيدية الخاصة بان العصر الماشيحاني لن يأتي الا بالتدريج ومن خلال فعل اليهود انفسهم هو الاساس الفلسفي الديني الذي تستند اليه الصهيونية التي لا تنتظر عودة الماشيح وانما تعود بنفسها

لتستوطن فلسطين بالعنف ، وكلما ازدادت حركة الامة المقدسة فاعلية كلما ازدادت فرصة عودة الماشيح . والصهيونية تشبه الحسيدية في انها حركة ماشيحانية تغلغلت بين كل طبقات اليهود ، وحصلت على موافقة الحاخامات وتأييدهم .

٥) تدور الحسيدية والصهيونية حول فكرة البقية الصالحة اليهودية فتتحول الى فكرة « التساديك » في الحسيدية والى فكرة « النخبة » الصهيونية الرائدة ، والتساديكيون والرواد يتصورون انهم همٖ وحدهم اصحاب الرؤية الحقة الصائبة . وقد كان بوبر المفكر النيتشوي الصهيوني يرى جماعات الحسيديين التي تلتف حول التساديك هي الجماعة الانسانية المثلى ، كما كان يرى ان الحسيدية لم تنجح في ان تلعب دورا اعمق في اليهودية بسبب عدم وجود ارض خاصة بها تطورها في حرية . ويعتقد بوبر انه لا يمكن بعث اليهودية دون الحماس الحسيدي ، وهو يرى ان الحالوتسيم الصهاينة قد بعثوا هذا الحماس، كما انه يرى ان الحركة التعاونية الصهيونية وثيقة الصلة بالحماس الحسيدي، وما مزارع الكيبوتس الا جماعات صغيرة تسكن فيها « الشخيناه » ! ان الحسيدي والحالوتسي يشتركان في طموحهما لتشييد مملكه الرب في الارض (٦٨) .

٦) تأثر الحسيديون والصهاينة بالادب القبالي (شأنهم في هذا شأن معظم المثقفين اليهود في اواخر القرن الثامن عشر في اوروبا) . ولذلك نجدهم يصطدمون باليهودية الحاخامية ويحاولون تطوير ضرب من الديانة الشعبية او الفولكلور الديني — ان صح التعبير — الذي يدغدغ الشعور بدلا من التجربة الدينية التقليدية في تمييزها بين الخير والشر وبين الروح والجسد .

٧) تؤمن الحسيدية بالخلاص في هذا العالم وتحويل التجربة الدينية الى تجربة شاملة تنتظم كل اشكال الحياة بخيرها وشرها . واسرائيل بالنسبة للصهاينة هي ايضا التجربة الدينية بعد تحويلها الى تجربة شاملة تنتظم كل جوانب الحياة « القومية » بخيرها الافتراضي (في مزارع الكيبوتس) وشرها الحتمي (في جيش اسرائيل) . بل اننا يمكن ان ننظر لفكرة العمل العبري الصهيونية على انها ضرب من «العفوداه بجاشميوت» او الخلاص بالجسد ، حيث يذهب اليهودي « الطفيلي » ليعمل في ارض الميعاد (او ليحارب فيها) ، وعن طريق العمل اليدوي (والغزو والسلب) يخلص نفسه من كل ما علق بها من ادران في المنفى . وقد قال بيجين « انا احارب اذن انا موجود » اي ان اكتساب الهوية الجديدة « الخيرة » لا يمكن ان يتم الا عن طريق الغوص في الشر .

٨) تؤكد كل من الحسيدية والصهيونية الجوانب اللاعقلية وغير الواعية في الانسان مما يجعلهما تهومان في المطلقات اللاتاريخية .

٩) وقفت الحسيدية والصهيونية ضد حركة الاستنارة اليهودية التي كانت تحاول حل المسألة اليهودية في شرق اوروبا بطريقة عقلانية تتفق مع الظروف التاريخية وطرحا بدلا من ذلك حلولهما الصوفيــــة .

ويمكننا القول ان الحسيدية ولا شك ساهمت في اعداد بعض قطاعات جماهير شرق اوروبا لتقبل افكار الصهيونية الغيبية وذلك بعزلها عن الحضارات التي كانت تعيش فيها، وعن الحركات الفكرية التقدمية المختلفة ، وعن طريق اشاعة افكار صوفية حلولية شبه وثنية لا تتطلب اعمال العقل او الفهم او الممارسة الخلاقة وانما تتطلب الحركة العمياء المنتشية التي تشبه من بعض الوجوه حركة الجيش الاسرائيلي في ربع القرن الماضي .

المنهج ومصـــادر البحث

لعل الحصول على معلومات للكتابة عن ظاهرة يهودية صهيونية هو من أشق الامور على الباحث ، فمعظم الدراسات عن التراث اليهودي والصهيونية كتبها يهود او صهاينة او علماء متعاطفون مع الصهيونية . وقد واجهت هذه الصعوبة حينما كنت اكتب مقالي عن ماساداه الذي نشر في مجلة **قضايا عربية** ، وقد سميت هذا المقال السابق « توثيق مضاد » ، بمعنى انني اكتفيت من التوثيق بتفنيد الادعاءات الصهيونية ، دون محاولة طرح رؤية لحقيقة ماساداه (لان الامر لا يهمني كثيرا كعربي) . وكنت على وشك ان اتبع نفس المنهج في هذه الدراسة الا انني لاحظت ان الحسيدية ليست اسطورة تستخدم في البرامج الصهيونية وحسب وانما هي رافد غيبي هام يصب في الصهيونية ، ويستمد منها الصهاينة كثيرا من اخيلتهم ورؤاهم وافكارهم بل ومصطلحهم ولذلك غيرت استراتيجية المنهج ، وقررت ان أقوم بعرض ظروف نشأة الحركة الحسيدية وبنية افكارهـــا وعلاقتها بالصهيونية ، حاشدا اكبر قدر ممكن من المعلومات التي حصلت عليها من المراجع (وكل المراجع التي استخدمتها هي مراجع صهيونية وليست يهودية وحسب) ولذلك استقيت من هذه المراجع المعلومات والحقائق وحسب ، واما التقييم النقدي لهذه المعلومات او الربط بينها من جهة وبين الحركة الصهيونية من جهـــة اخرى ، فالمراجع الصهيونية لا تساعد الباحث فيه بتاتا، اذ انها تأخذ موقف المدافع او المعتذر عن كل الظواهر اليهودية . وتزيد درجة الاعتذار والدفاع حينما تأتي للحسيدية لانها مصدر مباشر للصهيونية ولانها حركة مغرقة في الغيبية ، وقد اعتمدت في هذا البحث على المراجع التالية مرتبة حسب اهميتهـــا :

* Cecil Roth (ed.) *Encyclopedia Judaica* (Jerusalem: Keter House, 1972), Vol. 7.

(خاصة مفهومي العالياه والبريداه) وسنشير لها في الحواشي بـــ **الموسوعة اليهودية**

* Cecil Roth (ed.), The Standard Jewish Encyclopedia (London W.H. Allen, 1966).

(خاصة مفهوم التساديك) سنشير لها **بالموسوعة اليهودية المعتمدة**

* R. Patai, *Encyclopedia of Zionism and Israel* (New York: Herzl Press and McGraw Hill, 1971), Vol. 1.

(الحسيديه واسرائيل) سنشير لها **بموسوعة الصهيونية واسرائيل**

* واهم الكتب على الاطلاق واكثرها جدة كتاب

* Raphael Mahler, *A History of Modern Jewry 1178-1815* (London: Walentine & Mitchell, 1971).

(وقد سبر الكتاب الجانب الاجتماعي الطبقي للحركة ــ وهو شيء تغفله المراجع الاخرى تماما ، كما انه يتحدث عن الهجرة الحسيدية ، دون ان يربطها بالهجرة الصهيونية ، وهذا الكتاب من الكتب العلمية النادرة التي تعالج هذا الموضوع ورغم دفاعه الحار عن الحسيدية الا انه يضعها في سياق تاريخي وامـــام خلفيـــة اجتماعية) وسنشير لـــه « بماهلر » .

* Gershom G. Scholem, *Major Trends in Jewish Mysticism* (New York: Schocken Books, 1961).

(هذا كتاب يعرض افكار الحركة ــ مركزا على العلاقة بين العنصر الكوني والعنصر الذاتي ، كما يربط بين الحركة الحسيدية والحركات المشيحانية الاخرى ، ولكنه يكتفي بالعرض والتلخيص الفلسفي الذكي) سنشير لــه « بشوليـــم » .

* David Rudavsky, *Modern Jewish Religious Movements: A History of Emancipation and Adjustments* (New York: Behrman and House, 1961).

(كتاب مدرسي للغاية ، وهو الكتاب الوحيد الذي يشير بشكل عابر لعلاقة الحسيدية بالصهيونية في مجال اشارته لبوبر) سنشير له « برودافسكي » .

* Solomon Schechter: *Studies on Judaism: Essays on Persons, Concepts and Movements of Thought in Jewish Tradition* (New York: Acheneum, 1970).

(في الكتاب مقال عام عن الحسيدية ليس فيه جديد) سنشير لـــه « بشختر » .

* H. Rabinowicz, *The World of Hassidism* (London: Wallentine and Mitchell, 1970).

(كتاب سطحي للغاية استقينا منه بعض المعلومات عن الخلفية الاجتماعية وتاريخ الحسيدية واثرها على الكتاب اليهود) . سنشير له برابينوفتش .

الحواشي :

١)	الموسوعة اليهودية	١٣٩٤
٢)	ماهلر	٤٣٥
٣)	ن.م (نفس المرجع)	٤٣٦
٤)	ن.م	
٥)	ن.م	
٦)	ن.م	٤٣٢
٧)	ن.م	
٨)	ن.م	٤٤٦
٩)	ن.م	٤٤٧
١٠)	ن.م	
١١)	ن.م	٣٤٢
١٢)	ن.م	٤١٧
١٣)	الموسوعة اليهودية :	١٣٩٧
١٤)	رابينونتش	٢٨
١٥)	ماهلر	٣٣٦
١٦)	رابينوفيتش	٢٨
١٧)	ن.ف	٢٧
١٨)	ن.ف	٢٩
١٩)	شختر	٣٢٧
٢٠)	رودانسكي	١٢٠
٢١)	ن.ف	١١٧
٢٢)	ن.ف	٥٣١١
٢٤)	ن.ف	٤٤٧
٢٣)	ماهلر	٥٢١
٢٥)	ن.ف	٤٤٩
٢٦)	ن.ف	٤٩٢
٢٧)	ن.ف	٤٤٧
٢٨)	ن.ف	٤٤٨
٢٩)	الموسوعة اليهودية	١٤٠٣
٣٠)	ن.ف	
٣١)	ن.ف	
٣٢)	ن.ف	١٤٠٤
٣٣)	ماهلر	٣٣٨
٣٥)	شوليم	٤٣١
٣٦)	ماهلر	٤٣٤ــ٤٣٥
٣٧)	شختر	١٧٤
٣٨)	ن.ف	١٧٥
٣٩)	الموسوعة اليهودية	١٤١٢
٤٠)	ن.ف	١٤٠٤
٤١)	ماهلر	٤٤٤
٤٢)	الموسوعة اليهودية	١٤٠٤
٤٣)	الموسوعة اليهودية المعتمدة	٨٥١
٤٤)	الموسوعة اليهودية	١٤٠٩
٤٥)	ن.ف	١٤٠٥
٤٦)	ن.ف	
٤٧)	ن.ف	١٤١٠
٤٨)	ماهلر	٤٤٥
٤٩)	ن.ف	
٥٠)	ن.ف	٤٦١
٥١)	ن.ف	
٥٢)	الموسوعة اليهودية	١٤٠٨
٥٣)	ن.ف	١٤١٠
٥٤)	ن.ف	١٤٠٨
٥٥)	ماهلر	٤٧٦
٥٦)	شختر	١٧٢
٥٧)	ماهلر	٤٣٣
٥٨)	ن.ف	
٥٩)	ماهلر	٥٢٨
٦٠)	ماهلر	٤٥١
٦١)	ن.ف	٤٦٥
٦٢)	ن.ف	٤٥٢
٦٣)	ن.ف	٤٩٨
٦٤)	الموسوعة اليهودية :	١٤٠٠
٦٥)	ن.ف	١٤٠١
٦٦)	شختر	١٨١
٦٧)	ماهلر	٤٧٢
٦٨)	الموسوعة اليهودية	١٤٠٦
٦٩)	ن.ف	
٧٠)	شوليم	٣٤٤
٧١)	الموسوعة اليهودية	١٤٠٠
٧٢)	ن.ف	١٤٠٦
٧٣)	ماهلر	٥٠٤
٧٤)	الموسوعة اليهودية المعتمدة	٥٨١ــ٥٨٢
٧٥)	شختر	١٨٦
٧٦)	شوليم	٣٤٤
٧٧)	الموسوعة اليهودية المعتمدة	٨٥١
٧٨)	ماهلر	٥٠٥
٧٩)	الموسوعة اليهودية	١٤٠١
٨٠)	ن.ف	١٤٠١
٨١)	ن.ف	١٣٩٦
٨٢)	ن.ف	١٠١٤
٨٣)	ن.ف	١٣٩٦ــ١٣٩٧
٨٤)	ن. ف	١٣٩٦
٨٥)	ماهلر	٤٥٢
٨٦)	رابينونتش	٢٢١
٨٧)	الموسوعة اليهودية المعتمدة	٨٥٠

٨٨) رابينوفيتش ٢٢٨
٨٩) ن.ف ٢٢١
٩٠) ن.ف ٢٢٥—٢٢٦
٩١) **الموسوعة الصهيونية واسرائيل** ٤٦٦
٩٢) رابينوفيتش ٢٣٩
٩٣) ن.ف
٩٤) **الموسوعة اليهودية** ١٤١٩
٩٥) **الموسوعة اليهودية المعتمدة** ٨٥٢
٩٦) ماهلر ٤٤٢
٩٧) ن.ف ٤٨٠
٩٨) رودانسكي ١٤٢—١٤٣

الرأسمال الصهيوني في الاقتصاد الأمريكي

سليم نصر

سوف نحاول في هذا المقال ان نعطي فكرة سريعة عن مكانة الرأسمال الصهيوني والمجموعات « المالية — الصناعية » الصهيونية في الاقتصاد الامريكي وعن الدور الذي يلعبه في تمويل الاقتصاد الاسرائيلي وجعله القاعدة الاساسية لغزوها اسواق العالم الثالث .

من ناحية اخرى نود ان نشير من الان الى ان الابحاث التي قمنا بها قد ادت بنا الى رفض المقولتين التاليين : ان الرأسمال الصهيوني يهيمن على الاقتصاد الامريكي ويسيطر على قطاعاته الاساسية، وان الرأسمال الصهيوني يلعب دورا هامشيا ولا يشكل قطبا ذا اهمية بالمقارنة مع المجموعات البروستنتية الانغلوسكسونية .

الحقيقة ان اهم كتلة اقتصادية صهيونية متبلورة ككتلة تأتي في المرتبة الثالثة بين الكتل الاقتصادية في الولايات المتحدة بعد كتلة مورجان وكتلة روكفلر وقبل كتلة ميللو وغيرها من الكتل المهيمنة على الاقتصاد الامريكي .

تتشكل الكتلة القائدة والمحورية للرأسمال الصهيوني في امريكا من مجموعة من بنوك الاستثمار العاملة في « وول ستريت » وحول اهمية « وول ستريت » كتب المعلق الاقتصادي ت.أ. وايز يقول: « ان القلب المالي الناخب للرأسمالية في العالم الحر يتكون من لا اكثر من ٦٠ شركة او مؤسسة مالية (في وول ستريت) والتي يملكها او يسيطر عليها حوالي ١٫٠٠٠ رجل اعمال . تقوم هذه البيوتات المالية ، بالتعاون مع بعض البيوتات البريطانية والاوروبية بتأمين ٧٥٪ من الاربعين مليار دولار من الرأسمال الجاري الذي تحتاجه الدول الصناعية (الرأسمالية) سنويا لتأمين نموها على المدى الطويل » .

من اصل الستين مؤسسة مالية التي يذكرها وايز ، تقوم ٩ مؤسسات بثلاثة ارباع العمليات .

وتنقسم المجموعات التسع الى قطبين . ١ — القطب « الينكي » المرتبط بمجموعتي مورجان — روكفلر ويتألف من البيوتات المالية : —

Morgan, Stanley, First Boston, Kidder, Peabody, Paine, Webber, Jackson and Curtis.

٢ — قطب البرجوازية الكبرى اليهودية النيويوركية ويتألف من البيوتات التالية :

Goldman, Sachs, Lehman Brothers, Lazard Frères, Carl M. Leeb Rhaades, Kuhn, Loeb.

ويتزعم البيوتات الصهيونية .. ـة من كبار رجال الاعمال يشكلون نوعا من مجلس ادارة للكتلة الرأسماليه الصهيونية في امريكا وهؤلاء هم :

Frederick L. Ehrman (Lehman Brothers), Benjamin Buttenweiser (Kuhn, Loeb), Andre Meyer (Lazard Frères), John, M. Loeb (Carl M. Loeb, Rhaades), Sidney Weiuberg (Goldman, Sachs).

من اجل تقييم مكانة الرأسمال الصهيوني ضمن الرأسمال الاحتكاري الامريكي سوف نتناول على التوالي :

أ — مجموعة الشركات التابعة مباشرة وغير مباشرة لكتلة « وول ستريت » المالية الصهيونية .

ب — الكتل الرأسمالية غير الصهيونية المتحالفة مع كتلة « وول ستريت » (كتلة رجال النفط في تكساس — كتلة ديللون ، ريو النيويوركية) .

ج — مجموعة الشركات التي يسيطر عليها صهيونيون مستقلون .

د — مجموعة الشركات التابعة لكتلة «بفرلي هلز» Beverly Hills الصهيونية في كاليفورنيا .

ا ــ كتلة « وول ستريت » الصهيونية :

سألف مجموعة الشركات التابعة لكتلة « وول ستريت » من ١٨ شركة نسيطر عليهــا مباشرة البيونات المالية الصهيونية و ٨ شركات تسيطـــر عليها عبر بنك : «Manufacturers Hanover Trust»

وتسيطر الكتلة الصهيونية في « وول ستريت » على ١٨ شركة امريكيه كبيرة منها ٦ شركات مجارية و ١٠ شركات صناعيه وشركتي طيران ، وفيما يلي قائمة تلك الشركات موزعه على القطاعات المختلفة مـــع حجم مبيعاتها وارباحها الصافية لعـــــام ١٩٧٢ (بملايين الدولارات) : ــ

اسم الشركـــة	المبيعات الاجمالية	الارباح الصافية
Sears, Roebuck	١٠،٩٩١	٦٢١
Federated Department Storé	٢،٦٦٩	١٠٨
Allied Stores	١،٤٩٥	٢٨
May Department Stores	١،٤٧٧	٤٧
McCrory	١،٣٢٦	١٧
Gimbel Brothers	٨١٢	١٤
	١٨،٦٧٠	٨٣٥
قطاع الصناعات الكهربائية والالكترونية وسلـــع الطائرات : ــ		
R. C. A.	٣،٨٣٨	١٥٨
Sperry Raud	١،٨٢٣	٦٠
Wlirl pool	١،٤١٦	٦٨
General Dynamics	١،٥٣٩	٢٤
	٨،٦١٦	٣١٠
قطاع المنتجات الغذائية وغلافاتها : ــ		
	المبيعات الاجمالية	**الارباح الصافية**
General Foods	٢،٤٢٣	٦٦
Continental Can	٢،١٩٢	٣٩
	٤،٦١٥	١٠٥
قطاع الصناعة المعدنية : ــ		
American Metaldimax	٨٦٣	٦٦
Studebaker	٨٧٩	٣١
	١،٧٤٢	٩٩
صناعات مختلفـــة : ــ		
Owens Illinois Glass	١،٦٣٦	٦٩
Clvett Peabody	٥٤٧	١٣
	٢،١٨٣	٨٢
شركات طيران : ــ		
Pan American	١،٣٠٥	٢٨
Continental Airlines	٣٦٥	٩
	١،٦٧٠	٣٧

ويكون ملخص التوزيع القطاعي للشركات التـــي سيطر عليها مجموعة « وول ستريت » الصهيونية على النحو التالي : ــ

	المبيعات الاجمالية	الارباح الصافية
الصناعات الكهربائية والالكترونية	٨،٦١٦	٣١٠
الصناعات الغذائية	٤،٦١٥	١٠٥
الصناعات المعدنية	١،٧٤٢	٩٩
صناعات مختلفة	٢،١٨٣	٨٢
** مجموع القطاع الصناعي	١٧،١٥٦	٥٩٦
مجموع القطاع التجاري	١٨،٦٧٠	٨٣٥
مجموع قطاع النقل الجوي	١،٦٧٠	٣٧
المجمـــوع العـــام	٣٧،٤٩٦	١،٤٦٨

نلاحظ منذ الان ان التوزيع القطاعي يشير بوضوح الى الاهمية الخاصة التي تحتلها الشركات التجارية ضمن مجموعة الشركات التابعة لكتله «وول ستريت» خلافا للكتل الاقتصاديه الاخرى تمثل مبيعـــات الشركات التجارية حوالي نصف مبيعات واكثر من ثلثي ارباح مجموع الشركات المعنية . من ناحيـــة اخرى تمثل مبيعات الشركات التجارية التابعـــة للكتلة ١٨٫٩٪ من مبيعات اكبر ٥٠ شركة تجارية في امريكا و ٢١،٨٪ من ارباح تلك الشركات ، بينما تمثل مبيعات وارباح الشركات الصناعية التابعـــه للكتلة ٦ الى ٧٪ من مبيعات وارباح اكبر ٥٠ شركه صناعية في امريكا .

تتركز نشاط الشركات التابعة لكتلــه « وول ستريت » اساسا في المجال التجاري ومن ثم في الصناعات الحقيقة (العداء) او الجريدة والصاعدة المعتمدة على العلـــم الحديث (الكهربــــاء ــ الالكترونيات) وليس لها اثر يذكر في المجـــالات التقليدية للصناعة الامريكية والتي لا تزال الى حد كبير مسيطرة وهي الحديد والصلب ، النفـــط ، الكيمياء ، الالات والمكينات .

يجب ان نضيف ان الشركات التي ذكرناها على انها تابعة لكتلة « وول ستريت » ليست ملكا للبنوك التي تتألف منها الكتلة وما تملكه تلك البنوك سوى نسبة ضئيلة من اسـهمها لكن هذه النسبة هي اكبر نسبة من الاسـهم تملكها كتلة بمفردها مما يسمح لها بالهيمنه الفعلية على الشركة حتى ولو كانت كتل اخرى تملك كميات من الاسـهم . وفي بعض الاحـــوال تشارك كتلة « وول ستريت » مع مؤسسي الشركة او مع احد كبار المساهمين في السيطرة الفعلية على الشركة المعنية ، تلك هي الحال بالنسبة لشركـــة جنرال داينامكس والرأسمالي الصهيوني هنـــري كراون ورئيس مجلس ادارتها ، وشركة سيرز روبك (اكبر شركة تجارية في العالم) وعائلة ستيرن الصهيونية وشركة فدرالد ديارتمنت ستورز وعائلـــة لارازوس الصهيونيه وشركة ر.س.أ والرأسـمالي روبرت سارنوف رئيس مجلس ادارتها ، وشركـــة اميركان ماتال كلايمكس وعائلة هولشايلد وشركـــة اونس ايلينوي غلاس وعائلة ليفس .

مجموعة «Manufacturers Hanover Trust»

في عام ١٩٦١ تم دمج اثنين من كبار بنوك «نيويورك» التجاريه وهما : **Manufacturers Trust** و **Hanover Bank** تحت اسم **Manufacturers Hanover**

وفي عام ١٩٧٢ اصبحت تلك المؤسسة البنك الخامس في الولايات المتحدة من حيث موجوداته التي بلغت ١٦ مليار دولار !

وقد رأس اول مجلس ادارة للبنك الجديد شارلز ستوارت الذى كان يعمل مديرا في مؤسســـــة **«Lazard Frères»** والـــذي اعتبـــر المندوب السامي لكتلة « وول ستريت » الصهيونيـــة . ويتحمل جبرائيل هانج حاليا نفس المنصب . ويدخل ضمن عداد اعضاء مجلس الادارة روبرت سارنوف احد الحلفاء الاساسيين لمجموعة « وول ستريت » الصهيونية . ويعتبر المحللـــون الاقتصاديون ان **ManufacturersHanover Trust** والشركـــات الدائرة في فلكها تقع بدورها في دائرة نفوذ وسيطرة البيوتات المالية الصهيونية الخمس بالتعاون مـــع بيت غير صهيوني حليف هو **«Dillon, Read»** لذلك سوف نستعرض تلك المجموعة مـــن الشركـــات ونعتبرها تابعة ، بشكل غير مباشر ، لكتلـــــة « وول ستريت الصهيونية » .

مجموعة الشركات التابعة لبنك Manufacturers Hanover Trust

	المبيعات الاجمالية (عـــام ١٩٧٢)	الارباح الصافية (عـــام ١٩٧٢)
الصناعات الخفيفة : سلع منزلية ، صابون ، منتجات غذائية ، ادوية		
Colgate — Palmolive	١،٨٠٧	٧٦
American Home Products	١،٥٨٧	١٧٥
Dana Corporation	٨٢٢	٤٥
	٥،٢١٦	٢٨٧
الصناعة المعدنية غير الحديدية : —		
Reynolds Metal	١،١٦٢	٢
Phelc — Dodge	٧٦٥	٨٢
	١،٩٢٧	٨٤
الصناعات الكيميائية : —		
Union Carbide	٣،٢١٦	٢٠٥
صناعات معدنية تمويلية : —		
Chrysler	٩،٧٥٩	٢٢٠
Babcox and Wilcox	٩٥٥	٢٥
	١٠،٧١٤	٢٤٥
صناعات مختلفة :		
Kraft Cocorp	٣،١٩٦	٨٨

ويكون ملخص التوزيع القطاعي للشركات التـي يسيطر عليها بنك : — «Manufacturers Hanover Trust على النحو التالي : —

	المبيعات الاجمالية	الارباح الصافية
صناعات معدنية تمويلية	١٠ر٧١٤	٢٤٥
صناعات خفيفة كيمائية	٥،٢١٦	٢٨٧
صناعات كيمائية اولية	٣،٢١٦	٢٠٥
صناعات معدنية غير حديدية	١،٩٢٧	٨٤
صناعات مخلطة	٣،١٩٦	٨٨
* *		
المجموع العـــام	٢٤،٢٥٩	٩٠٩٠

تتميز تلك المجموعة بالثقل الذي تحتله ثـلاث شركات صناعية كبرى : شركة Chrysler وهـي ثالث شركة لصناعة السيارات في الولايات المتحـدة وخامس شركة صناعية بشكل عام . شركـــة Union Carbide وهي ثاني اكبر شركــة كيمائية في امريكا و Reynolds Metal وهي ثاني اكبر شركة امريكية في صناعة الالمنيوم ، كما تتميز المجموعة بالثقل الذي تحتله الصناعات الكيمائية

الاولية والمركبة الخفيفة اذ تمثل اكثر من ثلث مجمل المبيعـات .
يجـــدر اخيرا الاشارة الـى ان مجموعـــة «Manufacturers» تملك بالطبع قطاعا ماليا لا بأس بحجمه وبامكانياته ويتألف من المؤسستين الماليتين :

	الموجودات	الارباح الصافية
Manufacturers Hanover Trust	١٦٠٣٢٦	٧٦
Continental Corp.	٤٠٤٣٢	١٢٦
	٢٠٠٧٥٨	٢٠٢

يحل بنك «Manufacturers» المرتبـــة الخامسة بين البنوك التجارية الكبرى في امريكا ، امــا «Continental» فيحتل المرتبة السادسة بين المؤسســات المالية العامة (التي تتعاطى بعـض انواع الرهونات والتسليفات والتأمينات) . وبالطبع تقدم المؤسسـات جميع انواع الخدمات والارشادات المالية للشركات الصناعية التابعة لكل « وول ستريت » ومجموعه «Manufacturers» وتؤمن لهم الرأسمال الجاري والقروض وتشرف على بيع وشراء اسهمهم وسنداتهم وتساعدهم في عمليات الدمـــج والتوسع وابتلاع الشركات الصغيــــرة والمتوسطة الخ ... وهكذا تلعب البيوت المالية الخمسة دور العقـــل المخطط والمقـــرر وتلعب المؤسستان الماليتان دور القوة الضاربة والاحتياطي الاستراتيجي والوقود الضروري لسير اعمال ونمو وتوسع مجموعة الشركات التي اطلقنا عليها اســم « كتلة وول ستريت الصهيونية » والتي تمثـــل رأس حربة الرأسمال الصهيوني في الولايـــات المتحدة .

خلاصة القول ان كتلة « وول ستريت» الصهيونية بشقيهـــا (البيوتات المالية ومجموعة بنـــك (Manufacturers Hanover Trust) تسيطر على ٢٧ شركة كبيرة بلغت مبيعاتها في عـــام ١٩٧٢ حوالي ٦٢ مليار دولار اي اكثر من ١٢٪ من مجمل مبيعات اكبر ٥٠٠ شركة صناعية في امريكـــا واكثر من عشرة اضعاف الناتج القومي الاسرائيلي واكثر من ضعفي الناتج القومي الحالي لمجمل الدول العربية .

يجب ان نذكر من ناحية اخرى ان ١٢ من اصل ٢٧ شركة تابعة للكتلة لهـــا فروع واستثمارات مباشرة في اسرائيل وان الشركات التجارية التابعـــة للكتلة تساهم مساهمة جادة في تسويق البضائـــع الاسرائيلية عبـــر مخازنها الكبرى وان بنـــك Manufactures هو من المروجين الرئيسيـــين لسندات الخزينة الاسرائيلية في السوق الماليـــة الامريكية ـــ هذا عدا الضغوط والتأثيرات السياسية الهامة التي لا مجال للخوض فيها في اطار هـــذا المقال والتي تستحق بحثا كاملا .

ب . حلفاء كتلة « وول ستريت » :

لكن اهمية كتلة « وول ستريت » لا تحدد فقط بحجم ومركز الشركات التي تسيطر عليها مباشرة . فالرأسمال الصهيوني عقد سلسلة من التحالفـات مع مجموعات اقتصادية غير صهيونية ادت الـــى انشاء كتلة اقتصادية كبيرة مختلطة تشكل بالفعل الكتلة الثالثة من حيث الاهمية في الولايات المتحدة ومن ثم في العالم . وضمن هذه الكتلة تلعب بيوتات « وول ستريت » المالية دور المحرك والموجـــه والمغذي !

يتألف حلفاء الكتلة الصهيونية في « وول ستريت » من المجموعات التالية :

مجموعة « فورد » التي تضم اساسا شركـــة انتاج السيارات فورد (الشركة الصناعية الثالثة في الولايات المتحدة والعالم . بلغت مبيعاتها لعام ١٩٧٢ ٢٠ مليار دولار) وتضم ايضا Manufactures National Bank of Detroit (بلغت موجوداتها لعام ١٩٧٢ : ٢٠٥ مليـــار دولار)

تقوم علاقة مجموعة «فورد» خاصة مع جولدمان ، ساخس اكبر البيوتات المالية الصهيونية ضمن كتلة « وول ستريت » . تلعب جولدمان ساخس دور بنك الاستثمار والمستشار المالي لشركة فورد ، فهي التي تبيع سندات الشركة لـدى المؤسسات المالية والجمهور وهي التي تدبر لها بعض العمليات الخارجية (كشراء شركات في اوروبا وتحويلها الى فروع) وهي التي تساعدها على تخطيط سياستهـا المالية . ويتجسد هذا التعاون الوثيق بوجود سدني وينبرج ضمن مجلس ادارة شركة فورد وبوجـــود وينبرج وهنري فورد الثاني معا في عدة مجالس

ادارات لشركات كبرى .

من ناحية اخرى تملك شركة فورد مصنعا لتجميع السيارات في اسرائيل .

واخيرا وليس اخرا يشارك هنري فورد الكتلة الصهيونية في تمويلها لمرشحي الحزب الديمقراطي لرئاسة الجمهورية ويساهم معهم في الضغط على الادارة الامريكية من اجل سياسة خارجية اكثر انحيازا لاسرائيل ، وقد كان من ابرز الوجوه الامريكية التي حضرت « مؤتمر المليونيريين » الذي عقد في القدس في ايار ١٩٧٣ وضم كبار الرأسماليين الصهاينة في العالم .

الحليف الثاني الكبير للكتلة الصهيونية هو «مجموعة تكساس»: تضم المجموعة بالاساس عددا من شركات النفط الامريكية التي تعتمد على الابار الامريكية لانتاجها والتي كثيرا ما تتناقض مصالحها (من حيث الأسعار وسياسة الأستيراد والضرائب وغيرها) مع مصالح شركات النفط الكبيرة والتي تملك استثمارات اساسية في الشرق الاوسط وفنزويلا (موبيل ، الخليج ، اسو ، كالتكس الخ) ويدخل ضمن المجموعة ايضا عدد من البنوك والشركات الصناعية والتجارية (خاصة في مجالات البتروكيمياء ، الصناعات الحربية ، الصناعات الالكترونية) . ونذكر على سبيل المثال بعض الوجوه البارزة في هذه المجموعة : جون مرشيون الذي يسيطر على مجموعة بنوك وشركات نفط وشركات بناء يتعدى حجم اعمالها المليار دولار . بول جيتي الذي يملك شركة جيتي اويل (بلغت مبيعاتها لعام ١٩٧٢ ١٤٤ مليار دولار) . وتقدر ثروة جيتي النفطية بحوالي ١٠٥ مليار دولار مما يجعله رابع اغنى رجل في الولايات المتحدة والعالم. والجر مادو الذي يعمل في مجال استخراج النفط وتقدر ثروته الشخصية بـ ٢٠٠ مليون دولار . والصهيوني ليون هس رئيس مجلس ادارة شركة النفط Amerada Hess بلغت مبيعاتها لعام ١٩٧٢ ١٠٣ مليار دولار) — وتقدر ثروة هس الشخصية باكثر من ٢٠٠ مليون دولار . وبول ثاير رئيس مجلس ادارة شركة .L.T.V (من اكبر الشركات الصناعية في تكساس وقد بلغت مبيعاتها لعام ١٩٧٢ — ٣٠٥ مليار دولار) . وتضم شركته ثلاث مؤسسات فرعية : LTV Aerospace اهم الشركات الامريكية لانتاج السلاح. و Jones Langhlin, احدى كبريات الشركات الامريكية لانتاج الصلب. و Wilson Eco ثالث شركة امريكية لانتاج اللحوم المجففة .

وتتعاون البيوتات المالية الصهيونية بشكل وثيق مع « مجموعة تكساس » فتؤمن لها الرساميل التي تحتاجها عبر بيع السندات والاسهم ، وتقدم لهما المشورة المالية والفنية ، وتعاونها في محاولاتهما الأستيلاء على بعض المؤسسات التابعة لكتل اخرى (ككتل « مورغان » و « روكفلر » و « مللون » وغيرها) وتوسيع دائرة نفوذها .

ومن الجدير بالذكر ان « مجموعة راسماليي تكساس » تشكل على المستوى السياسي المصدر الاساسي الثاني لتمويل مرشحي الحزب الديمقراطي (بعد الكتلة الصهيونية) . وقد نجحت المجموعة بالفعل في ايصال « لندون جونسون » التكساسي الى سدة الرئاسة واستفادت منه كثيرا لتنمية اعمالها وتوسيع نطاق هيمنتها .

الحليف الثالث : لكتلة «وول ستريت» الصهيونية هو بنك الاستثمار النيويوركي «Dillon Read Eco» وقد كان لهذا البيت المالي دور هام في الثلاثينات حيث كان يسيطر على عدة شركات صناعية كبرى. لكن نفوذه تراجع بسبب عدم امتلاكه لبنك تجاري كبير يستطيع دعم وتغذية نفوذه على الشركات المعنية ، وما يهمنا هنا هو ان Dillon Read ساهم مع البيوتات الصهيونية في انشاء بنك : Manufacturers Hanover Trust عام ١٩٦١ والذي اصبح خامس بنك تجاري في امريكا ومكن المجموعة الصهيونية من امتلاك «بنكها التجاري الكبير » مقابل البنوك التجارية التي تسيطر عليها الكتل الانغلو — بروتستنتية .

من اجل اعطاء صورة عن الحجم النسبي لتحالف « صهاينة وول ستريت — فورد — تكساس » نثبت فيما يلي ارقاما عن حجم الاعمال التي تقوم بها الشركات التابعة للتحالف في المجالات الصناعية والتجارية والمالية .

للاسف ترجع الارقام التي سنوردها الى عام ١٩٦٣ لاننا لم نستطع الحصول على ارقام احدث بالنسبة للكتل الاخرى التي يهمنا ان نقارن حجمها مع حجم التحالف الذي نحن بصدده (الارقام بملايين الدولارات) .

	حجم الاعمال في المجال المصرفي والمـالي	حجم الاعمال في المجال الصناعي والتجاري
المجموعة المباشرة لكتلة « وول ستريت الصهيونية »		
Manufacturers Hanover Trust	٧٠٠	٥٠،١٣٩
مجموعة FORD	٨،٢٦١	٣،٩٧٧
مجموعة TEXAS	٣،٤٨٨	٥٠،٤١٦
Dillon, Read and Co.	٩،٨٧٦	٩٠،٠٢١
	٤٦٣	١٠،٢٤٩
المجموع العام للتحالف	٢٢،٧٨٨	٢٤٠،٨٠٢

وفيما يلي قائمة بالكتل الاقتصادية الامريكية الكبرى التي كانت في عام ١٩٦٣ تتعدى موجودات الشركات التي تسيطر عليها العشرين مليار دولار .

	حجم الاعمال في المجـال المالي والمصرفـي	حجم الاعمال في المجال الصناعي والتجـاري	مجموع حجم الاعمـال
كتلـة مورجـان	٢٩،٨٩٦	٣٩،٦٥٥	٦٩،٥٥١
كتلـة روكفلر	٣٤،٧٤١	٢٨،٢٣١	٦٢،٩٧٢
التحالـف	٢٢،٧٨٨	٢٤،٨٠٢	٤٧،٥٩٠
كتلة شيكاغو (Black, Blair, Stewart Baver, Palmer, Percy-)	١٤،٣٤٥	٢٣،٨٥٧	٣٨،٢٠٢
كتلة بوستون (Adams, Cabots, Lowells)	١٨،٥٦٤	٥،٨٢٣	٢٤،٣٨٧
كتلـة First National City Bank.	١١،٦٧٧	١٠،٤٢٢	٢٢،٠٩٩

نلاحظ من هذا الجدول ان التحالف (صهاينـة وول ستريت + فورد + تكساس) يحتل بالفعل المرتبة الثالثة بين الكتل الاقتصادية الامريكية الكبرى وقد قتل حجم اعماله عام ١٩٦٣ ١١٪ من مجموع حجم اعمال الست عشر كتلة اقتصادية التي تسيطر على ثلاثة ارباع الاقتصاد الامريكي .

مجموعة « كاليفورنيا » الصهيونية :

تشكل ولاية « كاليفورنيا » الامريكية الغربيـة المجال الاساسي الثاني للرأسمال الصهيوني بعد ولاية نيويورك . وتضم المجموعة في الاساس مصرفا تجاريا كبيرا تدور بفلكه اربع شركات وثلاث شركات مالية تعمل في بيع وشراء وتحسين العقارات وفي البناء والمقاولات .

يحتـل مصرف Western Bancorporation المرتبة السابعة بين المصارف التجارية الامريكية . وقد بلغت موجوداته في نهاية عام ١٩٧٢ — ١٥،٢ مليار دولار . يرأس مجلس ادارة المصرف كلفورد توتر لكن ابرز الاعضاء هو الرأسمالي الصهيوني فكتور كارتر . وهو يرأس « النداء اليهودي الموحد » (وهو صندوق الجباية الصهيوني في أمريكا) ، ويشغل في نفس الوقت عضوية اللجنة التنفيذية لبنك United California Bank الذي يشكل الذراع الخارجي لبنك Western Bancorporation ويجدر الاشارة الى الى كارتر قد وظف شخصيـا ملايين الدولارات في الاقتصاد الاسرائيلي ، ويملك كميات محترمة من الاسهم في العديد من الشركات الصناعية والمالية والعقارية الأسرائيلية (منهـا (Nosher Cement, Elron, CLAL, C.T.I.C. = ترتبط الشركات الاربع التالية ببنك Western Bancop.

اسم الشركة	حجم الاعمال الاجمالي لعام ١٩٧٢	الارباح الصافية لعام ١٩٧٢	مجال العمل
Transamerican	٤،٢٢١	٨٨	خدمات ، صناعة الترفيه والتسلية : سينما .
Signal Companies	١،٤٣٨	٤٠	نفط وغاز وبتروكيمياء .
Celanese	١،٣٨٣	٤٤	نسيج وملبوسات .
National General	١،٠٢٠	٤٥	صناعة التسلية ، سينما
المجمــوع	٨،٠٦٢	٢١٧	

يتشكل القطب الثاني لمجموعة « كاليفورنيا » من ثلاث شركات مالية — عقارية : —

	الموجودات لعام ١٩٧٢	الارباح الصافية ١٩٧٢
H.F. Ahmanson	٤،٧٥٩	٤٦،١
Great Western Financial.	٤،٣٠٧	٣٨،٣
First Charter Financial.	٣،٩٩١	٤٦،٥

يملك الشركة الاولى البليونير الصهيوني هيــــام امباسو الذي جمع ثرونه في مجال تجارة الاراضي واصبح من اثرياء اثرياء امريكا . ويسيطر علــى الشركة الثانية رجل الاعمال الصهيوني مارك تابر الذي ينشط ايضا في مجال البناء والعقارات . ويلعب تابر دورا سياسيا هاما ضمن المنظمات الصهيونية وضمن الحزب الديمقراطي في كاليفورنيا . اما شركة Great Western Financial فيــرأس مجلــــس ادارتهــــــا ستــوارت دانس ويشترك في ملكيــــة اسهمهــا عدد مــن رجال الاعمال الصهاينة ومنهم بنيامين سويـــج (صاحب شبكة من الفنادق وشركات تأمين وبنوك) ج. دمان ولويس بوير (صاحب شركة مقاولات) والجدير بالذكر ان هؤلاء الثلاثة وظفوا اموالا فــي ثلاث شركات استثمار اسرائيلية هي PEC و AMPAL و Israel Investor Corp. وهم اعضاء في مجلس ادارة هذه الشركات !

خلاصة القول ان مجموعة « كاليفورنيــــا » الصهيونية رغم قلة عدد الشركات الصناعيــة التي تسيطر عليها تشكل كتلة اقتصادية ذات شأن اذ ان حجم اعمال الشركات السبع التي تتألف منهــا المجموعة بلغ عام ١٩٧٢ — ٢١ مليار دولار يضاف اليها موجودات البنــــك التجاري Western Bancorporation والبالغة ١٥ مليار دولار !

لكن ما يلفت النظر هو ان نشاطات تلك الكتلــة شديدة التمركز في مجالين هما تجارة الاراضي والبناء من جهة والنشاطات المرتبطة بالتسلية والترفيه من جهة اخرى (مسرح ، سينما ، فنادق ، سياحة ، تلفزيون ..) وتكاد المجموعة ان تكون غائبة تماما عن المجالات الصناعية الاساسية لكن وفرة السيولة لديها (بسبب طبيعة نشاطاتها) وسيطرتهــــا على العديد من وسائل الاعلام يجعلها تتمتع بنفوذ سياسي يفوق ثقلها الاقتصادي الفعلي !

ج — الصهيونيون المستقلون : —

أ — امبراطورية نورتون سايمون

خلال السنوات العشر الاخيرة ، بنى الرأسمالي الصهيوني نورتون سايمون مجموعة اقتصادية بلغ حجم اعمالها الأجمالي لعام ١٩٧٢ حوالي ثمانيــة مليارات من الدولارات ، واصبح سايمون ، الدخيل على البرجوازية الكبرى الامريكية التقليدية ، احد اعمدة الرأسمال الصهيوني في الولايات المتحدة . وقد وسع تدريجيا اشغاله في ثلاث اتجاهـــــات — الصناعات الغذائية ، مواد البناء والسلع المنزلية والصناعة الكيمائية — (الارقام بملايين الدولارات).

اسم الشركة	المبيعات الاجمالية (عـــام ١٩٧٢)	الارباح	القطـــاع
«SWIFT»	٣،٢٤٠	٣٧	اكبر شركة لانتاج اللحوم في الولايات المتحـــدة .
«Norton Simon»	١،١٠٨	٥٠	مواد غذائية ، مشروبات ، حديد .
«Evans Products»	٩٣٨	٢٨	مواد بناء وسلع منزلية مختلفة .
«Wheeling Steel Corp.»	٦٠٧	١٥	حديد ومنتجات معدنية .
«Wilco Chemical»	٢٩٢	١٢	منتجات كيمائية مختلفة
Max Factor,	٢٠٠	١٧	منتجات تجميلية وعطور
May Department Stores	١،٤٧٧	٤٨	شبكة كبيرة من المتاجر والمخازن
المجموع العام	٧،٨٦٢	٢٠٧	

ومن الجدير بالذكر ان اغلب شركات مجموعـــة سايمون تملك مساهمات في شركات اسرائيليـــــة وبالاخص Evans Products و Witco Chemicals, و «Max Factor» ونشتري شركة SWIFT كميات من المنتجات الزراعية الاسرائيلية لكي تصنعها كمـا تشتري «May Department Stores» المعلبات والمنسوجات الاسرائيلية وتبيعها عبر مخازنها العديدة في الولايات المتحـــدة .

مجموعة (Massachussets Investment Trust) «MIT»

يسيطر على شركة الاستثمار — MIT ثلاثة من رجال الأعمال الصهاينة وهم ك. جاكس .ف . شنايدر .ب . ميلوزموف . تعمل شركة MIT بشكل « صندوق مشترك » (Mutural Fund) يوظـف اموال المساهمين — المدخرين في اسهم شركـــات صناعية ناجحة تحقق ارباحا سنوية مرضية . وفـي حال بعض الشركات ، اصبحت تملك كمية مـــن الاسـهم كافية لتأمين سيطرة فعلية عليها مما جعلهـا تشكل نواة مجموعة مستقلة . وتدور الشركــات التالية في فلك

اسم الشركة	حجم الاعمال لعـــام ١٩٧٢	الارباح الصافية لعـــام ١٩٧٢	مجال عمل الشركة
Continental Oil	٣،٤١٤	١٧٥	النفط والغاز والبتروكيمياء
C B S	١،٤٠٣	٨٢	الاذاعة، السينما، التسلية
Union Pacific Railway	١،٠٩٤	١٠٤	سكك حديدية ونقل
Phelps Dodge	٧٦٥	٨٢	المعادن غير الحديديـــة (نحاس ، تصدير ، زنك)
New Mont Mining	٢٧٢	٤٤	الفحم والمناجم
المجمـــوع	٦،٩٤٧	٤٨٧	

من الجدير بالملاحظة ان الشركات التابعة لـــ MIT تحقق نسبة مرتفعة من الربح مقارنة بحجم اعمالها. فقد بلغت هذه النسبة ٧٪ بينما هي ٥ر٧٪ في حال الشركات التابعة لبنك Manufacturers Hanover Trust الصهيوني و ٢،٧٪ في حال الشركات التابعة لبنك Western Bancoporation وهذا الامر طبيعي اذا تذكرنا ان صرف « الصناديق المشتركة » هو بالضبط الوظيف في الشركـــــات الصناعية الرابحة !

يجب ان نذكر ايضا ان هناك عددا من الرأسماليين الصهاينة يشارك المذكور اعلاه في السيطـرة على الشركات الخمس . تلك هي الحال بالنسبـــة لشركة C B S وحال كل من F. Pace, و H.W. Blawelt, و J.E. Kircher بالنسبة لشركة Phelps Dodge اما شركة Continental Oil فهي واقعة تحت النفوذ المشترك لمجموعة MIT ولبنك Manufacturers Hanover Trust.

الراسمال الصهيوني في قطاع التجارة الداخلية

لقد ذكرنا في الفقرات السابقة الشركات التجارية التي سيطر عليها كل من كتلة « وول ستريت» وكتلة

نورتون سايمون وتبلغ في مجموعها سبع شركــات من ضمنها Sears, Roebuck اكبر شركة تجارية في العالم . وقد بلغت المبيعات الاجمالية للشركات السبع اكثر من ٢٠ مليار دولار ونستعرض الان عددا اخر من الشركات التجارية الكبيرة التـــي يملكها او يسيطر عليها راسماليون صهاينة والتي لا ترتبط مباشرة بالكتل الصهيونية الانفة الذكر .

اسم الشركة	المبيعات الاجمالية (عـــام ١٩٧٢)	المجموع العام الارباح الصافية	المدير العام للشركة
Great Atlantic and Pacific Tea	٦٬٣٦٨	٥٠	William Kane
MARCOR	٣٬٣٦٩	٧٢	Leo H. Shoen Hofen
Lucky Store	١٬٩٨٨	٣٠	William H. Dyer
Food Fair Stores	١٬٩٨٠	١	Louis Stein
W.T. Grante	١٬٦٤٨	٣٧	Edward Staley
City Products	١٬٤٧٧	٣١	George T. Scharfenberger
Supermarkets General	١٬١٩٤	٤	Milton Permulter
Associated Dry Goods	١٬١٣٠	٤٢	Lewis P. Seiler
R.H. Macy	١٬٠٤١	٢٨	Donald B. Sniley
Stop and Shop	٩٦٤	٦	S. Ball
Zayre	٩٣٩	١٠	Stanley Feldberg
Ara Services	٨٤٤	٢٦	David G. Davidson
Arlen Realty and Development Corp.	٨٢٧	٢	Charles C. Basine
Vornado	٧٩٣	١١	Frederick Zissu
Juter State Stores	٦٨٩	٤٠ —	Sol. W. Cautor
Albertson	٦٨١	٧	Joseph A. Albertson
Arden Mayfair	٦٣٢	١ —	Albert J. Grosson
Giant Foods	٥٦٠	٨	Joseph B. Danzansky
Daylin	٤٨١	٩	Amnon Barness
المجموع العام	٢٧٬٦٣٥	٢٤٣	

نستنتج من الجدول السابق ومن المعلومـــات التي اوردناها سابقا عن سبع شركات تجارية تابعة لمجموعة « وول ستريت » ونورتون سايمـــون ان الرأسمال الصهيوني في امريكا يسيطر على ٢٦ من اصل اكبر ٥٠ شركة تجارية في الولايات المتحـــدة وقد بلغت المبيعات الاجمالية للشركات ال ٢٦ في عام ١٩٧٢ — ٥٧٬٧٨٢ مليار دولار اي ٥٤ر٥٪ مـــن مبيعات اكبر ٥٠ شركة تجارية في امريكا (منهـــا ٢٣٪ لشركات « وول ستريت » و ٣٠٪ للشركات المستقلة) ومن ناحية اخرى بلغت الارباح الصافية للشركات ال ٢٦ في نفس العام — ١٢٦ ، ١ مليون دولار اي ٦٠٪ من ارباح اكبر ٥٠ شركة تجارية في امريكا — .

الرأسمال الصهيوني في بعض القطاعات الصناعية:

١) قطاع الصناعات الغذائية والمشروبات :

يلعب الرأسمال الصهيوني دورا رئيسيا في هذا القطاع الذي اصبح حاليا شديد التمركز في الولايات المتحدة . وتضم قائمة اكبر مئتي شركة صناعية في امريكا ٢٦ شركة تعمل اساسا في مجال انتـــاج المواد الغذائية والمشروبات وتؤمن تلك الشركـــات الضخمة ما بين ٦٠ و ٧٠ ٪ من جميع ما يعرض على المستهلك الامريكي من مأكولات ومشروبات — وهناك ١٢ شركة من اصل الـ ٢٦ يملكها او يسيطر عليها الراسمال الصهيوني . نستعرض فيما يلي هـــذه الشركات الصهيونية حسب اهمية حجم اعمالها . (الارقام بملايين الدولارات) .

اسم الشركة	رقمها في قائمة اكبر مئتي شركة صناعيـــة	المبيعات الاجمالية لعــــام ١٩٧٢ .	الارباح الصافية لعــام ١٩٧٢ .
Kraft co foods	٢٩	٢،١٩٦	٨٨
Swift	٢٨	٢،٢٤٠	٢٧
General foods	٣٩	٢،٤٢٣	٦٦
Beatrice foods	٤٢	٢،٣٨٤	٧٧
Coca Cola	٦١	١،٨٧٦	١٩٠
Consolidated foods	٦٨	١،٧٩٩	٦٣
United Brands	٧٩	١،٦٦٨	١٧
Jowa Beef Processors	١١١	١،٢٨٤	٧
Carnation	١١٥	١،٢٤٩	٥٥
Heinz	١٢٤	١،١٥٣	٤٢
Seagram	١٧٧	٧٨٧	٢٣
Pet Milk	١٨١	٧٧٠	١٦
Hormel (GA)	١٩٢	٧١٩	٨
Mayer (O)	١٩٥	٧١٢	١٦
المجموع العام	١٤٤٠	٢٣،٢٦٠	٧٠٥

نستنتج من الجدول ان الشركات الصهيونية ال ١٣ قد حققت في عام ١٩٧٢ مبيعات بلغت ٢٠ مليار دولار وارباحا صافية بلغت اكثر من ٦٠٠ مليون دولار . وقد حسبنا من ناحية اخرى مـا تحققه الشركات ال ١٣ الاخرى فبلغ ١٣٠٧ مليون دولار كمبيعات اجمالية وحوالي ٥٠٠ مليون دولار كارباح صافية ـــ وهكذا تكون الاحتكارات الصهيونية الضخمة قد امنت عام ١٩٧٢ حوالي ٦٠٪ من حجم اعمال قطاع الصناعات الغذائية والمأكولات في امريكا . ومن المفيد ان نذكر ان ناتج هذا القطاع يمثل ١٠ ٪ من مجمل الناتج الصناعي في امريكا .

نثبت فيما يلي بعض المعلومات حول هوية الرأسماليين الصهاينة الذين يسيطرون على الشركات الانفة الذكر .

اسم الشركة	رئيس مجلس الادارة	معلومات اضافيـة
Swift	Robert W. Renerer	اكبر مساهمين: Henry Grown ٦٠٠،٠٠٠ سهم) الذي يسيطر علـى شركة General Dynamics الالكترونيـة الضخمـة و Jerome Eppler (٢٠٠،٠٠٠ سهم) مصرفي صهيوني من نيويورك .
General Foods	Chawcey W. Cook	تابعة لكتلة « وول ستريت » الصهيونية .
Beatrice foods	S.J. Bartusch	تسيطر عليها عائلة Bantrych الصهيونية
Coca Cola	J. Paul Austin	اكبر المساهمين هو: Abraham Feinberg احد قادة الحركة الصهيونية في امريكا حيث يرأس « منظمة بيع سندات الخزينة الاسرائيلية » وهو عضو مجلس ادارة « النداء اليهودي الموحد » (V.J.A.) .
Coy olidated foods	Nattrau Cumings	Cumings نفسه هو اكبر المساهمين وهو شريك وصديق Henry Crown. الانف الذكر .

United Brauds	Eli, M. Black	من النجوم الصاعدة Black في عالــم الرأسماليين الصهاينة وتضم امبراطورية شركــة John Morellco الشركة الرابعة لانتاج اللحوم في امريكا وشركــة United Fruits لانتاج الموز . وهذه الشركة الشهيرة تسيطر على اقتصاديات عدة دول في امريكا الوسطى .
Jowa Beef Processors.	Curier J. Holman	لا نملك معلومات تفصيلية عن هذه الشركة
Carnation	Everett Olson	لا نملك معلومات تفصيلية عن هذه الشركة
Heinz	R. Burt ...	تسيطر على هذه الشركة عائلــة Heinz الصهيونية .
Seagram	Ealgar M. Browfran	تسيطر على هذه الشركة عائلة Brouimau الصهيونية الكندية .
Pet Milk	Boyd F. Schenk.	لا نملك معلومات تفصيلية عن هذه الشركة
Hormel (G.A.)	Moses B. Thompson	لا نملك معلومات تفصيلية عن هذه الشركة
Mayer (O)	Oscar G. Mayer Jr.	تسيطر على هذه الشركة عائلة : Mayer الصهيونية .

نود اخيرا ان نعطي فكرة موجزة عن الدور ومكانــة الشركات الصهيونية في بعض الفروع الرئيسية من قطاع الصناعات الغذائية .

ــ ففي فرع اللحوم (الطازجة والمجنفة) تؤمن ٦ شركات كبرى حوالي ٨٠٪ من حاجات السوق الامريكي ونوردها فيما يلي مرتبة حسب اهميتهــا : Armour, Wilson, (صهيونية) ، Swift, Jowa (صهيونيـــة) ، John Morell Eco, Mayer. (صهيونية) ، Beef Processors, (صهيونية) .

ونستطيع القول ان الشركات الصهيونية تسيطر على اكثر من ٥٠ ٪ من السوق الامريكي للحوم .

وفي فرع المنتجات الحليبية (اجبان ، البان ، زبدة ..) يؤمن ٤ شركات كبرى حوالي ٧٠٪ من حاجات السوق الامريكي ونوردها فيما يلي مرتبة حسب اهميتها ــ Beatrice Foods, (صهيونية)، Borden, Foremost, Laud 'O' Lake Creamerier.
وقد بلغت مبيعات الشركات الاربع ٦٫٥ مليار دولار فيمكننا القول ان الشركة الصهيونية تؤمـــن ٢٠ الى ٢٥ ٪ من حاجات السوق الامريكية للالبان والاجبـــان .

وفي فرع المنتجات الغذائية الحبوبية ، يؤمن ٤ شركات ضخمة ٩٠٪ من حاجات السوق الامريكية وهي بالترتيب : General Foods, (صهيونية) ، General Mills, Quaker Oats, Kellog. وقد بلغت مبيعات الشركات الاربع ٥٫٢ مليار دولار وبلغت مبيعات الاولى بمفردها ٢٫٤٢ مليار دولار . فيمكننا القول ان الشركة الصهيونية تؤمن اكثر من ٤٠٪ من السوق الامريكية للمنتجات الغذائيـــة الحبوبية .

وفي فرع المشروبات (كحول ومرطبات) تؤمـــن ٧ شركات ضخمة ٨٠٪ من حاجات السوق الامريكية وهي بالترتيـــب : Coca Cola, صهيونيـــة) ، American Brands, United Brands, Pepsi Cola, Standard Brands, (صهيونية ، Jos. Sdultz Bewing، (صهيونية) Seagram (صهيونية).
تبلغ مبيعات الشركات السبع ٩٫٢ مليار دولار ومبيعات الشركات الصهيونية الاربع ٤٫٩ مليـــار دولار ، فتكون الشركات الصهيونية قد استأثرت بـــ ٤٥٪ من السوق الامريكية للمشروبات .

ولا بد ان نذكر ختاما ان هناك ثلاثة فروع هامة يلعب فيها الرأسمال الصهيوني دورا ثانويا الا وهي فروع الحليب والخبز والسكر . وتتميز هذه الفروع بهيمنة رأسمال ذو اصل زراعي ومن المعروف انه لم يكن للرأسمال الصهيوني دور يذكر في الزراعـــة

الامريكيـــة .

خلاصـة القول ان قطاع الصناعات الغذائيـــة والمشروبية هو احدى المجالات الاقتصادية الامريكية التي يهيمن عليها الرأسمال الاحتكاري الصهيوني بشكل واضـــح .

قطاع النسيج والالبسة :

لا يزال هذا القطاع التقليدي قليل التمركز اذ لا يضم سوى اربع شركات فقط تقع ضمن اكبـــر منتي شركة صناعية في امريكا وقد نشط الرأسمال الصهيوني منذ اجل بعيد في هذا القطاع ولا يزال يهيمن عليه حاليا هيمنة شبه تامة . يسيطـــر الرأسمال الصهيوني على سبع شركات من اصـــل اكبر عشر شركات تعمل في مجال النسيـــج والالبسة : ـــ

اسم الشركة	قائمة اكبر ٥٠٠ شركـــــة	المبيعات الاجمالية لعـــــام ١٩٧٢ .	الارباح الصافية لعـــام ١٩٧٢ .
Celamese	(١٠٥)	١،٢٨٤	٤٤
J.P. Stevens	(١٤٨)	٩٥٧	٥،٨
United Merchants & Manufacturers	(١٧٨)	٧٨٧	١٥،٣
Cluert Peabody	(٢٤٦)	٥٤٧	١٢،٦
Kayser — Roth	(٢٥٤)	٥١٨	١٢
Levi Straus	(٢٦٠)	٥٠٤	٢٥
Lowe Lowen Stein & Sons	(٢٧٣)	٤٦٩	٦
		٥،١٦٧	١٢٢،٤

وحول هويه الرأسماليين الصهاينة الذين يسيطرون على الشركات السبع نورد المعلومات التالية :ـــ

اسم الشركة	رئيس مجلس الادارة	معلومات اخرى
Celanese	William Brooks	هده الشركة تابعة لنفوذ البنك الصهيوني United California Bank
J.P. Stevens	James O. Finley	هذه الشركة تابعة لنفوذ بنك : ـــ Manufacturers Hanover Trust
United Merchants & Manufacturers	Merwin R. Haskel	كبار المساهمين هم عائلة Schwab: والرأسماليين الصهاينة : ـــ L. Max (&) P.I. Lavan.
Clnett Peabody	Henry Henley J.	هده الشركة تابعـــة لكتلة « وول ستريت » الصهيونية .
Kayser Roth	Abraham Feinberg	Feinberg نفسه اكبر مساهم في الشركـه وهو احد قادة الحركة الصهيونية في امريكا .
Levi — Strauss	Walter Haas	لا تزال عائلة Levis Straus الصهيونية تسيطر على الشركة .
Lowenstein & Son	Robert Bendleim	لا تزال عائلة Lowenstein الصهيونية تسيطر على الشركة .

قطاع الكيمياء الاساسية : ـــ

تؤمن عشر شركات كبرى اكثر من ٨٠٪ مـــن انتاج هذا القطاع وقد بلغت المبيعات الاجماليـــة لهذه الشركات عام ١٩٧٢ ـــ ١٧،٥ مليار دولار . ويسيطر الرأسمال الصهيوني على شركتين مـــن اصل الشركات العشر : ـــ

اسم الشركة	المبيعات	الارباح
Union Carbide.	٣،٢٦١	٢٠٥
Monsanto.	٢،٢٢٥	١٢٢
	٥،٤٨٦	٣٢٧

ونستنتج من هذا الجدول ان مبيعات الشركتين الصهيونيتين تمثل ٣١٪ من مبيعات الشركات العشر ويأتي الشركتين في المرتبة الثانية والرابعة بعد شركتي : Dow & E.J. Dupout Chemical.ـ (الاولى والثالثة) .

يرأسّ مجلس ادارة Union Carbide F. Perry Wilson, وتقع الشركة ضمن دائرة النفوذ المباشرة للبنك الصهيوني Manufacturers Hanover Trust ويرأس مجلس ادارة شركة Monsanto ، Edward J. Bock, ويملك هذا الرأسمال الصهيوني ، الى جانب مؤسس الشركة Queeny Monsanto كمية هامة من اسهم الشركة . كما ان البنك الصهيوني Goldman, Sacks يتمتع بنفوذ واسع على الشركة المعنية .

قطاع الصناعات الكيمائية المركبة :

يتضمن هذا القطاع الشركات التي تصنع وتركب المواد الكيمائية وتنتج سلعا ومواد للاستعمالات الشخصية والمنزلية — ويتألف القطاع من الفروع الاساسية التالية : فرع صناعة الادوية ، فرع صناعة الصابون والمواد المنظفة ، فرع صناعة العطور وسائر المواد التجميلية .

تؤمن ٢٧ شركة صناعية كبيرة اكثر من ٩٠٪ من انتاج هذا القطاع . وقد بلغت مبيعات تلك الشركات لعام ١٩٧٢ ٢٦،٥ مليار دولار — اما الرأسمال الصهيوني ، فسيطر على ٨ من تلك الشركات حققت عام ١٩٧٢ مبيعات قدرها ١٠،١ مليار دولار اي ٣٨٪ من مجمل تبيعات الشركات السبع والعشرين .

ننت فيما يلي قائمة بالشركات الصهيونية الثماني مرتبة حسب اهميتها : —

اسم الشركة	المبيعات الاجمالية لعام ١٩٧٢ .	الارباح الصافية	رقم الشركة في قائمة اكبر ٥٠٠ شركة صناعية
Procter and Gawble	٣،٥١٤	٢٧٦	(٢٠)
Colgate — Palmolive	١،٨٠٧	٦٧	(٦٧)
American Home Products	١،٥٨٧	١٧٥	(٨٤)
Bristol — Myers	١،٢٠١	٨٤	(١١٩)
Eli Lilly	٨١٦	١٢٦	(١٧٢)
Revon	٤٤٠	٣٧	(٢٨٧)
Miles Laboratories	٣٢٥	١٥	(٣٧٣)
Baxter Laboratories	٢٧٨	٢٢	(٤٠٨)
Max Factor	٢٠٠	١٧	
	١٠،١٧١	٨٣٩	

حول هوية الرأسماليين الصهاينة الذين يسيطرون على الشركات المذكورة فيما يلي بعض المعلومات :—

اسم الشركة	رئيس مجلس الادارة	معلومات اضافية
Procter & Gamble	Howard J. Morgens	لا تزال عائلات Procter و Cummingham & Gamble تملك مجموعات كبيرة من الاسهم الى جانب Morgens نفسه . ويملك بنك Goldman, Sacks الصهيوني النيويوركي نفوذا كبيرا على الشركة .

Colgate-Palmolive	David R. Foster	تقع الشركة في دائرة نفوذ بنــك : Manufacturers Hanover Trust
American Home Products.	William F. Haporte	نفس وضع الشركة الســابقة .
Bristol — Myers	Gowin K. MacBain	
Eli Lilly	Eugene Beesley	Eli Lilly الرأسمالي الصهيوني الذي اسس الشركة لا يزال اكبر المساهمين .
Revlon	Charles Revson	عائلة Beyson الصهيونية تملك اكبر مجموعة من الاسهم .
Mils Laboratories Baxter Lab. Max Factor	William B. Graham	

الى جانب تأمينها ٣٨٪ من انتاج قطاع الصناعات الكيمائية المركبة تتميز مجموعة الشركات الصهيونية بأنها تضم اكبر شركة امريكية لانتاج الادويــــة (American Home Products) واكبر شركــة امريكية لانتاج الصابون والمعاجين الصحيــــة (Colgate — Palmolive) واكبر شركة امريكية لانتاج المنظفات والمواد التجميلية (Procter & Gamble)

لا بد ايضا ان نذكر ان قطاع الصناعات الكيمائية المركبة يتميز بنسبة ارباح مرتفعة جدا مقارنة مع القطاعات الصناعية الاخرى ، فبينما بلغ معــدل الربح السنوي على الرأسمال ١٠،٤٣٪ في مجمل الصناعات الامريكية وصل هذا المعدل في فــرع الادوية الى ١٥،٤٣٪ وفي فرع الصابون والمـــواد التجميلية الى ١٦٪ (وتلك هي اعلى نسبة حققها فرع صناعي امريكي) وبالطبع تحقق الشركـــات الصهيونية العاملة في هذا الفرع نسبا مرتفعــة جدا من الربح على الرأسمال وقد وصلت هــذه النسبة في حال شركة American Home Products الى ٢٦،٤٣٪ عام ١٩٧٢ !

قطاع المعادن غير الحديدية :

يتضمن هذا القطاع الشركات التي تنتج المعــادن غير الحديدية كالالنيوم والنحــاس والرصـــاص والقصدير وغيرها من المعادن التي تدخل بكثير مــن المركبات والالات والسلع التي تنتجها الصناعــة الحديثة — وفي كثير من المجالات تتضاءل اهمية الحديد والصلب وتحل تدريجيا مكانهما احدى المعادن غــير الحديدية .

تسيطر ١٢ شركة كبيرة على ثلاثة ارباع اعمــال هذا القطاع الصناعي النشط وقد بلغت المبيعــات الاجمالية لتلك الشركات في عام ١٩٧٢ ١٠،٤٣ مليار دولار . وهناك سبع شركات من اصل الــ ١٢ يملكها او يسيطر عليها الرأسمال الصهيوني . نستعرض فيما يلي هذه الشركات الصهيونية حسب اهميــة حجم اعمالهــا : —

اسم الشركة	رقمها في قائمة اكبر مئتــي وخمسين شركــة صناعية	المبيعات الاجمالية لعام ١٩٧٢ .	الارباح الصافية
Reynolds Metals	١٢٣	١،١٦٢	٠،٤١
Kennecott Copper	١٢٥	١،١٤٥	٤٧
Kaiser Aluminium & Chemical	١٤٢	٩٩٠	١٥
Chromalloy American	٢٤٨	٥٤١	٢٠
American Metal Climax.	١٦٦	٨٦٤	٦٦
American Smelting refining	١٧٣	٨١٤	٤٩
Plelps Dodge	١٨٣	٧٦٥	٨٢
		٦،٢٨٠	٢٧٩

يستنتج من الجدول ان الشركات الصهيونية السبع قد حققت في عام ١٩٧٢ مبيعات بلغت ٦٠٣ مليار دولار — وهكذا تكون الاحتكارات الصهيونية قد امنت في هذا العام حوالي ٦٠٪ من حجم اعمال قطاع المعادن غير الحديدية . ومن المفيد ان نذكر ان ناتج هذا القطاع يمثل حوالي ٤٪ من مجمل الناتج الصناعي الامريكي .

نثبت فيما يلي بعض المعلومات حول هوية الرأسماليين الصهاينة الذين يسيطرون على الشركات الآنفة الذكر :

اسم الشركة	رئيس مجلس الادارة	معلومات اضافية
Reynolds Metal	Richards Reynolds	رغم نفوذ عائلة Reynold المستمرة فان هذه الشركة تقع في فلك البنك الصهيوني : Manufacturers Hanover Trust
Kenne Cott Copper	Frank Milliken	اكبر المساهمين عائلة Guggenheim: الصهيونية
Kaiser Aluminium & Chemicals	Thomas J. Ready	اغلبية اسهم الشركة ملك لعائلة Kaiser : الصهيونية .
American Metal Climax	Ian McGregor	اكبر المساهمين عائلة Hoschschild الصهيونية وتقع الشركة في دائرة نفوذ كتلة " وول ستريت" الصهيونية .
American Smelting Refining	Charles F. Barker	اكبر المساهمين عائلتي : — Strawss & Guggenheim الصهيونيتين .
Phelps Dodge	George B. Munroe	هذه الشركة في دائرة نفوذ البنك الصهيوني : Manufacturers Hanover Trust
Chrom ... American	Joseph Friedman	لا نملك معلومات تفصيلية عن هذه الشركة .

نود اخيرا ان نعطي فكرة موجزة عن دور الشركات الصهيونية في فرعين رئيسيين من قطاع المعادن غير الحديدية . ففي فرع الالمنيوم تؤمن ثلاث احتكارات ٩٠٪ من انتاج الولايات المتحدة ونوردها حسب اهميتها Alcoa, Reynolds, (صهيونية)، Kaiser (صهيونية) ، وقد حسبنا ان الشركتين الصهيونيتين تسيطران على ٥٠ الى ٥٥٪ من السوق الامريكية للالمنيوم .

وفي فرع النحاس تؤمن اربع احتكارات كبيرة ايضا ٩٠٪ من الانتاج الامريكي للنحاس وهذه الاحتكارات هي . KeneCott Copper (صهيونية)، Phelps Dodge (صهيونية)، American Smelting & Refining. (صهيونية) ، وقد بلغت مبيعات الشركات الصهيونية ٢،٧ مليار دولار مقابل مليار هي مبيعات للشركات غير الصهيونية ، وهكذا تكون الشركات الصهيونية قد امنت في عام ١٩٧٢ ٥٥ الى ٦٠٪ من الانتاج الامريكي من النحاس .

قطاع الصناعات الكهربائية والالكترونية :

يشكل قطاع الصناعات الكهربائية والالكترونية اكثر قطاعات الصناعة الامريكية حداثة واسرعه نموا ، خاصة في السنوات العشرين الاخيرة . ويعتمد هذا القطاع اساسا على النمو الهائل للقدرات العلمية والتكنولوجية كما يعتمد على حاجات الآلة الحربية الامريكية ومستلزمات عملية غزو الفضاء ، ولكن دون الاستهانة بالسوق التي اصبحت تمثله « الالكترونيات المنزلية » (تلفزيونات، ادوات منزلية ومكتبية مختلفة) .

لم يستطع الرأسمال الصهيوني ان يلعب دورا بارزا في الثورتين الصناعيتين الاولى (حديد ، فحم ، نسيج) والثانية (نفط ، صناعة معدنية ، كيمياء اساسية) . لكنه وظف بكثافة خلال الثورة الصناعية الثالثة (ادوات كهربائية ، الكترونيات ، طاقة نوويه) التي اجتاحت العالم الرأسمالي في السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية . واليوم اصبح ناتج قطاع الكهرباء والالكترونيات يشكل اكثر من ١٥٪ من الناتج السنوي الاجمالي للصناعة الامريكية وهذه النسبة مرشحة لان تزيد في السنوات المقبلة .

ثماني عشرة شركة من اصل اكبر منتي شركه صناعية في امريكا تنشط اساسا في مجال المنتجات الكهربائية والالكرونية ، ويؤمن هذه الشركات الضخمة اكثر من ٧٠٪ من الانتاج الاجمالي لهذا القطاع . يسيطر الرأسمال الصهيوني على تسعة من هذه الشركات الثماني عشرة نوردها فيما يلي حسب حجم اعمالها .

اسم الشركة	رقمها في قائمة اكبر منتي شركة صناعية	المبيعات الاجمالية لعام ١٩٧٢ .	الربح الصافي لعام ١٩٧٢ .
Westinghouse	١٤٠	٥،٠٨٦	١٩٨
RCA	١٩	٣،٨٣٨	١٥٨
Xerox	٤٠	٢،٤١٩	٢٥٠
Sperry Rand	٦٥	١،٨٢٢	٥٨
Bendix	٧١	١،٧٧٦	٥٦
Whirlpool	٩٧	١،٤١٦	٦٨
Motorola	١٢٢	١،١٦٣	٥٢
Zenitte Radio	١٧٦	٧٩٥	٤٨
Emerson Electric	١٨٤	٧٦٤	٦٣
		١٩،٠٩٠	٩٥١

يستنتج من هذا الجدول ان المبيعات الاجمالية للشركات الصهيونية السبع قد بلغت ١٩ مليار دولار بينما بلغت مبيعات الشركات الثماني عشرة ٥٠ مليار دولار . يمكننا اذا ان نعتبر ان الشركات الصهيونية ستأثر بحوالي ٣٨٪ من سوق السلع الكهربائية والالكترونية .

من ناحيه اخرى من المفيد ان نذكر ان شركه R C A يؤمن اكثر من ٧٥٪ من الانتاج الامريكي للمصابيح الكهربائية وسيطر على سوق التلفزيونات وان شركه Xerox تهيمن هيمنة تامة على سوق الة تصوير المستندات Photocopy وان شركة Zenitte هي اهم شركه منفردة لانتاج الراديوات في امريكا .

ولكن ، من هم الرأسماليون وما هي المجموعات الصهيونية التي تقف وراء هذه الشركات ؟ :

اسم الشركة	رئيس مجلس الادارة	معلومات اضافية
Westinghouse	Edward S. Reddig	اكبر المساهمين هما الرأسمالي الصهيوني : Harold Perlman (١٦٥،٠٠٠ سهم) والصهيوني Jules Stein
R. C. A.	Robert Sarnoff	الشركة تقع في دائرة نفوذ « كتلة وول ستريت الصهيونية » من كبار المساهمين الصهاينة : Maitin B. Seretan الذي يرأس احد اكبر الشركات الامريكية لانتاج السجاد Coronet Judustries و JulienGoodman الذي يرأس شبكة التلفزيون N B C و Donald B.Smiley الذي يرأس شبكة المخازن الكبرى R.H. Macy والبيوتات المالية الصهيونية : Lehman Brothers & Lazard Frères
Xerox	C. Peter McColough	اكبر المساهمين هو البليونير الصهيوني : Max Palevski

S. Perry Raud	James F. Forster	هذه الشركة تقع في دائرة نفوذ كتلة « وول ستريت » الصهيونية .
Bendix	H. Blumenthal	
Whirlpool	John M. Platts	اكبر المساهمين هي شركة Seas Rabuck الصهيونية وهي اكبر شركة تجارية في امريكا .
Motorola	Robert W. Calvin	يسيطر عليها الراسمالي الصهيوني RW Galvin (١٧،٧٪ من الاسهم) .
Zenitte Radio	Joseph S. Wright	
Emerson Electric	Wallace R. Persons	تسيطر على هذه الشركة عائلة Symington الصهيونية (وابرز اعضاءها السيناتور الصهيوني) : Stuart Symington

قطاع النفط ومشتقاته :

يلعب هذا القطاع دورا هاما في الاقتصاد الامريكي وتعد شركات النفط الكبرى من اهم واضخم الشركات الصناعية في امريكا والعالم . ويلعب الراسمال الصهيوني دورا ثانويا في هذا القطاع اذ انه لا يسيطر سوى على اربع شركات نفط هي :

اسم الشركة	رقمها في قائمة اكبر ٢٠٠ شركة	المبيعات الاجمالية لعام ١٩٧٢ .	الارباح الصافية لعام ١٩٧٢ .
Standard Oil of Indiana	١٥	٤،٥٠٣	٣٧٤
Continental Oil	٢٤	٣،٤١٤	١٧٠
Signal Companies	٩٦	١،٤٣٨	٤٠
Amerada Hess	١٠٧	١،٣٣٣	٢٦
		١٠،٦٨٨	٦١٠

رغم ان شركتي Continental (&) S. Oil of Indiana هما خامس وسادس شركة نفط في امريكا فان مجموع مبيعات الشركات الصهيونية الاربع والبالغ عشرة مليارات من الدولارات لا يمثل سوى ١٢٪ من مجموعات مبيعات اكبر عشرين شركة نفط في امريكا والبالغ ٧٧ مليار دولار (تؤمن تلك الشركات اكثر من ٩٠٪ من انتاج القطاع) واكثر من ذلك فان المبيعات الاجمالية للشركات الصهيونية الاربع لا تمثل سوى ٢٢٪ من مجموع مبيعات اكبر اربع شركات نفط في امريكا (والعالم) والبالغ ٤٤ مليار دولار ! (هذه الشركات هي : (Mobil Oil, Exxon, Gulf Oil, Texaco من الذي يقف وراء الشركات الصهيونية الاربع ؟

اسم الشركة	رئيس مجلس الادارة	بعض المعلومات الاضافية
Standard Oil of Indiana	John E. Swearingen	اكبر المساهمين البليونير الصهيوني Blaustein
Continental Oil	John G. McHean	تسيطر على الشركة مجموعة من الرأسماليين الصهاينة :- K.L. Isaacs, P. Malozemoff J.E. Kincher, H.W Blauvelt F. Pace وغيرهم .
Signal Companies	F.N. Shum Way	اكبر المساهمين الراسمالي الصهيوني : S.B. Mosher
Amerada Hess	Leon Hess	اكبر المساهمين الراسمالي الصهيوني : Leon Hess

حول بعض الشركات الصناعية الصهيونية الاخرى :

يلعب الرأسمال الصهيوني دورا هامشيا في بعض القطاعات الصناعية الهامة خفيفة كانت (كالورق والخشب والزجاج والتبغ) ام ثقيلة (الحديد والصلب ، تحويل المعادن ، الالات والتجهيزات المعدنية ، الطائرات والفضاء ، والاسلحة الحديثة) وفي كثير من تلك القطاعات لا تتعدى حصة الشركات الصهيونية ١٠٪ من ناتج القطاع . رغم ذلك فان الرأسمال الصهيوني يسيطر على بعض الشركات الكبرى التي تعمل في هذه المجالات :

اسم الشركة	رقمها في قائمة اكبر ٢٠٠ شركة صناعية اميركية .	المبيعات الاجمالية لعام ١٩٧٢ .	الارباح الصافية لعام ١٩٧٢ .
Chrysler	٥	٩،٧٥٩	٢٢٠
Continental Can.	٤٩	٢،١٩٢	٣٩
Owens Illinois	٨١	١،٦٣٦	٦٩
Singer	٤٧	٢،٢١٧	٨٧
General Dynamics	٨٧	١،٥٢٩	٢٤
Inland Steel	٩٣	١،٤٦٩	٦٦
Bab Cox & Wilcox		٩٥٥	٢٥
		١٩،٧٤٦	٦٠٢

من الجدير بالملاحظة بالنسبة لتلك الشركات ان Continental Can. هي ثاني اكبر شركة امريكية لانتاج غلافات وعلب المواد الغذائية المجففة و Singer اكبر شركة في العالم لانتاج الات الخياطة وOwens Illinoisثاني شركة امريكية لانتاج الزجاج ، و General Dynamics من اكبر الشركات الامريكية لانتاج الطائرات والسفن الحربيه ... وحول هوية الرأسماليين الصهاينة الذين يقفون وراء هذه الشركات نورد المعلومات التاليـة : —

اسم الشركة	رئيس مجلس الادارة	بعض المعلومات
Singer	Donald P. Kincher	لا تزال تسيطر على الشركة عائلة : Singer الصهيونية الامريكية .
Continental Can.	Robert S. Hat Field	هذه الشركة تقع في دائرة نفوذ كتلة « وول ستريت » الصهيونية .
Owens Illinois	Raymon H. Mufford	نفس الملاحظة السابقة مع ذكر للنفوذ المستمر الذي تتمتع به عائلة Levi الصهيونية .
General Dynamics	David Levis	يسيطر عليها البليونير الصهيوني: Henry Crown بالتعاون مع شريكه الصهيوني : — Nathan Cumings رئيس مجلس ادارة : — Consolidated Foods
Ivland Steel	Frederick G. Jaicks	يسيطر عليها الراسماليون الصهاينة : K.L. Isaacs- F. Schneides P. –Malozemof.
Kraft co Corp.	William O. Beers	تقع هذه الشركة في دائرة نفوذ بنك : Manufacturers Hanover Trust

بعض الاستنتاجات حول مركز ودور الراسمال الصهيوني في الاقتصاد الامريكي :

لا بد لنا الان من ان نحاول اجمال وتلخيص التحليل التفصيلي الذي قدمناه فيما سبق للدور الذي يلعبه الرأسمال الصهيوني في مختلف قطاعات وفروع الاقتصاد الامريكي :

الكتــل الصهيونية

سوف نبدأ بتقديم جدول يوجز الثقل الاقتصادي النسبي للكتل الصهيونية التي تملك كيانا مستقـلا والتي تعرضنا لها في مجرى هذا الفصل ، مع توزيع حجم اعمالها حسب القطاعات الاقتصادية الرئيسية:

الكتلــة	مــال	تجارة	نقــل	خدمــات	صناعــة	المجمــوع
« وول ستريت »		١٨،٦٧٠	١،٦٧٠		١٧،١٥٦	٣٧،٤٩٦
Manufacturer Hanover Trust	٢٠،٧٥٨				٢٤،٢٥٩	٤٥،٠١٧
Western Bancorporation	١٥،٢١٤			٥،٢٤١	٢،٨٢١	٢٣،٢٧٦
California Group	١٣،٠٥٧					١٣،٠٥٧
Norton Simon		١،٤٧٧			٦،٣٨٥	٧،٨٦٢
MIT			١،٠٩٤	١،٤٠٣	٤،٤٥٠	٦،٩٤٧
المجموع العام	**٤٩.٢٩**	**٢٠،١٤٧**	**٢،٧٦٤**	**٦،٦٤٤**	**٥٥،٠٧١**	**١٣٤،٦٥٥**

نستنتج من الجدول السابق الملاحظات الاساسية التاليــة :

١ — لا تزال البيوتات المالية الكبرى في نيويورك ، والتي ذكرناها في بداية هذا الفصل) القطــب الاساسي للرأسمال الصهيوني الامريكي بالفعــل فان حجم الاعمال الاجمالي للشركات التابعة لهــذا القطب مباشرة او عبر بنك Manufacturers Hanover ، يبلغ اكثر من ٧٢ مليار دولار اي من مجمل حجم اعمال الكتل الصهيونية المذكورة .

٢ — تشكل مجموعه « كاليفورنيا » بشقيهــا ، (الشركات الثلاث Western Bancorporation القطب الثاني من حيث الاهمية اذ يبلغ حجم اعمالها الاجمالي اكثر من ٣٦ مليون دولار اي ٣٠٪ مــن محمل حجم اعمال الكتل الصهيونية .

٣ — يمكننا من ثم ان نستنتج ان الرأسمــــال الصهيوني في امريكا يتمركز اساسا بين ايــــدي البرجوازية اليهودية الكبرى في نيويورك والتي دخلت الى صنوف الطبقة الحاكمة الامريكية في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن. لكن بدأ بنمو في الطرف الثاني من الولايات المتحدة ، في جنوب كاليفورنيا ، وفي الاربعينات والخمسينات من هذا القرن ، قطب صهيوني اخر يرتكز على صناعات السليـــة والترفيه على البناء والمقاولات ، على النشاطات المصرفيـــة والتأمينية . ومن ناحية اخرى برز في السنوات العشر الاخيرة صهاينة مستقلون حديثو النعمـــة استطاعوا ان يبنوا لانفسهم بسرعة امبراطوريــات لا بأس بحجمها وبسرعه نموها ا منهم Norton Simon مجموعة الـــ Sanl Steinberg — M.I.T. — Eli M. Black وغيرهم) .

٤ — تحتل النشاطات التجارية والمالية حيزا من اعمال الكتل الصهيونية يفوق بشكل ملحـــوظ الحيز الذي تحتله تلك النشاطات في الاقتصــاد الامريكي عامة . ولكن لا بد ان نؤكد ان هــــذا الحيز اقل بما اعتادت ان مصوره الاوصاف التقليدية للنشاطات الاقتصادية الصهيونية . ولا بد ان نشير ايضا الى ان النشاطات الصناعية تستأثر بالحيز الأساسي من اعمال الكتل الصهيونية الجديـــدة الصاعدة . واخيرا اذا اردنا ان نأخذ فكرة عن مكانة اكبر كتلة صهيونية مكونة (كتلة وول ستريت — منفكترز) . بين الكتل الاقتصادية الرئيسية في امريكا يأتي الترتيب على الشكل التالي :

	المبيعات الصناعية	الموجودات المالية	المجموع
كتلة « روكفلر »	٥٣	٨٠	١٣٣
كتلة « مورغان »	٥٤	٣٣	٨٧
كتلة « وول ستريت» منفكترز الصهيونية	٤١	٢٠	٦١
كتلة «مللون ـ دوبون»	٢٥	١٠	٣٥
مجموع الكتل الاربع	**١٧٣**	**١٤٣**	**٣١٦**

التوزيع القطاعي للرأسمال الصهيوني

في الجدول التالي نحاول ان نعطي فكرة شاملة عن **التوزيع القطاعي للرأسمال الصهيوني** موجزين التحليل الذي قمنا به في هذا الفصل لاهم القطاعات الاقتصادية التي يتواجد فيها هذا الرأسمال ولا بد بالتذكير ان هذا الجدول يأخذ بعين الاعتبار ليس فقط الشركات التابعة للكتل الصهيونية المحددة (كما ظهرت في الجدول السابق) بل مجمل الشركات التابعة للرأسمال الصهيوني بما فيها العديد من الشركات التي يسيطر عليها رأسماليون صهاينة افراد او عائلات والتي لا ترتبط مباشرة بأي من الكل التي استكشفنا معالمها ـ يهدف الجدول اذا الى اعطاء صورة اجمالية لمكانة الرأسمال الصهيوني في الاقتصاد الاميركي وفي قطاعاته الاساسية :

القطاع الصناعي :

الفــرع	عدد الشركات الكبرى	عدد الشركات الصهيونية	مبيعات الشركات الصهيونيــة	ارباح الشركات الصهيونيــة	حصتها من حجم اعمال الفرع .
المواد الغذائية والمشروبــات	٢٦	١٣	٢٢،٢٦٠	٧٠٥	٪٦٥
نسيج والبسه	١٠	٧	٥،١٦٧	١٢٢	٪٦٠
المعادن غير الحديدية	١٢	٧	٦،٢٨٠	٢٧٩	٪٥٠
الصناعــات الكهربائية والالكترونية	١٨	٩	١٩،٠٩٠	٩٥١	٪٣٨
الصناعات الكيمائيه المركبــة	٢٧	٨	١٠،١٧١	٨٣٩	٪٣٨
الصناعات الكيمائية الاساسية	١٠	٢	٥،٤٨٦	٣٢٧	٪٣١
النفط	٢٠	٤	١٠،٦٨٨	٦١٠	٪١٣
صناعات مختلفة	ــــ	٦	١٩،٧٤٦	٦٠٢	ــــ
مجموع القطاع الصناعي		**٥٦**	**٩٩،٨٨٨**	**٤،٤٤٠**	

نود اولا ان نعطي الايضاحات التالية :

١ ــ المقصود « بالشركات الكبرى » (في العمود الثاني) هو عدد من الشركات تؤمن في الفرع المعني اكثر من ٧٠٪ من حجم الاعمال الاجمالي . ان كبر او صغر هذا العدد يشير الى مدى تمركز هــذا القطاع ودرجة نزوعه الى وضع شبه احتكاري .

٢ ــ المقصود « بالشركات الصهيونية » (فــي العمود الثالث) هو هذا القسم من « الشركــات الكبرى » الذي يسيطر عليه الرأسمال الصهيوني .

٣ ــ ان النسب الواردة في العمود الاخير ليست بالطبع سوى تقديرات تهدف الى اعطاء فكــــرة واضحة عن الحصة التي تستأثر بها الشركـــــات الصهيونية من الانتاج الاجمالي للفرع المعني .

وبعد هذه الايضاحات ننتقل الى الملاحظـــــات الاساسية :

١ ــ يتوزع التواجد الصهيوني في القطــــاع الصناعي الاميركي اساسا على ثلاثة محــاور : الصناعات الخفيفة التقليدية (مواد غذائيــة + نسيج) حيث تبلغ مبيعات الشركات الصهيونيـــــة

٢٨ مليار دولار اي ٢٨٪ من مجمل مبيعات الشركات الصناعية الصهيونية .

ــ الصناعات الكهربائية والالكترونية (فرع حديث العهد وسريع النمو) حيث تبلغ المبيعات ١٩ مليار دولار اي ٢٢٪ من مجمل مبيعات الشركات الصناعية الصهيونية .

ــ الصناعات الكيمائية بمختلف مراحلها حيث تبلغ المبيعات ١٥،٥ مليار دولار اي ١٥،٥٪ من مجمل مبيعات الشركات الصناعية الصهيونية .

هكذا نكون حصة هذه المحاور الثلاثة من مجمل القطاع الصناعي الصهيوني ٦٥٪ من المبيعات .

بالطبع مقابل هذا التمركز في القطاعات الثلاثة ، نلاحظ غياب او ضعف الرأسمال الصهيوني في قطاعات لا تزال تلعب دورا بالغ الاهمية في الصناعة الامريكية ومنها ، الحديد والصلب ، تحويل المعادن ، صناعة الالات والمكينات ، انتاج السيارات والطائرات والسفن ، صناعة النفط ، صناعة الاسلحة ، والخشب والورق ، الكوتشوك ومشتقاته الاسمنت . ولا نقول بالطبع انه لا توجد شركات صهيونية تعمل في هذه المجالات لكن تقديراتنا هي ان حصتها من ناتج القطاعات المذكورة لا تتعدى العشرة في المئة في احسن الاحوال .

القطاع التجاري :

يسيطر الرأسمال الصهيوني ، عبر كتلة او عبر الرأسماليين الصهيونيين المستقلين على ٢٦ شركة كبرى للتسويق والتوزيع والتجارة الداخلية . وتقع هذه الشركات جميعا ضمن عداد اكبر ٥٠ شركة تجارية في الولايات المتحدة !!

في عام ١٩٧٢ حققت هذه الشركات الصهيونية مبيعات بلغت ٥٧ مليار دولار وارباحا صافية بلغت ١٠٢٢٦ مليون دولار . وبذلك تكون قد استأثرت بـ ٥٤،٥٪ من مبيعات و بـ ٦٠٪ من ارباح اكبر ٥٠ شركة تجارية في امريكا .

يمكننا اذا ان نستنتج بصورة شبه مؤكدة ان الرأسمال الصهيوني يسيطر على حصة من التجارة الداخلية الامريكية تتراوح ما بين ٥٠٪ و ٦٠٪ . ويشكل هذا التواجد الكثيف في القطاع التجاري احدى السمات التقليدية للرأسمال الصهيوني مع الاخذ بعين الاعتبار ان هذا النشاط لم يعد منذ وقت بعيد يمارس على مستوى المتجر او الشركة الصغيرة بل اصبح يتمركز في مؤسسات ضخمة تملك مئات المخازن والمتاجر الكبرى الموزعة عبر الولايات المتحدة . ولا يقل حجم اعمال او مستوى ارباح هذه الشركات عن حجم اعمال وارباح الشركات الصناعية والمصارف الكبرى بل يتعداها في بعض الاحوال .

من الجدير بالذكر ايضا ان كتلة « وول ستريت» تتميز عن الكتل الصهيونية الاخرى بامتلاكها شركات تجارية تؤمن حوالي ٤٠٪ من مبيعات الشركات الصهيونية ــ وتؤمن شركات مستقلة ٥٠٪ من تلك المبيعات اما الكتل الصهيونية الاخرى فتركز نشاطاتها اساسا في المجالين المالي والصناعي . هذه الوقائع والارقام والنسب تعني اذا ان الرأسمال الصهيوني يحتل مكان الصدارة في مجال التجارة الداخلية الامريكية عبر امتلاكه شبكات واسعة من المتاجر والمخازن الكبرى التي تغطي مجموع المدن الهامة والولايات الامريكية . ومن خلال سيطرته على جزء هام من التجارة الداخلية ، يملك الرأسمال الصهيوني تأثيرا لا يستهان به على مجمل الصناعات التي تنتج سلعا استهلاكية والتي تشكل الشركات التجارية وشبكات المخازن طريقها الرئيسي الى التسويق « الصناعات الغذائية ، النسيج والملبوسات والاحذية ، المفروشات ، الادوات المنزلية الكهربائية (غسالات ، برادات ، راديوات) الادوية المنتجات التجميلية .. » ولا بد ان نذكر ان الرأسمال الصهيوني يلعب دورا اساسيا ومباشرا في تلك القطاعات الصناعية الخفيفة والاستهلاكية .

القطاع المالي :

يتكون القطاع المالي من ثلاثة فروع اساسية ــ فرع المصارف ، فرع شركات التأمين وفرع المؤسسات المالية العامة .

* فيما يتعلق بشركات التأمين لا يلعب الرأسمال الصهيوني دورا يذكر ولا يتمتع بنفوذ مقرر في اي من اكبر ٥٠ شركة امريكية تتعاطى مختلف اشكال التأمينات ــ ونقدر ان حصة الرأسمال الصهيوني من حجم اعمال هذا الفرع قد لا تتعدى الخمسة بالمئة .

* فيما يتعلق بالمصارف ، يسيطر الرأسمال الصهيوني على اربعة بنوك من اصل اكبر خمسين مصرفا تجاريا في الولايات المتحدة .

اسم البنك	الموجودات عام ١٩٧٢	الارباح الصافية عام ١٩٧٢ .	معلومات اضافية
Manufacturer Hanover Trust	١٦،٣٢٦	٧٦،٥	تابع لكتلة « وول ستريت »
Western Bancorporation	١٥،٢١٤	٦٨،٦	تابع لكتلة « كاليفورنيا »
First Philadelphia Corp.	٤،٩٤٥	٣٨،٧	يملك ٤١،٦٪ من اسهم بنك : First International Bank of Israel وهو البنك الرابع في اسرائيل
Security National Bank	٢،١٨٥	١٢،٩	ملكه الرأسمالي الصهيوني : Eli M. Black الذي يعمل في حقل المشروبات والفاكهة المحفظة .
المجموع العام	٣٨،٦٧٠	١٩٧،٧	

يجدر الاشارة الى ان البنوك الاربعة تحتل على التوالي المرتبة الخامسة والسابعة والواحدة والعشرين والخمسين في قائمة اكبر ٥٠ بنك امريكي وان مجموع موجوداتها تمثل ١١٪ من مجموع موجودات البنوك الخمسين .

فيما يتعلق بالمؤسسات المالية العامة التي تعاطى الرهونات والنشاطات العقارية وبعض انواع التامينات والتسليف التجاري وغيرها فان الرأسمال الصهيوني يحتل موقعا هاما اذ يسيطر على ١١ شركة من اصل اكبر ٥٠ مؤسسة مالية في الولايات المتحدة وتنحصر تلك الشركات بين نيويورك (٥ شركات) وكاليفورنيا (لوس انجلس وبفرلي هيلز — ٦ شركات) فيما يلي قائمة بتلك الشركات مرتبة حسب حجم موجوداتها في عام ١٩٧٢ : —

اسم الشركة	الموجودات	الارباح الصافية	بعض المعلومات
Continental Corp.	٤،٤٣٢	١٢٦،٦	تابعة لبنك «Manufacturers»
H.F. Ahmanson	٤،٧٥٩	٤٦،١	يملكها البليونير الصهيوني : — Hyam Ahmanson
Great Western Financial	٤،٣٠٧	٣٨،٧	يسيطر عليها الرأسماليون الصهاينة B.Swig Louis Boyor & J.D.Shane
Transamerica	٤،٢٢١	٨٨	من كبار المساهمين الرأسماليين الصهاينة : Arthur & Victor Carter Krin
First Charter Financial	٣،٩٩١	٤٦،٥	يسيطر عليها رجل الاعمال الصهيوني Mark S. Taper
C. I. T. Financial	٣،٥٣٣	٨٥،١	يسيطر عليها احد كبار اعضاء كتلة « وول ستريت » : John Schiff
City Industries	٣،١٤٠	٦٩،٧	يسيطر عليها الرأسمالي الصهيوني: Robert Dowling الذي ينشط في مجال الصناعات الترفيهية .
Leasco Corp.	١،٣٦٤	٤١	يسيطر عليها الرأسمالي الصهيوني Sanl Steinberg وتعمل اساسا في حقل تأجير الكمبيوتر والاجهزة الالكترونية .

American International Group	١٠،٩٤	٤٤	يسيطر عليها الرأسمالي الصهيوني Maurice Greenberg وتعمل اساسا في حقل الملاحة والتجارة الدولية .
National General	١٦،٠٢٠	٤٥،٠٢	يسيطر عليها الرأسمالي الصهيوني: Eugene V. Klein
D.H. Baldwin	٨٤١	٩،٨	يملك نفوذا اساسيا فيها الرأسمالي الصهيوني : Jra Guilden
Bache	٧٦٢	٧،٣	تسيطر عليها عائلة Bache الصهيونية وتعمل اساسا في حقل تجارة الاسهم والسندات .
المجموع العام	**٣٣،٤٦٤**	٦٤٧	

يمثل المجموع العام لموجودات المؤسسات الماليه الصهيونية الاحدى عشرة ٣٣ مليار دولار اي مـا يوازي ٢٧٪ من مجموع موجودات اكبر خمسين مؤسسة مالية في الولايات المتحدة . ونستطيع القول ان الرأسمال الصهيوني يحتل في هذا المجال مركزا قويا ينمو باستمرار في السنوات الاخيرة وان نشاط اكبر الشركات الصهيونية العاملة في هذا المجال ينصب على التنمية العقارية والمقاولات وتأجير الالات الالكترونية وتمويل الصناعات الترفيهية في ولاية كاليفورنيا وبدرجة اقل في ولاية نيويورك .

جدول موجز لحجم اعمال الشركات الصهيونية في مختلف مجالات الاقتصاد الامريكي : —

المجال	حجم الاعمال (بمليارات الدولارات)	
الصناعة	١٠٠	١٨٪ من مبيعات اكبر ٥٠٠ شركة صناعية.
التجارة	٥٧	٥٥٪ من مبيعات اكبر ٥٠ شركة تجارية.
الخدمات	١٠	
المصارف	٣٨	١١٪ من موجودات اكبر ٥٠ مصرفا في امريكا.
المؤسسات المالية العامة	٧٢ ٣٤	٢٧٪ من موجودات اكبر ٥٠ مؤسسة مالية .
المجموع	**٢٣٩**	

ملحق الكتل الاقتصادية الامريكية

(ا) كتلة « روكفلر »

البنوك التابعة للكتلة	موجوداتها عام ١٩٧٢ (بمليارات الدولارات)
Chase Manhattan Pan Bank	٣٠
First National City Bank	٢٤،٣
First National City Bank of Chicago.	١١،٤
Wachovia Bank	٣،٣
	٧٩

الشركات الصناعية التابعة للكتلة	مبيعاتها عام ١٩٧٢ (بمليارات الدولارات)
Standard Oil of New Jersey	٢٠،٣
Mobil Oil	٩،١
I T T	٨،٥
Cater Pillar	٢،٦
Borden	٢،١
United Aircraft	٢،٠
Reynolds Tobacco	٢،٠
Burlington Industries	١،٨
Allied Chemicals	١،٥
N C R	١،٥
General Mills	١،٣
Anaconda	١،٠
Bruns Wick	٠،٦
Container Corp.	٠،٥
	٥٣

(ب) كتلة « مورغان » :

البنوك التابعة للكتلة	موجوداتها لعام ١٩٧٢ (بمليارات الدولارات)
Morgan Garanty Trust	١٦،٤
Banker's Trust	١٣،٣
Guard Trust	٣
	٣٢،٧

الشركات الصناعية التابعة للكتلة	مبيعاتها لعام ١٩٧٢ (بمليارات الدولارات)
General Electric	١٠،٢
General Telephone & Electronics	٩،٥
Socony Mobil Oil	٩،١
V.S. Steel	٥،٤
Con — Edison	٥،٢
Atlantic Rich Field	٣،٢
American Can.	٢
Cities Service	١،٨
Colombia Gas System	١،٤
American Cyanawid	١،٣
Olin Mathiesson	١،٢
Standard Brands	١،٢
Crown Zellerbach	١،١
Scotts Paper	٠،٨
Johns Mannville	٠،٨
	٥٤

(ج) كتلة « مللون — دوبون »

البنوك التابعة للكتلة	موجوداتها لعام ١٩٧٢ (بمليارات الدولارات)
Mellou National Bank & Girard Trust	٧،٤
First Boston Corp.	١،٤
	٨،٨

الشركات الصناعية التابعة للكتلة	مبيعاتها لعام ١٩٧٢ (بمليارات الدولارات)
Gulf Oil Corp.	٦،٢
E.I. Dupont	٤،٢
Philipps Petroleum	٢،٥
North American Rockwell	٢،٣
Boeing	٢،٢
Armco Steel	١،٩
TRW	١،٧
Alcoa	١،٧
Martin Marietta	١،٠
Pullman	٠،٧
Koppers	٠،٦
	٢٥،٢

مـراجعـــات

محجوب عمر ، **حوار في ظل البنادق** ، (دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٥)

[١]

مما لا شك فيه ان التحديد العلمي الموضوعي لطبيعة الكيان الصهيوني وتركيبه وظروف نشأته ، واتجاه تطوره ، من الامور الحاسمة في فهم طبيعة المرحلة التي تمر بها الثورة العربيـــة ، ووضع البرنامج السياسي الثوري الملائم مع هذه المرحلة ومناقضاتها الرئيسية والثانوية ، وكيفية حلها . وقد جاء كتاب « حوار في ظل البنادق » ليحسم النقاش حول عدد من المسائل الجوهرية مثل مفهوم « الامة » و« الطبقة » و« التاريخ » ، و« التجمع الصهيوني » ، ودحض نظرية المنـــادين بوجود « بروليتاريا اسرائيلية » و« طبقة عاملة يهودية » أو « أمة اسرائيلية في طور التكوين » .

ونبتت فكرة هذا الكتاب ، كما يذكر المؤلف ، اثر حوار استمـــر ثلاث ليال متواليـــة في صيف ١٩٧٠ ، وفي معسكر عمل دولي أقامته « فتح » بضواحي مدينة الكرك في جنـــوب الاردن ، وتم التعرض في هذا الحـــوار للأمة ، والطبقـــة ، والتاريخ ، والخصوصية ، ومستقبـــل فلسطين الديمقراطية . وظل الكتاب مؤجلا الى أن برزت قضية الاتحـــاد الشيوعي الثـــوري في فلسطـــين المحتلة ، ومحاكمة « الرفيق رامي ليفنه » بصفته عضوا في تنظيم « الجبهة الحمراء » ، الى جانب رفيقه يهودا اديف ، وقد بدا هذا الاخير أكثـــر وضوحا في موقفه من مقاومة الاغتصاب الصهيوني بالعنف والنضال من أجل فلسطين ديمقراطية . فازدادت فكرة الكتاب الحاحا كحوار مع « الرفاق الذي اتخذوا « موقفنا » ، وهكذا جاء الفصلان الاول والثاني « حوارا » مع الرفيق رامي ليفنه ، ورفاقه الذين يحملـــون نفس المـــواقف ، أو هم يقتربون منها أو تخطوها الى الافضل » .

وفي أعقاب حرب تشرين ، وبدء نضوج ثمارها ، « أصبح واضحا للجميع ان أي « حل » للتناقض الحاد والقائم والمستمر في فلسطين يبدأ في كل شكل من أشكاله من فلسطين ومن فعل شعبها » . وأتى خطاب الاخ أبو عمار في الامم المتحدة ليعزز فكرة الكتاب المركزية حول « فلسطين الديمقراطية » .

يضم الفصل الاول من الكتاب خطابا مفتوحا « الى الرفيق رامي ليفنه » ، وهو نقاش للكلمة التي ألقاها ليفنه خلال محاكمته في حيفا « بتهمة » انضمامه الى تنظيم « الجبهة الحمراء » . وينقسم حديث المؤلف مع ليفنه ورفاقه الى أقسام ثلاثة : « أولا — المواقف والافكار المشتركة . ثانيا — ملاحظاتكم على حركة فتح ، والمقاومة بشكل عام . ثالثا — ملاحظـــاتنا على مصـــدر الخطأ في بعض أفكاركم » .

وتشمل «المواقف والافكار المشتركة» (١) مفهوم الدولة العلمانيـــة الديمقراطية التي يعيش فيهـــا المسلمون واليهود والمسيحيون مع بعضهم البعض . وحيث سيكون الارض « للسواعد التي تحررهـــا بالسلاح » . كما ان هذه الدولة الديمقراطية هي أ — عربية بالضرورة ، ولكن « ليس معنى ذلك ان كل من ليس عربيا لا بد أن يغادر فلسطين » اذ ان عروبة الانســـان لا تقاس بديانته ، كما ان العروبة نفسها ليست « عرقية » ، اضافة الى ان الوطن العربي « عرف ويعرف أقليات غير عربية تعيش في مساواة كاملة مع العرب » . ب — ان هذه الدولة هي جزء أو ستكون جزءا من دولة عربية موحدة تقدمية كبرى ، ستنشأ « تتويجا لنضال الجماهير العربية من اجل التحرر والحريـــــة » (٢) العنف ، ويعتبر المؤلف الاتفـــاق على العنف ،

والدفاع عنه ، « نقطة التقاء ايجابية وهامة » و(لا يقلل منها أنكم تتحفظون « بضرورة توافر بعض الشروط ») . ويتصف هذا العنف بكونه سبيلا وحيدا لتحرير الارض المغتصبة ، وبأنــه « عنف جماهيري منظم » وهو « يتطور الى حرب شعبية شاملة وطويلة الامد تجند أوسع الفئات والقوى الجماهيرية . وسيكون هناك مكان في هذه الحرب لكل القوى الثورية العربية ، ويتوقع في مراحل مقبلة أن تساهم معنا وبنشاط فئات مــن الجماهير اليهودية التي قدمت الى الوطن المحتل .

٣) استقلالية الارادة الجماهيرية الثورية ، حيث تتجسد هذه الاستقلالية بتحرير الارادة الجماهيرية الثورية الفلسطينية من أي وصاية عربية أو غير عربية ، دون أن يعني ذلك دعوة « اقليمية » أي (« انفصالية » عن مجموع الامة العربية) . اذ ان الشعب الفلسطيني شعب عربي وقضيته قضية العرب جميعا . غير ان الجماهير الفلسطينية بحكم ظروفها التاريخيــة تمثل طليعة النضال العــربي ومحوره .

٤) الفصل بين الصهيونية وبين اليهود كيهود انطلاقا من اعتبار الصهيونية كحركة استعمارية استيطانية سياسية ، واليهودية كدين وليس كعرق خاص مميز أو « قومية مستقلة » . غير ان تمييز الصهيوني من غير الصهيوني في الوطن المحتل مسألة لا تتوقف عند مجرد اعلان « المستوطن » ، « انه ليس صهيونيا لكي يكون غير ذلك ، وانما يجب أن يناضل ضد الكيان الصهيوني ومن أجل القضاء عليه لكي يتحقق له فعلا التحرر من الصهيونية » .

أما « ملاحظاتكم على حركة فتح والمقاومة بشكل عام » فتنقسم الى مجموعتين : ١) النظرة الى « التجمع الاسرائيلي » وتقدير ليفنه ورفاقه انه « مجتمع قومي » ، وانه « مجتمع طبقي » . ٢) عدم وضوح بعض أفكار حركة فتح ومواقفها اليومية ، ويرجىء المؤلف المجموعة الاولى الى فصول تالية ، بينما يناقش المجموعة الثانيــة ملاحظة ، ملاحظة ، على حد تعبيره .

تتعلق المجموعة الثانيــة بالرد على ملاحظــات رامي ليفنه في خطابه أمام المحكمة حول : ١ ــ « الانتصار على اسرائيل والثورة الاجتماعية في العالم العربي . ٢ ــ الانتصار على « اسرائيل » ، وعلاقة الجماهير اليهودية بالايديولوجية الصهيونية . ٣ ــ الفصل بين الصهيونية والرجعية (العربية) . ٤ ــ العلاقات بين قيادات المقاومة والحكومــات الرجعية في المنطقة . ٥ ــ أعمال ارهابية ضد مواطنين أبرياء (!!) » .

ويمكن تلخيص هذا الرد بما يلي :

أولا : ١ ــ ان الانتصار العسكري على الدولة الصهيونية ليس حلما ، وانما هو ثقة وسعي لتحقيق انتصــار الثورة عبر سلسلة طويلة مــن المعارك المعتمدة على اسلوب حرب الشعب ، حيث سيؤدي ذلك ليس فقط الى تحرير الارض والجماهير العربية ، وانما أيضا تحرير اليهود أنفسهم مــن الابتزاز والقمع الصهيوني .

٢ ــ لا تفصل الثورة الفلسطينية بينها وبين الثورة العربية .

٣ ــ ان التغيير الاجتماعي العميق سيكــون نتيجة للثورة المسلحــة ضد الاستعمار وقــاعدته الصهيونية التي ستؤدي الى تفجير طاقات الجماهير العربية وتوحيدها .

٤ ــ ان « عملية » التحرير غير معزولة عن عملية التغير الاجتماعي في البلاد العربية فهي تؤثر فيها وتتأثر بها .

ثانيا ــ ان الفصل الحقيقي « بين الجمــاهير اليهودية المستغلــة في اسرائيل والايديولوجيــة الصهيونية » يكــون بأن تنفصل فعلا الجمــاهير اليهودية عن الصهيونية .

ثالثا ــ ان التناقض الرئيسي الذي يحكم المرحلة التاريخية الحالية للأمة العربية كلها هو التناقض بين هذه « الامــة » وبين الاستعمار وقــاعدته الصهيونية . غير ان حركة فتح ، بالمقابل ، لا تنصب نفسها بديلا للقوى الثورية في البلاد العربية ، كما انها لا تعمل بانعزال عنها .

رابعا : لا يمكن للثورة في كل الاحوال أن تضع على قدم المساواة « الكيان الصهيوني » وأي نظام عربي مهما بلغت درجة ارتباط هذا النظام العربي بالامبريالية . ولا يعني ذلك عدم النضال ضد ارتباط هذا النظام أو ذاك بالاستعمار على كل الساحات ، أو تأجيل هذا النضال . اذ ان الحلقة الرئيسية

للنضال ضد الاستعمار في الامة العربية وهي النضال ضد الكيان الصهيوني يرفع حدة الصدام مع الاستعمار على كل الساحة العربية وبمختلف المستويات . وعبر هذا النضال يصار الى عدم بعثرة الجهود الثورية المعادية للكيان الصهيوني ، وتكشف الطبيعة اللاتاريخية لهذا الكيان .

خامسا : ان الثورة لا توافق على « الانتقائية » في تقييم أعمال العنف ، فتعتبر حرب اكتوبر مبررة وعادلة ، كما تعتبر معركة فندق سافوي مبررة وعادلة ، وليست « ارهابية » .

ويدور الفصل الثاني حول المفاهيم والثمار التي ولدت بعد انطلاق الكفاح المسلح الفلسطيني ، والذي طرح سؤالا ملحا أمام الجميع : « من الذي يحتل موقعا أصيلا في التاريخ : فلسطين أم الكيان الصهيوني المسمى « اسرائيل » » ؟

وبينما برزت أفكار تقترب أكثر فأكثر من التصور الصحيح للقضية ، برزت أفكار جديدة ذات صلة بالاطروحات الماضية ، وذلك حول :

(١) تمايز « مجتمع اسرائيلي » عبر السنوات بكل تناقضاته الداخلية وقوانين حركته الخاصة به « والتي خلقت امة اسرائيلية في طريق التكوين». أو حول الصراع في المنطقة بما هو « صراع قائم بشكل أفقي بين قوميتين مختلفتين » وصولا الى « ان النضال يكون فقط على أساس تحالف الشغيلة العرب واليهود ضد ما يسمى بالبرجوازية العربية واليهودية » . الى جانب أفكار أخرى يعلنها المؤلف خاطئة من الناحية التاريخية والقومية والطبقية .

فالتجمع الصهيوني ظاهرة مصدرة من العالم الخارجي الى الوطن العربي وهو بذلك ظاهرة مؤقتة ودخيلة بينما نرى فلسطين هي الظاهرة التاريخية الاصيلة . ومن ثم فان تاريخ هذه الظاهرة ليس تاريخا اجتماعيا متمايزا لا في فلسطين ولا حتى خارج فلسطين ، ولا هو امتداد لحركة مجتمع متميز طورته تناقضاته الداخلية الى ما هو عليه الآن . فما هو اذن القانون الذي يحكم حركة الواقع القائم حاليا على أرض فلسطين المحتلة ؟

قبل كل شيء ، ان النزاع القائم في فلسطين بشكل أفقي انما هو نزاع بين قومية واحدة هي العرب الفلسطينيين وبين قوة غازية استعمارية هي التجمع الصهيوني ، وبالتالي فهو ليس نزاعا بين قوميتين . وقانون هذا الصراع هو القانون العام الذي يحكم الصدام بين حركة التحرر الوطني العالمية وبين الاستعمار العالمي .

وفي الفصل الثالث يناقش المؤلف الافكار المتداولة حول « القومية اليهودية » و« القومية الاسرائيلية » .

ويوضح المؤلف ان الدعوة الصهيوبية الى دولة يهودية ظهرت في مرحلة « كان الرأسمال فيها يتخطى حدوده « القومية » ... منتقلا الى مرحلة الاحتكار والامبريالية ... أي ان الدعوة الصهيونية هي أول الدعاوى الفاشية في عصرنا الحديث » . ويثبت المؤلف فشل هذه الدعوة في تجسيد «القومية اليهودية » عبر الدولة الصهيونية وذلك انطلاقا من النتائج التي برزت بعد مرور سبعة وعشرين عاما : «(١) بروز التقسيم العرقي في صفوف اليهود أنفسهم . (٢) اتساع الهوة بين اليهود داخل الكيان الصهيوني واليهود خارجه . (٣) — تعميق الخلافات الدينية وتنوع التفسيرات المذهبية .

اذا كان الامر كذلك ، فما هو مستقبل ظاهرة التجمع الاسرائيلي ؟ ويتوسع المؤلف في هذه المسألة انطلاقا من أن هذا التجمع يفتقر الى شروط تمايزه التاريخية ، بحيث يمكن ان يشكل أمة ، أو حتى يشكل ظاهرة متمايزة . اذ ان للأمة أو أي جماعة بشرية متمايزة ، شروطا معينة لا بد من توفرها لها ، وهي : (١) تآلف تاريخي . (٢) لغة واحدة . (٣) استقرار على أرض محددة ، حدودها اللغة والتبادل والسوق والانتاج ، واستخلاص الثروة على مدى تاريخي . (٤) ثقافة مشتركة تعبر عن تكوين نفسي مشتركة . (٥) اقتصاد مشترك بحيث يمكن تمييزه في الواقع الاقتصادي المتشابك ، حتى وان كان خاضعا أو تابعا .

وبناء على هذه الشروط يخلص المؤلف الى ان التجمع الاسرائيلي يعاني « تمايزا » لا « تآلفا » . وهذه الحركة في اتجاه اللاتآلف ستتفاقم للاسباب التالية: أ — لم تأت الجماعات التي قدمت الى فلسطين من بلد واحد . ب — لم تصل هذه الجماعات الى فلسطين في وقت واحد ، ولا حتى في اوقات متقاربة ولا متشابهة.

ج — لم تصل هذه الجماعات في ظروفمتشابهة: لا من حيث دوافع « المجيء » ولا « ظروف المجيء » المحلية والعالمية ، ولا ظروف « الاستيعاب » في فلسطين المحتلة . د — ان وسائل « الاستيعاب » الصهيونية قد فشلت ، وستفشل .

اما شرط توفر اللغة الواحدة فهو مفقود لكون اللغة العبرية « غير السائدة » وانما الرسمية والمستخدمة الان هي لغة قديمة ، ميتة ، واعاد الصهاينة احياءها قصدا ، وهو عمل ضد التاريخ ، ولذا لن ينجح . وتقول الخبرة التاريخية انه لا يمكن صك لغة حسب الطلب ، لانها نتاج النشاط التاريخي للجماهير .

ويسهب المؤلف في تحليل الشروط التي لا بد من توفرها لكي يمكن القول بان هذه « الارض » هي وطن هذا «الشعب» . وينظر الى هذه الشروط من زاوية وعي الطبيعة ووعي الحياة الاجتماعية كنتاج للتطور الاجتماعي وينشأ عن متطلبات الانتاج الاجتماعي ويوجد في المجتمعفقط وللمجتمع، ولهذا كان وعيا اجتماعيا . وان الشعور بالانتماء الى ارض بعينها .. وطن ، هو جزء من الوعي الاجتماعي الذي يجمع بين الوعي الاعتيادي والوعي العلمي بالواقع ، وفقا لتعبير انجلز . ويخضع هذا « الوعي الاجتماعي » لعملية التبادل الجدلية في التأثر والتأثير بالواقع الفعلي . ومن ثم يبدو جليا خطأ الفكرة القائلة « بالقومية اليهودية » ، فلم يحدث ان كان « لليهود »نشاط اجتماعي منفصل عن بقية الشعوب التي عاشوا بينها وفوق نفس الارض معها .

فهل يمكن ان تقوم الارض التي اغتصبها الصهاينة بدور الوطن لهم ؟ ويأتي الجواب بالنفي لان : ١ — ارض فلسطين لم تبق طوال الفي عام في الوعي الاجتماعي للذين قدموا الى ارضها بعد ذلك . ولم تكن دافعا لهم بالمجيء . ٢ — لا يمكن ان يدعي احد انهناك تصورا واحدا لحدود هذا « الوطن » لدى القاطنين على ارض فلسطين المحتلة . ٣ — لا يمكن ان تنشأ بين هذا التجمع البشري الصهيوني وبين الارض القاطن عليها علاقة تاريخية من خلال النشاط الانتاجي له .

وهل يمكن لتجمع يفتقر الى التآلف التاريخي واللغة الواحدة والارض المحددة كوطن ان تكون له ثقافة مشتركة ؟

ان فرض لغة ميتة ، وبالتالي غياب لغة واحدة ، انما يعني ايضا غياب ثقافة مشتركة واحدة لهذه الجماعات . علاوة على الفروقات الثقافية بين الاشكنازيم والسفاراديم ، وانتماء كل منهما الى خلفيات ثقافية متفاوتة ، ووجود التضارب الثقافي داخل هاتين المجموعتين .

ويبقى ان اقتصاد الكيان الصهيوني قد قام على تبرعات ، وديون ، ورؤوس اموال مصدرة ، وارض مغتصبة . اي في كلمات اخرى اوضح ان « اسرائيل » هي مجرد فرع بنك او قاعدة عسكرية او منشأة من المنشآت التي تقيمها الامبريالية في مكان ما ، وتصرف عليها لتحقيق هدف اخر . ويقر الجميع بان « الاقتصاد » الصهيوني كله في فلسطين المحتلة ، بما في ذلك القطاع الخاص ، يعتمد على المساهمات الخارجية ، وهذه تتدفق اساسا عبر مسالك تسيطر عليها الدولة .

من هنا يطرح المؤلف ان ليس امام التجمع الصهيوني الحالي ، كظاهرة عابرة في تاريخ المنطقة الا **التمثل** في فلسطين العربية الديمقراطية.

ويصل المؤلف في الفصل السابع الى « طرح تقدير « جديد » لطبيعة الصراع الذي يحكم الكيان الصهيوني من داخله ، اي طبيعة التناقض الداخلي فيه ، وذلك باعتباره صراعا « عرقيا » لا « صراعا طبقيا » ، وان هذا التجمع البشري ليس مقسما الى طبقات (بالمعنى العلمي للكلمة) وانما هو مقسم وسينقسم الى مجموعات بشرية تتمايز في البداية على اساس التقسيم « العرقي» (اشكنازيم وسفاراديم) لتتطور من خلال هذا الصدام الى مجموعتين واضحتين « اوروبية » و « شرقية » . تنضم الاخيرة منها الى المعسكر العربي انتماء وتعرضا للقهر . ومن ثم نضالا وثورة » .

ويبنى هذا الاستنتاج على اساس ان الطبيعة الاستيطانية للعدو الصهيوني تتناقض حتما مع فكرة تقسيم المستوطنين الصهاينة الى مستغل ومستغل ، وما يترتب على هذه الفكرة من خطة

للتحالفات ، وبالتالي خطة للقتال . ويمثل المستغل كل مستوطن ، اما المستغل فهو كل عربي فلسطيني طرد من ارضه وحرم من حقوقه .

ولا ينقسم التجمع الصهيوني الى طبقات انطلاقا من التعريف الذي اعطاه لينين للطبقات وتحديد ماركس لها في البيان الشيوعي .

يقول لينين : « ان الطبقات هي تسمية لفئات كبيرة من الناس تختلف بالمكان الذي تحتله تاريخيا في نظام معين للانتاج الاجتماعي وبعلاقتها (التي تتعزز في اغلب الاحيان وتتشكل في القوانين) بوسائل الانتاج ، وبدورها في التنظيم الاجتماعي للعمل . وبالتالي لطرق الحصول على حصصها من الثروة الاجتماعية وبمقدار هذه الحصص . والطبقات هي فئات من الناس يستولي بعضها على عمل البعض الاخر وذلك لاختلاف المكان الذي تحتله في قطاع معين من الاقتصاد الاجتماعي » .

وقد حدد ماركس في البيان الشيوعي : « ان الطبقة الاجتماعية لا تتشكل بصورة نهائية الا بظهور التضامن الطبقي ، بالاضافة الى وحدة الدور في الانتاج ، والمصالح الاقتصادية المشتركة ويفترض هذا التضامن الطبقي وجود الوعي الطبقي الذي لا يمكن بالتالي ايجاده الا عن طريق الايديولوجية الطبقية » .

ويسحب المؤلف هذين التعريفين على التجمع الصهيوني في فلسطين ويخرج باستنتاج ان هذا التجمع لا يوجد فيه تمايز طبقي بالمعنى العلمي ، كما انه لا يوجد احتمال لان تتشكل فيه طبقات. وبالتالي :

١ — ليس هذا التجمع البشري ظاهرة ايجابية تاريخية .

٢ — لا توجد ضمن هذا التجمع اي مجموعة بشرية يمكن القول بانها تتمتع « بثبات » نسبي، فالهجرة والهجرة المضادة عملية مستمرة منذ قيام هذا الكيان .

٣ — لا توجد اية فرصة يمكن ان تتشكل فيها طبقات داخل هذا التجمع .

٤ — ان الطبقة العاملة الصهيونية الاسرائيلية المزعومة لا تفتقر فقط الى ثبات في التكوين النفسي ، وانما هي تفتقر حتى الى الثبات في علاقاتها بادوات الانتاج .

٥ — لا يمكن القول بوجود طبقة « برجوازية » في التجمع الصهيوني .

٦ — ان الانقسام العرقي بين سكان هذا الكيان يصبغ الصراع القائم في داخل الكيان بصبغة عنصرية .

٧ — ان الحديث عن الاغنياء والفقراء في التجمع الصهيوني صراع على اقتسام معونات واموال مستقدمة من الخارج وليس على اقتسام ثروات البلاد المحلية .

٨ — ان الصراع الطبقي في المجتمعات التاريخية الرأسمالية يؤدي الى قيام ديكتاتورية البروليتاريا. ولا يمكن ان يؤدي الصراع داخل التجمع الصهيوني الى هذه النتيجة ، بل الى تقويض هذا الكيان كله .

٩ — من هنا ايضا الفرق بين دولة فاشية كالمانيا النازية ، والدولة الصهيونية . في الاولى ناضلت البروليتاريا من اجل المانيا الديمقراطية، اما في الثانية فان الجماهير العربية ، وكل القوى الثورية والمقهورة تناضل من اجل اسقاط الكيان الاستعماري الصهيوني كله ، اي من اجل فلسطين ديمقراطية .

ويضم الكتاب ، علاوة على ذلك ، خطاب الاخ القائد ياسر عرفات في الجمعية العامة للامم المتحدة في دور انعقادها العادي التاسع والعشرين ولدى افتتاح المناقشة الخاصة بـ « قضية فلسطين » في الجمعية العامة ، وذلك في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٤ . كما يضم ملحقين وهما بمثابة مقالين نشر احدهما في مجلة «صوت عمال الاردن » ، في ٢٤ — ١١ — ١٩٧٢ ، والاخر في العدد الخاص ٤١ — ٤٢ من شؤون فلسطينية بمناسبة الذكرى العاشرة للانطلاقة المسلحة (كانون الثاني — شباط ١٩٧٥) ولا يخرجان في مضمونهما عن فصول الكتاب الرئيسية .

يبقى ان نورد هذه الملاحظات :

١ — يبدو ان المؤلف يعتبر ان النضال الامي يتحقق بانضمام مناضلين من غير العرب الى صفوفنا . وذلك كما ورد في ص ٤٧ : « اننا نرحب بل ونسعى لان يكون بين صفوفنا مناضلون من غير العرب لنحقق بالفعل الموضوعي جذورنا في حركة النضال الامي ضد الاستعمار .. » .

يحتاج هذا المفهوم للنضال الامي الى تعميق اكثر ، حتى لا يصار الى فهمه وكأن المؤلف يعتقد ان الاممية والنضال الامي هما مجرد انخراط مناضلين من غير العرب في صفوف ثورتنا . ذلك ان النضال الامي الصحيح يتحقق بالفعل الموضوعي بالنضال المشترك ضد الامبريالية والاستعمار والاستعمار الجديد لكل شعب على ارضه وفي مواجهة اعدائه الرئيسيين . ولا نظن ان المؤلف يقصر فعلا المسألة على الجانب الاول منها .

٢ — اذا كان صحيحا ان الحديث عن الاغنياء والفقراء في التجمع الصهيوني وعن الصراع بينهم ليس دليلا على « صراع طبقي » لانه صراع على اقتسام معونات واموال مستقدمة من الخارج وثروة البلاد المحلية التي مصدرها الارض المسروقة من اصحابها العرب الفلسطينيين ، فهو بالمقابل ليس في التحليل الاخير امتدادا «للانقسام الحضري بين شعوب البلاد الصناعية الغنية وشعوب البلاد الزراعية » ، اذ ان الصراع بين شعوب البلاد الصناعية وشعوب البلاد الزراعية ليس صراعا عنصريا ، بل هو صراع استقلالي تحرري ثوري ، وبالتالي يختلف في مضمونه عن الصراع بين الاشكنازيم والسفارادييم . ولا يصح مطابقتهما ووضعهما على الصعيد نفسه .

٣ — تكثر في الكتاب الاخطاء المطبعية ولا شك بان المؤلف لا يتحمل مسؤولية هذه الاخطاء ، وقد طبع الكتاب اثناء الاحداث الدامية الاخيرة في لبنان مما جعل طباعته متسمة ببعض السرعة، وعدم قدرة المؤلف على مراجعتها .

يبقى ان هذا الكتاب مادة غنية وخصبة ، ويشكل محاولة جريئة ورائدة في تفسير معنى الامة والطبقة وطبيعة التجمع الصهيوني و « تطوره » ومستقبله . ونحن حتما لم نتناول كل ما يضمه من حوار وطروحات وافكار ، وهو بلا شك كتاب تثقيفي ضروري لكل ثوري مناضل ومقاتل في صفوف الثورة الفلسطينية والعربية .

يوسف شويري

[٢]

يقع الكتاب في ١٨٤ صفحة ويشتمل على مقدمة وأربعة فصول بالاضافة الى ملحقين وهما مقالان سابقان للكاتب يدوران حول موضوع الكتاب . صدر الكاتب كتابه بخطاب الاخ أبو عمار في الامم المتحدة ، وهو تصدير القصد منه الايحاء للقارىء أن مواضيع الكتاب تدور في اطار هذا الخطاب . وقد أكد الكاتب هذا الانطباع عندما أشار في المقدمة الى أنه استأذن الاخ أبو عمار في نشر الكتاب وفي تصديره بخطابه في الامم المتحدة (ص ١٠) .

وقبل أن أبدأ في عرض ومناقشة الآراء التي اشتمل عليها الكتاب ، لا بد من الوقوف أمام نقطة منهجية غاية في الاهمية ، وهي اشارة الكاتب في المقدمة الى أن فصول الكتاب « وان استندت والتزمت بمبادىء وأهداف وأساليب حركة التحرير الوطني الفلسطيني — فتح — الا انها ولكونها موجهة لقطاع معين من المعنيين بالقضية ، هو قطاع الملتزمين أو المعلنين التزامهم بالماركسية اللينينية كمنهج وكفكر ، فانها ، أي فصول الكتاب ،

تقدم أفكار الثـورة الفلسطينية من زاوية رؤيـة حاولت أن تكون ماركسية لينينية ، توحيدا للغة الحوار دون المساس بجوهر الافكار » (ص ١٠) . ان هذه الاشارة من الكاتب تعني ، ان لديه لغتين للحوار ، لغة ماركسية لينينية ، ولغة أخرى ، غير ماركسية . وكل لغة توجه لقطاع معين وتستخدم بالطريقة التي تناسب الكاتب . ولا أدري كيف يمكن الالتزام بلغتين للحـوار في مناقشة قضية مـن القضايا . هل القضية مجرد لعب بالالفاظ والكلمات واستخدامها بهذه الطريقة أو تلك ، ام انها قضية منهج بالاسـاس ؟ وهذا ما جعلني أؤكد بعد قراءتي للكتاب ، ان محاولة الكاتب أن تكون رؤيته ماركسية لينينية فشلت ، وانه كان أسير نهج انتقائي قام على فهم مشوش وسطحي للماركسيـة . وهذا واضح في استخدامه لبعض المقولات الماركسية ، التي استخدمها وفسرها كما يريد بعد أن قطعها عن سياقها العـام . اضافة الى الصـاقه مواقف بالماركسية غريبة عنها ، مثل قوله « ان اللينينية تؤيد أي وحدة حتى ولو قامت بها قوى رجعية » (ص ٦٢) ، وهو تعميم غير صحيح لمواقف اتخذها ماركس وانجلز ولينين من بعض الحركات القومية في أوروبا ضمن ظروف تاريخية معينة . فماركس مثلا ، أدان الحركـة القومية التشيكيـة سنة ١٨٤٨ ووصفها أنها « المخفر الامـامي للقيصرية الروسية » ، في حين أيد ماركس وانجلز حركة توحيد المانيا ، ووصف انجلز في احدى رسائله لماركس ، ما يقوم به بسمارك مـن أجل توحيد المانيا بأنه « جزء من عملنا » . وهذا هو جوهر الماركسية الـذي أكده لينين بقولـه « ان روح الماركسية كلها ، نظامها كله ، يقضي بأن تدرس كل اطروحة من طروحاتها من المنظور التـاريخي فحسب ، وبالارتبـاط بتجربة التاريخ العينيـة فحسب » (١) .

تدور فصول الكتاب حول مناقشة بعض الآراء والمواقف لليسار الاسرائيلي الجديد ، من خلال ما عرضته المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية « ماتسبين » والتحالف الشيوعي الثوري « الجبهة الحمراء » والكاتب يؤكد في البداية على وجود مواقف مشتركة بين هاتين المنظمتين وبالتحديد ، الجبهة الحمراء ، وحركة المقاومة الفلسطينية بشكل عـام هي : فلسطين الديمقراطية كهدف ، والعنف الثـوري كوسيلة نضـالية ، وتأكيد « استقلاليـة الارادة الجماهيرية الثـورية » والفصل بين الصهيونيـة واليهـود كيهود . ثم ينتقـل الى تحديد نقـاط الاختلاف ، فيرى انهـا تنقسم الى مجموعتين ، الاولى : تدور حول نظرة اليسـار الاسرائيلي الجديد الـى « التجمع الاسرائيلي » ووصفه له بأنـه « مجتمع قومي ، ومجتمع طبقي » ، أما الثانية : فتدور حول أوجه نقد هذا اليسار لبعض مواقف حركـة المقاومـة الفلسطينية وتحـديدا فتح . (ص ٥٣ — ٥٤) .

بالنسبة للمجموعة الثانية من أوجه الاختلاف ، جهد الكاتب خلال عرضه لها أن يدافع عن فتح ، وأن يرد على الانتقادات الموجهة اليها . وهنا غرق الكاتب في دفاع لفظي سطحي دون ان يتعمق لا في دراسة أدبيات منظمات اليسار الاسرائيلي الجديد ، ولا في تحليل موقف فتح من قضايا الثورة العربية السياسية والاجتماعية . فالكاتب اعتمد في عرضه هنا ، على ما ورد فقط في دفاع رامي ليفنه أثناء محاكمته بتهمة الانتساب للجبهة الحمـراء ، ولم يرجع الى أدبيات هذه المنظمات التي تعطي موقفا متكاملا وواضحا عن العلاقة الديالكتيكية بين الصراع ضد اسرائيل والامبريالية في العالم العربي ، وترابط هذا الصراع مع الثـورة الاجتماعية في الاقطـار العربية (٢) . وهو موقف لا يختلف عن موقف منظمات المقاومة ذات النهج الماركسي وان اختلف في بعض جوانبه ومنطلقاته عن موقف فتح .

بالاضافة الى ذلك ، فان الكاتب في الوقت الذي أكد فيه في البداية ، ان هناك لقاء مشتركا حول العنف الثوري كوسيلة نضالية ، عاد وأشار الى وجود نوع من الخلاف حول مفهوم هذا العنف لدى هذه المنظمات ، استنادا على فقرة وردت في دفاع ليفنه المذكور ، الذي ميز فيه بين « اعمال ارهابية » موجهة ضد مواطنين أبرياء « تساهم في ابقاء ، بل زيادة الكراهيـة والخوف المتبـادلين بين الشعب العربي واليهودي » وبين أعمال عنف ثورية أخرى ضد الكيان الصهيوني . (ص ٦٤) . وعلى الرغم من أن الكاتب أدان هذا الموقف ووصفه بالانتقائية ، الا أنه في تقديري لم يتعمق في مناقشة قضية العنف الثوري الفلسطيني ضد كيـان عنصري استيطاني ومعسكر بكامله على الطريقة الاسبارطية . صحيح أن هناك اتفاقا عاما حول ممارسة العنف الثوري ، الا انه تظهر أحيانا بوادر لرفض بعض أشكـال

هذا العنف بحجة أنه يصيب مواطنين أبرياء . ان العنف الثوري الفلسطيني لا يمكن أن يميز بين بريء وغير بريء ، في وقت لم تؤد ممارسة هذا العنف الى عملية فرز واضحة وواسعة في المجتمع الاسرائيلي بين من مع الصهيونية ومن ضدها ، ذلك أن العنف الثوري في مواجهة مجتمع عبيء من رأسه حتى أخمص قدميه بايديولوجية عنصرية شوفينية ، تصبح مجالات الاختيار والتمييز أمامه محدودة جدا وشبه معدومة ، اضافة الى أن الاختيار أو التمييز بين أشكال العنف ولمن توجه ، لا تتحدد عبر ان ممارسة هذا الشكل من أشكال العنف يصيب مواطنين أبرياء أم لا ، بل عبر دراسة مدى تأثير هذا الشكل من أشكال العنف على العملية الثورية برمتها وعلى احداث التغيير المطلوب في المجتمع الاسرائيلي . ومن هنا فان عملية سافوي والعمليات الانتحارية الاخرى ، ليست أعمالا ارهابية ، بل شكلا من أشكال العنف الثوري ، يدخل في صلب العملية الثورية ، وفي صلب النضال ضد الصهيونية والكيان الصهيوني .

فيما يتعلق بالمجموعة الثانية من أوجه الاختلاف ، وهي الاساسية ، ينطلق الكاتب من مناقشة آراء اليسار الاسرائيلي الجديد حول المجتمع الاسرائيلي ، وهل هناك وجود لأمة يهودية ، أو لأمة اسرائيلية تكونت أو انها في طور التكوين .

يؤكد الكاتب أن لا خلاف حول رجعية وخرافة فكرة الامة اليهودية أو القومية اليهودية ، ويؤكد المقولات الماركسية بهذا الخصوص . الا أن الخلاف يبرز حول هل هناك أمة اسرائيلية ؟ سواء متكونة أو أنها في طور التكوين .

يرفض الكاتب بالمطلق وجود أمة اسرائيلية ، كما يؤكد انه لا توجد أمة اسرائيلية في طور التكوين ، ولا يمكن أن تتكون أمة اسرائيلية اطلاقا. ويبرهن الكاتب على وجهة نظره بالاستناد الى التعريف الماركسي للأمة ، ومدى انطباق هذا التعريف على المجتمع الاسرائيلي أو « التجمع الاسرائيلي » كما يصفه الكاتب . وملاحظاتي على مناقشة الكاتب هذه ، والتي أفرد لها القسم الاعظم من كتابه ، كثيرة ، سأكتفي بايراد الاهم منها .

١) انني أتفق مع الكاتب في عدم وجود أمة اسرائيلية ، كما انني أرفض فكرة « وجود أمة اسرائيلية في طور التكوين » . غير انني اختلف مع الكاتب في الحكم المطلق الذي أصدره ، فما يقرر في النهاية امكانية تكون وضع جديد أم لا ، نتيجة الغزو الصهيوني لفلسطين ، ليس ما نصدره من أحكام مطلقة ، بل الجهد الثوري والنضالي الذي تبذله الحركة الوطنية العربية ومن ضمنها الفلسطينيين ، للحؤول دون تكريس هذا الوجود واكتسابه صفات معينة تجعله أقرب « الى أمة اسرائيلية في طور التكوين » . واستناد الكاتب على عدم امكان تطور أمة اسرائيلية على غرار تطور الامة الامركية في أمريكا الشمالية استناد ضعيف وغير صحيح (ص ٧٨ — ٨٠) . ذلك أن عدم قدرة مجتمعات سكان أمريكا الشمالية الاصليين على مواجهة غزو الرجل الابيض لها ، لم يكن وليد أن هذه المجتمعات « وصلت الى طريق مسدود في تطور علاقاتها ووسائل انتاجها » (ص ٧٨) بل كان وليد عملية الابادة الشاملة التي مارسها الرجل الابيض ضد السكان الاصليين . صحيح ان المجتمع العربي الفلسطيني كان يمثل حالة متمايزة ومتقدمة عن وضع مجتمعات سكان أمريكا الشمالية الاصليين ، مما ساعد مع توفر عوامل أخرى ، على افشال سياسة الابادة الشاملة التي شنها العدو الصهيوني ضد الشعب الفلسطيني . ولكن هذا لا يعني أن هذه المجتمعات كانت في حالة بدائية « مقضي عليها بالفناء والعقم » سواء تم غزو الرجل الابيض أو لم يتم . ولا أدري ان كان الكاتب يعمم حكمه هذا أيضا على بعض المجتمعات الافريقية التي كانت في حالة بدائية أيضا ، ولكن لم يقض عليها على الرغم من غزو الرجل الابيض لها . وذلك لأن هذا الغزو جاء في مرحلة تاريخية مختلفة ، كما ان كثافة الغزو لم تكن بحجم تلك التي وجهت الى أمريكا الشمالية .

٢) ان الاسلوب الذي انتهجه الكاتب للبرهنة على عدم وجود أمة اسرائيلية ، لا يمكن وصفه الا أنه اسلوب ميكانيكي . فالبرهنة على موقفه لا تتم من خلال اجراء مطابقة ميكانيكية للتعريف الذي أورده للأمة على المجتمع الاسرائيلي . ذلك أن وجود عدة عوامل لتكون الامة ، لا يعني ان الامة لا تتكون الا بوجود هذه العوامل مجتمعة وجمعها جمعا ميكانيكيا . فعملية تكون الامم عملية تاريخية طويلة ، تدخل فيها عوامل عديدة ، وقد

يبرز عامل أو أكثر بصفته العامل الاكثر تأثيرا في تكوين الامة من العوامل الاخرى ، وقد يغيب تأثير أحد العوامل في مرحلة ، ليبرز تأثيره الواضح في مرحلة أخرى .

اضافة الى ذلك فانه يبدو لي أن الكاتب غير مستوعب بشكل جيد للتعريف الذي أورده للأمة ، فالتعريف الذي أورده ورد في دراسة ستالين — المسألة القومية — وقد تعرض هذا التعريف لبعض أوجه النقد في الادبيات الماركسية لاحقا ، ولا سيما فيما يتعلق بالحياة الاقتصادية المشتركة كاحدى العوامل الاساسية في تكون الامة . وهل عدم توفر هذا العامل ينفي وجود الامة ؟ مثلا هل وجود كيانات عربية مستقلة بدون حياة اقتصادية مشتركة فيما بينها ، ينفي وجود الامة العربية ؟.

كذلك فان عدم استيعاب الكاتب للتعريف يبرز في تحويله عملية التكوين التاريخي للأمة الى عملية تآلف . فالتعريف الستاليني للأمة يقول « ان الامة جماعة ثابتة من الناس **تألفت تاريخيا** على أساس وجود لغة مشتركة وأرض مشتركة وحياة اقتصادية مشتركة وتكوين نفسي مشترك يجد تعبيره في الثقافة المشتركة » . والكاتب حول « **تآلف تاريخيا** » الى « **تآلف تاريخي** » (ص ١٠٩) وناقش الموضوع على هذا الاساس لينتهي الى النتيجة ان اليهود « لم يكونوا متآلفين ، ولم يتآلفوا ، ولن يحدث ذلك أيضا في المستقبل ، اذ لا يتوفر لهم عامل واحد في سبيل التآلف » . أي ان القضية هنا ليست العملية التاريخية لتكون الامة ، وما يتولد عن هذه العملية من صياغة وتكوين خصائص معينة لهذه الامة ، بل عملية انسجام وتآلف ، فطالما يهود بولنيا يرفضون السكن مع يهود المانيا (ص ١١٤) اذن لا انسجام ، اذن لا وجود لأمة اسرائيلية ؟!

ان الكاتب لو كان مستوعبا للتعريف الذي أورده فعلا ، لاستند على هذا العامل « العملية التاريخية لتكون الامة » في تأكيد عدم وجود أمة اسرائيلية . الا أن الكاتب على العكس من ذلك أخذ يتحدث عن الانسجام والتآلف بين التجمعات الاثنية المختلفة التي يتكون منها المجتمع الاسرائيلي .

٣) تبقى ملاحظة أخيرة ، تتعلق برفض الكاتب لوجود صراع طبقي في المجتمع الاسرائيلي ، ويصر أن الصراع هو صراع اثني فقط (الملحق ١ — ص ١٥٧ — ١٦٣) ومن هذا المنطلق فانه يرفض تحليل منظمات اليسار الاسرائيلي الجديد عن الطبقات في المجتمع الاسرائيلي ، ويرفض أية خصوصية ممكنة للمجتمع الاسرائيلي بهذا الخصوص . والكاتب هنا يستخدم المنهج الماركسي أيضا بطريقة مغلوطة . فالماركسية اذ تؤكد على العام وترفض أن يحل الخاص محل العام في تحليل أية ظاهرة أو قضية ، فانها ترفض أيضا أن ينفى الخاص على حساب العام . فلينين يؤكد « حين يعمد المرء الى تحليل قضية اجتماعية ، أيا كانت ، توجب عليه النظرية الماركسية اطلاقا أن يضع تلك القضية في نطاق تاريخي معين ، كما تشترط عليه أيضا ، اذا كان الموضوع يدور حول بلد بمفرده أن يأخذ بعين الاعتبار الخصائص الملموسة لهذا البلد » .

ان أشكالا من الصراع اثنية وطبقية ، توجد في المجتمع الاسرائيلي ، وان غلبة الصراعات الاثنية — العرقية — على الصراعات الطبقية لا تنفي وجود صراع طبقي ، بل تعني ان الصراع الطبقي يدور ضمن الوضع الخاص لتكون المجتمع الاسرائيلي وهو مجتمع عبىء بالايديولوجية الشوفينية والعنصرية . كذلك لا يعني الاعتراف بوجود صراع طبقي في المجتمع الاسرائيلي ، انه يعني الاعتراف بوجود أمة اسرائيلية . فمجتمعات ما قبل تكون الامم شهدت صراعات طبقية ، ذلك ان الصراع الطبقي وجد منذ أن وجدت الملكية الخاصة واستغلال الانسان للانسان .

---

١ — لينين المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٥ ص ٢٢١ .
٢ — أنظر ، القاضي ، ليلى سليم ، المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية ماتسبين ، مركز الابحاث الفلسطينية .

غازي الخليلي

محمد حسنين هيكل ، **الطريق الى رمضان** ،
(دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٥)

هذا كتاب اخر عن حرب رمضان التي يسميها الصهيونيون « حرب يوم الغفران » ، والتي يسميها بعض العرب حرب اكتوبر ، او حرب تشرين ، او حرب ١٩٧٣ . ولعل الكتاب الجديد هو افضل ما صدر عن هذه الحرب من كتب حتى الان لثلاثة اسباب مهمة :

اولا : لاهمية المؤلف ، فهو محمد حسنين هيكل . هيكل الصديق المقرب من عبد الناصر ، ومن السادات كذلك في المرحلة الاولى من حكمه. هيكل مستودع الكثير من اخبار الدولة واسرارها. هيكل الامبراطور الصحافي الذي تربع على قمة مجد القلم والكلمة . هيكل الذي اتيح له ان يكتب — في موضوع هذا الكتاب وفي غيره مما كتب وسيكتب — لا كمراقب خارجي يصطاد المصادر ويبحث عن المراجع ، بل كشاهد « من الداخل » ، من داخل السلطة ، من داخل « اللعبة » ، من داخل المسرح السياسي وما فيه من اروقة مثيرة ، واجتماعات خطيرة ، ووثائق ولقاءات مع شخصيات مصرية وعربية واجنبية بيدها الحل والربط .

ومن كتاب « الطريق الى رمضان » نفسه نستدل على مدى اهمية هيكل السياسية فيما يتجاوز — دون ان ينتقص — اهميته الصحافية . ففي العام ١٩٦٨ ، وحينما اصيب الرئيس عبد الناصر بأزمة قلبية خطيرة ، الف عبد الناصر لجنة سداسية للاشراف على تسيير ادارة البلاد، برئاسة انور السادات ، وعضوية شعراوي جمعة ، والفريق محمد فوزي ، وسامي شرف ، وامين هويدي ، ومحمد حسنين هيكل . وعندما ابدى هيكل اعتراضه على الاشتراك في اللجنة ، قال له عبد الناصر بحضور السادات : « انت تعرف الخطوط الاساسية لتفكيري . ان الاخرين كلهم يشغلون مناصب رسمية ، اما انت فتعرف الطريقة التي يعمل بها عقلي ، ولذا فاني اريدك في هذه اللجنة » .

الميزة الاولى للكتاب اذن تكمن في شخصية الكاتب نفسه الذي تابع اجتماعاته مع عبد الناصر ثم مع السادات وكبار المسؤولين السياسيين والعسكريين ، ومع الشخصيات الاجنبية ، طيلة الفترة التي « يؤرخ » لها ، بل وخلال الايام والليالي التي شهدت حرب رمضان نفسها بما فيها من تفجرات وحالات صعود وهبوط . اذن فنحن امام كاتب جيد ، ومطلع جيدا ، ورافق بنفسه مجريات الكثير من الاحداث التي يعرض لها ، راصدا ذكيا ومتابعا ثاقب النظر .

ثانيا : والسبب الثاني لاهمية الكتاب مقارنا بسواه من المؤلفات عن حرب رمضان ، يتمثل في سلامة المقترب وصحة المدخل . فالكتاب لا يقفز الى حرب رمضان وكأنها انجاز مقطوع الصلة بالزمان والمكان ، بل يتناولها بدءا من نقطة الانطلاق الصحيحة التي كان ينبغي البدء منها ، وهي حرب ١٩٦٧ ومخلفاتها وذيولها والقرارات المستجيبة لها .

ويبرز اهمية هذه الميزة ، اذا ما القينا نظرة على ذلك الركام الغريب من ادبيات حرب رمضان الذي يتعمد لاسباب سياسية محضة ومكشوفة ، الكتابة عنها وكأنها نوع من النبت الشيطاني المدهش الذي يطفو فجأة فوق الصخور بلا جذور او مقدمات . ولعل هذا هو سر الحملة التي انفجرت في وجه هيكل كما يشير في المقدمة التي وضعها للنسخة العربية المترجمة . فهيكل يحاول ان يعيد « الفضل » الى اصحابه ، احياء كانوا ام امواتا ، في السلطة ام خارجها ، سياسيين او عسكريين « عبر مرحلة ممتدة من الزمن استغرقت ست سنوات ونيف من الاعداد العسكري والسياسي والاعلامي والاقتصادي ، بدءا من حرب ٦٧ الفاجعة ، ومرورا بالاعوام الثلاثة الاخيرة من عمر عبد الناصر التي قضاها مشغولا ليل نهار بالتهيئة لها ، وانتهاء بعهد السادات وقرار اكتوبر المشترك مع الرئيس الاسد في سوريا .

ثالثا : والميزة الثالثة في الكتاب انه ينطلق من افق شامل لا يحصر جهده في اطار الحرب بمعناها العسكري الضيق كقتال وخطط وتسليح

وميدان صراع وتكتيكات وهجوم ودفاع ، بل يضع الحرب في اطارها المناسب من خلال رؤية شاملة للعوامل السياسية والدبلوماسية والاقتصادية والنفطية والاعلامية المتفاعلة والمتقاطعة التي تؤثر في منجزات الميدان سلبا وايجابا .

والكتاب وضعه هيكل بالانجليزية اصلا ، وصدر عن دار « كولينز » البريطانية بعنوان « الطريق الى رمضان — القصة الداخلية لاستعداد العرب لحرب اكتوبر ١٩٧٣ التي كادوا ان يكسبوها » . وصدر عن دار النهار للنشر في بيروت مترجما بعنوان « الطريق الى رمضان » فقط ، ولا بد من استعمال حسن النية لفهم سبب استبعاد القسم الثاني من العنوان الاصلي ، فيجوز انه في تقدير البعض يترك في نفس القارىء انطباعا مسبقا عن « عدم كسب » الحرب ... مع ما في مثل هذا الانطباع من مجافاة للادبيات السائدة .

ولا بد لي هنا من ان افتح قوسين واسعين للغاية ، للحديث عن الكتاب ككل شيء فيما عدا المضمون :

اولا : ان الاخراج الفني للكتاب ليس بالمستوى اللائق ، بل ان تصميم غلافه بالذات على درجة من « عدم الجمال » لا نعهدها في منشورات « النهار » الانيقة عادة .

ثانيا : ان الترجمة جيدة ، والاسلوب رشيق وسلس ، وان كانت هناك هنات ثانوية لا تعيب الجهد الواضح في اتقان الترجمة . فمرة يصف الجنرال زئيرا بانه مدير او رئيس المخابرات العسكرية ، ومرة ثانية بانه نائب مدير المخابرات (ص ٣٩) . وفي صفحة ٣٦ عندما يسأل الفريق اول اسماعيل كبار الضباط عما اذا كانت هناك اية دلائل على ان العدو ادرك حقيقة ما يحدث ، اجيب عن سؤاله بأنه ليس هناك شيء « ايجابي » يمكن ان يقال في هذا الشأن . وعوض « ايجابي » كان الاسلم ان يقول مؤكد ، او ثابت ، او ملموس ، او قاطع الخ .. وقوله في صفحة ٤١ ان مئير طلبت الى ايبان ابلاغ نيكسون بأن لدى اسرائيل « دلائل » قاطعة على ان المصريين على وشك ان يهجموا ... والاصح « ادلة » . وقوله ان عبد الناصر طلب الى الاتحاد السوفياتي تزويده بمعدات الجسور « كقرض » .. والصحيح « كاعارة » (ص ٥٥) . وقوله ان الوزارة الاسرائيلية رفضت مشروع روجرز باعتباره « تهدئة » للعرب ، والادق « ترضية » ص ٨٧. وهو يصف سعد الشاذلي مرة بانه « لواء » ومرة بانه « فريق » على الصفحة نفسها (٢١٤). ويقول جبل « هرمون » كما ينطق بالانجليزية ، وهو بالعربية حرمون (ص ٢٢٨) .

ثالثا : فيما يتعلق باللغة ، من الواضح تماما ان هناك تعجلا ادى الى بعض الهنات غير المبررة ، أن بالنسبة لبعض قواعد اللغة ، او بالنسبة للتركيب ، او بالنسبة لسياق المعلومات : « تعترف » يجب ان تكون « تعرف » ص ٢١ ، « خمس سنوات تالية التدريب المركز » .. من التدريب ص ٥٨ ، « والذين كانت ساهمت اعمالهم الفذة في » ... كانت اعمالهم الفذة قد ساهمت في .. ص ٦١ ، « حضره وزيري الحربية والداخلية » .. « وزيرا » طبعا ص ٣٨ ، « اما العالم العربي فكان في حالة البلبلة كاملة » .. عبارة يمكن ان تكون في اية صيغة الا هذه (ص ٤٩) « قضيت ليالي طويلة » .. ليال (ص ٥١) . « أن يزودونا » .. ان يزودنا (ص ٥٥) . « في بداية العام ١٩٦٧ بدأ عبد الناصر يفكر بتنشيط جبهة ثانية » .. والصحيح ١٩٦٨ (ص ٦٣) . « يخلعان احزمة مسدسيهما» .. والصحيح « حزامي » (ص ٦٤) « ارسل طلبه » .. في طلبه (ص ٦٦) . ان شعار البعث وحدة اشتراكية حرية ، والصحيح «وحدة حرية اشتراكية » (ص ٦٩) . يقول جريا مع الخطأ الشائع « برود » والصحيح « برودة » (ص ٨٠) لان البرود صيغة جمع لبرد بضم الباء . ويقول « ولكن ليس من أن يصفوا » والاسلم دون ان يصفوا ، أو لا ان يصفوا الخ .. (ص ٩٣) . « سيعتبرون سكوته » ص ٩٤ .. والصحيح « سكوتنا » .

ويتحدث المترجم عن الدشداشة (الرداء المحلي في الكويت وبعض اقطار الجزيرة) بصيغة المذكر وهي مؤنثة (ص ٩٦ و ص ٩٧) . « لكن القذافي كان سافر » .. والاسلم « كان قد سافر » ص ٩٩ . « وكانت بعض اقرب العناصر بدأت » .. والصحيح « بدأ » ص ١٠٢ . ويقول « ولما تمضي » والصحيح « تمض » ص ١٠٣ .

« في دار السفارة السوفيتية لا تبعد » والسليم « التي لا تبعد » ص ١٠٦ . « ان هناك كثيرون » والصحيح كثيرين (ص ١٤٤) . « لم يكن الاتحاد السوفياتي يزود بها حلفاؤه » والصحيح حلفاءه (ص ١٥٢) . « على درجة جعلت الخ .. » الى درجة (ص ١٥٢) . « يزايدون بعضهم بعضا » والاصح يزايدون بعضهم على بعض ، هذا اذا قبلنا لفظة « يزايدون » تمشيا مع الدارج ، لان الاصح يزاودون (ص ١٨٤) . « وكان دهشتها» طبعا وكانت (ص ١٨٨) . « ارتكب الاسرائيليون — في هجومهم المضاد على الجبهة المصرية في حرب رمضان — الاخطاء نفسها التي ارتكبها المصريون في العام ١٩٧٠ » والصحيح في العام ١٩٦٧ (ص ١٩٢) . « طلب الرئيس نيكسون عقد اجتماع لمجلس الامن القومي » والصحيح مجلس الامن الدولي لان مجلس الامن القومي هيئة وطنية اميركية خالصة (ص ١٩٣) ، « انهما يعتقدان اسرائيل » والصحيح يعتقدان بان اسرائيل (ص ١٩٧) ، « اعلان حالة التأهب النووي كانت غلطة » والصحيح كان غلطة لعودتها الى « اعلان » وليس الى « حالة » (ص ٢٣٠) . وفي الصفحة نفسها يقول « من نواحي » وهذا خطأ شائع كثيرا والصحيح نواح.

رابعا : ذلك فيما يتعلق بالاخراج والترجمة واللغة . أما فيما يخص التصحيح المطبعي فالامر يشكل فاجعة حقيقية بلا تجاوز أو مبالغة . ولا ندري اذا كان من واجبنا أن نبحث عن العذر التخفيفي لدار النشر المعنية في الاحداث الدامية المؤلمة في لبنان وما خلفته من شلل على كثير من أصعدة الحياة العامة والانتاج ، لكن الذي ندريه حقا هو أننا سجلنا قائمة بالاخطاء المطبعية التي تمكنا من ملاحظتها أثناء القراءة ، لو ابتغينا نشرها لاقتضى الامر منا عدة صفحات . فمثلا هناك حروف مبهمة غامضة تحل محل الكلمات والمفردات المقصودة يحتاج المرء الى ان يكون « منجما مغربيا » كي « يحزرها » ، واكتفي بالاشارة الى أرقام الصفحات التي توجد فيها هذه المجموعات العشوائية من الاحرف : ٤٩ ، ٥١ ، ٦٣ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ١٠٥ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٧٧ ، ١٨٧ ، ٢٠٠ ، ٢٢٠ ، ٢٣٣ .

أضف الى ذلك ان هناك العديد من الكلمات الناقصة أو الغائبة في الكثير من العبارات ، مثلا : « حيث كانت فترة نسبيا » ص ٩٧ ، فمن المؤكد ان العبارة تنقصها كلمة ما ، ولا داع للتكهن . وكذلك قوله « ... بعد الموت فربما كانت النهاية » (ص ٩٧) . « وفي يوم ... أغسطس » متى ؟ (ص ١٧٦) . وقوله أيضا « الدول .. للبترول » وواضح ان المقصود كان المنتجة للبترول (ص ٢٤٧). وقوله « أقيم سد رملي عال انشاؤه في » (ص ٢٢) الخ ...

أما الاخطاء المطبعية المحضة فلن نذكرها هنا لكثرتها كما قلنا ، لكننا نغتنم هذه المناسبة لنعرب عن الاسف لظهور كتاب بمثل هذه الاهمية ، على مثل هذا المستوى من الاخطاء وعدم العناية والاهمال . وليس من المغالاة في شيء اذا ما تمنينا اعادة طباعة الكتاب ، كي يخرج الى الناس بالصورة اللائقة السليمة .

أما الكتاب من حيث مضمونه ، فهو مقسم الى سبعة فصول ، وان اثنين من فصوله مقسمان الى عدة أجزاء . (وفي هذه المناسبة نشير الى انه كان من الانسب لو قلب الآية فقسم الكتاب الى سبعة أجزاء ، على أن يقسم ذانك الجزءان الى فصول لأن العادة جرت على ان « الجزء » أعم من « الفصل » وليس العكس !) .

طبعا هناك المقدمة التي خص بها هيكل الطبعة العربية ، والتي يرد فيها ببعض الايضاحات الضرورية ، على « من ساءهم بعض ما كتبت عن غير قصد ، وبغير سبب » !

أما الفصل الاول فهو عن « المفاجأة » ، ويتناول فيه الاعداد المباشر لحرب رمضان على الجبهتين المصرية والسورية ، والاجتماعات العسكرية والسياسية التي انعقدت لهذه الغاية ، وترتيبات الاخداع والتمويه التي انتهت بمباغتة الكيان الصهيوني في الساعة الثانية وخمس دقائق من بعد ظهر يوم السبت ٦ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣ . ويخلص القارىء من هذا الفصل الى ان مفاجأة العرب لأعدائهم تمت بسبب الاعداد الجيد والكتوم الذي قاموا به من ناحية ، وبسبب الغطرسة الاسرائيلية التي أعمت الصهيونيين عن رؤية الواقع ، بل وحرمتهم من الاستفادة من بعض الاخطاء المصرية من ناحية ثانية .

وبعد هذا الفصل ، يعود هيكل بطريقة « الفلاش باك » السينمائية الى الوراء .. الى « وقفة ناصر

الاخيرة » ، وهو عنوان الفصل الثاني الطويل من الكتاب . ويتناول في هذا الفصل الآثار التي ترتبت على هزيمة ١٩٦٧ ، والاتصالات العربية ، ودور الفلسطينيين ، والثورة الليبية وحكاية القنبلة الذرية التي « حلمت » القيادة الليبية بشرائها ، ومؤتمر القمة في الرباط ، والعلاقات مع الاتحاد السوفياتي ، ومسألة مشروع روجرز وقبول عبد الناصر به ، ومجزرة أيلول في الاردن ، ومؤتمر القاهرة الذي انتهى بوفاة عبد الناصر .

والفصل الثالث بعنوان « السادات يركب العاصفه » ويعرض فيه للمشكلات التي نعرفها : مسألة وقف اطلاق النار ، والاطاحة بجماعة علي صبري . والانقلاب اليساري في السودان ؛ والمواقف السوفياتية من التوجهات المصرية الجديدة ، وحكاية الجاسوس راندوبولو الذي عمل لصالح المخابرات الامريكية ، والاتصالات السرية بين واشنطن والقاهرة التي كانت تجري عن طريق أجهزة المخابرات في الدولتين ، وقضية سنة الحسم التي انتهت بلا حسم ، وقضية امدادات الاسلحة السوفياتية لمصر وما رافقها من مشكلات وطلبات ورحلات ، ثم قرار الرئيس السادات ابعاد الخبراء السوفيات ، ثم فصل عن القذافي وثورة ليبيا يورد فيه هيكل حكاية الباخرة كوين اليزابيت — ٢ التي حملت عددا من أثرياء اليهود في الولايات المتحدة وأوروبا الى اسرائيل بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لاغتصاب فلسطين ، والتي أمر القذافي بتدميرها في البحر الابيض المتوسط ردا على اسقاط الطائرة المدنية الليبية فوق سيناء ، ثم مسألة تنامي العلاقات المصرية — الامريكية ، والضغوط العديدة الاقتصادية والنفسية والعسكرية والعربية والدولية التي « كانت تدفع الرئيس — السادات — بعناد نحو الحرب » .

والفصل الرابع من الكتاب عن الحرب ذاتها ، وتطوراتها الميدانية يوما بعد يوم على الجبهتين بصفة عامة ، وانتهائها بقرار وقف اطلاق النار والقرارين الصادرين عن مجلس الامن الدولي الرقمين ٣٣٨ و٣٣٩ .

ثم الفصل الخامس عن حالة التأهب النووي التي أعلنتها الولايات المتحدة ، ويتابع فيه الاتصالات العربية والدولية لوقف اطلاق النار عمليا .

والفصل السادس (أربع صفحات) يكرسه هيكل لصفات ومزايا حرب رمضان على وجه الاجمال .

وفي الفصل السابع والاخير يتناول معركة النفط التي انتهت بنجاح كامل و« رائع » للولايات المتحدة الامريكية !

أما وان هذه « المراجعة » للكتاب قد طالت نسبيا ، فيستحسن أن أسجل فيما يلي بعض الملاحظات والانطباعات :

١ — لعل أخطر ما في الكتاب شهادة هيكل في قضية الخلافات والاختلافات التي أحاطت بعملية ادارة الحرب أساسا . فالحرب أرادها الرئيس السادات « محدودة » كما أبلغ بذلك مجلس الامن القومي المصري في أول اكتوبر ١٩٧٣ ، بل لعله أرادها « محدودة جدا » الى درجة دفعت بريجنيف الى التساؤل بدهشة : « الى أي حد هي محدودة ؟ » . وعلى هذا فلقد رسمت الخطط المصرية أصلا على أساس « الاكتفاء » بعبور القناة وتطهير خط بارليف ، وايجاد موطىء قدم للقوات المصرية على شريط ضيق شرقي القناة . ولهذا فان القوات المصرية ما ان حققت هذه الاغراض في الايام الاولى من القتال ، حتى اعتبرت مهمتها منتهية من الناحية الاستراتيجية . ولعل هذا هو سبب الخلاف مع القيادة السورية التي يبدو انه كان لها تصور مختلف لمحدودية الحرب ، الامر الذي تسبب في نشوء ظاهرة « الوقفة المصرية » بين يوم ٨ اكتوبر وانتهاء يوم ١٣ اكتوبر ، وهو الاسبوع الخطير للغاية الذي ركزت فيه اسرائيل معظم قواها الضاربة ضد سوريا . بل ان هيكل يقول بصراحة « كانت هناك في الفترة ما بين يوم ٨ اكتوبر ويوم ١٠ اكتوبر فرصة .. وضاعت . واعتقادي الشخصي انه لو كان التقدم نحو الممرات قد استمر ، والاستيلاء عليها قد تم ، لأمكن تحرير سيناء كلها ، مع ما يترتب على تحريرها بنصر كهذا ، من نتائج سياسية لا يمكن تقديرها » ص ١٩٤ .

ولقد كان السوريون يرون ان الهجوم المصري يجب أن يستمر حتى تحرير الممرات . ثم يتبين أن هذا كان موقف السوفيات أيضا . ذلك ان السفير في القاهرة فينوجرادوف يقول لهيكل يوم ٩ اكتوبر : « لقد كنت اليوم في اجتماعات مستمرة مع ملحقينا العسكريين . وأقول لك الحق انهم غير مرتاحين

الى النحو الذي يتطور اليه الموقف . ولست أدري السر في عدم تقدم قواتكم . لماذا لم تدعموا مكاسبكم وتبدأوا الاندفاع الى الممرات ؟ ان هذا ليس بالامر المنطقي الذي يجب على جيشكم أن يفعله فقط ، لكنه يساعد أيضا على تخفيف الضغط عن السوريين » ص ١٩٧ . ثم نستنتج من خلال السطور ان السوريين بعثوا بثلاث عشرة رسالة استنجاد الى القيادة المصرية حتى يوم ١٢ اكتوبر ، أي خلال أيام « الوقفة » .

ولقد تسببت هذه « الوقفة » المصرية في ذلك الاسبوع الحاسم والمصيري من تطورات الميدان ، في خلق نزاع آخر داخل القيادة المصرية ذاتها ... وان قصة سعد الدين الشاذلي التي يعيد هيكل روايتها لم تعد جديدة على أحد ، وكذلك قصة « ثغرة » الدفرسوار — أبو سلطان المعروفة .

وفي الكتاب معلومات موضوعية قيمة للراغب في معرفة الحقيقة حول مواقف كل الاطراف العربية والدولية من قرار وقف اطلاق النار ومقدماته ونتائجه .

٢ — يتبين من الكتاب ان ابتعاد مصر عن المعسكر السوفياتي ، واقترابها من المعسكر الامريكي ، عمليتان كانتا تسيران بصورة تدريجية ، ومتصاعدة ، ومتوازية . واللافت للنظر ان هيكل حين يروي حكاية ابعاد الرئيس السادات للفنيين السوفيات اعتبارا من يوم ١٧ يوليو — تموز ١٩٧٢ ، يختتم الحكاية بما يلي : « ولقد درست كل الوثائق المتصلة بالموضوع ، وتحدثت مع معظم الاشخاص المتصلين به اتصالا وثيقا ، لكني مع ذلك وجدت نفسي لا أزال عاجزا عن معرفة السبب بالضبط الذي ضغط على الزناد فأطلق قرار الرئيس » .. أي قراره بابعاد الخبراء السوفيات . لكن هيكل يقول بعد ذلك كلاما ذا مغزى خاص حين يذكر ان السادات أبلغ الصحافيين المصريين انه كان قد قرر منذ ديسمبر ١٩٧١ بوجوب وقفة في العلاقات مع الاتحاد السوفياتي . كما أبلغ الرئيس السادات الصحافيين ان الامريكيين كانوا قد وجهوا اليه رسالة قبل يوم واحد من مقابلته للسفير السوفياتي لابلاغه بقرار سحب الخبراء السوفيات . كما يلاحظ هيكل ان الامير سلطان وزير الدفاع السعودي كان في زيارة لواشنطن قبل أن يصدر الرئيس قراره الخاص بسحب الخبراء السوفيات ، كما كان كمال أدهم في القاهرة وقت صدور القرار . ويتساءل هيكل عما اذا كانت هذه مجموعة مصادفات ؟!!

وبموازاة ذلك ، يسرد هيكل فصولا طويلة عن العلاقات المتنامية بصورة وطيدة مع الولايات المتحدة ، والاتصالات المستمرة معها ، سواء عن طريق الابواب السرية بين أجهزة المخابرات في البلدين ، أو بالمراسلات والزيارات واللقاءات المعروفة .

٣ — حبذا لو أعطى هيكل عناية أكبر للتطورات الحربية على الجبهة السورية ، وكذلك للدور الذي لعبه الفلسطينيون في الحرب سواء بعملياتهم الفدائية ، أو عبر جيشهم النظامي . على ان هيكل ينصف المقاومة تماما حين يعطي تركيزا كبيرا على أهمية عملية المقاومة في النمسا ضد حركة الهجرة الى فلسطين ، وهي العملية التي أشغلت اسرائيل كليا من قمتها الى قاعدتها في الفترة الحساسة التي سبقت الحرب مباشرة .

٤ — يتضح من الكتاب ان خطط العمليات المصرية التي نفذت في حرب رمضان ، كانت امدادا للخطط المرسومة منذ عهد الرئيس عبد الناصر والفريق عبد المنعم رياض والفريق محمد فوزي . وهذا أمر طبيعي وسليم ولا ينبغي ان يكون مدعاة للانتقاص من أهمية دور الرجال والقادة الذين تحملوا عبء الحرب وتضحياتها فعلا .

٥ — ملاحظة طريفة ننقلها عن هيكل بالحرف لأنها تكشف طبيعة العلاقة بين اسرائيل والولايات المتحدة : « أبلغني دونالد بيرجس المشرف على رعاية المصالح الامريكية في القاهرة ، أنه لمجرد سريان مفعول وقف اطلاق النار ، ستقوم الولايات المتحدة باعداد ترتيبات يستدعى اسحق رابين السفير الاسرائيلي في واشنطن موجبها الى اسرائيل ليصبح رئيسا للوزراء ، وبعدها يمكن توقع بعض التقدم الحقيقي » . (ص ٩٢) . انه برهان آخر على تفاهة كل ما يروجه الاعلام العربي السطحي عن « خضوع » الولايات المتحدة الامريكية للنفوذ الصهيوني . وانه دليل جديد على ان اسرائيل هي « الخاضعة » للمخططات الامريكية . أفلا يكفي « تعيين » السفير في واشنطن رئيسا للوزراء في تل أبيب للاقلاع عن سقم الاوهام التي يعيش عليها بعض العرب ؟

٦ ــ وبمناسبة الحديث عن الاعلام العربي الرسمي ، نشير الى ما سجله هيكل عن غياب الاعلام المصري « الذي بدا وكأنه أصيب بنوبة قلبية » بعد الايام الاولى للمعركة ، وعودة الشعب للاستماع الى الاذاعات الاجنبية (ص ٢١٤) ، ونورد ما ذكره هيكل من أن أجهزة الاعلام في القوات المسلحة المصرية طبعت ووزعت على جميع الجنود العاملين ، بعد يوم أو يومين من عبور القناة ، منشورا يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم . ان النبي صلى الله عليه وسلم موجود معنا في المعركة . يا جنود الله ... الخ .. » ثم يقول المنشور : « ان أحد الرجال الصالحين رأى في المنام النبي محمد صلى الله عليه وسلم يرتدي رداء أبيض ومعه شيخ الازهر يشير بيده ويقول : تعالوا معي الى سيناء . وقيل ان عددا من الرجال الانقياء قد شاهدوا الرسول يسير بين الجنود تكسو وجهه ابتسامة رحيمة ويحيط به هالة من النور من كل جانب » . ثم يمضي المنشور الى القول : « يا جند الله .. من الواضح ان الله سبحانه وتعالى معكم » .

٧ ــ ناحية تستوجب الاهتمام نستخلصها من سرد هيكل لوقائع الحرب ، تتعلق بسوء وضعف وتردي المواصلات والاتصالات ، سواء بين العواصم العربية ، أو في داخل الدولة ذاتها . وما كان يترتب على ذلك من عواقب سلبية للغاية . فالرئيس البكر يمضي أياما دون أن يتمكن من الاتصال بدمشق أو القاهرة . والاتصالات بين دمشق والقاهرة ليست على ما يرام . والوحدات المصرية في منطقة الدفرسوار لم تتمكن من اقامة اتصال ملائم ، أو ان الآخرين فشلوا في الاستفادة منها كما ينبغي ، وكذلك فيما يتعلق بالاتصالات مع القوة المصرية الخاصة التي بلغت بير جنجانة يوم ١٧ اكتوبر والتي ذكرت ان الطريق أمام القوات المصرية الى الممرات مباشرة مفتوح الخ ... فاقامة نظام حديث للمواصلات والاتصالات أمر ضروري ، والاهم من ذلك الانتفاع بالمعلومات وسرعة توصيلها الى الجهة المعنية .

٨ ــ لعل ما يقدمه هيكل في ثنايا جميع الاجزاء والفصول ، من وصف للرجال والمواقف ، وسرد للكثير من اللمسات الذاتية واللمحات الشخصية والانطباعات الوجدانية ، هو أفضل ما في الكتاب في المنظور « الصحافي » المحض . فمن غير هيكل كان بوسعه أن يقدم هذه المتابعة لتطورات صحة عبد الناصر ، ورسم شخصية القذافي ، ووصف ما كان يجري في الاجتماعات مع القادة السوفيات ، ومع القادة السوريين ، و« كواليس » القمم العربية ، والملامح الفلسطينية ، وغير ذلك كثير ؟ وعلى سبيل المثال ، يرسم هيكل الكثير من ملامح الشهيد العظيم عبد المنعم رياض الذي يقول ان عبد الناصر كان يعلق عليه آماله لقيادة جيش التحرير . وها هو عبد المنعم رياض يقول لهيكل ذات يوم : « ليست لدي فائدة في كل هذا الكلام عن الحل السلمي . ان الجيش لا بد أن يقاتل ، واذا لم نمنح له الفرصة للقتال ، فان رجالنا كلهم سيصبحون عبيدا ، وتصبح نساؤنا كلهن سبايا » .

محمد نصر

هاني مندس ، العمل والعمال في المخيم الفلسطيني ، بيروت ، مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ، ١٩٧٤

تشكل الدراسة الميدانية التي وضعها الكاتب هاني مندس عن مخيم تل الزعتر تحولا ملحوظا في طبيعة الدراسات التي كتبت عن أوضاع الشعب الفلسطيني . وذلك لشدة تقربها وتعايشهـا مع الواقع العيني لحياة المخيم الفلسطيني . فبالرغم من أن عنوان الدراسة يدل على تخصصها بدراسة أوضاع العمل والعمال ، فانها تجاوزت ذلك لتتناول الناحية الاجتماعية لحياة سكان المخيم ، فكانت دراسة اقتصادية اجتماعية تناولت جميع أوجه الحياة في تل الزعتر . هذا وقد تعرض الكاتب الى كثير من المسائل السياسية والحقوقية ، وأورد كثيرا من الملاحظات في هدف أن يساعد على دفع النضالات النقابية والسياسية الى الامام بناء على معطيات الواقع المعيشي للفلسطينيين .

أراد الكاتب من دراسته هذه أن تكون احدى الدراسات عن المخيمات الاخرى وذلك من أجل تحقيق الاهداف الاساسية التالية : « أ ــ تقصي طبيعة مشاكل وعلاقات العمل والاجور التي يعيش في ظلها الفلسطينيون . ب ــ تعيين نسبة التداخل الاقتصادي ــ الاجتماعي مع الوضع اللبناني . ج ــ تحديد مجالات قوة العمل الفلسطينية الاكثر تأثيرا في عملية ودورة الاقتصاد اللبناني . د ــ محاولة فهم حجم وحدود العمل النقابي والسياسي الفلسطيني المستقل . هـ ــ حدود وامكانية قيام عمل فلسطيني ــ لبناني مشترك ... و ــ توضيح صورة التركيب الاجتماعي الطبقي الجديد ... داخل المخيمات وخارجها بوجه عام » (ص ٢٦) .

ان تحقيق مثل هذه الاهداف تتطلب بصراحة جهدا كبيرا للغاية ومساهمة فرقة خاصة من الباحثين . من الطبيعي أن الكاتب لم يستطع بجهوده الفردية ان يحقق كثيرا من تلك الاهداف بالرغم من انه استعان لذلك بمساهمات شخصية وتنظيمية لكنها ظلت محدودة .

أورد الكاتب في مقدمته المنهجية خلاصة تجربته في اخراج هذه الدراسة ، فشكلت بالتالي دليل عمل لغيره من الباحثين حيث عرض كامل الصعوبات التي تواجه الباحث في ظروف المخيم الفلسطيني .

وتبين لنا ان هناك عراقيل كثيرة أمام عملية جمع المعلومات الاحصائية خاصة بما يتعلق بالدخل أو المعاش أو الاجرة اليومية للعمال والموظفين وذلك لشدة تخوف الفلسطيني وحذره الذي تراكم تاريخيا وأدى الى نشوء حالة نفسية مميزة ، تجعله يشك في عملية جمع الاحصاءات والمعلومات لكثرة ما ورد من مشاريع تصفوية عن طريق وكالة الغوث وبعض الهيئات الدولية والحكومات المختلفة . ولكن من الملاحظ ان الكاتب قد تأثر كثيرا بمثل هذه العراقيل خاصة واننا نلاحظ من خلال المطالب والملاحظات التي أوردها شدة تعلقه بأحاسيس الناس المباشرة والتزامه بعفويتهم . ونرى كذلك انه بالغ كثيرا في مدى تأثير تلك النفسية التي عاد بها الى أصولها القروية في فلسطين قبل ٢٥ سنة . أما الحقيقة فان الشعب الفلسطيني حاليا كبير الثقة بالثورة الفلسطينية وكافة مؤسساتها . فلو ان الكاتب اتبع طريق اشراك التنظيمات واللجان الشعبية (كما ينصح بنفسه) لما تأثر بتلك الصعوبات الطفيفة ولكن الكاتب استوضح تلك النقطة بعد أن خاض التجربة كلها بنفسه .

السكان والاوضاع الاجتماعية العامة في المخيم :

يعتبر هذا الفصل القسم الاول من الكتاب اذ يتناول مسألة السكان وأوضاعهم الاجتماعية بشكل عام . فنرى فيه رصداً لعملية نمو عدد السكان مرفقة باحصاءات مع تبيان أسباب تزايد هذا العدد من اقتصادية والاجتماعية وسياسية ... فنمو قطاع الصناعة على سبيل المثال كان العامل الاساسي لهجرة أهالي المخيمات الاخرى خاصة من الجنوب الى مخيمات بيروت وخاصة تل الزعتر الذي يقع في أهم منطقة صناعية من مناطق بيروت ومحافظة جبل لبنان .

يصف الكاتب في هذا الفصل حالة السكان الاجتماعية والتي تنطبق بمعظمها على باقي سكان المخيمات الاخرى ، حيث عاشوا في ظل نفس الظروف الصحية والسكنية والتربوية الخ .. ووكالة الغوث هي المسؤولة عن بؤس الشعب الفلسطيني وتتحمل الدولة اللبنانية نفس القدر من

المسؤولية تجاه شقاء سكان المخيمات حسب رأي الكاتب . ان كل ما أورده الكاتب من معلومات وأرقام عن حدود خدمات الوكالة ليس بالشيء الجديد فقد كتب من قبل الكثير عن مسؤولية الوكالة تجاه الشعب الفلسطيني وتخلفها في اداء واجباتها تجاه الشعب الفلسطيني . ولكن الشيء الجديد الذي يتعرض له الكاتب هي الآثار الاجتماعية والنفسية وبشكل خاص الآثار النفسية . وكما ذكرنا أعلاه فان الكاتب قد بالغ في شدة تأثير تلك النفسية مما دفعه للانجرار أمام عفوية الناس بتبنيه المطالب من الوكالة تلك التي أوردها في كتابه .

من الضروري هنا أن نتعرض لهذه المسألة التي يثيرها الكاتب ، فقد أعار انتباها خاصا في التحدث عن نفسية الفلسطيني . ولكنه لم يستطع أن يميز خصائص النفسية القديمة العائدة الى الاصول القروية ولم يبين حدود تأثيرها خاصة بالنسبة الى النفسية الجديدة التي نشأت على أساس اقتصادي واجتماعي جديد لا يمت بصلة الى القرية .

من المفيد جدا لمثل هذه الدراسة أن تعرض آثار مسؤولية الوكالة عن حالة الشعب الفلسطيني لفترة عشرين أو ٢٥ سنة من الهجرة . ولكن يصبح من غير المفيد أن نعيد صياغة مطالب أهالي المخيم من الوكالة وكأنها برنامج عمل نضالي مطلبي . ان تبني هذه المطالب انما يعني تلبية حاجيات الناس الذين ما زالوا يتميزون بالنفسية القروية القديمة . ان الوكالة هي التي عملت على تجميع الفلسطينيين داخل المخيم الواحد تبعا لأصولهم القروية . فجمعت أهالي قرية هونين في احدى زوايا المخيم وأهالي علما وفراضه وغيرها من القرى الفلسطينية في أماكن أخرى من المخيم نفسه . وأبقت الوكالة بالتالي على العلاقات العشائرية القروية ولكن بصورة اصطناعية . فليس هناك من قاعدة مادية انتاجية لبقاء مثل هذه العلاقات . فهي اصطناعية هذه المرة لأنها تجعل من معونات وخدمات الوكالة قاعدة مادية لاستمرار النزعة التي يقول الكاتب انها قروية ... ان بقاء مثل تلك العلاقات العشائرية الاصطناعية جعل عملية سيطرة الوكالة والدولة اللبنانية تامة وأكيدة لأنها توصلت الى أهالي المخيم عن طريق الوجهاء وكبار أعضاء العائلات المختلفة . لذلك يجب الادراك ان أهالي المخيم يعيشون في حالتين نفسيتين متعارضتين :

أ — النفسية الاصطناعية التي أبقت عليها الوكالة والتي تعود أصولها الى القرية الفلسطينية. والتي لم يعد لها أي أساس انتاجي اجتماعي بل اتخذت من خدمات الوكالة ركيزة مادية لوجودها .

ب — النفسية الجديدة هي نفسية « الوحدة الاجتماعية السياسية » التي تحدث الكاتب عنها في مؤخرة الكتاب . نتجت هذه النفسية عن الظروف الانتاجية الجديدة التي تطورت منذ أواخر الخمسينات وأفرزت واقعا جديدا لسكان المخيم .

ان ما بقي من آثار نفسية القروي هو جانب الحنين والارتباط الروحي بالارض المفقودة ، وهذا ما دفع الى استمرار النزعة الوطنية للفلسطينيين . أما الواقع الاجتماعي الحالي — التشتت والبؤس ومعاملتهم كأجانب في البلاد المضيفة واستغلال قوة عملهم وعدم اعطائهم أدنى حد من الحقوق المدنية والسياسية . هذا الواقع هو الذي دفع الفلسطينيين الى النشاط السياسي الحالي . وبديهي ان النشاط السياسي الثوري الحالي له الدور الرئيسي في تعبئة طاقات الشعب الفلسطيني من أجل استرجاع الوطن .

فبناء على هذا لا يمكن ان نضع كافة المطالب من الوكالة في برامج المنظمات الفلسطينية النقابية والسياسية . اذ ان هذه المطالب تعبر عن عقلية « اللاجىء » الذي خرج لتوه من فلسطين ويطالب ببديل مباشر عن الارض . وهكذا فان خدمات الوكالة قامت بتلبية الحد الادنى لاستمرارية حياة الشعب الفلسطيني بعد ان خسر كل مقومات الحياة مباشرة بعد النكبة والهجرة .

لنرى الآن كيف أغفل الكاتب جانبا مهما من حياة الشعب الفلسطيني وهو حق نشاط الثورة الفلسطينية العلني الذي انتزع عام ١٩٦٩ . لذلك لم يكن الكاتب جريئا ليخاطب الفلسطيني بلهجة تتطلب منه الاعتماد على النفس والاستغناء التدريجي عن خدمات الوكالة . فقد كتبت هذه الدراسة في أواخر عام ١٩٧٢ ونشرت عام ١٩٧٣ . أثناء تلك السنوات وقبلها طرأت تغيرات جذرية على طبيعة الاوضاع الاجتماعية داخل مخيم تل الزعتر ، وأصبحت منظمات الثورة هي المسؤولة المباشرة عن حياة الشعب الفلسطيني . ان معظم

المطالب التي صاغها هاني مندس قد تحققت أو بدأت تتحقق منذ اللحظة الاولى لتواجد قوات الثورة . ففي مجال السكن فقد بدأ الفلسطينيون في بناء مساكن جديدة بدل أكواخ التنك ولا يوجد الآن مرحاض عام واحد بل زودت المساكن بالماء والمراحيض والكهرباء . فان الذي حرم الفلسطينيين من بناء أو ترميم منازلهم ليس الفقر المدقع كما يصور البعض ولكن تدخل الدولة اللبنانية التي أرادت الحفاظ على الارض المستأجرة لصالح أصحابها العقاريين . أما في مجال التغذية فلا حاجة على الاطلاق لخدمات الوكالة اذ أصبح الفلسطينيون جماعة منتجة عاملة . وعلى صعيد الخدمات الطبية فقد وجد منذ عام ١٩٧٠ اكثر من مستوصف ويوجد الآن اثنان من المستشفيات أحدهما تابع لمنظمة الهلال الاحمر التي تسعى الى بناء أكثر من مستشفى داخل المخيمات وخارجها . وعلى صعيد الصحة العامة فقد بدأت عملية تغطية المجارير والاعتناء بنظافة الممرات التي رصفت بالاسمنت والحديد .

أشار الكاتب في بعض مواضع كتابه الى ضرورة تكثيف نشاط أهالي المخيم ولكنه لم يعط الاهتمام الكافي لهذه المسألة . والوكالة على أي حال نجبه ان شئنا أم أبينا الى تقليص حجم خدماتها ولا يمكن أن يتعدى موقف الثورة من الوكالة أكثر من عدم مطالبتها بأي شيء جديد والتحفظ أمام ضرورة استمرار خدماتها . فلو ان امكانيات الثورة كافية للاستغناء حتى عن الخدمات التربوية لطالبنا بذلك . ولكن المسألة من جديد ليست بيدنا . ولا ننس ان للشعب الفلسطيني الذي يدفع الضرائب كاملة للدولة اللبنانية مطالب من الحكومات اللبنانية فيمكن في يوم من الايام ان نطالب وزارة التربية بادارة مدارس الاونروا وهذا حق شرعي ومباشر . فالخلاصة انه في ظروف تصاعد الثورة لا يوجد لنا عذر يمكن التمسك به لمطالبة الوكالة بالحاح كما يبرزه الكاتب هاني مندس .

حجم المؤسسات : يقدم الفصل الثاني عرضا مكثفا عن حجم المؤسسات ونسبة العمال الفلسطينيين الى باقي عمال هذه المؤسسات . ومن خلال الجداول الاحصائية الواردة في هذا الفصل يستخلص الكاتب معظم استنتاجاته عن الوضع العام للعمال الفلسطينيين في المخيم . فقد بينت هذه الجداول عدة أمور : ١ — ان نسبة العمال الفلسطينيين الى العمال بشكل عام أعلى في المؤسسات التي تضم من ١٠ — ٢٤ عاملا من نسبهم في المؤسسات الكبيرة والصغيرة التي تضم أكثر من ٥٠ عاملا وأقل من ١٠ عمال . ٢ — عدد العاملات الفلسطينيات مرتفع جدا بالنسبة لعدد العمال الذكور في المؤسسات الكبيرة .

يظهر الكاتب تشاؤما ملحوظا من هذه النتائج على صعيد الآثار الطبقية والسياسية — التنظيمية . ويعرض أسباب هذه النتائج هذه الاسباب التي لا نعتبرها كافية .

— يقول الكاتب ان انخفاض نسبة العمال الفلسطينيين في المؤسسات الحرفية (أقل من ٥ عمال) تعود الى أسباب العائلية . وبهذا ينسى ان الحرفيين الفلسطينيين بمعظمهم يعملون في حرفياتهم الخاصة ، وهم كذلك لا يستخدمون أحدا من خارج اطار العائلة أو القرابة .

— السبب في عدم وجود نسبة عالية في المؤسسات الكبيرة يعود (حسب الكاتب) فقط الى عدم الحصول على اجازة عمل وبالتالي عدم شمول العمال بالضمان الصحي والاجتماعي . هذا بينما نرى على الوجه الآخر ان المؤسسات الكبيرة في قطاع الغذاء والنسيج لا تشترط اجازة العمل . وهم يستخدمون العاملات اللبنانيات والفلسطينيات لانخفاض الاجرة ، وهناك عدد من الاسباب — عدا انخفاض الاجرة — التي تمنع العمال الفلسطينيين الذكور من العمل في هذه المؤسسات . فان حجة طلب الاجازة التي تقف عائقا شكليا لا تشكل السبب في عدم تمركز العمال الذكور في المؤسسات الكبيرة .

ولمعرفة أسباب هذه الظواهر ينبغي دراسة عدة مسائل بشكل خاص ، منها ان المؤسسات التي تضم من ١٠ — ٢٤ عاملا (حيث يوجد نسبة عالية للفلسطينيين) لم تكن طوال الوقت على نفس الحجم خاصة في فترة أواخر الخمسينات وأوائل الستينات . فقد كانت حرفيات أصغر حجما استخدمت عددا غير قليل من القاصرين أبناء سكان مخيم تل الزعتر . وفي هذه الحرفيات تعلم القاصرون المهن المختلفة خلال عدة سنوات وشكلوا فئة العمال الماهرين خاصة في قطاع الميكانيك والموبيليا والمنجور الخ .

وحصل هؤلاء على أجور أعلى بمجرد انتقالهم من مؤسسة الى أخرى بعد تخصصهم في المهنة المحددة . ولدى هذه الفئة من العمال الماهرين الاسباب الكافية لعدم توجههم للعمل في المؤسسات الكبيرة وتفضيلهم البقاء في تلك المؤسسات الصغيرة المتطورة نسبيا :

أولا : ان الحد الادنى للأجور الرسمي منخفض بالتأكيد عن أجورهم كفئة « معلمين » في المصانع الصغيرة .

ثانيا : لا ينخلى العامل الماهر عن مهنته ومهارته مقابل استخدامه في مصنع يعتمد في أساسه على المكننة .

ان وجود المصانع الكبيرة قد ضايق بشكل ملحوظ المصالح الحرفية الصغيرة والمتوسطة مما أدى كذلك الى هجرة أكثر العمال الماهرين الى الخارج — فمعظم المهاجرين من تل الزعتر هم من العمال الماهرين .

لماذا نجد أن نسبة العمال اللبنانيين في المؤسسات الكبيرة أكبر منها في المؤسسات الصغيرة ، وبالمقابل انعدام أو انخفاض نسبة العمال الفلسطينيين في تلك المؤسسات ؟. يعود السبب في ذلك بكل بساطة الى أصل الاعداد المهني لجموع العمال من الطرفين . فالاعداد المهني للفلسطينيين كان في غالبيته كما ذكرنا عن طريق العمل المبكر والتحصيل المهني داخل المؤسسة في القطاع المعين مما ساعد على ربطهم بهذه المؤسسات الصغيرة . بينما نرى ان مصدر قوة العمل في المؤسسات الكبيرة هو الريف اللبناني . فالفلاح الذي ترك أرضه لا يعرف عن الصناعة شيئا ولا يملك بالتالي أية مهارة أو خبرة . فالمكان الوحيد الذي يستقطبه هو المصنع الكبير المكنن الذي لا يتطلب مثل هذه المهارة أو الخبرة .

ان دراسة ما ورد أعلاه بشكل خاص يوضح هذه المسألة بشكل كاف . لذلك فان هذا الفصل من الكتاب غير كاف ، ولا يأخذ من المسألة سوى جانب واحد غير هام ولا يعطي سوى القشرة الخارجية التي يدركها العمال بأنفسهم ونعني جانب اشتراط الاجازة أو المعيقات من القوانين الاخرى المتشددة . ان التحول الاجتماعي لفئة لا تتم بازالة بعض القوانين أو المعيقات القانونية كما يقول الكاتب ، بل هي عملية معقدة تاريخية واقتصادية ونفسية . لذلك لا معنى أبدا لقول الكاتب : « ينبغي التصدي للمعيقات والاسباب التي تقف حجر عثرة أمام تطور العمال الفلسطينيين وتحول قسم كبير منهم الى بروليتاريين » (ص ٨٣) . فالمنطق والعلم يقولان بأن الوضع الطبقي للعمال الفلسطينيين سيتغير بتغير الظروف الاقتصادية (الموقع الانتاجي — المهارة — الاعداد المهني — النفسية الخ) وعندها ستتغير القوانين بلا شك .

توزع العمال الفلسطينيين حسب القطاعات والمهن : يتناول هذا الفصل الكبير (٨٥ — ١٦٦) كل المسائل والمعلومات التي تتعلق بعدد العمال الفلسطينيين من المخيم وتوزعهم على مختلف المهن والقطاعات الاقتصادية ، وهو بشكل المقدمة للفصل الرابع الذي يتناول الناحية الطبقية لتوزع العمال في المهن والقطاعات المختلفة في هذا الفصل نجد كثيرا من النماذج الحية التي تعطي صورة واضحة ومفصلة عن نوع العمل وأوضاعه وشروطه وحجم الاجور والتعويضات الخ . ان هذه النماذج ، وهي كثيرة جدا ، تنقل الصورة كما هي ظاهرة في الواقع ، فجمعت ما هو ضروري لهذه الدراسة وما هو غير ضروري وقد جاءت كتقرير عن أوضاع العمال بشكل عام في المصانع وخصائص كل مهنة وحرفة ، وليس فيها ما يخص الفلسطيني سوى مسائل العلاقات القانونية . فمن خلال هذا التقرير يمكن التعرف على خصائص كل مهنة من الناحية الصحية والاجرة ومتطلبات المهنة في مجال صيانة القوة العاملة وزيادة الانتاجية وكل ما يتعلق بالعلاقات بين أصحاب العمل والعمال . والتقرير بالاضافة الى ذلك يعطي احصاءا شاملا لعدد العمال الاجمالي وعددهم في كل مهنة وعدد العاطلين عن العمل الخ . وكل ما نستطيع قوله عن هذا التقرير انه يشكل مادة مفيدة وغنية للنقابات وخاصة الاتحاد العام لعمال فلسطين فرع تل الزعتر بحيث يشمل المعلومات التي ينبغي على اتحاد العمال نفسه جمعها ليستطيع اتخاذ الخطوات اللازمة في الوقت المناسب للدفاع عن العمال والتعرض لحل مشاكلهم الخاصة والعامة .

أما في الفصل الرابع فنجد أرقاما وجداول تبين باختصار نسبة عمال وعاملات المخيم الى مجموع

السكان ، وتوزعهم — بالارقام — على القطاعات المختلفة ، الزراعة والصناعة والخدمات . وبالتالي يبين هذا الفصل التحول الذي طرأ على التركيب الاجتماعي للسكان مع مقارنة المخيم مع باقي الاحياء الشعبية اللبنانية .

ومن احدى غايات الكاتب في عرضه ودراسته للوضع الفئوي للعمال هي معرفة حدود مساهمة كل فئة من العمال ومجموع السكان في النشاطات السياسية — التنظيمية والنضالية . يقسم الكاتب العمال الى ثلاث فئات : « ١ — فئة البروليتاريا (العمال الصناعيون في المؤسسات الكبيرة) . ٢ — أشباه البروليتاريا (الفئات العمالية الكادحة خارج المؤسسات الكبيرة) . ٣ — فئات عمالية رثة (الفئات العمالية التي تزاول أعمالا هامشية وخدمات ثانوية) » (ص ١٧٣) .

يرتكب الكاتب هنا خطأ في التمييز بين الفئة الاولى والثانية ، اذ ان البروليتاريا ليس بالضروري ان توجد في مؤسسات كبيرة أو صغيرة ما داموا يبيعون قوة عملهم لصاحب العمل ولا يملكون أدوات الانتاج . فالفئة الاولى والثانية اذن هم بروليتاريا . فان التمركز أو عدم التمركز لا يغير في جوهر الامر شيئا على صعيد التقسيم الطبقي . فالبروليتاريا تنشأ داخل الورش والمصانع الصغيرة في الاصل ثم تبعا لتطورات اقتصادية معينة تحصل عملية التمركز . ولا شك ان هذا التمركز يؤدي الى تغيير في نفسية العمال ويعطي خصائص اجتماعية أرقى منها في حال عدم التمركز . أما عن اصطلاح « أشباه البروليتاريا » فانه يستخدم للفئات التي تملك أدوات انتاج ولكنها لا تكفي لاعالتها فتضطر الى بيع قسم من قوة عملهم خلال موسم أو فترة معينة من أوقات العمل . ولا نجد مثل هذه الفئات الا في الريف حيث يوجد الى جانب العمال الزراعيين الذين لا يملكون وسيلة الانتاج (الارض) فئة من أشباه البروليتاريا التي تملك قطعة صغيرة من الارض ويبيعون قوة عملهم لغيرهم من الملاكين .

أما على صعيد تصنيف الفئات غير العمالية فان الكاتب يقع في خطأ آخر . وبالرغم من تحفظه « المنهجي الوجيه » لا يحق للكاتب ان يصنف فئات البرجوازية الصغيرة « الكادحة » في صفوف فئات العمال نتيجة تأرجح الوضع المهني ومستوى الاجر — اذ ان التقسيم الطبقي أو الفئوي لا يعتمد اطلاقا على مستوى الاجرة ، هذا من الناحية النظرية العلمية . أما اذا ظن الكاتب ان هناك خصوصية في المخيم الفلسطيني فهو مخطىء أيضا . فلو كان الامر كذلك لنسفنا كل الاسس التي اعتمد عليها الكاتب في تصنيفه للفئات العمالية وخاصة الفئات العمالية الرثة . فان دخل بعض هذه الفئات (بائع يانصيب مثلا) يبلغ أحيانا ثلاثة أضعاف أو أربعة أضعاف دخل البروليتاريا أو أشباه البروليتاريا ، ومع ذلك فهم لا يشكلون فئة أرقى اجتماعيا . لذلك فان الكاتب قد اخطأ في اعتبار العاملين لحسابهم الخاص من صفوف العمال خاصة باعة الخردة أو تحف شرقية أو في مهنة التريكو والخياطة . ان ارتكاب مثل هذا الخطأ يكرس الخطأ الموجود في اتحاد العمال (فرع تل الزعتر) فمسؤول الاتحاد موظف وأعضاء مجلس الاتحاد بمعظمهم من « المعلمين » الصناعيين أو أصحاب الدكاكين وتجار الخردة الصغار وغيرهم من فئات ارستقراطية العمال .

العمل النقابي الفلسطيني : يقع الكاتب في نفس خطأ الاقتصاديين عندما يحدد بشكل عام أهمية العمل النقابي .. ففي أكثر من مكان في الكتاب يذكر ان العمل السياسي الجماهيري ينطلق من الحاجيات المباشرة للجماهير . وان النضال المطلبي هو نقطة الانطلاق في نجاح أي عمل سياسي واسع . فكما ان الكاتب قد اندفع عمليا خلف عفوية جماهير المخيم وذلك بعرضه لتلك المطالب باسم الاهالي ، فانه يؤكد ذلك على المستوى النظري ولكن الواقع قد أثبت بدون شك ان العمل السياسي للثورة الفلسطينية قد نجح وتطور واستقطب كل الجماهير منذ اللحظة الاولى دون ان يكون هناك حاجة لتحقيق أية مكتسبات مادية مباشرة وآنية . وهذه الواقعة تثبت عكس ما يحاول الكاتب أن يشدد عليه . فان نزعة المكتسبات الحالية والمباشرة هي نزعة عفوية نقابية محدودة . ولا ينجر خلفها سوى البسطاء من الناس .

دور النقابة في ظل الثورة : ذكر الكاتب انه لا يوجد علاقات استغلال داخل صفوف التجمعات الفلسطينية . لأن الصراع الطبقي داخل وحدة المخيم لا يوجد لها أساس مادي . وبالتالي فان للعمل النقابي الفلسطيني مجال آخر للنشاط داخل الوحدة الاجتماعية الفلسطينية . ان أهم القضايا المطلبية

التي حددها الكاتب نفسه هي الغاء اجازة العمل ومعاملة الفلسطيني كمعاملة المواطن اللبناني ورفع القيود والعراقيل القانونية ... فاذا كانت هذه هي أهم المطالب فاننا نقول انها ليست مطالب اقتصادية أكثر مما هي مطالب سياسية وهذا ما أشار اليه الكاتب في الفصل الخامس ص ٢٠٢ . لذلك فان أمر تحقيق هذه المطالب يخرج عن نطاق حدود العمل النقابي . فكما استطاع النشاط السياسي للثورة الفلسطينية ان يكسر كثيرا من القوانين المعيقة لحرية حركة وتنقل الفلسطيني وحرية نشاطه العسكري والسياسي الواسع النطاق ، فان الثورة قادرة في المستقبل القريب ان تشل فعالية القوانين المعيقة الاخرى تبعا لحاجيات الثورة الضرورية والاساسية من أجل تطورها ونموها . أما عن دور العمل النقابي الفلسطيني في مجال النضال المطلبي داخل المصانع من أجل رفع الاجور وغيرها فانه لا يوجد أي دور قيادي أو مبادر وذلك لعدم وجود أدنى حد من تمركز القوى العاملة الفلسطينية داخل كافة المصانع . لذلك فالدور الاساسي والرئيسي يعود للنقابات اللبنانية في هذا المجال وكما لاحظنا ان كل مكسب اكسبته الطبقة العاملة اللبنانية على صعيد الاجور وغيرها قد أفادت منه الفئات العاملة الفلسطينية بشكل اوتوماتيكي . لذلك فان دور العمال الفلسطينيين يقتصر على المساندة والتأييد ولا يمكن أن يتعداه الى مجال المبادرة أو قيادة الاضراب الاقتصادي أو غيره من وسائل النضال النقابية .

فما هو دور النقابة في داخل الوحدة الاجتماعية السياسية للفلسطينيين ؟ في ظل الثورة لا يتعدى دور النقابة على قيادة المشاريع الاصلاحية العامة داخل المخيم . وحشد الطاقات من أجل انجاز تلك المشاريع الاصلاحية كبناء الملاجىء وانشاء المستوصفات والقيام بحملات صحية عامة الخ . والنقابة بالتالي لا تشكل أكثر من مدرسة للعمل الاجتماعي النافع داخل المخيم نفسه . أما على الصعيد الدولي فان النشاط الاعلامي في فترة صعود الثورة واكتساب الاصدقاء هي المهمة الاساسية والممكنة . ان أي انحراف في تحديد مهام النقابة الفلسطينية لا يؤدي الا الى الارتباك والبلبلة . فالوضع النقابي الفلسطيني له مميزات خاصة نظرا لتشتت الشعب الفلسطيني وعدم تمركز قواه العاملة . وهذا ما يدركه الكاتب نفسه ولكنه حين يعرض الى دور النقابة وواجباتها فانه لا يتعدى ذكر الكلاسيكيات العامة التي تنطبق على كافة النقابات في العالم ويسقط من الحساب الوضع المميز على الصعيد الفلسطيني خاصة في ظل صعود الثورة .

الخاتمة :

لا شك ان الكتاب حافل بكل جديد على صعيد المعلومات والاحصاءات ، ولكنه على صعيد بعض الاستنتاجات والاحكام فان الكاتب لم يستطع ان يتخلص من النزعة العفوية التي عبر عنها سكان مخيم تل الزعتر لذلك فانه اندفع الى الالتزام بالمطالب التي يراها الناس العفويون مناسبة وضرورية ولكنه لم يصنع بنفسه هذه المطالب بناء على الواقع العيني الذي عايشه بنفسه فهناك الكثير من المطالب والارشادات التي تساعد الفلسطيني ان يدرك ما هو جديد في حياته ووضعه ولكنه لا يستطيع ادراكها بنفسه . والجرأة والصدق في طرح الجديد من مميزات الكاتب الثوري الملتزم . أما الالتزام بعفوية الجماهير والاستسلام لنفسيتها التي تراكمت تاريخيا فليست سوى علامة السلبية والجمود .

عدنان الغول

تقارير

مؤسسة صامد :
محاولة لبناء مؤسسة انتاجية

تحمل مؤسسة صامد اسم " جمعية معامل ابناء شهداء فلسطين » ومرخص لها من قبل السلطات المحليه للعملداخل مخيمات الفلسطينيين في سوريا ولبنان . وقد ظهرت الى الوجود في العيد الخامس لانطلاقة الثورة الفلسطينية في العام ١٩٧٠ وقد بدأت عملها في الاردن داخل مخيمات الفلسطينيين هناك ، وبعد مجازر ايلول والاحراج حظرت السلطة الاردنية اعمال هذه المؤسسة وقامت باغلاق فروعها داخل الاردن ، جاء في قرار تأسيسها تحديد اهدافها على النحو التالي :

اولا : استيعاب اكبر عدد ممكن من ابناء وبنات شهداء الثورة الفلسطينية في مراكز مهنية تتبع الجمعية لتأهيلهم بمهنة شريفة تؤمن لهم العيش الكريم .

ثانيا : استيعاب اكبر عدد ممكن من ابناء وبنات شهداء الثورة الفلسطينية والمتضررين في سبيلها للعمل في مرافق الجمعية .

ثالثا : رفع المستوى المعيشي والثقافي والاجتماعي لاسر شهداء فلسطين والجرحى والمتضررين من اجلها .

رابعا : توفير السلع التي تنتجها الجمعية لابناء المخيمات واسر الشهداء والمتضررين بأسعار تناسب ودخلهم المحدود .

خامسا : العمل على تأمين مورد ثابت لاسر الشهداء والمتضررين .

سادسا : تشجيع انتاج الشعب الفلسطيني بمختلف الوسائل .

ان قراءة هذه الاهداف المحددة لجمعية صامد يوضح ان الدافع الاول وراء تأسيسها كان حماية أسر الشهداء . والاهداف جميعها تقريبا تدور حول اسرة الشهيد سواء في اولوية العمل في مرافق الجمعية او في تلقي التدريبات في المراكز المهنيه التابعه للجمعية ، والاهداف الاخرى تؤكد على رفع مستوى المعيشه وتأمين مورد ثابت للاسرة بعد فقد معيلها ، واما الهدف السادس والاخير فتلقي على عاتق الجمعية تشجيع انتاج الشعب الفلسطيني بمختلف الوسائل . وهكذا نرى ان اساس فكرة انشاء جمعية صامد يكمن في ضرورة ايجاد حل لمشكلة عملية واجهت الثورة الفلسطينية وهي مشكلة اسرة الشهيد او الجريح او المتضرر ، فلم يكن في ذهن المؤسسين في بداية الامر اكثر من ايجاد مؤسسة ذات طابع خيري وانساني لرعاية اسر الشهداء . في اغلب الظن، ان المؤسسين قد لاحظوا وعاشوا المآسي التي لحقت بالاسر والعائلات الفلسطينية التي فقدت معيلها بعد ثورة ١٩٣٦ ونكبة عام ١٩٤٨ عندما فقد الشعب الفلسطيني كيانه وتشرد ابناؤه في انحاء الارض ، وذاقت اسر الشهداء طعم الذل والهوان ، ولهذا وفي غمرة النضال شعر قادة الثورة باهمية هذا الجانب في حياة كل مناضل ، وقد جاءت هذه المؤسسة لتتعهد الاسرة والاولاد بالعلم والرعاية .

ان مما يلفت النظر هنا ان هذه الاهداف جاءت خاليه تماما من ايه اشارة الى تنمية موارد الثورة . فالهدف السادس للجمعية يشد الى « تشجيع انتاج الشعب الفلسطيني » دون ان يربط بين هذا الانتاج وبين وضعه في خدمة

الثورة ، وهذا ما يؤكد ما قلناه من ان مؤسسة صامد كانت في بداية نشأتها مجرد جمعية خيرية انسانية تتولى شؤون اسر الشهداء وهذا النقص في تحديد اهداف صامد يعود بالدرجة الاولى الى ان تأسيسها قد جاء في مرحلة المد الثوري وهي مرحلة يغلب فيها الحماس ، ولم تكن الثورة قد واجهت بعد ، الحاجة الى بناء مؤسسات انتاجية توفر للثورة احتياجاتها المختلفة ، مضافا الى هذا ان عدم وجود ارض يمكن استغلالها على نطاق واسع قد ابعد عن ذهن المؤسسين مسألة تنمية الموارد لتأمين احتياجات الثورة .

تطور جديد وأهداف جديدة

ولكن وبعد اربع سنوات ، مرت فيها الثورة بتجارب ومحن كثيرة فان احدى نشرات صامد تتحدث عن الانجازات التي حققتها صامد على النحو التالي :

اولا : رسم الخطوط المبدئية لخلق الاقتصاد الفلسطيني الثوري المتكامل .

ثانيا : خلق واستقطاب الكوادر الفنية الثورية.

ثالثا : اكتساب الخبرة من خلال الممارسة العملية للمشاركة في بناء القطاع العام الفلسطيني .

رابعا : رفع المستوى المعيشي والثقافي للاسر التي يشارك ابناؤها في العمل في صامد .

خامسا : محو الامية في كافة المشاغل .

سادسا : التوعية السياسية والتعبوية والتنظيمية بكافة الوسائل .

سابعا : المشاركة في الحملات الاعلامية لصالح الثورة من خلال المعارض التي تشارك فيها صامد وابراز الوجه الحضاري والانساني للثورة . وادخال القضية الى كل القلوب وكل البيوت من خلال ادخال منتوجاتها .

ان صامد تتحدث هنا لاول مرة عن « خلق اقتصاد ثوري وعن بناء « القطاع العام الفلسطيني » وتربط ربطا واضحا بين الانتاج والقتال فحيث تدخل المنتوجات تدخل القضية ، والحديث عن خلق اقتصاد ثوري وعن بناء قطاع عام نقل صامد من مؤسسة انسانية وخيرية الى مؤسسة انتاجية . وبهذا التحديد لاهداف صامد تكون الثورة الفلسطينية قد عبرت بوضوح عن حاجتها الى موارد مالية واقتصادية تخضع لاشرافهاوتوجيهها ، وعلى الاغلب فان تطور علاقة الثورة بالاقطار العربية على نحو متفاوت يخضع لاعتبارات عدة ، قد وضع الثورة امام ضرورة توفير حد ادنى من الموارد المستقلة لضمان استمرار الثورة ذاتها في مراحل الجزر والحصار ، وتجدر الاشارة هنا الى ان الثورات عموما تقوم بمراجعات شاملة في مراحل الجزر والحصار لتستكمل اسباب قوتها لتعاود الهجوم من جديد ، ومن الواضح ان مراجعة الثورة الفلسطينية لتجربتها المريرة في الاردن قد حتمت عليها ضرورة العمل على تأمين موارد ثابتة ومستقلة ، وهذا ما يفسر لنا الاشارات الاولية ، الواردة هنا حول موضوعة رسم الخطوط المبدئية لخلق الاقتصاد الفلسطيني ، والحديث عن اكتساب الخبرة للمشاركة في بناء القطاع العام الفلسطيني ، ورغم هذا التطور الهام الا ان هناك نقصا واضحا في تحديد أهداف « صامد » بوضعها الجديد حتى تكون قادرة على التحول الى مؤسسة انتاجية فلا بد من أن تحدد أهدافها بدقة اكثر .

مؤسسة صامد في خمس سنوات

تأسست صامد في عام ٧٠ وقد بدأت بصورة بطيئة وتدريجية . فأخذت شكل التأهيل المهني لابناء وبنات الشهداء والجرحى والمتضررين من أبناء الثورة الفلسطينية . وتطورت الفكرة عام ٧٢ من مراكز تأهيل لتأخذ شكل معامل واخذت تتوسع وتتطور فأقيمت المشاغل في المخيمات في كل من لبنان وسوريا وخطط للانتاج في مراحله الاولى لتلبية احتياجات المقاتلين : الكنزة ، الكلسات ، البدلة العسكرية ، وغطت معظم احتياجات قوات الثورة .

وفي العام ١٩٧٣ اقيمت مشاغل القميص والبنطلون والكنزات المدنية ، والاشغال اليدوية والتطريز ، وتطورت امكانياتها التقنية واقيمت مشاغل في مخيم اليرموك وخان الشيخ في سوريا، ومشاغل جديدة في بيروت . وهكذا اكتمل الانتاج ليشمل الملابس الرجالية ، ملابس الاطفال ،

الملابس النسائية ، بالاضافة الى تلبية بعض احتياجات القوات من الملابس العسكرية .

وفي العام ١٩٧٤ سجلت المعامل بشكل رسمي كجمعية خيرية في لبنان وبالفعل صدر قرار تسجيل الجمعية بشكل رسمي ، مما يؤهلها لدخول الاسواق التجارية في الاقطار العربية او في الخارج ، خاصة وان عدد العاملين يصل الى الف عامل وعاملة موزعين على فروع الانتاج المختلفة ، التطريز ، الاشغال اليدوية ، المنجرة ، مشاغل الصوف ، مشاغل الخياطة ، وجميع هؤلاء العاملين من ابناء او اسر المناضلين من ابناء الشعب الفلسطيني في المخيمات .

ميادين عمل المؤسسة

في المجال الفلسطيني : اولا : تأمين أسر الشهداء داخل المخيمات بايجاد عمل لهم داخل المخيم وبأجور معقولة .

ثانيا : تأمين بعض الحاجات داخل المخيم بأسعار معقولة .

ثالثا : مشاركة المرأة في العمل .

رابعا : محو الامية بين العاملين والعاملات في المعامل .

خامسا : سد احتياجات القوات المسلحة للثورة من السراويل والكنزات والكلسات والسراب .

سادسا : تدريب اعداد كبيرة من العمال في مختلف المجالات .

في المجال العربي : ان تحرك صامد لم يقتصر على اوساط الجماهير الفلسطينية وتجمعاتها في المخيمات الفلسطينية في سوريا ولبنان بل امتد الى الساحة العربية ومن انجازاتها :

اولا : شاركت في مختلف المعارض التي اقيمت في معظم البلدان العربية خلال السنوات الماضية .

ثانيا : اقامت معارض خاصة بانتاجها في عدد من البلدان العربية .

ثالثا : اقامت معارض دائمة في كل من لبنان وليبيا وهناك اعداد لاقامة معارض مماثلة في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، الجمهورية العربية اليمنية ، تونس ، الصومال ، السودان والجزائر .

في المجال الدولي : اشتركت على المستوى العالمي في عدة معارض دولية منها معرض لايبزغ الدولي ، معرض الجزائر الدولي ، معرض الدار البيضاء الدولي ، معرض تونس الدولي ، معرض طرابلس الدولي ، معرض القاهرة الدولي ، معرض دمشق الدولي ، معرض بغداد الدولي ، معرض بوخارست الدولي ، بالاضافة الى مشاركتها في معارض اوغندا ، تنزانيا ، السنغال وباريس .

كذلك اقامت معارض خاصة بانتاجها في عدد من البلدان منها ابو ظبي ، دبي ، الكويت ، لبنان ، ليبيا ، باكستان ، الصين ، اميركا ، بلجيكا . ووزعت منتوجات صامد وتراث شعبنا في اكثر الاقطار التي زارتها وفود الثورة كما وجهت لها دعوات للمشاركة في المعرض الدولي في رومانيا ، بلغاريا ، تشيكوسلوفاكيا .

المشاغل ودورها الاقتصادي والسياسي

خلال خمس سنوات من عمر مؤسسة صامد امتد نشاطها الى اغلب المخيمات الفلسطينية داخل سوريا ولبنان . وتشكل هذه المشاغل نويات صغيرة اقتصادية وسياسية تحمل في احشائها وعوداً كبيرة . ولكن وبحكم الاهداف المحدودة وراء انشاء صامد في اول الامر ، فان هذه المشاغل لم تؤثر بعد على اقتصاديات المخيم، فلا يشكل عدد العاملين فيها الا نسبة محدودة للغاية من عدد العمال في المخيم ، كذلك فان انتاج هذه المشاغل لم يفرض نفسه في وجه المنتوجات الاخرى من السوق المحلي ، ولكن بنتظر بعد هذه الاشارات الى دور صامد في المرحلة الجديدة من تطورها ان يتوسع العمل في هذه المشاغل ويزداد الانتاج ، خاصة اذا عرفنا ان الثورة الفلسطينية تشتري القسم الاكبر من احتياجاتها من السوق المحلي وباسعار السوق ، في الوقت الذي يمكن فيه تحقيق فائدة مزدوجة عن طريق تكليف مؤسسة صامد بتلبية هذه الاحتياجات ، مما يحقق انعاش المخيم بتشغيل أكبر عدد من العاملين والعاملات في العمل داخل هذه المشاغل ، ويوفر للثورة لوازمها ، وبدأ عاملة خبيرة ومعامل تحت

اشرافها المباشر ، كذلك لا بد من ملاحظة ان فرص العمل امام الفلسطينيين في المخيمات ليست متوفرة بشكل ثابت ، وهذا ما يدفع العديد منهم الى الرحيل بحثا عن العمل في الخارج . وفي الوضع الحالي ، فان بقاء العمال داخل المخيمات وعدم هجرتهم الى البلدان العربية الاخرى يضمن للثورة توفير حماية قوية للمخيم ، وهذه قضية هامة لا بد ان تعطى حقها من الاهتمام من قبل الثورة ، حتى يتم وضع خطة عمل مؤسسة صامد للاعوام القادمة بحيث نضمن تشغيل اكبر عدد ممكن من عمال المخيمات .

ولكن ورغم محدودية الدور الاقتصادي الذي تلعبه مشاغل مؤسسة صامد داخل المخيمات الفلسطينية . الا ان هذه المشاغل تلعب دورا سياسيا هاما في المخيمات ، فكل مشغل من هذه المشاغل يحمل اسم احد الشهداء الفلسطينيين ، ويقوم عمال المشغل بدور المفوضين السياسيين وسط العائلات والاحياء في المخيمات ، اذ بحكم عملهم في هذه المشاغل يطلعون اولا بأول على اخبار النضال الفلسطيني .

ويجري نقل هذه الاخبار الى الاهالي ، بحيث يقوم حلقه المشغل بربط الجمهور بالثورة ، ويظهر جليا هذا الدور السياسي لمشغل بالعلاقات التي تسود العاملين ، واحساسهم بمسؤوليتهم عن العمل والالات والانتاج ، مما يطرح امام العمال صورة جديدة للعمل تختلف نوعا عن الصورة المألوفة ، وهذا الوضع يعكس نفسه على بقية العاملين في المؤسسات الخاصة خارج المخيم ، فالمشاغل تدار من قبل « اللجان الثورية للعمل والانتاج » والتي يجرى انتخابها من قبل العمال انفسهم ، ورئيس اللجنة هو ايضا من بين العمال ، ومجرد تثبيت هذه المبادىء في ادارة المشاغل التابعة لصامد يطرح امكانات واسعة لتطورها وجذب العمال للعمل فيها . وهنا لا بد من التشديد على ضرورة تدعيم الدور السياسي لمشاغل صامد بدور اقتصادي واسع داخل المخيم ، وذلك لبناء اقتصاد ثوري يسهم بشكل فعلي وفعال في تدعيم قدرة الشعب والثورة . وتجدر الاشارة هنا الى ان حركات التحرر الوطني ربطت مسألة تنمية الموارد الذاتية ، بقدرة الثورة على مواصلة القتال ، والثورة الفلسطينية ، بعد كفاح عشر سنوات ، لا بد لها من اعطاء هذا الموضوع ما يستحقه من اهتمام .

ونورد فيما يلي قائمة باسماء مشاغل صامد :

اسم المشغل	الاسم الجديد
مشغل القميص	مشغل الشهيد ابو يوسف النجار
مشغل البنطلون	مشغل الشهيد غسان كنفاني
مشغل الصوف المدني	مشغل الشهيد كمال عدوان
مشغل الصوف العسكري	مشغل الشهيد ابو علي اياد
مشغل الجاكيت	مشغل الشهيد ابو صبري
مشغل النجارة	مشغل الشهيد عبد الفتاح عيسى حمود
القسم الفني	
مشغل التطريز — تل الزعتر	مشغل الشهيد كمال ناصر
مشغل التطريز — القاسمية	مشغل الشهيد محمود الهمشري
مشغل التطريز — عين الحلوة رقم ١	مشغل الشهيد حسين ابو العز
مشغل التطريز — عين الحلوة رقم ٢	مشغل الشهيدة ندى اليشرطي
مشغل التطريز — البرج الشمالي	مشغل الشهيد وائل زعيتر
مشغل التطريز — الرشيديه	مشغل الشهيد احمد موسى

ويشير تعميم صادر عن صامد ، بأنه يتوجب على كل العاملين في المشاغل ان يدرسوا جيدا حياة هؤلاء الشهداء الابطال ، والاقتداء بهم في تفانيهم من اجل ثورة شعبنا الظافرة .

النظام الداخلي لمؤسسة صامد

شروط العضوية وادارة المؤسسة

العضوية تقسم الى اربعة انواع يمكن التفريق بينها كالتالي :

اولا : عضو شرف ، وهذا تكون له صفـة استشارية ويسميه مجلس الادارة الخـاص بالمؤسسة .

ثانيا : عضو عامل ، وهو الشخص المنتسب الى احدى لجان الجمعية .

ثالثا : العضو المشارك ، وهو الشخص الذي يقوم بالمشاركة في اعمال الجمعية خارج اللجـان ويسدد الاشتراك الشهري ميها .

رابعا : العضو المساند الذي يساعد في اعمال الجمعية دون دفع اشتراكات محددة .

وتتلخص واجبات العضو كالتالي : تسديـد الاشتراكات الشهرية المحددة ، حضور الاجتماعات التي يدعى اليها حسب صفته ، تنفيذ قـرارات وتوجيهات الهيئة العامة ومجلس الادارة ، وتسقط العضوية في حالة الاستقالة او مخالفة القانـون الاساسي او النظام الداخلي .

ادارة صامد : تضم مؤسسة صامد وفق نظامها الداخلي اربع لجان وخمسة اقسام .

اللجان : اللجنة المالية ،لجنة التخطيط والانماء لجنة الاعلام ، لجنة العلاقات المعنية .

تتألف كل لجنة من ثلاثة اعضاء على الاقـل مجلس الادارة ورئيسها من بين الاعضاء كمـا ينتخب نائب للرئيس ومقرر وتجتمع بدعوة مـن رئيسها .

واما الاقسام فهي : قسم الانتاج ، قسـم التسويق والمبيعات ، قسم العلاقات العامـة ، قسم المحاسبة ، قسم الشؤون الذاتية (شؤون الموظفين والعمال) .

الهيئة العامة : تتألف من جميع المنتسبـين للجمعية وتجتمع بناء على دعوة من رئيس مجلس الادارة المنتخب .

مجلس الادارة : يدير اعمال الجمعية ويتألف من ثمانية اعضاء ينتخبون من بين المرشحين فـي الهيئة العامة ، ومدة ولايته ثلاث سنوات وينتخبون بدورهم رئيس الجمعية الذي يمثل الجمعية رسميا.

ويختص مجلس الادارة بالامور التالية :

– ادارة اعمال الجمعية .

– تحقيق اهداف الجمعية .

– اعداد الدراسات والتقارير اللازمة امـام الهيئة العامة .

– تعيين الموظفين والمستخدمين ومتابعـة شؤونهم .

– وضع موازنة الجمعية .

– انشاء اللجان والاقسام ووضع الخطـط المرحلية والدائمة لكافة الاقسام .

– اتخاذ جميع التدابير اللازمة لتنفيذ اهداف الجمعية والحفاظ على حقوقها .

– اقرار المساعدات السنوية او الطارئـة لعائلات الشهداء والجرحى والمتضررين .

– اقرار قوائم البعثات والدورات المهنية فـي الداخل والخارج .

هيئة مكتب مجلس الادارة : ينتخب اعضـاء مجلس الجمعية خمسة من بينهم ليشكلوا هيئـة مكتب مجلس الادارة ويتألف من الرئيس ، نائـب الرئيس ، امين السر ، امين الصندوق ، امين العلاقات العامة .

تجرى انتخابات الهيئة سنويا وتجتمع شهريا على الاقل . تقوم بتنفيذ قرارات المجلس والاشراف على أعمال اللجان والاقسام . وصلاحية الرئيس تتلخص في رئاسة جلسات مجلس الادارة وهيئة مكتبـه والهيئة العامة ، ويدعوها للاجتماع ، وايـة اجتماعات تتم في نطاق الجمعية ، ويمثل الجمعية ازاء الغير ، ويدعو الى الاجتماعات . ويجوز له اتخاذ التدابير اللازمة في الحالات الطارئـة والاضطرارية . وهي أعلى سلطـة في الجمعيـة وتختص بالامور التالية :

– انتخاب اعضاء مجلس الادارة .

– التصديق على التقرير السنوي .

– الموافقة على تعديل القانون الاساسي .

– الموافقة على حل الجمعية .

– البت في المقترحات والتوصيات المقدمة .

المكتب التنفيذي : يتكون من مسؤولي الاقسام

والفروع واية كفاءات أخرى يرى مجلس الادارة ضمها اليه ، ويشرف على تنفيذ قراراته ، كما انه يقوم بالربط بين كافة الاقسام والفروع .

وايضا يهتم النظام الداخلي بتنظيم العمل داخل المؤسسة من حيث مشاكل التعيين ، والدوام وساعات العمل ، والعقوبات ، والحقوق والواجبات ، والاجازات . ويحدد النظام الداخلي كيفية تشكيل المكتب التنفيذي وصلاحياته ومهماته وواجباته وقراراته واجتماعاته . كما يحدد مهام كل قسم ومسؤولياته وكيفية تحديد اختصاصاته . بالنسبة للنظام المالي فان النظام الداخلي يحدد مسألة صلاحيات الصرف ، والرواتب والاجور ، شؤون الخزينة ، المشتريات ، المبيعات ، امور التبرعات العينية والنقدية ، الجانب المالي للمصارف والفروع والاسواق الخيرية والمصروفات سواء الانتاجية او الادارية .

ويتشكل رأسمال المؤسسة من الواردات التالية :-

اولا : ٣٧٥ الف ليرة لبنانية تدفعها حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) .

ثانيا : الموجودات الثابتة من مبان وعقارات وآلات .

ثالثا : واردات اخرى مثل الاشتراكات ، الهبات والتبرعات والاعانات .

ريع المشاريع التي تقوم بها الجمعية ، ريع الاموال المنقولة وغير المنقولة التي تعود للجمعية .

واقع العاملين في صامد

تضم معامل ومشاغل صامد حوالي الف عامل، وتبلغ نسبة العاملات ٧٥٪ من مجموع العاملين، والعاملات من ابناء المخيمات ، ويعود السبب في ارتفاع نسبة العاملات الى مسؤولية مؤسسة صامد عن ايجاد عمل لاسر الشهداء وزوجاتهم . كذلك فان اهتمام صامد منذ تأسيسها باحياء التراث والازياء الشعبية الفلسطينية ، وخاصة الاثواب المطرزة . جعل العنصر النسائي غالبا في مشاغل الخياطة والتطريز والحياكة .

والملاحظ ان مؤسسة صامد لا تعتمد نظام الاجور المعمول به في المؤسسات الرأسمالية ، بل تعتمد النظام المالي للثورة ، حيث يعامل العامل نفس معاملة المقاتل ، بحيث يجري تحديد المرتب على ضوء الحالة الاجتماعية للعامل ، فالعامل المتزوج والذي يعيل اسرة كبيرة ، يتقاضى راتبا يسد حاجته رغم انه قد يكون عاملا عاديا غير مختص ، ولا يملك خبرة خاصة، ومن جهة اخرى فان هناك علاوات خاصة بالخبرة الفنية تدفع للعامل تتراوح بين ٢٥ الى ٥٠ ل.ل. لكل عامل . والعمال الدين يتلقون دورات تدريبية في البلدان الاشتراكية يتلقون بدورهم علاوة محددة عند عودتهم للعمل بعد اكمال دوراتهم .

وفي كل مشغل صندوق يموله العمال ويستحقه احدهم كل شهر ، وفي ادارة المؤسسة يوجد صندوق العمال المركزي لمساعدة العمال المحتاجين ولحالات الطوارىء .

وتدفع مؤسسة صامد مكافأة للعاملات داخل البيوت في اعمال التطريز والخياطة . والصوف . ويراعى في المكافأة حاجة العائلات والجهد المبذول .

وتعتمد صامد نظاما متقدما للضمان الصحي والاجتماعي ، حيث يتلقى العامل وافراد اسرته العلاج المجاني على حساب صامد ، وفي حالة وفاة العامل اثناء العمل يدفع راتبه كاملا مدى الحياة الى زوجته ، كذلك في حالة الاصابة التي تقعده عن العمل ، وتتحمل مؤسسة صامد نفقات العلاج سواء كان المرض او الاصابة اثناء العمل او خارجه .

تقييم الانتاج والاسعار

اهتمت مؤسسة صامد في بداية عملها باحياء الازياء الشعبية الفلسطينية ، وكان وراء هذا الاهتمام حرص الثورة الفلسطينية على حماية هذا الزي الشعبي من السرقة والاندثار بفعل التشرد الفلسطيني بعد ان بدأ العدو الصهيوني يجمع هذا التراث ويصدره الى العالم على انه زي صهيوني . بالاضافة الى ان معظم العاملات تجيد هذا النوع من العمل ، وقد ادت مؤسسة صامد دورا هاما في احياء التراث الشعبي الفلسطيني الى جانب الهلال الاحمر الفلسطيني ، وهناك معرض دائم للتراث الفلسطيني يقيمه الهلال الاحمر على مدار السنة ، وينتقل بين الاقطار العربية والاوروبية .

وبعد خمس سنوات من النتاج معاهد لهـــذه الازياء الشعبية ، فانها حققت نجاحا في حمايـة التراث الشعبي واعادته الى اصله الفلسطيني ، الا ان الاسعار المرتفعة لهذه الازياء لا تجعلهـــا قابلة للتداول في الاوساط الفلسطينية فالثوب من النوع الممتاز يصل ثمنه الى « ٥٠ » دينارا أردنيا ، وبالطبع فهذا الثمن ، ليس له صفة تجارية ، بقدر ما انه للتشجيع ولدعم امكانات المؤسسة .

ولم تصل صامد بعد الى انتاج الازياء والاثواب الشعبية لبيعها في السوق المحلي . ويقـــول المسؤولون في صامد ان سبب ارتفاع هذه الاسعار يعود الى الوقت الطويل والجهد المضني الـــذي تحتاجهما العاملة في تطريز الثوب .

اما انتاج مؤسسة صامد من الملابس الاخـرى (البنطلون ، الجاكيت ، القميص والانتاج الصوفي) فهو لا يقل جودة عن البضاعه الموجودة فــي الاسواق العربية من حيث الحداثه ، المتانـــة والنوعية ، وهناك نقص في التصميم ، وهذا يرجع الى حداثه عهد بعض العاملين وقلـة التجهيزات والماكينات الكافية والمناسبه . ولدى مقارنـــة اسعار منتوجات صامد باسعار السوق نجد ان سعر بعض المنتوجات اقل من سعر السوق واخرى اعلى وهذا يرجع الى ارتفاع كلفة الانتاج للقطعة في بعض المشاغل ، اضافة الى انه لا توجـــد دراسة واضحة حول اسعار السوق .

فريال عبد الرحمن

الحرب في لبنان : خروج عربي آخر ، بعد مصر ، من استراتيجية الكفـــاح الفلسطيني المسلح

لم تعد الحرب في لبنان ، التي فجرها الانعزاليون الطائفيون في شهر نيسان (ابريل) من العــــام الماضي ، على ثبات القدر من الغمـــــوض والتداخل ، كما كانت عليه في بداية تفجرهـــا ، من جهة اهدافها وأغراضها البعيدة . فعنــــد اصابة معروف سعد ، نائب مدينة صيدا السابق ، كان البعض يظن ان الهدف من عملية الاغتيـــال لا يتجاوز ابعد من الرغبة المحدودة في اسقـــاط تجربة حكومة رشيد الصلح ، التي تشكلت وقتها على قاعدة جديدة هي قاعدة هيمنة الفريق الوطني اللاطائفي وحلوله محل الزعامات المسلمة السنية التقليدية ، وكذلك هيمنة هذا الفريق وحلوله محل بعض التقليديين من الطوائف الاخرى . ولقـــد جرى التعبير عن ذلك بدخول عباس خلف ، نائب رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي ، وزيـــرا ارثوذكسيا ، وماجد حماده ، وزيرا شيعيـا ، وخالد جنبلاط ، وزيرا درزيا ، كان واضحا ايضا ان من اهداف تلك الاحداث وضع الجماهيـــر الوطنية في مدينة صيدا الجنوبية خصوصا وجماهير الجنوب اللبناني عموما ، وهي اكثر الجماهيـر اللبنانية التي تتقبل الوجود الفلسطيني المسلـح على قاعدة وطنية بسبب العدوانية الاسرائيليـة المجاورة ، في مواجهة القمع الرسمي بقرار من حكومة الغلبة الوطنية مما سيضع الفريق الوطني وتجربته في الحكم وكذلك المقاومة الفلسطينيـــة امام خيارات صعبة وخطيرة بعلاقاتهما مع جماهير هذه المناطق الوطنية . ورغم ان الحكومة استطاعت الخلاص في صيدا ، فان الحرب لم تتوقف . بـل اتسعت وانتقلت الى مدينة بيروت بمجزرة عين الرمانة المذكورة جيدا . بعد ذلك سقطت حكومة رشيد الصلح ، لكن من غير ان تنتهي الحـرب التي اتسعت لتشمل طرابلس ، في شمال لبنان ، وزحلة في الشرق . وبدأت الاغراض البعيـــدة للحرب تتكشف بحيث يمكن اختصارها بأنهـــا **حرب القوى الانعزالية والطائفيـــة ، وكلاء الرأسمالية المحلية والامبرياليـــة الاميركيـــة والاوروبية ، ضد الايديولوجيـــة الوطنيـــة الفلسطينية وايديولوجية الحركة الوطنية اللبنانية**

المتوخية الاسلوب الديمقراطي في الصراع والنضال والساعية لوضع لبنان في ظروف العمل العربي القومي المعادي للصهيونية وللعدوانية الاسرائيلية. ان الحرب ضد المضمون الوطني المسلح للوجود الفلسطيني ، اضافة الى انها تسهل تمرير مشاريع التسوية في المنطقة بالشروط الاميركية ، تحاول جاهدة ان تحل ازمة النظام اللبناني الوطنية المتمثلة بعجزه الفاضح عن تأمين الحماية الوطنية لابناء الجنوب اللبنانيين وللتجمعات الفلسطينية في وجه الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة . فالمقاومة الفلسطينية ، متحالفة بذلك مع الموقف السوري ، هي احد المتراسين اللذين يعيقان التسوية على اساس الشروط الاميركية ، كما انها العنصر الطارىء الذي عرى السياسة المتخاذلة للنظام اللبناني القائمة على الحماية والضمانات الاميركية والاوروبية . وهي ايضا المناخ الثوري لنمو ظروف غلبة الفكر الوطني المتصادم مع العدوانية الاسرائيلية . في مواجهة ذلك تسعى الرأسمالية اللبنانية الى الخروج من هذا المأزق طارحة شعارات السيادة والامن والاستقرار ، عبر وكلائها السياسيين والطائفيين، على قاعدة قمع محاولة الحاق لبنان بظروف النضال العربي القومي وحصر الوجود الفلسطيني (ان لم يكن بالمقدور الغاؤه) ضمن التجمعات الفلسطينية السكنية . ومن الطبيعي ان توظف الرأسمالية التنظيمات والميليشيات الانعزالية لاعادة الامن والاستقرار اللذينوحدهما يمكنان الرأسمالية من « تعميم الازدهار » ويمكن الاقطاع السياسي والطائفي الاحتفاظ عن جدارة بوكالته داخل مؤسسات النظام التنفيذية والتشريعية والادارية. اما المتراس الثاني ، الذي توجه اليه القوى الانعزالية حربها ، فهو هذا النمو العظيم للحركة الشعبية اللبنانية ، مستقلة ومسلحة وممستفيدة كذلك من تجربة حزبية تاريخية لمعظم اطرافها الاساسية . ان هذه الحركة الشعبية تعطي الان سوابق جذرية في النضال الوطني والمطلبي على امداد المنطقة العربية كلها . وهذه الريادة النضالية هي التي مكنت القوى الانعزالية من الاستفادة من الوضع العربي متهمة الحركة الوطنية احيانا بالتبعية « للشيوعية الملحدة » واحيانا « لليسار الدولي » . ورغم محاولات الحركة اللبنانية الوطنية وضع حدود اصلاحية متواضعة لشروط نضالها في كل بياناتها وبرنامجها الاصلاحي وعن طريق التأكيد ان الحركة الوطنية لا تريد غير الغاء مرحلة لبنان النبلاء والاقطاعيات والانتقال الى مرحلة لبنان الواحد بشروط الحد الادنى من انظمة القرن التاسع عشر الاوروبي ووضع لبنان في ظروف العمل العربي القومي ، رغم ذلك فان القوى الانعزالية لا زالت قادرة على جعل هوامش التناقض بين اطراف النضال الوطني في لبنان والوضع العربي واسعة يمكن الاستفادة منها .

اخذ الوجود الفلسطيني بمقياس الحليف الوطني :

ان الحلقة المركزية في النضال الشعبي في لبنان هي ضد ان يظل لبنان الرسمي يعالج الوجود الفلسطيني المسلح على أساس انه « امر واقع مفروض » ، يسعى الى رده بالقوة بين وقت وآخر ، كما اظهرت احداث أيار (مايو) ١٩٧٣ ، وجعل هذا الوجود مقبولا على قاعدة الحليف الوطني المعادي للعدوانية الاسرائيلية والامبريالية الاميركية والاوروبية . وطبيعي ان يتطلب هذا انجاز معركة **عروبة الوضع اللبناني** حتى لا تظل هذه « العروبة » قائمة على الحياد الذي يتيح للرأسمالية المحلية القيام بدورها الوسيط في اسواق الداخل العربي وجذب رؤوس الاموال . كما ان جعل الوجود الفلسطيني وجودا وطنيا حليفا يلغي كل الترهات حول « السيادة على كل الاراضي اللبنانية » كي تحل مكانها علاقات الحلفاء الوطنيين بين كل المؤسسات اللبنانية الرسمية والشعبية ومؤسسات المقاومة على « كل الاراضي اللبنانية بما فيها كسروان وزغرتا » . كما ان ذلك سيهزم الايديولوجية الانعزالية لتنمو في ترابها ايديولوجية بديلة معادية لاسرائيل والامبريالية والرجعية ومتحالفة مع النضال الوطني الفلسطيني واضعة كل التجاوزات والسلبيات الفلسطينية داخل اطارها ومضمونها الفردي ومتخلية عن المعالجة العسكرية والتحريض الطائفي للوجود الفلسطيني والذهاب الى حد الاشتراط « بان يرمي الفلسطينيون اسلحتهم لكي يرمي الكتائبيون اسلحتهم في البحر » حسب ما يعلنون . فالاستعداد المنظم والمسلح والتحريض الاقليمي لا يمكن مقارنته بهذه التجاوزات الا بمقدار ما تضعف هذه التجاوزات اجهزة الدولة

الشعبية وتحد من دورها المعادي للنضالات الشعبية وتنسج مناخا عاما للعمل المنظم ضد العدو القومي الاسرائيلي . ولقد اتضح عداء القوى الانعزاليــة للايديولوجيــة الوطنيــة الفلسطينيــة ولايديولوجية النضال الوطني اللبناني وقت اختارت هذه القوى الاسلوب الفاشي متخطية دور النظام، الذي يمثل الشرعية كما يحبون القول . ومن الاهمية ان نلاحظ في هذا المكان ان الحركة الوطنية تصر على هزيمة القيادات الانعزالية واستبدالها ، في معادلة النظام اللبناني ، بقيادات ديمقراطية تقبل التعامل مع الوجود الفلسطيني على قاعدة الحد الادنى المتمثلة بالحوار والمواثيق والبروتوكلات بعد ان ترفض اسلوب المعالجة العسكرية . وهزيمة هذه القيادات الانعزاليــة ستكون الباب الطبيعي لهزيمة الايديولوجيــة الانعزالية في الاوساط الشعبية الملتحقة بهذه القيادات ، ومن المهم ان تلتزم كل اطراف الحركة الوطنية اللبنانية بضرورة العمل من اجل هيمنة القيادات المسيحية الديمقراطية ، تماما كما تلتزم المقاومة الفلسطينية بذلك .

ظروف تخلي الانعزاليين عن المشروع الفاشي الطائفي :

من البداهة القول ان القوى الانعزالية لن تتخلى تحت اية ظروف ، **ما عدا ظروف الهزيمة العسكرية والايديولوجية والسياسية** ، عن مشاريعها في هزيمة الايديولوجيتين الوطنيتين الفلسطينية واللبنانية . ذلك ان ارتباط القوى الانعزالية المحليةالتاريخي بالسياسات الامبريالية، ثم ان الهجمة الاميركية ضد حركة التحرر العربي مستفيدة من مأزق الوضع العربي الرسمي ، المتمثل بخروج مصر عقب اتفاقية سيناء من استراتيجية الكفاح الفلسطيني المسلح ، يجعل سياسة قهر المقاومة الفلسطينية وافراغها من مضمونها الوطني المسلح ، لاعادة هذا المضمون الى ما كان عليه قبل العام ١٩٦٥ ، كوجود انساني ، على رأس قائمة السياسات التي تتوخاها الامبريالية واسرائيل من الحرب في لبنان . كما ان قهر الايديولوجية الوطنية اللبنانية على رأس قائمة السياسات التي تتوخاها اولا الرأسمالية المحلية وثانيا الرجعية العربية واميركه . ومن المؤكد ان هذه الاغراض للحرب في لبنان ستجعل من خيارات القوى الانعزالية محكومة سلفا للحد الاقصى المتمثل بقهر المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية . ولما كان ذلك يحتاج الى موازين قوى غير متوفرة حتى الان بانتظار دخول اطراف محليــة (الجيش كمؤسسة مغربلة بفعل الانسحابات المحتملة) او خارجية (اسرائيل) يمكن ان تحقق « النصر الحاسم » ، فأي الخيارات بقيت ؟ بقي خيار الحد الادنى : التقسيم . وعلى عكس ما يعتقده البعض من استحالة تنفيذ هذا المشروع لاسباب اقتصادية وعملية وعربية ودولية ، فنحن نعتقد بان الوصول الى حافة التقسيم (وهي سياسات ظاهرة الان في قبرص وانجولا وحتى في البرتغال) هي من اخطر السياسات الامبريالية المعاصرة التي تقوم على اسلوب « الحروب من الداخل ». وفي لبنان تبرز الان كل فواصل التقسيم على جوانب ما يمكن تسميته « بالحدود غير المعلنة ». وهذه الفواصل هي اشكال مختلفة من العوائق والموانع التي تختلف من منطقة الى اخرى . ففي الاماكن التي لم ينزل فيها الجيش ، الذي تريده القوى الانعزالية الحامي القوي على طول حدود هذه « الدولة » ، تقوم حدود من الرعب والذبح والتراشق بالنيران مما يجعل التعامل ، حتى البريء منه ، مع داخل هذه « الدولة » مستحيلا . ومن الممكن وضع خريطة لحدود هذه « الدولة » عبر الفواصل البارزة التالية : في الشمال ، حيث تتداخل المناطق بين زغرتا وطرابلس وحيث يصعب اقامة حدود بواسطة « طريق دولي » يحميها اسلوب التراشق بالنيران ، كان لا بد من الاصرار على اقامة منطقة حدود يحميها الجيش عبر منطقة عازلة . وحالة التداخل المعقدة في الشمال تتكرر في مدينة زحلة . فهناك اقام الجيش ايضا منطقة عازلة . وتشكل سلسلة جبال لبنان الغربية حدودا طبيعية مثالية . كما يشكل البحر ، امتدادا من طرابلس حتى بيروت ، الحدود الغربية . وتبقى مدينة بيروت وحدود هذه « الدولة » الجنوبية الاكثر صعوبة . واذا كانت طريق الشام (وهي التسمية الشعبية التاريخية للطريق الفاصل بين بيروت الشرقية وبيروت الغربية) ابتداء من ساحة الشهداء حتى طريق قصيدا القديم مرورا بالطريق الدولي بين الشياح وعين الرمانة ،

حدودا يحميها هذا النمط من التراشق المدفعي ، فان الحدود الجنوبية للتقسيم غير محددة حتى الان وان كان من الممكن ان تكون طريق بيروت — دمشق الدولية كما كانت في عهد القائمقاميتين . ومهما يكن من امر رقعة هذه « الدولة » فانه من المؤكد ان وجهة المشروع الانعزالي ستكون صوب تصفية الجيوب الوطنية والطائفية داخل هذه الحدود بعد ان امكن سيادة الايديولوجية الكتائبية الانعزالية الى حد كبير . ولم يبق لانجاز عملية تصفية الجيوب الوطنية الا الرغبة في تجاوز حافة التقسيم الى تثبيت ذلك على الاصعدة المحلية والدولية وما سيتبعه من حتمية الوصول الى حرب وحدة لبنان التي ستخوضها كل القوى الوطنية اللبنانية والفلسطينية والعربية .

قاعدة للعمل الفلسطيني في لبنان :

ان سيادة الايديولوجية الكتائبية العنصرية والانعزالية ، وهي الايديولوجية المارونية الوحيدة المنظمة بمؤسسات عسكرية وسياسية واقتصادية قوية ، داخل حدود التقسيم ، ستجعلها معادية لاي اتجاه مسيحي ديمقراطي ومتحالفة بشروط الهيمنة مع الاتجاهات المتطرفة الاخرى مثل الرابطة المارونية والرهبانيات التي تتوسلها الكتائب اتجاها سياسيا داخل المؤسسات المارونية وتحاصر به الاتجاه الديني المعتدل للبطريرك الماروني نفسه. كما ان هذه الايديولوجية الكتائبية ستتوسل الاسلوب الصهيوني بادعاء التفوق والغلبة والحضارة معتمدة على مؤسسات عسكرية وثقافية واقتصادية قوية . وبقدر ما يعني ذلك من تحد تاريخي ومصيري لمضمون الايديولوجية الوطنية اللبنانية ، فان الايديولوجية العنصرية الانعزالية الكتائبية هذه **بمظهرها السياسي الداعي للانفصال عن استراتيجية النضال الوطني ضد العدو القومي الصهيوني** ، يشكل اخطر ما تواجهه حركة النضال الفلسطيني بعد تجربتها مع النظام الاردني ، الذي مثل مظهر القهر الوطني والطبقي لنصف الشعب الفلسطيني ، وتجربة خروج مصر من الوضع العربي المقاتل . والخطورة الجدية الكامنة في الايديولوجية الكتائبية هي ان ارض هذه الايديولوجية وشعبها هما جزء من تاريخ المنطقة العربية في المشرق وجغرافيته . وقد يتيح ذلك للامبريالية ولاسرائيل فرصة جديدة وجدية لاجهاض المخرج الوحيد لاستراتيجية الكفاح الفلسطيني المسلح المتمثل بالانتقال بالثورة الفلسطينية الى اطار عربي‌قومي اكثر عمقا يوفر لها كل المستلزمات الضرورية « لحرب الشعوب طويلة الامد » . ذلك ان هذا الانفصال ، من النوع العربي ، عن النضال الوطني الفلسطيني ، بعد الخروج المصري ، سيعيد ثانية المنطقة العربية الى المناخ الشعوبي بشكل لا يقدر احد على تقدير نتائجه اطلاقا الا بحدود ان حقبة زمنية طويلة من الحروب الاقليمية والاهلية والطائفية ستمزق المنطقة وتعيق الى سنين طويلة كل استراتيجية حركة التحرر العربي في الاستقلال والوحدة والتقدم والسلام . ان خطورة الايديولوجية الكتائبية على مجمل استراتيجية الكفاح الفلسطيني وعلى مجمل ما تسميه بعض المقاومة الفلسطينية الامن القومي للمنطقة العربية ، تجعل هوامش التعارض بين بعض المقاومة الفلسطينية والجسم الاساسي للحركة الوطنية اللبنانية تتسع . فبقدر ما يصر البعض في المقاومة على ان الحلقة المركزية في العمل الفلسطيني (خصوصا في لبنان) هي المحافظة على المضمون الوطني المسلح للثورة الفلسطينية واحباط المؤامرات الجارية من اجل افراغ المقاومة من هذا المضمون ، تصر الحركة الوطنية على القول ان المحافظة على الثورة الفلسطينية واستراتيجية الكفاح الفلسطيني المسلح لا تتحقق عن طريق الرغبة الذاتية في تجنب المعارك خصوصا ان الحرب في لبنان ليست حربا مفتعلة اطلاقا بل هي « حرب من حروب الداخل » ضد ايديولوجية النضال المعادي للصهيونية والامبريالية الممثلة بالايديولوجيتين الوطنيتين الفلسطينية واللبنانية . ومن المؤكد ان هزيمة المقاومة الفلسطينية على قاعدة الشروط في الوضع اللبناني الطائفي تتحقق من غير التصفية العسكرية كما حصل في الاردن . ذلك الوضع الاردني كان محكوما لشروط حسم مسألة السلطة الممثلة للفلسطينيين . بينما في لبنان المسألة هي هزيمة ايديولوجية النضال الوطني المعادي للصهيونية والامبريالية ولو بشروط « الانفصال » الطائفي والاقليمي تماما كما خرجت مصر وانكفأت الى « الوطنية المصرية المحلية » . والمقاومة الفلسطينية ، اذن ، لا تقدر ان تعفي نفسها من

معركة لبنان مهما رغبت وتمنت . واذا كانـــت الحركة الوطنية اللبنانية تسعى الان لاقامة جبهة وطنية عريضة لتخوض معركة وحدة لبنان الملتحق بظروف واستراتيجية النضال العربي ، فليس امام المقاومة الفلسطينية ، في هذه المرحلة ، الا ان تكون طرفا عسكريا اساسيا داخل هـــذه الجبهة متوخية التحالف وتاركة مسافة كبيـــرة لاستقلال الحركة الوطنية التنظيمي والسياسي ، اللذين وحدهما يشكلان ضمانة ضد ان يطغـــو الطائفيون التقليديون من المسلمين على واجهـــة النضال ، وضد ان تتحول المطالب الوطنيـــة ، التي ترفعها الحركة الوطنية اللبنانية ، الـــى مجرد مطالب طائفية للمسلمين .

ناشي طه

وفاة اول امين عـــام عربي للحـــزب الشيوعي الفلسطيني

في عددها الصادر في مطلع تشرين الاول (اكتوبر) الماضي ، نعت « العامل » * العقيد رضوان الحلو . واكتفت النشرة الشيوعية بالاشارة الى انه كـــان للعقيد دور مرموق في كل من الحركة الشيوعيـــة والنقابية العمالية بفلسطين في عهد الانتـــــداب البريطاني .

على ان اسم رضوان حسن الحلو ارتبط بقضية تعريب « الحزب الشيوعي الفلسطيني » ، اكثـــر من غيرها . فالمعروف ان هذا الحزب سبق الـــى الوجود الاحزاب الشيوعية العربية كلها ، حيث تأسس في اذار (مارس) ١٩١٩ . وان لم يحمل يومها اسم الحزب الشيوعي . بل اشتهر باســـم « موبسي » ، وهي مجمع للحروف الثلاثة الاولى من الاسم الكامل للحزب بالعبرية : « مفلاحات بوعاليم سوسياليستيم » . وتعني بالعربية : « حزب العمال الاشتراكي » . ولم يكن اسم الحزب وحده عبريا ، بل كانت عضويته ايضا خالية من غـــير المستوطنين اليهود ، طوال اكثر من ست سنوات بعد انشائه .

على ان صدامات اول ايار (مايو) ١٩٢١ بين المستوطنين اليهود والمواطنين العرب ، في يافـــا وتل ابيب ، اعطت سلطات الاحتلال البريطانـــي المبرر لضرب الحزب ، فنفت خمسة عشر مـــن قادته ، وطاردت بقية اعضائه ، وضيقت عليهـــم الخناق ، مما اضطرهم الى الانضواء تحت لـــواء حزب « بوعالي زيون » اليساري الصهيوني . وسرعان ما انفجر الصدام بين الماركسيين وبـــين الصهيونيين اليساريين ، في مؤتمر بوعالي زيون ، المنعقد في اواخر في ايلول (سبتمبر) ١٩٢٢ . حيث اختار الماركسيون الاندماج في الحركـــة الشيوعية العالمية . في حين رأى الصهيونيـــون اليساريون الانضواء تحت رايه الصهيونية . وتحول قادة بوعالي زيون فعلا . الى قادة حـــزب الماباي الصهيوني المعروف . واعـــاد الشيوعيون بناء وتشكيل حزبهم ، الذي حمل — منذئذ — اسم « الحزب الشيوعي الفلسطيني » ، واعترفـــت « الاممية الثالثة » رسميا به ، في شباط (فبراير) ١٩٢٤ .

على ان صراعا جديدا سرعان ما نشب بـــين اقلية تحتل ثلاثة مقاعد في اللجنة المركزية للحزب ، وبين الاغلبية — التي تحتل خمسة مقاعد في اللجنة نفسها — بالانتهازية والجمود . وفي المؤتمـــر السادس للحزب (تموز ١٩٢٤) تمكنت الاقلية من تنحية الاغلبية ، ورفعت — في هذا المؤتمر — شعار « تعريب الحزب » ، لاول مرة منذ انشائه .

وحتى ذلك الوقت ، عجز الحزب عن اجتذاب عناصر عربية ، ربما بسبب توجس العرب مـــن المستوطنين اليهود ككل ، ولغرابة الافكار الماركسية على المجتمع العربي الفلسطيني ، الذي كانـــت تسوده — انذاك — الافكار السلفية ، ويعمـــه الجهل ، وتنهش الامية اغلبيته الساحقة .

وتحت الحاح « الاممية الثالثة » على ضرورة

---

* نشرة سرية شهرية ، يصدرها الحزب الشيوعـــي

معريب الحرب . اوفدت اللجنة المركزية للحزب ، في العام ١٩٢٧ ، ثلاثين عضوا عربيا الى موسكو لتلقي مبادىء الماركسية اللينينية في « جامعة كادحي الشرق » . وضمت هذه البعثة اقلية متعلمة ، مثل عبد الغني الكرمي ونجاتي صدقي وشقيقه ، كما ضمت عامل البناء ، رضوان حسن الحلو .

الاردني ، ويوجهها الى الطبقة العاملة الاردنية.

وفشلت هذه البعثة ، التي ارادت بها « الاممية الثالثة » تكوين نواة من الكوادر العربية تحل محل القيادة اليهودية للحزب . وجاء هذا الفشل لعدم تهيؤ اغلب العناصر الموفدة للكفاح الثوري ، بسبب تكوينهم الطبقي والفكري معا . وكان هذا الاخفاق احدى مؤامرات الصهيونيين الذين نجحوا في التسلل الى قيادة الحزب انذاك ، ومن ثم التحكم في انتقاء عناصر عربية غير صالحة للعمل الثوري ، للتأكيد للاممية الثالثة بعدم صلاحية عرب فلسطين لقيادة الحزب !

على ان هبة البراق (آب ١٩٢٩) فضحت امر العناصر الصهيونية داخل قيادة الحزب . اذ لم تر اللجنة المركزية للحزب في هذه الهبة اكثر من مجرد « مذبحة لليهود » . واستنكرت « الاممية الثالثة » هذا التحليل ، وشددت على ضرورة الاسراع بتعريب الحزب ، بهدف التخلص من تأثير الافكار الصهيونية الاستعمارية على قيادة الحزب . واسهبت « الاممية الثالثة » الى اعتبار هبة البراق « ثورة من الفلاحين ضد الاستعمار البريطاني واعوانه من الصهيونيين » . وسرعان ما اطيح باغلب اعضاء اللجنة المركزية ، ونشرت صحيفة « الثوري الجديد » الموسكوفية ، انه قد كشف امرهم كعملاء للاستعمار . يدعون للصهيونية تحت ستار من الهجمات المفتعلة على الصهيونية .

على ان تأمين المقدمات الضرورية لتصحيح مسار الحزب تطلب عاما ونصف العام عقب الهبة ، خاضت خلالهما القوى الثورية معارك ضارية ضد القوى الانتهازية في الحزب . تلك التي عرقلت محاولات التعريب .

وعاد رضوان الحلو من موسكو ، في اوائل العام ١٩٢٩ . مع بقية رفاقه . وشارك في مؤتمر العمال العرب الفلسطينيين الاول (كانون الثاني ١٩٣٠) ، والذي ضم ٦١ عضوا . الا انه لم يشارك في المناقشات الحامية الدائرة ، واحتفظ لنفسه بموقف المتفرج !

أما الحزب فبدأ باتخاذ المزيد من خطوات التعريب . وفي العام ١٩٣٣ تم تعيين رضوان الحلو امينا عاما للحزب ، فكان اول من يتولى هذا المنصب من الاعضاء العرب . واقترن بزوجته سمحة ، العضو اليهودية في الحزب . على ان تولي الحلو الامانة العامة للحزب لم يغير من الامر شيئا ، اذ لم تزد عن كونها مجرد اجراء شكلي . فانقطاع رضوان الفكري جعله عاجزا عن التأثير في خط الحزب او ممارساته .

وتعاظم المد الوطني في فلسطين ، فانفجرت انتفاضة تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٣ ، ولعب الحزب فيها دورا ملحوظا ، اعتقل على اثره العديد من اعضائه .

ثم قامت حركة القسام المسلحة (اواسط تشرين الثاني ١٩٣٥) واتخذ الحزب منها موقفا ايجابيا . وما ان نشبت ثورة ١٩٣٦ المسلحة حتى سارع الحزب الى المشاركة في صف الحركة الوطنية وضد الاحتلال البريطاني والحركة الصهيونية معا . مما فجر الصراعات القومية داخل الحزب ، بين الاعضاء اليهود الذين اخذوا على الحزب انخراطه في صف الحركة الوطنية ، وبين الاعضاء العرب الذين حبذوا هذا الانخراط ورحبوا به . وهجرت غالبية الاعضاء اليهود الحزب احتجاجا على موقفه هذا . وبرزت ازمة الحزب مع بروز ازمة الحركة الوطنية ، عند انتكاس الثورة في اواخر العام ١٩٣٩ .

ففي اثناء الثورة انشىء قسم خاص لليهود في الحزب . ومع اشتداد الصراع بين جناحي الحزب اصدرت اللجنة المركزية للحزب قرارها بحل القسم اليهودي وسكرتاريته ، وذلك في اواخر ١٩٣٩ . على ان القسم اليهودي اعترض على قرار الحل ، ولم ينفذه . وفي آب (اغسطس) ١٩٤٠ انعقد المؤتمر الثامن للحزب ، وعاد للحزب نشاطه بعد طول توقف ، على ان القسم اليهودي استمر في ممارسة نشاطه الانقسامي ، ولم يعد للحزب الا عدد ضئيل من اعضاء هذا القسم . واستمر الصراع بين الحزب والقسم زهاء العامين على انه تم وضع حد لهذا الانقسام في تموز (يوليو) ١٩٤٢ ، حين عاد اعضاء القسم اليهودي الى الحزب . على ان الامين العام ،

رضوان الحلو ، طالب بضرورة تشديد الهجوم على الصهيونية ، ورفض فكرة التعاون في الحركة الصهيونية في مجال مقاومة الفاشية . ومن هنا جاء تحفظ الحلو على عودة القسم اليهودي ، هاعميت الى الحزب . وسرعان ما تبلورت كتلة يهودية معارضة داخل الحزب ، يرعمها صموئيل ميكونيس ، السكرتير العام الحالي لماكي . واستفحلت الخلافات داخل الحزب الى ان انتهت بتشكيل الاعضاء العرب لتنظيمهم المستقل : « عصبة التحرر الوطني » ، في ايلول (سبتمبر) ١٩٤٣ . على ان رضوان الحلو نأى بنفسه عن عملية الخروج هذه ، وغدا الشيوعيون في فلسطين اربع كتل رئيسية : كتلة الحلو ، عصبة التحرر ، القسم اليهودي ، والاتحاد الشيوعي التعليمي ، الذي ضم العناصر اليهودية الاكثر اقترابا من الخط الصهيوني .

وعجز الحلو عن اتخاذ موقف حاسم ومحدد حيال الخلاف القومي المحتدم بين الكتلتين العربيـة واليهودية . على ان اعضاء كتلته سرعان ما انسلوا منضمين للعصبة ، وبقي الحلو وحيدا ، في حين حمل القسم اليهودي — برئاسة ميكونيس وماير فلنر (السكرتير العام الحالي لركح) واسمر فلينسكا — اسم « الحزب الشيوعي الفلسطيني » ، منذ ايار (مايو) ١٩٤٤ .

وحتى وقوع نكبة ١٩٤٨ ، لم يرتبط رضـوان الحلو بأي من العصبة او الحزب او الاتحاد . وفي العام ١٩٤٩ القت سلطات الامن الاردنية القبض على شقيقة للحلو ، كانت تحمل مجموعة من المنشورات الشيوعية ، في الطريق من القدس الى عمان . عندها تقدم رضوان الحلو الى السلطات الاردنية مدعيا انه صاحب هذه المنشورات ، وان شقيقته حملتها دون ان تعلم كنهها . ودخل رضوان السجن ليخرج منه اكثر بعدا عن الحزب الشيوعي الاردني ، الذي تشكل في صيف العام ١٩٥٠ ، نتيجة اندماج ماركسيي شرق الاردن وعصبة التحرر الوطني الفلسطينية .

وعندما وجهت السلطات الاردنية ضربتها الشرسة الى الحركة الوطنية الاردنية ، في ربيع العام ١٩٦٦ ، رأى خبراء التحقيق والتعذيب ، الذين استجلبتهم هذه السلطات من المانيا الغربية ، الاستعانة بمعلومات رضوان الحلو القديمة ، في تعقب الشيوعيين في الاردن . وعندما احضر هؤلاء الخبراء رضوان الحلو ، لم يستفيدوا منه بشيء .

وعاش رضوان بقية سني عمره هادئا في اريحا . وفيها اسلم روحه عن خمس وسبعين سنة في ايلول (سبتمبر) الماضي ، بعد حياة سياسية حافلة ، كانت — بلا شك — اكبر بكثير من قدراته الفكرية والنضاليـة .

على ان وفاة رضوان الحلو تطرح — من جهة اخرى — قضية اكاديمية، عنوانها تكون فقدنا مرجعا حيا هاما في تاريخ الحركة الشيوعية بفلسطين ، الذي لم يكتب بعد . وهو ليس المرجع الحي الاول الذي نفقده ، اذ فقدنا ، قبل اكثر من عام ، اثنين من كبار قادة الشيوعيين الفلسطينيين ، همـا : خليل شنير ، وجبرا نقولا . ولعل مما يزيد في القيمة العلمية لهذه المراجع الحية الافتقار الشديـد للمراجع الاساسية وللوثائق المباشرة حول هـذه الحركـة .

واعتقد ان في هذا ما يكفي لحفزنا على الاسراع بكتابة تاريخ الحركة الشيوعية بفلسطين ، مستفيدين ممن تبقى من قادتها على قيد الحياة .

عبد القادر ياسين

في ضوء انتخابات الناصرة
المسؤولية السياسية لمنظمة التحرير تجاه العرب في اسرائيل

بالرغم من الطابع المحلي لانتخابات رئاسة وعضوية المجلس البلدي التي جرت في الناصرة يوم التاسع من كانون الاول (ديسمبر) الماضي ، فان النتائج التي أسفرت عنها تلك الانتخابات تتعدى في أهميتها وأبعادها نطاق الناصرة المديني ، لتصبح حدثا مهما ليس فقط لنصف مليون فلسطيني يعيشون في اسرائيل منذ ثمانية وعشرين عاما تقريبا ، بل لتتعدى ذلك الى النطاق الفلسطيني بأسره ، داخل الوطن المحتل وخارجه .

واذا كانت السلطات الاسرائيلية المعنية قد ادركت مبكرا مخاطر نتائج التحالفات الانتخابية في الناصرة* ، وحذرت جماهير المدينة من عواقبها على لسان أكثر من وزير ومسؤول في الحكومة الاسرائيلية ، فان جماهير الناصرة والقيادات الوطنية الفلسطينية داخل المدينة وخارجها ، كانت تدرك هي الاخرى أهمية استرداد عاصمة العرب في اسرائيل لوجهها الحقيقي ، وجهها الفلسطيني المناضل .

هكذا اذن ، كانت الناصرة تخوض معركتها الانتخابية صراعا بين الارادة الفلسطينية وقاهريها ، بين ذاتها الوطنية ومزوريها ، ومع انتمائها للوطن ضد محتلي الوطن . وكان للناصرة ما أرادت ضد ما أريد لها ، وجعلت من يوم التاسع من كانون الاول عام ١٩٧٥ ، فيصلا بين زمنين .

مطلبية المظهر وسياسية المحتوى

ان حرص الوطنيين الفلسطينيين في الناصرة على ان تدار معركة الانتخابات ضمن الدائرة المطلبية وتحت شعارات القضاء على الفساد والرشوة وتحسين الخدمات البلدية ، لم يغيب عن المعركة هذه وجهها السياسي واستقطاباتها السياسية .

فلقد كان هذا هو الفهم الذي عبر عنه المسؤولون الاسرائيليون في تحذيراتهم لسكان الناصرة من مغبة تأييدهم لمرشحي القائمة الوطنية — قائمة جبهة الناصرة الديمقراطية — واختيارهم لتوفيق زياد رئيسا للبلدية . فقد قال موشيه برعام وزير العمل والشؤون الاجتماعية الاسرائيلية في احدى زياراته التحريضية لسكان الناصرة ضد القائمة الوطنية : « انه لأمر طبيعي ان أي شعب وأية دولة لا يحتملان ان تكون داخل الدولة مدينة برئاسة حركة ليس لها أي ارتباط بدولة اسرائيل ، وهي خاضعة للشيوعيين ، ومتأثرة بالاستعمار السوفياتي ، ومن ناحية أخرى متأثرة بالوطنية السوداء في العالم العربي . ولا أعتقد بأن دولة اسرائيل ملزمة بالاهتمام بمدينة يرأسها شخص قد يكون عميلا لعرفات ولجميع منظمات المخربين في اسرائيل » (نشرة رصد اذاعة اسرائيل الصادرة عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ٧٥/١٢/٦) .

واذا كان هذا هو الفهم الاسرائيلي لمعركة الانتخابات تلك ، فان مدينة الناصرة العربية ، لم تكن أقل ادراكا لفحوى معركتها البلدية . فالذين صوتوا لجبهة الناصرة الديمقراطية ، كانوا مدركين حق الادراك انهم يصوتون لعروبة المدينة ، ويحتجون ضد سياسات الحكم الاسرائيلي ليس في الناصرة وحدها بل في الجليل والمثلث والنقب .

الا أن ما يعنينا من وراء ذلك الفوز الكبير الذي حققته العناصر الوطنية في الناصرة ، هو ذلك التحول الكبير والمهم في الولاء السياسي للغالبية العظمى من سكان الناصرة . فمن خلال عملية المسخ والتزوير للارادة النصراوية بشكل خاص والعربية في اسرائيل بشكل عام ، تعاقبت على المجلس البلدي في الناصرة أغلبية مرتبطة بالاحزاب الصهيونية . حتى ان بعض عناصر تلك المجالس البلدية كانت ترتبط بأكثر الاحزاب الصهيونية تطرفا وتنكرا للحقوق الوطنية الفلسطينية . وقد تم كل ذلك من خلال عزل المعارك الانتخابية عن الواقع السياسي الاضطهادي للعرب في اسرائيل ، وبتغييب الهموم الوطنية الحقيقية للأقليات العربية .

---

* حصل التحالف الانتخابي المكون من الشيوعيين (راكاح) ورابطة الاكاديميين (المهنيين) والتجار ورجال الدين على أحد عشر مقعدا من سبعة عشر . وفاز توفيق زياد الذي كان على رأس هذا التحالف بمنصب رئيس البلدية .

وللحقيقة ، فقد نجحت السلطات الاسرائيلية طوال الاعوام الطويلة الماضية بطبخ مجالس بلدية متعاقبة ومتوافقة مع المذاق الاسرائيلي . وبالكاد كانت العناصر الوطنية ، في الناصرة على وجه الخصوص ، تنجح بايصال عدد من ممثليها الى عضوية تلك المجالس ، لتشكل في أحسن الاحوال أقلية قوية ومتماسكة .

الا أن النتائج التي أسفرت عنها عملية الانتخابات الاخيرة ، جاءت هذه المرة مختلفة الى الحد الذي يمكن وصفه بانقلاب في الولاءات السياسية للغالبية الكبرى لدى أكبر تجمع سكاني عربي في اسرائيل . والاهمية المضاعفة لتلك النتيجة هي حدوثها في الناصرة ، عاصمة النصف مليون عربي في اسرائيل ، ومركزهم الحضاري والسياسي . وبالتالي فانه يمكن القول ان تجربة الناصرة هذه سوف تكون قدوة لغيرها من التجمعات العربية في اسرائيل ، وان تعميمها مسألة وقت ليس الا .

واذا كان المحتوى السياسي لمعركة الانتخابات البلدية ماثلا بوضوح لدى سكان الناصرة من جهة والسلطات الاسرائيلية من جهة ثانية ، فان التحالفات الانتخابية قد جاءت هي الاخرى لتؤكد كافة المعاني التي سبق استخلاصها ، معلنة عبر هويات رموزها الانتخابية عن الهوية السياسية لانتخابات رئاسة عضوية المجلس البلدي في الناصرة . اذ انها المرة الاولى في تاريخ الانتخابات البلدية لمدينة الناصرة ، التي يأتلف فيها الشيوعيون ذوي المواقف الصلبة في الدفاع عن الارض والحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني ، مع رابطة الاكاديميين العرب التي تضم خريجي الجامعات والمعاهد العليا الاسرائيلية ، اضافة الى التجار ورجال الدين . وبالرغم من أن القواسم المشتركة بين هؤلاء جميعا كثيرة ، فلا نشك لحظة في ان التقائهم حول التنديد بالسياسة العدمية للحكومة الاسرائيلية تجاه الشعب الفلسطيني وحقوقه الوطنية ، بما فيها حقه باقامة دولة ما ، كانت احدى أهم القضايا التي وسعت اطار هذا الائتلاف الوطني وصلبت من عوده .

وهكذا ، فان استطرادنا المطول في التثبت من الهوية السياسية لمعركة الانتخابات هذه ، والتأكيد على سياسة التحالفات الانتخابية ، ليست أكثر من محاولة للتعرف على الحبل السري الذي يربط بين نضال المواطنين العرب في اسرائيل والنضال الفلسطيني بأسره ، وسعت الشقة أو ضاقت بين سائر الاهداف والشعارات المعلنة . الامر الذي يرتب التزامات متبادلة ، ليس بين فرقاء ، وانما بين جبهات متعددة للشعب الفلسطيني ، يقع عبء الالتزام الرئيسي فيها والمسؤولية الكبرى منها على عاتق جبهة الثورة الفلسطينية وتعبيرها السياسي المحدد بمنظمة التحرير الفلسطينية .

الاستجابة لبرنامج الثورة وطرحها المرحلي

ما أجمعت عليه ردود الفعل وتعقيبات الرسميين وكتاب المقالات الاسرائيلية ، هو ان انتصار جبهة الناصرة الديمقراطية في معركة انتخابات البلدية ، انتصار لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وان الاغلبية الكبيرة من أصوات الناخبين التي حازت عليها قائمة الجبهة ، ما كانت لتتحقق بهذا القدر لولا التأييد الدولي المتعاظم الذي حظيت به المنظمة خلال العامين الاخيرين .

ونحن اذ نقر بصحة التحليل الاسرائيلي هذا ، طارحين جانبا التحريض الذي تضمنته هذه التعقيبات ضد التركيبة الحالية لمجلس بلدية الناصرة ، فاننا نستطيع أن نقر أيضا وبثقة كبيرة ان التعاطي الواعي والمتطور لمنظمة التحرير الفلسطينية مع الحقائق الراهنة للواقع الفلسطيني ، قد أسهم بدوره في تحقيق هذا الانتصار على هذه الجبهة الفلسطينية المتقدمة جدا — الى حد التداخل — مع الكيان الاسرائيلي . فليس من قبيل المصادفة مثلا أن تشن اذاعة صوت الثورة الفلسطينية ، وقبل أيام من تاريخ انتخابات الناصرة ، هجوما شديدا ضد كافة العناصر المرتبطة بالاحزاب الصهيونية في الناصرة ، دون ان تعلن تأييدها لأي من العناصر الوطنية المرشحة . وهذا الموقف في حد ذاته ، قياسا الى الاعوام السابقة ، يعتبر مؤشرا ذا دلائل مهمة على التطور الطبيعي في عقل الثورة الفلسطينية ، هذا التطور المرتكز قاعدته على البرنامج المرحلي للثورة الفلسطينية .

وفي بحثنا عن الجذر الاساسي لانتصار الناصرة الفلسطيني ، باعتبار الناصرة ترمز الى جبهة متقدمة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، نجد ان ايجابيات حرب تشرين الوطنية هي الارضية التي نبتت عليها بقوة مختلف الانتصارات التي حققتها

المنظمة طوال العامين الماضيين . فمنذ تلك الحرب ما زالت شعلة الكفاح الوطني الفلسطيني بمختلف اشكاله متوهجة . وعلى هدي منها تنتظم الجماهير الفلسطينية حالة نهوض وطني عارمة ، عبرت عن نفسها في الضفة الغربية على وجه التحديد بانتفاضتين شعبيتين متتاليتين خلال فترة العامين الاخيرين . واذا كان موضوعنا هذا يقتصر على المعاني الفلسطينية لانتخابات الناصرة ، فاننا نستطيع الرؤية بوضوح ، مشاهد حالة النهوض الوطني بين الفلسطينيين العرب في اسرائيل كذلك . ولم يكن فوز القائمة الوطنية في انتخابات الناصرة مؤخرا الا تتويجا لحالة النهوض الوطني على تلك الجبهة المتقدمة لكفاح الشعب الفلسطيني . فخلال السنوات القليلة التالية على حرب تشرين ، تعاظمت المشاركة النضالية ، لهذا التجمع الاساسي من الشعب الفلسطيني المتخندق في حلق اسرائيل وبين ظهرانيها . وتعددت صور هذه المشاركة بالنضال الوطني لتتخذ حينا شكل انخراط أوسع من ذي قبل بالكفاح المسلح ، وحينا بالتمرد على قانون الخدمة العسكرية الالزامية لابناء الطائفة العربية الدرزية بصورة أعمق وأشمل ، وحينا آخر بالنضال مع عرب الضفة الغربية وقطاع غزة — اعتصاما وتظاهرا — ضد سياسات اسرائيل المتعلقة بمصادرة الاراضي والاعتقال الكيفي ونسف البيوت ... الخ . ويستوقفنا مليا الى جانب كل ذلك ، ما تشهده الجامعات الاسرائيلية ، خاصة الجامعة العبرية ، من أشكال وصور التمرد في صفوف الطلاب العرب على قوانين وأنظمة الجامعات الاسرائيلية ، خصوصا ما تعلق منها بقانون الحراسة الالزامي في الجامعة ، واستطاعتهم فوق ذلك تكريس لجنة طلابية خاصة بهم ومعبرة عن قضاياهم النقابية الطلابية ، بنفس سياسي والتزام فلسطيني عاليين .

وبغير ما استعراض لأشكال وتعبيرات المشاركة في النضال الوطني لهذا التجمع المهم من الشعب الفلسطيني ، فان أي متتبع للشؤون العربية في اسرائيل يستطيع أن يرى بوضوح الاستجابة العربية الواسعة في داخل الوطن لنداء الثورة وأهدافها وشعاراتها وبرامجها المعلنة ، عبر العديد من النضالات اليومية والمواقف السياسية . وفي هذا المجال فان الاشارة الى نضالات وبرنامج القائمة الشيوعية الجديدة (ركاح) — الموقع الكفاحي الاساسي للمناضلين العرب في اسرائيل — وما يتضمنه من التزام بالدفاع والمطالبة بالحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني بما فيها حقه في تقرير المصير واقامة دولته الوطنية الخاصة به ، لتؤكد التلاحم النضالي بين سائر التجمعات الفلسطينية ، داخل الوطن وخارجه ، على هدي من البرنامج المحلي المقرر في الدورة الثانية عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني الذي عقد في حزيران (يونية) ١٩٧٤ .

وهكذا يتأكد ان النتائج الايجابية لحرب تشرين الوطنية من جهة ، والتعاطي الثوري المنضبط ببرنامج النقاط العشر للقيادة السياسية الفلسطينية مع نتائج الحرب هذه من جهة ثانية ، هما الركيزتان الاساسيتان لكافة الانتصارات السياسية الفلسطينية على مختلف الجبهات ، ومن ضمنها الانتصار الذي حققه العناصر الوطنية في الناصرة . ولا نعتقد بأنه كان بامكان القيادة السياسية للشعب الفلسطيني أن تحقق كل هذه الانتصارات المهمة بالاستناد الى وقائع حرب تشرين وحدها ، دون التعامل ايجابيا مع هذه الوقائع ، بالنفس الذي عبر عنه البرنامج المرحلي ذي النقاط العشر .

التعامل مع القضايا السياسية الراهنة للعرب في اسرائيل

في ضوء هذه القراءة المركزة للأهمية السياسية لانتصار الناصرة على الصعيد الفلسطيني كله ، ونتيجة ابرازنا للعوامل الرئيسية الكامنة وراء هذا الانتصار ، فان التساؤل الذي يطرح نفسه هو : ما هي المسؤوليات المترتبة على كاهل منظمة التحرير الفلسطينية ازاء هذا الانتصار الذي تحقق على احدى جبهاتها الامامية ؟

ان منظمة التحرير باعتبارها القيادة السياسية للشعب الفلسطيني كله ، ويقع عليها عبء قيادة النضال في ميادينه المختلفة ، يترتب عليها بهذا الانتصار جملة مسؤوليات سياسية محددة بالموقع والمحيط الذي تحقق من خلاله ، ونعني بذلك النصف مليون عربي الذين يعيشون في اسرائيل .

لقد اتبعت منظمة التحرير طوال السنوات الماضية سياسة الابتعاد عن القضية السياسية للعرب في اسرائيل . وبقي طرحها السياسي في هذا المجال يتلخص في ان المصير السياسي لنصف مليون عربي في اسرائيل يتقرر بتحقيق الاهداف الاساسية

والكبرى للنضال الفلسطيني ، أي بتحقيق شعار الدولة الديمقراطية العلمانية في فلسطين . ولم تجر أية مراجعة لهذا النهج السياسي تجاه العرب في اسرائيل حتى عندما أقر البرنامج المرحلي القاضي باقامة سلطة وطنية للشعب الفلسطيني على جزء من أرضه (الضفة الغربية وقطاع غزة) . اذ انه في الوقت الذي أصبح فيه برنامج السلطة الوطنية محددا للمستقبل السياسي لفلسطينيي الضفة والقطاع ، ومحور نضالهم ونضال التجمعات الفلسطينية خارج الوطن ، فان العرب في اسرائيل الذين لم يشملهم برنامج السلطة الوطنية ، ينكرس مع هذا البرنامج مرة أخرى تجاهل قضيتهم السياسية في المديين الراهن والمتوسط .

من هنا فان التعامل مع القضايا السياسية الراهنة للعرب في اسرائيل ، يجب أن يتجاوز ذلك المحظور التاريخي القائل بأن هذا التعامل سيفسر على انه اعتراف باسرائيل واقرار بشرعية احتلالها لفلسطين . فاحتلال اسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة لم يحل دون التعامل مع قضاياهما السياسية ، بدءا من الاستيلاء على الاراضي لاقامة المستوطنات ومرورا بقضايا الانتخابات البلدية وانتهاء بتحديد الخيار السياسي للسكان فيهما ، دون أن يعني ذلك كله الاعتراف باسرائيل او الاقرار بشرعية احتلالها ، مع الادراك سلفا بأن الوضع القانوني للضفة الغربية وقطاع غزة مختلف عنه للناصرة والجليل والمثلث والنقب . الا أن هذا الاختلاف لن يمنع من التعامل مع القضايا السياسية لسكان هذه المناطق الاخيرة ، وان كان سيجعله مختلفا عن التعامل مع القضايا السياسية لسكان الضفة والقطاع . فهل يكون الاهتمام الفلسطيني بانتخابات الناصرة بداية للتعامل مع القضايا السياسية للعرب في اسرائيل ؟ وهل يمكن اعتباره مؤشرا على التطور في فهم المنظمة لقضايا العرب في اسرائيل ؟

ان التاريخ السياسي والكفاحي لمنظمة التحرير يحفل بشواهد عدة على امتلاك المنظمة لسياسة ما تجاه العرب في اسرائيل . ولكن هذه السياسة ظلت انية وقصيرة المدى ومرتبطة باهداف محددة . ولا نذيع سرا اذا ما قلنا ان التعامل في مجال العمل العسكري ، الذي تضاعف وتعمق اشواطا بعيدة ، كان هو الشكل الرئيسي من تعامل فصائل منظمة التحرير مع العرب في اسرائيل ، وان ذلك كان محل الاهتمام الرئيسي من قبل قيادة منظمة التحرير . الا انه بالرغم من الاهمية التي لا تثمن لمثل هذا التعامل وذاك الاهتمام ، فانه يجب ان يكون موازيا للتعامل السياسي مع تنظيماتهم الوطنية وقضاياهم السياسية .

وعليه فان وضع تصور اولي لسياسة فلسطينية تجاه العرب في اسرائيل لا بد وان تركز الى مجموعة من الحقائق الثابتة التي يمكن ايجازها كما يلي :

١ ـ ان العرب في اسرائيل هم جزء اساسي من الشعب الفلسطيني . وبالتالي فان تناول قضاياهم والتعامل معها يختلف باختلاف الواقع الذي يعيشونه . ان هذا الفهم يقود بالضرورة الى اعتبار جبهة العرب في اسرائيل احدى الجبهات الرئيسية لنضال منظمة التحرير الفلسطينية وقلعة من قلاعها المتقدمة . وبالتالي مرة اخرى ، فان على منظمة التحرير انطلاقا من هذا الاعتبار بذل المزيد من الاهتمام لتحقيق المزيد من الانتصارات السياسية وغير السياسية على هذه الجبهة المهمة .

٢ ـ ان التعامل في الميدان العسكري يجب ان يكون موازيا مع العمل في الميدان السياسي . اذ انه لا يعقل ان تضم منظمات المقاومة مئات الشباب من العرب في اسرائيل ، دون ان يبذل بالمقابل اهتمام بقضايا مجتمعهم الخاص بظروفه وبوضعه وبتطلعاته . وبالتالي فان تعزيز اللحمة النضالية بهم يتعمق اكثر بمزيد من التفاعل الفلسطيني الرسمي بقضاياهم .

٣ ـ ان الدولة الديمقراطية العلمانيه في فلسطين هي هدف بعيد المدى لنضال الشعب الفلسطيني وان تحقيقها يحتاج الى سنوات عديدة . وبالتالي فان امكانية تحقيقها لاحقة على امكانية تحقيق الدولة الوطنية على جزء من الارض التاريخية للشعب الفلسطيني . اي ان بقاء نصف مليون عربي وتكاثرهم في اسرائيل سوف يستمر لسنوات ، الامر الذي يرتب عند وضع تصور لسياسة فلسطينية تجاههم ، اخذ هذه الحقيقة القاسية بعين الاعتبار .

٤ ـ ان المعضلات التي يواجهها مجتمع العرب في اسرائيل مختلفة عما عداها من معضلات لمختلف التجمعات الفلسطينية الاخرى ، وذلك باختلاف الوضع القانوني وظروف الاضطهاد القومي . اذ ان المجتمع العربي في اسرائيل ، اضافة الى استلابه لحقوقه السياسية كسائر التجمعات الفلسطينية الاخرى ، مستلبة حقوقه المدنية والقومية، ويعاني من سياسة فرض الاحكام العسكرية وسياسة نهب الاراضي وغير ذلك .

ان الانتصار السياسي المهم الذي حققته جبهة الناصرة الديمقراطية في الانتخابات الاخيرة، يجب ان يفتح اعين منظمة التحرير الفلسطينية جيدا على واقع المجتمع العربي في اسرائيل ، وان يكون مناسبة لمراجعة سياسة المنظمة تجاههم على ضوء فهمها لشعار السلطة الوطنية القاضية باقامة دولة مجاورة لنصف مليون عربي ، تشدهم اليها هموما مشتركة وتطلعات مستقبلية واحدة .

عيسى الشعيبي

منــاقشـــات

اطروحة شرق الاردن الفلسطينية :
مغالطة منهجية وتجاوز تاريخي

نشرت مجلة شؤون فلسطينية (العدد رقم ٤٩ ، آب ١٩٧٥) مقالا بعنوان « محاولة اولى في اطروحة : شرق الاردن الفلسطينية » للكاتب عصام سخنيني ، كما نشرت في العدد المزدوج الذي تلاه نقدا لهــذه الاطروحة ، وتفنيدا لمنطلقاتها الاساسية بقلم عبد الحفيظ محارب ، الذي مخض مضمون الاطروحـــة بثلاث مقدمات هي : ضرورة ايجاد قاعدة انطلاق او ارتكاز آمنة للثورة ، حتمية تناقض الثورة مـــع الانظمة العربية في النهاية ، ثم ضرورة تعديل عور اصاب التاريخ ، وذلك فيما يتعلق بنشوء الكيــان الاردني (الكيان ــ الدولة ، او الكيــان ــ النظام) كما يسميـــه الباحث اولا ، ووضـــع (الفلسطينيين ــ الفلسطينيين) في الاردن ، ثانيا . ثم يوجه بعد ذلك الاخ محارب الدعوة على صفحـــة المجلة لكل من يأنس من المثقفين الاردنيين في نفسه الرغبة والاطلاع على الواقع الاردني الكافيين لان يساهم في توضيح جوهر اطروحة الباحث سخنيني التي اعتبرها الناقد من اخطر الطروحات التي قدمت وذلك ليس بسبب « المغالطات الكامنة » فيهـــا فقط ، بل ولانها قد تخدع في مظهرها حيث تختصـــر المسافة بين « التشرد والتحرير » ، بينما هي فـــي الواقع « تعرقل المسار الثوري السليم لشعبنا » .

يحاول الكاتب ايجاد مخرج للمقولتين الاولين من خلال مغالطتين يرتكبهما في معرض تصديـــه للقسم الاول من المقولة ــ المقدمة الثالثة ، والتي تتعلـــق بنشوء الكيان الاردني .

المغالطة الاولى هي ربطة الكيان الاردني بالنظام، واعتبارهما « وجهين لعملة واحدة » و « التحامهما التحاما عضويا » لتأدية دور وظيفي محدد لخصه الكاتب بمهمة « انجاح المشروع الصهيوني». وضرب الثورة الفلسطينية . اما المغالطة الثانية فهي نفي وجود هذا الكيان اصلا قبل وجود النظام ، وخارج هدف الاستعمار المثبت سابقا ، واعتبار ان «الكيان الاردني كيان طارىء دخيل على تاريخ المنطقة » .

لقد تعرض الناقد محارب الى هاتين المقولتين ، وانني بعد ان اعتبر ما قاله جزءا من ردي، واوافقه كلية ، ارى ضروري ايراد بعض الملاحظـــات العامـــة .

اولا ــ اريد ان اقرر منذ البداية انني ضـــد الكيانية مهما كان شكلها ، او زيها بمفهومهـــا القطري ، وخارج اطار القومية العربية ، منطلقـــة من مفاهيم اجتماعية وفكرية وسياسية تقدمية ثورية انسانيـــة .

ثانيا ــ ان هناك نوعا من التزييف للمفهوم القومي لدى معظـــم الانظمة والمنظمات العربية ، ما جعل من السهل التستر على الكثير من الممارسات الكيانية الاقليمية على المستويين المحلي والعالمي ، واضفاء صفات قومية وحدوية تقدمية عليها ، من خـــلال تنظير ايديولوجي ينخره العطب في اكثر من جهة . وهذا الواقع لا تفلت منه اية ساحة عربية .

ثالثا ــ ان الدراسة العلمية الشاملة تشير الـــى ان هناك تناقضا بين الانظمة والكيانات في جميـــع دول العالم النامية ، ودول العالم الثالث ، ومـــن ضمنها الدول العربية ، حيث تأتي الأنظمة فيها بفعل قوى وعوامل خارج اطار تفاعل وتصارع مكونات هذه الكيانات الذاتية ــ اي ليست تعبيرا عن واقع هذه الكيانات وحقيقتها . واستطيع ان اوسع هذا التصميم ليشمل حتى بعض المنظمات الوطنيـــة ــ الكيانية .

رابعا ــ من هذا المنطلق لا يمكن ــ ولا بأي اعتساف حتى ــ جمع الكيان والنظام لاي مجموعة في اطار وظيفي وضمن مفهوم نظري وواقعي واحد، مهما بلغت درجة التعاون ، والارتباط بينهما .

اذ ان قوى الفعل النقيضة تبقى تفعل فعلها بفعل حتمية الصراع داخل هذا الكيان ونظامه (الذي هو افراز للعلائق الانتاجية السائدة) ، ومن جراء نمو بناه الاجتماعية المختلفة وتطورها حتى تبلغ مرحلة التناقض .

خامسا ـ وبنتيجة ذلك لا يمكن ربط النظام الاردني بالكيان الاردني كما فعل عصام سخنيني في اطروحته الا اذا كان النظام والكيان يشكلان طبقة اجتماعية كاملة ومنسجمة ـ وهذا ما لم يبرهنه الباحث من جهة ، وما يدحضه الواقع والوقائع التاريخية من جهة اخرى وخاصة فيما يتعلق ببروز النظام المصطنع (لا الكيان) اولا ، ثم واقع الكيان كما تفضح عنه ارقام العاطلين عن العمل من ابناء الضفة الشرقية، مستوى التعليم الذي يقدم اليهم ، مستوى الدخل السنوي للفرد هناك ، نوعية الخدمات المدنية والاجتماعية التي تقدم اليهم ومستواها ... وحتى حقهم السياسي الذي يشكل اكبر نسبة في قائمة الذين التي يطالبون بها النظام . (ان اكبر قبيلتين في الاردن ـ بني حسن ، وبني حميدة ليس لهما اي تمثيل سواء في مجلس النواب او في الحكومة) .

سادسا ـ كنت اتمنى ان تقدم لنا الاطروحة تعريفا او تحديدا لما يقصده الباحث بالكيان . اي ما هي الركيزة النظرية والمادية التي استند اليها في تعريف الكيان حتى نوصل الى نتيجة نفي وجود الكيان الاردني قبل مجيء الاستعمار ... ! والى اعدام الانتمائية الكيانية الاردنية وتغييبها قبل ظهور ما سماها الباحث « بمدرسة وصفي التل المعروفة » .

اذا كان قصده بالكيان الارض ، فالضفة الشرقية هي كالضفة الغربية جزء من بادية الشام او بلاد الشام او الهلال الخصيب . نعم انها جزء من فلسطين كما هي فلسطين جزء منها (١) . أما « فلسطين الكبرى » التي يتحدث عنها الباحث مكماني الناقد محارب اجر التعرض الى ذلك . كما انني لا اشك في ان الباحث يعرف ان البتراء وهي مدينة في جنوب الضفة الشرقية كانت عاصمة تاريخية مهمة لمملكة عربية قديمة هي مملكة الانباط. وكذلك كانت عمان ، عاصمة الادوميين ، والتي كانت تحمل اسم « ربة عمون » . ولا اظنه نسي جرش المدينة الرومانية الشهيرة ، والكرك التي وقعت فيها اشهر معارك الفتح الاسلامي خارج الجزيرة العربية ، هي معركة مؤتة ، حيث ما زالت قرية هناك تحمل هذا الاسم .

واذا كان قصده بالكيان البشر او السكان ، فلا اعتقد ان بمقدوره القول انه عندما اتى الى الاردن وجدها خالية من الناس سوى عائلات الشركس ، والهاشميين ، والنور .

ان الكيان ارض وشعب، وأركز على كلمة شعب، لان ابناء الاردن الذين حجب النظام دورهم ، وفعاليتهم ، وممارساتهم القومية ، وجيرها لخدمة اهدافه الخاصة بذات الطريقة التي جير بها امكانات الشعب الفلسطيني ذاته في السابق والان ، هم شعب ، ومنهم من كان في الاردن قبل مجيء الفتح الاسلامي العربي ، وقد « عزوا » الرسول (نصروه) في حربه مع الروم وذلك باسم العروبة ، رغم بقائهم على دينهم ، وذلك في معركة مؤته ، فسموا « بالعزيزات » وما زالو يحملون لقبهم هذا في مدينة مأدبا ... وسيبقون (٢) .

ثم ان هذا الكيان كيان عربي وطني ، وقد قاوم النظام وارباته من المستعمرين قبل وصفي التل ، وعلى لسان والد وصفي التل ، الشاعر الاردني الذي اضطهده النظام وشرده بسبب (اردنيته !) في عشرينات هذا القرن ، والتي دافع عنها وعن كيانها ضد النظام ، كما دافع عن فلسطين وعن هويتها وشعبها ضد الصهيونية ، في شعره ومواقفه على حد سواء :

يا رب ان بلفور انفذ وعده
كم مسلم يبقى وكم نصراني
وكيان مسجد قريتي من ذا الذي
يبقي عليه اذا ازيل كياني
وكنيسة العذراء اين مكانها
سيكون ان بعث اليهود مكاني . (٣)

سابعا ـ كنت اتمنى ان ينطلق الباحث في ربطه الكيان بالنظام من حقائق مادية مبررة اجتماعيا وتاريخيا وعلميا ضمن شكل التحالفات الاجتماعية والوظيفية في الكيانات التي قد تنشأ . فالكيان مفهوم مادي ذو مضمون اجتماعي وانتروبولوجي واثنولوجي قبل ان يكون جهازا وظيفيا . وهو واقع حياتي يومي قبل ان يكون انتماء معنويا او هوية . من هنا وقع الباحث في الخطأ عندما قفز عن حقيقة اسسار المضمون الاجتماعي والانتروبولوجي الذي يشكل جوهر الكيان ليتحدث عن « الانتمائية الكيانية الاردنية » التي ظهرت مؤخرا ، كشعور معنوي ، لم يحدد الباحث ايضا مضمونه المادي ، رغم اضفاء صفة المرضية عليه . فهو ، على ما يبدو ، غير مدرك لحقيقة ان « الانتمائية » ، او الهوية انما هي تبلور لتفاعلات مقومات الكيان المذكورة مع الظروف والمستجدات ضمن اطار الصراع التاريخي

بين نماذج العلائق الانتاجية ، وادواتها الاجتماعية المنبثقة عنها ، التي نتحدى الكيان .

من هنا ظهرت حقيقة حركية الانتماء (باعتباره هوية معنوية مرتبطة بواقع سياسي اجتماعي مادي محدد) ، وخضوعها لعوامل الفعل الموجهة والمقصودة من قبل القوى الفاعلة تاريخيا وواقعيا في قرارة الكيان من اجل توظيفها في المجال الذي تحدده لها هذه القوى .

ثامنا — ان غموض كلمة الكيان والتباسها هو الذي جرد الاطروحة من اي قيمة او اهمية . ويبدو ان الغموض هو المصادر الوحيد الذي يمكن فرضية الكاتب من الوقوف على قدميها ، اذ انه لو اعطى للكيان اية مضمون لسقطت اطروحته بين يديه .

يضاف الى ذلك اغفال الباحث امرين هما الاساس في اعطاء اطروحته اي قيمة ، وخاصة فيما يتعلق بتحديده لطبيعة الكيان الاردني ، وهما : العامل التاريخي لنشوء الكيانات الاقليمية العربية ، اولا ، ثم تفاوت اشكال هذه الكيانات بحكم الاختلاف في مستوى وطبيعة القوى المحركة للصراعات داخل الوحدات الكيانية العربية ، واختلاف الاحداث السياسية التي مر بها الوطن العربي .

تاسعا — ربما كان بامكان الباحث القول انه كان هناك كيان قبلي في الاردن قبل تأسيس الامارة ، او ان هذا الكيان لم يكن ذا طابع محدد . وربما كان باستطاعته ايضا ان يقول ان الضفة الشرقية في الاردن لم تشهد احداثا سياسية بارزة،وصراعات ضد الاستعمار كتلك التي شهدتها فلسطين مثلا او سوريا او العراق ... الخ . واكثر من ذلك يستطيع الباحث القول ان الاردن لم يشهد كيانا سياسيا مميزا كالكيان السوري او العراقي او الفلسطيني ... وهنا ليس المسؤول هم الاردنيون وحدهم ، اذ ماذا سيكون مصير الكيان العراقي لو ان نوري السعيد ما زال يحكم هناك ، او السوري كما لو بقى فيصل وسلالته كما هي الحال في الاردن مع بقاء سلالة عبدالله .

ان بروز النظام الهاشمي في الاردن ، وغياب الكيان الوطني الاردني بغض النظر عن محتواه السياسي والاجتماعي انما هو دليل على ضعف القومية العربية وتخلف الممارسات القومية عن مستوى المهام المطروحة ، وليس دليلا على انتفاء الكيان الاردني كحقيقة تاريخية ، مهما كانت الكيفية الملحقة بهذا الكيان .

عاشرا — لقد وقع الباحث في خطأ اخر عندما خلط بين الاحساس بالكيان ووعيه تاريخيا ، ومحاولة تجسيده من خلال ممارسة سياسية وفكرية عملية من جهة ، وبين النصرة الكيانية — التي هي طفح مرضي نتيجة توجيه خاطيء للاحساس الكياني باعتباره امرا طبيعيا لدى كل فرد ينتمي الى مجموعة قبل ان يذوب او يلتحم ، او يتحول الى مجموعة اخرى او متحد ضمن شروط ذاتية وموضوعية منسجمة ومطابقة مع تطلعاته وواقعه وثقافته .

حادي عشر — من هنا كان بامكان الباحث المذكور القول ان الكيان الاردني مصادر ، او مشوه ، او مدفون تحت قشرة اجتماعية ميتة تاريخيا هي القبلية او البداوة، ولكن ليس لينفيه ، او يدعي أن وجوده وقيامه امرا مصطنعا ، ثم ليربطه بالنظام .
مرة اخرى ، كيف يمكن لتشرشل وعبدالله ان ينشئا بجرة قلم كيانا يعيش ، ويقوم بالدور الذي اسنده اليه الباحث — اعتسافا ؟ وهنا اسأله : هل كان وعد بلفور (المرسوم) عام ١٩١٦ كافيا لاقامة الكيان الصهيوني ، وهل كان بالامكان اقامة الدولة الصهيونية لولا عمليات الهجرة التي سبقت الوعد ، وعمليات الاستيطان وما رافقها من اوضاع استيطانية سهلتها الدولة المنتدبة ، التي التزمت بتنفيذ الوعد — بريطانيا ؟

ان ما ولد في مؤتمر تشرشل — عبدالله عام ١٩٢١ وما يتحدث عنه الباحث هو النظام في الاردن ، الذي زرع سلا في رأس الكيان الاردني في غياب الوعي الاجتماعي الكافي ، والممارسة القومية الواضحة ، واني وان كنت اتفق معه على تحديده لدور النظام ، ولا يخالفنا احد ، اخالفه على تعميمه هذا الدور ليشمل الكيان . اذ انه في تعميمه هذا يخالف بديهية تاريخية هي ان الجماهير دائما وطنية بعد ان تتوفر لها الطليعة القيادية التي تجسد مطامحها وتطلعاتها . وهنا اعود فاكرر ان ترهل العمل القومي وتعثره ، وبروز الكيانات القطرية — ولهذين الامرين اسباب لا مجال لبحثها هنا — هما اللذان جعلا الكيان الاردني يظهر وكأنه اداة طيعة في يد النظام .

بعد هذا لا اعتقد ان ضمير الباحث يقبل ان يتهم الاردنيين بتهم النظام ، وهم الكفة الخفيفة فيه .

انني اعتقد لو ان الباحث ذهب ودرس علاقته الكيان بالنظام التي بدأت عام ١٩٢٣ وحتى الفترة التي تمت بها توحيد الضفتين ، ثم الفترة التي تلت ذلك حتى الآن لخرج بحكم اخر غير الذي خرج به.

ولكن كيف بامكانه ذلك وقد نفى وجود الكيان خارج نطاق النظام وكأن الاردنيين « جيش انكشـــاري هاشمي » .

ليذهب الباحث وليدرس تاريخ الكيان في هاتين العربين وما قبلهما ليجد من هم الذين قـــادوا الانقلابات العسكرية ضد النظام حتى الان ، ليذهب وليدرس تاريخ القبائل ذاتها وقرى الشمال الاردني وعلاقتها بالنظام . ثم ليذهب وليتعرف على اسماء السجناء السياسيين وليجد نسبة الاردنيين بينهم .

كما انني لا اجد معبرا يقابل كلمات الباحث التي يقول فيها بتغيير « البنية الكيانية » ، « واقتحام المسأله الكيانية » . فاذا كان قصـــده بالتغييـــر التحويل الثوري فلا خلاف معه ابدا ، ولكن لماذا الاقتحام اذن ؟ ولماذا بناء « كيان ـــ ثورة » ؟ لماذا لا يكون صريحا وواضحا فيقول اما بناء كيان ثوري في الاردن ، فيحد ساعتها مادته البشرية وطبيعته الاجتماعية ، او احلال «كيان ـــ ثورة» محـــل « كيان ـــ دولة » . وهنا اسأله : كيف ؟

هل بالامكان بناء « كيان ـــ ثورة » ، (ولـــم استطع ان احدد هوية هذا الكيان البشريـــة والاجتماعية والوطنية) خارج اطار اجتماعي وثقافي وتراثي ، وبالتالي تاريخي متميز . وكيف يقـــوم كيان على انقاض كيان اخر دون ان يكون احدهما غير شرعي . واذا درسنا تاريخ شرقـــي الاردن اجتماعيا وبشريا وجدنا ان هناك كيانا موجـــودا وسابقا لهوية النظام التي زرعت حول عنقه بفعل عوامل خارجة عن ارادته ، ادركنا ان الكيـــان الاصطناعي هو « الكيان ـــ الثورة » الذي يتحدث عنه الباحث بالكيفية التي ظهر فيها في اطروحته ، سواء من خلال محاولة تبرير شرعية « زراعتـــه سلا » او من خلال القفز عن الحقائق التاريخيـــة المادية التي تتعلق بحقيقة الواقع الاردني .

يقول الباحث « ان الانتمائية الكيانية الاردنيـــة ظلت عائمة على السطح ، ولم تصبح من تـــراث الجماهير المتأصل في وجدانها الوطني لفترة طويلة من تاريخ شرق الاردن ... وان كانت في الفترة الاخيرة قد اتخذت شكلا مرضيا ... وقد بدا هذا الشكل مع وصفي التل ومدرسته .

الحمد لله ، لقد اعترف هنا بوجود جماهير في الاردن .. ثم اعترف بوجود انتماء لدى هـــذه الجماهير . وكيف يكون هناك جماهير تملك انتماء وليس لديها كيان سوى جهـــاز الدولة ؟ لقـــد اقترب من الحقيقة من غير قصده وان كانت غايته تبرير مغالطة اخرى . اعتقد ان عدم اطلاع الباحث على التاريخ العربي بصورة كافية ، ثم عدم تمكنه من حقائق وحيثيات الواقع الاجتماعي والسياسي للشعب الاردني ، وغياب المعرفة النظرية المتعلقة بمضامين الكيانات الاجتماعية والانتروبولوجية ، كل هذه الأمور جعلته يستسهل صياغات نظريـــة

ومفاهيمية فقط خالية من اية دلالة مضمونية . صحيح انه لم يكن هناك قبيلة تحمل اسم « الاردن » ، لكن كان هناك عشرات القبائل في الجنوب والشمال والشرق وعشرات القرى في الوسط والشمال الغربي وفي الغرب ، وهناك مدن اربد والسلط وعمـــان والكرك قبل مجيء عبدالله ، وقبل لقائه بتشرتشل ـــ وهو التاريخ الذي يحدده الباحث كبداية « للكيان الاردني المصطنع » ، ثم صحيح انه لا توجد قبيلة « هاشمية » في الأردن ليصبح الكيان واقعا ...! وبهذا المعنى هل جميع ابناء العربية السعودية من آل سعود !؟

يبدو ان الباحث غير ملم بحقيقة بديهية حول تطور المجتمعات العربية الحديثة ، وهي ان الانتقـــال من مرحلة البداوة والقبلية اي حالة المدنية قد تم مباشرة دون المرور بالمرحلة الفلاحية التي غابت في تطور بعض المجتمعات العربية ـــ وخاصة الغنيـــة منها ـــ الحديثة ، وذلك بفعل وصول الالة والمدنية مباشرة فنقلت العربي من الخيمة الى الفيلا .

ثم يقول « ان الانتمائية الكيانية الاردنية ، قـــد تطورت بشكل مرضي على يد مدرسة وصفي التـــل المعرونة » . انني لا اعتقد ان الباحث سيجمـــع الانتمائية والكيانية ، الاولى كموصوف ، والثانية كصفة ، فهما لو قمنا بالدراسة الانتروبولوجيـــة العلميه اصطلاحان يختلفان باعتبار ان الانتماء هو دائما للكيان وبالتالي لا يمكن وضعهما امام صفة اخرى لهما هي « الاردنية » ، لو كان مدركـــا لمدلولات المفاهيم المستخدمة الاجتماعية العلميـــة والتاريخية . انه بالامكان القول « الانتمائيـــة الاردنية » مع تبيان المضمون الاجتماعي لهـــذه الانتمائية ، اي تحديد هوية الاردن ككيان فنخـــرج بطبيعة الانتماء ...! والمقصود هنا هو ان الانتماء وعي الكيان تاريخيـــا ، والخطل او الاعتـــوار قد يكون بالانتماء وليس بالكيان ، ولذلك اذا اردنا وصف الانتماء بأنه مرضي لا يمكن ربطه بالكيـــان باعتباره صفة له الا اذا اردنا اثبات انتفاء الكيان، وساعتها نتحدث عن ذلك من منظار اخر ، ولا نتحدث عن الانتمائية . اذ انه بمجرد الاقرار بوجـــود الانتمائية فمعنى ذلك اننا سلمنا حقيقة بواقعية الكيان ووجوده ، والا ، فما هو مصدر الانتماء ».؟

ثم انه لا يمكن الحديث عن « كيان ــ ثورة » كما يقول الباحث كبديل . ان الكيانية مهما البست من ثياب ؟ يمكن ان تكون بديلا منطقيا لكيان اخر . ان الانجاز القومي ، والفعل القومي ، والنظرية القوميه ، من خلال منظور تقدمي ثوري هما البديل لاي كيانيه في العالم العربي .

بعد هذا اعود لاقول ان المفاهيمية الخالصة هي كل رأسمال الباحث ، وانه لو انه ليطبق مــــا تتضمنه اطروحته على ارض الواقع لوجد حقائــق مغايرة ، ولخرج بنتائج مختلفة ومناقضة لما توصـــل اليه . انه سيجد كيانا اجتماعيا وانتروبولوجيـــا وديمغرافيا يختلف عن النظام من الناحية الفعالية والطاقة والفعل ، ثم يسبق هذا النظام وجودا وواقعا من جهة التاريخ .

لقد كان تاريخ شرق الاردن تاريخ قبائـــل ، وتجمعات حضريه ، تحت سلطة الوالي التركي ، كما كان تاريخ لبنان ، تاريخ طوائف ، وكما كـــان تاريخ فلسطين تاريخ قرى ومدن . وعليه فــــان استلام النظام الهاشمي لهذا الكيان ، وطبعه بطابع معين لا يدين هذا الكيان بقدر ما يهم النظام ، كما ان عدم بروزه بشكل سياسي محدد ومستقل ــ او ثورة تحرر وطني ــ لا ينفي وجود هذا الكيان ، او يبرر مقوله الباحث في اعتباره « كيانا دخيلا طارئا على تاريخ المنطقه » . اذ ان وجوده كواقع كان امرا مفروغا منه ولا اعتقد ان هناك مشقة على اي باحث في اثبات ذلك تاريخيا وعلميا ، وان بقيت مهمة التعبير السياسي عنه اما للنظام (الذي كان له الحظ الاكبر) او للثورة دائما ، او لاحزاب قومية . انتظم فيها الاردنيون وقادوها .

لقد كان النظام في الاردن عملية زراعه خارجية ــ شتلا ــ لاسبابه خارجه تاريخيا عن واقع هذا الكيان ، وعن حقيقه وجوده ، وسيبقى هذا النظام كذلك مثله مثل « كيان ــ ثورة » الذي يتحدث عنه الباحث .

انني لا انكر انه بعد مجازر ايلول برز لـــدى الاطراف جميعها احساس كياني سياسي ونعروي ، وحتى قبل ايلول . وهو فيما يخص الجانب الاردني كان احساسا محايدا لدى الفئة الغالبه ، وكـــرد فعل عفوي وطبيعي لبروز كيانية اخرى لم تستطع ان تستوعبه ، بل تحركت مركزيا ضمن دائرة كيانية شبه مغلقة او من خلال رؤيا قومية اجتماعيـــة عاجزة . وبقيت كذلك ، وما زالت خارج اطـــار التنظير الدعاوي . وان كان ذلك يعود لاسبـــاب خارجه في بعض الاحيان عن ارادة التحكم بها .

واخيرا انني ادعو الباحث ، باسم كل الاردنيين ــ الفقراء ، ان يترك التجريبية النظرية ، والتقنين الوطني والثوري من خلال تراكيب مفاهيمية بحتة تجيء وبالا قوميا ــ وخاصة قد يستغلها اعـــداء الجماهير العربيه في الاردن ــ وليذهب الى الاردن وليتعرف على مادة « الكيان ــ الدولة » ! ليرى حالة الفقر والبؤس التي يعيشها اكثر من ثلاثـــة ارباع السكان ... وليرى « الكيانية » العربيـــة الاصيلة على ملامح الاجداد المتعبين ، اذا كـــان التاريخ همه ، او ليرى الاجيال المعذبة التـــي تعلم على غبار الريف (السراج) ، وليدخل البيوت التي رصيدها بيض الدجاج ، ووجباتهـــا الخبز والشاي ، اذا كان الواقع مبتغاه . وساعتها ادعوه ان يقارن بين « الكيان ــ الدولة » او الكيان « النظام » ، اهل العروش والتيجان ومعذبـــي الصحراء والقرى والارياف الاردنية .

انه سيجد لماذا لم يتشكل في الاردن حزب اقليمي انعزالي يميني خارج حزب السلطة الذي هو حزب ابناء الضفتين . ثم سوف يفاجأ حين يجد كم هم اتباع « وصفي التل » بين الجماهير الاردنيـــة المسحوقة ومثقفيها .

موسى بريزات

---

(١) كتب ابن خلدون « ان الاردن جزء من فلسطين كما هي فلسطين جزء من الاردن . وكلاهما جزء من بادية الشام ... » (ابن خلدون ، عبـــد الرحمن ، مقدمة ، طبعة ٤ ، بيروت ، دار احياء التراث العربي ، ص ١٠) .

(٢) تاريخ شرق الاردن . بقلم روكس بن زائــــد العزيزي

(٣) ديوان « عشيات وادي اليابس » ، مصطفـــى وهبة التل ، تحقيق محمود السمراء .

محاولة ثانية في اطروحة : شـــرق الاردن الفلسطينية

(١)

تتخذ هذه المحاولة شكل حوار مع الرد الـــذي نشره الاخ عبد الحفيظ محارب بعنوان « المطلوب تغيير النظام وليس الكيان » في العدد ٥٠/٥١ من « شؤون فلسطينيه » ، على مقالي المنشور في العدد ٤٩ من المجله نفسها بعنوان « محاولة اولى في اطروحة شرق الاردن الفلسطينية » . وفي هذه المحاولة الثانية اناقش ما اورده الاخ عبد الحفيظ بغرض التوصل من خلال ذلك الى تثبيت بعـض القضايا التي حاولتها سابقا او توضيحها وتجذيرها.

الشرق اردنيون :

اعترض عبد الحفيظ على هذا الاصطلاح وطرح تساؤلات استنكارية عنهم من مثل « من هم ؟ » و « من اي بلاد قدموا ؟ » واجابة على ذلـــك اقول ان استعمال هذا الاصطلاح تم بهدف تحـــديد هو تمييز المواطنين الذين كانوا يعيشون في المملكة الاردنية الهاشمية (واخلافهم طبعا) قبل ضـم فلسطين الوسطى (او الضفة الغربية) اليها ، تمييزهم من اصطلاح « الاردنيين » الذي شمـــل بعد الضم الشرق اردنيين والفلسطينيين الذيـــن جرى الحاقهم بالجنسية الاردنية ، وهم سكـــان فلسطين الوسطى ومن لجأ اليها والى شــــرق الاردن من المناطق الفلسطينية المحتلة . ليس في التعبير اذن غموض او ابهام ، ولكنه يأتي من خلال الضرورة المنهجية من جهة ، ومن حيث الضرورة السياسية من جهة ثانية، ذلك بان تعبير «الاردنيين» لا يزال ، من جانب دستوري اردني ، ومن جانب القانون الدولي كذلك ، ينطبق على الفلسطينيين المجنسين بالجنسية الاردنية .

وفي الحقيقة انا لم اعتبر الشرق اردنيين فلسطينيين لسبب واحد هو ان اصطلاح «الفلسطينيين » اطلق منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى على المجموعـــة السكانية العربيه التي كانت تعيش في فلسطـــين بحدودها الانتدابية ، دون سواهم ، وترسخ هذا الاصطلاح طوال ما يزيد عن نصف قرن . وان مما يزيد ترسيخه ظهور مشكلة خاصة بهذه المجموعـــة السكانيه ، اوجدت هموما خاصة مشتركة لديهم ، ترتب عليها مصالح خاصة بهم واهداف متماثلة ، مما يجعل الاصطلاح ياخذ ليس فقط معنى ترائيا ، وانما معنى محايثا لهذه المشكلة الخاصة وما يترتب عليها من هموم ومصالح واهداف . ولا يناقض ذلك مع حقيقة ان الشعبين الفلسطيني والشـــرق اردني (البعض يفضل لفظ « الشعب » عند الحديث عن « شعوب » الامة العربية) عاشا في كيانـــين سياسيين منفصلين على ارض فلسطين التاريخيـــة (اصطلاح سامتناوله بعد قليل) ، من حيث ان الكيانين كليهما — وهذا رأي يسهـــل الدفـــاع عنه — كانا مصطنعين جزىء بهما الوطن العربـــي الواحد . وبغفرهما من الكيانات ، الى نتف اقليمية وسطانا في ضوء مصالح الدول الكبرى . واذا لـــم نطلق تعبير « الفلسطينيين » على الشرق اردنيين ، فلم يكن ذلك نتيجة استناد الى التاريخ او للوقائع الجغرافيه او الحقائق الاثنية ، وانما بتأثير مـــن الدول الكبرى ، بريطانيا وفرنسا على وجه التحديد) التي مزقت الارض وتفتت الشعب واطلقت على المزق تسميات تخدم من خلال مدلولاتها مصالحها واهدافها في الوطن العربي .

ومع هذا فانه تجدر الاشارة الى ان اصطـــلاح « الفلسطينيين » الذي ترسخ بقيام فلسطين الانتدابية كان يتفاعل منذ ما قبل الحرب العالمية الاولى فـــي الرأي العام الفلسطيني . وكي لا تتهم هذه المحاولة بالاقليميه ، علي ان اذكر هنا ان الفلسطينيين كانوا مؤسسين في الاتجاه القومي الذي استهدف انفصال الامه العربية ، على اساس قومي ، من جســـد الامبراطورية العثمانية . ويكفي الاستشهاد في هذا الصدد بجمعيه العربية الفتاة (التي عرفت فيما بعد باسم الفتاة) التي اسسها في باريس عدد من الطلبة العرب وانتقلت الى بيروت في العام ١٩١٣ والى دمشق في العام ١٩١٤ والتي كانت اول جمعية عربية تطالب بالاستقلال الكامل لا مجرد الحكـــم الذاتي ضمن الامبراطورية العثمانية . وموطـــن الاستشهاد هنا ان اثنين من مؤسسي الجمعيـــة السبعة كانا فلسطينيين (هما عوني عبد الهـــادي ورفيق التميمي) . وقد اوصل هذا الاتجـــــاه القومي ثلاثة من الزعماء الفلسطينيين المنخرطين في الحركة القوميه الى اعواد المشانق (هم احمـــــد عارف الحسيني ومصطفى الحسيني وعلي النشاشيبي الذين اعدموا في ايار ١٩١٦ بقرار من الديـــوان العرفي الذي شكله جمال باشا في عاليه) .

مع هذا الانتماء القومي للفلسطينيين ، فان هؤلاء واجهوا في مطلع القرن العشرين وضعا خاصا تمثل في التحديات التي تنفذها الحركة الصهيونية في اوجهم . ذلك ان الهجرة والاستيطان الصهيونيين طرحا امام الفلسطينيين مهمات متميزة من مهمات الحركات العربية السياسية التي كانت تتفاعل آنذاك . وقد كانت الاخطار الناجمة عن العدوان الصهيوني قبل الحرب الاولى في صدد احياء شعور وطني متميز اتخذ له محورا الدعوة الى تركيز **الهوية الفلسطينية** شعبا ووطنا . ولم يكن هذا الشعور مخلوقا من عدم ، وانما كانت مكوناته الاساسية معطيات التاريخ العربي الذي احتفظ باسم فلسطين واورثه لاجيال عربية متلاحقة . وكانت وظيفة الخطر الصهيوني في هذا المجال هي انه استحث ظهور هذا الارث وخلق مبررات بعثه . وكانت ارهاصات الهوية الفلسطينية هنا تشير الى بداية تشكل وعي على الذات الوطنية وعلى وحدة الشعب ، بحيث اخذ مفهوما «الشعب» و «الوطن» يدخلان المصطلح السياسي الفلسطيني بشكل واضح في السنوات القليلة التي سبقت الحرب العالمية الاولى . وكان ابرز رموز هذا التيار نجيب نصار في جريدته « الكرمل » كذلك فاننا لا نقلل من اهمية الجمعيات الفلسطينيه التي تكاثرت في العام ١٩١٣ والتي كانت تستحث هم الفلسطينيين للتصدي للاخطار المحدقة بهم .

والسؤال الذي يطرح هنا هو : اين موقع شرق الاردن في هذا التيار الفلسطيني ؟ هناك عدد من العوامل تحكم الاجابة عن هذا السؤال :

العامل الاول ان شرق الاردن كانت قبل الحرب، ولزمن طويل مضى ، منطقة ركود سياسي مما يجعل التعرف على اتجاهات سكانها السياسية امرا متعذرا ان لم يكن مستحيلا . ويكفي ان نذكر هنا انه من بين ٦١ اسما اوردها المؤرخون لاعضاء « الفتاة » لم يرد اسم واحد من شرق الاردن ، على الرغم من ان الاسماء تتوزع بين مدن بيروت ودمشق وصيدا ونابلس وحيفا وبغداد وبعلبك واللاذقية والقدس وغزة وطولكرم وحلب وحمص .

العامل الثاني انه حتى وقت متأخر من الحكم العثماني كانت اجزاء رئيسية من بلاد شرق الاردن تتبع اداريا لمدن فلسطينية غربي النهر . فالبلقاء التي تقع بين نهر الزرقاء والموجب كانت اداريا تابعة للواء نابلس ، كما ان متصرف نابلس (واحيانا متصرف القدس) كان مسؤولاً عن جباية الاموال الاميرية من المناطق الواقعة جنوبا حتى الكرك . كذلك ففي بعض الفترات التاريخية كانت اجزاء من منطقة عجلون تابعة لقائمقامية طبريا .

العامل الثالث ان عددا كبيرا من العشائر في مناطق شرق الاردن قدمت من فلسطين (غربي النهر) في فترات مختلفة في اثناء العهد العثماني . ونستطيع في هذا المجال ان نعدد اكثر من خمسين عشيرة قدمت من هناك وتوزعت في مناطق مختلفة في شرق الاردن من الشمال الى الجنوب .

في ضوء هذه العوامل هناك عدد من الدلائل تشير الى ان الفلسطينيين (غربي النهر) كانوا يعتبرون شرق الاردن جزءا من بلادهم. من ذلك مثلا — بجانب دلائل اخرى — ان خليل السكاكيني ، الكاتب الفلسطيني ، كان يستعمل في العام ١٩١٣ اصطلاح فلسطين ليشمل الاراضي الواقعة الى الشرق من نهر الاردن .

كانت الحرب العالمية الاولى ، بنتائجها ، حاسمة في المسائل الكيانية ، اذ قسمت الوطن العربي الواحد — هو واحد على الرغم من تقسيماته الادارية في العهد العثماني — الى عدد من الكيانات ، قاومها عرب فلسطين (الانتدابية هنا) مقاومة ستظل رصيدا لهم في نضالهم القومي . فمن الجدير بالذكر ان اول عمل قامت به الجمعيات الاسلامية — المسيحية التي قادت النضال الفلسطيني في بداية الاحتلال البريطاني ، كان اعلانها « اننا لا نتخلى عن مطالبنا المنحصرة في استقلال سوريا المتحدة من طوروس الى رفح ونرفض الهجرة الصهيونية رفضا باتا ، ونرفض فصل فلسطين عن سوريا » . كذلك نشير الى ان المؤتمر الفلسطيني الاول الذي انعقد في القدس بين ١/٢٧ و ١٩١٩/٢/١٠ كان دلالة واضحة على هذا الاتجاه . فقد حاول الانجليز ان يصرفوا المؤتمر عن قرار الوحدة السورية وان يقنعوه بطلب استقلال فلسطين باشراف بريطانيا ، غير ان المسعى فشل ، وقرر المؤتمر اطلاق اسم سوريا الجنوبية على فلسطين .

بيد ان الظروف السياسية التي احاطت بالمنطقة والتي كانت اقسى من طموحات الفلسطينيين في الوحدة السورية، جعلت فلسطين بحدودها الانتدابية

حقيقة كيانية واقعة . ونشير الى هذه الظروف تعدادا : * التنافس البريطاني — الفرنسي في المنطقة وتوزيع سوريا (الكبرى) بين مصالح الدولتين . * الموقف البريطاني الذي رسم حدود الكيان الجغرافية قسرا . سقوط مملكة فيصل في دمشق مما واد طموحات الوحدة * اقامة امارة شرق الاردن وحدة ادارية اولا ثم كيانا سياسيا فيما بعد . * الهموم الفلسطينية الخاصة التي نجمت عن الخطر الصهيوني .

وهكذا ، فعلى الرغم من ان مؤتمر سان ريمو في العام ١٩٢٠ ، الذي منح بريطانيا الانتداب على فلسطين ، جعل فلسطين الانتدابية تشمل شرق الاردن كذلك دون تعيين لحدودها الشرقية ، فان بريطانيا في العام ١٩٢٢ (بعد ان اقامت امارة شرق الاردن في العام ١٩٢١) اعلنت ان شرق الاردن « ليست جزءا من فلسطين » ، مكرسة بذلك وجود كيانين منفصلين ، وبالتالي بروز تقسيمات بشرية : اردنية وفلسطينية ، او اردنيين وفلسطينيين .

واشير هنا الى انه حتى ذلك التاريخ لم يكن اصطلاح « الاردنيين » قد دخل في قاموس المنطقة السياسي . فعندما احتج مشايخ شرق الاردن (تعبير جغرافي هنا) في شهر ايار ١٩٢٠ الى الجنرال بولز ، الحاكم العسكري لفلسطين ، على بعض تصرفاته ، ورد في هذا الاحتجاج تعبيرات من نوع « نحن شيوخ القبائل ورؤساء العشائر القاطنون وراء نهر الاردن والبحر الميت » و « نحن عربان شرق الاردن » . ولكن الاحتجاج لم يستعمل قط تعبير « الاردنيين » .

فلسطين التاريخية :

يخلط عبد الحفيظ خلطا واضحا بين فلسطين التاريخية و « ارض اسرائيل الكبرى » ، ويعتبر « ان اصطلاح فلسطين التاريخية وكذلك فلسطين الكبرى ، هما اصطلاحان روجت لهما الحركة الصهيونية في ادبياتها كثيرا ، ليس خدمة للتاريخ من خلال بحث موضوعي (اذا كانت هناك فلسطين كبرى) وانما بغرض خدمة اهدافها ومآربها الرامية الى توسيع نفوذها واحتلالها ، في الفرص المناسبة ، لمزيد من الاراضي العربية ، على اساس انها تعيد ، بل وتحرر اجزاء من ارض الاباء والاجداد ، ارض اسرائيل الكبرى ، (فلسطين الكبرى) » .

ان الخطأ في هذه المقارنة متأت بالاساس من الجهل بحقائق التاريخ التي زيفتها الصهيونية كما شاءت ، تزيينا صدقه كما يبدو بعضنا ووقع في فخه ومن هذا البعض عبد الحفيظ نفسه . نوضح ذلك .

في البداية يجب ان نذكر ان « فلسطين » ليست مصطلحا صهيونيا . وعبد الحفيظ ، بصفته متبحرا في الصهيونية ، يعلم بلا ريب ان الادبيات الصهيونية التي يشير اليها تفضل استعمال « ارتز اسرائيل » او (ارض اسرائيل) بديلا لذلك وقد وصل الامر حدا ان الكتابات الصهيونية عندما تترجم وثائق عن لغات اخرى يرد فيها اسم فلسطين تترجم الاسم الى « ارض اسرائيل » ، واذا كانت بعض الكتابات الصهيونية تستخدم لفظ «فلسطين» فانما يعود ذلك الى مجاراة رأي عام غير صهيوني (وغير يهودي كذلك) استخدم اللفظ للدلالة على هذه المنطقة من العالم . وهنا صلب القضية ومحورها الاساسي . فـ « فلسطين » لم تكن يوما من الايام جزءا من التراث اليهودي ، وانما هي كانت على الرغم من هذا التراث .

فمن المتعارف عليه ان اسم فلسطين منحه ، بعد تعديلات لفظية ، الفلسطينيون للارض التي اقاموا عليها منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وفي هذه العجالة نبرز هنا اننا نخالف التراث الديني (اليهودي والذي ورثه الفكر المسيحي) لجهة ان اسم فلسطين ، او فلسطيا حسب هذا التراث كان يطلق فقط على السهل الساحلي الجنوبي لفلسطين الممتد بين يافا وغزة وطوله خمسون ميلا وعرضه خمسة عشر ميلا . فان لدينا من القرائن التاريخية ما يثبت ان الفلسطينيين قبل اقامة مملكة داوود وسليمان ، كانوا قد استوطنوا معظم الاراضي الفلسطينية الواقعة الى الغرب من نهر الاردن وان تلك الفترة بالتحديد كانت مسؤولة عن اطلاق الاسم بشمولية اكثر مما يوحي به العهد القديم . كذلك تؤكد القرائن التاريخية ان هذا الاسم استمر في التفاعل خلال القرون الاربعة التي اعقبت قيام مملكة داوود وسليمان ثم ما بعد انقسام المملكة . وتؤكد هذه القرائن ايضا ان سكان البلاد لم يخضعوا للنفوذ اليهودي بل انهم على العكس من ذلك جعلوا « القومية اليهودية » في كثير من الاحيان تحس بقوة اثرهم احساسا ينذر بالكارثة .

وبدون هذا الرأي فاننا لا نجد تفسيرا لحقيقة ان الاشوريين في نحو القرن الثامن قبل الميلاد كانوا يعنون بـ « بلستيا » ليس المدن الساحلية فحسب وانما كذلك منطقة اليهودية (حسب الاصطلاح اليهودي) . أما بعد سقوط مملكة يهودا (٥٨٧ ق.م.) فقد اصبح الاسم اكثر تعميما وصار يشتمل الاراضي الواقعة على ضفتي نهر الاردن . وفي عهد المؤرخ اليوناني هيرودتس (٤٨٤ — ٤٢٥ ق.م) كانت كلمة « بالستين » تطلق على كل من الجزئين الساحلي والداخلي من البلاد حتى الصحراء العربية .

ولا شك ان الصهيونية لم تكن مسؤولة عن اطلاق الاسم بهذه الشمولية ، ولم يكن لليهود كذلك في تلك الحقبة التاريخية شرفُ هذه التسمية . فهم قد اطلقوا على الارض حال غزوهم لها اسم ارض اسرائيل وارض العبرانيين وارض الموعد والارض المقدسة (بنعبيرين شاعريين) ، غير ان هذه التسميات جميعها ظلت محصورة في اليهود انفسهم دون سواهم . وقد وقع اليهود عندما كتبوا تاريخ المنطقة فريسة عدائهم التاريخي للفلسطينيين القدامى ، اذ كانت العلائق بينهم طوال ما يزيد على عشرة قرون علائق صراع . فقلصوا دورهم وبالتالي اسمهم الذي منحوه للارض .

وهكذا استمر تفاعل الاسم وانتشاره حتى منتصف القرن الرابع الميلادي عندما شكل الرومان ولاية Palaestina Salutaris لتشمل فلسطين كما هي معروفة حاليا واقساما من شرق الاردن ، كما اطلق الاسم نفسه على الجولان وحوران . وفي نحو العام ٤٠٠ م ظهرت الاقسام والتسميات التالية : ١ — فلسطين الاولى وتشمل مناطق نابلس والقدس والخليل والسهل الساحلي حتى رفح بالاضافة الى المنطقة الواقعة الى الشرق من نهر الاردن بين نهر الزرقاء ووادي الموجب . ٢ — فلسطين الثانية تضم وادي الاردن والجليلين الشرقي والاوسط والقسم الشمالي من الاراضي الواقعة الى الشرق من نهر الاردن . ٣ — فلسطين الثالثة وهي بلاد الانباط وديار السبع

وقد ورث الفتح الاسلامي هذه التقسيمات الادارية مع بعض التعديلات ، فاصبحت فلسطين الاولى بشكل عام جند فلسطين الذي كان يمتد من رفح الى اللجون ومن يافا الى عمان ، كذلك الحق به اقسام من فلسطين الثالثة مشتملا على زغر قرب البحر الميت وجبال الشراة . اما الاقسام الاخرى من فلسطين الثالثة فقد الحقت بجند دمشق ، واصبحت فلسطين الثانية جند الأردن في العهد الاسلامي .

وقد انتهى هذا التقسيم مع الحروب الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي ، غير ان اسم فلسطين استمر في الوجود بخلاف اسم الاردن الذي لم يحفظ التاريخ له ذكرا منذ ذاك . ففي القرن الثالث عشر الميلادي يعدد ياقوت في «معجم البلدان» من اسماء مدن فلسطين : عسقلان والرملة وغزة وارسوف وقيسارية ونابلس واريحا ويافا وبيت جبرين ، **وكذلك عمان** .

اذن هناك فلسطين تاريخية ليست هي « اسرائيل الكبرى » ، وهي لم توجدها الحركة الصهيونية ولا دعاوتها ، وانما اطلق الاسم شعبها الذي عاش فيها وفرضه فرضا ، وورث العرب هذا الاسم واورثوه لاجيال متعاقبة على مر القرون . كذلك فان الاسم لم يكن يغطي فلسطين الانتدابية فقط وانما شرق الاردن ايضا ، الذي هو بالمناسبة تعبير ليس له تراث في التاريخ العربي ، بل هو ترجمة غير دقيقة للمصطلح الانجليزي Trans-Jordan وهذا المصطلح بدوره له جذور في التوراة والادبيات العبرية : « عبر ياردين » او « عبر الاردن » .

الكيان الاردني :

اننا نذهب خلافا لاي راي اخر ، بما في ذلك عبد الحفيظ ، الى ان الكيان الاردني — **من حيث هو كيان** — له وظيفة محددة ضمن اللعبة الاستعمارية في المنطقة واهدافها ووسائلها . وان تغيير النظام دون النظر في مكونات الكيان نفسه ومقومات وجوده سيكون جرحا في القشرة دون المس بجوهر الوظيفة . وان استعراض هذه الوظيفة تاريخيا يوضح ذلك .

كان من شروط اقامة الكيان برئاسة الأمير عبدالله في العام ١٩٢١ ان يسهل وفاء بريطانيا بالتزاماتها في فلسطين ، التي تعني هنا انشاء وطن قومي يهودي حسب « التزام » بلفور . وفي تلك الفترة وقبلها بقليل جرى التفكير بان تكون شرق الاردن

ملاذا للفلسطينيين الذين سيطردون من اراضيهم نتيجة قيام « الوطن القومي اليهودي » . واتسه لامر لأنت للنظر ، وفي الوقت نفسه يؤكد صحة هذا الرأي الوارد في غير مصدر بريطاني ، ان بريطانيا مانعت الاستيطان اليهودي في شرق الاردن ، حتى انها هي التي كبحت الامير عبدالله في العام ١٩٣٣ عن تأجير اكثر من ستين الف دونم من اراضي الاغوار الى الوكالة اليهودية ، بعد ان كان عقد اتفاقا معها حول ذلك . والتفسير الذي يعطي هنا، بجانب اسباب اخرى طبعا تتعلق بمصلحة بريطانيا في ابقاء نفوذها في شرق الاردن من خلال الهاشميين، هو ابقاء شرق الاردن مكانا صالحا لاستيعاب عرب فلسطين بعد طردهم من اراضيهم . وقد تأكدت هذه الوظيفة الكيانية في العام ١٩٤٨ عندما استوعب الاردن معظم الذين طردوا من فلسطين المحتلة بعد قيام اسرائيل .

وفي تلك السنة والسنوات اللاحقة جرى استخدام الكيان لتصفية القضية الفلسطينية ، عندما ضمت الاجزاء الفلسطينية التي لم يستول عليها العدو الى الكيان الاردني ، وطمست بالتالي فلسطين من خارطة العالم ، وجرى نزع الهوية الفلسطينية عن الفلسطينيين بالحاقهم بالكيان الاردني وتجنيسهم بجنسيته . وقد كان هذا الامر مسؤولا عن طرح الاردن نفسه بصفته كيانا يضم الفلسطينيين ، ممثلا للفلسطينيين وناطقا باسمهم ، وهي معركة سياسية اتخذت لها هدفا مشخصا هو : من صاحب الحق في تقرير مصير الضفة الغربية .

هذه بعض ملامح الوظيفة الكيانية على صعيد القضية الفلسطينية ، ولن نتطرق هنا الى وظائفه الاخرى المتعلقة بحماية المصالح الاستعمارية في المنطقة . ولكن كيف يمكن ان يكون النظام والكيان متماثلين في الوظيفة ؟ من الصعب هنا ان نفحص فرضية تقول « لو » كان النظام في الاردن وطنيا فهل كان الكيان يؤدي الوظيفة نفسها التي اداها خلال نصف القرن الماضي ؟ ذلك اننا نؤمن بأن **الوظائف الكيانية للاردن كان يجب عليها وجوبا تاريخيا ان تفرز نظاما هو النظام الهاشمي او نظاما شبيها به** . ذلك ان الكيان الاردني اصطنع منذ البدء بوظائف محددة تطلبت نظاما صالحا لتنفيذ هذه الوظائف تنفيذا اجرائيا . وان الارادات الاستعمارية التي صنعت الكيان مهتمة (كانت منذ البداية ولا تزال) بتثبيت نمط من الحكم يجعل الوظائف الكيانية متحقق تحققا امثل .

ولكن ان اسقطنا فرضية « لو » في الماضي ، ونظرنا الى الدعوى القائلة بان قيام نظام وطني في الاردن سوف ينهي هذه الوظيفة الكيانية ، فماذا سوف نجد ؟ ان النظام الوطني ، مهما كان وطنيا وتقدميا ، فانه سيواجه من جديد مسألة الكيانية في الاردن . فمع ابقاء الكيانية كما هي فان النظام سيكون **نظاما اردنيا** ، وسوف يكون مطلوبا منه ان يجيب على القضايا التالية : .

١ ــ هل سيكون فلسطينيو الاردن جزءا من هذا الكيان ؟ ان الفلسطينيين هناك يمثلون اغلبية السكان وان اشراكهم في « الاردنية » سوف يطرح سؤالا من هذا النوع : وكيانهم الفلسطيني ماذا نعمل به ؟ هل هم يتبعون الكيان الفلسطيني المعبر عنه تعبيرا مؤسسيا (من خلال منظمة التحرير الفلسطينية) والذي جرى الاعتراف به دوليا ، وبذلك هم فلسطينيون وليسوا اردنيين ، ام هل هم يتبعون الكيان الاردني وبذلك هم اردنيون ونزول عنهم هكذا صفتهم الفلسطينية ، ام هل هم فلسطينيون واردنيون في وقت واحد ؟

٢ ــ هل النظام الوطني جدا والتقدمي جدا في الاردن ، والذي يظل مع ذلك « نظاما اردنيا » من حقه ان ينطق باسم الفلسطينيين المقيمين في الاردن ويرعى مصالحهم وحقوقهم في وطنهم ، وفي الوقت نفسه حقوقهم ومصالحهم الراهنة من حيث هم مواطنون في الكيان ، ام يعطي هذا الحق لمنظمة التحرير ، الممثلة الشرعية للفلسطينيين والناطقة باسم مصالحهم وحقوقهم ؟ واذا فعل ذلك وسلم لمنظمة التحرير برعاية حقوق الفلسطينيين فهل سيكون عند ذاك نظاما تشمل سلطته جميع المقيمين على ارضه سواء الشرق اردنيين ام الفلسطينيين المتجنسين بجنسية اردنية ، ام نظاما شرق اردني يمثل فقط مصالح الشرق اردنيين ويرعى حقوقهم دون سواهم ؟

٣ ــ مهما كان التعاون مثاليا بين سلطة الثورة وسلطة النظام الوطني والتقدمي جدا في الاردن ، فان ذلك لا ينفي وجود سلطتين اثنتين . والسؤال الذي يطرح هنا هو ما هي حدود كل سلطة في التعامل مع الفلسطينيين المقيمين في الاردن ؟ ان

سلطة الثورة تستهدف في الاساس ربط الجماهير بها ، ربط مصالحهم بمصالحها وتكييف حياتهم وطرائقها بحيث يغدو هناك تطابق كامل ما بين الثورة والجماهير (هذا اذا ارادت الثورة فعلا ان تحقق غاياتها في التحرير) . ولا يتم ذلك الا اذا حققت الثورة سيطرة كاملة على الجماهير وعلى حركتها اليومية ونوعا من « ادارة » امورهم الحياتية كي تصبح منسجمة مع اهدافها ووسائلها في النضال ، وبذلك سحب البساط ، عن حسن نية طبعا ، من تحت اقدام النظام الذي يجد نفسه نظاما مجوفا من السلطة والسيطرة على جماهير الثورة . وبذلك فاما ان يرتد النظام الى نظام شرق اردني يكرس « نوريا » هذه المرة ومن « موقع تقدمي » الشرخ الاقليمي ، واما ان يذوب في سلطة الثورة ، ان لم يكن له القدرة الموضوعية على الخيار الاول ، ويصبح في احسن الاحوال **تابعا شرق اردني** لسلطة الثورة **الفلسطينية** .

٤ — قضية اخرى ستواجه الكيان بنظامه التقدمي : ما هو مصير الاراضي الفلسطينية التي سوف تحرر بوسيلة او باخرى ؟ هل سيضمها الكيان الاردني التقدمي الى نفسه وبذلك فهي اردنية ، ام يتخلى عنها للفلسطينيين وهم «اردنيون» بحكم انسابهم للكيان الاردني ، وبذلك فان انفصالها فلسطينيا يغدو بغير معنى ما دام الفلسطينيون في الاردن قد قبلوا ان يكونوا اردنيين — من منطلق تقدمي — فلم لا تكون هذه الاراضي اردنية ايضا ؟

حل المعادلة في شرق الاردن الفلسطينية

لقد طرحنا في محاولتنا الاولى الغاء الكيان الاردني الامر الذي جعل عبد الحفيظ يتخوف من ان تدفع هذه الدعوة « الاكثرية الساحقة من ابناء الشعب الاردني للتمسك بكل اظافرهم بالانتمائية الكيانية الخاصة بهم وبجعلهم سوطا طيعا في اجهزة الملك القمعية ضد ابناء الشعب الفلسطيني ، الامر الذي يتأتى عنه تأخر المسار الدوري لشعبنا وعرقلته .

ومن هنا تكمن خطورة مقولة الكاتب » على حد تعبير عبد الحفيظ . ان هذا الخوف مبرر ومشروع ، على الرغم من اننا لا نغالي فيه ، اذا كنا نطرح بديلا للبنية الكيانية الاردنية كيانا فلسطينيا بحتا في شرق الاردن يتجاهل التطورات التي حدثت في الخمسين السنة الفائتة لجهة تبلور الانتماء الكياني لشعوب المنطقة . غير اننا طرحنا « شرق الاردن الفلسطينية » التي تحمل ضمنا جميع الاعتبارات الراهنة والتاريخية (الفلسطينية والشرق اردنية) ولكنها في الوقت نفسه تصوغ هذه الاعتبارات من جديد لتختلف في الوظيفة عما انيط بالكيان الاردني حتى الان . ان المقصود بالكيان الجديد ان يشترك في بنائه الفلسطينيون والشرق اردنيون دون عقد التفوق وبعيدا عن تحقيق امتيازات خاصة بأي من الطرفين . بمعنى اوضح **تجديد وحدة الشعبين مع الاخذ بعين الاعتبار مصالح كل منهما الخاصة به وفي الوقت نفسه مصالحهما المشتركة** . والهدف الاساسي في ذلك هو وضع الاسس لقيام الكيان — الثورة الذي يزاوج ما بين منطق الثورة ومنطق الدولة ، مما يضمن للثورة استمرارها ، ويمكنها من بناء القاعدة — المنطلق دون ان تتناقض استراتيجيتها (او ممارساتها التكتيكية وفعلها اليومي) مع استراتيجية الدولة او ممارساتها اليومية .

وليس « اختيار » شرق الاردن لتكون هذا الكيان الثورة ، نتيجة عوامل ذاتية او تفكير رغائبي ، وانما تتحكم في ذلك المعطيات الموضوعية لشرق الاردن نفسها وهذه المعطيات ندرجها تحت العناوين الثلاثة التالية :

اولا : المعطيات التاريخية التي تجعل اعادة تصحيح التاريخ لجهة ان شرق الاردن انشئت وحدة ادارية ثم كيانا منفصلا على ارض فلسطين التاريخية عملية غير مستهجنة وتعتبر احد مكونات الطرح الجديد لاعطائه تفسيرا غير منبت عن تاريخ المنطقة وانما هو يوظف حقائق هذا التاريخ لخدمة هدف مشروع من اهداف الثورة العربية في التصدي للصهيونية والاستعمار . ان الاستفادة من حقائق التاريخ هنا هي التي تصنع الاطار الصالح لمضمون من الوقائع البشرية الراهنة والاهداف العملية المستقبلية (وهما صنفا العوامل التي سنتحدث عنها في فقرات لاحقة). بحيث يصبح التاريخ لا جزءا من الذكرى فقط ، وانما الارضية التي ترتصف عليها العوامل الاخرى لصنع الحاضر والمستقبل. وبترجمة عملية ان كون شرق الاردن جزءا من فلسطين التاريخية يبيح التفكير بـ (ومن ثم الدعوة الى) تغيير التسمية وبالتالي **مدلول التسمية** بحيث تنسجم مع هذا الاطار التاريخي ؛ دون القفز من فوق المعطيات الراهنة وانما من خلال الاعتراف بها .

ثانيا : المعطيات السكانية : يشكل الفلسطينيون اغلبية السكان في شرق الاردن ، ويختلف وضعهم عن وضع اخوانهم في سائر الاقطار من حيث ان الفلسطينيين هنا يتمتعون بحقوق **المواطنية الكاملة** وبواجباتها (من ناحية نظرية على الاقل وبغض النظر عن التمييز الذي يمارسه النظام ضدهم) . ومن هنا — وبجانب الاطار التاريخي الذي تحدثنا عنه في الفترة السابقة — فان شرق الاردن هي « وطن » الفلسطينيين بجانب انها وطن الشرق اردنيين . وبذلك فان اي تفكير في اسس اي كيان قادم في شرق الاردن يجب ان يأخذ هذه الحقيقة في الحساب . فهنا كتلة بشرية هي الاكثر عددا يجب ان تشارك في صنع الكيان ويجب ان يشملها الكيان ، ليس لجهة كونها اردنية بمعناها الشرق اردني ، وانما بما هي فلسطينية وبدون المساس بهذه الحقيقة . كذلك في المقابل هناك كتلة بشرية شرق اردنية يجب ايضا ان تشارك في صنع الكيان ويجب ان يشملها الكيان ، لكن ليس على حساب طمس الحقيقة الأولى ولا من خلال تجاهلها.

وهكذا فان حل المعادلة يتم فقط من خلال الاعتراف بعناصرها المكونة ، لا بتناسيها مهما كان هذا التناسي حسن النية ، ولا بتجاهلها مهما كان هذا التجاهل طيب القلب . وان مواجهة تكوين المعادلة بشجاعة وبصدق ثوري هي التي تفترض اولا الاعتراف بوجود عناصر المكون هذه ، وتسعى ثانيا الى وضع الاسس التي يبنى عليها الحل بناء سليما، والاطر التي يجري من خلالها مزج هذه العناصر مزجا ينزع منها عسل التفجير والتدمير . وبالاعتراف بعناصر المعادلة ، فان الحل الذي طرحناه (شرق الاردن الفلسطينية) هو الذي يكفل اشتراك جميع المواطنين اشتراكا متساويا وبكرامة انسانية في صنع كيان هو **مركب** وليس **مزيجا** (في لغة الكيمياء) مواصفاته الاساسية **محصلة** مواصفات مكوناته وليس تجميعها جنبا الى جنب دون ان يتم التفاعل فيما بينها .

ان « شرق الاردن الفلسطينية » بتعبير اكثر وضوحا هي الكيان الذي يأخذ في الاعتبار الفلسطينيين والشرق اردنيين ويعيد توحيدهم من جديد مراعيا في **البدء** كون هؤلاء فلسطينيين واولئك شرق اردنيين ، ولكنه مع وعي هذه الحقيقة والاعتراف بها ينطلق منها الى دمجهم في شعب واحد على اسس تتصادم جذريا مع الاسس التي قام عليها الكيان الاردني حتى الان ، بحيث تتوحد اهداف الشعب في الكيان الجديد وتطلعاته ومصالحه وحقوقه سواء في شرق الأردن الفلسطينية نفسها ام في الأجزاء الفلسطينية المحتلة في غربي النهر .

ان هذا التوحيد على هذا الأساس الجديد هو الذي يجعل الشرق اردنيين يشاركون في النضال من اجل تحرير الاجزاء الفلسطينية المحتلة لا بصفتهم « اخوانا » للفلسطينيين و « رديفا » لهم ، وانما من حيث انهم هم ايضا الطرف الرئيسي في الصراع والمعنيون مباشرة بمصير الارض والشعب .

اما الخوف الذي يشعر به عبد الحنيظ من « ان تندفع قوى انعزالية اقليمية في بعض اقطار المواجهة الى اقتناء جولدا مئير حين تصحو من نومها كل صباح ليكون اول سؤال يرتسم في مخيلتها كم من الاطفال انجب الفلسطينيون هذه الليلة » ، فهذا خوف غير مبرر لان وضع الفلسطينيين في اقطار المواجهة هو غير وضعهم في الاردن ، ولان اقطار المواجهة الاخرى هي غير شرق الأردن للاسباب التي ذكرناها سابقا والمتعلقة بالتاريخ والسكان . وهذا الخوف يغدو مبرره واضحا اذا كان في «نية» الفلسطينيين « استعمار » شرق الأردن وطرد سكانها منها والحلول محلهم . غير ان الفلسطينيين في اطروحتنا لا يريدون اكثر من ان يكونوا شركاء في الكيان الذي يقيمون فيه فعلا ، والذي في الوقت ذاته يتجاهل وجودهم من حيث هم فلسطينيون ويهتك هويتهم الوطنية ويلحقهم الحاقا به . هم يريدون ان يكونوا شركاء بعد ان يرفعوا الغبن الذي لحق بهم طوال ما يزيد عن ربع قرن منذ « ضمهم » الى الكيان الاردني وطمس معالمهم المميزة كشعب . ولكنهم في سعيهم الى ان يكونوا شركاء في الكيان ، يريدون — في هذه الاطروحة — ان يعترف بفلسطينيتهم : باهداف هذه الفلسطينية وبوسائل تحقيق هذه الاهداف . وفوق ذلك فان الخوف الذي يشعر به عبد الحنيظ يصبح جبنا ان لم تواجه الحقائق كما هي ، بواقعيتها وصلابتها . وهذه الحقائق تذهب الى ان هنالك اكثرية سكانية فلسطينية في شرق الاردن يجب ان يحسب حسابها وينظر الى مصالحها وحقوقها .

ثالثا : العوامل العملية : لقد اوضحت في مقالي السابق معنى « الثورة الزاحفة من الخارج الى الداخل لتحرير الارض » والعوامل التي صنعت هذه السمة من سمات الثورة الفلسطينية . وقد

استتبع ذلك ان تنشد الثورة قواعد انطلاق لها في الارض المحيطة بفلسطين . وبتقييم موضوعي فان الارض الصالحة اكثر من غيرها لتكون قاعدة الانطلاق هذه هي ارض شرق الأردن ، لجملة عوامل اهمها متاخمتها لاطول قطاع من الارض المحتلة ، ولوجود الكتلة الفلسطينية الاكثر عددا فيها ، مما يجعل هذه الكتلة المشتل الخصب للثورة من جهة والدرع التي تحمي قواعدها وقواتها من جهة ثانية .

ان التسليم باهمية هذه القاعدة بل بحتمية وجودها يفترض ان تبنى هذه القاعدة بناء اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا وعسكريا في شكل يضمن للثورة استمرارها ويمكنها من تحقيق اهدافها ويتيح لها استخدام جميع الوسائل الكفيلة بانجاز هذه الاهداف . ولن يتم ذلك كله الا اذا تمكنت الثورة من مقدرات هذه القاعدة وصنعت هي حاضرها ومستقبلها معا . والسؤال الذي يطرح هنا هو : هل يغني نظام وطني اردني يقام على انقاض النظام الحالي عن تحكم الثورة بمقدرات شرق الاردن ؟ ان هذا السؤال يفترض وجود طرفين : الثورة والنظام ، وفي حال وجودهما معا فان حالة من البدائل التالية ستنشأ :

١ — حالة من العلائق المتساوية والندية (التعايش المشترك على ارضية واحدة) . ولان التاريخ لا يصنع بالنيات الطيبة وحدها ولا بالارادات الذاتية فحسب ، فاننا نفترض انه ستنشأ من خلال الممارسات مصالح مستقطبة حول كل طرف من طرفي العلاقة ، لا تضمن « النية الطيبة » عدم تعارضها وبذلك فان عنصر التفجير ان كان سيظل كامنا في البداية بتأثير من « العواطف الوطنية » فان ظهور مصالح متعارضة سيعجل من بروز هذا العنصر الذي يهدد بنسف العلائق الندية . وان ما يجعل هذا الامر منظورا وقائما بالقوة (او بالامكان) ومرشحا لان يكون موجودا بالفعل ، ما طرحناه في الصفحات السابقة عن الحدود التي تقف عندها سلطة الثورة على جماهيرها الفلسطينية ومدى تقاطع هذه الحدود مع سلطة النظام وسيطرته على حركة هذه الجماهير باعتبارها تتمتع بالمواطنية الاردنية .

٢ — ان تكون الثورة « ضيفة » على النظام تتقيد باداب الضيافة التي اول شروطها عدم التدخل بشؤون « البيت » الداخلية ، وبذلك فهي تظل خاضعة للنظام ليس في استراتيجيته العامة فحسب (والتي قد تلتقي مع استراتيجية الثورة) وانما في ممارساته التكتيكية وقراراته اليومية . عندها تفقد الثورة مبادراتها الخاصة وقدراتها على الخلق ، وتختنق بالتالي حريتها الحركية . واذا اخذنا بالاعتبار ما اوردناه في الفترة السابقة عن احتمال تعارض المصالح التي ربما لن تكون تلك التي على المدى البعيد وانما مصالح المدى المنظور ، فان حرية الثورة هنا ستقف امام جدار مصالح النظام ولا تتخطاه . وبجانب ذلك فلان الثورة (في هذه الحالة) قامت في الاساس على ارض ليست لها ، ليست ملكها ، وانما هي مستعارة ، فان استرداد هذه الأرض المستعارة ، سيكون حقا للنظام لا ينازع ان نشأت مصلحة له تستوجب هذا الاسترداد .

٣ — البديل الثالث تكون فيه الثورة متحكمة بأعنة النظام ، قادرة على ان تفرض سلطتها هي متجاوزة في ذلك سلطة النظام نفسه . وفي هذه الحالة يتحول النظام الى هيكل شبحي ، وبذلك يفقد الحكم معناه وينفي عن النظام المسؤولية ما دام ليس هو صاحب القرار . ولان الثورة في هذه الحالة ليست مسؤولة مسؤولية دستورية فان حالة من الفوضى ستنشب ، تنعكس من قمة السلطه على اوسع الجماهير وتصبح الثورة والنظام كلاهما عبئا يصبح التخلص من احدهما مطلبا جماهيريا .

ان هذه البدائل الثلاثة التي اوردناها تقود الى نتيجة واحدة هي ان قيام النظام الوطني لن يحل المشكلة حلا جذريا ، ولا تعني هذه النتيجة اننا نعارض الدعوة الى اسقاط النظام الراهن في الاردن، ولكن ما نريد ان نتوصل اليه هو ان اسقاط النظام (الذي هو واجب وطني للفلسطينيين والشرقاردنيين معا) يجب ان يكون هدفا مرحليا ، وخطوة نحو حل جذري نراه في قيام الكيان — الثورة الذي تتطابق فيه تخوم كل من المعنيين تطابق كليا دون ان يترك هامشا لاختلاف . وفي هذه الحالة الاخيرة فقط ينسجم منطق الدولة مع منطق الثورة وتتوفر من ثم الضمانات النظرية والعملية لان تكون استراتيجية الدولة هي استراتيجية الثورة وممارساتها اليومية بتفصيلاتها التكتيكية لا تسير على ضلعي زاوية وانما يحكمها المسار الواحد .

(٢)

كمقدمة لمعالجة الرد الذي تفضل بـه الاخ موسى بريزات في هذا العدد من المجلة ، والذي اطلعت عليه بعد انتهائي من مناقشة الاخ عبـد الحفيظ محارب ، اجدني مضطر لتوضيح بعـض القضايا التي تبدو في مظهرها ذاتية . فعندما كتبت محاولتي الاولى كنت منتظرا ان تثير الاطروحـة المتضمنة فيها ردود فعل مختلفة ايجابية وسلبية . فقد كنت مدركا ان تلك الاطروحة فيها من الجديد ما يجعل رفضها متوقعا انطلاقا من فهم آلية الظاهرة الجديدة في المجتمع ، وهي آلية اصبحت معهـودة لدى جميع دارسي الاجتماع . فالظاهرة الجديدة تمر بمراحل متعددة قبل ان تصبح مقبولة اجتماعيا. واول هذه المراحل ما يتم فيها الاحتكاك بين الظاهرة الجديدة وما سبقها من ظواهر من الطبيعة نفسها ، وفي هذه المرحلة تقابل الظاهرة الجديدة بنفور يتراوح بين الرفض الكلي والرفض الجزئي تبعا للمصالـح المترتبة على وجود الظواهر القديمة التي ترفـض الجديد حفاظا على مؤسساتها القائمة . ثم تأتي مرحلة اخرى يتم فيها التفاعل بين الجديد والقديم تثبت فيها الظاهرة الجديدة وجودها واستحقاقهـا الحياة . وفي المرحلة الثالثة يجري قبول الظاهرة الجديدة من خلال قناتين : الاولى قناة توافقية بين القديم والجديد يتغلب ، في مركبهما ، الجديد بحكم حيويته ، والثانية تكوين « اتجاه » حول الظاهرة الجديدة يستقطب قطاعات مؤثرة في المجتمع هي عادة القطاعات الاكثر حركية ، مما يجعل الظاهرة تسود وتدخل في المرحلة الرابعة عندما تتحول الى قانون او نظام عام .

كذلك كنت مدركا منذ البداية ان في الاطروحـة التي قدمتها بعض فجوات تحتاج الى لبنات تسد بها والا لما سميتها « محاولة اولى » . وكنت مقتنعا بان سد هذه الفجوات يأتي فقط من خلال الحوار الذي به تخصب الافكار ، وبه فقط يمكن الوصول الى البناء الفكري المتكامل . مع هذه القناعة فقد كنت متوقعا ان يكون الحوار (او النفور اذا شئت حسب آلية الظواهر الجديدة) مبنيا على حد ادنى من معرفة الحقائق التاريخية والوقائع الراهنـة وابرازها ، بدلا من الاسلوب الذي اتبعه الاخ بريزات في رده من صنف : « انني اعتقد لو ان الباحث ذهب ودرس ... » و « ليذهب الباحث وليدرس ... » و « يبدو ان الباحث غير ملـم بحقيقة ... » ، واخيرا دعوته لي « باسـم كل الاردنيين الفقراء » الى الذهاب الى الاردن لأتعرف ... ولأرى ... ولادخل البيوت .. وهذه الدعوة متبولة (على الرغم من انني عشت في الاردن عشرين سنة) اذا ضمن لي الاخ بريزات ان اخرج من الاردن كما دخلت كي اجرب حظي في كتابـة **محاولة ثالثة في اطروحة شرق الاردن الفلسطينية** . وبعد هذه المقدمة اتعرض لما طرحه الاخ بريزات .

الكيان والدولة والشعب :

لن ادخل هنا في جدل فلسفي حول هذه المفهومات الثلاثة ، على الرغم من الادراك الكامل ان تحديدها امر بالغ الاهمية ليس في موضوع بحثنا فحسب وانما في الفكر السياسي اجمالا . ان ما عنيته بالكيان في محاولتي الاولى هو : الوجود **السياسي** الذي تعبر ادوات واجهزة سياسية واجتماعيـة خاصة به عن **وحدته وتمايزه** عن غيره . وليـس شرطا ان يكون الكيان **دولة** ، فمنظمة التحريـر الفلسطينية ، حسب المصطلح الفلسطيني والعربي هي **الكيان** بالنسبة للشعب الفلسطيني على الرغم من انها لا تتمتع بمواصفات الدولة . **كذلك** فـان الكيان لا يعني الشعب ، فالشعب الفلسطينـي « فقد كيانه الوطني » في العام ١٩٤٨ بمعنى واحد هو انه فقد الاجهزة والادوات السياسية المعبـرة عن وحدته وتمايزه . وبقيام منظمـة التحريـر الفلسطينية استرجع الشعب الفلسطيني « كيانـه الوطني » اي الوعاء الذي تتقولب فيه الوحـدة والتمايز . ولكن الكيان يصبح الدولة اذا توفرت فيه اربع مواصفات ، وفقا للقانون الدولي ، تجعل من الكيان « دولة » . وهذه المواصفات هي : ١ ـ سكان دائمون . ٢ ـ اقليم محدد . ٣ ـ حكومة . ٤ ـ القدرة على اقامة علاقات مـع الدول الاخرى (١)

أما بالنسبة للشعب People فيجب التمييز بين هذا المصطلـح ومصطلح السكـان Population فعلى الرغم من ان تعبير « الشعب » يطلق عادة على سكان دولة او قطر الا انه في المجتمعات التي يجري داخلها صراع سياسي واجتماعي يجب ان يكون لكـل من المصطلحين معناه الحقيقي .

ـ « الشعب في المعنى العلمي المحدد هو الجمهور المتغير تاريخيا ، الذي يضم فئات وطبقات قادرة ، بفضل موقعها الموضوعي ، على ان تشارك مؤتلفة في تطوير قطر معين في زمن معين » (٢) . وبذلك فان « الشعب » ، كمصطلح سياسي ، لا يتطابق مع « السكان » ، وانما هو حصر الطبقات وشرائح الطبقات التي لها مصلحة في التطوير . اما الطبقات التي تقف في وجه هذا التطوير ، او تستغل الطبقات المكافحة من اجل التطوير ، فهي ليست من « الشعب » وان كانت من « السكان ». عند هذا المفصل ، نعود الى الدولة وتعريفها علميا بأنها «منظمة سياسية للطبقة المهيمنة اقتصاديا وان هدفها هو حماية النظام القائم ، وقمع مقاومة الطبقات الاخرى » (٣) . اذن فالدولة التي تسود فيها علاقات الانتاج الرأسمالية هي منظمة الطبقة الرأسمالية المستغلة التي تقمع وتضطهد الطبقات الاخرى (العمالية والفلاحية) . وهذه الطبقات الاخيرة هي التي لها مصلحة في التطوير ، وبالتالي هي « الشعب » . باختصار : الدولة في هذه الحالة تقمع الشعب والشعب هنا ضد الدولة، وان كان جزءا من سكانها .

اردت ان نكون هذه الامور واضحة لمعالجة موضوعنا في الكيان والدولة والشعب في الاردن .

قبل ١٩٢١ لم يكن هناك كيان بالمعنى الذي حددته قائم في شرق الاردن . وانا اعرف بلا شك (على الرغم من تشكيك الاخ بريزات بمعرفتي) ان البتراء كانت عاصمة مملكة عربية قديمة ، وان عمان هي ربة عمون، كذلك لم انس جرش ولا الكرك ولا مؤتة . ولكن مع هذا فانا لا اعرف في الحقيقة ما هي القضية التي يريد الاخ بريزات ان يبرهن عليها من ايراد اسماء هذه المدن . ان وجود هذه المدن ــ وغيرها كثير ــ لا يعني ان ما اصطلح عليه ابتداء من العقد الثالث من القرن العشرين باسم شرق الأردن ، كان انذاك ــ حتى عندما كانت هذه المدن مزدهرة ــ وحدة سياسية متميزة يجري التعبير عنها من خلال اجهزة وادوات خاصة بها . والمرة الاولى في التاريخ التي اصبحت فيها هذه المنطقة بحدودها الجغرافية الراهنة كيانا ، كانت بعد اتفاق تشرشل ــ عبدالله في القدس . وكل ادعاء غير ذلك هو حصد ريح لا يستند الا الى جهل في التاريخ ، في احسن الثبات ، وفي معنى الكيانات السياسية . واذا حاول بعض مؤرخي النظام الهاشمي (امثال سليمان موسى ومنيب الماضي في كتابهما « تاريخ الاردن في القرن العشرين ») ان يرجعا اصول الكيان الاردني الى متصرفية الكرك، فتلك محاولة مردودة لاكثر من سبب : فالمتصرفية استحدثت قبل الحرب العالية الاولى بسنوات قليلةباعتبارها جزءا من التقسيمات الادارية العثمانية ولم تحمل قط معنى سياسيا من قريب او بعيد ، وكانت تابعة اداريا لولاية الشام . كذلك فان المتصرفية اقيمت على جزء فقط من ارض شرق الاردن التي كانت اجزاؤها الاخرى تخضع اداريا لتقسيمات ليست لها علاقة بمتصرفية الكرك .

اما من حيث السكان فبالتأكيد انني لا استطيع ان اقول انني عندما اتيت الى الاردن وجدتها « خالية من الناس سوى عائلات الشركس والهاشميين والنور » حسب تعبير الاخ بريزات وآسف لاقحام الاخ الناقد « النور » هنا هذا الاقحام الاستفزازي، على الرغم من ان الشاعر مصطفى وهبي التل الذي يستشهد به الأخ بريزات يعتبرهم اردنيين. او ليس هو الشاعر القائل :

يا مدعي علم اللواء
وخير من منهم القضية
الهبر مثلي مثلك
اردني التابعية

والهبر هنا هو النوري الرث الذي كان يتخذه عرار (مصطفى وهبي التل) مثالا للتمايز الاجتماعي في الاردن .

واعود الى الموضوع فأقول انه قبل قيام الكيان في ١٩٢١ كان هناك سكان في شرق الاردن (تعبير جغرافي هنا) ولكنهم لم يمثلوا وحدة كيانية . هم عرب وعرب اقحاح (ومن حادل في عروبتهم حتى يسوق الاخ بريزات مقولة ندافع عن عروبتهم ؟) ولكنهم لم يكونوا « اردنيين » بمعنى انهم لم يتمتعوا بوجود سياسي مستقل موحد مميز ، وكذلك الفلسطينيون ، وليس في هذا عيب نخجل منه فنخفيه ، وانما يجب ان يكون فخرا ودلالة على وحدة امتنا القومية .

اكثر من ذلك نستطيع ان نقول ان طابع البداوة الذي ميز شرق الاردن في مطلع القرن العشرين كان عاملا اساسيا في ابراز انتماءات محلية وعشائرية تتغلب على الانتماء لوحدة الامة . وقد سهلت هذه الحقيقة قيام ثماني « دول » في العام ١٩٢٠ ومطلع

العام ١٩٢١ في بلاد شرق الاردن . والقصة معروفة تاريخيا ولكن لا بأس من ترددها . فبعد انتهاء الحرب العالمية الاولى في العام ١٩١٨ اصبحت منطقة شرق الاردن حسب التقسيمات التي اوجدها اللنبي (ادارة مناطق العدو المحتلة) تابعة الى ادارة فيصل في دمشق ولكن بعد سقوط مملكة فيصل في تموز ١٩٢٠ ودخول الفرنسيين دمشق في اعقاب معركة ميسلون ، شكل الضباط الانجليز المعتمدون في شرق الاردن عدة حكومات — « دول » وصلت في احدى المرات الى ثماني . فكان في منطقة عجلون وحدها اربع من هذه « الدول » التفها الضابط الانجليزي سمرست . مراكزها في اربد وسوف والمزار والكورة . اما في البلقاء فقد بقي متصرفها الذي عينته حكومة فيصل حاكما عليها بالاسم فقط، اذ ان سلطته الفعلية لم تتعد عمان التي شكلت بدورها حكومة . وفي الكرك وبتأثير من الضابط الانجليزي الك كيركبرايد ، شكلت « دولة مؤاب العربية » وقد جرى اختلاف بين « دولة عمان » و « دولة مؤاب » على الحدود فيما بينهما استغل الضابطان الانجليزيان المعتمدان في كل منهما معلوماتهما التوراتية لتخطيط الحدود والتوفيق فيما بين « الدولتين » . أما في الطفيلة فكان قد تشكل قبل ذلك مجلس حكومة كذلك، بقائمقام و «وزراء».

لم يكن هناك اذن كيان اردني قبل ١٩٢١ . وفي تلك السنة حدث تطور مهم في المنطقة اذ عقد مؤتمر القاهرة الذي افتتح رسميا في ١٢ اذار ١٩٢١ وكان الحاضرون اربعين خبيرا في السياسة البريطانية في الشرق الاوسط . وقد ترأس المؤتمر ونستون تشرشل وزير المستعمرات البريطاني الذي انتقلت اليه في مطلع العام نفسه مسؤولية المنطقة بعد ان كانت هذه المسؤولية من اختصاصات وزير الخارجية البريطاني . وقد بحث مؤتمر القاهرة في مسألة شرق الاردن وعلاقتها بفلسطين ومسألة قدوم عبدالله الى شرق الاردن . ولم يتخذ في المؤتمر قرار حاسم وملزم بالنسبة لهاتين المسألتين ، وان كان هذا القرار قد اتخذ في اجتماع القدس الذي عقده تشرشل مع عبدالله بعد ايام قليلة من مؤتمر القاهرة . ففي المحادثات التي تمت في الايام ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ من اذار ١٩٢١ قال تشرشل عن شرق الاردن « ان المنطقة اصغر من ان تستطيع الوقوف وحدها . لذلك يجب ان تبقى مع فلسطين اقتصاديا وجغرافيا وهو يقترح اعتبارها مقاطعة عربية يديرها حاكم عربي يرجع في مسؤولياته الى المندوب السامي على فلسطين ... وقال تشرشل انه يود ان يوضح بمزيد من التفصيل ماذا سيكون مركز الحاكم العربي ومسؤولياته ... من الطبيعي ان تتوقع الحكومة البريطانية من ذلك الحاكم ضمانا بان يتفادى القيام بنشاطات معادية لليهود في شرقي الاردن والا يسمح لقيام نشاطات من هذا النوع . ومن المفترض في ذلك الحاكم ان يتقبل السياسة البريطانية في فلسطين الى الغرب من نهر الاردن ... ومن المعتقد ان السيطرة يجب ان تكون حقيقية ، بقصد تأمين مصالح فلسطين والحيلولة دون ان تصبح المنطقة مصدرا للمتاعب في وجه الفرنسيين ، ولتمكين الدولة المنتدبة من ان تفي بالتزاماتها الدولية ... وسيكون من المفيد ايضا فتح طريق جوي بين عمان وبغداد من اجل التقريب بين فلسطين والعراق ... واقترح تشرشل على الامير ان يبقى هو نفسه في شرقي الاردن مدة ستة اشهر بقصد تمهيد الامور لتعيين حاكم عربي تحت اشراف المندوب السامي في نهاية تلك المدة بموافقته [اي الامير] ... وقال تشرشل انه ابدى استعداده لان يقدم للامير ذلك القدر من التعضيد بالمال والقوى العسكرية في حدود الحاجات الضرورية ... ومقابل هذا التعضيد فانه سوف يطلب من الامير ان يضمن عدم قيام هياج ضد الفرنسيين وضد الصهيونية في البلاد ... وسيطلب منه ايضا ان يمنح كل مساعدة من اجل شق الطريق الصحراوي شرقا الى العراق ... وقد اجاب الامير عبدالله انه بعد النظر في مقترحات تشرشل قرر قبولها » (٤)

لقد تعمدنا ايراد هذا النص المطول من محادثات القدس لاظهار ان القصد من تشكيل الامارة كان واضحا لا لبس فيه ولا ابهام . وفي الوقت نفسه كي اجيب على التساؤل الابتكاري الذي طرحه الاخ الناقد بقوله « كيف يمكن لتشرشل وعبدالله ان ينشئا بجرة قلم كيانا يعيش ويقوم بالدور الذي اسنده اليه الباحث اعتسافا ؟ » ففي الحقيقة يظهر النص ان الكيان انشىء فعلا بـ « جرة قلم » ولكن في معنى واحد هو ان جرة القلم تلك ارست الأسس التي يستند عليها البنيان خلال السنوات اللاحقة من خلال اقامة المؤسسات السلطوية والادوات المعبرة عنه . هذا من جانب . ومن جانب اخر انا لم اسند الى الكيان هذا الدور « اعتسافا » وانما تشرشل هو الذي فعل ذلك .

ويظهر من النص الذي اثبته اعلاه ان هـــذا « الدور » او ما اصطلح عليه شخصيا بتعبير الوظيفة هو ذو ثلاث شعب :

١ ـ ان يمكن بريطانيا من تنفيذ سياستهـــا الصهيونية فيفلسطين .

٢ ـ ان يمثل جسرا بين فلسطين والعراق وهذه مسألة ذات اهمية فائقة وتشعبات عديدة لا نستطيع هنا بهذه العجالة ان نوفيها حقها ، ولكنها ، باجمال تمثل جزءا من الاستراتيجية البريطانية في النصف الاول من القرن العشرين عندما كانت بريطانيا حريصة على تأمين خطوط مواصلاتها العسكرية بين قناة السويس والعراق امتدادا الى الخليج العربي ومستعمراتها في الهند ، وفي الوقت نفسه تأمين خطوط انابيب النفط بين منابعه في العراق ومصابه في ساحل البحر المتوسط .

٣ ـ موازنة سياستها مع الفرنسيين في سوريا ومن المعروف ان العلاقة بين حليفتي الامس (فرنسا وبريطانيا) قد بدأت منذ انتهاء الحرب الاولى تأخذ اشكالا من التنافس ظهرت في المحادثات الثنائية بين الدولتين (لويد جورج وكليمنصو) وفي مؤتمر السلام الذي عقد في باريس . وكان مبعث التنافس في الدرجة الاساسية الأختلاف على تقسيم « غنائم الحرب » التي كانت بلادنا السورية من ادسمها .

يبدو اننا توغلنا كثيرا في التاريخ ولكن العذر هنا هو احساس الباحث الحالي بان الأخ الناقد لم تتوفر له هذه المعطيات جميعا على الرغم من انهـــا معروفة لجميع دارسي التاريخ العربي المعاصر . واعود مرة اخرى الى مسألة الكيان والدولـــة والشعب .

لقد ربطت في مقالي السابق الكيان بالدولـــة (ص ٢٣ من العدد ٤٩) بوعي ان بريطانيا من خلال المعاهدات والاتفاقات التي اجرتها بدءا من معاهدة شباط ١٩٢٨ وانتهاء بمعاهدة لندن اذار ١٩٤٦ التي « منحت » بريطانيا فيها الاستقلال لشــرق الاردن وحولت لقب الامير الى ملك (٥) ، قــد طورت الأسس الموضوعية للكيان لتنطبق عليـــه مواصفات الدولة . وهنا ان عدنا الى تعريـــف الدولة والشعب التعريف العلمي الذي اثبتناه في فترة سابقة من هذه المناقشة نجد التفسير الحقيقي لمعادلة الشعب في الاردن لـــ الدولة . فالشعـــب هو صاحب المصلحة في التطوير ، والدولة هـــي المنظمة السياسية للطبقات التي تقف في وجــه التطوير حفاظا على مصالحها وامتيازاتها . كذلك من هذا المنطلق نجد التفسير الجذري والموضوعي لحقيقة ان الحركة الوطنية في الاردن كانت تتجــه الى رفض وجود الدولة ككيان . وهذه الحقيقة ان لم يجر التعبير عنها تعبيرا لفظيا فان برامج الحركة الوطنية تكشف ذلك ضمنا من خلال تبنيها المضامين القومية في فكرها السياسي التي هي ضد الكيانية ــ الاقليمية ، ومن خلال ان هذه الحركة الوطنية كانت من ناحية تنظيمية امتدادا للحركات القومية التي ظهرت خارج الأطار الجغرافي للاردن (البعث وحركة القوميين العرب والاتجاهات الناصريـــة) بجانب التنظيمات « الاممية » المتمثلة في الشيوعية والاحزاب الاسلامية . واكثر من ذلك (وهذه الحقيقة تحتاج الى بحث منفصل) فان عددا من الرموز الوطنية في شرق الاردن رفضوا في السنوات الاولى من تشكيل الامارة فكرة الكيان الاردني . ويحتفظ سجل الحركة الوطنية في شرق الأردن باسم محمد سيف الدين المجلوني الذي كان يستخدم تعبيـــر « الشرق العربي » عند الحديث عن شرق الاردن ، وظل لفترة طويلة يستخدم اصطلاح « بـــلاد » و « منطقة » للاشارة الى ذلك في ايحاء واضـــح بعدم تقبله فكرة الكيان والدولة (٦) ، وقد كـــان ذلك منسجما مع الاتجاهات الوطنية انذاك التـــي اعتبرت سوريا وحدة يجب الا تجزأ بكيانات اقليمية. وفي ضوء هذه الحقيقة تفسر واقعة ان «الاردنيين» لم يجدوا غضاضة ولا انتقاصا من وطنيتهم في ان اول « وزارة » الفت في شرق الأردن في ١١ نيسان ١٩٢١ كانت تضم « اردنيا » واحدا هو علي خلقي الشرايري ، مشاور الامن والانضباط ، الى جانــب اربعة سوريين وحجازيين اثنين وفلسطيني . (كانت الحكومة ــ او ما عرف باسم مجلس المشاورين ــ برئاسة رشيد طليع من اركان حزب الاستقلال).

كانت الدولة كما ارست قواعدها بريطانيا ، قيدا اخترعه البريطانيون من عدم (كبقية الدول التـــي نشأت في المنطقة آنذاك) لوأد حركة الشعـــب نحو التطوير القومي والاجتماعي . اذن ، فأن كل دعوة الى حل الكيان ــ الدولة كما هو حاليا ، انما هي دعوة تصب في طواحين حركة الشعب ، اعني الطبقات وشرائح الطبقات التي لها مصلحـــة في التطوير والتي هي هنا تحديدا ، وفي الاطـــار

التاريخي الراهن ، العمال والفلاحون والبرجوازية الصغيرة والجنود وصغار الضباط . **فالدولة الاردنية كما هي الان ليست دولة هذه الطبقات بل هي جلادها** . من هنا الدعوة الى انشاء الكيان — الثورة الذي اعترض عليه الاخ الناقد دون ان يفهم مدلوله . غير ان هذا الامر ، مرة اخرى ، يحتاج الى بعض توضيح ضمن اطارين اثنين :

الاطار الاول : ان الحركة الوطنية في الاردن لظروف موضوعية وذاتية تتعلق بها ولظروف خارجة عنها ، لم تتمكن حتى الان من ان تكون هذه الثورة التي تخلق الكيان — الدولة على صورة تصبح فيها **دولة الشعب** بالمعنى الذي حددناه سابقا . وفي المقابل فان الثورة الفلسطينية ، على الرغم من كل نقد يوجه الى ايديولوجيتها ، قدمت خلال تجربتها القصيرة نسبيا في الاردن حالة متقدمة ليس في النضال التحريري فحسب ، وانما حتى في الصراع الاجتماعي . فليس سرا ، وانما هو امر يجب ان يدرس بعناية وموضوعية ، ان المكاسب المطلبية التي حققها العمال في الاردن خلال السنوات القليلة التي عاشتها الثورة هناك كانت علامة فارقة في تاريخ الصراع الاجتماعي في الاردن . ذلك ان ما تحقق من حيث النوع والحجم كليهما في هذه الفترة القصيرة ، ربما عادل ما تحقق خلال سنوات النضال جميعا .

ان هذه الحقيقة لها دلالتها الخاصه والمهمة . فالثورة مؤهلة ، بحكم ايديولوجيتها ، لان تعجل في قيام « دولة الشعب » او « الكيان — الثورة » حسب المصطلح الذي استخدمته . والثورة الفلسطينية ليست مغربة عن الشعب في الاردن ، فهي تمثل على الاقل ثلثيه (الفلسطينيين فيه) ، ومفروض بها ان ترعى مصالحهم . كذلك ، ومن جهة اخرى ، فانه عند التسليم باطروحتنا عن شرق الاردن الفلسطينية تصبح الثورة وحركة الجماهير الشرق اردنية ، بعلاقة جدلية بينهما ، كلا واحدا ، مركبا ، بحيث لا تعود الثورة « ثورة شقيقة » ، وانما يفرض ضمير المتكلم « نحن » نفسه لدى كل حديث عن الثورة من جانب الشعب في شرق الاردن الفلسطينية .

الاطار الثاني : لجملة اعتبارات اجملتها في المحاولة الاولى وفصلتها في الرد على الاخ عبد الحفيظ ، فان المكون الفلسطيني يجب ادخاله في الحساب لدى كل تفكير بمستقبل الاردن ، وان ذلك يعني امرين : الاول ان الفلسطينيين من حيث هم فلسطينيون يجب ان يسهموا في صنع مستقبل الاردن ، والثاني ان الاهداف الفلسطينية (بمعنى استمرار الثورة حتى تحقيق هدفها الاستراتيجي في تحرير كامل التراب الفلسطيني) يجب ان تكون اساسا رئيسيا من الاسس التي يبنى عليها الكيان الجديد . ولا يتم ذلك الا اذا تغيرت الاسس التي يقوم عليها الكيان الان والتي تطمس الهوية الوطنية للفلسطينيين فيه عندما يجري اعتبارهم اردنيين . ولان الثورة وممارستها هي التعبير الاكثر جذرية عن الوجود الوطني الفلسطيني والوسيلة الاكفأ لتكتيل قوى الشعب وترسيخ وحدته ولانها اصبحت التجسيد المادي لهويته الوطنية بعد ان استطاعت خلال ما يزيد عن عقد من الزمان ان تنحت في الجسم الفلسطيني نمطا من الوعي متميزا موضوعته الأساسية هي الشعب يساوي الثورة ، فان اي بديل في الاردن يدخل المكون الفلسطيني في الاعتبار سيعني حتما ان الثورة الفلسطينية هي المخاطبة بذلك ، وهي المعنية كطرف رئيسي وفاعل في بناء الكيان — الثورة ، لكن دون القفز من فوق حقائق الواقع الراهن المتعلقة بشرق الاردن — كما ذكرنا في الرد على الاخ عبد الحفيظ — وانما اخذها في الحساب عند بناء شرق الاردن الفلسطينية . أما الشرعية التي يتحدث عنها الاخ بريزات ، فان الثورة تحمل شرعيتها في بذور تكوينها ، وهي التي تحدد القيم ، هي سلم القيم ، وهي الشرعية المطلقة .

وبعد ، فربما يبدو ما طرحناه ترفا فكريا ، غير ان حجتنا فيه ان معطيات التجربة الماضية تجعل تجاوز الآمها ومراجعتها دون التراجع عنها ، مبررا للتفكير بافضل الوسائل واكثرها كفاءة وجذرية لتقصير المسافة ما بين التشرد والتحرير ، وتؤكد هذه ان اقصر الطرق المؤدية الى فلسطين لا تمر عبر عمان، كما كان الشعار ، وانما التي تنطلق من عمان .

الحواشي :

(١) - D.P. O'Connell, *International Law* (London: Stevens & Sons, 1965), Vol. I, p. 304.

(٢) - M. Rosental and P. Yadin (eds.), *A Dictionary of Philosophy* (Moscow: Progress Publishers, 1967), p. 335.

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٣٢ .

(٤) سليمان موسى ، **تاسيس الامارة الاردنية ١٩٢١ ـــ ١٩٢٥ : دراسة وثائقية** . (عمان ١٩٧١) ص ١٠٤ ـــ ١٢٩ .

(٥) عقدت معاهدة « صداقة » بين شرق الاردن وبريطانيا في اذار ١٩٤٨ ، والغت الحكومة الوطنية (حكومة سليمان النابلسي) هذه المعاهدة في ١٩٥٧/٣/١٣ .

(٦) انظر كتابه : **معركة الحرية في الاردن واقوال رجال السياسة في سوريا الكبرى** ، وهو مجموعة مقالات كان الكاتب قد نشرها في سنوات مختلفة في الصحف الدمشقية والبيروتية ، وطبع الكتاب في العام ١٩٤٧ (مجهول دار النشر) .

عصام سخنيني

شهريات

ملاحظة :
بسبب اضطراب وتأخر مواعيد صدور المجلة (راجع افتتاحية العدد) فان التقارير الشهرية الواردة في هذا العدد تغطي الفترة ما بين أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) وأواخر كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٧٥ ٠

لذلك فمن المفروض في تقارير العدد المقبل الذي سيصدر في اذار (مارس) ان تغطي تقاريره الشهرية الفترة الممتدة ما بين أواخر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٥ وأواخر شباط (فبراير) ١٩٧٦ ٠

(١) المقاومة الفلسطينية

م.ت.ف في مجلس الامن

النضال السياسي الذي تخوضه م.ت.ف على الصعيد الدولي اوصلها هذه المرة الى مجلس الامن . فمنذ سنة كان وتونها ، ممثلة برئيس لجنتها التنفيذية ، على منبر الجمعية العامة للامم المتحدة بداية الطريق نحو تكريس شرعيتها الدولية . وكان اعتراف الامم المتحدة بها تكريسا رسميا ومعلنا لاعتراف العالم بالحقيقة الفلسطينية التي لم يعد تجاهلها ممكنا بعد ان فرضت نفسها بكثافة وفاعلية على ضمير العالم وعقله ، وبعد ان اصبح اخذها بالاعتبار امرا محتما لدى صنع كل قرار لا يتناول شؤون المنطقة العربية فحسب، وانما كذلك علاقات الدول خارج المنطقة بعضها بالبعض الاخر . وكان لا بد لهذه الحقيقة ان تسطع على الامم المتحدة ، مجمع الدول ، التي تظل — مهما كان الرأي بقراراتها — احد ميادين الصراع من جهة ، ومرآة للعالم ، لحقيقة ما يجري في العالم ، من جهة اخرى .

وقبل ايام قليلة من دخول م.ت.ف الى الجمعية العامة في العام الفائت اجاب ابو عمار على سؤال عما اذا كانت مشاركة م.ت.ف ستجبرها على وقف العمليات الفدائية ، بقوله « يجب ان نعرف ما هي الثورة . الثورة عمل متكامل : عمل عسكري ، عمل سياسي ، عمل دبلوماسي ، عمل شعبي . وكل هذه تشكل الثورة ، لان البندقية منفردة لا تشكل شيئا . ولكن البندقية مع هذه الاشياء التي ذكرت تشكل الثورة بمجموعها . من هنا يجب ان نفهم ان العمل الدبلوماسي الذي نقوم به داخل الامم المتحدة انما هو فرع وجهد من الجهد الذي نقوم به في عملنا السياسي والدبلوماسي والعسكري الذي يشكل في مجموعه الثورة الفلسطينية . ومعنى هذا اننا لا يمكن ان نوقف عملياتنا العسكرية ، انما يجب ان نصعد هذه العمليات العسكرية اكثر فاكثر، كما نصعد عملنا الدبلوماسي والسياسي».

وكذلك كان . فبجانب الجهد المسلح الذي قامت به فصائل الثورة الفلسطينية في العام الماضي ، كان نضال م.ت.ف السياسي يصل ذرى مسامية في القرارات التي اتخذتها الجمعية العامة للامم المتحدة في دورتها الاخيرة لجانب الحقيقة الفلسطينية وكفاح الشعب الفلسطيني . وكان على م.ت.ف ان تستفيد في هذا النضال من نتائج حرب تشرين الايجابية ، وتستثمر مترتباتها لتعزيز مواقعها في كفاحها السياسي . غير ان التحول المأساوي عن هذه النتائج من جانب مصر بتوقيع اتفاقية سيناء ، ابقى الجبهة السورية هي المكان الوحيد الصالح عربيا لتوظيف نتائج الحرب ، على الصعيد السياسي ، لمصلحة القضية الفلسطينية . فالتصلب السوري في

استثمار اثار حرب ١٩٧٣ استثمارا واسع المدى جعل سير المعركة السياسية يتخذ له مضمون يتجاوز في آفاقه مترتبات الحرب المباشرة الى ربط هذه الاخيرة بجوهر القضية الفلسطينية وجعلهما كلا واحدا .

وكانت المناسبة لاظهار هذا الترابط اظهارا عمليا مسألة التجديد للقوات الدولية على جبهة الجولان التي كان مقررا ان تنتهي فترة انتدابها في نهاية شهر تشرين الثاني الماضي . ولانه لم يكن ثمة في الافق السياسي والعسكري على مختلف الجبهات ما يوحي بان هناك بديلا للتجديد ، فقد اتخذت هذه المسألة ورقة ضاغطة للحصول على موقع متقدم في المعركة السياسية بهدف تحقيق مكسبين : الاول العودة ، من خلال نتائج الحرب وما ترتب عليها من مشكلات مستحدثة ، الى جذر المشكلة ، نعني القضية الفلسطينية، والثاني الانتقال بالقرار الذي اتخذته الجمعية العامة في دورتها التاسعة والعشرين (في ١٩٧٤/١٠/١٤) بدعوتها م.ت.ف « وهي ممثلة الشعب الفلسطيني للمشاركة في مناقشات الجمعية العامة حول مسألة فلسطين » ، الانتقال بهذا القرار خطوة اعلى في سلم التسليم للمنظمة بوصفها ممثلة الشعب الفلسطيني الذي هو « الفريق الرئيسي المعني بمسألة فلسطين » ، بدعوتها الى المشاركة في اعمال مجلس الامن ، بهذه الصفة ايضا ، بكل ما يترتب على القيام بمثل هذه الخطوة من نتائج سياسية ان لجهة تكريس حقيقة ان الفلسطينيين هم الطرف الاساسي في القضية ، ام لجهة احتمالات اعادة النظر بالقرارات السابقة التي اتخذها مجلس الامن والتي رفضها الفلسطينيون وتحديدا القرار ٢٤٢ للعام ١٩٦٧ .

وقد اسفرت المعركة السياسية التي خاضتها سوريا عن تحقيق هذين المكسبين ، ففجر الاول من كانون الاول الماضي اتخذ مجلس الامن قرارا ذا شقين مترابطين : الاول ان يعود الى الاجتماع يوم ١٢ كانون الثاني ١٩٧٦ لاستكمال مناقشاته حول مشكلة الشرق الاوسط بما في ذلك مشكلة فلسطين مع الاخذ في الاعتبار جميع القرارات الصادرة عن منظمة الامم المتحدة ، والثاني يجدد فترة بقاء القوات الدولية مدة ستة اشهر اخرى . وقد تلا جاكوب مالك ، رئيس مجلس الامن ، بيانا ملحقا بالقرار ، نص على انه من المتفق عليه بالنسبة لاغلبية اعضاء مجلس الامن انه عندما يجتمع مرة اخرى يوم ١٢ كانون الثاني فان مسؤولي م.ت.ف سوف يدعون الى الاشتراك في المناقشات .

ان اهمية القرار بالنسبة للقضية الفلسطينية مثلثة الزوايا . فمن جهة اولى يلزم القرار مجلس الامن ببحث القضية نفسها بعد ان كان الاطار الذي تبحث فيه القضية هو اطار مظاهرها ولواحقها او ما اصبح متعارف عليه بتعبير مشكلة الشرق الاوسط وهو من جهة ثانية يشرك م.ت.ف في مناقشات هذه القضية وبذلك يكرس الاعتراف بها فريقا اصيلا في الصراع . وهو من جهة ثالثة يدعو الى مناقشة المشكلة الفلسطينية مع الاخذ بعين الاعتبار جميع القرارات الصادرة عن منظمة الامم المتحدة ، بما في ذلك ضمنا القرار ٣٢٣٦ الذي اتخذته الجمعية العامة في ١٩٧٤/١١/٢٢ الذي اعاد تأكيد الحقوق الثابتة لشعب فلسطين التي لا يمكن التنازل عنها والتي حددها بانها حق تقرير المصير وحق الاستقلال والسيادة وحق عودة الفلسطينيين الى ممتلكاتهم ومنازلهم التي شردوا منها ، وان احترام هذه الحقوق شرط اساسي لتسوية قضية فلسطين واقامة سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط وان الشعب الفلسطيني طرف رئيسي لتحقيق مثل هذا السلام، وحق الشعب الفلسطيني بان يسترد هذه الحقوق بجميع الوسائل وفقا لميثاق الامم المتحدة ، كما بوجه القرار المذكور نداء لجميع الحكومات والمنظمات الدولية لمساعدة الشعب الفلسطيني في كفاحه من اجل استرداد حقوقه .

ولا شك ان مناقشة قضية فلسطين في مجلس الامن مع اخذ مثل هذا القرار بالاعتبار ستفتح المجال واسعا لاعادة النظر بالقرار ٢٤٢ الذي تجاهل وجود الشعب الفلسطيني وحقوقه الوطنية.

كانت ردة الفعل الاسرائيلية على القرار همجية .. ففي ١٢/٢ قامت بغارة جوية على مخيمات الفلسطينيين في نهر البارد والبداوي والنبطية سقط نتيجتها عشرات الشهداء كان عدد كبير منهم من النساء ، والاطفال ، وكان احد اهداف الغارة ، بحكم اقترانها الزمني مع قرار مجلس الامن ، تضييع اثر القرار من جهة ، والتعبير بوسيلة اكثر وحشية عن موقف اسرائيل

من الفلسطينيين الذين دعا مجلس الامن الى بحث تضيتهم ، من جهة ثانية . كما كانت الغارة اشارة واضحة الى طريقة « استجابة » اسرائيل لقرارات المنظمة الدولية .

وعلى الرغم من الالام الكثيرة التي خلفتها الغارة التي وصفها الاعلام الفلسطيني بانها « ضربة اليأس التي يواجه بها العدو الصهيوني العنصري انتصارات شعبنا » ، فقد كانت احدى نتائجها السياسية انها ارتدت بمفعول عكسي على اسرائيل ، ومنحت الشعب الفلسطيني فرصة جديدة لتحقيق مكسب جديد على صعيد النضال السياسي . فخلافا لجميع تاريخ مجلس الامن في معالجة الشكاوى العربية على الاعتداءات الاسرائيلية ، حدث هذه المرة تطور جديد عندما صوت مجلس الامن على قرار اجرائي بدعوة ممثلي م.ت.ف الى الاشتراك في مناقشة الاعتداء الاسرائيلي . وعلى الرغم من المقاومة العنيفة التي ابداها المندوب الاميركي ضد مشروع القرار واعتباره « اي قرار يصدر بدخول المنظمة هو قرار تخريبي وضد قضية السلام وينسف كل مساعي المفاوضات السلمية » ، فقد فاز القرار بتسعة اصوات هي اصوات العراق والاتحاد السوفياتي والصين الشعبية وروسيا البيضاء وتنزانيا والكاميرون وغويانا وموريتانيا والسويد، وصوتت ضده اميركا وبريطانيا وكوستاريكا ، وامتنعت فرنسا وايطاليا واليابان عن التصويت . وقد قام المندوب العراقي بدور كبير في التأثير في اصدار القرار مما جعل السيد ياسر عرفات يبرق الى الرئيس احمد حسن البكر مشيدا « بالموقف الذي اتخذه العراق في مجلس الامن الدولي وبالجهود الكبيرة التي بذلها رئيس الوفد العراقي في مجلس الامن لتأمين اشتراك م.ت.ف في مناقشات المجلس في اثناء مناقشة العدوان الصهيوني العنصري الوحشي على مخيمات الفلسطينيين والقرى اللبنانية » .

كان دخول م.ت.ف مجلس الامن في ١٢/٥ حدثا وتحولا تاريخيين فللمرة الاولى في تاريخ مجلس الامن يحضر مندوب المنظمة ويغيب مندوب اسرائيل « احتجاجا » على الحضور الفلسطيني . وجانب اخر مهم في القرار هو تصويت السويد ، الدولة الاوروبية الغربية ، الى جانبه . وقد اوضحت السويد موقفها ذلك بتصريح للناطق باسم وزارة الخارجية قال فيه ان السويد تعتبر منذ مدة طويلة م.ت.ف في مثابة « الحركة الاكثر تمثيلا لعرب فلسطين ... وانه من الطبيعي اذن ان تشترك م.ت.ف في مناقشات الامم المتحدة حول مستقبل الشرق الاوسط بعرضها وجهات نظر الفلسطينيين » . وقد ازعج هذا الموقف السويدي اسرائيل خاصة وان الصوت الذي رجح فوز القرار كان صوت السويد ، فاعلنت اسرائيل (« رويتر » ١٢/٨) انها استدعت سفيرها في ستوكهولم لاجراء مشاورات معه حول موقف السويد وقال ايجال الون ، وزير الخارجية الاسرائيلي ، ان اسرائيل اعربت عن استيائها العميق للحكومة السويدية .

في اي حال ، فان جولة اخرى تنتظر م.ت.ف على ارضية مجلس الامن في ١٢ كانون الثاني ، وهي جولة ستؤكد قدرة م.ت.ف ، الثورة الفلسطينية ، على التحكم بمصير القضية الفلسطينية . ووفقا للاخ ابو عمار « ان التطورات الاخيرة التي حدثت في الامم المتحدة ... تمثل ادراكا لاهمية الدور المركزي الذي تضطلع بسه م.ت.ف فيما يتعلق بمصير المنطقة ككل » . وستكون مهمة م.ت.ف غير سهلة بالتأكيد، خاصة ازاء الموقف الاميركي الذي يبدو حتى الان انه ينهج على محورين : الاول محاولة ابطال دعوة م.ت.ف الى الاشتراك في الجلسة القادمة لمجلس الامن . فقد نسب الى الفرد اثرتون ، مساعد وزير الخارجية الاميركي ، الذي غادر اسرائيل في ١٢/٢٣ عائدا الى الولايات المتحدة في اعقاب جولته في الشرق الاوسط قوله « ان الوقت ليس متأخرا حتى الان لالغاء الدعوة التي وجهها مجلس الامن الدولي الى م.ت.ف لحضور مناقشة الثاني عشر من الشهر المقبل » (« السفير » نقلا عن الوكالات ١٢/٢٤) والمحور الثاني مقاومة اميركا لايجاد ارضية لبحث القضية الفلسطينية غير ارضية القرار ٢٤٢ ، فقد صرح هنري كيسنجر، وزير الخارجية الاميركي ، (١٢/٩) بانه اقترح على اسرائيل عدم مقاطعة مناقشة مجلس الامن في ١٢ كانون الثاني بسبب اشتراك م.ت.ف في هذه المناقشة ، واعلن في الوقت ذاته ان حكومته تعارض اي تعديل في القرارين ٢٤٢ و٣٣٨ ، وقال ان حكومته سترفض مناقشة القضية على اساس اي قرار اخر غير هذين القرارين اللذين يعترفان

لاسرائيل بحق البقاء في منطقة الشرق الاوسط .

مؤتمر جنيف :

ابرز التطورات في هذا الصدد كانت المذكرة السوفياتية الى الحكومة الاميركية في ١١/٩ التي دعت الى استئناف هذا المؤتمر في اقرب وقت ممكن باشتراك م.ت.ف فيه على قدم المساواة مع الاطراف المعنية الاخرى . وقد اقترحت الولايات المتحدة ، في مذكرة جوابية (النهار ١٢/٣) مقابل ذلك « مؤتمرا تحضيريا يشترك فيه اولئك الذين اشتركوا حتى الان في المفاوضات من اجل حل ضمن اطار مؤتمر جنيف ، اضافة الى الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . وهذا المؤتمر التحضيري يمكن ان يضم مصر والاردن وسوريا واسرائيل ، ويمكنه ان يعد جدول الاعمال والاجراءات وموضوع المشاركة في مؤتمر كامل من اجل وضع اسس للمفاوضات لايجاد حل شامل » . وعن هذا المؤتمر التحضيري علق اندريه غروميكو ، وزير الخارجية السوفياتي (في مأدبة اقيمت تكريما لوزير الخارجية الكويتي في ١٢/٣) بقوله « اما بصدد اقتراح الاتحاد السوفياتي بعقد مؤتمر جنيف للسلام في الشرق الاوسط ، فهناك من يطرح فكرة ان من المناسب عقد اجتماع ابتدائي ما غير رسمي لبحث القضية. ولا يمكن النظر الى فكرة هذا الاجتماع سوى بكونها محاولة للتهرب من عقد المؤتمر ... ان عقد مؤتمر جنيف مع مشاركة ممثلي م.ت.ف بصفتهم اعضاء كاملي الحقوق هو اكثر السبل ثباتا لبحث قضية الشرق الاوسط » (« السفير» ١٢/٤) وقد اكد الاتحاد السوفياتي موقفه ذلك بمذكرة سلمها السفير السوفياتي في واشنطن الى وزير الخارجية الاميركي (في ١٢/١٩) والتي جاء فيها ان الاتحاد السوفياتي « يؤكد مجددا على ضرورة استئناف اعمال مؤتمر جنيف حول الشرق الاوسط بمشاركة م.ت.ف » . وجاء في المذكرة ايضا « ان جميع الاطراف المعنية مباشرة بما في ذلك ممثلو الشعب العربي الفلسطيني في شخص م.ت.ف التي حصلت على اعتراف واسع على الصعيد الدولي ، كذلك الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة بصفتهما الرئيسين المشاركين ، يجب ان تشترك في مؤتمر جنيف » واضافت « ان الاقتراح الاميركي الذي يدعو الى عقد مؤتمر تحضيري من دون اشتراك ممثلي م.ت.ف لا يمكن ان يفهم سوى كمحاولة لتفادي انعقاد المؤتمر ».

في اليوم نفسه اكد كيسنجر من جديد موقف حكومته من اشتراك م.ت.ف في المؤتمر واعلن للصحافيين ان واشنطن مستعدة لحضور مؤتمر جنيف ولكن ليس وفقا للمذكرة السوفياتية . واكد كيسنجر ان موقف الولايات المتحدة لم يتغير من م.ت.ف وقال « هناك البعض الذي لا يريد ان يأخذ كلمة (لا) كجواب » وتابع « لقد اعلنا تكرارا عن سياستنا بالنسبة لـ م.ت.ف وان تلك السياسة لم تتغير » .

في هذه الاثناء كانت الزيارة التي قام بها وفد من م.ت.ف في رئاسة الاخ ابو عمار الى موسكو تستهدف في جانب منها بحث التطورات المتعلقة بمؤتمر جنيف . وقد نسبت صحيفة « السياسة » الكويتية (« السفير » ١١/٢٠) الى ابو عمار قوله ان المباحثات (في موسكو) ستتركز اساسا على موضوع اشتراك م.ت.ف في مؤتمر جنيف في اطار الجهود الدولية المبذولة لهذا الغرض . وقد وصل الوفد الفلسطيني الى موسكو في ١١/٢٤ وفي اليوم نفسه نقلت وكالة الصحافة الفرنسية عن مراقبين دبلوماسيين في موسكو قولهم ان المحادثات ستتناول خمس قضايا « ١ — الرسالة السوفياتية التي ارسلت يوم ٩ تشرين الثاني الى الولايات المتحدة بشأن استئناف مؤتمر جنيف . ٢ — نتائج رحلة الرئيس انور السادات الى الولايات المتحدة . ٣ — القرارات الاخيرة التي اصدرتها الجمعية العامة للامم المتحدة . ٤ — تطورات الازمة اللبنانية . ٥ — زيارة كورت فالدهايم الى منطقة الشرق الاوسط » .

وفي اثناء المحادثات اعلنت وكالة « تاس » السوفياتية للانباء (١١/٢٦) ان اندريه غروميكو استقبل السيد ياسر عرفات وذكرت ان الجانبين السوفياتي والفلسطيني « علقا في الاجتماع الذي انعقد في جو ودي اهمية خاصة على ابعاد تسوية القضية الفلسطينية . كما درسا النواحي الجديدة في النضال من اجل سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط » . واضافت ان عرفات « قدر تقديرا عاليا المبادرة السوفياتية الداعية الى استئناف مؤتمر جنيف للسلام فورا على ان يشترك فيه منذ البداية وعلى قدم المساواة مع الاطراف الاخرى المعنية مباشرة ، ممثلو م.ت.ف » .

وقد جرى التأكيد على هذه المبادرة في البيان الذي صدر في ختام الزيارة (١١/٢٨) والذي جاء فيه انه « تم ، ابان تبادل وجهات النظر ، الاشارة الى اهمية المبادرة التي قام بها الاتحاد السوفياتي في التاسع من هذا الشهر ، بخصوص عقد مؤتمر جنيف للسلام في الشرق الاوسط » .

عصام سخنيني

(٢) القضية الفلسطينية دولياً

على صعيد التطورات الدولية ، لا شك ان هذا الشهر كان شهر انتصارات القضية الفلسطينية في هيئة الامم المتحدة . وتمثلت هذه الانتصارات في سلسلة من القرارات الهامة الداعمة لقضية الشعب الفلسطيني والتي لم تكن محصورة ، هذه المرة في الجمعية العمومية وحدها بل شملت مجلس الامن أيضا . وسنراجع هنا مسيرة هذه القرارات والظروف التي احاطت باقرارها وتبنيها في المنظمة الدولية .

أول ما يجب الاشارة اليه هو قرار الجمعية العمومية بادانة الحركة الصهيونية وباعتبارها نوعا من انواع العنصرية التي لا تختلف بشيء عن الحركات العنصرية السائدة حاليا في بلدان مثل افريقيا الجنوبية وروديسيا . (راجع العدد السابق من « شؤون فلسطينية ») .

ويستمد هذا القرار اهميته من كونه خطوة متقدمة على طريق تحقيق مساعي منظمة التحرير وعدد من الدول العربية (بدعم من عدد كبير من دول العالم الثالث) لطرد اسرائيل من المنظمة الدولية على غرار ما حدث لجنوب افريقيا بعد ادانة تلك الدولة بالعنصرية . من هنا عنف ردة الفعل الصادرة عن الدول الغربية والمؤيدة لاسرائيل في التنديد بالقرار ومهاجمة المنظمة الدولية ودول العالم الثالث وكتلة الدول الاشتراكية المؤيدة للقرار ، حتى امين عام هيئة الامم فالدهايم ورئيس الجمعية العمومية لهذه الدورة جاستون ثورن لم يتمكنا من ضبط نفسهما ونقا لما تفرضه أصول ممارسة وظيفتهما فعلقا بصورة سلبية على قرار الجمعية العمومية بادانة الصهيونية .

وقد اصدر فالدهايم بلاغا عكس استياءه من النجاح الذي تحقق ، حيث اعتبر القرار « قرارا غير عادي » يعكس الانقسام العميق والمرير بين الدول الاعضاء .

واضاف قائلا بان الامم المتحدة مرت بلحظات حرجة في تاريخها وهي تجتاز وضعا حرجا مرة اخرى . ويشكل هذا التعليق ظاهرة لم يسبق لها مثيل في تاريخ المنظمة الدولية اذ انه لم يحدث ان ادلى امين عام المنظمة بتصريحات مشابهة حول اية عملية تصويت جرت في هيئة الامم . اما جاستون ثورن فقد تخطى الحدود التي يفرضها عليه منصبه كرئيس محايد للجمعية العمومية بدخوله طرفا في الجدل القائم حول عنصرية الصهيونية وذلك باتخاذه موقفا معارضا لرأي اغلبية الدول الاعضاء .

قال ثورن ان قرار الجمعية العمومية امر مؤسف للغاية وسيخلف جراحا عميقة في المنظمة ولا يمكنه ان يوافق على هذه الادانة للصهيونية لانها تشكل خطأ بالغا . وبطبيعة الحال استاءت اغلبية الدول الاعضاء من هذه التصريحات وجرى في اوساطها تفكيرا بتوجيه توبيخ الى رئيس الجمعية العمومية لهذه الدورة . الا ان ثورن طوق هذه المحاولة باصداره بيان اعتذار قال فيه بانه هاجم قرار ادانة الصهيونية بصفته رئيسا لحكومة اللوكسمبورغ ووزيرا لخارجيتها وليس كرئيس للجمعية العمومية . وعبر عن اسفه

« لسوء الفهم والتفسيرات الخاطئة » التي نتجت عن تصريحه . اما على الصعيد الاميركي فلــم تكن ردود الفعل على القرار اقل حدة وعنف ، فقد اذاع الرئيس فورد بيانا قال فيه بانه يندد بقرار الامم المتحدة الذي يعتبر الصهيونية شكلا مــن اشكال العنصرية خاصة وان « تبنيه ينســف المبادىء التي قامت عليها الامم المتحدة » .واضاف فورد ان القرار كان عملا غير مبرر اطلاقا ولكــن نفى ان تكون حكومته عازمة على الانسحاب مــن المنظمة الدولية .

وهاجم كيسنجر بشدة ايضا قرار الجمعيــة العمومية مؤكدا بان الولايات المتحدة « تفكــر باتخاذ اجراءات انتقامية علــى اساس فردي ، ضد الدول التي صوتت الى جانب القرار وليس ضد المنظمة الدولية نفسها » . واضاف كيسنجر ان رد الفعل الاميركي تجاه الامم المتحدة يجــب ان يكون «متوازنا » ويأخذ بعين الاعتبار الفوائد التي تجنيها الولايات المتحدة من المنظمة الدولية. كما اصدرت وزارة الخارجية الاميركية بيانــا قالت فيه ان الحكومة الاميركية قد اتخذت قرارا بعدم الاشتراك باية صورة من الصور في الاجتماع الذي سيعقد في العام المقبل تحت اشراف الامــم المتحدة من اجل مكافحة التمييز العنصــري والعنصرية . ولا بد من الاشارة ايضا الــى ان مجلس الشيوخ الاميركي ادان قرار الجمعيــة العمومية بالاجماع وذلك عبر قرار اصدره بهذا الشأن ودعا فيه لجان الشؤون الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ ان تبدأ على الفور باعادة درس مسألة اشتراك الولايات المتحدة في الجمعيــة العمومية . اما الكونغرس فقد شهد تحركــات تهدف الى الضغط على الامم المتحدة من خــلال التهديد بقطع المساعدات الاميركية عن هيئــة الامم والدول العربية التي تتلقى ـــ او يمكن ان تتلقى في المستقبل ـــ مثل هذه المساعدات اما في اسرائيل فقد ثارت ثائرة المسؤولين بسبب القرار فوصفوه ، كما جاء في بيان حكومي ، بانه « معاد للسامية وموجه ضد الشعب اليهودي بأسره ». واضاف البيان قائلا ان القرار يلحق ضررا بالامم المتحدة التي تواجه خطر التفكك بسببــه وليس باسرائيل . ودعا اسحق رابين الى عقد مؤتمــر لزعماء اليهود في العالم في وقت قريب جدا لمواجهة الهجمات السياسية والديلوماسيــة ضــد الصهيونية . اما بالنسبة للاتحاد السوفياتي فقد اشاد بالقرار معتبرا اياه « ادانة منطقية وعادلــة للعقيدة الصهيونية العسكرية القائمة على نظرية التفوق العنصري والتي تتجسد عمليا في سياسة اسرائيل التوسعية والعدوانية » . وتوسعــت الصحافة السوفياتية في شرح الحيثيات التي تدعم صحة القرار وتصم الصهيونية بوصمة العنصرية، فذكرت على سبيل المثال طرد الشعب الفلسطيني من ارض وطنه والتفرقة العنصرية التي يعانيها العرب المقيمون في اسرائيل ومنع جميع المنظمات السياسية والاجتماعية والثقافية الفلسطينية من النشاط .

اما الانتصار الثاني الذي احرزته القضيــة الفلسطينية في هيئة الامم فيتعلق بالشروط التي اصرت عليها سوريا من اجل التمديد لقــوات الطوارىء في الجولان . في الواقع لم يكن هــذا النصر للقضية الفلسطينية وحدها بل ايضــا للدبلوماسية العربية التي تقودها سوريــا في مجابهة اتفاقية سيناء الساداتية ـــ الاسرائيليــة ونتائجها ، بدأ النشاط الديبلوماسي المكثــف والصريح المتعلق بالتمديد لقوات الطوارىء فــي الجولان بزيارة فالدهايم للعواصم الرئيسية فــي الشرق الاوسط وذلك في الاسبوع الاخير من شهر تشرين الثاني ، وجدير بالذكر ان فالدهايم قابل كيسنجر عشية جولته من اجل التنسيق معــه بالنسبة للعمل الديبلوماسي في المنطقة . وصرح الوزير الاميركي على اثر المقابلة بانه اجــرى محادثات مطولة مع فالدهايم حول الشرق الاوسط وانه يشجع بقوة المهمة التي سيقوم بها الامــين العام في المنطقة .

كما اشار كيسنجر الى انه ابلغ فالدهايم افكارا اميركية حول كيفية تدعيم السلام هناك . وبطبيعة الحال كانت اهم محطة في جولة فالدهايم هــي دمشق حيث اجرى محادثات مطولة مع الرئيس حافظ الاسد ورئيس منظمة التحرير ياسر عرفات كما قام بزيارة القوة الدولية في الجولان . وذكرت مصادر صحفية مطلعة ان مقابلة عرفا تلفالدهايم تناولت الوضع الراهن في المنطقة وامكانات انعقاد مؤتمر جنيف خصوصا بعد الدعوة السوفياتيــة الاخيرة لذلك . كما ذكرت ان عرفات اكد رفــض منظمة التحرير الاشتراك في مؤتمر جنيف في ظــل

قراري مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٣٨ وانه اقترح رفع القضية الفلسطينية الى مجلس الامن على ضوء القرارات الاخيرة التي اقرتها الجمعية العمومية . وبعد وصول فالدهايم الى اسرائيل ذكرت المصادر الصحفية ان آلون اعرب عن خيبة أمل بلاده ، نتيجة اجتماع الامين العام بعرفات معتبرا مثل هذه المقابلة اهانة لاسرائيل وتشجيعا للفدائيين والتطرف ، ومعروف ان محور المباحثات التي اجراها في اسرائيل كانت مسألة الشروط السورية من اجل التمديد لقوات الطوارىء .

وكان هذا واضحا من المؤتمر الصحفي الذي عقده الامين العام حيث اكد : (أ) — ان سوريا تريد ان تكون المشكلة الفلسطينية جزءا من المفاوضات الجارية حول تمديد مدة انتداب قوة الطوارىء في الجولان . (ب) — ان سوريا تريد ربط مدة التمديد بتحقيق تقدم كبير باتجاه حل المشكلات الاساسية في قضية الشرق الاوسط بما في ذلك القضية الفلسطينية . (ج) — ان سوريا تريد اجراء مناقشة عامة في مجلس الامن تتناول ازمة المنطقة وليس مجرد التمديد لقوة الطوارىء وبهدف الوصول الى تعديل القرار رقم ٢٤٢ . (د) — ان سوريا تريد من مجلس الامن فرض تسوية شاملة في المنطقة في حين تعارض اسرائيل هذه المواقف السورية باجمعها . وعلى اثر انتهاء جولته رفع فالدهايم تقريرا الى مجلس الامن ذكر فيه : (أ) — ان سوريا ستوافق على التمديد لقوات الطوارىء في الجولان ستة اشهر اخرى شريطة ان يجتمع مجلس الامن مرة اخرى في كانون الثاني المقبل لاجراء مناقشة لجوهر مشكلة الشرق الاوسط بما فيها المسألة الفلسطينية وبمشاركة منظمة التحرير في المناقشة . (ب) — ان الرئيس الاسد اعرب عن خيبة امله لعدم احراز ا يتقدم في مساعي السلام منذ تشكيل قوات الطوارىء الدولية . (ج) — ان سوريا ترفض الدخول في اية مفاوضات تتناول اجراءات جزئية، ولا يمكن ان تقبل بتمديد فترة انتداب قوات الطوارىء بدون احراز تقدم حقيقي في مساعي السلام . (د) — ان اسرائيل على استعداد للتفاوض في اية لحظة مع سوريا ولكن دون اشتراك منظمة التحرير . (هـ) — ان اسرائيل على استعداد للاشتراك في اجتماع جديد لمؤتمر جنيف، شريطة ان يقتصر على الدول التي اشتركت في الجلسات السابقة .

وبناء على هذا التقرير عقد مجلس الامن اجتماعات عدة شهدت محاولات تمييع الشروط السورية او نسفها ان امكن ، الا ان تشدد سوريا في موقفها ادى في النهاية الى صدور قرار عن المجلس ينسجم مع الشروط السورية . قبل عدة ساعات فقط من انتهاء مدة انتداب قوة الطوارىء وافق مجلس الامن باكثرية ثلاثة عشر صوتا — بمافيها الولايات المتحدة — مقابل لا شيء وامتناع الصين والعراق عن التصويت على التمديد لقوات الطوارىء في الجولان على ان يعود المجلس الى الاجتماع في الثاني عشر من كانون الثاني ١٩٧٦ لاستكمال مناقشاته حول مشكلة الشرق الاوسط .

وصدر ملحق لهذا القرار تلاه رئيس المجلس — ممثل الاتحاد السوفياتي — وقال فيه بان غالبية الاعضاء متفقة على دعوة منظمة التحرير الفلسطينية للاشتراك في المناقشات التي ستبدأ في الثاني عشر من شهر كانون الثاني المقبل . وفيما يلي اهم فقرات هذا القرار الهام الصادر عن مجلس الامن :

(١) — الاجتماع في ١٢ كانون الثاني ١٩٧٦لمواصلة المناقشة حول مشكلة الشرق الاوسط بما فيها المسألة الفلسطينية آخذا بعين الاعتبار جميع قرارات هيئة الامم المتعلقة بالموضوع .

(٢) — تجديد انتداب قوة مراقبي فك الارتباط لفترة ستة اشهر اخرى .

(٣) — الطلب الى الامين العام ابقاء مجلس الامن على اطلاع بما يجد من تطورات .

شنت اسرائيل حملة عنيفة جدا على قرار مجلس الامن بسبب ربطه بين التمديد لقوات الطوارىء واجتماعه في الشهر القادم بحضور منظمة التحرير . وعقدت الحكومة الاسرائيلية اجتماعا طارئا اصدرت على اثره بيانا رفضت فيه قرار مجلس الامن باعتباره يشكل « استسلاما للابتزاز السوري » ويربط بين التجديد لقوات الطوارىء « وعناصر سياسية لا صلة لها بهذا التجديد على الاطلاق »

واضاف البيان بان القرار سيعرقل التقدم نحو التسوية . وينسف الجهود التي تبذل من اجل السلام ، كما هدد بان اسرائيل لن تحضر اي محفل دولي تشترك فيه منظمة التحرير بما في ذلك المناقشة التي قرر مجلس الامن اجراءها في الشهر المقبل .

كما حمل البيان سوريا مسؤولية اي نشاط « ارهابي » ينطلق من اراضيها واعلن بان اسرائيل قررت تنفيذ التوصيات الداعية الى انشاء اربع قرى جديدة في الجولان . وجدير بالذكر ان الرئيس فورد طمأن اسحق رابين الى ان موقف حكومته لم يتغير ازاء منظمة التحرير . واكد فورد بان بلاده سوف تعارض اية محاولة من جانب مجلس الامن لفرض اية تسوية لازمة المنطقة على اسرائيل .

تحقق شرط سوريا باشراك منظمة التحرير في مناقشات مجلس الامن بأسرع مما كان يمكن ان يحلم به اكثر الاشخاص تفاؤلا في هذا الميدان . وهنا يكمن الانتصار الثالث الذي احرزته القضية الفلسطينية في الفترة الاخيرة .

ردت اسرائيل على قرار مجلس الامن بشن غارات في غاية العنف والتدمير على المعسكرات الفلسطينية في لبنان ، مما دعا لبنان وغيره من الدول العربية الى طلب انعقاد مجلس الامن مجددا للبحث في العدوان الاسرائيلي الجديد على لبنان والشعب الفلسطيني . وقد اصرت الدول العربية على ضرورة مشاركة منظمة التحرير في المناقشات في حين عارضت الولايات المتحدة هذه الدعوة معارضة شديدة .

تقدمت بعض الدول الاعضاء في المجلس بمشروع قرار يقضي بدعوة منظمة التحرير الى الاشتراك بشكل كامل في مناقشة الاعتداء الاسرائيلي على لبنان . وبما ان التصويت على هذا القرار لا يخضع للفيتو الاميركي — بسبب كونه قضية اجرائية — فقد حاولت الولايات المتحدة مدعومة من بعض الدول الاوروبية الغربية تمييع المطلب العربي على اساس دعوة ممثل منظمة التحرير الى مجلس الامن للادلاء بوجهة نظره لكن بدون ان يكون له حق حضور المناقشات . وقد فاز مشروع القرار باغلبية ٩ اصوات من اصل ١٥ صوتا في المجلس .

الاصوات المؤيدة : الصين والاتحاد السوفياتي والعراق وروسيا البيضاء وتانزانيا والكاميرون وغيانا وموريتانيا والاسوج في حين امتنعت كل من فرنسا وايطاليا واليابان عن التصويت وعارضت الولايات المتحدة وبريطانيا وكوستاريكا. عندئذ احتل ممثل منظمة التحرير مكانه في مجلس الامن وانسحبت اسرائيل احتجاجا على حضوره ، وهذه هي المرة الاولى التي يرتفع فيها الصوت الفلسطيني الرسمي في اهم جهاز من اجهزة الامم المتحدة ، وللمرة الاولى في تاريخ المجلس يحضر مندوب المنظمة ويغيب المندوب الاسرائيلي احتجاجا . وكان رد الفعل الاسرائيلي عنيفا وصل الى حد التهديد « باجراء مراجعة شاملة لسياسة اسرائيل تجاه الامم المتحدة » لان المنظمة الدولية لم تعد قادرة على القيام بدور ايجابي في النزاع في المنطقة بعد دعوة منظمة التحرير للمشاركة في مناقشات مجلس الامن . وشددت الصحافة الاسرائيلية على ان الفرصة اصبحت سانحة الان للقيام بعمليات استيطان واسعة النطاق في كل الاراضي المحتلة وبعمليات مكثفة « ضد قواعد الفدائيين في لبنان » .

وصرح اسحق رابين بهذا الصدد قائلا بان اسرائيل لن تتفاوض مع منظمة التحرير او اية مجموعة فلسطينية اخرى لان ذلك يعني قبول اسرائيل بقيام دولة فلسطينية بينها وبين الاردن. كما ذكر رابين ان قرارات مجلس الامن المعنية « ستلحق ضررا مباشرا بالمصالح الاميركية في الشرق الاوسط كما سيكون لها تأثيرا سلبيا على الموقف المصري » . وفي مجلس الامن جرى طرح مشروع قرار يدين العدوان الاسرائيلي على لبنان فيما يلي اهم ما جاء فيه :

(١) — اعراب المجلس عن قلقه الخطير من الوضع المتدهور في المنطقة نتيجة انتهاك اسرائيل حرمة سيادة لبنان وحرمة اراضيه وقرارات مجلس الامن .

(٢) — ان المجلس مقتنع بان الغارات الجوية الاسرائيلية كانت مدبرة ومتعمدة .

(٣) — ان المجلس يدين بشدة حكومة اسرائيل بسبب غاراتها الجوية المدبرة على لبنان والتي تشكل انتهاكا لالتزاماتها بموجب ميثاق الامم المتحدة وقرارات مجلس الامن .

(٤) — ان المجلس يدعو اسرائيل للامتناع عن شن اية هجمات عسكرية على لبنان .

(٥) — ان المجلس يحذر اسرائيل تحذيرا جديا جديدا بانه قد يضطر ، في حال تكرار هذه التهجمات ، الى النظر في اتخاذ الخطوات والاجراءات المناسبة لوضع قراراته موضع التنفيذ . وعلى الرغم من ان ١٣ دولة من اصل ١٥ في مجلس الامن صوتت الى جانب مشروع القرار ، الا ان الولايات المتحدة ابطلت مفعوله باستخدامها حق الفيتو . وكانت الدولة المعارضة الاخرى هي كوستاريكا . وابدت اسرائيل ارتياحها للفيتو الاميركي ، كما اعلن مسؤول حكومي اسرائيلي ان حكومة بلاده لن تتفاوض ابدا مع منظمة التحرير حتى لو اعترفت المنظمة بوجود اسرائيل وقبلت قراري مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٣٨.

واضاف المتحدث قائلا بان اسرائيل ستعالج المسألة الفلسطينية بالتفاوض مع الملك حسين كما انه يجب على العرب ان يدركوا بان استمرار التقدم في تحقيق التسوية في المنطقة يتوقف على طرح منظمة التحرير جانبا ودعوة الملك حسين مجددا لتمثيل الفلسطينيين في المفاوضات مع اسرائيل .

في اواخر شهر تشرين الثاني بدأت الجمعية العمومية للامم المتحدة مناقشة مشكلة الشرق الاوسط كبند منفصل عن المناقشة التي اجرتها قبل ذلك حول القضية الفلسطينية . وقد اقرت المنظمة الدولية ولجانها عددا من القرارات ومشاريع القرارات المؤيدكليا للقضية الفلسطينية. وكانت اهم هذه القرارات :

(١) — موافقة اللجنة السياسية التابعة للامم المتحدة على مشروع قرار يحث اسرائيل على السماح للاجئين العرب خلال حرب ١٩٦٧ بالعودة الى ديارهم ويدعوها لانهاء هجماتها على «مخيمات اللاجئين الفلسطينيين » .

كما دعا القرار اسرائيل الى اتخاذ الخطوات الفورية اللازمة لعودة السكان المشردين الى ديارهم والامتناع عن القيام باية اعمال تعرقل عودة النازحين بما فيها الاعمال التي من شأنها تبديل التكوين الطبيعي والسكاني للاراضي المحتلة . كما دعاها لاعادة اللاجئين الذين نقلوا من مخيماتهم في غزة وتوفير مساكن مناسبة لاقامتهم والامتناع عن القيام باية عمليات تهجير اخرى للسكان او تدمير مساكنهم .

(٢) — وافقت اللجنة السياسية كذلك على مشروع قرار يحث اسرائيل على وقف محاولاتها الرامية الى تغيير حقوق العبادة في الحرم الابراهيمي في الضفة الغربية . كما اقرت مشروع قرار اخر يدين انتهاك اسرائيل المستمر لميثاق جنيف وذلك بسبب قيام اسرائيل بضم اجزاء من الاراضي العربية المحتلة واقامة مستوطنات فيها وسلب الممتلكات الثقافية والاثرية .

(٣) — موافقة الجمعية العمومية على قرار جاء فيه : (أ) رفض المنظمة الدولية مبدا الاستيلاء على الاراضي بالقوة وضرورة اعادة جميع الاراضي العربية المحتلة . (ب) — التنديد المستمر بالاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية . (ج) — الاعراب عن اسف المنظمة الدولية لموقف الولايات المتحدة وقيامها بتزويد اسرائيل بالمساعدات الاقتصادية والعسكرية الكبيرة ومطالبة جميع الدول بالتوقف عن امداد اسرائيل بمثل هذه المساعدات ما دامت ترفض تنفيذ قرارات الامم المتحدة . (د) — مطالبة مجلس الامن باتخاذ الاجراءات الضرورية من اجل تطبيق جميعالقرارات التي اتخذتها الجمعية العمومية والمجلس نفسه حول ازمة الشرق الاوسط وضمن حدود فترة زمنية معينة . (هـ) — الدعوة لتحقيق تسوية شاملة تقر سلاما دائما وعادلا في المنطقة بمشاركة كل الاطراف المعنية بما فيها منظمة التحرير والاعتراف الكامل بالحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني . (و) — مطالبة الامين العام بابلاغ كل الاطراف المعنية بما في ذلك الدولتان اللتان ترأسان مؤتمر جنيف للسلام ، بما يستجد على صعيد متابعة تنفيذ القرار الحالي ورفع تقارير بذلك الى مجلس الامن والجمعية العمومية خلال دورتها المقبلة .

اقرت الجمعية العمومية هذا القرار باكثرية ٨٤ صوتا ومعارضة ١٧ دولة وامتناع ٢٧ عن التصويت . وكان بين ابرز الدول المعارضة الولايات المتحدة وبريطانيا وهولنده والمانيا الغربية . وعلى اثر فوز القرار بهذه الاكثرية اعلن المندوب الاسرائيلي بان بلاده لن تلتزم

بالقرار لانه يعرقل عملية التفاوض في الشرق الاوسط ويدعو عمليا الى فرض حل للازمة مما لا يمكن لاسرائيل ان تقبل به على الاطلاق .

على صعيد اخر صدرت وثيقة هامة عن وزارة الخارجية الاميركية — دعيت بوثيقة ساوندرز — تطرقت الى موقف الولايات المتحدة من قضية الشرق الاوسط عموما والشعب الفلسطيني على وجه التخصيص ، وتتألف محتويات هذه الوثيقة من الشهادة التي ادلى بها مساعد وزير الخارجية الاميركي لشؤون الشرق الاوسط — هارولد ساوندرز — امام لجنة العلاقات الدولية التابعة للكونغرس الاميركي . واتسم كلام ساوندرز بشيء من الليونة والمرونة الظاهرتين على اقل تقدير في معالجته لموقف اميركا من الشعب الفلسطيني .

ويلخص اهم ما قاله ساوندرز بالنقاط التالية: (أ) — الاعتراف بانه لا بد من الاخذ بعين الاعتبار المصالح المشروعة للفلسطينيين العرب في اية مفاوضات عربية اسرائيلية لاقرار السلام. (ب) — الاعتراف بان البعد الفلسطيني هو في صميم النزاع العربي الاسرائيلي وبانه لا يمكن ايجاد حل نهائي للمشاكل الناجمة عن تقسيم فلسطين قبل التوصل الى اتفاق « يحدد وضعا عادلا ودائما للمواطنين العرب الذين يعتبرون انفسهم فلسطينيين » (ج) — الاعتراف بان مشكلة الفلسطينيين لا تقتصر على « تلبية حاجاتهم الانسانية » بل تتعدى ذلك الى مصالح من نوع اخر نابعة في « اعتبار الفلسطينيين لانفسهم بصورة متزايدة كأصحاب هوية خاصة وكشعب يرغب في ان يكون له صوتا في تقرير وضعه السياسي » . (د) — التأكيد على انه لا يوجد هناك حتى الان اتفاق حول ما هو المقصود بعبارة حقوق الشعب الفلسطيني مع الاشارة الى وجود تفسيرات عديدة لمعنى هذه العبارة تتراوح بين انشاء الدولة الفلسطينية الديمقراطية العلمانية وقيام الفلسطينيين بالتعبير عن هويتهم السياسية ومطامحهم الوطنية من خلال الاردن مرورا بمطلب اقامة الدولة الفلسطينيةفي الضفة الغربية وغزة. (هـ) — التأكيد على ان اهداف الفلسطينيين غير واضحة حتى الان وهذا ينطبق على منظمة التحرير « لانها غير مستقرة على رأي دقيق ومحدد » . (و) — الاستنتاج بان المطلوب هو ايجاد تعريف معقول لمصالح الفلسطينيين يمكن ان تنطلق منه المفاوضات . « بحيث يتوفر اساس مشترك يستطيع ان يقبله الفلسطينيون والاسرائيليون معا » وبالامكان تحقيق تلك الخطوة بقبول الطرفين لقراري مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٣٨ على الرغم من انهما لا يعالجان الناحية السياسية من المشكلة الفلسطينية . (ز) — ان الولايات المتحدة ما زالت تتمسك بسياسة « الخطوة خطوة » وتعتقد بان هذا الاسلوب في حل المشكلات يمكن ان يتناول مشكلة الفلسطينيين ايضا في المستقبل .

وجدير بالاشارة هنا ان رابين انتقد وثيقة ساوندرز ووصف ما جاء فيها بانه « تضليل وتحريف » في حين اغدقت الصحافة المصرية المديح على الوثيقة معتبرة اياها دليلا على التبدل في موقف الولايات المتحدة من منظمة التحرير . لكن على الرغم من بعض المرونة التي لاحظناها في تعابير ساوندرز عاد الموقف الاميركي المعروف من منظمة التحرير لتأكيد نفسه مجددا . فقد اعلن كيسنجر في مؤتمر صحفي رفض بلاده حضور مؤتمر جنيف وفقا للصيغة التي اقترحها الاتحاد السوفياتي والداعية لاشراك منظمة التحرير كعضو يتمتع بالحقوق والواجبات ذاتها التي تتمتع بها بقية الاطراف .

واكد كيسنجر بعبارات مشددة ان سياسة حكومته تجاه منظمة التحرير لم تتغير . في الواقع اعبر كيسنجر صراحة ان العقدة الاساسية في الاقتراح السوفياتي حول مؤتمر جنيف هي اشتراك منظمة التحرير . لذلك اقترح الوزير الاميركي عقد مؤتمر غير رسمي موازي لمؤتمر جنيف يضم الفرقاء المعنيين في نزاع الشرق الاوسط باستثناء منظمة التحرير .

وقد رفض وزير خارجية الاتحاد السوفياتي هذا الاقتراح الاميركي باعتباره محاولة للتهرب من عقد مؤتمر جنيف .

(٣) المناطق المحتلة

محاولة الاستيطان في سبسطية

جرت في الاول من شهر كانون الاول (ديسمبر) محاولة لاستيطان سبسطية ، قامت بها مجموعات من جوش ايمونيم المرتبطة بحزب المفدال المشارك بالائتلاف الحكومي في اسرائيل . وليست هذه هي المحاولة الاولى التي تقوم بها جوش ايمونيم لاستيطان هذا الموقع القريب من نابلس . فقد جرت عدة محاولات لاقامة مستوطنة في هذا الموقع باسم ايلون موريه خلال عامي ٧٤ ، ١٩٧٥ . غير ان الحكومة الاسرائيلية ولأسباب متعددة كانت تحول في النهاية دون الاقامة الدائمة لمجموعات المستوطنين في هذا المكان بحجة علنية هي : ان هذا الموقع (السامرة) لم يدرج بعد في نطاق خطة الحكومة لاقامة المستوطنات الدائمة .

الا أن محاولة المستوطنين الاخيرة في سبسطية ، يمكن اعتبارها عملية استيطان مختلفة عما سبقها من محاولات جرت في تلك المنطقة . وذلك ليس لانها أكثر تنظيما أو انها حظيت بأكبر تأييد من جانب المعارضة والحزب الديني ، او انها استمرت أياما أطول مما عداها من محاولات ، بل لمسألتين محددتين هما :

أولا : الظروف السياسية التي سبقت ورافقت هذه العملية ، حيث أصدر مجلس الامن الدولي في نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي قرارا بتمديد فترة قوة الطوارىء الدولية في الجولان لمدة ستة أشهر اخرى على أن يعقد المجلس اجتماعا خاصا لمناقشة أزمة الشرق الاوسط في ١٢/١/ ١٩٧٦ بحضور منظمة التحرير الفلسطينية ، الامر الذي أثار حفيظة اسرائيل وجعلها تقرر الرد على قرار مجلس الامن بتعزيز الاستيطان في المناطق المحتلة على أن تبدأ ذلك فورا باقامة أربعة مستوطنات في الجولان .

ثانيا : الطريقة التي عالجت بها الحكومة الاسرائيلية مسألة الاستيطان هذه ، والتي اتسمت بالحيرة والتردد والمواقف المبيتة من قبل رئيس الحكومة الاسرائيلية نفسه . فقد استمرت المحاولة مدة عشرة أيام أقيمت خلالها المباني وشقت الطرقات دون أن تحرك الحكومة ساكنا بالرغم من الصفة التي تطلقها الحكومة الاسرائيلية على مثل هذه المحاولات تحت اسم : « عمليات الاستيطان غير الرسمي » . وفي تلك الاثناء حدث نقاش داخل الحكومة الاسرائيلية امتد الى المؤسسات الحزبية والشارع ، دار فيه تساؤل حول موقف رئيس الحكومة الاسرائيلية من عملية الاستيطان من قبل صحف ونواب في الكنيست بعضهم ينتمي الى حزب رئيس الحكومة وبعضهم ينتمي الى حزب مابام المشارك في الائتلاف الحكومي .

غير ان كل ذلك — على أهميته — يبدو قليل الاهمية بالمقارنة مع الطريقة التي « انهت » بها الحكومة الاسرائيلية عملية الاستيطان هذه . اذ ان الحكومة بدل أن تقوم كعادتها في المرات السابقة بترحيل المستوطنين عن طريق الجيش وبآلياته الخاصة ، عمدت هذه المرة وفي ظل الظروف التي سبق الاشارة اليها ، الى اجراء « مفاوضات » مع المستوطنين انتهت الى « حل وسط » كما تدعي السلطات الاسرائيلية ، وذلك بنقل المستوطنين وعائلاتهم الى معسكر تابع لجيش الاحتلال الاسرائيلي قريب من المنطقة .

واذا كانت هذه التسوية قد جاءت منسجمة مع النوايا المبيتة لرئيس الحكومة الاسرائيلية بشكل خاص وغالبية وزرائه ، فانها لم تكن مفاجئة لمتتبعي السياسة الاسرائيلية في المناطق المحتلة ، تلك السياسة التي اتسمت ، في ظل الانتصارات السياسية المتوالية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، بعدم التوازن من جهة والاستجابة الكلية لغلاة المتطرفين الصهاينة من جهة أخرى . فلقد فهم سلفا ، ان اقامة المستوطنين في معسكر لجيش الاحتلال قريب من سبسطية ، هي مقدمة لاقامة مستوطنة دائمة في هذه المنطقة ، وان ما جرى في كريات اربع قرب الخليل قبل سنوات قليلة ، يجري الآن بحذافيره تقريبا قرب مدينة نابلس .

من ناحيتها ادركت جماهير الشعب الفلسطيني خطورة التسوية التي انتهت اليها مفاوضات الحكومة الاسرائيلية مع مستوطني سبسطية ، وتنبهت مبكرا لمخاطر النتائج التسي ستسفر عنها اقسامة هؤلاء المستوطنين في معسكر تابع للجيش الاسرائيلي في تلك المنطقة . فقد قامت جماهير نابلس ورام‌الله على وجسه الخصوص بتسيير مظاهرات صاخبسة للاحتجاج على التواطؤ بين الحكومسة الاسرائيلية والمستوطنين والسماح لهم بالاقامة في معسكر للجيش بالمنطقة . كما عقسدت اجتماعات ضمست بعض أصحاب الفاعليسات الاقتصادية وأعضساء المجلس البلدي في نابلس للتباحث في هذه المسألة ، صرح على اثرها الحاج معزوز المصري رئيس بلدية نابلس بأن سكان نابلس واللواء على استعداد لاقتحسام معسكر الجيش الذي يقيم فيه المستوطنون بالقوة اذا لم تطرد السلطات الاسرائيلية هؤلاء المستوطنين.

وبالرغم من محساولات التعتيم الاعلاميسة على المظاهرات الشعبية الواسعة في الضفة الغربية ، فان ما أوردته الانباء الاولى التي أذاعتها وسائل الاعلام الاسرائيلية ذاتها تعطي صورة واضحة عن حجم وعنف هذه المظاهرات . فقد قالت الاذاعة العبرية يوم ٧٥/١٢/١٨ انه في نابلس وخاصة في منطقة القصبة وبرج الساعة في وسط المدينسة لا يزال الطلبة يتجمعون حتى هذه الساعة ويرجمون قوات الامن بالحجسارة ويحرقون دواليب المطساط ويحملسون يافطسات ضد الاستيطان في الضفسة الغربية ، « وقد هرعت قوات الامن الى نابلس للحفاظ على النظام » . وأصيب مراسل وكسالة س.بي.اس الذي حاول تصوير التظاهرة كما أصيب عدد من السيارات . وكذلك في رام‌الله أوقف طلبة كليسة بيرزيت دراستهسم وخرجوا للتظساهر ضد الاستيطان . وقالت الاذاعة ان « قوات الامن أطلقت بعض الطلقات النارية في الهواء لتفريق المتظاهرين كما رشت المتظاهرين بالمياه المضغوطة » .

وعقب هذه التظاهرات وجه الحاكم العسكسري لمدينسة نابلس تحسذيرا لمجلس البلدية والغرفسة التجارية بالمدينة ، بأنه قد يغلق جسور نهر الاردن في وجه الحركة التجارية للمدينة اذا ما استمرت التظاهرات . الا أن هذا التهديد لم يحسل دون استمرار مظاهرات الاحتجاج الصاخبة . وقد زارت دار البلدية يوم ١٩٧٥/١٢/١٧ وبعد عشرة أيسام على انطلاق المظاهرات ، وفود من القرى المجاورة للتعبير عن تضامن أبناء هذه القرى مع أبناء نابلس ولتأكيد معارضتها لاستمرار بقاء المستوطنين حيث هم في المعسكر (ر.١٠٠١ ١٩٧٥/١٢/١٨) .وقالت الاذاعة ان رئيس بلدية غزه الحاج رشاد الشوا بعث أيضا ببرقية الى رئيس بلدية نابلس باسسم مجلس بلدية غزه لتأييد نابلس في وقفتهسا ضد الاستيطان . واعتبسر الشوا في برقية عمليسة الاستيطان بأنها ماسة بالحقوق الشرعية للشعسب الفلسطيني التي اعترفت بها الامم المتحدة (المصدر نفسه) .

وكانست السلطات الاسرائيليسة عقب انفجسار المظاهرات قد أمرت باغلاق المدارس قبل العطلة المقررة لها في عيد الاضحى ، كما انهسا منعت الاتصال بين هذه المدينة وسائر المناطق الاخرى في الضفة الغربية .

ووصفت صحيفسة الاتحاد التي تصدر باللغسة العربية في حيفا مظاهرات الضفة الغربية هذه بأنها « عاصفة لم يسبق لها مثيل وخصوصا في مدينة نابلس والمدن الكبرى الاخرى . فخلال الايام الاخيرة تحولت مدينة نسابلس الى مسرح لمختلف اشكال الاحتجاج الشعبي على بقاء المستوطنين الاسرائيليين في سبسطية » . ونقلت عن الحاج معزوز المصري قوله : « ان المدينة هي أشبه بساحة قتال » وانه لم يشاهد مثل ذلك « لا أيام الانجليز ولا أيسام الاردن » . وأضسافت « الاتحاد » في وصفهسا للتظاهرات بأنها كانت عنيفة وانه تخللها اشتباكات بين المتظاهرين من جهة ورجال البسوليس وحرس الحدود من جهة اخرى أسفرت عن وقوع عدد من الجرحى . وقالت ان سلطات الحكم العسكسري استخدمت المجنسزرات في محاولة منها لتفسريق المسيرات الشعبية ومحاصرتها .

ونقلت « الاتحاد » عن صحيفة الفجر التي تصدر في القدس قولها ان طلاب جامعة بيرزيت قاموا هم أيضا بالاضراب وخرجوا في مسيرة الى دار البلدية حيث اجتمعوا برئيس البلدية ونقلوا اليه احتجاجهم على الاستيطان الكولونيالي . فتدخلت قوات الاحتلال واقتحمت حرم الجامعة .

وفي سبسطية نفسها قامت مظساهرة جماهيرية احتجاجا على الغزو الاستيطاني الذي تعرضت له

بلدتهم . وفي البيرة اعتصم طلاب المدرسة الهاشمية في ساحة المدرسة احتجاجا على الغزو الاستيطاني وقابلوا رئيسي بلديتي رام‌الله والبيرة وسلموهما مذكرة احتجاج على الاستيطان الاسرائيلي في سبسطية . وقالت صحيفة الاتحاد التي أوردت هذه التفاصيل ان نقل المستوطنين من سبسطية الى معسكر قريب كان تابعا للجيش الاردني في المنطقة ، يعيد الى الاذهان ما حدث في « كريات اربع » قرب الخليل حيث اقام المستوطنون في البداية في مركز البوليس فيها (الاتحاد ١٢/١١/ ١٩٧٥) .

تعيينات في الادارة المدنية

ذكرت صحيفة الشعب انه تم تعيين عددا من الاشخاص في عدة وظائف هامة في الضفة الغربية . وقالت « الشعب » ان هؤلاء الاشخاص هم الدفعة الاولى في سلسلة التعيينات التي ستتم لاحقا ، ضمن مشروع الادارة المدنية التي تخطط له سلطات الحكم العسكري في المناطق المحتلة . وهؤلاء هم : ١ — الدكتور عصام كمال مديرا عاما لدوائر الصحة في الضفة الغربية . ٢ — كمال ياسين مدير دائرة الزراعة في نابلس ، وقد عين مديرا عاما لدائرة الزراعة في الضفة الغربية واعطي صلاحيات واسعة . ٣ — ابراهيم الغني مديرا عاما لدائرة الآثار في الضفة الغربية . ٤ — نزار البسطامي مديرا عاما لادارة المستشفيات في الضفة الغربية . ٥ — سليم الناشف مدير مدرسة خضوري الزراعية ، وقد عين مديرا عاما لدوائر التربية والتعليم في الضفة الغربية .

وقالت « الشعب » ان أحد رؤساء البلديات ايضا سيشغل منصبا هاما في اطار هذه التعيينات ، الا أنها لم تذكر اسمه .

ومن الجدير بالذكر ان اغلب اصحاب هذه التعيينات هم من الاشخاص الذين شغلوا هذه الدوائر منذ عام ١٩٦٧ . (الشعب ٢٨/١٠/ ١٩٧٥) .

الا أن الدكتور عصام كمال نشر اعلانا في الصحف المحلية في الضفة الغربية نفى فيه النبأ وأعلن انه متوقف عن العمل في ادارة الصحة العامة ، ومقرها في رام‌الله ، منذ آذار (مارس) ١٩٧٥ .

كما وجه عدد من الاشخاص الذين وردت اسماؤهم في الخبر الذي نشرته « الشعب » كتابا مفتوحا جاء فيه : « اننا ننفي نفيا قاطعا ما جاء في هذا الخبر جملة وتفصيلا فيما يتعلق بنا ، وليس لدينا أي علم بما جاء فيه ، وانه لم يتم تعييننا في المناصب المذكورة او خلافها في الادارة المدنية بتاتا ، ولا يزال كل منا في مركزه الذي كان يشغله قبل حزيران عام ١٩٦٧ » . ووقع الكتاب كل من : نزار البسطامي وكيل ادارة المستشفى الحكومي في طولكرم . كمال ياسين مدير زراعة نابلس ، والدكتور سليم الناشف عميد المعهد الزراعي في طولكرم (الشعب ٢/١١/١٩٧٥) .

« لبننة » الضفة الغربية .. محاولة فاشلة

في محاولة منها لاستغلال الاحداث التي تجري في لبنان منذ أشهر ، وبردي طابعا طائفيا ، حاولت اسرائيل نقل التجربة اللبنانية الى الضفة الغربية ، بترويجها لانباء مفادها ان المسيحيين العرب في الضفة المحتلة ، وخاصة في منطقة بيت لحم ، يرغبون في اقامة وضع خاص لهم . الا ان هذه المحاوله الخبيثة سرعان ما ووجهت برفض قاطع من قبل الجماهير الفلسطينية في الضفة الغربية ، وخاصة في منطقة بيت لحم . فقد نشرت صحيفة الشعب بيانا صادرا عن مجالس بلديات بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور ، استنكرت فيه ما روجت له وسائل الاعلام الاسرائيلية وغيرها . وكانت وكالة الصحافة الفرنسية قد نسبت الى بعض الاعيان المسيحيين في منطقة بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور ، انهم يهدفون الى انشاء منطقة مسيحية في الضفة الغربية . وجاء نص البيان الذي كذبت فيه المجالس البلدية المعنية تلك الانباء كما يلي :

« لقد أذهل مجالس بلديات بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور الخبر المنسوب اليها الذي نشر في الخارج والمنسوب لمراسل وكالة الانباء الفرنسية في القدس . والذي تلقفته بيشر لئيم جميع الجهات المعادية لوحدة الامة العربية بصورة عامة والشعب الفلسطيني بمسيحييه ومسلميه بصورة خاصة ، عن محاولة مزعومة لنفر ممن دعاهم ملفق الخبر بالاعيان المسيحيين في هذه البلاد لانشاء منطقة مسيحية ، واحتمال عرض مشروع مزعوم كهذا

على السلطات الاسرائيلية ، وعن خشية مزعومة من المسيحيين على مستقبلهم كذا الى آخر ما ورد في النبأ اياه .

« ان المجالس البلدية في مدن بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور ، التي هالها تلفيق وتزوير هذا الخبر في هذا الظرف بالذات وفي حمى النشاط الاستعماري المعادي للأمة العربية والرامي الى فرض مذبحة طائفية على شعبنا العربي في لبنان الشقيق لتستنكر هذا النبأ العاري عن الصحة وتعلن ان عربيا مسيحيا واحدا في هذه المنطقة او في غيرها من الوطن الفلسطيني لم يقم ولن يقوم بأية محاولة من هذا النوع وان نشر هذا النبأ بالذات في هذه الظروف بالذات لم يقصد منه سوى شق الصف المتلاحم لشعبنا بمسيحييه ومسلميه وتحويل قضيتنا عن مسيرتها الطبيعية باعتبارها قضية شعب يطالب بممارسة حقه المشروع في تقرير مصيره الى قضية طائفية بل الى قضية شعبين وطائفتين متحاربتين تبريرا لتدخل خارجي او لفرض مشاريع استعمارية قديمة ــ حديثة اصبحت مفضوحة للقاصي والداني .

« اننا نحذر ابناء شعبنا الفلسطيني بصورة عامة وابناء هذه المنطقة بصورة خاصة من خطورة الانخداع بتلك الاساليب الدنيئة التي يلجأ اليها اعداء شعبنا في محاولة فاشلة لتحطيم وحدته الوطنية التي هي سلاحه الاساسي في نضاله المشروع ، نعلن للملأ بكل صراحة ان شعبنا كان ولا يزال وحدة متماسكة متراصة لا مكان فيها مطلقا لأي خلاف أو نزاع طائفي بغيض . كما نعلن ان النبأ المستنكر الذي أشرنا اليه وأمثاله لن يزيدنا الا ايمانا بقضيتنا ووحدتنا الوطنية المقدسة » (الشعب ١٩٧٥/١٠/٢٦) .

من ناحية اخرى ، بثت الاذاعة الاسرائيلية في برنامجها باللغة العبرية يوم ١٩٧٥/١١/٨ ما يمكن اعتباره استفتاء مخيب لآمال الاسرائيليين حول حقيقة مشاعر عرب الارض المحتلة المسيحيين تجاه ما يجري في لبنان . فقد اجرت الاذاعة مقابلات مع عدد من الاشخاص سائلة اياهم : هل هم مسيحيون أم عرب ؟!! . فكانت الاجابات بأنهم عرب أولا وقبل كل شيء وبعد ذلك مسيحيون . فقالت فتاة من قرية معليا اسمها جانيت متى : « ... لا أشعر بمسيحيتي على الرغم من أن جميع أبناء القرية مسيحيون . فأنا مسيحية ولكني قبل كل شيء عربية . ولهذا السبب ان ما يؤلمني في احداث لبنان هو ان الحرب هناك طائفية بين العرب » . وكانت اجابة مسعد عبد المدرس في قرية معليا وزميل جانيت ، مطابقة لاجابة زميلته .

وقال جميل شلهوب عضو مجلس بلدية حيفا عن المعراخ وهو مسيحي كاثوليكي ، بأن اي موقف طائفي لعرب الارض المحتلة يدعم الرأي السائد في أوساط اسرائيلية متعددة بوجوب تقديم اسرائيل الدعم لاستمرار الازمة اللبنانية . اما الدكتور بطرس أبو منه محاضر بمادة تاريخ الشرق الاوسط في جامعة حيفا فقال : ان الامر يؤلمني كعربي ... ولكني أنظر الى القضية من نقطة أخرى ، فينبغي اعتبار الامر بمثابة صراع سياسي طبقي . ويحتمل ان الامر ينطوي على التقسيم الطائفي ، ويحتمل ان الصراع هو بين أولئك الذين لديهم أموال وبين أولئك الفقراء . أما المحامي علي رافع فقال ان احداث لبنان ليست حربا طائفية بل طبقية وان هناك مسيحيون ومسلمون فقراء يكافحون معا . وقال رافع ان اسرائيل تساعد أحد أطراف النزاع في لبنان .

عيسى الشعيبي

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٧٥/١٢/١ — ١٩٧٦/١/١٥

الرقم	تاريخ العملية: اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	جريح	مفقود	المصدر: البلاغ العسكري	تاريخه
١ —	١١/٣٠	١٥,٠٠	موديعيم/شرق رام‌الله	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		—	—	—	—	٧٥/٣٤٠	١٢/١
٢ —	١٢/٢	١٧,٣٠	كريات شمونة	قصف	صواريخ ثقيلة	١ وعدد آخر		تدمير برج الضغط العالي للكهرباء وعدد من المنازل والسيارات	—	—	—	٧٥/٣٤١	١٢/٢
٣ —	١٢/٢	٢٠,٠٠	صفد ونهاريا ومسكاف عام	قصف	صواريخ ثقيلة	غير محدد		اصابة منشآت	—	—	—	٧٥/٣٤٢	١٢/٢
٤ —	١٢/٣	٦,٠٠	منطقة البيارات/شمال غزة	كمين	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غير محدد		تدمير آلية نصف مجنزرة وسيارة جيب واعطاب آلية وسيارة	١	—	—	٧٥/٣٤٣	١٢/٤
٥ —	١٢/٣	٧,٠٠	رفح	القاء قنابل	قنبلتان يدويتان	غير محدد		اعطاب سيارتين عسكريتين	—	—	—	٧٥/٣٤٤	١٢/٤
٦ —	١٢/٤	١٥,٠٠	عين كارم	كمين	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غير محدد		اعطاب باص يقل جنودا للعدو	—	—	—	٧٥/٣٤٥	١٢/٤
٧ —	١٢/٨	٢,٠٠	مجدال هعميق/غرب‌الناصرة	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير عدد من السيارات واصابة المبنى بأضرار	—	—	—	٧٥/٣٤٦	١٢/٨
٨ —	١٢/٨	١,٠٠	رفح	هجوم	قنابل يدوية	غير محدد		—	١	—	—	٧٥/٣٤٧	١٢/٩
٩ —	١٢/١٠	٦,٠٠	الرامة/بين عكا وصفد	كمين	أسلحة رشاشة	١	٢	اعطاب سيارة عسكرية	—	—	—	٧٥/٣٤٨	١٢/١٦
١٠ —	١٢/١١	١,٠٠	بئر السبع	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تصدع مبنى من طابقين واصابة المباني المجاورة بأضرار	—	—	—	٧٥/٣٤٩	١٢/١٦
١١ —	١٢/١٢	—	المجدل	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير واحراق مكتب ضابط المدينة في شارع هنتسيون	—	—	—	٧٥/٣٥٠	١٢/١٦
١٢ —	١٢/١٥	١٢,٣٠	بين بارعام وسعسع قرب قسوطة	كمين	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	٥	—	—	—	—	—	٧٥/٣٥١	١٢/١٦
١٣ —	١٢/١٩	١١,٣٠	بارعام/الجليل الاعلى	هجوم	قذائف صاروخية وأسلحة رشاشة	غير محدد		اعطاب آلية نصف مجنزرة	—	—	—	٧٥/٣٥٢	١٢/٢٠
١٤ —	١٢/١٩	٢٢,٠٠	حيفا	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	—	٢	اصابة بعض المحلات في سوق الخضار بأضرار	—	—	—	٧٥/٣٥٣	١٢/٢٠
١٥ —	١٢/٢٠	١,٠٠	بين الخضيرة والعفولة	كمين	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غير محدد		تدمير سيارة عسكرية	—	—	—	٧٥/٣٥٤	١٢/٢٠
١٦ —	١٢/٢٢	١٨,٠٠	تل أبيب	اطلاق نار	مسدس	١	—	اغتيال أحد ضباط المخابرات داخل محل تجاري في شارع في ريشون — ليتسيون	—	—	—	٧٥/٣٥٥	١٢/٢٣
١٧ —	١٢/٢٣	—	ايلات	هجوم	أسلحة رشاشة	غير محدد		هجوم على ناد يرتاده ضباط جيش العدو	—	—	—	٧٥/٣٥٦	١٢/٢٣
١٨ —	١٢/٢٣	١٦,٣٠	يفتاح/الجليل الاعلى	هجوم	قذائف صاروخية وأسلحة رشاشة	غير محدد		اعطاب سيارة عسكرية	—	—	—	٧٥/٣٥٧	١٢/٢٣
١٩ —	١٢/٢٥	١٣,٠٠	تل أبيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير أجزاء كبيرة من ابنية المعرض المركزي للملبوسات في ساحة ديزنكوف	—	—	—	٧٥/٣٥٨	١٢/٢٥
٢٠ —	١٢/٢٥	٢٠,٠٠	ايلات	تفجير	عبوات ناسفة	—		اندلاع النيران داخل مخازن الاخشاب وأحد مخازن الادوات الكهربائية والاقمشة	—	—	—	٧٥/٣٥٩	١٢/٢٦

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
٢١	١٢/٢٨	٢٢,٠٠	يفتاح/الجليل الاعلى	كمين	اسلحة رشاشة وقذائف صاروخية	غير محدد		تدمير سيارة دورية عسكرية	—	—	—	٧٥/٣٦٠	١٢/٢٩
٢٢	١٢/٢٩	٤,٠٠	تل أبيب	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غير محدد		تدمير أجزاء كبيرة من مصنع للاثاث واشعال النيران فيه	—	—	—	٧٥/٣٦١	١٢/٢٩
٢٣	١٢/٢٩	—	المنارة	اشتباك	اسلحة رشاشة ومضادة للآليات	غير محدد		تدمير احدى سيارات العدو	—	—	—	٧٥/٣٦٢	١٢/٢٩
٢٤	١٢/٢٩	٢٠,٣٠	تل أبيب	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	اشعال النيران في بنك العمال الصهيوني في شارع اللنبي واتلاف واحراق معظم محتوياته	—	—	—	٧٥/٣٦٣	١٢/٢٩
٢٥	١٢/٢٩	٢١,٠٠	تل أبيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير معظم المكاتب الحكومية في مبنى بشارع دوريانوف واشعال النيران فيها	—	—	—	٧٥/٣٦٣	١٢/٢٩
٢٦	١٢/٢٩	٢٣,٠٠	تل أبيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تصدع مبنى يقع فيه أحد مكاتب مخابرات العدو	—	—	—	٧٥/٣٦٣	١٢/٢٩
٢٧	١٢/٢٩	٢٣,٠٠	مرجليوت/الجليل الاعلى	هجوم	قذائف صاروخية واسلحة رشاشة	غير محدد		تدمير آلية نصف مجنزرة	—	—	—	٧٥/٣٦٤	١٢/٣٠
٢٨	١٢/٢٩	٢٣,٠٠	مرجليوت	قصف	اسلحة ثقيلة	غير محدد		اصابة بعض المنشآت الحيوية في المستوطنة	—	—	—	٧٥/٣٦٤	١٢/٣٠
٢٩	١٢/٢٩	٢٣,١٥	زرعيت	هجوم	قذائف صاروخية واسلحة رشاشة	غير محدد		تدمير أجزاء كبيرة من مركز شرطة العدو	—	—	—	٧٥/٣٦٤	١٢/٣٠
٣٠	١٢/٣١	٠٠,١٥	تل أبيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير معظم آلات مصنع الاثاث (فيرد رقم ١٥٦) واشعال النيران فيه	—	—	—	٧٥/٣٦٥	١٢/٣١
٣١	١٢/٣١	١٠,٠٠	رعنانا/شمال شرق ناتانيا	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير جزء كبير من مقهى يرتاده ضباط وعملاء العدو واتلاف محتوياته	—	—	—	٧٥/٣٦٦	١٢/٣١
٣٢	١/١	١٤,٠٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير عدد من السيارات في أحد كراجات العدو العسكرية بمنطقة كريات يوفيل	—	—	—	٧٦/١	٧٦/١/١
٣٣	١/١	١١,٣٠	العريش	تفجير	لغم أرضي مسيطر عليه فنيا	غير محدد		تدمير سيارة عسكرية	—	—	—	٧٦/٢	١/١
٣٤	١/١	٢٠,٤٥	نهاريا	قصف	صواريخ ثقيلة	غير محدد		اصابة عدد من المنشآت الحيوية داخل المدينة	—	—	—	٧٦/٣	١/٢
٣٥	١/٢	٥,٠٠	تل أبيب	هجوم	أسلحة رشاشة	غير محدد		اصابة نادي الشرطة في المنطقة الشمالية من المدينة بأضرار	—	—	—	٧٦/٤	١/٢
٣٦	١/٢	١٢,١٥	تل أبيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		اشعال النيران في اكبر مستودعات الورق وفي صالة عرض للأثاث ونسف أحد المتاجر واعطاب معظم الالات فيه وتدمير مستودع للاغذية وذلك في شارع شوكيد في منطقة كريات هملاخا	—	—	—	٧٦/٥	١/٢

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
٣٧	١/٤	٢,١٥	تل أبيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير واشعال النيران في منجرة واحد مخازن الاثاث وتصدع مبنى مصنع المواد الكيماوية وذلك في شارع بسن بشتي في المنطقة الجنوبية	—	—	—	٧٦/٦	١/٥
٣٨	١/٣	—	مين الفشخة/البحر الميت	—	—	٢	—	تم تصفية اثنين من افراد مخابرات العدو والحصول على وثائق منهما	—	—	—	٧٦/٧	١/٥
٣٩	١/٦	—	بات يام/جنوب تل أبيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير أجزاء من كاراج شامبيون لصيانة السيارات واحراق عدد من السيارات	—	—	—	٧٦/٨	١/٦
٤٠	١/٦	٢٢,٠٠	تل أبيب	تفجير	عبوات حارقة	—	—	اشعال النيران في مصنع للورق في منطقة كفار شاليم	—	—	—	٧٦/٩	١/٧
٤١	١/٧	٠٠,١٥	تل أبيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		اشعال النيران في مقهى بشارع اتل في حي هتكفا	—	—	—	٧٦/٦	١/٧
٤٢	١/٩	١١,١٥	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		اصابة مبنى في رمات اشكول بأضرار جسيمة	—	—	—	٧٦/١٠	١/٩
٤٣	١/١١	١٣,٠٠	المجدل	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غير محدد		اصابة النادي الليلي (اكسودوس) بأضرار	—	—	—	٧٦/١١	١/١٢
٤٤	١/١٢	٢١,٠٠	صفد	قصف	صواريخ ثقيلة	غير محدد		اصابة منشآت عسكرية وتدمير شبكة الكهرباء وشبكة الاتصالات الهاتفية	—	—	—	٧٦/١٢	١/١٣

ملاحظة : تصدر البلاغات العسكرية من الاعلام العسكري في القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية .

العمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية خلال عام ١٩٧٥*

أ ــ مجمل العمليات للشهر	عدد العمليات
كانون الثاني	٤٠
شباط	٤٢
آذار	٣٣
نيسان	٣٦
أيار	٥١
حزيران	٣٣
تموز	٣٤
آب	٣٧
أيلول	٢٤
تشرين الاول	٢٦
تشرين الثاني	٣٠
كانون الاول	٢١
المجموع العام	**٤٠٧**

ب ــ التوزيع الجغرافي للعمليات	عدد العمليات
١ ــ الارض المحتلة قبل ٦٧	
تل أبيب وضواحيها	٧٠
حيفا	٨
نتانيا	٥
الخضيرة	٥
يافا	٣
أسدود	٥
عكا	٣
عسقلان	١
بيت ليد	١
المجدل	٢
بيسان	٢
الرملة	٢
العفولة	٢
اللد	٤
المجموع	**١١٣**

	عدد العمليات
٢ ــ شمال فلسطين (الجليل ، الجولان وجبل الشيخ)	
نهاريا	١٤
الجليل	٣٨
صفد	١٣
الجولان وجبل الشيخ	١٤
طبريا	٩
المجموع	**٨٨**
٣ ــ فلسطين الوسطى (الضفة الغربية)	
القدس وضواحيها	٨٥
نابلس	١٨
الخليل	١٩
جنين	٦
طولكرم	٢
بيت لحم	٥
رام‌الله	١٤
أريحا	٣
المجموع	**١٥٢**
٤ ــ جنوب فلسطين وقطاع غزة	
غزة	٢١
بئر السبع والنقب	١٦
وادي عربة	٨
ايلات	٨
سيناء	١
المجموع	**٥٤**

* نشر هذا الجدول في مجلة فلسطين المحتلة التي يصدرها مكتب الارض المحتلة في العدد ٣٩ بتاريخ ١٩٧٥/١٢/٢٩ .

غازي خورشيد

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor*, Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon and Syria L L 50, other Arab countries L L 60 or equivalent, Africa and Europe L L 80, elsewhere L L 100; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٣ ١/٢ ل.ل. في لبنان
٤ ل.س. في سوريا
٤٥٠ فلساً في الكويت والعراق
٤ ١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية

شؤون فلسطينية

٥٥

آذار (مارس) ١٩٧٦



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٥٥ — اذار (مارس) ١٩٧٦

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

مدير التوزيع : غازي خورشيد .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٣½ ل.ل. في لبنان ، ٤ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٤½ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

المحتويات

شؤون فلسطينية

مع انخفاض حدة الازمة اللبنانية ، ودخول الصراع السياسي فيه مرحلة الهدوء النسبي ، تعود شؤون فلسطينية الى الصدور المنتظم مع مطلع كل شهر ، فماذا حملت الينا شهور الازمة الصاخبة ، التي كادت تكمل دورة السنة ؟

لقد اجتازت المقاومة الفلسطينية للمرة الثانية في تاريخها ، الامتحان العسكري لاثبات الوجود على الارض العربية . وها ان انقشاع العاصفة قد كشف عن ان عود المقاومة في امتحان ١٩٧٥ كان اشد صلابة منه في امتحان ١٩٧٠ ، وان حكمة التجارب السياسية التي اختزنتها قيادة المقاومة اكثر نضجا .

ومع ذلك فمن المؤلم حقا ، ان نرى المقاومة نفسها وهي تدخل ادق المراحل الانتقالية في تاريخ القضية ، وهي مرحلة اعادة ترتيب الاوضاع الجغرافيـــة والسياسية في اعقاب حرب اكتوبر ، وهي مضطرة في الوقت نفسه ، وبعد مرور عقد كامل على ولادتها ، الى خوض معارك عسكرية لاثبات الوجود ، معارك طالما تجنبتها ، وطالما حاولت الاستغناء عن دخولهـــا ، حتى وهي تتلقى اشد الضغوط التي تدفعهـــا في طريقها .

كذلك فانه من المؤلم ان يحاول البعض فتح ملف الصراع السياسي على احقية المنظمة في تمثيل الشعب العربي الفلسطيني ، وهو الملف الذي كان مؤتمر الرباط قد اغلقه نهائيا ، معلنا التكريس العربي لنضال منظمة التحرير .

ولم يكن من باب الصدفة ان يكون الوجه الاخر لمعركة اثبات الوجود الفلسطيني المناضل على ارض لبنان ، معركة يخوضها لبنان مع نفسه لانتزاع لبنان الجديد من براثن رواسب الطائفية والانعزالية والتخلف . ذلك ان وجهي المعركة يعبران عن

جوهر الصراع المفروض على كل العرب بقصد ايقاعهم رهائن المحبسين : محبس التجزئة ، ومحبس التخلف ، وما البشاعات التي قفزت الى السطح طوال ايام وشهور الازمة اللبنانية سوى تعبير عن رواسب التجزئة والتخلف .

كذلك لم يكن صدفة ان يكون الوجه الاخر للانجاز الذي حققته المقاومة الفلسطينية ، بالخروج قوية متماسكة من الازمة ، تثبيت وحدة التراب اللبناني ، عن طريق سقوط كل مشاريع التقسيم ، ووقوف لبنان امام عتبة تطوير نظامه ومؤسساته .

طبعا كان من الافضل للبنان وللمقاومة الفلسطينية تحقيق هذه الانجازات وتثبيت هذه الحقائق السياسية عن غير طريق هذا السيل العارم من التضحيات الجسيمة ، ولكن التاريخ لا يمنح الامم صكوك التقدم ، قبل ان يقبض الثمن .

على كل حال ، فان المرحلة الحساسة التي سيدخلها الصراع العربي ــ الاسرائيلي كما يشير كثير من التحركات والدلائل في هذه السنة ، ستضع المقاومة ، الاشد حكمة والاشد صلابة الان ، امام امتحان جديد ، في وقت ما تزال فيه جراح الازمة اللبنانية طريــة .

وهكذا ، وكأنه كتب على المقاومة الفلسطينية ان تصل الى مواقع فرض وجودها الكامل في واجهة المسؤولية المباشرة في الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، الا وقد خاضت التجارب المريرة التي تجعل قدرتها على اتخاذ القرارات المناسبة في اللحظات الحاسمة ، اكثر نضجا واشد مراسا .

هذا لا ينفي طبعا امكانية تعرض المقاومة مرة اخرى لمعارك جانبية من اجل اثبات الوجود العسكري او السياسي ، ولكن هذا الوجود لم يعد بعد كل هذه التجارب ، لقمة سائغة امام اي مخطط من مخططات التصفيــة او الاحتواء ، فكلما كبــرت مسؤوليات المقاومة ، يكون عودها قد تصلب بما فيه الكفاية لتحمل هذه المسؤوليات .

المفجر الرئيسي للصراع في لبنان
وطبيعة الطبقة الكومبرادورية الحاكمة

طلال شاهين

(القسم الاول)

ان التساؤل المطروح ، بعد الهدنة الاخيرة في لبنان ، هو هل الصراع المسلح قد انتهى بها ؟ وهل كافة المشاكل الناجمة عن هذا الصراع سيتم حلها من خلال « الحوار » الهادىء ؟ ام ان الامر لا يعدو كونه مجرد هدنة مؤقتة ، ستطول نسبيا بعد الضربات التي وجهت للقوى الفاشية للنظام ، ثم سيشتعل بعدها الصراع المسلح من جديد ؟

فما هي طبيعة الصراع اذن ؟ ولماذا تفجر على هذا النحو ؟ وهل سيجري حله على الصعيد المرحلي الاستراتيجي ضمن نطاق سلمي ام مسلح ؟ وما هي الخيارات الفعلية التي تواجهها القوى الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية وبصرف النظر عن النوايا الحسنة ؟ وما هو الحل الثوري الوحيد والشعار الثوري الوحيد الملائم في هذه المرحلة ؟

الواقع ان تطور اشكال المواجهة والصراع وتبلور الاستقطاب السياسي طوال الفترة الممتدة من نيسان ١٩٧٥ والى اليوم ، بات يملي على القوى الثورية والوطنية، في المرحلة المقبلة ، التخلي نهائيا عن مسألة انهاء الصراع في نطاق سلمي . اذ ان مثل هذا الحل سيكون على حساب ضرب القوى الوطنية وتحجيم وتصفية المقاومة الفلسطينية . فالعدو الرجعي عندما يشهر السلاح والعنف الدموي الرجعي لا يمكن مواجهته واحباط مخططه والقضاء عليه الا بالسلاح والعنف الثوري .

لقد اصرت قوى النظام الكومبرادوري الفاشية ذات الطابع الوحشي على المضي في المخطط الامبريالي الى النهاية . هذا المخطط الذي يستهدف ضرب المقاومة وتصفية القوى الوطنية والحركة الشعبية اللبنانية . وذلك بالرغم من كل محاولات واوهام التهدئة « والحوار » والبحث عن انصاف الحلول التي يمكن فقط ان تؤجل ،في افضل الاحوال ، الصدامات المحتومة ، او تمييع الصراع لصالح القوى المعادية . وهذا مما يستدعي من مختلف القوى الثورية والوطنية مراجعة مواقفها الاصلاحية السياسية وفحص برامجها في مواجهة الازمة السياسية والهجمة الرجعية . خاصة ان هذه الهجمة الفاشية الطائفية بمقدار الاستقطاب السياسي الوطني الجماهيري الواسع الذي استثارته ، فانها عملت ، ايضا ، على قتل وذبح الآلاف وجرح عشرات الآلاف الاخرى وتهديد الناس بحياتهم وامنهم ومعيشتهم والسعي لتقويض وحدة الشعب والوطن .

لقد مارست هذه الهجمة الفاشية ذات الطابع الوحشي استنزافا هائلا للجماهير المؤيدة لحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية من شأنه ان يؤدي الى انفضاض الجماهير من حولهما ، في حال استمرار الاستنزاف على اكثر من مستوى ، **بدون حسم الصراع على اساس ثوري في المرحلة القادمة** . فالجماهير لن تبقى صامدة الى الابد ازاء استمرار طابع الروح الدفاعية والاكتفاء بالردع المحدود القائم على ردود الفعل (وليس انطلاقا من سياسة محددة) لدى الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية .

صحيح ، **ان اتخاذ القرار السياسي القاضي باستبدال الروح الدفاعية بروح هجومية محددة الاهداف السياسية انما يرتبط اساسا بالتحضير الثوري لهذه العملية** الثورية عن طريق تنظيم الجماهير اللبنانية واقامة جبهة وطنية متحدة والتحالف الثوري الوطيد مع المقاومة الفلسطينية .

فالانتفاضة المسلحة الشعبية الشاملة من اجل الاطاحة بالقوى العسكرية الفاشية الطائفية ، تتطلب التهيئة السياسية والعسكرية الكافية . فهي علم يخضع لقواعد سياسية وعملية محددة . ويقوم على تعيين دقيق للمرحلة وميزان القوى السياسي على شتى المستويات .

لقد وصل الصراع في لبنان الى انعطافة تاريخية وسياسية حادة ، حيث سيتقرر في اثرها مصير الصراع بالنسبة للمقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية لسنوات طويلة مقبلة ، كما سيكون له تأثيره الجدلي الايجابي او السلبي على مجمل النضال الثوري المناهض للامبريالية والصهيونية والرجعية في المنطقة العربية .

ومن هنا ، فان ابراز الموقف الثوري العلمي المنسجم من طبيعة الصراع والازمة الراهنة في مواجهة المواقف الاصلاحية المختلفة وتعيين الشعارات الثورية الملائمة ، في هذه اللحظات التاريخية الحاسمة ، من شأنه أن يلعب دورا اساسيا في توجيه الصراع الوطني على ارض الكفاح والممارسة الثورية الديمقراطية الحازمة والوصول به الى تحقيق أهدافه . سيما ان الجماهير ، ابان الازمات والمنعطفات التاريخية المتميزة بالاستقطاب السياسي الحاد ، باستطاعتها ان تتعلم في عدد من الايام والشهور ما تعجز عن تعلمه في عشرات السنوات من التطور البطيء .

العامل الرئيسي المفجر للصراع

لا يمكن اختزال الصراع الدائر في لبنان الى اثر عامل واحد او مجموعة من العوامل المتجاورة حسب التسلسل الحسابي او المنطقي الشكلي . فعناصر اية ازمة سياسية ، او صراع ، انما تشكل في تفاعلها الجدلي عملية واحدة . الا ان هناك دائما عنصرا رئيسيا محددا يدفع بهذه العملية ، في لحظة سياسية معينة ، الى حيز البروز ويجعلها تكتسب هذا الشكل والطابع او ذاك ، ، والسير ، بالتالي ،في اتجاه الحل ضمن نطاق سلمي او مسلح في نهاية الامر .

والازمة اللبنانية الراهنة مركبة وحافلة بعناصر التعقيد المختلفة . والتحليل العلمي لها لا يكون بتعداد مختلف العوامل التي تتألف منها بحيث يأخذ كل عامل وزنا متساويا مع غيره من العوامل الاخرى . فالصراع المسلح الدامي الراهن لا يمكن تفسيره بالحديث عن الاوضاع الطائفية في لبنان وتشابكها مع الصراع الطبقي والوطني ، وكذلك بأثر ازمة النظام الرأسمالي العالمي ، في تفاقم ازمة النظام

الكمبرادوري اللبناني . كما لا يمكن تفسير ما يدور بالاوضاع السياسية الناجمة من تعاظم التواجد الثوري للمقاومة الفلسطينية على الارض اللبنانية ، وعلاقة ذلك بالتسوية الاستسلامية التي يجري ترسيخ شروطها المادية لصالح الامبريالية الامريكية والعالمية على امتداد المنطقة العربية ، سيما في المشرق العربي .. الى آخر العوامل العديدة التي تشكل نسيج الازمة الراهنة .

ان الباحثين الاكاديميين البرجوازيين (وبعض ادعياء التحليل الماركسي) هم الذين ينظرون الى مجموع العوامل او الاسباب التي تتشكل منها الظاهرة او العملية بشكل متساو . وهم لا يعنيهم مطلقا التأثير في حركة الواقع من اجل تغييره تغييرا ثوريا . ولذلك يفتقد تحليلهم ، في النهاية ، الى الرؤيا العلمية الشاملة ، ويقع في اسار النظرة التجزيئية الميكانيكية والعد الحسابي للعوامل والاسباب المختلفة . وتقتصر فائدة عملهم (اذا صح ان نسمي ذلك فائدة اصلا !) ، في نهاية المطاف ، على المادة الخام المنضوية في سياق التحليل . **ان مجموع العناصر والاسباب التي تشكل الازمة الراهنة كانت لا بد ان تؤدي الى تفاقمها وانفجارها . لكن السبب الرئيسي الذي يجعلها تنفجر الآن وليس في مرحلة لاحقة ، وعلى هذا الشكل القائم من الصراع السياسي العسكري الدامي ، ويوجه بالتالي الاحداث في لبنان انما هو محاولات الامبريالية الامريكية احكام قبضتها على المنطقة العربية من خلال حلقات التسوية التي تجري لصالح تدعيم نفوذها وسيطرتها .**

فمن هذه الزاوية بالتحديد تأتي المحاولات الشرسة الاخيرة لتصفية المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية في لبنان حيث يشكل الوضع اللبناني القائم ثغرة اساسية يمكن ان تشكل خطرا على استقرار الاوضاع لصالح الامبريالية والصهيونية والحلف الرجعي العربي . **ان الهجمة الفاشية الطائفية الكمبرادورية على المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية لا تستمد قوتها اساسا من موازين القوى الداخلية في لبنان ، بل من توطد المصالح والنفوذ الامبريالي في المنطقة العربية .** وهذه الهجمة تأخذ هذا الشكل الدامي العنيف ضد المقاومة والحركة الوطنية من شراسة المخطط الامبريالي العام في المنطقة والذي تلاقى مع تفاقم الازمة الداخلية للنظام الكمبرادوري التابع وبلوغها مرحلة من التناقض العدائي الحاد مع مصالح الجماهير والقوى الوطنية في كافة المجالات . فالصراع بين الجماهير اللبنانية وقواها الوطنية والمقاومة الفلسطينية وبين النظام الكمبرادوري كان لا بد ان ينفجر بصورة سافرة ، ولكن الذي يجعله ينفجر في هذه الفترة بالذات ويأخذ هذا الشكل والاتجاه القائم هو التسوية التي تجري لصالح الامبريالية في المنطقة . سيما ان ميزان القوى الداخلي وحده لا يتيح لقوى النظام قدرة واضحة لحسم الصراع لصالحه اذا نظرنا الى الصراع في لبنان بشكل معزول عما يدور في المنطقة .

لقد سبق ان واجه النظام وبأشكال مختلفة من العنف المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ، **وليست المواجهة الراهنة مجرد تتويج اكثر حدة من حيث الدرجة بالنسبة للمواجهات السابقة فحسب ، بل هي مواجهة نوعية مختلفة ، تأتي في سياق ظروف سياسية مختلفة ، وتطرح قضايا سياسية مختلفة ايضا على جميع القوى الوطنية ، اي انها تطرح ليس مجرد الاكتفاء بالدفاع عن المقاومة الفلسطينية وتحقيق بعض المطالب الوطنية والاصلاحية ، بل ضرورة التحضير الثوري للاطاحة الشعبية المسلحة بمختلف القوى العسكرية الفاشية الطائفية وبالتالي اسقاط النظام الكمبرادوري الى الابد واقامة نظام وطني تقدمي ثوري كمرحلة انتقالية في سياق انجاز الثورة الاشتراكية والوحدة العربية على اسس ثورية .**

لقد تمت هذه المواجهة الاخيرة ضمن اطار المناخ السياسي لمحاولات ابرام تسوية سيناء الاخيرة . وذلك ابتداء من حوادث صيدا ومجزرة عين الرمانة والمعارك التي تلتها ، وانتهاءا بالمعارك المتتالية التي لم تنقطع بعد ابرام صفقة سيناء التي قام بها النظام المصري مع اسرائيل من خلال الامبرياليه الامريكية ولصالحها اساسا .

وتسوية سيناء تاتي لتوطد المصالح الامبريالية وبخاصة الامبريالية الامريكية في المنطقة العربية بما في ذلك تدعيم وتكريس دور اسرائيل كعصا غليظة للامبريالية ، وتقوية نفوذ الرجعية العربية .

وما يمس نضال الشعب الفلسطيني ونضال الشعوب العربية بصفة عامة هو غياب اي اشارة لحقوق الشعب الفلسطيني . بالرغم من كافة الاوهام المتعلقة بالتسوية لدى عدد من القوى الوطنية الفلسطينية .. فما جاء في المادة الاولى من هذه الاتفاقية كما نصت ، مباشرة ، ان حل « النزاع » بين مصر واسرائيل « وفي الشرق الاوسط لا يتم بالقوة المسلحة وانما بالوسائل السلمية » . كما تنص المادتان الثانية والثالثة عن تعهد الطرفين « بعدم استخدام القوة او التهديد بها » « والامتناع عن اي اعمال عسكرية او شبه عسكرية » . فالنظام المصري هنا يتعهد رسميا امام الاستعمار الامريكي بأن الصراع (او « النزاع » كما تطلق عليه الاتفاقية) في الشرق الاوسط عامة ، وليس بين مصر واسرائيل فقط ، لا يتم حله الا بوسائل سلمية . اي ان هناك استبعادا للصراع المسلح . **والصراع المسلح ، هنا ، ليس مجرد وسيلة من وسائل حل الصراع مع الصهيونية والامبريالية ، بل هو الوسيلة الرئيسية منظورا اليها على اساس سياسي ، فالوسائل المستخدمة في اي صراع انما يحتمها حدة الصراع نفسه وطبيعة القوى المعادية الداخلة فيه . والصراع مع هذه القوى المعادية ليس مجرد « نزاع » على اراض محتلة ومتنازع عليها فحسب ، بل هو صراع يرتبط جدليا بتحرر المنطقة العربية واستقلالها السياسي والاقتصادي الحقيقي من كل اشكال السيطرة والاستغلال والقهر الامبريالي الصهيوني وسائر القوى الرجعية العربية المرتبطة بالامبريالية ومصالحها السياسية والاقتصادية .**

والدور الخاص المناط بالكيان الصهيوني العنصري الاستيطاني العسكري العدواني دائما لكي يلعبه اساسا لصالح الامبريالية العالمية والامبريالية الامريكية خاصة في المنطقة العربية يتجلى من خلال تصديه لاي نهوض وطني عربي معاد للامبريالية ، ويستهدف استكمال شروط التحرر والاستقلال (سيما في مصر وسوريا وفلسطين) **هذا الدور الخاص لا يمكن القضاء عليه بشكل رئيسي الا عبر التصدي الثوري المسلح والوثيق الارتباط بمحاربة كل اشكال السيطرة الامبريالية .**

ولقد عانى الشعب الفلسطيني اكثر من سواه من الشعوب العربية من القهر الوطني والاجتماعي الحاد من الاستعمار الاستيطاني الصهيوني الامبريالي الذي رسخ وجوده ودوره على حساب الحقوق التاريخية والوطنية لهذا الشعب المناضل العظيم. **وقد ادرك هذا الشعب ايضا بخبرته النضالية العريقة طوال عشرات السنوات ، وخاصة بعد عام ١٩٤٨ ، ان هزيمة العدو الذي يواجهه لا يتم اساسا الا عبر الكفاح المسلح بتوجيه الضربات المتتالية « بالمشاركة الفعالة للشعوب العربية الاخرى » لهذا العدو من الخارج حتى تصفيته النهائية وتحطيم دوره في المنطقة** . فاسرائيل ليست مجتمعا عاديا يمكن ان يتغير نظامها بفعل التناقضات الطبقية الداخلية التي تعمل فيه . بل ان هذه التناقضات لا يمكن ان تلعب دورا مؤثرا وفاعلا الا بعد توجيه الضربات الى اسرائيل من الخارج .

فالنضال المسلح الفلسطيني والعربي ، ايضا ، ضد اسرائيل ليس مجرد اسلوب من اساليب النضالات الاخرى ضد اسرائيل تم اختياره بصورة اعتباطية ، بل هو تجسيد لخلاصة التجربة النضالية السياسية لهذا الشعب ولمجموع الشعوب العربية المحيطة باسرائيل في مواجهة العدو الصهيوني الامبريالي . وهو بذلك يعتبر الاسلوب الرئيسي من اساليب النضال الفلسطيني ، وذلك مهما كانت ملاحظاتنا السياسية على النضال الوطني الفلسطيني الراهن ، لان المعضلة الاستراتيجية بالنسبة للنضال الفلسطيني المسلح الراهن هي كيفية الملاءمة بين طرح اعلى اشكال الكفاح « الكفاح المسلح » وبين الاطر السياسية والتنظيمية والايديولوجية التي يجب ان تصونه وتقوده الى الامام نحو اهدافه على اسس برنامج وطني ثوري وبتحالف نضالي وثيق مع نضال الشعوب العربية .

فعندما تقرر اتفاقية سيناء السياسية ان الصراع « النزاع » في الشرق الاوسط عامة (وليس بين النظام المصري واسرائيل فقط) لا يتم بالقوة المسلحة وانما بالوسائل السلمية ، فان البندقية والنضال المسلح الفلسطيني هما في طليعة المستهدفين للتصفية . ان تسوية سيناء الاخيرة لا تأتي في سياق معزول ، كما ينحو لذلك البعض ، بل هي **حلقة خطيرة ذات دلالة نوعية خاصة تستبعد احتمالات الحرب من مسلسل حلقات التسوية** التي تسعى الانظمة العربية لعقدها مع اسرائيل والامبريالية الامريكية بعد عام ٦٧ . لقد واجهت الامبريالية العالمية والامبريالية الامريكية بوجه خاص ، وهي في سعيها لتوطيد مصالحها ونفوذها في المنطقة العربية ابان الخمسينات وفي اواخر الستينات ، برجوازيات قومية صاعدة سياسيا تعمل من اجل السيطرة على السلطة السياسية والسوق القومي في بلادها من خلال اشكال سياسية جديدة من السيطرة البرجوازية (حيث تمت السيطرة اساسا على السلطة بواسطة الانقلابات العسكرية) ، وليس على اساس التمثيل السياسي التاريخي التقليدي للبرجوازية القومية . وقد حتمت هذه الاشكال الجديدة من السيطرة البرجوازية المعضلات التي واجهت الطريق الرأسمالي التقليدي ، وتفاوتت هذه الاشكال تبعا لخصوصية التكوين الاقتصادي والسياسي واحتدام الصراع الطبقي والوطني في كل بلد عربي .

المهم ان **الامبريالية العالمية واجهت في مرحلة الصعود السياسي للانظمة البرجوازية مقاومة نسبية قوية في سعيها لتدعيم نفوذها ومصالحها في المنطقة . وقد تمكنت البرجوازيات القومية المشار اليها اعلاه من تحقيق الحد الادنى من الاستقلال السياسي والاقتصادي في مواجهة الامبريالية . ولقد كان الوجه الرئيسي لهذه الانظمة في تلك الآونة ذا طابع وطني معاد للامبريالية .**

اما في مرحلة الهبوط السياسي لهذه البرجوازيات وخاصة بعد ٦٧ ، فقد تحول الوجه الرئيسي بفعل الطبيعة الطبقية الداخلية وتحت ضغط الاحتلال الاسرائيلي للارض ، وطفا على السطح الوجه الجديد المتهادن مع الامبريالية واسرائيل ، والذي اخذ يلعب دورا رجعيا سافرا ، كما هو الحال بصفة خاصة مع البرجوازية المصرية في السنوات الاخيرة .

وقد سرع الاحتلال الاسرائيلي للارض والمقايضة باجزاء منها من معدل تراجع الانظمة البرجوازية لصالح الامبريالية. ولكن الجديد في الامر هنا هو التقاء هذا الاحتلال بتفاقم الميل الموضوعي المتهادن للاستعمار لدى هذه الانظمة ، وذلك مما اتاح خلق الظروف الملائمة للامبريالية لكي تسعى لاحكام قبضتها على المنطقة . وبالطبع يتفاوت

موقف كل برجوازية قومية من الامبريالية والصهيونية ومختلف القضايا الوطنية والاقتصادية والسياسية الدولية ، وذلك تبعا لمستوى التطور السياسي والاقتصادي في هذا البلد او ذاك ، ووضع الحركة الشعبية والمعضلات النوعية الخاصة التي تواجهها هذه البرجوازية في بلدها .

الا ان الذي يمكن الامبريالية في هذه المرحلة من تشديد قبضتها السياسية والاقتصادية هو السياسة المتهادنة او الرجعية السافرة (النظام المصري) التي تتبعها هذه البرجوازيات تجاه الامبريالية واسرائيل والرجعية العربية . هذه السياسة المرتبطة بالطبيعة الطبقية للبرجوازية في مرحلة تفسخها وانتهاء دورها الوطني من الزاوية الرئيسية . وليست التسوية السياسية بعد ٦٧ سوى الاطار السياسي العام الذي تتم فيه حلقات الاستسلام بمعدلات ووتائر معقدة ومتباينة وبالشروط التي تضعها الامبريالية الامريكية والصهيونية والرجعية العربية اساسا . وقد قطع النظام المصري في عقده لتسوية سيناء شوطا بعيدا في توطيد مصالح ونفوذ الامبريالية الامريكية في المنطقة . **ولم تغير حرب اكتوبر ، بالرغم من التضحيات الوطنية الباسلة التي قام بها الجنود والضباط العرب وهزها لعدد من ادعاءات العدو الصهيوني ونظرياته ، لم تغير هذه الحرب من السياسة التي تنتهجها هذه الانظمة** ، فقد كانت هذه الحرب حرب « تحريك » لمفاوضات التسوية السياسية ، **وقد تحدد طابعها الطبقي السياسي الاساسي في خدمة مجرى السياسة الطبقية التي تسير عليها الانظمة البرجوازية قبل ٧٣ وبعدها .**

فهذه الحرب لم تتحول الى حرب وطنية منسجمة تستهدف تحرير الاراضي العربية والفلسطينية المحتلة ، والتصدي الحازم لاسرائيل والامبريالية . فقد نحدد نطاق هذه الحرب بالطبيعة الطبقية السياسية للبرجوازية في مرحلة محددة من تطورها : مرحلة هبوطها السياسي . **وقد غذت هذه الحرب عددا من الاوهام والانحرافات السياسية داخل العديد من الاحزاب اليسارية والقوى الوطنية البرجوازية الصغيرة ، بما في ذلك عدد من التنظيمات الوطنية الفلسطينية ...** وفي مقدمة هذه الاوهام التصور ، غير القائم على فهم علمي لطبيعة القوى الطبقية والمرحلة السياسية ، ان نتائج هذه الحرب « الوطنية المحدودة » قد غيرت من موازين القوى القائمة في المنطقة وهي تتيح امكانية اجراء تسوية سياسية يتم من خلالها انسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة عام ٦٧ واقامة سلطة وطنية فلسطينية. **هذا بينما السياسة الفعلية التي تدور من قبل البرجوازية هي التفريط باسس الاستقلال السياسي والاقتصادي والتهادن مع الامبريالية واسرائيل والرجعية العربية والتخلي عن دعم النضال الوطني الفلسطيني .**

وما ينبغي ابرازه هنا بشكل واضح **ان توطد النفوذ الامبريالي في المنطقة يفترض بالفعل تقوية وتدعيم دور اسرائيل كأداة امبريالية والاقرار في المنطقة حتى بدورها هذا .** بينما يتصور البعض ، من خلال بعض الظواهر الجزئية والسطحية ، ان ما يجري لصالح الامبريالية الامريكية ، انما هو على حساب اسرائيل وتقليص دورها .

ان اي سلطة وطنية ثورية فلسطينية على اي جزء من ارض فلسطين انما تتم في مواجهة التسوية السياسية القائمة (التي تستهدف فيما تستهدف اليوم تصفية النضال الوطني الفلسطيني) وانطلاقا من اسس برنامج ثوري كفاحي فلسطيني وثيق التحالف مع نضال الشعوب العربية الاخرى وحركاتها واحزابها الثورية .

الامبريالية والمنطقة العربية

اذا كانت الامبريالية العالمية وعلى راسها الامبريالية الامريكية قد تمكنت من تعزيز نفوذها وتوطيد مصالحها في المنطقة العربية بعد ١٩٦٧ بشكل خاص من خلال الدور الخاص الذي لعبته اسرائيل باحتلال الاراضي العربية للضغط من اجل التسريع في معدل تهادن البرجوازية مع الامبريالية ، واذا كان هذا الدور الاسرائيلي قد تلاقى مع الميل الموضوعي لدى البرجوازية في مرحلة محددة من تطورها (مرحلة الهبوط) للتهادن مع الامبريالية ، فان **المنطقة العربية تزداد اهميتها السياسية والاستراتيجية والنفطية للامبريالية في هذه الاونة بصورة استثنائية** مما يجعلها تعمل اكثر فاكثر وبمختلف السبل الى محاولة تشديد قبضتها والمحافظة على مصالحها ونفوذها في هذه المنطقة ، سيما بعد الهزيمة السياسية العسكرية الساحقة التي واجهتها امريكا في فيتنام وكمبوديا . فالمنطقة العربية اليوم هي اهم واخطر موقع للمصالح الامبريالية .

فعلى صعيد النفط تزداد يوما بعد يوم حاجة امريكا الى استيراده من اجل استهلاكها الخاص ، واحكام السيطرة على مصادر النفط في المنطقة العربية تعني بالنسبة لامريكا تحسين شروط ميزان التبادل التجاري بينها وبين اوروبا واليابان والتحكم اكثر في سياستهما نظرا لاحتياجهما الهائل للنفط .

ومن جهة ثانية فان تأثير هذه المنطقة السياسي يمتد ليشمل تركيا وأيران واجزاء من افريقيا واسيا وجنوب اوروبا ، في ظروف باتت تعصف فيه الازمة الرأسمالية العالمية باستقرار عدد من البلدان الرأسمالية الغربية . ونظرا لتفاقم الازمة الرأسمالية العالمية للامبريالية في هذه المرحلة (ليس هنا المجال لتعداد اسبابها) فان الآفاق المطروحة امام الامبريالية تسير في اتجاهين لكل منهما مشاكله النوعية الخاصة :

١ — السعي المحموم بمختلف الوسائل لاحكام السيطرة على الشعوب واخضاعها . والحد قدر الامكان من محاولات (أو الادق ازعاجات) بعض البلدان التابعة لتحسين شروط تبعيتها للامبريالية في ظروف تتميز بضعفها النسبي ولكن هذا السعي يصطدم بشكل رئيسي بنضال الشعوب ومقاومتها (الشعب الفلسطيني ، انغولا ... الخ) وليس « بنضال » النظم الرجعية في البلدان التابعة لتحسين شروط تبعيتها (ايران وبدرجة اقل السعودية وسواهما) . اذ ان **الاساس بين الامبريالية والبلدان التابعة لها هو التنسيق والتكامل الوظيفي في نهاية الامر** (رغم كل التعارضات الثانوية القائمة على ارض ضعف الامبريالية نتيجة نضال الشعوب اساسا وطبيعة الازمة الامبريالية نفسها) **لمقاومة نضال الشعوب واخضاعها** . واية اوهام اخرى في هذا المجال ستؤدي الى انحراف خطير ومضر بقضية الثورة كما هو الحال بالنسبة للانحراف الصيني الحالي .

٢ — الاتجاه لاقناع الناس في الغرب بمختلف السبل بتخفيض مستوى معيشتهم (سياسة شد الاحزمة) . ولكن هذا السعي لا بد ان يؤدي الى ردود فعل شعبية والى انضاج الشروط الموضوعية للثورة في هذه البلدان ، وهذا ما تخشاه الامبريالية الى حد كبير ويجعلها تركز اساسا بكل ما تملك من وسائل وقوى حليفة لمحاولة القضاء على المقاومة الثورية للشعوب بوجه عام وفي هذه المنطقة العربية بوجه خاص . وذلك بعد ان تحولت هذه المنطقة الى الموقع الاساسي والاستراتيجي الاخير

للامبريالية العالمية ، فأي تغيير حقيقي ثوري في هذه المنطقة سيؤدي الى زعزعة ركائز السيطرة الامبريالية القائمة والى تفاقم الازمة الامبريالية العالمية بشكل لا مثيل له .

ان اهم العقبات التي تحول دون احكام السيطرة الامبريالية واستمرارها في هذه المنطقة هو النضال الثوري للشعوب العربية . وفي هذه المرحلة بالذات يقف الشعب الفلسطيني ومقاومته المسلحة والحركة الوطنية اللبنانية المتلاحمة معها (بالرغم من قصورهما في عديد من المجالات السياسية والتنظيمية والايديولوجية) في طليعة النضال الوطني الثوري في وجه الحلف الرجعي : الامبريالية الامريكية واسرائيل والفاشية الكومبرادورية الطائفية والرجعية العربية .

ان الامبريالية العالمية وهي تلاقي الهزائم من الشعوب والحركات الثورية وتتفاقم ازماتها العامة بصورة خطيرة ، لا تتخلى عن سياساتها العدوانية تجاه الشعوب من اجل استمرار وتدعيم مصالحها ، بل انها تزيد حدة وشراسة . وبالرغم من الافكار الميكانيكية الخاطئة التي يحملها البعض في هذا الصدد ، وذلك بحكم طبيعتها الامبريالية العدوانية . وهي بذلك في النهاية انما تحفر قبرها بيدها وتهدد مصالحها نفسها على ايدي حركات التحرر الوطني والقوى الثورية المنسجمة .

ان الامبريالية العالمية وخاصة الامريكية ، ازاء الازمات الحادة التي تواجهها اليوم على اكثر من صعيد ، تفتقد الى المرونة النسبية الكافية للتعامل مع اوضاع لا ترضى عنها تماما .

وقد لعب النظام المصري بتوقيعهعلى تسوية سيناء السياسية دورا خطيرا في تسهيل المخطط الامبريالي ووضع كافة الاطراف المعترضة عليه بصورة او بأخرى في وضع لا يحسد عليه . ان النظام المصري قد انتقل بعد توقيع هذه الاتفاقية الى خدمة المخطط الامبريالي الصهيوني الرجعي الرامي من خلال التسوية الى احكام قبضته على المنطقة وتصفية نضال الشعب الفلسطيني والقضية الفلسطينية ونضال الشعوب العربية الاخرى .

ولكن مشكلة المخطط الامبريالي بشكل عام انه يلجأ احيانا الاعتماد على اوضاع وانظمة منخورة وضعيفه كما هو الحال بالنسبة للنظام العسكري اليوناني في قبرص ، وبصفة خاصة نظام الكومبرادور الطائفي اللبناني وقواه الفاشية للعب دور الاداة التنفيذية في لبنان . وهذا مما ادى الى خلق اوضاع جديدة سنعمل على تبيانها في سياق التحليل . والرجعية اللبنانية انما تستمد قوتها وشراستها وتصعيدها الذي يبدو للناظر الساذج مفاجئا ، بل وحتى « غبيا » ، من قوة النفوذ الامبريالي الصهيوني الرجعي في المنطقة الذي توطد اكثر بعد تسوية سيناء . وقد التقى هذا مع تفاقم تناقضات النظام الكومبرادوري الطائفي مع الجماهير الشعبية حيث باتت سيطرة « وسيادة » هذه الطبقة مهدده بالخطر مما جعلها تبادر الى ممارسة العنف الرجعي ضد الجماهير والحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية .

لقد اصبح لبنان بعد ضرب المقاومة الفلسطينية في الاردن عام ٧٠ — ٧١ مركز الثقل الاساسي الذي تنطلق منه المقاومة . وقد شكلت المقاومة وابناء الشعب الفلسطيني المتواجد في لبنان بتلاحمهما النضالي مع الحركة الوطنية التقدمية والجماهير اللبنانية **وضعا ثوريا جديدا** بات يهدد استقرار النظام الكومبرادوري واستمراره، كما اخذ هذا الوضع يشكل خطرا يهدد الانسجام والاستقرار المطلوب لصالح المخطط

الامبريالي للسيطرة على المنطقة ، ويضع الصعاب والعراقيل القوية امام محاولات تصفية النضال الفلسطيني والقضية الفلسطينية . ومن هنا كان من الطبيعي ان تتجه انظار الامبريالية والصهيونية والقوى الرجعية بعد خطوات التسوية التي انجزتها الانظمة العربية ، وبخاصة خطوة النظام المصري الاخيرة في سيناء ، الى العمل والسعي لتصفية هذا الوضع الخطر في لبنان . ويجدر التنويه ان هذه الهجمة الرجعيه تستهدف ، ايضا ، الضغط على النظام السوري من خلال محاولة تصفية المقاومة في لبنان ووضعه في اسوأ الشروط السياسية والامنية للتفاوض من موقع اضعف ودفعه للقبول بالحد الادنى الشكلي من الارض السورية المحتلة مقابل الاقرار العملي بكل شروط الهيمنةالا مبريالية الصهيونية الرجعية في مختلف المجالات ، ومن ضمنها التعهد بعدم استخدام الاشتباك المسلح لحل الصراع مع اسرائيل والتخلي عن المقاومة والقضية الفلسطينية « والانفتاح » السياسي والاقتصادي على الغرب ، وبالتالي ، فض عرى علاقاته الدولية بالمعسكر الاشتراكي .

لم تكن الاوضاع « الليبرالية » في لبنان تشكل ، في المرحلة السابقة ، خطرا على النظام الطبقي الكومبرادوري (نظام وكلاء وسماسرة الامبريالية) القائم . اذ انها كانت تقوم بدور نوعي مميز باعتبارها محطة توازن لمختلف الفئات والقوى الاجتماعية الداخلية تستهدف الحفاظ على النظام الكومبرادوري الطائفي في علاقته بالصراعات والتوازنات القائمة في المنطقة العربية بين البرجوازيات العربية الصاعدة في الخمسينات والستينات وبين الامبريالية واسرائيل والرجعية العربية . وكان كل طرف من هذه الاطراف يجد له متنفسا في اطار هذه الاوضاع « الليبرالية » ، ويجد ، ايضا، انصاره وحلفائه . وهذا ، بالطبع ، كان يلتقي مع اتجاهات سياسية يقررها الواقع اللبناني اساسا . ولم تكن الاحزاب السياسية الاكثر راديكالية في الواقع اللبناني تسعى للتحضير الثوري والعمل من اجل الاطاحة بسلطة النظام الكومبرادوري ، بل كانت برامجها تقتصر على طرح المطالب الاقتصادية لتحسين الاوضاع المعيشية للجماهير ضمن اطار النظام الكومبرادوري التابع ، بالاضافة الى طرح « بعض » المطالب السياسية والوطنية في مناسبات وظروف تمتاز بالاستقطاب السياسي الشديد حول قضايا سياسية ووطنية محددة .

وقد تمثل في الاحزاب والقوى الوطنية اللبنانية اتجاهان اساسيان :

١ — اتجاه يساري وهو ذو طابع اصلاحي ، وضع نفسه في ذيل الصراع السياسي الطبقي والوطني . فلم يطرح سوى شعارات اقتصادية واصلاحية .

٢ — الاتجاه الثاني تمثل في الاحزاب والقوى القومية البرجوازية الصغيرة التي لم توجه انظارها ، تبعا لايديولوجيتها القومية وفهمها النخبوي للعمل السياسي وتكوينها الطبقي البرجوازي الصغير ، نحو العمل التغييري داخل لبنان ، بل كانت انظارها متجهة بانتظار ما سوف تنجزه حركات وقوى واحزاب النضال القومي البرجوازي والانقلابات العسكرية من انتصارات مفاجئة وساحقة ضد الامبريالية . وذلك في الدول العربية الكبرى . ومن ثم كان النضال التغييري في لبنان عملا مؤجلا بانتظار النتائج السحرية التي ستنجزها القوى والاحزاب البرجوازية القوميه في الدول العربية الكبيرة .

ولكن ، بعد هزيمة ١٩٦٧ وضرب المقاومة الفلسطينية عام ٧٠ — ٧١ في الاردن تحولت الساحة اللبنانية الى المركز الاساسي للمقاومة الفلسطينية .

وقد ادى تواجدها الثوري ، الذي تلاحمت معه الجماهير والاحزاب والقوى الوطنية ، الى الاسهام في تصاعد المد الشعبي المناهض للنظام في مختلف المجالات . وذلك نظرا لتفاقم ازمة النظام الكومبرادوري التابع وتناقضه مع مصالح الجماهير وطموحاتها الوطنية . **وقد نجم عن كل هذا وضع ثوري جماهيري جديد بات يطرح ، موضوعيا ، على كافة الاحزاب والقوى الوطنية ضرورة المبادأة والفعل ، وبالتالي تغيير سياساتها الاصلاحية الاقتصادية ومواقفها الانتظارية العقيمة من مسألة السلطة السياسية** . ولكن بدلا من ان تأخذ هذه الاحزاب والقوى الوطنية زمام المبادرة لمعاينة ومواجهة السمات السياسية للوضع اللبناني الجديد والسعي لتجنيد الجماهير في جبهة وطنية متراصة وطرح الشعارات الثورية الملائمة قبل استفحال خطر الهجمة الرجعية ومواجهتها بالعنف الجماهيري المنظم وبسياسة ثورية محددة وليس بردود الفعل ، فان السلطة نفسها هي التي بادرت بشن الهجوم من خلال اجهزتها القمعية في البداية ثم باحتياطها من القوى الفاشية الطائفية ! واتخذ العنف الرجعي الذي مارسته صورا واشكالا دموية وحشية .

هكذا وجدت الحركة الشعبية والوطنية (ومعها المقاومة الفلسطينية) نفسها في موقف دفاعي ، مما عرضها الى الوقوع في بعض ردود الفعل القائمة على اساس طائفي . اذ ان منع ردود الفعل الطائفية ليس مسألة اخلاقية ومبدئية مجردة بقدر ما هو مسألة سياسية تتعلق اولا واخيرا بنوع الخطة السياسية لمواجهة العدو ، وحتى سياسة الردع العسكري المحدود وسواها من السياسات العسكرية الاخيرة اذا لم تكن مبنية وموظفة في سياق خطة سياسية واستراتيجية واضحة فانها لا يمكن ان تتجاوز نطاق سياسة رد الفعل غير السياسية ..

ان تطور الوضع السياسي والجماهيري قبل الاحداث وفي اثنائها وبعدها بات يطرح **مهام ثورية جديدة ليس هناك اي خيار أرادي لتجنبها** والا ادى ذلك الى انتكاس مسيرة النضال الوطني الفلسطيني واللبناني .

والآن ، ما هي صلة الطبيعة الطبقية للنظام بالازمة الراهنة وكيف واجه النظام وبالتالي القوى الوطنية والمقاومة الفلسطينية الصراع القائم ، وما هي الحلول والخيارات الفعلية المطروحة على عاتق الثوريين والوطنيين ؟

نشأة وطبيعة النظام الكومبرادوري اللبناني

نشأ نظام الكومبرادور اللبناني في ظل ظروف تاريخية وسياسية تتميز بعدد من التعقيدات النوعية الخاصة بالتشكيلة الاقتصادية الاجتماعية التي تكوّن منها . فقد تبلور ونشأ في منطقة عربية لم يتمكن الاقطاع فيها ، بفعل ظروف اقتصادية وسياسية متعددة الجوانب، من تشكيل طبقة اقطاعية قومية موحدة المصالح وتحكم من خلال سلطة مركزية اقطاعية واحدة ، بغض النظر عن الانتماءات والاصول الطائفية ،كما هو الحال بالنسبة لمصر وعدد من البلدان الاخرى في مرحلة تاريخية محددة . فالسلطة المركزية الاقطاعية توفر الشروط الموضوعية التي يمكن ان تتيحها العلاقات الاقطاعية ما قبل الراسمالية من تطور وتقدم من شأنه ان يساهم في انصهار الشعب على اسس وطنية وطبقية اكثر وضوحا . فالتفتت الاقطاعي والعشائري والعائلي كان يرتبط ، من خلال عدد من الاشكال الاجتماعية والسياسية ، بالسلطة العثمانية على اساس من جباية الريع والضرائب المختلفة والخضوع السياسي لها في الظروف العادية . اما في الظروف التي كانت تضعف فيها السلطة العثمانية فقد كان الخضوع السياسي

بصفة عامة يتم (بصورة غير مباشرة احيانا ، ومتعارضة في بعض الاحيان ، وبرضى السلطنة العثمانية في احيان اخرى) من خلال سيطرة الامارات الاقطاعية القوية . وكثيرا ما كان يتداخل الشكل السياسي لهيمنة الاقطاع القوي ، القادر على بسط نفوذه وحمايته على الاقطاع الضعيف ، مع العلاقات الطائفية .

ولقد شكل الوضع الاستثنائي لمسألة الاقليات الطائفية والقومية تحت حكم السلطة العثمانية ، والتي كرسها واقع التفتت الاقطاعي وفرض هيمنة الاقطاع القوي على اساس من التداخل بين العلاقات الاقطاعية والطائفية ، شكل هذا الوضع أرضا خصبة لاستغلال التنافس الاستعماري الاجنبي له بهدف مد وتغلغل نفوذه ابتداء من انحسار سلطة محمد علي عن بلاد الشام ولبنان في اوائل الاربعينات من القرن التاسع عشر .

فمنذ ذلك الحين اخذت كل دولة من الدول الاجنبية الكبيرة القوية وتتذاك (فرنسا ، بريطانيا ، روسيا القيصرية الخ ..) تدعي انها تقوم بحماية الكتل الاجتماعية والطوائف المختلفة تحت ستار الرعاية والحماية . وذلك بغية فرض نفوذها وسيطرتها تمهيدا لاقتسام تركة الرجل المريض — تركيا — في المنطقة .

وقد كان للتدخل الاستعماري الاجنبي دوره الكبير في احداث ومذابح ١٨٦٠ وهو المستفيد الاساسي منها من اجل بسط نفوذه السياسي في لبنان والمنطقة .

ولم يكن التقسيم الاستعماري لسوريا العربية (بلاد الشام) الى دول وكيانات سياسية مختلفة (لبنان الكبير ، فلسطين ، الاردن) في اوائل هذا القرن يعتمد على الفراغ ، بل على التكوين التاريخي السياسي للتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية باقطاعياتها المفتتة التي يطغى عليها العلاقات القبلية العشائرية والطائفية والعائلية . حيث ارتبط فيها الولاء السياسي بالقوى الخارجية القوية التي تستطيع أن تمارس نفوذها وتأثيرها على هذا الوضع .

ففي نطاق السيطرة الامبريالية المباشرة (من خلال الانتداب) تمكن الاستعمار الفرنسي من توطيد دعائم سيطرته في لبنان . واعتمد في فرض سيطرته على تعيين وترسيخ اقدام القشرة الاجتماعية العليا من الطائفة المارونية ، التي ادعى انه يقوم بحمايتها ، في قمة المراكز الاساسية الحساسة في الدولة اللبنانية الناشئة تحت وصاية الانتداب الفرنسي .

وكانت دعائم السيطرة الامبريالية قد وصلت مرحلة متقدمة ، قبل الانتداب . وذلك من خلال العلاقات التجارية (سيما تجارة تصدير الحرير الطبيعي الى فرنسا في القرن التاسع عشر) والثقافية وانتشار الارساليات ومؤسسات التعليم الاجنبية بين ابناء الطائفة المسيحية بشكل خاص . هذه العلاقات التي وفرت ظرفا ملائما مجسدا في الولاء السياسي لسلطة الانتداب الفرنسي وتقديم الكوادر المختلفة التي يحتاجها لتوطيد نفوذه وتسيير ادارة البلاد .

ومما فاقم ، اساسا ، فيما بعد واقع الانقسام والتفتت في المجتمع واستمرار التكتلات والفئات الاجتماعية المتنافسة او المتحالفة على اساس طائفي ضمن اشكال واطر مختلفة ، **هو طبيعة تشكل البرجوازية اللبنانية ، من خلال علاقات التبعية بالامبريالية الفرنسية والامبريالية العالمية ، كبرجوازية كومبرادورية** تقوم بدور الوكيل او الوسيط بين السوق الامبريالية العالمية والسوق اللبنانية والعربية وحيث **يهيمن** قطاع الخدمات على سائر القطاعات المنتجة الاخرى (الزراعة والصناعة) **ويعين**

اتجاه نموها ويحد من امكانية استقلالها وتناقضها معه . اذ انه يطبعها بطابعه ويجعل آفاق نموها خاضعة لسيطرة قوانينها ومتطلباتها .

وهذا الواقع هو جوهر مسألة استمرار العلاقات ما قبل الرأسمالية في المجتمع اللبناني ، ولا سيما العلاقات الطائفية . فالطبقة البرجوازية الكومبرادورية المهيمنة ، التي نشأت من قلب الطبقة الاقطاعية المفتتة ، قد نمت نموا مشوها وغير متوازن ويقوم على أساس طائفي ومن خلال الصلة الوثيقة بالشرائح الاجتماعية المسيطرة على المراكز الاساسية في قمم السلطة ، حيث يحتل البرجوازيون الموارنة الوزن الاكبر في هذه الطبقة الكومبرادورية . **فالكومبرادوريون الموارنة يستخدمون ، هنا ، التمثيل الطائفي والعلاقات الطائفية** (باسم المحافظة على الامتيازات السياسية للطائفة المارونية والاقلية المسيحية أمام محيط بشري اسلامي أكثري !) ، وذلك **من أجل استمرار هذه الامتيازات الطبقية والسياسية والاقتصادية التي لا تعني سوى مصالح الكومبرادوريين الموارنة أنفسهم .** هذا بينما الاغلبية الساحقة من أبنـــاء الطائفة المارونية والمسيحيين عموما تعاني ما تعانيه سائر الجماهير في لبنان . صحيح ان نسبة الموظفين والمستفيدين ، من خلال تقاضي الاجور والرواتب العالية أو الحصول على بعض التسهيلات ، من فئات البرجوازية الصغيرة والمتوسطة في الطائفة المسيحية هي أعلى **درجيا** مما هي عليه الطوائف الاسلامية الاخرى . ولكن هناك فرقا شاسعا ونوعيا بين الطبقة المسيطرة وبين المستفيدين من فئاتها بصفة عامة .

الا ان الكومبرادوريين المنتمين الى الطائفة الاسلامية يحاولون ، بالمقابل ، استخدام قوة العلاقات الطائفية والتمثيل الطائفي للحصول على قسم أكبر من المشاركة في مراكز السلطة السياسية من أجل توطيد ونمو مصالحهم ، سيما أن السيطرة على مراكز القمم الاساسية في السلطة السياسية للكومبرادور اللبناني يتيح مجالا أوسع للازدهار الاقتصادي وتدعيم النفوذ السياسي للفئات الكومبرادورية التي تسيطر على هـــذه المراكز . ونحن نتعمد هنا ، للتمييز بين التطور والنمو لدى البرجوازية المحلية القائمة على الانتاج وبينه عند الكومبرادور ، اطلاق اصطلاح « الازدهـــار » على النمو الاقتصادي للكومبرادور .

ان القسم الاساسي من الكومبرادور اللبناني انما تشكل على أساس تاريخي بالصلة مع الغرب الامبريالي ، من خلال علاقة ذلك بالسيطرة على المراكز الاساسية في السلطة ، وهو يتكون من الكومبرادور الذي ينتمي الى الطائفة المارونية ، وهذا مما اتاح للكومبرادور ذي الانتماء المسيحي ، انطلاقا من توفر نسبـــة أعلى من الكفاءة العلمية بحدها الادنى كالالمام باللغات وبعض المعارف الاولية اللازمة في قطاع الخدمات لدى المسيحيين عموما ، من لف فئات واسعة من البرجوازية الصغيرة المسيحية من خلال التوظيف أساسا .

وبالطبع لا يعني هذا كما تؤلب الفئات الكومبرادورية الاسلامية البرجوازية الصغيرة والمتوسطة والجماهير ذات الانتماء الطائفي الاسلامي (لكي تقف الى جانبها وهي تحاول تحسين شروط مشاركتها في السلطة والاقتصاد ، واعدة اياها ببعض الفتات من خلال التوظيف وسواه) ، بأن عموم المسيحيين في لبنان يسيطرون على « كل شيء » وهم كلهم اغنياء واصحـــاب امتيازات . **فالتقسيم الطبقي لا يتطابـــق مع التقسيـــم الطائفي اذ ان هناك بونا شاسعا بين المستفيد بالتوظيف من نظام طبقي معين وبين الطبقة المسيطرة نفسها .** ثم ان نسبة التوظيف والاستفادة بوجه عام من فتـــات الكومبرادور التابع هي بصورة تقديرية لدى فئات البرجوازية الصغيرة والمتوسطة

المسيحية لا تتجاوز نسبة ٣٠ ــ ٣٥٪ من مجموع الجماهير التي تنتمي الى الطائفة المسيحية . وذلك مقابل ١٥ ــ ٢٠٪ من مجموع الجماهير التي تنتمي الى الطائفة الاسلامية من نفس الفئات الاجتماعية المذكورة . والفئات البرجوازية الصغيرة والمتوسطة هذه على اختلاف أوضاعها وانتماءاتها الطائفية ، في الوضع الراهن ، تتعرض ، رغم دخلها المرتفع نسبيا مقارنة مع دخول العمال ، لمعظم المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي تتعرض لها الطبقات العمالية والكادحة . فالقسم الغالب اذا من الجماهير التي تنتمي الى الطائفة المسيحية تعاني ما تعانيه سائر الجماهير الاخرى . ولكن يدخل ، هنا ، دور ما يسمى بمسألة الاقليات ومخاوفها في ظل غياب طرح ديمقراطي ثوري منسجم ، هذا بالاضافة الى التضليل الايديولوجي الذي تمارسه على هذه الجماهير الفئة الكومبرادورية الطائفية المارونية وعدم جدية العمل اليساري والتقدمي في شن نضال سياسي وايديولوجي لفك عرى التفاف القسم الغالب من الجماهير المسيحية حول هذا الكومبرادور . فقد اكتفى العمل اليساري القائم « بالنضال » الاقتصادي والاجتماعي الاصلاحي دون أن « يزعج » الجماهير بربط هذا النضال بالسياسة من خلال السعي لتغيير وعيها السياسي والايديولوجي وتثويرها في الاتجاه الذي يخدم مصالحها الحقيقية .

الطبيعة الطبقية للنظام الكومبرادوري

ليس التشديد على تعيين الطبيعة الطبقية الكومبرادورية الطائفية للنظام في لبنان بسماتها واشكال تجسدها الخاصة ، مسألة بحت شكلية او ثانوية . والاختلاف في هذه المسألة مع اي طرح آخر ، يحاول ان يذكر رفعا للعتب مجرد اطلاق هذه التسمية بدون رؤية الاشكال والمعضلات النوعية المميزة لهذا الكومبرادور بعلاقتها بالظروف السياسية الراهنة ، انما هو اختلاف يحدد أساسا مسار كافة المسائل السياسية الاخرى المطروحة .

فبعض الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية في لبنان يطلق في تحليله « التصويري » التصنيفي والميكانيكي على الطبيعة الطبقية للنظام ، بأنه نظام كومبرادوري تابع يقوم بدور التوسيط بين السوق الامبريالية وبين السوق العربية. **وكأن الاكتفاء بوصف الدور التاريخي السياسي العام للنظام يغنينا عن تحليل سماته السياسية والاجتماعية المميزة في تطورها ومعضلاتها النوعية في كل مرحلة سياسية** واثرها على تكوين الطبيعة الطبقية المميزة له ، وبالتالي عن طرح الشعارات السياسية الملائمة في مواجهة هذا النظام على أساس من النضال في اتجاه الاطاحة به كهدف استراتيجي . والبعض الآخر من هذه القوى والاحزاب التقدمية يمضي قدما من خلال « افتراض » تحليل شكلي غير مستمد من الفهم التاريخي والطبقي العيني للطبيعة الطبقية للنظام الكومبرادوري اللبناني ، فيصل الى « تعميمات » و« نتائج » عامة يتداخل فيها الفهم اللاتاريخي واللاطبقي مع الامنيات الطيبة (لكن الخاطئة !) ، ومع النظرة الميكانيكية والتحريفية من خلال تضخيم بعض المظاهر التي تعبر عنها الطبيعة الطبقية للوضع المحدد . فنجد عددا من هذه التنظيمات يتحدث عن بعض جوانب وظواهر الوضع الطبقي الاقتصادي والسياسي (مع تضخيمها أو تقليص وزنها لا فرق في النهاية .. ما دام الامر لا يخضع لرؤية علمية طبقية ملموسة ومحددة) لهذه الطبقة باعتبارها جوهرها الاساسي .

فالبعض يتحدث عن « الطغمة المالية » بشكل معزول عن طبيعة الطبقة الكومبرادورية ، وتارة اخرى يجري الحديث عن الطبيعة البرجوازية بشكل عام للطبقة

الحاكمة في لبنان دون تعيين أي فئة من البرجوازيـــة هي المهيمنة على السلطـــة والاقتصاد ، **وما دلالة هذه الهيمنة ؟.. « ويرى » و« الاصح يخمن » التيار الاساسي السائد اليوم في معظم هذه الاحزاب والقوى الوطنية بأن البرجوازية اللبنانية (هكذا بشكل عام) لها مصلحة أساسية في احلال العلاقات الرأسمالية بدل العلاقات ما قبل الرأسمالية بدون تقديم أي دليل سواء بافتراض تباين أو تناقض بين مصالح البرجوازية بوجه عام وبين استمرار هيمنة العلاقات السياسية الطائفية ، أو بافتراض وجود تناقض بين الرأسمالية « الصناعية » في لبنان وبين الكومبرادور وممثليه السياسيين ومؤسساته السياسية .**

« ويرى » البعض ان هناك علاقات انتاج اقتصادية رأسمالية في البلد كل ما ينقصها هو ان تعكس نفسها على صعيد التمثيل السياسي بدل انعلاقات الطائفية و « الاقطاع السياسي » . وتنحصر المسألة ، في النهاية ، برؤية الحل السياسي الوحيد لأزمة النظام القائم عن طريق اجراء الاصلاحات السياسية واحلال العلاقات الرأسمالية والديمقراطية بدل العلاقات الطائفية على أساس مـــن التصور ان هناك احتياجا موضوعيـــا « للرأسمالية اللبنانية » (بدون تعيين أي قسم هو المهيمن منها والمحدد لنمو الاقسام الاخرى) لضرورة تبديـــل العلاقات السابقـــة للرأسمالية بعلاقات رأسماليـــة حديثة ومتطورة .. **ولكن هذه الاحتياجات الموضوعيـــة لم تعبر عنها البرجوازيـــة الكومبرادورية ، لا سيما جناحها الماروني المهيمن ، بل انها تستشرس في رفض ومحاربة أي تعديل للنظام في هذا الاتجاه .**

هكذا نجد ان المراجعة والاصلاحية ، بتلاقيهما مع الفكر القومي البرجوازي الصغير الضيق الافق ، تعبران عن نفسهما دائما بافتقاد التحليل العلمي لطبيعـــة الطبقات القائمة والصراع الطبقي بأشكاله المميزة في مرحلة سياسية معينة ، ففي النهاية ، لا يتم طرح المسألة الجوهرية وهي ضرورة التحضير الثوري لتغيير البنية الطبقية للنظام والقضاء على الكومبرادور التابع للامبريالية واقامة نظام حكم وطني ديمقراطي يؤدي الى تغيير الاساس المادي للتبعية ويعتمد أساسا على تطوير القطاعات المنتجة بصورة مستقلة جذريا عن الامبريالية . وذلك كمسألة راهنة ومستقبلية تمس المصلحة الوطنية والاجتماعية للجماهير الساحقة في لبنان .

والآن ما هي **دلالة تحديدنا لجوهر الطبيعة الطبقية للبرجوازية اللبنانية بأنهـــا برجوازية كومبرادورية** تابعة سواء على صعيد الآفاق المفتوحة أمام تطور البرجوازية الصناعية والزراعية أو **علاقة نظام الكومبرادور بالتمثيل السياسي الطائفي** . وما هو الموقف النظري والسياسي الصحيح من هذه الطبقة الكومبرادورية بوجه عـــام وفي اللحظة السياسية الراهنة بوجه خاص ؟ **وهل هناك حقا علاقات انتـــاج اقتصادية رأسمالية صناعية وزراعية سائدة كما يدعي البعض ؟**

من المعروف ان معظم الدخل القومي في لبنان يتأتى أساسا من قطاع الخدمات (الذي يشكل صلب البرجوازية الكومبرادورية) أي بنسبة تصل الى ما يزيد عـــن ٧٠٪ . سيما ان اتجاه التطور العام كان يميل الى ازدياد وزن قطاع الخدمات . ففي بداية الخمسينات لم يكن يشكل هذا القطاع سوى حوالي ٥٠٪ بالنسبة لمجمل الدخل القومي . **فحين يكون هذا القسم الطفيلي من البرجوازية الكومبرادورية هو المهيمن ،** والوثيق الارتباط العضوي بالعلاقات الاقتصادية والسياسية للامبريالية ، **فان سائر قطاعات الانتاج « الاخرى » تدور في فلك هذه العلاقات والاحتياجات التي يحددها هذا القطاع الكومبرادوري التابع . فالصناعات والزراعات التي تتوسع «ولن نقول تتطور» في**

لبنان هي المرتبطة بالسوق التجاري المحلي والعربي للكومبرادور التابع للامبريالية وليس في مواجهته . هذا بينما الصناعات والزراعات المرتبطة بالتطـور الاقتصادي المستقل غير المرتبط برأس المال الاجنبي ، فان الكومبرادور التابع يحد من نموهـا ويضعفها . نذكر على سبيل المثال زراعة التبغ والشمندر بعلاقتها بالصناعة وعدم نمو الصناعات الهيكلية التأسيسية اللازمة لاضطراد التطور الصناعي كصناعة الحديد والصلب على سبيل المثال .

وبوجه عام نلاحظ انخفاض معدل الدخل المتأتي من الزراعة بالنسبة لمجموع الدخل القومي العام ، حيث هبط مؤخرا الى حوالي ١٠٪ بينما كان قبـل حوالي العشر سنوات ما يقارب ١٥٪ . ففي الوقت الذي نجد فيه انخفاض نسبة الزراعات الغذائية التي تحتاجها الجماهير الشعبية (الحبوب أساسا وبعض الخضار) ، نرى توسعا في الزراعات التجارية التصديرية كالحمضيات مثلا بدون أي موازنة بينهـا وبين الزراعات الغذائية الضرورية الاخرى . وكذلك الحال تقريبا بالنسبة للصناعات ، فالصناعات التحويلية القائمة كالبلاستيـك ، الملبوسات والاقمشة ، الصناعـات التجميعية (ثلاجات ، بوتوغازات الخ ..) والاغذية (كالشوكولاته والبسكويت) الخ.. انما تخضع لاحتياجات التجارة التصديرية المحلية والعربية .

ثم ان حوالي ٤٠٪ من مستلزمات الانتاج الصناعي يتكون من سلع رأسماليـة وسيطة (نصـف مصنعة) مستوردة . كمـا ان المتطلبات والمواد الاساسيـة الضرورية لتطور الزراعة والصناعة ، (مشاريع الري ، البذور والآلات الزراعية والادوية الكيماوية والاسمدة بالنسبة للزراعة .. والمواد الاولية والخبرة التقنية والآلات الصناعية والسلع الوسيطة بالنسبة للصناعة ونوع رأس المال الداخل فيها) ، خاضعة لتحكم الكومبرادور التابع والمرتبط بالسوق الامبريالي العالمي وهو يحد من امكانية نموهما المستقلة ، بل يجعل أي نمو هو نوع من « التوسع » الاقتصادي ضمن اطار الاحتياجات والعلاقات الكومبرادورية نفسها ، وهو توسع اقتصادي كومبرادوري في جوهره اي توسع للسوق الامبريالي ، والتوسع في الصناعة في السنوات الاخيرة في لبنان (ازدادت حصة الصناعة في السنوات الاخيرة بالنسبة للدخل القومي العام زيادة درجية طفيفة مـن ١٢٪ الى حوالي ١٥٪) ، انما يرجع الى عوامل سيـاسية واقتصادية على صلة وثيقة بالمصالح المختلفة للامبريالية في المنطقة . الى جانب ان **هذا التوسع الصناعي** (ولن نقول هنـا أيضا التطور) **يتم ضمن اطار العلاقـات الكومبرادورية ومتطلباتها وليس في مواجهتها** .

فمعظم الصناعيين اللبنانيين هم **تجار اصلا** ، وجدوا انه من المفيد على صعيـد تحقيق ربح افضل واختصار بعض العمليات المكلفة (مصروفات النقل وارتفاع كلفة اليد العاملة في الغرب) لبعض البضائع التي يستوردونها والتي من الممكن القيـام ببعض العمليات غير الاساسية الداخلة من صناعتها في لبنان نفسه وذلك كبعض الصناعات التجميعية وسواها . ثم ان رأس المال الاجنبي في مثل هذه الصناعات الخفيفة له ثقل بارز (شركة الترابة والريجي والالومونيوم وصناعة الادوية .. الخ) كما ان معظم الصناعيين يعملون برأسمال اجنبي . ونوع هذه الصناعات ايضا لا يتعدى نطاق الصناعات الخفيفة اساسا والتي تتم في نطاق العلاقات الكومبرادوية وليس في مواجهتها ، كما هو شأن البرجوازية الوطنية المحلية . سيما ان عددا كبيرا من الصناعات المحلية التحويلية هو مجرد فروع محلية للشركات الصناعية الغربية . ورأس المال المصرفي في لبنان معد اساسا للتوظيف في الخارج فلبنان ليس اكثر من انبوب لمرور بعض الأموال النفطية العربية « والمحلية » الى الغرب الامبريالي .

وراس المال المصرفي في لبنان يحجم ايضا عن تمويل المشاريع المتوسطة والطويلة الامد خاصة الصناعية منها ، اذ انه ينصرف الى العقارات والمشاريع القصيرة الاجل ولا سيما في قطاع الخدمات . والتسليفات المصرفية التي تقدم الى الصناعة والزراعة نسبتها متدنية جدا . بالاضافة الى ان معظم البنوك في لبنان يسيطر عليها رأس المال الاجنبي (بنسبة تتجاوز ٨٠٪) فالصناعة القائمة في لبنان اذا هي جزء من الكومبرادور ومكملة له ، اذ انها تتم في اطار العلاقات الكومبرادورية المهيمنة .

ان نمو الصناعة الفعلي والاقتصاد الوطني المستقل في لبنان مشروط سياسيا بتطور النضال الوطني في اتجاه التحضير للاطاحة بالكومبرادور وسلطته ، اذ ليس هناك اي آفاق لنمو برجوازية صناعية وطنية في ظل النظام القائم ، فبدون توفر هذا الشرط السياسي يصعب الحديث عن تطور تلقائي للجناح « الصناعي » الرأسمالي « الوطني » الضعيف النمو ، من شأنه ان يؤدي الى تكوين البرجوازية المحلية في لبنان المتناقضة المصالح مع الكومبرادور والامبريالية .

والتطور الاقتصادي طوال عشرات السنوات الماضية يتجه لصالح توسع الهيمنة الاقتصادية للكومبرادور ورأس المال الاجنبي . ففي السنوات الاخيرة زادت سيطرة البنوك الاجنبية على القطاع المصرفي وارتفعت حصة قطاع الخدمات من الدخل القومي العام على حساب القطاعات المنتجة . (من حوالي ٥٠٪ من مجمل الدخل القومي العام سنة ١٩٥٠ الى حوالي ٧٠٪ عام ١٩٧٥) .

ثم ان مستوى التناقض بين الرأسمالية « المحلية » او « الوطنية » الصناعية والزراعية وبين الكومبرادور هو تناقض ثانوي وهامشي ولا يعبر عن نفسه بحدة وبوضوح سواء على المستوى السياسي او الاقتصادي . **فالعلاقة بين القطاع الكومبرادوري المهيمن وبين البرجوازية « الصناعية » مثلا ، هي علاقة تكامل وظيفي تسير في اتجاه تبعي لصالح توسيع وتوطيد ركائز الكومبرادور المهيمن وضمن اطار علاقاته وعلى ارض الشروط والاحتياجات التي يحددها .**

وهذه العلاقات والشروط التي يحددها الكومبرادور ترتبط اوثق الارتباط بالتبعية شبه المطلقة للامبريالية . **ان بعض التعارضات القائمة بين الكومبرادور والقطاع « الصناعي » هي تعارضات ضمن اطار العلاقات الكومبرادورية المهيمنة ، حيث يتم حلها لصالح توسع واضطراد سيطرة هذه العلاقات الاخيرة وليس ضربها .**
ثم اين هم ممثلو « البرجوازية » التي يتكلم عنها بعض الاحزاب اليسارية ؟ هكذا بشكل عام ، بدون تحديد نوع الشريحة الطبقية المسيطرة . هل هي البرجوازية الكومبرادورية ام البرجوازية المحلية الصناعية والزراعية ، ام كلاهما معا ؟ او على الاقل أين هم ممثلو البرجوازية « الصناعية » او « المستنيرة » او « الوطنية » كما يطلق البعض احيانا عليها ، هل هو « اليمين الذكي » ممثلا في اشخاص امثال تويني واده وكرامي وفرعون الخ ..؟

اين الحزب او التجمع السياسي الذي يعبر عنه هذا الاتجاه وما هي وجهة نظره السياسية والاقتصادية ؟

الواقع ان « مرونة » او « ليبرالية » و « اصلاحية » بعض ممثلي اجنحة البرجوازية الكومبرادورية تجاه عدد من القضايا ، (عدا كونها لا تجد ارضا خصبة للاستجابة السياسية والاقتصادية داخل النظام ولا تعبر عن اتجاهاته العميقة ، كما لا تدل على وجود برجوازية « وطنية » لها وجهة نظرها المستقلة) ، انما هي

تعبيرات سياسية مبعثرة — غير ذات وزن في مجرى السياسة التي ينهجها النظام ، وتنبع كل اهميتها السياسية من كونها تعبيرا عن حدة التناقضات التي يواجهها النظام ، ولا سيما لجهة عدم قدرته على حسم التناقض لصالحه في مواجهة الحركة الوطنية والشعبية والمقاومة الفلسطينية . وتفسير مواقف هذه العناصر و «الاتجاهات» « المستنيرة » انما يعود الى النمو الاقتصادي والسياسي المشوه وغير المتوازن للفئات التي يتشكل منها الكومبرادور . فهي تعظ وتحاول جاهدة لتوحيد الفئات المختلفة للكومبرادور ذات الانتماء الطائفي والسياسي غير المتجانس من اجل وضعها امام اتباع سياسة موحدة وقوية لمواجهة المخاطر الفعلية التي تهدد النظام ككل ، عن طريق القيام « بثورة » « دستورية » « من فوق » ومشاركة فئات الكومبرادور المختلفة في السلطة والاقتصار بصورة اكثر توازنا وتجانسا . واجراء بعض الاصلاحات السياسية والادارية اللازمة لهذه العملية بهدف مواجهة الحركة الشعبية والقوى الوطنية والمقاومة الفلسطينية **اساسا** بفعالية اكبر . وفي اللحظات او المواجهات الحاسمة التي يخوضها النظام الكومبرادوري تقف هذه العناصر و « الاتجاهات » بأشكال مختلفة ، الى جانب النظام وتوظف « مرونتها » و « ليبراليتها » الزائفة لتمييع طبيعة الصراع الفعلية ولتجميل وجه النظام وتبرير مواقفه وطبيعته المعادية للمصالح الفعلية للجماهير في شتى المجالات .

ان جذر الاوهام التي تخترع اسسا اقتصادية طبقية للاتجاهات السياسية المختلفة « للرأسمالية » اللبنانية ، وفي تفسيرها بطبيعة الازمة الراهنة لكي تناسب التصورات غير العلمية التي تحملها في ذهنها معظم الاحزاب والقوى اليسارية اللبنانية ، انما تنبع من مسألة « افتراضية » غير واقعية ، وهي **التصور بأن هناك تطورا برجوازيا محليا وطنيا ادى الى احلال اسلوب الانتاج الرأسمالي (اي علاقات الانتاج الرأسمالية) بدل العلاقات ما قبل الرأسمالية** ، العلاقات الاقطاعية والحرفية الخ . وهذا مما يستدعي ضرورة احلال هذه العلاقات على صعيد البناء الفوقي والتمثيل السياسي للبرجوازية بدل العلاقات ما قبل الرأسمالية في الحكم : « الاقطاع السياسي » والعلاقات الطائفية والعائلية في المؤسسات السياسية والادارية للنظام ، هذه العلاقات التي ما زالت مسيطرة بحكم قوة ودور القوى « الانعزالية » و « الوراثة » و « الجمود الفكري » و « التخلف السياسي » الخ ..

ان طرح المسألة على هذا المنوال غير صحيح من الوجهتين الواقعية والعلمية ويؤدي بالتالي الى اخطاء استراتيجية وتكتيكية فادحة الاضرار بمسيرة النضال الثوري في لبنان .

ان جوهر المسألة ، ان هناك توسعا للكومبرادور منذ الخمسينات ادى الى سيطرته مؤخرا على مجمل السوق الداخلي في لبنان وهذا التوسع لم ينتج علاقات رأسمالية جديدة ، بل تم من خلال العلاقات الاقطاعية الطائفية والعشائرية والعائلية القائمة . فهذا التوسع غير مرتبط بتطور اسلوب الانتاج الرأسمالي (الصناعي والزراعي) ، بل بارتهان السوق والاقتصاد اللبناني برمته بالسوق الامبريالي ، وذلك بالضبط على حساب تطور اسلوب الانتاج الراسمالي نفسه من خلال تحطيم والحاق القطاعات المنتجة والقضاء على اي امكانية للنمو المستقل لها بمعزل عن العلاقات التي يحددها الكومبرادور المهيمن من خلال الارتباط العضوي الوثيق بآلية السوق الامبريالي نفسه .

فرأس المال الكومبرادوري التجاري الوسيط لا يعمل لاقامة قاعدة انتاج رأسمالية

محلية مستقلة . بل انه يعمل وهو المهيمن الرئيسي على الاقتصاد والسلطة على استمرار غياب قاعدة مادية حقيقية لرأسمالية محلية منتجة ، وبالتالي يجعل اسلوب الانتاج الرأسمالي اي علاقات الانتاج الراسمالية محدودة التأثير والوزن ضمن اطار العلاقات البرجوازية الكومبرادورية المهيمنة .

السمات الطبقية المميزة للكومبرادور اللبناني

لا حاجة بنا الى تكرار ما اوردناه سابقا عن الطبيعة العامة للكومبرادور اللبناني باعتبارها حلقة وسيطة عميلة (وكيل) لتسهل استمرار علاقات التبعية للامبريالية بالمنطقة العربية ولبنان ، دون ان تكون هي نفسها جزءا منتجا يتمتع بسوقه الخاص (ضمن اطار التبعية الامبريالية مع ذلك ولكنها تكون في هذه الحالة مختلفة كيفيا عن نموذج التبعيـــة الكمبرادوري) ، انها بمثابة الوكيل الذي يقوم بتصريف مصالـح وسلع غيره اساسا دون ان يشترك هو نفسه في انتاج هذه المصالح او السلع .

لكن من الاهمية السياسية والعلمية بمكان ابراز السمات الطبقية السياسية المميزة لهذا الكومبرادور لكونها تساهم في تفسير عدد من القضايا والمواقـف المرتبطة بالنظام في الازمة الراهنة .

النمو المشوه وعدم تجانس فئات الكومبرادور وصلته بالطائفية

لقد نمت طبقة الكومبرادور اللبناني بوجه عام على أساس من علاقات التبعية بالغرب الامبريالي . ولكن ما يميز الكومبرادور اللبناني ، هنا ، ان الشكـل والتطور التاريخي لفئات الكومبرادور قد نما ، بوتائر مختلفة انطلاقا من خصوصية التكوين السياسي والطائفي للبنان الصغير في البداية ، ثم لبنان الكبير ، فيما بعد ، بعلاقته الوطيدة بتغلغل النفوذ الاستعماري وتنافسه في المنطقة . فقد اتاح الانتداب الفرنسي توطيد الدعائم السياسية والاقتصادية للكومبرادوريين الموارنة الذين تشكلوا من خلال العلاقة بفرنسا خاصة والغرب الامبريالي عامة . فسيطرت هــذه الشريحة مـــن الكومبرادور ، كما ذكرنا سابقا ، على المواقع الرئيسية في السلطة والاقتصاد التابع ابان الانتداب وبعده . ثم بدأ الكومبرادوريون الدروز والسنة يتشكلون ابان مرحلة الانتداب الفرنسي وبعده ، ولكن وزنهم الاقتصادي والسياسي ظل ما دون الوزن الذي يحتله الكومبرادوريون الموارنة . وفي مرحلة الستينات بدأ صعود الكومبرادوريين الشيعـــة ، بعد تزايد ارتباط مناطـق الجنوب والبقـــاع ببيروت وتوسع السوق الكومبرادوري وتوطده في هذه المناطق ، وعودة عدد كبير من المهاجرين الشيعة الذين انصرفوا الى توظيف اموالهم بشكل اساسي في قطاع الخدمات المهيمن في لبنان اي في العقارات والمصارف والاعمال التجارية وزراعة الحمضيات المرتبطة ، من الزاوية الرئيسية ، بالكومبرادور وليس بالصناعة ، وقد اخذ يبحث لنفسه عن تمثيل سياسي جديد يوحد الكومبرادوريين الشيعـــة بشكل مستقل نسبيا خارج علاقات التبعيـــة التي كان ينسجها معظم الزعماء الشيعة تحت زعامة الكومبرادور الماروني . وقد كان لا بد لهذا التمثيل الجديد المستقل نسبيا ، من خلال زعامة الصدر ، ان يتخذ طابع العلاقات الطائفية السائدة ويعتمد عليها ليحسن من مواقع فئـــة الكومبرادور الشيعي الاقتصادية والسياسية .

والواقع ان مختلف شرائح الكومبرادور اللبناني تجتهد اما للاحتفاظ بمواقعهـــا السياسية والاقتصادية او لتحسين هذه المواقع اعتمادا على العلاقات الطائفية القائمة. **والسبب اساسا في ذلك لا يعود ، كما يحاول ان يروج بعض ادعياء الفهم التاريخـــي**

الشكلي الى جذور الحوادث الطائفية قبل ما يزيد عن مئة عام (رغـم اهمية هذا الجانب) ، بل الى الطبيعة الطبقية العامة للكومبرادور . هذه الطبيعة التي تتناقض وتحد من نمـو قوى وعلاقات الانتاج الرأسمالي في حال هيمنتها على الاقتصـاد والسلطة . فعـدم نمو علاقات الانتاج الرأسمالية وسيادتها ادى الى استمـرار العلاقات القديمة ما قبل الرأسمالية (خاصة العلاقات الطائفية في الوضع اللبناني) والى تقويتها ايضا في سياق الحفاظ على النظام القائم .

فلم يكن قدرا لا فكاك منه ان تستمر قوة العلاقات ما قبل الرأسمالية (لا سيما الطائفية منها) لو ان مسار التطور الرأسمالي قد اتخذ طابعا مستقلا نسبيا عـن الامبريالية مكن من نمو الرأسمالية المحلية ، كما هو الحال بالنسبة لعدد من البلـدان العربية الاخرى (مصر سوريا .. الخ) .

ان تقدم اسلوب الانتاج الرأسمالي وسيادته من شأنه أن يهيء الشروط الموضوعية لازاحة العلاقات الاقطاعية والعائلية والطائفية والعشائرية ويضعها في حيز ضيـق هامشي التأثير على مجمل العلاقات الاجتماعية السائدة ، بصرف النظر عـن الاصول الطائفية للبرجوازية المحلية القائمة .

فلا ينبغي ، اذا ، الكلام بشكل مطلق عن الطائفية كظاهرة تاريخية ، لا تتزحزح او تتغير ، بل ينبغي ربط مسألة استمرارها او زوالها بالطبيعة الطبقية للنظـام الاقتصادي الاجتماعي والسياسي القائم . اي هل هو نظام يعمل على تطوير القـوى المنتجة وبالتالي علاقات الانتاج ، ام انه يعمل على اعاقة ذلك او وضعه في اضيـق الحدود المكنة . **فالشكل الاجتماعي السياسي لاي نظام طبقي ينبغي أن يتطابـق ويتفق ومستوى تطور القوى المنتجة القائمة في مرحلة تاريخية معينة .**

واذا كان التشكل التاريخي للكومبرادور في لبنان بعلاقته بتغلغل السيطرة والنفوذ الامبريالي في لبنان والمناطق العربية قد ادى الى استئثار وسيطرة الكومبرادوريين الموارنة على المراكز الحساسة في السلطة السياسية للكومبرادور ، فان هذه السلطة قد تحولت الى موقع لتقوية نفوذ وسيطرة الكومبرادوريين الموارنة على السلطـة والاقتصاد ايضا . وهذه السيطرة قد اكتسبت في الشكل وليس في المضمون (المضمون هنا هو عدم سيادة اسلوب الانتاج الرأسمالي ، اي علاقات الانتاج الرأسمالية التي تشكل الاساس المادي لتصفية العلاقات ما قبل الرأسمالية) طابعا معينا بادعاء ممثلي الكومبرادور الماروني بأنهم يمثلون الطائفة الاكثر عددا ، ولكونهم ارتضوا حسـب ميثاق ١٩٤٣ استبدال الحماية الاجنبية بالاستقلال الوطني ، وهذا مما يملي الاقـرار بالضمانات والامتيازات السياسية القائمة للمسيحيين (!) والقضاء عـلى مخاوفهم كأقلية مميزة تخشى الاندماج والوحدة وسط محيط عربي اسلامي .. وكل ذلك مـن اجل استمرار هيمنتهم على المواقع الحساسة في السلطة والاقتصاد .

أن هذا الادعاء التمثيلي للكومبرادور الماروني لعموم المسيحيين قد شجع ادعـاء تمثيليا اخر بالمقابل لدى فئات الكومبرادور الاخرى ذات الانتماء الاسلامـي التـي اخذت تستخدم العلاقات الطائفية القائمة ، على اساس من عدم تطور اسلـوب الانتاج الرأسمالي ، كقوة ضغط سياسية للحصول على حصه او « مشاركة » اكبر في السلطة السياسية والمواقع الاقتصادية .

وهكذا تعمل فئات الكومبرادور اللبناني حسب انتمائها الطائفي على كسب تأييـد « الراي العام » لديها لدعمنفوذها في مواجهة الفئات الاخرى .ويتشكل « الرأي العام»

اساسا من الفئات البرجوازية الصغيرة والمتوسطة (الطامحة للصعود الى مواقع الكومبرادور) ومن الجماهير الكادحة المسيحية والاسلامية . التي يتفاوت وعيها تجاه القضايا المختلفة تبعا للتربية السياسية والتأثير الايديولوجي . فالجماهير الغفيرة من المسيحيين يتم تأليبها أيديولوجيا حول الكومبرادور الماروني والمسيحي بوجه عام ، من خلال ادعاء المحافظة على « الطابع المسيحي » للدولة اللبنانية واثارة مشاعر الخوف لدى هذه الاقليات .

اما ممثلو الكومبرادور المسلم فانهم يعملون على تأليب الفئات البرجوازية الصغيرة والمتوسطة وجمهور واسع من المسلمين حولهم من خلال الحديث عن « الغبن » و « الظلم » الواقع على المسلمين عموما (!) مقابل الامتيازات التي يتمتع بها المسيحيون عامة (!) .وبعض هؤلاء الممثلين يذهب الى حد القول بوجود طوائف محرومة برمتها !

الا ان انتشار الحركة الوطنية والتقدمية الديمقراطية ، بصورة اوسع ، وسط الجماهير ذات الانتماء الاسلامي وارتباطها الوثيق بقضايا الصراع الوطني والطبقي في المنطقة العربية ، قد وضع عائقا كبيرا امام قدرة الكومبرادور المسلم على لجم واحتواء الحركة اشعبية والوطنية .

وسنبين فيما بعد اثر هذا الوضع على المواقف السياسية للكومبرادور المسلم وكذلك لجهة عدم وجود مناخ ملائم لنمو الاتجاهات الفاشية العسكرية السافرة وسط هذا الكومبرادور بالذات في هذه المرحلة .

والسمة التي اردنا ابرازها ، هنا ، ان الطائفية هي ايديولوجية فئات الكومبرادور اللبناني المختلفة ، لكنها ايديولوجية تتفاعل على ارض عدم تجانس هذا الكومبرادور نفسه ، وذلك تبعا لتباين نشأته التاريخية ووزن فئاته داخل النظام ووضع القاعدة الاجتماعية والسياسية التي يسعى لتمثيلها . وهي ايديولوجية بتقرر استمرارها نتيجة عدم سيادة علاقات الانتاج الراسمالية بفعل ضعف البرجوازية المحلية القومية.

النمو المشوه للكومبرادور

ان الكومبرادور اللبناني كطبقة اجتماعية مشوهة النمو هو طبقة غير متجانسة او مترابطة بصورة عضوية على صعيد العلاقات الاقتصادية اليومية ، وبفعل تنوع القاعدة الاجتماعية والثقافية التي تقوم عليها .

ولكن هذا لا يعني ان هذه الطبقة هي غير مترابطة المصالح من الناحية الاساسية. فكل فئات الكومبرادور المختلفة تجمعها المصلحة العامة للطبقة من اجل المحافظة على النظام . الا ان الوضع السابق ذكره يؤدي الى ان التناقضات بين فئات الطبقة الكمبرادورية نفسها ، تأخذ شكل الصراع الطائفي .

ان كل طبقة هي مترابطة المصالح من الزاوية الاساسية ، في نهاية المطاف ؛ ولكن شتان بين ترابط المصالح من طبقة الى اخرى .

ان البرجوازية الصناعية ، مثلا ، بقاعدتها المادية العريضة ومؤسساتها الكبيرة تمكن من وضع الشروط المادية لتوحيد شرائح البرجوازية في طبقة برجوازية قومية موحدة ، مندمجة ومترابطة فيما بين فروعها المختلفة ترابطا عضويا ومن ثم ينعكس ذلك على مختلف الطبقات الاخرى ، حيث يختفي الطابع المحلي والفئوي القائم على

اساس ديني او اي اساس آخر . هـذا بينما الكمبرادور كطبقة طفيلية مفككة الاوصال ، ومعتمدة على المشروع الفردي والعائلي اساسا لا تمكن من حدوث تداخل واندماج كافة فروع الاقتصاد في نظام مترابط . وهذا مما يضع الاساس الموضوعي لاستمرار الانقسام الطائفي الذي تعمق في عهود الاقطاع ، حيث اخذ في لبنان سمة التفتت الشديد كغيره من اجزاء سوريا . ولكن التطور الراسمالي والقاعدة الراسمالية الانتاجية المتطورة نسبيا في سوريا الحالية قـد نسفت ، الى حـد كبير ، الاسس الموضوعية لاستمرار الانقسام الطائفي .

ان الطابع الكمبرادوري الطائفي للبرجوازية اللبنانية لا يقتصر على هذا فحسب بل يمتد تأثيره الى جهاز الدولة ، جاعلا منه جهازا متعدد الولاءات ، ولا يتمتع بهذا القدر من الاستقلال النسبي الذي نجده في نظام راسمالي متطور ومنتج . فنحن نجـد ان كثيرا من عناصر الطبقة تمثل نفسها بشكل مباشر في قمم جهاز الدولة والسلطة السياسية ، بل ان الحصول على هذا الموقع او ذاك ، او هذا المركز او ذاك يكـون سببا في تعاظم الثروات بالاستفادة من التسهيلات التي يتم الحصول عليها للقيام بأعمال الوكالة والسمسرة . وبينما من المفروض ان يعمل جهاز الدولة في مجتمع قائم على الحد الادنى من قاعدة راسمالية انتاجية ، كجهاز بيروقراطي موحد وممركز ، على دمج وصهر وتوحيد مختلف فئات الطبقة سـواء في داخـل آلته المركزية الضخمة كمؤسسة كبرى ، او سواء بتأثيره على مختلف نواحي الحياة الاقتصادية الاجتماعية .

ولكن ، هناك من لا يزال يحلم ويتوقع من طبقة كمبرادورية غير متجانسة ومفتتة من انشاء دولة برجوازية « عصرية » مركزية !!

جهاز الدولة الكمبرادوري

يمتاز دور الدولة « السلطة » في المجتمع البرجوازي عموما حيث تسود علاقـات الانتاج البرجوازية باستقلال نسبي اكبر عن الطبقة الحاكمة نفسها ، كمـا هو عليه حال الدولة في المجتمعات السابقة عليه. فتطور تقسيم العمل في ظل المجتمع البرجوازي بعكس نفسه على الطبقة الحاكمة ومؤسسات الدولة . فيصبح دور الدولة اكثـر مركزية وتدخلا في الحياة الاجتماعية الاقتصادية والسياسية هذا بينما جهاز الدولة في المجتمعات السابقة على الراسمالية هو اقل استقلالا ومركزية .

وفي لبنان حيث تهيمن طبقة الكومبرادور وتسود علاقات السوق ، التي تختلف تماما عن سيادة اسلوب الانتاج الراسمالي الذي يتطلب في الاساس قيام قاعدة راسمالية انتاجية ، فان هذا يعكس نفسه ايضا على بنية الطبقة وجهاز الدولة وطبقات المجتمع الاخرى . فنجد ان مؤسسات واجهزة الدولة غير منفصلة بصورة عقلانية ومستقلة نسبيا عن العلاقات الطائفية المسيطرة . **فالدولة هنا هي دولة ذات سمات طائفيـة حيث يحتل الكومبرادور الماروني عددا من المراكز الحساسة في قمة السلطة والسلك الاداري ، هذا في الوقت الذي تسعى فئات الكومبرادور الاخرى لتحسين مواقعهـا السياسية والادارية ذات السمة الطائفية في جهاز الدولة ،ايضا ، مما يفقد جهاز الدولة في اكثر مـن مجال القدرة عـلى التجانس والتصرف باستقلال نسبي عن الطبقـة الكومبرادورية الحاكمة** بوجه عام ، والفئة الكومبرادورية المارونية المهيمنة بشكـل خاص .

ويشكل هذا الوضع الارض الموضوعية للحديث عن « انحياز » الدولة اللبنانيـة لهذه الفئة الطائفية او تلك ، بينما الانحياز الفعلي لا الشكلي هو لمصالح هذه الفئة من

الكومبرادور او تلك . علما بأن الدولة من اي مجتمع طبقي هي منحازة في الاساس الى الطبقة المسيطرة .

الا ان **الانحياز هنا هو انحياز عام وخاص** ، انحياز عام للمصالح الاقتصادية والسياسية **لمجموع فئات وشرائح الطبقة عند اي تهديد جدي من الحركة الشعبية** وانحياز خاص لهذه الفئة من الكومبرادور الماروني في **مخططها لمواجهة الطبقات** الشعبية والقوى الوطنية من جهة . **وللحد قدر الامكان من محاولات الفئات والشرائح** الاخرى من الكومبرادور من اجل تحسين مواقعها في **السلطة والاقتصاد** .

التمثيل السياسي لفئات الكومبرادور وصلته بالتعايش مع العلاقات ما قبل الرأسمالية

ثمة فصل تعسفي يضعه عدد من الاحزاب والقوى اليسارية اللبنانية بين ما نطلق عليه سيطرة وسيادة العلاقات الراسمالية اقتصاديا وبين التمثيل السياسي « للبرجوازية » من خلال « الاقطاع السياسي » . وذلك الى حد القول ان هنـاك نناقضا قائما لا بد من حسمه ، في هذا المجال ، لصالح ان تتمكن « البرجوازية الكبيرة» من الحكم سياسيا من خلال ممثليها « الفعليين » . « **فالاقطاع السياسي** » الـذي يحكم اليوم هو بمثابة « وكيل » « البرجوازية » في **السلطة ويقوم « بالانتفاع » على** حسابها .. هذا بينما « البرجوازية » المخدوعة الساذجة غافلة عن هذا الامر بانتظار من يقوم بارشادها لكي ترعى تمثيل مصالحها بنفسها ، بصورة افضل ، بعيدا عن تحكم « وتسلط » الاقطاع السياسي !

ولا تقدم هذه الاحزاب ، بالطبع اي تفسير لاسباب استمرار هيمنة « الاقطاع السياسي » ، رغم « النمو الرأسمالي » المزعوم ، سوى « بالتحكم » الذي يمارسه « الاقطاع السياسي » من خلال « التركيبات الموروثة عن مرحلة ما قبل الراسمالية »!
فقوة الاشكال الاجتماعية القديمة « الموروثة » هي وحدها التي تفسر ، هنا ، استمرار تسلط زعماء « الاقطاع السياسي » على السلطة السياسية ..

والواقع ان افتراض وجود «نمو رأسمالي » ادى الى « سيادة العلاقات الراسمالية اقتصاديا داخل المجتمع اللبناني » ، هو سبب الانحراف هنا من خلال « تصور » وجود علاقة عدم تطابق بين البناء التحتي والبناء الفوقي « للبرجوازية » . علما ان **هكذا نمط من البنية الاقتصادية الاجتماعية التحتية المشوهة ينبغي ان يتطابق معها هذا النوع من التمثيل السياسي القائم** .

ان الطابع السياسي الاساسي المميز للكومبرادور اللبناني ، انه يحكم من خلال العلاقات الاقطاعية الابوية القديمة الما قبل رأسمالية . فالكومبرادور بطبيعته الطبقية غير معاد للعلاقات ما قبل الرأسمالية ، بل انه يتعايش معها ويوطد دعائمها في احيان كثيرة . فهو يدعم في لبنان العلاقات الطائفية ويعتمد عليها من اجل استمرار نظامه السياسي .

ولقد تمثلت البرجوازية الكومبرادورية اللبنانية المشوهة النمو والمفتتة ، وذات النشأة التاريخية والاصول الاجتماعية والطائفية المتباينة في منطقة (١) لم يتبلور فيها الاقطاع القومي ويوحد نفسه من خلال دوله مركزية موحدة (٢) ارتبط فيها تغلغل النفوذ الاستعماري بالاعتماد على التكتلات الاجتماعية العشائرية والطائفية والاقليات القومية والدينية محاولا توظيفها لخدمة سياسته، تمثلت هذه البرجوازية الكومبرادورية

من خلال ما يسمى « بالاقطاع السياسي » اي بأفراد الزعامات الاقطاعية والعشائرية والوجهاء واصحاب النفوذ السياسي ضمن تشكيلة اجتماعية سابقة على مرحلة التطور الرأسمالية .

ومنذ اللحظة التي اصبح فيها اولئك الزعماء والوجهاء في واجهة التمثيل السياسي للنظام فانهم لم يعودوا اساسا ، من الناحية الموضوعية ، يمثلون الاقطاع بل طبيعة النظام السياسي الجديد للكومبرادور .

وليس هناك اي تناقض على الاطلاق بين هذا التمثيل السياسي النوعي وبين مصالح البرجوازية الكومبرادورية . فزعماء الاقطاع السابقين لا يمثلون ، الان ، العلاقات ما قبل الرأسمالية ، بل انهم يمثلون نظرا لغياب اسلوب الانتاج الرأسمالي المختلف جذريا عن توسع السوق الامبريالية في لبنان (من خلال هيمنة الكومبرادور) ، البرجوازية الكومبرادورية نفسها من الزاوية الاساسية . وهذه الطبقة ليس كما يقول بعض التحليلات « اليسارية » ممثلة سياسيا ما دون نفوذها الاقتصادي !

ويبدو ان الفهم السطحي اللفظي للطبيعة الطبقية الكومبرادورية للنظام هي التي تسمح باطلاق مثل هذه التصورات المثالية بدل التحليل العلمي للواقع . هذا التحليل الذي يبين عدم هيمنة اسلوب الانتاج الرأسمالي بفعل ضعف نمو البرجوازية القومية المحلية .

اما التناقضات الثانوية التي تنشأ بين التمثيل السياسي القائم للكومبرادور وبين بنيته التحتية فانها تملي ضرورة تكييف وتطوير اجهزة الحكم والادارة تكييفا يساهم في التخلص من بعض الاجراءات والتعقيدات الروتينية الادارية وتحسين مستوى المرافق الحيوية (الميناء والمطار والطرق العامة الخ) . كما ان الاتجاه العام الذي تصب فيه هو المزيد من احكام قبضة الكومبرادور سياسيا واقتصاديا .

والجدير بالاشارة ، هنا ، ان معظم تحليلات الاحزاب والقوى الوطنية اللبنانية تخلط بين **تطور** ونمو الراسمالية المحلية وبين **توسع** السوق الرأسمالية التجارية وذلك في مرحلة الازدهار الذهبي للكومبرادور اللبناني في الخمسينات والسنينات . فالبعض يجد في **الشهابية** تعبيرا « موضوعيا » عن وجود ميل لدى « البرجوازية الكبيرة » لتمثيل نفسها سياسيا بشكل مستقل بعيدا عن وصاية « وتسلط » « الاقطاع السياسي » . فهم يفسرون الاجراءات الشهابية من محاولات « تحديث » الادارة وشق الطرقات الجديدة وتحسين شبكة المرافق الحيوية العامة الى توسيع التعليم وتعميم بعض مؤسسات الخدمة الاجتماعية والصحية والقيام بعدد من « المشروعات » الاقتصادية المرتبطة أساسا بالكومبرادور ، بأنها تعبير عن هذا الاتجاه . وهم لا يعنيهم ، بالطبع ، البحث في تاريخ النشأة السياسية والاجتماعية للظاهرة الشهابية واسباب « فشلها » .

فالشهابية جاءت في ظروف مميزة اثر حوادث عام ١٩٥٨ حيث وقف الكومبرادور اللبناني بجناحه الماروني المهيمن مع مشروع ايزنهاور ومعاداة حركة التحرر الوطني العربية المناهضة للامبريالية تحت قيادة البرجوازيات العربية القومية .

وقد اكسب الموقف « الحيادي » للشهابية من الصراع الداخلي في لبنان وفي المنطقة وزنا سياسيا مقبولا من الاطراف المتصارعة . مما اعطاها زخما وقدرة على الاستقلال السياسي النسبي بمعزل عن التأثير المباشر للزعماء السياسيين من جهة ، والى

انتهاج سياسة « متوازنة » « عاقلة » بين البرجوازيات العربية القومية وبين الرجعية العربية والامبريالية الامريكية ، من جهة ثانية . ولقد اعتمدت الشهابية في سيطرتها على الاجهزة العسكرية والولاء السياسي لها من قبل عدد كبير من الزعماء السياسيين . وذلك في مرحله كانت البرجوازيه الكومبرادورية فيها في اوج واهم اطوار ازدهارها الاقتصادي واحتياجها الى الموظفين والكوادر الفنية وتوسيع سوقها الداخلي .

الا ان نجم هذه المحاولة ، كلحظة مؤقتة ، ما لبث ان ذوى بفعل انتهاء الظروف السياسية الداخلية والخارجية التي جاءت بها وجمود مرحلة الازدهار الاقتصادي . كما ان نمو الحركة الوطنية والشعبية ودخول المقاومة الفلسطينية ساهم في انتهائها ، حيث اتخذت الشهابية موقفا معاديا ينسجم مع المصالح الطبقية الكومبرادورية التي مثلتها في مرحلة معينة . **فقد حاولت الشهابية خلق مركز مستقل في السلطة والدولة يلعب دور المخفف من احتدام التناقضات بين فئات الكومبرادور المختلفة . وذلك في ظل ظروف سياسية ونوعية محددة .**

اما **التناقض الاساسي** الناشيء ، **اليوم** ، بين الطبقة الكومبرادورية بصفة عامة وبين اوسع الجماهير الشعبية فانه **لا يمكن خلطه او وضع نقاط تطابق بينه وبين اي مستوى آخر من مستويات التناقض الاخرى في الواقع اللبناني .**

طبيعي نحن لا ننكر ان الشكل الحالي للسلطة اسياسية للنظام تحت سيطرة الجناح الماروني انما يشكل عائقا سياسيا امام قدرة الطبقة الكومبرادورية الحاكمة على اتخاذ المواقف والقرارات الحازمة في مواجهة الحركة الشعبية . وازاء تفاقم الازمة التي يعاني منها هذا النظام ، في اللحظة الراهنة ، فاننا لا نستبعد ادخال بعض « التعديلات » على نسبة التمثيل السياسي لشرائح الكومبرادور في مؤسسات السلطة . اي تحسين شروط « المشاركة » في السلطة السياسية لفئات الكومبرادور ذات الانتماء الطائفي الاسلامي . اذ ان هذا الامر قد يساهم سياسيا في تحسين شروط مواجهة النظام للحركة الشعبية والقوى الوطنية والمقاومة الفلسطينية ؛ في مرحلة لاحقة ، بصورة اكثر انسجاما مما هو عليه واقع الحال اليوم ، وفي ظل ظروف عربية اكثر مواءمة .

ولكن هذا الوضع لن يرقى الى مستوى تغيير شكل الحكم .

ان مثل هذا التغيير الذي يحلم به الاصلاحيون في ساحة لبنان الساخنة ، ليس على الاطلاق من قبيل الاحتياجات الموضوعية لتطور الطبقة البرجوازية الصناعية المزعومة !

اما حين تأخذ الجماهير على عاتقها التغيير فهي ستسير في طريق آخر تماما .

ان ما سوف يتم من تعديلات سياسية ضمن نطاق سلطة الكومبرادور لن يتعدى اطار ومضمون العلاقات الطائفية في مرحلة وصلت فيها هذه الطبقة في ظل الازمة الراهنة ، بقيادة جناحها الماروني المهيمن ، الى مأزق خطر في مواجهة الحركة الشعبية والوطنية بات يهدد وجود نظامها نفسه . وبالطبع فان اي تعديل او « اصلاح » في نسبة التمثيل السياسي لفئات الكومبرادور في مؤسسات السلطة ، سيأخذ بعين الاعتبار محاولة اطفاء بعض نيران النقمة الشعبية والوطنية .

ان الاصلاحات الاقتصادية والسياسية الممكنة التي قد يلجأ اليها النظام ، وتحت الضغط الشعبي ، لن تمس جوهر السيطرة السياسية الكومبرادور . فاذا لم تبادر القوى والاحزاب الوطنية والثورية الى اخذ زمام المبادرة السياسية والاستعداد للمواجهة على ضوء مختلف الشروط والمعطيات الجديدة التي يمكن للنظام ان يضعها امام الحركة الشعبية . سيما انه بعد الحوادث الدامية الاخيرة والاستقطاب السياسي الحاد الذي تولد عنها وبروز الاتجاه الفاشي الطائفي لدى الكومبرادور الماروني المهيمن ، سيضعف مجال المناورة السياسية امام النظام على مختلف الصعد . ولكن ذلك مرهون ، بالفعل ، بطرح الشعارات الملائمة ، للمرحلة القادمة ، والتحضير الثوري لها .

عمق الازمة الراهنة

هناك اختلاف رئيسي بين الازمة الراهنة التي يمر بها هذا النظام الكومبرادوري وبين ازمة عام ١٩٥٨ . ففي تلك المرحلة لم يكن صعود حركة التحرر الوطني بقيادة البرجوازيات القومية العربية ليسمح باعطاء الاتجاه الفاشي الكومبرادوري الطائفي اي مجال للتنفس والتعبير السياسي بنفس الحده والشراسة الدموية الحالية . خاصة ان النظام الكومبرادوري في تلك الاونة كان في اوج ازدهاره وتوسعه . فلم يكن قطاع الخدمات قد وصل الى مرحلة الاشباع التي وصل اليها اليوم، بحيث أصبحت قدرته على استيعاب اعداد كبيرة من الموظفين والمستخدمين والعاملين ضعيفة للغاية. ثم ان هكذا نظام كومبرادوري تابع تؤثر فيه الازمة الراسمالية العالمية بشكل حاد وتنعكس اثارها المباشرة (تضخم وغلاء الخ) على اوضاع ومستوى معيشة الجماهير اللبنانية الكادحة والبرجوازية الصغيرة والمتوسطة . كما ان نمو وصعود الحركة الوطنية الديمقراطية بدأ يأخذ وزنا جديدا في الحياة السياسية في لبنان ، وذلك في ظل التواجد الثوري المسلح للمقاومة الفلسطينية .

وقد بدأت تنفضح اكثر فأكثر الطبيعة الطبقية للنظام الكومبرادوري التابع المعادية للوطنية ازاء استحالة قيامه بالتصدي للاعتداءات الاسرائيلية المتكررة .

وقد ادى تعاظم قوى المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية الى وصول التناقض مع النظام الى حالة من التفجر والاحتدام الحاد ، مما شكل عاملا موضوعيا لبعث القوى الفاشية للنظام للدفاع عن الخطر الذي يتهدده ككل . **وقد بادرت القوى الفاشية المرتبطة اساسا بالكومبرادور الماروني المهيمن الى شهر العنف الرجعي المسلح في وجه المقاومة والقوى الوطنية والجماهير . وقد تلاقى كل ذلك مع تزايد قوة النفوذ الامبريالي الامريكي في المنطقة ، وتراجع البرجوازيات القومية مما اتاح للاتجاه الفاشي في لبنان ان ينمو وتزداد شراسته ، ليس انطلاقا من قواه الداخلية او « انعزاليته » ، بل على العكس من « انفتاحه » الشديد على مخططات الامبريالية الامريكية وتزايد نفوذها في المنطقة** . وان علاقة الكومبرادور التابع لوثيق الارتباط بالسياسة **التفصيلية** للمخططات الامبريالي ، اذ ليس للكومبرادور الطفيلي اي وجود مستقل سواء على الصعيد السياسي او الاقتصادي او العسكري بدون الدعم الامبريالي المباشر .

(التتمة صفحة ٢٧٥)

مستقبل النزاع العربي الاسرائيلي

محمد سيد احمد

التسوية غير ممكنة ، الا في مواجهة المخطط الاميركي

تقصي مستقبل « النزاع العربي الاسرائيلي » ، لو طرح على اطلاقه ، ما هو الا رجم بالغيب . الشيء المؤكد هو انه « نزاع » . وسوف يحتفظ بصفة « النزاع » — جوهريا — في كل الاحوال ، حتى لو انجزت « تسوية » . فان اي « تسوية » يمكن تصورها لا يمكن الا ان تسفر عن « شكل من اشكال » استمرار « النزاع » بصور جديدة مختلفة . اي ان « التسوية » اذا ما تمت ، ما هي الا حلقة في حلقات « النزاع » المتتابعة . ذلك ان « التضاد » بين اهداف وتطلعات المشروع الصهيوني الذي تجسمه اسرائيل من جانب ، واهداف وتطلعات حركة القومية العربية من الجانب الآخر ، وثورة شعب فلسطين بالذات ، تضاد مطلق . كل منهما يلغي الآخر .

ولكن حتمية احتفاظ النزاع العربي الاسرائيلي بطابع « النزاع » لا تستتبعها حتمية احتفاظ هذا النزاع بطابع واحد محدد ، وبنمط مقرر لا خروج عليه لخريطة المواجهة . ولا تعني ان الشكل الذي طالما ساد النزاع ، والخواص التي ميزته ، هي وحدها الخواص المتصورة له ، ذلك ان هذا « النزاع » لا تجري مباشرته في فراغ ، وليس هو بمنأى عن مؤثرات متعددة .

لقد نشأ النزاع اصلا في اطار بيئة دولية معينة ، بعوامل لا تمت الى الواقع العربي بصلة ، منها على سبيل المثال « المشكلة اليهودية » التي استفحلت في كثير من مجتمعات شرق وغرب اوروبا ابتداء من نهاية القرن الماضي ، وقت ان تبلورت الصهيونية كعقيدة سياسية . والآن تجري ممارسة هذا النزاع في بيئة دولية مغايرة، بسمات وخواص مختلفة نوعيا . ولا بد ان تتأثر اشكال النزاع وصوره ومظاهره بالبيئة الدولية المحيطة ، بمؤثراتها على المنطقة ومؤثرات المنطقة عليها .

والنزاع العربي الاسرائيلي رغم انه اكثر صور الصراع احتداما في المنطقة ، ليس هو صورة الصراع الوحيدة ، ولا بد ان ينطبع بصور الصراع الاخرى . على سبيل المثال ، نؤمن كعرب — ولنا في ذلك كل الحق — بأن جانبا بارزا من النزاع العربي الاسرائيلي هو المواجهة بين حركات التحرير العربية وبين الاستعمار الغربي. فكان للاستعمار العالمي مصلحة في زرع كيان استيطاني دخيل في قلب الوطن العربي، وعند ملتقى حافة افريقيا الشرقية مع آسيا ، ليقاوم حتمية تصاعد حركات التحرر

على اتســـــاع القارتين ، اسوة بمخططاته في غرب القارة الافريقية « الاستيطـــان الفرنسي في الجزائر » وفي جنوبها « روديسيا وجنوب افريقيا » . وكان هذا التوطين لمستعمرين اوروبيين مسلحين بأدوات الغرب المتقدم في مواقع استراتيجية من عالم المستعمرات ، ركنا بارزا من اركان المشروع الاستعماري . ولكن لم يكن ركنــــه الوحيد .

حرم الاستعمار الاستيطاني قاطنـــي الارض الاصليين من حق الحياة فـــوق ارضهم ، ولكن لم يكن ذلك اثره الوحيد ، او اثره الاهم . كان فوق ذلك اسلوبا من اساليب الاستعمار لتعزيـــــز قبضته السياسية وهيمنته الاقتصادية على عالــــم المستعمرات ككل . كان الاستعمار الاستيطاني ــ بهــــذا المعنى ــ احد وجــوه الاستعمار ، احدى ادواته لتيسير وتأمين عملية استغلال شعوب المستعمرات عموما ونهب ثرواتها . وهذا هو الاصل .

وقد مر نضال الشعوب العربية لاسترداد سيطرتها على مقدراتها باطوار مختلفة . واللافت للنظر ان كل طور من هذه الاطوار توافق مع حادث بارز ، او اطلقه حادث بارز في النزاع العربي الاسرائيلي .

كانت حرب ١٩٥٦ مثلا ، وهي ثاني صدام عسكري بارز نجم عن هذا النزاع ، ايذانا بأن الاستعمار لم يعـــد قادرا بأساليبه التقليدية ، اي بأسلوب الاحتـــلال العسكري ، او الغزو العسكري لاسترداد ما فقده ، على صد تصاعد التيار التحرري، ومنع هذا الاخير من بلوغ المستوى الكفيل بتأمين حق الدول الوطنية في استقلالهـــا السياسي ، واستكمال ادوات سيادتها الوطنية .

لقد فشل الاستعمار في اجبار مصر على التراجع عن قرارها بتأميم قناة السويس، بعد ان نجح ــ قبل ذلك بسنوات معدودة فقط ــ في اجبار ايران على التراجع عن قرار حكومة مصدق بتأميم شركة النفط الانجلو ايرانية .

وبعد رد العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ بسنوات معدودة فقط ، كان معظم القارة الافريقية قد ازاح عن كاهلها السيطرة الاستعمارية المباشرة ، ونال اغلـــب بلدانها استقلاله السياسي . وعرف عام ١٩٦٠ بأنه « عام استقلال افريقيا » .

ولكن انحسار السيطرة الاستعمارية في صورتها التقليدية ــ صورة حرمان معظم شعوب العالم من حقها في اقامة دول وطنية مستقلة ــ لم يكن يعني نهاية الاستعمار كظاهرة .

لقد واصل الاستعمار استغلاله لغالبية شعوب العالم ، واستنزافه لمواردها ، وتحكمه في مقدراتها بصور مستحدثة ، صور اكثر ملاءمة لمقتضيات العصر وموازين القوى الجديدة . وفي غيبة التحكم السياسي المستند الى الاحتلال العسكري المباشر ، حافظ الاستعمار على مصادر قوته بالتحكم الاقتصادي المبني على عدم تكافؤ القـــوة الاقتصادية ، والقدرة الانتاجية والصناعية ، وعلى التباين الشاسع في المستــــوى التكنولوجي بين مجموعة الدول الراسمالية المتطورة من جانب ، ومجموعة الـــدول النامية الحديثة الاستقلال من جانب آخر ، بل زيادة الهوة عمقا بين المجموعة الاولى والثانيـــة .

وكانت الشروط غير المتكافئة للتجارة الدولية ،والتباعد المتزايد في اسعار المنتجات

المصنعة التي تحتكر الدول المتطورة صناعتها ، عن اسعار المواد الخام التي يعتمد دخل الدول النامية على تسويقها ، مظهرا بارزا من هذا الشكل المستحدث للظاهرة الاستعمارية . وكل محاولة من قبل الدول النامية بتأمين اقتصادياتها ضد تحكم السوق الرأسمالية العالمية وتقلباتها ، واستعانة الدول النامية بهياكل لاقتصادها القومي تتوخى وجهة الاشتراكية ، كانت تلقى من قبل الاستعمار مقاومة شرسة تصل الى حد معاودة التدخل العسكري السافر كلما امكن ذلك ، ولو بصور مقنعة تستتر وراء اطراف ودوافع خليقة بخداع الرأي العام الدولي ، وحجب الفاعل الاستعماري الاصلي عنه . وليس من شك في ان الحرب الثالثة في النزاع العربي الاسرائيلي — حرب ١٩٦٧ — لم تكن بعيدة عن مخططات الاستعمار الرامية الى اجهاض التجارب الثورية في البلدان العربية التي سعت الى تأمين اقتصادها القومي ومنطلقاتها السياسيه ضد السيطرة الاستعمارية .

ولكن حتى لو نجح الاستعمار في التضييق على الاتجاه نحو الاشتراكية في العالم العربي ، والحد من فعالية انماط التنمية الاقتصادية التي تسترشد بخطوط اشتراكية لتتحلل من التبعية للسوق الرأسمالية العالمية ، فقد تجددت المواجهات في صور اخرى ، حتى داخل اطار هذه السوق ، وكان ابرزها وقت نشوب الحرب الرابعة في النزاع العربي الاسرائيلي ، تصحيح اسعار النفط ، ابرز سلعة يملك العرب تسويقها دوليا .

كان تصحيح اسعار النفط ايذانا بمعركة خطيرة الدلالة ، بعيدة المدى ، لا تقتصر على النفط وحده ، بل تمتد الى تصحيح اسعار المواد الخام الاستراتيجية — عموما — التي تعتمد اقتصاديات الدول النامية على تصديرها . كان طلقة اولى في وضع حد للهوة التي تزداد عمقا بين اسعار هذه المواد الخام الاستراتيجية — النحاس ، البوكسيت ، الخ . . — واسعار المنتجات المصنعة التي يحتكر صنعها الدول المتطورة. وقد مس تصحيح اسعار النفط اقتصاديات العالم الرأسمالي والاستعماري في الصميم . اظهر مدى اعتماد العالم الغربي على النفط العربي ، باعتبار ان النفط هو وحده مصدر الطاقة المتاحة ، الكفيلة بتشغيل صناعة العالم المتقدم ، على الاقل الى حين اكتشاف مصادر بديلة للطاقة ، وليس هذا احتمالا واردا في اي مستقبل قريب . لولا خوض العرب حرب اكتوبر ، لولا انجازاتهم في ساحات القتال ، لما اكتسبت معركة النفط شكلها المكثف البارز ، لما احدثت زلزالا نال من استقرار العالم الغربي برمته ، واكسبت ازمته النقدية ، واتجاهاته التضخمية ، ابعادا عارمة .

لقد عجلت الحرب الرابعة في النزاع العربي الاسرائيلي بالمواجهة حول قضية النفط ، وفجرت ازمة الطاقة ، بينما فشلت محاولة لتصحيح اسعار النحاس قبل نشوب الحرب باسابيع معدودة فقط ، ذلك بعد نجاح المخابرات الامريكية ، في اسقاط نظام الليندي في شيلي . ومنذ نشوب الحرب ، اصبح البحث عن قواعد جديدة تحكم التعامل دوليا بين دول الغرب الصناعية المتطورة ودول العالم النامي قضية مطروحة وواردة ، وصورة بارزة من صور الصراع التي اصبحت تشمل كوكبنا بأسره .

هكذا يتضح ان النزاع العربي الاسرائيلي لم يكن ابدا بمعزل عن صراعات ومواجهات اوسع نطاقا ، ترجع في النهاية الى المواجهة العربية مع الاستعمار العالمي في كل صوره ، لا في صورة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني وحدها . ولما اتخذت هذه المواجهة مع الاستعمار اشكالا مختلفة ، ومرت بأطوار مختلفة ، فلا بد

ــ منطقيا ــ ان يكون النزاع العربي الاسرائيلي قد انطبع هو الآخر بهذه الاطوار . ولا يجوز افتراضه ثابت الملامح ، دائم الخواص . لم يكن هكذا في ماضيه ، ولا ينبغي توقعه هكذا في مستقبله . وبالفعل ، تؤكد الشواهد الماضية ان النزاع اتجه نحو المزيد من التأزم والاستحكام . زاد عمقا وزاد اتساعا منذ انشاء اسرائيل عام١٩٤٨ . وابتداء من عام ١٩٦٧ ، لم يعد النزاع مقصورا على قضية ارض تقع داخل نطاق حدود فلسطين التاريخية ، بل تعداها الى ارض تتبع سيادة الدول العربية المجاورة. واصبح النزاع يتسم بصفة الازمة المزمنة . واكتسب تسمية « ازمة الشرق الاوسط » واذا ترتب على زيادة احتدام النزاع المستعر حاليا في لبنان ان تم تقسيم لبنان ، واحتلت اسرائيل جنوب لبنان ، وهذا لم يعد فرضا يجوز استبعاده ، فان التوسع الاسرائيلي سيكون قد شمل دولة عربية اخرى . وهذا يطرح للاهتزاز كل مقومات التسوية كما حددتها قرارات مجلس الامن والامم المتحدة ، ويكسب النزاع بعدا جديدا في تفاقمه .

لقد تأثر النزاع العربي الاسرائيلي بشتى الصراعات والمواجهات التي اجتاحت المنطقة . ولكن كان من شأن النزاع ان اثر في الكثير منها ايضا ، بل كان في احوال عديدة عنصر تفجير لها اصلا . فجرت حرب١٩٥٦ المواجهة الحاسمة لنضال الشعوب العربية والافريقية من اجل استقلالها السياسي وانهاء سيطرة الاستعمار في صورته التقليدية القديمة . وفجرت حرب ١٩٧٣ معركة بالغة الاهمية مع الاستعمار الجديد كان محورها تصحيح اسعار النفط ، وخوض شعوب العالم الثالث معركة فاصلة بهدف تصحيح اسعار المواد الخام الاستراتيجية ، وبناء مقومات استقلالها الاقتصادي . واذا صح ذلك بوجه عام في الماضي ، فهناك ما ينبىء بأنه سوف يصح وبوجه اوضح في المستقبل ، ذلك ان حرب اكتوبر قد ادخلت تغييرات جسيمة على قوام النزاع ، وعظمت من شأنه دوليا كما لم يحدث من قبل .

ولا شك في ان مجريات النزاع بعد حرب اكتوبر سوف تصادفها منعرجات ومنعطفات شتى ، وسوف تعتريها عوارض كثيرة يتعذر التنبؤ بها مقدما . ولكن مهما تعددت وتضاربت الاحتمالات ، فهناك اساسيات نابعة من صميم قوام تطور النزاع ، ذات الجذور الضاربة في الحاضر والماضي ،والتي تقبل ان يجري استكشاف ملامحها وتطوراتها مستقبلا .

وربما كان ابرز ما يستحق الاستطلاع ، وسوف نركز عليه بحثنا ، ابعادا ثلاثة لتطور النزاع تنبىء باكتساب اهمية بالغة في المرحلة القادمة :

ــ بعد ناجم عن اتجاه النزاع نحو « التصعيد » ، وسوف نستكشفه تحت عنوان « النزاع يفتتح عصر دبلوماسية الذرة اقليميا » .

ــ بعد ناجم عن اتجاه النزاع نحو « التخصيص » ، بمعنى نضج الظروف المحيطة بجوهر النزاع ولبه ، وبروز القضية الفلسطينية في المقدمة ، وتعليق مستقبل النزاع كله على مصيرها .

ــ بعد ناجم عن اتجاه « لتدويل » النزاع ، بمعنى اتخاذه تكأة لمواجهات دولية بسبيلها ان تحتل مقدمة المسرح العالمي .

واستنادا الى هذه الابعاد الثلاثة ، سوف نستشرف ضوابط لا بد ان تحكم النزاع ، وقسمات ينتظر ان تميزه في المرحلة القادمة ، ويجدر بنا ان نلتفت اليها .

افتتاح عصر « دبلوماسية الذرة » اقليميا

ان ابرز ما اسفرت عنه حرب اكتوبر ، هو انجازات القوات المسلحة العربية في ساحات القتال ، وبالذات ما انجزته القوات المسلحة المصرية على جبهة القناة . لأول مرة في تاريخ النزاع ، ثبت لاسرائيل انها لا تملك التفوق العسكري المطلق . كانت اسرائيل قد ابرزت تفوقا عسكريا في كل الحروب السابقة ، وكان الخط البياني يشير الى ان هذا التفوق يزداد بروزا ، حربا بعد اخرى . كان التفوق العسكري المطلق هو « عنصر الردع الحاسم » الذي كانت تملكه اسرائيل ، في غيبة تحقيق تطلعها الى « حدود آمنة ومعترف بها » ، وازاء عالم عربي يحيط بها ويناصبها العداء المستحكم . وهو وحده العنصر الكفيل بتعويض اوجه ضعفها ، في وجه الكثرة العربية ، مساحة وتعدادا وقدرة على حشد امكانيات لا تحصى .

وقد نجحت اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ في اشاعة الانطباع بان تفوقها العسكري هو وحده المقرر لمجريات النزاع ، وان العنصر العسكري هو وحده المعيار الذي يتعين قياس قوة الاطراف المتصارعة بمقتضاه .

وهذا بطبيعة الحال يخالف القاعدة البديهية ان موازين القوى بين اطراف متنازعة هي دائما محصلة عوامل عديدة ، منها العامل السياسي ، والاقتصادي ، والاجتماعي والديموجرافي والايديولوجي ، والقدرة على تزويد القوة الذاتية بدعم خارجي ، الخ .. فضلا عن العامل العسكري . ولكن الحروب الحديثة التي تتخذ في العادة شكل الحروب المباغتة ، السريعة والمفاجئة ، تبدو وكأنما في قدرتها مخالفة هذه القاعدة ، وذلك بأن تكسب العامل العسكري المحض ، اهمية بالغة على حساب العوامل الاخرى ، خاصة لو اتسم احد الاطراف المتحاربة بتفوق ملحوظ على خصومه في القدرة على استخدام الاسلحة الحديثة المعقدة الاستعمال .

استغلت اسرائيل هذه الخاصية لتشيع في اعقاب حرب ١٩٦٧ الاعتقاد بأن « القوة العربية » مردودة الى حجم هزيمة العرب عسكريا ، مع اهمال كل عامل آخر ، وان « القوة الاسرائيلية » هي في المقابل بضخامة حجم انتصارها العسكري . ايضا مع اهمال كل عامل آخر . وكان ذلك قمة ما يلبي مقتضيات الامن الاسرائيلي ، فضلا عن تكريس المشروع الصهيوني ، وتحقيق اهدافه في التوسع .

الا أن القوات المسلحة العربية قد اجادت هي الاخرى في حرب اكتوبر استخدام عنصر المفاجأة والمباغتة . وبفضل ذلك استطاعت القوات المسلحة المصرية ان تحقق بنجاح خارق عبور القناة واقتحام خط بارليف . وكان ذلك في حد ذاته ضربة قاضية لا تعوض للتفوق العسكري الاسرائيلي المطلق ، ايا كانت انجازات اسرائيل التالية في الحرب ، او في اية حرب قادمة .

لقد فقدت اسرائيل الى غير رجعة ميزة عدم التكافؤ المطلق في القوة العسكرية للاطراف المتحاربة . وفقد « العامل العسكري » صفته كعنصر حاسم في تقرير مجريات المواجهة . وبرز عامل آخر ليقوم بدور مؤثر في تطور الاحداث بعد ذلك ، هو « العامل الاقتصادي » ، اي قضية النفط التي جذبت اهتمام العالم الغربي واميركا بوجه خاص ، وكانت عنصرا بارزا في حفز كيسنجر على التصدي للازمة بدبلوماسيته النشطة . وضغط « ازمة الطقة » ، اي قدرة العرب على الحد من ضخ النفط وحظر تصديره ، ليس بالعامل الذي تملك اسرائيل السيطرة عليه .

واسرائيل بوجه عام لا تملك ولم تألف ان تترك مصائرها لاطراف اخرى غيرها ، او لعوامل لا تملك السيطرة عليها . ولا بد لها ان تبتدع لنفسها « عنصر ردع مطلق » كفيل بتعويض ما فقدته بعد زوال تفوقها العسكري السابق . ولم يعد من الممكن ان تضمن هذا التفوق داخل اطار الاسلحة التقليدية ، ذلك ان الاطراف المتحاربة جميعها في حرب اكتوبر قد اثبتت انها تجيد استخدام ارقى اسلحة تقليدية تنتجها اكثر دول العالم الصانعة للسلاح تقدما . ومن هنا لا بد ان تتجه اسرائيل الى حماية وجودها بالاعتماد على السلاح انووي ، والتصعيد بمعادلة السلاح في المنطقة الى المستوى النووي ، سواء كحقيقة قائمة ، او كحقيقة كامنه . وهناك شواهد تدل منذ وقت غير قصير على ان اسرائيل لم تكف عن محاولة صنع قنبلتها الذرية الخاصة . والامر الذي لم يعد من الممكن اغفاله على اي حال ، هو ان السلاح الذري ، لو ظل حتى الآن في نظرية الامن الاسرائيلية ، سلاحا احتياطيا، من شأنه ان يصبح في غيبة تفوقها المطلق السابق بالاسلحة التقليدية ، سلاحا اساسيا ، ومن هنا ، يصح القول بأن النزاع العربي الاسرائيلي بسبيله ان يدخل عصر الذرة ، بكل ما ينطوي عليه هذا التحول من معان في مجال الحرب ، وفي مجال السياسة والدبلوماسية على حد سواء .

والواقع ان « دبلوماسية الذرة » قد هيمنت على مقدرات النزاع العربي الاسرائيلي منذ عدد من السنوات ، وخاصة اثناء حرب اكتوبر . ولكن لم تكن « دبلوماسية الذرة » عنصرا مؤثرا في النزاع وقتذاك نتيجة امتلاك الاطراف المتحاربة اسلحة نووية ، بقدر ما القت بظلالها بمقتضى توافر الاسلحة النووية لدى اطراف القمة المعنية بالنزاع والمورده للسلاح .

لقد انتجت « دبلوماسية الذرة » — دوليا — ما اصطلحنا على تسميته — عربيا — « بالوفاق الدولي » ، وان كان المصطلح تعوزه الدقة . ان بلوغ سباق التسلح بين اقوى دول العالم الرأسمالي والعالم الاشتراكي المستوى النووي قد فرض على الطرفين معا ابرام اتفاقات تجمد اشكالا محددة من الصراع بينهما . ذلك انه لاول مرة في التاريخ ، اصبح في طاقة الطرفين معا انتاج اسلحة تصل قدرتها التدميرية الى حد افناء البشرية بأسرها ، لا مجرد هزيمة القوة العسكرية للخصم . انطلاقا من هذه الخاصية الجديدة للصراع العالمي ، نشأت دبلوماسية من نوع جديد، ما اصطلح على تسميته في الغرب « بدبلوماسية الذرة » ، اي علم ادارة النزاعات وضبطها حتى لا تتصاعد فوق حد معين .

ان الوفاق الدولي او « دبلوماسية الذرة » لا تلغى الصراعات الدولية ، وانما تجمد اشكالا محددة من هذا الصراع ، وبالدقة ، اشكال الصراع التي تعود ممارستها على كافة الاطراف المعنية باضرار تفوق الفائدة التي يجنيها منها اي طرف . ان الحرب الذرية نموذج بارز لشكل من اشكال الصراع التي ينطبق عليها الوصف السابق . ولكن الصراعات الدولية بوجه عام لا تقبل التجميد . واشكال الصراع القابلة للتجميد مقصورة على دائرة محدودة تماما . وبوجه عام ، فليس التناقض هو الذي يزول ، بل بعض اشكال ممارسته ، لتجري هذه الممارسة بأشكال اخرى تحل محلها .

ومن هنا يمكن القول بأن « دبلوماسية الذرة » لا تفضى الى الغاء التناقضات، ولكن الى « اعادة ترتيبها » ، بمعنى ان التناقضات تبرز مرة اخرى في صور مخالفة لصورها السابقة . و « دبلوماسية الذرة » على الصعيد الدولي تجري ممارستها

على مستــوى القمة ، مستوى اقوى دول العالم المالكة لاسلحة الدمار الشامل ، وبالذات الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . والتدخل من قبل القمة لا يجدي في الغاء الصراعات ، ولكن يسعى الى احلال اشكال لممارستها محل اشكال اخرى ، تجنب الاطراف المعنية التصعيد بنزاعاتها الى حد المحظور ، اي الحد الادنى الــذي يؤذن بخطر مواجهة نووية تعم اضرارها الجميع .

بهذا المعنى خضعت حرب اكتوبر لعملية « ضبط » من قبل الدولتين الكبريين الموردتين للسلاح . كان مــن شأن تدخلهما تكثيف العمليات الحربية وتخفيفها فــي آن واحد . كان التكثيف بمقدار تزويد الجيوش المتحاربة باكثر اسلحة العصر تفوقا في مجال الاسلحة التقليدية غير الاستراتيجية . وكان التخفيف بمقدار تدخل الدولتين للحد من حجم العمليات العسكرية ، والمدة التي تستغرقها ، لتجنب التصعيد بالحرب الى حد يتعدى حدود المنطقة ويعرض الوفاق الدولي للانهيار .

وكان لتدخل الاميركي فضل كبير في انقاذ اسرائيل من عواقب العبور . ولكن اميركا كانت حريصة ايضا على الا تهدر قيمة الانجاز العسكري العربي ، حتى يكون هذا الانجاز عامل تشجيع لمبادرات عربية « اكثر جسارة » على الصعيد الدبلوماسي، وحتى تحفظ للعرب شعورهم باستعادة شرفهم العسكري ، بأمل ان ييسر ذلــــك فرص التوصل الــــى تسوية . وكذلك لم تشجــع اميركا نصرا عسكريا يتــــاح للاسرائيليين احرازه ، مثلما قاومت تعرضهم لهزيمة ، بدعوى ان المضاعفــات في الحالتين على السواء ، حالة النصر الساحق او حالة الهزيمة المؤكدة ، هي عرقلــة استعداد اسرائيل لتقبل التسوية . والواقع ان هذه الاستراتيجية التي قنعت بهــا الدبلوماسية الامريكية بعد اندلاع الحرب ، ان لم تكن قد رسمت لها عدة اشهر قبل نشوبها ، هي دبلوماسية لم يقابلها السوفيات بالرفض . كان الوفاق الدولي قد وفر هذا القدر من التلاقــــي الموضوعي بين الدولتين الكبريين على تعارض اهدافهمــا ومراميهما .

هكذا اثرت « دبلوماسية الذرة » عند القمة على مجريات حرب اكتوبر . ولكن المطروح الآن ليس « دبلوماسية الذرة » عند القمة ، ولكن على المستوى الاقليمي ، بأهداف ومرام للاطراف الاقليمية المتنازعة تختلف عن ارضية التلاقي على مستــوى القمــــة .

وتجدر الاشارة الى ان اثرا بارزا من آثار الوفاق الدولي ، ودبلوماسية الذرة عند القمة ، هو اختلاف نوعية الصراعات التي قفزت الى مقدمة المسرح السياســي العالمي . فبقدر تجميد اشكال الصراع الضارة للطرفين معا على مستوى القمــة ، واحلال اشكال اخرى للصراع بينهما ، اشكال للصراع قد يرجع على الطرفين معــا بالنفع بدلا من الضرر ، « كالمنافسة الاقتصادية في ظل التعايش السلمي ، بدلا مــن سباق التسلح في ظل الحرب الباردة » ، بنفس القدر سوف تنتعش اشكال اخرى من الصراع ، منبثقة من قاعدة المجتمع الدولي ، كانت « مجمدة » في الفترة السابقــة ــ فترة الحرب الباردة ــ بسبب الاستقطاب الدولي الحاد ، وتجد الآن فرصــــة للانطلاق . بعبارة اخرى ، ترتب على « الدبلوماسية الذرية » عند القمة ، تبديل في نوعية الصراعات التي يجري « تجميدها » وتلك التي اصبح من المتاح لها ان تنطلق . فقد كانت الصراعات الخاضعة « للاحتواء » او « التجميد » في الماضي هي الصراعات المنطلقة من قواعد المجتمع الدولي ، وذات طبيعة تتعارض مع ما كانت تقتضيه حدة التناقض وضراوة المواجهات « عند القمة » . اما الان ، فان نوعية الصراعات التي

يجري « تجميدها » ، هي تلك التي يتقرر تجميدها بقرار واع ، متفق عليه ، عند القمة . وفي المقابل ، ومع انزواء الاستقطاب الدولي الحاد ، لا بد من ان تزداد الصراعات المنبثقة من قاع المجتمعات اندفاعا وتنوعا .

ولكن ما التغيير الذي سوف يدخله اقتناء اطراف اقليمية الاسلحة النووية ، على هذا النمط للصراعات الذي برز مع الوفاق الدولي ؟

بوجه عام ، يمكن القول بأن الاسلحة النووية لم تعد حكرا الآن للدول الكبرى وحدها . فقد استطاعت الصين بمجهودها الخاص ان تصنع قنابل ذرية ، بل قنابل هيدروجينية . ثم نجحت الهند ، وهي دولة تنتمي الى صميم العالم النامي ، في تفجير قنبلتها الذرية . وافتتحت بذلك عصر دخول دبلوماسية الذرة حلبة الصراعات الاقليمية . ولكن دخول السلاح النووي الشرق الاوسط ينبىء بدخولها اكثر النزاعات الاقليمية احتداما والتهابا ، وسوف يكون عنصر تشجيع لانتشار الاسلحة النووية الى مجموعة اوسع من الدول التي لا تنتمي الى العالم المتقدم .

وقد يقال ان اسرائيل ربما تملك القدرة التكنولوجية على صنع القنابل الذرية ، وليس هذا متاحا للدول العربية . ولكن هذا الفرض يدحضه النجاح الذي احرزته دول اخرى تنتمي الى العالم النامي في صنع هذه القنابل . وتفنده حقيقة ان الدول العربية لا تملك ان تقف مكتوفة الايدي امام اقتناء اسرائيل هذ السلاح وتلويحها باستخدامه . ولم تعد اسرار صنع القنبلة طلاسم تكنولوجية يتعذر الوصول اليها . وللعرب المال والمعرفة الفنية اذا حشدوا جهودهم لهذا الهدف .ثم للعرب حافز اضافي لاستحواذهم على السلاح النووي — في اطار انتشاره دوليا — لا يمت الى النزاع العربي الاسرائيلي بصلة مباشرة . فبفضل التهديد النووي ، فرض الوفاق ، وتدعمت سيادة الدول النامية . واستطاعت اتخاذ قرارات سيادية ، كقرارات تصحيح اسعار النفط، لم يكن من المتصور اتخاذها من قبل دون التعرض لتدخل عسكري من قبل دول الغرب الاستعماري . الا يتسق مع هذا المنطق ان تستكمل هذه الدول ادوات سيادتها ، بأن تدعمها « بالسلاح المطلق » الكفيل بتأمينها نهائيا ضد كل تدخل خارجي ؟ ان العديد من الدول العربية يبتاع الآن كميات هائلة من الاسلحة المتطورة ، وما القفز الى المستوى النووي بالخطوة المستحيلة التحقيق . بل تنسجم مع الانتشار المتوقع للاسلحة النووية خلال الفترة القادمة لعدد اوسع من الدول يصعب ضبط التزامها جميعا بالحجر الراهن المفروض على انتشار هذه الاسلحة .

قد يقال ايضا ان اسرائيل لن تلجأ الى استخدام السلاح النووي الا اذا هددت في صميم وجودها . ولكن الابعاد التى تكتسبها قضية فلسطين بدلالتها في نقض صميم اسس المشروع الصهيوني ، كفيلة بجعل تهديد اسرائيل باستخدام هذا السلاح تهديدا جادا ، تهديدا لم يعد من الممكن اغفاله .وليس صدفة حرصها على اقتناء نوعية جديدة من الاسلحة من امريكا تمكنها من القفز الى مستوى الحرب النووية .

قضية فلسطين

هناك من اعتقد في اعقاب حرب اكتوبر ان القضية الفلسطينية سوف تفقد من بريقها السابق . وان القضية الفلسطينية قد برزت للمقدمة فقط وقت ان انتكست رايات الدول العربية في اعقاب هزيمة ١٩٦٧ . فكانت في ذاك الوقت اكثر من اي طرف عربي آخر رمزا للصمود والمقاومة . ولكن بمجرد أن استعادت الدول العربية

شرفها العسكري في معارك اوكتوبر ، وكان خوض الحرب من صنع مصر وسوريا قبل اي طرف آخر ، فان قضية فلسطين سوف يتقرر لها المكان الذي تحدده دول المواجهة العربية لابعاد النزاع واحتمالاته .

وهذا الغرض جرى تأسيسه على التسلسل التالي : كان موقف العرب بوجه عام من اسرائيل قبل حرب ١٩٦٧ هو رفض وجودها مع ارجاء حسم هذا الرفض عمليا لحين ان تتوافر الظروف المواتية . ولكن برز بعد هزيمة ١٩٦٧ واحتلال اسرائيل جزءا من ارض مصر ، ومن ارض سوريا ، فضلا عن كل ارض فلسطين ، منطقان متمايزان لمواجهة اسرائيل . وظل المنطقان واردين ، لان اختبار « الواقع » لم يكن قد فصل ايهما هو الاكثر سدادا والاكثر قابلية للانجاز :

— المنطق الاول هو الذي قال بأن الاساس في حل ازمة الشرق الاوسط يتعين ان يكون « ازالة آثار عدوان ١٩٦٧ » ، ومعنى ذلك تعليق التسوية على استرداد العرب للاراضى التى احتلتها اسرائيل في حرب ١٩٦٧ . وهذا الحل هو الذي يجد تجسيده في قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ . وهو توجه عام منطق دول المواجهة العربية التي فقدت اجزاء من اراضيها . ومع بروز قضية فلسطين ، اضيف الى المطلب الاصلى للدول العربية مطلب عربى آخر متميز عنه ، هو تحقيق الامانى المشروعة لشعب فلسطين في تقرير مصيره واقامة كيانه الوطني .

— اما المنطق الثانى ، فهو الذي تمسك بأن الاساس في حل الازمة ، هو «ازالة آثار عدوان ١٩٤٨ » ، اي اجتثاث كل وجود للكيان الصهيوني اصلا . وكل تسوية عدا ذلك ما هى الا ترسيخ لهذا الكيان ، وتسليم من قبل العرب بشرعية وجوده . وكان هذا المنطق هو منطق المقاومة الفلسطينية الذي استقر التعبير عنه في شعار فتح باقامة دولة ديمقراطية علمانية في فلسطين تتسع لليهود والمسيحيين والمسلمين معا ، بديلا عن كيان اسرائيل العنصري .

وما لم يجد اي من المنطقين طريقه الى التنفيذ ، اي في الوقت الذي ظلت فيه اسرائيل مغتصبة ارض فلسطين كلها ، فضلا عن احتلالها قطاعات واسعة من اراضى الدول العربية المجاورة ، فلم يكن هناك ما يشير الى التطورات اللاحقة للازمة ؛ وهل ستتقرر الامور بمقتضى المنطق الاول او المنطق الثاني .

ولكن الامور تغيرت بعد حرب اكتوبر . ذلك ان مصر وسوريا بخوضهما الحرب فعلا ، حولتا « ازالة آثار عدوان ١٩٦٧ » من « امنية » لا تتحقق الى « امكانية » بدت ممكنة التحقيق . واستردت الدولتان بالفعل ، بفضل اتفاقات فك الاشتباك في اعقاب الحرب ، جزءا من اراضيهما التى تعرضت للاحتلال . وتقرر عقد مؤتمر للتوصل الى تسوية شاملة . وهذه التسوية الشاملة لا بد ان تشمل — ضمن ما تشمل — اراضي فلسطين التى تحتلها اسرائيل منذ حرب ١٩٦٧ . ومعنى ذلك ان منظمة التحرير ووجهت بمشكلة عملية : هل تقيم سلطتها الوطنية على كل بوصة من ارض فلسطين يتم استردادها ، ام تتركها للاردن ليستعيد ممارسة سيادته عليها ؟ لو هي قررت رفض تسلم اية ارض فلسطينية لا تتم استعادتها الا في اطار منطلق اقتلاع جذور الاغتصاب الصهيوني لارض فلسطين كلها ، وتسلمها الاردن بالتالي ، تكون المنظمة قد نفت عن نفسها صفتها كالممثل الشرعي الوحيد لشعب فلسطين ، لتسليمها بأن ارضا فلسطينية يجوز لغيرها ادارتها وممارسة سيادته عليها . ولو هي قررت تسلم كل قطعة من ارض فلسطين يتم استردادها ، واقامت

سلطتها الوطنية عليها ، فتكون بذلك قد سلمت ضمنيا بتواجد كيانين في فلسطين ، الكيان الفلسطيني العربي وكيان اسرائيل ، لاجل غير مسمى . ويبدو ذلك متعارضا مع شعار منظمة التحرير باقامة الدولة الديموقراطية العلمانية في كل ارض فلسطين .

وبدا هذا المأزق وكأنما منطق دول المواجهة ، لا منطق المنظمة ، هو الذي رجحته مجريات النزاع . وعلى هذا الاساس طرح الفرض ان قضية فلسطين من شأنها ان تفقد بريقها بعد حرب اكتوبر .

ولكن الاحداث اثبتت عكس ذلك . فقد اعتلى ياسر عرفات منصة الامم المتحدة بعد حرب اكتوبر وليس قبلها . وتعاظم الاعتراف الدولي بمنظمة التحرير . وتلاحقت قرارات الامم المتحدة المؤيدة لقضية فلسطين . وقرار الجمعية العامة بادانة الصهيونية قرار بالغ الدلالة ، ذلك انه يحمل ادانة دولية للاساس العقائدي الذي تقيم عليه اسرائيل مبررات وجودها .

ويجدر بنا ان نتساءل : ما الذي يفسر تعاظم شأن القضية الفلسطينية على هذا النحو في المحافل الدولية ، بينما تتعرض لملاحقات ومطاردات متعاظمة الشأن داخل الساحات العربية ، والكثير من أعمال المقاومة ومظاهر نشاطها لم تعد موضع استنكار اسرائيل والولايات المتحدة وحدهما ؟

الملاحظ بوجه عام انه كلما بادرت امريكا بمبادرات منفردة من جانبها لتمسك بخيوط التوصل الى تسوية للازمة ، لازمت هذه المبادرات الامريكية عملية انتضاض على المقاومة الفلسطينية لتبرز وبشكل ملموس ان منطلقات امريكا للحل ، ومنطلقات الثورة الفلسطينية على طرفي النقيض . لقد صاحبت مبادرة روجرز عام ١٩٧٠ مذبحة الفلسطينيين في الاردن ، وطرد المقاومة من قواعدها في الضفة الشرقية . وصاحب فك الاشتباك الثاني على جبهة سيناء بمقتضى اتفاق كان لامريكا الدور الفاصل في انجازه، تفجر الموقف في لبنان ، وتعرض الفلسطينيين مرة اخرى ، وفي جبهة اخرى تواجه اسرائيل ، لمحاصرة وتضييق يزداد احكاما .

لا تفسير لهذه المفارقة — مفارقة تعاظم شأن قضية فلسطين دوليا ، رغم زيادة تعرضها للملاحقة والمحاصرة داخل ساحات المواجهة — الا ان قضية فلسطين اصبحت ترمز لما هو اكبر من لب النزاع العربي الاسرائيلي وحده ، وان المجتمع الدولي قد تعاظم وعيه بهذه الحقيقة .

لم ترمز قضية فلسطين ؟ ترمز للمواجهة العصرية بين مجتمعات الرفاهية ، صنع الاستعمار العالمي الحديث ، والمشاكل المتفاقمة التي تتعرض لها مجتمعات الندرة والحرمان والجوع في العالم الثالث ، وذلك في صورة من اكثر صور هذه المواجهة احتداما والتهابا . ولا ينطبق ذلك على وضعية الثورة الفلسطينية ومعطياتها واهدافها فحسب، بل ايضا على اساليب المقاومة التي ابتدعتها او مارستها ووجدت صدى لدى قوى مختلفة انبثقت في ساحات شتى من قاع المجتمعات الدولية ، واخذت تقتبسها للتعبير عن رفضها ولتستنكر تعرضها لقضايا « مستحكمة التعثر » برزت للمقدمة مع تعدد مظاهر « وفاق » دبلوماسية الذرة عند القمة ، وزيادة الصراعات المنطلقة من قاع المجتمعات اندفاعا وتنوعا .

وليس مصادفة هذا التوافق في الاساليب ، رغم تنوع القضايا وتباين المواقع ،

بل تبادل الخبرة وتنسيق العمليات بين منظمات فدائية اختلفت في كل شيء الا في موقفها الرافض المشترك ، من فصائل في المقاومة الفلسطينية الى الجيش الاحمر الياباني ، الى الجيش الجمهوري الايرلندي ، الى منظمة بادر ماينهوف في المانيا . والقائمة تطول ، بل تتسع ولا تضيق .

والواقع ان استشراء هذه العمليات التي يدفعها المجتمع الغربي — واسرائيل على راسها — بصفة « الارهاب » مؤشر عن انها لم تعد « على هامش العصر » ، بل أصبحت جزءا لا يتجزأ من نسيجه ومن صميم مكوناته . ورغم اصرار المجتمع الغربي على التمسك بادانته لهذه العمليات ادانة قاطعة ، ووصفها « باللاأخلاقية » ، فقد اشهر الى الان عجزه التام عن « احتوائها » ، او حتى الحد من استشرائها ، ذلك أنه قد اصبح من الممكن وبيسر ، متى توافر القدر المطلوب من التصميم ، ومن الايمان ، ومن التدبير والمال ، وبفضل خواص التكنولوجيا العصرية ، توجيه ضربات محكمة بالغة الفعالية الى مواقع شديدة الحساسية ، مع حد ادنى من المخاطرة في المقابل . بل يجوز القول بأن المجتمع الغربي لم يعد قادرا على ان يلتزم موقفا متسقا في ادانته لهذه العمليات عمليا . فقد استنكرت اطراف غربية عديدة ، منها من يدين «الارهاب» ادانة قاطعة ، قرار فرانكو باعدام خمسة من المعادين لنظامه قبل وفاته بفترة قصيرة . وكان الاتهام الموجه الى هؤلاء الشبان الخمسة هو «ارتكابهم اعمالا ارهابية وفوضوية» قوامها قتل رجال من الشرطة بمواد ناسفة . ولكن عداء هذه الاطراف المستنكرة لنظام فرانكو طغى على التزامها موقفا متسقا في ادانة « عمليات الارهاب » ، وسلمت بذلك — ضمنا — بأن هذه العمليات بوسعها أن تكون « مشروعة » اذا ما توافرت ظروف معينة .

ومع سقوط الدعوى — لعدم اتساقها — في ادانة هذه العمليات على اطلاقها بحجة انها « غير شرعية » ، هل يجوز التمسك بدعوى انها « لا اخلاقية » نتيجة ما ينجم عنها من سفك دم الابرياء ؟ وهل هي في هذا الصدد اكثر « لا اخلاقية » من زيادة انتشار اسلحة الدمار الشامل التي تقتل الابرياء بالجملة ، وسند « الشرعية » في انتشارها يرجع الى ان القرار هو قرار صادر من قمة المجتمعات ، لا من قاعها ، من المسؤولين في دول « مشروعة » ذات سيادة ؟

ومع اهتزاز المبررات التى يمكن بمقتضاها شجب العمليات الفدائية وادانتها اطلاقا ، يثور السؤال : الى أى حد يجوز التسليم « بشرعيتها » واحقيتها نسبيا ؟ المسألة تقديرية . وتختلف هنا زاوية الرؤية مع اختلاف مواقع الاطراف ، وطبيعة القضية المفجرة لهذا النوع من النشاط ، على مسرح الصراعات العصرية . وقد نفذ اختلاف الرؤية حتى الى صفوف فصائل المقاومة الفلسطينية ذاتها . فهناك ازاء « المأزق » الذي سبق ان اشرنا اليه ، من لا يرفض بتاتا « الحلول المرحلية » ، ويقبل مبدأ اقامة السلطة الوطنية على اى قدر من ارض فلسطين يتم استرجاعها . وهناك من يتمسك بموقف الرفض على اطلاقه ما لم يقتلع الجسم الصهيونى اقتلاعا من جذوره . بل بالقدر الذي بدت فيه الخطوات نحو تسوية أزمة الشرق الاوسط في اعقاب حرب اكتوبر وكأنما هى تجرى متوافقة مع مخطط امريكا تجاه المنطقة ، واحتوائها مصادر القوة التى استعادها العرب ، لصالحها ، لم يترتب على ذلك اي قدر من الاستقرار ، بل استشرت ظاهرة الاضطراب ، وتعددت اسباب الرفض ، واتسعت نطاقا . ولم تعد مقصورة على الدافع الفلسطيني او باسم شعب فلسطين فقط . وبلغ الاضطراب حد التفجر في لبنان الذي يكثف فوق ارضه تعبيرات شتى عن

اسباب التناقض في المنطقة . وعملية « الاوبك » الاخيرة التي تم بمقتضاها اختطاف وزراء النفط في فيينا عملية ذات مغزى خاص ، ذلك ان البيان الذي اصدره فاعلوها وجه الاتهام الى الاطراف العربية التي « انصاعت » او « بسبيلها ان تنصاع » لمنطلق التسوية ، وركز ادانته على « عامل النفط » بحجة ان سلاح النفط لم يعد سلاحا عربيا ضد الاستعمار والصهيونية ، بل سلاح في يد الاستعمار ضد الشعوب العربية .

النفط وتصدي امريكا للنزاع

والواقع ان سلاح النفط هو سلاح مزدوج الطبيعة . يحمل المعنى ونقيضه . قد ينبىء ببدء منعطف خطير نحو التحرر العربي الشامل من السيطرة الاستعمارية . وقد يكون مجرد عملية تتم بفضلها « اعادة ترتيب » هذه السيطرة الاستعمارية ، على على ان يكون الاستعمار الامريكي الاقوى هو المستفيد الاساسي منها . ولذلك يؤذن سلاح النفط بمعركة لم تحسم اتجاهها بعد .

سلاح النفط سلاح تحرري لو قام بدور مؤثر في الضغط على العالم الغربي ككل ــ لا اوروبا الغربية واليابان وحدهما ــ لاجباره على التخلي عن انحيازه لاسرائيل ، ولتجريد اسرائيل من مصادر دعمها ، عسكريا وماليا وبشريا ، في الغرب .

وسلاح النفط ــ اي تصحيح اسعاره ــ سلاح تحرري بمقدار ما يترتب عليه تجريد شركات النفط المتعددة الجنسيات ، والامريكية بالذات ، من ارباحها الطائلة الناجمة عن استغلال مكثف للشعوب العربية ، واستخراج النفط من الارض العربية باسعار بخسة بالمقارنة الى اسعار تصريفه للمستهلك في الغرب .

وتصحيح أسعار النفط اجراء تحرري بقدر ما ينم عن قرار حر يصدر عن دول ذات سيادة تنتمي الى العالم الثالث ، دون أن تكون للاحتكارات الاستعمارية القدرة على افساده أو تعطيل تنفيذه .

وتصحيح أسعار النفط اجراء تحرري لو خصصت عوائد النفط لتنمية الارض العربية ، وبناء التكامل الاقتصادي العربي ، وتوسيع نطاق السوق العربية ، وأن يجري توظيف رؤوس الاموال العربية لبناء صناعة عربية تستثمر النفط ، لا كمجرد « مادة خام » معرضة للنفاد بعد مدة طالت أو قصرت ، ولكن أساسا في صورة منتجات مصنعة ، ولا يعني ذلك فقط اقامة معامل للتكرير ، بل أيضا تنمية صناعات للبتروكيماويات ، وللصلب والالومنيوم وغيرها من مجالات التصنيع الكثيف . وتنمية الارض العربية ، بالاموال التي أصبحت الآن متاحة ، تقتضي فوق ذلك توسيع رقعتها الزراعية ، وتنمية طاقتها الغذائية . ويقتضي ذلك بدوره مشروعات لتحلية ماء البحر ، وتنمية شبكة مواصلات ، الى غير ذلك من المشروعات الانمائية .

ولكن تصحيح أسعار النفط قد يحمل معاني هي نقيض هذه المعاني على خط مستقيم . فللعالم الصناعي الغربي مصلحة في « تصحيح ما » لأسعار النفط ، ذلك ان رفع اسعاره الى حد يقارب أسعار مصادر الطاقة البديلة هو افضل الوسائل الكفيلة بتشجيع البحث عن هذه المصادر البديلة ، والحث على تخصيص رؤوس الاموال المطلوبة لاكتشافها وتنميتها . وقد أصبح ذلك أمرا حيويا للعالم الصناعي برمته ، خوفا من أن يتعرض في مستقبل منظور لنضوب مستودعات النفط ، مع تعاظم معدل الاستهلاك سنة بعد أخرى .

ثم للولايات المتحدة بالذات مصلحة في عملية تصحيح الاسعار ، ذلك أن المستهلك

الرئيسي للنفط العربي هو دول غرب أوروبا واليابان . وكل ارتفاع في سعره يعني ارتفاعاً في أسعار منتجات هذه الدول ، مما يوفر للمنتجات الامريكية مركزا تنافسيا أفضل . وبفضل تصحيح الاسعار ، حققت شركات النفط الامريكية ، فضلا عن ذلك ، قفزة هائلة في أرباحها .

ثم أصبحت الارصدة العربية المودعة في البنوك الغربية ، والتي لا تستوعبها الدول العربية لضيق أسواقها الداخلية ، مصدرا أساسيا لتحكم العالم الغربي في اتجاهاته التضخمية ، ولمواجهة خطر الكساد . فضلا عن ان انتقال هذه الارصدة الى الدول المنتجة للنفط — التابعة للعالم الثالث — دون أن تخرج هذه الارصدة من نطاق تحكم دوائر المال العالمية ، هو وسيلة لضرب تضامن العالم الثالث ، وتنويع طبيعة مشاكله في وجه العالم الصناعي . وللعالم الغربي على أي الاحوال مصلحة في ايجاد دول خارجه تملك قوة شرائية قادرة على استيراد بعض صناعاته ، بدلا من أن تكون وظيفتها مقصورة على تصدير المواد الخام اليه فقط ، للحد من خطر التلوث الذي يتهدده نتيجة تكثيف هيكله الصناعي الى حد يقترب من نقطة الخطر ، وكذلك في مجالات التصنيع التي تحتاج الى أيد عاملة وفيرة ، غير مدربة ورخيصة . وليس هذا على وجه القطع بشكل التصنيع أو باستيراد التكنولوجيا ، الكفيل بتنمية الدول العربية ، بل يزيدها تبعية للعالم الغربي .

وتتم دبلوماسية كيسنجر النشيطة تجاه النزاع العربي الاسرائيلي وقضايا الشرق الاوسط منذ حرب اكتوبر عن ادراك أمريكا للأهمية الحيوية التي تمثلها هذه المنطقة في استراتيجيتها الشاملة . لقد تعرضت الدبلوماسية الامريكية لانتكاسة خطيرة في الشرق الاقصى بعد أن أسفرت اتفاقات باريس حول قضية فيتنام عن خروج أمريكا تماما من شبه القارة الهند صينية . وتفاقم المشاكل الاقتصادية في غرب أوروبا بدأ ينذر بتحولات سياسية تعرض استقرار التحالف الغربي وهيكله للاهتزاز . وتحاول أمريكا تعويض هذه الخسائر بتعزيز مركزها في الشرق الاوسط ، وتستخدم تكأة لمعاودة وجودها في المنطقة ما تشهره من جهود للتوصل الى تسوية حول النزاع العربي الاسرائيلي .

ولكن محك التقدم حقا نحو تسوية هو أن تتعدد الشواهد الدالة على حدوث تقدم نحو الاستقرار . والذي نشهده الآن هو على عكس ذلك ، استشراء خطير لمظاهر الاضطراب .

ان أمريكا لا تملك ان تكون طرفا منزها من الغرض وهي تتصدى للنزاع . لها من الدوافع الخاصة في ارساء أقدامها في المنطقة ما يتعارض مع دورها « كحكم قادر على الحياد » . يهمها — لصالح العالم الغربي ككل — أن تظل الارصدة العربية « في حوزة » الغرب . ويهمها في وجه منافسة حلفائها في أوروبا واليابان ، أن تحكم قبضتها على أسعار ومقدار تدفق النفط العربي الى الاسواق العالمية . ويهمها بمقتضى قواعد الوفاق مع الاتحاد السوفيتي ان تعوض عن الحد من سباق التسلح بأن تجعل من الدول المنتجة للنفط ساحات لامتصاص فائض السلاح . ويهمها تحويل هذه الدول — المنتمية الى العالم الثالث — الى « درع » يتلقى بديلا عنها غضبة الدول الفقيرة ، وحرف الانظار عن الاسباب الحقيقية لزيادة احوالها ترديا . واشراك الدول المنتجة للنفط كطرف مستقل في المواجهة بين دول الغرب الغنية ودول العالم الثالث الفقيرة ليس هو تشريفا لها بقدر ما ينم عن رغبة في تحميلها أعباء هذه المواجهة .

ثم ان تزويد أمريكا الدول المنتجة للنفط بالمنطقة بأكثر أسلحتها تطويرا ، مع تطلعات

متزاحمة لأبرزها حول منطقة الخليج . وكذلك اصرار أمريكا على عدم الاعتراف بممثلي شعب فلسطين ، وعدم تلبية حقه في كيانه الوطني المستقل ، وبقائه مشتتا في مخيمات اللاجئين ، مع انتشاره في الوقت ذاته في المناطق الغنية بالنفط ، كلها عوامل لا تنبىء بارساء أسس للاستقرار .

ان الاستراتيجية الامريكية ــ بدعوى البحث عن تسوية لأكثر قضايا المنطقة التهابا ــ لا تفضي في النهاية الى زيادة اشعال ما يجري فيها من صراعات قائمة أو كامنة فقط ، بل هي تتخذ المنطقة مسرحا لتصطدم داخلها المواجهات المنتظر لها أن تحتل تقريبا صدارة الصراع العالمي .

النزاع في وجه « المحظورين »

هكذا اشتركت العوامل الثلاثة التي انتقيناها ــ استكشافا لاتجاهات النزاع العربي الاسرائيلي بعد حرب اكتوبر ــ في الاشارة الى أن النزاع لم تخفت ضراوته ، بل وصلت حدته على العكس الى مستوى أعلى . بفعل اسرائيل ، تتجه معادلته العسكرية الى التصاعد لتلامس « المحظور من أعلى » : مستوى المواجهة النووية . وبزوال العوارض التي طالما حجبت جوهر النزاع ، برز النضال الفلسطيني ضد الاغتصاب الصهيوني ليلامس « المحظور من أدنى » ، وليرمز لصور شتى من الرفض بسبيلها أن تنبثق من قاع المجتمعات ، وتعددت تعبيراتها منذ زوال الاستقطاب الدولي الحاد ، نتيجة سيطرة موازين الرعب النووي على مستوى القمة . وبفعل التدخل الامريكي ، أصبح النزاع تكأة لترشيح المنطقة كي تصبح مسرحا محوريا لمواجهات دولية عديدة تجتاح العالم بأسره .

في ضوء ملامسة النزاع «المحظور من اعلى» و «المحظور من ادنى» على حد سواء، اصبح البحث عن تسوية واردا . ولكن لا مجال للوصول الى تسوية فعلا الا اذا لبيت المطالب الجوهرية لحركة التحرير العربية ، وخلقت ظروفا اكثر مواتاة لانطلاقتها ، لا ان نكور حجرا عليها وتجميدا لها . والتسوية على اي الاحوال غير ممكنة المنال اذا جرى البحث عنها في توافق مع المخطط الاميركي ، لا في مواجهته .

والاطار الدولي للبحث عن تسوية هو ما زال الى اليوم قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ . ولكن هذا القرار الذي صدر عقب هزيمة ١٩٦٧ ، وقبل ان تصل القضية الفلسطينية الى ابعادها الراهنة ، هو كفيل بعلاج اعراض النزاع لا جوهره . بل قد يصبح القرار في ضوء واقع ابعاد النزاع بعد اكتوبر ١٩٧٣ عنصرا معوقا للنفاذ الى جوهره .

وليس البديل عن قرار ٢٤٢ ـ تصديا لجوهر النزاع ، هو التمسك بالقرارات السابقة للامم المتحدة حول النزاع ، بما في ذلك قرار التقسيم . بل تشير الاخطار المتفاقمة التي ينبىء بها تطور النزاع مستقبلا الى ضرورة ان تشمل مباحثات التسوية ممثلي شعب فلسطين ، والا تصادر حقهم في عدم الاعتراف بأسرائيل .

ان اشراك ممثلي شعب فلسطين في مباحثات التسوية دون اشتراط اعترافهم بأسرائيل ليس بالمعادلة المستحيلة ، ولا هي بالبدعة ، بل هي تطبيق متسق لقاعدة استقرت منذ حلول الوفاق الدولي ، وجرى بمقتضاها نزع فتيل الاشتعال عن اكثر الازمات الدولية تهديدا باشعال مواجهة نووية . وهذا وحده هو سبيل طرح التسوية في اطار يتوافق مع مقتضيات حركة التحرير العربية ، ولا يصادر اهدافها الاساسية .

لا اريد ان استشهد بالعلاقة التي نشأت بمقتضى معادلة الوفاق بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، على ما تنطوي عليه من دلالات . فأن الاتحاد السوفيتي لم يتنازل عن هدفه في ان تسود الشيوعية العالم . ولم تتنازل الولايات المتحدة عن هدفها في القضاء على الشيوعية . ومع ذلك وصل الطرفان الى اتفاقات يتبارى بمقتضاها النظامان ، على ان يكون التاريخ هو الفاصل في تقرير ايهما الاجدر على تحقيق هدفه ، بغير طريق « الحرب الباردة » ، وتهديد ان تتردى لتشعل « حربا ساخنة » تقضي في ظل معادلة الرعب النووي على النظامين معا .

لا استشهد بهذا المثل ، تأكيدا لمعنى ان « التعايش السلمي » غير وارد في المواجهة بين حركات التحرير وأي كيان يجسم الاستعمار في أية صورة من صوره . وكذلك لأن « خطوط الامن » كانت قد تقررت ورسخت بين المعسكرين الشرقي والغربي ، وليس هذا حال اسرائيل التي ما زالت تحتل قطاعات واسعة من الارض العربية تفوق حدود فلسطين التاريخية .

ولكني سوف استشهد بمباحثات باريس الخاصة بقضية فيتنا م. فقد شملت أربعة أطراف : الولايات المتحدة ، وحكومة شمال فيتنام ، وحكومة جنوب فيتنام (نظام ثيو) ، والحكومة الثورية المؤقتة لحركة تحرير جنوب فيتنام . لم تكن الحكومة الثورية المؤقتة ولا حكومة هانوي تعترف بنظام ثيو في سايجون ، وكان العكس أيضا صحيحا . ولم يكن هناك اعتراف متبادل بين حكومة هانوي ، ومن باب أولى الحكومة الثورية المؤقتة ، وبين أمريكا . ولكن عدم الاعتراف المتبادل لم يقف حائلا دون اجراء مباحثات دامت عددا من السنوات والمعارك الضارية مستعرة فوق ارض فيتنام . وانتهت هذه المباحثات الى اتفاقات باريس الشهيرة . وبعد ابرام هذه الاتفاقات بفترة وجيزة ، انتصرت الثورة الفيتنامية انتصارا ساحقا .

ان الاتفاقات التي أبرمت بين الاطراف تضمنت الاتفاق على عدم الاتفاق على صلب الخلاف . ولم يكن مضمون ولا اختصاص الاتفاقات هو التصدي لحل النزاع في جوهره ، بل تضمنت اتفاقا ضمنيا على ارجاء حسمه ، على ان تختص الاتفاقات بالقواعد والضوابط التي يجري بمقتضاها هذا الحسم . قواعد لا تصادر حق التمسك بالاهداف النهائية .

وليس تصدي بما أوردته رسم مقابلة كاملة بين حالة فيتنام وحالة فلسطين ، ذلك أن الطرف المعادي الرئيسي في حالة فيتنام كان عدوا خارجيا (الولايات المتحدة) ، والطرف المعادي الرئيسي في حالة فلسطين هو عدو مستوطن (اسرائيل) . ولكن أسترشد بمثل فيتنام لاستشف منه منهجا لأبعاد وحدود التسوية ، على نحو لا يفرط في جوهر المطالب العربية . انه وحده المنهج الكفيل بمواجهة مقتضيات التسوية دون تنازل عن الاسباب الجوهرية في النزاع العربي الاسرائيلي . وكل محاولة لاقامة تسوية تطرح لنفسها ما يتعدى هذه الحدود ، وتنطوي على تفريط في حق الشعب الفلسطيني ، لن تفضي الى تسوية ، بل الى دفع النزاع — المحتدم أصلا — الى المزيد من الاحتدام .

التسويــة السيــاسيـــة : خلفيات ونتائج

الدكتور سعيد حمود

عندما حاول بعض رجال الاعلام والصحافة في مصر الرد على منتقدي ومهاجمي اتفاقية سيناء الاخيرة المعقودة بين الحكومة المصرية واسرائيل برعاية الولايات المتحدة الاميركية ، وذلك في كتاباتهم وندواتهم الاذاعية ، لم يجدوا أقوى من حجة القول ان منتقدي الاتفاقية لم يقرأوا بنودها جيدا وانهم تسرعوا في الحكم قبل رؤية النتائج التي ستسفر عنها الاتفاقية . كما ان الرئيس السادات ، في خطابه المطول امام مجلس الشعب (يوم ١٩٧٥/٩/٤) ، وفي معرض دفاعه عن الاتفاقية ورده الهجوم على كل من سوريا والعراق والاتحاد السوفييتي والمقاومة الفلسطينية ، بهجوم مضاد ، وان كان قد اسهب في ابراز الجوانب التي اعتبرها ايجابية مشيرا الى ان الجوانب محل الانتقاد لا تمثل ولا تعبر عن الاتفاقية ، فانه لم يخرج بكثير عن الحجة التبريرية التي اعتمدها الاعلام المصري .

في رأينا ان الرئيس السادات والاعلام المصري كانا في غنى عن مثل هذه الحجج الواهية غير المرتكزة على اسس المنطق المتين ، في معرض الدفاع عن اتفاقية سيناء . لقد فاتتهم الحجة الوحيدة الممكنة والقائمة على أساس ، وذلك بالقول ان اتفاقية سيناء لم تكن نتاج الصدفة ولا الاجتهاد الطارىء ، وانما هي من نتاج نهج التسوية السياسية : فمن كان مع التسوية فلا حق له بالهجوم على الاتفاقية ، لأنه عندها يكون في اشد التناقض مع نفسه ، ومن كان ضد التسوية فلا بد أن يرفض أية اتفاقيات تعقد في اطارها ، والا يكون متناقضا مع نفسه هو الآخر .

بهذا المنطق يمكن ان « تستقيم » الامور وتتوضح الخيوط ، ولا تعود البلبلة غطاء لخلط المواقف وتركيبها كما يشاء أصحابها بين مرحلة وأخرى وظرف وآخر .

حتى تكون بساطة هذه النظرة مصدرا لقوتها ومتانتها ، وعاملا على تصويب نتائجها ، وحتى لا يراها البعض نوعا من قراءة الامور من سطحها ، لا بد من طرح السؤال حول ماهية التسوية ، جوهرها وخلفياتها ، ثم لا بد من الاجابة عليه ، قبل القيام باستعراض شامل لتطوراتها ومحطاتها وصولا الى تحديد نتائجها .

اولا : خلفيات التسوية السياسية

تعود جذور نهج التسوية السياسية ، تاريخيا وموضوعيا ، الى جملة من انماط

الفهم والنظرة الى طبيعة الصراع العربي ــ الصهيوني ، راحت تتفاعل وتتراكم وتتركب منذ أمد طويل في نفسية بعض العرب ، قادة مسؤولين وعاديين ، حتى جرّت نفسها الى مواقف معينة ومحددة على الصعيد الراهن في صراعنا مع العدو الصهيوني ــ الامبريالي . دون معرفة طبيعة واسباب هذه الانماط تظل هناك ثغرة في تفسير العديد من المواقف الراهنة المتعلقة بالحلول المطروحة .

لذلك فاننا سنتعرض هنا بايجاز لأربعة أنماط ، الثلاثة الاولى منها يمكن فهمها لمجرد ايجازها ، أما النمط الاخير فيحتاج الى بحث مطول كموضوع قائم بذاته ، لسنا الآن بصدده مباشرة :

١ ــ يتميز النمط الاول بتسليمه المسبق ، نظريا وعمليا ، بأن دولة اسرائيل انما انشئت لتبقى ، ولا جدوى على الاطلاق من محاولات تغيير هذه الحقيقة . اما الاسباب الكامنة وراء هذا المنحى من التفكير فهي عديدة ، تتراوح بين السبب السيكولوجي المتميز بالعقدة تجاه الامبريالية وقدرتها على فرض ارادتها وحقائقها ، مرورا بالسبب الطبقي المادي المتميز بالتعلق الدائب بالمصلحة الاقتصادية والموقع الطبقي ومرورا أيضا بالابتعاد الكامل عن معترك النضال والانغماس الكلي في صيغ الحياة المريحة السلسة التي لا ترتكز الا على الهدوء وفض المشاكل بالتي هي أحسن ، وصولا بالطبع الى الرعب من البعبع الاسرائيلي ، والقوة التي لا نهزم . من الواضح ، انه بالنسبة لهذا النمط من التفكير ومن المواقف ، فان جسر حل معضلة أزمة الصراع مع العدو الصهيوني لا بمكن أن يقوم الا بايجاد تسوية سياسية ، تلغي العامل العسكري جملة وتفصيلا وتفتح طريق الجسور الاقتصادية والاجتماعية والحياتية عامة على مصراعيه مع الوجود الاسرائيلي على أرض فلسطين . لا شك أن هذا النمط يفسر نفسه بنفسه ، غير اننا في صدده نجد لزاما ابداء ملاحظتين : الاولى ، أن منطق هذا النمط من المواقف لا يشمل عددا كبيرا من العرب عامة والفلسطينيين خاصة ، انه محدود الاثر برغم تبنيه من قبل بعض من يتسلمون المسؤوليات هنا وهناك . والثانية ، ان اصحاب هذه النظرة لا يجرأون على الجهر بقناعاتهم علنا ، بل يعبرون عنها بأساليب عديدة مغلفة ، اذ ان هؤلاء ، وان كان بعضهم يقدر المناضلين ، ظلوا ينظرون الى النضال وكأنه مضيعة للوقت أو مجال للكسب الشخصي وللزعامة الى آخره .

٢ ــ تمثل النمط الثاني ، الذي تعود اليه جذور نهج التسوية السياسية لقضية الصراع العربي ــ الصهيوني ، مجموعة من « الحكماء » و« الاذكياء جدا » ، الذين ادركوا مبكرا أن لا جدوى من التعامل العسكري أو الثوري مع المسألة ، وانه لا بد من ايجاد قاسم معين يعيد الحقوق لشعب فلسطين ، ربما بالتعويض أو بالتوطين والاندماج الاقتصادي أو حتى بالتقسيـــم ، مع الافتراض المسبق بوجـــود حقين في فلسطين ، الاول للفلسطينيين وهو شرعي ، والثاني لليهود وهو مكتسب بفعل الامر الواقع ومرور الزمن . اذن فان المنحى الوحيد لتحقيق القاسم المشترك لا يمكن أن يقوم الا على أساس تسوية سياسية .

٣ ــ أما النمط الثالث فتمثله فئة أصحاب التجارب والخبرات والعارفين ببواطن الامور ، الذين « خبروا » هذا الصراع الدائر في منطقتنا ، و« فهموا » أقطابه والقوى التي تساندهم ، والشروط التي تتحكم به ، والحدود التي يمكن أن يبلغها والتي لا يمكنه بلوغ ابعد منها في أي حال من الاحوال . هؤلاء اقتنعوا أن حصيلة هذا كله تبين أن في التسوية السياسية يكمن الحل الوحيد الاوحد ، وما العمل العسكري والضغوطات التي يولدها الا عوامل للحصول على تسوية افضل ، من هنا فان اية اطالة لأمد

التضحيات ، ما هي الا عملية هدر لا جدوى من ورائها ولا طائل .

[يمكننا تسمية هذه الانماط وما يتفرع عنها « بأنماط الاستسلام النفسي » أمام العدو الصهيوني والامبريالي ، واليها تعود جذور نهج التسوية السياسية السائد الآن ، وعليها ترتكز دائما كافة مخططات وبرامج الامبريالية والصهيونية ، وفيها تجد اسرائيل ملاذها في عملية فرض القهر والاغتصاب ضد شعبنا وأرضنا .]

٤ — كما أشرنا سابقا فان النمط الرابع يتميز عن الانماط السابقة بتعقيده وتركيبه وربما بخطورته ، لهذا فانه بحاجة الى بحث مطول وتحليل شامل يبين أبعاده ويكشف عن مسبباته ، وتراكماته ، حتى يصبح واضحا في متناول فهمنا وادراكنا . وبما ان بحثنا الراهن لا يتناوله بشكل خاص ، فاننا سنحاول تلمس عناصره قدر الامكان . تكمن المشكلة هنا في أن بعض من يمثلون هذا النمط يعتبر من القوى التي أجابت برفع البندقية في وجه موجة الاستسلام النفسي ، وموجة الضياع التي سادت أمتنا ، خاصة اثر هزيمة حزيران في العام ١٩٦٧ . ولم يكن رفع البندقية واعتماد الكفاح المسلح طريقا وحيدا لتحرير فلسطين ولحسم الصراع على الارض العربية ، بالنسبة لهؤلاء ، مجرد ردة فعل عاطفية أو آنية أو مرحلية ، بل كانت قناعة عميقة ، نابعة من ايمان صادق وتحليل ثوري متقدم ، تعمد بالدم والشهادة والتضحيات . كما يكمن الوجه الآخر للمشكلة القائمة في فهم طبيعة التوجه في نهج التسوية السياسية لدى هـذا البعض في صفوف القوى الثورية ، في انهم لا يعتبـرون توجههم على طريق الحلول السياسية ، استسلاما أو تخليا عن منطلقات النضال الفلسطيني المتمثلة في الكفاح المسلح طريقا لحرب تحرير شعبية شاملة قادرة في منتهاها على حسم الصراع لصالح جماهير الشعب العربي والفلسطيني . مع ان التوجه في نهج التسويات ، في ظل موازين القوى السائد ، وفي اطار الصيغ والمشاريع القائمة ، صاحبة الفعل والتوجيه في كل تسوية في الظرف الراهن وفي أي ظرف قبل حدوث الانقلاب التاريخي الكبير في موازين القوى لصالح قوى الجماهير ، مع ان هذا التوجه لا يمكن أن يؤدي الا الى الاستسلام ودحر منطلقات النضال ، كما نرى ، فان هذا النمط لا يرتكز على مؤشرات الاستسلام المسبق ولا الاستسلام النفسي ، بل تسببه حالة معقدة مركبة ، تختلط فيها الاوهام ، مع الاجتهادات السياسية الخاطئة ، مع ضروب معينة من الوهن أو اليأس في فهم طبيعة الصراع وطول مداه وحجم التضحيات المبذولة على طريقه . ولا شك في أن بهتان الصورة النضالية على الصعيد العربي ، رسميا وجماهيريا ، ساهم بشكل أو بآخر ، في تسبب هذه الحالة التي نشير اليها .

أما خطورة هذا النمط فمردها الى أن اثر العقلية والمسلك الذي يفرضه آخذ في تطويق مواقع القوى الفاعلة على الصعيد الفلسطيني وبالتالي آخذ بالتأثير على صنع القرار ، مما يؤدي تدريجيا الى الابتعاد بالقرار الفلسطيني عن منهجه الثوري الصحيح الى مناحي خاطئة عديدة وخطيرة .

[لا بد ، في راينا ، من فهم هذه الخلفيات جميعها والتنبه لها ولآثارها عند أي بحث في موضوعة التسويات والحلول السياسية ، لأنه بهذا الفهم تمكن مجابهة دعاوى « الموضوعية » و« الواقعية » وغيرها التي تطلق في تبرير نهج التسوية ، وما هي ، في الواقع ، الا تغليف وتغطية لآثار هذه الخلفيات .]

ثانيا : ماهية التسوية السياسية ونتائجها حتى الآن

يمكن وصف التسوية السياسية الدائرة الآن لحل ما يسمى بأزمة الشرق الاوسط ،

بأنها محاولة لانهاء حالة الصراع بين العرب والصهيونيين ، بين الوجود الفلسطيني والوجود الاسرائيلي ، قبل أوان انتهائها . في الوقت نفسه تهدف هذه المحاولة الى أن يفيد من انهاء حالة الصراع ، المصالح الامبريالية والوجــود الاسرائيلي على أرض فلسطين . والا لا يمكننا تفسير هذا الحماس الامريكي من أجل انهائها ، ولا هــذه الجولات والمخططات والضغوط .

وحتى تمكن المراهنة على امكانية الوصول الى نتائج من وراء المحاولة ، فهناك جملة مسلمات لا بد منها : اعداد العرب والفلسطينيين خاصة للقبول بالوجود الاسرائيلي ، الامر الذي كان مستحيلا حتى في أشد ظروف العرب انهيارا وقسوة ، ثم اقناع العرب والفلسطينيين بعدم جدوى اعتماد الحرب والقتال في مواجهــة اسرائيل ، اقناعهم « بالدبلوماسية » اذا أمكن والا بالقمع وبتصفية القوى المقــاتلة بين صفوفهم ، أو بالاثنين معا ، ومن ثم افهام الاسرائيليين بضرورة التخلي عن اطماع التوسع ، ما دامت القيود الموضوعة في الصف العربي تحقق لهم ضمان حدود دولتهم ، اذا كانوا يعتقدون أن في عمليات التوسع الضمان الوحيد لحدودهم (ودائما كنا نقول باحتمال وجود بعض التعارضات الجزئية في صفوف المعسكر المعادي) . وأخيرا ، ومن أجل تثبيت الضمان الكافي للمصالح الامبريالية الواسعة والهامة جدا ، فلا بد من ترسيخ حــالة انهاء الحرب ، وذلك بدفن كافة احتمالاتها وسد جميع المنافذ في وجه هبوب رياحها .

كما يمكن القول أن أية تسوية تعني مباشرة وتلقائيا تقديم تنازلات من قبل الاطراف التي تعقدها ، والا تكون هذه أي شيء آخر غير تسوية . وبما أن الاوان الوحيد الذي اعتمده النضال العربي والفلسطيني ، لانهاء حالة الصراع ، هو حين تحقيق التحرير الكامل والناجز لأرض فلسطين ، فان التسوية تعني التخلي ، على الاقل ، عن جزء من هذا الهدف ، أي بكلام آخر التخلي عن الهدف الذي انطلق منه النضال الطويل المرير ، المليء بالتضحيات والعطاء ، وبكلام آخر أيضا يصح القول أن التسوية تعني التخلي عن منطلقات النضال الفلسطيني ، وتبقي بالتالي حالة القهر والاغتصاب القائمة على الشعب الفلسطيني خاصة والعربي عامة . من هنا ، فانه من السذاجة البالغة القبول بالقول ان التسوية السياسية تعني اقامة حل دائم وعادل لما يسمى بأزمة الشرق الاوسط . وغني عن البيان أن مقولة وجود تسويتين ، واحدة أمريكية — صهيونية لا تحقق العدل ، وأخرى عادلة ، قد سقطت ، عبر مسيرة التطورات ، شر سقوط وبلا هوادة .

واذا شئنا أن نخرج ، بالفعل ، من دوامة التشنجات والمزايدات والمكابرة المكلفة جدا ، فلا بد أن نقرر الآن جميعا (اذ ان نفرا له وزنه بيننا قد قرر منذ البداية) أن السير على طريق التسوية ، ليس الا وقوعا في نتائجها المحتومة ولا شأن له بالمراهنة على الحصول على مكتسبات لتعزيز منطلقات الثــورة ، ثم التملص من أية نتــائج عكسية ، اذ ان هذه التسوية بالذات ، الدائرة الآن ، موضوعة بشكل لا مجال فيه للقفزات الهوائية ، فكرية كانت أو مسلكية . ان طعم الانتصارات السياسية يجب أن لا ينسينا مرارة اللقمة الاخيرة . مذاق المرارة قادم لا ريب ، لأن رؤية التسوية وفهمها يدلنا يوما وراء يوم الى هذه النتيجة ، ومن الواضح ان هذه ليست مسألة تشاؤم وتفاؤل ، ولا قضية ثقة أو عدم ثقة ، ولا هي ، بالفعل ، عملية تقليل من قيمة ما تم انجازه على الصعيد السياسي أو عدم تقليل ، بل هي قراءة موضوعية مسؤولة تدلنا عليها النتائج التي لا تحتاج الى كثير من التأويلات والاجتهادات . فما هي هذه النتائج ؟ :

١ — لا يخفى على أحد أن الساحة الفلسطينية تعيش حالة تمزق وضياع منذ أن وضعت حرب تشرين في العام ١٩٧٣ أوزارها ، بالشكل الذي انتهت اليه . كما ان

الحالة النفسية والتعبوية للجماهير الفلسطينية لم ترتح من عمليات التنفيس والاستنزاف . وكذلك فان حالة التلاحم بين الفصائل المقاتلة على هذه الساحة ، التي عاشت في بعض الفترات مراحل متقدمة وحتى متفائلة ، قد هبطت الى درجة مخيفة في السنتين الاخيرتين ، ويكفي أن نسأل هنا عن قضية الوحدة الوطنية ، عن الجبهة الوطنية المتحدة ، الاداة الاساسية لانجاز أهداف هذه المرحلة بالذات ، لنجد في الرد ما يصفع توقعات حتى أشد المتفائلين . ومع اننا لا نريد ان ندخل في تفاصيل وطبيعة ما شهدته المقاومة الفلسطينية على الساحة اللبنانية وخاصة طيلة العام ١٩٧٥ ، دون ان نقلل بالطبع من دقة وقيمة الجهد الذي بذل للوصول الى ما وصلنا اليه من نتائج ، ولكن هل يمكن لاحدنا ان يقبل بعد التصديق بأن خروجها عن نهج التسوية سيجنب الثورة الفلسطينية حدة المؤامرات وتوالي الملاحقات ومحاولات التصفية والقمع ؟ واكثر من ذلك فهل غير القتال والتصدي للمؤامرة والتلاحم مع الحركة الوطنية اللبنانية ، والتضحيات والبذل الصادق المشرف ، هل غير هذه العوامل جنبتنا محاولة الجر ثم التصفية أو على الاقل تقليم الاظافر على الساحة اللبنانية ؟

هذه الصورة بكل ملامحها ، مضافا اليها التخبط المخيف خلال العامين المنصرمين ، بين اطروحات الاستسلام التي أطلقتها خفافيش الظلام التي أتاح لها الجو السائد الخروج من جحورها . وبين الاطروحات التبريرية التي خلفت بلبلة فكرية متشابكة ، اليست كلها من نتاج نهج التسوية السياسية على الساحة الفلسطينية !

٢ — عند اية اجالة للنظر على الساحة العربية ، سريعة ايضا ودون التوغل بالتفاصيل ، نجد ان حالتها اشد تمزقا وضياعا من اي وقت مضى ، وتبرز امامنا اتفاقية سيناء ومرور البضائع الاسرائيلية عبر قناة السويس ، وصورة التجاذب المزيف في الحوار السياسي مع العدو الصهيوني من قبل بعض الجهات الرسمية العربية ، كما يظهر تحسن أسهم الامبريالية وزعيمتها الولايات المتحدة الامريكية في بعض الدول العربية ، سياسيا واقتصاديا . بالاضافة الى هذا كله ، ففي الوقت الذي يبرز فيه تماسك البرنامج الرجعي ، محليا في بعض الدول العربية وعامة على الصعيد العربي ، يعتري العلاقات بين الدول التقدمية التفكك والتسيب ، وتزداد صعوبة عملية ولادة الحركة العربية التقدمية جماهيريا من جديد . ونسأل هنا أيضا ، اليست هذه الصورة من نتاج نهج التسوية السياسية على الصعيد العربي ؟

٣ — لقد حققت القضية الفلسطينية انتصارات غير مشكوك بها على الساحة الدولية ، وانتزعت مجموعة قرارات من المنظمة الدولية لا لبس في ايجابياتها على النضال الفلسطيني ، وستبقى هذه الانتصارات رصيدا غنيا جدا على طريق نضالنا الطويل . الا أن هذا كله يغلف افتراضا عالميا غير مشكوك فيه أيضا ، بأن ما حصل عليه الفلسطينيون من هذا التحول في المواقف الدولية ، يعزز « توجههم » لانهاء حالة النزاع مع اسرائيل بمعنى أن يحصلوا على « حقوقهم » وأن يقبلوا باسرائيل ، حقيقة قائمة بينهم ، ذات حدود آمنة ومعترف بها ، وذات علاقات مرشحة للتطور والتقدم لتصل الى علاقات حسن الجوار بكل ما تعنيه هذه من أبعاد . وكذلك فان اسهام بعض الدول الغربية في تسهيل المهمة الفلسطينية على الصعيد الدولي بانتزاع المزيد من القرارات التي تدين الصهيونية وترفع العزل عن الفلسطينيين الذي كان مفروضا عليهم في مختلف المحافل والى أمد طويل ، ان هذا الاسهام ينتظر أن يكون الثمن المرتجى منه ، أن يريح الفلسطينيون والعرب العالم ، من حالات الحرب والتوتر التي تقلق حياته واقتصاده وأمنه ، وتعرضه باستمرار لاحتمالات الحروب الاوسع والاكبر ، التي عانى منها مرتين بشكل حاد ، وعدة مرات جزئيا ، وكانت تعود دائما بالدمار عليه .

ولقد حدثت على الصعيد الدولي عملية استبدال غير مرئية في صدد القضية الفلسطينية . لقد استبدلنا التأييد المحدود وفي دوائر صغيرة الحجم على الصعيد العالمي لكامل حقوقنا فلسطين ، بتأييد واسع وفي دوائر كبيرة لجزء من حقوقنا على أرض فلسطين . أوليست هذه وغيرها الكثير من نتاج نهج التسوية السياسية على الصعيد الدولي ؟

٤ — لم تحلم اسرائيل بأفضل من المنحى الذي سارت عليه التطورات السياسية منذ حرب تشرين وحتى الآن ، من أجل كسب الوقت لاعادة بناء أوضاعها على كل صعيد ، التي هزتها بعنف بالغ ، لأول مرة منذ نشوئها ، حرب تشرين بالذات . واذا كانت حركة السياسة الامريكيه في المنطقة وخاصة جولات كيسنجر ، قد أثبتت احتمال وجود تعارضات جزئية في معسكر أعداء أمتنا ، وقد شهدت بعض التعثرات أحيانا ، فيكفيها براعة أنها أسهمت جديا في عملية كسب الوقت لاسرائيل . ولا نظن أن أحدا يختلف في أن الوضع العسكري والاقتصادي والاجتماعي والنفسي داخل اسرائيل قد عاد الآن الى التماسك ، بعد ان كان في اشد حالات تعرضه فقط قبل ما يزيد عن سنتين بقليل عن الآن . أليس هذا باختصار من نتاج نهج التسوية السياسية على الصعيد الاسرائيلي ؟

* * *

لم تنته مسيرة التسوية السياسية بعد ، ولم تنته الجولات التي ستتعرض فيها المقاومة الفلسطينية لمحاولات القمع والتصفية . ولم نتوقف المؤامرات ضد شعبنا وضد امتنا ، ولا توجد أية دلائل على أن معسكر الاعداء ، الامبريالي — الصهيوني — الرجعي سيتخلى عن برنامجه الرامي ، باختصار ، الى انزال مزيد من القهر بشعبنا وبحقوقه وبمصيره . في مقابل ذلك فان عناصر النضال العربي الفلسطيني لا زالت متوفرة وبكثرة وعلى مختلف الاصعدة ، للخروج من المأزق ومجابهة البرنامج المعادي . وعلى رغم الصورة القاتمة التي نشهدها على الساحتين العربية والفلسطينية فان عوامل النصر ، وحتمية النصر لا زالت مرشحة للانطلاق من أجل تحقيقه . ولا شك أن الشرط المركزي لعملية الانطلاق هذه يكمن بالخروج من نهج التسوية جملة وتفصيلا .

ان الظرف مناسب جدا أمام قيادة العمل الفلسطيني لتأخذ مبادرة الخروج من شباك التسوية السياسية ، والعودة الى مسار برنامجها الثوري ، الذي به تتمكن من تصليب الساحة الفلسطينية من جديد ، ووضع الساحة العربية أمام مسؤولياتها الجديدة ، لأن قيادة العمل الفلسطيني ، في قناعتنا الراسخة ، لم تتورط بعد بالشكل الذي ذهبت اليه بعض القيادات العربية ، ولم تكن مسيرتها حتى الآن خاضعة لطوق الاستسلام وانما ، ونقولها باخلاص ، كانت مرتكزة على اجتهاد خاطىء . انها الفرصة التاريخية السانحة ، وقيادة العمل الفلسطيني ما زالت قادرة على انتهازها ، لما تتمتع به من خبرات ومن قدرات تفوق ما نراه يعتمل ويسرح ويمرح على الساحة العربية .

عندها لن تعود الساحة الفلسطينية عرضة لما شهدته طيلة الفترة الماضية من شد وجذب ، من قبول ورفض وسوف تسقط مقولات الاستسلام ، وتنتهي محرقة الاستنزاف لدحضها . عندها تتوقف تساؤلاتنا السلبية ، عن ماذا يرفض الرافضون (وهم انما يرفضون هذه الصورة التي أسلفنا ذكر عناصرها) ، وماذا يقبل القابلون ، وعن التصنيفات والاتهامات والتجريح ، وعندها تنطلق أسئلتنا الايجابية وردودنا الثورية عليها ، ببرنامج حقيقي للوحدة الوطنية ، وللقتال الثوري ، ولتثوير الساحة العربية ، ولاعادة ترتيب أمور النضال ، بما يضع الامبريالية والصهيونية والرجعية من جديد في خانة المأزق . ان مفتاح الحل ، مفتاح المخرج من المأزق ، ما زالت الثورة الفلسطينية تمسك به ، فهل تتردد عن استعماله ؟ هل تفوت الفرصة التاريخية علينا ؟

فقاعة الادارة الذاتية

الدكتور الياس شوفاني

خرج علينا مؤخرا بعض قادة العدو بتصريحات تحكي عن منح العرب الفلسطينيين تحت الاحتلال الاسرائيلي حق اقامة اداره مدنية ذاتية . وقد اثار ذلك العديد من التساؤلات والتكهنات عما تنوي سلطات الاحتلال عمله في المناطق المحتلة . واضفى بعض تحركات العدو من جهة ، خاصة الاعلان عن اجراء انتخابات للمجالس البلدية في الضفة الغربية وقطاع غزه ، ومناورات الحكم الاردني من الجهة الاخرى ، خاصة الكلام عن اجراء انتخابات موازية في الضفة الشرقيه ودعوة مجلس النواب الاردني الى الانعقاد ، طابعا من الجدية والخطورة على تلك التصريحات . وزاد من مصداقية حكومة العدو في هذا الشأن ، كون المفاوضات على تسوية مرحلية اضافية في الجولان ، بموازاة اتفاقية سيناء ، قد وصلت كما يبدو الى طريق مسدود . وقد أوحى ذلك بأمكان ان يصار الى تحويل المساعي المبذولة للابقاء على مسيرة عجلة التسوية ، برعاية الولايات المتحدة ، وتوجيهها نحو الاردن بدلا من سوريا ، وبهذا تتناول القضية الفلسطينية وتصطدم طبعا بمنظمة التحرير الفلسطينية . ومما دعم هذا التفكير كون الخيار المصري غير قائم ، نظرا لانه لم يتم الى الان تنفيذ اتفاقية سيناء ، وكون الادارة الاميركية مهتمة جدا بالحفاظ على وتيرة الحركة الدبلوماسية في مسألة التسوية السياسية . وهكذا بدا معقولا ان يجري تحرك ما على الساحة الفلسطينية ، حتى ولو كانت حركة دون بركة ، ما دام الجمود يلف الخيار السوري ، ولا مكان لجولة جديدة من المفاوضات مع مصر . ونحن هنا لسنا بصدد تقدير احتمالات المستقبل بالنسبة الى تلك المناطق ، فهذا امر يتوقف . اولا وقبل كل شيء ، على منظمة التحرير ذاتها ، وعلى نجاحها في انتزاع حقوقها المعترف بها . وانما همنا هو محاولة استقصاء الغايات التي يرمي اليها العدو من تحركاته هذه .

ما هو المطروح ، ولماذا ؟

ليست هذه المرة الاولى التي يطيّر فيها بعض قادة العدو مثل هذه البالونات ، فقد سبق لهم ان عمدوا الى ذلك اكثر من مرة منذ احتلال الضفة والقطاع ، عام ١٩٦٧ . ولكن ، لاسباب مختلفة ، لم تحظ المناورات السابقة بنفس الدرجة من الاهتمام ، مع انها قد لا تكون تختلف عن بعضها كثيرا من حيث الجدية وامكانات انجاح . وعلى اي حال فأن الكلام عن الادارة هذه المرة ، اثار ردود فعل قوية لدى الاطراف المعنية ، كما اولته الصحف الاسرائيلية عناية كبيرة في تعليقاتها وتحليلاتها ، وهناك شبه

اجماع فيها على امرين : اولا ، ان الفكرة جاءت متأخرة ، وانها ربما كانت ستلقى نجاحا لو انها طرحت بعد الاحتلال مباشرة . وثانيا ، انها تلاقي معارضة شديدة من قبل سكان المناطق ، وحتى من قبل الزعامة التي تراهن عليها سلطات الاحتلال لتجسيد الفكرة . واوحى العديد من تلك الصحف ان الهدف من مشروع الادارة الذاتية هو تشجيع قيام زعامة محلية في المناطق المحتلة ، تصبح مع الوقت ممثلا شرعيا للفلسطينيين هناك بدلا من منظمة التحرير ، ويمكن من خلالها انجاز تسوية ما مع تلك الزعامة ، تمكن من استمرار نمط العلاقة القائمة حاليا بين سلطات الاحتلال وسكان المناطق .

ولعل ابرز من تحدث في الموضوع من قادة العدو في هذه المرحلة ، هو وزير الدفاع شمعون بيرس ، مع ان بعض الصحف هناك قد نقل أخبارا تفيد بأن وزير الخارجية ، يغئال الون ، قد طرح أيضا مثل هذه الافكار في اطر محدودة . وكان بيرس قد انتهز فرصة وجوده في قرية بيت جالا ، بتاريخ ١٩٧٥/١٠/٢٢ ، فأدلى بتصريح في الاحتفال الرسمي الذي أقامته بلدية القرية لهذه المناسبة ، جاء فيه قوله « ان الظروف قد نضجت لمنح سكان الضفة الغربية حكما ذاتيا » . وأضاف بيرس قائلا « ان وضعا جديدا قد أخذ بالظهور هنا ، وان اطارا من الحكم الذاتي ، في مجالات كثيرة تمس حياة السكان ، آخذ بالتطور » . وخلص بيرس الى القول : « ان الفراغ الذي طرأ في الضفة الغربية ، عقب قرار مؤتمر الرباط الخاص بالاردن وبمنظمة التحرير الفلسطينية ينبغي ان تملأه ادارة ذاتية ، وحكم ذاتي » . (نشرة م. د. ف. (١٩٧٥) ص ٥٣١) . وقد أثار تصريح بيرس هذا ردا عنيفا من حليفه السابق ، موشه ديان ، مما اضطر بيرس ، كما يبدو ، الى خفض صوته في هذا الشأن ، مع ان هناك من يقول بأنه لا يزال يستهوي الفكرة . والمعروف ان بيرس لا يؤيد الحل الاردني للضفة ، وانه قد طرح سابقا ضم المناطق المحتلة الى اسرائيل تحت يافطة الاتحاد الفدرالي . والجديد في تصريحه الحالي هو توقيته .

ونقلت صحيفة هآرتس (٢١ / ١٠ / ١٩٧٥) ، ان الون « يعتزم ان يطرح ، في احدى جلسات الحكومة ، مشروعا لنقل الادارة الذاتية في يهودا والسامرة وقطاع غزة ، الى أيد فلسطينية ، من سكان هذه المناطق ، في الوقت الملائم . والقصد هو نقل الادارة المدنية في تلك المناطق التي تبدي اسرائيل استعدادها للتوصل الى حل وسط بشأنها . ويبدو ان المقصود هو اجراء تقسيم وفقا لمشروع الون » . ومضت الصحيفة مفصلة انه بمقتضى الخطة « ستنقل الادارة الى فلسطينيين من سكان المناطق ، يحوزون على مكانة توازي مكانة مدير عام في وزارة حكومية ، وسيتمتع هؤلاء بالصلاحيات المطلقة في المجالات التي يعينون فيها ، كالزراعة ، والثقافة ، وادارة الشؤون البلدية ، وسائر القضايا الداخلية ، بأستثناء الجيش والشرطة » . وأشارت الصحيفة الى ان احد الاسباب الرئيسية التي دفعت الون في هذا الاتجاه هو ان امكان التفاوض مع الملك حسين بشأن الضفة الغربية ، لم يعد متوقعا في المستقبل القريب . وبما ان اسرائيل ترفض الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، فأن الوزير « يعتقد ان الحل الوحيد هو منح سكان الضفة حكما مدنيا ذاتيا ، وبلورة زعامة من بين صفوفهم ، يكون بالامكان التفاوض معها بشأن التسوية ، عندما يحين الوقت » . (نشرة م. د. ف. (١٩٧٥) ، ص ٥٣٢) .

وعلقت صحيفة دافار (٢٤ / ١٠ / ٧٥) على مشروع الادارة الذاتية ، فرات ان « النقطة الايجابية المركزية فيه هي تشجيع العناصر الاكثر اعتدالا » ، وقالت : « ان

الادارة الذاتية تخلق زعامة محلية ، ولو قدر لها ان تترعرع قبل فوات الاوان ، لاستطاعت ان تشكل ثقلا مضادا لمنظمات التخريب ، كناطق وحيد باسم الفلسطينيين . والمؤسف انه لم يؤخذ بالامر حين كان تنفيذ هذه الفكرة سهلا ، عقب حرب الايام الستة ، او في خريف عام ١٩٧٠ . اما الان فان الظروف صعبة ، وتثقل اكثر على التنفيذ ، بيد ان الامر لا يبدو مستحيلا » . (نشرة م . د . ف (١٩٧٥) ، ص ٥٣٢) .

وربط يهوشوع تدمور ، (دافار ٢٤ / ١٠ / ١٩٧٥) ، بين انتخابات المجالس المحلية وبين الادارة الذاتية ، فقال : (باديء ذي بدء ، هنالك قيمة لكل عمل سياسي ، يراد به ملء الفراغ الذي نجم عن ابعاد الحكم الاردني . واليوم لا يمكن ان يكون هناك شك ، في ان الخطأ الاكبر الذي ارتكبته اسرائيل في المجال السياسي ، منذ حرب الايام الستة ، هو التجاهل العنيد والاعمى ، للموضوع الفلسطيني ، الذي يعتبر في نهاية الامر ، لب الصراع بيننا وبين العرب . وقد خلق هذا التجاهل فراغا سياسيا خطرا ، ساعد في بروز منظمات التخريب ، ومنظمة التحرير الفلسطينية . وهكذا تعقدت الامور حتى تعززت قوة المتطرفين ، وبلغت ذروتها في مؤتمر الرباط ، حيث حظي ياسر عرفات وصحبه بتمثيل الفلسطينيين بشكل كامل ومطلق . ان هذا الحدث ، وكذلك ظهور عرفات في الامم المتحدة قد رفعا من مكانة المتطرفين . ومرة اخرى لم يعد هنالك في الضفة من نتفاهم معه ، واصبح كل اسرائيلي قريب من الموضوع يحس بالاحباط والغصة ، بسبب تفويت الفرصة التي كانت سانحة لنا . وهكذا وجدنا انفسنا امام طريق مسدودة وخطرة ، في الوقت الذي ارتفعت فيه مكانة المتطرفين ، وتم تحييد حسين تماما » . (المصدر السابق) .

امامنا اذن في هذه المقتطفات كلام منسوب الى اثنين من الثلاثي الحاكم في اسرائيل — رابين ، بيرس ، والون — يدور حول اعطاء سكان الضفة الغربية ، بشكل واضح ، وقطاع غزة ، بشكل غامض ، ادارة ذاتية مدنية ، في ظل الاحتلال العسكري . ويرى صاحب هذا الكلام ، على اختلاف وجهات النظر بينهما حول طبيعة هذه الادارة ومرماها ، ان من شأنها ملء « الفراغ » الحاصل في القيادة السياسية لعرب المناطق المحتلة من الفلسطينيين نتيجة لقرارات الرباط ، وكف يد الحكم الاردني عن تولي الحل والعقد في الشؤون الفلسطينية ، ومن ثم تسلم منظمة التحرير هذا الامر شرعيا . وهما يتطلعان الى قيام زعامة محلية ، تكون « معتدلة » ، وتتولى هي امر ترتيب اوضاع المناطق المحتلة ، بالتفاوض والتعاون مع سلطات الاحتلال ، بحيث تضمن هذه الاخيرة تنفيذ مخططاتها ازاء تلك المناطق وسكانها . ويتضح من اقوال الصحفيين الاسرائيليين انهم لا يعلقون امالا كبيرة على نجاح مثل هذه المشاريع ، حيث انها قد جاءت متأخرة ، ولم تعد تصلح اساسا للتسوية في الظروف الراهنة . والانطباع الحاصل من اقوال الصحف الاسرائيلية ان هنالك اغفالا متعمدا وتجاهلا واضحا لقطاع غزة ، في حين يدور الكلام اساسا عن الضفة الغربية . وكذلك يسترعي الانتباه غياب اي التزام علني لرئيس حكومة العدو في هذا الشأن ، وهكذا يبقى موقفه من الادارة المطروحة مبهما . وهذا يتسق مع التزام رابين بالموقف الرسمي لحكومته ، والقائم على ما ورد في البرنامج الانتخابي لحزب العمل ، عام ١٩٧٤ ، اي على الحل الاردني . ويلاحظ ان ما يطرحه بيرس لا يقلق رابين ،بينما يقلقه جدا ما يدعو اليه الون . وعلى اي حال ، فان الخلاف بين هذا الثلاثي الحاكم ، يتمحور اساسا حول الخط الانجح والاسلم لقطع الطريق على منظمة التحرير الفلسطينية ، وعزلها عن جماهيرها في الضفة والقطاع ، واربكاها في صراعات جانبية

مع اطراف عربية ، بغية اغراقها وضعضعة مواقعها ، وبالتالي تحطيمها ان امكن . فالثلاثة يتفقون على وجوب استبعاد المنظمة من اية مفاوضات بشأن القضية الفلسطينية وهم يجمعون قطعا على رفض الاعتراف بها او انتعامل معها ، بأية صورة ، كما جرى في مناقشات مجلس الامن .

ماذا بين رابين والون

تناقلت الصحف الاسرائيلية مؤخرا اخبارا عن اشتداد الخلاف بين رابين والون حول سياسة اسرائيل في الموضوع الفلسطيني . فبالاضافة الى العوامل الشخصية ، التي لا شك تلعب دورا هاما في العلاقات بين هذين ، يبدو ان الون اميل الى قبول الخط الاميركي في معالجة هذا الموضوع من رابين . وتقول تلك الصحف بوجود خلاف في وجهات النظر بين حكومة رابين وادارة فورد حول تقدير الموقف السياسي في المنطقة ، وفي نظرة كل منهما الى منظمة التحرير وتسوية المشكلة الفلسطينية .

وموقف رابين المعلن هو الالتزام الكامل بما ورد في برنامج حزب العمل الانتخابي ، من وجوب التفاوض مع الاردن في المسائل الفلسطينية ، وحلها من خلاله . ومع انه في حينه ، اي بعد انجاز فصل القوات في الجولان ، سعى بكل جهده لعرقلة اية مفاوضات مع الاردن ، وبالتالي جلب لنفسه لوم الادارة الاميركية ، التي اتهمته بمساعدة منظمة التحرير على انتزاع قرارات الرباط بأضعاف مكانة الملك حسين عربيا ، فقد عاد رابين مؤخرا يدعي ان الحكم الاردني قد استعاد مكانته عربيا ، وانه اصبح مهيأ ، بعد تضاؤل اهمية منظمة التحرير ، لاجراء حوار مع اسرائيل بشأن الضفة الغربية . ويبدوان صيغة رابين الاردنية ليست خطأ سياسيا واقعيا بالنسبة اليه ، وانما هي بمثابة عذر لتجاهل منظمة التحرير ، « فهو لا يؤمن اكثر من اي شخص اخر بأمكان تسوية مع الملك حسين في الظروف الحالية ، ولكنه يواصل التلويح بهذه الفكرة كي لا يبدو كمن يقول « لا » لمنظمة التحرير الفلسطينية ، دون ان يقدم بديلا » . (ماتي غولان ، هآرتس ٩ / ١٢ / ٧٥) . والظاهر ان رابين لا يزال يسعى لكسب الوقت ، وهو يتحاشى ، لاسباب داخلية وسياسية ، التورط في مفاوضات على المشاكل الاكثر تعقيدا ، خاصة ما يتعلق منها بالقضية الفلسطينية ، والتي لا بد لها ان تمس الضفة الغربية والقدس .

ويعزو البعض مواقف رابين هذه الى اعتبارين اساسيين : اولهما ، قناعة رابين الراسخة بأن قيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية يشكل تهديدا حقيقيا جدا لوجود دولة اسرائيل . والثاني ، خوف رابين من الهزة التي قد تتعرض لها حكومته الائتلافية نتيجة للخوض في مناقشات حول مستقبل الضفة ، واثر ذلك على حياته السياسية بالذات . ويرى هؤلاء ان رابين « لا يبدي اية دلالة على انه يفهم ان تغيير الاسلوب والصيغة لا يقود بالضرورة الى النتيجة التي يخشاها » (نشرة م . د . ف (١٩٧٦) ص ٤) . والقصد من ذلك انه اذا اعلنت اسرائيل اعترافها بمنظمة التحرير ، شريطة ان تعترف هذه بها ايضا ، فأن ذلك لا يعني بالضرورة قيام دولة فلسطينية ، وهو ما يخشاه رابين ويرفضه . ويرى بعض الدبلوماسيين الاسرائيليين ان العكس هو الاصح . فتبني صيغة اهارون ياريف ــ التفاوض مع كل طرف فلسطيني يعترف بدولة اسرائيل ــ سيحدث ارباكا في العالم العربي ، يخرج اسرائيل من الموقف الدفاعي الذي تورطت فيه ، ويضع مكانها كلا من الحكم الاردني ومنظمة التحرير الفلسطينية ، فيحشر الاول عربيا ودوليا ، بينما الاخرى فلسطينيا . واصحاب مثل هذا الطرح واثقون من ان الملك حسين يخشى قيام دولة فلسطينية بجواره اكثر مما ينبغي

لاسرائيل ان تقلق من ذلك . فأذا صير الى تبني هذه الصيغة اسرائيليا ، انقلب وزر الصراع مع منظمة التحرير الفلسطينية على الحكم الاردني ، مما يضعضع الصف العربي ، وقد تنعكس الاثار السلبية لذلك على العلاقات بين كل من سوريا والاردن ومنظمة التحرير .

ويرفض رابين صيغة ياريف ، والتي اخذ هاركابي ينادي بها علنا في الفترة الاخيرة ، خشية ان يقبل بها عدد من القادة الفلسطينيين ، ولو ظاهريا ، وبالتالي تقع اسرائيل في مأزق يصعب عليها الخروج منه . وهو يصر على ضرورة ان تبقى الحكومة موحدة في موقفها من المسألة الفلسطينية ، ومن رفض مبدأ قيام دولة ثالثة بين اسرائيل والاردن ، وهو مستعد لاسقاط الحكومة اذا جرى اعتراض قوي على مفهومه هذا . ويبرر رابين موقفه هذا بأدعائه ان الخلاف مع ادارة فورد في هذا الشأن ، لا يسمح لحكومته الدخول في جدل حوله ، خشية ان تستغل ذلك اوساط سياسية اميركية مناوئة لاسرائيل . وهو يدعي كذلك ان جو الكآبة الذي يسود الجمهور الاسرائيلي ، خاصة بعد قرارات الامم المتحدة بادانة الصهيونية ، وبروز منظمة التحرير على الصعيد الدولي ، لا يسمح بالخوض في نقاش حول هذه القضية المتعلقة بحياة اسرائيل . وعلى العموم ، فان رابين لا ينوي ، على الاقل في عام انتخابات الرئاسة الاميركية ، الالتزام امام ادارة فورد بشيء جدي ، قبل ان يتأكد ممن سيكون الرئيس المقبل للولايات المتحدة . وهكذا فأنه يناور ويطرح الصيغة الاردنية ، بهدف كسب الوقت ، انطلاقا من قناعته بأنه لا مجال لتسوية سلام في المنطقة في المستقبل القريب ، والمهم ان تنقضي السنوات العجاف .

وبالمقابل يرى الون ضرورة الاسراع في معالجة القضية الفلسطينية قبل ان « يستفحل » امر منظمة التحرير وتجد اسرائيل نفسها في مأزق لا يسعها فيه الا الاعتراف بها ، والتعامل معها على شروطها ، كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني . وهو يخشى ان تكون حكومة رابين ، نظرا للتطورات الاخيرة في القضية الفلسطينية وتنامي قوة منظمة التحرير ، في حين تزداد عزلة اسرائيل ، قد دفعت بنفسها نحو تبني سياسة عقيمة ، يصعب بعد حين العدول عنها ، مما قد يدهور الاوضاع في المنطقة الى حرب خامسة — وهذا ما لا تريده الولايات المتحدة حاليا . وبدأ الون مؤخرا يبدي ضيقا بالتمسك في الصيغة الاردنية — الفلسطينية ، رغم انه هو الذي بادر اليها وتبناها وحمل الحكومة على قبولها . فهو يدعو الى اعادة النظر في هذه السياسة . ويعتقد انه لا يجوز بعد « منح حسين امتيازا على مفاوضات التسوية ، خاصة وان الملك الاردني يرفض المرونة والحل الوسط ، ويتوقع ان تقوم اسرائيل عنه بالعمل ، الذي لا اجر له ، برفض كل محاولة لاشراك منظمة التحرير الفلسطينية » . (نشرة م . د . ف (١٩٧٦) ، ص ٦) . ولذلك يرى الون ، خاصة ازاء اتساع الاعتراف بمنظمة التحرير وشيوع الدعوة الى اقامة دولة فلسطينية بقيادتها ، ان على اسرائيل توسيع هامش مناورتها وتقديم مقترحات جديدة ، اذا ارادت قطع الطريق على المنظمة . والون يصر على التمييز بين منظمة التحرير ، التي يرفض الاعتراف بها قطعا ، وبين المسألة الفلسطينية ، التي يرى ضرورة ايجاد حل لها . وقد نقل عنه مشروع من ثلاثة خيارات لمثل هذا الحل ، هي كالتالي :

١) اتفاق اردني اسرائيلي ، يرافقه حل وسط اقليمي على اساس مشروع الون المقلص ، يمنح الفلسطينيين حكما ذاتيا معينا . وهو يعتقد ان الفلسطينيين سيرفضون هذا الحل لرغبتهم في التعبير عن هويتهم السياسية .

٢) خيار يعتبره أكثر واقعية يقول باقامة وحدة فيدرالية اردنية ــ فلسطينية ، يتطابق مع مشروع الملك حسين ، ولكن مع تعديلات ملموسة في الحدود .

٣) في حالة رفض الفلسطينيين هذين الخيارين فعندها « لا يجوز التهرب من امكان أن توافق اسرائيل على شكل من الدولة الفلسطينية » . وآلون لا يرى ذلك خيارا واقعيا في المستقبل القريب ، كما انه يرفض ان يكون بقيادة منظمة التحرير ، الا انه لا يقول بضرورة الرفض القاطع لمثل هذه الفكرة ، ولا يرى سببا للمبالغة في تجسيم الاخطار التي ستلحق باسرائيل من جراء ذلك ، « شريطة ــ طبعا ــ ان يتم تحييد هذه الدولة وتجريدها مسبقا ، ويبقى نهر الاردن حد اسرائيل الامني » . واذا كانت ثمة ضرورة لاجراء انتخابات عامة للحصول على تفويض سياسي شعبي ، يؤهل الحكومة انجاز مثل هذا الاتفاق ، فأن الون لا يرى داعيا للاحجام عن ذلك ، كما يتصرف رابين .

السياق السياسي

اطلقت فقاعة الادارة الذاتية ، والثورة الفلسطينية تخوض معركة مصيرية في لبنان ، في مواجهة مؤامرة تستهدف ، اولا وقبل كل شيء ، كسر شوكة هذه الثورة ، ومن ثم تطويع منظمة التحرير وقولبتها بشكل يتلاءم مع مسار التسوية السياسية برعاية الولايات المتحدة في المنطقة . وقد جاء ذلك بعد انجاز اتفاقية سيناء ، وتعثر المفاوضات على تسوية مرحلية موازية في الجولان ، واشتداد الخلاف بين منظمة التحرير وسوريا من جهة والحكومة المصرية من الاخرى . وفي هذه الاثناء ازداد التقارب بين الاردن وسوريا ، رغم التناقض القائم بين الحكم الاردني ومنظمة التحرير . ومع ذلك فقد استمر بروز المنظمة على الصعيد السياسي ، واتسع الاعتراف الدولي بها ، مما انعكس في ترسيخ شرعية تمثيلها للشعب الفلسطيني ، والتفاف هذا الشعب حولها ، وفي المناطق المحتلة بالذات .

وبينما الولايات المتحدة ضالعة في المؤامرة على الثورة الفلسطينية في لبنان ، صدر عن وزارة خارجيتها تصريح ، عرف فيما بعد بوثيقة سوندرز ، نسبة الى احد موظفي الوزارة ، اشرف على اعداد الوثيقة ، وطرح فيما بعد في الكونغرس الاميركي ، في منتصف شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥ . واعقب ذلك نشر وثيقة اخرى اعدها معهد بروكنغز ، المعروف بقربه من الخارجية الاميركية . وأثارت وثيقة سوندرز بالذات غضب حكومة رابين ، واعتبرتها وسيلة ضغط عليها لتغيير موقفها من المسألة الفلسطينية ، كما رأت بها خرقا لاتفاقات التفاهم بينها وبين ادارة فورد ، والتي تمت اثناء المفاوضات على اتفاقية سيناء . وكان اكثر ما اقلق الحكومة الاسرائيلية في الوثيقة ، تأكيدها على ان جوهر الصراع في الشرق الاوسط هو القضية الفلسطينية ، مما يناقض مفهوم رابين ، القائل بان عدم اعتراف الدول العربية باسرائيل هو لب ذلك الصراع . واستنتجت حكومة رابين من الصياغات الواردة في الوثيقة ، انها كانت بمثابة خطوة على طريق الاعتراف بمنظمة التحرير ، وتأهيلها للمشاركة في مفاوضات التسوية . واعتبرت اشارة سوندرز ، اثناء عرضه الوثيقة على الكونغرس ، الى فشل محاولات ترتيب لقاء بين الرئيسين ، الاسد وفورد ، مع الحاح واشنطن على ضرورة الاستمرار في التحرك الدبلوماسي والحؤول دون تجميد مسار التسوية ، مؤشرا الى ان الحكومة الاميركية تفكر في الاقلاع عن مفهوم ضرورة الانتظار في اشراك الفلسطينيين في المفاوضات حتى المراحل النهائية من اتفاق السلام . وهذا

في نظرها تحول في سياسة الولايات المتحدة ، يناقض اتفاق التفاهم بينهما ، القاضي بضرورة التشاور المسبق وتنسيق التحركات السياسية بين الحكومتين . وبدأت اوساط سياسية اسرائيلية تميل الى القناعة بأن ادارة فورد تجنح نحو الاعتراف بمنظمة التحرير ، شريطة ان تقدم هذه تنازلات ، على رأسها الاعتراف بقيام دولة اسرائيل ، اي ان واشنطن لا تتفق مع اسرائيل ، كما كان اعتقاد الاخيرة ، على مبدأ رفض الاعتراف بالمنظمة بشكل مطلق . وعلى هذه النقطة ، أضافة الى مسائل اخرى برزت اثناء مفاوضات التسوية ، يدور الخلاف بين حكومة رابين وادارة فورد .

وهذا الخلاف يقلق حكومة رابين ويزيد من شكوكها في تصرفات ادارة فورد ومن عدم ثقتها بالتعهدات التي يقدمها لها كيسنجر . وقد كان ذلك واضحا في ردود الفعل المرتبكة والعصبية لحكومة رابين ازاء التحركات الاميركية بعد اتفاقية سيناء . فقد أبدت عدم ارتياحها الى كلام ادارة فورد عن ضرورة الوصول الى اتفاق في الجولان ، بعدما كانت تعتقد ان اتفاقية سيناء ستقيها شر الخوض في مشاكل معقدة لسنتين او ثلاث على الاقل . ثم كان امتعاض اسرائيل من زيارة السادات الى الولايات المتحدة ، وسكوت واشنطن عن تصريحاته هناك ضد الصهيونية ، وتأييده لمنظمة التحرير . ثم جاءت مناقشات الجمعية العمومية في القضية الفلسطينية ، وخرجت الامم المتحدة بقرار ادانة الصهيونية ودمغها بالعنصرية ، فأتهمت اسرائيل اميركا بالتقصير في تجنيد الدعم لاسرائيل في الجمعية العمومية . ثم كانت مناقشات مجلس الامن حول تمديد انتداب قوات الطوارىء الدولية في الجولان ، واقرار ذلك وربطه بعقد جلسة خاصة للمجلس تبحث فيها قضية الشرق الاوسط ، وتدعى الى المناقشات منظمة التحرير الفلسطينية ، فاستشاطت حكومة رابين غضبا لموافقة الولايات المتحدة على القرار ، واعتبرته تراجعا كبيرا من حكومة واشنطن ، ورضوخا « للابتزاز » العربي . فما كان من حكومة رابين الا ان اعلنت رفضها للقرار ، وعزمها على مقاطعة المناقشة وتصميمها على اقامة عدد من المستوطنات الجديدة في الجولان ، كما عمدت الى الاغارة على المخيمات الفلسطينية في لبنان . فبعث فورد ببرقية الى رابين يحثه فيها على الامتناع عن اتخاذ خطوات من شأنها تعقيد محادثات التسوية . اما رابين فقد اعاد البرقية الى مرسلها ، واتبع ذلك بتسريب معلومات عن مضمونها ومصيرها . وهنا اندلعت حملة متبادلة من الاتهامات بين الطرفين ، حاولت فيها حكومة رابين استغلال وضع فورد الصعب في انتخابات الرئاسة ، للضغط عليه . وانتهت هذه الحملة بزيارة الون الاخيرة الى واشنطن ، عشية مناقشات مجلس الامن لتنسيق مواقف الدولتين ، مما اسفر عن الفيتو الاميركي على مشروع القرار الذي تقدمت به دول عدم الانحياز . كما مهد ذلك لزيارة رابين ، والتي اتفق فيها الطرفان على محاولة اجراء حوار مجدد مع الاردن . وهذا اكيدا سيكون احد البنود الاساسية في المحادثات التي سيجريها الملك حسين في واشنطن ، لدى زيارته اياها في الشهر القادم .

وفشل المؤامرة على الثورة الفلسطينية في لبنان ، واستمرار هذه بانجاز المزيد من المكتسبات السياسية ، وكذلك عدم جدوى محاولات الالتفاف حول قرارات الرباط ، والشعور بأن الولايات المتحدة اخذت تغير من مواقفها ازاء منظمة التحرير ، وتتنصل مما تعتبره اسرائيل امرا متفقا عليه ، بالاضافة الى قرارات الامم المتحدة بأدانة الصهيونية ودعوة منظمة التحرير للمشاركة في مناقشات مجلس الامن ، كل هذه العوامل قد اربكت حكومة رابين الضعيفة ، وزعزعت تماسكها الداخلي . فعمدت الى القاء اللوم على الادارة الاميركية ، وعلى رأسها فورد ، الذي هو نفسه في موقف لا يحسد عليه في معركة انتخابات الرئاسة هناك . وعلى هذه الخلفية جاء بالون

الادارة الذاتية ، ا ي‌انه أطلق من موقع الضعف والارتباك ، وليس من موقع القــوة والثقة بالنفس .

الادارة الذاتية الى اين ؟

عندما اطلقنا كنية « فقاعة » على مشروع الادارة الذاتية الذي طرح دون ان تتبناه حكومة رابين كسياسة رسمية ، لم يكن ذلك استخفافا منا لمخططات العدو ، وانما قصدنا ذلك ، ونحن نعي اهمية الدقة والجدية في التعامل مع تحركاته . والواقع ان بيرس قد اطلق تصريحه ثم انكفأ على نفسه ، اثر الهجوم العنيف الذي شنه عليــه ديان . فلم نسمع عن مشروع بيرس شيئا جديدا ، لفظا أو عملا ، منذ ذلك الحين . واما الون ، فقد اكتفى بقرقعة السيوف ولم يطرح مشروعه في الحكومة ، ولا هو تجرأ على مجابهة رئيس الحكومة ، كما كان متوقعا . والذي حدث هو ان رابين عاد مــن واشنطن وطيّر بالون الحوار مع الاردن مجددا . وبهذا طويت صفحة مشروع الادارة الذاتية ، على الاقل مرحليا . وأما انتخابات البلديات المقبلة ، في الضفة والقطــاع ، فأنها لا تغير ولا تبدل في الامر شيئا . فلا هي تعني تحقيق المشروع ، ولا هي تحــول دون ذلك ، على الاقل من الناحية النظرية . والواقع ان الصراع في المعركة الانتخابية يدور اساسا بين الاردن ومنظمة التحرير ، اكثر مما هو بين المنظمــة وسلطـــات الاحتلال .

ولكن هذا المشروع قد يطرح مجددا ، ولو بصيغ مختلفة ، تتلاءم مع مقتضيــات الظروف السياسية المواكبة ، وهو بالاســاس لا يتناقض مع خط اي من الثلاثي الحاكم بالنسبة الى مستقبل الضفة . فرابين قد يرى فيه « التعبير عن الهوية الفلسطينية في اطار اردني » ، كما هو وارد في البرنامج الذي يلتزم به . والون قد يعتبره ممهــدا لتحقيق أي من الخيارات الثلاثة التي يطرحها . كما ان بيرس قد يرى به تجسيدا لما يطرحه من ضم المناطق تحت شعار الاتحاد الفدرالي مع اسرائيل . واذا قيض لهذا المشروع ان يطرح مجددا ، فأن صيغته عندئذ ستعتمد اصلا على موازين القوى بين هذا الثلاثي الحاكم داخل الحكومة ، اذا بقيت هذه متماسكــة . امـــا الان فيبدو ان التحرك سيكون باتجاه الاردن في محاولة لاجراء حوار معه ، بعد ان وعد فورد رابين بجس نبض الملك حسين في هذا الشأن . ومن هنا فأنه يستبعد ان تقوم الحكومـــة الاسرائيلية في المستقبل القريب بأي تحرك من شأنــه ان يثقل على الملك في محاولتــه الالتفاف حول قرارات الرباط . ويتوقع ان يبقى المشروع مجمداً الى ان تنجلي امكانات مثل هذا الحوار .

وعند محاولة تقييم مشروع الادارة الذاتية ، لا بد من الاخذ بالاعتبار ما يدور على الساحة الفلسطينية ككل ، وخاصة ما يتعلق من ذلك بمنظمة التحرير . وكذلك فلا بد من وعي ان لتحركات حكومة رابين في هذا المجال سقفا لا يمكنهــا ان تتجــاوزه . فبالاضافة الى الاهداف الصهيونية البعيــدة المدى ، هنــاك الالتزام الاستراتيجي بالوقوف في وجه قيام دولة فلسطينية مستقلة ، بين اسرائيل والاردن ، تملك القدرة السياسية على تقرير العلاقة بين السكان والارض هناك . وكذلك فلحكومة رابــين سياسة واضحة ازاء منظمة التحرير ، تقوم على رفض الاعتــراف بها أو التعــامل معها . هذا الى جانب ان هذه الحكومة ملتزمة باجراء استفتاء شعبي ، اي انتخابات عامة ، للحصول على تفويض سياسي لامضاء الاتفاقات التي قد تتوصل اليها حــول مستقبل الضفة . ولا بد هنا من الاشارة الى ان حكومة رابين ، ككــل حكومـــة اسرائيلية اخرى ، في هذه المرحلة من تاريخ الدولة الصهيونية ، تواجه مأزقا حرجــا

في قيام اي كيان فلسطيني مستقل . فبالاضافة الى التناقض المطلق بين مثـل هـذا الكيان واسرائيل ، هناك مشكلة اكثر الحاحا وارباكا . فهي ان عمدت الى اقامـة كيان هزيل ، فأنه لن يستطيع ان يصمد امام ضغط منظمة التحرير وحركـة الجماهير الفلسطينية . وان قبلت بقيام دولة قوية ومسلحة فذلك يعرضها نفسها للخطر . ومن هنا الاصرار على تصفية الثورة الفلسطينية والقضاء على منظمة التحرير والتوجـه الى حل القضية الفلسطينية من خلال الاردن .

ومنذ مؤتمر الرباط وحكومة رابين تسعى لاحيـاء الدور الاردني في مفاوضـات التسوية على الضفة الغربية . وهي ما انفكت تبشر باقتراب اليوم الذي تدفع فيـه منظمة التحرير الى هامش الاحداث السياسية في المنطقة ، بينما كانت تعمل على تنفيذ المؤامرة في لبنان. ولم يكن توقيت طرح مشروع الادارة الذاتية بمعزل عن تلك المؤامرة. فبينما كانت حكومة العدو تتوقع ان تسحق الثورة في لبنان عسكريا ، ارادت ان تجهز عليها سياسيا ، بعزل جماهيرها في الضفة الغربية وقطاع غزة عنهـا من خلال مـا اسمته بالادارة الذاتية . اما وقد أحبطت الثورة المؤامرة في لبنان ، فلم يبق هناك كبير فائدة من تلك الادارة ، اذ كان المبرر الرئيسي لاقامتها هو خلق البديـل لمنظمـة التحرير ، ولكن هذه خرجت من المعركة في لبنان وهي اصلب عودا واصعب منالا .

والسؤال الان هو ماذا بعد ؟ فازاء ما تمخضت عنه احداث لبنان ، واثر ذلـك في الساحة العربية عامة ، وعلى الثورة الفلسطينية خاصة ، وانعكاس كل ذلك على الساحة الدولية ، وبالتالي على مسار التسوية ، لم تعـد الادارة الذاتية مسألة ذات شأن . وفي ضوء البيان المشترك الصادر بعد زيارة رابين الى واشنطن ، والـذي تحدث عن محاولات لاجراء حوار بين الاردن واسرائيل ، يبدو ان الصراع السياسي في المرحلة المقبلة سيدور حول مستقبل المناطق المحتلة ككل . واكيداً انه في المعطيات الراهنة ، سيكون لهذا الصراع اثر كبير على التركيبة السياسية القائمة في اسرائيل ، كما انه لن يمر على الساحة العربية مرور الكرام . ولا يستثنى ابدا ان ينقلب هـذا الصراع الى صدام مسلح .

الاتجاهات السياسية في الارض المحتلة

والمواقف المختلفة من مؤامرة العدو الصهيوني لانشاء ادارة مدنية في الضفة والقطاع

علي الخطيب

حرص العدو الصهيوني منذ الاحتلال على تنمية علاقات مختلفة مع الزعامات التقليدية وبعض الشخصيات في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ومما لا شك فيه ان العدو يعمل من اجل بلورة ارضية سياسية واجتماعية واقتصادية توفر له عوامل تنفيذ اي مشروع صهيوني يلجأ اليه الاحتلال لتحديد مستقبل الضفة والقطاع وفقا لتصوراته السياسية .

من هنا فان تاريخ مؤامرة الحكم الذاتي يرجع الى بداية سنوات الاحتلال الصهيوني في حزيران ١٩٦٧ ، فقد مر مخطط العدو بمراحل عديدة توجت اخيرا بطرح مشروع قيام ادارة مدنية تشكل نواة لاقامة حكم ذاتي في الضفة والقطاع ، واذا كانت ثمة عوامل عديدة (داخلية وخارجية) حالت دون وضع هذا المشروع على حيز التنفيذ ، فان الظروف الحالية اعطت دلائل ومؤشرات تؤكد على خطورة ما يجري حاليا من مؤامرات تستهدف تطبيق المشروع الصهيوني . وعلى ذلك فان من المنطقي والمعقول ان نشير الى خطورة الانتخابات البلدية التي ستجري في شهر آذار القادم ، الامر الذي يتطلب منا القيام بجهود مكثفة وبمهام عاجلة تكون على مستوى التصدي للمؤامرة وافشالها .

قبل تحديد المخطط الصهيوني ، لا بد لنا من استعراض المراحل التي مر بها المشروع منذ بداية الاحتلال ، ليتسنى لنا الفهم العلمي والدقيق للمؤامرة ، وعلى ذلك فاننا سنعرض بشكل موجز لكل مرحلة من المراحل على النحو الاتي :

١) **المرحلة الاولى — المورفين :** فمنذ الاسبوع الاول من الاحتلال قام الحاكم العسكري الصهيوني آنذاك حاييم هرتسوغ وعوزي نركيس القائد العام للاراضي المحتلة وداوود فرحي باللقاء مع بعض الشخصيات الفلسطينية الغاية منه كسب ولاءهم في اطار سياسة العدو التي استهدفت دغدغة العواطف الفلسطينية في مرحلة الضياع النفسي والذهول الفكري الذي اعقب الهزيمة ، من اجل ترغيب شعبنا في الاحتلال الصهيوني من خلال استغلال الهزيمة التي منيت بها الدول العربية لتيئيس شعبنا في الداخل . الا ان هذه المرحلة لم تسمح بتقديم اي مقترحات ملموسة او مشاريع محددة بالنسبة للضفة والقطاع .

٢) **المرحلة الثانية — وزير المستعمرات :** بعد اشهر من الاحتلال عينت وزارة العدو فرانسيس ساسون مسؤولا عن الاتصالات السياسية مع زعامات الضفة الغربية والقدس ، حيث كلف بالاتصال يوميا بالوجهات التقليدية وفق مهمة الغاية منها

استطلاعية للوقوف على راي هذه الشخصيات في مستقبل الضفة والعلاقات بين سلطات الاحتلال والسكان العرب ، من اجل بلورة موقف مشترك يمكن السير على خطاه ، وفي هذه المرحلة تبلورت عدة اتجاهات سياسية في الضفة الغربية يمكن تلخيصها بما يلي :

أ) فريق ينادي بعودة الامور الى ما كانت عليه قبل الاحتلال ١٩٦٧ اي العودة الى الاردن على اعتبار ان الضفة الغربية والقدس جزء من المملكة الاردنية ، وان اي حل لا بد وان يأتي من خلال التفاوض مع النظام الاردني .

ب) فريق يطالب بدولة فلسطينية في الضفة والقطاع تكون القدس عاصمتها ، وان اي حل يمكن ان يأتي عن طريق اجراء مفاوضات بين هذه الدولة والكيان الصهيوني لحل مشكلة الحدود وتعديلها ، على ان يكون جميع الفلسطينيين مشتركين في توقيع اي اتفاق مع العدو .

ج) فريق يأمل في « كيان فلسطيني مستقل » يرتبط مع الاحتلال باتفاقية سلام بحيث يقوم هذا الكيان في ظل الاحتلال ودون العودة الى الفلسطينيين في الخارج او الدول العربية لاقرار هذا .

هـ) فريق يطالب الاحتلال بترك الحكم للادارة الاردنية التي كانت موجودة قبل الاحتلال ، مع تعيين **حاكم عسكري عربي** عام من الفلسطينيين يدير شؤون الضفة الى ان تتبلور الامور داخليا وعربيا وفلسطينيا لاقرار اي حل ، وقد رشح لمنصب الحاكم العسكري آنذاك واحد من ثلاثة الشيخ الجعبري ، انور الخطيب ، حكمت المصري .

و) فريق ينادي بقيام مجلس وطني في الضفة الغربية من ١٢٠ — ١٥٠ عضوا يتألف منه هيئة عربية عليا يمكنها محادثة الصهاينة بشكل اوسع تمثيلا .

٣) **المرحلة الثالثة : الرسل والاعوان** : وقد اتخذت هذه المرحلة اشكالا عدة ، ففي الوقت الذي منعت به سلطات الاحتلال الشخصيات والقوى الوطنية والقادة الشيوعيون في حيفا والناصرة والمثلث من زيارة الاراضي المحتلة حديثا اوفدت مندوبين من عملائها الفلسطينيين في مناطق ١٩٤٨ للاتصال ببعض الشخصيات الفلسطينية للحديث عن « جمال محاسن الدولة » بهدف تيئيس الجماهير من الدول العربية وترغيبهم بالاحتلال .

وقد تميزت هذه المرحلة بنشاطات مكثفة لجمعيات ومؤسسات ونواد مشبوهة في الضفة الغربية والقدس ، وتنظيم لقاءات مختلفة اهمها : المحافل الماسونية ، نوادي الروتاري ، الليونز كارتياس ، كويكرز ، جماعة الصداقة العربية — الاسرائيلية .. الخ .

وقد رافق ذلك ايضا سلسلة اتصالات مكثفة قام بها ملحقون بالسفارات والقنصليات الاميركية والبريطانية والبلجيكية والفرنسية مع بعض الشخصيات الفلسطينية لبحث مستقبل المناطق المحتلة ومصير القدس .

٤) **المرحلة الرابعة : الدويلة المسخ** : وهذه تشكل اخطر المراحل فعلا ، حيث بدأ اول طرح عملي لفكرة قيام دويلة في الضفة الغربية شجعتها سلطات الاحتلال الى جانب بعض موظفي السفارة الاميركية ، وشارك فيها مجموعة من الفلسطينيين في

رام الله ونابلس والخليل ، كما جاء احد الفلسطينيين من تونس ويدعى محمد فياض لترويج هذه الفكرة .

ويلاحظ ان طرح هذا المشروع جاء بعد معركة الكرامة في آذار ١٩٦٨ وامتد حتى عام ١٩٧٠ ، ويتضمن هذا المشروع قيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة تحت الاحتلال الصهيوني ، وترتبط معه بتحالف او اتحاد فيدرالي ، كما ترتبط مع اي دولة عربية في المستقبل (الاردن) باتحاد مماثل ، وتقوم الدولة المقترحة بالاتصال مع الفلسطينيين في الخارج وايضا بالدول العربية لتصبح اداة للتفاهم والمفاوضات بين العدو والانظمة العربية ، كما روجت ان بعض الدول وفي طليعتها اميركا ستعلن اعترافها بها حالا ثم تتم الاعترافات من قبل الدول الاخرى الصديقة للصهاينة .

وهنا لا بد لنا من ايراد الملاحظات التالية :

١ — ان الاحتلال لم يكن جادا في طرح الفكرة وانما استعمل الاشخاص الذين قاموا بها واستغلها استغلالا واستهلاكا كبيرين .

٢ — كان الهدف من ذلك القيام بحملة ضغط على الاردن ووضعه بين واحد من اختيارين : اما ضرب العمل الفدائي وتصفيته في الضفة الشرقية ، او قيام الكيان الهزيل البديل .

ونجح الاحتلال نجاحا كبيرا فيما وقع في ايلول ١٩٧٠ واحراش جرش ١٩٧١ ولم يصدق الصهاينة لا مع الاردن كبدء عودة للضفة ، ولا مع اصحاب مشروع الدولة الفلسطينية .

٣ — وفي نوع من كسب الثورة النفسية ضد الاردن في اعقاب مجزرة ايلول انعقد اجتماع ضم حوالي عشرين شخصية اكثرهم من رؤساء البلديات في القدس لتدارس الموقف بحث خلاله تشكيل هيئة محلية تمثل السكان في المناطق المحتلة .

٥ — **المرحلة الخامسة : تدويل المناطق المحتلة :** بعد مجازر ايلول وجرش وعجلون استغل العدو الصهيوني تلك الاحداث ، فاوعز لبعض الزعامات التقليدية ورؤساء البلديات وبعض الشخصيات الاخرى بوجوب المطالبة بتشكيل هيئة تمثيلية للسكان العرب تكون مهمتها ما يلي :

١ — الادعاء بتمثيل المناطق المحتلة في الضفة والقطاع .

٢ — الطلب من الامم المتحدة ومجلس الامن قبول وفد يعرض الرأي على المجتمع الدولي بوجوب الاعتراف العربي بالكيان الصهيوني والصلح معه وفقا لحدود يتفق عليها مع العدو . وقد ارسلت خمس برقيات بهذا الصدد لسكرتير عام الامم المتحدة .

٣ — جلب قوات الامم المتحدة للمنطقة لمدة تتراوح بين ٣ — ٥ سنوات يتم خلالها تقرير مصير الضفة والقطاع .

والواقع ان فكرة تواجد قوات الامم المتحدة كان قد طرحها احد الاعيان الاردنيين في القدس في لقاءات له مع الصهاينة وبعض القناصل الاجانب عام ١٩٦٨ كما طرحها بعده الشيخ الجعبري .

وزيد عليها فيما بعد ما يلي :

أ) اثناء تواجد هذه القوات يجري استفتاء العرب في الضفة والقطاع لمعرفة رايهم في احد الحلول التالية : اقامة دولة فلسطينية في بعض الضفة والقطـــاع ، مصير القدس — تدويل — تقسيم ، العودة للاردن على اسس جديدة غير تلك التي كانت قبل الاحتلال ، اتحاد فيدرالي اوكونفدرالي مع اكثر من جانب بما فيه الجانب الصهيوني .

ب) يشمل الاستفتاء اعتبـــار الهيئة العربيـــة المؤسسة التي تقوم مـــن رؤساء البلديات والغرف التجارية والمؤسسات والنقابات ، ممثلة لراي السكان في تبني نتائج الاستفتاء .

٦ — **المرحلة السادسة — المشاريع الصهيونية** : في وسط هذه الاجواء والتيارات خرج الصهاينة بعدة مشاريع رسمية واخرى شبه رسمية ويمكن اجمالها بما يلي :

١) مشروع ديان ، القاضي بالاحتفاظ بالمناطق المحتلة الى أن تتم تسوية سياسيه . ولا مانع من منح السكان في الضفة والقطاع حق حكم انفسهم داخل الحكم العسكري وسياسة الجسور المفتوحة .

٢) مشروع غاليلي : الذي يتضمن ثلاثة مبادىء بخصوص مستقبل الضفة و لقطاع وهي : أ) مساعدة (النشاط الذاتي) للسكان في مجالات التعليم والديانة والخدمات . ب) تنمية (أنماط ديمقراطية) في الحياة الاجتماعية والبلديه . ج) يتم قدر الامكان تعيين أشخاص محليين من العرب في مناصب مدنية عالية في جهاز الحكم العسكري .

٣) مشروع بنحاس سابير في اعادة المناطق الاهلة بالسكان العـــرب ، والاحتفاظ بالاماكن الخالية منهم أو القليلة العدد بهم .

٤) مشروع آلون : الذي يرى باعادة بعض أجزاء من الضفة الغربية للاردن وايجاد منفذ بحري اما من حيفا او اشدود وممر بري الى غزة على ان يظل نهر الاردن حـــدا امنيا بيد الصهاينة .

وبالرغم من عدم تبنـــي العدو مشروعا محددا ، الا ان سلطات الاحتلال انتهجت سياسة تقوم على الاسس التالية :

أ) الاستمرار في سياسة الترهيب والترغيب مع السكان .

ب) سياسة الجسور المفتوحة التي تعتبر اول حل جزئي مع دولة عربية .

ج) احتواء اقتصاد الضفة والقطاع .

د) فتح المجال امام امكانية اقامة كنتونات من الحكم المحلي في ظل كنتونات الاتحاد الفيدرالي .

هـ) التوسع في مصادرة الاراضي واقامة المستوطنات .

و) قيام الادارة المدنية بشكل اوسع تمثيلا ضمن البلديات واطار فوق البلديات .

٧ — **المرحلة السابعة — المشروع الاردني والمشاريع العربية والفلسطينية بالخارج:** في اذار ١٩٧٢ أعلن الملك حسين مشروعه المسمى « بالمملكة العربية المتحدة » وهو يقوم على اعادة بناء المملكة بتقسيمها الى قسمين قطر فلسطيني وقطر اردني تحكمهما دولة الاتحاد .

كما ان ثمة مشروعا اخر دعت اليه مصر والقاضي باقامة ما يسمى « بالحكومة الامنية » في الضفة والقطاع يرضى عنها كل الاطراف باتجاه نحو بلورة نواة لقيام دولة فلسطينية ترتبط مع الاردن وفق علاقات واسس جديدة .

كذلك فقد طرح مشروع سعودي ـ وهو قريب من المشروع المصري ـ ولكنه ينص صراحة على قيام دولة فلسطينية وفقا لسياسة السعودية التي تنادي بقيام دولة « عازلة » بينها وبين اسرائيل .

من جهة اخرى نقلت صحيفة القدس المعروفة بولائها لعمان ان الاردن والجامعة العربية يعدان مشروعا لاقامة حكم أردني ـ سعودي في الضفة الغربية بعد انسحاب العدو منها وان الرئيس المصري بارك هذا المشروع خلال زيارته لعمان .

كذلك فقد قدمت عدة اقتراحات حول مسألة القدس ، فالسادات نادى بتدويلها في حين ان بعض الانظمة العربية دعا الى تقسيم المدينة ، وبرزت اتجاهات تدعو الى قيام بلدية عربية واخرى صهيونية وبلدية ثالثة عليا يرأسها تركي او باكستاني او ايراني .. الخ .

٨ ـ **المرحلة الثامنة ـ الزعامة التقليدية والوضع الجديد** : جاءت حرب تشرين بجملة من المعطيات والتغييرات ، كان من أهم نتائجها :سكات مشاريع العدو الصهيوني وعملائه بالنسبة الى الضفة الغربية والقطاع ، كما ان مؤتمر الجزائر ومن ثم مؤتمر الرباط اديا الى وضع جديد بعد حسم مسألة التمثيل الفلسطيني بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني .

وقد برزت خلال تلك المرحلة ردود فعل مختلفة ابرزها ما يلي :

١) صعوبة تمرير المشاريع الصهيونية ، وعدم امكانية خلق ممثلين فلسطينيين في المناطق المحتلة على الاقل في تلك المرحلة .

٢) كما ان التخلي الشكلي من قبل النظام الهاشمي عن تمثيل الشعب الفلسطيني ادى الى فقدان العدو عوامل تمرير مخططه ، وضيق من مجالات مناوراته .
ويمكن تحديد الاتجاهات السياسية في الضفة الغربية وقطاع غزة كما يلي : بالنسبة للفئات التقليدية ، فقد قسمت بين فئات تنافق في مسألة ولائها لمنظمة التحرير ، ووجدت سوق المنظمة رائجا ومفتوحا ، فبدأت لاول مرة تطري منظمة التحرير الفلسطينية . وفئات اخرى تنادي بوجوب جلب قوات الامم المتحدة تحت تبريرات مختلفة اهمها ان العدو لا يريد الاعتراف بالمنظمة ، وان المنظمة والعرب لا يريدون الاردن ، وان الهم الاول هو الخلاص من الاحتلال باي ثمن .

وقد برز اتجاه سياسي من كبار المتمولين والبرجوازية الفلسطينية وبعض الموظفين الكبار والاداريين المرتبطين بالنظام الهاشمي والذين يطالبون باقامة حكم ذاتي **مفتوح مستقبلا** . اي هو لعمان ان نجحت ولمنظمة التحرير الفلسطينية ان انتصرت .

ولا شك ان هذه المرحلة خلقت بلبلة في صفوف القوى السياسية التقليدية في الضفة الغربية . ففي حين يرى البعض في عودة الاردن خطرا عليه بسبب اعلان ولاءه للمنظمة يرى البعض الاخر في سيطرة المنظمة خطرا عليه اكثر من عمان والاحتلال وجهة ثالثة دعت الى وجوب الاتفاق بين المنظمة والنظام تحت شعارات وتنظيرات مختلفة .

٩ ــ **المرحلة التاسعة ــ الادارة المدنية او الحكم الذاتي** : كما مر معنا فان مشروع الادارة المدنية لم يكن مفاجئا فقد ظل الحديث عنه قائما منذ الاحتلال الصهيوني ، الا ان التطور الجديد الذي يجب ملاحظته ان المشروع تبلور بشكل اكثر وضوحا من اي وقت مضى ، كما حظي على تأييد من قبل الزعامات الصهيونية صاحبة القرار السياسي فلاول مرة منذ الاحتلال اتخذ مجلس وزراء العدو قرارا بتكليف ييجال آلون بصياغة مشروع تحت اسم « نقل الادارة الذاتية في يهودا والسامرة وقطاع غزة الى ابناء المناطق المدارة ، تمهيدا لاقراره بموجب اوامر عسكرية وليس بقانون من الكنيست تجنبا لمناقشته من جهة وتلافيا لاية ردود فعل سياسية ودولية من اعتبار القانون ضما للاراضي المحتلة من جهة اخرى » .

والمشروع يرتبط ارتباطا وثيقا بمؤامرة الانتخابات البلدية التي تقرر أن تجري في ١٢ نيسان (ابريل) بالنسبة لأربع وعشرين مدينة ، فتكون سلطات الاحتلال بذلك قد عينت جميع رؤساء البلديات في الضفة الغربية .

وهناك اتجاهات واضحة تسير نحو تقليص وتخفيض صلاحيات ضباط الادارات بالحكم العسكري والاقلال من تعيينات يهودية جديدة في أيه مناصب شاغرة او ستشغر في المستقبل .

وفي هذا المجال فقد تم تعيين مدراء عرب عامين لمختلف الدوائر بدرجة (مدير عام او امين عام) ، مع منحهم صلاحيات واسعة ما عدا شؤون الامن العام مثل : الزراعة الشؤون الاجتماعية ، التربية والتعليم ، الصحة ، البيطرة ، الاشغال العامة ، الاقتصاد (الاستيراد والتصدير) ، البريد والبرق والهاتف ، فضلا عن الشؤون البلدية والقضايا الادارية التي كان يمارسها المحافظون الاردنيون .

وقد جاءت تلك الاجراءات بعد سلسلة من الترتيبات الادارية التي ابتدأت في عام ١٩٧٢ وتوسعت بشكل كبير في عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥ فقد تم اجراء انتخابات واسعة لـ ٥٦ مجلسا بلديا وقرويا في الضفه الغربية . كما تتجه سلطات الاحتلال نحو توسيع صلاحيات رؤساء البلديات بحيث يتجاوز مجال اختصاصهم حدود البلدية الى القرى المجاورة لها ، كذلك الاشراف على بعض الشؤون الداخلية مثل المعارف والزراعة والاديان .

وتعتزم سلطات الاحتلال حاليا توسيع حق الانتخاب والترشيح بحيث يتجاوز ذلك نصوص القانون الاردني سواء في سن الناخب او المرشح وبعض الاجراءات الاخرى مثل حق المراة في الانتخاب . ويدور حديث حول امكانية صدور قرار يقضي بان تشمل الانتخابات القادمة ــ لاول مرة ــ سكان المخيمات الواقعة حول المدن الكبيرة ، والتي تقتصر علاقاتها مع البلديات على شؤون المياه والكهرباء وبعض الخدمات .

ويستدل من تصريحات العدو عزمه على انشاء ادارة مدنية تشكل نواة لقيام حكم ذاتي في الضفة والقطاع ، فقد صرح شمعون بيرس في بيت جالا « ان الظروف قد نضجت لمنح السكان حكما ذاتيا بسبب ما برز من وضع جديد في المنطقة يقتضي التطور في مجالات كثيرة تمس حياة السكان » ، كما اعلن العدو انه سيقيم ادارة مدنية في شمال سيناء ، ولا ندري ان كان هذا جزءا من البنود السرية لاتفاق سيناء التي لم تكشف ام تكملة للصورة في الضفة والقطاع .

كما يتحدث العدو عن نظرية « ملء الفراغ » الذي جـاء في اعقاب مؤتمر الرباط بعد أن رفع الاردن يده عن الضفة الغربية وتولت منظمـة التحرير تمثيـل الشعب الفلسطيني وتحديد مستقبل الاراضي المحتلـة ، ووضع مشروع الادارة المدنية كأحد الخيارات المطروحة لملء هذا الفراغ !

وقد كشفت الصحف الاسرائيلية بعض اهداف المشروع ، اهمها ما نقلته صحيفـة (يديعوت احرونوت ١٠/٤/١٩٧٥) من ان بيرس ينوي تقديم اقتراح لاقامـة ادارة مستقلة في الضفة والقطاع الذي يهدف الى توسيع صلاحيات رؤساء البلديات وتقليص تدخل السلطات العسكرية في الحياة المدنية ، وفق خطة تقوم على اساس المراحل ، وان النية تتجه الى التشدد في تطبيق ذلك في قطاع غزة اولا حيث يبدي الوجهـاء استعدادا كبيرا لتقبل الاقتراح كما تدعي الصحيفه . واذا كانت المهمة الانية لذلـك هو تقليص التدخل العسكري في شؤون السكان المدنية . واقتصار ذلك على نقـل الميزانيات المطلوبة للادارة المحلية الى رؤساء البلديات ، الا ان هناك اهدافا اخـرى ترمي اليها سلطات الاحتلال وراء مسأله الادارة المدنية اهمها ما يلي :

١ ــ ايجاد تجمع فلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة يضم قيادات شابـة ومتعلمة جديدة قادره على تحقيق مطالب السكان واداره شؤونهم الادارية والاقتصادية والتعليمية ، لما لذلك من اهمية في بلورة امكانية خلق قيادة محلية تصبح مع الوقـت قادرة على رفع صوتها في تمثيل « شرعي منتخب » للفلسطينيين بدلا من منظمة التحرير الفلسطينية والتي يمكن بواسطتها الحوار والتفاهم مع سلطات الاحتلال في مختلـف الشؤون التي تهم السكان .

٢ ــ تطوير العلاقات بين هذه القيادة والاحتلال واستمرارها على نهج يقارب بين طموحات السكان القومية والوطنية ومخططات الكيان في سبيل دعم السلام .
ويتوافق هذا المخطط مع الاهداف المعلنة للعدو الصهيوني ازاء مستقبل الضفـة الغربية وقطاع غزة ، والذي يقوم على احد الحلول التالية :

١ ــ دمج المناطق المحتلة تدريجيا تمهيدا لاعلان ضمها نهائيا للكيان الصهيوني .
٢ ــ اقامة اتحاد فدرالي بين الكيان الصهيوني والكيان الفلسطيني في الضفـة والقطاع .

٣ ــ اقامة اتحاد فيدرالي بين الكيان الصهيوني والكيان في الضفة والقطاع والنظام الاردني .

٤ ــ اقامة « فيدرالية صهيونية » باقامة كنتونات تتمتع كل أقليـة منهـا باستقلال داخلي وتقسم الى ــ اقليم الجليل الاعلى والغربي (حيفا) ــ الجليل الاوسط (الناصرة والقرى العربية والمستعمرات) ــ الاقليم الاوسط (تل ابيب) ــ اقليم القدس ــ اقليم النقب والجنوب ــ اقليم الضفة الغربية (الخليل ، نابلس ، رام الله) ــ اقليم غزة .

٥ ــ عن طريق المفاوضات مع الفلسطينيين (الزعامات التقليدية) او الممثل البديل لمنظمة التحرير بالتشاور مع النظام الاردني يقوم بالاستفتاء على الاطار والشكـل مستقبلا .

ملاحظات اساسية على مشروع الادارة المدنية

١ ــ ليس لهذه الادارة المدنية او الحكم الذاتي اي مساس بالتسوية السياسية لازمة المنطقة او بالحقوق السياسية ، وهي تقتصر على تلبية المصالح الحيوية للشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع . الى ان تنضج الظروف لتطوير هذه الادارة الى مستوى القيام بمهام سياسية في مراحل قادمة .

٢ ــ ان هذا المشروع يلتقي مع مشروع المملكة المتحدة ومشروع الون الاسرائيلي (الذي ينادي بارجاع اجزاء كبيرة من الضفة الغربية الى الاردن) وبالتالي فان مشروع الادارة المدنية سيجير في النهاية لحساب النظام الاردني بعد اخذ موافقة الفلسطينيين على ذلك من خلال وضعهم في ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية صعبة تضعهم امام خيار قبول المشروع الاردني ، وفي هذا المجال نقلت صحيفة دافار (١٩٧٥/١١/٥) تعليقا تقول فيه « علينا تجسيد مشروع الادارة المحلية بشكل تدريجي ، ونريد حلا عادلا للفلسطينيين في اطار اتفاقية سلام مع الاردن الذي يشكل الجزء الاكبر من مساحة ارض اسرائيل التاريخية وبالامكان التقدم نحو هذا الهدف من خلال التنفيذ التدريجي لمبدأ الادارة المدنية .

٣ ــ ان توقيت طرح المشروع (اذ جاء بعد تجميد الجبهة المصرية الذي اسفر عنه اتفاق سيناء ، واستمرار الازمة اللبنانية وهدفها في تضييق الخناق على الثورة الفلسطينية واستنزافها عسكريا ، كذلك تصريحات القادة الصهيونيين حول عدم التفاوض مع منظمة التحرير .. الخ) يدل على الاهداف السياسية لمؤامرة الادارة المدنية ، فقد نقلت صحيفة دافار (١٩٧٥/١١/٧) على لسان مراسلها داني رونشتاين تلك الاهداف عندما قال « تبدو القرارات ، والبت في امور الخدمات للسكان من قبل الحكم المحلي لاول وهلة انها بعيدة عن السياسة ، لكن الواقع المؤكد هو في الحقيقة طابع سياسي وأساسي من الدرجة الاولى » كذلك فقد صرح بيرس في ١٩٧٥/١٢/١٥ « ان زعماء الضفة الغربية قالوا لي (بصراحة) انهم على استعداد لطرد جميع عناصر وانصار منظمة التحرير من فلسطين اذا قبلت الحكومة الاسرائيلية بانشاء دولة لهؤلاء الزعماء في الضفة » وزعم انه رفض طلبهم .

ومن جهة اخرى نقلت الصحافة الاسرائيلية نوايا العدو الصهيوني من مشاريع الادارة الذاتية . ففي حين اعتبر البرفيسور شمعون شبير (١٩٧٤/١١/٦) ان سياسة العدو في المناطق ناجحة الا ان المكاسب « لم تترجم الى رصيد سياسي ! فلم نسمع عن قيام حركة سياسية في المناطق ، وبعدم سماحنا لزعامة الضفة بالتعبير عن رأيها ساعدنا منظمة التحرير في تمثيل الفلسطينيين وعلينا تحليل اخطائنا في الماضي لنتفاداها في المستقبل » كما جاء على لسان تسفي رعنان (١٩٧٤/١٢/٥) « علينا القيام بمحاولات دائبة للحوار مع اية قيادة فلسطينية تعترف بنا ، وذلك هو الاسلوب الوحيد الذي سيجعل الشعب الفلسطيني يخلق زعامة أخرى يستحقها » .

دروس مستفادة من تجربة المقاومة في الاردن

غــازي الخليــلي

على الرغم من أن الكثير قيل وكتب عن تجربة المقاومة الفلسطينية في الاردن ، فان تجربة الثلاث سنوات ونيفا لوجود المقاومة العلني هناك ، تظل تجربة غنية بالدروس وموضوعا حيا قابلا للمزيد من النقاش والحوار على ضوء ما يستجد من تطورات على مسيرة الثورة الفلسطينية ، لا سيما ان الموضوعات التي طرحتها هذه التجربة ، لا زالت موضوعات تطرح للنقاش والحوار في أوساط المقاومة الفلسطينية وأوساط حركة التحرر الوطني العربية . كذلك فان ما أسفرت عنه هذه التجربة القصيرة من نتائج ، قياسا الى العمر الزمني لأي ثورة ، واجهت وتواجه ظروفا صعبة شبيهة بالظروف الصعبة التي واجهتها ولا زالت تواجهها الثورة الفلسطينية ، يجعل منهــا تجربة لا نكتسب اهميتها ومدلولاتها من العمر الزمني لها ، بل من النتائج والآثار التي تولدت عنها ، وهي نتائج وآثار لا زالت الثورة الفلسطينية تعاني منها حتـــى الآن ، على الرغم من مضي خمس سنوات على نهاية هذه التجربة ، وعلى الرغم من النضالات العظيمة التي خاضتها جماهير المقاومة طيلة هذه السنوات الخمس ، حتى لا تستكمل الرجعية الاردنية أهدافها من هجمتها الشرسة على حركة المقاومة في أيلول ١٩٧٠ وبعده .

لقد كان من أبرز النتائج التي تولدت عن هجمة الرجعية الاردنية على حركة المقاومة في الاردن ، القضاء على الوجود العلني للمقاومة هناك ، وما استتبع ذلك من انحسار كبير للمد الوطني الذي تعاظم بشكل كبير ابـــان سنوات النهوض الوطني ١٩٦٧ — ١٩٧٠ ، وما استتبع أيضا ، من عودة أجهزة القمع الاردنية للتحكم بجماهيرنا في الاردن وزج الآلاف منهم في السجون والمعتقلات . كذلك فقد كـــان من النتائج البارزة لهذه الهجمة ، المحاولات المستمرة التي قامت بها الرجعية العربية والصهيونية والامبريالية الاميركية في استكمال أهداف الهجمة ، بتطويق حركة المقاومة وحصارها تمهيدا لتصفيتها سياسيا ، أو فرض تنازلات سياسية أساسية عليها ، تتناقض والاهداف السياسية التي قامت من أجل تحقيقها . فحاولت الرجعية الاردنية عبر ما يسمى بمشروع المملكة العربية المتحدة أن تستكمل هجمتها العسكرية الفاشية بالوصول الى نتائج سياسية سريعة تكرس سياساتها الالحاقية للأرض الفلسطينية . وقام العدو الصهيوني بالالتقاء مع المشروع الرجعي الاردني ، عندما فرض اجراء انتخابات جديدة للمجالس البلدية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، على أمل أن تشكل هذه المجالس الجديدة اطارا لبلورة قيادة بديلة عن منظمة التحرير الفلسطينية ، تكون بمثابة أرضية يلتقي عليها الموقفان

الصهيوني والرجعي الاردني في تقرير مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة . اضافة الى ذلك ، فانه في الوقت الذي عمدت فيه الامبريالية الاميركية الى توظيف النتائج التي تولدت عن هجمة الرجعية الاردنية في فرض المزيد من التنازلات على بعض الدول العربية التي كانت تلهث وراء تسوية سياسية لهزيمتها في حرب العام ١٩٦٧ ، فان هذا « البعض » من الدول العربية حاول من جهته ، أيضا ، توظيف هذه النتائج في العودة الى محاولات فرض الوصاية والهيمنة على حركة المقاومة الفلسطينية . واذا كانت سنوات ١٩٧١ ــ ١٩٧٣ ، هي سنوات الحصار والتطويق لحركة المقاومة الفلسطينية، فانها كانت من ناحية أخرى ، سنوات المحاولات المستمرة لبعض الانظمة العربية اعادة القيادة الفلسطينية الى « حظيرة » الوصاية العربية .

انقدرة حركة المقاومة الفلسطينية على الصمود في وجــه كل هذه المحاولات طيلة سنوات ١٩٧١ ــ ١٩٧٣ ، لايعني ان هذه المحاولات توقفت ، كما لا يعني ايضا ، ان ما انتهت اليه حركة المقاومة في الاردن اثر معارك ايلول والاحراج ، لم يعد يؤثر على مسيرة الثورة الفلسطينية ، بل على العكس من ذلك ، فطالما أن مسألة السلطة الوطنية في الاردن لم تحل بعد ، فان الثورة الفلسطينية ستظل تواجه هــذه المسألة وهي تناضل من اجل تقرير المستقبل الوطني للارض الفلسطينية والشعب الفلسطيني . وهذا ما يجعلنا نؤكد أن تجربة المقاومة الفلسطينية في الاردن ، لو أسفرت عن نتائج مغايرة لتلك التي أسفرت عنها ، وأهمها حل مسألة السلطة الوطنية ، لكانت المقاومة في وضع اقوى مما هي عليه الآن ، ولكانت الارضية التي تقف عليها الآن اصلب بكثير من الارضية التي تقف عليها . والاسئلة التي تطرح نفسها هنــا هي : لماذا انتهت حركة المقاومة الفلسطينية في الاردن الى ما انتهت عليه ؟ أين اخطأنا ؟ ثم ما هي الدروس المستفادة من هذه التجربة الغنية ؟ واخيرا ، هل استفدنا من هذه التجربة ، والى اي حد ؟

قضايا لا بد من تاكيدها

قبل الاجابة على مجموع هذه الاسئلة ، لا بد مــن التأكيد على جملــة من القضايا الرئيسية ، التي قد يراها البعض بديهية ، ولكن لا بد من تأكيدها دائما وباستمرار ، حتى لا تغيب عن الذهن أمام ما يطرأ من تطورات علــى النضال الوطني الفلسطيني ومجمل المسائل التي ترتبط مباشرة بهذا النضال وقدرته على الاستمرار الفاعل .

اول هذه القضايا ، ان الساحة الاردنية شكلت ــ ولا زالت تشكــل ــ احدى أهم ساحات النضال الوطني الفلسطيني ، لاعتبارات عديدة ، منها ان الساحة الاردنية تضم اكبر تجمع للشعب الفلسطيني ، وان هذا التجمع الكبير تعرض اكثر مــن اي تجمع فلسطيني في اي قطر عربــي آخر ، لمحاولات تبديد ومصادرة هويته الوطنية ، نتيجة سياسات الالحاق التى مارسها النظام الاردني ضد الشعب الفلسطيني هناك . اضافة **الى ان موقع الاردن الجغرافي يجعله اكثر الساحات ملاءمة لرفد ودعم النضال الوطني** الفلسطيني داخل الارض المحتلة . ولذلــك لم يكن صدفــة أن بدايات العمل الفدائي الفلسطيني اتخذت من الساحة الاردنية منطلقا أساسيا لها ، على الرغم من سياسات القمع الاردنية ضد العمل الفدائي قبل حرب العام ١٩٦٧ ، كما لم يكن صدفة ، أيضا ، أن تكون الساحــة الاردنية هــي الساحة التي تبلور علــى أرضها النهوض الوطني **الفلسطيني بعد حرب العام ١٩٦٧ . ان اندفاع قيادات العمل الوطني الفلسطيني نحو** الاردن وتمركزها هناك بعد حرب العام ١٩٦٧ ، لم يكن تعبيرا عن أن الاردن كان يشكل **الحلقة الاضعف في سلسلة الانظمة العربية التي اصابها بعض الخلخلة اثر هزيمة العام ١٩٦٧** ، بل كان ــ الى حد كبير ــ تعبيرا عــن أن الساحة الاردنية يجب ان تشكل

مركز الثقل الاساسي في انهاض الكفاح الوطني للشعب الفلسطيني . **وثاني هــذه القضايا** ، ان المقاومة الفلسطينية وضعت ، وهي لا زالت في سنواتها الاولى ، في مواجهة معضلات اكبر من حجمها واكبر من قدرتهــا . فالنهوض الوطني المتسارع لجماهير الشعب الفلسطيني بعد الهزيمة ، والهالة الرومانسية التي احيط بها العمل الفدائي في بدايات نهوضه ، اضافة الى النفخ الاعلامي العربي للانجازات الوطنيــة المحدودة التي حققها النضال الفلسطيني وهو يخطو خطواته الاولى ، قد ولــدت تقديرات وحسابات خاطئة وغير صحيحة بالقوة الذاتية للمقاومة ، لدرجة ان حالة من الرومانسية الثورية طغت على الفكر السياسي للمقاومة ، ولدرجة ان مقولة من نوع « ان المقاومة هي البديل لكل حركات التحرر الوطني العربية » كانت من اكثــر المقولات رواجا في اوساط المقاومة والاوساط الوطنية القريبة منها . من ناحية اخرى ، فقد ولدت هذه الاوضاع استنفارا مبكرا لدى القوى المعادية عبرت عنه بمحاولاتهــا المستمرة في توجيه ضربات سريعة ومبكرة لحركة المقاومة وهي لا زالت وليدة . كما ولدت ، ايضا ، شعورا مبكرا بالخطر لدى بعض الانظمة العربية الوطنية من ظاهرة نهوض الكفاح الفلسطيني المسلح ، مما جعلها تبكر في العمل على لجم هذه الظاهرة ، ولو تطلب الامر الصمت على ما كانت تقوم به القوى المعادية ضد حركة المقاومة .

ان قولنا هذا لا يعني ـــ بأي شكل مـــن الاشكال ـــ ان نهوض المقاومة لن يستتبع بالضرورة ، التحرك المضاد والسريع للقوى المعادية أو تلك القوى التي ستشعر بالخطر من تبلور هذا النهوض في مجرى النضال اللاحق . فكل ثورة تواجه في سنواتها الاولى محاولات ضربها وسحقها وهـــي لا تزال وليدة وقبل ان تستكمل امكانات استمرارها الفاعل . ولذا فان احد شروط النجاح لأي ثورة ، انها بقدر ما تكون واضحة على الصعيد الاستراتيجي ، فانها يجب أن تكون مرنة تكتيكيا في التعاطي مع المعضلات التي تواجهها خلال مسيرتها . ان الصلابة الاستراتيجية والمرونة التكتيكية صفتان اساسيتان لأي ثورة حتى تستكمل شروط نجاحها . ان كون النضال الوطني الفلسطيني يتسم بصفة النضال المعقد والصعب ـــ بفعــل عوامل عديدة ـــ يجعل مـــن الضروري ان تتلازم الصلابة الاستراتيجية مع المرونة التكتيكيــة . واذا أخذنا تجربة المقاومة في الاردن كأساس في رؤية ، الى أي مدى كان مثل هذا التلازم متوفرا ، نخرج بنتيجة محصلتها أن هذا التلازم كان مفقوداً بشكل عام . ففي الوقت الذي كان فيه بعض فصائل المقاومة يغلب الصلابة الاستراتيجية على المرونة التكتيكية ، كانت فصائل اخرى تغلب المرونة التكتيكية على الصلابة الاستراتيجية ، مما أحدث خلـــلا في امكانية رسم خط سياسي واضح ومتفق عليه لمواجهة المعضلات التي طرحها وجود المقاومة في الاردن ، ومما احدث ، ايضا ، ازمة ثقة في العلاقات بمنظمات المقاومة . ويناقش « ابو همام » هيثم الايوبي ، هذا التلازم بين الاستراتيجية والتكتيك من الزاوية العسكرية في مقال له حول معارك أيلول « الهدف بتاريخ ١٩٧١/٣/٢٧ » ويصف خطأ المقاومة ـــ آنذاك ـــ بأنه عناد استراتيجي ويحدده بأنــه « تحديد هدف استراتيجي أكبر مـــن القوة المتوفرة ، واكتشاف الاختلال في ميزان القوى خلال الصدام ، وعدم العمل على تعديل ميزان القوى أو تحديد أهداف مرحلية أصغر ، والتمسك على العكس بالهدف الاساسي ومتابعته بعناد حتى حدود الاستنزاف الذاتي » . ويؤكد مثــل هذه النتيجة ، ايضا ، الشهيد غسان كنفاني ، في ندوة حول المقاومة الفلسطينية في وضعها الراهن « شؤون فلسطينية العدد ٢ ص ٦١ » حيث يؤكد أن مأزق المقاومة ينبع من « العناد اللاعقلاني للالتصاق بالهدف الاستراتيجي ، وعدم حل هذا التناقض الفظيع القائم بين ضخامة الهدف الذي طرحته المقاومة الفلسطينية وبين الامكانات التي بين يديها » .

وثالث هذه القضايا، ان العلاقة بين حركة المقاومة الفلسطينية والنظام الرجعي في الاردن محكومة بواقع يختلف عن الواقع الذي يحكم علاقات المقاومة مع الانظمة العربية الرجعية الاخرى . ففي حين أن علاقات المقاومة مع الانظمة العربية الرجعية الاخرى لا تقع ضمن دائرة التماس المباشر ولا دائرة تنازع البقاء على المستوى التكتيكي، مما يترك هامشا لمرونة تكتيكية في العلاقات مع هذه الانظمة . فان علاقة المقاومة مع النظام الرجعي في الاردن، تقع ضمن دائرة التماس المباشر ودائرة تنازع البقاء على المستوى التكتيكي، بحكم ان النظام الاردني يقوم على اساس ان الضفة الغربية المحتلة — وهي ارض فلسطينية — ملحقة به، وأن عددا كبيرا من الفلسطينيين يعتبرهم رعايا اردنيين ومن تابعيته . وعليه فان النهوض الوطني الفلسطيني يجب ان يعني في جملة ما يعنيه، انهاء عملية الالحاق الهاشمي وتأكيد الهوية الوطنية الفلسطينية للفلسطينيين الملحقين بالاردن والمعتبرين — من ناحية الجنسية — كأردنيين .

ان هذا الواقع يفرض أن اية علاقة بين الطرفين — المقاومة والنظام — هي بالضرورة وبحكم هذا الواقع علاقة تناحرية صدامية، وان كان بالامكان رؤية هامش ضيق يسمح ببعض المرونة التكتيكية في بداية نهوض المقاومة المسلحة، وفي ظل الجو الذي ساد مباشرة بعد حرب العام ١٩٦٧، فان هذا الهامش يكاد ينعدم بالكامل في مجرى النضال اللاحق .

ان الاصرار من قبل « البعض » على وجود مثل هذا الهامش حتى عندما تبلورت طبيعة الصراع بين الطرفين على الساحة الاردنية، بفعل المعارك التي جرت في الساحة قبل معارك أيلول ١٩٧٠، كان وهما واصرارا لا يقوم الا على فراغ . لقد لعب النظام الاردني دورا كبيرا — على الصعيد التكتيكي — في ايهام « البعض » بامكانية وجود مثل هذا الهامش — حتى في أثناء المعارك التي بلورت طبيعة الصراع — تحت شعار العداء القومي للصهيونية .

ان وضوح هذا الواقع، كان يفرض اخراج المقاومة الفلسطينية في الساحة الاردنية من دائرة الالتزام بشعار « عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية » ومن دائرة الالتزام بشعار « البنادق كل البنادق نحو العدو الصهيوني » وأن ترى خصوصية وضعها في الاردن وما تفرضه هذه الخصوصية من وجوب رسم سياسات للمعضلات التي واجهتها في الاردن، لا تندرج ضمن الخط العام لسياسات المقاومة على الصعيد العربي . ان رؤية الفروقات الدقيقة بين وضع وآخر، وانتهاج سياسات متمايزة بما يتناسب مع كل وضع، هما اللتان تحددان صوابية اية سياسة او خطئها .

ورابع هذه القضايا، ان تجربة المقاومة في الاردن، هي في احدى مظاهرها الرئسية، انعكاس للأزمة التكوينية لحركة المقاومة . ان عدم التعرض لهذه الأزمة هنا، لا يعني — بأي شكل من الاشكال — اغفالا لها أو اسقاطا للترابط الاساسي بين هذه التجربة والبنية الذاتية التكوينية لحركة المقاومة .

بعد تأكيد هذه القضايا الاربع يصبح بالامكان رؤية هذه التجربة كما حددت معالمها وقائع النضال اليومي لحركة المقاومة في الاردن .

من الامور التاريخية الثابتة ان النظام الهاشمي في الاردن، شكل منذ نشأته في العام ١٩٢١ احدى اهم ادوات الامبريالية البريطانية — ثم الاميركية — لتنفيذ السياسة الصهيونية واقامة الكيان الصهيوني على الارض الفلسطينية . ولقد تأكد هذا الدور

ـ بوضوح كامل ـ بعد عملية الالحاق الهاشمي للضفة الغربية اثر حرب العام ١٩٤٨ ، ثم سياسات النظام الاردني بعد هذا التاريخ في تبديد ومصادرة الهوية الوطنية للجماهير الفلسطينية الواقعة تحت سيطرته ، سواء عبر عملية التجنيس ، او عبر عملية تفتيت البنية الاقتصادية ـ الاجتماعية للفلسطينيين الواقعين تحت سيطرته في الضفة الغربية والضفة الشرقية ، او عبر سياسات القمع والاضطهاد التي مارستها اجهزة قمعه لكل القوى الوطنية في الاردن .

ان هذه الحقيقة لم تكن غائبة عن ذهن كل القيادات الفلسطينية التي تصدرت العمل الفلسطيني بعد العام ١٩٦٧ ، ولا سيما أن تجربة العمل الفدائي الفلسطيني في الاردن قبل العام ١٩٦٧ ، كانت تؤكد الموقف العدائي للنظام الاردني ضد حركة التحرر الوطني الفلسطينية وضد اية ممارسات نضالية وكفاحية من هذا الشعب ضد العدو الصهيوني . لقد مرر « النظام » موقفه العدائي من العمل الفدائي قبل العام ١٩٦٧ تحت مظلة الموقف العربي العام ، الذي كان يرفض استراتيجية العمل الفدائي الفلسطيني ويصر على احتوائه ضمن ما كان يسمى بالقيادة العربية الموحدة .

وبعد حرب العام ١٩٦٧ ، حاول « النظام » ان يستمر في موقفه العدائي السابق بنوع من المرونة ، فمارس سياسة التضييق ومحاولة وضع العمل الفدائي ضمن دائرة سيطرته المباشرة ، ولما لم يستطع ، لجأ الى سياسة الضرب المباشر ، فقامت قواته بتطويق قواعد المقاومة في الاغوار في شباط « فبراير » ١٩٦٨ ، في وقت لم تصبح فيه المقاومة بعد ، ظاهرة سياسية وشعبية في الاردن . ولما فشلت محاولات « النظام » هذه ، حاول العدو الصهيوني ان يقوم بتوجيه ضربة مباشرة وقوية للمقاومة قبل أن تستكمل شروط امكانية بقائها ، فكانت معركة الكرامة في ٢١ آذار « مارس » ١٩٦٨ والتي فشل العدو الصهيوني في تحقيق أهدافه منها . لقد كان النظام الاردني يعول على نجاح الهجمة الاسرائيلية في انهاء المقاومة قبل أن تتأكد وتمتلك شروط البقاء . ولما فشل العدو الصهيوني في تحقيق ذلك ، انتهج « النظام » سياسة طابعها التكتيكي ، الاستعداد لدعم المقاومة وعرض لتنسيق العلاقات معها ، وطابعها الاستراتيجي ، سبر امكانات احتوائها مستقبلا أو تهيئة ظروف اكثر ملاءمة لضربها .

معركة الكرامة بين النصر وأوهام التعايش

لقد شكلت معركة الكرامة ـ بالنتائج التي أسفرت عنها ـ نقطة تحول هامة في وضع المقاومة الفلسطينية في الاردن على صعيدين . فعلى **الصعيد الاول** ، ساهمت معركة الكرامة في ابراز المقاومة المسلحة سياسيا واعطائها زخما جماهيريا اكبر بكثير من قدرتها الحقيقية على استيعاب هذا الزخم وتأطيره وتنظيمه بشكل فاعل . ونتج عن هذا الوضع معطيات عديدة أهمها (١) تقدير خاطىء للقوة الذاتية جرى تكريسه عبر سياسات النفخ الاعلامي العربي والتي لم يكن الاعلام الفلسطيني بعيدا عن المشاركة فيها . لقد دفع هذا التقدير الخاطىء للقوة الذاتية بسياسات المغامرة والمراهقة اليسارية الى الامام من ناحية ، كما ولد من الناحية الاخرى ، شعورا زائدا بالثقة بالنفس لدى بعض القيادات الفلسطينية عبرت عنه في الدخول ، بدون خوف وبشكل مبكر ، في شبكة العلاقات العربية وتعقيداتها ومداخلاتها . (٢) خروج المقاومة الى العمل العلني الواسع دون أن تضع في اعتباراتها حسابات « النظام » واحتمالات حركته في المستقبل . ان اندفاع المقاومة الى العمل العلني الواسع بعد معركة الكرامة ، هو اندفاع مبرر ومشروع ، لأنه يتيح امكانات اكبر للحركة والتعبئة والتنظيم ، الا أن هذا الاندفاع حتى يحقق كامل اهدافه ، كان يجب أن يتحدد عبر تصورات المقاومة المسبقة

لدور النظام الاردني فلسطينيا ، وعبر قدرة كوادر المقاومة على التعبئة والتنظيم . لقد اوقع هذا الاندفاع السريع والعفوي نحو العمل العلني منظمات المقاومة الرئيسية ــ آنذاك ــ في فوضى وانفلاش تنظيميين ، وساعد ــ الى حد كبير ــ على سيادة اشكال متأخرة جدا من العلاقات التنظيمية ، لا زالت حتى الان تطبع جميع منظمات المقاومة بطابعها . (٣) اغراق العمل الفلسطيني بتنظيمات صغيرة ، وجدت امكانات واسعة امامها للنمو والانتفاخ السريعين ، في الحالة الجماهيرية التي سادت بعد معركة الكرامة ، وفي سياسات بعض الانظمة العربية التي كانت تسعى لايجاد جيوب تنظيمية لها داخل العمل الفلسطيني خدمة لسياساتها وأغراضها .

وعلى الصعيد الثاني ، فقد نمى التغيير الفجائي في موقف النظام الهاشمي من العمل الفدائي بعد معركة الكرامة ، الوهم بامكانية التعايش بين « النظام » والمقاومة . وتحت مظلة هذا الوهم نمت وترعرعت السياسات التي كانت ترى انه بالامكان اعتبار الساحة الاردنية ساحة صديقة أو محايدة على أقل تقدير ، وأنه بالامكان الاستفادة من هامش « التناقض » بين النظام الهاشمي والعدو الصهيوني ، ان لم يكن بكسب « قوة النظام » الى جانب المقاومة الفلسطينية فعلى اقل تقدير بتحييد هذه القوة . وتحت مظلة هذا الوهم غابت أو تراجعت المواقف العدائية للنظام الهاشمي من العمل الفدائي ، كما غاب أو تراجع الوعي بدوره التاريخي بصدد القضيــة الفلسطينية . وليس المهم في هذه الحالة أن يسكن هذا الوعي عقل بعض القيادات فقط ، بل المهم ، حتــى يكون هذا الوعي فاعلا ومؤثرا ، أن يتحول الى سياسة يومية تطبع العمل بطابعه وتكسبه السمة الاساسية أو المظهر الرئيسي . لقد كانت السمة الغالبة على علاقات المقاومة مع النظام الاردني ، سمة تتصف بالتشويش والتردد وعدم الوضوح ، تسير بين حدي الانتقال الفجائي والسريع من امكانات التعايش ، الى تحريض أوسع الجماهير ضد « النظام » اثناء المعارك ، ثم العودة السريعة الى امكانات التعايش بعد أن تهدأ الامور . ان سيادة مثل هذه السمة كانت تشير الــى أن المقاومة بخطها العــام السائد كانت تفتقر الى الوضوح الاستراتيجي بصدد علاقاتها مــع النظام الاردنـــي ، وان السمة الغالبة أو السائدة لعلاقاتها معه هي حركتها التكتيكية . ان سيادة مثل هــذه السمة أضعفت ــ الى حد كبير ــ قدرة المقاومة على ادارة دفة الصراع في الاردن بوضوح وبحسم ، وضمن شعارات تكتيكية تكتسب حالة من التدرج والصعود ضد « النظام » على ضوء نمو قوتها الذاتية وعلى ضوء توفر امكانات الحسم الاستراتيجي عندها ، بدل ان تفاجأ في النهاية في المعركة وبضرورة خوض معركة الحسم الاستراتيجي عندما شن «النظام» هجمة الابادة ضدها في ايلول ١٩٧٠ . ان الانتقال الفجائي بالجماهير مــن شعارات امكانات التعايش الى شعار اسقاط النظام « بقوة السلاح على ضوء بدء « النظام » بهجمته الواسعة والشاملة في أيلول ، جعل المقاومة بعيدة عن الامساك بزمام المبادرة العسكرية والسياسية في ادارة دفة صراعها مع « النظام » كما حد كثيرا من قدرتها على الانتقال ــ على الصعيد العسكري ــ من الدفاع السلبي الى الدفاع الايجابي والنشط .

لقد اكدت مجريات النضال اليومي في الاردن ، ان « النظام » تحت مظلة امكانات التعايش استطاع أن يمسك بزمام المبادرة الهجومية استراتيجيا في مواجهته لحركة المقاومة ، واستطاع على الصعيد التكتيكي أن يحشر المقاومة في وضع المهاجم (بكسر الميم) تكتيكيا مع الافتقار الى القدرة على الحسم استراتيجيا ، وبالتالي فان بدايات المعارك وانتهائها ، وكيف تبدأ وتنتهي ، كان يتحكم بها « النظام » الى حد كبير . حتى معركة ١٩٧٠/٦/٩ التي حققت فيها المقاومة نجاحا تكتيكيا في اجبار « النظام » على

التراجع التكتيكي ، حيث فرضت عليه اجراء بعض التغييرات في قيادة الجيش وتطعيم الحكومة ببعض العناصر المعتدلة ، حتى هذه المعركة لم تخرج « النظام » عن الاطار العام لحركته على الصعيدين التكتيكي والاستراتيجي .

لقد اكدت معركة ٦/٩ الى اي مدى كانت المقاومة بحاجة الى طرح شعارات تكتيكية في مواجهتها لحركة « النظام » المتصاعدة باتجاه الصدام الحاسم معها . والمحاولات التي جرت لطرح بعض هذه الشعارات ابان وبعد معركة ٦/٩ ، كانت متأخرة جدا ، وجاءت في وقت أخذ « النظام » فيه يعد نفسه بسرعة لحسم تناقضه مع المقاومة استراتيجيا . وتحت مظلة ما سمي بالحكومة الوطنية ــ حكومة عبد المنعم الرفاعي ــ والتي جاءت بعد معركة ٦/٩ ، وتحت مظلة النمو مجددا لامكانات التعايش بعد مجيء هذه الحكومة ، أعد « النظام » وتحديدا « القصر » قواته الضاربة لخوض المعركة الحاسمة في أيلول .

العلاقة مع الحركة الوطنية الاردنية

ان سيطرة الوهم بامكانات التعايش بين « النظام » والمقاومة قد حد ــ الى درجة كبيرة ــ من قدرة المقاومة على التعاطي بفعالية ونجاح مع المشكلات التي طرحها وجود المقاومة في الاردن . ويأتي في مقدمة هذه المشكلات العلاقة بين حركة المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية الاردنية، ثم سياسات المقاومة تجاه النضالات الاجتماعية للطبقات الكادحة في الاردن . فعلى صعيد العلاقة مع الحركة الوطنية الاردنية ، لم تكن هناك سياسة واضحة ومحددة المعالم لهذه العلاقة ، اضافة الى ان المقاومة تحركت في الاردن وكأنها البديل للحركة الوطنية الاردنية في وقت لم تستطع أن تقوم فيه بمهمة هذا البديل لأنها تجنبت خوض صراعات مع النظام الاردني على ارضية المطاليب الاجتماعية والديموقراطية للجماهير في الاردن . وخاضت هذه الصراعات **فقط** على ارضية الدفاع عن وجود المقاومة وحقها في الحركة والعمل بين الجماهير الفلسطينية في الاردن ، مما أدى الى أن تشعر الجماهير الاردنية وكأن هذه الثورة ليست ثورتها وليست لها .

صحيح أن تجربة الحركة الوطنية في الاردن خلال سنوات ١٩٤٨ ــ ١٩٦٧ ، لم تعرف ذلك التمايز بين حركة وطنية فلسطينية واخرى أردنية . بل كانت هناك حركة وطنية واحدة تضم الفلسطينيين والاردنيين معا ، عبر الاحزاب والتنظيمات والتجمعات النقابية التيكانت قائمة في الاردن . وبالتالي لم يكن من الصواب خلق هذا التمايز من خلال اجراء عملية فرز لحركة وطنية أردنية واخرى فلسطينية . الا أن الاقرار بعدم صوابية اجراء مثل هذا الفرز ، كان يفرض على المقاومة الفلسطينية ان تطرح برنامجا للعمل على الساحة الاردنية يجمع بين متطلباتها كثورة فلسطينية ، وبين متطلبات اقامة حكم وطني ديموقراطي في الاردن يتجاوب مع الطموحات الاجتماعية والديموقراطية لأوسع الجماهير في الاردن . وحيث انها لم تطرح مثل هـذا البرنامج ، حتى تتجنب الدخول في صراعات مباشرة مع النظام الاردني على أرضية المطالب الاجتماعية والديموقراطية ، كان من المفروض ان تساعد على نمو حركة وطنية أردنية مستقلة ببرنامج مستقل ، يلتقي في العديد من نقاطه مع متطلبات الثورة الفلسطينية على الساحة الاردنية ، ويشكل اطارا لتجنيد وتعبئة الجماهير الاردنية في نضالاتها ضد النظام الاردني .

لقد تصرفت المقاومة بقطرية فلسطينية ، في الوقت الذي طغى وجودها فيه على

الوجود المستقل والخاص للحركة الوطنية الاردنية . وعندما اضطرت ، أمام احتدام الصراع بينها وبين « النظام » للتعامل مع حركة وطنية اردنية ، ولانشاء جبهة وطنية اردنية ـ فلسطينية ، كانت الحركة الوطنية الاردنية شبه مشلولة ، وتعيش في فراغ سياسي . والمحاولات التي جرت لبعث الحيـاة في الحركة الوطنيـة الاردنية ، كانت محاولات تفتقر الى الجدية والرؤية الموضوعية لواقع الساحة الاردنية ، اضافة الى ان هذه المحاولات جرت من خلال التعامل مع بعض الشخصيات الوطنية ، ومن خلال طرح اسماء وهمية لتنظيمات اردنية هي بالاساس واجهة اردنية لهذا التنظيم أو ذاك من المقاومة .

ان فشل محاولات انشاء جبهة وطنية فلسطينية ـ اردنية ، تقود النضال الوطني الديموقراطي في الاردن ، يعود بشكل اساسي الى سياسات المقاومـة الخاطئة تجاه النظام الاردني ، والى وضع المقاومة نفسها كبديل عن الحركـة الوطنية في الاردن في الوقت الذي لم تمارس فيه دور هذا البديل . وهذه السياسات الخاطئة ، هي وليدة عدم الوضوح الاستراتيجي في علاقة المقاومة مع « النظام » وتغنيب الحركة التكتيكية اليومية على الرؤية الاستراتيجية في ادارة دفة الصراع في الاردن .

لقد اكدت تجربة الاردن ، الضرورة الماسة الى قيام جبهـة وطنية فلسطينية ـ أردنية ، تقود النضال الوطني الديموقراطي في الاردن عبر برنامج عمل يتضمن التعبير عن الطموحات الاجتماعية والديموقراطية للجماهير في الاردن ، اضافة الى متطلبات وجود حركة مقاومة فاعلة ونشطة في الساحة الاردنية . وان مثل هـذا البرنامج لا يكتسب فعاليته وبعده الاستراتيجي ، الا عبر دعم استكمال الحركة الوطنية الاردنية لشروط وجودها المستقل والخاص ، هذا الوجود الذي يستمد فعاليته أيضا من خلال علاقات التلاحم بين هذه الحركة وحركة المقاومة الفلسطينية .

شعار اسقاط النظام

اذا كانت أوهام امكانات التعايش بين المقاومة والنظـام الاردني أفقدت المقاومة قدرتها في تكريس الوضوح الاستراتيجي لعلاقاتها مـع « النظام » ، فان رفع شعار اسقاط النظام الاردني منذ البداية ، دون تهيئة الشروط السياسية والتنظيمية الملائمة لوضع هذا الشعار موضع التنفيذ الفعلي ، كـان تعبيرا عن الافتقار الـى المرونة التكتيكية في الحركة اليومية لادارة دفة الصراع ، وجعل الحركة اليومية محكومة بعقلية العناد الاستراتيجي . ان هاتين السمتين من سمات العمل الفلسطيني كمـا أفرزتهما تجربة الاردن ، لا زالتا حتى الآن تطبعان المقاومة بطابعهما ، حيث أن حدود الخلاف بين فصائل المقاومة ، هي في احدى مظاهرها ، محكومة بتصادم حدي المرونة التكتيكية والعناد الاستراتيجي في التعامل مع الوقائع التي تواجهها الثورة الفلسطينية .

ولمزيد من الوضوح ، فان شعار اسقاط « النظام » ، كان صحيحا علـى الصعيد الاستراتيجي ، الا أن هذا الشعار فقد مدلولاته العملية قبل معارك أيلول ١٩٧٠ ، عندما لم ينضج عبر سلسلة من الشعارات التكتيكية والمتصاعدة باتجاه حسم التناقض باسقاط « النظام » واقامة الحكم الوطني الديموقراطي . فتحول الى شعار تحريضي ، لا يستند الى حركة نضالية يومية فاعلة ومتنامية . اضافة الـى أن طرح هذا الشعار وجعله بمثابة المخرج الوحيد كلما كانت تشتد حدة التناقض بين المقاومة و « النظام » في الاردن ، قد دفع المقاومة الى البحث عن أدوات جاهزة قادرة على الحسم السريع ، فكان التوجه نحو المؤسسة العسكرية الاردنية لتكون اداة هذا الحسم عبر انقلاب عسكري ، بدلا من

بناء المؤسسات الشعبية والأطر النضالية الجماهيرية التي تكون أقدر بحركتها على حشر النظام ـــ تكتيكيا ـــ وطبع معركة اسقاط « النظام » بطابع كفاحي شعبي .

الفكر الانقلابي والمؤسسة العسكرية في الاردن . نقد كان خطأ المقاومة ليس فقط في التوجه لحسم الصراع في الاردن عبر انقلاب عسكري ، او شق المؤسسة العسكرية الاردنية لدى احتدام الصراع ، ولكن في الفهم الخاطىء لبنية المؤسسة العسكرية الاردنية ، هذه البنية التي قامت على اساس جعل المؤسسة العسكرية الاردنية اداة « النظام » الرئيسية في قمع الحركة الوطنية ، وكذلك اداته في الحفاظ على تماسك « النظام » امام الهزات التي كان يتعرض لها . ولم يكن صدفة ، فشل كل الانقلابات او محاولات الانقلاب التي قامت في الاردن قبل العام ١٩٦٧ . كذلك لم يكن صدفة ان دور هذه المؤسسة في السياسة الاردنية ، كان دوما ، دورا رجعيا ، وان الجيوب الوطنية التي افرزتها هذه المؤسسة ، كانت جيوبا هامشية ، ولم تجد طريقها الى المؤسسة العسكرية الا في فترة ١٩٥٥ ـــ ١٩٥٧ . وهي الفترة التي رافقت محاولات النظام الاردني للتخلص من هيمنة بريطانيا العسكرية على الجيش الاردني لصالح الامبريالية الاميركية .

ان تغييب خصوصيات الوضع الاردني ، سواء من حيث تركيبة الحكم القائم ، بما فيه المؤسسة العسكرية ، او من حيث التركيب الديموغرافي لسكان الاردن ، جعل من سياسات المقاومة في الاردن سياسات تتسم بالتجريبية وتفتقر الى الرؤية الواضحة والمسبقة لاحتمالات تطور الاوضاع واتجاهاتها ، كما جعلها مرهونة ـــ الى حد كبير ـــ بحركة الخصم ، وحدود حركته التكتيكية في ادارة دفة الصراع .

الاستقطاب الدولي والصراع العربي ـ الاسرائيلي

سلمى حداد

ان من اهم نتائج الحرب العالمية الثانية انها نقلت العالم من مرحلة الدول القومية والتحالفات الى مرحلة العملقة والقطبية . ولقد بدلت هذه الحرب موازين القوى في العالم ، فدفعت اليابان والدول الاوروبية المنهكة الى الصف الثاني ، وجعلت الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة تحتلان مكان الصدارة كقوتين عظميين وحيدتين ، وقسمت العالم الى معسكرين ، قطبين ، تدور في فلكهما الاقتصادي ـ السياسي ـ الايديولوجي وبالتالي العسكري جميع دول العالم . وكانت قوتا هذين القطبين الاشتراكي والراسمالي متوازنتين الى حد ما رغم عدم تماثلهما نوعيا . اذ كان القطب الاشتراكي يعتمد على القوة العسكرية التقليدية الهائلة والزخم الايديولوجي والقدرة الاقتصادية المتنامية ، بينما كان القطب الراسمالي يعتمد على الاحتكار النووي ، وامتدادات الاستعمار القديم ، والقدرة الاقتصادية الهائلة التي اثبتت الحرب فاعليتها .

وكان عدم الثقة الذي ظهر بوضوح منذ مؤتمر يالطة (١٩٤٥) ، يحكم علاقات المعسكرين العملاقين ، ويهدد بوقوع صدام مدمر ، تستخدم فيه الولايات المتحدة سلاحها الذري ضد المراكز الحيوية السوفياتية ، ويرد عليه السوفيات بتوزيع هذه المراكز ، والاندفاع بالقوات التقليديـــة لاحتلال أوروبا الغربيـــة والشرقين الاوسط والاقصى ، والتوزع داخل المناطق الآهلة بالسكان لشل السلاح الذري الاميركي ، ووضع القيادة الاميركية الاستراتيجية أمام خيار معنوي صعب : السمـــاح للقوات التقليدية السوفياتية المتفوقة باحتلال مناطق هامة وحساسة ، أو ضرب هذه القوات ذريا والحاق الاذى ، في الوقت نفسه ، بسكان البلاد المجتاحة واقتصادها .

الاستقطاب في العصر الذري

عندما فجر السوفيات قنبلتهم الذرية (أيلول ١٩٤٩) وانضموا الى النادي الذري ، تبدلت موازين القوى بشكل جذري . وأصبحت قوتا القطبين متماثلتين نوعيا ، وغدا التوازن العالمي مبنيا على الرعب النووي . وحصل القطب الاشتراكي على زخم جديد بانتصار الثورة الصينية في العـــام ١٩٤٨ ، وانضمام هذا البلد بامكانـــاته البشرية والاقتصادية والجغرافية الى المعسكر المعادي للاستعمار . واعتقد بعض المحللين الاستراتيجيين أن الرعب النووي سيكون مدخلا الى عالم بلا حروب ، بعد أن غدت الحرب تعادل الانتحار المتبادل . بيد ان ديناميكية الصراع بين المعسكرين الاشتراكي والراسمالي ، ورغبة كل قطب بالسيطرة على أوسع بقعة من العالم وتحديد مناطق نفوذ القطب الآخر ، دفعت استراتيجيي المعسكرين العملاقين الى البحث عن وسيلة لمتابعة الصراع مع تجنب الصدام النووي . ونجم عن ذلك اندلاع الحرب الباردة التي

تمثلت بالتخريب الايديولوجي ، والحرب الاقتصادية ـــ النفسية ، والحروب التقليدية المحلية المحدودة في المناطق الهامشية التي تضم عوامل ذاتية تجعلها مناطق غير مستقرة ، ومؤهلة بالتالي لأن تكون مسرحا للنزاع .

وكانت بلدان العالم الثالث ، وما تحمله في داخلها من تناقضات اجتماعية وسياسية ، وما يموج فيها من تيارات تحررية ، مؤهلة أكثر من غيرها لتكون مسرحا للنزاع بين القطبين الدوليين ، عن طريق القوى المحلية . وكان في معظم بلدان العالم الثالث تياران : يتمثل أولهما بالقوى الاجتماعية ـــ الاقتصادية التقليدية المرتبطة ثقافيا ومصلحيا وايديولوجيا بالعالم الغربي ، والمدعومة أحيانا بقوات مسلحة غربية متمركزة على أراضيها أو الى جوارها ، على حين يتمثل الثاني بقوى اجتماعية ـــ اقتصادية راديكالية ، تتبنى ايديولوجية التحرر من نير الاستعمار القديم بشكليه السياسي والاقتصادي ، بغية استعادة حرية الارادة السياسية وحرية التصرف بالثروات الوطنية ، والبدء بالسير وفق سياسة تخرج البلد من التخلف الناجم عن سنوات القهر والاستغلال الاستعماريين . واذا كان التيار الاول مضطرا ـــ بحكم طبيعته ومصالحه ـــ للتحالف مع القطب الراسمالي العالمي ، الذي احتلت الولايات المتحدة مركز قيادته ، فان التيار الثاني كان مضطرا للصدام مع هذا القطب بشكل مباشر أو غير مباشر ، ومضطرا بالتالي لعقد التحالفات مع القطب الاشتراكي الذي حمل الاتحاد السوفياتي لواء قيادته . ومن هنا جاء الاستقطاب الدولي ، وتحولت حروب التحرر الوطني ، في مرحلة تصفية الاستعمار التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ، الى حروب محلية محدودة ، يصطدم فيها القطبان العالميان عن طريق طرف ثالث .

ورغم تعقد هذه المعادلة بعد تزايد أعضاء النادي الذري ، وتفجير القنبلة الذرية البريطانية (تشرين الاول ١٩٥٢) والفرنسية (شباط ١٩٦٠) والصينية (تشرين الاول ١٩٦٤) وظهور التناقضات داخل المعسكر الراسمالي نفسه ، وخاصة بين الولايات المتحدة من جهة وأوروبا بقيادة فرنسة من جهة أخرى ، وبدء النزاع الصيني ـــ السوفياتي منذ مطلع الستينات ، والتوجه نحو سياسة الوفاق الدولي منذ مطلع السبعينات : فان جوهر المعادلة بقي يتمثل في استمرار الصراع بين القطبين عن طريق تجنب الصدام المباشر ، والدخول في صدامات محلية غير مباشرة في مناطق عدم الاستقرار (الهند الصينية ، الشرق الاوسط ، القارة الهندية ، افريقيا ، البرتغال ، أميركا اللاتينية . . . الخ) .

وكان الاعتقاد السائد ان الصدامات المحلية ستبقى محدودة ، وان من المتعذر تصعيدها لتحقيق الحسم ،لان هذا التصعيد سيوسع نطاق القوى المتصادمة ،ويدفع الدول العظمى الى المجابهة المباشرة . ولكن نتيجة الحرب الهندية ـــ الباكستانية (١٩٧١)، وانتصار حربي التحرير الفيتنامية والكامبودية (١٩٧٣) وسقوط نظام الليندي الاشتراكي في الشيلي (١٩٧٤) بدلت هذا الاعتقاد الى حد كبير ، وخلقت واقعا جديدا يدعو الى التأمل . ويمكن الخروج من هذا الواقع بالنتيجة التالية : ان الاستقطاب الدولي ، وجسامة الخطر المتبادل الذي يمكن ان تتعرض له الدول الكبرى في حالة صدامها المباشر ، ورغبة موسكو وواشنطن في الحفاظ على الوفاق الدولي ، عبارة عن عوامل دولية موضوعية تؤثر على النزاعات المحلية وتطبعها بطابع المحدودية ، ولكن هذه العوامل تفقد جزءا كبيرا من قدرتها على التحديد اذا توفرت العوامل الذاتية اللازمة للحسم واهمها : ١ ـــ اختلال ميزان القوى المحلية بشكل واضح ، ٢ ـــ قدرة احد الطرفين المحليين على الحسم السريع ، ٣ ـــ هامشية منطقة النزاع بالنسبة الى احد القطبين العالميين او كليهما ، ٤ ـــ الوضع الدولي

الملائم للحسم ، ٥ ــ استعداد القطب التحرري لمجابهة الولايات المتحدة مباشرة واستنزافها عسكريا او تهديد مصالحها الاقتصادية الحيوية بشكل جدي .

الاستقطاب في الصراع العربي ــ الاسرائيلي

اندلع الصراع العربي ــ الاسرائيلي في نهاية الاربعينات بعيدا عن الاستقطاب الدولي . ولم تتم الحرب العربية الاسرائيلية الاولى (١٩٤٨) وفق النموذج الكوري (١٩٥٠ ــ ١٩٥٣) ، بل جرت بشكل يشبه في جوهره النموذج التركي ــ اليوناني في قبرص (١٩٧٤) . اي انها جرت بين دول محلية مرتبطة سياسيا واقتصاديا وتسليحيا بالمعسكر الراسمالي . لذا استطاع هذا المعسكر تحجيم الحرب ، وتحديد مجالها الجغرافي ، وعنفها ، ومداها الزماني ، بحيث لا تؤثر على مصالحه الحيوية في المنطقة .

وفي منتصف الخمسينات (١٩٥٥) ، عقدت سوريا ومصر صفقات الاسلحة الشرقية ، وحصلت اسرائيل على دعم عسكري ــ اقتصادي من الدول الراسمالية ، ودخل الصراع العربي ــ الاسرائيلي دائرة الاستقطاب . وزاد من اهمية هذا الاستقطاب وعنفه واستمراريته ان للقطبين الدوليين المهتمين بالصراع مصالح حيوية في الشرق الاوسط ، وهما يعتبران ان نتيجة الصراع المحلي تؤثر سلبا او ايجابا على استراتيجيتهما ومصالحهما العليا . وفي العام ١٩٦٧ وصل هذا الاستقطاب الى عتبة عالية جدا ، ثم قفز الى مرتبة اعلى خلال حرب الاستنزاف على جبهة قناة السويس ، وخلال فترة « اللاحرب واللاسلم » التي اعقبتها .

ومن المؤكد ان هذا الاستقطاب لم يقع نتيجة اختيار طوعي قامت به القيادتان المصرية والسورية في العام ١٩٥٥ ، والقيادات العربية الراديكالية الاخرى فيما بعد . ولكنه جاء نتيجة طبيعة الصراع العربي ــ الاسرائيلي نفسه . فالغزوة الصهيونية عمل استعماري عدواني يستهدف اقامة دولة مصطنعة في قلب الوطن العربي ، وتعزيزها بشعب مستورد ، وتكنولوجيا متقدمة ، واقتصاد طفيلي مرتبط بالاقتصاد الراسمالي ، وقوة عسكرية غير متناسبة مع حجم الكيان الصهيوني وامكاناته ، بينما يمثل الرد العربي على هذه الغزوة عملا تحرريا ، يستهدف نزع القاعدة العسكرية الطارئة (تحرر سياسي ــ عسكري) ، ومنع تشكيل القاعدة الاقتصادية الوسيطة الرامية الى المشاركة في نهب الوطن العربي وتحويله الى منطقة زراعية ومصدر مواد اولية ملحقة بالاقتصاد الراسمالي العالمي (تحرر اقتصادي) . ولذا كان من الطبيعي ان يتحالف الطرف الاستعماري المحلي (اسرائيل) مع القطب الاستعماري العالمي ، وان يتحالف الطرف التحرري المحلي (الدول العربية) مع القطب العالمي المعادي للاستعمار .

ولقد وعى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر والقوى الراديكالية العربية الاخرى واسرائيل هذه المعادلة ، فدعم الطرفان المحليان علاقاتهما مع القطب المماثل لهما . وكانت النتيجة المحتومة لاي تحليل علمي وموضوعي لطبيعة الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، وطبيعة النزاع الدائر بين القطبين العالميين ، ان تتحالف اسرائيل مع القطب الاستعماري وان تتحالف الدول العربية كلها مع القطب المعادي للاستعمار . ولكن الامور لم تتم وفق هذا المسار ، لان الفئات الحاكمة في عدد من الدول العربية حافظت على علاقاتها الوثيقة مع القطب الاستعماري ــ الراسمالي العالمي ، رغم عدائها للطرف الاستعماري المحلي (اسرائيل) ، وتابعت خطها المضاد للقطب العالمي

المعادي للاستعمار ، رغم ان معركتها مع اسرائيل معركة ضد الاستعمـــار . الامر الذي حول الاسـتقطاب الى نصف استقطاب ، وجعل جزءا من المعسكر العربي متحالفا مع جزء من معسكر العدو (وهو الجزء الاساسي والاهم) ، ومعاديا للقطب العالمي الصديق .

ويرجع موقف هذه الفئات الحاكمة الى عدائها الايديولوجي العميق للقطب العالمي المعادي للاستعمار ،وارتباط مصالحها برأس المال العالمي وبتكريس الاوضاع الاجتماعية ـ الاقتصادية السائدة في بعض أقطار الوطن العربي رغم هشاشة بنية هذه الاوضاع وتبعيتها للنظام الرأسمالي العالمي ، وخوف الفئات الحاكمة من تنامي النفوذ السوفياتي الذي يؤدي بالتالي الى تدعيم الحركات العربية الراديكالية الرامية الى تطبيق برامج اقتصادية ـ اجتماعية لا تهدد مصالح الدول الراسمالية ـ الامبريالية فحسب ، بل تهدد ايضا ، وبشكل مباشر ، مصالح الفئات الحاكمة . واذا اضفنا الى ذلك المفاهيم « الليبرالية » الغربية التي تحكم منطق هذه الفئات وبرامجها الاصلاحية ونظرتهـــا الابوية للجماهير الشعبية ، وفهمها الريفي ـ البدوي الساذج للعلاقات الدولية التي ترتكز على العقلانية والربحية والمصلحية ، وانبهارها بطريقة الحياة الغربية وتطلعها الى ممارسة هذه الحياة ولو كانت غالبية الشعب تعيش حيـــاة ما دون البؤس ، وخوفها من التطبيق العملي لسياسة شد الاحزمة اللازمة لمعركة التحرر والخروج من التخلف (خاصة اذا كان عليها ان تشد هي احزمتها) ، فهمنا سر اندلاق هذه الفئات على الولايات المتحدة ، ومعاداتها للسوفيات ، ورغبتها في انهاء الاستقطاب عن طريق مصالحة القطب الاستعماري العالمي في صراع الشرق الأوسط .

واذا كانت الفئات الحاكمة في الدول العربية التقليدية تتعامل مع القطب الاستعماري العالمي منذ بداية الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، على اساس قناعاتها ومصالحهـا وتكوينها الايديولوجي ، فان الرئيس جمال عبد الناصر والفئات الحاكمـة في الدول العربية الراديكالية لم تسقط هذا التعامل من حسابها بغية تحييد القطب الاستعماري العالمي (الولايات المتحدة) ، ولو جزئيا . والفرق بين تعامل التقليديين والراديكاليين مع أميركا ، هو أن التقليديين لم ينظروا الى الولايات المتحدة كعدو لا بد من تحييده ، بل اعتبروه ، ولا يزالون يعتبرونه ، حليفا تربطهم به علاقات طويلة راسخة الجذور ، ونظروا الى السوفيات كخصم ، بينما اعتبر الراديكاليون السوفيات حليفا استراتيجيا ينبغي تمتين العلاقة معه الى ابعد حد ، ونظروا الى اميركا كعدو لا بد من السعـــي لتحييده مـــا أمكن . واذا كـــان التقليديون يرفضون التقارب من السوفيات ويقدمون العلاقة مع الولايات المتحدة على اي شيء ، فان الراديكاليين (خلال الحقبة الناصرية واليوم) يقدمون العلاقة مع السوفيات على اي شيء آخر ، ويعتبرون تحييد اميركـــا مهمة ثانية .

والخطير في الامر ، ان مركز الثقل في الوطن العربي (مصر) شهد بعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر ظهور اتجاهات تقليدية لا تستهدف تصفية التجربة الناصرية الداخلية فحسب ، بل تستهدف ايضا تصفية انجازات الناصرية على الصعيد القومي الوحدوي، والانعطاف عن الخط الناصري العالمي ، بدفع التحالف مع السوفيات الى المرتبـــة الثانية ، وتقديم التعامل مع الولايات المتحدة الى المرتبة الاولى . ولقد تزايدت قـــوة هذه الاتجاهات في مايو (آيار) ١٩٧١ بعد تصفية الجناح الناصري في الحكم ، ثـــم اخذت شكلا ماديا ملموسا في اخراج الخبراء السوفيات من مصر في تموز (يوليـــو) ١٩٧٢ .

وكان من المفروض ان تسقط حرب تشرين هذه الاتجاهات ، بعد ان ثبتت بشكل عملي الحقائق التالية :

١ ــ ان الولايات المتحدة لا تكتفي بالغاء الاستقطاب وخروج السوفيات من مصر ، ولكنها تطالب براس حركة التحرر الوطني العربية التي تهدد مصالحها الحيوية التي ازدادت اهميتها بعد ازمة الطاقة العالمية .

٢ ــ ان اندلاق مصر (بتوجيه من السعودية) على واشنطن . وقيام القاهرة باجتثاث الوجود السوفياتي من الارض المصرية . لم يؤديا الى اكتساب اميركا ، التي تدمت للعسكرية الاسرائيلية خلال الحرب وبعدها ما ساعدها على استعادة توازنها خلال القتال ، والبقاء على الاراضي العربية المحتلة في حرب ١٩٦٧ .

٣ ــ ان السوفيات لم يتركوا مصر نجابه السلاح الاميركي وحيدة بل ردوا على تموز (يوليو) ١٩٧٢ بتزويد القوات المسلحة المصرية والعربية الاخرى باسلحة سمحت للجندي العربي بان يجترح انجازات تشرين .

٤ ــ ان الولايات المتحدة تفضل اسرائيل على الدول العربية الصديقة او الساعية لان تكون صديقة ، لانها ترى ان اسرائيل دولة مضمونة وقادرة على حماية المصالح الاميركية المتطابقة مع مصالحها . على حين ان الدول العربية (الصديقة) غير مضمونة ، ولا تستطيع على المدى البعيد تأمين المصالح المتناقضة مع مصالح الجماهير العربية (مصالح الناهبين ومصالح المنهوبين) .

ولكن هذه الحقائق لم تكن كافية لمنع الانجراف نحو اميركا (الهوى اقوى من العقل) ، لذا استمر توجه السياسة المصرية على خط التقارب مع واشنطن والثقة بها والتباعد عن السوفيات ومهاجمتهم ، الامر الذي ادى في الاول من ايلول (سبتمبر) ١٩٧٥ الى توقيع اتفاق فصل القوات الثاني في سيناء ، وانتقال مركز الثقل العربي من معسكر العرب الراديكاليين الى معسكر العرب التقليديين . ولقد تم كل ذلك باسم السياسة المتوازنة بين واشنطن وموسكو ، والغاء الاستقطاب الدولي في المنطقة ، واعادة الصراع العربي ــ الاسرائيلي الى مستواه المحلي ، وتحرير الارادة السياسية العربية من التحديدات التي فرضتها عليها الاستراتيجية السوفياتية العليا . مع ان الغاء الاستقطاب لا يخدم سوى الولايات المتحدة واسرائيل ، لانه يحرم المعسكر العربي من دعم الحليف الاستراتيجي (مع ان القسم الاكبر من الاراضي العربية المحتلة في حرب ١٩٦٧ لا يزال يرزح تحت الاحتلال الاسرائيلي) ، دون ان يؤدي الى فصل التحالف الاميركي ــ الاسرائيلي ، نظرا لقوة هذا التحالف واستناده الى قوى لا يستهان بها داخل الولايات المتحدة . ويجعل المعسكر العربي وحيدا ومجردا من السلاح امام الدولة الصهيونية التي دعم الاميركيون قوتها العسكرية الى الحد الذي جعلها تبقى على الاراضي المحتلة عامين اخرين بعد حرب ١٩٧٣ ، وشجعها على العودة الى سياسة التهويد والردع ، ومحاولة التحكم بالمصائر السياسية لدول المنطقة (احداث لبنان) .

المصالح الاميركية والمصالح السوفياتية

يقول انصار الابتعاد عن الاتحاد السوفياتي لالغاء الاستقطاب ، ان السوفيات لم يقدموا لنا الدعم الا لتأمين مصالحهم . ولا يمكن للعرب ان يربطوا مسيرتهم النضالية بمصالح دولة عظمى لا يستطيعون التأثير على استراتيجيتها السياسية . ويمكن ان

نقسم هذه المقولة الى شقين : اولهما ان للسوفيات مصالح هامة في المنطقة وهم يسعون الى تأمينها بمختلف الوسائل ، والثاني ، العلاقة بين المسيرة النضالية العربية والمصالح السوفياتية . وسنناقش هذين الشقين كل على حدة .

ان لكل دولة عظمى مصالح حيوية تسعى الى تحقيقها . هذا امر طبيعي ينطبق على جميع الدول في مختلف العصور . بل ان وعي الدول بمصالحها ، وسعيها الدائب لتحقيقها ، هو الذي يجعل منها دولا تستحق هذا الاسم ، ويؤهلها لان تكون دولا عظمى ، اذا ما توفرت لها العوامل المادية والمعنوية الضرورية لبناء الدول العظمى . ومن الطبيعي ان يكون للولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في عصر القطبية والعملقة مصالح في كل بقعة من بقاع العالم ، كما ان من الطبيعي ان تسعى هاتان الدولتان لتحقيق مصالحهما ، وان يحصل بينهما احتكاك في مناطق المصالح المشتركة ، ومن بينها الشرق الاوسط .

ولتحديد موقف الامة العربية من مصالح الدولتين العظميين ينبغي اولا وقبل كل شيء معرفة طبيعة هذه المصالح ، وتحديد مدى تطابقها او تعارضها مع مصالح الجماهير العربية .

ان مصالح الولايات المتحدة في الشرق الاوسط هي : ١ — تأمين استمرار نهب الثروة العربية ، والثروة البترولية بشكل خاص ، ٢ — تطويق الاتحاد السوفياتي بأنظمة معادية للسوفيات ايديولوجيا ، ٣ — تأمين السيطرة المباشرة او غير المباشرة على النقاط الاستراتيجية الهامة جنوبي الاتحاد السوفياتي وعلى خط سير النفط من منابعه الى اوروبا الغربية . وتتطابق هذه المصالح مع مصالح اسرائيل الراغبة في المشاركة بنهب الثروة العربية وتحقيق الحلم الصهيوني التوسعي عن طريق الامتداد حتى النقاط الاستراتيجية المسيطرة على خط سير النفط . بينما تتعارض المصالح الاميركية نفسها مع مصالح الامة العربية التواقة الى تحقيق استقلالها الاقتصادي ، واستعادة سيطرتها على ثرواتها ، وتصفية كل اشكال السيطرة الاجنبية على الارض العربية . الامر الذي يجعل التحالف الاسرائيلي — الاميركي والتناقض العربي — الاميركي قضية محتومة ، حتى اذا قام العرب بانهاء الاستقطاب ، لان المصالح الاميركية الخاصة باستمرار استغلال الثروة العربية ستبقى متطابقة مع مصالح اسرائيل ومتناقضة مع مصالح الجماهير العربية .

والى جوار المصالح الاميركية فان للسوفيات في المنطقة مصالح ايضا ، ولكنها ذات طبيعة مختلفة اختلافا جذريا . وتتلخص في دعم حركة التحرر الوطني العربية ، وزيادة قوتها ، ومساعدتها على الصمود امام الضغط الاميركي ، وتحرير الثروات العربية من قبضة الاحتكارات الراسمالية العالمية ، وتحرير الارض العربية من كل اشكال السيطرة ، لان نجاح حركة التحرر الوطني العربية في تحقيق هذه الاهداف ، سيكون بالضرورة على حساب مصالح الولايات المتحدة ومواقعها في الشرق الاوسط. وسيؤدي بالتالي الى اضعاف القوة الاميركية بشكل عام وفي الشرق الاوسط على وجه التحديد .

وينطلق السوفيات من تحديد مصالحهم في المنطقة ، وفي بقاع اخرى من العالم ، من منطلق ان كل خسارة تتعرض لها الولايات المتحدة ، وكل تقلص لنفوذها وامتداداتها ، يشكل ربحا غير مباشر لموسكو، ويؤثر على موازين القوى السوفياتية — الاميركية ، لا عن طريق الحصول على مكاسب تضاف الى كفة السوفيات ، بل عن طريق اقتطاع جزء من وزن القوة الاقتصادية — العسكرية الموجودة في كفة الاميركيين، وانتقال هذا الجزء الى اصحابه الشرعيين . وكلما تزايد وزن الاجزاء المقتطعة

من القـوة الاميركيـة والمستعادة من قبـل اصحابها العرب ، كلما زاد اختـلال موازين القوى السوفياتية ـ الاميركية لصالح موسكو . ومن هنا نرى ان المصالح السوفياتية تتطابق مع مصالح حركة التحرر الوطني العربية ومصالح الجماهير العربية ، وتتعارض بالتالي مع مصالح دولة الكيان الصهيوني .

والخلاصة : ان الاستقطاب في الصراع العربي ـ الاسرائيلي امر فرضته طبيعة القوى المحلية المتصارعة ، وجعلـه التحالف المصلحـي بين اسرائيل والمعسكر الامبريالي ـ الراسمالي امرا محتوما .

وكل محاولة عربية للتهافت على الولايات المتحدة ، تحت لواء اتباع سياسة متوازنة بين المعسكرين ، لا يمكن ان تؤدي الا الى تحويل الاستقطاب المزدوج الى استقطاب من جانب واحد (اميركا واسرائيل) ، وضياع الدعم السوفياتي (اللازم في النضال العربي العسكري والسياسي ، والذي استطاعت حركة التحرر الوطني العربيـة بفضله تدعيم مواقعها خلال عشرين عاما) دون التوصل الى فصل الولايات المتحدة عن اسرائيل ، لان اميركا لا يمكن ان تعمل ضد مصالحها ولا ان تتخلى عن الحليـف الموثوق الذي يعمل كفرقة اجنبية وراء البحار لضمان هذه المصالح بتكاليف محدودة .

ويطرح منظرو الخط المصري ـ السعودي فكرة « تيونة » (Taiwanisation) اسرائيل . ويرون ان هذه « التيونة » ممكنة اذا اقتنعت واشنطن بان الدول العربية مستعدة لتأمين المصالح الاميركية وقادرة على ذلك اكثر من اسرائيل . ولكن هـذه « التيونة » تتطلب ، كما تقول الفكرة ، قناعة الاميركيين بان الانظمة العربية التقليدية ثابتة ومستقرة وقادرة على الصمود امام المد الجماهيري المعـادي للاستعمـار والاستغلال . وهذا امر لم تتوصل اليه الادارة الاميركية حتى الان . والاخطر مـن ذلك ، هو ان « التيونة » تتطلب تأمين المصالح الاميركية ، ومن بينها ضرب حركـة التحرر الوطني العربية ، واستمرار النهب الامبريالي للثروة العربيـة ، وترسيخ السيطرة الاميركية على النقاط الحساسة اللازمة لتدفق النفط من منابعه الى أوروبا . اي تصفية كل انجازات النضال الجماهيري خـلال ٣٠ عاما ، والعودة بالمنطقة الى مرحلة ما قبل الناصرية ، مع استبدال العلمين الفرنسي والبريطاني بالعلم الاميركي .

وهكذا نرى ان « التيونة » التي يلاحقها منظرو الخط المصري ـ السعـودي وانصار التقارب مع اميركا ، ستؤدي في حالة نجاحها (وهذا امر مستبعد لاسبـاب تتعلق بانعدام الثقة وبقوة الصهيونية داخل اميركا) الى سقوط المنطقة من جديـد بيد المعسكر الاستعماري ـ الراسمالي ، واستخدام الحراب العربية التقليدية بدلا من الحراب الاسرائيلية ، لعرقلة حركة الجماهير العربية نحو الوحـدة والتحـرر والازدهار .

ان الغاء الاستقطاب عمل خطير النتائج في حالة فشله او نجاحه . فهو مدخل الى الاستقطاب احادي الجانب (في حالة فشله) ، ومدخل الى الوقوع ثانية في قبضـة الولايات المتحدة واحتكاراتها (في حالة نجاحه) . وهذا ما يؤكده التحليل العلمـي لمعسكر الاعداء ومصالحهم وتحالفاتهم وادوارهم ، كما يؤكده التحليل العلمي لثورات العصر التي وعت معادلة الاستقطاب الدولي ، فدعمت علاقاتها مع المعسكر المعادي للاستعمار ، وتعاملت مع الولايات المتحدة على اساس انه العدو الرئيسي الاكثـر خطورة ، وتعاملت مع الخصوم المحليين كاعداء مباشرين ، وكامتداد ضارب للقطب الامبريالي العالمي .

الوكالة اليهودية والادارة الصهيونية
مـــن ســـابيــر الـــى المـــوجـــي

يوسف حمدان

عقدت اللجنة التنفيذية الصهيونيـــة اجتماعها السنوي بتاريخ ١٩٧٦/١/٥ في مدينة القدس . وهذه اللجنة هي احد جهازين في المنظمة الصهيونيه العالميه بنتخبهما المؤتمر الصهيوني العالمي . وهما الاداره الصهيونية واللجنة التنفيذية الصهيونيه . التي تنتخب بدورها رئيس الاداره الصهيونية . ومنذ اربع سنوات اصبح منصب رئيس الادارة الصهيونية هو صاحب اعلى منصب في الحركة الصهيونية ، واصبح في الوقت نفسه يشغـــل منصـــب رئيس ادارة الوكالة اليهودية . فحتى عام ١٩٧١ كان ناحوم غولدمان يشغـــل منصب رئيس المنظمة الصهيونية العالمية . ولكن في تلك السنة اعيد بناء الوكالة اليهودية حيث تم ، بموجـــب اتفاق مع المنظمة الصهيونية العالمية . ضم الجباية اليهودية الموحدة في الولايات المتحده . ومنظمات الجباية في باقي دول الغرب (كيرن هيسود) الى « الوكالة اليهودية الموسعة » . واصبـــح اريه بنكوس رئيسا للادارة الصهيونية ولادارة الوكالة اليهودية . وبعد وفاة بنكوس عام ١٩٧٣ ، اصبـــح اريـــه دولتسين . وهو مسؤول المالية في ادارة المنظمـــة الصهيونية والوكالة اليهودية . رئيسا بالوكالة الى ان انتخب بنحاس سابير رئيسا للادارتين في حزيران ١٩٧٤ . وبعد مرور اكثر من عام على تولي سابير الرئاسة . توفي في آب (اغسطس) ١٩٧٥ ، فأصبح اريه دولتسين مرة اخرى رئيسا بالوكالة ، ولكنـــه في هذه المرة اعلن عن ترشيـــح نفسه لانتخابات الرئاسة . الامر الـــذي لم يفعله عندما رشح سابير نفسه في المره الماضية . وقد فعل ذلك مع انه لا ينتمي الى « الحزب الصحيح » فهو من حزب الاحرار التابـــع لتكتل ليكود المعارض . اما منافسه يوسف الموجي نائب حزب العمل فقد ضمن استمرار زعامة حزبـــه التقليدية في الحركة الصهيونية ــ منذ ٤٠ عاما ــ عندما فاز على منافسه في اجتماع اللجنة التنفيذية الصهيونية المذكور ، واصبح خلفا لسابير في رئاسة ادارة المنظمة الصهيونية العالمية وادارة الوكالة اليهودية .

سابير رفض الحكومة وقبل الوكالة اليهودية

كانت شخصية بنحاس سابير مثيرة للجدل لدى الاسرائيليين عندما احتل وزارة المالية لفترة طويلة في الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة ، وكذلك بعد ان تخلى عـــن الوزارة واصبـــح رئيسا للادارة الصهيونية والوكالة اليهودية ، واستمر هذا الجدل بعد وفاته . مع ذلك يعتقد الكثيرون ان سابير كان « الرجل القـــوي في الدولة منذ

اعتزل دافيد بن غوريون العمل السياسي(١) » . وكان من ابرز قادة حزب مباي ، واصبح زعيم حزب العمل بعد انشائه في عام ١٩٦٨ من مباي واحدوت هعفودا ورافي . اقترن اسمه بالاقتصاد الاسرائيلي واعتبر ماهرا في جمع الاموال ومؤسسا لصناعه الاسرائيلية . كان دائما عرضة للنقد والتهجم وفي نفس الوقت كان منتقدا ومتهجما قاسيا . وقد وصفه احد النواب مرة قائلا « ان سابير عندما يريد مهاجمة احد . فانـــه لا يجر ضحيته الى البحر ليغرقها فيه . ولكنه يحمل البحر الى الضحية ويصبه على راسها(٢) ! »

ولعل قوة سابير هذه هي التي انقذته من السقوط بعد حرب تشرين عندما سقط ديان وغولدا مئير وغيرهما من الزعماء العتاق . بل انه عندما سقطت اخر حكومة لغولدا مئير في نيسان (ابريل) ١٩٧٤ ــ وكان هو ايضا وزير المالية فيها ــ اقترح عليـــه ان يشكـــل الحكومة الجديدة بنفسه ، فرفض . ويقال انه هو شخصيا كان وراء فوز اسحق رابين برئاسة الحكومة الجديدة ، ومن الواضح ان وقوفه العلني الى جانبه حسم المنافسة بين اسحق رابـــين وشمعون بيرس لصالـــح الاول . وواصل سابير دعمه لرابين الذي لم يتمتـــع بمركز قوي في حزبه وتمكن قبل وفاته من تحسين وضعـــه في هذا الحزب .

وعندما رفض سابير تشكيل الحكومة او الاشتراك فيها ، اثار ذلـــك بعض الاستغراب ، ولكن وفاته المفاجئة في آب (اغسطس) ١٩٧٥ اعطت تفسيرا كافيا لموقفه اذ بدا انـــه اراد مقدما تجنيب حكومة حزبه فراغا قد يخلق مشاكل صعبة في ظروف دقيقة . وكان من الطبيعي ان تتجه الانظار اليه لشغل منصب هام شاغر هو ادارة الوكالة اليهودية والادارة الصهيونية . نظرا لعدة عوامل :

١ ــ حرب تشرين شكلت ضربة قاسية بالنسبة لاسرائيل والحركة الصهيونية وبرزت صيحات استنجاد في اسرائيـــل بالاوساط الصهيونية واليهودية في الخارج وخاصة في الولايات المتحدة ، والغرب بشكل عام . وقد اصبحت هناك حاجة ملحة لتلقي الدعم المالي بعد ان التهمت تكاليف الحرب وحدها اكثر من مجموع الميزانية الاسرائيلية لتلـــك السنة . واصبحت هناك حاجة ماسة لاعـــادة الثقة المهتزة باسرائيل لدى يهود العالم ودفـــع اكبر عدد ممكن للهجرة اليها ، خاصة وان احد الضباط الاسرائيليين صرح في كاليفورنيـــا بعد الحرب ، ان تلـــك الحرب كلفـــت اسرائيل جيلا كاملا من الشباب . واصبح من الضروري استخدام القوة الاقتصادية والسياسية ليهود العالم في مواجهة المعركة الاقتصادية والسياسية العربية . كل ذلك كان يتطلب رجلا على رأس الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية العالمية يكون قويا في اسرائيـــل ، وله علاقات وثيقة مع يهود الغرب وخبيرا متمرسا في جمع التبرعات مثل بنحاس سابير .

٢ ــ كان هذا المنصب شاغرا منذ وفاة اريه بنكوس ، وكان يشغله بالوكالة اريه دولتسين وهو ليس من حزب العمل بل من حزب الاحرار الذي كان يشكل مع حيروت حزب جاحل والذي شكل فيما بعد مع غيره من الاحزاب اليمينية كتلة ليكود المعارضة .

٣ ــ الجناح العمالي في الحركة الصهيونية تزعم المنظمة الصهيونية العالميـــة والوكالة اليهودية باستمرار منذ عام ١٩٣٥ . وكان الجناح اليميني منافسا قويـــا يحاول تزعمها باستمرار دون نجاح . وكان من المستبعد ان يتخلى حزب العمل عن

زعامة الحركة الصهيونية لانه ، اولا : لا يملك اكثرية بين الاتحادات الصهيونية التي تشكل المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية ولذلك من المهم جدا ان يحتفظ بالزعامة . ثانيا : الحكومة الاسرائيلية تحافظ على علاقات وثيقة بالمنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية . وبما ان حزب العمل هو الحزب الحاكم فلا يمكنه ان يتخلى عن رئاسة ادارتي المنظمة والوكالة لحزب معارض . خاصة اذا اخذنا بعين الاعتبار أن الوكالة اليهودية تمول الاحزاب الاسرائيلية ، وتمول بالتنسيق مع الحكومة مشاريع مثل الاستيعاب والهجرة والاسكان والتعليم والشؤون الاجتماعية وغير ذلك من الامور التي تشرف عليها وزارات الحكومة .

٤ ــ كان بنحاس سابير ، ليس فقط ابرز قادة كتلة مباي في حزب العمل بل اعتبر زعيما لحزب العمل نفسه . واكثر من ذلك : اعتبر « رجل الدولة القوي » الذي له اوثق العلاقات مع الزعامات الصهيونية والبودية في الخارج بحكم كونه وزيرا للمالية لفترة طويلة . لقد سماه بعض الاسرائيليين « الجرافة » التي لا يقف فيوجهها احد . وفعلا عندما اعلن عن ترشيحه لرئاسة ادارة الوكالة اليهودية والادارة الصهيونية اعلن اريه دولتسين : « كنت انوي خوض الانتخابات [عام ١٩٧٤] ولكن عندما اعلن ترشيح سابير سحبت انا ترشيحي »(٣) وهكذا توجه سابير الى رئاسة الادارتين في المنظمة الصهيونية والوكالة اليهودية بدون منافسة .

نجاح في جمع الاموال وفشل في جمع اليهود

منذ انتخابه وحتى وفاته ، اشترك بنحاس سابير في اجتماعين لادارة الوكالة اليهودية وفي اجتماع واحد للجنة التنفيذية الصهيونية .

ففي حزيران (يونيو) ١٩٧٤ وفور انتخابه القى سابير الخطاب المركزي في اجتماع ادارة الوكالة اليهودية . وكذلك في اجتماع اللجنة التنفيذية الصهيونية . وفي المناسبتين وعد سابير الحضور وعودا كبيرة . فمثلا قال بانه سيعمل على جلب ١٠٠ الف مهاجر في السنة الى اسرائيل(٤) . ووعد كذلك بتعميق الثقافة الصهيونية لدى اليهود بهدف تشجيع الهجرة ، وبتوسيع الجبايات اليهودية وغير ذلك .

وبعد مرور سنة على توليه المنصب وقبل وفاته بحوالي شهرين اشترك سابير في اجتماع ادارة الوكالة الصهيونية الذي عقد في القدس بتاريخ ٧٥/٦/١٦ ، وكان ابرز ما قاله في خطابه هو انه مرتاح بالنسبة للاموال التي تجمعها الوكالة اليهودية بواسطة الجبايات ، ولكنه غير مرتاح بالنسبة للهجرة اليهودية الى اسرائيل .

فبالنسبة لجمع الاموال قال سابير ان الجباية اليهودية الموحدة (وهي العاملة في الولايات المتحدة ، ومنضمة الى الوكالة اليهودية منذ عام ١٩٧١) جمعت خلال السنوات الخمس الماضية ما يلي(٤) :

في ١٩٧٠ : ١٨١ مليون دولار
١٩٧١ : ٢٥١ مليون دولار
١٩٧٢ : ٢٣٤ مليون دولار
١٩٧٣ : ٤٧٦ مليون دولار
١٩٧٤ : ٢٢٢ مليون دولار
١٩٧٥ : ٣٠٠ مليون دولار نقدا

[بالاضافة الى ما قيمته ٥٥٠ مليون دولار بالسندات]

واما جباية صندوق التاسيس (كيرن هيسود) وهي الجبايات اليهودية العاملة خارج الولايات المتحدة (ومنضمة ايضا الى الوكالة اليهودية منذ العام ١٩٧١) فقد جمعت ما يلي(٦) :

في ١٩٧٠ : ٧٥ مليون دولار

١٩٧١ : ٦٧ مليون دولار
١٩٧٢ : ٦٣ مليون دولار
١٩٧٣ : ٣٠٠ مليون دولار
١٩٧٤ : ١٦٢ مليون دولار
١٩٧٥ : ١٧٥ مليون دولار .

اما بالنسبة للهجرة فقد اكد سابير في الاجتماع ان اسرائيل تعاني « ازمة خطيرة » في هذه الناحية . واعطى الارقام التالية عن الهجرة في السنوات الثلاث الماضيــة(٧) :

في سنة ١٩٧٣ : ٥٥٠٠٠ مهاجر

١٩٧٤ : ٣٢٠٠٠ مهاجر

في الثلث الاول من ١٩٧٥ : ٧٠٠٠ مهاجر فقط

واعلن سابير ان الهجرة في النصـف الاول من عام ١٩٧٥ . بلغ مجموعهـا نصـف عدد المهاجرين في الفترة المقابله مـن عام ١٩٧٤ ، ودعا ادارة الوكالـة اليهودية الى ان « مهمتها الاساسية هي البحث عن وسائل لدعم الهجرة ... ان اسرائيـل لن تتمتـع بالامن والسلام طالما عاش فيها ٣ ملايين يهودي فقط . ويجب ان يصبـح هذا العدد ٦ ملايين خلال ٢٥ سنة »(٨) .

ودعا سابير ايضا في الاجتماع نفسه الوكالة اليهودية للعمل على دعم ١٢٥ مستوطنة زراعية حيث ان ٣٢٠ مستوطنة فقط من بين ٥٠٠ مستوطنة زراعية اقيمـت منذ انشاء اسرائيـل وصلت الى طور الثبات . وركز على وجوب اقامة مستوطنات جديدة « وبسرعة في الجليل والنقب »(٩) ودعا ايضا الى تعميـق التعليم اليهودي لدى الجاليات اليهودية وخاصة في الولايات المتحدة واميركا اللاتينية « ازاء خطر اندماج جيل كامل وفقده كل صلة مع الشعب اليهودي »(١٠)

ان الوكالة اليهودية تضم المنظمات الصهيونية وكذلك الجمعيات اليهودية غيـر الصهيونية والمؤيدة لاسرائيل . وتطمح لان تكون « برلمان اليهود » وتحاول بذلك كسب الدعم المادي والمعنوي من اليهود بدون ان ينخرطوا في الحركة الصهيونية . وبحكـم كونها كذلك ، تحاول تجنب الصراعات الحزبية . ومع ذلك عقد رجال حزب حيروت في يوم افتتاح اجتماع جمعيتها العمومية (المؤلفة من ٣٠٠ مندوب و ١٠٠ مراقب مـن اسرائيل ويهود العالم) مؤتمرا صحفيا في ٧٥/٦/١٦ وطالبوا سابير بالاستقالة « لانه فشل في موضوع الهجرة فشلا ذريعا »(١١) فرد سابير قائـلا ان اعضاء حيروت لا يمثلون الا نسبة ضئيلة في جمعية الوكالة اليهودية . وقال بعد ذلك في مقابلة مـع مجلة الجيش الاسرائيلي (١٢) انه يخالف بن غوريون الرأي عندما قال ان « الصهيوني هو من يهاجر الى اسرائيل » وفي رأيه ان الصهيوني هو كل من يعتقد باهمية الهجرة

وبدون ذلك ستكون الحركة الصهيونية صغيرة جدا . والحركة الصهيونية مهمة ليس فقط بالنسبة للهجرة بل ايضا بالنسبة للتاييد لاسرائيل ولتنظيم المظاهرات وجمع الاموال . وشدد سابير على ان الهجرة لها علاقة قويه بالتربية الصهيونية واليهودية التي تواجه ازمة ، بل ومعدومة في بعض البلدان . ودعا الى مواجهه النزوح من اسرائيل من جهة ، والى شن حملة من اجل الهجرة من جهة ثانية ... « يجب ان نقول لليهود ان مسألة الهجرة هي مسألة وجود اسرائيل » .

ويبدو ان سابير تعلم في منتصف عام ١٩٧٥ من خطأه في منتصف عام ١٩٧٤ . فبدلا من ان يقول : سنعمل على جلب ١٠٠ الف مهاجر في السنة قال في هذه المرة : « اننا في حاجة الى هجرة ٥٠ ـــ ٦٠ الف مهاجر في السنة »(١٣) .

لكن سابير لم يعش ليرى فيما اذا كانت طموحاته حول الهجرة ستتحقق ، او بعبارة اصح ، لم يعش ليرى انه حتى بعد ان قلص طموحه الى النصف خاب امله في هذه المرة ايضا . ففي آب (اغسطس) ١٩٧٥ توفي بنحاس سابير بصورة مفاجئة . وبعد وفاته باشهر قليلة ذكرت احصائيات وزارة المالية الاسرائيلية انه في الاشهر العشرة الاولى من عام ١٩٧٥ هاجر الى اسرائيل ١٦,٨٠٠ مهاجر ، في حين ترك اسرائيل ٢٠,٠٠٠ مهاجر (١٤) :

حزب العمل لا يتخلى عن المنصب

بعد موت سابير اصبح اريه دولتسين مرة اخرى رئيسا بالوكالة للادارة الصهيونية وللوكالة اليهودية . وفي هذه المرة اعلن بعد ايام من وفاة سابير انه سيرشح نفسه لانتخابات الرئاسة . واوضح انه في المرة السابقة (اي بعد وفاة اريه بنكوس) أراد ترشيح نفسه عندما قيل ان ابرهام هيرمان (رئيس الجامعة العبرية وسفير سابق في واشنطن) سينافسه على المنصب . وفقط عندما اعلن ترشيح سابير عدل عن رأيه . واما في هذه المرة « ... فمن يريد كرسي الرئاسة يجب ان ينافسني وان يثبت انه يستطيع شغل المنصب افضل مني ... سوف اهتم بجمع الاموال والهجرة والاستيعاب وخاصة الهجرة من الاتحاد السوفياتي ... لا يوجد اي تناقض بين كوني فيحزب معارض وكوني رئيسا للادارة الصهيونية والوكالة اليهودية »(١٥) .

في نفس الوقت تبين ان حزب العمل يصر على عدم التخلي عن زعامة الحركة الصهيونية والمشكلة الوحيدة امامه هي اختيار الرجل المناسب والقوي الذي يستطيع ان يملأ الفراغ الذي تركه سابير . واثناء البحث عن مرشح من حزب العمل طرحت عدة اسماء كان ابرزها :

* ابا ايبن ، وزير الخارجية السابق . فحزب العمل رأى به الشخص المناسب . فهو مثل سابير لم يسقط بعد حرب تشرين ولكنه رفض الاشتراك في حكومة رابين . وحافظ على مكانته ي اسرائيل ولدى يهود الغرب وخاصة في الولايات المتحدة . ولكن عندما اقترح عليه ان يتنافس على شغل المنصب (خاصة وان دولتسين قد يتنازل عن منافسته كما فعل مع سابير) رفض ايبن الاقتراح . ولعل من اسباب ذلك ما يلي :

١ ـــ ايبن يرى نفسه نشيطا في ميدان السياسة الداخلية ، فهو رئيس « بيت بيرل » المقر النظري لحزب العمل ويعتقد ان موت سابير ترك فراغا في زعامة حزب العمل وانه ـــ اي ايبن ـــ سيتمكن من شغل هذا الفراغ ليصبح زعيما للحزب (١٦) .

٢ ــ رئيس الوكالة اليهودية والادارة الصهيونية يجب ان يكون على علاقة وثيقة مع الحكومة الاسرائيلية ولكن هناك تنافر بين ايبن ورئيس الحكومة رابين . وقد بدأ هذا التنافر منذ كان رابين سفيرا في واشنطن وايبن وزيرا الخارجية .

٣ ــ يعتقد ابا ايبن ان الوضع في اسرائيل سيؤدي الى اجراء انتخابات عامة ان اجلا او عاجلا . وقد يتمكن بواسطتها من الفوز برئاسة الحكومة او على منصب وزير كبير فيها ، على الاقل (١٧) .

* موشي ديان ، وزير الدفاع السابق . فمع انه كان « ضحية » لحرب تشرين اعتقد البعض أنه ما يزال يتمتع بمكانة هامة وسمعه طيبة لدى يهود الغرب . وانه زعيم يستطيع الهاب حماس الشباب اليهود من صهيونيين وغير صهيونيين(١٨) . ولكن ديان ايضا رفض المنافسة على المنصب ، فهو ايضا خصم متربص لرابين ويطمح في العودة الى القمة على صعيد السياسة الداخلية .

* اسحاق نافون وهو بالاضافة الى مناصبه الاخرى رئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية . رفض بدوره المنافسة على المنصب بسبب طموحاته في ميدان السياسة الاسرائيلية الداخلية خاصة وانه يعتقد انه ما يزال شابا (١٩) .

وبالاضافة الى هؤلاء طرحت اسماء مثل ابرهام هيرمان واسحاق بن اهرون ويغئال يادين . ولكن الاختيار وقع على رجل آخر هو يوسف الموجي نائب حزب العمل ورئيس بلدية حيفا ووزير العمل سابقا ، وقد تم ترشيحه نظرا لاعتبارات فيما يلي اهمها :

١ ــ يعتبر يوسف الموجي رجلا قويا في حزب العمل ، لدرجة ان اسحاق رابين حاول ادخاله في حكومته بعد اشهر من تأليفها بهدف تقوية حكومته الضعيفة امام انتقادات المعارضة القوية .

٢ ــ على العكس من ايبن وديان تربط الموجي برئيس الحكومة علاقات طيبة وترشيحه لن يثير خلافات داخل حزب العمل كما كان سيحدث في حال ترشيح ديان او ايبن .

٣ ــ لألموجي علاقات طيبة مع وزير المالية يشعياهو رابينوفتش الذي يقيم علاقات وثيقة مع الوكالة اليهودية بحكم منصبه . وله ايضا علاقات طيبة مع اسحاق نافون رئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية . وحصل ايضا على تأييد غولدا مئير رئيسة الحكومة السابقة التي ما تزال تحافظ على مكانة مرموقة في حزب العمل (٢٠) .

٤ ــ الموجي لم يكن راضيا عن منصبه كرئيس لبلدية حيفا وابدى تحمسا لشغل المنصب المقترح وهو بالاضافة الى ذلك « يعرف الشعب اليهودي جيدا . ففي عام ١٩٤٦ اوفد الى الجاليات اليهودية في اميركا اللاتينية ومنذ ذلك الوقت يسافر الى هناك كل سنة . وفي عام ١٩٥٢ اوفد لاول مرة الى الجاليات اليهودية الناطقة بالانجليزية ومنذ ذلك الوقت اصبح مرغوبا فيه جدا هناك ، وقد حدث ان ذهب لزيارة جاليات يهودية ١٤ مرة في سنة واحدة ... وقد اثبت قدرة فائقة على جمع الاموال »(٢١) .

هكذا تم ترشيح يوسف الموجي وجرت منافسة حادة بينه وبين اريه دولتسين ،

الذي ادرك خطورة منافسه فكثف جهوده مدعوما بحركته الممثلة في المنظمة الصهيونية وبحزبه في البرلمان الاسرائيلي وقد لجأ في معركته هذه الى عدة اساليب منها :

* كثف جهوده لدى الزعماء اليهود في خارج البلاد .وبعد قرار ادانة الصهيونية كحركة عنصرية دعا الى عقد مؤتمر صهيوني عالمي طارىء في القدس بهدف « التصدي » للقرار ومع انه دعا الى المؤتمر نواب ووزراء اسرائيليين لم يكن الموجي بالذات مدعوا لحضور المؤتمر .

* طلب بواسطة حركته تاجيل الانتخابات فبدلا من ان يجري الاقتراع في اجتماع اللجنة التنفيذية المقرر في ٧٦/١/٥ يتم الاقتراع اثناء انعقاد المؤتمر الصهيوني العالمي في كانون اول (ديسمبر) ١٩٧٦ . وكان هدفه من ذلك ، تعزيز مكانته كرئيس بالوكالة في الادارة الصهيونية وفي الوكالة اليهودية خلال اطول فترة ممكنة . ولكن محكمة المؤتمر الصهيوني قررت في ٧٦/١/٥ انه لا يجوز ارجاء انتخاب رئيس الادارة الصهيونية لا باغلبية عادية ولا باغلبية الثلثين (٢٢) .

مع ذلك كان من المعروف مقدما ان يوسف الموجي مدعوم بقوة سياسية هائلة . فيقف وراءه التجمع العمالي الذي يكوّن العمود الفقري في الحكومة . ذات التأثير القوي والمباشر على المؤسسات اليهودية . وكان معروفا منذ البداية ان « انتخاب الموجي سيكون نتيجة لرغبة حزب العمل في المحافظة على سيطرته على المؤسسات ذات التأثير في وضع السياسة وتوزيع الموارد لاسباب ايديولوجية وعملية في آن معا »(٢٣) وكان واضحا ايضا ان تكتل ليكود يريد ان يفوز دولتسين بهدف وضع حد لسيطرة حزب العمل التقليدية على المؤسسات الصهيونية واليهودية المؤيدة لاسرائيل وكان يريد ان يحتلها هو ليحظى بالشرعية السياسية الكاملة .

فوز الموجي : تجديد ام تكريس ؟

بعد ان رفضت محكمة المؤتمر الصهيوني اقتراح حركة الصهيونيين العموميين (وهي الممثلة في المنظمة الصهيونية العالمية والتي انبثق منها حزب الاحرار في اسرائيل) بتاجيل الانتخابات . اجتمعت اللجنة التنفيذية الصهيونية في ٧٥/١/٥ . وفي اليوم التالي اقترع أعضاء اللجنة وعددهم ١١٠ أعضاء ، فصوت الى جانب يوسف الموجي ٦٧ عضوا والى جانب اريه دولتسين ٤٢ عضوا وامتنع عضو واحد عن التصويت . بهذا اصبح يوسف الموجي رئيسا للادارة الصهيونية . وكان من المقرر ان يتنافس مع دولتسين في حزيران (يونيو) القادم على رئاسة ادارة الوكالة اليهودية حيث ستجتمع في ذلك الوقت . ولكن اريه دولتسين بعد ان راى نتيجة الانتخابات قام وحيىً منافسه المنتصر ، واعلن انه ينسحب من المنافسة على رئاسة ادارة الوكالة اليهودية . وبذلك اصبح الموجي رئيسا لادارة الوكالة اليهودية ايضا منذ الان . على اثر ذلك وقف الموجي وشكر منتخبيه قائلا : « هنا في هذا المساء اقسم بشرفي ان ابذل كل ما في وسعي من اجل تعميق النشاط الصهيوني . وتعميق الوحدة اليهودية وللقيام بأعمال كبيرة خدمة للشعب اليهودي . انني اؤمن ان كل واحد منا يمثل ٥ر١٤ مليون من اليهود في العالم وسنعمل معا في هذه المرحلة لنتجاوز شتى المصاعب » (٢٤) .

وبالاضافة الى انتخاب الموجي ، قدمت اللجان الفرعية المختصة مشاريع قرارات الى اللجنة التنفيذية الصهيونية . فلجنة الهجرة والاستيعاب اوصت باقامة هيئة مركزية تعالج مشكلة النزوح من البلاد وبوضع هذه المشكلة على رأس سلم

الاولويات . ولجنة التعليم والشباب اوصت باقامة خلايا جديدة للاستيطان في « ارض اسرائيل » اي في كل فلسطين المحتلة . واعلنت لجنة النشاطات السياسية والاعلام الخطوط التي تعمل على اساسها حكومة اسرائيل . وطالبت كتلة حيروت بتدريس تاريخ المنظمات الارهابية الصهيونية مثل ايتسل وليحي بالاضافة الى تدريس تاريخ الهاغنا والبلماح المعمول به . كما وكان من بين التوصيات التي قدمت الى اللجنة التنفيذية الصهيونية عقد مؤتمر عالمي للشباب اليهودي في القدس ، واخر للنساء اليهوديات بهدف تقوية العلاقة بين يهود العالم واسرائيل .

يبدو ان الموجي الذي يعي الصعوبات والتحديات التي تواجهها الحركة الصهيونية اليوم ، تعلم من خطأ سلفه سابير فلم يطلق تصريحات طموحه اكثر من اللازم ، لم يعد بجلب ١٠٠ الف مهاجر ، ولم يعد بتحويل اعداد كبيرة من اليهود الى صهيونيين . واكتفى بالوعد انه سيعمل كل ما في وسعه لخدمة اسرائيل و « الشعب اليهودي » . فهو يعلم ان نجاحه ونجاح الحركة الصهيونية التي اصبح زعيما لها ، او فشلهما لن تقرره قوته او ضعفه هو شخصيا ، بل تقرره اساسا اوضاع الحركة الصهيونية والكيان الصهيوني المتمثل باسرائيل ، واوضاع القوى المعادية لاسرائيل والحركة الصهيونية . وهنا لا بد من الوقوف عند بعض الملاحظات .

١ ــ ادارة الوكالة اليهودية اهم بالنسبة لاسرائيل من الادارة الصهيونية . فالوكالة اليهودية تعالج شؤون جمع الاموال والهجرة والاستيطان والتنظيم وغير ذلك . واما الادارة الصهيونية فتعالج شؤون التمثيل والتربية والاعلام الصهيوني والثقافة .

٢ ــ في الوكالة اليهودية ثلاثة اقسام رئيسية : قسم الهجرة ويعتبر فاشلا . قسم الشبيبة الطلائعية ويعتبر فاشلا ايضا « لانه ضحية المفتاح الحزبي »(٢٥) . وقسم الجباية وهو المحور الرئيسي لعمل الوكالة ، ويعتبر ناجحا ، مما يؤكد على ان **العلاقة بين اسرائيل ويهود العالم هي ذات صبغة مالية اساسا** ، ويؤكد ذلك ايضا ان الذين تعاقبوا على رئاسة الوكالة اليهودية هم من رجال المال . هكذا كان سابير . وهكذا الموجي . جمع المال « **هو الشيء المسيطر على علاقات اسرائيل باليهود . يوجد متبرعون مهمون في طبقة ضيقة ولكن الشباب اليهودي غير مهتم . فماذا سيحدث عندما سيكون اعتمادنا على اليهود ليس من اجل المال فقط ؟ يجب التركيز على الرابطة اليهودية الصهيونية مع اسرائيل وخاصة بالنسبة لاحتياطي الشباب الذي لا يتوجه بالضرورة لعالم المال . هناك ضعف في الهجرة ، وهناك اندماج في الغرب ... »(٢٦)**

٣ ــ بعد حرب حزيران ١٩٦٧ التي انتصرت فيها اسرائيل شهدت الحركة الصهيونية انتعاشا ملحوظا لدى يهود العالم . وبعد حرب تشرين ١٩٧٣ حدث العكس تماما ، لان اسرائيل فشلت في هذه الحرب . ويكفي للدلالة على ذلك ان نذكر ما اشرنا اليه وهو ان النزوح من اسرائيل عادل تقريبا الهجرة اليها في عام ١٩٧٥ . وهذا امر خطير بالنسبة لتطلعات المشروع الصهيوني وامكانات استمرار وجوده . وهذه الحقيقة تدل على ان اليهود في العالم بشكل عام يعطون اسرائيل اذا كانت « مراهنة رابحه » ولا يعطونها اذا كانت « مراهنة خاسرة » . وقد بين ذلك يوسف غوردون احد قادة الحركة الصهيونية عندما كتب عن انطباعاته عن رحلة في الولايات المتحدة الاميركية ، وروى ان شابا يهوديا قال له هناك : « **لست مستعدا لان اعطي شيئا لاسرائيل لانها مراهنة خاسرة . انني اتصور قطع البحرية الاميركية راسية على**

شواطىء تل ابيب لنقل اللاجئين اليهود منها ، وعندها سنتخلص من ازعاج الشرق الاوسط . فكل شيء يعمل لصالح اعداء اسرائيل ... »(٢٧) وروى ايضا ان مهندسا يهوديا اميركيا قال له : « **اسرائيل قامت من اجل انقاذ اليهود ؟ ولكنها المكان الوحيد الذي يقتل فيه اليهود !** » واضاف غوردون ان الزعماء اليهود يشكون من ان كل ما تريده اسرائيل منهم هو **المال وليس الرأي . وبناءا على ذلك نصح بالتركيز على « النوعية والتثقيف الصهيوني واليهودي والمحافظة على صحة وسلامة المجتمع الاسرائيلي والقضاء على البيروقراطية . والوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية العالمية هما المؤهلتان لذلك »(٢٨) .**

٤ — ان تصاعد قوة الثورة الفلسطينية وحركة التحرر الوطني العربية عامة . وكل ضربه توجهها لاسرائيل لا تضعف اسرائيل من الداخل فقط بل تضعف الحركة الصهيونية ايضا وتؤدي الى ابتعاد اليهود عنها . ان اكثر ما يزعج قادة اسرائيل في قرار الامم المتحدة الاخير الذي دمغ الصهيونية بالعنصرية هو خشيتهم من ان هذا القرار سيبعد الشباب اليهود عن الصهيونية . وبروز الثورة الفلسطينية على الصعيد الدولي كحركة تحرر وطني في مقابل انفضاح الحركة الصهيونية كحركة عنصرية كولنيالية في وقت يحارب فيه العالم العنصرية والكولنيالية يشكل خطرا مميتا بالنسبة للحركة الصهيونية ووليدتها اسرائيل . وهذه حقيقة اقوى من قوة اي زعيم للحركة الصهيونية .

٥ — يقول البروفسور الاسرائيلي المعروف بشعياهو ليبوفتش : « **بالنسبة للحركة الصهيونية فهي لا تمثل لا الشعب اليهودي ولا طابعة التاريخي او مضمون هذا التاريخ . كذلك هي لا تعبر عن المطالب العادلة النابعة من ذلك الطابع والمضمون . انها تمثل مصالح دولة اسرائيل . بل الحقيقة انها تمثل خط حكومة اسرائيل السياسي ، ومساعيها لفرض سلطة احتلالية عسكرية على ١,٥ مليون مواطن في اراض فازت بها نتيجة لحرب الايام الستة . وبين الشعب اليهودي توقفت الصهيونية عن العمل بوصفها حركة بعث قومي . ثم هي لا تتجه في هذا الاتجاه ولا طاقة لها على ذلك ، لانها قطعت صلتها باليهودية . وجهاز الحركة الصهيونية التنفيذي ليس وكالة يهودية لارض اسرائيل ، بل وكالة لحكومة اسرائيل ينفذ مصالحها المالية وسيطرتها »(٢٩) .**

ويبدو ان هذا الواقع لن يغيره حلول الموجي مكان سابير بل هو استمرار وتكريس له .

الحواشي

١ ــ حايم ايزيك ، دافار ، ٧٥/٨/١٥ .

٢ ــ المصدر نفسه .

٣ ــ معاريف ، ٧٥/٨/٢٠ .

٤ ــ عل همشمار ، ٧٥/٦/٢٤ .

٥ ــ دافار ، ٧٥/٦/٢٠ .

٦ ــ المصدر نفسه .

٧ ــ المصدر نفسه .

٨ ــ دافار ، ٧٥/٦/١٧ .

٩ ــ المصدر نفسه .

١٠ ــ المصدر نفسه .

١١ ــ دافار ، ٧٥/٦/١٨ .

١٢ ــ بمحانيه ، ٧٥/٧/٩ .

١٣ ــ المصدر نفسه .

١٤ ــ هاآرتس ، ٧٥/١٢/٤ .

١٥ ــ معاريف ، ٧٥/٨/٢٠ .

١٦ ـ معاريف ، ٧٥/٨/١٩ ٠

١٧ ـ هاآرتس ، ٧٥/٩/١٩ ٠

١٨ ـ البروفسور شيفـاح فايز ، يديـعوت احرونوت ، ٧٥/٨/١٨ ٠

١٩ ـ معاريف ، ٧٥/٨/١٩ ٠

٢٠ ـ هاآرتس ، ٧٥/٩/١٩ ٠

٢١ ـ دافار ، ٧٥/٩/١٢ ٠

٢٢ ـ رأي ، ٧٦/١/٧ ٠

٢٣ ـ معاريف ، ٧٥/١١/٢١ ٠

٢٤ ـ رأي ، ٧٦/١/٧ ٠

٢٥ ـ الدكتور دافيد لازار (معهد العلاقـات الدوليـــة في الجامعـة العبريـة) معاريف ، ٧٥/١١/٢١ ٠

٢٦ ـ المصدر نفسه ٠

٢٧ ـ دافار ، ٧٥/٩/٩ ٠

٢٨ ـ المصدر نفسه ٠

٢٩ ـ هاآرتس ، ٧٥/١٠/٢٩ ٠

تجارب من الارض المحتلة

بيت دقو ذات القمح الاصفر

عبد الجواد صالح

قرية بيت دقو ، قرية نموذجية فلسطينية جميلة ، تعتلي سلسلة من الجبال المحيطة بالقدس. مدخلها طريق ضيق يشق سهلين مرتفعين . يعتليان ظهر جبلين. تتخذ هذه الطريــق خاصره جبل ثالث كانها شقت على ارجل سلم متدرج من الحبلات المزروعة بالدوالي واشجار الفاكهة يستمتع الراكب في السيارة بهذه المناظر ولكنه يخاف عندما ينظر الى الوادي عند قدمي السلم . وبعد مسيرة دقائق على هــذه الطريق تصــل الى هذه القرية التي بنيت على جبل تحيطه الاودية وكأنها علــى جزيرة من اليابسة . باختصار انها قلعة حربية من صنع الطبيعة اختارها الفــلاح الفلسطيني كجزء من حياته المتوارثة . والتي اصبحت جــزءا من طبيعته المقاتلة من اجل صد الغزوات الطامعة في الوطن العربي . والتي تعتبر فلسطين مدخلا وقاعدة لتحقيــق هذه المطامع .

تتحكم القرية بطريــق اللطرون يافا من الشمال . ومــن الجنوب تتحكــم بالمستعمرات « الخمس » التي تقــع على مدخل مدينة القدس . هــذا الموقــع الاستراتيجي جعل قرية بيت دقو مطمعا للطموح الصهيوني التوسعي .

اثناء انعقاد مجلس بلدية البيرة القريبة من قرية بيت دقو ، طرق باب المجلس مختار هذه القرية . رجل طويــل ، نحيف الجسم ، وكأنه يعبر عن السبعين عاما العجاف التي عاشها وعاشتها فلسطين . موشحا بعباءة سوداء تغطي قمبازه الفضي المقلم . في الحقيقة يختلــف الحاج « اسعد » عن معظم مخاتير القرية ، ليس في جسمه النحيف فحسب ، وليس في حديثه العامي الذي يخرجــه باطار من اللغــة الفصحى ولكنــه يختلف عنهم في مسلكه وتعففه وارتباطه بقضايا جماهيره بالاضافة الى مواقفه من الحكــم العسكري الصهيوني ورجالاته .

لقد اصبح بيني وبين الحاج اسعد علاقة وطيدة بعد ان قمت بحل مشكلــة كانت شبه مستعصية في تلــك القرية . وانقسمت القرية على هذه المشكلة الــى قسمين ـــ الحارة « التحتا » ومعظمهم من الفقراء الكادحين والحارة « الفوقا » وتضم اغنياء القرية ومعظم ملاكيها . وكانــت المشكلة حول ملكية قطعة أرض مشاع تتوسط القرية وبالذات ضمن حدود الحارة « التحتا » . لقد سقط قتيــلان وجرح العشرات من الرجال والنساء والاطفال من جراء النزاعات التي امتــدت

اكثر من عشر سنوات خلال الحكم الاردني والني كان يغذيها بعض رجالات هـذا الحكـم الذين كانوا يعتاشون على خلافات فلاحي القرى . ونامت الفتنة في القرية منذ ان حل الاحتلال الصهيوني ولكن بعد ان طال هذا الاحتلال لعب الحاكم العسكري دوره القذر في اشعال نار الفتنة من جديد . ومن هنا بداية المعرفة بالمختار وكافـة رجال القرية من كلا الجانبين . اذ توسط رئيس البلدية بين الجانبين اثر نزاع دام سقط الكثير منهم جرحى . واعتقل اكثر من خمسة عشر مواطنا ادخلوا السجن . لقد ساعد رئيس البلدية في حل النزاع بالانفاق على بناء مدرسة للبنات على قطعة الارض المختلف عليها وقد اشترك الجمـيع في تمويلها وعملية تشييدها . واصبحت القرية عائلة واحدة . واصبح رئيس البلدية ضيف القرية بأسرها في كل مناسبة .

طرق الحاج اسعد باب غرفة اجتماعات المجلس البلدي ودخلها بدون ان ينتظر الموافقة . وطلب بكل ادب من رئيس المجلس البلدي . خلوة معه لدقائق .

ــ نعم . ماذا . هل نشب الخلاف مرة ثانية في القرية يا حاج اسعد .

ــ لا . نحن في مصيبة اكبر . لقد جئنك تحت ستار الليل حتى لا يراني احد ، ان القرية تجابه مصيبة عامة . الافندي يريد ان يبيع الارض لسمسار لليهود . ونحن في حيرة من امرنا . لقد عرضنا عليه شراء الارض . ولكنه رفض .

ــ يا حاج غدا مساء الساعة الثامنة والنصف اكون عندكم . ارجو ان تجمع لي رجالات القرية للتحدث معهم .

يوم الخميس مساء كان الرجال من الجانبين في علية الحاج اسعد وهي عبارة عن مجموعة من البيوت الضخمة يحيطها سور مرتفع . تدخل في فسحة تحتضنها اروقة على الطراز العربي ربط في كل قاعدة منها خيل وابقار الحاج اسعد . بينما الغنم والخراف مطلقة الحرية في « قاع الدار » : تعبق سير الداخل والخارج . فوق الاروقة وعلى عرض الواجهة الغربية تقع العلية . غرفة واسعة الارجاء ، عريضة الكلين ، ربما يزيد عن متر ونصف . في بعض جوانبها تحتل الاقواس المغلقة منتصف الجدران ، حيث ترتب الفرش الصوف ومن فوقها اللحف والمخدات . شبابيكها كل اثنين بجانب بعضهما نمد لهما قاعدة القوس الذي يظللهما . في الواجهة الشرقية باب مرتفع القوام على جانبه موقد شهد ليالي الثوار الدافئة حيث كان الجميع يجلسـون ليخططوا هجماتهم على المستعمرات الخمس تحت قيادة البطل عبد القادر الحسيني .

جلس الجميع وارجلهم « مربعة » ويفصل بين الرجال مخدات طويلة طول عرض الفرشة : على رأسها اطار من الحرير الاحمر والاخضر والازرق .

جلس كبار القوم في صدر العلية : ومن تحتهم ضعف عدد الفرشات التي يجلس عليها بقية الرجال على الجانبين : اما الشباب والصغار فجلسوا مواجهين الكبار وعلى قرب من الباب . وعلى المدخل اصطفت احذية الرجال ، ومن اشكالها ومدى اتساخ بعضها ولمعان الآخر تستطيع ان تحكم على وجود الفوارق الاقتصادية بين الجميع .

الله يمسيكم بالخير يا اخوان . افتتح الحاج اسعد الجلسة بعد ان اعتدل في جلسته والتفت الى والقى على تحية مساء خاصة . ثم بدا الحديث وكأنه ينتزعه من بطن « سفر برلك » الفترة الحالكة من اواخر الحكم العثماني .

الافندي الذي سكن القدس والذي يواجهنا اليوم بمشكلة مصيرية احد احفاد

جباة ضريبة الحكم العثماني . لقد كان يفرض بالسوط ضرائب باهظة حسب اهوائه وخاصة انها كانت عملية « ضمان » في سوق الدلالة . يضمن تحصيل مبلغ معين يسلمه لسلطان الحكم العثماني ، ويضمن حصة الاسد لنفسه . وعندما لم يكن في امكان الفلاح دفع ضريبة « العشر » كان « يتنازل » عن حقه في تحصيل الضريبة مقابل فدان من الارض تسجل باسمه شخصيا . وبالتالي تجمع لهذا الافندي معظم أرض القرية وخاصة السهل الذي يشكل وجه هذه القرية ومدخلها .

يحاول حفيد الافندي الكبير أن يبيع قطعة الارض التي تمتد على جانبي الطريق ، الى السمسار شاهي عجميان ، والذي احتل مركزه الديني بتزوير ارادة اخوتنا الارمن ، وبدعم من القصر ، والذي يعتبر اليوم من اعز اصدقاء الجنرال دايان . واذا ما استوطن الصهاينة هذا السهل ، فانه سيحكم على قريتنا بالموت . ويكون مصيرنا مصير قرى اللطرون الثلاث ، عمواس ويالو وبيت نوبا ، والتي مسحت عن بكرة ابيها . ودخل اهلها قسرا الى شرقي نهر الاردن . وحل محل القرى الثلاث كيبوتس « حورون » .

تذكرت شاهي عجميان ، شاهي ، هو نفس الشخص الذي اشترى فندق « الهيلتون » في مدخل مدينة البيرة والذي باعه الى مؤسسة الكرن كايمت بوكالة دورية حتى تبقىَ عملية البيع سرية وهو نفس الشخص الذي حاول بالامس القريب اغتيال احد الصحفيين من اخوتنا الارمن الذي حاول كشف مخططات هذا المارق الذي خرج عن اجماع اخوتنا الارمن .

هو نفسه ، ولكننا لسنا على مقدرة للوقوف أمامه ، وهو الذي يتعامل مع دايان ، ويستقبل في عمان استقبال الابطال ، ويتجول في العالم العربي بكل حرية . أرجوك يا أخ أبو صالح أن تساعدنا على معالجة هذا الموضوع .

سألت عن الارض ، وهل تم مسحها من قبل دائرة المساحة الاردنية ؟

نعم ، تم مسحها ولكن الجداول بأسماء أصحاب الارض لم تعلن بشكلها النهائي . وكان من المفروض ان يتم ذلك ولكن هزيمة حزيران وقعت وحالت دون ذلك .

قلت : حسنا ، غدا تعلنون في الصحف اليومية ان هذه ارضكم ، أرض كل أهل القرية ، وتنذرون في اعلانكم بعدم شرعية التصرف من قبل الغير ، وبدءا من فجر الغد تذهبون لحراثتها وزراعتها بالقمح .

لم انته من حديثي حتى سمع الجميع صوت هرج ومرج خارج العلية واعتقد الجميع ، ان دورية صهيونية في طريقها الى العلية لاقتحامها ، ودخل شاب في الاربعين من عمره . مديد القامة ، شارباه غليظان ولكن جميلان ، عيونه واسعة سوداء . ملامحه تريح النظرة اليها ، عقاله مائل نحو اليسار ، علامة الشبوبية « وغية » الفلاح .

ــ مرزوق يا حاج أسعد ، يريد أن نفتح له الدكان ، ليتصل بهاتف القرية الوحيد مع الحاكم العسكري ليخبره عن اجتماعكم .

تقزت مجموعة من الشباب وصاح بعضهم :

ــ سيغلق فم هذا الجاسوس الى الابد .

— ارجوكم ارجوكم ، ايها الشباب ، ارجو أن تستدعوه هنا لأتحدث اليه .

احضروا مرزوق ، شاب في الثلاثين من عمره ، عيونه حمراء ، كالكلب المسعور ، يسيل لعابه من زاويتي فمه ، كان بالفعل يختلف عن كل ابناء القرية . وقدموه لي على انه ناطور الارض ، وضعه الافندي لحراسة الارض وهو يسكن في البيت المبني على جزء من الارض المشجرة ويتقاضى خمسة واربعين دينارا شهريا .

— ماذا بك يا مرزوق ، سألته .

— أريد أن اتصل بالحاكم العسكري ، فلدي تعليمات منه شخصيا بأن اتصل به اذا ما حاول أحدا دخول الارض .

— انت كاذب يا مرزوق ، لو ان موضوع بحثنا عملية فدائية ، لصح حديثك ، أما وان الخلاف حول ملكية قطعة الارض ، فليس ذلك من اختصاص الحاكم العسكري ، ربما تستطيع أن تخيف البعض بالحاكم العسكري ، ولكنك لا تخيفني .

— هذه تعليمات علي أن انفذها ، وسأتصل به حالا . وحاول النهوض من مكانه . وقبل ان يقف على رجليه كان الشباب قد أوصدوا الباب بأجسامهم ، ونهض اليه الحاج أبو محمد ، الذي كان احد قادة ثورة ١٩٣٦ ، وما زالت أثار الرصاص تشوه حنكه بعد أن اخترقت رصاصة وجنتيه ، ويده اليمنى شبه مشلولة من رصاصات اخترقتها من عدة امكنة . وصاح به : اجلس ، يا ولد ، اقسم بالله اذا لم « تغير وتبدل » سأقتلك في ليلة واضعك في كيس وأرميك في أحد الوديان . ونظر ابو محمد الي ، وكأنه يستأذن مني تنفيذ حكم الاعدام عليه أمام الجميع ، بعد أن اثنى على اقتراحه كل من كان يجلس في الديوان .

— يا مرزوق « اسمعلي » أرض الافندي هذه ستباع للصهاينة ، وانت أول من سيطرد منها ، ماذا يفيدك لو أصبحت مالكا لأحسن جزء من الارض ، وهي التي تحيط بالمنزل الذي تسكنه ، وكلها كما تعلم مشجرة ، وتصبح مالكا للبغل الذي تحرث عليه ، وتصبح في « ارضك » انت بدلا من أن تكون مجرد حراث في أرض الافندي . واذا لم يعجبك ذلك فانني سأضمن لك عملا دائما في البلدية تعتاش من ورائه طوال حياتك .

وغير مرزوق لهجته ، واعتدل في جلسته براحة تامة ، ورد قائلا كالحمل الوديع ، كما تريد ، أنا أمرك يا أبو صالح .

— الم اقل لكم ان مرزوق رجل طيب ، وهو لن يخرج عن اجماع اهل القرية ، واستطردت موجها كلامي للجميع ، يجب أن تشكل جمعية تعاونية تضم كل أهل القرية ، ويدفع كل فرد خمسة دنانير ، لاستثمار الارض ، ولنبدأ بالدفع حالا ، فلا مجال للتأجيل .

وبدات عملية المساهمة عشرة دنانير وانهالت الدنانير علي . صحت قائلا مهلا ايها الاخوان ، فلنسجل الاسماء ، ولننظم عملنا ، فهذا شرط للنجاح . وبدات عملية الدفع والتسجيل ، ومن لم يكن بينهم يحمل نقودا ، خرج ليأتي بها من زوجته حيث تخبئها . وتجمع أكثر من الف دينار .

— من تأتمنون من بينكم ؟ انتخبوا لجنة من بينكم .

— ولو من نأتمن غيرك يا اخ أبو صالح .

— لا ، لا ، عليكم أن تختاروا ثلاثة من بينكم ، توكلونهم بالنيـابة عنكم ، وتفوضونهم بالاتصال بمن يلزم ، وتأتمنوهم على الصرف فيما يجب صرفه . وعلى الثلاثة أن يقدموا اسبوعيا تقريرا شاملا لأهل القرية عن كل ما يحصل معهم ، وكل ما يصرفونه . وعلى كل واحد منكم ان يستفهم منهم حول كل غموض ، وأن يحاسبهم ، ولكن يمنع الاستغابة أو النقد أو الهمس من وراء أعضاء اللجنة .

تداول الجميع فيما بينهم ، واختاروا الثلاثة ، وكانوا يمثلون القرية خير تمثيل .

— مبروك لهذه الثقة ، وارجو ان تكونوا موضعها ، والآن يجب ان نعمل برنامجا للعمل . غدا يخرج اهل القرية لحراثة الارض ، كل ببغله ومحراثـه . والذي لا يملكهما ، يخرج بفأسه أو مشطه او بأي أداة يملكها . ومن لا يملك شيئا يخرج بيديه ليعمل بهما . المهم الجميع يخرج ، فهذه الارض للجميع ، وخراجها ملك للجميع .

واعترض البعض على قولي : ان هذه الارض لا تنفعها حراثة الدواب ، فيجب استخدام التراكتـورات لأن الارض بور منذ سبع سنوات اذ لم تمسهـا الايدي المباركة . وهي مليئة « بالنتش » ولا يمكن الا للتراكتور أن يشقها .

— اذا عليكم أن تدبروا التراكتورات .

— في قريتنا يوجد تراكتور واحد فقط .

— من لديه الاستعداد ان يتصل بالقرى الاخرى التي يوجد فيها تراكتورات اخرى، عليه أن يتحرك حالا . وقبل أن يكمل الحاج أسعد ، صاح أمام مسجد القرية : أنا ، وتجاوب معه سائق سيارة التاكسي الوحيدة في القرية : وأنا أنقله بسيارتي . وخرج الاثنان ، ولحق بهم المختار ، لا تنسوا أن تذهبوا الى القبيبة ، والجيب ، وبيت عور التحتا والفوقا .

وقام مرزوق وصاح في الجميع : اقسم بالله أن أي واحد منكم تطأ قدماه ارض الافندي سأشي به بأنه فدائي ، وانه يريد أن يخبىء في الارض سلاحا .

لقد أضاره أن يتحول القول الى فعل . وعندما خاب أمله في فشل الاجتماع ثار .

لم يترك الشباب مرزوق انهاء تهديداته حتى انهالت عليه الضربات من كل جانب .

وقفزت ، منقذا مرزوق من الايدي الغاضبة ، وخرجت به خارج العلية . مرزوق هل جننت ؟! ربما لا تخاف القتل ، ولكنك لا تفكر كيف سيعيش أولادك من بعدك وعندما يشار اليهم بأنهم أولاد الجاسوس !! ولم كل هذا ، انك ستصبح مالكا للأرض التي اغتصبها الاقطاعي من اجدادك ، وتخلفها لأولادك بدلا من أن تخلف لهم العار طوال حياتهم !.

وما زالت التهديدات الغاضبة واللعنات تسمع من داخل الديوان .

ولكن سيدي هكذا قال لي الافندي ، واكد لي صديقه الذي تقولون عنه انه سمسار بأنه سيزيد من معاشي ، وقد نقدني خمسة دنانير حتى اتصل بهم اذا ما سمعت شيئا ضدهم . ولكنني عهدا علي انني سألتزم بما يلتزم به أهل قريتي .

ولكنني لم اقتنع بالعهد الذي اتخذه مرزوق ، فهو مزيج من الغباء والاخلاص الذي يتميز به العبد المسود .

ودخل الى الديوان ، واعلنت أمامهم ان مرزوق اتخذ عهدا على نفسه بالالتزام معكم حتى النهاية !!

ورجعت حيث كنت أجلس ، والتفت الي المختار قائلا : غدا سنذهب ثلاثتكم وأنا الى القدس لنوكل اثنين من المحامين احتياطا لتطور الامور ولربما احتجنا اليهم من الناحية القانونية ، وسأضمن تبرع المحامين للدفاع عن قضيتكم العادلة . في نفس الوقت يخرج الجميع رجالا ونساء ، اطفالا وشيوخا الى الارض الطيبة ، ليرفعوا عنها ضيم البوار ، ويزيلوا من على وجهها الجميل الشقوق والطفيليات ، ليحرروها ومن ثم يملكونها .

يوم الجمعة بعد عودتنا من القدس وعندما اطللنا على السهل من بعيد ، كانت اعمدة الدخان ترتفع الى عنان السماء ، كأنها اشارات تعلن قيام الثورة بل بالفعل كانت كذلك . وعندما وصلنا السهـل المرتفع كانت القريـة تنتشر على الارض ! التراكتورات تمخر أمواج النتش التي تشوه وجـه الارض ، ومن ورائهم البغـال بمحاريث نوح تمهد الاثلام الواسعة ، وبعض الرجال يعمرون الجدران التي انهالت متباكية على الايدي التي افتقدتها منذ سبع سنوات ، ولم تعد تضع حجارتهـا في مواقعها ، لقد أضعف غياب الاحبة مقاومتها للسيول والامطار ففقدت مناعتها ضد الغزو ، والنساء تجمع النتش والاعشاب الطفيلية وتحرقها ، والاطفال مـن وراء اساتذتهم ومديرهم يحملون الحجارة الصغيرة وكأنها بثور حب الشباب على وجه حبيبة جميلة ، فيزيلونها ليعيدوا الابتسامة الضاحكة على الثغر الباسم . والجميع ينشدون ويغنون .

لقد تحققت المعجزة . وتحول الخوف الى تحد للأفندي وللسلطة المحتلة وللسمسار . فجأة خيم صمت رهيب ، توقفت الاغاني والاهازيج ، ونظر الجميع من حولهم ، فرأوا سيارة مرسيدس بيضاء تبصق من داخلها الاقطاعي الافندي وبعضا من رجاله .

لقد أخبرهم مرزوق اللعين !!

ولكن الحاج أسعد صاح : استمروا استمروا . وكأنه أطلق اشارة السبق ، فعادت الاهازيج ، وعاد صوت الصغار مع صوت دقات الحجـارة الصغيرة وهي تتساقط فوق بعضها البعض في قفف الصغار ، وعادت التراكتورات بعجلاتها تدور ، وسكتها تخترق بكارة الارض العذراء .

وتصدى المختار ، وكان قد نزع عباءته ، ولف كوفيته من حول رأسه حتى لا تعيق عمله ، تصدى للأفندي ، وربما لأول مرة في حياته .

ــ نعم ؟! ماذا تريد ؟

ــ ويحكم ماذا تعملون ، قالها الافندي وصوته الحاقد يترجرج .

ــ نفلح ارضنا التي ورثناها عن آبائنا وأجدادنا . والمغموسة بعرق ودمـاء أبطالنا . والتي أمضينا وأياها زهرة العمر ، وريعان الشباب .

والتفت الافندي الى مختار القرية الثاني مستنجدا ، وهو والد زوجة مرزوق ، وقال له بتودد : هل لي ان اشرب فنجان قهوة في بيتك ؟

كان اقتراحه خبيثا خبث الاقطاعي ، اذ كان يرى انه لا بد من شرخ الوحدة التي تجمع بين الجميع ، عن طريق سحب أحدهم ، وهو اكثر أصحاب المصالح ارتباطا بالافندي . . . صهره مرزوق .

ولكن المختار الثاني ، وبذكاء الفلاح الفلسطيني ، ادرك نية الافندي الخبيث ، ورد عليه بحزم : لقد مضت الايام التي تدخل فيها بيوتنا وتشرب قهوتنا . انها اليوم محرمة على السماسرة .

وتقدم شاب نحو الافندي ، وكأنه قرر أن ينهي الحوا ـ باسلوبه .

ــ اسمع ، اقسم لك ان لم تركب سيارتك الآن ، « وتريني عرض أكتافك » فانني سأقبرك في هذه الارض ونحول عظامك الى مكاحل !! وتراجع الاقطاعي نحو سيارته وقبع فيها كالفأر المبلول .

التفت نحوي الحاج أسعد : لقد حان موعد الغداء ، فلنذهب الى البيت لنأكل لقمة خبز .

ولماذا لا نأكل هنا جميعا .

لا ، نأكل في البيت لنغتسل ، ونستريح .

رفضت ذلك واقنعته بضرورة البقاء مع اهل القرية ، والعمل معهم ، وهي فرصة للحديث . وخضع الحاج أسعد لرغبتي بعد الحاح طويل .

شددت الابصار التي كانت تمرح في الارض الطيبة التي ابتسم وجهها بعد ان ازلنا عنه اهمال السنين عندما ناديت الحاج اسعد باسمه .

نعمين اخ أبو صالح .

أنعم الله عليك ، قل لي يا حاج اسعد ، كيف بنيت هذه العلية ، هل استأجرت لها العمال .

اخ يا أبو صالح ، لقد بنتها سواعد شباب القرية ، كما بنيت كل بيوتها . حتى عندما كنا نصل « القمط » (حجارة أقواس الشبابيك) وعند « العقدة » (صب السقف)كانت كل القرية تشارك في تقديم المناسف على صوت الزغاريد والشوباش . حتى حراثة هذه الارض وزراعتها وعملية الحصاد كانت تتم كما تمت اليوم ، وكنا نسميها نظام « المعاونة » .

وقلت للحاج اسعد : المهم الآن عهد نتخذه جميعا ان نعمل جميعا الكبير قبل الصغير للعمل في هذه الارض سويا ، ونحافظ عليها حتى اخر رجل منا .

واتخذ العهد ، واقسم الجميع على البقاء يدا واحدة امام اية محاولة لضياع الارض . فلنرجع الى العمل ، ولنكمل المشوار . وانتشر الجميع في الارض الطيبة ، وبدأت الاهازيج تدوي في سماء فلسطين مرة ثانية .

وبعد ساعات ، جاءت سيارة بيضاء صغيرة ، ومن ورائها سيارة جيب عسكرية اعلنت عن قدومها باطلاق الرصاص في الهواء . شق الحاج اسعد طريقه بين اهل القرية ، وهو يشجعهم على الاستمرار في العمل ، وبالفعل استمر الجميع وكأنهم لا يسمعون من حولهم شيئا الا حوار الغزل مع ارضهم .

ـ شو انت بيعمل هون ؟ قالها بلكنة غريبة غرابة الاحتلال .

ـ نفلح في ارضنا كما تعودنا منذ مئات السنين .

ـ لا ، هذه مش ارضك انت ، هذه ارض حكومة اسرائيل .

ـ ماذا ، لقد كنا نزرعها قبل ان نسمع بكلمة اسرائيل ، وكان اباؤنا واجدادنا يزرعونها ويفلحونها قبل ان تولد انت .

ـ انت مكتار وكح .

ـ وانت ماذا ، وبأي صفة تتحدث معي .

ـ انا ممثل حكومة اسرائيل ،

ـ انا اعرفَ كمختار ان الحكومة عندما تريد ان تتحدث مع المختار تطلبنا اما عن طريق الشرطة او يرسل لنا الحاكم رسالة تطلبنا بموجبه ، وعلى اية حال ، انك عطلتني عن عملي ، وادار المختار ظهره ، وكانه يضرب به عرض الحائط .

ـ اسمع يا مكتار يا وكح . بامر من الحاكم العسكري باكولك اخرج انت من هون الآن .

فكر الحاج اسعد سريعا ، انه اذا جبن امام اهل بلده فانها سقطة النهاية له ، فلملم قواه ، وصاح : اسمع ان ما من احد على وجه هذه الارض يستطيع ان يمنعني من حراثة ارضي . ورجع المختار ، وعاد الى عمله .

انتظرت سيارة المخابرات الصهيونية دقائق وهم يتجولون بانظارهم في السهل الواسع ، واعمدة الدخان ما زالت قائمة كانها نذر عصيان عنيد للسلطة . وادارت السيارات محركاتها ورجعت ، وبرجوعها ارتفع كابوس ثقيل من على صدور الجميع وبالذات من على صدر الحاج اسعد .

يوم السبت صباحا ، خرجت من بيتي مبكرا كعادتي ، ففوجئت بمرزوق ، يلقي علي تحية الصباح وهو ملثم بكوفيته القذرة .

ـ خير ان شاء الله .

ـ خير ، في انتظارك في دار بلدية الافندي وجماعته ، لقد نصحتهم باللجوء اليك، لتحل له الاشكال واقسم لك انني لم اخبره بتفاصيل اشتراكك في العملية .

ـ اخ ايها القذر ، لقد اصبحت تتقن العمالة المزدوجة .

ـ دخلك ، ارجوك ان لا تقول لهم انني جئت اليك صباح هذا اليوم .

عندما دخلت قاعة الاستقبال استطعت ان اميز الافندي من بين كافة المراجعين، فقد نهض يستقبلني بحرارة وكانه يعرفني من قرن . خلع فيصليته التي تغطي

صلعته ، امعانا في الاحترام وكان وجهه احمر يتدفق منه الدم كانه نعل حذاء حديث الصباغة ،

ـ هل تسمح لنا من وقتك الثمين ، سيدي ، بضعة دقائق .

ـ تفضلوا ، وان كنت لست بسيدك ، وانت كما ترى عمري من عمر اولادك .

ـ ولكنه للاحترام ، سيدي .

وبدأ بقص مشكلته ، وبدأ يخرج الحجج والوثائق ومعظمها مكتوب بالتركية على ورق سميك تتخلله خيوط الكتان .

ـ ولكن ما شأني انا في الموضوع ، محاولا جس بض هذا الاقطاعي القذر حول مدى معرفته باشتراكي في عملية مصادرة ارضه من قبل جماهير قرية بيت دقو. وكان واضحا انه لم يكن في حاجة مادية تفرض عليه بيع ارضه لسمسار مشبوه .

ـ انني اعرف عن مدى احترام اهل القرية لك ، واريدك ان تتوسط بيني وبينهم علهم يرفعون ايديهم عن ارضي .

ـ ما دمت تريد بيعها للصهاينة فهي ليست ارضك بل هي ملك اهل القرية . فاجأته بالرأي الحازم دون لف او دوران ، والذي وقع عليه وقوع السيف .

ـ انا ابن فلان وتعتقد انني سأبيع ارضي للصهاينة ، والله لو دفعوا لي خزائن سليمان لما تنازلت لهم عن شبر منها .

ـ وتكذب ؟ خرجت الكلمة مني ولم اعرف كيف تفوهت بها ، ولكن يظهر ان حقدي الدفين ، على الاقطاعي القذر قد وصل مداه . وصحت به ساردا بعض الحقائق ، ألم يأت السمسار شاهي عجميان قبل عشرة ايام واتفقتم على بيع الارض، ومنذ ذلك اليوم وهو يأتي اليك يوميا ومعه بعض الصهاينة ؟

ـ هذا صحيح ، ولكنهم يأتون هنا نتيجة اهتمامهم بالاثار القديمة ، وانت تعرف ان في « الخربة » مغارة واسعة مملوءة بقطع الفخار وغيرها من الاثار .

وانفجرت به صائحا : اسمع لا اريد ان اسمع المزيد من الكذب ، باختصار اذا كان لديك الاستعداد بتوكيل دائرة الاوقاف بهذه الارض فانني على استعداد للتدخل لرفع يد الفلاحين عن ارضك ، او ان تقوم بتأجيرها للمزارعين بموجب عقود طويلة الامد ، وانا اتعهد اليك بان تعود اليك بعد نهاية الاحتلال مباشرة والا فان الارض لمن يفلحها لا لمن يريد بيعها للصهاينة . وقمت من وراء مكتبي الذي تزينه خارطة فلسطين المطرزة بايدي الامهات الفلسطينيات وفتحت له باب مكتبي مشيرا له بالخروج ، ولما وصل الاقطاعي الباب ، تجاهلت يده الممدودة للسلام علي ، وقلت له عندما تقرر اختيارك ، فانني على استعداد لخدمتك .

يوم الاحد ، في الدقائق الاخيرة من الساعة الثانية عشرة ، دق جرس التلفون في بيت رئيس البلدية . هنا مكتب الحاكم العسكري ، خلال دقائق يطلب الحاكم العسكري مقابلتك في مكتبه . دخلت مكتب الحاكم العسكري ، وكان يجلس على رأس الطاولة الحاكم العسكري موشي فيلدمان ، وعلى يمينه يجلس مستشار الحاكم العسكري

ديفيد فرحي ، وكلاهما بولونيان ، والاخير استاذ في الجامعة العبرية ويعمل في نفس الوقت مستشارا للحاكم العسكري العام ، ويتكلم اللغة العربية بطلاقه وفصاحه .

ــ نعم ، وقلت ببرود ، نعم ؟!

تكلم المستشار بالعربية قائلا ، سيتلو عليك الحاكم العسكري انذارا بالعبرية وانا سأترجمه لك ، ولا مانع من تسجيله كلمة كلمة حتى لا تنساه .

« لقد تجاوزت في الاونة الاخيرة صلاحياتك كرئيس بلدية ، وقمت بنشاطات اقليمية خارجة عن اطار صلاحياتك وخارج حدود مدينتك . بما يؤثر على امن دولة اسرائيل ، اننا نوجه اليك هذا الانذار انهائي لتتوقف عن نشاطاتك غير الشرعية هذه . انتهى الحديث » .

حاولت ان استوضح الامر :

« هل تعني عقد صلح مع عائلتين متنازعتين في قرية يستجير اهلها لحل هذا النزاع امرا يقلق امنكم ، او ان انشاء جمعية تعاونية يهدد امنكم » .

لم يجب اي منهما بكلمة . ورد المستشار : لا مجال للنقاش ، لقد نتهى الاجتماع .

بعد اشهر ابعدت والقي بي في الصحراء ، ولكن سنابل القمح التي زرعت في اراضي بيت دقو ، اصبحت خضراء يانعه ، طويلة يانعة ، تتمايل بدلال كلما هبت نسمة فلسطينية عليها ، وكلما تمايل قمح بيت دقو الاصفر الذهبي ، كلما ارتفع صوت حفيفها يغني اغنية العودة للمبعدين من ديارهم .. كل المبعدين .

الســـابقون

للصحفي السوفيـاتي تسزار سولودار
ترجمـــة الـدكتور شوقـي العمري

تنشر شؤون فلسطينية الجزء الثاني والاخير من سلسلة مقالات الصحفي السوفياتي سولودار ، وكانت قد نشرت الجـزء الاول في العدد ٣٩ في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٤ ·

[١٠]

انت ملزم بأن تحقد على العرب

ـــ ان الكثيرين من الصهيونيين وحتى من الاسـرائيليين القدامى لا يستطيعون أن يغفروا لأولئك اليهود الذين عاشوا سابقا في الاتحاد السوفييتي .

« فلنقل بصراحة ـــ قال لي الكاتب الاجتماعي النمساوي غـــانس فولكر بصدد احاديثي التي أوردتها فيما قبل ـــ ان المقيمين القدامى يتملكهم الغضب لأن الادارة الاسرائيلية تمنح القادمين الجدد تسهيلات ضرائبية ، مع ان هذه التسهيلات ضئيلة . يجب علينا الا ننسى أن مستوى الضرائب في اسرائيل يحتل المركز الاول في العالم . لذا فان السكان يستاؤون من التسهيلات الضرائبية التي تمنح للقادمين الجدد » .

هذا ومن المعلوم أن المواطنين السوفييت السابقين لم يفهموا معنى أن يدفعوا قيمة العلاج للطبيب ، فهم لم يعتادوا ذلك . وهذا ما كان يثير الاسـرائيليين القدامى . لكن هذا الامر بديهي بالنسبة للسوفييت لأنهم لم يعتادوا أن يدفعوا للطبيب مـــن جيبهم الخاص . كما ان للمواطنين السوفييت السابقين مميزاتهم غير العادية ، مثلا : يصابون بالدهشة لأن المالكين أصحاب العمل هم الذين يتيحون لهم فرصة العمل وليس الدولة . وهذا يتطلب منهم الخضوع للمالك حتى الاذلال طلبا للعمل . لذلك فهم ينددون بكل ما يقدرون ، ويحتجون على هذه اللوائح التي تبدو لهم بكل بساطة وحشية ، مما يثير غضب سكان اسرائيل القدامى الذين يرون في أولئك الذين تعودوا على صورة الحياة السوفييتية نوعـ ـن الاطوار الغريبة . ـــ وواصل فولكر حديثه قائلا : ان سكان اسرائيل القدامى يحتدون غاضبين نظرا لأن القادمين من الاتحاد السوفييتي يتعطشون للثقافة ، ويشكون :

ـــ عدد المكتبات قليل ..

ـــ سعر تذكرة السينما مرتفع جدا ..

ـــ لا يوجد اي مكان يمكن أن تستمع فيه لمحاضرة قيمة . مما يدفع هؤلاء السكان

للقول : « ان هؤلاء الارستقراطيين هم الاطفال المدللون للسلطة السوفييتية » . ولكن هل تعلم لماذا لا يستطيع الصهيونيون ، وبصورة خاصة ، أن يصفحوا عن المواطنين السوفييت السابقين ؟ لأن « المهاجرين » من الاتحاد السوفييتي لا يحملون أية كراهية للعرب . هذا كل ما في الامر . — كن على ثقة بأنني توصلت الى هذه النتيجة بعد مشاهدات طويلةودقيقة . فالصهيونيون يلحون على كل قادم جديد : « انت ملزم بأن تحقد على العرب » ! ويستغرب هذا القادم :

— ما هو السبب ؟

— ولماذا ؟

« لا يوجد اي سبب يدفعني لكي احقد عليهم . كما انني لا استطيع ان أعبىء أطفالي بالحقد ضدهم . . لا أستطيع ! » .

لقد استمعت لمثل هذه الاقوال من افواه المهاجرين السوفييت مرارا . لذا فان الآلام سوف تمزق كل اسرائيلي ان لم تسعفه القدرة على الافضاء بمشاعر الغضب تجاه الصهيونيين .

لقد ركب بعض العرب سيارة محملة بالركاب . ولم يكن على ابرام بيتلاشفيلي الا ان يتخلى عن مكانه لامراة من عقيدة اخرى تكاد بكل صعوبة أن تتحرك . في تلك اللحظة انقضت عليه مجموعة من الشباب :

« انت غير جدير باسرائيليتك — صرخت محتدة في وجهه فتاة يبدو من حقيبة الكتب التي تحملها أنها طالبة — هؤلاء البقر يستخدمون بكل وقاحة نفس السيارات التي نستخدمها نحن ، لأننا بعد لسنا في حالة تسمح لنا بأن نعزلهم في سيارات منفردة ! » .

« اني اتصور كيف تربون اطفالكم ! — بسخرية قال ابرام بتيلاشفيلي لصديق الفتاة — . وفي نفس السيارة أصاب الهجوم ايضا سميون خونوفيتش بولونسكي . وهو اوديسي سابق . — فما هو الذنب الذي ارتكبه نحو المجتمع الاسرائيلي ؟

لقد طلب بولونسكي من ابنه البالغ من العمر عشر سنوات أن يخلي مقعده في السيارة لامراة عربية حامل . ولشد ما آلمته آنذاك تلك الملاحظة الحاقدة التي انبعثت من صدر عجوز اسرائيلي : « فلتمش السيارة على جسد هذه المراة البشعة قبل أن تتمكن من أن تلد قاتلا جديدا ! » — لكن « الامراة البشعة » قد اعتذرت على أية حال عن الجلوس في المقعد الذي أخلي لها . وليس غريبا بعد ذلك ، أن يجد العرب في مظاهر الاحترام الطارئة من قبل الاسرائيليين مدخلا للسخرية والاحتقار .

ومنذ الساعات الاولى لوصول اليهود السوفييت الى اسرائيل يتلقون على حد تعبير ايدي ليفيت « ارشادات » بأن يسفروا عن احتقارهم لكل عربي يلتقون به .

لقد وجد ليونيد تولتشينسكي الفنان السابق الذي كان يقيم حفلاتــه في احدى مقاطعات موسكو عملا ليليا مؤقتا في أحد الملاهي الليلية الرخيصة . ولكن صاحب الملهى سرعان ما رمى به على الطريق خارج باب الملهى لأن ليونيد سمح لنفسه بأن يتفوه بكلمتي : « يهود وعرب » . وما لاقاه ليونيد لاقاه آرون ابراموفيتش كورولابنيك . كان آرون يعمل لدى صاحب محطة بنزين . ولقد تعرض للاهانة لأنه كان يتعاطف مع العرب .

ــ فما الذي فعله آرون ؟

ــ لقد كان يقوم بعملية تنظيف وقود احدى السيارات من الاوساخ التي علقت به . مر بجواره اثناء عمله شاب عربي . سأله الشاب :

ــ كيف يمكنني ان اجتاز طريق الميدان ؟

ــ وصف له آرون بكل ادب الطريق الذي يمكن ان يجتازه عبر الميدان . وكان هذا سببا كافيا من قبل صاحب محطة البنزين لتوبيخه واهانته . كذلك فانهم يستخدمون مدارس « الالبان » ايضا لتغذية الحقد ضد العرب .

ــ كيف ذلك ؟

ــ انهم يدرسون في هذه المدارس اللغة العبرية فقط .

ــ ولكن . . ! بلباقة شديدة أختيرت الموضوعات الدراسية فيها ــ يقول المهندس زلوتسكي ــ ، فالتلاميذ يدرسون في « الالبان » موضوع « معاداة العرب » (انتي ارابيزم) . حتى أولئك المتخلفون في دراستهم يتخرجون من الالبان وهم يختزنون في نفوسهم احتياطيا كبيرا مــن الالفاظ المشينة ذات الطابع العدائي للعرب . كما انهم يعبئون وبصورة خاصة حتى الاطفال الصغار بالحقد ضد العرب . اعطي مثالا على ذلك بمقطعين فقط من كتاب يدرس لتلاميذ الصفوف الاخيرة ، وبالتحديد من الفصول التي تتحدث عن تاريخ الحروب الاسرائيلية العربية :

« ان شعب اسرائيل هو الشعب المختار من بين الشعوب من حيث الفصيلة والتربية والجو الذي يتطور فيه » . « ان فصيلة شعب اسرائيل هي أرقى فصيلة . فلقد تشكلت عن طريق اختيار افضل ما في كافة الاجيال » . يتبع ذلك الاستنتاج التالي : « يجب ابادة العرب » !

ويغني الصغار في « روضات الاطفال » بقيادة المربيات وبصوت واحد ، هذه الاغنية :

« آتو ــ تو ، تو ــ تو ، تو ــ تو

آرابيم يموت »

وتعني الترجمة الحرفية للسطر الثاني : « فليمت العرب » !

... ...

ــ وعندما رجعت تانيا ، وهي ابنة كلارا روزينتال من المدرسة ، بدأت على الفور تحفظ عن ظهر قلب قصيدة من الشعر . اندهشت الام . ــ فما هو هذا الشعر الذي اخذت تانيا تحفظه غيبا بناء على اوامر المدرسة ؟

وعندما القت الام نظرة على الكتاب اصابها الفزع . ــ لقد كان هذا الشعر عبارة عن شعارات موزونة مختارة تدعو لابادة العرب . ان النتيجة تبدو واضحة وبشكل حاسم : « فما دام العرب بجوارك ، فلن تستطيع أن تعيش حياتك بهدوء » . لكن . . ! يمنع بشكل قاطع كتابة اي شيء يتعلق بمسألة « الكراهية للعرب » عندما يحمل البريد رسائل المهاجرين في اسرائيل الى اقربائهم في الاتحاد السوفييتي او في البلدان الاشتراكية . فهذه مسألة محظورة للغاية .

ــ لقد تسلم الكسندر شابوشنيك الذي كان فيما مضى عاملا بسيطا في أوديسا ، وكان يعمل جزارا في مصنع للحوم ، انذارا من احد العملاء الصهيونيين : « انني على علم بما تكتبه في رسائلك . فتذكر جيدا وبلغ الآخرين : ان كتابة أي سطر واحد عن اضطهاد العرب ستعلمكم على الفور ، ما معنى مخالفة الطاعة . لذا .. الافضل لك ، أن تكتب في رسائلككيف يعيش العرب عندنا في طمأنينة » .

ــ واحيانا يغامر القادمون الجدد بالتحدث عن هذا الموضوع المثير للغضب ، مع اناس ــ من وجهة نظرهم ــ غير قادرين على الكتمان . فلقد تجاسر وتحدث عن هذا الموضوع مارك ايساكوفيتش برلشتيين الذي هاجر من أوزبكستان وحصل على عمل في مكتب للمواصلات ، كان عملا جيدا نوعا ما .

ــ لقد سأل مارك زميله الذي يعمل معه في المكتب :

ــ « كم كانت ثقيلة تلك المعاناة التي عاناها اليهود نتيجة للعنصرية التي كانت تمارس ضدهم ! ، ومع ذلك الهذا الحد فقدتم ضمائركم ؟

ــ كيف تقدرون أن تمارسوا العنصرية السوداء ضد العرب ؟ وعلى الرغم من توقع برلشتيين أن ينفجر فيه زميله فان هذا الزميل تمالك أعصابه ، ولم يهدده بنظراته على أنه اسرائيلي غير مخلص . لكنه بصبر ، أخذ يرد على برلشتيين ، وكأنه يرد على تلميذ عاجز عن الفهم :

ــ انت مخطىء . كيف يمكن أن نكون عنصريين ونحن نعترف حتى بالسود .

ــ كيف تقول ذلك . وأنت ترى من حولك اليهود ذوي البشرة السوداء الذين جاءوا من مجاهل افريقيا ؟

ــ ألست معي بأنهم يشبهون البقر !

ــ فكم هم أغبياء وغير ناضجين !

ــ أحيانا لا يستطيع الواحد منا أن يتمالك أعصابه . ويود ، والرب شاهد على ذلك ، أن يصفع وجه ذلك السفــاردي الغبي الراس ، والــذي يفهم بقدر ما يفهم الجاموس !

ــ ولكننا نلتزم الصبر ضاغطين على قلوبنا . حتى اننا أحيانا نقوم بمساعدتهم بعض الشيء . فنحن لا نحدد تنقلاتهم داخل دولتنا . لهذا السبب ، يبدو لك أننا واياهم على دين واحد ؟

ــ كلا . ان حكومتنا أسمى من ذلك . نحن نهادن الزنوج لأنهم يرغبون في أن يكونوا مفيدين لنا ، ويريدون مساعدتنا في حدود طاقاتهم الهزيلة بشأن تقوية اسرائيل . وما دمنا لسنا أمريكا للآن ، فاننا نسعى أن نقيم علاقات مشتركة مع اليهود ذوي البشرة السوداء في بلادنا ، وان كانوا لا يتمتعون بالخير كثيرا . أما العرب فنحن نعلم شيئا واحدا « انهم أعداؤنا التاريخيون » . اننا نثق تماما بأن قلوبهم لا يمكن أن ينمو في داخلها أناس تقدميون . فأنا افضل الموت على أن اذهب الى طبيب عربي . فلا يمكن أن تحتمل الارض وجودنا سويا مع العرب .

ولحسن الحظ لم يتمكن الصهيونيون من تعبئة سكان اسرائيل بمثل هذه التصورات

الوحشية . فلبرشتيين صديق مسن مهنته محاسب . وله ابن اصيب في حرب الايام الستة . لقد أخذ بانفعال يقول :

« قرأت عن معسكرات الموت الهتلرية التي ابيد فيها اليهود ، ولا يخالجني الشك المريع بأن معاملة العرب الذين يعيشون بيننا لا تقل عن معاملة الهتلريين لليهود . فهل يختلف اطلاق الرصاص على الشيوخ في احدى القرى العربية عن الاعمال التي قام بها الهتلريون ضد اليهود في أحياء كاأوناس أو مينسك ؟. لقد شاهد ابني كيف نكل الجنود اليهود بالسجناء العرب . وما رآه ابني ، لا اتمنى حتى لألد اعدائي أن يداهمه في حلمه .

ان مثل هذه الكلمات يهمس بها الانسان همسا في اسرائيل ، وعيناه تتطلعان في كل جانب .

ثمة بعض المهاجرين ، على استعداد وبأي ثمن أن يستخدموا « المعاداة للعرب » كورقة رابحة في أيديهم على طريق النجاح الخطر في سبيل الحصول على منصب .

لقد فكر في هذا الامر الكاتب غريغوري سفيرسكي ، وان كان في الحقيقة قد تأنى في تفكيره . لقد جاء الى اسرائيل وهو يحمل بين جنبيه افضل الاماني عن مشاريعه الادبية الطويلة المدى ، على الرغم من كونه أديبا فاشلا . وفور وصوله الى اسرائيل اقترح على دور النشر أن تنشر مؤلفاته الكاملة التي رفضتها دور النشر السوفييتية . ولكن سرعان ما أصيب بخيبة أمل ، عندما ابلغته دور النشر الاسرائيلية بأن نثره من الناحية الفنية ضعيف وغير جدير بالطباعة . كذلك لم يلق انتاجه الجديد : الذي يحتوي على المؤثرات الخارجية ذات اللوحات البهلوانية ، والمونولوجات ، والادوات المركبة ، التي يصب المؤلف من خلالها جام غضبه على اليهود السوفييت الذين لم يراودهم التفكير بالهجرة الى اسرائيل — الرواج المنتظر . كما ان اجره نظير انتاجه كان شحيحا . فلقد كانت اسرائيل تفيض بمثل هذا اللون من الادب قبل وصول سفيرسكي اليها . ولقد انعكس الفشل حتى على المظهر الخارجي لسفيرسكي . يحدثنا الطبيب يوسف غريغوريفتش بورشتيين ، وهو من مدينة مينسك عن سفيرسكي : « شاهدت رجلا عصبيا ، وغير حليق وقد تآكلت ملابسه واهترأت ، وبدا كانسان مهلهل متداع . لقد علم المواطنون السوفييت السابقون بأن سفيرسكي حصل على اعانة لكتابة مجموعة من القصص عن عذابات سكان بيروبيدجان . وكان كل فصل من هذه القصص يبدأ بمقطع من افتراءات سولجنيتسن . لكن قصصه من وجهة نظر كتاب القصة كانت فاشلة . أما الاعانة التي حصل عليها سفيرسكي فانه قبل تعارفنا كان قد انفقها . وتغير فجأة . وصار من الصعب التعرف عليه بعد مرور بضعة اسابيع : لقد تحسنت أحوال سفيرسكي ، وبدا شامخا على غير عادته . وما عاد ، وهذا هو الاهم ، يطلب كوبا من الشاي على حساب غيره أو يوحي غامزا بالسؤال عن سيجارة . فلقد كشف لي معارفه الذين يحيطون به اسباب هذا التغيير الاسطوري : « ان سفيرسكي كرس كل انتاجه بالتهكم على العرب ، لدرجة أنه وجد لديه الشجاعة على أن يختلق جذورا تاريخية لعداء أبدي بين الشعوب العربية والسلافية . ومن الطبيعي بعد ذلك أن يصبح مؤلفا مرغوبا فيه ومعترفا به ! ولم تعترف به اسرائيل فقط ، وانما اعترفت به أيضا البلدان الراسمالية الاخرى المعادية للاتحاد السوفييتي . فمنذ اليوم الاول لنشوب الحرب الجديدة في الشرق الاوسط عينت اذاعة « الحرية » سفيرسكي مراسلا خاصا لها في القدس ، وكلفته بمهمات على غاية كبيرة من الاهمية .

ان كل شرير ، وهذا أمر بديهي ، ينمو في وادي الاعشاب الطفيلية . وحتى لا يفتقد

سفيرسكي عشه الذهبي ، فانه بافتراءاته عن وحشية القوات المصرية والسورية قد تخطى بعيدا كل الكتابات الاسرائيلية الشوفينية حول هذه المسألة . بصراحة ، لقد ساعد لهيب الحرب على اثرائه .

ومع ان كتابات سفيرسكي المعادية للعرب قد وجدت طريقها الواسع للنشر ، وأذيعت من الراديو باللغة الروسية ، فانها لم تؤثر بشكل كبير على المهاجرين السوفييت . ان اعترافات سميون خونوفيتش بولونسكي المؤثرة لأكبر دليل على ذلك :

« على الرغم من قسوة الحياة في فيينا ، فان ما أسعدني هو شعوري بأنني الآن لن الح على ابني قائلا له بخبث : « من أجل ابيك يا ولدي حاول ان تخلق لدى الآخرين انطباعات بأنك واثق ، وتعلم علم اليقين ، بأن العرب ليسوا من جنس البشر ، وانما هم وحوش » . عندما كنت في اسرائيل لم تسعفني الشجاعة على أن انظر في عيني ولدي . ولكنني كنت مضطرا لأن أعلمه بهذا الشكل . قد يبدو لكم هذا مستحيلا . ولكن كلمة واحدة غير حذرة تصدر عن ولدي كفيلة بأن تجعلهم يحيكون تهمة لي بأنني متعاطف مع العرب . والتعاطف مع العرب هو أقسى تهمة بالنسبة للمواطن الاسرائيلي !

واستمعت الى كلمات آرون أبراموفيتش كورولابنيك الذي شاخ به الزمن :
ــ « انني أعرف جيدا ، كيف كان الهتلريون يعلمون الالمان : اذا كنت آريا حقيقيا فيجب عليك أن تحقد على اليهود . هل كان بامكاني ان اتصور انا الذي فقدت في الجستابو الهتلري كثيرا من الاقرباء ، بأنني سأسمع ذات يوم من فم اليهود نفس هذه الوصايا العنصرية موجهة ضد العرب ! وتصيبني الرعشة كلما تذكرت الشعارات والاغاني ومقالات الجرائد والخطب داخل الاجتماعات . فكلها تنحصر في قانون لا أخلاقي : « أنت ملزم بأن تحقد على العرب » .

[١١]

الاستماع الى قضية اتهام

بعد أن تخلص جابو وعديلته زويا من الحصار الاسرائيلي ووصلا الى فيينا ، سمعا أخبارا مزعجة : لقد غادر بعض أقربائهما مدينة تفليسي الجورجية الى اسرائيل . ومما يثير الغرابة ، انهم هاجروا من الوطن ، متوجهين الى اسرائيل بناء على برقيات وصلتهم من جابو وزويا ، وكانت تنبض بالتفاؤل . وهذا على ما يبدو هو السبب الرئيسي .

ــ لم يكتف عملاء الوكالة الصهيونية بتزييف البرقيات . لقد استخدموا كذلك أسلاك التليفون . ثم أخذوا يجرون اتصالات تليفونية مع الاقرباء في تفليسي باسم جوبا وزويا . لذا فان بالامكان تصور الحالة النفسية لهذه العائلة !

ماذا بقي لهما ؟

وكيف يمكنهما أن يستقبلا الاقرباء المخدوعين في محطة القطارات الشرقية لمدينة فيينا ، ويقولان لهما الحقيقة المرة ؟

لقد قام باستقبال القادمين من تفليسي على أية حال ، مندوب من الوكالة الصهيونية ، حيث كلف بنقلهم على الفور من المحطة الى مركز التجمع في « شيوناو » وعزلهم حتى تتم عملية تسفيرهم بالطائرة الى اسرائيل .

شاهد العميل الصهيوني تامير الذي كان في قاعة الانتظار في المحطة كلا من جابو وزويا مع مجموعة من اصدقائهما الذين غروا من اسرائيل الى فيينا . وعندما ادرك سبب وجودهم في المحطة بعد أن تجسس على أصواتهم اتصل بالمفتش المناوب المسؤول عن قضايا التحقيق في الجرائم البوليسية تشيبيك ، ولفت نظره الى مجموعة « مشكوك في أمرها » . وبمرافقة تامير قام تشيبيك بمراجعة هويات ووثائق الاشخاص الذين حامت حولهم الشبهات . وبينما كان هؤلاء يصغون الى تهديدات تامير بالايديش ، أصبح في علم المؤكد ، بأن حضرة المفتش المحترم هو أيضا عميل صهيوني .

لقد أكد شاهد الانهـــام الرئيسي تامير بأن المفتش ابرز لجابو وزويا وأصدقـــائهم « هويته » البوليسية . أما جابو وزويا والشهود المدافعون فلقد كانوا منفعلين ــ حدث هذا قبل وصول القطار بدقائق ــ ، واعلنوا انهم لم يروا هوية تشيبيك ، وكان أن طلب آنذاك احد المواطنين الجورجيين السابقين المساعدة من شرطي كان يرتدي الزي العسكري ، عندما سألهم تشيبيك عن هوياتهم . بكلمات اخرى ، ان تشيبيك كتامير تماما .. وهما عميلان للوكالة الصهيونية . واقتنعوا اخيرا بأن بحثهم عن الحماية عند شرطي غير مجد لأن الشرطي هو واحد من العسكر .

وهكذا وجدوا أنفسهم ــ الجميع : جابو وزويا وأصدقاؤهم ، ليس على رصيف المحطة وانما في قسم البوليس . وهكذا ايضا لم يستقبلوا أقرباءهم الجورجيين ، وانما تولى هذا الامر العميل الصهيوني تامير الذي استقبلهم بالكلمات المعسولة ، ووفق بنقلهم الى مركز التجمع في « شيوناو » .

استبد الغضب بجابو وزويا معا ، وقاوما المفتش الذي لم يسمح لهما بالتوجه نحو رصيف المحطة . كان تشيبيك يبدو من مظهره الخارجي بأن بامكانه أن يلعب دور العملاق على الشاشة . وحسب شهادة المدعو تامير ، فان زويا التي لا تملك جسما رياضيا قد ضربت المفتش .

لقد قادت هذه الوقائع طبقا لقانون الاتهام كلا من جابو خانانا شفيلي وزويا جفيتيا شفيلي الى قفص الاتهام . لم يكن الامر سهلا بالنسبة للقاضي النمساوي . وهذا الامر مفهوم . وتم استجواب المتهمين وشهود الدفاع بواسطة مترجمة . وكان واضحا ان الامر بالنسبة للمترجمة المسكينة كان شاقا . فبعض الشهود كان يتكلم الروسيـــة بصعوبة ، وهذا ما جعلها تقتضب ما يقال في اكثر الاحيان .

جرى الاستماع للقضية للمرة الثانية . في الجلسة الاولى رأى تامير أن من الافضل له الا يظهر أمام هـــذا الحشد الكبير من البشر حتى لا يقال ان وراء هذه القضيـــة « الايادي الطويلة للوكالة » ، وان كانت في واقع الحال تبدو على الاراضي النمساوية اكثر من طويلة . فهي قوية أيضا . ومع ذلك أصر المحامي على استدعاء تامير . وهكذا بحثت القضية للمرة الثانية .

أجاب تامير على أسئلة المحامي ، ولم يجرؤ للحظة أن يرفع عينيه في وجهه . كان واضحا ان الذي يدافع عن المتهمين هو هنري ديورماير سكرتير اللجنة الدولية للدفاع عن سجناء ماوتخاوزن ورئيس اتحاد الحقوقيين الديموقراطيين النمساويين .

بالمناسبة ، يجب ان نكون منصفين تجاه النائب العام الذي لم يحتف « بالطالب » . ــ زعم تامير بأنه طالب ، ومن باب الصدفة فقط وجد نفسه في المحطة ــ ونظر نحوه بدون بشاشة . يجب فهم النائب العام الحكومي ايضا . فاللوحة على ما يبدو غير مثيرة

على الاطلاق . ـ فكيف يحق لمفتش الجرائم البوليسية ، وبكلمة واحدة من العميل الصهيوني أن يضع سبعة أشخاص غير معروفين لديه ابدا تحت طائلة الشبهات ؟

اخذ تامير يتصبب عرقا . ومن ثم صار يتلوى ويدور على نفسه كما لو انه سقط تحت الاقدام . وعندما انتهى من الادلاء برايه اختفى بين الشرطة التي كانت موجودة في قاعة المحكمة ، حتى الشرطة اشاحت عنه ، ونظرت اليه ببرود ، مما دفعه الى مغادرة القاعة . لقد كرس المحامي هنري ديورمايير خطابه عن أسياد تامير .

ـ كان من المفروض أن نستمع الى قضية ، يبدو ان المتهمين فيها هم المسؤولون عن تامير ـ قال المحامي ـ وعلى ضوء الاقوال التي استمعت اليها . فان تامير لم يخدع فقط اولئك الذين أدافع عنهم ، وانما ايضا وضع في شرك الخديعة الاقرباء التعساء . انني الفت نظر المحكمة الى تنبيهات الصحافة النمساوية المتكررة حول « الاستهتار » الذي يمارسه عملاء الوكالة الصهيونية في عاصمتنا . فهؤلاء العملاء يعلنون على الملأ عن علاقات غير موجودة في الاساس ، بينهم وبين الشرطة . فهم احيانا يقدمون أنفسهم على انهم شرطة . انهم يثيرون حالة من الاستفزاز لدى المرعوبين والضائعين ، الفارين من اسرائيل .

لو كان بالامكان وضع جلسات محاكمة جابو وزويا في اطار عرض مسرحي حسب تسلسل الاحداث ، لأطلقنا على هذا العرض اسم الكوميديا المأساوية . لقد شاهد الجميع دموع الشهود ، عندما أوردت المحكمة أسماء الاقرباء وأبناء الوطن الذين خدعوا ولم يكن باستطاعة جابو وزويا تحذيرهم من مغبة السفر الى اسرائيل . لقد ضجت القاعة بالضحك عندما ذكر المفتش تشيبيك في تقريره الذي القاه أمام القاضي بأنه كان منزعجا عندما أخبره تامير عن وجود مجموعة من الاشخاص في المحطة مشتبه في امرهم ، وبينهم فتاة خطيرة مجرمة . بل كانت اخطرهم جميعا لأنها قاومتهم وبكل قوة .
لقد اصدرت المحكمة حكمها بالسجن على جابو لمدة شهرين ، وعلى زويا لمدة اربعة شهور وبشروط . بعد انتهاء المحاكمة رفض القاضي خوفمان أن يدلي بأي تصريح لممثلي الصحافة الاجنبية المعتمدين في البلاد ، ولمندوبي الصحف النمساوية . ولكنه وافق على أن يتحدث مع كاتب سوفييتي .

خلع القاضي عن نفسه المعطف الاسود الحريري وقال : ـ « أيها السيد الكاتب ، يبدو انك تشك في أن الطفلة زويا كانت قادرة على أن تخدش وجه العملاق تشيبيك . ولكن تجربتي في القضاءاقنعتني بأن هذا الأمر كان فعلا وحقيقة . ومع ذلك فقد خففت مدة الحكم عليها بشروط ـ واصل القاضي كلامه ، وقد شد من عقدة رباط العنق العصري ـ فلقد توصلت الى أن المحكومين قد فعلا ذلك وبلا وعي . خيل اليهما بأنهما يتعرضان للضغوط لكي يرجعا الى اسرائيل . لذا فقد سيطر عليهما رعب لا انساني تحت احساس ارجاعهما بالقوة الى اسرائيل .

ـ « رعب لا انساني تحت احساس ارجاعهما بالقوة الى اسرائيل . » . ان هذه الكلمات التي انبعثت من فم القاضيالنمساوي تعني الشيء الكثير .!

[١٣]

فلنتحدث عن الموفقين

لقد استعرضت في هذه الصفحات المصائر المحزنة لسائقي السيارات ، ولميكانيكيي

اجهزة الراديو ، وللصرافين ، والحدادين ، والبائعين ، والحلاقين ، والطباخ ، ومساعدة الطبيب ، ومدرسه الموسيقى ، والمتقاعدين . فلربما لا يشكل هؤلاء الناس النقص المهني لدولة اسرائيل . يبدو على الارجح أن الاشخاص الذين يتمتعون بمهن وتخصصات نادرة يلقون في اسرائيل الحفاوة والترحيب .

افتراض قائم على أسس . فعندما تتحدث عن هؤلاء الاقرباء الاثرياء ورجال الاعمال والموظفين الكبار من ذوي الجيوب المالية ، فان السلطات الاسرائيلية والمنظمات الاسرائيليه ، تأخذ بعين الاعتبار وجهات نظر هؤلاء الرجال الاثرياء ، وبارتياح تقابل المتخصصين من ذوي المهن المحدده . وتضعهم في اماكن تخصصهم بسرعة . كذلك تؤمن لهم السلطات الاسرائيلية رواتب جيدة ، ومساكن مريحة . ووسط ذويهم من « المهاجرين » يطلق عليهم « الموفقين » .

— ولكن لماذا حتى هؤلاء « الموفقون » يسعون لمغادرة اسرائيل عند أول فرصة تتاح لهم ؟

أمامي الآن مذكرة تحتوي على عشرات الصفحات ، وهي مكتوبة بخط دقيق ومرتب ، وتدل على أن كاتبها انسان منتظم ومنضبط . فمقاطعه ، من وجهة نظري ، كقارىء ، مقنعة .. ومنطقية ، كما أنها تنطوي على براهين متتالية . بيد أن بعض الاماكن في هذه المذكرة ، وهذه حقيقة ، يتسلل اليها التكرار والخطأ وتستدعي التصحيح . على ايه حال يمكن تجاوز هذه الاخطاء . فهي على ما يبدو مكتوبه دفعه واحده وبدون مراجعة . فالذين يطلبون الغفران يكتبون بهذه الطريقة بالتحديد .

— ان كاتب هذه المذكرة مرشح في العلوم . وقد عمل سابقا مدرسا في احد المعاهد السوفييتية الكبيرة ، وكان يستعد لمناقشة رسالة دكتوراه كان قد أنجزها . لقد نشرت لهذا العالم عدة ابحاث علميه ، وأستطيع ان أطلق عليه أسما مزورا ، مثلا ، يفسيبيا ميخايلوفيتش روبنشتيين حتى لا يتعرض للتحقيق في اسرائيل حيث لا زال يقيم هناك مؤقتا .

— لقد آمن يفسيبيا ميخايلوفيتش بالدعاية القومية الاسرائيلية . وانطلاقا من ايمانه هذا قرر أن يقدم مساعدته للشعب اليهودي لكي يتمكن من بناء دولته . ثمة أمر يجب ايضاحه ، فهو لم يفكر بنظام الدولة الاسرائيلية وبنمط الحياة الاجتماعية فيها . لقد كانت عنده رغبة صادقة « ببناء وخلق البلد الفتي » . في اسرائيل عمل روبنشتيين مدرسا في أكبر المعاهدالعلمية في البلاد . وكان وضعه المادي حسنا . ولكن ...!

« لقد فقدت اسرائيل في مسعاها نحو التطور المادي جزءا كبيرا من القيم الاخلاقية والروحية . فهي عندما أختارت نظام الحياة الغربي ورثت عنه الانحلال والانحطاط الاخلاقي ، وهذا ما يتمتع به المجتمع الرأسمالي وديموقراطيته الفاسدة » . وتوصل العالم الشاب الى هذه النتائج المحزنة : « ان النزعة نحو كسب الثروة بأي ثمن في ظل القانون قادت الى شعار « كل شيء مسموح به » ، وبالتالي فانها خنقت الضمير الاجتماعي والمثل الاخلاقية . ولقد أصبحت هذه النزعة الجوهر الاساسي والمقياس الرئيسي للعلاقات المتبادلة . وهذا الوضع من وجهة نظر المجتمع الغربي طبيعي . ثمة ما يلفت الانتباه ، فان جيلي الذي نما في ظل الاشتراكية ، لم يتعرف بشكل عملي مفهوم على جوهر « الرأسمال » وقبضته المميتة . وفي هذا كما يبدو لي سعادتنا الكبيرة . لأن مقياس سعادة الناس السوفييت قائم على القاعدة الانسانية الحقيقية . وهذا ما يجعل من بلادنا اقوى البلاد في العالم . لذا فان من الصعب على مواطن من

بلادي ان يعيش في مجتمع يختلف تركيبه الاجتماعي عن مجتمعنا . وبكل تأكيد فان مثل هذا الواقع القاسي سيصيبه بالتمزق والاهتزاز ، ولن يجد في هذا الواقع الرعاية والمسؤولية اللتين تعود عليهما في وطنه » . ونتيجة لانهيار الأوهام المتلئة بخيبات الامل : « لقد شعرت بأننا مهاجرون ، لأن نفسية المجتمع الاسرائيلي تنظر الى القادم الجديد على انه معدم ويسعى لكي يصبح منافسا في الصراع العام من اجل الوجود . فهو لا يعتبر اخا ، أو ابنا عاد الى بيته القومي ، وانما هو غريب ، هو مادة لعدم اللامبالاة ، وأحيانا هو الشر بعينه . انه وحيد وملقى خارج الحياة » . « انني في حالة قاسية ومرة ، لأنني لم اجد في اسرائيل المتطلبات المادية لوجودي : متطلبات أماني في الخلق والبناء ، متطلبات ذاتي الانسانية ، وقواي الروحية ، حيث كنت أنوي تكريس كل ذلك لاسرائيل . فجميع اهدافي وآمالي التي عقدت العزم على أن أحققها في اسرائيل قد اصبحت عديمة الجدوى . لقد شعرت أنني غريب .. ولست ضروريا لاسرائيل » .

ـــ لماذا أسهبت في نقل اعترافات هذا الباحث العلمي الشاب ؟ السبب واضح : لأنها تكاد تكون شبيهة بنفس الاعترافات التي سمعتها من موسى ماتوسوفيتش غيتبرغ المتخصص في سبك الفولاذ ، والذي كان مصمما في الماضي لاحدى ادارات البحوث في دنبروبتروفسك . لقد حصل غيتبرغ أيضا على عمل في مجال تخصصه في مدينة كيفون التي لا تبعد عن حيفا . وامنوا له السكن والراتب . وحتى يتمكن رؤســاء غيتبرغ الاستفادة منمؤهلاته العالية استطاعوا أن يعفوه من دراسة اللغة العبرية في «الالبان» ان غيتبرغ يعرف فقط الروسية والالمانية ، لذلك فان بعض رؤسائه كانوا يتفاهمون معه بواسطة المترجم . كل شيء على ما يبدو كان حسنا . لكن . . . !

ـــ ان الصداقة في اسرائيل تباع . لقد قابلت هناك العديد من المعارف . واعتقدت ان علينا ، في هذا المكان الجديد ، أن نوطد صلتنا . كلا . لقد رأى الواحد منا الآخر منافسا له . وطوال الوقت حامت برأسي خواطري : ـــ هل يمكن أن أفاتحهم بما يعتمل في نفسي دون أن يشوا بي ؟ ـــ ولكن . ربما يصبح مثل هذا الامر مسرحية مأساوية . فعند أول همسة صرخ أحدهم في وجهي : اتتهمني بأنني واش . انا . . ! . وسرعان ما اعتقدت فيما بعد ،بأن هذا السلوك هو احد أشكال حياة الاسرائيليين . لقد تحملت ، بخلاف الكثيرين من المواطنين السوفييت السابقين ـــ واصل غيتبرغ حديثه ـــ الطقس المحلي جيدا . ولم يفرضوا علي كالآخرين ان أدرس اللغة العبرية على الفور . بل العكس . لقد أشعروني بأنني عما قريب سأحصل على ترقية في وظيفتي . ومع ذلك ، فقد داهمني شعور بأنني سأصبح مكتوف اليدين ان لم أغادر اسرائيل . انه الحنين الى الوطن ؟ نعم . . وبكل تأكيد . ثم الشوق الى ولدي وزوجتي ؟ وبلا حدود . الا أن السبب الاول في عدم قدرتي على الانسجام مع الغربة ، ومع هذا العالم الغريب الذي هزني هو احساسي بأنني طوال عدة شهور لم أحظ بدعوة احد العاملين معي للزيارة . أية زيارة هذه ! كذلك لم يحاول أحد منهم أن يتحدث معي حديثا روحيا . فقط أحاديث عادية تتعلق بالعمل . وليس هذا كل ما في الامر ، فأحيانا تجدهم ينشطون ، عندما يتبادر الى اذهانهم بأنني أشك في مدى ولائهم للمثل الاسرائيلية . ويأخذون في التنافس فيما بينهم بالقاء العبارات الشوفينية . لقد أحسست بأن بعض العمال يشعر بما أعانيه من وحدة ، ويريد أن يتعرف مني على التفاصيل الحقيقية للحياة السوفييتية . الا أن هذا البعض لم يتمكن من التأثير على النظام المميت الفارض وجوده الابدي على الشركة .

في اسرائيل فقط ، ادركت بكل ما ينبض في جسدي من حياة ، بأنني تعودت على كل المزايا المتعددة الثمينة للحياة السوفييتية ، هذه المزايا التي شعرت بأنها ضرورية لي في غربتي كالهواء ، وبدونها لا أستطيع أن أعيش . ـــ ابدا لا أستطيع . !

فعندما اعلنت للمسؤولين عني بأنني سأغادر اسرائيل ، صرخ احدهم في وجهي بغضب « أنت مسمم بطابع الحياة السوفييتية » .

ــ فليكن . على أية حال انه محق بقوله .

لن أورد هنا الكثير من اقوال غيتبرغ لأنها تنطبق مع اعترافات روبنشتيين التي ذكرناها . ولنتحدث الآن عن عائلة برافشتيين التي عاشت سابقا في كييف .

طبقا للمفهوم الاسرائيلي ، فان هذه العائلة هي عائلة سعيدة نسبيا . فالزوج مهندس معماري ، والزوجه مهندسة معمارية كذلك . بوريس برافشتيين شاب ، ذو مستقبل ، يتولى الاشراف على مكتب تصميم مشاريع . ابنه وشقيقه استشهدا على جبهة الحرب الوطنية . لقد ألح بوريس على زوجته بأن تسافر معه الى اسرائيل . اخيرا علم بوريس بأن احتكاكاته بالفنانين الاسرائيليين الذين اقاموا حفلاتهم الفنية في كييف ، ولقاءاته مع سياح دولة اسرائيل قد لعبت بالنسبة له دورا قاتلا . فلقد أقنعوا برافشتيين بعد ان وصفوا له الجنة على أرض الاجداد بأن من واجبه أن يعيش ويعمل في الوطن اليهودي .

وهكذا يغادر بوريس وزوجته مع أطفالهما الاتحاد السوفييتي تاركين وراءهم في كييف أقرباءهم . لقد حصل المهندسان ــ بوريس وزوجته ــ على عمل مريح . وتعتبر شقتهما جيدة طبقا لواقع الحياة الاسرائيلية . ولكن الزوجين ، أخذا يشعران يوما بعد يوم ، وبجلاء ، انهما ارتكبا خطأ فادحا ، وان لم يفصح الواحد منهما للآخر عن مكنون احساسه .

وذات يوم من أيام اجازتهما الاعتيادية ، تفاهما بصراحة ، وقررا بلا رجوع : أن الخطأ لا يمكن أن يصبح قدرا حتميا ، يجب مغادرة اسرائيل ! ــ ما الذي دفعهما الى اتخاذ مثل هذا القرار ؟ وحتى أجيب على هذا السؤال ، سوف استخدم أقوال بوريس برافشتيين التي أدلى بها لصحفيين نمساويين مستثنيا تلك الاقوال التي تتطابق مع اعترافات الدكتور في العلوم برافشتيين ، والمصمم غيتبرغ .

ــ هل من المعقول أن تمر اللقمة في الحلق ، عندما يتبادر الى علمك أن واحدا من الذين جاءوا معك ، وهو انسان تعدى الشباب ، قد تحول الى عاطل عن العمل ، ويعاني من الجوع .

عاطل عن العمل ! لقد كان هذا المفهوم بالنسبة الينا قبل سفرنا الى اسرائيل مفهوما تجريديا . وهل من المعقول أن ينام الانسان مطمئنا ، وهو يعلم ان امرأة سوفييتية مريضة وحالتها خطرة ، قدرفضوا ادخالها المستشفى : لم يكن لدى هذه الامرأة المعدمة نقود تدفعها ثمن العلاج . ولكن ليس هذا هو الحد الادنى للعلاقات اللاانسانية تجاه المرضى . لقد شاهدت أنا وزوجتي أطفالا صغارا وقعوا تحت وطأة المرض ، وقد القي بهم خارج المستشفى ، لأن آباءهم قد تجاوزوا موعد دفع ثمن العلاج .

ــ وهل كان بامكاننا ان نكون لا مبالين ونحن نشاهد العسكر وهم يضربون ذوي العاهات ، فقط لأنهم احتجوا ضد تخفيض الاعانات المالية ، مع ان ذوي العاهات من السكان القدامى في فلسطين وهم يعتبرون من المواطنين المميزين في اسرائيل . ولكن السلطات الاسرائيلية تعاملهم باستخفاف ، لأنهم فقراء وضعفاء . وهذا ابسط مثل لحقوق الانسان على الطريقة الاسرائيلية !

وعما قريب سوف نرى أن الواقع المرير لنمط الحيـــاة الاسرائيلية قد داهم عائلة

برافشتيين نفسها مباشرة . فلقد رفض الاسرائيليون أن يعترفوا بأطفالهما على أنهم يهود ، وأطلقوا عليهم لقب الاطفال « اللامطهرين » . فعل الوالدان المستحيل . ولم يدعا دائرة ما الا وطرقاها . ولكن دون جدوى . وقد نصحوهما بأن يقدما الاعتذار للسلطات الدينية . وليس من الصعب التصور كيف استقبل الحاخامات الزوج والزوجة اللذين خرقا تقاليد العقيدة المقدسة . وصار من المتعذر على الاطفال كذلك ان يذهبوا الى المدرسة حيث سخروا منهم هناك وسمموهم . ثمة أمر ، فقد لاحظ هؤلاء الاطفال على ستراتهم وعلى حقائبهم كتابات مهينة وبذيئة . ــ حقا . انها لطفولة سعيدة ، أليس كذلك ؟

والادهى من ذلك أن برافشتيين لم يخف اعتذاره عندما قال للعاملين معه أن أخاه قد منح وساما في كييف . ــ كيف يحق لانسان يحمل جوازا اسرائيليا ان يظهر اعتزازه بمثل ذلك الاخ ؟ لذا يبدو أن هناك من رأى في ذلك اتجاهــات معادية لاسرائيل . وانصبت على راس برافشتيين بعد ذلك مشاكل جديدة .

أعتقد ان ما ذكر كان سببا كافيا دفع برافشتيين لأن يعلن أمام الصحفيين النمساويين : ــ « لقد أمضيت في فيينا اربعة شهور طوال بلا عمل على الاطلاق ، وفي حالة من الرعب المتواصل نتيجة استفزازات عملاء الوكالة الصهيونية ، وهذا ليس أمرا هينا ابدا . ان هذه الشهور الاربعة التي أمضيتها في فيينا كانت بالنسبة للسنتين اللتين عشتهما في المنفى الاسرائيلي شهورا من الراحة والاستجمام . . . » .

وهذان زوجان آخران « موفقان » ــ فيودور دافيدوفيتش ايدل سبورغ الذي عمل مسؤولا تكنولوجيا في أحد المعاهد العلمية للبحوث . ــ آنا بوريسوفنا تبليتسكايا حصلت في الاتحاد السوفييتي على الدراسات العليا في المسرح .

من الصعب الآن الاعتقاد بأنهما عندما سافرا الى اسرائيل كانا قد قررا لنفسيهما مسبقا على أن سفرهما الى اسرائيل لن يكون الى الابد . لكن من السابق لأوانه القول ان الباحث العلمي ومخرجة فن الهواة لم يعلما أنه من الصعب عليهما التلاعب بالجنسية السوفييتية . غير أن اعترافات تبليتسكايا المحزنة جديرة بالثقة : « ان احساسنا بالوعي ، بأننا أنا وزوجي سنعيش حتى آخر أيام حياتنا في اسرائيل كاد يفضي بنا الى الجنون . لقد وجدنا أنفسنا كما لو أننا وقعنا في عالم آخر ، حيث تتحكم القسوة واللامبالاة بمصائر الناس ، ومن ثم صارت هذه القسوة واللامبالاة مظهرا من مظاهر السلوك . وحتى لا يصطدم الانسان يوميا بهذا الواقع ، عليه أن يعيش في داخل برج منفصلا كليا عن الناس .

وتصرخ الصحافة الاسرائيلية عن الكومونيكابلنوست ، لكننا الآن على اتم الاستعداد لأن نمزق تسعرنا : لقد لمسنا الكومونيكابلنوست الحقيقية هناك في كييف ، وفي كل مدينة سوفييتية كنا نسافر اليها !

اما في اسرائيل فان مظاهر الوحدة كنا نلاحظها وسط العمال فقط . لقد كان من الصعب علينا ان نقيم اتصالات مع العمال ، لأن ذلك معناه ان نثير تجاهنا شكوك المسؤولين : ــ كيف يصح لعائلة شخصية علمية بارزة ، لعائلة أكاديميين يتمتعان بامتيازات أن تحتك بالعمال البسطاء !

ثمة دلالة . نعم . فلو بقيت لدى الانسان مشاعر انسانية لوجد نفسه يتصرف تحت اي ثمن ، وتحت أيةظروفحياتية ، ولكن دون أن يمارس وجوده في ظل واقع انعدمت

فيه القيم الاخلاقية وسيطرت عليه شوفينية التاريخ البربري . لقد كان باستطاعتي انا وزوجي أن نسوق عشرات الامثال التي قادت بنا الى اتخاذ قرارنا بالفرار من اسرائيل . ولكني سأصور كل ذلك بكلمات ثلاثة : صورة الحياة المروعة !

لقد أوردت محدثتي هذه البراهين التي تعكس ملامح المجتمع الاسرائيلي المميزة ، هذه الملامح التي يعترف بها حتى الفلاسفة الغربيون في المجتمع البرجوازي المعاصر . ففي اسرائيل ــ الدولة البرجوازية ــ تكون الواقع المريض نتيجة لحروب الاغتصاب الاستفزازية ، وادى بدوره الى انعدام الانسانية التي يشعر بفقدانها الانسان وبشكل حاد . لذا لم أستغرب عندما انهت تبليتسكايا كلامها على النحو التالي :

ــ لقد شعرت عندما كنت في اسرائيل ، كم كانت مدينة كييف انسانية . هذه المدينة التي تعتبر بالنسبة لي أعز مدينة على نفسي !

تذكرت بعد هذا الحديث مع الكيفية السابقة القصائد العظيمة . قصائد الشاعر السوفييتي اليهودي الكييفي دافيد غوفشتيين ، وأخذت أستعيد على ذاكرتي مقاطع من قصيدته « كييف » :

انني أراك يا مدينتي

فانت غالية

حتى الدموع

غالية ،

حتى الآلام

لقد كتب غوفشتيين هذه الابيات في عام ١٩٤٣ ، عندما كانت مدينة كييف ترزح تحت اقدام الهتلريين المحتلين . آنذاك توجه الشاعر الى المحاربين السوفييت في الدنيبر قائلا :

صعدوا ضرباتكم الجبارة

كي يصطبغ الدنيبر

بدم الاعداء

لا شك أن تبليتسكايا الممثلة السابقة التي مثلت على المسرح اليهودي ، تعرف شعر غوفشتيين الرائع ، الذي كان يكره بعمق الشوفينية ، والذي غنى برقة صادقة للأخوة بين الشعوب . وهي تعرف كذلك أن الشاعر غنى فقط لأولئك اليهود الكييفيين الذين غادروا كييف متوجهين عبر البراري ، وعبر أدغال شرق سيبيريا البعيدة لفلاحة الارض ولبناء مدن جديدة . ثم لماذا لم تتذكر تبليتسكايا . وهذا أمر مؤسف ، مقاطع الشاعر المتقنة المتماسكة ، عندمافكرت أن تستبدل جنسيتها السوفييتية بالجنسية الاسرائيلية . لو فعلت ذلك ، لما امضت الآن هي وزوجها الليالي القاتلة في المدينة الصاخبة على الدوناي ، حيث تبدو الحياة قاسية ومريرة لأولئك الذين بلا وطن .

وليس صدفة أن يقول المهندس زلوتسكي ، وهو الذي يقدر كل كلمة ينطق بها ، دون أي انفعال كاذب : ــ « لو خيرت بين الموت وبين العودة الى اسرائيل ، لفضلت الموت » .

ان هذه الكلمات تتوج بشكل مقنع وقاطع القصة عن المهاجرين « الموفقين » .

[١٣]

من اين تبدأ الغربة ؟

— لقد اتيحت لي الفرصة سابقا أن أرى قصر « شيوناو » القديم المحاطة ممراته بالاسوار الحديدية ، قبل أن تعلن الحكومة النمساوية عن عدم رغبتها في اقامة مركز تجمع على أراضيها للمواطنين السوفييت اليهود السابقين الذين يتوجهون الى اسرائيل .

وأنا عندما اذكر هذا المكان ليس من باب الرغبة في رسم لوحة رائعة لخندق من المياه وحاجز كئيبمن الاسلاك الشائكة التي تحيط بقصر مهجور يحمل الى حد ما تسمية شعرية « شيوناو » وهي تعني « روضة جميلة » . كذلك لست بصدد اعطاء وصف خارجي وداخلي لهذا العدد الكبير من الحراس الشبـــان الذين يرتدون القمصـــان العسكرية الزرقاء ، ويحملون على اكتافهم الرشاشات ، والاجهزة اللاسلكية معلقة بأحزمتهم السوداء الكبيرة . فالمكان الذي تحتجز فيه الادارة الاسرائيلية المواطنين السوفييت السابقين فورا بعد مغادرتهم أرضنا سواء في « شيوناو » او في أي مركز تجمع آخر ليس هو المهم . المهم هو أمر آخر : وبالتحديد من مركز التجمع الذي يحمل طبقا للنظام المعمول به اسم المرحلة ، ومن هذه المرحلة تبدأ الرحلة مع الغربة . فمن وراء قضبان الشبابيك التي يخترقها نباح الكـــلاب الاخرس ، يتعـــرض المواطنون السوفييت السابقون على أيدي ممثلي الدولة الاسرائيلية لما يسمى بالاستجواب لعدة ساعات طوال وذلك للحصول منهم على المعلومات والتفاصيل .

— بصراحة ، ان الاسئلة التي تطرح عليهم هي أسئلة تجسسية — هذا ما تقوله الطبيبة لوبوف ايلينيتشنا غوردينا ، وهي مواطنة سابقة من مدينة ريغا — . لقد حاولوا أن يجدوا في كل واحد منا « آلة استعلام » او في أسوأ الحالات مزيفا . حتى النساء اللواتي كما هو معروف ، لا يستدعين في الاتحاد السوفييتي للخدمة في الجيش كما هو الحال في اسرائيل لم يفلتن من محاولة الاستجواب . لقد حاولوا الحصول منهن على معلومات حول تواجد القوات السوفييتية . كذلك طلبوا من الرجال أجوبة خطية حول هذا الموضوع . لقد استمعت باذني الى الاستجواب الذي تعرض له شاب من أوكرانيا سابقا من قبل عميل صهيوني لم يستطع أن يخفي حنقه الشديد : « الهذه الدرجة أنت ساذج ؟ ، الم تستطع ان تدرك بنفسك أننا لسنا بحاجة الى ايمانك ! » .

وتنطبق حكاية غوردينا مع حكايات : المواطن الكييفي السابق غولدنيفا ، والمواطن الريفـــي السابق مبشكوفنا وآخرين ، مـــع أنهم تواجدوا في مركز التجمع في فترات متباينة ، وتعرضوا للاستجواب من قبل مستجوبين مختلفين .

يعطي القادة الصهيونيون للاستجواب الاول (الاستجواب الثاني يتم في مطار اللد) أهمية بالغة : فالشخص القادم الى اسرائيل ، كان منذ ساعات على أراضي الاتحاد السوفييتي . ان أعصابه متوترة ، ولم يع بعد ما الذي حدث له ، لذا يجب الاستفادة من ذلك ! وهكذا ينصب على كل من تطأ قدماه مركز التجمع المعزول عن العالم الخارجي سيل من الاسئلة :

— هل يوجد وسط معارفكم من الذين يعيشون في الاتحاد السوفييتي من يعمل في مجال الاختراعات والاكتشافات العلمية .؟

— هل تعرفون عناوينهم بالضبط .؟

ـــ ما هي الوسيلة من وجهة نظركم لحثهم على السفر الى اسرائيل .؟

ـــ هل يوجد وسط أقربائكم ومعارفكم من يستوجب توجيه دعوة سريعة له .؟

ـــ هل يوجد وسط معارفكم من سافر أو هو بصدد السفر الى اسرائيل ولم يعبأ صهيونيا كما هو مطلوب .؟

ـــ من الذي سافر الى اسرائيل ، من وجهة نظركم ، دون رغبته الشخصية .؟

ـــ هل باعتقادكم أن احدا من الذين وصلوا يجب وضعه تحت المراقبة .؟

وفي حالة الدوران حول الاجابة على مثل هذه الاسئلة الاستفزازية ، فان المستجوب يتعرض لتنبيه يحمل معاني كثيرة : ـــ تدقيقك ليس في مكانه ، وعليك الا تلزم الصمت ، بل عليك انتتكلم . . أن تتكلم !

لقد كتبت هذا الفصل تحت عنوان « من اين تبدأ الغربة ! » . ولكني أدركت الآن ، عندما أخذت تطوف بخيالي هذه الحكايات الكثيرة عن الاستجوابات في مراكز التجمع ، ان الامر ليس على هذه الصورة ، حيث يبدأ بالنسبة للكثيرين من المواطنين السوفييت السابقين « المعسكر العدواني » وليس « الغربة » .

ان الكثيرين من الذين غادروا الاتحاد السوفييتي باسم المثل الصهيونية مضطرين للاعتراف الآن بأن اخوتهم الاسرائيليين ينظرون الى هذه المثل وبالدرجة الاولى على انها « المعاداة للصهيونية » . ثمة من يحاول القيام بدور المستورد « للآثار الادبية » مستهدفا من وراء ذلك أن يكسب لنفسه « راسمالا سياسيا » وان كان الجزء الاعظم من الصائدين وراء « الآثار » ينتهي وهذه حقيقة الى موقف مخجل .

فهذا اتسفي كارمال مثلا ، الذي يقيم حاليا في المدينة الاسرائيلية ناتانيا ، تسرع عندما أعلن بأن أحد اكبر الشعراء السوفييت قد كلفه شخصيا بنشر قصيدته الجديدة في اسرائيل ، هذه القصيدة التي تتناول الوضع القاسي لليهود في البلاد السوفييتية . وتبعته الصحافة الاسرائيلية واعلنت بتسرع كذلك : ان كارمال الوطني الاسرائيلي المخلص قد قام بتمزيق نص القصيدة المذكورة بدقة ، ابان تفتيشه في الجمارك ، بعد أن حفظها عن ظهر قلب . ونشرت القصيدة الى جانب ملاحظات كثيرة عن معنى تغطية اسم الشاعر الحقيقي . وتناقلت الاذاعات المعادية للسوفييت مقاطع منها واذاعتها على الفور . وبعد مرور بضعة أيام اضطرت الصحافة الاسرائيلية للاعتذار بكل خجل أمام قرائها « لعدم الدقة » في نشر القصيدة . لقد اتضح أن انتاج الشاعر السوفييتي الكبير الممنوع ، هو قصيدة « لقد نشأت غريبا » للشاعر الروسي سيميون نادسون الذي عاش قبل الثورة . لقد نشرت هذه القصيدة لأول مرة عام ١٩٠١ ، وهي منشورة ضمن اشعار نادسون .

وما دامت هناك مجموعة جاهزة للتحرك عبر ما يسمى « بالمرحلة » الى مطار اللد ، فسوف تحاول الوكالة الصهيونية مستخدمة شتى الوسائل لقطع خط الرجعة على المواطنين السوفييت . وهنا تتدخل لمساعدة الوكالة الصهيونية البضاعة المزيفة لانسان بلا وطن وهو سولجينتسن . وهذه البضاعة صدرت في الخارج وباللغة الروسية بواسطة الاجانب المعادين للسوفييت .

لقد قال شاب لغريش مايمان بكل ثقة ، وكان يحمل مسدسا ، ويقوم بمهمة أمين

مكتبة مركز التجمع في « شيوناو » : ساعطيك كتابا جديدا لسولجينتسن بدون أن تقف في الطابور . ولكن عليك ان تكتب باختصار ، بالروسية طبعا ، الانطباعات التي تركها بنفسك هذا الكتاب . لا تخش شيئا . فهي ضرورية لدار النشر ، ولمسألة الاحصاء فقط .

لقد شاهدت — قال مايمان — كيف اخفوا في الخزانة الحديدية وبحرص شديد هذه الانطباعات التي لم تستدع اطلاقا اعطائي الكتاب بدون طابور ، لأن معنى ذلك أن مؤلفات سولجينتسن ستتكوم على الارفف في مركز التجمع . وهذا ما دفعني الى أن اتذكر ذلك الكيفي السابق . لقد اقترحوا عليه في اسرائيل أن يكتب في احدى الجرائد الصهيونية مؤكدا ان المقاطع السينمائية التي تم عرضها على شاشة التليفزيون بعد المونتاج عن سولجينتسن هي وثائقية . لكنها في حقيقة الامر كانت عبارة عن مقاطع سينمائية معادية للسوفييت طبخت على انغام الكتابات السولجينتسية .

وفيما بعد صار يستخدم الاستفزاز ضد كل من بقى في مركز التجمع بصور شتى ، وليس فقط بمساعدة مؤلفات سولجينتسن . فهناك « قاعة اللوحات الفنية » التي استخدمت هي الاخرى لاثارة انتباه المتعلقين بقضايا الفن . ويمكن القول أن لوحات الفنانين التجريديين الذين لم تحظ معارضهم باقبال احد ولو ليوم واحد ، على الرغم من انها عرضت في مختلف « القاعات الفنية » للمدن ، تعرض دوريا في هذه القاعة . ولهذا الغرض قاموا بتنظيم زيارات لمشاهدة معرض اللوحات الفنية . وبعد خمس دقائق من مشاهدة المعرض ، كانوا يطلبون من كل واحد تسجيل انطباعاته في دفتر الزيارات .

لقد اطلعت على هذه الانطباعات . انها قليلة على اية حال ، وان كانت تحمل في اكثرها الاعجاب « بالفن المعاصر في العالم الحر » . ومن الانطباعات التي اطلعت عليها كانت انطباعات نولين الذي أطلق على نفسه نحاتا . وفيما بعد لم أعثر لأي اثر على اسم هذا المدعي في فهارس مؤلفات النحاتين السوفييت . وقال لي المهاجرون من مدينة حيفا عن اللقاء الذي قوبل به نولين السالف الذكر في « العالم الحر » عندما أخذ يتحدث عن قضية النحت . لقد قاطعوه . واقترحوا عليه أن يقوم بعمل آخر غير النحت ، أن يقوم مثلا بتلوين نماذج الاعلانات .

وعندما ودع نولين معارفه الذين غادروا اسرائيل تنفس بحزن « يبدو لي انني سامضي عمري هنا . اما انتم فلديكم على أية حال شبه أمل في أن تصفح عنكم الدولة السوفييتية . اما انا فبصفتي مخبولا ، فقد عمدت فور وصولي الى اسرائيل الى تشويه صورة الفن السوفييتي المعاصر أمام مندوبي الصحافة الاسرائيلية . انكم تعلمون كم كان تلفيقي فارغا وبلا معنى ، ومع ذلك فانهم هنا ينشرونه . فهل بامكان انسان مثلي ان يطلب استعادة الجنسية السوفييتية — طبعا سيذكرونني على الفور بأكاذيبي ! » .

ان أول من سيذكر نولين عند ابداء رغبته بمغادرة اسرائيل هي السلطات الاسرائيلية . ستذكره بانطباعاته المدونة في دفتر الزيارات أثناء مشاهدته لمعرض اللوحات الفنية . وبالطبع ستطلعه هذه السلطات على نسخة مصورة لانطباعاته المدونة .

حدثني احد المهاجرين عن اعترافات نولين التي جاءت متأخرة قليلا :

— ما الفرق بيني وبينه ؟ صحيح انني لم أدل لمندوبي الصحافة الاسرائيلية باية اقوال معادية للسوفييت . ولكني أيضا نسيت أن البلاد السوفييتية جعلت مني انسانا .

لقد عاش والداي حياة تعيسة حقيرة ، وكانا محرومين من اية حقوق في العهد القيصري . اما أنا فقد اصبحت متخصصا ، وحصلت على الدراسات العليا . ومع ذلك ، نسيت كل هذا . نعم ، نسيت ، وليس كل هذا فحسب .

وقال ثان :

ـــ عندما احرق الهتلريون اليهود في افران معسكرات الاعتقال ، اقدمت عائلة بيلوروسية على انقاذ والدي من الموت . وقام الروس فيما بعد بتهجيرهما مع الآخرين الى اوزبكستان بعيدا عن خطوط الجبهة . لقد حدثتني امي عن العناية الحارة هناك .

اما انا ...

والثالث حبست صوته الدموع :

ـــ من مدة استعادت ابنتي شريط ذكرياتها ، وتذكرت كيف امضت شهرا اسطوريا في « آرتيك » ! « هل نسيت كل هذا فقط ! ـــ يا الهي ، كم من الاشياء الرائعة قد نسيت منذ اللحظة التي قررت فيها ان اغادر أرضي » !

« ـــ كيف استطعت ان انسى ؟! » .

هذه العبارة يرددها الآن اناس من مختلف العمر ، ومن مختلف المهن ، اناس غادروا الاراضي السوفييتية من مختلف زواياها .

ـــ ليس هذا غريبا . فصورة الحياة الاسرائيلية تذكرهم في كل خطوة يخطونها كيف انهم استطاعوا ، او بالاحرى كيف واتتهم الشجاعة على النسيان .

وهذا واحد من مئات ، بل من آلاف الامثلة : لقد سقط على الارض سلك مكهرب ـــ يقول فلاديمير ريزين ـــ وامام نواظري وقع شخص على الارض ، وصدمه تيار السلك المكهرب .

لا ادري اين يوجد اقرب تليفون .؟

اخذت اتلفت حولي كشخص عاجز لا يستطيع ان يفعل شيئا . صار الجمهور الذي احتشد حول المصاب يبكي . صرخت : « لماذا لا يستدعون له الطبيب ؟ » .

اوضحوا لي عمليا : يجب اولا تفتيش جيوبه ، ومعرفة اذا كان يحمل نقودا او في اسوأ الحالات وثائق معتبرة .

لم يخطر على بالي عن اية وثائق يدور الحديث في مثل هذه اللحظة الحرجة .

قالوا لي : الحديث يدور عن الوثائق التي تثبت ان بامكان هذا الانسان ان يدفع اجرة المساعدة الطبية عند اجرائها له .

ـــ صرخت من الغيظ : بماذا تفكرون ؟ يمكن والحالة هذه ان يلفظ انفاسه !

سمعت جوابا مضحكا : « ان كنت صاحب مصرف فاستدع انت له الطبيب ، وادفع انت عنه اجرة العلاج ! » . عندما حدثت أسرتي عن هذه الحادثة الرهيبة ، اخذ كل واحد فيها يتذكر : كنا نعالج جميعا نحن واقرباؤنا وفي كل الحالات والظروف مجانا .

وكان الطبيب ، مرارا ، ليلا او نهارا ، يحضر للمنزل عند أول اشعار . آخ . ! لا وقت الآن للتذكر ، ولتعداد ذلك . فكل ما يجول الآن في الخواطر أمر واحد : — كيف استطعت أن أنسى . ولو لدقيقة . !

— كيف استطعت أن أنسى ؟!

لقد استمعت للعديد من هذه الاعترافات من المواطنين السوفييت السابقين الذين فروا من اسرائيل . وعندما أتذكر تفاصيل ودقائق حكاياتهم أرى بوضوح ، أن غربتهم لم تبدأ من مركز التجمع ، وانما بدأت من النكران الاسود بالعرفان لأخوة العائلة بين الشعوب السوفييتية . من الخيانة ، حيث كان القلب ينطوي على أفكار لحساب « الوطن الثاني » . ومن النسيان الذي لا يغتفر ، لكل ما أعطته لهم الارض الغالية . وان هذا النسيان لهو الفاصل الاول للانهيار الذي قادهم الى المصير الرهيب ، حيث يعتبرون الآن مواطنين سابقين للدولة السوفييتية .

[١٤]
أسوأ من الموت

السابقون . . !

الا يبدو أن هذه الكلمة كثيرا ما تتكرر في مقالاتي الوثائقية ؟

كلا . انها الكلمة التي لا تعرف الحلول الوسطية والقادرة على طرح الوصف الدقيق لمصائر هؤلاء الناس الذين غادروا الاتحاد السوفييتي الى اسرائيل .

ومع أن هؤلاء الذين تحدثت عنهم لم يرغبوا في أن يتحولوا الى مواطنين اسرائيليين ، لأنهم تيقنوا بعد أن راوا بأم عيونهم ، أنهم سقطوا على ارض غريبة ، وبين أناس غرباء ، وفي وسط اجتماعي غريب . . بكلمة واحدة . . سقطوا في الغربة . وعلى رغم كل ذلك ، فهم السابقون . وبكل ما تحمل هذه الكلمة من قسوة في الراي .

لقد كانوا اناسا يتمتعون بحقوق كبيرة . وكانت آفاقهم بلا حدود . وكانت الدروب مفتوحة أمامهم على مصراعيها ، ولكنهم ضلوا في متاهاتها المظلمة . كانوا واثقين من مستقبل أطفالهم . أما الآن ، فليس لهم الحق أن ينظروا في عيون هؤلاء الاطفال ، والا فسوف يصطدمون بنظرات مشحونة بالتنديد .

وعلى الرغم من كونهم غارقين في مصائبهم ، الا انهم يفكرون في أولئك الذين بدأت تتحرك في بطونهم سموم الدعايةالصهيونية ، حيث يقفون على حافة القدر المحتوم .

انني أجد نفسي ملزما في هذه المذكرات التسجيلية التي لم ارتكب في اية كلمة من كلماتها الخطأ ضد الحقيقة بأن أختتمها بكلمات المهندس زيلبرفاين وهو أحد القاطنين في البيت القائم على مالتسغاس . انه كثير الصمت ، ويمعن في التفكير . وتجده كذلك يصمت ، حتى عندما تسيل من حوله دموع الذكريات عن مدينته اوديسا ، والتي لا يحق له الآن أن يطلق عليها أوديسته الغالية بحكم خطيئته التي ارتكبها .

قال زيلبرفاين :

— أريد أن أصرخ بأعلى صوتي . وأصرخ حتى يسمعني كل من يلتف حول المذياع في الليالي ، ويصطاد « صوت اسرائيل » الذي سبب لنا آلاما لا نظير لها .

— أريد أن أصرخ: أيها الناس لا تكرروا خطأنا الرهيب ، لأن هذا الخطأ قد يبدو من المستحيل علاجه .

— أيها الناس . انه لأسوأ من الموت أن يصبح الواحد منا مواطنا سابقـــا للوطن السوفييتي .

الجبل الصغير *

« مقاطع من قصة لم تتم »

الياس خوري

يسمونه الجبل الصغير ، وكنا نسميه الجبل الصغير . نحمل الحصى ، نرسم الوجوه ، نبحث عن بركة ماء نغتسل بها من الرمل ، او نملؤها رملا ونبكي . نركض بين حقوله او ما يشبه الحقول ، نأخذ سلحفاة بين ايدينا ، ونمضي بها الى حيث اوراق الشجر الخضراء تغطي الارض . نخترع اشياء نقولها او لا نقولها . يسمونه الجبل الصغير ، كنا نعرف انه ليس جبلا ، وكنا نسميه الجبل الصغير .

تلة واحدة او مجموعة تلال . لم اعد اذكر ، ولم يعد احد يذكر . تلة على الطرف الشرقي لبيروت سميناها جبلا ، لان الجبال كانت بعيدة . جلسنا على منحدراتها وسرقنا البحر . الشمس تطلع من الشرق ، ونحن نخرج من حقول القمح في الشرق . نقطف السنابل حبة حبة لنلهو بها . كان الفقراء او ما يشبه الفقراء يركضون اطفالا بين حقول التلال ليسألوا اشياء الطبيعة عن اشيائهم . هذا الذي نسميه عيدا كان يوما ككل الايام ، لكنه يختلط برائحة البرغل والعرق ، نأكلها بين اشياء الطبيعة لنخبرها عن اشيائنا التي بقيت في الذاكرة حلما . كان الجبل الصغير مجرد حافة نخترقها في تعجب وكبرياء . ننسج القصص عن احزاننا وننتظر لحظات الفرح او الموت ، لنلهو بعواطفنا عن رتابة الايام .

يسمونه الجبل الصغير ، وكان يمتطي الحقول الواسعة الى شجيرات الصبير المنتشرة في انحائه . كانت النخلة التي امام بيتنا تنحني من ثقل جذعها الى اليسار . او كنا نخاف ان تلامس الارض او ترتطم بها فاقترحنا ربطها بحبل من حرير وشدها الى نافذة بيتنا . لكن المنزل كان يتهاوى بحجره الرملي السميك ، وسقفه الخشبي . فخفنا ان تسقط النخلة بالبيت حين تسقط . تركناها تنحني يوما بعد يوم . وفي كل يوم امسكها من جذعها المتشقق وارسم عليها صورتي .

كنا نخاف على الجبل وعلى نباتاته . وكان يتقدم الى حافة بيروت ويسقط فيها . وشجيرات الصبير التي تجرح ارجلنا ، تموت ، والنخلة تنحني والجبل يتقدم الى حافته .

★ الجبل الصغير ، هو الاسم الشعبي الذي كان يطلق على حي الاشرفية في بيروت .

يسمونه الجبل الصغير . كنا نعرف انه ليس جبلا ، وكنا نسميه الجبل الصغير.

★ ★ ★

جاؤوا خمسة رجال يقفزون من سيارة جيب شبه عسكرية . يحملون البنادق الرشاشة في ايديهم ، يطوقون المنزل . يخرج الجيران من منازلهم يتفرجون . احداهن تبتسم وترسم بيدها علامة النصر . يتقدمون الى المنزل ويطرقون اباب . تفتح امي باب البيت بتعجب . يسألها قائدهم عني . خرج من البيت . — اين ذهب — لا ادري .

— تفضلوا اشربوا فنجان قهوة .

يدخلون . يبحثون في البيت عني . لم اكن هناك . يبحثون بين الكتب والاوراق. لم اكن هناك . اكتشفوا كتابا على غلافه الخلفي صورة عبد الناصر . لم اكن هناك قلبوا الاوراق واثاث المنزل . شتموا الفلسطينيين . كسروا سريري وهم يفتشونه . شتموا امي والجيل الفاسد . لم أكن هناك .

وقف قائدهم ، يحمل على كتفه بندقية رشاشة وفي يده مسدسا يتوعد . الافضل ان لا يرجع الى هنا .

لم اكن هناك . امي كانت هناك ، ترتجف بالحزن والحقد ، وتمشي في البيت بعصبية . توقفت عن الاجابة على اسئلتهم وتركتهم . جلست على كرسي في المدخل تحرس بيتها ، وهم في الداخل يبحثون عن الفلسطينيين وعبد الناصر والشيوعية الدولية . جلست على كرسي في المدخل تحرس بيتها ، وهم في الداخل يمزقون الاوراق والذكريات . جلست على كرسي ، وهم يرسمون اشارة الصليب على وجوههم علامة الحقد او الفرح .

خرجوا ، رفعوا أيديهم في الشارع باشارة النصر . وكان بعض الناس ينظرون اليهم ويرسمون شارة النصر .

★ ★ ★

سميناه الجبل الصغير عندما كنا صغارا نركض في شوارعه الترابية او على حافة الاسفلت الذي يجرح اقدامنا . نمشي في شوارعه لنبحث عن اشيائنا ونلعب . وفي أيام العطلة أذهب مع ابي واخوتي الى حقوله التي كانت تسمى السيوفي ، حيث نلهو بحرية بين اشجار الزيتون والزنزلخت . هناك نقف على تلة عالية مشرمة على ثلاث طرق ، طريق نهر بيروت ، طريق كرم الزيتون ، وطريق ثالث كنا نسميه طريق بيتنا . نقف على التلة العالية الواسعة ، نركض فيها ، ونخاف دائما من السقوط في احد الطرق الثلاث .

وقف فوق التلة العالية . يمسك بيده اليمنى يد والده الكبير . كان ينظر الى السيارات التي تسير بعيدة عنه في الطريق ويتعجب من كونها صغيرة الى هذا الحد انها لا تشبه ابدا السيارة التي يذهب بها عادة الى منزل خاله البعيد . سيارات صغيرة جدا ، تسير خلف بعضها ، كأنها سيارته الصغيرة التي اشتراها له والده وجعلها تسير امامه ، وهو يغني لها . السيارات المعدنية التي تمشي التي لا صوت لها . تسير في حركة رتيبة خلف بعضها وفي خط مستقيم دون ضجيج او زمامير . لا تتوقف . في

داخلها ما يشبه الناس الصغار الحجم . انهم ليسوا اطفالا في مثل سني — كان يفكر ، وعندما سأل والده مرة عن سر كون هذه السيارات صغيرة الى هذا الحد ، اجابه والده بلهجة العارف بالاسرار ، ان السبب يعود الى كون الاشرفية جبلا ، كان البيروتيون يقصدونه للاصطياف . وهي جبل عال بالقياس الى بيروت . فالمسافة التي تفصلنا عن طريق نهر بيروت هي مسافة عالية ، كذلك تلك التي تفصلنا عن طريق كرم الزيتون . وكلما بعدت المسافة تصغر الاشياء . وغدا عندما تكبر سوف ترى السيارات صغيرة جدا . لأن الرؤية ترتبط كذلك بحجم الذي يرى . كنت اهز رأسي دليل الفهم دون ان افهم شيئا . وغالبا ما كنت اترك والدي يتكلم حكايته التي يكررها دائما عن المسافات والسيارات ، والتهي بملاحقة احد الزيزان المذهبة وهو يطير بين الحشائش الخضراء او يقف بين اغصان شجر الزيتون .

صف طويل من السيارات الصغيرة التي لا تصدر اصواتا . نجلس على حافة التلة نتأملها ، وننتظر اليوم الذي سنكبر فيه فنراها صغيرة جدا ، او ننزل الى الطريق فنراها كبيرة . تسير امامنا وكأنها قطرات ماء ملونة ، لها احجام مختلفة . شاحنات ، ناقلات نفط ، سيارات صغيرة من مختلف الانواع . نميزها دون ان نعرف الاسماء او الوظائف . كانت بعيدة وصغيرة ، ونحن نمسك بأيدي بعضنا وننتظر ان نكبر ، فتصغر اكثر ، نمسك بأيدي بعضنا وننتظر ان نفهم السر . ودائما كنت اتعجب كيف تكون السيارة صغيرة لانها بعيدة . واحلم بقصص الاقزام التي اخبرونا اياها في المدرسة ، او بقصص الرجل الذي مسخه الشيطان الى قزم كما تخبرني جدتي .

الجبل الصغير في مكانه ، الحشائش التي تغطي جسده الجميل ، بدأت تخلي مكانها للطرقات ، فرحنا بافتتاح اول سينما في السيوفي . لكن المفاجآت كانت تنتظرني. كنا نكبر دون ان يحصل ما انتظرناه طويلا . نكبر ونذهب الى السيوفي لنتفرج على السيارات فنراها تكبر . نحن نكبر والسيارات تكبر . الحركة تحيط بنا والاصوات ترتفع . نحن نكبر والخطوط التي كانت مستقيمة تتعرج الى ما لا نهاية ، والاصوات تصبح اكثر اقترابا ، والمساحات اكثر ضيقا . امشي وحيدا ، والجبل الصغير يتقوس ويتعرج . ابحث عن ذكرياتي حين كان احد الشعانين عيدا نخرج به من الكنيسة بنبرة شرقية ، فلا اجد من الذكريات الا صورة صغيرة مهملة في جيبي .

السيارات تكبر ، تحيط بي . الاشجار تصغر او تختفي . انا اكبر والسيارات تكبر ، وحول رقبتي اصواتها ، الوانها ، احجامها . الآن نميزها لكننا لا نفهم . التوقعات القديمة او الذكريات القديمة مجرد توقعات او ذكريات .

في الليل ، تصعد السيارات من الطرق الثلاثة الى التلة المرتفعة ، او تأتي اليها تحيط بي الاضواء التي تسحق العينين . يحاصرني صوت محركاتها وهي تتقدم الى وجهي . السيارات كبيرة ، لها عيون واسعة تمد خيوطا من اللهب الذي لا يحرق . تضع على وجهي علامات الرهبة والاسئلة والاجوبة .

السيارات تكبر ونحن نكبر . والطرق الواسعة تكبر . والاشجار تنحني على الجبل الصغير . اين اصبحت معادلات والدي وهو يروي لي حكايات المسافة والعلو والكبر ؟.

تقف وحدك ، وسط نهر من الاضواء التي تمنعك من الرؤيا وتسرق ذاكرتك . وتذهب للبحث عن بيتك وحيدا وبلا ذكريات .

★ ★ ★

اخبرني ابو جورج قصة الاسماء . وابو جورج هو صديقي منذ ان كنت اسير وحيدا بين الاضواء ابحث عن معادلات ابـــي في الجبل الصغير . يلتقينـــي وحيدا ، اجلس على حافة هضبة تطل على خط القطار البطيء الذي بقي وحيدا من ذاكرتي ، ويخبرني ذكرياته عن الفرنسيين والحرب العالمية .

يروي ان السيوفي ، كانت ارضا واسعة يملكها رجل اسمه يوسف الصغير . من اجل ذلك سميت الاشرفية جبل الصغير . ثم اشتراها الاخوان الياس ونقـــولا السيوفي بأرخص الاسعار . وبنوا فيها بعد الحرب العالمية الاولى معملا للموبليا . فاصبحت المنطقة تسمى باسميهما .

المصنع ، وهو في الواقع مشغل كبير ، لا يشذ عن اولوية الصناعات الخفيفة في بلادنا ، كان حدثا . يعمل فيه حوالي خمسين عاملا . بنوا الاكواخ قربه ، وفتح الى جانبه مقهى صغير يقدم القهوة والعرق . كان المصنع مشروعا جديدا ؛ وكان الناس يعتادون لاول مرة على نمط جديد من الحياة . آلات حديثة . مفروشات على النمط الاوروبي لا يعلمون اين ستذهب ، ولا كيف ستباع . يقبضون في نهاية الشهر مرتبات او ما يشبهها ، يعطون قسما منها لنسائهم ، ويشربون العرق بما تبقى .

عندما بدات المنطقة تعتاد على النمط الجديد من العلاقات والعمل ، دخلها نمط جديد من السرقة . فبدل النمط القديم الذي كان يمارسه رجل يدعى ندره ، يسكن في الطرف الشرقي من المنطقة ويمارس فرض الخوة على طريقة الشهامة العربيـــة القديمة . دخلت السرقة المنظمة الى المنطقة . السرقة التي تقوم بها عصابات تخطط لما تريده ، تسرق دون رحمة ولا شهامة ولا اعتبارات مبدئية . اهم حدث كرس النمط الجديد من السرقة ، كان سرقة معمل السيوفي نفسه . ففي آخر الشهر ، يذهـــب المحاسب الى بيروت ، ليجلب مرتبات العمال الى المعمل حيث يجري توزيعها . كمن له اللصوص عند احد المفترقات ، سرقوا ماله وتركوه يصرخ في الطريق . تنبه العمال على صوت المحاسب ، تجمعوا حول صراخه . ركض الرجال والنساء والاطفـــــال ولحقوا بالسارقين . السارقون يركضون ، والناس تركض خلفهم من المفارق والازقة الترابية . وقبل ان يصل الناس الى اللصوص ، توقف اللصوص عن الركض ، رموا الدراهم في الطريق ، وتابعوا ركضهم . عندها انحنت الاجسام على الدراهم وبدأت الايدي تتخاطفها . ونسي الناس اللصوص وتركوهم يهربون ، وبداوا يتناوبون بغير انتظام على التقاط الدراهم من الارض .

هذا ليس نمطا شهما مـــن اللصوصية يقول ابو جورج . لمـــاذا ؟ لان الناس بأسرها نسيت الشرف وتبعت الدراهم . تساهلوا مع اللصوص والتقطوا دراهـــم المصنع . هنا بدأ الانحدار . ويروى ، تابع ابو جورج ، ان المعمل بدأ عملية افلاسه من هذه اللحظة . فمات الياس السيوفي من الحزن وباع شقيقه نقولا الارض الـــى الناس . فقسمت الى ملكيات صغيرة .

لكن ابو جورج ، يقول ان الافلاس ، ربما كان له سبب آخر . فهناك بعـــض الناس الذين قابلوا نقولا السيوفي ، الذي كان يعمل فراشا في وزارة المالية ، بعـــد افلاسه ، يروون ان السبب يعود الى السكر ولعب القمار ومعاشرة الاجانب . الله اعلم ، يقول ابو جورج . لكن منذ بدأ هذا النوع الجديد من السرقة ، بدأت عمليـــة انحدار الناس . واصبحنا نتعامل مع اشياء لم نكن نعرفها في زمننا .

★★★

هل الجبل ينحدر ؟

كانت السيارات الكبيرة تتقدم ، تجتاحنا ، وترسل انينها في ارجاء الشوارع . الجبل يخترق من جميع النواحي . يقطعون الاشجار ويقيمون البنايات . آلات جبل الاسمنت اصبحت شعار المرحلة . في كل شارع آلة يتراكض من حولها العمال السوريون والاكراد . يرمون في احشائها الرمل والحصى والماء . فتدور على نفسها وترمي بعد ذلك الاسمنت الذي تبنى به البيوت العالية الحصينة . تنبت البنايات وكأنها ولدت هنا . وتتساقط الحجارة الرملية الدافئة والسميكة لتأتي مكانها حجارة الاسمنت المجوفة والباردة . والعجلة تدور . مئات العمال يأتون من اكواخ التنك المزروعة على المدخل الشرقي لبيروت والتي تسمى الكرنتينا ، ليحملوا الحصى والرمل ، ويمدوا الاسمنت على الساحات .

تأتي الجرافة ، فتسوي التلة بالارض ، او بالعلو الذي افترض للارض . وتتساقط النخلة امام بيتنا بين فكي الجرافة . جذورها المنتشرة فوق الارض ، في بركة من الحجارة والرمل ، تقتلع وتتساقط . تتمزق كالشرايين الصغيرة أمام القذائف . والابنية الجديدة تعلو . جبال من الابنية والطرقات والساحات .

هل الجبل ينحدر ؟

اسير على مفترقاته ، ابحث عن طفولتي . اجد امامي عا_ التلة التي اسميها جبلا ، منحدرا صغيرا يفصل الجبل عن نهر بيروت . السيارات الصغيرة كبرت ، وانا كبرت . والبنايات العالية اصبحت تغطي البحر . كنت اعتقد اننا سرقنا البحر . لكن رائحة الاسمنت المسلح سرقت رائحة البحر .

لم ينحدر الجبل .

الاصوات على مداخله ، والابنية تتوالد ، والساحات تبنى . هذا الصوت المرتفع لم يعد صوتي . الاصوات تنحني على المداخل ، والحركة اصبحت عنوان لحظة جديدة . هذا هو الجبل الصغير الذي لم ينحدر .

تعلو الحجارة وتعلو الرؤوس . تعلو الموسيقى الصاخبة وتعلو الرؤوس . احمل على جسدي وشما قديما يعود الى الايام وانتظر على حافته .

١٩٥٦ : العدوان الثلاثي على مصر . كنا في مدرسة الحي الفقيرة والصغيرة . كنا صغارا . نستمع الى راديو صوت العرب . نذهب الى البيت ونفرح عندما تنتصر مصر .

١٩٥٨ : المتاريس في الحي . الوجوه كالحة . المسلمون يريدون قتلنا . لم تصدق امي . كانت دائما تقول ، هذا غير معقول . انهم يشبهوننا كثيرا .

الابنية العالية تصبح متاريس . تغيرت الاشياء . الاصوات ترتفع . تغيرت الاشياء . السيارات تكبر ونحن نكبر .

★ ★ ★

يتابع أبو جورج رواية قصته عن معمل الموبيليا . لا يمل الحديث عن ذكريات الحي . يعتبر نفسه جزءا من تاريخه . وفي كل لحظة يتساءل معي عن جدوى الحياة . يحدثني طويلا عن شقيقه الذي كان جنديا في الجيش الفرنسي في حوران ، فتمرد ابان ثورة جبل الدروز ، ودفع ثمن تمرده ميتة رهيبة في الزنازين الرطبة . المهم في الموضوع ، ان المعمل بعد افلاسه لم يهدم . بقي البناء الكبير في مكانه فارغا من الآلات والشغيلة . كنا نذهب الى هناك لنتفرج عليه ، ندخله فنراه مظلما ، لكنه بقي نظيفا طوال الوقت . ثم جاءت الحرب العالمية الثانية . لم نعرف الويلات التي عرفناها في الحرب الاولى ، لكننا عرفنا قصف الطائرات . حول الجيش الفرنسي المعمل الى مقر عسكري له . الى ما يشبه الثكنة العسكرية ، التي كان يسكنها عشرات الجنود الفرنسيين ومعهم جنود اعتقد انهم صينيون ، كان يقال انهم من الهند الصينية ، كانوا قصار القامة ، صفر الوجوه ، شبه حفاة ، يلبسون في اقدامهم احذية من المطاط التي لا تقي من البرد . كانوا بمثابة فراشين عند الجيش الفرنسي، يطهون الطعام ، يعدون القهوة . و فياوقات الراحة ، يغنون اغنيات خاصة بهم ،بلغة لم استطع فهمها ، رغم انني حاولت أن اقيم معهم علاقة حسنة .

وفي اوقات القصف ، كان الجنود ينتشرون بين التلال . وكان هؤلاء القصار القامة ، يتراكضون ، باقدامهم الصغيرة التي تلبس احذية المطاط ، بين التلال وينتشرون بين سنابل القمح وهم يتكلمون بسرعة لغتهم الغريبة .

طبعا ، نال لبنان استقلاله بعد الحرب ، وغادرنا الجنود الفرنسيون ، وذهب هؤلاء الجنود الصغار القامة الى بلادهم . واعتقد انني رأيتهم او رأيت ما يشبههم في التلفزيون عندما كانت تعرض بعض الافلام عن حرب فيتنام .

★ ★ ★

جاؤوا . خمسة رجال يقفزون من سيارة جيب شبه عسكرية . يحملون البنادق الرشاشة في أيديهم . يطوقون المنزل . يخرج الجيران من منازلهم يتفرجون . احداهن تبتسم وترسم بيدها علامة النصر . يتقدمون الى المنزل . ويطرقون الباب ، تفتح امي باب البيت بتعجب . يسألها قائدهم عني . خرج من البيت . — اين ذهب — لا أدري .

— تفضلوا اشربوا فنجان قهوة .

يدخلون . يبحثون في البيت عني . لم اكن هناك . يبحثون بين الكتب والاوراق. لم اكن هناك . اكتشفوا كتابا على غلافه الخلفي صورة عبد الناصر . لم اكن هناك تلبوا الاوراق واثاث المنزل . شتموا الفلسطينيين . كسروا سريري وهم يفتشونه . شتموا امي والجيل الفاسد . لم اكن هناك .

وقف قائدهم . يحمل على كتفه بندقية رشاشة ، وفي يده مسدسا يتوعد .
— الافضل ان لا يرجع الى هنا .

لم اكن هناك . امي كانت هناك . ترتجف بالحزن والحقد ، وتمشي في البيت بعصبية . توقفت عن الاجابة على اسئلتهم وتركتهم . جلست على كرسي في المدخل تحرس بيتها ، وهم في الداخل يبحثون عن الفلسطينيين وعبد الناصر والشيوعية الدولية . جلست على كرسي في المدخل تحرس بيتها . وهم في الداخل يمزقون

الاوراق والذكريات . جلست على كرسي . وهـم يرسمون شارة الصليب عـلى وجوههم علامة الحقد او الفرح .

خرجوا ، رفعوا ايديهم في الشارع باشارة النصر . وكان بعض الناس ينظرون اليهم ويرسمون شارة النصر .

★ ★ ★

تدخل السيارات الكبيرة التي تملأ الشوارع . سيارات شبهعسكرية مدهونة باللون الاسود . تطلق زماميرها وهي تسير . يقفز منهـا رجال يحملون ابنـادق الرشاشة . احدهم يضع منظارا يتدلى من رقبته ويركض من زاوية الى اخرى . يصرخون في الناس . يرتجفون بالكراهية . يقف رئيسهم الذي يضع منظارا يتدلى من رقبته ويجيب على اسئلة بعض الفضوليين . يحدثهم عن حصار الكرنتينا . سوف ندمرها على آخرها ونطرد الغرباء من لبنان . سننتصر على الغرباء والشحاذين الذين يريدون سرقة بلادنا .

يركب سيارته الشيفروليه شبه العسكرية ويمضي . الرجال يتراكضـون . يسيرون في الشوارع بخطـوات منظمـة . هان ــ دوي ، هان ــ دوي . [تعبير عسكري الماني يعني واحد ، اثنين ، كان يستعمله المسلحون في حينا . لا أعلم السبب لكنه كان يستعمل على نطاق واسع !] .

تجول السيارات في الشـوارع . تأكل السيارات الشوارع بين اسنانهـا . السيارات الكبيرة ترسل زمامير الخطر . اقف امامها : عجلاتها كبيرة جدا ، طويلة وضخمة .

تأكلني المعادن السوداء : يقولون حواجز . وانا ارى وجهي يتساقط في الطريق. تأكلني المعادن السوداء : صوتي يتدحرج وحيدا ، ويمتد الى حيث جثث أصدقائـي التي تدفن في مقابر جماعية . تأكلني المعادن السوداء : الايدي التي ترتفع لا تلـوح بالرايات ، بل تمسك الموت . المعادن في الطريق ، الخوف وقوارير الغاز الفارغـة والجثث وعلب التبغ المهرب في الطريق . جاء وقت النصر . جاء وقت الموت . جاءت الحرب . وامي تهز رأسها وتحدثني عن الفقراء .

★ ★ ★

يسمونه الجبل الصغير ، وكنا نسميه الجبل الصغير . نحمل الحصى نرسـم الوجوه ، نبحث عن بركة ماء نغتسل بها من الرمل او نملؤها رملا ونبكي . نركض بين حقوله أو ما يشبه الحقول ، نأخذ سلحفاة بين ايدينا ونمضي بها الى حيث اوراق الشجر الخضراء تغطي الارض . نخترع اشياء نقولها او لا نقولها . يسمونه الجبل الصغير ، كنا نعرف انه ليس جبلا ، وكنا نسميه الجبل الصغير .

تلة واحدة او مجموعة تلال . لم اعد اذكر ولم يعد احد يذكر . تلة على الطرف الشرقي لبيروت سميناها جبلا ، لان الجبال كانت بعيدة . جلسنا على منحدراتهـا وسرقنا البحر . الشمس تطلع من الشرق ، ونحن نخرج من حقول القمح في الشرق ، نقطف السنابل حبة حبة لنلهو بها . كان الفقراء او ما يشبه الفقراء يركضون اطفالا بين حقول التلال ليسألوا اشياء الطبيعة عن اشيائهم . هذا الذي نسميه عيدا كـان

يوما ككل الايام ، لكنه يختلط برائحة البرغل والعرق ، نأكلها بين اشياء الطبيعة لنخبرها عن اشيائنا التي بقيت في الذاكرة حلما . كان الجبل الصغير مجرد حافة نخترقها في تعجب وكبرياء . ننسج القصص عن احزاننا وننتظر لحظات الفرح او الموت ، لنلهو بعواطفنا عن رتابة الايام .

يسمونه الجبل الصغير ، وكان يمتطي السهول الواسعة الى شجيرات الصبير المنتشرة في انحائه . كانت النخلة التي امام بيتنا تنحني من ثقل جذعها الى اليسار . وكنا نخاف ان تلامس الارض او ترتطم بها . فاقترحنا ربطها بحبل من حرير وشدها الى نافذة بيتنا . لكن المنزل كان يتهاوى بحجره الرملي السميك ، وسقفه الخشبي . فخفنا ان تسقط النخلة بالبيت حين تسقط . تركناها تنحني يوما بعد يوم . وفي كل يوم امسكها من جذعها المتشقق وارسم عليها صورتي .

كنا نخاف على الجبل وعلى نباتاته . وكان يتقدم الى حافة بيروت ويسقط فيها وشجيرات الصبير التي تجرح ارجلنا ، تموت ، والنخلة تنحني ، والجبل يتقدم الى حافته .

يسمونه الجبل الصغير . كنا نعرف انه ليس جبلا ، وكنا نسميه الجبل الصغير .

★ ★ ★

في الثالثة من عمري ، جاء كاهن الحي بجبته الطويلة السوداء ، ولحيته الجميلة . جلس في بيتنا وتحلقنا جميعا حوله . بدأ يخبرنا النوادر والقصص . ثم حدثنا عن انجازات ستالين والبولشفيك . التفت الي ، داعب شعري ، وقال لامي ان الوقت قد حان لانذر للقديس انطونيوس والبس عباءته . [لبس عباءة القديس انطونيوس ، هو تقليد عند غالبية المسيحيين الشرقيين في بلادنا ، يلبسونها لاولادهم تبركا بذكرى اول راهب مسيحي ترك المدينة وذهب الى صحراء سيناء حيث اسس اول تقليد رهباني في الكنيسة] .

العباءة بنية اللون ، وعلى الخصر حبل ابيض يتدلى . امشي في الشوارع واقلد حركات القديسين . امشي وحولي اطفال يلبسون العباءة او لا يلبسونها . نتقدم صفا طويلا ، الى حيث الايقونات المذهبة والزجاج الذي تلونه الشمس . وحين انسى انني اصبحت قديسا ، اركض ، العب بالحصى والرمل . اقع على الطرقات. ثم حين اعود الى البيت ، تنظر امي الى ثياب القديس الملوثة ، تضربني على وجهي وتشتمني . ثم تأمرني ان اركع واصلي . اركع واصلي فينسى القديسون انني تركتهم وذهبت لالعب مع الاطفال الآخرين .

امشي مزهوا بعباءتي البنية الجميلة . اقلد حركات الكاهن . اذهب الى المدرسة فخورا بثيابي ، واضع فوق رأسي هالة مدورة من اوراق الاشجار .

مات كاهن الحي فجأة . لم افهم ماذا يعني خبر موت الكاهن . اذكر انني بكيت لان اختي بكت كثيرا . ثم بعد حوالي ستة اشهر كما اذكر [ربما لم اعد اذكر الحادثة، لكنها مطبوعة في ذاكرتي لان امي روتها لي عشرات المرات] . ذهبت مع امي وابي الى الكنيسة . كان التقليد هو خلع ثياب الراهب الجميلة في الكنيسة حيث تقدم الى الهيكل ، ثم تضاء الشموع كشكر او كصلاة .

ذهبنا الى الكنيسة ، كنت فرحا ومندهشا . وصلنا الى بابها الكبير الذي يبقى مفتوحا بشكل دائم . كان الباب مغلقا . طرق ابي على الباب ، لم يفتح أحد . طرقت امي ، لم يفتح احد . ماذا نفعل قال ابي . طرقت على الباب ، ركلته بقدمي . نترك العباءة على باب الكنيسة اجابت امي .

ـ والشموع ؟

ـ نضيئها في الاسبوع القادم .

طرقت على الباب ، ركلته . لم يفتح احد . قام ابي وساعدني على خلع العباءة. بدات ابكي . اخذت امي العباءة ووضعتها امام الباب ورسمت اشارة الصليب . كنت ابكي . امسكني ابي ومشينا الى البيت . لم يفتح احد باب الكنيسة . تركنا العباءة على الباب ، وعدت حزينا . ولم نضيء الشموع في الاسبوع القادم .

★ ★ ★

جاؤوا .

خمسة رجال يقفزون من سيارة جيب شبه عسكرية . يحملون البنادق الرشاشة في ايديهم . خمسة رجال يلبسون قبعات كبيرة سوداء ، يتدلى من رقابهم صليب اسود كبير الحجم . يطوقون المنزل . يقرعون اجراس الكنائس ، ويطرقون الباب .

خمسة صلبان طويلة سوداء تتدلى امام امي وهي تفتح الباب . تتمتم بعبارات غير مسموعة . تغلق الباب في وجوههم وتبكي .

خمسة رجال يكسرون الباب ، ويسألون عني . لم اكن هناك . اكتشفوا كتابا على غلافه الخلفي صورة عبد الناصر . لم اكن هناك . امي كانت هناك ترتجف بالحزن والحقد والخوف . امي كانت هناك . جلست على كرسي في المدخل تحرس بيتها ، وهم في الداخل يبحثون عن الفلسطينيين وعبد الناصر والشيوعية الدولية . جلست على كرسي في المدخل تحرس بيتها ، وهم في الداخل يمزقون الاوراق والذكريات .

امي كانت هناك ،

لم اكن هناك .

كنت في الجانب الشرقي من المدينة ، ابحث مع رجال قصار القامة ، شبه حفاة ، يلبسون في اقدامهم احذية من المطاط لا تقي من البرد . كنت في الجانب الشرقي من المدينة ابحث عن الجبل الصغير ممدا على قامة رجال ينبت البحر في عيونهم الجميلة .

جامعة عربية في فلسطين : دراسة أولية

الدكتور حنـا ناصـر

لقد قامت محاولات كثيرة منذ زمن الانتداب البريطاني لاقامة جامعة عربيـة في فلسطين(١) ، ولكن جميع هذه المحاولات فشلت حتى الآن(٢) . وفي بضع السنوات الاخيرة ازداد اهتمام القيادة الفلسطينية بالتعليم الجامعي وأجريت عدة دراسات(٣) ، بحثت في التعليم الجامعي بشكل عام وافترضت ضمنا ــ بسبب وجود الاحتلال ــ اقامة جامعة فلسطينية خارج فلسطين . والبحث التالي يأتي مكملا للدراسات السالفة الذكر ، ويحتوي علـى توصيات عامة واقتراحات بصدد جامعـة عربية (أو كليات جامعية) في فلسطين نفسها .

لا يمكن في الوقت الحاضر انشاء مؤسسات جامعية عربية في فلسطين الا في الجزء المحتل منها بعد عام ١٩٦٧ . ولن تعم فائدة مثل هذه المؤسسات حاليا الا على أبناء الضفة الغربية وقطاع غزة ، وذلك لأن الحكم العسكري يمانع في التحاق أبناء فلسطين المحتلة قبل عام ١٩٦٧ (أي عرب اسرائيل) والفلسطينيين الموجودين في الخـارج بمؤسسات الضفة الغربية وقطاع غزة .

وبالرغم من هذا التقييد ، فان قيام جامعة عربية على اي جزء من فلسطين هو أمر بالغ الأهمية . فعدا عن الاهمية التربوية والثقافية ، التي تعد من الاهداف الكلاسيكية لأية جامعة ، فان وجود جامعـة فلسطينية يؤكد شرعية الشعب الفلسطيني على أرضه ووطنه ويحافظ على هـذه الشرعية . واذا روعـي التخطيط الصحيح ، يمكن للجامعة أن تلعب دورا أساسيا في خلق جيـل قادر علـى تحمل القيادة ومواجهة تحديات المستقبل . ولا شك بأن معاناة الشعب الفلسطيني تفرض نمطا معينـا من التخطيط . ومن الانسب أن لا تكرر الجامعة في برامجها كل ما يعمل به في الجامعات العربية أو الاجنبية ، بل يجب أن تنطلق الى الامـام متمسكة بفلسفة مرتبطة بأماني الشعب الفلسطيني . وبالطبع سيكون هنالك حاجة دائمة أثناء التخطيط ، وبعد انشاء الجامعة ، لتربويين مختصين لتحديد البرامج الدراسية والثقافية في الجامعة وحتى لأسلوب الحياة الجامعية فيها(٤) .

وفي مجال البحث عن التعليم الجامعي ، تجدر الاشارة الـى ان التعليم الجامعي ــ داخل فلسطين وخارجها ــ يساعد في هجرة الخريجين اذا لم تتأمن وظائف كافية لهم . وبما أن وجود هذه الوظائف يعتمد الى حد بعيد على مشاريع التنمية والتطوير في البلاد ، فان من الامور الاساسية التي يجب أن تهتم بها القيادات الفلسطينية هي دعم هذه المشاريع في الارض المحتلة . ولا شك ان مثل هذا الدعم سيكون لـه أثر كبير في دعم صمود المواطنين .

وينطلب التخطيط الجامعي معرفة عدد الطلبة المرغوب تأمين التعليم الجامعي لهم وكذلك معرفة الاختصاصات المطلوبة والتكاليف ومساحة الارض المزمع بناء الجامعة عليها . وستبحث كل هذه الامور في البنود التالية :

١ ــ عدد الطلبة الجامعيين

يبدأ التخطيط الجامعي عادة بتقدير عدد الطلبة الذين يجب تأمين التعليم الجامعي لهم . وتقدير هذا العدد صعب لأنه يتوقف على مدى التنمية المطلوبة في البلد ومدى امكانيات التطوير وتوفر الاموال اللازمة والاحوال السياسية الملائمة . وجميع هذه الامور غير واضحة في الارض المحتلة . وبالرغم من وجود هذه الصعاب فقد يساعد في تحديد الاعداد مقارنة نسبة الطلبة الجامعيين الى السكان في عدد من البلاد العربية والمتقدمة ، والجدول التالي(٥) يبين هذه المقارنات لعام ١٩٧٠ .

جدول (١) ــ نسبة الطلبة الجامعيين الذين يدرسون في بلدهم أو في الخارج بالنسبة لكل ١٠٠٠ من السكان

البلــد	النسبة	البلــد	النسبة
فلسطين والاردن	١١ر٢	ليبيـــا	١ر٨
الجزائر	٧	البحريــن	١ر٦
لبنـــان	٦	السودان	ر٨
سوريا	٦	السعودية	ر٥
مصــر	٤ر٥	الولايات المتحدة	٣٠
العراق	٣ر٢	الاتحاد السوفياتي	١٨
الكويت	٣	فــرنسا	٩
تونس	٢	انجلتــرا	٨

ويظهر من الجدول الاول أن نسبة التعليم الجامعي لابناء فلسطين والاردن هـــي نسبة عالية عند مقارنتها بالدول العربية الاخرى وحتى ببعض الدول الغربية . وقد دلت الدراسات(٦) ان ٩٠٪ من طلبة فلسطين والاردن الجامعيين هم طلاب فلسطينيون وان نسبة التعليم الجامعي للفلسطينيين كانت في عام ١٩٦٦ حوالي ١٢ لكل الف من السكان الفلسطينيين(٧) . وستستعمل هذه النسبـــة كأساس لتحديد اعداد الطلبة المطلوب تأمين التعليم الجامعي لهم . وعلى افتراض أن ١٠٪ يتركون الجامعة بعد السنة الاولى و ٧٪ بعد السنة الثانية و ٥٪ بعد السنة الثالثة(٨) ، فان توزيع الطلبة على الأربع سنوات الجامعية يظهر في جدول رقم(٢) .

جدول (٢) ــ نسبة توزيع الطلبة الجامعيين بالنسبة لكل ١٠٠٠ من السكان

السنة الجامعية	النسبة
السنة الاولى	٣ر٤٠
السنة الثانية	٣ر٠٦
السنة الثالثة	٢ر٨٤
السنة الرابعة	٢ر٧٠
المجمــوع	١٢ر٠٠

وتدل الاحصائيات ان عدد سكان الضفة الغربية وقطاع غزة قد بلغ ٠٠٠ر٠٠١ر١ نسمة في عام ١٩٧٥ . واعتماداً الى النسب المبينة في الجدول رقم (٢) ، يكون المجموع المقترح لطلبة الجامعات ٢٠٠ر١٣ طالبا ، منهم ٣٧٤٠ طالبا في السنة الاولى . وبما ان هنالك تزايدا طبيعيا في سكان الضفة وغزة مقداره ٣٪ سنويا فان الاعداد المقترحة للتعليم الجامعي يجب ان تزداد بهذا المقدار سنويا . والجدول التالي يبين الاعداد المقترحة للتعليم الجامعي ابتداء من عام ٧٦/٧٥ وحتى ٨١/٨٠ ، كما يبين الجدول عدد طلبة السنة الاولى والسنة الرابعة — أي سنة التخرج .

جدول (٣) — الاعداد المقترحة للتعليم الجامعي

	٧٦/٧٥	٧٧/٧٦	٧٨/٧٧	٧٩/٧٨	٨٠/٧٩	٨١/٨٠
طلبة السنة الاولى	٣٧٤٠	٣٨٥٢	٣٩٦٨	٤٠٨٧	٤٢٠٩	٤٣٣٥
طلبة السنة الرابعة	٢٩٧٤	٣٠٦٣	٣١٥٥	٣٢٥٥	٣٣٤٧	٣٤٦٣
مجموع الطلاب (أربع سنوات)	١٣٢٠٠	١٣٥٩٦	١٤٠٠٣	١٤٤٢٤	١٤٨٥٦	١٥٣٠٢

وتجدر الاشارة الآن الى ان عدد الطلبة الذين تخرجوا من المدارس الثانوية في الضفة الغربية وقطاع غزة في عام ٧٥/٧٤ كان ٩٥٠٠ . وعلى هذا الاساس ، فاعداد الطلبة المقترحة للالتحاق بالسنة الاولى في الجامعات — أي ٣٧٤٠ — تشكل ٣٥٪ من خريجي المدارس الثانوية . وتتلاءم هذه النسبة مع نسبة الطلبة المؤهلين(٩) للالتحاق بالجامعات .

وبالطبع تبرز الآن مشكلة بقية الطلبة والذين لا يلتحقون بالجامعات اذ سيواجهون صعوبة في التوظيف لأنهم غير مؤهلين بعد المرحلة الثانوية آلا للعمل في الوظائف البسيطة . وقد تحل مشكلتهم بتوجيههم الى الاعمال المهنية ، ولكن هذا الموضوع يحتاج بحد ذاته الى دراسة وبحث وربما توصيات بتغييرات جذرية في نظام التعليم دون المرحلة الجامعية ولا شك ان وجود جامعة يساعد في احداث التغييرات .

وتبقى أخيرا مسألة توزيع التعليم الجامعي بين الذكور والاناث . فالاناث تشكل ٥٠٪ من المجتمع ولكن مساهمتهن في تطوير المجتمع تقل كثيرا عن هذه النسبة . ويعود السبب الى النسبة المنخفضة لتعليم الفتيات في العالم العربي ، اذ يقدر أن من خريجي الجامعات ١٠٪ فقط هم نساء (و ١٪ منهن حاصلات على شهادة الدكتوراه) . وليس معقولا حاليا ان تكون نسب التعليم للفتيات في الجامعات مساوية للشباب ولكن يجب أن تزداد النسبة الى ما يقرب من ٣٠٪ كما هي الحال في عدد من البلاد المتقدمة .

٢ — الاختصاصات والاحتياجات

تدل الاحصائيات الحالية ان التخصصات العلمية للطلبة من فلسطين والاردن لا تزيد عن ٤٢٪ من مجموع التخصصات (الباقي تخصصات أدبية) . وفي الدول المتقدمة تصل نسبة التخصصات العلمية الى أكثر من ٦٠٪ . ولمجاراة هذه الدول يجدر — أثناء التخطيط الجامعي — تغيير التحيز نحو التخصصات الادبية . وكخطوة أولى يمكن جعل

نسبة التخصصات العلمية والادبية متساوية ، وعلى ذلك تكون اعداد الطلبة المقترحة للتخصصات العلمية او الادبية هي نصف الاعداد المبينة في جدول ٣ . وتظهر اعداد هذه التخصصات في الجدول رقم ٤ .

جدول (٤) ــ الاعداد المقترحة للتعليم الجامعي للتخصصات العلمية او الادبية

	٧٦/٧٥	٧٧/٧٦	٧٨/٧٧	٧٩/٧٨	٨٠/٧٩	٨١/٨٠
طلبة السنة الاولى	١٨٧٠	١٩٢٦	١٩٨٤	٢٠٤٤	٢١٠٤	٢١٦٨
طلبة السنة الرابعة	١٤٨٧	١٥٣٢	١٥٧٨	١٦٢٥	١٦٧٣	١٧٣١
مجموع الطلاب (أربع سنوات)	٦٦٠٠	٦٧٩٨	٧١٠١	٧٢١٢	٧٤٢٨	٧٦٥١

يتبين مما سبق التوزيع العام للتخصصات ويمكن عمل تفصيل أدق بتقدير الاحتياجات في المجالات المختلفة ، وذلــك يتطلب احصائيات غــير متوفرة حاليا . كمــا يتطلب معرفة مدى التنمية المرتقبة في البلاد ، وهــذا أمر صعب في ظروف الاحتلال . ولكن هنالك بعض الاحتياجات التــي يمكن تقديرها وسنذكر هنــا كأمثلة على التخطيط الجامعي .

فأحد الاحتياجات التي يسهل دراستها هــو عدد المدرسين الجامعيين المطلوبين للقيام بمهام التعليم في مرحلة الدراسة الثانوية(١٠) . وهذه الاحتياجات تتعلق باعداد كبيرة من المواطنين وبالتالي فان لدراستها اهميــة خاصة ــ ويعتمد عدد المدرسين المطلوبين للمرحلة الثانوية على الامور التالية ــ أولا عدد طلبــة المدارس الثانوية وسيرمز له بالحرف ع ، ثانيا : عدد الطلبة في أية شعبة ، ويمكن الافتراض أن الشعبة الواحدة تحتوي في المعدل على ٣٠ طالبا(١١) . ثالثا عدد الحصص الاسبوعية لكل شعبة ومقدارها ٣٦ حصة اذ ان الاسبوع الدراسي ستة ايــام واليوم الدراسي يتكون من ست حصص . رابعا : عدد الحصص الاسبوعية التي يدرسها المعلم ويمكن اعتبارها ٢٤ حصة .

وبناء على هذه الارقام يمكن الاستنتاج بأن عــدد المدرسين المطلوبين هو ع/٢٠ مدرسا(١٢) .

وفي العام الدراسي ٧٠/٦٩ كان عدد طلبة المدارس الثانوية في الضفة الغربية وقطاع غزة ٢٦٫٣٤٥ منهم ١٦٫٠٢٥ من الضفة الغربية . وازدادت الاعداد في سنة ٧٤/٧٣ الى ٣٠٫٩٩١ طالبا منهم ١٨٫٣٢٨ من الضفة الغربية . وعلى افتراض نمــو متماثل خلال الخمس سنوات القادمة ، يمكن عمــل جدول ــ رقم ٥ ــ يبين اعداد الطلبة واعداد المدرسين المطلوبين (اي ع/٢٠) ابتداء من العــام الدراسي ٧٦/٧٥ وحتى العام ٨١/٨٠ .

ويتبين من الجدول رقم (٥) ان عدد المدرسين المطلوبين في عام ٧٦/٧٥ هو ١٦٧٣ مدرسا . ويقدر عدد المدرسين الجامعيين الموجودين حاليا في الضفــة الغربية وغزة بنحو ٨٠٠ مدرس ، وبالتالي هنالك احتياج لأكثر من ٨٠٠ مدرس جامعي آخر لسد

النقص الحالي . وبالامكان سد هذا النقص تدريجيا خـلال الخمس سنوات القادمة وذلك بتأهيل ٢٠٠ خريج جامعي في السنة . ويظهر من الجدول أيضا أنـه بسبب الزيادة السنوية في عدد الطلبة ، هنالك احتياج لحوالي ٦٠ مدرسا اضافيا سنويا . وهنالك احتياج أخير لسد النقص الناجم عن فقد بعض المدرسين لوظائفهم (وفاة ــ اقالة ــ هجرة) ويقدر العدد بحوالي ٥٪ مـن المدرسين الموجودين أي ٤٠ مدرسا سنويا . وبالتالي فان عدد الخريجين المطلوبين في السنـة الواحدة خلال الخمس سنوات القادمة هـو حوالي ٣٠٠ خريـج . وبعد الخمس سنوات يسد النقص في المدارس الثانوية ويقل عدد الخريجين المطلوبين للمرحلة الثانوية .

جـــدول (٥)
تقدير لعدد طلبة الصفوف الثانوية وعدد المدرسين المطلوبين
خلال ٧٦/٧٥ و ٨١/٨٠

	٧٦/٧٥		٧٧/٧٦		٧٨/٧٧	
	الطلبة	المدرسون	الطلبة	المدرسون	الطلبة	المدرسون
الضفة الغربية	١٩ر٦٢٥	٩٨١	٢٠ر٢٢٥	١٠١١	٢٠ر٨٢٥	١٠٤١
غـــزة	١٣ر٨٣٥	٦٩٢	١٤ر٤٢١	٧٢١	١٥ر٠٠٧	٧٥٠
المجموع	٣٣ر٤٦٠	١٦٧٣	٣٤ر٦٤٦	١٧٣١	٣٥ر٨٣٢	١٧٩١

	٧٩/٧٨		٨٠/٧٩		٨١/٨٠	
	الطلبة	المدرسون	الطلبة	المدرسون	الطلبة	المدرسون
الضفة الغربية	٢١ر٤٢٥	١٠٧١	٢٢ر٠٢٥	١١٠١	٢٢ر٦٢٥	١١٣١
غـــزة	١٥ر٥٩٣	٧٨٠	١٦ر١٧٩	٨٠٩	١٦ر٧٦٥	٨٣٨
المجموع	٣٧ر٠١٨	١٨٥١	٣٨ر٢٠٤	١٩١٠	٣٩ر٣٩٠	١٩٦٩

(ولكن تبقى الحاجة الى اعداد من الخريجين مماثلة لتلك المبينة في الجدول وذلك بغية توظيف نسبة الثلثين منهم في المدارس الاعدادية . ويكون ذلـك بمثابة الخطوة الثانية في تحسين الدراسة دون الجامعية على المدى البعيد) .

وعدا عن المدرسين ، فمن الاحتياجات الاخرى الممكن دراستها لتوفر الاحصائيات(١٣) عنها هي الاحتياجات الطبيـة . فأطباء الاردن شكلوا ٥٤ر٢ طبيب / ١٠ر٠٠٠ من السكان في عام ١٩٦٧ وفي نفس العام كانت النسبة لكل ١٠ر٠٠٠ من السكان تساوي ٨ر٦ في لبنان و ٨ر١١ في الكويت ــ (وهي أعلى نسبة بين الدول العربية) . وكان من المخطط له أن تصل النسبة في الاردن في عام ١٩٧٥ الى ٧ر٦ والنسبة الحالية في الضفة الغربية وقطاع غزة لا زالت منخفضة وتقدير بحوالي ٤ اطباء لكل ١٠ر٠٠٠ من السكان فاذا افترض زيادة النسبة الى ٦/١٠ر٠٠٠ (وهذه نسبة متواضعة) وعلى اساس أن عدد سكان الضفة الغربية وغزة بلغ ١ر١٠٠ر٠٠٠ في عام ٧٥ ، فان النقص

الحالي في عدد الاطباء هو ٢٢٠ طبيبا . وبالامكان سد هذا النقص تدريجيا خلال خمس سنوات وذلك بتأهيل ٤٤ طبيبا سنويا . وبسبب الزيادة الطبيعية في السكان وقدرها ٣٪ ، فان هنالك احتياجا لتأهيل ١٨ طبيبا اضافيا سنويا . وبالتالي فان عدد الاطباء المطلوبين سنويا خلال الخمس سنوات القادمة هو ٦٢ طبيبا . وبعد الخمس سنوات يسد النقص الرئيسي في عدد الاطباء المطلوبين ، واذا بقي عدد الاطباء الذين يتخرجون سنويا كما كان — أي ٦٢ طبيبا سنويا — فان نسبة الاطباء ستزداد عن ٦ أطباء /١٠،٠٠٠ من السكان وهذه الزيادة شيء مرغوب فيه بالطبع .

وبالنسبة للمهندسين والمهنيين والفنيين ، وحتى المزارعين ، فان الاحتياج اليهم يتوقف على برامج التنمية الموجودة في البلد وعلى امكانيات تمويل هذه البرامج . وحاليا يجد الانسان ان الاعمار في الضفة الغربية وغزة قليل جدا وكذلك فان عدد الاشخاص الذين يعملون بالزراعة قليل . واحد اسباب ذلك أن اليد العاملة العربية تعمل في « اسرائيل » لارتفاع الاجور فيها بالنسبة للضفة وغزة ولوجود العمل بكثرة هنالك . ولكن يمكن التخمين أنه حالما توجد الامكانيات لدعم مشاريع البناء والزراعة في الضفة وقطاع غزة ستصبح هنالك احتياجات كبيرة للمهندسين والفنيين والمشتغلين بالزراعة ، وكما ذكر سابقا فان هذا الدعم هو دعم لصمود المواطنين في الارض المحتلة.

وفي نهاية الحديث عن الاحتياجات ، يجدر الاشارة مرة اخرى الى أن ما ذكر عن الاحتياجات هو على سبيل الأمثلة فقط . ومما لا شك فيه أن موضوع الاحتياجات يتطلب بحد ذاته دراسة عميقة ومطولة .

٣ — تكاليف التعليم الجامعي

تتكون تكاليف المشاريع عادة من تكاليف انشائية وتكاليف متكررة . وينطبق هذا التقسيم على الجامعات أيضا . ويمكن للتكاليف الجامعية ان تكون متواضعة اذا توخيت البساطة في البناء الجامعي وربما لا تؤثر هذه البساطة على مستوى التعليم . ولكن يصعب أن يكون التعليم الجامعي في مستوى جيد اذا كانت النفقات المتكررة متواضعة أيضا . وفيما يلي مقارنة لنفقات التعليم المتكررة للطالب الواحد في عدد من جامعات الشرق الاوسط .

جدول (٦) — تكاليف تعليم الطالب الواحد
بالدينار الاردني

الجامعة	العام الدراسي ٦٨/٦٧	العام الدراسي ٧٥/٧٤
الجامعة الاردنية	٢١٥	٣٩٠
جامعة القاهرة	١١٠	—
الجامعة اللبنانية	٩٠	—
جامعة دمشق	٥٢	—
الجامعة الامريكية في بيروت (كلية العلوم والآداب)	٧٨٠	٨٩٠
جامعة بيرزيت	—	٣٠٠

ويظهر من هذه اللائحة تفاوت كبير في التكاليف المتكررة في الجامعات . ويدل ذلك على بعض التفاوت في مستويات التعليم الجامعي كما يدل على بعض التفــاوت في مستويات المعيشة في البلدان المختلفــة . والاغلب ان تكــون تكاليف الطالب في اية مؤسسة جامعية في فلسطين أقرب مــا تكون الــى التكاليف في الجامعة الاردنية . وبالطبع ستزداد هذه التكاليف سنة بعد اخرى ، وسيستعمل الرقــم ٤٠٠ دينار / للطالب كأساس للتخطيط للتعليم الجامعي خلال الخمس سنوات القادمة .

ويجدر القول هنا أن تكاليف تعليم الطالب في صفوف السنة الاولى والثانية الجامعية اقل بكثير من تكاليف الطالب في صفوف السنة الثالثة والرابعة . ويرجع ذلك الى ان تشعب الطلبة على الاختصاصات المختلفة يتم عادة بعد السنة الثانية ، وهذا التشعب يعني انخفاضا في عدد الطلبة في الصف الواحد ، وبالتالي ازدياد كلفة التعليم بالنسبة للطالب الواحد . وسيشار الى هذه النقطة عند بحث ميزان الكليات المتوسطة .

وبالنسبة للتكاليف الانشائيــة ، فالاحصائيات(١٤) تدل علــى أن معدل التكاليف الانشائية في الجامعات العربية هو ١٥٠٠ دولار / للطالب لكليات الاداب و ٣٠٠٠ دولار / طالب لكليات العلوم . وذلك يعني معدل ٢٢٥٠ دولار للطالب (٧٥٦ دينار اردني) اذا كانت التخصصات الادبيــة والعلمية متساويــة في العدد . والتكاليف الانشائية للمرافق الاكاديمية في الجامعة الاردنية تقدر بحوالي ٤٠٠ دينار للطالب ، وربما كان هذا الرقم المتواضع مناسبا لتقدير تكاليف انشاء اية مؤسسات جامعية في فلسطين . ولا يشمل هذا الرقم التكاليف الانشائية لمساكن الطلبة، وتقدر هذه التكاليف بحوالي ٦٠٠ دينار للطالب على اساس ان الطالب الواحد يحتاج الى ١٠ متر مربع وبناء المتر المربع يكلف حوالي ٦٠ دينارا . وبالطبع لا يدخل في هذه الحسابات ثمن الارض المزمع انشاء الجامعة عليها . ويصعب حاليا ايجاد اراض مناسبة يقل سعر المتر المربع فيها عن دينار أردني .

٤ ــ مساحة الجامعة

لا توجد أرقام منطقية لتقدير المساحة اللازمة لانشاء أية جامعة . وعنــد مقارنة مساحات جامعات تضم اعدادا متساوية من الطلبة يظهر اختلاف كبير في المساحة قد يصل الى خمسين ضعفا . وبالرغم من هذا التباين فان هنالك شيئا مؤكدا وهو انه يستحسن أن تحصل الجامعة على أكبر مساحة ممكنة ضمن امكانياتها المادية . والكثير من الجامعات وقعت في خطأ تقدير مدى وسرعة التوسع فلم تحصل علــى مساحات كافية قبل البدء بانشاء الجامعة . ولا شك في انه بعد انشاء الجامعة ، تصبح الأراضي المحيطة بالجامعة باهظة الثمن وقد يصعب شراؤها .

ولكي يعطى القارىء فكرة عن مساحة بعض الجامعات في المنطقة ، فان مساحة الجامعة الاردنية ٦٠٠ دونم وتضم حاليا حوالي ٤٠٠٠ طالب أما الجامعة الامريكية في بيروت فتضم حوالي ٥٠٠٠ طالب ومساحتها أكثر من ٦٠٠ دونم ، عدا عن ٢٠٠ دونم اخرى في البقاع تحت تصرف كلية الزراعة . وتدل هــذه الاعداد ان ٢٠٠ متر مربع للطالب هو رقم معقول وممكن استعماله لحساب مساحة الارض اللازمة للجامعة .

التكوين الجامعي
(نماذج جامعية)

لقد اعطيت فكرة عامــة في البند السابق عن اعداد الطلبة وتخصصاتهم وتكاليف

تعليمهم وسكنهم . ومن المهم الآن تحليل نماذج مختلفة للتكوين الجامعي للتمكن من اختيار ما هو انسب للظرف الحالي . وقد اشار الدكتور نبيل شعث(١٥) الى نماذج مختلفة من الجامعات والمؤسسات التعليمية التي يمكن أن تحقق أهداف التعليم العالي للفلسطينيين .

وبغض النظر عن التفاصيل الدقيقة لهذه النماذج فان أحد الاسئلة الاساسية التي تتعلق بالتكوين الجامعي هو ان كان من الضروري تأمين التعليم الجامعي لجميع الطلبة في جامعة واحدة أو أنه من الانسب انشاء جامعتين او اكثر — خاصة وان عدد الطلبة المرغوب تعليمهم يقدر بحوالي ١٤,٠٠٠ طالب وطالبة . وما يمكن ان يحدد الاجابة على هذا السؤال ثلاث نواح هي النواحي الاقتصادية والتربوية والاجتماعية .

الناحية الاقتصادية — ان الارقام التي استعملت سابقا لتقدير تكاليف التعليم الجامعي تدل على معدل تقريبــي للتكاليف في الجامعات الصغيرة والكبيرة . فتكاليف الطالب تتوقف الى حد ما على عدد الطلبة في الجامعة . وفي دراسة أجرتها احدى الجامعات(١٦) ظهر ان تكاليف الطالب تزداد بسرعة عندما يقل عدد الطلبة عن ٧٠٠ وتنخفض تكاليف الطالب تدريجيا عندما يزيد عدد الطلبة على ٧٠٠ وحتى يصل الى ٢٠٠٠ طالب وبعد ذلك تبقى تكاليف الطالب الواحد ثابتة نوعا ما(١٧) . ويتبين من ذلك ان تكاليف الطالب في الجامعة التي يقل عدد طلابها على ٧٠٠ هي تكاليف مرتفعة ويجب تجنب انشاء مثل هذه الجامعة الا عند الضرورة . ويتبين أيضا انه لا توجد ميزة مادية أساسية من انشاء جامعة تضم ١٤٠٠٠ طالب مثلا بدلا من انشاء جامعتين أو حتى ثلاث تضم بمجموعها ١٤,٠٠٠ طالب وربما يكون انشاء اكثر مـــن جامعة في مناطق مختلفة من البلاد انسب لأن ذلك يخفف من مشاكل ونفقات السكن على الكثير من الطلبة .

الناحية التربوية — تدل الدراسات وخبرة الكثيرين ان الجامعات الصغيرة نسبيا (بين ٢٠٠٠ — ٥٠٠٠ طالب) أفضل من الناحية التربوية من الجامعات الكبيرة . فالطالب في الجامعة الصغيرة يشعر بانتماء أكبر للجامعة ويتمكن من انشاء علاقات متينة وبناءة مع زملائه والمدرسين وهذه كلها أمور لها أهميتها التربوية .

الناحية الاجتماعية — ان تواجد جامعات (أو كليات) في مناطق مختلفة مـــن البلاد ينعش هذه المناطق اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا . واذا كانت الجامعة تعــي دورها الحقيقي فبامكانها أن تلعب دورا هاما في تطوير ونهضة مجتمع المنطقة التي توجد فيها .

يظهر مما سبق أن تأمين التعليم الجامعي بواسطـــة جامعتين أو أكثر في مناطق مختلفة من البلاد تضم كـــل واحدة حوالي ٥٠٠٠ طالب ، افضل مـــن تأمين التعليم بواسطة جامعة واحدة كبيرة . وهنالك تحفظ اساسي في هذا التكوين اذ يجدر البدء بجامعة واحدة فقط ، ومن الحكمـــة عدم انشاء الجامعة الثانيـــة قبل التأكد من أن الجامعة الاولى قد تركزت واصبحت لهـــا مكانة مرموقة أكاديميا واجتماعيا . ويعود سبب هذا التحفظ الى أن اية جامعة ناشئة تحتاج الى موارد كبيرة من المال والطاقة البشرية . وهذه الموارد محدودة عادة . وانشاء جامعتين في نفس الوقت سيوزع هذه الموارد بين الجامعتين وبالتالي يضعف كلا منهما . وعدا عن ذلك فان انشاء جامعتين، واحدة بعد الاخرى ، يساعد الجامعة الثانية في تلافي الاخطاء التي تكون قد برزت في التخطيط للجامعة الاولى .

وفي مجال البحث عن التكوين الجامعي ، يجدر ذكر نموذج آخر للتكوين ، وهو وجود جامعة « أم » في مكان ما وكليات متوسطة (سنتين بعد الدراسة الثانوية) في مناطق أخرى من البلاد ويدرس طلبـــة الكليات المتوسطة موادا مختلفـــة في العلوم

البحتة والاداب وينتقلون بعد السنة الاولى أو الثانية الى الجامعة « الأم » لاتمام تخصصهم . ويتكون طلبة الكليات المتوسطة من سكان المنطقة التي توجد فيها الكلية ، وبالتالي فلا حاجة الى منازل سكنية وما يترتب على ذلك من تكاليف مرتفعة ، وهذه احدى ميزات هذا النموذج من التكوين الجامعي . وكما تبين أيضا عند البحث في تكاليف التعليم الجامعي ، فان تكاليف التعليم للطالب الواحد في الكليات المتوسطة اقل مما هي عليه في الجامعات . ومن الناحية التربوية توجد ميزة خاصة لهذا النوع من التكوين الجامعي ، اذ ان معظم التسرب والرسوب من الجامعات يحصل خلال السنتين الاولى والثانية وبالتالي فان الطلبة الذين ينتقلون الى الجامعة « الأم » هم الطلبة الذين اثبتوا كفاءتهم الجامعية ، ويساعد هذا في تعزيز مركز الجامعة اكاديميا ، كما يخفف على الجامعة المشاكل الادارية والمالية التي تنجم عن الرسوب والتسرب . وعدا عن هذه الميزات للكليات المتوسطة ، فان ايجاد مؤسسات جامعية في المناطق المختلفة يساهم — كما ذكر سابقا — في انتعاش هذه المناطق ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا .

وعند انشاء كليات متوسطة ، يجدر ملاحظة التحفظ السالف الذكر مرة أخرى ، وهو عدم انشاء مثل هذه الكليات قبل انشاء الجامعة « الأم » وتركيزها أكاديميا وماديا . كما أنه من المناسب عدم انشاء كليات متوسطة قبل التأكد أن مجموع عدد الطلبة المتوقع الالتحاق بها لا يقل عن ٧٠٠ والا لاصبحت كلفة التعليم للطالب مرتفعة كما بحث في السابق . وبالطبع فان هذا التحفظ يحدد مواقع الكليات الممكن انشاؤها الى المدن الكبيرة والمناطق ذات الكثافة السكانية العالية نسبيا .

ومن النماذج الجامعية التي تقترح أحيانا ، وجود كليات جامعية كاملة — مثل كلية علوم وآداب وطب — في مناطق مختلفة ، وهذه الكليات بمجموعها تكون الجامعة . ان لهذا النموذج بعض السيئات ، فهنالك عدد من المواد المشتركة التي يجب ان يدرسها طلبة السنة الاولى وبعض طلبة السنة الثانية في معظم الكليات . وستزداد الكلفة اذا تكرر تدريس هذه المواد في الكليات المختلفة . وعدا عن ذلك فان التربويون يؤكدون ان اندماج طلبة الكليات المختلفة في حرم جامعي واحد له أثره التربوي الايجابي . وبالرغم من هذه التحفظات فانه يلزم احيانا ايجاد كليات متخصصة في مكان غير الحرم الجامعي . وعلى سبيل المثال ، يفضل ان تكون كلية الطب قريبة من مستشفى حتى اذا لم يكن المستشفى ضمن أو قرب الحرم الجامعي .

ويتبين من كل ما سبق أن انسب تكوين جامعي في الوقت الحاضر هو جامعة متوسطة الحجم (حوالي ٥٠٠٠ طالب) تضم الكليات المختلفة أو معظمها في نفس الحرم الجامعي . ومن الافضل انشاء جامعة ثانية أو كليات متوسطة بعد تركيز الجامعة الاولى وحسب ما تحتمه الظروف .

التكوين القانوني

يمكن تقسيم الجامعات من الناحية القانونية الى نوعين — جامعات حكومية وجامعات اهلية . ومعظم الجامعات العربية حكومية . وهناك عدد لا بأس به من الجامعات الاهلية في البلاد العربية منها ما هو اهلي عربي مثل الجامعة المستنصرية (تحت اشراف نقابة المعلمين) في بغداد وجامعة بيرزيت (تحت اشراف مجلس أمناء) في الضفة الغربية ، وهنالك أيضا الجامعات الاهلية الاجنبية مثل الجامعة الامريكية في بيروت والجامعة الامريكية في القاهرة وجامعة القديس يوسف في بيروت .

والجامعات الحكومية هي جامعات مجانية (بعضها يتقاضى قسطا بسيطا) ولذلك تعتمد هذه الجامعات في سد نفقاتها على ما تخصصه لها حكوماتها . اما الجامعات الأهلية ـ العربية والأجنبية ـ فانها تتقاضى أقساطا ، ورغم ان هـذه الاقساط تكون مرتفعة أحيانا الا أنها اقل عـادة من التكاليف الحقيقية للتعليم . ولذلك تعتمد هذه الجامعات على التبرعات التي تحصل عليها من أصدقائها وأحيانا من حكوماتها .

ولمدة طويلة احتلت الجامعات الأجنبية الصدارة في العالم العربي بسبب الاموال الكثيرة التي تدفقت عليها . ولكن وجود هذه الجامعات أصبح أمرا غير مرغوب فيه بعد أن أدرك العالم العربي ان بامكان هذه الجامعات أن تلعب دورا رئيسيا في توجيه الطلبة توجيها قد يختلف مع المصلحة الوطنية . كما أن وجود هـذه الجامعات بحد ذاته هو وجود سياسي أو اجتماعي يخدم أهداف الهيئات المسؤولة عنها . ولذلك اصبح من المهم عدم تشجيـع قيام أيـة جامعة غير عربية في العالم العربـي عامة وفلسطين بالذات .

وبسبب امكانياتها المادية والدعم الحكومي لها ، يظهر أن الجامعات الحكومية أفضل من الجامعات الاهلية الوطنية(١٨) . وبالطبع اذا لم يتيسر وجود جامعات حكومية ، فانه يجدر تشجيـع ودعم الجامعات الاهلية ما دامت هـذه الجامعات عربية وتعي مصلحة البلد . وحتى في حالة وجود جامعات حكومية ، فان بامكان الجامعات العربية الاهلية أن تؤدي دورا فعالا في القيام بمهام التعليم الجامعي في البلد ، خاصة اذا لم تتمكن الحكومة من القيام بجميع مسؤوليات التعليم الجامعي .

التنفيـذ

لقد ذكر عند البحث في التكوين الجامعـي أن انسب تكوين في الوقت الحاضر هو جامعـة متوسطة الحجـم (٥٠٠٠ طالب) تضم الكليات الجامعية المختلفة ـ أو معظمها ـ في حرم واحد . وبالطبع ليس من الضروري ان تنشأ جميع الكليـات في نفس الوقت ، ويفضل أن تبدأ الجامعة بكليتي الاداب والعلوم الطبيعية (رياضيات ، كيمياء ، فيزياء ، أحياء ...) ، لأن هذه الكليات تعتبر نواة لأية جامعة كما ان نفقاتها أقل من نفقات الكليات العلمية المهنية . ويجب ان يخطط لكلية الاداب أن تتسع لنصف الطلبة وان تتسع باقي الكليات للنصف الآخر (بحيث يكون ما لا يقل عن ٢٠٪ من الطلبة لكلية العلوم الطبيعية التي تؤهل الطلبـة بعد السنة الاولى وجزءا من الثانية للالتحاق بالكليات العلمية ـ طب ، هندسة ، زراعة ... الخ) .

وعند التخطيط لتنفيذ المشروع الجامعـي في الوقت الحاضر ، تبرز أربع مشاكل رئيسية :

١ ـ **الاموال اللازمة** ـ يتبين من البحث عن التكاليف الجامعية ان النفقات المتكررة للتعليم تقدر بحوالي ٤٠٠ دينار للطالب في السنة و ٤٠٠ دينار أخرى للطالب لانشاء البناء الجامعي . وهذا يعني ان جامعة بالعدد المقترح ـ اي ٥٠٠٠ طالب ـ تحتاج الى مليوني دينار للانشاء ومليونين آخرين سنويا للنفقات المتكررة . هذا كلـه عدا عن نفقات البناء لمساكن الطلبة والمدرسين وثمن الارض المزمع بناء الجامعة عليها .

وتحتاج الجامعة لأرض مساحتها ١٠٠٠ دونم ـ على اعتبار أن المساحة اللازمة ٢٠٠ متر مربع للطالب ، فاذا قدر ثمن المتر المربع من الارض بدينار واحد يكون ثمن قطعة الارض مليون دينار . اي أن الجامعة بحاجة الى ثلاثـة ملايين دينار للأرض والبناء ومليوني دينار سنويا للنفقات ، ولا شك ان هذه ميزانية كبيرة .

٢ ــ **الهيئة التدريسية** ــ تحتاج الجامعة الــى عدد كبير مــن المدرسين مــن حملة الشهادات العليا (ماجستير ودكتوراه) لتدريس فيها . وفي الجامعات المرموقة تكون نسبة الطلبة الى المدرسين فيها ١٢ : ١ . ومعدل النسبة في الجامعات العربية هو ٢٠ : ١ . واذا اتخذ المتوسط الحسابي لهذه النسب ــ أي ١٦ : ١ ــ كأساس لتقدير عدد المدرسين المطلوبين يكون العدد المطلوب للجامعة المقترحة حوالي ٣٠٠ مدرس وهذا عدد كبير وليس من السهل تأمينه .

٣ ــ **الهيئة القانونية للجامعة** ــ من المهم أن يكون للجامعة مجلس أمناء عربي يتولى جميع أمور الجامعة . ومن المهم ايضا المحافظة على استقلالية الجامعة وعدم ارتباط هذا المجلس معنويا أو ماديا بالحكم العسكري . وايجاد هيئــة مسؤولة تنشأ تحت ظروف الاحتلال وتتمكن من المحافظة على استقلاليتها أمر صعب نوعا ما .

٤ ــ **اختيار موقع الجامعة** ــ ان الموقع المثالــي لانشاء جامعة عربية فلسطينية هو مدينة القدس . وليس من الصعب ادراك الاهمية السياسية والمعنوية لوجود جامعة في هذه المدينة . ولكن سلطات الاحتلال تمنع انشاء أية مؤسسات عربية ، وبالتالي يجب اختيار موقع آخر للجامعة .

وبغض النظر عن الموقع فهنالك مشكلة تأمين قطعة أرض تتراوح مساحتها بين خمسمائة الى ألف دونم . والاغلب ان تكون قطعة أرض بهذا الحجم مقسمة الى قطع صغيرة وممتلكة من قبل اشخاص عديدين ويصعب بالتالي شراؤها . وما يجري عادة في مثل هذه الحالات هو استملاك هذه الارض للنفع العام . ولكن ، مرة أخرى ، ترفض سلطات الحكم العسكري استملاك أراض للمشاريع التعليمية .

ويمكن تذليل بعض الصعوبات التي ذكرت ــ خاصة مــن ناحيــة الموقع والهيئة القانونية ــ عن طريق مؤسسات التعليم العالــي (غير الحكومية) القائمة حاليا في الضفة الغربية وقطاع غزة(١٩) . ويمكن لهذه المؤسسات أن تسد حاجة ملحة للتعليم الجامعي في الوقت الحاضر كما يمكنهــا أن تلعب دورا اساسيا في التخطيط الجامعي العام في البلاد عند زوال الاحتلال . وما هو مطلوب الآن هو عمل بحث تفصيلي عن هذه المؤسسات وعن امكانياتها في التطوير من النواحي المالية والادارية والانشائية . وكل هذه الامور ستساعد المسؤولين عن أمور التعليم الجامعي للفلسطينيين في دعم ما هو مناسب من المؤسسات وبالتالي تنفيذ مشروع قيام جامعة عربية في فلسطين .

الخــلاصة

عمل هذا البحث من اجل التخطيط لانشاء مؤسسات جامعية في فلسطين نفسها وقد استغلت الاحصائيات المتوفرة لاستنتاج عدد الطلبة المراد تأمين التعليم الجامعي لهم . واقترحت نسب معينة لتوجيه الطلبة للتخصصات المختلفة . وبالمقارنة مــع بعض جامعات الشرق الاوسط استنتجت أرقاما تدل على ما يكلف التعليم الجامعي في فلسطين كما ابديت ملاحظات عامة حول نماذج مختلفــة للجامعات وحول التكوين القانوني للجامعة . وابديت ملاحظات ايضا حول المشاكل الرئيسية التــي قد تبرز عند تنفيذ المشروع واخيرا قدمت اقتراحات عملية للبدء بالمشروع حالا . وبالرغم من أن جميع الارقام المستنتجة هي تقريبية وربما تختلف بعض الشيء عن الواقع الا أنها مــا زالت تعطي صورة متكاملة تساعد في التخطيط مــن أجل تنفيذ المشروع الجامعي . وفيما يلي ملخص للبحث :

١ ـــ من المناسب أن يكون الطلبة الجامعيون ١٢/١٠٠٠ من السكان . ويكون طلبة السنة الاولى ٤ر٣/١٠٠٠ من السكان .

٢ ـــ بما أن عدد سكان الضفة وغزة بلغ ١ر١٠٠٠ر٠٠٠ في عام ٧٥ ويتزايد بمقدار ٣٪ سنويا ، فان عدد الطلبة المقترح للتعليم الجامعي يتراوح بين ١٣ر٠٠٠ و ١٥ر٠٠٠ خلال الخمس سنوات القادمة . وخلال نفس المدة يتراوح العدد المقترح لطلبة السنة الاولى ـــ أي الملتحقين بالجامعة ـــ ما بين ٣٧٠٠ و ٤٣٠٠ طالبا .

٣ ـــ يجب أن تصل نسبة تعليم الفتيات الى ٣٠٪ .

٤ ـــ نسب التخصص المقترحة ٥٠٪ اداب و ٢٠٪ علوم طبيعية و ٣٠٪ علوم مهنية (أي هندسة ، طب ، زراعة ...) .

٥ ـــ يفضل تأمين التعليم عن طريق جامعتين أو اكثر بدلا من جامعة واحدة كبيرة ويخطط لكل واحدة من هذه الجامعات لكي تتسع لحوالي ٥٠٠٠ طالب وطالبة . وبعد تركيز أول جامعة والتي يجب ان تضم معظم الكليات ، يجوز التفكير في انشاء جامعة ثانية أو ربما كليات متوسطة حسب ما تحتمه الظروف في ذلك الوقت .

٦ ـــ تبدأ الجامعة الاولى بكليتي الاداب والعلوم الطبيعية ، اذ تعتبر هاتين الكليتين نواة لأية جامعة . ومن ثم تنشأ الكليات المهنية . ويخطط لأن تتسع كلية الاداب ٢٥٠٠ طالب وكلية العلوم الطبيعية ١٠٠٠ طالب ، والكليات العلمية المهنية ١٥٠٠ طالب .

٧ ـــ من الأنسب أن لا تقل مساحة الارض لبناء جامعة تضم ٥٠٠٠ طالب عن ١٠٠٠ دونم . ويقدر ثمن هذه الارض بمليون دينار أردني .

٨ ـــ تقدر النفقات المتكررة الجامعية بحوالي ٤٠٠ دينار للطالب في السنة وتقدر النفقات الانشائية للمرافق الاكاديمية بحوالي ٤٠٠ دينار للطالب أيضا . وعلى هذا الاساس فان جامعة تتسع لخمسة آلاف طالب تحتاج الى انشاءات للمرافق الاكاديمية بحوالي مليوني دينار وعدد مماثل سنويا للميزانية المتكررة . كل هذا عدا عن التكاليف الانشائية لمساكن الطلبة وتقدر بحوالي مليون دينار (على أساس أن ٣٠٪ من الطلبة يحتاجون الى مساكن وان تكاليف انشاء المساكن هو ٦٠٠ دينار للطالب) .

٩ ـــ القدس هي الموقع المثالي للجامعة ولكن سلطات الاحتلال تمنع انشاء جامعة أو اية مؤسسات عربية في مدينة القدس .

١٠ ـــ يجب أن تكون الجامعة عربية بمعنى أن مجلس أمنائها وادارتها عربية صرفة ، ويجب عدم ارتباط الجامعة (حتى ولو كانت عربية) بالحكم العسكري ماديا أو معنويا .

١١ ـــ عدد أعضاء الهيئة التدريسية اللازمين للجامعة التي تضم ٥٠٠٠ طالب هو ٣١٠ عضو (على اعتبار أن نسبة الطلبة للمدرسين هو ١٦ : ١) .

١٢ ــ توجد بعض الصعوبات في انشاء جامعة عربية جديدة تحت ظروف الاحتلال ، وبالتالي يقترح الاستفادة من مؤسسات التعليم (غير الحكومية) العربية القائمة حاليا في فلسطين .

١٣ ــ تبقى المشكلة الاساسية وهي النزوح (نزوح الخريجين وحتى غيرهم) من البلاد . وهذه الظاهرة حاصلة بغض النظر عن وجود أو عدم وجود جامعة داخل فلسطين . والحل الأمثل لها هو دعم مشاريع التنمية والتطوير والبناء والزراعة داخل الارض المحتلة .

وفي النهاية تجدر الاشارة الى عاملين مهمين يؤثران على بعض الاستنتاجات الواردة سلفا . وهذان العاملان هما أولا ــ عدد الجامعيين الفلسطينيين الموجودين في الخارج والذين يرغبون أو يستطيعون العودة الى فلسطين في المستقبل القريب ، ثانيا ــ عدد طلبة الارض المحتلة الذين سيستمرون في محاولة متابعة دراستهم الجامعية في الخارج . وأبرز تأثير لهذين العاملين هو على الحجم الاجمالي للتعليم الجامعي في فلسطين من اعداد طلبة ومدرسين ومجموع التكاليف الانشائية . أما بقية الاستنتاجات فهي مستقلة الى درجة كبيرة من هذين العاملين .

---

١ ــ من بين هذه المحاولات ، المحاولة التي قام بها السيد جورج شبر عام ١٩٤٧ لاقامة جامعة عربية في القدس . وكان اهتمامه كبيرا بالمشروع فكتب ابنه ، المهندس الدكتور سابا شبر اطروحة الماجيستر عن بناء الجامعة . ولكن حكومة الانتداب البريطاني لم توافق على اقامة الجامعة . كذلك قام السيد موسى ناصر رئيس اللجنة الملكية التي انشئت عام ١٩٦٢ لاقامة جامعة في الاردن ، بكتابة مذكرة خاصة اقترح فيها ان تكون القدس مركزا للجامعة . ولكن تم انشاء الجامعة في ذلك الحين في عمان . وبعد عام ١٩٦٧ قام عدد من الاشخاص في الارض المحتلة بتأليف لجنة لاقامة جامعة في الضفة الغربية المحتلة . وقد ترأس اللجنة الشيخ محمد الجعبري وكان سكرتيرها المحامي عزيز شحادة . وقد حصلت اللجنة عام ١٩٧٣ على موافقة الحكم العسكري لانشاء الجامعة ولكن لم يتم انشاء الجامعة حتى الآن . وقد تعرضت اللجنة لانتقادات كثيرة اذ تبين انه سيكون للجامعة المقترحة ارتباط معنوي ومادي بالحكم العسكري .

٢ ــ باستثناء ما قامت به بعض مؤسسات التعليم الاهلية في الضفة الغربية من تطوير برامجها لتصبح مؤسسات جامعية، وبالطبع لا يمكن لهذه المؤسسات تحمل عبء التعليم الجامعي بأكمله بسبب امكاناتها المحدودة ، ولكن سيشار فيما بعد الى الدور الرئيسي الذي يمكن لهذه المؤسسات ان تقوم به في الوقت الحاضر .

٣ ــ ابراهيم ابو ناب ــ ورقة عمل مقترحة من أجل مشروع جامعة فلسطينية ، بيروت ٧١/٩/١٢ (غير منشور) .
د. نبيل شعث ــ ورقة عمل في مشروع الجامعة الفلسطينية ، بيروت ٧١/١١/١ (غير منشور) .
د. محمود زايد ــ اقتراحات انشاء كلية جامعية عربية فلسطينية لتدريس العلوم بيروت ، تشرين أول ١٩٧١ (غير منشور)
د. ابراهيم ابو لغد ــ
Ibrahim Abu - Lughod, Plan for a Palestinian University, (Draft, Unpublished, 17/11/71).

٤ ــ على سبيل المثال ، يقترح د. ابراهيم ابو لغد (المصدر السابق) أن تكون السنة الدراسية أحد عشر شهرا بدلا من تسعة شهور وان يتكون الاسبوع الدراسي من ثلاثة أيام دراسة أكاديمية وثلاثة أيام عمل في المصانع والمزارع والمؤسسات العامة . ويؤكد د. ابو لغد ان لهذا البرنامج ميزات اقتصادية كما انه يساعد في خلق الانسان الفلسطيني الجديد .

٥ ــ د. انطون زحلان
A. B. Zahlan, Arab World : Year 2000, (Arab Projects and Developments, Beirut, 75).

٦ ــ د. نبيل شعث
Dr. Nabil Shaath, *High Level Palestinian Manpower*, (The Journal of Palestine Studies, vol. 1. no.2, Winter 72)

٧ ـ المصدر السابق

٨ ـ تستعمل الكثير من الجامعات هذه النسب لتقدير الرسوب والتسرب ٠

٩ ـ يمكن اعتبار علامة ٧٠٪ في الامتحانات الثانوية العامة كدالة للمؤهلين للالتحاق بالجامعات ٠ وتدل الاحصائيات ان حوالي ٣٢٪ من خريجي المدارس الثانوية يحصلون على معدل ٧٠٪ أو أكثر ٠ ويرى د٠ ابو لغد (المرجع السابق) ان الامتحانات العامة ليست مقياسا جيدا للتأهيل للجامعات ٠ وبالرغم من الموافقة على رأيه ، الا انه من الانسب استعمال هذا المقياس لأن الامتحانات العامة ستبقى أساسا للقبول لبضعة سنوات ـ على الأقل ٠

١٠ ـ يقسم نظام التعليم ـ دون المرحلة الجامعية ـ في الضفة الغربية وقطاع غزة الى ثلاث مراحل ـ المرحلة الابتدائية ومدتها ست سنوات والمرحلتين الاعدادية والثانوية ومدة كل منهما ثلاث سنوات ٠ وبالرغم انه مناسب ان يكون مدرسو المدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية من حملة الشهادات الجامعية ، الا انه يمكن الاكتفاء بالجامعيين للمرحلة الثانوية كخطوة أولية ٠

١١ ـ معظم الشعب تحتوي حاليا على ٣٥ طالبا أو أكثر ، ويصل العدد أحيانا الى ٤٥ ، وهذه أعداد كبيرة تساهم في انخفاض مستوى التعليم ٠ ويجدر العمل على جعل الشعبة تحتوي على ما لا يزيد عن ٣٠ طالبا ٠

١٢ ـ عدد الشعب تساوي ع/٣٠ وعدد الحصص الاسبوعية لجميع الشعب يساوي (ع/٣٠) × ٣٦ ٠ وبالتالي فعدد المدرسين المطلوبين هو (ع/٣٠×٣٦) / ٢٤ اي ع/٢٠ ٠

١٣ ـ محمد حسن درويش ـ
Mohammad Hasan Darwish, *Health Manpower in Jordan*, (The National Planning Council, Amman, April 72).

١٤ ـ د٠ محمد الغنام / التربية في البلاد العربية ، المركز الاقليمي لتخطيط التربية وادارتها في البلاد العربية ـ بيروت ١٩٧١ ٠

١٥ ـ د٠ نبيل شعث ٠ ورقة عمل في مشروع الجامعة الفلسطينية بيروت ١٩٧١/١١/١ (غير منشور) ٠

١٦ ـ نشرة خاصة ـ جامعة ييل في الولايات المتحدة ١٩٦٨ ٠

١٧ ـ وتعليك ذلك أن هنالك حدا أدنى من الوظائف الادارية والمدرسين والاجهزة والكتب في الجامعة وتكاليف هذه الامور تتوزع على عدد صغير من الطلبة وفي الجامعات الصغيرة وبالتالي فان التكلفة بالنسبة للطالب الواحد تكون كبيرة ٠ أما في الجامعات الكبيرة فان الاحتياجات من موظفين وأجهزة وكتب تزداد بنفس النسبة ـ نوعا ما ـ بازدياد عدد الطلبة وبالتالي تبقى تكاليف الطالب الواحد ثابتة أو تنخفض قليلا ٠

١٨ ـ من بين الجامعات الحكومية يظهر ان للجامعة الاردنية أفضل نظام مالي اذ يعطي للجامعة صبغة الاستقلال لدرجة كبيرة ٠ فموارد الجامعة المالية الرئيسية لا تعتمد على مخصصات مباشرة من الحكومة ، وانما على ما تحصل عليه الجامعة كنسب معينة من عائدات الجمارك وأرباح الشركات وضرائب المطار ٠٠٠ ألخ ٠

١٩ ـ يتلاءم هذا الرأي مع تواصي اتحاد الجامعات العربية الذي قام في عام ١٩٧١ بدراسة امكانية قيام جامعة عربية في الارض المحتلة ووجد أن أنسب طريقة ـ في الظرف الحالي ـ هو تطوير مؤسسات التعليم العالي غير الحكومية ٠

التربيـة والمعركـة

الدكتور الياس زين

تمثل التربية دورا بارزا في المعركة . وتعتبر في الواقع **خط الدفاع الاول** ، في المعركة ضد التخلف العـام وضد التحديات الخارجيـة . فالتربية **قوة ايجابية** ، تلجأ اليها الشعوب ، منذ اقدم العصور الـى الوقت الحاضر ، للتغلب علـى الأزمات والمحن والنكسات والهزائم ، ولمواجهة التحديات الاجنبية والاحتلال العسكري الاجنبي ، فضلا عن كونهـا السبيل للقضـاء على التخلف الاقتصـادي والاجتماعي والسيـاسي والعسكري ، الخ .

وتتطلب المعركة موارد بشرية ومادية لمواجهة التحديات ولتحقيق النصر . والموارد البشرية هي التي تعنينا في هذا البحث . واذا اردنا اعداد الموارد الانسانية للمعركة، فيجب تطويرها وتنميتها ، بواسطة **التربية والتعليم والتدريب الهادف** ، كمـا فعلت الشعوب في العصور القديمـة والحديثة . فالانسـان هـو العنصر الاسـاسي في كل معركة .

وعلى الرغم من اهمية تطوير الموارد البشرية واعدادها للمعركة ، بواسطة التربية والتعليم ، لمواجهة التحديات ولبناء امة قوية ، لم يدرك العرب تماما دور التربية في خدمة المعركة بعد ، كما يجب . ونتيجة لذلك ، فقد منوا بهزائم ونكسات عديدة في التاريخ المعاصر ، وخاصة نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ ، وما تلاها من محن وتحديات . بيد أن الصهيونية واسرائيل ، كما سنرى في هـذا البحث ، قد ادركتا دور التربية والتعليم في صراعهما مع الأمة العربية المتخلفة ، تربويا وعلميا ، وذلك في بناء مجتمع **متعلم وعصري** . وبهذا تعوض اسرائيل عن النقص في عدد الرجال والنساء ، الذين تحتاج اليهم لمقاومة اكثر من مائة مليون عربي . فهي تقوم بتنمية شعبها ، بواسطة التربية والتعليم ، وباستقطاب مهاجرين جدد من المتعلمين والمثقفين ، تعليما جامعيا وعاليا . بيد أن المسؤولين والمربيـين العرب ، قد أدركوا مؤخرا ، دور التربيـة في المعركة ، عندما أعلنوا في المؤتمر الاقليمي الثالث لوزراء التربية والوزراء المسؤولين عن التخطيط الاقتصادي في الدول العربية ، اهمية المسؤولية الملقاة على التربية في مواجهة التحديات والمعركة ، في القرار الاول ، الذي أعرب فيه المؤتمر : « عن ايمانه العميق بأن **التعليم** — اذا احسن تعبئته وتوجيهه ، كما وكيفا — قوة فعالة في احداث التغيير الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، وفي تمكين الأمة العربية مـن مواجهة التحديات ومغالبة الصعاب والتغلب عليها » (١) . كما دعـا أعضاء المؤتمر ، الذي انعقد في مراكش سنـة ١٩٧٠ ، الـى « **تعبئة المدارس والمعاهد والكليات** للمعركة

المصرية ، وتسليح الطلاب ، بالعلم وتطبيقاته الحديثة وبالقدرة على النضال ، من اجل تحرير الوطن وحرية الأمة العربية » (٢) .

ونظرا لأهمية التربية في صنع المستقبل للجيل الجديد ، ترى الحلقة الدراسية حول التجديد في التربية في البلاد العربية ، التي انعقدت في بيروت (١٩٧٤) ، ان الوطن العربي يزيد اهتمامه بالتربية ، مع بقية مناطق العالم ، لأنه « يرى فيها السبيل الاكيد لازالة آثار التخلف والتجزئة ، التي فرضت عليه حينا من الزمن ، ولاعداد الجيل العربي القوي ، القادر على أن يدفع عن وطنه عدوان المعتدين ، وان يبني المجتمع العربي الواحد ، على أساس من العقلانية والعلم والتقنية ، مستمدا من تراثه الغني الزاخر العزم والتصميم والهدى ، ومستجيبا لمتطلبات الحضارة الصناعية الحديثة . ولذلك كله ، يقف موضوع الاصلاح التربوي اليوم ، في مقدمة القضايا المطروحة على المجتمع العربي » (٣) .

ومما تجب الاشارة اليه في هذا المجال ، انه لا يكفي اتخاذ القرارات والتوصيات ، فيما يتعلق بأهمية التربية ، كقوة فعالة في احداث التغيير وازالة آثار التخلف ، بل الأهم من كل ذلك ، تنفيذ ذلك بسرعة ، قبل فوات الأوان .

التربية للمعركة في العصور القديمة والوسطى

والآن نبدأ بعرض عام للتربية في خدمة الدفاع والحرب في العصور القديمة والوسطى . وسنركز على الشعوب التي استخدمت التربية كوسيلة للدفاع أو للأمن أو للحرب أو للابقاء على عاداتها ، أي اننا اخترنا الشعوب التي ربطت التربية بقضايا الدفاع والحرب والفروسية ، كشعب اليونان والرومان والفرس والأوروبيين الشماليين .

وقبل أن نلقي نظرة على التربية ، التي كانت تعد الرجال والنساء للمعركة ، يجدر بنا أن نؤكد حقيقة بديهية بأن الانسان ، منذ اقدم العصور ، حاول أن يحسن نفسه ، بشكل أو بآخر ، بواسطة التربية والتعليم والتدريب . فالانسان البدائي مثلا ، اضطر أن يعلم أولاده ، كي يتمكنوا من البقاء . وكان الاطفال يتعلمون اشعال النار ومهارات الصيد وبناء البيوت وزرع الحبوب . ويبدو أن التربية التي ارتبطت بالمعركة ، بدأت أولا في بلاد اليونان .

١ ــ التربية اليونانية

لعل حكماء اليونان القدماء أدركوا ، قبل غيرهم ، اثر التربية في بناء جيل قوي من الابطال . فمنذ اكثر من الفي سنة ، طالب اولئك بضرورة تعميم التعليم . ويرى بعض المؤرخين أن السبب الجوهري في خلق رجال اقوياء وابطال في اليونان القديمة ، يعود الى نظم التربية وطبيعتها . هذا وينصح أفلاطون في « جمهوريته » للفتيان بألعاب الفروسية والقوس والحراب ، وبالصراع الذي يقوي الجسد والرقص ، الذي يهب الرشاقة .

أ ــ التربية الاسبارطية

كانت المدارس والمعاهد في اسبارطة ، الدولة ــ المدينة العسكرية ، تربي الاولاد ليكونوا **محاربين** ، وقد اعدت فعلا اولئك الجنود الذين وقفوا بين الموت والنصر في

« ثرموبولي » . وكان المواطن الاسبارطي يدرب في **التوعية الوطنية** ، لدرجة انه كان يترك بيته لأجل وطنه . والجدير بالذكر أن الوطنية هناك ، لم تكن شيئا يحكى فيها في ابان أوقات الاعياد القومية فحسب ، بل كانت جزءا لا يتجزأ من حياة الاسبارطيين. ويعود الفضل الى الدولة التي هيأت ذلك الجو . كما أعطت الدولة أيضا معنى جديدا لحياة اسبارطة ، فجعلت المواطن فخورا بأن يكون اسبارطيا .

ومن بين الصفات التي كانت تعتبر اكثر حمدا : القوة ، الشجاعة ، الصبر ، القومية ، والطاعة .

وكانت تربية الولد تبدأ منذ بلوغه الثامنة من العمر وحتى الثامنة عشر . وكان يعيش في ثكنات عسكرية عامة ، حيث كان يتدرب على كل انواع احتمال الصعوبات ، وعلى الركض ، والقفز ، والمصارعة ، والملاكمة ، والموسيقى العسكرية ، والتدريب العسكري ، ولعب الكرة ، واستعمال الخنجر ، والقتال ، وفن الخطابة الموجزة والسلوك كل هذه كانت تمثل منهج الدراسة . ومن سن ١٨ الى ٢٠ سنة ، كان الشاب يقضي أوقاته في التدريب على فنون احتراف الحرب . ومن سن ٢٠ الى ٣٠ كان يخدم في الجيش على مواقع حدودية . واما النساء فكن يتدربن ايضا على « الجمنزيوم » ، حتى الزواج ، ليصبحن اقوياء ، ولبناء قدرتهن على حمل الاولاد الاقوياء . وكانت العائلة بكاملها ، معبأة في الغالب في خدمة الدفاع والحرب .

وعلق الفيلسوف ارسطو ، معبرا بدقة عن طبيعة التربية في اسبارطة ، بقوله : « أعدت اسبارطة ودربت للحرب. ولكن في السلام تصدأت مثل السيف في غمده » . والتربية للمواطنة عنت في اسبارطة أن تستعمل في خدمة دولة تتسم بالعسكرية القوية . فالاستعداد للحرب كان مطلوبا مسبقا ، كأساس للأمن والسلامة . لذا كانت كل حياة الاسبارطيين منهمكة بالتدريب في كل نشاط من نواحي حياتهم .

ونتيجة لذلك ، تركت التربية في اسبارطة أمثلة رائعة في البطولة . فاسبارطة كانت تمجد التربية الحربية الرتيبة . لذا أصبح الاسبارطيون اعظم جنود في اليونان ، وعليه ، فقد تمتعوا بمكانة خولت اسبارطة أن تفرض ارادتها على الولايات اليونانية عدة مرات في القرن الذي سبق سنة ٥٠٠ ق. م. وارغمت اسبارطة تلك الولايات المجاورة على الانضمام الى حلف اسبارطة (٤) .

ب ــ التربية الأثينية

وفي أثينا ، حيث التربية كانت حرة ، أدرك المفكرون اليونان هناك ، الدور الذي تمثله في بناء جيل قوي ، وفي جعل الحياة ذات معنى قيم ، وفي حماية الدولة من العدوان الداخلي والخارجي . لذلك ركزت التربية الاثينية على بناء « العقل السليم في الجسم السليم » معا . فاهتمت التربية بتنمية مواهب الانسان كافة ، وخاصة ببناء العقل الناقد ، الذي يسأل ويناقش . وكان الاعتقاد السائد هناك أن الرجل المفكر او الناقد هو رجل قوي . والرجل القوي هو دعامة للدولة في السلم وفي الحرب على حد سواء .

وكان تدريب الشباب صارما وعنيفا . عندما يبلغ الشاب السادسة عشرة من العمر ، كان يدرب في مدرسة للدولة ، في خارج أثينا ، تدريبا رياضيا ، لتهيئته لدخول الخدمة العسكرية . وفي أثناء التدريب هذا ، كان المتدربون يعيشون سوية ، ويلبسون

أزياء عسكرية ، ويقومون بتمارين صارمة ، ويحضرون محاضرات عن الموسيقى والآداب والهندسة والبيان .

ماذا كانت النتيجة ؟ ان هذا النوع من التربية اعطى نتائج ناجحة في السلم وفي الحرب . واستطاعت اثينا ، بهذه التربية ، ان تتحدى ، لمدة ٢٠٠ سنة ، ظلم الشرق ، الممثل بدولة الفرس ، التي لم تستطع قهر اليونان في مواقع عديدة . هذا ويعتقد المؤرخ كيوبرلي : ان نظام التربية الاثيني ، قد أعطى في عهده ، نتائج ناجحة ، قلما شهد العالم مثلها في التاريخ (٥) .

٢ ــ التربية الرومانية

وفي روما ، كانت التربية هناك تربية جسدية وخلقية ، اي حربية وخلقية . وكان الصبيان يدربون جيدا في مهارات الحرب والزراعة ، وكان الذكور الاصحاء الصالحون للخدمة يلتحقون بالجيش في سن الثامنة عشر . وكانت التربية تعنى بالتدريبات المتصلة بساحة الوغى ، فضلا عن حفظ الأناشيد الدينية والقانون الروماني .
وعن طريق هذه التربية الطبيعية ، خرج الرجال الاشداء الشجعان الذين عرفوا بوطنية ، لم يعرف التاريخ مثلها . وكانت روما ، المدرسة الكبرى للفضائل المدنية والحربية . وكان المواطنون في روما يريدون أن يكونوا جنودا ومواطنين مطيعين ، قادرين على التضحية .

٣ ــ التربية الفارسية

وفي بلاد فارس ، كانوا يعلمون أبناءهم أمورا ثلاثة : ركوب الخيل ، ورمي السهام، وقول الحق .وبعد سن السابعة ، يصبح الطفل بين ايدي الدولة . وكان التعليم النظامي يبدأ فيسن السابعة . وفي مجال التربية البدنية ، كان البرنامج يضم الجري والمبارزة ورمي السهام ورمي الرمح . وبين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين من العمر ، كانت التربية تتسم بالعسكرية ، وكان الشاب يتلقى أولا ، حزام الرجولة ، ثم يقسم أن يتبع تعاليم « زرادشت » ، وان يخدم الدولة باخلاص . ثم يأخذ بالتدريب على المبارزة واستخدام السلاح . وبين سنوات العمر الخامسة والعشرين والخمسين ، ينخرط رجال الفرس في الجندية ، فيشاركون في الحروب والغزوات . ويضم منهاج المحاربين : الدين والقراءة والكتابة والتربية البدنية بوجه خاص .
وبفضل التربية في بلاد فارس ، حيث سيطرت الدولة عليها عامة ، استطاعت ان تكون **قوة عسكرية** ، ذاع صيتها ، وتمكنت الامبراطورية الفارسية من توسيع حدودها (٦) .

٤ ــ التربية في شمال اوروبا

واما التربية في القرون الوسطى ، في أوروبا ، فتوجهت لتخدم حاجات المجتمع في تلك العصور . وكان معظم الفرسان ، في بلاد أوروبا الشمالية ، يهتمون بأبناء القادة العسكريين والاجتماعيين . ففي عمر السابعة مثلا ، كان الولد يرسل الى السيد . ومن ضمن ما يتعلمه ، ميثاق الشرف للفرسان . وفي عمر الرابعة عشر ، يصبح مرشح فارس ، وخادما شخصيا للفارس ، يعتني بسلاح الفارس في اثناء قيامه بالحرب ، كما يتدرب الشاب المرشح للفروسية على انجازات الفروسية ، في ألعاب صناعية (صورية) ، وكذلك يتمرن على الشجاعة والبطولة في الحرب . وعندما يصل الشاب الى الحادية والعشرين ، يصبح فارسا (٧) .

التربية للمعركة في القرن التاسع عشر

والآن ننتقل الى دور التربية في المعركة في القرن التاسع عشر ، ونركز على تجربتي دولتين رائدتين حقا ، وهما بروسيا واليابان ، الاولى في النصف الاول والثانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وفي الواقع فان التجربة التربوية ، في كل من بروسيا واليابان ، قد اصبحت مضرب الامثال في العالم اجمع .

١ ـ « معجزة » التربية في المانيا(*)

ولعل تجربة المانيا (بروسيا) التربوية في القرن الماضي ، تعتبر شهادة حية ، لدور التربية الفعال ، اذا وجهت الوجه القومي الصحيح ، في بث روح وطنية سليمة ، وخلق جيل جديد قوي ، يؤمن برسالة أمته وأمانيها القومية . والمعروف أن رجال التربية في العالم لا يملون ابدا ، من الاستشهاد بتجربة المانيا التاريخية الرائدة والحية في استخدام التربية والتعليم لانقاذ البلاد ، وجعلها قوية ومتحدة .

ويجدر بنا الآن أن نسلط الاضواء على الخلفية التاريخية ، لهزيمة المانيا من قبل فرنسا ، قبل أن نذكر قصة قفزة المانيا التربوية .

في ختام عام ١٨٠٤ ، تحولت فرنسا من جمهورية الى امبراطورية ، واصبح نابوليون بونابرت ، القائد المعروف ، أول امبراطور على فرنسا . وصمم الامبراطور الجديد على اخضاع بروسيا (المانيا) ، بعد تغلبه على النمسا . واستطاع فعلا الجيش الفرنسي الحاق هزيمة شنعاء بالجيش البروسي في معركة « يينا » عام ١٨٠٦ ، وارغمه على التراجع حتى الحدود الروسية ، ونتيجة لهذه الكارثة ، خسرت بروسيا نصف اراضيها وشعبها ايضا في معاهدة « تلست » سنة ١٨٠٧ ، وسقط اسم بروسيا من قائمة الدول العظمى ، في ذلك العصر ، بعد أن كانت دولة قوية في عهد الملك فريدريك الكبير . وعلق المؤرخ التربوي الكبير ، « كيوبرلي » ، على تلك الهزيمة بقوله : « لم تشهد بروسيا في تاريخها كهذا النوع من الاذلال ، ففي اشهر قليلة ، تحطمت حصيلة ما جنته بروسيا في قرن ونيف من العمل البناء » .

وتسلم الفرنسيون بيد من حديد كل السلطات في البلاد ، ما عدا شؤون التربية والتعليم ، التي تركت لابناء البلاد الاصليين . بيد أن الدولة الالمانية اهتمت كل الاهتمام بالتربية والتعليم .

ولكن كيف استطاعت بروسيا التغلب ، تدريجيا ، على هول الصدمة ؟ بدىء اولا باجراء سلسلة من الاصلاحات في شتى المرافق ـ في الاقتصاد والادارة والجيش والتعليم . الا أن الاهتمام الاكبر كان قد ركز على شؤون التربية والتعليم ، وذلك بناء على الايمان بأن المدارس تعتبر المصدر الرئيسي الذي يمكن ان تنبعث منه الحياة الجديدة في البلاد . وعبر ملك بروسيا آنذاك ، فردريك وليم الثالث ، عن الايمان القوي بقوة التربية والتعليم بقوله : « ان ما خسرته الدولة عسكريا ، سوف نسترجعه عن طريق التربية ». كما أعلن : « ان على الدولة ، ان تكسب بالقوى الذهنية ، ما خسرته بالقوى المادية » . وفي نفس السياق ، صرح أحد الوزراء : « هدفنا الاساسي هو انشاء جيل جديد من الرجال ، عن طريق التربية والتعليم » .

ولعل هذه الافكار والمشاعر ،ستمدة من الفيلسوف الالماني ، « فيخته » ، الذي حث الزعماء والقادة في المانيا الى اللجوء للتربية والتعليم ، لانقاذ البلاد والدولة من

(*) بروسيا دولة من دول المانيا ، قديما ، وكانت عاصمتها برلين ، وكان لملوكها الدور الاول في توحيد المانيا وجعلها امبراطورية ، بعد معاهدة فرساي عام ١٨٧١ .

الذل والمآسي ، نتيجة للهزيمة العسكرية على يد نابوليون . وتوجه في شتاء عام ١٨٠٧ و ١٨٠٨ الى الشعب الالماني بخطبه المعروفة « رسائل الى الأمة الالمانية » . وقال في احدى خطبه : « لم يبق لنا امل في حياة جديدة ، الا الأمل الذي نؤمنه لنا المدارس ، حيث تتعلم الاجيال الجديدة . . . فأنا آمل أن اقنع بعض الالمان بأن اريهم انه ليس هناك سوى التعليم ، كوسيلة لخلاصنا من شرور الاضطهاد والذل الذي نعانيه . . . » هذا ونادى « فيختة » باصلاح نظم التربية السائدة آنذاك ، وبضرورة قيام **تربية قومية** ، تساعد على بعث الأمة الالمانية ، وطالب بتوحيد المناهج والبرامج التربوية ، كما دعا الى بث **الروح الوطنية والى تربية مشتركة** بين فئات الشعب الالماني كافة ، ولتحقيق ذلك ، شدد الفيلسوف الالماني ، على تبني **نظام عسكري** صارم في المدارس ، حيث يدرب التلاميذ على اساليب مقاومة نابوليون وجنوده . واستطاع « فيختة » أن يجعل القادة الألمان يشعرون ، معه ، بأهمية التربية والتعليم ، في بعث أمـة قوية . كما استطاع أن يحرك المفكرين ايضا ، مما ادى ، في النهاية ، الى اجراء اصلاحات جذرية في نظام التعليم على كافة المستويات ، واعادة تنظيمه من جديد على اهداف قومية . ومن ابرز التغييرات الاخرى ، كـان : « تأميـم » التعليـم ، بحيث اصبحت الدولة المسؤولة عن تعليم النشىء وتربيته ، في مدارس شعبيـة ، اتسمت بطابع الوطنية الشديدة . واصبح الاطفال الالمان بذلك يتلقون تربية وطنية وتثقيفا للحياة في المدارس.

وعلى الصعيد العملـي ، انشئت دائرة خـاصة للتعليم في وزارة الداخلية ، وتم انتزاع المدارس من ايدي الكنيسة ووضعها في خدمة الدولة ، فأصبح التعليم بذلك مهمة من مهمات الدولة الاساسية . ومن ابرز ما قامت به دائرة التربية المذكورة ، ايفاد بعثة مؤلفة من سبعة عشر معلما بروسيا الى سويسرا ، للدراسة ، مدة ثلاث سنوات ، على يد المربي السويسري الكبير ، بستالوتزي ، وللتعرف علـى طريقته وافكاره . وبعد عودة الموفدين مباشرة ، تم تعيينهم فورا ، كمدراء لدور المعلمين ، او مدراء للتعليم في مناطق مختلفة مـن بروسيا . وتم تعيين احد كبار رجال الفكر والسياسة الالمان عام ١٨٠٩ ، « وليم فون هامبولت » ، مديرا لدائرة التربية في وزارة الداخلية . وبدأت على اثر ذلك أضخم عملية اصلاح تربوي في القرن التاسع عشر . ومن أهم ما حققه الاصلاح انشاء **مدارس عصرية** عرفت **بمدارس الشعب** .

وبالاضافة الى ذلك ، فلقد اهتم الالمـان ايضا ، **بالتعليم العالي** ، والتعليم التقني ايضا . فأنشأوا جامعة برلين في عام ١٨١٠ ، وجامعة بون في عام ١٨١٧ ، ومجموعة من المدارس التقنية في انحاء البلاد كافة . والجدير بالذكر أن « فيختة » عين رئيسا لجامعة برلين ، وراح يجوب البلاد ويلقي الخطب الحماسية ، ويستنهض الهمم ، ويدعو المواطنين الى العناية بالتعليم والاكثار مـن الجامعات الوطنيـة . وقد حذا الاساتذة الجامعيون حذوه ، وقاموا بدور كبير في عمليات التوعية والتثقيف وبث الروح الوطنية . وكان لاهتمام الالمان بالتعليم العالي ، بوجه خاص ، نتائج علمية وتربوية وسياسية واجتماعية باهـرة . وكانت **الجامعة فعلا خط الدفاع الأول** ، الذي أتاح لالمانيا القفز منه واستعادة استقلالها وتوحيد أراضيها . ومما يجب التشديد عليه هو أن الخطة التربوية الجديدة ، التي ركزت على بعث الروح الوطنية ، وبناء جيل جديد من الرجال ، اثمرت ، بعد أقل من مضي عقد واحد من الزمن ، بحيث غـدت التربية وسيلة مؤثرة في يد الدولة الالمانية .

ماذا كانت النتيجة ؟ على الصعيد العسكري ، بعد أعوام قليلة ، اي في عام ١٨١٣ مثلا ، انهزم نابوليون في معركة « ليبزيغ » ، أمام قوات بروسيا وروسيا والنمسا . ثم اندحر مرة ثانية عام ١٨١٥ ، في معركة « واترلو » في حربه ضد انكلترا وبروسيا .

وتوالت انتصارات بروسيا على فرنسا منذ ذلك الحين ، كما سنرى . واما على الصعيد التربوي ، فان التقدم الذي حققته بروسيا ، في حقل التربية والتعليم ، قد اذهل فرنسا نفسها . فأرسلت عام ١٨٣٠ مدير دار التعليم العليا ، فيكتور كوزين ، وهو احد مشاهير المربين آنذاك ، لالمانيا ليستطلع الاحوال التعليمية هناك ، ولدراسة اسباب استعادة بروسيا قوتها ، خلال فترة قصيرة بعد الحرب . وبعد الزيارة التي قام بها لالمانيا ، عاد وقدم تقريرا ، عرف باسمه ، نقل فيه مشاهداته وانطباعاته بالتفصيل ، وقدم سلسلة من الاقتراحات لاصلاح التعليم في فرنسا . وعلى اساس التقرير ، تم اصدار قانون التعليم الفرنسي العام سنة ١٨٣٣ ، والذي يعتبر احدى اهم ركائز النظام انفرنسي في القرن التاسع عشر .

وفي حرب السبعين (سنة ١٨٧٠) ، انتصرت المانيا على فرنسا ، ومحت عارها وهزيمتها . لماذا حققت المانيا ذلك النصير المبين على غريمتها فرنسا ؟ ما هي العوامل وراء النصر الالماني ؟ دعونا نأخذ جوابا من الماني وجوابا آخر من فرنسي . اعلن المستشار الالماني ، بسمارك ، وهو من مشاهير السياسيين الالمان ، واحد الذين حققوا الوحدة الالمانية وجعلوا المانيا في مقدمة الدول الاستعمارية ، في القرن التاسع عشر : « ان الذي أنتصر في معارك حرب السبعين ، انما هو **المعلم** » . وقد أعلن الكاتب والعالم الاثري الفرنسي ، ارنست رينان ، في أعقاب حرب عام ١٨٧٠ : « ان **الجامعات** الالمانية هي التي كسبت الحرب » . ونتيجة لذلك ، ادركت فرنسا مرة ثانية اهمية التعليم العالي ، فراحت تصلحه . وذكر « ثيودور زيلدن » في دراسة له عن التعليم العالي في فرنسا : « ان حرب عام ١٨٧٠ قد زودت حركة اصلاح الجامعات بقوة دفع عظيمة » .

ويجدر بنا ان نعيد الى الاذهان ان المربي السويسري ، بستالوتزي (١٧٤٦ — ١٨٢٧) ، كان أعظم ملهم في حركة اصلاح التربية الشعبية في المانيا . وفي الوقت الذي لم يكترث به نابوليون ، امتدحه الفيلسوف فيخته في عام ١٨٠٢ بقوله : « انني اتوقع بعث الأمة الالمانية من معهد بستالوتزي » . وهكذا كان (٨) .

٢ — « معجزة » التربية في اليابان

والتجربة الثانية الرائدة لدور التعليم في بناء نهضة عصرية وأمة قوية هي في اليابان . وتعود جذور نهضة اليابان الحديثة الى ما تحقق منذ العصر الذهبي ، الذي يعرف باسم عصر « ميجي » ، نسبة الى الامبراطور الياباني ، الذي قاد البلاد الى نهضتها الحديثة . عندما أعتلى العرش عام ١٨٦٧ ، كانت اليابان دولة متخلفة . فقرر الامبراطور الجديد أن يجعل اليابان دولة قوية ، تجاري الدول الغربية . ومن اهم ما قام به ، لتحقيق هدفه ، كان حث الشعب على نيل **العلم والمعرفة** في الغرب . فأرسل العديد من البعثات والطلاب ليدرسوا في مدارس ومعاهد البلدان الغربية ، حيث راحوا يتعلمون كل شيء من الغرب ، من علوم وادارة وفنون عسكرية وتربوية . ولا سيما **التربية المهنية** . هذا وقد تم تعميم التعليم الابتدائي ، وانشاء جامعة طوكيو ، واستقدام الخبراء الاجانب ، والتركيز على التقدم العلمي والصناعي ، الى جانب التربية الخلقية والقومية . ونتيجة لذلك ، وفي ظرف أقل من ٤٠ سنة ، أصبحت اليابان دولة قوية حديثة ، تضاهي دول الغرب نفسها ، بفضل « المعجزة » التربوية (٩) .

التربية للمعركة في القرن العشرين

بعد أن عرضنا تجارب بعض الشعوب التي استخدمت التربية من

اجـل المعركــة او مــن اجل نهضتهــا الحديثــة ، نأتــي الآن الــــى تجــارب الشعوب التي تركز على التربية والتعليم من اجل خلق امة قوية ومتقدمة . ولقد اخترنا الدول الكبرى الثلاث ــ الاتحاد السوفياتي ، الصين ، والولايات المتحدة الاميركية ــ لأنها نوجهت الى التربية بشكل كثيف ، لبناء امة قوية ، تواجه التحديات الاقتصادية والعلمية والعسكرية من الخارج . ولا بد من الاشارة الى ان الاميركيين ادركوا اهمية التربية في بناء مجتمع متقدم ، قبل غيرهم . الا ان الشيء الذي سنركز عليه ، في هذا البحث ، يتمثل في تجربــة الولايات المتحدة التربوية الاخيرة ، بعد اطــلاق اول قمر صناعي سوفياتي عــام ١٩٥٧ ، وما عقب ذلك من اصلاحات تربوية ، لأن الاميركيين اعتبروا النصر السوفياتي يعود الى تفوق نظام التربية الروسي ، على النظام التعليمي الاميركي .

١ ــ **التربية السوفياتية**

في الاتحاد السوفياتي ، احتلت التربية مكانة بارزة جدا ، بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية في عام ١٩١٧ .

وعندما استولى الشيوعيون على الحكم ، وعدوا ابنــاء شعبهم بالتعليم المجاني للجميع ، وهكذا جرى . لأن الحزب الشيوعي السوفياتي يعتبر التربية وسيلة لخلق مجتمع شيوعي . وجاء في الدستور السوفياتي ، المادة ١٢١ ، بأن « لكل المواطنين السوفيات الحق في التعليم . وهذا الحق مضمون بواسطة نظام تربوي حر ، مجاني ، اجباري والزامي ، للمرحلتين الابتدائية والثانوية » . وتركز السياسة السوفياتية على أن التربية عمل من اعمال الدولة ، تخدم بواسطتها اغراضها وحاجاتها . فتقيم الدولة مدارس ومؤسسات للتعليم ، على كافة المستويات وتديرها وتشرف عليها (١٠) .

ويبدو اهتمام السوفيات بالتربية والتعليم من اقوال مؤسس الدولة السوفياتية ، ف. أ. لينين ، واعماله . ففي فترة ثورة اكتوبر ، اي في فترة المجاعة والحرب الاهلية ، كان هم لينين ، في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ البلاد ، هو بناء المزيد من **المدارس** وفصول محو الأمية او المزيد من التوجيه الثقافي المبسط ، نحو العمال والفلاحين الأميين ، الذين سيكونون عماد الدولة الجديدة وحماتها (١١) . ويعتبر لينين ان التربية اداة فعالة **لبناء الانسان الشيوعي** . ونراه يخاطب المؤتمر الثالث لاتحاد الشبيبة الشيوعية لكافة روسيا في ١٩٢٠/١٠/٢ بقوله : « انتم تعلمون انه يستحيل بناء مجتمع شيوعي في بلد من الأميين » . وحث الشعب على المضي الى القرى « لتصفية الأمية ، لكي لا يبقى في صفوف جيلنا الصاعد ، أميون » هــذا ودعا لينين الــى تكييف النشاط التربوي والتعليمي واسسه ، على اساس ضرورات الانتقــال الى البناء السلمي وخطتــه الواسعة ، لتحويل البلاد صناعيا واقتصاديا . ودعا لينين ايضا الــى تلاحم التربية بالحياة . واعلن في المؤتمر الثالث لاتحاد الشبيبة الشيوعية ، المذكور ، « اننا لا نؤمن بالتعليــم والتثقيف والتربيــة ، اذا انحصرت في المدارس ، وانفصلت عــن الحياة الجياشة » (١٢) .

ويذكر انه في عشية ثورة اكتوبر (١٩١٧) ، كان اكثر مــن ٧٠ بالمائة من سكان روسيا لا يحسنون القراءة والكتابة ، وكانت نسبة الأمية ٩٩ بالمائة بين شعوب آسيا الوسطى . وتنبأ علماء الاجتماع عام ١٩٠١ ان التعليم الشامــل سيتحقق في القسم الاوروبي من روسيا بعد ١٥٠ و ٢٠٠ سنــة ، في حين لا يتحقق في مناطقها القومية البعيدة سوى بعد ٤٦٠٠ سنة . ولكن الثورة الثقافية الاشتراكية ، استطاعت ان

تقضي على الامية من تلك البلاد الشاسعة . ففي اواخر الثلاثينات ، اي بعد اكتوبر ١٩١٧ ، بعقدين من السنين فقط ، ازيلت الأمية الشاملة في البلاد (١٣) .

٢ ــ التربية الصينية الجديدة

شهدت الصين الشعبية ثورة تربوية وتعليمية ، في اعقاب تسلم الشيوعيين للسلطة عام ١٩٤٩ . ولقد بدأ التحويل الجذري في نظام البلاد التربوي والتعليمي ، اولا ، بناء على نصيحة الاتحاد السوفياتي والثوريين المتشددين كافة . وقام الصينيون ، بتصميم وبعزم وبسرعة ، الى اجراء اصلاحات جبارة في حقل التربية والتعليم ، شملت تنظيما جديدا تماما لمعاهد التعليم العالـــي ، ومناهج التعليم ومحتوياته والاساليب التعليمية وطرائقه . وبدأت الاصلاحات التربوية فعلا في العام ١٩٥٢ ، عندما تبنت الصين نظام التربية السوفياتي التقدمي . وفي بداية **الثورة الثقافية** الاولى عام ١٩٦٦ استطاعت الصين أن تغير نظامها التربوي وتقلبه راسا على عقب . ومن ابرز الشعارات التي رافقت الاصلاح التعليمي العبارة الآتية : « في التربية ، سوف لا نملك ما يوجد لدى الآخرين فحسب ، بل ما لا يملكه الآخرون » .

والجدير بالذكر ان كل قطاعات البـــلاد ومرافقها المختلفة ، قد اصبحت « ورشة تربوية وتعليمية » . فكل المصانع ، والمؤسسات ، ومجالس الابحاث ، والدوائر العامة ، والهيئات الوطنية ، والقوات المسلحة ، و « الكومونات » الشعبية (المزارع الشعبية الجماعية) ، والمـــدن ، والمنظمات الشارعية ــ كلها ــ يجـــب ان تنشىء مدارس وتديرها .

وفي الصين الشعبية ، لا يمكن فصل مسألة التربيـــة عن مسألة **خلق جيل ثوري** متعلم . ومن ابرز ما حققته الثورة التربوية من انجازات كان القضاء على الأمية ، بين صفوف الصينيين الكبار ، ممن هم دون الاربعين من العمر ، وذلك بحدود العام ١٩٦٥ . ويذكر أنه في عشية انتصار الثورة الصينية عام ١٩٤٩ ، اظهرت الاحصاءات، أن نسبة الأميين بلغت اكثر من ٨٥ بالمائة ، وكذلك اكثر من ٤٠ بالمائة من الاولاد ، ممن كانوا في عمر الدراسة ، خارج المدارس ، اي دون تعليم . هذا وفي عام ١٩٤٩ لم يبلغ معدل سنوات التعليم للفردالصيني الواحد سوى سنتين فقط ، ولكن سرعان ما ارتفع المعدل الى ٣ر٥ سنوات في عام ١٩٥٩ ، والى ٥ر٥ سنوات في سنة ١٩٦٦ ، والى ٦ر٥ سنوات في أوائل السبعينات الحالية . ولقد عممت الصين برامج للتعليم الاجباري المجانى لجميع النشء الصيني ، لمدة تسع سنوات (١٤) .

وتجدر الاشارة الى ان التربية الثورية تشدد على فطرة الطالب وابداعه وجرأته ورفضه الخضوع والتقليد ، بعد ان كانت في الماضي ، اي قبل الاصلاح التربوي في ابان الثورة الثقافية عام ١٩٦٦ ، تشدد علـــى الخضوع للتقاليد وللقدرة علـــى تسجيل المعلومات وحفظها من الكتب .

وتعلق الكاتبة الصينية ، « هان سويك » ، على الاصلاح التربوي بقولها : « ان اصلاح التربية في الصين سيؤدي الى تغيير الدوافع العلمية . اي أن العلم لا يقوم ، بعد الآن ، على دوافع المنفعة ، بل يقوم علـــى زيادة **الطاقة العلمية** عند الانسان ، وتكوين عقله الخلاق . والتجربة الصينية ، التـــي لم يشهد مثيل لهـــا في تاريخ تلك البلاد ، ترمي الى تخطيط اعداد التربية ، على المدى الطويل ، تربية جيل مقبل على الاضطلاع بمهامه ، وتربية شعب بكامله لممارسة الديمقراطية » .

وبالاختصار ، ليس هدف التربية والتعليم في الصين أزالة الامية بأسرع ما يمكن ، وبناء مجتمع حديث ، اشتراكي ، صناعي ، تقني ، قادر على استيعاب التقنيات الحديثة وعلى التجديد والابداع الذاتي فحسب ، بل للتربية هدف آخر ايضا ، الا وهو خلق رؤية للعالم «اكبر من الرؤية الفردية» ، هي رؤية بروليتارية ثورية واممية(١٥) .

٣ ـ التربية الاميركية الجديدة

لقد ادرك الاميركيون اهمية التربية والتعليم قبل ثورتهم الصناعية ، في القرن التاسع عشر . وعاشوا قبل غيرهم الثورة التربوية ، الفريدة من نوعها في تاريخ الشعوب . وبلغ الدافع الى التعليم والمعرفة درجة الى ان « انقلب كل بيت من هؤلاء المستوطنين الجدد الى **مدرسة** . فالأب والأم يقضيان الليل مع أولادهما بالتعليم ، والنهار في الحقل ».ومن هذا يتضح أن الاميركيين قد ادركوا اهمية التربية والتعليم منذ عشرات السنين ، لذا راحوا ينفقون بسخاء اموالا باهظة ، على تربية جميع فئات الشعب وتعليمها ، وذلك لخلق جيل قوي ـ جسديا وعقليا ومعنويا وخلقيا . ويرى بعض العلماء ، وربما كان ذلك صحيحا ، ان انتصار الولايات المتحدة في الحرب مرجعه ، في الأغلب ، الى نظامها التعليمي . وبكلام آخر ، فان نجاح الولايات المتحدة ، صناعيا وعسكريا ، في الحربين العالميتين الاخيرتين ، يعود الى نظامها التربوي الديمقراطي .

بيد ان الولايات المتحدة ، اصيبت بنكسة كبيرة ، في اعقاب اطلاق اول قمر صناعي سوفياتي ، وتحليقه فوق الارض بنجاح في عام ١٩٥٧ . ولقد نسب عدد كبير من الاميركيين هذا النصر العلمي والتكنولوجي الى نظام التربية والتعليم السوفياتي . كما اتهم عدد من المربين والشخصيات الاميركية نظامهم التعليمي بالتخلف عن النظام التربوي السوفياتي . فراح الاميركيون يتسابقون على درس نظام التعليم السوفياتي ويحللونه بدقة ، لمعرفة نقاط قوته . وظهر ، نتيجة لذلك ، عشرات الكتب الاميركية التي تعالج نظام التعليم السوفياتي وتحلله .

وكان الرد الاميركي على التحدي العلمي السوفياتي ، اعادة النظر في مناهج التعليم واهدافه ومحتوياته وأساليبه على المستويات كافة ، ابتداء بالمدارس الابتدائية ، مرورا بالثانوية ، وحتى الجامعية . كما اعيد النظر ايضا في أضخم مختبرات الابحاث النووية ، لتحديد مواطن الضعف فيها وتقويتها وتبديلها ، كي تنسجم مع تلك المرحلة من متطلبات التحدي العلمي والتكنولوجي والعسكري ، الذي اخذ يواجه البلاد . وفي عام ١٩٥٨ اصدرت الحكومة « القانون التربوي للدفاع الوطني » ، والذي يعد فعلا من أعظم القوانين التربوية في الولايات المتحدة ، ويمكن ان نعتبره بمثابة « ثورة تربوية وعلمية » لما تحقق بفضله من انجازات ضخمة في حقل التربية والعلوم والتكنولوجيا ، ومن ضمن ما قدم هذا القانون : مساعدات مالية الى حكومات الولايات والمدارس والجامعات والاشخاص، لتحسين البرامج التعليمية وتطويرها ، وتقديم اموال الى الولايات المختلفة لشراء أدوات تعليمية وخاصة في ميادين العلوم والرياضيات واللغات الاجنبية واللغة الانكليزية والتاريخ والجغرافيا والقراءة والتربية المدنية . وكذلك تقديم اموال لميادين اخرى ، ومنها منح للدراسات العليا ، بغية القيام بأبحاث في وسائل الاعلام الجماهيرية لاغراض تربوية ، وتحسين الارشاد التربوي وبرامج التقويم ، وتوسيع برامج اعداد المعلمين وتدريبهم ، وخاصة في المواضيع الحساسة ، وكذلك تحسين التربية المهنية .

هذا ولقد سلكت هذا السبيل ايضا ، بعض الدول الاوروبية ، كبريطانيا وفرنسا وبلجيكا والبلدان الاسكندينافية (١٦) .

مما تقدم يتضح أن للتربية والتعليم دور استراتيجي في اعداد جيل قوي من الرجال والنساء وتدريبه في خدمة الأمن والدفاع والحرب . ويبدو أن الشعوب ، عبر العصور، تلجأ الى التربية والتعليم لمواجهة التحديات العسكرية او العلمية وللدفاع عن نفسها ضد عدو خارجي .

التربية في الوطن العربي وفي اسرائيل

بعد ان قدمنا صورة موجزة عن تجارب الشعوب ، في استخدام التربية لخدمة اغراض مجتمعاتها ومتطلباتها الاقتصادية والدفاعية والعسكرية ، نأتي الى دراسة التربية في الوطن العربي نفسه ، لنرى مدى مساهمتها في المعركة التي تخوضها الأمة العربية : ضد التخلف والعدو الصهيوني . ويشمل عرضنا هذا ثلاثة أنواع من التربية : (١) التربية الصهيونية والاسرائيلية ، (٢) التربية في الاقطار العربية ، (٣) التربية في الثورة الفلسطينية . لقد اخترنا التربية الصهيونية لنرى بوضوح الدور البارز الذي مثلته في خلق مجتمع متعلم وعصري في فلسطين المحتلة ، بيد ان التربية في الاقطار العربية اجمالا ، لم تخدم المعركة لأن معظم المواطنين الكبار ما زالوا اميين . واما الحديث عن التربية الاسرائيلية والتربية العربية ، فيقودنا الى الكلام عن التربية الفلسطينية ، نظرا للفلسفة الثورية التي تبنتها الثورة الفلسطينية ، في حقل التربية والتعليم والتدريب ، لبناء جيل جديد من الرجال والنساء ، يستطيع ان يواجه التحدي الصهيوني الذي اغتصب فلسطين ، وأن يحرر ارضه المحتلة ، وبالتالي ليكون مواطنا جديدا في فلسطين الديمقراطية العلمانية .

١ ــ التربية الصهيونية والاسرائيلية

قبل ان نتحدث عن التربية الصهيونية والاسرائيلية ، في العصر الحديث ، يجدر بنا ان نقدم لمحة تاريخية موجزة جدا عن التربية لدى بني اسرائيل في العصور القديمة . فمن المعروف لدى طلاب تاريخ التربية ان بني اسرائيل قد عنوا بالتربية عناية كبرى . وكانت للتربية لديهم قوة خاصة : هي التي استطاعت ان تبقي عاداتهم واعتقاداتهم وتقاليدهم حية ، طوال القرون العديدة ، على الرغم من تشردهم في بلدان العالم كافه .

في العصور الاولى ، كانت التربية لدى العبريين تربية دينية وقومية ؛ بينما الثقافة الفكرية لم تكن سوى شيء ثانوي ، ولكن بعد ظهور المسيحية ، غدت التربية عامة تهدف الى تعليمهم وتثقيفهم ، ولم يعد الهدف مقصورا ، كما كان من قبل ، على غرس بضع مبادىء خلقية طيبة وعادات دينية . وحاول اليهود ، بعد انتشار المسيحية وانتصارها عليهم ، ان ينتقموا لأنفسهم من انكسارهم هذا باللجوء الى **الثقافة والعلم**، شأنهم شأن اكثر الأمم المغلوبة ، كما فعلت الأمة البروسية بعد معركة « يينا » والفرنسيين بعد حرب السبعين من القرن الماضي (١٧) .

وتابع اليهود ، بالاعتماد على التربية ، لاثبات وجودهم في بلدان العالم ، وللانتقام من الشعوب . وتجسد ذلك في الحركة الصهيونية التي استخدمت التربية كالأداة الاولى والأهم لتحقيق اهداف الصهيونيين ، واقامة دولة اسرائيل في فلسطين المحتلة . وجاء أول اقتراح بتأسيس **جامعة يهودية** في فلسطين مثلا ، من استاذ للرياضيات في

جامعة هايدلبرغ ، اسمه « ريفي هيرش شابير » ، علـــى شكل رسالـــة قصيرة في الجريدة العبرية اليومية ، هاميلتز ، التي كانت تصدر في سان بطرسبرغ في ٢٠/٦/ ١٨٨٢ . وأثار الموضوع ثانية استاذا للديانة اليهودية ، يدعى « اسرائيل ابراهامز » ، في جامعة كمبريدج ، البريطانية ، وذلك حين نشر مقالا في مجلة « الجويش كرونيكل » في ١٩٠٨/٢/٢٨ . وكان الصهاينة يعتبرون دوما أن الخطط الراميـــة جميعها ، الى تأسيس جامعة يهودية في فلسطين ، أمر يجب تحقيقه قبل اي استقرار في فلسطين على نطاق واسـع .. لماذا ؟ لأن يهود أوروبا ، وخاصة يهود المانيا ، كانوا يدركون اهمية الجامعة في عملية « بناء الدولة » (١٨) .

ولم تهتم الصهيونية بمحاولة انشاء جامعة يهودية في فلسطين فحسب ، بل بانشاء مدارس يهودية أيضا . فبعد الحرب العالمية الاولى ، وبصدور وعد بلفور عام ١٩١٧ ، اخذت المدارس اليهودية تتزايد بسرعة في فلسطين . وتم انتقال عدد كبير من المدارس، التي كانت تملكها المؤسسات اليهودية الخاصة ، الى المنظمة الصهيونية ، التي كانت قد انشأت ، بدورها ، دائرة خاصة ، تعرف بالدائرة التربوية ، للاشراف علـــى هذه المدارس وتولي شؤونها . وهكذا دخلت الصهيونية ، بانتهاء الحرب ، في فترة الانتداب البريطاني علـــى فلسطين ، مزودة بالجهاز الاداري وبالقاعدة التربوية ، اللازمة ، للانطلاق بشكل واسع .. وبين سنة ١٩٢٠ ، ١٩٢٦ ، تم تنظيم التعليم اليهودي في فلسطين ، بحيث اصبح نظاما مستقلا .

ومنذ قيام الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ ، اهتمت اسرائيل بشؤون التربية والتعليم . .هذا ويوصي المجلس القومي للبحوث وشؤون التطوير في اسرائيل . « بأن تبذل البلاد قصارى جهدهـــا لتضمن لكل ولد ولكل بنت الثقافـــة المناسبة » . والتعليم في اسرائيل اجباري للأولاد بين ٥ و ١٦ سنة .

ويهدف التعليم في اسرائيل الى تكوين مجتمع عصري موحد بين اليهود الذين تجمعوا في فلسطين المحتلة ، وبناء دولة عصرية ، تملك اسباب القـــوة المادية والروحية ، والمحافظة على التراث اليهودي ونشره وتعميمه بين الناشئة اليهود في اسرائيل .

ومن أبرز مظاهر نظام التربية والتعليم في اسرائيل ، العلاقة الوثيقة بين المدارس والروح العسكرية . تبدو المدارس الاسرائيلية ، وكأنها شبه ثكنات عسكرية ، فتحولت المدارس الثانوية مثلا ، الى شبه ثكنات ، حيث يتم التدريب العسكري « الجدناع » . والروح العسكرية هذه ، التي تتمثل في المدارس الثانوية ، تتصاعد وتتكثف ، في أثناء الخدمة العسكرية الاجبارية ، التي تتلو فترة التخرج ، من المدرسة الثانوية مباشرة .

وانسجاما مع مبادىء الحركة الصهيونية الدولية واهدافها ، اخذت اسرائيل بمبدأ انصهار الشعب اليهودي القادم من شتى بلدان العالم ، بواسطة التربية والتعليم في المدارس . وتبدأ اسرائيل بتطبيق هـــذا المبدأ ، أولا ، في دور الحضانـــة ورياض الاطفال ، بحيث يؤخذ الطفل في سن مبكرة ويخضع لعملية اعادة تكوين الشخصية وصهره في بوتقة جديدة . ويذكر أن دور الحضانة ورياض الاطفال ، كما هو معروف في بلدان كثيرة من العالم ، لا تنال ذلك الاهتمام والدعم ، كما تناله في اسرائيل عامة . لماذا ؟ يعود السبب الى طراوة شخصية الطفـــل في السن المبكرة ، بحيث تستطيع دور الحضانة ورياض الاطفال تلقينهم القيم والمبادىء والمفاهيم الصهيونية بشكل غير مباشر ، وذلك بواسطة الالعاب والاناشيد والقصص . ويجري كل ذلك تحت اشراف معلمة مدربة ، تقوم عند الطفل مقام الأم . ويشدد في هذه الرياض والدور ، وخاصة

في الدور ، على تعلم اللغة العبرية ، بأشكالها المبسطة والنطق بها ، باعتبار ان كثيرين من الاطفال لا يتكلمون العبرية في بيوتهم ، وخاصة أطفال المهاجرين الجدد ، أو يتكلمون لغات مشتقة عن اللغة العبرية ، ولا تنطبق معها تطابقا كبيراً (١٩) .

هذا وتعمل اسرائيل أيضا على محاربة الأمية بين الكبـــار ، بحيث تتراوح هذه النسبة بين ١٥ و ٢٥ بالمائة من المهاجرين الجدد . ويقوم بعملية التعليم هذه ، وحدة خاصة من الجيش ،تتألف من البنات في الخدمة العسكرية . ولقد بدأت العمل في عام ١٩٦٤ . ويطلق على البنات العاملات في هذه الوحدة ، الجنديات ـــ المعلمات (٢٠) .

وتبدو اهمية دور التربية في بناء دولة صهيونية قوية ، من تصريح رئيس الوزراء الحالي ، اسحق رابين ، عندما كان سفيراً في واشنطن (١٩٦٩) ، ورئيس الاركان في أيام حرب ١٩٦٧ ، قال فيه : « لا تزال العوامل التـــي أوصلتنا الى النصر سنة ١٩٦٧ ، هي نفسها اليوم ، كما انها لا تزال لمصلحتنا . ان خلق جيش حديث ، يفترض وجود بلد وشعب متقدمين في الهيكل الاجتماعي والتربية وطريقة الحياة بكاملها » (٢١) .

وهكذا يتضح أن « الهيكل الاجتماعي وطريقة الحياة » في اسرائيل متأثران بالتربية والتعليم ، وبما يجري ايضا في المدارس ، لدرجة لعلها تفوق ما يحصل في غيرها من البلدان . ومن هنـــا يظهر الترابط الوثيق بين اهداف التعليم الاسرائيلي ، واهداف الحركة الصهيونية من جهـــة ، وبين أهداف التعليم وحاجات المجتمـــع الاسرائيلي واوضاعه من جهة أخرى .

٢ ـــ **التربية في الاقطار العربية**

علمنا ، مما تقدم ، كيف استطاعت الصهيونية العالمية واسرائيل استخدام التربية في بناء مجتمع صهيوني متعلم وعصري في فلسطين ، بيد ان القاء نظرة فاحصة على الواقع التربوي في الاقطار العربية عامة ، يشير الى صورة قاتمة عامة ، نظرا لانتشار الأمية بين الكبار على نطاق واسع ، وتخلف نظم التعليم وفقدان التوازن بين انواع التعليم في المدارس والجامعات . وبكلام أوضح فالتعليم في الاقطار العربية مـــا زال تقليديا ورجعيا الى حد بعيد ، يتجه الى القلة أو النخبة من الشعب ، ولا يفي بحاجات المجتمع ومتطلبات التنمية الاقتصادية والاجتماعية وقضايا الدفاع والحرب . ولعل من ابرز سمات التخلف التعليمي ، في الوطن العربي ، الحقائق المريرة الآتية :

أ ـــ **انتشار الأمية بين الكبار** : لعل اول ما يسترعي الباحث ، في هذا الصدد ، مدى انتشار الأمية بين الكبار العرب ، وخاصة بين الفئات الناشطة والمنتجة من السكان . تفيد احدث احصاءات اليونسكو لعام ١٩٧٠ ، أن عدد الأميين الكبار (١٥ سنة فأكثر) في جملة الاقطار العربية ، بلغ ٥٠ مليون نسمة ، أي ٧٣ بالمائة (٨٦٪ للاناث و ٦٠٪ للذكور) ، مقابل ٣ر٥ بالمائة لجملة البلدان المتقدمة (٢٢) و ١٥ بالمائة لاسرائيل (٢٣) . وبهذا يتضح ان الحكومات العربية قد عجزت عن تأمين التعليم لمعظم المواطنين ، في عصر اصبح التعليم فيه ، حقا من حقوق الانسان الاساسية ، فضلاً عن كونه اداة فعالة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والدفاعية .

ب ـــ **نقص فادح في نسبة الملتحقين بالمدارس والجامعات** : وتدل الارقام على النقص الفادح في نسبـــة الطلاب الملتحقين بالمدارس وبالجامعات . بلغت نسبـــة الطلاب المسجلين في التعليم الثانوي (اعدادي ، متوسط ، ثانوي) وانواعه (مهني ، اعداد معلمين) الى ٢٣ بالمائة ، مقابل ٦٢ بالمائة في البلدان المتقدمة . وتنحدر نسبة الطلاب

المسجلين في التعليم العالي الى ٤ بالمائة فقط ، مقابل ٢٤ بالمائة للبلدان المتقدمة . ولا ريب في أن قدرة البلاد ، اقتصاديا وعسكريا ، تقاس بنسبة الطلاب في التعليم الثانوي والتعليم العالي .

د ــ **اتجاه التعليم الثانوي ــ اكاديمي ونظري** : هذا ولا يزال التعليم الثانوي يتجه اجمالا نحو التعليم الاكاديمي النظري (العام) ، بحيث تصل نسبة الطلاب المسجلين في المدارس العامة الى ٨٦ بالمائة ، مقابل ١٢ بالمائة فقط للمدارس المهنية ، و ٢ بالمائة لاعداد المعلمين ، وذلك للعام ١٩٧٠ ، والغريب في الامر أن نسبة الطلاب الملتحقين في التعليم الاكاديمي العام آخذة في الارتفاع . فلقد كانت النسبة ٨١ بالمائة عام ١٩٦٠ . بيد أن الملتحقين بالتعليم المهني آخذة في الانخفاض . لقد كانت النسبة ١٦ بالمائة ، وكذلك الحال لطلاب دور المعلمين ، بحيث كانت النسبة ٣ر٢ بالمائة لعام ١٩٦٠ (٢٤). ويأتي كل ذلك في الوقت الذي تحتاج فيه الأمة العربية الى المزيد من خريجي المدارس والمعاهد المهنية ودور المعلمين ، لتلبية حاجات مشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية والتربوية المتزايدة . ولكن نجد ان نسبة الطلاب في التعليم المهني في بعض البلدان المتقدمة مرتفعة جدا . فتصل الى ٧١ بالمائة في تشيكوسلوفاكيا ، والى ٥٠ بالمائة في الاتحاد السوفياتي ، والى ٤٥ بالمائة في اسرائيل (٢٥) .

٣ ــ التربية الثورية الفلسطينية

اذا كانت الشعوب القوية والمنكوبة ترنو انظارها الى التربية ، لتجد فيها طريق الخلاص، فان الشعب العربي الفلسطيني ليس بشاذ عن هذه النظرية. فلقد استطاع الشعب الفلسطيني ان يحقق مستوى رفيعا جدا من التربية والتعليم ، أرفع بكثير من بقية الشعوب العربية . ولم يكتف الشعب الفلسطيني بتحقيق قسط وافر من التعليم ، بل هب ، قبل انطلاق الثورة الفلسطينية ، مرات عديدة ، مطالبا بحق ابنائه في تربية وطنية عربية فلسطينية (٢٦) . وبعد انطلاق الثورة ، ازداد ضغط الجماهير الفلسطينية من اجل تحقيق تربية وطنية فلسطينية. ولقد تم ذلك على الصعيد النظري في عام ١٩٧٢ ، عندما أعد قسم التخطيط التربوي في مركز التخطيط في منظمة التحرير الفلسطينية « فلسفة التربية للشعب العربي الفلسطيني » . والغاية القصوى من هذه الفلسفة ، خلق او تكوين انسان فلسطيني جديد ، قادر على النضال الطويل وعلى المساهمة الفعالة في انجاح عملية لبلده المغتصب . هذا وتتسم هذه الفلسفة بالواقعية والموضوعية والعقلانية والثورية . والآن سنقدم أهم محتويات خطة التربية الثورية الفلسطينية .

« وتهدف فلسفة التربية والتعليم ، من خلال تحقيق الأسس التي تقوم عليها ، الى خلق **الانسان الثوري** ، قوميا واجتماعيا ، الذي سيكون أساس حرب الشعب الطويلة ، التي يخوضها الشعب الفلسطيني ، وضمان استمرارها وأداة نجاحها ، والذي سيكون أيضا مواطنا في فلسطين الجديدة المحررة » .

« وترتبط فلسفة التربية والتعليم للشعب العربي الفلسطيني بشخصية هذا الشعب ومقوماته ، باعتباره جزءا من الأمة العربية ، وبمبادىء الثورة الفلسطينية التي تحدد آماله وتطلعاته وتصميمه على التحرير والتقدم ، وبحاجاته القائمة والمنتظرة في ظل الاوضاع التي يعيشها والصعوبات التي يواجهها والنضال الذي يخوضه ضد الصهيونية والامبريالية » .

وتتمثل هذه الفلسفة في الايمان بالاهداف والمبادىء الآتية ، والعمل علـى تعزيزها وتجسيدها ، سلوكا وعملا .

أ ـ الثورة الفلسطينية المسلحة هـي الطريق الوحيد لتحرير الارض والانسان ، مما يحتم العمل على تلبية حاجاتها وضمان ثباتها ونموها ونجاحها .

ب ـ فلسطين ، بعد التحرير الكامل ، دولـة عربية ديمقراطية ، يتساوى فيها جميع المواطنين ، في الفرص والحقوق والواجبات ، دون تمييز على أساس الجنس أو اللون أو الدين .

جـ ـ غرس **القيم** الآتية وتنميتها في نفوس النشىء : حب الشعب والثقة به ، وحب الوطن والثورة والثقة بالنصر ، وحب العمل والانتاج لخدمة الثورة والشعب ، والمبادىء والقيم الوطنية والثورية والتحرر مـن السلبية ومـن القيم الفردية والقيم التقليدية السلبية ، وروح التفاؤل الثوري وروح حـب المستقبل في النفـوس ، والاحساس بالمسؤولية والانضباط وتقوية الصلابة والمناعة في الخلق ضد الازمات والقوى المضادة للثورة والتهيئة للمشاركة الفعلية في قضايا المجتمع .

وتتمثل الفلسفة أيضا في تنمية الروح النضالية لدى الشعب العربي الفلسطيني ، وذلك عـن طريق : ضرورة التحلـي بالصفات الثورية ، مثـل الصدق والاخلاص والمواظبة والشجاعة والحـزم والتواضع والكتمـان ومقاومة الانتهازية والوصولية والاغتياب والدس والنفاق والكذب . ثم عن طريق الارتباط العضوي بالارض والوطن في النشىء ، الذي لم يعش في فلسطين ، ولم يرها ، والهاب الخيال في تصورها وحبها والحنين اليها .

وتتمثل الفلسفـة كذلك في مساعدة الفرد علـى النمو السوي ، جسميا وعقليا واجتماعيا وعاطفيـا ، وتنمية نواحي الابداع عنـد **الموهوبين** ، وفي الاهتمام بتربية **الروح الرياضية** ، وبالجوانب الصحية ، وبالتراث الشعبي الفلسطيني والعربي ، وفي العناية بتفجير **الطاقات العقلية** لابناء الشعب الفلسطيني وتنميتها الى أقصى الحدود الممكنة ، وفي تنميـة المسؤولية الخلقيـة واتبـاع المنهـج الديمقراطي في العلاقات الانسانية .

هذا وتوصي فلسفة التربية ، في وضع المناهج والمقررات الدراسية ، الحاجة الى ان يتبع الطلاب **الاسلوب العلمي** في البحث والتفكير والاستنتاج ، وفي تمييز المعلومات الصحيحة من الخاطئة ، وان يلزموا الموضوعيـة في النقد ، بقصد التقييم والتغيير والبناء والتقدم المستمر (٢٧) .

وبهذا تكون الثورة الفلسطينية ، قد خطت خطوات صحيحة في تبني تربية ثورية ، تستطيع بناء الانسان الثوري ، الذي يحمل قيما تقدمية ، تقود حتما الـى التحرير والنصر والعودة .

التربية في خدمة المعركة

بعد أن بينا بالحقائق وبالارقام تخلف التربية في جملة الاقطار العربية ، وعجزها ، بالطبع عن خدمة المعركة ، نظرا لمفاهيمها وأنواعها وطبيعتها التقليدية ، فالاسئلة التي نطرحها الآن هي : كيف يمكن للتربية في الاقطار العربية ان توضع في خدمة المعركة ؟

ما هي التربية الصالحة للمعركة ؟ وما هي ابرز مرتكزات هذه التربية ؟

للاجابة على هذه الاسئلة وما شابهها ، اعتمدنا على تجارب الامم وخبراتها في هذا الميدان ، كي نستفيد منها ، في وضع مخطط لتربية عربية جديدة ، تستطيع ان تفتح الطريق امام التنميـــة الاقتصادية والاجتماعية والدفاعية . ولتحقيق ذلك ، لا بد من احداث تغييرات جذرية في بنية التعليم ومحتواه . للحصول على تعليم عصري وحديث، بمستوى المعركة . ولسنا اول من يطالب بذلك . ففي مؤتمر مراكش (١٩٧٠) نادى أحد وزراء التربيـــة العرب « بالثورة التعليمية » وبوجوب اسقـــاط النظم التعليمية القائمة في البلدان العربية ، لترتفع على انقاضها نظم جديدة . واهداف جديدة ، ترقى الى مستوى التحديات ، التي تواجه الأمة العربية - في تحركها نحو المستقبل ، لبناء انسان عربي جديد ، يستطيع أن يواجه المعركة بالعلم وبالثقافة وبالشجاعة (٢٨) . وتجدر الاشارة الى أننا ننطلق مـــن النظرية القائلة بانـــه لا يمكن ان نحقق التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، بمجرد التوسع في التربية فحسب . بل في اعتماد نوع معين من التربية ، وخاصة في هذا العصر .

١ ــ اعتماد فلسفة تربوية جديدة

ان التربية التي تخدم المعركة ، بشكل فعال ، هي التربية التي تعتمد ، اولا ، على فلسفة واهداف ومبادىء وقيم تربوية جديدة ، سليمة وصحيحة .

تهدف فلسفة التربية والتعليم ، المرغوب فيها ، الى خلق الانسان العربي الجديد ، ذلك الانسان الثوري ، قوميا واجتماعيا ، الذي يستطيع ان ينقل امته من أمة متخلفة او نامية ، الى امة متقدمة وقوية ، وان يغالب تحديات التخلف ويتغلب عليها ، وان يصمد ضد قوى العدوان والصهيونية والامبريالية . ومحاولة التغلب عليها ، وان يتجه في تفكيره وفي اعماله نحو الوحدة الوطنية والقومية الشاملة . وان ينفتح على المجتمع الدولي ، للتفاهم وللتعاون ، من أجل السلام . وأن ياخذ بأساليب العلم والتكنولوجيا في مجالات الحياة المختلفة ، وان يربط التنمية بالتربية والتعليم . وان يتجه نحو الادارة العلمية ، سواء في الحكم او في مجالات الحياة . كما تهدف الى تنمية الجراة والشجاعة والمعرفة والحكمة والتسامح والمحبة والصبر ، وتنمية الايمان بالقيم الانسانية والعربية والديمقراطية والحرية ، والتوجيه نحو دحض البغضاء والاستبداد والتفكك والتشكك وعدم الثقة . وكذلك تسعى التربية الجديدة الـــى التعبير بجراة وشجاعة عـــن أمل الشعوب العربية وقوتها ، كأمة لها ماضيها العريق ، وسيكون لها مستقبلها ومكانتها المرموقة في العالم الحديث (٢٩) .

٢ ــ اعتماد مفاهيم ومبادىء تربوية صحيحة

ولا بد ايضا من اعتماد مفاهيم ومبادىء واهداف تربوية وتعليمية صحيحة وعملية، تستطيع أن تخدم المجتمع والمعركة . لقد تغير مفهوم « المنهج » مثلا ، واصبح يشمل « كل خبرة تقع تحـــت اشراف المدرسة وتوجيهها » ، سواء كانت منهجيـــة ام غير منهجية . فأصبح يركز علـــى كل جوانب شخصية التلميذ وكل جوانب « الخبرة » . وعليه فقد تحولت أهداف التعليم ، بالتالي اهداف المناهج . فمضمون التعليم قد اتسع واصبح يشمل التربية بأوسع معانيها . وغدت مهمة التعليم تتجه الى صنع المواطن واعادة صنع المجتمع ، ودفعه الـــى طريق التقدم . وقد جرى هذا التحول من بعدين اساسيين : (١) التحول عن حشو ذاكرة التلميذ بالمعلومات والمعارف الـــى تنمية قدرة الطالب ــ بالمعلومـــات والمعارف ــ علـــى التفكير الموضوعي والعلمي ، الـــى حد

الابداع والابتكار ، في المجال الفيزيقي والاجتماعي . وتزويده بالمهارات والاتجاهات والقيم ، للحياة الاجتماعية الذاتية (اسرة ، عمل ، حياة مدنية وسياسية ، ترويح ، استثمار أوقات الفراغ ، الخ) ، فضلا عن تأمين الصحة النفسية والجسدية للتلميذ وتحسينها . واما البعد الثاني فهو التحول ، الذي جرى ، من مجرد النقل الثقافي ، وحتى التكيف مع الحاضر ومواجهة قضاياه ، الى **صنع المستقبل** وما يعنيه من تكوين انسان جديد ، قادر على تطوير الحياة والسير بنفسه وبمجتمعه على طريق التطور والتقدم (٣٠) .

وبالاضافة الى ذلك ، فعلى التربية أن تركز على القيم الاجتماعية والسياسية الجديدة في المجتمع ، ومن ابرز هذه القيم التي اخذت تظهر وتنتشر في العالم : قيم الديمقراطية وما يثوي وراءها من معاني العدالة الاجتماعية ، وتكافؤ الفرص والقضاء على التمييز الطبقي والطائفي ، والقيم الثقافية الانسانية الجديدة ، التي تنطلق من ضرورة الربط ، بين التراث القومي وبين الحضارة العالمية الحديثة ، ومشاعر الاعتزاز القومي ، والرغبة في اللحاق بركب التقدم الدولي ، ومواجهة هوة التخلف ، التي تقوم حاليا ، بين المجتمعات المتقدمة والصناعية وبين المجتمع العربي ، وقيم التحرر من الاستعمار والامبريالية والصهيونية العالمية (٣١) .

٣ ـــ اعتماد التخطيط التربوي

التخطيط التربوي هو التنبؤ بسير المستقبل في التربية والسيطرة عليه ، من اجل الوصول الى تنمية تربوية متوازنة ، والى تحقيق الاستخدام الامثل للموارد البشرية والمادية المتاحة ، والى الربط ، في النهاية ، بين التنمية التربوية والتنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة .

فالتخطيط التربوي ـــ كأي تخطيط ـــ يريد أن يقبض على زمام التطور الذي يجري في المستقبل . فيطرح ، منذ اليوم ، قضايا السنوات المقبلة **ويتنبأ** بها ، ليستطيع بالتالي ان يقدم لها الحلول اللازمة ، وليعد ما ينبغي لمواجهتها . والتخطيط التربوي لا يكتفي بالتنبؤ بما سيقع في المستقبل ، بل يريد أن **يتحكم** به ، ويتدخل في سيره ، كالزيادة في عدد الطلاب مثلا . ومعنى هذا أن التخطيط التربوي ـــ كأي تخطيط ـــ يسعى أن يتحكم في مستقبل التربية تحكما علميا مدروسا ، بدلا من أن يترك الامر للزمن . فالتخطيط هو ، أولا وآخرا ، صنع المستقبل وبناء المستقبل . وكذلك يهدف التخطيط التربوي الى الربط بين تنمية التربية وبين التنمية الاقتصادية والاجتماعية . فالتنمية التربوية هي الاداة الرئيسية لأي تنمية اقتصادية واجتماعية ، ولا سبيل الى تحقيق تنمية اقتصادية أو اجتماعية في بلد من البلدان ، بغير تنمية الثروة البشرية ورأس المال البشري فيها . أي بغير تربية الافراد وتعليمهم بغية اعدادهم للمشروعات المختلفة ، في التنمية الاقتصادية والاجتماعية وسواهما (٣٢) .

٤ ـــ محاربة الأمية والقضاء عليها بين الكبار

لا يمكن لدولة أن تستعد للمعركة ، بشكل قوي وفعال ، وتنتصر لفترة طويلة ، ما لم تقطع شوطا بعيدا ، في القضاء على آفة الأمية بين الكبار والراشدين . فالامية آفة خطيرة وعدو داخلي خطير ، يجب القضاء عليها ، لبناء أمة قوية ومتقدمة . وهناك امثلة عديدة عن تجارب الدول التي شنت حربا شعواء على الأمية في بدء مسيرتها نحو التطور والتقدم . فان كان لينين قد أعلن ، « انه يستحيل بناء مجتمع شيوعي في بلد

من الأميين » (٣٣) . ونحن نقول انـــه يستحيل بنـــاء مجتمع عربي عصري متقدم ، يستطيع ان يواجه التحدي الاسرائيلي والامبريالي ، بغير مجتمع متعلم .

وفي الصين الشعبية ، كانت نسبة الامية عشية انتصار الثورة عام ١٩٤٩ ، أكثر من ٨٥ بالمائة ، كما كان اكثر من ٤٠ بالمائة من الاولاد في عمر الدراسة خارج المدارس ايضا . وبلغ معدل متوسط سنوات التعليم للفرد الواحد سنتين فقط . ولكن بفضل الحملات لشعبية الواسعة النطاق التي اقامتها الحكومة الجديدة ، فقد ارتفع معدل سنوات التعليم الى ٣ر٥ سنوات في عام ١٩٥٥ والى ٥ر٥ سنوات في عشية الثورة الثقافية عام ١٩٦٦ ، والى حوالي ٦ر٥ سنوات في عام ١٩٧٢ . ولا تزال الحكومة الصينية عازمة على رفع هذا المستوى (٣٤) .

هذا وقد حذت كوبا حذو الاتحاد السوفياتي والصين في القضاء على الأمية في فترة وجيزة جدا .

والجدير بالذكر ان الامم المتقدمة والقوية في العالم ، قد قضت على الأمية نهائيا ، وهـــي : فرنسا ، المملكة المتحدة ، الاتحاد السوفياتي ، المانيـــا الشرقية ، فنلندا ، رومانيا ، الدانمرك ، اليابان وأوستراليا . هذا يعني أن هذه الدول قد قضت على الأمية ١٠٠ بالمائة (٣٥) .

٥ ــ تعميم التعليم الالزامي للجميع

ومن أهـــم الخطوات ، للقضاء علـــى الامية ولرفـــع مستوى الافراد وللنهوض بالمجتمع ، هي تعميم التعليم الابتدائي أولا ، ثم التعليم المتوسط ، فالتعليم الثانوي . هذا ما قامت به الدول الراقية والمتقدمة والقوية في العالم ، حيث تطبق قوانين حازمة للتعليم الالزامي لكافة المواطنين . ففي الولايات المتحدة ، تمتد فترة التعليم الالزامي من ٦ الى ١٨ سنة ، وفي الاتحاد السوفياتي من ٧ الى ١٦ سنة ، وفي بريطانيا من ٥ الى ١٥ سنة ، وفي سويسرا من ٧ الى ١٥ سنة ، وفي المانيا الاتحادية من ٦ الى ١٥ سنة ، وفي المانيا الديمقراطية من ٧ الى ١٧ سنة ، وفي كندا من ٦ الى ١٦ سنة ، وفي السويد من ٧ الى ١٦ سنة من العمر ، وفي اسرائيل من ٥ الى ١٥ سنة .

هذا ولقد حدد مؤتمر طرابلس ، ليبيا ، لوزراء التربية العرب في عام ١٩٦٦ ، في قرار ، دعا فيه الى تحقيق التعليم الالزامي الابتدائي ، قبل عام ١٩٨٠ ، كمـــا أصر مؤتمر مراكش ، في القرار الاول ، على الابقاء علـــى هدف تحقيق الالزام في التعليم لابتدائي سنة ١٩٨٠ ، والسعي الجاد الى تحقيقه مع تكييف هذا التعليم ليكون بمحتواه واهدافه ، تعليما شعبيا نافعا (٣٦) . بيد أن الدلائل تشير الى ان هذا الهدف لن يتحقق في الوقت المحدد له .

٦ ــ تعليم وظيفي للكبار

لا يمكن لأية دولة عربية أن تشهد نموا اقتصاديا سريعا ، اذا بقي مستوى التعليم في الطاقة العاملة والتأهيل منخفضا ، اللهم الا اذا استخدمت أيد عاملة أجنبية ماهرة ومدربة . ومن المعلوم ان النمو الاقتصادي يمكن أن يتحقق بزيادة انتاجية العمالة الى أقصى درجة ممكنة . وهذا يتطلب بالطبع العمل على احداث تغيير جذري في التكوين التعليمي والثقافي لليد العاملة في البلاد ، ولا ريب في أن الحاجة تدعو بشكل ملح الى تعليم العاملين في الاقتصاد او اعادة تثقيفهم وتدريبهم ، ليكونوا اكثر عملا وانتاجا ،

هذا يعني بكلام اوضح ، بذل المزيد من الجهود الجادة ، من اجل التعليم الوظيفي للكبار ، ومن اجل تغيير السياسات التعليمية وخططها (٣٧) .

٧ ــ اتصال التعليم بالمجتمع

ينبغي ارتباط التعليم بحاجات المجتمع وقضاياه ، وبمتطلبات سوق العمل والتنمية وبحاجات التلاميذ وميولهم . فهذا الاتصال يضفي على التعليم صفة **الوظيفية** ، ويجعل منه اداة للاصلاح الاجتماعي وللتقدم الاقتصادي ، وبالتالي لتطوير المجتمع وانمائه .

٨ ــ محتوى المناهج

ان صورة الانسان الذي نريد ان نعده ، نستطيع ان نجدها في المناهج التعليمية والتربوية ، فاذا اردنا ان تخدم المناهج والبرامج قضية الوحدة الوطنية والقومية والمعركة ، فعليها ان تقدم للتلاميذ المعاني والمهارات والادوات اللازمة للصمود ضد التحديات والأزمات . ومن اجل التغلب عليها ، كما عليها ان تعكس قيما وطنية وقومية وتقدمية . وكذلك عليها ان تنمي الروح النضالية لدى الجيل الجديد ، وذلك عن طريق ضرورة التحلي بالصفات الثورية ، مثل الصدق والاخلاص والمواظبة والشجاعة والحزم والتواضع والكتمان ومقاومة الانتهازية والوصولية والاغتياب والدس والنفاق والكذب (٣٨) . ولقد أصبح تصميم المناهج عملا علميا وجماعيا في آن واحد ، يضطلع بالجزء الاكبر منه اكاديميات تربوية ومراكز بحوث ، كما هو الحال مثلا ، في الاتحاد السوفياتي وفي الولايات المتحدة الاميركية ، وكذلك الاشراف على المناهج وتنفيذها (٣٩) .

٩ ــ الاهتمام بالتربية البدنية

ان بناء جيل جديد قوي يحتاج ، بلا ريب ، الى « عقل سليم وجسم سليم » . فعلى المدارس والجامعات ان تهتم بالتربية البدنية وبتربية الروح الرياضية ، وكذلك ان تهتم بالجوانب الصحية الفردية والجماعية ، عن طريق نشر المعلومات الصحية وتنمية العادات الصحية ، سلوكا وعملا . فالدول المتقدمة والقوية تهتم بالتربية البدنية . ففي الولايات المتحدة الاميركية مثلا ، نجد في كل مدرسة قاعة الالعاب الرياضية (جمنازيوم) للنشاطات الرياضية والترفيهية في داخل مباني المدرسة ، وكذلك ثمة ملاعب للالعاب الرياضية في الهواء الطلق . وتركز التربية البدنية في الولايات المتحدة على الروح الرياضية والعمل الجماعي ، وكذلك على تنمية الجسم السليم (٤٠) .

١٠ ــ ربط التربية بالدفاع

والتربية التي تخدم المعركة هي التي ترتبط بشكل مباشر بحاجات الدفاع الوطني . فالمعركة ، كما ذكرنا ، تتطلب رجالا متعلمين ومثقفين ، يتحلون بمهارات فنية وعلمية . ونذكر هنا ، على سبيل المثال ، تجربة الولايات المتحدة الاميركية ، في اعقاب اطلاق القمر الصناعي السوفياتي الاول « سبوتنك » عام ١٩٥٧ ، ولقد حذت بلدان اوروبية حذو الولايات المتحدة ، كبريطانيا وفرنسا وبلجيكا والبلدان الاسكندينافية (٤١) .

١١ ــ تربية وطنية

والتربية ، التي تخدم المعركة ، هي التي تعزز الوحدة الوطنية وتغرس في الجيل الجديد حب الوطن والتضحية في سبيله والعمل على وحدة ابنائه كافة . ولنا من

التجربة الالمانية المذكورة آنفا ، والنجربة الاميركية ، مثلان حيان علـــى ذلك . فلقد استطاعت التربية الاميركية مثلا أن تخلق اجيالا من الاميركيين ، الذين أتوا من مختلف بلدان العالم ومن مختلف الطوائف الدينية ومـــن مختلف القوميات والاجناس ، الى العالم الجديد ، امة واحدة (٥٠ ولاية) ، مما جعلها اقوى دولة في العالم ، اقتصاديا وعسكريا وعلميا وتكنولوجيا وتربويا ، الخ . ويعود الفضل الى وحدة الامة الاميركية الى المدارس والجامعات التي استطاعت ، بفضل التربية الوطنية الاميركية ، ان تصهر مختلف فئات الشعب الاميركي في بوتقة واحدة .

١٢ ـــ تشجيع الموهوبين والمتفوقين

والتربية ، التي تخدم المعركة وتحقق النصر ، هي التي ترعـــى التلاميذ **الاذكياء والموهوبين والمتفوقين** وتساعدهم على تنمية نواحـــي الابداع وتقدم لهم المساعدات والمنح المالية ، فضلا عن التوجيه والارشاد التربوي والنفسي . هذا ما تفعله الولايات المتحدة مثلا ، وخاصة في اعقاب اطلاق اول قمر سوفياتي الى الفضاء عام ١٩٥٧ . وجاء في التوصية التاسعة مـــن الدراسة الطويلة التـــي قام بها المربـــي الاميركي المشهور ، « جيمس ب. كونئت » ، الرئيس السابق لجامعة هارفرد ، ان ثمة برامج خاصة يجب أن تنظم للطلاب الموهوبين ، اكاديميا ، في المدارس الثانوية الاميركية . ولقد اقترح برنامجا خاصا للذكور وللاناث في المدارس الثانويـــة يشمل : رياضيات (٤ سنوات) ، لغة اجنبية (٤ سنوات) ، علوم (٣ سنوات) ، بالاضافة الى أربع سنوات من اللغة الانكليزية وثلاث سنوات من العلوم الاجتماعية ، ومجموعة من ١٨ درسا من الواجبات البيتية في السنوات الاربع . وهذا البرنامج يتطلب ايضا على الاقل ١٥ ساعة من الواجبات البيتية في كل اسبوع . وهناك منح تعطى للطلاب الموهوبين ، بعد اجتياز امتحانات مقننة على الصعيد الوطني (٤٢) . هذا وتقوم حكومة الاتحاد السوفياتي برعايـــة الاطفال الموهوبين وخـــاصة في الرياضيات والفيزيـــاء والعلوم الطبيعية . ويتضمن البرنامج الخاص بالرياضيات مثـــلا ، موضوعات لا تدرس في المدارس العادية ، الا على المستوى الجامعي (٤٣) .

١٣ ـــ ربط التعليم بالعمل

ينبغي ادخال العمل في التربية والتعليم ، وربطه بهمـــا ، والتركيز على النواحي التطبيقية العملية في التعليم . كما ينبغي غرس روح حب العمـــل واحتماله في نفوس الناشئين ، وتشجيعهم على اكتساب المهارات اليدوية المختلفة . وكان كارل ماركس أول من تحدث عن « التربية نصف شغل ونصف درس » ، وعن مسألة تكييف الشباب اجتماعيا ، وعن التربية المهنية ، واول من اراد ان يضع حداً لاحتقار العمل اليدوي ولتوجيه المراهقين توجيها غير صحيح . « يجب أن تسير التربيـــة والانتاج جنبا الى جنب » .ولقد جرى تنفيذ هذه النظرية في الصين الشعبية ، حيث اعتمد نظام « نصف شغل ، نصف درس » ، بغية خلـــق نموذج جديد للمثقف البروليتاري . ولقد بدأت التجربة في سنة ١٩٥٨ ، هذا وشن الرئيس ماوتسي تونغ حملـــة جديدة ، حث فيها الشباب المثقف على الذهاب الى الريف للتعلم من المزارعين ، وذلك بالعيش وبالعمل معهم ، على قدم المساواة ، والتربية في الصين لا تركز على العمل مع التربية فحسب، بل ايضا التربية مـــع العمل . فيتطلب مثـــلا ، من الطلاب في المدارس العادية وفي الجامعات ان يشتركوا في عمل منتهـــج ، كأي درس عادي في المنهـــج . وتشجيع المؤسسات ، في بعض الحالات ان تنشىء مصانع خاصة لها لتستخدم من قبل طلابها . وهكذا يتضح أن التربية في الصين لم تعد تنشىء رجالا مثقفين بالمعنى الكلاسيكي بل

تكون « عمالا مثقفين » ، وبذلك نزلت التربية من برجها العاجي الى حقل الرز ، الذي طالما أحتقر في الصين القديمة (٤٤) .

١٤ ـ توسيع التعليم المهني والتقني وتعزيزه

ومن عوامل تطور الامم وتقدمها ، توسيع التعليم المهني والتقني وتعزيزه ، وتحقيق نوع من التوازن بين نسبة الطلاب في التعليم الاكاديمي العام ، وبين نسبة الطلاب الملتحقين بالتعليم المهني والتقني . ويذكر ان الامم المتقدمة والصناعية تعتني عناية خاصة بالتعليم المهني وتشجعه بشتى الطرائق ، لتحقيق نوع من التوازن بين التعليمين المذكورين . ويمكن توسيع التعليم المهني وتعزيزه برفع أجور العمال المهنيين والفنيين المتوسطين ، وتطوير المدارس المهنية القائمة ، وبناء مدارس مهنية رفيعة ، وخاصة في المناطق الريفية ، وتقديم منح ومساعدات مالية للطلاب المهنيين ، وتأمين اعمال لهم فور تخرجهم .

١٥ ـ توسيع التعليم العالي وتعزيزه

وتقاس الأمة القوية والمتقدمة بنسبة الطلاب الملتحقين في التعليم العالي او عدد خريجي او حاملي الشهادات الجامعية . واذا أردنا ان نخوض المعركة بنجاح ، او نبني أمة قوية ، فعلينا ، من ضمن ما نقوم به ، في ثورتنا التربوية ، توسيع التعليم العالي وتعزيزه . ويمكن أن نحقق ذلك عبر تطوير الكليات والجامعات القائمة حاليا في الاقطار العربية وانمائها ، ماديا وبشريا وعلميا ، وانشاء جامعات جديدة من النوع الممتاز ، اي المتقدم . فالجامعة فعلا هي خط الدفاع الاول .

هذا وتهتم الدول المتقدمة والقوية في الوقت الحاضر ، في توسيع التعليم الجامعي وتعزيزه . ففي الولايات المتحدة وحدها ، نجد اكثر من ٣٫٠٠٠ جامعة وكلية ، كما نجد في الاتحاد السوفياتي اكثر من ٧٠٠ مؤسسة للتعليم العالي . واصبحت الجامعة رمزا للتقدم وللقوة في العالم المتقدم والراقي .

ويمكن للجامعة ان تسهم في المعركة من خلال القيام بنشاطات مختلفة ، ابرزها تطوير التعليم وانمائه ، اعداد قيادات علمية وفكرية وعسكرية ، اجراء دراسات علمية وتكنولوجية واستراتيجية ، تنمية روح التفكير العلمي ، وذلك بتنمية القدرة على الملاحظة وغرس القدرة على الاستنتاج من الملاحظات ، انشاء مراكز للبحوث والتطوير ، نشر نتائج الدراسات العلمية والتكنولوجية في الداخل وفي الخارج ، تشجيع العلماء والباحثين ماديا ومعنويا ، تقديم خدمات العلماء والباحثين والاساتذة في الجامعة لانماء كافة أوجه المجتمع ، تعزيز مناهج التعليم ببرامج ودروس علمية وتكنولوجية حديثة ، تشمل علم الذرة وعلم الفضاء والطيران ، وعلم الصواريخ والقذائف وما شابه ذلك .

١٦ ـ اعتماد البحث العلمي في التربية

أصبح البحث العلمي (البحث والتجريب) في التربية اتجاها تقدميا في الدول المتقدمة . لأن البحث العلمي يعد من ابرز اتجاهات العصر الحديث وسماته . ولعل البحث العلمي ، في التربية والتعليم ، اهم سبيل او قاعدة ينبغي الاعتماد عليها ، في مواجهة قضايا التعليم في الاقطار العربية ، في الوقت الذي أصبح فيه تخطيط المناهج وأبعادها المختلفة ، يعتمد على البحث والتجريب . وهكذا نجد أن تصميم المناهج

أصبح عملا ، علميا وجماعيا ، يقوم ، بالجزء الاكبر منه ، أكاديميات ومراكز بحوث ، كما يجري الآن في الاتحـاد السوفياتي وفي الولايات المتحـدة . لقد اختصر الاتحاد السوفياتي مثلا ، مرحلة التعليم الابتدائي ، مع زيادة كفاءة المناهج والتعليم نفسه ، الى ثلاث سنوات بدلا من أربع سنوات (٤٥) . هذا ولقد تنبه مؤتمر مراكش (سنة ١٩٧٠) ، المؤتمر الثالث لوزراء التربية العرب ، لهذا الوضع . فدعا الى الاهتمام بالبحث والتجريب ، لأنهما سبيل الثورة العلمية الحقيقية للأمـة العربية . كما دعا المؤتمر في القرار الاول الى « الحرص على اقامة التعليم على اسس علمية بالبحث التربوي والتفكير الموضوعي والمناقشة المتبصرة في مشكلاتـه » . فالتعليم الجيد هو الذي يستند الـى نتائج البحث العلمـي ، لا الـى القرارات الاعتباطية او التقاليد العمياء (٤٦) .

خطوات التنفيذ

بعد كل ما قدم من اقتراحات لتنميـة التربية ، رب سائل : كيف يمكن ان نحقق الاقتراحات الواردة في خطة التربية الانمائية ، لجعل التربية في خدمة المعركة ؟ لا ريب في ان انجاح مخطط تطوير التربية وانمائها ليس بالامر السهل ، فانه يتطلب اموالا باهظة ، وتوعية شعبية ، واعلامـا تربويا واسع النطـاق ، واعداد المربين بشكل فعال ، وادارة تربوية حديثة ، وانشاء مراكز للبحوث التربوية والانماء .

١ ــ **تامين الاموال اللازمة** : ينبغي تأمين المـال اللازم لانجاح اي مشروع او خطة انمائية . ونظرا لتصاعد عائدات النفط العربية ، بحيث وصلت الى ٦٥ بليون دولار عام ١٩٧٤ ، وهي آخذة في الارتفاع ، نقترح تثمير ما لا يقل عن ٥ ــ ٦ بالمائة من الناتج القومي المحلي العربي في انماء التربية والتعليم .

٢ ــ **نشر الوعي التربوي** : ان الجهود التي تبذل لنشر التعليم وتطويره ، يجب ان يسبقها ويرافقها ايضا ، حملة اعلامية تربوية لتمهيد الطريق لها ، وذلك بالقيام بحملة توعية تربوية واسعة النطاق ، كما جرى في المانيا من قبل الفيلسوف فيختـه . وينبغي استثارة اهتمام المجتمع العربي بنشر التربية وتعميمها وتجديدها ، وذلك عن طريق الاقناع بضرورة تعميم التعليم وفائدته لحاجات التنمية ومتطلبات المعركة . ويمكن ان يتوجه الإعلام التربوي الى تهيئة الراي العام بفئاته المختلفة ، من مسؤولين ومربين ومربين وطلاب وآباء وامهات وهيئات شعبية ونقابيـة ، لغايـة نشر فكرة التربية والمعركة ، وجعله يستقبلها ويتوقعها . ولهذا الغرض يمكن استخدام وسائل الاعلام الجماهيرية المتوافرة ، من جرائد ومجلات واذاعة وتلفزيون وغيرها من الوسائل التي تساهم في التأثير على الراي العام ، للحصول على الدعم الشعبي . ويمكن تهيئة الراي العام فكريا ونفسانيا ، بالاضافة الى مـا تقدم ، بواسطة عقـد ندوات ومؤتمرات وحلقات دراسية والقاء محاضرات في المدارس والجامعات والنوادي والقاعات . هذا ويمكن نشر الوعي التربوي ، بواسطة انشاء مكتبـات في المدارس والمدن والقرى ، تزود بالكتب والمراجع والمجلات والجرائد .

٣ ــ **انشاء مراكز للبحوث والانماء** : لعل من افضل الوسائل لانماء التربية والتعليم انشاء مركز للبحوث والانماء ، في كل قطر عربـي . ومن مهمات هذا المركز ، اجراء الدراسات والتجارب العلميـة والميدانية ، في حقـل التربية ، تولي مهمة التخطيط التربوي في البلاد ، واعداد الاطر التربوية كافة ، وتولي مهمة الاعلام التربوي ، ومهمة تحديث التربية . وذلك بتطوير المناهج والامتحانات والاساليب التربوية وطرائقها ،

والادارة التربوية ، وبنية التعليم واهدافه . وينبغي اجراء تعاون وتنسيق بين كافة المراكز التربوية العربية والدولية . والجدير بالذكر أن الحلقة الدراسية حول التجديد في التربية في البلاد العربية (سنة ١٩٧٤) قد دعت الى ضرورة اقامة مركز تربوي في كل دولة عربية (٤٧) .

٤ ــ **تامين ادارة مرنة ومستقلة** : لا يمكن للمرء ان يتصور اهمية الادارة الحديثة ، المرنة المستقلة استقلالا اداريا وماليا ، في انجاح اي خطة تربوية واقتصادية . فكم من مشروع لم ينفذ في الوقت المحدد له ، أو لم ينفذ أبدا ، نظرا لتخلف الادارة المركزية العامة وتحجرها . فالقيود الادارية تجمد سير الاعمال وتعرقل تنفيذها . لذا يستحسن ان نبدأ بتحديث الادارة العامة ، وذلك بوضع رجال في الادارة مدربين في علم الادارة تدريبا جامعيا ، وبانشاء ادارات محلية لا مركزية ، مستقلة اداريا وماليا ، ولكن تنسق مع الادارة المركزية . وتجدر الاشارة الى اننا لمسنا ، في السنوات القليلة الماضية ، اتجاها مشجعا حقا نحو الاستقلال الاداري والمالي في بعض المؤسسات العامة في الاقطار العربية .

٥ ــ اعداد المربين وتدريبهم

لا يمكن للتربية ان تخدم المعركة الا باعداد المربين وتدريبهم ، كي يتمكنوا من أن يصبحوا قوة محركة ايجابية للتجديد والتطوير والانماء . ويمكن تحقيق ذلك عن طريق اعدادهم ، اعدادا علميا ومهنيا وتربويا رفيعا ، ينمي فيهم التفكير العلمي ، والتعاون الاجتماعي ، والمبادرة الفردية ، وعن طريق تدريبهم ، في أثناء الخدمة ، في دورات خاصة ، طويلة أو قصيرة الاجل ، في عطلة الصيف او في العطل ابان العام الدراسي ، ثم عن طريق اشراكهم في الابحاث والتجارب الميدانية والعلمية ، وتشجيعهم على التعليم الذاتي المستمر ، وعلى استخدام الوسائل التعليمية والتقنيات التربوية ، وتهيئتهم ليكونوا مرشدين ومشاركين لطلابهم ، يحفزونهم على التعلم الذاتي ويساعدونهم عليه . ولاجتذاب العناصر الموهوبة من الطلاب الى مهنة التعليم ، على كافة المستويات ، ينبغي تحسين ظروف عمل المعلمين وزيادة رواتبهم ، بما يضمن لهم العيش الكريم ، كما ينبغي ان تتاح لهم الفرص للمشاركة في بحث قضايا التربية والتعليم المطروحة ، ووضع سياساتها واستراتيجياتها . فينبغي اذن ان تحتل وظيفة المعلم المكانة الاولى من الاهمية في بناء الشعوب العربية ، وفي اعداد الاجيال المقبلة ، لأنهم الفئة الموجهة من ابناء الأمة ، والتي تكاد ان تكون « رسلا » ، على حد تعبير امير الشعراء .

خلاصة واستنتاجات

من كل ما تقدم من حقائق ومعلومات وافكار ، يمكن ان نخرج بالخلاصة والاستنتاجات الآتية :

١ ــ التربية قوة ايجابية فعالة ، اذا أحسن تعبئتها ، من حيث الكم والكيف ، وذلك في احداث تغييرات اقتصادية واجتماعية وسياسية ودفاعية في اي بلد .

٢ ــ التربية تسلح الفرد بالعلم والمعرفة والثقافة ، وبالقدرة على النضال من اجل مواجهة التحديات ومغالبة الصعاب والتغلب عليها .

٣ ــ تلجأ الشعوب الى التربية عندما تعصف بها الأزمات وتحل بها الهزائم والكوارث ، لأن التربية هي السبيل الى مواجهة كل ذلك ، والى القوة والنصر .

٤ ــ تستخدم الشعوب التربية لتلبيــة متطلبات المجتمع وحاجاته ، وذلك وفق العصر والظروف ، ولكل عصر متطلبات خاصة به ، تتغير بتطور الزمن .

٥ ــ للتربية علاقة وثيقــة ، عبر العصور ، في شؤون الدفــاع والحرب . ففي العصور القديمة ارتبطت بقوة في قضايا الأمن والفروسية والدفاع والحرب ، وفي القرن التاسع عشر ارتبطت بشؤون الأمن والدفاع والتحرير وبناء جيل قوي للتحرير (بروسيا مثلا) ، بينما ارتبطت في بناء دولة عصرية ومتقدمة ، اقتصاديا في اليابان . واما في القرن العشرين فقد ارتبطت بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية وبناء جيل متعلم وعصري، وتفوق علمي وتكنولوجي . وكل ذلك يرتبط ارتباطــا مباشرا بشؤون الدفاع والامن القومي . وهكذا نرى أن مفهوم التربيــة قد تطور مــن الاهتمــام بالاعداد للدفاع والفروسية والحرب فقط ، الى التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعلمية، الخ . ايضا . .

---

١ ــ المؤتمر الاقليمي الثالث لوزراء التربيــة والــوزراء المسؤولــين عــن التخطيط الاقتصادي في الدول العربيــة ، التقرير النهائــي ، مراكش : ١٢ ــ ٢٠ يناير/ كانون الثاني ١٩٧٠ (باريس : اليونسكو ١٩٧٠) ، ص ٢١ .

٢ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٣ .

٣ ــ اللجنة الوطنية اللبنانية للتربية والعلوم والثقافة ، الحلقة الدراسية حول التجديد في التربية في البــلاد العربية ، التقرير النهائي (بيروت ٢ ــ ٧ أيلول/سبتمبر ١٩٧٤) ، ص ١ ــ ٢ .

٤ ــ (أ) ــ

Edward P. Cubberly, *The History of Education*, (Boston : Houghton Meoflin Co., 1920), PP. 22 - 23.

(ب) ــ

James H. Robinson, *et. al. History of Civilization Earlier Ages*, (Boston : Ginn & Co., 1937), P. 145.

(جـ) ــ

Ge. ge W. Bostford, *Helenic History* (New York, The Macmillan Co., 1939), P. 65.

(د) ــ عبدالله عبد الدايم ، التربية عبر العصور (بــيروت ، دار العلــم للملايين ١٩٧٣) ، ص ٥٤ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٨٥ .

٥ ــ المصادر السابقة : (أ) ص ٣٠ ــ ٣٧ ، (ب) ص ١٨١ ، و (د) ص ٥٣–٥٦ .

٦ ــ (أ) المصــــدران (٤ ــ ب) ص ٨٦ ، و (١٥ ــ د) ص ٤٣ ــ ٤٥ ، ٨٦ .

(ب) ــ

Emerson Lavender, *et. al. A Thousand Ages*, (New-York: McGraw - Hill Co., 1962), PP. 200 - 202.

٧ ــ المصدر نفسه ، (ب) ، ص ٣٢٣ .

٨ ــ (أ) ــ المصدر (٤ ــ أ) ، ص ٥٦٦ ــ ٥٧٠ .

(ب) ــ منير بشور وخالد مصطفى الشيخ يوسف ، التعليــم في اسرائيــل (بيروت ، مركز الابحاث، ١٩٦٩)، ص ١٣ ــ ١٦ .

(جـ) ــ انطــوان ب. زحــلان ، العلــم والتعليــم العالــي في اسرائيــل (بــيروت ، مــؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٠) ، ص ١٧٧

٩ ــ (أ) المصدران (٤ ــ أ) ، ص ٧١٩ ــ ٧٢٠ ، (٤ ــ د) ، ص ٣٦ ــ ٣٧ .

١٠ ــ

U.S. Department of Health, Education and Welfare. Office of Education. *Education in The U.S.S.R.*, Bulletin 1957, No. 14 (Washington 1957) PP. 11 - 15.

١١ ــ مجلة الطريق ، بيروت ، أيلول ١٩٧٤ ، ص ١١٨ .

١٢ ـ ف. ا. لينين ، عن الثقافة البروليتارية (منشورات وكالة أنباء نوفوستي ، بلا تاريخ) ، ص ١٥ ـ ٣٤ .

١٣ ـ مجلة الى الامام ، بيروت ، ٧ تشرين الثاني ١٩٧٥ ، ص ٣٢ .

١٤ ـ (أ) الياس زين ، هجرة الادمغة العربية (بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر) ، ١٩٧٢ ، ص ١٨٠ ـ ١٨٣ .

(ب) ـ
Frederick Harbison & Charles A. Myers *Manpower & Education* (N. Y.McGraw Hill Co., 1965) P. ix.

١٥ ـ جريدة الانباء ، بيروت ، ٢٢ آب ١٩٧٠ .

١٦ ـ (أ) ـ المصدر (١٤ ـ أ) ، ص ١٦٨ ـ ١٧٢ .

(ب) ـ مجلة دراسات عربية ، العدد ١٠ (آب ، اغسطس ، ١٩٦٧) ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .

١٧ ـ المصدر (٤ ـ د) ، ص ٢٩ ـ ٣٠ .

١٨ ـ المصدر (٨ ـ جـ) ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

١٩ ـ المصدران : (٨ ـ ب) ، ص ٤٤ ، ٥٠ ، ٣٣١ ـ ٣٣٧ ، ٤٠٠ و (٢٩) ، ص ١٨٥ .

٢٠ ـ
Kalman Yaron, *Life-Long Education in Israel* (Jerusalem: The Adult Education Association of Israel 1972), PP. 104 - 105.

٢١ ـ جريدة النهار ، بيروت ، ١٩٦٩/٦/٢٢ .

٢٢ ـ مجلة التربية الجديدة ، بيروت العدد الثاني ، نيسان ١٩٧٤ ، ص ٣١ .

٢٣ ـ
Reader's Digest 1971 Almanac Yearbook (Pleasantville, New York, 1971), P. 412.

٢٤ ـ (أ) ـ المصدر نفسه ، ص ١٦ ـ ٣٤ .

(ب) ـ
UNESCO, *Statistical Yearbook 1972/1973* (Paris 1973, 1974).

٢٥ ـ
United Nations, *Statistical Yearbook 1973*, (New York, 1974), PP. 760 - 786.

٢٦ ـ شؤون فلسطينية ، العدد ٢٥ ، أيلول/سبتمبر ١٩٧٣ ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

٢٧ ـ قسم التخطيط التربوي في مركز التخطيط (م.ت.ف) . فلسفة التربية للشعب العربي الفلسطيني ، ص ٤ ـ ٩ .

٢٨ ـ صحيفة التخطيط التربوي في البلاد العربية ، العدد ٢٩ (أيار ـ آب ١٩٧٢) ، ص ١٢ .

٢٩ ـ (أ) ـ فلسفة تربوية متجددة لعالم عربي يتجدد ، لجماعة من علماء التربية (بيروت، دائرة التربية في الجامعة الاميركية ، ١٩٥٦) ، ص ٦ .

(ب) ـ المصدر ٢٨ ، ص ٩ .

٣٠ ـ المصدر ٢٨ ، ص ١٧ ـ ١٨ .

٣١ ـ عبدالله عبد الدايم : التربية في البلاد العربية ، حاضرها ومشكلاتها ومستقبلها (دار العلم للملايين) ١٩٧٤ ، ص ٦١ .

٣٢ ـ المصدر نفسه ، ص ١١٧ ـ ١٢٠ .

٣٣ ـ المصدر ١٢ ، ص ٣٤ .

٣٤ ـ المصدر (١٤ ـ أ) ، ص ١٨١ ـ ١٨٢ .

٣٥ ـ
Britannica Book of The Year, 1967 and 1968, P. 318. «Literacy».

٣٦ ـ المصدران : (٢٤ ـ ب) و ١ ، ص ١١ و ٢٢ .

٣٧ ـ محمد الغنام ، التربية في البلاد العربية في ضوء مؤتمر مراكش (١٩٧٠) ، (بيروت ، المركز الاقليمي ، ١٩٧١) ، ص ١٦ .

٣٨ ـ قسم التخطيط التربوي في مركز التخطيط ، (م.ت.ف.) فلسفة التربية للشعب العربي الفلسطيني ، بيروت ، (١٩٧٢) ، ص ٦ ـ ٧ .

٣٩ ـ المصدر ٢٨ ، ص ١٨ ـ ٢٢ .

٤٠ — *Education in America* (Booklet, 48 P.) no date, P. 19

٤١ — المصدر (١٤ — أ) ، ص ١٧٠ — ١٧٢ .

٤٢ — James B. Conant, *The American High School Today* (Signet Books, 1964), PP. 62 - 67.

٤٣ — المصدر (١٦ — ب) ، ص ٤٧ .

٤٤ — المصدر ١٥ .

٤٥ — المصدر ٢٨ ، ص ١٧ — ٢٣ .

٤٦ — المصدر ٣٧ ، ص ٢٢ و ٤٢ .

٤٧ — المصدر ٣ ، ص ٧ .

الرقابة البرلمانية على المشروعات العامة في اسرائيل

السيد عليوه

تخضع ادارة المشروعات لنوع أو آخر من أنواع الرقابة . ففي النظام الراسمالي يهتم المساهمون بحصولهم على أقصى قدر من الربح على استثماراتهم ، وقد تفرض الدولة نوعا من الرقابة على هذه المشروعات الخاصة لحماية المساهمين وتأمين الصالح العام . اما المشروعات العامة فتفرض عليها الرقابة لأسباب اقتصادية او اجتماعية او سياسية وذلك باعتبارها خلايا اقتصادية واداة من أدوات التخطيط الاقتصادي تعمل على تحقيق برامج العمالة او خطط الاستثمار وغيرها من أساليب ادارة التنمية . غير انه مهما اختلفت أهداف الرقابة وتنوعت فانها تنحصر في هدفين رئيسيين : الاول التحقق من ان الاتفاق تم وفقا لما هو مقدر له والثاني ان الموارد قد استخدمت افضل استخدام . وليس هناك من خلاف حول تلك الاهداف التي تسعى اليها الرقابة على نوع الاجهزة التي تباشرها .

ورغم انه يتعذر كثيرا ان نميز الفروق الدقيقة بين كل من الاشراف . الرقابة ، والمتابعة ، لأنها عمليات متكاملة ومتداخلة ، فاننا نستطيع القول بأن المتابعة تتداخل بصورة قوية مع الاشراف لما تتضمنه من معنى التنسيق والتوجيه ، ولأنها غالبا ما تفيد معنى قريبا من معنى الاشراف وهو ضمان تنفيذ الخطة او السياسة خلال السنة المالية ودون انتظار للنتائج في نهايتها . في حين ان الرقابة غالبا ما تكون عملية لاحقة على الاداء .

وهذه الاخيرة هي ما يطبق غالبا في اسرائيل ، فالاداريون هناك لا يتصرفون على هواهم وانما تطل من فوق أكتافهم — على حد قول كايدين — مجموعة من « كلاب الحراسة العامة » ، لعل من اهمها الكنيست ومكتب مراقب الدولة ورجاله الذين يقومون بالتفتيش على اساس معايير المشروعية والنظامية والتكامل المعنوي والكفاية والاقتصاد (١) .

ونظرا لاهمية تجربة الرقابة البرلمانية على المشروعات العامة في اسرائيل ، سواء في مجال الدراسات المقارنة أو في مجال الدروس المستفادة لادارة الصراع (العربي — الاسرائيلي) الشامل ، سوف نبحثها في ثلاث نقاط . تعالج الاولى دور الكنيست في الرقابة على المشروعات الحكومية الاقتصادية ، والثانية دور مراقب الدولة في هذا المجال ، وتتناول الثالثة مشاكل الرقابة البرلمانية .

دور الكنيست في الرقابة

في الاصل تباشر السلطة التشريعية ، في اي بلد ، رقابتها على المشروعات العامة

عن طريق سلسلة من العمليات والاجراءات تبدأ باصدار التشريع المنشىء للمؤسسات والمشروعات العامة واقرار الاعتمادات المالية اللازمة لمباشرة نشاطها ، ثم تعهد الى المجالس النيابية بمتابعة تحقيق تلك الاهداف التي تضمنتها التشريعات لتتأكد من سلامة انفاق الاموال العامة ومدى كفاية استخدامها . ولذلك فهي تشكل لجانا داخلية من بين اعضاء المجلس للقيام بتلك المهام ودراسة التقارير السنوية للمشروعات العامة . او تعهد بجزء منها الى أجهزة خارجية تابعة لها كهيئات المحاسبة والرقابة العامة أو الى أجهزة السلطة التنفيذية .

وفي اسرائيل لا يملك الكنيست ، باستثناء الميزانية . رقابة على الاموال الحكومية الطائلة ، بل ان الميزانية نفسها تترك كثيرا لما هو مرغوب فيه تحت مظلة الاجراءات التقديرية والتنبؤ والتخطيط وامدادات القروض والارصدة غير المصرح بها ؛ وتورد التقارير السنوية لمراقب الدولة بعضا من الحيل التي يلعبها كبار المسؤولين الماليين . ولعل هذا هو الذي دفع مراقب الدولة الى ان يطالب بأن تقوم المشروعات العامة المنظمة على شكل « سلطات عامة » (ذات لوائح مستقلة) بتقديم ميزانياتها الادارية مع خطة للأعمال الى الحكومة للحصول على موافقة الكنيست .

على أية حال فان الكنيست يمارس صلاحياته في الرقابة على الاموال العامة من خلال عدة وسائل اهمها سن التشريعات والمناقشات العامة ؛ ومناقشة الميزانية واللجان البرلمانية .

١ — **سن التشريعات :** تتلخص اختصاصات الكنيست في خمس وظائف رئيسية : الوظيفة التشريعية ، والوظيفة المالية ، والوظيفة السياسية ، والاشراف على الجهاز الاداري ، وحق الكنيست في حل نفسه واجراء الانتخابات . وفي مجال الرقابة على القطاع العام تهمنا الوظائف الاربع الاولى . ولا ريب أن أهم عمل يتولاه مجلس الكنيست هو اصدار التشريعات العامة للبلاد . وتقوم الحكومة باقتراح مشروعات القوانين التي تقدم بواسطة الوزير المختص ، وقد يقدمها أعضاء افراد في الكنيست . ويجب أن يمر مشروع القانون بثلاث قراءات حتى يصبح قانونا . وعموما لا بد أن يحصل المشروع على الاغلبية البسيطة للحاضرين ، ولكن في حالة القوانين التي تؤثر على دستور الدولة فانها تحتاج لأغلبية كل الكنيست لاقرارها .

وتبدأ أولى مراحل العمليات الرقابية بأن يصدر البرلمان التشريع المنشىء للمؤسسة أو المشروع العام ، فهو الذي يقيمه ويحدد مكانه في النظام الاقتصادي والهدف من انشائه وشكل جهاز الادارة وطريقة تكوينه ومهامه وعلاقته بالمشروعات الاخرى وبالسلطتين التشريعية والتنفيذية وبجمهور العملاء . كذلك يبين التشريع مستويات الاشراف والرقابة والنظام الداخلي .

والمتبع في اسرائيل ، انه في حالة غياب قانون يحدد من له سلطة تقرير اقامة شركة حكومية ، فان اي وزارة تستطيع أن تقيم شركة داخل اطار نشاطاتها اذا كانت تلك الشركة في نظرها أمرا لازما وكانت مصروفات اقامتها تقع ضمن اعتماد الموازنة للمجال المخصص من النشاط . اما عند انشاء « هيئة عامة » (اي شركة عامة ذات لائحة مستقلة) فان قرارا من الكنيست ضروري لاصدار تشريع بقانون خاص .

وعلى أية حال ، فان معظم الشركات هناك هي شركات محدودة رسميا مما يمكن الوزارة من اقامة شركة على مسؤوليتها الخاصة ومن ثم تؤسسها حينئذ رسميا بمقتضى مواد قانون الشركات . وفي راي مكتب مراقب الدولة أنه يتعين قيام سلطة عليا لتقرر

او توافق على انشاء الشركات الحكومية،وأن تكون هناك وثيقة تحدد بالتفصيل المصلحة العامة التي تبرر قيام الشركة . على أن تقدم هذه الوثيقة الى الكنيست مرفقة بمشروع القانون في حالة انشاء « هيئة عامة » ، او الى الحكومة اذا كانت اقامة الشركة ستتم بقرار من الحكومة (٢) .

٢ ــ **المناقشات العامة** : بخلاف سن القوانين ، يمارس الكنيست سلطته الرقابية من خلال المناقشات العامة . ان طريقة عمل الكنيست قد تطورت مع الزمن واصبحت تقسم حاليا الى ثلاثة اتجاهات رئيسية : أولها المناقشات العامة ، وثانيها المقترحات لجدول الاعمال وثالثها الاستجوابات . وتستنفذ المناقشات العامة ، التي تعتبر عمل الكنيست الرئيسي ، معظم وقت الكنيست ومجهوده ، وتدور حول معظم المواضيع التي يبحثها المجلس سواء في السياسة الخارجية أو تقارير الوزراء أو مشروعات القوانين . وهذه المناقشات العامة على نوعين : منها ما يحدد الاشتراك فيها وفقا للكتل البرلمانية الحزبية وذلك ضمن الوقت الاجمالي الذي تخصصه رئاسة الكنيست ، ومنها ما يتم بصورة شخصية .

اما المقترحات لجدول الاعمال فتقدم من قبل كتلة او مجموعة من الكتل البرلمانية او عدد معين من الاعضاء ، وتجرى بناء على طلبهم لمناقشة موضوع او مشكلة ما يعتقدون انه لا بد من بحثها على وجه السرعة ، وهذه المقترحات تتعرض غالبا بالنقد والتجريح لسياسة الحكومة ومواقفها . أما الاستجوابات فيحق لأي عضو في الكنيست التقدم بها الى اي وزير في الحكومة ، بشأن اعمال وزارته ، وغالبا ما يكون هدفها الحصول على معلومات اضافية عن مسألة معينة ، أو لفت نظر الحكومة لأخطاء ترتكبها الوزارات المختلفة أو انتقاد السياسة الحكومية . وليست هناك عمليا اية قيود مفروضة على تقديم الاستجوابات المختلفة التي زاد عددها عن المئات ، سنويا ، في أولى سنوات الكنيست ليصبح حاليا يعد بالآلاف (٣) .

وغني عن البيان ان اجراءات الكنيست هذه تنبع من مبدأ مسؤولية الوزير . اذ انه بمقتضى القانون الدستوري العرفي يكون الوزير مسؤولا ، في حدود قدرته الفردية ، عن اعمال وزارته. وقد فسر هــذا ليشمل أعمـــال وقرارات الوزير نفسه ، ونائب الوزير ، وكذا معاونيه من رجال الخدمة المدنية . وفيما يتعلق بأعماله هو فان الوزير يكون مسؤولا عن تعيين السلطة القادرة وعن قراراتها واعمالها اذا استشارها أو نصحها او حتى وافق جزئيا عليها (٤) .

ويمكن أن يصعد الموقف ضد الحكومة في الكنيست ، ليتعدى مجرد المناقشة العامة او الاستجواب الى طرح الثقة بالحكومة . وقد حدث أن قررت أربعة أحزاب من أحزاب المعارضة التقدم باقتراح الى الكنيست بسحب الثقة من حكومة جولدا مائير بسبب فضائح سوء الادارة في الصناعات التي تملكها الدولة وذلك بسبب فشل شركتين تشرف عليهما الحكومة ، وهما شركة « فيريد » لتنمية الموارد المائية ، وشركة « آراو » للمواد الكيماوية (٥) .

٣ ــ **مناقشة الميزانية العامة للدولة** : يستطيع الكنيست ان يناقش أمور الشركات العامة في مناسبات مختلفة ، واعظم مناسبتين هامتين هما : مناقشة ميزانية الدولة ، وكذا مناقشة تقارير مراقب الدولة . فقد تشكل شؤون الشركات موضوعا للمناقشة البرلمانية خلال مناقشة الميزانية حينما تتضمن الميزانية بند نفقات يتعلق بالشركات تحت المناقشة أو حينما تتضمن الميزانية مخصص عمليات احدى الوزارات أو شؤون الوزارة التي تشرف على الشركة .

هذا وتحصل كثير من الشركات علي الجزء الاعظم من ارصدتها في شكل قروض من ميزانية الدولة وليس في شكل نصيب في رأس المال . لذلك يقترح مكتب مراقب الدولة أن يأخذ الكنيست صورة واضحة شاملة عن القروض عند مناقشة الميزانية كل عام ، وان تقدم وزارة المالية الى الكنيست قائمة بالقروض الممنوحة الى الشركات من الدولة وعرض موجز بغرض كل قرض وشروطه .

كما يضعف من صلاحيات الكنيست في الرقابة على الميزانية نقاط الضعف الموجودة في قانون الميزانية الاسرائيلي ، اذ انه بمجرد الموافقة على الميزانية السنوية فان الكنيست يصبح بعيدا كل البعد عن السيطرة على اوجه انفاق الحكومة للأموال العامة . ويحدث ذلك بسبب تنوع وتفرع الميزانية الاصلية الى ميزانيات ملحقة ، وميزانيات لم يتم انفاقها من السنة السابقة ، وايرادات مخصصة (٦) .

لذا تركزت جهود مكتب مراقب الدولة في المساعدة في عمل الكنيست لتحقيق الاصلاح الاداري عن الميزانية : اعدادها : هيكلها وتنفيذها ، وذلك بهدف ان يحتفظ الكنيست بنفوذه الصحيح في تشكيل ووضع الميزانية والاشراف على تنفيذها وتلافي المصروفات التي توضع بعيداً عن رقابة البرلمان (٧) .

٤ ــ **اللجان البرلمانية** : لكي تتابع المجالس النيابية تنفيذ التشريعات التي تسنها ، عادة ما تلجأ الى تكوين لجان متخصصة من بين اعضائها لمراقبة الانفاق العام او انشاء اجهزة خارجية تابعة لها . وبالفعل يشكل اعضاء الكنيست عدة لجان داخلية دائمة وفرعية لتمارس نشاطها فيما يدخل في اختصاصات المجلس في الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وهي تسع لجان دائمة (٨) . وهذه اللجان هي : لجنة المجلس ، واللجنة المالية ، ولجنة الدستور ، ولجنة القانون والعدالة ، والشؤون الاقتصادية ، والشؤون الداخلية ، والتعليم والثقافة ، والخدمات العامة والعمل ، ولجنة الشؤون الخارجية والامن .

وبالطبع تعتبر اللجنة المالية اهم هذه اللجان في مجال الرقابة على شركات القطاع العام . اذ من خلال اللجنة المالية يقوم الكنيست باختيار مراقب الدولة ويقرر راتبه ويقيم الاتصال الدائم معه . والكنيست هو الذي يقرر بالاغلبية خضوع اي هيئة للتفتيش من قبل مراقب الدولة . وقد تطلب اللجنة المالية من مراقب الدولة أن يعرض بيانا بالراي ، وتهتم مع مراقب الدولة بالتقارير التي يعرضها على الكنيست او على اللجنة ، كما أنها تقدم توصياتها بشأن تقريره السنوي الى الكنيست للموافقة . هذا وتقوم اللجنة ايضا بمناشدة الادارة لتنفيذ توصيات واقتراحات المراقب . بالاضافة الى ذلك فانها تقوم كل عام بفحص ميزانية مراقب الدولة والتصديق عليها ، ويمكن تبين استقلال المراقب عن ادارة الدولة من حقيقة ان وزير المالية ليس له علاقة بميزانيته ، كما انه (وزير المالية) ليس له علاقة بميزانية الكنيست نفسه .

هذا وتلجأ الحكومة ، لتضعف من سيطرة لجان الكنيست ، الى تشكيل اللجان الحكومية (تكون قاصرة على اعضاء الائتلاف الحكومي) بشأن بعض المسائل مثلما حدث في لجنة المدخرات والتخفيضات ، الامر الذي اثار انتقاد المعارضة عند مناقشة تقرير مراقب الدولة لعام ١٩٥٨ ــ ١٩٥٩ (٩) . في حين يسعى المراقب الى احكام رقابة الكنيست على الشركات الحكومية بالمطالبة بتشكيل لجنة فرعية للجنة المالية أو لجنة خاصة تكون لديها الوقت الكافي لمناقشة شؤون الشركات .

ولا يفوتنا أن نشير الى أن حزب المباي قد نجح في ابعاد الحزب الشيوعي وممثلي

الاقلية العربية عن لجنة المالية ولجنة الشؤون الخارجية والامن ، حين تقرر حرمان الاحزاب التي تتمثل بأقل من ثمانية أعضاء من الاشتراك في أي من اللجنتين .

صفوة القول ان التجربة الاسرائيلية في مجال الرقابة البرلمانية على المشروعات العامة جديرة بالاهتمام وذلك لعدة اعتبارات سياسية واقتصادية . ولكن لا يمكن مقارنتها بتلك الانجازات التي حققها كل من البرلمان الفرنسي ومجلس العموم البريطاني في ممارسة الرقابة الفعالة على المشروعات العامة ، بواسطة لجنة تمويل المجمعات ولجنة مراجعة حسابات المشروعات العامة في الاول ، ولجنة الصناعات المؤممة في الثاني (١٠) .

دور مراقب الدولة

بطبيعة الحال يقوم الكنيست بنفسه بمهام الوظيفة السياسية ، والتي تتمثل في رقابة الكنيست على أعمال الحكومة الاسرائيلية وترتكز على حق الكنيست في طلب الثقة أو سحبها ووقف السؤال والاستجواب وكذلك استدعاء الوزراء وكبار الموظفين . اما الوظيفة المالية فان مكتب مراقب الدولة يعتبر الاداة الرئيسية للكنيست للمساعدة في ادائها .

ويمكن أن نتتبع الدور الذي يقوم به مكتب مراقب الدولة في الرقابة على مشروعات القطاع العام الاسرائيلي بالتركيز على أربع قضايا رئيسية : نشأة مكتب مراقب الدولة وتطوره ، مركزه ، اسلوب عمله ، واخيرا التحول الى وظيفة (مفوض الشكاوى العامة).

١ : **نشأة وتطور مكتب مراقب الدولة** : ابان الانتداب البريطاني كان هناك مكتبا صغيرا للمراجعة على الادارة الفلسطينية وكان يتبع مباشرة مكتب المراجعة الاستعمارية في لندن مما جعله مستقلا عن المندوب السامي . وبعد انشاء اسرائيل صدر قانون مراقب الدولة في مايو ١٩٤٩ الذي نص على أن يتم تعيين وعزل مراقب الدولة بواسطة الكنيست فقط الامر الذي جعله مستقلا ليس فقط عن لجنة الخدمة المدنية والخزانة العامة ، بل ايضا عن الحكومة بما في ذلك رئيس الوزراء (١١) .

وفي السنوات الاولى عمل المراقب في مجال المصالح الحكومية والسلطات المحلية . وكانت وزارة الدفاع وجهاز الامن قد اقامت في البداية ، بسبب الطابع السري لنشاطهما ، نظام الرقابة الخاص بها ، ولكن في عام ١٩٥٠ اصبحت هذه ايضا تحت اشراف مراقب الدولة . كما تم تعديل القانون عام ١٩٥٢ امتد بمقتضاه نطاق اشرافه ليشمل الشركات ذات اللوائح المستقلة . ثم عدل بعد ذلك في عام ١٩٥٤ ، وايضا في ١٩٥٨ . وهو الآن يغطي كل فروع الهيئات التي يجري التفتيش عليها ، وعمليا كل مؤسسة في اسرائيل تتلقى اموالا أو منحا من الحكومة .

ويتبع مكتب مراقب الدولة اليوم اربعة اقسام رئيسية تغطي الوزارات المدنية ، وزارة الدفاع ، السلطات المحلية ، وشركات الدولة . وهناك أيضا ادارات للاتصال (مع اللجنة المالية بالكنيست) والنشر والتخطيط والتدريب . ويوجد المقر الرئيسي في القدس وله مكاتب فرعية في كل من تل أبيب وحيفا . ويعمل فيه قرابة ثلاثمائة شخص (١٩٧١) من افضل الكفاءات في اسرائيل .

وقد تطورت وظيفة مراقب الدولة فلم تعد قاصرة على فحص ومراجعة انتظام الحسابات والمخزون ، ولكن امتدت لتشمل مشروعية الايراد والمصروف ، وكذلك الاقتصاد والكفاية في ادارة الممتلكات . وقد اضيف الى هذه المهام ، مهمة فحص المعايير

المعنوية في كل من الوزارات ومؤسسات الدولة والشركات الحكومية والسلطات المحلية . واخيرا اصبح المراقب مطالبا بأن يشفع كشفه للعيوب والمخالفات بوضع المقترحات والتوصيات بالتعديلات الضرورية .

وبالفعل نجد التقرير السنوي رقم (٢٠) لمراقب الدولة (من أغسطس ١٩٦٩ الى يوليو ١٩٧٠) يتضمن ملاحظات على تسع من الشركات والهيئات العامة تم التفتيش عليها . وخلاله تم التأكيد على مجموعة من المبادىء والقضايا الهامة وبالاخص تلك التي تتعلق بمجالس الادارة ، وقواعد الادارة العامة وادارة الاعمال ، وأسعار الخدمات المصرفية ، والعلاقة مع الحكومة ، والعمليات بين الشركات ، والعمولات على الاعمال ، وعرض التقارير المالية والميزانيات ، والاجور والمزايا (١٢) .

٢ : **مركز مراقب الدولة :** يتمتع مراقب الدولة بمركز حصين في النظام الدستوري والجهاز الاداري للدولة ، فالكنيست وحده هو الذي يستطيع عزل مراقب الدولة بأغلبية الثلثين . هذا وتتركز وظائف المراقب في الاشراف والرقابة على مالية الدولة وادارتها ، وعلى ممتلكات الدولة ومشروعاتها الاقتصادية . كما انه يضع أمام الكنيست في تقريره السنوي نتائج نشاطه الرقابي مما يمكن الكنيست من أن يقيم الاداء الحكومي ، واداء السلطات المحلية والمشروعات الحكومية والعامة (١٣) .

وهذا الوضع الخاص الذي يحظى به مراقب الدولة : استقلاله عن السلطة التنفيذية ومسؤوليته المباشرة أمام الكنيست ، جعلت البعض يصورونه كما لو كان بمثابة سلطة رابعة (غير مسيسة) بعد السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية . ومع ذلك يمكن القول ان الطابع المعتدل للمركز القانوني لمراقب الدولة هو الطابع المرغوب فيه والمفضل لدى أوساط المهتمين في اسرائيل . اذ ليس من الصواب — في نظرهم — تخويل المراقب حق اصدار التعليمات التي تضمن تصحيح الاخطاء التي اكتشفها لأن ذلك يعني أن يتقلد المراقب مسؤولية متضاربة مع صالح الادارة ومع مركزه الخاص كمراقب للدولة . ومن المحقق أن من يصدر أمرا ينبغي أن يتحمل مسؤولية التوقيت والنطاق والطريقة التي ينفذ بها ، ويجب أن يكون قادرا أيضا عند الضرورة لتقييد أو تغيير أو تمديد الامر . ومثل هذه ينبغي ألا تكون في أيدي مؤسسة خارج نطاق ادارة الدولة . لذا فمن الصواب أيضا — في نظرهم — أن تكون سلطة مراقب الدولة في تصحيح المخالفات محدودة بعرض الاقتراحات فحسب ، على ان تستمد قوتها الحقيقية من جودة واحكام هذه المقترحات ومن نفوذ المراقب الذي يحققه بفضل الخبرة والمهارة والمعرفة والسمعة التي يكتسبها (١٤) .

واقع الحال أن سلطة مراقب الدولة تكبلها مجموعة من القيود تتمثل في : نظام المراجعة اللاحقة ، السياسة والحكم العسكري ، اشتراك الموظفين في الادارة ، طبيعة المقترحات التشريعية . وسوف نعود اليها تفصيلا فيما بعد .

ولكن من ناحية أخرى نلاحظ ازدياد الثقة في اجراءات وأساليب مراقب الدولة ، الامر الذي يفسر واحدة من أحدث وظائفه وهي مراجعة مصروفات الحملة الانتخابية للأحزاب السياسية في الكنيست طالما أن هذه الاحزاب تتلقى منحا مالية من الحكومة للانفاق منها على الانتخابات .

٣ : **أساليب الرقابة :** بدأت أولا بالرقابة على المراجعة المالية ، وبتعديل القانون عام ١٩٥٢ حصل على السلطة القانونية للاهتمام بالاقتصاد والكفاية والمعايير المعنوية في الهيئات التي يجري التفتيش عليها . وأبعد من ذلك بدأ المواطنون يكتبون شكاويهم الى

المراقب الامر الذي مهد لأن يتولى مراقب الدولة وظيفة أخرى هي وظيفة الاومبودسمان. بل انه بحث بعض القضايا والظواهر العامة مثل نظام التقنين والبطاقات ورخص الاستيراد وتخصيص موارد النقد الاجنبي النادرة ونظام تسجيل التلاميذ واخيرا الاهتمام بنظام تدريب واختبار سائقي الجيش بعد كثرة حوادث الطرق .

والمتبع في اجراءات الرقابة ان مكتب مراقب الدولة لا يستطيع أن يغطي كل الوحدات مرة واحدة ، وانما يقوم بالتفتيش على وحدات ونشاطات محددة باختيار دقيق أي انه يتبع اسلوب الرقابة بفحص العينة أو مراجعة الاختبار .

ثم تجري مناقشة التقارير التي يعدها المراقب بواسطة اللجنة الدائمة الخاصة بتقرير مراقب الدولة ، وهي لجنة فرعية تابعة للجنة المالية بالكنيست . وتقوم اللجنة بالتشاور مع المراقب باختيار بعض الموضوعات من التقرير السنوي وتعرضها على المجلس .

ولا ريب في ان الاخطاء الكبرى التي يضبطها مراقب الدولة ويجري مناقشتها في الكنيست يكون لها تأثيرها المعنوي الرادع . اذ من شأن ذلك أن يجعل كل حزب يفتح عينيه جيدا على ما قد ينال من خصومه ويحاول في نفس الوقت الحفاظ على حسن النظام داخل بيته . وهذا المناخ من شأنه أن يدعم مركز مراقب الدولة الامر الذي يرتقي بمعايير الادارة العامة . ناهيك عن اثر ذلك على رجال الخدمة المدنية كما تصبح تقارير المراقب ، بما تتضمنه من توصيات ، ذات دور تعليمي لارشاد الادارة العامة .

٤ : التحول الى وظيفة الاومبودسمان : في الاصل لم يتضمن قانون مراقب الدولة (لعام ١٩٤٩) مادة محددة تتطلب أن يعالج مراقب الدولة الشكاوى المقدمة من الجمهور ، ومع ذلك فانهرأى من الملائم بحث تلك الشكاوى التي تكون ذات اهمية عامة أو تتضمن مسألة تتعلقبمبدأ ولا تهتم بحالة فردية خاصة ، وهذا القيد الاخير يلغي امكانية تناول الشكاوى المتعلقة بتقديرات ضرائب الدخل للأفراد . وبالطبع استبعد المراقب تلك الشكاوى التي يكون الشخص أو الهيئة المسؤولة عنها غير خاضعة للتفتيش أو تلك الشكاوى التي تتعلق بالسلوك الشخصي خارج نطاق واجبات الموظف المدني .

ونتيجة هذا التواتر في الممارسة والخبرة المتراكمة صدر في مارس ١٩٧١ التعديل الخاص لقانون مراقب الدولة الذي أقره الكنيست ، وتم بمقتضاه انشاء وظيفة مفوض الشكاوى العامة لبحث الشكاوى المقدمة من عامة الجمهور الاسرائيلي . وبذا أصبحت اسرائيل في عداد الدول التي تأخذ بهذا النظام المسمى « الاومبودسمان » أي مفوض الشكاوى العامة والذي تشتهر به الدول الاسكندنافية . ولما كان التعديل القانوني ينص على أن يتولى مراقب الدولة اختصاصات مفوض الشكاوى العامة ، فقد أضحت اسرائيل أول بلد يربط بين وظيفة الاومبودسمان وبين وظيفة مراقب الدولة (١٥) .

ولا جدال أن هذا التحول الى وظيفة الاومبودسمان قد عزز مركز مراقب الدولة فقد زوده بسلطة رسمية لطلب أي نوع من المعلومات من المصالح الحكومية والمنظمات العامة بصدد اية مشكلة يبحثها (١٦) .

ويميل التشريع الاسرائيلي الى التوسع في صلاحيات مفوض الشكاوى العامة فيخوله فحص الشكاوى التي يكون موضوعها اجراء يضر مباشرة بالشاكي أو يحرمه من بعض المزايا ، اذا كان منافيا للقانون أو تم بدون سلطة شرعية أو كان منافيا للادارة

السليمة أو غير عادل . وبالمقارنة بالبلاد الاسكندنافية فاننا نجد الاومبودسمان نادرا ما ينتقد مادة القرار الاداري وانما يركز على مدى صحة الاجراءات التي اتخذ بمقتضاها . وهذا التمييز ليس قائما في الدانمرك اذ قد يتدخل الاومبودسمان اذا كان يعتبر القرار غير مسؤول ، أما في النرويج فيتدخل اذا اعتبر القرار غير معقول ، أما في نيوزيلندا فيتدخل اذا اعتبر القرار خاطئا .

ويبدو ان هذا التوسع كان سببا في ذلك السيل المتدفق من الشكاوى الذي انهال على مفوض الشكاوى العامة فيمكتب مراقب الدولة في اسرائيل في العام الاول لانشائه .

يكفي في هذا الصدد ان نلقي نظرة على التقرير الاول للأومبودسمان الاسرائيلي عام ١٩٧١ الذي تضمن عدة ملاحظات واحصائيات طريفة وذات مغزى . ففي خلال الفترة من ٢٢ سبتمبر ١٩٧١ الى ٩ سبتمبر ١٩٧٢ (السنة اليهودية طبقا للتقويم التقليدي) تلقى مفوض الشكاوى ٩٨٣٩ شكوى ، كان منها ٢٣٤٩ شكوى عبارة عن نسخ من شكاوى أرسلها أصحابها قبلا الى الجهات المعنية . وتبقى للمفوض نحو ٧٤٩٠ شكوى وهذا يعتبر معدلا عاليا للشكاوى بالنسبة لعدد السكان في اسرائيل اذا قورنت بمعدلاتها في اسكندنافيا وغيرها من البلدان .

وبفحص هذه الشكاوى ، يشير التقرير أنه يتبين ان أهم المؤسسات التي كانت نسبة الشكاوى ضدها لها ما يبررها فعلا (مما يلقي الشك على قدرة هذه المؤسسات) ، كانت وزارة المالية (حيث ان نسبة ٦١,٣٪ من الشكاوى ضدها كانت صحيحة تقريبا) ووزارة الرفاهية الاجتماعية (نسبة ٦٠٪) . أما تلك المؤسسات التي كانت أقلها (مما يشير نسبيا الى سلامة نظمها) فكانت شركة كهرباء اسرائيل (٢٠,٣٪ من الشكاوى كان لها مايبررها) ثم القوات الجوية (٢١,٢٪) ثم رابطة اسرائيل « بار » (٢٥٪) ثم بلدية بير سبع (٢٧,٣٪) ووزارة الاسكان (٢٩٪) (١٧) .

وجدير بالذكر أن الكنيست قد أقر حق أعضائه في التقدم بشكاوى من اجراءات لا تتعلق بأناس آخرين . وهذا ما يميز عضو الكنيست عن زميله عضو البرلمان البريطاني حيث تقضي التقاليد هناك بأن تتلقى اللجنة البرلمانية للشكاوى ، الشكاوى من الجمهور عن طريق أعضاء البرلمان . أي ليس هناك مجال لأن يتقدم الاعضاء بشكاوى لم ترد مباشرة من آخرين (١٨) .

مشاكل الرقابة البرلمانية

لقي موضوع الرقابة البرلمانية كثيرا من الاهتمام من جانب الباحثين ، كما تعددت الآراء بصدد نقاط الضعف التي تقلل من فاعلية الاشراف البرلماني على المشروعات العامة . ويرى البعض أن سلطة الرقابة البرلمانية لا تختلف كثيرا عن رقابة المساهمين في ظل انتشار ملكية الاسهم ، اذ لا يملك البرلمان الوقت ولا الكفاية الفنية لاحكام الرقابة ، وانما يستطيع من وقت لآخر أن يناقش السياسة العامة لادارة المرافق العامة . ويحتاج البرلمان ، لكي يقوم بواجبه على أحسن وجه ، الى مصادره الخاصة بالمعلومات نظرا لافتقار المعلومات التي تقدمها مجالس الادارة أو الوزارات الى الموضوعية في بعض الاحيان وعلى الرغم من أهمية أساليب المناقشة والاستجواب البرلماني ، فانها عادة ما تتم في سنة أو أكثر بعد انتهاء العمليات . وفضلا عن ذلك فان كبار المفكرين يحذرون من المغالاة في ممارسة الرقابة البرلمانية لدرجة قد ينزلق معها المجلس النيابي الى التدخل في الادارة اليومية للمشروعات العامة الامر الذي قد يضر بها.

هذا القول ينطبق على الموضوع بصفة عامة ، أما في اسرائيل فاننا نستطيع أن نميز ثلاث سلبيات سافرة فينظام الرقابة البرلمانية هي : ضعف المركز السياسي للكنيست وبطء اجراءات مراقب الدولة ، وتشدد رقابة الامن .

١ ــ **ضعف المركز السياسي للكنيست :** هذه المشكلة ترجع لأسباب سياسية تتعلق بنظام الحكم وأيضا لأسباب تنظيمية تتعلق بمدى كفاءة الكنيست نفسه كهيئة للاشراف ، وقد ترتب على ذلك ضعف رقابته بوجه عام على أعمال الحكومة .

وتشير دراسة أهم الاتجاهات السياسية والعقائدية داخل الكنيست الى تغلب الاعتبارات العملية والبراجماتية على الاعتبارات الايديولوجية مع الاهتمام بالاحتياجات المعاصرة المصحوبة بالتصدع في الايديولوجية السياسية التقليدية . وهذا من شأنه بالطبع أن يولد شيئا من عدم الاكتراث بأمور القطاع العام .

وفضلا عن الظاهرة السياسية العامة التي تعبر عن تدهور سلطة المجالس التشريعية لصالح السلطة التنفيذية ، فان دراسة تطور النظام السياسي الاسرائيلي يفصح عن ضعف رقابة الكنيست على أعمال الحكومة . بل ان رقابته على الادارة تعد أقل أعماله شأنا فغالبا ما تعمد الحكومة الى ارجاء المناقشات البرلمانية المتعلقة بالعيوب المالية والادارية (١٩) .

أما بصدد حق طلب المعلومات من الحكومة ، فاننا نجد الكنيست ، ككل ، لا يطلب معلومات محددة من رئيس الوزراء أو الوزراء وانما هو يعمل كساحة عامة للمعلومات وتبادل الراي بفعل اهتمام وسائل الاعلام . أما طلب المعلومات فقد يقوم به الاعضاء أو اللجان . ورغم ان القسم الثاني والعشرين من القانون الاساسي لعام ١٩٥٨ قرر حق الكنيست في تشكيل لجان للتحقيق ، الا ان هذه الاداة الحاسمة لم توضع موضع التنفيذ منذ ذلك التاريخ اللهم الا تشكيل لجان للاستقصاء من قبل الوزير المختص أو مجلس الوزراء وبرئاسة رئيس المحكمة العليا [من اشهرها لجنة حريق المسجد الاقصى عام ١٩٦٩ ولجنة أجرانات الخاصة بالتقصير في حــرب اكتوبر ١٩٧٣] . أي ان الكنيست لم يأخذ زمام المبادرة في انشاء أي لجنة تحقيق لبحث الاخطاء في الادارات الحكومية ، ولا يتوقع أنيقوممراقب الدولة نفسه بذلك . وقد أضعف هذا الى حد بعيد قدرة الكنيست على تأمين المعلومات الحساسة من الهيئة التنفيذية .

٢ ــ **بطء اجراءات مراقب الدولة :** سبقت الاشارة الى أن سلطة مراقب الدولة ــ الذي يعتبر الاداة الرئيسية للكنيست في الرقابة البرلمانية ــ تكبلها مجموعة من القيود تتمثل في نظام المراجعة اللاحقة ، والحكم العسكري ، واشتراك الموظفين في الادارة ، وطبيعة المقترحات التشريعية التي تقدم الى الكنيست

وعادة ما يتضمن التقرير السنوي لمراقب الدولة العيوب او المخالفات في احدى الهيئات أو المنظمات الادارية ، والعلاج المقترح لها ، وهذا يعني ان الجهود التي بذلها للوصول الى العلاج اللازم في الموقع أو بالمراسلات لم تثمر حتى وقت كتابة التقرير . يضاف الى ذلك أنه يمكن ان نفترض ــ نظريا ــ أن الكنيست ولجنته المالية سوف يهتمون بتصحيح المخالفات الواردة في التقرير السنوي بعد نشرها ، ومع ذلك فان الكنيست من الناحية العملية لا يملك حق التدخل في الادارة اليومية (٢٠) .

والنتيجة المنطقية لهذا كله هو بطء تنفيذ الاصلاحات التي يقترحها مراقب الدولة . بل ان الحق المقرر لمراقب الدولة ــ ككلب حراسة على الميزانية ــ في طلب الحصول

على المعلومات الادارية ذات الطابع السري (وثائقية أو شفوية) من المسؤولين الرسميين . هذا الحق مقيد بجوانب محددة تنأى به عن الادارة اليومية ولا يضمن حق المواطنين في أن يعرفوا .

٣ ـ **تشدد رقابة الامن :** نظرا لظروف قيام اسرائيل على اغتصاب حقوق الشعب الفلسطيني ومظاهر العداء والتوتر التي تسود في الداخل والخارج ، نجد ان رقابة الامن تسيطر على مساحات واسعة من الحياة العامة في اسرائيل . وتتمثل في الرقابة على النشر وفي الحكم العسكري في المناطق العربية ، وغير ذلك من صور التسلط التي من شأنها الاخلال بكفاءة الرقابة البرلمانية ، ناهيك عن كونها تضعف من تأثير الرقابة الاهلية والشعبية .

لقد احتج أعضاء الكنيست ، الذين ينتمون الى أقصى اليمين وأقصى اليسار على حد سواء ، ضد الرقابة الصارمة على النشر التي امتدت الى محاولة املاء آراء على محرري الموسوعة اليهودية ، والى منع نشر الرسوم الكاريكاتورية في صحيفة الطلبة ، واعتبروا ذلك من قبيل التدابير السياسية التي تعبر عن القلق على أمن النظام وتهدد حرية الصحافة .

أما الحكم العسكري فقد اعتبره مكتب مراقب الدولة أحد القيود الهامة على رقابة الدولة ، ومع ذلك فقد ارتأى ان ذلك مسألة سياسية عسكرية ، ومن ثم فانه لا يعتبر نفسه مؤهلاً لأن يتبنى موقفا في هذا الصدد حيث ان تقليص هذا الحكم ـ في نظره ـ هو قضية سياسية لا يمكن البت فيها على أساس الاعتبارات التنظيمية أو الادارية فحسب . وازاء الضغوط السياسية المطالبة بالغاء الحكم العسكري لجأت اسرائيل الى اعلان الغائه ابتداء من أول ديسمبر ١٩٦٦ ، الا أن أعضاء الكنيست كشفوا ان ما تم فعلا لم يكن الا نقلا لسلطة الحكم العسكري من يد رجال يرتدون زي رجال الجيش الى رجال يرتدون زي الشرطة (٢١) .

هذه الاوضاع ، بصفة عامة ، جعلت عضو الكنيست عاجزا عن ان يظفر بالمعلومات اللازمة له ليعرف ماذا يدور داخل احدى الوزارات أو الشركات العامة . لقد أخفق نظام الاستجواب في الكنيست ـ بالمقارنة مع النظام البريطاني ـ عن اجبار الحكومة في شرح الحقائق أو اصلاح متاعب المواطنين ، ويرجع ذلك ، أساسا ، الى طبيعة النظام الانتخابي الاسرائيلي . هذا بالنسبة لجانب الطلب ، أما بالنسبة لجانب العرض للمعلومات فليس بالغ الفعالية ، اذ نادرا ما يقبل الوزراء أن يشاركهم أعضاء الكنيست المعلومات التي يرفضون نشرها . أضف الى ذلك أن أعضاء المعارضة لن يحظوا بمعلومات تبعد كثيرا عن الاتجاه السياسي . وبدلا من ذلك يلجأ أعضاء كل من أحزاب الائتلاف والمعارضة الى استخدام العلاقات الشخصية أو السياسية لاقامة قنوات للاتصال بالوزراء والموظفين العموميين . ومن المحتمل ان تكون هذه القنوات فعالة ، ولكن حينما يستخدمها أعضاء الكنيست فانهم لا يستخدمونها كممثلين للهيئة التشريعية ، ولا حتى باعتبارهم وسطاء بين السلطة التنفيذية وبين الجمهور ، وانما بصفتهم أعضاء في دائرة « المطلعين » (٢٢) .

بل ان هذا التناقض الصارخ بين السرية المفرطة وبين صحة المعلومات ، في اسرائيل حمل البعض الى اقتراح جمع ونشر المعلومات بواسطة منظمات خاصة تقوم لهذا الغرض (٢٣) .

خلاصة القول ان الرقابة البرلمانية في اسرائيل تعاني كثيرا بفعل مجموعتين من

العوامل : عوامل ايكولوجية ترتبط بالظروف الاجتماعية والاقتصـــادية والسياسية السائدة ، وعوامل عضوية موجودة في طبيعة اسلوب الرقابة البرلمانية ــ كنظام فرعي ــ في النظـــام الراسمالي ، وبالنموذج الاسرائيلي الـــذي تطرحـــه التجربة الصهيونية في فلسطين المحتلة .

---

١ –
Gerald E. Caiden, *Israel's Administrative Culture,* (Institute of Government Studies, Univ. of California, Berkeley, 1970), p. 69.

٢ –
Dr. M. Gilon, *Norms for Public Administration,* (State Comptroller's Office, Jerusalem, 5730—1969), pp. 289-290.

٣ – من مقدمة محاضر الكنيسيت ، (اصدار مؤسسة الاهرام – القاهرة ١٩٧١)

٤ –
Likhousky, Eliahu S., *Israel's Parliament, The Law of the Knesset,* (Clarenden Press, Oxford, 1970), p. 151.

٥ – انظر صحيفة الاهرام ، ٣١ اكتوبر ١٩٧٢

٦ –
Hesth, Meir, *The Legal Framework of Economic Activity in Israel,* (Praeger Special Studies, New York, 1967), pp. 188-189.

٧ –
Gilon, *op. cit.,* p. 9.

٨ –
Rackman, Emanuel, *Israel's Emerging Constitution, 1948-1951,* (New York, 1955), p. 101.

٩ –
Precise of the discussion in the Knesset on Part of the State Comptroller's Report for 1958-59, (*Public Administration in Israel and Abroad, 1968*), p. 115.

١٠ –
Molinier, «Les expériences britannique et française de Contrôle Parlementaire des entreprises publiques», (*Revue Internationale de Droit Comparé,* Paris, Vol. 24, No. 4, oct.-déc., 1972), pp. 773-790.

١١ – انظر العرض والتعليق الذي كتبه ادوين صموئيل في مجلة « الادارة العامة في اسرائيل والخارج لعام ١٩٧١ » ص ١٥٦ – ١٥٨ عن الكتاب الذي صدر عن مكتب مراقب الدولة – والوارد ذكره في الحاشية رقم (٢) .

١٢ – نقلا عن ملخص التقرير السنوي المذكور الوارد من الكتاب السنوي

Israel Government Year Book, 5731 (1970-71), P. 349.

١٣ –
Heth, *op. cit.,* p. 17.
ص ٦ – ٧

١٤ – انظـر كايدن ص ٦٩ وأيضا جيلـون ، ٦ – ٧ .

١٥ –
Hirsch, Yakob, «The Gensis of the Israel Public Complaints Commissioner», (*Public Administration in Israel and Abroad, 1972*), p. 119.

١٦ –
Galnoor, Itzhak, «Administrative Secrecy», (*Public Administration in Israel and Abroad, 1971*), p. 48.

١٧ – التقرير المذكور صدر بالعبرية في أكتوبر ١٩٧٢ بالقـــدس وظهـر لـــه ملخـص بالانجليزية في مجلة « الادارة العامـة في اسرائيل والخارج » ١٩٧٢ السابق الاشارة اليها ، ص ٢٤١ – ٢٤٤

١٨ – للمقارنة بالمفوض البرلماني البريطانـي وبالنموذج الاسكندنافي راجع
Gwyn, «The British PCA: Ombudsman or Ombudsmouse?» in *International Political Science Abstracts,* Vol. 23, No. 4, (Paris, 1973), p. 1332.

١٩ ـ أنظر نتائـج بحوث سيلحمان وآراء كل من برنشتاين وكرينز في السيد عليوه : **القوى السياسيـة في اسرائيـل ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧** (مركز الابحاث ـ منظمة التحرير الفلسطينية ـ بيروت ـ أكتوبر ١٩٧٣) ص ١٥٣ ـ ١٩٥ ، ص ٢٠٣

٢٠ ـ Gilon, *op. cit.*, p. 21

٢١ ـ أنظر المصدر السابق ، ص ١٢ ثم راجع محـاضر الكنيست ، مرجـع سابـق ، ص ١٥٩

٢٢ ـ Galnoor, *op. cit.*, p. 46.

٢٣ ـ Ariely, *Leadership in the Economy*, (Tel Aviv Publisher, 1967), pp. 157-169.

من مساهمات بريطانيا في خلق دولة اسرائيل

سياسة توزيع امتيازات المشاريع الكبيرة في فلسطين ايام الانتداب

عادل حامد الجادر

كان الصهاينة حريصين على أن يتضمن صك الانتداب ما يلزم بريطانيا بتنمية الوطن القومي وقد اتضح بعد صدوره أن بنوده تأثرت كثيرا بمقترحاتهم فيما يختص بتفاصيل تشكيل الوطن القومـــي كالبند الحادي عشر الذي جاء فيـــه « ادارة فلسطين .. لها السلطة التامة في وضع ما يلزم من الاحكام لاستملاك أي مورد من موارد البلاد الطبيعية أو الاعمال والمصالح والمنافع العمومية ويمكن لادارة البلاد أن تتفق مع الوكالة اليهودية بانشاء أو تسيير الاشغال والمصالح والمنافع العمومية وترقية مرافق البلاد الطبيعية بشروط عادلة ومنصفة ما دامت الادارة لا تتولى هذه الامور مباشرة بنفسها ..» (١) .

وقد جاء في بيان لأحد اعضاء الوكالة اليهودية نشرته مجلة زيونست ريفيو بتاريخ ٢٠ فبراير (شباط) سنة ١٩٤٢ : « في فلسطين اليوم ١٨٠٠ مشروع صناعي يملكها اليهود كلفت ١٤ مليونا من الجنيهات وتنتج سلعا بمثل هذه القيمة سنويا ، وقد أصبح ٤٥ الفا من اليهود المشتتين يعيشون بفضل هذه الصناعات . وقد وجهت نسبة عظيمة مـــن رأس المـــال القومـــي اليهودي الـــى انجـــاح مشروع البحر الميـــت ومشروع الكهرباء » (٢) .

فلقد بادرت الحكومـــة البريطانيـــة بعد الاحتـــلال الانجليزي لفلسطين الى منح الامتيازات(٣) الاقتصادية للشركات الصهيونيـــة . وقد حصلت على ثلاثـــة امتيازات لمشاريع ثلاثة هي أهم ما في فلسطين من موارد ثروة وهي : مشروع روتنبرغ الكهربائي، مشروع استغلال البحر الميت ، مشروع أراضي الحولة .

١ ــ امتياز شركة الكهرباء الفلسطينية (مشروع روتنبرغ الكهربائي)

تكاد موارد القـــوى المائية في فلسطين تكـــون محصورة في نهر الاردن ورافـــده نهر اليرموك وينبع نهر الاردن من جبل حرمون في الاراضي اللبنانية على ارتفاع ١٠٠٠ متر فوق سطح البحر ويجري جنوبا الى أن ينصب في بحيرة الحولة حيث يبلغ ارتفاعه ٨ أمتار عن سطح البحر ثم يخرج منها ويجري جنوبـــا ليصب في بحيرة طبريا ، حيث يهبط الى ١٩٢ مترا تحت سطح البحر ، وأخيرا يصب مياهه في البحر الميت على عمق ٣٩٣ مترا تحت سطح البحر وهكذا يكون هبوطه من بحيرة الحولة الى البحر الميت اكثر قليلا من ٤٠٠ متر . وقد أمكن توليد قوة كهربائية من مياه نهري الاردن واليرموك تبلغ ٣٠٠,٠٠٠ حصان (٤) .

ويعود التفكير في منح هذا الامتياز الى عام ١٩٢٠ حينما عقد اتفاق بريطاني فرنسي « لتسوية مسائل معينة تتصل بالانتدابات على سورية ولبنان وفلسطين وبلاد ما بين النهرين » .وتشير المادة الثامنة من هذا الاتفاق الذي عقد في باريس الى « تعيين خبراء يكون لهم مطلق الحرية في بحث استخدام مياه اليرموك وروافده والاردن الاعلى لأغراض الري وتوليد الكهرباء بعد سد احتياجات المناطق الخاضعة للانتداب الفرنسي واستخدام الفائض منها لمصلحة فلسطين » (٥) . ومن هنا تبدو في الاتفاق نية السماح لفلسطين بأن تستفيد من مياه الاردن واليرموك وروافدهما الواقعة في خارج حدودها .

وتأتي الخطوة التالية بتأسيس شركة الكهرباء الفلسطينية . وقد أسسها مهندس يهودي روسي الاصل ، بنحاس روتنبرغ(*) ، في فلسطين عام ١٩٢٣ برأسمال قدره مليون جنيه . وقبل أن يتم تسجيل الشركة بصورة رسمية ذهب الى انجلترة وشرع بالتشاور مع الزعماء الصهيونيين في اعداد مشروع شامل لتزويد فلسطين بالقوة الكهربائية على أساس تجاري عن طريق توليدها من نهر العوجة على مقربة من يافا، ومن نهر الاردن عند مصب اليرموك فيه . وقد أجرى مباحثات مع الحكومة البريطانية وأفلح في استثارة اهتمام رجال السياسة وفي مقدمتهم ونستون تشرشل ، الذي أقره كوزير المستعمرات في عام ١٩٢١(٦) وقد بين أنه ضروري لبريطانيا نفسها في هذه المنطقة كما أوضح ان بنود الانتداب تلزم بالموافقة عليه لأن هذا المشروع من بين العوامل التي تساعد على رقي وتقدم المنطقة(٧) على أن يؤلف شركة لا يقل رأسمالها عن مليون جنيه يدفع منه ٢٠٠ ألف جنيه على الاقل في غضون العامين الاولين لمباشرة عملها . وتم تأسيس الشركة في سنة ١٩٢٣ .

ولغرابة واهمية الصفقة كانت موضع بحث في مجلس العموم البريطاني بجلسته المنعقدة بتاريخ ١٩٢٢/٧/٤ . وقد وصف السير وليم جيسون هيكس الصفقة بما يلي : « المادة ١١ من صك الانتداب تقول : لادارة فلسطين ان تتفق مع الوكالة اليهودية ... بانشاء أو تسيير الاشغال والمصالح والمنافع العمومية وترقية مرافق البلاد الطبيعية .. وهذا في حد ذاته كما ارى هو ما ينطبق على خطة روتنبرغ . ان تنظيم الادارة مع المنظمة الصهيونية لانشاء شركة عامة للمنافع في فلسطين ، ان هذا يعني صهينة فلسطين . وأريد أن أقول ان الحكومة أغلقت باب الامتيازات في وجه غير الصهيونيين . لقد قدمت طلبات امتياز تطوير حيفا ويافا ولكن كان رد الحكومة ان شيئا لا يمكن فعله حتى تعلن الهدنة ولم يكن السلام قد عقد لواءه بعد ... »(٨) .

وجاءت الحكومة البريطانية بشركة صهيونية واعطتها حق احتكار « عمران البلاد برمته » دون ان تأبه لعربي واحد (**) ، او تحسب لعرب البلاد أقل حساب(٩) .

وكانت الحكومة العثمانية قد منحت امتيازا لتوليد الكهرباء في فلسطين وكان صاحبه

---

* - كان قد شغل منصب وزير الشرطة في حكومة كيرنسكي وهي الحكومة الاولى التي جاءت في اعقاب الثورة الروسية وبعد سقوط القيصرية وقد عاشت هذه الحكومة عشرة اشهر الى ان قامت ثورة اكتوبر الاشتراكية فأطاحت بحكومة كيرنسكي .

** - في سنة ١٩١٩ تقدم المرحوم فؤاد سعد بمشروع لانارة حيفا بالكهرباء ووافق عليه الحاكم العسكري الا ان السلطة المركزية بالقدس اجلت المصادقة عليه وتمادى التأجيل حتى صودق على مشروع روتنبرغ .

يونانيا (مافروماتيس) . واودع هذا الامتياز لدى وزارة المستعمرات في حينه (قبل منح الامتياز لبنحاس روتنبرغ بسنة كاملة) وقدمت جميع الضمانات المالية للقيام به ، وعبثا جاهد صاحب هذا الحق المكتسب الاسبق في سبيل حقه فتعارض مشروعه مع مشروع روتنبرغ ، وهو اذ ذاك قيد المفاوضة ، فسدت في وجهه الابواب وكل ما حظي به من عطف ، كان النصح له والمشورة عليه ان يتفاهم مع الصهيونيين ولكن المحاباة صدته عن تنفيذ مشروعه ، فتقدم بقضية لمحكمة العدل الدولية في لاهاي ، وثبت امتيازه ولكنه حصر بمنطقة القدس(١٠) .

وقد أثار اعطاء الامتياز لهذه الشركة الاجنبية سخطا شديدا في فلسطين وشرقي الاردن فاستنكره المؤتمر الاقتصادي العربي في عام ١٩٢٣ . غير أن المشروع يمضي في طريقه فيحصل روتنبرغ على امتيازين الاول لاستخدام مياه حوض العوجا لتوليد الطاقة الكهربائية وتوريدها للانارة والري في قضاء يافا والذي صدقه المندوب السامي هربرت صموئيل في ١٢ سبتمبر (أيلول) سنة ١٩٢١ (١١) . والامتياز الثاني والاهم الممنوح في مارس (آذار) سنة ١٩٢٦ لشركة الكهرباء الفلسطينية لاجل استخدام مياه نهر الاردن واليرموك لتوليد الطاقة الكهربائية وتوريدها وقد صدق عليه المندوب السامي بلومر (١٢) .

وقد تضاعف راسمال الشركة باشتراك المولين الانجليز والامريكان (١٣) وقد أصبح للبريطانيين نفوذ قوي في الشركة يتجلى في تكوين غالبية أعضاء مجلس الادارة ، وفي اندماج الشركة مع بعض مكاتب استثمار الاموال في لندن كما يتجلى في النفوذ الامريكي في مساهمة شركة الاقتصاد الفلسطينية وهي شركة امريكية ، بمبلغ ١٣٤ الف دولار فيها(١٤) ومن كبار المساهمين ايضا الوكالة اليهودية في فلسطين(١٥) .

ونشطت الشركة في القيام بأعمالها وما ان حل عام ١٩٣٢ حتى أتمت بناء محطة لتوليد القوة الكهربائية بقوة الماء هيدرو الكتريك في تل أور (نهارايم) عند ملتقى الاردن باليرموك ثم اقامت الشركة محطات في أنحاء فلسطين بقوة البخار أو الديزل حتى أصبح مجموع طاقتها ٩٠ الف كيلووات عام ١٩٤٤ . ويتجلى النجاح السريع الذي أحرزته في تضخم راسمالها الذي وصل الى ٥ر٤ مليون جنيه عام ١٩٣٩ وفي ارتفاع أرباحها ، فوزعت عام ١٩٤٣ ربحا قدره ٨ر٧٪ فضلا عن ٥ر٢٩٪ حولت للاحتياطي . ولقد ازداد توليد الكهرباء وبيعها زيادة سريعة جدا ، وهبطت اسعارها تدريجيا فقد ازداد عدد الوحدات المبيعة سنة ١٩٢٦ من ٧٦٤ر٣٤٣ر٢ كيلووات الى ٩٥٧ر٤٩٥ر٢٥ كيلووات سنة ١٩٣٦ . وهبط دخل الشركة من الوحدة المبيعة للكيلووات من ٥ر٢٨ المل في سنة ١٩٢٦ الى ٤ر٢٠ المل في سنة ١٩٣٠ الى ٩ر٨ المل في سنة ١٩٣٦ . وقد زاد الهبوط التدريجي في اسعار الكهرباء للاغراض الصناعية من نشاط النمو الصناعي فمن ٠٠٠ر٢٦٦ر٧١ كيلووات باعتها شركة الكهرباء الفلسطينية في سنة ١٩٣٧ فان (٠٠٠ر٣٠٤ر٢٠ كيلووات) أو نحو ٣٠ في المائة استعملت لاغراض صناعية(١٦) .

وسأتناول هنا مناقشة أهم مواد الامتياز الذي عقد بين المندوب السامي لفلسطين وبين الشركة في ١٩٢٦/٣/٥ ومدته ٧٠ عاما لاستخدام مياه نهر الاردن واليرموك وروافدهما لتوليد الكهرباء من القوة التي تستخرج من المياه وتوزيعها داخل فلسطين وشرق الاردن . واشير بالمقارنة الى أهم مواد عقد الامتياز الممنوح لبنحاس روتنبرغ في ١٩٢١/٩/١٢ لاستخدام نهر العوجة لتوليد الطاقة الكهربائية وتوريدها للانارة والقوى والري في قضاء يافا .

حصر المياه والكهرباء في الشركة : جاء في المادة الثالثة من عقد الامتياز : « تمنح الشركة امتيازا مطلقا باستعمال مياه الاردن وحياضه وروافده بمـا فيها نهر اليرموك لتوليد الكهرباء لمدة سبعين عاما ... » (١٧) . ومعنى هذا ان الشركة وحدها تحتكر وتستعمل مياه نهر ارلادن واليرموك وهي مصدر المياه في فلسطين ــ ولا يسمح لأحد مــن سكان البلد باستخدام هذه المياه لغرض توليد الكهرباء أو أي أغراض صناعية أو زراعية أضافة الى ذلك فان هذا الامتياز يقيد أو يلغي حقوق الافراد والاهالي من نهر الاردن واليرموك، خلافا للاحكام المدنية الاسلامية التي تنص على عدم نفاذ أمر السلطات باعطاء ما لا يخص الاهالي من المنافع للاشخاص فلا يصح تمليك المنافع العامة للاشخاص وخصوصا الى هيئات أجنبية ، وان تبقي على الملك العام للدولة . ومثل هذا الاحتكار ومـا انطوت عليه هذه المادة الآنفة الذكر من تسهيل لاصحابه وتضييق على غيرهم نشأ عن اتباع سياسة انشـاء وطن قومي في فلسطـين لليهود ، بمـا يحقق لهذه السيـاسة من نجاح . وليس بالممكن ضمان المساواة في تيسير الاستفادة من موارد المياه لاشخاص او هيئة معاملين بغير هذه الدواعي . وكان قد منح المندوب السامي لروتنبرغ نفس هذه الحقوق المطلقـة وذلك لاستخدام حوض نهر العوجة لتوليد الطاقـة الكهربائية وتوريدها للانارة والري في يافا(١٨) وبهذا قيـدت والغيت حقوق العرب مـن نهر العوجة . فاثر هذه المواد هو سيطرة اليهود على موارد جميع الميـاه داخل فلسطين اضافة الى امارة شرق الاردن واحتكارهم لتوليد الكهرباء لجميع فلسطين والاردن وهذا له اثره الكبير في بناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين ببناء مئات المصانع اليهودية لأن توليد الكهرباء أصبح تحـت سيطرتهم وحجب عن العرب توليد الكهرباء للانارة والمقاصد الزراعية والصناعية .

وتستمر التسهيلات فتخول الشركة سلطة في اقامة سد لخزن ميـاه بحيرة طبرية ولها أن تسحب مياهها لأدنى حد وأن تجرها بالاقنية الى المحطات الكهربائية وان تحول مياه اليرموك وروافده الى الاقنية المذكورة او الى بحيرة طبرية لنفس الغاية (١٩) .

ان الغبن الفادح والاضرار التي تعرض لها الاقتصاد العربي الفلسطيني والاردني بالغة الاهمية اذ ان اخصب الاراضي الفلسطينية والاردنية تقع داخل (منطقة الامتياز)(*) فاقامة سد لخزن مياه بحيرة طبريا لانشاء محطات لتوليد الكهرباء أدى الــى انخفاض المياه جنوب بحيرة طبريا الى ٢٧ مترا(٢٠) عن مستوى سطح البحر . وهذا أدى الى استحالة ري مناطق واسعة في الاراضي الفلسطينية والاردنية كان من الممكن ريها بتكلفة قليلة . اضافة الى ان تحويل مجرى نهر اليرموك وروافده، لاقامة محطة في منطقة العبيدية لتوليد الكهرباء ايضا ادى الى حرمان قرى عربية كثيرة تعيش على الزراعة من مياه نهر اليرموك وروافده ففي الوقت الذي ما تزال قرى عربية تعتمد على الزراعة من مياه نهر الاردن واليرموك وروافده قبل تحويل مجراه كانت تشيد المستعمرات اليهودية والمصانع ويتم تشغيلها بقوة الكهرباء لاستيعاب المهاجرين اليهود اقتصاديا .

حق الاغتصاب بدعوى المصلحة : جاء في المادة العاشرة من الامتياز (٢١) « على المندوب السامي بناء على طلب الشركة وعلى نفقتها او في حالات تعذر الشراء باتفاق متبادل لقاء تعويض توافق عليه الشركة أو تعذر الاتفاق أن ينزع ملكية العقارات أو الاراضي او الابنية أو الحقوق الارتفاقية ... » وواضح من هذه المادة ان الاسباب التــي ذكرت

---

* ـ تعني عبارة « منطقة الامتياز » وتشمل فلسطين وشرق الاردن واي مناطق اخرى موجودة اذ ذاك وتدخل من وقت لآخر في دائرة اختصاص المندوب السامي .

لاباحة نزع الملكية ليست ضرورية ولا خاصة بالكهرباء بقدر ما هي عامة وغير مانعة ويقصد بها خلق أي سبب لتنفيذ الهدف الاعلى من تمليك اليهود . وبالفعل تم تمليك هذه الشركة ما مقداره ١٨ الف دونم خلاف المباني والدور التي هدمت واستملكتها الشركة وكان قد التزم المندوب السامي بمثل هذا النص في المـــادة ١٣(٢٢) من امتيـــاز العوجة بنزع ملكية أي أرض أو عقار تراها الشركـــة اليهوديـــة ضرورية لمشاريعها . وتحت سطوة نزع الملكيـــة الذي انفرد بتنفيذه المندوب السامي ، أخذ اليهود يستولون بقوة بريطانيا على الاراضي قطعة وراء أخرى وهذا يطابق ما منحه دستور فلسطين في مادته الثالثة عشر للمندوب السامي في أن يهب أو يؤجر أية أرض من الاراضي العمومية (٢٣) ويطابق أحكام المادة الثالثة من قانون نزع الملكية في سلطة أصحاب المشاريع بنزع ملكية أية أرض يحتاجون اليها لمشاريعهم (٢٤) كل هذا يفرض علينا أن نعود الى المادة الثانية من صك الانتداب التي تنص على ان بريطانيا تتعهد بأن تجعل فلسطين في وضع سياسي واقتصادي واجتماعي صالح لانشاء وطن قومي لليهود .

واحكاما للاستغلال جاء في المادة ١١ مكرر من الامتياز على المندوب السامي « ان يحرم استعمال مياه الاردن وحياضه بما في ذلك نهر اليرموك وجميع روافده وحياضه المشمولة في منطقة الامتياز . . . » (٢٥) معنى هذا ان امتياز مشروع الكهرباء لم يطلق يد الصهيونية في احتكار الكهرباء في فلسطين وشرق الاردن فحسب وانما اطلق يدها في التحكم بمستقبل المياه العربية كلها وبموجب هذا كان لا يحق للعرب اقامـــة مشاريع انمائية واستثمارية تعتمد على مياه الاردن واليرموك العربيين الا اذا رضيت الصهيونية بذلك . وبهذا لم يكن (مشروع روتنبرغ) مجرد مشروع كهرباء لتزويد فلسطين وشرق الاردن بالطاقة الكهربائية فقط وانما كان في حقيقته وابعاده جزءا من المخطط الاستعماري الصهيوني للسيطرة على فلسطين والمياه العربية الجارية فيها .

كما وقفت المادة (١١) من الامتياز الآنف الذكر كالسيف المسلط فوق أي مشروع يحاول الاهالي او المزارعون العرب القيام به أو أي تحسين تجريه في ري مزارعهم في منطقة الامتياز ، اذ أن المادة الآنفة الذكر تعطي الشركة الحق في استخدام كل موارد الماء على جانبي نهر الاردن لتوليد الكهرباء . بل الانكى من ذلك انه يعطي الشركة الحق في الحصول على الماء من الجداول التي تروي الارض في أي وقت تحتاج اليه ، على أن تقدم التعويض فقط عن الاضرار التي تلحق الأرض التي كانت تسقى وقت منع الماء. وهذا معناه أن أية أموال تنفق على توسيع الري في هذه المنطقة مهددة بالضياع . فالشركة الكهربائية كانت تتحكم بمستقبل فلسطين . وتمنـــع أي تطور صناعي أو زراعي لأنها احتكرت توليد الطاقة الكهربائية وأصبحت المياه محرمة على أصحابها العرب لان الشركة تستخدم كل موارد الماء على جانبي نهر الاردن لتوليد الكهرباء (٢٦) .

ولتلافي ما قد يكون ثغرة في موارد الامتياز يمكن النفاذ منها الـــى انشاء محطة غير هذه ، نصت المادة ١٨ من عقد الامتياز « للشركة الحق المطلق بتوليد الطاقة الكهربائية في منطقة الامتياز . . . ولا يسمـــح المندوب السامي بانشاء محطات كهربائية أخرى لتوليد الطاقة الكهربائية وتوريدها وبيعها في منطقة الامتياز الا بموافقة الشركة . . »(٢٧)

فالشروط الواردة بهذه المادة والتي التزم بها المندوب السامي جعلت المشروع ذا صفة احتكارية واطلقت يد الصهيونية في احتكار توليد الكهرباء والتحكم في المياه العربية ويخول صاحب الامتياز أن يبني ، ويشغل مصانع ومعامل تستهلك الكهرباء المولدة. فهذا النص الذي أوجده مبتكرو مشروع روتنبرغ ليوجدوا البيئة الصناعية لاستيعاب المهاجرين

وتشغيلهم في المصانـــع والمطاحن والمزارع والمعامل والمختبرات التـــي تبنيها وتشغلها الشركة انما هي عملية بناء للوطن القومي اليهودي .

وعندما صار البناء وتشغيل المصانع بأيدي اصحاب الامتياز اليهود اصبحوا قادرين على مقاومة أية تطلعات صناعية عربية .

وبهذه الشروط التزم أيضا المندوب السامي في المادة ٢٦(٢٨) من عقد امتياز العوجة ، فاحتكر روتنبرغ توليد الكهرباء واستغلال ميـــاه نهر العوجة وبناء وتشغيل المصانع والمطاحن والمعامل والمشاريع الزراعية والصناعية والتجارية . وكان الهدف من توسيع بنود الامتياز واحكامها ان يضمنوا لاصحاب الامتياز السيطرة على الموارد الطبيعية وعلى سائر المرافق ، ووراء هذه الأكمة السيطرة السياسية .

أحكام تتعلق بالارباح : جاء في المادة ٣٤ مـــن الامتياز (٢٩) « اذا زاد ربـــح الشركة الصافي(*) عن عشرة في المائة ولم يتجاوز ٢٠٪ فعليها أن تدفع للمندوب السامي نصف ما يزيد عن ١٠٪ اما اذا تجاوزت أرباحها ٢٠٪ فعليها أن تعطي المندوب جميع الارباح التي تزيد عـــن ١٥٪ » وقد جاءت نفس هـــذه الاحكام بالمادة « ١٨ ، ٢ » من امتياز العوجة (٣٠) ان هذه الاحكام تدل على التسهيلات الكبيرة التي منحتها السلطة المنتدبة لصاحب الامتياز فيجب ان لا تقل حصة الحكومة مـــن الارباح عن ٥٠ في المائة فالمادة الآنفة الذكر تدل على أن منح الامتيـــاز ليس بدافـــع الحرص على مصلحـــة الشعب الفلسطيني بقدر ما هو وضع فلسطيني في ظروف اقتصادية تسهل انشاء الوطن القومي وليس أدل علـــى ذلك من تبديد الثروة من استخدام توليد الكهرباء من المياه العربية بهذا الثمن البخس .

اعفاء الشركة من الضرائب : ولرغبة بريطانيا في تقوية اليهود وانجاح مشروعاتهم جاءت المادتان ٣٥ ، ٣٦ من عقد الامتياز . لا تفرض ضريبة على أرباح الشركة لمـــدة عشر سنوات ، ولا تستوفي الحكومة ضريبة على الارباح اذا لم تحقق الشركة ربحا لا يقل عن ٦ في المائة خالصا من الضرائب(٣١) . وهذا تدعيم للمشروع اليهودي وانجاح له . وكان على السلطة المنتدبة ان لا تتساهل في فرض ضريبة على أرباح الشركة مهما قلت هذه الارباح حرصا على واردات البلاد وحفاظا على حقوق شعب فلسطين والاردن . وزعموا بأنهم عقدوا ذلك الامتياز ليراعوا مصلحة اهالي فلسطين وشرق الاردن ولكن هذا النص يدعم الوجود الصهيوني . وقد التزمت السلطة المنتدبة بذلك أيضا في المادة ٣٨ من عقد امتياز العوجة وأعفت الشركة لمدة سبع سنوات من فرض ضريبة على أرباح المشروع(٣٢) .

وعدا عن هذا فانه أعطى الحق للشركة في تأجيل دفع الرسوم الجمركية على المهمات المستوردة من الخارج الى أن تكون ارباح الشركة ، بعد أخذ مبالغ واطفاء رأس المال والاندثار الاحتياطي ، كافية لتمكين الشركة من دفع حصة لحاملي الاسهم لا تقل عن ٨ في المائة في السنة من غير استيفاء ضريبة عليها (٣٣) . وقد أدى اعفـــاء او تأجيل دفع الرسوم الجمركية على المواد والبضائع التي تستوردها شركة الكهرباء واعفاء الشركة من دفع ضرائب على أرباحها ولمدة طويلة الى تدعيم وتوسيع الصناعة اليهودية وبذلك تزداد المقدرة الاستيعابية بقبول عدد كبير من المهاجرين اليهود وسيؤدي ذلك الى تقهقر الصناعات العربية فانحلالها .

---

* – بعد خصم الاستهلاكات وكافة النفقات وحصة الاحتياطي ، خالصا الضريبة .

وهكذا كان مشروع راوتنبرغ من الاركان الرئيسية الكبرى التي اعتمدت عليها الصهيونية في التحكم في مستقبل فلسطين وجعلها قادرة على استيعاب مئات الالوف من المهاجرين .

وليس ادل على تحيز بريطانيا ودسائسها الماكرة لاقامة الوطن القومي اليهودي من منح هذا المشروع بالطريقة التي تم فيها المنح للصهيونية « اذ ان بنحاس روتنبرغ نفسه كان من الساسة الصهيونيين النشطين الذين يقفون في الغالب مواقف متطرفة (٣٤) وجعلت الامتياز في حكم الاحتكار اذ منح توليد الكهرباء في فلسطين كلها بأي طريق من الطرق . وفرض على المدن العربية ان تحصل على الكهرباء اذا أرادت من المشروع . وكان هذا السبب في بقاء عدة مدن عربية دون كهرباء حتى نهاية عهد الانتداب البريطاني، والمشروع حقق في النهاية ما أراده واضعوه منه ، وأصبحت مصادر القوة المحركة واللازمة للصناعة تحت تصرف الصهيونيين . « وما زال المشروع قائما في اسرائيل ويعتبر من أهم موجوداتها » (٣٥) .

٢ ـ امتياز استخراج الاملاح والمعادن من البحر الميت

لم تكن الصهيونية تقنع بالاستيلاء على مصدر واحد من مصادر الثروة ، أو موقع استراتيجي واحد ، فقد كانت تطمع في فلسطين ، لذلك كانت ترى انه لا بد من أن تكون لها مصادر الثروة الفلسطينية ليتحقق لها بالتالي : انتزاع كل هذه المصادر من أصحابها العرب وحرمانهم من خيراتها وعائداتها ، الاستفادة منها في فتح ابواب العمل لعشرات الالوف من المهاجرين الغزاة وبذلك تزيد من قدرة فلسطين على الاستيعاب ، الاستفادة من عائدات هذه المصادر في تمويل المخططات الموضوعة للسيطرة على فلسطين ، التحكم في التطور العربي في فلسطين ، اذ تضمن من خلالها سيطرتها على مصادر الثروة ووضع سدود عالية في وجه أي تقدم يتطلع اليه العرب ، وفي ذات الوقت تكون قد فتحت أبواب التقدم والتطور والازدهار أمام الاقلية اليهودية وبذلك يصبح المجتمع الفلسطيني اغلبية متخلفة تعتمد على الزراعة البدائية ، واقلية يهودية متقدمة تعتمد على الصناعة الحديثة والزراعة الآلية .

ان المعادن المحلولة في مياه البحر الميت هي كلوريد الصوديوم (ملح اعتيادي) ، كلوريد البوتاسيوم ، كلوريد المغنسيوم ، بروميد المغنسيوم ، كلوريد الكالسيوم ، سلفات الكالسيوم(٣٦) . وفي سنة ١٩١٩ اخذ العالم بروك عينات من مياه البحر على اعماق مختلفة وحللها في مختبر الحكومة في لندن بغية معرفة تركيبها . فعلى هذا التحليل وتقدير بروك لمياه البحر الميت (١٥٩ كيلومترا مكعبا) تكون كميات الاملاح المحلولة في مياه البحر المذكورة كما يلي(٣٧) ، بملايين الاطنان : كلوريد البوتاسيوم ٢٫٠٠٠ ، بروميد المغنسيوم ٩٨٠ ، كلوريد الصوديوم ملح اعتيادي ١١٫٠٠٠ ، كلوريد المغنسيوم ٢٢٫٠٠٠ ، كلوريد الكالسيوم ٦٫٠٠٠ مليون طن . ومجموع الاملاح ٤٢٫٠٠٠ مليون طن ذائبة في البحر الميت وهي كمية عظيمة وثمينة جدا ولكي ندرك اهمية الثروة في البحر الميت يجب أن نعرف منافعها(٣٨) . فالبوتاس يستخرج منه البوتاسيوم لأجل صناعة الاسمدة وتستهلك الزراعة نحو ٩٠ في المائة من منتجات البوتاس . كما انه يستخدم أيضا في صنع البارود والادوية والدهان والصابون والزجاج والكبريت والاصباغ والورق وغير ذلك . أما البروم فيستعمل في فن التصوير وتركيب الادوية بشكل بروميد الصوديوم ، بروميد البوتاسيوم ، بروميد الامونيوم ، ومن مركبات البروم الرئيسية « اثلين الدبروميد » وهو اذا استعمل مع مركبات أخرى وأضيف الى البترول سهلت الحركة في محركات السيارات والطيران كما انه يستخدم أيضا في

تركيب بعض الاصباغ والقذائف اليدوية والقذائف الغازية وما اشبه . وأما منافع كلوريد الصوديوم (الملح الاعتيادي) فهامة ولكن وفرة هذه المادة في الطبيعه تجعل سعرها رخيصا ، ففضلا عن استعماله في الطعام يستخدم ايضا في صنع الصابون وحامض الهيدروكلوريد والصودا وهذه هامة في صناعة الصابون ، وتستخدم ايضا في تحضير الكلورين الذي يدخل في صناعات كثيرة بما فيها صناعة القذائف الغازية والكلورين مطهر فعال وعامل قوي في قصر الاقمشة أي تبييضها . أما كلوريد المغنسيوم فيستعمل في صناعة النسيج لتليين الالياف الصوفية وتنعيمها . وفي الصناعة كمادة اساسية تتألف منها بعض التراكيب . وكلوريد الكالسيوم يستعمل كعامل مخفف . ويتبين لنا ان لهذه الاملاح اهمية كبرى في ميدان الصناعة في أيام السلم وأيام الحرب على السواء وقدر العلماء المطلعون ثروات البحر الميت بحوالي ٢٤٠ — ٥٠٠ ألف مليون جنيه استرليني(٣٩) .

ويرجع الاهتمام بأملاح البحر الميت الى سنة (١٨٣٥) عندما قام رجل ارلندي اسمه كوستكان بتأليف بعثة لدرس الموضوع وأخذ القياس والعينات من البحر المذكور ، ولكن البعثة باءت بالفشل وبعد ذلك تألفت بعثات أخرى انكليزية ثم أمريكية ثم فرنسية وأخيرا تركية ، وكانت غايتها علمية بحتة فكانت نتيجة دروسها تقديم نظريات عديدة عن أصل البحر الميت ومعلومات عن خصائصه .

وفي سنة ١٩١٩ شرع م. أ. نوفومسكي بدراسة امكانية الاستثمار التجاري للثروة المعدنية في البحر الميت وفي سنة ١٩٢٠ أجرى تجارب عملية منظمة واسعة النطاق على شاطىء البحر الميت تكللت بالنجاح التام .

وكان الجنرال اللنبي أيضا يهتم بمشروع كهذا فطلب فورا بعد الاستيلاء على القدس ، لجنة من الخبراء من انجلترا للقيام بالابحاث اللازمة . فابتدأت اللجنة أبحاثها حتى قبل انتهاء الحرب العالمية الاولى وبعد أن وصلت الى نتائج تدعو الى الامل أعلن في سنة ١٩٢٥ انه بالامكان اعطاء امتياز لاستثمار هذه الثروة المعدنية . فتقدم موئير نوفومسكي الآنف الذكر (وهو يهودي هاجر من روسيا) والماجور توماس كريكوري تولوك (بريطاني) ، الذي كان يهتم في أثناء الحرب باستخراج البوتاس من البحر الميت ، مشتركين بطلب الامتياز لاستثمار هذه الثروة المعدنية(٤٠) والذي دعا الى انضمام الفريق البريطاني والصهيوني هم وكلاء التاج(٤١) وانفا شركة بوتاس فلسطين وهنا يبتلع الاستعمار لقمة أخرى فيعطي امتياز استغلال موارد البحر الميت الى هذه الشركة .

وقد سجلت الشركة عام ١٩٢٩ كشركة بريطانية برأسمال قدره ٤٠٠ الف جنيه وتساهم فيها أموال يهودية وبريطانية وأمريكية(٤٢) وللبريطانيين فيها نفوذ قوي يمثله الماجور ت. ج. تولوك أحد المؤسسين وهيمنة شركة الصناعات الكيماوية الامبراطورية على سياسة مجلس ادارتها . أما المصالح الامريكية فتمثلها شركة الاقتصاد الفلسطينية ومديروها من اليهود ويتعاونون مع الوكالة اليهودية(٤٣) وتساهم هذه في رأسمالها بمبلغ ٤٦٥ الف دولار ، وبذلك تعتبر مالكة لأكبر حصة من اسهمها(٤٤) .

وقد حصلت شركة البوتاس الفلسطينية على هذا الامتياز في أول يناير (كانون الثاني) ١٩٣٠ ومنذ بدأت المفاوضات في هذا الامتياز قوبلت باستنكار شديد في الاوساط العربية في فلسطين فاحتج المؤتمر العربي السابع المنعقد في القدس في ٢٠ يونية (حزيران) ١٩٢٨ « على اعطاء امتياز البحر الميت لشركة أجنبية(٤٥) وفي سنة ١٩٢٩

احتج المجلس الاسلامي الاعلى على منح استثمار امتياز البحر الميت لفريق من الصهيونيين(٤٦) وباشرت الشركة العمل في سنة ١٩٣١ وتقدمت أعمالها تقدما سريعا فزادت في انتاج البوتاس كما يتبين من الاحصائية التالية :

السنة	الانتاج بالطن	السنة	الانتاج بالطن
١٩٣٥	١٨ر١٢٤	١٩٣٩	٦٣ر٥٢٧
١٩٣٦	١٩ر٧٩٣	١٩٤٣	١٠٣ر١٢١
١٩٣٧	٢٩ر١١٠	١٩٤٦	٨٦٢ر٠٠٠(٤٧)

أما البرومين فكان ينتج كمستخرج اضافي ففي سنة ١٩٣٥ بلغ انتاجه ٤٤٥ طنا ووصل انتاجه قبل الحرب الى ٦١١ طنا ولا بد انه تضاعف أثناءها ان لم يكن قد زاد على ذلك والارقام الاكيدة غير متوفرة اذ اعتبرت سرا حربيا في ذلك الحين ، وكانت هذه المواد تقدم للحلفاء في الحرب العالمية الثانية لتساعد في المجهود الحربي(٤٨) وكان يصدر الى بريطانية أكثر من ٧٤ في المائة من انتاج البرومين وفي أول قيام الشركة ركزت اعمالها في شمالي غربي البحر الميت حيث أنشأت أحواضا متسعة لتجفيف الماء الذي يحوي الأملاح ، ثم لم تلبث أن أنشأت مركزا آخر لاستخراج الاملاح في جنوبه ، وفي خلال فترة الحرب العالمية وسعت الشركة هذين المعملين وبرهنت منتوجات الشركة على أهميتها الحربية ، وبالنظر لأن هذه الاملاح متوفرة بالمناطق التي سيطرت عليها دول المحور ، قبل ذلك الحين(٤٩) وكان هذا البوتاس قبل الحرب ثم بعدها يصدر الى بريطانيا وتشيكوسلوفاكيا والنمسا والولايات المتحدة الامريكية والهند وسيلان وجنوب افريقيا والصين واليابان وكندا(٥٠) .

عقد هذا الامتياز في ١ يناير (كانون الثاني) ١٩٣٠ بين السير روبرت تشانسلور ، المندوب السامي لفلسطين ولشرقي الاردن بالنيابة عن حكومتي فلسطين وشرق الاردن بواسطة وكلاء التاج للمستعمرات فريق أول ، وبين شركة البوتاس الفلسطينية وهي شركة مسجلة في انكلترا(٥١) .

التنازل عن الحقوق والاراضي : جاء في المادة (٢) من عقد امتياز شركة البوتاس الفلسطينية الآنف الذكر « تمنح الحكومة وتتنازل بهذا الامتياز عن الحقوق والاراضي ... »(٥٢) وبموجب هذا المادة لم تتنازل الحكومة عن الحقوق والاراضي لمنطقة الامتياز للشركة وانما للشركة الحق في استخراج الاملاح المعدنية والمعادن والمواد الكيمياوية من مياه البحر الميت أو تحتها وتجهيزها للبيع في الاسواق مع الاحتياط لانكماش مياه البحر الميت، ففي هذه الحالة يسري الامتياز على المناطق التي تتكشف منه. وبفضل هذه التنازلات والحقوق العريضة التي منحتها الحكومة للشركة جعلت من البحر الميت مرتعا خصبا للصهيونية ولمدة ٧٥ عاما. مقابل ذلك كله تدفع الشركة اجرة سنوية تدرها جنيه واحد يدفع على تسطين في السنة فالحكومة المنتدبة قيدت نفسها بالتزامات ومنحت الشركة من الحقوق ما لا يقابلها اي غنم . وبهذا أطلقت يد الصهيونية في احتكار استخراج الاملاح والمعادن واحتكرت كذلك تسويق وبيع هذه المواد في الاسواق الداخلية والخارجية . وكل ذلك في حكم التمليك لطول مدة الامتياز وبهذا الاحتكار انتزع مصدر من أهم مصادر الثروة الفلسطينية من أصحابها العرب وحرموا من خيراتها وعائداتها . وقد بقي أصحاب الثروة فعلا لا يستفيدون شيئا من البحر الميت الذي أصبح بفعل هذه المادة وكأنه بحيرة يهودية . وان هذه التنازلات والحقوق من قبل الحكومة للشركة جاءت تنفيذا لأحكام المادة الثانية التي ترمي الى القضاء على الاقتصاد الفلسطيني

وتنفيذا لأحكام المادة ١١ من التي وضعت لحرمان الفلسطينيين من مواردهم الطبيعية(٥٣) .

الشركة تستولي على الاراضي خارج منطقة الامتياز : دأبت الحكومة المنتدبة منذ ابتداء انتدابها ، في سبيل تمليك اليهود واعدادهم لأمتلاك فلسطين ، على نزع ملكية الاراضي . فحرصت على أن تنص على ذلك في عقود الامتياز التي تمنحها للشركات الصهيونية التي تستغل موارد فلسطين الاقتصادية ، فنصت الفقرات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ من المادة الخامسة من عقد الامتياز الآنف الذكر « تمنح الحكومة الشركة بناء على طلب كتابي حق استئجار أرض اضافية للمدة الباقية من اجل الامتياز . . . على أن تكون هذه الاراضي خارج منطقة الامتياز . واذا كانت ملكا خاصا او يشغلها احد الناس فتنزع الحكومة ملكيتها . . . »(٥٤) وفعلا بلغ ما منحته بريطانيا للشركة اليهودية خارج منطقه الامتياز ٧٤٫٩٨٧ دونم مجانا(٥٥) ، كما اجرت لهم ٦٤ الف دونم بايجار اسمي وهذا الايجار بمثابة تمليك لطول مدة الامتياز ، وسلط الجيش البريطاني والبوليس على امر الاستيلاء(٥٦) وتم انشاء المناطق السكنية للعمال والمهندسين والموظفين اليهود الذين يشتغلون بالمشروع . وقد أقيمت بعدئذ مستعمرة كالية(٥٧) على الطرف الشمالي الغربي من البحر الميت . وقد كان الاستيلاء على الاراضي العربية يتم تحت ستار احتياجات الشركة للأشغال الفرعية ، وحقيقة الامر هي عملية استيعاب المهاجرين اليهود في المشروع واسكانهم في هذه الاراضي بعد طرد سكانها الاصليين منها .

والفقرة (٥) من المادة الآنفة الذكر حرمت الشركة الحكومة من تأجير اية ارض ضمن ٥ كيلومترات من أقرب حد لمنطقة الامتياز الا بموافقة الشركة ، أي جعل منطقة الامتياز وما جاورها منطقة محرم على العربدخولها خوفا من أي تطلعات صناعية عربية لاستغلال بعض المناطق القريبة من منطقة الامتياز لوجود الاملاح والمعادن فيها .

واذا كان المندوب السامي يملك صلاحية الاستيلاء على الاراضي الفلسطينية ليملكها لشركة البوتاس الفلسطينية فالانكى من ذلك هو انه فوض هذه الصلاحية للشركة نفسها بأن تستملك ما تريده من الاراضي في أية بقعة من أراضي فلسطين باسم (الغاية العامة) أو الصالح العام(٥٨) واستملاك الاراضي باسم الغاية العامة يقرر من قبل سلطة تشريعية منبثقة من الشعب وليس من شركة أجنبية ، ولا ريب ان الغاية العامة من وجهة نظر شركة البوتاس الفلسطينية هي استملاك أكبر مساحة من الارض الفلسطينية لاستيعاب المهاجرين وبناء المؤسسات الصهيونية. ويتضح لنا ذلك أكثر اذا علمنا ان الشركة استملكت أراضي في مدينة القدس وهي خارج منطقة امتيازها وبعيدة عن البحر الميت .

ونثبت فيما يلي نموذجا على تطبيق هذه المادة :

ان شركة البوتاس الفلسطينية المحدودة المؤلفة في انجلترا والمسجلة في فلسطين بمقتضى قانون الشركات ، استنادا الى الاعلان الصادر من المندوب السامي بمقتضى الفقرة (٢) من المادة الثانية والعشرين من قانون الاراضي (استملاكها للغايات العامة) سنة ١٩٤٣ ··· الذي فوضت بموجبه شركة البوتاس الفلسطينية المحدودة ممارسة جميع الصلاحيات المخولة للمندوب السامي والقيام بجميع الالتزامات المترتبة عليها ··· تعلن شركة البوتاس الفلسطينية المحدودة بمقتضى المادة التاسعة عشرة من القانون المذكور ان الارض المبينة أوصافها في الذيل أدناه والتي صدر اعلان استملاكها ··· قد أنيطت بها اعتبارا من ٧ يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٤٧ وهو تاريخ وضع يد شركة البوتاس الفلسطينية المحدودة على تلك الاراضي .

الذيل : قطعة أرض واقعة في الموقع المعروف بكرم اللوز في محلة البقعة الفوقا ضمن منطقة بلدية

القدس وتؤلف قسما من القسيمة رقم ٤٩ من قطعة تخمين الاملاك في المدن رقم ٣٠٠١٧ وتبلغ مساحتها ٥٤٤ مترا مربعا . تحريرا هذا في اليوم السادس من شهر يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٤٨ .

شركة البوتاس الفلسطينية المحدودة

م. سيزون (٥٩)

كل المنافع حكر على الشركة : يحق للحكومة بعد مضي خمسه وعشرين عاما أن تعرض حق استخراج الاملاح والمعادن على شركات أخرى فيما لو رفضت الشركة قبول هذا المعرض بنفس شروط الامتياز الحالي(٦٠) ومعنى هذا انه لا يحق للحكومة خلال ٢٥ سنة من تاريخ عقد الامتياز أن تباشر بنفسها حق استخراج الاملاح والمعادن ولا أن تجيز أو تسمح لأية هيئة أو فرد خلاف شركة البوتاس الفلسطينية ، ولا أن تفعل ذلك بعد مضي هذه المدة ، بدون أن تعرض على الشركة للقيام بالاشغال التي يراد القيام بها، وبنفس شروط الامتياز. ان هذه الامتيازات هي حق من حقوق السكان الأصليين، وفي حالة عدم وجود شركه عربيه للسير في العمل كان وجب الحكومة أن تساعد على تأسيس شركه لتلك الغاية ، واذا كانت الحكومة مضطرة أن تستغل الامتيازات كان في مقدورها أن تسير بالعمل بنفسها أو تؤسس شركة تكون هي فيها حائزة لأكثر الاسهم . وفي هذه الحالة لا تكون الحكومة بحاجة الى أن تستغل الوفر في الميزانية لشراء أسهم أجنبية(٦١) .

لم تنخذ الحكومة أية طريقة من هذه الطرق بل أعطت أحسن امتيازات فلسطين الى المؤسسات اليهودية لأنها مسؤولة عن جعل فلسطين في أحوال سياسية وادارية واقتصادية تكفل انشاء الوطن القومي اليهودي . والشركة صاحبة الأمتياز مأخوذة بهذه الدواعي . والقصد من وراء هذا الالتزام من جانب الحكومة هو حرمان العرب من الاستفادة من ثروة طبيعية هم أصحابها .

ولم تكتف الشركة باحتكار استخراج الاملاح والمعادن من البحر الميت ، بل جاءت الفقرة (٢) من المادة (٦) الآنفة الذكر وأطلقت يدها باستخراج أملاح البوتاس والبرومين وأملاح البرومين وكلوريد المغنسيوم في منطقة تبلغ مساحتها ٥ كيلومترات عرضا تقاس من خط الشاطىء للبحر الميت(*) .

فالشركة بحكم هاتين الفقرتين احتكرت استخراج وصناعة وتسويق الاملاح والمعادن واتخذت من البحر الميت وما يحيط به من الاراضي مرتعا خصبا بدون وجود أي نوع من أنواع المنافسة أو المزاحمة من هيئات أو أفراد لا يدينون بسياسة الوطن القومي .

حصة الحكومة من الارباح والعوائد : تدفع الشركة للحكومة حصة من صافي الربح(**) بنسبة ما يزيد بعد توزيع ربح للمساهمين قدره ١٠٪ فاذا لم يتجاوز المبلغ الزائد ٥٪ كان للحكومة منه ٢٠٪ ، واذا تجاوز ذلك كان لها ٤٠٪(٦٢) فهذه المادة قد أمنت المساهم وضمنت له ١٠٪ من الارباح بينما بخلت على الحكومة وجعلت لها

---

* - هي تلك المنطقة التي ورد ذكرها في الفقرة (٥) من المادة (٥) التي جاء فيها « لا يحق تأجيرها الا بموافقة الشركة » .

** - مجموع الايرادات بعد خصم نفقات التشغيل والتجديدات والتبديلات والتعميرات وعوائد الحكومة وفائدة السندات ، واقساط استهلاكها وتحويل مبلغ للاحتياطي لا يتجاوز ١٠٪ فضلا عن قسط استهلاك رأس المال نفسه .

حصة ضئيلة وربما لا يبقى لها شيء بعد صرف الـ ١٠٪ للمساهم . وكان الانصاف يقتضي أن تحصل الحكومة على ٥٠٪ على الاقل في جميع الحالات .

ولا يخفى ما تنطوي عليه من غبن أيضا المادة العاشرة من الامتياز التي تشير الى عوائد تدفعها الشركة للحكومة تساوي ٥٪ من قيمة ما يستخرج ويباع من كلوريد البوتاس والبرومين وكلوريد المغنسيوم(٦٣) وكما ان رؤوس أموال المشروع يهودية ، فأرباح المشروع ستذهب اليهم ، ويستفاد من هذه الارباح في تمويل المخططات الموضوعة لسيطرة على فلسطين واستعمارها من قبل الصهيونية ويزدادون غنى ورفاهية على حساب الشعب الفلسطيني . ان تبديد هذه الثروة بثمن بخس هي عملية خلق أوضاع اقتصادية من شأنها تشييد الوطن القومي اليهودي .

حق الحكومة والاهالي في الاكتتاب العمومي : عند اصدار أسهم تزيد عن ٢٥٠ الف جنيه يجب أن تعرض الشركة للاكتتاب العمومي ٥٠٪ منها على الاقل ويكون للاردنيين والفلسطينيين الاولوية في الاكتتاب بخمسها(٦٤) . وللحكومة الاولوية في الاكتتاب بـ ٢٠٪ من الاسهم التي تعرض للاكتتاب(٦٥) . معنى هذا انه اذا أصدرت الشركة أسهما بـ ٢٥٠ ألف جنيه مثلا ، وجب أن تعرض منها ١٠٠ الف جنيه للاكتتاب العمومي ، يكون للحكومة الاولوية في الاكتتاب بـ ٢٠ الفا منها وللشعب في فلسطين وشرق الاردن الاولوية في الاكتتاب بـ ١٦ ألف جنيه . فالغبن واضح في قلة اكتتاب الفلسطينيين والاردنيين وكان يجب على الحكومة أن تشترط على الشركة أن تكون الاولوية في الاكتتاب لعرب الفلسطينيين والاردنيين بما لا يقل عن ٥٠٪ من الاسهم التي تعرض للاكتتاب العمومي .

ان القصد من ذلك هو سد فم العرب ببضع مئات من الاسهم تباع لهم حتى يقال لهم انكم قد اشتركتم معنا في المشروع ، والقصد من ذلك أيضا هو أن يتمكن مديرو هذه الشركة في المستقبل عندما يلزم الامر لايجاد عدة ملايين من الجنيهات لأجل توسيع المشروع من أن يقولوا للممولين في الخارج ان الشركة قد دخلها جميع العناصر ففيها انجليز وفيها يهود وفيها عرب فلا خوف من مقاومة العرب لها .

وتمكينا لشركة واطلاقا ليدها في التصرف نصت المادة ٢٢ من عقد الامتياز « يؤتى بالعمال من فلسطين وشرقي الاردن ولكن يمكن استخدام عمال من الاجانب بتصريح من الحكومة »(٦٦) .

وما نلاحظه على هذه المادة هو الغموض حول نسبة تشغيل العمال الفلسطينيين والاردنيين وبدون تبين نسب واضحة لهم ولا لمدى خبرتهم . ولو كانت الحكومة المنتدبة بعيدة عن المحاباة لادخلت نصا على الامتياز يحتم على آخذ الامتياز أن ينتخب موظفيه بالنسبة الى عدد السكان « ولكن الشغل في هذا المشروع يقوم به عمال يهود عدا عدد قليل جدا من العمال العرب الذين تستخدمهم الشركة ذرا للرماد في عيون عرب فلسطين وشرق الاردن ، ان حكومة فلسطين كل عام تعطي الرخص اللازمة للجنة الصهيونية لأجل ادخال مهاجرين الى فلسطين ، آخذة في الاعتبار عدد اليهود الذين يلزم استخدامهم في البحر الميت ، فيكون نتيجة ذلك ان عدة مئات في كل سنة يدخلون الى فلسطين باسم أنهم سيشتغلون في البحر الميت وبعد أن يشتغلوا قليلا أو لا يشتغلون أبدا ، تطلب اللجنة الصهيونية عددا آخر لأجل نفس العمل في البحر الميت ... وان أقل عامل يهودي يأخذ ثلاثمائة مل يوميا ، في حين أن أكثر أجرة تدفع لأي عربي هناك هي ١٥٠ ملا ، بقطع النظر عن أن عدد العمال العرب ضئيل جدا والقصد من تشغيلهم هو التضليل والتمويه »(٦٧) .

وخلاصة القول ان المادة الآنفة الذكر سمحت للشركة بفتح ابواب العمل للمهاجرين اليهود وبذلك تزيد قدرة فلسطين على استيعابهم .

الضرائب تحسم من العوائد والارباح المستحقة على الشركة : اذا فرضت في المستقبل ضريبة على الاملاح المستخرجه أو صادراتها أو ضرائب على أرباح او دخل ، فيما تدفعه الشركة فيها يحسم من العوائد والارباح المستحقة عليها للحكومة(٦٨) .

لقد كان محتملا ان تحسم هذه الضرائب من نصيب الحكومة من الارباح فقط ، أما العوائد فامر لا يحتمل المساومة لأنها مرتبطة ارتباطا وثيقا بوجود الثروه القوميـة واستغلالها، والشأن كذلك في الضرائب، فهناك من الضرائب ما يعتبر الاحجام عن دفعها ماسا بهيبة الدولة وسيادتها في الداخل مما لا يصح التهاون فيه . ولكي تغطي الحكومة المنتدبة هذا النقص الناشيء عن الاعفاءات المتعددة والتسهيلات التي منحتها لشركات الامتياز ، كانت تفرض ضرائب على الفلاح العربي ممعنة في الغلو ومفروضة على ضرورات المعيشة .

٣ ــ امتيازات أراضي الحولة

تقع منطقة الحولة ومستنقعاتها في اقصى شمال فلسطين . وحدودها هي شرقا سوريا وشمالا سوريا ولبنان وغربا طريق طبريا شمالا فحدود لبنان وجنوبا طريق طبريا شرقا لجسر بنات يعقوب . وكان مستقبل الاعمال الصهيونية في فلسطين مرتبطا كل الارتباط بالمياه التي تجري وتتجمع في هذه المنطقة ، فالانهار الاخرى الموجودة في فلسطين مثل نهر العوجة طاقتها المائية قليلة ولا تكفي الاراضي التي تجري فيها .

لقد كانت الصهيونية تتطلع الى منطقة المياه هذه وأسست هناك بعض المستعمرات وأقدمها وأهمها مستعمرة روشبيناه على أراضي قرية الجاعونة العربية قرب جسر بنات يعقوب الذي يصل سوريا وفلسطين . وازداد هذا التطلع بعد الانتداب فقد أصبح الحكم في فلسطين يحقق كل ما تبتغيه الصهيونية . وصار من أكبر أهدافها أن يكون لها مواقع قوية في هذه المنطقة الستراتيجية نظرا لأهمية منابع المياه وتجمعها في هذه المنطقة واثرها في الاستيطان الصهيوني .

اضافة الى مستقبل الدفاع عن هدف الغزو ، وهو فلسطين ، يحتم ان تكون هذه المنطقةالجبلية المتاخمة لسوريا مبنية بالحصون والقلاع ثم لتكون هذه المنطقة بالذات في المستقبل منطقة دفاع طبيعية. ان هذه المنطقة في الأصل جزء من سوريا وفي اتفاقية سايكس ــ بيكو السرية التي وقعت بين فرنسا وانكلترا في مايو (أيار) ١٩١٦ بقيت كذلك جزءا من سوريا. ولكن بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى وفي المحادثات التي دارت بين كلمنصو رئيس وزراء فرنسا ولويد جورج رئيس وزراء بريطانيا، اتفق على تعديل اتفاقية سايكس ــ بيكو السرية وكان هذا التعديل لمصلحة انكلترا. ثم صار تعديل جديد لمصلحة الاطماع الصهيونية باتفاق انجلترا وفرنسا وأخرجت بموجبه منطقة الحولة والمرتفعات الجبلية الشمالية من الحدود السورية وأدخلت ضمن حدود فلسطين(٦٩) .

تبلغ مساحة هذه المنطقة ما يقارب من ٢٣٧ الف دونم. غير ان أراضي الحولة الحقيقية هي تلك الاراضي المنخفضة في هذه المنطقة والمبينة في الفقرتين ب وجـ أدناه والتي تبلغ مساحتها ٢١٨ ألف دونم(٧٠) : أ ــ الاراضي الجبلية الواقعة في أقصى الشمال ١٩٠٠٠ دونم والممتدة حتى حدود سوريا . ب ــ الاراضي الوسطى والقسم الغربي ١٦١٠٠٠ دونم والممتدة جنوبا وشرقا حتى بنات يعقوب . جـ ــ أراضي الحولة ومستنقعاتهـا وبحيراتها ٥٧٠٠٠ دونم المعروفة بمنطقة امتياز الحولة .

وتشمل المنطقة المنخفضة من الحولة اجود أراضي فلسطين ويمكن استعمالهـــا كأراضي سقي لتدفق المياه اليها من نهر الحصباني وانهر صغيرة اخرى تلتقي جميعها في منطقة تبعد ١٤ كيلومترا الى الشمال من بحيرة الحولة حيث يتكون نهر الاردن وينحدر هذا النهر جنوبا الى بحيرة الحولة جنوبا الى البحر الميت مارا ببحيرة طبريا .

والمعروف ان بحيرة الحولة كانت عبارة عن مستنقع كبير تكوّن نتيجة هزة ارضية تسببت في ظهور نتوء بارز في مجرى نهر الاردن في الجزء الجنوبي منه عند خروجه من البحيرة ، مما أعاق مجراه وجعل مياهه تفيض على ضفتيه وتركد على الاراضي المحيطة به ، وخصوصا في فصل الشتاء حيث تزداد مياهه بفعل السيول والقنوات وذوبان الثلوج من قمم الجبال المحيطة. وفي كل عام كانت رقعة الفيضان تزداد حتى شكلت مستنقعا كبيرا(٦٧) مساحته (٥٧) ألف دونم (١٥ ألف فدان) وأصبح هذا المستنقع موطنــا للأمراض وخصوصا الملاريا ونبتت فيه الاعشاب البرية. وتلافيا لهذا الغرض ولكي تكون المنفعة من استعمال تلك الاراضي اعم منحت الحكومة التركية في شهر يونية (حزيران) ١٩١٤ محمد عمر بيهم(*) وميشيل سرسق امتيازا بتجفيف هذه الاراضي واحيائها(٧١) لمدة معينة وتوزيعها ببدل معقول على المزارعين . وقد وضعت في صيغة الامتياز شروطا بتشكيل شركة لهذا الغرض يحمل أسهمها عثمانيون ولا تنتقل لغيرهم . وقد شكل أصحاب الامتياز الشركة باسم (الشركة السورية العثمانية الزراعية المحدودة) لتنفيذ الالتزام . الا أن مداهمة الحرب العالمية الاولى حالت دون بذل الجهد المثمر في سبيل القيام بالامر ، فلما وضعت الحرب أوزارها أخذ سليم علي سلام — صاحب معظم الاسهم في الشركة — تفويضا من الشركاء وقام بمساع طويلة لدى الحكومة البريطانية لتثبيت صحة تملكه للامتياز(٧٢) وبمساعدة الامير فيصل بن الحسين تمكن من تثبيت حقوقه وحقوق شركائه في الامتياز ثم نشط في عمليات التجفيف(٧٣) .

غير ان اليهود الذين كانوا يقدرون قيمة الارض ، أخذوا يسعون معه تارة لحمله على التنازل لهم عن الامتياز وتارة مع الحكومة لحملها على الوقوف منه موقف المعرقل لنشاطه والمشجع على التنازل. وأخيرا نجحوا فاتفق معهم على التنازل عن الامتياز ، فحولت الشركة السورية العثمانية الزراعية الآنفة الذكر الامتياز في اليوم الثالث في شهر اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٣٤ الى شركة صهيونية هي شركة تحسين الاراضي الفلسطينية المحدودة(٧٤) مقابل ١٩٢ ألف جنيه استرليني(٧٥) وقد تذرع صاحب الشركة سليم علي سلام بكثرة النفقات التي يتطلبها المشروع وبقرب انتهاء مدة الامتياز والخوف من فقدانه .

ووافقت الحكومة المنتدبة على هذا التنازل . على ان الانكليز لم يكونوا بعيدين عن التنازل للشركة الصهيونية . فقد وضعوا هم الاسس التمهيدية لسحب الامتياز ، وذلك عقدهم بامتياز الكهرباء المعطى لليهود عام ١٩٢٦ ينص على عدم حق الشركة الكهربائية في اي عمل يقلل او يخل بالحقوق والسلطات والامتيازات الممنوحة قبل ذلك التاريخ بما في ذلك الممنوح منها في العهد العثماني . (أ) الامتياز المؤرخ ١٢ سبتمبر (أيلول) ١٩٢١ الممنوح لبنحاس روتنبرغ لاستخدام مياه حوض العوجا في توليد الطـــاقة الكهربائية

---

* — محمد بيهم وسليم علي سلام ورفاق لهم هؤلاء كانوا في الحركة الاصلاحية البيروتية والحكومة التركية في ذلك الحين كانت بيد الائتلافيين الذين كانوا يجنحون الى مرضاة العرب فمنحتهم الامتياز (انظر محمد عزة دروزة ، **حول الحركة العربية الحديثة** ، ج ٣ صيدا ١٩٥٠ ص ٩) .

وتوريدها والمستقر الآن في شركة يافا الكهربائية والمعروف « بامتياز العوجا » أو (ب) الامتياز الممنوح من بلدية القدس سنة ١٩١٤ لتوليد الكهرباء .. أو (ج) الامتياز الممنوح من الحكومة العثمانية في شهر يونية (حزيران) سنة ١٩١٤ لمحمد عمر بيهم وميشيل سرسق بشأن اراضي الحولة . فنجد ألفاظ الفقرات أعلاه تعطي مدلول الحفاظ على تلك الامتيازات كشأن الامم والحكومات التي تحافظ على ارتباط الشرف وحرمة التعاقد ولكن حين نقرأ الفقرة (د) تتضح لنا الحقيقة البريطانية وندرك ان بريطانيا كانت تبيت ـ لتلك الامتيازات ـ مع الصهيونية أمرا ، تقول الفقرة (د) : اية امتيازات تمنح بدلا من الامتيازين المذكورين أعلاه تحت (ب) و(ج) هي تنفيذ لأحكام البروتوكول الملحق بمعاهدة لوزان التي تقضي بأن تكون بعض الامتيازات الممنوحة في المملكة العثمانية موافقة للأحوال الاقتصادية الحديثة للمدة والمدى اللذين تكون فيهما تلك الامتيازات سارية أو قابلة التنفيذ .

وسرعان ما اسرعت بريطانيا الى الغاء الامتياز الممنوح من بلدية القدس سنة ١٩١٤ لتوليد الكهرباء لأحد اليونانيين واسمه مافروماتيس وجعل تنوير القدس لروتنبرغ اليهودي لولا ان أقامت حكومة اليونان دعوى امام محكمة لاهاي الدولية فقضت ببقاء الامتياز القديم(٧٦) وانتقلت أراضي الحولة الغنية المهمة الى الايدي اليهودية ، ولو كانت الحكومة المنتدبة مهتمة بشؤون الفلاح العربي لما وافقت على التنازل ولكانت قد قامت بالمشروع على حساب الخزينة ووزعت الاراضي المستصلحة على مزارعي العرب المحرومين من الارض والذين طالما أشارت الى مشكلتهم تقارير اللجان المتعددة .

وقد جاء في تقرير خبيرها السر جون سمبسون سنة ١٩٣٠ عن هذا الامتياز « اذا رجع امتياز الحولة الى الحكومة فيجب أن تحتفظ الحكومة بالاراضي لأجل مشاريع التحسين ، ان هذه الاراضي من أخصب أراضي فلسطين(٧٧) .

وجاء في تقرير خبيرها الثاني فرنش سنة ١٩٣١ « وقد قلت سابقا ان كل مستنقع الحولة يجب أن يعتبر وحدة لا تتجزأ في مشاريع التحسين ، ولأجل تأمين هذا التحسين فمن الضروري أن يدخل ضمن أعمال الحكومة الارض بأجمعها والمياه »(٧٨) .

ولما كان هذا الامتياز يعود بطبيعة الحال الى الحكومة لعجز صاحبه الاول عن القيام بشروط الامتياز في المدة المضروبة ، فان الحكومة بدلا من الترحيب بهذه العودة أخذت على نفسها ان تكون الوسيط الفعال في نقل الامتيـاز من صاحبه الى الشركات اليهودية .

وقد أراد المندوب السامي لحكومة فلسطين ارثر وأكهوب ان يبرر موقف الحكومة بشأن هذا الامتياز فقال في اجتماع تم بينه وبين اللجنة التنفيذية العربية في صيف ١٩٣٤(٧٩) : ان الحكومة لا يمكنها أن تقوم بالتجفيف المطلوب في الامتياز لضخامة نفقات المشروع . ويقول الخبراء ان تجفيف أراضي الحولة يكفيه ٧٥٠ الف جنيه فقط ليكون دخلها السنوي بعد ذلك نصف مليون جنيه(٨٠) .

وفي الوقت الذي تدعي فيه الحكومة ان لا طاقة لها بتجفيف هذه الاراضي فانها قررت صرف ١٧٠ الف جنيه في هذه المنطقة لأعمال مقاومة الملاريا التي كانت يجب أن تقوم بها الشركة اليهودية صاحبة المشروع(٨١) .

ولم تكتف الحكومة بما فعلته ، بل استرسلت في جورها ومحاباتها فأعفت أصحاب

الامتياز اليهود من دفع خمسين الفا من الجنيهات كان يجب عليهم دفعها بموجب الامتياز كما أعفتهم أيضا من دفع الضرائب لمدة خمس عشرة سنة(٨٢) .

وبقصد تمكين أصحاب الامتياز من وضع يدهم على هذه الاراضي وطرد المزارعين العرب منها أصدرت السلطة المنتدبة قانون (حدود) امتياز الحولة رقم ٦ لسنة ١٩٣٨(٨٣) ولم يعترف هذا القانون بحقوق المزارعين العرب الذين شرعوا يزرعون ما جففوه منذ زمن العهد التركي حتى أصبحوا يتمتعون بحقوق المزارعة ووضع اليد طيلة عشرين سنة الا بمساحة لا تتجاوز ١٥٫٧٧٢ دونمــا متريا(٨٤) وعدد هؤلاء المزارعين المنكوبين بسبب تحويل الامتياز الى اليهود هو (١٥٠٠) عائلة .

وفي تقرير السرجون سمبسون ان القطعة الكافية في هذه الاراضي للعائلات العربية لا تقل عن (٦٠) الف دونم(٨٤) ، أي ٤٠ دونم للعائلة الواحدة لكي تعيش على الحد الادنى ، ولكن الحكومة لم تخصص لهم الا بمعدل (١٠) دونمات للعائلة وذلك انقص بكثير من القطعة الكافية المقدرة(٨٥) وعلى قلة هذه الاراضي التي احتفظ بها المزارعون العرب فان الحكومة المنتدبة وضعت الاسس التمهيدية لسحبها منهم فاشترطت الفقرة (٢) من المادة (٢) من القانون الآنف الذكر جواز تعديل في حدود هذه المنطقة ، وهذا الشرط جاء ليستخدم لصالح الاراضي اليهودية وضم الاراضي العربية لها .

ولكي تطرد السلطة المزارعين العرب من هذه الاراضي التي استولى عليها اليهود بموجب الامتياز فانها فرضت العقوبات بالحبس والغرامة على كل مزارع يمارس أي حق في هذه الاراضي(٨٦) وكان بعض الاهالي في هذه المنطقة يعيشون على صيد السمك من بحيرة الحولة ، فمنحت السلطة المنتدبة رخصة مطلقة باصطياد السمــك لأصحاب الامتياز تجيز لهم دون سواهم اصطياد السمك من المياه المشمولة في منطقة الامتياز . وأعفتهم من أي بدل ايجار لقاء هذه الرخصة ، سوى دفع رسم سنوي قدره (٥٠٠) مل(٨٧) .

ان ما انطوت عليه أحكام المواد الآنفة الذكر هو تسهيل لأصحاب الامتياز وتضييق على غيرهم حتى يمكن اتباع سياسة انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، ولكي يحقق لهذه السياسة النجاح لم يكن من الممكن أن تحفظ للعرب أراضيهم وتضمن الاستفادة لهم من الثروة السمكية .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذه النكبة اخراج أهل الحولة من هذه الاراضي التي استوطنوها منذ مئات السنين وتشريدهم في كل مكان ونزول اليهود مكانهم فيها . وقد استطاعوا انشاء مستعمرات على ضفاف بحيرة الحولة مثل جولاتا ومستعمرة يسود همعلا ، وصار سكان هذه المستعمرات يعيشون على صيد السمك من بحيرة الحولة .

ان حصول الصهيونية على امتياز أراضي الحولة لم يعطها مساحات من الارض ثمينة وخصبة يستفاد منها في تحويل آلاف اليهود الى مزارعين يرتبطون بالارض فحسب، وانما أعطى لها ميزة السيطرة على موقع استراتيجي هو الجليل الشرقي .

خلاصة

تميزت الحياة الاقتصادية الفلسطينية بالميزات التي نجدها في اقتصاد المستعمرات ، اي بتطفل عدد صغير من الاحتكارات ــ صناعية ومالية وزراعية ــ على اقتصاد متأخر نسبيا . فقد بادرت الحكومة المنتدبة الى تسليم الشركات الاحتكارية الصهيونية عن طريق

الامتياز منبعي الثروة في البلاد وهما القوة الكهربائية وموارد الصناعة الكيمياوية . فمنح امتياز لاستثمار واستغلال مساقط نهر الاردن واليرموك ونهر العوجا لتوليد القوة الكهربائية الى الصهيوني بنحاس روتنبرغ . وبالنظر لشروط الامتياز يتبين ان الخطر العظيم في المشروع هو استيلاء الشركة صاحبة الامتياز على المياه في فلسطين وشرق الاردن دون مقابل وحرمان البلدين من القيام بمشروعات ري في أراضيهما الخصبة الواقعة على نهر الاردن . واستغلال هذه الاراضي لمشروعات الشركة دون دفع أي تعويض . كذلك يحول اصحاب شركة الكهرباء الفلسطينية دون استعمال مياه نهر العوجا لري البساتين في السهل الساحلي . ينتج من هذا بطبيعة الحال تأخر الزراعة الفلسطينية وعجزها عن سد احتياجات السكان .

ومنح امتياز لاستثمار واستغلال الاملاح والمعادن من البحر الميت الى وكيلي شركة البوتاس الفلسطينية وهما نوفومسكي وتولوك وبهذا الامتياز سيطر الصهيونيون على موارد الصناعة الكيمياوية في فلسطين. وعرض ل. شتين في كتابه الصهيونية أهمية هذين المشروعين فقال « مشروعان عظيمان انصرف اليهما اليهود بعظيم الجهود : استثمار القوة المائية في فلسطين على يد شركة الكهرباء ، واستغلال معادن بحرها الميت على يد شركة البوتاس . في كلا المشروعين أعمل اليهود ما أوتوه من حسن المبادرة ومزية الاقدام ، وما أحرزوه من حذق ومهارة في تطبيق العلم ، ومن وراء ذلك كله ، قوة المال اليهودي . وان ذلك لدور فاضل من أدوار الاحداث الكبيرة التي حددت مستقبل فلسطين الصناعي »(٨٨) .

أما أهمية هذه المشاريع بالنسبة للزعيم الصهيوني حاييم وايزمان فيقول : « ان مستعمرتي ناحلال وداغانيا ، والجامعة العبرية واشغال روتنبرغ الكهربائية وامتياز البحر الميت — هذه كانت بالنسبة لي سياسيا أكثر من جميع الوعود الصادرة عن الحكومات العظمى والاحزاب السياسية الكبرى ، وما ذلك نقص مشاعر احترامي نحو الحكومات والاحزاب او الانتقاص في الاعتبار الواجب للتصريحات السياسية ، وانما لأن التصريح — في اعتقادي — يكون حقيقيا فقط عندما يوازيه انجاز لعمل في فلسطين . ان التصريح يعتمد على الآخرين أما العمل فلا يعتمد الا علينا نحن ، هذا كنه حياتي الصهيونية(٨٩) .

وغير هذين المشروعين فقد سلمت الحكومة المنتدبة لليهود امتيازا لأراضي الحولة . وهذه الاراضي تمتاز بالخصوبة وهي منطقة تجمع المياه في فلسطين اضافة الى موقعها الاستراتيجي . فالاهمية الاقتصادية لتجفيف هذه الاراضي هي تجفيف مساحة من الارض قدرها ٦٠ ألف دونم (١٥ ألف فدان) تصبح صالحة للزراعة عن طريق الري ٢ — ان تجفيف هذه المستنقعات ومنع الفيضانات الموسمية سيؤدي الى خفض مستوى المياه من ٢ — ٣ قدم تحت سطح الارض وبذلك تتحسن مساحات أخرى تبلغ عشرات الآلاف من الدونمات التي ليست في حقيقتها مستنقعات ، بل السيول المرتفعة منعت استعمالها للزراعة عن طريق الري. وقد قامت اسرائيل بمشروع اسكان الف عائلة بهذه المنطقة وبناء عدة مدن اهمها بلدة كريات شمونة عدد نفوسها ٢٠ الفا ومدينة حاشور ، واصبح هناك كيان اقتصادي سليم لسكان المنطقة الذي بلغ عددهم مع سكان الكيبوتسات نحو ١٠٠ الف نسمة(٩٠) .

ان منخفض هذه المنطقة وهو الحولة بالاضافة الى كونه موقع تجمع مياه الانهار المتدفقة من الشمال ، يجعله أنسب مكان للتحويل ، وقد وضحت هذه القيمة بعد أن

قامت اسرائيل بمشروعها لاستغلال نهر الاردن في ارواء النقب بهدف استيعابه واقامة المستوطنات فيه ليصبح خط دفاع استراتيجي عميق في مواجهة مصر .

وباستيلاء الصهيونيين على هذه المشاريع فتحت أبواب العمل لعشرات الالوف من المهاجرين اليهود وبذلك زادت قدرة فلسطين على استيعابهم اقتصاديا .

وعن طريق سيطرة الصهيونية على مصادر الثروة الفلسطينية منعت اي تقدم يتطلع ابيه العرب صناعيا وزراعيا وفي ذات الوقت فتحت ابواب لتقدم والتطور والازدهار أمام الاقلية اليهودية .

لقد أثرت الحالة الاقتصادية على مستوى العرب الفلسطينيين فتسببت في هبوط مستواهم وأصابهم الفقر والبطالة . لأن أصحاب المشاريع الصناعية فضلوا العمال اليهود على العرب هذا الى جانب طرد الفلاحين من الاراضي التي استولوا عليها . وعلى النقيض من ذلك نجد أن مستوى اليهود الاقتصادي قد ارتفع جدا بفعل هذه المشروعات وغيرها من عشرات المشروعات الصناعية والزراعية التي عمل فيها آلاف العمال اليهود .

وبمنح السلطة المنتدبة هذه الامتيازات لى الصهيونية فانها منحتهم اقامة قاعدة مضمونه في البلاد .

---

١ ـ الامانة العامة لجامعة الدول العربية ـ ادارة فلسطـــين : الوثائـق الرئيسية في قضية فلسطين المجموعة الاولى (١٩٥١ ـ ١٩٤٦) القاهرة ١٩٥٧ .

٢ ـ Newten, France : *Fifty Years in Palestine* (Harbour Press Ltd., London and Brussels), 1948 p. 213.

٣ ـ تطلق كلمة الامتياز على الاذن الصادر من الادارة الى احد الافـراد او الشركات لاستغلال مورد من موارد الثروةالطبيعية.

٤ ـ سعيد حمـادة ، النظـام الاقتصادي في فلسطين ، المطبعة الاميركانية الجامعة الامريكية بيروت ، ١٩٣٩ ، ص ٦٧ وهو بدوره يستند على

Report on Palestine and Trans-Jordan submitted to the council of the league of Nations, 1930 p. 128.

٥ ـ أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، مطبعة الحلبي، مصر (د٠ت) ج ٢ ص٢٣٧

٦ ـ Sykes, Christopher : *Cross Roads to Israel* (Collines-Clear-Type Press, London), 1965 p. 144

٧ ـ Hobman. J.B. *Palestine's Economic Future* (Pexculand-V Humqhries and Co., Ltd., London, 1946 p. 190.

٨ ـ Hansards Parliamentary Debates-House of Commons 5th series, Vol G (1917), 155 (1922) p.p. 293-294.

٩ ـ Frances Newten, *op. cit.*, p. 213

١٠ ـ أكرم زعيتر ، القضية الفلسطينية ، دار المعارف ، بمصر ، ١٩٥٥ ، ص ٦٥ .

١١ ـ روبرت هاري داريتون مجموعة المناشير والاوامر والقوانين الفلسطينية ، أربعـة مجلدات ، مطبعة دير الروم ، القدس ، سنة ١٩٣٦ ، ص ٧٢٦ ـ ص ٨٣٨ . نهر العوجة نهر صغير يبلغ مقدار تفريغه

٨ر٥ متر مكعبا في الثانية ومصدره الى الشمال الشرقي من يافا ومصبه في البحر المتوسط شمالي تل أبيب ولا يمكن الاستفادة من مياهه لأجل الري الا بواسطة المضخات · وقد أعطى امتيازه أولا الى شركة فلسطين الكهربائية لتوليده قوة كهربائية منه ، على انه اذا ظهر بعد ذلك بزمن أن لا حاجة لتوليد الكهرباء منه فاستعيض عن الامتياز الاول بامتياز اخر تنحصر غايته في مشاريع الري ومنح لشركة فرعية وهي شركة يافا الكهربائية والمعروف بامتياز العوجة وهذه الشركة تابعة للشركة الاولى شركة فلسطين الكهربائية ·

١٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٠٧ الى ص ٧١٩ ·

١٣ ـ د· عزة النص · المياه ومشاريع الري في بلاد الشام ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٥٣ ·

١٤ ـ عبد الرحمن علي الكردي ، وادي الاردن وامتيازاته ومشروعاته ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٩٩ ·

١٥ ـ سعيد حمادة ، مصدر سابق ، ص ٣٦٩

١٦ ـ المصدر نفسه (راجع الجدول ٢٦) ص ٣٦٩ ، ص ٣٧٠ ·

١٧ ـ داريتون ، مصدر سابق ، ص ٧٠٧ ·

١٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٢٦ ·

١٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٠٧ ·

٢٠ ـ سعيد حمادة ، ص ٦٨ ·

٢١ ـ داريتون ، ص ٧٠٧ ·

٢٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٢٦ ·

٢٣ ـ المصدر نفسه ، مرسوم دستور فلسطين، ص ٣٣٠٤ الى ٣٣٢٩ ·

٢٤ ـ المصدر نفسه ، قانون (نزع ملكية) الاراضي ، ص ٩٥٥ ·

٢٥ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٠٧ ·

٢٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٠٧

٢٧ ـ المصدر نفسه

٢٨ ـ المصدر نفسه · ص ٧٢٦ ·

٢٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٠٧ ·

٣٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٢٦ ·

٣١ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٠٧ ·

٣٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٢٦ ·

٣٣ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٠٧ ·

٣٤ ـ
Sykes, Christopher, *op. cit.*, p. 114

٣٥ ـ المصدر نفسه ·

٣٦ ـ سامي وفا الدجاني (تاريخ البحر الميت والطرق المتبعة لاستخراج الاملاح والاستفادة منها) مجلة الاقتصاديات العربية القدس عدد ٢٧ ديسمبر ١٩٣٥ ص ٩ ·

٣٧ ـ المصدر نفسه ·

٣٨ ـ المصدر نفسه وكذلك رياض حمدي فولي وادي الاردن البحر الميت ، دمشق ١٩٦٥ ص ٤٧ (رسالة ماجستير) وسعيد حماة مصدر سابق ، ص ٧٥ ، وهو بدوره يستند الى عديد من المراجع العلمية والسياسية ·

Novemeysky, M. : *The World Potash Industry and the Dead Sea, Palnews Economic Annual of Palestine*, 1936, p. 127.
Raczkowski, H. : *The Dead Sea chemical* industry (London N.D.). p.p. 27, 28.
Blake, G.S. : *The Mineral Resourses of Palestine and Trans Jordan* (Jerusalem, 1930), p. 4.

٣٩ ـ د· نجيب صدقة ، قضية فلسطين ، دار الكتاب ، بيروت ، ١٩٤٦ ، ص ١٠٢ ·

٤٠ ـ مجلة الاقتصاديات العربية (بيان شركة بوتاس فلسطين) العدد ٦ ، مارس ١٩٣٥ ، ص ٢٣ ·

٤١ ـ
Frances Newton, *Op. Cit.*, p. 213.
وتقول الانسة فرنسيس نيوتن في كتابها أيضا « ضمنت معاهدة الصلح التي عقدت في لوزان سنة ١٩٢٣ مشروعية الامتيازات الممنوحة لرعايا تركية ورعايا الحلفاء ·· وبحكم الانتداب حلت بريطانيا محل تركيا ، وكانت الحكومة التركية قد منحت امتيازا لاستثمار أملاح البحر الميت لثلاثة من رعاياها وذلك بفرمان سلطاني ١٩١٢ ، وحالت حرب البلقان ، ثم الحرب العالمية الاولى دون الشروع في الاعمال · ففي سنة ١٩٢٣ بيع هذا الامتياز التركي الى ميتلند ادوردس (بريطاني) وفي حينه بادر هذا المشترى الى مراجعة وزارة المستعمرات طالبا الاعتراف بالحقوق المنتقلة اليه وكان ذلك قبل عقد معاهدة لوزان فأجيب بعدم امكان النظر في الامر ريثما ينعقد الصلح مع تركيا ولكن وزارة المستعمرات لم تذكر اي سبب او علة عندما ابلغت المستر ادوردس رفضها النهائي ان تعترف بالامتياز التركي ، لما عاد الكره بعد عقد الصلح · اضطر ادوردس الى بيع امتيازه الى شركة فرنسية ليصبح له التقدم الى محكمة العدل الدولية وخشيت الحكومة البريطانية التعرض لاحتمالات المحاكمة فعرضت التحكيم ، وعادت فاشترطت للسير في التحكيم استعدادا من جانب الحكومة الفرنسية لدفع التعويض عما لحق البريطانيين من أضرار حرب دمشق ، فتراجعت حكومة الانتداب السوري عن نصر الشركة ، وهكذا آل هذا الامتياز الاكبر الى يد الصهيونية » ·

٤٢ ـ جاء في الجريدة الرسمية لحكومة فلسطين عدد ٥٣٥ المؤرخ في ١٦ أيار ١٩٢٩ الشركات التي مدت شركة البوتاس الفلسطينية بالاموال هي · باسيل مونتغمري وشركاه ، لندن ، س· تنانت وأولاده وشركاهم ليمتد ، لندن ، بولنغ وشركاه ليمتد ، لندن ، ليسلي أوكوهرت رئيس الشركة الروسية الاسيوية ليمتد ، لندن ، ذي جووش كولونيال تراست ليمتد ، لندن ، ذي بالستاين ايكونومك كوربوريشن ، نيويورك ، وان مديري بعض هذه الشركات المذكورة أعلاه سيكونون أعضاء في مجلس ادارة هذه الشركة ·

٤٣ ـ سعيد حماده ، **مصدر سابق** ، ص ٣٦٢ ·

٤٤ ـ عبد الرحمن علي الكردي ، **مصدر سابق** ص ١٠٤ ·

٤٥ ـ عيسى السفري ، **فلسطين بين الانتداب والصهيونية** ، يافا ، ١٩٣٧ ، ص ٩٨ ·

٤٦ ـ **سلسلة الوثائق العامة وثائق المقاومة الفلسطينية** ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ١٣٢

٤٧ ـ عبد الرحمن علي الكردي ، **مصدر سابق** ص ١٠٤ ·

٤٨ ـ **مجلة الاقتصاديات العربية** ، مصدر سابق ص ٢٣ ، ورياض حمدي تولي **مصدر سابق** ، ص ٤٣ ·

٤٩ ـ
Who's Who : The Near and Middle East, « Palestine and Trans-Jordan (Europa Publications Ltd., London), 1945/1946, Vol. 1, Part 11, p. 302.

٥٠ ـ
Hobman, J. B. *OP. Cit.*, p. 137.

٥١ ـ **الحكومة الفلسطينية الجريدة الرسمية** رقم ٢٦١ والمؤرخة في ١٦ حزيران ١٩٣٠ · وقد صدر قانون رقم ٢٣ بتثبيت الامتياز المؤرخ في اليوم الاول من كانون الثاني سنة ١٩٣٠ والممنوح من قبل المندوب السامي الى شركة البوتاس الفلسطينية المحدودة لاستخراج الاملاح والمعادن من البحر الميت بقدر ما يتعلق ذلك الامتياز بفلسطين ويخول المندوب السامي سلطة القيام بما هو مترتب عليه بمقتضى الامتياز بصفة المندوب السامي لفلسطين· (الجريدة الرسمية العدد ٦٦٧ المؤرخ في شباط ١٩٣٧) ·

٥٢ ـ الحكومة الفلسطينية ، **الجريدة الرسمية** العدد ٢٦١ حزيران ١٩٣٠ .

٥٣ ـ الجامعة العربية ، **الوثائق الرئيسية** .

٥٤ ـ **الجريدة الرسمية** ، العدد ٢٦١ ، مصدر سابق .

٥٥ ـ **مجلة الاقتصاديات العربية** ، عدد ٧ لسنة ١٩٣٦ ، ص ١٥ .

٥٦ ـ صالح ابويصير ، **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن** ، ط ٣ بيروت ١٩٦٧ ، ص ١٠٣ .

٥٧ ـ عودة بطرس عودة ، **القضية الفلسطينية في الواقع العربي** ، المطبعة الفنية الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٣٢١ .

٥٨ ـ الحكومة الفلسطينية . **الجريدة الرسمية**، (قانون الاراضي استملاكها للغايات العامة) عدد ١٣٠٥ في ١٠ كانون الاول ١٩٤٣ .

٥٩ ـ الحكومة الفلسطينية ، **الجريدة الرسمية** العدد ١٦٤٣ في ٢٢ كانون الثاني ١٩٤٨ .

٦٠ ـ **المصدر نفسه** العدد ٢٦١ في ١٦ حزيران ١٩٣٠ .

٦١ ـ محمد توفيق جانا ، **الشهادات السياسية أمام اللجنة الملكية في فلسطين** (شهادة فؤاد سابا) دمشق ، ١٩٣٧ ص ٢٧٣ .

٦٢ ـ **الجريدة الرسمية** مادة ١٣ ـ ١ ، ٢ ، ٣ من عقد الامتياز العدد ٢٦١ حزيران ١٩٣٠

٦٣ ـ **المصدر نفسه** ، مادة ١٠ ـ ١

٦٤ ـ **المصدر نفسه** مادة ١٨ ـ ٢

٦٥ ـ **المصدر نفسه** مادة ١٥ ـ ١

٦٦ ـ **المصدر نفسه** مادة ٢٢

٦٧ ـ **الوثائق العامة** مؤسسة الدراسات الفلسطينية (افتتاحية جريدة الجامعة العربية في ١٩٣٣/٢/١٧) ص ٣٠١

٦٨ ـ **الجريدة الرسمية** (عقد امتياز شركة البوتاس الفلسطينية مادة ٢٦) عدد ٢٦١ حزيران ١٩٣٠ .

٦٩ ـ عودة بطرس عودة **مصدر سابق** ص ٣٢٤

٧٠ ـ **وثائق الهيئة العربية العليا** (ملف امتياز الحولة) مكتبة الهيئة بيروت .

٧١ ـ الحكومة الفلسطينية ، **الجريدة الرسمية** (قانون حدود امتياز الحولة) العدد ٧٧٠ المؤرخ في ٢٤ آذار سنة ١٩٣٨ .

٧٢ ـ محمد عزة دروزة **مصدر سابق** ص ٩١

٧٣ ـ عيسى السفري ، **مصدر سابق** ص ١١٠

٧٤ ـ **الجريدة الرسمية** ، عدد ٧٧٠ مصدر سابق .
أسسها الصهيوني العتيق أرثر روبن في عام ١٩٠٨ وقامت بانشاء طائفة من المستعمرات اليهودية في شمال فلسطين أشهرها مستعمرة (دجانيا) التي أنشئت في نفس العام بجوار سفح على ساحل طبرية .

٧٥ ـ
Barbour, Nevil: «*Nisi Dominus*», Institute for Palestine studies, Beirut 1969 p. 122.

٧٦ ـ أكرم زعيتر ، **مصدر سابق** ، ص ٦٥

٧٧ ـ جون هوب سمبسون : **تقرير عن الهجرة ومشاريع الاسكان والعمران** ، مطبعة دار الايتام القدس ، ١٩٣٠ ، ص ١٢٣ .

٧٨ ـ عمر ابو النصر ، **جهاد فلسطين العربية**، بيروت ١٩٣٦ ، ص ١١٨ .

٧٩ ـ **المصدر نفسه** ، ص ١١٩ .

٨٠ ـ عيسى السفري، **مصدر سابق** ، ص ١١٠

٨١ ـ عمر ابو النصر ، **مصدر سابق** .

٨٢ ـ نديم البيطار **قضية العرب الفلسطينية** مطابع صادر ريحاني ، بيروت ، ١٩٤٧ ص ١٦٤ .

٨٣ ـ **الجريدة الرسمية** ، عدد ٧٧٠ آذار ١٩٣٨

٨٤ ـ المصدر نفسه ٠

٨٥ ـ جاء في تقرير جونسون ـ كروسبي « لكي يتسنى للعائلة الواحدة ان تعيش على الحد الادنى من الارض يحتاج المالك الذي يزرع الارض نفسه ٧٥ دونما بينما ان المستأجر يحتاج الى ١٣٠ دونما » (حكومة فلسطين ، تقرير اللجنة التي عينت لدرس حالة المزارعين الاقتصادية في فلسطين والتدابير التي تتخذها الحكومة بشأن الضرائب بالنسبة لتلك الحالة ، القدس ١٩٣٠ ص ٣١) ٠

٨٦ ـ قانون حدود امتياز الحولة مادة ٤ ٠

٨٧ ـ الجريدة الرسمية (رخصة مطلقة باصطياد السمك) عدد ٧٠٢ تموز ١٩٣٧

٨٨ ـ
Frances Newten *OP. Cit.*, 212

٨٩ ـ
Weizmann, Chaim : *Trial and Error* (Hamish Hamilton, London,) 1950 p. 477.

٩٠ ـ د٠ عزة النص ، مصدر سابق، ص ٨٠ ٠

مراجعات

Peggy Mann, *Golda : The Life of Israel's Prime Minister*, (Vallentine, Mitchell, London, 1972).

قراءة كتاب من هذا النوع تحتاج قبل كل شيء الى أعصاب متينة ، ليس فقط بسبب التزييف الفج والوقح للحقائق التاريخية ، ولكن أيضا بسبب اعتماده منهجية انتقائية مفرطة. لا تتوقف قبل أن تجعل من « غولدا مائير » الخير بذاته مجسدا ، ولا تتواضع باعفاء أية صفة انسانية طيبة دون أن تضفيها عليها ، بحيث ترتعد الاطراف فزعا اذا ما فكرنا لحظة واحدة بمصير هذا العالم بدون « غولدا » ، هذا اذا ما كان بالامكان تصور ذلك . وهكذا فان العناية الالهية قد خصت اليهود ـ مرة أخرى ـ بـ « أعظم امرأة في عصرنا » والتي باتت « واحدة من ثلاث نساء حكمن الدولة اليهودية خلال الـ ٤٠٠٠ سنة التي حكم اليهود فيها الاراضي المقدسة » ص ٢٣٣ .

حياة « غولدا مائير » بطبيعة الحال يصعب فصلها عن تاريخ المشروع الصهيوني ككل ، وعن الحياة السياسية في اسرائيل ومنذ انشائها . ولكن الكتاب يبدو غير معني على الاطلاق الا بوجه واحد من الصورة ، حيث اننا سوف نعدم وجود كلمة واحدة تشير الى الدور الذي لعبته « غولدا » في اتخاذ بعض القرارات الهامة خلال تاريخ اسرائيل ، فضلا عن أننا لن نقرأ كلمة واحدة ايضا تشير الى الصراعات المريرة والحادة التي شهدتها التركيبات السياسية الحاكمة خلال الخمسينات والستينات وعن مواقف « غولدا مائير » الخاصة خلالها . على أن التركيز سوف ينصب أساسا على تأكيد الاهمية الحيوية للايديولوجية الصهيونية بالنسبة لليهود وعلى تثبيت مسألة «الحقوق» التاريخية والدولية لانشاء وطن قومي بفلسطين، وبين ذلك التأكيد وهذا التثبيت هناك سرد لنتف من حياة « غولدا مائير » .

من هنا يتبدى المدى الذي انحدرت اليه فائدة هذا الكتاب ، طالما أنه حصر نفسه ـ بهدف ابراز الصورة المطلقة الايجابية ـ في ذلك النطاق الضيق والمكرر ، وعدا عن بعض المعلومات عن الحياة الخاصة لرئيسة الوزراء السابقة فان الكتاب يفشل حتى في أن يكون كراسا دعائيا ، ذلك لأنه ما زال هناك فاصل ـ ولحسن الحظ ـ بين العمل الدعائي وبين الكذب السافر .

●● في مدينة « كييف » بروسيا القيصرية وبتاريخ ٣ أيار ١٨٩٨ ولدت «غولدا موبوفتش»، ولكن والداها « موشي » و « بلوما » لم يعلقا أملا على حياتها لأنهما كانا قد فقدا خمسة أطفال ولدوا بين « غولدا » وبين اختها الكبرى « شانا » ، على أية حال كانت الحياة من نصيب الطفلة السادسة ، ثم ما لبثت العائلة أن رزقت بطفلة أخرى في ١٩٠٢ أسموها « تزبكا » . وكان والد الفتيات موشي يعمل نجارا لكنه اضطر بسبب سوء أحواله الاقتصادية الى بيع ورشته والهجرة الى الولايات المتحدة ، أما زوجته « بلوما » وأطفاله الثلاثة فلقد أرسلهم الى مدينة « بنسكا » ليعيشوا في

كنف جدهم وذلك حتى يتوفر له في أمريكا شيء من المال ليرسل لهم تذاكر الباخرة ، كان ذلك في ١٩٠٣ . ولكن موشي لم يصب النجاح بسرعة وحتى استقر في مدينة « ميلووكي » وبفضل معونة من جمعية خيرية لمساعدة المهاجرين اليهود ، وما لبث أن أرسل في عام ١٩٠٦ تذاكر السفر لعائلته . على أن تلك السنوات الثلاث التي قضتها غولدا طفلة في « بنسكا » لعبت دورا أساسيا في حياتها فيما بعد ، ذلك لأنها هنا عايشت مظاهر العداء للسامية وهنا عاشت الخوف والفزع ، كذلك فلقد كان لها في «بنسكا» أول تماس مع الافكار الصهيونية حين كانت أختها الكبرى « شانا » تشارك في نشاطات بعض التجمعات اليهودية والصهيونية ، ولكن لعل أهم تأثير تركته تلك الفترة هو ذهابها الى مدرسة ملحقة بالكنيس حيث تعلمت مبادىء اللغة العبرية .

استقرت العائلة الآن في « ميلووكي » وافتتحت « بلوما » مخزنا صغيرا لبيع الخضروات وبدأت « غولدا » تعمل مع والدتها في المخزن خلال المساء وتذهب الى المدرسة خلال الصباح ، وفي المدرسة الامريكية تقرر تغيير اسم اختها الصغرى من «تزبكا» الى «كلارا» ، أما أختها الكبرى « شانا » فلقد تزوجت وهي في العشرين من شاب يهودي مهاجر من روسيا أيضا . في ١٩١٢ حين كان عمر غولدا ١٤ سنة تشاجرت مع والديها اللذان كانا يريدان تزويجها ولا يرغبان ان تتابع دراستها ، وهكذا هربت غولدا من المنزل وذهبت لتعيش مع شقيقتها في « دنفر » وفي بيت اختها عاشت جوا سياسيا كاملا حيث كان يتواجد في المنزل كل مساء مهاجرون يهود عديدون ذوو اتجاهات سياسية متباينة بدءا من الماركسية وانتهاء بالصهيونية ، لكن الاخيرة كانت النظرية التي « تبدو لها أكثر عملية » . لماذا ؟ لأن « الكتاب المقدس كان مليئا بالشواهد والفقرات التي تقرر بأن الله قد أعطى هذه الارض لليهود ومنذ عشرين قرنا قبل مولد المسيح ، لقد وعد الله العبري الاول - ابراهيم - باعطاءه هذه الارض » ص ٤٣ . ولكن غولدا لم تكن متدينة .. « في الحقيقة سواء اعتبرنا التوراة ككلام مباشر للرب أو اعتمدنا تقارير الفلاسفة والمؤرخين فان كل تلك نؤكد الحقيقة بأن اليهود عاشوا في فلسطين مدة تزيد بقرون عن المدة التي عاشها هناك أي شعب آخر ... وفي الواقع فان آلافا من العائلات اليهودية استطاعت أن تعيش في فلسطين بالرغم من الاضطهاد الذي استمر قرونا طويلة والذي وقع على البلاد منذ ان جعل الرومان القدس مسواة بالارض في سنة ٧٠ ب.م » ص ٤٤ .

لكن غولدا ما لبثت ان تشاجرت مع أختها واضطرت الى مغادرة المنزل وترك المدرسة ، ووجدت عملا في مكان لغسل الالبسة كذلك استأجرت غرفة في « دنفر » وسكنت وحيدة ، وفي تلك الفترة تعرفت على « موريس مايرسون » وبالرغم من أنه لم يكن « جميل الصورة .. الا انه كان ذا روح جميلة » كما كتبت الى احدى صديقاتها ، وفي تلك الفترة أيضا (عمرها الآن ١٦ سنة) ابتدأت بجمع النقود في الشوارع لصالح الصندوق القومي اليهودي ، على أن « موريس » لم يكن مهتما بشكل خاص بالسياسة أو « بالقضية » بل كان ذا اهتمامات أدبية وفنية .

عندما علم والداها بأوضاعها أرسلا يسألانها العودة حتى تتاح لها فرصة متابعة دراستها مرة أخرى ووافقا على أن لا يتدخلا في شؤونها الخاصة ، وهكذا كان على قصة غرامها ان تتعطل قليلا ولكن « موريس » وعد باللحاق بها الى « ميلووكي » كي يتزوجا .

خلال الحرب العالمية الاولى ساهمت غولدا بنشاط في جمعية « المساعدة عند الحاجة » لاغاثة اللاجئين والجائعين من يهود أوربا ، وخلال هذه الفترة كانت قد اتخذت قرارها بالسفر الى فلسطين ، وانتسبت الى حزب « بوعيل صهيون » وحين كتبت الى صديقها « موريس » عن نشاطاتها ومشاريعها كتب لها يقول : « .. بالرغم من انني أعطيك حقك الكامل في تلك النشاطات .. ولكن فكرة فلسطين أو أية أرض أخرى لليهود تبدو بالنسبة لي سخيفة » ص ٥١ ، وبالرغم من أن غولدا كانت على علاقة مع شبان عديدين وان « أربعة من كل خمسة شبان كانوا يقابلونها كانوا يقعوا في حبها » الا انها ظلت متعلقة

بـ « موريس » ، على أن هذا لم يحل دون مشاركتها بشكل واسع في النشاطات الصهيونية وفي عقد الندوات « لاقناع الشباب اليهودي في أمريكا بضرورة الكيان القومي » ٠

في ١٩١٧ تزوجت غولدا من « موريس مايرسون » بعد أن وعد بالسفر للحياة معها في أي مكان بالعالم حتى ولو بفلسطين ذلك « لأنه لا يستطيع العيش بدون غولدا » وفي ١٩٢١/٤/٢٣ ركبت غولدا الباخرة في طريقها الى « الارض المقدسة » عن طريق « نابولي » ورافقها في تلك الرحلة زوجها واختها شانا مع طفليها الاثنين بالاضافة الى احدى الصديقات٠ وحين وصلت الباخرة الى « نابولي » تعذر عليهم أخذ سفينة أخرى الى حيفا بسبب الاضطرابات التي سادت فلسطين بتلك الفترة، وهكذا استقلت المجموعة سفينة اخرى الى الاسكندرية ومنها تابعوا الرحلة بالقطار الى تل ابيب التي وصلوها بتاريخ ١٩٢١/٧/١٤ ٠

عملت « غولدا مايرسون » مدرسة للانكليزية في مدرسة البنات الثانوية بتل أبيب ، وقدمت وزوجها طلبا للانضمام الى كيبوتز مرحافيا وقبل طلبهما بعد أن رفض في ثلاثة اجتماعات متوالية (كان الكيبوتز يضم ٣٢ رجلا و ٨ نساء وكان الرجال يرغبون بانضمام نساء غير متزوجات) ، وحين انتقلا الى الكيبوتز ابتدأت المشاكل مع « موريس » الذي لم يستطع ـ بعكسها ـ التلاؤم مع الحياة الجديدة ، ورفض على الاطلاق انجاب الاولاد واشترط مغادرة الكيبوتز لتحقيق ذلك ، ورضخت غولدا « لأنها تحب زوجها » وانتقلت العائلة في ١٩٢٤ لتعيش في القدس وحصل « موريس » على عمل في مكتبة ، وأنجبت غولدا طفلا في ذات العام « مناحيم مايرسون » ، ولكن لأنها كانت « تؤمن بالصهيونية أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم » أخذت طفلها وذهبت ثانية الى الكيبوتز ، ثم ما لبثت أن عادت الى « الحياة التي أرادها لها زوجها أن تعيشها بعد ستة أشهر فقط » ٠ وأنجبت طفلة أخرى في أيار ١٩٢٦ « سارة مايرسون » وظلت غولدا زوجة مطيعة حتى عرض عليها عمل كسكرتيرة « لجمعية المرأة العاملة » لأن « يهود فلسطين لا يمكنهم التبذير بهذا الشكل فهم بحاجة ماسة الى قدرات امرأة من هذا النوع » وحاولت جهدها توضيح الامر « لموريس » ولكن دون جدوى ٠٠ « لقد كانوا قد ارتكبوا خطيئة الوقوع في حب بعضهما بعضا » ٠

على أن « قدرات امرأة من هذا النوع » كانت محصورة تقريبا في اتقانها للانكليزية ، ونظرا لحاجة الوكالة اليهودية لشخص يضمن « كسب الفهم والتأييد للقضية الصهيونية في انكلترا » ص ٧٥ ، بدأت غولدا بالسفر وبشكل متواصل الى بريطانيا وباتت عنصر الاتصال بين الحركة الصهيونية هناك والمستوطنين في فلسطين ٠

وفي ١٩٣٢ وحين كان عمرها ٣٤ عاما وبسبب من مرض ابنتها سارة تقرر ارسال غولدا الى الولايات المتحدة بمهمة نشر الدعوة « بأوساط اليهود الذين اندمجوا في الحياة الامريكية » ٠ أخذت غولدا ولديها معها بينما استقر موريس في حيفا حيث عمل في شركة للاستيراد ، ومرة أخرى كانت رحلة غولدا الى أمريكا عن طريق مصر حيث اخذت الباخرة من بورسعيد ٠ كانت هذه الرحلة نقطة تحول في ابراز فعالية ونشاط غولدا سواء على صعيد نشر الدعوة او جمع التبرعات، وحين عادت بعد عامين الى فلسطين كافأتها «الوكالة اليهودية» بتعيينها في اللجنة التنفيذية للهستدروت ٠ ولكن شمل العائلة لم يلتئم مرة أخرى حيث ظل موريس في حيفا واستقرت غولدا والاولاد في « تل أبيب » ، « وشعر الطرفان أن سعادتهما كانت أكبر حين كانا بعيدان عن بعضهما بعضا » (ص ٩٠) وهكذا فلقد قررا « الانفصال غير الشرعي » ٠

عقب عام واحد فقط (١٩٣٥) انتخبت غولدا لتصبح سكرتيرة اللجنة التنفيذية للهستدروت٠ وفي عام ١٩٤٦ حين تم اعتقال «موشي شرتوك» رئيس الدائرة السياسية في الوكالة ، ونظرا لغياب رئيس الوكالة ـ دافيد بن غوريون ـ خارج البلاد ، تم اختيار « غولدا مايرسون » لتصبح فجأة « ممثلة الهستدروت وكل يهود فلسطين في كل المحادثات السياسية مع البريطانيين » (ص ١٢٨) ٠

على أن نشاطات غولدا في الفترة التي

سبقت ذلك التاريخ كانت تؤهلها لاحتلال مثل هذا المنصب ، ففي عام ١٩٣٨ شاركت بأول مؤتمر دولي وكان : مؤتمر « ايفان » الذي دعى اليه الرئيس الامريكي روزفلت لايجاد الطرق الكفيلة بانقاذ الاقليات المضطهدة في ألمانيا والنمسا ، وهناك صرحت ـ وكان هذا على الاغلب أول تصريح تنقله الصحافة لها ـ « هناك فكرة واحدة موجودة الآن في رأسي ، هناك أمر واحد أود رؤيته قبل موتي ، وهو أن لا يحتاج شعبي مرة أخرى أي تضامن عاطفي من العالم » . كذلك شاركت غولدا بالوفد الذي ذهب الى بريطانيا للاعتراض على صدور « الكتاب الابيض » في عام ١٩٣٩ . أما حين اندلعت الحرب العالمية الثانية فلقد كانت غولدا واحدة من الذين طبقوا شعار بن غوريون بشكل نموذجي « سوف نقاتل في الحرب وكأن الكتاب الابيض لا وجود له ، وسوف نقاتل الكتاب الابيض وكأن الحرب لا وجود لها » .

وهكذا كانت غولدا « تعمل في النهار لصالح المجهود الحربي للبريطانيين والحلفاء ، وتعمل في المساء أحيانا وبشكل سري ضد البريطانيين » ، وتركز نشاطها في تلك الفترة في « لجنة المهاجرين غير الشرعيين » وأصبح منزلها بحكم اطلاله على البحر مركز الادارة لهذه الجمعية التي نجحت في تسريب عدة الاف من اليهود الى فلسطين .

خلال الفترة القصيرة بين قرار التقسيم من هيئة الأمم وبين انتهاء الانتداب البريطاني كانت الوكالة وهي تعد نفسها للحرب القادمة بحاجة ماسة للاموال ، وقرر « بن غوريون » السفر مباشرة الى الولايات المتحدة لجمع مبلغ ٢٥ مليون دولار من يهود أمريكا ، الا أن « غولدا » أصرت على أن تحل مكانه بهذه المهمة « ما يمكنك فعله هنا لا يمكنني القيام به ، ولكن ما سوف تقوم به في أمريكا استطيع أنا انجازه » (ص ١٤٢) وهكذا سافرت غولدا الى أمريكا ، وفي أول محاضرة لها هناك قالت :

« اذا كان لدينا ٢٥ أو ٣٠ مليون دولار في الاسبوعين أو الثلاثة القادمين ، يمكننا أن نؤسس أنفسنا هناك .. ليس بامكانكم انتم أن تقرروا اذا ما كنا سوف نقاتل أم لا . سوف نقاتل ، ولن ترفع الطائفة اليهودية علما أبيض في فلسطين من أجل المفتي .. يمكنكم فقط ان تقرروا شيئا واحدا ، ان كنا سوف ننتصر في هذه الحرب أو ان كان المفتي سوف ينتصر .. وعلى يهود أمريكا ان يفعلوا ذلك خلال ساعات » (ص ١٤٥) .

وفي نهاية الحفل كانت حصيلة التبرعات ٢٥ مليون دولار . واستمرت غولدا بالعمل في طول أمريكا وعرضها ولمدة شهرين ونصف ، وموّلت عمليات شراء مصفحات وطائرات وبعض مخلفات الجيوش الالمانية ، وكان حصيلة ما جمعته يتجاوز الـ ٥٠ مليون دولار (ص ١٤٥) . وعندما عادت الى فلسطين قال لها بن غوريون: « يوما ما عندما سوف يكتب تاريخنا ، سوف ينص على أن هناك امرأة يهودية جمعت الاموال التي جعلت تأسيس الدولة أمرا ممكنا » .

قبل ذلك التاريخ بقليل وفي تشرين الثاني ١٩٤٧ كانت « غولدا مايرسون » قد اجتمعت بالملك عبدالله الذي أخبرها بأنه يخطط لضم القسم العربي الناتج عن قرار تقسيم فلسطين الى امارته ، ووعدها بأن يكون صديقا للدولة اليهودية الناشئة (ص ١٥٠) على أن تطور الاحداث اثار شكوك القادة الصهاينة . وهكذا فلقد قرروا ارسال غولدا لمقابلته وتذكيره بوعوده ولكن الملك لم يوافق على عقد الاجتماع على الحدود مثل المرة السابقة وذلك لخطورة المكان لكنه وافق على ارسال عربة تأخذ غولدا ومرافقها من مناطق الحدود الى العاصمة عمان حيث يعقد الاجتماع في بيت صديق موثوق . وفي ١٠ أيار ١٩٤٨ تخفت « غولدا » بزي امرأة عربية ورافقها « ازرا دانين » الذي كان يتحدث العربية بطلاقة . وأخبرها الملك ان « الانسان لا يستطيع ان يتخذ خطوات متسرعة .. » وحينما غادر الغرفة بعد ٤٥ دقيقة كان « خائب الآمال ، وكئيبا وحزينا حتى ، لم يبد كرجل يريد الحرب ، ولكن كرجل مدفوع بقوى خارج اطار سيطرته » (ص ١٥١) .

في ١٤ أيار ١٩٤٨ كانت غولدا مايرسون واحدة من ٣٨ شخصا وقعوا « عريضة اعلان قيام

اسرائيل» وكان ذلك في متحف الفنون بتل ابيب وفي الساعة الرابعة بعد الظهر « اخيرا بعد ١٨٧٨ سنة هناك مرة اخرى امة يهودية » (ص ١٥٩) • ومرة أخرى طلب منها أن تسافر الى أمريكا لجمع التبرعات وغادرت بعد ثلاثة أيام فقط من قيام اسرائيل • وأثناء وجودها هناك تم تشكيل أول حكومة اسرائيلية وأعلن اسم « غولدا مايرسون » كوزيرة لشؤون يهود روسيا وهذا يتضمن أيضا منصب سفيرة اسرائيل في موسكو •

سارة ابنة مايرسون كانت قد غادرت منزل والدتها وعمرها ١٧ سنة لتعيش في كيبوتز « رافافيم » في النقب وهناك تعرفت على يهودي يمني « زخاريا ريخافيم » وقررا الزواج ، وعين زخاريا كعامل لاسلكي في السفارة الاسرائيلية بموسكو وكان هذا التعيين بمثابة شهر عسل للعروسين • والدا « غولدا » هاجرا أيضا الى فلسطين عام ١٩٢٦ ورافقهما زوج ابنتهما « شانا » اما الاخت الصغرى لغولدا « كلارا » فلقد تزوجت واستقرت في أمريكا ، « أصبح هؤلاء الفرع الامريكي للعائلة » • « مناحيم » الابن الاكبر لغولدا أصبح عازف كمان محترف أيضا تزوج من فتاة تدعى « غازيل » • وفي تلك الفترة كانت « غولدا وموريس » قد انفصلا عن بعضهما بعضا رسميا ••

في مطلع أيلول ١٩٤٨ توجهت غولدا الى موسكو ولكنها لم تستمر في ملصبها ذاك اكثر من بضعة أشهر حيث أنها غادرتها في نيسان ١٩٤٩ عقب اجراء أول انتخابات في اسرائيل وتشكيل حكومة بن غوريون الذي عين فيها غولدا وزيرة للعمل والتطوير ، وهكذا عادت لتشغل هذا المنصب ولمدة سبع سنوات متواصلة لعبت فيها دورا مركزيا في اسكان وتأهيل وتشغيل مئات الآلاف من المهاجرين الجدد ، كما أنها قامت خلال تلك الفترة برحلات عديدة الى أمريكا الشمالية والجنوبية والى أوروبا بهدف جمع التبرعات والاموال لانجاز خطط وبرامج التنمية والاسكان •

عام ١٩٥١ توفي زوجها موريس مايرسون وتوفيت والدتها « بلوما » ، وخلال تلك الفترة عمل مناحيم مدرسا في كونسرفاتور تل أبيب ورزق بثلاثة اطفال (امنون ، دانيال ، جيدون) اما أخته سارة فلقد رزقت طفلين (نعوم ، شاؤل) •

في ١٩٥٦ اشتدت الخلافات بين رئيس الوزراء « بن غوريون » وبين وزير خارجيته « موشي شاريت » وأراد بن غوريون ان يعين شخصا في هذا المنصب لـ « يسير معه على طول الخط » (ص ١٨٨) وهكذا اصبحت غولدا مايرسون وزيرة للخارجية ، وحين أثار تعيين امرأة في هذا المنصب بعض الاستنكار ، قال بن غوريون : « انها أفضل رجل موجود داخل مجموعتي » •

تحت اصرار بن غوريون على ضرورة استخدام الاسماء العبرية ، لأن « العبرية كانت العامل الاكثر أهمية لتوحيد مواطني اسرائيل المتعددي الانواع واللغات » (ص ١٨٤) ولوجود ضغط على موظفي الحكومة خصوصا حتى يعبرنوا اسمائهم ، اختارت « غولدا مايرسون » أقرب الاسماء العبرية الى اسمها الثاني وكان اسم « مائير » •

في نهاية أيلول من ذات العام كانت غولدا مائير احد الذين سافروا الى فرنسا سرا بهدف الاعداد النهائي لحرب السويس وبالطبع لعبت بحكم منصبها دورا أساسيا في محادثات وظروف تلك الحرب • وفي العام التالي بدأت بسلسلة نشاطاتها الخارجية وزارت افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية عدة مرات وعززت التعاون الاقتصادي والسياسي مع تلك الدول ووضعت الارضية للتغلغل الاسرائيلي فيها • وحين تنحى بن غوريون عن منصبه في ١٩٦٤ وخلفه « ليفي أشكول » طلب الاخير منها الاستمرار في منصبها ، ووافقت على ذلك الا انها طالبت بأن تتقاعد في بدء الدورة الانتخابية التالية في ١٩٦٥ واحتفظت مائير بمقعدها في الكنيست وسكنت قرب منزل ابنها في « راموت افيف » من ضواحي تل أبيب •

كان حزب « المباي » في تلك الفترة يعاني أخطر أزماته ، حيث انشق « بن غوريون » و « دايان » وأسسا حزبهما الخاص • مما

انعكس على شعبية « المباي » وعلى رسوخ وثبات قواعده ، وفي محاولة لاعادة تلك الشعبية ولدعم صفوف الحزب عرض علـــى « غولدا مائير » رئاسة الحزب وكان ذلك عقب شهر واحد فقط من تاريخ تقاعدها ، ووافقت مائير على المنصب الجديد ٠ ولكنها لم تنجح في تلك المهمة الا في مطلع ١٩٦٨ أي بعد حوالي ثلاثة أعوام حـين أعلنت تشكيـل الحزب الائتلافي الجديد « حزب العمل الصهيوني » ٠

في اليـوم الخامس لحـرب حزيران سافرت غولدا مرة أخرى الى الولايات المتحدة بهدف جمع الاموال « للأمة التي تقاتل مرة أخرى من أجل حياتها » (ص ٢٢٣) ، ومرة أخرى أيضا حققت نجاحا كبيرا ، وحين عادت واحتلت منصب السكرتيرة العامة لحزب العمل الصهيوني كانت قد بلغت من العمر سبعين عاما ، وقررت مرة أخرى أن تتقاعد ٠

الا أن « أشكول » مـــات فجـأة في شباط ١٩٦٩ ، وكان على الحزب الحاكم اختيار رئيس وزراء جديد حتى قدوم الانتخابات التالية ، وفازت مائير بأصوات أربعين عضوا من أعضاء اللجنة المركزية للحزب وغاب سبعة أعضاء ولم يصوت أحد ضد القرار ٠ وكانت غولدا مصرة على أنها سوف لن تستمر في هذا المنصب الى أبعد من تاريخ الانتخابات التالية في أكتوبر من ذات العام ، أمـا عن مسألة كبرها في السن فلقد أجابت «ان السبعين‌ليست اثما» ٠ على ان مائير خاضت الانتخابات التالية ونصبت ثانية رئيسة وزراء ولـمـدة أربعـة أعوام تالية ٠ واختارت « سيمحا دينتز » مستشارا سياسيا اول لها ـ او ما اصطلح عليه : طبـــاخ في مطبخها ـ وكـــان « دينتز » قد عمل معها كسكرتير خاص أثناء عملها كوزيرة للخارجية، وشكلت مائــير حكومتها. وكانت أوسع حكومة شهدتها البلاد طوال تاريخها اذ ضمت ٢٤ وزيرا يمثلون أحزابا وتجمعات برلمانية حصلت على نسبة ٩٠٪ من أصوات الناخبين ٠

الى هنا يتوقف الكتاب ٠ (٢٨٧ صفحة قطع متوسط) ٠ ولعل أول مـا يمكن ملاحظته هو سلاسة وسهولة أسلوب الكتاب ومتانة الصفة الادبية فيه ، ولا عجب فالمؤلفة « مان » هـي كاتبـة قصة بالاساس وتكـاد تكون مختصة بروايات الاطفال ٠ على أن تلك الحياة الحافلة « لغولدا » وظفتها المؤلفة بطريقة « خبيثة » لتجعل منها هيكلا عامـا تستطيع من خلاله تشويه الحقائق التاريخية المتعلقـة بالقضية الفلسطينية وتكـرار الاطروحـات الصهيونية التقليدية عن « الحق التاريخي » وعن « رغبات السلام » و « اعتداءات العرب » ٠٠ الخ ٠

فالانكليز أصدروا الكتاب الابيض في عام ١٩٣٩ خوفا من حظر النفط العربي (ص ٩٨) والعرب الفلسطينيون لم يكن لديهم أي دافع أو رغبة لمحاربة الصهيونيين ولكن الارهابيين الذين كان المفتي يستأجرهم من الدول المجاورة هم من كان يثير الفتن (ص ٩٧) ، وان عدد المهاجرين (الهاربين) الفلسطينيين من أراضي دولة اليهود يعادل عدد اليهود الذين هاجروا من الدول العربية الى اسرائيل ، اذن لماذا كل هذه المشاكل (ص ١٧٧) لا بل وان اسرائيل تمتاز بأنها لم تطلب مساعدة هيئـة دولية مثل الاونروا ـ التـي يدفع المواطن الامريكي تكاليفها ـ من أجل اغاثة اليهود العرب ٠ ثم تخصص المؤلفة صفحات طويلة (٢٤٥ ـ ٢٥١) للبرهنة على فوائد الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية وغزة ، امـا عـن العرب في اسرائيل « فانهم يعيشون بمستوى حيـاة أعلى بكثير من مستوى سكان أية دولة عربية في الشرق الاوسط وهذا يتضمن مستوى التعليم والصحة، وملكية الاراضي والحرية الشخصية والسياسية» (ص ٢٤٦) وبمقابل هذا فلقد تم متلا اعدام تسعة يهود ابرياء في ساحة الحرية المزدحمة ببغداد حيث حمل كل منهم شارة كبيرة على صدره مكتوب عليها بالخط العريض : يهودي (ص ٢٣٤) ٠ وفي حين كان العرب يتلقون الاسلحة الحديثة مجانـا مـن كل دول العالم «كان اطفال اسرائيل يقفون في الشوارع يطلبون من الناس دفـع قرش واحـد لشراء طائرات الفانتوم ٠٠ حيث أن اسرائيل لم تحصل على أية مساعدات أو هدايا مباشرة من الولايات المتحـدة سواء عسكرية أو غيرهـا وذلك منذ مطلع الستينات في حين أنها (أمريكا) كانت تقدم مثل هذه الى عدد من الدول العربيـة٠٠» (ص ٢٣٤) ٠٠ وفي حـين يدرس الطلبة في

اسرائيل اللغـة العربيـــة فان « التلاميذ في المدارس العربية تقدم لهم مسائل الحساب من نوع : اذا كان هناك ١١ اسرائيليا قتل منهم أربعة فكم اسرائيليا يبقى على قيد الحياة » (ص ٢٤٩) ..

أما باطار المبالغات فسوف نقرأ مثلا وفـي محاولة لاثارة اكبر قدر من التعاطف والشفقة على اليهود اثر المذابح النازية « في معسكر واحد ، « أوشفيتز » تم جمع ١٧ طنا من الذهب فقط من حشوات أسنان اليهود الذين تم حرقهم فيه » (ص ٩٧) . أيضا « ان شحم اليهود المحروقين استخدم لصنـع الصابون الرخيص واستخدمت عظامهم لتصنيع الفوسفات .. لتسميد حقول وحدائق زهور الالمان » (ص٩٧) . كل هذا مجرد غيض من فيض المبالغـات والكذب الوقح ، وعلى كل المستويات بدءا من أن « أفـلام اليزابت تايلور منعـت في العالم العربي لأن الممثلة تزوجت من يهودي وأصبحت يهودية » (ص ٢٠٩) . وحتى « ان اسرائيل هي عامل ضمان ليصرف عليه .. ذلك انه اذا ما سحقت الأمة الاسرائيلية فان الروس سوف يسيطرون على الدول العربية المنتجة للبترول تلك المادة التـي تقوم عليهـا الاقتصاديات الاوروبية » (ص ٢٤٠) .

بالرغم من كل هذا فان الاحساس الذي يرافق قراءة هذا الكتاب هو أن منهجه وأسلوبه قد فات أوانهما بعض الشيء ، وان الكتاب جاء متأخرا بضعة أعوام ، فالقاعدة التـي تقول بعدم امكانية الكذب على كل الناس كل الوقت ما تزال صحيحة كما يبدو .

نعمان كنفاني

عادل سمارة ، **اقتصاد المناطق المحتلة : التخلف يعمق الالحاق**
(منشورات صلاح الدين / القدس ، آب ، ١٩٧٥)

صدر عن منشورات صلاح الدين في القدس المحتلة كتاب « اقتصاد المناطق المحتلـة : التخلف يعمق الالحاق » للكاتب الصحفي عادل سمارة ، ويقـع في ١٦٧ صفحـة مـن الحجم المتوسط . وقد اهدى المؤلف كتابه « الى الفلسطينيـين الذيـن يعانون حالـة التغريب القصوى ولكنهم يرفضونها » .

يحوي الكتاب مجموعة من المعالجـات التي تتناول الـوضع الاقتصادي في الارض المحتلـة ومدى تأثره سلبا بواقع الاحتلال . ويمكن القول ان هذا الكتاب يشكل بداية ناجحة لدراسات اقتصادية أكثر دقة وشمولا عن الارض المحتلة بحيث تشخص ابعاد المخطط الصهيوني الذي لا يرمي وحسب الى تحويل الارض المحتلة الى سوق لمنتجاته وانما ايضا الى ربطها سياسيا بالمشروع الصهيوني في فلسطين من خلال خلق القوى الاجتماعية المحلية التي يمكن لهـا ان تلعب دورا ضمن اطار مرسوم .

وفي الواقع ، فان الكاتب لم يكتف بمعاينة الوضع الاقتصادي في الارض المحتلة على نحو مقطوع عن الممارسات السياسية التي تجري في المنطقة ، ذلك انه ربط الوقائع الاقتصادية الملموسة بأفق سياسي محدد ، واستطاع ان يوظـف استنتاجاتـه عـن الواقـع الاقتصادي للأرض المحتلة لخدمة منطلقات سياسية وطنية تقدمية .

يتناول الكاتـب في دراسته واقـع الطبقات الاجتماعية المحلية التـي تعيش تحـت ظـل الاحتلال ، ومدى الدور الذي تلعبـه اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا مـن خلال واقعها الطبقي الذي يحدد في نهايـة المطاف اطار تحركها في كافة المجالات .

ففي استقصائه لأوضاع الطبقة العاملـة

الفلسطينية في المناطق المحتلة يشير الكاتب الى واقع الضياع القومي الذي تتعرض له فئة كبيرة من العمال من خلال الارتباط اليومي بالمصانع الاسرائيلية التي أصبحت مصدر الرزق الوحيد لهذه الفئة ، واذا أضفنا الى ذلك محاربة الاحتلال للنقابات العمالية العربية وعدم تعامله مع العمال من خلالها لأدركنا واقع التشتت الذي يجتازه العمال العرب ، ويحرمهم من فرص النضال الجماعي المنظم – الاضرابات مثلا – للدفاع عن حقوقهم في وجه الاستغلال الطبقي والقومي الذي يخضعون له .

ان حوالي ٦٠ ألف عامل عربي – أي ثلث العمال العرب في المناطق المحتلة – مضطرون للعمل في الورش والمصانع الاسرائيلية ، وهذا يعني عمليا مزيدا من التبعية الاقتصادية لاسرائيل مما يؤدي بدوره الى طمس الشخصية القومية .

بعد ذاك ينتقل الكاتب الى تصوير المعاناة الاقتصادية للعمال العرب . فالاجور متدنية رغم الانتفاخ الظاهري فيها . ذلك ان أسعار السلع الضرورية ترتفع بنسب تفوق بكثير نسبة ارتفاع الاجور . يضاف الى ذلك ما تسرقه سلطات الاحتلال من أجور العمال العرب على شكل ضرائب لا يتلقون في مقابلها أية خدمات، والتخفيض المتوالي في قيمة الليرة الاسرائيلية، ناهيك عن أشكال الاستغلال المتعددة التي يخضع لها العامل العربي مرورا باعطائه أجرا أقل بكثير من أجر العامل الاسرائيلي ، وانتهاء بالعمل ١٢ ساعة في اليوم بدلا من ٨ ساعات اذا احتسبنا الساعات الجوفاء التي تضيع هدرا لدى انتقال العامل من مقر سكنه الى مكان عمله يوميا .

ولا تقف ظاهرة استغلال الايدي العاملة عند هذا الحد وانما تتجاوزها الى استغلال النساء والطلبة لخدمة الاقتصاد الاسرائيلي مما يلحق أشد الأذى بالطلبة الذين ينقطعون عن الدراسة تحت اغراءات العمل .

لكن أبرز مظهر لاضطهاد العمال العرب واستغلالهم هو وضعهم في ظروف عمل قاسية وتوزيعهم على الاعمال غير الفنية والتي لا تؤدي الى اكتساب خبرات ومهارات جديدة ، ان غالبية العمال العرب يتوزعون على قطاعات كانت نسبة العمال العرب العاملين في قطاع البناء ٣ر٣٪ وقد ارتفعت هذه النسبة الى ٩ر٢٥٪ سنة ١٩٧٣ ، وكانت نسبة العاملين في الزراعة سنة ١٩٦٨ = ١٪ وقد ارتفعت هذه النسبة سنة ١٩٧٣ الى ٢ر١٣٪ أما قطاع الصناعة فقد كانت نسبة العاملين فيه سنة ١٩٦٨ = ٤ر٠٪ ولم ترتفع سنة ١٩٧٣ الا بمقدار ١ر٤٪ .

يخلص الكاتب من تقصيه لوضع الطبقة العاملة وارتباطها بالمصانع الاسرائيلية الى حقيقة أن هذا الوضع الاقتصادي الشاذ ينعكس على واقع الشعب الفلسطيني ويؤثر على قضيته الوطنية . ويطالب أصحاب رؤوس الاموال المحلية بالتحرك لايجاد مشاريع تساهم في امتصاص قسم من العمال العرب وبالتالي تطوير الاقتصاد المحلي والمساهمة في تخفيف حدة الارتباط باقتصاد الاحتلال .

وقد كان من الأنسب لو أن الكاتب تنبه الى الفشل النسبي الذي منيت به سلطات الاحتلال في تجريد العمال العرب من حسهم الوطني ومشاركتهم مع جماهير الشعب الفلسطيني في النضال ضد الاحتلال رغم اغراءات العمل وارهاب البوليس الصهيوني .

في تناوله لتاريخ رأس المال المحلي ومدى قدرته على الاضطلاع بدور وطني في مواجهة الاحتلال ، يقرر الكاتب بأنه رغم التخلف التكنولوجي والسياسي والتنظيمي في أوساط البورجوازية الفلسطينية . الا أنها ساهمت في النضالات الوطنية التي خاضها الشعب الفلسطيني في تاريخه الحديث ويضرب مثالا على ذلك باضراب سنة ١٩٣٦ الذي استمر ستة أشهر وساهمت فيه البورجوازية الى جانب الجماهير .

لكن معضلة رأس المال المحلي تتمثل بكونه تطور على نحو عفوي تماما ، وتعرض لعقبات من جانب الحكومات الاردنية بسبب ارتباطاتها بالدول الرأسمالية مما أدى الى عدم تمكنه بعد النكسة من مواجهة رأس المال الاسرائيلي المتقدم والمدعوم برأسمال أجنبي .

ان مـن سمـات ضعف البورجوازية المحلية ميلهـا الدائم الـــى الادخـار واحجامها عـن الاستثمار ، ولعل عدم الاستقرار السياسي في المنطقة يعزز لديها هذا المسلك فلا تجرؤ على انشاء مشروعات اقتصادية كبيرة •

يضاف الى ذلك ان البورجوازية الاسرائيلية معنية بضرب البورجوازية العربية واضعافها لتظل في موضع التابع • ومن هنا نفهم لماذا أصبحت معامل الخياطة ومعامل تعبئة السمنة مجرد توابع للمصانع الاسرائيلية • وقد أفرز هذا الواقع فئة مـن البورجوازية المحلية وهي الكومبرادور التي ارتبطت مصلحيا مع الاحتلال وتعمل علــى تشجيــع لتعامل معــه وتقوى وتعمل عـــلى تشجيع التعامل معــه وتقوي ارتباطها به ليس اقتصاديا فحسب وانما في الادارة المدنية وغيرها •

الا ان النواقص الذاتية والموضوعية في واقع الرأسمالية المحليـــة لا تعنـــي انهـا ـ اي الرأسمالية المحلية ـ عاجزة عن اداء دورها في معركة شعبنا وصمـوده ضد الاحتلال ، ففـي وسعها ان تسهم في انهاض الاقتصاد الوطني نسبيا وتعطيل عملية الالحاق التي تخطط لها السلطات الصهيونية •

ان واجب الرأسمالية المحلية أن تساعد في تطويـــر التعاونيات الزراعيـــة والجمعيـات الاستهلاكية لمكافحة الغلاء ، ومساندة لجـان احيـــاء الارض • وتنشيـط اقامـــة مشاريع استهلاكية مثل المطاحن ومعاصر الزيت ومعامل التعليب والنسيج ، مـــع عدم اغفـال التفكير باقامة مشاريع انتاجية رغم أنها تتطلب وقتا طويلا لاعطاء المردود وتحتاج الى خبرة ومال •

بعد ذلك يتناول الكاتب وضع الفلاحين في ظل الاحتلال فيؤكد حدوث تغيرات علـى وضعهم كطبقة ، حيث انتقلت أقسام من الفلاحين الى العمل في المصانع الاسرائيلية تحت تأثير الغلاء وعـــدم الاهتمام بتطوير العمـل الزراعـي في الارض ، وهـذا يؤدي الـــى اضعاف الارتباط بالارض الامر الذي يخطط لـه العدو لتسهيل ابتلاعها ومصادرتها •

ويتعرض الكاتب لوضع المرأة في ظل الاحتلال ومدى مشاركتها في عملية الانتاج الاقتصادي، فبينما كانـت فرص العمـل في السابق متاحة فقـط للفتيات المتعلمات ، فقـد أدت قسوة الاوضاع الاقتصادية وظروف الغلاء الـى دفـع أقسام أكبر من النساء الى سوق العمل وخاصة في قطاع الزراعة ، الا أن المرأة العاملـة تخضع لاستغلال بشع وتتقاضى أجرا أقل مما يتقاضاه الرجـل •

وحيث أن الاقتصاد الاسرائيلـي المتطور ، والمدعوم من جانب سلطات الاحتلال يعمل على خنق الوجود المستقل للاقتصاد المحلي • فـان الكاتب يبحث في الواقع الموضوعي للاقتصـاد الاسرائيلي عن منافذ يمكن للاقتصاد المحلـي ان يتطور ولو نسبيا من خلالها •

فهنالك قطاعات اقتصادية ما زال الاقتصاد الاسرائيلي لعدة اسباب يعاني ازمة فيها ولا يستطيع تلبية احتياجات السوق الـى انتـاج هذه القطاعات • ففي قطاع زراعة الخضروات تعاني اسرائيل نقصا شديدا ، ويمكن للمزارعين العرب أن يضاعفوا انتاجهم من الخضروات دون منافسة • وبذلك يتحقق هدف استغلال الارض المهددة بالخراب والضياع ، وتشغيل اعداد من العمال العرب وتمتين ارتباطهم بالارض •

وفي مجال الثروة الحيوانية تعاني اسرائيل من نقص في اللحوم وبالتالي فان انشاء مزارع للثروة الحيوانية تسهم في انعـاش الاقتصاد المحلي • ويورد الكاتب جـدولا يوضح حجـم واردات اسرائيل من الحيوانات واللحوم والبيض ومستخرجات الالبان والطحين والقمح ، ومدى ارتفاعها اذا ما قورنت بحجم صادراتها من هذه المنتجات •

تبقى مسألة هامة وهي ظاهرة الالحاق التي تلازم النظام الرأسمالي انسجاما مـع طبيعته الاستغلالية، وحيث تشكل الحروب الاستعمارية بشكل عام مداخل طبيعيـة للالحاق الاقتصادي بينمـا تعتبر حروب التحرر الوطنـي نزوعـا مضادا للالحاق •

والسؤال الذي يطرحه الكاتب : هل سيظل اقتصادنا ملحقا ؟ أم أننا قادرون على رفض هذا الالحاق ؟

هنا يعود الكاتب الى التأكيد على الكثير من الاستنتاجات التي سبق أن طرحها في أكثر من موضع وهي ضرورة الالتحام بالارض واستثمارها ، ودعوة رأس المال المحلي ان يلعب دوره في تنشيط الزراعة والصناعة ، ويطالب المؤسسات الاجتماعية المحلية أن تقدم القروض للفلاحين من أجل احياء الارض . كما يلح على ضرورة تشجيع التعاون الزراعي بين الفلاحين .

ان الاوضاع الاقتصادية المتردية في الارض المحتلة وتأثيرها المتزايد على قطاعات أوسع من الجماهير تشكل أساسا ماديا للالتقاء على برنامج الحد الادنى سياسيا واجتماعيا في مواجهة الاحتلال .

محمود شقير

Kazziba, Walid : *Revolutionary Trans-formation in the Arab World - Habash and his Comrades from Nationalism to Marxism.* (Charles Knight & Co., London 1975).

الدكتور وليد قزيحة هو استاذ في قسم العلوم السياسية بالجامعة الاميركية بالقاهرة ، وعضو سابق في حركة القوميين العرب قد وضع هذه الدراسة بتكليف من مؤسسة فورد الاميركية والجامعة الاميركية بالقاهرة ، وفيها استعرض تاريخ الحركة منذ نشوئها في بداية الخمسينات الى حين تطورها لتصبح الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . وفي الواقع ان دراسة نمو هذه الحركة وتطورها ، هو في الوقت نفسه دراسة لنمو الفكر الماركسي وتطوره في الوطن العربي ، وصورة لأوديسة المثقف العربي من نكبة عام ١٩٤٨ الى نكبة عام ١٩٦٧ .

في البداية كانت فلسطين .. فلسطين هي نقطة الاستقطاب لكافة المفكرين العرب خارج مصر . ولذا ظهرت في الفترة التي تلت النكبة كتابات نبيه فارس وقسطنطين زريق ومحمد جميل بيهم ومنيف الرزاز وفايز صايغ وميشيل عفلق وجورج حبش ، وقد شكل الفلسطينيون نسبة كبيرة ، ان لم تكن الاكثرية ، بين هؤلاء المفكرين . كما أن معظمهم كان مرتبطا بالجامعة الاميركية ببيروت ، اما كطالب أو كأستاذ . وفي هذا العهد الليبرالي للفكر القومي العربي ولدت حركة القوميين العرب في بيروت ، وكانت رابع منظمة سياسية عربية ذات نشاط يتجاوز الحدود الاقليمية ، اذ سبقها كل من : القوميين السوريين الاجتماعيين ، والاخوان المسلمين ، وحزب البعث العربي الاشتراكي .

في مرحلة الصفر بعد النكبة الاولى ، كان نقاش المثقفين العرب يدور حول نقاط اساسية ثلاث : التهديد الصهيوني - علاقة العرب بالغرب - طبيعة الانظمة العربية الحاكمة . ولم تكن صورة الامور واضحة تماما في اذهانهم واسرائيل كانت ما تزال العدو المجهول . لذا فقد حفلت أطروحاتهم بالتناقض . فمن جهة كانت الدولة الصهيونية في رأيهم هي بمثابة رأس الرمح للامبريالية الغربية ، ومن الجهة الاخرى كانت الصهيونية العالمية ، بحكم سيطرتها الاقتصادية والفكرية على دول الغرب ، قد نجحت في جعل الولايات المتحدة وأوروبا الغربية مجرد أداة في يدها .

وكان المنطلق في هذا النقاش المستمر هو القاعدةالليبرالية التي ارتكز عليها معظم هؤلاء المفكرين ، اذ ارتبطت الماركسية في أذهانهم بموقف الاتحاد السوفياتي المؤيد لانشاء اسرائيل . وهذا الارتباط أعماهم لسبب ما عن الحقيقة الواضحة التي تبين بأن الليبرالية هي الاخرى شاركت في تأسيس الدولة الصهيونية . الا أن الأهم من ذلك في نظرهم كان فتور الاحزاب الشيوعية في البلاد العربية تجاه الفكرة

القومية ، تلك الفكرة التي كان ساطع الحصري قد طرحها بقوة وأسلوب مقنع ، مستوحيا اياها من قراءاته في نشوء الفكرة القومية بأوربا القرن التاسع عشر · ويجب ألا ننسى هنا الخلفية الاجتماعية لهؤلاء المفكرين ، اذ كانوا بلا استثناء تقريبا ينتمون الى الطبقة البورجوازية · لذا لم يكن من المستغرب أن يكون المنطلق ليبراليا والحديث يدور عن السياسة قبل الاقتصاد ، وأحيانا بمعزل عن الاقتصاد ·

وكانت القناعة العامةتكمن في فكرة الوحدة العربية الشاملة · ففي هذه الوحدة كان البلسم الشافي لجميع الجراح ، برأي هؤلاء المفكرين · ولكن الفرق بين جيل الخمسينات وجيل الثلاثينات ، ان الاول كان يريدها وحدة شعبية ديمقراطية ، بينما الجيل السابق كان يضع أمله في تحقيق الوحدة على أيدي الملوك والامراء العرب ·

في هذه الفكرة وقعت الانقلابات العسكرية في سوريا ، وبدأت شمس الناصرية بالبزوغ اثر صفقة الاسلحة التشيكية · وكانت هذه الصفقة بمثابة دقة العربي على باب المعسكر الاشتراكي · فقد وقف العربي أمام هذا الباب مسلحا بشعارات الحياد الايجابي وعدم الانحياز · وفي نهاية الخمسينات ، أضاف الى قائمته شعار رفض المبادىء المستوردة · (المبادىء وليس الايديولوجيات ، فالاخيرة لم يحن دورها بعد على المسرح العربي) وفي غمرة الحماس العربي بالفجر الذهبي الجديد ، نسي الكثيرون حقيقة بديهية ، وهي أن الأمة التي توقفت عن الانتاج الفكري منذ قرون لا تملك خيارا غير الاستيراد · ولكن الطريق الى الجحيم معبد بالنيات الحسنة ، كما يقول المثل المعروف ، ولذا بقي التركيز على الفكرة القومية الى أن كاد التفكير الأممي يبتلع العراق في عهد عبد الكريم قاسم · وقد تعلم حزب البعث من هذا الدرس ، وأخذ يشدد على الجانب الاقتصادي في برنامجه ، بينما تأخرت حركة القوميين العرب في الاستجابة للتحدي الاجتماعي ـ الاقتصادي ، وربما رجع ذلك الى هوية قادتها الفلسطينية ، بكل ما تعنيه هذه الهوية من انشغال بالقضية دون سواها · ان المؤلف يستشهد بعبارة مشهورة للدكتور جورج حبش: لقد قتلوا أبناء شعبنا وطردونا من بيوتنا ومدننا وأرضنا ، وفي الطريق من اللد الى الرملة شاهدت الاطفال والشبان والشيوخ يموتون · فماذا ستفعل أنت اذا رأيت ذلك كله ؟ انك لا تستطيع الا ان تصبح ثوريا وتناضل من أجل القضية ·

تأسست الحركة في البداية كرابطة طلابية وذلك في مقر العروة الوثقى ببيروت ، وكان الاعضاء المؤسسون هم الدكتور جورج حبش ، والدكتور وديع حداد (فلسطين) وهاني الهندي (سوريا) والدكتور أحمد الخطيب (الكويت) والمرحوم باسل الكبيسي (العراق) (علما بأن المؤلف يغفل دور الكبيسي كعضو مؤسس) وفي أوائل عام ١٩٥٥ فصلت الجامعة الاميركية سبعة عشر طالبا من طلابها (بينهم الكبيسي) وذلك لاشتراكهم في المظاهرات ضد حلف بغداد، كما حلت جمعية العروة الوثقى · وكنا نتمنى أن يتحدث المؤلف بتفصيل أكثر عن هذه الحادثة الشهيرة التي كشفت حقيقة عواطف تلك الجامعة نحو فكرة القومية العربية · ففي أواخر القرن التاسع عشر كانت هذه الجامعة تشجع الفكرة القومية كبديل عن التفكير الاسلامي · وواصلت تشجيعها لهذه الفكرة في أواسط هذا القرن اذ أرادت من القومية أن تصبح حاجزا أمام الماركسية · ولكن الزمام أفلت من يدها عندما وقف القوميون العرب ضد الامبريالية الغربية ، فكشفت عن وجهها الحقيقي حينما فصلت الطلاب بالجملة ·

ان المؤلف يتناول هذه الحادثة في أربعة سطور فقط ·

ومع بداية الستينات ، ازداد توسع الحركة في الوطن العربي ، وخاصة في الاردن والعراق والكويت · الا ان الحركة أخفقت في زرع جذور لها في البحرين والمملكة العربية السعودية ، كما كان واضحا ان تنظيمها الداخلي لم يكن متماسكا كل التماسك · وفي المعركة ضد التحالف القاسمي ـ الشيوعي في العراق ، كان حزب البعث هو الذي قاد القوميين الى النصر ، بينما لعبت الحركة دور الشريك الاصغر · أما

في سوريا ، فان تأييد الحركة للرئيس جمال عبد الناصر جعلها تدخل في مجابهة خاسرة مع حـزب البعث الحاكـم ، ففقدت مقعديها في الوزارة ، ومنعت صحيفتها « صوت الجماهير » من الصدور ، الا انها عوضت عن هذه الهزائم الى حد ما حينما اجتذبت اليها شبانا من عدن، بينهم قحطان الشعبي وابن عمه فيصل ، قاموا عام ١٩٦٣ بقيادة انتفاضة ردفان ضد الاحتلال البريطاني ، تلك الانتفاضة التي تحولت فيما بعد الى ثورة عارمة تعتبر ثاني أعظم ثورة عربية في هـذا العصر ضد الاستعمار (بعد الثورة الجزائرية) .

ان نمو الحركة السياسي بقدر ما هو مهم ، لا يعادل في أهميته نموها الفكري الذي كان هو في الواقع النمو الفكري للمثقف العربي الملتزم بصرف النظر عـن المنظمـة السياسية التـي ينتمي اليها اليوم ، أو التي كان ينتمي اليها بالأمس . فمن الليبرالية اليمينية التي كانت نقطة الانطلاق ، سار المثقف العربي الملتزم ، بعثيا كان أم حركيا أم ناصريا ، الى أن التقى بالماركسية على أرض اليسار العالمي الجديد، وكان هذا هو التحول الثوري في الوطن العربي. فلم تعـد الحركـة الصهيونيـة متميزة عـن الامبريالية الغربيـة في الاذهان ، كمـا كانت سابقا ، بل اصبحت جزءا عضويا منها . وكذلك الفكر القومي الوحدوي لم يعـد يطرح بمعزل عـن الاعتبـارات والعوامـل الاجتماعيـة - الاقتصادية ، مثلما كان الامر في السابق . ولم تعد استعادة فلسطين هي قضية ثأر وانمـا أصبحت حركة تحرير شعبية عامة . ومع ان الحركة انتهت مع نهاية الستينات لتحل محلها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التـي كرست نفسها لهدف أوحد ، ومع أن هذه الجبهة نفسها قد انقسمت بعد ذلك الـى ثـلاث جبهات : الشعبية والديمقراطية والقيادة العامة ، الا ان الصراع الفكري الذي خاضه أعضاء الحركة على مدى عقدين من الزمن قد أثمر دروسا تاريخية هي اليوم جزء أصيل من التراث المعاصر لهذه الأمـة .

ان الدكتور قزيحة قد قدم دراسة قيمة الى القارىء ، واذا كان هناك ثمـة تحفظ عليها ، فهذا التحفظ ينصب على مؤسسة فورد التي تبنت المشروع . فان هذه المؤسسة تابعة لنفس الشركة الاميركية الكبرى التي فتحت مصانع السيارات والمدرعات في اسرائيل ، علاوة على علاقتهـا الحميمة مـع وكالـة الاستخبـارات المركزية . اننا لا نريد أن نحكم على المؤلف من هذه الزاوية ، بل نفضل ان نطلب من الجامعات والمؤسسات الثقافية العربية ان تسد الطريق على مؤسسة فورد ومثيلاتها وذلـك بأن تقوم هـي باستكتاب الباحثين وتبنـي المشاريـع العلمية .

وكلمة نقد أخيرة : يستشهد الدكتور قزيحه في سياق كتابـه بمؤلفين همـا ايلـي كدوري وفاتكيوتس ، مع ان أولهما كاتب صهيوني اشتهر بتلفيقاته ، والثاني كاتب مأجور بمعنى الكلمة ، وعلمـا بأن الاستشهادين لا ضرورة لهمـا مطلقا ولا يضيفان الـى النص شيئـا مفيدا ، ولذا كان من الافضل عدم اسباغ صفة المرجع الثقة على هذين الكاتبين .

فارس المنصوري

عبد القادر ياسين ، كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨ ، (مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٥) .

[١]

* ليس من المهم ، حقا ، أن نستعرض فصول هذا الكتاب من زاوية تعرض مؤلفه للتاريخ الصرف ، لمراحل كفاح الشعب الفلسطيني قبل عام ١٩٤٨ ، ذلك أن عشرات من الباحثين الفلسطينيين والعرب ، قد أشبعوا تلك الزاوية تنقيبا ، واستفاضوا في الكشف عن خفاياها التاريخية الدقيقة ، ولكن من المجدي ، أن نتساءل هل أضاف المؤلف وجهة نظر جديدة الى مجمل وجهات النظر الفكرية - الاجتماعية التي عالجت الموضوع ذاته من قبل . والسؤال الثاني ، هل تستحق وجهة النظر التي طرحها المؤلف خراج هذا الكتاب الى النور ، وبالفعل ، فان نقدنا سينصب على هذه الناحية بالضبط ، ولنستعير قول لمدير العام لمركز الابحاث أنيس صايغ لنؤكد معه ، اننا لا نزال نشعر ان موضوع الكفاح الفلسطيني لا يزال يتسع للمزيد من الدراسات ، وذلك لأنه يحتاج : أولا ، الى المزيد من البحث والتنقيب والاستقصاء ، ويحتاج ، ثانيا ، الى المزيد من التحليل واستقراء المعلومات واستنطاق معانيها ص ٥ ، ونحن بدورنا نتفق مع الدكتور صايغ ، على الاسس نفسها ولكن نشترط لاسس الثانية أكثر، وهي المزيد من التحليل واستنطاق المعلومات لتعرية معانيها ، والنظر اليها من زوايا جديدة وعديدة ، تخصب الرؤية العلمية في الموضوع عينه .

يقسم المؤلف كتابه الى أربعة فصول، يتناول خلالها ، أولا : الخلفية التاريخية الاجتماعية للحركة الوطنية ، ثانيا : فجر الحركة الوطنية ، ثالثا : الحركة الوطنية بينما تستكمل ملامحها، رابعا : الانحسار والأزمة . وسنلخص كل فصل على حدة ونضع بعض المعلومات التي نرى ضرورتها ، على هدي الأسس التي ذكرناها آنفا .

الفصل الاول - خلفية اجتماعية تاريخية : يرى المؤلف ، في هذا الفصل ، ان البرجوازية الصناعية الوطنية ، في سوريا الطبيعية ، بما فيها فلسطين ، كانت ، كفئة من طبقة ناشئة، في أواخر القرن التاسع عشر ، تحاول ان تثبت كيانها وسط مقاومة عنيفة من الاستعمار التركي ورأس المال لاجنبي ص ٩ ، كما أن تطورها كان ضعيفا ، الى حد لم تستطع معه استخلاص أية مراكز هامة في ادارة البلاد ص ٩ ، ودفعها ضعفها هذا الى سلوك سبيل الجمعيات السرية التي لم تعتمد على الجماهير، ومن ناحية ثانية كانت الملكية الكبيرة للارض، جنبا الى جنب مع الاستثمارات الفلاحية الصغيرة ، اما الاستثمارات الكبيرة فكانت معدومة ص ١١ ، وقد سادت الوسائل العتيقة في الزراعة ، وسادت من ثم على القرية الفلسطينية ، علاقات اقطاعية متخلفة ص ١٣، ثم يورد المؤلف احصاءات مأخوذة من مراجع مختلفة ، للبرهنة على رؤيته ، ويفصل في طريقة عمل علاقات الانتاج هذه ، ليصل الى القول ، ان الانتاج الصناعي تميز بالضعف الشديد ، وكانت نسبة العاملين بالحرف والصناعات ، في جميع أنحاء سوريا ، عشية الحرب العالمية الاولى ، حوالي ١٠٪ من السكان، وكان يقيم في المدن كبار الملاك والتجار والحرفيون والعمال ، ويستشهد الباحث «برأي» للمستشرق الروسي لونسكي ليسجل : انه لم يكن هناك حد فاصل ، اي طبقي ، بين الاعمال الحرفية والزراعة ص ١٥ ، لذا فان الزعامة ، في أصولها ، زعامة دينية - عائلية ، وتضم كبريات العائلات من أمثال الحسيني ، والنشاشيبي والدجاني ، والخالدي ، وعبد الهادي ص ١٥ ، وبسبب هذه الاوضاع الاقطاعية العشائرية الدينية ، تولد لكل مدينة تقاليدها وتشريعاتها ورسومها وموازينها التجارية والاجتماعية الخاصة ص ١٧ ، ويورد المؤلف « رأيا » لانجلز في هذا المجال يقول فيه : ان القيمة الزائدة المكتسبة لم تكن مضمونة أمام جشع الحكام الطغاة والبشوات ، واذا كان هذا الشرط، أي الأمان للقيمة الزائدة ، معدوما، فان البرجوازية لم تجد التربة الخصبة لتنمو فيها ص ١٧ ، ومن هنا ظلت صلابة النضال البرجوازي ، ضد تركيا ، هشة وضعيفة .

وفي القسم الثاني ، من هذا الفصل ، يستعرض المؤلف خلفية الحركة الوطنية ، فيرى ، ان الحركة الوطنية السورية عبرت عن نفسها ، من خلال نهضة فكرية عاشتها سوريا، منذ أواسط القرن التاسع عشر ص ١٨، ففي عام ١٨٨٠ ، أخبر القنصل البريطاني ، في بيروت ، حكومته عن ظهور منشورات ثورية، كما وضع اول برنامج سياسي نادى باستقلال سوريا وبجعل اللغة العربية لغة رسمية ، ووقعت اضطرابات في القدس عام ١٨٨٤ - ١٨٨٤ ، وفي نفس العام تبدي تعاطف مكبوت مع ثورة المهدي في السودان ص ١٨ ، وتحت ضغط جمعية تركيا الفتاة ، قدم السلطان عبد الحميد الثاني المزيد من التنازلات وأعاد العمل بالدستور عام ١٩٠٨ ، واستمرت الحركة العربية الثورية بالنهوض ص ١٩ ، وأعدم جمال باشا على أثر ارتفاع المد الثوري ثلة من المواطنين ، وقد تدرجت الحركة الوطنية السورية في مطالبها ص ٢٢ ، وبعد خروج القوات المصرية من سوريا عام ١٨٤٠ ، عاد النشاط الاستعماري الصهيوني ، في الوقت ذاته متوازيا مع الحركة الوطنية ، ومدعوما من بريطانيا المتلهفة للسيطرة على فلسطين وسوريا ص ٢٣ ، وتصاعد عدد اليهود من ٢٥٠ عام ١٤٨١ الى ما يقرب ٨٥ ألفا ما قبل نشوب الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ ، ويؤكد المؤلف على مقارنة جيفريز ، أحد المؤرخين الغربيين ، بين الحركة الصهيونية والحركة العربية في فلسطين ، فيبين أن الاولى نشأت خارج فلسطين ، في حين أن الثانية حركة وطنية أصيلة ص ٢٩ .

نلمس ، في هذا الفصل ، ان المؤلف قد وضع مقدمة نظرية بحتة ، ثم استعرض التاريخ المتسلسل لجذور الحركة الوطنية في فلسطين ، غير أن ضعف الربط المنطقي - الفكري يلاحظ بين المقدمة والعرض حيث لم يستطع الباحث تطبيق منهجه النظري بصورة واضحة على التطور التاريخي - الاجتماعي للحركة الوطنية، فهو يقول مثلا : ان البرجوازية العربية لم تجد المناخ الملائم للتطور ، مناخ الحفاظ على القيمة الزائدة ، في نفس الوقت الذي يصر فيه على ان البرجوازية العربية أصبح لها تطور فكري ناضج ، بينما قدم السلطان العثماني تنازلات لها ، وان كانت هذه التنازلات أخذت تحت ضغط جمعية تركيا الفتاة ، أي ليست عربية بحتة ، وللقارىء ان يستقرىء الوقائع والتاريخ ليجعلها تنطق بنفسها ، ونتفق مع المؤلف على النواحي التاريخية ، ولكن ندين ضعف أسلوبه في محاكمتها ، وهذا نقص ، كثير ما يعتري ابحاث الباحثين العرب .. النظرية من جهة ، والوقائع من جهة اخري ، دون تقيدها بعملية الجدل الرابط ما بينها .

الفصل الثاني : فجر الحركة الوطنية : يؤرخ المؤلف ، لفترة امتداد جذور الحركة الوطنية في فلسطين ، معتمدا على مقدمته النظرية ، وانطلاقا من رؤية أولية ، فيصف بالضعف والسلبية الحركة الوطنية الفلسطينية ص ٣١ ، في مراحلها الاولى والتي امتدت من عام ١٩١٨ وحتى عام ١٩٢٩ ، واستمرت المرحلة الثانية من عام ١٩٣٠ - ١٩٣٩ وشغلت المرحلة الثالثة المدة من ١٩٤٠ - ١٩٤٩ ص ٣١ ، وقد انفرد كبار الملاك بقيادة المرحلة الاولى ، ولعب ضيق أفقهم وضحالة امكانياتهم الثورية ، وطبيعتهم الرجعية ، دورا رئيسيا في اتسام الحركة الوطنية بالضعف ، ومن العناصر الفاسدة التي أدخلتها هذه الفئة الحاكمة ، الى ذهنية الجماهير ، انها وجهتها نحو العداء العنصري الطائفي لليهود ، منحرفة بالجماهير عن عدوها الرئيسي المتمثل بالاستعمار البريطاني ص ٣١، على ان الانجليز هم الذين اشادوا بتأليف الجمعيات الاسلامية المسيحية ، بل ولعبوا دورا في انتقاء بعض اعضائها ص ٣٥ ، وهناك ما يشير الى أنه كان لفرنسا دور في تأسيس هذه الجمعيات ذات الطابع العنصري الديني ص ٣٦ ، اما المفيد الاكبر من هذه الجمعيات فكان كبار الملاك ، وعملوا على تحويلها الى مؤسسة اقتصادية تتبنى وتحترم مصالحهم الطبقية وأطماعهم ، وعلى سبيل المثال تصدت تلك الجمعيات لمهمة تنشيط تصدير الحمضيات ، علاوة على قبولها بتكليف سلطات الاحتلال البريطاني لها لتوزيع القمح والاسمنت على الاهالي ص ٣٨ ، ولم يكن لها مهام عملية نضالية سوى ارسال البرقيات وتقديم العرائض ص ٣٩ ، بينما الجماهير

تعاني الأمرين في ظل الاحتلال البريطاني والاستيطان الصهيوني المستفحل : فأخذ الفلاحون يتقاطرون ، مطرودين ، من الاراضي التي نجح الصهاينة في ابتياعها ، الامر الذي جعل للجماهير أسلوبها الخاص في النضال ، والذي تميز بالعنف والصلابة ص ٤١ ، وتكشف الوثائق السرية البريطانية والصهيونية الستار عن أنه ، في أوائل عام ١٩١٩ تشكلت جمعية عربية سرية في القدس ، وعرفت باسم « الفدائية » ، وضمت بعض رجال الشرطة والدرك ص ٤١ ، وراحت تعد لانتفاضة مسلحة، أما في عام ١٩٢٠ ، فشنت عصابات من الفلسطينيين المسلحين هجوما على مستعمرتي المطلة وتل حي شمال فلسطين ، غير أن عناصر الثورة المضادة لم ترق لها أساليب الكفاح التي اعتمدتها الطبقات الشعبية ص ٤٢ ، فعمدت الى التجمع في « الحزب العربي الموالي لبريطانيا » ، هكذا بلا مواربة ص ٤٢ ، وكان الحزب ممثلا لمصالح الطبقة الكومبرادورية في البلاد ص ٤٣ ، ولكن الحزب وبعد تسلل عناصر ثورية من المثقفين والفلاحين الى عضويته ، تقدم الى مواقع أكثر وطنية ، وفي العام نفسه ١٩١٩ ، تأسس أول حزب ماركسي في فلسطين، حيث أوفد الكومنترن بعض مندوبيه الى فلسطين ، واحتوى بعض المهاجرين الجدد من اليهود وبعض القاطنين ، وعمل على نشر الدعوة البلشفية ص ٤٤ ، وتميز تاريخ الحزب ، في مرحلته الاولى ، اي حتى عام ١٩٢٩ ، بالعزلة والمساهمة المحدودة بالنشاط الثوري ، لكنه أصدر قرارا شجب فيه الاحتلال البريطاني ص ٤٥ ، وفي عام ١٩٢٠ نظم مظاهرة في يافا ضد الاحتلال ص ٤٦ • بعد هذا العرض الموجز لانبثاق وتطور بعض الاحزاب والجمعيات الفلسطينية ، يحاول المؤلف تعرية تاريخ علاقة أمريكا بفلسطين ، فمنذ منتصف القرن الماضي، سارعت الحكومة الامريكية الى شمول اليهود الاشكناز ، في فلسطين ، بحمايتها ، وتحت ضغط المفوضية الامريكية في الاستانة ، سمح الباب العالى ، لكل يهودي أمريكي ، بزور فلسطين ، بالبقاء شهرا ص ٣٦ ، وفي أمريكا التحمت مصالح الرأسماليين اليهود ، بالاحتكاريين الامريكيين ، وتأسست عام ١٩٠٦ ، اللجنة اليهودية الامريكية ص ٤٦ ، وهكذا ، في شباط ١٩١٩ ، اقترح الدكتور هوارد بليس ، رئيس الجامعة الامريكية في بيروت ، على مؤتمر الصلح ، تشكيل لجنة دولية لتحري رغائب السوريين ص ٥٠ ، وتبنى ولسون ، ولويد جورج البريطاني ، وكليمنصو الفرنسي، وأورلندو الايطالي هذا الاقتراح ، وبمضي ستة أسابيع ، أذاعت اللجنة المشكلة ، بيانا ، اعترفت فيه بالشعور المعادي لليهود ص ٥١ ، وساهمت شركات احتكارية أمريكية ، مثل شركة ستاندرد اويل ، بتشجيع الهجرةاليهودية الى فلسطين • وخلال السنوات الثلاث التي أعقبت الحرب العالمية الاولى ، تفجر الوطن العربي بالحركات الثورية ، وشاركت الحركة الوطنية الفلسطينية في هذا النضال ص ٥٢ ، خصوصا وان الاستعمار البريطاني عمد الى اغراق الفلاح العربي الفلسطيني بالأزمات ، وفرضت السلطات البريطانية الضرائب العالية على المنتجات المحلية ، في حين سمحت باستيراد المنتجات الاجنبية، مما تسبب في اضعاف وخنق المزارع والصانع المحلي ، ولعل هذا يفسر سخط الفلاح والعامل الحرفيوالرأسمالي العربي ص٥٦، وأدى هذا السخط الى اندلاع اضطرابات ، عام ١٩٢٠ ، في الخليل ، وانعقد المؤتمر الفلسطيني الثالث في حيفا ، وفي تموز من نفس العام عين هربرت صموئيل مندوبا ساميا على فلسطين ، ولاحقا اعترف وايزمان بأنه كان وراء تعيين صموئيل ، مما أتاح تدفق الهجرة اليهودية ص ٥٩ ، وتزايد سخط المثقفين العرب بسبب ضيق فرصهم للتعين في الوظائف الحكومية ، أما عفو صموئيل عن عرب فلسطين الذين أدينوا في أحداث ابريل فلم يجد ، واجتاحت حيفا مظاهرات احتجاج ص ٦٢ ، على موقف تشرشل المؤيد لليهود، وتعيين الملوك الهاشميين الاثنين ، فيصل وعبدالله ، واستبدال المجلس الاستشاري بمجلس تشريعي ص ٦١ ، ولكن موسى كاظم الحسيني لعب دورا كبيرا في تهدئة النفوس الثائرة، بناء على طلب المندوب السامي ، واتهمت الجمعيات الاسلامية المسيحية العناصر الشيوعية باشعال نار الفتنة ، وهكذا تم القضاء على بوادر هذه الحركة الوطنية في مرحلتها الاولى ، وشملت الحركات الوطنية ، في العالم ، تراجعات امتدت

طوال عشر سنوات ، ويلخص المؤلف أسباب هـذا الركود بالنقـاط التالية ص ٦٥ : أولا ـ ضعف وتردد قيادة الحركة الوطنية ، ثانيا ـ خوض الحركة الوطنية الفلسطينية النضال بعد سلخها عـن سوريا ، ثالثا ـ مواجهة الحركة لاستعمار صاعد ، رابعا ـ الصهيونية كعدو ثان لا يستهان بخبرته ٠

ثم يستعرض المؤلـف في الصفحات التالية تاريخ بعض الوعود والعهود والاضرابات المتعلقة بفلسطين ، ويـرى ان استراتيجيـة الحركة الوطنية في هذه الفترة ، اي ما بعد عام ١٩٢١ ، فقد عبر عنها موسى كاظم الحسيني أكثر من مرة ، حين أدلى في أوائل عام ١٩٢٤ ، بحديث للصحفي اليهودي الامريكي أوسكار ستراوس، قال فيه ، لا نريد ان يحكمنا أحد ، لا الانجليز ولا الاتراك ، نريد حكومة وطنية مستقلة فيها نواب للمسلمين والمسيحيين واليهود ص ٨٢ ، وفي الجـانب الاخر ، جانـب معسكر الثورة المضادة ، ازداد النشاط واتسع ، بعـد قرار انتداب بريطانيا ، ولشق الجمعيات الاسلامية المسيحية ، وبث الفرقة بين عنصري الأمة من مسلمين ومسيحيين ٠ ولا نفهم نحـن بالطبع كيف يبيـح المؤلف لنفسه هنـا ، أن يمجد الجمعيات الاسلامية المسيحية ، في الوقت الذي ادانها فيـه ورأى ان بريطانيا هي منشئتها الحقيقية ٠ مقول بدأت عام ١٩٢١ بعض عناصر الثورة المضادة في تشكيل ما أسمته انجمعيات الاسلامية ص ٨٤ ، على حد تعبير المؤلف ، ولقد احتضنت الحركة الصهيونية ، وحكومة الانتداب نشاط الثورة المضادة وباركته ص٨٥، فتزعم الصهيوني ، كلفريسكي ، حركة الدعاية بين العرب ، وألف الجمعية العربية اليهودية ص ٨٥ ، ودعا بولس شحادة ، أحد المتعاونين مع سلطات الانتداب ، وصاحب صحيفة مرآة الشرق ، الى تكوين حزب حر معتدل ، وانعقد المؤتمر الاول للحزب في القدس ، برئاسة عارف الدجاني ، وتسمى باسم الحزب الوطني ص٨٦، وفي عام ١٩٢٣ تم تأسيس حزب الزراع على نمط سابقه ، أما حزب الاهالي فتم تأسيسه عام ١٩٢٥ ، في نابلس وشارك فيه عبد اللطيف صلاح ، وعادل زعيتر ، ومحمد صلاح ص ٨٧ ، وفي هذا الوقت سهلت التشريعات التي سنتها حكومة الانتداب ، من تدفق المهاجرين اليهود ، حتى فاق عددهم ، رسميا ، في عام ١٩٢٩ ، ما يزيد عن ١٠٠ ألـف مهاجر ، عدا عـن آلاف المتسللين ص ٨٩ ، واقترنـت الهجـرة بنزع أراضي الفلاحين العرب، وكان متوسط الضريبة المفروضة على الفلاح العربي ٣٫٨٧٠ جنيهات ، بالاضافة الـى جنيهين ، مـن الضرائب غير المباشرة ، في حين كان متوسط دخله ١١٫٨٠٠ جنيهـا ، ممـا أوقعه فريسة للمرابين الذين كانوا يقرضونه بفائدة تتراوح بين ٣٠ ـ ٥٠٪ ٠ أما العمال فقد تفاقمت أزمتهم ، بعد الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت البلاد منذ عام ١٩٢٧، امتدادا للأزمة العالمية ص ٩١ ، كما حرم العرب من التعليم العالي ، لكل ذلك ، كان طبيعيا أن تنجذب الـى الحركة الوطنية كـل الطبقات المتضررة ، العمال ، المثقفون ، البرجوازيون ٠ ولا ندري لماذا أقحم الباحث هنا البرجوازيين ضمن الفئات المتضررة ، خصوصا وأنه وصفهم بالكومبرادورية ، ومفهوم هذا أنهم مرتبطون بالاحتكارات والمصالح الاجنبية الامبريالية ٠ ويرى المؤلف بعـد ذلـك أنـه لهذه الاسباب مجتمعـة ، توالـت الاضرابـات والمظاهرات والاصطدامات ، ففي ٢٤ أيلول ١٩٢٨ ، على أثر محاولة اليهود احتلال حائط المبكى ، اشتعل استياء عارم لدى العرب ، مما دفع سلطات الاحتلال الى تدارك الامر بازالة ستائر ومقاعد كان اليهود قد أقاموها ص ٩٦ ، وكذلك في ٢٣ آب ١٩٢٩ احتشد المصلون في المسجد الاقصى ، وكرر المشايخ ، علـى مسامعهم الدعوة الى الصبر والصمت ، بيد أن نفرا من الحاضرين اعتلـوا المنبر ونددوا بالشيـوخ وطعنـوا في وطنيتهم ص ٩٧ ، وفي خضم ارتفاع موجـة الكفـاح الجماهـيري استقدمـت الحكومـة البريطانية ، في ٢٥ ــ ٢٦ آب ذاته ، خمسة الاف جندي من مصر ومالطة ، وقبعت ١٢٠ طائرة لمواجهة ما يستجد ، وفي نفس الشهر ، من نفس العام ، هاجم عرب صفد المستوطنين اليهود المتواجدين في مدينتهم ، ونتيجة الهجوم أسفرت عن قتل وجرح ٤٥ منهم ، كما استشهد ٩ من العرب وجرح ٢٦ منهم ص ٩٩ ، ويصف الباحث مزية الحركة الوطنية في الريف ، بأنها اتخذت طابعا معاديا للصهيونية ، حيث اخذ الثـوار يغيرون علـى المستعمرات ص ٩٩ :

وبوصول جون فيليبي ، الى فلسطين ، الذي أشهر اسلامه وتسمى باسم عبدالله ، تم التغرير بقادة الحركة الوطنية حين بسط أمامهم مشروعا بحل القضية ، واستكمالا لعملية التغرير ، أرسلت الحكومة البريطانية ، لجنة برلمانية ، في محاولة منها لالهاء العرب وتبريد الموقف ص ١٠١ ، وفي العام التالي ١٩٣٠ أصدرت بريطانيا كتابها الابيض ، حيث أكدت فيه ، أن صك الانتداب هو تعهد دولي لا يمكن العدول عنه ، وفي هذا الوقت ، هب العرب ، واقتحموا الحدود من الاردن وسيناء وسوريا لنجدة اخوانهم في فلسطين ص ١٠٤ ، بيد أن هذه الهبة لم تتطور باتجاه ثوري بسبب قصر عمرها ، ولفشلها عدة أسباب يبرزها المؤلف : أولا ــ حرمان الحركة الوطنية من القيادة الثورية ، ثانيا ــ ضعف الثورة نتيجة تفتتها ، ثالثا ــ الضباب الفكري ، فلا فكر ثوري يفرز الاصدقاء عن الاعداء ، ويحدد معالم الطريق ، ومن ثم الافتقار الى برنامج سياسي وعسكري صحيح ٠

على ان هذه الهبة اقنعت الجماهير بان الصهيونية ، تستند الى الحرب الامبريالية البريطانية ٠

ان الاكتشاف الاول والاهم ، الذي حققه المؤلف ، هو عدم وجود الامان للقيمة الزائده ، لدى البرجوازية في سوريا ، وكان في مقدور الباحث ان يستفيد من اكتشافه هذا ، بأن يستخدمه كبوصلة ، يتحرك على هديها لتعرية الاسباب التحتية التي جعلت البرجوازية العربية تظل اسيرة التردد والمماحكات ، ولكنه لم يستفد من اكتشافه بل أورده كرأي فحسب، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى اتضح في هذا الفصل ، ان المؤلف يصف شيئا جديدا وهو لايلقي الاتهامات جزافا ، فلا يصنف قادة تلك المرحلة في خانة الخونة ، ولكنه يشدد على ان مواقفهم المتخذة تنبع من مواقعهم الطبقية وان كان هذا التحليل يفلت من بين اصابع المؤلف في احيان كثيرة الا انه يفيدنا حقا، غير انه ، أي الباحث ،يفقد قدرته على التمييز بين الهام والجوهري من جهة ، وبين الاني والعابر من جهة اخرى ، فهو يحدثنا عن احداث لا تكمن فيها أي اهمية ، وهو يتناسى تلك النظرة الميتافيزيقية التي كانت تعتنقها الجماهير وكان لها اكبر الاثر في امور كثيرة ، ومن الواضح أيضا أن النظرية عنده تستبق البحث ، ولنلاحظ أن المنهج الماركسي يستخلص النظرية من اعماق الواقع وليس العكس ، والباحث اراد فرز الطبقات ، واثرها في المجتمع الفلسطيني ،فسقط في هوة التبسيط والتسطيح ٠

الفصل الثالث ــ الحركة الوطنية تستكمل ملامحها ٠ يرسم المؤلف ، في هذا الفصل ، الخطوط العامة لصورة مسار الحركة الوطنيه ، فيسجل : انه بانتكاسة هبة آب ١٩٢٩ ، تأكد للجماهير العربية الفلسطينية ، عقم اساليب النضال السلبية التي انتقتها لها قياداتها الرجعية ، وتميزت الفترة التالية ، التي انتهت بانتهاء ١٩٣٩ ، بالمسار الصحيح للنضال ،نضال ضد العدو الرئيسي ، الاستعمار البريطاني ص١١١ ، وافادت تقارير البوليس والمخابرات البريطانية ، في فلسطين وشرق الاردن ، تشرين الاول ١٩٢٩ ، ان الاعداد لتكوين عصابات مسلحة كان يجري على قدم وساق ص ١١٢ ، ويعلن الباحث ، ان هذا التطور اتى تعبيرا عن نمو الطبقات الجديدة ، البرجوازية بفئاتها، والعمال ، وفي اطار تفاقم الازمة الاقتصادية العالمية ص ١١٣ ، ونتيجة لطرد الفلاحين من اراضيهم ص ١١٣ ،كل هذا انعكس في المجال السياسي ، وادى الى احداث تمايز طبقي وطني ثوري ، تمثل في تبني كبار الملاك للاتجاه الديني ، وتبني العناصر البرجوازية للاتجاه القومي الليبرالي ص ١١٤ ، ثم ادى فتح الاسواق ـ بواسطة الاستعمار ـ الى احداث تغييرات جوهرية في التكوين الاجتماعي ، اضمحلت على اثره العلاقات الاقطاعية ص ١١٦ ، ولكن يضيف الباحث ، انه من المألوف ان تتسم برجوازية المستعمرات بالمحافظه ، نتيجة العوامل التالية : اولا ــ انحدارها من طبقة الملاك الشديدة المحافظة ، ثانيا ــ طبيعتها الطفيلية ، بسبب نشأتها في احضان الاستعمار ٠ ثالثا ــ انعدام تراثها الفكري والحضاري ٠

لا بد لنا من ابداء ملاحظة فورية على هذه النقاط ، لقد قال لنا المؤلف في الفصل الاول ان

البرجوازية العربية قد انضجت فكرها في القرن الماضي ، وها هو ينفي هذا هنا ، ونتساءل أيضا ، كيف يصر المؤلف على ان البرجوازية الفلسطينية شقت طريقا جديدا للنضال وهي تفتقد الادوات العملية لتحقيق هذا الهدف ،مثل الاستقلال عن المصالح الاستعمارية وامتلاكها لتراث فكري واجتماعي ، وفي الحقيقة ان المؤلف تقوده نظرية اعتنقها مسبقا وهذا ما يعطي لبحثه طابعا غير منسجم واعتباطيا في احيان كثيرة ثم يبرمج الباحث دور المثقفين فيقول • قد أسهم المثقفون الفلسطينيون ، بقسط وافر في اثارة الجماهير ، بالخطب والمقالات والندوات ، واتسع عددهم في هذه الفترة ، ويتناقض المؤلف مع ذاته حين يؤكد : ان انشاء البنوك العربية • البنك العربي عام ١٩٣٠ • والبنكين الصناعي العربي والزراعي ١٩٣٥ ، قد جاء تعبيرا عن تطور ونضوج البرجوازية العربية من الناحية الاقتصادية ص ١٢٠ ، ولسنا نفهم هنا ، ما هو هذا النضوج ، ونحن نعلم مدى اسهام البنوك والشركات البريطانية بتحويل هذه البنوك ، وتكريسها لخدمة الاهداف الاستعمارية ، وكان من الافضل ان ينقب الباحث عن الادوار الحقيقية التي لعبتها هذه البنوك • ثم يرى المؤلف ان وفاة موسى كاظم الحسيني ١٩٣٤، • افسحت المجال لتشكيل احزاب ، فجرى تشكيل حزب الاحرار ص ١٢٣ ، ومركزه حيفا في آذار ١٩٣٠ ، وهدفه المعلن هو الاستقلال التام ، ويقول المؤلف ان بعض العناصر المؤسسة لهذا الحزب كان يتعامل مع الحركة الصهيونية ، وهم ممن باعوا وسمسروا لها في مجال الاراضي ص ١٢٤ ، ثم تأسس حزب الاستقلال في القدس ، آب ١٩٣٢ ، وبالرغم من ان تركيب الحزب الطبقي كان من المثقفين ، وابناء كبار الملاك • الا انه كان اقرب الاحزاب السياسية تعبيرا عن مصالح البرجوازية ، والملاحظة التي نجبر على ابدائها ، هي اننا لا ندرك الكيفية التي تم على قاعدتها هذا الفصل التعسفي بين الاحزاب ، وليس هناك إدلة متينة تدعم ظنه ، ثم كذلك في تلك الفترة تألف حزب الدفاع الوطني ذي النزعة المضادة للثورة ص ١٢٧ ، وكذلك الحزب العربي الفلسطيني ، ابريل ١٩٣٥ ، برئاسة جمال الحسيني والفرد روك ، وكان المفتي هو الاب الروحي لهذا الحزب ، مما جعل الجماهير تلتف حوله ص ١٢٧ ،اعتقد ان في هذا ما يبرهن على مقولتنا السابقة ، حول نظرة الجماهير الغيبية التي كانت عاملا قويا يوجه انتماءها وتحركها، هذه النظرة التي لم يتناولها المؤلف بشكل كاف • وبعد ذلك تم تأسيس حزب الاصلاح في القدس ، حزيران عام ١٩٣٥ ، وطالب بالاستقلال ومنع الهجرة والسعي لعقد معاهدة بين العرب والانجليز ص ١٢٨ ،وكذلك تأسيس حزب الكتلة الوطنية ، واعتبر السعي الى الاستقلال اول اهدافه ، اما الحزب الشيوعي الفلسطيني ، فوحد في صفوفه، بين الشيوعيين العرب واليهود ، وكافح منذ نشأته ، ضد الاستعمار والصهيونية • وتميزت الفترة هذه بازدياد مساهمة الحزب الشيوعي ص ١٢٩ • ومن ناحية اخرى ازداد معدل تسرب الأرض من ايدي الفلاحين ، وتدهورت حالتهم الى الفقر ص ١٣٠ ، كل هذا جعل الفلاحين يتصدرون النهوض الثوري ص ١٣١ ، وبالجانب الثاني من المشهد ، اخذ عدد الطبقة العاملة يتسع ، فبلغ عدد العمال العرب عام ١٩٣٥ ، ٣٢ ألفا ، وانخفض بسبب ثورة ١٩٣٦ الى ٣٠٤٩ ص ١٣٢ ، وتفاقمت أزمة العمال العرب حدة حين بدأ الصهاينة فيالاستغناء عنهم ص ١٣٣ • ولقد عبر النهوض الثوري «الذي كونته العوامل الانفة الذكر ، عن نفسه من خلال المؤتمرات والمظاهرات والصدامات مع القوات البريطانية، ففي آب ١٩٣٥ ، قمعت القوات البريطانية اضرابا نظمه عرب فلسطين للاحتجاج على تسليح الحكومة لسكان المستعمرات الصهاينة ص ١٣٨ ، وعندما اتسعت الهجرة اليهودية ، المباركة من قبل قوات الانتداب ، عام ١٩٣٣ ، وبلغ عدد المهاجرين اليهود الرسميين ١٥ ألفا ، وطالبت المنظمات الصهيونية ، باربع وعشرين الف تأشيرة اخرى ص ١٤٠ ، تظاهر في القدس ٥ الاف عربي • رغم هروع بعض قادة الحركة الى احضان السلطات البريطانية خوفا من اندلاع ثورة ص ١٤١ ، الا ان البوليس ،وحرس الحدود تصدوا للمظاهرة وفتحوا النار عليها ص ١٤٢ ، وفي نابلس هاجم ٣ آلاف متظاهر سكة الحديد وفرع بنك باركليز واعلن الطلبة الاضراب ، ولكن كان لعناصر الثورة المضادة

دورهم في اجهاض الانتفاضة ص ١٤٤ ، وقدرت لجنة السير وليم موريسون عدد القتلى بـ ٣٦ عربيا وشرطي واحد ص ١٤٥ ، بيد ان الانتفاضة في مجمل الاراضي الفلسطينية ، امتدت ستة اسابيع ص ١٤٦ ، ففي هذا الوقت بدأت حركة القسام بالظهور ص ١٤٨ ، وبدأ القسام بالحلقة الرئيسية ، وهي تنظيم الخلايا السرية ، ولقد اتسع تنظيم القسام مع تزايد السخط الشعبي ص ١٥١ ، فلجأ الى المدينة ، حيث يقيم السكان الاكثر تعلما ص ١٥٥ ، وعندها سارع المندوب البريطاني الى الاجتماع بكبار العسكريين البريطانيين لدرء خطر القسام المستفحل ، وتحركت حملة ، حوالي ٥٠٠ جندي بريطاني وطوقت منطقة قرية البارد ، التي وقعت فيها اشتباكات بين رجال القسام وسلطات الاحتلال ، ودار بين الطرفين قتال غير متكافىء ، قضي على حركة القسام فيه ص ١٥٦ ، ويستخلص المؤلف الدروس المستفادة من حركة القسام : أولا ـ انها توجهت نحو العدو الرئيسي ، الاستعمار البريطاني ، ثانيا ـ لم تحقق اهدافها ولكنها حفزت الجماهير واوضحت لها امكانية الكفاح المسلح ، ثالثا ـ الاخذ بزمام المبادرة ، رابعا ـ فرضت اعتبارات الامن على القسام اختصار تنظيمه على النخبة مما ادى الى ضيق الحجم، خامسا ـ الخطأ الاساسي ان القسام حصر نشاطه في منطقة واحدة ص ١٥٨ .

هذه بعض الدروس التي اوردها المؤلف نضيف اليها ان حركة القسام كانت اول حركة ثورية عربية استعملت في تنظيمها البؤرة الثورية .

ثم يتوجه المؤلف الى ايراد البواعث التي ادت الى ثورة ١٩٣٦ ، ومنها ، ان اليهود اخذوا يعتدون على الفلاحين العرب ، وارتفاع ضريبة الدخل ، وتدهور صناعات الرأسماليين العرب ، امام الرأسماليين الصهاينة الذين استوردوا المعدات الحديثة ص ١٦١ ، اضافة الى ذلك كانت هناك عوامل خارجية عربية وعالمية ، منها تأجج النضال في مصر ص ١٦٢ ،وسوريا ، ووصول النازي الى الحكم واضطهاد اليهود الالمان ، مما ادى الى تدفق المهاجرين اليهود من المانيا الى فلسطين ، وينسى المؤلف ان يشير هنا الى تأييد الحركة الصهيونية للاضطهاد النازي ، بهدف دفع اليهود الى الهجرة ، كل هذه العوامل ضيقت الخناق على المواطن الفلسطيني مما دفعه الى الثورة عام ١٩٣٦ ، ونفذت المدن الفلسطينية العصيان العام ص ١٦٥ ، وقامت الطائرات البريطانية باكتشاف تجمعات لعصابات عربية في الجبال ، واطلق الثوار النار على المندوب السامي ، في ١١ حزيران من نفس العام ، وحاولوا اغتيال سيكرست ، مفتش شرطة القدس ص ١٦٦ ، وفي آب ايضا ، دخل فوزي القاوقجي البلاد على رأس ٥٠٠ مجاهد عراقي ص ١٦٧ ، وسارت الثورة باتجاه التنظيم ، الا ان حكومة الانتداب واجهتها بسياسة خاصة ، فسنت قانون الطوارىء ، الذي تضمن عقوبات بالغة القسوة ، حتى بلغ عدد المعتقلين العرب ٦٠٠ ، عدا العشرات من القتلى والجرحى ص ١٦٧ ، وفرضت حينئذ الاحكام العسكرية العرفية ص ١٦٩ ، وتحركت رجعية البلاد العربية لتصفية الثورة ، من امثال نوري السعيد وبشوات مصر واستسلمت قيادةالثورة لنداءات ملوك ورؤساء رجعيين فانهى الاضراب الكبير بعد ان دام ٦ أشهر ص ١٧٢ ، ويصف المؤلف الثورة ، بانها وطنية ديمقراطية ، ويتضح هذا من اهدافها والطبقات التي شاركت فيها ص ١٧٩ ، وقد تمثلت عيوبها في التردد والخوف من حركة الجماهير ص ١٨٤ .

يقول ماركس ، في مؤلفه البياني الشيوعي ، اننا نصف الثورة حسب طبيعة الطبقة التي تستفيد منها ، ولكن المؤلف لا يستفيد من هذه المقولة ونراه يصف الثورة بأنها وطنية ديمقراطية في نفس الوقت الذي يشير فيه الى طابعها الشعبي ، الذي استفادت منه الطبقة المرتبطة بمصالح واهداف ومواقع الاستعمار ، او كما يعترف الباحث نفسه بانها ، مرتبطة باحسن احوالها بالبنوك والشركات الاحتكارية .

الفصل الرابع ـ انحسار فأزمة : يعالج المؤلف ، ها هنا ، مسألة كررها عدة مرات ، ولكنه لا يستقر فيها على حال ، وهي مسألة نمو البرجوازية الفلسطينية ، ونصادق معه على ان البرجوازية الفلسطينية ترعرعت آنذاك ، ولكنها برجوازية من نمط خاص ،

وتتصف بالطفيلية والتذبذب والهروب من الدائرة الوطنية ، فالبرجوازية الفلسطينية نمت بفعل ظروف الحرب العالمية الثانية ، وأجبرت الاستعمار على الاعتماد على البضائع المحلية لسد الاحتياجات ، ولكن القنوط عاد فاصاب هذه الطبقة عقب انتكاسة الثورة، وهدوء المناخ العالمي، ونستطيع مع المؤلف ان نفهم ونفسر هروب قطاعات واسعة من البرجوازية العربية الفلسطينية تجاه الاستعمار ص ١٨٩ ، ولكن المؤلف يناقض نفسه حين يشير الى نمو القوى الثورية العالمية ، وخضوع البرجوازية الوطنية ، كما يصفها ، ونكرر ان المؤلف واقع تحت تأثير نظرية جاهزة ، فرغم كل الخصوصيات ، التي لم يتجاهلها حتى ماركس ، لنمط الانتاج الاسيوي يبرر المؤلف الاسباب والبواعث التي قادت الى ثورة ١٩٤٨ بانها قنوط لا غير ، والواقع ان اتساع اعمال المعسكرات الحربية البريطانية التي وطدت تواجدها في فلسطين ، كانت اجور العمال العرب جد متدنية ص ١٩٥ ،ومع ذلك ارتفعت انتاجية العامل العربي الى مستوى انتاجية العامل اليهودي ، زد على ذلك ، أن ظروف حياة العمال العرب كانت غاية في القسوة ،ويستهلك ايجار البيت ٤٠ ٪ من اجرة العامل الفلسطيني ص ١٩٧ ، ومن ناحية اخرى كانت الضرائب المتصعدة ، تحول دون افادة الفلاح من التغيير العالمي ، الذي دفع بالاستعمار لاعتماد الانتاج المحلي ص ١٩٩ ، كما حملت مصروفات الدولة نفس الطابع المتعسف ، حيث احتل البوليس والسجون ، في هذه المصروفات ، المرتبة الاولى ص ١٩٩ ، في حين ان حصة الصحة ٢٦ ٪ من كل المصروفات ، والتعليم ٥ ٪ فقط ص ١٩٩ ، ولكن رغم تسطير المؤلف لهذه الحقائق الا انه لا يستنطقها بما فيه الكفاية ، فالثورة لم تكن ثورة وطنية فحسب ، بل ثورة فيها الكثير من المشاكل والقضايا الطبقية ، وفي ايلول ١٩٤٣ اسس الشيوعيون العرب بينهم حزبهم الجديد « عصبة التحرر الوطني » بعد انشقاقهم عن الحزب الشيوعي الفلسطيني ، واصدروا صحيفة اسبوعية باسم الاتحاد ، ترأس تحريرها اميل توما ، وكافحت العصبة ضد الهجرة ونادت بانشاء حكومة ديمقراطية مستقلة ص ٢٠٢ ، وفي نيسان ١٩٤٤ ، اعاد الحزب العربي تشكيل فروعه ، ولكن اخذ بعض قادة الحركة الوطنية بالتساقط ، وحينما اتى عام ١٩٤٦ اصدرت اللجنة الانجلو اميركية المتواطئة ، تقريرها الذي اوصت فيه بادخال مئة الف يهودي الى فلسطين بهدف خلق توازن بشري ص ٢١١ ، وامام تفاقم الازمة احال الاستعمار البريطاني قضية فلسطين الى الامم المتحدة ، وفي ايلول ١٩٤٧ ،اصدرت اللجنة المرسلة من الامم المتحدة قرار التقسيم ص ٢١٣ ، وحينما اقرت الجمعية العمومية مشروع التقسيم ، دخل جيش الانقاذ بقيادة القاوقجي وكان العرب يتسلحون ببنادق قديمة ، وفي عام ١٩٤٨ ، اي ١٥ أيار ، ساهم الجيش الاردني والمصري بنزع الاسلحة من ايدي المناضلين ص ٢١٤ .

هذا الفصل تتداخل قضاياه ومن الصعب تلخيصه تلخيصا دقيقا ، وراجع هذا التداخل الى عدم الوضوح الفكري في ذهن الباحث ، وفقدانه لادوات منهجية دقيقة ، بحيث يضيع فرصة استنطاق الوقائع والارقام استنطاقا دقيقا وحاسما ، وعلى أية حال نجمل نقدنا بما يلي :

اولا ـ ان الكتاب ، بحد ذاته ، بادرة جيدة من نوعها ، ولكنها مسطحة من حيث الترتيب الفكري والمنهجي ، ولقد عانينا في قراءته ، ليس بسبب الغموض ولكن بسبب التشابك في العرض ،وربما يعود هذا التسطيح والتهوش الى نوعية الدراسة ، وهي دراسة علمية لقضايا تاريخية ، وهذه الدراسة لم تزل في عالمنا العربي غير دقيقة وانفعاليه ، .

ثانيا ـ يخلط المؤلف بين مفهوم البرجوازية الاوروبية ومهامها التي حققتها ، وبين البرجوازية الشرقية التي تعتمد على الاستيراد والتحالف مع الاحتكارات وتفتقد من ثم مهامها الوطنية .

ثالثا ـ اعتمد المؤلف كثيرا ، والى حد التخمة ، على افكار ماركسية جاهزة متقولبة في ظروف وازمنة معينة ، ومن المفيد ان نستعمل المنهج الماركسي لا الايديولوجية الماركسية .

هذه بعض ارائنا النقدية وعسانا ان نكون قد شخصنا نقاط الضعف للافادة منه في بناء دراسات اخرى في المستقبل .

هاني الزعبي

[٢]

كتاب بذل فيه جهد كبير في جمع المعلومات الغزيرة ، ويتميز بأسلوب سهل متزن ودسم في الوقت نفسه ، بحيث أن كل لفظ فيه يقصد معنى أو فكرة • ولكن السمة العامة والبارزة التي يمتاز بها هذا الكتاب هي منهجه : انها دراسة تحليلية للمراحل التاريخية المختلفة التي مرت بها نضالات الشعب العربي الفلسطيني حتى النكبة • وفي الحقيقة ، كان الاوفق أن يكون عنوانه « **تطور الحركة الوطنية الفلسطينية** » • فاذا كان المؤلف قد أعطى للاحداث وتواليها الزمني اهتماما ، وأبرز بطولات الافراد والمجموعات والجماهير الفلسطينية التي دافعت عن أرضها في شرف وتضحية ، الا أنه وجه معطيات البحث بحيث تشكل خطوطا تربط بين الوقائع وتفسرها الى درجة كبيرة • وفي أغلب الاحيان نجد الكاتب يشاركنا في استنتاج هذه الخطوط العامة بأن يوضحها على صورة تمهيد تسرد الحوادث أو خاتمة تستخرج منها العبرة •

وقد عنى مؤرخون ـ سبقوا عبد القادر ياسين ـ باحياء التراث الكفاحي للشعب الفلسطيني المجيد • وكانت أعمالهم مفيدة وهامة ، وان اكتفت غالبا بتسجيل الاحداث • فقد ساعدت على تأكيد الوجود الحاضر لهذا الشعب باعتباره استمرارا لماضيه الطويل ، وقوت جذوره في أرضه ولو عاش في المنفى • فكانت مساهمة عظيمة في تلك العملية التي أثمرت بتبلور الشخصية الفلسطينية وظهورها في الميدان العربي كقوة لها ذاتيتها ويستحيل طمسها •

الا ان التنقيب في التاريخ الفلسطيني باعتباره مادة يدرسها العلم أمر حيوي • وذلك لأن التحليل العلمي يرمي الى البحث عن القوانين العامة التي حكمت سير الاحداث وترابطها • ودفعت بالافراد والجماعات الى التحرك في الاتجاه العام الذي تدل عليه خطواتهم • ومتى أدرك الانسان قانونا من قوانين العلم ، استطاع ان يستخدمه أداة لصالحه • ومن هنا كانت القيمة الكبرى لمؤلف عبد القادر ياسين• اذ أنه يعيد أسباب الصراع السياسي وأساليبه ونتائجه الى المصالح الطبقية المتواجدة • ويوضح أن هذه المصالح بدورها صادرة عن علاقات اقتصادية واجتماعية موجودة ، ولكنها غير ثابتة وتتطور• وتستقطب عوامل التطور الاقتصادي هذا الطبقات الاجتماعية والقوى السياسية المعبرة عنها الى معسكرين ، أحدهما معسكر التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي ، والاخر معاد له • ولكل منهما طليعة قيادية تتكون من الفئة الاجتماعية السائدة على الباقي والأقدر على فرض فكريتها وأساليبها • كما أن بين القيادتين جسورا وروابط كثيرا ما تحول دون ان ينتهي الصراع الى نتيجة حاسمة •

ومنذ أن قامت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، يتكرر التساؤل في بعض الاوساط الوطنية عن أسباب النكبة والهزائم المتتالية التي منيت بها الدول العربية بعد ذلك • فهل تكمن الاسباب فقط في المسؤولية الشخصية لهذا الفرد أو ذاك من الحكام والقادة ؟ لو كان هذا صحيحا لانحصرت المشكلة في اختيار الحاكم الصالح ، وقد حدث فعلا أن تولى قادة وطنيون في هذه الفترة او تلك ، ولكنهم فشلوا، مما يدل على ان الامر ليس قضية فرد دون غيرها ••• أم ان التخلف الحضاري العربى والفقر يجعلان مستحيلا التغلب على القوة الصهيونية الاستعمارية بملايينها وجيوشها الآلية ومفكريها المستعينين بالحاسبات الالكترونية ؟ ولكننا نشهد شعوبا فقيرة ومتخلفة أيضا ـ في كوبا وفيتنام ، وفي كامبوديا وبنجلاديش وأريتريا ـ تنزل الضربات القاصمة بذلك العملاق الامريكي وأعوانه ، وتزيحهم من طريقها •

يجيب كتاب عبد القادر ياسين على ذلك التساؤل في ثنايا صفحاته ، وان كنا نعاتبه على عدم وضع اجابته في صيغة مركزة محددة : تستطيع الحركة الوطنية أن تنتصر لو كان لها واضحا أن العدو الاساسي هو الاستعمار ، ولو تبنت قيادتها خطا سياسيا يعبر عن مصالح الجماهير الكادحة الواسعة ، ولو أقامت الطليعة شبكة من الارتباطات التنظيمية المتينة بينها

وبين مختلف الركائز الشعبية • وقد تجعل الظروف المحيطة - الدولية مثلا - هذه الشروط غير كافية في فترات معينة ، ولكنها هي الشروط اللازمة والجوهرية على أية حال •

ان النضال الطويل الدامي الذي خاضه الشعب الفلسطيني البطل من أجل أرضه وكيانه وشرفه ليشكل كنزا لا يفنى من الخبرات والدروس لمن يعتبر • ويمسك عبد القادر ياسين بيدنا ليضعها على العديد الهام منها • وبعضها يلقي ضوءا ساطعا على المشاكل التي تواجهها الحركة الوطنية الفلسطينية اليوم •

ولعل العبرة الاولى تتعلق بعلاقة هذه الحركة بالشعوب والنظم الحاكمة العربية • ولقد وقفت الجماهير العربية دائما مؤيدة للقضية الفلسطينية ، وان كان بصورة هامشية في أغلب الاحيان خلال الفترة التي تحت الدراسة • أما اليوم ، فالقضية الفلسطينية جزء لا يتجزأ من الاهداف الوطنية العربية ، بعد أن فتحت النكبة الطريق أمام التوسعية الاسرائيلية لكي تبتلع لا فلسطين كلها فحسب بل وأقساما كبيرة من أراضي الدول العربية الاخرى ، وتهدد الباقي •••

غير أن التمسك بالتضامن العربي وبالحركة القومية العربية يجب ألا يجعلنا نفقد التمييز بين مصالح الشعوب ومصالح الطبقات الحاكمة• وفي تاريخ فلسطين انحناءات بارزة انحسرت فيها الحركة الوطنية عن تحقيق مرادها بسبب قبولها التدخل من بعض الحكام العرب (الامير عبدالله ، وابن السعود عام ١٩٣٩ ثم نوري السعيد وملك السعودية وأمير شرق الاردن وملك العراق وامام اليمن عام ١٩٣٦ الخ) • هذا علاوة على الدور الذي لعبوه في حرب ١٩٤٨ •• وبعد النكبة انتشر في بعض الاوساط الرأي القائل ان حل قضية فلسطين لن يأتي الا على أيدي الدول العربية • وتسبب هذا الرأي في اشاعة الكثير من اليأس والتواكل والسلبية بين صفوف الجماهير الفلسطينية • ولم تحل الدول العربية القضية ، بل كانت - مدة طويلة - عاملا في طمسها • وعلى العكس ، فمنذ أن أصبح من محاور الفكر الوطني الفلسطيني أن مفتاح الحل في أيدي أبناء الشعب المشرد ، بات واضحا ان استعادة حقوقهم القومية أمر ممكن من خلال النضال • وليس من شك في أن متانة الوحدة الشعبية الفلسطينية حول المقاومة في العقد الاخير كان عنصرا فعالا في كتم أنفاس العناصر العميلة وشل تردد المترددين في الدول العربية ذاتها •

والعبرة الثانية التي يمكن استخلاصها من كتاب عبد القادر ياسين هي أن الاعتماد على الاستعمار كحليف أو صديق أو متفاهم ••• لتحقيق الهدف الوطني ، مغالطة مجرمة • ولقد لجأ الزعماء العرب الى الدولة المنتدبة لكي توقف الموجة الصهيونية سنوات بعد سنوات دون جدوى • واستلفتت عيني عبارة قالها عوني عبد الهادي في شهادته أمام اللجنة الانجلوامريكية : ان الانجليز والامريكان سوف يعدلون عن مساعدة الصهيونية لانهم « لا يقبلون ابادة عرب فلسطين ولا يضحون بمصالحهم في البلاد العربية والاسلامية » • وقد أثبت التاريخ ان النقيض تماما هو الذي حدث ، وان الاستعمار العالمي نجح في أن يعتصر المزيد ثم المزيد من الثروات العربية بالاعتماد على العصا الاسرائيلية الغليظة • ونسمع اليوم بعض المسؤولين يرددون كلاما شبيها بحكمة عوني عبد الهادي بعد أن مرت عليها ثلاثون سنة : يحاولون ان يقنعونا بأن الاحتكارات النفطية الامريكية هي الضمان لاستقلال البلاد العربية ، وهي الحريصة على عودة اللاجئين الى بلادهم ••• الا أن بعض دروس التاريخ العربي في فلسطين وغيرها دخلت عميقة في الوعي الوطني بحيث باتت دبلوماسية الخطوة خطوة تصطدم به في كل مناورة من مناوراتها •

والعبرة الهامة الثالثة هي أن الجماهير الشعبية - من العمال والفلاحين والمنتجين الصغار - هي القوة الفعالة في الحركة الوطنية، وهي دعامة الثورة ووقودها وضمان استمرارها ونجاحها • وهي التي تستميت الثورة المضادة والجبهة الاستعمارية في سبيل ابعادها عن الميدان الوطني وجعله قاصرا على الشخصيات الرسمية « المعتدلة » التي تؤخذ ستارا لطعن القضية من ورائه • غير ان التحرك الجماهيري العربي - وخاصة منذ أواخر الثلاثينات - أخذ

يبطن مضمونا جديدا ، هو استهداف التحرر من العسف الطبقي جنبا الى جنب الاستقلال عن السيطرة الاجنبية • واذ أبرز عبد القادر ياسين ما جرى من التمايز الاجتماعي في المرحلة الاخيرة ، فقد ربط به أن أحد أسباب انحسار الثورة الوطنية تعود الى افتقار القيادة الى البرنامج الاجتماعي الذي يوحد المطالب الطبقية بالمطلب القومي العام، ويرسم صورة للمستقبل الذي يناضل الشعب من أجل انجازه • وزادت ضرورة التمسك بمثل هذا البرنامج اليوم ، بعد أن أصبح الكفاح ضد الاستعمار مرادفا للكفاح ضد الرأسمالية في أذهان الجماهير العربية ، وبعد أن أقيمت في بعض البلاد العربية نظم أعلنت في وضوح انها تعمل من أجل الاشتراكية، وبعد أن ظهر المعسكر الاشتراكي العالمي كحليف وفي ثابت للقوى الوطنية العربية •

ويثير منهج الكتاب بعض الموضوعات التي تستحق أن يفرد الباحثون دراسات متأنية أخرى لها • وقد يكون أهمها في نظري تبيان السمات الخاصة للاقتصاد والمجتمع الفلسطينيين قبل الاحتلال البريطاني ، وتراثها التاريخي • ولقد كانت الاوضاع ـ كما ذكرها الكاتب ـ تتصف عموما بالتخلف ، وهذا صحيح • ولكنه كان تخلفا خاصا ، متميزا عن التخلف المصري مثلا في تلك الفترة • والدليل على ذلك ما نراه من تأثير العشائرية على تكوين القيادات الوطنية الفلسطينية وعلى مسار الحركة الجماهيرية ذاتها ، وهي سمة غير موجودة في التاريخ المصري الحديث • ومن أين أتت هذه العشائرية ، وكيف امتزجت بشبه الاقطاع ؟ هذا سؤال سوف تساعدنا الاجابة عليه للوصول الى فهم أدق للحركة الوطنية الفلسطينية •

وكذلك تستحق المواقف المزدوجة لطبقتي كبار الملاك والبورجوازية الفلسطينية دراسة أوسع • فما من شك في أن أشباه الاقطاعيين سعوا في الفترة المبكرة الى الاستقلال السياسي ، وان قبلوا ان يكون مبتورا • وتصرفت البورجوازية أيضا بطريقة مشابهة بعد ذلك • ولا أظن أن تلك المواقف المعارضة للاستعمار ـ هينة كانت أم عنيفة ـ عادت الى مجرد المناورات السياسية ، بل كانت تعبيرا عن مصالح اقتصادية واجتماعية لهذه الطبقات • وفي اعتقادي ان البحث في هذه النقطة سوف يساعد على رسم تكتيك اجتماعي أوضح للثورة الفلسطينية •

وأخيرا ، فعلاقة المثقفين العرب بالطبقات الاجتماعية الرئيسية امر يحتاج الى تفصيل وايضاح • واكد عبد القادر ياسين في أكثر من موضع أنهم كانوا يعبرون عن البورجوازية ، ولكني أشك في الصحة التامة لهذا التبسيط • فلنا مثلا أن نعتبر من المثقفين عددا كبيرا من صغار رجال الدين أو ذوي الثقافة « الشرقية » المستمدة من التراث الاسلامي ، وكانوا أقرب الى البورجوازية الصغيرة ، والفلاحين بصفة خاصة (مثال ذلك حركة القسام) •

ومهما كان الامر ، فقدفتح عبد القادر ياسين بكتابه الطريق لما سار عليه من منهج علمي قيم • ونأمل أن ينتهل رواد اخرون مادة مستمرة من الذخر الثري الذي يمثله تاريخ فلسطين •

أحمد صادق سعد

اسرائيليات

مشروع شمعون بيرس
او
محاولة صهيونية لعزل المناطق عن الثورة

اقدم شمعون بيرس وزير الدفاع الاسرائيلي يوم ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر ٧٥) على الاعلان عن بدء تنفيذ خطة طالما راودت حكام اسرائيل ، وترددوا في تنفيذها لاطماع اقليمية، وهي « منح » اهالي الضفة الغربية وقطاع غزة صلاحيات اوسع لادارة شؤونهم الداخلية ذاتيا .

ليس الهدف من هذه الخطة الاستجابة الى مطالب الاهالي العرب بالتحرر من حكم الاحتلال الاجنبي ، بل لان حكام اسرائيل يعتقدون ان « الادارة الذاتية ستفرز زعماء محليين ـ لو جرت رعايتهم في الوقت المناسب لاصبحوا ثقلا مضادا « لمنظمات التخريب » كمتحدثين فريدين باسم الفلسطينيين » . (افتتاحية لجريدة دافار ٧٥/١٠/٢٤) .

وتعترف الدوائر الاسرائيلية (يديعوت احرونوت ٧٥/١٠/٢٦) ان كثيرين من وجهاء المناطق رغبوا ، بعد حرب حزيران ١٩٦٧ ، في اقامة هيئة محلية « تكون لها صلاحية تمثيل مليون نسمة ، هم سكان المناطق ، في الاتصال بحكومة اسرائيل . وفي تلك الفترة حاول يغال الون اقناع غولدا مئير بتشجيع سكان المناطق على بلورة زعماء محليين ... لكن السياسة التي اتبعت هي سياسة دايان ، الداعية الى منع التنظيم المحلي وترك السيطرة والخيارات في ادارة المناطق للملك حسين » (المصدر السابق) .

وهكذا اخذ حكام اسرائيل الان يندمون على « الفرصة » التي بددوها . ويبدو انهم ظنوا انه رغم كل ذلك لم يفتهم القطار . فأقدم شمعون بيرس . يوم ٢٠تشرين الثاني ١٩٧٥ ، على طرح المشروع الاسرائيلي للمرة الاولى علنا امام الاهالي العرب بقصد ترقب ردود الفعل ، خاصة وانه لا ينطوي على اي التزام من جانب اسرائيل . فهو لا يعني حلا نهائيا ولا يسد اي خيار ، لا في وجه حكم ذاتي في نطاق اتحاد فدرالي مع اسرائيل ولا في وجه اتحاد فدرالي اسرائيلي / فلسطيني / اردني، ولا حتى في وجه دولة فلسطينية مستقلة متحالفة مع اسرائيل شرط ان تكون شؤون الامن في يد اسرائيل ... » (يهوشع تدمور ـ دافار ٧٥/١٠/٢٤) .

اختار بيرس لتفجير قنبلته ، بلدة بيت جالا، فصرح امام رئيس بلديتها ـ فرح الاعرج ـ ووجهائها : بأن « الفراغ في الضفة الغربية يجب ملؤه بواسطة ادارة ذاتية وحكم ذاتي » . (هآرتس ٧٥/١٠/٢١)

واذا كانت السلطات الاسرائيلية قد ترددت في طرح مشروعها هذا على امتداد سنين منذ حرب حزيران ١٩٦٧ ، فان بيرس قد طرح مشروعه « لاول مرة وبشكل قاطع لا يقبل التأويل بعد ان ظل يثير هذا الموضوع ، حتى الآن ، كاقتراح قيد نظر الحكومة » (يهودا ليتن ـ هآرتس ٧٥/١٠/٢١) .

وما ان كشف بيرس النقاب عن مشروعه حتى تناولته الصحف الاسرائيلية بالتعليق بعضها مشجعا وبعضها متحفظا او محذرا . فاعترفت اذاعة اسرائيل ان « هذه الفكرة لم تلق حماسا في الضفة الغربية (رأي ٧٥/١٠/٢٢) وقال المراسل السياسي لاذاعة اسرائيل انه « من الناحية العملية لم يطرأ جديد في هذا الصدد ، فلقد طرحت الفكرة عدة مرات ولكنها لم تنفذ ، سواء بسبب الاغلبية من اعضاء الحكومة التي تعتقد بان الوقت لم يحن بعد لتشجيع اقامة حكم ذاتي كهذا ، او بسبب عدم رغبة عرب الضفة الغربية ومخاوفهم من الانفصال عن عمان او الابتعاد عن نفوذ م.ت.ف. » (رأي ٧٥/١٠/٢٢) .

وابدى يهوشع تدمور (دافار ٧٥/١٠/٢٤) تحفظه ازاء المشروع قائلا : « يشك فيما اذا كان هذا هو الوقت المناسب للادلاء بمثل هذه التصريحات في موضوع حساس كهذا ففي هذه الايام من الخير ان نعمل اكثر ونقلل الكلام ... »

اتصالات ، عروض واغراءات :

واستعرض يهودا ليتن (هآرتس ٧٥/١٠/٢٦) سلسلة المحادثات التي اجراها شمعون بيرس منذ اكثر من نصف عام مع زعماء الضفة الغربية وقطاع غزة ومن بينهم الشيخ محمد علي الجعبري رئيس بلدية الخليل ، وحاكم القدس السابق انور الخطيب ووزير الدفاع الاردني السابق انور نسيبه والمحامي عزيز شحاده من اعيان رام‌الله ورئيس بلدية نابلس الحاج معزوز المصري ورئيس بلدية نابلس السابق حمدي كنعان ورئيس البرلمان الاردني سابقا حكمت المصري . والمعين لرئاسة بلدية غزة رشاد الشوا . وشرح بيرس لهؤلاء الوجهاء تفاصيل اقامة حكم ذاتي في مناطق الخليل ونابلس وغزة « بحيث تدار في اطار هيئة اعلى فوق مستوى البلديات ... مشيرا الى انها ستحصل على صلاحيات بل وعلى ميزانيات للقيام بوظيفتها ، وملمحا الى انور الخطيب ... « سوف نهتم بان تكون للقدس كلمة تعبير » ، ولكن ، حسب اقوال بيرس ، « كان الرد غير متحمس » . (هآرتس ٧٥/١٠/٢٦)

وكما هو متوقع ، باركت صحيفة دافار مشروع بيرس ، ودعت ، في مقال افتتاحي (دافار ٧٥/١٠/٢٤) الى تشجيع الادارة الذاتية ، لا سيما وان هذه الفكرة « لا تسد اي اختيار لتسوية تقوم على الحل الوسط بموجب اي مشروع وحسب اية نظرية محتملة، سواء كانت اردنية او فلسطينية » .

لكن دافار (نفس المصدر) نصحت بتناول المشروع بالحذر والحيطة والامتناع عن العلنية في تناوله ، فترى « ان نجاح المحاولة يكمن في الحرص على عدم تناولها علنا ، فكثرة الكلام « ستصحي الدببة في الغابة ، واللبيب بالاشارة يفهم » ، ويجب التقدم في التجربة تدريجيا ، فاولا على الصعيد المحلي والديني ، وبعد ذلك فقط تبذل محاولات لتوسيع الادارة الذاتية في القطاعات الاوسع وفي مناطق كاملة ...والحذر العظيم والتناول التدريجي وعدم العلنية كل هذه ستساعد على تنفيذ الفكرة ... »

وعبر يهوشع تدمور (دافار ٧٥/١٠/٢٤) عن ندم حكام اسرائيل على تبديد الفرصة التي سنحت بعد حرب حزيران (يونيو ١٩٦٧ ، حيث كان في المستطاع - في رأيهم - تحقيق هذه الفكرة ، اما الان « فقد اتضح ان خطأ اسرائيل السياسي الفادح ، منذ حرب الايام الستة ، هو تجاهلها العنيد للموضوع الفلسطيني ،فانه، في نهاية الامر ، هو مصدر النزاع بيننا وبين العرب ، وهذا التجاهل خلق فراغا سياسيا خطيرا ساعد على ظهور « منظمات التخريب » وم.ت.ف » (المصدر السابق) .

وتحدث ليتن عن اماني الاهالي التي لا تجد لنفسها تعبيرا وعن الخيار الوحيد امام بيرس : « سيبقى الخيار الوحيد امام بيرس هو تعيين شخصيات من الصف الثالث او الرابع لمشروعه وحس هؤلاء بشك فيما اذا كانوا سيصمدون للضغط ... اذ ان اماني السكان القومية ورغبتهم الطبيعية في اقامة اطار سياسي مستقل لا تجد لها اي تعبير (المصدر السابق) . وحذر ليتن من العواقب ،

« اسرائيل ، التي تقوم بضم المناطق فعلا ، لن تخـرج مستفيدة ... اذ ان رد احـدى الشخصيات التي تحدث اليها بيرس كان ... « الزعماء المحليون لا يستطيعون الان اتخـاذ مبادرة صريحة خوفا من الاذى ... » (المصدر السابق) .

وعبر يهودا ليتن (هآرتس ٧٥/١٠/٢٦) عن رأيه في مشروع بيرس فقال « ان الاغلبيــة الكبرى من سكان يهودا والسامرة تعارض اي نوع من الحكم الاسرائيلي على المدى الطويل ، ففي نظر الكثيرين يبدو اقتراح بيرس لعبـة لضم يهودا والسامرة ضما فعليا » ...

وسخر ليتن (المصدر السابق) من عبارة « الفراغ » التي وردت على لسان بيرس ، وقال انها « وصف لا يطابق الواقع » .

واشار ليتن الى صلة اهالي المناطق بالعالم العربـــي ، وقوة نفوذ المنظمات الثوريـــة الفلسطينية . فقال (المصـدر السابق) ... « يعرف زعماء الصف الاول في يهودا والسامرة انهم اذا قبلـــوا مشروع الادارة الذاتية ... فانهم يحكمـــون على انفسهم بالانتحـــار السياسي . ففي نظر الدول العربية والمنظمات الفلسطينية ومعظم سكان المناطق ... سيبدو الزعماء الذين يوافقون على قبول هذا المشروع الجديد « كمتعاونين مع حكم الاحتلال » .

واعترض النائب توفيق طوبي (راكاح) على مشروع بيرس ووصفه « بأنه يمس الرغبة في السلام ويمثل التطلعات الاستعمارية لـــدى اسرائيـــل لتخليد الاحتـــلال » . (رأ.ف. ٧٥/١١/٤) .

واعترف الشيخ محمد علي الجعبري رئيـس بلدية الخليل بنفوذ م.ت.ف في المناطق المحتلة « يجب ان يكون معتوها ذلك الذي لا يعترف في هذه الايام بزعامة م.ت.ف الوحيدة » . (يديعوت احرونوت ٧٥/١٠/٢٦) .

وبعد ان شرح بيرس الظروف والملابسـات التي دعته الى تقديم مشروعه ، ومنها ضرورة ملء « الفراغ » الذي نجم ، على حد قوله ، في الضفة الغربيـــة ، ووجود « شخصيـات محترمة وحكيمة في يهودا والسامرة تستطيع ادارة شؤونها وصدور قرارات مؤتمر الربـاط التـــي الغت تمثيل الاردن لسكان يهـــودا والسامرة ، وفي ضوء المواقف المتطرفة التـي يتخذها رجال المنظمات » ، دعا الى سد هذا الفراغ بواسطة الادارة الذاتية ، التي ستكون ـ كما يتصور ـ ادارة منتظمة تفي باحتياجات المكان ومطالب السكان . واخيرا عبر عـــن قناعته بأنه « في النهاية سيمكن العثور على الجسر » (هآرتس ٧٥/١٠/٢١) .

ومن البوادر المشجعة التي رآها بيرس ، « حدوث تغييرات في يهودا والسامرة بما فيها فتور التطرف والعنف ، ووصول عدد اكبر من العرب الى استنتاج بانه يجب تسوية الخلافات في اطار الاعمال اليومية ، وحـدوث تغييرات اجتماعية لا تنكر في المنطقة ، حيث اصبـح المجتمع (اقل اتصالا بمسائل الارض ،وبرزت طبقة من المثقفين وظهرت طبقة عمال) » . (المصدر السابق) .

ولكي يبدد مخاوف وتحفظات الاهالي العرب وينفي عن مشروعه صفة التآمر على مصيـر المناطق واهلها عمد بيرس الى تزيين مشروعه بقوله ، في الكنيست ، على مسمع من يعنيهم الامر : « ان اقتراح حكومة اسرائيل على سكان المناطق بتوسيع اطار الادارة الذاتية ليس امرا وليس قهرا ... فالحكومة لا تبحث عن خونة او دمى ، والمناطق متاحة للادارة بالطريقةالتي تمت بها ادارتها حتى الان ، فادارتها مفتوحة للتحسين الكثير حسب استعداد ورغبة السكان انفسهم ، وليس من الضروري ان تكون هناك صلة بين حل النزاع حلا دائما وبين توسيـــع الادارة الذاتية ، وعدم توسيع الادارة المحلية لن يعجل في احتمالات الحل ، كما ان توسيعها لن يمس احتمالات كهذه في المستقبـــل ... واقتراح الحكومة مقرون بكثير من التسامـح وبقدر كبير جدا من حسن النية ، فهو يهـدف الى تقوية اسس الكرامة المتبادلة والتفاهـم المتبادل بين « الشعبين » في حالة من عـــدم التماثل » (دافار ٧٥/١١/٤) .

انتخابات المجالس القروية كخطوة اولى في سبيل تنفيذ المشروع :

رأت الاوساط الاسرائيلية في الانتخابات التي

جرت في ٥٧ قرية من قرى الضفة الغربية في اواخر شهر تشرين الاول (اكتوبر) واوائل شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥ ، بداية تحول لصالح احتمال المضي في تنفيذ مشروع شمعون بيرس رغم الحذر والشكوك التي احاطت بهذا التفاؤل ٠

فقد اعتبرت صحيفة دافار (٧٥/١٠/٢٩) في نتائج الانتخابات التي جرت لانتخاب مجالس قروية في ٢٦ قرية في الضفة الغربية « نقضا لبعض الافتراضات التي كادت تكون بمثابة مسلمات » ٠ وتعتقد دافار ان نسبة الاشتراك العالية (٩٠٪ على حد زعمها) في الانتخابات تنقض الافتراض بوجود صلة حاسمة بين الاهالي العرب وم٠ت٠ف بعد ان طالبت اذاعة م٠ت٠ف الاهالي بمقاطعة الانتخابات ؛ وترى دافار في هذه النسبة العالية للناخبين دليلا « على استعداد السكان لادارة حياتهم المحلية بانفسهم » (المصدر السابق) لكنها مع ذلك اشارت الى رفض الادارة الذاتية من قبل المتحدثين باسم « الزعامة الغير منتخبة ٠٠٠ وخاصة في مدن الضفة » ، وتعترف كذلك بانه « لا يمكن استنتاج شيء من التصويت فيما يتعلق بألوان المنتخبين (بفتح الخاء) السياسية » ، لان الانتخابات كانت شخصية، وتعترف كذلك بحقيقة تستحق التسجيل وهي ان « ثلث المنتخبين (بفتح الخاء) كانوا دون سن الاربعين ، ويريدون القضاء – حسب اقوالهم – على سيطرة الزعامة القديمة في قراهم » ٠ (المصدر السابق) ٠ كما ان اعتراف الصحيفة بوجود « نسبة معينة من المنتخبين من ذوي الثقافة الجامعية ومنهم طلبة يدرسون في جامعة بيروت » ، لا يدعم توقع الاوساط الاسرائيلية حدوث تحول بين الاهالي العرب لناحية قبول مشروع شمعون بيرس ، (المصدر السابق) ٠ خاصة في ضوء دعوة صحيفة « الفجر » العربية التي تصدر في القدس الى ابناء يهودا والسامرة للاشتراك في الانتخابات للمجالس القروية « لاحباط مشروع الادارة المحلية » ، حيث دعت الصحيفة (ر٩٩ ٧٥/١١/٢٣) الاشخاص الذين يعارضون الادارة الذاتية الى ترشيح انفسهم ، وبعد فوزهم في الانتخابات ، ان يعارضوا الادارة الذاتية » ٠ (المصدر السابق) ٠ ويتضح حذر وشك الاوساط الاسرائيلية من امكان نجاح مشروع بيرس من اعتراف صحيفة دافار في افتتاحيتها (٧٥/١٠/٢٤) بأن « كل محاولة لتعيين اشخاص من قبل الحكم (العسكري) سيكون مآلها الفشل الذريع » ٠

مشروع الون لخلق دمى والتوجه نحو الاردن :

في معرض تناولها لمشروع شمعون بيرس اشارت الصحف الاسرائيلية الى مشروع قديم مماثل هو مشروع يغال الون ، وفي هذا المجال كشفت بعض الصحف الاسرائيلية النقاب عن وجود تفاهم بين اسرائيل والاردن على مستويات عليا ، واعترفت بتطابق المصالح بين اسرائيل والاردن من حيث تطلع كليهما الى انحسار او حتى زوال نفوذ م٠ت٠ف من المناطق المحتلة ٠

فيرى يهوشع تدمور ، المحرر السياسي لصحيفة دافار (٧٥/١٠/٢٤) ان تصريحات الملك حسين بأن الاردن « غير مرشحة للمفاوضات لانها لا تمثل الفلسطينيين وانها متمسكة بقرارات مؤتمر الرباط ، موجهة للخارج ٠٠٠ » اما بالنسبة لاسرائيل « فهناك جميع الفرص للاقدام على خطوة تمنح الفلسطينيين في الضفة صلاحيات الادارة الذاتية » ٠ (المصدر السابق) ٠

وعن التفاهم بين اسرائيل والاردن يقول ماتي غولان (هآرتس ٧٥/١٠/٢٤) ان مشروع الون لعام ١٩٦٧ « لم يصدر عن فراغ ، بل سبقته اتصالات بالملك حسين وكان رد فعل الملك ايجابيا ٠٠٠ » وواضح ان اسرائيل لن تقدم على خطوة تثير غضب الاردن ٠٠٠ لان اية خطوة معادية للاردن هي في الضرورة موالية لـ م٠ت٠ف٠ ٠

ويرى فولص ، المحرر السياسي في صحيفة هآرتس (هآرتس ٧٥/١٠/٢٤) انه ليس « لحسين سبب ليعترض على مثل هذه الخطوة ، فاذا صح الظن ان اقامة ادارة ذاتية في المناطق ستبعد سكان المناطق عن م٠ت٠ف

فان في هذا خير لاسرائيل ولكنه ليس افضل مما هو للاردن ، اذ بهذه الطريقة تزداد فرص حسين ليعود ويحكم الضفة الغربية ٠ ولكن حتى لو لم يتحقق هذا الحلم فان اي شيء ، في نظره ، افضل من قيام دولة فلسطينية تحكمها م٠ت٠ف ٠ وهنا تتوافق المصالح بين اسرائيل والاردن ٠٠٠ »

وفي سياق تعليقه يذهب فولص الى ابعد من هذا ويكشف عن اهداف مشروع بيرس : « الادارة المدنية ومركز الاردن (في الضفة) متصلان اتصالا لا ينفصم ٠ ولذلك لا ينبغي اعتبار الخطة هدفا في حد ذاتها بل خطوة لتمهيد الارض لمفاوضات مع الاردن » ٠ (المصدر السابق) ٠

هذا وقد اشتركت اكثر من صحيفة اسرائيلية في الزعم بأن اسهم م٠ت٠ف٠ آخذة في الهبوط في المناطق المحتلة بينما تصعد اسهم الملك حسين ٠ حتى ان صحيفة هآرتس (٧٥/١١/١٣) نقلت عن اوساط الامن الاسرائيلية انها عثرت على تفسير لهذا الزعم ويكمن في « مرور عام على خطاب ياسر عرفات « التاريخي » دون ان يتغير وضع سكان الضفة الغربية في شيء ، بينما الملك حسين الذي تقرب الى سوريا خلال الاشهر الاخيرة ، وارتفعت مكانته في العالم العربي ، مقارنة بالسنين الماضية ، لم يعد يعتبر « خائنا » للقضية العربية » ٠

ويذهب تسفي البيلغ ، المحرر السياسي في صحيفة يديعوت احرونوت (٧٥/١٠/٢٦) ، الى كشف اسرار جديدة بشأن اختيار اسرائيل لأهون الاضرار ، اي تفضيل حكم الاردن للضفة الغربية حتى على حكم السكان لانفسهم : « نحن الذين منعنا زعماء المناطق من تمثيل السكان بقصد مساعدة حسين على حكمها » ٠

وكشف ماتي غولان (هآرتس ٧٥/١٠/٢١) عن ميل حكام اسرائيل الى تقسيم الضفة الغربية طبقا لمشروع الون ، « حسب مشروعه ستنقل الادارة المدنية الى ايد فلسطينية من سكان المناطق ، حيث يحصل المسؤول على رتبة توازي رتبة مدير عام في وزارة حكومية ، وستكون لهؤلاء الاشخاص صلاحيات ينفردون بها في المجالات التي سيفوضون فيها مثل الزراعة والتعليم والادارة المدنية وسائر الشؤون الداخلية فيما عدا الجيش والشرطة ٠

وشرح ماتي غولان (المصدر السابق) وجهة نظر الون : « يعتقد الون ان الطريق الوحيدة هي منح حكم مدني ذاتي لسكان الضفة وبهذا تتبلور منهم قيادة يمكن - عندما يحين الوقت - التفاوض معها على تسوية ٠٠٠ ويعتقد الون ان الجمود السياسي قد يحمل في طياته خطرا على اسرائيل وبغياب امكان تقدم سياسي مع سوريا يعتقد انه يجب تحويل الجهود السياسية الى الجبهة الشرقية ٠٠٠ ولذلك شرح الون مشروعه هذا بالتفصيل في لقاء مع طاقم الوزارة بعد عودته من نيويورك منذ بضعة ايام وشرح لرابين ولبيرس ان مشروعه هذا يصدر من الادراك الراسخ بأنه لا يتوقع ، في المستقبل القريب ، احتمال اجراء مفاوضات مع الملك حسين » ٠ (المصدر السابق) ٠

ويقول ماتي غولان (هآرتس ٧٥/١٠/٢١) ان الون سيعرض في احدى جلسات الحكومة القادمة مشروعا لنقل الادارة المدنية في يهودا والسامرة وقطاع غزة فورا الى ايد فلسطينية من سكان هذه المناطق ، والمقصود هي المناطق المستعدة اسرائيل فيها الى الوصول الى حل وسط ٠ « ويبدو ان النية متجهة الى التقسيم وفقا لمشروع الون » ٠

ومؤامرة صنع دمية من اهالي المناطق على امل مفاوضتها في المستقبل قد فضحتها حركة « شينوي » ، التي ايدت (رأا ٧٥/١٠/٢٢) « موقفي وزير الخارجية ووزير الدفاع بتشجيع قيام حكم ذاتي لسكان يهودا والسامرة » ٠ وترى الحركة « ان هذا سيفتح الطريق امام تمثيل محترم للفلسطينيين في اية محادثات في المستقبل حول المناطق والسلام » ٠ (المصدر السابق) ٠ ودعت حركة « شينوي » الى « اعتبار وجود هيئة مفوضة ومنتخبة من عرب يهودا والسامرة شريكا في المفاوضات حول مستقبل المنطقة » ٠ (المصدر السابق) ٠

بدء التنفيذ في قطاع غزة :

قبل ان يفجر بيرس قنبلته في بيت جالا يوم

٢٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٥ ، كان قد بدأ بالفعل في بدء تنفيذ خطته ، واختار قطاع غزة ميدان لتجربة الخطة . اذ اعلنت صحيفة هأرتس في نفس يوم ظهور بيرس في بيت جالا ان رشاد الشوا « سيعين بعد غد رئيسا لبلدية غزة بعد ان اتفق على ذلك بينه وبين وزير الدفاع » (هأرتس ٧٥/١٠/٢٠) .

وعلى الاثر اخذت تفاصيل الخطة تظهر تباعا . فانطلقت الاوساط الاسرائيلية تروج للشوا ولمشروع بيرس . فاعلن حاكم غزة العسكري - مساعد العميد دافيد ميمون - ... « عن تخصيص ١٥ مليون ليرة (دافار ٧٥/١٠/٢٣) ومبالغ اخرى في المستقبل لاغراض التنمية ، وانه استجاب لرجاء رشاد الشوا فاطلق سراح ١٣ سجينا ومعتقلا ، وخفف الحكم عن ثمانية سجناء آخرين كما وعد بدراسة احتمالات اخرى ... » . كما اعلن ميمون عن « امكان زيادة اعضاء المجلس البلدي من ١٢ الى ١٨ عضوا » . (المصدر السابق) .

وتكفلت اذاعة اسرائيل بشرح اهداف مشروع بيرس من تعيين الشوا ، « يتطلع الحكم الى اقامة مناصب ذات مسؤولية من سكان القطاع وفي مرحلة متأخرة يتطلع الى اقامة ما يشبه البرلمان لادارة شؤون سكان القطاع ، حيث ان تعيين رشاد الشوا رئيسا لبلدية غزة يعد خطوة اولى نحو الحكم الذاتي في قطاع غزة ». (ر١٠٠١ ٧٥/١٠/٢٤) .

اسلوب « فرق تسد » :

وسرعان ما ظهرت اوساط اسرائيلية تحذر من مغبة هذه الخطوة وتحلل المحاذير والمخاطر المنطوية عليها وتسجل توقعاتها للتطورات المقبلة . فبالاضافة الى اعتراف صحيفة هأرتس (٧٥/١٠/٢٠) . بوجود « معارضة ضد الشوا برئاسة الدكتور حيدر عبد الشافي، تدعو الى اجراء انتخابات وتعارض تعيين رئيس بلدية » . تساءل المعلق السياسي في صحيفة دافار - داني تسوكوني . (دافار ٧٥/١٠/٢٩) : عما اذا كانت لاسرائيل سياسة بعيدة المدى بالنسبة للموضوع الفلسطيني . واشار تسوكوني الى « ثورة المجموعة المؤثرة في الرأي العام في غزة برئاسة الدكتور حيدر عبد الشافي والمحامي ابراهيم ابو ستة والمحامي زهير الريس وغيرهم ، على الشوا واعضاء مجلس بلديته ... اكثريتهم من طبقة الملاك والتجار الاغنياء واليمينيين في غزة امثال شفيق مشتهى - رئيس بلدية بئر السبع سابقا ، وتوفيق اليازجي صاحب بيارات البرتقال والمصانع . وعبد الحي الحسيني المدرس ، وحمدي عبد الغفار مدير مدرسة يافا ، وموسى ابو شعبان مختار حي الرمال وفايق خيال صاحب بيارة برتقال ، واحمد حسن الشوا رجل الاعمال ، وبهجت سكيك مدير ضريبة الدخل سابقا ، ورفيق بسيسو التاجر والشيخ الحاج هاشم خازندار » .

ولعل هذا التناحر على الحكم الذي تفجر في قطاع غزة هو ما كان يصبو اليه شمعون بيرس اصلا من طرح مشروعه . وينعكس هذا الواقع في مقال تسوكوني (المصدر السابق) : « عندما علمت طبقة اصحاب البيارات والتجار الاغنياء واليمينيين في غزة بوجود احتمال تسلم اليساريين في غزة لزمام الحكم ، قررت الحؤول دون ذلك مهما كان الامر ، وهكذا نشبت «حرب العرب » في غزة » .

وهضح تسوكوني اهداف حكومة اسرائيل فقال : « من الجائز ان تكون السلطة الاسرائيلية تفضل اسلوب « فرق تسد » في الادارة الذاتية في المناطق بدلا من الوحدة العربية » . (المصدر السابق) .

جسر ... الى مصر ام الى الاردن ؟

ويفضل تسوكوني اجراء انتخابات ديمقراطية في غزة . ويرى انه « مهما تكن نتائجها فمن شأنها ان تخدمنا ، فلو انتخب الشوا لكان في هذا دليل قاطع على ان جزءا ملموسا من الشعب الفلسطيني يرفض قيادة م.ت.ف واساليبها المتطرفة ، ولو انتخب (الموالون لمصر ولـ م.ت.ف) لاضطروا الى التعاون مع الحكم الاسرائيلي ، وبذلك تكون علاقتهم بـ م.ت.ف. محيرة الى درجة ما ... » . (دافار ٧٥/١٠/٢٩) .

ويعتقد تسوكوني ان الجفاء بين مصر والشوا سيغلق خيارا مفتوحا لاقامة علاقات

اقتصادية وتجارية بين مصر واسرائيل : « من الصعب الافتراض ان الشوا سيجر القطاع في اتجاه تقوية العلاقات الاقتصادية والتجارية مع مصر ، الامــر الذي يعنينا ، لان سياسة الجسور المفتوحة مع مصر ... من شأنها لـو قامت ، ان تمد جسرا من السلام بيننا وبين جارتنا في الجنوب ... هذا في حين يستطيع عبد الشافي وابو ستة ، مثلا ، مطالبة مصر بفتح خط ملاحي تجاري بين غزة وبور سعيد ». (المصدر السابق) .

وبينما يستبعد تسوكوني توجه الشوا نحو مصر ، كشف يهودا ليتن ، المحرر في صحيفة هـآرتس (٧٥/١٠/٢٣) . عـن ولاء الشوا للاردن ، مقتبسا عن مصدر اسرائيلي مسؤول: « قال لي وزير السياحة موشيه كول ان موضوع تعيين الشوا دليل على انعطاف في سياسة الاردن . اذ لا يجوز ان يقبل الشوا ، المعروف بولائه الواضح للاردن ، هذا التعيين من قبل وزير الدفاع بـدون مشاورة حكومة عمان ، ووصف كول هذا بـ (ساعة وئام) مع حكومة الاردن » .

رد فعل ذوي الشأن :

ظهرت الشكـوك في امكان تنفيذ مشروع بيرس ـ كما سبق وذكر ـ منذ الاعلان عنه . ففي اليوم التالي لاعلان بيرس عن مشروعه في بيت جالا ، ظهـرت صحيفة « حدشـوت يسرائيل » بمقال افتتاحي عبرت فيه عـن « شكها في امكان تعاون عرب المناطق لتنفيذ هذا الحكم الذاتي » . (ر٩٠٠١٠ ٧٥/١٠/٢٢) .

ولم يتأخر رد اهالي المناطق المحتلة . فجاء على صورة انتفاضات طالبية متتابعة اتسمت بالعنف وشجب مشروع بيرس . وبما ان بـدء تنفيذ المشروع اتجه الى قطـاع غزة بتعيين رئيس بلدية ومجلس بلدي من قبل الحكـم العسكري ، فقد بدأت مقاومة المخطط من ذلك الموقع ، حيث « القيت عبوة ناسفة في حـي الرمال على منزل الحاج توفيق الاستاذ ، وهو اول الاعضاء الاثني عشر الذين سيتم تعيينهم اليوم في مجلس بلدية غزة ... وقد وقـع الحادث على صعيد سياسي محلي » . (ر٠١٠٦، ٧٥/١٠/٢٢) .

اما في الضفة الغربية فقد تفجرت مقاومة المشروع في رام الله حيث « عرقل تلاميذ المدارس الثانوية سير التعليم في جميع المدارس احتجاجا على قرار وزير الدفاع باقامة ادارة ذاتية في المناطق ... وفي بير زيت عرقلت الدراسة في الكلية المحلية لليوم الثالث لنفس السبب » (هآرتس ٧٥/١١/٧) .

وفي يوم ٧٥/١١/٨ انتقلت الانتفاضة الـى مدارس اللاجئين القريبة من رام الله ، وصفتها اذاعـة اسرائيل بأنهـا « استمرار مباشر للصدامات التي وقعت امس ضد قوات الامن وللمعركة المنهجية التي تديرها عناصر معينة ... ضد مشروع الادارة الذاتية وضد كـل محاولة للمساس او الاخلال بمركز م٠ت٠ف » (ر٩٠١ ٧٥/١١/٩) .

وبعد ثورة طلبة مدارس رام الله ثار طلبة مدارس البيرة المجاورة ثم طلبة مدارس جنين ونابلس حيث « قامت عشرات من طالبـات المدارس الثانويـة ... بسد الطرق واطـلاق صيحات في وجه رجال الامن ... والقي القبض في جنين على ٦٢ فتاة ... ورفع تلاميذ المدارس الثانوية في نابلس علم فلسطين ورجموا قوات الامـن بالحجـارة ... واعتقل بعـض المتظاهرين ... » (ر٩٠١٠٠ ٧٥/١١/١٢) .

ثم اتسع نطاق الثورة فشمل جبل الخليـل حيث « رجم الطلاب السيارات المارة في كل من الخليل وحلحول ... كما اعتصم الطلبة في عدد من مدارس القدس ، وهذا هو الاسبوع الثانـي لاعمال الشغب في مدارس الضفـة احتجاجا على الحكم الذاتي ... » (ر٩٠١٠، ٧٥/١١/١٦) .

امـا على صعيد الشخصيات والهيئـات العربية العامة، فقد « اعترض عضو الكنيست توفيق طوبي (راكاح) على الفكرة ووصفهـا بأنها (مؤامرة استعمارية اسرائيلية / اميركية) بهدف خلق مستعمرة كلاسيكية في المناطق » . (دافار ٧٥/١١/٤) .

وهاجمت صحيفة « الفجر » الشيخ محمـد علي الجعبري رئيس بلدية الخليل لانه دعـا سكان الضفـة الغربية الى دراسة اقتـراح

اسرائيل لادارة ذاتية قبل ان يردوا برد سلبي عليه ، فقالت « لقد تجاهل الشيخ حقيقة ان الادارة الذاتية هدفها في الواقع ايجاد زعماء يكونون بديــلا لـ م٠ت٠ف٠ » هآرتس ٢/١١/٧٥) ٠

واشارت اذاعة اسرائيل الى مذكرة ارسلها اربعة رؤساء بلديات الى قائد المنطقة عبروا فيها عن معارضتهم لفكرة الحكم الذاتي ٠٠٠ ومن بين الموقعين على المذكرة رؤساء بلديات محترمون جدا ٠٠٠ مثل الحاج معزوز المصري من نابلس وحلمي حنون مـن طولكرم وهمـا صاحبا المبادرة في هذه المذكرة ٠٠ ويقـول حلمي حنون ان الفكرة تعني استمرار حكـم اسرائيل ٠٠٠ » (ر٠ل٠ف٠ ٥/١١/٧٧) ٠

واتصل رؤساء بلديات نابلس وطولكـرم وقلقيلية وجنين برؤساء البلديات الاخرين في الضفة لتنظيم العريضة العامة ضد الحكـم الذاتي (المصدر السابق) ٠

وذهب حلمي حنون الى تحدي نوايا حكـام اسرائيل وتوضيح المطالب الحقيقية لاهالـي المناطق المحتلة : « اذا كانت حكومة اسرائيل تريد حل القضية الفلسطينية فعليها ان تثبت ذلك عن طريق شرطين : الاعتراف بـ م٠ت٠ف كممثل وحيد للشعب الفلسطيني ٠ والاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره » ٠ (المصدر السابق) ٠

صبحي النجار

المساعدات الاميركية لا توقف تدهور الاقتصاد الاسرائيلي

اتبعت اسرائيل خلال السنة الماضيــة عدة اجراءات اقتصادية ، لوقف التدهور في وضعها الاقتصادي ، ومحـاولـة ايجـاد حـل لبعض مشاكلها المتأزمة ٠ ويشير المراقبون الى انـه رغم المساعدات الاميركية الضخمة التي حصلت عليها اسرائيل خلال السنة الماضية ، والتي تقدر بأكثر من مليارين وربع مـن الدولارات ، والمساعدات التـي ستحصل عليهـا خلال هذه السنة ، وتقدر بمليار وثمانمائة مليون دولار ، فأن الوضع الاقتصادي يزداد سوءا ، لان الجزء الاكبر من هذه المساعدات سيستثمر في شراء الاسلحة في الولايات المتحدة نفسهـا ـ وليس من اجل حل المشاكل الاقتصاديـة المحليـة في اسرائيل ٠ فقد اعلن رئيس الحكومـة رابين « ان المساعدات الاميركيـة تمنـح لنا بشروط صعبة من ناحية استعمالها ، اذ سنضطر الى انفـاق معظمهـا لانتـاج معدات في الولايـات المتحـــدة نفسهـــا ٠٠٠ » هـآرتس ، ٣١ / ١٠ / ٧٥) ٠ ويشير مصدر اخـر الى ان « اكثر من نصف المبلغ المطلوب لسد نفقـات الامـن في اسرائيـل ، يقع على عـاتق دافـع الضرائب الاميركي ٠ فمعظم اموال المساعدات لا تصل الى اسرائيل ، وانما تنفق في الولايات المتحدة ، حيث نحصل عليها على شكل اسلحة ومعدات ٠ ومن وجهـة نظـر وزارة الماليـة لا يعتبر الامر مدخولا او انفاقا ٠٠٠ » (شموئيل شتيس ، معاريف ، ٢٤ / ١٠ / ٧٥) ٠ لـذا فأن المشاكل الاقتصادية المتأزمة في اسرائيل ، مثل العجز في ميزان المدفوعات الذي وصل مع نهاية السنة الماضية الى نحو ٣٫٧ مليار دولار وازدياد حجم الديون الخارجية التي وصلت الى نحو ٧٫٥ مليار دولار ، ثم الهبوط في فـائض العملة الصعبة ، لن تجد حلا لها عن طـريق المساعدات الاميركية ٠ وثمة توقعات سيئـة بالنسبة لهذه السنة ايضا ، خاصة ان اسرائيل لن تحصل على ما يبدو على كل المساعدات التي طلبتها من الولايات المتحدة ، الامر الذي بدا واضحا اثناء زيـارة رابين الاخيرة ، حيث

اعلن ان الرئيس فورد سيطلب من الكونغرس مساعدات لاسرائيل تقدر بـ ٨ر١ مليار دولار في الوقت الذي تطالب فيه بمبلغ يفوق ٣ر٢ مليار دولار . لذا فقد اعلن رابين ان « سنة ١٩٧٦ ستكون اصعب من سابقتها ، ويستحسن بنا ان ندرك ذلك ونستعد له » (يديعوت احرونوت ، ٢٤ / ١٠ / ٧٥) .

وكانت الحكومة الاسرائيلية قد اجرت في اواخر السنة الماضية بحثا اقتصاديا شاملا القى خلاله وزير المالية رابينوفيتش تقريرا شاملا حول الوضع الاقتصادي خلال تلك السنة ، وما يتوقعه خلال السنة الحالية . وورد في هذا التقرير ان « المشاكل التي تواجهنا اليوم لا يمكن حلها خلال سنة او سنتين ، فالمطلوب مضي دائم وبدون تراجع في الطريق الذي اخترناه ، على مدى عدة سنوات حتى ينخفض العجز في ميزان المدفوعات الى مدى نستطيع تحمله ، بواسطة استيراد عادي لرأس المال ، وبدون تعلق بمساعدات ضخمة من دول اجنبية . ان السنتين المقبلتين ستكونان في غاية الصعوبة ، اجتماعيا واقتصاديا » (دافار ، ٢٧ / ١٠ / ٧٥) . وعدد رابينوفيتش المشاكل التي واجهها الاقتصاد الاسرائيلي خلال سنة ١٩٧٥ ومنها : (١) انخفاض الهجرة . فأحد عوامل الانخفاض في الطلب وفي سرعة النمو الاقتصادي خلال السنتين الاخيرتين هو الانخفاض الكبير في الهجرة ، اذ بلغ عدد المهاجرين في سنة ١٩٧٥، ١٨ الف فقط مقابل ٣٢ الفا في سنة ١٩٧٤ و ٥٤ الفا في سنة ١٩٧٢ . ورافق هذا الانخفاض في الهجرة حركة نزوح كبيرة ايضا . (٢) البطالة . فقد بلغت نسبة العاطلين عن العمل في سنة ١٩٧٥ ، ٢ر٤ ٪ من الطاقة البشرية العاملة في اسرائيل ، مقابل ٣ ٪ في السنة عام ١٩٧٤ . (٣) انخفاض الانتاج الصناعي عن المستوى الذي وصله في النصف الثاني من سنة ١٩٧٤ . اما في القطاع الزراعي فقد استمر الانتعاش رغم الانخفاض في النشاط العام ، وذلك بفضل زيادة استهلاك المنتوجات الزراعية في الصناعة والتصدير . (٤) انخفاض بنسبة ٥ر١٧ ٪ في الاعمال في فرع البناء ، وانخفاض بالاستثمارات بنسبة ٥ ٪ . (٥) انخفاض بالاستهلاك الفردي بنسبة ٣ ٪ مع حدوث ارتفاع بنسبة ١ ٪ فقط في الاستهلاك العام . اما الاستهلاك الامني المحلي فقد طرأ عليه انخفاض بنسبة ٤ ٪ ، مقابل ذلك ازدادت الواردات الامنية المباشرة بنسبة ١٨ ٪ . (٦) ارتفاع جدول غلاء المعيشة بنسبة ١١ ٪ وارتفاع مستوى الاجور بنسبة ٣٢ ٪ . (٧) عجز في ميزان المدفوعات بنحو ٧ر٣ مليار دولار في نهاية سنة ١٩٧٥ ، مقابل ٣٥ر٣ مليار دولار في سنة ١٩٧٤ . ويعود هذا العجز الى الفرق القائم بين الواردات التي بلغت ٧ر٧ مليار دولار ، وبين الصادرات التي بلغت اربع مليارات دولار . اما ديون اسرائيل الخارجية فوصلت مع نهاية السنة الى ٥ر٧ مليار دولار ، بزيادة قدرها ٣ر١ مليار دولار عن سنة ١٩٧٤ (دافار ، هآرتس ، ٢٧ / ١٠ / ٧٥) .

رغم هذه الحقائق تشير اوساط وزارة المالية الى « ان الاجراءات الاقتصادية التي اتبعت خلال السنة الاخيرة ، قد حققت جزءا من اهدافها . فقد انخفض مستوى المعيشة وحدث انخفاض كبير في الاستهلاك الفردي ، وتقلص حجم الواردات . وبدأت تلمس فائدة بعض الاجراءات الاقتصادية ، في الفتور الذي يسود بعض الفروع الاقتصادية . فقد انخفضت سرعة التضخم المالي من ٥٦ ٪ في السنة الى ٢٣ ٪ هذه السنة . كذلك تم ادخال بعض الاصلاحات الهامة ، مثل الاصلاح في ضريبة الدخل واقتطاع علاوة غلاء المعيشة واتباع سياسة « التخفيض الزاحف » في قيمة الليرة الاسرائيلية » (دافيد ليفكين - دافار ، ٢٣ / ١١ / ٧٥) .

كذلك تطرق وزير المالية رابينوفيتش اثناء حديثه خلال النقاش الاقتصادي في الحكومة الى سنة ١٩٧٦ ، قائلا ان الحكومة لا تملك بدائل حقيقية في سياستها الاقتصادية للسنة الحالية ، وذلك على ضوء التوقعات والتطورات التي يمكن ان تحدث خلالها . واوضح انه ستكون هناك حاجة الى اتباع خطوات غير عادية قبل ما يتعلق بميزانية السنة الحالية وذلك من اجل عدم التعرض للمكاسب الاولية

التي حققتها السياسة الاقتصادية حتى الان . واعلن رابينوفيتش كذلك ان سنتي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ هما سنتا انتقال خطيرتين . « ولكن اذا نجحنا في تشجيع الصادرات ، وتأمين استيراد الاموال على غرار الحاضر ، وتجميد نفقات الامن المحلية في مستواها الحالي ، عندئذ يمكننا ان نأمل بالنجاح في زيادة الانتاج القومي بصورة تدريجية ابتداء من سنة ١٩٧٧ » (دافار ، ٢٧ / ١٠ / ٧٥) .

وكان المستشار الاقتصادي لوزير المالية قد قدم تقريرا الى الحكومة حول توقعاته للسنة الحالية ، وذلك قبيل البدء بالبحث الاقتصادي المشار اليه . وابرز التوقعات الواردة في هذا التقرير هو معدل البطالة المتوقعة خلال هذه السنة ، التي يتوقع وصولها الى ٦٧ الف شخص مقابل ٣٩ الفا في سنة ١٩٧٥ . اما بالنسبة للهجرة فيتوقع قدوم ٢٤ الف مهاجر خلال السنة ، ولكن نظرا الى نسبة النزوح المتوقعة ، لن يبقى اي فائض في ميزان الهجرة . كذلك يتوقع ارتفاع العجز في ميزان المدفوعات الى اربعة مليارات وثمانين مليون دولار مقابل ٣٫٧ مليار دولار في سنة ١٩٧٥ . وحسب التقرير ستزداد ديون اسرائيل بالعملة الصعبة بـ ١٫٧ مليار دولار ، حيث تصل الى ٩٫٣ مليار دولار خلال سنة ١٩٧٦ . اما فائض العملة الصعبة فيتوقع ان يحافظ على مستواه الحالي اي ١٠٧٠ مليون دولار (معاريف ، ٢٨ / ١٠ / ٧٥) .

وتفيد الاخبار ان وزارة المالية تعمل الان على اعداد خطة اقتصادية شاملة للسنة المقبلة ، تحل مكان السياسة المتقطعة التي اتبعت خلال السنة الاخيرة . « وتشير التفاصيل المتوفرة حتى الان ، الى انه اصبح من الواضح ان سنة ١٩٧٦ ستكون احدى الفترات الصعبة في تاريخ الاقتصاد الاسرائيلي ، فترة ترافقها قرارات اقتصادية كثيرة ، مثل فرض ضرائب جديدة ، وتقليص الخدمات التي تمنحها الحكومة والمؤسسات العامة ، ثم اقالة عمال وتجميد جزء كبير من الاستثمارات .

« وتنوي وزارة المالية عرض خطة طوارىء اقتصادية ، تكون ذات انعكاسات بعيدة المدى على الحياة الاقتصادية . وستكون هذه خطة شاملة لا تتعلق فقط بميزانية الدولة ، وانما بمجالات عدة من الحياة في اسرائيل » (دافيد ليفكين ـ دافار ، ٢٣ / ١١ / ٧٥) .

انخفاض متواصل في قيمة الليرة

وحتى اقرار مثل هذه الخطة ، تواصل وزارة المالية اتباع سياستها القديمة الرامية اولا الى تشجيع الصادرات كعلاج للعجز في ميزان المدفوعات ، وذلك عن طريق تخفيض قيمة الليرة خلال فترات متقاربة . ولكن اخر تخفيض اجرته الحكومة في تاريخ ٣ / ١ / ٧٦ حيث خفضت قيمة الليرة بنسبة ١٫٩ ٪ . ويعتبر هذا التخفيض استمرارا لسياسة « التخفيض الزاحف » الذي اعلنته الحكومة الاسرائيلية في تاريخ ١٨ حزيران ١٩٧٥ ، والذي خفضت بموجبه قيمة الليرة ست مرات حتى الان . والمميز لهذا التخفيض ان نسبته لا تتعدى الاثنين بالمئة حسب قرار الحكومة (انظر الجدول) .

التخفيض في قيمة الليرة حسب سياسة « التخفيض الزاحف »

التاريخ	قيمة الليرة بالنسبة للدولار
١٧ / ٦ / ٧٥	دولار = ٦٫١٢ ليرة .
٥ / ٨ / ٧٥	دولار = ٦٫٢٤ ليرة .
٩ / ٩ / ٧٥	دولار = ٦٫٣٦ ليرة .
٢٨ / ٩ / ٧٥	دولار = ٧ ليرة .
٢٢ / ١١ / ٧٥	دولار = ٧٫١٠ ليرة .
٣ / ١ / ٧٦	دولار = ٧٫٢٤ ليرة .

الا ان الحكومة الاسرائيلية اضطرت الى خرق هذا القرار في شهر ايلول الماضي حيث اضطرها الواقع الاقتصادي الصعب الى اجراء تخفيض كبير بنسبة ١٠ ٪ مع رفع اسعار الوقود والسيارات واجور السفر الى الخارج ومعظم المنتجات الصناعية .

اسباب الازمة

يتساءل الكثيرون من خبراء الاقتصاد والمعلقين الاسرائيليين عن اسباب الازمة في الاقتصاد الاسرائيلي ، وهل ان عبء الامن هو

سببها الرئيسي والوحيد . « صحيح ان العبء الامني الكبير الذي تتحمله اسرائيل منذ حرب تشرين ، وانعكاسات الانكماش الاقتصادي والتضخم المالي في العالم على الصادرات والواردات الاسرائيلية ، هما بدون شك عاملان اساسيان في الازمة التي يمر بها الان الاقتصاد الاسرائيلي ، الا ان جذور الازمة تعود الى ادمان الاسرائيلي على كثرة الاستهلاك ، وخاصة السلع المستوردة » (الياهو سلفط - هآرتس ، (٧٥/١٠/٣١) . ويرى الخبراء ان هناك اسبابا حقيقية اخرى وراء هذه الازمة أولها ان الاسرائيلي لا يعمل بما فيه الكفاية ، وحقيقة هي ان معدل ساعات عمله هي اقل مما هي عليه في دول صناعية اخرى . والبضائع والخدمات التي يستهلكها تزيد كثيرا عن تلك التي ينتجها . ثانيا ، البيروقراطية الشديدة، وعلى هذا الاساس اصبح مقبولا الادعاء بأن العاملين في الخدمات يتجاوز عددهم في فروع الانتاج . ثالثا ، عدم ثبات قيمة الليرة . رابعا ، ان جهاز اعتماد الميزانيات لا يعمل بشكل صحيح . وقد صادقت لجنة بن شاحار ، التي قدمت مشروعا خلال السنة الماضية بشأن اصلاح نظام الضرائب المباشرة في اسرائيل ، في توصياتها على ان حسابات الدخل القومي التي يعتمد عليها اثناء تعيين الميزانية العامة غير دقيقة . فالوزارات الحكومية ، والسلطات المحلية والمؤسسات والمشاريع الاقتصادية ، طورت اساليب معقدة لتجاوز ميزانياتها المعتمدة . خامسا ، ان عبارة « ميزانية مغلقة » قد اختفتمن القاموس في اسرائيل . فالمؤسسات المحلية مقتنعة بأن السلطات البلدية ، ستغطي النقص في ميزانياتها ، كذلك باتت تدرك بعض المؤسسات الصناعية ان التهديد بأقالة بعض عمالها يؤدي الى تدفق الاموال لسد خسائرها او عجزها . « وقد تعودت البلديات على ان تقوم وزارة المالية دائما بتغطية العجز داخلها ، وحكومة اسرائيل باتت مقتنعة من ان حكومة الولايات المتحدة تنقذ دائما الوضع في اللحظة الاخيرة » (المصدر نفسه) .

العلاج ...

يقترح الخبراء الاقتصاديون اساليب عديدة لعلاج ازمات الاقتصاد الاسرائيلي . وقد اطلق معظمهم خلال السنة الماضية فكرة اعلان حالة الطوارىء الاقتصادية كحل للخروج من الازمة . وهناك اوساط عديدة في اسرائيل تؤيد هذه الفكرة ، وتعمل الان وزارة المالية ، كما اشرنا الى اعداد خطة طوارىء حقيقية لهذه السنة ، ويرى البعض ان « اسرائيل تواجه امكانيتين : الاولى - اتفاق سلام مع الدول العربية . والثانية - اتباع حكم طوارىء اقتصادي . وعليها ان تختار بينهما اذا كانت راغبة في البقاء . وكل حل وسط - اي ابقاء الوضع على ما هو عليه - سيؤدي الى انهيار كامل ، خلال وقت اسرع مما يتوقعه العدو . وبما ان اتفاق سلام شامل لا يمكن تحقيقه في المستقبل المنظور ، فأن الامكانية الثانية ، هي اكثر ملاءمة » (اهرون ميغر - دافار ٢٤ / ١٠ / ٧٥) .

ويرى اخرون انه بأمكان حل مشاكل الاقتصاد الاسرائيلي عن طريق زيادة التصدير ، وهو الرأي السائد فيوزارة المالية . « وفي هذا المجال لا زلنا نتخبط في مكاننا . لقد زاد قطاع الزراعة من صادراته ، الا ان منتجاته هي مركب صغير في صادراتنا ،و ينبغي زيادة الصادرات في المجال الصناعي والخبرة العلمية . ان دولا كثيرة قد قللت من صادراتها ، وهكذا فعلت اسرائيل ايضا ، واليوم اصبح بيع صادراتنا في الخارج امرا في غاية الصعوبة . والمصدرون بحاجة الى حافز اضافي من اجل زيادة صادراتهم . والاداة التي تملكها الدولة في هذا المجال هي الحافز الذي تمنحه للدولار . وعلى هذا الاساس يحدث في كل مرة تخفيض في قيمة الليرة ، سواء كان صغيرا ام كبيرا . ان التخفيض مهما كان اعتباطيا ليس الا عملا من جانب الدولة من اجل ملاءمة قيمة الليرة لما يحدث في السوق العالمية . ومع دخولنا الى السوق الاوروبية المشتركة اصبحنا جزءا من اقتصاد اكبر » (عضو الكنيست دافيد كورن - معاريف ، ٢٧ / ١٠ / ٧٥) . وعلى هذا الاساس يقترح الكاتب تحسين ظروف عمل عمال الصناعة في اسرائيل « لانه عمليا يعيش المجتمع كله على حساب « المنتجين من اجل الصادرات » والذين ينتجون المنتوجات

الاساسية ويمنعون بذلك استيرادها بأموال صعبة » (المصدرنفسه) ٠

ليس تشجيع فرع الصادرات هو المخرج الاساسي للازمة ، وانما « يجب ايضا تغيير نظام الاجور من اساسه ، لكي يعكس مساهمة العامل في الانتاج » ٠ وبالطبع « مطلوب ايضا قيمة حقيقية لليرة ، كذلك فأن الدخل من الدولارات (مساعدات صادرات قروض) يكفي لتغطية الواردات الامنية والمنتجات الغذائية الاساسية ، اما باقي المنتجات المستوردة فينبغي ان تخضع لنظام السوق الحرة ٠ كذلك من الواضح انه ينبغي خفض عدد الموظفين في المؤسسات العامة ، ربما بدون اقالات واسعة ، وذلك بواسطة منع قبول موظفين جدد ٠ كذلك ينبغي فرض القانون فيما يتعلق بعلاقات العمل ٠ بالاضافة الى ذلك من الضروري تعيين قوانين صارمة تتعلق بكل مؤسسة حكومية او عامة ٠ وعدم تعيين الميزانيات حسب الطلب ، وانما وفق الامكانات » (الياهو سلفط هآرتس ، ٧٥/١٠/٣١) ٠

تدهور علاقات العمل

لم يحدث خلال الفترة الاخيرة اي تحسن في مجال علاقات العمل المتأزمة في اسرائيل ، التي تؤدي بين الحين والاخر الى حدوث اضرابات متتابعة في المرافق الاقتصادية الحيوية في اسرائيل ٠ فبعد اضراب شركة الطيران الاسرائيلية (الـ ـ عال) الذي وقع في اواخر السنة الماضية ، جاء اضراب شركة الباصات للنقل العام (ايجد) خلال شهر كانون الثاني الماضي ، ليزيد من تدهور علاقات العمل ويشل الحياة العامة فيإسرائيل ٠ ويبدو ان مطالب العمال لا تنتهي في اسرائيل ، بسبب الوضع الاقتصادي غير المستقر ، اذ لا يمضي شهر بدون ارتفاع في الاسعار وانخفاض في قيمة الليرة ، يقابله مطالبة العمال بزيادة الاجور ، واعلان الاضرابات من اجل تحقيق مطالبهم ، بحيث اصبحت هذه الاضرابات امرا عاديا ، ومظهرا من مظاهر الحياة هناك ٠ وثمة عوامل عديدة لهذه الظاهرة اولها البناء التنظيمي والعلاقات المتبادلة بين مؤسسات الهستدروت المختلفة ٠ وعدم توفر الرقابة الكافية ، ثم القوة الاقتصادية والعامة التي امتلكتها لجان العمال، خاصة في فروع الخدماتالعامة ٠ ويفوق عدد اعضاء هذه اللجان الثلاثين الفا ٠ « ونشهد هنا مجرى من الابتعاد الفكري بين قيادة الهستدروت ـ اللجنة التنفيذية والمكتب التنفيذي ـ وبين اعضاء لجان العمال ٠ ففي الوقت الذي يترأس فيه الهستدروت اشخاص لهم نهج فكري معين ٠٠٠ ونظرة اقتصادية وسياسية شاملة ، فأنه ما من شك ان معظم هذه الصفات غير موجودة لدى جزء من اعضاء لجان العمال ٠ ان لجان العمال انانية تنظر الى مصلحتها الذاتية المحلية فقط ، وتتجاهل الاعتبارات العامة خارج دائرتها » (رؤوبين عاشور ـ هآرتس ٠ ٧٥/١٠/٢٧) ٠ وهناك عامل اخر للاضرابات وهو كثرة اللجان في نفس مكان العمل ٠ وخير مثال على ذلك هو شركة (الـ ـ عال) حيث يوجد عشر لجان منفردة ، وعلى الادارة ان تدير مفاوضات مع كل واحدة منها ، كل سنتين (بصدد اتفاقات الاجور) ، الامر الذي يزيد الوضع تأزما بسبب كثرة المطالب واختلافها ٠ والعامل الثالث هو السهولة التي تحدث بها الاضرابات بسبب عدم وجود قانون واضح وملزم يتعلق بهذه المسألة ٠ كذلك فأن عدم التناوب في انتخاب رؤساء لجان العمال من جديد ، يكسبهم نفوذا داخل عملهم ، الامر الذي يسهل الاضرابات ٠

حنه شاهين

نجاح المبادرة السورية في لبنان ، يقلق اسرائيل

منذ بدء الازمة اللبنانية واسرائيل تبدي اهتماما بالغا بما اسمته «التدخل» السوري في لبنان ، لاية مبادرة تتقدم بها سوريا لحل الازمة ، ووضع حد للاقتتال الدامي بين الاطراف المتنازعة . متهمة اياها بالعمل مع (م.ت.ف) على تحويل لبنان ، الى دولة مواجهة ضد اسرائيل ، قد تتواجد فيه قوات سورية وفلسطينية ، ليكمل الحلقة المفقودة في الجبهة الشرقية التي تسعى سوريا جاهدة لانشائها ، وخاصة بعد التقارب السوري الاردني وانشاء قيادة عسكرية موحدة ، الامر الذي ترى فيه اسرائيل خطرا حقيقيا على امنها ، وتسعى الى منعه بكل الوسائل ، الى حد التهديد باحتلال جنوب لبنان والقضاء على التواجد الفلسطيني فيه .

وقد طالب النائب امنون لين ، قبيل نجاح المبادرة السورية الاخيرة ، حكومة اسرائيل بالعمل على « خلق حقائق جديدة على الحدود، ولمنع احتلالها بواسطة قوات سورية - فلسطينية » . (ر١٠١٠ ٧٦/١١/٣) .

وفي بداية السنة الحالية ، صرح وزير الدفاع الاسرائيلي شمعون بيرس : « ان تدخل سوريا في لبنان ، لن يقابل بلا مبالاة من جانب اسرائيل » (ر١٠١٠ ٧٦/١١/٩) .

ردود الفعل الرسمية على المبادرة ..

كان اول تصريح ادلى به رئيس الحكومة الاسرائيلية اسحق رابين على نجاح المبادرة السورية ، امام وفد من منظمات الجباية اليهودية الموحدة في تل ابيب يوم ٧٦/١/٢٤ ، بأن حكومته ترقب الاوضاع في لبنان عن كثب « واننا لن نقف جانبا ، اذا ما تطورت الاحداث بشكل يهدد امننا » . (معاريف ، ٧٦/١/٢٥).

وحين سئل اذا ما كان ثمة احتمال لتدخل عسكري اسرائيلي في لبنان ، اجاب : « انني اعتقد ان جيراننا يعرفون ما نعنيه جيدا ، وانا افضل ان يفكروا ما الذي عليهم ان يفعلوه اكثر من مرتين ، كي لا يؤذوا باسرائيل لان تفقد صبرها » .

الا انه عاد وخفف من حدة تهديده قائلا : « نحن لن نتدخل في لبنان ، الا اذا كان ثمة خطر على امننا » (المصدر نفسه) . ولكنه لم يسقط من حسابه احتمال نشوب حرب شاملة في المنطقة مع اسرائيل ، نتيجة لنجاح المبادرة السورية وانه يترتب « على اسرائيل ان تكون على اهبة الاستعداد لاحتمال كهذا ». (المصدر نفسه) .

اما شمعون بيرس ، وزير الدفاع الاسرائيلي، فقد صرح في رده على الاسئلة التي وجهت اليه في نادي الصحافة ، في « بيت سوكولوف » في تل ابيب يوم الجمعة ٧٦/١/٢٣ ان « تقدير الحكومة هو ، بأن ما فعلناه بالنسبة للاوضاع في لبنان كان كافيا ، واذا ما طرأ اي تغيير في الاوضاع ، فاننا سننظر في الامر » (يديعوت احرونوت ، ومعاريف ، ٧٦/١/٢٥) .

ثم اردف مبررا عدم تدخل اسرائيل العسكري ، الذي هدد هو نفسه به عدة مرات، قائلا « ان الحكومة لا تتوقع غزوا سوريا ، وانما العكس ، فان القسم الاكبر من بياناتها، كان موجها لمساعدة سوريا كي تقرر بأن لا تغزو لبنان . (المصدر نفسه) . ثم عاد وترك الباب مفتوحا امام اسرائيل ، لاحتمال تدخلها العسكري حيث اضاف ان « حقوق اسرائيل محفوظة على اي حال . اننا ننظر في الامر وفقا لتطورات الاحداث » (المصدر نفسه) . ثم عاد وصرح - بعد ان اكد ان القوات التي دخلت لبنان ، هي قوات فلسطينية وليست سورية - بأن سياسة اسرائيل بالنسبة للاحداث في لبنان ، تتلخص في ان « لا تتدخل في الحرب الاهلية الدائرة في لبنان . وان تمنع اي تدخل اجنبي قد يؤثر على امن اسرائيل » (المصدر نفسه) .

وحين سئل في مقابلة له مع الراديو الاسرائيلي في اليوم التالي ٧٦/١/٢٦ ، عما اذا كانت

اسرائيل ترى في نجاح المبادرة السورية في لبنان ، سيطرة سورية عليه ، اجاب بلهجة حذرة « ان لسوريا نفوذا في لبنان ، واعتقد ان هذا النفوذ قد ازداد حاليا » (ر٠أ٠ ، ٧٦/١/٢٧) ٠

اما وزير الاديان اسحق رفائيل ، فقد عبر عن دهشته ، في جلسة لحزب المفدال في تل‌ابيب في ٧٦/١/٢٣ ، لسكوت العالم المسيحي والفاتيكان ، وعدم تدخلهما في لبنان ، «تاركين لسوريا ان تفعل ما تشاء به » ، حيث قال : « من واجبنا ان نعبر عن مدى دهشتنا ، لتجاهل العالم المسيحي الكبير المثير للدهشة، لما يجري في لبنان ٠٠٠ اننا حتى الآن لم نسمع اي رد فعل يستحق الذكر من جانب الفاتيكان ، او الناطق باسمه ، ولا من رؤساء الكنائس في الشرق والغرب » (يديعوت احرونوت ، ٧٦/١/٢٥) ٠

وهكذا نرى ان حكام اسرائيل ، قد لجأوا الى التقليل من شأن المبادرة السورية ، او ما اسموه بـ « التدخل » السوري في لبنان ٠ ويبدو انهم اخذوا بعين الاعتبار ان كل « رد عسكري » من جانبهم ، قد يؤدي الى تدهور جديد في المنطقة ، وقد يؤدي بدوره الى سقوط اتفاقية سيناء ، الامر الذي لا ترغب فيه اسرائيل ، ولا تتمناه الولايات المتحدة الاميركية ٠

وفي نفس الوقت ،قام وزير الدفاع الاسرائيلي شمعون بيرس ، بزيارة للحدود مع لبنان ، لتطمين سكان المستوطنات هناك ، واستغل الفرصة لمحاولة احراز كسب دعائي لحكومته ، حيث صرح ان اسرائيل مستعده لقبول « لاجئين مسيحيين من لبنان » ٠

٠٠٠ وردود فعل الاوساط السياسية الاخرى :

وعلى الصعيد السياسي الاوسع ، فقد تفاوتت تصريحات السياسيين الاسرائيليين ، وردود فعلهم بالنسبة لمبادرة السلام السورية في لبنان ، وفقا لمواقف الاحزاب والدوائر السياسية التابعة لها ، الا ان هذه التصريحات اتسمت جميعها بطابع التخوف من المستقبل ، وتوجيه اللوم للحكومة لعدم تدخلها ،ومطالبتها برد فعل عسكري على ما اسمته بـ « التدخل » السوري في لبنان ٠

وقد قرنت غولدا مائير ، رئيسة الوزراء السابقة ، ما يدور من احداث في لبنان ، بما يدور في انغولا ، واتهمت سوريا بأنها تقوم في لبنان ، بنفس الدور الذي تقوم به كوبا في انغولا بمساعدة الاتحاد السوفياتي « لا بد وان تكون الاحداث في انغولا بمثابة تحذير لنا ، بالنسبة لمدى استعداد الدول الغربية الكبرى للوقوف في وجه تدخلي سوفياتي مباشر » (يديعوت احرونوت ، ومعاريف ، ٧٦/١/٢٥) ٠

وفي مقابلة له مع الراديو الاسرائيلي يوم ٧٦/١/٢٤ ، وصف الجنرال اهارون ياريف ،وزير الاعلام الاسرائيلي السابق ، والنائب في الكنيست ، هذه المبادرة ، على انها كانت بمثابة النهاية للبنان الذي تريده اسرائيل « لبنان كما عرفناه حتى السنة الماضية ، والذي حدد المسيحيون فيه خطه السياسي ، والذي حافظ على الا يتدخل في الصراع المباشر مع اسرائيل بشكل فعال - قد انتهى من الوجود ، ولم يعد قائما بعد » ٠

ثم حذر ياريف ، من ان لبنان ما بعد المبادرة ، قد يتحول الى دولة مواجهة ، ولا بد لاسرائيل من ان تكون على اهبة الاستعداد لمواجهة الموقف ٠ « ثمة احتمال كبير بأن ينضم هو الآخر - اي لبنان - لدول المواجهة ضد اسرائيل ، وعلينا ان نضع ذلك في حسابنا ، سواء كان ذلك في موقفنا او عملنا بالنسبة اليه » (يديعوت احرونوت ، ٧٦/١/٢٥) ٠

ورغم ان عضو الكنيست الاسرائيلي مئير عميت (حزب العمل) ، اكد في مقابلة له مع الراديو يوم ٧٦/١/٢٤ ، على تعاظم القوى الوطنية نتيجة للمبادرة السورية ، ورغم ما ابداه من تخوف للاخطار التي تنطوي عليها المبادرة السورية بالنسبة لاسرائيل ، الا انه نصح اسرائيل بأن لا تتدخل وتعمل ، ما دامت سوريا لم تدخل الى ابنان اية قوات نظامية او شبه نظامية ٠ واضاف « ما من شك ان يد المسلمين في لبنان ستقوى ، الامر الذي يشكل خطرا جديا على اسرائيل ٠ ومن حق اسرائيل

ان تتدخل ، اذا ما دخلت قوات سورية نظامية، او شبه نظامية ، وما دام ذلك لم يحصل ـ فليس من الحكمة ان تتدخل اسرائيل وتعمل»• (يديعوت احرونوت ، ومعاريف ، ٧٦/١/٢٥)•

الا ان عضو الكنيست مردخاي بورات ـ نائب رئيس الكنيست الاسرائيلي ، حاول في اجتماع للهستدروت في « بيت اشكول » في تل ابيب في ٧٦/١/٢٣ ، ان يكون اكثرهم « اعتدالا » في تعليقه على المبادرة السورية ، مصرحا بان ليس لاسرائيل اية مصلحة ، في ان تتدخل في مجرى المعارك في لبنان ، ودعا لان تركز اسرائيل اهتمامها على ميزان القوى العسكرية فقط ، حيث اضاف « تيقظنا بالنسبة للقضية اللبنانية ، يجب ان يتركز على ميزان القوى العسكرية هناك فقط » • (يديعوت احرونوت ، ٧٦/١/٢٥) •

وقد اختلفت لهجة التصريحات ، التي ادلى بها بعض من زعماء الاحزاب اليمينية المتطرفة ، عن تصريحات غيرهم ، فبينما حاول الاخرون « تبرئة » سوريا من التدخل المباشر في لبنان ، لاعطاء المبررات لاسرائيل على عدم تدخلها ، وتنفيذ تهديداتها بالتدخل العسكري • ثارت ثائرة اليمينيين لنجاح المبادرة السورية في لبنان ، ووصفوها بأنها « غزو » سوري للبنان و « احتلال » !ه ، الى الحد الذي جعل عضو الكنيست حاييم لانداو (ليكود) ـ رئيس لجنة الخارجية والامن التابعة للكنيست ، بالنيابة ـ لان يدعو حكومة اسرائيل ـ في خطاب له امام الطلاب من حزب ليكود اليميني في تل ابيب يوم ٧٦/١/٢٤ ـ الى ان تعلن ، انه ما لم تسحب سوريا « جيش الاحتلال » السوري ـ الفلسطيني من لبنان دون تأجيل ، فانها ستستخدم « جيش الدفاع» الاسرائيلي كي « تدافع » عن نفسها ، واضاف لان « الجيش الفلسطيني الذي غزا لبنان ، هو جزء من الجيش السوري الخاضع لاوامر الاركان السورية ، وعلى هذا فهو غزو سوري مباشر مقنع بلباس الجيش الفلسطيني» (المصدر نفسه) •

كما وتقدم عضو الكنيست ـ رلمان شوفال (ليكود) ـ في حديث له مع عضو الكنيست سمحا ارليخ ـ بطلب لعقد اجتماع عاجل لقيادة حزب ليكود وممثليه في لجنة الخارجية والامن، كي « يبحثوا تطورات الاحداث الخطيرة في الحرب الاهلية في لبنان » ، منوها الى ان ثمة وضعا جديدا قد طرأ بالنسبة لاسرائيل ، وعليها ان تستعد لمواجهته « حسب ما تقتضيه مصالحها الحيوية ، حتى وان كانت هذه المصالح لا تتفق ومصالح صديقتنا الكبرى ، الولايات المتحدة ، اتفاقا كاملا » (المصدر نفسه) •

اما حزب « ارض اسرائيل الكاملة » ، فقد دعا رئيس الوزراء لان يؤجل سفره للولايات المتحدة ، كي يتفرغ لمعالجة ما اسماه بـ « الاوضاع الخطيرة في الحدود الشمالية لاسرائيل » ، موجها انتقادا لاذعا لحكومة اسرائيل ، لتقاعسها وتراجعها عن تنفيذ تهديداتها بالتدخل في لبنان ، ووصف هذه التهديدات ، بأنها تهديدات فارغة ، مما ادى الى نجاح المبادرة السورية في لبنان ،حيث قال « لقد تجاهلت دمشق تهديدات اسرائيل بأن لا تتدخل في لبنان ، لانها ترى فيها مجرد تهديدات فارغة » (معاريف ، ٧٦/١/٢٥) •

الصحف : اسرائيل هزمت في لبنان !

لقد احتلت المبادرة السورية ، المكانة الرئيسية في الصحف الاسرائيلية •

فقد وصفتها افتتاحية صحيفة « معاريف » بأنها « مناورة سورية حكيمة » ، متهمة دمشق بأنها « استخدمت الفلسطينيين كي تضع يدها على مراكز السلطة في لبنان » (٧٦/١/٢٥) • وبهذا تكون قد سحبت البساط من تحت ارجل القادة الاسرائيليين ، الذين لا ينفكون عن توجيه التحذيرات تلو التحذيرات لسوريا ، من التدخل في لبنان ، اذ ان ما فعلته سوريا لا يمكن ان يسمى « ولو من الناحية الشكلية ، على انه « تدخل اجنبي » » (المصدر نفسه) •

وقالت الصحيفة ، ان الاتفاق الذي حصل في لبنان ، يمنح السوريين والفلسطينيين سيطرة بعيدة المدى ، على الاحداث الجارية في لبنان ، ويلغي التوازن بين المسيحيين والمسلمين ، وان المسيحيين قد تحولوا بفعلها ، من شركاء في

الحكم الى اقلية مغلوبة على امرها ، وبهذا « تكون سوريا قد انتصرت بجولة مهمة في الصراع الدائر على السلطةفي لبنان ، وبواسطة مناورة ذكية » (المصدر نفسه) .

اما المحلل السياسي المعروف لصحيفة « يديعوت احرونوت » ، ارئيل جيناي ، فقد علق لعددين متتالين من الصحيفة المذكورة ، على المبادرة السورية ، متهما سوريا بأنها دفعت بالقوات الفلسطينية المتواجدة في سوريا بأوامر مباشرة من الرئيس حافظ الاسد ، كعامل ضاغط على « المسيحيين » كي يوافقوا على شروط ما اسماه بـ « التسوية السياسية» التي وضعتها دمشق و « لكي تمنح المسلمين اللبنانيين قسطا اكبر في السلطة في لبنان ، ومسؤولية اوسع بادارة شؤون الدولة السياسية والاقتصادية لهذه الدولة » (٢٣/ ٧٦/١) . وقال ان ذلك « يشكل مصدر قلق كبير لاسرائيل » ، لان الحكم الجديد الذي سيقوم في لبنان « في شروط كهذه ، سيتخذ قطعا ، موقفا اكثر عدائية تجاهنا ، مما لو كان حكما لبنانيا يسيطر عليه المسيحيون الموارنة » .

واوضح : ان اسرائيل « لن تستطيع التدخل فيما اذا طرأ اي تغيير على البناء الحكومي ونظام الحكم في لبنان ، الامر الذي « من شأنه ان يضعف التأثير المسيحي الماروني ، وتقوية تأثير المسلمين الى حد كبير » الامر الذي سيكون « غير مرغوب فيه بالنسبة لاسرائيل » (المصدر نفسه) .

وربط جيناي هذه المبادرة ، بما اسماه بـ « اهداف سوريا للمدى البعيد » ، ومدى ما تقدمه هذه المبادرة من خدمة لسوريا ، في « انشاء سوريا الكبرى ، التي ستبتلع اول ما تبتلع لبنان ، ومن ثم دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ومن ثم الاردن ، وبالتالي اسرائيل » .

واستدرك في آخر تعليقه ، ان احدا لا يعرف ما سيترتب على هذه المبادرة من نتائج في المستقبل ، رغم النجاح الحالي التي حققته ، واعرب عن شكه في استمرار نجاحها ، وانها ستكون سببا في تفجير الموقف بشكل اعنف ، بحيث تفقد سوريا سيطرتها على مجرى الاحداث فتكون بذلك « كالساحر الذي عرف السر لاثارة العاصفة ، الا انه لم يعرف السر لاخمادها » . (المصدر نفسه) .

وفي تحليله السياسي الثاني للمبادرة السورية ، في صحيفة يديعوت احرونوت الصادرة في ٧٦/١/٢٥ ، علق ارئيل جيناي ، على انه « من المبكر لان يتنبأ احد بالنسبة لنتائج التطورات الاخيرة في لبنان » واوضح ان « مبادرة السلام التي تقدمت بها سوريا ، والتي وافق المسيحيون عليها - مرغمين - تحفظ لهم ، ولو على الورق ، استقلال لبنان، وحقوقا معينة اخرى » (المصدر نفسه) .

واضاف انه « على المدى القصير ، لم يتغير الموقف ضد اسرائيل بشكل خطير » ، اما على المدى البعيد فان « الوضع على الحدود الشمالية قد تدهور » وانه لن يكون ثمة مناص امام اسرائيل ، الا ان « تتخذ خطوات دفاعية، كاحتلال مناطق معينة ، كي تضمن سلامة المستوطنات الشمالية » وان ذلك سيكون اسهل على اسرائيل بالنسبة لردود الفعل في الولايات المتحدة واوروبا الغربية « مما لو استمر في لبنان حكم مسيحي باغلبيته » (المصدر نفسه) .

وبهذا يكون ارئيل جيناي ، قد ترك الباب مفتوحا امام اسرائيل - تمشيا مع تصريحات المسؤولين الاسرائيليين - للقيام باعتداء عسكري على لبنان ، اذا ما سنحت الفرصة لذلك .

توفيق فياض

وثيقة ساوندرز تثير القلق داخل اسرائيل

اثارت الشهادة التي ادلى بها هارولد ساوندرز ، نائب مساعد وزير الخارجية الاميركية ، ردود فعل عنيفة وقلقة في اسرائيل وذلك على كافة المستويات الرسمية والشعبية والصحافية منها ، وعلى الاخص فيما يتعلق « بالموضوع الفلسطيني » . وقد دفعت هذه الوثيقة بعض المسؤولين الاسرائيليين الى القول ، ان هناك تحولا جديا في السياسة الاميركية تجاه القضية الفلسطينية ، كما اطلق بعضهم اسم « الوثيقة الفلسطينية » على تلك الوثيقة نظرا لما تحتويه من مفاهيم وطروحات جديدة ، لم يسبق للولايات المتحدة ان طرحتها . وكان البعض من الاسرائيليين قد قلل من اهميتها ودعا الى عدم التخوف والفزع منها .

ردود الفعل الرسمية

كان من بين المسؤولين الاسرائيليين الذين علقوا على هذه الوثيقة ، اسحاق رابين نفسه عندما قال : « ان وثيقة ساوندرز مليئة بعدم الدقة والعرض غير الصحيح للامور ، ولهذا ترفضها حكومة اسرائيل وقد نقلت ملاحظاتها حولها الى حكومة الولايات المتحدة » (دافار ٣٠ / ١١ / ٧٥) . ولكن لم يكن هذا فقط رد رئيس الحكومة على الوثيقة ، فقد اشارت صحيفة « هآرتس » الصادرة في نفس اليوم الى ان رابين « قد شذ مؤخرا وبصورة ملحوظة عن سياسة غولدا مئير المعلنة بشأن الفلسطينيين عندما قال بأن تجاهل المشكلة اليوم معناه الانتحار من الناحية الاعلامية » .

وكذلك وجه كافة الوزراء خلال جلسة الحكومة التي عقدت يوم ١٦ / ١١ / ٧٥ ، انتقادا عنيفا بالنسبة لشهادة ساوندرز . وقد اكد جميعهم على انها مليئة بالمغالطات . وعلى الرغم من تطمينات وزير الخارجية الاميركية ، الا ان الوزراء انتقدوا الوثيقة بما يلي :

★ تم تشويه وتليين وصف نوايا منظمة التحرير الفلسطينية الداعية للقضاء على اسرائيل ، كما تم التساهل في تعريف م . ت . ف على انها منظمة ارهابية .

★ تم ابعاد الاردن للمرة الاولى في الوثيقة الاميركية ، من المكان الاول كمرشح رئيسي للمفاوضات مع اسرائيل فيما يتعلق بالموضوع الفلسطيني .

★ لا تحدد وثيقة ساوندرز موقف اسرائيل في الموضوع الفلسطيني ، كما تحدد في قرارات الحكومة ، وانما المقصود مواقف اسرائيلية مختلفة كأنما لا يوجد للحكومة الاسرائيلية موقف واحد وقاطع في الموضوع الفلسطيني ، وكأنما لم يعلن ولم يسلم هذا الموقف لحكومة الولايات المتحدة . وبناء على هذا الموقف فان اسرائيل مستعدة للتفاوض حول حل مشكلة الهوية الفلسطينية في اطار اتفاقية مع الاردن . وكان من ابرز الوزراء المنتقدين ، حاييم تسادوك ويسرائيل غاليلي ، وشمعون بيرس وجاد يعقوبي وزبولون هامر . وقد اكد جميع الوزراء « بأن ساوندرز هو ممثل للادارة وطالما ان الادارة لم تتحفظ من اقوال شهادته ، فأنه يجب النظر اليها بكامل الخطورة » (حغاي ايشد ، دافار ٧٥/١١/١٧) .

وعلق وزير الخارجية ييغال الون بقوله : « ان العلاقات مع الولايات المتحدة تشهد صعودا وهبوطا ، ولكن لا يمكن التحدث عن تحول . وانني لا اوافق على التقدير القائل ان ما يسمى بوثيقة ساوندرز تشكل اعترافا بحقوق م . ت . ف . ومعلوم اننا نعارض هذه الوثيقة ، وقد قدمنا احتجاجاتنا عليها للولايات المتحدة » (ر١٠١٠ ٧٥/١١/٢٧) . ومن جهة اخرى حلل رئيس لجنة الخارجية والامن في الكنيست ، يتسحاق نافون ، الوثيقة خلال محاضرة له في نادي المهندسين في القدس فقال : « ان التجديد في هذه الوثيقة يقع في جملة واحدة وهي : « من عدة نواح فأن البعد الفلسطيني للنزاع العربي ـ الاسرائيلي هو لب النزاع » ، واشار ايضا الى ان هذا النزاع قد وصف في الماضي على انه قائم بين دولة اسرائيل

والدول العربية ، اما الان فهناك تركيز على البعد الفلسطيني • (المصدر نفسه ٢٥ / ١١ / ٧٥) •

اما زعيم حزب حيروت والارهابي المعروف ، مناحيم بيغن ، فقد سئل بعد عودته من واشنطن عن نشر الوثيقة فقال : « لقد نشرت وثيقة ساوندرز دون معرفة الحكومة ، وهذا شيء خطير من هذه الناحية لوجود تعهد اميركي صريح بأن تتشاور حكومتا الولايات المتحدة واسرائيل مع بعضهما البعض في المسائل السياسية الرئيسية • ويبدو اذن انه لم تجر بينهما مشاورة حول هذه المشكلة » (المصدر نفسه ٢١ / ١١ / ٧٥) •

ولم يتوقف رد الفعل الاسرائيلي عند هذا الحد وانما تعداه الى ما هو ابعد من ذلك • فقد رد البروفيسور مردخاي ابير ، ، المستشرق في الجامعة العبرية في القدس ، على الوثيقة بقوله : الحقيقة ان التوقيت جاء في فترة معينة بعد يوم ونصف اليوم من قرار الجمعية العمومية ، واعتقد ان هذا يشكل استمرارا في التحول القائم في مكانتنا في الولايات المتحدة••• لقد شهدت في الاونة الاخيرة هذه اللعبة في واشنطن ، حيث اولا ينزلون بنا الضربة ، وبعد ذلك يباشرون بتلطيف الجو • ان اقوال كيسنجر لم تهدئنا اطلاقا ، لان هذا الاسلوب اصبح معروفا جيدا ، ولذلك فان اقواله بالنسبة لي ليست مهدئة بل « برشانة » للتنويم • وهذا استمرار لسياسته التي لم نرد عليها في الماضي • ويبدو لي اننا على وشك ابتلاع وثيقة ساوندرز دون اي رد فعل ، واعتبارها وثيقة غير مهمة » (المصدر نفسه ٧٥/١١/١٧) •

ردود الفعل الصحافية

تحدث الكثير من المعلقين والمحللين الاسرائيليين في مختلف الصحف الاسرائيلية، حول هذه الوثيقة ، وقد تفاوتت تحليلاتهم وتقديراتهم ، ولكنها اجمعت في معظمها على ان هناك تحولا وخطورة في هذه الوثيقة ، وفيما يلي عرضا لاهم ما كتبه هؤلاء المعلقين •

تحدث الصحافي يشعياهو بن فورات ، عن هذه الوثيقة بقوله :ان الانعكاسات السياسية « للوثيقة الفلسطينية » ـ لا تقل في اهميتها عن سلسلة القرارات المؤيدة للفلسطينيين والمعادية للصهيونية ، التي اتخذت في الجمعية العمومية مؤخرا • وبالرغم من ان لغة الوثيقة حذرة ، وأنه ورد فيها انه لا يوجد للادارة الاميركية في هذه المرحلة ، اقتراح بحل المشكلة المذكورة ، فأنه يجب ابداء الرأي حول بعض النقاط في الوثيقة •

● « البعد الفلسطيني يشكل بؤرة الازمة العربية ـ الاسرائيلية » و « الفلسطينيون كمجموعة يشكلون عاملا سياسيا ، يجب التفاوض معه اذا اريد احلال السلام » ـ ان هذين التصريحين من قبل الادارة الاميركية ، يشيران الى تبدل جدي في نظرة واشنطن الى المشكلة الفلسطينية •

● المسألة حسب رأي كاتب الوثيقة ليست « هل » وانما « كيفية » اعطاء تعبير للمصالح الفلسطينية •

● بحذر ولكن بوضوح جاء في الوثيقة ، ان م•ت•ف• وليس الاردن ، حسب قرار مؤتمر القمة في الرباط هي ، المثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني » •

● لقد لمح بوضوح ، الى انه يكفي اعتراف م•ت•ف• بالقرارين ٢٤٢ و٣٣٨ من اجل دفع اسرائيل لاجراء مفاوضات مع المنظمة الرئيسية للمخربين • وهذا الامر يناقض تماما موقف اسرائيل ، بما في ذلك التصريحات الاخيرة لرئيس الحكومة • ضد التفاوض مع عرفات ومنظمته •

● يوجد في الوثيقة اكثر من تلميح ، للطريقة التي ترتسم في الادارة [الاميركية] ، من اجل تقريب الجهات المعنية (اسرائيل وم•ت•ف•) واجراء مفاوضات مباشرة بينهما•

● تتجاهل الوثيقة وجود « ميثاق فلسطيني»، الذي ينص على ان الهدف الوحيد للفلسطينيين هو تصفية دولة اسرائيل المستقلة •

● كما ان الوثيقة تتجاهل ايضا مطالبة

م·ت·ف بتسلم اي « منطقة يتم اخلاؤها » بهدف مواصلة الحرب من هناك ضد اسرائيل الى حين تصفيتها ٠

● تدهش الحقيقة ، ان كاتب الوثيقة لا يذكر ، ولو بالتلميح ، المعضلة الاستراتيجية لاسرائيل في حال تنازلها عن قطاع غزة والضفة الغربية ٠

ويخلص بن فورات الى القول ، ان تحليلا واعيا للوثيقة يثبت ان الادارة الاميركية قد تبنت الرأي العربي ، ولهذا فهي تطالب بالاسراع بمناقشة قضيتهم ، في حين ان هذا الامر قد ترك الى نهاية الدور ٠ فالادارة الاميركية تتوقع تعايش اسرائيل مع الدولة الفلسطينية في حدود لم ترسم بعد ٠ ومن اجل ذلك فهي تبحث عن طرق للتفاوض مع الفلسطينيين اي (م·ت·ف·) ٠ (يديعوت احرونوت ٧٥/١١/١٦) ٠

وتحدث المعلق يوسف حاريف ، عن « الوثيقة الفلسطينية » ، وعن الضجة التي اثارتها فأشار الى ان رابين قد طلب من السفير الاسرائيلي في واشنطن ان يستوضح كيسنجر شخصيا ما هو معنى هذه الوثيقة ٠ وطلب اليه ان يثير ثلاثة اسئلة رئيسية تثير انطباعا واضحا جدا ، بان هناك انحرافا في موقف واشنطن تجاه الفلسطينيين : المسألة الاولى اعتبار المشكلة الفلسطينية لب النزاع المسألة الثانية المبدأ المشترك بين اسرائيل والولايات المتحدة ، وهو ان المفاوضات ستجري بين دول وليس مع « منظمات » ، المسألة الثالثة تطرقت الى الاردن ، الذي اعتبرته الولايات المتحدة حتى الان شريك اسرائيل للسلام ٠

واشار حاريف الى انه انتظرت سفير اسرائيل « مفاجئة مثيرة » ، فقد الغى كيسنجر الوثيقة ٠ وعندما ادعى السفير الاسرائيلي بأنهم يعتقدون في القدس بأن الوثيقة قد اعدت لتهيئة الكونغرس والرأي العام في الولايات المتحدة للتغير في موقف الادارة من المسألة الفلسطينية ، اجاب كيسنجر « ان هذا هذيان من الدرجة الاولى ! » ٠ وتساءل الصحافي الاسرائيلي ، ولكن بعد اقوال التهدئة هذه لا يزال يطرح السؤال : هل يخطر على البال بان وثيقة « يتحفظ » عنها وزير الخارجية تماما ، يمكن ان تسلم للكونغرس من قبل « اي موظف » ٠

ويقول حاريف ، الى انه بالرغم من هذه التطمينات والنفي ، فان الاسرائيليين ينتابهم الخوف والقلق من حدوث تغيير في السياسة الاميركية ٠ وان الوثيقة قد اعدت من قبل وزارة الخارجية الاميركية ، وقد استند في ذلك، الى اللقاء الذي تم بين احد موظفي السفارة الاسرائيلية والفرد اثرتون ، مساعد وزير الخارجية الاميركية ، فأكد له اثرتون ، ان الوثيقة قد كتبت من قبل المسؤولين في وزارة الخارجية وفي مجلس الامن القومي عن هذه المشكلة ٠ (معاريف ٧٥/١١/٢١) ٠

ويستطرد حاريف بقوله ، على اي حال لا شك في ان شيئا ما آخذ بالتغيير في واشنطن ٠ فقبل اذاعة وثيقة ساوندرز ، صرح موظف كبير في وزارة الخارجية على مسمع من احد رجالات السفارة الاسرائيلية بواشنطن ، « انه حسب تقديرهم [الاميركيين] فان احدى الطرق لجلب السوريين الى المفاوضات ، هي الاشارة الى تقدم في الموضوع الفلسطيني ٠ واضاف الموظف نفسه، الى انه يسود الرأي لدى وزارة الخارجية ، بأن الحل هو في اطار اقليمي مستقل في الضفة الغربية ٠

« البعوضة الفلسطينية » تنقر الرأس الاميركي

ويصف حارين ، احد الاسباب لاذاعة مثل هذه الوثيقة بقوله : ان « البعوضة الفلسطينية » لم تبدأ صدفة بنقر رأس وزارة الخارجية في واشنطن ٠ ولكن الرغبة في توثيق العلاقات مع مصر وتقريب سوريا الى الولايات المتحدة ، قد فوت لديها المعرفة ، بأنه دون خطوة نحو م·ت·ف· فان نوايا واشنطن هذه ستكون موضع الشك ٠ واشار حاريف الى الخطورة التي تكمن وراء هذه الوثيقة ، فذكر بأنها قدخلقت خلفية جديدة

للموضوع الفلسطيني ، من خلال تجاهل بعض المبادىء المقدسة لدى الادارة الاميركية • واشار الى انه في اكتوبر ١٩٧٤ ، هد وضع فورد اسرائيل امام خيارين اما التفاوض مع الاردن او مع م•ت•ف• وخلص حاريف في تعليقه الى القول : يبدو ان الحزام اخذ في التضييق حول اسرائيل ، وانه كلما كانت صعوبات واشنطن بالتقرب الى القاهرة ودمشق كبيرة ، كلما كثرت المحاولات لطرح « مناورات اكاديمية » في الموضوع الفلسطيني (المصدر نفسه) •

وورد في احدى افتتاحيات صحيفة «هآرتس» تعليقا حول هذه الوثيقة ، ما ملخصه ، ان وثيقة ساوندرز تثير القلق والمعارضة • وان المركز الرسمي لصاحبها لا يسمح لنا • ان نمر بصمت على اقواله او ان نحاول التقليل من اهميتها • ويستخلص منها ، انه في نهاية الامر ، فان م•ت•ف• ستكون شريكة في المفاوضات حول تسوية المشكلة الفلسطينية وان ساوندرز يعتمد دون اي خوف ، على اساس قرار مؤتمر الرباط من العام الماضي ، وانه يشك في فاعلية اية محاولة لاخذ الاردن في الحسبان كطرف للمشكلة الفلسطينية • وان من يتعقب التصريحات الصادرة عن وزارة الخارجية الاميركية خلال السنة الاخيرة حول المشكلة الفلسطينية ، لا يمكن ان يتخلص من الانطباع بأن الريح تهب باتجاه التفكير الذي يعتبر م•ت•ف• كطرف رئيسي لحل المشكلة « كيفية اعطاء هوية قومية » لعرب المناطق المحتفظ بها (هآرتس ٧٥/١١/١٤) •

واعترفت صحيفة دافار في افتتاحيتها يوم (٧٥/١١/١٤) ان هناك هوة عميقة بين الولايات المتحدة وبين اسرائيل فيما يتعلق بموضوع حقوق الفلسطينيين • وان الخلاف ليس فقط بيننا وبين الاوروبيين وانما الامريكيين ايضا • وتتوقع هذه الصحيفة الى انه سيتم قريبا توجيه ضغط من قبل واشنطن بهدف انسحاب اسرائيلي ما من الجولان • وربما ستكون وثيقة ساوندرز بداية هذا الضغط • وخلصت الصحيفة الى القول ، ان الولايات المتحدة لم تعد تعتبر المشكلة الفلسطينية بأنها مشكلة لاجئين انسانية وانما مشكلة سياسية وتتحدث ايضا عن الحقوق القومية والشرعية •

واما دان مرغليت ، احد كبار المعلقين الاسرائيليين ، فقد انتقد تصديق الحكومة الاسرائيلية للتطمينات والنفي الاميركي • واشار الى ان الحكومة الاسرائيلية تتجاهل ثلاثة امور رئيسية وردت في الوثيقة • اولها ، ان الحكومة تتغاضى عن التجديد في موقف الولايات المتحدة ، الذي يضفي فجأة نوايا معتدلة على جماعات كبيرة من م•ت•ف • والمقصود من ذلك احداث تغيير في صيغة قرار مجلس الامن ٢٤٢ ، وثانيها انه لا يوجد في الوثيقة احتجاج على قرار مؤتمر الرباط بشأن التمثيل الوحيد للفلسطينيين من قبل م•ت•ف ، وثالثها ان الولايات المتحدة تعطي الاولوية لمعالجة الموضوع الفلسطيني • ويخلص الى القول انه سواء كانت الوثيقة « دفعة اولى » لانور السادات ، كما يميل للاعتقاد عدد من المستشرقين في واشنطن ، ام انها اعدت فقط للتسهيل على السوريين ببدء المفاوضات فمن الواضح انها تشكل مؤشرا جديدا • وان الوثيقة ستظهر بعد مدة طويلة بعد تحقيق تسوية جزئية في هضبة الجولان، او بعد ان تتنازل الاطراف عن المحاولة بالوصول الى تفاهم اسرائيلي ـ سوري كهذا•

وانتقد مرغليت الذين يستهينون بساوندرز ، حيث انه ليس فقط موظفا كبيرا او خبيرا مرموقا يعتبره الكثير من الاسرائيليين المدافع المثقف جدا المؤيد للعرب داخل الادارة ، وانما هو ايضا خبيرا حظي بتقدير من شخص لا يكثر من تقدير الاخرين الا وهو هنري كيسنجر • وذكر ان احد الموظفين في وزارة الخارجية الاميركية ، قد حدث احد الصحافيين البريطانيين بمعالجة وثيقة ساوندرز بتوسع ، حيث انها تمثل « تحركا ذا معنى » في موقف واشنطن في الموضوع الفلسطيني (هآرتس ١٩٧٥/١١/١٧)•

وتحدث معلق اخر حول هذه المشكلة ، فأشار الى ان هناك تنسيقا اميركيا ـ مصريا حول الموضوع الفلسطيني ، وانه تم الاتفاق بينهما على عدم ابقاء هذا الموضوع بأيدي

السوريين ، وانه يجب اثارة الامل لدى الجهات الفلسطينية المعتدلة بان مصر والولايات المتحدة لن تتخليا عن قضيتهم . وتستند المصادر في ذلك ، الى ان السادات قد اختار ابراز الموضوع الفلسطيني خلال زيارته الاخيرة للولايات المتحدة وانه لم يكتف بالمطالبة باتفاقية اسرائيلية - سورية فقط ، كما فعل قبل توقيع الاتفاقية مع اسرائيل . وخلص الى ان وثيقة ساوندرز ، هي نتيجة لفشل الاعلام الاسرائيلي حول القضية المذكورة . حيث ان التصريحات المتكررة لكل من رئيس الحكومة ووزير الخارجية وغيرهم ، بشأن اعترافنا بوجود هوية فلسطينية ، فقط للعناصر البناءة وليس في م.ت.ف. ، كان ذلك من المحتم ان يؤدي ان عاجلا ام آجلا الى هذه النتيجة (جفاي ايشد ، دافار ١٩٧٥/١١/١٢) .

الوثيقة ليست جديدة والخلاف مع واشنطن ليس بجديد

كانت الوثيقة بالنسبة لغالبية الاسرائيليين بمثابة مفاجئة ، ولكن البعض منهم لم تكن بالنسبة اليه كذلك ، كما ان الخلاف مع واشنطن والهوة بين موقفها وموقف تل ابيب بالنسبة للشرق الاوسط لم يكن كذلك بجديد . فقد اشار الكاتب الاسرائيلي عاموس كينان ، الى ان وثيقة ساوندرز قد نشرت قبل سنوات ليست بقليلة ، وذلك في اطار بحث اجراه لحساب « مؤسسة راند » . وانه يمكن الحصول على هذا البحث من كل مكتبة في اي جامعة في العالم ، وسيصدر هذا البحث في كتاب خلال الايام القريبة . واشار كينان ،الى ان كل واحد يعرف منذ بضعة اشهر بان ساوندرز، تحت اشراف المسؤولين عنه في وزارة الخارجية الاميركية ، يعد الوثيقة المذكورة من اجل الاثبات لاعضاء الكونغرس ، الذين يضغطون بقوة في هذه المسألة بان وزارة الخارجية ليست جامدة ، وانها تعد افكارا سياسية جديدة من اجل احلال السلام في المنطقة . وهاجم كينان السياسة الاسرائيلية والقائمين عليها ، وقال « انهم لا يفهمون الا ما ينسجم مع مفاهيمهم ، اما غير ذلك فلا يفهمونه ، كما انهم لا يدركون المتغيرات » (يديعوت احرونوت ٧٥/١١/٢) .

واشار البعض الى ان من سنحت له فرصة الاتصال مع ساوندرز ، او من تعقب في الصحافة الاميركية ، التصريحات الاميركية الاخيرة بالنسبة للمسألة الفلسطينية ، فانه لن يستطيع ان يجد في التقرير الذي قدم للجنة الفرعية التابعة للكونغرس اي امر جديد او يثير الفضيحة . وبناء على ذلك ، فقد مر ممثلو الصحافة الاميركية على الوثيقة تقريبا بصمت تام ، لانهم لم يجدوا فيها اي جديد . فقد انتقد اريئيل غيناي ، الموقف الذي اتخذته حكومة اسرائيل ، من هذه الوثيقة ومبالغتها في تضخيمها . وطالب بعدم اعطاء هذهالوثيقة نشرا لا تستحقه وكذلك اعلام الادارة الاميركية بالطرق السياسية العادية عن التحفظات التي لها عليها : وان نسجل امامنا البيانات الاميركية حول موقف الولايات المتحدة تجاه م.ت.ف .

ويستطرد غيناي قائلا ، قبل ان نفحص مضمون الوثيقة بصورة جدية ، فقد اعلنت « اوساط سياسية في القدس » عن « قلقها البالغ » واعلنت بان الوثيقة اثارت المخاوف في القدس . كما ان الصحافة قد ضخمت المسألة ، وان الحكومة اذاعت بيانا - صيغ بلهجة عنيفة ونادرة - بالرغم من ان كيسنجر قد اعلن انه لم يطرأ اي تغيير على السياسة الاميركية . (يديعوت احرونوت ١٩٧٥/١١/٢).

واما شموئيل سيغف ، احد كبار المعلقين في صحيفة « معاريف » ، فقد تطرق في تعليقه الى هذه الوثيقة ، فاشار الى ان رد الفعل العنيف في اسرائيل هو في وضع معكوس ، مع الهدوء الذي استقبلت به الوثيقة في واشنطن . فبالرغم من ان ساوندرز قد القى بشهادته منذ حوالي اسبوع ، فانه حتى الآن لم ينشر مضمونها - لا بكاملها ولا جزءا منها - في اي صحيفة اميركية . واشار سيغف ، الى ان شهادة ساوندرز ورد الفعل الاسرائيلي عليها قد خلقت الآن وضعا جديدا يتطلب التعقب الشديد لاتجاهات الادارة الاميركية في الموضوع الفلسطيني . وانه ليس سرا ، كما

في مسألة الحدود كذلك في هذا الموضوع فـان هناك اختلافات واضحة في الرأي بين اسرائيل والولايات المتحدة • ولكن الدولتين تغطيـان على هذه الاختلافات بسبب ارتباط عـرفـات الكامل بموسكو وكذلك لان الولايات المتحدة لم تتنازل عن « الخيار الاردني » •

واضاف ان هناك تمسكا في الموقف الاميركي بالموقف القائل انه طالما لم تعترف م·ت·ف بحق اسرائيل في الوجود فان الولايات المتحدة لـن تعترف بالفلسطينيين • وما عدا هـذه المرحلة فانه لا يوجـد اتفـاق بين اسرائيل وواشنطن في الموضوع الفلسطيني ، بحد ذاته وليس في اطار الحل الفلسطيني • وعندما يحين الوقت فستجـد اسرائيل والولايات المتحـدة نفسها امام خلاف حاد •

ويخلص الى القول : حسب كافة الدلائل ، فان الموضوع الفلسطيني لا يحتل قمة سلـم الافضليات السياسية الاميركية • فالولايـات المتحدة تريد في البداية الوصول الى حل وسط آخر في الجولان ، ثم بعد ذلك محاولة التعسس بمسألـة مؤتمر جنيـف وابقاء الموضـوع الفلسطيني الى ما بعد انتخابات الرئاسـة الاميركية • ولمزيد من السخرية ، فان اميركا هي التي تقول لاسرائيـل ، بان رد فعلهـا العنيف يمكن ان يـؤدي بالذات الى نتيجـة معكوسـة - اي تقديم معالجة الموضـوع الفلسطيني على مواضيع اخرى - وهذا يخالف تمامـا المصالح الاميركيـة والاسرائيلية على السواء (معاريف ١٨/١١/٧٥) •

حمدان بدر

شهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

الجولة الاخيرة في لبنان اوضحت بشكل لا يرقى اليه شك ، موقف الانعزاليين من الوجود الفلسطيني بكل ما يعنيه من بشر وقضية ومقاومة . فهذا الوجود هو المستهدف وهو المعني في الصراع . ولم يكن هذا الموقف، الذي سنورد شواهده بعد قليل ، احد نتائج الصراع المسلح الاخير ، بمعنى ان موقف الانعزاليين اللبنانيين من الوجود الفلسطيني لم يتقرر من خلال معطيات الصراع نفسه ونتائجه ، وانما هو موقف يكمن في خلفية الصراع وتحكمه دواع اقتصادية وسياسية وايديولوجية صنعت السبب او الحافز الذي بدوافعه خاضت القوى الانعزالية معركتها الطويلة . واذا كانت هذه المعركة قد اتخذت لها اكثر من بعد ، بعضه اجتماعي ـ اقتصادي وبعضه لبس لبوسا طائفيا ، فان الوجود الفلسطيني ، او بتعبير اكثر دقة الحضور الفلسطيني في لبنان كان يشكل الهدف الرئيسي الذي ترتبط به الاهداف الاخرى اقتران السبب بالنتيجة ، والذي باصابته تتحقق اصابة جملة اهداف دفعة واحدة .

والحضور الفلسطيني الذي نعني هنا هو ما يمثله الفلسطينيون كمجموعة سكانية ، وكقضية ، وكمقاومة ، من تأثير في تقرير ملامح الصورة اللبنانية ، وباعتبارهم احد مكونات ميزان القوى السياسية ـ الاجتماعية في لبنان ، ليس من خلال وجودهم افرادا ، وانما من خلال ما يمثلون من حالة سياسية مستقطبة ، فاعلة فيما حولها ، وقادرة على اثبات ذاتها .

وقد ظهرت هذه الحالة مع دخول الثورة الى المخيمات واصبح بعدها لـ «الفلسطينية» معنى محدد توحد فيه الوجود الفلسطيني من حيث هو مجموعة سكانية مع الهوية النضالية للشعب ، بحيث اصبح تعبير « الفلسطيني » مرادفا لكل ما هو نضالي بحركيته وتأثيره فيما عداه .

وموضوع المخيمات الفلسطينية في لبنان شاهد ماثل على هذه الحقيقة . ذلك بأننا نرى ان الوجود الفلسطيني لم يكن من حيث هو وجود موضع رفض مطلق في لبنان عندما كانت « الفلسطينية » مقترنة بهوية اللاجىء . فسكان المخيمات الفقراء كانوا مشتلا يمنح منه الرأسمالي الوف العمال مهضومي الحقوق الذين يرضون بأجر اقل وبشروط عمل اقسى . والبرجوازية الفلسطينية التي لجأت الى لبنان وتمكنت من نقل ثرواتها اليه اسهمت في ازدهار الاقتصاد اللبناني واضافت لبنة اليه واصبحت جزءا منه . حتى الشباب الذين انخرطوا في الاحزاب والحركات الوطنية (ذات الافق القومي) لم يمثلوا حالة تهدد المؤسسة اللبنانية ما دامت قادرة على القمع من جهة ، ومتمكنة من الهيمنة على موارد عيش هؤلاء الشباب من جهة ثانية .

غير ان الحال تبدلت مع دخول المقاومة

لبنان وبقدرتها على تثوير المخيم • فالمخيم لم يعد مجرد مجموعة سكانية تفرز عمالا فقراء وبوابي عمارات وعمالا زراعيين موسميين، وانما تحول الى حالة سياسية ـ عسكرية ميزاتها الاساسية كما يلي :

١ ـ بعث من جديد لدى هذه المجموعات السكانية في المخيمات الاحساس بانتمائها الى وحدة الشعب ، واصبحت المخيمات جميعا ، من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب ، يسلكها ناظم واحد هو وحدة القضية ، وبالتالي وحدة التحرك ووحدة القيادة بالاضافة الى وحدة الانتماء للحركة السياسية التي وان تعددت فصائلها فانما يؤطرها اطار واحد هو انها حركة الشعب الفلسطيني •

٢ ـ اصبح المخيم قادرا على الدفاع عن نفسه دفاعا ذاتيا مما منع اجهزة القمع التابعة للمؤسسة اللبنانية من ان تمارس اجراءاتها الاضطهادية داخل المخيم •

٣ ـ مع دخول افواج عديدة من سكان المخيمات ضمن تنظيمات حركة المقاومة وتفرغهم للعمل في صفوفها ، تمكن هؤلاء من فك ارتباطهم بالبنية الاقتصادية اللبنانية ، مما جعل قدرة المؤسسة اللبنانية مع التأثير على حركتهم اليومية وسلوكياتهم المعيشية معدوما ، وبالتالي افقد هذه المؤسسة سلاحا مهما استعملته بكفاءة ضد من انتمى من الفلسطينيين الى الحركة الوطنية اللبنانية قبل قيام الثورة •

٤ ـ اصبح المخيم القاعدة البشرية لحركة المقاومة الفلسطينية المسلحة ، وهو يمثل لها الظهير الاشد قدرة على حمايتها والدفاع عن وجودها ، وبذلك فان استمرارها على البقاء في لبنان مرهون ، مع جملة شروط اخرى وان كان هذا اكثرها اهمية ، ببقاء المخيم ملتحما مع حركتها •

وهكذا فان المخيم بمعناه الجديد يدخل ضمن الهدف الانعزالي ، وهو ما جرى التعبير عنه بشعار « عودة السيادة اللبنانية الى جميع الاراضي اللبنانية » • فالسيادة هنا لها معنى محدد هو القدرة على القمع ، والشعار بمجمله يعني اعادة المخيمات الى حالتها السابقة التي كانت فيها المؤسسة اللبنانية قادرة على ممارسة اشكال من الاضطهاد على سكان المخيمات وفرض عزل سياسي عليهم يمنعهم من التأثير في محيطهم • ويترافق هذا الشعار عن السيادة مع موضوعين اثيرا منذ زمن يسبق الاحداث الاخيرة : الاول الحديث عن « جيش الاحتلال الفلسطيني » الذي ابتدأه رئيس الجمهورية في احداث ايار ١٩٧٣ ، والثاني عن ان المخيمات الفلسطينية هي ملاذ المجرمين وملجأ الخارجين على القانون ، وهي النغمة المحببة لرئيس حزب الكتائب • وكلا الموضوعين يصب في طاحونة الحديث عن السيادة ويخلق مبررات رفع الشعار •

في الجولة الاخيرة توضحت هذه الحقيقة كاسطع ما يكون الوضوح • فالحصار التمويني لمخيم تل الزعتر ثم اقتحام مخيم الضبية وما رافق هذين الحدثين من مواقف سياسية كشف عن هدف الانعزاليين الاساسي • ففي اثناء حصار مخيم الضبية (الصغير المنعزل بعيدا عن تجمعات الفلسطينيين الرئيسية) اصدرت « القمة المارونية » التي اجتمعت بدعوة من رئيس الجمهورية (١/١٣) بيانا حددت فيه شكل الصراع الذي تريده : « ان الطائفة المارونية تعتبر ان النزاع الحالي انما هو نزاع بين اللبنانيين خاصة المسيحيين منهم، وبين الفلسطينيين من مسلمين ومسحيين » • فحسب منطوق هذا البيان فان الفلسطينيين من حيث هم فلسطينيون مستهدفون ؛ وقد اقتضى الحال ان يلفت البيان الانظار الى ان المسيحيين الفلسطينيين مستهدفون ايضا فقد كان الحصار آنذاك موجها لمخيم ضبية حيث فيه المسيحيون اغلبية • وتكشف الشروط التي قدمها الكتائبيون لفك الحصار عن المخيم المذكور جانبا مما يريده الانعزاليون من صورة للمخيم الفلسطيني • فقد جاء في هذه الشروط « ١ ـ تسليم السلاح الموجود في المخيم واخراج الاسلحة الثقيلة منه • ٢ ـ اخراج الغرباء عن المنطقة من المخيم • ٣ ـ قبول اشراف الدولة على الامن » أي بكلمة

واحدة تسليم المخيم الفلسطيني بأن تمارس ضده حرية القمع ·

رافق ذلك الدعوة الى نقل المخيمات الى خارج لبنان · وعلى الرغم من ان هذه الدعوة ليست غير « تفكير رغائبي » لدى اصحابها ولن يتوفر لها مقومات التجسيد العملي ، فأنها تدل على النظرة التي تعامل بها القوى الانعزالية مسألة المخيمات الفلسطينية في صيغتها الراهنة · وقد ابتدأت النغمة في اليوم نفسه التي اقتحم فيه الكتائبيون وحلفاؤهم مخيم ضبية في ١٤/١ · عندما وزعت الرهبانيات المارونية على الصحافيين الاجانب بيانا جاء فيه ان من اجل وقف القتال لا بد من (١) « ـ طرد الاجانب الذين يعتدون على لبنان وخاصة الفلسطينيين الذين وصل عددهم الى ٦٠٠ الف واحتلوا غدرا بقواهم العسكرية ٦٠ في المئة من ارضنا · ٢ ـ نقل المخيمات الفلسطينية من لبنان وتوزيع الفلسطينيين في صورة متناسبة على جميع البلدان العربية وفقا لمساحاتها · وهذا الحل المشترك هو الحل العادل الوحيد ، وهو لا يشكل تهجيرا بالقوة وانما تنظيم طبيعي للمخيمات الفلسطينية على امتداد جميع البلدان العربية في المنطقة » (« السفير » ١٥/١)· واذا كانت نشوة النصر الذي تحقق على المخيم الصغير سببا مباشرا في اطلاق هذه الدعوة، فانها يجب ان تفهم بمجملها ضمن النظرة العامة الى المخيمات · كذلك فاننا لن نهمل هنا جانبا اخر من المسألة هو جانب اقتصادي بحت · فمن المعروف ان الاديرة والمؤسسات الدينية تعتبر من اكبر ملاكي الاراضي في لبنان · ولا نستطيع ان نفصل هذه الحقيقة عن حقيقة اخرى وهي ان اشرس المعارك التي دارت كانت على اراض تملكها الرهبانيات · فجزء من اراضي الكرنتينا ملك للرهبانية المارونية كما اكد الاباتي شربل قسيس ، رئيس الرهبانيات المارونية اللبنانية للصحافيين (« السفير » ٣/٢) كذلك « ليعلم الجميع [كما قال] ان ارض مخيم الضبية هي ملك للرهبانية [المارونية] ولا يزال ، واراضي مخيم تل الزعتر ملك للرهبانية الانطونية » ·

ولم تكن الدعوة الى نقل المخيمات من لبنان مطلب الرهبانيات فحسب وانما اشترك في الجوقة رموز الانعزالية اللبنانية جميعا · فأثر اجتماع لـ « جبهة الحرية والانسان » (التي تشكلت من الكتائب والوطنيين الاحرار والرابطة المارونية وسعيد عقل ، الشاعر الزحلي ، وشارك مالك) ادلى عقل للصحافيين بتصريح طالب فيه بـ « ان تتوزع الدول العربية الفلسطينيين الموجودين في لبنان فتكون حصة كل منها بنسبة قدرتها على استيعاب السكان » (« السفير » ٧/٢) ، كذلك كرر الشيخ بيار الجميل هذه الدعوة في اكثر من مناسبة وابلغ الصحافيين (٩/٢) بضرورة توزيع الفلسطينيين على الدول العربية · حسب عدد سكان كل دولة وقال انه اطلق اقتراحه « عن حسن نية وبصدق واخلاص سواء من الناحية السياسية ام من الناحية الاجتماعية » ، وبرر اقتراحه بالقول ان الفلسطينيين اذا انتقلوا الى دولة عربية اخرى « فينتقلون من مناخ اجتماعي سيء الى مناخ افضل ، ويتمكنون بذلك من ان يخدموا قضيتهم على وجه احسن واكمل ···

ربما تكون هذه الدعوة في مرحلة لاحقة هدفا ملحا من اهداف الانعزاليين ، وبذلك فأن التصدي لها يستوجب تعزيز الشروط المادية القادرة على مواجهتها ووأدها ، ونعني بتلك الشروط المزيد من تجذير الثورة في المخيم الفلسطيني وتأكيد تلاحمه التام مع حركة المقاومة الفلسطينية ·

عصام سخنيني

(٢) القضية الفلسطينية دوليا

[I]

لا ريب ان اهم تطور دولي شهدته القضية الفلسطينية في الفترة الاخيرة هو انعقاد مجلس الامن الدولي لمناقشة القضية الفلسطينية ومشكلة الشرق الاوسط بشكل عام • والسمة البارزة لهذا الاجتماع كونه جاء نتيجة انتصار سابق للدبلوماسية السورية – الفلسطينية عندما رفضت سوريا التمديد لقوات الطوارىء في الجولان ما لم يوافق مجلس الامن على اجراء مناقشة عامة للقضيه الفلسطينية في تاريخ محدد • وتميزت جلسات مجلس الامن بحضور منظمة التحرير الفلسطينية للمناقشات وغياب اسرائيل عنها للمرة الاولى احتجاجا على هذا الحضور •

قبل بدء المناقشات اجرت كافة الاطراف المعنية من عربية واجنبية اتصالات دبلوماسية واسعة وتحركات سياسية هامة بغية الاعداد للمناقشات وبلورة المواقف منها وحولها ، ولا بد من استعراض مواقف الاطراف الرئيسية وتحركاتها باعتبارها شكلت الخلفية السياسية والدبلوماسية لاجتماعات مجلس الامن نفسه • ونبدأ بسوريا على اعتبار ان مناقشات المجلس جاءت نتيجة تحركاتها ومواقفها السياسية السابقة •

اجرى المسؤولون السوريون سلسلة من الاتصالات العربية والدولية بهدف تنسيق المواقف التي سيجري التعبير عنها في مجلس الامن ودراستها • ومن اهم هذه الاتصالات المشاورات التي جرت مع الاردن والوفود العربية عموما في هيئة الامم بالاضافة الى الجولة التي قام بها وزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام في عدد من اقطار الخليج العربي والسعودية لهذا الغرض حيث بحث الخطوط العريضة لورقة العمل السورية التي سيستند اليها مشروع القرار المقدم للمجلس • وتركزت هذه الاتصالات السورية حول النقاط التالية : (أ) مطالبة المجلس بضرورة تطبيق توصيات الجمعية العمومية المؤيدة لحق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم دون تدخل والعودة الى منازلهم واراضيهم الاصلية ، (ب) انسحاب اسرائيل من جميع الاراضي العربية المحتلة من اجل اقامة سلام عادل ودائم في المنطقة •

اما منظمة التحرير فقد تبلور موقفها بعد سلسله من الاجتماعات والمشاورات والاتصالات كانت حصيلتها ضرورة التركيز على النقاط التالية في مجلس الامن : (ا) حقوق الشعب الفلسطيني المشروعة بما فيها حقه في تقرير مصيره على ارضه، (ب) حق الشعب الفلسطيني في اقامة سلطته الوطنية المستقلة ، (ج) حق الفلسطينيين كافة في العودة الى اراضيهم التي طردوا منها ، (د) انسحاب اسرائيل من كافة الاراضي العربية المحتلة •

لم يكن موقف نظام السادات – كما تبلور قبل بدء مناقشات مجلس الامن – منسجما مع التنسيق السوري – الفلسطيني بسبب خضوع السلطات المصرية لشروط اتفاقية سيناء والتزاماتها ومتطلباتها • في الواقع عمل كبار المسؤولين المصريين على التشويش على مناقشات مجلس الامن قبل بدئها والتقليل من اهميتها • فعلى سبيل المثال صرح وزير الخارجية المصري اسماعيل فهمي في اوائل شهر كانون الثاني بأنه واثق من ان مؤتمر جنيف سيستأنف اعماله في النصف الاول من ١٩٧٦ بحضور منظمة التحرير على الرغم من ان كافة الدلائل كانت وما زالت تشير الى تعذر مثل هذا الحدث والى انتقال وزن الثقل الدولي في مناقشة القضية الفلسطينية من مؤتمر جنيف (الذي يبدو دوما انه سينعقد في المستقبل القريب ولا ينعقد ابدا) الى مجلس الامن الدولي • وعلى اثر هذا التصريح خرج فهمي على الامة العربية ببيان هام حدد خطوط السياسة الخارجية المصرية عشية انعقاد مجلس الامن • وكان اهم ما جاء في هذا البيان ما يلي : (أ) الدعوة الى انعقاد مؤتمر جنيف في اقرب وقت ممكن وقبل انقضاء النصف الاول من العام الحالي لان المناخ اصبح مواتيا لاشتراك منظمة التحرير فيه على قدم المساواة

مع الاطراف الاخرى · وجدير بالاشارة الى ان هذه الدعـــوة كانت في حقيقتها نوعا مـن التهرب ، ومحاولة لابعاد الانتباه عن جلسات مجلس الامن ، خاصة وان اسرائيل كانت قـد اصدرت بيانا مماثلا يطالب بانعقاد مؤتمـر جنيف تهربا من مناقشات مجلس الامن ،علما بان اسرائيـل غير قادرة على منع منظمـة التحرير من المشاركة الكاملة في هذه المناقشات في حين انها قادرة على التصدي بنجاح لايـة مشاركة يمكن ان تقدم عليها منظمة التحرير في مؤتمـر جنيف (ب) الهجوم على سوريـا واتهامها باعاقة انعقاد مؤتمر جنيف والسير نحو السلام في المنطقة (ج) التأكيد على ان مصر ستشـارك بمناقشات مجلس الامـن ومداولاته لكن ليس على اساس كونه بديلا لمؤتمر جنيف ، (د) معارضة مصر لاتخاذ مجلس الامن اية قرارات تؤدي الى تعديل القراريـن رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ ، (هـ) كيل المديح للسياسـة الامريكية في المنطقة · وقبل بدء مناقشـات مجلس الامن بايام قليلة اكد الرئيس السادات بتصريح له ما جاء في بيان فهمي حول معارضة مصر لتعديل قراري مجلس الامن ٢٤٢ ، ٣٣٨ معتبرا المناقشات مجرد اعداد لانعقاد مؤتمـر جنيف · وتمنى السادات على الولايات المتحدة الا تستخدم حق النقض خلال هذه المناقشات ·

بالنسبة للموقف الاسرائيلي فقد تلخـص اولا في قرار مجلس الوزراء الداعي لمقاطعـة اجتماعات مجلس الامن بسبب وجود منظمـة التحرير في داخله · في الواقع قررت الحكومة الاسرائيلية عدم الاجتماع مع المنظمة في اي محفل من المحافل « لان المنظمة لا تعتـرف باسرائيل وتهدف الى القضاء عليها » · وثانيا في تصريحات رابين ودايان القائلة : (أ) بـان الشعب الفلسطيني لا يشكل جوهر قضيـة الشرق الاوسط (ب) بان اسرائيل ترفـض التعاون مع منظمة التحرير باي امر من الامور المتعلقة بازمة المنطقة (ج) بان اسرائيل لاتمانع بانضمام بعض الفلسطينيين الى الوفد الاردني الذي سيجري مفاوضات التسوية مع اسرائيل (د) بان اسرائيل لا يمكن ان تقبل باي عمـل او اجراء قد يؤدي الى قيام دولة فلسطينيـة « بين اسرائيل والاردن » (هـ) بان اتخـاذ مجلس الامن لاية قرارات تساعد على قيـام دولة فلسطينية جديدة يعني غياب كل امـل للسلام في المنطقة وقذف المنطقة بأكملها فـي فوضى سياسية شاملـة « ستخلـق امورا لا يعلمها احد » (و) بأن اسرائيل مستعدة لخوض حرب اخرى لمنع حدوث انسحاب اسرائيلي الى حدود ما قبل حرب ١٩٦٧ كما انه على اسرائيل ان تطالـب بانهاء حالة الحرب مع الـدول العربية المعنية مقابل اية انسحابات جزئية قد تقوم بها · (ز) بان حكومة الولايات المتحـدة لا تريد قيام دولة ثالثة في الضفة الغربيـة (ح) بان هناك اتفاقا واقعيا مؤقتا بين اسرائيل والاردن يتمثـل بسياسة الجسور المفتوحـة ومحافظة الاردن على بعض المصالح في الضفة الغربية · ثالثا في ايفاد وزير الخارجية الون الى واشنطن للتنسيق مع الحكومة الامريكيـة بكل ما يتعلق بالموقف الامريكي ـ الاسرائيلي خلال مناقشات مجلس الامن · واطلق آلـون عددا من التصريحات اثناء زيارته وبعد مقابلته لكبار المسؤولين الامريكيين كان اهم ما جـاء فيها : (أ) تأكيد كيسنجر لآلون موقف حكومته الثابت في رفض التعامل مع منظمة التحريـر الى ان تعترف الاخيرة بشرعية دولة اسرائيل وحقها في البقاء · (ب) ان اسرائيل لن تسمح « لعناصر متطرفة مثل سوريا ومنظمة التحرير وحتى الاتحاد السوفياتي » بتحويل مجلـس الامن الى مؤتمر سلام (ب) ان اية محاولـة لادخال اية تعديلات على صياغة قراري مجلس الامن رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ او روحهما ستؤدي الى طريق مسدودة تماما في المنطقة · (ج) ان قرار الجمعية العامة رقم ٣٧١ لا يمكن ان يشكـل اساسا لاية مباحثات مع اسرائيل لان الاخيرة ترفضه ولا تنوي التقيد به · (د) ان رفـض اسرائيل الاشتراك مع منظمة التحرير فـي مناقشات مجلس الامن يجب ان يكون تحذيرا للذين يريدون اشراك المنظمة في مؤتمر جنيف·

اما موقف الولايات المتحدة كما تبلور عشية بدء مناقشات مجلس الامن فقد جرى التعبير عنه عـلى لسان عدد مـن كبار المسؤولين الامريكيين · وتتمثل اهم عناصر هذا الموقـف بالنقاط التالية : (أ) البيان الذي اصدرتـه الحكومة الامريكية واعلنت فيه بانها ستستخدم

حق النقض لايقاف اي اجراء او قرار في مجلس الامن « لا يشجع على استمرار عملية التسوية في الشرق الاوسط » . وحدد الناطق الرسمي بلسان وزارة الخارجية الامريكية الاسس الوحيدة التي تقوم عليها عملية التسوية المذكورة بانها قراري مجلس الامن رقم ٢٤٢ و٣٣٨ . (٢) تصريح كيسنجر الذي اكد فيه : (أ) ما جاء في بيان وزارة الخارجية المذكور (ب) تعهد الولايات المتحدة باخذ وجهة النظر الاسرائيلية بغاية الجدية في مناقشات مجلس الامن وتأكيده على ان « نتائج هذه المناقشات ستكون متمشية مع امن اسرائيل » (٣) تصريح الناطق بلسان بعثة تقصي الحقائق التابعة للكونغرس الامريكي (اثناء زيارتها لعدد من دول المنطقة) بأنه على الدول العربية تمثيل الفلسطينيين في اية مفاوضات تجري لتسوية المشكلة الفلسطينية وان الكونغرس يعارض بشدة اي ضغط امريكي على اسرائيل للتفاوض مع منظمة التحرير .

تحدد الموقف السوفياتي منمناقشات مجلس الامن عبر الاقنية الرئيسية التالية . اولا التصريح الذي ادلى به الكسي كوسيغين اثناء زيارته الاخيرة لتركيا حيث اكد مجددا رفض بلاده للفكرة التي كان قد طرحها كيسنجر بعقد مؤتمر آخر مواز لمؤتمر جنيف لمعالجة مشكلة الشرق الاوسط كما اكد الموقف السوفياتي القائل بان السبيل الافضل لتحقيق السلام الدائم في المنطقة هو انعقاد مؤتمر جنيف بمشاركة منظمة التحرير مشاركة كاملة في اعماله . واعتبر العقبة الاساسية في وجه تحقيق السلام موقف اسرائيل الرافض للانسحاب التام من الاراضي العربية المحتلة والاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني بما في ذلك حقه في انشاء دولة مستقلة ذات سيادة . ثانيا البيان السياسي الذي اصدرته الحكومة السوفياتية عشية بدء مناقشات مجلس الامن والذي اكد على ثلاث مسائل اساسية بصفتها شروط لا مفر منها لاحلال السلام العادل والدائم في المنطقة وهي انسحاب القوات الاسرائيلية من كافة الاراضي العربية المحتلة ، ضمان الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني بما في ذلك حقه في اقامة دولة خاصة به ، ضمان امن كافة دول المنطقة وحقها في الوجود والنمو بصورة مستقلة كما اكد البيان رأي الحكومة السوفياتية القائل بانه كي يتوصل مجلس الامن الى اية نتائج هامة عليه ان يوجد الظروف الملائمة لاستئناف مؤتمر جنيف باشتراك جميع الاطراف المعنية بما في ذلك منظمة التحرير .

علق امين عام هيئة الامم على المناقشات التي سيجريها مجلس الامن حول القضية الفلسطينية بقوله ان هذه المناقشات ستكشف ميلا متزايدا للاعتراف بالكيان السياسي للفلسطينيين وان المسؤولين الامريكيين اخذوا يدركونبان الحقوق الفلسطينية تشكل مفتاح الحل لمشكلة الشرق الاوسط . واعتبر فالدهايم ان التقدم الذي يمكن ان يحرزه مجلس الامن في هذا الصدد هو مناقشة غياب اية اشارة في القرار رقم ٢٤٢الى الفلسطينيين الا بصفتهم كلاجئين . ولم يستبعد فالدهايم استئناف مؤتمر جنيف لاعماله في مرحلة لاحقة كما اكد ان الامانة العامة لهيئة الامم تدرس طبيعة الخطوات التي يجب اتخاذها نتيجة قرار الجمعية العامة الذي اعتبر الصهيونية شكلا من اشكال العنصرية . ولا بد من الاشارة هنا الى تعليقات اللورد كارادون - اثناء زيارته للاردن - عشية بدء مناقشات مجلس الامن باعتباره مسؤولا عن الصياغة الشهيرة لقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ . شدد اللورد كارادون على ان الهدف الاساسي لاجتماعات مجلس الامن يجب ان يكون فتح الطريق الى مؤتمر جنيف بدلا من اغلاقه مما يعني ، حسب قوله، بان مناقشات مجلس الامن يجب ان تتمخض عن الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره في وطنه بالاضافة الى تطبيق القرار رقم ٢٤٢ . واوضح اللورد كلامه بقوله انه من الضروري اضافة بند الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره الى قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ . ودعا كارادون الى ايجاد مدينتين في قدس غير مجزأة ضمن اطار التسوية السلمية المقبلة بحيث تخضع احداهما للسيادة والادارة العربية والثانية للسيادة والادارة الاسرائيلية . وبالاضافة الى ذلك اعلنت وزارة الخارجية البريطانية اثناء

الزيارة التي قام بها ايغال آلون – وزير خارجية اسرائيل – الى لندن بأن اي اساس للتسوية السلمية بالشرق الاوسط يجب ان يكون قراري مجلس الامن رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ على ان تنص هذه التسوية على الانسحاب من الاراضي المحتلة « والحقوق الانسانية للفلسطينيين » وحق اسرائيل في الوجود داخل حدود سياسية آمنة ٠

في ١٢ كانون الثاني افتتح مجلس الامن مناقشته للقضية الفلسطينية ومشكلة الشرق الاوسط بحضور منظمة التحرير بناء على ارادة اغلبية الاعضاء ومعارضة الولايات المتحدة لمشاركة المنظمة في مناقشات المجلس ٠ وكان اول المتكلمين رئيس وفد منظمة التحرير – فاروق القدومي – الذي قدم عرضا اجماليا شاملا لوجهة نظر المنظمة فيما يتعلق بحقوق الشعب الفلسطيني ونضاله وآماله ٠ وركز القدومي كلامه على النقاط الجوهرية التالية : (أ) كون القضية الفلسطينية تمثل لب ازمة الشرق الاوسط وجوهرها ٠ (ب) كون قرار مجلس الامن بدعوة المنظمة للاشتراك في المناقشات يشكل اثباتا على التفهم الدولي العميق والواسع الذي اخذت تحظى به القضية الفلسطينية واهتمام غالبية دول العالم في تحقيق العدل بالنسبة للشعب الفلسطيني والاستجابة لحقوقه الوطنية بالاضافة الى اعترافها بهذه الحقوق ٠ (جـ) كون القرارات الاخيرة التي اتخذتها الجمعية العمومية حول قضية فلسطين قد زاد احتمالات ايجاد حل عادل للمشكلة عن طريق المنظمة الدولية مما يضع مجلس الامن امام فرصة تاريخية لتصحيح الاخطاء السابقة ورفع الظلم الواقع على الشعب الفلسطيني (د) كون الشعب الفلسطيني قد لجأ الى النضال المسلح لسبب واحد هو استعادة حقوقه الوطنية واحقاقها مع تأكيد عزمه على مواصلة نضاله عسكريا وسياسيا حتى يتم له استعادة ترابه الوطني وممارسة حقه في تقرير المصير وانشاء دولته المستقلة ٠ (هـ) كون منظمة التحرير مستعدة للاشتراك في جميع الجهود الدولية المستندة الى قرارات الجمعية العمومية رقم ٣٢٣٦ و٣٣٧٥ و٣٣٧٦ من اجل اقرار السلام في المنطقة ٠

(و) كون المنظمة تريد السلام في فلسطين للشعب الفلسطيني واليهود مع الرفض الشديد للمزاعم الصهيونية القائلة ان الشعب الفلسطيني يريد القاء اليهود في البحر ٠ (ز) كون السلام العادل والدائم مستحيلا في الشرق الاوسط ما لم يسترد الشعب الفلسطيني ارضه المغتصبة ويقيم فوقها دولته المستقلة الديمقراطية وفي حال فشل المجلس في اتخاذ قرار فعال في هذا الشأن فان الشعب الفلسطيني قد « عقد العزم على مواصلة النضال عسكريا وسياسيا حتى تحرير كامل لتراب الفلسطيني » ٠

الكلمة البارزة الاخرى في مجلس الامن كانت كلمة المندوب السوري الذي شدد في خطابه على الامور الجوهرية التالية : (أ) ان سوريا لا تعتبر النزاع في الشرق الاوسط نتيجة للحرب ١٩٦٧ بل للاعتداء الصهيوني الاصلي على ارض فلسطين وشعبها (ب) ان اي حل يجب ان يكون قائما على قرارات الامم المتحدة كلها وليس على قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ وحده اذ لا يتمتع هذا القرار باي ميزة تفرده عن بقية قرارات مجلس الامن والجمعية العمومية ٠ (جـ) ان الانسحاب من كافة الاراضي العربية المحتلة وضمان حقوق شعب فلسطين يشكلان الشرطان المسبقان الضروريان لتحقيق السلام في المنطقة ، والمطالبة بانهاء حالة الحرب قبل تحقيق هذين الشرطين هو بمثابة وضع العربة امام الحصان (د) ان سوريا تريد من مجلس الامن ان يكون مستعدا للانعقاد مرة اخرى خلال فترة محددة لمتابعة الخطوات التنفيذية لاية قرارات يتخذها ، كما ينبغي على المجلس ان يطلب من الامين العام فالدهايم اتخاذ الاجراءات اللازمة لضمان تنفيذ قرارات المجلس خلال الفترة المحددة ٠ وجدير بالاشارة ان كلمة المندوب السوري خلت من اية اشارة الى مؤتمر جنيف ٠

اما المندوب السوفياتي فقد دعا الى تنفيذ قرارات الجمعية العمومية التي تنص على عودة ابناء الشعب الفلسطيني الى اراضيهم ووطنهم ٠ ورفض سياسة الخطوة خطوة الامريكية الشهيرة كما اكد مجددا الموقف

السوفياتـــي المعروف والمطالب بالانسحـــاب الاسرائيلي غير المشروط والكامل من الاراضي العربية المحتلة • كذلك دعا للاسراع في عقـد مؤتمر جنيف وتوجيه الدعوة الى منظمة التحرير لحضوره • ووزعت الجهات المختصة في هيئة الامم رسالة من غروميكو ـ بصفتها وثيقـة رسمية ـ دعا فيها الى استئناف مؤتمر جنيف في وقت قريب بحضورمنظمةالتحرير • بالنسبة للمندوب الفرنسي فقد اعتبر ان اهم عناصر المناقشة هي انسحاب اسرائيل من جميـــع الاراضي العربية المحتلة والاعتراف بالحقـوق السياسية والشرعيـــة للشعب الفلسطينـــي والاعتراف بحقه في وطن مستقل مع تأكيد حق جميع الدول في المنطقة بالعيش داخل حـدود مضمونة ومعترف بها • اما المندوب الامريكي فقد اعلن معارضة بلاده لاي قرار يؤدي الى تعديل القرارين رقم ٢٤٢ و٣٣٨ ولاشراك منظمة التحرير في مؤتمر جنيف معتبرا ان مثل هذه التغييرات لا يمكن ان تتم الا بموافقة الاعضاء الحاليين في مؤتمر جنيف •وعاد مندوب الولايات المتحدة في كلمته الى طرح فكرة كيسنجر بعقد مؤتمر تمهيدي موازي لمؤتمر جنيف كما اصر على الكلام عن « المصالح المشروعة » لشعـب الفلسطيني بدلا من حقوقه •

وجدير بالاشارة هنا انه اثناء مناقشـات مجلس الامن ادلى الرئيس السادات بتصريح قال فيه بان حكومته مستعدة لحضور مؤتمـر جنيف حتى لو لم تدع منظمة التحرير للمشاركة في المؤتمر • ورحب رابين ترحيبا كبيرا بهـذا الموقف معتبرا اياه مفيدا جدا « للاتفاقـــات المؤقتة » بين البلدين • وبهذه المناسبة قال رابين ان جوهر مشكلة الشرق الاوسط ولبها ليس المسألة الفلسطينية بل الاعتراف العربي باسرائيل شريطة ان يتـــم حل المشكلة الفلسطينية ضمن اطار المباحثات مع الاردن •

تقدمت سوريا بورقة عمل لدراستها مـــن جانب الدول العربية والصديقة من اجل صياغة مشروع القرار استنادا اليها • وفي الواقع تم تقديم مشروع قرار يتبنى النقاط الاساسيـة والمبدئية في ورقة العمل السورية مع ما يكفي من المرونة لاجتذاب اكبر عدد من الاصـوات (خاصة الاوروبية الغربية منها) لصالـــح القرار • ونص مشروع القرار على النقـــاط التالية : (أ) اقتناع مجلس الامن بان المشكلة الفلسطينية هـــي جوهر النـــزاع في الشرق الاوسط • (ب) اعتبار المجلس بسبب التدهور المستمر في الموقف في المنطقة هو استمـــرار الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية ورفض اسرائيل تنفيذ قرارات الامم المتحدة المتعلقة في هذا الموضوع (ج) تأكيد المجلس من جديـد مبدأ عدم جواز السيطرة على اية اراض عن طريق استخدام القوة او التهديد باستخدامها• (د) تأكيده من جديد على ضرورة اقامة سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط يرتكز الـــى الاحترام الكامل لميثاق الامم المتحدة ولقراراتها المتعلقة في الشرق الاوسط والقضية الفلسطينية (هـ) التأكيد علـــى وجوب تمكين الشعـب الفلسطيني من ممارسة حقه الوطني الثابـت في تقرير المصير بما في ذلك حق اقامة دولـة مستقلة في فلسطين وفقا لميثاق الامم المتحدة• (و) تأكيد حق اللاجئين الفلسطينيين الذيـــن يرغبون في العودة الى بيوتهم والعيش بسلام مع جيرانهم في ان يفعلوا ذلك ، وتأكيد حق من يرغب منهم بعدم العودة في تلقي التعويضات عن ممتلكاته (ز) التأكيد على واجب اسرائيل الانسحاب من جميـع الاراضي المحتلة منـذ حزيران ١٩٦٧ • (ح) اتخاذ الترتيبات المناسبة لضمان السيادة والوحدة الاقليمية والاستقـلال السياسي لجميع دول المنطقة ضمن حدود آمنة ومعترف بها وفقا لميثاق الامم المتحدة (ط) التأكيد عـــلى ضرورة الاخذ بعين الاعتبـار النصوص الواردة في هذا القرار في جميع الجهود الدولية والمؤتمرات التي يجري تنظيمها ضمن نطاق هيئة الامم بهدف اقامة سلام دائم وعادل في الشرق الاوسط • (ي) طلب المجلس الـى الامين العام اتخاذ الخطوات اللازمة في اقرب وقت ممكن لتنفيذ القرار ورفع تقرير الـــى المجلس حول التقدم الحاصل على هذا الصعيد• (ك) يجتمع المجلس في غضون ستة اشهر للنظر في تقرير الامين العام المتعلق بتنفيذ هـــذا القرار ولمتابعة مسؤولياته فيما يتعلق بهـذا التنفيذ • وجاءت نتيجة التصويت على هذا المشروع كما يلي : فاز القرار بأغلبية الاصوات غير ان الفيتو الامريكي عطل مفعوله كما كان متوقعا •

في النصف الثاني من شهر كانون الأول اختتمت الجمعية العمومية للامم المتحدة دورة من اهم الدورات في تاريخها بالنسبة لقضايا التحرر الوطني عامة والقضية الفلسطينية على وجه التخصيص · فبالاضافة الى قرار ادانة الصهيونية بصفتها نوعا من انواع لعنصرية ومجموعة اخرى من القرارات (راجع العدد السابق من « شؤون فلسطينية ») وافقت الجمعية العمومية على اربع قرارات جديدة تدين اسرائيل في مجالات متعددة وكانت المناسبة لذلك رفع تقرير لجنة هيئة الامم المندبة للتحقيق في التصرفات الاسرائيلية ازاء سكان الارض المحتلة وحقوق الانسان الى الجمعية العمومية · وقد ادان القرار الاول اسرائيل على ضمها لاجزاء من الارض المحتلة واقامة مستعمرات استيطانية فيها ونقل سكان غرباء اليها وهدم المنازل العربية ومصادرة املاك عربية ونزع ملكيتها واعتقال بعض سكان الاراضي المحتلة وطردهم وتغيير اماكن اقامتهم وتعطيل حقهم في العودة الى اماكن اقامتهم · كذلك ادان القرار اسرائيل لنهبها التراث الثقافي العربي ومسها بالحريات والطقوس الدينية وممارستها الاستغلال غير المشروع لثروات الاراضي المحتلة ومواردها وسكانها · واعتبر القرار جميع الاجراءات التي اتخذتها اسرائيل لتعديل الطابع المادي والسكاني والتنظيمي للاراضي المحتلة لاغية وبدون اي مفعول شرعي معتبرة كافة هذه الممارسات والسياسات انتهاكا خطيرا لميثاق الامم المتحدة ومعاهدات جنيف المتعلقة بالحروب · اما القرار الثاني فقد اكد مرة اخرى انطباق معاهدات جنيف المذكورة على جميع الاراضي العربية المحتلة بما فيها القدس مع مطالبة اسرائيل بالاعتراف باحكام هذه المعاهدات وتطبيقها · ودعا القرار الثالث اللجنة المذكورة الى توسيع جهودها لتشمل عمليات التدمير التي تعرضت لها مدينة القنيطرة · كما نص القرار الرابع على اعتبار كافة الاجراءات التي اتخذتها السلطات الاسرائيلية والتي تمس الحرم الابراهيمي وشعائر العبادة فيه لاغية وغير مشروعة مع مطالبة اسرائيل بالكف فورا عن تطبيقها ·

انهت الجمعية العمومية دورتها المذكورة بمشهد درامي شن فيه رئيس الوفد الامريكي هجوما عنيفا على انظمة الحكم في دول العالم الثالث وكتلة الدول الاشتراكية مما ادى بالتالي الى انسحاب بعض ممثلي الدول المعنية احتجاجا على السلوك الامريكي (كان بين المنسحبين رئيس الوفد السوفياتي) اما مندوب اسرائيل فقد عبر عن شعوره « بالالم العميق » بسبب ما انحطت اليه الدورة الاخيرة للجمعية العمومية التي « وقعت في ايدي مجموعة من المتطرفين المعارضين للمبدأ الرئيسي في ميثاق الامم المتحدة » · واكد بهذه المناسبة ان بلاده لن تتفاوض مع منظمة التحرير لانها لا تمثل الشعب الفلسطيني · ومن ناحية اخرى ترددت انباء صحفية موثوقة ان الحكومة الامريكية تعتزم تخفيض المساعدات التي تقدمها الى عدد من الدول بسبب استياءها من الطريقة التي صوتت فيها هذه الدول في الامم المتحدة · اخيرا نذكر ان منظمة اليونسكو ايدت وتبنت قرار الجمعية العمومية الذي ادان الصهيونية باعتبارها شكلا من اشكال العنصرية مما اثار احتجاجات امريكية عنيفة وحدا بعدد من الدول المؤيدة بقوة لاسرائيل (دول السوق الاوروبية المشتركة ، الولايات المتحدة ، استراليا ، كندا) للانسحاب من المؤتمر المخصص للبحث في استخدام وسائل الاعلام لتعزيز السلام والتفاهم الدوليين ومكافحة التمييز العنصري ·

[II]

لا بد من ان نبدأ بالاشارة الى ردود الفعل الرئيسية التي صدرت على استخدام الولايات المتحدة حق الفيتو في مجلس الامن لتعطيل مفعول القرار الاخير الذي اعترف بحقوق الشعب الفلسطيني السياسية والوطنية ·

وصف رئيس الوفد الفلسطيني الذي حضر

مناقشات مجلس الامن بان الفيتو لم يكن الا استمرارا للسياسة الامريكية المعادية ابدا للحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني ونضاله العادل من اجل نيلها ٠ كما ندد رئيس الوفد بموقف بريطانيا السلبي مطالبا الدول العربية التعامل مع المصالح البريطانية في منطقتنا على ضوء مواقفها من القضية الفلسطينية ٠ اما بالنسبة لسوريا فقد اذاع وزير اعلامها بيانا مسهبا ندد فيه بالموقف الامريكي واستنكره معتبرا اياه تعطيلا لفرص السلام في المنطقة وتكريسا للاحتلال الصهيوني للاراضي العربية ٠ واكد البيان السوري النقاط الهامة التالية :

أ ـ ان هدف سوريا من ايصال قضية الشعب الفلسطيني الى مجلس الامن كان تثبيت حق هذا الشعب في تقرير مصيره واستصدار قرار يؤكد هذا المبدأ ويدين ضم اية اراض بالقوة كما يدعو الى تحرير الاراضي العربية المحتلة ٠

ب ـ ان غالبية الدول الاعضاء في مجلس الامن ايدت حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ونادت بانهاء الاحتلال الاسرائيلي ومالت الى تثبيت الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني وهذه كلها تشكل مكاسب اضافية على الرغم من الفيتو الامريكي ٠

ج ـ ان غالبية الدول الاعضاء في هيئة الامم عامة ومجلس الامن خاصة قد رحبت بمشاركة منظمة التحرير في مناقشات المجلس ٠

د ـ ان سوريا تعرب عن شكرها وتقديرها لمواقف الدول الصديقة والمؤيدة على الرغم من الضغوط الامريكية التي تعرضت لها هذه الدول ٠ ولم تتأخر سوريا عن ابلاغ حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا وايطاليا عن استياء سوريا الشديد من مواقف هذه الدول السلبية خلال مناقشات مجلس الامن ، في حين شكرت سوريا لفرنسا موقفها المؤيد ، كما شكرت غيرها من الدول الصديقة ٠ على صعيد هيئة الامم نفسها ابدى الامين العام فالدهايم عدم ارتياحه للفيتو الامريكي بقوله انه لولا استخدام الولايات المتحدة لحق النقض لتوفرت الفرصة لانشاء دولة مستقلة للفلسطينيين في الضفة الغربية بعد انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة ٠ كما اكد فالدهايم استياءه للنتيجة التي وصلت اليها المناقشات اذ اعتبر ان جهود هيئة الامم قد وصلت الى طريق مسدود بعد الفيتو الامريكي فاعرب عن « قلق المجتمع الدولي العميق » ازاء المشكلات الكبيرة التي تعرقل التقدم نحو التسوية العادلة والدائمة لازمة الشرق الاوسط ٠ وناشد جميع الاطراف المعنية مواصلة البحث عن تسوية سلمية عادلة ودائمة في المنطقة ٠ ولم تفت فالدهايم الاشارة الى ان مناقشات مجلس الامن قد ابرزت البعد الفلسطيني لهذه الازمة واكدته ٠ اما فرنسا فقد شرحت موقفها المؤيد لمشروع القرار بقولها ان القرار ينسجم مع المبادىء الاساسية التي تهتدي بها السياسة الفرنسية في الشرق الاوسط ٠ فالقرار يؤكد ضرورة الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي العربية المحتلة ويعترف بحق جميع الدول في المنطقة بالعيش في سلام داخل حدود امنة ومضمونة ومعترف بها ، كما انه يؤكد حق الشعب الفلسطيني في اقامة وطن مستقل له ٠ وذكرت الاوساط الفرنسية الديبلوماسية بأنه على الرغم من استخدام امريكا لحق النقض فان مناقشات المجلس وتأييد غالبية الدول الاعضاء لمشروع القرار تركت اثرا ايجابيا على صعيد التقدم نحو تحقيق تسوية للنزاع في المنطقة ٠ من ناحية اخرى هاجمت الاجهزة الاعلامية السوفياتية الفيتو الامريكي فقارنته بالاعمال الارهابية التي قام بها البعض ضد مبنى الامم المتحدة نفسه معتبرة السلوك الامريكي دليلا على افلاس موقف حكومة الولايات المتحدة وضعفه وافتقاره الى الحجج السياسية المقبولة ٠ واشارت هذه الاجهزة الى ان الفيتو الامريكي ادى في النهاية الى تفهم دولي اوسع لجوهر مشكلة الشرق الاوسط من ناحية ، والى ازدياد عزلة اسرائيل والولايات المتحدة في هيئة الامم من الناحية الثانية ٠ كما ذكرت ايضا ان هذا الموقف يبين بوضوح ان الولايات المتحدة تمسك بمفتاح الحرب في الشرق الاوسط ولبس بمفتاح السلام كما يشاع ٠ يضاف الى ذلك

اهمية مناقشات مجلس الامن لجهة ابرازها الشعب الفلسطيني بصفته طرفا رئيسيا في اية تسوية للنزاع في المنطقة وابراز منظمة التحرير بصفتها الممثلة الشرعية الوحيدة لهذا الشعب · اما اسرائيل فقد رحبت بالفيتو الامريكي معتبرة اياه مساهمة هامة في المحافظة على السلام في المنطقة وفي تهيئة الاجواء المناسبة لمواصلة مفاوضات السلام · واعتبرت الاوساط الرسمية الاسرائيلية مشروع القرار محاولة لتقويض قراري مجلس الامن رقم ٢٤٢ و٣٣٨ باعتبارهما الاساس الوحيد لاية تسوية سلمية في المنطقة وفقا للمنطق الاسرائيلي ·

التطور الدولي الهام الاخر الذي يستدعي الانتباه هو زيارة رابين الاخيرة الى وشنطن حيث قابل الرئيس فورد والدكتور كيسنجر وزعماء الكونغرس الامريكي بهدف بحث العلاقات الاسرائيلية الامريكية عسكريا واقتصاديا وسياسيا · وقد مهد رابين وغيره من كبار المسؤولين الاسرائيليين لهذه الزيارة بسلسلة من التصريحات التي حددت بشكل عام الاطار الذي دارت فيه محادثاته مع السلطات الامريكية · وكان اهم ما ذكره رابين في تصريحاته التمهيدية النقاط التالية :

أ) التأكيد مجددا على ان اسرائيل لن تجري اي حوار مع منظمة التحرير ·

ب) انه لا مانع لدى اسرائيل من اجراء مفاوضات مع وفد اردني يضم عناصر فلسطينية ·

ج) ان اسرائيل لن تتنازل بأي شكل من الاشكال عن مرتفعات الجولان على الا يعني هذا بقاء خط الحدود على حاله عند رسم الحدود الامنة النهائية ·

د) ان اسرائيل مستعدة لتقديم تنازلات لمصر ولكنها غير مستعدة على الاطلاق للعودة الى خط الحدود الدولي السابق مع مصر كما انها ستحتفظ بوجود لها في شرم الشيخ ·

هـ) ان اسرائيل على استعداد للتفاوض مع الاردن حول الضفة الغربية على ان يجري طرح المشاريع المتفاوض حولها في استفتاء شعبي اسرائيلي ·

و) ان اسرائيل متأكدة تماما من ان الولايات المتحدة لن تجري اية اتصالات ديبلوماسية او مفاوضات مع منظمة التحرير ما دامت الاخيرة لا تعترف بحق اسرائيل في الوجود ولا تقبل قراري مجلس الامن رقم ٢٤٢ و٣٣٨ ·

ز) ان اسرائيل لا تنكر حقوق الفلسطينيين بل تعتقد بأنه لا يمكن تأمينها الا من خلال اطار تسوية سلمية مع الاردن · اما «اللاجئون الفلسطينيون في لبنان وسوريا فيجب ايجاد حل لمشكلاتهم على اساس انهم لاجئون لا أكثر » · واقترح وزير الدفاع الاسرائيلي بيريز انشاء حكومة فديرالية في الاراضي الواقعة تحت الاحتلال الاسرائيلي كحل للقضية الفلسطينية خاصة وان اسرائيل ترفض الدخول في اية محادثات مع منظمة التحرير · لذلك دعا بيريز الحكومة الاسرائيلية لاجراء محادثات مع « الزعماء الفلسطينيين المحليين » في الضفة الغربية وغزة لاعطاء هذه المناطق حكما ذاتيا محليا اكبر · كما دعى الوزير الاسرائيلي الى انشاء « سوق مشتركة مفتوحة » وتشكيل نظام حكم على ثلاث مستويات بلدي واقليمي وحكومي ·

بينت التصريحات والتلميحات الاسرائيلية خلال زيارة رابين لواشنطن وبعدها ان محادثاته مع المسؤولين الامريكيين تناولت معظم النقاط المشار اليها اعلاه وخاصة احياء الدور الاردني كبديل عن منظمة التحرير · فبعد الاستنزاف الذي تعرضت له المقاومة الفلسطينية في الحرب الاهلية اللبنانية واغلاق الولايات المتحدة الباب نهائيا في وجه اي اعتراف بالحقوق السياسية والوطنية للشعب الفلسطيني وتفكك التضامن العربي تفككا كليا على اثر اتفاقية سيناء اخذت السياسة الامريكية – الاسرائيلية تعمل على تنشيط النظام الاردني من جديد كطرف مفاوض مقبول من جانب اسرائيل · وكان هذا واضحا ايضا من تحركات الملك حسين الاخيرة (استدعاء

المجلس النيابي وحله ، تبديلات وزارية الخ ...) . وتبين كافة المؤشرات ان الاتفاق بين رابين والمسؤولين الاميركيين قد تم بالنسبة للاتجاه السياسي المذكور اعلاه . فقد صرح رئيس الوزراء الاسرائيلي في واشنطن بأنه مرتاح الى المحادثات التي اجراها مع الرئيس فورد ووزير خارجيته خاصة وانه « لم يجد اي اختلاف في وجهات النظر حول الخطوات الواجب اتخاذها لايجاد تسوية في الشرق الاوسط » ، واكد بأنه لم يتعرض لاية ضغوط امريكية لتحديد موقف اكثر ليونة من منظمة التحرير كما عاد ليؤكد مجددا - والتكرار هنا ملفت للنظر - بأن الاردن وحده باستطاعته التفاوض باسم الفلسطينيين . ومن اهم النقاط التي برزت في تصريحات رابين بعد عودته الى تل‌ابيب ما يلي :

أ) الاتفاق مع الولايات المتحدة على عدم ضرورة اتخاذ اية قرارات فورية في ما يتعلق بالتسوية السلمية المقبلة في المنطقة .

ب) الاتفاق على ان فرص الدعوة لانعقاد مؤتمر جنيف ضعيفة جدا .

ج) التفاهم على ان سوريا غير مستعدة لابرام اي اتفاق مؤقت مع اسرائيل .

د) الاتفاق مع الولايات المتحدة على اطلاق مبادرة سلام جديدة تشمل كلا من مصر وسوريا والاردن لتحقيق اتفاقات انتقالية اهم من اتفاقية سيناء على ان يتم حل المشكلة الفلسطينية داخل اطار المفاوضات مع الاردن لانه من المستحيل اقامة دولة جديدة بين الاردن واسرائيل . وجدير بالاشارة هنا ان المصادر الديبلوماسية والصحفية العالمية ذكرت بأن الحكومة الاسرائيلية تعمل على تعزيز النفوذ الاردني في الضفة الغربية، وقد تصل الامور الى حد السماح للبنوك الاردنية بفتح فروع لها في الضفة الغربية هذا مع تشدد السلطات الاسرائيلية في ملاحقة مؤيدي منظمة التحرير . اما وزير الدفاع بيريز فقد امتدح في تصريح له ما اسماه « بالتعاون الاردني - الاسرائيلي في الضفة الغربية » كما هدد سوريا بالمواجهة العسكرية اذا لم تجدد لقوات الطوارىء الدولية في الجولان في نهاية شهر ايار المقبل . اما الجانب الامريكي فقد اكد على اثر انتهاء زيارة رابين بأن الاتفاق ، كان كاملا مع اسرائيل حول عدم اشراك منظمة التحرير في مؤتمر جنيف هذا اذا استأنف المؤتمر اعماله. كما اشار الى احتمال قيام الرئيس فورد بجولة في الشرق الاوسط في الربيع القادم تشمل بالاضافة الى اسرائيل مصر وسوريا ولبنان والعربية السعودية .

(٣) المناطق المحتلة

تواصل الانتفاضة السياسية في الضفة الغربية

صحيح ان تصاعد الاحداث اللبنانية في الفترة الاخيرة جعل الازمة اللبنانية محل الاهتمام الرئيسي من قبل الرأي العام العربي ومختلف وسائل الاعلام ، الا ان النضال البطولي الذي ظلت تشهده المناطق المحتلة خلال الفترة نفسها وما زالت ، استطاع ان يستقطب ذلك الاهتمام وان لم يكن قد استطاع ان يحتجز لنفسه من وسائل الاعلام ما يليق به من تغطية ونشر .

ففي فترة الاشهر الاخيرة يمكن القول بثقة

كبيرة ، ان النضال الوطني الفلسطيني فـي الارض المحتلة • على الصعيدين السياسـي والعسكري ، ظل متواصلا ومتصاعدا بالرغم من سخونة الاحداث اللبنانية واشغالها لقدر كبير من طاقات الثورة الفلسطينية •

الا ان الذي يمكن تسجيله كظاهرة تستحـق التوقف والدرس مليا ، هو رسوخ النضـال الجماهيري المعبر عنه بالتظاهرة والاعتصام ، كاحد اهم وابرز اشكال النضال السياسـي لجماهير الارض المحتلة ، خاصة في الضفـة الغربية منها •

لقد شهدت المناطق المحتلة خلال السنوات الماضية عدة انتفاضات جماهيرية • غير ان هـذه الانتفاضات كانت متباعدة واحيانـا مقطوعة الصلة بالاحداث السياسية الكبـرى التي مرت بها القضية الفلسطينية •ويستثنى من ذلك الانتفاضة الجماهيرية التي حدثت في تشرين الثانـي (نوفمبر) من عـام ١٩٧٤ بمناسبة عرض القضية الفلسطينية كبنـد مستقل على جدول اعمال الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة وذلك للمرة الاولى •

والتحول الهام الذي حدث في الضفة الغربية، وثيق الصلة بالتحول الهام الذي جرى في تحرك الثورة الفلسطينية • ففي الفترة السابقة على حرب العام ١٩٧٣ تحديدا ، كان الكفاح المسلح هو الشكل الوحيد تقريبا من اشكال الكفـاح الوطني الذي تأخذ به الثورة الفلسطينية وتحله محل غيره من اشكال النضال الاخرى • وقـد ادى هذا الفهم للعمل الوطني الى شل قدرات كوادر الثورة في الارض المحتلة عن استنباط ادوات كفاحية اخرى تستوعب اعرض القطاعات الجماهيرية وتجند الشعب كله في صراع شامل ومتواصل مع العدو وسلطاته المحتلة •

ومن خلال التجربة ، اكتشفت الثـورة الفلسطينية اهمية النضال السياسي المستوعب لاوسـع الجماهير في صراعهـا ضد المحتلين ومخططاتهم في الارض المحتلة وهكذا يمكـن القول ان الانتفاضة الشعبية الاولى التي حدثت في الضفة الغربية في اواخر العام ١٩٧٤ ، كانت البداية الحقيقية في تعميد الكفـاح الجماهيري المنظم على اوسع الاطر الشعبية كشكل كفاحي مواز للكفـاح المسلح الذي تأخـذ به الثورة الفلسطينية منذ احد عشر عاما تقريبا •

لذلك كله يمكن القول ان فجرا جديدا قـد انبثق في الضفة الغربية على وجه التحديـد منذ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥ • فمنـذ ذلك التاريخ الذي صادف الذكرى الثانيـة للانتفاضـة التي واكبت عرض القضيـة الفلسطينية على الامم المتحدة ، مازالت الضفة الغربية تشهد نضالا جماهيريا عارما ومنظما • وبالرغم من التعتيم الاعلامي الذي تشـارك فيه اساسا وسائل اعلام العدو ، فان الانتفاضة الجماهيرية هذه ما زالت متواصلة بشكل او بآخر • فبعد حوالي اسبوعين من التظاهرات والاحتجاجات التي عمت مختلف مدن ومناطق الضفة الغربيـة خلال شهر تشرين الثانـي الماضي ، استطاعت سلطات الاحتلال بوسائل قمعها المتعددة ان تحد من تصاعد واستمرار التظاهرات التي كادت ان تتحول الى عصيان مدني كما ذكرت العديد من التقارير المختلفة • الا ان جماهير الضفة الغربية مـا كادت ان تهدأ ، حتى اقدم المستوطنون الصهيونيون على محاولتهم الشهيرة لاقامة مستوطنة في سبسطية قرب نابلس ، الامر الذي شحذ همم الجماهير الفلسطينية مجددا واطلق طاقاتها الهائلة في سلسلة اخرى من التظاهرات سادها العنـف والعنف المضاد • ولقد اثبتت مظاهرات الاحتجاج هذه على اقامة مستوطنة في الضفة الغربيـة مدى التحسس الواسـع من قبـل الجماهير الفلسطينية تحت الاحتلال لمسؤولياتها الوطنية الخاصة في مقاومة مخططات المحتلين ومشاريعهم المشبوهة • وكانت قد اشتعلت المظاهرات في الضفة الغربية في مناسبة سابقة حينما اقدمت سلطات الاحتلال على تقسيم الحرم الابراهيمي في الخليل ،مثبتة الجماهير بذلك صدق تحسسها لمهماتها الخاصة في مقارعة المحتلين وهزيمة مخططاتهم الاحتلالية •

الـــى تظاهراتها الصاخبة بمناسبة اقتـراع

وانطلاقا من هذا الفهم المؤسس على صلات وثيقة ومنظمة مع القيادة السياسية للشعب الفلسطيني ، عادت جماهير الضفة الغربيـة

الولايات المتحدة ضد مشروع القرار الذي عرض على مجلس الامن الدولي خلال كانون الثاني (يناير) الماضي • ومن خلال الشعارات التي حملت خلال تظاهرات هذه المناسبة والهتافات التي اطلقت فيها نستطيع ان نسجل الملاحظتين التاليتين :

١ - تأكيد الجماهير الفلسطينية الرازحة تحت الاحتلال على اهلية تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية لها دون منازع • واذا كانت هذه الحقيقة قد تأكدت في مناسبات عديدة سابقة، فان اعادة تأكيدها مجددا عقب الفيتو الاميركي لهو من قبيل الشد على يدي المنظمة لمواصلة كفاحها الوطني وصولا الى التطلعات الفلسطينية المشروعة نحو غد حر ومستقل •

٢ - تأييد المعاني التي تضمنها مشروع القرار المقدم الى مجلس الامن بموافقة ممثلي منظمة التحرير والتي تتضمن حق الشعب الفلسطيني باقامة دولته الوطنية المستقلة وحقه بالعودة الى وطنه وانسحاب المحتلين من اراضيه المحتلة •

وبتلاحق التطورات السياسية تلاحقت مظاهرات الضفة الغربية لتشكل حالة سياسية هامة وبارزة • فغداة دعوة مجلس النواب الاردني الى الانعقاد في مطلع شباط (فبراير) الماضي ، تجددت مظاهرات الضفة الغربية مرة اخرى للاحتجاج على هذه الخطوة التي فهمت على انها محاولة من الحكومة الاردنية للارتداد على قرارات مؤتمر قمة الرباط • وهنا تكمن اهمية مزدوجة لانطلاق مظاهرات الضفة الغربية مجددا بهذه المناسبة التي تتصل اتصالا وثيقا بالمستقبل السياسي للضفة الغربية ذاتها •فهي اولا جاءت مترافقة مع استنكار منظمة التحرير الفلسطينية لها وتنديدا بما تضمنته الخطوة الاردنية من نوايا مبيتة • وثانيا انطلاقها من بين صفوف جماهير الضفة الغربية المخاطبة اساسا بالاجراء الاردني ومحل مخططه •

واذا كانت جماهير الضفة الغربية قد اثبتت عبر مخاضها السياسي هذا على قدراتها الخلاقة في بلورة واقع سياسي جماهيري خاص بها عبر مواكبتها للتطورات السياسية المتصلة بالقضية الفلسطينية ، فانها لم تتلكأ كذلك عن الاضطلاع بمسؤولياتها الخاصة في دحر مخططات العدو الجارية في الضفة الغربية • فعندما اقدمت محكمة الصلح بالقدس على الترخيص لليهود بالصلاة في باحة المسجد الاقصى تفجرت المظاهرات حاملة الشعارات المنددة بهذه الخطوة الاسرائيلية جنبا الى جنب مظاهراتها المستمرة ضد اجراءات اعدائها فوق الارض المحتلة وخارجها • واذا كانت سلطات الاحتلال لم تجد امام هذا التفجر الجماهيري سوى القمع وتصعيد اجراءاتها التعسفية ، فان الجماهير الفلسطينية في الضفة الغربية كانت مدركة سلفا لتبعات هذا النضال وما يستلزمه من تضحيات ومعاناة كبيرة • وهي لهذا كله تواصل نضالها الجماهيري غير عابئة بكل ما اقدمت وتقدم عليه السلطات المحتلة من اجراء قمع وقهر وتعسف •

اراء صريحة حول الادارة المدنية

نقلت مجلة « فلسطين المحتلة » التي تصدر عن مكتب الارض المحتلة في عددها الثامن والثلاثين ، مجموعة اراء لعدد من الشخصيات الوطنية في مشروع الادارة المدنية ، كانت قد نشرت في صحف الضفة الغربية • ونعيد نشرها هنا لما نعتقد لما تضمنته هذه الاراء من اهمية : الشيخ حلمي المحتسب رئيس الهيئة العلمية الاسلامية بالقدس قال : لا للادارة المحلية • « وانني اشجب هذا المشروع المشبوه كليا • وهناك ممثلين شرعيين للبلاد ومعترف بهم دوليا » •

الشيخ سعد الدين العلمي مفتي القدس وقاضيها الشرعي : « ما المقصود بالادارة المدنية • هل هو الاعتراف بما احتلته اسرائيل سنة ١٩٦٧ ؟ فهذا يجب ان يعود للعرب • واما اذا كان المقصود ايجاد بعض العملاء في المناطق المحتلة فذلك مبدأ يرفضه الفلسطينيون من اساسه » •

حلمي حنون رئيس بلدية طولكرم : « نحن ضد هذه الفكرة على طول الخط لان الادارة المدنية في ظل الاحتلال ليست في مصلحتنا وان رأينا في السابق والحاضر المعارضة للادارة المدنية ونطالب بالانسحاب التام من الاراضي العربية » •

كريم خلف رئيس بلدية رام الله : « نرفض مشروع الادارة المدنية لان هذا يحول الانظار عن حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ».

عادل الشكعة نائب رئيس بلدية نابلس : « ان عرض هذا الموضوع لا يخص اهالي الضفة الغربية وحدهم ، بل انه يخص التنظيمات وجميع الفلسطينيين في الداخل والخارج . واننا في الارض المحتلة نعتبر انفسنا جزءا من الامة العربية ومنظماتنا » .

حمدي كنعان رئيس بلدية نابلس السابق: « اننا جميعا نرفض التعاون في مجال الادارة المدنية » .

الدكتور جمال عبد القادر الخياط : « اننا نتقيد بمواقف الاجماع العربي وبقراراته ولقد اعترفت الدول العربية والعالم بممثلي الشعب الفلسطيني وهم اصحاب هذا الحق واولى بهذا التمثيل لانهم الشرعيون » .

الحاج مصطفى الطاهر : « الادارة المدنية هي اسلوب ايقاع بين الفلسطينيين في الضفة والقطاع واخوانهم في الخارج » .

فرح الاعرج رئيس بلدية بيت جالا . « اننا لا يمكن ان نتخذ هذا القرار لانه يتعلق بنا وبالدول العربية وبالفلسطينيين في الخارج » .

المحامي محمد اليحيى : « التلويح بالادارة المدنية هو عمل سيء ضد الارادة الفلسطينية وما هو الا حيلة لتفكيك الجهد الفلسطيني » .

الشيخ كامل القاضي التميمي واعظ بالمسجد الاقصى : « المهم اخذ رأي الشعب ولا قيمة للادارة المحلية طالما لم يؤخذ رأي الشعب » . وقال ان هناك علاقة بين الادارة المحلية وتعيين مجلس بلدي في غزة وتصريحات بيرس .

حسن طهبوب مدير الاوقاف الاسلامية : « الادارة المدنية ما هي الا محاولة تحاولها السلطات لايجاد بديل يعطي صفة التمثيل للشعب الفلسطيني لتأتي المرحلة التالية وهي مرحلة البحث في مستقبل المناطق المحتلة » .

الاستاذ يوسف النجار : « اننا نرفض الادارة المدنية ونطالب بزوال الاحتلال » .

جلال السلفيتي ـ مهندس : « ان هناك شكوكا في الانتخابات البلدية ولكن اذا كان هناك خيار فالمنظمة (منظمة تحرير فلسطين) هي الوحيد التي تمثلنا » .

خليل ابو نخلة ـ مهندس : « ان التفكير بالادارة المدنية هو خروج عن الاجماع الفلسطيني » .

محمد خضر ـ صاحب مخبز : « نرفض هذا الاجراء ولا يمكن تجاوز الممثل الحقيقي للشعب الفلسطيني المعترف به دوليا » .

حكمت المصري رئيس مجلس النواب الاردني السابق : « ان مجرد التفكير باقامة حكم ذاتي في المناطق المحتلة هو اهانة لكرامة الانسان الفلسطيني » .

مصطفى نزال رئيس بلدية قلقيلية : « نرفض الادارة المدنية » .

ظافر المصري رئيس الغرفة التجارية بنابلس « انني ضد مبدأ الادارة المطروح » .

هاشم الصالح رئيس بلدية طوباس : « ما هي الادارة التي لا يستطيع اي مواطن فيها ان يتمتع بابسط مبادىء الحق والقانون وهي حرية التصرف بارضه » .

عبد الحليم ذياب عضو الغرفة التجارية بطولكرم : « ان افضل شيء هو عدم وجود الاحتلال وليس المجيء بالادارة المدنية » .

حرب حرب عضو مجلس بلدية رام الله : « نرفض مشروع الادارة المدنية لانه لا يعبر عن امالينا القومية والوطنية » .

فتحي القمحاوي رئيس الغرفة التجارية في جنين : « نحن جزء من الشعب الفلسطيني والامة العربية ونرفض المشروع » .

حسين السوقي عضو مجلس بلدية جنين ورئيس المجلس البلدي السابق : « اية ادارة هذه ؟ انه لا يقبل بها الا الانسان الذي لا يوجد في وجهه دم » .

محمود نمر ـ طالب جامعي : « ان هذا

المشروع يستهدف الغاء المكتسبات التي حققها شعبنا واقرها العالم باسره ولذا فان رفض الادارة المدنية ضرورة » ٠

اسماعيل احمد صبيح ـ عامل كهرباء : « في رأينا ان المصلحة الوطنية تحتم رفض مشروع الادارة المدنية رفضا قاطعا والتمسك بالموقف الاساسي الرافض للاحتلال والمطالب بانسحاب القوات الاسرائيلية وبحل عادل يكفل الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » ٠

فايز ابو رحمة ـ محامي من قطاع غزة : « ان اية محاولة لايجاد حكم ذاتي او ادارة مدنية للمناطق المحتلة لا يخدم قضية السلام وهو الاستمرار في تجاهل القضية الفلسطينية وتجاهل الفلسطينيين وحقوقهم ولا يمكن لاي شخص من سكان المناطق المحتلة ان يمتلك الصفة او الصلاحية لتمثيل الفلسطينيين بعد قرار مؤتمر الرباط » ٠

هاني راغب العلمي ـ رجل اعمال : « هناك ممثلون للشعب الفلسطيني معترف بهم عربيا ودوليا ،و لا شك ان لديهم الحرية والخبرة الكافية ٠ واذا كان هناك رأي يؤخذ فيجب ان يؤخذ رأيهم ٠ واليوم نتحدث عن الادارة المدنية ونتناسى القضية الاساسية وهي قضية فلسطين » ٠

امال صالح ـ طالبة : « كانت نتيجة الذين تعاونوا مع فرنسا في الجزائر مخيمات في فرنسا ، واليوم جاعلة فرنسا حياتهم مثل القطران لان مهمتهم انتهت والجزائر رافضة ان تستقبلهم ولا هم عندهم الشجاعة للعودة ان سمح لهم ٠ وعندما يدور الزمن سيجتمع هؤلاء في بيت عار لانهم معدودون على الاصابع ومن غير الممكن ان يشكلوا مخيما ٠٠٠ الخ »٠

اعادة فتح ملف صاحب « الفجر »

بانقضاء الاسبوع الاول من شهر شباط (فبراير) الماضي ، كان قد مر عام على اختطاف الصحافي يوسف نصر صاحب جريدة الفجر التي تصدر في القدس باللغة العربية ٠ ومنذ ذلك التاريخ لم يحسم المصير الذي آل اليه نصر نظرا لعدم العثور على جثة له ٠ كما ان التحقيق « لم يتوصل » الى الجناة الحقيقيين والمحرضين الاساسيين على اختطافه بالرغم من الاسماء الكثيرة التي تداولها التحقيق ورجال الشرطة والصحافة العربية في الضفة الغربية ٠ ولم يعاقب واحد من الذين اختطفوه او حرضوا على اختطافه سوى شخص واحد هو ياسر الكركي المعروف بعلاقاته الوثيقة بالشيخ محمد علي الجعبري رئيس بلدية الخليل ٠ وكان هذا الشخص قد حكم بالسجن لمدة ست سنوات ٠

وقد اوردت الاذاعة الاسرائيلية في برنامجها العبري (نشرة رصد اذاعة اسرائيل ١٩٧٦/٢/٤) ان المحامية فيليسيا لانغر التي وكلت بقضية يوسف نصر في حينه تود اعادة التحقيق في هذه القضية لان لديها مادة جديدة تستحق التحقيق ٠ وقالت المحامية في رسالتها الى وزير الشرطة التي تضمنت طلب اعادة التحقيق ، انها قبل عشرة ايام زارت سجن الرملة وتحدثت الى ياسر الكركي المسجون هناك ٠ وقالت ان الكركي صرح امامها بانه مستعد الان للاعتراف لان لديه معلومات كثيرة يعرفها وهو على استعداد للافضاء بذلك للشرطة ٠

وبما ان الكركي هو الشخصية الاولى في هذه القضية ويعد المتهم الوحيد فان لانغر تطلب اعادة فتح التحقيق خاصة وان للقضية طابعا عاما ٠ وتضيف الاذاعة الاسرائيلية ان يوسف نصر الذي اختطف ليلة ١٩٧٤/١/٦ ، جيء به الى منزل جميل حمد الذي كان كبير محرري الجريدة ويعد صديقا له ٠ ومن هناك اخذ نصر ولم يعرف مكان وجوده حتى الان ٠ ويقول الكركي في افادته للشرطة ان جميل حمد هو الذي عرض عليه خطف يوسف نصر وان لابناء اسرة الجعبري في الخليل ضلعا في القضية ٠ وكان الكركي قد غير كلامه في المحكمة وادعى في شهادته انه لم يشترك في الخطف ٠

وفي حينه ذكرت المحكمة في قرارها ان شهادة الكركي كاذبة وان اعترافه في الشرطة هو الحقيقة ٠ وذكرت المحكمة ان جميل حمد قد كذب في شهادته امام المحكمة عندما حاول ان يعطي انطباعا بان معرفته بالكركي معرفة

سطحية . كذلك بدت للمحكمة ان شهادات باقي الشهود الذين قال عنهم الكركي بان لهم ضلعا كانت شهادات كاذبة . لذلك كله اتهم الكركي بعملية الخطف وحكم عليه بالسجن لمدة ست سنوات ولم تصدر احكام على باقي الاشخاص الذين اتهموا في القضية وغادر جميل حمد بعد ذلك بفترة قصيرة القدس الى المانيا الغربية ، الا انه عاد اليها قبل ثلاثة اشهر من هذا التاريخ (اوائل فبراير) .

ويطرح مراسل الاذاعة الاسرائيلية في ختام تحقيقه حول هذه المسألة السؤال التالي :

لماذا اصبح الكركي الان مستعدا للتصريح وتقديم شهادة جديدة ؟ ويقول ان لهذا احتمالين :

الاول – الرغبة بالانتقام ، اذ انه الوحيد الذي يدفع ثمن عملية الخطف ، بينما باقي الشركاء احرار .

الثاني – الجائزة المالية التي عرضتها اسرة يوسف نصر لكل من يقدم معلومات عن عملية الخطف او عن مكان وجود الجثة .

عيسى الشعيبي

(٤) القضية الفلسطينية عسكريا

العمليات الفدائية ونشاطات المقاومة الشعبية في داخل الارض المحتلة والرد الاسرائيلي عليها

على الرغم من المؤامرة التي حيكت ضد الفلسطينيين والقوى الوطنية في لبنان ، استطاعت حركة المقاومة الفلسطينية ان تخرج من الصراع اقوى واصلب عودا واكثر تماسكا وحركية في داخل الارض المحتلة وفي لبنان حيث اكسبها ذلك احترام وتقدير الجميع عربيا ودوليا .

فقد تمكنت بفضل وعي وتماسك جماهيرها العربية في لبنان ودعم الحركة الوطنية اللبنانية لها على اختلاف طوائفها واحزابها وكتلها وصحفها وتنظيماتها السياسية والعسكرية وتفهم الامة العربية والمجتمع الدولي لطبيعة في مهدها وتثبت للعالم عن قدرتها وتصميمها الصراع في لبنان ، ان تفشل المؤامرة وتقبرها في المحافظة على خط سيرها الاستراتيجي ، متجاوزة المعارك المفتعلة التي حيكت ضدها في الارض العربية في لبنان من قبل الاحزاب والقوى الانعزالية التي تدعمها وتغذيها الصهيونية والامبريالية العالمية . وعلى الرغم من كل ذلك فقد شددت الثورة الفلسطينية ضرباتها في الداخل وصعدت عملياتها مثبتة للجميع ان ميدان عملياتها الحقيقي يظل في بطاح وجبال الوطن الفلسطيني المحتل . وتأكيدا من جهة اخرى على ان الثورة الفلسطينية ليست طرفا في الاحداث الجارية في لبنان وردا على مزاعم غولدا مائير رئيسة وزراء الكيان الصهيوني السابقة ومحاولاتها ايهام الرأي العام العالمي بان حركة المقاومة الفلسطينية طرف في هذه الاحداث .

فقد صرح الاخ ابو اللطف رئيس الدائرة السياسية بمنظمة التحرير الفلسطينية بقوله « ان السلطات الاسرائيلية تحاول باستمرار تصعيد الازمة اللبنانية بهدف خدمة اطماعها التوسعية وما الغارات الجوية التي تشنها على مخيمات النازحين في لبنان وعلى القرى اللبنانية الا دليلا على ان اسرائيل تبيت

عدوانا جديدا على الاراضي اللبنانية وهــي تخلق الاسباب والمبررات لتجعل عدوانها وكأنه دفاع عن امنها • علما بأن هناك مخططــات اسرائيلية ـ اميركية تهدف الى افشال كــل الجهود العربية والدولية والداخلية الخاصــة بالتهدئة وانهاء الصراع في لبنان » • (المحرر ١٨ / ١٢ / ١٩٧٥) • ومما يثبت هذه النوايــا العدوانية التصريحات التي صدرت عن رئيس الاركان الاسرائيلي الجنرال مردخاي غور الذي هدد بتاريــخ ١٨ / ١٢ / ١٩٧٥ بقولــه « ان الصراع الداخلي في لبنان قد يسفر عن عــدة نتائج » ثم اضاف « اذا سيطر المسيحيــون او المسلمون او كلاهما معا وبشكل او بآخر فهذا مما لا شك فيه قضية لبنانية داخلية قد تكون لها مضاعفات بالنسبة لنا ، ولكن لا حاجــة تستدعي تدخلنا » ولكنه استطرد قائلا « ولكن هذه الثورة قد تكون لها نتيجة اخرى في حــال تدخل دولة عربية وهو ما قد يفقد لبنان ليس فقط توازنهالداخلي ولكن مركزه في العالمالعربي وبصورة خاصة توازن القوى بيننا وبين العالم العربي » (المحرر ١٩ / ١٢ / ١٩٧٥) •

وفي هذه الاثناء تواردت المعلومات من الارض المحتلة مشيرة الى ازدياد المقاومة والاضرابات الشعبية ضد الاحتلال الاسرائيلي • فقد ذكرت الانباء الواردة من نابلس ان المدينة شهــدت اضرابات ومظاهرات قام بها اصحاب المحلات التجارية وطلبة المدارس احتجاجا على سلطات الاحتلال لسماحها لثلاثين اسرة اسرائيليــة بالاقامة في احد المعسكرات قرب المدينة • هذا وازدادت المعلومات نفسهـا ان السلطــات العسكرية عززت دورياتها في شوارع المدينــة للحيلولة دون قيام مـزيد مـن المظاهـرات • (المحرر ١٩٧٥/١٢/٢٠) • وفي غمـرة هـذه الاحداث الامنية المقلقة وازدياد التعاطف مـع حركة المقاومة في الداخل طالب النائــب الصهيوني امنون لـين في جلسـة الكنيســت الاسرائيلي بتاريخ ١٩ / ١٢ / ١٩٧٥ باتخـاذ اجراءات امنية اشد بحق العـرب المقيمـين في فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨ وذلك بطردهم من البلاد وحرمـان الطـلاب مـن الدراسـات الجامعية ثم قال « ان عدد العرب الذين يبدون استعدادهم للتعاون مع السلطات الاسرائيلية يتضاءل بسرعة مذهلة ، في الوقت الذي تزداد فيه مظاهر العداء وبشكل خاص في مدينــة الناصرة » (المصدر نفسه) •

ففــي ٢٣ / ١٢ / ١٩٧٥ نفــذ الثــوار الفلسطينيون ثلاث عمليات بطولية قرب تـل ابيب ومدينة ايلات في الجنوب ومستوطنــة يفتاح في شمال فلسطين المحتلة • فقـد صرح ناطق عسكري باسم القيادة العامة لقــوات الثورة الفلسطينية ان احد افراد المجموعـات العاملة في الارض المحتلة قد قتل ضابــط مخابرات للعدو في الشارع الرئيسي بمستوطنة « ريشون ليتسيون » قرب تل ابيب • وفي حادث اخر وقع في مدينة ايلات في جنــوب فلسطين المحتلة ، هاجـم رجـال المقاومــة الفلسطينية في داخل الارض المحتلة احد الاندية التي يرتادها ضباط العدو في المدينة وتمكنـوا خلال دقائق من قتل وجرح عدة افراد من العدو• وفي عملية ثالثة نصب الثوار كمينا لدوريــة عسكرية اسرائيلية على الطريق الرئيســي المؤدي الى مستوطنة «يفتاح » في الجليــل الاعلى انتهى بتدمير سيارة عسكرية محملـة بجنود العدو وبالقذائف الصاروخية والاسلحـة الاخرى • (المحرر ٢٤ / ١٢ / ١٩٧٥) •

وفي ٢٨ / ١٢ / ١٩٧٥ اصيب (١٦) شرطيا اسرائيليا بجروح خطيرة في مشادة وقعت بينهم وبين سكان قرية عربية تقع بالقرب مــن مستعمرة « نهاريا » في الجليل الغربي • فقد تصدى سكان القرية لرجال الشرطة حينمـا حاولوا هدم منزل لاحد ابناء القرية • وافـادت مصادر الشرطة انه تم القبض على (١٦) مواطنا عربيا من سكان القرية حينما تمكـن رجال الشرطة بعد اربع ساعات من اعــادة النظام والهدوء الى القرية مرة اخرى (المحرر ٢٩ / ١٢ / ١٩٧٥) •

وفي ٢٩ / ١٢ / ١٩٧٥ دمـر الفدائيــون الفلسطينيون سيارتي دورية ونسفوا واحرقوا مصنعا اسرائيليا للاثاث • فقد اعلن ناطــق عسكري فلسطينــي ، ان الثــوار في الارض المحتلة نصبوا كمينا لدورية عسكرية في الجليل الاعلى وتمكنوا من تدمير سيارة عسكرية بمن فيها من جنود واسلحة • وفي مكان اخر احرق الثوار مصنعا للاثاث يقع في شارع هرتزل بتل

ابيب بفعل عبوة ناسفة ، واضاف الناطق ان الفدائيين تمكنوا من تدمير الية عسكرية بمن فيها من جنود واسلحة في نقطة تقع قــرب مستعمرة « المنارة » وذكر الناطق ان العدو حاول تطويق المجموعة الفدائية الا انها استطاعت الافلات من محاولة التطويق ٠ وفي تل ابيب اعترف ناطق عسكري اسرائيلي ان النــار اطلقت على دوريــة عسكريــة اسرائيليــة في الجليل الاعلى من وراء الحدود كما اعتــرف بنشوب حريق في مصنع الاثاث المذكور (المحرر ٣٠ / ١٢ / ١٩٧٥) ٠

وفي هذه الاثناء ذكرت مصادر المقاومــة الفلسطينية في بيروت ان (١٢) زورقا بحريــا معاديا ترافقها طائرات هليوكبتــر شوهدت في عرض البحر في اتجاه ساحل صور متجهــة شمالا ٠ وقد افاد الناطق ان حالة تأهب قصوى اعلنت في جميع المخيمات الفلسطينية تحسبا لاي طارىء ، كما افاد الناطق نفسه انــه شوهدت حشودات عسكرية اسرائيلية بعد ظهر ٣٠ / ١٢ / ١٩٧٥ قرب الحدود الجنوبيــة للبنان (المحرر ٣١ / ١٢ / ١٩٧٥) ٠

وفي ١ / ١ / ١٩٧٦ احتفــل الثــوار الفلسطينيون بالانطلاقة الحادية عشر للثورة الفلسطينية حيث شددوا من ضرباتهم وكثفوا من عملياتهم ضد الاحتلال الاسرائيلي في داخل الارض المحتلة ٠ فقد صرح ناطق عسكــري فلسطيني ان الثوار تمكنوا من زرع عبــوة ناسفة حارقة داخل احد الكاراجات العسكرية في منطقة كريات يوفيل في قلب مدينة القدس وانفجرت العبوة الساعة (١٤،٠٠) من ظهر يوم ١ / ١ / ١٩٧٦ وادى الانفجار الى تدمير عــدد من السيارات العسكريــة واصابــة الــورش بالكاراج باضرار بالغة وفي مكــان اخــر زرع الثوار لغما ارضيا مسيطر عليه فنيــا علــى الطريق الجنوبي المؤدي الى مدينة العريش وجرى تفجيره في الساعــة (١١،٣٠) من صباح يوم ١ / ١ / ١٩٧٦ اثناء مرور سيارة عسكرية محملة بجنود العدو ، مما ادى الى تدمــير السيارة وقتل وجرح من فيها ٠ وفي حادثــة ثالثة قصــف الثوار في الساعة (٢٠،٤٥) من مساء ١ / ١ / ١٩٧٦ بالصواريخ الثقيلة عددا من الاهداف العسكرية والحيوية داخل مدينــة نهاريا واصابت الصواريخ اهدافها ٠ كما قام الثوار بهجوم رابع نجم عنه تدمير عــدد من الاهداف الحيوية للعدو داخل مدينة تل ابيــب وعلى امتداد شارع شوكيد في منطقة كريــات ملاخا احدى الضواحي الحيوية في المدينــة ٠ فقد زرع الثوار عدة عبوات ناسفة حارقــة داخل الاهداف المحددة وانفجرت العبوات علــى التوالي منذ الساعة (٢٤،١٥) من منتصف ليل ١/١/١٩٧٦ ملحقة اضرار جسيمــة في احــد اكبر مستودعات الورق في المدينة وفي احــد المتاجر ومستودع للاغذية ٠ وفي هجوم خامس هاجم الثوار في الساعة (٠،٥٠) من صبــاح ٢ / ١ / ١٩٧٦ ناديا للشرطة في المنطقــة الشمالية من تل ابيب واستطاعوا في هــذا الهجوم قتل وجرح عدد من الحراس واصابــة النادي باضرار بالغة ٠

وفي تـل ابيب اعتــرف ناطـق عسكـري اسرائيلي بقصف مدينة نهاريا الا انه كعادته ادعى ان القصف لم يسفر عن وقوع ايــة اضرار ٠ كما اعترف عن وقوع حريق في مخازن مطابع صحيفة (هاارتس) في تل ابيــب (المحرر ٣ / ٢ / ١٩٧٦) ٠ وفي هذه الاثنــاء قالت وكالة رويتر ان الحريق الذي شب فجــر ١ / ١ / ١٩٧٦ يعتبر اضخم حريق شهدته تل ابيب في تاريخها ٠ وقدرت الوكالة الخسائــر التي نجمت عن الحريق بأكثر من مليون جنيه استرليني وقالت الوكالة ان اعمدة الدخــان الكثيفة سدت الانفاق تحت الارض واندفعت من النوافذ المعدة للتهوية وان رجال الاطفــاء استخدموا (٣٠) سيارة لاطفائه ٠ هذا وقامت سلطات الاحتلال بحملة اعتقالات ضد المواطنين العرب المتواجدين في المدينة اثر هذه العملية ٠ (المحرر ٤ / ٢ / ١٩٧٦) ٠ غير ان سلطــات الامن الاسرائيلية حاولت التخفيف من التأثير النفسي السيء الذي خلفه الحريق في نفــوس المواطنين اليهود بأدعائها ان الفاعلين هــم اربعة يهود معروفين لاجهزة الامن ٠ (المحرر ٥ / ١ / ١٩٧٦) ٠

وفي ١٩٧٦/١/٩ انفجرت قنبلة في مخزن كبير للبقالة في احدى ضواحي مدينة القدس المحتلة واصيب نتيجة للحادث سبعة اشخاص يهود بجروح ٠ وعلى الاثر قامت سلطات الامــن

باعتقال (١٥) شخصا من العرب وبـــدأت التحقيق معهم • وعلى صعيد اخر ذكـــرت مصادر الجيش الاسرائيلي انه تم اعتقال (٦) من الفلسطينحين للاشتباه بأن لهم علاقـــة بخلية تابعة لمنظمة فتح في نابلس • وادعـــى الناطـق انه عثر مع الرجال الستة على اسلحة ومواد ناسفة (المحرر ١٩٧٦/١/١٠) • وفـي مدينة حيفا اصدرت محكمة اسرائيلية امرا بالقبض على شاب عربي من سكان المدينـة بتهمـة محاولة حيازة قنبلة يدوية • (المصدر نفسه) •

وفي القدس حذر شمعون بيريز وزيـــر الدفاع الاسرائيلي من ان اسرائيل لا تستطيع ان تظل مكتوفة الايدي ازاء التطـــورات الجارية في لبنان ومما قاله في هذا الصدد « ان اسرائيل ما زالت تتابع باهتمام تطورات الموقف في لبنان ، وتعتبر اي تعديـل في هيكل هذا البلد يهدد امن اسرائيل وان اسرائيل تعتبر ذلـك في منتهى الخطورة » واضاف قائلا « ان اسرائيل لن تظل مكتوفة الايـدي في حالة تدخل سوريا في لبنان » • (المصدر نفسه) •

وعلى الرغم من اشتداد هجمات القـوى الانعزالية في لبنان ضد المخيمات الفلسطينية، فقد شدد الثوار الفلسطينيون من هجماتهم ضد الاهداف الحيوية في الارض المحتلة • ففي ١٩٧٦/١/١٣ قام الفدائيون بعملية بطولية ، اذ اقتحمت مجموعة منهم مستعمرة مرجيلوت (هونين) وقامت باحتجاز عدد كبير من الرهائن داخل احد المباني في المستعمرة ، مطالبة باطلاق سراح عدد من السجناء العرب مقابل اطـلاق الرهائن • غير ان سلطات العدو كعادتهـا رفضت العرض وشنـت قواتها هجوما مـن مختلـف الاتجاهات على مكان تمركز المجموعة مع الرهائن • وخاضت المجموعة الانتحارية معركة ضارية مع القوات الاسرائيلية المهاجمة الى ان نفدت ذخيرتها عندها فجرت المجموعة نفسها مع الرهائن • وقد استشهد نتيجـة لذلـك افراد المجموعة البالغ عددهم اربعـة فدائيين • وفي تل ابيب اعترف ناطق عسكري اسرائيلي بالعملية ولكنه كعادته ادعى انـه لم تقـع خسائر بين الاسرائيليـين وان سلطات الامن تمكنـت من انقاذ الرهائن (المحرر ١٤/١/١٩٧٦) • ومن جهة ثانية اعترف ناطـق عسكري اسرائيلي بقصـف مدينة صفـد بصواريـخ كاتيوشا مساء ١٩٧٦/١/١٣ ووقوع اربعة قتلى من اعضاء حرس الحدود • وفي بيروت اعترف ناطـق عسكري فلسطينـــي بقصـف مدينة صفد بالصواريخ الثقيلة لمدة عشر دقائق • وقال الناطـــق ان القصـــف استهدف منشآت عسكرية حيوية في المدينة • (المصدر نفسه) •

ومن جهة اخرى حرصت القيادة العسكرية في اسرائيـل على ان تظل عيونها مفتوحـة على ما يجري من تطورات في لبنان بواسطة طيران استطلاعها • فقد انتهكت المجال الجوي اللبناني فوق العاصمة والجنوب والبقاع بتاريخ ١٩٧٦/١/٢٧ ٤ طائرات اسرائيلية بغـــرض الاستطلاع والتصوير الجوي • فقد حلقـت الطائرات على ارتفاع (٤٠) الف قدم واخترقت الاجواء اللبنانية فوق منطقة مرجعيون وجبيل والبقاع فوق قاعدة رياق الجوية ثم عـــادت باتجاه الجنوب فوق صيدا الى الارض المحتلة (المحرر ١٩٧٦/١/٢٨) • كما ذكرت صحيفـة الدستور الاردنية عن وجود حشود عسكريـة اسرائيلية آلية ومحمولة كبيرة على خـــط المواجهة مع سوريا • وقالت الصحيفة ان اعدادا كبيرة من الاليات والقوات المحمولة برا شوهدت تسير متجهة الى مناطـق الحشود التي تركزت في شكـل كثيف في المنطقتين الشمالية والوسطى ومنطقة الحمة السورية ومرتفعات الجولان • (النهار ١٩٧٦/١/٢٩) وتأتي هذه الحشود في اعقاب وقـف القتال في لبنان وازدياد نفوذ القوى الوطنية فيـــه والنكسات السياسية والعسكرية التي تعرضت لها القوى الطائفية الانعزالية •

وفي ١٩٧٦/١/٢٨ فجر الثوار الفلسطينيون لغما قرب مستوطنة نيوت هاكيكار بوادي عربة جنوبي البحر الميت فادى الانفجـــار الى تدمير سيارة عسكرية اسرائيلية (المحرر ١٩٧٦/١/٢٩) •

وعلى صعيد اشتداد المقاومة للاحتـــلال الاسرائيلي في الارض المحتلة فقد ذكرت الانباء

الواردة من قطاع غـزة ان قوات الامـن الاسرائيلية اعتقلت ٣٥ شخصا زعمت انهـم اعضاء في منظمة فتـح العربية الفلسطينيـة الفدائية • وذكرت اوساط الامن انه وجدت مع الاشخاص الموقوفـين اسلحة ومتفجـرات (المحرر ١٩٧٦/٢/٤) وفي ١٩٧٦/٢/٥ اتخـذت السلطات الاسرائيلية اجراءات امنية مشددة ضد السكان العرب في الجليل الاعلى بدعـوى ان المناطـق التي يقيمون فيها تقع بالقرب من المناطـق التي تجري فيها تدريبات الجيـش الاسرائيلي • فقد اعلن شمعون بيريز وزيـر الدفاع الاسرائيلي ان من المقرر ان تنشىء اسرائيـل قرية تضم ١٥٠٠ من افراد اليهود الذين يقيمون في مناطق مغلقة مخصصـة لتدريـب الجيش في الجليـل الاعلى • وقـال في الكنيست الاسرائيلي « ان البدو الذين يقيمون في مئات من المباني الصغيرة في المنطقة دون تصريح سيتـم ترحيلهم الى منطقـة تقـع الى الشرق من منطقة التدريـب » (المحرر ١٩٧٦/٢/٦) • وفي ١٩٧٦/٢/١١ اعلنت مصادر الشرطة الاسرائيلية في القدس المحتلة عن اعتقال ٢٦ شابا من اصـل ٢٠٠ تظاهروا في البلدة القديمة احتجاجا على قرار اصدرته احدى المحاكـم الاسرائيلية مؤخـرا بالسماح لليهود بالصلاة في منطقة الحرم القدسي وتضم المنطقة المسجد الاقصى الشريف ومسجـد الصخرة المشرفة • وقد اثار القرار اضطرابات في اماكن عدة من الضفـة الغربية وقطـاع غزة مما حمل المدعي العام الاسرائيلي على طلب الاستئناف (النهار ١٩٧٦/٢/١٢) • وفي وقت لاحـق افادت التقارير الواردة مـن الضفـة الغربية ان المظاهرات والاضطرابات تعم مدن الضفة والقطاع في شكل انتفاضة شعبية عارمة ضد القرار الانف الذكر • وذكرت هذه المعلومات ان قوات الاحتلال الصهيونـي اعتقلـت مئات المواطنين خلال الايام الاخيرة في تحركاتها لقمع المظاهرات والحد مـن خطرها • وفي هذه الاثنـاء تواصل مختلـف الاوساط الرسمية والدينية والشعبية في الاردن ادانتها لقرار المحكمة الاسرائيلية باباحـة اقامة الصلوات اليهودية في المسجد الاقصى • هذا ومن المتوقع ان تتفاقم الامور الامنية فـي اسرائيـل وتشتد الانتفاضة الشعبية في الايام القليلة القادمة احتجاجا على هذا القرار الذي يظهر النوايا العدوانية الصهيونية ضد اقدس مقدسات المسلمين في العالم •

الرائد الطيار حسين عويضة

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ١/١٦ — ١٩٧٦/٢/١٥

الرقم	تاريخ العملية: اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	جريح	مفقود	المصدر: البلاغ العسكري	تاريخه
١	١/٢٠	٩,٠٠	وادي عربة / جنوب البحر الميت	تفجير	الغام	غير محدد		تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	٧٦/١٢	١/٢١
٢	١/١٧	٧,٠٠	الناصرة	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	اعطاب آلات النسيج في مصنع النسيج واشتعال النيران في المواد الخام	—	—	—	٧٦/١٤	١/٢١
٣	١/١٦	٢١,٠٠	عكا	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		اصابة محطة الكهرباء المركزية بأضرار وانقطاع التيار الكهربائي	—	—	—	٧٦/١٥	١/٢١
٤	١/١٦	٢,٠٠	ايلات	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير جزء من مبنى مركز الشرطة واشتعال النيران فيه	—	—	—	٧٦/١٦	١/٢١
٥	١/٢٤	—	تل أبيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير واحراق جميع مستودعات احد المنشآت الحيوية بحي هتكفا واحراق محتويات مبنى الادارة واصابة المباني المجاورة بأضرار	—	—	—	٧٦/١٧	١/٢٤
٦	١/٢٥	٨,٠٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		وعثر ايضا على عبوة اخرى بالقرب من بوابة يافا وابطل مفعولها	—	—	—	٧٦/١٨	١/٢٦
٧	١/٢٨	١,٠٠	نؤوت هكيكار/جنوب البحر الميت	تفجير	لغم أرضي	غير محدد		تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	٧٦/١٩	١/٢٨
٨	١/٢٨	٤,٠٠	بين ديمونة وبئر السبع	كمين	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غير محدد		اعطاب باص عسكري واصابة من فيه	—	—	—	٧٦/٢٠	١/٢٨
٩	١/٣١	٢٢,٠٠	ايلات	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		إندلاع النيران في فندق بيل وكاراجه وتحطم زجاج المباني المجاورة	—	—	—	٧٦/٢١	٢/١
١٠	٢/٤	٧,١٥	القدس(١)	قصف	صواريخ	—	—	تم اكتشاف الصواريخ وابطل مفعولها	—	—	—	٧٦/٢٢	٢/٤
١١	٢/٨	٢,٠٠	حيفا	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		اشتعال النيران في عدة محلات تجارية داخل السوق التجاري وتصدع مبنى تجاري واصابة المباني المجاورة بأضرار	—	—	—	٧٦/٢٣	٢/٩
١٢	٢/٨	٢٠,٠٠	القدس(٢)	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير سيارتين لحرس ما يسمى برئيس دولة اسرائيل	—	—	—	٧٦/٢٤	٢/٩
١٣	٢/٩	١,٣٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	اشتعال النيران في محل تجاري ومكتبة بحي التطمون	—	—	—	٧٦/٢٥	٢/٩
١٤	١/١٦	—	حيفا	تصفية	اسلحة فردية	١	—	تم قتل ضابط برتبة لفتنانت كولونيل	—	—	—	٧٦/٢٦	٢/٩

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
١٥	٢/٩	٦,٣٠	جنين	كمين	اسلحة رشاشة وقنابل يدوية وصواريخ	غير محدد		تم تدمير باص عسكري وقتل وجرح من فيه وتم بنفس الوقت مهاجمة باصين آخرين لشركة ايجد	—	—	—	٧٦/٢٧	٢/١٠
١٦	٢/٩	١٩,٣٥	معسكر الشاطىء/غزة(٣)	هجوم	اسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غير محدد		اعطاب سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	٧٦/٢٨	٢/١٠

١ ــ اعترف العدو بالعملية مدعيا بأنه وجد قنبلتين ضد الدبابات عيار ١٠٥ ملم وقذيفة بازوكا . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٩٨٣ ، صفحة ٥٩ ، بتاريخ ١٩٧٦/٢/٤) .

٢ ــ ادعى العدو بأن زجاجات تحتوي على مواد حارقة وضعت تحت سيارتين في حي تلبيوت تسببت في اشعال النيران حيث تمكن رجال المطافىء من اخمادها قبل ان يحدث ضرر كبير . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٩٨٦ ، صفحة ١٥٠ ، بتاريخ ١٩٧٦/٢/٩) .

٣ ــ ادعى العدو بأن عيارات نارية من اسلحة خفيفة أطلقت على دورية دون أن تقع اية اصابات . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٩٨٧ ، صفحة ١٧٩ ، بتاريخ ١٩٧٦/٢/١٠) .

ملاحظة : تصدر البلاغات العسكرية عن الاعلام العسكري في القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية .

غازي خورشيد

تتمة مقال طلال شاهين

وما يهم الامبريالية الامريكية سياسيا ، الآن ، هو تصفية هذا الوضع الاستثنائي الخطر حتى لو ادى ذلك الى تدمير اقتصاد الكومبرادور اللبناني لفترة طويلة من الوقت . فالامبريالية تنظر الى مصالحها في المنطقة بصورة مترابطة وشاملة ، كما هي في الواقع . فهناك من يبني افتراضاته ، انطلاقا من مفهوم « اقتصادي » « طبقي » فظ وضيق الافق للصراع ، بالقول ان التدمير الهائل الذي لحق بالاقتصاد اللبناني سيجبر الكومبرادور (خاصة جناحه الماروني المهيمن) عن التخلي عن الاستمرار في مخطط التفجير والعنف والعودة الى اسلوب « الحوار » الديمقراطي حفاظا على مصالحه الاقتصادية التي تضررت كثيرا . ولكن استمرار المصالح الطبقية الكومبرادورية والامبريالية هو **مسألة سياسية** اولا واخيرا . فمن هنا لا يهم الامبريالية مدى التدمير الذي لحق وسيلحق بالاقتصاد اللبناني التابع بمقدار ما يهمه تصفية وضرب الخطر السياسي المتأتي من النضال الثوري للشعبين الفلسطيني واللبناني . فتنامي نضال الشعوب هو الخطر الحقيقي الذي يتهدد المصالح الامبريالية . والمصلحة السياسية والاقتصادية الفعلية للنظام الكومبرادوري اللبناني هي في تصفية وضرب هذا النضال باشكال مختلفة .

وسوف نعالج في القسم الثاني من هذا المقال مواقف كل من النظام والحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية من الازمة الراهنة والوضع الثوري الجديد . كما سنناقش الآفاق المطروحة المختلفة والشعارات الملائمة للمرحلة القادمة .

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor*, Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon and Syria L L 50, other Arab countries L L 60 or equivalent, Africa and Europe L L 80, elsewhere L L 100; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٣ ١/٢ ل.ل. في لبنان
٤ ل.س. في سوريا
٤٥٠ فلساً في الكويت والعراق
٤ ١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية